يناير ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

الهلال



من نصف قرن كيف رأى الكتاب سنه ٢٠٠٠؟

مائة عام من التنوير

أصفهان .. نصف العالم

عدد ممتاز



النيل

للفنان الفرنسى
فرومنتان يوجينى

اهداءات ٢٠٠٣
أسرة أ.د/رمزي ذكي
القاهرة

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام الثامن بعد المائة

يناير ٢٠٠٠ ● رمضان ١٤٢٠ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت . ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص ب : ٦١ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX . ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمى التونى المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلساً، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ١.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا
العدد



تصميم الغلاف
الفنان
محمود الشيخ

فكر وثقافة

الجامعة هي المستقبل

الهلال سنة ٢٠٠٠ والمستقبل

جزء خاص

فنون

قصة وشعر

الأبـــواب الثـــابتة

عزيزي القارئ

نحو ألفية جديدة

كل عام وأنت بخير وسعادة.. وفي هذا العام يلتقي المسلمون والأقباط في ميقات أعيادهم، مؤكدين وحدتهم، ونرجو أن نلتقي معا على الخير في الأعوام المقبلة، نقدم إليك التهنئة ونتلقى منك - عزيزي القارئ - التشجيع الذي اعتاد «الهلال» أن يتلقاه من قرائه الذين تتابعوا على مر الأجيال..

إن بداية كل عام جديد، تفاجئنا بمرور الأيام، فما بالك ونحن أمام ألفية جديدة، وقرن جديد، وعقد جديد، ونقف وجها لوجه أمام مفصل زمني واضح، ويمضي الزمن، وتدور الأيام وتتجدد الحياة، والزمن في أحد جوانبه هو التغير والتطور المستمر، دول تقوم، وأخرى تنهار وتتهاوى، وهي فرصة سانحة للنظر فيما حولنا، وتأمل أحوالنا، ما مضى وما هو آت .. إنها لحظة مناسبة للمراجعة والتحفز للعمل.

ويحلو عندها حديث الذكريات، ومراجعة حصاد الأيام القائمة، فمائة عام إنقضت من حياة الثقافة العربية، التي كانت ولاتزال مجلة «الهلال» سجلاً أميناً لأبرز اجتهاداتها وإبداعاتها، ومنبراً رفيعاً لألمع كتابها ومفكريها، تابعت إنجازات العصر في مختلف المجالات، تعرضها وتتحاور معها، وتكاد تعبر عن الأسئلة الرئيسية التي فجرها المثقف العربي طوال السنوات المائة الأخيرة، في السعي من أجل الخروج بالثقافة العربية وبالواقع العربي .. من وهدة التخلف الفكري إلى آفاق نهضة شاملة، وتأكيداً وتطويراً للهوية العربية ولحاقاً وتفاعلاً مع العصر.

وكما تتأمل في حصاد الماضي، دأبت الهلال على العمل على استشراف المستقبل، تطل عليه وتسعى لكشف أحداث المقبل من الأيام حتى نستعد لها، فكما أن «الوقت كالسيف إذا لم تقطعه قطعك»، فإذا لم تستعد للمستقبل خرجت خاسراً مدحوراً، والفارق بين الدول المتقدمة والأخرى المتخلفة أن الأولى تتوقع ما تأتي به الأيام، وتستعد وتخطط لمواجهته .. ويشعر صاحب القلم بالرضا حين يرى أن لكلمته فائدة في صرح بناء بلاده.

ومن يتصفح أعداد «الهلال» خلال القرن الماضي، لا يفوته أن يلاحظ أن أحلام الكتاب في كثير من الحالات تحولت إلى واقع قائم، وحتى ولو بعد حين، فعرفت بلادنا

كتابا يدعون لليقظة والتحرر والنهضة، وتجد على صفحات «الهلال» إرهاصات ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، وترى موجة من الحلم يعقبها تحقيق الآمال وإنجاز الأحلام على أرض الواقع.

ودأبت «الهلال» على تناول قضايا المستقبل، والدعوة إلى الاعداد له، ونشر «الهلال» فى يناير سنة ١٩٥٠ عددا ممتازا عن سنة ٢٠٠٠ يضم مقالات قيمة لكبار مفكرينا فيما عسى أن يكون عليه المستقبل فى مصر والعالم سنة ٢٠٠٠، وعادت «الهلال» فى يناير سنة ١٩٥٩ تتناول ذات التنبؤات، وقدم كل كاتب رؤيته لهذا العام، ويمكن فى نظرة على العددين أن نتبين قدرة العقل العربى على التنبؤ ورؤية المستقبل، لذا نعيد نشر بعض هذه المقالات فى هذا العدد، مصورة ومنقولة كما نشرت فى حينها، بعضها تعين نشره بلا تعليق، والبعض الآخر مع التعليق عليه من الاجيال اللاحقة من الكتاب، ونرى من خلال إعادة القراءة، إلى أى مدى صدقت رؤية هؤلاء الكتاب للمستقبل.

ولابد لنا أن نتوقف ونعترف، بأن العقل العربى عجز عن اكتشاف خطر الصهيونية فى النصف الأول من القرن العشرين، ولم نحذر – فى ظل الأفكار الليبرالية السائدة فى مصر بين ثورة ١٩١٩ وبين قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ – من التحركات الصهيونية القائمة فى البلدان العربية، كما لم يصل إلى خيال أحد ما جرى خلال النصف الثانى من القرن العشرين !! .

ونتساءل اليوم ، كما تساءل الذين جاءوا قبلنا، فماذا يخبىء لنا القرن الحادى والعشرين؟ وهو القرن الذى لا حياة فيه إلا للأمم التى تأخذ بأسباب التقدم فى كل تنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويحاول على الدوام حملة الأقلام من أهل الفكر والفن والعلم أن يقدموا خبرتهم ومساهماتهم الفكرية الجادة إلى القراء.

ونستقبل اليوم القرن الجديد بآمال واسعة وأحلام كبيرة، عسى لها أن تتحقق، ولا يغيب عنا أن نتساءل: كيف تم إجهاض النهضة الحديثة أيام محمد على باشا..؟ ثم .. كيف انحسر مشروع النهضة الذى نادت به ثورة يوليو ١٩٥٢ ..؟!

ففى الاجابة على هذه التساؤلات مفتاح المستقبل.

وتبدو آفاق المستقبل اليوم، مرتبطة بالنجاح الذى تحرزه مصر والعرب فى إرساء أركان الحرية والتقدم ..

المحـــــرر

هذه ذكريات ثلاثة من كبار كتابنا يتحدثون عن بعض مشاهد القرن العشرين

مصر تسترجع أخلاقياتها العريقة

بقلم: د. أحمد أبو زيد

خضعت مصر خلال، الخمسين سنة الأخيرة، من القرن العشرين لكثير من عوامل التغير وعدد من الضغوط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تركت آثارا عميقة فى اخلاق المصريين وطباعهم وشمائلهم وقيمهم التقليدية المتوارثة التى ارتبطت بهم او ارتبطوا هم بها منذ عهود طويلة بحيث اصبحت تؤلف عنصرا اساسيا مميزا لشخصيتهم الاجتماعية والثقافية، ولذا تعتبر هذه التغيرات والضغوط بمثابة عامل انكسار حاد فى استمرار النسق الأخلاقى والقيمى ترتب عليه ظهور سلوكيات تختلف تماما عما تعارف عليه المجتمع المصرى خلال تاريخه القديم والحديث على السواء.

●●

ربما كان أهم هذه العوامل ماطرأ على نظام الحكم من تبديل أساسي بعد ثورة ١٩٥٢ وظهور طبقة حاكمة جديدة لها توجهاتها ونظرتها الجديدة التي تدخلت بشكل مباشر أو غير مباشر في تشكيل أخلاقيات الناس، وبصرف النظر عما حققته الثورة من طفرة تنموية حقيقية وهائلة لا يمكن التهوين من شأنها، فإن سلوكيات بعض المسئولين الرسميين ساعدت على انتشار الاستهانة بأقدار الناس وتحطيم كثير من القيم الاجتماعية والاخلاقية، وذلك لما تبين من أن أخلاقيات هؤلاء المسئولين من أصحاب القرار وأعضاء المجالس النيابية لم تكن فوق الشبهات وبخاصة فيما يتعلق باستغلال النفوذ لتحقيق مصالح خاصة، أو تكوين ثروات طائلة بأساليب غير مشروعة فكانوا بذلك بمثابة قدوة سيئة للآخرين.

وقد عرفت مصر خلال تلك الفترة ذاتها حكم الفرد الذي يتخفى وراء مظاهر ودعاوى وادعاءات ديمقراطية زائفة، وشعر المصريون بحسهم الرقيق الدقيق المرهف بالقيود المفروضة على حرية التفكير والتعبير عن الرأى، وظهر من بين الحكام من وصف نفسه بأنه «كبير العيلة» بكل ما ترمز اليه هذه العبارة القصيرة من نظام بطريركي متسلط، وان كان يتخفى ويتستر وراء دعاوى «أخلاق القرية» وكانت نتيجة ذلك كله أن أصبح الحصول على المال والثروة هدفا ينبغي تحقيقه بمختلف الوسائل والأساليب، كما أصبح المصريون أكثر ميلا الى السلبية واللامبالاة وتراجعت روح المبادأة والمبادرة الى حد كبير.

أم الصابرين

ولقد كان الصبر دائما إحدى الصفات والخصائص المميزة للإنسان المصرى خلال كل فترات التاريخ المصرى الطويل بحيث عرفت مصر بأنها «أم الصابرين»، كما اعتبر الصبر قيمة اجتماعية وأخلاقية وليس مجرد أسلوب للسلوك. ولم يكن الصبر يعنى العجز وإنما كان يعنى دائما القدرة على تحمل المصاعب فى قوة وجلد وإيمان. ولكن يبدو ان الصبر طال خلال هذه الفترة الطويلة بحيث كاد يتحول الى استسلام وبخاصة بعد أن انتشرت اخبار الفساد الذى لا يجد من يواجهه أو ما يردعه. وظهرت إزاء ذلك بعض حركات التمرد التى اتخذت من الإرهاب أسلوبا للتعبير عن الرفض ووصل الإرهاب الى حد الاعتداء الاجرامى على حياة الأبرياء من مصريين وأجانب، ودخل العنف قاموس السياسة من أوسع الأبواب وامتد الى جوانب كثيرة من الحياة المدنية، بل وقامت بعض محاولات الاعتداء على حياة رؤساء الدولة انفسهم ونجحت احدى هذه المحاولات، وبدا كما لو كان العنف الدموى أصبح إحدى السمات المميزة للإنسان المصرى ولسلوك المصريين الذين عرفوا خلال كل تاريخهم بالدماثة والعفة وهدوء النفس والطمأنينة والشعور بالأمان. كما ظهر على الجانب الآخر المقابل الميل إلى الانزواء واعتزال الحياة العادية لدى بعض قطاعات المجتمع مع الالتجاء الى رحاب الدين ونشأت اثر ذلك حركات متطرفة واتجاهات تأخذ الدين بفهم خاطىء ونظرة ضيقة أدت بأصحابها الى «الدروشة» والإيمان بقوة السحر وفاعلية الشعوذة،كما هجرت أعداد غير قليلة من

المثقفين أرض مصر الى بلاد أخرى عربية وأجنبية كانوا يرون - وربما كانوا مخطئين فى ذلك - أنها تتيح لهم هامشا أوسع من حرية التفكير والتعبير عن الرأى واثبات الذات .

وقد اسهمت وسائل الاعلام المختلفة وبخاصة التيلفزيون فى تعميق هذا التغيير بما كانت تحمله من صور مختلفة وخلابة لأساليب جديدة وغريبة ومغرية للحياة فى المجتمعات الأخرى وبخاصة المجتمعات الغربيةوأمريكا بالذات، وأدى ذلك إلى نشر أنماط من القيم والسلوك والعلاقات الاجتماعية والنظرة الى الحياة تتناقض تماما مع القيم والمثل العليا الاصيلة وتشجع على التخلص من كل القيود الاجتماعية وتدعو الى التحرر من التقاليد المتوارثة باعتبار ذلك هو الصورة المثلى للانسان المتحضر الراقى الذى يعتز بشخصيته المستقلة. وكان من الطبيعى ازاء ذلك الزخم الاعلامى الذى لا يخضع لسياسة إعلامية رشيدة أن تتأثر الأجيال الشابة والصاعدة بتلك الأنماط والأساليب السلوكية التى تدعو إلى العنف والزهو بالجريمة والتحرر الجنسى والتفكك العائلى. وقد تكون هذه هى صورة الأوضاع الاجتماعية السائدة بالفعل فى الغرب أو على الأقل فى بعض المجتمعات الغربية، أى أنها تنتمى الى وتتلاءم مع ثقافات معينة لها معاييرها التى تختلف عن معايير الثقافة المصرية التى هى فى جوهرها ثقافة اسلامية ذات ابعاد ومقومات خاصة ومتميزة، ولكن المهم أن هذه العلاقات الاجتماعية الجديدة الوافدة بتأثير وسائل الإعلام تعكس وتشجع على تمرد الشباب على السلطة بكل أنواعها وعلى رفض القيم الأخلاقية التقليدية التى أصبحت تمثل فى نظرهم الجمود والتخلف.

الهجرة بحثا عن الرزق

ودفعت الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى أحاطت بمصر خلال هذه الفترة ذاتها أعدادا كبيرة من المصريين إما إلى الهجرة إلى بعض البلاد الأوربية وأمريكا، وإما إلى الخروج إلى الدول العربية البترولية بحثا عن عمل يدر عليهم دخلا كبيرا لا يتوافر لهم فى مصر، فكان ذلك على حساب التماسك العائلى وضعف الإشراف والتوجيه المباشر للشباب الذين تخلفوا فى مصر لسبب أو لآخر مما ساعد على مزيد من التحرر من السلطة الأبوية وإتاحة الفرصة للانحراف والخروج على القيم والأخلاقيات والسلوكيات المصرية الأصيلة من ناحية، كما بذر فى النفوس من الناحية الأخرى بذور الجشع وحب المال والتضحية بالعلاقات الحميمة فى سبيل الحصول على الثروة بل والتضحية بالشعور بالانتماء القوى للوطن من أجل المصلحة الخاصة، كما غرس لدى الكثيرين الشعور بالاستعلاء المزيف المستمد من الوفرة المادية والمالية التى يعجز الوطن عن إتاحتها للغالبية العظمى من أبنائه.

وتمخض ذلك كله عن ظهور أساليب سلوكية واتجاهات أخلاقية جديدة لم يكن المجتمع المصرى عهد بها من قبل، كما طفا على السطح كثير من مظاهر التنكر لأنماط الحياة التقليدية التى ترتكز على تماسك الأسرة، بل والعائلة الكبيرة والتى تعلى من شأن علاقات التكافل الاجتماعى والشعور بالانتماء للوطن والاعتزاز به

والتمسك بمبادئ الشرف فى التعامل وفى السلوك الشخصى، وسادت بين الأجيال الشابة بدلا من ذلك روح اللامبالاة وتبلد الشعور بالمسئولية وعدم الاهتمام بأخلاقيات العمل والتنصل من الالتزامات العائلية، مع ازدياد الشعور بالإحباط والهزيمة إزاء المتاعب الاقتصادية ووطأة سلطة الدولة والقيود المفروضة على الحريات السياسية، وقد تفشى الالتجاء إلى العنف فى حل أصغر وأتفه المشكلات. وكان ذلك أحد مظاهر التمرد على الكبت الاجتماعى والقهر السياسى.

ومع ذلك كان هناك شعور عام بعدم الرضا عن تلك السلوكيات والأخلاقيات، وهذه علامة صحية وإيجابية تدل على الرفض وعلى الرغبة فى الإصلاح وتغيير هذه الجوانب السلبية المدمرة للقيم الأخلاقية إلى أوضاع أخرى أكثر إيجابية وأكثر تعبيرا عن الروح المصرية الحقيقية التى خبا بريقها تحت وطأة الظروف القاسية الطارئة. فثمة إذن فجوة بين الواقع المتدهور والمتمثل فى السلوك السائد الآن وبين المثال الذى يرغب الكثيرون فى إحيائه والعودة إليه للتخلص من ذلك التدهور الأخلاقى الذى يتعارض تماما مع ما كان يألفه المجتمع المصرى خلال العصور الماضية. ومع تنامى هذه الرغبة فى التغيير فإن المتوقع هو أن يشهد المستقبل عودة إلى أخلاقيات وسلوكيات وقيم أكثر إيجابية وتتجاوز السلبيات الحالية، وبذلك يتم وصل ما سبق انفصاله ولكن مع إدخال شئ من التعديل الذى يتلاءم مع الظروف المستجدة التى سوف تسود عالم الغد مع عدم التنكر للقيم الأخلاقية المصرية الأصيلة.

ومع أن عالم الغد سوف يغلب عليه التفكير العلمى العقلانى الموضوعى الذى ظهر واضحا فى القرن العشرين، فالظاهر أن العالم سوف يراجع نفسه حول الأمور الروحية والأخلاقية التى طال إهمالها وسوف يعطى قدرا كبيرا من الاهتمام للجوانب اللاعقلانية فى حياة البشر ويحاول التعمق فى دراستها وفهمها وتقدير الدور الذى تلعبه فى توجيه السلوك الانسانى. وإذا كان مفكرو القرن العشرين قد نادوا بالعولمة فإن هناك اتجاها آخر مناوئا للعولمة المتوحشة التى تؤدى إلى إهدار الشخصية القومية والقضاء على الهوية الثقافية للشعوب النامية والمستضعفة، وقد بدأت بالفعل بعض الأصوات ترتفع فى قوة وإصرار تنادى بضرورة الارتباط بالثقافة القومية والعمل على تغذية الشعور بالانتماء الوطنى ثقافيا، واجتماعيا، وسياسيا، وهو ما سوف ينطبق على مصر. وهذا معناه أن الإنسان المصرى سوف يدرك مدى خطورة العولمة على كيان الوطن وبالتالى على كيانه هو نفسه كإنسان، ولذا سوف يزداد اهتمامه بعناصر الثقافة المصرية التقليدية الراسخة التى تعطى مصر شخصيتها المتميزة، وسوف يدرك أنه لا مفر له من أن يعود إلى ذلك التراث الثقافى المصرى العريق بكل إبداعاته وقيمه ومثله العليا وأخلاقياته وعاداته وتقاليده حتى يسترد كيانه الذى بدا باهتا فى العقود الخمسة الأخيرة من القرن العشرين

ممارسة حرية التفكير

وسوف يزداد هذا الشعور بالانتماء

والعزة نتيجة التغيرات الجذرية التى لابد أن تطرأ على النظام السياسى والذى بدأت بوادره تظهر بالفعل فى السنوات القليلة الماضية. والتى سوف تتمثل فى إقرار النظام الديمقراطى والتمتع بالحقوق السياسية كاملة وممارسة حرية التفكير والتقدم وإبداء الرأى مما يحقق الشعور الحقيقى والعميق بالمواطنة. وسوف يساعد على حدوث هذه التغييرات انتشار التعليم بأنواعه المختلفة واتساع وتنوع مجالات المعرفة وأساليب الاطلاع على ما يحدث فى العالم من تغيرات، واعتراف العالم كله بالحقوق المدنية للأفراد مما يؤلف نوعا من الضغط على المجتمع المصرى لإقرار هذه الحقوق بطريقة لالبس فيها ولا غموض، وحينئذ سوف يشعر الإنسان المصرى العادى بأنه شريك فعلى فى اتخاذ القرار وأن من حقه محاسبة المفسدين ومحاربة الفساد. كما سيكون موقفه أكثر إيجابية من أمور الحكم واختيار من يمثله فى المجالس النيابية، أو سيعتبر نفسه مسئولا مسئولية مباشرة وحقيقية عن ذلك الاختيار، وبذلك يخرج من حالة السلبية واللامبالاة إلى ايجابية فعالة ومثمرة.

وسوف يساعد على تحقيق هذا الموقف الايجابى من الحياة ككل وليس فقط من أسلوب الحكم تنفيذ مشروعات التنمية التى تهتم بها الدولة الآن وبخاصة تلك التى يتم تنفيذها فى المناطق النائية، وتشجيع الشباب على الارتياد مما يؤدى إلى تنمية روح التحدى والمخاطرة والاقبال على التعمير والعمل الجاد حيث يجد الشباب خلاصا له من البطالة التى تمسك بخناقهم. وسوف يدفع ذلك الكثيرين إلى البقاء فى مصر والمشاركة فى مشروعات التعمير بدلا من الهجرة والعمل فى الخارج خاصة وأن أسلوب معاملة المصريين فى بعض الدول البترولية بدأ يتغير ويحمل معه كثيرا من المهانة التى لم تكن معروفة من قبل، وسوف يؤدى ذلك إلى إعادة التماسك والتآلف إلى الأسرة المصرية التى سوف تشرف على أبنائها بعد أن افتقد هؤلاء الأبناء الرعاية نتيجة غياب الوالدين، وبذلك يمكن علاج كثير من الانحرافات بين الشباب. بل إن روح التحدى التى سوف تملك على المصريين أمرهم سوف تدفع إلى الابتكار والخلق والاختراع وارتياد مجالات جديدة من العمل والنشاط تتناسب مع القدرات الحقيقية الكامنة، وبذلك يتحول التبلد والجمود واللامبالاة إلى نشاط وحركة وعمل وإسهام وتحمل للمسئولية مع تقدير العواقب، وكلها تدفع إلى الارتقاء بالذات والمجتمع وإيقاظ الشعور بالانتماء بعد طول اختفاء.

وليست هذه أحلاما أو توهمات، وقراءة تاريخ مصر الطويل واستقراء أحداثه كلها تشير إلى قدرة المصريين على استرداد ما يبدو أنهم فقدوه من اقبال على العمل، والنظرة الايجابية إلى الحياة، واحترام التقاليد، وتقدير القيم الأخلاقية، والتمسك بالمثل العليا، وهذه القدرة هى سر استمرار مصر والمصريين فى الوجود رغم كل الصعاب والمعوقات مع إمكان التكيف مع الظروف المتغيرة دون تفريط فى المقومات الأساسية المميزة.

أقوال معاصرة



نجيب محفوظ



الصادق المهدى



نور الشريف

● «معظم وسائل الاعلام العربية تروّج ما يمكن أن نسميه جهامة التراث»!

المطرب السورى صباح فخرى

● «فى هذه الفترة لابد من بقاء الرقابة ، حتى لا نترك المجتمع نهبا لتجار الفن»!

الممثل نور الشريف

● «الرقابة العربية على الأعمال الدرامية المعاصرة.. تخنقنا»!

الاديب المسرحى السورى هانى السعدى

● «لا خير فى علم غير مصحوب بالاخلاق»!

المفكر د. فؤاد زكريا

● «بعد نشر أى نص لى. لا أقرؤه أبدا»!

الاديب نجيب محفوظ

● «القاضى الذى يريد أن يشتغل بالسياسة، فليستقيل»!

المستشار مقبل شاكر
رئيس نادى القضاة

● «وطنى حيث يقرأ شعرى»!

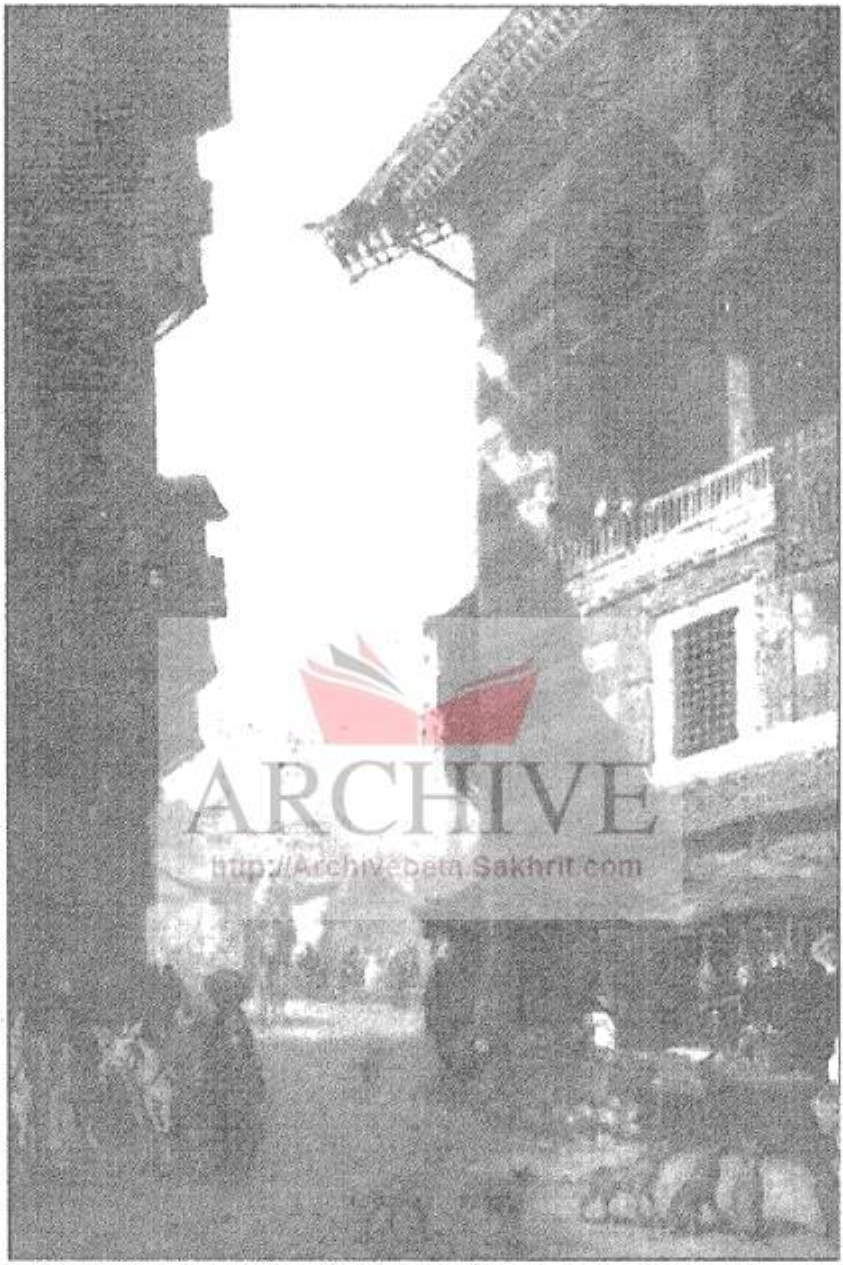
الشاعرة الكوسوفية فلورا بروفينا
والمحكوم عليها فى صربيا بالسجن اثنى عشر عاما

● «لا يوجد وعى كاف بوجود برامج أجنبية بقيادة الولايات المتحدة خطها الأساسى أن السودان شأن إفريقى، وليس عربيا إفريقيا»!

الصادق المهدى
زعيم حزب الأمة السودانى

● «أفلامى تعبير عن حاجتى الدائمة إلى الحنان»!

المخرج السورى عبداللطيف عبدالحميد
صاحب فيلم نسيم الروح



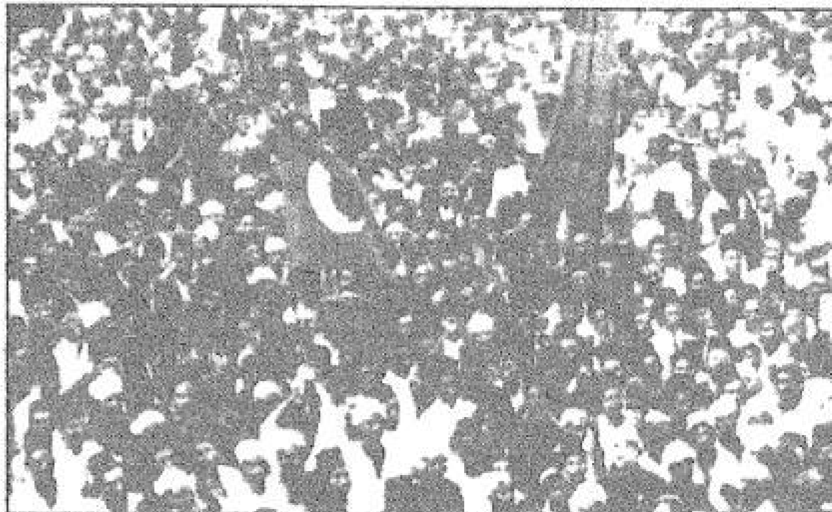
مسيرتى

ومصر فى القرن العشرين

بقلم : د. مصطفى سويف

عشت القدر الأكبر من عمرى على شغف متجدد بالنظر فى موضوع نقطة التماس والتداخل بين الذات والحياة الاجتماعية، بأضيق وأرحب معانيها . ومما زاد هذا الشغف تمكنا من نفسى أننى كنت أعود دوما من الطواف حوله سالما وغانما، حتى لقد استقر فى نفسى أننى على هذا الدرب بصدد معين للمعرفة والحكمة والامتاع لا ينضب .

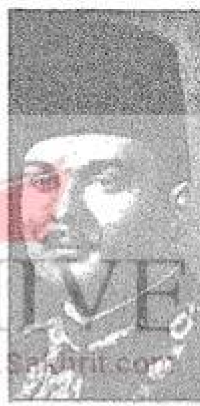
ولقد واجهت نقطة التماس هذه (أو الإلتقاء) أول ما واجهتها فى بواكير شبابى الأكاديمى عندما كنت أدرس موضوع الإبداع فى الشعر، حيث تكشفت لى الحاجة إلى النحن، باعتبارها أساسا من أهم الأسس النفسية للإبداع فى الشعر خاصة وفى الفن عامة . ثم تقدمت بى الأيام فإذا بى أواجه الملتقى نفسه مرة أخرى حين تبين لى أن الجذر النفسى العميق لتكامل الفرد مع مجتمعه إنما يتمثل فى التوتر المتصاعد دوما بين الفرد والجماعة كما يفصح عن نفسه منذ بواكير الطفولة ، من خلال النمو اللغوى والنمو الحركى للصغير؛ فكل من الوظيفتين تنمو حسب تصميم ديالكتى يمضى نحو تعميق الفردية والاجتماعية معا داخل شخصية الطفل، وفى هذا الطراز من تشعيب النمو تكمن إنسانية الصغير البشرى، مميزة إياه كيفيا عن أى طفل آخر فى السلسلة الحيوانية .



ثورة ١٩١٩



الملك فؤاد



الملك فاروق



أحمد شوقى



سعد زغلول

سيد درويش



ملك حفنى ناصف



عبده الحامولى



وتقدمت بى الأيام والأعوام بعد ذلك، وأنا أواصل المسيرة فى دراساتى ولا أفتأ أواجه نقطة الالتقاء أو التماس هذه باعتبارها جذرا عميقا وراء ما أحاول التصدى لبحثه من موضوعات فى هذا الفرع أو ذاك من فروع التخصص، كان آخرها ما تبين لى ولغيرى من الباحثين من دور حاسم يقوم به هذا الجذر فى أمور الصحة والمرض النفسيين، وهو دور يمتد ليشمل تحديد احتمالات الإصابة بالمرض النفسى ، وشدة الإصابة ، واحتمالات الشفاء .

من وحى هذه الاعتبارات وأمثالها اخترت موضوع الحديث الراهن، لم أجد أفضل منه لتقديم شهادة تضم إلى عشرات الشهادات التى تنشر هذه الأيام عن القرن العشرين، وفى هذه الشهادة أعرض لمسيرتى ومصر طوال ثلاثة أرباع هذا القرن ، محاولا أن أسجل وقع الأحداث العامة على نفسى، أحداث الوطن ، والعالم من حوله، وما كان من اشتباك ذلك كله مع أحداث نموى وارتقائى ، وما قد يكون من نتائج هذا التشابك من عناصر فى الصورة التى صرت إليها .

ولست أدعى هنا أننى سأحاول التأريخ لهذه الفترة من الزمن المصرى بموضوعية المؤرخ المتخصص ، ولكن اجتهادى سوف ينصرف إلى بيان الكيفية التى نفذت بها الأحداث العامة إلى نفسى، وكيف قرأتها ، وماهى الشفرة التى اختزنت بها فى عقلى ووجدانى ، ثم كيف أسهم هذا كله فى تشكيل هويتى الاجتماعية الحضارية بوجه خاص .

المخاض ثم الميلاد :

جاء توقيت ميلادى فى ساعات الصباح (من يوم ١٧ يوليه ١٩٢٤) بعد مخاض استغرق ساعات طوال، وشق على أمى حتى كاد أن يزهق روحها ، هكذا حكت لى جدتى . وهكذا التحمت أفراح الأسرة مع أفراح مصر ، وكانت قد مضت بالكاد سنتان على تباشير الاستقلال الوطنى (فبراير سنة ١٩٢٢) بعد كفاح مرير انتهى بثورة عارمة (سنة ١٩١٩) كلفت البلاد قدرا كبيرا من دماء الشهداء ، شبابا وشيبا ، ورجالا ونساء ، من مختلف الطبقات والملل .

وأقدم الذكريات عندى ذكرى بصرية لتاريخ يكتبه مدرس على السبورة ينتهى بسنة ١٩٢٩ ، بينما أنا جالس ضمن تلاميذ الفرقة الأولى ج فى مدرسة قايتباى الأولية بحى كوبرى القبة . وتترامى إلىّ حول هذه الذكرى ذكريات أخرى عن السكن فى أحد بيوت الأوقاف القديمة ، ومن حوله حديقة تحيط بها معالم الحى، حيث تبدو الشوارع متسعة

وخالية من المارة إلا من رائح هناك وغاد هنا، وبقايا قراريط من أرض زراعية يرويها جدول صغير ، يستمد مياهه من ماكينة للرى أقيمت قرب البوابة فى حديقة مسكنى . فى ذلك الوقت كانت الأسرة ، والبيت بحديقته ، والحى هى كل عالمى . وكان هذا العالم مغلفا بالهدوء ، فالأصوات خفيضة ، والحركات متئدة ، والنفوس مسالمة، فى هذا العالم كنت أتحرك جيئة وذهابا فى نظام لا يختل بين قطبية المدرسة والبيت ، وفى رحابه تلقيت أولى المنظومات اللازمة لبناء معرفتى ووجدانى وسلوكياتى . وكان الأسلوب الأمثل للأسرة فى تقطير المعلومات التى يسمح لها بالوصول إلى أذنى وآذان أخواتى هو إبعادنا أو تقريبنا من مجالس الكبار . وفى هذا الإطار ترامت إلى مسامعى معلومات كثيرة مزودة بشحناتها الوجدانية المناسبة ، لا أذكر منذ متى بدأت تترامى، ولا من كان مضطلعا بها أكثر من غيره ، ولكن كل ما أستطيع الشهادة به أنها كانت دائما تتناثر فى أحاديث الأسرة من حولى، وظلت تتناثر على هذا النحو لسنوات عديدة. فى البدء لم أكن أفهم معظمها ، كان الكم الأكبر من إدراكى ينحصر فى القدرة على التفرقة بين ما يخص الأسرة وما يتناول محيطا أوسع من الأسرة ، وعلى مر الأيام استطاع عقلى الصغير أن يسجل لقطات هنا ولقطات هناك، ثم أخذت بعض هذه اللقطات تلتحم مع البعض مكونة مساحات من الاستيعاب متفاوتة فيما بينها اتساعا ووضوحا .

فى هذا السياق سمعت عن الثورة الوطنية (ثورة سنة ١٩١٩) : كانوا يتحدثون عنها باكبار وإجلال أشعرنى بأنها كانت حدثا قارب حد القداسة ، وكانوا يتحدثون عن وحدة الأمة خلف سعد ، وأن واقع هذه الوحدة تحقق بشكل لا يكاد يصدق وذلك فى صورة توكيلات وتوقيعات على هذه التوكيلات جمعت من المواطنين العاديين فى طول البلاد وعرضها ، وأن القبض على سعد جاء بنتيجة معاكسة تماما لما أراده المحتل الانجليزى إذ استفز مزيدا من الغضب والثورة بدلا من إشاعة الخوف وإيثار السلامة، وقد خلقت هذه الأحاديث وأمثالها انطباعا عندى لا أزال أجد بقاياه قابعة فى نفسى حتى الآن، مؤداه أن سعدا انفرد بالساحة السياسية، فهم لم يكونوا يذكرون سواه ، اللهم إلا مصطفى

كامل، وكانت سيرته تشي حينئذ بأنه كان رمزا للتضحية والاستشهاد أكثر مما كان علامة على الطريق نحو الفاعلية السياسية المنجزة .

وكان أفراد الأسرة وضيوفهم ينخرطون بين الحين والحين فى أحاديث عامة أخرى، وكانت هذه الأحاديث تتناول عوالم أخرى غير عالم السياسة ؛ كانوا يتكلمون فى أمور الاقتصاد فيذكرون بنك مصر وفضله فى تأسيس صناعات وطنية متعددة ، وفى هذا السياق يشيدون باسم طلعت حرب لنبوغه الاقتصادي وإخلاصه الوطنى ، وكانوا يتكلمون عن مختار ، الفنان الذى أبدع تمثال نهضة مصر ، ويطوفون بسيرة المسرح الغنائى فيذكرون الشيخ سلامة حجازى ، وربما استعادوا على استحياء بعض أنغامه وهو يغنى «إن كنت فى الجيش صاحب العلم فأنا فى غرامى صاحب الألم» ، ويذكرون سيد درويش وهو يغنى «يا عزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى» وربما عاد بهم هذا الحديث إلى سيرة الغناء فى أول القرن، فيذكرون بحنين ملؤه تقدير عاطفى واضح أسماء عبده الحامولى ، ومحمد عثمان ، وعبدالحى حلمى . وكثيرا ما كانت هذه السير تجلب معها أحاديث عن قاسم أمين، وعن باحثة البادية (ملك حفنى ناصف) ، لينتهى بهم المطاف إلى أحمد شوقى .

ويبدو لى من تقليب النظر فى رصيد ذكرياتى المبكرة هذه أن أفراد عائلتى كانوا على قدر ما من البصيرة بأن البلد كان فى مسيرة نهضة شاملة متكاملة ، وأن ما يتحدثون عنه إنما هو لقطات لبعض مظاهر هذه النهضة التى بدأت ولم تتوقف مسيرتها منذ بداية القرن. وأنها مع ذلك كانت تتعثر من حين لآخر، أو ربما كانت تدخل فى أطوار كمون بين الحين والحين، وأن هذا الكمون لم يكن منه بد لحماية الجذوة ، ومن ثم كانت الصحوة أو الصحوات المتعاقبة تأتى بمزيد من الحيوية ، والغالب أن بصيرة الأسرة فى هذه الرؤيا كانت حدسية إجمالية أكثر منها تحليلية واضحة المعالم والأبعاد، والغالب أيضا أنهم كانوا يجمعون إلى هذه البصيرة مزاجا يغلب عليه الرضا والتفاؤل أكثر من توجهات السخط والتشاؤم ، وأنا الآن أتأمل ما لهذا الماضى العائلى من حضور فى ذاكرتى ، وأعاينه «كباقى الوشم فى ظاهر اليد» ، وقد تناثرت فى نسيجه مناطق فارغة وأخرى مغبشة ، ربما تآكلت معالمها بمرور الزمن ، وربما تداخلت مع غيرها فانطمست الرسوم فى هذا وذاك ، ومع ذلك فلا يزال هذا الماضى يحتفظ بتوجهاته ودلالاته الرئيسية ، وأرجح (وإن

كنت لا أقطع بشئ فى هذا الصدد) أنه أسهم بنصيب فى تشكيل ما أنا عليه من مزاج أقرب إلى الرضا والتفاؤل رغم القتامة التى تغلب على الأجواء المباشرة من حولى، وأرجح كذلك أنه شارك بفاعلية فى انشغال وجدانى بما هو عام وفى ترحيبى بهذا الانشغال ، فالعام بالنسبة لى قيمة، ومعايشته فضيلة ، وفى مقابل ذلك أضيق بالخاص كلما اضطررت إلى الاكتراث له (تحت وطأة مطالب الحياة الضاغطة) ، وأعترف بذلك على مضض وربما على استحياء .

الصحبة فى الثلاثينيات :

وعبرت مصر إلى الثلاثينيات وأنا بصحبتها ، وأصابتنا فاتحة العبور بالاكتئاب ؛ فقد ووجهت مصر بالأزمة الاقتصادية الطاحنة (١٩٢٩-١٩٣٢) ، وبحكومات مستبدة، أشهرها حكومة محمد محمود ثم حكومة إسماعيل صدقى التى كان من أهم إنجازاتها السلبية إلغاء دستور سنة ١٩٢٣ .

أما أنا فقد فرض علىّ فى ذلك الوقت أن أعاين الموت عن قرب ؛ وليس فى ذاكرتى ما يشير إلى أننى عرفت معنى الموت من قبل أو خبرت تداعياته الاجتماعية . مات خالى الأصغر ، عن ثمانية وعشرين عاما؛ وكان قرة عين أمه وأخوته لما كان يتحلى به من حضور وطموح ونقاء . حصل على ليسانس الحقوق وكان فى طريقه إلى الحصول على الدكتوراه وإذا بالموت يجهض هذه المسيرة . وضرب الزلزال أسرته فلم تعد أبدا إلى سيرتها الأولى ، وكان نصيبى من هذا كله أننى تلقيت بيانا عمليا مفصلا عن المعانى والتداعيات الاجتماعية للموت؛ عرفت فى هذا السياق زيارة المقابر، ومحترفات العديد والندابات ، وعرفت طقوس الخمسان والأربعين والذكريات السنوية، وعرفت كذلك الأدعيات وقراءات القرآن المهداة إلى روح الميت، وعاينت الصدقات ذات القوالب الطقسية المحددة كأنها القربان ؛ عرفت أمورا فى هذا المجال لا أول لها ولا آخر . وعرفت كيف يكون الحزن غلالة تغطى كل شئ ، وكيف يكون فى الوقت ذاته بطانة تكشف عن نفسها فى كل شئ .

فى ذلك الوقت كانت الضربات التى تكيلها حكومات الأقليات للآمال الوطنية التى لم تكن قد فقدت زخمها بعد ضربات بالغة الأذى ، فقد شجعت الانجليز والقصر الملكى وشجعها هؤلاء على أن

يلعب كل فريق لعبته ابتغاء الحصول على مكاسب تخص دائرته ، وتفككت في هذا السبيل أوصال الجبهة الوطنية التي كانت من قبل سدا منيعاً في وجوه الطامعين الغاصبين وتبددت جهود استكمال الاستقلال الوطني الذي كانت بدايته بالكاد قد أرسيت في فبراير سنة ١٩٢٢ ، ومع ذلك ظلت في نفوس الناس جذوة لم تخمد في مواجهة جيش الاحتلال الذي ظل قابعا في ثكنات قصر النيل (حيث تقوم الآن مباني جامعة الدول العربية)، مبقيا بذلك على المشاعر الوطنية المبهمة التي ظلت تجيش تحت السطح كالأخلاط الساخنة تحت سطح الأرض لتتفجر بعد ذلك حمما ملتهبة في منتصف الثلاثينيات.

في هذه الفترة من أوائل الثلاثينيات ، كان انتقالي من التعليم الأولى إلى التعليم الابتدائي (سنة ١٩٣١ -١٩٣٢) ، ومع هذه النقلة بدأ عالمي يتسع بعض الشئ، فلم يعد يقتصر على الأسرة والمدرسة وما يطلان عليه من أرض الحي ، بل أصبح يمتد ليشمل عالم الأوتوبيس ، وأحياء السكاكيني وغمرة والظاهر، والطريق الذي يربطها بكوبري القبة .

التحقت بمدرسة الظاهر الابتدائية، وكانت تقوم وراء كوبري الشرابية ، واقتضى ذلك أن استقل الأوتوبيس معتمدا على نفسي ، وأن أتعهد بالتنمية والصقل مجموع المهارات الاجتماعية اللازمة للتعامل الآمن والسليم مع السائق ومحصل التذاكر والركاب، وكانت الأسرة مطمئنة ، وامتد اطمئنانها ليشملني ، وكان الطريق آمنا ، وكان الناس مسالمين، فلم يحدث أبدا ما يعكر الصفو. ثم اقتضى انتقال الأسرة إلى مسكن في حي عابدين أن ينتهي بي المطاف إلى مدرسة القربية الابتدائية (بالقرب من ميدان الفلكي) . وكان الفناء الواسع سمة رئيسية في المدرستين (الظاهر والقربية) ، وكانت هيبة الناظر والمدرسين سمة أخرى في المدرستين ، وكان المناخ التربوي فيهما يجمع بين السماحة والانضباط معا . وكان هذا كله يفصح عن نفسه في مشاعر الحبور التي كانت تحتويني أثناء رحلتي كل صباح إلى المدرسة ، وأنا الآن لا أذكر شيئا مفصلا عن تعليمي كما تلقيته في تلك المرحلة ، ولكنني أذكر إجمالا أن كل شئ كان يمضي في سلاسة ، وأذكر أنني بدأت أتعلم اللغة الانجليزية منذ السنة الأولى ، وأنني اشتركت في بعض المسابقات الثقافية التي كانت تجري داخل المدرسة ، وتفوقت في مسابقة الدين، وكوفئت على ذلك بمصحف فخم الطباعة لازلت أحتفظ به في مكتبتي ، وأذكر أمورا أخرى متناثرة، حول امتحان الشهادة الابتدائية : فقد عقد الامتحان في سرادق

كبير أقيم بعيدا عن المدرسة ، وكانت لنا أرقام جلوس تسلمنا بطاقاتها قبل موعد الامتحان بأسابيع عدة ، وكان توزيع هذه البطاقة علينا إيذانا بتولد شعور بالرهبة عندنا جميعا أنا وزملائى ، وكانت رهبة مسعدة لنا ولعائلاتنا إذ كانت تعنى (فى نظرنا) اعترافا رسميا بأننا أصبحنا كبارا بمعنى ما ، وكانت هذه المشاعر تزداد كثافة مع اقتراب موعد الامتحان فنزداد شعورا بالتوتر والسعادة معا ، وعندما حل اليوم الموعود وذهبت إلى السرادق فوجئت بعدد من الآباء والأمهات يقفون بالقرب من مدخله ، وقد صحبوا أبناءهم ثم وقفوا هناك بعد أن دخل الأبناء ، وكانوا أثناء وقوفهم بالمدخل يتلون بالهمس آيات من القرآن الكريم يشفعونها بدعوات لأبنائهم ولنا جميعا بالتوفيق ، وخيل إلىّ عندئذ أننى كنت على باب مسجد أهم بدخوله والتبرك بمن فيه وما فيه ، وكأننى كنت من قبل فى انتظار إشارة من هذا المستوى الإنسانى الرفيع ليتأكد لى أننى بصدد أمر جاد لا هزر فيه. ثم جاءت علامة أخرى لتحسم الأمر عندما حل موعد الامتحان الشفوى ، وإذا بامتحان اللغة الانجليزية يشارك فيه مع الممتحن المصرى مفتش (أو موجه بلغة أيامنا الحالية) انجليزى الجنسية ، كان الرجل باسم الثغر ، خفيض الصوت ، يغلب عليه الحنو والتشجيع ، وقد مكث معنا (فى لجنتنا) دقائق ثم ما لبث أن انصرف ليتنقل بين اللجان المختلفة . ثم بعد هذا وذاك اكتملت دائرة الأهمية والاهتمام الاجتماعى الذى كان الامتحان يحظى به عندما ظهرت (بعد شهر أو نحو ذلك) النتائج فى إحدى الجرائد اليومية واسعة الانتشار معلنة أرقام جلوس الناجحين فى الشهادة الابتدائية .

العام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ :

كان العام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ عاما فاصلا فى حياتى الشخصية ، وفى مسار مصر ، والعالم ، كان مثالا للأعوام المفصلية فى التاريخ ، على مستويات عدة: فأما بالنسبة لى فقد كان نجاحى فى امتحان الشهادة الابتدائية فى مايو ١٩٣٦ حدثا فاصلا بين مرحلتين هامتين : الأولى مرحلة ضآلة دور الوعى فى حياتى (كأننى كنت من السائرين نياما) ، والثانية مرحلة تنامى نصيب الوعى فى هذه الحياة، ولا أزال أذكر الفرق بكل وضوح بين شخصى وأنا فى المدرسة الابتدائية ، وشخصيتى التى بدأت تتشكل وأنا أجتاز تعليمى الثانوى .

وأما بالنسبة لمصر فقد اندلعت الثورة فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، كانت الهتافات موجهة ضد الانجليز لاستكمال الاستقلال، وكانت موجهة فى الوقت نفسه ضد عبث القصر وأحزاب الأقلية الذين انصرفت عنايتهم إلى التمكن من كرسى الحكم بأى ثمن. وأفاق الساسة على أن ألاعيبهم لابد لها من نهاية، فإذا لم يحددوا هم أنفسهم هذه النهاية فستحدد لهم . ولكنهم كانوا كالسائرين نياما ، وفجأة بدأت أحداث الثورة ، وفجأة نفضت انجلترا يدها منهم لأن أحداثا عالمية خطيرة بدأت تأخذ مجراها ، ولابد من إعداد العدة لمواجهة مستقبل متفجر . وفى هذا المناخ تراجع القصر الملكي فأصدر مرسوما (فى ديسمبر ١٩٣٥) بإعادة العمل بدستور سنة ١٩٢٣ ، وأجريت الانتخابات ، وجاء حزب الأغلبية (الوفد) إلى الحكم، وبدأت انجلترا تدخل فى مفاوضات جادة مع الحكومة المصرية ، انتهت بعقد معاهدة سنة ١٩٣٦ . خطوة أخرى محدودة تضاف إلى خطوة فبراير سنة ١٩٢٢ ، وفى هذه الأثناء مات الملك فؤاد (فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦) وخلفه ابنه فاروق .

أما عن الأحداث العالمية التى أرغمت الجميع على أن يأخذوا الأمور بقدر معقول من الجدية فتتلخص فى أن نذر الحرب العالمية الثانية بدأت تلوح فى الأفق، وكان أوضح النذر تنامى الفاشية فى أوروبا ، وكان أقرب هذه النذر إلى الحدود المصرية زحف الجيوش الايطالية من الصومال (وكانت مستعمرة ايطالية) على صحراء الاوجادين داخل الحبشة فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ ثم دخولها أديس أبابا فى مايو ١٩٣٦ وتبع ذلك إعلان الحبشة جزءا من الامبراطورية الايطالية ، وفى الشهر نفسه أعلنت إيطاليا انسحابها من عصبة الأمم، بما يعنى أنها قررت أن تسقط من حسابها معايير النظام الدولى القائم . أما عن بقية عناصر الفاشية المتنامية فى أوروبا فكان على رأسها استقرار الأمر للنازية فى ألمانيا ، واندلاع الحرب الأهلية فى أسبانيا ، ومساعدة ايطاليا وألمانيا إلى المساعدة الجنرال فرانكو زعيم الفاشية فى أسبانيا .

كانت هذه الأحداث (الداخلية والخارجية) فى تجمعها معا على هذا النحو المكثف علامة فاصلة فى تاريخ تقدم القوى الفاعلة فى مصر ، وانتقالها بتصوراتها وشعاراتها ، من مستوى للعمل السياسى أقرب إلى السذاجة إلى مستوى جديد من العمل والفكر أو من العمل الواعى لم تعهده من قبل . وفى يقينى أننا جميعا ، أجيال الآباء وأجيال الأبناء ، بحاجة إلى مزيد من النظر والتفكر فى خطى هذه الرحلة ودروسها ، سواء من هذه الخطى ما رويت عنه ، أو ما أرجو أن أرويه فى القريب .

صفحات من كتاب السيرة الذاتية للدكتور رشدى سعيد

ذكريات سياسية

خمسة عشر عاما فى دنيا السياسة (١٩٦١ - ١٩٧٦)

بقلم:
د. رشدى سعيد

"ظللت ومنذ عودتى من البعثة فى سنة ١٩٥١ منكبا على معملى ومعطيا كل وقتى للبحث العلمى ولتدريب الطلاب فقد كان همى كله منذ أن بدأت عملى بقسم الجيولوجيا بجامعة القاهرة «بناء قسم رفيع المستوى يصبح ندا لأعرق الجامعات» كما كتبت فى المقال الذى نشرته فى مجلة الهلال (مايو سنة ١٩٩١) بمناسبة مرور خمسين سنة على تخرجى من كلية العلوم - كانت الآمال والطموحات فى ذلك الوقت تسمح لنا بأن نحلم بأن نرى كلية العلوم بجامعة القاهرة ندا لزميلتها بجامعة هارفارد أعظم الجامعات بالولايات المتحدة."



جمال عبدالناصر



كمال رمزى



حسين هيكل



لطفى الخولى

وعلى طول السنوات العشر الأولى التى تلت عودتى من البعثة لم يكن هناك مكان لأحد فى ميدان العمل السياسى الذى كان رجال الثورة قد احتكروه وحصروا العمل فيه على مجموعة صغيرة من الثقاة مما أحدث تباعدا مع المثقفين الذين كان رجال الثورة يتوجسون منهم - وقد أحدث انفصال سوريا فى سنة ١٩٦١ من دولة الوحدة التى أقامتها مع مصر فى سنة ١٩٥٨ تغيرا فى توجهات القيادة السياسية المصرية بعد أن تأكد لها أن هذا الانفصال هو جزء من مؤامرة كبيرة تدبرها قوى خارجية للتخلص منها مما دفع القيادة السياسية درءاً لهذه المؤامرة إلى الالتجاء إلى الشعب وتعبئته وكسب ثقته والارتباط به بميثاق للعمل الوطنى يعرض للاستفتاء عليه من قواه العاملة التى تحددت فى اجتماعات لجنة تحضيرية تشكلت لهذا الغرض فى مؤتمر تم تشكيله من هذه القوى بغرض اقرار الميثاق - وفوجئت بوجود اسمى بين أعضاء كل من اللجنة والمؤتمر اللذان انعقدا فى سنتى ١٩٦١ ، ١٩٦٢ على التوالى .

الحب المفقود

وكان أعضاء اللجنة التحضيرية والمؤتمر معينين فلم تكن القيادة السياسية وحتى ذلك التاريخ على ثقة من أن أنصارها يمكن أن ينجحوا لو دخلوا الانتخابات العامة سواء لعضوية المؤتمر أو مجلس الشعب الذى كانت القيادة تعد لإعادته بعد توقف طويل - فحتى ذلك الوقت كانت القيادات الشعبية لازالت فى معظمها فى يد القيادات التقليدية والتى كان بينها وبين الثورة حب مفقود ، فقد تضررت من القوانين التى أتت بها الثورة بدءاً من قانون الاصلاح الزراعى الذى تم سنة ١٩٥٢ ونهاية بالتأميمات التى حدثت سنة ١٩٦١ وهى التأميمات التى تمت فى ذلك الوقت تحت مسمى القوانين

الاشتراكية - وكانت كلمة الاشتراكية من الكلمات المقبولة حينئذ كما كان هدف «تذويب الفوارق بين الطبقات من أهم الأهداف التى جاءت بها الثورة والتى لم تكن تقل فى أهميتها عن مبدأ التخلص من الاستعمار ، وقد بدأت الثورة حياتها بعدد من الإصلاحات التى كان الكثيرون يتطلعون لرؤيتها حتى من قبل مجيئها كتحديد الملكية الزراعية وإصدار قانون جديد للعمل والتوسع فى مجانية التعليم وتوفير الخدمات الصحية لقاعدة كبيرة من المواطنين .. واهتمت الثورة بالعمل على توسيع قاعدة الثروة فى البلاد والقيام ببرنامج ضخم للتنمية تضمن بناء السد العالى وتنفيذ خطة طموحة للتصنيع كانت الثورة تأمل فى أن يقوم بها القطاع الخاص الذى سعت إلى تشجيعه اصدار التشريعات المناسبة إلا أن هذا القطاع لم يستجب لهذا المسعى فقد كان مملوكا فى أغلبه للأجانب كما أن أصحاب رؤوس الأموال كانوا مرتابين فى نوايا النظام الذى كان يرفع شعار العدل الاجتماعى وتذويب الفوارق بين الطبقات .. ولما لم يأتى رأس المال طوعاً أقدمت الحكومة على تأميمه بدءاً بقناة السويس ثم بالشركات الأجنبية فالمصرية واستخدمت الحكومة هذه الأموال فى بناء قاعدة اقتصادية واسعة استوعبت القوة العاملة بكاملها - وفى خلال ذلك كله دخلت الحكومة فى صدام مع أصحاب رؤوس الأموال الذين شجعوا التمرد وتحالف جزء منهم مع اليمين الدينى مما دفع الحكومة للقيام بعمليات قمعية أثارت الاشمئزاز . وأدى التصادم إلى توقف كل أشكال المشاركة الشعبية فى الحكم لمدة قاربت السنوات العشر وحتى سنة ١٩٦٤

وكان المقصود من عمل اللجنة التحضيرية استبعاد القيادات القديمة واعداد قيادات جديدة من المستفيدين من القوانين الاشتراكية تمهيداً لدفعهم لخوض معركة الانتخابات لمجلس الشعب الذى كان يجرى الاعداد لإقامته - وتمخض اجتماع اللجنة التحضيرية بالفعل عن «عزل» الكثير من القيادات القديمة ودفع قيادات جديدة من بين العمال والفلاحين ممن استفادوا من الثورة والذين تقرر حجز نصف عدد مقاعد المجالس الشعبية المنتخبة على الأقل لممثليهم .

كسب ثقة المثقفين

أما المؤتمر العام فقد استهدف وضع ميثاق يكون أساساً لإنشاء تنظيم سياسى كان يؤمل أن ينضم تحت لوائه كل قوى الشعب العامل وهكذا ظهر تنظيم الاتحاد الاشتراكى الذى لعب دوراً هاما فى توجيه شئون الأمة حتى حله فى منتصف سبعينات القرن العشرين.

وليست لدى أية معرفة بمن يمكن أن يكون قد رشحنى لعضوية اللجنة والمؤتمر فقد كانت هذه الأمور تجرى فى سرية تامة إلا أنى أكاد أن أقطع بأن الترشيح لم يأتى عن طريق الأجهزة أو القيادات

التقليدية بل وأنه وفي الأغلب مرتبط بالحملة التي قادتها جريدة الأهرام التي كان يرأس تحريرها في ذلك الوقت الأستاذ محمد حسنين هيكل لكسب ثقة المثقفين وبناء الجسور معهم والتي بدأتها قبل ذلك بسنوات عندما استكتبت عددا منهم في صفحة الرأي التي استحدثتها الجريدة وخصصتها لكتاباتهم - وكان الأستاذ لطفي الخولي المسئول عن هذه الصفحة قد سمع عني من زملائه الذين كان البعض منهم يحضر محاضراتي في الجامعة ويعجب بها ودعاني للكتابة في صفحة الرأي فبدأت وفي تردد شديد وبين الحين وطول الحين الكتابة عن الجامعات والبحث العلمي وأهميتها في بناء المجتمع.

وكانت الأزمة مع المثقفين قد أخذت شكلا جادا بعد أحداث سنة ١٩٥٤ والتي أحدثت إنقساماً في قيادة الثورة بسبب إلحاح الجناح الذي كان يقوده محمد نجيب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت بضرورة العودة إلى النظام البرلماني وهو الأمر الذي خشي منه جناح أخر فيها بقيادة جمال عبد الناصر بأن يصفي مثل هذا الاجراء الثورة ويعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبلها. وكان من رأي هذا الجناح الأخير والذي كانت له الغلبة في هذا الصراع أن تؤجل عملية الانتخابات حتى يتم تثبيت قواعد الثورة ويبني لها تنظيم سياسي تكون له من الشعبية ما يمكنه من الدخول في الانتخابات ضد

القيادات التقليدية - وقد أدى هذا الانقسام إلى انشقاق صفوف المثقفين وإلى إطباق الثورة على الجامعة وطرد عدد كبير من أساتذتها في سنة ١٩٥٤ وهو العمل الذي سمي وقتها بمذبحة الجامعة. وقد كان صراع سنة ١٩٥٤ موضوع كتابات كثيرة ممن عاصروه.

وفي سنة ١٩٦٤ أحست القيادة السياسية أنه قد أصبح لها تنظيما سياسياً له من القيادات والشعبية ما يمكنها من البدء في تجربة المشاركة الشعبية في الحكم. وكان هذا التنظيم السياسي يضم تحالفا من قوى الشعب العاملة التي كانت قد تحددت صفاتها في اللجنة التحضيرية التي سبقت مؤتمر الميثاق - وأعلن عن فتح باب الترشيح للبرلمان وشجع الناس للترشيح وللإدلاء بأصواتهم في الانتخاب - ولم يكن هناك أي قيد على الترشيح فقد تكفلت القواعد التي وضعتها اللجنة التحضيرية بابعاد القيادات التقليدية - وتقدم للترشيح لهذا البرلمان بالفعل عدة مئات كانوا من بين أبناء الطبقة المتوسطة الذين حاول النظام أن يدفعهم ليحلوا محل القيادات السابقة من أصحاب الأراضي ومن رجال الأعمال الذي كان قد تم تحجيمهم ثم عزلهم خلال السنوات العشر السابقة - وكان معظم المرشحين من المستفيدين من الثورة والنظام الجديد الذي جاءت به وكانوا على

استعداد للدفاع عنها والعيش مع أهدافها – وكانت انتخابات هذا البرلمان نزيهة في عمومها فلم يكن هناك سبب يدفع الحكومة التدخل فيها فقد كان كل المرشحين من رجالها .

تغيير قانون الانتخاب

وفاجئت نتيجة الانتخابات القيادة السياسية لأنها لم تسفر إلا عن نجاح قبطي واحد هو الأستاذ جميل جورجي بشاي الذى انتخب عن دائرة صدفا بالصعيد مما دفع بها لأن تحاول تدارك الوضع بتغيير قانون الأنتخاب ليعطى لرئيس الجمهورية الحق في تعيين عشرة أعضاء بمجلس الشعب – ولاشك أن هذه النتيجة كانت على الأقل في جزء منها بسبب الإبعاد الذى حدث للأقباط من ميدان الخدمة العامة ومن الحياة السياسية وتنظيماتها التى كان يضاف إليها وفي آخر لحظة عندما يحتاج الأمر إلى قبطي بغرض استكمال الشكل .. وفي جزئه الآخر إلى تواطىء أجهزة الداخلية التى اشتهرت بارتيابها لنوايا الأقباط كما يتضح ذلك من الطريقة التى ترسم بها الدوائر الانتخابية حيث تقطع المدن والأحياء التى يسكنها الأقباط حتى لا تكون لهم في أى منها أغلبية – والداخلية في هذا المجال تاريخ ينبغي للمهتمين بمستقبل مصر النظر فيه واصلاحه فمنها خرجت الشروط العشرة التى ألحقت بالخط الهمايوني المنظم لبناء الكنائس والتى تجعل من بنائها أمرا صعباً. والخط الهمايوني هو أحد الفرمانات التى أصدرها الباب العالي في سنة ١٨٥٦ تحت ضغط الانتفاضات المتكررة للأقليات المسيحية في أرجاء الدولة العثمانية لاعتماد الحقوق الخاصة بالمسيحيين بحيث «لايمنع أحد من اجراء فريضة ديانته ولا يلقى من أجل ذلك جوراً أو أذية ولا يجبر على ترك دينه وتؤخذ التدابير اللازمة والفورية لأجل تأمين أهل كل مذهب مهما بلغ عددهم» وبحيث «يساوى في الوظائف العامة بين المسلمين والمسيحيين» وبحيث «تصبح الخدمة العسكرية واجبة على المسيحي كما هي واجبة على المسلم» وبحيث «تزال كلية من المحرارت الديوانية جميع التعبيرات والألفاظ والتمييزات التى تتضمن الاساءة إلى فئة من الناس بسبب المذهب أو اللسان أو الجنسية» «نص الفرمان على أنه يقدم طلب بناء الكنائس من بطريرك الطائفة إلى الباب العالي ليصدر رخصة بنائها – وطبق الفرمان على مصر التى كانت جزءاً من الدولة العثمانية وظل ساريا حتى صدور دستور سنة ١٩٢٣ عندما ألغيت كل الفرمانات العثمانية والخطوط الهمايونية بما فيها ذلك الخط – إلا أن وزارة الداخلية المصرية لم تأخذ بهذا الإلغاء واستمرت في تطبيق الخط وأضافت إلى حقوق الحاكم في إصدار رخصة بناء الكنائس رخصة ترميمها أيضاً ووضعت في سنة ١٩٣٤ شروطا عشرة ينبغي على طالب الترخيص استيفائها وهي أن تكون

مانعة لبناء الكنائس - وعلى الرغم من وجود أى سند قانونى أو دستورى لهذه الحقوق أو الشروط وارتفاع الشكوى منها إلا أن أحدا لم يقم بالغائها حتى اليوم.

أعود إلى انتخابات سنة ١٩٦٤ والتى أتصور أن جمال عبد الناصر ربما كان الوحيد من قيادات الثورة الذى أزعجته نتيجتها فقد رأى دلالاتها الخطيرة على عمق الصدع الذى حدث فى صفوف الوطن وعلى قوة التيار المتشدد الذى استطاع أن يفرض جدول أعماله على الدولة وعلى التنظيم السياسى . وراود الكثيرون الأمل فى أن يكون تعيين الأقباط فى البرلمان مؤقتا حتى تتم إعادتهم إلى صفوف الجماعة الوطنية فيدخلوا البرلمان بالانتخاب كما ينبغى أن يكون عليه الحال فى أية دولة متمدنة إلا أن هذا الأمر لم يتم وهكذا أصبح وجود الأقباط بالبرلمان ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم راجع إلى عطف الحاكم لا إلى إرادة الشعب .

اختيار لم أسعد به!

وتم اختيارى عضوا معينا بمجلس الشعب فى برلمان سنة ١٩٦٤ - ولم أكن سعيدا بهذا الاختيار فقد أكد لى ما كنت قد بدأت أشعر به منذ عودتى من البعثة من أننى بالفعل قد أصبحت الآن فى الوطن وزاد من عدم سعادتى ماعرفته من أن اختيار الأعضاء المعينين من الأقباط فيما عداى كان قد تم من قائمتين أعدت واحدة منها بطريركية الأقباط وأعد الأخرى الدكتور كمال رمزى استينو الوزير القبطى بالوزارة بعد مرورها على قلم شئون الأقباط بالأجهزة التى كان يشرف عليها أحد ضباط الصف الثانى من قادة الثورة، وكان أمر زج البطريركية فى اختيار السياسيين أمراً مثيرا للألم وإشارة إضافية إلى تزايد اعتماد الدولة على المؤسسة الدينية فى علاج المشاكل الزمنية وصد الاتجاه الذى لم أكن أحب أن أراه أن ؟؟ كما كان الطلب من الوزير القبطى بالوزارة بأن يرشح أقباطاً للتعيين بالبرلمان مثيراً للأسى فقد كان اعترافا بعزلة الأقباط الذين لم يعد أحدا خارجا عنهم يعرفهم.

ومن غرائب الأمور أن الدولة التى كثيرا ماتقتحم المؤسسة الدينية فى أعمالها الزمنية هو نفسها التى تصمم على ألا يدخل الدين السياسة والتى تمنع انشاء الأحزاب القائمة على أساس الدين ويعود سبب هذا التناقض إلى هشاشة مؤسسات المجتمع المدنى التى تقف الدولة حجر عثرة أمام نموها والتى كان من الممكن أن تجد فيها أداة للاتصال بالناس وأن يجد الناس فيها منبراً يتجمعون حوله وتدفع هشاشة هذه المؤسسات الدولة بل والناس أيضاً إلى اللجوء إلى المؤسسة الدينية كبديل لها عندما تريد أن تجد منبراً للتعبير عن آرائها ولذا فعلى الرغم من أن الحكومة تخشى بأس هذه المؤسسة وتخشى من إفلاتها من سيطرتها إلا أنها كثيراً

ماتضطر للجوء إليها عندما يكون لديها شيء تريد أن تقرره ، وقد لجأت الحكومة بالفعل لهذه المؤسسة للحصول على موافقتها على معاهدة الصلح مع إسرائيل وعلى قوانين الغاء الاصلاح الزراعي بل وعلى تأييد ترشيح رئيس الجمهورية لفترة جديدة للرياسة ، ولو كان لدى الحكومة مؤسسات مدنية قوية كالنقابات والأحزاب والجمعيات الاهلية لما اضطرت أن تفعل ذلك بل ولما اضطر الناس إلى زيادة الاعتماد على المؤسسة الدينية للتعبير عن آرائهم .

ومهما كان الأمر فقد كنت الوحيد من بين المعنيين من الأقباط الذي جاء اسمه من خارج القائمتين كما يكن تخمين ذلك من ظهور اسمى الثنائى الذى اشتهرت به فى القرار الجمهورى القاضى بتعينى عضوا بمجلس الشعب وكان هذا علامة على أن اسمى لم يمر على أجهزة الأمن التى كانت تحرص على أن يظهر الاسم ثلاثياً فقد كان تقصى أسماء الجدود من أهم مهامها!

مجلس الشعب

لم يكن مجلس الشعب الذى دخلته فى سنة ١٩٦٤ برلمانا بالمعنى الذى تعارفت عليه الديمقراطيات الغربية ذات الأحزاب المتعددة فقد كان أعضاؤه ينتمون إلى تنظيم سياسى واحد ومقتنعون بصحة سياسة هذا التنظيم وسياسة الحكومة التى بزغت منه والتى كانوا على استعداد للاشادة بها تحت كل الظروف .. كما أن أحدا منهم لم يراوده التفكير فى إحراجها أو تغييرها فلم يكن مبدأ تبادل السلطة أو حق البرلمان فى تعيينها أو عزلها واردا - وفى الحقيقة فإن المجلس كان بمثابة المنبر الذى استخدمته الحكومة للإعلان عن برامجها كما استخدمه الأعضاء للتعبير عن مطالب الجماهير وشكاواهم - وكان للأعضاء حرية فى نقد وزارات الخدمات ولكن حريتهم كانت مقيدة عندما كان الأمر يمس وزارات ومؤسسات الخارجية والجيش والرياسة - وكانت ميزانية الدولة العامة ومشروعات القوانين تمر فى سهولة ودون مناقشة حقيقة إلا عندما ترغب القيادة السياسية فى اثارة موضوع معين للتعهد لتعديل تريد تمريره .. وكان تسيير العمل يتم عن طريق رؤساء اللجان الذين كانوا يختارون من الثقاة ذوى الصلة الوثيقة بأمين التنظيم السياسى بالمجلس والذى كان المحرك الحقيقى للعمل - وكان من أهم واجبات رئيس اللجنة كما كان الحال مع رئيس المجلس هو تمرير القوانين والاتفاقيات وغيرها من شئون الدولة دون إثارة حتى ولو جاء ذلك عن طريق «الكروتة» - وقد رأيت البرلمان فى مرات يمرر ميزانية الدولة فى ساعات قليلة ويقبل أن تدرج ميزانيات وزارات ومؤسسات كاملة تحت رقم واحد دون أية تفاصيل وهو تقليد لازال ساريا .

وقد ظل هذا النمط من الديمقراطية المحدودة التى بدأت ببرلمان سنة ١٩٦٤

سائداً فى مصر على الرغم من التغييرات الهائلة التى حدثت فى مصر والعالم وعلى الرغم من التغيير الكامل لشكل البرلمان في مصر ذاتها بعد انفتاح السبعينات عندما تخلت القيادة السياسية عن فكرة التنظيم السياسى الواحد وشجعت انشاء ثلاثة منابر للتعبير عن مختلف الاتجاهات السياسية التى احتواها التحالف القديم - وقد أصبحت هذه المنابر أحزاباً سياسية فيما بعد أضيفت إليها بعد ذلك الكثير من الأحزاب الأخرى التى تشكلت فى ظل قانون ينظم تشكيلها - ويحتوى هذا القانون على الكثير من القيود التى تحد من التشكيل للأحزاب - وقد أجريت فى مصر ثلاثة انتخابات تحت مظلة التنظيم السياسي الواحد (١٩٦٤ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧١) عينت عضوا فى ثلاثتها - كما أجريت بعد خروجي من البرلمان خمسة انتخابات تحت نظام تعدد الأحزاب (١٩٧٦، ١٩٨٠، ١٩٨٥، ١٩٩٠ ، ١٩٩٥) لم يحظى الأقباط بالنجاح فى أى منها بأية نسبة معقولة مما اضطر القيادة السياسية إلى زيادة عددهم عن طريق التعيين .. ولحقت المرأة بالأقباط فى مضمار ضعف التمثيل بالبرلمان مما اضطر القيادة إلى استخدام حق تعيين الأعضاء لزيادة تمثيلها أيضاً.

ولم يكن للبرلمان والحق يقال مصداقية كبيرة وقد حاولت ولمرات عديدة اقتراح عدد من الاصلاحات التى كنت أعتقد أنها يمكن أن تصلح هذا الحال وأن تزيد من مصداقيته وأن تجعله مفيداً بالفعل لتحسين أداء الحكومة وصورتها . وكنت قد تقدمت بخطوة أولى نحو هذا الاتجاه بتقديم اقتراح يمكن التنظيم السياسي من تحسين اختياره لمرشحه ويعطى مقياسا لأداء أعضاء البرلمان حتى يمكن الحكم عليهم بمعايير موضوعية بدلا من الاعتماد على الشائعات والتقارير التى كثيرا ماتتسم بالهوى - وقد عرضت على الرئيس السادات عندما كان رئيساً لمجلس الشعب أن يكون أخذ الأصوات على الأقل فى حالة مشروعات القوانين الهامة بالنداء بالاسم حتى يكون موقف كل عضو فى البرلمان معروفا ومسجلا فيمكن بذلك أن تكون لدى القيادة وجمهور الناخبين سجل بمواقف النائب من مختلف القضايا عندما يحين وقت إعادة انتخابه - إلا أن هذا الاقتراح قد رفض بل وقوبل بالاستهزاء فقد كان تمرير القوانين يتم بسهولة أكثر عندما كان الرأى يؤخذ برفع الأيدى والنداء بالموافقة بعد ذلك ومهما كان عدد رافعى الأيدى.

ولم أرى من قيادة البرلمان أي جهد ينفق لتوسيع آفاق النواب وإعدادهم للعمل الكبير الذى ينتظر منهم كما يحدث فى الكثير من البرلمانات التى تقيم الدورات لتعريف الأعضاء وخاصة الجدد منهم بدور البرلمان أو أن تعمل لإتاحة المعلومات متعددة المصادر لهم حتى تأتى أسئلتهم

وتعليقاتهم مدعمة بالبيانات والمستندة إلى أساس - ولا يستطيع المرء أن يتصور أن من الممكن أن يكون للبرلمان بحالته التى عرفتها أى دور فى ميدانى التشريع أو الرقابة وهما الدوران اللذان يشكلان ميدان العمل الأساسيين له - أما عن ميدان الرقابة فهو غير وارد على الاطلاق لأن نظام الحكم فى مصر لايعرف مبدأ المحاسبة ويقوم على تأكيد هيبة الحاكم ولا يشجع أحداً على فضحة أو الاقلال من مقامه مهما بلغت تجاوزاته .. ولذا فلم يحدث أبداً أن سمح للبرلمان بأن يدين وزيرا أو مسئولا أو أن يتسبب حتى فى احراجه فضلا عن دفعه للاستقالة أو تعريضه للإقالة - والانتقال إلى جدول الأعمال هو نهاية كل مساءلة حدثت للوزراء فى كل البرلمانات التى كانت منها أو التى جاءت بعد أن خرجت منها - وفى الحقيقة فإن موضوع الرقابة والمحاسبة هى من الأمور التى يستحيل تنفيذها بأى قدر من الجدية بالنظر إلى السرية التى تدار بها شئون مصر وإلى صعوبة الحصول على المعلومات وفى أى ميدان - وجاء وقت كانت فيه حتى أساسيات الاحصاء العام سرية وغير متاحة للجمهور .. ولذا فإن تحقيق مبدأ الرقابة ينبغى أن يبدأ بتحقيق مبدأ الشفافية .

خطب عفى عليها الزمن

وللحق فإن تمكين البرلمان من أداء أعماله كما ينبغى أن يكون عليه عمل البرلمان سواء فى الرقابة أو التشريع هو أن يصعب تصور حدوثه فى مصر فى الوقت الحاضر - ويعود ذلك فى نظرى إلى أمرين يتعلق الأول بنوعية النواب أنفسهم الذين يفرزهم مناخ فكرى عام لايختلف كثيراً عما كان سائداً فى العصر الوسيط . وكنت أتصور ، بحكم نشأته فى المدينة وفى وسط فضل العيش فى العصر، أن هذا المناخ الفكرى قد اختفى وأصبح فى ذمة التاريخ حتى جاءت عضويتى بالمجلس حين اكتشفت قدر تغلغله بل ارتفاع صوته بعد تصاعد نجم التيار السلفى فى السبعينات والذى توقفت الدنيا عنده منذ نيف وألف سنة - وقد استمعت خلال عضويتى بالمجلس إلى مئات الخطب والتداخلات التى كانت تستشهد بقصص قديمة ومقولات ساذجة استخرجت من كتب قديمة وتكرر استخدامها فى كل موضوع - وكنت كلما استمعت إلى هذه الخطب والتداخلات تعود إلى الصورة التى رسمها إدوارد لين لمصر فى ثلاثينات القرن التاسع عشر فى كتابه الشهير «عادات وتقاليد المصريين المحدثين! وكأن مصر وقفت عند عتبة العصر الوسيط لاتريد الخروج منه .. وكان لين قد زار مصر فى القرن التاسع عشر ووصف عادات أهل مدنها ونظرتهم إلى أمورهم التى كانوا يعتقدون أنها ليست فى أيديهم بل فى أيدى قوى خفية وأن حلها لايحتاج إلى العمل والتمحيص بل إلى التقرب إلى الوسطاء الذين لهم القدرة على ارضائها بكتابة الأحجبة أو القيام بأعمال معينة أو

بتقديم الذبائح والهدايا أو بحرق الشموع أو بترديد كلمات بعينها – أما عن الرزق فلم يكن يجيء أبداً عن طريق العمل بل كان يجيء بخبطات من الحظ وبلا حساب – أما في ميدان الثقافة فقد كانت محدودة تملى إملاء ولا يجوز نقدها أو الاختلاف معها وكانت كلها مستمدة من كتب قليلة خطت في أغلبها منذ أكثر من ألف سنة.

ولم يكن الاعتقاد بوجود هذه القوى الخفية متصوراً مع أعضاء مجلس الشعب بل كان منتشراً بين عدد كبير من الوزراء وصانعي القرار وقد رأيت بعيني وزراء يحملون الأحجبة ويحضرون الأرواح – ومنهم من كان يستطلع الطالع ويستكشف المستقبل باستخدام المنجمين – ومنهم من كان يحج إلى عارفي الأسرار من المشايخ في المغرب وغيرها من البلاد في أقاصي الأرض . وقد أمرت هيئة البترول المصرية ، ضد توصيات كل خبرائها، بحفر بئر لاستخراج البترول في وادي النطرون بناء على توصية أعطتها سيدة اشتهرت بقدراتها التنجيمية في أحد جلساتها مع أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة في الخمسينات.

وازدادت معرفتي بهذا المناخ الفكري عندما عينت عضواً في اللجنة التي شكلها مجلس الشعب في سنة ١٩٧٢ لتقصي الحقائق بشأن الأحداث الطائفية التي حدثت بمدينة الخانكة إلى الشمال الشرقي من القاهرة برياسة الدكتورة جمال العطيفي رحمه الله .. وكان المجلس قد شكل هذه اللجنة في أعقاب المسيرة التي قام بها قساوسة الأقباط في شوارع الخانكة احتجاجاً على إغلاق الشرطة لأحد كنائسها والتي ارادوا فتحها والصلاة فيها – وأزعجت المسيرة رئيس الجمهورية ازعاجاً شديداً خاصة وأنها جاءت بعد سنة واحدة من تنصيب قداسة البابا شنودة الثالث بطريركا على الأقباط وقيل أن الرئيس صمم على الانتقام من البطريرك إلا أن بعض عقلاء الأمة عملوا على تهدئة الموقف ونصحوا الرئيس بان يشكل لجنة تتقص الحقائق قبل الإقدام على أي عمل ضد البطريرك وقبل الرئيس النصيحة وتشكلت اللجنة وأخذ رئيسها عمله بجد وصاحبته في الكثير من جولاته التي أخذتنا إلى المؤسسات الدينية الرسمية وإلى كل بؤر التوتر الطائفي التي وصلتنا أية أخبار عنها .. وقد أتاحت لي هذه الجولات رؤية أماكن ولقاء قطاع من الشعب ما كان من الممكن أن تتاح لي فرحة رؤيتها وزرعنا مصر من سوهاج وحتى الاسكندرية .. وقابلنا من قيل لنا أنه من المبشرين وتحدثنا مع قسس الكنائس وشيوخ المساجد الأهلية والحكومية ومع رجال الجميعات الأهلية الاسلامية والمسيحية ومع مشايخ الطرق الصوفية وعرفت من هذه اللقاءات صورة الآخر الديني في الفولكلور الشعبي عند فقداء

المدن والمساكين على هوامشها فصورة الأقباط عند المسلمين هى أنهم أثرياء كنائسهم وأديرتهم مليئة بالذهب وهم بخلاء يديرون الاقتصاد المصرى من تحت ستار عددهم كبير فى الوظائف وهم متعصبون ولديهم خطط بعيدة المدى لتغيير مصر وبناء الكنائس فى كل مكان فيها (وكثيرا ما كان شارع رمسيس بالقاهرة يعطى لنا كمثل لكثرة عدد الكنائس فى أهم شارع فى عاصمة أكبر دولة إسلامية) وبالتبشير بين المسلمين وبالتخطيط لمنع زيادة أعدادهم ولحجب العلاج عنهم أو لتعليم أبنائهم ولذا فهم يدخلون كليات الطب والصيدلة والتربية للاستيلاء على مهن التطبيب وبيع الدواء والتعليم .. ولا تختلف كثيراً صورة المسلمين عند الأقباط وإن كان الكلام هنا يتزايد عن الاضطهاد الذى يتعرضون له والخطط التى تعد لإفقارهم وإذلالهم ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية أو الحصول على الوظائف .. وسمعنا منهم من أكد لنا أنه جاءته من مصادر وثيقة أن الرئيس أنور السادات وعد فى إجتماع للمؤتمر الاسلامى عقد فى جدة فى سنة ١٩٦٥ بأن تتخلص مصر من أقباطها فى ظرف خمسين سنة إما بأسلمتهم أو بإجبارهم على الهجرة منها!!

الفتنة !

ولابد لى أن أنكر القارىء بأن الصورة التى رسمتها فى السطور السابقة عن الآخر الدينى هى الصورة التى خرجنا بها من مقابلاتنا مع من كانت لهم علاقة بالفتنة أو ممن كانوا يعيشون فى بؤر التوتر الطائفى - وهى فى الأغلب غير الصورة التى يرى بها المصريون عامة الآخر الدينى فمعظم الناس من لم يتعرضوا للمدرسة أو الجامعة التى وقعت فى قبضة المتطرفين الدينيين أو انضم لهم أو استمع لدروسهم يحمل تراثا عرقيا من التسامح وقبول الآخر واحترام الأديان السماوية وأماكن عبادتها والقائمين عليها - وقد قصدت من تسجيل ماسمعته فى ميدان العلاقات الطائفية تنبيه المسئولين عن التربية والتعليم والقائمين على مؤسسات المجتمع المدنى لمواجهة هذا الموقف الجديد قبل أن يستفحل خاصة وأنى لاحظت أن الكثير من التوجسات التى ذكرتها والتى تبدو سخيفة وبلا أساس كان لها صدى حتى وصل إلى آذان صانع القرار نفسه .. وهناك الكثير من القرارات التى اتخذت بسبب هذه التوجسات .. ففى سبعينات القرن العشرين أمرت مكاتب الشهر العقارى بضرورة وضع ديانة البائع والمشترى فى كل التسجيلات التى تتم فيها وبدا لى أن هذا أمر غريب إلا أنى سرعان ماعرفت أن صانع القرار قد توجس خيفة من أن يكون لدى الأقباط خطة لشراء جزء كبيرمن أراضى الصعيد تمهيداً لاعلان دولة مستقلة فيه (وقد ذكر الرئيس السادات فى إحدى خطبه بالبرلمان فى منتصف السبعينات موضوع هذه الدولة المستقلة)

ولذا فقد طلب من مكاتب الشهر العقارى تسجيل ديانة المشترين والبائعين حتى يمكن مراقبة هذه الخطة إن وجدت وبطبيعة الحال فقد كان الأمر كله كما دلت التسجيلات محض اختلاق من أوله إلى آخره .. وبالمثل فقد كان هدم الكنيسة الانجليزية على قمة شارع رمسيس (والتى أعيد بنائها فى شارع جانبى بالزمالك) وإعادة بناء جامع أولاد عنان عند تقاطع شارعى رمسيس والجمهورية ليكون أعلى مبنى فى مصر جزءاً من خطة لتغيير شكل شارع رمسيس الذى سمعنا خلال جولاتنا أنه لايصح أن يكون مليئا بالكنائس ومن الشارع الرئيسى لعاصمة أكبر دولة إسلامية .. وقد فاجئتنى كما فاجئت الدكتور العطيفى هذه الملاحظة والتى جاءت على لسان أكثر من شخص فقمت معه لنزور شارع رمسيس لنراه بأعين هؤلاء فوجدنا به بالفعل عدداً من الكنائس ولكنها كانت فى معظمها لغير الأقباط من أبناء مصر .. أما عن الكنيسة الأنجليزية التى كانت تقع عند قمة شارع رمسيس والتى هدمها فقد بنيت بناء على اتفاقية وقعتها الحكومة المصرية مع الحكومة البريطانية فى أوائل القرن العشرين منحت الحكومة المصرية بمقتضاها قطعة الأرض هذه لبناء كنيسة مقابل قطعة من الأرض منحتها الحكومة البريطانية لمصر فى لندن لبناء جامع عليها وهى الجامع الذى لازال قائماً فى مكانه حتى اليوم .

الأمر الثانى الذى يجعل تمكين البرلمان من أداء أعماله صعبا هو أنه يمثل جسما غريبا فى مجتمع لاتحكم أى جزء من العملية الديمقراطية .. فالمصرى لايمارس الحوار أو اختيار من يمثله على أى مستوى ومنذ مولده وحتى مماته .. فليس هناك فى تقاليدنا مايسمح للفتى أو الفتاة أن يناقشا أى شىء فى منزلهما الذى يقف فيه الأب سيدا كما أنه ليس من تقاليد مدارسنا أن نسمح لهم بذلك عند دخولهم الجامعات فاننا نحاصر التجربة حتى نجعلها مجدية - أما على المستوى البلدة أو الحى أو المحافظة فليست هناك مشاركة من أى نوع فى إدارة شئونها .. فالعمدة ورئيس المدينة أو الحى والمحافظ معينون والمجالس البلدية والمحلية تكاد أن تكون بالتعيين وبل أية سلطة أو تقاليد فى الحوار . ولذا فمن الصعب أن يتصور المرء أن يكون للبرلمان مكان فى مثل هذا المجتمع السلطوى الذى لا يتردد الفرد فيه على الحوار وممارسة حق الاختيار فالديمقراطية منظومة متكاملة يتعلم فيها المواطن الحوار والمشاركة فى إدارة شئونه فى المنزل والمدرسة والحى أو البلدة التى يعيش فيها.

المجلات النسائية في مصر

بقلم : د. ليلى عبدالمجيد

●● صحافة المرأة فى مصر مرآة عاكسة لنهضة المرأة المصرية على مدى ما يزيد عن قرن من الزمان منذ أن صدرت أول صحيفة نسائية فى مصر «الفتاة» عام ١٨٩٢ ، فقد ارتبطت فترات ازدهار هذه المجلات بالمد والجزر فى الاهتمام العام بمكانة المرأة وحصولها على حقوقها الإنسانية المشروعة.

ومن الملاحظ أن فترات ازدهار هذه الصحافة كما وتنوعا ارتبطت بصحوة المرأة المصرية فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين خاصة العقدين الأول والثانى منه، ثم عادت هذه الصحف لتنهض مرة أخرى فى منتصف القرن الذى يودعنا بعد قليل مع المد الثورى الذى شهده المجتمع المصرى، والذى امتدت آثاره لأوضاع المرأة المصرية وحصولها على حقوقها السياسية .

وفى عقد التسعينات عادت قضايا المرأة وتقييم أوضاعها فى كافة المجلات وما نالته من حقوق وتنميتها لتشغل حيزا رئيسيا فى أجندة المجتمع المصرى ●●

أستاذ ووكيل كلية الإعلام جامعة القاهرة

مجلة الفتاة
ودعوة إلى صحوة نسائية

عندما ظهرت مجلة «الفتاة» لهند نوفل كأول صحيفة نسائية عرفتها مصر عام ١٨٩٢ كانت المرأة المصرية تعيش في أسر الحريم تعاني من التخلف والجهل وتقاليد المجتمع القاسية، وكانت نسبة القارئات محدودة نظرا لقلة عدد المتعلمات، رغم وجود بعض المدارس القليلة لتعليم البنات - في ذلك الحين - ومنها مدرسة القابلات بأبي زعبل التي انشئت عام ١٨٩٣ كأول مدرسة للبنات بهدف تخريج قابلات لمعالجة النساء المصريات وتوليدهن بطريقة صحية، والتي لم تلق أي اقبال من البنات في البداية ، ثم مدرسة السيوفية التي أنشأتها جشم أمنت هانم أفندي زوجة الخديو إسماعيل عام ١٨٧٣، وان أغلقت أبوابها بعد عدة سنوات ، ثم اعيد فتحها عام ١٨٨١ تحت اسم المدرسة السنية ، إلى جانب بعض الكتاتيب .



ورغم ذلك لم يكن هناك وعي كاف بين الآباء بأهمية تعليم بناتهم بل اعتبر البعض ذلك عارا أو رجسا من عمل الشيطان .

وكان لازما على المرأة المصرية أن تنتظر سنوات حتى جاء قاسم أمين بدعوته التي أكد فيها أنه لا رجاء في نقل مصر إلى مصاف الدول الراقية والأمم المتحضرة إلا إذا تعلمت المرأة وكسرت أغلال الجهل ونبذت الخرافات وخلعت حجاب التأخر وشاركت الرجل المصري في صنع حضارته المرتقبة.



وبالطبع أثارت أفكاره الكثير من الجدل والخلاف بين مؤيديه والمعارضين له.

وكان المجتمع المصري في تلك الفترة يعج بخليط من الفئات والثقافات فكان هناك الاتراك والشراكسة والأجانب والشوام والأغلبية المصرية من الفلاحين وصغار التجار والصناع وصغار الموظفين وعلماء الدين (علماء الأزهر).



وفي حين كانت المرأة المصرية تحجب في بيتها عند بلوغها سن الثامنة لتتعلم المهارات التي تعدها لتكون زوجة كالطهي والخياطة وغير ذلك ، كانت المرأة الشامية - من بنات الأسر التي هاجرت لمصر هربا من التعنت في ظل الحكم التركي - متعلمة إذ كان آباؤهن يسمحون لهن بالذهاب لمدارس الارساليات التي لم يكن يوجد غيرها لتعليم الفتيات إلا المدرستان الحكوميتان وبعض الكتاتيب، ومدارس الجمعيات

القبطية، كما سبق الإشارة .

لهذا كان من الطبيعي أن تكون هند نوفل أول صاحبة مجلة نسائية في مصر فتاة لبنانية ، وأن يكون محررو مجلتها وكتابها من النساء المتعلمات اللاتى تعلمن فى مدارس الارساليات الأجنبية ومدرسة المولدات.

الدعوة إلى تعليم المرأة

وقد شهدت الفترة من عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩١٩ صدور العديد من المجلات النسائية التى اختلفت توجهاتها، ومن هذه المجلات «مرآة الحسناء» لصاحبها سليم سركيس وصدرت عام ١٨٩٦، وفى العام نفسه صدرت مجلة «الفردوس» و«أنيس الجليس» عام ١٨٩٨ و«العائلة» عام ١٨٩٩، و«السعادة» عام ١٩٠٢، «السيدات والبنات» لصاحبتها روز انطوان عام ١٩٠٣ ، «فتاة الشرق» للبيبة هاشم عام ١٩٠٦ ، جريدة «الريحانة» لجميلة حافظ عام ١٩٠٨، وفى العام نفسه صدرت مجلة «ترقية الفتاة» لفاطمة نعمت راشد ، وكذلك مجلة «الجنس اللطيف» فى عام ١٩٠٨ أيضا، ومجلة «العفاف» عام ١٩١٠ و«فتاة النيل» عام ١٩١٣.

ويمكن أن نجمل أهم الملاحظات التالية على المجلات النسائية في تلك الفترة :

١ - إن هذه المجلات ركزت اهتمامها على الأمور النسائية كالطهى والشئون المنزلية والأزياء ورعاية الأبناء ، وحاولت أن تعبر عن رأى المرأة فى وقت لم يكن متاحا للمرأة أن تعبر عن رأيها .

كما اهتمت بنشر الروايات والقصص المؤلفة والمترجمة عن الأدب العالمى

٢ - إن معظم هذه المجلات ركزت على الدعوة إلى ضرورة تعليم المرأة.

٣ - إن بعض هذه المجلات اعتمدت على المواد المترجمة من المجلات النسائية العالمية الإنجليزية والأمريكية والفرنسية ، وكذلك الكتب ، وكان هذا أمرا طبيعيا نظرا لقلة عدد الكتاب والمحررين في هذه المجلات ، كما أن بعضها استهدف تقديم نموذج المرأة الأوروبية ومن ذلك مجلة «السيدات والبنات» التى كانت تهتم بتقديم ترجمات لحياة نساء شهيرات فى العالم، ومجلة «فتاة الشرق» التى كانت أغلب موضوعاتها مترجمة عن الإنتاج الفرنسى.

ونقلت بعض هذه المجلات أغلب ما نشرته من موضوعات عن الصحف اليومية المصرية مثل مجلة «الجنس اللطيف» .

٤ - إن بعض هذه المجلات أصدرها رجال ، وإن استخدموا أسماء النساء فى الكتابة على صفحاتها مثل سليم سركيس الذى أصدر «مرآة الحسناء» وكان يستخدم اسم فتاة هى مريم زهر.

٥ - إن أغلب هذه المجلات شهرية ، وإن صدرت بعضها نصف شهرية مثل «مرآة الحسناء» ، جريدة «الريحانة» التى صدرت بحلوان .

٦ - إن بعضها صدر من خارج القاهرة ، بل أن أول مجلة وهي «الفتاة» صدرت من الاسكندرية ، وكذلك «السيدات والبنات» ، وأن «الريحانة» صدرت من إحدى ضواحي القاهرة وحلوان .

٧ - إن أول مجلة نسائية أصدرتها مصرية هي «الريحانة» عام ١٩٠٨ و«ترقية الفتاة» لفاطمة نعمت راشد في العام نفسه وقبل ذلك كانت هذه المجلات تصدرها شاميات فقط.

٨ - إن معظم هذه المجلات لم تستمر في الصدور طويلا، وذلك لقلة عدد قرائها وقارئاتها لانتشار الأمية بين المصريات ، وأيضا لصعوبة الاستمرار في إيجاد مصدر لتمويل عملية إصدارها .

وتوقفت بعض هذه المجلات عندما تزوجت صاحبتها مثل «الفتاة» لهند نوفل التي تعتبر رائدة المجلات النسائية في مصر، وهذا يعكس رؤية هذا العصر لعمل المرأة بعامة وعملها في الصحافة بخاصة على أنه مسألة مؤقتة وليس له أهمية الحياة الزوجية نفسها.

المجلات النسائية
والمشاركة السياسية للمرأة

مع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين كانت الصورة قد تغيرت إلى حد ما، وانتشر تعليم المرأة ، فضلا عن خروجها للحياة العامة واشتراكها في المظاهرات لأول مرة في مارس عام ١٩١٩ احتجاجا على نفي سعد زغلول ورفاقه ، ومكافحة من أجل استقلال الوطن واجلاء المحتل، مضحية بدمائها وروحها مثلها مثل الرجل وسقطت أول شهيدة من النساء وهي شفيقة محمد .

كما خلعت المرأة الحجاب واعلنت عن سفورها، وسافرت وفود نسائية مصرية لحضور بعض المؤتمرات النسائية في الخارج مثل مؤتمر روما النسائي عام ١٩٢٣ ، إلى جانب تأسيس جمعية الاتحاد النسائي المصري.

ويمكن أن نقسم المجلات النسائية في تلك المرحلة إلى :

١ - مجلات كانت تصدر قبل عام ١٩١٩ واستمرت في الصدور مثل مجلة «فتاة الشرق» والتي استمرت حتى عام ١٩٣٩ ، ومجلة «الجنس اللطيف» وظلت تصدر حتى عام ١٩٢١ ، وكذلك «العفاف» وظلت تصدر حتى العام نفسه.

٢ - مجلات كانت تصدر قبل عام ١٩١٩ وتوقفت ثم عادت للصدور في فترة تالية مثل «السيدات والبنات» التي عادت لتصدر من جديد عام ١٩٢١ باسم «السيدات والرجال».

٣ - مجلات جديدة صدرت بعد عام ١٩١٩ ومنها مجلة «المرأة المصرية» لصاحبتها بلسم عبد الملك، مجلة «الأمل» وصدرت عام ١٩٢٥ لمنيرة ثابت ، مجلة «أمهات المستقبل» لتفيدة علام ، وبدأت تصدر منذ عام ١٩٣٠ ، مجلة «فتاة مصر» في العام نفسه

لصاحبتها هانم عسقلانى مجلة «المصرية» لهدى شعراوى عام ١٩٣٧ ، ومجلة «الفتاة» لنبوية موسى فى العام نفسه ، الضياء لصاحبتها منيرة رزق برسوم عام ١٩٢٢ ، وان توقفت فى العام نفسه ، مجلة «شجرة الدر» لصاحبتها منيرة منصور وصدرت عام ١٩٢٢ أيضاً، ومجلة «العروسة» لاسكندر مكاريوس وصدرت عام ١٩٢٥ ، و«النهضة النسائية» لصاحبتها لبيبة أحمد وصدرت عام ١٩٢١ ، ومجلة «الطالبة» عام ١٩٣٨ .

ومن الامور الجديرة بالملاحظة حول المجلات فى تلك الفترة الممتدة حتى قيام الحرب العالمية الثانية :

١ – التنوع الكبير فى مضمون هذه المجلات ، وامتد اهتمامها لموضوعات لم تكن المجلات النسائية تهتم بها من قبل ، وهو أمر طبيعى مع تطور أوضاع المرأة ومكانتها التى كان على هذه المجلات أن تعكسها ومن ذلك .

– تناول موضوعات خاصة بمشاركة المرأة فى الحياة العامة والسياسية وما ترتب على ذلك من انعكاسات على حياة المرأة ثقافيا واجتماعياً واقتصادياً.

– بعض المسائل الاجتماعية التى كانت مثارة فى ذلك الحين – كخروج المرأة للعمل بعد حصولها على قدر من التعليم ، ومحاربة بعض العادات الاجتماعية المتخلفة والخرافات كالزار والمبالغة فى الافراح والمآتم.

– التركيز على قضايا التعليم وقوانينه خاصة فى مجلة «الفتاة» لنبوية موسى التى هاجمت بعض سياسات وزارة المعارف وقتها الخاصة بالتعليم الحر، كذلك قضية استبدال المعلمات والناظرات الوطنيات بالاجانب فى مدارس البنات، وشاركت فى هذه الحملة أيضاً مجلة « المصرية » لصاحبتها بلسم عبد الملك.

وخاضت مجلة «الامل» معركة زواج المعلمات والاستغناء عنهن بمجرد زواجهن مما دفع وزارة المعارف لاصدار قانون يبيح للمعلمة الزواج واستمرارها فى العمل ، كما دافعت عن نبوية موسى فى معركتها ضد وزير المعارف.

– التعبير عن كفاح المرأة ، وتكوين رأى عام نسائى، والدفاع عن الحقوق الاجتماعية للمرأة فى الخارج وغير ذلك.

– الاهتمام من جانب بعض المجلات بتبسيط العلوم مثلما كانت تفعل لبيبة هاشم فى مجلتها «فتاة الشرق».

– تناول قضايا السفور بعد أن خلعت المرأة الحجاب.

– التأريخ للمجتمعات النسائية التى بدأت تظهر لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث، مسجلة نشاط المرأة الاجتماعى والسياسى.

كما عرضت بعض هذه المجلات لتاريخ الحركات النسوية السياسية فى العالم.

– إلى جانب الاهتمامات التقليدية الخاصة بشئون المنزل وتربية الابناء والعلاقات الزوجية وأمور التجميل والأزياء، ومشاكل الفتاة المراهقة.

٢ – بدأت المجلات النسائية في تلك المرحلة تولى اهتماما للحياة والقضايا العامة وليس فقط الشئون النسائية التقليدية ، ليس فقط في مصر بل وفي الوطن العربي أيضاً بعد أن ظلت الصحافة النسائية منعزلة تماماً عن الحياة السياسية في البلاد في العقدين الأولين من القرن العشرين رغم الأحداث الكبيرة التي ارتبطت بكفاح الشعب المصري ضد الإحتلال مثل حادث دنشواي، اعلان الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤، نشوب ثورة ١٩١٩ وقيام السيدات بمظاهرتهن الأولى في ١٦ مارس ١٩١٩ والثانية في ٢٠ مارس من العام نفسه .

وقد ارتبط هذا التوجه الجديد بصدور مجلة «المرأة المصرية» عام ١٩٢٠ والتي اهتمت بالاحداث السياسية التي مرت بحياة المرأة كعودة سعد زغلول وزوجه من الخارج والاستقبال الشعبي لهما ، واستمرت عدة مجلات في الاتجاه نفسه مثل مجلة «الفتاة» لنبوية موسى، ومجلة «الأمل» لمنيرة ثابت.

وامتد اهتمام بعض هذه المجلات للقضايا العربية مثل قضية فلسطين وهجرة اليهود إلى فلسطين والمطالبة بالوحدة العربية ، والحديث عن واجبات المرأة في ساحة الحرب بعد قيام الحرب العالمية الثانية .

وقد جعلت مجلة «الامل» بالذات السياسة هدفا من أهدافها إذ أكدت على السعي بالطرق المشروعة للحصول على الاستقلال التام لوادي النيل طبقاً لبرنامج الوفد ، واهتمت مجلة «المصرية» لهدى شعراوي بما يدور في البرلمان من أمور تهم المرأة مثل التعليم التجاري للبنات وأيضاً اهتمت بقضية فلسطين، والحرب العالمية الثانية .

ومن اللافت للنظر أنه في الوقت نفسه عابت تفيدة علام في مجلتها «أمهات المستقبل» على هدى شعراوي اشتراكها في السياسة واعتبرته عيباً لا مبرر له.

٣ – تنوعت صيغ واهتمامات المجلات النسائية التي صدرت في تلك المرحلة بين مجلات اهتمت بالشئون السياسية كالأمل والفتاة والمصرية بل وارتبط بعضها بالأحزاب السياسية مثل الأمل التي أسسها الوفد لتناصر آرائه ، وكانت مجلة «النهضة النسائية» من أنصار الاخوان المسلمين ، وطالبت نبوية موسى باتحاد كل الأحزاب من أجل مصلحة الأمة.

إلى جانب مجلات نسائية ركزت على الاهتمام الأدبي كفتاة الشرق والنهضة النسائية والمرأة المصرية والجنس اللطيف، والسيدات والرجال ، ومجلات ركزت على شئون المجتمع مثل مجلة «العروسة» وكانت تهدف إلى الربح من خلال التركيز على نشر صور الممثلات وملكات الجمال والرقص في مسارح العالم ومغامرات ملوك أوروبا وامرائها.

كما غيرت مجلة «فتاة الشرق» أسلوبها وأصبحت تميل إلى الإثارة منذ أواخر عام ١٩٣٩ حينما تولى الاشراف عليها ميشيل طمان وذلك بتركيزها على موضوعات الصالونات والأمريكيات الحسناوات.

وعبرت بعض المجلات عن جمعيات نسائية مثل «ترقية الفتاة» ، «النهضة النسائية»، « أمهات المستقبل » ، «المصرية».

٤ – كانت المجلات النسائية فى تلك الفترة هى صحف رأى بالدرجة الأولى دافعت عن حقوق المرأة فى التعليم والعمل والسفور ، والمطالبة بتحديد حد أدنى لسن الزواج وتقييد الطلاق وتعدد الزوجات، وإن كان هذا لم يمنع من أن بعض هذه الصحف طالبت ببقاء المرأة فى منزلها فهو مكانها الطبيعى فى رأى هذه المجلات.

٥ – استمرار الاتجاه الخاص بقيام بعض الرجال باصدار مجلات نسائية مثل «المرأة الحديدية» لصاحبها عبد الوهاب العبدى، «العروسة» لاسكندر مكاريوس.

٦ – كانت نسبة كبيرة من صاحبات هذه المجلات من المدرسات اللاتى كن يعتبرن الصحافة مدرسة تساهم فى تعليم المرأة وتثقيفها ومن هؤلاء روز حداد وبلسم عبد الملك وملك سعد وتفيدة علام ونبوية موسى.

٧ – كانت أغلب المجلات النسائية التى ظهرت فى تلك المرحلة اسبوعية مثل العروسة ، العفاف ، الضياء ، الفتاة لنبوية موسى شجرة الدر لمنيرة محمد منصور.

وإن كان بعضها قد صدر نصف شهرى مثل «المصرية» لهدى شعراوى «فتاة مصر» لصاحبتها هانم عسقلان، وبعضها شهرى مثل النهضة النسائية لصاحبتها لبيبة أحمد.

٨ – كانت أهم الأسباب التى أدت إلى توقف هذه المجلات هى الأزمات المالية ، وزواج صاحباتها توقف « الامل » بعد زواج صاحبتها من عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ ، قلة الاشتراكات فى الوقت الذى اقتصر فيه توزيع بعضها على هذه الاشتراكات ، انتشار الأمية بين النساء.

ومن الملاحظ أن بعض هذه المجلات استمرت فى الصدور لسنوات طويلة ، فلبيبة هاشم استطاعت أن تستمر فى إصدار مجلتها «فتاة الشرق» ٢٤ سنة متواصلة ، وبلسم عبد الملك ظلت تصدر مجلتها «المرأة المصرية» ١٩ سنة ، وظلت لبيبة أحمد تصدر مجلتها «النهضة النسائية لمدة ١٨ سنة.

٩ – واجهت هذه المجلات صعوبات فى تحريرها واخراجها مثل فتاة مصر ، الضياء، شجرة الدر، أمهات المستقبل.

١٠ – صدرت فى تلك الفترة جريدة يومية نسائية هى الجهاد عام ١٩٢٤ غير أنه صدر منها عدد واحد ثم توقفت، وتعد بذلك أول جريدة يومية نسائية وآخر جريدة حتى الآن.

ومع قيام الحرب العالمية الثانية تأثر المجتمع المصرى كله بظروف الحرب اقتصاديا واجتماعياً، وتأثرت الصحف ومن بينها المجلات النسائية وقد استمرت بعض المجلات فى الصدور خلال المرحلة من عام ١٩٣٩ حتى ١٩٥٢ ، ومنها مجلة «المصرى» والتى توقفت عن الصدور عام ١٩٤٠، ومجلة «الفتاة» لنبوية موسى التى ظلت تصدر حتى عام ١٩٤٣.

موجة جزر في تاريخ المجلات النسائية

وشهدت تلك الفترة صدور عدد محدود من المجلات النسائية وهي مجلة «شيك» لفاطمة راشد عام ١٩٤١ «وفتاة الغد» عام ١٩٤٥ لفاطمة راشد أيضاً مجلة «بنت النيل» التي صدرت عام ١٩٤٥ لصاحبتها د. درية شفيق ، ومجلة «السيدات المسلمات» وأصدرتها زينب الغزالي عام ١٩٥١.

وأهم مايمكن ملاحظته علي المجلات النسائية في تلك المرحلة :

١ - قلة عدد المجلات النسائية التي صدرت خلال تلك المرحلة الممتدة من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٥٢ إذ لم تزد على أربع صحف ، إلى جانب مجلتين كانتا تصدران من قبل واستمرتا في الصدور.

٢ - استمرت هذه المجلات تعالج الموضوعات نفسها ، فركزت مجلة «المصرية» ومجلة «الفتاة» على القضايا الاجتماعية والسياسية وقضايا تحرير المرأة واستهدفت «فتاة الغد» مساعدة المرأة على أن تكون زوجة صالحة عالمة بالشئون النسوية وتربية الأطفال، وان تتعلم لكن يمكنها أن تعول اسرتها بعد وفاة زوجها إلى جانب الاهتمام بالموضة والأزياء والتجميل وشئون المنزل، وصدرت مجلة «بنت النيل» كلسان حال اتحاد بنت النيل بهدف انعاش الحركة النسائية وترقية المرأة المصرية ماديا ومعنويا من خلال نقل الثقافة المنزلية الأوربية لتمكنها من الارتقاء بالمنزل المصري ودافعت المجلة عن حقوق المرأة السياسية وطالبت باصدار التشريعات التي تكفل ذلك.

وكان لمجلة «السيدات المسلمات» توجهاتها الاسلامية واهتمت بشئون المرأة المسلمة.

٣ - شهدت تلك الفترة تحسنا ملموساً في الأساليب الانتاجية للمجلات النسائية خاصة في مستوى طباعاتها .

مجلة حواء والمرأة الجديدة بعد ثورة يوليو

وتأتي ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وحتى منتصف السبعينات لتحدث تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية في المجتمع المصري ككل.

وقد انعكست هذه الأوضاع على المرأة المصرية ، التي اهتمت بها حكومة الثورة وأدى ذلك إلى حصولها على حقوقها السياسية بموجب دستور عام ١٩٥٦.

وفي سبتمبر عام ١٩٦٢ اختيرت الدكتورة حكمت أبو زيد لتصبح أول وزيرة مصرية.

وكان من الطبيعي أن تعكس المجلات النسائية هذه التغيرات والتطورات على أوضاع المرأة ومكانتها في المجتمع وتأثيرات ذلك على الأسرة المصرية، من هنا صدرت مجلة «حواء» عام ١٩٥٥ ومازالت تصدر حتى الآن وهي تعد بذلك أطول المجلات النسائية عمراً في تاريخ الصحافة المصرية مستهدفة مخاطبة المرأة والرجل معا باعتبار أن الحياة

شركة بينهما بفكر جديد يحاول أن يغطى الاهتمامات المتعددة للمرأة المصرية الجديدة إذ اهتمت المجلة بتغطية اهتماماتها التقليدية كأنثى وامرأة كالموضة والجمال ، واهتماماتها كزوجة وأم مسئولة عن شئون منزلها من طهى وديكور ورعاية الابناء والعلاقات الزوجية .

وقدمت المجلة النماذج النسائية البارزة والموضوعات الاجتماعية والنفسية والعاطفية .

وكان أهم مايميز مجلة حواء التى أطلق عليها فى البداية «حواء الجديدة»:

١ - أنها صدرت فى البداية شهرية ثم تحولت إلى مجلة اسبوعية منذ إبريل ١٩٥٧.

٢ - أن دار الهلال أوكلت مهمة رئاسة تحريرها لأمينة السعيد وكانت بذلك أول سيدة فى تاريخ المجلات النسائية ترأس مجلة لاتملكها.

٣ - انها جاءت متطورة من ناحية الفن الصحفى وأسلوب إخراجها وطباعتها فنوعت فى الفنون الصحفية التى استخدمتها بين الموضوع الصحفى والمقال والقصة القصيرة والاقصوصة والفنون الاخبارية والندوة وعروض الكتب والفنون الصحفية التى تقدم مواد الخدمات كتقديم تجارى لست البيت وطريقة عمل بعض الأكلات ، كما اهتمت بمساهمة القارئات والقراء من خلال أبواب بريد القراء بها.

واهتمت بأسلوب إخراجها فاستعانت بالرسوم التعبيرية واستخدمت الألوان فى تلوين بعض الأزياء والاطباق التى تقدمها على صفحاتها.

وإن مرت المجلة بمراحل عدة شهدت كل منها تغيرات فى حجم الاهتمام بنوعيات المضمون المختلفة التى تلبى الاحتياجات المتعددة للمرأة المصرية ، وكذلك فى شكلها وإخراجها وطباعتها .

وظهرت فى تلك المرحلة أيضاً بعض المجلات النسائية التى لم تستمر فى الصدور طويلاً ، إذ صدرت مجلة «فتيات مصر» شهرية عام ١٩٥٦ كلسان حال لاتحاد فتيات مصر وتوقفت عن الصدور عام ١٩٥٧.

كما أصدرت دار أخبار اليوم مجلة «هى» عام ١٩٦٤ واستمرت فى الصدور عدة خمسة شهور فقط، معتمدة بشكل أساسى على المواد المترجمة عن المرأة فى الخارج ، مركزة على الاهتمام بالأزياء والموضوعات الفنية وعلاقة عمل المرأة بجمالها ورشاقتها وملابس بنت ١٦ سنة وماتحبه من أغنيات .

وظلت مجلة «حواء» وحدها ولمدة ٣٥ سنة حتى أوائل التسعينيات تتحمل مسئولية مخاطبة المرأة المصرية ومناقشة قضاياها ومشكلاتها فى ظل التغيرات التى شهدتها مصر وخاصة منذ منتصف السبعينات من الاتجاه نحو الانفتاح الاقتصادى وتطوره لسياسة السوق والخصخصة والاقتصاد الحر، والعودة مرة أخرى إلى التعدد الحزبى، وآثار ذلك على الأوضاع الاجتماعية للمجتمع المصرى.

والحقيقة أن واقع المرأة المصرية وقضاياها قد عاد ليطرح نفسه وبالحاح فى العقدين الأخيرين سعيا لمراجعة هذه الأوضاع وتطويرها حتى تحتل المرأة مكانتها اللائقة وتحصل على كافة حقوقها الاجتماعية والسياسية ، إلى جانب التصدى للعقبات التى مازالت تحول دون انطلاقها بكامل قدراتها المشاركة فى تنمية مجتمعها.

وقد ظهرت مجلة «نصف الدنيا» عن مؤسسة الأهرام فى فبراير ١٩٩٠ كمجلة أسبوعية ترأس تحريرها سناء البيسى محاولة أن تقدم نموذجا مختلفا للمجلات النسائية التى تجمع بين الموضوعات التى تركز على اهتمامات المرأة المختلفة وبين الموضوعات الاجتماعية العامة.

كما ظهرت مجلتان توقفتا بعد فترة وهما مجلة «نون» فصلية صدرت عام ١٩٨٩ عن جمعية تضامن المرأة العربية ورأست تحريرها نوال السعداوى وتوقفت عام ١٩٩٠ ، وإن طرحت المجلة نفسها كمجلة نسائية مختلفة تخاطب المرأة كانسان وعقل وليس كأداة جنس واستهلاك ..

وصدرت مجلة ذات توجه اسلامى هى (هاجر) كملحق شهرى لمجلة المختار الاسلامى لمواجهة ما أسمته الدوائر الاستعمارية والغربية على المرأة المسلمة لتدمير المجتمع الاسلامى ، ولكنها توقفت بعد عامين فقط لضعف امكانياتها المادية.

ومن الملاحظات العامة على ما تقدمه المجلات النسائية الآن:

١ - إن الموضوعات الخاصة بالاهتمامات التقليدية للمرأة كالموضة والطهى والتجميل وشئون المنزل تشغل حيزا كبيراً من اهتمامها كما تهتم هذه المعلومات - وإن كان ذلك بدرجة أقل نسبيا - بالموضوعات الخاصة بالمرأة والأسرة كتربية الابناء ورعايتهم صحيا ونفسيا واجتماعياً وتعليمياً وثقافياً ، والعلاقات الزوجية.

وتأتى الموضوعات المتعلقة بقضايا المرأة المصرية والتنمية فى ذيل قائمة اهتمامات هذه المجلات ، فلم تنل بعد الاهتمام الواجب بالقدر اللازم كمحو أمية المرأة وتعليمها والمشكلات المتجددة للمرأة العاملة والجمعيات والمنظمات النسائية والمشاركة السياسية للمرأة ومعوقات مشاركتها فى الانتاج .

٢ - إن هذه المجلات مازالت لا تعطى الاهتمام الواجب لبعض الفئات مثل المرأة الريفية ، والمرأة فى العشوائيات بخصوصية مشاكلها وواقعها والفتاة المراهقة ، والمرأة بعد سن الانجاب.

والواقع أن المجلات النسائية الحالية عليها عبء كبير ونحن نستقبل قرنا جديداً ونودع قرنا شهد تصاعداً وهبوطا فى حركة تغيير واقع المرأة المصرية .. ونخشى أن نقول أن كثيراً مما كان مطروحا على اجندة المجلات النسائية التى صدرت فى أوائل القرن تعود لتطرح نفسها مرة أخرى على اجندة المجلات النسائية التى تصدر ونحن نستعد لاستقبال الألفية الثالثة.

صحيح أن الصورة مختلفة كثيراً والمرأة المصرية تغيرت - بما لايمكن أن يكون محلا للمقارنة مع ما كانت عليه جداتنا فى أوائل القرن ، ولكن فى الوقت نفسه التحديات التى تواجه مجتمعنا والمرأة المصرية الآن أكبر بكثير من التحديات التى واجهته فى أوائل القرن ، ومهمة هذه المجلات بالتأكيد عسيرة ولكنها ليست أيضاً مستحيلة.

”

هذا كتاب أصدره معهد هدسون الأمريكى ، ويتناول الرؤية الأمريكية لهذا المستقبل، كما يهدف إلى التأثير على دول العالم الثالث لكى تسير على خطى الولايات المتحدة فى القرن المقبل.

“

العالم بعد مائتى عام

بقلم

د. صلاح عبداللطيف



لم تبدأ اهتمامات واستعدادات الباحثين بالألفية الثالثة في يوم وليلة أو في عام أو عامين وانما اهتمت مراكز البحث في العالم بهذه المناسبة منذ الربع الأخير من القرن العشرين . ومن هذه المراكز معهد «هدسون» الأمريكي للأبحاث على يد «هرمان كان» و«انطوني فينر» وغيرهما من مديري شركة «راندكور بوريشن» الأمريكية . وخلال الحرب العالمية الثانية انتجت هذه الشركة جهازا خاصا للبحث العلمي يهدف إلى تكامل العوامل الممكنة للقرار الاستراتيجي حتى يتيسر بذلك الكشف عن مختلف الاختيارات المتاحة أمام صانع القرار . وقامت هذه الشركة بأبحاث في تحديد الاختيارات النووية للولايات المتحدة وفي التنافس السلمي النووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي السابق.

وفي عام ١٩٧٦ أصدر المركز دراسة علمية بعنوان : «العالم بعد مائتي عام» تناولت الثورة العلمية والتكنولوچية خلال القرنين القادمين وترجمها للغة العربية الباحث «شوقي جلال» .

وإذا كان الكتاب كما يقول المترجم يعبر عن رؤية أمريكية خالصة أو رؤية قطاع أمريكي له وضع إقتصادي متميز وأبعاد سياسية واجتماعية وفكرية متسقة معه إلا أنه يحمل رؤية مستقبلية في مجال العلم والتكنولوچيا من شأنها أن تترك آثارها على التطورات المتدافعة التي يحتاج العالم والتقدم العلمي والتكنولوچي الذي لا يمكن اغفاله بل يقتضي منا أن نبذل كل جهد للحاق به خاصة أن علماءنا في الخارج أثبتوا قدرتهم على مواكبة هذه الثورة وحمل رايتها أمام العالم د. أحمد زويل الذي تحتفل به مصر الآن بمناسبة حصوله على جائزة نوبل لعام ١٩٩٩ في الكيمياء .. كذلك لم يغفل البحث دول العالم الثالث ودورها في التنمية والتقدم .

مجتمع مابعد الصناعة

يعتبر الكتاب أن مطلع النصف الثاني من القرن العشرين أو مع نهاية الحرب العالمية الثانية بداية حقبة تاريخية جديدة في تطور الحضارة البشرية، واختار لها الكتاب اسم «مجتمع مابعد الصناعة» أو «مجتمع الصناعة العملاقة» .. وهي تعبر عن تحولٌ جذري في قوى الانتاج على أساس تحول العلم إلى عامل رئيسي في

السلوك الاجتماعي وتحول شامل لجموع قوى الانتاج .. ومن أهم خصائص هذه المرحلة التلاحم بين العلم وبين الصناعة ، وبات التقدم العلمي والتكنولوجي في سرعته المؤهلة قانونا موضوعيا يحكم حركة المجتمعات في نموها وتطورها وعلاقاتها الدولية .

ويرى الباحث «شوقي جلال» أن من أخطر نتائج هذه الثورة أنها خلقت هوة تكنولوجية وإدارية تفصل الدول المتقدمة بعضها عن بعض حتى بعدت الشقة بين بعض دول غرب أوربا مثل فرنسا وبريطانيا وبين الولايات المتحدة، وباتت هذه الهوة تشكل تهديدا خطيرا لرواد عصر الثورة الصناعية الأولى في أوربا ، ويضرب مثالا على ذلك ما حذر منه رئيس وزراء بريطانيا الأسبق «هارولد ويلسون» من استعباد صناعي جديد تكون فيه أوربا تابعة للولايات المتحدة في كل ما يختص بالتكنولوجيا المتقدمة .. ولعل هذا ما حدا بالسيد «روبرت ماكنمارا» وزير الدفاع الأمريكي الأسبق إلى القول «إذا لم تقم أمم العالم الغنية بمجهود مكثف ومنسق يهدف سد الهوة التي تتسع بين نصفي الكوكب فلن يتمكن أحد من أن يضمن أمن بلده أمام الكوارث التي لا سبيل إلى تلافيها وأمام موجات العنف التي ستودي بدفاعنا» .

وهكذا جاءت الخمسينات والستينيات من هذا القرن الذي يستعد الآن للرحيل تحمل تباشير الأمل في حياة رغدة وانتصار مؤزر على الطبيعة وفهم كامل لقوانينها في ضوء الثورة العلمية والتكنولوجية بينما حملت السبعينات من هذا القرن نذر التشاؤم وازدادت حالة الخوف والقلق على المستقبل خاصة أن السبعينات كشفت عن أزمات عدة في الاقتصاد والطاقة والسكان مع تباطؤ في النمو الاقتصادي وأزمات اجتماعية ومعنوية ممثلة في حركات تمرد الشباب الذي أصبح يفتقر إلى رؤية فلسفية لمستقبله .

ثورة علمية وتكنولوجية

وإزاء هذه المخاطر بدأت موجة جديدة من الاهتمام باستشراف المستقبل والتركيز على الثورة العلمية والتكنولوجية لمواجهة هذه المخاطر ، وأصبح العمل يتركز على الحاسبات الالكترونية والمناهج

الرياضية الاقتصادية والارتقاء بمعدل التنمية لتتواكب مع الظروف السكانية والتركيز كذلك على أهمية المعلومات والوسائل العلمية والتكنولوجية لمعالجتها. وتشكل لأول مرة «نادى روما» كمنظمة إعلامية هدفها توفير مهم للعناصر المتباينة والمتكاملة من اقتصاد وسياسة وطبيعة واجتماع . وقدم «نادي روما» «مشروع مستقبل الإنسان» الذى يعالج المشكلات السكانية ، وتدهور البيئة مع التقدم التكنولوجي والأزمات الاقتصادية ونقص الموارد واغتراب الشباب ورفض القيم التقليدية .

ويتميز الكتاب الحالى عن غيره من حيث البعد الزمنى لاستشراف المستقبل حيث يمد الرؤية المستقبلية إلى مائتى عام قادمة ويعالج قضية النمو السكانى والتنمية والطاقة والمواد الخام والطعام والبيئة . ويذهب الكتاب أو معهد هدسون الأمريكى إلى أن هناك حلولا لكل هذه المشكلات بعكس الدراسات الأخرى التى تبدى كثيرا من التشاؤم وتحذر من كوارث تهدد البشرية .

ولا يخفى الكتاب نظرته الاستعمارية حيث يكرر فى مواضع عديدة خوفه من تكاتف دول العالم الثالث الغنية بمصادر الثروة الطبيعية من طاقة ومواد خام وتفرض أسعارا مرتفعة .



د. أحمد زويل

رؤية أمريكية نحو العالم الثالث

ويعرض الكتاب سيناريو للعالم على مدى المائتى عام القادمة مؤكدا أن الثورة العلمية والتكنولوجية والتى تملك أسبابها الدول الغنية وعلى رأسها الولايات المتحدة قادرة على حل المشكلات التى تواجه العالم .

ويطرح الكتاب نظرة متفائلة تؤكد أن النمو سيستمر لأجيال عديدة وأن المشكلات المثارة ستجد حلا بفضل اتباع سياسة حكيمة مع التقدم العلمى والتكنولوجي فهناك وفرة فى المواد الخام

للأجيال الحالية والمقبلة على السواء ، والعلم والتكنولوجيا كفيلان بتوفير البدائل وتوفير الطعام الطبيعي والصناعي لكل فم.

ويشير الكتاب بأن أمام دول العالم الثالث فرصة للتنمية ويحذر من أسلوب الدول المتقدمة الذى قد يعوق التنمية ويعكس حركة التقدم ، ولعل هذا التحذير يكشف الصراع الخفى بين الولايات المتحدة والدول الأوربية فى التوجه نحو المستقبل ومحاولة الاحتماء بدول العالم الثالث .

ويرى الكتاب أن أمام الدول النامية سبلا للتقدم ويرفض أن يحاكوا النموذج الأوربى وعليهم أن يبحثوا عن وسائل أخرى وأن العبرة ليست بحيازة التكنولوجيا بل القدرة على تشغيلها وتطويرها وملاءمتها للواقع الجديد .

ويثير الكتاب موضوعا قد يغرى دول العالم الثالث ، فهو يدعو الى الاستعانة بالقوى العاملة من دول العالم الثالث للعمل فى المهن الدنيا التى يرفضها ابناء العالم المتقدم ويقول بالنص «سوف يكون من الأفضل تنظيم حركة متسقة لهجرة العمالة المؤقتة فضلا عن ربطها بنوع من التعليم والتدريب ويتم عن هذا الطريق تصدير العمال من العالم الثالث إلى البلدان المتقدمة حيث يقيمون لفترات ثم يعودون بعدها إلى وطنهم وقد تزودوا بالمهارة ورأس المال» .. وفى الوقت نفسه ينظر الكتاب إلى العالم الثالث نظرة التاجر حين يتعامل مع سلعة لازمة له وتفى ببعض حاجته ويقول عن الشرق الأوسط على سبيل المثال: «هناك حوالى تريليون برميل من البترول الخام تحت رمال ومياه الشرق الأوسط وهو ما يساوى ١٢ تريليون دولار أو ما يعادل ضعف اجمالى الثروة الحقيقية للولايات المتحدة ، ويضع فى ثناياه عينيه على هذه الثروة .. وهو أيضا يشكل وصاية على دول العالم الثالث ولا يترك أن ترسم استراتيجيتها التنموية وتحدد ظروفها وطموحاتها ويقول «ليس من مصلحة الولايات المتحدة أن تصدر ٩٠ بالمائة من انتاج صناعتها من الصلب والسيارات دون أن تضمن التحكم فيها لعشرات السنين فى المستقبل» .

ويرفض الكتاب مبدأ التكامل بين دول العالم لرفع عجلة التنمية وتوفير الطعام

وذلك كما يقول «حتى لا تكون الولايات المتحدة رهينة وحتى إذا ما سقطت الهند لا تسقط معها الولايات المتحدة» .

ويرى أن مشكلة نقل التكنولوجيا إلى العالم الثالث لن تحل المشكلة لأن التكنولوجيا هى ثمرة عملية تطورية تاريخية لحضارة مجتمع بذاته وتحمل قيمه .. وبالتالى فإن عملية نقل التكنولوجيا أصبحت تشكل تهديدا خطيرا لدول العالم الثالث ويتمثل هذا التهديد فيما اصطلح على تسميته بالشركات المتعددة الجنسية العملاقة ، خاصة أن الجانب الأكبر من البحوث العلمية والصناعية فى العالم يجرى الآن داخل هذه الشركات ، ومالم تبحث دول العالم الثالث عن آلية موحدة فى مجال البحث العلمى والتكنولوجيا فإنها ستظل معتمدة على هذه الشركات العملاقة .

مشكلات اجتماعية وثقافية ونفسية

ويركز الكتاب فى فصوله السبعة على أن مشكلات المستقبل ستنصب على مشكلات اجتماعية وثقافية ونفسية .

ويبقى السؤال أين نحن من المستقبل؟.. يرى الكتاب أن الهوة الفاصلة بين العالم المتقدم وبين العالم المتخلف ستظل قرونا حيث ترهق المجتمع مظاهر التفاوت بين الثراء الفاحش والاشباع والتخمة فى العالم المتقدم وبين الفقر المدقع والجوع والحاجة فى العام المتخلف .. وفى مجال آخر يرى الكتاب أن دول الخليج أو الدول البترولية ستتدرج ضمن عالم بالغ التقدم يضم أمريكا واليابان .. وفى مجال ثالث يقسم الكتاب العالم إلى أربع فئات اقتصادية بناء على حالتها الراهنة من التقدم والدخل ، وتخرج الدول العربية من الفئتين الأولى والثانية وتدخل الدول البترولية ضمن الفئة الثالثة التى يزيد دخل الفرد فيها على ٤٠٠ دولار فى السنة وتدخل الدول العربية غير البترولية ضمن الفئة الرابعة التى يقل فيها الدخل السنوى للفرد عن ٤٠٠ دولار .

ويضع الكتاب تصورا لمنظور العالم خلال مائتى عام للتوقعات المستقبلية للبشرية ويعود إلى المائتى عام السابقتين حيث كان عدد سكان العالم عام ١٧٧٦

نحو ٧٥٠ مليون نسمة ويمتلك ١٥٠ بليون دولار ومتوسط دخل الفرد ٢٠٠ دولار سنويا . وفى عام ١٩٧٦ بلغ عدد سكان العالم ٤ر١ بليون نسمة ويمتلك ٥ر٥ تريليون دولار ومتوسط دخل الفرد ١٣٠٠ دولار وفى عام ٢١٧٦ يتوقع الكتاب أن يصل عدد سكان العالم إلى ١٥ بليون نسمة ويمتلك ٣٠٠ تريليون دولار وسيصل متوسط دخل الفرد ٢٠ ألف دولار سنويا.

ويعهد الباحثون الأمريكيون فى دراستهم هذه على التجربة الأمريكية خلال المائتى عام السابقة من حياة أمريكا حيث عكست هذه السنوات صورة عصر التصنيع ودفعته إلى الامام وشهد عام ١٧٧٦ وهو عام استقلال أمريكا صدور كتاب أدم سميث «ثروة الأمم» ويعتبر علامة مميزة لمطلع الثورة الصناعية وهى الثورة التى اثارت الحافز نحو النمو الاقتصادى .

وفى جزء من الكتاب يضع الباحثون منظورين عن المستقبل كمنظورين متفائلين وإن كانا واقعيين ، ويقضى أحد المنظورين والذى اختير له اسم «المرتكز على الأرض» بأن الغالبية الساحقة من البشر سيواصلون مدى المائة عام القادمة سكنى الأرض وأن النشاط الخارج عن حدود الأرض سيقتصر على عمليات الاكتشاف مع مستويات متواضعة من استغلال الفضاء .. ومع أهمية نشاط الإنسان فى الفضاء إلا أنه - كما يقول الكتاب - لن يؤثر تأثيرا واضحا ومهما على معدلات نمو السكان من البشر كما أنه لن يحدث تحولا جذريا فى معدل نموه اجمالى الناتج العالمى .

أما المنظور الثانى ويسمى «الممتد إلى الفضاء» فيتلخص فى أن الإنسان مع مطلع القرن الحادى والعشرين سيبذل جهودا فعالة فى مجال الفضاء الخارجى فى محاولة انتاج المواد الخام والطاقة والسلع المختلفة ، ويميل الكتاب إلى استخدام المنظور الأول ومحاولة الاستفادة بما هو متاح لنا على الأرض وهذا يتطلب جهدا إنسانيا فائقا لتحقيق تنمية ضخمة وتقدم تكنولوجى هائل من شأنه أن يسهم فى تحقيق تقدم ناجح لعالم الأرض والفضاء معا .

ولسوف يعطيك ربك فترضى

أسماء
ضربت عليها أستار النسيان

بقلم : وديع فلسطين

●● الشهرة حظوظ ، سواء في حياة الأديب أو بعد وفاته ، فما أكثر الذين اشتهروا في حياتهم ثم انسحبت عنهم الشهرة بعد وفاتهم، وقد تنعكس الآية فَتُواتي الشهرة أديبا لا في حياته بل بعد وفاته . وأجتهد في هذه الكليمات في إلقاء بعض الضوء علي أدباء ومفكرين لمعوا في عصرهم ثم مضوا في طريق النسيان بعد وفاتهم.

الشيبوبان خليل وصديق

كان يقيم في الاسكندرية أديبان شقيقان هما خليل شيبوب وصدّيق شيبوب، وهما أصلا من مدينة اللاذقية السورية التي نزحا منها إلى الثغر السكندري. أكبرهما خليل شيبوب، المولود في عام ١٨٩٢ وأصغرهما صديق شيبوب المولود بعده بعام واحد في سنة ١٨٩٣. وكان خليل يحمل إجازة الحقوق مما أهله لإصدار معجم قضائي كبير باللغتين الفرنسية والعربية، كما ترجم كتاباً عن أعمال البورصة. وكان أيضاً شاعراً، صدر له ديوان «الفجر الأول» بمقدمة للشاعر خليل مطران، وأصدر بعد ذلك مجموعة شعرية ، وتوفي عام ١٩٥١. أما صدّيق فقد عمل نحو أربعين عاماً في جريدة «البصير» اليومية التي أسسها في الاسكندرية رشيد شمّيل عام ١٨٩٧ وواصل إصدارها بعد وفاته ابناه شارل وموريس شميل . وكان صديق شيبوب محرر الجريدة الأدبي، ونشر فيها مئات من الفصول الأدبية عن الكتب الجديدة وقضايا الأدب والشخصيات الأدبية ، كما أصدر مجموعة من الكتب عن «جوته» و«القومية العربية» و«شخصيات عربية» و«معارك الاسكندرية» وتوفي عام ١٩٦٥.

وكان هذان الأديبان يقيمان مع شقيقاتهما في بيت احتلت المكتبة غرفة كبيرة فيه ناءت بمحتوياتها من الكتب والمجلات والصحف والقصاصات والرسائل التي كانا يعتبرانها من ضنائنهما وعندما توفي صديق شيبوب، توجه صديقه الأديب نقولا يوسف - وهو دمياطي أصلا ولكنه أقام في الاسكندرية وكانت مجالسه في «كازينات» الثغر ملتقى للأدباء ولا سيما في فصل الصيف عندما تزدحم المدينة بالمصطافين - إلى بيت الشيبوبين حيث التقى بشقيقاتهما وقال لهن إنه تحدث مع المسئولين في فـــــرع المجلس الأعلى للآداب في الاسكندرية بشأن ضرورة اقتناء كل مخلفات الشيبوبين باعتبارها كنوزا أدبية يتعين عدم التفريط فيها، وإنه لقي استجابة طيبة من هؤلاء المسئولين ، ونصح الشقيقات بالمحافظة على هذا التراث ، ريثما يصل مندوبو المجلس لتسلمه . وبعد شهور، عاد نقولا يوسف إلى بيت الشيبوبين ليتأكد بنفسه من أن مندوبي المجلس قد قاموا فعلاً باقتناء هذه الآثار الأدبية ، ولكن الشقيقات أنبأنه بأن أحداً لم يطرق عليهن باب المنزل. وكرّر نقولا يوسف زيارته قائلاً إنه استوثق من مندوبي المجلس بنفسه بأنهم سيسارعون إلى اقتناء هذه الآثار نظراً لأهميتها الأدبية، ففوجىء بأن الشقيقات قد سئمن الانتظار ، فقمن بالتملص من كل هذه الأكداس بإعطائها إلى أول بائع «روبابيكيا» قائلات إن غرفة المكتبة أصبحت عشا للحشرات والهوام، فضلا عن الأتربة المتراكمة، فكان التخلص من

محتوياتها مطلباً ملحاً ، ولا سيما لأن الأسرة كانت فى حاجة ماسة إلى غرفة جديدة تضاف إلى غرف المنزل .

صاحب «الإنذار»

«الإنذار» جريدة أسبوعية إقليمية صدرت فى مدينة المنيا بانتظام منذ ٨ يونيو ١٩٣٠ وإلى عام ١٩٥٦ بعد وفاة صاحبها صادق سلامة ، وكان صادق سلامة يعمل مراسلاً فى المنيا لجريدة «الأهرام»، وامتلك هناك مطبعة خاصة لطبع جريدته التى اختار لها اسم «الإنذار» كاحتجاج صامت على إنذار ظالم وجه إليه، أو كتفاخر بأن هذا الإنذار لم ينل من سمعته أو شرفه . وهو قد وصف حكاية الإنذار بقوله «جاء الإنذار إثر عنف وشدّة احتملتهما راضياً وفى نفسى ثورة، واتخذت من محاولة إنذارى «إنذاراً» أعتز به وأزهى، وجاهدت لاجعل من هذه المحاولة الطائشة المتعنتة اسما لصحيفتى ليكون الإنذار مع الزمن شهادة فخر لى وشهادة ظلم واضطهاد لغيرى» .

وكان صادق سلامة يصدر فى العيد السنوى لجريدته عدداً ممتازاً سنوياً يقع فى ٣٢ صفحة من قطع الصحف اليومية ويشترك فى تحريره كثيرون من الكتاب فى العاصمة وكان سلامة موسى يخص «الإنذار» بخاطرة أسبوعية جمعها بعد ذلك فى كتاب بعنوان «طريق المجد للشباب» جعل إهداءه إلى صادق سلامة .

وكان صادق سلامة ذا شخصية محببة من الصحفيين، ولهذا كانوا ينتخبونه دائما وبأغلبية كبيرة عضواً فى مجلس إدارة نقابة الصحفيين دورة بعد دورة . وكان قبل موعد الانتخابات يحل بالقاهرة - وله فيها بيت يقع فى شارع فهمى بباب اللوق - ويقيم فى كل يوم مأدبة غداء عامرة يدعو إليها مجموعة مختلفة من الصحفيين، ربما من قبيل «الرشوة الانتخابية» ! وقد شهدت واحدة من هذه المآدب من جملة المدعوين إليها الشاعر الفكه محمد مصطفى حمام الذى ارتجل قصيدة مناسبة للمقام أذكر منها قوله :

والتهمنا الحمام لحماً وعظماً
وهدمنا جبال كشك صعيدي
وافترسنا الخروف فهو شهيد
لهف قلبي علي الخروف الشهيد!

كان صادق سلامة على بسطة فى الجسم، ولهذا كان ينتقل فى القاهرة بعربة حنطور . ولأن بيته كان يقع فى الطابق الثالث، أو الرابع من العمارة مما يستحيل عليه صعود الدرج فى حالة تعطل المصعد، فكان يأمر سائق الحنطور - فى هذه الحالة - بأن يتوجه به إلى أى فندق ليقضى فيه ليلة أو اثنتين ريثما ينصلح حال المصعد .

ولأن صادق سلامة كان عزبا وليس له وريث يتابع إصدار «الإنذار» بعد وفاته فقد أصدر محررو الجريدة عدداً واحداً بعد رحيله تضمن مراثى الأدباء ، ثم

توقفت هذه الجريدة الإقليمية بعدما انتظمت في الصدور نحو ٢٥ عاماً.

أمين المكتبة الخاصة لجلالة الملك

كان هذا هو اللقب الرسمي لجاك تاجر - وهو من الشوام المصريين - وقد أسندت إليه مهمة تنظيم مكتبة قصر عابدين . وكان من التقاليد المرعية في ذلك الوقت أن يبادر كل مؤلف إلى تجليد نسخة من أي كتاب يصدره تجليداً فاخراً ويهديها إلى «مولانا الفاروق» فيتلقى من ديوان كبير الأمناء رسالة شكر على هديته.

وكان جاك تاجر لا مجرد «مخزنجي» أو أمين مكتبة محترف ، وإنما كان صاحب دراسات تنم على استعداد طيب ، ومن ذلك مثلاً أنه أصدر كتابا عنوانه «حركة الترجمة خلال القرن التاسع عشر» ظفر بجائزة مجمع فؤاد الأول للغة العربية في عام ١٩٤٥.

ولكن كتابه الموسوم «مسلمون وأقباط» عرضه لكثير من المتاعب التي بدأت بمصادرة الكتاب، ثم انتهت بفصله من وظيفته في قصر عابدين ، واختتمت بمصرعه تحت عجلات مترو مصر الجديدة. وقد قيل وقتها إنه كان يعبر شريط المترو وهو مازال منهولاً من فصله من وظيفته ، فلم يتنبه للخطر القادم .

صبحي وحيدة

لا نعرف للدكتور صبحي وحيدة إلاّ كتاباً واحداً مهماً عنوانه «في أصول المسألة المصرية» ، وهو كتاب كثر ربوع الباحثين إليه بسبب رصانته الأكاديمية.

وكان الدكتور وحيدة يعمل في اتحاد الصناعات ومقره عمارة إيموبيليا . ويبدو أنه اصطدم مع واحد من السعاة العاملين في الاتحاد، فتربص له عند مدخل العمارة وانهال عليه طعناً بخنجر فأرداه قتيلاً . وهكذا انتهت حياة باحث كان يمكن أن يُثرى المكتبة العربية بمؤلفاته ، لولا رحيله المبكر على هذا النحو المفجع .

الخطاط سيد إبراهيم

لم أعرف من الخطاطين المشهورين إلاّ اثنين ، هما نجيب هواويني وسيد إبراهيم. كان نجيب هواويني يستمسك دائماً بارتداء سترة سوداء مع ياقة منشاة وربطة عنق سوداء ويعتمد طربوشاً طويلاً لعله يطيل قامته القصيرة ، وكان في مجالسه يلتزم الصمت التام، فلا يتكلم إلاّ همساً، وكان يعلق في مكتبه صورة كبيرة له تمثله وقد افترشت الأوسمة والنياشين الكثيرة صدره .

أما سيد إبراهيم، وكان بدوره قصير القامة ، فكان على النقيض من نجيب هواويني، متحدثاً لبقاً يحفظ كل شعر أبي العلاء المعري مثل صديقه الحميم كامل كيلاني - وكان هذا قصير القامة أيضا .

فإذا ضمهما مجلس - وكثيراً ما كان ذلك يحدث بسبب العلاقة الشخصية والعائلية الوثيقة بين سيد إبراهيم وكامل كيلاني ، أخذا يتباريان في ترديد شعر أبي العلاء، وكأن بينهما مسابقة ترصد لها جوائز .

وعندما أنشأ الدكتور أحمد زكي أبو شادي جماعة أبولو اختير سيد إبراهيم عضواً في مجلس إدارتها .

وكان مكتب سيد إبراهيم يقع في عمارة تيرنج العتيقة بميدان العتبة ، وهو يقتصر على غرفة متواضعة ضيقة نصل إليها عن طريق سلم متداع ، وليس في هذه الغرفة العتيقة أي مظهر من مظاهر المكاتب الحديثة . زرته مرة فألفيته عاكفاً على إعداد لوحات كبيرة لآيات قرآنية طلبتها منه الحكومة السعودية لاستخدامها في حفر هذه الآيات على المسجد الحرام في مشروعات توسعته .

ولعل سيد إبراهيم هو الخطاط الوحيد الذي ألّف كتباً في تاريخ الخط، وصنع كراسات لتحسين الخطوط، إذ كان يدرس علم الخط في كلية دار العلوم . وظل يمارس هذا العمل إلى أن أصيب برعشة في يمناه ، فاستحال عليه أن يؤدي عمله بالدقة المطلوبة ، وقرر بالتالي اعتزال هذا العمل . وكان يعتمد في خطوطه على أقلام البسط التي كان يقوم بنفسه بعملية «قط» القلم وتشذيبه حتى يكون طيعاً في يده . وعندما اختفت أقلام البسط من السوق باعتبارها ترفاً يُستغنى عنه، كان سيد إبراهيم يكلف أصدقاءه في الخارج بأن يحصلوا على حاجته منها من إندونيسيا التي اشتهرت أقلامها بالجودة .

ومما قاله لي سيد إبراهيم إن اللوحة المثبتة على ضريح عبدالناصر، وهي لفظ الجلالة مكتوباً طولياً ومحاطاً بزخارف هي من إعداده، وإن تكن كتبت أصلاً لضريح الأمير محمد علي ولي عهد فاروق الذي توفي في لندن وبقي ضريحه خالياً . وبسبب الوفاة المفاجئة لعبد الناصر، نقلت هذه اللوحة إلى ضريحه .

وعاش سيد إبراهيم نحو ٩٠ عاما .

شاعرا أهمله النقاد

فؤاد بليبل شاعر شاب توفي عن ٢٩ عاماً ولم يخلف إلاّ ديوانا واحداً عنوانه «أغاريد ربيع» طبعته أسرته بعد وفاته في ٢٢ مارس ١٩٤١، وهو لبناني الأصل من بلدة بكفيا ومن مواليد شهر نوفمبر ١٩١١ .

وعندما التحقت بجريدة الأهرام في يوليو ١٩٤٢ قيل لي إن فؤاد بليبل كان يعمل في الجريدة عملاً إدارياً ، وحاول الانتقال إلى قسم التحرير فلم يفلح ، وذات يوم طاف علينا صديق لأسرة هذا الشاعر الشاب ومعه نسخ من ديوانه يعرض بيعها على زملائه في «الأهرام» فبادرت باقتناء نسخة من الديوان ، في حين أعرض معظم موظفي الحسابات والإدارة عن شرائه لعدم اهتمامهم

بالأدب عموماً وبالشعر خصوصاً ، والذى حفزنى على اقتناء هذا الديوان هو متابعتي لما كان ينشره هذا الشاعر في مجلة وزارة الشئون الاجتماعية وفى مجلة الرسالة وفى «الأهرام» ، وكنت أجد في شعره «طبعة» جديدة من الشاعر اللبناني الثائر إلياس أبى شبكة .

ومازلت - بعد سنوات طويلة - أذكر قصيدته الصارخة التى نشرها أولاً فى مجلة وزارة الشئون الاجتماعية، وكان عنوانها «ابنة العار» ومطلعها :

يا ابنة العار والخذا والرذيلة
أنا لولاك ما عرفت الفضيلة

ولم أنس أبداً قصيدته المعنونة «ثائرة» التى قال فيها :

أسألت من نبذوك نبذ المنكر
كم بينهم من فاجر متستر؟
الخيرون وهم أشر بنى الورى
الأبرياء وليس فيهم من بري
الصائمون المفطرون على الدما
الظامئون إلى النجيع الأحمر
الخائنون بكل عهد مبرم
العابثون بكل ذات تخفر
المصلحون وليس فيهم مصلح
الطاهرون وذيهم لم يفجر ؟

وختم قصيدته مناشداً وزارة الشئون الاجتماعية أن ترعى هذه الفئة من البشر قائلا:

أوزارة الإصلاح تلك ضحية
إن تشمليها بالعناية تؤجرى
لي فيك آمال تداعب خاطري
ورجاء مرتقب لها مستبشر
ولرب عاهرة إذا ما أصلحت
كانت أعف من العفاف الأطهر
لا تتركيها للصروف وشأنها
فلأنت أنت رجاؤها ، فتدبري

وهذه نماذج من شعر فؤاد بليبل ترفع من منزلته بين الشعراء المعاصرين، ولا غرو أن يقول الشاعر خليل مطران فى تقديم هذا الديوان : «ولست بمبالغ فى قولى إن أغاريد هذا البلبل فى ربيعه الذى لم يطل مع الأسف ، سيدوم ترديدها على الأحقاب، وسيكون لها فى النفوس أثر بالغ من الحب والإكبار والاعجاب».

وهى نبوءة لم تتحقق لأن النقاد جميعا ولا أكاد أستثنى أحداً منهم - قد تجاهلوا فؤاد بليبل ولم يذكروه حتى من قبيل الإشارة أو الاحصاء .

وكان فؤاد بليبل صديقاً للشاعر محمود غنيم الذى كتب بدوره مقدمة لديوان «أغاريد ربيع» قال فيها : «كان شاعراً ، وكانت له فى شعره فلسفة تكاد تتلخص فى كلمة واحدة هى : الثورة . وكان يذكى ثورته شعوره الصادق واحساسه العميق ويمدها شبابه بوقود . كان ثائراً على الأوضاع والتقاليد ، ثائراً على أهل الصلف والعجرفة من الأغنياء ، ثائراً على دهره الطاغى وعلى المجتمع الذى احترف الخداع ودرج على قلب الأوضاع».

كما أن الأديب القاضى صلاح الدين ذهنى رثى فؤاد بليبل بقوله : «كان شاعراً

بحياته قبل أن يكون شاعراً بقصائده ، فلو أنه لم يكتب قصيدة في حياته لظل شاعراً.. كانت حياته قصة شاعر هبط إلى الأرض، حتى إذا جاءه الوحى غنى، وحتى إذا ما ارتفعت ألحانه وأنصت الكون وهدأت الكائنات لتسمع، شارف اللحن نهايته ، وإذا به قصيدة واحدة ، قصة شاعر، زهرة من السماء تفتحت على نسمات الصباح ، وذوت عند الغروب، ما أقصر يومها ، وما أجلّه ، وما أعظمه».

وقد توسعت شيئا ما فى الاستشهاد بشعر فؤاد بليبل وأقوال معاصريه عساى أنبه إلى الجناية الأسيفة التى ارتكبها النقاد بإغفالهم هذا الشاعر .

ولكن أخانا الأديب البصير الكبير الدكتور محمد رجب البيومي، كان له السبق فى توجيه واحد من طلاب الدراسات العليا لإعداد رسالته الجامعية عن فؤاد بليبل وشعره وليت هذه الرسالة ترى النور منشورة على الملأ .

أما ديوان «أغاريد ربيع» فقد صار عسير المنال ، وإن كان الناشرون اللبنانيون «الشطار» قد أعادوا طباعته تقديراً لهذا الشاعر الذى قال فيه أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة» : «لا تزال أندية الأدب ومجالس الشعر تردد عبارات الأسف على فقد الشاعر الشاب فؤاد بليبل ، وتجدد فى كل مناسبة أساها على فجيعة الشعر فيه. فقد كان المتصلون به والقارئون له يعتقدون أنه سيكون له فى الشعر الوجدانى أثر مذكور بفضل ما وهبه الله من صدق الشعور وصفاء النفس وعذوبة الروح واستكمال الأداة . والحق أن الحياة القصيرة المضطربة التى عاشها فؤاد كانت أشبه بأغرودة البلبل الجريح أدركه الإعياء قبل أن يسكن إلى عشه» .

الشاعرة لميعة

كنا فى مجلس أدب تتصدره الشاعرة العراقية لميعة عباس عمارة . وكان الجالسون يتحدثون قدرتها على ارتجال الشعر، ورغبت فى المشاركة فى هذا المجال، زعمت أن فتاة أهدتنى ربطة عنق فقلت لها : هل أدلك على طريقة ألطف وأجمل ولا تكلفك شيئا لتطويق عنقى ؟

فالتقطت الشاعرة لميعة هذه القصة وارتجلت البيتين التاليين :

أهديته ربطة ، فارتد يسألنى
الطوق تعنين؟ أم تعنين تطويقى؟
يداك أجمل تعبيراً وأبلغه
لم العناء إذن في زحمة السوق؟

وعندما نقلت هذه الحكاية إلى الأديبة الكبيرة سلمى الحفار الكزبرى ، أهدتنى ربطتي عنق قائلة : خذهما نكاية فى لميعة!

موائد الرحمن

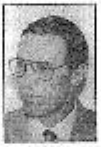
ومن يعلق الجرس فى عنق رئيسة إذاعة القرآن الكريم ؟

بقلم : صافى ناز كاظم

● ... وها نحن قد وصلنا بحول الله وقوته إلى ليال نترقب فيها ليلة القدر، ليلة ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ من رمضان ١٤٢٠، تكثف الدعاء بأن يرفع الله عن أمتنا غضبه ومقته وسخطه، ولا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، ولا بما نسينا أو أخطأنا ولا يحمل علينا إصراً، ولا يحملنا ما لا طاقة لنا به، وينصرنا على القوم الكافرين . وقد أدرنا ظهرنا «لرباط» الإذاعة المسموعة والمرئية، فلم تلصت إلا لما تيسر من فقرات إذاعة القرآن الكريم -التى أرجو من رئيستها الدكتورة هاجر سعد الدين أن تكتفى بإعداد برامجها هى الشخصية، وتوكل إلى مذيع آخر تقديمها، ذلك لأن صوتها وأداءها غير صالحين للإذاعة بتاتا، وقد كررت هذا الطلب على الكثيرين ممن لهم صلة مباشرة وغير مباشرة بإذاعة القرآن الكريم بل وقلته صراحة للدكتورة بوجهها منذ أكثر من عام ، ولكن يبدو أن ليس هناك من بمقدوره تعليق الجرس بعلق رئيسة الإذاعة التى هى نفسها رئيسة شبكة إذاعة القرآن الكريم .

وها أنا مرة ومرة أتقدم للدكتورة برجاء ألا تذيع بصوتها أى كلمة منطوقة لأنه فوق عدم صلاحيته إذاعيا ، فهو يجرح المستمعين والمستمعات بلزماتها النافعة من : إيييه ، وآآآه ، وأيييين ، وأم م م ، ونطقها الخاطئ : «بإسم الله الرحمااان الرراحييييم» ، والأنها أخت وابنة فاضلة ومعدة برامج ممتازة سأكتفى بهذا التنبيه الودود - أيتم ودود : - حتى لا أضطر إلى الغضب الصاخب الجرح الهادف إلى إنقاذنا من أولاً من آثام صوتها وأدائها ونطقها الخاطئ لحروف وكلمات اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم!

وأعود إلى سياق كلامى ، بعد هذه الزفرة الضارة ، لأقول إننا لن ننسى الإشارة إلى الحملة المستمرة ضد «موائد الرحمن» ، فمازالت تلك الحملة تزعق بتغريد لتندد وتشجب تلقيا جميلاً أحياه الناس منذ مطلع الثمانينات وانتشر ليغطى معظم شوارع وطرقات القاهرة بموائد «سبيل» لكل عابر صادفته لحظة الإفطار ليأكل ويشرب ويقر عينا ضيفا على «موائد الرحمن» ، هذه الموائد التى تبدأ بتبرعات وبناء وتتصاعد إلى ما هو أكثر


حمدى الكنيسى


د. هاجر سعد الدين

سمعاً وأداء ، قد تعرف صاحبها وقد لا تعرف سوى أنها «موائد الرحمن» ، سبحانه وتعالى ، صاحب المائدة التى أنزلها على سيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم وحوارييه ، فهى حقاً كذلك ممدودة على كل حال تتسع للقاصد عمداً والعابر عفواً ، والغنى والفقير ، يجلس إليها الجميع فى مساواة ومودة وتراحم ومشاركا على لقمة «العيش والملح» ، التى هى عند المسلمين عهد الأمان والصدق والسلامة ، مفتوحة للأهل والغرباء ، لا يسأل فيها سائل عمن تكون أو إلى أى دين تنتمى ، هذا التكافل الشعبى الأهلى - (من دون تمويل أجنبى !) - التلقائى لم يعجب بعض النافقين والنافقات من الذين اتخذوا إسلامهم ساتراً ليضربوا من



وراءه كل جميل فى ديننا الوضىء . قالوا وقلن - فيما قالوا - ما مفاده : أن موائد الرحمن هذه صورة مهينة للشعب الفقير تشبه ما كان الملك السابق فاروق يقيمه فى حدائق قصره من ولائم رمضانية لإطعام الفقراء ، ولا نعرف أى إهانة فى أن يطعم الملك أو الحاكم أبناء شعبه فى حدائقه فى رمضان أو غير رمضان ، وهو بمثابة الوالد لأنه ولى الأمر ، والطعام من فضلة خير الشعب قبل كل ملك وحاكم - (وأرى أن التذكير للأجيال التى لم تعاصر الملك فاروق ، بأنه كان يطعم الشعب فى حدائقه ، دعاية طيبة للملك السابق الراحل ولعلها تكون فى ميزان حسناته لتحميه من بعض شروره وإفساده !) - ثم قالوا وقلن - فيما يعيدوا ويزيدوا فيه - إن هذه موائد للشهرة والدعاية وقد دخلت فيها الراقصات - (وماله ؟) - وأن الإنفاق والتصدق والعطاء يجب أن يظل سراً ، وأشاروا إلى اليد اليسرى التى يجب ألا تعرف ما أعطته اليد اليمنى .. الخ .

وهؤلاء يبدون - بكلامهم هذا - أنهم قد هجروا قرآنهم منذ أمد بعيد - والعياذ بالله - فلم يتذكروا منه إلا قيمة : «الإنفاق فى السر» فتصوروا أنه لايجوز غيره واشتد عزفهم على هذا الوتر ، ولو أنهم استذكروا آيات القرآن الحكيم الخاصة بالإنفاق لوجدوا التصويب القاطع لأحكامهم المختلة ، ففى سورة البقرة ، آية ٢٧٤ تقول : «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون» .

وتأتى آية ٣١ فى سورة إبراهيم لتؤكد شكل الإنفاق: «قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال» ،وتكرر آية ٢٢ من سورة الرعد وآية ٢٩ من فاطر مبدأ السر والعلن ، بينما تقول آية ٧٥ من سورة النحل : «ضرب الله مثلاً عبداً مملوكا لايقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون» . فالقرآن الكريم يأمرنا بالإنفاق لوجه الله : سراً وعلنا بل وجهراً ، من دون رياء ومن دون مّن أو أذى ، فمن أين استمد هؤلاء من أهل الشح والنفاق فتواهم بتحريم «موائد الرحمن» ، التى يتسابق لإقامتها المتسابقون لتزغرد بها طرقات القاهرة ، ومدن مصر الأخرى ، فى الشوارع والساحات على طول شهر رمضان الكريم، بحجة أنها أسلوب مظهرى للدعاية والإعلان . دعاية لمن وإعلان عن ماذا ؟ ، دعاية للتراحم وإعلان عن التكافل والتعاون؟، خير وما شاء الله ، وياليت كل الدعايات هكذا وكل الإعلانات . والطريف - (أو لعله غير ذلك) - أنه بينما تنزل المطارق ضاربة مبادرة شعبية بديعة مثل «موائد الرحمن» يتم الإعلان والاحتفال بالأيادى البيضاء الرحيمة لأفاعى الروتارى والإنرويل والليونز، وأهدافها المشبوهة، بسبب ما تدعيه من مشروعات خيرية ما أنزل الله بها من سلطان . إن المعادين لموائد

الرحمن هم من تنطبق عليهم الآية رقم ٧ من سورة المنافقون : «هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون» . صدق الله العظيم .

★ ★ ★

ولا بد أن ترتفع بين كل آونة وأخرى صيحة تندد بـ«الضوضاء» التي يثيرها ارتفاع الأذان خمس مرات من مكبرات الصوت ، والصيحة لابد أن تصاحبها مصطلحات من مثل «التلوث السمعي» مع بعض القصص المأساوية عن المرضى الذين لا يستطيعون النوم ، والطلبة والتلاميذ المحتاجين لقسط من الهدوء والراحة لاستذكار دروسهم ، ولاشك أن بعض مكبرات الصوت تكون مزعجة حين ترتفع إلى درجة يتعذر معها سماع كلمات الأذان ، وحين يكون صوت المؤذن سيئا وغير مؤهل لرفع الدعوة للصلاة

-(في هذا الشأن نهيب بالمسئولين عن تخصيص المؤذنين والأئمة للمساجد أن يتحروا الدقة في الاختيار والاختبار ، وقد سمعت شكوى من الأستاذة سلوى بكر القاطنة جوار مسجد الصديق في حي مساكن الشيراتون ، وملخص الشكوى صوت المؤذن المنفر وغير اللائق أبداً بجمال وبهاء البناء ، ونحن لا نريد أن يكون الأذان ، خاصة في الفجر ، مصدراً للذعر والخوف والاستياء لأنه من الضروري الشرعي أن يكون سكبا للرحمة وعطاء للحنان واستجاشة للتواصل بالصلاة جلبا للأمن والسلام) - والمطلوب ضبط وإصلاح مكبرات الصوت لتحقيق الإستماع المريح . أما كون اعتبار الأذان «ضوضاء» و«تلوثا سمعيا» فما الذي يمكننا قوله أمام هذه الوقاحة ، نحن أبناء المدينة التي اشتهرت منذ زمن بكونها مدينة المآذن المؤلفة آلافا ؟ إن الاحتجاج بالمرضى يتناقض مع الإطمئنان الذي يستشعره المريض حينما يرتفع الأذان بالتكبير وذكر الله : ألا بذكر الله تطمئن القلوب . أما الإزعاج الذي يشكو منه من يريد النوم ، فالصلاة خير من النوم . لقد عشت في مدينة إسلامية لا يرتفع فيها صوت المؤذن وكنت أتعجب كيف يتنبه المصلون لوقت الصلاة ؟ . إنني لا أتمنى أن نرى اليوم الذي تتم فيه المطالبة ببناء مساجد من دون مآذن توفيرا لراحة المنافقين والسياح ، فالواجب هو عدم رفع الأذان بأصوات قبيحة ، وعدم إذاعة تلاوة القرآن الكريم عبر مكبرات الصوت احتراما لآيات الله حتى لا تصل إلى الأسماع داخل الحمامات والمراحيض . والذي نفهمه هو أن التقدير في الإذاعة وعدم الإذاعة يجب أن ينطلق من قاعدة الحلال والحرام الشرعية ، واللائق وغير اللائق بسور وآيات الكتاب العزيز، لا من قاعدة الذين كلما استمعوا لذكر الله صارت صدورهم ضيقة حرجاً كأنما يصعدون في السماء .

ومع إطلالة العيد ، عيد الفطر المبارك أستعين ببعض تسبيحات الشكر لله سبحانه تعالى ، مختارة من كتاب الإمام الحجة الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي بن أبي الدنيا المتوفى عام ٢٨٢هـ ، أي منذ ١١٣٨ سنة:

● ...سمع نبى الله صلى الله عليه وسلم من يقول «الحمد لله بالإسلام»، فقال : «إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة».

●●●

● ... كان الحسن البصرى يقول إذا ابتدأ حديثه : «الحمد لله»، اللهم ربنا لك الحمد كما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا ، لك الحمد بالإسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال ، والمعافاة ، كبت عدونا ، وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمتنا (اللهم نسألك ذلك) - وجمعت فرقتنا - (اللهم نسألك ذلك) - وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألنك ربنا أعطيتنا ، فلك الحمد على ذلك حمداً كثيرا ...

●●●

● ... إنما سمى نوح عبداً شكوراً لأنه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعاما إلا حمد الله تعالى ...

●●●

● ..عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجاة نقمتك، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك .

●●●

● يروى عن علىّ أنه قال لرجل من همدان : «إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر معلق بالمزيد ، وهما مقرونان فى قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد» .

●●●

● ... كان يقال : «الشكر ترك المعاصى».

●●●

● ... كل نعمة لا تقربنا من الله فهى بلية.

●●●

● ... إذا رأيت الله عز وجل سابغاً نعمة عليك وأنت تعصيه فاحذره !

●●●

● قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العباد ما يشاءون على معصيتهم إياه فذلك استدراج منه لهم» .

●●●

● ما قلب عمر بن عبدالعزيز بصره فى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال : «اللهم إنى أعوذ بك أن أبدل نعمة كفرا أو أن أكفرها بعد معرفتها أو أنساها فلا أثنى بها.» .

●●●

● عن أبى عمران الجونى عن أبى الجلد قال : قرأت فى مسألة موسى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : «يارب كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لايجازى بها عملى كله . قال فأتاه الوحى أن يا موسى : الآن شكرتنى.

●●●

● ... ما من عبد يشرب من الماء القراح فيدخل بغير أذى ، ويخرج بغير أذى إلا وجب عليه الشكر .

●●●

● الحمد لله الذى لايكل من توكل عليه إلى غيره ، الحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة والذى هو يقيننا حين تنقطع عنا الحيل . الحمد لله .

أصفهان نصف العالم

بقلم : مصطفى نبيل

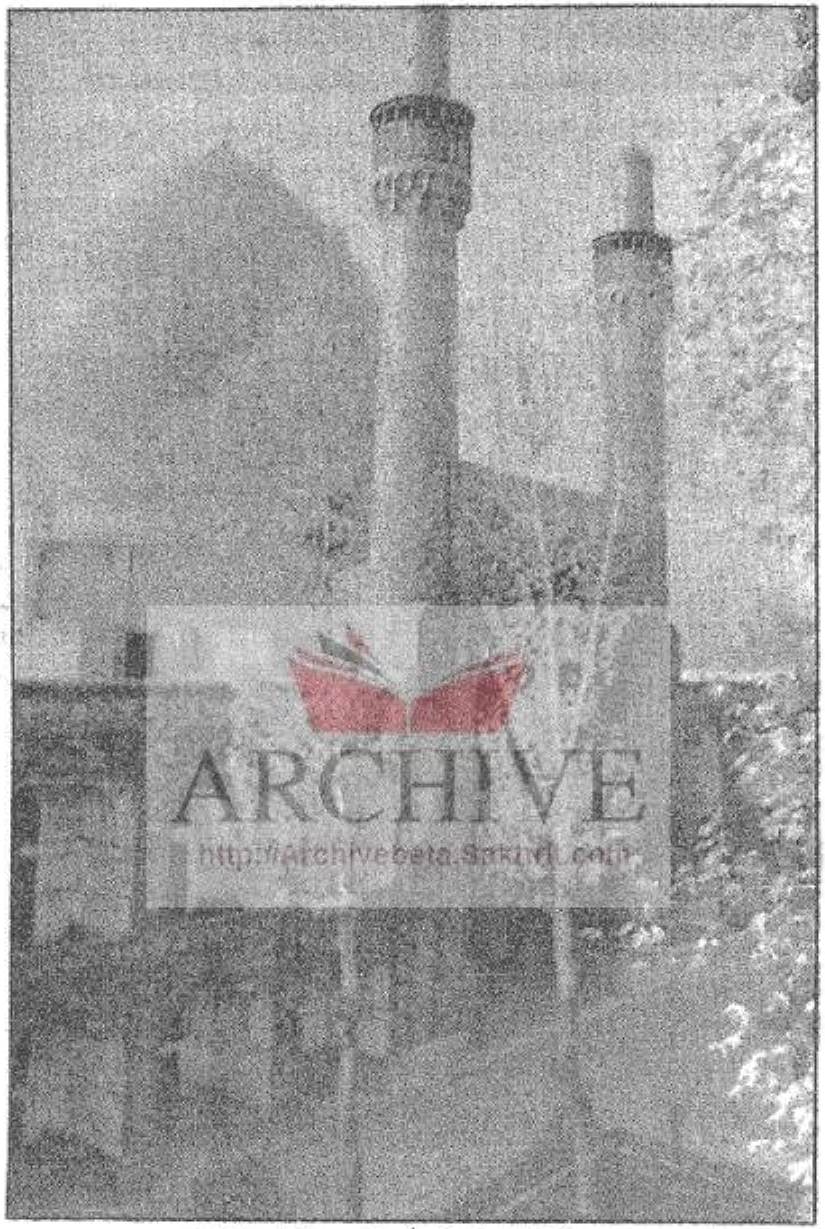
ربما تأخرت هذه الرحلة نحو عشرين عاما ..

فمازلنا فى جولتنا بين المدن الإيرانية ؛ فى زيارتى الأولى - أحمل الكثير من الأسئلة - ولقد قرأت كل ما استطعت ، وبقى الأهم وهو الاتصال المباشر والجهد الميدانى ..

رجعت من زيارة المدن الإيرانية ببعض الاجابات ، وبقى الكثير من الأسئلة وجاءت الزيارة قبل انتخابات حاسمة لمجلس الشورى تجرى الشهر المقبل ، وبعدها انتخابات الرئاسة سنة ٢٠٠١ ، وبذلك تجدد إيران نفسها .

ترتبط أصـفـهـان لدى بكتـاب الأغـانى لصـاحـبـه «أبو الفـرج الأصـفـهـانى» (٨٩٠ - ٩٦٧) ، الذى ولد فى أصفهان ، وحمل سحرها ، ونشر أهم كتب الأدب والتاريخ والفن ، وكما جاء فى الأثر ، فـهـو الكتاب الذى قال عنه أحد الوزراء ، كنت أحمل فى أسفارى ثلاثين حملا من كتب الأدب ، فلما جاءنى كتاب «الأغانى» استغنيت به عنها .

احتفيت لذلك بزيارة أصفهان ، حيث وصلنا إليها بالطائرة ، من مطار مهابار فى طهران ، واستغرقت الرحلة أقل من ساعة ، لم نجد أحدا فى انتظارنا ، رغم أن وزارة الخارجية الإيرانية هى التى



مدرسة شاهارباخ فى أصفهان.. القبة والمنارة

نظمت هذه الزيارة ، انتظرنا في المطار أكثر من ساعة ، أصبحت مشكلتنا هي كيفية التقليل من الحرج الذي يشعر به مرافقنا عبدالستار أوده .

وبعد طول انتظار وصلنا إلى فندق شاه عباس ، وهو ليس فندقا بل متحفا ، كل جزء فيه تحفة معمارية وأثرية ، لقد كان مدرسة أيام شاه السلطان حسين ثم تحول إلى فندق .

استغرقت زيارتنا لأصفهان ٤٨ ساعة حافلة بالفن والتاريخ والتجربة الحية ، فأنت وسط المشهد الإيراني بكل سحره وغموضه ، نحن في الطريق من المطار إلى البلدة ، لا يوجد حول أصفهان أية جبال عالية مثل طهران ، وعندما تقترب منها عبر أراضي جرداء ترى المدينة أمامك وسط واحة صنعها النهر الوحيد في الهضبة الإيرانية ، وكأنك ترى أحد مدن ألف ليلة وليلة ، تعطي أصفهان الانطباع الأول بالعافية والازدهار ، وأنها أكثر مدن الشرق ثراء وجمالا ، وفي عاصمة الصفويين الفنية بالآثار الإسلامية ، تقع وسط إيران ، والجو عند زيارتها كان خريفها يبعث على النشاط .

إنها ثالث مدينة في إيران من ناحية العمران ، ولها شهرة واسعة في الصناعات اليدوية ، وأجمل آثارها هي التي أقامها الشاه عباس الكبير في أواسط القرن السادس عشر الميلادي .

ويؤكد كل ما في المدينة صدق المثل الفارسي «أصفهان نصف جيهان» أي نصف العالم ، وهي تجذب السياح وطالبي المعرفة ، زارها قديما من الرحالة ابن بطوطة المغربي وماركو بولو الإيطالي . وهي أهم مدن طريق الحرير ..

وجاءت زيارة ابن بطوطة لها قبل حكم الصفويين ، وأشار إلى ذكاء أبناء أصفهان وحسن استعدادهم للأعمال الفنية والأعمال اليدوية ، وأشاد بكرم أهلها وحسن ضيافتهم ، وذكر أنهم عرفوا باللماحية وحضور البديهة ..

وسرنا على خطى ابن بطوطة وتجولنا في المدينة وشاهدنا مركز المدينة حيث القصور الملكية للأسرة الصفوية ومسجد الشاه عباس والميدان المستطيل الذي أمامه والمصطف حوله المحلات (البازارات) ، فيجمع الميدان الدين والسلطة والمال ، وترى المنظر الخلاب للمآذن والقباب الممتدة إلى عنان السماء ، وروعة ألوانها الذهبية والمزخرفة والتي يغلب عليها لون الفيروز ، يحتويك مسجد الشاه عباس باتساعه ، والسكون من حوله ، وأول ما تراه تلك البوابة الضخمة التي تقوم على جانبيها مئذنتان وفي وسطهما طاووس بألوانه الزاهية ، وترى دائما المزيج بين حضارة الفرس وحيوية الإسلام ، تدخل إلى الصحن الواسع بما فيه من حوض مياه تقوم على جانبيه أقواس ذات عقود ، وترى نقوشها لا مثيل لها في فن الزخرفة الإسلامية ، وقد صمم هذه التحفة المعمارية بهاء الدين العاملي (سنة ١٦٣٨م) وهو ذلك العربي القادم من جبل عامل في جنوب لبنان ، ولا أدرى

كيف تغير اسمه إلى مسجد الإمام الخمينى ؟!.

ويطل المسجد على ميدان «نقش چيهان» ، وفى الميدان قصر الشاه عباس بأعمدته الخشبية المجلوبة من لبنان والمكونة من شجر الأرز ، ويشدك جمال العمارة الإسلامية ودقتها ، وصبر ودأب أولئك الذين بذلوا الوقت من أجل إقامة هذه الأعمال الفنية ، وانتهوا إلى هذا المشهد الرفيع الذى تراه فيما يحيط بك .

انتقلنا إلى مواقع أثرية أخرى ؛ تلك المنارات المتحركة المعروفة باسم منارة جنبان ، ويؤكد مرافقنا أن الذى صممها هو ذاته بهاء الدين العاملى الذى صمم مسجد الشاه عباس ، وهو صاحب كتاب المخلاة والكشكول ، وهى مرقد العارف بالله أبو عبدالله ، وتتميز المنارة بأنه يمكن تحريكها على أساس من نظريات علمية دقيقة .

وقد لفت انتباهى تلك الجسور المقامة على نهر رابنده رود الذى يشق المدينة، والذى أقيم على غرار أقواس بازار ساحة الشاه عباس ، ويظل جسر خاجا عنوان جمال العمارة الإيرانية التى شهدت أزهى عصورها خلال الدولة الصفوية ، وهو يشبه فى جماله أحد الجسور المقامة على أحد الأنهار فى مدينة فلورنسا الإيطالية .

الصفويون

من هم هؤلاء الصفويون الذين أقاموا أجمل المبانى ، والتى كانت أصفهان عاصمة إمبراطوريتهم ؟!.

يمثل الحكم الصفوى (١٥٠١ - ١٧٢٢م) نقطة تحول فى تاريخ إيران ، فقد حققت خلالها الأمة ذاتها ، وأكدت دورها ، وهى أول دولة فارسية منذ دخول العرب إيران ، وهى الدولة التى رسمت حدود إيران الحالية .

ومن المفارقات اللافتة للنظر أن الذين نشروا التشيع فى إيران من العرب القادمين من جبل عامل فى لبنان ، والكرك فى الأردن فى عهد الصفويين ، ومن المفارقات أيضا أن الشاه إسماعيل الصفوى ينتمى إلى قبيلة تركمانية ، أى أن الصراع التاريخى الذى نشب فى الشرق بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية ، والذى جرت معظم ملاحمه على أرض العراق ، كانت بين فريقين من الحكام الأتراك ، وقد انتشر المذهب الشيعى لمنع المد العثمانى ومن أجل الحفاظ على الهوية الخاصة لفارس .

وساد المذهب الشيعى الإثنى عشرى فارس بعد سنة ١٥٠٢م ، وزعمت الأسرة الصفوية إنحدارها من الإمام السابع موسى الكاظم ، ومثل الحاكم الإمام الغائب .

واعتبر المفكر الإيرانى د. على شريعتى ، الذى كان لأفكاره تأثيرها الواسع على رجال الثورة الإسلامية ، أن التشيع الصفوى «تشيع المصلحة» ، فأبطل كل مسئولية على الإنسان بدعوى غيبة الإمام ، وأصبحت الغيبة هى المشجب الذى يعلق عليه الجميع قعودهم عن

العمل، وأصبح الكل في حالة انتظار دائم ، وأخذ المفكر الإيراني يميز بين التشيع الصفوى وبين التشيع العلوى الأصيل .

هذا ويعود اسم الدولة الصفوية إلى الشيخ صفى الدين الذى كان الشاه إسماعيل سادس خلفائه ، وأخذت النزعة الإيرانية تقوى فى ظل الفكر الشيعى ، وسقطت هذه الدولة أمام هجوم الأفغان سنة ١٧٢٢م .

السلام الفارسى !

ونستمر نقلب صفحات التاريخ ، ونجد هيرودوت الذى سبق وأرخ لمصر القديمة يؤرخ لفارس ويتحدث عن شخصيتها التاريخية فيذكر .. «إن الفرس يرون أنفسهم خير الناس جميعا ، ويعتقدون أن غيرهم من الأمم تدنوا عن الكمال بقدر ما يقرب موقعهم الجغرافى من بلاد فارس، وأن شر الناس أبعدهم عنها ..»

وسبق وأقامت فارس «السلام الفارسى» وأكبر إمبراطورية عرفها العالم القديم سنة ٥٣٨ ق.م ، وضمت هذه الامبراطورية كل العالم المعروف وقتها ، ويرى المؤرخون أن قورش هو أكبر أبطال العالم قبل الإسكندر الأكبر ، وهو الذى أسس أسرة الأباطرة العظام ، وهى أوسع إمبراطورية سبقت الامبراطورية الرومانية، وخلف «قورش» «قمبيز» الذى أغوته ثروة مصر ، فزحف عليها ووصلت إمبراطوريته إلى نهر النيل .

يقول أكتازيوس «..إن ما يحتفظ به أباطرة إيران فى خزائنهم باعتباره أغلى من الجواهر ، سبع زجاجات تحتوى إحداها على مياه النيل والدانوب ودجلة والفرات وسيحون وجيحون ونهر السند ، دليلا على سعة إمبراطوريتهم المترامية الأطراف» .

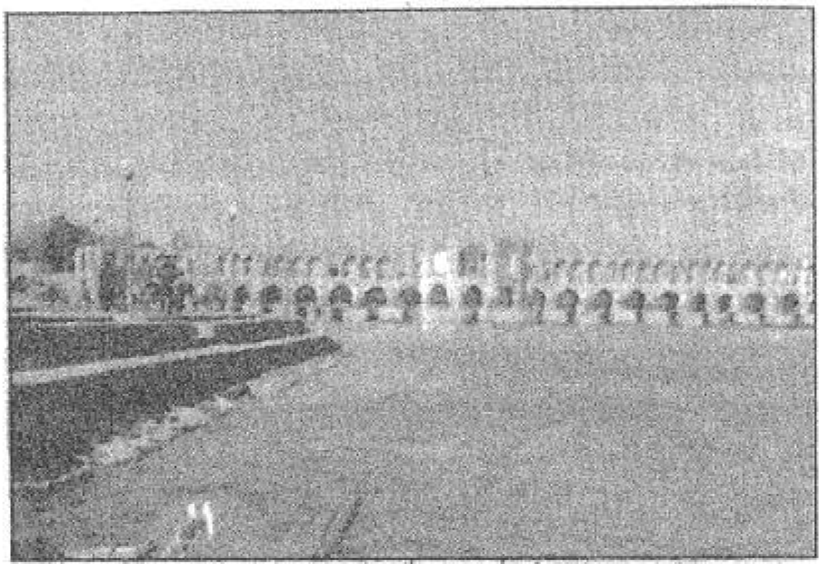
ويروى التاريخ كيف استولى «قمبيز» على منف ، وأخذ يسخر من دين المصريين ، وطعن بخنجره العجل أبيس ، وعبث برفاة الموتى المحنطة فى القبور ، وبعدها أصابته نوبات صرع تشنجية ، وأعدم أخته وزوجته ، وقتل ابنه بسهم من قوسه، وحكم بدفن إثنى عشر من أعيان الفرس أحياء ، انتقاما من آلهة المصريين القدماء. كما ابتلعت رمال الصحراء الجيش الذى أرسله للاستيلاء على واحة آمون (سيوة) ، ولم يعثر لهذا الجيش على أثر حتى اليوم .

وتظهر وجوه الفرس على بعض الآثار الباقية ، ذوو ملامح متناسقة أعطتهم الجبال شدة وصلابة ، وتظهر على وجوههم سمات النبل .

زرادشت

وكانت إمبراطورية قورش الدولة الإخمينية تدين بديانة زرادشت ، وهو داعية ومصلح إنعزل عن العالم فى سن العشرين ، وقضى عشر سنوات وهو يتأمل ، وعاد مبشرا بديانة جديدة ، يرى البعض أنها ديانة معدلة عن المجوسية والتى كانت القبائل الإيرانية تعتنقها ، وتسعى الزرادشتية أن يكون لها شكل متماسك ، ومن معتقداتها الإيمان بالبعث والإيمان بالمخلص الذى سيأتى ويخلص البشرية ، وتؤمن بوجود كتاب محفوظ فى السماء تسجل فيه أعمال البشر .

أما زرادشت فكان رجلا حكيما آثر



جسر خاجو فى أصفهان وأقيم فى القرن السابع عشر



إحدى حدائق أصفهان الجديدة تجمع كل الطيور وتقضى الأسرة فيها يوما جميلا

أن يعيش حياة الزهد فى البرية ، وأن يكون طعامه من ثمار الأرض ، وظل حتى النهاية متمسكا بإيمانه ، أن رب النور هو الإله الأعظم ، وليس فى العالم سوى إله واحد ، أما الشمس فهى نار السماوات الخالدة ، تعبد كما عبدها إخناتون فرعون مصر .

ولا يوجد اليوم أثر للديانة الزرادشتية سوى بين بعض العشائر الفارسية فى ضواحى يزد فى كرمان ، وهى تحافظ على كتبها المقدسة ، وتقدس النار والتراب، والأرض والماء ، ولا يدفنون موتاهم فى الثرى ، إنما يعرضونها فى «أبراج الصمت» للطيور الجارحة ، وحتى لا تدنس العناصر المقدسة فى التربة ، وهم قوم ذوو أخلاق سامية وآداب رفيعة ، ولهم ممثل فى مجلس الشورى الإيرانى ، بعد أن اعتبرت إيران أتباع زرادشت من أهل الكتاب ، وعاملوهم كأنهم من الصابئة، وقد خرج من أتباع زرادشت شخصيات كثيرة اعتنقت الإسلام ، مثل «ابن المقفع» ، كما أن زرادشت هو أول من أطلق على سكان الهضبة جنوب القوقاز اسم الإيرانية ومعناها النجباء ..

النار المقدسة

وشاهدت فى تليفزيون إيران ، الذى يشرف عليه على لاراجانى الذى يعد من المتشددين ، أحد المنشدين الدينيين ينشد بعض الإنشاد الدينى ، ويقف بين شعلتين من النار ، هذا فى الوقت الذى يمنع التليفزيون الغناء الفردى للنساء ، ومعروف أن النار لها مغزى خاص فى الديانات الآسيوية القديمة ، ومازالوا فى إيران يحتفلون بعيد النيروز أو الربيع أول كل سنة شمسية .

والإيرانى متدين ولكنه يعتز بتاريخه وقوميته ، ويتناغم فى شخصيته التاريخية الدين والقومية ، ويبقى الكثير من العادات قائمة ، مع توازن بين القديم والجديد .

عالم الإسلام

وقد لعبت إيران دورا بارزا وحيويا منذ أن أصبحت جزءا من عالم الإسلام ، وشكل الفرس بعد مائة عام من الفتح الإسلامى قوة عسكرية ، وأسهموا فى نقل الخلافة من البيت الأموى إلى البيت العباسى ، وغدت مدن إيران الكبرى منارات للعلم ، وعرفت مدارس أصفهان ونيسابور وهرات وبلخ ومرو وبخارى وسمرقند عندما كانت حدود إيران ما بين نهر الفرات وحتى نهر جيحون وسط آسيا .

ومنذ عهد قريب كانت خراسان (أى أرض الشمس المشرقة) تضم أفغانستان وتركمانستان التى تحتوى العديد من المدن التى تمثل مراكز الحضارة الإسلامية .

لذلك لم يكن غريبا أن يزاول المسلمون الصينيون شعائرهم الدينية باللغة الفارسية .

ويعتبر العصر العباسى الأول (١٣٢هـ - ٢١٨هـ) عصر التعاون الكامل بين العرب والفرس ، ولعبت بعض العائلات الإيرانية أدوارا هامة فى حياة الدولة العباسية ، مثل البرامكة وبنى سهل وبنى

طاهر ، وكانت خراسان سبب انتصار المأمون على أخيه الأمين ، وقبلها خرج منهم أبو مسلم الخراساني .

وكانت مساهمة الفرس في الثقافة العربية ملحوظة ، فدواوين الخراج كانت تكتب بالفارسية ، ولم يتم تعريبها إلا في زمن عبدالملك بن مروان ، وتأثير الفن الفارسي واضحا على فنون العمارة والموسيقى والغناء في الشرق .

وترى في أي مجال من مجالات العطاء الحضاري وجودا فارسيا .

ويذكر آية الله مرتضى المطهري في كتابه «الإسلام وإيران» .. «أن أصحاب كتب الصحاح في الحديث الستة من إيران، واثنان من أئمة أهل السنة من خراسان هما أبو حنيفة النعمان وأحمد ابن حنبل ..»

وتبقى من صفات الإيرانيين التدين والتعلق بآل البيت . ويلعب المذهب الشيعي دورا حيويا ، فالعديد من المدارس والمستشفيات والكثير من الأعمال الخيرية أنفق عليها من «الخمس» الذي يدفع للملالي.

الشاعر الفردوسي

ونعود إلى جولتنا في أصفهان ..

وقفت طويلا أمام اسماء الشوارع وأخذت أبحث عن دلالتها ، ولاحظت إطلاق اسم الشاعر الفردوسي صاحب الشاهنامة على أهم شوارع أصفهان ، وما أجمل البلد التي تخلد اسماء شعرائها بإطلاق اسمائهم على شوارعها .

وللفردوسي (٣٢٩ - ٤١١هـ) مكانة كبيرة في إيران ، يكاد يكون له شارع وتمثال في كل مدينة إيرانية ، وله متحف خاص في طوس ، وتنبع مكانته ليس فقط من شاعريته وما تحويه من ذكاء العقل ورقة الذوق ودقة التعبير ، ولكن من أن الشاهنامة تتغنى بأمجاد التاريخ الإيراني ، وهي كتاب في الشعر وفي التاريخ معا ، قدم خلالها الشاعر ملحمة لا نظير لها ، وتناول أيضا قصص الحب الخالدة «يوسف وزليخا» ، و«ليلى والمجنون» ويرون أنه ليس في لغتهم أفصح منه ، ونرى فيه الفرس يعتزون بتاريخهم السابق على الإسلام ، وهو مسجل تاريخهم ، وأناشيد مجدهم وديوان لغتهم ، يذكر فيها الفردوسي أن إبراهيم عليه السلام هو زرادشت ، وأن كتابه المقدس أبستاق هي صحف إبراهيم ..!.

وترجمت الشاهنامة إلى اللغة العربية، قام بترجمتها البنداري الأصفهاني ، واستمرت الشاهنامة موحية للفنانين ورسامي المنمنمات ، وتحولت فيها التفاصيل الدقيقة إلى لوحات غنية بالتفاصيل والألوان ، ونجح الرسامون في إضفاء الطابع التاريخي على لوحاتهم، وقد شهدت الفنون الفارسية اهتماما كبيرا بفنون خدمة الكتاب ، وجعله تحفة فنية ، وكثيرا ما تكون الزخرفة الهامشية للمخطوط أكثر تشويقا من المركز ، وقد تفهم المنمنمات بعد ساعات طويلة من الدرس والتأمل .

وحقق الدكتور عبدالوهاب عزام هذا العمل الضخم ، وقدمه لقراء العربية .

وعبر شوارع وميادين أصفهان تظهر المدينة تحيزاتها ، وتجد اسماء الجهاد والشهداء والقدس وفلسطين ، وشوارع أخرى باسم ابن سينا وآية الله طالقانى وآية الله كاشانى وآية الله بهشتى وآية الله مطهرى .

ووصلنا إلى أحد بساتين أصفهان ، وهى حديقة واسعة تضم كل أنواع الطيور ، وتعيش لحظات بين المياه والزهور والطيور ، وتعرف عندها لماذا كانت إيران أرض الشعراء ومنبع رسامى المنمنمات الدقيقة وأصحاب النغم المميز .

وبأصفهان حى عتيق اسمه «جلنا» يقطنه الأرمن وبه ١٥ ألف أرمنى ، وتجولنا فى كنيسة الأرمن وهى تحفة فنية مقامة منذ القرن السابع عشر الميلادى ، وهى أول كنيسة تبنى فى إيران ، وإلى جانبها متحف يضم كل ما له علاقة بحياة الأرمن ، أول مطبعة وأول كتاب أرمنى طبع فى إيران ، ولوحات رسمها الأرمن ، وأزياء الأرمن على مر العصور ، وصناعة الفضة والذهب والألماس ، ويربط بين حى الأرمن والمدينة جسر من تلك المنشآت الأثرية الجميلة ، ويعيش الأرمن حياتهم كجزء من نسيج المجتمع الإيرانى ، ولهم ممثل فى مجلس الشورى الإيرانى .

آية الله منتظرى

لعبت أصفهان دورا بارزا فى أيام الثورة ، فبالاضافة لما تتمتع به من جمال ، جوامع وقصور وبساتين ، فهى معقل لحياة سياسية نشطة ، تجمع فيها اليمين واليسار ، المتشددين والمعتدلين ، ولعل ذلك بسبب وجود بضعة آلاف من العسكريين الأمريكيين الذين كانوا يتولون تدريب قوات سلاح الجو الايرانى أيام الشاه ..

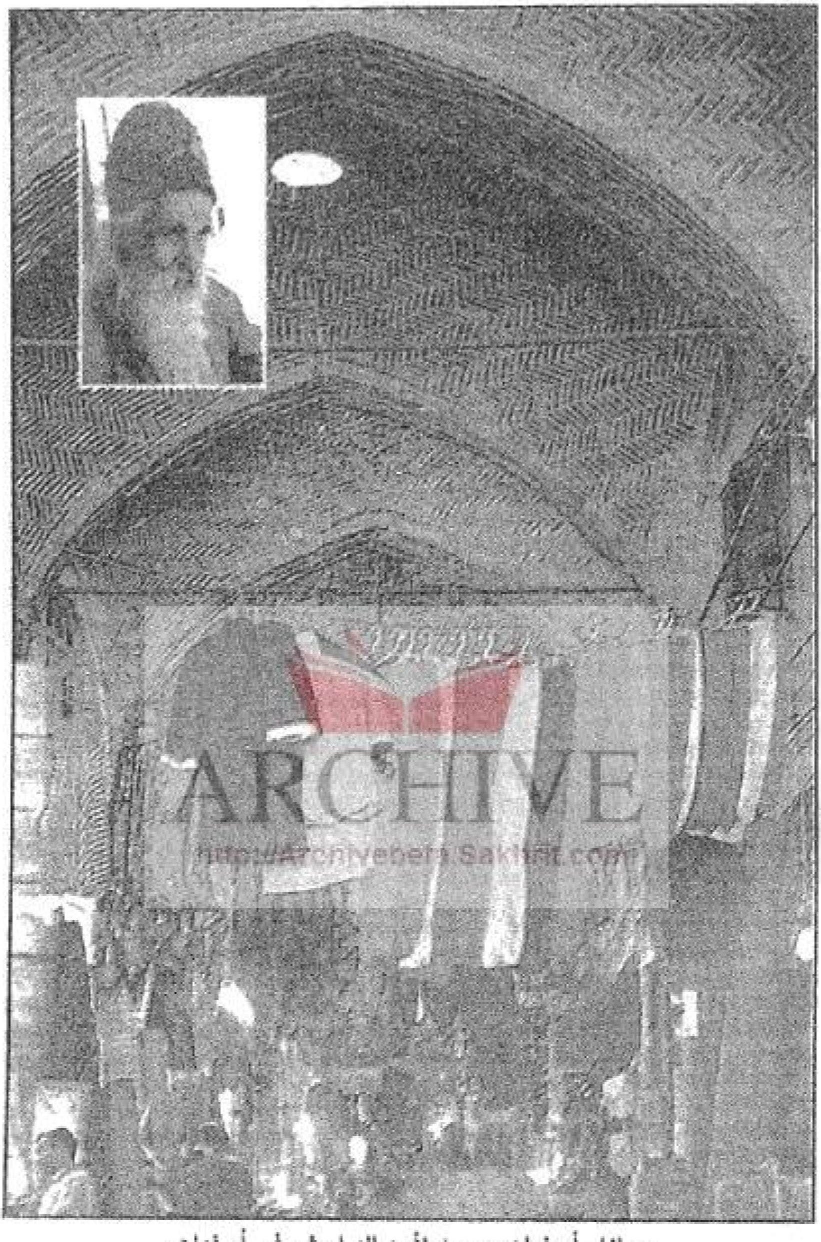
ونقطة أخرى ، أن أغلب أهلها المرجع لهم هو آية الله منتظرى ، وهو يعارض وهو على رأس هرم من الاتباع الذين يمتدون حتى إلى خارج إيران ، ويتلقى «الخمس» من مال كل شيعى حتى وهو تحت الإقامة الجبرية ، وينشر آراءه فى الصحف ، وأدت المظاهرات المؤيدة له فى أصفهان إلى فقدان وزير الداخلية عبدالله نورى منصبه عندما سحب مجلس الشورى الثقة منه ، والمحكوم عليه بالسجن من محكمة مختصة بمحاكمة العلماء ، رغم أنه أحد رجال الدين و«حجة الإسلام» ، وله تاريخ مجيد وحصل على أعلى الأصوات فى الانتخابات المحلية ، وهو ضحية الصراع الذى يدور اليوم بين المعتدلين والمتشددين.

الشخصية الإيرانية

وأخذ المراقبون يتساءلون عن نتائج هذا الصراع ، وسر ما جرى ويجرى فى إيران ؟ . يتلمسون الأسباب والدوافع التى جعلت الإيرانيين يتصدون للقهر ويعرضون أنفسهم للموت ويحاصرون المطارات والمعسكرات أثناء الثورة ، ويبرز سؤال .. هل هناك ثمة علاقة بين ما جرى ووجود شخصية إيرانية ذات سمات خاصة ؟

وظهر الكثير من الدراسات والتحليلات التى تتناول هذه المسألة ..

وهناك رأى شائع أن الموقع - أى الجغرافيا - هى التى صنعت ملامح الشخصية الإيرانية ، ويرجع البعض الآخر طبيعة هذه الشخصية إلى التاريخ الفارسى الذى صان هوية الفرس وحضارتهم ، وظهرت خلال هذا التاريخ



- بازار أصفهان، ووجه لأحد الدراويش فى أصفهان

وكأن روحهم لا تقهر . ويرى البعض الآخر أن الدين لعب دورا حيويا فى حياة إيران، وترك الكثير من الديانات بصمتها على الشخصية الايرانية .

وترى هذه الدراسات أن فهم أبعاد الثورة التى قادها رجل معمم هو آية الله روح الله الخمينى ، وحقق بكلماته التى أطلقها وهو فى باريس بعيدا عن وطنه ، وتنقل كلماته عن طريق الكاسيت ، وفعل ما لم تستطع عمله أحزاب كثيرة ثورية !، وهو ما يستحق التأمل حتى بعد عشرين سنة من قيامها .

ويتصف الإيرانيون بسياسة الرفق والمداراة ، والباطن عندهم ليس مثل الظاهر ، ويأخذون بـ «التقية» المستمدة من المذهب الشيعى ، الذى تعرض أتباعه للكثير من صور القهر والاضطهاد ، ويسعى الإيرانى إلى حماية نفسه ، ولا يفصح إلا عن القليل ، ولا يكشف المرء عن معتقداته الحقيقية أمام الغير ، ويكشفون أفكارهم لدى نخبة روحية خاصة ، وأحد نصائح الشاعر الكبير سعدى تدعو إلى عدم ركوب المخاطر إذا أمكن مواجهتها عن طريق الأصفر الرنان ، وإيران بوتقة قادرة على أن تطبع سكانها بطابع خاص، ويتحلى الفرس بالكرم وحفظ الود وعدم نسيان الأذية ، ويراعون آداب المجالس ، وهم مولعون بالفنون ، العزف والغناء والنقر على الدفوف والطبول وظهور أعذب الألحان ، ويحفظ معظمهم الشعر والحكم ، ويكاد لا يخلو متحف فى العالم من اللوحات للمنمنمات الفارسية .

وهم ميالون إلى الترحال ، ويوجد إيرانيون فى كثير من أنحاء العالم ، والإيرانى ذكى وله بصيرة صادقة ، وهو ميال بطبعه إلى الدعابة ، وفى حديثه الكثير من النوادر والأمثال . وهناك مثل إيرانى يقول .. «إذا عشت فترة فى إيران فلن تعود كما كنت عليه من قبل» ، فتأثيرها طاغ على زائرها . ويقال ... «من النادر أن تتفق شخصيتان ايرانيتان على شئ واحد فى إيران» .. ويقول الجاحظ مداعبا .. «كل الديوك تطعم إناثها إلا الديك الفارسى.!»

طريق الحرير ..

تقع إيران فى قلب آسيا وهى المدخل لبعض دولها ، وهى بلاد شاسعة ومتنوعة ، فيها الجبال العالية والوديان والغابات والأنهار والصحراء ، وألقت الجغرافيا بظلها على شخصيتها ، عندما حالت الجبال من انتقال اللغة العربية إليها فى الوقت الذى دخلها الإسلام ، وشكلت الجبال الحد الفاصل بين العرب والفرس ، بين شعوب سامية وأخرى آرية ، ولم يحل الجبل دون انتقال الدين ، وعجزت اللغة العربية عن تسلقه وعبوره .

ولعل التنوع اللغوى والعرقى أحد العوامل المؤثرة فى الشخصية الإيرانية فاللغة الفارسية هى السائدة يتحدث بها ما يزيد عن نصف السكان ، ولكن تقف إلى جوارها لغة البوشتو الأفغانية ، واللغة العربية فى خوزستان والكردية فى كردستان .

وتسعى الإدارة الحالية إلى مواجهة

هذا التقسيم العرقى عن طريق نوع من اقتسام السيطرة بين مختلف الجماعات العرقية التى يوحدها الدين ، فسيطر الفرس على الحكومة ، والأذر على الاقتصاد ، ومنحت بعض المناصب الهامة فى الجيش والحرس الثورى لممثلين لكل من العرب والترك . ويتعامل الدستور الحالى مع مواطنين متساويين فى الحقوق ولا يتعامل مع أقليات قومية أو دينية .

ولعل طريق الحرير وما يشهده من تغيير هو أصدق تعبير عن أثر الجانب الجغرافى .

الزمان : ١٣ مايو سنة ١٩٩٦ ، والمكان : خيمة كبيرة وسط صحراء إيران، تتوالى وفود ٤٠ دولة ، بينهم رؤساء دول آسيا الوسطى ، وأيضا رؤساء كل من تركيا وباكستان وأفغانستان وأرمينيا وجورجيا .

وخلال هذا الاجتماع تم الإعلان عن إحياء طريق الحرير القديم ، وإقامة شبكة سكك حديد آسيا ، ويصل خط السكة الحديدية بين بكين شرقا والبحر المتوسط غربا ، وبين بكين واسطنبول . ووصف لى بينج ممثل الصين هذا الخط أنه يرمز إلى التطلع إلى القرن الحادى والعشرين .

وتستعيد إيران بهذا المشروع مكانتها كمفترق طرق بين آسيا وأوروبا والشرق الأوسط ، ويغيب دور إيران القديم كسد أمام الشيوعية ، الذى كان بسببه يدعمها الغرب ، وتحولت إلى ممر ومعبر لجمهوريات آسيا الوسطى ويصل بمنتجاتها إلى المياه الدافئة . ويقوم من جديد الطريق الذى رسمه التجار منذ ما يزيد عن ألفى عام ، وهو ذات الطريق الذى قطعه الفاتحون ، مثل الاسكندر الأكبر والرومان والجيوش العربية وجحافل كل من جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك ، واقتفى أثره الرحالة ابن بطوطة وماركو بولو .

ويتحول الطريق من مجرد ممر للدواب والجمال ذات السنامين والخيل والحمير والبغال ، إلى القاطرات وطريق للسيارات والشاحنات ، وفى الماضى كان الحرير هو أهم المنتجات التى تنقل على الطريق ، واليوم النفط هو أهم المنتجات التى تسلكه، وعن هذا الطريق جاء من الصين أكثر المنتجات أهمية من الناحية الثقافية ، جاء منه الورق الذى أحدث ثورة فى التواصل الحضارى فى العالم .

ويشكل هذا الطريق رابطة العقد بين الشرق والغرب ، وهو درب الحج إلى مكة المكرمة ، واسترد قيمته بعد أن استرد النقل البرى مكانته وأصبح أفضل وأرخص وسيلة للنقل .

ويتأكد باحياء الطريق دور إيران كبداية آسيا ، فهى ذات علاقات دينية ولغوية وعرقية مع جمهوريات آسيا ، وخاصة جمهورية أذربيجان المقسمة مع إيران ، وطاجاكستان ، التى ينتشر فيها مع أذربيجان المذهب الشيعى . كما أن عدد المسلمين فى الجمهوريات التى كانت تابعة للسوفييت يبلغ اليوم نحو ٧٠ مليون نسمة .

ولم تكن إيران منكفئة يوما على ذاتها

داخل الهضبة الإيرانية ، وإنما كان تأثيرها يمتد إلى ما حولها .

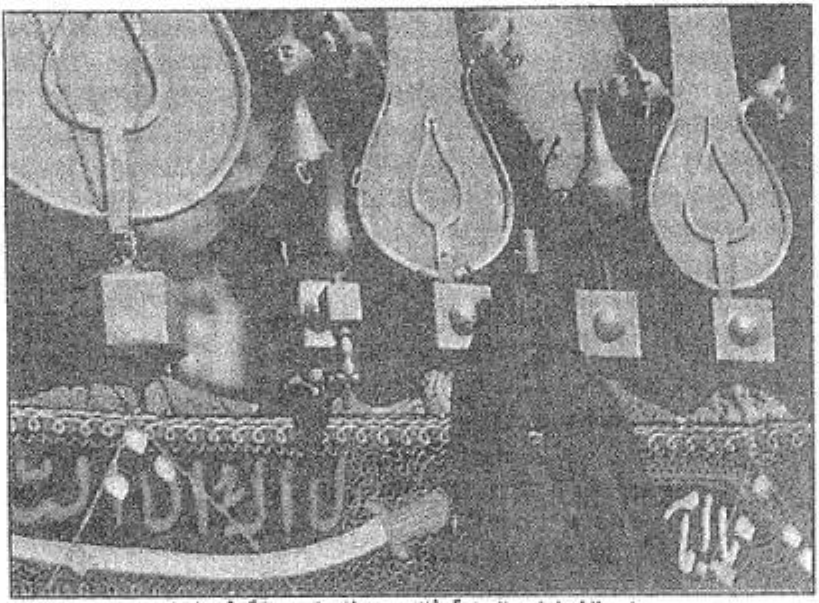
ويرتبط بالجانب الجغرافي ما يجرى على الحدود الإيرانية الأفغانية ، ولم تفتح الحدود بين البلدين إلا مؤخرا ، وهى حدود ساخنة سواء نتيجة ما يجرى فى أفغانستان ، أو لأن هذه الحدود هى أحد طرق تهريب المخدرات من داخل أفغانستان ، وتسعى العصابات الدولية إلى عبور الحدود الإيرانية الأفغانية ، وتنقل منها إلى دبى ، ومن دبى إلى أسواق العالم ، ومنطقة الحدود يسكنها «السنة» وتمتد عشائرها إلى كل من أفغانستان وباكستان ، مما جعل ضبط الحدود مسألة بالغة الصعوبة ، وترتبط مصالح البعض باستمرار الحرب الأهلية والصراع المسلح ، ومناخ الحرب الأهلية هو المناخ المناسب لزراعة المخدرات وتهريبها ، وفى العام الماضى انتجت أفغانستان نحو ٤٠٪ من أفيون العالم ، وفى هذا العام انتجت ٧٥٪ من إنتاج العالم ، وتستمر المعركة بين المهربين وحرس الحدود الايرانى ، وسقط فى هذا الصراع من رجال حرس الحدود ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ حارس إيرانى ، وخلال زيارتنا لإيران أخذت إحدى العصابات الدولية بعض السياح الأجانب كرهائن ، وطالبت بالافراج عن عدد من زعماء عصابات المهربين ، واستجابت الحكومة الإيرانية لمطالبهم ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى .!.

أعمدة الشرق

إذا كانت مصر هى مدخل أفريقيا والعالم العربى ، وتركيا مدخل أوروبا ، فإيران هى مدخل آسيا ، وآسيا هى مركز ثقل الإسلام وبيته الحقيقى - كما يقول د. جمال حمدان - وهى تضم وحدها أربعة أخماس مسلمى العالم ، وهى قلعة وكعبة وقلب ، وان كان عدد المسلمين فيها لا يزيد عن ٢٠٪ من سكان القارة ، نجد فى هضبة إيران كتلة إسلامية موزعة بين إيران وأفغانستان ، وتنفرد إيران بأنها كتلة الشيعة الأولى فى العالم ، فهى موطن الإثنى عشرية التى يمتد نفوذها غربا إلى جنوب العراق ، وبدرجة أقل شرقا فى أفغانستان وبعض باكستان ، ويوجد على التخوم المشتركة بين تركيا وإيران الإسلام فى أرمينيا والقوقاز وأذربيجان ، ثم يصل إلى سفوح الجبال الشمالية حتى سواحل بحر قزوين الغربية .

وأصبح فى حكم الحقائق الجغرافية والسياسية المقررة ، أن الشرق الأوسط له ركائز ثلاث ، تمثل أعمدة الشرق ، وهذه الركائز الثلاث هى مصر وتركيا وإيران ، وهى دول متشابهة من حيث الأهمية الاستراتيجية والوزن التاريخى والسكانى فتعداد كل منها يتجاوز ٦٠ مليون نسمة ، ولكل منها موقع استراتيجى حاكم في الإقليم الذى تنتمى إليه، وهناك جهود دولية دائمة لكى تتقطع أوصال هذا المثلث!.

ومن المفارقات فى هذا المجال .. أنه يوم كانت إيران جسرا وأداة للغرب فى الشرق الأوسط ، ومصدر النفط الرئيسى لإسرائيل وعضوا فعالا فى الأحداث العسكرية الغربية ، وشرطى الخليج الذى يقوم بالدفاع عن المصالح الغربية ، وعندما نجحت إسرائيل فى كسب إيران ، لكى



بعض الشعارات الدينية فالتدين ظاهرة عريقة في ايران



خريطة ايران وما يحيط بها

تحاصر العالم العربى بمثلث يضم الحبشة وإيران وتركيا ، فتحت أمامها كل الأبواب فى العالم العربى ! .

وعندما أعلنت تأييدها لتحرير القدس، ودعمها لحق الشعب الفلسطينى فى استرداد حقوقه المشروعة ، نشبت الحرب العراقية الإيرانية ، وتدهورت العلاقات العربية الإيرانية ، وأغلقت أمامها بعض أبواب العالم العربى .

رغم أن العمالة الإيرانية فى الخليج تصل إلى نصف مليون إيرانى ، كما أن نسبة الشيعة فى دول الخليج تصل إلى ٢٥٪ من السكان . وتمثل إيران حجر الأساس فى محيط الشيعة الإثنى عشرية، الذى يبلغ عددهن نحو مائة مليون نسمة . فالشيعة ٧٥٪ من سكان البحرين ، وبين ٣٠و٤٠٪ من سكان الكويت ، و٢٠٪ من سكان الإمارات ، ونسبة مرتفعة من سكان المنطقة الشرقية فى السعودية .

وهناك عامل له تأثيره الواسع على ما يجرى فى إيران ، وهو وجود عدد كبير من الإيرانيين فى الخارج ، والذى يصل عددهم إلى مليون إيرانى يعيشون فى أمريكا وكندا وبعض الدول الأوروبية .

تركيا وإيران

ومن المفارقات .. ذلك الصراع المستمر بين تركيا وإيران ، قديما كان بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة ، وحديثا كان الدولتين تسيران فى اتجاهين متعاكسين، ترى تركيا ضرورة فصل الدين عن الدولة ، وتأخذ إيران بفكرة «ولاية الفقيه» الذى يضمن تطبيق الشرع.

وبينهما .. أعجب رضا بهلوى الأب بمصطفى كمال أتاتورك ، وسعى لتقليده والسير على خطاه، ومنع الحجاب وألغى العمامة ، وعمل على تغيير الحروف العربية بالحروف اللاتينية ولكنه لم يفلح .

ولهذا الصراع انعكاسات على جمهوريات آسيا الوسطى التى يتقاسمها الفرس والترك ، والسنة والشيعة ، بعضها يؤمن بالنموذج التركى والبعض الآخر يسعى لتطبيق النموذج الإيرانى ..

مصر وإيران

وهناك تشابه كبير بين مصر وإيران ، سواء من حيث الثقل السياسى لكل منهما، أو تأثيره فى الإقليم الذى ينتمى إليه ولا حاجة هنا إلى القول أن مصر ترمز للعرب أيضا ، كما يوجد تأثيرات متبادلة بين البلدين، أثرت ثورة مصدق فى إيران فى منتصف هذا القرن وتأميمه للنفط فى إيران فى مصر وكان لها صدى كبير، وما حدث كان موحيا ومؤثرا على الثورة المصرية التى قامت فى يوليو ١٩٥٢ ، وعادت الثورة المصرية لكى تقدم نموذجا موحيا للشعب الايرانى .

ومن جانب آخر فأكثر ما يلفت إنتباه المصرى عندما يزور إيران ، تلك الحفاوة التى يلقاها ، وكلمة «مصر» تفتح له كل الأبواب ، فلمصر تقدير عميق لدى الشعب الإيرانى ، وتمتد العلاقات المصرية الإيرانية إلى أعماق التاريخ ، وقد ذكر هيرودوت أن قورش ملك ملوك فارس طلب من فرعون مصر أن يبعث إليه بطبيب

ماهر في علاج العيون . ولبى فرعون وأرسل الطبيب ، وخطب بعدها قمبيز ابن قورش ابنة فرعون مصر .

ويتواصل التفاعل بين مصر وإيران ، وقام عدد من الأساتذة الأكاديميين في تقديم الثقافة والأدب الفارسي للقارئ العربي ، منهم الأساتذة عبدالوهاب عزام ويحيى الخشاب ومحمد صقر خفاجة ، وتوالت الأجيال حتى الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا . وأقيمت أقسام تعلم اللغة الفارسية في معظم الجامعات المصرية التي أخذت تؤكد على التأثيرات المتبادلة بين الحضارتين والثقافتين .

وإذا كان ٤٠٪ من المفردات الفارسية عربية ، فقد انتقلت إلى اللسان المصرى الكثير من الكلمات الفارسية ، والتي ذكرها د. محمد نور الدين عبدالمنعم في كتابه «الألفاظ الفارسية في العامية المصرية» ، ودخلت هذه الألفاظ إلى العديد من مناحي الحياة .. في الطعام كلمات فارسية مثل بقلاوة وخشاف وبالوظة وزلابيه وباذنجان وبقسماط وكباب وكشك وطرشي .. وغيرها .

وفي الملابس كلمات مثل بفتة وبؤجة وجوخ ودبارة وفوطة وقفطان وكليم وكتار وياقة وكم .. وغيرها .

والأدوات المنزليـــة .. إبريق وبرواز وجنزير ودبوس ورف وشمعدان وطاسة وسبت وشاكوش وشنطة وكباية وكنكة وكوز وغيرها علاوة على كلمات مثل أوسطى وهندسة وداية ودكان ..

وهذا دليل على التفاعل الثقافي سواء أيام الخلافة الإسلامية وخاصة العباسية ، أو أيام الفاطميين أو المماليك ، ووفد الفرس إلى مصر علماء ومتصوفة من إيران ومنهم الليث بن سعد إمام أهل مصر وأكبر فقهائها ، ولا يمكن هنا إغفال حضور السيد جمال الدين الأفغاني من إيران إلى مصر واللقاء الذي تم بينه وبين الشيخ محمد عبده ، وقادا معا حركة التجديد الإسلامي .

وتأسس في القاهرة في الأربعينيات دار التقريب بين المذاهب وتبني هذه الدعوة علماء الأزهر الشيخ عبدالمجيد سليم والشيخ محمود شلتوت ، ومن علماء إيران الشيخ تقي الدين القمي ، وعند تولي الشيخ شلتوت مشيخة الأزهر سنة ١٩٥٨ جعل المذهب الشيعي الجعفري أحد المذاهب التي تدرس في الأزهر ، مثله مثل المذاهب الأربعة .

ويبقى أن أقول .. أن أهم ما خرجت به من هذه الرحلة ، أن المشاكل واحدة في هذا الجزء من العالم الذي يطلق عليه الشرق الأوسط ، ذات المشاكل حتى إذا تغيرت المسميات ، وإن لبست أردية مختلفة واتخذت ألوانا متعددة ، فالتشابه قائم ، والاستفادة من تجارب بعضنا البعض ضرورة ، والتعاون مهم من أجل اللحاق بالعصر ..

فكثيرا ما تصورت عندما كنت أتجول في طهران أو أصفهان ، أنني مازلت في شوارع وأحياء القاهرة . فعبق الشرق واحد .

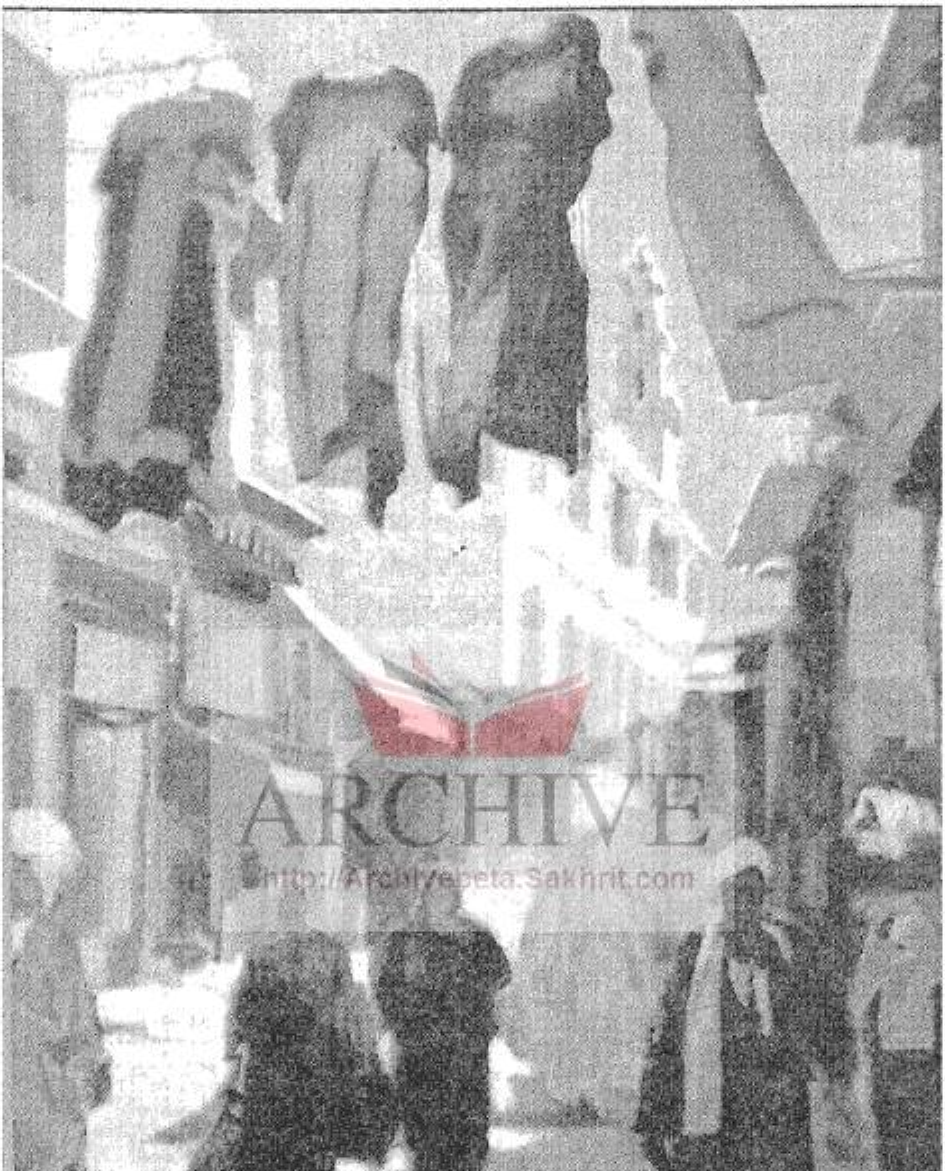
جولة المعارض

زهران سلامة

والحنين إلى المنظر الخلوى

بقلم : محمود بقشيش

لحسن حظ الفن أنه ، مهما تراكمت مدارسه وأساليبه عبر تاريخه، فإنّ الجديد منه لايطمس قديمه كلَّ الطمس، بل على العكس تظلّ إبداعاته العظمى مستمرة العطاء، متجدِّدةً في شرايينِ التطور . كلّ مدرسة وكلّ أسلوب فى الفن هو حضور تناسل من موجودٍ فنىّ سابق، وبحكم طبيعة الموجود الفنى الجديد المخالفة - فى بعض جوانبه - مع الجذْر الأسبق - سواء كان جذراً قديماً أو حديثاً - فى هذا الإطارَ الحنينى قدّم الفنان «زهران سلامة» معرضا بقاعة بيكاسو للفنون الجميلة، تدور كل لوحاته حول موضوع «المنظر الخلوى» الذى تجلّى فى المرحلة التأثيرية التى وجدت فيما بين (١٨٦٣ - ١٩٠٠) وأحدثت ثورة فنية ماتزال أصداؤها قائمة .



مشهد من شارع الغورى

وعندما أخرجت «التأثيرية» الفنانين من المراسم المغلقة إلى فضاءات المشاهد الخلوية منحتهم الطريق إلى اكتشافات باهرة فى مجالى اللون والضوء، بعد أن كان المنظر الخلوى فى اللوحة الأوربية، منذ القرون الوسطى مجرد خلفية مُتَخَيلة، أشبه بديكور المسرح. وأفلحت التأثيرية فى إبعاد الفنانين عن استلهام الموضوعات ذات الطابع المسرحى - الحكائى . والتركيز على جماليات البيئة الطبيعية لهذا تُعَدُّ التأثيرية - بحق - فناً للبهجة والتفاؤل .

الترحال

مثلما اختار التأثيريون الأوائل الترحال طريقاً للكشف عن جماليات البيئة، أقام «زهران سلامة» رحلاتٍ متلاحقة داخل مصر وخارجها منذ تخرجه فى كلية الفنون الجميلة (قسم التصوير) سنة ١٩٦٢ بقصدٍ واحد لم يُبذله وهو الإمساك بمواطن الجمال فى الوطن المصرى، تلك المواطن التى أهملتها بلادة الحس. ولأنه يمتلك مهارةً فائقةً فى نقل الواقع فإنه يختار - أحياناً - عناصر قد تبدو لنا هامشيةً، عديمة القيمة، ولكنه يبثُّها حياةً جديدةً تثير إليها الانتباه والإعجاب. ورغم ذلك فلابد من الاعتراف بأن البيئات الأوربية قد أتاحت لرساميها التأثيريين من صفاء اللون ما لم تتحه لرسامى البيئة القاهرية التى تُجبر رساميها - ومنهم زهران - على إلتقاط تلك الستارة المغْبَرة، المُسدَلة على وجهها فتُعكرٌ صفاء اللون وهو شرط اللوحة التى تنتمى إلى هذا الأسلوب، وقد ظنَّ «يوسف كامل» - بحسن نيّة - أنه فنان تأثيرى، على الرغم من تلوث ألوانه بالألوان القاتمة التى ينفر منها التأثيريون، قال عنه نفسه: «لقد ولدتُ وسأموت تأثيرياً». وربما كان الفنان «حسن سليمان» من أوائل الفنانين الذين إلتقطوا تلك الستارة المتْربة التى تلوث وجه القاهرة وسماها، وانتقلت إلى نسيج لوحاته وأغرقتها باللون الرمادى، غير أنها فى لوحات «حسن سليمان» كانت تمتلك من الجاذبية ما جعلها تُؤثر فى غيره من الفنانين - ومن بينهم فناننا «زهران سلامة» - وكان عليه، لتنقية ألوانه وتحريرها من أسر الحياد الرمادى أن ينفلت من القاهرة ذاتها، وربما لاحظ «زهران» أن القاهرة لم تكن على هذه الدرجة من التلوث فى زمن الرسامين المستشرقين، وتكشف لوحاتهم عن القاهرة عن صفاءٍ بالغ، لا أثر له الآن،

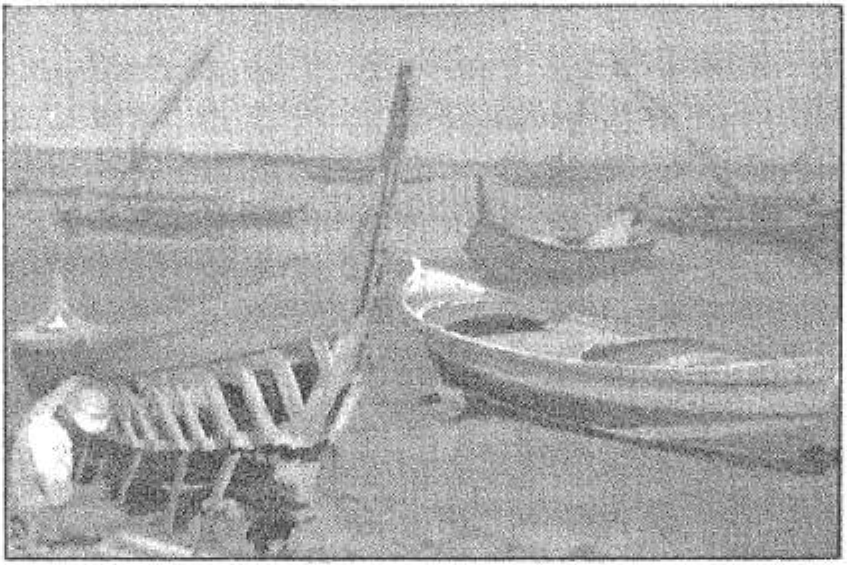
ونحن نصدق لوحاتهم لأنهم كانوا يتميزون بدقة الوصف، اختار «زهران سلامة» لنفسه قطعة أرض برأس سدر، أقام عليها مرسما ومأوى، وأحاطها بما استنبته من محصولات يقتات بها. ويعيش راهباً، يتأمل ما تمنحه الصحراء والبحر من صفاءٍ وهدوء، لامثيل له فى القاهرة. وهو يتحصَّن فى عزلته بالصدق، مبتعدا عن طوفان البِدَع التى تُروِّج لها وزارة الثقافة الحالية بدعوى العولمة، وهى دعوةٌ فى جوهرها إتباعٌ واغتراب وخواء.

انطباع الوهلة الأولى

عندما احتوتنى قاعة العرض أدركت – للوهلة الأولى– أنّ بعثاً جديداً قد حدث وأن سببه هو البيئة الجديدة التى اختارها لنفسه، وجاءت ألوانه هذه المرة صافيةً، ظهرت الألوان الساخنة والباردة صريحةً، بعد أن كانت تتخفى تحت غطاء رمادىّ قاهر، مُشْمسةً، تسطع بحضور قوىٍ، وأسبقية على الحياد الرمادى. وهو لايُفتّت اللمسات مثلما يفعل التأثيريون، بل يترك للعين فرصةً للتمتع بمساحاتٍ لونيةٍ واضحة، كما فى لوحته المسماة: «صناعة مراكب الصيد»، حيث جاءت الطلاءات اللونية التى تُغطى أجسام المراكب مُبرِّرة، ووضعها فى مقدمة اللوحة، ونشر الألوان الزرقاء والسماوية خلف المشهد لِتُزيد من قوة الأصفر الأوكر والأحمر والأخضر والأبيض، وتؤكد صلابة مشاهد المقدمة. وفى لوحة أخرى يتغنى بسطح بحيرة صغيرة صافية كمرآة، تنعكس عليها الألوان والظلال، تحيطها من كل جانب مساحات من خُضرةٍ مُشْمسة، ضاربة إلى الصفرة، ولأنه فى الأصل ابن ريف فقد قدّم فى عددٍ من لوحاته بعض عطاياه، فى رسم مشاهد من ريف مصر مما أتاح الفرصة لظهور مساحاتٍ من الخضرة المضيئة.

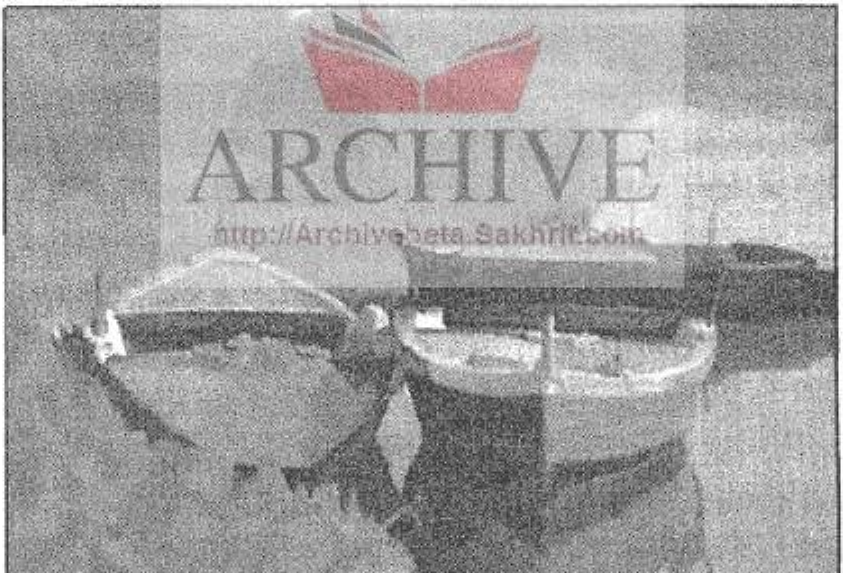
غرائبية الأشياء المعتادة

كان «بول جوجان» يعيب على «فان جوخ» فى رحلاتهما المشتركة إلى المشاهد الخلوية بأنه بلا خيال، مجرد عين تلتقط ماتراه مباشرة وتنقله إلى سطح اللوحة، وكان «فان جوخ» يرفض هذه الإتهام، غير أنه فى إحدى رسائله إلى شقيقه يعترف بأنه ليس أكثر من عين، وربما انتبه «زهران» إلى ذلك وأدرك أنه ليس آلة تلتقط ماتراه العين، من هنا ظهرت بعض محاولاته – خصوصا عندما تمرَّد على الغطاء الرمادى بالألوان الصريحة – وتؤكد تلك المحاولات حرصاً طارئاً منه على اكتشاف مافى المألوف من إشارات تثير الدهشة. ومن اللوحات الدالة على ذلك لوحة رسمها تصور جانبا من جوانب



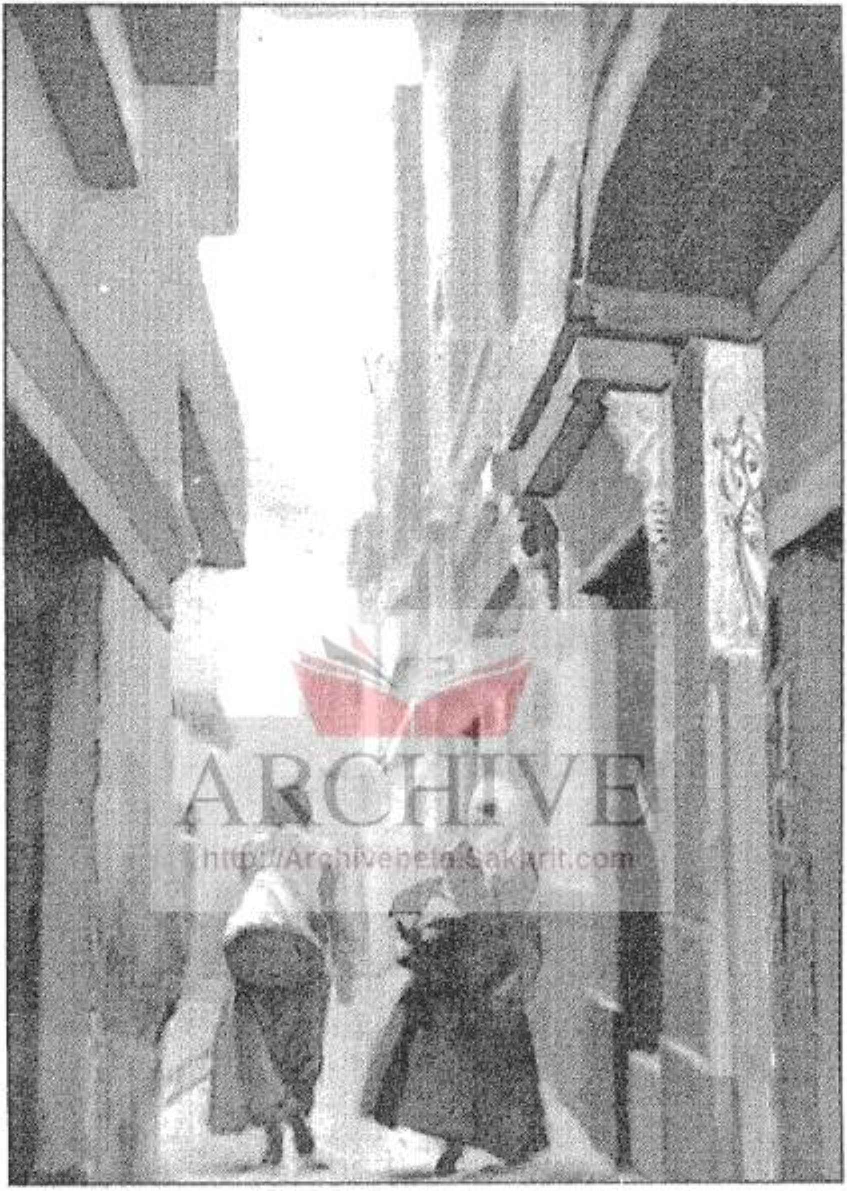
صناعة المراكب

بحيـرة من نور



ذات الرداء الأحمر





من أعمال الفنان زهران سلامة

الشارع المتخم بالمتاجر والبشر، والأمر عند هذا الحد مألوف، لا جديد فيه، وأغراه ذلك برسم ثياب مغلقة في فضاء اللوحة العلوي حيث بَدَت في تدلّيها أشبه بكيانات إنسانية مشنوقة، وقد شهد تاريخ المنطقة في قرون مضت مآسي تذكرها الفنان وأراد لنا أن نتذكرها بالإشارات الرامزة.

على أن تلك الإشارات الطارئة تُعمّق المشهد الاعتيادي، وتدعونا إلى تأمله من جديد، ويدعونا – أحيانا – عامدا متعمداً إلى رسم مشاهد غير معتادة، شكّلتها عوامل الهدم والبناء الإنساني والطبيعي، فيتوقف بريشته وألوانه أمام أطلال، ويدرسها دراسة وصفية دقيقة، مُركِّزاً على الكتل والحجوم، ومقابلات الضوء الساطع والظل الكثيف، في مثل هذه المشاهد لايضيف إليها ما أضافه في لوحة شارع الغوري، بل ينقل ماهو غريب في الواقع المرئي إلى سطح اللوحة بأمانة تقتضي مهارة فائقة، يتمتع بها بالفعل زهران سلامة، وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فقد ذكرتني لوحة «أطلال» لزهران بلوحة للفنان الألماني (كاسبر داڤيد فردريش - ١٧٧٤ - ١٨٤٠) وهو أهم رسام للمناظر الخلوية في ألمانيا ولوحة «فردريش» تسمى «بحر من جليد» ويُطلق عليها عنوان آخر هو : «تبدُّد الأمل أو فقدان الأمل» وهي تمثل آثار اصطدام مُروّع لسفينة في جبل عائم، واللوحة لاتُظهر أيّ أثر للسفينة، بل تُظهر بجلاء كُتل الجليد المهشمة، وقد بدتْ خشنة الملامح، حادة الحواف، والمشهد في جملته يلقي في النفس شعورا بالإكتئاب، وهي حالة قد لازمت «فردريش» نفسه طوال حياته، وكانت ريشته التي لا نظير لها في البراعة، لاتتألق تألقها الرائع إلا مع المشاهد الخلوية الموحشة، مثل مشاهد المقابر والأديرة التائهة في البراري وخلف التلال البعيدة، بينما ظهرت أطلال «زهران» تحت شمس مصر الساطعة وكأنها معرض لمنحوتات صنعتها المصادفات وجاءت بها إلى ريشة حاذقة فالتقطتها ونقلتها إلى سطح اللوحة، غير أن تلك الحيادية لاتظل كما هي في كل الأحوال، ففي لوحة: «أطلال أسوانية» أو «أحجار أسوانية» – إن شئت – تتسلل إلى المشهد المرسوم روح شعرية مُرهفة ومن زار أسوان يجد أن عوامل التعرية قد نحتت في أحجار الجبل أشكالا تحسبها – للوهلة الأولى – من إبداع كبار المثّالين! ..

جولة المعارض (٣)



القوارب معزوفات غنائية مع شباك الصيد

فى متحف سيد عبدالرسول

رقصات الخيل والمزمار .. وموال من مصر

بقلم: صلاح بيصار



من الشرفة .. ايقاع يتدفق بسخو الألوان ورشاقة الشخوص

فى قاعة أنيقة تطل على حديقة خضراء بضاحية مدينة نصر .. تمتد أعمال الفنان سيد عبدالرسول بمصرية شديدة .. تتـألق على الحـوائط والزوايا والأركـان فى تنوع وثراء من التصوير والحفر إلى الخزف والفخار والنحت .

من بين الأعمال كانت تطل الخيول الراقصة .. تهتز طرباً على إيقاع المزمار البلدى والربابة والأرغول فى لوحة مواجهة لها ، وفى حضرة صبايا الريف ، واللائي خرجن يتطلعن من فتحات صندوق الدنيا بلوحة مجاورة .

كان هذا المشهد بمثابة همس شاعرى أخاذ وفرح صامت يصدح بغنائيات اللون .. يردد بداخلنا «اتفـرج يا سـلام» هذا التعبير الشعبى الذى يتـواءم مع عالم الفنان عبدالرسول الذى رحل عن دنيانا منذ أربع سنوات، واحتفت أسرته بفنه فجاءت هذه القاعة بمنزله بمثابة متحف صغير يضم أعماله طوال رحلته الفنية لأكثر من خمسين عاماً ، وكانت تلك المناسبة فرصة للدخول إلى عالمه .

أبو زيد وعنترة

ولد سيد عبدالرسول عام ١٩١٧ بحارة الجوانية بالجمالية .. حارة حانية ودودة من حارات قاهرة المعز المسكونة. بسحر الأبهاء والكوى والمنافذ وخلاصة الوجدان الشعبى .. تحتضن فيها البيوت فى تواؤم وانسجام محفوفة بالقباب والمآذن والأضواء والظلال .

ومنذ بداية الطفـولة تربى على تلك الصور والأخيلة والتى كان يطالعها وهو فى طريقه إلى الكتّاب .. صور تشبعت بها روحه الشفيفة .. من مواكب الطرق الصوفية إلى عازفى الربابة والمداحين الجوالين وتصاوير عنترة وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن .. تتصدر الحوانيت الصغيرة ومتاجر «المنى فاتورة» مع بديع الألحان لخالد الذكر «سيد درويش» والتى توحدت مع ثورة ١٩ وجسدت تلك المشاعر والأحاسيس الوطنية التى حملت رياح التغيير فى الأدب والفن والموسيقى .

وكان يطربه هذا المشهد الذى يطالعه فى كل عام مع قرب قدوم الحجيج ويقف أمامه طويلا .. حيث تنساب الخطوط فى

سذاجة وتلقائية من فرشاة نقاش الجمالية يغمسها فى شتى الألوان على واجهات البيوت يصور مراكب تتهادى على الماء وجمالا تشق الصحراء وقطارا بمدخنة ونخلة وحمامات وورود وأزهار .

وعند قدوم المولد الشريف تطل عروسة المولد على الرفوف الخشبية تضج بالبهجة من تلك الألوان الصارخة .. وكانت تطول قامته يتطلع إليها يود لو تكبر وتكبر حتى تصير فى حجمه حتى يهمس إليها وتتحدث إليه عن هذا السحر الشعبى الذى لا ينتهى .

داخل الكتّاب وفى كل يوم يغيب عن الشيخ ويغمس قلمه البسط فى دواة الحبر وتسرح يده فوق اللوح الصفيح يصور كل ما تمتلئ به عيناه فى الذهاب والعودة من تلك المباهج التى تجسد عمق الروح المصرية .

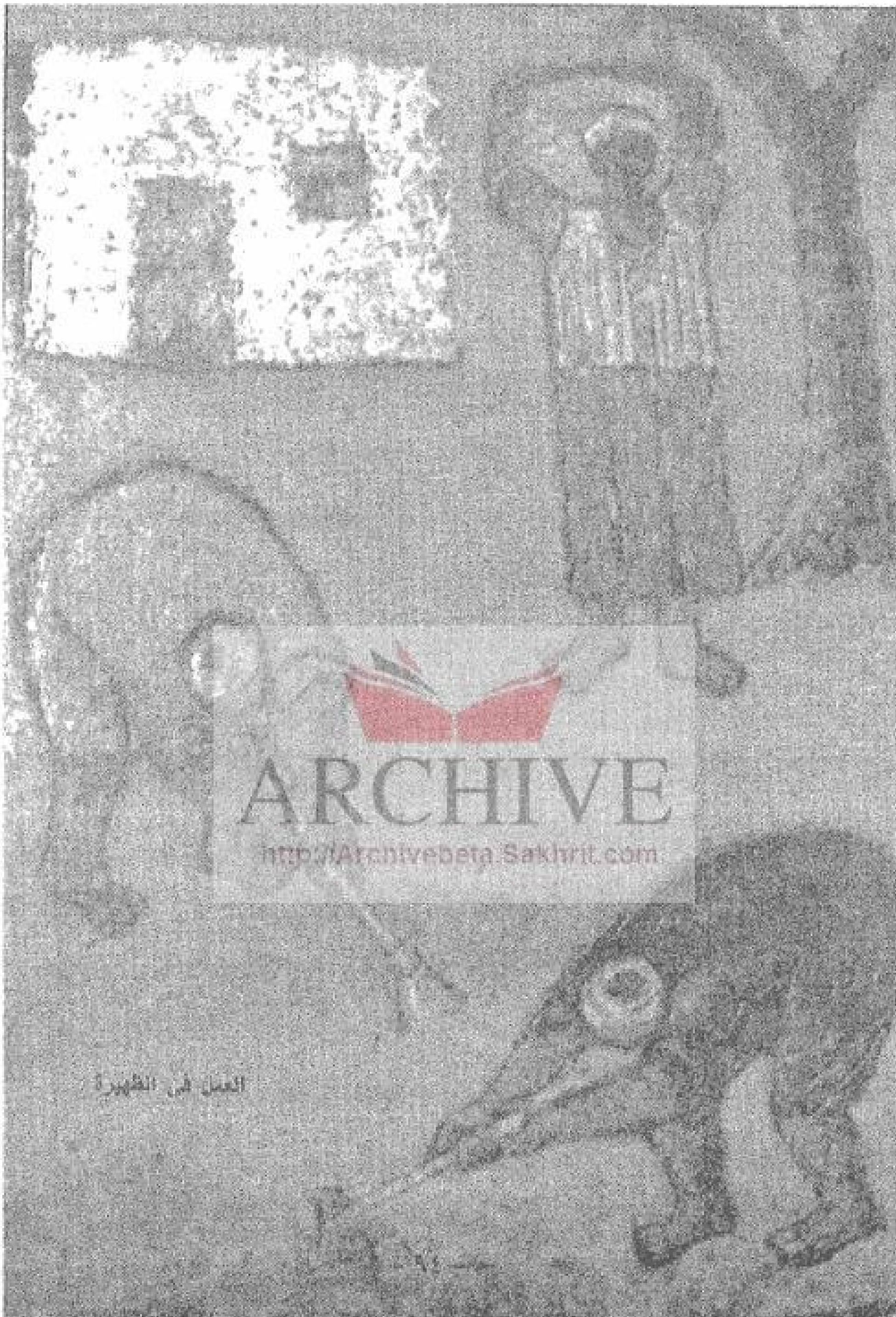
وبعد حصوله على الابتدائية من مدرسة محمد على ولشدة تعلقه بالفن يلتحق بالمدرسة الايطالية للرسم والنحت «ليوناردو دافنشى»، وبعد تخرجه عام ١٩٢٨ تقرر المدرسة ارساله فى بعثة إلى ايطاليا لتفوقه، ولكن موسولينى يدخل الحرب ويعطل الفنان سيد عن الذهاب إلى هناك وتتعطل المدرسة أيضا ويجد نفسه فى الشارع، لكن إصرار الفنان بداخله يواصل الإبداع بلا قيود ولا حدود متمثلا طه حسين الذى سكن حارته «الجوانية» من قبل وكانت «الأيام» دليلا له على الإصرار والتوثب حتى التحق عام ١٩٤٢ بالقسم الحر بكلية الفنون الجميلة، ومع صراعه مع الطين والألوان تتلمذ على يد أستاذه الرائد أحمد صبرى لمدة أربع سنوات .. بعدها يتجه إلى ايطاليا ليحصل على أكثر من دبلوم من أكاديمية روما ويدرس هناك الزخرفة وفن الميدالية والحفر، وهناك يستوعب اتجاهات الفن المعاصر مع تمثله لتراث بلاده الذى ترسب بداخله فتمتزج التقاليد التصويرية الغربية بالروح الشرقية الأصيلة التى تعمقت فور عودته حين سافر إلى طيبة «الأقصر» فى بعثة بالمرسم هناك لمدة ثلاث سنوات .. امتلأ فيها بآيات الإبداع الفرعونى وسحر الطبيعة والنبض الشعبى فى جنوب الوادى كل هذا جعل منه مع الفنان سعد كامل رائدا من رواد المدرسة الشعبية التى بدأها الفنان الكبير راغب عياد .

صندوق الدنيا

إذا كان الفنان سيد عبدالرسول قد استلهم الفن الشعبى المصرى عموما فى أعماله إلا أنه خرج به إلى إيقاع جديد بما يجعله إيقاعا يمثل إضافة متسعة فى الإبداع التشكيلى المصرى عموما .

لقد استفاد الفنان من كل الصور الشعبية بدءا من الحصير القش الملون والكليم الشعبى والمفارش، والبسط إلى الحكايات والملاحم والأساطير مع عزيزة ويونس وصندوق الدنيا .

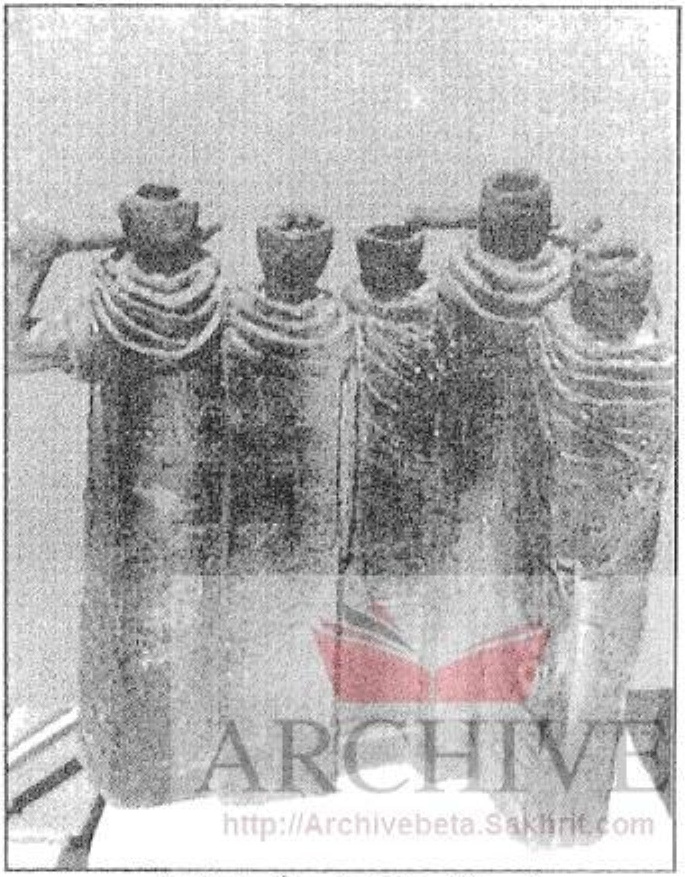
من هنا يمتد عالمه بين الطقوس



العمل في الظهيرة



رقصة الحصان مع البيارق والإعلام



في رشاقة واستطالة تجمع أعماله النحتية
بين مسحة الماضي واللمسات المعاصرة

والأفراح وبين أنشطة الحياة اليومية بمعنى آخر يمتد بين التحطيب ورقصات الخيل وعازفي الربابة والأرغول والدفوف والمنشدين والرقصات الإيقاعية لصبايا الريف مع هذه الثنائية الخالدة للرجل والمرأة التي تصور الحب، كما لو كانا عنتر وعبلة، أو ياسين وبهية وربما حسن ونعيمة .. إلى تلك اللحظات الحياتية التي يقتنصها الفنان من الريف المصري مثل فتاتين تغزلان القطن كما في لوحة

«المغزل» وحاملات الجرار والسوق والعمل فى الحقل وتجمع الفتيات والنظر من الشرفة .

وشخوص عبدالرسول تستطيل فى رشاقة وانسيابية فى تلخيص شديد يقترب من التجريد .. وقد تمثل إيقاع الجداريات الفرعونية من حيث النسق التشكيلى، كما استعان بمنطق النظم الهندسى لتلك النقوش الآدمية المرسومة على جدران مقابر الأشراف بمدينة طيبة ولكن بمفهوم معاصر جعلها تتزاوج مع روح العديد من النقوش والزخارف الشعبية .

وألوان الفنان تمثل سطوحا خشنة الملامس .. يغلب عليها اللون البنى بغموضه وامتداده فى الزمن مع الأحمر الوردى والأزرق والأخضر الزيتونى والكريم والبنفسجى وفى الغالب تحدها خطوط سوداء غير منتظمة .

وفى آخر مراحل حياته الفنية .. تطلع إلى الصفاء فى الأرض وفى السماء فجاءت كل أعماله حول حركة الحياة على النيل من القوارب والمراكب الشراعية صورها كلها من علو شاهق بمنظور عين الطائر .. وجاءت الأشرعة البيضاء كأكف تبتهل ضارعة تتعانق مع الأفق غارقة فى زرقة لا تنتهى من مياه صافية .

معزوفات خزفية :

وينقلنا الفنان فى أعماله من التصوير الذى يتميز بالاختزال الشديد إلى التشكيل فى الفراغ من نحت وفخار مع تلك المعزوفات الخزفية الصغيرة والتى استلهم فيها تجارب زوجته أستاذة الخزف وفنانة الحلى د. ليلى السنديونى .

وتظل أعماله المجسمة عموما امتداداً لعالمه التصويرى .. مسكونة بنفس الروح الشعبية .. وكلها أعمال مخروطية شديدة الرصانة .. لقد بهرت الفنان القلة الفخار باستدارتها البديعة : قلة الشرب وإبريق السبوع .. فجاءت الأشكال ترديدا نغميا لها .. مع مسحة من القدم تدخل بنا زمن بعيد .. حيث تغرق السطوح فى اللون المؤكسد من البنى والأزرق إلى الأخضر والزيتى .

وتتألق الأعمال فى تشكيلات متنوعة من حاملات الجرار والرعاة .. والثور والمرأة الجالسة .. وحاملة الإبريق لكن يظل الديك بتعبيراته العديدة والمختلفة فى أكثر من شكل .. من الاتزان والسكون .. إلى الحركة والرشاقة رمزاً لهذا الصياح الذى يبشر بنور الصباح .

من داخل المتحف الصغير .. تحية إلى روح الفنان سيد عبدالرسول بعمق الوجدان الشعبى المصرى وإلى أسرته التى كان لها هذا الفضل .

قصة قصيرة

لكأنو ظلاله

إدوار الخراط

بريشة : صلاح بيصار



نصبنا الخيمة الكبيرة على عمق نحو خمسين متراً من حافة الطريق، كان منار الرست هاوس يبدو لي بعيداً ولكن أليفاً.

وضعت لي طاولة خشب من طوايل القراتين، فرشت عليها بطانية مزدوجة، مطوية طيتين، والشالي ثاني مثلها تماماً. وكان فيه ترابيزة مرتجلة معمولة من صندوق شاي مقلوب، ورف واحد خشب، نصف طاولة فرن منصوب على رصيفين طوب أحمر، وعليه تموين الترحيلة الأسبوعي: علب الدخان أبو غزالة، وسجاير الكوتاريللي المصنوع في علبها البيضاء القواة التي تفتح لأعلى، كمشابك الورق المبللة وسجاير الفيل الفرط، بالواحدة، في صفيحة مدورة وأكياس الشاي الصغيرة الملصوقة بالكاف، تسرمس من ناحية اللسق حبيبات الشاي مدورة مفرفطة سوداء

قصة قصيرة

لهـا رائحـة، فى تلك الأيام لم يكن فيها ورق ملوخية مصبوغ ولا فول سوداني مصحون ومحروق. والسكر المكنة جنبه فى علب ورق مستطيلة، مرصوصة فى نصف صفيحة مقطوعة وموضوعة بدورها فى قعر برميل حديدى مضلع مملوء بالماء. احتياطا وترأ من النمل الذى كنت أجد طليعته المغامرة، كل صباح، غارقة فى الماء.

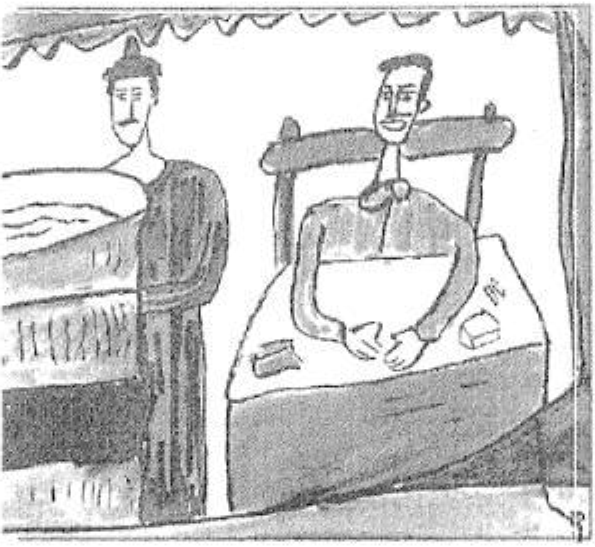
فقط. هذا كل شيء.

فى داخل الخيمة برميل حديدى، ملآن بالماء النظيف الرقراق، للشرب، لى ولخالى ناثان فقط. الكوز مربوط بدوبارة متينة فى ثقب بجدار البرميل تحت حافته العلوية، والبرميل مغطى بخشبة مربعة ماؤه بارد سلسال.

أما البراميل الآخرى، خارج الخيمة، فللعمال، أربعة، خمسة براميل.

ولكن هناك ـ دائما ـ برميل ثالث، من داخل الخيمة، بجانب بابها أى فتحتها القماشية التى ترفع بحبال صغيرة بالنهار ثم ترخى وتثبت بخوابير قوية فى الرمل أثناء الليل، وهو مخصص لماء الغسيل، والحموم..

كانت شغلتى أن أكتب ـ على ورق مسطر وتحته كربونة أحرص عليها كل الحرص، لم يكن هناك غيرها ـ يومية كل عامل على حدة، أضربها، الأجرة، فى عدد أيام الشغل، وأجمع المجموع آخر الجمعة ثم أكتب استجرارة الشاى والسكر والدخان على ورقة أخرى، من غير كربونة، ماذا أخذ على الحساب، بكم، وفى الآخر أطرح، وأسلم لكل واحد القرشين المستحقين له، واقفين فى طابور غير منتظم يدخل الخيمة واحد فقط، ولا يدخل التالى إلا بعد خروجه من الفتحة نصف المدلاة، نصف المرفوعة، وخالى ناثان يراجع بعدى، ويسلمنى القروش والملاليم الحمراء اللامعة، كانت اليومية ثلاثة تعريفة، والريِّس خمسة تعريفة بزيُّها، فإذا خسفنا منها استجرارة الشاى والسكر والدخان يطلع للواحد آخر الجمعة حتة أم قرشين وثلاثة أربعة



ملاليم، أو يمكن ثلاثة أربعة صاغ للبخيل الجلدة الذى يشرب دخانه أو شايه بالسحت، ويقبل على نفسه الجرسة والمهزءة.

كلها نعمة من عند ربنا، يبوس الواحد يده عليها، وش وضهر.

أنا بقى كنت أطلع آخر الجمعة بحتة بخمسة، بحالها، حوشت، وفى آخر الصيف اشتريت جمهورية أفلاطون ترجمة الاستاذ حنا خباز بخمسة وعشرين قرشا، والحضارة المصرية لغوستاف لوبون ترجمة الأستاذ صادق رستم بثمانية قروش، وكمان أديت لأمى، ولستى أماليا قرشين كده، كل واحدة اشترت لى حاجات، شبشب، شرابات، علبة بريانتين، كده يعنى.

فى ليالى الحر كنا ننام بره الخيمة، على طاولة القرانين، واتغطى بملاية - زى الفل طبعا، ستى أماليا كانت تغير الملايات كل أسبوع - والتف أحيانا بالبطانية على وش الفجر، من لسعة برد خفيف، ومازلت حتى الآن لا أعرف ألذ ولا أحلى من هذه النومة فى جفاف الصحراء، وصمتها الكامل، ونقاء الدنيا، وونس العمال النائمين على مبعدة قليلا ملفلفين فى خرقهم وأحرمتهم وممددين على الرمل مباشرة، أو على طوايل الخشب.

وكنت استغرب قليلا أن ينام اثنان منهم، أحيانا، فى حرام واحد ملفوف بإحكام عليهما.

وكنت استحم كل أسبوع مرة، مرتين،

عندما يأتى اللورى بالتموين، وبراميل الماء الجديدة، ينزلها العمال بحرص والمياه تنتشر وتطسهم وتنسكب منهم قليلا.

أسقط باب الخيمة القماش على الأرض وأثبته بالخوابير من الداخل، ويشيع ضوء خافت محمر قليلا من وهج الشمس على القماش الخارجي ونوع من الحر الحميم المشبع.

ومع انصباب الماء الجديد المنعش من الكوز، يزيح رغوات الصابون المدغدغة، كنت استمتع.

كنت أحيانا أقضى ساعات فى تجوال حر فى الصحراء، أقفل الخيمة بعد أن يأخذ كل واحد ما يريده فى يومه، وأهيم وحدى فى الرمل، ومع ذلك لا أجعل قمم أعمدة التلغراف تغيب عن عينى قط، هذه علامات طريقى إلى الأمان، لا أنى أتحقق من أنها هناك، كل لحظة فيما يخيل إلى ، فكم قرأت عن مواجع وفواجع التوهان فى الصحراء، وارتعبت منها، ولكنى لا يمكن أن أقاوم سحر الوحشة والصمت فى عمق الرمال، وقد غابت الخيمة والعمال، ووابور الزلط ورائحة الزفت المصهور وأكوام الأسفلت السوداء ملساء الجسم والزلط ونثارة الحجر الأبيض المدكوك، وقد غرقت فى خيالاتى وتهويماتى، ورجعت إلى صحبة عمر بن أبى ربيعة والمجنون، وجميل بثينة، وامرىء القيس، عشيقاتهم ومحبوباتهم ونسوتهم الأعرابيات مدورات البطن محزومات بعصابات حمراء عريضة على استدارة الأجسام البضة، مخزومات الأنف بحلق ذهبى مشرشر الحواف، موشومات الذقن بخطين متوازيين واللمى الأزرق الداكن على الشفة السفلى الملينة الواعدة بلذة لحيمة ومصفاة معا.

وجدت تلة عالية قليلا، واسعة، يغطيها حصى متعدد الألوان والأشكال والأحجام، ناعم الجسوم: مخروطية ونقية ومموجة محببة ومصقولة مدورة ومستطيلة كثيفة ومشطوفة نحيلة خطوط بيضاء رقيقة كالشعيرات تلتف حول

استدارة رمادية تجنح إلى السواد وحدود قاطعة مرهفة، البنى اللامع يعطى حافتها المنعمة خفوتا يناقض لسعة حدتها الأبيض الساطع ترقطه نقاط رقيقة كأنها تومض تحت الحصاة الشفافة والخطوط الغائرة الصغيرة تشقق الوجوه المنحوتة المتحللة وقلت كان البحر هنا منذ ألف ألف عام مازال البحر هنا وسيظل ألف ألف عام جمعت منه ما استطعت من كنوز ضاعت مع الزمن، ألم تضع كل الكنوز؟ بما فيها كنز الحب؟ ألم تضع؟ الضحكات السريعة الحلوة الخافتة، متتابعة، من فم جميل وأنيق، النظرات الموجزة العذبة، نافذة النصل، متتابعة، من عينين ساجيتين تماما، حرية لا حدود لها داخل الروح، طيور زرقاء الجناحين ترفرف باتساع، هل ضاعت؟

لكل نور ظله. طبعا، أفى هذا كلام؟

نقية، كانت.. نقية هى، مظلمة ومتلوية أيضا، شغوف حينا ونفور عزوف أحيانا، كالطفل فى ائتمانها وفى مكرها المكشوف، ومجربة محنكة الجسد بل جرأتها ومعرفتها مخيفة، جسور مشاكسة، وديعة متقبلة خاضعة خنوع، متقلبة وحولها شكوكى، وفى يدها روحى، ومصيرى، أهذا سرها؟ هل ضاعت؟ أين مضت؟

عثرت على موغل منى فى تلة الحصى على رأس غزال، هيكل برىء تماما من كل لحم، من لوثات الحياة، عظم أبيض صاف وصلب، عيناه محجران مجوفان مفتوحان على ظلام الجمجمة الداخلى، ليس فيه إلا الفك العلوى بأسنانه مازالت سليمة، سقط الفك السفلى وانفصل ولم أجده قط، رأس فقط، اين ذهب البدن، وهيكله؟ ظللت أحتفظ بالرأس، أحرزه وأكنزه من بين أرصدة نفسى الشحيحة، حتى اعتقلت فى ١٩٤٨. ولما خرجت لم اكتشف فقدانه إلا بعد سنين طويلة، هل كان فعلا رأس غزال؟ عمى فرح قلبه بين يديه السوداوين طويلتى الأصابع، وقال غزال يا ولدى، غزال صغير، لبانى، يا ولداه!

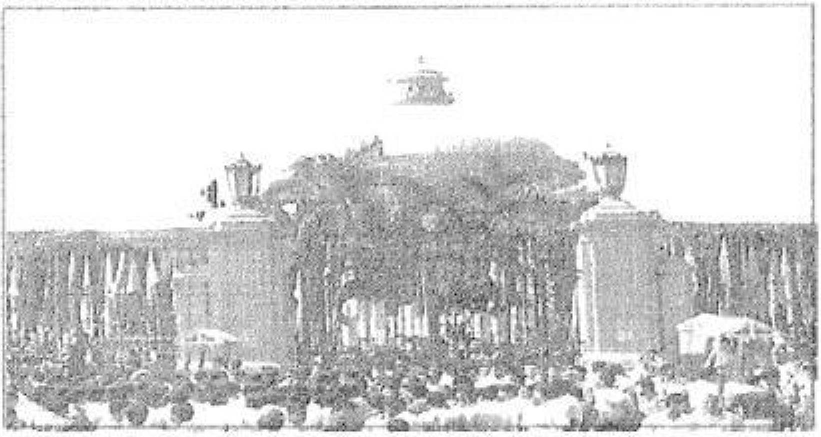
الجامعة هي المستقبل

هل نغلق الجامعة ؟

❞

كلما دخلت من باب الجامعة في الصباح ورأيت طوابير الطلاب المصطفين أمام الأبواب المزدحمة تساءلت عما يأتي بهم، ألا يدركون ما ينتظرهم في الداخل من مدرجات مكتظة وأساتذة لا يقدمون سوي القليل من العلم (مما يناسب الطالب المتوسط) ويقع الكثيرون منهم إما في طائفة من فقد الاهتمام بالتعليم أو من لم يؤمن به أصلا؟ ثم ألا يعلمون بانحدار قيمة أغلب الشهادات الجامعية «الشعبية» «أي تلك التي لا تتضمن مكونا أجنبيا» في سوق التوظيف؟ ثم ماذا سيجدون أيضا في الجامعة: فالأنشطة الفنية والثقافية انحسرت تحت ضغط التيار الديني، والتنظيمات الطلابية بدورها الاجتماعي والسياسي حوصرت حتي تكاد تكون خنقت خوفا من ذات التيار الديني.

بقلم : د. هانى الحسينى*



وأحيانا أحاول تخيل شعورى لو كنت مكانهم الآن : أكنت سأدير ظهرى الجامعة وأبحث عن مقهى من مقاهى الإنترنت لأقضى وقتى متفرجا على قرية المعلومات الكونية ؟ أم كنت سأنفذ من خلال الأبواب محاولا الاستفادة بالنزر اليسير مما يقدم من علم ومصادر تعلم فى «أكبر المؤسسات العلمية بالشرق الأوسط» .

بينما كانت تتقاذفنى هذه المشاعر والأفكار السوداوية ظهر فى «هلال» شهر أكتوبر ١٩٩٩ م مقالان مهمان أحدهما لرشدى سعيد والآخر لحمد رجب البيومى يتناولان قضية التعليم الجامعي والبحث العلمى، وكأن ذلك الشهر كان شهر الجدل القومى حول البحث العلمى، اذ تلا تركيز رئيس الجمهورية على النهضة العلمية والتكنولوجية فى أحد خطاباته وشهد انشاء وزارة تحمل اسم «المعلومات» وإضافة «التنمية التكنولوجية» الى مسمى وزارة الصناعة . ثم جاء فيه أحد أهم أحداث تاريخنا العلمى بحصول المصرى أحمد زويل على جائزة نوبل فى الكيمياء . وبقدر ما أثار نبأ الجائزة من فرح بقدر ما أثار من القلق والتساؤلات التى تمس دور الجامعات ومراكز البحوث المصرية.

فأحمد زويل مصرى، تلقى جزءا من تعليمه فى جامعة مصرية وبدأ مشواره العلمى من مصر، ولكن هل كان بمقدوره أن يبلغ تلك المكانة وأن ينجز ذلك الإنجاز العلمى الفذ لو لم يهاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية ؟ ربما نتفق على أن إجابة هذا السؤال هى على الأغلب بالسلب فيقودنا ذلك للتساؤل عن العوامل

* كلية العلوم ـ جامعة القاهرة

التى تمنع عالما مصريا نابغا من التفوق مع بقائه فى بلده. ثم قد نعود الى تعليم أحمد زويل فنتساءل : هل مازالت الجامعات المصرية قادرة على تخريج أمثاله ؟

رغم معقولية هذه التساؤلات فلا بد أن نلاحظ بعض المحاذير التى تكتنف هذا المنحى فى التفكير. أول هذه المحاذير صعوبة القياس على حالة عالم فذ، فالشخص المتميز والمتفرد قد لا تنطبق عليه القواعد التى تنطبق على الإنسان العادى. أيضا يمكننا أن ننحى جانبا التساؤل عن جائزة نوبل بأن نلاحظ أن جوائز نوبل فى المجالات العلمية (الفيزياء ـ الكيمياء ـ الطب ووظائف الأعضاء ـ الاقتصاد) لم يحصل عليها أى عالم يعمل خارج الدول المتقدمة صناعيا سوى الهندى «رامان» عام ١٩٣٠ م.

لكننا نبقى واثقين بالشعور العام الذى يحدونا بأن مجتمعنا لا يعطى الفرصة للنابغين وأن نظامنا التعليمى لا يؤهل الفرد النابه للتفوق فى البحث العلمى وأن أداء مؤسسات البحث العلمى عندنا دون المطلوب .

التخلف العلمى والتعليمى

أول ما يجب أن ندركه ـ فى اعتقادى ـ هو أنه لا يمكن أن نفصل بين التخلف الاجتماعى العام ـ والذى يمثله الثالوث الشهير : الفقر والجهل والمرض ـ لا يمكن أن نفصل بين هذا الثالوث وبين تخلف التعليم والبحث العلمى. فلا يمكن أن يتقدم البحث العلمى تقدما كبيرا فى مجتمع متخلف ولا أن يتقدم المجتمع دون أن يتقدم البحث العلمى ، لابد اذن من المزاوجة بين إصلاح حال البحث العلمى وبين إصلاح حال المجتمع ككل .

لكن لما كان النقاش حول إصلاح المجتمع أعقد بكثير من محاولة تحقيق بعض الإصلاحات المحدودة فى التعليم والبحث العلمى ، فسأقتصر على بعض ما تناوله رشدى سعيد ومحمد رجب البيومى فى مقاليهما، وهو بالتحديد مسئولية الجامعة عن تدهور التعليم والبحث العلمى.

أكاد أتفق مع ما يشير اليه الكاتبان من أمراض اعترت التعليم الجامعى والبحث العلمى، فاقتصاد السوق ـ كما يشير رشدى سعيد ـ ينحو إلى تسفيه دور الجامعات كمؤسسات بحثية وتعليمية ، يحدث هذا فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وربما فى دول أخرى ، ولعلّى أستطيع تأكيد هذه المقولة بما سمعته من زميل بالولايات المتحدة الأمريكية حول أن الادارة أصبحت تقيم الأداء التعليمى طبق معايير «اقتصادية» ، ولأن من يقومون على التقييم غير متخصصين (فى العلم) فإنهم يعتمدون على مقاييس كمية للأداء مثل عدد الطلاب الملتحقين والمتخرجين بدلا من المقاييس الكيفية، حتى وصلوا

الى إلغاء مقررات بسبب قلة عدد الملتحقين بها رغم كون هذه المقررات ضرورية لتكوين الطالب الذى سيتجه للبحث العلمى . ويضيف هذا الزميل أن الاتجاه العام أصبح يميل أكثر فأكثر نحو اعطاء أولوية للمقررات «العامة» والسهلة .

من المتوقع إذن أن تؤدى مفاهيم الإدارة الاقتصادية للمؤسسات التعليمية لو طبقت عندنا الى تقليل القيمة المضافة علميا من خلال التعليم الجامعى، يضاف إلى ذلك ما أشار اليه رشدى سعيد من أن الدول المتقدمة صناعيا وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على زيادة التبعية العلمية وترسيخ اعتماد العالم على قلة من المنتجين للأفكار والمخترعات فى عصر أصبحت فيه الأفكار والمخترعات أهم السلع التجارية .

تندرج الحال إذن ضمن ما يسميه البعض بالمخطط الاستعمارى. وهو فى الحقيقة مخطط لم يضعه أحد لكننا نستطيع رغم ذلك أن نرى معالمه كما لو كانت هناك يد قد رسمته وأياد تشرف على تنفيذه .

كيف نقوم بدورنا المرسوم فى هذا المخطط ؟ أو ربما كان من الأجدر أن نقاومه ؟

هل نغلق الجامعات المصرية أو نحولها لمؤسسات عملها الوحيد هو التدريس دون البحث العلمى ؟ وهل هناك تعليم جامعى يمكن أن يقوم عليه أشخاص منفصلون عن واقع البحث العلمى ؟ وكيف يخرج مثل هذا التعليم أفرادا قادرين على الانخراط فى البحث العلمى وعقولا قادرة على الابتكار ؟

فى تقديرى أن التعليم والبحث العلمى لا ينفصلان ، ومازال الجزء الأكبر من الأبحاث العلمية فى كل أنحاء العالم يتم فى الجامعات . وفرنسا اليعقوبية - التى يضربها رشدى سعيد مثلا - لم تقلص دور الجامعات فى البحث العلمى وإنما أضافت له مددا جديدا بإنشاء المركز الوطنى للبحوث العلمية لحضوإلخ والذى تقع أغلب وحداته فى أقسام جامعية أو ملحقة بها . كما أن انشاء كيانات جديدة للبحوث فى مصر لن يضيف شيئا إذ سيقوم على إنشائها وادارتها نفس من وصفهم رشدى سعيد بأن «مستواهم دون المقبول» .

أتفق أيضا على أن حال التدريس فى جامعاتنا يسوء عاما بعد عام ، فإلى جانب من ذكرهم محمد رجب البيومى ممن لا يرون فى التعليم الجامعى سوى منفذ للربح الخاص ببيع الكتب الفاسدة للطلاب وإعطاء الدروس الخصوصية ، وإلى جانب من نقرأ عنهم فى صفحات الحوادث بالصحف من سارقى الكتب والأبحاث وغيرهم، الى جانب كل هؤلاء ، هناك من يدرسون مقررات عفا عليها الزمن بأسلوب عفا عليه الزمن وهناك من يدرسون بعقلية «على قد فلوسهم» ، فعضو هيئة التدريس بالجامعة يشعر أنه مغبون ، وهو بالتأكيد كذلك : فالمرتبات مجحفة وظروف العمل سيئة . والطلاب غير مبالين والادارة لا تعيره بالا - خصوصا بعد أن أصبح العمداء بالتعيين . ويجد البعض هذا مبررا لأن يعطوا

التدريس والبحث العلمى اهتماما أقل ، بينما يجده البعض الآخر مبررا لأن يشاركوا فى الفساد . لكن هل يحل التدخل من أعلى مثل هذه المشكلات؟ هل نطلب من الإدارة - كما يقترح محمد رجب البيومي - أن تقوم باختيار الكتاب الجامعي بغض النظر عن رأى أستاذ المادة؟ وهل نكلف جهازا - لم يحدده رشدى سعيد - بالتفتيش على مسار العملية التربوية والحكم على أساتذتها؟ لكن واقعيين فحال من هم فى أعلى سلم الإدارة الجامعية - والذين يفترض أن يقوموا بالتفتيش والرقابة - ليس بأفضل من حال غيرهم ، قلة منهم مازالت تباشر البحث العلمي الحقيقي والعديد منهم تسللت اليه آفات بيع الكتب والتدريس الشكلى .. الخ ، بل ان شعورهم بالمسئولية أمام الدولة يدفعهم أحيانا للإساءة للتعليم عن طريق المبالغة فى رفع النتائج أو حتى التدخل فى تصحيح المقررات .

المعضلة !

يواجه أغلب أساتذة الجامعات معضلة واقعية : فالتعليم العام يرسل للجامعة أعدادا كبيرة من الطلاب ينخفض مستواهم سنة بعد أخرى ، والمجتمع لا يبث فى هؤلاء الطلاب روح احترام العلم والرغبة فيه بل على العكس يشعرهم بعدم جدوى ما يتعلمونه . لا يستطيع الاستاذ فى مثل هذه الظروف الا أن يدرس القليل الذى يستطيع هؤلاء الطلاب استيعابه فى الفصل الدراسى (الذى لا يتعدى عمليا ١٢ أسبوعا) لكنه يعلم أن ما درسه لا يؤهل الطالب كما يجب ، وبالتأكيد لا يؤهله للبحث العلمى. فلو صادف أن كان بين هؤلاء الطلاب طالب محب للعلم وراغب فيه فهناك احتمال أن يفقد اهتمامه لما يراه من سطحية الموضوع، وحتى لو أفلت الطالب الموهوب من فخ الملل والسطحية فإنه لن يتلقى من الزاد ما يقيته فى سن الشباب والنمو العقلى وتضيع منه سنون لا تعوض. كما أن النظم واللوائح تركز فى معظمها على انقاذ الطالب الراسب قدر الإمكان بينما لا تعير للطالب الموهوب والمتميز التفاتا . يمكننا أن نسمى هذا الوضع «معضلة التعليم الديمقراطى» ، فكلما جهدنا فى زيادة المستفيدين من التعليم الجامعى اضطررنا الى تخفيض مستواه ، وأكاد أجزم بأنى لم أر بين أساتذتى ثم زملائى من استطاع أن يزاوج بين جذب الطالب المتميز وبين تعليم الأعداد الكبيرة من الطلاب بشكل يمكنهم من النجاح دون تدخل ادارى . لكن لا يبدو ذلك مستحيلا لو تحسنت الظروف المادية قليلا واجتهد الأساتذة فى ابتكار وسائل جديدة تزاوج بين تقديم العلم بالعمق المناسب والبساطة التى لا تجحف

بالطالب الذى لم يُعدُّ جيدا فى التعليم العام . الصعوبة تكمن فى أن مثل هذا المنحى ذو الهدف المزدوج يتطلب شروطا عديدة : منها تحرير روح المبادرة عند الأساتذة من القيود اللائحية والإدارية وإطلاق يدهم فى تقييم الطلاب وإنهاء سياسات الرفع والتحسين حتى يعود للطلاب الاقتناع بأن السبيل الوحيد للنجاح هو بذل المجهود فى فهم المقررات.

فى مرحلة الدراسات العليا لا تتغير الصورة أمام الطالب الا قليلا، فالباحث الشاب لا يشارك فى نشاط علمى يذكر، فلا تبادل زيارات ولا أساتذة زائرين وتمتنع الجامعة عن دعم الشباب عند مشاركتهم فى المؤتمرات وحلقات البحث والمدارس العلمية الموسمية وإنما يقتصر دعمها على أعضاء هيئة التدريس الحاصلين على الدكتوراه . لو أضفنا الى كل ذلك خواء المكتبات وتخلف المعامل وانغلاق الأفق الاجتماعى والأمراض الاجتماعية المختلفة من الشللية واستعباد الباحث الشاب .. الخ ، لرأينا لماذا لا يرى الشاب النابغ طريقا سوى الهجرة الدائمة أو المؤقتة، ولفهمنا لماذا تنتج جامعاتنا فى الغالب باحثين وبحوثا «دون المستوى» .

الشباب والديمقراطية

فقدت جامعاتنا نتيجة النظم العقيمة والنظرة الفوقية جيلين من الباحثين المتميزين ، وقد حان الوقت لإعطاء الفرصة للشباب ، يجب أن يوظف جزء لا يستهان به من موارد البحث العلمى لتمويل مشاريع الشباب من المدرسين المساعدين والمعيدين، يجب أن تمول الجامعة برامج طموحة لاستقدام أساتذة زائرين لمدد متوسطة الطول لتتيح للشباب فرص التعلم من منتجى العلم ، يجب أن تمنح الجامعة الشباب فرصا أكبر للمشاركة فى المؤتمرات العلمية فى الخارج ليتعرضوا لاحتكاك علمى حقيقى كما يجب أن يزيد عدد البعثات فى كل مجالات العلوم والتكنولوجيا لننشىء جيلا جديدا من الباحثين على مستوى مناسب . لا أدعى أن كل شباب الباحثين متميزون ولا أن كلهم سيفيد من الفرص إن توافرت لكننا يجب أن نوفر عشر فرص لنأمل فى نجاح باحث واحد .

يقابل توفير الفرص تحمل المسئولية، لذلك لا بد أن يشارك الشباب فى تحمل المسئولية من خلال تقنين مشاركتهم فى المجالس الجامعية وتحمل بعض أعباء الإدارة على مستوى أقسامهم وكلياتهم .

أيضا لا بد من تشجيع روح الابتكار والمبادرة فى التدريس لتحسين أداء أعضاء هيئة التدريس ، كما يجب مراجعة اللوائح الداخلية للكليات وتجديدها بشكل دورى ، وفى المقابل لا بد من وضع نظم تمنع الشطط لا بالطرق الادارية والفوقية ولكن عن طريق إشراك أكبر عدد من المتخصصين داخل الأقسام العلمية فى مناقشة محتويات المقررات وطرق تدريسها.

الشباب .. المشاركة.. والمبادرة لا تكتمل إلا فى إطار ديمقراطى يعيد للجميع الثقة بالنفس والأمل فى المستقبل.

الجامعة هى المستقبل

محنة الكتاب الجامعى فى مصر

بقلم د. سعيد اسماعيل على

أعتذر مقدما لقارئنا العزيز عما سوف يلمسه فى المقال الحالى من ميل لأن تكون «ذات» الكاتب موضوعا للحديث فى عدد غير قليل من الجوانب، مؤكدا له أن حديث «الذات» هنا ليس هدفا فى ذاته وإنما هو وسيلة للكشف عن بعض جوانب «الواقع» بالنسبة للكتاب الجامعى فى مصر فى العقود الأربعة الأخيرة، وفضلا عن ذلك فمن الممكن اعتبار هذا الحديث صورة من صور «الشهادة» التاريخية، وهو نهج معترف به عند ثقاة المؤرخين . لكن لماذا الكتاب الجامعى بصفة خاصة ؟

من الأقوال الشائعة بين العاملين فى التعليم الجامعى أن الجامعة أستاذ وكتاب، لكن الأمر البارز عند الجمهور العام أن الجامعة أستاذ، ومن هنا تأتى أهمية أن نولى الركن الثانى أولوية فى الحديث، على اعتبار أن الأمر الذى يقل الوعى به عن الآخر هو الأجدر بالحديث، دون أن يعنى هذا أولوية فى الأهمية .

وفضلا عن هذا فإن الكتاب الجامعى يشكل «صداعا» مستمرا للمسئولين عن التعليم الجامعى، ولم تفلح حتى الآن الخطوات والحلول التى اتخذت، لأن المسألة دخلت فى نطاق البناء القيمى الأخلاقى، الأمر الذى لا سبيل فيه إلى إجراء فورى أو قانون حاسم من أجل مواجهة عاجلة للموقف.

عندما التحقنا بآداب القاهرة، قسم الفلسفة فى عام ١٩٥٥، ماذا كان انطباعنا عن الكتاب الجامعي؟

كان هناك عدد قليل من الأساتذة الذين يدرسون لنا لهم كتاب مباشر فى المقرر الذى يدرسونه لنا، وعلى سبيل المثال كان لكل من الدكاترة: توفيق الطويل كتابه «أسس الفلسفة»، وليوسف مراد «مبادىء علم النفس»، ولزكى نجيب محمود «المنطق الوضعى»، ولعثمان أمين «ديكارت». ولمصطفى الخشاب «علم الاجتماع ومدارسه»، و لأحمد فؤاد الأهوانى «فجر الفلسفة اليونانية، قبل سقراط» طوال سنوات دراستنا الأربع على ما أذكر.

وكان هناك غيرهم يدرسون لنا دون ان تكون لهم كتب مباشرة.

والملاحظة الجديرة بالاعتبار هنا أن هذه الكتب لم تكن «مقررة» بالمعنى المتداول فى أيامنا الحالية، فقد كان الأستاذ فى بدء تدريسه يعلمنا بجملة الموضوعات التى سوف ندرسها فى العلم الذى يقوم بتدريسه. ثم يخبرنا بقائمة من «المراجع»، فإذا كان له كتاب فيه، جاء ذكره ضمن هذه القائمة من المراجع، وكنا بغير فرض ودون إملاء، ونبادر نحن باختيارنا الى اقتناء كتاب الأستاذ. لكننا فى الوقت نفسه كنا نأخذ قائمة المراجع هذه مأخذا جديا، فيسعى القادر ماليا على اقتنائها جميعا أو بعضها.

وكان غير القادرين أمثالى «وكان هؤلاء هم الكثرة الغالبة» يقضون ساعات وساعات فى مكتبة الجامعة للاطلاع على هذه المراجع، أو استعارة بعضها. ولأن عدد الكتب المصرح باستعارتها محدود، كنا نستخرج بطاقة استعارة من دار الكتب، وربما كذلك من هذا الفرع او ذاك من فروعها حتى يمكن ان نحصل على أكبر عدد ممكن من المراجع التى نقرؤها إضافة إلى هذه التى ألفها أساتذتنا. وكنا فى إجاباتنا على اسئلة الامتحان نستعين بما تسعفنا به الذاكرة مما قرأناه فى كتب أخرى غير كتاب الأستاذ الذى يدرس لنا دونما خوف من أن ينالنا غضبه، بل بالعكس، كان من يفعل ذاك يحصل غالبا على أعلى التقديرات، وإن كان من الضرورى أن أعترف بأن الأمر لم يكن يخل من بعض غير ذلك!!

كذلك فقد كان ملاحظا - وإن كنت لم أشعر بهذا إلا بعد التخرج بعدة سنوات - أن كل كتاب من هذه الكتب كان يعد «عمدة» فى فرعه، لا يستطيع قارىء أو باحث يريد التخصص فى هذا الفرع أو ذاك دون أن يقرأ هذا الكتاب أو ذاك مما ذكرت، فما من دارس باحث لعلم النفس فى مصر منذ عشرات السنين إلا ولابد

وأن يكون قد قرأ لتوفيق الطويل أسس الفلسفة . وهكذا.

ولم يكن الكتاب يُعد للطالب بصفة خاصة كي يتعلم منه وإنما هو يكتب لجمهور طلاب المعرفة، ومن هؤلاء ، الطلاب بطبيعة الحال. فيجيء الكتاب موفيا باحتياجات الفرع المتخصص من المعرفة، ولا يجيء موفيا باحتياجات الطالب وحده، والفرق كبير بين الأمرين. فاحتياجات الطالب حاليا، مع الاسف الشديد هي أن يجتاز ما يوضع له من امتحانات بأى سبيل حتى يحصل على شهادة، وأما احتياجات العلم فهي فتح مجالات مغلقة في المعرفة الإنسانية وتقرير منهج وقواعد وإرساء أسس ومبادىء، هي بدورها لابد ان تشكل قطاعا كبيرا من احتياجات الطالب اذا كان قد جاء ليتعلم حقا، وفي الوقت نفسه فإن من يكون نهجه «التعلم» العلمي المنهجي المنضبط، فلابد وأن يجتاز الامتحانات التي توضع، وأن يحصل على الشهادة!!

وتدور الأيام.. وأتحول من طالب إلى عضو هيئة تدريس، لكن في كلية التربية، عام ١٩٦٩، وكان لابد أن يكون لي «جدول» بجملة محاضرات أدرسها للطلاب.

مذكرة توزع على الطلاب !

كان طلاب الكلية في ذلك الوقت يقتصرون على خريجي الكليات الجامعية ممن يريدون أن يعدوا للالتحاق بمهنة التدريس. حيث كانت وحدها السبيل المضمون «للتوظف»، وكان عددهم لا يتجاوز مائتين الا ببضع عشرات على وجه التقريب، يكونون مجموعتين . وكان هناك زميل أقدم، متخصص في قطاع من نفس المجال الذي تخصصت أنا فيه. فتصورت، منطقيا أنني سأدرس لمجموعة وهو لمجموعة . فإذا بي أجده آخذ الاثنتين معا، فكان من الطبيعي أن أحتج على هذا، فإذا بمن يهمس في أذني أن عدد طلاب المجموعة الواحدة قليل، بينما إذا ضمت معها الأخرى يكون العدد مغريا بطبع «مذكرة» توزع على الطلاب يأتي منها مكسب لا بأس به.. هذا على الرغم من أننا كنا مازلنا نعيش على حدود زمن العلم الجميل ونتنسم بعض هوائه.

ثم تحدث تعديلات، فتذوب كلية «المعلمين» في كلية التربية وتستقبل هذه طلاب الثانوية العامة بالألوف، وتتعدد الشعب والمجموعات . ودائما يجيء الإعداد العام الدراسي حاملا العديد من نذر العراك والصراع . فكل يتطلع الى المجموعات ذات العدد الوفير، ويصبح الاتفاق على جدول المحاضرات أكثر عسرا من مفاوضات مشكلات الشرق الأوسط، لكن ما كان يخفف من حدة الصراع أن عدد المتخصصين في بعض الفروع كان قليلا، فضلا عن أن «سطوة» الأستاذ الكبير، رئيس القسم عادة، وهيبته ، كانت قائمة وتظلل الجميع فلا يكون جدل ونقاش حول كتابه الذي يفرضه مقررا في العلم الذي تخصص فيه.

لم يكن هذا مقصورا على كليات التربية. فكثيرا ما كنا نسمع من زملائنا وأبنائنا عما هو أدهى وأمر في كليات أخرى، خاصة ما يطلق عليه الكليات

النظرية، وليس بعيدا عن ذاكرتي ما أتاحته لي ظروف في أواسط الثمانينات لأطلع على محضر أحد أقسام هذه الكليات جاء به أحد أعضائه ليرني كيف أن عضوا آخر، أستاذ كبير، كان قد تقلد من قبل موقع وزارة مهمة، رفض ما حاوله الأعضاء لإقناعه بأن يدرس للدراسات العليا باعتبار أقدميته، فرفض وأصر، مثل غيره، على التدريس للسنة الأولى حيث «الزبائن» ألوف مؤلفة!!

وتمر السنون.. فأجد نفسي في أواخر عام ١٩٧٩ رئيسا للقسم ويتم تشاور بيني وبين عدد من الزملاء حول فكرة جديدة ينطبق عليها القول الشهير «حل مرض لكافة الأطراف» . والأطراف هنا: الأساتذة ، والطلاب ، والعلم ، كانت الفكرة هي أن يجيء التأليف جماعيا عن طريق القسم . فلا يكون هناك صراع حول المجموعات مما كان يترتب عليه سوء علاقات وشللية، وبالتالي لا يكتوي الطالب بالاختلاف في الكتب بين المجموعات وعراك الأساتذة، على أن يجيء الكتاب نتيجة عمل وتفكير مشتركين، ووافيا بالجوانب الأساسية للعلم المتخصص، بحيث ينظر اليه باعتباره «مرجعا جامعيا» لا يستطيع أي دارس لهذا العلم المتخصص إلا أن يقرأه بحكم ما يجب أن يكون عليه من تعمق وإحاطة وشمول وتحليل.

لم تجيء التجربة الأولى وافية تماما بما كنت أتصور وأتمنى، لكنني لم أشعر بقلق في بداية الأمر، فقد تصورت أن التجربة الأولى غالبا ما تجيء غير مكتملة، ويمكن استكمالها وتحسينها في المرة الثانية ، وتزداد تحسنا وعمقا في المرة الثالثة وهكذا.

لكن يبدو أن كل ما يتمناه المرء لا يدركه حقا.. ولا أريد هنا أن أغرق القارىء في تفاصيل وجزئيات لا أول لها ولا آخر، وما يهمني الإشارة إليه أن التجربة التالية جاءت أقل من الأولى، ثم إذا بي أجد أن الانزلاق إلى ما هو أدنى بدأ يظهر وكأنه «قدر» لا سبيل إلى دفعه، فأضطر آسفا إلى الازورار بعيدا عدة سنوات عن هذا الخضم.

انتشرت الفكرة في كليات أخرى للتربية كثيرة، لا أزعم بطبيعة الحال، أن هذا كان تقليدا لنا، إذ يبدو أن الجمهرة الكبرى كانت قد وصلت إلى نفس النتيجة التي وصلنا إليها من حيث ضرورة التأليف الجماعي ، لكن هذا الحل الذي أملنا أن يكون مطورا للكتاب، إذا به يسهم في القضاء على الكتاب بحكم ما أصابه بعد ذلك من سلبيات خطيرة.. كان البعض ممن يريد المساهمة في التأليف، يمد يده في أحد أدراج مكتبه ليخرج أحد بحوثه للترقية ليضمها فصلا في كتاب، وأحيانا ما تكون العلاقة ضعيفة بين موضوع البحث والكتاب! ودون إعادة تكييف للبحث، حيث يناسب، لغة وطريقة، ما يقدم للطلاب، وهكذا يمكن أن تجد أحد فصول الكتاب يضم عناوين مثل: تحديد المشكلة.. أهداف البحث.. تساؤلات البحث.. مصطلحات البحث، منهج البحث.. وهكذا مما تكون عليه عادة البحوث التي تقدم للترقية. ولا يكون هناك

أثر ليد «محرر» عام يعيد صياغة الكتاب فتجىء صياغته متسمة بالاتساق، وتجىء موضوعاته متسمة بالتكامل، وفكرة التأليف الجماعى تجىء شكلية لتقتصر على عملية جمع آلى بين عدد من الكتاب . بينما التأليف الجماعى يقتضى أن تمر الموضوعات على الجميع ليبدوا رأيهم ويتم حوار ونقاش وتعديل وإعادة كتابة أو صياغة.

★★★

كنت فى زيارة يوما لأحد الأقارب. وسألت ابنهم الذى كان فى كلية تجارة عن أحواله. وطلبت أن أرى كتابا من الكتب «المقررة» عليهم فقال بأن ليس لديه هذا الكتاب، وكان موعد الامتحان قد قرب، فلما عبرت عن دهشتى أجاب بأن الكتاب «ضخم» ، وترجم هذه الضخامة بأن عدد صفحات الكتاب تصل إلى ما يزيد على الأربعمائه صفحة ومن المستحيل عليه أن يقرأ كل هذا ، وإنما يعتمد على ملخص من بضع عشرات قليلة من الصفحات تركز على النقاط التى عادة يأتى فيها الامتحان، وأنه ليس الوحيد الذى يفعل ذلك، وإنما الأغلبية الكبرى من زملائه ، وإن كان كثيرون يشترون الكتاب دون أن يقرءوه!!

أفزعنى الأمر بطبيعة الحال، وفى التو واللحظة قفزت إلى ذاكرتى ذكريات تعاملنا «زمان» مع الكتاب بالصورة التى ذكرت، حيث لم يكن معظم الأساتذة «يقررون» «كتابا» وإنما كانوا يقررون «منهجا» ويتركون لنا حرية البحث عن «مراجع» نقرأ فيها مفردات هذا المنهج، والحق أقول : لم يكن هذا الأمر شائعا فى كل الكليات . فقد كنت أرى أخى فى كلية الحقوق يذاكر فى كتب مقررة، وكان لى صديق بكلية أصول الدين يفعل نفس الشىء، هكذا كان حظى الحسن فى آداب القاهرة فى الخمسينيات.

إن فكرة كتاب مقرر فى الجامعة فكرة شيطانية تودى بأهم مقوم من مقومات التعليم الجامعى، فهذا التعليم مفروض فيه أن يدرب الطالب على حرية التفكير، وتعدد زوايا الرؤية، وأمور مثل هذا يقتلها أن يكون هناك كتاب مقرر، إذ إن معنى هذا «تنميط» عقول الطلاب، وتسييرهم على طريق ذى اتجاه واحد . صحيح أن مثل هذا الأمر لا تبدو خطورته فى الكليات العملية، حيث لا اختلاف على وجه التقريب بين المؤلفين، لأن الموضوعات ليست جدلية، لكنه أمر على جانب كبير فى الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وهى التى تقوم عليها الدراسة فى كليات الحقوق والآداب والتجارة ودار العلوم والاقتصاد والعلوم السياسية والكليات الأزهرية التقليدية.

أعداد بالآلاف

لكن يبدو أن حديثنا هذا أصبح من قبيل طلب المتسحيل، فأعداد الطلاب الآن بالآلاف، فإذا لم يكن هناك كتاب مقرر، فإن مكتبة الكلية لن تحتوى بأى حال من الأحوال على عدد من النسخ من بعض الكتب تكفى هذه الألوف المؤلفة، وحتى لو وجدت نسخ فلن توجد أماكن تستوعب هذه الجحافل التتارية من الطلاب. وتنظيم الجداول كثيرا ما لا يضع فى الاعتبار أن

تكون هناك أوقات بين المحاضرات تتيح الطلاب القراءة فى المكتبة، بل ولو حدث فراغ ساعة أو ساعتين بين محاضرات ، يظهر الطلاب ضجرهم شاكين بأن هناك وقت فراغ «ضائع» عليهم، فيضطرون إلى قضائه فى «الكافتيريات أو التسكع فى الطرقات، ولا يفكر أحد فى أن يذهب إلى المكتبة لأنهم لم يتعودوا هذا منذ سنوات تعليمهم الأولى: فضلا عن أن نظام الامتحانات قد شكل بحيث لا يتطلب منهم إلا معرفة ما فى «المذكرة»!! وأسعار الكتب على درجة من الارتفاع بحيث تعجز كثيرا من الطلاب عن أن يحصلوا على الكتاب المقرر، فكيف نطلب منهم أن يشتروا مراجع؟! والأدهى والأمر أن هناك من أعضاء هيئة التدريس من يريدون من الطالب فى أجابته أن تكون «حذو النعل بالنعل» ، أى أن تكون مطابقة لما فى كتابه هو، ولو حدث فى نوادر الزمان أن قرأ طالب آراء أخرى من مصدر أو مصادر أخرى وذكرها ، يكون مصير الطالب سيئا بكل أسف وبكل أسى!

فى وسط هذه الظروف المعقدة، لا سبيل لنا إلا أن نقول : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه! وترجمة هذا بالنسبة لموضوعنا أن نرفع من مستوى الجودة و الإحاطة والشمول بالنسبة للكتاب، ويكون تأليفا جماعيا حقيقيا حتى تبرز فيه مناهج مختلفة وزوايا رؤية متعددة. لكن حتى هذا الحل، يتحول فى المجتمع المريض المتخلف إلى سوأة تحتاج إلى المداراة!!

فالضغوط المادية المعروفة جعلت كثيرين يبحثون عن دخول أعلى وأسرع.. وظهر الكتاب منفذا لهذا، كان الكتاب ينشر من خلال دار للنشر يحصل المؤلف منها على نسبة من الأرباح، ووجد معظم المؤلفين أنهم لو قاموا بأنفسهم بطباعة الكتاب وتوزيعه على الطلاب لارتفعت مكاسبهم ووفروا ما كان يحصل عليه الناشر. لكن ما حدث من «توابع» سلبية لهذا ، أن كثيرين بدءوا يشعرون أن «زبائن» الكتاب هم الطلاب فقط، ومن ثم بدأ مستواه العلمى يقل شيئا فشيئا، عكس الكتاب الذى كان ينشر فى دار نشر حيث التوزيع متعدد الجهات ومتعدد الزبائن وعلنى ومكشوف مما يدفع المؤلف إلى مزيد من الحرص والدقة، أما وهو يكتب داخل الكلية، فلا أحد يعرف ما يكتب ، فضلا عن أن يقرأه، ومن هنا بدأت مظاهر سوء كثيرة.

كنت فى زيارة لإحدى كليات التربية، وطلبت أن أرى نسخا من الكتب المقررة فى بعض المواد، فإذا بالجميع يتهربون بادعاءات مختلفة، وصارحنى أحدهم همسا فى أذنى أنهم لا يجرءون على أن يحققوا مطلبى وإلا «انكشفوا» ، فكل «المذكرات» منقولة !!.

وكشف زميل لنا أن مذكرة تقرر فى مادة فى كلية أخرى ، فدفعه الفضول أن يتصفحها فإذا بها منقولة بالكامل من كتاب له . كان الناقل هنا «مدرسا» فى مبتدأ حياته ، ثم إذا بنفس الزميل يكتشف «فصلا» كاملا منقولا فى مذكرة فى كلية أخرى ، وكان الناقل هنا أستاذا «قديما» أقدم من الزميل نفسه !!

وإذا كانت الأجهزة التكنولوجية تيسر العمل وتدفعه إلى الأمام ، إلا أن وظيفتها قد تتحول إلى معين على السرقة فى المجتمعات الفقيرة ، فبجوار كل كلية وجامعة عشرات من مكاتب التصوير التى تصور فيها المذكرات والكتب ، وبالتالى يمكن للطالب أن يحصل على الصورة بتكلفة تقل كثيرا عن الأصل ، وإذا بالأساتذة يجدون أنفسهم يسرق منهم جهدهم ، ومن هنا ما كان من البعض إلا أن بحث عن أساليب مضادة ، سارت بالمسألة فى طريق مشين حقا ، كأن يطبع الأستاذ كتابه أومذكرته على ورق ملون حتى يصعب تصويرها ، أو يوقع على النسخ الأصيلة ويتوعد من تضبط معه نسخة غير موقع عليها بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ومنهم من يوزع المذكرة أو الكتاب على الطلاب جبرا من خلال كشوف أسماء ويوقع كل طالب أمام اسمه أنه اشترى الكتاب .. إلى غير هذا وذاك من أساليب مرذولة ومهينة حقا!

ولا شك أن عمل الفريق فى المجال العلمى يثريه ويدفع به إلى الأمام ، لكن على أساس أن يعد المنهج بصورة متسقة متكاملة ، كل موضوع له موضعه بحيث إذا تقدم أو تأخر اهتزت الصورة الكلية ، فتتبع الموضوعات فى سلاسة ووضوح ، فضلا عما أشرنا مما يجب أن يكون بالنسبة لهذا النهج .

أما الأسعار ، فحدث عنها ولا حرج . وكان من المفروض ، ما دام «الوسيط» قد اختفى ، أى الناشر الخارجى ، ومستوى الطباعة غالبا ما يكون رديئا ، أو متواضعا ، أن يهبط السعر ، لكن هذا لم يحدث ، فأسعار المذكرات أصبحت تفوق أسعار الكتب المنشورة خارج الجامعة ، وكأن المؤلفين قد اطمأنوا إلى أن الطالب مجبر على الشراء ، وتسارع المكاسب وتزايدها أغرى البعض ، فأصبح الشعار هو : هل من مزيد ؟ كأنها نار كلما أطعمتها زادت اشتعالا !

★★★

وكان لطغيان «المذكرات» أثره على حركة النشر لدى الناشرين . كان كثير منهم يعتمد على توزيع الكتاب الجامعى فى الحصول على أرباح مرضية ، كانت تعينه على نشر كتب أخرى ، مما يقال عنه «ثقافية» ، أى غير مقررة على طلاب الجامعات ، توزيعها ليس مضمونا دائما ، على أساس «تحميل» هذه على تلك ، فلما انحسرت الكتب الجامعية ، كان من الطبيعى أن تنحسر بالتالى حركة نشر الكتب غير الجامعية ، إلا بالنسبة للكتاب المعروفين ، أو الموضوعات المشهورة بجذبها القراء ، وبدأت تظهر لدى الناشرين بدعة جديدة ، وهى أن يتحمل المؤلف تكلفة النشر . وشكل هذا عقبة كبيرة أمام كثير من المؤلفين وخاصة الجدد ، وكاتب هذه السطور ، على الرغم من عمله بالجامعة أكثر من سبع وثلاثين عاما ، منذ عدة سنوات ، وهو يطبع كتبه على حسابه الخاص ، لأنها ليست كتبا «مقررة» وتوزيعها غير مضمون للناشر ، لأنها تتناول موضوعات غير جماهيرية ، وجافة ، وأكاديمية !

وكان لطغيان المذكرات كذلك أثره فى

جمود حركة التأليف الجامعى التى كانت تشعلها المنافسة بين الأساتذة ، مما كان له دوره فى التقدم الفكرى ، ومعذرة للقارىء أن تكون أمثلتى من المجال الذى أخبره ، ففى عالم التربية ، ورغم أن طلاب كليات التربية الآن يتجاوزون المائة ألف ، لكنك لاتجد كتبا ذات بال فى العلوم التربوية بل الكتب الموجودة تعد على أصابع اليد ، فالجميع قد ارتاح إلى حكاية المذكرات التى تدر دخلا بالألوف دون جهد يذكر ، وعزز من هذا أن اللجان العلمية للترقية ، تستبعد الكتاب «المقرر» من جملة الإنتاج الذى يمكن أن يرقى به عضو هيئة التدريس ، بحجة أنه لاياتى فيه بجديد ، ومعلوماته تتسم بالعمومية والبساطة .

وكان من المألوف أن يستعين بعض أعضاء هيئة التدريس بكتب جامعية ألفها أساتذتهم ، أو غيرهم من فحول الأساتذة، لكن ما أصبح شائعا الآن أن عضو هيئة التدريس ما إن يحصل على الدكتوراه حتى يؤلف على الفور كتابا ، ولا يفكر أبدا فى الاستعانة بكتاب أستاذ كبير فى التخصص ، إلى أن يشتد عوده وينضج علميا وشخصيا ، ولم هذا ؟ إن لسان حالهم يقول : «هم رجال ونحن رجال » ، ولو صدقوا القول لأبرزوا الحقيقة وهى أن الكتاب الجامعى تحول إلى أن يكون مجرد سلعة تجارية ، لاعلمية ، تجلب الرزق الوفير ، وكبار الأساتذة كفاهم ما أخذوا ، أيريدون أن يأخذوا زمنهم وزمن غيرهم ؟!

ومن أكثر الإجراءات مدعاة للسخرية ، وذلك الإجراء الذى اتخذ من سنوات من قبل السلطات الجامعية بتحديد كم من الصفحات لكل مقرر وفقا للمدة الزمنية التى يحتلها على خريطة الجدول ، وبالتالى «تسعير» كل ملزمة ، وهو أمر مضحك حقا ، ولم ينفذ أبدا ، رغم النشرات السنوية المتكررة التى توزع على الكليات بالتعليمات الخاصة بهذه المسألة . ووجه السخرية فى هذا أن المسألة تختلف باختلاف طبيعة المقرر نفسه لا بساعاته ، فقد يتطلب المقرر أن تنفق ساعة كاملة فى حديث لايستغرق أكثر من صفحة ، وقد يسمح المقرر بالعكس من ذلك ، أن تستغرق الساعة كما كبيرا من الصفحات.

وعلى سبيل المثال ، هناك من مقررات أقسام الفلسفة ، مقرر بعنوان «علم الكلام» الخاص بمناقشة القضايا الدينية بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية ، وهناك المقرر بعلم المنطق ، وكلاهما تستغرق الصفحة أو الصفحتان ، ربما ساعة كاملة، ولا يكون الأمر هكذا فى موضوعات اجتماعية خاصة بالأسرة ، مثلا !!

إن القضية خطيرة ومعقدة ، ولا أستطيع أن أزعم أنه يمكننى فى هذا الحيز أن أقدم حلولا لكل هذه الجوانب ، وإنما هى تتطلب تضافر الجهود ، وتكامل العقول لتفكر فى سوءاتها وأسبابها وما يمكن عمله للتغلب عليها بحيث لاتنشأ سوءات أخرى بديلة ، أقول هذا لاهربا من تقديم الحل ، وإنما اعترافا بأن أحدا بمفرده لايستطيع أن يصل فيها إلى حل .

طوفان الدكتوراه الى أين ؟!!
المعضلة والعلاج

نكأ الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى - نسأ الله فى أجله - جرحا ناغرا، وذكرنى طعنا كنت أتناساه، ومن جرائه حرصت منذ حصولى على درجة الدكتوراه ألا أقرن اسمى بلقب هو فى ذاته جليل، حيث يعنى فى الإسبانية أن صاحبه صار له مذهب أو طريقة، وقلت ضمن ما قلت فى مستهل أحد كتبى: «لا يذكر المترجم اسمه مقرونا باللقب العلمى الذى حازه، لأنه يرى أن شيوع هذا اللقب فى الآونة الأخيرة أنقص من قدره، وإن لم ينقص من قدر الملقبين به، وخاصة من جيل أساتذتنا الذين حازوا اللقب فى زمان كان يعرف قيمة الأشياء، والتى انماعت فى زماننا «ألقاب مملكة فى غير موضعها»، الى أن أقول : والأساتذة الأسبان لا يعرفون هذا اللقب مكتفين بذكر «السيد» قبل الاسم، وهى سنة حسنة لعل بيننا من يعتنقها، فنعرف الحق بالرجال، لا بألقاب الرجال، ونشر الكتاب سبع طبعات مصدرا بهذه الكلمة التى لم تجد صدى إلا يسيرا !! .

بقلم : د. عبد اللطيف عبدالحليم

بين زمن الطلاب وزمن الدكاترة

ولعلّي - وقد بدأ الأستاذ مقاله بطرفة عن شيخ معهد الزقازيق الذى مدحه شاعر من الطلاب فى عهد قرزمته، وفى قصيدة بيت مكسور - أطرفه بما حدث لدكتور يدرس مادة النحو فى إحدى الكليات العريقة، ودخل مكتب وكيل الكلية وكنت حاضرا ليوقع الوكيل على شهادة حسن سير وسلوك، أولها : «نشهد نحن الموقعان....»، فما كان من الوكيل إلا أن طلب من الدكتور أن يقرأ الشهادة ظانا أنه خطأ كتابى يستدركه صاحبنا، وكانت الطامة أن قرأ الدكتور الكلام كما ورد مكتوبا، فأسقط فى يد الوكيل، وأبلس، ماذا يصنع، وفى النهاية أفهمه الخطأ طالبا تصحيحه، وخرج الدكتور «والباب يصفع قفاه» كما قال الرافعى فى حديث عن العقاد، وشتان بين الموقفين، لكن القافية تحكم، وتحدث الوكيل حين سألته عن حيرته، فقال : كنت سأوقع على هذا الخطأ لكى ترد الجهة التى يريد الدكتور التعاقد معها معارا هذا الطلب، لكنه خشى - أى الوكيل - أن تظن تلك الجهة بالدكتور وبالوكيل الظنون، وأن الكلية العريقة غير أمينة، وهكذا كان، وسافر صاحبنا، ليعود أستاذا مساعدا يشرف ويشارك فى مناقشة الرسائل.

فانظر الفرق بين زمنين !! زمن الطلاب وزمن الدكاترة !!

خلا هذا اللقب من مضمونه، ليس فى كليات معينة، بل عمت البلوى، فتجد الدكتور الطبيب، والدكتور المهندس على تلك الحال - إلا من رحم ربك ، وجأرت حناجر الأساتذة الكبار بالشكوى، ولا من مجيب، كما جأرت أيضا بتقديم المقترحات الإصلاحية، وعقدت الندوات والمؤتمرات، لتوضع التوصيات فى الأدراج، ولو كففنا عن عقد المؤتمرات وطلب الحلول بضع سنوات ، وبحثنا عن التوصيات القديمة لكان فيها علاج ناجح، لكن هكذا يراد، ونعوذ بالله من الخذلان، كما كان يدعو شيخنا ابن حزم.

قضية الدراسات الإنسانية

بيد أن الطامة الكبرى تتمثل فى تخصصات معينة هى جوهر هذه الأمة، لأنها تمثل صميمها، ولا ينهض بها غير أبنائها البررة، وهى الدراسات الإنسانية وخاصة اللغة بما يتعلق بفروعها، حيث لا يمكننا استيراد متخصصين ومبدعين فيها بخلاف التخصصات العلمية، لأن العلم لا وطن له .

وفشت البلوى مع افتتاح الجامعا الاقليمية حيث تقوم على نمط من الدكاتر من «تحت السلاح» كما يقولون، وفى نرعهم القيام بتدريس كل الفروع بلا مثنوية، واشتط ببعضهم الغلو فى انشاء الدراسات العليا، ينهض بها المدرسون الذين كانوا حتى الأمس فقط يدرسون فى

المدارس الاعدادية، وزهد أساتذة الجامعات الكبرى فى الانتداب اليها، حيث ينظر إليهم على أنهم يأخذون لقمة العيش من تلك الأفواه الاقليمية، ولأن الوقت غير متاح لهم أو لأكثرهم، ولضآلة العائد المادى، وصار فى ذرع الدكتور هنالك أن يدرس مادة كالأدب المقارن وهو لا يعرف كتابة اسمه باللغة الأجنبية.

وقد بُليت أقسام العربية بضعفة الطلبة من الحاصلين على ٥٤٪ فى بعض السنوات، وتخرج بعضهم معيدا، وصار أستاذاً الآن، ولم يدخل تخصصه راضيا، بل قذف به مجموعه، واذا تقدم طلاب فائقون فإنما يذهبون الى كليات التربية وهى مفتقرة بحسب منهجها الى الكم والكيف المعرفى فى مواد التخصص، حيث ينازعها المواد التربوية وطرق التدريس وعلم النفس، وكلها علوم مفيدة لمن يملك مادة تخصصه أولا كالعربية أو اللغات الأخرى، وبقية التخصصات، وإلا فما جدوى أن يعرف الطالب طرق التدريس والتربية، ولا يعرف جيدا قواعد العربية وأدبها ونقدها ؟ .

وهكذا الأمر فى كل التخصصات، ومن هؤلاء يكون المعيدون الذين لا يقيمون لغتهم ، وهم الأساتذة فيما بعد، نعتقد أن هؤلاء الطلاب الفائقين كان يمكن تعليمهم جيدا فى التخصص فى غير كليات التربية.

فشل نظام الفصلين

يضاف الى ضعف تكوين الطالب الذى سوف يكون معيدا ، ثم دكتورا فيما بعد، نظام الفصلين الدراسيين الذى إذا صح فى بعض المواد فلا صحة له فى علوم العربية والدراسات الإسلامية ، لأن الزمن فيها جزء من العملية التعليمية ، وإلا فماذا يصنع الطالب فى مناهج الأدب والنقد، بقضاياها وعصورها المختلفة ، وإن وقتا ينفقه الطالب فى تذوق النصوص وهى عسيرة ، وبعض عصورها يبلغ ثمانية قرون لا يمكن أن يضيع سدى فى خلال عام دراسى كامل ، لا بضعة أشهر هى زمن الفصل الدراسى، حيث يظل يديرها فى نفسه ، ويجيلها فى خاطره ثمانية أشهر فيحسن فهمها وتذوقها، ويتمكن من خلالها من فهم كتاب الله وهو ذروة البلاغة والبيان .

ونعتقد أن نظام الفصلين لا يحقق له هذه الغاية المرجوة، كما نعتقد أو نظن على الأقل أنه نظام لا يؤمن به غير واضعيه والقائمين على تنفيذه من أهل الإدارة ، وربما يكون بعضهم أول ذاميه فى خلوته ، حين يثوب إلى فطرته ، ربما يحقق متابعة للطالب ، لكننا نلاحقه بامتحانات متكررة فى وسط العام الجامعى وفى آخره ، وربما تتكرر هذه الامتحانات مرتين كل فصل للمتخلفين، والأصليين، ثم دور سبتمبر ، مع ما يتبع ذلك من استعدادات للامتحانات والتصحيح، ولهاث لا ينتهى ، على حساب العملية التعليمية ، وهى الأصل الأول الذى لا أصل يسبقه فى كل الأمم الناهضة ، أو هكذا ينبغى على الأقل .

وإن طالبا يتخرج فى ظل هذا النظام

التعليمى ، مع الملخصات والدروس الخصوصية ، كيف يكون لنا منه باحث جيد فى المستقبل حين يعين معيدا ثم دكتوراً ؟

ولا يعنى ذلك أن نظام العام الدراسى الكامل لا مثالب فيه ، لكنها فى تصورنا أقل، ومعالجتها لا تكون بنظام الفصلين بل بصيغة تجمع بين المتابعة الفصلية والتحصيل الكامل خلال عام دراسى كامل.

فوضى الدكتوراه

ومن الهزل الذى لم نلتفت اليه أن هناك جامعات أجنبية لن أسميها الآن، تمنح درجة تسمى «أعلى مؤهل» فى مدارس الفنون ، ويترجم المكتب الثقافى هذه الكلمة بلقب «دكتوراه» ، فى حين أنها توازى الليسانس أو دبلوم الدراسات العليا، وبعض هؤلاء الطالبين لها كانوا قد حصلوا على الماجستير فى مصر وهى درجة أعلى من تلك الدرجة «الخواجاتى»، وفى اعتقادنا أن الفن لا يحتاج إلى مثل هذه الدرجات فحسب الفنان فنه ، وهو أعلى من أى لقب ، لكن الرغبة فى الألقاب ، والدرجة المالية - وهى حق وظيفى - وراء هذا السعى المشكور، وبعض هذه الجامعات تمنح درجة الدكتوراه وتسمى «دكتوراه الجامعة» تمييزاً لها عن «دكتوراه الدولة» التى تمنح لأبناء البلد المانح نفسه ، وتميز الجامعات الدرجة الأولى بخاتم يقول : «لا يصرح لحاملها العمل فى الجامعات....» وتمنح للعرب ولابناء أمريكا اللاتينية ، فى كثير من البلدان ، وبعضها تسمى «دكتوراه الدرجة الثالثة» وآخرون يترخصون فى كتابة الرسالة بلغة غير لغة البلد المانح ومنها العربية ، مادام الفساد بعيدا، ويرحل عن بلادهم الى بلادنا أو أشباهها.

وثمة دكتوراه أخرى هى «الفخرية»، ويتمسك بعضهم بها، ولا تخول له التلقيب بها، لكنه الداء المطمئن، والذى لا يجد له شكيما ضابطا.

هؤلاء الدكاترة ومن على شاكلتهم يترقون الآن فى ظل نظام غير دقيق، وحسبك أن تعلم أن البحوث المقدمة فى حدود خمسة ، كل واحد منها فى حدود عشرين أو ثلاثين صفحة ، ومعروف معقولية هذا فى البحوث العلمية التى ربما لا تزيد على صفحات قصار جدا، تحمل كشفا أو نظرية جديدة تغير مسار العلم ربما ، لكن فى الدراسات اللغوية أو النقدية ، ماذا يكتشف الباحث فى بحث عن مقدمة القصيدة عند البارودى مثلا فى حدود تلك الصفحات ، بعد تمهيد عن حياة الشاعر وملابسات الإبداع ، وكلها كلام «بائت عليه الثعالب» ، إلا كلام من رحم ربك وهم أقل من القليل ، ثم يتقدم ببحوث مثلها الى الأستاذية ، ويرقى به ما يسمى بالبحث المرجعى فى مقا تستغرق وقتا لا يسمح باكتشاف الباحث ، ويكتفى بالدرجة دون تقرير علمى كما كان المنهج السابق ، ربما تكون فيه بعض ثلوم، لكن إلغاءه ووضع منهج مخالف له ، سيجعل من الأساتذة جيلا مقطوع الأنفاس ليس له كتاب ، يبين فيه منهجه ،

ودرسه ، ودعك من المباحث المسروقة وليس الأساتذة الفاحصون محيطين بكل شئ علما ، فضلا عن خصاصة المكافآت الممنوحة للفاحص ولعضوية اللجنة ، واللجنة بالمناسبة تضم في عضويتها أناسا لا يعرفهم حتى أهل الاختصاص ، لأن العدالة رأت مقياس الأقدمية كافيا ، وأهملت العلم والفضل بجانب المقياس المتبع ، وهو كسيح بكل المعايير ، صحيح أن في بعض اللجان أسماء لامعة علما وفضلا ، لكنها قليلة جدا ، ولا ذكر هنا للمجاملات الشخصية والنحل المذهبية التي تقدم وتؤخر كثيراً في الضوابط والأحكام .

بعض هؤلاء الدكاترة تأخذهم العز بالإثم ويرون أن المكان لا بد أن يخلو لهم بتنحى الأساتذة الكبار ، ليحلوا محلهم ، وليتهم يملأون المكان كما ملأه الأساتذة ، حيث الهزال والطوى ينشران سجفهما عليهم ، ولا شئ غير الادعاء ، سطوا على جهود الأساتذة ، وتعجلا دون ركيزة راسخة من العلم .

وبعض هذه اللجان العلمية تشكل من أساتذة القسم نفسه كما يحدث في الأزهر عند ترقية الأساتذة المساعدين ، ولست أدرى هل لا تزال هذه السنة متبعة أم لا ؟، وهنا تفرخ المجاملة الإفراخ الطبيعي ، ليت الأستاذ الدكتور البيومي أشار إلى هذه القضية ، وإلى ما يحدث في الأزهر خاصة ، وأمانة الأستاذ ليست محل حجاج .

أذكر أن طالبا تقدم برسالة في قسم النحو - مجاراة أذكرها لمدرس النحو الذي ذكره الدكتور البيومي - والطالب جدلا ، يذكر المصطلحات دون فهم ، ويريد أن يكون مجددا فما كان من شيخ جليل عضو في المناقشة إلا أن قال له : لا أفهم ما تعني ، وطلب من طالب الدكتوراه أن يشرح المراد ، فقال كلاما لا يحسن السكوت عليه - رعاية لمقام سادتنا النحاة نذكر بعض كلامهم - وهنا قال الشيخ لتلميذه المشاكس : أعرب البيت المذكور شاهدا في رسالتك . وإذا بالطالب قد أجْبَلَ وأَفْصَى ، ولم يحر جوابا !!

تلك طائفة علا صوتها ، واشتد لجبها، ووجدت من يصغو إليها - أي يميل - فعاثت فسادا في علم هو قوام العربية ، وقوام أي لغة أخرى ، وما كان أساتذة الإسبانية يترخصون معنا حتى في نطق بعض الكلمات والأحرف العسيرة بالنسبة للأجانب بله النحو ، وما أشق أزمنة أفعاله!!

محنة التعليم

سيدى الأستاذ الجليل : نحن في محنة ، ورحم الله أياما كان شيوخنا في الأزهر في القسم الابتدائي والثانوي أعلاما في المعرفة ربما أفضل من بعض دكاترة هذا الزمن الوبئ ، في النحو والفقه والتفسير والحديث والعروض والبلاغة ، ولست من الناعين اللائذين بالماضي ، بل إنني لمست هذا حتى مع طبقة المستشرقين الذين تلمذنا لهم ، وخلف من بعدهم خلف ضيع علما وفضلا، وإن كانوا أفضل من الخلف عندنا ، ولست - والله - أدخل الحزن

على قلب الأستاذ ، فما إلى هذا وكدي .

كيف يكون الإصلاح ؟

وإذا كان الشيخ قدم مقترحات للإصلاح ، فلن تكون في يد من كانوا سبب الإفلات والضياع ، ترخصا واستنامة ، إنما المسألة تقتضي بعثا ونخوة قبل البرامج الدراسية ، وإحساسا فرديا يتنامى فيشكل اتجاها إصلاحيا ، ولن تكون البرامج التربوية سوى معين ، إذ لا بد من امتلاك الأداة والمحصول أولا لأشكله حسبما أشاء ، ولأضرب مثلا يسيرا بمدرس النحو الذي لا يعرف غير قشوره ، وهو ممتلئ العقل ببرامج التربية وطرق تدريسه ، فماذا يصنع أو يفيد ؟.

إن الألقاب الجامعية حصلها غير أهلها ، والسمكة تفسد من رأسها ، والمتخرجون نتاج طبيعي لهذا الرأس ، وقد سرى كثير من هذا الفساد في السلم الوظيفي بالجامعات ، حين أبحنا للمدرس والأستاذ المساعد اللذين لم يرقيا إلى درجة أستاذ وأدركتهما سن المعاش أن يظلا مدرسا متفرغا وأستاذاً مساعداً متفرغا أسوة «بالأساتذة الأساتذة » ، وكأننا نسوى بين العجز والقدرة والكسالى والمجتهدين ، وكله عند الجامعة صابون ، كان المفروض أن يحال هؤلاء للمعاش ، حين رضوا بالدون ، لا أن يحرزوا «المكافأة » ، ولماذا يعنون أنفسهم بالبحث وسهر الليالي ما دامت الوظيفة مضمونة ، والجائزة مدخرة لهم ؟ في حين نكيل بمكيال آخر عند تأخر المعيد أو المدرس المساعد عن إحراز اللقب ، ونحولهما إلى عمل إداري . كفى أيها السادة تدليلا للعجز وارتكاس القدرة ، هلاّ حولنا هؤلاء قبل المعاش إلى أعمال إدارية فإذا بلغوا السن القانونية خرجوا وشيعوا دون بكاء إلا من ثبت عجزه جسديا عجزا كليا ، وأخشى من اللجان الطبية آنذاك ، ومن التقارير المزيفة.

وثمة نمط آخر من هذا العجز يتعلق بالأساتذة أنفسهم حين يركنون إلى عدم البحث والكتابة ، وكأنما الأستاذية آخر المطاف ، وحين يبحثون عن مناصب كما يبحث «عبده مشتاق » ومن على شاكلته وفقدنا الأسوة في الأساتذة الكبار : علي الجارم ، وعلي الجندي ، ومحيي الدين عبد الحميد ، وأحمد أمين ، وأمين الخولي ، كل هؤلاء غير دكاترة !!، وشوقي ضيف ، وأحمد هيكل ، والطاهر مكي ، ورجب البيومي وإخوان هذا الطراز .

ثم تأتي الإعارات ، وأصحابها في البداية طلاب رزق ومعذورون ، لكنها تتحول عند طائفة إلى احتراف ، وتحت مسميات كثيرة مثل مرافقة الزوجة - وكان الناس يخجلون منها بداية - ويستقيلون حين انقضاء «العدة» ، وحين تكون المسألة بهذه الصورة لا تُنتظره بحثا ولا علما ، مع وجود الكتب المقررة سلفا ، وحين يعود البعض ينسى ما بحثه قديما ، خاصة حين يكون مدرسا لا يزال ، وتطفح المرارة النفسية عاجزا حتى عن القراءة ، لأنها عادة وضرورة حياة لمن تمرس بها وعاناها.

هذا هو الحال ، ولا أمل إلا ببعث جديد ، وإلا إذا تحولت السنن ، وتبدل الخلق جملة كما يقول ابن خلدون ، وهو أمر غير عزيز إذا صحت العزائم وصدقت النوايا ، وللأستاذ الجليل تحية الأمل ، لا تحية القانط المستخذى ، وشكر الغيور لا شكر المداهن .

جامعاتنا فى القـرن الحادى والعشرين

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي*

لم يكن سلطان العلم على العقل يوما، ودوره فى تحديث الحياة، وتطوير البشرية، كما هو فى عصرنا، وفى تطوره وتفجره يسبق الخيال، ويحقق واقعا أبعد من الأحلام، ومع الجديد المتجدد، يطوى الزمن، ويتجاوز الصعاب، وتتأكد قيمته عند المؤمنين به، فيزدادون به ايمانا، ويصاب المتخلفون امام منجزاته بالدوار والذهول، والغيبوبة والانبهار، ويعزون كل مايرون الى قوى غيبية لا تملكها ولا تراها، ولا سلطان لها عليها

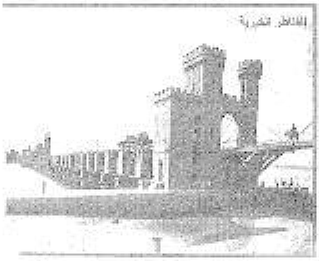
*عضو مجمع اللغة العربية

هذا العلم النافع الذى نأمله، ونسعى اليه ونتمناه، يبدأ فى الجامعة، لان ماقبلها لون من مكافحة الأمية التى تعين على مشكلات الحياة البسيطة، وتجدى مع مسائل الأمور العاجلة، فحسب.

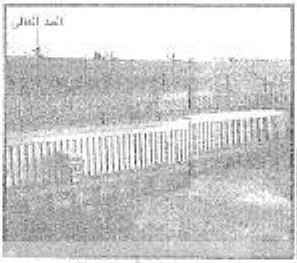
وفيما يجرى الآن مع علمائنا دليل ناصع لا يحتاج الى برهان : إن المصريين اللذين ستفد بهما جائزة نوبل العالمية فى الأدب والعلم، من خريجى جامـعـتى القاهرة والاسكندرية، وليس ذلك مجرد مصادفة، وانما اشارة دالة على ما يمكن ان تصنعه الجامعات ذات التقاليد العريقة لخريجيها.

ومع كل ما حققه علماؤنا الجامعيون، وهم كثر، بعضهم معروف، وآخرون ليسوا اقل قيمة أو مقاما يؤثرون أن يكونوا اصحاب واجب يؤدونه دون أن يشغلوا غيرهم بها، ودون أن يشغل بهم الآخرون غفلة أو حسدا، أو غيرهما من شرور الانسانية التى تلحق النابهين، مع كل ذلك نسأل أنفسنا : هل نحن راضون عن جامعاتنا، واقعها ونشاطها وطلابها وطلابها؟ وما الذى نؤمله فيها ونترجاه ونتوقعه، ونرجو أن تحققه لنا فى الأعوام المائة القادمة

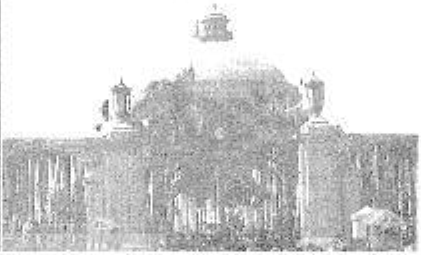
إن الشعوب ذات الحضارة العريقة لا ترضى عن حاضرها، ولا تتواضع فى طموحاتها، وانما تطلب المزيد دائما، وما أحسست بأننا شعب متحضر حى إلا فى اللحظات التى أرى فيها الناس ساخطين على ماهم فيه، ويتملكنى شعور بالخوف والضيق حين أرى جموع الشباب تطيعا راضيا عن نفسه وحياته، أو أسمع أهل الفكر والرأى يمدحون ويحسنون تلك القرية



القناطر الخيرية



السد العالي



التى تنسب الى الامام الغزالى، وقد انتزعوها من مناسبتها التى قيلت فيها : «ليس فى الإمكان أبدع مما كان».لا، هناك دائما البديع الرائع، والجديد المبتكر فى الحياة، والذى ننتظره دائما من جامعاتنا .. ولكى تؤدى الجامعات هذا الدور الذى ننتظره منها، فإنى أحلم لها، أو بالنيابة عنها، لأننى أحد ابنائها والعاملين فيها .

أول الأحلام

أول هذه الأحلام وأحقها بالتأييد أن تكون لكل محافظة جامعة مستقلة، ذات شخصية متميزة، مستكملة الأبنية والأجهزة والاساتذة والمعامل، ويتكفل ابناء المحافظة نفسها بدعمها ماليا، كل بقدر ما يستطيع، وأن يكون هناك تنافس قوى شريف بين الجامعات المختلفة، وأن تتعمق الصلة بين الجامعة والذين فيها، علماء وطلابا، فكرة ومعنى، فيزهون بها، ويغارون على سمعتها، ويرون تقدمها فخرا هم صانعوه، وهى حقيقة لن تتأكد الا اذا استردت كلمة «استاذ» معناها الجليل العـريق، فكانوا من أوائل خريجيها، وابتعثوا الى الجامعات التى تسبقنا، ليتزودوا بالمعرفة، وينصهروا فى أوساط جامعية أفضل، فاذا عادوا بنوا مجتمعا فاضلا كالذى تكونوا فيه خارج الوطن، فى الجامعات الأرقى .

وهذا النابه العائد يتطلب رعاية من نوع خاص ليعطى ما عنده، حتى لا ينتهى به حصار الفاشلين الى الكفر بكل ما تعلم واكتسب وآمن، وأول الطريق الى هذه الرعاية، لأنها تتصل بما شاهد ولمس أن تسود فى الجامعة الديمقراطية، ديمقراطية فى العلاقة مع زملائه، وبينه وبين الادارة، وفى تعامله مع طلابه، وبين الطلاب، بعضهم ببعض، ومع الادارة .

حرم الجامعة

وذلك يعنى ببساطة ان نفك الاشتباك القائم الآن بين الأمن وادارات الجامعة، وأن تنتهى حدود الأمن خارج أسوار الجامعة، وأن تعود الى ساحتها الحماية والاعتبار، واسمها الذين كانوا يطلقون عليه فى الأيام الخوالى المجيدة «حرم الجامعة» ، لأن اصحابه كانوا آمنين فيه، ومحرم على غيرهم اقتحامه، وأن يتاح للطلاب ان يعبروا عن آرائهم فى حرية، وأن ينتخبوا اتحادهم بعيدا عن الضغط والتزييف والتزوير. ان الخوف من الديمقراطية ، والتخويف بها، سمة العجزة، والضعفاء فى الحوار، والمتخلفون فى الذكاء وحدهم هم الذين يخشونها، وقد أثبتت التجربة عند غيرنا، وأراها صالحة لنا ، أن علاج عيوب الديمقراطية ومتاعبها يكون بالمزيد منها .

بالانتخاب

أحلم بجامعة رئيسها وعمداؤها يجيئون بالانتخاب العام من هيئات التدريس فيها، وأرى اساتذة يهربون من هذه المناصب الادارية، لأن لهم من شواغلهم العلمية الجليلة ما يشغل وقتهم كله، ويضنون به ان ينفقوه فى أعمال ادارية تافهة، أما الطريقة التى تتم بها التعيينات الآن فترضي الأمن، ولكنها فى أغلب الأحوال لا تقع على الصالح الذى يفكر ويبدع، وعند الضرورة يقول : لا، بصوت مرتفع، وإنما تأتى بنمط مطيع، آخر ما يفكر فيه رقي الوطن، وسمعة الجامعة، وكرامة بنيها .

وتجربة الجامعات الخاصة عندنا ليست مشجعة، وقد بدأت هزيلة، واذا قسنا حالها بحال المدارس الخاصة عندنا، الحضانة والابتدائية والاعدادية والثانوية، «فابشر بطول سلامة يامربع»، ان هذه المدارس تضم فى جملتها الفاشلين فى الدراسة، ومتوسطى الذكاء، والمتخلفين عقليا، وليس حال الجامعات الخاصة بأفضل من حالها، وهي نوافذ خلفية، يردها ابناء القادرين على الدفع، لكى يحملوا ألقابا جامعية، وربما ايضا ليجدوا بعد التخرج وظائف ذات راتب افضل، لمكانتهم الاجتماعية وليس لمواهبهم العقلية، او كفاءتهم العلمية، وبالتالى لا أظنها سوف تقدم لنا عالم القرن الحادى والعشرين، واحسب انها فى الطريق الى زوال .

التقدير الواجب

أداء الواجب فى الجامعة، وهو صعب وخطير، لابد أن يقابله التقدير المناسب معنويا وماديا، فلا معنى - وليس ممكنا ايضا - ان تطالب الاستاذ الجامعى بأن يكون ملاكا، راهبا فى صومعة، ثم لا تيسر له مطالبه التى تعينه على الحياة المريحة، وعلى أن يكون الاستاذ الذى تريد، وان تؤمنه ضد جوائح الزمن فى صحته وعائلته ، فلا يشغل نفسه بغير عمله ومكتبته وطلابه، وحين تحقق له الدولة هذا القدر من الضمان، فقد أبرأت ذمتها، فلا ترحم مقصرا، ولا تتهاون مع مستهتر ولا تتستر على مخطىء ولا تبطىء فى تنفيذ القانون القائم، وسن القانون اللازم، اذا لم يكن هناك، وفى هذه الحالة البتر أولى، وعلى نفسها جنت براقش .

اذا استقرت هذه القواعد فلن تجد المدرس الجامعى الذى يزيف عقد عمل لزوجته الأمية، أو التى تفك الخط بالكاد، ويدعى كذبا أنها تعمل فى هذا البلد العربى أو ذاك، ثم يطلب السفر معها مرافقا، والواقع انها لا تعمل، وأنها لم تبرح القاهرة، وانما الذى يعمل فعلا

متسترا وراء عقدها المزيف زوجها، وتوافق الجامعة على سفره، حتى اذا أكمل السنوات العشر مغتربا، وهى الحد الأقصى المسموح به، وفصلته اذا لم يعد، لجأ الى مجلس الدولة، يحتمى بثغرة فى قانون حماية الأسرة ، وتحكم له المحكمة، وتنفذ الجامعة وهى تعلم أن العقد باطل، ومابنى على باطل فهو باطل، وبدل أن تبلغ النيابة متهمة اياه بالتزوير تصمت، وتصمت الكلية، ويصبح مثل هذا التزوير عرفا مقبولا، يعرفه الجميع ويسكتون عنه.

وأعجب من جامعاتنا الجامعات النفطية نفسها، فهى تعلم أكيدا أن جانبا كبيرا من الاساتذة الذين يعلمون أبناءهم، مزورن وكذابون ، تعلم هذا لأنها شاركت فى الزيف والكذب وصدقت عليه، ومع ذلك تطمئن اليهم اساتذة، لأن مايعنيها المظهر وحده، أما الجوهر فآخر ما تفكر فيه، وربما كان من المفيد لحكامها ألا يتعلم الطلاب شيئا، وألا يأخذوا من العلم غير قشوره، وليس بغريب ان هذه الجامعات، على كثرتها، وانقضاء الكثير من السنوات على انشائها، وانفاق الطائل من الأموال على تجهيزها ، لم تقدم لوطنها، أو أمتها، شيئا نافعا تزهو به، أو عالما مرموقا يرفع رأسها بين الرءوس .

جامعة القرن الحادى والعشرين التى نحلم بها معلومات الاستاذ فيها متجددة، وهو موصول بالجامعات الأرقى دواما، يتردد عليها زائرا من حين لآخر، يرى أحدث ما وصلت اليه ويفيد منه، وأن تعينه الجامعة فى سعيه هذا، وأتمنى أن تكون عادة تشجيع الكسالى على البقاء حيث هم قد انتهت الى غير رجعة، ذلك أن جانبا لا بأس به من أعضاء هيئة التدريس يشغل نفسه بغير العلم والبحث، ولا يجرؤ على التقدم للترقية، ويمضى عمره مدرسا دون أن يسأله أحد، مع أن الجامعات المتقدمة، (وبعض الجامعات النفطية تقلدها شكلا) تطلب من المدرس بعد سبع سنوات من تعيينه لماذا انت واقف فى مكانك «محلك سر»، مع ان الجامعات المتقدمة، (وبعض الجامعات النفطية الجادة تقلدها فى هذا الأمر) تطلب من المدرس بعد سبع سنوات من تعيينه ان يتقدم للترقية الى وظيفة استاذ مساعد، او يجد له مكانا آخر غير الجامعة!

أما عندنا فنحن نكافئه على كسله، وانشغاله بغير العلم، وتفرغه لغير مهمته، نحيله عند التقاعد، وهو المدرس، استاذا متفرغا!

العلماء الأفذاذ

العلم، أريد أن أقـول الجـامـعـة، هى الأمل وهى ملاذنا فى القرن الذى نبدؤه، علينا أن نحرص عليها، وأن نمكنها من أداء رسالتها، وأن نحميها من نفسها ومن الآخرين، وان نتذكر ان العلم درجات، كل سلمة تسلمك الى التى تليهـا، وانك لا تستطيع ان تصعده، دفعة واحدة، اول صـعـابها الآن تفـتـيت الذرة، وهو حلم داعبنا طوال نصف القـرن الماضى، ولما ننجـزه، والعـالم المصـرى الذى أدرك أسرارها، وهو من جامعة الاسكندرية، لم نستطع حمايته، فاغتالته الصهيونية فى باريس، وأتصور أن عالما مصريا آخر، فى بطن الغيب، لن يبعد به الزمن أكثر من عقدين من الزمان، سوف يدخل بنا عالم الذرة، ومعه، وبعده سوف تتوالى فتوحاتنا فنصعد بقية السلم : الليزر، والهندسة الوراثية، وألوان أخرى من العلم فى ظهر الغيب، ولقد سبقنا فى هذا المجال من هم دوننا حضارة وتقدما وثراء، وأحسب ان تخلفنا فى هذا كان نتيجة طبيعية للتيارات السياسية والاجتماعية الضاغطة التى شهدتها اعوامنا الأخيرة من القرن العشرين، ولقد بدأنا نحس بهذا التخلف، والاحساس بالألم بداية التفكير فى عـلاجـه. ولن تنهض بنا القناعـة باستتباب الأمن، لأنها خادعة، فالحركة حياة، والجمود موت.

والخيـر والشر متلازمان مذ كانت الخليقة، وتقدم المعرفة وسيطرة الآلة يأتيان معهما بشرور لا حصر لها، واذا كان الخير متشابه الأوجه، فالشر مختلف، ولن يعيننا غيرنا عليه، وانما ذلك موكول الى علمائنا، وفى مجال التسابق بين الجامعات، سوف تقوم كل جامعة باجتثاث المفاسد المعنوية والمادية من الدائرة التى تحيط بها، وهذه رسالتها العاجلة.

النهر الذي أحلم به

ورغم كل المعوقات فان العبقرية المصرية اذا اتيحت لها الفرصة قادرة على أن تصنع الكثير، واذا اخذنا لذلك مثلا قدرتها على التحكم فى مياه النيل وجدنا انها فى القرن التاسع عشر بنت القناطر الخيرية، وفى القرن العشرين بنت السد العالى، وفى القـرن الحـادى والعشرين تعيش على أمل شق نهر جديد يخترق الصحراء الغربية يحيى مواتها، ويخضر صحراها، ويصنع فيها مجتمعا آخر فتيا، بريئا من أمراض المجتمع العتيق، وقد أرهقته متاعب الشيخوخة وأمراضها .

تلك أحلامنا، وهى عريضة واسعة، نربطها بجامعة المستقبل، وأعيذ وطنى، أن تكون على نحو مانراه فى جامعاتنا الآن .

إبراهيم الخليل

أبو الأنبياء

بقلم: د. أحمد عبدالحميد يوسف

سيقوم بابا الفاتيكان فى رحلة هى الأولى من نوعها يبدأها بزيارة مدينة أور فى العراق، ومنها يسير على خطى رحلة سيدنا ابراهيم عليه السلام، وهذا المقال يتناول رحلة سيدنا ابراهيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

«رب هب لى من الصالحين» (الصافات ١٠١)

«سلام على إبراهيم، كذلك نجزى المحسنين» (الصافات ١٠٩)

«وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» (الصافات ١١٢)

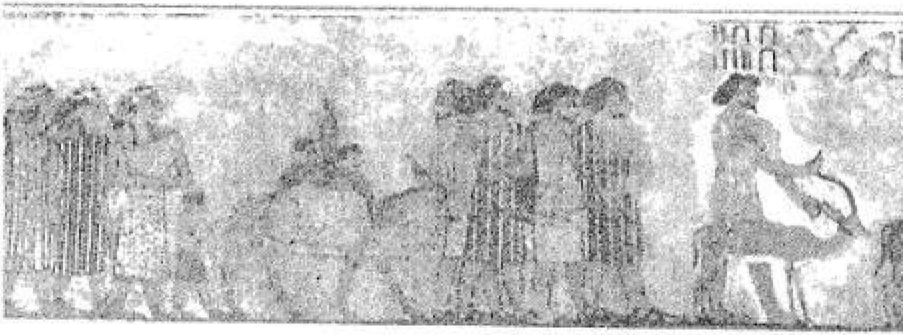
ذلكم أبو الأنبياء، قدر الله نشأته فى مدينة أور الكلدبين على الضفة الغربية من نهر الفرات جنوبى العراق، حيث عاش آباؤه بدوا يجوبون أرضا تقيم فيها قبائل قوية من الكنعانيين والأموريين والحيثيين، كانت من قبل مواطىء لجيوش البابليين والعيلاميين. كما كانت معبراً ما بين غربى آسيا ومصر، يسكنون الخيام ويرعون الماشية والأغنام ويجتهدون ما استطاعوا فى النأى بأنفسهم عما كان يتدلع بين مدائن تلك البقاع، من صراع وأطماع، منعزلين فى التلال والسهول، ومع ذلك فربما حملهم ما قد يتعرضون له من غارات هؤلاء أو هؤلاء على حمل السلاح، وقد يحملونه فيما بينهم إذا ما شجر بين بطونهم من خلاف، ولكنهم كانوا على كل حال

أعزة بجنسهم وصفاء عرقهم فهم ينفرون من الاختلاط بمن حولهم من قبائل ولا يتزوجون منهم مستمسكين بموروث آبائهم وبسيط عقائدهم وكهان أسرهم وخصائص مجتمعهم، وإن لم يختلف ذلك كله فى كثير عمن حولهم من الساميين، ولا ارتفعوا عما كان فى عصرهم من ألوان العبادات ومذاهب الدين.

وفى مدينة أور ولد لتارح أبناؤه «ارام وناحور وهاران، وولد لهاران لوط، ثم مات قبل أبيه تارح.. واتخذ إبرام ساراى زوجة كما اتخذ ناحور ملكه بنت هاران.. وكانت ساراى عاقراً ليس لها ولد.. (تكوين ١١ : ٢٧) ..

وقد شب إبرام الذى سمى من بعد ابراهيم فى أور، فلم يركن الى ما يعبد أهلها. نظر وتأمل فيما قدسوا وصوروا فى فنونهم من نجم وقمر وشمس، فما رضى عنها، ولا اطمأن إليها ولا راق فى عينه ما افتتنوا من تصاوير وشكلوا من تماثيل، نبعت عن ثقافتهم وشملتها حضارتهم، فعمد إلى تقبيحها وصد قومه عنها، وذلك فيما عبّر عنه القرآن فى سورة الأنعام أبلغ تعبير وأحسن تصوير.

«وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكونن من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون.إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من



قافلة ابيتشاى

المشركين وحاجه قومه».. وكان أبوه منهم.. وفشا الجدل حتى بلغ الملك: «ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين» (البقرة ٢٥٨).

وقد بلغ الجدل والعناد بين ابراهيم وقومه أقصاه..

«إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم. فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فأسألوهم إن كانوا ينطقون..» (الأنبياء ٥٢ - ٦٣).

لم يفكر ابراهيم ما فعل بتماثيلهم متحديا، وما كانوا هم ليتراجعوا، بل عمدوا إلى عقابه والانتقام منه أبشع انتقام وأقساه.

«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين».. (الأنبياء ٦٨)

ولذلك فلم يكن إلى البقاء فى هذه البلاد وهؤلاء القوم من سبيل، فكان حسم الأمر والعزم على الرحيل.

«ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين» (الأنبياء ٧١).

وجاء خبر ذلك فى سفر التكوين..

«وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة»..

وأخذ تارح ابرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراى كنته امرأة ابرام ابنه فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان فأتوا حاران وأقاموا هناك (تكوين ١١ : ٣١).

ثم واصلوا من بعد، «فذهب إبرام

كما قال له الرب وذهب معه لوط.. فأخذ ابرام ساراى امرأته ولوطا ابن اخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا فى حاران وخرجوا ليذهبوا الى ارض كنعان فأتوا أرض كنعان، واجتاز ابرام فى الأرض الى مكان شكيم إلى بلوطة مودة ، وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض ، وظهر الرب لابرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض، فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له، ثم نقل من هناك الى الجبل شرقى بيت إيل ونصب خيمته ثم ارتحل إبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب».. (١٢ : ١ - ٩).

وكانت فلسطين الشرقية قد تعرضت لغزو تحالف ملوك العصر أيام ابراهيم، حيث يمتد الطريق الذى سلكت جيوش الغزو من منطقة دمشق جنوبا على امتداد الحافة الشرقية من جلعاد وموآب، وقد تبين من ابحاث العلماء خط مدن مهمة على امتداد هذا الطريق قبل عام ٢٠٠٠ ق.م.. وذلك على مدى قرن أو قرنين منذ ذاك، وإن لم يكن كذلك فيما بعد، أو يفهم من الاصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر، وازدهار مدن السهل فى ذلك الزمان.. وقد بينت ابحاث العلماء ان هذه المناطق كانت يومئذ - أى فى القرن العشرين من قبل مولد المسيح - كثيفة السكان وإن هوى تعدادهم فيما بعد قرونا، وقد توفرت من التاريخ شواهد تؤيد ذلك التقدير.

إبراهيم يتوجه إلي مصر

ثم كان أن أقبل ابراهيم من حيث يقيم فى فلسطين على مصر يطلب فيها الشبع والرى من بلاد ضربها القحط والجفاف وقد تحدثت التوراة فى ذلك قالت:

«وحدث جوع فى الأرض فانحدر ابرام إلي مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديداً» (تكوين ١٢ : ١٠»..

وغير بعيد ان يكون بعض ما نزل بفلسطين يومئذ إنما كان من آثار ما أصاب سدوم وعمورة، حيث عاش لوط، من تخريب.

وكان مجىء ابراهيم مصر على الأرجح والمشهور ايام الأسرة الثانية عشرة من ملوك الدولة الوسطى فى عهد امنمحات الأول أو سنوسرت الاول على الأرجح، حيث أقبل على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور، إذ كانت قوافل التجارة ترد على مصر وتصدر عنها بما تحمل

ابو الانبياء

من عروض تحتاج اليها مصر أو تطلبها سوريا وفلسطين، ولقد كانت حاجة مصر إلى الجيد من الأخشاب خاصة دافعا لأهلها على تلمسه.. من مظانه فى فينيقيا (لبنان) منذ طلائع تاريخهم، حتى لقد تسمت بعض انواع سفنهم بحكم انتظام الرحلات الى فينيقيا باسم ميناء جبيل هناك وكان يكتب كبن فى المصرية فسميت كبخبة أى الجبيلة، ولذلك فقد حرص المصريون على تأمين مصادر يطلبون من المواد والطرق اليها، وسلكوا لذلك طريق الحرب والسلام على سواء.. وكان من وراء تخوم مصر مفاوز مرهقة وأقاليم مملكة قد علموا من أمر سكانها ما صوروه فى آثارهم احسن تصوير.. فعلى الطريق بين هرم اوتيس عاهل الاسرة الخامسة وبين معبده فى سقارة ، صورة لطائفة من هؤلاء البدو نزلت بهم مجاعة أذابت الشحم وأكلت اللحم ودقت العظم، وقد كانوا بحكم ما تنزل بهم من نوازل القحط يندفعون ما سنحت فرصة إلى الروابى الخضر فيما وراء الآفاق من بواديهم يتلمسون الرزق محاسنين أو مخاشنين، فمنهم من كان يتسلل فيدخل فى طاعة المصريين طاعما فى خدمتهم من عمل يده، ومنهم من إذا اشتدت به الفاقة لم يبال إذا انقض فى قومه على التخوم أن تأخذه نصال النابلة من حرس الحدود فى صياصيهم. وقد كان تجاوز الأضداد على التخوم من الجفاف والرى ومن الفقر المدقع واليسر المتع خطراً مقيما على حدود مصر فرض على ملوكها التحفز الدائم لحمايتها من غارات المغيرين وعدوان المعتدين. وكانت طوائف منهم تتعرض لما ترسل مصر الى طور سيناء من بعثات المتقدمين. بل لقد أوشكت غارات البدو وحملات تأديبهم ان تكون من الأعمال الدورية على مر العصور منذ مطلع التاريخ المصرى. وقد تختلف الحملات من السرايا الصغيرة التى تخرج لإقرار الامن والردع والارهاب إلى الكتائب الكبيرة التى تشتبك فى المعارك وتقاتل فى الحروب، حيث توغل فى تقدمها إلى ما يلى سيناء من غربى آسيا، ثم لم تلبث السياسة المصرية كما قدمنا أن حرصت على بسط نفوذها على تلك البقاع وضمها تحت سلطان مصر.

وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة

التى عاصرها ابراهيم عليه السلام من احرص الفراعين وأنشطهم فى حماية الحدود وحراسة التخوم ، فكان لهم فى الجنوب ما بين سمنه عند الشلال الثانى وبين القنتين عند أسوان ثلاث عشرة قلعة يبدو من أسمائها ما أريد لها من وظيفة الأمن والدفاع مثل «رادة القبائل» و «مخضعة الصحارى»، وكان سنوسرت الثالث من أنشط هؤلاء الفراعين فيما أرسى لتلك الحماية وما بذل لها من جهود الحرب والانشاء، إذ ينطق عن سياسته فى ذلك ما أقام عند سمنة من قلعة، وشاهد يبين حدود مصر الجنوبية، وما وصى به أخلافه من بنيه بالحفاظ عليها وحمايتها، ومع ذلك فما كان لتلك الحدود ان تكون مانعا ولا حائلا فى سبيل التجارة وسفارات السلام، إذ كان الملك مع حرصه على تأكيد سيادة مصر على أراضيها وضمان سلامتها حريصا على رفاهية شعبه وتنشيط تجارته وتوفير احتياجاته ، فأصدر مرسوما أعلنه على بعض شواهد الحدود تلك يبين فيه مع الحدود نظام المرور ويعين أسواق التجارة فيه.

وكذلك حظيت مصر على جبهتها الشرقية بما عرف منذ الدولة الوسطى بحائط الحاكم حيث قامت القلاع والحصون ومواقع الحراسة التى يقوم عليها الجنود المنوبون الذين لا يمكنون لدخيل من تجاوزها أو عبورها إلا أن يؤذن له ويمنح جوازاً بذلك ، وذلك فى أقدم ما عرف من جوازات السفر فى التاريخ . وفى قصة سنوهة التى انحدرت الينا من ذلك العصر، أنه خرج من مصر هاربا من فتنة ظن أنها واقعة بها لا محالة وأنه إن أقام غير ناج منها، فولى وجهه فى طريقه إلى سوريا شطر الشرق عند البحيرات المرة، فلما انتهى عندها هناك إلى حائط الحاكم كان عليه أن ينحنى بين الشجيرات من حول القلاع ان تناله عيون الرقباء من صياصيهم ، كذلك روى أنه لما عفى الملك عنه وأن له أن يرجع إلى الوطن، أقبل على مصر شيخا طاعنا فى السن حيث أقام عند تخومها الشرقية على طريق «حور» منتظراً ولم يدخل وهو من هو من الأسرة المالكة حتى أرسل قائد الحدود إلى الملك بمقدمه وعاد الرسول بالإذن للأمير العائد بالدخول.

● النفوذ السياسى

ومهما يكن من شىء، فلقد كشفت الأحافير على كل حال فى مصر والشام، وتحدثت الأخبار يومئذ كذلك،

بما يشهد لمصر بما كان لها في تلك الربوع من النفوذ السياسي والمنزل التجاري جميعا، فقد عثر من عهد الأسرة الثانية عشرة تحت معبد لها في «الطود» بصعيد مصر - فضلا عن تمائم من لازورد وأختام اسطوانية بابلية - على ودائع من حلى الذهب والفضة وسبائك منهما في أربعة من صناديق البرونز، عليها اسم أمنمحات الثاني، وكلها بحكم طرزها الأيجية والبابلية إنما تنطق عما كان لمصر من علائق قد تكون امتداداً لنفوذها على تلك البقاع، كذلك عثر على طائفة من آثار تحمل أسماء ملوك الدولة الوسطى وأفراد أسرهم في جبيل وبيروت وأوجاريت (رأس شمرا الآن) على الساحل الفينيقي، وفي قطنه شمال سوريا كما عثر في مجدو الفلسطينية على قاعدة لتمثال جحوتي حيث بن كاي وسات خيركا حاكم اقليم الأرقبة والكاهن الأكبر لمعبودها جحوتي (تحوت) في الاشمونين، ولاشك ان تمثالا لمثل ذلك الرجل في سوريا وفلسطين - وهذه منزلته - إنما يدل على علائق متينة بين مصر وآسيا، وغير بعيد ان يكون وأقران له قائمين بأعمال دبلوماسية هناك، أو مندوبين في مواقع لمصر مصالح تجارية كبرى.. وفضلا عن ذلك فلدينا من أخبار ذلك العصر - عصر الدولة الوسطى - شواهد تحدث عن موظف مصري كان مقيما في مجدو، وكان يجلب العجول منها ويصدرها إلى مصر.

ولم تكن الوفود من مصر وإليها لتنقطع عنها طوال تاريخ بحثها القديم، حتى عمت أخبارها وتفشت لغتها - وهي لغة الحضارة والمدنية على كل حال - في أنحاء البلاد من غرب آسيا . وفي قصة سنوهة وما كان من فراره أنه لجأ إلى بعض بلاد سوريا حيث كتب إليه أميرها بدعوة إلى الإقامة عنده حيث الأمن والدعة وحيث يسمع لسان مصر وقد وجد هناك جالية مصرية أحسنت استقباله والإشادة به.

ومن المحقق أن مصر كانت تصدر مع ما كانت تصدر من عروض التجارة الى تلك الربوع، ما اهتدت إليه من العلم والفكر والأخلاق، وأنها مهدت هناك بتعاليمها لتعاليم من ظهر من الأنبياء والمرسلين ، وأقامت أساسا من الفكر والضمير الحي الذي أرهص لما بشروا به وهيأ لاستقبال ما نزل عليهم من العقائد والرسالات.

وكانت الأسرة الثانية العشرة يومئذ قد بلغت من القوة واليقظة ومن الثقة والنظام أن سمحت لمن شاء

ممن جاورها من الشعوب أن يقبل عليها موغلا الى حيث يستطيع من أقاليم الصعيد، وكان منظر القوافل مما راق لشريف من بني حسن وراق لفنانه الذى أعد له قبره فصور قافلة منها قبه - إذ تشهد في قبر خنوم حيث منظراً لقافلة أو قبيلة من سبعة وثلاثين نفساً من رجل وامرأة وغلام، أقبلوا بقيادة زعيمهم أو شيخهم إبشا (أو أبيشاى كما ذكر في التوراة) يبيعون الكحل ويحملون القسى والسهام ويروجون لذلك بما يعزفون من نغم على الطنبور، وذلك بما عليهم من مآزر مبرقشة ولحى كثيفة تملأ العوارض، وشعر على الرؤوس طويل.

ولم يكن أبيشاى رأس تلك القبيلة السامية أو حاكم البلد الأجنبي كما وصفه النص المصرى ليدخل مصر فيجوس خلال الديار ويوغل في الصعيد بغير إذن الملك ولا إذن السلطات المصرية كما يقال، فلم يكن لغريب أن يدخل إلا أن يقف عند ثارو حيث القنطرة الآن فلا يواصل المسير حتى تعرف هويته وتتكشف نيته ويتضح مبتغاه كما روينا في قصة سنوهة..

هبوط إبراهيم إلى مصر

وفى هذه البرهة من حول القرن العشرين من قبل مولد المسيح على عهد هذه الأسرة أقبل ابراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام ، وأكبر الظن أنه إنما هبط مصر مع إحدى تلك القوافل التي كانت بائعة لها وبائعة منها كما رأينا في قافلة أبيشاى، ومن المحقق أنه إنما أقبل على مصر وقد تسامع الناس في بلاده بما كان في مصر يومئذ من الرخاء ورغد العيش ولين المقام، فإن الأحوال المواتية التي كانت خليقة ان تجذبه إليها وتغريه بالاقبال عليها والإقامة فيها، إنما تهيأت واستقرت على عهد ملوك هذه الأسرة الثانية عشرة، ولم تتهيأ قبلها ولا استمرت طويلا بعدها.. وظاهر من رواية التوراة والمشنا وهى من المراجع الاسرائيلية الناهدة بعد التوراة وما أيدهما من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة أن إبراهيم إنما دخل مصر جهرة وبصورة رسمية ولم يدخلها تسللا، وأنه لم يدخل في عهد من عهود الفوضى والاضطراب والحروب الداخلية التي سبقت الأسرة الثانية عشرة أو لحقت بها أيام الهكسوس، بل أقبل - وهو يعلم - على دولة مستقرة منظمة سوف يسأل فيها عن هويته وهوية من معه من رجال ونساء، فكان منه ما كان من حديثه إلى امرأته سارة فيما اتصلت روايته في الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين : «وحدث لما قرب أن يدخل

مصر قال لساراى امرأته : إني علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك (١٠-١٣) .

ويستخلص كذلك من أحاديث المشنا أن التخوم المصرية قد كان عليها من عمال المكوس من يسأل ويستقصي السفر فيما يحملون في أمتعتهم من عروض إذ روت أن إبراهيم خاف على فرعون وقومه الفتنة من جمال سارة فحملها في تابوت وهم يعبرون تخوم الديار.. وسأله عمال المكوس عما في التابوت فأنبأهم أنه شعير، قالوا بل نأخذ المكوس على قمح، قال خذوا ما تشاءون، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار فأجابهم إلى ما طلبوه، فارتابوا فيما يخفيه وأمروه أن يؤدي الضريبة على وسق التابوت ذهبا فقبل وأعطاهم سؤلهم، فحيرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم، ففتحوا التابوت عنوة فإذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشي عين فرعون.

على أن إبراهيم لم تكن به من حاجة إلى الخوف على حياته من أهل مصر ولا من ملكها على امرأته ان تغصب منه ويقتل من اجلها، ولعله إنما صدر عن استشعار مما عهد من غصب النساء والاحتيال على اقتناصهن من أزواجهن في بلاده التي اقبل منها بل من بوائق اسوأ سوءا واعظم نكرا بلا بعضها في سدوم ابن أخيه لوط..

على أن ملك مصر - على كل حال - ما إن عرف مكان سارة من ابراهيم حتى تذمم - بحكم ما كان يسود مجتمعه من مكارم الأخلاق - مما اوشك ان يقع فيه من اتخاذ زوج غيره زوجا له، واستنكر ما ألقي إليه أو نقل عنه من خبر مكذوب وما كان من زعمه أنها أخته.. فتقول التوراة:

«فحدث لما دخل ابرام الى المصريين رأوا المرأة حسنة جداً، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى ابراهيم خيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال (تكوين ١٢ : ١٤ - ١٧).

ونريد قبل المضي في هذا الحديث أن نستطرد قليلا فيما ذكرت التوراة من جمال نالها ابراهيم في مصر مصححين. ذلك ان كاتب التوراة - في

معرض التعبير عما لقى ابراهيم من كرم فرعون - إنما كان يعدد على اسلوبه وبينته ما عسى ان يتلقى - فى مفهومه - من ملك مصر، فذكر الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والاتن، ثم اضاف إليها الجمال وإن ظلت الإبل غريبة لا يعرفها المصريون يومئذ على التحقيق . بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر يومئذ من قبائل البدو الساميين.. فلقد اقبلت قبيلة ابيشاى أو قافلته تسوق الحمر لا الجمال، كما لم ترد فيما نقش على صخور سيناء على امتداد عصور مصر الفرعونية صور الجمال، وذلك فضلا عما قطع به سفر الخروج من عودة موسى وأسرته من مدين الى مصر على الحمير:

«فأخذ موسى امرأته وبنيه واركبهم الحمير ورجع الى ارض مصر (خروج ٤: ٢٠).

ونعود إلى رواية التوراة التى تتصل فتقول:

«فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة ابرام، فدعا فرعون ابرام وقال ما هذا الذى صنعت بى؟ لماذا لم تخبرنى انها امرأتك ، لماذا قلت هى أختى حتى اخذتها لتكون زوجتى، والآن هو ذا امرأتك ، خذها واذهب. فوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له».

وترك إبراهيم عاصمة مصر فى ذلك الزمان ايتشت تاوى حيث مدينة اللشت اليوم إلى فلسطين ».

نفي الكذب عن إبراهيم

وقد وافق حديث الرسول عن ابى هريرة رضى الله عنه خبر الخليل فى التوراة ، قال عليه الصلاة والسلام:

«لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط، الا ثلاث كذبات، اثنتين فى ذات الله فى قوله إنى سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة فى شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار ان يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فإذا سألك فأجيبيه أنك أختى، فإنك أختى فى الإسلام فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرى وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض اهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون إلا لك. فأرسل إليها فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك ان بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة، فقال ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من

القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدى فلك عهد الله ألا أضرك، ففعلت واطلقت يده، ودعا الذى جاء بها فقال له: (إنك إنما أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان فأخرجها من أرضى وأعطها هاجر.. فأقبلت تمشى، فلما رآها ابراهيم عليه السلام .. قال مهيم قالت خيرا كف الله يد الفاجر وأخدم خادما، قال ابو هريرة فتلك أمكم يا بنى ماء السماء».

لم يكذب ابراهيم النبى عليه السلام الا ثلاث كذبات . ومع ذلك فقد حرص مفسرو الإسلام على نفى الكذب عن أنبياء الله وتنزيههم عن الوقوع فيه. وقالوا إن الكذب حرام إلا إذا عرض، ومن أمثلة العرب قولهم إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب. ولذلك فقد ذكر المفسرون ان الذى قاله ابراهيم فيما ورد بسورة الصافات «إنى سقيم» إنه معراض من الكلام أى سأسقم أو أنه من الموت فى عنقه سقيم أو أراد إنى سقيم النفس لكفركم .

وأما الثانية وقعت فيما كان منه بأصنامهم «فجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم» (٥٨)..

«قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم.. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون» (٦٢ ـ ٦٣)..

وقد ذكر النسفى فى تفسيره أن ذلك إنما كان «تبكيتا لهم وإلزاما الحجة عليهم».. وقال ابو السعود.. «وإنما قصد بمقالته تلك تبكيتهم بما يعبدون من صنم لا يسمع ولا يقول..

وأما البيضاوى فقال: «الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضى كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق.. أأنت كتبت هذا فقلت بل كتبته أنت».

وبعد، فما بال ابراهيم فى الثالثة يزعم للمصريين أن سارة اخته، وما بال المفسرون عن هذه يسكتون؟ أتراه هذه المرة قد اضطر فلا محيص إلى التعريض؟!!

لعل دراسة الحضارة المصرية ولغتها أن تقدم الينا سبيلا إلى إعفائه مما قيل أنه وقع فيه، وأن نسهم مع المفسرين فيما أرادوا لإبراهيم من تنزيه عن كذب قيل إنه اضطر إليه فمال عنه إلى التعريض.

فغير بعيد ان كان ابراهيم عليه السلام يعرف اللغة المصرية ويعبر بلسانها.. بل لا نكاد نشك أنه كان يعرف منها بحكم انتشارها فى بلاده

طائفة من عبارات وألفاظ تعينه على شئونه في مصر. لذلك فلم يكذب ابراهيم، ولم يخرج على مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون، فلقد كانوا يطلقون على الزوجة في لغتهم - فضلا عن لفظ المرأة «حمة» و «سه حمه»، أو هيمه وسهيمه فيما بعد - لفظ الاخت «سونة».

وكان ذلك نوعا من التعبير عن المحبة والاعزاز، ولعل ابراهيم حين أقبل على مصر، فلقى الناس من آل فرعون وملئه قد آثر التورية والتعريض فوصف زوجه سارة على مألوفهم بأنها «سونة» بمعنى الزوجة ومعنى الاخت جميعا، حيث وقع في روع المصريين بلكنته الأجنبية وما عسى ان رأوا من ظاهر معاملته لسارة أنه إنما قصد إلى المعنى الأصيل للفظ الاخت لا إلى المعنى المجازى له، ولعله قال لسارة فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأجيبي أنك لي : «سونة» أو «سونتي»..

ولاشك أن ابراهيم، شأن من قدر الله لانبيائه من هبوط مصر، قد أفاد مما رأى وسمع وخرج بهاجر فكانت أما لإسماعيل وصار المصريون أخوال العرب وتبعة سيد الانبياء والمرسلين، بل خرج بعادات مصرية شاعت من بعد في ذريته من بني اسماعيل واسحق.

تلكم عادة الختان: «وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته، وكان اسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته، في ذلك اليوم ختن ابراهيم وإسماعيل ابنه (تكوين ١٧: ٢٤ - ٢٦). ومن بعد ابراهيم كان بنو اسرائيل في مصر يختتنون اجمعين «لأن جميع الشعب الذين خرجوا كانوا مختونين (يشوع ٥: ٤).

ومن طريف ما ورد في خبر الختان في التوراة انه كان يجرى بسكين من صوان، وكان المصريون قد بدءوا صنع أسلحتهم وسكاكينهم من صوان وكانوا يسمونه دس، ثم لم يلبث السكين نفسه ولو كان من المعدن ان سمى دس وإن كان كتاب التوراة قد ظلوا يترجمون عن المصرية ما يدل عليه اللفظ من معنى أصيل.

وذلك فضلاً عن عادات وشعائر كثيرة.. أورثها من بعد بني إسرائيل.

وعاد ابراهيم من حيث أتى إلى فلسطين، ثم نزل بأرض الحجاز بزوجه هاجر المصرية أم اسماعيل : «وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل» (البقرة ١٢٧).....

الزمن احتال على
فرافقت الأشباح
وجبت دهاليز الريح العاصفة
وصادقت وحوش الغاب
أرفض أن ألبس أقنعة المهزومين
وأن أتحدث لغة المقهورين
وأخطو.. أخطو..
لا تجــذبنى الأرض ولا يغــرقنى
الموج..
أجـد براقى منتظرا خــارج أســوار
الزمن
فأصعده.. يصعد بى..
نتجادل حول مشاهد عالمنا
فأراه التزم الصمت..
أثرثر مأخوذا بالدهشة
أعلن أنى درويش فـى مـلـكوت
البوح
عل براقى ينصت لى..
فيمد إلى أذنى حبل اللغة الغائبة
ويحشرنى تحت لواء الحكمة
يمنحنى عود بخور
جمارة نخل
نطفة ميلاد للغد.
لكن الزمن احتال على
فسلب ضياء العينين



أميـــــــــــــلاد

وسرق المدخر بداخل صدرى
وانفلت يباهى بالفوز على
....
الآن أسائل قدرى
أن يمنحنى ميلادا آخر
لا يثقله الزمن
ولا يشقيه الحزن
ولا تنفيه الريح العاتية
ولا تتلقفه ألواح الموت..
الآن أسائل قدرى
وأنا لا ينقصنى شىء يجعلنى
ميلادا آخر
فأنا خاصمت الزمن طويلا
أعطيت له ظهرى
ورحلت بعيدا فى ملكوت ينأى عن
أرضى
فلعلى أجد الشوق الناضر
أمنحه زمنى من صدرى
أمنحه عمرا محتدما
لا يقهره الصمت
ولا تكسره الريح
ولا تنفيه اللغة الغائبة
ويكتب لى ميلادا آخر..
يكتب لى ميلادا آخر!



الآخــــر

شعر

أحمد سويلم

من أهم إصدارات دار الهلال فى معرض الكتاب عام ٢٠٠٠







عبدالناصر وسنة ٢٠٠٠

أصــدرت مــجلة «الهــلال» فى الخمسين سنة الأخيرة عددين يحملان التنبؤ بالمستقبل عام ٢٠٠٠ هما عدد يناير ١٩٥٠ وعـدد يناير ١٩٥٩، وقـد كتب حول آفاق المستقبل خيرة من ألمع كـتـابنا ومـفكرينا رؤيتـهم بعـد خمسين سنة ..

انتقينا بعض كتاباتهم ونشرناها كما هى لنتـعرف كـيف تخـيلوا عـالم سنة ٢٠٠٠ الذى بدأ اليـوم .. فـهل صدقـوا فى رؤاهم وأحلامهم؟! .

ويأتى عدد من كـتـابنا المعاصرين يعلقـون على تلك المقـالات ويتـمنون أيضا ويحلمون بالغد .

شـــــــــادية

غلاف سنة ١٩٥٠

مصر فى سنة ٢٠٥٠

”

لى حفيد يبلغ من العمر خمسة أعوام . سألت نفسى عما يمكن أن تكون عليه حال مصر عندما يبلغ هذا الحفيد، بإذن الله ، عامه الخامس والخمسين، أى فى سنة ٢٠٥٠ ؟

أعرف جيدا أن أغلب محاولات التكهن بالمستقبل تبوء بالفشل. وذلك لأسباب كثيرة من أهمها ان أغلب من يحاولون ذلك يعتمدون على طريقة «الإسقاط» ، أى مدّ الاتجاهات السائدة فى الحاضر والماضى القريب إلى المستقبل، فتخيب توقعاتهم لأن الحياة لا تكف عن مفاجئتنا بانقطاع فى اتجاه كنا نظن أنه سيستمر ، وبانحناء حاد فى طريق كنا نظنه مستقيما . يكفى أن نتذكر مثلا ما كان يمكن أن نتوقعه ، ونحن فى سنة ١٩٥٠ ، لو حاولنا التكهن بما يمكن أن تكون عليه مصر فى سنة ٢٠٠٠ .

“

بقلم : د . جلال أمين

ربما تجرأ بعضنا ، فى سنة ١٩٥٠، وتوقع قيام ثورة فى مصر . ولكن من الذى كان يتجرأ فيقول لنا متى تقوم هذه الثورة ؟ وما نوعها ؟ ومن الذى سيقوم بها؟ من الذى كان يستطيع فى ١٩٥٠ أن يقول أن ثورة ستقوم بعد أعوام قليلة جداً، وسيقوم بها الجيش، وأنها ستفعل ما فعلته ، وستنجز كل هذه الانجازات وتهزم كل هذه الهزائم، وأنه خلال الخمسين عاما التالية ، أى بين سنتى ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ سوف تنتكس هذه الثورة وتتحول الى ضدها ؟ ناهيك بالطبع عن أن يتنبأ أحد فى سنة ١٩٥٠ بأن مصر قبل انتهاء القرن، سوف ينتشر فيها شيء فظيع اسمه «المحمول» ، يحمله الشبان والشابات فى كل مكان ؟

ومن الذى كان يمكنه أن يتنبأ فى سنة ١٩٥٠، بأن احتفالنا بشهر رمضان سوف يقترب شيئا فشيئا من احتفالات الأوروبيين والأمريكيين بعيد الكريسماس، وأن فوازير رمضان سوف تصبح من الطقوس الأساسية للاحتفال بهذا الشهر والتى سيصعب تصور الصيام بدونها ؟

رغم كل هذه المخاطر والصعوبات قررت أن أقدم على المحاولة ، أيا كان حظها من التوفيق، ولو فقط من باب التمرين العقلى الذى لا يخلو فى ذاته من فائدة.

***

من أول ما يمكن أن يتطرق إليه الذهن حجم السكان المتوقع فى سنة ٢٠٥٠ . وفى هذا الصدد نجد تقديرات لا تتعدى فى العادة سنة ٢٠٢٠، وتتراوح بين ٨٠ مليونا و ١٠٠ مليون لتلك السنة . وليس من المستبعد أن يضاف عشرون أو ثلاثون مليون أخرى فى الثلاثين سنة تالية ليصبح حجم السكان فى مصر فى سنة ٢٠٥٠ يقرب من ضعف حجمه الآن . ولاشك أن رقم ١٢٠ أو ١٣٠ مليونا من شأنه أن يثير الرعب فينا عندما نسمعه الآن، إذ أننا نتصور هذا العدد الكبير من السكان وهم يمشون فى نفس الشوارع ويقطنون نفس المدن ، ويأكلون من نفس المساحة المزروعة التى لا تتجاوز سبعة ملايين فدان. ولكن الحكمة تقتضى بالطبع أن نتوقع مدنا أكثر وأكبر، ومساحة مزروعة ليست فقط أكبر بل وهذا هو الأهم – أعلى إنتاجية بكثير من المساحة الحالية . فالأرجح اننا فى سنة ٢٠٥٠ لن نقلق كثيرا ، كما نقلق الآن، على اعتداء المدن والمبانى السكنية على الأراضى الزراعية، إذ أننا على الأرجح سوف

نستطيع بتطبيق التكنولوجيا المتقدمة ، أن نستخرج من الفدان الواحد عدة أضعاف ما نستخرج منه الآن . لن يخيفنا إذن حينئذ ما يخيفنا الآن من رؤية القاهرة وقد امتدت جنوبا حتى لاصقت بنى سويف، وشمالا حتى أصبحت «بنها» ضاحية من ضواحى القاهرة، ومن ثم نجد حلوان وقد تحولت من ضاحية من ضواحى القاهرة، كما هى الآن، الى جزء من «وسط البلد»، وكذلك شبرا الخيمة .. ألخ .

***

بل إنى لا أعتقد أننا فى سنة ٢٠٥٠ سنكون مهمومين ، مثلما نحن الآن ، بمسألة متوسط الدخل ومعدل التنمية . ولدى أكثر من سبب لهذا الاعتقاد . أهم هذه الأسباب أن متوسط الدخل فى مصر فى سنة ٢٠٥٠ سيكون على الأرجح أعلى بكثير مما هو الآن. لقد حاولت أن أصل الى تقدير تقريبى لحجم الزيادة فى متوسط الدخل فى مصر خلال الخمسين عاما الماضية (١٩٥٠ - ٢٠٠٠) فوصلت الى أن متوسط الدخل اليوم هو (على الأرجح) أكثر من ثلاثة أمثال ما كان عليه فى سنة ١٩٥٠ ، وأقصد بالطبع متوسط الدخل الحقيقى، أى ما يحصل عليه الفرد فى المتوسط من سلع وخدمات عينية بعد استبعاد التغير فى مستوى الأسعار . (وقد بنيت هذا التقدير على أساس تقدير الزيادة فى متوسط الدخل بين ١٩٥٠ و١٩٦٥ بنحو ٥٠٪ على الأقل ، وعلى أساس ركود شبه تام فى هذا المتوسط بين ١٩٦٥ و ١٩٧٥ ، ثم زيادة بنسبة ١٠٠٪ فى السنوات العشر ١٩٧٥ - ١٩٨٥ ، ثم زيادة طفيفة قد لا تزيد على ٢٠٪ فى الخمسة عشر عاما الأخيرة) .

هذه الزيادة فى متوسط الدخل حدثت مع أن سكان مصر قد زادوا فى هذه الفترة (١٩٥٠ - ٢٠٠٠) بنحو ثلاثة أمثال (من نحو ٢١ مليونا الى ٦٥ مليونا) . فإذا كنا قد استطعنا فى ظروف صعبة للغاية أن نزيد متوسط الدخل الى ثلاثة أمثاله وفى ظل زيادة فى السكان لا تقل عن هذا القدر ، فما بالك بما يمكن لنا تحقيقه فى الخمسين عاما التالية ، مع اتصال أكبر بالتكنولوجيا الحديثة (التى ستصبح بالطبع أكثر فأكثر كفاءة) ومع ميل شبه مؤكد لمعدل الزيادة فى السكان الى الانخفاض ، وهو ما بدأت بشائره تظهر بالفعل خلال السنوات العشر الأخيرة ؟ .

لا أظن أيضا أن المشكلة سوف تكون

زيادة تلوث البيئة . فالأرجح أننا فى سنة ٢٠٥٠ سوف نكون قد عالجنا هذه المشكلة منذ زمن طويل ، مع انخفاض معدل نمو السكان ، وانتشارهم انتشارا واسعا فى مختلف مناطق مصر، بما فى ذلك المناطق التى تعتبر الآن صحراوية ، ومع زيادة قدرتنا على تطبيق الأساليب المعروفة، وتلك التى ستصبح معروفة فى المستقبل لمكافحة التلوث أو لتجنب حدوثه أصلا .

***

بل إنى لا أظن أننا سوف نكون فى سنة ٢٠٥٠ مهمومين بمشكلة توزيع الدخل، أى مشكلة اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء. من الممكن جدا أن تستمر الفجوة فى الاتساع، فالظاهر أن من الصعب على الإنسان أن يعيش دون أن يحاول أن يتميز عن غيره . ولكن من الممكن أن تزيد الفجوة اتساعا دون أن تكون سببا مهما للقلق . فالفجوة بين الدخول فى الدول الصناعية الثرية، تزداد اتساعا منذ ربع قرن على الأقل، دون أن تعتبر الناس هناك أن هذه من أهم مشاكلهم . فالأمر يتوقف الى حد كبير على المستوى المطلق لدخول الشرائح الاجتماعية الأقل دخلا ، والشعور بالغيظ والمرارة عندما أرى شخصا يأكل اللحم وأنا لا أستطيع شراءه ، لابد أن يكون أقوى بكثير من شعورى عندما أرى شخصا يركب سيارة لها نوافذ تفتح أتوماتيكية بينما ليس لسيارتى مثل هذه النوافذ . ولكن هناك اعتبارا آخر فى تحديد الأهمية التى نعلقها على مشكلة توزيع الدخل .

إن مشكلة توزيع «الدخل القومى» بين مجموعة من الأفراد يفترض النظر الى هؤلاء الأفراد كأجزاء من أمة واحدة . ولا معنى لإثارة مشكلة «التوزيع» بغير مثل هذه النظرة. إن النظر الى مشكلة الفقر على أنها مشكلة «توزيع» لم ينشأ إلا بعد نشوء الدولة القومية ، والتعود على النظر الى مجموعة من الأفراد على أنهم ينتمون الى كيان واحد هو الدولة أو الأمة . قبل ذلك .

كان من الممكن بالطبع المقارنة بين حال الغنى وحال الفقير ، ولكن المشكلة لم تكن تعتبر مشكلة «توزيع» بل شيئا آخر .

ما الذى يمكن إذن أن نتوقع حدوثه لمشكلة التوزيع إذا تعودنا ، مع مرور الزمن . على معنى آخر للانتماء ؟ للعالم ككل مثلا بدلا من الانتماء الى أمة معينة ؟ إننا نلاحظ أنه قد بدأت تتردد بالفعل المقارنة بين فقراء قارة وأغنياء قارة أخرى

كــأن العــالم الآن ، وليس الدولة ، هو الوحدة التي ينتمى الجميع إليها . هل معنى هذا أنه مع مرور الوقت سوف تقل أهمية المقارنة بين الفقراء والأغنياء فى الدولة الواحدة ، كما هى الحال الآن ، فيما يتعلق بمقارنة فقراء شارع من شوارع حى شبرا مثلا وأغنياء شارع آخر؟ .

★★★

«نقول إن الاكتظاظ بالسكان لن يكون مشكلة فى سنة ٢٠٥٠، ولا مشكلة انخفاض متوسط الدخل أو معدلات التنمية، ولا مشكلة التلوث ولا مشكلة توزيع الدخل ؟ فما الذى سيصبح أهم شاغل لنا فى سنة ٢٠٥٠» ؟ .

كان الاقتصادى الانجليزى الشهير جون مينارد كينز يعتقد أن مشكلة أحفادنا أو أحفاد أحفادنا لن تكون مشكلة قلة الانتاج بل طول وقت الفراغ. ذلك أن الانسان عاش الجزء الأكبر من تاريخه وهو يحاول حل مشكلة الندرة ، ولم ينجح فى أن يكون له وقت فراغ إلا حديثا جدا ، ومن ثم فهو لم يكتشف بعد طريقة مرضية لملء هذا الفراغ. إن مما يؤيد توقع كينز ماتراه الآن من أن كل ما ابتدعناه فى الخمسين سنة الأخيرة من وسائل ملء الفراغ ظهر أنه غير مرض وغير كاف : لا التليفزيون الملون ، ولا الفيديو ، ولا السياحة ، ولا مختلف أنواع الألعاب الرياضية والمباريات ، ولا ابتداع أعياد جديدة ، ولا إطالة فترات الأعياد القديمة ، ولا التفنن فى وسائل ترغيب الناس فى الاستهلاك ، ولا إطالة مدة التعليم وحشو المقررات الدراسية بالكثير مما لا نفع فيه إلا ضمان استمرار جلوس أكبر نسبة من الشباب على مقاعد الدراسة لأطول مدة ممكنة .. إلخ .

كل هذا لم ينجح فيما يبدو فى التخفيف من الشعور بالوحدة أو بالملل، بعد انقضاء يوم العمل القصير ، خاصة وأن العمل نفسه قد أصبح فى كثير من الأحيان قليل المشقة بالغ السهولة ، حتى ليكاد يكون جزء كبير من وقت العمل أقرب الى أن يكون من «أوقات الفراغ» .

قد تصبح مشكلتنا الأساسية فى سنة ٢٠٥٠ ، كما كان يتوقع كينز : كيف نقضى أوقات الفراغ على نحو يذهب بالسأم والوحشة من نفوسنا . ولكن قد تصبح مشكلتنا الأساسية شيئا آخر ، هو ما أشار إليه الكاتب البريطانى ألدوس هكسلى فى كتابه الشهير (Brave New World) (هذا العالم الجديد

المدهش !) حيث وصف عالما مشكلته الأساسية استخدام العلم فى قهر البشر وسحق آدميتهم ومحو تميزهم . أو قد تصبح مشكلتنا فى سنة ٢٠٥٠ ، تلك التى وصفها جورج أورويل فى ١٩٤٨ وسماها (١٩٨٤) وهى مشكلة استخدام التكنولوجيا المتقدمة وعلى الأخص وسائل الاعلام، فى التحكم فى أفكار الناس ورغباتهم ، لصالح فئة قليلة تستأثر بالحكم . وهو نفس الذى مازال يحذرنا منه الكاتب الأمريكى المرموق ناعوم تشومسكى فى كتاب بعد آخر .

أو ربما أصبحت مشكلتنا الأساسية هى محاولة الفرار من أسر المجتمع الاستهلاكى، واستعباده لنا عن طريق خلق رغبات جديدة باستمرار ، لا تعكس حاجات حقيقية للانسان ، على النحو الذى حذرنا منه عدد كبير من المفكرين الكبار فى الشرق والغرب .

كل هذه التصورات لما يمكن أن تكون عليه مشكلتنا الأساسية وهاجسنا الأول فى سنة ٢٠٥٠ مقنعة للغاية وقابلة للتحقق.

وهى تهدد المصريين كما تهدد غيرهم من شعوب العالم ، وتمثل خطرا على حفيدى مثلما تمثل خطرا على أحفاد غيرى فى مصر وخارجها ، مما يتسق مع عصر الدولة القدم، حيث تتوحد مشاكل العالم كما يتوحد اقتصاده وأفكاره .

ولكن من الممكن أيضا أن يكون كل هؤلاء المتنبئون لم ينجوا بدورهم من نفس الخطر الذى يهدد كل من يحاول التنبؤ فى أى عصر ، وهو خطر إسقاط مشاكل الحاضر والماضى القريب على المستقبل . فهذه المشكلات كلها (مشكلة ملء أوقات الفراغ، ومشكلة استخدام العلم فى قهر الإرادة الانسانية ، ومشكلة استخدام التكنولوجيا فى غسيل مخ الناس، ومشكلة استعباد الناس بنشر النهم الاستهلاكى).

هذه المشكلات كلها كانت قد بدأت بالفعل وقت تنبؤ هؤلاء الكتاب بنموها واستفحالها . ومن ثم فقد يكون العيب الحقيقى فى هذه المحاولات كلها التنبؤ بالمستقبل، ليس إفراطها فى التشاؤم والخيال، بل على العكس، تواضع القدرة على التخيل بحيث تنحصر فى المبالغة فى رسم أبعاد ما بدأ يحدث بالفعل .

وقد أثبت التاريخ الانسانى، المرة تلو المرة، ليس فقط قدرة الإنسان الفائقة على حل ما يصادفه من مشاكل بل وأيضا قدرته الغريبة على خلق مشاكل جديدة مما لم يكن من الممكن تصوره قبل خمسين عاما .

هذه أول رسالة من رسائل فى التربية وفن الحياة يوجهها الدكتور أحمد أمين بك على صفحات الهلال إلى أبناء الجيل القادم فى شخص ولده . وهى دروس من الماضى وإرشاد وتوجيه الى مستقبل أفضل



بقلم الدكتور أحمد أمين بك

أى بنى :

انى لأعلم أنك قد خلقت لزمن غير زمنى ، وربيت تربية غير تربيتى ، ونشأت فى بيئة غير بيئتى — لقد كنت فى زمنى عبد التقاليد والأوضاع ، وأنت فى زمن يكسر التقاليد والأوضاع ، وكنت فى زمن شعاره الطاعة . الطاعة لأبى ولأولياء أمرى ، وأنت فى زمن شعاره التمرد ، التمرد على سلطة الآباء وعلى المعلمين وعلى أولى الأمر — وتعلمت أول أمرى فى كتاب حقير ، نجلس فيه على الحصير ، ويعلمنا مدرس جبار ، يضرب على الهفوة وعدم الهفوة ، ويعاقب على الخطأ والصواب ، ويرن يده بالعصا فينا كما تمرنون أيديكم على الألعاب الرياضية ، وأنت تعلمت فى روضة الأطفال حيث تشرف عليك آنسة رقيقة مهذبة وتقدم لك تعليم القراءة والكتابة فى اطار من الصور والرسوم والأغانى وما الى ذلك — وكنت أعيش فى كتابى على الفول النابت والفول المدمس وانت تعيش فى روضتك على اللبن والشاى والبسكويت وما الى ذلك أيضا — ثم لما صبوت تعلمت فى المدارس الفرنسية حيث تنقل اليك فى تعاليمها كل أساليب المدنية الغربية — وتربيت أنا فى وسط كله دين — دين فى الكتب

ودين في الحياة الاجتماعية ودين في أوساطي كلها ، وتربيت أنت في مدارس أو جامعات لا يذكر فيها الدين الا بمناسبات، وكان يذكر الدين في وسطنا دائما ليحترم ، وكثيرا ما يذكر الدين في وسطك ليهاجم . ونشأت في وسط لا تذكر فيه السياسة الا لماما ، ونشأت في وسط كله سياسة واضراب وأكثر من الاضراب . ونشأت في وسط لا يعرف المرأة الا محجبة ، ولا يعرف فتاة الا أن تكون قريبة ، ونشأت أنت في وسط تجالسك الفتاة في جامعتك وتشاهدها في أوساطك وقد أخذت من الحرية مثل ما أخذت - ولو عددت لك الفروق بيني وبينك، في زمني وزمنك، وتعليمي وتعليمك ، وبيئتي وبيئتك ،لطال الأمر

ولكن رغم كل هذا فالفروق مهما كانت فروق جزئية، ولا يزال بيني وبينك وجوه شبه أعمق من هذه المظاهر .فالتغيرات بين الناس مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة تغيرات سطحية وأمور عرضية ، أما الانسان في جوهره والجمعيات البشرية في نزعاتها الأصيلة فترجع الى أصول واحدة، ومن أجل هذا كانت تجارب السلف تفيد الخلف . فلأقص عليك شيئا من تجاربي التي أعتقد أنها تفيدك ، مهما اختلفت بيئاتنا ومدارسنا وثقافتنا

□

أهم ما جربت في حياتي أني رأيت قول الحق والتزامه وتحرى العدل وعمله يكسب الانسان من المزايا ما لا يقدر - لقد احتملت في سبيل ذلك بعض الآلام ، وأغضبت بعض الانام ، وضاعت على من أجله بعض المصالح، ولكني رغم ذلك كله قد استفدت منه أكثر مما خسرت ، لقد استفدت منه راحة الضمير واستفدت منه ثقة الناس بما أقول وما أعمل واستفدت منه حسن ظنهم بما يصدر عني ولو لم يفهموا سببه، ومع هذا فقد استفدت منه أيضا ماديا أكثر مما استفاد غيري ممن لم يلتزموا الحق ولم يراعوا الصدق والعدل - لقد وجدت في أوساط كثيرة وعاشرت زملاء كانوا يرضون رؤساءهم أكثر مما يرضون ضمائرهم ، ويقولون ما يعجب الناس لا ما يعتقدون أنه الصدق، ويرتكبون الظلم طلبا للجاه أو العلو في المنصب ، ومع هذا فقد ربحوا قليلا وخسروا كثيرا . لقد خسروا الفضيلة وخسروا الضمير وفازوا بقليل من الحظ العاجل تبعه كثير من الفشل الآجل، فلو حسبت بالدقة ما كسبت وما خسرت وما كسب هؤلاء وما خسروا لوجدتني أسعد حالا وأوفر حظا . فاذا أردت أن تنتفع بتجربتي فالتزم الحق والصدق والعدل في جميع أعمالك مهما تكن النتيجة

نعم رأيت من زملائي من تمسكوا بهذه الفضيلة فخسروا كثيرا وفشلوا فشلا ذريعا ، ولكن لم يكن عيبهم أنهم التزموا الحق

والصدق والعدل ولكن عيبهم أنهم التزموا هذه الصفات فى سماجة، فقالوا الحق فى غير أدب، والتزموا الصدق فى غير لباقة ، وتحروا العدل فى غير لياقة ، فلم يكن الذنب ذنب الحق ولكن الذنب ذنب السماجة. فتعلم من هذا أن تقول الحق فى أدب وتتحرى العدل والصدق فى لباقة ولياقة . فمن غضب بعد ذلك كان الذنب ذنبه ولا ذنب عليك . ولا تستعجلن النتيجة فقد تمس من الحق نارا ، ويهب عليك من العدل لفحة جحيم، ولكن ذلك أشبه ما يكون بالامتحان ، ان صبرت له انقلبت النار جنة واللفحة الحارة نسيما عليلا

□

ومن أهم تجاربى أيضا انى رأيت كثيرا من الناس يخطئون فيظنون أن المال هو كل شىء فى الحياة . يبيعون أنفسهم للمال ويحاولون أن يتزوجوا للمال ويضيعون أعمارهم للمال ويفرطون فى الفضيلة للمال . وقد أقنعتنى التجارب أن المال وسيلة من وسائل السعادة حقا . بشرط أن يطلب باعتدال وينفق فى اعتدال ، وبشرط الا يكون ما تحصله كثيرا جدا، فتنقلب عبدا له ، وبشرط أن يبقى المال وسيلة أبدا ولا ينقلب غاية أبدا . فان أكثر الناس وقعوا فى متاعب شتى من هذه الأخطاء

فمنهم من بدأ حياته يطلب المال على أنه وسيلة ثم استمر فى طلبه بعد أن استوفى حاجته منه فانقلب غاية . ومنهم من صرف حياته وتفكيره فى المال وفى الاستزادة منه حتى فقد سعادته بل وفقد نفسه ، وقد دلتنى التجارب على أن أسعد الناس من وضع المال فى موضعه اللائق به فلم يرفضه رفضا باتا ولم يذل له ذلا تاما ، ونظر الى المال على انه وسيلة من وسائل السعادة لا كل السعادة ، ولم يطلبه الا مع الشرف والعزة والاباء، فان تعارض معها ضحى المال للفضيلة والغنى للضمير

□

ودلتنى التجارب على أن عنصر الدين فى الحياة من أهم أسباب السعادة ، ولكن أصدقك أنه لم يعجبنى موقف زماننا من الدين ولا موقف زمانك، فقد كان الدين فى زماننا متزمتا لا سماحة فيه متشددا لا لين فيه ، مغلقا لا عقل فيه ، والدين فى زمانكم متضائل لا حياة فيه منسى لا ذكر له موضوع على الرف لا يؤبه به والحياة السعيدة كما دلتنى التجربة حياة ترتكز على الاعتقاد بالله يركن اليه ويعتمد عليه وتستمد منه المعونة ويطلب اليه التوفيق فى الحياة ويملأ حبه القلب رحمة وعطفا وحبا لخير الانسانية ـ يعجبنى من الدين أن يكون سمحا لا غلظة فيه والا يكون ضيق الأفق فيناهض العلم بل يؤمن صاحبه أن له مجاله وللعلم

مجاله وأن الدين الصحيح لا يناقض العلم الصحيح وأن لا بد منهما جميعا للانسانية فالعلم لحياة العقل والدين لحياة القلب

□

هذه ، يا بنى ، بعض تجاربى فى الحياة وما أكثرها ! ولكنى أخشى أن أطيل عليك فتمل وأحب أن أقدمها اليك جرعة فجرعة لتستسيغها وتتذوقها وتأخذ نفسك بتشربها رشفة فرشفة .

اذكر لى رأيك فيها وموقعها عندك ومبلغ استعدادك لقبولها ، وفى ضوء ما أسمع منك ستتوالى عليك كتبى اليك ، تقدم اليك تجاربى كاسا فكاسا

والسلام عليك ممن يحب لك الخير ويود أن تكون خيرا منه ويتمنى أن يحيا فيك خيرا مما حيى فى نفسه والسلام

أحمد أمين

كلمات سنة ١٩٥٠

● علينا أن نوجه التعليم وجهة عملية تطبيقية لإعداد جيل صالح للعمل فى البنوك والشركات والمؤسسات الاقتصادية المختلفة ، بدلا من التعليم النظرى الذى مازلنا نأخذ به حتى الآن.

أسماء فهمى

● أرى ضرورة العناية أولا وقبل كل شيء بالتربية الخلقية ، وتعويد الشباب حب النظام ، والاهتمام بمشاكل المجتمع ، ومعاملة غيرهم بالتى هى أحسن ، وإجادة التعبير عن آرائهم بعبارات سليمة مهذبة .

كريمة السعيد

● يرى الذين يؤمنون بأثر المناخ فى الإنتاج الفكرى والبدنى أن العالم سيشهد عصرا ذهبيا سنة ٢٠٠٠ ميلادية يبرز فيه الأخصائيون فى ميادين الفن والعلم والصناعة .

مجلة «باجنت» الامريكية

● أتمنى أن أعيش حتى أرى الرئيس جمال عبد الناصر فى سن الثانية والثمانين ، وليس ذلك بالكثير عليه ، فهو عمر الشباب الذى سيكون فى ذلك الحين ، وسيشهد جمال عبد الناصر تمثاله الضخم الذى يقام فى وسط القاهرة .

طاهر الطناحى

● إن سنة ٢٠٠٠ تحمل فى طياتها للأدب العربى خيرا كثيرا أنها ستجعل منه «أدبا عالميا» يضارع أكمل الآداب العالمية .

العقاد

رسالة إلى ولدى

بقلم : حسين أحمد أمين

نشر جدك لأبيك منذ نصف قرن، فى مجلة «الهلال» مقالا بعنوان «رسالة إلى ولدى»، يبثنى وإخوتى فيها نصائحه المستقاه من تجاربه فى الحياة .. واليوم تطلب منى نفس المجلة أن أكتب رسالة مماثلة إليك، بنفس العنوان، وربما طلبت منك بعد نصف قرن آخر أن تكتب رسالة ثالثة إلى ولدك، فيكون لاختلاف المضمون أو اتفاقه طرافته ودلالته .

فإن كان الشباب عادة ما يأبى الإفادة من تجارب من سبقوه، ويصر على حقه فى أن يجرب بنفسه وإن أخطأ وانحرف عن جادة الطريق، فسيظل من واجب الشيوخ أن يعرضوا ثمار خبراتهم، شاء الشباب أن يمد إليها يده أم لم يشأ وسيظل صحيحا القول بأن من شأن بيان تلك الخبرات أن يوفر على الشباب المطلع عليها الكثير من الوقت والجهد، وقدرا كبيرا من الشقاء والحيرة، وأن يجنبهم ما خبره الشيوخ من أمثالى من التورط فى الزلل، ومن انزلاق أحلامنا إلى الإحباط وخيبة الأمل، خاصة بعد أن تعددت الآراء وتضاربت، فكأنما كل شئ قد بات

مشكوكا فيه، كل يدافع في حرقة عن رأيه، فكأنما كل شئ قد غدا موثوقا به .

ولا أعنى بذلك إنكار حق الشباب في التماس طرق جديدة، ورفض بعض ممارسات لآبائهم لا هي أرضتهم، ولا أوصلتهم إلى الغاية المنشودة. وأضرب مثالا على ذلك اختلاف مفهوم جيلي وجيل أبي وجدي عن الثقافة. فهو مفهوم آخذ في الانحسار، واقترانه أساسا بثقافة الكتاب هو الآن في طريقه إلى اندثار، إذ تحل محل القراءة تدريجيا وسائل أخرى لتحصيل المعرفه.. وقد أدركت في وضوح، ومنذ زمن طويل، الفارق بين طبيعة ثقافتي وثقافتك ، (وأنت الذي لا تميل كثيرا إلى القراءة، ولا فائض من وقتك يسمح لك بها) وبدأت أتعلم ضرورة ألا أتسرع بالإدانة أو بالأزدراء، وضرورة أن أقر لكل جيل بحقه في اختيار طريقه إلى الثقافة ووسائلها، خاصة إذ أراك مثقفا، ولكن على نحو لا أعرفه، وبمعنى غير الذي عهدته ونشأت عليه .

مفهوم السعادة

ومع ذلك فإني أكاد أن أكون واثقا من أنك ستلمس قسطا كبيرا من الاتفاق في الرأي بينك وبين أبيك وجدك حول مفهوم السعادة والطريق إليها.. لقد استهل تولستوي روايته «أنا كارنينا» بقولته الشهيرة: «كل العائلات السعيدة يشبه بعضها بعضا أما العائلات الشقية فلدى كل منها أسبابها الخاصة التي تجم شقاؤها عنها» .. وفي اعتقادي أن هذا القول ينطبق على الأفراد انطباقه على العائلات . فكافة من عرفتهم أو قرأت أو سمعت عنهم من الأفراد السعداء يكادون أن يكونوا متشابهين في أسباب سعادتهم، مشتركين في سمات واحدة أو متقاربة. وهو اشتراك ينفي عن السعادة صفة النسبية، ويجعل من المشروع محاولة معرفة السبل المحددة التي يمكن للفرد أن ينتهجها فتؤدي به إلى السعادة، والقول بوجود سعادة إيجابية رغم غلبة الشقاء على أغلب الناس، ورغم حديث بعض الأديان، والكثير من الفلاسفة، وغالبية البشر، عن أن الحياة شر محض، أقصى ما يمكن للإنسان أن يبلغها فيها هو تجنب الألم قدر الإمكان غير أنه لا مفر من أن أتدارك هنا فأوضح أن ثمة شروطا للسعادة لاتخضع لإرادة الفرد كالصحة، والثروة، وبهاء الطلعة، وطيب المحتد، والمزاج الشخصي، والذكاء والمواهب، والظروف الاقتصادية والإجتماعية

والسياسية التى يعيش فيها. فهى إلى حد كبير من هبات القدر، وقد لاتكون للفرد حيلة حيالها فجمال المرأة مثلا - بل وسامة الرجل - هما خطاب توصية مفتوح قد ييسر لهما ما يجده غيرهما عسيرا. وثمة من الشروط، كالظروف الاقتصادية والسياسية فى موطن الشخص ما قد يسهم فى زيادة فرص سعادته وتحقيق ذاته واشباع احتياجاته المادية والروحية وتنمية مواهبه، أو فى الانتقاص منها .. بل إن من هذه الشروط ما قد يؤدى الافتقار إليه إلى إقامة عقبة كأداء فى سبيل نيل السعادة. فالصحة مثلا التى تشكل الخلفية الضرورية لبناء حياة سعيدة، قد يؤدى الافتقار إليها إلى فقدان القدرة على الاستمتاع بكل شئ آخر، كالثروة والشهرة والمركز الرفيع والمكانة الاجتماعية .. كذلك فإن المزاج الذى لايكاد أن يكون للإنسان دخل فيه، من شأنه متى كان سوداويا أن يصبغ كل ما فى الحياة، حتى أبهى مظاهرها، بلونه وطابعه، بحيث تنطبق هنا قولة المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريض

يجد مرا به الماء الزلالا

بل قد لاتكون الثروة على الإطلاق شرطا أساسيا أو ثانويا للسعادة، بدليل شيوع التعاسة ومشاعر القلق والملل بين الأغنياء. (وهو ما حدا بتولستوى إلى القول فى روايته «الحرب والسلام» بأن منشأ كل ضروب التعاسة ليس هو الفقر والحرمان، وإنما هو زيادة المال عن الحاجة) .. غير أنه من المؤكد، وإن لم يكن للثراء دخل أو تأثير فى السعادة، أن توفر المال قد يجنب المرء الكثير من ضروب الشقاء، وأن الفقر المدقع سبيل أكيد إلى خلق المتاعب والهموم والمشكلات .

كل هذا صحيح، وقد لايكون للمرء حيلة فيه. غير أن الأمر الواضح هو شيوع السخط وعدم الرضا حتى لدى موفورى الصحة وموفورى الثراء، وهو مايستغربه سقيمو الصحة والفقراء بالأخص، فيغدو تعجبهم مصداقا لقولة برناردشو «إن من تؤله ضروسه يظن كافة من لا تؤلمهم ضروسهم سعداء !» . وفى رأينا أن سبب فساد هذا الرأى هو أن توفر الصحة وتوفر المال ليسا من مقومات السعادة فى حد ذاتهيما، وإنما هما من شروطها أو بتعبير آخر: أنهما لايحققان السعادة، غير أن السعادة، لاتتحقق مع الافتقار اليهما. فإن كان من الصعب أن يستشعر من تؤله

ضروسه بالسعادة وقت الألم، فلا مفر من الإقرار بأن ثمة ملايين التعساء فى عالمنا هذا ممن لاتؤلمهم ضروسهم !.

شروط من البساطة

فإن افترضنا تمتع المرء بالصحة الطيبة، وبقدر معقول من الاكتفاء المادى، وجدنا سائر الشروط التى لاغنى عنها لسعادة معظم البشر شروطا لايصعب توفرها: مثل الصداقة والحب، والحياة العائلية الهانئة، والنجاح فى العمل، والسمعة الطيبة، واحترام الآخرين. وهى شروط من البساطة بحيث يمكن للمرء أن يحققها لنفسه ببعض الجهد والحكمة وضبط السلوك، وبحيث يحق لنا أن نقول إن الإنسان الذى يتمتع بها ولايشعر بالسعادة رغم ذلك يعانى من خلل نفسى معين ويذهب الكاتب البريطانى ر.هـ. تونى R.H. Tawney إلى أنه «لو كان أمام المرء عمل هام، يقبل بهمة على أدائه، ولديه من وقت الفراغ والدخل المادى ما ييسر له أداءه على وجه طيب، فإنه يمتلك من اسباب السعادة كل ما بوسع بنى آدم أن يمتلكوه منها» .

ذلك أنه على فرض أن الظروف الخارجية التى تواجه الفرد ليست بالظروف واضحة السوء، فإن بوسعه أن ينال السعادة متى اتجهت عواطفه واهتماماته إلى خارج نفسه لا إلى داخلها، ولم ينحصر تفكيره فى ذاته فكما أنه من الصعب أن نتخيل إنسانا سعيدا داخل السجن، فإنه يصعب عليه أن يجد السعادة فى شر صنوف السجن طرا، ألا وهو سجن العواطف والشهوات التى تجعله حبيس ذاته. ومن أكثر هذه العواطف والمشاعر شيوعا نجد الخوف، والحسد، والإحساس بالذنب، والتحسر على النفس، والغرور فمع كل هذه المشاعر تتركز رغباتنا على أنفسنا. فلا تدع مجالا لاهتمام حقيقى بالعالم الخارجى، اللهم إلا ما يتعلق بالقلق من أن يحبط العالم الخارجى تطلعاتنا .

فمعنى إذن أن الإنسان السعيد هو الإنسان الموضوعى ذو الاهتمامات العديدة المتنوعة الخارجة عن نطاق ذاته. ومادام المرء مشغولا بالتفكير فى أسباب تعاسته فسيظل دوما محصورا فى ذاته، وسجين نفسه، فيدور بالتالى فى حلقة مفرغة. وقد لاحظ الحكماء أن سر التعاسة يكمن فى وقت الفراغ الذى يتاح للمرء فيه أن يتساءل عما إذا كان شقيا أو سعيدا، وذهبوا إلى أن علاجه هو فى العمل، بل

هو فى الكد فى العمل حتى يصيب المرء التعب الذى هو من أشراط السعادة. فالإجازة الصيفية لمن لايرهق نفسه فى الشتاء لاجدوى من ورائها، بل هى عبء حقيقى. كما أن الإجازة الدائمة التى يعيش فيها بعض الاثرياء هى أفضل تعريف للجحيم .

فإن شاء المرء الخروج من سجن ذاته فلابد له من التركيز على اهتمامات حقيقية له نابعة من طبيعته، فيشعر معها بأنه جزء من خضم الحياة وتيارها، لا وحدة منفصلة صلبة ككرة البلياردو التى لاتربطها بالكرات الأخرى غير علاقة التصادم.. مثل هذا الإنسان يشعر بأنه مواطن فى الكون، يتابع المشاهد التى تدور حوله باهتمام، ويستمتع بتأمله إياها، لاتؤرقه فكرة الموت، إذ هو يشعر أنه مامن شئ يفصله حقيقة عمن سيخلفه فى الأرض .. وهذا الاتحاد الغريزى العميق مع تيار الحياة هو عندى أعظم سعادة يمكن للإنسان أن ينالها .

وعندي – مع كل هذا – أن العنصر الاساسى فى سعادة الفرد هو طبيعة تكوينه: مزاجه وشخصيته اللذان هما المنبع الدائم لإرضاءه أو سخطه، واللذان يشكلان الحصيلة النهائية لانطباعاته ورغباته وأفكاره، بينما لانجد للأحداث الخارجة عنه إلا تأثيرا غير مباشر، لايصل إليه إلا عبر هذا المزاج وهذه الشخصية.

وهذا هو السبب فى أن الأحداث الخارجية الواحدة، والظروف نفسها، يختلف تأثيرها باختلاف كل فرد عن غيره. وقد يبدو العالم نفسه مختلفا فى أعين الأفراد المختلفين فهو فى نظر هذا صحراء جرداء مسطحة تبعث على الملل والضيق، وفى نظر ذاك جنة مورقة شائقة مفعمة بالمغزى والمعانى.. وكثيرا ما يسمع البعض منا أو يقرأ عن التجارب المتنوعة الشائقة التى مر بها غيره أثناء حياته، فيغبطه أو يحسده، ويتمنى أن تكون هذه الخبرات قد مرت به هو، وكان الأولى به أن يغبط هذا الغير على ما يتمتع به من مزاج متألق، واهتمامات ذهنيه قوية، صبغت تلك الخبرات بصبغتها، فبدت عند وصفه إياها رائعة طريفة، غنية بالمعانى.

فكل حدث يقع، وكل مؤثر خارجى، يتطلب تفاعل عنصرين: شخص وموضوع، هما رغم اختلافهما متحدان اتحاد الأكسجين والهيدروجين فى الماء. فإن كان الموضوع واحدا واختلف تقييم الأشخاص

له، وإحساسهم به، بدا هذا الموضوع الواحد وكأنما هو موضوعات مختلفة شتى فالشخص ذو المزاج الحزين المكتئب يرى المآسي والمتاعب في أمور يرى فيها صاحب المزاج المعتدل صراعا شائقا ممتعا جديرا بالدراسة، ولا يرى ثالث فيها أي مغزى أو معنى .. وكثيرا ما كان أبو حنيفة يقول لتلاميذه : «لو رأى السلاطين ما نحن فيه من لذة العلم، لقاتلونا عليه بالسيوف !» غير أن الغالب أن هؤلاء السلاطين لو حصلوا بأسيافهم على كل ما في هذه الدنيا من مجلدات للعلوم، لحالت ضحالة قرائحهم دون أن يجدوا في قراءتها من اللذة ما كان يجده أبوحنيفة وتلاميذه في كتبهم ومحاوراتهم .. كذلك فإن الغنى الغبى محدود الذكاء والمخيلة لن يجد في قصوره وضياعه من المتعة ما توفر لسرفانتيس مثلا وهو يؤلف رائعته «دون كيخوته» بين جدران السجن الضيق الذى ألقى فيه .

شخصية الفرد

وتظل حياة كل فرد منا وشخصيته تحملان نفس الطابع من البداية إلى النهاية مهما اختلفت عليه الظروف الخارجية. فما هذه الظروف الخارجية إلا كالتنويعات على اللحن الأساسى في المعزوفة الموسيقية. وشخصية الفرد هي التى تحدد سلفا مدى قدرته على الاحساس بالسعادة، خاصة قواه الذهنية التى تتحكم إلى الأبد في قابليته للاستمتاع بأسمى دروب اللذة طرا. فإن كانت هذه القوى محدودة فلن يجدى كثيرا أى جهد يبذله، ولا ما يمكن للناس حوله أو لثرائه وجاهه أن يوفروه له من متع، هى في أغلبها متع حسية، أو صحبة أمثاله من محدودى الأفق.. وفى المثل الشعبى «الحمار مهما سافر موش حايراجع حصان !». ذلك أن أرقى صفوف المتع، وأكثرها تنوعا وأبقاها على الزمن، هى المتع العقلية، مهما ظن الشباب، عكس ذلك، وهى متع تتوقف درجتها على قدر ما يتمتع به المرء من ملكات ذهنية تصحبه أينما حل، وفى الوطن والغربة بين الناس وفى خلوته، لايمكن لأحد أن يضفيها عليه، أو أن يسلبه إياها .

نعم نحن في حاجة إلى المال من أجل إشباع بعض الاحتياجات الضرورية والطبيعية غير أنى أريدك أن تدرس حالة ذلك الصنف من الناس الذين نالوا الثراء في ظل سياسة الانفتاح في مصر .. معظم هؤلاء هم بطبيعتهم وبحكم نشأتهم وتكوينهم لايعرفون من المتع غير المتع

الحسية، ويظنون أنفسهم قادرين على تحقيق السعادة لأنفسهم ولعائلاتهم عن طريق المزيد فالمزيد من هذه المتع التى يخالونها ستعوضهم عن غيرها . ستجد أن الهم الأكبر لدى هؤلاء هو فى استهلاك الفاخر من الطعام والشراب، وفى النشاط الجنسي، واقتناء الأثاث وأحدث طراز من السيارات، وشراء الكماليات من السلع. غير أنهم إذ يغرقون أنفسهم فى هذه الملذات الحسية، سرعان ما يدركون أنها لاتدوم لأكثر من أيام معدودات، أو ساعات معدودات، وأنها علاوة على ذلك، باهظة الكلفة، لم تكفهم شر الملل، بل وأن الثروة قد قللت سعادتهم بالنظر إلى ما يقتضيه الحفاظ عليها من قلق يصعب تجنبه.

إن ألد أعداء السعادة فى هذه الحياة الدنيا هما الألم والملل، بحيث يمكن وصفهما بأنهما قطبا الحياة، متى ابتعدنا عن أيهما اقتربنا من الآخر. فإن كانت الحاجة تسبب للفقراء الألم، فإن المرء لايتجاوزها حتى يبدأ شعوره بالملل وأكثر الناس عرضه للملل هم أفراد الطبقات العليا الذين تقلقهم فكرة كيفية قضاء وقت فراغهم .. لذلك فإن نادرا ما يطيق الغنى البقاء فى داره غير أنه ما يخرج منها فى طلب التسلية وفرارا من الملل حتى يدرك أنه فى الخارج ليس بأسعد حالا.. لذا تراه يبادر بالتوجه إلى ضيعته فى الريف، أو إلى فيلته فى الغردقة أو الساحل الشمالى، يقود سيارته إليها فى أقصى سرعة وكأنما يتوجه إليها لإخماد حريق فيها. حتى إذا ما بلغها، وقضى بها بضع ساعات، عاد إليه الإحساس بالملل فيغادرها عائدا أدراجه، ويقود سيارته فى أقصى سرعة إلى داره بالقاهرة وكأنما يريد إخماد حريق فيها .

الوهم !

فالشخص العادى إذن إنما ينشد السعادة فى أمور خارجة عنه، كالثروة والمنصب والشهرة والنفوذ وغير ذلك. وهو حين يفقد ما ناله منها، أو ينالها فلا يجد فيها السعادة التى ظنها قائمة بها، يتحطم أساس سعادته. وبعبارة أخرى، فإن مركز الثقل عنده هو خارج نفسه، ويتغير بصفة مستمرة مع كل رغبة يشعر بها، أو نزوة تعن له.. فهو اليوم مشغول بفيلته فى «مارينا» وغدا بشراء طراز جديد من السيارات، وبعده بإقامة حفل عشاء راقص لأصدقائه، وبعده على مائدة القمار يضاعف رهانه، وبعده بالاستعداد للسفر إلى الخارج.. وإذ تتبدد أوهامه تدريجيا إذ لايجد سعادة فى هذا الأمر أو ذاك، يجد المتعة فى إيهام الغير ممن هم ليسوا فى ثرائه بأنه يجد سعادة بالغة فى كل هذه

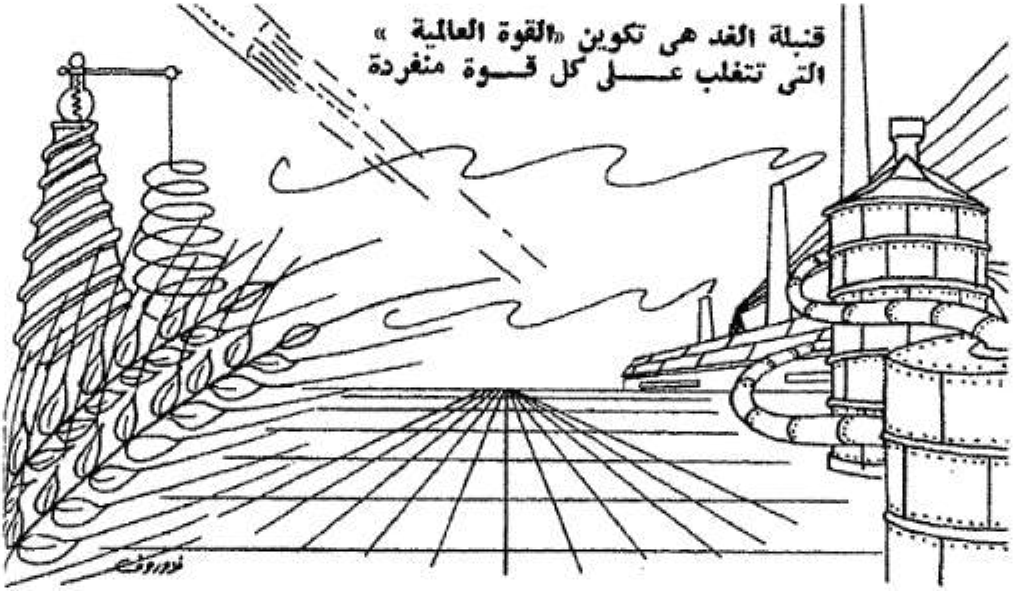
الأمور: فى غناه أو رتبته، أو نفوذه أو سلطانه، أو ضيعته أو فيلته، أو فى أسفاره أو علاقاته الاجتماعية أو الجنسية فيهمه أن يظهر كل ذلك لأعين الناس، وينتهى به الحال إلى الرضا بحسد الناس له، وتوهمهم أنه لابد إنسان سعيد .

وهو أحيانا، وقد أدرك كذب الشهوة والثروة، يلتمس التسلية فى نشاط ذهنى، كالموسيقى أو القراءة. غير أن هذا النوع من النشاط مع أمثاله من محدودى القدرات العقلية سيظل دائما ميلا سطحيا غير طبيعى، لايمكن مقارنته بالنشاط الفنى أو العلمى الخلاق، فيعاوده الإحساس بالملل، مالم يكن الكتاب الذى يقراءة رواية بوليسية، أو من صنف «اعترافات اعتماد خورشيد»، ومالم تكن الموسيقى التى يسمعها من ذلك النوع الشائع اليوم فى مصر، مما لايستهدف تحريك الوجدان والمشاعر، وإنما تحريك الأرداف وهزّ الأكتاف، وهو نوع إنما شاع لتلبية احتياجات أفراد الطبقة الجديدة فى مجتمعنا، ممن حصلوا الثروة فعرضوا أنفسهم للملل، وظنوا أن ترقيص الردف قد يصرفه عنهم .

خلاصة القول هى أن ثراء الروح والعقل هو الثراء الحقيقى الوحيد، وأن صاحب القدرات العقلية، والملكات الفنية، والثروة الروحية الداخلية، هو أسعد الناس جميعا. فهو لا يطلب من دنياه خارجه سوى أن تتيح له من وقت الفراغ والهدوء والاكتفاء المادى ما يسمح له بتنمية ذاته، واستخدام ملكاته .. وبعبارة أخرى، هو لايريد منها غير أن تأذن له بأن يكون نفسه، طيلة حياته، فى كل يوم وفى كل ساعة «أما ماعدا ذلك فقليل الأهمية، لايجدر به أن يلتفت إليه وقد حكى عن سقراط أنه حين توجه يوما إلى السوق، وتأمل مئات السلع المعروضة فيه، هتف بأصحابه قائلا :

- ألا ما أكثر الأشياء التى لا أريدها!

فكما أن الدولة قد توصف بالغنى إن هى استغنت بمصادر ثروتها عن كافة الواردات من الخارج أو عن معظمها، فقد تعرف الإنسان السعيد بأنه الشخص الذى يملك من عناصر الثراء الداخلى ما لايحتاج معه إلا إلى القليل من العالم خارجه.. فإن ارتبط عنده المزاج المرح بالجسم السليم، والعقلية القوية النشطة النفاذة التى ترى الأمور على حقيقتها، والرغبات المعتدلة القليلة، والضمير الهادئ المستريح، أمكن الإشارة إلى كل هذا على أنها الهبات التى لايمكن لأية مزايا أخرى أن تعوضها، أو تعادلها فى القيمة .



قنبلة الغد

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

تشتهر العصور باختراع شامل أو بحركة انسانية كبيرة يشترك فيها أكثر من أمة واحدة

فيقال مثلا عصر المطبعة وعصر البخار وعصر الكهرباء وعصر الطيران ، ويقال أيضا عصر الاصلاح وعصر النهضة وعصر الثورة الفرنسية وعصر الاستعمار

وقد تكون هناك علاقة بين المخترعات الصناعية والحركات الانسانية، فتكون احداهما نتيجة الاخرى ، أو تكون هذه وتلك نتيجة عامل واحد يسيطر على العقول كما يسيطر على شعور الجماعات

ولكننا لا نعنى بالبحث عن هذه العلاقة الآن ، وانما نعنى بالاسم الذى يمكن أن يطلق على العصر الحاضر من جانب المخترعات ومن جانب الحركات الانسانية

فما اسم هذا العصر اذا أردنا أن نطلق عليه اسما مشتقا من أهم

مخترعاته وأهم أطواره الانسانية من قبيل ما أشرنا اليه ؟

نعتقد اننا لا نخطىء تسميته اذا سميناه من جهة بعصر الطاقة الذرية وسميناه من الجهة الاخرى بعصر الهيئات العالمية

والعصر الذى يليه ماذا يسميه أبناؤه على هذا النمط من الاسماء؟

بماذا نتنبأ له نحن ؟ والى أى حد تصدق النبوءة عنه قبل مقدمه بخمسين سنة فى زمن تكفى فيه السنة الواحدة للتغيير والتبديل فى الوقائع ، فضلا عن النبوءات ؟

نعتقد أننا فى أمان هنا من خطأ النبوءة ، وان الامر لايحتاج منا الى علم بالغيب ونظر الى ما وراء حجاب الاطوار والاحقاب

فاستخدام الطاقة الذرية لايزال فى باب المقدمات ، وتنظيم الهيئات العالمية لا يزال فى باب التجارب

فمن التقدير المأمون أن بقية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين ستنقضى فى اتمام تلك المقدمات واستيفاء تلك التجارب · لان الطاقة الذرية والهيئات العالمية كليهما أخطر وأعظم من أن تستنفدهما الجهود البشرية فى جيل واحد ، وليس بالكثير عليهما جهود جيلين متعاقبين

لا تزال الطاقة الذرية فى انتظار التعميم والترويض ، اذ كل ما ظهر منها حتى الساعة أن دولة واحدة قد استخدمتها فى معركة حربية ، فهل هذا كل ما ينتظر من غرائب الطاقة الذرية؟ وهل ينتهى عصر التجديد فى استخدام هذه الطاقة بانتهاء العصر الحاضر ؟

اننا – بغير حاجة الى النبوءة أو الى التعب فى التقدير والتخمين – نستطيع أن نجيب بالنفى القاطع ونحن على أتم اليقين من صدق ما نقول

لا يزال هنالك مجال للتعميم

ولا يزال هنالك مجال للترويض

فأما التعميم فمنه شيوع العلم بأسرار الطاقة الذرية بين أمم الحضارة فى المغرب والمشرق ، فلا يبتدىء القرن الحادى والعشرون حتى تصبح القذيفة الذرية سرا مذاعا بين الأمم التى اشتغلت بالعلوم الحديثة وعرفت تسخير الآلات والمخترعات

ولا نحسب أن التعميم فى شئون الطاقة الذرية سينحصر فى شيوع العلم بأسرار قذائفها بين أمم كثيرة

ففى الوسع أن يعم فلق الذرة حتى يشمل ذرات العناصر جميعا ولا ينحصر فى العنصر الواحد الذى يخرج الطاقة الذرية اليوم ، وهو عنصر الاورانيوم

أو فى الوسع على الأقل أن تنشق الذرة وأن تستخدم طاقتها فى عشرين أو ثلاثين عنصرا من العناصر الشائعة على الكرة

الارضية ، فلا ينفرد بجميع مزاياها من ينفردون بهذا المعدن أو ذاك من أشباه الاورانيوم فى تركيب نواته وكهاربه، بل تنشق كل ذرة متماسكة فى العناصر المختارة ، لانها لا تتماسك الا بقوة يستفاد منها فى حالة الانشقاق

أما الترويض ـ ترويض هذه الطاقة المخربة ـ فله طريقتان لا تزالان مجهولتين، وليس بالكثير أن تنقضى فى علاجهما بقية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين

من ترويض الطاقة المخربة أن تستخدم فى التعمير والاصلاح ولا تظل مقصورة على تخريب الحصون وابادة الاعداء

وهى اذا استخدمت فى التعمير والاصلاح أمكن ان توفر الجهود الكثيرة التى تضيع فى استخراج الوقود والتنازع على الزيوت المعدنية وتمهيد الطرق بين الجبال أو تمهيد الارض الصالحة للزرع والسكن بين الثلوج

واذا تم هذا فهو قنبلة الغد وبعد الغد الى زمن بعيد ،ولكنها قنبلة ترد الطمانينة الى النفوس، ولا تخيف

ومن ترويض الطاقة المخربة أن نقاوم تخريبها بقوة من نوعها ومن مادتها

والمسألة كما نعلم الآن مسألة انطلاق الاشعة وانبعاث القوة المدمرة من هذا الانطلاق

فهل يستحيل على العقل البشرى أن يسيطر على حركة الاشعاع كما يسيطر الا ن على حركة الكهرباء ؟

هل يستحيل توجيه الشعاع أو تفريغ حيز من الجو يلغى الفعل الاشعاعى بفعل معاكس أو مقاوم؟

ان الفطنة الى نظريات الانطلاق أو التموج اللذين يحدثان فى حركة الاشعاع قد تفتح الباب لتحويل الامواج عن مجراها أو اجتذابها الى باطن الارض وأجواز الفضاء

وهنا نحن نظن ونخمن ، ولكننا نضرب فى مجاهل المعقولات ولا نخبط فى تيه الأوهام والمستحيلات

▭

ان القرن الحادى والعشرين سيأتى اذن ولما يفرغ العالم من محاولاته فى الطاقة الذرية

وستمضى بقية القرن العشرين وتهل على العالم مطالع القرن الذى يليه والطاقة الذرية هى مارد الزمن الذى يعالج البشر ترويضه ويحسبون أنهم قد ملأوا وقتهم عملا وابتكارا اذا استطاعوا بعد ذلك أن يروضوه

ويستوى فى ذلك ترويضه باستخدامه فى أعمال التعمير أو ترويضه بترياق من نوعه يقاوم الاشعاع بالاشعاع

▭

ويحسب البشر ايضا .أنهم

ملأوا وقتهم عملا وابتكارا اذا ابتدأ القرن العشرون وهم ناجحون في تجارب الهيئات العالمية

فان الهيئات العالمية اليوم توجد لانها ضرورية ولا توجد لأنها مفلحة في أغراضها وغاياتها

وستظل ضرورية بعد اليوم ، وستزداد الضرورة التي تدعو اليها سنة بعد سنة وحقبة بعد حقبة

وهذه الضرورة التي توجبها هي بابُ الرجاء في دوامها وفي اصلاح أخطائها

وقنبلة الغد في هذه الحركة الانسانية هي تكوين « القوة العالمية » التي تتغلب على كل قوة منفردة

فاذا وجدت «قوة العالم» فكل قوة مغلوبة أمامها ، وكل دولة تحاول الطغيان بأسلحتها أو بأموالها تنعزل وتنهزم

واليوم تتألف الهيئات العالمية من دول كبيرة ودول صغيرة ، يدعوها الى التعاون انها لاتستطيع أن تنفرد

ولكنْ هذا لا يكفي لتحقيق الغرض من الهيئة العالمية لهيئة الأمم المتحدة وما اليها

بل ينبغي أن يكون في الارض « عالم » تجمعه بنية واحدة ، وتدخل فيه الدول الكبيرة والصغيرة كما تدخل الاعضاء في الجسد الواحد

ينبغي أن تكون في الارض وحدة عالمية يشد بعضها بعضا ويتالم بعضها لألم بعض

أما اليوم فالهيئة العالمية مجموعة من أجزاء متفرقات ، لم يبلغ بها تمام التكوين أن ترتبط فيما بينها ارتباط البنية الحية ، فيؤذيها ألم الاصبع أذية يخافها الرأس والقلب والذراع ، ويخشى العضو الكبير على العضو الصغير ، ولا يحسب انه يسخره ويؤلمه ويؤذيه وهو في أمان من عاقبة أذاه

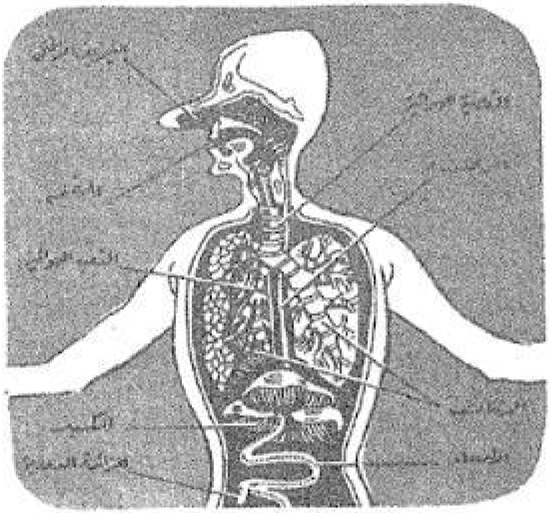
□

خمسون سنة ليست بالكثير على هذه الوثبة في أطوار الجماعة الانسانية ، ولا على تلك الوثبة في علاج الطاقة الذرية

ولعل الدهر ـ تنبلة تفوق هذه القنبلة المدخرة في عالم الغيب . فانها القنبلة التي تراض بها قوة المادة وقوة الروح

عباس محمود العقاد

• • •



إنسان سنة ٢٠٠٠؟

بقلم الدكتور لويس دوس

مدرس التناسليات بكلية طب العباسية

قبل عشر سنوات كان الجراح اذا وخزته ابرة أثناء جراحة ملوثة يجريها أيقن بميتة التسمم الدموى بعد بضعة أيام . والذى يزور مستشفى قصر العينى يرى على جدران احدى ردهاته عشرات اللوحات تحمل أسماء جراحين نوابغ ماتوا فى مقتبل العمر تلك الميتة التى كانت ذعر الجراحين. أما اليوم - بعد أن اكتشفت مختلف العقاقير القتالة للجراثيم داخل الجسم - فقد باتت هذه الميتة فى خبر كان

وعلى هذا المثل المصغر قس عشرات الامثلة مكبرات. فالحمرة التى أماتت سعد زغلول ما كانت لتميته لو امتد به الاجل عشر سنوات . وحمى النفاس التى تخطفت أرواح ملايين الوالدات على مر القرون ، قد فل اليوم منجلها فى قبضة عزرائيل . والأوبئة الفتاكة التى اجتاح كثير منها بلادنا فى السنوات الاخيرة وانجابت بسلام - قد كان احدها فى العصور الخالية قمينا أن يخلى من اهلها المدائن والاقطار

ليس من الخيال ، اذن ، أن نتكهن بأننا في فسحة متوسط العمر ـ اذا ما استقامت امور العالم على جادة السلام ـ سوف نحدث ابناءنا يوما حديث الماضي قائلين : كانت في ايامنا الغابرة اوبئة حصادة للارواح ، ابتلينا واسلافنا بها شرا مما ابتلي آل فرعون بالضربات العشر ، ثم شاءت رحمة الله ان يرفعها عنا ابد الآبدين

ففي ميدان واحد ـ هو حرب الجراثيم ـ انتصر الطب ، او كاد ، في اعوام لا تتجاوز العشرين على مجموعة من الاوبئة المكتسحة ، والامراض المعدية القتالة

ترى ، اذا واصل الطب تقدمه على هذا المنوال ، ايأتي زمن تنتفي فيه الامراض ؟ واذن فبم يكون الموت ؟ وحتام تطول الاعمار ؟ وباية حال تكون الحياة ؟ وعلى اي نظام يجرى التناسل ؟ وفي اية صورة تتشكل الاجسام ؟

هنا وقفة يستباح فيها التخيل على اوسع مداه . فما تخيل الاولون شيئا لم تلد الايام اعجب منه . وهل اعجب مما يصابحنا به عصرنا ويماسينا من خوارق الاعاجيب ؟ فلنتخيل ، اذن ، ما نشاء . ولنقتبس ما طاب لنا من اخيلة المتخيلين

افلن تكون امراض؟ ارجح الظن ان ستكون . فما الصحة الا حالة من التوازن بين حيوية الجسم وعوادي البيئة . وكل اخلال بهذا التوازن ـ كأن تضعف الحيوية او تقوى العوادي ـ مورث للمرض . وعوادي البيئة لا تقتصر على الجراثيم ، بل هي تشمل نظام المعيشة كله . من ماكل ومشرب ، وملبس ومسكن ، ومشغل وملعب ، ومغدى ومراح ، وامن وخوف . وهذه كلها تضطرب تجاوبا مع كل اضطراب في سياسة العالم واقتصاده وحضارته . وستضطرب هذه الاسباب ما اضطربت الحياة . ولن تقف عجلة الزمن ، ولن يكف الفلك المحرك عن الدوران ، وطاقات الاجسام محدودة ، وسباقها للزمن موقوت ، فلن ينقطع تساقطها في حلبة السباق

ومن اصول علم التطور : ان الوظيفة تخلق العضو ، وان الاعضاء تكبر بالاستعمال ، وتضمر بالاهمال ، وتتشكل على الوجه الملائم للبيئة . فلنسرح طرف الخيال عبر الاجيال لنتمثل شكل الانسان كيف تغيره ـ بعد دهور ـ حضارة الآلات . اغلب الظن ان سيكون الانسان مغزلي الشكل ، تضمر بطنه بضمور احشائها لقلة استعمالها ، واطرافه السفلى والعليا لقلة حركتها ، ويكبر تجويفه الصدري على حساب بطنه لازدياد حاجة المخ الى الدم النقي ، وتبقى راسه على حالها ، وانما تتضاعف تلافيف مخه بتضاعف عمله ، وتتضخم انفه لتملأ بالهواء صدره وسيصبح تام الصلع . وعلى هذه الصورة سوف يطغى العقل على الجسم ويشاكل الانسان الآلة التى استعبدته

دكتور لويس دوس

توقعات بيولوچى

بقلم :

د. أحمد مستجير


أحمد أمين


محمود تيمور


أسماء فهمى


عباس العقاد

❞ التنبؤ بالمستقبل أمر صعب، وهو الأصعب إذا كنا نتحدث فى مجال العلم، إذ يكون من المستحيل أن نتنبأ بظهور «فتح» جديد فى العلم غير مسبوق، وكل ما نستطيعه هو أن نتوقع - بالاستطراد العلمى - ما سيحدث بناءً على ما توفر لدينا من معلومات. فالفتح العلمى فى واقع الأمر يعنى فكرة جديدة غير مسبوقة لم تخطر على بال أحد قبل صاحبها.

لكن المنجزات العلمية المتعاظمة فى عصرنا هذا تحرك العقول كثيرا، لتقدح زناد أفكار جديدة، لنا إذن أن نتوقع ظهور فتوحات علمية جديدة أصيلة أكثر، سيظل علمها عند ربى، حتى تتكشف. ❝

فى عام ١٩٥٠ قامت «الهلال» مجلتنا الغراء، باستطلاع آراء بعض المفكرين فيما يتوقعون أن تكون عليه مصر والعالم عام ٢٠٠٠ - كتب الأديب محمود تيمور مقالا انتهى ببيت زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكننى عن علم ما فى غد عم

وربما كان البيت هو أفضل ما يقال اليوم أيضا .

وتحدث الدكتور لويس دوس، مدرس التناسليات بكلية طب العباسية، عن انتصار الطب فى أعوام لا تتجاوز العشرين على مجموعة من الأوبئة المكتسحة والأمراض المعدية القتالة، ثم تساءل : أفلن تكون هناك أمراض ؟ ورد بالاجابة المتوقعة قائلا إن أرجح الظن أن ستكون . ثم أنهى مقاله بأنه يتوقع أن يتحور تركيب جسم الانسان بحيث يطغى عقل الانسان على جسمه، ويشاكل الانسان الآلة التى استعبدته.

ثمة سؤال طرحته أسماء فهمى فى ندوة الهلال يقول : أليس من العجيب أن يكون ٩٩٪ من الكتب التى تصدر فى مصر من النوع الأدبى النظرى؟ مرت خمسون عاماً ولايزال سؤالها يستحق أن يطرح جديا، فالرقم لم يتغير على ما أرى، رغم أن العلم قد أصبح هو أكبر القوى التى تحرك عالمنا اليوم.

ومن عجب أن نرى أحمد أمين فى مقالة يؤكد «أن الدين الصحيح لا يناقض العلم الصحيح، وأن لا بد منهما جميعا للإنسانية، فالعلم لحياة العقل، والدين لحياة القلب» . يا رباه ! أبعد كل هذه السنين لا يزال علينا أن نردد نفس هذه الجملة الحكيمة؟ ويعود الآن إلى ذاكرتى قول عبد المنعم عواد يوسف : ربما كان علينا أن نغنى ألف مرة - قبل أن نسمع مرة .

أما أستاذنا عباس محمود العقاد فى مقاله «قنبلة الغد» فقد تساءل عن الاسم الذى يمكن أن يطلق على عصره، ثم أسماه «عصر الطاقة الذرية» وتنبأ بأن القرن الحادى والعشرين سيأتى ولما يفزع العالم من محاولاته فى الطاقة الذرية، كما تنبأ بقنبلة الغد، وهى قيام هيئة أسماها «القوة العالمية» تتغلب على كل قوة منفردة، فكل قوة مغلوبة أمامها، ليصبح فى الأرض «عالم» تدخل فيه الدول الكبيرة والصغيرة كما تدخل الأعضاء فى الجسد الواحد .. وها قد حلت «العولمة» وظهرت «القوة العالمية» إنما فى صورة دولة واحدة كبيرة، أو إن أردنا، فى صورة منظمة واحدة اسمها «منظمة التجارة العالمية» .

***

كان النصف الأول من قرننا العشرين هو حقا عصر الطاقة الذرية، كما أسماه العقاد، ففيه على الأقل ألقيت قنبلتا هيروشيما ونجازاكى فى أكبر مجزرة فى تاريخ البشرية. أما فى النصف الثانى فسنجد التسارع المذهل فى تغير وتفرع العلم والتكنولوجيا والمعارف العلمية، بمضى بمعدل يلهث أمامه خيال البشر، لم يعد من الممكن أبداً أن يعتبر استمراراً لعصر الطاقة الذرية فنطلق الاسم على القرن بأكمله، بل سيصعب حتى أن نميزه باسم واحد .. فلقد نطلق عليه عصر المعلومات والانترنت، ولقد يميزه البيولوجيون أمثالى الى عصور لا إلى عصر واحد. فالخمسينات والستينات هى عصر البيولوجيا الجزيئية، أما السبعينات والثمانينات فهى عصر الهندسة الوراثية (إن تكن هذه تطبيقا من تطبيقات البيولوجيا الجزيئية)، لتكون التسعينات أو السنين الأخيرة منها إن شئت الدقة، هى عصر الاستنساخ . سيصعب إذن أن نتوقع ما سيحدث فى النصف الأول من القرن الواحد والعشرين،

فقد يكون كل عقد فيه عصراً، ولقد تتعدد الأسماء لكل عقد.

فعلى ربيع عام ٢٠٠٠ سنكون وقد عرفنا كل حرف في ٩٠٪ من النص الوراثي للانسان، ليكتمل النص على عام ٢٠٠٣ (قبل موعده المحدد بسنتين). سيكون العقد الأول من القرن الجديد هو عصر الجينوم البشرى، ستبدأ فيه المهمة الصعبة الهائلة لتحديد الجينات البشرية المائة ألف، ومعرفة تركيبها ووظائفها وتفاعلاتها مع بعضها بعضا، والتناظرات مع جينيومات الكائنات الأخرى، ستتغير حتى طبيعة البحوث في كل مجالات البيولوجيا دون استثناء ، سيبدأ عهد جديد تماما للبيولوجيا والطب. وستضطر كل كليات الطب في بلادنا إلى إنشاء أقسام مستقلة للوراثة البشرية ، فسيصبح نصف الطب على الأقل وراثة. ستزدهر البحوث لمحاولة كشف الأساس الوراثي للشخصية والطباع والسلوك البشرى، لتدخل علوم النفس تحت عباءة علوم الوراثة. وسيبزغ علم جديد خطير في الحقل الجديد الوعر لكيمياء المخ وكيفية عمله، لنعرف كيف يتخلق العقل عن المخ.

ستبدأ الأبحاث الجادة لتصميم عقاقير تلائم كل فرد على حدة بناء على تركيبه الوراثي، ففيما عدا الأسبرين الذى يفيد كل من يحتاجه ويتعاطاه، فإن معظم الأدوية لا تعمل كما يجب إلا في ٣٠ ـ ٤٠٪ ممن يعالجون بها ـ لكنا بالاختبار الوراثي للشخص ومعرفة جيناته يمكن ان نحدد له أفضل عقار وأفضل جرعة تلائمه شخصياً.. ستتقدم البحوث كثيرا في مجال استنساخ وتنمية أعضاء بديلة يستعاض بها عن الأعضاء التالفة من جسم الإنسان ـ أعضاء كالكبد والكلية والثدى والمثانة والأمعاء، بل والقلب أيضا، ولقد نجح مثل هذا العمل بالفعل بالنسبة لجلد الإنسان ، ووافقت عليه مصلحة الغذاء والدواء الأمريكية، وسيكون المرشح التالي مباشرة هو الغضاريف والعظام.

ثمة هدف بعيد المدى يسعى إليه العلماء، هو زراعة رأس إنسان في جسد آخر، أو إن شئت، زراعة جسم إنسان في رأس آخر.. التكنولوجيا اللازمة موجودة ، وتحتاج الى تطوير نتوقع ان يتم على نهاية العقد القادم. (يا ترى من ستكثف الفرد الجديد؟). ستكشف التجارب في مجال علم الشيخوخة بهدف إطالة عمر الإنسان، فقد أمكن بالفعل انتخاب سلالة من ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا) تعيش لأضعاب العمر الطبيعى المشرة.

لنا أن نتوقع أن يتم خلال العقد القادم الاعلان عن استنساخ أول طفل بشرى، ولنا أن نتوقع كذلك الهزة العنيفة التي ستصيب البشر في كل أنحاء العالم، ومثلما كان الاستنساخ بمثابة تكاثر خضرى للإنسان، تكاثر يحاكى تكاثر النبات بالعقلة مثلا، فإننا نتوقع أن تتزايد البحوث في عملية التطعيم في الحيوان، تطعيم يشبه تطعيم التفاح على السفرجل مثلا، لانتاج حيوانات جديدة تماماً تحمل أعضاءً من أنواع مختلفة، بتصميم يلبى حاجات اقتصادية معينة يطلبها الإنسان.

ستتكشف أكثر وأكثر وحدة الحياة، وسيركز العلماء على استغلال هذه الحقيقة في خدمة البشر.

■

بعد أربعين عاماً

جامعة الدول العربية

ستصبح غير ذات موضوع

بقلم السفير عبد المنعم مصطفى

الامين العام المساعد لجامعة الدول العربية

اذا كنت لا أقر لنفسي بموهبة التنبؤ بالمستقبل والرجم بالغيب ، الا انني ألاحظ أن استقراء تاريخ تطور المجتمعات البشرية يدل على أن حياة الامم وأحوالها لاتسير على وتيرة واحدة ، بل انها تتغير وتتطور باستمرار : فتارة تتقدم وتزدهر ، واخرى تتأخر وتنحط . وهناك طائفة من علماء الاجتماع والتاريخ تستنبط من تطور الجماعات الانسانية قوانين وسننا ترقى بها الى مرتبة القوانين البيولوجية وتخضع لحتميتها تطور تلك الجماعات

ومهما يكن من أمر ، فانني أعتقد انه سيطرأ على جامعة الدول العربية، في الاربعين سنة القادمة ، تطور جذري شامل وأن هذا التطور سيكون متمشيا مع دواعي الوعي العربي العام ، ومتجاوبا مع رغبات الشعوب العربية في الوحدة الشاملة .

وسيكون هذا التطور مستمدا من منطق التاريخ ، ومن سير الاحداث في العالم العربي منذ قيام الجامعة في الاطار الكوني العام

حاجة الشعوب للجامعة

ذلك بأننا نعلم أن الجامعة لم تنشأ بحكم ميثاقها ، ولكن ميثاق انشائها جاء اقرارا رسميا بحاجة أحست بها الشعوب العربية . فالجامعة وجدت في ضمير كل عربي قبل مولدها الرسمي بسنوات ، وقد أنشئت استجابة للرأي العربي العام . وتثبيتا للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة التي تربط بين الدول العربية، وحرصا على دعم هذه الروابط وتوطيدها ، وتوجيهها لجهودها الى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة ، وصلاح أحوالها ، وتأمين مستقبلها وتحقيق آمالها وأمانيها ، على نحو ماجاء في ديباجة بروتوكول الاسكندرية

المؤرخ ٧ اكتوبر ١٩٤٤. وفى ديباجة ميثاق جامعة الدول العربيه المؤرخ ٢٢ مارس ١٩٤٥

تلك هي الدوافـــع التي أدت الى انشاء جامعة الدول العربية . وتلك هى الاهداف التى استهدفتها الدول العربية من انشائها

ولعلنا لا نجافى الحقيقة التاريخية فى شيء حين نذكر أنه لم يسبق فى الازمان الحديثة أن سـجلت قبل ميثاق الجامعة وثيقة رسـمية تنتظم الدول العـــربية مجتمعة وتنظـم علاقاتها وأسباب تعاونها وتضامنها وتحـدد أهدافها . ان الرأى العربى العـــام عامل موجـه للحـكومات ، يلقى اليه بال ، ويعمل له حساب

وهذه فى الحق ظاهرة جـديرة بالملاحظة عند اسـتعراض مراحل تطور جامعة الدول العربية ومايننتظر أن تئول اليه فى عام ٢٠٠٠ ، فمما لاشك فيه أن اقرار الحكومات العربية فى ميثاق الجامعة بأن الرأى العربى العام كان من أهم العوامل التى أدت الى انشاء الجامعة ، وبأن الغرض من انشاء هذه المؤسـسة انما هو تثبيت العلاقات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين الدول العربية ودعم هذه الروابط وتوطيدها ، انما هو بمثابة العهد المقطوع من الحـكومات العربية لشـعوبها بأن تسـير بوحى من أمانيها وتعمل على ادراك أهدافها وتأمين مسـتقبلها . فاسـتمرار الحـكومات العربية فى التجاوب مع رغبات شـعوبها هو من الناحيـة



الدسـتورية أساس شرعية هـذه الحكومات وشرط يقترن به وجودها . وهذا يقينا من دعائم الديموقراطيـة الصحيحة

وللتتبع لسـيرة جامعـة الدول العربية منذ انشائها حتى الآن يلاحظ أن مولدها كان بمثابة نقطة الانطلاق للرأى العربى العام ، ومركز التجمع لأماني الشعوب العربية . فأصبحت الجامعة معقد آمالها ، وأخذت تتابع أوجه نشاطها فى شتى صوره

عوامل دافعة

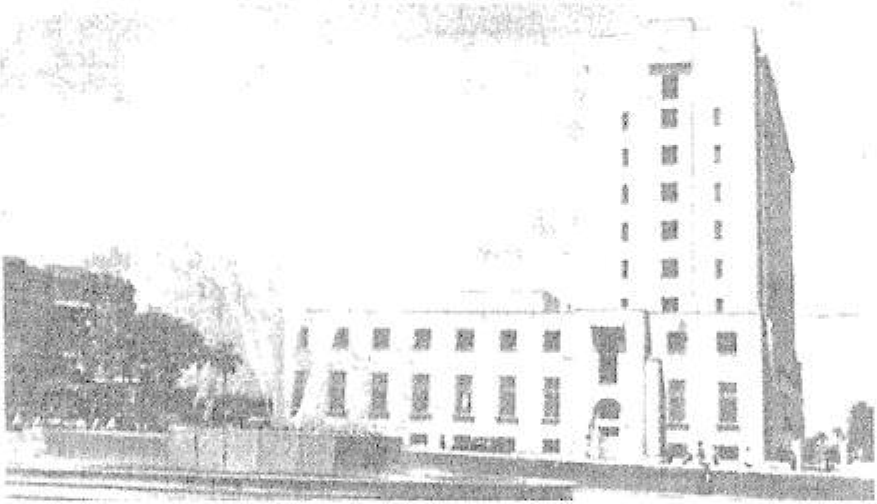
ولقد سادت الجامعـة فى مراحل حياتها حتى الآن عوامل دافعة وأخرى معوقة . ويلاحظ أن العوامل الدافعة

كانت تنطلق من الشعوب دواما . أما العوامل المعوقة فلم يكن للشعوب بها من شأن . وانما كانت ترجع أغلب الامر الى الواقع الذى اقتضته ظروف سياسية فرضت على العرب فرضا . بل ان الشعوب العربية ، فى حرصها على السير سيرا حثيثا نحو أهدافها القومية وتعويض مافاتها، كانت تتعجل خطى الجامعة وتدفعها الى الامام ، وتلومها على سيرها الوئيد ، وعلى تعثرها فى السير أحيانا، لأسباب لا ترجع اليها

لكن الجامعة ادركت منذ انشائها أن تحقيق رسالتها لم تعد تصلح له الوسائل الاتكالية ، والطرق الارتجالية التى كانت تتسم بها الحركات الوطنية فى أجزاء العالم العربى المشتتة . ولم تعد هذه الوسائل تتمشى مع مقتضيات التنظيم الحديث فى شتى الميادين السياسية والدفاعية والاقتصادية والاجتماعية، وانما يتعين وضع معايير قواعدية وأسس منطقية معقولة تتمشى مع مقومات الكيان العربى من وحدة اللغة والتقاليد والحضارة واتصال الاقليم ومن الآلام والامال والمصالح المشتركة ، وعلى الجملة ادركت الجامعة منذ انشائها انه لا بد من احكام فى التنظيم ، وتوضيح للمعالم ، وتحديد للاهداف والوسائل

وكان طبيعيا غداة انشاء الجامعة أن يتركز اهتمامها فى القضايا السياسية للوطن العربى ، وأن يكون تحرير البلاد العربية من النفوذ الاجنبى ، فى المقام الاول من نشاطها ، وهى اذ فعلت ذلك ، انما كانت متجاوبة مع الرأى العربى العام ، وصادرة عن ايمان عميق بأن التسلط الاجنبى الذى فرض على البلاد العربية هو سبب تجزئتها وتفرقتها وتأخرها فى كافة الميادين . ولن يكتب للوطن العربى أن يجمع شمله ويحقق وحدته وبعث نهضته قبل التخلص من التسلط الاجنبى . ذلك بأن الحكم الاجنبى والاهداف القومية العربية ضدان لا يلتقيان . ومن دعائم الاستعمار الابقاء على الوضع الراهن والجمود وتقويض القوى الدافعة وتدمير العناصر الصاعدة وتأييد العوامل المعوقة والقوى الرجعية والاخذ بناصرها

ولعله لا يكون من نافلة القول فى هذا السياق أن نذكر أنه قد قيل ان فكرة الجامعة العربية برزت الى الوجود بوحى من بريطانيا . ظنا منها انها قادرة على أن تحقق بواسطتها سياستها فى الشرق العربى وأن تدرك هذا الهدف بأيسر مما لو كانت تعالج قضاياها مع الدول العربية منفردة . لكن الجامعة، حينما شبت عن الطوق ، اخذت تستجيب فى مساعيها لدواعى المصالح العربية وحدها وخرجت بذلك من الولاية التى كانت بريطانيا ترجو أن تخضعها لها . ولئن كان هناك ما يؤخذ على الجامعة فليوضع الى جانبه ما قامت



البناء الشامخ الجديد الذى سيكون مقرا للجامعة العربية فى القاهرة

به فى الفترة القصيرة التى انقضت منذ انشائها وليؤخذ بنظر الاعتبار القوى التى تألبت عليها والتيارات الظاهرة والخفية التى كانت تضيق بها

مناصرة الجامعة لقضايا الحرية

ومهما يكن من أمر فقد ناصرت الجامعة قضايا الحرية والاستقلال فى الوطن العربى ، بل فى بلاد الارض طرا • وساعدت على تنسيق الجهاد العربى وتقويته بشتى الوسائل المعنوية والمادية والتمست لهذه الغاية كل وسيلة • فكتب الله التوفيق لكثير من أجزاء الوطن العربى المكافحة لاستكمال أسباب سيادتها واستقلالها ، أن تحقق أهدافها • كما قيض لبلاد عربية أخرى ، كانت ترزح تحت نير الحكم الاجنبى ، أن تتخلص من غاصبى حريتها وأن تصبح دولا مستقلة ذات سيادة • ولا تزال الجامعة ماضية فى تأييدها لكفاح الشعوب العربية الاخرى المناضلة لنيل حقوقها الطبيعية المشروعة فى الحرية والحياة الحرة الكريمة

ولكن الامانة التاريخية تقتضينا أن نلاحظ أن سيرة الجامعة فى هذا المجال لم تكن كلها نجاحا وتوفيقا • وانما اعترضها بعض الاخفاق • أريد أن أشير بذلك الى قضية فلسطين ، ذلك الجزء العزيز من الوطن العربى • على أن الانصاف يقتضينا كذلك الاعتراف بأن عوامل تضافرت على سلخ جزء كبير من فلسطين من الوطن العربى ومن هذه العوامل مايرجع الى ضروب من الاخطاء وفنون من التقاعس وخطل الرأى وقع فيها

العرب • ومنها وأهمها ما يعزى الى قوى استعمارية باغية وصهيونية معتدية آثمة

معاهدة الدفاع المشترك

ولقد كان حريا بالجامعة أن تعنى بتأمين سلامة الدول العربية ضد أي عدوان آخر ، في عالم مضطرب ملء بشتى الاحتمالات • فعقدت في عام ١٩٥٠ معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي رغبة في تقوية الروابط وتوثيق التعاون بين دول الجامعة حرصا على استقلالها ومحافظة على تراثها المشترك واستجابة لرغبة الشعوب العربية في ضم الصفوف لتحقيق الدفاع المشترك عن كيانها وصيانة الامن والسلام وتوفير أسباب الرفاهية والعمران في بلادها

وجدير بالذكر في هذه المناسبة ان هذه المعاهدة قد سجلت أنها انما عقدت استجابة لرغبة الشعوب العربية • وهذه هي المرة الثانية التي تثبت فيها معاهدة بين الدول العربية انها عقدت استجابة لرغبة الشعوب العربية • وكانت المرة الاولى في مناسبة انشاء الجامعة • ثم عملت الجامعة على تنسيق وتنظيم الروابط الثقافية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية بين البلاد العربية بصفة عامة — لا بين الدول الاعضاء فحسب — ولهذه الغاية عقدت العديد من المؤتمرات والمعاهدات لتنظيم هذه الشئون وردها الى معايير وقواعد منطقية معقولة

ولقد هدفت الجامعة من هذه التنظيمات الى ازالة الحواجز المصطنعة التي فرضتها تجزئة العالم العربي بحكم التدخل الاجنبي ، ففكرت في الامر بعين المصلحة ، والمصلحة مرادفة للعقل • فاذا كانت الجامعة قد أنشئت بوحي العاطفة • فانها أنشئت كذلك بوحي المصلحة المشتركة • ولسنا نعرف أن الحواجز القائمة بين أجزاء الوطن العربي تخدم مصلحة عربية حقيقية وعلينا أن نمد البصر الى المستقبل البعيد وندير فيما حولنا من تكتلات وما يحيط بنا من مطامع ونعد للامر عدته ونرسم للمستقبل سياسته

الى الوحدة الشاملة

وقد انصرف تفكير الجامعة الى الاستكثار من الاصدقاء في آسيا وافريقيا فوضعت أسس المجموعة الآسيوية الافريقية في الامم المتحدة تنسيقا لجهودها وتقريبا لمواقفها من القضايا العامة وفي مقدمتها قضايا السلم والامن الدوليين وقضايا الحرية وحق تقرير المصير والتقدم الاقتصادي والاجتماعي ، وعملت على توثيق تعاونها مع الامم المتحدة ، ووكالاتها المتخصصة خدمة للامن والسلام والرخاء العام ايمانا بأن الاجتماع قوة ووقاية اذا أحكم تنظيمه ووضحت معالمه وحددت أهدافه ووسائله وخلصت النية في تنفيذه

وعلى الجملة كانت سياسة الجامعة منذ انشائها — ولا تزال — سائرة نحو وضع الاسس لوحدة الوطن العربي

الشاملة على مراحل ، واستهدافا لحشد الجهود وتقوية الصفوف واحسان التنظيم ووضع سياسة بعيدة المدى ترمى الى تقوية الدول العربية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا ، اذ لا وسيلة لدولة منفردة في بلوغ ما تنشده من امن وسلام ورخاء اذا كانت الدول الاخرى مفككة ضعيفة غير متناسقة ممهاق سياستها وأهدافها . فالمصلحة ليست مصلحة دولة معينة من الدول العربية . ولكنها مصلحة الدول العربية مجتمعة

واذا كنا قد حرصنا على استعراض أعمال الجامعة في الفترة التي انقضت على انشائها ، فانما أردنا بذلك أن نقدم بين يدى القارىء معالم السياسة التى انتهجتها ادراكا لأهدافها ونحن نعتقد أن استمرار الجامعة فى هذه السياسة باطراد سيفضى الى التجاوب الحقيقى مع رغبات الشعوب العربية . ونرى انه سيطرأ على الجامعة العربية فى الاربعين سنة القادمة تطورات جذرية تتم على مراحل ثلاث

المرحلة الاولى
تعديل نظام الجامعة

المعلوم أن الجامعة العربية فى وضعها الحاضر هى جامعة حكومات احتفظ كل عضو من أعضائها بسيادته . فقرارات الجامعة فى المسائل الكبرى لا تلزم الا من يقبلها . وليست الشعوب ممثلة فى الجامعة . وأثر الرأى العربى العام فى أعمال الجامعة يلمس عن طريق الحكومات الاعضاء ، وأعتقد أن نظام الجامعة سيطرأ عليه فى هذه المرحلة تعديلان جوهريان:

الاول الاخذ بقاعدة أغلبية الآراء فى اتخاذ القرارات الاساسية بحيث يلتزم جميع الاعضاء بالقرارات التى تصدر باغلبية الآراء . ومن شأن هذا التعديل التقدم خطوة الى الامام بحيث تكون الغلبة لأكثرية الاصوات . فقاعدة الاجماع المتبعة فى الوقت الحاضر فى الجامعة مستمدة من احتفاظ كل عضو بسيادته وهى قاعدة أثبتت التجارب عدم ملاءمتها لنظام التكتل والاندماج الذى نشهده فى الحياة الدولية فى العصر الحديث . وقد ثبت انها كانت الصخرة التى ارتطم بها التعاون الدولى حتى الآن فى المنظمات العالمية ، واذا كان لهذه القاعدة من مبرر فى المنظمات التى تضم أعضاء تفرق بينهم المصالح المتعارضة والاتجاهات المتضاربة المتغايرة ، فأحرى بالدول العربية التى تجمعها وحدة المصلحة والهدف والاخطار المشتركة ، أن تنبذ هذه القاعدة التى تعوق سيرها وتبعدها عن أهدافها

أما التعديل الاخر الذى أرى أنه سيطرأ على نظام الجامعة فى هذه الفترة . فهو انه سيضاف الى أجهزتها جهاز شعبى يمثل الرأى العربى العام ويكون هذا الجهاز بمثابة انعكاس للاتجاهات والتيارات الشعبية فى البلاد العربية ويتمثل فى

جمعيـة اسـتشارية تنتظم ممثلين لبرلمانات الدول العـربية ونقابات المهن الحـرة وما الى ذلك . وتكون مهمة هذه الجمعية اصدار التوصيات الى مجلس الجامعة وممارسة نوع من الرقابة المعنوية على أعمـاله تحفزه وتدفعه الى الامام

وأتكهن بأنه لن تنقضي عشر سنوات حتى يكون هذا التعديل قد تقرر ، كما أتكهن بأن عدد أعضاء الجامعة سيزداد بانضمام كثير من البـلاد العربية المكافحـة لنيـل حـريتها واستقلالها

المرحلة الثانية
تطور الجامعة الى سلطة مستقلة

اعتقد أن نظام الجامعـة سيطرأ عليه تطور جذري في هذه المرحلة ، وهو أنها ستصبح منظمة لها سلطة ذاتية ، وحق اصدار قرارات نافذة من تلقاء نفسـها وبمجرد اتخاذها وسيكون الوعي العربي العام قد نما في هذه الفترة وأحس بزيادة أسباب التعاون والتضامن بين البلاد العربية وبضرورة مواجهتها بالاداة الصـالحة التي لا تعترضها اعتبارات المحافظة على سيادة الاعضاء في هذه الشئون، فتتنزل الدول الاعضاء للجامعـة عن اختصاصها في معالجة أنواع معينـة من المصـالح العـربية المشتركة على أساس موحد على نحو ما نشهده الآن في أوروبا الغـربية كمنظمة الفولاذ والفحم المعروفة بمشروع شومان أو السـوق الاوروبية المشـتركة أو الأوراتوم . وأتنبأ بأن هذه المرحلة ستتم في مدى عشرين عاما أو ثلاثين من الآن

المرحلة الثالثة
مرحلة تقلص الجامعة وشيخوختها

ستصل الجامعة في نهاية المرحلة الثانية الى أوج قوتها فيمـا أعتقـد وستكون قد استكملت أسباب نموها وادركت غاياتها وسـيكون الوعي العربي قد اسـتقام عوده وأصبح لا يرضى بغير الوحدة الكاملة ـ بين جميع أجزاء الوطن العربي ـ بديلا، وعندئذ تكون مقومات الدولة العربية الواحدة قد تحققت وسـيطلق على هـذه الدولة اسم الولايات العربية المتحدة وسـيمتد اقليمها من المحيط الاطلسي حتى الخليج العربي وتضم مايقرب من المائتي مليون مواطن وستكون دولة قوية عزيزة الجانب مسـموعة الكلمة في الميدان الدولي، تكفل لسكانها الأمن والرفاهية والعـدل . وتحكم وفق الأسس الديموقراطية الحقة . وعندئذ تصبح جامعة الدول العربية غير ذات موضوع ، لأنها تكون قد أدت رسـالتها ـ ولأنه لن تكون هناك دول عربية ـ وستكون سيرة الجامعة مصـداقا لقانون النشـوء والارتقاء . ومن الاعتراف بالجميـل أن يقام لهـا نصب تذكاري في كل حاضرة من حواضر هـذه الدولة المترامية الاطراف يروي ماضيـها ويحكي قصـة حياتها في سـجل الخلود





عام للاتحاد العربى

بقلم : عبدالرحمن شاكر

لا تصدق من يقولون إنه مع وصول هذا العدد الجديد من «الهلال» إليك فى أول يناير من عام ٢٠٠٠ أننا قد بدأنا مايسمى بالألفية الثالثة من التقويم الميلادى، فنحن قد بدأنا فى الواقع العام الأخير من القرن العشرين أو الألفية الثانية! أمامنا إذن عام كامل حتى تبدأ الألفية الثالثة، وعلى كل فليس هذا هو موضوعنا ، وإنما الموضوع هو أنه قد آن الأوان لطرح موضوع الاتحاد العربى من جديد ،لذلك نقترح أن يكون العام الجديد الذى بدأ عاما لتدارس الموضوع بما يستحق من جدية، ونتمنى أن يشهد العام خطوات فعلية فى هذا الاتجاه .

لقد استمعت من أيام فى ديسمبر المنصرم حديثا للدكتور عصمت عبدالمجيد، الأمين العام لجامعة الدول العربية مع إحدى القنوات الفضائية العربية ، وتضمن حديثه تقويما شاملا للأوضاع العربية وقضية الاتحاد العربى أو العمل العربى المشترك على أقل تقدير . ورفض الدكتور عصمت فى بداية حديثه منهج الحسرة والتباكى على الأوضاع العربية فى مجملها ، وكأننا أمة قد قضى عليها بالضياع ! .

وأشار إلى أن الجامعة العربية ، التى أنشئت منذ أكثر من خمسين عاما ، وبالتحديد فى عام ١٩٤٥ وقبل شهور من تأسيس هيئة الأمم المتحدة ، قد تكونت من سبع دول عربية فحسب ، هى التى

كانت مستقلة فى ذلك الحين أو تعتبر كذلك، وهى التى وضعت ميثاقها ، الذى لايزال معمولا به حتى الآن ، بعد أن أصبح عدد الدول العربية التى استقلت وانضمت إلى تلك الجامعة اثنتين وعشرين دولة ، وأنه قد آن الأوان لتعديل ميثاق الجامعة ، ليتناسب مع حجم الدول التى تضمها ، ومع الأوضاع العربية والدولية عموما .

من أهم البنود التى قرر الأمين العام لجامعة الدول العربية أنه يحتاج إلى تعديل فى ميثاق الجامعة ، هو البند الذى ينص على أن قرارات الجامعة ينبغى أن تصدر بالإجماع بمعنى أن الميثاق الحالى يعطى حق الفيتو لكل الدول أعضاء الجامعة ! ويكفى أن تعترض دولة واحدة على أى قرار لكى ينتقض هذا القرار ، ويكون بمثابة توصية لا تلزم أيا من الدول ، مما يشل فاعلية الجامعة ويصمها بالعجز عن التصدى لما تواجهه الأمة العربية فى مجموعها من مشكلات ، ويقترح الدكتور عبدالمجيد - مؤقتاً على ما يبدو - أن يكون صدور قرارات الجامعة بالأغلبية ، ولو بأغلبية الثلثين !

ويعود الدكتور عبدالمجيد فى حديثه الهام ، إلى ذكر أن الجامعة الحالية هى مجرد جامعة للدول ، بمعنى أن الشعوب المكونة للأمة العربية لاتزال بعيدة عنها ، أو عن أسلوب عملها ، ويرجو للوطن العربى أن تتوطد فيه الديمقراطية ، لكى تصبح للشعوب مشاركة فعلية فى صنع قراراتها المصيرية ! .

وأشار أمين عام الجامعة فى مواضع أخرى من حديثه إلى نواحى قصور أخرى فى تنظيم الجامعة وأساليب عملها ، من ذلك مثلا أن انعقاد مؤتمرات للقمة العربية، التى تضم رؤساءها وملوكها ليس جزءا من نظام الجامعة ولا ينص عليه ميثاقها ! وأن منظمات إقليمية أخرى نشأت بعد الجامعة قد حرصت على أن يكون مثل هذا المؤتمر جزءا لايتجزأ من نظام عملها ينص عليه ميثاقها ، من ذلك منظمة الوحدة الافريقية ، ومنظمة المؤتمر الإسلامى ، حيث تنص مواثيقها على ضرورة انعقاد مؤتمرات دورية لقمة الدول المنضمة إليها ! وأن مؤتمرات القمة العربية التى انعقدت حتى الآن ، سواء كانت جزئية أو شاملة لم ينعقد أى منها إلا بمبادرة خاصة من أحد الرؤساء أو بعضهم ، والتقت إرادة الآخرين ، بعضهم أو كلهم معها . وذكر أنه من أهم مؤتمرات القمة العربية التى انعقدت ، هو المؤتمر الذى دعا إليه الرئيس المصرى محمد حسنى مبارك ، منذ عدة سنوات ، ودعا فيه إلى إنشاء السوق العربية المشتركة ، التى أصبحت ضرورة ماسة فى عهد التكتلات الاقتصادية الكبرى فى العالم ، وأبدى الأمين العام أسفه لأن هذه السوق لم تنشأ حتى الآن ، رغم أنها أصبحت حاجة ملحة فى ظل الظروف الدولية الحالية .

ومما أبدى له الأمين العام أسفه

أيضا، أن أجهزة أخرى مقترحة للعمل العربي لم تنشأ حتى الآن منها محكمة العدل العربية ، التي تختص بالفصل في المنازعات التي قد تثور بين دولة عربية وأخرى، بدلا من اللجوء إلى الأجهزة الدولية .

وقد كنت أتمنى أن يتطرق حديث الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى ذكر جهاز آخر مقترح إنشاؤه للعمل العربي المشترك ، وهو البرلمان العربي ، الذي يضمن من ناحية المشاركة الديموقراطية للشعوب العربية في تقرير مصيرها من ناحية - وهو ما تمناه الأمين العام في حديثه كما تقدم القول - ومن ناحية أخرى من الممكن أن يحل قضية التصويت في قرارات الجامعة وضرورة صدورها بالأغلبية بدلا من الاجماع ! ولكن يبدو أن وقت الأمين العام في حديثه المذكور ، لم يتسع لذكر هذا الموضوع الهام ، أو أنه لم يكن على «أجندة» المذيع الذي أدار معه الحوار !

وعلى كل ، فلقد طرحت تصورات عدة عن البرلمان العربي المقترح ، منها مثلا أن يختار أعضاؤه من بين أعضاء المجالس النيابية القائمة حاليا ، في الدول العربية ، رغم التفاوت في المستوى التمثيلي لهذه المجالس لجماهير شعوبها ، وحدود سلطاتها ، التي تتفاوت بدورها ما بين كونها أجهزة تشريعية ورقابية فعالة ، أو للمشورة واستطلاع الآراء فحسب ! .

وفي ظني أن أفضل تصور للبرلمان العربي ، هو ما تم اقتراحه في أحد المؤتمرات التي عقدت في القاهرة للاحتفال بذكرى الوحدة المصرية السورية، وكان ذلك في مارس من عام ١٩٩٨ ، وهو أن يتم اختيار البرلمان العربي بالانتخاب المباشر من جماهير الأمة العربية ، بواقع نائب عن كل نصف مليون عربي ، على ألا يقل عدد النواب الممثلين لأي من الأقطار العربية عن ثلاثة ، ضمانا للتمثيل المعقول للدول العربية ذات الكثافة السكانية المحدودة .

ولعل آخر وظيفة يمكن أن تقوم بها جامعة الدول العربية في ظل أوضاعها وميثاقها الحاليين هو الإشراف على إجراء الانتخابات في كافة الأقطار العربية لاختيار أعضاء البرلمان العربي المقترح ، الذي لو تشكل فإن من طبيعة الأمور أن يصبح هو السلطة العليا في كافة أرجاء الأمة العربية فيما يختص بأوضاعها الشاملة ، بما في ذلك إقامة سوقها المشتركة ، بكل التفاصيل التي تنطوي عليها ، بما فيها انتقال العمالة ورءوس الأموال ، وهي ما كان بعضها موضحا لشاكل فادحة أو فاضحة إن صح التعبير!

كل عام - ونحن في انتظار عيدين أحدهما عيد الفطر المبارك ، وعيد الميلاد المجيد للأخوة الأقباط - بل كل قرن وكل ألفية .. والعرب والعروبة بخير ! .

السينما بعد خمسين عاما

بقلم الأستاذ أنور احمد

خمسون عاما ٠٠ !

انه لعمر طويل في حساب السينما ٠ فاذا عرفنا أن عمرها في مصر لا يجاوز ثلاثة وعشرين عاما ، أدركت أنها بعد خمسين عاما أخرى تكون قد سلخت أكثر من ضعف عمرها الحالي

ترى كيف يكون حالها في ذلك الوقت وقد نيفت على السبعين ؟ هل نستطيع أن نخترق حجب المستقبل لنستكشف من ورائها صورة لما ستكون عليه ؟

ان السينما قد خضعت خلال عمرها الماضي القصير لتطور سريع حتى وصلت الى ما هي عليه الآن ٠ والسينما مزيج من الصناعة والفن ٠ وقد كان تطور صناعتها سريعا شاملا يشبه الانقلاب ٠ فسمعنا الأفلام الناطقة ، ورأينا تجارب الأفلام المجسمة التي تحاول أن تتغلب على طبيعة الصورة العادية، فتجسم المرئيات. كما رأينا الأفلام الطبيعية الملونة ٠ وشمل التطور كذلك موضوعاتها وأهدافها ووسائلها الفنية

ولما كان المستقبل امتدادا للماضي والحاضر ، فلا شك أن هذا التطور سيستمر ويتصل ، وان كنا نعتقد انه لن يكون بنسبة ما حدث في الماضي، بعد أن تكونت للسينما مقوماتها ، ووصلت الى ماوصلت اليه من الاتقان والقدرة على التعبير عن الحياة ٠ ولا شك أن السينما المصرية ستتأثر بكل تطور وتغيير في صناعة السينما العالمية ، وستأخذ عنها ما تصل اليه من مخترعات، وتقبس ماتحققه من تحسين في الوسائل الآلية والفنية

▭

انى لأغمض عيني ، وأقفز بخاطري خمسين عاما الى الأمام ، ثم أفتحهما على عالم السينما في مصر فأرى عجبا من العجب !

ما هذه المنشآت الكثيرة المتشابهة التي تتناثر على جانبي الطريق المؤدي الى الاهرام ؟ انها استديوهات السينما قد تجمعت في هذه الناحية ، تحيط بها المنازل الأنيقة التي أنشأها الكواكب والنجوم ليقيموا بها بعيدا عن زحمة المدينة وضجيجها

هذه هي مدينة السينما ٠ هذه هي هوليوود الجديدة ، هوليوود الشرق !

تعال نتسلل الى أحد هذه



الاستديوهات لنرى ماذا يصنعون . انهم يخرجون فيلما تاريخيا ملونا وقعت حوادثه فى عهد محمد على الكبير . وهم لايقتصرون كما ترى على اخراجه ناطقا بالعربية ، بل يعدون منه نسخة بالانجليزية للتوزيع العالمى ، فلا يكاد المخرج ينتهى من تسجيل المشهد باللغة العربية حتى يسجله مرة أخرى بالانجليزية بوساطة الممثلين والممثلات أنفسهم . ولا عجب ، فأن هؤلاء الفنانين المصريين مثقفون ثقافة عالية ، ويجيدون التحدث بالفرنسية والانجليزية فى طلاقة تامة !

وهل ترى هذه الفتاة التى تقوم بالدور الاول فى الفيلم ؟ أتعرف من هى ؟ انها ابنة وزير سابق ، وقد عملت ممثلة بموافقة أبيها الباشا ...

وهل تعرف هذا الفتى الذى يمثل أمامها ؟ انه عضو فى البرلمان !

ان الافكار قد تغيرت وتطورت

←

سوف يستغنى عن دور السينما وشاشاتها ، بسحابة بيضاء تنفثها بعض الطائرات فى الفضاء ، ثم تلقى عليها مشاهد الفلم بوساطة أجهزة خاصة تثبت فوق أسطح العمائر

خلال خمسين عاما .. اننا فى سنة ٢٠٠٠

وحسبك الآن ما شاهدت فى الأستديو وتعال معى نهبط الى القاهرة

□

انظر .. ! ما أعظم ما تغير كل شىء فى العاصمة ! ولكننا نريد أن نقصر جولتنا على دور السينما، فلنبدأ بهذه الدار التى تتلألأ على واجهتها الأنوار الكهربائية معلنة عن فيلم مصرى جديد . ان هذه الدار الفخمة، ذات المقاعد الوثيرة، والهواء المكيف ، نموذج لكل الدور الأخرى ، فقد اختفت دور الدرجة الثانية والثالثة ، لأن جمهورها قد اختفى وانقرض

والآن هيا ندخل الدار لعلك تلاحظ أن الجمهور يدخل بنظام وهدوء ،وقد اختفت الأزياء الغريبة المتنافرة التى كنت تراها عند عرض فيلم مصرى . الكل هنا يرتدى الملابس الافرنجية ، ويجلس فى هدوء لا تعكره «قزقزة اللب» ، ولا تقطعه الصيحات المنكرة والضحكات المجلجلة .

لقد أطفئت الأنوار وبدأ العرض ..

هذا فيلم قصير ملون من أفلام الرسوم المتحركة، يقدم شخصيات مصرية وشرقية ومبتكرات محلية، وقد صنعته أيد مصرية !

وهذه جريدة سينمائية مصرية تقدم لنا اهم الأحداث التى وقعت فى جميع أنحاء العالم خلال الأسبوع . ان مندوبيها المصورين المنتشرين فى أقطار الأرض يوافونها بالأخبار المصورة عند وقوعها !

وهذا هو الفيلم الكبير فى نسخته العربية . انه كما ترى فيلم فرعونى يجلو لنا صفحات من تاريخ مصر القديم ، ولكننا لن نشهده حتى النهاية لأننا نريد أن نتم جولتنا فى الدور الأخرى

□

هل كان حلما ما رأينا ؟

كلا بلا مراء . فلا شك أننا كنا نرى بعين الخيال صورا لما ستكون عليه السينما فى مصر بعد خمسين عاما . سيكون عندنا ستديوهات قد استكملت كل الوسائل الفنية المستحدثة . وستختفى الى الأبد الأفلام التافهة التى لاحظ لها من الفن الرفيع ، وسيكون الانتاج

مقاعد للسينما تهتز بالجالسين عليها عند هبوب عاصفة أو حدوث زلزال فى سياق الفيلم



السينمائي نظيفا يستهدف الفن وحده . ففي ذلك الوقت سيكون ظل الأمية قد انحسر عن هذه البلاد ، وانتشر التعليم وارتفع مستوى الثقافة ، ووجد جيل جديد مثقف ، يفهم الآثار الفنية ويتذوقها ويميز بينها . وهكذا يتكون ذوق فني عام رشيد .
ومتى تكون هذا الذوق الفنى العام فقد حلت كل المشاكل التى نشكو منها الآن ، لأن هذا الجمهور المثقف الذواق لن يقبل الا على العمل الفني الرفيع . وبذلك تصدق الفكرة القائلة بأن المتفرج هو الذى يخلق الممثل ويوجه العمل الفنى

ومن المحقق أنه لن يكون لصناعة السينما في أي بلد أمل فى مستقبل زاهر اذا بقيت أفلامها محصورة داخل حدودها ، لأنها لا تستطيع بهذا العرض المحلى أن تغطى نفقات الأفلام الكبيرة ، أو تحقق الربح المنشود . ولهذا أعتقد أن أفلامنا سنة ٢٠٠٠ ستكون قد شقت طريقها الى التوزيع العالمى فى أوربا وأمريكا ، وسنرى الأفلام المصرية وقد صنعت منها نسخ بالانجليزية والفرنسية فى الوقت الذى تصنع فيه النسخة العربية . وبوساطة الفنانين المصريين الذين سيراعى فى اختيارهم اجادتهم التحدث بهذه اللغات الحية

وما دامت أفلامنا قد عرفت طريقها الى دور العرض فى أوربا وأمريكا ، فلا شك ان هوليوود التى ستبقى دائما عاصمة السينما فى العالم ، ستحاول اجتذاب بعضهم للعمل فى أفلامها ، كعادتها فى اجتذاب النابغين من جميع الأجناس ، وهكذا سنرى فى هوليوود ، وفى الأفلام الأمريكية ، ممثلين وممثلات مصريين ، يحتلون نفس المكانة التى تحتلها الآن « أنجريد برجمان » السويدية ، و « شارل بوابيه » الفرنسى

وليس فى هذا القول اغراق فى الخيال ، فان فى مصر نبوغا لو كشف عنه الحجاب ، لأتى بالعجب العجاب . ولكنه نبوغ ما يزال يحجبه العرف وتصرفه التقاليد عن الاشتغال بالتمثيل . ولكن العالم يجرى مسرعا نحو التحرر من هذه الأوهام ، وها نحن أولاء نرى ابنة المستر تشرشل تحترف التمثيل ، وابنة المستر ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية تشتغل مغنية تطرب الجمهور فى المسارح والأندية الليلية . وسنرى فى أفلامنا سنة ٢٠٠٠ من الفنانين أولاد الزعماء والوزراء من يفخر به أبوه ، ويتحدث العالم بنبوغه فى دنيا الفنون

اما موضوعات الأفلام وقصصها فانها ستتحرر من كل القيود التى تغلها فى هذه الأيام سنرى أفلاما عن الثورة العرابية ، وعن الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ ، وسنشاهد على الستار الفضى سيرة مصطفى كامل

وسعد زغلول وغيرهما من عظماء تاريخنـــا فى مصر والشرق . وسيتاح لنا أن نخـــرج أفلاما تجرى حوادثها فى الغـــابات والأحراش التى تغطى القســم الجنوبى من الدولة المصرية ، لأن السودان سيكون جزءا من دولة وادى النيل

هذه هى الخطـــوط الرئيسية للسينما فى مصر بعد خمســين عاما ، أما الصورة الكاملة لهـا فلن يتاح لنا أن نراها ، وانمـا يراها أولادنا وأحفادنا ومن قدر لهم أن يعيشوا فى سنة ٢٠٠٠

أنور أحمد

كلمات سنة ١٩٥٠

● سأكتب قصة سنة ٢٠٠٠ ستستمد حوادثها من صميم التقدم الذى تصل إليه البشرية فى تلك السنة ، فاذا لم تقع حرب فى خلال الأربعين سنة القادمة ، وأمكن للقوى المتصارعة فى العالم أن تسخر العلم فى خدمة البشرية بدلا من دمارها ..

توفيق الحكيم

● أرجو بعد أربعين سنة من التقدم العلمى والأدبى ، أن يكون شباب سنة ٢٠٠٠ فى غنى عن نصائح الشيوخ !

عباس العقاد

● يغلب على ظنى أن القصة التى أكتبها فى سنة ٢٠٠٠ تقع حوادثها فى القمر أو فى المريخ ، ولا أدرى الآن أى موضوع أختاره لها ، ولعله يكون حبا متأججا بين أحد سكان الأرض وإحدى ساكنات القمر أو المريخ .

فكرى أباظه

● سيقتحم التليفزيون البيوت فى جميع أقطار الشرق العربى ، وسيشتد الصراع بينه وبين السينما ، وهى الأم التى أنجبته ومن يدرى فقد يأتى اختراع جديد يجسم التعبير الانسانى علـى وجـه آخر .

زكى طليمات

● يناير ١٩٥٠ ●

استكشاف مستقبل السينما

مغامرة محفوفة بالأخطار

بقلم : مصطفى درويش



تحية كاريوكا فى شباب امرأة

تحركت الصورة ، لأول مرة ، على شاشة بيضاء ، وأمام حشد من الناس فى باريس ، والإنسانية على وشك أن تطوى صفحة القرن التاسع عشر، وتتطلع إلى القرن الأخير من الألفية الثانية ، ألا وهو القرن العشرون ، الذى ودعناه قبل ساعات .

وتحركها هذا حدث فى أثناء عام ١٩٨٥ ، وبالتحديد يوم العشرين من شهره الأخير.

والفضل فى حدوثه إنما يرجع إلى اختراع لأخوين من مدينة ليون ، هما أوجست ولوى لوميير.


تايتانيك

ولست هنا بصدد الكلام عن «عمال يغادرون مصنع لوميير»، فيلمهما الذى جرى عرضه أمام ذلك الحشد، المكون من مائتي مشاهد لا أكثر، ولا أقل .

فالكلام عنه يعدّ مضيعة للوقت ، فأحد لا ينازع فى أنه أول فيلم أبدعه خيال الإنسان ، وأحد لا ينكر أنه فيلم تسجيلي قصير، لا تزيد مدة عرضه على بضع ثوان.

ما أردت قوله بإشارتي إليه اشارة عابرة ، هو أنه لو بعد خمسة أعوام من عرضه الأول ، وبمناسبة حلول القرن العشرين ، طلب إلى أى واحد من ذلك الحشد المشاهد له ، ان يسيح سياحة قصيرة أو طويلة في القرن الجديد ، ليستكشف مستقبل الصورة المتحركة، أو السينما توجراف كما كانت تسمى في ذاك الزمان، بعد مائة عام أو خمسين عاما، بل قل حتى بعد عشرين عاما ، لو طلب إليه ذلك ، لما كان فى وسعه أن يشطح بخياله ، بحيث يتصور أفلاما روائية يطول عرضها ، بدلا من ثوان معدودات، إلى ثلاث ساعات ، وربما أكثر، مثل «مولد أمة» للمخرج الأمريكى «دافيد جريفيث» و«نابوليون» للمخرج الفرنسى «ابيل جانس» و«تايتانيك» للمخرج الكندى «جيمس كاميرون» .

ويتصور أفلاما تتكلم بكل لسان ، وأفلاما أخرى زاهية بالألوان .

مارد العلم

ويتصور نتائج اختراع الأخوين لوميير، وقد أخذت في التسلسل ، حتى وصلت إلى ما السينما فيه اليوم من أفلام، بعضها يتسلل عبر الفضاء إلى الشاشات الصغيرة فى بيوتنا ، وحتى غرف نومنا .

وبعضها الآخر يجرى عرضه على شاشات ضخمة فى دور سينما ، مجهزة بأحدث ابتكارات العلم الحديث.

هذا إلى أفلام تجرى تعبئتها على اسطوانات بحجم الكف ، ثم استرجاعها فى لمح البصر، على شاشة صغيرة أو كبيرة ، دون عناء.

وليس من شك فى أن مشاهدى العرض الأول ، بل ومشاهدو العروض التالية طوال الأعوام الخمسة الأخيرة والأولى من القرنين التاسع عشر والعشرين ، لهم العذر كل العذر إذا لم يكن فى وسعهم استكشاف مصير السينما ، حتى في مستقبل قريب .

فالسينما فى ذلك الزمان الموغل فى القدم كانت فنا وليدا، لايزال فى دور التكوين . والأهم أن ميلادها جاء مواكبا لقرن ملمحه الواحد المميز له عن كل ما سبقه من قرون ، هو اصراره على غزو الطبيعة.

وهو ضرب من الغزو اختلف به عن شهوات الغزو التى شهدها تاريخ الإنسان.

ويكفى أن أذكر هنا رحلات الغزو الكونى للفضاء، ووسائل المواصلات والاتصال ، وأجهزة الحاسبات الاليكترونية حيث يمكن تعبئتها بملايين الملايين من المعلومات ، ثم استرجاع ما هو مطلوب منها فى عشر معشار الثانية ، أو أقل كثيرا .

وليس أدل على صعوبة استكشاف مصير السينما ، حتى فى منتصف القرن العشرين ، أى بعد إذ تبين أنها لغة العصر ، وفن يعمل لتاثيره على عقول الناس ألف حساب ، ليس أدل على ذلك من مقال للأديب «أنور أحمد» جرى نشره فى عدد يناير لعام ١٩٥٠ من مجلة الهلال.

القفز إلى المجهول

ففى هذا المقال حاول مجتهدا أن يخترق حجب المستقبل ليستكشف من ورائها صورة لما ستكون عليه السينما ، خاصة المصرية ، بعد خمسين عاما .

فكان أن قفز بخاطره إلى أمام ، نصف قرن من عمر الزمان ، أى إلى يومنا هذا .

فماذا قال من خلال ما حققه من استكشاف؟

قال من بين ما يقال إنه يعتقد أن أفلامنا سنة ٢٠٠٠ ستكون قد شقت طريقها إلى التوزيع العالمى فى أوروبا وأمريكا .

وإننا سنرى الأفلام المصرية ، وقد صنعت منها نسخ بالانجليزية والفرنسية ، فى الوقت الذى تصنع فيه النسخة العربية، وبوساطة فنانين مصريين.

ومادامت أفلامنا قد عرفت طريقها إلى دور العرض فى أوروبا وأمريكا ، فلا شك أن هوليوود التى ستبقى دائما عاصمة السينما فى العالم، ستحاول اجتذاب بعضهم للعمل فى أفلامها ، كعادتها فى اجتذاب النابغين من جميع الأجناس .

وهكذا، سنرى فى هوليوود ، وفى الأفلام الأمريكية ممثلين وممثلات مصريين يحتلون نفس المكانة التى يحتلها الفرنسى «شارل بوايه» والسويدية «انجريد برجمان». وليس فى هذا القول اغراق فى الخيال، فان فى مصر نبوغا لو كشف عنه الحجاب، لأتى بالعجب العجاب.

أما موضوعات الأفلام وقصصها فإنها ستتحرر من كل القيود التى تغلها فى هذه الأيام .

سنرى أفلاما عن الثورة العرابية ، وعن الثورة الكبرى سنة ١٩١٩. وسنشاهد على الستار الفضى سيرة «مصطفى كامل» و«سعد زغلول»، وغيرهما من عظماء تاريخنا . وسيتاح لنا أن نخرج أفلاما تجرى حوادثها فى الغابات والأحراش التى تغطى القسم الجنوبى من الدولة المصرية ، لأن السودان سيكون جزءا من دولة وادى النيل.

القاعدة والاستثناء

والأمر الأكيد أنه باستثناء «عمر الشريف» الذى أصبح نجما عالميا ، شأنه فى ذلك شأن فئة قليلة من الممثلين غير الأمريكيين .

وباستثناء خروج فيلم عن «مصطفى كامل» ، تقمص فيه شخصية الزعيم المصرى صاحب المقال ، خروجه إلى النور، عقب ثورة الضباط الأحرار.

وباستثناء صمود هوليوود لعاديات الزمان ، باستمرارها عاصمة للسينما العالمية ، مهيمنة على مصيرها حتى هذه الساعة . فنبوءات صاحب المقال لم يتحقق منها شيء.

فأفلامنا لم تشق طريقها إلى دور العرض في أوروبا وأمريكا . وممثلة مصرية واحدة لم يكتب لها الصعود إلى مصاف النجوم في سماء هوليوود . ولعل فشل النجمة الراحلة «تحية كاريوكا» في هذا المجال، رغم مواهبها ومحاولاتها ، لعله خير مثال . وعظماء تاريخنا الطويل لم يرد معظمهم على بال سينمائيينا . وما فشل محاولة المخرج الراحل «شادى عبدالسلام» ترجمة سيناريو «اخناتون» الفرعون الملعون إلى لغة السينما، ببعيد عن الأذهان.

وفيلم مصري واحد لم يصور في أحراش وغابات السودان ، اللهم إذا استثنينا «ينابيع الشمس»، ذلك الفيلم التسجيلي الطويل ، الذي أبدعه المخرج النيوزيلندي «جون فيني» ، المقيم في ربوع مصر، منذ أربعين عاما إلا قليلا ، وصور فيه النيل بدءا من منابعه في جبال القمر ، حتى مصبه في البحر .

لكل سؤال جواب

والسؤال لماذا خابت توقعات صاحب المقال؟.

وهذا السؤال أجد له الجواب في ثلاثة أسباب .

أولها التأميمات الكبرى في أثناء عقد الستينات، تلك التأميمات التي جعلت من القطاع العام وصيا على صناعة السينما المصرية، يكاد يفعل بها ما يهوى ويشاء على نحو أضر بها ضررا جسيما .

وثانيها انحسار عدد دور السينما ، تحت تأثير كل من التأميمات والتليفزيون الذي ولد عملاقا، يبث ارساله مجانا،



عمر الشريف في الدكتور زيفاجو

منافسا بهذه الطريقة غير المشروعة وغير المتكافئة، عرض الأفلام في دور السينما .

وثالثها استمرار الرقابة ، بموانعها الثلاثة : السياسة ، الدين ، الجنس، راسخة رسوخ الجبال.

وختاما ، فإذا كان قد تعذر على صاحب المقال استكشاف صورة ما ستكون عليه السينما ، عندنا بعد خمسين عاما، كما سلف البيان.

وإذا كان قد جاء على لسان الساحر «بيل جيتس» ، وهو من هو في دنيا البرمجيات «أننا لا نستطيع أن نتحدث عن نمط الحياة الفعلية عبر الانترنت، قبل مضي عامين . فكيف لي أن أقدم على مغامرة السياحة في مستقبل مجهول ، سعيا إلى معرفة ما ستكون عليه السينما، لا بعد عامين ، وإنما بعد خمسين عاما، وربما بعد مائة عام ؟

ولماذا المغامرة ، وليس ما يكرهني ، أو من يكرهني ؟!!

الطريق إلى المستقبل

للرئيس جمال عبد الناصر

« ان نجاح هذا الجيل قد فتح الطريق الى المستقبل. وحتى نفتح الطريق الى المستقبل لا بد ان نكون من انفسنا الجسر الذى يربط بين الماضى البغيض وبين المستقبل المشرق .. »

ان هـذا الجيل ـ جيلنا الحاضر ـ تحمـل عبء القيام بثورتين فى وقت واحد : ثورة سياسية ، وثورة اجتماعية . ولقـد حاول آباؤنا أن يقوموا بالدور الذى قمنا به الآن ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتصروا فى المعارك التى حاربوا فيها . وهذا لا يمنع انهم حاربوا فى جميع المعارك من أجل تحقيق الثورة السياسية والثورة الاجتماعية

حاربوا على مر السنين ، وفى عشرات السنين فى كل مكان . ولكن لم يتح لهم النصر ، بل مهدوا لنا طريق النصر لننتصر حاربوا فى هـذه المعارك ، لم يضنوا فيها بالشهداء ، وتحملوا فيها الآلام !

ولقد أخذنا منهم العلم .. علم الكفاح من أجل تحقيق الثورة السياسية ، والثورة الاجتماعية ، وكافحنا فى الطريق الذى كافحوا فيه ولم يستطيعوا أن ينتصروا . ولكننا بعون الله استطعنا أن ننتصر ، وأن نرى معالم المجتمع الجديد ، وأن نرى معالم نجاح الثورة السياسية والثورة الاجتماعية

استطعنا أن ننتصر ، وأن نرى معالم المجتمع الجديد ، ومعالم المستقبل الجديد . وهذا العبء عبء كبير . عبء شاق

ان نجاح هذا الجيل قد فتح الطريق الى المستقبل . وحتى نفتح الطريق الى المستقبل لابد أن نكون من أنفسنا الجسر الذى يربط بين الماضى البغيض وبين المستقبل المشرق ، الذى نتصور فيه المجتمع العربى الذى نتمناه ، والذى نعمل من أجله .. المجتمع الذى تتخلص فيه أوطاننا العربية من الاستبداد السياسى ، ومن الظلم الاجتماعى .. المجتمع العربى الذى يتخلص من السيطرة المستبدة التى أتت الينا من الخارج ، والسيطرة المستغلة التى تكونت فى بلادنا من الداخل

استطعنا أن ننتصر بعون الله وأن نرى الفرصة تمكننا من وضع دعائم هذا المجتمع . ولهذا قبلنا حينما رفعنا هذا العلم - علم الجهاد ، علم الكفاح - أن نكون جسرا بين عالمين : العالم الذى كان يتفشى فيه الاقطاع والاستبداد والاستغلال والفساد السياسى ، وبين العالم الجديد الذى يتمثل فيه هدفنا الاكبر ، وهو اقامة مجتمع ترفرف عليه الرفاهية . وقبلنا أن نكون القنطرة التى تعبر عليها الاجيال القادمة فى أوطاننا .. تعبر عليها فى زحفها الى عالم أفضل من العالم الذى وجدناه . ونحن نعمل ونكافح ونسعى حتى نحقق للاجيال التى تأتى بعدنا عالما أفضل بدل العالم الذى نشأنا فيه ، والذى قاسينا منه ، والذى شكونا مر الشكوى من مآسيه

وفى نظرة سطحية سريعة قد يظهر أن جيلنا محمل بأعباء أكثر مما يطيق ، ولكن اذا نظرنا نظرة عميقة ، رأينا وشعرنا بأننا فعلا على موعد مع القدر . فتاريخ هذا الجيل يقاس بما يستطيع أن يسجل فى حياته من جهود وأعمال ، وستطلع الاجيال القادمة الى ما نعمله اليوم بفخر ، وسترى أن جيلنا كان نقطة التحول الكبرى فى تاريخنا العربى

ولا أقول ذلك لاستثير العزة ، أو لاستثير فى هذا الجيل الشعور بالفخر ، ولكنى أقوله ، لانى مازلت أطلب عملا أكثر ، وجهدا أكثر

وتصحيحا أكثر وعزيمــة أكثر ... وبذلك نستطيع أن نبنى المجتمع الجديد ، المجتمع الاشتراكى الديمقراطى

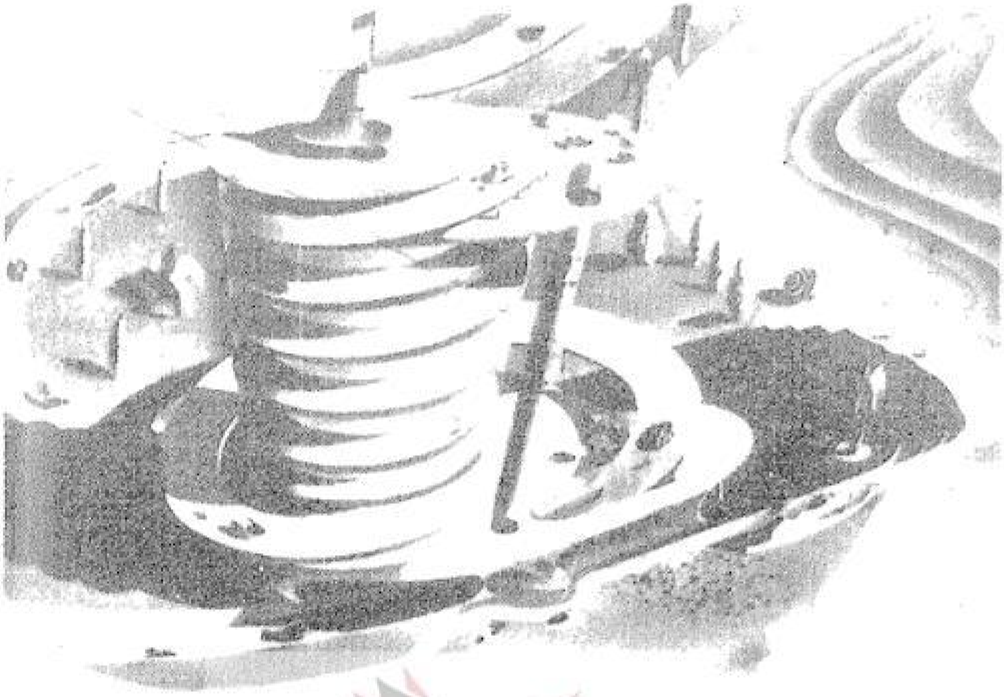
وليس بناء هذا المجتمع بالمهمة السهلة ، ولكنه مهمة صعبة . لاننا لانبنى المجتمع الجديد فقط ، وانما نحن نضع تصميم هذا المجتمع لانفسنا ، قبل أن نبنيه ، فان ظروفنا تختلف عن ظروف غيرنا . ولا ينبغى لنا أن ننقل تجربة مجتمع آخر، لان كل مجتمع يضع النظام الذى يلائمه . ولكن ذلك لا يمنع أن ندرس تجارب الآخرين حتى نستطيع أن نستفيد منها.!

ولهذا نحن حينما نقول اننا نبنى هــذا المجتمع الجديد ، فلا نعنى أننا نبنى فقط ، وانما نصــمم . وهــذا التصميم يتطور ويتشكل مع تطور المجتمع ومع حاجات المجتمع ، ومع طبيعة المجتمع ... هــذا التصميم تصميم مستمر ، والعمل فيه مستمر !.

◻

ولقد استطعنا فى هذه الفترة القصيرة أن نحقق فى البناء خطوات طيبة ، ولكننى أقول ان الطريق أمامنا لا ينتهى ، لان حاجات المجتمع ليست لها نهاية . ولاننا اذا حققنا بعض المطلوب فان أمامنا باستمرار مطالب جديدة

فى هذه السنوات الاخيرة رغم المعارك السياسية والمعارك الاجتماعية ، والمعارك الفكرية استطعنا فى ناحية البناء أو بالاحرى فى ناحيــة زيادة الانتاج أن نحقق نتائج نستطيع أن نشعر انها نتيجة عمل كل فرد منا .. استطعنا أن نحقق نتائج مثالية ، أو نتائج طيبة فى ميدان الصناعه ، والتنميه الصناعية والتنمية الاقتصاديه وفى ميدان الزراعة ، وفى جميع الميادين التى تتمثل فيها حاجات المجتمع .. وهذا معناه أننا نعمل ، وأننا قدرنا الى حد كبير أن نحدد الطريق الى مجتمع ترفرف عليه الرفاهية، والى مستقبل أفضل



قاهرة سنة ٢٠٠٠

بقلم الدكتور سيد كريم
الأستاذ بكلية الهندسة بجامعة فؤاد الأول

المدينة مرآة تنعكس عليها صورة الشعب الذى يعيش فيها، وتتكون تلك الصورة من مجموعة من الخطوط المتوازية التي لا ينحرف واحد منها عن بقية المتوازيات ، وتعبر مجتمعة عن ثقافة الشعب ومدنيته

فالقاهرة سنة ٢٠٠٠ هى انعكاس عوامل التطور مجتمعة على وجه المرآة، ونصف قرن وان كان يعد لا شيء فى تطور المدن وتخطيطها في الماضى ، الا انه قد أصبح مرحلة ليست بالقصيرة في تاريخ التطور العلمى والآلى الحديث ، مرحلة كافية لتخطيط عاصمة باكملها بجميع مرافقها وفق برنامج ثابت تسير بقوة دفعه مئات السنين

ان التطور العلمى والنهضة الصناعية٠٠ قد جعلت من الخيال حقيقة سهلة التحقيق ، فما كان يتنبأ به كتاب الماضى ليتحقق بعد

عدة أجيال ، أصبح يتحقق في اقل من ربع قرن ٠ فالعربة التي اكتشفت كوسيلة للنقل من آلاف السنين بقيت كما هي لم تتغير ولم تتحسن تحسنا ملحوظا ولم يتغير فيها سوى طرازها أو شكلها وزخرفها ، ولكنها عندما واجهت العصر الآلي انتقلت خلال نصف قرن من عربة تجرها الجياد الى العربة البخارية ، الى السيارة الآلية التي تدار بالبنزين والقوى الكهربائية ، الى الطيارة ذات المحركات ، الى الطائرات النفاثة، الى الصواريخ ٠ أي أن سرعتها انتقلت خلال أربعة آلاف سنة من عشرة كيلومترات في الساعة الى ثلاثين،وفي خمسين سنة من ثلاثين الى ما يقرب من الألف،فأصبحت تقطع في العام الواحد من التقدم ما قطعته في الماضي في قرن كامل

وما يقال عن وسائل النقل ، يقال عن بعية النواحي الأخرى التي تسير معها جنبا الى جنب ٠٠

واذا ألقينا نظرة على حدود القاهرة الحالية وحدودها منذ نصف قرن نجد أنها قد زادت ما لا يقل عن أربعة أمثالها ٠ ووسائل النقل بأنواعها قد زادت خلال عشر سنوات فقط أضعاف عددها ٠٠ ان علاقة التطور الاجتماعي نفسه بالتطور العمراني ظاهرحدا في التحول نحوالعمارات السكنية الكبيرة والأنواع المختلفة من المرافق العامة ودور اللهو وغير ذلك مما نشأ مع التحول الاجتماعي ، كما أن علاقة طراز المجتمع في جميع متوازياته وتناقضها كما هو الحال في الأزياء والموسيقى والعادات والمواصلات انعكست صورتها واضحة جلية على طراز العمارة بالمدينة نفسها

قاهرة المستقبل

فالقاهرة سنة ٢٠٠٠ صورة مجسمة لطابع المدنية ومدى تأثر ثقافة الأمة بالنهضة العالمية والتطور الاقتصادي والصناعي والآلي الحديث ـ هي صورة جية لحياة الشعب ومكانته من قافلة التطور الحديث٠ ولهذا ستختلف اختلافا تاما عن قاهرة اليوم ،بل ستختفي كثير من معالم قاهرة اليوم لتساهم في تخطيط قاهرة الغد ، ولا تقف عقبة في سبيل ظهورها الى حيز الوجود

حدود القاهرة : ستزحف حدود القاهرة الشمالية لتعمير ترعة الاسماعيلية ، وتمتد الى المناطق الزراعية التي على جانبي طريق قليوب الذي سيتحول بدوره الى شارع كبير تحت الأرض « اوتوستراد » يصل القاهرة بالاسكندرية ، وتمتد مخترقة عدة ضواح صغيرة حتى يكون مدخل القاهرة الفعلي عند مدينة قليوب٠ وسيتفرع منه شارعان كبيران عند ميدان مدخل المدينة ليسير أحدهما محاذيا للنيل على شكل كورنيش،يبدأ بالقرب من قليوب ويمتد محاذيا لشاطىء النيل مخترقا القاهرة كلها حتى حدها الجنوبي



يعتقد الخبراء أنه لن تمضى خمسون عاماً حتى يشيع استعمال هذه النماذج من « الأوتوبيسات » التى تسير براً وبحراً ↓

↑ المترو المعلق .. وسيلة أخرى من وسائل المواصلات السريعة فى عام ٢٠٠٠

عند المعـادى ، التى ستصبح بدورها جزءا من القاهرة . ويمتد الشارع الآخر متجها الى الشرق، فيخترق القاهرة متجها الى القلعة وجبل المقطم و « الاوتوستراد » الصحراوى الموصل الى الجانب الشرقى من حى المقطم وحى المعادى ويمتد الى حلوان ومنها الى الطريق الرئيسى الموصل للوجه القبلى

كما سيمتد الحد الشرقى لتندمج ضاحية هليوبوليس فى القاهرة نفسها ، ويمتد الحد الشرقى ليعبر النيل ويصل الى ما بعد اهرام الجيزة التى ستدخل ضمن حدود القاهرة نفسها . وسيكون للقاهرة « كورنيش » كبير يمتد من مدخلها شمال منطقة امبابة الحالية ويسير بمحاذاة النيل . حتى يصل الى نهاية امتداد المدينة على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة المعادى ، حيث يتقابل الكورنيش فى ميـادين يربطهما كوبرى كبير يعبر النيل

وتبعا لتلك الحدود الجديدة ستظهر مجموعة كبيرة من الأحياء الجديدة التى ستترسم شكل القاهرة وتخطيطها — بعضها سيحل محل أحياء قديمة معروفة ستزال ضمن برنامج التطهير الذى سيبدأ فى الربع الأول من القرن الحالى لتقوم أحياء أخرى مكانها بوساطة عملية من عمليات التجميل الواسع المدى

الأحياء الجديدة

١ — حى المقطم : سيكون من الأحياء ذات الطابع الخاص الذى تنحدر طرقاته من أعلى الجبل الى شاطىء النيل وسيغطى جزء منه

بالحدائق الكبيرة ويعلوه فندق وكازينو يعد الأول من نوعه فى الشرق له مطار خاص ، ويصله بمنطقة الاهرام قطار يمر فى سماء القاهرة ويحوى الحى مجموعة من العمارات الحدائقية لكل منها مجموعة من الفيلات المجتمعة فى مبنى واحد لكل منها حديقتها المعلقة ، ولكل عمارة سوق صغيرة لتموينها بما تحتاج اليه من الضروريات وستنقل المياه من النيل بوساطة مضخات الى بحيرة كبيرة فى أعلا الجبل لتنحدر ثانيا بوساطة مجموعة من الشلالات خلال الحدائق لريها مع الاستفادة من القوى المستغلة منها لادارة قاطرات الانتقال التى تمر خلال أنفاق تحت المبانى لتنقل السكان من عمارة الى أخرى ومن أسفل الوادى الى أعلاه

٢ ـ حى زينهم : سيتشابه فى شكله مع حى المقطم الا انه أقل منه انخفاضا وسيكون له طابع خاص من حيث تخطيطه وسيحوى الجزء الأكبر من الملاعب الرياضية واستاد القاهرة الرياضى للأحياء الوطنية الجديدة حتى يتحول جزء منه الى مدينة رياضية صغيرة يقضى فيها كثير من السكان اجازاتهم

٣ ـ حى الاهرام : سيكون مرتفعا ومواجها لحى المقطم على الشاطىء الغربى وتربطهما شبكة من المواصلات الخاصة كالقاطرات المعلقة والانتقال بوساطة السيارات الصاروخية فى بضع ثوان ٠ ولا تقل مساحة الحى عن حى المقطم وسيحوى مجموعة من الحدائق الكبيرة والميادين تتوسطها الاهرام نفسها وتحيط بها العمارات العالية التى سيعلو بعضها عن الاهرام نفسها ، وستنحدر العمارات على شكل مدرج يكسر انحدار الجبل نفسه حتى تنتهى عند الوادى الأخضر ٠ وسيكون فى نهاية الحى الغربى ميدان كبير تتقابل عنده مجموعة خطوط كبيرة لا يقل عرض أحدها عن الخمسين مترا يكون فى مقابلها أحد مداخل القاهرة الجميلة ويحوى ميدان التقابل الكبير احدى محطات القاهرة الرئيسية التى تتقابل عندها خطوط الاتصال الخارجى سواء من الاسكندرية أو السلوم أو الفيوم والوجه القبلى لينتقل المسافرون منها الى داخل القاهرة وضواحيها تحت سطح الأرض أو بوساطة طائرات الهليكوبتر النفاثة التى تنقل المسافرين الى أسطح العمارات أو محطات الأحياء المعلقة فوق أسطح بعض العمارات الكبيرة

٤ ـ حى الجامعة : ويقع خلف مبانى جامعة فؤاد الأول الحالية ويمتد غربا ليقابل حى الاهرام بالقرب من موضع مينا هاوس الحالى ، وسيكون على شكل مدينة مستقلة بمبانيها ودورها العلمية وملاعبها ومساكن الطلبة والطالبات والمدرسين وتتوسط المدينة دار «الجامعة العالمية» التى يتلقى فيها الطلبة العلم وسماع محاضرات جميع الأساتذة العالميين

من جميع أنحاء العالم بوساطة مسرح كبير للتليفزيون بكل قاعة من قاعات المحاضرات ، فيرى الطلبة الأساتذة أو علماء كل فرع من الفروع ، ويستمعون الى محاضراتهم وشرحهم كأن الأستاذ يحاضرهم شخصيا .. وبطبيعة الحال ستختفي طرق التدريس والمحاضرات الحالية وسيكون لمباني تلك الجامعة الجديدة طابع علمي وآلي جديد ، ويعد ما تبقى من مباني الجامعة الحالية من الوحدات الأثرية - وسيعلو الجامعة برج مكتبتها التي تحوي ملايين المؤلفات والأفلام السينمائية أو الشرائط المختلفة الأشكال ، والتي ستكون ضمن مؤلفات المكتبة (المؤلفات الناطقة والمتحركة)

٥ - حي بولاق : سيكون من أكبر أحياء القاهرة التجارية ويشمل تخطيطه امتداد الكورنيش الكبير الموازي للشاطئ الشرقي ، ويمتد من منطقة ثكنات قصر النيل الحالية الى بولاق ، وينتهي عند ترعة الاسماعيلية أو بالقرب من مدخل القاهرة وستظهر به مجموعة من ناطحات السحاب المطلة على كورنيش النيل ، وستخترقه عدة شوارع تجارية كبيرة تمتد لتمر فوق الكورنيش الغربي وسينشأ ذلك الحي بأكمله وفق برنامج انشائي من برامج التعمير والتطهير وذلك بازالة أحياء بولاق والترجمان والسبتية الى ترعة الاسماعيلية واعادة تخطيطها تخطيطا شاملا بما في ذلك الشوارع المختلفة المناسيب والطرقات والميادين الظاهرة والمختفية تحت الأرض وشبكة المواصلات بمختلف وسائلها

٦ - حي القبة البحري: سيكون من أكبر أحياء المباني ذات الحدائق ويغطي المثلث الواقع بين حي شبرا وحي سراي القبة والمطرية ممتدا الى ترعة الاسماعيلية . وسيكون به أحد مداخل القاهرة الرئيسية من الاوتوستراد التي تصل القاهرة بالاسماعيلية وبور سعيد وسيشق المنطقة بوليفار كبير يخترقها متصلا بميدان المحطة الحالي، وسيكون في مقدمة ما يلفت النظر في القاهرة تلك الغابة التي تحيط بها كالاطار من جميع نواحيها ، فتنقي الرياح التي تهب عليها في فصول السنة المختلفة مما تحمله من الأتربة والرمال الصحراوية كما ستمتد الى مسافات بعيدة من الناحية الغربية خلف الاهرام حيث سيحول جزء كبير منها الى حدائق لتزويد القاهرة بالفاكهة ، وستروى بمشروع كبير من الآبار الارتوازية وستحوي مجموعة من البحيرات الصناعية وحمامات السباحة والمتنزهات العامة

وسائل النقل

تلعب وسائل النقل وطرق المواصلات الدور الحيوي الأول في تكوين الشكل الظاهري للمدينة . فهي بمثابة الشرايين والأوردة للحركة والحياة . فاذا القينا نظرة



عمائر المستقبل

كل مبنى فيها حى بأكمله .. به مدرسة ومستشفى وسوق وجراج ونادى وملاهى

سريعة على تقدم وسائل النقل وتطورها أو انقلابها فى القرن الأخير امكننا تكوين فكرة عما ستصل اليه القاهرة بعد نصف قرن وأثرها فى تخطيط المدينة نفسها . ويمكن تقسيمها الى اربع مجموعات أساسية تسيطر كل منها على جزء من هيكل المدينة وهى :

١ ـ الحركة الأرضية : ستدب الحياة تحت أرض القاهرة فتمتد أسفلها شبكة كبيرة من خطوط المواصلات تتألف من أنابيب خرسانية تمر بها قاطرات سريعة تنتقل بقوة الامتصاص بحيث تنزلق فى ثوان من أحد أطراف المدينة الى الطرف الآخر ، وستمتاز تلك الطريقة عن المترو المعروف فى العواصم الأوربية الكبيرة حاليا بسرعتها الخيالية التى تسبق سرعة الصوت كما انه ليس لها صوت وستتقابل القاطرات فى محطات وميادين كبيرة تحت ميادين المدينة الحالية ، وسيضم كل ميدان منها سوقا كبيرة للمشتريات ويحيط بمعظمها جراجات كبيرة تنخفض بمنسوب دورين أو أكثر تحت الأرض لأنواع السيارات التى تسير فوق سطح الأرض

٢ ـ الحركة السطحية: ستحوى وسائل النقل الخاصة فقط ، وهى نماذج جديدة من السيارات التى تدار بالقوى الذرية أو اللاسلكية بغير وقود حيث تختفى قوى الاحتراق المعروفة من بنزين

وميازوت وغيرها من ادارة وسائل النقل الحديثة لارتفاع أصوات محركاتها وأثرها في تلويث الهواء، وستكون تلك الحركة السطحية من شبكتين من الطرقات ذات الاتجاه الواحد تمر كل منها فوق الأخرى عند تقابلها ، وسيكون للعمارات السكنية طابقان أرضيان أحدهما على شكل شوارع معلقة بمنسوب الدور الأول ،وثانيهما شوارع عادية بالدور الأرضي

٣ ـ **الحركة الهوائية :** ستكون أهم ما يميز مدن سنة ٢٠٠٠ بصفة عامة من مدن العصور الماضية . فبوساطتها ستدب الحركة والحياة في سماء المدينة بحيث ينقسم جوها العلوي الى ممرات محدودة ذات حركة ثابتة للمرور كالطرقات تماما،وستختلف عن الشوارع المعروفة واتجاهاتها بأن تحديدها سيكون بوساطة خرائط وأجهزة داخل الطائرات والسيارات الطائرة بأنواعها

وستكون مراكز انتقالها وهبوطها فوق أسطح العمارات الكبيرة أو في مطارات معلقة بين العمارات أو فوق أسطح الميادين المسقوفة والساحات المعلقة فوق الحدائق العامة

ويمكن تقسيم وسائلها في سماء القاهرة الى الأنواع الآتية:

ا ـ السيارات الطائرة التي ستكون جراجاتها فوق أسطح العمارات والفيلات لتنقل الركاب الى ميادين القاهرة الداخلية وتنقل منها خلال الطرقات السطحية والمعلقة في المناطق التي يحتاج الراكب الى العمل بها ثم تعود طائرة الى اماكنها

ب ـ المواصلات الطائرة،وهي أنواع من الاتوبيسات الطائرة التي تنقل السكان بين أحياء المدينة وهي تتالف من قاطرات تجرها طائرة للنقل بين أطراف المدينة الخارجية

جـ ـ الانتقال الصاروخي ، بوساطة العربات الصاروخية التي تقذف براكبيها من الأحياء المرتفعة الى أطراف المدينة كالانتقال من حي المقطم الى حي الاهرام في ثوان ، أو من مصر الجديدة الى حي المعادي . وستكون من الوسائل العادية للتسلية والنزهة خصوصا للانتقال من أحياء المساكن الى الغابة الخارجية ثم العودة ثانيا في عدة ثوان

د ـ القاطرات المعلقة ، وستستعمل وسيلة من وسائل النقل والنزهة في نفس الوقت للانتقال بين قمة جبل المقطم وحي الاهرام معلقة في سماء القاهرة فوق النيل.

٤ ـ **الحركة المائية :** ستدب الحياة بدورها أيضا فوق سطح النيل الذي سينشأ عليه ميناء بحرى كبير للاتصال بجميع عواصم المديريات ومدن القطر التي يقع معظمها على شاطىء النيل بوساطة شبكة كبيرة من الطائرات المائية ، والقاطرات التي تسير على سطح الماء بقوى الدفع

الهوائى والقوى النفاثة، وتجر كل قاطرة عددا كبيرا من العربات العائمة تترك واحدة بركابها فى كل ميناء من موانىء الطريق . وستكون فى نفس الوقت محطة بحرية رئيسية للقاطرات الطائرة التى تأتى يوميا من جميع انحاء القطر

وستنظم حركة المرور فوق سطح الماء بين كل من شبكة الحركة الطائرة والقاطرات العائمة والأنواع المختلفة من السيارات العائمة السريعة الحركة التى ستنتقل بين شاطىء النيل على طول المدينة

ميادين القاهرة الجديدة

سيكون فى مقدمة ميادين القاهرة الرئيسية التى تلفت نظر الزائر «ميدان قلب القاهرة» حيث تصب فيه جميع الشوارع والبوليفارات الرئيسية ، ويقوم مكان ميدان الأوبرا الحالى ويمتد ليحتل حديقة الأزبكية وميدان محمد على الكبير ، وسيتكون من طابقين الأسفل منهما تلتقى عنده خطوط القاطرات الأرضية وبعض الشوارع السفلية الموصلة الى الميادين الرئيسية بالأحياء المختلفة وسيحوى أسفل الميدان ميدانا تجاريا كبيرا به مجموعة من المحلات التجارية والمسارح والمطاعم ، والميدان العلوى تلتقى عنده الشوارع الرئيسية التى ستخترق القاهرة . وسيعلو الجزء المتوسط من الميدان ميدان آخر معلق لهبوط الطائرات الداخلية والسيارات الطائرة ومحطة المواصلات الداخلية الطائرة . وستتصل تلك الميادين الثلاث ببعضها بمجموعة من الشوارع الحلزونية والمنحدرات والسلالم المتحركة والمتصاعدة المختلفة الأنواع . ويلى ذلك الميدان فى الأهمية ميدان آخر مماثل يمتد من ميدان الاسماعيلية الى شارع الملكة نازلى كما سيقطعه بوليفار كبير يمتد من سراى عابدين بعرض لا يقل عن مائة متر ، ويمتد عابرا النيل والجزيرة الى أن يقابل شارع الخديو اسماعيل الجديد بالدقى ويمتد الى أن يصل الى حى الاهرام الجديد مارا بحى الجامعة وسيكون من أهم شوارع القاهرة التجارية وتقع على جانبه مجموعة من ناطحات السحاب

وسيكون من بين الميادين الكبيرة التى سيكون لها طابع خاص ميدان واسع يمتد من كورنيش قصر العينى عند عقود سواقى القلعة التى ستظهر بدورها فى وسط حديقة الحيوان . وسيكون عرضه ما لا يقل عن ثمانين مترا ليعبر النيل الصغير وجزيرة منيل الروضة والنيل الكبير حتى يصل الى الجامعة وسيعبر النيل الكبير بوساطة كوبريين بينهما مجموعة من الحدائق المعلقة والكازينوهات

أما جزيرة منيل الروضة والتى تعد من أجمل جزر العالم فسينالها جزء كبير من مشرط التطهير حيث تزال جميع مبانيها وخرائبها الجديدة ليعاد تخطيطها ، بحيث

تصبح من أجمل أحياء القاهرة الجديدة

المباني الجديدة

أما أشهر مباني القاهرة سنة ٢٠٠٠ والتي ستلعب دورا هاما في برنامج التخطيط وطابع المدينة وعماراتها فهي :

١ ـ **دار البلدية الجديدة**: وتقوم على الكورنيش الكبير في منطقة ثكنات قصر النيل الحالية

٢ ـ **دار الادارة الوزارية**: وهي ناطحة سحاب واحدة كبيرة على الجانب الغربي من النيل أمام البلدية تتألف من خلية ادارية كبيرة تجمع جميع الوزارات ومجلس الوزراء والمصالح الادارية المختلفة . وستختفي من قاهرة الغد مباني الوزارات الأثرية العتيقة الموزعة في كثير من الأحياء

٣ ـ **المسارح الكبيرة** : ستحوى القاهرة عدة مسارح مختلفة منها دار الأوبرا الكبيرة وموقعها في حديقة الأندلس . وهي عمارة كبيرة بها مسرح يتسع لما لا يقل عن خمسة آلاف شخص . وبها مسرح للعرض المجسم لرؤية ما يعرض على المسارح العالميه الأخرى بغير حاجة الى استدعاء الفرق الى مصر . ثم مسرح صيفي كبير لمدرج مكشوف يقوم بين الحدائق على منحدر جبل المقطم ويشرف على النيل . كذلك مجموعة كبيرة من المسارح الشعبية في كل حي من الأحياء على اختلاف أنواعها

٤ ـ **دار الجامعة العالمية** : بمدرجاتها وبرج مكتبتها الذي يرتفع عاليا في سماء القاهرة وقد سبق شرحها

٥ ـ **أسواق القاهرة** : وستختلف عن أسواق العصر الحديث بأن كلا منها سيكون عمارة عالية متعددة الطبقات لتوزيع السلع أو الخضروات والفاكهة واللحوم على المساكن أو المطاعم مباشرة . وسيكون التوزيع لأية سلعة بطريقة محفوظة ومعقمة ولا يحتاج السكان للانتقال الى الاسواق لاختيار حاجتهم

٦ ـ **محطة الانتقال الفلكي** : (الميناء الجوى الفلكي) : ستنشأ على شكل ضاحية كبيرة ملحقة بالقاهرة تتوسطها محطة صاروخية عالمية كبيرة للانتقال الى الكواكب المختلفة حيث سينقل مركز تلك المحطة العالمية الى القاهرة لمركزها المتوسط بين جميع الدول وملاءمة جوها على مدار السنة . وفيها ستلتقي جميع المواصلات العالمية كمحطة أولى للانتقال منها الى الكواكب

٧ ـ **مسرح التلفزيون ومحطة الاذاعة** : سيكون على شكل برج كبير يتوسط القاهرة ويرتكز بقواعده على شاطىء النيل على شكل قنطرة ويعلوه مسرح كبير للعرض والاذاعة يسع ما لا يقل عن ٤٠٠٠ متفرج ويرتفع بأبراجه ومبانيه المعلقة في سماء القاهرة مرتفعا عن جميع ناطحات

سحابها وستنشأ في طرفه العلوى محطة المرور الجوى

٨ ـ **متحف الحضارة** : سيكون من أفخم مباني القاهرة يتألف من عمارة بأكملها داخلها شارع كبير منحدر، ينتقل خلالها الزائر من طابق الى طابق على شكل معرض كامل يبدأ بتاريخ الحضارة المصرية من قبل التاريخ الى سنة ٢٠٠٠ ، وستجمع به جميع الآثار المصرية الموزعة على المتاحف المختلفة ومخازنها

اضاءة القاهرة

ستختفى من شوارع القاهرة تلك المجموعات المتراصة من أنواع المصابيح التي ترجع الى كل عصر وعهد ، ستختفى جميعها حتى الكهربائية منها باختفاء الكهرباء نفسها لتحل محلها طريقة جديدة لاضاءة المدينة بأكملها من مصدر واحد، مركز في سمائها ينشأ من تقابل أشعة شبكة كاملة من الكشافات العاكسة التي تتقابل اضواؤها فتكون ذلك المصدر المضىء فتضاء القاهرة كلها اضاءة كاملة ومنتظمة التوزيع كضوء النهار ، فلا نحتاج وسائل النقل وغيرها الى استعمال مصابيح أو أضواء اضافية ، وستظهر المدينة من الجو كأنها قاعة واحدة مضاءة باضاءة غير مباشرة ، كما سيلفت النظر الطرقات الخارجية المضيئة والتي تكون مداخل القاهرة هي والمطارات أو المحطات التي تحيط بها وللأنواع المختلفة من وسائل النقل الطائرة والصاروخية وغيرها . وستضاء أرضها كما تضاء شوارع المداخل بوساطة الأراضى المضيئة التى ستستعمل في اضاءتها الألوان المضيئة من عناصر مواد الفلورسنت والفسفورية والاشعاعات المختلفة .. وسوف لا يكون هنالك اختلاف بين الليل والنهار في سماء القاهرة وطرقاتها ، فستوزع الاضاءة بحيث تبدأ مع ضعف الاضاءة الطبيعية عند غروب الشمس لتعوض فروق الضوء الطبيعية ، وتزداد تدريجا مع دخول الليل وتختفى بنفس الطريقة عند ظهور الفجر

سيد كريم

● يناير ١٩٥٠ ●

نهضتنا العربية

سياجها التخطيط العلمى لخمسين سنة

للدكتور عبد الحليم منتصر
عميد كلية العلوم بجامعة عين شمس



أخذت نهضة شاملة تجتاح الوطن العربى ، من مشرقه الى مغربه ، من ثنيات الخليج العربى شرقا الى شواطىء المحيط غربا ، ومن شواطىء البحر الابيض شمالا ، الى منابع النيل فى أواسط افريقا جنوبا ، هذا الوطن العربى ، سكانه من الناطقين بالضاد ، ومن أحفاد يعرب ، ينفضون عن أنفسهم ثوب الخنوع الذى تسربلوا فيه زمنا طويلا ، وينهضون ليعلنوا عن حيوية كامنة بقيت مستقرة خلال القرون ، الى أن تهيأت لها ظروف النهضة ، فنشطت كأنما فكت بعد أسار وأفاقت من خمار . هذه الوثبة المباركة تحتاج الى تنظيم وتنسيق وتخطيط حتى لا تعود تكبو من عثار ، وحتى لا تعود تهفو الى سبات ، وحتى يستقيم ركضها على الطريق فلا تنحرف ولا تحيد ، وانما تنتظم فى الركب مع الأمم التى سبقتنا حينا ، وانا بها للاحقون ، ولها لسابقون

هذا الوطن العربى يضم نحو خمس عشرة دولة ، بعضها خلص من الاستعمار منذ حين قريب ، وبعضها يكافح فى سبيل الخلاص ، ولكن آثارا من أوضار الماضى لا تزال عالقة بهم ، تشدهم الى الماضى القريب شدا ، انهم جميعا فى حاجة الى قوة دافعة تربطهم الى ماضيهم المشرق البعيد ، حين رفت على جوانب النيل وبردى والفرات حضارات تتيه على حضارات المحدثين ، حين دانت لنا دول تستعلى علينا الآن ، وكانت لنا قبل من التابعين . هذه الدول تحتاج الى قوة تدفعها الى كل جديد لامع وضاء ،

يستنبط الطاقات ، يستغل القوى ، ويدين الطبيعة ، ويغزو الفضاء ، ويطلق الاقمار والصواريخ ، ويشطر النواة ، ويفتت الذرة . واننا لنعلم أن هذه القوة الدافعة ، انما هي قوة العلم ، ولا شيء غير العلم

هذا الوطن العربي يضم رقعة من أخصب بقاع الارض طرا ولعلها أغناها كذلك . فهذه أرض النيل في مصر ، وغابات السودان وسهوله، وأرض الرافدين في العراق وسوريا ، هذه الارض الطيبة ما زال اغلبها بكرا ينبغي أن يزرع ، وهي تحتاج الى يد العلم لتقيم السدود والقناطر وتبني الخزانات ، وتشق الترع والمصارف وتنظم الري والصرف ، لتوفير مياه الري لملايين من الافدنة التي لم تزرع بعد . وتحتاج يد العلم ، لتغل هذه الارض أوفر غلة . فلا يعوق الانتاج قلة في الماء أو سوء في الصرف ، أو عدم صلاحية بذور ، أو عدم كفاية سماد ، لابد للآفات من علاج نطب به ، ولا بد للامراض من دواء يعد لها ، وكل ذلك يحتاج الى نطس الاخصائيين في اصلاح الاراضي ، وتنظيم السدود ، وأقامة الخزانات وعلاج الامراض ومقاومة الآفات ، وانتقاء البذور والاسمدة

هذه النهضة يجب أن يكون سياجها التخطيط العلمي لا لخمس سنوات أو عشر ، بل لخمسين سنة ، لتحقق ما يلزم لهذه الملايين من الطعام لتأكل ومن الماء لتشرب ، ومن الارض لتزرع، ومن المدن والقرى لتسكن ، ومن المصانع لتصنع ، ومن السلاح لتقوى ، ومن المدارس لتتعلم ومن الجامعات لتخرج الاخصائيين ...

هذا الوطن العربي ، يضم بطاحا من الصحاري والسهول والجبال والاودية ، تحتاج جميعا الى دراسة وحصر وتقصي ، حتى نعلم ما تخفي من بترول وحديد ومنجنيز وفوسفات وذهب وفضة ، وما قد يكون تحت رمالها من مياه جوفية ، يمكن أن تستغل في ري وزراعة ، هذه الثروات الدفينة في ثرى الصحراء ورمالها ، وفي سفوح الجبال ونجادها، تحتاج الى اخصائيين يجوبون تلك الفيافي بحثا عن منابع الثروة ، التي يسيل لها لعاب الغرب ، والتي لو احسن استغلالها لأمدتنا بطاقات لا تنفد ، تزيد في رخائنا ، وترفع مستوانا ، وترهب اعداءنا ، وانما يحتاج كل ذلك الى علم اصيل بطرائق البحث والاستنباط والاستغلال ، يحتاج الى بحث علمي منظم يقوم به اخصائيون دربوا على البحث ، وكلفوا به عن طواعية ورغبة، يريدون به وجه الحق ووجه الوطن، يضعون مصلحة الوطن العربي نصب أعينهم ، ويعلمون أن خلاصه ورقيه

ورفاهيته انما هى أمانة فى أعناقهم، انما هى بيعة لا ينبغى أن يتحللوا منها أبدا ، انما هى ضريبة العلم للوطن ، ينبغى أن يؤديها العلماء خالصة لوجه الله والوطن ، لايريدون بها عرضا من اعراض الدنيا ، من مال أو ثروة أو جاه ، انما يكفى ان يضع العالم لبنة فى صرح الوطن العربى ، ليسمو شانه ويعلو بناؤه

والوطن العربى ، يضم نحو مائة مليون من الانفس تتكاثر يومابعديوم وسنة بعد أخرى ، ويقدر العارفون ان هذا العدد سيتضاعف بعد حين، وقد يصبح سكانه مائتى مليون نسمة فى سنة ٢٠٠٠ ان لم يكن قبل ذلك • هذه الملايين من ابناء الوطن العربى ، ماذا تأكل وكيف تأكل،كيف تعيش وأين تعيش،ماذا تصنع وكيف تصنع، اين تسكن وكيف تسكن ، اين تتعلم وكيف تتعلم ، وكيف تنتقل ، وكيف تلبس وماذا تلبس ، كيف تحمى نفسهامن اعدائها الذين يتربصون بها الدوائر، وكيف تسلح نفسها ضد الجهل والمرض وضد الفاقة والفقر • أما أن الزيادة فى السكان تطرد يوما بعد آخر ، فهذه حقيقة لا شبهة فيها ، ونحن نرحب بهذه الزيادة ، فالوطن العربى فى حاجة الى مزيد من عقول أبنائه وسواعدهم ، يستنبطون ثرواته ، ويصنعونها،والوطن العربى لم يضق بعد بأبنائه ، فقد بسط الله لهم فى الرزق ولكنهم لم يحسنوا استغلاله واستنباطه ، ولو فعلوا لأغناهم من فقر ، ولعاشوا فى رفاهة يحسدهم عليها أهل الغرب الذين استعلوا بالعلم الذى نقلوه عنا فى سالف الايام وركضوا به ونحن فى غفلة من أمرنا

هذه النهضة يجب أن يكون سياجها التخطيط العلمى ، لا لخمس سنوات أو عشر ، بل لخمسين سنة ، لنحقق ما يلزم لهذه الملايين من الطعام لتأكل ، ومن الماء لتشرب ، ومن الارض لتزرع ، ومن المدن والقرى لتسكن ، ومن المصانع لتصنع ، ومن السلاح لتقوى ، ومن الطاقة لتدير الآلات والمصانع،ومن الكهرباء لتضىء ، ومن المدارس لتتعلم فى مختلف مراحل التعليم،ومن الجامعات لتخرج الاخصائيين من مهندسين وزراعيين وصيادلة واطباء وباحثين علميين من كيميائيين وطبيعيين ورياضيين ونباتيين وحيوانيين ، ومن دارسين للاحصاء والاقتصاد ومن مدرسين لمختلف المراحل

الهدف من التخطيط العلمى هو تعبئة الامكانيات والجهود وتوجيهها نحو غايات المجتمع وحاجاته وتطوره الاقتصادى ، ولرسم هذه الخطة يلزم

بطبيعة الحال تجميع البيانات عن العناصر الرئيسية ، ولا بد من أن تتضافر جهود العلماء والاخصائيين في رسم الخطة

ينبغي أن نتعرف على المستوى العلمي للمشروعات العلمية والاقتصادية ، كمشروع السد العالي، ومنخفض القطارة ، ووادى الريان ، وغيرها من مشروعات مشابهة في الوطن العربي ، ما هي البحوث الجارية بشأنها ، وما هي الاحصاءات اللازمة لها ، وما هي الامكانيات المعملية والبشرية التى تحتاجها ، وما هي الامكانيات العملية التى ينبغى أن تؤسس بها المعامل ودور البحث من كيماويات وأجهزة وأدوات ، ما هى النواحى التى تحتاج الى تدعيم ، كم من العلماء والباحثين والمساعدين تحتاجها هذه المشروعات ، اى أنواع التدريب والتأهيل تلزم لاعداد هؤلاء ، وهل يلزم ارسال البعوث الى الخارج ، أم تنشأ معاهد خاصة للتدريب والتأهيل ، أم تتولى الجامعات بصورتها الراهنة هذا الاعداد

ان كل لون من ألوان المعرفة يحتاج الى دراسات استقصائية شاملة . فالعلوم الرياضية والطبيعية تحتاج الى دراسة وسائل التدريب والتأهيل فى تلك العلوم من فلك ورياضة وطبيعة أرضية وأرصاد جوية وإحصاء وتعداد ، والضوء والطيف والصوتيات والطبيعة الاشعاعية وبالمثل في العلوم البيولوجية والزراعية ، لا بد من دراسة وسائل التأهيل وهل هى وافية بالغرض أم تحتاج الى تعديل، ينبغى دراسة المحاصيل من حقلية وبستانية وخضر وفاكهة ، وألبان وأراض وصناعات زراعية وثروة مائية وأمراض نبات وآفات، وكذلك في العلوم الطبية ، ما الذى يلزم من تعديل فى برامج التدريس ، وفى موضوعات الادوية والعقاقير والطب الوقائى وطب الصناعات والطب العلاجى وطب الاسنان وطب العيون والصحة العامة وبالمثل فى العلوم الهندسية من مدنية وانشائية ومعمارية وميكانيكية وكهربائية وحديد وصلب وسكك حديد وبترول، وفى الصناعات والتعدين ، في الاسمدة والمفرقعات ، والاصباغ ، والورق ، والحرير الصناعي، وخامات الحديد والكبريت والزجاج والاسمدة والمبيدات والمطاط والتقطير والدباغة

لا بد من وضع خطة شاملة لحقبة طويلة ، تنفذ بالتدريج ، وتكون الخطة مرنة بحيث تقبل التعديل للاستفادة من التجربة ، ولا بد من تضافر جهود أولى الرأى والعزم حتى يتحقق الامل المنشود من حياة حرة كريمة لابناء الوطن العربى فى كافة أرجائه

سيكون الأزهر كعبة علماء الغرب

بقلم الشيخ منصور رجب

الاستاذ فى كلية اصول الدين

سيدرس الازهر سنة ٢٠٠٠ علومه بفكرة العصر لا بفكرة من سبقوه بجهودهم مشكورين . وسيحج اليه بعد جيلين من يريد التخصص فى علومه ، وستظهر المرأة على مسرح التعليم فى الازهر ، وسيكون منهن واعظات مرشدات

لعلى اكون اقوى من الذرة ، واسرع من الصاروخ ، حين امزق الزمن واخترق الحجب لارى الازهر فى سنة « ٢٠٠٠ »

ومن يدرى ؟ .. لعل « التطور » يهشم « الزمن » كما فتت الذرة ويطوى الوقت كما طوى المسافة ، يومئذ يصف مثلى لا بالحدس والتخمين بل بالعلم واليقين

وهل سيبلغ التطور المدى الذى يرفع عنا حجاب الزمن ؟ .. اما الغيب المطلق فذلك لربى وربك سبحانه ، له وحده ، لا يعلمه الا هو ، فهو وحده علام الغيوب ... واما لمثل هذه « الجزئيات » فمن يدرى ؟ لعل التطور يرفع عنى وعنك الحجاب ، ويزيل عن عينى وعينك الغشاوة . ويومئذ نسأل الله السلامة من تقدم العلم فى يد الانسان فالعالم حتى الآن فى دور الطفولة وسيلعب بالنار حتى تحرقه ، وستحرقه وتحرقه قبل ان يبلغ رشده . وسيبلغ رشده يوم يستعمل عقله فلا يستعمل ما وصل اليه العلم الا فى الخير وفى الخير وحده لا يعمل الا للسلام وللسلام وحده

نحن فى « دهشة » مما وصل اليه العلم فلا تكذب مالا تصدقه لجواز ان يكون ، ونحن فى « خوف » مما وصل اليه العلم مادام فى ايدى الحمقى ومن يلعبون بالنار

فليس لى فى هذا الموضوع ــ الازهر فى سنة ٢٠٠٠ ــ ليس لى ان انظر اليه من ثقب « الامانى » فاننى اكن للأزهر كل خير ، وارجو له كل اكبار . انما ساقدم له بمقدمات من واقع الامر انتزع منها نتيجة اقدرها للأزهر فى سنة ٢٠٠٠

التطور امر واقع . والتطور لا غالب له . والتطور يسير سيره

شئنا أم لم نشأ ، اردنا أم لم نرد ، رضينا أم لم نرض . والتطور شرطه دائما ابدا أن يكون الى الامام والا كان تأخرا لا تطورا . واذا تأخر التطور فى سيره خطوة عوضها باثنتين ، بل قد يسرع احيانا بما يشبه الطفرة . والازهر كبقية كائنات العالم خاضع لقانون التطور لم يجمد فى تاريخه الطويل الذى جاوز الإلف سنة عدا ... لم يجمد على حال واحدة بل انتقل واستحال من حال الى حال

يقولون: التغيير ان لحق « الجوهر » كان فسادا . وان لحق « الكم » كان زيادة أو نقصانا وأن لحق « الكيف » كان استحالة . فلننظر أولا الى الازهر وكيف تطور من هذه النواحى الثلاث :



الازهر من ناحية « الجوهر » لم يتغير . لم يتغير أصلا ولم يفسد أطلاقا فى هذا التاريخ الطويل العريض ، فلم نسمع أن الازهر انحرف فى تاريخه عن « التوحيد » ولم نسمع أن الازهر انحرف فى تاريخه فاختصر الصلوات الخمس او زاد عليها . ولم نسمع ان الازهر فى تاريخه غير مكان الحج أو زمانه . وهكذا فى كل ما يمس جوهر الدين والشريعة

اما من ناحية « الكم » فنرى أن الازهر ابتدأ حياته بخمسة وثلاثين طالبا . والآن فيه ــ حسب احصائية ١٩٥٧ ــ ٣٦٠٠٠ طالب من ممالك الارض ودول العالم .. من .

الصين . الفيلبين . الصومال . سيام .. الملايو .. مدغشقر .. اندونيسيا .. الهند .. باكستان .. الكاب .. جزر ملديف .. سيلان . التركستان .. السودان .. نيجيريا كينيا .. غانا .. ليبيا .. تونس ، الجزائر .. مراكش .. يوغسلافيا . البانيا .. تركيا المانيا .. القوقاز .. طشقند . سنغافورة برما .. أوغندا الحبشة .. أرتريا .. بحيرة تشاد .. داغستان افغانستان .. ايران .. الى آخر من يؤمه من القارات

والازهر ابتدأ حياته العلمية بمدرس واحد فقط هو « على بن النعمان القاضي » وفيه الآن اكثر من « ١٥٠٠ مدرس » وابتدأ حياته بدرس الفقه ــ فقه الشيعة او كما يقولون فقه آل البيت ــ والآن يدرس علوم الدين والدنيا معا

اما من ناحية « الكيف » فسأصف العصر ، أو بعض العصر ، الذى عشت فيه بنفسي ورأيته بعيني ،

ساصفه واسجله وصف انسان صادق

كان الازهر يضيق صدره بالفلسفة ، وفي سنة ١٩٤٦ اتسع صدره لاستاذ من اساتذة المادة يحاضر في « الاله عند ارسطو » وهو كما كان يرى لم يخلق شيئا ولم يعلم شيئا أصلا الا ذاته والعالم منجذب اليه انجذاب « الابرة » للمغناطيس

فما معنى هذا ؟ ... معناه ان الازهر انتقل من حال الى حال كبقية كائنات العالم . ولكنه لم يعد طبعا . ويسع صدره الآن « الفلسفة » بأوسع معانيها . فهو يناقش افكار « ارسطو » و « افلاطون » و «ابيقور» و«كانت» و «فولتير» و «روسو» و «سبنسر» و « بنتام » الى آخر ما يدرس لرجال الفكر

كان الازهر يلقن طلابه ان علماء الدنيا لا يحترمون . فقد حضرت بنفسي مرة درسا على استاذ ـ توفى رحمه الله وكان عضوا في جماعة كبار العلماء ـ وكان يشرح حديثا نبويا شريفا في باب عنوانه : « احترام العلماء » فأخذ يخرج الالف واللام في كلمة « العلماء »

وانتهى بالشيخ المطاف الى ان الالف واللام «هنا» للعهدوالمعهودرهم « علماء الدين » فسالته ـ ويذكر ذلك جيدا بعض اخواني ـ سالته : يا مولانا . ما رايك في القانوني الضليع ... والمهندس الكبير ... فقال : عالم ولكنه لا يحترم .. ولما عارضته بمن افادوا الانسانية مثل « اديسون » و « غليليو » ثارت ثائرته علي ! وكانت حكاية ؛ رحمة الله عليه) هذا الفكر اختفى الآن من الازهر

كان الازهر يرى ان الالعاب الرياضية حدث لا يرتكبه طالب علم ، حتى انني وبعض اخواني شرعنا في ناد نزاول فيه بعض العاب الرياضة فاستدعانا شيخ القسم يومئذ ـ عليه رحمة الله ـ واخذعلينا تعهدا بالاقلاع عن هذه الفكرة والا نزل بنا ما لا تحمد عقباه . والالعاب الرياضية الآن في الازهر حصة رسمية يشرف عليها شيخ الازهر

واخيرا كان الازهر يضرب بينه وبين اللغات الاجنبية حجابا . والآن مزق هذا الحجاب ، ودرست اللغات في بعض الكليات . ففي كلية اصول الدين تدرس « الانجليزية » و « الفرنسية » و « الايرانية » من سنوات ودخلت اللغات المعاهد هذا العام الدراسي ـ ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ـ دخلت حصة رسمية فيها غياب وحضور ونجاح ورسوب . ودخول اللغات الاجنبية الازهر ستجعله على اتصال دائم بالفكر العالمي وبتطوراته . وبهذه المناسبة اقول : في كتابي الازهر بين الماضي والحاضر اقترحت ان ندرس للطلاب اللغات الاجنبية



سيحافظ الازهر على جوهره كما حافظ عليه فى تاريخه الطويل

ابتداء من السنة الاولى الثانوية ...
كان هذا فى سنة ١٩٤٦ ، وقد
اخذ به الآن سنة ١٩٥٨

نعود الى الموضوع من ناحية اخرى
احصائية حصر الكفايات التى
أجرتها الحكومة من سنتين تقريبا
تقول : « ان البلاد استوفت حاجتها
من خريجى الكليات النظرية منذ
عامين بينما هى فى حاجة الى
« ١٠٠٠٠ » على الاقل من الكليات
العملية فى خلال ثلاث سنوات » واذا
اخذنا فى اعتبارنا بجوار هذا حركة
« التصنيع » القائمة على أشدها
الآن فى البلاد وما سيترتب على
انشاء السد العالى من نمو فى هذه
الحركة واخذنا فى اعتبارنا أيضا ان
« المعدة » هى التى تحكم العالم فى
هذا العصر « المادى » ، اذا نظرنا
الى هذا ، فاننا نستطيع ان نقول ان
الازهر فى سنة ٢٠٠٠ ـ ان سلمت الدنيا
من أيدى الحمقى بالقنبلة الذرية ـ
سوف لا يكون فيه هذا العدد الضخم
٣٦٠٠٠ طالب . أو بعبارة اخرى
سيعنى الازهر اكثر مايعنى بمسالة
« الكيف » لا بمسالة « الكم » كما
يندفع الآن

سيحافظ الازهر على جوهره كما

حافظ عليه فى تاريخه الطويل بل اقوى فالاستعمار قد انهار الاستعمار الذى كان يعتبر الاسلام اخطر عليه من الشيوعية ... سيقوى الازهر بالقومية العربية . فالوحدة والاتحاد ، والتضامن قوة ... وما الوحدة والاتحاد والتضامن الا بالايمان بالله وبالقيم الاخلاقية العليا . وهل فى جوهر الدين اكثر من هذا ؟ وهل رسالة الازهر الا رسالة دينية خلقية اولا وقبل كل شيء ؟

سيدرس الازهر علومه بفكرة العصر لا بفكرة من سبقونا بجهودهم مشكورين ، وسيعدل الازهر رأيه فى كثير من المشاكل الاجتماعية على ضوء المصلحة ، فيعنى برأيه هو فى عصره هو أكثر مما يعنى برأى السلف الصالح رضوان الله عليهم اجمعين

سيعنى الازهر بدراسة جغرافية وتاريخ البلاد العربية ، كظاهرة ضرورية لقيام القومية العربية . وارجو ان يصبح الازهر بعد جيلين تقريبا كعبة يحج اليها من يريد التخصص فى علومه من رجال الغرب وبخاصة فى تاريخ الاسلام

ستظهر المرأة على مسرح التعليم فى الازهر وسيكون منهن واعظات مرشدات للاسر فى البيوت وفى غير البيوت

ستختفى ابواب من كتب الفقه او من المقررات فى تدريس الفقه مثل باب « الاستنجاء » « التيمم » « الرق » فيرى العقل امتهانا له ان يعلم كيف ينظف نفسه . وكيف يحد وجهه طولا وعرضا ، ومتى يعفر وجهه بالتراب

ستختفى « العمامة » وسيحل محلها « الروب » الجامعى فى المناسبات ستختفى كما اختفى الطربوش المغربى و « اللفه الكبيرة » و « الفرجية » ذات الاكمام الواسعة ، الطويلة الفضفاضة وكما اختفى « المركوب الاحمر » والشال الكشمير والدفن الطويلة . وقد لا تكون العمامة الا لطائفة خاصة من كبار العلماء المتخصصين فى علوم الدين

ستغزو « الموسيقى » الازهر كما غزته « كرة القدم » و « المدفع الرشاش » وسوف لا يرى شيخ الازهر حرجا من ان يعزف « سمفونية بتهوفن » فقد سبق لاستاذهم الاكبر ان اطلق البندقية فى رحاب الكلية . وايهما اشد اثرا فى تهذيب النفس وترقيق العاطفة ؟ ... لا ادرى الا ان احداهما سلام والاخرى حرب ، واحداهما تصعد بك الى السماء والاخرى تهبط بك الى الارض

سيكون للازهر مجمع علمى او هيئة علمية ، تضم جميع المذاهب الاسلامية فى العالم الاسلامى ، وسيخطو اوسع خطوة فى التقريب بين المذاهب ، وستفتح كليات اخرى فى الازهر بجوار كلياته هذه

واذا كان لى ان آخذ من هذه الكلمة منفسا فاننى لارجو من ولاة الامور ان يضاعفوا عنايتهم بالازهر

● يناير ١٩٥٩ ●

قصة اكتشاف فى سنة ٢٠٠٠



السنبلة الذرية

بقلم الاستاذ محمد فريد أبو حديد

يناير سنة ٢٠٠٠ ــ لم يعد سر السنبلة الذرية مجهولا لأحد منذ الامس ، لا فى هذا العالم العربى وحده بل فى العالم كله فقد طير البرق أنباءها الى كل ركن فى الارض وجلس مئات الملايين من البشر ، ان لم نقل آلاف الملايين ، حول اجهزة الاذاعة ليستمعوا الى الحديث الذى يبشر بالرخاء الشامل ، والسلام الكامل ، فقد زال شبح المجاعة من العالم !

منذ الامس عرف العالم كله ، ان عصر القنبلة الذرية قد انتهى الى غير رجعة ، وأن عصر السنبلة الذرية قد بدأ للعالم تاريخا جديدا ، يزول فيه وباء الجوع والخوف ، وتنقشع فيه مخاوف الدمار · ولكن القصة الطريفة التى تنطوى وراء هذا الحادث العظيم لم تنشر بعد ، وهى قصة تكشف لنا جانبا من المغامرات الانسانية التى يقوم بها العلماء فى صمت وتواضع ، مع أنها أكثر امتاعا من مغامرات جوابى المحيطات المجهولة

□

وقد بدأت القصة منذ خمس سنوات ···

كان الدكتور ميهوب يمر فى حقل التجارب الملحق بكلية الزراعة بجامعة طرابلس الغرب ، فى يوم من أيام الخريف ، أو على وجه التحقيق فى اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٩٥ · ووقعت عينه فجأة على بقعة صفراء على حافة الحقل ، خيل اليه أنها لم تنل حظها من الرى ، أو أن العمال أهملوا تعهدها

كانت فى وسط الحقل الاخضر اليانع أشبه بالرقعة القبيحة فى ثوب من الدمقس · فوقف ينظر نحوها فى اشفاق كأنه يرى طفلا هزيلا أهملت أمه تغذيته · ومال على أحد الاعواد فى رفق كأنه يربت عليه ، فاذا هو يرى منظرا لم تقع عينه على مثله من قبل ··· كان ذلك العود ناضجا تعلوه سنبلة سمينة صفراء كالذهب وهالته المفاجأة ، فأسرع يقتطف سنبلة بعد أخرى ، فكانت



كلها ناضجة وافية بديعة ! وكانت أنفاسه تتلاحق وهو يفركها بين يديه، ويرى الحبوب تخرج منها كأنها حبات تناثرت من عقد لؤلؤ ، ذات لون صاف يشع ببريق مبهج . وداخله الشك فى أن عينيه تسخران منه أو أنه يرى منظرا فى حلم ، وجعل يحدث نفسه بصوت عال ليتحقق من أنه فى يقظة . فمتى نضجت ؟ أى سر ينطوى وراء هذه السنابل الذهبية وحبوبها اللؤلؤية ؟

□

أخذ يجمع السنابل واحدة بعد واحدة ويضعها بعناية فى جانب الحقل ، ثم حملها معه الى معمله ، وجعلها شغله الشاغل فى الاشهر التالية . حلل مادتها ، واستخرج منها كل مايمكن استخراجه . وصنع الخبز ، وصنوف الفطائر ، فكان كل ذلك آية فى الغنى والغزارة، فلو أمكن تنمية هذه الحبوب اللؤلؤية لكفلت للعالم محصولا من القمح العجيب فى شهرين، ثلاثة محصولات بدلا من محصول واحد كل عام ! وهكذا يزول شبح المجاعة من العالم !

□

وانتظر الدكتور ميهوب حتى حل موسم الزراعة فى الخريف التالى فزرع تلك الحبوب فى أخصب قطعة من حقل التجارب ، وتعهد نباتها كما تتعهد الام الرءوم طفلها الوحيد، كل يوم يتأمل الاعواد ليرى كم ورقة جديدة ظهرت فى كل عود منها ، وماذا بلغت من الزيادة فى الطول والنضارة . ومر شهر ، ثم آخر وثالث ، حتى أتى موسم الحصاد وانهارت آماله شيئا بعد شىء ، حتى جمع المحصول ... وكان قمحا عاديا مما عرفه الناس منذ آلاف السنين

ولسنا نجد فى وصف شعور الدكتور ميهوب أبلغ من قوله اذ قال :

«شعرت كأننى أحد الباحثين القدماء فى الكيمياء لاستخراج الذهب من المعادن الخسيسة ، فوجدت بعد طول الكد والامل أن المعدن الذى حصلت عليه انما نحاس »

وحملته الخيبة والحيرة على أن يفسر

وجود تلك السنابل الدرية الساخرة بأنها كانت فلتة من فلتات الطبيعة التي ما زالت تهزأ من جهل البشر

ولكنه سرعان ما عاد الى عقيدته العلمية في أن الطبيعة لا تعرف السخرية · واستمر يجرب ويبحث بوسائل شتى ، وفي ظروف مختلفة، وكان في كل مرة يتجرع مرارة الخيبة بعد الانتظار والامل

◻

ثم كانت المفاجأة مرة أخرى بعد ثلاث سنوات ، في خريف سنة ١٩٩٨ ، عندما كان الدكتور ميهوب يتجول في الحقل عينه · كان الوقت مساء ، وكانت أشعة من النور تنبعث من بعيد من معمل البحوث الطبيعية في المبنى القديم الذى ورثته ليبيا، بعد نزوح الامريكان من مطار الملاحة بقرب مدينة طرابلس الغرب · وكان القمر يسطع · بأنواره على الحقل الصغير، فيخلع عليه جوا من الغموض الذى يحيط بمسارح الارواح · وظهرت له في حافة الحقل تلك الاعواد الصفراء التي تشبه الذهب في وسط البساط السندسي ، وكانت السنابل الناضجة تميل من ثقلها وتهتز في بطء تحت نسيم البحر الفاتر

وملك الدكتور ميهوب أنفاسه المترددة ، وأسرع في ابتهاج ليقتطف سنبلة · وسأل نفسه أتكون تلك مداعبة ثقيلة أخرى من الاوهام ؟ أم هو حلم مكرر يعاوده بين حين وآخر؟ حلم تصوره له الاماني التي تملأ ذهنه ؟ وأخذ يجمع السنابل ويفركها في غبطة . ويتأمل حباتها اللؤلؤية · ثم تلفت حوله لعله يرى أحدا يشاركه في موقفه حتى يتحقق انه في يقظة · ولمعت له عند ذلك في جانب الحقل قناة حديثة عهد بالماء ، وهي تتعرج وراء الحقل متجهة نحو معمل الطبيعة، فاندفع يسير نحوها وليس في ذهنه غاية محددة، وسار بحذائها لا يلتفت الى شيء مما حوله · واعترضه سور من الاسلاك الشائكة ، ولكنه اقتحمه، واستمر في سيره غير مبال بالنظر الى سترته التي تمزقت · وانتهى به السير الى جانب المعمل ، حيث كانت انبوبة صغيرة تصب خيطا ضئيلا من الماء · وفكر في نفسه : أيكون لهذا الخيط الصغير من الماء علاقة بالسنابل الذهبية ؟ ولم لا ؟

◻

واقترب ميهوب من نافذة المعمل وهو يعيد في سره سؤاله الحائر : « أيكون لهذه القناة الصغيرة علاقة بالسر المجهول » ؟

وفي هذه اللحظة سمع صوت زميله الدكتور عزمي يصيح به من داخل المعمل: « ماذا جاء بك الى هنا؟ الم تر هذه اللافتة؟» فنظر ميهوب الى لافتة كبيرة تواجهه . وكانت مكتوبة بخط كبير ، ومن فوقها مصباح قوى لاضاءتها ، وقرأ :

« خطر ·· لا تقترب من النافذة » فدار ميهوب الى الناحية الاخرى ،



وملك الدكتور ميهوب انفاسه المترددة ، واسرع فى ابتهاج ليقتطف سنبلة

ودخل الى زميله قائلا فى لهفة : « ما هذا ؟ »

وأشار الى الجهاز الذى أمامه ، والى حوض الماء الذى تخرج منه الانبوبة الصغيرة

فقال عزمى هادئا : «جهاز عبدون ، أعرفته ؟ »

فتبسم ميهوب وقال : « أشعة الموت ، أليس كذلك ؟ »

فقال عزمى : « بل أشعة اللغز ، لاندرى بعد ماهى • ولهذا نحترس • فقد تكون أشعة الموت حقا» ، وتحرك لينحنى على الجهاز الذى أمامه

فجذبه الدكتور ميهوب من يده قائلا : « أرجو أن تشاركنى فى لغز آخر • أحب أن تقول لى :

« هل أنا فى يقظة أم فى حلم ؟ »

ولم ينتظر منه جوابا ، بل سار به متجها نحو حقل التجربة • وسارا يتبعان تعاريج القناة ، ومرا من سور الاسلاك الشائكة خلال باب فتحه الدكتور عزمى • ولما وصلا الى البقعة الصفراء ، وقف ميهوب قائلا : «قل

لى بالحق ماذا ترى ؟

فضحك عزمى وقال : « أهى السنبلة الدرية أيضا ؟ أهى الشبح الساخر مرة أخرى ؟ »

فقال ميهوب : « اذن فلست فى حلم »

وساد الصمت قليلا ثم مضى ميهوب قائلا : « ألا ترى أن هناك علاقة بين هذه السنابل وبين الماء الذى تصبه من معملك ؟ »

فقال عزمى بعد صمت قصير : « بدأت تعدينى يا صديقى ، سأعيد تجاربى واحدة بعد واحدة ، حتى أعرف أيها كان ينطوى على المعجزة . أظن أن سرا هائلا يطل علينا »

□

ومنذ تلك الليلة صار اهتمام الدكتور عزمى بالسنابل الدرية أشد من اهتمام ميهوب نفسه ، حتى أصبح غرامه بحقل التجارب موضع تندر الزملاء جميعا . فالسنبلة الدرية تحول عالم الطبيعة الى عالم زراعة . وما كاد يبدأ موسم الزراعة من العام ذى التسعات الثلاث (١٩٩٩) حتى عكف الدكتور عزمى على اجراء تجاربه فى لهفة

وشعر الدكتور ميهوب بأن المسئولية خفت قليلا عن عاتقه بمشاركة زميله فيها ، فقام فى رحلة الى أطراف لبيا ليتعهد المشروعات العلمية المختلفة التى يشرف عليهما من قبل اللجنة العربية للبحوث العلمية ، وهى المعروفة باسم (ل٠ع٠ل٠ع) فقضى أسبوعا فى أرجاء « فزان الفيحاء » حيث كان معهد الدراسات الصحراوية يحول محيط الرمال الى فردوس من الجنان . ثم سافر الى اقليم الجبل الاخضر ، ليقضى أياما عند ساحل طبرق الزاهرة ، أكبر قاعدة للاسطول العربى التجارى فى أواسط البحر الابيض المتوسط ، والمنتزه الباهر للرياضة البحرية التى كان الدكتور ميهوب مشغوفا بها

وكانت سماء الخريف فى ذلك الوقت صافية لا تكاد تسبح فيها سحابة ، مع أن شهر ديسمبر كان يقترب من كهولته

وكانت أشعة الشمس تنعكس على صفحة البحر الساكنة التى تشبه المرآة البللورية

كانت زرقة البحر مثل لون اللازورد عندما يقع عليه نور الفجر ... زرقة لا تجد لها وصفا فى الالفاظ المعروفة ، ولا يدرك حقيقتها الا من وقعت عينه على السواحل الساحرة الممتدة من مرسى مطروح الى طبرق . كان كل شىء على ذلك الساحل يوحى بالسلام والبهجة ، والنسيم الرفيق "يوشوش" فى هدوء خلال أوراق الاشجار الباسقة المحيطة بالطريق الاعظم ـ ذلك الطريق الذى يصل الموصل المراقية بالرباط

المغربية . غير أن صورة السنبلة الدرية كانت برغم هذا كله تعاود الدكتور ميهوب في الصباح والمساء، بل كانت تعاوده في أحلامه فيرى كأنه يسير في حقل التجارب بالملاحة، فتلوح له بقعة صفراء ذهبية في حافة البساط الاخضر الزبرجدى ، وفي لحظة تختفي من تحت عينيه

وكان في يوم من الايام يجول بين بساتين الجبل الاخضر وحقوله التي تمتد الى مدى البصر . وسارت به العربة نحو درنة الباسمة وكانت أشجار الفواكه والزيتون تجرى عن يمينه وشماله في صفوف طويلة طويلة ، يبدو كل صف منها في لحظة ثم ينطوى ليبدو بعده صف آخر مثله . وكانت المراعى المزدهرة تنداح تحت عينيه كلما اعتلت سيارته ربوة من الربى المتتالية ، وقد تخللتها (الدارات) البيضاء ، وانتشرت بينها قطعان الغنم الشهباء، ولكن نسيم الخريف ، وبهجة المنظر البديع ، وصفاء السماء ، لم تذهب من قلبه شعور القلق والتساؤل. ولما بلغ في مسيره مدينة درنة العروس، وجد في انتظاره رسالة من زميله عزمي يدعوه الى العودة . أيدعوه لشيء آخر غير بشرى نجاح تجاربه ؟

وقد وصف الدكتور ميهوب شعوره عند ذلك فقال : « شعرت بموجة كهربائية تنطلق من أعماقي وتزدحم في حلقي » وبادر الى المطار لعله يجد مكانا في الطائرة الصغيرة النفاثة التي لا تتسع لأكثر من مائة راكب . وكان من حسن حظه أن وجد فيها مكانا ، وكانت الساعة السادسة مساء

ولما وصل الى مطار الملاحة، كانت الساعة قد جاوزت السابعة ، فأسرع الى معمل صديقه الدكتور عزمي ، متعمدا أن يمر في طريقه بحقل التجربة المرقوبة . وكان يحس بأن شيئا ينتظره

وهنا نقف قليلا لنتخير الالفاظ التي يمكن أن نصف بها شعور الدكتور ميهوب عندما وقعت عينه على المنظر الذى كان يلهج بانتظاره، ولست أجد خيرا من وصفه لنفسه اذ قال : « ان السعادة انفجرت في قلبي، وأسرع في لهفة الى المعمل ليرى صديقه ، وكان عند ذلك يستعد لمغادرة معمله . فلما رأى زميله مقبلا عرف من ملامح وجهه ، ومن سرعة خطواته ، ماذا يريد . ففتح له ذراعيه وتلقى قبلته الحارة على عاتقه

وقال عزمي في هدوء : « الآن يمكنك أن تستقبل العام الجديد مطمئنا. فأجاب ميهوب في صوت متهدج : « بل يمكنك أنت أن تستقبل هذا العام الجديد »

في سنة ٢٠٠٠

ستحقق الحلم الذهبي

فنسمع عبده الحامولي وسلامة حجازي

بقلم الدكتور محمود أحمد الحفني

بعد اربعين سنة ستكبر وتعظم الموسيقى في تعدد آلاتها وتنوع اجهزتها ... وسيؤدي المغني مع فرقته باقة من الألحان ، تجمع بين ما هو غربي وما هو شرقي. وقد يتحقق الحلم الذهبي باستعادة اصوات المطربين والمطربات السابقين .. !

ان الحوادث المعاصرة تجرى بسرعة تخالف معتاد سيرها : فهى سرعة الضوء وسرعة الصوت وسرعة ماهو اشد منهما ، من القوى المعروفة والمجهولة . لقد كانت الحوادث فيما مضى تسير بخطى الابل فى مسالك ليلها ونهارها . وكان يسيرا على المرء ان يستنبط اللاحق من السابق ، والا يشق عليه ادراك ما يكون فى نهاية المرحلة بالنسبة لما تبينه فى بدايتها

كانت العصور القديمة ، والقرون الوسطى حتى أوائل العصر الحديث ، تواصل رحلتها الزمنية متشابهة الصور متقاربة التفكير والمناهج . وكان التطور قائما وموجودا بالفعل ، الا انه كان يتنقل بتلك الخطى الوئيدة وتلك السرعة المحدودة التى تسير بها قافلة الزمن فى تلك العصور ، الى ان فوجئنا فى عصر العلم والاختراع بتطورات بدلت من طبائع الامور ، وقلبت الاوضاع راسا على عقب . فلم يعد شيء مما نعيش به فى حاضرنا يشبه ماكان يراه أجدادنا فى ماضيهم ، اللهم الا فى القليل النادر وفى اصول الاشياء وعناصر الموجودات

كان يعتقد فى اواخر القرن الماضى ان العلوم والمخترعات قد بلغت القمة التى لا صعود بعدها ولا ارتفاع . وسجلت بعض المجامع العلمية فى ذلك الوقت ان الانسان لن يرى من العلم مزيدا ، ولن يبلغ غاية أخرى من المعرفة وراء الغاية التى انتهى اليها . فاذا بالقرن العشرين يفاجيء تلك المجامع نفسها بعصر الطيران وتسجيل الصوت واشرطة الخيالة . ولم ينقض النصف الاول من هذا القرن حتى كانت القدرة البشرية قد

وصلت الى تفتيت الذرة ، ثم الى محاولة الصعود الى طبقات الجو واختراق حجب الاثير ومزاحمة الكواكب فى مداراتها . ونحن فى كل يوم نفاجأ بالجديد اثر الجديد مما يثير دهشة العقل وحيرته امام سرعة التطور والاكتشاف فى قوى الطبيعة

فى زحام هذه الموجات من زحف المدنية الجارف ، نمد ابصارنا عبر السنين ، لنستمع الى حفل موسيقى شائق فى القاهرة، قلب العروبة ومشرق وحدتها ونهضتها ، يقام عام الفين ميلادية، وسيروعنا ويبهجنا أن أحدا لن يكبد نفسه عناء الانتقال الى شهود هذا العرض التمثيلى الغنائى . ولن تتجشم الاسرة صغارها وكبارها مشقة المسير الى أمكنة العرض المسرحى أو السينمائى والعودة منها فى منتصف الليل . ولكن هذه المعارض الفنية ستنتقل بمناظرها واضوائها ، وبموسيقاها وغنائها ، وبسحرها وروعة ابداعها الى كل مواطن حيث يكون : فى المدينة العامرة، او القرية الصانعة الزارعة ، أو الصحراء المنتجة ، بمنزله حيث يقيم ، وفى سفره حيث يتجه ، فى عربات القطار أو السيارة أو الطائرة او الباخرة ، وقد توفرت له فيها جميعا أجهزة الراديو والتليفزيون فى أحدث ما انتهى اليه التجديد ووصل اليه الابتكار ، واصبحت اشكالها متفاوتة متنوعة قد يبلغ حجمها ساعة الجيب ، وهى تؤدى لصاحبها رسالتها الفنية كاملة . تجمع له بين ما يستمتع برؤيته من المشاهد والحوادث وما يطرب له من الالحان والانغام الشائقة !



أما المكان الذى تقدم منه كل هذه العروض فلم يعد مسرحا عاديا من النوع الذى نألفه اليوم، والذى يتسع للالوف من المشاهدين الذين يطالبون الفنانين بأن يستنفدوا الطاقة فى اجهاد الحناجر ورفع الاصوات . لم يعد هذا المسرح مكانا معدا لاستقبال الجماهير ، بل أصبح مجرد ستوديو رحيب قد استوفى جميع الاجهزة الخاصة بتسجيل الاصوات والمناظر . ذلك لان الالوف والملايين المتدفقة من الاموال تدفق الماء فوق رءوس أولئك الفنانين قد جعلتهم رهينة التسجيل، والتسجيل وحده ، لانه يعد لهم المبالغ الضخمة فى مقابل جهد هين ، يتكرر فيه الاجر الباهظ والثمن الغالى ولايتكرر فيه العمل . فأصبحت أصواتهم كأصوات أرباب الاقطاع وأصحاب الالتزام فى القرن الماضى ، لا تكاد





سيتحقق الحلم الذهبي باستعادة أصوات السابقين واذ ذاك يستمع الناس من جديد الى عبده

تسمع منها الا النبرات الخافتة والهمسات الناعمة والحروف التى تنقلب الى انات والكلمات التى تتحول الى تأوهات . وليطل الله فى عمر الميكروفون ، الذى يخلق من الحبة قبة ، ويجعل من خفوت الانفاس جلجلة وضجيجا . ورحم الله أولئك الفنانين القدامى الذين فاتهم عصر التسجيل والترف ، والذين كان يعنيهم ان تكون ثروتهم فى حناجرهم لافى جيوبهم ، فكانت لهم ، والحق يقال ، أصوات قوية ، يموج بها الليل ، ويدوى بها السحر ، وتنطلق بها اشعة الفجر الاولى ، فتوقظ النائمين أو تسعد الساهرين

على انه حين نحتفل بعد اربعين عاما بمثل هذا العرض الشائق ؛ سيفوز الادب السامى الرفيع بترديده ، حيث يجد من الموسيقى بعثا وحياة لم يعهدهما من قبل .

وسيجد الشعر الوصفى التعبيرى مكانه فى الغناء القويم ، الخالى من الاعادة والتكرار . حيث يرتفع مستوى الثقافة الفنية . وحيث تدفع السرعة بعواملها ركب الموسيقى الى الاقتصاد فى الزمن . كما أن مقطوعات غنائية كثيرة ستتحرر من قيود العروض والقافية . ولكانى بالحرية والانطلاق من القيود قد امتدا الى كل شىء ، حتى الى تفاعيل الشعر ؛ فانتقلت به الى الشعر المنثور او النثر المنظوم

وسيسير العالم قدما فى مدنيته الى المظهر الاخاذ . ان الفرقة



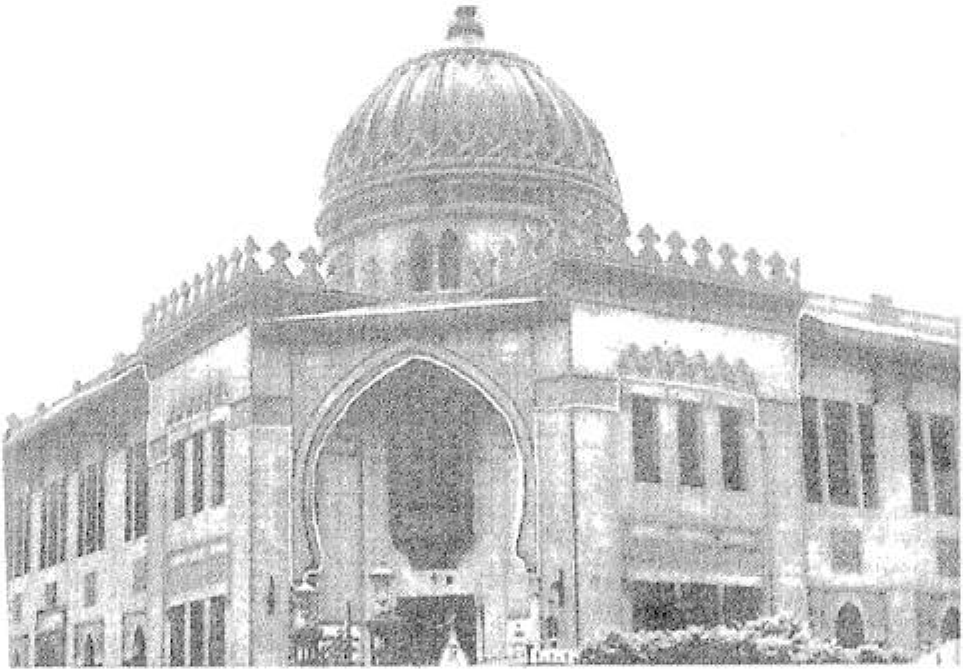

الحامولي والمز والي أصوات الشيخ سلامة حجازي والموسيقار سيد درويش ..

الموسيقية التي تصاحب الفنان لن تكون محدودة العدد بهذا الجهاز التقليدي المتعارف عليه بالتخت ، ولكنها ستعظم وتكبر في تعدد آلاتها ، وتنوع أجهزتها ، ووفرة ثرائها من آلات النفخ الخشبية والنحاسية ، والوترية المختلفة ، والايقاعية المتنوعة ، الصنجية منها وغير الصنجية . وسيؤدي المغني مع فرقته باقة من الالحان تجمع بين ماهو غربي بحت ، وماهو عربي أو شرقي متطور ، وماهو مزاج من تلك الالوان كلها مؤتلفة . مما يدل على إن الطبيعة قد اجرت سنتها على الفنون ، وبخاصة الموسيقى ؛ وهي مرآة الشعب ، واداة تعبيره عن عواطفه وامانيه . وهكذا يمضي الزمن ، وتمضي القافلة مع سرعتها الدائبة ، غير مبالية بغطيط النائمين، وركود المتخلفين ، وقد كان عليهم ان يجدهم الزمان في مضيه والا تفقدهم القافلة في سرعتها

اما آلات « التخت » من عود وقانون وناي ودف ، فستنصرف عن هذه الزحمة ، وتعيش مع الاغاني الشعبية متجاوبة معها ، مقيمة في احيائها ، جوابة مع الهواة لفضاء السهرات العائلية ، ومجالس الطرب المنزلية

□

وما يدرينا فلعل الحلم الذهبي يتحقق ، ذلك الحلم الذي كان ومابزال يساور جمهرة من العلماء . في استعادة أصوات السابقين باغنياتهم وموسيقاهم التي لا تزال مودعة طي



معهد الموسيقى الشرقية الحالى فى القاهرة

الاثير ، عبر الاجيـال المتعاقبـة ، والمدنيات المتوالية . والعصور التي اختلفت عليها الاذواق والفنـون

واذ ذاك يستمع الناس من جديد الى معبد ، والغريض ، وحبابة ، وسلامة ، من نجوم العصر الاموى ، وابراهيم الموصلي وابنه اسحق ، وعليـة ، ودنانير ، فى العصر العباسي ، وزرياب ، وولادة ، فى الاندلس ، حتى تصل الى عبده الحامولي ، والمز ، ومحمد عثمان ، فى اغنيات لم تدون ، واصوات لم تسجل ، وموسيقى تزيد الثروة ازدهارا ، والطاقة الفنية خلقا وابتكارا

اما الفن العربي التقليدى ، فسيجد خلوده وثباته على الزمن فى حناجر المرتلين لكتاب الله ، وفى افـواه المنشدين لقصص المولد النبوى ، بعد ان تعاد صياغتها ، ويمتد اليهـا جمال اللحن المناسب ، الذى يجمع بين الطرافة والوقار

وسيشهد هذا البحث الكبير ويتمتع بأصدائه من سيمتد بهم العمر الى مطلع القرن الجديد ، حين تستقبل أصداء الاغانى السحرية ، والالحان الحلوة القوية ، من سكان الكواكب ، وقد استطاع الانسان الصعود اليها ، واستطاع اهلها الوصول الينا ، والاتصال والتجاوب معنا

واذ ذاك يصبح كل شىء فى خدمة السلام ، واسعاد الانسانية



الكلمة الأخيرة

الإنترنت : رسالة لم تصل

بقلم : جميل عطية ابراهيم

من يود الحصول على صندوق بريد خاص فى دولة نامية فى هذا الزمن تصادفه عقبات لا حصر لها، منها لماذا؟ كما أنه قد يخضع لترتيبات تتعلق بأحواله الضريبية، وصلاته الخارجية، فالبريد كله معلومات وليس عبارات عاطفية فقط، والعين الساهرة لها الجنة، والحكومات لا تنعس أو تنام أو هكذا يفترض فيها .

افرحي يا أمي !!

أصبحت امتلك ثلاثة عناوين خاصة على شبكة الانترنت قبل العبور الى القرن الجديد، بدلا من المشاكل التى يسببها صندوق البريد الخاص. تصلنى رسائل من كل من هب ودب فى أرجاء المعمورة، وأبعث برسائلى فى أقل من ثانية بدلا من الحاجة الى صندوق بريد او انتظار ساعى بريد .

البريد الاليكترونى على الانترنت هو البنورة المسحورة التى حدثتنا عنها شهرزاد فاتنة الزمان، وعيبه الوحيد أنه لا يتحدث العربية حتى الآن، والسؤال من فتح القمقم، شهرزاد فاتنة الزمان أم شهريار المجنون؟ نحن أهل وأحبة شهرزاد فى الشرق أم هم فى الغرب؟ القصد، البريد الاليكترونى ينقل العربية مكتوبة بالحروف اللاتينية ولا يفهمها. وفى الشهر الفائت أرسلت رسالة بالبريد الاليكترونى باللغة الانجليزية الى ابنة صديق عزيز حصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة أمريكية تقع على الحدود بين كندا والولايات المتحدة. كتبت الرسالة باللغة الانجليزية وفقا للأصول، ووضعت لها عنوانا بالعربية : ألف مبروك .

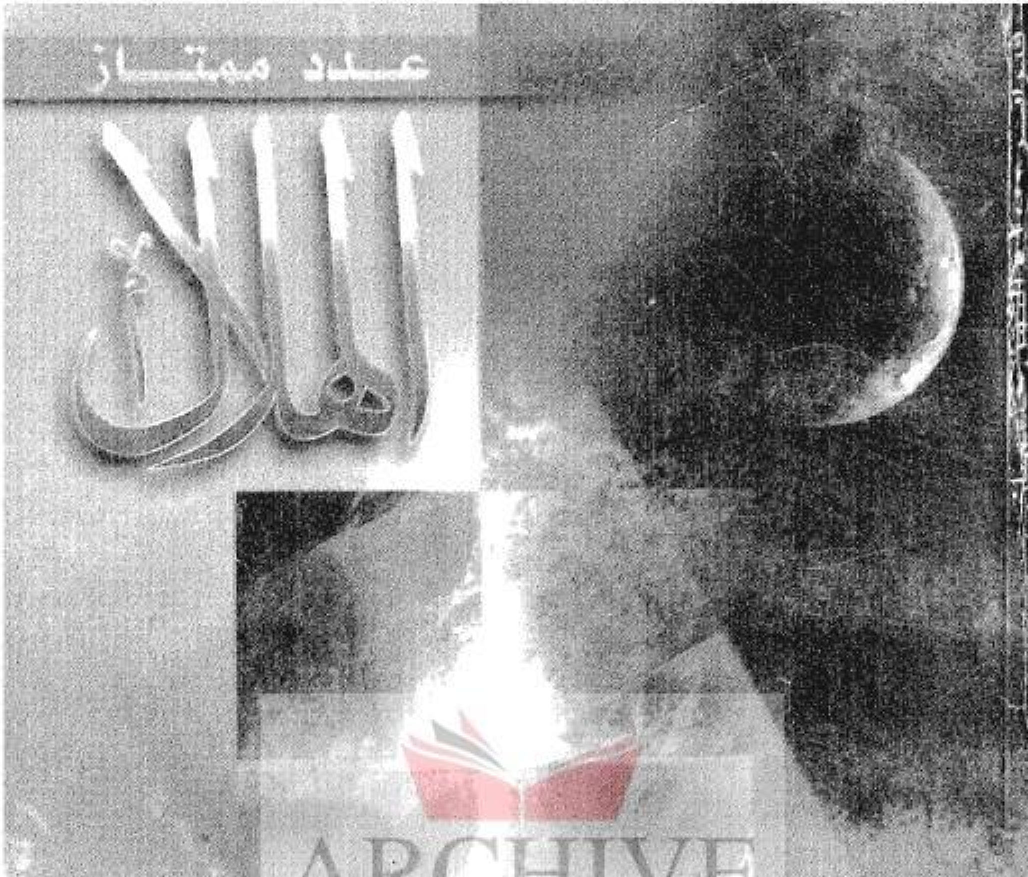
وهل توجد تهنئة أجمل من قول ألف مبروك؟ .. كلا .

بعد يومين بالتمام والكمال وصلتني رسالة من مدير الجامعة يخطرني فيها بأن رسالتى ألف مبروك لم تسلم الى صاحبتها بسبب عدم الاستدلال على عنوانها وكذلك رسالة أخرى من المسئول عن شئون البريد الاليكترونى بالجامعة يخطرنى بنفس المعنى.

طبعا أعرف أن هذه الخطابات وصلتنى بطريقة آلية، بفعل الكمبيوتر المتقدم، فلا مدير الجامعة ولا مدير البريد الاليكترونى شغلا برسالتى، بل هى مسائل برامج فى برامج . برامج تتابع برامج وترد على برامج أخرى، ولكننى ومع كل هذه المعرفة - وهذا هو بيت القصيد - فرحت فرحة طفولية لأن مدير الجامعة أرسل لى كلمتين بالعربية : ألف مبروك، فقد أجبرته على الحديث بالعربية وهو لا يفهمها. بعدها قلت لنفسى ربما اعتبرها شفرة سرية، ولهذا لم تسلم الرسالة الى صاحبتها، وحكاية عدم الاستدلال على العنوان ليست صحيحة، فأنا على الرغم من إقامتى فى الخارج لمدة ثلاثة عقود تقريبا، لا يزال الشك يساورنى عند التعامل مع المسئولين فى الشرق او على الحدود الكندية، لا تهم الفواصل الجغرافية ولا اختلاف المناخ، المسئولون فى العالم لهم سمات خاصة نابعة من مسئولياتهم الجسيمة .



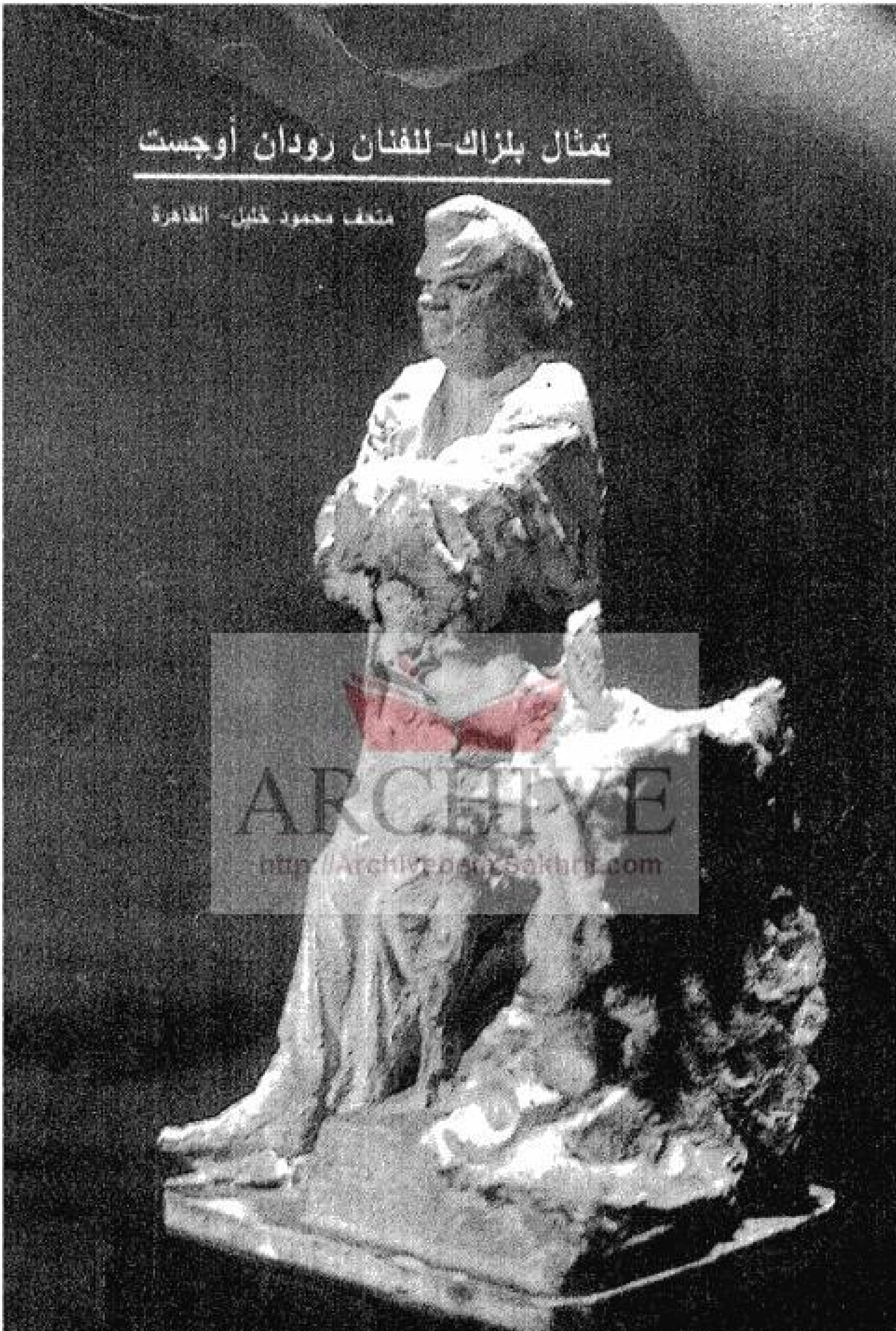
روايات مصرية للجيب
النهضة الجميلة الحديثة في ربوع الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
تفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
المؤسسة العربية الحديثة



فريدمان:

العولمة ديانة جديدة

المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين


تمثال بلزاك- للفنان رودان أوجست
متحف محمود خليل- القاهرة

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الثامن بعد المائة

فبراير ٢٠٠٠ – شوال ١٤٢٠ هـ

الاشتراكات سوريا ٦٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١,٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢,٥ جك

ثمن النسخة قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

هـــذا
العـــدد



الغلاف للفنان :
محمد أبو طالب

قصة وشعر

دائرة حوار

فنـــون

التكوين

الأبـــواب الثـــابتة

عرس الثقافة العربية

عزيزى القارىء

بدأت فعاليات معرض القاهرة الدولى للكتاب منذ أيام قليلة، ويعد المعرض احتفالاً للثقافة العربية، يتم فيه اللقاء السنوى بين الرئيس مبارك والكتاب والمثقفين، ويدور خلاله حوار حول مشاكل الثقافة ومستقبلها ، ودور مصر الثقافى فى العالم العربى ..

هو مهرجان حقيقى للكتاب فى إطار علاج مصاعبه القائمة، وهى قلة القراءة للأجيال الجديدة فى ظل المستحدثات العلمية : الكمبيوتر والإنترنت وانتشار النوادى التى يقبل عليها الشباب. وجاءت مكتبة الأسرة خطوة حقيقية نحو علاج قلة القراءة لهذا الجيل.

وتجىء أهمية معرض الكتاب فى الندوات التى يشترك فيها صفوة من المثقفين والكتاب وعدد من المسئولين، وتقديمه للكتب الجديدة فى كل مجالات المعرفة، فضلا عن إعطائه الجوائز لأهم رواية وأهم كتاب وأهم غلاف، وأكثر الكتب توزيعا، وهى إضافة هامة فى هذا المجال، وحافزا لكل المبدعين فى تخصصاتهم المختلفة.

ونعتز بأنه لم تمر دورة للمعرض، لم تحصل فيها دار الهلال على أكثر من جائزة فى الكتب والروايات، وحصلت أكثر من مرة على جائزة أهم دار نشر.

ونحن نعتز بحصول زميلنا الروائى الكبير يوسف القعيد على جائزة أهم رواية فى معرض هذا العام عن روايته «٢٤ ساعة فقط» وكذلك الروائى الكبير علاء الديب عن روايته «عيون البنفسج» .

وداعا عبدالحميد الكاتب

عزيزى القارىء

فقدت مصر فى الشهر الماضى أحد الكتاب الكبار الشرفاء عبدالحميد عبدالغنى والذى سمى نفسه عبدالحميد الكاتب.. الصحفى والكاتب والذى عمل فى الأمم المتحدة منذ إنشائها ولمدة ٣٢ سنة عمل مع سكرتير الأمم المتحدة فالدهايم ويوثانت وفى العديد

عزيزى القارئ

من اللجان، وكان أول متحدث رسمى مصرى خلال مفاوضات البلاد بعد الثورة، ويعد أكبر وأهم موظف عربى فى الأمم المتحدة منذ عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٧٤ .

عين نائبا لرئيس مجلس إدارة أخبار اليوم ورئيسا لتحرير الأخبار كما رشح وزيرا للدولة للشئون الخارجية بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ووزيرا للاعلام بعد ذلك .

لعب عبدالحميد الكاتب دورا مهما ، ووضع لبنة فى صرح مجلة الهلال ولمدة ثمانى سنوات وقبيل عمله فى الأمم المتحدة..

فقد عمل بالهلال وهى تحتفل عام ١٩٤٢ ببلوغها سن الخمسين ومعه زميلاه طاهر الطناحى وإبراهيم المصرى، حيث قاموا بالاتصال بعدد كبير من الكتاب العرب ورؤساء الدول العربية، وليصدر الهلال فى صورة كتاب عن تاريخ مصر والعرب بفضل هؤلاء الأعلام الذين شاركوا فى كتابة موضوعاته الشاملة.

ويشير الكاتب فى مقال شيق كتبه للهلال فى يونيو ١٩٩٢ وهى تستعد للاحتفال بالعيد المئوى إلى الحفاوة التى قوبل بها من رئيس التحرير وهو مازال طالبا بالجامعة، ونشر له مقالين عن تشيكوف والشاعر الهندى طاغور، وصرف عن كل مقال جنيهين فرح بهما فرحا شديدا !.

وفى هذه المناسبة يذكر أن طه حسين كان يحصل على مكافأة قدرها خمسة جنيهات وتعتبر أعلى مكافأة لكاتب فى «الهلال» فى ذلك الوقت.

قدم الكثير للهلال خاصة فى مجال الترجمة التى برع فيها، وقد تصفح واحدا من الأعداد القديمة للهلال فوجد أن الصفحات التى كتبها فى هذا العدد تصل إلى ٨٠ صفحة من المجلة التى تضم ١٢٨ صفحة، وكانت هذه الصفحات الكثيرة تضم مقالا وقعه باسمه وآخر بالحروف الأولى من اسمه ومقالات عديدة مترجمة وأبوابا كان يحررها .

وكانت سنواته فى دار الهلال فرصة لصداقة مع فكرى أباظة انطلق بعدها إلى رحاب العالمية فى الأمم المتحدة ثم عاد ليواصل العمل فى الزميلة أخبار اليوم.

رحم الله عبدالحميد الكاتب الذى أعطى الكثير لوطنه وللصحافة المصرية وعاش راهبا فى محراب العمل الوطنى والصحافة التى عشقها وأحبها .

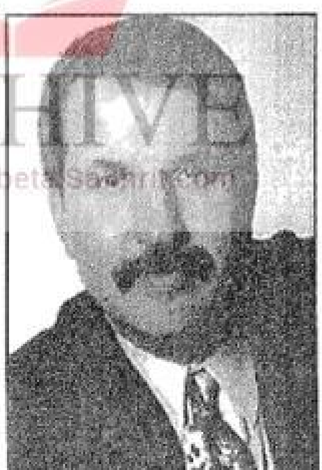
المحـــــرر

السيارة ليكساس

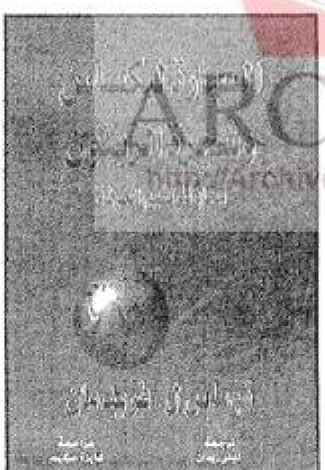
تقتلع شجرة الزيتون

« مانيفستو جديد للداروينية الأمريكية »

بقلم : د. صلاح قنصوه



توماس فريد مان



غلاف الكتاب

99

ينبغي لي أن أعترف بأن نوعاً من الارتياح قد غمرني بعد الفراغ من الاطلاع على كتاب «توماس فريدمان»: «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون، محاولة لفهم العولمة». فلم أكن أحسب أن مؤلفاً لكتاب تربو صفحاته على خمسمائة وثمانين، وتخصص في إلقاء المحاضرات وعقد الندوات عن العولمة التي اشتهر بين معارفه وقرائه بأنه عاشقها، لم أكن أحسب أنه مثل الكثير عندنا، يتناول القضايا والمفاهيم الحاسمة بالحفنة أو الكبشة غير مفرق أو مميز بين دقائقها وعناصرها. ويبدو أن هذه الطريقة المشتركة في التناول بين الكثير منا وبينه، هي السمة العولمية الوحيدة التي تتحدى رافضي العولمة المتشبثين بالخصوصية والهوية، فكلنا شرقاً وغرباً سواء !.

فالمفترض أن تكون كلمة «عولمة» مصطلحاً، أي ما تصالحنا واتفقنا علي دلالته. غير أنها للأسف ماتزال لفظا أو اسما يستخدمه عابر السبيل كما يحلو له. ولا يختلف في ذلك كاتب المقال أو مؤلف الكتاب، أو الصحفي، أو رجل الشارع، أو المثقف العادي، أو حتى مؤلفو الدراما والمسلسلات التليفزيونية. ويحملونها الدلالة التي لا تكلفهم مشقة البحث والتمييز، وهي أيسر الاستعمالات حيث تصبح وصفا أكثر مسايرة للموضة «للأمركة»، أو اسما حركيا جديدا للنظام العالمي، أو عنوانا حديثا لليبرالية المتطرفة أو المتوحشة. وكأنها اسم تدليل للعالمية أو التدويل.

والكتاب الذي نعرض له ليس في الحقيقة كتاباً عن العولمة، بل هو عما أسماه «جورج بوش» النظام العالمي الجديد، وسنكتشف معا، بعد عرض أفكاره الرئيسية، الفارق الهائل بينهما.

وللمؤلف «توم فريدمان» عذره في هذا لأن مرصده الذي اختاره لتحليل «حكاياته» وتفسيرها، وكذلك موقفه الشخصي مما يدور من أحداث في العالم اليوم، يدفعانه إلى هذا الخلط. وقد أفلح في صنع خلطة تثير الاعجاب، وتبعث على المتعة بما يرويه من حكايات شائقة، ومقابلات صحفية تشبع شهية القارئ النهم للاستطلاع. بل إنه أحياناً كثيرة يبتكر حوارات خيالية بديلة بين أبطاله الرؤساء والمسئولين في كافة أنحاء العالم، ويرى أنها تكشف عن النوايا الحقيقية بأكثر مما يُعلن في البيانات الرسمية. فهو صحفي يحرر عموداً في «النيويورك تايمز» منذ عام ١٩٩٤ للشئون الخارجية.

وكان مراسلاً أجنبيا في بيروت والقدس لعشر سنوات حتى ١٩٨٨ ومراسلا دبلوماسيا ، ومندوبا في البيت الأبيض . كما عمل من قبل محرراً في القسم الاقتصادي والبزنس في الصحيفة نفسها ، ومندوبا في وزارتي الخزانة والتجارة . كما حصل على درجتي البكالوريوس والماجستير في الدراسات العربية والشرق أوسطية.

ولا يعتمد الكتاب على مصادر ، أو مراجع ، أو بحوث متأنية عميقة بقدر ما يعتمد على ربط معلوماته وتفاصيله بتشبيهات ونوادر وتعليقات يبتدرها أو يلتقطها ، وهو الأغلب والأعم ، من على ألسنة من يقابلهم ، أو من كم وفير من الحوارات التي يقتبسها من بعض الروايات أو المسرحيات الشهيرة . فهو تلميذ نجيب في مدرسة الصحافة التي يعنيها الخبر الطريف مثل نبأ الرجل الذي عضَّ كلباً . والكتاب غزير المادة في مثل هذه الأخبار! بل إن ما يضفي على أسلوبه الجاذبية والطرافة هو بعض أوجه الشبه بمقالات أحد كتابنا الفكهين ، وخاصة عندما يذكر دائماً خالته بيف مثلما يحتفى هذا الكاتب الكبير بخالته «بهانة».

والمؤلف يهودي يشيد بالفضل الذي يدين به لمعلم الدين الحاخام «تزفى ماركس» الذي ألهمه بأول مسيرة الكتاب، وخاتمة طوافه معاً، في قصتي هابيل وقابيل أولاً، ثم برج بابل أخيراً بوصفهما تفسيراً عميقا ، وموجزاً لتاريخ العالم ومستقبله .

وتقوم معظم أدلته على ما يسميه «بنظام العولمة» من واقع خبرته الشخصية في استثماراته الصغيرة التي لم يكن يجريها لولا استخدامه للانترنت في متابعة أسعار الاسهم . فالانترنت لديه هو المحرك التوربيني الذي يقود العولمة إلى الأمام « فبالانترنت نضمن أن تكون طريقتنا في الاتصال ، وطريقتنا في استثمار أموالنا، وطريقتنا في النظر إلى العالم ، خاضعة للعولمة على الدوام.» (ص ١٩٩) فالعولمة عن طريق الانترنت هي معرفة هوية المنافسين ، وهوية الزبائن ، كما يقول .

١ - ماكدونالدز تمنع الحروب!

وربما بدا حديثي متحاملا ، وهذا حق، ولكنني أشهد بأنني أقبلت على الكتاب بنية طيبة يحدوها شغف بطلب المزيد من المعرفة، إلا أن شعوراً آخر بدأ في التسلل إلى نفسي بعد طول رفقتي أو عشرتي بالكتاب.

وسأقدم عينة ممثلة لأكثر مما جاء فيه، وهي عن «نظرية» كما يسميها، وانته كما يقول «كأن الأمر أشبه بضربة صاعقة من السماء ، انطلقت من مكان ما بين ماكدونالدز في ميدان «تيانامين في بكين، وماكدونالدز في ميدان التحرير بالقاهرة ، وماكدونالدز بالقرب من ميدان صهيون في القدس، وتلك هي الفكرة أو النظرية :

«لم يحدث أن خاضت دولتان بهما مطاعم ماكدونالدز حربا فيما بينهما منذ أن افتتح ماكدونالدز في كل منهما . انني لا أمزح، إنه شيء غريب فعلاً . انظر إلى الشرق الأوسط : في إسرائيل الآن محلات ماكدونالدز كوشير ، وفي السعودية محلات ماكدونالدز التي تغلق خمس مرات في اليوم للصلاة ، ومصر بها محلات ماكدونالدز كما أصبحت لبنان والأردن من الدول التي توجد بها محلات ماكدونالدز. لم تحدث في أي من هذه الدول حرب منذ دخول «الأقواس الذهبية» (علامة ماكدونالدز) إليها (يبدو

أنه نسي جنوب لبنان، أو أنه يعتبره جزءاً من إسرائيل) . أين يوجد اليوم التهديد الكبير بالحرب في الشرق الأوسط؟ إسرائيل وسوريا ، إسرائيل وإيران، إسرائيل والعراق ماهي الدول الثلاث التي لايوجد بها ماكدونالدز؟ سوريا وإيران والعراق . ماذا عن الهند وباكستان؟ .. يوجد في الهند أول مطاعم لماكدونالدز بدون لحوم ، أما باكستان فهي منطقة خالية حتى الآن من الماكدونالدز ، وهو أمر خطير». (ص ٢٨٤).

وككل باحث أمين ملتـزم ذهب «فريدمان» إلى مقر الشركة في ولاية الينوي وعرض نظريته عليهم وأثبت جميع خبراء ماكدونالدز الدوليين أنهم لم يعثروا على استثناء واحد لهذه النظرية .

وتنص نظريته على أنه «إذا وصلت دولة ما إلى مستوي التنمية الاقتصادية الذي يؤدي إلي وجود طبقة وسطي تكفي لنجاح شبكة من محال ماكدونالدز بها فإنها تصبح إحدي دول ماكدونالدز. فالشعوب في دول ماكدونالدز لم تعد تحب خوض الحروب، بل تفضل الانتظار في طوابير البيرجر»! (٣١٥).

والغريب الذي يثير الدهشة أو الانزعاج في طريقة عرضه واستنتاجاته أن يحاول تأمين أو تأييد «نظريته» بتنبؤات ثبت اخفاقها في التاريخ كتنبؤ مونتسكيو في القرن الثامن عشر، وتنبؤ بول أنجل البريطاني عام ١٩١٠ عن توقف الحروب .

فقد كتب الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو أن التجارة الدولية أنشأت جمهورية كبرى دولية، توحد بين جميع التجار والأمم التي تتبادل التجارة عبر الحدود، وهو ما يؤدي دون شك إلى عالم ينعم بالسلام.

ويقول «فريدمان» أن مونتسكيو يدافع نظرية «البيج ماك» الخاصة به في قوله : من حسن حظ الإنسانية أنها في وضع يجعلها رغم ما تمليه عليها عاطفتها بأن تكون شريرة ، فإن مصلحتها تملي عليها، مع ذلك، أن تكون رحيمة وفاضلة».

ويذكر «فريدمان» بجرأة خارقة أن بول أنجل قد توصل إلى النظرية الصحيحة نفسها في قوله بأن القوى الصناعية الغربية الكبرى، أمريكا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا ، قد فقدت شهيتها في اشعال الحروب. وأنه في ظل وجود كل تلك التجارة الحرة والاتصالات التجارية التي تربط بين القوى الأوربية الكبرى في ذلك الوقت ، يكون خوضها الحرب ضرباً من الجنون. ولا أدري كيف يستقيم ذلك التنبؤ مع نشوب حربين عالميتين بين تلك القوي الكبري . ورغم ذلك يصر «فريدمان» على القول بأن «مونتسكيو» و«أنجل» كانا على صواب بالفعل ، ويؤكد إصراره، بعد أن يسقط وقائع التاريخ الفعلي ، بأن ذلك التكامل الاقتصادي يجعل الحرب أكثر تكلفة على المنتصر والمغلوب على السواء ، وأن الدولة التي تختار أن تتجاهل هذه الحقيقة مقضي عليها دون شك . ولكن هل يجسر التاريخ على أن يقف عقبة أمام نظرية ماكدونالدز؟!

بيد أن «فريدمان» يباغتنا بتناقض صارخ بعد ٢٥٠ صفحة من الكتاب، بقوله إن مطاعم ماكدونالدز لن تنجح بدون «ماكدونيل دوجلاس» مصمم طائرة السلاح الجوي الأمريكي ف - ١٥! فالعولمة، أو الأمركة في تصوره ، هي السلام، وهي الحرب معاً . وليحفظ الله أمريكا! وهي عبارة يرددها في كتابه بعد كل حكاية رومانسية عن تعايش الأجناس والشركات في الولايات المتحدة .

٢ - السيارة والشجرة

ولنعد ثانية إلى السيارة ليكساس (أو

لكزسى) وشجرة الزيتون اللتين أراد بهما أن تكونا عنونا مثيرا لكتابه الصحفى .

يملك المؤلف سيارة ليكساس، وقد قفزت الفكرة إلى رأسه عند جولته فى مصنعها خارج مدينة تويوتا التى تنتمى إليها السيارة ولكنها سيارة بأهظة الترف. فالمصنع ينتج يوميا ٣٠٠ سيارة، ويقوم بصنعها ٦٦ عاملاً فقط، و ٣١٠ إنسان آلى (روبوت). وتقتصر مهمة العمال على مراقبة الجودة، بينما ينجز الإنسان الآلى سائر العمل. بل إن سيارات النقل بالمصنع آلية دون سائقين. وقد شاهد صاحبنا ذلك منبهراً. وما لبث أن استقل القطار «الطلقة» للعودة إلى طوكيو بسرعة تقرب من ٣٠٠ كيلو متر فى الساعة. وأثناء وجوده بالقطار جذبت اهتمامه قصة إخبارية فى الصحيفة تتعلق بالتقرير اليومى لوزارة الخارجية الأمريكية، وتضمن تفسيراً مثيراً للجدل حول قرار الأمم المتحدة لعام ١٩٩٨ لحق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى إسرائيل (لم يقل وطنهم أو أرضهم التى نزحوا منها). وهنا أحس «فريدمان» بالمفارقة الهائلة: «فاليابانيون يصنعون (فى الأصل «يبنون» ولعل لها دلالة مقصودة) أعظم سيارة رفاهية فى العالم بالإنسان الآلى. (لو كان الحديث فى التليفزيون وعندنا لاختفى الصوت من الشفاه المتحركة خشية أن يكون الكلام إعلاناً للسيارة المفضلة لدى مؤلفنا!)، بينما مازال الناس الذين عشت بينهم لسنوات عدة فى بيروت والقدس يقتتلون حول ملكية شجرة الزيتون هذه أو تلك.

وتبين لى حينئذ أن السيارة ليكساس وشجرة الزيتون رمزان جيدان لحقبة ما بعد الحرب الباردة. فنصف العالم خرج من الحرب الباردة عازماً فيما يبدو على بناء سيارة ليكساس أفضل، وكرس نفسه لتحديث اقتصادياته، وتبسيطها، وخصخصتها ليتسنى له الازدهار فى نظام العولمة، على حين مايزال النصف الآخر من العالم، بل نصف بلد واحد أحياناً، أو نصف شخص واحد أحياناً أخرى، مايزال قعيد الصراع على من يملك شجرة الزيتون هذه أو تلك» (ص ٥٨ - ٦٠).

ويذكر مؤلفنا أن الصراع بين قابيل وهابيل فى سفر التكوين، بعد أن شرحه له الحاخام «ماركس»، هو الذى تجسد فى نظام العولمة الدولى السائد اليوم. (وكأننا كنا فى حاجة إلى انتظار تلك القرون الطويلة لنفهم قصة قابيل وهابيل فى هذه الحقبة الراهنة) وتلك هى دراما السيارة ليكساس وشجرة الزيتون: «فى نظام الحرب الباردة، كان التهديد الأكثر احتمالاً الذى تتعرض له شجرة زيتونك يأتى من شجرة زيتون أخرى. ويأتى التهديد من خشية أن يخرج عليك جارك، ثم يقتلع فى عنف شجرة زيتونك، ويغرس شجرته مكانها. ولم يقض على هذا التهديد اليوم، ولكنه، فى الوقت الراهن تناقص فى كثير من مناطق العالم. أما التهديد الأكبر الذى تتعرض له شجرة زيتونك اليوم فقد يأتى على الأرجح من السيارة ليكساس، أى من قوى مجهولة للسوق والتكنولوجيات تتخطى حدود الدول، وتعمد إلى التجانس وتوحيد القياس، وهى التى صنعت النظام الاقتصادى العالمى اليوم. وثمة أشياء فى هذا النظام من شأنها أن تكسب السيارة ليكساس قوة فائقة تتمكن بمقتضاها من اجتياح كل شجرة زيتون تقع فى طريقها وسحقها» (ص ٦٤).

وهنا يدفعنا الفضول لنسأل: ولكن،

ما مصير هذا الصراع فى رأى المؤلف ؟ وأين يقف منه؟ .

يجيب المؤلف فى حماس متدفق عند قرب نهاية الكتاب «إن ايجاد توازن بين سيارة ليكساس وشجرة الزيتون هو ما يجب أن يسعى إليه كل مجتمع فى كل يوم. وذلك هو ما يميز أمريكا فى أفضل صورها. فأمريكا تأخذ احتياجات الأسواق والأفراد والمجتمعات جميعاً مأخذ الجد تماماً. ولهذا فليست أمريكا مجرد بلد، إنها قيمة روحية، ونموذج للمسئولية. إنها أمة لا تخاف من الوصول إلى القمر، ولكنها مع ذلك تظل تحب أن تعود إلى المنزل لكي يجتمع شمل الأسرة. إنها الأمة التى اخترعت الفضاء المعلوماتى Cyberspace، وحفلات الشواء الباربكيو، فى الفناء الخلفى، وأيضا الانترنت، وشبكة الأمان الاجتماعى، وهيئة الأوراق المالية والبورصة، واتحاد الحريات المدنية الأمريكية ! . إن هذه المتناقضات هى ما تحتفظ به أمريكا فى قلبها، ويجب التوقف عن اتخاذ قرار تصالح إحداها على الأخرى». «إن المجتمع العالمى المزدهر هو المجتمع الذى يستطيع أن يحدث التوازن بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون على الدوام. ولا يوجد نموذج لذلك على الأرض اليوم أفضل من أمريكا. ولهذا السبب فإننى أؤمن بشدة بأنه يجب أن تكون أمريكا، فى أفضل حالاتها، اليوم وغداً، وفى كل وقت، حتى يكون فى مقدور العولمة أن تستمر. إنها يمكن أن تكون، وينبغى أيضا أن تكون منارة للعالم أجمع، فلنعمل على ألا نبدد هذا الإرث». وكانت هذه هى آخر سطور الكتاب.

٣ - «قميص الأكتاف» والقطيع الالكترونى

إن شجرة الزيتون التى تعنى مؤلفنا هى أشجار زيتون الولايات المتحدة. أما الأمم أو الدول الأخرى، فعليها أن تنصرف عن شجرة الزيتون لتنضم إلى ما يسميه «بالقطيع الإلكترونى» الذى لا يسمح بعضويته إلا لمن يرتدى السترة الضيقة الذهبية أو قميص الأكتاف الذهبى golden atraitgackek وهى السوق الحرة لأنها البديل الأيديولوجى الوحيد. فليس هناك سوى طريق واحد، وسرعات مختلفة. والاعتراف بقواعد السوق الحرة والإلتزام بها هو ذلك القميص أو السترة التى تعرف بها حقبة العولمة سياسيا واقتصاديا. وليس لدى العولمة إلا قميص القيد الذهبى.

ولقد بدأت «مارجريت تاتشر» فى إنجلترا تفصيل وحياكة ذلك القميص وروجت له منذ عام ١٩٧٩. وسرعان ما أيده «ريجان» فى أمريكا فى الثمانينات حيث أتاح لهذا القيد ولقواعد استخدامه حجماً حقيقياً حاسماً. وأصبح كما يقول صاحبنا، موضة عالمية بنهاية الحرب الباردة. ولقد حدثت «الثورتان» التاتشرية والريجانية. لاقتناع الأغلبية الشعبية فى البلدين بفساد الأساليب القديمة التى تتولى فيها الحكومات توجيه الاقتصاد. ومن هنا عمد كل منهما إلى اقتطاع أجزاء ضخمة من سلطة اتخاذ القرار الاقتصادى من الدولة، ومن المدافعين عن سياسة «المجتمع العظيم»، ومن الاقتصاديات الكينزية، وتسليمها إلى السوق الحرة. وعندما ترتدى بلادك، هكذا يقول فريدمان، ذلك القميص الذهبى، فسرعان ما تتقلص الاختيارات السياسية أمامها إلى الاختيار ما بين «البيبسى» أو «الكوكا»، أى الفروق

الضيئلة في المذاق، أو الفروق القليلة في السياسات ، أو التعديلات الطفيفة في تصميم القميص لمراعاة التقاليد المحلية .

وفي عالم أصبح فيه رأس المال متجولاً على مستوى العالم لا تستطيع أن تقرر معدلات ضريبية تختلف كثيراً عن المعدلات السائدة في الدول الأخرى، وعندما تكون العمالة متنقلة لن تستطيع أيضا أن تنحرف عن الخط الذي تسير عليه أجور الآخرين . لقد حد ذلك من القدرة على المناورة.

ويروى لنا «فريدمان» حكاية على لسان وزير مالية الهند عام ١٩٩١ : «لي صديق من دولة مجاورة أصبح أيضا وزيراً لماليتها . اتصلت به يوم توليه منصبه لأهنئه ، رد قائلاً : لا تهنئني، فإنني مجرد نصف وزير ، والنصف الآخر موجود في واشنطن». «ص ١٥٥) (والحكاية غنية عن التعليق).

وبهذا القميص يمكن الحصول على عضوية القطيع الالكتروني الذي يتكون من كل المتعاملين في تجارة الأسهم والسندات والعملة الجالسين أمام شاشات الكومبيوتر في أنحاء العالم، ينتقلون بأموالهم هنا وهناك بمجرد الضغط على الفأرة (أو الماوس) من الصناديق المشتركة إلى صناديق المعاشات، إلى صناديق الأسواق الناهضة (مثل جنوب شرق آسيا) أو الذين يجرون معاملاتهم التجارية عبر الانترنت من بدرومات منازلهم . كما يتكون ذلك القطيع من الشركات متعددة الجنسيات الكبرى التي تنشر مصانعها الآن في أنحاء العالم، وتنقلها على نحو متواصل إلى الدول المنتجة الاكثر كفاءة والاقل تكلفة . ولقد ازداد حجم هذا القطيع وبدأ يحل محل الحكومات بوصفه المصدر الأول لرأس المال اللازم لنمو الدول والشركات على السواء . وأصبح على أية دولة تسعى إلى تحقيق الازدهار في نظام العولمة أن ترتدي قميص القيد الذهبي ، وتلتحم مع القطيع الالكتروني، وتحصل الدول التي ترتدي ذلك القميص طوال الوقت دون أن تخلعه لحظة واحدة ، تحصل على مكافأتها من هذا القطيع بتوفير رأس المال اللازم لنموها . أما الدول التي لا تتحلى به ، فإن القطيع يعاقبها باجتنابها، أو سحب أمواله منها.. ويرى فريدمان أن الانضمام إلى الاقتصاد العالمي والالتحام بالقطيع الالكتروني يعادل تماما طرح الدولة للاكتتاب العام . فهو يماثل تحويلها إلى شركة عامة ، مع اختلاف واحد هو أن حملة الأسهم لم يعودوا مواطني هذه الدولة وحدهم ، بل يضاف إليهم أعضاء القطيع الالكتروني ، أينما وجدوا ولن يدلوا بأصواتهم مرة واحدة كل أربع سنوات أو أكثر بل يدلون بأصواتهم كل ساعة، وكل يوم من خلال الانترنت ، مهما يكن المكان الذي يقيمون به .

ويعترف المؤلف بأن ثمة من قابلهم يعترض على هذا القميص وذلك القطيع قائلا له: «لا تحاول اقناعنا بأنه يتوجب علينا أن نرتدي قميص القيد، وأن نندمج في أسواق عالمية . فلدينا ثقافتنا وقيمنا الخاصة بنا، وسوف نقوم بذلك بطريقتنا الخاصة وبالسرعة التي نريدها . ونظريتك فيها حتمية أكثر مما يجب. لماذا لا نجتمع معاً ونتفق على نموذج مختلف أقل تقييداً لحرية الحركة».

ويعلن فريدمان جوابه على هذا التساؤل قائلا: اذا لا أقول أنه يتحتم عليك ارتداء ذلك القميص، وإذا كانت ثقافتك وتقاليدك الاجتماعية تتعارض مع القيم

الكامنة في ذلك القميص، فإنني أشعر بالتعاطف مع ذلك. ولكن ما أقوله هو: لقد كان نظام السوق العالمية والعالم السريع والقميص الذهبي نتيجة لقوى تاريخية كبرى استطاعت بالفعل تغيير طريقة اتصالنا ، وطريقة استثمارنا لأموالنا، وطريقة رؤيتنا للعالم بصورة جذرية . فإذا كنت تريد مقاومة هذه التغييرات، فهذا شأنك أنت ولابد أن يكون شأنك . ولكنك إذا اعتقدت أن بوسعك مقاومة تلك التحولات دون أن تدفع ثمنا غاليا ، أو دون بناء سور يواصل ارتفاعه باستمرار ، فإنك بذلك تغالط نفسك».

٤ - العولمة ، وإسرائيل ، والجمهور

يرى «فريدمان» أن العولمة هي النظام الذي حل محل الحرب الباردة. فهي إذن نظام دولي مثل كل النظم السابقة . ولكن له سماته الفريدة ، أولها كما يقول التكامل الصارم في الأسواق، وفي الدول ، وفي التكنولوجيات ، على الوجه الذي يمكن فيه للأفراد في الشركات والدول من الانتقال والتجول على امتداد العالم لبلوغ مسافات أبعد، وأسرع ، وأرخص من كل وقت مضى . وفكرتها الدافعة هي الرأسمالية التي تحكمها قوة السوق الحرة القائمة على انفتاح اقتصاد كل دولة على الخارج، وإلغاء القوانين المنظمة له، وخصخصته ، ومثلها الأعلى هو ما حققته الثورتان التاتشرية والريجانية في بريطانيا وأمريكا.

كما أن لها تكنولوجياتها الخاصة ورمزها شبكة الانترنت التى توحد بين الجميع.

وإذا كانت الوثيقة التي تحدد نظام الحرب الباردة هي المعاهدة ، فإن الصفقة هي وثيقة نظام العولمة . ولن يكون سؤالنا الرئيسي متعلقاً بالأسواق التي ينبغي أن نصدّر إليها بعد أن نفرغ من تحديد السلع التي ننتجها ، بل علينا أن ندرس «الإطار العالمي» الذي نعمل من خلاله أولا ليكون سؤالنا ، بعدئذ، هو ماذا علينا أن ننتج .

وقد يتساءل القارىء عن هذا الإطار العالمي ، ولكن سرعان ما تصدمه الإجابة بأنه الولايات المتحدة الأمريكية، لأنها القوة المسيطرة الوحيدة ، وكل الأمم الأخرى، كما يقرر «فريدمان» تابعة لها بدرجة أو بأخرى. وهي اللاعب الرئيسي في المحافظة على رقعة شطرنج العولمة. (ص ٢٧) . وكما تتطلب العولمة القادرة على الاستمرار هيكلاً أو بنية مستقرة للقوة ، فلا توجد دولة أكثر أهمية لذلك من الولايات المتحدة . فكل عمليات التكامل التجاري والمالي المتواصلة ، والثروة المتولدة عن ذلك ، والانترنت وغيره من التكنولوجيات التي تصممها وتصنعها أمريكا ويحدث كل ذلك في عالم تعمل على استقراره قوة غير مؤذية، عاصمتها واشنطن (!).

وإذا كان السبب في عدم اندلاع حرب بين دولتين تنعمان بمطاعم ماكدونالدز، راجعاً إلى التكامل الاقتصادي . فإنه يعود أيضا إلى وجود القوة الأمريكية ، واستعداد أمريكا لاستخدامها ضد أولئك الذين قد يهددون نظام العولمة . «فلن تنجح اليد الخفية للسوق ، دون وجود القبضة الخفية» (أعتقد أنها لم تعد خافية).

ويقول «فريدمان» بصراحة فظة : «تسمى القبضة الخفية التي تحفظ للعالم الأمن الذي يتيح لتكنولوجيات وادي السليكون (الأمريكية) الازدهار، تسمى جيش الولايات المتحدة وسلاحها الجوي ، وبحريتها ، ومشاة أسطولها ويمول هذه

القوات المقاتلة ومؤسساتها دافع الضرائب الأمريكي . ولو كانت القوة التى تعزز أفكارنا وتكنولوجيتنا أقل شدة، لما استحوذت على السيطرة العالمية التى نملكها اليوم».

غير أن مؤلفنا ما يلبث أن يشعر بالاشفاق على أمريكا لتكبدها عبء العمل على استمرار العولمة أكثر من غيرها من الدول ، لأن ركاباً كثيرين يستقلون قطار العولمة مجاناً، مثل الفرنسيين ، فهم يركبون فوق أكتافنا في الوقت نفسه الذى يوجهون لنا الانتقادات طوال الطريق . إلا أن كاتبنا سرعان ما يهدأ غضبه من الفرنسيين وغيرهم ممن يستغلون طيبة أمريكا وكرمها، فيقول لا بأس ، فهذا جزء من المهمة أو الرسالة الأمريكية، لأنها لا ينبغى لها أن تتدخل فى كل مكان طوال الوقت. فهناك مناطق مهمة وأخرى غير مهمة على أمريكا أن تعرف كيف تحشد الآخرين للعمل فى الأماكن التى لانستطيع أو لايجب أن نذهب إليها بمفردنا (لاحظ النصاحة) ولهذا ، فإن السبب الحقيقى خلف حاجتنا إلى دعم الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، وبنوك التنمية المختلفة فى العالم هو أن تتمكن أمريكا من دفع مصالحها إلى الأمام دون أن تضع الأرواح والأموال الأمريكية فى أخطار تحدق بها على الدوام (ص ٥٧٧) (صراحة نحسده عليها ، كما نحمدها له حتى نكون على بينة من أمرنا).

وحتى لا يدفعنا الأمل الكاذب فى أن نفيء إلى ظل شجرة الزيتون فيما قد يتبقى لأهمية الهواية والانتماءات الثقافية يعاجلنا «فريدمان» بالضربة القاضية قائلاً بأن الثقافة الغالبة الخاصة بنظام العولمة ، على نقيض نظام الحرب الباردة، لابد أن تفضى إلى التجانس الذى يعنى «انتشار الأمركة بدءاً من البيج ماك والأيماك ، وانتهاء بميكى ماوس على امتداد العالم بأسره» (ص ٣١).

ولعل سؤالا مشروعاً يلح علينا ، وهو : كيف يرى مؤلفنا الليبرالى الذى عاش بيننا أكثر من عشر سنوات ، وتخصص في دراسة شئون الشرق الأوسط ، وألهمه الصراع العربى - الإسرائيلى بشجرة الزيتون التى تحتل عنوان الكتاب ، كيف يرى موقف إسرائيل ؟؟

لم يبخل علينا «فريدمان» بالإجابة التى جاءت شديدة الاتساق مع مفهومه لما يسميه نظام العولمة . فقد سأل محافظ البنك المركزى الإسرائيلى فى خريف ١٩٩٧، وكانت عملية السلام فى حالة ركود ، «كيف يتأتى أن تكون عملية السلام فى هبوط والاستثمار الأجنبى فى صعود؟؟» وجاءت الإجابة من خلال الحوار بحيث توصل «فريدمان» إلى أن إسرائيل تتحول الآن سريعا عن سياستها الاقتصادية القديمة التى كانت تقوم على تصدير البرتقال والماس والمنسوجات، إلى اقتصاد التكنولوجيا المتقدمة التى جعلت من إسرائيل أقل ضعفا أمام الضغوط السياسية العربية ، والمقاطعات والتذبذبات صعوداً وهبوطاً فى عملية السلام. ولذلك طورت ، واخترعت ، وأنتجت الكثير من أدوات التشفير المتصلة بالانترنت والخاصة بتأمين المعلومات فى معهد تكنيون ومعامل الجيش الإسرائيلي. ولا يمكن بطبيعة الحال الحصول على تلك المنتجات من أية دولة أخرى . ونتيجة لذلك تأتى الدول إلى إسرائيل لتخطب ودها مهما يكن من أمر عملية السلام. وكذلك فإن اليابان نفسها تتلهف على إنتاج شركات

البرمجيات الإسرائيلية .

ويردد فريدمان بإعجاب ما قاله أحد الاقتصاديين الإسرائيليين : إذا كان عندك التكنولوجيا التي يريدها الناس ، فليس هناك من يعبأ بما إذا كنت تضطهد الفلسطينيين أم لا». ! (ص ٣٢٩)

فاستثمار التكنولوجيا المتقدمة في إسرائيل استثمار في البشر ، وقوة العقل (ما شاء الله!)، وليس استثمارا في المصانع الذي يمكن لأعدائها تدميرها بسهولة. كذلك لا تصدر إسرائيل التكنولوجيا المتقدمة إلى جيرانها التي تعاني التوتر في علاقاتها بهم، بل إلى الأسواق البعيدة في آسيا وأوروبا وأمريكا فهي من ثم قوية إزاء التقلبات السياسية في المنطقة.

ويبشرنا المؤلف الغيور على إسرائيل بأنها ستغدو أقوى فأقوى، لأنها باقتصادها الذي اختار الازدهار وأصبح قادراً على تجميع المعرفة ورأس المال والموارد من أنحاء العالم، لن تكون مقيدة أو مهددة بحجمها إذا ما قورنت بالبلاد العربية التي لا تملك ما تقدمه العالم سوى اليد العاملة الرخيصة ، أو البترول ، وهو مما يجعلها رهينة قوة العمل وأسعار البترول .

ويواصل المؤلف تحيزه وثناءه على إسرائيل قائلاً : لقد كان هناك على مر التاريخ قوتان نهريتان في الشرق الأوسط ، مصر على ضفاف النيل، والعراق على ضفاف دجلة والفرات . ولكن سيشهد القرن الواحد والعشرين قوة نهرية ثالثة هي إسرائيل على ضفاف نهر الأردن ، لأنها ستكون قاطرة التكنولوجيا المقدمة التي ستجذب معها الأردن والفلسطينيين (لم يقل فلسطين) ... ويكاد المؤلف يصفق اعجاباً وهو يهتف · «إنها مجرد بداية» (ص ٣٣١).

وعلى أية حال، فالمشاركة في الاقتصاد العالمي اليوم ، كما يقول ، أشبه بقيادة سيارات السباق التي تزداد سرعتها يوما بعد يوم . وسوف نجد دائما بعض المتسابقين وقد اصطدموا بالجدار وتحطمت سياراتهم ، ولا سيما إذا كانوا ممن يركبون الحمير حتى وقت قريب (ولا أدري إن كان فريدمان يقصد مواطنينا بوصفهم قادة الحمير ، أم الحمير نفسها!).

٥ - النظام العالمي والعولمة

ينبيء الكتاب بجلاء عن نوعية الجمهور الموجه لهم لقراءته ، فهم الأمريكيون دون ريب ، لأنه يتحدث طوال الكتاب بصيغة المتكلم الجمع، نحن ، أي الأمريكيين . أما المخاطب الأمريكي الذي يعنيه فهو المستثمر . فالكتاب كله يمكن أن يتخذ عنوانا أكثر اشارة إلى محتواه ، إذا كان : «دليل المستثمر الذكي للربح الوفير». وذلك باستخدام التكنولوجيا المتقدمة وخاصة الانترنت، حيث يعلن أن رقائق الكومبيوتر هي الفارس الوحيد في الاقتصاد العالمي ، والسياسة العالمية على السواء.

وليس من قبيل المصادفة أن يستخدم مصطلحاً من أسواق المال لوصف منهجه في الكتاب كله ، وهوArbitrage ، أي استخلاص الربح من فوارق الأسعار في نفس الوقت ولكن في أماكن متعددة . أو الحصول على الربح من فروق أسعار الصرف في البورصة ، وهو ما يترجم عادة في كتب المالية والاقتصاد بعبارة : موازنة أسعار الصرف . وقد اختارت الترجمة البارعة مصلح «المراجحة». فكما يوضحه هو : «البيع والشراء في آن واحد

للأوراق المالية نفسها، أو السلع، أو لصرف العملات الأجنبية في أسواق مختلفة للافادة من فروق الأسعار، واختلاف المعلومات. ولكي تكون ناجحا أو ماهراً في ذلك، فوسيلتك أن تكون لديك شبكة متسعة من المعلومات، وكذلك من الذين يكشفون عن المعلومات، ثم تعرف كيف تركب وتؤلف بينها، مما يجلب لك الربح». (ص ٤٢)

وأكبر الظن أن ما نجح المؤلف في تركيبه هو ما يسميه في نهاية الكتاب مذهب أو نزعة الدولية الأمريكية Inter-na-tionalism (ص ٥٧٨) الذي يرادف النظام العالمي، وهو ما أسماه طوال الكتاب بنظام العولمة، ويرى أن على الإدارة الأمريكية، أيا كان الحزب القائم في السلطة أن تبدأ في محاولة جمع أنصار العولمة الجدد معاً بدءا من واضعي البرمجيات إلى العناصر النشطة كحقوق الإنسان، ومن مزارعي ولاية أيوا إلى الناشطين من أنصار البيئة، ومن المصدرين للسلع الصناعية، إلى عمال خطوط تجميع التكنولوجيا المتقدمة، وذلك لتشكيل ائتلاف جديد للقرن الواحد والعشرين يؤازر مواصلة «النزعة الدولية الأمريكية». ولن يتيسر ذلك إلا إذا امتنعت أمريكا عن الانصراف عن رسالتها بوصفها الدولة الوحيدة المسيطرة، النافعة، والمحققة للاستقرار. فإذا أسرفت أمريكا في الاعراض عن هذه المهمة، فسيتهدد استقرار النظام بأسره. ولن يستطيع نظام العولمة الصمود دون سياسة خارجية أمريكية فعالة وسخية. (ص ٥٧٩).

ويؤكد «فريدمان» أن العولمة في تصوره لا مكان فيها لطريق ثالث، أو دولة رفاهية مثلما كانت الدول الاسكندنافية، أو لحماية الضعفاء، أو الأمان الاجتماعي، فالقطيع الإلكتروني يركض غير عابيء بمداهمة كل ذلك في طريقه.

ما الجديد إذن في هذا الكتاب؟ أو ماذا يبقى منه إذا ما وضعنا حكاياته وأخباره جانباً؟ ستبقى فكرته الأساسية البسيطة جداً والقديمة جداً، وهي النزعة الرأسمالية الليبرالية ذات الصبغة الداروينية الفاضحة. فالبقاء للفائز الذي يستولي على كل شيء» كما يقول. وبدلاً من المفهوم التقليدي «للإنسان الاقتصادي» حل مفهوم «المستثمر» حيث يعلن دوماً أن نظام العولمة لا يعنيه توزيع الدخل بل توليده فقط. ويضاف إلى هذه النزعة القديمة، تفاؤله الصاخب بسيادتها بعد أن خلت الساحة لأمريكا من أعدائها الأيديولوجيين.

ولأن العولمة مصطلح جديد رشيق، فقد ألصقها بالفكرة القديمة، وقد اطمأن لنهاية الحرب الباردة. فالعولمة عنده ليست نسقاً جديداً للعلاقات بين البشر، أو نموذجاً مختلفاً عما سبقه من نظم عالمية، بل هي مجرد وسيلة تكنولوجية، وهي مجموع الأدوات اللاسلكية، لا يختلف عن سائر الوسائل السابقة إلا في الدرجة.

وهو لا يميز بين العالمية والعولمة، كما يتجلى ذلك في حديثه عن النزعة الدولية الأمريكية، أو التدويل، ولذلك أحكم الوثاق بين العولمة وأمريكا دون أدنى جهد في البحث والدراسة. ولهذا يسميها دائماً نظاماً جرياً على ما ألفناه من تعاقب النظم العالمية التي تسيطر فيها دولة على دول أخرى. ومن ثم يتوزع

العالم إلى مركز وأطراف، وينقسم إلى هيمنة وتبعية. فالاقتصاد العالمي أو الدولي هو بين دول قومية . وكل ما أسهب في بيانه في كتابه هي معالم نظام اقتصادي بين دول قومية inter- national وهو النظام الذي مايزال غالبا مسيطراً . وتكون فيه الدول مجموعة من اللاعبين المتنافسين المتصارعين والمتحالفين .

أما العولمة globalization فلها شأن آخر. وينبغي ألا نخلط بينها وبين العالمية أو النظام العالمي الجديد الذي تعلقت جدته بانفراد أمريكا بالهيمنة .

كما لا ينبغي أيضاً ألا ننحرف إلي الاعتقاد المتحمس بأن ما يوجد الآن هو العولمة، وقد استقرت معالمها ، واكتملت عناصرها.

فالعولمة هي الوضع الذي تهيمن فيه القوانين الاقتصادية على السلطة السياسية دون أن تضمن سريانها دولة ما. ويختلف هذا تماماً عن «الأمركة» لأن أمريكا نفسها في طريقها، ليس في القريب العاجل ، إلى الزوال مع ذبول كل سلطات الدولة على امتداد العالم كله .

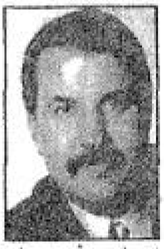
وترجع العولمة ، إن حدثت ، إلي سيطرة الشركات «المتعدية» الجنسيات أو القوميات Trans-National وليس الشركات «المتعددة» الجنسيات Multi nationl لأن الأخيرة لها مقارها ومراكزها في دولها ، ومازالت ترتبط بقوانينها ومصالحها.

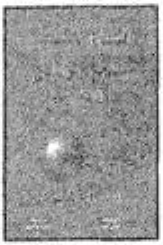
ولكن ، إذا ما تكاثرت ، وتعملقت الشركات «المتعدية» الجنسيات، فإنها تؤدي إلى اختراق العولمي لما هو قومي مما يسلم إلى تحولات فادحة في دور الشركات القومية أو متعددة القوميات ، فضلاً عن مؤسسات الدولة الراهنة. وسيؤثر هذا بدوره على سائر المجالات .

ولئن لم تستكمل العولمة الاقتصادية مؤسساتها بعد، فإن الأدوات العولمية التكنولوجية تواصل نفوذها وتأثيرها في الجوانب الثقافية رغم ما يبرز في مواجهتها من نتوءات المقاومة التي تتمثل في جيوب النزاعات العرقية والدينية.

ومتى استطاع الاقتصاد العولمي، بالمعنى الذي أسلفناه ، استكمال انتشاره وتغلغله بالشركات «المتعدية» القوميات ، فإن الأدوات العولمية ، المتاحة اليوم، تكون قد مهدت السبيل لحقبة العولمة الحقيقية على كافة المستويات.

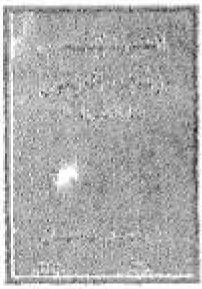
ولست على يقين من تحقيق ذلك في المدى القريب ، غير أنني على ثقة أن كتاب فريدمان سيصبح كالنكتة القديمة، ويطرح من أرفف المكتبات ، ليثوى على أرصفة سور الأزبكية.


توماس فريد مان


غلاف الكتاب

تسويق و«تزويق» العولمة

مراجعة نقدية لكتاب «توماس فريدمان» : السيارة ليكساس وشجرة الزيتون





بقلم :

د. محمود عبدالفضيل

ساد خلال السنوات الأخيرة خطاب تبشيرى يروج للعولمة ومزاياها وقدرتها على تعميم الرخاء والمساواة بين البشر والاستفادة من أحدث إنجازات العلم والتكنولوجيا، من خلال ضغط المسافات و«تقريب البعيد»، بحيث تضيق الفروق بين الشمال والجنوب وبين الفقراء والأغنياء ، فى اطار مايسمى بـ «القرية الكونية». ورغم أن هناك إنجازات لا يمكن إنكارها فى مجالات ثورة الاتصالات والمعلومات، مثل الإنترنت والحاسب الآلى وثورة الإليكترونيات الدقيقة، فإن هذا التقدم فى جبهة التكنولوجيا والمعلوماتية لا يوازيه أية تقدم فى المجال الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، ولذا نجد أن «خطاب العولمة» السائد يحاول أن يركز على الجوانب المشرقة والمضيئة على صعيد الإنجازات التكنولوجية، ويحاول تجاهل أو طمس الفروق والتناقضات فى مجال التطورات الاقتصادية والاجتماعية فى ظل العولمة.

ويعتبر كتاب «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون» : محاولة لفهم العولمة، للكاتب الصحفى الامريكى «توماس فريدمان» ، الصادر فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٩، نموذجا فريدا لهذا

النهج : إذ يسعى الكتاب إلى تسويق وترويج العولة، باعتبارها طوق النجاة وطريق المستقبل لكل بلدان العالم على اختلاف مستويات تطورها ونموها. والكتاب حافل بالقصص والحواديت التى

تمتلىء بالتمجيد لآليات العولمة، وتحوى فى ثناياها التهديد والوعيد لكل من يقاوم أو يخرج عن دائرة العولمة .

وسوف نقتصر هنا على الإشارة لبعض أهم القضايا والأطروحات التى يحويها الكتاب .

معادلة «السيارة ليكساس» مقابل «شجرة الزيتون» :

فى تقدير «فريدمان» أن «السيارة ليكساس» و«شجرة الزيتون» رمزان جيدان لتناقضات العالم المعاصر. «فالسيارة ليكساس» - السيارة اليابانية الفاخرة - هى رمز السرعة والتقدم والرفاهية، وسعى الانسان نحو التقدم والازدهار والتحديث، فى ظل العولمة. بينما «شجرة الزيتون» ترمز إلى الجذور والأصالة والانتماء والتمسك بالأرض والعادات والتقاليد، فهى تمثل دفء العائلة وبهجة التفرد والاعتزاز بالنفس والأمان .

والسؤال المركزى يكمن فى كيف يمكن تحقيق التوافق بين : الإحساس بالوطن والانتماء، من ناحية، وبين السعى نحو الرقى والتقدم والازدهار والتحديث فى ظل العولمة، من ناحية أخرى، وبهذا الصدد، يحاول «فريدمان» إقامة تناقض مصطنع بين السعى للرقى والتقدم والازدهار، من ناحية، وتذويب «الهوية والانتماء» فى اطار مدارات العولمة، من ناحية أخرى، فالانخراط فى مسارات العولمة والسوق العالمية، بأى ثمن، هو الطريق الوحيد للتقدم والازدهار. بينما الاحتفاظ بالهوية، والاحتفاظ ببعض «الأسوار الحمائية»، هو طريق التخلف والاندثار .

ولا يرى الكاتب أن إقامة «التوازن الصحى» بين الاثنين قضية ممكنة.. بل ضرورية . ولكننا اذا نظرنا إلى حالة كل من «الصين» و«ماليزيا» و«الهند» ، نجد أن «حل المعادلة» كان على النحو التالى : «أن أتشبث بهوية شجرة الزيتون الفريدة البلادى، وإن أدى ذلك الى «انخفاض كفاءتى الاقتصادية قليلا» ! إذ ليس هناك حتمية أن معادلة : «قوى السوق «قوى رأس المال» + «التكنولوجيا الحديثة» (قوى العولمة)، سوف تجتاح فى طريقها كل «شجرة زيتون» وتسحقها، على نحو ما يوحى كتاب «فريدمان» ، ليبث الرعب فى القلوب» .

عصا العولمة التأديبية :

لم يعد «صندوق النقد الدولى» ذلك الجهاز الذى يتحكم فى مقادير بلدان

العالم الثالث في ظل العولمة ، إذ إن هناك قائد جديد للأوركسترا في أسواق المال الدولية يقوم بحبس تدفقات الاستثمارات والأموال عن البلدان التي «تسير على العجين ولتخبطه»! وأن هيئة الأركان الناشئة، التي تدير أسواق المال العالمية هي: وكالات التقييم والتصنيف الدولية (credit - rating agencies)، التي تصنف الاقتصادات النامية وتعطيها درجات مثل «التلاميذ» A, B, C† وبشرطة وبشرطتين. وبالتالي فهي «تخفض» من تشاء و«ترفع» من تشاء من اقتصادات بلدان العالم النامي، حسب درجة الانصياع لقواعد وآليات العولمة .

ولقد بدأنا نسمع في التسعينات عن تلك المؤسسات والوكالات الجديدة التي نصبتها دوائر رأس المال العالمي، كشرطي المرور، الذي يضيء «الضوء الأحمر» و«الضوء الأخضر» وقلما «الضوء البرتقالي»، أمام تحركات الأموال وتدفقات الاستثمارات «عبر بلدان العالم». وأصبح اليوم هناك دور كبير ومغالى فيه لتلك «المؤسسات التقييمية» ، وعلى رأسها:

● ستاندرد آند بورز

● موديز

● أبيكا

ويسوق «فريدمان» مثالا مهما وناصعا، يوضح أهمية الدور الخطير الذي تلعبه تلك «المؤسسات التقييمية» في ظل نظام العولمة. فعندما أجرت الهند، تجربتها النووية أخيرا بتفجير قنبلتين، يقرر «فريدمان» من خلال ثنائية «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون» : «أنه على الرغم من أن دوافع شجرة الزيتون الهندية تفوقت فيما يبدو على حاجاتها للسيارة ليكساس فإنه عندما يحدث ذلك في ظل نظام العولمة في يومنا هذا، يكون له دائما ثمن غير ظاهر على المدى البعيد».

ثم إذا به يميط اللثام عن ذلك «الثمن غير الظاهر» الذي دفعته الهند. ففي أعقاب إجراء التجارب النووية الهندية، قررت «وكالة موديز» خفض تصنيف الاقتصاد الهندي من «مرتبة الاستثمار» التي تعني أنه اقتصاد آمن للمستثمرين العالميين، الى «مرتبة المضاربة»، التي تعني أن هناك مخاطر تحيط بالاستثمار في الهند. كما غيرت وكالة «ستاندراد آند

بورز» للتصنيف الاقتصادى تقريرها عن «الاقتصاد الهندى» من «مستقر» الى «سلبى». وذلك من شأنه أن يؤدى الى أن تدفع أى شركة هندية تحاول اقتراض اموال من الأسواق الدولية «أسعار فائدة» أعلى، وبالتالى ترتفع تكلفة الاقتراض من أسواق المال العالمية بالنسبة للاقتصاد الهندى.

وهكذا فإن «نظام العولمة» الذى يتم التبشير له، له جهاز شرطة خاص به يرصد تحركات الذين لا ينصاعون انصياعا كاملا «لقوانين العولمة» ، ويبادر بالقيام بعمليات التأديب الاقتصادية اللازمة. ويقطع عنهم «النور والمياه» ليعوق مسيرة التنمية «بالشروط الوطنية». وهل هناك تخويف وترهيب اكثر من ذلك!

وهكذا أصبحت «وكالات التقييم» الدولية (rating agencies)، تحل محل «وكالات المخابرات» (intelligence agencies) في تأديب الحكومات في بلدان العالم الثالث، وإسقاطها عند اللزوم .

القطيع الإليكتروني و«مراعي العولمة» :

تتمثل الرسالة الأساسية لكتاب «فريدمان» فى المقولة التالية : «إن العولمة ليست اختيارا .إنها حقيقة اليوم. لا يوجد سوى سوق عالمية واحدة الآن، والطريقة الوحيدة التى تستطيع أن تنمو بها بالسرعة التى يريدها شعبك هى بالانفتاح على أسواق الأسهم والسندات العالمية، وبالسعى إلى الشركات متعددة الجنسية لكى تستثمر فى بلادك» (ص ١٦١ من الطبعة العربية) . وتلك مقولة نسمعها تتردد كثيرا فى بلادنا خلال السنوات الأخيرة .

ولكن تلك السوق العالمية هى فى تقديره، «قطيع إليكتروني» من المستثمرين متعددى الجنسية ومجهولى الهوية فى الأسهم والسندات والعملة، متصلين ببعضهم البعض بالشاشات والشبكات، وإن مراعى القطيع الآن باتساع ١٨٠ دولة. (ص ١٦٢ من الطبعة العربية). ولذا فإن المطلوب هو مزيد من فتح الأبواب والأسواق والحدود أمام «القطيع الإليكتروني» لكى يمرح بلا ضوابط أو قيود .

ويحاول «فريدمان» أن يوهمنا أن مايسميه «القطيع الإليكترونى» مجهول الهوية، والجنسية! وكأن هذا «القطيع»

ليس له رأس مدبر وموجه. وفي مكان آخر من الكتاب، يناقض نفسه بنفسه عندما يتوجه «فريدمان» بالحديث الى «مهاتير محمد» رئيس وزراء ماليزيا ، المتمرد على قواعد العولمة ، ويهدده بالقول : « لا تطلب الرحمة من القطيع . ولا تندد بالقطيع وتقول إنها «مؤامرة يهودية » ولكن عليك فقط أن تنهض وتزيح الأتربة عن ملابسك ، وترتدى قميص القيد الذهبي أضيق قليلا وتعود مرة أخرى الى أحضان القطيع »

«إن نظم الحكم الديمقراطية تصوت على سياسات الحكومة مرة كل عام أو أربعة أعوام . (ص ١٦٢ من الطبعة العربية).

ورغم إصرار «فريدمان » على أن «الدول لا تستطيع أن تحقق الازدهار في عالم اليوم ما لم تلتحم بالقطيع الإليكتروني » ، فإنه يعود ليؤكد أن تلك البلدان : «لن يكتب لها البقاء ما لم تتعلم كيف تحصل على أفضل ما يمكن من هذا القطيع بدون أن تنسحق تحت أقدامه أو تصدمها اندفاعته العارمة المحتومة .. إذ إن هذا «القطيع الإليكتروني» يشبه تماما سلكا كهربائيا يمر به تيار ذو فولت مرتفع يصل إلى داخل بيتك في الأوقات العادية يمكن أن يدفئك . ويضيئ لك المنزل ، ويوفر لك الكثير من احتياجاتك من الطاقة. ولكن إذا لم يكن لديك منظم التيار الكهربائي السليم والأدوات الواقية من الاندفاع العارم ، ثم حدث اندفاع عارم أو هبوط مفاجئ ، فقد يصعقك ، أو يقليك حتى تصبح هشا ويتركك جثة هامدة» (ص ١٦٤ من الطبعة العربية) .

وتلك بالتحديد هي القضية التي تصدى لها «مهاتير محمد » في ماليزيا ، أي البحث عن «منظم » يحد من اندفاعات وغارات ذلك «القطيع الإليكتروني » ، الذي تحركه هيئة أركان في نيويورك ، ولندن ، وزيورخ ، وباريس فلماذا كل هذه الغضبة على «مهاتير محمد » الذي حاول حماية اقتصاده من غارات «القطيع الإليكتروني» الهائج !

ويرى «فريدمان » أن «القطيع الإليكتروني» يتكون من مجموعتين رئيسيتين :

(أ) مجموعة منها أطلق عليها اسم «الماشية قصيرة القرون » ، وتضم هذه المجموعةُ كل من يشارك في عمليات بيع

وشراء الأسهم والسندات والعملات في أنحاء العالم ، وهم يستطيعون دائما الكر والفر بأموالهم هنا وهناك في المدى القصير جدا . وهم تحديدا : المتعاملون في العملة ، والصناديق المشتركة وصناديق المعاشات الرئيسية ، وصناديق «التحوط» ، وشركات التأمين ، وغرف التجارة المصرفية والمستثمرون الأفراد . ولا بأس بهذا التوصيف ، ولكن «فريدمان» لا يحدثنا عن من ذا الذي يقود ذلك «القطيع الإليكتروني» قصير القرون؟!

(ب) أما المجموعة الأخرى ، فيطلق عليها «فريدمان» اسم «الماشية طويلة القرون» ، وتتمثل في «الشركات الدولية الكبرى» متعدية الجنسية - مثل شركات جنرال إليكتريك ، أو جنرال موتورز ، أو أى بى إم ، أو إنتل ، أو سيمنز - التي تتزايد مساهمتها في الاستثمارات الأجنبية المباشرة ، أو بناء المصانع حول العالم ، أو إبرام صفقات أو تحالفات إنتاجية طويلة المدى مع مصانع حول العالم لصنع منتجاتها أو تجميعها . وهي شركات عليها تقديم التزامات طويلة المدى عندما تستثمر في دولة ما ، ولكنها مع ذلك أصبحت اليوم تتحرك دخولا وخروجا مثل القطيع بسرعة تثير الدهشة» (ص ١٦٥ من الطبعة العربية)

والحقيقة أن تلك السرعة تثير «الخوف» ، من إعادة توطين أنشطة الشركات الدولية بين الدول ، حسب المصالح العليا لتلك الشركات ، بغض النظر عن انتظام واستقرار عمليات التنمية في البلدان المستقبلة والمضيفة لتلك الاستثمارات .

«الديمقراطيات الثلاث» في ظل العولمة :

يتحدث «فريدمان» في كتابه عن «الديمقراطيات الثلاث» : (ص ١٢٠ من الترجمة العربية)

- ديمقراطية التكنولوجيا (أجهزة كمبيوتر منزلية للجميع)
- ديمقراطية التمويل (بطاقات الائتمان للجميع)
- ديمقراطية المعلومات (الإنترنت للجميع) .

بيد أن تصوير الأمور على هذا النحو المثالي (أو «الطوباوي») هو نوع من التدليس على القراء ، خصوصا في بلدان العالم الثالث . لأن المؤلف يحاول أن

يوحي للقـراء أن مـعظم المواطنين فى بلدان العـالم الثـالث ، يتمـتعـون بنفس التسهيلات التى يتمتع بها المواطنون فى الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة ، وبلدان العالم الأول عموما .

ولحسن الحظ ، فإن التـقـرير الدولى للتنمية البشرية لعام ١٩٩٩ ، الصـادر عن برنامج الأمم المتـحـدة للإنماء (UNDP) قـد سلط الضـوء على بعض التناقـضـات والمفـاوضـات الاقتصادية والاجتماعية الصارخة فى ظل العولمة ، كما تبدو فى العام الختامى للقرن العشرين . ولعل أهم المفارقات فى مـجـال احـتكار منجزات التكنولوجـيـا والثقافة :

- تمتلك الدول الصناعية نحو ٩٧ ٪ من براءات الاختراع فى العالم اليوم .

- تحتكر الأفلام الأمريكية ٧٠ ٪ من جملة السوق الأوربية ، ٨٣ ٪ من جملة السوق الأمريكية اللاتينية .

- يكاد يكون اسـتـخـدام شـبكة الإنترنت مـقـصـورا على الأشـخـاص البيض، وعلى المتعلمين بشكل جيد ، فضلا عن أن أكثر من ٨٠ ٪ من جميع المواقع الموجـودة على الشـبكة مكتـوبة «باللغـة الإنجليـزية» ، على الرغم من أن عدد الناطقين بها يشكل واحد مقابل كل عشرة على مستوى العالم أجمع .

- يبلغ عدد أجهزة الكمبيوتر الموجودة حـاليـا لدى الولايات المتـحدة وحدها مـا يفوق مجموع أجهزة الكمبيوتر لدى بقية دول العالم بأكمله .

- يقل عدد مستخدمى شبكة الإنترنت فى منطقة جنوب آسيا ، التى يعيش بها نحـو ٢٣ ٪ من سكان العـالم ، عن ١ ٪ من إجـمـالى مـسـتـخـدمى الشـبكة على مـسـتـوى العـالم كله . وفى دولة مـثـل بنجلاديش ، قد تصل تكلفة شراء جهاز كمبيوتر شخصى واحد إلى ما يوازى دخل المواطن خلال ثمانية أعوام كاملة ، فى حين يسـتطيع المواطن الأمـريكى شراءه من دخله فى شهر واحد .

«ثـوار العـولـمـة» والديمقراطية الجديدة «!

يشير «فريدمان» الى قضية مهمة وخطيرة، إذ يشير إلى إن الانضمام إلى الاقـتـصـاد العـالمى والالتـحـام بالقطيع الإليكـتـرونى يعـادل تمامـا طرح دولتك للاكتـتـاب العام . إنه شئ يعادل تحـويل بلدك إلى شركة عامة ، مع اختلاف واحد

هو أن حملة الأسهم لم يعودوا مواطنى بلدك وحدهم . إنهم أعضاء القطيع الإليكترونى، أينما وجدوا. وكما ذكرت سابقا ، إنهم لن يدلوا بأصواتهم مرة واحدة كل أربع سنوات ، إنهم يدلون بأصواتهم كل ساعة ، وكل يوم من خلال صناديقهم المشتركة ، وصناديق المعاشات، وسماسرتهم ، وأكثر فأكثر ، وذلك عبر الإنترنت وهم قابعون فى بدرومات منازلهم (ص ٢٢١ - ٢٣٢ من الترجمة العربية) ووفقا لهذه الرؤية ، أصبح ذلك «القطيع الإليكترونى» يتحكم فى مصائر الشعوب والحكومات .

ويراهن «فريدمان» على الجيل الجديد من «الطبقة الوسطى » ، ممن يسميهم «ثوار العولمة » ؛ إذ لاحظ فريدمان أن ما يجمع هؤلاء الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين عشرين وثلاثين عاما فى صفة مشتركة هو رغبتهم فى أن يصبحوا أثرياء ، وأنهم يريدون الديمقراطية ، ولكنهم لا يريدون الخروج الى الشوارع والقتال من أجلها.

ويرى أن خير مثال لذلك هو ذلك الجيل من الإندونيسيين الذين اعتقدوا، أنه فى ظل حكم سوهارتو ، لن تحدث قط ثورة ديمقراطية من أعلى ، ولكنهم فى نفس الوقت يشعرون بالذعر من الثورة الديمقراطية القادمة من أسفل ، لأنه إذا ثار فقراء المدن ، فإن ذلك سوف يعرض أحلامهم وأوهامهم عن الثراء للخطر ولذلك كانت استراتيجيتهم تقوم على الثورة من خارج الحدود ، أو العولمة. وكانوا يأملون أنه بربط إندونيسيا بالمؤسسات والأسواق العالمية - سواء كانت منظمة التجارة العالمية ، أو بيتزاهت ، أو منتدى التعاون الاقتصادى بين دول آسيا والمحيط الهادى (أبيك) ، أو اتحاد دول جنوب شرقى آسيا (أسيان) ، أو شركة ميريل لينش ، أو منظمات حقوق الإنسان «غير الحكومية» N C O's - سوف يتسنى لهم استيراد المعايير والنظم القائمة على القواعد التى يعلمون تماما أن النظام من أعلى لن يبادر بتطبيقها ، ولا يمكن أيضا أن تنبثق من أسفل .

وهكذا كانت استراتيجية «ثوار العولمة» فى إندونيسيا باختصار هى عزل نظام سوهارتو عن طريق "عولمة المجتمع الإندونيسى" . (ص ٢٣٣ - ٢٣٤ من الترجمة العربية) .

فهل أدركنا طبيعة «ثوار العولمة » ، على الطريقة الأمريكية وأعتقد أنه لو تلفتنا حولنا هنا فى مصر ، سوف نتعرف على الكثير من «ثوار العولمة » ومعاقل هؤلاء الثوار .

مناقشة هادئة ..

تحرير المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين

بقلم : د. محمد رجب البيومى

منذ أمد غير بعيد، تحدثت إحدى الصحف اليومية عن ندوة أدبية فى منزل الأستاذ أحمد حسن الباقورى، فذكرت أن صاحب الندوة قد قرر فى حديث شامل أن الأستاذ الإمام محمد عبده هو الذى كتب «تحرير المرأة» وعزاه إلى قاسم أمين، وكنت أعرف أن الأستاذ الباقورى مريض يعانى آلام الشلل فى هذه الحقبة فاستبعدت اولا أن يصدر هذا القول من فاضل مثله، ثم عزفت ثانيا عن الرد عليه، ما دام لم يكتب مقالا بتوقيعه، وما دام الحديث المشار اليه قد تردد فى مجلس، وقد تزيد الراوى فيتحدث عما لم يكن كأنه قد كان، وهو داء قديم صرخ منه الشريف الرضى حين قال:

وهم نقلوا عنى الذى لم أفه به
وما آفة الاخبار إلا رواتها

هذه واحدة، أما الثانية فقد خرجت إحدى الصحف (الشعب) الصادرة بتاريخ ٢٩/٥/١٩٨٤ بمقال تحت عنوان «قاسم أمين دافع عن حجاب المرأة ثم تراجع عنه بعد تدخل الأميرة نازلي!» قالت فيه ما نصه:

«وقد كان هذا الكتاب ـ تحرير المرأة ـ نوعا من الاعتذار للأميرة نازلي فاضل التى اغضبها كتابه الأول، فقيل إن الشيخ محمد عبده ومحمد المويلحى وسعد زغلول اتفقوا على ان يقدم قاسم الاعتذار للأميرة نازلي، وقبلت الأميرة الاعتذار، وظل قاسم أمين يتردد علي صالونها، وكانت النتيجة أن دفع قاسم أمين الثمن غاليا، فأخذ يتجنى على الحقائق ويحاول أن يلوى عنقها حتى خرج كتابه «تحرير المرأة» الذى أقام الدنيا ولم يقعدها . حتى ترضى عنه سيدته ومولاته الأميرة نازلي وتقبله فى



محمد عبده



قاسم أمين

صالونها».

قرأت هذا الكلام المتهافت!! فعجبت أن يكون من هم محمد عبده وسعد زغلول ومحمد المويلحى أن يلتمسوا رضا الأميرة!! وأن يكون قاسم مستعدا لمخالفة رأيه كى يحوز رضاها! عجبت كيف يصدر هذا الكلام عن كاتب يعرف من هو محمد عبده ومن هو سعد زغلول، ومن هو محمد المويلحى؟ ثلاثة أعلام كبار أولهم زعيم النهضة الفكرية فى عصره، وثانيهم بطل الرأى الصريح الذى صار فيما بعد زعيم الشرق لا مصر وحدها، ومحمد المويلحى أكبر كاتب فى عصره، وقد كان كل رئيس يقرأ «مصباح الشرق» متلهفا، ومحاذرا أن يمسه قلم المويلحى فيعصف بمكانته ! هؤلاء جميعا يتآمرون «فى لهفة» على قاسم كى ينحنى اجلالا لنازلى فاضل؟! ومن قاسم البطل الذى تحدى أكبر رأس فى الدولة كما سيجىء!. ان تهافت هذا المنطق جعلنى لا أحفل بالرد عليه!! اذ لا يقوله كاتب مسئول.

وهذه ثانية . أما الثالثة، فقد قرأت فى جريدة «صوت الأزهر» وهى جريدة ممتازة أرجو لها الازدهار، قرأت بعددها الصادر فى ١٩٩٩/١٢/١٠ مقالا تحت عنوان «تصويب أخطاء حول قاسم أمين وكتابه تحرير المرأة» ذهب فيه كاتبه الفاضل إلى أن التطور الفكرى لقاسم أمين يرجع إلى اتصال قاسم أمين بمحمد عبده، والذى أدى الى اشتراك محمد عبده فى هذا الكتاب بكتابة المقالات الخاصة بالنواحى الفقهية والشرعية، والذى جعل قاسم أمين بعد ان كان محافظا على الأوضاع. والتقاليد القائمة، يتبنى فكر مدرسة الأفغانى ومحمد عبده، ويدور المقال كله على أن محمد عبده قد كتب مقالات فى كتاب تحرير المرأة، ومن مراجع الكاتب التى اعتمد عليها ما كتبته الدكتورة درية شفيق بنت أحمد شفيق باشا! فى كتابها «تطور النهضة النسائية فى مصر» حيث نصت صراحة على أن الذى شارك قاسم أمين فى هذا العمل هو محمد عبده!. أما أن درية شفيق هى بنت أحمد شفيق باشا المؤرخ المعروف فهذا من استنتاج الكاتب ليعطي مثلا واضحا لسائر ما اهتدى اليه من الاستنتاجات التى لا تقف على قدم

وساق!.

وندع الآن أمر الاميرة «نازلي فاضل» فسنتحدث عنه بعد حين لنتساءل من هو محمد عبده الذى يجبن عن نشر آرائه الشرعية فيتستر بقاسم أمين لنشرها فى كتابه تحت مسئوليته متخلصا من تبعتها وسوء تأثيرها:؟ ومن هو قاسم أمين الذى يقبل أن يضع اسمه تحت مقالات كتبها سواه؟ هما إنسانان خاملان، يخشى احدهما كلام العامة، ويحتاج الآخر الى من يهديه طريق الصواب خفية ليكون صاحب رأى مسموع؟ أهما هذان الخاملان الصغيران فنصدق كل ما يقال عنهما؟ أم هما محمد عبده وقاسم أمين ؟ وناهيك بهما!.

شجاعة خارقة

أما محمد عبده فلم تكن تنقصه شجاعة الرأى، حتى يقال أنه تستر بكاتب آخر، فقد عرفت عنه شجاعة خارقة وهو فى سن الشباب الباكر، اذ عين رئيسا لتحرير الوقائع المصرية، وكانت حينئذ تكتفى بنشر الأخبار الحكومية والمراسيم الادارية، وما يدور حول هذا النطاق، وفى المناسبات تنشر القصائد المادحة للحاكم، ولكن الشاب الناهض قبل ان يقرأ الصحف الاجنبية فطن بذكائه إلى أن الصحافة ذات رسالة توجيهية، فاختار لمعاونته طائفة من تلاميذ جمال الدين الافغانى ليكتبوا ما يرون من وجوه الإصلاح فى ضوء ما سمعوه من أستاذهم الكبير، ومنهم سعد زغلول وابراهيم الهلباوى وابراهيم اللقانى، وأعد لائحة اقرها رياض باشا تعطيه الحق فى انتقاد ما يراه مخالفا من أعمال النظارات «الوزارات» .وهذا الحق جعل محمد عبده مشرفا ولأول مرة فى تاريخ الصحافة المصرية على «النظار» أنفسهم حين يصدرون القرارات فى غير الصالح العام، وقد كان على ابراهيم باشا ناظر المعارف اذ ذاك يظن الوقائع جريدة اخبار حكومية فحسب، ففزع حين رأى الشيخ محمد عبده الشاب الازهرى الناهض ينتقده فيما أصدر من قرارات لا تتفق والعدالة، فثار كالعاصفة واتجه متعاليا الى رئيس النظار رياض باشا يخبره بغضبه الشديد على هذا الشيخ الذى يقف فى وجه قراراته. فصب عليه رياض دلوا من الماء حين اخبره ان مهمة الصحافة هى مراقبة أمور الدولة وعلى الناظر أن يراجع ما توجهه الوقائع من نقد، فإذا كان صوابا فلابد أن يلتزم به، ويعمل على تغيير الوضع، واذا كان خطأ بادر بالرد السريع لينشر فى الجريدة فى أول عدد يصدر ، وكان الرد غريبا على الباشا الذين ظن انه لا ينتقد فى شيء مهما فعل، فكيف يتطاول شيخ معمم هذا التطاول، ولم يكتف الشيخ بجريدة الوقائع حيث سمح له رياض باشا ان يراقب ما ينشر فى غيرها من الصحف الاخرى. فعرف ان جريدة تستند الى مسئول كبير ينفق على اعدادها، لتكون

لسانا ينطق بمحامده، أخذت تهمل اللغة الصحيحة في التعبير وتتورط في نشر دعابات ماجنة هي الى مجالس البطالة أقرب. فأصدر أمره «وقد صار رئيسا لقلم المطبوعات» بتعطيل الجريدة شهرا، على ان تستأنف الصدور بعد اختيار الأكفاء من المحررين، وممن ينأون عن الاسفاف، وكان القائم على الجريدة يظن انه فى حماية من ينفق عليها، فكتب مقالا ساخرا بالشيخ، واحترز ان ينشره قبل أن يقرأه سيده، فذهب اليه ليأخذ موافقته على النشر متحديا قرار التعطيل، وهنا قال له صاحبه: إن ناظر المعارف قد اجتمع بثلاثة من زملائه كي يقنعوا رياض باشا بنقل الشيخ محمد عبده الى مكان آخر، فرفض، وقال انه رجل المواقف ! ولن استطيع معه شيئا، فتخاذل المحرر، وتعطلت الجريدة أمدها المعلوم، وبدأت فسارت على النهج.

دور شجاع

وحين قامت الثورة العرابية كان محمد عبده مستقل الرأى فى بدئها، ينصح خصومها بالرفق، واجابة المطالب المشروعة وينصح الزعيم أحمد عرابى بالتؤدة، ومراعاة ظروف البلاد الخاضعة لسلطان انجلترا وجبروتها، فلما تأزم الأمر انضم إلى الثورة مع أنها لم تأخذ بزرائه وكان هو الذى كتب عريضة عزل الخديو، ليوقعها كبار العلماء واعيان البلاد، وجاهر باعلان خيانة الخديو حين استعان بالاجنبى على بنى وطنه!!. وهذه شجاعات متعددة النواحي، وتفصيلها يحتاج الى كتاب حافل، ثم انتهت المأساة فحكم على الشيخ بالمنفى ليستأنف جهادا آخر! وكان أكثر الذين ابتلوا بالنفى قد اخذوا يهادنون الانجليز والخديو كى يسمح لهم بالعفو، والرجوع الى البلاد، ولكن محمد عبده تسأله صحيفة انجليزية - وهو فى منفاه - عن توفيق، فيعلن انه خائن ، وأنه قد باع البلاد للانجليز ، يعلن ذلك وهو يعلم تمام العلم أن ذلك يعوق خلاصه من منفاه! ولكن الرجولة ذات ثمن فادح لا يقدر عليه غير العظماء!.

وحين عاد الى مصر حاول ان يكون صديقا للخديو عباس، وعرض عليه أن يتعاونا معا فى إصلاح الأزهر وهو خارج عن نطاق الاحتلال، واطمأن الشيخ لمحاولته، ولكنه وجد الخديو يريد ان يستولى على أوقاف الأزهر بمبادلة مرفوضة، فوقف فى طريقه . وبدأت الغيوم تلبد بتوالى رغبات القصر غير المشروعة حتى كان الخصام الصريح، والعداء السافر فليت شعرى أهذا البطل الصريح فى كل هذه المواقف الخطيرة فى حاجة إلى أن يصدر رأيه الشرعى من خلف ستار!.

أترك هذه المواقف السياسية إلى المواقف الشرعية ذات التأثير النفاذ، لأعلن أن الشيخ جاهر صراحة فى مقالاته وفتواه بمثل ما جاهر به قاسم قبل أن

يصدر كتابه، وبعد أن صدر وقامت عليه القيامة الهائجة، حيث أن الإمام تحدث صراحة عن تعدد الزوجات بأكثر مما تحدث به قاسم أمين، فقد كتب في جريدة الوقائع المصرية قبل أن يصدر تحرير المرأة بخمسة عشر عاما يقول إن الشريعة المحمدية اباحت للرجل الاقتران بأربع من النسوة، إذا علم من نفسه القدرة على العدل بينهن ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة، فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملن على جمعهن الا قضاء شهوة فانية، واستحصال لذة وقتية غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف. ثم قص الامام بعض ما يحصل في الأسر من المفاسد الموبقة نتيجة لتعدد الزوجات لينتهي الى قوله «فهذه معاملة غالب الناس عندنا من أغنياء وفقراء في حالة تعدد الزوجات، كأنهم لم يفهموا حكمة الله في مشروعية الزواج، بل اتخذوا التعدد طريقا لصرف الشهوة، «واستحصال اللذة لا غير وغفلوا عن المقصد الحقيقي منه وهذا ما لا تجيزه الشريعة، ولا يقبله العقل، فاللازم عليهم حينئذ اما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد، واما ان يتبصروا قبل طلب التعدد فيما يجب عليهم من شرط العدل».

هذا القول المدون في الوقائع ، وقد نقله الاستاذ محمد رشيد رضا في الجزء الثاني من تاريخ الامام ص ١٢٧ وما بعدها، قد أكده الامام في أخريات حياته بدروس التفسير بالازهر، وقال صراحة في تفسير المنار جـ ٤ ص ٣٤٩ «إن من تأمل ما يترتب على التعدد من المفاسد جزم بأنه لايمكن لأحد أن يربى أمة فشا فيها تعدد الزوجات وسبب ذلك بين عند العقل وعند التجربة ، فإن مفسدة التعدد تنتقل من الأفراد الى البيوت ومن البيوت الى الأمة بأسرها وقد بسط مايراه من تحريم التعدد بسطا شافيا، حين ربطه بالعدل، مع ان العدل ممتنع، لقول الله «ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» ولست هنا انحاز انحيازا تاما لرأى الامام فلغيره من الادلة ما يعارض به عن اقتناع، ولكني اقول: ان الامام لن يكون جبانا يتستر بغيره فينسب اليه ما يريد ان يقول، ولو وقع هذا من إنسان متحفظ يخشى العواقب، فمن المحال ان يقع ذلك من بطل شجاع!!.

وإذا كانت شجاعة الامام تأبى عليه ذلك، فإن كرامة الشجاع جريء مثل قاسم أمين تأبى عليه أن يضع اسمه تحت مقال لم يقله ، وقاسم كما نعلم أجرأ كتاب عصره على الاطلاق، وأكرمهم على نفسه الأبية ذات الشمم المرتفع! وقد كان زملاؤه المستشارون من الاجانب يهابون معارضته ويحسبون كل حساب لعقله الحر، وكبريائه المتأبية، إذ كان من العزة النفسية بالمحل الارفع ، فيـــالله أيكون مع هذا كله مستجيبا لاشارة تصدر من الاميرة نازلي

فاضل ومستجيبا لمحمد عبده وسعد والمويلحى فيمشى وراءهم الى مجلس الاميرة، وكأنه تابع صغير!.

مثل هؤلاء الذين يتوهمون ذلك فى حاجة الى ان يسمعوا ما قرره الاستاذ ابراهيم الهلباوى متحدثا عن كبرياء قاسم فى مناسبة جهيرة كانت ذات دوى رنان!.

قال الاستاذ ابراهيم الهلباوى بمجلة الهلال «نوفمبر سنة ١٩٢٣» فى حديث له عن قاسم أمين، بعد ان ذكر عداوة القصر لقاسم حيث اقفل بابه فى وجهه، فلا يحضر لمقابلة الخديو مع المستشارين زملائه كالمعتاد، جزاء وانتقاما منه لتأليفه كتاب «تحرير المرأة» قال الهلباوى:

«أذكر انا كنا - والمتحدث الهلباوى - ذات ليلة فى حفلة زواج عطية هانم الفلكى بالدكتور صالح صبحى وكانت الحفلة تجمع صفوة رجال مصر، وفى صدرهم قاسم، فإذا باكبر امراء البيت الحاكم وأخو الخديو الشقيق «الأمير محمد على» يدخل فى تلك الحفلة، ويقف له كل من بالسرادق اجلالا واكبارا، الا رجلا واحدا كان موضع انظار الجميع، حيث لم يقف لذلك الامير الذى وقف له الجميع، كان هذا الرجل قاسم أمين».

لقد دفعت كرامة قاسم أمين على نفسه إلى أن يقابل الجحود بمثله، فاذا كان القصر قد منع ان يزوره مع الزملاء. فقد رد للقصر الجزاء مضاعفا، حين نظر الامير مدهوشا الى من يجلس فى الصدر وكأنه لا يحس بوجوده! ولو كان يعلم أنه سيتلقى هذا الجزاء لامتنع عن الحفل، ولكن هذا ما كان.. بعد هذا يقال انه سعى للأميرة باشارة منها وأنه نزل على رغبة محمد عبده والمويلحى وسعد!!.

أما اختلاف وجهة النظر بين ما كتبه قاسم فى الرد على الدوق داركور وبين ما قرره فى كتاب تحرير المرأة من بعض الاحكام الشرعية فلا يقوله الا من ابتعد عن التأليف العلمى، ومعالجة القضايا الفكرية كل الابتعاد، لا يقوله الا ساذج سطحى لا يدرى ان المفكر قد يرى حكما فى مسألة فيسطره ثم يعن له رأى اخر فيميل اليه لوضوح أدلة لم تكن لديه من قبل! إن تلاميذ القسم الابتدائى بالأزهر يعرفون ان الامام الشافعى حين حضر الى مصر رجع عن كثير من أقواله التى قالها بالحجاز والعراق، اذ بدا له من اوجه النظر ما جعل مؤرخيه يتحدثون عن المذهبين، القديم قبل مصر، والحديث بعد الحضور اليها! لقد صار هذا الاختلاف بابا من أبواب التقدير للشافعى رجع عن رأى بدا له فيه اتجاه اخر، فأفتى بما قام عليه الدليل، فهل نبحث هنا عن سيدة مصرية أوحت للشافعى باشارة منها ان يترك بعض ما ذهب اليه من قبل، لان الاختلاف فى نظر هؤلاء مستحيل!.

هجوم ظاهر

لقد قرأ قاسم كتاب الدوق داركور فرأى صفحات من التجنى على المصريين

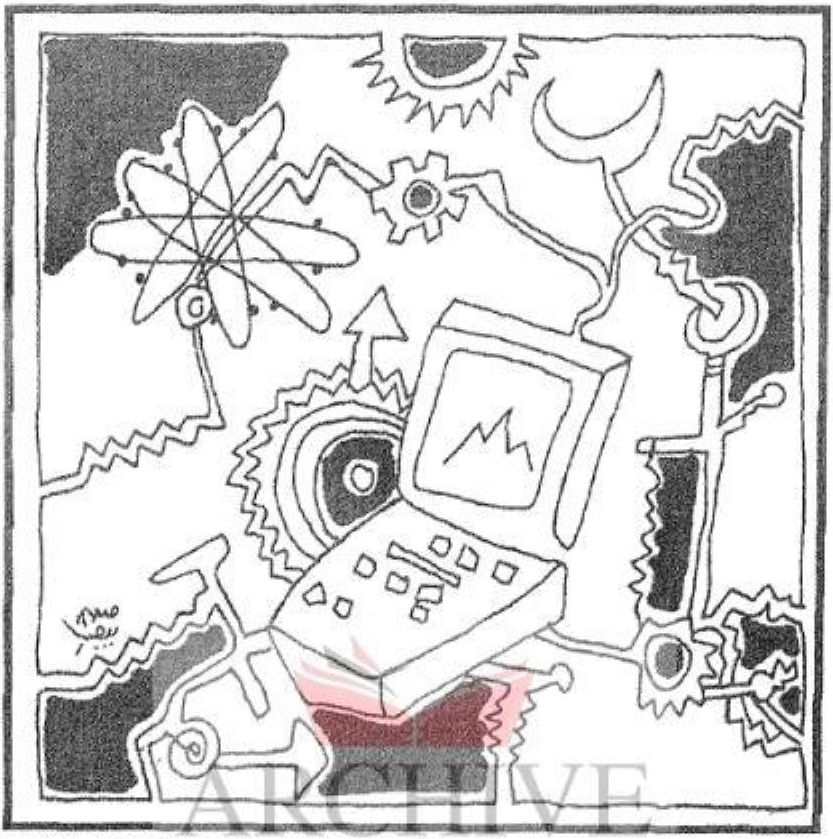
فهم فى انحطاط دائم لان دين الاسلام هو سبب هذا الانحطاط حيث لا يحض على البحث، اذ يعتقد المسلمون ان القرآن قد حوى كل شيء فلماذا نبحث، لذلك احرق عمر مكتبة الاسكندرية، والمرأة سجينة لان الاسلام افقدها حريتها، ولولا الذين دخلوا فى الاسلام من غير العرب ما عرف العرب التمدن لانهم بدو صحراويون.. هجوم ظالم كتبه اجنبى لا ليصف واقعا شهده، بل ليدفع فرنسا الى المشاركة فى نهب هؤلاء الكسالى، كما ينهبهم الانجليز هذه هى الروح التى املت على الدوق بحثه الظالم واكاد اقول بحثه السفيه، لولا ان اخلاق الاسلام التى يجهلها هذا الظالم تحتم علينا ان نجادل بالتى هى احسن، وقد قرأ قاسم ما كتبه هذا المفترى فاندفع الى الرد على ما قاله بلغته الفرنسية، ليثبت لقومه ان الدوق خاطىء مخطىء معا! وقد كان، ومما دفع به ان افرد للمرأة فى مرآة الاسلام صورة زاهية استمدها من القرآن والشريعة لا كما هى الآن فى تأخر وانكماش لا ذنب فيهما للاسلام.

لم ينته قاسم عند هذا الحد، ولكنه أمعن فى البحث فرأى ان المرأة سجينة على غير ما يدعو الاسلام، وان من واجبه ان يحررها مما يكبلها من الاغلال، فكتب الكتاب «تحرير المرأة» ليرجع بها الى حياة هى الاصيلة العريقة فى تاريخ الدعوة الاسلامية حين كانت المرأة ذات حرية نيرة فى عصر النبوة وما تلاه من عصور ساد فيها منطق الاسلام، ومضى يتحدث عن الحجاب، كما هو فى صميم التشريع لا كما يفرض على المرأة الآن. واستعان بآراء الفقهاء، فوجد ما يهديه وافاض فى حكمة تعدد الزوجات عند اللزوم مؤكدا ان تعدد الزوجات فى الاسلام خير من اتخاذ الخليلات فى اوربا، هذا الذى ينتج عنه اطفال بلا آباء، ويترك زوجات بلا ازواج، ويطبع جانبا من المجتمع بطابع الجريمة، ثم نادى بتعليم المرأة وتثقيفها، وهذا كله على هدى من قراءته المتأنية البصيرة، فلو وجد اختلاف ما بين ما كتبه فى الرد على الدوق داركور وما كتبه فى تحرير المرأة فهو ثمرة البحث المتواصل، والنظرات المتتابعة، وقانونى كبير مثل قاسم لابد ان يفهم من النصوص بتتابع النظر ما كان غائبا عند النظرة المتعجلة وقد قام العقلاء بتأييده ونشرت مجلة «المنار» وهى اعلى المجلات الاسلامية حينئذ صوتا، وأوسعها انتشارا ما يبارك منحاه فأين من هذا ما اندفع فيه مهاجموه.

بقيت فرية تأثير الاميرة نازلى فاضل على محمد عبده وسعد زغلول، والزعم انهما صحبا قاسم امين الى ندوتها فأظهر الامتثال! بقيت هذه الفرية لنذكر الحقيقة التى غابت عن الاذهان . فان الاميرة من بيت محمد على، وكان جدها مرشحا لولاية مصر باعتباره اكبر اعضاء

الاسـرة العلوية سنا، لولا ان الخـديو اسماعيل سعى لدى السلطان كى يجعل ولاية العـهـد فى بنيـه ، وبذل من المال ماساعده على ذلك، فامتدت الجفوة بين ذوى القـربى، وشبت الامـيـرة وهى تعلم مكانها من الحكم المغتصب، وكان الخديو عباس يقاسمها العداء لانه يعرف حقيقة شعورها نحوه، كما ان اتصالها الوثيق باللورد كرومر قد ساعد على امتداد هذه الجـفـوة بحيث اصبح صـالون الامـيـرة مصدر قلق للخديو عباس، وقد عملت على ازكاء غضبه . فاكثرت من صلاتها بكبار الانجليـز فى الخـارج والداخل وكـان اتجاهها سياسيا، اما الامام محمد عبده فقد كان رافضا لسلكها السياسى حيث يرى ان تتجه الى اصلاح المجتمع لا الى الاحتكاكات السياسية عديمة الجدوى، وفى مجلة الصباح المصرية الصادرة فى ١٩٥٠/٧/٢١ ، حديث من الامام محمد عبده يعلن فيه مخالفتها فى نهجها السياسى وقد قال فيما قال نقلا عن مجلة «الصـبـاح» وهذه الأمـيـرة قـادرة على تأسيس عمل يفيد تهذيب البنات ، فان من حولها من الفتيات الغنيات ينفقن نفقات كثيرة اسرافا وتبذيراً . ولو انها حملتهن وامثالهن من النساء على انشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن واستحضرت لهن معلمات من استانبول وسوريا، لكان ذلك خـيـر عمل تعمله. ولطالما ذكرتها بهذا المعنى، وخطأتها فى الاشتغال بالسياسة، وكـان يسـوؤها هذا منى، لان النسـاء ولاسيما الاميرات يحببن الطاعة وعدم المعارضة لهن فى آرائهن ، وأنا لا أجاريها فى احاديثها السياسية فتغضب، واذا حضر مجلسها غيرى وتكلمت معه، كأنها لا ترضى أن اكون ساكتا، فتحملنى على المشاركة، وانا لا احب ان اجاريها فى شىء أعتقد خطأها فيه، وقد قلت لها يوما! ان سكت لا ارضيك وان تكلمت لا ارضيك فكيف العمل؟.

ماذا نأخذ من قول الامام، نأخذ منه ان الاميرة ذات ميول سياسية ترجع الى مكانها من الاسرة الحاكمة والى حق جدها المغتصب ، ولم يكن من همها صلاح المرأة وتربيتها وهى لم تسمع الى نصيحة الامام حين وجهها هذه الوجهة الاجتماعية افتكون مثل هذه الاميرة حريصة على تحرير المرأة، ودافعة قاسم امين الى كتابة مؤلفه ، وليس فى بالها شىء ما عن مصر والمصـريات!! واذا كـان من الخطأ ان نتحدث بما نسمع دون تمحيص فان من اكبر الخطأ ان نكتب وننشر ما نسمع دون تمحيص لان دائرة القراء تتسع الى حيث تنتشر الأراجيف وتسود الاوهام ولهذا كتبت هذه الخطرات.□



فى عام .. فى قرن .. فى ألفية

الانجلو سكسون يعتبرون أنفسهم إسرائيل الحقيقية!

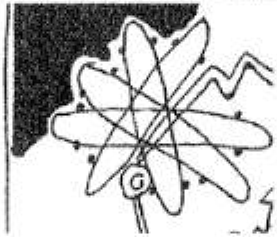
تزييف التاريخ فى كتب ومذكرات من التراث !

سيكون للكمبيوتر شخصية خاصة يحب ويكره !

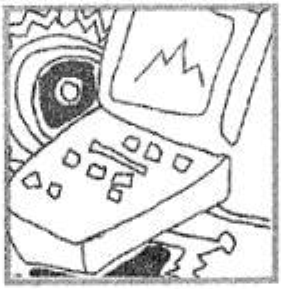
بقلم : جـــمـــيل مطر

منذ أخذ الغرب ، ومن بعده كافة الحضارات بالتقويم الجريجوري لم يحدث سوى مرة واحدة أن جاءت بداية عام جديد بداية لقرن جديد وبداية لألفية جديدة . بمعنى آخر ، يحتفل العالم وللمرة الثانية فى التاريخ المعروف بمطلع عام، هو العام ٢٠٠٠ ، وبمطلع قرن هو القرن الحادى والعشرون وبمطلع ألفية جديدة هى الألفية الثالثة ، وهى مناسبة تستدعى التأمل . وكلما تأملت كلما ازددت اقتناعا أن العام الجديد عام مختلف فى أشياء كثيرة عن أى عام آخر فى ألف عام ، بل ولعله الأشد اختلافا على مدى ألفى عام .

اعتدنا أن يأتى اليوم الأول من كل عام فنتذكر بالحديث أو بالكتابة ما حدث خلال العام الفائت ، ونتسلى تفاؤلا أو تشاؤما بما نتوقع أو ننتظر حدوثه فى العام التالى . ورغم هذه المهمة المتواضعة لكل أول يوم فى العام فقد كان له دائما مذاق خاص وكان موضوعا يستعد له الناس على أمل أن يكون بداية عام أفضل من العام الذى سبقه . كان يوماً له أهمية، فقد كان بذاته ولذاته يستحق الانتظار والاحتفال . هذه المرة يختلف الوضع اختلافا كليا . فاليوم الأول من عام ٢٠٠٠ سيكون فى نفس الوقت اليوم الأول من القرن الحادى والعشرين واليوم الأول فى الألفية الثالثة ، فعلى أى واحدة من هذه المناسبات سيركز الناس اهتمامهم بهذا اليوم ؟ تكاد الاجابة على هذا السؤال تقفز من بين شفتى أى إنسان . سيقول نهتم به لأنه اليوم الأول فيها جميعا . ولكنى ، بعد قراءة ما كتب حتى الآن ، وما تحدث عنه المتحدثون فى قنوات التلفزيون المحلية والفضائية ، أكاد أؤكد أنها اجابة غير صحيحة أو على الأقل غير دقيقة ، بل وأكاد أشعر بتعاطف مع أول يناير / كانون الثانى كأول يوم فى العام



فى عام
فى قرن
فى ألفية



الجديد . فبالكاد يذكره قلة من الناس ، أكثر الناس يتحدثون عنه كيوم أول فى قرن ، أو كيوم أول فى ألفية .

ولكن هذا اليوم مظلوم لأسباب أخرى؛ إذ يأتى هذا اليوم فى وسط ثورة علمية وتكنولوجية لم يشهد العالم لها مثيلاً . وليس المهم الآن تفاصيل هذه الثورة انجازات واخفاقات ، الأهم هو موقعها منا وموقعنا منها وموقعنا جميعا فى التاريخ . يقال إنه فى أيام مماثلة فى القرن التاسع عشر ، وكان الناس يظنون أن العالم قفز فجأة نحو أقصى آفاق التقدم الممكن نظرياً وعملياً ، حدثت مناقشات مطولة فى معظم مراكز الثقافة والعلم فى أوروبا وأمريكا حول موقع البشرية فى ذلك الحين فى التاريخ . إذ لاحظ المفكرون أن التاريخ انزوى ، أو قل أخلى مكانه لاهتمامات أخرى شغلت الناس والعلماء والحكام ورجال الدين . البعض قال وقتها إن التقدم لم يترك لأحد وقتاً ليفكر فى مغزى مايحدث بالنسبة للتاريخ ، كان الميل واضحاً فى ذلك الحين تجاه انكار التاريخ وتجاهله ، إذ كانت الانتصارات فى مجال التكنولوجيا خلال الثورة الصناعية حافزاً للكثيرين لأن يتصوروا أن التاريخ وصل إلى نهايته ، أو على الأقل اقترب إلى نهاية قد يفقد معها معناه وأهميته .

ولاحظوا تطوراً آخر له مغزاه، لاحظوا أن عامة الناس انتابها خوف رهيب من المستقبل ، ومن تجاهل المفكرين والسياسيين للماضى والتاريخ . فجأة اكتشف الانسان أنه منزوع الجذور تاريخياً ، ومعصوبة عيناه فلا يرى ما هو قادم .. ولا يستطيع حتى تخيله ، فالتقدم كان متسارعاً إلى حد أن المستقبل صار حاضراً فى حين ، ومستحيلاً على التخيل فى حين آخر .

ولا يخفى على أحد أننا نعيش أياماً، إن اختلفت عن تلك الأيام الأخيرة فى القرن التاسع عشر ، فلأن وتيرة التقدم أسرع ، ولأن حجم التحولات فاق كل خيال وتجاوز قدرة الانسان العادى على

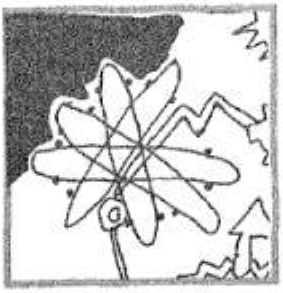
متابعتها . مرة أخرى يكتب مفكرون عظام عن نهاية التاريخ ، ومرة أخرى يعتقد الناس ، ولكن بحماسة أكثر ، أن هذه النهاية قد تحققت بالفعل والناس يعيشون بقايا التاريخ . مئات بل ملايين من البشر يتوقعون أن تقوم القيامة فى أى ليلة وبينما هم نيام ، ومنهم من استعجل قيامها فاستعد للانتحار . وعلى كل حال كانت نهاية التقويم ، سواء كان شهراً أو عاماً أو قرناً ، مناسبة تعتبرها الشعوب نهاية عصر ، أو نهاية حضارة .

نقطة النهاية

كان الاقتناع ، ومازال إلى حد كبير أن القيامة دليل أو علامة وصول التقدم إلى نقطة النهاية . وفى مثل هذه الأيام من القرون الأخيرة الماضية ساد تصور بين الشعوب الانجلو سكسونية وبخاصة البريطانيون ، بأن القيامة مرتبطة بانتقام الله من اليهود أن أقاموا دولة لهم . ويعود أصل هذه الفكرة إلى مذاهب مسيحية تعتقد أن الانجلو سكسونيين هم إسرائيل الحقيقية ، أما اليهود فدجالون ونصابون . الكاتبان لويكين وكاثر فى كتابهما الصادر منذ أيام وعنوانه «الثورة المسيحية : السياسة الدينية الراديكالية حتى نهاية الألفية الثانية» تتبعا هذا الاقتناع بحثاً عن أصوله ، وتبين أن أشد المتصلبين من الأنجلو سكسونيين الذين يعتبرون أنهم «إسرائيل» الحقيقية يقدمون الدليل من التاريخ العبرانى ذاته . فكلمة بريطانى يقابلها فى اللغة العبرية كلمة بنفس النطق BRIT - ISH وتعنى «رجل العهد» ، وكلمة سكسون هى فى الأصل أبناء النبى اسحق – ISAAC SONS (اساك – سون) .

وقد سبق أفلاطون كل هؤلاء الذين يربطون بين القيامة ونهاية التقويم ، أو نهاية مرحلة . ويبدو أننا نشهد هذه الأيام صحوة فى هذا النوع من التفكير . ففى الولايات المتحدة تذهب مذاهب بين التيارات المحافظة إلى أن القيامة اقتربت بدليل أن الناس صارت متساوية أمام القانون ، فلا أسياد وعبيد . ولا نبلاء وخدم ، يكررون أقوال أفلاطون عن خطر المساواة وتهديدها للاستقرار .

آخرون يتصرفون بشكل مختلف تماماً ، هؤلاء باتوا يشعرون أن الثورة التكنولوجية والعلمية سلبتهم عقولهم ، أو مسحت التاريخ فى هذه العقول فصاروا كالإنسان الآلى يتحرك حسب ارشادات وأخلاقيات معبأة فى برنامج استوعبه من خلال سنوات تعليم وتعبئة وتلفزيون وتسيير عن بعد . بعض هؤلاء يتمرد ، ان استطاع . فترى جماعات ، بل أغلبيات فى أمم متقدمة ومتخلفة على حد سواء ، صارت تستدعى التاريخ بالخنوع أو باللين



فى عام
فى قرن
فى ألفية

، وأحيانا باستخدام العنف والقوة، وان عجزت .. اصطنعت لنفسها أو زيفت تاريخا . أليس هذا باستخدام صفوف متراصة من كتب ومذكرات ومقالات من «التراث» بعضه حقيقى وأصيل ، وبعضه وربما أكثره تاريخ صنع فى أيام ، وأحيانا فى ساعات .

وأستطيع أن أفهم ما يحدث ، وأن أفهم فى نفس الوقت انحسار قيمة هذا اليوم الأول من عام جديد . كيف يمكن أن نطلب من الانسان أن يخطط لنفسه ولأولاده ، كما كان يخطط انسان القرون الماضية . كان هذا اليوم الأول من العام المناسبة التى يستغلها معظم الناس ليقوموا بهذا التخطيط ، أو على الأقل يصنعون فى هذا اليوم الاطار العام لخطة قد يحتاج تنفيذها لعام أو أكثر . وبعد هذا اليوم يبدأ الانسان فى تنفيذ خطته التى وضعها أول العام ، ينفذها فى تدرج، وبهدوء ، وفى ضوء احتمالات ممكنة ومتوقعة . كيف يخطط هو وغيره وبين أيدينا كتاب ألفه أحد عباقرة العلم واسمه راى كيرزوايل ؟ يقول فيه إنه بعد ثلاثين عاماً سيكون صعبا للغاية التمييز بين سلوكيات أجهزة الكومبيوتر وسلوكيات الانسان البالغ الذكاء . سيكون لكل جهاز كومبيوتر شخصيته المتميزة ، سيشعر بالعاطفة فيحب ويكره . سيقدر الجمال والأناقة . سيسعد ويشقى .. سيشعر بالوحدة إذا ترك وحيداً لفترة طويلة . يتخيل الدكتور كيرزوايل ، وكان كل ظنى أنه كان يتخيل عندما بدأت قراءة كتابه ، أنه بعد سنوات قليلة ، سيتمكن العلم والتكنولوجيا من «نسخ» محتويات مخ الانسان وحفظها فى قرص مرن (ديسك) فإن غاب هذا الانسان فى سفر أو ألم به مرض أو انتهى عمره بقى «مخه» يعمل ويخترع ، أى يؤدى مهامه كاملة . التعليق المناسب على هذه «التخيلات» أنها ابداع فى أدب الخيال العلمى ، مثل جول فيرن وهـ . ج ويلز عندما تخيلا - فى ابداع فريد - الانسان وقد وصل إلى كواكب

أخرى ، أو غاص في أعماق الأرض ، أو استطاع أن يصغر نفسه الى حجم الجرثومة ليدخل في عروق انسان في قارب لا تراه العين المجردة فيجول في جسد انسان . كلاهما ، فيرن وويلز توقفا عند حدود الأدب . أما رجلنا - الدكتور كيرزوايل مؤلف كتاب «عصر الآلات الروحية» .. فلم يتوقف يوماً - ومنذ أن تخرج من جامعة ما سوشيتس - عند حدود الأدب . هو صاحب فكرة اختراع الآلة التي تقرأ بصوت عال الكتب والصحف والوثائق لغير القادرين على القراءة لسبب أو لآخر . وهو صانع الكومبيوتر الذي يقلد تماما الأصوات الصادرة عن جميع الآلات الموسيقية، وكان آخر اختراع له جهاز تستخدمه الآن البنوك والشرطة والشركات والهواتف المحمولة يتعرف على الشخص من صوته. كل هذه الاختراعات وغيرها بدأها ابداعا أدبياً تماما مثل آخر ابداعاته ، أو أحلامه .. «تخليد» مخ الإنسان ، إن صح هذا التعبير أو جاز لنا استخدامه .

الحياة أفضل الآن ؟

تحدثنا عن جانب واحد من جوانب الثورة التكنولوجية ، وهو الجانب الذي سيطيح بمخ الانسان بعد أن يخلده ، أو يحيل ابن آدم الى انسان آلي . ولكن الجوانب الأخرى كثيرة ، وأغلبها سيطيح بأشياء وعادات كنا نعمل ونكد عبر آلاف السنين لتطورها حتى نصبح بشراً أفضل. ولكن ، وبدون الخوض في صدام التشاؤم والتفاؤل ، يبدو في حكم المؤكد تاريخياً ، أن ما حدث عبر مئات وآلاف السنين هو أن حياة الانسان صارت أحسن ، بينما ظل الانسان نفسه ، على حاله . أحواله تقدمت ولكنه لم يتقدم . أليس هذا هو الدرس المتكرر الذي ما فتىء التاريخ يعيده علينا ويلح لنستوعبه فلا نخلط بين التقدم التكنولوجي وتقدم الانسان .

وقد يكون العام الجديد ، الذي سيكون مطلع قرن بل وألفية جديدة ، فرصة للاجابة عن السؤال المرتبط بكل ثورة تكنولوجية منذ أن صنع الانسان أول أداة حادة تساعده في كافة احتياجاته ، حتى يوم نعيشه استطاع فيه أن «يصنع» كائنا حياً في هيئة جرثومة .. ، وأن يعلن «مسرا» أنه ممتنع قصداً وبإرادته عن تخليق كائن حي أكبر من الجرثومة . قادر وممتنع . وقد يقرر هؤلاء العلماء ذات يوم من أيام القرن أو الألفية التي نحتفل ببدايتها ، قد يقررون التوقف عن الامتناع وممارسة قدرتهم على صنع ما لم يكن يوماً وظيفة من وظائف البشر ، عندئذ هل سيكون الانسان في حال أحسن ؟ أم سيكون انساناً أفضل ؟ أم سيكون قد حقق النبؤة ووصل إلى خط النهاية ؟ .

مصر وأنا وبزوغ الوعى

بقلم : د. مصطفى سويف

مشى ومشيتُ من أسدين راما
مراماً كان إذ طلباه وعرا
(بِشر بن أبى عوانه)

قُدِّر لى أنْ أبدأ مسيرة حياتى مستظلاً بظل الحركة الوطنية وهى تستنبت بإلحاح معالم مصر المعاصرة على الصعيدين الخارجى (باستكمال استقلال كيانها وإرادتها عن المحتل)، والداخلى (بدعم عناصر الإرادة السياسية/ الحضارية). ولم تكد نسائم التنبُّه تملأ رئتى حتى ازدحمت الساحة من حولى بالأحداث والأحاديث الحزينة؛ أصيبت الأسرة فى واحد من أعزّ أبنائها الواعدين، وأصيبت مصر فى حظها من وحدة الصفّ الذى كانت تواجه به عوادى الحاضر وتحديات المستقبل.

وفى أوائل الثلاثينيات كنتُ أتلمّس طريقى صعودا على درجات التعليم الابتدائى.

وكانت مصر تتلمّس طريقها إلى جمع الشّمل استعداداً لجولة ثانية فى محاولات استقلالها الوطنى، وتزامنت هذه المحاولات مع تلبُّد الآفاقِ بنذر الحرب العالمية الثانية. وتمخض التزامن عن معاهدة عقدت (بين مصر وانجلترا) سنة ١٩٣٦، أُطلق عليها حينئذ لقب معاهدة الشرف والاستقلال.

مصر في أواخر الثلاثينيات

ولم يكد المداد الذى كُتبت به المعاهدة يجف حتى عادت ريح التشرذم السياسى تنفث سمومها فى أجواء الساسة الأفاضل، وكأن الجميع ضاقوا بالانضباط أو التوافق الذى كانوا قد دُفعوا إليه دفعا حتى يتم إبرام المعاهدة، أما وقد فرغوا من المهمة فقد عادوا سيرتهم الأولى من التفرق والتناحر، أما كيف حدث ذلك فقد تداعت الأحداث على النحو التالى: فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ وجَّه القصر الملكى خطاب إقالة إلى رئيس الحكومة مصطفى النحاس يُعتبر من أوقح ما عُرف من وثائق فى أدبيات السياسة الداخلية الرسمية، وأتبعه بإصدار مرسوم بتشكيل حكومة أقلية يرأسها خصم لدود لمصطفى النحاس منذ أواخر العشرينيات هو محمد محمود (رئيس حزب الأحرار الدستوريين). وعلى الفور انطلقت معركة من السباب والاتهامات المتبادلة بين أحزاب الأقلية وحزب الوفد. هذا بينما انصرفت جهود انجلترا ودول العالم الكبرى إلى إعداد العدة بجدية بالغة تحسُّبا لمستقبل قريب ينذر بحرب عالمية عاتية.

في تعليمي الثانوي

كان أول عهدى بالتعليم الثانوى سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٧ - فى مدرسة الحلمية الثانوية، بحى السيوفية (بالقرب من القلعة). قضيت السنة الأولى فيها وكأننى مازلت صبيا فى التعليم الابتدائى، لا أتنبه لشيء مما حولى سوى الدرس والعطلات الرسمية، وفيما بينهما أستذكر الدروس. ولكن فى السنة الثانية بدأت أشهد فى نفسى إشراق وعى لم أعهده من قبل: كان وعيا لايقتصر على الرصد والتسجيل لما يحيط بى، بل يمتد إلى إبداء قدر من الفاعلية باستكشاف إيجابى لهذا المحيط وإعادة صياغته ليشملنى وإياه فى منظومة جديدة. بدأت تتكشف لى المدرسة عن عالم متعدد الجوانب، فيها المكتبة، وجمعيات النشاط الرسمى، بالإضافة إلى قاعات الدرس، وفناءين للعب الحر، وقاعة لتناول الطعام. وإذ أسترجع الآن ذكرياتى عن هذه الجوانب أجد أن كلا منها كان له فى نفسى مذاق خاص من الإمتاع. وأذكر أننى قضيت أياما وأسابيع استكشف فروق الإمتاع هذه بين بعضها البعض: بدأت أتردد على المكتبة، وعرفتُ أن بها نظاما للإعارة الخارجية، وتجولتُ فى رحابها أتصفح بعض الكتب المصفوفة على الرفوف لأختار من بينها ما أريد، وراق لى أن أستعير دائرة المعارف للمعلّم بطرس البستانى. وفى المنزل سعيتُ بداخلها أتنقل بين موادها بلا هدف إلا أن أتعرَّف سعة عالمها؛ واستهوتنى المادة الغزيرة التى وردت عن ابن سينا، وبهرنى شمول المعرفة عند هذا الرجل فقد كان

طبيبا وشاعرا وفيلسوفا، واستمرت جولاتي داخل المكتبة يوما بعد يوم، وامتدت لتشمل غيرها من أركان المدرسة، واهتديتُ يوما إلى حجرة الأشغال اليدوية، ولا أزال أذكر شعورا ساراً أشاعته في نفسي تلك الحجرة، بدءاً من شكل المواد الخام التي تملأ كل ركن فيها، وانتهاء بالجو العام الذي يغلّف كل محتوياتها، كانت هناك قطع الخشب الجوز الأسمر، وألواح الأبلكاش البيضاء، وصحائف الورق المقوّي، وعلب الطلاء، وقطع الجلد ذات اللونين البنّي الغامق والبنّي الفاتح، وقطع النحاس الأصفر. وكانت هناك مناضد العمل، وأدوات التعامل مع النحاس والجلد، وأنواع منوّعة من الفرشاة للطلاء، ووسائل للقص واللصق، وأدوات للنجارة.

وشدتّني الحجرة إلى زيارتها يوميا أثناء ما كان يُسمّى بالفُسحة الكبيرة أو فُسحة الغداء، وشدت زياراتي المتكررة هذه اهتمام المدرّب المشرف على الحجرة فبدأ يشجعني على القيام ببعض الأداء العملي، وتلقيت التشجيع باعتباره إذناً لي أن أتدرب بقدر ما تشتهي نفسي. وتوزّعت تحركاتي بعد ذلك بين المكتبة وقاعة الأشغال اليدوية ولا شيء سواهما، وظل هذان القطبان يقتسمان القدر الأكبر من اهتماماتي وهواياتي قسمة عادلة فيما بينهما حتى نهاية المرحلة الثانوية من تعليمي، ولا أزال أشهد آثار كل منهما في نفسي حتى الأونة الراهنة من عمري، وكان هذا كله يجري في نفسي مجرى الضمير، استولى عليّ، وظل قليله معلناً وكثيره دفيناً.

وفي تلك الأيام تنبهتُ إلى غناء محمد عبد الوهاب، ولأمر ما تعهدتُ هذا التنبه بمبادرات تلقائية من جانبي، وكنت قد سمعتُ هذا الغناء من قبل ضمن معطيات البيئة العائلية من حولي (على الجراموفون)، أما في أواخر الثلاثينيات فقد وجدتُني أبذل جُهداً في الإنصات إليه ومتابعة ألحانه، وكنت أعيد الاستماع إليها من حين لآخر، وأتحدث عنها مع محبيه من أصدقاء الدراسة، وربما حفظتُ بعض هذه الألحان. وكنت أستمع إلى غيره من المغنين ولكنيّ كنت أتجاوزهم واحدا بعد الآخر لأسباب ذوقية مختلفة، ومع ذلك فقد كانت معظم أحكامي حدسية أكثر منها تحليلية، ومن خلال هذه الأحكام الحدسية نفسها وجدتني أصبح مع الأيام انتقائيا بالنسبة لغناء عبد الوهاب نفسه، فأطرب لأغانيه التي شدا بها في وقت مبكر نسبيا (أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات)، لا فرق في ذلك بين استمتاعي بالموّال، والمنولوج، والطقطوقة، والدور والقصيدة. وربما كان غناء الرجل هو المعلّم الأول من معالم الطريق التي وصلت بي في نهاية المطاف إلى التمكّن

من تلقىّ الفنون والآداب الرفيعة جميعا، وهو الطريق نفسه الذى التقيتُ عليه فيما بعد بطه حسين، وأنا فى أواخر تعليمى الثانوى، فأرسى عليه المعلّم الثانى، وكان ذلك أول ما كان بكتابه «الأيام».

وفى تلك الفترة أيضا، فترة استكشاف القدرات والهوايات فى نفسى، واستكشاف عالم الفنون (متمثلا فى الغناء) من حولى، اكتشفتُ عالم المشاركة فى السياسة، فشدُنى إليه كذلك، كان الشدُّ هيّناً، وكان المضمون الذى يشتبك معه هذا الشد هيناً أيضا: شاركتُ فى المظاهرات والهتافات، ووجدتُنى أهتف لحزب الوفد وزعيمه، ولم يصل إلى عقلى شىء عن السياسة حينئذ غير المظاهرات والهتافات، ولا أظن أن بقية الفتيان المشاركين أدركوا من أمور السياسة ما يزيد على ذلك بكثير أو قليل، وأقرأ الآن فى ذاكرتى عن تلك الأيام أننى كنتُ نافراً من سيرة أحزاب الأقلية، وزعمائها أكثر مما كنت مقبلا على حزب الوفد وقيادته، أما عن أسباب ذلك فلا أجد على صفحة الذاكرة ما يعيننى على التفسير. وإلى جانب اهتمامى المحدود بالسياسة الداخلية بدأت أعرف (عن طريق السماع) أشتاتا من المعلومات عن السياسة الخارجية، عن هتلر (زعيم ألمانيا حينئذ)، وموسولينى (زعيم إيطاليا)، وعن تحرشات من جانبهما بالإنجليز وما يهم الإنجليز، وكان يغلب على هذه الأشتات توجُّه يفضى إلى تعظيم صورة هتلر وكأنه مبعوث الأقدار لينتقم للمصريين من الإنجليز، ويعيد الحق المغتصب إلى أصحابه.

الحرب العالمية

وفى سبتمبر سنة ١٩٣٩ أُعلنت الحرب العالمية الثانية. وتختلط فى ذاكرتى عن هذه الحرب عناصر لا حصر لأنواعها، كنت فى بداية السنة الرابعة، وكنا نتلقى تدريبا عسكريا يشرف عليه ضابط فى الجيش الإنجليزى اسمه مستر وست، وكان هو نفسه مدرّس اللغة الإنجليزية لنا، وكان جنود الإمبراطورية يملأون شوارع القاهرة وحاراتها من حولنا، عرفنا بينهم الإنجليز والاستراليين والنيوزيلانديين والهنود، وكانت السيارات الحربية الإنجليزية بأحجامها المختلفة تملأ الطرقات أيضا، وكان الناس يتحدثون عن شىء اسمه «الأورنس»، وهو الكيان الإدارى الإنجليزى المسئول عن توفير الخدمات اللازمة لإعاشة جنود الإمبراطورية أثناء وجودهم فى مصر. وكان يستوعب آلافا من العاملين المصريين للقيام على هذه الخدمات لقاء أجور مجزية نسبيا.

وكانت أخبار الحرب تذاع فى الراديو، فنسمع عن انتصارات هتلر أكثر مما نسمع عن انتصارات الإنجليز، فوقر فى النفوس أن هتلر منتصر فى هذه الحرب لا

مـحــالة. وفى مــايو سنة ١٩٤٠ جــاءت الأخبار باجتياح الجيوش الألمانية هولندا وبلچيكا ولوكسمبورج، وكان الاجتياح خاطفا، وأُعلن فى الوقت نفسه أن تشرشل أصبح رئيسا لوزراء إنجلترا. وفى يونيه أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا، ودخلت الجيوش الألمانية باريس فى ١٤ يونيه. وفى شهر يوليه أغارت الطائرات الإيطالية على بعض المواقع فى مصر، وبدأنا نعرف إظلام الشـوارع فى القـاهرة، ونعـيق صفارات الإنذار، والنزول من بيوتنا إلى المخـابىء، وسـمـاع أصـوات المدافع والقنابل. وفى سبتمبر من السنة ذاتها بدأت الجيوش الإيطالية تهاجم الجيوش البريطانية فى الصحراء الغربية، ومن ثم بدأنا نشعر بأن الحرب تقترب من حدودنا، وبدأنا نسـمع عن مـعـارك فى طبـرق، وسيدى براني، وبنى غازى بين الجيوش البـريطانيـة وجـيـوش المحور (ألمانيـا + إيطاليا)، وظهر اسم رومل كقائد ألمانى يشبه أن يكون أسطوريا فى قدراته. وفى أبريل سنة ١٩٤١ حاصر الألمان الجيوش البـريطانيـة فى طبـرق، وتقـدم الجـيش الألمانى نحو مصر.

فى ذلك الوقت كان الشارع المصرى يطفح بالغضب والشعور بالمهانة من جراء ما حاق به من أزمات تموينية وصلت إلى حد المساس برغيف الخبز، فقد ساءت صناعته بشكل ملحوظ، وكان يشحُّ فى الأسواق أحيانا، هذا بالإضافة إلى مشهد الجنود الأجانب فى الطرقات وما تتناقله الألسنة من أنباء عن مصادمات كانت تقع بينهم وبين المواطنين المصريين من حين لآخر، وفى هذا الجو المتفجر اندلعت فى الشـوارع مظاهرات تهـتف أن «تقـدَّم يا روميل». وقـيل فى ذلك الوقت إن بعض رجال الحاشية الملكية كانوا على اتصال بعملاء المحور فى مصر، وقيل إن الملك نفسه لم يكن يخفى ميوله الإيجابية نحو قوى المحور عـمـومـا والإيطاليين بوجـه خاص.

وشعر الإنجليز بالخطر الداهم مما قد ينجم من آثار سيئة على مجهودهم الحربى نتيجة لنشاطات هذه العناصر جميعا، وربما قـرأوا فى هذه النشـاطات مـلامح أعمال واتصالات يقوم بها طابور خامس (من الجواسيس والمتعاونين معهم) يعد العدة لتمهيد الطريق أمام زحف قوات المحور على مصر ثم للعمل على تطويع البلد لأحكام سلطاته عندما يحين الحين. زد على ذلك ما كان يروَّج له أحيانا فى ذلك الزمان من أفكار حول الشكل الأمثل للحكم، وأن ما تحتاج إليه مصر فعلا لينصلح حالها هو حكم المستبد العادل؛ فقد كانت بعض الدوائر السياسية تروِّج لهذه الأفكار بين فـئـات من المتعلمين وأنصاف المتعلِّمين، وكان من أيسر الأمور على أذهان هؤلاء وهؤلاء أن يمتدوا بمفهوم المستبد العادل ليشمل فيمن يشمل هتلر وأمثاله. أمام هذه الاعتبارات جميعا تحرك

الإنجليز فقدّموا إنذاراً إلى الملك بضرورة دعوة حزب الأغلبية (وهو الوفد) ليتولى رئاسة الحكومة فيتحقق الاستقرار في الجبهة الداخلية وبذلك يمكنهم التفرغ لشئون الجبهة الخارجية (جبهة الحرب) وهم آمنون على ظهورهم. وانتهت المواجهة بين الإنجليز والسراى بإذعان الملك وحاشيته، وسُمى هذا الحدث بحادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢. واستغلّته أحزاب الأقلية والحاشية بمهارة فائقة لتلويث سمعة حزب الوفد ورئيسه.

وكنت في ذلك الوقت قد أتممت رحلتي التعليمية في المرحلة الثانوية. وكما اتسعت آفاق الرؤية (السياسية/ العالمية) أمام مصر نمت آفاق الخبرة من حولي، ونمت قدراتي على التعامل مع هذه الآفاق، كانت السنتان الأخيرتان من المرحلة الثانوية حاسمتين فيما تخللهما من نضج أو إنضاج لقواى النفسية عامة والعقلية خاصة؛ تفتحت فيهما شهيتي للقراءة بصورة لم أعهدها في نفسي من قبل، وساندت ذلك التفتح قدرة متينة على الاستيعاب، وبالإضافة إلى ذلك اشتد عود النظرة النقدية عندي نحو كل ما يقع لي من خبرات ومعلومات مهما تكن مصادرها ومجالاتها، ولازمت ذلك زيادة ملحوظة في شجاعة الرفض إذا ما اقتنعت بوجاهة الرفض، ورسخت من وراء هذا كله خصلة الإصرار أو المثابرة، وأدركتُ في الوقت المناسب أن هذه الخصلة، وكنت أسمّيها أحيانا طول النَّفَس، هي التاج الذي يعلو هامة قدراتي جميعا ولايراه إلا قصار النَّفَس أو المتعجلون.

داخل الجامعة

والتحقتُ بالجامعة في سبتمبر سنة ١٩٤١. وسلكت طريقي فيها كما أردتُ لنفسي، أن أعكُف على دراسة الفلسفة. وفي الجامعة اشتد الوعي في نفسي إلى درجة التوهج. فخبرته بشقيه: المعرفة والتقويم، عرفتُ الطريق إلى الفكر الماركسي، وقادني هذا الطريق في خطواتي المبكرة إلى دخول المعتقل لمجرد الوقوع في أخطاء تافهة، وخرجتُ من المعتقل بعد ثمانية أشهر أصلب عوداً وأنفذ بصيرةً إلى الحقائق الكامنة وراء ظاهرة الأشخاص والأفعال والشعارات. وفي الجامعة عشتُ صداقات ثمينة، كما عشت الحب، وتلقيت الموسيقى الكلاسيكية واهتديتُ إلى استيعابها، وكتبتُ القصة القصيرة، وشاركتُ على كتابة الرواية، ونظمتُ الشعر العمودي. وبوجه عام وجدتُني منتجا في الفكر لا مستوعبا فحسب. وانتهى بي المطاف إلى التخرج في مايو سنة ١٩٤٥، وكنتُ على يقين من أنني سوف أواصل مسيرة الإنتاج الفكرى الجاد مهما كلفني ذلك، لكن يقيني من التوجُّه لم يقترن به أي وضوح لمضمون هذا التوجه سوى أنه سوف يكون جاداً، بل أشد ما يكون جديّة.

خارج الجامعة

وكانت حياة مصر تتغير من حولنا، وكان السياق العالمي يتغير من حول مصر. وبدا لي أن إيقاع التغير في الحالين يمضي بسرعة أكبر بكثير مما كان الحال عليه من قبل.

شهدت مصر اعتقال عدد من رجال القصر، والسياسيين المعروفين بتعاطفهم مع المحور.

وكانت عمليات تشبه أن تكون اختمارا اجتماعيا بخمائر الفكر قد بدأت تجرى في نفوس أعداد من المواطنين، وكانت هذه العمليات مدفوعةً أساساً أو مستثارة بمشهد ضياع الحق والوطن بين الساسة المخضرمين، وعبث أفراد الحاشية الملكية الفاسدين، وخبث رموز الاحتلال البريطانيين. كانت عمليات وإرهاصات تنطوى على رفض للكل، كل الطاقم السياسي التقليدي. كان هناك شعور مبهم بأن هذا الطاقم قد استنفد أغراضه وبدأ يتجاوز عمره الافتراضي.

وأسفر الاختمار عن البروز التدريجي لقطبين ينبثان عن توجهين جديدين يبحثان عن دور لهما على الساحة السياسية: قطب يمثله الإخوان المسلمون (وحولهم جماعات دينية أخرى صغيرة)، والآخر تمثله جماعات ماركسية توالى ظهورها واحدة بعد الأخرى («الفن والحرية» ثم «الخبز والحرية») ثم ما لبث الاختمار أن تمخض عن جماعتين لهما قدر ملحوظ من الاستقرار والفاعلية، هما «دار نشر الثقافة الحديثة»، و«دار الأبحاث العلمية». وزرتُ وأنا بعد تلميذ في المدرسة الثانوية مقر الإخوان المسلمين بدعوة من أحد التلاميذ الزملاء، ورأيت شيخهم حسن البنا واستمعت إليه وهو يلقى خطابا عاما يروى فيه عن رحلة دعوة قام بها في قرى الصعيد وقد عاد منها لتوّه، ولم يستهوني الحديث ولا استهواني الجو العام الذى أحاط به، وانصرفتُ إلى غير رجعة. ثم زرتُ وأنا طالب في الجامعة دار نشر الثقافة الحديثة، ودار الأبحاث العلمية، واستمعت إلى بعض محاضراتهم وحواراتهم. وأعترف بأن هذه المحاضرات والحوارات راقت لى إلى حد ما، لكن الجو العام الذى أحاط بها والممارسات التي صحبتها أثارت عندي عددا من التحفظات، ومن ثم حملتني على أن أحتفظ بمسافة بيني وبين هذه الجماعات تُبقى علىَ هويتي المستقلة الناقدة.

ومن خارج مصر جاءت الأنباء تتحدث عن أن الجيوش الألمانية هاجمت الاتحاد السوفييتى في ٢٢ يونيه سنة ١٩٤١. وما لبث الألمان أن وصلوا إلى ميناء أوديسة على البحر الأسود، وكان ذلك في منتصف أكتوبر. ولكن بعد عشرة أيام فقط بدأت تظهر نُذُر خافتة تنذر باقتراب تراجعهم، كان ذلك عندما توقف اندفاعهم أمام موسكو. وفي ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ باغت الطيران الياباني الأسطول الأمريكي فدمّر عددا من سفنه وطائراته الحربية في هجوم على قاعدة بيرل هاربر بجزر

الهاواى فى المحيط الهادى، فأعلنت أمريكا الحرب على اليابان، وتبعتها بإعلان مماثل للحرب على اليابان إنجلترا وهولندا. وبعد أربعة أيام أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على أمريكا. وفى مايو سنة ١٩٤٢ اشتد الهجوم الألمانى على القوقاز طلبا لبتروله. وفى يوليه بدأت أحداث موقعة العلمين تتوالى على بُعد ٨٨ كيلو مترا غرب الإسكندرية، وقيل حينئذ إن موسولينى (الزعيم الإيطالى)، أخذ يتأهب لدخول الإسكندرية دخولا لا يقل أُبّهة عن دخول قياصرة روما فى الزمان الغابر. ولكن لم يكد ينتهى شهر يوليه حتى دُمرت جيوش المحور فى هذا القطاع من الجبهة بصورة لا رجعة فيها. وفى أواخر أغسطس بدأت جحافل الألمان تدق أبواب ستالنجراد. وضرب القائد السوفييتى الجنرال چوكوف حصاراً محكما حول تلك الجحافل. وفى آخر يناير سنة ١٩٤٣ قرر القائد الألمانى الأعلى فى تلك الجبهة المارشال فون باولوس الاستسلام بعد أن فقد معظم قواته. وهكذا انتهت فى الشمال الأفريقى وفى الشمال الأوروبى أسطورة الجيش الألمانى الذى لايُهزم.

وفى هذه الأثناء بدأت تتسرب، رغم التكتم الشديد، أنباء عن نشاطات محمومة تجرى فى أمريكا وتنصبُّ على التقدم فى بحوث انشطار الذرة. وبرز فى هذا السياق اسم انريكو فيرمى (فى ديسمبر سنة١٩٤٢) من شيكاغو، وكان واحدا من عدد من العلماء انهمكوا فى السير قُدما بهذه البحوث الواعدة بإنهاء الحرب فى أجل قريب، مع إرهاص بما سيكون عليه العالم بعد أكبر حرب وأقبح الحروب فى التاريخ.

وبعد.

تابعتُ فى هذا المقال ما كان من أحداث رئيسية فى تاريخى الشخصى خلال الفترة الممتدة من منتصف الثلاثينيات إلى حوالى منتصف الأربعينيات، وما تداعى إذ ذاك من وقائع سياسية واجتماعية مهمة فى مصر، وفى العالم من حولنا. فى هذه الفترة انتقلتُ من التعليم الابتدائى إلى التعليم الثانوى، ومع هذا الانتقال بدأت استكشف نفسى والعالم من حولى. وتوالت أحداث السياسة المصرية الداخلية فكان الغالب عليها التمزق والصراع بين رجال السياسة. وفى الوقت نفسه تتابعت الأحداث الخارجية بالاستعداد لحرب وشيكة، ثم باندلاع هذه الحرب. ومع بداية الأربعينيات التحقتُ بالجامعة، وفيها تحقق للوعى عندى نموٌ متسارع كنت ألحظه وأرعاه وأستمتع به، وكان فى ذلك مواكبا لشروق وعى اجتماعى وسياسى جديد فى مصر. وربما جاء الوعيان كلاهما (الفردى والجمعى) بمثابة قَبَسٍ من وَهَجٍ عالمى لم يلبث أن احتوى العالم فى حرب ضروس وضعت نهاية لحقبة من تاريخه، وبدأت حقبة جديدة فى مسيرة الجميع: الأفراد، والأوطان، والعالم الذى يجمع الكل. ❑

بلا عنوان

بقلم: وديع فلسطين

أسوق هذا الحديث بلا عنوان، وأدع للقارىء أن يختار له العنوان الذي يراه مناسباً له. فحلقات هذا الحديث قد لا ينتظمها عنوان جامع، عدا أنها جميعاً من بنات الذاكرة، أسجلها قبل أن تخونني بنات الذاكرة وأولادها أيضاً!

● مخطوطات العلامة تيمور باشا في كتب

كان العلامة أحمد تيمور باشا من فحول اللغة، وكانت لديه خزانة كتب عامرة أهديت إلى دار الكتب الوطنية، فأفردت لها جناحاً خاصاً يحمل اسمه كما كانت له عناية كبيرة بالمخطوطات، فاجتهد في حياته في نشر عدد منها، ولم يسعفه الأجل لكي يحقّق مزيداً منها. وكان برغم «حنبليته» في اللغة يرى ولديْه محمد ومحمود تيمور يكتبان باللهجة العامية (قبل أن يتحول محمود تيمور إلى الفصحى ويتبنى أنصع الأساليب العربية)، ولكنه تسامح معهما، ولعل هذا هو سبب اهتمامه بإخراج معجم كبير عن الأمثال العامية وكتابٍ آخر عن الكتابات العامية.

ولا أعرف على وجه التحديد كيف آلت جميع مخطوطات العلامة أحمد تيمور باشا إلى أحمد ربيع المصري، وهو رجل نصف مثقف أو ربعه، ولكنّه كان واسع النشاط، يقوم بمفرده بدور موسسة للنشر تخصصت في مؤلفات تيمور باشا. فأقام لجنة أطلق عليه اسم «لجنة نشر المؤلفات

التيمورية» رأسها خليل ثابت باشا محرر جريدة «المقطم» ومن بعده الشاعر أحمد رامي، وكان ربيع المصرى لولب هذه اللجنة سواء اجتمعت أو لم تجتمع . وكان المصرى يحتفظ بمخطوطات تيمور باشا فى زكائب (جوالات) فى بيته، وكلما همّ بإخراج مخطوطة، دفع بها إلى واحد من المحققين الذين يُعوّل عليهم، ومنهم محمد شوقى أمين شقيق محمود أمين العالم، والشاعر الزجّال عبدالسلام شهاب وغيرهما، ويقوم بعد تحقيق المخطوطة بطباعتها طباعة جيدة مشكولة، فتهيأ له بسبب نشاطه الواسع أن يُصور نحو ٢٠ من مخطوطات تيمور باشا، منها معجم الأمثال العامية الذى سبقت الإشارة إليه، و«ضبط الأعلام» و«لعب العرب» و«الكنايات العامية» و«رسالة فى تاريخ الأسرة التيمورية» و«البرقيات للرسالة والمقالة» و«أوهام شعراء العرب فى المعاني» و«رسالة لغوية فى الرتب والألقاب لرجال الجيش والهيئات العلمية والقلمية» و«الآثار النبوية» و«معجم التذكرة التيمورية» و«أسرار العربية» و«السماع والقياس» كما طبع ديوان عائشة التيمورية وعنوانه «حلية الطراز».

ولم يكن ربيع المصرى يعتمد فى توزيع هذه الكتب والمعاجم على أى مكتبة، وإنما كان يخزّنها فى بيته ويطوف بها على الهيئات والأفراد لترويجها، وكنت سألت المرحوم محمود تيمور بك عن صلته بلجنة نشر مؤلفات والده، فقال إن صلته تقتصر على الحصول على بضع نسخ من كل كتاب صادر، وإن اللجنة تدور فى فلك ربيع المصري، فهو محركها والعارف بمصروفاتها وإيراداتها .

وعندما زرت ربيع المصرى فى بيته لأعزّيه فى فقد ابنه الوحيد الشاب الذي توفى غرقاً فى حمام المنزل، أرانى عدداً من الزكائب قائلاً إن كل تراث تيمور باشا مودع فيها . كما أرانى أكداساً من مطبوعات اللجنة التيمورية متراكمة فى أنحاء المنزل.

ومع مقدم العمر بربيع المصرى ومرضه بالداء الذى يعرف بداء أيوب، ومع فقد زوجته، لزم داره وتوقّف نشاطه إلى أن فارق الدنيا دون أن ينعاه ناعٍ .

والله وحده يعرف مصير هذه الزكائب بكل ما تحتوى عليه من نفائس المخطوطات، وربّما آلت إلى «بيت المال» الذى يرث مَنْ لا وارث له.

أسطورة يونس بحرى

كنت وأنا طالب جامعى من قرّاء مجلة «اللطائف المصوّرة» التى كان يصدرها اسكندر مكاريوس وكانت واسعة الانتشار

أحمد تيمور باشا



محمود تيمور



أحمد رامى



بسبب الصور والمواد المشوقة التي كانت تنشرها. وكنت ألاحظ أن للمجلة مراسلاً عراقياً في سومطرة اسمه يونس بحري يوافيها ببعض الأخبار من الشرق الأقصى. وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩م بين دول المحور بزعامة أدولف هتلر من ناحية، ودول الحلفاء بزعامة تشمبرلين ثم تشرشل من ناحية أخرى، صار الناس يتابعون الإذاعات الأجنبية ليقفوا على حقيقة الموقف الذي كانت البلاغات الرسمية تلوّنه ممالأة للطرف الذي تنطق باسمه وكان راديو برلين مصدراً مهماً للأخبار التي كان يذيعها باللغة الانكليزية من يدعى «اللورد هاوهاو» وباللغة العربية يونس بحري الذي اتفق أن كان يزور ألمانيا عندما اندلعت نيران الحرب، فاختير مذيعاً في الإذاعة الألمانية. وكان يونس بحري يبدأ نشرة الأخبار بقوله: «هنا برلين، حي العرب»، ثم يذيع نشرة الأخبار بلهجة خطابية وصوت مجلجل، مشيداً بانتصارات ألمانيا الهتلرية، ساخراً من دول المحور وزعمائها، مؤكداً أن النصر هو نصيب هتلر وجنوده المظفرين. وكان يحرض العرب على الثورة على دول الحلفاء التي تستعمرهم (انجلترا وفرنسا وأيضاً إيطاليا) فكان الناس في كل العالم العربي يحرصون على الإصغاء إلى إذاعات يونس بحري على الرغم من عمليات التشويش المسلّطة عليها. وعندما أصدر العقاد كتابه «هتلر في الميزان» وأدان فيه نظامه النازي وجميع الأنظمة الدكتاتورية، شنّ عليه يونس بحري حملة شرسة وتوعده بالمشنقة، ولهذا سارع العقاد إلى السفر جواً إلى السودان بمجرد أن وصل القائد الألماني روميل إلى العلمين مهدداً بالزحف على الاسكندرية والقاهرة. ولم يسلم من لسان يونس بحري اللاذع زعيم أو كاتب اتّخذ موقف الانحياز ضد هتلر ومحوره. وإذا كان المذيع الألماني باللغة الانجليزية قد تنكر تحت اسم اللورد هاوهاو، فإن البحري كان يعلن اسمه صراحة، ويضيف إليه عبارة «عبو» - ولا أعرف معناها.

وانتهت الحرب بفوز الحلفاء، فنزح يونس بحري إلى باريس حيث أصدر جريدة عربية أسبوعية عنوانها «العرب» يحررها من الألف إلى الياء بأسلوبه الساخر وقلمه اللاذع الذي يتناول به الزعماء الذين لا يرضى عن تصرفاتهم. وهو الذي أطلق على عبدالرحمن عزام باشا أول أمين للجامعة العربية اسم «أبو الكلام» بسبب خطبه وتصريحاته العنترية. وكان يوافيني بجريدته على غير معرفة سابقة، كما كان يجاملني في كتاباته في حين كان يقسو في الحملة على المسؤولين حتى قلت له في رسالة: إنك تحرجني بكلامك الطيب، واستشهدت بقول الشاعر المهجري إلياس فرحات:

وإذا الكريم مدحته بقصيدة
قرأ اللئيم الذم في أبياتها!

لم ألتق بيونس بحري إلا مرّة واحدة زار فيها القاهرة فاحتفى به المجاهد الفلسطيني محمد علي الطاهر (أبو الحسن) والطبيب الدكتور الطيّب ناصر الذي درس في ألمانيا أثناء الحرب وانضم هناك إلى العرب المجاهدين ومنهم سماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس الأكبر والدكتور مصطفى الوكيل عضو حزب مصر الفتاة. وكان حكمي عليه عن قُرب أنه «مهرّج» أو «شرلطان» - كما

يقول إخواننا الشوام. فهو منفلت اللسان، بوهيمي المسلك، إذا ضحك أسمع الحي كله، وإذا نُصبت مائدة الطعام فتك بكل ما عليها. أما سخرياته فلم ينج منها زعيم أو كبير، فلا يدرى سامعه هل هو هازل أو جاد، لأنه يخلط بين الأمرين. ويبدو أن السلطات الفرنسية لم تطق بقاءه في باريس، فأمرته بمغادرتها وإغلاق مجلّته المثيرة للمشكلات، فتنقّل في أنحاء العالم العربي وعاش فترةً في الخليج حيث عُين محرراً لجريدة «أبو ظبي نيوز» باللغة الإنجليزية ومديراً لشعبة الترجمة في وزارة الإعلام والصحافة، ثم عاد إلى بغداد حيث توفي عام ١٩٧٩م عن نحو تسعين عاماً.

ولكي تكتمل صورة يونس بحرى أنقل ما رواه عنه صديقه الروائي السوري الدكتور عبدالسلام العجيلي - وهو في اعتقادي أحقّ الناس بجائزة الرواية العربية - في كتاب له عنوانه «حفنة من الذكريات» إذ كان العجيلي هو وأستاذ الفلسفة الدكتور عبدالرحمن بدوي من أقرب المخالطين ليونس بحري في باريس.

يقول العجيلي: «يونس هذا واحد من الشخصيات المُغرقة في الطرافة أو العجيبة الأطوار... لم يكن يونس بحرى آنذاك مجرد مذيع يقرأ النشرة التي تُقدم إليه قراءة باهتة، بل كان خطيباً مصقعاً وداعيةً مثيراً ومعلقاً ساخراً. كان يصف انجلترا التي كانت الغواصات الألمانية تصطاد سفنها في جوانب المحيطات بأنها بريطانيا سيدة قعر البحار. ولازلنا نذكر استدراكه حين أخطأ، عن عفوية أو متعمداً، فلفظ اسم تشمبرلين مكان تشرشل، إذ أسرع فقال: معذرةً، إن البقر تشابه علينا! وكانت إحدى نكاته البليغة الشديدة الإيلام حين أعلن بأن وزارة الحرب الألمانية زادت ميزانية دفاعها ثمانية ماركات، لماذا؟ لأن الإمارة العربية الفلانية انضمت أخيراً إلى الحلفاء وأعلنت الحرب على الرايخ الألماني».

واستشهد العجيلي بمقالٍ للكاتب السوداني محمد خير البدوي - ولعلّه قريب للأديب السوداني الدكتور أحمد محمد البدوي الذي وصفني في «هلال» أكتوبر الماضي بأنني «شيخ العقّادين» وهو شرف لا أدعيه وتهمة لا أدفعها - حيث قال:

«بقيت في حياة البحري أمنية واحدة لو رُد إلى الحياة لدفع راضياً قانعاً نصف عمره من أجل تحقيقها. أمنيته أن يقف وراء ميكروفون إذاعة القدس المحررة منادياً: حي العرب، إيذانا بمولد الدولة العربية في فلسطين، ثم يتفرغ بعد ذلك إلى البحث عن زوجاته الثمانين وأبنائه وبناته المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها، ولا سبيل لإحصائهم، ولكن عددهم يتجاوز المائة قطعاً. ومات يونس بحري الأسطورة ولمّا تتحرر الأرض السليبة. لقد أمضى حياة مُثيرة حافلة تفوق فيها زواجاً وتجوالاً على الرحالة العربي ابن بطوطة، إذ هيئت له وسائل النقل المعاصرة الطواف على أركان المعمورة، وخلّف وراءه في كل بلد زاره زوجات ورهطاً من البنين والبنات... ومن أشهر أبنائه الأدميرال رعد يونس بحرى قائد الأسطول الفليبيني والدكتور سعدي المحامي في باريس».

وأثبت العجيلي مذكرةً وجهها واحد من أبناء يونس بحرى إلى الحاكم العسكري العام في بغداد يحتجُ فيها باسم المقاومة الشعبية على إطلاق سراح

والده ؛ فهو مزواج ومغامر وعربيد ويستحق السجن إلى الأبد أو الموت !

● تلفيقات محمد مصطفى حمام

أشرت في حديثي عن صادق سلامة صاحب جريدة «الإنذار» المنشور في عدد يناير الماضي من «الهلال» إلى الشاعر محمد مصطفى حمام الذى أوتى مواهب متعددة ، ولكنه آثر حياة الفوضى والبوهيمية والصعلكة . كان شاعراً موهوبا، وكان راوية لا يُشقّ له غُبار ، وكان محدثاً لا يُملّ حديثه ، وكان صاحب نكتة وفكاهة ، كما كان لديه استعداد فطري للتلفيق، تساعده على ذلك قدرته الفذّة على المحاكاة والتقليد. وهناك واقعتان صارختان على تلفيقات حمام أسوق خبرهما في هذه الفذلكة.

قرأ حمام في إحدى الصحف نداءً موجهاً من الشاعر علي الجارم بك إلى القرّاء قال فيه إنه اعتزم نشر ديوانه، ولكن شعره متناثر في الصحف ولم يحتفظ بنسخ منه، وناشد القراء أن يساعدوه في الاهتداء إلى قصائده التائهة حتى لا يخلو منها الديوان.

وعلى الفور نظم حمام أبياتاً حاكى فيها أسلوب الشاعر الجارم، ثم بعث بها إليه مع رسالة أوضح فيها أنه وقع على هذه الأبيات في عدد قديم من جريدة «الأهرام» وأنه يبادر بإرسالها إلى الشاعر حتى تندرج في ديوانه. والغريب أن الجارم بك اعتقد فعلاً أنه صاحب هذه القصيدة، وقام بضمّها إلى ديوانه المنشور! وقد سمعت هذه القصة من حمام ولا أجزم بصدقها !

أما الواقعة الثانية من تلفيقات حمام فترجع إلى عام ١٩٣٢م عندما أنشأ الشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى جماعة أپوللو واختار أمير الشعراء أحمد شوقى رئيساً لها وأصدر مجلة «أپوللو» لتكون المتنفس الشعرى لأعضاء الجماعة، فصدر العدد الأول منها مزداناً بتحية من شوقي جاء فيها :

أپوللو! مرحباً بك يا أپوللو
فإنك من عكاظ الشعر ظِلُّ
عكاظ وأنت للبلغاء سوق
على جنباتها رحلوا وحلّوا
وينبوع من الإنشاء صافٍ
صدى المتأدّبين به يُبَلُّ
ومضمار يسوق إلى القوافي
سوابقها إذا الشعراء قلّوا
يقول الشعر قائلهم رصيناً
ويحسن حين يكثر أو يقلّ
ولولا المحسنون بكل أرض
لما ساد الشعوب ولا استقلّوا
عسى تأتيننا بمعلقات
نروح على القديم بها نُدِلُّ
لعل مواهباً خفيت وضاعت
تذاع على يديك وتستغل
صحائفك المدبّجة الحواشي
ربى الورد المفتح أو أجلّ
رياحين الرياض يملّ منها
وريحان القرائح لا يُملّ
يمهّد عبقرى الشعر فيها
لكل ذخيرة فيها محلّ
وليس الحق بالمنقوص فيها
ولا الأعراض فيها تستحلّ
وليست بالمجال لنقد باغٍ
وراء يراعه حسد وغلُّ

نُشرت هذه القصيدة في شهر سبتمبر ١٩٣٢م وفي الشهر التالى توفى أمير الشعراء أحمد شوقى بعدما رأس

ول اجتماع لمجلس إدارة أبوللو. في كرمة بن هانيء . واختير خليل مطران خلفاً له ى رياسة الجماعة.

وبعد وفاة شوقي طلع محمد مصطفى حمام على المجتمع الأدبي بقصيدة من تلفيقاته زعم فيها أن أمير الشعراء شوقي استدعاه وأعرب له عن ندمه على توجيه هذه التحيّة العصماء إلى جماعة أبوللو، وأنه أملى عليه قصيدة يكفّر بها عن سيئاته، وسمح له بإذاعتها. أما هذه القصيدة الملفقة والتي لم تنشر في «الشوقيات» ولا في «الشوقيات المجهولة» التي أصدرها الدكتور محمد صبري السوربوني فهذا هو نصّها الذي يتصادم تماماً مع قصيدة شوقي بيتاً بيتاً .

أبوللو! ضَلّة لك يا أبوللو
فإنك من بقايا اللؤم ظلّ
أبوللو أنت للسفهاء سوق
على جنباتها رحلوا وحلّوا
وينبوع من الإسفاف صرف
صدي المتشاعرين به يبُلّ
ومضمار يسوق إلى القوافي
مصارعها إذا الشعراء قلّوا
يُميت الشعر قائلهم جنيناً
ويقبح حين يكبر أو يقلّ
ولولا المفسدون بكل أرض
لساد بها الشعوب أو استقلّوا
صحائفك المدبجة الحواشي
شعارير القريض بها تحلّ
وأدواء الجسوم لها شفاء
وأدواء المسائل لا تُبَلّ
يمهّد مصرع للشعر فيها
لكل نقيصة فيها محلّ
وليس الحق بالمنصور فيها
وأعراض النوابغ تستحل
وأوسعت المجال لنقد باغ
وراء يراعه حسد وغلّ

وعندما قرأ أبو شادي هذه القصيدة في مجلة «الصباح»، قدم بلاغاً إلى النيابة يتهم فيه محمد مصطفى حمام بالتزوير والقذف في حقه.

واستدعى حمام إلى النيابة لسؤاله عن هذه الاتهامات ، فقال إن القصيدة أملاها عليه شوقي ولا تزوير هناك، أما عبارات السبّ فيحاسب عليها صاحب القصيدة وهو المرحوم شوقي!

وحار وكيل النيابة إزاء هذه القضية الأدبية ، فتخلص منها بإصداره قراراً بحفظها.

كان الدكتور أبو شادي يسعى إلى النهوض بالشعر والشعراء من خلال جماعة أبوللو ومجلتها وهو ما كان يستنزف رصيده المالي، ولكنه أدرك بعد تلفيقات حمام وبعد مضايقات أخرى سواء من الحاقدين أو من زملائه في كلية الطب – إذ كان متخصصاً في التحليلات – أن الحياة لم تعد تطاق ، فقرر بمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية أن يهاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة لينضم هناك إلى أدباء المهجر. ولكنه فوجىء بالشاعر إيليا أبي ماضي يستقبله في جريدة «السمير» التي كان يصدرها بمقال عنوانه:

ليس منّا!

ولكن هذه الصدمة لم تمنع أبا شادي من إنشاء رابطة جديدة في نيويورك أطلق عليها اسم «رابطة مينيرڤا» ضمت عدداً من أدباء المهجر وشعرائه وبقي يواصل نشاطه الأدبي ورسالته الشعرية على مدى تسع سنين إلى أن توفي فجأة في عام ١٩٥٥م.



أم كلثوم .. فى الحقيقة والمسلسل التليفزيونى

بقلم : د . جلال أمين

لا أظن أن مسلسلاً تليفزيونيا مصريا حظى بدرجة من الإعجاب والثناء ، منذ ظهر التليفزيون فى مصر ، مثل ما حظى به مسلسل أم كلثوم الذى عرض خلال شهر رمضان الماضى واستمر لعدة أيام بعده . فحتى قبل أن تنتهى حلقات المسلسل لم يكن يمر يوم إلا ويشيد المقال بعد الآخر ، أحيانا فى نفس اليوم ، وفى نفس الصحيفة أو المجلة ، بعظمة المسلسل وروعته ، واستخدمت كلمات فى الثناء على الكاتب والمخرجة من مستوى «المجد» بل «والخلود» ، أى أن المسلسل جلب المجد للكاتب والمخرجة ، بل وربما جعلهما «خالدين» ، بالإضافة إلى كلمات المديح الشديد والاعجاب المتناهى لكل ممثل وكل ممثلة ربما بدون استثناء ، واشترك فى هذا النوع من الثناء ، ليس فقط المعلقون المتخصصون فى النقد الإذاعى والتليفزيونى بل امتد ليشمل بعضا من كبار المثقفين .

أصبح الأمر إذن فى مستوى الظاهرة، ولا أقصد بالظاهرة المسلسل نفسه ، بل ظاهرة الإعجاب به إلى هذا الحد . فالمسلسل نفسه ، وإن كان فى رأيى على مستوى عالٍ من الجودة ، تشوبه هنات ونقائص كثيرة ، بعضها مهم ولا يجوز أن يفوت على مثل هذا العدد من الناس ، ولا يتصور ألا تلاحظه هذه الصفوة من المثقفين .

وما دام الأمر كذلك فإن هذا الإعجاب المنقطع النظير يستحق التأمل والتفكير ، إذ قد يكشفان عن أشياء مهمة عن الطريقة التى يفكر بها المصريون فى هذه الأيام . لنترك إذن المسلسل جانبا ، ولو إلى حين ، ولنركز على ظاهرة الإعجاب به.

لا جدال فى أن جزءا كبيرا من شغف الناس بالمسلسل يعود إلى نوع الشخصيات التى يتناولها ومكانتها عند المصريين فأم كلثوم شخصية أسطورية فى مدى ما حققته من إجماع المصريين على حبها ، أو يقارب هذا الإجماع . وهى كانت ملء السمع والبصر فى حياتها . وظلت طوال ربع القرن الذى انقضى على وفاتها حاضراً ، حضورا قوياً فى آذان

الناس وذاكرتهم وقلوبهم . ولكن حياة أم كلثوم ضمت أيضا عظماء كثيرين يجمع المصريون أيضا على احترامهم ومحبتهم ، وكثير منهم يستحقون وصف «العباقرة» دون كثير من التردد ، من القصبجي وزكريا أحمد والسنباطي ومحمد عبدالوهاب وبليغ حمدى فى الموسيقى ، إلى بيرم التونسى فى الشعر (وقد يضيف كثيرون أيضا أحمد رامى) ، إلى طلعت حرب فى الاقتصاد ، إلى جمال عبدالناصر فى السياسة .. الخ واتصلت أم كلثوم اتصالا مباشرا بشخصها وأغانيها ، بأحداث ونقاط تحول مهمة جدا فى التاريخ المصرى ، من بزوغ السينما المصرية ، إلى افتتاح الإذاعة المصرية إلى قيام ثورة ١٩٥٢ إلى تأميم قناة السويس فى ٥٦ إلى حروب ٥٦ و٦٧ و١٩٧٣ ... الخ ، ومن ثم فمن السهل جداً أن يروى التاريخ المصرى خلال الجزء الأكبر من القرن العشرين ، من خلال رواية الخطوات المتتالية التى خطتها أم كلثوم فى حياتها الشخصية والفنية . هل يستغرب بعد هذا أن يشغف المصريون بمتابعة المسلسل يوما بعد يوم حتى يظفروا بلقاء جديد مع هؤلاء العظماء ، والتعرف على جوانب من حياتهم وشخصياتهم مما قد لا يكون لهم به علم سابق ؟ .

استعادة شباب مصر

ولكن المسلسل أيضا فرصة لمجرد الاستماع من جديد إلى ألحان جميلة حفرت حفرا فى أعصاب المصريين وذاكرتهم ، واتصل كثير منها بذكريات شخصية لكثير من المشاهدين ممن عاصروا أم كلثوم وحضروا بعض حفلاتها أو سهروا معها فى أول خميس من كل شهر ، سنة بعد أخرى من أحلى سنوات العمر .

رؤية هذا المسلسل إذن نوع من استعادة الشباب ، شباب مصر وشباب المشاهد شخصيا .

وكثير من شخصيات المسلسل أشتهر بالذكاء والظرف وسرعة البديهة ، فإذا لم يكن للمشاهد ولع خاص بأغانى أم كلثوم، فسوف يستمتع على الأقل بتعليق ذكىّ وطريف من رامى ، أو مقطع مدهش من أزجال بيرم ، أو تعبير بالغ الظرف من زكريا أحمد .. الخ نستنتج من ذلك أن المسلسل مولود وفى فمه ملعقة (بل ملاعق) من ذهب . نعم المهمة صعبة ، والخوض فى التاريخ مجهد وشاق ، لتشعبه وكثرة تفاصيله المهمة ، وتعدد النظريات والأقاويل التى قيلت فى هذه الحادثة أو تلك ، ولابد من اتخاذ عشرات القرارات التى ليس من السهل أبدا اتخاذها ، فى أى الأشياء تذكر وأيها يسكت عنها ، أى الشائعات تصدق وأيها تكذب .. الخ كل هذا صحيح، ولكن المادة المتاحة للكاتب ثرية للغاية ، والكنز مملوء

باللآلىء التى لا تحتاج إلا لمد اليدين للاغتراف منها .

شىء جدير بالتهنئة

فماذا صنع الكاتب محفوظ عبدالرحمن والمخرجة إنعام محمد على والممثلة الأساسية صابرين والمسئول الأول عن الموسيقى والغناء عمار الشريعى ، وبقية الممثلين والفنانين ؟ صنعوا شيئا جيداً جداً وجديراً بكل تقدير وتهنئة ، واستمتعنا جميعا به . ولكن لايجب أن نذهب إلى أبعد من هذا وإلا نكون قد أخطأنا فى حق أنفسنا وحق هؤلاء الفنانين أنفسهم خطأ جسيما . إذ لا جدوى من المبالغة فى الثناء ، وهناك نفع عظيم من النقد إذا كان حقيقيا .

هناك أولا الضعف الشديد فى عنصر «الدراما» ، وهو ضعف لم يشر إليه ، فى حدود علمى ، من بين كل من كتب عن المسلسل إلا الدكتور عبدالقادر القط فى مقاله بالأهرام (٢٠٠٠/١/١٧) . وأقصد بذلك الافتقار إلى قصة تقوم على صراع من أى نوع ، وتأخذ بالمشاهد من أول المسلسل إلى آخره ، وتشوقه إلى معرفة مايمكن أن يحدث فى منظور هذا الصراع ، ويا حبذا لو أثارت أيضا فكره وشحذت ذهنه فى محاولة للإجابة على سؤال أو أسئلة صعبة ليس لها جواب جاهز . المسلسل كما رأيناه ، هو بالفعل ، تسجيلى فى الأساس ، يقول لنا ما حدث



دون الغوص فيما يمكن أن يكون وراء الأحداث من تصارع بين أكثر من موقف وأكثر من عاطفة . الشخصيات جاهزة وتامة الصنع من البداية لا تعانى من أى قلق داخلى ، بل وحتى التصارع فيما بينها ، إن وجد ، كما فى حالة الخلاف بين أم كلثوم وزكريا أحمد ، يكتفى فيه بما يمكن معرفته من قراءة ما كانت تنشره الصحف من أخبار ، لا تبذل أية محاولة (ولو بالتخمين) عن الدوافع الحقيقية للخلاف (أو على أى حال لايقال لنا شىء عن هذه الدوافع الحقيقية) ، ويقنع الكاتب (على أمل أن يقنع المشاهد أيضا) بإنهاء الخلاف الطويل والعميق ، بكلمة صغيرة تقال فى المحكمة تنطوى على مدح من زكريا أحمد لأم كلثوم ، ومدح من أم كلثوم لزكريا أحمد ، وينتهى الأمر وكأنه لم يكن، فلا يسع المرء حينئذ إلا أن يقول لنفسه : «ياليت الحياة فعلا بهذه البساطة، وياليت تغيير عواطف الناس ومشاعرهم هو فعلا بهذه السهولة!» .

أم كلثوم شخصية مبهرة

الأمر الأخطر من هذا ، والذى لم

يشر إليه ، ولو بطريقة عارضة إلا معلق واحد أو اثنين بطريقة تصوير شخصية أم كلثوم . لا يجادل أحد فى أن أم كلثوم كانت شخصية قوية ومبهرة بكل معانى الكلمة ، بل يكاد يكون من المستحيل أن يتصور أن تحقق كل ما حققته من نجاح ومجد لو لم تتمتع بمثل هذه الصفات .

ولكن من المؤكد أيضا أن أم كلثوم لم تكن من الآلهة ، بمعنى استعصائها على أى صورة من صور الضعف الإنسانى ، بل يكاد المرء أن يقول أيضا إن كل هذا النجاح وكل هذا المجد ما كان من الممكن أن يتحققا لو خلت أم كلثوم من بعض أوجه الضعف الخطيرة .

نعم كان فنها هو أهم شيء لديها ، تهون فى نظرها التضحية بأى شيء من أجله ، كما يقول المسلسل مراراً وتكراراً ، ولكن هذا الموقف المتطرف نفسه لايتصور وجوده إلا مع وجود أوجه ضعف جسيمة ، سواء فى موقف المرء تجاه الناس ، وشعوره نحوهم ، أو فى رأى المرء فى نفسه ، أو فى حرصه المبالغ فيه على هذا النوع أو ذاك من متاع الدنيا .. الخ .

إن من الصعب جداً الاعتقاد بأن هناك رجلا عظيما أو امرأة عظيمة ، لم يعانيا من عيب نفسى جسيم ، بل من الممكن جدا أن يكون الأمران ، التفوق والتألق من ناحية والعيب النفسى الجسيم من ناحية أخرى ، وجهين للعملة نفسها ، لايمكن أن يوجد الأول دون الثانى . وسير العظماء ، من نابليون إلى تشرشل إلى شارلى شابلن ، وغيرهم كثيرون ، تؤكد هذا الاعتقاد .

إذا كان الأمر كذلك ، والأرجح أنه كذلك ، فما النفع من التظاهر بعكسه ؟ إنى أتفق تماما مع الرأى الذى يرفض تصغير الكبراء ، ويرفض التركيز على أوجه الضعف الكامنة فى الشخصيات العظيمة على حساب إبراز أوجه عظمتهم التى هى أثمن ما فيهم ، إذ لا نفع يرجى من إظهار الناس كلهم وكأنهم سواء ، فهم ليسوا كذلك ، ومن الظلم والحمق معاً أن نحطم المثل العليا باسم الواقعية أو الموضوعية .. الخ أتفق تماما مع هذا ، ولكن من الخطأ والظلم أيضا محاولة إبراز العظماء وكأنهم آلهة ، وتكريس الاعتقاد لدى الناس بأن هؤلاء العظماء صنف متميز تماما عن بقية البشر ، وجودهم معجزة وظهور أمثالهم مستحيل ، إن هذه الطريقة فى الكلام عن العظماء ، فضلا عن مخالفتها للواقع من شأنها إضعاف الهمم بدلا من حفزها ، وقتل الثقة بالنفس بدلا من تقويتها ودعمها . فبدلا من أن نقدم للشباب قدوة على أمل أن يحتذوها نقدم لهم آلهة ليس أمامهم إلا أن يعبدوها . أضف إلى هذا ما يتضمنه

هذا الموقف من ظلم لعدد كبير من الناس بعضهم من العظماء أيضاً ، من الذين أحاطوا بهذه الشخصية التى تحاط بكل هذا التقديس وتعاملوا معها . فمن أجل إضفاء كل مظاهر المجد على هذه الشخصية ، يسلب كل من أحاط بها وتعامل معها من مجده ، وكأن لا أحد منهم يساوى شيئاً لولاها ، أو كأنه لا هم له فى الحياة ولا وظيفة إلا خدمتها ، ولا شاغل له إلا حبه لها ، ولا مطمح له إلا رضاها عنه (وهو موقف شائع لدينا للأسف فى حياتنا الاجتماعية والسياسية ، فهكذا نعامل الموظف الصغير إذا قابلناه فى حضرة الموظف الكبير ، والسياسى الصغير إذا كنا فى حضرة السياسى الكبير ، وهكذا نعامل الفنان الناشىء مهما كان موهوبا ، إذا كنا فى حضرة الفنان الشهير .. الخ) وهكذا فعل للأسف مسلسل أم كلثوم برجال عباقرة من أمثال محمد القصبجي وزكريا أحمد ، وغيرهما كثيرون . فإذا عاملت أم كلثوم أحدهم بقسوة زائدة ، تغاضى المسلسل عن ذلك فلم يبرزه أو حتى يذكره ، فإذا ذكره فعل ذلك بالتلميح من بعيد ، وأسرع فى تقديم مبرر وعذر لها ، وهو دائما مبرر واحد «الفن قبل كل شىء» ، ويترك القصبجى المسكين أو زكريا أحمد المسكين وكأن لم يكن لأحد منهما حياة بدون أم كلثوم ، بل



وكأن أم كلثوم كان من الممكن أن تصل إلى ما وصلت إليه من مجد لولاهما .

★ ★ ★

إنى أسرع فأعترف بأنى أدرك ما أحاط بكاتب المسلسل الفذ ومخرجته القديرة من صعاب من كل نوع ، هناك الحذر الواجب من قضايا قد ترفع أمام المحاكم إذا غامر كاتب المسلسل أو مخرجته بالاشارة إلى عيب هنا أو هناك ، وربما كان الأهم من ذلك الحذر من جرح شعور ملايين من الناس الذين تعلقت أفئدتهم بأم كلثوم ، ولا يقبلون بسهولة الكلام عن بعض عيوبها . نعم المصاعب كثيرة ، ومكامن الزلل متعددة ، ولكن أليس هذا هو بالضبط التحدى الحقيقى الذى يواجه الكاتب القدير والمخرجة القديرة عندما يقرران التصدى لهذه المهمة الخطيرة : مهمة إخراج مسلسل عن أم كلثوم ؟ أولا يكمن هنا بالضبط المعيار الصحيح للحكم بمدى نجاح الكاتب والمخرج فيما تصديا له ؟ .

الفن الشعبى

ذكريات لا تنسى

بقلم : حسن سليمان

وأنا طفل صغير كانت تمر عربة محملة بتماثيل جصية ملونة، يقف البائع مستندا على إحدى يدى العربة، وإحدى قدميه على يد العربة الأخرى مسندا الطبلة على فخذه ينقر ملحنا جملة «عزيزة بإزازه وشكوكو بإزازه». ومضى الوقت وحينما كبرت فوجئت بأن الدكتور لويس عوض أعتقل لأنه قال فى حديث إذاعى إن كان يوجد بطل شعبى فهو شكوكو لأن الشعب صنع له تمثالا من تلقاء نفسه، وعجبت للسبب الذى اعتقل من أجله، فلا تعارض بين وجود بطل شعبى ووجود زعيم دولة ورئيس جمهورية. أشعر الآن أن ذلك كان شطوطا من الدكتور لويس عوض فشكوكو لا يمكن أن يكون بطلا شعبيا، فالبطل الشعبى هو الذى يعيش فى وجدان الشعب وفى تاريخه النضالى. البطل الشعبى غالبا هو الذى يتحدى السلطة المهيمنة ويصر على تحديها، مخاطرا بحياته، وغالبا ما يقبل على الموت كسبارتاكوس أو زاباتا، أو ينتصر كغاريبالدى فى إيطاليا بعد سنين من النضال دون يأس ويصنع له الإيطاليون تماثيل من تلقاء أنفسهم، أو يظل فى تحديه مهما عذب كأبطال الميثولوجيا الإغريقية. من الممكن حتى أن يكون لصا مثل أدهم الشرقاوى أو «الخط».

لا أذكر كم كان عمري، لكنى أذكر أنه كان صيفا، حينما ذهبت أنا وأبى وخالى لزيارة الشاعر على محمود طه، فى ذلك الوقت كان عبد الوهاب يغنى «الجندول» . كانت نقطة تحول فى تلحين عبد الوهاب الموسيقى للكلمات. أتذكر أن منزل الشاعر حينذاك كان فوق الأمريكين أو فى المنزل المواجه للأمريكين من ناحية الممر الضيق. طرقنا الباب، فتح لنا على محمود طه بنفسه باب الشقة . كان قصيرا يميل إلى السمنة، لكن ما أتذكره عنه الآن هو شاربه الذى فى حجم ورقة البوستة، وأنه كان يرتدى شورتا، فى ذلك الوقت كان المصريون لا يرتدون شورتا، بل الانجليز واليهود وأما نحن من الصبية المصريين كنا فى سن الثالثة عشرة نترك الشورت ويشترى لنا أهلنا السروال الطويل. أما على محمود فإنه كان متحررا سابقا عصره، إذ كان يتوهم أنه أعظم راقص. وضع أسطوانة أغنية الجندول وأخذ يدفع بيديه فى الهواء، واثبا ومتثنيا مع الموسيقى ومع كلماته فى حركات تشبه رقص الشباب المتحرر الآن. وإذا بالنقاش يتطور إلى أنه سعيد جدا بأن الجندول قد حققت نجاحا وانتشرت وأصبحت تسيطر على الناس، وأنه بتكرار الناس لها ستتحول إلى فن شعبى، وهذا بدوره سيحدث تغييرا فى الفن الشعبى. عارضه أبى، أما خالى، وكان عالم آثار، فلم ينبس بكلمة متجنبا النقاش . حينما انصرفنا قال خالى لوالدى: لماذا الجدل؟ إن الفن الشعبى الآن أصبح علما واسعا، تدخل فيه علوم اللغات والآثار واللهجات والتاريخ السياسى والإجتماعى، حتى أصبح له كرسى فى كل جامعات العالم، ثم قررا أن نذهب إلى محل أظن أن اسمه «سولت» وكان على ناصية شارع فؤاد وحديقة الأزبكية. وعند وصولنا بدأت فرقة موسيقية تعزف بالكمانجات ألحانا سألت خالى عنها، قال لى من المؤكد أنها رقصة شعبية مجرية، وأن العازفين مجريون قلت له كيف عرفت أجابنى: من طريقة إمساكهم بالآلة الوترية وتحريك القوس عليها، إذ أن المجريين فقط هم والغجر يشتركون فى هذه «المسكة» وطريقة تحريك القوس. ثم تطرق الحديث على أن الغجر قاموا بدور خطير فى الموسيقى الشعبية فى بلدان أوروبا الجنوبية والشرقية حتى فرنسا. وكيف أنهم نقلوا ألحان بيئة إلى بيئة أخرى بالطريقة الخاصة بهم وهكذا كانت الموسيقى الشعبية الراقصة تتنقل وتتغير من بلد إلى بلد لكن أصولها واحدة.

***

فى ميدان سيدنا الحسين بعد أن نترك شارع الأزهر وقبل أن نصل إلى خان الخليلى كان يمتد زقاق ضيق يسمى الصناديقية. وكفنانين شبان لنا مراسم بدرب اللبانة بالقلعة نؤمّ هذا الزقاق لنشترى منه ما يلزم من أشياء نزين بها

مراسمنا وفق ميزانيتنا. إذ كان هذا الزقاق متخصصا فى جهاز العروسة. وكان أهم شئ بالنسبة للفلاحين هو الصندوق والمرآة تتفاوت أسعارها حسب جودتهما وزخرفتهما. وأغلاهما كانت الصناديق المحلاة بالصدف والأبنوس موضوع فى اشتقاقات هندسية. كذلك المرآة كانت لها أطر مزينة بنفس الكيفية. أرخصها كانت الصناديق المزينة بصفائح من النحاس والمسامير ذات الرءوس العالية. هناك أيضا المزخرفة بالألوان المبهجة أو المرصعة فى أجزاء منها بقطع من الزجاج وشظايا المرايا، وهو ما كنا نعتبره فنا شعبيا أصيلا ونصر على شرائه. كذلك الدواليب كانت ملونة ومرسوما عليها آنية تحمل الزهور وزخارف تقليدا من بقايا الفن التركى. كنا نطلق على هذه الأشياء الفنون الشعبية، وكنا نضعها فى مراسمنا، هى ومنتجات «عوف» من النسيج اليدوى ذى الألوان الزاهية.

***

وأول لقائى الحقيقى بالفن الشعبى كان فى غروب ذات شتاء، وكنت فى السنة الثالثة فى كلية الفنون الجميلة، وجدت نفسى واقفا بعد أن عبرت شارع الوايلى بجوار مستشفى دار الشفاء وضريح النقراشى باشا، وإذا بأصوات تصل إلى وتتعالى وزحام شديد وكم هائل من الفلاحين - نسوة ورجالا - يسعون إلى ذلك الزحام. هذه كانت بداية علاقتى بمولد المحمدى وبالفن الشعبى. عبرت شارع رمسيس، فى ذلك الحين كان يسمى بالملكة نازلى. ذهبت إلى الزحام وفوجئت بنقر على دف كبير وغناء غريب الشأن. انحشرت بين الزحام، فإذا بى أمام رجل قذر جدا كأنه لم يستحم منذ سنين، عارى الجسد إلا من جوال من الخيش ثقبه ثلاثة ثقوب، لرأسه ولذراعيه، وجدته يثب فى الهواء ويقف على أطراف أصابع قدميه الطويلتين، وشعره الأشعث الطويل يتطاير على كتفيه، وأصابعه النحيلة تنقر على الدف فى ايقاع منضبط مع حركة جسمه وتمايله، وكان قادرا على أن يجعل من أى كلام إيقاعا موزونا بإدغامه بعض الأحرف أو مدها. كل ما أذكره أنه كان يقول كلمات غامضة مثل «عصفورى الأخضر طار.. طار» يبدأ خافتا ثم يعلو ويعلو، ثم يثب ويثب ويثب إلى أعلى وينزل ثانية وقد ثنى ركبتيه ووقف على أطراف أصابعه «سابنى وتركنى ليه» ويردد «ليه.. ليه» وجاءتنى فى قميص على اللحم ويردد «على اللحم.. على اللحم» يهمس لنفسه مع تحريك الطار ليشخلل الدوائر النحاسية. شدنى هذا الرجل إلى عالم غريب، ورغم أنى لم أفهم معنى واحدا من المقاطع والكلمات سألت واحدا بجانبى عن من هذا، أجابنى أنه مجذوب جاءته حالة الوجد.

فوجئت بعد ذلك برسومات مرسومة

على مربعات بداخلها مرآة موضوعة على حامل، عليها رسوم ملونة وكتابات. الرسوم عبارة عن أسود تحمل سيفا ونساء تلعب أمام بعضها بالسيوف وأنواع من رسوم عصافير وحوريات بحر وأشياء غيرها لا أذكرها الآن. وبجانبه يجلس رجل أمامه وعاء به مادة قاتمة، وإذا بفلاح يأتي يشمر عن ساعده ويطلب منه أن يكتب عليه اسم حبيبته، ويرسم تحتها حورية بحر. فإذا بالرجل يغمس إبرة في هذا السائل ومباشرة يغز الرجل في ساعده ثقوبا بجانب بعضها، وبعدها أتت امرأة، وأظنها غجرية أو من النساء الفقيرات سيئي السمعة، يطلق عليهن «الفواحش»، وتطلب منه شيئا، وتختار أسدا يحمل سيفا، وإذا بها تفتح الأزرار حتى تكشف عن بداية صدرها، وتطلب منه أن يكتب اسم رجل أظنه حبيبها وتاريخا تحته قائلة إنهم أخذوه ظلما في قضية حشيش، وفوق اسمه ذلك السبع الذي يحمل سيفا، كل هذا كان بالنسبة لي كأنني أفتح عيني على عالم غريب. زادت دهشتي حين فوجئت بشئ لم أكن أتوقعه أن لبدة الفلاح العالية جداء التي انقرضت الآن كانت تكوى كالطربوش ولكن بطريقة عجيبة، تغسل جيدا، ثم يشدها الرجل الذي غسلها على القالب، ثم يظل يمر عليها بفرشاة ممتلئة بالصابون جيئة وذهابا مرات كثيرة ويتركها تجف وبجواره قوالب أخرى لطواقي لم تجف بعد وإذا بها ذات حوائط صلبة ترتفع على رأس الصعيدي لتفصل بين رأسه وسعير الشمس. تلاشت هذه «اللبده» الجوخ الآن التي كانت مشهورة في صعيد مصر أكثر من الوجه البحري، «والبلغ «أيضا كانت تباع في ذلك السوق، وكانت توضع في قوالب خشبية. أما المحافظ الجلدية التي تنثني مرة واثنان وثلاثة يستعملها الباعة الجوالون والمعلمون كان يأتي بها إلى ذلك المولد لتزين بمسامير معدنية بيضاء توضع كدعامة حتى لا ينقطع الخيط التي حيكت به ولتزينها في مثلثات.

واهتمامي الحقيقي بالفنون الشعبية أتى حين وجدت حلقة كبيرة جدا تحيطها دكك خشبية يجلس عليها رجال من الصعيد، ملابسهم من الصوف الانجليزي الغالي، ومظهرهم يدل على أنهم ذووا نبالة وأصالة. وفي جزء ما تجلس فرقة موسيقية من المزمار البلدي عددهم ستة، وواحد أو اثنان من النقرزان وهي الطبلة التي توضع على الحجر، ويمسك الطبال في كلتا يديه بعصا صغيرة من الخيزران.

بصعوبة استطعت أن أدلف بين الواقفين ثم تجاسرت وجلست على طرف الدكة. جاءت جلستي بجوار شيخ هرم أنيق الملبس، سألته عما يحدث، قال لي ألم تر من قبل لعب العصا؟ قلت أتقصد ما يطلقون عليه «التحطيب» هز رأسه موافقا، سألته ما كل هذا الجمع الغفير

من أشخاص لا يبدو عليهم أنهم ليسوا ككل من فى المولد. قال لى أنها الليلة الأخيرة لتصفية بطل اللعبة فى الصعيد، وأنها ستكون «واعرة» ستكون بين بطل سوهاج وبطل قنا. بطل سوهاج صغير فى السن، إلا أنه من أسرة كلهم من ممارسى اللعبة، فأبوه كان بطلا وكذلك جده أما الآخر بطل قنا فرغم كبر سنه لم ينتزع أحد منه البطولة على مدار أربعين سنة لأن لديه خبرة كبيرة تضاهى خبرة الصغير الذى أنشأه جده وأبوه. قلت أيضايقك أن أسألك؟ قال لى سأجنبك السؤال وسأحاول أن أشرح لك كل شئ خطوة فخطوة. بدأت الموسيقى بطيئة بها لوعة ما كأنها تريد أن تستجمع مجد ماض سحيق اندثر. هامسا قال الشيخ أن الموسيقى الآن تمهيد لنزول البطلين، ثم علت الموسيقى وكانت سريعة نوعا ما، فهتف أنها تعلن عن نزول البطلين وإذا من كلا الجانبين ينزل رجلان ضامرا الجسم تعجبت، هل لهذا الجسم الضامر أن يلعب بهذه العصا الطويلة، أخذا يلفان حول نفسيهما يجران خلفهما العصا. همس الشيخ أنهم يستعرضان أنفسهما للجمهور ليتعرف على كل منهما، رويدا رويدا تصاعدت الموسيقى ثانية بنغم آخر. فى كل مرة كان نوعا من المزمار يقود، ففى هذه المرة كان المزمار الصغير هو الذى يقود، وأخذ البطلان دون أن يقتربا من بعضهما يستعرضان مهارتهما فى مسك العصا والتلويح بها والحجل على رجل واحدة فى رشاقة غريبة الشأن لا يمكن أن أتصورها من تلك الأجسام الضامرة ذات الملابس غالية الثمن. وفجأة إذا بالمزمار الكبير يصرخ، يتبعه المقاسين من المزمارين الآخرين والنقرزان قال العجوز الهرم أن الموسيقى تعلن عن بدء التحام البطلين ليكتشف كل منهما الآخر. تلتحم العصا مرتفعة أعلى رءوسهم وتلتف الأجسام حول بعضها بمنتهى المرونة والسهولة. رويدا رويدا تصخب الموسيقى كلها مع بعضها لتعلن بدء النزال قال العجوز الذى بجانبى إن كليهما سيخشى الآخر وكلاهما سيكتشف نقطة الضعف فيه. وهنا تتحول الموسيقى إلى شئ آخر لتكون هى التابعة لنزال البطلين. لم أفهم شيئا ولكن الحاضرين كانوا يصرخون «الله.. الله» أو يهمس الهرم الذى بجانبى «ليه كده» كان متتبعا جدا للمباراة والتحام العصا أو وصول العصا لجسم الآخر والموسيقى هى التابعة لحركاتهما ولصوت ارتطام العصاتين لبعضهما. طالت المدة وأنا فاغر فاهى على شيء رائع لتطويع العصا فى حركات وعدم اهتزاز العصا وسيطرة الرجل الهرم عليها. كنت أريد ألا ينتهى هذا الاستعراض لكنه طال ثم انتهى. هلل الحاضرون وصخبت الموسيقى فرحة وقال العجوز: إن الشيخ بطل قنا قد طال خصمه كما هى عادته تحت إبطه. قلت له

لكنه لم يقع . قال لى إنه محظور عليهم الإيذاء أو الضرب. فقط يكاد أن يلمسه، جذبتني هذه اللعبة وتتبعتها كل خميس وكنت أحيانا أسافر الي قنا وسوهاج قالوا لى وقتها أن سلطان باشا كان يرعى هذه اللعبة، كان ينفق عليها، وأنه لا يوجد الآن من يرعى هذه اللعبة . بالتدريج أخذت هذه اللعبة تندثر . وآخر سنة ذهبت لأرى المباراة كانت تؤدى على ظهور الخيل، وأحيانا يقف الفارس على الركاب. ولقد سألت عن تلك الآلات الموسيقية الخشبية التى يستثيرنى صوتها وأحن إليها ، وقيل لى أنها ثلاثة مقاسات : المقاس الكبير يسمى «الأبق» والمتوسط يسمى «الشلبية» والصغير يسمى «السبس» . ويجلس دائما عازفان بجوار بعضهما الأستاذ وتلميذه ، التلميذ وظيفته أن يأخذ من الأستاذ ويريحه بعض الوقت. والعازف المتمرس يستطيع أن يجمع أنفاسه لمدة طويلة فى انتفاخ أسفل فكه ورقبته . أحيانا ما يكفى هذا النفس لاستمراره لمدة طويلة دون أن يرفع المزمار من على فمه . لماذا اندثرت هذه اللعبة واندثر أبطالها، أظنها لعبة تمتد إلى الفراعنة، ولم تندثر مصارعة الثيران من أسبانيا، رغم أنى أفضل التحطيب بكثير.

***

كان بالمولد نصبات كشبه الخيام تسمى غرزة، أشهرها كانت الخيمة التى تغني بها بدرية السيد. هي سيدة محترمة قوية الشكيمة ، مهابة الشخصية تعتنى بملابسها الغالية السوداء دائما. وكانت لا تسمح باسفاف أو تهريج . على الكل أن يصمت تماما عندما تبدأ الغناء ولا تتوقف أبدا كعادة المغنيين فى الموالد حين يتوقف المغنى عن الغناء مع دخول كل وافد جديد تعزف الموسيقى سلام مربع فلابد من النقطة . فالدخول مجانا وثمن المشروب ملاليم غير مجزية . عكسها كانت خيمة خضرة خضر . كان لخضرة سن ذهبية فى جانب من فمها وتلف منديلا أحمر حول رقبتها . كانت مشهورة بـ «لا لا لا اللا .. آه .. اللا» يجلس وراءها زوجها وهو طبال . أما باقى الفرقة بجانبه، وهو يضع وردا أو ريحانا فى فوهة الطبلة. ويأخذ النقطة ليدسها داخل الطبلة، ولم أر فى حياتى «قفا» أطول من قفاه . كثيرا ما تصيح خضرة مع كل داخل «نقى يا مزيكا» ثم ترتجل كلمات لتحية الداخل من جمل محفوظة . وحينما كانت تتعرف على زبون من الزبائن الدائمة عندها الذين تعرف اسماءهم مثل الزبون السودانى الذى يرتدى طاقية صغيرة خضراء وملابس بيضاء وتحتها سروال . فتبادره بتلك التحية . «عم بشير وصحبته .. ده زى الورد وصحبته» . أثارنى من تلك المغنيات اعتناءهن بأقدامهن وخصوصا الكعب، يلبسن شبشبا ذا كعب، وعلى جانبه وردة حمراء ويقال إن معظمهن من قرية

فى سوهاج ، يقال عنها إن المرأة فيها تملأ البلاص فى دقيقة واحدة ، وتحك كعبها بحجر فى نصف ساعة .

تعرفت على خضرة وزوجها الطبال وسجلت منهم بعض أغانى الصعيد وذهبت معهم إلى منزلهم وكان وراء المحمدى ولا أدرى هل كان فى عزبة حشيش أم عزبة القصيرين أم عزبة الصفيح ، نسيت . وهكذا قررت أن يكون مشروع تخرجى من كلية الفنون الجميلة عن مولد المحمدى ونساء المحمدى ، تغيرت المنطقة الآن وأزيل كل شىء ويقى الضريح والجامع ، أما المساحة التى كان يقام عليها المولد فقد بنيت بالكامل كملحق لكلية طب عين شمس لتفى بتزايد أعداد الطلبة .

***

لا أذكر من بالضبط الذى عرفنى على زكريا الحجاوى ، أخذته إلى مولد عرب المحمدى وأخبرته أن خضرة تقف أمامى لتغنى وأرسمها ، كانت صورة وجه خضرة وهى تغنى ومنديل أحمر حول رقبتها وقد ظهر لمعان السن الذهبية فى فمها المفتوح معلقة أعلى مكتب سلامة موسى فى حجرة مكتبه . واكتفى سلامة موسى بأن يعلق فى بقية الحجرة صورتين أحداهما لوجه تولستوى والأخرى له واقفا خلف المحراث.

عرفت زكريا الحجاوى بخضرة فترددنا كثيرا على المولد، اختلفت معه كثيرا ، واستمر هو فى علاقته بها هى والطبال ، ألقى زكريا بقنبلة إذ قال إنه سيتزوج خضرة، وأن خضرة هى ميلاد الفن الشعبى الحقيقى فى مصر، حذرته قائلا إنهم كالغجر وأن زوجها الطبال سيبقى زوجها الحقيقى . لم يصدقنى وقال إنها تحبه . مضى الوقت وإذا بتحذيرى يصبح حقيقة .

***

عندما أصبح يحيى حقى مسئولا عن إدارة الفنون ذهبت معه ذات يوم إلى البروفة «الجنرال» بالأوبرا التى ستغنى بها خضرة وباقى من جمعهم زكريا الحجاوى ، ولن أسهب فى التفاصيل فكل ذلك فى كتاب «تعال معى إلى الكونسير» ليحيى حقى . كان يقف بجانبنا سكرتير يحيى حقى أو المدير المالى الأستاذ أنور فتح الله وكان فى ذلك الوقت يعد روايات نجيب محفوظ وغيره من الكتاب للإذاعة والمسرح ، قال يحيى حقى لزكريا: إنه لم يجد ما كان يتوقعه ، وأنه لم يفهم خضرة على الاطلاق ، أجاب زكريا بجمل غامضة إن فى صوت خضرة التقاء الطينة السوداء بصحراء مصر القاحلة ، وأنها انسياب مياه النيل وهى تشق طريقها . قال يحيى حقى بطريقته الذكية اللبقة إنه لم يجدها كما يصفها زكريا ، وأن الجميع ينقصهم الحيوية والدفء لأننا انتزعناهم من بيئتهم الحقيقية . فقال زكريا بغموض: أبدا ، إن المسألة أنه

ينقصهم شيء فاستفسر يحيى حقى عما ينقصهم فأخذ زكريا يشرح أنه ينقصهم شيء يساعدهم على التجلى والوصول إلى حالة الوجد . وهنا فهم يحيى حقى وسأله عمّا يريدونه . فقال زكريا : لا أدرى ولكنى قلت الحقيقة . وهنا نظر يحيى إلى أنور فتح الله وطلب منه أن يتصرف ، فالوضع سيكون خيبة كبيرة للجميع . وقال له : اصرف الفلوس وقل : الشيء ولزوم الشيء ولزوم لزوم الشيء . فرح الأستاذ أنور بهذا الحل لأنه كما أعلم سيصيبه شيء من لزوم الشيء .

أخذنى يحيى حقى من يدى قائلا : كما كان يقول لى دائما ، نحن الاثنان قصار «كالخيل السيسى» هلم بنا . خرجنا من باب الممثلين الخلفى بالأوبرا . قال يحيى : زوجتى تزور أولادها بفرنسا، دعنا نتعشى خارج البيت اليوم ، عددت له الأماكن التى يمكن أن نأكل بها ، ومنها أن نذهب إلى قهوة ماتاتيا ونطلب من القهوجى أن يحضر لنا كبابا ويجعل الكبابجى يكبكب الكباب . تساءل يحيى حقى عن معنى ذلك ، فشرحت له أن ذلك يعنى أن يخرج الكبابجى الكباب من النار فيضعه توا داخل الرغيف فتنزل عصارة اللحم على الخبز ، ثم يضع الرغيف على النار ليأتى لنا ساخنا ، أجاب يحيى حقى باسما وقد أمسك بيدى : دعنا نتكبكب . ثم ونحن نأكل اللحم بالخبز قال لى يحيى حقى : والله ياحسن لم أعد أفهم مرة يقولون لنا يجب أن تذهب المدينة بفنونها الى القرية ، وأخرى يقولون يجب أن تأتى القرية بفنونها إلى المدينة . قلت له إنه عندما كنت أزور سلامة موسى فى بورسعيد ونحن ننظر إلى أضواء المراكب الصفراء وهى تعبر قناة السويس وتطرق الحديث الى الفن الشعبى قال سلامة موسى: يجب على المثقف أن يكون حذرا جدا فى اقترابه من الفلاح أو من الطبقة العاملة ، وأن يدعهم يختارون هم أبطالهم ونجومهم ، وحذرنى من التدخل نهائيا أو التقليد ، وقال إن الفن الشعبى كسمك النيل لايمكن أن يعيش فى المياه المالحة والبحر الهائج .

***

آخر مرة جلست فيها مع زكريا الحجاوى كانت فى مرسمى ، وكان معنا كذلك عباس الأسوانى ومجموعة من الأصدقاء منهم حسن التلمسانى ، كنا نجلس على وسائد حول منضدة منخفضة، كنا مجموعة من الأسماء اللامعة مات كثير منهم ومازال بعضهم حيا . جلس زكريا بجوار عباس الأسوانى ، وكان الأخير بدينا جدا، كان منحشرا فى ركن الحجرة، تعلوه مكتبة معلقة، وكرشه يسبقه أمامه على المنضدة المنخفضة ، وحينما يتحدث عباس الأسوانى ، خصوصا ومعه زكريا الحجاوى ، فلا يمكن أن يكون هناك مجال لأحد آخر ليتكلم ، كانا يتحدثان عن الفن الشعبى ، حولهما باقى

الأصدقاء ، وأمامهما بالضبط يجلس حسن التلمساني يلف سجائر الحشيش ويحتسى الخمر صامتا ، حسن دمث الخلق وديع ، لكنه حين يفقد أعصابه ينقلب الى رجل شرس من سلالة هانيبال، ودون مقدمات وجدنا حسن يخرج من جيبه مطواته التى من مخلفات أحد الكوماندوز الانجليز ، يفتحها ويمدها إلى كرش عباس الأسواني قائلا : ساعتين وأنا أتحرق الى كلمة انطق بها ، وأنتما لم تتركا فرصة لأى أحد ليتكلم ، «والله افتح كرشك انت وهو» فوجئنا بهذا التصرف غير المتوقع ، فعلى بعد أقل من نصف سنتيمتر كان سن مطواة حسن التلمساني يداعب «كرش» عباس الأسواني . وصاح التلمساني : ما الذى تعرفانه عن الفن الشعبى انت وهو . هل تستطيعان قراءة نوتة موسيقية ؟ هل تستطيعان التفريق بين اللهجات المختلفة ؟ أين مثلا تتحول السين إلى شين أو العكس أو الجيم إلى زين، يجب أن تصمتا إلى آخر الجلسة . وبسرعة حللت الموقف بأن غيرت الموضوع ، فوجهت الحديث الى زكريا الحجاوى فادعيت كاذبا أن الروس قد سجلوا جميع الموسيقى الشعبية المصرية، وصنعوا ألحانا على نسقها؟.

وأسمعته ألحان قانون مع ناى .. فقال . الله .. الله .. وأخذ يضرب يدا بيد على الإيقاع ، وقال إنه مدخل رائع لخضرة ، تستطيع أن تندفع بعده مباشرة صائحة: لالالالالا . رفعت الاسطوانة من على البيك أب . ووضعت غيرها وكانت لآلات شعبية مجرية . قال زكريا أنه سمع هذا اللحن من قبل ، وأخذ يحاول تذكر متى وأين سمعه ، ثم قال أنه ألف عليه أغنية لخضرة ، اخذت أغير الاسطوانات وفى كل مرة يبدى زكريا اعجابه باللحن وبالمعجزة التى صنعها الروس من الفن الشعبى المصرى . وفى النهاية ألقيت اليهم بالاسطوانات قائلا: إن هذه موسيقى شعبية أرمنية والثانية مجرية والثالثة رومانية والأخيرة كانت يوجسلافية ولا شيء من هذا يرتبط بمصر إلا بتأثير موسيقى الأتراك الذين حكموا كل هذه المناطق ، ضج الحاضرون بالضحك ، أما زكريا فاندفع كعادته مبررا خطأه بكلام يعجز أى إنسان عن فهمه .

***

مرت الأيام دون أن أرى زكريا أو أعلم عنه شيئا ، وكان قد انحسرت عنه الأضواء كنت ذاهبا إلى الاسكندرية ووصلت المحطة قبل قيام الديزل بنصف ساعة وفجأة وجدت زكريا أمامى بشعره الأشعث ووجهه مرهق وملابسه متسخة ، بجانبه سارت خضرة تحمل سبتا كبيرا ، وبجانبهما الطبال يحمل طبلته ولفائف ، استوقفني وتصافحنا ، سألته : أين كنت؟ قال . كان المجد ينتظرنى . وقد حدث، فقد أتى سكان قرية من الصعيد طالبين

أن أنقذهم فأنا المخلص الوحيد لهم ، والمسألة أن لديهم فرحاً وفى الليلة نفسها يوجد لدى العائلة المنافسة لهم أيضا فرح ، العائلة الأخرى أحضرت أحد المداحين المشهورين جدا في الصعيد ، وأمام نصرة الفلاحين، وهذا في صلب عملي، فأنا لا أتأخر، فأخذت خضرة والطبال وذهبنا ، كانت قريحتي صدئة جدا . حاولت ، وكررت المحاولة ، لكن الكلمات خذلتني، وأخيرا أخذت استنجد بخضرة قائلا : ياللا ياخضرة .. ساعديني .. قولي شيئا ، وأخذت أدق بالايقاع على يدى . وفجأة انطلقت خضرة بصوت لم أسمعه من قبل. خضرة تجلت . فإذا بالكلمات تندفع مني كالهدير ، لتلحنها وتغنيها خضرة على التو. ملأت «الله أكبر» سيكون النصر حليفنا ، وانطلقت تغنى ، ولعلعت خضرة بصوت جلى كالسكر النبات . فإذ بالمدعوين فى حفل الأسرة المنافسة يتسللون لنا واحدا تلو الآخر ، وانهال علينا النقوط ، وخضرة لا تنقطع عن تحية الرامين بالنقطة ، وفى الصباح حملنا بما لذ وطاب من الفطير المشلتت وعسل النحل والجبنة القديمة وسمن بلدى، حتى العدس أعطوه لنا ، عدس كالكهرمان. وودعتنا القرية بأكملها الى المحطة. صافحته ومضيت وأنا اضرب كفا بكف .

***

تذكرت قصة أخرى مرت بى مع الأستاذ مفيد الشوباشي ، كنا نحترمه جدا ونحترم نضاله ومواقفه ، ولكنه كان يصر ونحن جالسين فى مقهى استامبيلوس ناصية عبد الخالق ثروت مع سليمان باشا ، أن يصعد فوق كرسى يلقى علينا أشعاره ، يظن نفسه أنه الشاعر اسينين أو مايكوفسكى ، وفى مرة صعد على الكرسى وكنت أجلس بجواره وكذلك أنور فتح الله الذى كان هائل الجرم طويلا عريضا أصلع الرأس ، إذا بمفيد الشوباشي ينطلق : أنزلونى من عليائى ، أنزلونى من عليائى ، كان مفيد الشوباشي قصيرا فلما قام أنور فتح الله واقفا بجواره فإذا بمفيد وهو واقف على الكرسى يصل تقريبا الى صدر أنور فتح الله ، وإذا بأنور فتح الله منتشيا يقول للأستاذ مفيد الشوباشي : سأنزلك من عليائك يا أستاذ مفيد ، وإذا به يحمله من على الكرسى وينزله برفق على الأرض ، كأنه يحمل وعاء اثريا ثمينا .

***

مضت سنوات طويلة على تلك الأحداث ، لكن لاتزال موسيقى التحطيب، وأغنية بدرية السيد «غنيت على شواشى الدرة الأمرية» وتنطقها بلغة الصعيد «الجمرية» تحمل الىّ الشجن ، وتحملنى فى حزن عميق الى ذكرى أحقاب سحيقة مضت على ذلك الشعب ، أليس الشجن من أهم مميزات الفن ودليلاً على صدقه ؟. ■

تهل علينا الألفية الثالثة ببريق أخاذ مع انطلاق الصواريخ النارية ومظاهر البهجة والسرور في شتي بقاع الأرض بالرغم من الآلام التي تئن بها البشرية في أكثر من موقع من جسمها الضخم . إنه الأمل في الغد الجديد ، وفي أن يكون المستقبل أفضل من الماضي والحاضر . ويتساءل المرء إلى كم يمتد بي العمر في ذلك القرن الوافد ؟ هذا من علم الغيب الذي اختص به الخالق سبحانه وتعالي جل وعلي وحده . «وماتدري نفس ماذا تكسب غدا وماتدري نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير» صدق الله العظيم «لقمان: ٣٤» .

هل طال عمر الإنسان في مصر ؟

بقلم : د. محمد بهائي السكرى

ولكن هناك من الأمور مايدعو الى التفاؤل فالإحصائيات تشير الى أن متوسط عمر الإنسان بوجه عام، وفي مصر على وجه الخصوص، في ازدياد مستمر .

ما السبب فى ذلك ؟

إن الأمر يرجع الى عوامل متعددة .. ولكن قبل أن نستطرد في شرحها نتساءل، ماالذى يحدد عمر الإنسان بوجه عام؟

العمر محدد

ونعود فنقول إن العمر محدد بقدر مكتوب ضمنه الله سبحانه فى الچينات الوراثية التى ينشأ منها الإنسان ، والعوامل البيئية التى يتعرض لها طوال الحياة .

فخلايا الجسم لها قدرة محددة على التكاثر والانقسام وهذه القدرة تتفاوت من كائن حى لآخر ومن إنسان لإنسان .

وقدر تلك الخلايا أن تبلغ ذروة من العنفوان ثم تبدأ في الاضمحلال .

ولا تتشابه الجينات الوراثية التى تحمل صفات الجسم المختلفة فى شخص مع أى إنسان آخر مثلما لاتتشابه بصمات الأصابع . وهذه الجينات تحدد نقاط القوة والضعف فى البدن وترسم الخطة والمنهج العام لتكيف الجسم مع البيئة وقدرة المرء على مجابهة ضغوط الحياة .

والبيئة بوجه عام تمثل تحديا مستمرا لجسم الإنسان بظروفها المتغيرة ومكوناتها المختلفة ، فهناك دائما تغير فى الوسط الخارجى مثل تغيرات الحرارة والضغط والتعرض لمختلف المؤثرات وللجراثيم الضارة .

ولكن بالرغم من ذلك يظل الوسط الداخلى فى جسم الإنسان فى حالة ثبات وتؤدى الأنسجة والخلايا والاعضاء وظائفها بكفاءة وبذلك يظل الإنسان فى حالة من الصحة . أما إذا حدث خلل داخلى كبير فى الثبات والاتزان ينشأ المرض وقد يؤدى الى الوفاة .

وكلما كانت البيئة الخارجية مواتية قل تعرض المرء للضغوط .

وفى حالة حدوث الخلل كلما كان العلاج سريعا وحاسما قلت فرصة الاضرار بالجسم ونقص العمر .

ونعود لأسباب زيادة متوسط عمر الفرد فى مصر .

إن ذلك يرجع ببساطة شديدة الى التقدم الطبى المذهل فى القرن الماضى والى أن مصر تدريجيا بدأت تخرج من مصاف الدول النامية الى عتبات الدول المتقدمة . كما أن اسلوب الحياة ومستوى المعيشة فيها قد طفر طفرة كبيرة .

ومع التقدم الطبى فى شتى البقاع تحسنت وسائل التشخيص والعلاج .

وعندما نستعرض أسباب الأمراض نجد منها الوراثة والعدوى واصابات الحوادث والأورام وسوء التغذية .

وهناك الكثير من العيوب الخلقية كان علاجها مستعصيا وأصبح الآن من الممكن معالجتها بنجاح .

والأمراض المعدية بمسبباتها المختلفة من جراثيم وفيروسات وطفيليات أصبح الآن علاجها سهلا ميسورا فى أغلب الأحيان كما تطورت وسائل الوقاية منها باستخدام الأمصال واللقاحات وازداد الوعى بها مع اهتمام وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمقروءة بالتوعية المستمرة .

وأمراض سوء التغذية أصبحت أقل وطأة مع ارتفاع مستوى المعيشة وانتشار الوعى الصحى .

انتشار الوعى الصحى

وفى مصر ازداد عدد الأطباء وانتشرت المراكز الصحية في كل مكان ، وبلغت بعض المستشفيات فى المدن مستوى عاليا من التقنية يضارع مايوجد فى الدول المتقدمة .

هل طال عمر الانسان

فى مصر ؟

ومع انتشار الوعى الصحى أصبح المرء عادة يلجأ الى الطبيب كلما اصابه المرض ولا يتجه الى مدعى الطب والوسائل البدائية فى العلاج .

ومع انتشار مظلة التأمين أصبحت قطاعات أكبر تحظى برعاية صحية معقولة بأجر زهيد .

ومما لاشك فيه أن الثالوث الرهيب الذى كان يتهدد مصر فى القرن الماضى، خاصة فى أوائله، وأضلاعه الفقر والجهل والمرض قد بدأ فى الانحسار .

فقد زاد الدخل القومى مع الاتجاه للتصنيع واكتشاف منابع جديدة للبترول وتحسين طرق الزراعة وسياسة الانفتاح وحسن إدارة قناة السويس .

وارتفع متوسط دخل الفرد بالرغم من الزيادة الرهيبة فى عدد السكان الذين تضاعف عددهم فى القرن الماضى من ٢٠ مليونا الى ستين مليونا .

وأصبح هناك اهتمام كبير بالتعليم وتراجعت الأمية وزاد نشر الثقافة عن طريق الإذاعة والتليفزيون والصحف والمجلات .

وأصبحت الكهرباء والمياه النقية تصلان الى معظم القرى وهذان عاملان أساسيان فى رفع مستوى الحياة والحفاظ على الصحة وتيسير استخدام الأجهزة الحديثة فى الحياة اليومية وفى الخدمات الصحية والعلاجية .

وأدى جعل سنوات التعليم الأولى الزامية لجميع الأفراد من النشء الى تيسير تقديم حد أدنى من المعلومات العلمية والصحية والثقافية التى تعين المرء على التصرف السليم فى مجابهة الأمراض والأزمات .

زيادة التوعية

كما أدى انتشار التليفزيون والاقبال الجماهيرى الشديد عليه الى جعله أداة ممتازة للتوعية فى شتى المجالات والى خلق نوع من الفكر الموحد بين طبقات الشعب المختلفة على تباين ألوانها ومشاربها ، واستخدم التليفزيون بكفاءة فى حملات صحية مختلفة مثل حملات التطعيم ضد شلل الأطفال والتيتانوس ومعالجة الاسهال والجفاف والاهتمام بالرضاعة الطبيعية وصحة الأطفال بوجه عام ، كما اسهم فى الوقاية من مرض البلهارسيا ومعالجته وهو من أكثر الأوبئة

انتشارا بين الفلاحين والعمال الزراعيين ، كما حذر من أوبئة عالمية قد تتهدد مصر مثل مرض الايدز .

وأدى تشجيع القراءة ونشر المكتبات الى ارتفاع مستوى الثقافة والوعى ، وأصبح الناس فى مصر يتهافتون على معرض الكتاب الدولى بالملايين مثل تهافتهم على الغذاء والكساء .

التقدم العلمى

وأدى تقدم صناعة الدواء فى مصر الى تقديم كم هائل من أحدث المستحضرات الطبية الفعالة بأسعار أقل من الاسعار العالمية فى الدول الأخرى .

كما اسهم انتشار معامل التحاليل والعيادات والمستشفيات التى تملك وسائل متقدمة للتشخيص مثل الموجات فوق الصوتية والأشعة المقطعية والرنين المغناطيسى فى تيسير سبل التشخيص الدقيق وعلاج المريض على أساس سليم.

ولا ننسى أن العلم أصبح يقدم للإنسان حلولا لمشاكل كانت تستعصى على العلاج وأمراض كانت تعد ميئوساً منها . واستخدمت وسائل جديدة مثل المناظير وقساطر القلب وأشعة الليزر فى التشخيص والعلاج .

كما أصبح التدخل الجراحى والتخدير أكثر أمنا حتى أمكن إجراء عمليات جراحية لمرضى متقدمين فى السن فى السبعين أو الثمانين من العمر .

وأصبحت مراكز العناية المركزة وعلاج الحالات الحرجة منتشرة فى كل المستشفيات فى مختلف أنحاء مصر.

ولكن بالرغم من هذه الصورة المشرقة فهناك بعض المحاذير. فقد انتشر التدخين بصورة رهيبة فى قطاعات كثيرة من الشباب بالرغم من انحساره فى الدول المتقدمة . ومما لاشك فيه أن التدخين يشكل خطورة حقيقية على صحة المرء على المدى الطويل .

كما تزايدت نسبة الاصابة بضغط الدم المرتفع وتصلب الشرايين مع التعرض لضغوط الحياة وزيادة الزحام والافراط فى تناول الطعام . كما تزايدت نسبة الاصابة بمرض السكر لأسباب مشابهة. كما أن زيادة التعرض للملوثات الصناعية والمبيدات الحشرية والدخان قد أسهمت فى زيادة نسبة الإصابة بالأورام .

فلابد من الحذر حتى لانفقد بسمة التفاؤل التى أطلت علينا فى القرن الجديد تبشر بعمر مديد .

١٩ فبراير ذكرى ميلاد الراحل الكبير أحمد بهاء الدين الذى ولد فى عام ١٩٢٧ ، وهذه بعض جوانب من حياته الحافلة



أحمد بهاء الدين

العاشق للحقيقة

بقلم : مصطفي نبيل

●● جذبني كما جذب جيلى قراءة أحمد بهاء الدين،لأن كتاباته كانت تمثل فكراً جديداً، ونغمة جديدة وروحا جديدة، وأفكارا طازجة ، يدافع خلالها عن قضايا بلده بلا تزمت ، كتابات رائعة .. هادفة .. شيقة، تتناول قضايا الناس، وفى الوقت نفسه لا تتملقهم ، وتنم كتاباته عن تكوين ثقافى عميق.

وأصبحت كتاباته بحق التعبير الصادق عن الوطنية المصرية. فى مرحلة اشتد فيها الجدل، وتضاربت فيها المدارس الفكرية ، وسط خليط مضطرب من التيارات والأفكار، كما أن في كتاباته عشقا كبيراً للحقيقة ، ذلك النوع من العشق اليقظ، ينتقد ويرفض ويقترح ويكشف ويقدم الحلول.

لذا كان أحد الأسماء اللامعة، وهو أصغر رئيس تحرير عرفته الصحافة.

وإذا كتب بهاء فلابد أن أقرأ .

وتمنيت خلال خطواتي الأولى العمل معه، وكان أيامها رئيساً لتحرير صحيفة «الشعب» التي كان يرأس مجلس إدارتها السيد صلاح سالم ، وكان لاتصالى بالأستاذ بهاء والتعرف عليه حكاية:

ذهبت إليه في صيف ١٩٥٩ أحمل رسالة من رئيس مجلس الإدارة، يقدمني إليه، وكنت لا أزال طالبا في الجامعة، وتسلمت سكرتيرته زينب صادق رسالة صلاح سالم، وأعطتني أكثر من موعد لم يتحقق، حتى كدت أتخلى عن المحاولة، وفي أحد المواعيد التقيت مصادفة بالأستاذ زكريا الحجاوى الذى كانت تربطنى به علاقة وثيقة ، وعندما علم بمحاولاتى المتكررة للقاء بهاء، دهشت من سؤاله .. هل معك نقود؟ أجبت .. كم ؟ ولماذا ؟ رد قائلا : حق التاكسي.

وأخذنا التاكسي على الفور إلى مكتب بهاء في شارع القصر العيني، ورحبت زينب صادق بالأستاذ زكريا ، وأفسحت له الطريق للقاء بهاء ، ودخلت في أثره، وقدمني إليه، وحاول الأستاذ بهاء أن يثنيني عن العمل بالصحافة وهمومها، ولم يكن لدى أدنى استعداد للاستجابة ، ثم طلب أن أقدم أعمالي إليه مباشرة، فالصحيفة غارقة في الخلافات والصراعات.

ولم أعرف حتى اليوم هل عرف الأستاذ بهاء أنى صاحب خطاب صلاح سالم . أم لا ؟

ومنذ هذا اللقاء وحتى اليوم لم تنقطع العلاقة بين الأستاذ وتلميذه ، وتفرقت بنا الطرق حتى عملت معه في «المصور» في إبريل سنة ١٩٦٤، وكان خلال هذه الفترة نعم الأستاذ والأب والأخ والصديق.

وخلال هذه العلاقة الشخصية العميقة التى لازمته فيها ، وخاصة عندما عملت معه فى مجلة العربى بالكويت، جرت بيننا الكثير من الحوارات حول الكثير من القضايا، وسمعت منه الكثير من الأفكار، التى تمنيت أن يسجلها للأجيال المقبلة، فقد كان بحرا متدفقاً، لا تقتصر اهتماماته على جانب واحد، بل يثير اهتماماته مجالات مختلفة اجتماعية وعلمية .

وكان أحد مشاريعه الذى تمنى أن ينجزه، إعادة كتابة التاريخ المصرى الحديث، وتمنى أن تتيح له ظروف عمله انجاز هذا المشروع، فكانت له رؤية خاصة مميزة لتاريخ مصر الحديث، وله لمسة فنية وإنسانية فى النظر للأحداث التاريخية ، وكانت أداته فى فهم ما حوله البعد الإنسانى، ويمزج ما هو سياسى بالاجتماعى، وحتى فى يومياته فى الأهرام، رصد دقيق للتغيير الاجتماعي الذى تشهده البلاد، وتحذير دائم من المخاطر التى يراها، مثل العشوائيات وتدهور أوضاع القاهرة، كل ذلك بروح يقظة ورهافة فكرية، وشجاعة النقد بلا تجريح، ووصف الواقع دون السقوط فى القوالب الفكرية المحفوظة، وتعدت نظرته سعة إطلاعه وتعدد قراءاته إلى تلك الشعلة من القلق الخلاق، الذى يجعله يغوص فى

أحمد بهاء الدين

الأعماق البعيدة ويحلق في الفضاء الفسيح حيث «يحلق بقدر ما يحدق».

ولم يكن التاريخ عنده مجرد تعاقب أحداث بلا مغزى ولا معنى ، بل يرى في تاريخ مصر دراما هائلة متعددة الفصول متكاملة المغزى ، يقود كل فصل من الأحداث إلى الفصل التالي، ويختار بهاء بشفافية الفنان وعمق الكاتب وحرارته بعض أبطال الدراما ونماذجها ، وقدمها في كتاب «أيام لها تاريخ» و«فاروق ملكا» و«مبادىء وأشخاص»، وتوقف عند بعض اللحظات التاريخية الحاسمة وأخذ يقدم كل جوانبها وهي تتناول التاريخ الحي وتؤكد تفكيره المبكر في هذا المشروع الضخم، وكتب هذه الكتب قبل الانغماس في مسئولياته الكبيرة عندما أصبح رئيساً لتحرير صباح الخير في يناير ١٩٥٦ .

ومن أجمل كتبه في هذا الاتجاه «أيام لها تاريخ» ، وهي أكثر الكتب تعبيراً عنه، يقدم التاريخ الحي من خلال مجموعة الشخصيات والأحداث الدرامية ، ويمزج خلاله التحليل الاجتماعي بالتاريخ السياسي.

ويعتبر سيرة حياة عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ، هي الحياة الحقيقية ، حياة ابن البلد الأصيل بفطرته وذكائه ودأبه الذي لم يتخل عن الثورة لحظة واحدة.

وكتب «فاروق ملكا» بعد الثورة بشهر واحد ، وعقب خلع الملك ، ولم يتوقف مثل غيره عند قصص الفضائح والمسائل الشخصية ، بل قدم أبعاد أزمة النظام السياسي السابق على الثورة.

ومما له دلالة واضحة أن أول مقال كتبه كان عن الثائر جمال الدين الأفغاني، وأحد الجوانب المجهولة عن بهاء، أنه كتب القصة والشعر في بداية حياته. مما يعطي مشروعه سماته الخاصة .

وكثيراً ما ردد القول .. «إن تاريخ ثورة ١٩١٩ لم يكتب بعد، ولم يحاول أحد المؤرخين أن ينقب وراء سر هؤلاء الفلاحين الذين حاربوا في دير مواس ، وحاولوا الاستيلاء على السفينة المسلحة في ديروط..» ، وقال .. «تمنيت أن يظهر بيننا «عبد الرحمن الجبرتي» جديد، لكي يؤلف جزءاً جديداً من كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الذي ألف جزءه الأول قبل زهاء قرنين من الزمان» .

ولعل ما حال دون إنجاز مشروعه مشغولياته الكثيرة ، علاوة على مسئوليات المناصب التي تولاها، وضياع الكثير من الوقت والجهد دفاعاً عن «قيثارته».

إرهاب الرأي العام

يتصور الكثيرون أن الضغوط والإرهاب يأتي عادة من السلطة ، ولكن كثيراً ما ردد بهاء فكرة كانت تلح عليه **وهي أن الضغوط لا تأتي من السلطة وحدها، بل كثيراً ما يحول الرأي العام بين الكاتب والتعبير**

عما يؤمن به ، وكثيراً ما يرفض الرأى العام الأفكار الجديدة وما يأتى به العصر من جديد ! .

فقد كان بهاء من أكثر الكتاب إيمانا بالحرية ، وقضى عمره يدعو إليها ويدافع عنها ، ولديه حساسية خاصة من كل ما يمس حرية الكاتب ، ويرى أن المثقف فى العالم العربى الذى يؤثر على الرأى العام فى بلاده يواجه عدداً هائلا من الضغوط التى لا حصر لها.

ولا يفوته أن يلاحظ شيوع الاستبداد السياسى والإرهاب الفكرى، وانتشار الأمية انتشاراً مخيفاً ، مما يجعل دور الكاتب مقتصراً على التأثير على عدد قليل من الناس ، وتأتى غوغائية بعض الزعامات التى تستخدم تأثيرها فى إسكات الصوت المختلف ، وإرهاب صاحب الرأى، بضغط الأغلبية المنساقة وطغيان وسائل الإعلام التى تسعى إلى تلبية مطالب نسبة كبيرة من غير المتعلمين، كل ذلك غطى تماماً على صوت العقل فى قضايا مهمة ، وهى المحنة الحقيقية التى يعانى منها أصحاب القلم .

ونجد تطبيق ذلك عندما سافر إلى الاتحاد السوفييتى فى رحلة لمدة شهر، عاد وسجل رحلته فى كتاب «شهر فى روسيا» ، وتناول فيه الكثير من النقاط السلبية فى التجربة السوفييتية . وانتقد الذين يقدسون كل ما يجرى فى الاتحاد السوفييتى، واعتبر الهجوم الذى تعرض له نوعاً من الإرهاب يسعى أصحابه إلى اسكات صوت العقل.

وعندما عرض فيلم «ستالين» ولقى حفاوة بالغة من بعض الأوساط ، انتقد بهاء ما جاء فى الفيلم وما اعتبره «عبادة الفرد»، وتعرض بعدها لحملة قاسية من بعض الكتاب، وله مقال مشهور بعنوان «دراويش الماركسية» يعترض على الأفكار المعلبة التى لا ترى الواقع إلا من خلال النظارة الأيديولوجية، أى التى تتعامل مع النصوص ولا ترى الواقع ولم تستوعب المنهج.

المؤسسة

وكان لديه فكرة كثيراً ما رددها أمامى، وهى تقوم على أساس أن كل شخصية فذة ساهمت بالاضافة فى أحد المجالات، تصبح الأولوية عندها كيف تتفرغ لعملها، وكيف يصل عملها إلى المتلقى، ويضرب المثل بكبار الكتاب والفنانين ، **فكل فنان موهوب يسعى على الدوام لوصول إنتاجه إلى المتلقى، ولا يسمح بأى عائق يحول دون ذلك، ويقيم من نفسه مؤسسة تصبح مهمتها تحقيق الرواج والانتشار . ويراعى بالتالى المؤسسة الأشمل المهيمنة على المجتمع. والتى لا تعنى السلطة الحاكمة وحدها بل تتسع وتشمل السلطة المالية والأحزاب والنقابات والهياكل التنظيمية الأخرى التى**

أحمد بهاء الدين

تدافع عن قيم وتقاليد المجتمع.

وهو يعتبر بذلك كل من أم كلثوم وعبدالوهاب وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ نماذج حية على فكرته، فكل منهم مؤسسة تعمل على الحفاظ على قيثارته وقدرته على استمرار إنتاجه الفني، وتجنب الاصطدام بالأوضاع والسياسات القائمة.

وهى فكرة أدهشتنى حقا - فى البداية - فكيف يبدع المرء فى ظل القيود والضغوط؟! وكيف للفنان أن يعبر عن حلمه وهو خلف القضبان؟! وكيف تتعايش العقلانية مع الخرافة؟.. وكيف يمكن التوفيق بين القيود والانطلاق إلى آفاق رحبة ؟

وتبينت أن هذه هى المعادلة الصعبة التى يجب أن يحققها الكاتب أو الفنان.. فهناك ثلاثة أنواع من المثقفين :

● المثقف الذى يعجز عن التواؤم والتوافق مع ما حوله، فينصرف عن الإنتاج ويسقط فى العزلة والانكفاء على الذات ، وينتهى بأحد الصور التى من بينها الانتحار.

● المثقف الذى يستخدّم مهاراته فى خدمة الأوضاع القائمة على أى نحو كانت، ويلهث وراء المكاسب الشخصية، وربما ينتهى به الحال، وقد خسر نفسه مهما حقق من المكاسب، وتردد اسمه فى كل المحافل.

● والنموذج الثالث، وهو المثقف الذى يصر فى عناد أن يقوم بدوره مهما كانت العقبات ، ويقبل الحلول الوسط من أجل أن يتمكن من تقديم خبرته، ويسعى للتوافق مع الأوضاع القائمة ، على أمل أن يساهم ذلك فى خلق تيار فى الرأى العام يدفع نحو العدل والمساواة .

المثقف والسلطة

ومن أقوال أحمد بهاء الدين التى كثيراً ما كان يرددها.. **أنه يذهب فى كتاباته إلى آخر حدود الأسلاك الشائكة ، ويتجنب الاصطدام بالألغام ، ويصل إلى النقطة التى يقول فيها القانون .. «قف عندك» .. ويضيف لست من الصحفيين الذين عرفوا السجون والمعتقلات!.**

ورغم رقته الظاهرة ، ورغم ما تميزت به كتاباته من نغمة هادئة وعقلانية، وامتلاكه لقلم طيع، يعبر به عن الأفكار الصعبة والمواقف الدقيقة بعبارات لائقة، فهو يختار عباراته بدقة، عبارات توقظ ولا تجرح ، وتحرك العقل والوجدان ، ولا تتخلى مطلقا عن أدب الحوار، حتى وهو في ذروة معاركه الفكرية ، ولا يتورط فى أى قوالب جاهزة أو إلتزام حزبى ضيق، إلا أنه يحمل قلبا شجاعاً، وصلابة أبناء الصعيد، لا يحيد عن رأيه ، ويتحمل فى سبيل ذلك كل النتائج ، ولم يكن يسعى إلى الصدام أو البطولات الفارغة، وعندما يضيق هامش الحرية ، لا يتملق السلطة وربما يتناول موضوعاً آخر، أو يلجأ إلى

الصمت الذى يكون أحيانا أكثر تعبيراً من الكلام، ولكنه لا يقول أبداً ما يخالف وجهة نظره .

لذا لم يكن غريبا تعرضه للنقل والفصل وحتى السجن ، الذى دخله فى كل من الرباط والخرطوم، كما قدم إلى نيابة أمن الدولة وهو فى مقتبل حياته ، ومنع من الكتابة أكثر من مرة !

وقبل ثورة يوليو ولما يكد يصل عمره العشرين ، تم تقديمه إلى نيابة أمن الدولة بتهمة كتابة مقال يدعو فيه إلى قلب نظام الحكم، نشره فى مجلة «اللواء الجديد» الصحيفة التى كان يصدرها الراحل فتحى رضوان ، ومن يومها ظل يدعو فى كتاباته الأولى للنهضة والعدل والمساواة فى ظل الحكم الوطنى . ويرفض الأحلاف ويدعو إلى سياسة عدم الانحياز، ويطالب فى كتاباته فى مجلة «فصول» بتحديد الملكية الزراعية ، وتأميم البنوك الكبرى وخاصة البنك المركزى، وفرض ضرائب تصاعدية وإلغاء الضرائب غير المباشرة ، ودعا إلى تأميم تجارة القطن ثروة مصر الرئيسية ، وهاجم غلو البيروقراطية ، ونادى بمحو الأمية وضرورة الإلتفات إلى القرية المصرية، وهذه هى بعض عناوين مقالاته : هذه الضرائب التى ندفعها، دعاة النفوذ الأمريكى فى مصر، تأميم القطن، النظم الرجعية فى الشرق ، إقرار الميزانية.

ولعل الكتاب الذى أصدره فى مايو سنة ١٩٥١ يحدد نقطة البداية ، وهو كتاب «الاستعمار الجديد والنقطة الرابعة» وطبعه على نفقته الخاصة، ويقدم ملامح لتفكير جيل جديد، وهو عبارة عن نقد وتحليل سياسى لمشروع النقطة الرابعة، ومن يقرأ الكتاب يشعر وكأن الزمن قد توقف، وأن الدنيا لم تتحرك ، فمازال الكثير من قضايا الكتاب حية، يقول .. «لا يعدو برنامج النقطة الرابعة أن يكون خطة شاملة لتصدير فائض رءوس الأموال الأمريكية إلى الخارج.. ووضع أمريكا فى مركز الممول وصاحب العمل، والشعوب المختلفة فى وضع العمال، وليس للعامل أكثر من أجره مهما اختلف هذا الأجر... فإذا افترضنا أن مؤسسة أمريكية فى مصر تنتج ما قيمته ١٠٠ وحدة ، فإن ٣٠ على الأكثر من هذه المائة سيدفع أجوراً للعمال فى مصر والنفقات الأخرى، و٧٠ الباقية تخرج من مصر إلى جيوب أصحاب الأسهم فى أمريكا. ويضيف بهاء «إن فى مصر رءوس أموال ، ولم تستنفد مصر بعد شتى طرق توجيه رءوس الأموال المحلية للإنتاج ، حتى تذهب لتشجيع رءوس الأموال الأجنبية على الاستثمار فى مصر.. وأن الحكومة إذا أرادت تستطيع أن تحقق الكثير فى ظل النظام الرأسمالى، فنحن نعرف أن الأغنياء مازالوا يحبسون أموالهم فى الاستغلال الزراعى ، وأن إقبالهم على الصناعة أضعف ما يكون». ويضيف

أحمد بهاء الدين

ساخرا .. «وهذه الحكومة المصرية التى تريد أن تستقدم مختلف أنواع البعوث الفنية تبحث عن احتمالات الاستثمار، وأحسن امكانياته وتهيئة الجو لرءوس الأموال المحلية .. لماذا لا تتبنى المشروعات المنتجة فتقترض من السوق المحلى للقيام بها، أو تشارك فيها شركات محلية أو تنفرد بها بوسائلها وأهمها الضرائب..» .. «فهل يستعصى على الدولة أن تنهض بمشروع السنوات الخمس وتنظيم الجهود لدفع الإنتاج، فهذه هى الطريقة التى تبقى زمام الأمر فى أيدينا، وتجعل طريق التطور والرقى مفتوحاً .. فهل يرى المسئولون الذين يدعون للاستعمار الأمريكى هذا الرأى؟ أم أنهم يفضلون تسليم البلد لرأس المال الأمريكى!» (انتهى) .

وهذه الكتابات إيذانا بظهور جيل جديد وفكر جديد ، بعثت فيه روح جديدة، وقدم رؤية جديدة لمصر والعالم، وكما ذكرت سابقاً يحمل قيما ومفاهيم حديثة، ويتصدى لأفكار قديمة بالية ، وجاء ظهوره فى مرحلة تاريخية خاصة، مع الحصول على الاستقلال الوطنى ، وفى عصر تزدهر خلاله الأفكار ، وفى أيام حبلى بالتغيير .

وتتوالى الأحداث وتقوم الثورة ، وتعلن الجمهورية ، وتشهد مصر حرب السويس والعدوان الثلاثى على مصر، وشق هذا الجيل طريقه فى الحياة السياسية المصرية أيام عبد الناصر، وأخذ يزيح صفوة سياسية ليحل محلها أخرى، بعد أن استنفد الجيل السابق جهده وطاقته .

واستمر بهاء فى الكتابة أربعة عقود، فى عصر إثر آخر، وإذا كان بهاء قد أيد ثورة يوليو عند قيامها، إلا أنه تحفظ على الكثير من اجراءاتها، وعندما صرح بعض رجالها فى روزاليوسف أن هتلر مثلهم الأعلى، وكان أنور السادات من بين هؤلاء، كتب بهاء مقالا يكشف خلاله خطر النازية، ومغزى البعد عن الديمقراطية والمشاركة الشعبية، ووصف الاستبداد بصوره المختلفة على أنه أعنف وأسوأ نظم الحكم وأكثرها قسوة.

ويذكر بهاء .. «كنت شديد الحماس للثورة ، فمهما كان الأمر ، فإن أسوار القصر العالية التى أقامها الإنجليز تتهدم والذين يهدمونها مهما كان لونهم فقد حققوا عملاً عجزت الحركة الوطنية المصرية بكل أحزابها عن تحقيقه فيما يقرب من ثلاثين سنة أى منذ ثورة ١٩١٩».

وبدأت الأحلام التى حبست طويلا تتفجر، وظهرت روح جديدة ومفردات جديدة وأعمال كثيرة مثل «رباعيات» صلاح جاهين ، وشعر صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى، ومسرح كل من ألفريد فرج ونعمان عاشور ، وأغانى عبدالحليم حافظ وموسيقى كمال الطويل وتماثيل آدم حنين وقصص يوسف

إدريس، وسينما توفيق صالح ، وكتب د. جمال حمدان علاوة على نخبة من الكتاب أبرزهم محمد حسنين هيكل وكامل زهيرى ومحمد عودة.

وإذا كان مختار وطه حسين والعقاد وطلعت حرب وسيد درويش والحكيم وأم كلثوم نتاج ثورة ١٩١٩، فقد كان ظهور هذه النخبة نتاج ثورة ١٩٥٢، وما فجرته من طاقات.. ومن سمات هذا الجيل رؤية نقدية للواقع وللتيارات الفكرية والفنية فى مصر والعالم ، وقدرة عالية على التقييم والتبشير والتحريض على التقدم والتحديث.

دموع بهاء!

وقد شاهدت دموع بهاء وفجيعته فى هزيمة يونيو ١٩٦٧، ورأيت كيف اعتصرته الهزيمة ، وبعدها نشبت أزمة بين بهاء عندما كان نقيبا للصحفيين والحكومة، فعندما أخذت ترتفع كلمات النقد فى الصحافة، وفرضت الرقابة على الصحف، قام مجلس النقابة بالاحتجاج على الحكومة مرتين، مرة بإصدار بيان احتجاج على فرض الرقابة على الصحف، بعد أن خاضت مصر حرب السويس ١٩٥٦ دون رقابة على الصحف، ومرة أخرى عندما رفع النقيب مذكرة إلى الرئيس عبدالناصر يحتج خلالها المجلس على انفراد صحيفة الأهرام التى يرأس تحريرها محمد حسنين هيكل وانفرادها بنوع من الأخبار يتعلق بالمصالح القومية العليا، وجاء فى المذكرة... «إن رئيس الدولة إذ يخص بهذه الأخبار جريدة دون أخرى، فكأنما يميز بين المواطنين الذين يقرءون هذه الجريدة أو غيرها..».

وعندما وقف مجلس نقابة الصحفيين مع الطلبة فى احتجاجهم على أحكام الطيران، وعرضت المسألة على عبدالناصر من أجل إتخاذ إجراء من بهاء ، قال : «اتركوه .. هو مخه كده»!

وأيام أنور السادات تم فصله وتم وقفه عن الكتابة مرتين، وقرأ بهاء قرار نقله من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال إلى روز اليوسف فى الصحف، ورفض بهاء تنفيذ القرار وعمل كاتبا فى الأهرام ، وكتب إلى الرئيس السادات رسالة يقول فيها : «لقد اخترعت الثورة صحفيين وكتابا ودكاترة فى كل مجال ، ولكننى لست أحد اختراعات الثورة، وقد كنت رئيساً لتحرير أكبر جريدة فى مصر، وهى أخبار اليوم، وأتقاضى أقصى حد للمرتب قبل تأميم الصحف بسنتين..»، ويشرح بهاء حقيقة موقفه فى كتاب حواراتى مع السادات بقوله .. «بدا لى أنه إتخذ القرار من منطلق العقاب ، والاستجابة للوشايات ودون أن يحاول مرة واحدة أن يسألنى مباشرة».

وخلال ما سمى أيامها «مذبحة الصحفيين» والتى بدأت ٤ فبراير سنة ١٩٧٣ منع من الكتابة ونقل إلى مصلحة الاستعلامات ما يزيد عن ١٢٠ كاتبا وصحفيا ، كان من أعضاء مجلس النقابة كل من يوسف إدريس ومكرم محمد أحمد ومحمود المراغى وكمال سعد وأمينة شفيق

ومصطفى نبيل.

وكتب بهاء مقالاً هادئاً فى الأهرام ، وفيه معنى الاحتجاج على هذه المذبحة والعمل على فتح باب تضميد الجراح ، بعنوان «بدلاً من العنف المتبادل» ، وبدأت الأزمة من مجلس نقابة الصحفيين الذى كنت عضوا فيه، والذى طالب برفع الرقابة على الصحف، وأيد حق الطلبة فى التعبير عن احتجاجهم بعد نهاية سنة الحسم بلا حسم، وضرورة معالجة احتجاج الطلاب بالوسائل السياسية وليس بالوسائل البوليسية، فى ظروف الاحتلال الإسرائيلى القاسية، وفى الوقت نفسه أصدر الكتاب والأدباء بيانا وقعه معظم الكتاب وكتبه توفيق الحكيم ووقعه كل من نجيب محفوظ ولويس عوض ولطفى الخولى ومحمود العالم وغيرهم.

وكان أحمد بهاء الدين من الذين تم إبعادهم عن العمل الصحفى ونقله إلى مصلحة الاستعلامات، واعتباره محرضا على بيان مجلس النقابة وبيان الكتاب!

وهذه الوقائع فصل من التاريخ الحى لم يسجل كاملاً بعد.

الكاهن والفرعون

وأسدلت حرب أكتوبر الستار على هذه الصفحة، وعاد بهاء رئيساً لتحرير الأهرام، ويدور الزمن وتعود الأزمة من جديد بين الكاهن والفرعون، فهل يتخلى الكاتب عن دوره فى الدفاع عن رأيه ..؟ ويشرح بهاء موقفه فى هذه الفترة قائلا .. «إن الأوضاع التى كشف عنها الانفتاح ، كانت هى بداية الشرخ الحقيقى بين السادات وبينى ، وكتبت محاولاً مقاومة تيار الانفتاح السداح مداح تحت عناوين التنمية والبناء والاعتماد على النفس وعدم تكرار مأساة التبعية الاقتصادية والارتهان للأجنبى.. وبدأت أفكر فى ترك منصب رئيس التحرير، وأن أعود مسئولاً فقط عما أكتبه».

ويلاحظ أن القضايا موضع الخلاف فى السبعينات هى ذاتها القضايا التى عالجها فى الخمسينات! وإذا قبل يرفض جسمه أن يطاوعه ، وقبل بلوغ بهاء سن الأربعين وقع صريع المرض.. يروى قائلا: .. «فى أوائل سنة ١٩٧٥ ، استيقظت غير قادر على النهوض ، ولم أتمكن من أن استجمع أطرافى وأنهض من الفراش»، وارتبطت صحته على الدوام بالأحوال العامة ، تتحسن مع أيام الزهو والانتصار، وتسوء من التدهور والأزمات، وأصيب بهاء بجلطة فى أحد شرايين المخ، يحكى، «قلب كيانى قبل المرض خبر يتحدث عن ضبط مؤامرة واسعة واتصالات بجهات أجنبية ، وأسماء عدد من المثقفين والصحفيين ، منهم معارف وأصدقاء، أعرف جيداً بطلان تلك الاتهامات» وهى ما أطلقت عليه الصحافة مؤامرة التفاحة والعمالة لبلغاريا!، ويعلق مؤكداً.. «إننى لا أتعب من العمل الصحفى بل أشعر فى نهاية أى يوم مهما طال عن العمل الصحفى المحض بنشوة وراحة نفسية ، وأظن أن هذا هو الحال مع من يزاول عملاً يحبه، ولعل إكسير الحياة وأحسن علاج للصحة هو

آن يشعر المرء أنه يحقق ذاته في عمل خلاق ، ولكن الإرهاق يأتى من التوتر والقلق والضيق ، وعدم اليقين وخطورة المزالق مما يحيط بالعمل، وليس العمل نفسه»، وكثيراً ما ردد قول عبد الرحمن الخميسى. «إننى أضيع جهدى أدافع عن قيثارتى، ولا أعزف ألحانى» ويقول .. «حكاية أن الكاتب إذا عارض سياسة حكومته فهو يعارض وطنه ، حكاية انكشفت وصارت سخيفة ، فالحكومة لا يحق لها أن تعتبر نفسها هي الوطن، وما تأخذه من سياسات صحيحة أو خاطئة هي الوطنية ، وبالتالي فإن وطنية الكاتب تملي عليه أن يؤيد الحكومة على طول الخط، وينافقها بلا تردد»!

وينتهى عمل بهاء كرئيس لتحرير الأهرام.

ويدور الزمن وتمضي الأيام ، ويعود بهاء ويكتب مقالا أسبوعيا فى الأهرام تحت عنوان «حديث الأحد»، وتنشب الخلافات مرة أخرى عندما يعترض على إلغاء وزارة الثقافة وضمها إلى وزارة الإعلام ، واتهم الحكومة بأنها ضد الثقافة والمثقفين الحقيقيين ، واستعرض مظاهر التفسخ والانحلال والتسيب فى المجتمع ، ومقدمات العواقب الاقتصادية الوخيمة لسياسة الانفتاح! .

وبدأ الرئيس السادات يغضب من جديد ، وخاصة بعد أن وقعت القارعة وعقدت إتفاقية كامب دافيد، ولم يقبل من أحد الكتاب سوى التأييد المطلق لهذه الاتفاقية ، وكتب بهاء مقالاً تحليليا ونقديا للاتفاقيات ، فلم ينشر، وتم منعه من الكتابة من جديد.

وبذلك يكون السادات خلال ثمانى سنوات من حكمه قد قربه وصادقه مراراً، ونقله كعقاب مرة، وفصله من العمل الصحفى مرة أخرى، وأوقفه عن الكتابة مرتين ! .

ومرة أخرى يتعرض لظلم فادح، عندما تناول فى يومياته فى الأهرام ، مسألة طرد راشد الغنوشي وأخذه من فندق هيلتون رمسيس إلى المطار، وتساءل: إذا كان هناك شخص غير مرغوب في دخوله ، أو خطر علي الأمن، فلماذا حصل على تأشيرة دخول، وإذا تبين الخطأ الذى وقع ألا يعالج الآن بصورة تراعى قواعد الضيافة .

وبعدها تعرض لحملة صحفية ضارية، وهجوم عار من اللياقة ، ووجد نفسه مستباحاً، ووصلت الحملة إلى أن تناولت اسم والده عبدالعال شحاته ، وظنى أن هذه الحملة قد أثرت فيه تأثيراً كبيراً.

أستاذ بهاء

مازالت كتاباتك تتحدث عنك ، ومازالت سيرتك العطرة على كل لسان، ومازال تأثيرك كبيراً فى وجدان قرائك وأحبائك.. ومازال شعورنا عميقا بفقدك ، لا ككاتب فحسب ولكن نفتقد أيضا رقتك وإنسانيتك، ووقوفك الدائم إلى جانب المظلوم، ونفتقد الجو التى كنت تشيعه ، الزاخر بالذوق والجمال.■

أصداء المعركة حول البنيوية

بقلم : د. مجدى يوسف

حمل الصديق الشاعر مهدي بندق في أخبار الكتاب علي .. «سعي البنيوية (...) للكشف عن القوانين الحاكمة للعلاقات في أنظمة اللغة والانثروبولوجيا ، والاقتصاد والادب ... وغيرها شريطة استبعاد الفاعل أيا كانت هويته» . (ص ١٩)

ويحتج الأستاذ مهدى على هذا المسعى البنيوى التثبيتي مفضلا عليه تفكيكا للبنية يفصح عن تحولاتها التاريخية حتى لو ادعى خطابها المباشر عكس ذلك. وهكذا قد يستنتج قاريء مقال الأستاذ مهدى أن الأمر يتعلق بالدفاع عن التفكيك مقابل محاولات التعرف على البنية ، وهو الأمر الذى بحاجة إلى شىء من إعادة النظر لاسيما وأن أصداء المعركة التى دارت حول البنيوية أخيراً لدينا مازالت قائمة !!

ليفي شتراوس



دريدا



فلابد أن نميز أولا بين «البنية» و«البنيوية» إذ أن الأولى موجودة في مختلف ظواهر الطبيعة الأولية أو الثقافية (الانسانية) سواء تعرفنا عليها أو لم نتعرف ، كل ما هنالك أن وسائل وأدوات التعرف عليها هي التي تختلف حسب موضوع الدرس ، فحين يستعير «جريماس» - مثلا - مصطلحات العلوم الطبيعية الدقيقة لتوصيف عملية التعرف على علاقات «النص» الداخلية ، فهو بذلك يحاول أن «يثبّت» ما ليس الثبات من طبيعة (موضوع الوعي) حتى يتمكن من تشريح العلاقات «الحاكمة» لبنية عملية التعرف على الموضوع من خلال التقاط «صورة» له ، أو عددا من «الصور» ، ثم المضى قدما في اكتشاف علاقات هذه الصورة / النص المفارقة بطبيعة الحال للموضوع الذى تصوره . وهنا يكمن جدل العلاقة بين «البنية» و «العملية» . فالأولى كامنة في الثانية ، لأنها في تحول مستمر، أما النظريات «البنيوية» فتحاول تثبيت نص للبنية ، قد يكون أدبا وقد يكون عمارة أو طقسا اجتماعيا ، حتى تتمكن من الناحية الإجرائية من التعرف على علاقاته الداخلية التي تدعى أنها «بنيته». ولعل الأسس الفلسفية التي شيد عليها «جريماس» نظريته الساعية لاستكشاف دلالة البنية خاصة في النصوص الأدبية - بالمعنى الواسع للكلمة - يوضح لنا منهجه. فهو ينهض على المنطلق الفلسفي الظاهراتي (الفينومينولوجي) «لإدموند هوسرل» ، وعلى قواعد المنهج في علم الاجتماع «لإميل دوركايم» . وكلاهما «هوسرل» و«دوركايم» على اختلافهما الإجرائي يشتركان في أمر أساسي ، وهو الصدور عن «الوعي» الكامن بالموضوع الخارجي ، وليس عن الموضوع ذاته ، أي بعبارة أكثر تجريدا عن الذات وليس عن الموضوع، لذلك فالأدوات الإجرائية التي يصدر عنها «دوركايم» - مثلا - في التعرف على «الوقائع الاجتماعية» تقوم على رصد استقبالها في وعي المنخرطين في العلاقات الاجتماعية - وذلك مثلاً - باستبيان آرائهم حولها . وعند «جريماس» نجد أن الأدوات التحليلية التي استعار بعضها من العلوم الطبيعية سعيا لدقة توصيف العلاقات الداخلية الحاكمة للنص (الذات) وليس الموضوع الخارجي لذلك النص ، نجد أن لذلك «مبرراته» الإجرائية التي تكمن في ضرورة تثبيت عملية التحول المستمر للموضوع في جدلية مُحاولة الذات للتعرف على «بنيته» فالنص تثبيت إجرائي تعسفي لما لا يحتمل ذلك ، ولكن كيف يمكن التعرف على علاقاته «الداخلية» دون أن يثبت ؟ ! وهو في ذلك يشبه محاولة إلتقاط صورة فوتوغرافية لحدث

تاريخي في عملية صيرورة مستمرة، إذ يصعب التعرف على الحدث إن لم «يسجل» في تلك الصورة . وموضوع التشريح البنيوي إذن هو «الصورة» الملتقطة للحدث، وليس الحدث نفسه لذلك، وباعتراف «جريماس» نفسه في لقاء معه في السبعينات فنظريته «البنيوية» ليست «علما» ، وإن استعانت بأدوات العلوم الطبيعية لتحليل «النص» . أما بنيوية «ليفي شتراوس» فتقوم أساسا على تحليل العمليات الثقافية في طقوس الشعوب التي تُدعَى «بدائية» من خلال إدراك الشيء كعلاقة بينه وبين ما هو ليس ذلك الشيء . وبغض النظر عن النتائج التي توصل إليها كل من «جريماس» في اللغة «وليفي شتراوس» في الأنثربولوجيا ، فلاشك أن الجهود البحثية التي قام بها كل منهما قد أسفرت عن «تراث» لا يجوز الإخلاص في اتباعه من جانب أي باحث ، وإلا صار مطبقا ميكانيكيا لنظريتهما كما لا يجوز في نفس الوقت تجاهل هذا التراث البحثي ورفضه تماما اعتمادا على ثغراته وتناقضاته الداخلية . إنما يجدر بالباحث النابه ، إدراكا منه للحدود الايديولوجية والإجرائية لذلك التراث «البنيوي» ، أن يستعين على نحو نقدي ببعض عناصره وأدواته المفاهيمية دون التقيد على أي نحو بما حاول تكريسه أصحاب النظريات البنيوية من طقوس بحثية ، وذلك سعيا منه - أي الباحث - لتحويل هذه الأدوات الإجرائية - بعيدا عن أسسها الفلسفية التي قامت عليها - لتوصيف أدق لظواهر جديدة يبحث عن علاقات بنيتها لا أن يفرض عليها أية نظرية «بنيوية» مسبقة وقد فعلت شخصيا ذلك مع بعض أدوات «جريماس» التحليلية . كأداة رصد علاقة التماثل بين العلاقات الداخلية للنص «الايزومورفي» - وهو مفهوم مستعار في الأصل عن العلوم الطبيعية - لأجعلها ، أي هذه «الأداة» المفاهيمية ، تصير عندي بعد تحويلها وسيلة للتحديد الدقيق لعلاقة تماثل متوتر بين العلاقات الداخلية في النص (الذات) والعلاقات الاجتماعية (الموضوع)، التي تتفاعل معها العلاقات داخل النص من خلال تفاعلها والوعي السائد بالعلاقات الموضوعية خارجه . وسوف أعود لتوضيح ذلك في مناسبة أخرى . ما أردت أن أقوله هنا على أية حال هو أني استعنت «بجريماس» وتجاوزته منهجيا في آن . ولكني ما كنت قادرا على تجاوزه لو أني قصرت عن التعرف النقدي على أسسه الفلسفية التي انطلق منها . وإذا كان بعض الكتاب يفصح عن توجهه المعرفي «الفلسفي» ،

فالبعض الآخر لا يفصح . وهنا يتعين على الباحث أن يستكشف بنفسه من خلال العمل المطروح، سواء أكان نظريا، أو ابداعا تخيلياً، المنطلق المعرفي الكامن فيه.

وما كان «ديريدا» – الذى سيزور القاهرة فى شهر فبراير الحالي بدعوة من المجلس الأعلى للثقافة – قادرا على تجاوز النظريات البنيوية لولا أنه استخلص أولا منطلقاتها المعرفية «الفلسفية» ليختلف معها من منظور التحول والنفى فى مقابل التثبيت الاجرائى الذى كرسته البنيوية .

أما علاقة النظريات البنيوية أو التفكيكية بثقافاتنا العربية المعاصرة ، فقد صارت فى معظمها صادرة عن الإطار النظرى والأدوات الإجرائية لتلك النظريات لا عن الثقافات الاجتماعية فى نسبية خصوصياتها التى أقصى ما يمكن الاستفادة به من هذه النظريات هو طمس معالم بنيتها الموضوعية بدلا من تجلية التعرف عليها . فتراث البشرية كله بين أيدينا ، ولكن الافادة الحقة منه تستوجب منا – فى رأيى – ألا نصدر إلا عن موضوع الدرس ، وهو المختلف الموضوعى فى ثقافاتنا الاجتماعية دائمة التحول إلى الأفضل أو الأسوأ حتى نتمكن من تطويره وتجاوزه من داخله إلى كيف وآفاق مختلفة. وعندما أتحدث عن «ثقافاتنا ، الاجتماعية العربية فإنى أعنى بذلك التعدد كظاهرة موضوعية قائمة ليس فقط بين مختلف الأمصار العربية ، وإنما بالمثل داخل القطر العربى الواحد ، بل بين قرى ونجوع المحافظة «الجهوية» واحدة مهما كان لها من شكل إدارى ، «موحد» فحين يهتم باحث من كفر الدوار مثلا بأعمال فيلسوف اجتماعى ألمانى ك «يورجن هابرماس» ، فالسؤال الذى يجب طرحه أولا : ما هى الأسئلة التى تطرحها العلاقات الاجتماعية الموضوعية والثقافات السائدة والمسودة ، سواء أكانت هذه الأخيرة مناهضة للأولى على نحو تلاقى أو غير تلاقى ، أو مذعنة لها – فى مجتمع الباحث – وماذا يمكن أن يقدمه خطاب «هابرماس» لتجاوز هذه التناقضات الداخلية فى ثقافة المجتمع الذى يمثله الباحث ؟ . فالاسهام الجاد هنا يكون فى تحرير الذات الاجتماعية بالصدور أولا عن الأسئلة التى تطرحها ، ثم مقارنتها فى مستوى تال بتساؤلات الآخرين فى الشمال أو الجنوب .. .

فأهلا بـ «هابرماس» وأهلا بـ «ديريدا» وغيرهما من المنظرين البارزين فى الساحة «العالمية» ، ولكننا لن نفيد شيئا يذكر من أى منهم جميعا إن لم نصدر أولا عن رصد البنية المعرقلة لتطورنا ، وذلك بالتجريد العينى عنها قبل اللجوء الى مقارنتها بسواها فى عمليات تجريد التجريد (التنظير) .

ضعف نفوذ القوى الكبرى عندما تتصادم الحضارات

ترجمة : ربيع شتا

هذا المقال بالغ الأهمية ، كتبه صمويل هنتنجتون صاحب فكرة صدام الحضارات ، يتناول فيه الحرب فى الشيشان وموقف الدول الكبرى من هذه الحرب .
ويستعرض ميادين الصدام الذى يمثل الإسلام أحد أطرافه .

الحرب فى شيشانيا واحدة من تلك النزاعات العديدة التى تقع بطول حدود الكتلة الإسلامية الكبرى ، الممتدة من مراكش إلى إندونيسيا .

فثمة عنف وقع بين المسلمين وغير المسلمين فى البوسنة ، وكوسوفو، وناجورنو كاراباخ ، وشيشانيا ، وطاجيكستان ، وأفغانستان ، وكشمير ، والهند ، والفيليبين ، وإندونيسيا ، وتيمور الشرقية ، والشرق الأوسط ، والقرن الإفريقى ، والسودان، ونيجيريا .

وعلى الأقل ، فثمة سببان لهذه النزاعات .

أولهما : افتقاد العالم الإسلامي لدولة مسيطرة أو دولتين ، تؤهلهما قوتهما للقيام بواجب الحفاظ على النظام داخل الجماعة الإسلامية ، ومحاصرة أو القيام بدور الوسيط فيما ينشأ من نزاعات بين المسلمين والآخرين .

وثانيهما : ازدياد عدد الرجال، المتراوحة أعمارهم بين ستة عشر عاما وثلاثين عاما ، فى العديد من البلاد الإسلامية ، ومثل هذا الازدياد

يغــــذى صــفــــوف المنـــــاضلين والمحاربين .

ولأكـثـر من قـرنين تصـادم الروس والمسلمون في شمال القوقاز .

وبعد الثورة الروسية أعلنت شعوب شمال القوقاز الاستقلال ، وأقامت اتحادا ، سرعان ما قضى عليه البلاشفة في مستهل عقد العشرينات .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ، هبت تلك الشعوب تقاوم الحكم السوفييتي ، الأمر الذى حدا بستالين إلى تهجير جميع الشيشان تقريبا إلى قازاخستان ، حيث أجبروا على البقاء في المنفى ، حتى منتصف عقد الخمسينات .

وكما كان متوقعا ، ما إن انهار الاتحاد السوفييتي حتى ثار الشيشان مرة أخرى .

وعندما نجحوا في إلحاق هزيمة نكراء بالجيوش الروسية عام ١٩٩٦م ، والفوز باستقلال فعلي .

لم يقابل هذا الفوز بالارتياح من قبل القوميين الروس ، وكما تنبأ الكثيرون ، قاموا بشن الحملة العسكرية الحالية ، بهدف إخضاع هؤلاء المسلمين الجبليين ، الأشداء .

وفي ضوء هذا التاريخ ، ما هي تبعات حرب الشيشان بالنسبة لكل من روسيا والولايات المتحدة ؟

في العالم المعاصر ، الشعوب في كل مكان تقريبا ، آخذة في اعتناق هويتها الثقافية والحضارية .

وآية ذلك ، ما يواجه الدول القائمة على حضارات متعددة من تحديات ، آخذة في الازدياد على مرّ الأيام .

وخير شاهد على ذلك ، ما يحدث في صربيا الآن .

وانفـــراط عـــقـــد كل من الاتحـــاد السوفييتي ويوجوسلافيا والحبشة .

علاوة علي الأهمية التى اكتسبتها أخيرا الجماعات الثقافية المتجاوزة للقومية ، وهى ما يمكن تسميتها بالشتات.

فذلك الشتات يزوّد جماعاته القديمة ، المنحدر منها ، والمناضلة من أجل الحرية ، يزودها بالمال والأسلحة والمحاربين والقادة.

ويبدو الأمر أكثر وضوحا ، عندما تفصح دول وجماعات عن دعمها لأشباهها ، على نحو ما حدث ، بشكل درامي، في حالة تمزق يوغوسلافيا

فأوروبا الغربية دعمت الكروات .

وروسيا واليونان أيدتا الصرب .

والعربية السعودية وإيران وتركيا ومـاليـزيا أمـدت مـسلمى البـوسنة بالمساعدات .

وفى منتصف التسعينات استفاد الشيشان من تأييد شيشان الشتات ، وبخاصة تأييد مواطنيهم فى كل من تركيا والأردن .

وكذلك استفادوا من تأييد تم ، دون

ضجة ، من قبل بعض الحكومات المسلمة .

أعباء روسيا

لقد مضى عهد الإمبراطوريات ، متعددة الحضارات ، ولن يكون فى وسع روسيا الإبقاء على شيشانيا ، داخل نطاق سيادتها ، إلا بتحمل أعباء ، لا قبل لها بتحملها .

وخيرا يفعل حاكم روسيا القادم ، فيما لو وضع نُصب عينيه واقعية مصطفى كمال أتاتورك ، فى شأن فقدان الإمبراطورية التركية ، وجعل منها مثلا يحتذى : وذلك بتبنى سياسة روسيا المنحصرة فى الروس دون أية شعوب أخرى ، بدلا من مواصلة العيش فى حلم عفا عليه الزمان ، قوامه الإبقاء على إمبراطورية متعددة الأعراق والحضارات .

وواضح أن الولايات المتحدة لها اهتمامات إنسانية ، متصلة بآثار الحرب على الشيشان .

ولكن ليس لها أية مصالح يعتد بها فى شيشانيا .

فى حين أن لها مثل تلك المصالح فى روسيا .

ومن ثم ، فليس فى وسعها معاقبة روسيا ، دون تحمل أعباء باهظة التكاليف .

ما نشاهده الآن فى روسيا ، هو الجانب المتردى من الديموقراطية عن طريق الانتخاب ، متمثلا فى تنافس المرشحين ، أيهم يزايد أكثر بإثارة الحَمِيَّة الوطنية .

فحتى عندما اتضح أن روسيا قد منيت بالهزيمة في الحرب عام ١٩٩٦ م، استلزم نزع فتيل تلك الحرب قيام شخصية لها مكانة « الكسندر ليبيد » بالتفاوض ، وإقناع الحكومة الروسية والشعب بفائدة الاتفاق على الانسحاب من شيشانيا .

وثمة أمر آخر مثير للسخرية ، ومدمر للمصداقية الأمريكية فى آن معا ، ألا وهو تحذير الرئيس بيل كلينتون بأن روسيا ستدفع ثمنا باهظا ؛ فيما لو واصلت هجومها الوحشى على المدنيين الشيشان.

فذلك التحذير مثل آخر على الضجة المنمقة التى تثيرها هذه الإدارة على نحو يحول دون أخذ الحكومات الأخرى ما تقوله مأخذ الجد .

فهذا النزاع له من العمر مائتا عام ، ولا يعدو أن يكون جبهة من بين جبهات كثيرة فى الصراعات القائمة بين الشعوب المسلمة ، وغير المسلمة .

وعلى المدى الطويل ، ليس فى وسع روسيا كسب هذه الحرب .

ولا فى وسع الولايات المتحدة أن تلعب دورا ذا تأثير فى المحصلة النهائية للحرب.

أقوال معاصرة

«أطفالنا جاهزون للقرن الواحد والعشرين ، وهم مسلحون بالقوة والعلم ، وحلمنا الخالد أن تظل أمريكا شبابا إلى الأبد !!» .

الرئيس الأمريكى بيل كلينتون

«زيادة القدرة على الإنتاج ، وقطع التبعية للخارج ، هما من القيم الدينية ، وليس اطلاق شعارات الموت لهذا البلد أو ذاك» .

عبدالله نورى
وزير الداخلية السابق فى إيران
والمسجون حاليا تنفيذا لحكم

«علينا أن نتحمل رؤية الخطوات السخيفة المتوالية التى يسمونها عملية السلام» .

المفكر إدوار سعيد

«النهضة الحقيقية تحمل فى ثناياها التنوع» .

الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة

«التطلعات المادية لشباب اليوم تجرفهم إلى هاوية المحرقة العاطفية» .

المفكر الانجليزى أوليفر جيمس

«الرقابة داخلنا !!» .

الممثلة الإيرانية هدية طهرانى

«من لايجيد ممارسة العمل الصحفي النبيل، عليه مغادرة الساحة للعمل فى المقاولات» .

السياسى الجزائرى رضا مالك
رئيس حزب التحالف الجمهورى

«إذا كان لابد من وداع القرن الماضى ، فسأودعه على طريقة لاعبى كرة القدم ، بركلة !!» .

الأديبة غادة السمان

«ما تبثه المحطات الأرضية والفضائية العربية لايبشر بأى خير» .

الملحن والمغنى مارسيل خليفة



بيل كلينتون



ادوار سعيد



محمد ابراهيم ابو سنة

إنهم يبحثون عن عباقرة القرن المقبل . !!

بقلم : محمود قاسم

هل صحيح ان عباقرة القرن الجديد هم من المولودين فى القرن الماضى

هذا ما تخيلته مجلة «لوبوان» فى آخر أعدادها فى الألفية القديمة ، التى جاءت على غلافها كلمات بدون أى صور هى «١٠٠ فرنسى سيصنعون عام ٢٠٠٠» .

والمجلة بذلك تكون قد انفردت دون غيرها من وسائل الاعلام ، بالحديث عن المستقبل، بينما راحت الصحف ، ومحطات التليفزيون تفتح ملف القرن الماضى، بل ان مجلة الاكسبريس قد قدمت ملف البشرية جمعاء منذ العام صفر ميلاديا ، وحتى الآن ..

وقد قامت فكرة المجلة على أساس أن الذين سيلمعون فى الألفية الجديدة، أو فلنقل القرن الجديد ، هم من أبناء القرن العشرين ، الذين بدأت مواهبهم تتكشف مع السنوات الأخيرة من العقد الماضى ، وهم بالضرورة شباب صغير السن ، لم يكمل أغلبهم الثلاثين ، لمعوا فى مجالاتهم المتعددة سواء فى البحث العلمى أو فى القنوات المختلفة ، أو الآداب ، أو حتى فى المجال السياسى، والكومبيوتر وأيضاً فى الأزياء وكرة القدم.

ولاشك أن الحديث عن المستقبل أمر صعب ، ولكن الاختيارات لا تأتى عشوائية، فمن خلال اسماء الشباب اللامعين يمكن تحديد مسار الغد، ومن هنا تأتى أهمية المستقبليات، والتعرف على

صورة القادم .

وتجيء أهمية هذا الأمر ان المجلة قد فتحت ملفات مشابهة فى السنوات الخمس والعشرين الماضية ، استطاعت من خلال توقعاتها ، (وليس تنبوءاتها الفلكية) أن ترصد خطوط المستقبل ، وأن تلمع بالفعل اسماء تم اختيارها فى اعداد صدرت أعوام ١٩٧٤، و١٩٨٩، ففى هذا العام الأخير، مثلاً وتحت عنوان «مائة فرنسى سيلمعون فى عام ٢٠٠٠» اختارت شبابا لمع من بينهم الممثلة جوليت بينوش (ثانى ممثلة فرنسية تفوز بالأوسكار فى القرن العشرين)، وأيضاً الكاتب ايمانويل كاريير الذى فاز بجائزة فيمينا عام ١٩٩٥ عن رواية «المنافس» بالاضافة إلى اسماء برزت فى مجال السياسة حيث تولى ستة منهم مناصب الوزراء فى حكومات متعددة.

اذن ، فالاختيارات التى تقدمها «لوبوان» فى اعدادها المتناثرة ، تمسها أرض الواقع بنسبة لاتقل عن ١٥٪ . ولاشك أنها كلها اختيارات فرنسية ، باعتبار ان على كل وطن أن يقوم باختيار اسماء من سوف يلمعون فى المستقبل من ابنائه .

ولاشك أن هذه الاختيارات قائمة على أساس ملموس، رغم أن المجلة قد نشرت هذه الأسماء تحت مسئولية محررة واحدة هى كاترين بيجار دون الاشارة إلى اسماء مشاركين أخرين ، رغم ان هذا النوع من



مارى داريوسك



صحيب بن شيخ

العمل يجب أن يكون جماعياً فى المقام الأول.

مصفحات جديدة

وسوف نذكر فى البداية أبرز الأسماء المختارة فى مجالات متعددة، قبل الوقوف عند الادباء ورجال الفن. فراقصة الباليه الشقراء اليانورا ابانياتو (٢١ سنة) قد لمعت فى الفترة الأخيرة فى عروض الباليه بأوبرا باريس ، وحصلت على جوائز عالمية فى شهور عديدة ، أما رينو كابسونا (٢٤ سنة) فقد لمع كعازف كمان - وقيل أنه يعزف مثلما كان يفعل موزار ، وفى مجال الطب لمع بول هنرى كوتو ، الذى قدم علاجات ناجحة فى سرطان الثدى ، ودرس عوامل الوراثة فى هذا المرض ويسعى لايجاد سبل جديدة فى العلاج . أما الباحث ستانسلاس ديهان (٢٣ سنة) فقد حصل عن أبحاثه العلمية على مليون دولار لما حققه فى كشف أسرار جديدة من أسرار المخ . كما نجح مع فريق من الباحثين فى معرفة الاسباب التى تجعل ٥٪ من الاطفال يعانون من التخلف

العقلى.

ولعل نيكولا جوم هو واحد من رجال القرن الجديد، حيث برع فى صناعة ألعاب الفيديو على نفس النمط الأمريكي . وقد قام بتأسيس مجموعة عمل تتكون من أكثر من مائتى شاب لم يتجاوزوا الربع قرن ، يقومون الآن بعمل برامج ألعاب فيديو غير قائمة على العنف الذى تتسم به مثيلتها فى الولايات المتحدة .

ومع القرن الحادى والعشرين ستظهر مصطلحات جديدة ، يحملها الأشخاص ، مثل «صانع البلاستيك» مثل فابريس هيبير الذى يؤسس البنايات البلاستيكية، ويصمم الأعمال الفنية بمواد جديدة متطورة نعرف مثيلتها الآن بأنها بلاستيكية. وفى مجال الأزياء ستترك ايزابيل مارانت بصماتها مثل كوكو شانيل ، حيث تقدم مجموعة من التصميمات الحديثة ، وباعت فى سنة واحدة مايزيد على الخمسين مليون جنيه مصرى، وصدرت نسبة ٧٠٪ منها إلى خارج بلادها . كما أقامت مدرسة للتصميمات لها افرع فى طوكيو وبرلين، ونيويورك.

وما أكثر النماذج الانسانية الناجحة التى ستلمع ، على الأقل فى العشرين سنة الأولى من هذا القرن ، لكن ماذا عن الادباء ، ورجال السينما ؟

يبلغ كريستوف باتاى الآن الثامنة والعشرين ، لكنه ادهش القراء الفرنسيين عام ١٩٩٣ بروايته «انام» وهو كتاب قال عنه النقاد الكبار أنه «ناعم، رخو، وقلق» ، وفى عام ١٩٩٩ نشر روايته الرابعة «يحيا الجحيم» الذى وصل إلى تصفيات جائزة جونكور الأخيرة، لكنه لم يحصل عليها بل نالها كاتب تعدى الخمسين هو چان اشنوز، وهو يكتب بلغة جديدة وتبدو اللغة ذات ايقاع مختلف تماماً عن لغة معاصريه.

أما مارى داريوسك (٢٦ سنة) فهى كاتبة من طراز فرانز كافكا ، وقد باعت من روايتها «الأحقبة» ٣٦٠ ألف نسخة ، وترجمت لاكثر من ثلاثين لغة ، وفى عام ١٩٩٨ نشرت روايتها الثانية «مولد أشباح»، وفى عام ١٩٩٩ قدمت «دوار البحر» ، ويقال ان الكاتبة قد اعادت أخبار الأدب إلى الصفحات الأولى من الجرائد ، ونشرات الأخبار.

٣- فقط أدباء

والمتابع للصفحات الأدبية فى الصحافة الفرنسية خلال العام الفائت ، سوف يلاحظ احتفالية خاصة بالكاتبة أميلى نوتومب (٣٢ سنة) ، ولذا فان اختيارها ضمن أهم ١٠٠ شخصية للقرن

الجديد ، لم يكن مفاجئا خاصة بعد حصولها على جائزة الرواية التى تمنحها الاكاديمية الفرنسية لعام ١٩٩٩، وبيع من روايتها «وحشة وارتعاد» ٣٠٠ ألف نسخة ويقال ان الكاتبة تؤلف بنفس الطريقة التى يتنفس بها الآخرون . وقد نشرت روايتها الأولى «النضج المخيف» عام ١٩٩٢ ، وهى ابنة لسفير بلچيكا فى فرنسا ، وينتظر أن تكون من أعمدة الأدب الجديد فى السنوات القادمة فعلاً .

والغريب أنه من بين مائة شخصية ستلمع بشدة مع القرن الجديد ، فان الادباء الواعدين مثلوا نسبة ٣٪ لا أكثر ، وهما امرأتان ورجل ، وكذلك الحال فى مجال الاخراج السينمائى ، حيث تم اختيار ثلاثة فقط منهما امرأتان ، هما ماريون فرنو (٣٢ سنة) التى اخرجت فيلمها «لا أحد يحبنى» عام ١٩٩٤ و«الحب.. الخ» ١٩٩٦ و«لاشىء يمكن ممارسته» ١٩٩٩ . أما جولى بروشن (٢٩ سنة) فهى مسرحية سارت فى ركب والدها واخرجت عملا متميزا هو «ديكامرون النساء» الذى ترى فيه كتاب بوكاشيو، المعروف بشكل عصرى.

أما المخرج الوحيد المختار ، فلاشك أنه سيخرج من الحلبة ، حيث أنه الأكبر سنا (٣٩ عاما) ، أنه آرنو دبلشين، وهو لم يقدم سوى عمل واحد باسم «الدهليز» حول سقوط حائط برلين .

أما الشخصية العربية الوحيدة التى



منتصر القفاش



كريستوف باتاى

تم اختيارها ، فهى مفتى مارسيليا صحيب بن شيخ (٣٨ سنة) وتقول المجلة أنه يتولى أمور أكثر من أربعة ملايين مسلم يقيمون فى فرنسا ، وهو شخصية مرموقة محبية ، من بين اهتماماتها تقديم صورة المسلم إلى ابناء الوديان الأخرى فى أحسن حال . وقد نشر منذ عامين كتابا يحمل عنوان «ماريان والنبى» وماريان هو الاسم الذى يرمز إلى فرنسا .

الآن ، ترى ، هل يمكن اختيار مائة شخصية مصرية ، أو عربية شابة ، من نفس الاعمار ، ستلمع لدرجة التوهج فى السنوات التالية .

ليس الأمر سهلا كما نتصور ، فدائماً ما تكون النظرة إلى من هم دون الخامسة والثلاثين باعتبارهم تلاميذ أو فى دور التكوين وذلك باعتبار أن الامل قد يخيب كثيراً فيما تم عقد الكثير من الرجاء حوله كما أنه ليس لدينا مقياس محدد يمكن على أساسه التنبؤ بما سوف يحققه شخص فى المستقبل القريب ، أو البعيد ، مثل أرقام التوزيع ، أو حصوله على جائزة

مرموقة.

فجائزة الدولة التشجيعية لم تمنح قط لمثل هذه الاعمار في مصر ، والذين حصلوا عليها وهم صغار نسبيا لم يلمعوا كما هو مأمول فيما بعد ، كذلك فان جوائز الدولة التشجيعية فى العلوم التى تمنح من أكاديمية البحث العلمى لم تمنح قط لشباب دون الثلاثين .

عباقرة .. و شباب

ولأنه ليست لدينا بيانات حقيقية عن النابغين الصغار فى مجالات متعددة، خاصة الآداب والعلوم – ولأن الكتابات النقدية هى حالة من المصادفة فى مصر ، فانه من الصعب أن نقوم بما قامت به مجلة «لويوان» فى مجالات متعددة.

لذا فاننا ، من باب الاجتهاد الشخصى، نختار بعض الاسماء التى برزت بالفعل فى الآونة الأخيرة، ويمكنها لو سارت بنفس المعدل ، دون عوائق

آميلي نوتومب



ميرال الطحاوى



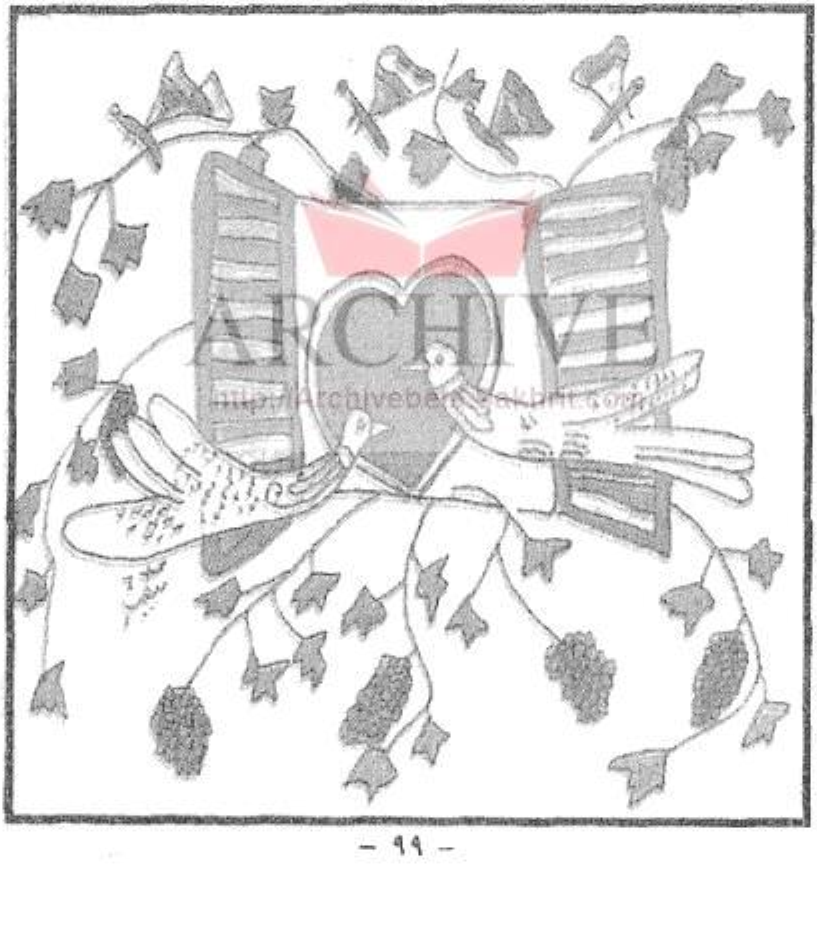
حقيقية، ان تكون عنوانا للإبداع الفنى والعلمى والأدبى فى المستقبل ، من هذه الأسماء فى الإبداع القصصى. مثلا ميرال الطحاوى التى لاقت روايتها الأولى «الخباء» احتفاء من المؤسسات النقابية داخل مصر وخارجها ، وتمت ترجمتها إلى أكثر من لغة ، فى مقدمتها اللغة الانجليزية ، وقد اثبتت بروايتها الثانية «الباذنجانه الزرقاء» أنها بالفعل موهوبة، وليست كاتبة العمل الواحد ، كما ان هناك أيضاً نورا أمين وروايتها «قميص وردى فارغ» ، ويبدو ذلك من العطاء السابق لكل من منتصر القفاش، وجرجس شكرى، وايمان مرسال ، وفارس خضر ، والحسين عبد البصير وغيرهم .

وإذا كانت أعمال هذه الاسماء موجودة لدى القراء ، فان الأمر يختلف فى مجال العلوم ، حيث تقبع الانجازات فى الاقبية ، وتستغرق وقتا طويلا حتى يتم خروجها إلى النور ، قد يكون صاحبها قد تجاوز سن الشباب وقد تكون هناك مؤسسات لتشجيع المواهب ، لكن الأمر يحتاج إلى عالم كبير يكتب عن أهم الإكتشافات ويفتح أمامها الأبواب. □

ذكريات

شعر:

محمد عبدالسلام منصور (اليمن)



مرة راودتنى اليمامة
عن حزنها
ودنت فتدلى الهوى
وانشبكنا
على نغمات الهديل
هطلنا شجى
من دموع الشبابيك
حتى تعرى المدى
وارتحلنا إلى خاطر الأرض
ذكرى حبيبين
ألحبيب، المتيم فى وطن
ما أتى
والحبيب المعلق فى زمن
قد مضى
وكلانا شتيتان .
يجمعنا..
أننا مرة قد هطلنا هنا
دمعة تحت حزن الشبابيك
غنى لها قمر
وابتدأنا الهوى
فى طريق الفراشات
والنهر، والأغنيات
***
مرة حدثتنى الفراشات
عن حبها
فاضاء الحصى من يد الطفل
فى القدس
يرمى الشياطين
شعشع روحى على كفه حجرا
والفراشات تحمله
فى جناح من اللون
غيما من الزهر، والنار
يرمى الشياطين
جئنا :
أنا والفراشات، والضوء

مثل الحجارة
نطبع فى كفه قبلة..
ونصلى
***
مرة أوقفتنى الطفولة
فى بابها
أجلستنى، وأغلقت الباب
أدنيتها
وفتحنا الشبابيك للطير
غنى المدى
فى عيون العناقيد
فانحدرت دمعة
من ظلال الدوالى
على أغنيات الحليب
شربنا الصباح
مع العشب
فوق الندى
دمعة
تخرج الطير تغريدة
من ضياء القناديل
فانسكبت جمرة الشمس
فوق الربى ذهبا
ومشينا إلى ظل صفصافة
خبأتنا من الدهر
عشرين أو تسعة
كلما لامستها الرياح
أفقنا بعمر الطفولة
نأتى
وأحلامنا فى بهاء البنفسج
ضاحكة للبساتين
دافئة
فاغتسلنا بأحلامنا
تحت سحر الينابيع
غنت لنا نجمة الصبح
ملء المدى

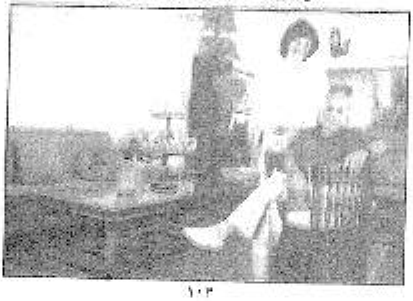
ذكريات

حين جئنا إلى النبع
نغسل أرواحنا
وشوشتني الطفولة
ألا أفارقها لحظة
واتفقنا
فكانت هي الروح مني
وكنت الحجر
***
مرة فاجأتني القصيدة
خاطفة
تتنهد عن جسد
مرمرى الأنوثة
أوقفني نغم
يترقرق من فمها صادحا
فانخطفت إلى زرقة البحر فى مقلتيها
فشردني عالم غامض السحر
إن الطلاسم مغرية
وسقت طائف الرقص فى جسدى
أي سحر تغنى
فصلت له فرحة العندليب
وألقت إليه الحمامة بالشجو
وانهمرت في البكاء؟
القصيدة غامضة :
شجر للأغاني، وسجادة للنحيب
جرت نغما مبهما كالجنون
تسبح فى ملكوت الأناشيد
بأنخة الضوء
مفعمة الأشقرار
اشتهاء يرواغ خلف المرايا
يخبئه الشعر
تفضحه زرقة البحر
من نظرة لمعت للطيور
وقد ألقت السمع مفتونة
زرقة البحر فاتنة
والصبابة فى مهجتي
طفلة النار
تشعلني كل ثانية عاشقا
ثم تدخلني وطن العاشقين
القصيدة من برجها
تتدفق أغنية
شررا يتطاير من جسد الأرجوان
المرايا مراوغة
والجنون المغامر في جسدي
عاشق جبلي الهوى
راحل فى الجنون
***
مرة طارحتني القصيدة
أشواقها
وأساها دما
غازلتني وغازلتها
ففرشت لها من دمى طرحة
ثم جاءت على جسد مبهم الضوء
تبحث عن جاهلي
تأبط شرا
فألقت شجاها على شجني
وانسكبنا على نغم كالحريق
التقينا على دمعة
والتقاء الغريبين
فى دمعة
هو أشهى من الحب والأغنيات
سأنظمها، فأنا جبلي الهوى
أتأبط عشقا
وأرسمها فى بريق الجبال
معلقة تتدلى على ناطحات السحاب

كنعان يودعنا... لكن النور لا ينطفئ

بقلم : صافي ناز كاظم

الأحد ١٣ من هذا الشهر، فبراير، يكون قد مر على ميلاد الفنان منير كنعان ٨١ عاما الذى غاب عن دنيانا منذ ٤٧ يوما. من صباى المبكر وكنعان هو فنانى المفضل بين آخرين كبار كنت أعجب بهم كذلك مثل الفنان «حسن» بجريدة المصرى، قبل إغلاقها فى مطلع الخمسينيات، والحسين فوزى بلوحاته لرواية نجيب محفوظ «بين القصرين» المسلسلة بمجلة الرسالة الجديدة سنة ١٩٥٤.



في منزلهما.. كنعان ورفيقة دربه سناء البيسي



صعدت سلالم أخبار اليوم عام ١٩٥٥، لأبدأ خطواتي في مشوار الصداقة، كانت معي صديقة الطفولة سناء البيسي، التي برزت بيننا رسامة متوقدة الموهبة في سني المدرسة الابتدائية والثانوية، قالت سناء: «هيا نذهب إلى مكتب بيكار». قلت: «نذهب أولا إلى مكتب كنعان». في الدور الأول - جارا للفنان صاروخان - وجدناه منهمكا في تعليق لوحة من لوحاته على جدار الممر أمام مكتبه ليعطيها المسافة الكافية الصالحة للنظر إليها، رغم أعوامنا الثمانية عشرة كانت لدينا الثقة والمبادرة لمخاطبة الفنان الكبير المشهور البالغ من العمر ٣٦ سنة. توطدت معرفتنا به فورا، كأنه كان ينتظرنا، وكأن أعيننا كانت قد تفتحت على صداقته منذ ولادتنا. قلت: «يا كنعان أنا أحبك ولكن سناء تريد الذهاب لمكتب بيكار». لكزتني سناء وهي تقول في استنكار «من قال لك هذا؟». ضحكت ودخلت سناء مكتب كنعان منذ ذلك الحين، تلميذة وملهمة، ولم تفارقه أبدا حتى ذلك اليوم الذي شاء الله أن يجعله يوم الفراق حين استقر الأستاذ والمربي والمؤدب والصديق والحبيب، في مثواه الأخير بعد صلاة عصر الأربعاء ٢١ رمضان ١٤٢٠ الموافق ١٩٩٩/١٢/٢٩، طيبا راضيا مرضيا بإذن الله.

أحب سناء وأحبته وتزوجا ١١ أكتوبر١٩٦٢، وأنجبا وحيدهما هشام ٩ يوليو ١٩٦٤.

★★★

مثل عطاء «المؤدب» و«المربي» و«الموجّه» الأمين في أروقة المدارس الثقافية والفنية العريقة في تاريخ حضارتنا الأصيلة، كان عطاؤه لمجموعتنا الشابة في أخبار اليوم: سناء البيسي وسناء فتح الله وأنا. إنه في أذني دائما: أستاذي والأنا العليا في الفن. أعطاني الرصيد من التدريب على كيفية النظر إلى اللوحة مع صبر مبذول في مناقشات سخية أذكت عندي حاسة النقد ودفعتني إلى دراسة المسرح. ما من متحف دخلته، أو صالة عرض ارتدتها - في الدنيا الواسعة - أو صفحات كتاب فن قلبته إلا وكان صوت كنعان في أذني دوما: «شايفة» الصيحة الكنعانية الكافية لكي أعتدل في استعداد «الشوف» للفن وفق أصول الرؤية الجادة والتناول السليم للعمل.

★★★

اتسقت روحا وقلبا وعقلا مع البحر الزاخر المليء بإنتاجات كنعان الثرية الصادقة الخصبة التجريد والكولاج بأطواره وتنوع خاماته وأساليبه، ولمسات تشخيص نادرة باقية من مرحلته الاولى. تكاملت في تذوقي معه فلم أعد أستطيع أن أتذوق فنا خارج إطار أسلوبه، ليس هذا فحسب بل إنني لم أعد أستطيع أن أرى شيئا بكينونته البديهية: جالسة في

سيارة منتظرة أمام بيت قديم له باب من الحديد الصدئ، مهمل، يعبره الناس بلا اكتراث لكنه يستحوذ عليّ. متأملة غارقة في الصدأ ودرجات ألوانه: اخضرار واحمرار ورمادية وألوان أخرى لا أعرف كيف أحددها «هذه الألوان لا يمكن أن تتولد بهذا الجمال إلا من خلال عملية الصدأ». هل هذه جملتي؟، أم هي جملة مختزنة في دماغي من محاضرات كنعان؟.

***

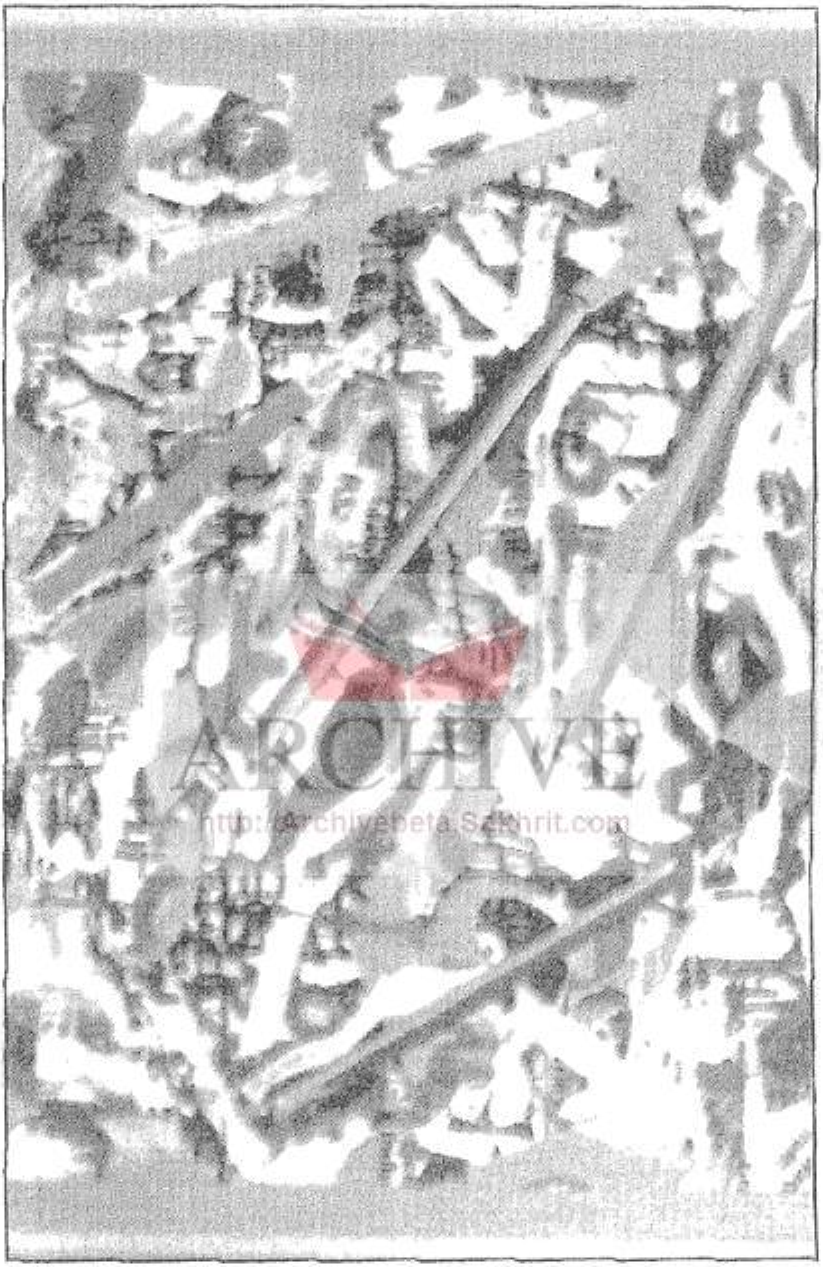
ولد منير كنعان في ١٢ فبراير ١٩١٩ - كان سعيدا برقم يوم مولده ١٣ - وبدأ عمله في الفن قبل أن يتجاوز العشرين. عرفته مجلات دار الهلال منذ عام ١٩٤٥ رساما بارعا يتقن لوحات «البورتريه» وتسجيل مشاهد الناس في المحاكم والأسواق وسائر التجمعات البشرية. لا ينمنم ولا يزوق، بل يبدو كأنه يخبط بالفرشاة خبطات حرة قوية وحاسمة تتبين منها الوجه المشع وخصلات شعر كألسنة اللهب وومضات عيون لا تنطفئ شعلتها وأصابع يد تبدو وحدها كأنها كائن حي قائم بذاته. حضور آسر لخطوطه في التشخيص، لكن هذا الفن - الذي يسميه «الفن للصحافة» - كان على كنعان أن يهرب منه حتى لا يقع في فخه فتتبدد طاقته الإبداعية الكامنة في آماد التشخيص التي مهما اتسعت تظل محدودة وسطحية.

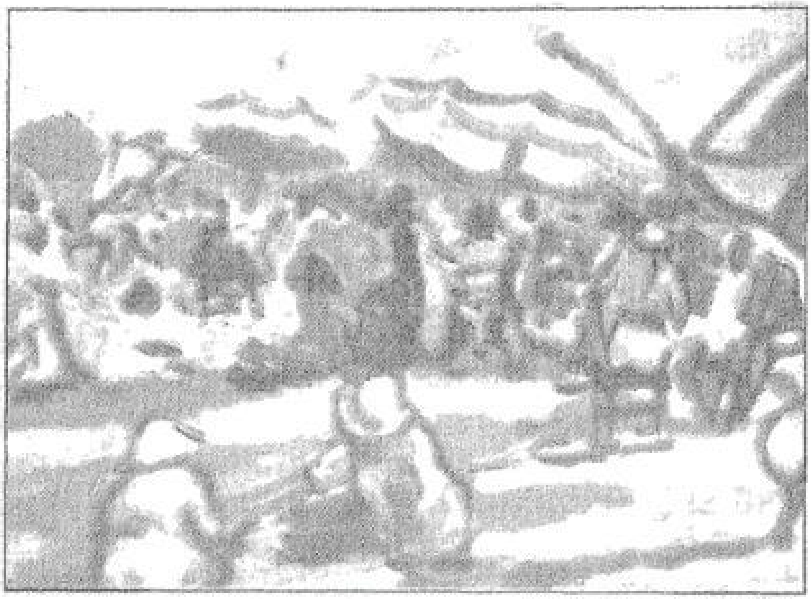


الفنان.. في الثلاثينيات

كان يرى التشخيص بترا للحقيقة وتصيدا وقحا للجوهر، وكان بحثه في التجريد محاولة للتخلص من الثرثرة حول الفكرة، ومغامرة لتصوير حقائق الحس والعقل بإسقاط الظاهر المادي المخادع والمعوق لرؤية تلك الحقائق واستشعارها، وكان هذا يعني وصوله إلى جوهر العقل الإسلامي - المدرب على التجريد - وتعامله مع الكون وأشيائه المرئية واللا مرئية. فالعقل الإسلامي - من ورائه توجيهات العقيدة - يسقط التجسيد أو التشخيص كوسيلة للمعرفة، ولذلك فالنفور من النحت في الإسلام لم يكن موقفا ضد الوثنية فقط بل موقفا ضد ظاهر الأشياء، لأن ظاهر الشئ ليس حقيقته. العقل الإسلامي يتربى على الإيمان بالله إله

من مجموعة الكولاج عام ١٩٨٩ للفنان كنعان





من أعمال ١٩٤٥ للفنان كنعان



الفنان في معرضه الأخير

واحد «ليس كمثله شيء». وهكذا يتعلم المسلم كيف يؤمن بالله حقيقة لا تتشخص ولا تتجسد. لكنه يدركها تماما يقينا لا يتزعزع).

★★★

مع العمل المرهق والتجارب المستمرة المضنية والعناد - الذى هو أهم دعائم شخصية كنعان - التقى مع التجريد فى أول لوحة تجريدية ينتهى منها عام ١٩٤٦ قرر بعدها أن يغلق تدريجيا مرحلته مع التشخيص وفن البورتريه الذى برع فيه. ويشارك بتجاربه الجديدة فى معرض الربيع بقاعة الفن بالقاهرة أعوام ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ومع جماعة «الفن والحرية» عام ١٩٥٦، ثم جماعة «نحو المجهول» عام ١٩٥٩، وبعدها تبدأ معارض الشخصية مع أعوام ٦٠، ٦١، ٦٦، ٧١، ٧٧، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٨٩، ١٩٩١، ١٩٩٢، ١٩٩٤. ويثار الجدل الساخن حوله ويتركه غير مرضى عنه من قبيلتين تحزبتا ضده لأنه لم ينتم لأى منهما:

● قبيلة الأكاديميين الذين شمخوا بأنوفهم لا يريدون أن يتركوا خط دفاعهم الأول والأخير، وهو التشخيص - (وإن حاولوا التجريد اصطناعا ومجاراة فى خطوات مترددة تخشى الإبحار نحو القارات المجهولة، ليس قبل أن تسجل لها الخرائط وتتحدد لها المقاييس والمعايير.) - لم يرض الأكاديميون عن كنعان أبدا لأنه لم يتعلم الفن فى جامعة أو أكاديمية، بل نبش صخر المعرفة بأظافره وحده، ولذلك أخرجوه من دائرة إعلامهم وتقييماتهم النقدية، بل إنهم حين فاز كنعان لمصر عام ١٩٨٤ بالمركز الأول فى الحشد الدولى للفن التشكيلى على مستوى فنانى الوطن العربى - (١٢ دولة عربية مشاركة بمجموع ١٢٨ فنانا من كبار فنانى حركة التشكيليين العرب) - وكان هناك ١٦ حكما من العرب وثلاثة حكام من إيطاليا والنرويج، خرجوا بحملة من «الإدانة» و«الشجب» ومعها «بيان» بكلام ضخم يرفض «فوز» منير كنعان بواحدة من أعماله التجريدية!. واستخدمت فى الحملة كلمات مثل «المضمون الاجتماعى» و«النقاد المستوردون» - فى إشارة إلى وجود نقاد دوليين فى التحكيم بنسبة ٣ إلى ١٦ من العرب - ونددوا بـ «التجريد» العبثى و«اللامبالاة» لصالح «الواقعية الجادة» - (هذه الكلمة المبتذلة التى لم تقدم لحركة الفن التشكيلى إلا الجمود والخطابة والشعارات الطنانة المستهلكة وكانت جواز مرور لأقل الفنانين موهبة وعطاء). - وتضمنت الحملة فقرة مثل: «وقد أعطيت الجائزة الأولى تصوير لأكثر اللوحات تجريدا.. مجرد تشكيلات من أوراق الصحف العربية والأجنبية الملصقة من فوقها مساحات أخرى سوداء أو ملونة لا معنى لها». ثم أوردوا فقرة من خطاب لرئيس الجمهورية خارج سياقها للإرهاب

وممارسة الابتزاز على الفن والفنانين وبدت الفقرة وكأنها تطالب السلطة باستصدار قانون استثنائى لاعتقال الفنان المتلبس بالتجريد، كأن استعداء السلطة هو مهمة من مهمات الناقد الفنى. ووقتها لم أستغرب الموقف المتعسف من «التجريد» - (الذى أعتقد اعتقادا كاملا بأنه الفن الإسلامى) - وقابلت كنعان وهو منهمك فى العمل والعاصفة لا تعنيه، وفى ابتسامة وادعة أخذ يهدئ من غضبى: «..يا صافى هذا الكلام مرض قديم يتجدد فى فورات موسمية مثل الحمى..»، وكان عجبى أن يصل الهوس فى التعصب حد إنكار أسلوب فنى معروف وشائع اسمه «الكولاج» والإشارة إليه أنه: «.. مجرد تشكيلات من أوراق الصحف العربية والأجنبية الملصقة..» كأنه إجراء خرج عن شروط الفن وقوانين الإبداع ناهيك عن المروق من مظلة الوطن والوصول إلى حد الخيانة القومية.. إذ وصل اتهام لوحة كنعان الفائزة لاسم مصر بأنها: «اتجاه عدائى صريح ضد الاتجاهات القومية والموضوعية»، كما ورد فى البيان المذكور.

● أما القبيلة الثانية التى أنكرت كنعان دائما فهى: قبيلة الأيديولوجيين الذين شمخوا بأنوفهم هم الآخرين تكبرا وأخفوا موهبتهم الضئيلة خلف رطانة خطابية ومحفوظات مستهلكة. انضمت القبيلتان وأنشدوا جميعا مارش الاتهام «العسكرى» بعبثية كنعان وعدميته ولا مضمونه.

★★★

فاز كنعان حقا بجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٧، وكان فنه موضوعا لرسالة ماجستير فى السربون نالتها عام ٨٥ - ٨٦ الناقدة الفرنسيه كريستين شامبى روسيون، ولرسالة دكتوراه بعنوان «تيمة الرسوم التحضيرية فى التصوير المصرى المعاصر»، قدمها ونالها الدكتور رضا عبد السلام عام ١٩٨٧، لكنه ظل دائما وحيدا لم يؤنسه سوى قلبه الملئ بالرؤى وصدره الجياش بالسعى نحو المجهول والمستتر لاستطلاعه، خارج أطر المادة وحدود الشكل، وتشبث بإيمانه فتفتحت أمامه آفاق ارتفع معها فى رحلة الاستكشاف للقيم الجمالية الخبيئة من خلال التتابع المستمر لعمليتى الهدم والبناء.

★★★

علمنى كنعان ألا أجد القبح إلا فى النمطية والزيفات التشخيصية التى ينفر منها العقل الواعى بقصور المادة وسجن الأشكال وتعلبها النفس التى تريد أن تسبر الغور بعيدا عن كذبات السطح.

★★★

فى زيارتى الأخيرة له، بجناحه بمستشفى عين شمس التخصصى، نظر إلى سناء البيسى رفيقة الدرب الحبيبة وقال: «.. ينطفئ النور يا سناء». ولاحقناه سناء وأنا فى صوت واحد: «النور لا ينطفئ أبدا يا كنعان!»، فبلع دموعه وسكن.

رحمه الله وأجزاه عنى الخير الوفير.





إبراهيم الدسوقى

«فنان من جيل التسعينيات»

بقلم : محمود بقشيش

بدعوى الحداثة دأب صناع القرار الثقافى على تشجيع ما يسمى بـ «التجهيزات الفراغية» وهى نوع فنى يجمع بين أنواع مختلفة من الفنون المرئية، فهو يجمع بين الشكل المعمارى النحتى المجسم والشكل التصويرى المسطح، ولا بأس من إضافة أشكال مضيئة ومسموعة، متحركة وساكنة. وقد شارك بعض الشباب بعروض حية إضافة الى كل ما سبق. وكانت الغاية من ذلك هى إزاحة الدور التاريخى والجمالى للوحة الحامل وهى الشكل الذى يناسب من يتقن الرسم والتلوين وهو أمر يمكن الاستغناء عنه مع «التجهيزات الفراغية».

وقد أحدثت ولائم الجوائز التى كرست لهذا النوع الفنى الفرقة بين المبدعين من جيل التسعينيات، فمنهم من أغرته الولائم بالاستجابة المطلقة للقيادة الرسمية واستطاعوا ما تجود به الغربيات الفنية الغربية من بدع وغرائب. ولسنا بالطبع ضد الحداثة أو المغامرات الفنية ولكننا ضد الانتحال والنقل الأعمى. وكان على

دعاة الوزارة أن يتأملوا تجربة المدرسة المكسيكية، عندما تمردت على «لوحة الحامل» واختارت البديل «المناسب» وكان هذا البديل هو الجداريات الفريسيكية الفذة التى خلدت أسماء مبدعيها وعلى رأسهم ثلاثة هم: «دييجو ريفيرا Diego Rivera ١٨٨٦ ـ ١٩٥٧» و«أوروزكو» Jose Clemente orozco ١٨٨٣ ـ ١٩٤٩» والفارو سيكيروس David Alfaro siqueras ١٨٩٦ ـ ١٩٧٤». وكان بمقدور الوزارة أن تتخم الفنانين المصرسيين بالعمل لو أخرجت «قانون الـ ٢٪» من الأدراج وهو قانون يبيح للفنانين تجميل ٢٪ من المبانى الحكومية، عندئذ كان سيتألق فى ساحة الابداع الفنى ـ غير المعزول عن جماهير الشعب ـ مبدعون اكثر موهبة من المتحلين الصغار. وإذا كان هناك شباب ـ بحسن نية أو بسوئها ـ قد استجابوا للمالأة، فإن البعض الآخر من الذين يشقون فى مواهبهم وقدراتهم فى مجال الرسم والتلوين ولديهم ما يعبرون عنه قد رفضوا ذلك التوجه الانتحالى الذى لن يفضى فى نهاية الامر إلا إلى الخواء. لهذا اخترت من بينهم واحدا أعده من اكثر افراد جيله موهبة، ومن أكثرهم ثقافة ووعيا بما يحدث فى الواقع الثقافى المصرى والعالمى الآن.

الفنان إبراهيم الدسوقي

يعمل ـ حاليا ـ مدرسا مساعدا بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة «قسم التصوير».. وهو الابن الوحيد لفنانين كبيرين معروفين: الأب هو الرسام والقاص والمترجم الأثرى «الدسوقى فهمى» وتعد ترجمته لكافكا من أفضل الترجمات العربية. ونشر فى أواسط الستينيات سلسلة من الترجمات لكتابات الفنان العبقرى «أوجين ديلاكروا» وهو من أوائل الكتاب الذين لفتوا الأنظار الى إنجازات المدرسة التعبيرية الألمانية فى الفن، أما الأم فهى الرسامة المعروفة «عطيات» وكانت رسومها تنشر بصورة منتظمة بجرائد مؤسسة الجمهورية حيث كانت تعمل ، وكلا الأبوين ينتميان إلى الأسلوب التعبيرى.

مشروع التخرج

إننى أعد مشروع تخرج فناننا «إبراهيم الدسوقى» الركيزة المحورية لمراحله الفنية اللاحقة، فمشروع التخرج هو الكشاف الحقيقى عن موهبة الخريج وعن جدارته بلقب فنان من عدمه، وما أكثر الخريجين الذين درسوا بالفنون الجميلة وما أقل عدد الفنانين الذين تألقوا من بين خريجيها!.

تكشف لوحته بمساحتها الضخمة «٥١٠ × ١٧٧ سم» وبموضوعها الجرىء

«عن عمال التراحيل»، بمضمونها المكرس للتعبير عن حالة الاغتراب الإنساني الذي يعانيه ريفيون نزحوا إلى المدينة سعيا وراء الرزق، وبمستوى الأداء الفني، عن جسارة وتمكن من أدواته الفنية، لم تتح لمعظم سابقيه.تضم اللوحة سبعة وعشرين شخصا، يجمعهم رصيف واحد، تحيطهم من كل جانب أسوار عالية وبقايا إعلانات، وتلفهم حالات من الترقب الحزين والضياع. واستطاع ـ بمهارة استحق عنها أن يصبح أول دفعته ـ أن يتابع كل حالة من حالات هذا الزحام البشري. وقام هو نفسه باستئجارهم واحدا واحدا ليرسمهم. واختار لهم أوضاعا جامدة حتى يكونوا أقرب إلى مشاهد «الطبيعة الصامتة» أو الساكنة ولكنه سكون «مشحون» بالتوتر وانتظار لمجهول ملغز. وعلى الرغم من أن المشهد، المأخوذ عن الواقع، أشبه بالحيز المسرحي ثلاثي الأبعاد، فلم يوحد مصدرا ثابتا للنور والظل، بل جعل لكل حالة ضوءها وظلها الخاص تأكيدا للإنقطاع بين الأفراد، وأغرق كل شخص في قوقعة همومه الذاتية. جمع «إبراهيم الدسوقي» في مشهد حكائي/ مسرحي بين ما يدل على الواقع وما يدل على غرابته في آن واحد، ولم يترك أي تفصيلة من التفصيلات للمصادفة بل لضرورتها الفنية والتعبيرية،اختار لهم الملصقات الإعلانية لتكون خلفية رامزة إلى وضعهم السلعوى وجعلنا نتساءل : أي سلعة تلك التي لا تمتلك غير فئوس وسواعد، وأي دور حزين يمكن أن تقوم به بعد أن انتزعت من بيئتها الريفية إلى طوفان القاهرة!.

الواقعية السحرية

لست على يقين إن كان «إبراهيم الدسوقي» قد تعرف في ذلك الوقت على مذهب «الواقعية السحرية» وتأثر به، لأن في لوحته شيئا مشابها. ففي لوحة «إبراهيم الدسوقي» مثلما في مذهب «الواقعية السحرية» حرص على الإمساك بالواقع المباشر وهو في حالة تلبس بكل إيحاءات الغرابة الكامنة داخله. لهذا فهو مذهب وسط بين الواقعية والسيريالية، ظهر في أواسط الثلاثينيات وقد استلهم من التصوير الميتافيزيقي للمصور الإيطالي «جيورجيو دي كريكو» Giorgio De chirico ولأن هذا المذهب لا يستطيع ممارسته إلا من امتلك مهارة غير اعتيادية في نقل الواقع فلم تظهر خلاله إلا أسماء قليلة أبرزها بيير روى pierre Roy و«بالتس» Balthus و«البرت كارل ويلينك Willink و«جرانت وود grant Wood وقد روج نقاد الأدب ـ بعد ذلك ـ هذا المصطلح، خصوصا، بعد فوز «ماركيث» بجائزة نوبل للأدب سنة ١٩٨٢ وذيوع رائعته «مائة عام من العزلة» في



السبيل ١٩٩٩ للفنان ابراهيم الدسوقي



كثير من لغات العالم، منها اللغة العربية.

الوجوه الشخصية

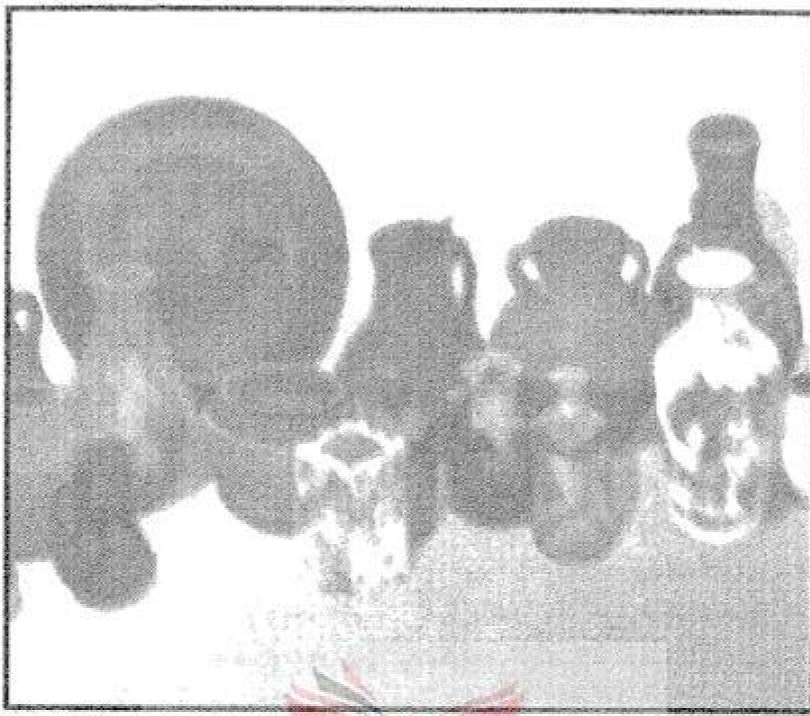
إن فن «البورتريه» فن بالغ الصعوبة لأنه يحتاج بجانب المهارة غير الاعتيادية في الرسم إلى نوع من الفراسة لسبر أغوار الشخصية التي وافقت على أن تكون نموذجا للرسم وموضوعا للتأمل، لهذا لم تلمع - في مصر - في هذا المجال إلا أسماء قد لا تزيد على أصابع اليدين. يزيد من صعوبة لوحة البورتريه ذلك الحاجز النفسي الذي تخلقه آلية العلاقة بين الفنان والمقتني الذي هو نفسه النموذج المراد رسمه من الظاهر والباطن ولابد من إرضائه، لهذا اختار معظم رسامي البورتريه طريقا آمنا إلى جيب وقلب المقتني: وليس هناك طريق أكثر أمانا من الانحياز إلى «التجميل» على حساب «الحقيقة» التي قد تكون مرة أحيانا. ولحسن حظ الفنان «إبراهيم الدسوقي» أنه لم يضطر إلى أن يغير جلده، لأن الوجهين المفضلين لديه والذي تألق في رسمهما لا يتقاضى عن لوحاته لهما شيئا من المال بل فنجانا من القهوة أو دعاء من القلب بأن يوفقه الله في حياته!.

الوجه الأول لأمه الفنانة الكبيرة «عطيات» والوجه الثاني لزوجته الفنانة الشابه «هند»، لهذا أتيح له من حرية التعبير ما لم يتح لغيره من رسامي الوجوه الشخصية، معتمدا على سماحة الأم والزوجة ولم يضطر إلى المجاملات الاجتماعية بل كان حريصا على إظهار الحقيقة التي يعرفها. وعلى الرغم من أن لكل شخصية خصائصها فقد سادت كل لوحاته مسحة من الحزن، شفافة أحيانا، عميقة أحيانا أخرى، تنصرف العيون جميعها عن مواجهة المشاهد وتغوض في قوقعة الذات، تجتر آلامها. ولست أدرى إن كانت حالة الاغتراب في وجوه أحبائه امتدادا لنفس الحالة في وجوه عمال التراحيل أم العكس، ومع ذلك فإننا نلمح لمحات شعرية بدت في تألق شعر الأم بعد أن اشتعل شيبا زاده ألقا لون بشرة لوحتها شمس الجنوب، واتسمت الألوان بالوقار، وإن تسلل إلى وجه الزوجة شبح ابتسامة وتشع ضوء تولد من نسيج صنعته طبقات من عجائن اللون الأبيض غطت صدرها، وانعكست أصداؤه على فواتح الوجه، وبدا سواد الشعر أكثر دكنة.

الزحام والتفرد

تركت لوحة المشروع آثارها على مراحله وموضوعاته اللاحقة. وأبرز تلك الآثار هي الاحتفال بتفرد العناصر الإنسانية والشيئية وعزلتها في قلب زحام

العناصر المماثلة والمخالفة على السواء. وهى يعلى من شأن الأفراد حتى لا تذوب فى الجماعة، فى لوحته «زهور فى المرسم» يغرق مسطح اللوحة المهندسة بطوفان من اللمسات المجردة والموحية فى ذات الوقت بزحام دوامى من زهور يفترض أنها مطبوعة على ثوب «الموديل» المعلق على مقعد، وينتقل الطوفان الزهرى إلى مسطح الخلفية الجدرانية والأرض. وتنبعث من هذا الزحام المربك باقة تتفرد بوضوح معالمها، ومعالم قنيتها الخزفية. إن تكاثر العنصر الإنسانى والشيئى فى لوحاته لا يبتلع الأفراد، بل على العكس يعطيه مبررا للانتقاء، وهو يحيط أجسامها بفضاء صاف يؤكد به حضورها الفردى المستقل كما فى لوحته «تأملات عبر الشرفة» وهى تمثل أربع فتيات يقفن صفا واحدا يتأملن مشهدا فضائيا يتسم بصفاء لونى لم نعد نراه فى سماء القاهرة وتظهر الفتيات من الخلف إلا واحدة تواجهنا مواجهة مباشرة وتبدو من ملامحها شديدة المصرية أنها قد جىء بها بعد إعادة الصياغة - من المتحف المصرى، بل إن التكوين ذاته يذكر بتكوين الجدارية المصرية الشهيرة المسماة بـ «أوز ميدوم» حيث تبدو إحدى الأوزات وقد خالفت خط سير بقية زميلاتها. ومثلما فعل الرسام المصرى القديم من أجل كسر ملل التماثل والرتابة فعل الفنان «إبراهيم الدسوقى» وأكد بهذا الاختلاف الانتباه إلى المشهد الذى يتأملونه وإلى شخوصهن ذاتها بأنوثتها المتعففة. لقد تناول موضوع التأمل عبر الشرفات عديد من كبار فنانى العالم، منهم على سبيل المثال لا الحصر الفنان النرويجى التعبيرى الفذ «إدوار مونش» «١٨٦٣ - ١٩٤٤» له لوحة شهيرة بعنوان «فتيات على الكوبرى» رسمها سنة ١٩٠٥ وهى تمثل أربع فتيات يقفن صفا واحدا بجانب سور الكوبرى، غير أنه يختلف اختلافا جليا مع فناننا الشاب، إذ أذاب «مونش» الحدود بين الشخصيات الأربع فيما إحتفل «إبراهيم الدسوقى» باستقلال كل شخصية وبالتفاصيل، خصوصا الزخارف المرسومة على ثوب واحدة منهن وقد أداها باقتدار. إن العلاقات الجمالية بين المسطحات الصريحة والمسطحات المشغولة فى اللوحة تذكرنا بالفنان النمساوى التعبيرى «جوستاف كليمت» «١٨٦٢ - ١٩١٨» وقد إحتلت المرأة فى لوحاته الركيزة المحورية وربما يكون الفنان «إبراهيم الدسوقى» قد تأثر بالحلول الجمالية التى أنجزها الفنان العالمى فى لوحته التى رسمها للسيدة «فريتزا» سنة ١٩٠٦ وهى علامة من العلامات البارزة فى فن البورتريه، غير أن «إبراهيم الدسوقى» كان شديد الحرص



طبيعة صامتة - باقة من الخزفيات

على خلق توازن بين المتعارضات : بين ما هو تزييني وما هو تعبيري، بين المصارحة والتلميح، وقد حاول في إحدى لوحاته أن يتجاوز حدود التلميح الى درجة محسوبة من الصراحة ورسم شيئا من العرى لم يتجاوز منطقة الساقين فانزعجت هيئة التدريس وهم اساتذة للفن ونصحوه بألا يعرض لوحته ، غير أنه عرضها فى سياق معرض جماعى ضم نخبة من موهوبي جيل التسعينيات ولم يحدث شيء لأنه لم يكن يوجد باللوحة ما يثير القلق!.

التأمل في الحجارة

إذا كان قدر الفنان فى مصر القناعة بالتلميح المراوغ والتكتم على الفوران الداخلى فإن الطريق الوحيد الآمن أمامه هو نوع من التأمل الصوفى. وقد وجد «إبراهيم الدسوقى» بغيته فى أحجار أهرامات الجيزة ، غير أنه لم يرسم الأهرامات ، فما أكثر الرسامين



ترقب .. تأملات عبر الغرفة

السياحيين الذين رسموا الأهرامات الثلاثة، والجمال تدور من حولها. لم يرسم شيئا من هذا بل رسم الأحجار المتراصة وقد ترك عليها الزمن آثاره، التقط بمهارة فائقة إيقاعات النور الذى تشعه شمس مصر الساطعة وإيقاعات الظلال الكثيفة، رسم كل كتلة حجر لا باعتبارها وحدة معمارية بل باعتبارها كيانا مستقلا، جاء من زمن سحيق ليلتقى فى لحظة أو لحظات مع ضوء يتغير بمرور الدقائق والساعات إلى أن يذوب فى عتمة الليل.

كان يزور تلك الأحجار يوميا، يرسم لها رسوما تحضيرية بألوان الطباشير الملون، وينفذها فى مرسمه بالألوان الزيتية. وأدرك بزياراته المتلاحقة للأحجار أنه يمارس ما يشبه طقسا من الطقوس الدينية، وربما أدرك أيضا أن تلك الأحجار على الرغم من تفرد كل حجر عن الآخر فإنها جميعا تشكل بنيانا صلبا، متحدا ومتحديا!.



عندما يتكلم الجماد

آدم حنين

أمسك بالأسطورة



نجوى صالح

حينما نجد السهل الممتنع ، فهو آدم حنين النحات والرسام .. وقد ذكر النقاد أن من أبرز مميزات فن آدم حنين : التعبير من داخل العمل الفنى لا من شكله الخارجى ، والبساطة غير الساذجة ، والارتكاز على التراث النحتى المصرى العريق والعريض الذى هضمه الفنان واستوعبه ، ثم تمسكه فى أعماله الفنية التى تعبر عن الإنسان والإنسانية. فالموضوع فى أعمال آدم حنين ليس موضوعا دارجا أو جزئيا ، وإنما هو الموضوع الشامل الذى نحسه قبل أن نراه .

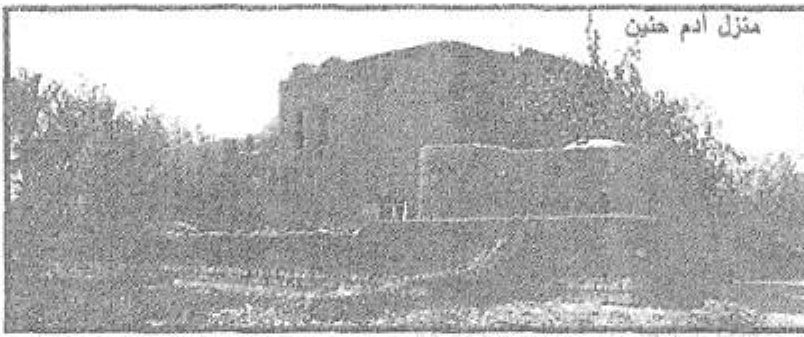
والفنان آدم حنين .. لا يتكلم إلا قليلا .. فى جلستنا بحديقة منزله «بالحرانية» قرب أهرامات الجيزة ، ومعنا زوجته «عفاف» والخضرة تحيطنا من كل جانب : الأشجار والنخيل ، ودرجات اللون الطينى الراسخ ظاهرة فى الجزوع ، والمبنى ، والأرض حتى التماثيل .

وهو فى جلسته التأملية ينظر إلى السماء ، وفى أحيان كثيرة لا يرد ، واكتشفت المهمة الصعبة التى تنتظرنى، فهل غيرت غربة آدم حنين نفسيته وفنه ، خاصة أننى لم أره منذ حوالى ثلاثين عاما.

نظرت حولى لأستشف بعضا من بصماته الفنية ، فوجدت بيته الفريد الذى صممه الفنان رمسيس ويصا فى الستينات وكان مزيجا من الطين والرمل ، أما طراز البناء فكان خليطا من الفن الفرعونى والفن النوبى فى مقرنصات تتبدى على سطح البيت مع قباب تظهر فى خجل مقصود ، بين خطوط المبنى المستقيمة وفتحاته الضيقة ، يذكرك بالماضى السحيق كان فى صمته وهو لا يرد على ملاحظاتى متأملا أكثر منه مندمجاً مع ما حوله ، بالرغم مما يظهر على وجهه من ود وتحفز !

الحيوية الساكنة

ويذكر أحد النقاد الذين تصدوا





تمثال رأس عفاف - زوجة الفنان



يوم هادئ فى الظهيرة - على ورق بردى

لتطور فن النحت الحديث والمعاصر فى مصر إن هناك ثلاث علامات رئيسية ظهرت فى فن النحت المصرى المعاصر هى :

أولها فن محمود مختار : الذى استطاع أن يبتكر الصيغة الملائمة لتزاوج القيم الفنية الاغريقية بالقيم الفنية الفرعونية، ثم سخر هذا الابتكار للتعبير عن المرحلة التى عاشها : «مرحلة النهضة والبحث عن الشخصية المصرية» .

والعلامة الثانية هى فن جمال السجينى الذى استطاع أن يخلص فن النحت من الخضوع للقيم المدرسية الصارمة ويخرج به إلى رحاب الشكل التعبيرى مستخدما الرمزية ثم البنائية فى التعبير الموضوعى عن الأحداث طوال فترة الغليان الثورى فى مصر التى أعقبت الحرب العالمية الثانية وما بعدها .

أما العلامة الثالثة فهى أعمال الفنان آدم حنين : الذى انتقل بفن النحت من التعبير «الميلودرامى» ومن بقايا «الأكاديمية» الى «الحيوية الساكنة» و«الديناميكية الداخلية» ، فهو قد أرسى بفنه قواعد شكلية متينة كونت ما يشبه مدرسة معاصرة فى فن النحت فى مصر يهدف أصحابها الى تقديم أرقى شكل نحتى متضمنا أعمق الانفعالات والأحاسيس والأفكار بدون ضوضاء ، وهكذا أضاف هذا الفنان فى رأى النقاد مفردات جديدة متداولة وحية إلى لغة النحت .

هو لاهث فنيا .. ولكنه أمسك بالسراب .. أمسك بالأسطورة .. وقدم لنا مفرداتها قطعة وراء قطعة ، فى فن يجمع بين الفرعون والفلاح البسيط .. بين ملوكية الحس وتواضعه ، حيث يشعر أن جده هو «اخناتون» !

اللحظة البكر

أعطانى آدم حنين كتابا أنيقا يحتوى على صور لأعماله الفنية فى فن الرسم والنحت ، أنجزته إحدى المؤسسات السويسرية التى ترعى الفنانين وتقدمهم فى المستوى الذى يليق بهم ، حيث تناول أعماله فى هذا الكتاب التذكارى عدد من نقاد الفن فى أوربا .

وقد عرض الكتاب لمحات من طفولة الفنان وشبابه ، ومراحله الفنية المختلفة من البدايات إلى مرحلة النضج الفنى .

والكتاب اسمه «حنين» ، ومن بين حكاياته .. ذكريات طفولته .. حين كان

آدم طفلا فى الثامنة من عمره حين صحبت «مدرسة التاريخ» تلاميذ المدرسة ومنهم آدم إلى «الانتكخانة» ليروا «المساخيط» !

ويذكر آدم الصدمة والدهشة التى أحس بها أمام روعة الفن وشموخه فيقول: «تركت المدرسة والتلاميذ وهمت على وجهى من صالة إلى أخرى ، لحظة تأمل حقيقية ، كأن كل ما رأيت غاص بداخلى، وأحسست بشىء قد تغير فى نفسى» .. كانت مثل إرهاصات قرأتها فى الانجيل .

ثم يضيف آدم :

«وسردت علينا المدرسة أجزاء من تاريخ الفراعنة وكنت وحيدا صغيرا بين تماثيل الفراعنة الضخمة ، وشعرت بنوع من الطمأنينة الباغتة ، بشعورى أن هذا الفرعون هو «جدى» !

فى الغربة

تخرج آدم فى كلية الفنون الجميلة قسم نحت بامتياز ، واختير ضمن هيئة التدريس ، ولكنه مكث فى العمل لمدة ٢٥ يوما فقط ، ثم اتجه للعمل بالصحافة ، فعمل بمجلة «صباح الخير» مع فتحى غانم لكنه ترك هذا العمل أيضا بعد أربعة أشهر فقط !

وفضل أن يرى الدنيا على مهل ، فرشح فى كلية الفنون لبعثة إلى ألمانيا لمدة سنة ، وهناك قرر أن يعيش من فنه ، وأن يغترف الثقافة الغربية .

يتذكر آدم بعض ذكرياته عن غربته فيقول :

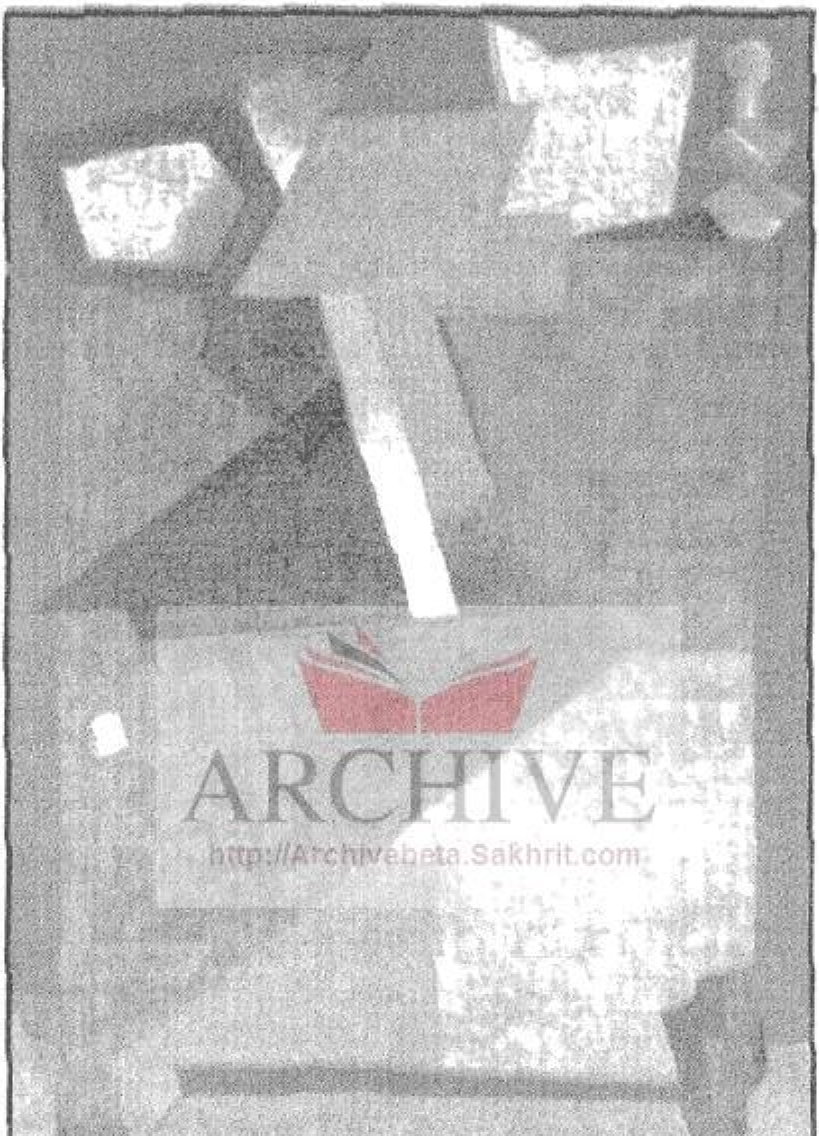
«أقمت معرضا لأعمالى النحتية وكان معظمها من الفخار وبعت قليلا ، وحضر المعرض الرسام المعاصر كاندسكى وزوجته الرسامة، التى نظرت الى أعمالى وقالت لى بالحرف «ماذا تفعل هنا ؟ أفضل أن تعود إلى بلدك لأن أعمالك الفنية ذات اتجاه خاص ، ولن تستطيع أن تتعلم الكثير عندنا» .

ويضيف آدم :

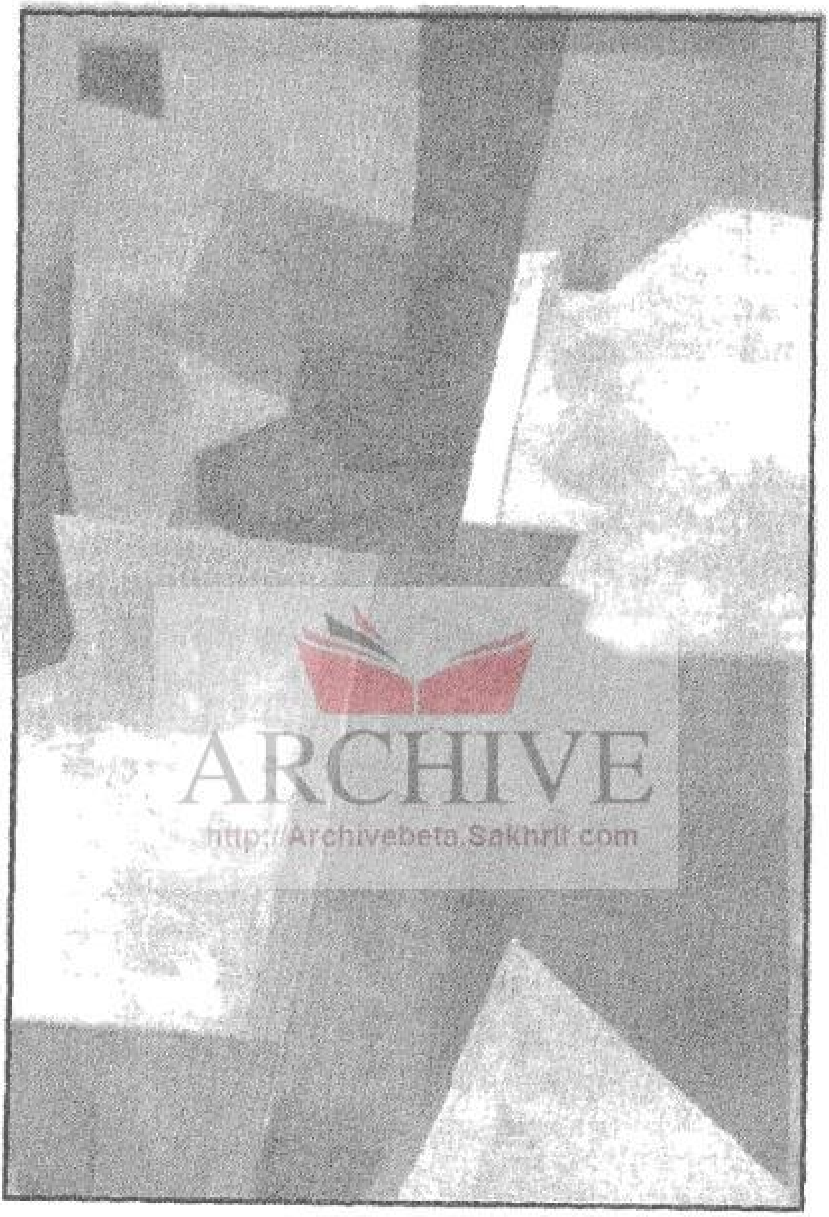
«ولاحظت أيضا تشابه الأعمال الفنية ، وقد أقيم قبل عودتى معرض لحضارة الأسك المكسيكية دفعنى للمقارنة بين القديم والحديث ، والنتيجة أننى فقدت الثقة فى الجديد ، فشعرت بالاحباط وعدت إلى مصر عام ١٩٥٩ وعشت فترة من اليأس الكامل ! الى أن لاحت بادرة أمل ، إذ حصلت على منحة تفرغ أثناء تولى د. ثروت عكاشة وزارة الثقافة ، وذهبت إلى النوبة وكانت هذه الفترة نقطة تحول فى حياتى ، كانت فترة إعادة البناء على أسس الأصالة والتراث الفنى الطويل لمصر .

وتتدخل زوجته عفاف لتتذكر بعض الذكريات فتقول :

«أقام آدم قبل سفره إلى النوبة



لوحة تدوين المذكرات اليومية - ورق بردى



الإرهاصة الأولى .. فى الصباح - ورق بردى

معرضا للرسم فى المركز الثقافى الألمانى، وكنت طالبة فى كلية الآداب قسم الاجتماع ، وذهبت الى المعرض وبهرت بأعماله ، واقتنيت إحدى لوحاته وربت على كتفه وعبرت له عن اعجابى الشديد بأعماله» .

وبعد عودتى من بعثة فى انجلترا للدراسات العليا انضممت الى بعثة أمريكية مختصة بتسجيل كل ما يختص بأهالى النوبة اجتماعيا ، قبل تهجيرهم .. وهناك قابلت «صمويل هنرى حنين» وهذا هو اسمه الحقيقى وفوجئت به يقول لى «اسمى آدم حنين من الآن فصاعدا» . ويعلق آدم حنين على ذلك «غيرت اسمى لأننى وجدت نفسى فى النوبة وأعطيت نفسى ميلادا جديدا» . وقد عرفت فى الصعيد الفن الفرعونى الحقيقى ، وفى نفس الوقت تعرفت على الحياة الشعبية الأصيلة .

وكانت «عفاف» هى جمهورى فى ذلك الوقت ، فطلبت منها الزواج ، وكنت فى ذلك الوقت قد تركت النوبة وذهبت الى أسوان ، وتزوجت عفاف ، وأسكنتها فى بيت صغير جدا فى جزيرة «الفنتين» وحولنا الماء من كل جانب بلا ماء أو كهرباء ، فعشنا عيشة فطرية جميلة رغم عدم توافر الأدوات العصرية ، وفوجئنا ذات يوم بسيدة ضخمة تقف أمامى واتضح أنها «البيجوم أغا خان» التى حضرت إلينا بعد أن سمعت أنه يوجد هنا فنان وزوجته فى هذا الكوخ ، وكانت تحب النحت ، وبعدها أصبحنا أصدقاء ، ورأينا أعمالها النحتية الأكاديمية .

وتضيف عفاف زوجته :

«مكثنا لمدة سنتين على هذه الحالة، نعيش عيشة فطرية لا نعتمد فيها إلا على وابور الجاز ، واللمبة ، والأكلات المبتكرة التى استخدم فيها الأعشاب والتوابل» .

التصوير على ورق البردى

وقد استرعت انتظار النقاد اعمال الفنان آدم حنين بالتصوير على ورق البردى ، فى محاولة جادة للبحث عن تصوير مصرى معاصر حيث اعتمد الفنان على خامات قدمتها الطبيعة فاستعمل نبات البردى المصرى بعد مرحلة الفريسك والحبر الشينى وألوان الشمع والنحت، وكلها محاولات للبحث عن وسيلة جديدة معبرة أكثر منها تجارب مجردة فى الخامات والشكل .

إن لجوء آدم حنين إلى الصعيد ، كان بحثا عن بقايا «أشياء» حقيقية فى حياتنا المبانى، والناس والعادات، التى

مازالت باقية منذ الحياة الفرعونية القديمة. لقد وصل آدم حنين إلى معادلة بين الفن الفرعوني والمفردات الشعبية وكان الاتزان الذى بواسطته احتفظ بأصالته.

وسافر إلى باريس عام ١٩٧١ وهو دائم الاحتفاظ بهذا الاتزان الذي مكنه من أن تصبح مفرداته تجمع بين الأصالة والمعاصرة بكل دقة هذه الكلمة، وحيويتها التى تنعكس على فنه .. وبهرت باريس بفن «آدم حنين».

إن الكتلة فى خطوطها البسيطة والصريحة، تحوى الكثير من الأشعاع الداخلى المعقد، والمحمل بالوشائج التى تربط الفنان بعمله الفنى، وفى باريس دخلت أعماله النحتية دائرة الضوء، ثم حين بدأ يرسم على أوراق البردى، اعتبر النقاد أن آدم حنين من الفنانين التجريديين القلائل الذين تفوق عليهم بنحته، باستخدام الباليتة الفرعونية الأصيلة .. وكيف ننسى لوحة «آدم» «ضوء القمر فى الشباك».

وفى النحت مفرداته الأسطورية السمكة، الفلاح، الدائرة، ثم تمثاله «الأجنحة» من النحاس، وهى الجائزة التى تسلم فى مهرجان السينما مقابلة لتمثال الأوسكار الأمريكى .

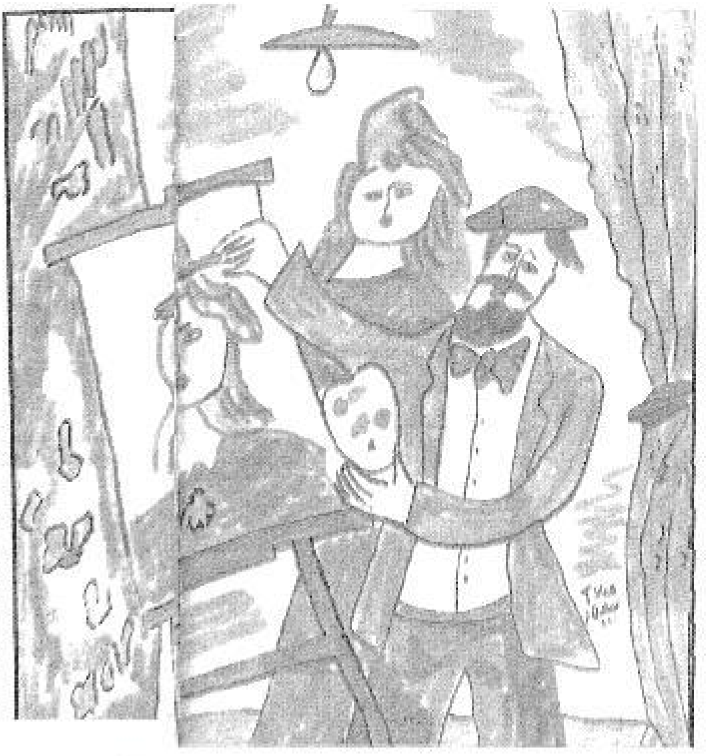
لقد اقتنى المتحف البريطانى إحدى قطعه الثمينة، وكتب اسمه فى «انسكلوبيديا الفن» إن مجمل فن آدم من وحي أساطير بعيدة وقفت بجانبه على أرض الواقع وأصبحت فنا خالصا .

إن بذرة التجرد عند آدم خليط من الفن الفرعوني، والقبطى والإسلامي، فهو محاط بالتراث من كل جانب .

فى السومبوزيوم

وفى عام ١٩٧٧ دعى الفنان آدم حنين إلى «سومبوزيوم» فى يوغوسلافيا رخام .. وحين عدت إلى باريس أخبرت الفنان فاروق حسنى وكان مديرا للمركز الثقافى المصرى فى باريس عن هذه الفكرة الرائعة ، وحين عدت إلى مصر كلفنى الوزير الفنان بإدارة السومبوزيوم .

وأصبحت أسعد أوقاتى التى أقضيها فى المحجر بأسوان من فبراير إلى مارس أخرج فيها كل ما فى أعماقي من أفكار ومشاعر محبوسة وأنجز أعمالا كثيرة ، وأشعر براحة نفسية فى أسوان حيث أشعر أنها مدينة تساعدني على التأمل ، فالتأمل يؤدى إلى الممكن وغير الممكن ، ولا يمكن الوصول إلى الايمان العميق بلا تأمل ، والتاريخ يربط الفن بالدين ، وإذا تخلى الفنان عن الدين بالمعنى المطلق لا يمكن أن يفرز فنا .



الفنان

قصة بقلم :
أحمد عبد الله متولي

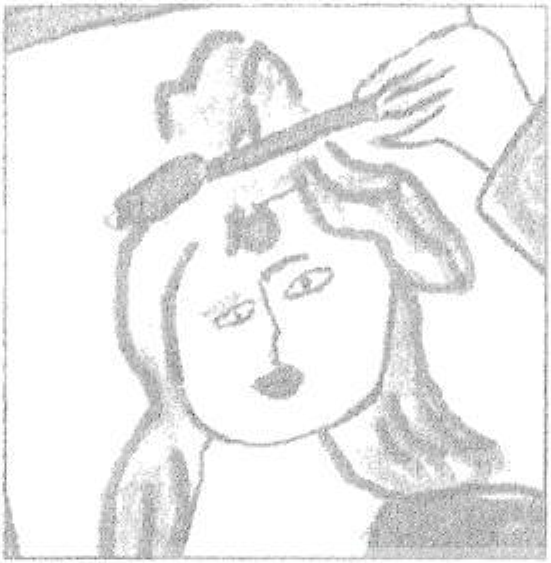
بريشة :
صلاح بيصار

أراد أن ينفصل عن كل شيء. اعتكف في غرفته البسيطة الأثاث.. تنتصب أمامه اللوحات.. أنابيب الألوان الفارغة وزيت الرسم والأقلام والأوراق. على المنضدة تكومت بعض أوراق الرسم (الكانسون) وفرش مجمعة في إناء خزفي. ويروق به [illegible] ملوث بالأوراق المختلطة يتراءى على عينيه لوحات الشوال الشدة وصناديق خشبية بها قطع صغيرة من الزجاج الملون.

في الجو نسمة برد. أضواء القاهرة متناثرة بين بقع مظلمة. يحلو له أحيانا أن يقف فوق أعلى مكان ويمد عينه مكبرة ليراقب عاصمة التناقضات.

ويشاهد ما يعرض الحياة إذا نظر إلى الجو. الأقزام في الشوارع. يراقب حالة من التمل ولا يعرف. الظلام الدامل وقسوته بعيونه.

يجلس إلى لوحة، يرسم بفرشاته. الفرشاة تحاور الألوان لمسات تأثيرية يسمع نقرات على الباب الموارب يرى شابة



حسناء، طويلة فى غير إسراف، ترتدى ملابس البيت. حافية.. بيضاء.. ينسدل شعرها على المنكبين.. حرا طليقا.

يسمعها تقول بصوت موسيقى دافىء: مساء الخير .

- مساء الجمال.. تفضلى .

- أنا جارتك.. آسفة قطعت وحدتك.. ولكننى مضطرة.

وجدها مضطربة، مرعوبة سألها أى خدمة.. لماذا أنت خائفة هكذا.. تفضلى.. اكتشف فجأة هيئته المزرية ولحيته الكثيفة.. رائحة السجائر التى عبأت المكان رغم النافذة المفتوحة.. والباب الموارب!.. كل شىء حوله مبعثر. المجلات المتنوعة، والكتب التى تتناثر وزجاجات النبيذ الفارغة. لا شىء ينطق بالانسجام سوى الموسيقى الخافتة.

يسمعها تقول: كم أنا خجولة. نحن فى منتصف الليل ولا أستطيع النوم فى غرفتى فأر، وربما أكثر من فأر.

يضحك من قلبه. إنها تخاف من فأر! يحمر وجهها غضبا أو خجلا. لا يدرى، جميلة الهيئة. شعرها المنسدل على منكبيها فى حرية. ينظر إلى عينين لوزتين.

- أرجوك.. لا تسخر منى، لا أستطيع أن أنام مع الفأر فى غرفة واحدة! لا أعرف من أين جاء، وكيف يصعد إلى أعلى كل هذه المسافة، هل تساعدنى فى اخراجه من غرفتى؟ .

يقول متصنعا الجدية - حتى لا يغضبها - بكل سرور .. الجار للجار!.

مشت أمامه.. يلاحظ مشيتها الأنثوية الرقيقة. يشم الهواء النقى.. ينتعش.

تدخل الغرفة، خائفة، تشير إلى ركن كان هناك.. ربما تحت السرير.

- بسيطة.. نقفل الباب جيدا والنافذة.

- أنا خائفة.. مرعوبة.

- مني.. قالت: لا .. من الفأر.

يحرك بعض الحقائب من مكانها. لم ير شيئا، يرفع بعض الأشياء الصغيرة، ملابس، علب كرتون.. يلمح الفأر يجرى إلى الزاوية! .

- هل لديك مكنسة؟.

تعطيه المكنسة.. يحاصر الفأر بين المكنسة من ناحية وبقطعة قماش في يده من ناحية أخرى، تحرك الفأر بسرعة. كاد يفلت، عاجله بضربة فوق رأسه، تكوم الفأر.

الشابة الصغيرة تغطي وجهها بكفيها حتى لا ترى منظر الفأر، ينظر إليها في حيرة، يراها حزينة لموت الفأر! .

- آسف، لم يكن أمامي غير قتله، أو تركه ليفزعك.

فتحت الباب وأحضرت له جاروفا وقالت: لو سمحت.. خلصني منه .

- حتى وهو ميت..

تخافين منه.

- وهو ميت.. أخافه أكثر.

كوم الفأر فوق الجاروف، وقذف به من النافذة إلى الشارع! .

غمز لها بعينه: خلاص.. دفناه.. فليرحمه الله! .

ألف شكر على انقاذي.

ابتسم للمهذبة. بدا يلاحظ جسمها من تحت القميص البيتي الشفيف. لاحظت نظراته هذا الجسم الجميل لا ينبغي أن يموت، لابد أن يرسم ويخلد!، هل توافق! قال.. ما رأيك، تشربين الشاى معي، لقد تعرفنا بسبب الفار المسكين وله الشكر.

ابتسمت، نور يسطع، ملامح أنثوية رائعة. أما الجسم، يا الله لابد أن ترسم. يقول لها: لا تخافي، لست فأرا، وكما رأيت أنا فنان مسالم يبحث عن الجمال والإنسجام الهارموني.

- المفروض أن تشرب الشاى عندي.

- أنا صاحب الدعوة أولا. ثم إننا في بيت واحد..

- اسبقني.. سوف أغير ثيابي.

- سوف أترك الباب مفتوحا من أجلك.

- أنت لاتخشى الفئران أو اللصوص!.. فنان! .

عاد إلى مرسمه، فوضاه. طرقت الباب بلمسات رقيقة، يراها ترتدي فستانا من الفانيلا يظهر تضاريس جسمها العبقري. تحمل صينية فضية فوقها براد الشاى وعلبة السكر وأكواب من الفخار. تضع الصينية فوق طاولة خشبية مسدسة الشكل. تعطيه كوب الشاى مع ابتسامة تنبض على شفتيها كحيوان جميل. لاحظ الأصابع الدقيقة والأظافر اللامعة. خلعت الشبشب من قدميها بدت أكثر بساطة وإنسانية. جلست



أمامه، بدت ركبتاها المتكورتان المكتنزتان.

– لاحظهما وهى تساعد فى مطاردة الفأر

– كما لاحظ سمانتى رجليها الممتلئتين فى نسب جميلة، متناغمة مع باطنى قدميها المكشوفتين.

يقوم فى خفة ويحضر من الثلاجة كل ما عنده من فاكهة، عنبا وبلحا وبرتقالا وموزا، فى صينية واسعة، فى أكوام متناسقة.

– تفضلى يا أجمل خائفة رأيتها فى حياتى.

قالت بصوت هادىء، رخيم: أنت تحب الفاكهة.

تتجول بعينين لوزتين فى أنحاء الغرفة، ترى الأشياء لأول مرة. تتطلع إلى الأشياء بحب. يقول يدافع عن عالمه: لا تؤاخذنى، هكذا حالى. عزابا فوضويا، أشارت إلى اللوحات: لكن ألوانك وخطوطك تتعايش فى ألفة ونظام.

– سبحان الله. انها الفوضى المنظمة.

– يعجبنى هذا.. الفوضى المنظمة.

– تفضلى الفاكهة.

أنا لا أجيد الطهو، أتناول طعامى فى أى مطعم، لكننى أصبحت خبيرا فى المطاعم الجيدة! لكننى فى البيت لا أتعاطى غير القهوة والشاى والمرطبات، وإذا جعت، الفاكهة الحلوة الناضجة.

قالت: ما أشهى الفاكهة الناضجة فى مواسمها.

يتأمل الحاجبين البديعين والأهداب الطويلة، يناولها سيجارة، يشعلها. راحت تدخن وتحتسى الشاى الساخن فى تلذذ، وصوت الموسيقى ينساب فى المكان والأسماع. تحدق فى إحدى اللوحات. يسألها: هل يعجبك الرسم؟

– جدا.

– أود أن أرسمك. هل توافقين؟

– لم لا .. الفن هو الأبقى.

سحبت نفسها من الدخينة. مازالت تتأمل الألوان.. سألته فجأة: هل أنت وحيد؟ .

– أنا وحيد تماما. وهذا المكان هو منفاى الاختيارى.

تقضم بلحة مسكرة. ترفع – برفق – بعض الصحف والأوراق من فوق الكنبة. تجلس براحتها.. تمدد ساقيها.. تقول فى عذوبة أسحرته.

– ألا تجلس إلى جانبى.. ذلك أفضل.

يمد يده إلى وجهها.. ياله من مليحة. تقبله فى الشفتين بترو.

تبتعد عنه قليلا.. تحدق فىّ عينه. أنفاسها دافئة. كان مبهورا بجمالها وصراحتها.

تقول: كم أنا سعيدة بمعرفتك! .

- لا أجد الكلمات لأصف سعادتي. أنا الآن في السماء السابعة.

وقفت تتأهب للانصراف. يقول مندهشا: تذهبين الآن.. هكذا.. لا أصدق.

- أتركك في السماء السابعة.

- هل أراك غدا.. أم نسيت موضوع الرسم.

- لم أنس.. سنلتقي بعد يومين. وقبلته قبلة خاطفة.

تركت المكان إلى الساحة المكشوفة، تحمل الصينية، وتتجه إلى غرفتها. الهواء منعش.. يداعب شعرها الهواء. يتبعها ببصره وهي تقفل الباب ملوحة. احتوته سعادة طاغية. مازال عطرها معه. الروعة، الشباب، الجمال، الجرأة. يضع فصاً من البرتقال في فمه.. يستحلبه. كأنما يستطعم حلاوة البرتقال لأول مرة، يستقبل النسمات المنعشة الآتية من النافذة البحرية. يراقب نجمة خضراء.. في متناول الرؤية، تؤنسه باشعاعها الغريب.

أصبح المكان بدونها خاويا. المساء يحبس أنفاسه في انتظار خطواتها ينظر إلى المطر المنهمر، أسلاك الفضة على الزجاج، يستحضر الأفراح واللهفة. والهمس المضيء، القلب يدق كالطبل، ينتشي مع ألحان باطنية.

تحضر أمامه، يرسمها. تطلب أن ترتب الغرفة. يقول: لا تتعبي نفسك هذه الأشياء العينة تعود إلى الفوضى من تلقاء نفسها.

حين راح يتكلم معها حول الفن التشكيلي، أذهلته. إنها تعرف أعمال سيف وانلي، وراغب عياد، فؤاد كامل، صلاح طاهر، حامد ندا، أحمد صبري، الجزار، النجدي، إنها تعرف وتتذوق المدارس الفنية، تحب الانطباعيين والتأثيريين، وتعشق الفنون الإسلامية، وآثار مصر القديمة، تنبهر بجامع السلطان حسن تقول له في الشارع: أنا جوعانة.. لا تكن بخيلاً.

- لندخل هذا المحل.. إنه متميز في الكباب والكفتة.

- سنأكل كشري.

تعالى.

في المطعم، تقول له أريد غداً أن تتذوق طعام يدي، أنا طاهية بارعة. واصنع حلويات، لن تنسى طبق أم علي. كما أنني عازفة عود، وأغني، ستأكل وتحلي، وتسمع موسيقى وغناء، هارون الرشيد في زمانه!

- يخرج لها سيجارة من العلبة، يحدق في وجهها الجميل. يسأل نفسه (من هذه الحسناء؟ إنني لا أعرف عنها أي شيء، ماذا تريد مني؟..) لابد أن ينفض هذه الأسئلة اللعينة. إنها لم تطالبه بشيء، تعطي بسخاء نادر. تنظر في

عينيه، تبتسم. تقول: انت تفكر فيّ .. أليس كذلك؟.

- هذا صحيح.. لا أكف عن التفكير فيك.

- وتسأل نفسك من أكون.. ماذا أريد.

- يا إلهي .. هل أنت جنية! .

- أنت تخاف مني! .

- مستحيل.. أخاف من هذا البهاء..! .

- لماذا تفكر نفسك بأشياء لا قيمة لها؟ .

- أنت ذكية جدا.. تخترقينني.

- أهذا يغضبك؟ .

- يجعلني كالفأر في المصيدة.

- المسألة ببساطة.. إنني أحببتك.. هكذا دفعة واحدة.

- يا إلهي.. سأجن من السعادة.

- إنني أحببتك.. وإلا ماذا تظن بي.. أنت أول رجل أفتح له قلبي (أول حب).. ولقد لمست ذلك بنفسك.

- هذا حقيقي .

- تبتعد عنه في دلال: هل ترتاب في كلامي؟.

- يحتضنها.. يعتذر عن سخافة الكلمات والظنون.

تجلس أمامه تحت الأضواء الكاشفة. يرسمها في جدية.. يحاول أن يسبر أغوارها، يبحث عن شيء وراء البسمة الساحرة.. تأخذ استراحة، تتدثر ببطانية، تشعل سيجارة. يقدم لها القهوة، يدخنان معا، يثرثران حول قضايا العالم. يذهل انشغال رأسها الجميل بنهاية الكون، تنظر إلى السماء تقول بصوت شجي: هل يصدق أحد.. أن بلايين السنين قد مرت على كوكبنا. ذات يوم بعد خمسة بلايين سنة، تفنى الشمس الرائعة، ويفنى عالمنا. هيه.. لا أدري هل الناس على صواب.. أنهم لا يفكرون إلا في يومهم!.

- هل تفكرين بجدية في مسألة موت كوكب!.

- بالتأكيد. ويقلقني لا مبالاة البشر. الحياة جميلة وتستحق الحفاظ عليها. ولكن كلما فتحت الراديو.. وجدت القتل والثورات والحروب الأهلية والتجارب لأسلحة الدمار الشامل! أحس بغباء البشر!.

يضحكها قائلا: وانت جبانة.. تخافين الفأر.

تضحك ..وتهمس: لكنني قوية بالحب.

أراد أن يعرف شيئا عنها، أين ولدت، متى، تقول ساخرة، ربما لم أولد بعد.

- ولادة سريالية إذن.

- كل الولادات سريالية، روح تخرج من روح، وجسد يخرج من جسد.

يتجولان في معارض الفنون. في المساء يذهبان إلى السينما، يستدرجها.

- التليفزيون مثل السينما.. نجلس في البيت الليلة.

– التليفزيون مثل التليفزيون! السينما شيء آخر، سحر آخر، كيف تشاهد المجاميع الضخمة في علبة صغيرة؟. لقد رأيت فيلم كليوباترا في السينما، وشاهدته في التليفزيون، قررت أشاهد الأفلام في مكانها الطبيعي.

هيا بنا لا تتكوم مثل الزواحف. أنت تغيظني بكسلك! .

يقف أمام اللوحة، يتذكرها، يتذكر كل شيء. كيف ومضت فجأة وتلاشت. رحلت إلى الأبد.

أشياء كثيرة تذكره بها – عبر البورتريه – ظن أنه يمتلكها يقف أمام (البورتريه) خطوات وألوان.. لمسات سريعة مصبرة.

ينظر صوب الباب الموارب لعله يرى الشابة الحسناء، حافية.. أقدامها ناعمة.. مضيئة.. نزلت توا من السماء! .

يحدق في الوجه.. الابتسامة الساحرة. يسمعها تنطق (ربما لم أولد بعد) متى جاءت لترحل؟.

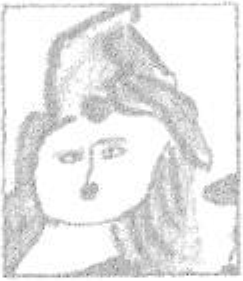
العيون تسيل عذوبة. يسمعها (تريد الحب الأزلي.. حبا حقيقيا.. حبا لم تعرفه مدن الريح والملح).

يدفن وجهه.. هل كان وهما؟. هل كان حلما؟. تطل من اللوحة. إنها الحقيقة المؤكدة. يتذكر كيف وقفت على أطراف أصابعها وطرقت عنقه ولثت شفتيه.

يسمعها تداعب «لاتتجمد هكذا يا وغد الأوغاد.. احضني حضن رجل عاشق».

ينظر إلى اللوحة. تنظر إليه. تنبض على شفتيها ابتسامة غريبة. نظراتها المحيرة.

يقول لها والدموع في العينين: لماذا رحلت فجأة؟.



تقول: من قال أنني رحلت.. لقد استوطنت قلبك.

يتجه إلى الغرفة – غرفتها التي دخلها معها أول مرة يستمتعان بحكاية الفأر – يطرق الباب في رجاء. تخرج له فتاة غريبة القناع، غريبة الصوت.. حادة النبرات.

– ماذا تريد. طلباتك؟ لماذا تحملق هكذا..

– أنت لست هي.

– «نعم!. مخمور حضرتك». تقفل الباب في وجهه.. وتلعن الدنيا.

ينزل إلى الشارع، لايعرف أين يبحث عنها.. المطر ينهمر فوق رأسه مدرارا ☐



المكان في الكتابة الروائية

بقلم : جميل عطية إبراهيم
بريشة الفنان : جودة خليفة

المكان والكتابة الروائية، موضوع يطول شرحه ، وله تداعيات ومداخل متباينة ، تتعلق بمعايشة المكان وأثره في الكتابة ، واسترجاع المكان بعد فترة زمنية طالت أم قصرت عند الكتابة، وتخيل الأمكنة غير الموجودة والكتابة عنها، يطول الحديث .

وهذه ليست مقالة نقدية أو دراسة أكاديمية ، لكنها شهادة تخص صاحب العملية الإبداعية عندي ، شهادة من واقع الكاتب والكتابة ، شهادة انطباعية على حد قول أستاذنا يحيى حقي، ربما تكون لها فائدة عند قارئيه أو دارس أكاديمي فيما بعد ، وتفصلني خمسون عاماً على الأقل ، عما أود تسجيله هنا عن بعض المواقع التي عشتها وكتبت عنها ، ولعل هذه الفترة الزمنية الطويلة تغترف في الكتابة من بحر الذاكرة الخوانة، ففي أقل من العاشرة لا توجد مذكرات مكتوبة ، كما أنني أكذبك القول أيضاً ، إلا زعمت أنني وقد تجاوزت سن الستين من العمر أحتفظ بمذكرات مكتوبة على ورق أو مسموعة على أشرطة أو مصورة على أفلام.

فمن هذه الناحية - ناحية التدوين - عدتي فقيرة ، وفي معظم الأحوال أسافر ولا أحمل كاميرا على كتفي أو أوراقا في حقيبتي ، وكل مايخصني من ذكريات عن الأمكنة والناس ، أحتفظ به داخل رأسي ولا أقول في قلبي . ولنقل إذن هذه صفحات بعضها من زمن بعيد مضى ، وبعضها من زمن قريب حاضر ، فالطفل والصبي والشاب الذي كنته ذهب إلى غير رجعة ، ابتلعته أيامه ولفظته شخصا آخر، ربما أفضل مما كان عليه وربما أيضاً أسوأ حالا ، هذا كله جائز ، ولكنه ليس موضوعنا ، وحتى تصدقني لنقرأ هذه السطور.

وقد يتصور قارىء - ومعه كل الحق - أنني سوف أكتب عن أماكن محببة دفعتني إلى كتابة ما ، فهذا هو المفترض أو المعقول ، لكنني سوف أحيله هنا إلى أمكنة عشقتها، ورجعت إليها عند الكتابة، وأخرى لا أحبها ، ووجدت فيها ساعة الكتابة ، وهي الأمكنة التي أطلق عليها : الجغرافيا الطاردة ، والأمر ليس فيه لبس أو تدليس ، بل هي ظروف الحياة الجبارة.

التفرقة بين المكان والجغرافيا

من الأقوال الشائعة وإلى حد الابتذال، القول بأنه لا تاريخ دون جغرافيا، ولا زمان دون مكان ، وهذه أقوال كبيرة تحيل لنظريات علمية معقدة ليست مجالنا هنا، لكن في الأدب وفنون السرد عامة ، لاسرد دون عناية بالمكان ، كما أنه لا سرد دون عناية بحدث ما أو عدة أحداث متتالية أو متقاطعة ، وهذا هو الدرس الأول الذي يقترب من القاص - عن وعي أو بغير وعي - في بداية عمله كقاص .

رؤية المكان وتأمله ، والبحث عن العلاقات الخفية بين الأشياء من مهام القاص النابه ، ثم تأتي القدرات الخاصة التي تميز بين كاتب وكاتب ، فهناك من يمسك بشعلة الفن الكاشفة فيلقي بضوء على ما لاتراه عين عادية ، فتبدو الأشياء البسيطة كأنها كنوز تفيض بدلالات موحية.

والمكان في القص الروائي المصري خاصة محل دراسات أصبحت شائعة ، وله أمثلة معروفة ، فلا يمكن تناول أعمال أستاذنا نجيب محفوظ دون إشارة إلى منطقة القاهرة الإسلامية ، وأعمال إبراهيم أصلان تحيل إلى منطقة الكيت كات وإمبابة ، ورواية صفية والدير لبهاء طاهر تحيل إلى مدينة الأقصر ، وأعمال محمد البساطي تحيل إلى بحيرة المنزلة ، والأمثلة كثيرة ، فهناك أعمال عبد الحكيم قاسم ويحيى الطاهر عبد الله وغيرها من أعمال متميزة في أدبنا المعاصر ، وهذا

ما أطلق عليه الجغرافيا فى القص ، لكن مايشغل الكاتب أكثر تعقيداً من مسألة الجغرافيا هذه في عموميتها ، فهو يستحلب المكان قطرة قطرة، ليضعه أمامنا كبطل مشارك في الأحداث .

لا يكفي أن تدور أحداث رواية فى منطقة الصعيد أو وجه بحري لنتحدث عن المكان فى تلك الرواية، فالجغرافيا الواسعة لا ترضي كاتبا أو قارئا ، المهم هو التفاصيل الصغيرة وعلاقة تلك التفاصيل بعضها ببعض.

ومن أجمل الأقوال فى صدد الحديث عن الجغرافيا فى الأدب، قول محمد حسين هيكل صاحب رواية زينب ، فى مقدمة إحدى طبعات الرواية إنه كان عند كتابة فصول تلك الرواية فى سويسرا أو فرنسا يشد الستائر على نوافذ الغرفة حتى لا يرى ما حوله من جمال خلاب، وليكتب عن الريف المصرى وبؤسه ، فهنا يهرب الكاتب من جغرافيا ليكتب عن جغرافيا أخرى يعيشها داخله.



وكان من حسن حظى أننى التفت إلى قول كاتبنا الكبير محمد حسين هيكل بعد إقامتى بعام أو عامين فى سويسرا ، فأدركت أبعاد المشكلة التى تنتظرنى كروائى .

وربما يزعم قارىء أن تلك الأقوال مبالغات وفرط حساسية ، فالريف عماده بقر وجاموس ، وطبيعة خلابة ، وهذه واحدة فى مصر وسويسرا ، وهذا قول صحيح وخادع إلى حد الكذب ، فالريف حقيقة عماده بقر وطبيعة خلابة ، ولكن البقر غير البقر، بالمناسبة وسط أوربا لا يعرف الجاموس فى مجمله ، وخذ عندك ، البقر في سويسرا ، تعلق فى رقابه نواقيس، تصدر مجموعات متباينة من النغمات المتتالية فى الصعود ، فإذا تحرك أصدر سيمفونية متكاملة النغمات ، تعلن عن اقترابه أو ابتعاده ، وهذه الأجراس تختلف عن الناقوس الذى يعلق فى رقبة البقرة الدائرة فى ساقية.

هذه واحدة ، أما الفروق الأخرى فهى كثيرة ، ولا داعي للحديث عن الريف السويسرى ، وإلا أثرنا مواجع كثيرة.

المهم . تعمد الدكتور هيكل نسيان ما يحيط به ، ليسترجع مابداخله، ليكتب . وهذا مافعلته أنا أيضاً ، ولكن بدرجات متفاوتة وبطرق مختلفة ، وربما نجحت

وربما كان الفشل نصيبي ، وهذا هو مفهوم الجغرافيا الواسع في هذا المقال ، ولكن الأمر أكثر تعقيداً من مفهوم الجغرافيا الواسع ، فهناك تفاصيل المكان، وهذا نسيج غني يضم الإضاءة ودرجاتها والظلال وحدتها ، والأصوات وتنوعها ، ودرجات حرارة الجو ، وقدر صفو السماء ، وحدة صدى الصوت ، وسيولة الطرق ، وزحام الناس، وكل واحدة من هذه التيمات في حاجة إلى تفصيل . وهناك دراسة عن معرفة الزهور التي يعرفها الكاتب ، وحصيلته منها، إذا تحدث عن مائدة أو حفل عشاء، وهل يعرف أنواعها والفروق بينها أم يكتفي في أعماله الأدبية بالورد البلدي . هذا عن الزهور فما بالنا بالأشجار ، أليست هذه كلها من ملامح المكان؟

يوسف إدريس إذا أشار إلى اسم شجرة أو نبات ، أعقبه بوصف أصيل نابع عن معايشة ومعرفة ، وهذا أمر غالبا مايغيب عن ابن المدينة نجيب محفوظ ، ربما أطلت في شرح هذه النقطة ، وهي ليست في حاجة إلى شرح ، لكنني خشيت من سخرية ساخر ، يقول أو يتساءل ، هل إذا أراد روائي الكتابة عن سجن أو معتقل عليه سرعة دخول السجن أو المعتقل ، والرد هنا قياسا على المبالغة ، ربما.

وقبل ترك مشاكل الدكتور هيكل مع الكتابة في سويسرا وفرنسا ، نذكر القارىء بأن الريف السويسرى لايعرف الحمير جملة وتفصيلا ، فهل كان سهلا على الدكتور هيكل وهو يخط صفحات روايته غياب الحمير ، كلا ، إنني أزعم أنه إذا كانت أجهزة التسجيل قد عرفت في زمنه لأسرع بطلب تسجيلات من العزبة عليها أصوات : يا ولد ياحميدة يا ابن ... وتسجيلات أخرى عليها أصوات بقر وجاموس ونهيق حمير ، ليستمع إليها وهو يكتب في غرفة معتمة مغلقة الستائر.

لماذا الإطالة في هذه النقطة ، لأنها تتعلق بتفاصيل المكان ومثيرات الإبداع عند الكاتب ، وهذه تختلف من كاتب إلى آخر ، فالعناية بالمكان هنا ليست لدقة الوصف أو النقل فقط ، كما يظن النقاد الأفاضل، فتفاصيل المكان تثير الحواس الخمس ، وهذا مدخل المثير الفني عند الكاتب.

والتغلب على مشكلة الجغرافيا الطاردة التي واجهت الدكتور هيكل ، إليك مافعلته أنا بعد عدة عقود من ظهور رواية زينب ، كنت استمع ليل نهار إلى تسجيلات ساخرة للشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم عند الكتابة، كمثير إبداعي للبحث عن الأمكنة الغائبة واسترجاعها، في محاولة يائسة ، للاقتراب منها وتلمس تضاريسها، ولا أقول الإمساك بها، فهذا

ترف بعيد المنال.

ولأن الفنون جنون، أو مبالغات فى الحس والشعور، أقول صادقا إن غياب الحمير والجاموس قد يعطل كاتبا فى الغربة عن الكتابة عن الريف المصرى، ومن لا يصدق عليه مراجعة تلك الفصول الفاتنة التى كتبها يحيى حقى عن الحمير فى روايته «خليها ع الله» أو عبد القادر المازنى فى روايته الفذة «إبراهيم الكاتب» عن الريف.

إذن المكان له دور فعال أبعد من الوصف عند الكاتب فهو مثير فنى، فقدانه يثير اضطرابا لدى الكاتب مهما كانت اهتماماته ولنا من خبرة الدكتور هيكل عبرة حسنة. ويوجز الكاتب الكبير بهاء طاهر القضية فى قوله الذى لا يمل من تكراره عن خبرة وطول معاناة، إن الكتابة فى الغربة محنة.

بين القاهرة وسويسرا

ومن أبلغ الذكريات عن أماكن الطفولة المتبقية فى الذاكرة، وسجلتها فى رواية «البحر ليس بملآن» التى كتبت ما بين القاهرة وسويسرا، مشهد تنافس الصغار على صيد الزنابير من فوق الروث والبراز فى الطرقات، كانت هذه لعبة مفضلة للصيد إلى جانب لعبة كرة الشراب، على الرغم من قسوتها وبشاعتها. الصيد أى صيد فيه متعة غريزية، وتأمل معى الموقف



بتفاصيله، فى أيدينا مذبات، كنا نصنعها من قطع القماش والسلك والعصى، كأدوات صيد فعالة، عدتنا وسلاحنا فى مواجهة الزنابير، وما أدراك لسعة الزنبور، والأمر يتطلب اقترابا من ... تأمل الموقف لايقل بشاعة عن ممارسته، لكنه اللعب ومتعة الصيد، لعبة فرضتها جغرافية المكان الفقير على أطفال فقراء، فى سنوات أشد فقرا، هى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهنا يطل التاريخ برأسه ليلحق بالجغرافيا.

هذا مشهد كتبته فى سويسرا، وأعدت كتابته مرة أخرى فى القاهرة قبل النشر، بعد زيارة إلى منطقة مصر القديمة، لتأمل جغرافيا المكان، وربما حفاظا على ود انقطع بسبب الترحال، ووجدت المنطقة غير المنطقة، وما كتبته ونشرته من ذاكرتى أنا.

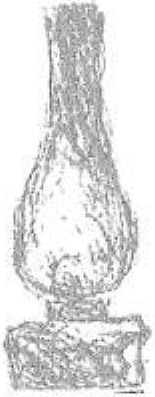
وتتضمن رواية «البحر ليس بملآن» عدة

مشاهد لتناول غداء أو عشاء بالزى الرسمى فى مطاعم فاخرة منعمة فوق جبال الألب فى سنوات الثمانينات ، لكن المشاهد القادمة من ذاكرة السنين كانت أصدق ما فى تلك الرواية صغيرة الحجم المحببة إلى قلبى، فالمتخيل كان أصدق من المعاش المعاصر للكتابة.

وبعد هذه المقدمات التى طالت - نحن لم ندخل فى الموضوع بعد - وبعيداً عن أقوال الكتاب والمعارف الحقيقيين ، أود سماع «عجيب كفافى» بطل رواية «أوراق سكندرية» فأبطال الروايات لا يكذبون ، وإن كانت حياتهم كلها كذبة حقيقية ، ويزعم عجيب كفافى أنه مولع بالتاريخ ولا تشده الجغرافيا ، فإذا جلس إلى مكان لا يغادره، لا يدفعه فضول لمد البصر حوله ، ولا تساوره رغبة فى معرفة ما يحيط به على مبعدة أمتار - كما يزعم أيضاً أن هذه طبيعته ، التاريخ ولعه والجغرافيا لا تهمه ، ولكن الحقيقة أنه لا تاريخ دون جغرافيا ، فهل كان عجيب كفافى صادقاً فى قوله ؟ وإلى أى مدى كان صادقا، هذه هى المسألة ؟

الجغرافيا والتاريخ

من ناحيتى أرى أنه يجب أخذ كلمات عجيب كفافى فى رواية «أوراق سكندرية» فى حذر شديد، فالرجل مهنته الترجمة وليس كتابة الروايات والقصص ، لكنه من



ناحية أخرى شديد الشبه بحياة صاحبنا، فالرجل تربى فى مصر القديمة وسافر فى شبابه إلى سويسرا وعمل فى جنيف ، وهكذا بدأت حياة صاحبنا ، ولد فى الجيزة وأمضى طفولته المبكرة وصباه وشبابه المبكر فى مصر القديمة على مقربة من بيت عجيب كفافى أمام جامع عمرو ابن العاص ، وإذا كانت مزاعم عجيب كفافى صحيحة ، ولاشك أنها صحيحة فهى تخصه هو، ولا يتخذها صاحبنا شيكا على بياض ، فقد تعب وشقى بسبب الجغرافى والتاريخى ، فالجغرافيا لاتشده حقيقة ، لكنها تفرض نفسها عليه وتقبض روحه ، بسبب ثقل وطأتها ، فغمض عينيه لايلغيها كلية ، الجبال الشاهقة قائمة حتى إذا حولنا البصر عنها ، والثلوج تسقط إذا أغمضنا أعيننا أو فتحناها على آخرها، صوت ارتطامها يعلن عنها، وخطورتها عند السير تظل قائمة، صاحبنا

يسقط على الثلوج كل عدة أمتار ، هذا عن سويسرا ، أما عن مصر القديمة فحدث ولا حرج، فأكوام القمامة ممتدة على جانبي خط قطارات سكة حديد حلوان ، أو مترو حلوان حالياً، تغير القطار وتطور ، وبقيت على حالها . وشاهدتها في الشهر الماضي في زيارة لي إلى المنطقة، الذي تغير فقط، الميدان المقابل للجامع تم تنظيفه ، وتنظيمه إلى حد يروق الإعجاب ، بعد أن كان منذ عدة سنوات مثالا للفوضى ، أما الشوارع الجانبية فهي لاتزال على حالها .

والسطور السابقة هي محصلة الجغرافيا القائمة بعد زيارة حقيقية، والجغرافيا المتخيلة من زمن الطفولة ، سقتها إليك كما رأيتها وتذكرتها ، أما إذا أردت تضمينها في عمل فني، فالأمر يختلف.

على كل حال قبل الفراغ من موضوع الجغرافيا الواسعة ، أود الإشارة إلى أنني لم أقدر على تذوق أعمال الن روب جرييه التشيئية حتى وقفت على جبال الألب، ففي سنوات الستينات ، قرأت ترجمات جيدة للصديق ادوار الخراط ، والدكتورة نادية كامل لقصص الن روب جرييه، ورأيت دوما حاجزاً يفصلني عنها ووجدتها كئيبة وتصيبني بالضيق، ففي تلك القصص الأشياء لها ثقل مع غياب البشر كلية أو جزئيا، والطبيعة والأشياء بدل الإنسان، وعلى جبال الألب وقفت وحيداً في فراغ ، ولا أحد، الطبيعة لها ثقل ، هي كل شيء فهمت معنى التشيئية، ومعنى سير مجموعة طيور على شاطيء البحر لتترك آثار أقدامها، وهذا كل شيء في القصة، وتقبلت مالم أكن أتقبله في السابق، ففي القاهرة لا تقدر عين على رؤية الرصيف بسبب كثرة الأقدام، فما بالنا بغياب البشر . الطبيعة في القاهرة غير موجودة ، والإنسان هو الذي يملأ الحيز الأكبر ، وليس الطبيعة . فهل يعقل أن يضع كاتب الطبيعة بدلا من الإنسان؟

هذه خواطر شغلتني بخصوص الجغرافيا المحببة والأخرى الطاردة لسنوات طوال، ولكن القضية أكثر تعقيداً من هذا التبسيط المخل ، فالمكان وليس الجغرافيا في عموميتها هو عماد القص.

تفاصيل المكان عند إدوار الخراط وإبراهيم أصلان

كاتبان من جيل الستينات يلعب المكان عندهما دوراً بارزا في القص، ادوار الخراط وإبراهيم أصلان على اختلاف منهجهما ورؤيتهما للعمل الفني ، وهذا لا يعني أن بقية الكتاب لايهتمون بتقديم المكان ، فهناك جمال الغيطاني وتقديمه

اماكن تخيل إلى عهود إسلامية فى تراثنا تتوافق مع لغة القص عنده، وفى شطح المدينة قدم جمال الغيطانى مدينة خيالية، وهناك صنع الله إبراهيم الذى يهتم بتقديم أماكن مرعبة تدور فيها أحداث روايته اللجنة. ودراسة المكان عند الكتاب ممتعة، نظراً لتميز الكتاب، واختلاف رؤيتهم، لكننى أود التوقف عند إدوار الخراط لأن المكان عنده هو جسم وروح العمل الفنى، أنظر إلى مدخل روايته رامة والتنين، فى فصلها الأول ميخائيل والبجعة، حيث يقول ...

«عندما دخل الميدان الضيق الذى تتلاقى عنده، فى وسط العجوزة، عدة شوارع جانبية، مازالت مهجورة، وأنيقة، ومظللة بأشجار الجميز والتوت والكافور، كانت السيارة فى الصباح المبكر قد اخترقت حافة الشمس التى بدأت، منذ دقائق قليلة، تشتعل باخضرار فى وسط فروع الشجر المورقة، يقظة بفرح، كالأطفال، حول الميدان الصغير الخالى، زقزقة العصافير - خفية تتطاير مندفعة ولا تلحظ بين الشجر وشرفات البيوت النائمة - تعطى الميدان نبرة ريفية، أو كأننا فى ركن من ضاحية بعيدة،. كأنما شارع النيل، على بعد خطوات، وجسوره الضيقة المزدحمة، وتسابق السيارات والتروللى باس والأتوبيسات، كلها، فى عالم آخر».

هذا وصف فى دقته وتفاصيله يقترب من التشيئية، لكنه عامر بفيض المشاعر الإنسانية، وإسقاط صفات الفرح والبهجة على النباتات وأشعة الشمس وغيرها وهذا بالضبط عكس ما يسعى إليه التشيئيون. ووسط كل هذه التفاصيل المكانية الدقيقة يخبرنا الكاتب من طرف خفى أن سيارة قد قدمت فى الصباح المبكر، يقول ذلك ولايزيد.

وأقول الحق إن هذه النوعية من الكتابة مبهرة، وفاتنة من ناحية الصنعة، لكننى لا أحبها، وأجدها ثقيلة على قلبى، فإذا انتقلنا إلى القص عند إبراهيم أصلان، ولنأخذ مثالا من قصة فى جوار رجل ضرير نجده يقول ..

«لم يحدث شىء. حدثت بعض الأشياء القليلة جداً. بعد تفكير طويل آثرت أن انتهى إلى الاعتقاد بأنها قد لا تكون ملائمة بالقدر الكافى. مرة أخرى فكرت فى الأيام التى ذهبت سدى. فكرت كم هى كثيرة تلك المرات التى انتويت فيها



أن أضع حدا لهذا الأمر . ارتديت ثيابى وخرجت إلى الطريق. رأيت الناس ثم عدت إلى البيت . كان الوقت مساء جلست مع أمى وأبى واخوتى وتكلمنا طويلا أكثر من مرة . حضر بعض الأصدقاء لزيارتى وشربنا الشاى ودخنا اللفائف واشتركنا فى نقاش حقيقى حول الاحتلال وبعض المسائل المختلفة الأخرى ، وعندما انصرفوا تراجعت إلى مكانى وأفرغت القوقعة التى أستخدمها كمطفأة لسجائرى . نظفتها حتى صارت بيضاء تماماً.»

هذان نوعان من القص كلاهما يعتنى بالمكان والأشياء ، أحدهما يدفع إلى التأمل، ويخفى جبل الثلج أكثر مما يكشف عنه ، وذلك كله فى رتابة تصل إلى حد الغلظة - فى رأيى - وإن كانت رتابة مبهرة - ترجمات إدوار الخراط تجد معجبين كثيرين فى الغرب - وعناية بالمكان فى قص إبراهيم أصلان أجدها ساحرة . بقيت إضافة، وهى القص عند خيرى شلبى، رجل يهتم برصد الأشياء من طبيعة المكان إلى روحه ، فى سلاسة وتدفق، يجعلان أدبه مليئاً بحيوية وجاذبية قل وجود مثلها.

وأنا أرى أنه بين قص إدوار الخراط وإبراهيم أصلان تعددت مناهج القص فى الأدب المصرى الحديث من حيث الاحتفاء بالمكان والأشياء ، وجيل التسعينات أكثر الأجيال احتفاء بهذا النوع من القص مقارنة بجيل الستينات ، بعد فقدان وغياب اليقين فى المشروع القومى ، خاصة عند مى التلمسانى ومنتصر القفاش ومن سار على دربهما ، وهنا عباءة ادوار الخراط تتسع لعديد من الكتاب فى هذا المجال .

ويكفى قراءة فقرة لمى التلمسانى، تصف فيها امرأة تطل من شرفة ، وتستند بكوعها على حافة نافذة ، وترقب امرأة جالسة فى الطريق ، لنعرف عنايتها برصد المكان فى أدق تفاصيله.

وخلاصة القول أن المكان له مكانة خاصة فى فنون السرد عند الكتاب جميعاً، وأنا أفضله مجدولا مع الحياة الداخلية للشخصية ، وأقول أيضاً إن عنايتى بالمكان مرجعها ليس الوصف ، ولكن كمثير فنى، فأعود دوما إلى الأمكنة القديمة ، فشاغلى الأول والأخير فى العمل الروائى من حيث الصنعة ليس المكان ولكن المعمار الروائى ، مع قناعة ثابتة بأن الأدب معياره الأول والأخير الإنسان وليس الطبيعة أو الأشياء. ■

أزمة سينما أم أزمة حرية ؟!

السينما العربية وسراب العالمية

معاملة الفنان معاملة المجرم الخارج على القانون !

بقلم : مصطفى درويش

السينما المصرية ، ومعها السينما العربية من الخليج إلى المحيط ، لها منزلة كبيرة فى عالم الأطياف .

ومع ذلك ، فموسوعة الفيلم لصاحبها «أفراهيم كاتز» ، وهى موسوعة تسع كل شىء عن فن السينما فى مشارق الأرض ومغاربها ، أو من المفروض أن تكون كذلك ، إذا ما رجعنا إليها بحثا عن السينما العربية ، تحت عبارة «الفيلم العربى» لكان رجوعنا عبثا ، لأننا سنجد صاحب الموسوعة ، وقد اكتفى تحتها بكتابة كلمتين فقط لا غير «انظر مصر» .

فإذا ما قلبنا صفحات الموسوعة سعيا نحو مصر ، لاكتشفنا أن نصيب سينما القاهرة من صفحات الموسوعة الضخمة التى يصل عددها إلى ١٢٦٦ عمودا هو عمود واحد لايزيد ، وأن الوطن العربى بجميع أقطاره الأخرى ليس للسينما التى من إنتاجه نصيب فى هذا العمود اليتيم .



النملة الأخيرة إخراج كمال الشيخ

وهذا النقص أو الخطأ بمعنى أصح ، عملت على تصحيحه إلى حد ما موسوعة السينما التي أصدرتها دار نشر «أوريس» في منتصف الثمانينات ، والمكونة من ستة مجلدات ، أولها عن السينما ، وقت أن كانت أفلامها خرساء ، لم تتعلم بعد الكلام ، وآخرها عن أفلام الثمانينات .

أما كيف أجرت التصحيح ، فذلك بأن أفردت عمودا واحدا للسينما العربية ، داخل مجلدها الرابع عن أفلام الستينات (ص١٥٤) وفي هذا الحيز الضيق لم يرد ذكر إلا للسينما في كل من مصر والجزائر وفلسطين .

والحديث عن السينما الفلسطينية جاء عاما ، بدون ذكر لاسم أي فيلم تسجيليا كان أو روائيا .

في حين انحصر الحديث عن السينما المصرية في أربعة أفلام ، الناصر صلاح الدين ليوسف شاهين (٦٣) والمستحيل (٦٥) والبوسطجي (٦٨) وكلاهما لحسين كمال ، وليلة حساب السنين - المومياء لشادى عبدالسلام (١٩٧٠) .

كما أنحصر الحديث عن السينما الجزائرية في فيلم واحد ، ألا وهو «معركة الجزائر» (١٩٦٦) لصاحبه المخرج الإيطالي «جيلو بونتكورفو» .

القاعدة والاستثناء

وفيما عدا «معركة الجزائر» لم تنشر الموسوعة من صور تلك الأفلام سوى صورة واحدة مأخوذة من «المومياء» .

أقول فيما عداه لأن الموسوعة أختصته أسوة بالأفلام العلامات ، بصفحتين كاملتين أشتملتا على إحدى عشرة صورة من الفيلم ، وملصقه ، فضلا عن عناوينه ومقال يعرض لموضوعه ومحاسنه بالتفصيل .



الحرام إخراج هنرى بركات

واستثناء «معركة الجزائر» على هذا النحو مرده إنه عبارة عن لوحة درامية كاملة ورائعة لبطولة كفاح شعب بأكمله ، كما وصفه بحق الأديب «يحيى حقى» صاحب القنديل .

وهكذا ، فتلك الموسوعة هي الأخرى لم تخصص ، رغم حركة التصحيح ، السينما العربية ، سوى عمودين ومقال وحيد عن فيلم جزائرى ، وإن كان من الأفلام التى يؤرخ بها ، إلا أن مخرجه ليس عربيا .

هذا إلى إنه ، فيما عدا السينما الفلسطينية ، فالعمودان جاءا خاليين من أى ذكر للسينما في المشرق العربي ، والسودان والصومال ومثل هذا الإغفال قد لا يعاب على الموسوعة ، وذلك لأن بعض أجزاء الوطن العربي كأرض الجزيرة «المملكة العربية السعودية ، مجدبة من الإبداع السينمائى تماما ، أو تكاد ، غير إنه اجداب من نوع لا يشكل أزمة للفن السابع ، داخل الوطن الكبير .

فليس مطلوبا أن يكون لكل جزء من وطن تمتد خريطته من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى سينما خاصة به وذلك لأن الصورة المتحركة هى أكثر الكائنات قدرة على السفر والرحيل ، وليس بوسع السينما العربية أن تنعزل بين جدران أقليمية ضيقة الأفق .

المطلوب أن تصب جميع الروافد السينمائية العربية ، في تيار سينمائى واحد جارف ، تيار يعكس أزمات المواطن العربى الخاصة ، أزماته الواقعية ، ما اتصل منها بصراعه ضد الاستعمار قديمه وجديده ، وبكفاحه اليومى من أجل حياة تليق به كإنسان .

النهر والروافد

وعلى كل ، فالثابت ، ورغم العقبات ،

أن ثمة سينما عربية تفجرت أصالة وحيوية خاصة فى النصف الثانى من القرن العشرين ، بعض أفلامها أت من مغرب الوطن العربى لاسيما تونس والجزائر ، عقب انتزاعهما الاستقلال من براثن الاستعمار الفرنسي ، والبعض الآخر أت من مشرقه ، لاسيما ذلك الجزء منه المطل على البحر الأبيض المتوسط ، وهى مع سينما القاهرة ، كونت تيار السينما العربية ، بجميع أبعاده وتناقضاته .

وتيار سينما القاهرة أو هوليوود العرب كما يحلو للبعض أن يسميها ، وإن كان له الغلبة ، إلا أن ذلك لا يعنى إغفال ذكر التيارات أو الروافد العربية الأخرى ، حتى ولو كان كم إنتاجها من الأفلام أقل من القليل .

ومن ثم الانتهاء إلى حصر السينما العربية فى التيار الأقوى ، وبالتنكر لأي تيار آخر .

ففضلا عن أن هذه النظرة تخالف ما حدث فى ساحة السينما العربية ، على امتداد القرن العشرين ، فإنها لاترى من واقع تلك السينما إلا ظاهره ، دون الغوص فى أعماقه بحثا عن التأثير الجدلى المتبادل بين التيارات المتصارعة داخله .

فواقع تلك الساحة إنما يكشف عن إنه فى الوقت الذي لم تستطع السينما فى «هوليوود العرب» الفوز لأي فيلم من إنتاجها على مدى سبعين عاما من القرن العشرين بالجائزة الكبرى لمهرجانى «فينسيا» «وكان» رغم اشتراكها فى مسابقة المهرجان الأخير أكثر من مرة ، بأفلام أذكر من بينها على سبيل التمثيل ، «دنيا» للمخرج محمد كريم (١٩٤٦) البيت الكبير للمخرج أحمد كامل مرسى (١٩٤٩) ، ابن النيل للمخرج يوسف شاهين (١٩٥٢) ، ليلة غرام للمخرج أحمد بدرخان (١٩٥٢) صراع فى الوادى ليوسف شاهين (١٩٥٤) ، حياة أو موت للمخرج كمال الشيخ (١٩٥٥) ، شباب امرأة للمخرج صلاح أبوسيف (١٩٥٦) الحرام للمخرج بركات (١٩٦٥) ، وأخيرا المصير لشاهين (١٩٩٧) .

فى هذا الوقت ، استطاعت سينما الجزائر أن تحصل للسينما العربية على جائزة مهرجان فينسيا الكبرى (الأسد الذهبى) التى توج بها فيلم «معركة الجزائر» (١٩٦٦) ، وأن تفوز بالجائزة الكبرى لمهرجان كان (السعفة الذهبية) التى توج بها فيلم «أحداث سنوات الجمر» لصاحبه المخرج «الأخضر حامينا» (١٩٧٥) .

وفى الوقت الذى لم تستطع هوليوود العرب أن تنتج أى فيلم له قيمة فنية أو سياسية عن الصراع العربى - الإسرائيلى ، ومحنة الشعب العربى على أرض فلسطين .

(يكفى أن نتذكر هنا الرصاصة لاتزال فى جيبى للمخرج «حسام الدين مصطفى» وثلاثية نادية الجندى عن ذلك الصراع) .

فى هذا الوقت استطاع مخرجون ثلاثة هم «توفيق صالح» و«برهان علوية» و«ميشال خليفة» أن يجسدوا هذا الصراع بأبعاده السياسية والإنسانية فى «المخدوعون» (سورى) ، «كفر قاسم» (لبنانى) و«صور من مذكرات خصبة» (فلسطينى) .

وأيا ما كان الأمر ، فللاقتراب من فهم الواقع المعاصر للسينما العربية ، والتوصل بالذات إلى بعض الفهم لعمق وأسباب الأزمة التى تأخذ بخناقها ، طوال الربع الأخير من القرن العشرين ، يتعين العودة إلى الماضى إلى حين ، بالقاء نظرة طائرة على مسار السينما الأقدم والأقوى.

القيادة والريادة

كما كان لمصر فضل قيادة الوطن العربى إلى العصر الحديث إبان القرن التاسع عشر ، فقد كان لها فضل الريادة فى حقل السينما .

ولا غرابة فى هذا ، فوضعها الجغرافى المركزى الذى يجعلها بمثابة القلب من الوطن العربى ، فضلا عن التقدم النسبى لاقتصادها ، ومتعة مدنها الكبرى المشعة ثقافة وبهجة ، هذا إلى تعرضها لتأثير الأفكار الحرة السائدة فى أوروبا ، كل ذلك أهلها لأن تكون قاعدة وطليعة للوطن العربى ، تتقدم على باقى أجزائه ، بأكثر من عقد ، وبالتالى جعل نتاجها الأدبى والثقافى أكثر تفوقا على إنجازات سائر العرب فى أكثر من مجال .

والسؤال هل هذه السينما التى كتب لها أن تكون رائدة كانت على مستوى المسئولية عربيا ، طوال سنوات القرن العشرين .

بداية ، يؤرخ للإنتاج السينمائى الروائى الطويل فى مصر بالخامس من مايو لعام ١٩٢٧ ، وهو اليوم الذى جرى فيه عرض فيلم «قبلة فى الصحراء» ، بمدينة الإسكندرية .

قبل ذلك - وخلال عام ١٩٢٦ - شاء القدر أن يصل إلى تلك المدينة شابان فلسطينيان - إبراهيم وبدر لاما - كانا فى طريقهما من شيلى إلى بر الشام ، ومعهما معدات للتصوير السينمائى بغرض إنشاء صناعة للسينما على أرض الآباء .

غير إنهما - وبعد أن لمسا النشاط الفنى الذى كانت تزخر به الإسكندرية وقتذاك - استقر رأيهما على البقاء فيها ، حيث ساهما فى تأسيس «شركة مينا فيلم» ، وكان أول إنتاجها «قبلة فى الصحراء» الذى يعتبر ، بحق ، أول فيلم عربى روائى طويل وتجارى فى آن معا .

بعد ذلك بخمسة شهور ، وبالتحديد فى ١٦ من نوفمبر لنفس العام جرى فى القاهرة - ولأول مرة - عرض فيلم «ليلى» إخراج إستفان روستى وإنتاج وتمثيل «عزيزة أمير» ، وهو فى رأى نفر من مؤرخى السينما الفيلم الذى بدأ به إنتاج الأفلام الروائية الطويلة فى مصر ، وذلك باعتبار أن منتجته ونجمته تحمل الجنسية المصرية .

وكلا الفيلمين جاء موضوعه متأثرا بالسينما الأمريكية إلى حد كبير ، بل أن أولهما يكاد يكون صورة طبق الأصل من فيلم «ابن الشيخ» الذى مثله «رودلف فالنتينو» ، وتشبه به «بدر لاما» .

وسواء أكان أى من هما هو الأول أم الثانى فى تاريخ السينما العربية ، فمن المؤكد أن الإنتاج السينمائى بدأ فى مصر والوطن العربى ، ما عدا المملكة العربية السعودية وإمامة اليمن ، ترفرف على جميع ربوعه من الخليج إلى المحيط إعلام الاستعمار الانجليزى والفرنسى والايطالى والأسبانى ، والحكم فى مصر



الوحش إخراج صلاح ابوسيف

يتقاسمه الانجليز والسراى وأحزاب الأقلية وشراذم من المغامرين والأفاكين الأجانب.

إسفاف واستسهال

وفى هذا الجو المريض ، حيث يشيع الذل والخوف ، بدت السينما فى مصر ، بل فى كل الوطن العربى ، كما لو كانت لا تعزف إلا لحنا واحدا ، مداره البعد عن الواقع والإسفاف ، مع الاقتباس من كل ما هو تافه فى السينما الغربية ، بخاصة سينما مصنع الأحلام فى هوليوود .

ولسوء حظ السينما المصرية ، ومعها السينما العربية ، أن الفترة الصامتة من حياة السينما فى الوطن العربى لم تكن طويلة .

فبعد فيلم «قبلة فى الصحراء» بخمسة أعوام أو يزيد وبالتحديد يوم ١٤ من مارس لعام ١٩٣٢ ، أى فى عهد إسماعيل صدقى باشا - وهو من أشد العهود سوادا فى تاريخ مصر الحديث ، جرى عرض أول فيلم عربى ناطق «أولاد الذوات» للمخرج «محمد كريم» .

وفى هذا اليوم التاريخى أكتشف جمهور الحفلة إنه كان ضحية غش كبير ، إذ تبين له أثناء مشاهدة «أولاد الذوات» إنه نصفان الأول ناطق عربى اللسان ، والثانى أخرس عاجز عن الكلام . وأن هذا الأستهتار مرده رغبة منتجى الفيلم الحد من تكاليف جعله ناطقا بالكامل ، وهى تكاليف باهظة لا قبل لهم بتحمل أعبائها .

وهكذا ، ولدت السينما المتكلمة مصابة بداء الاستهتال والتسطيح والجرى وراء الكسب السريع ، ذلك الداء الذى يرجع إلى الخطيئة الأولى ، ألا وهى ميلاد السينما العربية أصلا فى مصر ، والوطن العربى يئن تحت كعوب جنود الاحتلال .

ولعل هذا الداء هو الذى أدى إلى



حروب صغيرة إخراج مارون بغدادى

الانحدار بأفلام تلك السينما إلى درجة أن جيدها أصبح جد ضئيل ، بالمقارنة مع رديئها بكمه الكبير .

ولا عجب ، فى ضوء ما تقدم ، إذا ما انصرفت السينما ، لا فى مصر وحدها ، بل فى أقطار عربية كسوريا ولبنان ، عن تناول أى موضوع جاد ، يؤدى إلى صحوة وطنية أو نهضة فكرية .

بل العجب أن يكون الأمر على خلاف ذلك ، فى ظل احتلال أجنبى ، من بين أهدافه الرئيسية حجب المعرفة عن الأمة العربية بمزيد من التشدد فى ال رقابة على حرية الفكر ، وبالذات حرية التعبير بلغة السينما .

غول الرقابة

فمع إندلاع نيران الحرب العالمية الأولى ، فرضت بريطانيا حمايتها على مصر حيث أخضعت سلطات الاحتلال البريطانية أشرطة السينما لرقابة صارمة حددت أحكامها لائحة جديدة للمطبوعات والأفلام . وفى مواجهة تصاعد الحركة الوطنية المعادية للاحتلال ، أثر إنتهاء الحرب العالمية الثانية باندحار الفاشية ، وقبل نشوب الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى ببضعة شهور ، لجأت الدوائر الحاكمة فى الوطن العربى إلى سلاح الحد من حرية التعبير ، لا سيما فى مجال السينما .

وإذ تعتبر مصر بحق مرآة الوطن العربى ، فإن التعليمات التى أصدرتها إدارة الدعاية والارشاد الاجتماعى بوزارة الشئون الاجتماعية فى فبراير من عام ١٩٤٧ بغرض تقنين ما جرى عليه العمل رقابيا فى مصر ، فيما يتعلق بالسينما ، بدءا من إعلان الحماية ، كان لابد أن

يكون لهـا ، أى تلك التـعليـمـات ، إنعكاساتها على السينما فى جميع أجزاء الوطن العربى ، بلا استثناء .

ويكفى لبـيان تأثيـر تلك التـعليمـات بالسلب على السينما عندنا ، وكيف أدت إلى إغلاق أبوابها دون الأفق العـصرى الفسيح ، أن أذكر إنها انطوت على أربعة وستين محظورا ، بعضها خاص بالناحية الاجتماعية والأخلاقية ، وبعضها الآخر خاص بناحية الأمن والنظام العام .

وبقيت تلك التعليمات راسخة رسوخ الجبال تفسر على هديها أحكام القانون ٤٣٠ لعـام ١٩٥٥ لتنظيم الرقـابة على الأشرطة السينمائية ومصنفات فنية أخرى والمعمول بها بدءا من الثالث من سبتمبر لعام ١٩٥٥ ، أقول بقيت دون أى تعديل زهاء سبعة وثلاثين عاما ، وذلك إلى أن تنبه أولو الأمر فى مجالى الثقافة والاعلام إلى أن أحكامه لا تنصرف إلى اشرطة واسطوانات الفيديو، إذ كانت لا تزال فى رحم الغيب، وذلك قبل أربعة وأربعين عاما، فكان أن سارعوا إلى اصدار قانون تحت رقم ٣٨ لعام ١٩٩٢، عمل به اعتبارا من الرابع من يونية من ذلك العـام، وجـاء متضمنا تعديلات تسد ذلك النقص فى أحكام الرقابة على الاطياف.

احياء القديم

وقبل صدور القانون الأخير بحوالى ١٦ عاما قام وزيرا الإعلام والثقافة فى ٢٨ من ابريل لعام ١٩٧٦ باصدار قرار تحت رقم ٢٢٠ لعام ١٩٧٦ بشأن القواعد الاساسية للرقابة على المصنفات.

وأهم ما لوحظ على قراره هذا، هو اقتصاره على دمج المحظورات الوارد ذكرها فى تعليمات الوزارة، بحيث تقلص بعددها إلى عشرين محظورا، دون الاتاحة بصراحة لاى ممنوع سابق أن يكون مشروعاً وذلك فيما عدا ممنوع «اظهار المناظر الخاصة بتعاطى المخدرات».

فقبله كان اظهار تلك المناظر أمرا ممنوعاً منعا باتا.

أما بعده فقد أصبح اظهارها أمرا مشروعا، لا قيد عليه، ولا شرط سوى ألا يوحى ظهورها على الشاشة بأن تعاطيها شيء مألوف .

والاغرب عدم اكتفاء صاحب القرار بالابقاء على المحظورات، بل قيامه باضافة محذور جديد - هو تحريم ظهور العشرة المبشرين بالجنة فى الأفلام، وامتداد التحريم إلى أصواتهم!!

ولو أمعنا النظر فى هذه التشريعات لاتضح لنا أن جميع الأفلام المصورة بقصد الاستغلال التجارى، إنما تخضع لرقابتين، رقابة أولية سابقة على التصوير، ورقابة نهائية لاحقة له.

وأنه بدون الترخيص بالفيلم قبل تصويره، ثم الترخيص به بعد الانتهاء من إخراجه، بدون ذلك يتعذر، بل قل يستحيل عرضه عرضاً عاماً.

كما يتضح أن الادارة هى الجهة صاحبة الولاية فى ممارسة الرقابة، ولها - وهى تمارس ولايتها هذه، مطلق التقدير فى أن تمنح الرخيص بالعرض متى تشاء، وفى أن ترفض منحه متى تشاء، وفى أن تسحبه متى تشاء.

وسلطتها التقديرية، فى هذا الخصوص لا حد لها، سوى أن يكون قرارها متسما باحترام النظام العام

ومراعاة حسن الآداب، وحماية مصالح الدولة العليا.

فإذا تجرأ شخص على مخالفة أحكام القانون، بأن صور فيلما، أو أخرجه ثم عرضه قبل الترخيص له بذلك، فانه يدخل بحكم تصرفه هذا في عداد اعداء المجتمع، ومن ثم يحق عليه العقاب بالحبس أو بالغرامة أو بالاثنين معا، فضلا عن مصادرة الادوات التي استعملت في الجريمة.

وعلاوة على كل ذلك، فالمكان الذي جرى فيها العرض، المخالف للقانون، يعاقب هو الآخر بالغلق.

شك وارتياب

ويخلص مما تقدم أن تلك التشريعات لا تتعامل مع السينما بوصفها فنا، لمبدعيه حرية التعبير به، أو هو يعاملها بوصفها كذلك، ولكن في كثير من التحفظ والاحتراس، بل قل الخشية والارتياب.

والحق، أنه قد يكون أمرا غريبا ان يطلب من فنان أن يحصل على ترخيص بأن يمسك القلم كي يكتب قصة تجول في خاطره، أو بان يمسك الفرشاة كي يرسم لوحة كامنة في خياله، ومع ذلك، فهذا الامر الغريب، هو الذي كان، ولا يزال، يلتمس من الفنان إذا كان من صانعي الأفلام، فهو لا يستطيع أن يمسك بالكاميرا، كي يكتب بها ما يحلو له من أطياف، إلا بعد الترخيص له بذلك.

فإذا ما تحدى القانون، وأمسك بها دون ترخيص، عاملته الدولة معاملة المجرم الخارج على القانون.

ولقد يخيل إلى كثير من الناس أن السينما العربية، وبخاصة المصرية قد اجدبت تماما بسبب الرقابة وتشديدها على مر الإعوام، وبسبب الداء الذي صاحب مولدها، ألا وهو داء الاستسهال ولكن نظرة متأنية، على انتاجها، تكفي لاقناعنا بإنها استطاعت مقاومة عناصر الجدب، والعقم والفناء، وذلك بفضل نخبة من صانعي الأفلام أذكر من بينهم على سبيل المثال «هنري بركات»، «وتوفيق صالح وشادي عبدالسلام ، مارون بغدادي، ميشال خليفة فريد بوغدير مفيدة تلاتلي وناصر خمير.

فلولا هذه النخبة لما كان في وسع السينما العربية أن تشارك في الانتاج السينمائي العالمي بنصيب غير قليل.

ولا يغير من انجازاتها أن بعضا مما شاركت به كان متأثرا بالسينما الأجنبية إلى حد كبير، وبعضها الآخر كان مجرد محاكاة لها وتقليد.

فبقدرة مذهلة على تمثل الافكار، وبث روح عربية، فيها صار لكثير من افلامها المقتبسة، خاصة ما كان منها من صنع مخرجين موهوبين، مذاق عربي، يميزها عن الأفلام التي جرى الاقتباس منها.

شجرة لا تنمو

على أن هذه النخبة فشلت في اقتحام العالمية وذلك لعدة اسباب لعل اهمها أن حظ معظم أفلامها من الطرافة والابتكار ضئيل جدا، يوشك ألا يكون شيئاً . وضآلة الحظ على هذا النحو مرده كثرة المعوقات التي تحول دون النهوض بالسينما العربية، خاصة المصرية إلى المستوى العالمي المأمول.



صراع الأبطال لتوفيق صالح

وخير مثل على ما لهذه المعوقات من تأثير كبير، ما حدث لصاحب فيلم كان إخراجه له ينبئ بما كان فن السينما عندنا مشرفاً عليه من تطور خطير.

هذا الفيلم وصاحبه هما «ليلة حساب السنين» أو المومياء وشادي عبدالسلام.

ولا أعتقد أن فيلماً عربياً أشاد به النقاد في الشرق والغرب، في شبه اجماع مثلما أشادوا بالمومياء، وفضلاً عن ذلك، فهو الفيلم العربي الوحيد الذي يعرضه بانتظام متحف المترو بوليتان في نيويورك، وهو الفيلم الذي افتتحت به عروض نادي سينما طوكيو، مصحوبة بكتيب فخم، يجمع بين دفتيه سيناريو الفيلم بالكامل، مترجماً إلى اللغة اليابانية وهو الفيلم الذي قال عنه المفكر العربي «ادوارد سعيد» من بين ما قال أنه رائعة سينمائية نادرة، زاخرة بالرموز والدلالات، بالأسئلة التي تطرحها حول مشاكل مصر المعاصرة.. حول ماضيها الفرعوني والهوة السحيقة بينه وبين ثقافتها الإسلامية المعاصرة، حول اطلالها على أوروبا وهويتها العربية ومعاناة التوفيق والاختيار.

ومع ذلك فصاحب هذا الفيلم حيل بينه وبين إخراج فيلمه الروائي الطويل الثاني «اخناتون».

وظل يشقى بعذاب حرمانه من إخراجه زهاء عشرين عاما إلى أن جاءه الموت، قبل ثلاثة عشر عاماً، من شدة الاحباط.

وهكذا وئد تيار سينمائي، كان من الممكن الوصول بفضله إلى العالمية المشتهاة.

وهكذا استمر نصيب السينما العربية في الموسوعات العالمية محدودا بعمود يزيد أحيانا إلى عمودين بالكاد.!!

رباعيات الاسكندرية - لورنس داريل

«بورسواردن» ... الشعر والقتل ولعنة الحب المحرم

«إذا كانت الأمور ، دوماً ، كما تبدو في الظاهر، فما أفقر خيال الإنسان» .

الرباعيات – بورسواردن

بقلم : د. فهمي عبدالسلام

(١)

إسكندرية الأربعينيات ، هذه التحفة العبقرية هي مسرح الأحداث في رباعيات لورانس داريل الرائعة والتي ترجمها إلى العربية د. فخري لبيب ترجمة رائعة ، يقدم داريل خلال رباعيته المميزة عالماً شديد الثراء والتفرد، عالم الجاليات الأجنبية وملحقاتهم من الأرمن والشوام واليونانيين والأتراك واليهود ، يرسم لنا داريل جدارية هائلة لذلك العالم الثري المتعفن الساحر الذي غاص فيه عميقاً عميقاً، فترى معه ألوان الحب وحبائل الشهوة ، الشذوذ والفضيلة ، الود والقتل المسمسرة والشعر ، الجاسوسية والتصوف ، تراها تتحرك جميعها في شوارع الإسكندرية المهجورة ، وميادينها الطلقة ، وفي المواخير وقاعات الاستقبال ، في حمأة الكنيسة والكنيسة الضاحكة.

الإسكندرية التي غزت قلب أنطونيوس وكفافيس ونجيب محفوظ غزت قلب داريل «الإسكندرية بشخصياتها التي تفسر الألباب ، بطقوسيتها الوثنية ، بفقرها المدقع



وجمالها الأخاذ ، الحوانيت الصغيرة تحميها من الشمس قطع من تندات مهلهلة، أكشاك الفاكهة بهياكلها الخشبية المتألقة، لون البرتقال الذهبى الدافىء يرقد على شرائح تتألق بالأحمر الأرجوانى والقرمزى ، الحجر الأزرق ضد العين الشريرة ، قعقعة الترام ، نداءات الباعة الجائلين الأشبه بالنواح وهدير أجهزة الراديو فى المقاهى ولعنات عرب الشوارع» . ويصف نسيم (أحد أبطال العمل) المدينة البغى الخلابة قائلاً :

«إنها مدينة تفعل بالحب ما تفعله معصرة النبيذ ، والخارج منها إما أن يكون رجلاً مريضاً أو يعانى الوحدة أو نبياً .. إننى أعنى بما أقول كل الذين جرحوا بعمق فى قدرتهم الجنسية».

على أرض الإسكندرية تلتحم وتتشابك وتتصارع مصائر الأبطال بل وتتقاطع فى الجدارية الهائلة ، التى يرسمها داريل فى لغة شعرية جميلة، ولننظر كيف يرسم داريل أذان الفجر السكندرى بلغة ترقى إلى الشعر المصفى:

«أستعيد فى ذاكرتى لحظة لا بد أن تلوثها الكلمات ، وأنا راقد إلى جوار إمرأة نائمة فى حجرة رخيصة بالقرب من الجامع ، والصمت يبتلع المدينة فى ذلك الفجر الربيعى ، التقطت أذناى صوت المؤذن الأعمى العذب ، وهو يرتل - صوت معلق كالشعرة فى الطبقات العليا لجو الإسكندرية وقد رطبها النخيل ، يرتل كلمات الأذان وبعض الآيات القصيرة ، يتحدث خلالها عن كمال الإله الدائم، الواحد ، الذى لا يعصيه أحد، كماله العظيم الذى لا ينوب عنه أحد، يشق الصمت العظيم من الكلمات الوضاءة، طريقه إلى وجدانى الناعس ، كحية ، لفة بعد لفة، وصوت المؤذن العجوز يهبط من نغمة إلى نغمة ، حتى يبدو الصباح كشفاً بقدرته على لأم الجراح ، وإيماءات منحة كونية غير مستحقة وغير منتظرة تغمر تلك الحجرة الرثة ، حيث رقدت ميليسا تتنفس فى هدوء كطيور النورس وهى تهمهم فوق لألاء المحيط بلغة لن تعرفها أبداً».

الرواية عن تجربة ذاتية لحياة داريل فى الاسكندرية فى الأربعينيات . وبطل العمل هو «دارلى» (تدليل داريل) المدرس الفقير المحاصر بالفقر والمسكن الرث والهواجس السوداء تنتابه عن قدراته كروائى وفشله الذريع فى تدبير أمور حياته الصغيرة والذى يعيش فى فوضى كاملة، لقد ظهرت ميليسا فى حياة دارلى ، وكانت قد وصلت إلى الحضيض هى الأخرى ، لقد هربت من اليونان فراراً من زيجة ظالمة ، وعبرت البحر الأبيض تلبية لنداء المصير ، حيث عملت فى البداية كموديل للرسامين ، وعاشت لفترة كمحظية لتاجر الفراء «كوهين» ،اليهودى العجوز البخيل صاحب الوجه المجدور البليد ،

والذى لا يتورع عن الغش فى المعطف الذى يهديه إليها ، وعندما تطلب منه ميليسا أن يتزوجها ، يتهرب ويماطل ويهرب منها ، وأخيراً تعمل ميليسا كبغى بائسة وراقصة مبتذلة فى كباريه رخيص . ظهرت ميليسا مصادفة فى حياة دارلى ، «كى تنفس فى خياشيمه بعض أنفاس الحياة» ، أحبته ميليسا لأنها على حد تعبيرها «لأول مرة فى حياتها تجلس مع رجل وهى لا تخشى أن تكون حمقاء أو طائشة». وأحاطت ميليسا المصدورة المفزعة حياة دارلى بحنان المرأة الشرقية الغامر . واعتبر دارلى أنه أصبح رجلاً سعيداً بظهور ميليسا فى حياته ، وقد عمق الفقر الرباط بين المدرس الفقير والبغى الضائعة . لكن هذه السعادة لم يكتب لها أن تستمر طويلاً ، كان القدر يخبيء لهما ظهور جوستين فى حياتهما .

الأمير الحزين

جوستين ربة الجمال ونجمة المجتمع السكندرى المتألقة ، أشهر نساء المدينة بجمالها وبفضائحها وبزوجها ، إنه نسيم حصنانى أشهر رجال الاسكندرية وأغناهم، رجل المال والبنوك الوسيم الشاب ، الذى يدير أعماله بدقة فائقة وهو شارد البال وقد اكتست ملامحه الوسيمة بعلامات الحزن العميق ، إنه الأمير الحزين خريج أكسفورد والابن الأكبر لآل حصنانى أشهر العائلات القبطية بالمدينة . كان دارلى يلقى محاضرة عن كفافيس (شاعر المدينة الشيخ كما يطلق عليه) فى أتيليه الإسكندرية ، لقاء قروش كى يدبر ثمن معطف لميليسا ، عقب المحاضرة قابلته جوستين ، وبعد عدة لقاءات ، كان دارلى قد سقط فى حب مشبوب لهذه اليهودية الساحرة . ولم يكن دارلى (العشيق) أو نسيم (الزوج) هما أول أو آخر طابور ضحايا جوستين ، فجوستين (كما تقول عنها كليا) «هى النسخة الضحلة التى أنتجها القرن العشرون لحظيات الماضى العظيم مثل مدام «دوبومبادور» و«لايس» «إنها بغى أصيلة ، والبغى الأصيلة هى حبيبة الرجل الحقيقية» ، ولم تكن جوستين فى نظر دارلى سوى «واحدة من سلالة الملكات الرهيبات اللاتى تركن رائحة حبهن المحرم النفاذة كالأمونيا كى تحوم فوق الإسكندرية».

أما نسيم فيقول عنها «إنها عظيمة بشكل من الأشكال وهناك أنواع من العظمة تدمر الحياة العادية إن لم تمارس فى الفن أو فى الدين ، لقد أسئ إلى موهبتها عندما وجهت ناحية الحب . وأعترف أنها كانت سيئة فى العديد من الأمور ، ولكنها أمور صغيرة ، وليس بوسعى أن أقول إنها لم تؤذ أحداً ، لكن هؤلاء الذين آذتهم أكثر من غيرهم قد صيرتهم أكثر نضجاً ، إنها تخلع عن الناس نفوسهم البالية ، ولا بد أن ذلك كان يؤلمهم».

كان يعقوب أرناؤوطى أحد الذين خلعت عنهم جوستين نفوسهم البالية ، إنه زوجها الأول ، وكتب عنها رواية بعنوان «عادات» روى خلالها كيف التقى فى الإسكندرية بيهودية شابة، وكيف أحبها وتزوجها ، وكيف سافرا إلى أوروبا وعودتهما ثم طلاقهما. فحينما التقت جوستين بأرناؤوطى كانت فقيرة ووضيعة المنبت وكانت تخجل أن يرى مسكنها فى حى العطارين القذر المزدحم ، وأدعت أنها يونانية الأصل ، ولم تخبره بأصلها الحقيقى كيهودية ، لكن أرناؤوطى اليهودى الألبانى الأصل، الذى يحمل الجنسية الفرنسية، شم رائحة جوستين اليهودية، فلا يشم رائحة اليهودى إلا يهودى مثله ، وسجل أرناؤوطى فى «عادات» أنه لم يكن كلانا يملك الشجاعة الكافية للاعتراف بأصله كيهودى!!

حدثته جوستين الجميلة ، السمراء حيث يختلط السمار العاجى مع البياض ، والشعر الأسود ، وقد سلطت عليه عينيها العصبيتين اللتين تتأوهان وتنطقان بالفضول الجنسى ، حدثته حديثاً رائعاً عن حياتها المتخمة بالنوائب ، وعن طفولتها وهى تنمو مع اللطمات من أبيها الذى يرتدى طاقية الفرو يغطى بها خصلات شعره المدهونة بالزيت. وعن حياتها التى شبهتها بأنها جرح لا يندمل .

يتذكر أرناؤوطى تلك الليلة الصيفية الرائعة فى ضوء القمر وهما فى الشرفة المبللة المطلة على البحر ، وجوستين تضغط براحتها الدافئة على فمه وتمنحه كنوز جسدها وسجاياه ، وهى تقول بصوتها المبحوح العميق «أسرع ، فلسنى، دعنا ننتهى من قمة الرغبة إلى قمة اللذة «ويكمل أرناؤوطى ذكرياته «يبدو أنها نالتنى فى خيالها ، إلا أن الكلمات قيلت بدرجة كبيرة من الإعياء والمذلة ، فمن كان بوسعه أن يمتنع عن حبها».

بعد الزواج يدرك أرناؤوطى أنه وقع فى جب بلا قرار ، فالمعبودة السمراء الساحرة، أظهرت أنها شديدة الجهل بأمور الوفاء الصغيرة المعروفة والتى تشكل أسس الحياة العاطفية بين الرجال والنساء . وأرناؤوطى الذى تجاوز الأربعين يصاب بالدوار من سرعتها الفائقة فى الانتقال من جو إلى جو ومن موعد إلى موعد ومن رجل إلى رجل . فالمعبودة الساحرة تخونه باستمرار ، ويصاب بالدهشة والأسى عندما يعلم أنها تخونه فى أوقات كان يعتقد أرناؤوطى خلالها ، أنه أقرب ما يكون إليها . فتقول له مدافعة عن نفسها .

«انت نفسك حدثتنى عن تقبلى اللذة فى مأساوية ، إنها مهدرة عندى تماماً، وأعلم أننى أبدو للجميع كائناً بلا قلب ، لكنهم عليهم أن يقروا بأن ما أفتقده فى القلب أعوضه

في الروح . ففي الروح يكمن البلاء».

على الرغم من قدرة أرناؤوطي الهائلة على التسامح مع المعبودة الساحرة ، المتخمة بالنوائب ، التي تجد خلاص روحها في اللذة كبديل مساوى لفقدان السعادة، إلا أنه يشعر بالاشمئزاز منها ومن ضعفه المشين حيال فضائحها ونزواتها وخياناتها ، فيسخر منها ويهينها فيقول لها «إنني أعرف ما تعانين منه بالضبط، أتوقع رغبتك في استثارتي حتى أضربك ، كي أعطي خطاياك نوعا من الغفران ففي كل مرة تخونينني فيها يأكلك الذنب، لكنني أرفض أن أكون قواداً لملذاتك» ، ويقول لها مرة أخرى الحقيقة بلا مواربة «أيتها اليهودية المختلة المهووسة المزعجة» فتبكي بذلك النشيج الكثيف الفظيع الذي مجرد تذكرته يجدد آلام أرناؤوطي.

يصاب أرناؤوطي بالرعب ، حينما يدرك أنه غير قادر على ابتعاد جوستين عنه، فقد قام برحلة قصيرة بعيداً لكنه وجد الحياة بعيداً عن المعبودة الساحرة مليئة بضجر قاتل لا يمكن احتماله، وكأنه جاء إلى الإسكندرية خالي الفؤاد، ليتحول إلى قواد لملذات تلك اليهودية المهووسة الساحرة ، فكل قراراته بالهجران والفرار بجلده ، كانت تنهار مع قبلة أو ابتسامة من جوستين ، وتبدو له «كل قبلة من قبلاتها بمثابة ضربة تقرب الإنسان من قبره».

تعترف جوستين لـ أرناؤوطي ، في لحظة من لحظات الصفو، بأنها تعرضت وهي طفلة لحادثة اغتصاب من أجنبي سكندري يضع عصابة سوداء على عينه. والعاشق هو ذلك المتآمر الأبدي ضد نفسه ، يتآمر أرناؤوطي ضد نفسه حينما يخيل له حبه المجنون، بأنه توصل أخيراً إلى سر تقلب قلب المعبودة الساحرة ، فعبادة اللذة عندها ، وهوسها الجنسي، واللذة المهدرة سببها أنها تحاول أن تستعيد تلك التجربة مرة أخرى، وهذا الهوس هو البديل الذهني لحادث الاغتصاب، فلو حل عقدتها ، لخطا مكان ذلك الشبح ، وسيحتل مكانه، وسينال قبلاتها كما لم ينلها أحد من قبل ، وسينالها كما لم ينلها إنسان».

ويحمل أرناؤوطي مرض جوستين على كاهله ، ويرحل به إلى بادن وزيورخ وباريس ، يقدم مريضته إلى أشهر علماء الطب النفسي، وعلى رأسهم فرويد «بجلالة قدره» . ويعجز فرويد، لكن «مانياني» لا ييأس من تلك المريضة المصابة بالهوس الجنسي السحاقي، فيجلس أرناؤوطي يستمع إلى صوت مانياني العاري القاسي الرفيع، وهو يعيد المرة بعد الأخرى: أخبريني باسمه .. يجب أن تخبريني باسمه، فترد جوستين في

إعياء «لا أستطيع أن أتذكر .. لا أستطيع أن أتذكر.

وينتهي الجزء الأول «چوستين» بنهايات خارقة حزينة ، أهمها فرار چوستين ذات صباح هرباً من هوسها ومن إحساسها بالذنب حيال زوجها وعشاقها الذين سببت لهم كل هذه الآلام. إلى أين؟! إلى فلسطين!!، حيث التحقت بواحد من الكيبوتزات اليهودية، إنه فرار أشبه بالانتحار، فالعمل اليدوى الشاق قد يحرر هذه النفس القلقة ، لكن السؤال : هل الكيبوتزات الصهيونية وحدها هي التي توفر عملاً يدوياً شاقاً؟. وتموت ميليسا بأمراضها التي تفاقمت وهي ترى دارلي غارقا في حب چوستين . وتحدث جريمة قتل غامضة في إحدى رحلات صيد البط وكان ضحيتها هذه المرة كابوديستريا أو دى كابوا الذي اشتهر بقدرته الجنسية الضخمة كثروته، إنه أحد مهاويس الجنس، وهو صاحب العصابة السوداء الذي اغتصب چوستين والذي وصلت قضيته إلـى فرويد نفسه ، فقد وجدت جثته في قاع الملاحات الضحلة بكينج مريوط - جريمة أخرى على رصيف الميناء ، كانت ضحيتها امرأة عجوزا هشم أحدهم جمجمتها الهشة .

إنه سكوبي ضابط الشرطة الانجليزي الذي تجاوز الثمانين عاماً ، صديق دارلي والذي يقول عن نفسه «القرصان العجوز» ، لم يكن القرصان العجوز سوى شاذ جنسياً، ومصاباً «بجنون القمر»، فحينما يكتمل القمر لا يستطيع سكوبي مقاومة الإغراء ، أن يرتدي ثياب عاهرة وأن يتجول على رصيف الميناء ، وذات ليلة ينهار سكوبي ويتوسل في مذلة إلى دارلي ، ويكشف عن سره ، ويطلب منه أن يأخذ ثياب العاهرة ، كي ينقذ القرصان العجوز من جنونه بضوء القمر، ويأخذ دارلي الثياب، لكن جنون القمر كان أقوى من قدرات سكوبي، فهشم أحدهم رأسه على رصيف الميناء .

جريمة انتحار عارض أخرى تهز المدينة، لقد استيقظت المدينة ذات صباح على انتحار الروائي الكبير «بورسواردن» بالسيانيد، وهو في ذروة النجاح والتألق الأدبي، انتحار غامض بلا سبب ظاهر لكاتب لامع، والمفاجأة أنه ترك وصية يوصي خلالها بمبلغ مالي محترم إلى دارلي ، هذا المبلغ يتيح لدارلي الفرار من كل هذا الجنون الذي مارسته الإسكندرية على ضحاياها ، فيفر إلى جزيرة نائية في قبرص كي يضمد جراح القلب هناك وينسى المدينة التي أطبقت عليه وعلى أصدقائه برهبتها .

(٢)

مفتاح الرواية الجميلة يقبع في بورسواردن وحياته وانتحاره الفاجع . إنه يعمل في مكتب المخابرات الإنجليزية بمصر (كي يطفو على سطح الحياة)، ومشغول طيلة الوقت

بتقديم صور كاريكاتورية عن نفسه وعن عدميته بسلسلة من السخريات السوداء، فثلاثيته الأخيرة التى حققت نجاحاً هائلاً صدرت بذلكُ العنوان العدمى الخالص» الله يحب الدعابة»، وتصدير الرواية كان بذلك المثل العربي الجديربكل عدمي «الدنيا مثل الخيارة، ساعة فى يدك وساعة فى شرجك». فى بقية أجزاء الرباعية، نكتشف أن خلف كل تلك السخريات السوداء، وخلف كل وقاحة بورسواردن وخلف كل هذه الموهبة الأدبية الرفيعة المتوحشة، كان بورسواردن مديناً بكل ذلك، إلى تجربة حب أليمة نخرت روح بورسواردن وتركت قلبه محض ندوب. كان بورسواردن على علاقة حب آثمة مع شقيقته العمياء الوحيدة ليزا!!.

ويقدم داريل درساً في تناول «الجنس» كمادة للأدب، حيث يسمو بعلاقة منحرفة شاذة إلى ذرى رفيعة من ذرى الفن الجميل. لقد ولد بورسواردن وشقيقته العمياء ليزا لأبوين ماتا مبكراً، وتركا لدى عمة عجوز صماء مشغولة طيلة الوقت بتدبير احتياجاتهم الأساسية، فى كوخ موحش كئيب بغابة من غابات انجلترا، تاركة لهما أن يتعلما ما يستطيعان تعليمه لنفسيهما، وما أقسى اليتم والوحشة على القلوب الغضة البريئة. والتصق الطفلان اليتيمان المفزعان التصاقاً حميماً، ولم يكن لديهما سوى كتاب لـ بلوتارك عن العالم القديم، حفظاه عن ظهر قلب، ورأت ليزا العمياء الدنيا بعينى بورسواردن الشاعر - الطفل، وغدت العمياء ملكة حياته الأسطورية الغريبة، وأعاشها فى قصور فسيحة (اخترعها) من التنهدات، فى مصر وفى بيرو وأحياناً فى بيزنطة، أحال بورسواردن كوخهما البائس إلى قصر بأرضيات فاخرة من فسيفساء تتألق بالحيات والصقور والأقزام. كان بورسواردن شاعرها وأميرها وعيناها اللتان تبصر بهما فى ظلامها الأبدى، وكانت ليزا ملهمته وملكته الأسطورية التى اخترعتها حدتهما وشاعريته. وأنجبا طفله، وكان بورسواردن أول من أدرك أن لعنية رهيبة قد حـاقت بهما، وبدأت الحياة الشعرية القديمة تفقد سحرها، وتدخل العالم أكثر وأكثر فى أمورهما وفى عالمهما المتوحد وفى قصورهما وممالكهما. وأدرك بورسواردن استحالة أن يقيم أى منهما علاقة سوية خارج حبهما الملعون. فقرر بورسواردن الهرب، وإلى أقصى الأرض، إلى مصر، فالملك الإله في مصر الفرعونية لا يتناسل فى رحم إمرأة غريبة. هذا الحب المحرم الملعون شحذ موهبة بورسواردن الرائعة، فاحتل بها مكانة عالية فى ذرى الأدب الرفيع، لكن هل تكفى الإنجازات الأدبية الكبيرة لمداواة جراح بورسواردن الغائرة، لم يكن هناك سبيل لإنهاء هذه الجراح سوى القبر، فالقبر وحده

هو القادر على إنهاء هذه الآلام، فانتحر بورسواردن عقب تلقيه رسالة من ليزا.

وعبر الرباعيات الطويلة ، نكتشف مع دارلى أن ظاهر الأشياء لا يعبر أبداً عن باطنها، إذ نكتشف أن خلف القصص الرومانسية لحب دارلى الملتاع ، ومطاردة جوستين لـ بورسواردن ، وغيرة الأمير نسيم على معبوبته السمراء التى تبحث فى الجنس عن خلاص الروح ، لم تكن سوى واجهة رومانسية رائعة ، تخفى خلفها مؤامرة سياسية عملية بشعة ولا مجال فيها لأدنى عاطفة . ولم يكن رأس المؤامرة سوى الأمير الحزين نسيم، الذى لم يتردد فى قتل شقيقه الأوحد «ناروز» عندما بات وجوده خطراً على «الخطة» . نكتشف فى بقية أجزاء الرواية أن نسيماً كان قد كرس حياته وثروته وعلاقاته وزوجته لرسالة سياسية ، فهو يعيش دور من نذرته الأقدار كى يعيد بعث الأمة القبطية (!!)، ومؤامرته كان هدفها الوحيد هو أن يحتل أقباط مصر (على يديه) مكانهم اللائق تحت شمسها، لقد أعده والده «ملتاؤوس» لهذه الرسالة منذ أن كان طفلاً . وكانت حسابات نسيم كالآتى ، أن الأسد البريطانى تخلعت أسنانه ، وأن أيام الانجليز فى مصر باتت معدودة، وأن القوة الوحيدة التى تمتلك القوة والحيوية الكافية لكى تلعب دوراً أساسياً فى المنطقة هم يهود فلسطين(!!) عندما تقوم دولتهم المنتظرة، فلو ساعدهم نسيم بتهريب السلاح إلى العصابات الصهيونية الآن، سيعتبرونه رجلهم فى مصر، وسيردون له الجميل مستقبلاً، ولن يطلب منهم سوى أن يتبوأ الشعب القبطى مكانته . ويسافر نسيم إليهم سراً ، لكن الوكالة اليهودية ترتاب فى هذا القبطى الذى يعرض خدماته، فى الوقت الذى يرفض فيه اليهود المصريون التورط فى أعمال تفقدهم ثقة المصريين . ونسيم الذى أعده والده لحمل رسالة رفع الظلم عن الشعب القبطى، شأن أصحاب الرسالات الكبرى ، لا يتوقف عند أول عقبة ، فيقرر الزواج من يهودية، حتى يحظى بثقة الوكالة، ولم يكن أمام نسيم امرأة قادرة على أن تلعب هذا الدور باقتدار أكثر كفاءة من تلك الساحرة المختلة الشبقة جوستين، سيوظف نسيم قدرات جوستين من جمال وذكاء وسحر وملاحية وقدرة لا تبارى فى انتزاع امتثال الرجال، فى شىء أثمن من الحب وأغلى وأرفع مكانة، فى المؤامرة السياسية وفى صناعة المستقبل السياسى لهذه المنطقة الحساسة من العالم ، وتحرير أمته.

حينما أطلعها على سره الدفين ، اندهشت جوستين وهى ترى هذا الفاتر الرخو يتهيج ويشتعل وهو يجعلها تنطق بالكلمة السحرية :

– سنرسل الأسلحة ... إلى ...

ترد عليه چوستين بصوت كالفحيح :

- إلى فلسطين ...

انتعشت اليهودية الساحرة في دورها الجديد وتألقت كمتآمرة . ولما كان دارلى وبورسواردن يعملان فى مكتب المخابرات البريطانية ، كان هم نسيم الأكبر أن يبعد أنظار المخابرات الإنجليزية عن الخطة، التى لم تكن تتفق مع مخططاتهم . لهذا السبب وحده أطلق نسيم الساحرة اليهودية كى توقع فى حبائلها بورسواردن ودارلى . لم يأخذ دارلى فى يدها غلوة ، أما بورسواردن فكانت محنته الأليمة تقف كسياج بينه وبين أن يتم اختراقه حتى لو كانت تلك المرأة هى چوستين . لقد أمدته تلك المحنة ببصيرة ضارية متوحشة ، جعلته لا يرى فى الساحرة اليهودية إلا امرأة متسلطة مستبدة مزعجة تفرض نفسها على الآخرين باعتبارها مشكلة . ولم يتورع بورسواردن عن طردها من غرفته وقد أمسك برقبتها وهو يقودها إلى باب الغرفة ، قائلاً لها: «هل تتفضلين وتتعطفين وتتكرمين بأن تبلغى سن النضج» . «تريدين اقتحام حياتى!؟لماذا ؟ أنت يا عزيزتى باب دوار للجنس علينا جميعاً أن نمر به!؟».

ويقـول لها عندما يرى إلحاحها عليه يزداد، ومطارداتها له أصبحت سخيفة لا تطاق:

«أنت تريدين أن تقتحمى حياتى ، لكن الفنان الذى تمتطيه امرأة كالسرج ، يشبه الكلب الإسبانيولى وفى أذنه «قرادة»، إنها تسبب له أكلانا، تسحب دمه، وهو لا يستطيع الوصول إليها» . وبينما رأى دارلى أن علاقته بچوستين «أصداء» لعلاقتها بأرناؤوطى»، لم ير بورسواردن فى أرناؤوطى سوى «سجان مولع بالتحليل النفسى» . وأما عن حادثة الاغتصاب التى عجز أمامها فرويد ومانيانى فقد انغرست كلمات بورسواردن فى نفسها كالشوكة :

«من الواضح أنك استمتعت بما حدث ، بل ربما أنت التى أغريته بذلك ، كفاك هذا الصراخ وأسقطى هذا الإثم الذى ابتدعتيه وأكدى لنفسك أن الأمر كان ممتعاً وكان بلا معنى أيضاً»

وفى موضع آخر يقول لها :

«هل تفرضين علينا نفسك كمشكلة ؟ أؤكد لك أن شأنك شأن اليهود تحبين العقاب وتحبين أن تأتى ثانية لتناليه وكل أفعالك وثيقة الصلة بالسلب والنهب ، وهى صفات ملاصقة لكل يهودى».

.... لم تنفذ چوستين إلى نفس بورسواردن ، أهانها وعاملها باعتبارها

امرأة مستبدة اعتادت إخضاع الرجال ، لكنه لم يفطن إلى المؤامرة، بل وخاض صراعاً كبيراً في الإدارة التي يعمل بها ، ضد اتجاه كان يجمع الأدلة ضد نسيم والثعلبة اليهودية، وانتصر بورسواردن في هذا الصراع ، وكان قد وصل إليه خطاب من ليزا، وكان بورسواردن قد تنبأ أن يظهر في حياة ليزا رجل، وبظهوره ستتحرر ليزا من قبضة بورسواردن عليها ، وأطلق عليه بورسواردن «الغريب الأسمر» ، وبعد طول تردد أرسلت له ليزا بالخبر الذى كان ينتظره في توقع كئيب، وبعث لها معبراً عن سعادته، لأنها «لم تعد مقيدة في أصفاد شقيقها المعذب» لكن لأنه يعلم استحالة فرارها من تلك الأغلال التى قيدها بها طيلة تلك السنوات طالما ظل حياً موجوداً في مكان ما من العالم ، فيجب أن يزيح نفسه من على المسرح حقاً ، وكان قرار الانتحار ...

.... تصادف هذا مع قضاء بورسواردن ليلة عبثية ، دخل خلالها مباراة للظفر بقضاء ليلة (بأجر) مع ميليسا ضحية دارلى وجوستين، في هذه الليلة عرف بورسواردن من ميليسا أن جوستين ونسيم يرسلان السلاح إلى اليهود في فلسطين، وأن كوهين عشيقها السابق هو الذى أخبرها، فقرر بورسواردن أن يقتل نفسه بالسيانيد ، كى يزيح نفسه من على المسرح بأسرع ما يمكن ، وأن يكشف المؤامرة، وأن يبعث برسالة من العالم الآخر إلى نسيم، يسخر منه ، وفوجىء نسيم في الصباح المبكر ، بصوت بورسواردن عبر التليفون يضحك تلك الضحكة التهكمية المكتومة ، وهو يقول لنسيم إنه سيترك له رسالة عاجلة في غرفته بفندق جبل النسر ، يهرع نسيم إلى الغرفة كالمجنون، ليجد جثة بورسواردن مسجاة والربتات ، وعلى مرآة الحمام كتب بورسواردن بفرشاة الحلاقة : «كل شيء تم اكتشافه ، مخازن السلاح، وكوهين، وفلسطين» بورسواردن.

(٣)

عاد دارلى إلى الإسكندرية والحرب العالمية مندلعة ، ليجد ليزا تبحث عنه ، كى تأخذ رأيه بشأن الخطابات الخاصة التى كان بورسواردن يبعث بها إليها ، كى يساعدها في اتخاذ قرار، هل من اللائق نشرها أم لا ، يأخذ داريل الرسائل ويبدأ القراءة وهو يشعر بإثم وبشاعة استكشاف أعمق أسرار حياة إنسان آخر . فوجد الرسائل تحليلا وحشيا للذات وقد صيغ في كلمات لا تضطرب ولا تتلعثم، فالحقيقة والوهم كانا يمتزجان في رؤية ناصعة تعمى الأبصار ، أسى هائل وجمال مطلق قد صيغا فـى كلمات ، ورؤى تعلق فوق عقل الكاتب مثل نجم الموت الأسود ، وكان دارلى ينتفض وهو يقرأ تلك

الروائع التي تفوق كل روائع هذه النفس المتألمة ، فهذه الخطابات ليست أدباً، إنها الحياة بذاتها ، وما تحويه سطورها من آلام ، إنما هي آلام الحياة نفسها بما فيها من رعب وإذعان وخضوع . ويحقق دارلي رغبة بورسواردن بحرق تلك الدرة الأدبية .

....

كانت چوستين قد عادت ، وانكشفت المؤامرة ، وتم تجريد نسيم من أمواله ، وحددت السلطات إقامة چوستين في المنزل الريفي بكرم «ابو جريج» ، وكان لا بد أن يلتقي داريل بها بعد أن انقشعت أوهام حب چوستين المزيفة . فوجد نفسه كأنه يرى امرأة أخرى، وكان من العسير أن تنبعث صورة تلك العشيقة الساحرة ، التي كانت كل كلمة أو إيماءة منها كافية لأن تبطيء الدم في العروق ، فقبلتها على جبينه جاءت باردة كالنعي ، وجمالها القديم الذي لازالت تحتفظ به ، رآه جمالاً هامداً «لمومياء طليت بطريقة خرقاء حتى تعطي وهماً بالحياة».أفلت دارلي منها فلم يرسوى امرأة فظة سوقية شرسة تتوق إلى أن تنشب مخالبها في لحم نسيم ، الذي تقول عنه لدارلي «إنه رفيق مؤامرة مثالي ، لكن كزميل سجن في الهزيمة فهو شخص لا يطاق».

آخر مشهد بين دارلي وچوستين، عندما استيقظ ليجدها تقف إلى جوار فراشه عارية ، وقد ضمت يديها في توسل أشبه بامرأة متسولة في الشارع ، وتطلب منه في مذلة «بعض الملاطفات والربتات ، بعض التحبب، ذلك كل ما ترجوه» أما دارلي فكان يبحث عن سر ذلك التقزز الهائل الذي يجيش في أعماقه ويمحو كل مشاعر أخرى، فيكتب:

«هذه صورة حبي التي كانت ، ذات يوم ، رائعة ، ترقد الآن في خواء على ذراعي، بلا طول وبلا حول ، كمريض فوق منضدة العمليات يتنفس بالكاد ، كان من العبث أن أكرر اسمها، الذي كان يحمل ذات يوم قدراً كبيراً من السحر ، لقد غدت أخيراً مجرد امرأة ترقد هناك ، ملطخة مهلهلة ، مثل طائر ميت في مزراب ، وقد تغضنت يداها كالمخالب ، كان الأمر وكأن باباً حديدياً هائلاً قد أوصد في قلبي، وإلى الأبد».

ويتساءل دارلي :من كان الآثم في كل هذا ؟، الآثم هو الحب الذي يبتكر صوراً كي يتغذى عليها ، فالحب مجموعة من الأوهام المنتقاة التي يخدع بها العاشق نفسه، ولم يكن دارلي سوى عاشق ، والعاشق مثل الشاعر ، يتآمر ضد ذاته بصورة أبدية.



ثنائية الجد والحفيد والحكاية الخرافية

في (خالي جاءه المخاض)

بقلم : عبدالرحمن أبوعوف

في البداية قد يبدو للقارىء العادى والمحافظ عنوان الرواية القصيرة المكثفة المتقنة البناء (خالى جاءه المخاض) منافيا وصادما للذوق العام ومناقضا للحياء والأخلاق بل يكاد يكون مستحيلا وساخرا ومثيرا للدهشة ، غير أننا وعبر الانغماس الموحى والتغلغل فى بنية النص المتخذ أسلوب وشكل الحدوتة والحكاية المثقلة بكل فنون وتراث الروى والحكى الشعبى العريق المنساب فى بساطة وسلاسة عذبة ، والهادر بالسخرية والتهكم والثورية والاستعارة المجازية ، عبر كل ذلك يتكشف لدينا بالقراءة المتأنية العالم السحرى المخاتل والخفى والسرى والخاص لبيئة وحياة وجو وتخيل ومثل وتقاليد وأعراف وموروثات وأساطير قرية نوبية عريقة ، فى زمن تاريخى وسيسيولوچى يقع قبل بناء السد العالى وقبل غرق وذوبان النوبة المصرية القديمة ومعها غرقت وتلاشت فى مياه النيل الهادرة . حضارة نوعية عريقة لها خصوصياتها لمكون أساسى ورئيسى من مكونات الشخصية المصرية الفرعونية والقبطية والإسلامية وتراكمها الحضارى .

ولسوف نلمح أن هذا الموضوع المأساوى الإشكالى هو هم وحزن وأسى وغضب كتاب وفنانى النوبة من الأبناء والأحفاد الذين هاجروا أو ولدوا فى الشمال، والذين ظلوا منتمين ومخلصين لتراث عشيرتهم وأهلهم وهويتهم وجذورهم وأعراقهم . ومنهم الروائى المبدع «حجاج أدول» كاتب ومنشىء هذه الرواية الجديدة الفاتنة وهو مولود فى الإسكندرية .

غير أن بعضهم يتطرف فى هذا الحس والخطأ الشوفينى المتعصب أحادى النظرة النوبى ، ويقيم تناقضا مصطنعا بينه وبين المصريين أهل الشمال مثل «إدريس على» الكاتب النوبى المصرى الموهوب ، بل إننا نجد عند - حجاج أدول - نفسه فى هذا النص الروائى الأخير عبارات وتعبيرات وألفاظ متعالية وساخرة عن أهل الشمال ، ترد على لسان الراوية الجد كقوله فى الهوامش (الجربتية) هم غير النوبيين . كذلك فى كتاباته المباشرة ومواقفه عن مشاكل ومعاناة أهل النوبة المهجرين والمتشردين .

«إن سبب كل ذلك فى اعتقادى ديكتاتورية عبدالناصر» إلخ غير أن هذا موضوع إجرائى يحتاج لحديث آخر .

ولنعود إلى تفكيك وتحليل النص الروائى الفاتن والمتخيل والمنتج للأسطورة والخرافة الشعبية وهو الحدث الذى فجر الدلالة المتوارية فى هذه الرواية .

والحدث هنا لا معقول يقع فى منطقة بين الوهمى والمتخيل والحقيقى والعينى ، الحدث هنا هو مناداة الطفلة النوبية لأمها .. فى صباح يوم من الصيف الحار حيث سطوة وسطوع حرارة وضوء الشمس وشلالات عرقها المكروية ساقطة على أهل القرية «بويو خالى .. إنجيله حامل» فغضبت أمها «سفورة» وابتسم فى سخرية أبوها - «ذراج» المسترخى المستلقى النائم تحت السقيفة .

عبر هذا الحدث وما ترتب عليه من فضائح وأقاويل وتفاعلات بين أهل القرية يقدم الكاتب ويعمق إطلالة شاملة على حياة وسعى وسلوكيات العشيرة، ومعنى حياتهم ومأساة معيشتهم فى قرية من قرى النوبة بعد التعلية الثانية لخزان أسوان ونزوحهم إلى هضاب الجبل ولم يبق لديهم إلا مساحات زراعية ضئيلة متبقية من غول الغرق .

إن تصاعد الأحداث وتتابعها وتشابكها وتقديم دورة حياة البسطاء والمغمورين والأعيان والعمدة وناس القرية الشغالين بقيادة الخوجة «كلودا» معلم المدرسة وحكيم القرية والذى عبر تعليقاته فى نهاية الرواية سيلخص مشكلة وأزمة أهل النوبة ، وسيشير إلى الحل الذى ينقذهم من رتابة وزيف حياتهم الضائعة بين الثرثرة والأكل والجنس وإدمان البانجو المعتبر وقنانى العرقى الذى يتاجر فيها «أنجيله» المخنث مشاركة مع العمدة الصغير .

كل ذلك الزخم المكثف من الحياة يقدم فى يوم واحد ونهار واحد يبدأ من الصباح

المبكر وينتهي في ظلام الليل .. هي دورة الحياة الأبدية التي تسحق حيويتهم وتغتال أحلامهم وآمالهم وتحتوي حياتهم الرتيبة الضجرة الخاوية من العمل والجهد والسعي بعد أن حصلوا على نقود قليلة كتعويض عن أراضيهم الغارقة فأنفقوها على المظاهر وزخرف الحياة كاقتناء الحمير الملونة والغرق في غيبوبة الخدر والجنس والنوم والثرثرة .

ولقد جاءت إشاعة حمل (إنجيله المخنث) وصراعه مع زوجته المسترجلة «نخلة» التي تساومه على كتم والتستر على الفضيحة لو اقتسمت معه أرباح تجارة البانجو والعرقي ، جاءت هذه الحادثة المتخيلة مبررا وسببا روائيا لكشف القناع عن عمق أعماق حياة أهل القرية وعلاقاتهم مع بعض ومع السلطة الفاسدة المتراخية المنهكة الكاذبة مجسدة في شخصية العمدة الصغير .

ولكن كيف قدمت الرؤى والمضامين في هذه الرواية ، أقصد نهج البناء الأسلوبي التعبيري وتقنيات الشكل السردي وآليات السرد الحكائي ورسم الشخصيات والنماذج الإنسانية لأهل القرية .. وأخيرا اللغة والاستعارة والمزج بين العربية وبعض ألفاظ نوبية ؟ للإجابة على هذه التساؤلات نناقش مستويات البناء الفني في العناصر التالية :

١ – الحكاية الخرافية .

٢ – ثنائية الجد والحفيد .

٣ – مستوى ودلالة الجنس والشبق .

٤ – الزمنية الروائية .

الحكاية الخرافية : إن الحدث الرئيسي هنا وهو حمل (إنجيله) يقع في منطقة الخرافة والدليل على ذلك النهاية المفتوحة للرواية وهي التصوير الساخر للمخاض عند (إنجيله) بين يدي دهبية البدينة وحزبية العجوز .. فطبعا هو لم ولن يلد .إننا أمام (راوية) أو جد هو خلاصة مصفاة لنموذج روح الأسلاف وهو له هالته وقدسيته ومرجعيته في المجتمع العشائري والقبلي ، والجد ينقل أخبار وحكاية وأحداث حدثت في يوم واحد عاشها وهو صبي يقترب من المراهقة كاد يحصل على الابتدائية ينقلها إلى الحفيد الذي ولد في الإسكندرية وعمل بها وعاش نصف حياته بها في الشمال ثم طرد إلى الجنوب مرة أخرى .

يقول الجد ساخرا أثناء سرد الحكاية الخرافية موجها الحديث إلى الحفيد .

«لماذا لا تستمع لحكاياتي باحترام ياولد ؟ تنام على ظهرك وتضع ساقا على ساق أيضا ! عديم الحياء مثل من تسللت نطفتك من ظهره .. لاكين .. لماذا أغضب أنا من وقاحتك أنت ؟ فما أنت إلا حفيد غشيم تربى نصف تربية في مدن بحري ونصف تربية عندنا ، فتأدب من نصف التربية التي لم يتربّاه عندنا ، أي ! وبعد أن قلت لك رأيي صراحة في تربيتك التي هي ليست تربية ولم أحاول أن ألعن أباك

الذى لا أحبه ولا يحبنى ، بعد كل هذا نعود للحكاية» .

إننا أمام مونولوج طويل منساب هادر أو مونودراما بطلها هو الجد .. ولم تستمع أبدا لصوت (الحفيد) الذى يتلقى ونتلقى معه الحدوتة وأحداثها .. و(الحفيد) هنا هو ليس حفيداً محدداً له اسم بل هو نموذج (الحفيد المطلق) فى الغربة ، غير أنه هو قناع المؤلف نفسه ، ونحن نعرف ونشعر بحالته واستجاباته لما يحكيه (الجد) عبر عبارات الجد نفسه .

تبدأ الرواية أو المنولوج أو المونودراما بهذه المقدمة البسيطة العذبة الحكائية السحرية الساخرة إلماحة الاهية .

يقول (الجد) :

أنا سوف أحكى لك وأشرح كيف أن الحكاية الخرافية القديمة بعثت حقيقة على أيامنا النيلة هذه ويحذافيرها وكان أسلافنا الخبثاء تنبئوا بأن سلالتهم النوبية ستنتكس نكسة ونكسات وستكون سلالة مخجلة يتفرج عليها ناس (الجريتيه) أى (غير النوبيين) الذى يسوى منهم والذى لا يسوى وأنه سوف يحصل لها ما يحصل الآن ، شفت؟!

ولأن الحكاية طويلة طويلة ، وأنا ليس عندى وقت طويل لك رغم أننى لكبر سنى ، عاطل من العمل ، وأنت مثلك مثلى عاطل من العمل أيها الحفيد المطرود من مدن الشمال ، فعدت لتغرقنا بتساؤلاتك فى الجنوب ، سوف أبدأ الحكاية من منتصفها اسمع ياولد .

مستوى ثنائية الجد والحفيد

إن القطبين الأساسيين فى بنية النص الروائى هنا هما (الجد) و(الحفيد) وهى سمة المجتمع العشائرى والقبلى الذى أدركها بتلقائية ووعى (حجاج أدول)، وهو ككاتب نوبى معاصر فى زمننا الآن يحمل تراث النوبة وقيمها وأخبارها وحياتها التى غرقت فى نهر النيل عبر حكايا الأسلاف ، إنه الماضى والحاضر إذا يلتقيان .. إن روح الأسلاف هنا تذكرنا بعالم الكاتب الجزائرى الكبير (كاتب ياسين) فى رائعته رواية (نجمة) ومسرحيته (الأسلاف يتميزون غضبا) ، كذلك بثلاثية (بندر شاه وضو البيت ومريود) للروائى السودانى الموهوب (الطيب صالح) وأيضا ببعض قصص - يحيى الطاهر عبدالله ، وعبدالوهاب الأسوانى . هنا (الجد) و(الحفيد) فى علاقة عضوية تجسد سريان الحياة وهى ظاهرة غالبة فى إبداع كتاب الجنوب فى كل مكان من العالم .

نجدها عند الكاتب الأمريكى (وليم فوكنر) فى معظم أعماله خاصة (سارتودس) ونحن نعرف أن كلية أعمال فوكنر .. تحكى عن الجنوب الأمريكى وأصداء الحرب الأهلية حرب العبيد بين الشمال والجنوب التى قادها - لنكولن .

● الجد إذن عند كتاب الجنوب هو الذى يحمل تراث العشيرة وقيمها وأعرافها وعقائدها وأساطيرها يوصلها لأحفاده ليسلكوا ويتموا مسيرة الحياة .. هو لقاء الحكمة والخبرة والاتزان مع

تلقائية وعنف شباب الأحفاد حلم المستقبل.

● غير أن (حجاج أدول) يقدم في روايته مقابلا آخر يكشف عن قيم الحياة في النوبة في تجل آخر لعلاقة الجد بأحفاده نجدها مجسدة بطريقة ساخرة وصاخبة ومثيرة في شخصية الجد (تومبيله) العجوز المخرف المضحك الشهواني الذي يغوي الصبايا ويتلصص على صدورهن ومؤخراتهن وهو ينافس حفيده على حب ورغبة الزواج من (سادة بنت ظريفة) وتجلجل دائما صيحته الشهيرة في دروب القرية (أنا حنيل سادة بنت ظريفة) .

مستوى ودلالة الجنس و(الإيروس) والشبق

يحتل الجنس وحضور (الإيروس) وتجليات الشبق وغرائز الشهوة البهيمية محورا رئيسيا في هذه الرواية غير أنه جنس موظف دراميا وفعل روائي وليس جنس إثارة ودغدغة للعواطف والشهوات.. هو قناع لحياة خاوية رتيبة لاهية في قرية نوبية مهددة بالغرق والزوال، إنه بديل الموت . فالبطل الرئيسي في الرواية – الحكاية – الحدوتة الخرافية أنموذج للرجل المخنث .. الذي يعاني أدران الشذوذ (إنجيله سمين وطول عمره طري يحاكي النساء من صغره مخنث يرتدي دائما(دباس) أي لباس محبك في لحمه ، دباس قصير الأكمام من قماش خفيف الملمس مثل دباسات نسوان وبنات اليوم ، وتكة هذا (الدباس) .. (الياس) حبل مطاط غريب يقال عنه استك .. إنجيله الطري الناعم السمين المترهل أدخل هذه البدعة الضلالة في القرية فقلدته الستات ، والبنات الصغيرات وحجتهن البائخة أنه أسهل في الخلع ، أي خلع يخلعون ولم ولأي أمر يكون الخلع له هذا الاستعجال ؟ هذه هي المسألة بناتهن مطاطة مراوغة مثل استكهن» .

● إننا نجد في هذه الرواية بعض الإسراف في إيراد الصور والمشاهد والمواقف الجنسية التي ربما تخدش الحياء وتثير الاشمئزاز بجانب عبارات وغمزات فاضحة ماجنة وقحة .

نشير لبعض هذه الصور والمواقف الجنسية والتي تقدم تهكما ونقدا لنفاق رجل الدين مجسدة في (الشيخ الرملي) .

سافر (الشيخ الرملي) إلى الشرق وعاد وعلى وجهه لحية شعساء تتدلى حتى منتصف صدره ، لحية غبية ، وفي جيبه دراهم كثيرة احتل الجامع وجذب حوله بعض المراهقين الذين حتى لم يفكوا الخط، أعلن أن الرقص والغناء حرام في حرام، وأن أمهاتنا وبناتنا زواني لأنهن لا يغطين وجوههن وكفوفهن وكل شيء عنده أصلا حرام حتى الحلال ورغم ذلك تزوج (الشيخ الرملي) زوجة ثانية ثم ثلثهن بفتاة صغيرة.

ويقول الجد (إن الذي غلب الشيخ الرملي ذا الوجه الكشر الغاضب دوما ، صبي صغير ، كان الشيخ الرملي يريد أن

يتزوج أخته الصبية الجميلة ورفضته هى وأمها وأبوها فاتهمها أنها خارجة عن الدين ، لأنها تحب الرقص والغناء وتعشق الملابس الجميلة ، اقترب منها الشيخ الرملى يوما ، كان يتلصص عليها وهى منحنية تفرش حبات البلح على حصيرة أمام جدار بيتها ، عيناه ترصدان صدرها وعجزها ، صراحة ، كان الشيخ يجمع حسنتين ، الفجر والغباء ، يلعن النساء ولا يعترف لا بعقولهن ولا بنفوسهن ولا بحقوقهن فى المشاركة والحياة ولكنه لا يسيل لعابه على شىء بعد الدراهم إلا على أجسادهن ، الصبى الصغير شقيق الفتاة كان قادما شاهد الرملى يتلصص على أخته ، ورأى أخته عندما اعتدلت وصدمه أن الشيخ الرملى صفع شقيقته ، الموضوع كبر فناس القرية يعرفون دناءة هذا الشيخ الغبى ، وفى حلبة عامة والشيخ يرغى ويزبد فى الكلام ويراوغ حين ضبطه أحد مستشهدا بأحاديث موضوعة مكذوبة فتصدى له هذا الصبى وقال له جملة عربية بحراوية بليغة هى سباب مقذع تتكون من كلمتين أولاهما تبدأ بحرف الكاف وثانيتهما تنتهى بنفس الحرف» .

وعندما حاول (تومبيلة) الانتحار بإلقاء نفسه فى النهر وقامت (دهبية) كالتمساح السمين وحاولت إنقاذه كان يتحسس جسدها المبلول ويلصق خده بثدييها الشبعانين وهو يشخر ارهاقا ، و(دهبية) تتعمد تقليد (إنجيله) فترفع ذيل فستانها بحجة عصره لكن غرضها أن تخبل (تومبيله) .

مستوى الزمنية الروائية

● تدور وتتجسد وتصور أحداث هذه الرواية - الحكاية - الخرافة الحدوتة الشعبية فى يوم واحد فجرها حادث خرافى متخيل فاضح هو إشاعة حمل (إنجيله المخنث)، تدور هذه الأحداث المتتابعة والمتشابكة المليئة بالصخب والعنف والسخرية والتورية والاستعارة لتكشف عن سرية الحياة الخاصة للقرية ، تدور فى يوم واحد ونهار واحد هو تلخيص لدورة الحياة الأبدية لسعى النوبيين المهددة أرضهم بالغرق لذلك كانت عملية السرد الروائى الحكائى مكثفة مقتصدة اللغة مزدحمة ومتوترة الانتقالات بين المشاهد .. الوصف



مختزل وتشكيلي والحوار قليل ، كل هذا الإتقان والإحكام البنائي الجمالي حققه (حجاج أدول) فكشف وهتك النقاب عن الموروث والقيم والعيب وتفاهة حياة الكسالي في حين مجد مجتمع القلة الشغالة بقيادة الخوجة (كلودا) الذين يزرعون الأرض القليلة ويبنون البئر .

● ولما تصاعدت فضيحة حمل (إنجيله) ووصلت أخبارها إلى القرى الأخرى قرر العمدة الصغير وأعيان القرية عقد اجتماع كبير لمناقشة مشاكل القرية، وذلك ليغطي على الفضيحة لذلك أرسل مراسيل إلى كل عمد وكبار رجال القرى كلها قال لهم يجب أن نتباحث ونبحث حلا لمشكلة غرق الأرض وبخس التعويضات وضياع الهيبة وتجسد الخيبة ، ثم إن هذه البحوث تبعد عن أذهان الشعراء فضيحة حبل الرجل فلا يشعرون بها ويلهون بما نقول ولا نفعل.

فأتى العمد كلهم لأن الحكاية ستكون كما يعلمون وكل ناس القرى يعلمون وشة كلام في كلام ، هذا بالإضافة إلى الطعام والذي منه .

● ونصل رغم قناع الجنس وحادثة حمل (إنجيله) الفاضحة والمتخيلة إلى الدلالة البعيدة والقص والبعد الاجتماعي الذي قدمه المؤلف بمراوغة وبغير مباشرة إلى هذا المشهد الذي يبلور قيمة هذه الرواية عن سر أسرار أزمة القرية النوبية في هذا الحوار الموجز والدال بين (الخوجة كلودا) وبين العمدة الصغير صاحب الكرش عندما اقتحم (كلودا) المضيفة وأثناء إنغماس الضيوف في تناول أنواع الأكل بشراهة وتدن حسي .

● يدعو العمدة الخوجة للمشاركة في الطعام فيرفض كلودا في كبرياء واشمئزاز قائلا : (يوم الدين سيسألكم الديان عن حياتكم فيما أفنيتموها وعن مالكم فيما صرفتموه بماذا ستجيبون) ؟.

سكون

– إح ح ح ح سيسألنا طبعا بعد تناول الغذاء ها ها .

– احترس يازراج البطنة أجب ياعمدة.

– يامعلمنا قلنا لك ألف مرة ، مابقي من أرضنا مازال يعطي بعض الخير من ظاهرها وباطنها ، ومابقي من نقود التعويض وإن كان هزيلا مازالت بقيته الباقية في جيوبنا والمثل يقول : إصرف ما في الجيب يأتيك مافي الغيب .

هذا المثل الذي اتخذتموه شعارا سيهلكنا ، لماذا لا تتذكرون : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» – صدق الله العظيم .

– إح . ح . ح . ح – إننا نعمل فعلا ياكلوديا ، مثلا حضورنا من مساحاتنا الشاسعة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا لنتداول وتدور مناقشاتنا العميقة اليوم لإتخاذ قرار في مصائبنا أليست عملا ؟

قلت لك إخرس يازراج البلاهة .. أجب

ياعمدة لماذا هذه الحالة التي صرنا فيها، لما انكسرت نفوسكم وصرتم كالريش تتلاعب بكم تيارات الهواء حتى وإن كانت نسمات خفيفة ، لماذا انكسر فيكم الأمل فتوقفتم عن العمل ؟

وقف العمدة غاضبا واثقا من نفسه - يلوح بيديه ويخاطب (كلود) ندا لند .

أنت تعلم بحالنا وتراوغنا .. أنت منا وتعلم ما بنا وتجادلنا كيف تجرؤ وتتهمنا بالكسل ؟ نحن قوم غرقت أراضينا فغرق الأمل منا ، اتركنا (ياكلودا) نعيش أيامنا الباقية حسبما نريد ودعنا نتسطل فلا نحس بسكين الذبح وهي تذبحنا .. اتركنا اعمل معروف .

جلس العمدة يمسح دموعنا .. والخوجة (كلودا) وقف حائرا من رد لم يتوقعه ودموع حقيقية انسالت فأربكته ..

قال :

ياعمدة لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، لا تيأسوا الغرق الحقيقي هو غرق إرادة الحياة ياناس .

واستمر الجدال وقتا غالبا عليهم . فالخوجة مرهق الجسد يحتاج إلى راحة وهو شيخ كبير ، والعمدة وسائر الأعيان يتحرقون شوقا للعودة لمداولات مجلسهم الموقر وتدخين لفافات المزاج .

ويحكي الراوية - الجد - بسخرية مريرة دالة على نهاية الإجتماع قبل صلاة العشاء والقرار الذي وصل إليه المجتمعون في المضيفة .

يقول الجد :

أتتذكر المضيفة التي حوت وقتها ناس القرى الاقشطانوش بالعربية (كل من لا قيمة له) من عمد وأعيان عظام ، لقد مرت عليهم ساعة زمن قل ساعتين لا يهم ، فهل نحن نعرف قيمة الوقت ؟.

أكلوا فاكتظت بطونهم ودخنوا فتعمرت أدمغتهم بالخدر أو تخريبت الله أعلم ، فثقلت العيون مرة أخرى خاصة أنهم لم يناموا نومة القيلولة في نهارهم هذا المطين، المشاورات والإقتراحات الحرة التي كانت سريعة ، أخذت تتباطأ رويدا مع ثقل العقول وتبلد الشعور لكن لأهمية الموضوع ولإصرارهم على إتخاذ قرار حاسم باتر صبروا على المداولات حتى نجحوا واتخذوه فعلا فتكلم العمدة في فخر .

لقد بينا للدنيا أننا أمام المشكلات المعضلة والتحديات لا نسكت ولا نستكين، خلع نظارته إشارة لإنتهاء المداولات وأشار بها للخوجة القصير المكير ليعلن القرار فوقف كديك منفوش :

تحت رعاية عمدتنا الحكيم وبناء على توجيهاته الرشيدة استطعنا أن نتخذ قرارا هو أننا إزاء هذه الأحداث المباغتة والقضايا المهينة .. يجب أن نتخذ قراراارا .

وهكذا انتهت إحدى مجالس كبارنا .. إهي هيء .

وهذا الموقف الدال لا يحتاج لتعليق ويكشف به (حجاج أدول) عن فهم سياسي



واجتماعى واعى لجوهر أزمة أهل النوبة الذين استسلموا لقمع الجغرافيا والتاريخ وسلطة الشمال التى اقتضتها أوضاع التنمية الإقتصادية أن تسيطر على مجرى النيل وتنشىء السدود والخزانات فغرقت بذلك قرى النوبة وتشرد أهلها أو نقلوا إلى قرى كوم مبو التى تشبه الزنازين وذابت حياتهم القديمة وموروثاتهم وآثارهم وتكسرت أحلامهم .

ونصل لذروة الأحداث الساخرة اللاهية عندما يهبط ظلام الليل وكأن الستار يهبط على مسرحية .. كوميدية سوداء مليئة بالصخب والعنف والهرج والضحك والدموع والأسى فقد جاء المخاض (لأنجيله) طبعا مخاض متخيل فالرواية لن تنتهى نهاية مغلقة فلن يلد طبعا (إنجيله) .

يقول الراوية الجد للحفيد خاتما الحكاية الساخرة (ولولة إنجيله تتزايد حرقة ، يسير فى حجرته بين (دهبية) و(حزبية) مستندا على كتفيهما حرا من (دباسه) أى (لباسه) جيئة وذهابا يسير مثلما تفعل كل سيدة على وشك الوضع .. توقف مبحلقا أمامه إلى لا شىء ترك كتفيهما وأمسك بطنه.

أخذتاه .

النسوان اللائى لا يشغلهن شىء إلا الضحك بدون سبب إلتففن حول أنفسهن بعيدا عن (إنجيله) وغرفة الوضع يضحكن ويتغامزن ويحللن الوضع.

البنت الشقية فى غفلة منهن مستغلة الظلام .. تسللت واقتربت والتصقت بهن .. سمعت تعليق (حزبية) التى لا تعرف الخجل ولا تستحى .. خرجت مسرعة تعدو حافية تقهقه وسط البيوت والليل حالك ووصلت إلى دارها تلهث وتنهج فاستقبلتها أمها قائلة .

تفشخين ضبك كالحمار الذى يوشك على النهيق أخبارك يابنت أبيك.

خالى جاءه المخاض .

هربت البنت قبل أن ينالها أى مقذوف .. اختفت فى ظلام القرية ، لم تستطع أمها أن تلحق بها فلم تملك إلا السباب .

يابنت المسطول الأكول .

عادت إلى حجرتها تمسح دموعها (زراج) بعد أن تأكد أن (سفورة) دخلت حجرتها وارتمت على سريرها التفت إلى صديقه الزير الكبير فصار مضجعا على جانبه الأيسر .

- أح . ح . ح . ح . زهقت منها ومن الفقر أوووف دفع يمينه من كتفه لأن يسراه تحته .. أطلق ثلاثة أصابع مشروعات .. أما السبابة والإبهام فهما على هيئة أفقية مهددا ناسه .. ليشرح القضية لصديقه الزير الحيادى البارد الكبير والمحتفظ بطاقيته الخشبية فى وقار

والله العظيم ياشيخ .

لم يستكمل تهديده فقد كبس عليه الخدر فهبط يمينه ليرتخي على كتفه اليمنى حيث أنه مستلقى على جانبه الأيسر ونام .

هذه النهاية المفتوحة العذبة الساخرة البسيطة بساطة الحدوتة الشعبية التى تنتهى بالنوم تطرح فى دلالتها البعيدة الأسئلة عن مأساة أهل النوبة المصريين، لخصها (حجاج أدول) ببصيرة واعية فى كلمات العمدة الحزينة فى حواره مع الخوجة (المعلم) (كلودا) .. (نحن قوم غرقت أراضينا فغرق الأمل منا اتركنا ياكلودا نعيش أيامنا الباقية حسبما نريد دعنا نتسطل فلا نحس بسكين الذبح وهى تذبحنا اتركنا اعمل معروف) .

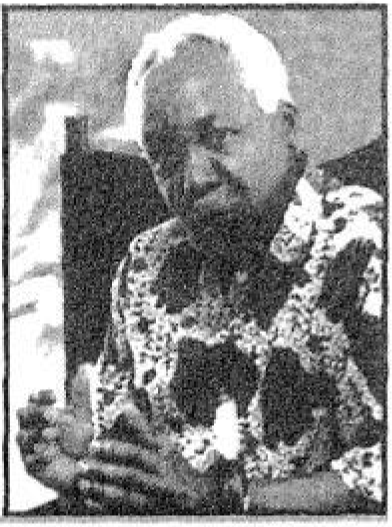
فيجيء الرد الحاسم المستنير المشير لطريق الخلاص والمستقبل على لسان الخوجة (كلودا) .

ياعمدة .. لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون لا تيأسوا، الغرق الحقيقى ليس غرق الأرض ياهووى .. الغرق الحقيقى هو غرق إرادة الحياة ياناس .

وبهذه الكلمات الحاسمة المضيئة لدلالة النص الروائى يطرح (حجاج أدول الحفيد .. الحامل لتراث النوبة العريق وسر تكوينها الحضارى المتراكم .. الفرعونى والقبطى والإسلامى والمنتمى بحميمية لأهله وعشيرته .. بطرح دليل وطريق الأمل .. فى تراجيديا قهر واستلاب قوى الطبيعة والضرورة وهيمنة نهر النيل ومشروعات الشمال للتنمية لحياة النوبة فخلاصها فى إرادة وفرح وبهجة الحياة .

وبهذا نكتشف فى بساطة ويسر الجوهر الحقيقى العميق لهذه الرواية الفائقة المحكمة البناء خلف قناع البجورى الجسى، الأمثولة والخرافة والأسطورة المدهشة وتصبح واقعة وحدث حمل (إنجيله) المخنث المتخيلة اللاهية الساخرة ستارا يخفى أعماق مأساة ومصير أهل النوبة الفقراء المهمشين البسطاء الطيبين ملح الأرض .





نيريرى
ملك الحكمة

بقلم :
عايدة العزب موسى

●● توفى فى مستشفى سان توماس بلندن فى ١٤ اكتوبر ١٩٩٩ ، الرئيس التانزانى السابق «جوليوس نيريرى» عن عمر يناهز ٧٧ عاما . ونشر خبر وفاته فى أسطر قليلة لا تتناسب مع دور هذا الزعيم الافريقى العظيم الذى يعد بحق من أبرز زعماء الاستقلال الوطنى والتنمية الشعبية فى افريقيا . وسوف يذكر فى تاريخ افريقيا الحديث بانه أبو الأمة التانزانية ، كان بطلا ورجل دولة وصانع سلام ومثقفا وعملاقا بكل المقاييس ●●

أطلق عليه شعبه «الفيلسوف ملك الحكمة» ، وأحبه الناس خارج بلده بمثل ما أحبوه فى داخلها ، فهو شخصية كاريزمية اهتمت بالجانب الأخلاقى فى التصرفات والسياسات بشكل متفرد ، وقاد على مدى ٢٤ عاما أكبر دولة فى شرق افريقيا وتنحى عن السلطة طواعية وبإرادته عام ١٩٨٥ . ورغم اعتزاله الحكم ظل يسيطر على العقل الجماعى للتانزانيين ولأهالى شرق افريقيا مدة ١٥ سنة اخرى تلت ابتعاده حتى رحيله . وعلى مدى حياته كلها كان رجلا بسيطا وكان واحدا من الرؤساء الافريقيين القلائل الذين تركوا السلطة بإرادتهم ،

رغم انه عرف ان من سيخلفونه ليس لدى أي منهم كفاءته القيادية ولا شخصيته الكاريزمية، استقال وذهب الى مزرعته المتواضعة في بوتاياما واستمتع بالزراعة وبأن يلعب دورا في الحياة الريفية، وبقى تحت الطلب باعتباره رجل دولة عالميا ووسيطا في المشاكل الافريقية والدولية .

والسؤال الذي يحتاج الى اجابة كيف استمر نيريري يحوز هذه المنزلة المبجلة طوال سنوات حكمه ومااتلاها . الاجابة ببساطة انه على خلاف الحكام الافارقة التقليديين لم ينهب ثروة بلاده، وعاش حياة تتصف بالتقشف ولم يغير منزله البسيط في دار السلام طوال سنوات رئاسته التي استمرت ٢٤ عاما. وثانيا انجز الوحدة الوطنية لتانزانيا، فرغم وجود ما يبلغ ١٢٠ شعبا مختلفا استطاع نيريري ان يربط بينهم ويجعلهم شعبا متلاحما بشكل واحدا من اقوى الأمم في القارة، واليوم فان شعب تانزانيا يتكلم لغة واحدة هي (السواحيلي) وتندر فيه التوترات القبلية والعشائرية التي تعم شعوب القارة من مشرقها لمغربها، وذلك بفضل روح «الأندوجو» أي روح الأخوة التي أشاعها نيريري، وهذا ما بوأه مكانة أبي الأمة وظلت المحافظة على الوحدة والاستقرار هي مهمته الأولى. وثالثا أقام وحدة بين بلده تنجانيقا وجزيرة زنجبار ودمجهما في بلد واحد يحمل اسم جمهورية تانزانيا، وتكاد تكون هذه هي الوحدة الوحيدة التي تمت في افريقيا واتسمت بالاستمرارية. ورابعا استطاع ان يسيس جيش تانزانيا وحمى بلده من الانقلابات العسكرية. وخامسا قام بدور الوسيط في الكثير من المنازعات في منطقة البحيرات الكبرى بوسط افريقيا .

ونيريري من قبيلة زاناكي، وهي من أصغر قبائل شمال تنجانيقا، وكان والده زعيما لهذه القبيلة الصغيرة الفقيرة، وظل نيريري يرعى غنم ابيه حتى سن الثانية عشرة عندما قرر والده ان يعلم ابنه. وفي المدرسة الابتدائية ابدى ذكاء وفطنة لفتت انتباه اساتذته وحثوه على مواصلة الدراسة الثانوية في مدرسة سان فرانسيس في دار السلام، ثم التحق بجامعة ماكريري حيث حاز على دبلوم التدريس، ثم سافر الى بريطانيا ليصبح الطالب الافريقي الأول من شرق افريقيا الذي درس في جامعة ادنبرج.

في بريطانيا اثارت دراسته والاقامة فيها فترة من الوقت اهتمامه بالاشتراكية الفابية الانجليزية (اشتراكية حزب العمال البريطاني) وشغلت المحور الاساسي في تفكيره، وتأثر بأفكار الزعيم الهندي المهاتما غاندي وخاصة تعاليمه في التصدي للاستعمار بالمقاومة السلبية واللاعنف. وهكذا امتزجت الفابية والغاندية برؤى واحلام الشاب الافريقي لتشكل معا الموقف الفكري لنيريري ولتكون دليله النظري لتحقيق أحلام

الفردوس الافريقى فى تانزانيا. وقد تبلور هذا الموقف الفكرى فيما عرف بنظرية «الأوجاما» وهى الاشتراكية على الطريقية الافريقية المرتكزة على القرى الجماعية والاعتماد على الذات فى التنمية.

تاريخه السياسي

فى بداية الخمسينات أسس مجموعة من الضباط الاستعماريين جمعية فى تنجانيقا سميت «جمعية تنجانيقا الافريقية» لكى تكون منتدى للحوار للافريقيين، واهتم نيريرى بهذا الأمر وانضم اليها وشكل فرعا لها وصار رئيسه، وقد نظر نيريرى لهذه الجمعية باعتبارها خطوة فى طريق تكوين حزب حقيقى.

وفى اليوم السابع من الشهر السابع (٧ يوليو) عام ١٩٥٤ اسس نيريرى حزب الاتحاد الوطنى الافريقى لتنجانيقا (حزب التانو) وصار أول رئيس له. وفى عام ١٩٥٩ ثار الشعب التنجانيقى كغيره من دول القارة مطالبا بالاستقلال ولكن الحكومة الاستعمارية ذلك الوقت كانت تشعر بأن الافريقيين غير مؤهلين لهذا المطلب فوضعت نظاما معقدا للاستفتاء على الاستقلال بغية حماية الأقليات، فخصصت عشرة مقاعد لكل من الافريقيين والأوربيين والأسيويين وكل صاحب صوت أيا كان لونه عليه أن يصوت لشخص واحد من هذه الجماعات العرقية، ورغم وجود المرشحين الآسيويين والأوربيين فان الكل أيد حزب تانو.

لم يعارض نيريرى السلطات الاستعمارية فى طريقة هذا الانتخاب الذى يؤكد على الاقليات ولكنه أصر أن تكون الانتخابات القادمة بالاقتراع العام وبغير تمييز عرقى او قبلى أو عقيدى.

وفى العام التالى فى اغسطس ١٩٦٠ جرت الانتخابات بطريقة مباشرة حيث حصل حزب التانو على ٥٨ مقعدا من مجموع ٧١ مقعدا. وفى اكتوبر من العام نفسه اعطيت البلاد حكما ذاتيا واصبح نيريرى زعيم حزب التانو اول رئيس وزراء فى البلاد.

فى ذلك الوقت كان نيريرى المثالى الحالم مهتما بان تشارك تنجانيقا استقلالها مع جيرانها فى كينيا واوغندا، لذلك أخر بإرادته إعلان استقلال بلاده ليحصل الآخرون على الاستقلال معا.

واحتفلت دول شرق افريقيا بالاستقلال الذى اعلن فى ٩ ديسمبر ١٩٦١ واصبح نيريرى رئيسا للبلاد. وفى ٢٦ ابريل ١٩٦٤ نجح نيريرى فى دمج تنجانيقا مع جزيرة زنجبار فى بلد واحد وتمت الوحدة على اساس أن يكون لزنجبار حكم ذاتى ويكون لها رئيس مستقل فضلا عن رئيس الاتحاد. وفى عام ١٩٧٧ صدر دستور الوحدة الذى لا يزال ساريا.

فلسفة نيريري

يمكن أن نلخص حكم نيريرى فى ثلاثة عناصر اساسية هى الأوجاما

ونظام الحزب الواحد وتسييس الجيش وتنوعه ودمجه فى المجتمع .

كانت الاشتراكية بالنسبة لنيريرى تعنى تنمية الثروة واصلاح التعليم ورفع مستوى المعيشة للجماهير، وكان هذا يعنى أن الاهتمام يجب أن يتوجه الى الاكثر فقرا وهم فى المناطق الريفية وليسوا فى المدن. وقد رأى انه لا يستطيع ان يستأصل الفقر فى بلده المتخلف الواسع الأرجاء بواسطة الوسائل الرأسمالية التقليدية، وهو لم يكن مستعدا لأن يضع تانزانيا تحت نير السيطرة الاقتصادية للاتحاد السوفييتى، ومن ثم نظر فى طريق ثالث وظن ان تانزانيا تستطيع ان تسير فى طريق خاص بها باستخدام التعاون والاكتفاء الذاتى مما يتركز على المزارع الريفى، فابتدع مفهوما جديدا هو الأوجاما أى الأسرية، وفيها يمكن للفلاحين ان ينتجوا زراعاتهم ويقوموا بالتعليم الابتدائى والخدمات الطبية بالتعاون والاعتماد على النفس. وكانت هذه فكرة ثورية غير مسبوقة فى افريقيا المعاصرة .

الاوجاما

شرح نيريرى معنى الاوجاما بانها تعنى باللغة السواحيلية «الاسرية» اى علاقات الاسرة ذات الجذور العميقة فى التقاليد الافريقية، وبناء الأمة يعنى بناء الجماعة بواسطة الروح الأسرية التقليدية. ومفهوم «الأسرية» يتضمن ثلاث خصائص أساسية، المساواة والتعاون والعمل، فالأوجاما لا تعترف بالطبقات سواء كان التقسيم الطبقى معتمدا على ملكية وسائل الانتاج او على العلاقات العنصرية ولكنها تؤكد معنى المساواة الانسانية وهى تتطور من خلال جماعية الانتاج وتمجيد العمل وتدين الكسل. ومفهوم الأسرية يضع الفرد فى بؤرة اهتمامه وهو لا ينظر للفرد منعزلا عن غيره بل كعضو فى الجماعة فيهتم كل برفاهية الآخرين. والفرق بين الأوجاما والاشتراكية الأوربية ان الاخيرة هى وليدة الثورة الزراعية والثورة الصناعية وان الاوجاما تعارض الرأسمالية التى تنشد بناء المجتمع على اساس من استغلال الانسان للانسان، وهى تعارض الاشتراكية بمفهومها السائد الذى ينشد بناء المجتمع على اساس فلسفى يرى حتمية الصراع بين الانسان والانسان. أما الاوجاما فهى «موقف فكرى» موقف يعترف بالمساواة الانسانية ويتجنب المشاعر الطبقية والاستغلال ويركز على العمل الاخلاقى، فهى تعلن الحرب على غريزتين انسانيتين غريزة تجميع الثروة والسيطرة على الآخرين من خلالها وغريزة الخمول والتطفل على جهد الآخرين.

وتمنع تقاليد الاوجاما على القادة تكوين الثروات وامتلاك الأسهم فى الشركات الخاصة وامتلاك المنازل بقصد تأجيرها، وتمنع بوجه عام ان يتقاضى اى

فرد فى مركز قيادى اى دخل خلاف مرتبه. وقد اظهر العمل فى حزب تانو وقيادات الحكومة ان الأغلبية الغالبة قد التزمت بهذه المبادىء فمن بين ٢٠٣ أعضاء فى البرلمان لم يفشل الا اثنان فقط فى مراعاة هذه الضوابط .

وقد تم تأميم المؤسسات الصناعية والتجارية عام ١٩٦٧ كتطبيق لمبدأ الملكية الجماعية والعامة لمصادر الثروة الوطنية وكوسيلة لنزع أية جذور لتطور الطبقة الرأسمالية فى تانزانيا (وقد بدت بعد التأميم بعض ظواهر القصور فى تسيير هذه المشروعات فى الانتاج).

اما قرى الاوجاما فهى الوحدات الجديدة التى يجب أن يتحول اليها الريف اذ تأتى الاسر من عزلتها لتحيا جنبا الى جنب فتعمل معا وتتقاسم ثمار عملها ويقدم الحزب والحكومة الخدمات المختلفة كإنشاء المدارس والمستشفيات وشق الطرق وتقديم الجرارات والمخصبات الزراعية وكل الخدمات الاخرى .

ولكن الاوجاما والتعاونيات الزراعية لم تنجح، فالزراعة فى تانزانيا كغيرها من الدول الافريقية بدائية ومتخلفة وادخال الوسائل الحديثة والزراعة على المجال الواسع والعمل الجماعى لم يألفه الفلاحون، فالفلاحون يريدون ان يعملوا لانفسهم ولأسرهم وليس للجماعات الاكثر بعدا نسبيا ولذلك لم يتعاونوا ولم ينتجوا انتاجا متناميا .

وعندما وجد نيريرى انه لا يستطيع ان يقنع الناس بالانتاج الجماعى لجأ الى سياسة استخدام القوة ففرض النظام الجماعى وحاول ان ينتزع مليونى مزارع بالقوة ويدفعهم للقرى الجماعية حيث افترض انهم يمكنهم ان يقوموا بخدمات مركزية بالمساعدة والنصيحة ودفع الناس للعمل فى مزارع الدولة وتأميم انتاج المزارعين.

ولكن كل ذلك فشل فقد كانت الدوافع مفقودة، وكانت البنية التحتية من طرق وجسور ومصادر طاقة مفقودة، وكان التدريب ناقصا وصارت تانزانيا اكثر فقرا بعد تجربة الجماعيات عما كانت قبل ذلك (وان نجحت فى نشر التعليم الابتدائى والرعاية الصحية) .

يضاف الى ذلك ان الاقتصاد التانزانى حورب بتخفيض سعر البن المحصول الرئيسى للبلاد وعزوف الدول الغربية المستوردة له عن شرائه، وفرض صندوق النقد الدولى تخفيض العملة التانزانية فانهار الاقتصاد الوطنى وفشلت سياسة الاوجاما والسياسات الاشتراكية التى آمن بها نيريرى. وقد اعترف نيريرى بفشله فى تجربته الكبرى قبل ان يترك السلطة عام ١٩٨٥ بمدة طويلة، كما فشل كل المثاليين امثاله الذين حاولوا شق طريق ثالث للتطور الاقتصادى، ولم يكن امام الحكومات

المتعاقبة بديل الا ان تبتلع الدواء الذى وضعه صندوق النقد الدولى . وكان تعليق نيريرى «ان صندوق النقد الدولى قد صار بديلا عن الاستعمار الامبريالى، انه الآن يعتبر أداة لامبراطورية اقتصادية تسيطر على اقتصاديات هذه الدول وسيظهر لدول العالم الثالث يوما انهم ليسوا احرارا وعليهم البحث عن وسائل اخرى لكفاحهم» وقد صدقت نبوءته.

نظام الحزب الواحد

ان النظام السياسى يعتبر نظاما جيدا اذا نجح فى ان يقدم اقصى قدر من الاستقرار والوحدة والسلام والأمن فضلا عن تقديمه درجة مقبولة من مستوى المعيشة المادى للغالبية العظمى من السكان، وفى الوقت نفسه يحافظ على العدالة والحرية والحق فى ابداء الرأى فى القرارات التى تؤثر فى حياة المواطنين، وان احسن شكل للديمقراطية هو الشكل الذى يمكنه انجاز هذه الاهداف سواء كان حزبا واحدا او احزابا متعددة.

وقد اختار نيريرى نظام الحزب الواحد وكان هذا هو النظام السائد فى جميع الدول حديثة الاستقلال فى الستينات، وفى تصوره ان تانزانيا لا تحتاج بشكل مباشر الى نظام تعدد الاحزاب بقدر ما تحتاج الى تنشيط واسع للتكوين الديمقراطى فى اطار الحزب الواحد مع تبنى سياسات اقتصادية مرنة تتضمن التشجيع المنضبط للمبادرات الخاصة سواء فى المجال المحلى أو المجال الدولى. وهنا يقول نيريرى «أنا لست ضد نظام تعدد الاحزاب ولكن القول بانه اكثر النظم صلاحية لتانزانيا هو قول فيه تبسيط شديد لمسألة بالغة التعقيد، وهو قول ساذج ومضلل، ان نظام تعدد الاحزاب اثبت نجاحه فى البلاد التى تعتمد على قاعدة اقتصادية ثابتة وقوية، حيث يكون الباعث للعمل السياسى لدى معظم الناس هو تحقيق الذات، اما من حيث يكون الفقر هو القوة الاساسية التى تدفع للاهتمام بالسياسة فسيكون من الصعب احتمال المعارضة لأن الهجوم هنا لا يكون على آراء الانسان ولكن على حياته نفسها، وتانزانيا لم تبلغ بعد التنمية الاقتصادية التى تجعل الناس ينجذبون للسياسة بمثل الأهداف الأوربية.

وبالنسبة لتانزانيا فان المحافظة على الوحدة والاستقرار هى المهمة الأولى لأى سياسة أو قرار يهدد الوحدة يتعين الابتعاد عنه ونظام تعدد الاحزاب يحمل بذور تحطيم وحدة الوطن.

ولكن رياح التغيير نحو الديمقراطية اجتاحت افريقيا فى التسعينات وربطت المعونات الخارجية بالتعددية الحزبية، وهذا ما أجبر تانزانيا كغيرها من الدول الافريقية ان تطرح سياسة الحزب الواحد، وفى فبراير ١٩٩٠ ـ بعد ان ترك نيريرى الحكم بخمس سنوات دعا نيريرى بصفته رئيس حزب شاما شاما بندوزى

(الحزب الوحيد الحاكم) دعا اهالى تانزانيا للمشاركة فى الجدل المفتوح حول موضوع تعدد الاحزاب. ووافقت الحكومة على تعديل بعض مواد دستور جمهورية تانزانيا ليسمح بالتعددية وفتح الباب للتنوع الحزبى، ولكن المشكل ان غالبية التانزانيين وبخاصة الذين تضمهم شريحة العمر بين ٢٠ ـ ٤٠ سنة لم يعرفوا قط اى نظام سياسى أخر غير الحزب الواحد، ومن هنا فان وجدت احزاب سياسية فى تانزانيا فهى لا تستطيع بعد ان تتداول السلطة مع الحزب الحاكم.

تسييس الجيش وتنويعه

بعد أن تولى نيريرى السلطة بقليل واجه انتقادات تتعلق بقيادته، وفى ديسمبر ٦٣ استقلت زنجبار وهى جزيرة تقع على ساحل تنجانيقا بعد شهر واحد فان حكومتها الافرو عربية ذات الخبرة أطيح بها وظهرت هستيريا الانقلابات تنتشر على طول شرق افريقيا . وفى تنجانيقا تمردت كتيبة تنجانيقا الى حد هدد حكم نيريرى، وقد اضطر نيريرى للاختفاء مدة وكان من الواضح انه مشلول عن اتخاذ اى قرار، ولم يرغب ان يستدعى القوى الاستعمارية القديمة لتحميه خاصة ان الجنود المتمردين طلبوا شحنات اسلحة من نظام الجزائر الوليد .

ولكن نيريرى سرعان ما ظهر وفصل الكتيبة الاولى من كتائب المتمردين فى تنجانيقا وشكل قوة دفاع شعبية جديدة احلها محلها، ثم اتت العملية السياسية بعدها التى تحول بها الموقف لصالحه. فقد ساعد الساسة فى زنجبار على استعادة السلطة ثم ربط زنجبار بتنجانيقا مكونا جمهورية تانزانيا المتحدة تحت رئاسته .

بعدما حدثت هذه التمردات فى الجيش التى شملت دول شرق افريقيا كلها فى الستينات اضطر القادة الى اعادة التفكير فى نمط الجيوش الذى تريده وكيف يمكن منع احداث اضطرابات تشمل الأمة. وتوصل نيريرى الى نظرية تسييس الجيش وتنويعه ودمجه فى المجتمع، فإلى جانب الفروع التقليدية للقوات المسلحة : البرية والجوية والبحرية فقد أوجد فروعا جديدة مثل الميليشيات الشعبية والخدمة الوطنية، وهذه الفروع تعطى تدريبا فى القدرة على الهجوم والقتال مما يعنى ان استخدام القوة لم يعد مقصورا على الجنود المحترفين، وبذلك أصبح من الصعب على فريق واحد من القوات المسلحة أن يقوم بانقلاب ناجح كما أن اجماع الفروع كلها وانتظامها من أجل هذا العمل أمر صعب جدا.

ثم أقدم على خطوة أخرى وهى عملية تسييس الجيش واندماجه وصار لممثلى الجيش مقاعد فى كل مؤسسة حكومية وأعطوا وظائف مدنية، وبعض المدنيين أرسلوا للحصول على تدريب عسكرى عال وعادوا إلى وظائفهم مع صفوف ضباط الجيش، وبذلك صارت الحكومة مدنية وعسكرية فى نفس الوقت. وحتى الآن فإن الجنود جميعا هم أعضاء فى حزب شاما شاما بندوزى، ورغم أن نيريرى اقترح - مع النظام الديمقراطى الجديد - أن يسمح للجنود بالاختيار أن يبقوا فى الحزب أو ينضموا إلى جماعات المعارضة أو ينصرفوا بعيدا عن الانتماءات الحزبية، فهو يرجح أن يظل رجال العسكرية مرتبطين بالحياة السياسية فى البلاد، فهذه الطريقة حسب قوله هى التى استطاعت بها تانزانيا أن تتفادى الانقلابات منذ استقلالها عام ١٩٦١.

الابقاء على الوحدة

تبقى أخيرا العقبة الكبرى التى قد تواجه تانزانيا بعد غياب نيريرى وهى الابقاء على الوحدة مع زنجبار وتفادى النزاعات الانفصالية التى بدأت تطفو على السطح. ولاشك أن وحدة تنجانيقا مع زنجبار تعد أنجح وحدة شهدتها القارة الأفريقية فى العصر الحديث. ولكن داخل جزيرة زنجبار يوجد من يعتقد أن الظروف قد نضجت لكى ينفصلوا عن تنجانيقا وينشئوا حكومتهم الخاصة. وكذلك داخل البلد الأم تنجانيقا ففى عام ١٩٩٥ فإن خمسين من أعضاء البرلمان عرفوا باسم «نادى الخمسين» قرروا أن يخوضوا معركة ضد الوحدة فى البرلمان وكان هدفهم هو أن يجعلوا موضوع الوحدة مجالا للاستفتاء الوطنى، وعندما زجرهم نيريرى ألغوا الحملة.

ومع غياب نيريرى فسيكون الوضع مختلفا، وإن أول الأحداث التى ستظهر فى انتخابات عام ألفين التى ستأتى سريعا هو موضوع الوحدة.

لقد ظل نيريرى مسئولا عن أسطورة الوحدة والاستقرار فى البلاد حتى بعد أن ترك الحكم، بقى كما كان يقوم بدور المراقب وظل قوة خلف المسرح السياسى، ومن النادر ما كان يصدر أى قرار أو أى تعيينات فى القمة من غير أن يكون لنيريرى قول فيها.

ومن الناحية الدولية بقى دوره كما كان وهو فى السلطة، وحتى فى النهاية عندما مات فى مستشفى بلندن بسرطان الدم فى ١٤ أكتوبر ٩٩ كان مطلوبا فى أفريقيا وفى العالم باعتباره وسيطا ومفوضا. ويعتقد المحللون انه يصعب ايجاد بديل عن نيريرى فى عملية السلام التى تقوم بها الأمم المتحدة فى بوروندى وانها اصيبت بنكسة خطيرة لغيابه .

سيبقى نيريرى مذكوا باعتباره بطلا افريقيا وباعتباره الأب المحبوب لوطنه .

التكوين

حققت جانباً من أحلامي
عن طريق مواصلة البحث العلمي





هواية السباحة منذ الصغر
وكذلك ركوب الدراجات .



ولدت سنة ١٩١١ فى القاهرة ، حيث جاءت والدتى إلى بلدها لكى أولد فيها، أما والدى وأسرته فمن الإسكندرية، التى عشت فيها طفولتى، حيث عشقت البحر فيما بعد، وتفوقت فى السباحة وحققت فيها العديد من البطولات.

لم يكن فى الإسكندرية فى ذلك الوقت سوى مدرسة ابتدائية حكومية واحدة، هى مدرسة رأس التين، وقد التحقت بها فى بداية مشوارى التعليمى ، ورفض والدى أن ألتحق بمدرسة «فيكتوريا كوليدج» القريبة جدا من منزلنا، حيث رفض إلحاقى بمدرسة أجنبية على الرغم من وجود أعداد كبيرة من الأجانب بالإسكندرية، حتى أن شارع سعد زغلول كان يسكنه كله جاليات أجنبية كثيرة ، حتى البائعون فى المحال والمتاجر كانوا كلهم من الأجانب.

التحقت بعد ذلك بمدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية، وطوال هذه المرحلة، ألقيت اهتمامى على الرياضة، وعلمنى أبى السباحة وركوب الدراجات والصيد حيث كان صياداً ماهراً، وكانت الطيور المهاجرة والبط تجىء إلى الإسكندرية فى فصل الشتاء .

ولما انتهيت من دراستى الثانوية ، كان لابد أن أكمل دراستى العليا بعيدا عن الإسكندرية التى لم يكن بها جامعات فى ذلك الوقت، واضطررت للانتقال إلى القاهرة ، لأعيش مع عائلة والدتى فى حى الروضة فى عام ١٩٢٩، والتحقت بمدرسة المهندسخانة وتخرجت فيها فى

عام ١٩٢٣ بتفوق، حيث كانت الدراسة بها ٤ سنوات فى ذلك الوقت وكان أول الدفعة ميشيل قسطندي، كما كان سيد كريم طالبا بالكلية نفسها، وكنت أسبقه بسنة دراسية وكان طالبا مجتهدا ثم أصبح من المهندسين الممتازين، وهو رجل أجله وأحترمه .

وسوف يدهش الكثيرون حينما يعلمون أن عدد المتخرجين من مدرسة المهندسين عام ١٩٢٣ كان : سبعة فى قسم الميكانيكا وسبعة عشر فى قسم الكهرباء و ٢٥ فى الهندسة المعمارية، وما يقرب من ٧٠ مهندسا فى مختلف شعب القسم المدنى، أى حوالى ١٢٠ مهندسا فى كل القطر المصرى، والشىء الغريب أن عدد خريجى عام ١٩٢٤ ، كان أقل من العام السابق!

كان الحلم الذى أطمح فى تحقيقه هو أن أعين بعد تخرجى فى وظيفة معيد بمدرسة الهندسة الملكية، حيث إن ذلك يفتح لى الطريق بعد ذلك للدراسة فى الخارج ، والحصول على درجات علمية أكبر ، وكنت أطمع كثيرا فى الحصول على درجة الدكتوراه، ولكن لم يشفع لى حصولى على المرتبة الثالثة على الدفعة بامتياز، فقد عين فى الوظائف الخالية ثلاثة من زملائى ولم أكن من بينهم..

وكانت الأزمة الاقتصادية فى ذلك الوقت أزمة طاحنة حتى أن ابن محمد محمود باشا رئيس الوزراء لم يعين !

وسافرت إلى فرنسا على نفقتى الخاصة لاستكمال دراستى العليا، وتخصصت فى فرع من فروع الهندسة النادرة جدا والتى لم يكن يهتم بها أحد فى مصر وهى كهربة الخطوط الحديدية فى مترو الأنفاق، وكنت أول مهندس مصرى يحصل على مثل هذا التخصص، ويشاء القدر أننى كلفت فى مشروع التخرج من مدرسة الكهرباء العليا بباريس بدراسة كهربة خط سكة حديدية، كانت مواصفاته صورة طبق الأصل من مواصفات خط حلوان، والذى كانت وزارة المواصلات المصرية مهتمة بكهربته فى ذلك الحين.

... عدت إلى مصر بعد الحصول على الدبلوم ، وكانت الأزمة الاقتصادية العالمية مازالت قائمة، والتى تسببت فى الشلل الاقتصادى فى العالم كله بما فى ذلك مصر .

هنا تذكرت صديقى مصطفى مقبل ابن محمد باشا مقبل محافظ الاسكندرية، والتقيت به وطلبت منه أن يرجو والده فى مساعدتى للحصول على وظيفة أعمل بها.



حسن رجب وزوجته



نياشين كثيرة حصل عليها فى رحلة حياته

وفعلا حدد لى موعدا مع حسين سعيد المسئول عن إدارة النقل المشترك بالاسكندرية، والذى رآنى أدخل مع محمد باشا مقبل ولم يهتم بى فى بداية اللقاء ، بل كان اهتمامه منصبا على الباشا لكنه قبيل انصرافنا من مكتبه سألنى بقوله : ما هو الفرع الذى تخصصت فيه أثناء بعثتك فى فرنسا ؟..

قلت : كهربة مترو الأنفاق، وبدأ ينظر إلى بنوع من الاندهاش!.. فى هذه الأثناء كان حسين سعيد مهتما بكهربة خط حلوان وشاءت الظروف أن يكون المشروع التى حصلت به على الدبلوم ينطبق تماما على مشروع كهربة خط حلوان ، سواء فى المسافة التى تصل إلى ٢٥ كيلو مترا، أو المسافة بين المحطات.

وسألنى الرجل على الفور ، متى تحضر لى هذا المشروع؟

قلت له : الآن وفوراً يمكننى الذهاب إلى منزلى وإحضاره وفضل أن أحضره فى اليوم التالى، وبعد أن رآه قال لى سوف تتسلم عملك الآن ، وهنا آمنت بأن الحظ حينما يبتسم لك فإن له دورا كبيرا فى تغيير حياتك ، وأنا فعلا فى رحلة

حياتي كنت محظوظا، ولكن أبذل الجهد والعرق وأعمل بلا كلل وبدأب شديد.

ولأنني من الاسكندرية وكنت صديقا لمصطفى مقبل ابن محافظ الاسكندرية، وتشاء الظروف أن مصطفى مقبل خطب ابنة عبد الجليل سعد كبير مهندسي البلدية، وتعرفت على شقيقتها زينب والتي تزوجتها فيما بعد، وأنجبت ابننا الوحيد عبدالسلام، وهو طبيب تخصص في فرع نادر من فروع الطب وعاش طويلا في الخارج وعاد إلى مصر ليتولى الإشراف على القرية الفرعونية ومعهد البردي بعد أن تقدمت بي السن!

● بداية العمل الحقيقي ●

عينت مهندسا للصيانة في محطة ترام الرمل بالإسكندرية وطوال حياتي كنت أعشق العمل وأتفانى فيه، وأحبني حسين سعيد لحماسي الشديد ووثق بي على الرغم من صغر سني وقلة تجربتي في ذلك الوقت.

وتشاء الظروف أن أسجل رسالتي للدكتوراه في نبات البردي وتلك قصة أعود إليها خلال رحلة التكوين.

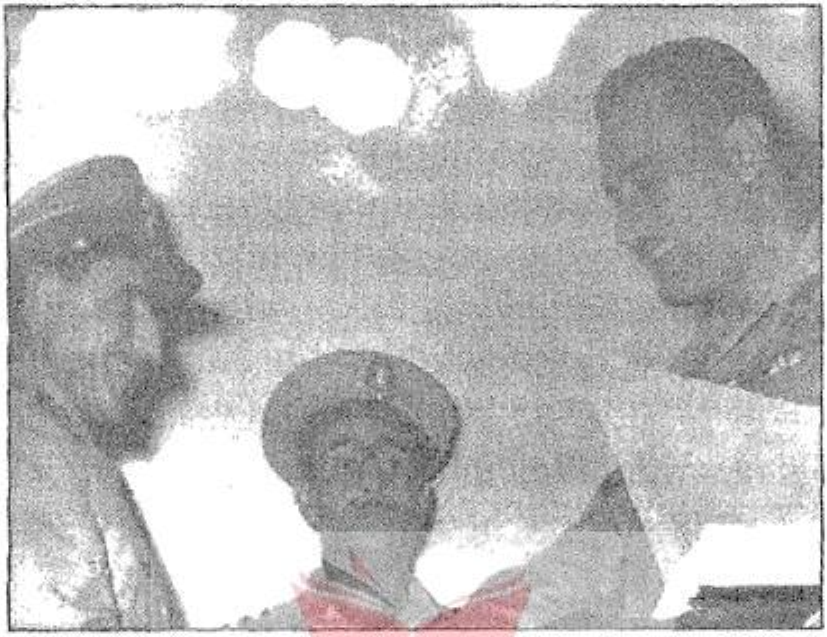
كان كل اهتمامي بالأمور الهندسية، ولم أهتم كثيرا بالناحية الثقافية.

ففيما يختص بهندسة الكهرباء، كنت دائم البحث عن كل جديد في هذا الميدان، وخلال عملي كمسئول عن صيانة خط ترام الرمل بالاسكندرية، اكتشفت شيئا جديدا لم يتحدث عنه أحد من المهندسين في هذا المجال في مصر، وهو أن خط ترام الاسكندرية يقترب في بعض الأنحاء من البحر، والبحر أحيانا يبتعد عنه، ووجدت أن المناطق التي يقترب فيها من البحر، وعودة الكهرباء، ترجع عن طريق القضبان في جميع أنحاء العالم، لكن في المناطق القريبة من البحر، لا يرجع التيار الكهربائي عن طريق القضبان، ولكن عن طريق الأرض المالحة القريبة من البحر والرطوبة.

في طريق عودة الكهرباء هذه، اكتشفت أن كل المواد المعدنية المدفونة في الأرض، تتأثر من هذا التيار مثل الكابلات الموجودة في باطن الأرض حيث يؤثر عليها التيار الكهربائي حين عودته ويتلفها.

وقمت بعمل بحث كبير عن هذه الظاهرة المهمة، وفكرت في أن يكون هذا الموضوع هو رسالتي للدكتوراه، واكتشفت أن هذا يحتاج إلى استعدادات وترتيبات ودراسات شاقة وتوقفت.

وفي سنة ١٩٣٩ ظهرت في الأفق بوادر الحرب العالمية الثانية وبدأت انجلترا تنظر إلى مصر بعين الاعتبار حيث إنها نقطة اتصال مباشر بين



عبدالناصر يصافح حسن رجب

الشرق والغرب، وأن هناك احتمال حدوث حرب، وفكر الإنجليز فى كيفية الاستفادة من مصر القاعدة العسكرية، لكن حسن باشا صبرى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت كان يرى أن اتجاه الرأى العام ألا تدخل مصر هذه الحرب على الرغم من أننا سوف ندافع اسميا عن مصر، ووافق الانجليز على ألا يضغطوا على مصر فى الجانب العسكرى، لكن تساعد بالتمويل والمواصلات والأيدى العاملة والمطارات والسكك الحديدية.

وجاءت البعثة العسكرية البريطانية إلى مصر فى محاولة للاهتمام بالجيش المصرى، ولم يكن هناك مهندسون فى الجيش ، وطلبت البعثة مهندسين من خريجى كلية الهندسة.

لم يتقبل الضباط العسكريون الموجودون فى الجيش ذلك الأمر، وحدث نوع من القلاقل، ووصل ذلك إلى السراى وإلى الحكومة.

وتقرر أن يجيء الضباط المختارون من خريجى كلية الهندسة فى الترتيب بعد ضباط الجيش المتخرجين فى السنة نفسها، وأحدث ذلك خلافاً شديداً، وبدأ

الضباط المهندسون لا يهتمون بعملهم فى الجيش بعد أن رأوا هذه التفرقة من حيث التخرج والأقدمية .

وصلت هذه المسألة إلى البعثة العسكرية البريطانية ، فطلبوا مقابلة وزير الحربية ، وانتهى الأمر بتعيين مهندسين جدد، وبما أن سلاح الصيانة هو الذى طلب تعيين مهندسين ، فقد سمح بأن يتم تعيينهم من أقسام الصيانة فى الحكومة، من أقسام : الكهرباء والميكانيكا والرى وأرسل وزير الحربية منشورا لكل المصالح الحكومية يطلب أسماء المهندسين الجدد المتخرجين فى كلية الهندسة، ورشحتنى إدارة النقل المشترك للعمل بسلاح الصيانة «واسمه المركبات الآن» بالجيش، وبدأ الإنجليز كما أشرت يهتمون بتسليح الجيش المصرى وتدريبه وتنظيمه على أمل أن يحارب ضمن صفوف الجيش الإنجليزى ، ولما وجد الإنجليز عدم الرغبة من الحكومة ومن الضباط المصريين، جمدوا الوضع على ما هو عليه.

● فى الجيش●

حينما التحقت بسلاح الصيانة فى الجيش ، كانت من أبرز المشكلات التى تواجه الجيش المصرى أن عجلات المركبات كانت تغوص فى الرمال، مما يعوق حركتها تماما، ولم تكن العجلات مجهزة لمقاومة ذلك .

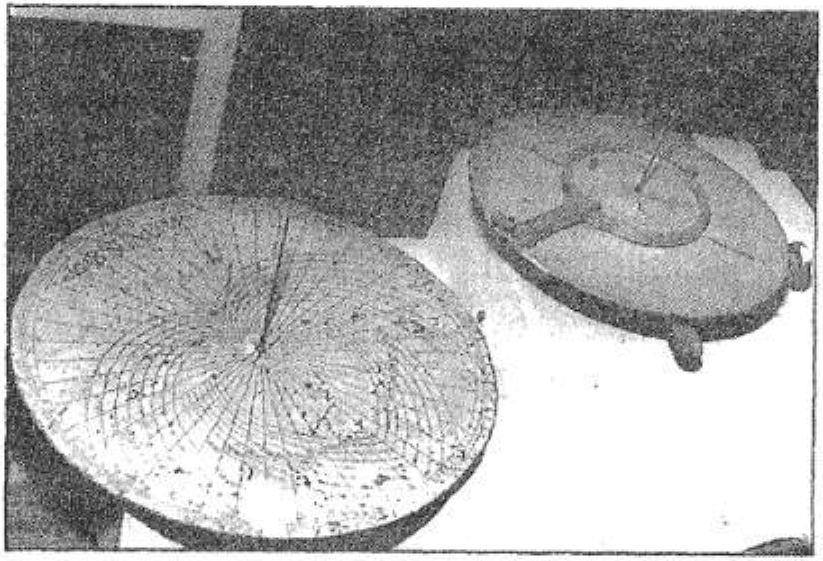
وفعلا ابتكرت فكرة جديدة حلت الكثير من هذه المشكلة، كما قدمت بعض الأفكار المهمة لتطوير معدات الجيش فى الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٥٢.

ومن ضمن هذه الأفكار : ابتكار البوصلة الشمسية والتى أطلق عليها «بوصلة رجب الشمسية» وفكرة عمل البوصلة أنها تعتمد على أشعة الشمس ومواقعها، بحيث تكون أكثر دقة وانضباطا، وتوصلت إلى تصنيعها سنة ١٩٤٢.

وقصة البوصلة أن المسئولين فى الجيش المصرى والجيش الإنجليزى، اكتشفوا أن البوصلة التى يستخدمونها ليست دقيقة، وتتأثر بالحديد الموجود فى الدبابات والعربات المصفحة وغيرها.. وكل ذلك يؤثر على عمل البوصلة.

وقد حققت هذه البوصلة نجاحا كبيرا، فهى لا تهتز أثناء سير المركبات والدبابات ، وقد استخدم الجيش الأمريكى هذه البوصلة كما استخدمها أيضا الجيش المصرى والجيش الانجليزى.

فى سنة ١٩٥٢ جاءت الثورة وكنت فى ذلك الوقت برتبة بكباشى «عقيد» ، وكانت علاقتى طيبة باللواء محمد نجيب



البوصلة الشمسية التى اخترعها د. حسن رجب وآلة طباعة ورق البردى



وجمال عبدالناصر ، وتم اختياري لكي أكون مديرا عاما للمصانع الحربية، وأنشأت ١٤ مصنعا للأسلحة والذخائر .

● في السلك الدبلوماسي ●

كنت أتنقل من عمل إلى آخر بحب وعشق شديدين خاصة وأن علاقتي بالعلم لم تنقطع أبداً، وبدأ اهتمام آخر لي في حياتي العملية ، ودخولي إلى السلك الدبلوماسي، ارتبط بالمصلحة العليا لمصر.

فقد عينت ملحقا عسكريا بسفارتنا بأمريكا ، ولم تكن هناك مهام محددة أوكلت إلى في هذا المنصب الجديد، ولكن اهتمامي كرجل عسكري ومتابع للاختراعات الحديثة ، تركز على اكتشاف القنبلة الذرية والطائرة النفاثة ، وكنت أرسل كل ما يقع تحت يدي من معلومات عن أسرار هذه الاكتشافات إلى مصر، سواء عن التسلح الذري والنووي والحرب الباردة – في ذلك الحين – بين أمريكا وروسيا ، وقوة أمريكا التي بدأت تظهر على الساحة.

وفي عام ١٩٥٥ عقد مؤتمر باندونج ، وكان نواة لمؤتمر عدم الانحياز وحضره الرئيس الصيني شواين لاي.. وعينت سفيرا لمصر في الصين بتكليف من الرئيس عبدالناصر، لأنه كان يعلم تمام العلم أن تأميم قناة السويس معناها الحرب، وبالتالي لابد من وجود حشد من الدول تساندنا وتقف إلى جوارنا، كما أن الصين ، كانت تود أن تصبح عضوا في عصبة الأمم المتحدة، وأن تعترف بها دول العالم ، بدلا من تايوان الجزيرة الصغيرة.

كان لابد للسفير المعين في الصين أن يلم بالأغراض التي ذهب من أجلها وفي مقدمتها الحصول على أسلحة وذخائر، وإعانة ومتطوعين إذا قامت الحرب، وهذا حدث بالفعل، فحينما بدأ العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ عرضت الصين ارسال عدد كبير من المتطوعين لمساندة الجيش المصري، كما أعطتنا الصين ٢٠ مليون فرنك سويسري إعانة لا ترد ، لكنها لم تستطع أن تزودنا في ذلك الوقت بالأسلحة، حيث لم تكن تنتج أي نوع من السلاح، وكانت الأسلحة ترد إليها من روسيا ، بذلت جهدا كبيرا في أثناء وجودي بالصين ، وكانوا يعلمون ذلك، وبقيت في الصين لمدة ثلاث سنوات، ثم عدت منها في عام ١٩٧٩، لأعين سفيرا في إيطاليا لمدة سنتين وفي يوغوسلافيا أيام حكم الرئيس تيتو لمدة سنتين ، وليصل عدد سنوات عملي في السلك الدبلوماسي إلى سبع سنوات .

● أنا وعبد الناصر ●

طوال هذه الفترة كنت من أبرز المقربين إلى الرئيس جمال عبدالناصر، وكانوا كلما سألوه عن شيء، أو فكروا في شيء يقول لهم اذهبوا إلى حسن رجب، وهذا أثار غيرة الدبلوماسيين وغير الدبلوماسيين ، وكنت كلما أتيت من الصين في أي مهمة من المهام يستدعيني إلى مكتبه فور وصولي إلى القاهرة.. كان رجلا نظيفا، ودقيقا في عمله ، وكان الشعب يؤمن به إيمانا مطلقا، وكان العالم كله يجله ويحترمه ، لكنه كان ينصاع في بعض الأحيان لآراء المجموعة المحيطة به، خاصة المقربين إليه، خاصة تلك المجموعة التي كلفت بعمل صاروخي الظافر والقاهر بمساعدة الخبراء الألمان، الذين كان لديهم أسرار عمل مثل هذه الصواريخ!

لكن الرئيس غضب مني حينما طلب مني العودة إلى وزارة الحربية وأن أشارك في عمل صناعة قوية للصواريخ.

لكنني تحفظت قائلا : الصواريخ هذه ليست جديدة علي، فقد عملت أيام تولي مصطفى نصرت للحربية في هذا المجال وثبت لنا من خلال التعامل مع الخبراء الألمان ، أنه لا توجد غير دولتين في العالم، تعرفان السر الخاص بهذه الصواريخ وهما الولايات المتحدة وروسيا، وإذا أردنا أن ندخل في هذا المجال، فتلك مغامرة كبرى، وينبغي أن نعمل لها كل حساب .

وشعر بأنني أحاول الهروب من هذه المهمة التي يكلفني بها، أحسست في هذه المرة الأخيرة بأنه تأثر من موقفي ، وشعرت أيضا بأن أوراقي كلها قد احترقت وانتهت صلتي به في عام ١٩٦٤، وانصرفت عني كل الأجهزة في الدولة ، لا لشيء إلا لأنني ذكرت الحقيقة ، وهي عدم قدرتنا على عمل أجهزة التوجيه الخاصة بصاروخي القاهر والظافر، وأنهما كانا خدعة كبرى.

وبذل محمود فوزي وزير الخارجية ، والذي كنت أعمل معه ملحقا عسكريا في السفارة المصرية بواشنطن، وكان هو يعمل وزيرا مفوضا، جهدا كبيرا بعد صدور قرار بتركي العمل في الخارجية، ولأنقل إلى مؤسسة الثروة المائية وأصبح رئيسا للملاحات والمصايد والأسماك، وأسطول أعالي البحار لصيد الأسماك وكان مشروعا فاشلا! وظللت في هذا المكان حتى عام ١٩٦٦.

وقبيل وفاة عبدالناصر بأسبوع أبلغني الكاتب المعروف إحسان عبدالقدوس بأن عبدالناصر قرر إصدار مرسوم بتعييني وزيرا للسياحة بعد أن تأكد له مدى إخلاصي وأنني ظلمت!

● نبات البردي
وعشقي لأجدادي●

حصلت على الدكتوراه من جامعة جرونوبل عام ١٩٧٩، وكان موضوعها نبات البردي، وبينت في هذه الرسالة كيف استمر نبات البردي في مصر حتى منتصف القرن العاشر الميلادي، ولم تكن أهمية البردي وهويات مصري قديم،

تقتصر على أنه مادة لإنتاج أجود نوع من الورق عرفته البشرية، حتى الآن بل تقول الكتابات القديمة ، إن بعض أجزاء النبات كانت تصلح لإعداد طعام شهي يؤكل مسلوقا أو مشويا، وكان يحتوي على نسبة عالية من السكريات والنشويات.

واستخدم البردي في صناعة الورق، وكان المحصول الرئيسي الثاني في مصر القديمة بعد الكتان، وكان يصدر إلى الخارج، وقد فكرت في تصنيع ورق البردي بصورة علمية ، ولكن قابلتني مشكلتان : أن نبات البردي انقرض تماما من مصر، وعدم توافر معلومات مؤكدة عن طريقة صناعته .

وذهبت إلى منابع النيل في منطقة المستنقعات بحثا عن النبات، ولكن فشلت الرحلة الأولى، لعدم معرفتي بموسم النبات أو حتى مكانه ، واضطررت للقيام بأكثر من رحلة على مدى سنتين ، حتى نجحت في الحصول على جذور صحيحة للنبات، وبدأت في استزراعها في مصر، ثم قمت ببحوث على النبات، استغرقت ثلاث سنوات أخرى، حاولت خلالها الحصول على ورق البردي وكان دافعي لكل ذلك ما رأيته في الصين من اهتمامها بصناعة الورق والتي تعد إحدى ركائز اقتصادها القومي الذي يرجع تاريخه إلى ٢٠٠٠ سنة سبقت .

وكان الفراعنة هم أول من صنع الورق منذ خمسة آلاف سنة ولا نعرف عنه شيئا لأنهم جعلوه سرا مقدسا .

ذهبت إلى السودان والحبشة والكونغو حيث يزرع البردي هناك وفعلا أحضرت نبات البردي من الحبشة وزرعته على النيل وصادفني الفشل كثيرا واستمر هذا الجهد لمدة ١٠ سنوات إلى أن حصلت على البردي المصنع وثبت بالفعل أنه أقرب ما يكون إلى البردية الفرعونية القديمة، وقمت بإنشاء معهد بحوث البردي عام ١٩٦٨ ، وتلا ذلك حصولي على الدكتوراه.. وبعد اكتشافي هذا بدأت جامعات في أوربا وآسيا تقبل على إنشاء أقسام لورق البردي، وفي هذا شهرة واسعة لمصر، ويفد الكثيرون لزيارة متحف البرديات كأحد المعالم السياحية لمصر.

كما أنشأت القرية الفرعونية على ضفاف النيل ، وكل من يدخلها يعيش بحق حضارة عمرها خمسة آلاف سنة، حيث جسدت في هذا المكان، كيف كان الفراعنة يعيشون ، ووضعت التماثيل لبعض الآلهة، وصورة طبق الأصل لمقبرة توت عنخ آمون وكل ما أتمناه أن يستمر هذا المشروع الحيوي، شاهدا حيا على حضارة المصريين القدماء.



شهادات تقديرية من مصر ومن عدد من الدول حصل عليها حسن رجب

كانت هوايتى للتاريخ الفرعونى وتاريخ مصر القديمة منذ الصغر سببا حقيقيا فى قراءاتى المستمرة عن أجدادى الفراعنة، ولذا فقد تعلمت الفرعونية، واخترعت أول آلة كاتبة بالهيروغليفية فى العالم.

وخلال هذه التجربة المثيرة فى حياتى العملية الطويلة توصلت إلى أن أى باحث إذا لم يكن مثابرا انقطع أمله فى أن يكمل ما بدأه وبالتالى لابد من مواصلة الدراسة والإطلاع المستمر وخلال سفرياتى كنت أزور كل المتاحف المهمة، خاصة ما يهتم بتاريخ الفراعنة، كما أن رحلة البحث لدى مازالت مستمرة وغرفة نومى، عبارة عن مكتبة من ثلاث مكتبات أمتلكها، بها كل ما كتب عن الهيروغليفية وكل ما يهتم باللغات المصرية القديمة كما أن لدى أعظم ورشة منزلية فى العالم تضم ألفى قطعة أعرف مكان واسم كل واحدة منها مكنتنى من عمل اختراعاتى «البوصلة الشمسية» وآلة طباعة ورق البردى ، والجهاز الذى يساعد على ترميم البردى .

وأجد سعادة بالغة وأنا أستعرض هذا المشوار، أو التكوين الذى حقق لى رئاستى الفخرية لحزب الخضر مدى الحياة، وحصولى على جائزة أكاديمية الفنون المصرية عام ١٩٨١، وعدد من الأوسمة منها: وسام النيل ورتبة البكوية من الدرجة الأولى ، ووسام الجمهورية من الدرجة الأولى عام ١٩٥٣ ووسام الجمهورية من الدرجة الأولى للمرة الثانية عام ١٩٧٩ والجائزة الأولى لأكاديمية الفنون عام ١٩٨١.

إشراقة الهلال فى عام ٢٠٠٠م

مع إشـراقـة الألفـيـة الثـالثـة .. فى يناير ٢٠٠٠م تصفحت مجلة الهلال التى عشت أنهل من نبعها الصافى الفياض، علما يُنير لى الطريق، من خلال صفوة الفكر وأعلامه فى كل المجالات .

وجدت تبويبا شائقا بدأ بكلمة المحرر التى تفيض بالتفاؤل وتبرز أهمية الدور التنويرى للهلال، وسعدت كثيرا وأنا أقرأ مقال د. أحمد أبوزيد ثم الكلمات المليئة بالرقة والعذوبة للدكتور مصطفى سويف ، ثم هذا المقال الذى يتسم بالصراحة والشجاعة للدكتور رشدى سعيد والذى يختص الهلال بكتاباته التى نتعرف منها على كثير من قضايانا الحيوية، خاصة وأن له دوره البارز فى الحياة المصرية.

ولقد أحسن «الهلال» بفتح قضية السرقات الجامعية، وهى قضية تحتاج إلى الشجاعة فى الحسم، وحتى لا تضيع هيبة الأستاذ الجامعى فى مصر والذى كان عملة نادرة حينما يسافر إلى الجامعات العربية !

وكانت المفاجأة السارة، تلك التى قدمها الهلال من خلال المقالات التى أعاد نشرها لكبار المفكرين، وكيف كانت أحلامهم لعام ٢٠٠٠م وكتبوا ذلك عامى ١٩٥٠م ، ١٩٥٩م.

الاختيار يدل على جهد ودأب من المسئول عن التحرير وهذا المزج الذى شهدناه بين أساتذة اليوم وأعلام الأمس جعلنا نستمتع حقا بوجبة دسمة ونحن نقرأ موضوع الأستاذ أحمد أمين والدكتور جلال أمين والاستاذ حسين أحمد أمين ولا نصدق أن ذلك حدث بالمصادفة، ولكنه تخطيط ذكى لمعالجة هذا الجزء الذى أمتعنا بحق.

وعدد يناير سنة ٢٠٠٠م من الهلال لم يكن مفاجأة لنا لأن الهلال مدرسة صحفية تستحق منا كل الاحترام والتقدير ويكفى أنها وصلت إلى ١٠٧ سنوات لم تتوقف وهى تؤدى دورها التنويرى المهم.. فشكرا ونرجو مزيدا من التقدم لمجلتكم الغراء .

عصام السعيد الطنطاوى

الكويت .. حولى

تــوافــق

ما ضرَّ أن تبنى قصورا من غسق
متسللا
بين انحناءات المسالك والبشر
وتحاور الطير المعاند والسماء
وجدائل الليل المضمخ بالزهور
تلقى ستورا فوق نافذة القمر
وتطرز القصص الذى
انهمرت به سحب الشتاء العابرة
فوق الوسائد والمقاعد والصور
قبل النسىء وقبل طوفان الزمن
ومن الممالك قد جلبت السندباد
ومطهمات تستمد من الشفق
لون تقادم فى الدهور
لون تقاطر فى شقوق الأرض فى صخر الألم

د. حسن عبدالحكيم
كلية بنات عين شمس

سرقة الرسائل العلمية إلى متى ؟!

تحت عنوان «طوفان الألقاب العلمية إلى أين» كتب د. إبراهيم عوضين مقالا فى عدد نوفمبر ٩٩ من مجلة الهلال، حيث تحدث فيه عن تنكّب طرق البحث العلمى الجاد والاعتماد على السرقة طريقا سهلا وقصيرا للحصول عل الدكتوراه.

وتراودنى فى ذلك بعض الذكريات ففى عام ٦٤ كنت عضوا فنيا فى قسم الترشيح بالادارة العامة للبعثات، حيث كان الحصول على درجة الدكتوراه يتم أغلبه عن طريق البعثات الخارجية التى تمولها الدولة، ولم يكن للجامعات ولا لمراكز البحوث دور فى عملية الترشيح، وإنما كان عليها فقط أن ترسل بيانات مرشحيها إلى الادارة العامة للبعثات التى تقوم هى بدور الترشيح النهائى لكل تخصص من التخصصات.

وتعرض هذه الترشيحات على اللجنة التنفيذية للبعثات لاختيار أفضل المرشحين ولا مجال للمجاملة هنا أو الشك .

وبعد أن توقفت البعثات الحكومية وباتت إدارة البعثات تعتمد تماما على المنح

الدراسية التي تقدمها الدول الأجنبية، تقلص دورها وانحصر عملها تقريبا في الاشراف المالي والعلمي على المبعوثين بالخارج، وأضحت الجهات الموفدة بما فيها الجامعات مسئولة عن ترشحياتها كل في موقعه.

والسؤال الآن: لماذا لا يعود الأمر إلى سابق عهده وتتولى الادارة العامة للبعثات مسئوليتها كاملة بعد أن ترسل إليها الجامعات ومراكز البحوث وغيرها ترشيحاتها الأولية؟، وبعد أن تكون هي الجهة الوحيدة التي لها حق تلقي المنح الدراسية الواردة من الخارج؟.. بذلك يختفي جانب كبير من المجاملات والتجاوزات التي تحدث عنها المقال المذكور

عادل شافعي الخطيب
عضو اتحاد الكتاب

●● **الهلال**: هذه المشكلة طرحتها الهلال، وتفرد صفحاتها لكل من يرى حلا للقضاء على السرقات التي تحدث سنويا.. ولا يتم الاعلان عنها لأسباب كثيرة.. وتسجيل الرسائل يتم الآن من خلال الجامعات نفسها وبإشراف من أساتذة على أعلى مستوى علمي كما نظن وبالتالي لابد من دور فعال للمشرف على الرسالة فهو الآخر ينبغي أن يكون على دراية كاملة بجهد الباحث، ومعرفة إذا كان جادا من عدمه.

من أرضنا من لفحة النيران ... أشكو إليكم صرخة الغلمان
هي صرخة دوت بأرض بلادنا ... خرجت من الأفواه للثقلان
خرجت تُدوِّي في ربوع ديارنا ... ولها الرضيع وقد بكى بحنان
من أرض شيشانِ الحبيبة صارخٌ ... يشكو إليكم فرقةَ الإنسان
قد أحرق الجندي وطناً خالداً ... في حُقبة التاريخ والأزمان
يا أيها الشيشان أنتم فديةٌ ... قد قدموها الروسُ كالقربان
يا مسلمي الشيشان صبراً إننا ... في قلبنا نور من الايمان
يا مسلمي الشيشان لستم وحدكم ... الحزن يأتي بعده اشجان
يا ايها الشيشان إن جدودكم ... كرهوا الهوان فما بقوا لهوان
يا ايها الشيشان أنتم إخوة ... بل إن دقع الظلم للشجعان

أحمد نادى بهلول
المندرة بحرى - ديروط - أسيوط

من دفتر الرومانسية

فى الروض المحكىّ ظلالٌ — قد راحت عينى تستترُ
فرأيت ملاكا يختالُ — كأنى فى حلم منبهرِ
تجرى كغزال للماء — تسابق أطيارا تفتخرِ
عينيها انسابت بطيوفٍ — تتدفق سحراً تزدهرِ
فالعينُ تجلت للنورِ — انبثقت بحياءٍ ينفجرِ
مازال فؤادى يحرسها — والشدو لهيب يستعرِ
تمضى فتعود صباباتى — فى رُحب النجوى تنكسرِ
فأقوم أغنّى بنشيدى — هل كيان لشوق يندثرُ ؟
آه .. يا ليلى من وجدى — قيسٌ بحنين ينتحرِ
لوْ أنّ الشمسَ تقايضنى — فسأغدو ألقاً ينتشرِ
بل أرسم نجما بسمائى — يمتد ضياءٌ ياقمرِ

عبدالناصر أحمد الجوهرى
المنصورة

نرفض السينما الإباحية ؟

إندهشت من مقال الاستاذ «مصطفى درويش» المنشور فى الهلال عدد ديسمبر ١٩٩٩م والذى تناول فيه بالحديث المخرج العالمى «ستانلى كوبريك» وتحسر على أن فيلمه الأخير «العيون المغلقة الواسعة» لن يمكن عرضه فى مصر لأن «الرقابة راسخة كالجبال» على حد قوله ولن توافق على عرضه، إلا أنه طالب فى نهاية المقال بعرض استثنائى للفيلم فى إحدى دور العرض الصغيرة وللكبار فقط، حتى لا تفوتنا فرصة مشاهدة هذا الفيلم العظيم.. وهذا الفيلم بالذات لا يمكن عرضه فى مصر، لأنه يتنافى مع تقاليدنا بل لا يمكن عرضه فى أى بلد تحترم ذاتها فهذا الفيلم - بالذات - لقى استهجاناً شديداً عند عرضه فى أمريكا لأنه يتضمن مشاهد جنسية مبالغاً فيها بين البطل والبطلة ومشاهد شاذة وهو ما دفع الرقابة الامريكية - فى سابقة هى الأولى من نوعها - إلى أن تحذف منه ٥٦ ثانية من المشاهد العنيفة جنسياً .

فهل نقبل سيلاً من الأفلام الفاضحة - مصرية وأجنبية - قد يطالب أصحابها بعروض خاصة مماثلة، مما ينشأ عن ذلك وجود سينما إباحية . ؟!

محمود هشام عبية
المنصورة - كلية التربية

أنت نعمة قلبى

نبضاً أحسُ ورعشةً فى القلبِ عادتْ من جديدْ
أضحى يصفقُ للحياةِ مردداً أحلى نشيد
ويقولُ . مَن يحيا بلا حُبٍ فجلمودٌ أكيدْ
العمرُ من غير الأحبة ليس فيه ما يفيد
يا من شببتِ به حريق الشوق هل لي مِن مزيدْ ؟!
هاكَ ادخليهِ فإنَّهُ فيكِ بلا ريبٍ سعيد
ولتستقرى فيهِ ما يبقى مِن العُمرِ المديدْ

درهم جبارى
سان فرانسيسكو

السفر فى الشعر العربى

السفر احد أسباب المعاش التى بها قوامه ونظامه لأن الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا فى أرض واحدة بل فرقها وأحوج بعضها إلى بعض فالمسافر يرى من عجائب الأمصار وبدائع الأقطار ومحاسن الآثار ما يزيده علما وهناك من يؤيد السفر والارتحال وهناك من لا يؤيد.. نصح احد الحكماء رجلا اراد سفرا فقال له : انك تدخل بلداً لا تعرفه ولا يعرفك أهله عليك بالأدب الجميل فإنه يكسب المحبة فالزم الحياء والأنفة .. يقول الشاعر أبو الفتح البستى :

لئن تنقلت من دار إلى دار … وصرت بعد اليوم رهن اسفارى
فالحر حر عزيز النفس حيث حل … والشمس فى كل برج ذات انوار

وقال آخر :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه … وانصب فإن لذيذ العيش فى النَّصَب
ما فى المقام لذى لب وذى ادب … معزة فاترك الأوطان واغترب
إنى رأيت وقوف الماء يفسده … ان سال طاب وإن لم يسل لم يطب

وعلى الجانب الآخر لا يؤيد البعض السفر والاغتراب بل يدعو إلى البقاء فى الوطن بين الاهل والاخوان فيقول احدهم: الغريب كالفرس الذى فارق وطنه وأهله فهو زاوٍ لا يزهر وذابل لا يثمر يقول الشاعر :

يا نفس ويحك فى التغرب ذلة … فتجرعى كأس المذلة والهوان
اذا نزلت بدار قوم دارهم … فلهم عليك تعزز الأوطان

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

الغلاء !

بئس الغـــلاء ومـــا عليـــه ومـــا له
أو بات مـــأكـولاً لهم، فـجـمـيـعـهـم
وسـعـى فـمـــا بلغ الطريق هدى ولا
والأغنيـاء قـصـورهم مـرصـودة الـ
فكأنه في البـحـــر - بين سـفـائن الـ
فـــإذا طغى الموج .. اســـتكان لليله

أكل الفـقـيـــر - على يديه - عـيـــاله
شـــتى ورحـمـهـمـو أضـــاع عـقـاله
بلغـتـــه آمـــال تنيـــر ضـــلاله
آفـــاق ، أين رمى الغــريب رحـــاله
دنيــــا - يعــــوم ولا ينال ســــؤاله
والموت عـــانقـــه ليــرحـم حـــاله !

عبدالرحيم الماسخ
سوهاج

جزيرة الكرة الارضية !

الكرة الأرضية في حقيقة الأمر جزيرة تسبح في الفضاء الكوني الفسيح. قد يظنها البعض جزيرة كبيرة، لكنها في الواقع جزيرة صغيرة في فراغ كبير لا محدود، ملىء بالجزر الأخرى، والتي هي «الكواكب والنجوم والشهب وسائر الأجرام السماوية».

المعروف أن الجزيرة قد تكون قطعة أرض صغيرة من بضعة أمتار تحيطها المياه من كل جانب. وقد تكون كبيرة كقارة استراليا، أو كالقارة القطبية الجنوبية «أنتركتيكا»، فهي جزر أيضا تحيطها المياه. وهذه الإحاطة بالمياه، تعزلها عما يجاورها سطحيا وأفقيا . وهكذا يتحدد موقعها من خلال مستوى ذي بعدين اثنين.

لكن الكرة الأرضية في الواقع جزيرة من نوع آخر فهي تسبح في فراغ كبير يحيطها إحاطة تامة، وتتحدد في موقع ذي أبعاد ثلاثة. فالفراغ الكوني يغلفها ويعزلها عن كل ما يجاورها من الكواكب والأجرام الأخرى ، مع إمكانية الانتقال منها واليها بسفن الفضاء المتوافرة الآن .

بيئيا هذه حقيقة موجودة من قديم الأزل، ومع ذلك فما زالت حتى الآن بعيدة عن مفهوم الإنسان المعاصر.

فإن المفهوم السائد حاليا للأرض وهو «القرية الصغيرة»، يعتبر مفهوماً بيئياً قديماً استعملته البشرية لانغلاقها خلال العصور السابقة داخل بيئة الأرض فقط وحيث إن البشرية مقدمة على بيئة جديدة «بيئة العوالم الأخرى والفضاء الكوني المحيط»، وإن البشرية تعيش الآن عصر ارتياد الفضاء، فقد تحقق للإنسان مفهوم بيئي جديد وهو أن الأرض :

«جزيرة صغيرة في الكون الفسيح»

المهندس رستم غالب

ردود الأصدقاء

●● الصديق: صلاح جميل سعد - غزة الزيتون

وصلت رسالتك باسم «عاشق مصر» ونحييك على كل ما جاء فى رسالتك وسوف نلبى طلبك فى إرسال بعض أعداد من الهلال إليك ، مع شكرنا على اهتمامك.

●● الصديق سعيد عبدالقوى محمد - بنى سويف ..

قصيدتك «أنت والهلال» فكرتها جيدة وننشر بعض أبيات منها تقول :

أنا والهلال ألفان ... عشق الجمال إلفان

نغزو الحياة سويا ... بالفكر والايمان

دار الهلال سلاما ... من كل قلب دان

....

يا كعبة الصحف فى الشرق مهد البيان

أنا والهلال على درب القرون يأتلقان

●● الصديق : عاصم فريد البرقوقى - الاسكندرية

نحن معك فى أن الابتسامة قد عزت فى هذه الأيام ولا بد من أمل يجدد حياة الإنسان، وبهجة تعيد إليه السعادة ويا ليت نرى هذا العيد.. عيد الابتسامة ، لكنك لم تبين كيفية الاحتفال بهذا العيد الذى اقترحته !

●● الصديق : طه هنداوى - منشأة عباس - كفر الشيخ

وصلت قصيدتك «برايل» ونرجو منك مواصلة قراءة الشعر واستمرارك فى المحاولة حتى يصل انتاجك إلى المستوى الذى نتمناه لك سواء فى الوزن أو استقامة الفكرة.

●● الصديق : معتز عادل محمد على مطر - السعودية :

وصلت إسهاماتك الشعرية، وتلك الرسوم التى أبدعتها ريشتك.

ويا صديقي أنت صاحب بالين ولا بد من التركيز على واحدة تستطيع أن تتقنها وتبرع فيها ..

●● الصديق عصام الدين محمد أحمد :

نشكرك على رسالتك ، ولا أدرى سببا لهذا الهجوم في بداية الرسالة ، ولا ندرى لماذا.. صحيح أننا نشرنا لك قصة في أكتوبر عام ١٩٩٨م ونعتقد أنها كانت جيدة وكنوع من التشجيع، لكن إنتاجك الذي أرسلته لنا لا يرقى إلى مستوى قصتك السابقة .

ففي قصة «صداع» أعطيك بعض النماذج التي كتبتها في الحوار : (وضعت ذيلي في أسناني) ، (تشعلقت في باب الأتوبيس) ، (يمتد على مدد الشوف) ، (أقعد على لفة أقفاص)، (الطبيب يقص البواصير الملتهبة) ، (يقطع السكون زمجرة موتوسيكل) ، (لولا وجودك ما غيرت الحشيش المضروب بحشيش كويس)، (تبوسني ناديه .. تمنحني تذكرة بيور .. تدغدغ أعصابي قائلة : اتلحلح يا واد كده !!

- ما هذا يا سيد عصام ؟! لا تعليق على كل ما جاء في رسالتك وكل ما تكتبه !!

●● الصديق ممدوح فراج النابي – قفط – قنا

ذكرت أسماء تعتز بها مجلة الهلال في مقدمتها الراحل الكبير شكرى عياد وأدباء يشاركون بمقالاتهم وإبداعاتهم مث د. أحمد أبوزيد ود. جلال أمين ود. الطاهر مكي ود. محمد رجب البيومي ، فنشكر لك هذه التحية للهلال ، ونتمنى نشر قصتك في القريب العاجل.

الكلمــة الأخـيــرة

جامعة جديدة

بقلم :
د. عبد العظيم أنيس



عقب اللقاء الذى جرى بين الرئيس مبارك والدكتور زويل أعلنت الصحف عن النية لإنشاء جامعة جديدة للعلوم والتكنولوجيا، وفهم من حديث الصحف مع الدكتور زويل أنه سوف يشرف على عملية إنشائها ، وقيل فى صحيفة «الأهرام» أنه سوف يستعين فى هذا العمل بالفاكسات والأقمار الصناعية حيث أنه يعمل فى كاليفورنيا معظم العام ، كما قيل انه سوف يشكل مجلس إدارة لهذه الجامعة من اثنى عشر عضوا من العرب والأجانب من رجال الأعمال . ثم سارع رئيس الوزراء الدكتور عاطف عبيد بوضع حجر الأساس لهذه الجامعة فى مدينة ٦ أكتوبر بحضور الدكتور زويل ووزير البحث العلمى الدكتور مفيد شهاب .

أما طلاب هذه الجامعة فسوف يكونون من متفوقي الثانوية العامة ومن المعيدين الذين يدرسون للدراسة العليا في الجامعات الأخرى . وعلى أنه لايوجد تقدير معلن عن تكلفة إنشاء هذه الجامعة إلا أن أحاديث الدكتور زويل فى الفضائيات العربية تحدثت عن مليار دولار ، ربما كدفعة أولى . والحقيقة أن تكلفة إنشاء جامعة جديدة للعلوم والتكنولوجيا هى أكثر من هذا بكثير كما توضح تجارب الآخرين ، هذا إذا أردنا أن نوفر لها أحدث المعامل والأجهزة، ومن المشكوك فيه تماما أن تغطى تبرعات رجال الأعمال المصريين أو العرب جزءا مهما من هذه التكلفة .

هذا فضلا عن أن إنشاء مثل هذه الجامعة قد يعني تهميش جامعات مصرية عريقة مليئة بالكفاءات التي لم نستفد منها استفادة كاملة أعنى جامعات القاهرة وعين شمس والاسكندرية وأسيوط . وإذا كان المتفوقون فى الثانوية العامة سوف يذهبون إلى الجامعة الجديدة فمعنى هذا أن الجامعات الأخرى سوف تستقبل غير المتفوقين .

إننا نتحمس كثيرا لمشروعات جديدة تبدو براقة فهو الأمل والمنقذ من حالة الركود والضعف التي تعيشها بلادنا ، دون أن نبحث جديا وبنفس طويل متطلبات هذه المشروعات وتكلفتها الحقيقية والنتائج طويلة الأجل المترتبة على تنفيذها . فإذا بدأ التنفيذ وظهرت العقبات التي لم تكن فى الحسبان فتر اهتمامنا وبدأنا نعترف بالأخطاء .

ولن أتحدث هنا عن توشكي وإنما أشير إلى مشروع آخر كلف الدولة كثيرا وكان مقصودا أن يكون قلعة للعلوم والتكنولوجيا تتخصص فى علوم الوراثة والذرة والحاسبات .. الخ ، أعنى مدينة مبارك العلمية في برج العرب .

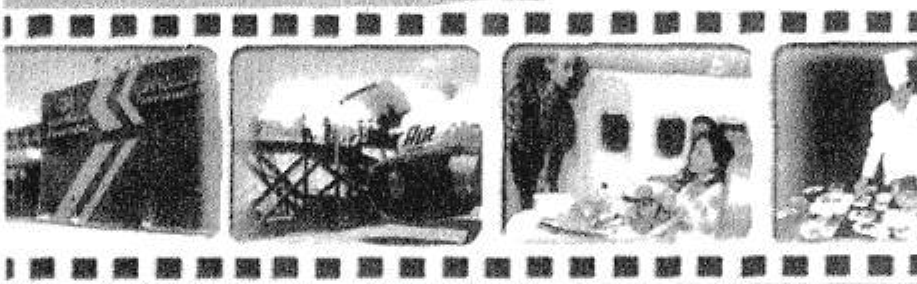
فنحن نسمع عن هذه المدينة الآن ؟ وكم كلفتنا من الأموال دون طائل حقيقى ؟

فالمشكلة أننا نستسهل إقامة مشروعات جديدة بدلا من التركيز على الاستفادة مما لدينا جديا من إمكانات . ولو أننا أنشأنا كلية للدراسات العليا فى جامعة القاهرة مثلا ووفرنا لها من التبرعات والأموال مايضمن لها المباني والمعامل المطلوبة واخترنا لها أفضل أساتذة الجامعات المصرية بشرط الانقطاع للعمل فى داخلها ، ووفرنا لها مجلس إدارة له سلطات مطلقة من العلماء والمسئولين ورجال الصناعة والزراعة فى مصر لاستطعنا أن نحقق نتائج أفضل من مشروعات جديدة نتحمس لها سنة ثم يفتر حماسنا لها بعد سنوات .

إننى أناشد المسئولين التفكير فى مشروع هذه الجامعة قبل أن يفوت الأوان !

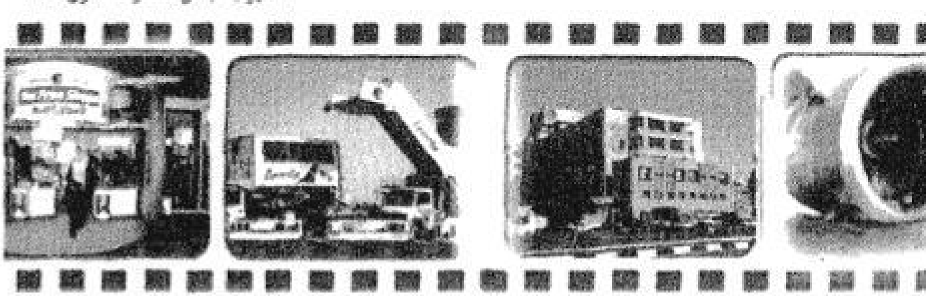
مصر للطيران
EGYPTAIR

تواكب العولمة و تطورات القرن الحادي و العشرين
بأحدث جيل من الطائرات

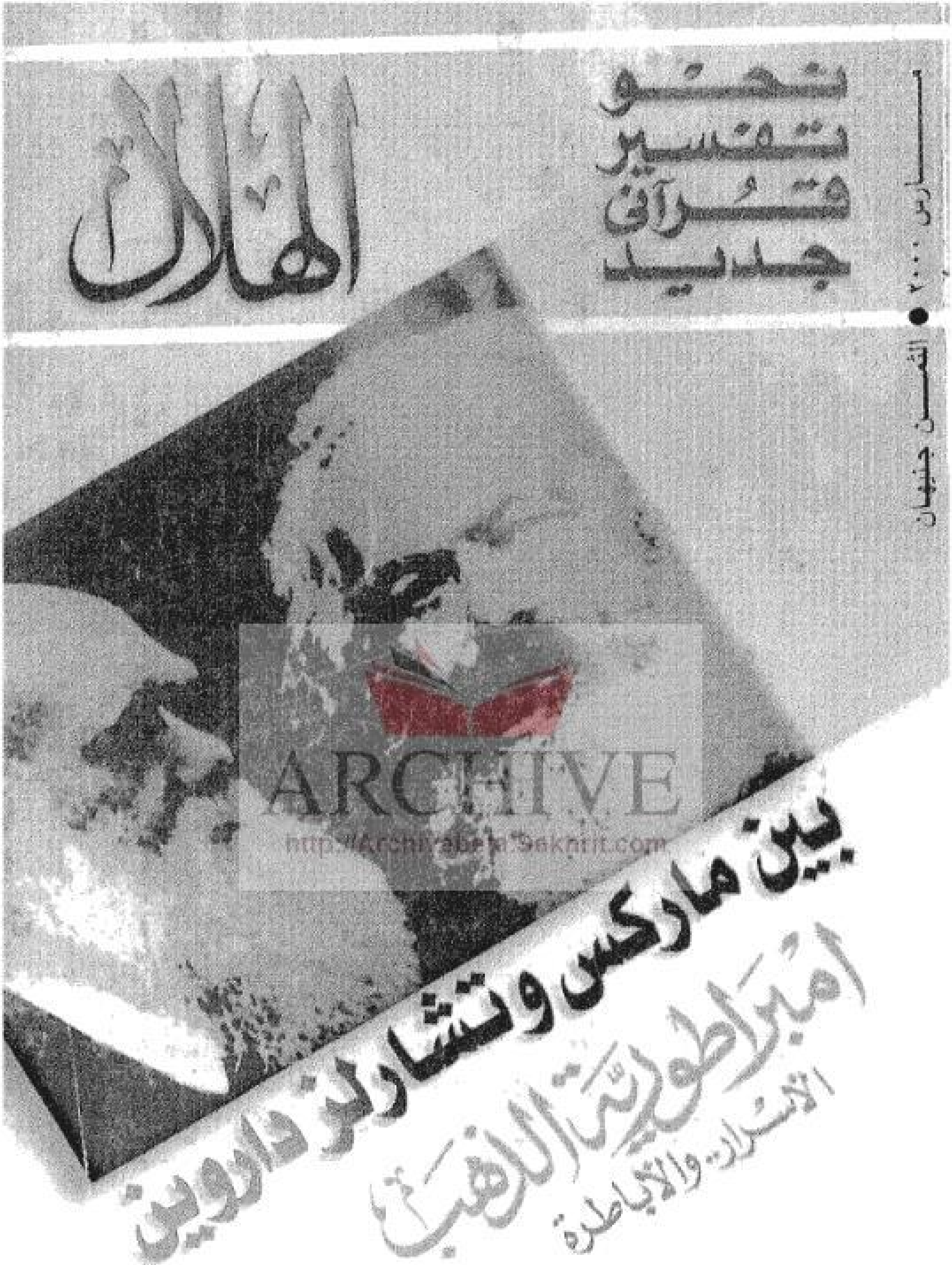


أحدث وسائل الراحة و الرفاهية
أجهزة ملاحية ذات تقنية عالية لأمن الطائرة
امكانية الاتصال بأي مكان في العالم من داخل الطائرة
تليفون شخصي و شاشة فيديو بالدرجة الأولى و درجة رجال الأعمال

مصر للطيران
تعبر بكم الى مشارف القرن الـ٢١




روايات مصرية للجيب
روايات مصرية للجيب
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة



الهلال
نحو تفسير قرآني جديد
مارس ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان
بين ماركس وتشارلز داروين
أمبراطورية الذهب
الأسرار.. والأباطرة
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



منظر بحرى

للفنان الايطالى..

دالبونو أدواردو

متحف محمود خليل

القاهرة

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثامن بعد المائة

مارس ٢٠٠٠ ● ذو القعدة ١٤٢٠ هـ

هـــذا
العـــدد



الغلاف للفنان : محمد أبو طالب

فكر وثقافة

أدب أمريكا اللاتينية
جزء خاص

قصة وشعر

دائرة حوار

فنون

التكوين

الأبواب الثابتة

أحمد زويل والجامعة الجديدة

عزيزى القارىء

كانت ندوة الدكتور أحمد زويل من أهم الندوات التى عقدت بمعرض الكتاب هذا العام ، حيث تناول قضايا تمس حياتنا وهى مدخل للمستقبل ، خاصة أن مشاكلنا اليوم مرتبطة بقدرتنا على أن يصبح العلم جزءا من حياتنا ، فلدينا عدد كبير جدا من العلماء، ولكن المشكلة أنهم ليسوا جزءا من خطة لها هدف محدد ؛ يشكلون فى مجموعهم فريق عمل متكاملا لتحقيق هذه الأهداف ، وليس لديهم التمويل الكافى للقيام بأبحاثهم ودراساتهم.

وجاء ابن مصر أحمد زويل الذى تعلم فى مدارسها وجامعاتها بالمجان ، لكى يقدم خبرته فى وضع العلم على خريطة مستقبل مصر ..

احتشد فى القاعة وخارجها عدد كبير ، وساد فى البداية بعض الهرج ورفض العالم الكبير الحديث حتى يصمت الجميع الذين كان حماسهم شديدا للتعرف على الجامعة الجديدة وأهدافها .

كان كعادته دقيقا حيث أشار إلى أن الفراعنة كانوا أول من عرف الزمن، واستطاعوا إجراء أول تجربة علمية منذ ٤٢٤٠ سنة قبل الميلاد، أى منذ حوالى ستة آلاف سنة وتمكنوا وقتها من الوصول إلى عدد أيام السنة ٣٦٥ يوما !

وقال زويل إن النهضة التكنولوجية لايمكن أن تظهر بدون العلم ، فالحضارة العربية هى التى ساعدت أوروبا فى الخروج من الظلام الذى كانت تعيش فيه بفضل العلماء العرب من أمثال ابن سينا فى الطب وجابر بن حيان فى الكيمياء وابن رشد والحسن بن الهيثم وابن خلدون فى العلوم الإنسانية ، ولهذا فإن المصريين أصحاب الحضارة الفرعونية العريقة قادرون على اللحاق بركب التقدم العلمى ، وشباب مصر قادر على بذل العطاء ، إذا ما توافرت البيئة المناسبة لذلك.

وبالفعل فإن لدينا علماء وباحثين على أعلى المستويات ينتشرون فى أرجاء العالم ، لكنها - أى مصر - تفتقر إلى القاعدة العلمية، مثلها فى ذلك مثل كل دول المنطقة العربية .. وقد حان الوقت لتحقيق نهضة علمية تكنولوجية ، من خلال توسيع القاعدة العلمية

عزيزى القارئ

والتكنولوجية ، وضرورة تحقيق طفرة علمية.

وفي كل لقاء للعالم الكبير الذى فكر فى إنشاء جامعة جديدة ، يؤكد استحالة الوصول إلى أبحاث علمية متميزة فى مصر ، باستخدام النظم الحالية التى توزع ميزانية البحث العلمى على ١٢ جامعة ، وكل جامعة بها نحو ٣٠ كلية ، وفى كل كلية ١٢ قسما مما يعنى فى النهاية أن نصيب كل قسم من هذه الميزانية لن يتعدى مئات من الجنيهات فى السنة .

إن الجامعة التكنولوجية الحديثة ليست أرضا ومبانى واحتفالات بافتتاحها ، ولكنها طرق حديثة فى إعداد هيئة التدريس واختيار المناهج ومن بينها الهندسة الوراثية والمعلومات والاتصالات والإلكترونيات وغيرها ، وإنه لايجوز الاستعانة بأساتذة الجامعة الحاليين فقط، بل ينبغى إرسال البعثات إلى الخارج ، وهذا تقليد كان موجودا فى مصر منذ أيام محمد على واسماعيل ، وأمامنا تجربة قيمة قام بها الدكتور سليمان حزين حينما بدأ يعد لإنشاء جامعة أسيوط .

ود. أحمد زويل الذى ينادى بالعمل الجماعى عليه أن يقيم الجامعة الجديدة بفريق من الأساتذة والعلماء وعليه أن يعرف أن بعض الأصوات التى خرجت تعارض بعض أفكاره واتجاهاته لإنشاء هذه الجامعة فهذا جزء من الحيوية الموجودة فى مصر .. فقد أشار فى لقائه بالمعرض إلى حزب أعداء النجاح – كما سماه – والذى يتكون غالبا من مجموعة الفاشلين الذين لايقومون بأية أعمال حقيقية ، ولذلك فإنهم يجدون وقتا لتسفيه أعمال وجهود الآخرين ، ولابد من الابتعاد عن هذا الحزب ، فهناك فرق كبير بين الغيرة المهنية والرغبة فى تحطيم المنافسين وتشويههم بالزور والبهتان من ناحية أخرى !..

إن الحديث عن الجامعة الجديدة وما يمكن أن تقدمه لمصر الحديثة ، سوف يظل مثار جدل ، ولابد أن يتحقق الهدف الذى ننشده جميعا، خاصة أن الفجوة الموجودة بيننا وبين العالم المتقدم واسعة ، وتحتاج إلى جهد كبير لسد هذه الفجوة. لكننا نتساءل هل يمكن إدارة الجامعة عن طريق الأقمار الصناعية والاتصال بالفاكسات؟!

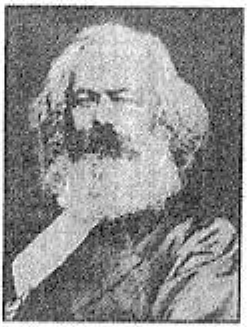
لن نحقق ما ننشده إلا بتضافر جهود العلماء المخلصين إلى جانب د. زويل ، طالما أن الدولة تتيح إقامة هذا الصرح الأكاديمى الذي يمكن أن ينقلنا نقلة حضارية وعلمية كبرى .. ولايمكن أن تصفق يد واحدة، ويقف الجميع ما بين متفرج ومترقب!

المحــــــرر

بين تشارلز داروين



داروين



كارل ماركس

وكارل ماركس

بقلم: د. عبد العظيم أنيس

ثمة شبه إجماع بين كتاب الغرب على أن كارل ماركس وتشارلز داروين هما أجرأ مفكرى القرن التاسع عشر وأشدهم تأثيرا فى الفكر الغربى. ولقد قال إنجلز فى رثاء ماركس عند دفنه فى مقابر هاى جيت فى شمال لندن: «مثلما اكتشف داروين قانون التطور فى الطبيعة البشرية اكتشف ماركس قانون التطور فى التاريخ البشرى». والثابت أن أحد الذين حضروا مراسم دفن ماركس عام ١٨٨٣ هو البروفسير إدوين لانكاستر الذى كان صديقا حميما لداروين وماركس فى الوقت نفسه.

ولقد عاش داروين فى مقاطعة كنت (جنوب لندن) على بعد عشرين ميلا فقط من المنزل الذى عاش فيه ماركس وعائلته فى لندن، ولذا كان من الطبيعى أن نتساءل عما إذا كانت ثمة صلة بين العملاقين فى ذلك الزمان.

إن من المعروف تاريخيا أن للاثنين معارف مشتركين، وأن كارل ماركس أهدى داروين على البعد الجزء الأول من كتاب « رأس المال» فى أكتوبر سنة ١٨٧٣ وأنه تلقى رسالة شكر من داروين على هذا الاهداء هذا نصها:

داون ، بكنهام ، كنت

سيدي العزيز

أشكرك للشرف الذى منحتنى إياه بإرسال كتابك العظيم عن رأس المال، ولقد تمنيت من كل قلبى لو كنت جديرا بهذا الشرف بفهم أكبر لموضوع الاقتصاد السياسى الهام والعميق، وعلى الرغم من اختلاف موضوعات بحوثنا فإننى أعتقد أننا نعمل سويا على مدّ آفاق المعرفة وأن هذا سوف يضيف فى المدى الطويل إلى سعادة البشرية

وأظل: سيدي العزيز المخلص

تشارلز داروين

ولقد فرح ماركس فرحا عظيما بخطاب داروين وكان يقرأه لأهله وأصدقائه وزائريه، فقد كان من أشد المتحمسين لكتاب «أصل الأنواع» لداروين عند صدوره، وكتب إلى إنجلز عام ١٨٦٠ قائلاً: «على الرغم من أن الكتاب مفصل بأسلوب إنجليزى جاف فإنه يمثل الأساس فى التاريخ الطبيعى لأفكارنا».

ثم ازداد حماسه بعد ذلك فكتب إلى لاسال بعد شهر قائلا: «إن كتاب داروين هام جدا وهو يفيدنى كأساس فى العلم الطبيعى للصراع الطبقى اجتماعياً» ، لكنه تراجع عن هذا الكلام مستبعدا الصراع «من أجل الحياة» من التاريخ الاجتماعى عندما أدرك أن هذا سوف يؤدى إلى نظرية مالتس عن فيض السكان كالقوة المحركة للاقتصاد السياسى.

● هل التقى داروين وماركس وجها لوجه؟

لا يوجد أى دليل تاريخى على حدوث هذا اللقاء، بل إن من المرجح أن داروين لم يقرأ كتاب «رأس المال» قراءة جدية. فالكتاب كان باللغة الألمانية، ولم تكن الطبعة الإنجليزية قد صدرت بعد، فالمعروف أن هذه الطبعة لم تظهر إلا بعد وفاة ماركس. وكان من عادة داروين أن يضع خطوطا بالقلم الرصاص على الأجزاء التى تلفت انتباهه لأى كتاب يقرأه. لكن كتاب «رأس المال» (وعليه إهداء ماركس) موجود حتى اليوم فى مكتبة داروين بمنزله بمقاطعة كنت وليست على أى جزء منه أى إشارة بالقلم الرصاص تشير إلى قراءة داروين له. ولذا فالأرجح أن داروين تصفح الكتاب بسرعة وكتب خطاب الشكر إلى كارل ماركس وانتهى الأمر عند هذا الحد.

وكان من الممكن أن تنتهى قصة علاقة داروين بماركس عند ذلك لولا اكتشاف بعض الباحثين السوفييت ضمن أوراق ماركس وأرشيفه رسالة أخرى كتبها داروين بعد ذلك وافترض بالطبع أنها مرسلة لماركس ما دامت وجدت ضمن أوراقه وأرشيفه.

وهذه الرسالة نشرت لأول مرة فى موسكو عام ١٩٣١ فى مجلة «تحت علم الماركسية».

وإليك نصها:

داون ، بكنهام ، كنت

سيدى العزيز

أشكرك كثيرا لخطابك الرقيق وللملحقات، إن نشر ملاحظاتك عن كتاباتى فى أى صورة لا يتطلب موافقتى، وسوف يكون سخيفا من جانبى أن أوافق على ماهو ليس فى حاجة إلى موافقتى.

وإننى أفضل ألا يكون الجزء المنشور مهدى لى (رغم شكرى لك على هذا الشرف) إذ أن هذا الإهداء قد يعنى موافقتى على المنشور مع أننى لا أعرف شيئا عنه.

أيضا رغم أننى من المؤيدين الأشداء للفكر الحر فى كل موضوع إلا أنه يبدو لى (وقد أكون مخطئا) أن الحجج المباشرة ضد المسيحية ليس لها من تأثير على الجمهور وأن الفكر الحر يخدمه التنوير التدريجى لعقول الناس، وهو ما يترتب على تقدم العلم.

لذا كان همى دائما تجنب الكتابة عن الدين والتركيز على العلم. وربما كان دافعى إلى هذا ما يسببه الهجوم على الدين من آلام لأفراد عائلتى.

إننى آسف لرفض طلبك، لكنى رجل عجوز وليس لدى قوة كبيرة فمراجعة صفحات الملحق المرسل ترهقنى كثيرا.

وأظل سيدى العزيز المخلص ،

تشارلز داروين .

وقد أثار هذا الخطاب حيرة كثير من الكتاب الذين كتبوا عن ماركس بعد ذلك فكتب الكاتب الكبير أشعيا برلين فى كتابه المنشور عام ١٩٣٩ عن كارل ماركس مدعيا أن ماركس أراد أن يهدى الطبعة الألمانية من كتاب «رأس المال» إلى داروين وأن الأخير اعتذر عن ذلك بهذا الخطاب المنشور. لكن برلين تورط فى هذا الخطأ ناسيا أولا أن كتاب رأس المال (الجزء الأول) ليس به تعرض للدين ولذا فليس من المفهوم أن يثير داروين هذا الموضوع فى خطابه. والأكثر من هذا وأشد حسما أن كتاب «رأس المال» فى طبعته الالمانية ظهر عام ١٨٦٧ أى قبل أن يعرض ماركس على داروين هذا الشرف (الاهداء)

بثلاثة عشر عاما .

وبعد الحرب العالمية الثانية تورط كتاب آخرون فى تفسيرات غير مقنعة لهذا الخطاب. مثلا قال دافيد مالكيلان فى كتابه عن ماركس عام ١٩٧٣ «إن ماركس أراد قطعا أن يهدى الجزء الثانى من رأس المال لداروين، وأن هذا الأخير اعتذر عن ذلك» ونسى مالكيلان أن الجزء الثانى من رأس المال قام إنجلز بجمعه من مسودات ماركس بعد وفاته، وقد أشار إنجلز فى مقدمة الجزء الثانى إلى وصية ماركس بإهداء هذا الجزء إلى زوجته هيلين.

●●●

لقد ظل هذا الخطاب لغزا محيرا حتى استطاعت طالبة أمريكية بجامعة كاليفورنيا (مارجريت فاى) أن تجد تفسيرا مقنعا له، فقد عثرت مصادفة فى مكتبة قسم البيولوجيا بالجامعة، على كتاب صغير عنوانه «داروين للطلاب» وهو عرض لنظرية التطور منشور عام ١٨٨١ ومؤلفه هو ادوارد إيفلنج، وهو الشاب الذى كان صديقا لابنة ماركس (إيلونور)، ثم عاشقا لها بعد ذلك.

وبدأت مارجريت فاى تتساءل: ماذا لو كان خطاب داروين ليس موجها لماركس وإنما إلى إدوارد إيفلنج، وقامت ببحث أوسع للموضوع فاتضح أن هذا الجزء «داروين للطلاب» هو الجزء الثانى من سلسلة صدرت آنذاك بعنوان «المكتبة الدولية للعلم والفكر الحر». وهذا يفسر إشارة داروين فى خطابه إلى المطبوعة التى لا يعرف عنها شيئا أو تردده فى أن يرتبط اسمه بدراسات تحتوى على حجج ضد المسيحية.

ثم تأكد صحة تخمين مارجريت فاى عندما اكتشف ضمن أوراق داروين فى جلسة كمبردج خطاب من إدوارد إيفلنج (بتاريخ ٢ أكتوبر سنة ١٨٨٠) إلى داروين (وبه نسخة من كتاب «داروين للطلاب» يرجوه فيه أن يوافق على الكتاب وعلى أن يوجه الإهداء له.

يبقى سؤال أخير: كيف وصل خطاب داروين الموجه لإيفلنج إلى أرشيف ماركس؟

إن الإجابة على هذا كانت أمرا بسيطا. ففى عام ١٨٩٥ عند وفاة إنجلز بدأت ابنة ماركس إيلونور وصديقها إيفلنج فى تنظيم كل أوراق ماركس وخطاباته ومسوداته، وهو الأمر الذى كان يقوم به إنجلز قبل وفاته.

وبعد عامين كتب إيفلنج مقالا يقارن فيه بين بطليه - داروين وماركس - وقد أشار فى هذا المقال إلى خطابه لداروين عندما أراد أن يحصل على موافقته على كتاب (داروين للطلاب) وعلى توجيه الاهداء له فى ذلك الكتاب.

وقد ضم إيفلنج كل هذه الأوراق فى دوسيه واحد تركه ضمن أرشيف ماركس وهكذا تم حل اللغز نهائيا. [.]

أسواق الكلام

بقلم :إبراهيم فتحى

تستطيع الكلمات المتناقضة أن تغادر مكانها فى القاموس لتتعانق ، فالكلمات أكثر حرية فى الحركة من الأشياء. وقد يكون هذا العناق بريئا كاشفا كما فى السوق الأدبية أو مضللا خادعاً فى السوق السياسية . إن عبارة مثل المومس الفاضلة (أو الجديرة بالاحترام) أو اللص الشريف فى مسرحية أو رواية لا نفهم منها أن كل المومسات فاضلات أو أن كل اللصوص شرفاء . وقد يعنى الجمع بين كلمتين متنافرتين متضاربتين فى كل منهما كشف أوضاع واقعية تسودها الدعارة واللصوصية القانونيتين عند من يعتبرهم العرف فضلاء أشرافا . فالمومس فى مسرحية سارتر أوفر فضيلة من السناتور المحترم الذى يمارس الدعارة السياسية العنصرية باسم الوطنية . واللص فى بعض قصص روبن هود أو أرسين لوبين أو أدهم الشرقاوى يسلب الذين تقوم ملكيتهم على السرقة والاستغلال بعض ما لهم ليعطيه لضحاياهم فى شرف فهو لا يأخذ شيئا لنفسه فى حالات تواطؤ حراس الأمن والأوضاع الجائرة مع اللصوص الكبار .

ولا تكون الصيغة التعبيرية القائمة على اقتران ضدين مقبولة فى السوق الأدبية بالتحليل اللغوى بل بالرجوع إلى وضع واقعى أو متخيل . فالتناقض بين الألفاظ المقترنة يصبح تناقضا ظاهريا فى وضع دعارة ولصوصية مقننتين . وتغدو تلك الصيغة التعبيرية القائمة على المفارقة كاشفة للأكذوبة الشائعة منطوية على حقيقة محتجبة فى سياقات محددة . ولا يجد المستهلكون فى السوق الأدبية غضاضة في عبارات من قبيل «الكراهية العاشقة» فى بداية روميو وجوليت ، و«اللذة المؤلمة» فى القرية المهجورة لجولدسميث ، و«الخفة الثقيلة» للوجود لميلان كونديرا . فهى تصور التناقض فى المواقف والمشاعر الإنسانية ؛ وعند الفحص الدقيق للتضاد الظاهر بين اللفظين ، يشعر المتلقى بوقع خاص نتيجة لارتياد موقف كلى يدمج داخله جوانب متباينة . فالتناقض ماثل في الأشياء والوقائع والمشاعر لا في التركيب اللفظى وحده .

ولكن الأمر مختلف فى سوق الكلام السياسى والايديولوجى . فحينما تسمى إسرائيل وأجهزة الإعلام الأمريكية الترسانة النووية الإسرائيلية «بالقنبلة النظيفة» ، وتكديس الأسلحة «بالسلاح من أجل السلام» ، والعدوان على لبنان «بالسلام فى الجليل» تصبح الوحدة بين الألفاظ المتضادة وحدة قمعية ، فالتركيب يضلل المتلقى ويحاول أن يفرض معنى كاذبا ، وأن يمحو أي تعبير عن الرفض أو الاحتجاج أو المقاومة . وهنا يكون لطف التعبير لغة مغسولة تطمس بشاعة الواقع، ويكون المعجم الدقيق ومصالحة الألفاظ والوقائع المتنافرة طريقة فى الكلام دخلت صالونات التجميل لتبرير ما هو غير مقبول لدى المستهلكين من الأنصار .

وقد لاحظ الكثيرون أن اقتران اسم معين بصفة شارحة متناقضة (القنبلة النظيفة) مع الاسم على نحو دائم فى تركيب مختصر يكتسب ألفة ، يلغى التوتر بين اللفظين المتعارضين ويغلق دائرة التناقض، ويتحول فى القاموس الاسرائيلى ، الانسحاب الى إعادة الانتشار.

التلاعب بالعقول

ويعد ذلك فى الفهم السليم انتهاكا للمنطق أما فى السوق اللغوية السياسية فقد أصبح التناقض مبدأ لمنطق التلاعب بالعقول عن طريق دمج الألفاظ المتعارضة معا فى صيغة لا تنقسم ولا تتغير ، «والاعتماد المتبادل» صيغة جديدة بديلة للاستقلال فى عالم اليوم ، كما كانت «قوات الاحتلال البريطانية الحليفة» صيغة شائعة بعد معاهدة ١٩٣٦ فى مصر . وأمثال هذه الصيغ لا تحيا ولا تتحرك فى تمايز ألفاظها بل تحيا وتتحرك ككل فى إيجاز والتحام . فالمفردات التى تنتمى إلى دوائر متنافية يتم دمجها معا عنوة فى تركيب مغسول متبلور يعمل على تحقيق تأثير مغنطيسى يلغى التفكير ، وعلى انسجام للتناقضات ومصالحة ما لا يقبل المصالحة . فغابة السوق الاقتصادية العالمية التى يفترس فيها الأقوياء الضعفاء، والتى تتحكم فى وسائل

اتصالها وإعلامها احتكارات ضئيلة العدد تسمى «القرية الكونية» .

إن هذه الصيغ لا تساعد على التعبير عن مفاهيم محددة الدلالة ، فهى تفرض صوراً تثير انفعالات مبهمة وتعوق كما يقول هربرت ماركيوز التفكير بواسطة المفاهيم أى تعوق التفكير . إنها لغة مغلقة لا تفسر ولا تبرهن بل تنقل تحيزات وانطباعات وأوامر ، ويتم تداولها فى تكرار وحشو حاملة أحكاما مسبقة متعسفة وإدانة لكل اختلاف معها أى لغة تلاعب وسيطرة شبيهة بلغة الإعلانات التجارية فى وسائل الإعلام .

تزييف واقع المسميات

وعملية طبخ هذه الصيغ التنويمية تعتمد فى جانب منها على إطلاق الأسماء التى تزيف واقع المسميات . فالمناضلون من أجل تحرير بلادهم من الاحتلال الأجنبى يسمون إرهابيين على حين أن الاستسلام للتوسع والتعنت الاسرائيلى يسمى قبول الآخر ، ومحو الذاكرة القومية وادعاء أن حروب الاستقلال الوطنى كانت عدوانا من جانبنا على اسرائيل الوديعة المستعدة دائما لتقديم التنازلات يسمى «ثقافة السلام» . فهذه الأشكال اللغوية المختزلة لا تبحث عن الصدق ، بل تفرض كذبها بوصفه بديهيا . لقد كان الانجليز وصنائعهم يسمون جماهير الثوار فى ١٩١٩ «مخربين ودهماء» ويسمون المتهادنين من كبار ملاك الأرض «أصحاب المصالح الحقيقية». وبطبيعة الحال فان هذه الصيغ لا تعدم الزبائن الذين يشترونها ، ولا الذين يروجونها إما لأنها تتفق مع مصالحهم أو لأنها تضللهم . ومن الناحية الأخرى هناك صيغ معاكسة يستخدمها أعداء القهر والاستغلال والاستعمار تبحث عن حقيقة الأوضاع لتوجيه السلوك وإيقاظ الوعى بعيدا عن التعمية والتضليل . إن صيغة «الهدم من أجل البناء» القائمة على المفارقة والتضاد بين كلمتى هدم وبناء حينما تقال فى وضع تسيطر عليه قوى الرجعية والتخلف والفساد ليست صيغة تنويمية ، فهى تعنى هدم أبنية متداعية محددة ليقام على أنقاضها بناء جديد .

أى أن أمامنا أسواقا لغوية متعددة مختلفة لا سوقا موحدة . فالكلام يعتمد فى جانب مهم منه على شروط انتاجه وشروط استقباله . وقد يعمل موقف التواصل اللغوى بوصفه سوقا . فالمتكلم يحمل توقعا بأرباح أو بخسائر تنتظره فعلاقة التواصل ليست علاقة بسيطة بل يجرى فيها تقدير قيمة الكلام ، ومدى إمكان الموافقة عليه واعتبار المتكلم جديرا بالقبول والسامعين جديرين بالتلقى .

وهناك صيغ لفظية آلية تتكيف مع السوق أو الموقف أو المجال ولا تكون فى أحوال كثيرة إلا أصوات استحسان موجهة إلى مستهلكين مستعدين للشراء . وتلك الصيغ توضع فى واجهة عرض لتجميل البضاعة ، تحت أضواء اصطناعية ملونة توزع الظلال بحيث تخفى الحقائق ، فهى تعبيرات أنيقة بارعة لا تتحمل اختبار الصدق وقد تكون توابل وليست غذاء حقيقيا . وتعتمد على البراعة والخفة مع الايجاز للمراوغة أحيانا

والخداع فى أحيان أخرى وقد تلجأ إلى شقشقة اللسان لا إلى نبض القلب وإعمال الفكر . وقد يلجأ بعض المثقفين من أنصار الموضة فى السوق الأدبية إلى تكرار صيغ مغطاة بالطلاء الجميل دون تحديد الدلالة ، مثل الحساسية الجديدة وما بعد الحداثة وفقدان اليقين والاستيقاظ من كابوس التاريخ وانتهاك المحرمات وتدمير اللغة . وقد لا تكون تلك الصيغ فى أفواه غير الموهوبين إلا إطارا متحذلقا لتفاهات سقيمة ، وتضخما فى عملة الكلام، أى علوا فى الصخب وانخفاضا فى القيمة .

قوالب مستهلكة !

فبعض أصحاب ورواد البوتيكات اللغوية يبيعون ويشترون كلمات أكثر مما هو ضرورى ليقولوا أشياء أكثر مما يعرفون أو يفهمون ، ويواصلون حمل أثقال من الكلمات أو الصيغ التى تبدو لهم جديدة ويواصلون تكرارها حتى تصبح قوالب مستهلكة كمجوز متصابية، وتتكرر كلمات وصيغ مثل «القطيعة مع التقاليد» والوعى الضدى لدى بعض الشعراء . وقد تكون القطيعة والضدية هنا عمى عن كل ما فى الإبداع التاريخى من كنوز ومن بذور يتعين رعايتها وتنميتها وتطويرها ، وليست البداية من الصفر إلا خرافة . لذلك يعمد هؤلاء إلى التسلل داخل تقاليد يختارونها تعسفا من الشعر الأوروبى ولا يستطيعون أن يكونوا من سكانها الأصليين ، ولا من ماضيى رؤاها . فيقفون عند الاقتباس والانتحال والترقيع وكأنهم الغربان المدهونة باللون الأبيض .

ومن ناحية أخرى نجد على الجهة المواجهة لصيغ الجديد من أجل الجديد فى السوق اللغوية أنصار اجترار القديم فى الظروف المتغيرة . الذين يعتبرون الأشكال القديمة والصيغ القديمة مقدسة ، فهى وسادات ناعمة مريحة تستقر عليها الرءوس ، ومن المستطاع رؤية بهائها وجلالها عند إغماض العينين .

والصيغة المفضلة فى هذه السوق اللغوية هى صيغة ضمير المتكلم الجمع : قيمنا تراثنا هويتنا خصوصيتنا حينما يساء فهمها بوضع محتواها خارج التاريخ وحركة الزمان والتطور . وتقديس الماضى هنا هو علامة الجودة والشعار هو ما أبقى الأول للآخر شيئا .

وليست مشكلة البائعين والمشترين فى هذه السوق اللغوية هى عدم المعرفة أو الجهل بل معرفة أشياء كثيرة ليست حقيقية حينما تتراكب معا فى كل متكامل.

وقد ينتمى بعضهم إلى فصيلة القشريات التى تتمسك بالقشور السطحية وتغفل عن الجوهر وهم يطلقون صيغة «حكم الطاغوت» على عدم قابلية القضاة للعزل ، واستقلال القضاء ، وتعدد مستويات التقاضى ، وممارسة حق الدفاع وتخصص المحاكم لأن العصور الماضية لم تعرف ذلك وهم لا يتحسرون صراحة على أيام القاضى بمدينة قم الذى قال له الأمير أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم ، فعزلته السجعة .

وفى هذه السوق اللغوية تعتبر الممارسات الماضية فى السياسة والاقتصاد والفكر نابعة عن الفطرة والطبيعة البشرية التى لا تتغير ، والتى امتلكناها نحن وحدنا فى أفضل صورة فى الأيام الخوالى التى امتدت قرونا . أما ما استحدث وما أضافه الآخرون فهو زيغ وانحراف ولابد أن ينبثق فى ذلك السياق تعبير «الأغلبية الصامتة» . فالناس فى جملتهم دون أن يفتحوا أفواههم يناصرون القوالب الموروثة من اللباس والسلوك والتعبير فهى خصوصيتهم وفطرتهم ، وهم يرفضون تطوير «خصوصيتهم» ويتمسكون «بثوابت» لا حيدة عنها قد ترجع إلى مرحلة تاريخية انقضت أو عادات جماعات معينة مثل الموقف من ثياب المرأة ورفض مشاركتها الرجال فى العمل والحياة العامة ، وبعض القشريين يرفض الخروج على الشكل المقدس للقصيدة العربية والسرد القصصى التراثى .

***

ونلتقى فى تلك السوق اللغوية بقوالب مسكوكة مثل «المد الإلحادى فى الستينات» لوصف استراتيجيات سياسية معينة أو «التنوير العلمانى المستغرب» لوصف الدعوة إلى إعمال العقل فى شئون الحياة والفكر ، أو الدعوة لأن يكون الدين لله والوطن للجميع ، ولأن ينتخب الحاكم من عامة الشعب أو يحكم بواسطة مؤسسات تقوم على فصل السلطات .

ويرفض القشريون المشترك الإنسانى، ويعتبرون الإضافات العالمية فى العلوم الإنسانية «أفكارا مستوردة» على حين أنهم كانوا يؤيدون المستغلين (بالكسر) فى شركات توظيف الأموال لأنهم كانوا يؤسسون «اقتصادا اسلاميا» يرتعد «الغرب الصليبى» من نجاحه ، على الرغم من أن هذا الاقتصاد «غير الربوى» المزعوم كان شديد التداخل مع البورصات والبنوك وشركات إعادة التأمين الرأسمالية العالمية التى لا تستغنى عن التعامل بالربا .

وترفض تلك السوق التى تدعى الأصولية أى إظهار للفردية أو الاستقلال الفكرى وتطالب المواطن افتراض الخطأ فى نفسه والصواب فى شيوخه ، وتتحدث عن قالب جاهز بألفاظ شديدة العموم للمجتمع الفاضل الذى لا يحوى شيئا غير مقبول ، فما هو غير مقبول يأتى من الغرب ومن «العلمانيين» والخارجين على قيمنا المقدسة فقد أصبحت العلمانية تعنى الكفر ولا تعنى فصل الحكم عن سيطرة المؤسسة الدينية أو الكهنة . وتدعى القوالب اللغوية المتداولة تقديم كل الإجابات مسبقا وتجاهل الأسئلة الجديدة. ومن الممكن أن يتستر الجمود والآلية والشمولية وراء هذا القناع اللغوى «الروحى» .

فمن الواضح إذن وجود أسواق كلام متعددة متنافسة قد تكون متصارعة فى صخب . ومن الواضح أيضا وجود تفاوت ضخم فى علاقات القوى بينها .

فالاتجاهات السياسية والايديولوجية لا تتحدد ملامحها في المحل الأول داخل الأسواق اللغوية بواسطة مبادىء نظرية عقلانية بل بشعارات فضفاضة ترتكز على صور لفظية ورمزية واستعارية . وتريد كل لغة أن تصبح سائدة أو أن تكتسب مجال نفوذ وجدارة بالقبول . وتلك الجدارة بالقبول لا تقف عند مطابقة الكلمات للقواعد الباطنة في اللغة أو لقواعد المنطق المقرة بل تعتمد على الصراع الاجتماعي والفكري وعلاقات القوى بين الاتجاهات المتباينة .

إن هناك رؤوس أموال لغوية متميزة ، فالمنتجات اللغوية لا تتساوى في رواجها أو كسادها . فالنموذج اللغوى الذى كان سائدا فى الستينات تعرض لهجمات حادة أدت إلى إنكسار ملموس ، وكان هذا النموذج يرفض «التعددية» صراحة فالحزب الرأسمالي اليميني سيكون عميلا للغرب ، والحزب اليسارى سيكون عميلا لموسكو ، لذلك فإن الفكر الليبرالي والفكر الماركسي ليس من حقهما الكلام ، فهما مستوردان وطريقان للعمالة وتنطبق عليهما مقولة «لا حرية لأعداء الحرية» . فالحرية كل الحرية(!) للشعب العامل تحت سيطرة التنظيم الواحد ، تنظيم تحالف قوى الشعب العامل. وفى الواقع كانت السوق اللغوية الرسمية لا تعكس ما يحدث فالهوة بين الشعار والفعل كانت ضخمة ، وكانت صيغة «الديمقراطية الاجتماعية» تعنى الانتقاص من «الديمقراطية السياسية» . وكرد فعل على الشمولية نشأت وسط المثقفين والنقابيين سوق لغوية تطالب بحق تكوين الأحزاب واستقلال النقابات عن التنظيم السياسى ، وحرية التعبير . وواجه نظام الحكم تلك السوق بوصمها بالعمالة للغرب أو الشرق.

وفى السبعينات جاء «الانفتاح» ومعه سوقه اللغوية «ضد اشتراكية الفقر» مع «توسيع قاعدة الملكية» ، «فتح أبواب الاستثمار» «ضرب الحقد» «إلغاء الصراع الطبقى» وقد تحالفت السوق اللغوية للانفتاح فى البداية مع السوق اللغوية للأصولية ، «الاشتراكية إلحاد» ، «الناصرية شيوعية» . وجاءت مع الانفتاح منتجات لغوية حديثة ضد «الواقعية» فى الفن وضد «الحكايات التحريرية الكبرى» فى السياسة مستلهمة من بعض التطورات الفكرية فى الغرب ، حداثية وما بعد حداثية .

والآن لدينا تعددية تقوم على حزب مهيمن ، دون إمكان منظور لتداول السلطة ، مع حجب قوى سياسية موجودة في الساحة عن الشرعية . وينعكس ذلك على أسواق الكلام . فلدينا برج بابل من اللغات ، واختلاط فى المفاهيم ورواج للسوق التراثية وحنين إلى السوق الوطنية القومية وتطلعات حداثية وعولمية .

مع القرن ٢١ :

قيم ومبادئ سقطت رغم قدسيتها.. ومصالح ارتفعت وسادت رغم قبحها !

بقلم :د. سامى منصور

حاولت المشاركة بالمشاهدة فى احتفالات المحتفلين بالألفية الثالثة عالميا والسابعة مصريا ، ولكننى عجزت عن ذلك ليس فقط لسذاجة الاحتفال بهذا الحدث بأضواء الليزر أو بالألعاب النارية، ولا أيضا لفقدان الحس الوطنى والانتماء لتلك الضجة، ولكن لحزن مقرون بالغضب بل والرفض على ما سقط بنا على الطريق رغم قدسيته وبلا مبالاة لقيمته وحيويته.. وقد ارتبط ذلك الرفض والغضب بادراك لثقل عبء ما حملناه معنا لقرن جديد.

وجلست إلى أوراقى بعيدا عن الضجيج فى محاولة جادة لحصر الخسائر فإذا بالماضى يبدو مشرقا! والحاضر يبدو مؤسفا ! والمستقبل عليه علامة استفهام؟.

وقد حاولت حصر المفردات التى سقطت منا فوجدت أن ذلك يحتاج إلى ملفات ومجلدات مع أن كل مفردة منها تعبر عن قيمة ومبدأ ، ووجدت أن الممكن هو أمثلة على تلك المفردات التى سقطت من لغتنا حتى أصبحت أمام الأجيال الجديدة كلمات بلا معنى، مثل الوطنية والاستشهاد والشهيد والبطل والزعيم والانتماء . ولعل محنة الحياة

فى هذه الأيام أن تتحول هذه الكلمات إلى صفقات لاعبى الكرة، فإن حقق هدفا فى فريق آخر فهو انتماء، وإن كسب مباراة فهى انجاز أمة حتى نغنى لها كما يفعل التليفزيون «المصريون أهم»..!

والخطير أن سقوط هذه المفردات يعنى أن سياسات قد سقطت من مخططاتنا، وأن مواقف قد استبعدت، وهى التى خلقت الى الوجود عبر قرون من الزمن هذه المفردات وتلك السياسات بدماء شهداء ونضال أجيال وتضحيات بالنفس والمال. فلم تعد لنا مقدسات نجمع على تقديسها ولا قيم نجمع على الهدى بها ولذلك فسوف يخرج من يقول أننى بصفتى مؤرخا فان الظروف قد اختلفت، ويرتفع صوت آخر بصفتى حكيما فان الزمن قد تغير وللاسف فان الظروف لم تتغير ولا الزمن قد تبدل، فمازالت المشكلات هى المشكلات والقضايا هى القضايا كل ما حدث هو تغيير الاسماء فالاستعمار هو الاستعمار مهما اختفى وراء أقنعة خادعة، والتخلف هو تخلف مهما اختلفت المسميات التى يبرع فى نحتها جيل من الكتاب يجرى وراء المصلحة..!.

سقوط المبادىء !

والامر لا يقف عند المفردات وما تعبر عنه من سياسات، بل إن هناك قيماً ومبادىء دستورية وقانونية وسياسية قد سقطت دون حتى دمعة حزن تسقط عليها، وفى مقدمتها السيادة الوطنية والاستقلال، فقد اصبحت تلك السيادة مسألة اختيارية ومرهونة بإرادة الكبار وسياساتهم وقسمت دول وفتتت أراضيها أمام أعين الجميع وتجد التأييد من البعض، والصمت من البعض وكانت النتيجة هى غياب مفهوم السيادة الوطنية والتى كانت إحدى مقدسات القرون الماضية من الزمن والاجيال السابقة من المناضلين.

فوفد الخارجية الامريكية مثلا يزور شمال العراق عن طريق تركيا دون المرور ببغداد، وهو ليس خطأ تقع فيه بعثة أو أفراد، ولكنه وفد الخارجية الامريكية التى تعرف جيدا السياسات، وبالتالى فهى تريد ترسيخ مفهوم أن العراق انقسم الى اكثر من دولة، وبالصمت عن التقسيم تصبح سيادة العراق وهما. وهو ما حدث من قبل مع يوغسلافيا، ومع أن المسلمين فيها كانوا خاضعين للاضطهاد إلا أن

ذلك لايعني تأييد تفتيت الدول بالتدخل الخارجي المسلح أو غير المسلح مثلما حدث مع اندونيسيا. وكون أن الاسلام دين هؤلاء لا يعطي شرعية لذلك الحماس. واذا كانت اليوم القوة مع المسلمين في يوغوسلافيا فهي غدا مع المسيحيين في اندونيسيا أو في غيرها!!.

وقيام دول علي اساس الدين أو العرق لا يخدم أحدا في العالم بقدر ما يخدم الدولة اليهودية والتي كانت تنفرد بدعوى الدين والعرق اساسا للدولة في النصف الثاني من القرن الماضي.

وقد سقطت ايضا عبر السيادة الوطنية فكرة وفلسفة الامم المتحدة، والتي قامت علي مجموعة من الاسس وتحولت الامم المتحدة الى جهاز من أجهزة الخارجية الامريكية فقراراتها لم تعد تعبر عن قانون دولي ولكن عن قانون امريكي، وقد وصلت السخرية من وجودها الى حد أن رئاسة الولايات المتحدة لدورة مجلس الامن قد استغلت لدعوة سناتور امريكي ليحاضر في مجلس الامن - نعم مجلس الامن الدولي وليس الامريكي - حول مفهومه لدور الامم المتحدة . واذا كانت خطيئة الامم المتحدة في الماضي هي قرار تقسيم فلسطين وهو ما لا تملكه ، وعدم خضوع اسرائيل لقراراتها دون عقاب ، فان الخطايا قد تجاوزت كل منطق واصبحت القرارات تتوالى بفرض حصار علي السودان لدعمه الارهاب وفق المنطق الامريكي ، بل وتدمير مصنع دواء امريكي بدعوى مساهمة عدو للسياسة الامريكية ، وفرض حصار علي ليبيا لعدم تسليم مواطنيها للمحاكمة في دولة اخرى بدعوى الاشتراك في اسقاط طائرة مدنية امريكية مع أن امريكا هي التي تسقط الطائرات المدنية، وطائرة ايران شاهد علي ذلك واسقاط اسرائيل لطائرة مصرية في الستينات مثل آخر، وفرض حصار علي افغانستان لعدم تسليمها مواطن سعودي يحارب امريكا.. أي أن محور كل قرارات الامم المتحدة هو السياسة الامريكية! ولم يبق للامم المتحدة غير تكليف الممثلين والفنانين بالقيام بالمهام الانسانية.

شاهد على الحقيقة

وأظن أنه لم يعد هناك شك في أن الحصار على العراق ليس المقصود به صدام حسين أو رجال حكمه، ولكنه شعب العراق والبنية الاساسية للوطن.

واستقالات ممثلي الامم المتحدة الواحد بعد الاخر شاهد من أهلها ! على الحقيقة التى نغمض عيوننا عنها ارضاء لواشنطن ، ويكفى ان عددا من اعضاء الكونجرس الامريكى يمارسون الضغط على حد تعبير وكالات الانباء العالمية على حكومة كلينتون لرفع الحصار عن العراق الذى تفرضه الامم المتحدة .. عفوا الولايات المتحدة.

وسقطت أيضا فلسفة الفتحية وسياسات التخطيط تحت دعوى العولمة وفق التعبير المنحوت من المتعلمين بديلا لكلمة «الامركة» وليس بديلا للعالمية، فالأولى توحيد والاخرى تعددية مثل تعبير «الفرنسة» فى القرن الماضى، واصبح نهب ثروات الشعوب يحمل شعار الخصخصة التى يروج لها البنك الدولى بفلسفة امريكية بحتة لمفهوم الرأسمالية.

هذه بعض المفردات وعقد من المبادىء والسياسات التى سقطت من المسيرة للألفية الثالثة. وكما قلت فى البداية فان كلا منها يمكن الحديث عنه فى مجلدات وكتب. واذا كانت تلك المفردات والقيم المقدسة قد سقطت، فماذا نحمل معنا على أكتافنا بديلا ومنهاجا؟.

لقد اصبح المال هو القيمة ، والقوة هى القانون ، والعولمة هى الطريق، واصبح النضال المسلح ارهاباً والمناضل ارهابياً بل والعمالة التى كانت عقوبتها فى الماضى هى الادانة التى تصل للاعدام هى راية الفخار ومصدراً للدعم، فلم يعد عيبا ان تذهب المعارضة العراقية الى واشنطن لتسليحها ودعمها، ولم يعد عيبا ان تذهب المعارضة السودانية الى واشنطن او غيرها طلبا للدعم والمساعدة.

صحيح أن البعض فى الماضى كان يذهب الى واشنطن طلبا للعون ولكن كان ذلك سرا ، فإذا خرج الى العلن سقط الحزب أو الشخص وهرب إلى الظلام، ولكننا اليوم نجد أن علانية العمالة أصبحت مجدا وحقا، وأظن أن مراجعة خطب زعماء الكيان الصهيونى عن قيادات عربية تعاونت معهم على مدى الأربعين عاما الماضية ضد ارادة الامة العربية، وكانت سرا ومحل انكار اصحابها فاصبحت مصدر التقرير والفخر هذه الايام بدعوى الرؤية الصائبة وسابق الزمن وما الى ذلك من نحت المتعلمين من تعبيرات لخداع الشعوب عن الحقيقة.

اننا دخلنا الالفية الثالثة غير مسلحين بقيم، ونتبع مصالح ولذلك فصدام المصالح أمر حتمى ، ولذلك فان السلام فى ظل هيمنة المصالح هو امر بعيد المنال وحكم الشركات متعددة القومية ـ العالمية ـ هو أبشع من حكم دول الاستعمار فى القرن الماضى.

نحو تفسير قرآنى متفق عليه

بقلم : د. محمد رجب البيومى

تزاحمت كتب التفسير القرآنى فى هذا العصر تزاحما شديدا ، ففى كل قطر عربى نجد من علمائه من يعكف على تأليف التفسير، باذلا قصارى ما فى وسعه ، وقد عددت أكثر من عشرين مؤلفا توالت مطردة ، وكأنها فى سباق رصدت له الجوائز المغرية ، وأكثر ما قرأت متشابه متقارب ، لأن الطريق مطروق ، وكتب التفسير فى مكتبة التراث على مدى أكثر من ثلاثة عشر قرنا بعد ازدهار حركة التدوين ذائعة متداولة ، فمهمة المفسر النمطى يسيرة هينة ، إنه يقرأ كتابا أو كتابين ثم ينسخ ما قرأ ، آنا ينسخ دون تصرف ، وآنا يحدث تبديلا فى الألفاظ التى تنتهى إلى مؤدى واحد ، ثم يتكون الكتاب فى أجزاء عدة ، ويدفع به إلى القراء ! هذا هو المؤلف النمطى لا المتميز ، وهو الشائع الوفير !.

وأنا لا أنكر شوق المسلم وانجذابه إلى كتاب ربه . فهذا الشوق الصادق هو الدافع الملح للتأليف لاسيما أن الذي يعيش أعواما فى جو القرآن يستشعر سموا فى نفسه ، ويحس بقوة دائبة الهتاف بسمعه ، تدعوه إلى أن يواصل السبح ، وهو سعيد بهذه القوة الدائبة الملحة ، وأنا أعرف أناسا يحفظون القرآن عن ظهر قلب دون أن يدركوا معانيه ، وقد ألزموا أنفسهم بقراءة عشرة أجزاء في اليوم الواحد ، وهم يتخلصون من أعبائهم اليومية قدرا من الزمن كي يرضوا أشواقهم الدافعة إلى التلاوة ، فإذا لم يتيسر لهم قراءة (المعلوم المتعارف) كان ذلك مصدر ضيق لا يتنفس عنهم إلا بالتعويض السريع ، فكذلك من دفعته همته إلى كتابة التفسير ، يجد من القوة الدافعة أضعاف ما يجد المقتصر على التلاوة ، ولكن هذا النشاط المتعجل فى حاجة إلى معاودة النظر ، كى لا يضيع الجهد دون عناء .

لقد كان من المعقول - قبل ظهور المطبعة - أن يكثر المفسرون فى العالم الإسلامى ، لأن العالم فى العراق مثلا يفسر لبنى وطنه ، وهم يتداولون التفسير نسخا باليد ، وقلما ينزح إلى بلد آخر إلا إذا كان المفسر حجة قد جاز صيته العلمي حدود وطنه الضيق إلى وطن الإسلام الفسيح ، وقد تكوّن مما كتب هؤلاء تراث ضخم ، ولكنه فى أكثره متماثل ، أما عصر المطبعة فقد سمح بتداول الكتب - تفسيرا وغير تفسير - على نحو سريع ، ولذلك انحدرت سيول المؤلفات من كل صوب ، وأكثرها محدود الطاقة ، وقل أن يضيف الجديد ! وفى القراء من ينشط لشراء كتب التفسير مهما تعدد مؤلفوها - وإن لم يقرأ منها جزءا واحدا ، ظانا أنه يكسب بذلك مثوبة ترفع درجاته عند ربه ، ومثل هذا القارئ فى حاجة إلى أن نعطف عليه فلا نثقل جيبه بكتب تختلف فى الاسماء وتتفق فى الموضوع ، بل نيسر له ما يجذبه إلى القراءة من ناحية ، وإلى ما لا يجد نظائره لديه من ناحية ثانية ، وكان القدماء يقولون (العلم أمانة) ومن أمانة العلم أن نقدم العارف المفيد .

نحن نعرف أن كتاب الله هو كتاب الزمن جميعه ، بمعنى أن كل عصر تجد فيه من العلوم والمعارف ، وتنشأ به من الأحداث والملابسات ، ما نفزع في علاجه إلى كتاب الله ، وإذن فلابد لكل عصر من مفسر قد استوفى شرائط العالم المنقب الجاد ، ليجد فى كتاب الله ما يرشد إلى الهدى ، ثم ليكون ما جدّ من المعارف أداة لفهم جديد ينبثق عن مكنون مستتر فى كتاب الله ، وقد كان إمام العصر

الشيخ محمد عبده أحد الذين سنوا الطريق لاتجاه جديد فى تطبيق النص القرآنى على كثير من معاضل العصر ، والشيخ - رضى الله عنه - لم يفسر القرآن جميعه . ولكنه فيما نشر من تفسيره قد ضرب المثل للاجتهاد الواعى ، وخلف بعده من نبغاء تلاميذه من حاول السير على منهجه ، ففهمت بعض النصوص فهما فسيحا ، لم يأت عن تكلف فى التأويل ، أو تعسف فى النظر ، وفى هذا المجال صدق قول الله «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد» . وهنا تكون مهمة المفسر المأمول أن يختار من الآيات الكريمة ما يعالج به مشكلات عصره ، بعد أن يدرس هذه المشكلات ، ويقرأ ما كتبه عنها ذوو الدربة الواعية من ذوى الاختصاص ، وبخاصة فى الأحوال الاجتماعية التى كادت أن تنقلب ظهرا على عقب بما جد من محاكاة الذائع فى الدول المتقدمة ، وليس كل ذائع هناك مكروها منبوذا ، فمنه ما يعطى الثراء الحقيقى ، ومنه ما ينخر فى كيان المجتمع فيرديه ، وهنا يكون المفسر الجدير بهذا الوصف صمام أمن ، وأداة إنقاذ ، ليس المطلوب منه حينئذ أن يوالى تفسير كتاب الله وفق ترتيبه فى المصحف ولكن المطلوب منه أن يتخذ منه دواء لما يرى من أسقام .

التفسير الموضوعى

لقد ذاع منذ حين ما سمى بالتفسير الموضوعى ، ومعناه الحقيقى استيفاء موضوع خاص من موضوعات القرآن الكريم ، بجمع كل ما ورد فيه من الآيات بحيث تشكل موضوعا واحداً حين ترتب ترتيبا دقيقا ، فيرى القارئ ما قد تناثر من الآيات فى سور شتى قد التأم فى عقد تام، وقد أحاط الباحث خبرا بأسباب النزول فى كل نص ، وقرأ خلاصة دقيقة لأقوال الثقات من المفسرين وما استندوا إليه من العلل والأحاديث ، فيكون من ذلك عناصر متماسكة تظهر البيان القرآنى فى منطقه الصريح ، على أن يرعى كل عالم ناحية اختصاصه ، فالفقيه مثلا يقف عند آيات الأحكام ، فيبوبها فصولا فصولا، والمؤرخ يقف عند آيات الأنبياء وأحداث الغابرين ممن تحدث عنهم القرآن حديث العظة البالغة ، وأذكر أنى قرأت فى هذا المجال كتابا ممتازا تحت عنوان (الرسول فى القرآن) كان فى رأيى أصدق كتاب سطر عن محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه اعتمد على أصح مرجع لا يعلوه سواه، وأستاذ الأخلاق يختار

آيات السلوك الإنساني ليجعل منها فصولا تهدى الناس في طريق الحياة ، وكدت أتحدث عن الآيات الكونية ، وما يتصل بها من التفسير العلمى ، وهو ميدان اقتحمه بعض الفضلاء فاهتدى إلى خير كثير ، ولكن فى أمان من مخاطره، لأن للتفسير العلمى شروطا يجب أن يقف عندها المفسر ، وأهمها ألا يطبق غير الثابت الحقيقى من النظريات التى محصت تمام التمحيص، كما يجب أن يكون المنطوق صريحا دون اعتساف فى التأويل فلا نجر الآية جرا إلى معنى لا تسفر عنه بلسان مبين ، وقد رأيت بعض من اتجهوا إلى التفسير الموضوعى يتجاوزون مجالهم المحدود فى نطاق النص القرآنى ، فيضيفون أقوال المفسرين وقد تكون بعيدة ، مع آراء للعلماء ، وهى ليست فى صميم النص، وأذكر أنى قلت بصدد ذلك فى كتابى «التفسير القرآنى» :

«لقد ظهرت مؤلفات تخص مسائل معينة مثل (المرأة فى الإسلام) و(الإنسان فى الإسلام) و(المجتمع فى القرآن) لا يقتصر أصحابها على ما جاء فى كتاب الله وما يؤيده ويوضحه من حديث الرسول بل يمتد إلى شجون مختلفة من القول تأتى الآيات خلالها وكأنها سيقت لتأييد وجهة ما ، لا أنها هى المسيطرة على السياق ثم بعد ذلك يكتب فى عنوان الدراسة وعلى الغلاف الخارجى عبارة (من التفسير الموضوعى) وهى بعيدة عن التفسير الحقيقى للنص ، وإذا جاز لنا أن نعتبر هذا المنحى من التفسير الموضوعى ، فكل كتاب دينى يعتبر إذن تفسيرا موضوعيا لأنه يتضمن بعض آيات الكتاب !» .

ولعل من الحق أن أشير إلى أن الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله ، كان أظهر من وفق فى التفسير الموضوعى توفيقا يجب أن يكون موضع الاحتذاء . إذ كان فى كل ما عالجه من شئون الحياة فى ضوء الكتاب العزيز ملتزما بالنص القرآنى لا يخلطه بغيره ، مع براعة محكمة فى الربط بين الآيات ، واستشفاف دقيق لدلولاتها ، وقد جاءت بحوثه موجزة ، ولكنها مستوفاة، لأنه لم يعمد إلى الوعظ المتدفق ، أو الاستشهاد بنصوص السابقين ، إذ سار وفق منحاه ، فليت الذين يكتبون المجلد الحافل فى موضوع قرآنى ينسبونه إلى هذا الاتجاه ، يعرفون أنهم قد خلطوا كلام الله بسواه ، فخرجوا عن محيط التفسير .

التفسير المناسب

وقد يفهم مما ذكرت أنى لا أرحب بتفسير جديد على الطريقة التقليدية ، فلست أعارض هذا الاتجاه إذا نهض

به إمام يملك عدته التى اشترطها العلماء فى المفسر ، ولكنى أرى أن هذا العهد الحافل بتياراته المختلفة لم يعد يسمح لعالم ما أن ينهض وحده بتفسير يقضى حاجة المعاصرين على تباين اتجاهاتهم ، فلابد من لجنة علمية تؤلف من ذوى الاختصاصات المختلفة لتقوم بوضع تفسير يناسب التطلعات الواعية ، كما لابد أن تقرأ مجتمعة ما يكتبه كل عضو لتقره أو تضيف إليه ، وإذا كنا فى مجال الفتوى الفقهية نسمع أصواتا مخلصة تنادى بألا تنحصر الفتوى فى فقيه بالغ ما بلغ إذ جدت من القضايا ما تستلزم عقولا متعاونة تفتى فى مثل مسائل الاستنساخ ونقل الأعضاء من الميت إلى الحى وغيرهما ، إذا كنا نسمع ذلك فى الفتوى الشرعية فإن تفسير القرآن الكريم وهو الأصل الأول لكل فتوى دينية يجب أن تكون له هذه اللجنة ، وأذكر أن بعض التفاسير قد خرجت عن لجان خاصة بمجمع البحوث الإسلامية ، وبالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، فسدت حاجة القارئ العجلان ولكننا نرجو أن نمتد إلى القارئ المطمئن ذى النظر المعاود فنشبع رغبته بتفسير واع دقيق ، وذلك ممكن جدا ، فلدينا من يجيدون .

وهناك مجالات شتى كنت أتمنى أن تطرق فى ميدان التفسير ، فيتجه إليها بعض من يشتغلون بالتفسير العام إذا أرادوا النفع الحقيقى بالعمل الجاد، لا بالتراخى الكسول ، فقد ظهرت فى هذا القرن آراء جديدة لبعض الفضلاء لم تعهد من قبل ، فلم لا ينهض مفسر طلعة فيخط كتابا تحت عنوان (الجديد فى التفسير) يجمع فيه هذه الآراء فيعرضها فى حيدة تامة ، ويصدر حكمه وفق ما يفتح الله به عليه دون تهجم أو تزيد ، فالمجتهد مأجور وإن أخطأ ، ولا أكتم القارئ أنى أشهد بعض البوارق المضيئة فى تفسير بعض الآيات الكريمة لنفر من العلماء يرسلونها فى بعض المجلات دون أن تجمع فى نطاق خاص ، وهى فى جدتها القشيبة جديرة بالفحص والتمحيص ، ومن ذلك ما قرأته بمجلة «الرسالة» للأستاذ الدكتور عبدالوهاب عزام خاصا بتفسير قول الله عز وجل (ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

فهناك شبه إجماع من المفسرين على أن الروم قد هزمت على يد الفرس، وأن العرب استاءوا لهزيمة الروم لأن تجار مكة من المشركين كانوا على صلة بالغساسنة حلفاء الروم، وقد رأوا أن يجعلوا هزيمة الروم بابا لمهاجمة المسلمين لأن الروم أهل كتاب وقد هزموا، والفرس وثنيون وقد انتصروا، فنزلت هذه الآيات تعد بنصر الروم. هذا هو المجمع عليه لدى المفسرين، ولكن الدكتور عبدالوهاب عزام رأى غير ذلك، وخلاصة ما اتجه إليه، أن هزيمة الروم التي اهتم بها مشركو مكة كانت سنة ٦١٥م وقد وقعت غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة سنة ٦٢٤م أي بعد بضع سنين، ففرح المسلمين يومئذ لا يكون لنصر الروم، وإنما لنصر المسلمين الموعود به، وقد تحقق يوم بدر وهو نصر الله الذي تحدثت عنه الآية.

أما الدليل المرجح لذلك، فهو أن الروم كانوا حينئذ أرباب طغيان وجبروت، وعسف بالأمم والشعوب وتسخير الرعايا في الأهوال والمشاق عن غطرسة متكبرة، ونصر هؤلاء لا يمكن أن يكون نصر الله الذي وعد به المسلمين وعدا لا يخلفه، إنما الوعد الرباني فهو للفئة المجاهدة في سبيل الله، ويؤكد ذلك أن الرسول قد اضطر في حياته إلى محاربة الروم حين أرسل الجيوش إلى مؤتة في وقت كان فيه هرقل حاكم الدنيا المنتصر على فارس، فقول الله «وعد الله لا يخلف الله وعده» إنما يعني الوعد المبشر بنصر المسلمين».

هذا رأي جديد سبق به عالم أديب لم يعرف عنه اشتغال بالتفسير، ولكنه أقنع به نفرا من الباحثين لوجاهة دليله! فإذا عكف باحث على تصيد أمثال هذه الآراء، فإنه بمؤلفه المنتظر يضيف الجديد حقا، وهو بذلك يفيد قارئه إفادة لا يجدها منه إذا نقل النصوص من كتاب إلى كتاب !! في تفسير غير جديد .. وليس معنى هذا أن كل رأي جديد في التفسير صحيح يجب الاحتفال به، ولكن معناه أن بين هذه الآراء ما هو جدير بالذيوع بعد أن يثبت للنقاش.

وبقراءة ما بأيدينا من كتب التفسير، نرى التزام الكثرة بما هو مقرر دون محاولة للاعتراض عليه، ومع هذه الكثرة قلة تحاول الاستعلاء دون رصيد مؤهل من الموهبة الواعية والإطلاع المستنير، إذ دأب قوم على توهين ما يعتبر من قبيل المسلمات وكأن تخطئة السابقين هدف مقصود لذاته مع الميل المفاجئ إلى رأي لم تتهيأ أسبابه المقنعة، وقد تعجب حين

تجد السخرية من إمام شهير لمجرد شبهات طافت بالكاتب نفسه ، وقد نسى هذا الساخر أنه يعتمد اعتمادا كبيرا على ما سجله المنقود فى أكثر ما نسخه من آراء . وهذا ما يفرض عليه التأدب الحذر أمام قمة عالية ، هو لا يزال يقف فى السفح أمامها رافعا رأسه على استحياء ، لو عرف موضعه الصحيح، ! وكتاب الله عز وجل ليس قصيدة شعرية نجتهد فى فهمها كما نشاء ، فنتوهمه رمزا فى عبارة صحيحة ، أو كناية في حقيقة سافرة ، فالخطأ حينئذ مأمون العاقبة ، إذ لا ضرر ينشأ عنه ، ولكن الخطر يكمن فى فهم النص القرآنى على غير وجهه ، ومحاولة إيهام القارئ بصحة هذا الشطط ، لأن المتكلم هو الله ، والحكم حكمه فيما قال، فالخشية الحذرة هنا واجبة لا محالة ، وقد عد الباحثون صفة الإخلاص الدقيق من أول صفات المفسر ، فبهذا الإخلاص ينتهى العاجز عن مزاولة ما لا يحسن ، ويقدر غير العاجز لكل خطوة يخطوها أين يكون موقعها العاصم من الزلل ، ونعرف فى تاريخ أهل العلم من امتنع عن تفسير كتاب الله مع أهليته الكافية مخافة الخطأ غير المقصود ، بل كان الكبار من الصحابة ومن تبعهم بإحسان يحيلون الاجابة على نظرائهم تحرجا من الخطأ ، وعمر بن الخطاب على جلالة خطره ، وقوة فراسته ، أحال سائله مرات إلى على بن أبى طالب ، وطلب أن يرجع بالاجابة إليه ليعلم ما قال ، ومن هؤلاء الكبار من رويت عنه هذه المقالة المشتهرة (أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا قلت فى كتاب الله ما لا ينطبق)! فليحذر المتسرعون فهم يقفون على جُرُف مهيل .

★ ★ ★

وليس التفسير وقفا على الكتب الخاصة به وحدها ، بل يتعدى ذلك إلى كل استشهاد قام به كاتب أو خطيب فى مناسبة ما ، حين يجئ بالنص القرآنى وكأنه ذو دلالة على ما يقول ، وقد رأيت فى هذه الناحية ما يبعث العجب حقا ، إذ يتمحل بعض الكاتبين من المرتزقة الذين يأكلون على كل مائدة ، كى يأتى بنص يسعفه فى تأييد من يحطب فى حبلهم من ولاة الأمر ، أو يظن أنه يسعفه ، لأن القارئ أزكى منه إذ يهديه الله إلى احتقار ما بين يديه من ضلال ، فإذا أراد القارئ مثلا على ذلك ، فإنى سأسعفه بمثال شاذ

قبيح يدل على سفه الكاتب وعبث الناشر معا !! ففى فترة الحكم الشمولى ذى الحزب الواحد قامت قيامة الهتافين طعنا فى الحزبية والمتحزبين ، واهتبل أحدهم الفرصة فنشر فى مجلة حكومية مقالا تحت عنوان «الأحزاب فى القرآن» ملأه بأيات لا صلة بينها وبين الحزبية السياسية بحال ، فقد استشهد بقول الله عز وجل (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) الزخرف : ٦٥ ، وقوله تعالى (وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب) ص ١٣، وقوله (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) : ص ١١، وقوله (ولما رأى المؤمنون الأحزاب، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) : الأحزاب ٢٢ ، وأطال التعقيب على النص الأخير باعتبار أن لفظ الأحزاب قد ذكر مقابلا للفظ المؤمنين فهم الكفار !! وأنا أعتقد اعتقادا جازما أن الكاتب يكذب ويعلم أنه يكذب ، إذ المراد بكل ما ذكر ، هم الأعداء الذين يناوئون دعوات الأنبياء ، وليسوا هم رجال الأحزاب السياسية ذات البرامج المحددة المشتهرة ، والساعية لتوليه الحكم بناء على الأصول الذائعة ! فالحزب هنا ذو مدلول سياسى لا يلتقى مع النص القرآنى فى حرف واحد ، أما الحزب فى القرآن فموقعه يدل عليه السياق ، ومعناه الفريق ، وهو تارة حزب الحق كما قال الله عز وجل «ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون» : المائدة ٥٦ ، وتارة حزب الباطل كما قال الله عز وجل (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) : المجادلة ١٩، ولا أدرى هل نسى الكاتب حزب الله فى القرآن ، أو أنه من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض !

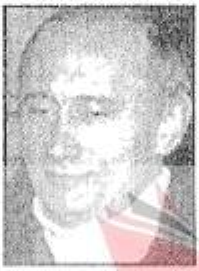
إن الفكر الإسلامى بحمد الله يسير بخطوات فسيحة نحو التقدم، وما رجوته فى مجال التفسير القرآنى سهل التحقيق فلدينا الدارسون الفائقون مع إخلاص يدفع إلى الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ❑

النبيل والوضيع فى حروب القوقاز :

من بوشكين إلى بوتين


تولستوى


بوشكين


بوتين



بقلم:
محمد يوسف عدس
مستشار سابق بمنظمة اليونسكو - لندن



●● الاحتكاك بالثقافة الأوربية فى مستهل القرن التاسع عشر ولّد عند النخبة الروسية المثقفة الرغبة فى البحث عن الصورة الذاتية أو الهوية القومية لروسيا.

ولأن إدراك الذات لا يتم فى فراغ وإنما فى مواجهة الآخر الذى يشكل للذات تحدياً وإطاراً، فقد وجدت النخبة نفسها أمام مجهولين لا مجهول واحد، أولهما: الريف الروسى باعتباره مستودع القيم والفضائل القومية التى لم تفسدها العوامل الخارجية، وثانيهما: الشعوب الآسيوية التى تربض على حدود روسيا الجنوبية والتى وجدوا دولتهم فى تصادم مستمر معها عبر أربعة قرون مضت ●●

تعيش هذه الشعوب في شمال القوقاز، وهى منطقة جبلية شديدة الوعورة تمتد على حدود روسيا الجنوبية حوالى ١٤٤٠ كيلو مترا من البحر الأسود إلى بحر قزوين، وتشكل عائقا طبيعيا أمام الزحف الإمبريالي لروسيا نحو آسيا.

كانت النخبة الروسية - بطبيعة الحال - أكثر ألفة بمواطنيهم فى الريف، ومع ذلك نجد «ألكسندر جريبودوف» يجسم فكرة النخبة المغتربة عن الريف الروسى في ذلك الوقت (سنة ١٨٢٦م) بقوله: «إنه موطن قبيلة أخرى .. قبيلة برية غريبة غير مفهومة فى نظر طبقة مجروحة من أنصاف الأوربيين». ويحدد جريبودوف هذا الجرح بأنه الاغتراب بعينه حيث يقول: «بشىء من السحر الأسود الذى يعصب أعيننا عن رؤية الحقيقة تحولنا إلى غرباء بين شعبنا، ولكى نُبطل مفعول هذا السحر الضار علينا أن نعرف الكثير عن الريف الروسى الذى نجهل حقيقته».



تزامن هذا مع محاولات أدبية جريئة لاستكشاف الصورة الحقيقية للأسيويين من سكان المناطق الجبلية فى القوقاز (الشيشان وداغستان وشركاسيا وإنجووشيا ...) ، وكانت محاولة التعرف على حياة هذه الشعوب حافزاً على إنتاج أدبى هو الأكثر ثراء فى تاريخ الأدب الروسى الكلاسيكى كله، ابتداء من رائعة بوشكين «سجين القوقاز» التى نشرت سنة ١٨٢٢م.

هذا الانغماس الفكرى الرومانسى فى حياة الأسيويين كان من أهم العوامل فى تطور القومية الروسية والوعى الإمبريالى فى روسيا.

ولكننا إذا أنصتنا إلى جميع الأصوات الروسية فى عصر بوشكين، فإننا بالضرورة سنسمع صوتا آخر يتردد بإصرار، وهو يمثل رأيا مخالفا عن القوقازيين أو «الجبليين» كما كانوا يعرفون فى روسيا فى ذلك الوقت، وهو صوت يستخدم نفس المفردات «البدائى» و«الجبلى» لوصف هؤلاء الغرباء، ولكن تتشعب الأحكام القيمية بعد ذلك عن هؤلاء الغرباء الرابضين على الحدود.

فرجال السلطة القيصرية والقادة العسكريون كانوا يتحدثون عن القوقازيين باعتبارهم حيوانات متوحشة وضعاء ، وأعداء لا يكفّون عن الجهاد (الحرب المقدسة) ضد روسيا المتحضرة حامية حمى المسيحية.

لكن هذه الصورة البشعة ووجهت بعناد أشد وإصرار أكبر بصورة مضادة أبدعها «ألكسندر بوشكين» أمير شعراء روسيا للقوقازيين النبلاء فى رواية له بعنوان «سجين القوقاز»، شاعت هذه الصورة وثبتت فى الوجدان الروسى خلال القرن التاسع عشر كله، لدرجة أن صورة القوقازى المتوحش الوضيع التى فرضتها السلطة الإمبريالية كانت تخوض معركة خاسرة فى محاولاتها تبديد الصورة الرومانسية الإيجابية لبطولة القبائل القوقازية فى عقول القراء الروس.

ولذلك يمكن القول بأن تعايش الصورتين المتعارضتين للقوقازى البدائى فى الميثولوجيا الروسية كان من شأنه أن يخلق توترا ثقافيا ذا قطبين، ينجذب أحدهما نحو صورة القوقازى النبيل التى تبناها الأدب الرومانسى، ويتجه الآخر نحو صورة القوقازى الوضيع التى روّج لها مركز الأيديولوجية الإمبريالية فى السلطة الروسية.

هذه الحقيقة لا تلقى اليوم اهتماما يذكر من الباحثين المحدثين فى تاريخ الأدب الروسى، فهم يرون أن النبالة البدائية لم تكن أكثر من رؤية مبهجة أو مسلّية لإخفاء وحشية الحروب الإمبريالية فى القوقاز.

خلفية تاريخية للصراع

هناك بعض حقائق تاريخية لابد من استيعابها عن هذه المنطقة تتصل بالفترة التى سبقت توسع الروس فى الجنوب ليصلوا بحدودهم إلى القوقاز الشمالى،

ومن ثم بداية الصدام التاريخي الذى استغرق عدة قرون، نلخص أهم هذه الحقائق فى النقاط التالية ·

● كان المسلمون هم الذين يحكمون هذه المنطقة بما فى ذلك روسيا أو ما عُرف باسم روسيا فيما بعد .

● لم يكن اسم روسيا متداولا معروفا عندما زحف المدّ الإسلامى إلى أوربا عبر مرتفعات القوقاز، وإنما وجدت إمارة روسية صغيرة لا تزيد مساحتها على ٢٥٠ كيلو مترا مربعا هى إمارة «موسكوفيا»، وقد ظلت هذه الإمارة تحت سيطرة حكام الأسرة المالكة المعروفة باسم القبيلة الذهبية، وهى أسرة ذات أصول مغولية حكمت إمبراطورية إسلامية فسيحة الأرجاء امتدت من حدود الصين إلى شبه جزيرة القرم.

● فى الوقت الذى بدأت الصراعات الداخلية بين خانات القبيلة الذهبية تضعف سيطرتهم وتوهن قواهم، كانت موسكوفيا تتقوى وترقب الموقف حتى تحين الفرصة السانحة للانقضاض.

● فى عهد القيصر إيفان الرهيب استولى الروس فى منطقة الفولجا الوسطى على قازان سنة ١٥٥٢م، ثم على استراخان سنة ١٥٥٦م، ولكن تسمرت أقدام روسيا بعد ذلك أمام جبال القوقاز ثلاثة قرون.

● فى سنة ١٦٠٤ م قام القيصر «بوريس جودونوف» بهجوم كبير على داغستان فى محاولة لاحتلالها، ولكن انتهت حملته بكارثة كبرى، فقد دمر الداغستانيون الجيش الموسكوفى وحطموا القلاع الروسية على أنهار سولاك وسونجا وتريك، وأجبروا فلول القوات الروسية على الانسحاب إلى استراخان.

● شهدت المنطقة صراعات محلية بين القيادات القوقازية أثارت شهوة روسيا للغزو من جديد خصوصا بعد نجاحها فى القضاء على إمارة القرم سنة ١٧٨٣م.

● من سنة ١٧٨٣ وشعوب القوقاز فى حرب متصلة مع روسيا إلى اليوم، ارتكبت فيها الجيوش الروسية أبشع الجرائم ضد السكان الآمنين.

تفسر لنا هذه الحقائق كثيرا من جوانب الموقفين المتعارضين بالنسبة للقوقاز: موقف العداء التقليدى للسلطة الروسية الإمبريالية، وموقف التعاطف التقليدى للمثقفين الروس الذى عبّرت عنه الحركة الرومانسية فى الأدب الروسى أصدق تعبير.

صحيح أن أحدا من هؤلاء الأدباء والكتاب لم يرفع صوته احتجاجا على الغزوات الوحشية ضد القوقاز، وما كان يستطيع ذلك وهو يعلم مدى بطش السلطات القيصرية، ولكن الإصرار على تصوير القوقازيين بصورة النبل والبطولة – فى حد ذاته – يؤكد الانفصال والاحتجاج الصامت على الصورة الوحشية التى تروجها السلطات الإمبريالية الغاشمة، كما يؤكد الرفض الجوانى لعبودية النظام الحاكم وظلم الإقطاع للشعب الروسى نفسه.

سجين القوقاز

يتخذ بوشكين وسطه الدرامى فى قصة «سجين القوقاز» بين قبائل الشركس، ويقدمهم باعتبارهم شعبا حرا مستعدا للقتال حتى الموت فى سبيل حريته، ولذلك فإن قُراء بوشكين الأوائل أظهروا رفضا قاطعا للتوحد مع المصالح الإمبريالية للقيصر وانحازوا إلى الرؤية الشعرية للحرية والبطولة فى جبال القوقاز، ومن ثم يمكن القول بأن هذه العقلية الرومانسية قد استطاعت تجسيد الميل الروسى العام إلى الانعتاق من سلطان دولة مستبدة معادية لروح المجتمع، والتوحد مع القوقازيين الأحرار.

تصف قصة بوشكين رحلة مغامر روسى هارب من الحياة الحضرية بكآبتها وعبوسها إلى حياة بدائية متحررة مع القوقازيين، وصفاً بديعا ملك على القراء أفئدتهم بقوة أسرة، إنها قصة حافلة بأحداث المغامرة والتمرد البطولى الذى يكتنف الحياة فى القوقاز، ومن ثم أسبغت على القوقازيين هالة فائقة من البطولات الخالدة، ورسخت فى يقين الروسى المثقف أن الجبل هو مهد الحرية، ولذلك أصبحت رواية «سجين القوقاز» تحتل ركنا مهما فى مكتبة أى قارىء روسى.

يختلف بوشكين اختلافا جوهريا مع الفكر الروسى الرسمى عن القوقازيين، فهو يصف لنا الحياة اليومية للشركس فنراها حياة عمل ونشاط ينخرط فيها الرجال والنساء جميعا، فقد لاحظ الأسير الروسى من أول يوم له فى الجبل أن الرجال والنساء قد تركوه وحده وذهبوا إلى العمل فى الحقل، وعندما يؤكد بوشكين على اهتمام القوقازيين بالزراعة، فإنه يقربهم إلى العقلية الروسية، وهذه صورة تتعارض كلية مع الصورة الرسمية كما عبر عنها جوكوفسكى فى خطابه إلى فيسكوف الذى يصور القوقازى متنقلا بين حالتين من السلوك المتكرر من الإغارة والنهب على جيرانه ثم الاسترخاء والكسل الكئيب.

يتحدث بوشكين كثيرا عن فضائل الجبليين وسجاياهم الحميدة فى إكرام الضيوف إذا حلوا بهم، أو كانوا مجرد عابرى سبيل، فإنهم يرحبون بهم ويقدمون لهم الطعام والشراب والمأوى بسخاء واحتفال.

وفى موضع آخر من الرواية نجد أسيرا روسيا يحاول أن يحتفظ فى ذاكرته المرهقة بالأغانى البطولية التى كان يسمعها من الشركس.

ويمضى بوشكين فى تصوير حياة القوقازيين فيتعرض لتفاصيل كثيرة عن ممارساتهم الدينية وهم يصلّون فى سكينة ووقار، وعن طريقتهم فى تنشئة الأطفال، وحياتهم الاجتماعية وأناشيدهم التى تمجد الحرية والبطولة.

وفى قلب هذا كله تدور أحداث قصة رومانسية لفتاة قوقازية تنجذب روحها إلى الروسى الأسير حتى قبل أن يتبادلا كلمة واحدة، فقد تطوعت بتطبيبه ومعالجة جروحه وأفصحت له عن حبها، فلما رأت

فى عينى بطلها نظرة شهوانية أطلقته من الأسر ليعود إلى وطنه وأغرقت نفسها فى مياه النهر.

بعد أن انتهى بوشكين من روايته الرومانسية هذه التى تمجد الهرب إلى مجتمع النبالة البدائية، أضاف إليها بعد شهرين أبياتا من الشعر تمجد انتصار الجيش الروسى الساحق على قبائل الجبل، ويبدو من هذا السلوك المتناقض مع لب الرواية أنه كان محاولة لإنقاذها من المصادرة والاحتياط لنفسه من غضب السلطة الروسية.

ومهما يكن قصد المؤلف فإن القراء الروس نظروا إلى الأمر وكأنهم أمام نصين منفصلين لارابط بينهما، فركزوا اهتمامهم على أغنية النبيل البدائى، التى أغرقت فى تيارها الجارف هذه الأبيات الإضافية من شعر بوشكين، فتوحدوا مع قصة القوقازى الحر، وأهملوا الإضافة الدخيلة، وكذلك فعل النقاد: سكتوا ولم يعلقوا بشىء، ولكن لم يكن سكوتهم يتضمن الموافقة، وإنما تداولوا بالرفض هذه الإضافة فيما بينهم من حوار، ومن ذلك ما جاء فى خطاب «بيتر فيازمسكى» إلى صديقه «ألكسندر تورجنيف» معبرا عن استيائه الشديد من بوشكين لأنه بتمجيده لآلة الحرب الإمبريالية قد أصاب المشاعر الرومانسية فى الصميم، ثم تساءل مستنكرا: «أى عظمة وأى فخار فى سحق قبائل القوقاز؟! إنها وحشية تجعل الدماء باردة فى عروقك وتوقف شعر رأسك.. لو أننا حقا حملنا التنوير للقبائل لكان هذا شيئا يستحق أن نغنى له ونفخر به.. إن الشعر لا ينبغى أن يكون طريقا معبداً تعبر عليه المجازر الوحشية».

مهد الحرية

كانت رواية «سجين القوقاز» - رغم كل شىء - تقطّر فى نفوس الروس رحيقا يغذى الجوع الروحى للحرية التى ارتبطت بقبائل القوقاز الجبليين، وهكذا استقرت صورة الجبليين كرجال أحرار مستعدين دائما للقتال والاستشهاد فى سبيل حريتهم.

وفى كتابات الرومانسيين الذين جاءوا بعد بوشكين فى العقد الرابع تأكدت صورة القوقاز كملجأ من قمع الدولة الروسية واستبدادها، ومن أبرز هؤلاء الشاعر ليرمنتوف فى ديوانه «وداعا لروسيا التى لم تطهر» (سنة ١٨٤١م)، كتبه قبل أن ترسله القوات الروسية إلى الجبهة الشيشانية فى الحرب القوقازية، حاول ليرمنتوف فى هذا الديوان أن يتخيل فردوسا أو ملجأ آمنا على قمة الجبل بعيدا عن سطوة الدولة البوليسية وعبيدها الذين كبلتهم الأغلال فلا يستطيعون الفرار صعودا إلى الجبل.

وتتردد نفس المشاعر والرؤى عند «بستوجيف مارلينسكى» فى مؤلفه : «مقالات عن القوقاز» الذى اكتسب شهرته من الدفاع عن الداغستانيين الثوار . يذكر مارلينسكى أن أحد مواطنيه يؤكد له أن أول إمام قوقازى مسلم قاد الداغستانيين والشيشانيين فى ثورتهم ضد الإمبريالية الروسية كان حفيد هارب روسى اعتصم بالجبل، وقد ظلت أفكار مارلينسكى تؤثر فى قرائه حتى بعد وفاته،

حيث افتعل شاب من قرانه إصابة لنفسه فى إحدى الحملات الروسية ضد القوقاز، وتخلف وراء الجيش المنسحب لكى يلتقطه الشيشانيون ويصعدوا به إلى الجبل آملا فى أن يصنع معهم حياة بطولية.

وفى أواخر مراحل الغزو الروسى للقوقاز، كان المدنيون الروس يتحدثون عن جنود يهجرون وحداتهم فى الجيش الروسى بالآلاف ليلتحقوا بصفوف الثوار الجبليين، وأنهم قد اعتنقوا الإسلام وتزوجوا من نساء القبائل وأنجبوا آلاف الأطفال .

وتكشف الوثائق الروسية عن هذه الحقيقة، فقد هرب بالفعل كثير من الروس والبولنديين والأكرانيين من الجيش الروسى ليقاتلوا مع قوات الإمام شامل فى الشيشان (١٨٢٤ - ١٨٥٩م)، هجروا الحضارة المسيحية واعتنقوا الإسلام وأنشأوا أسرا فى القوقاز الشمالى.

ولكى يشوّه الجنرالات الروس - كعادتهم - الصورة الحقيقية أضافوا فى دعايتهم فرية تذهب إلى أن «شامل» كان يعد الهاربين من الجيش الروسى بالحرية وامتلاك أراض فى القوقاز.

وإلى جانب الهروب من الجيش شهدت روسيا هروبا إلى الجبال بدافع الحب، كانت الهاربة هى «آنا أوليخانوفا» عشقت فروسية الإمام شامل وشجاعته سماعا، فلما وقعت فى أسر جنوده فى إحدى المعارك بداغستان، وجاء إخوتها يفتدونها بالمال رفضت العودة معهم، وفضلت البقاء مع بطلها الذى تزوجها فأسلمت وغيرت اسمها إلى «شُوانيت» وعاشت مع زوجها انتصاراته ومحنه إلى آخر العمر.

أصبحت سيرة شوانيت مهوى أفئدة الروس حيث صادفت اهتماما واسعا وذيوعا كبيرا، وذلك بفضل كتابات امرأتين جورجيتين كانتا أسيرتين فى منزل الإمام شامل لعدة شهور خلال سنتى ٥٤ - ١٨٥٥م، وقد نشرتا مذكراتهما حافلة بمقتبسات من كلام شوانيت.. وهكذا تعززت جاذبية الكتابات الرومانسية عن القوقاز والفرار إلى الحرية والنقاء بعيدا عن سطوة الحياة تحت النظام القمعى للقياصرة.

التحق ليرمونتوف بالأكاديمية العسكرية فى بطرسبورج بين سنتى (١٨٣٢و١٨٣٤) فلاحظ أن زملاءه من طلاب الأكاديمية كانوا يتحرقون شوقا إلى جبال القوقاز وإلى حياة القوقازيين بعد أن قرأوا «سجين القوقاز» لبوشكين، كان الطلبة يخفون الرواية بين طيات كتبهم الدراسية ليتمكنوا من قراءتها فى أوقات الراحة بين المحاضرات.

ولكن هناك جانبا مثيرا للعجب من تجليات الرومانسية فى سلوك البشر، يطلعنا عليه «آرنولد ريسرمان» فى كتاباته عن الحرب القوقازية، يقول: إن كتابات بستوچيف مارلينسكى الرائعة عن فرسان القبائل البواسل قد أشعلت خيال الشباب الروسى البسطاء، وحفزتهم على الالتحاق بالخدمة العسكرية على أمل الذهاب إلى

جبهة القتال في القوقاز. هذا السلوك المتناقض بين الاشتعال الرومانسي هياما بالحياة الجبلية، وبين الالتحاق بقوات غازية للجبل مثار تعجب واستغراب: أن يقودهم عشقهم لهذا النوع من الحياة الطليقة المتحررة النقية إلى الجبهة لقتال معشوقهم وتدميره، تماما كما فعل «ليف» أخ الشاعر بوشكين.

ولكن يبقى الدافع الأصلي هو الأكثر واقعية والأبلغ عمقا في النفوس من الوسيلة المناقضة التي اتخذت بدون ترو، والآثار المدمرة التي ترتبت عليها ولم تكن في الحسبان. يصور هذا الموقف الأديب الروسي تولستوي بقوله: «كان الروس يتسارعون للحاق بالجيش الذاهب إلى القوقاز لأنهم كانوا يبحثون عن الأرض الموعودة يلتمسون فيها الشفاء لأرواحهم العليلة».

أما الشباب الذين ذهبوا إلى جبهة القتال فقد صدمتهم الحياة العسكرية الكئيبة المنفرة، واكتشفوا أن الحرب كانت وحشية بعيدة عن الإنسانية والعدل، وفي هذا يقول «نيقولاي أوريو» عندما كتب مذكراته في الحرب وهو في منفاه: بأنه لم يستسغ أبدا فكرة أن المذابح العسكرية التي ارتكبها الجيش ضد القوقازيين كانت هي الطريقة الصحيحة لتقديم التنوير الأوربي إلى هؤلاء الناس.

كان الإمام شامل شخصية أسطورية شامخة جمعت بين جوانحها شجاعة الفارس الثائر وأخلاق المتصوف الزاهد والبطل الذي لا يهاب الموت دفاعا عن الحرية. فلما أعلن الجيش الروسي هزيمة القوقاز ووقوع قائده الإمام شامل في الأسر أصيب الروس بصدمة عاطفية كبرى، وشعروا بفاجعة روحية وانعطاف غامر نحو الأسير القوقازي الذي كان رمزا للحرية بلا حدود.

تابع الروس أخبار البطل الأسير في بطرسبورج بلهف شديد فلما علموا بعزم الحكومة على إخراجه من السجن وترحيله مع زوجته إلى المنفى في بلدة «كالوجا»، تجمع الناس أمام أبواب السجن ليلقوا عليه نظرة وداع أخيرة، فلما رأوه خارجا مكبلا بالأغلال تحت حراسة القوات الروسية بكوا وأخذوا يهتفون له: «وداعا ياشامل.. ابق معنا ياشامل.. قولوا له إننا نحبك حبا شديدا.. قولوا له إننا ندعو لك بإقامة طيبة ياشامل..».

استغرق الروس في حلم الحرية الأسر الذي سقط رمزه الأكبر الإمام شامل الذي صمد للقوات الإمبريالية خمسة وثلاثين عاما، لم يكن لديهم مساحة أخرى للتفكير في سؤال بالغ الأهمية: ماذا حقق الغزو الروسي للقوقاز من الوعود الفضفاضة بالتحضر والتقدم؟ شخص واحد هو الذي سأل هذا السؤال وأجاب عليه متحسرا. «لم يحقق الغزو للقوقاز التعيس سوى تصدير الفودكا والقمار والأمراض الجنسية» (الكاتب الروسي روسكو سلوفو ١٨٦٠).

كانت الحكومة الروسية قادرة على قتل الإمام شامل كما فعلت مع آلاف القوقازيين قبله، ولكنها أمام العواطف الجياشة التي أحاطه بها المواطنون الروس، أبقت على حياته لتروّج لنفسها

صورة الدولة التي تدع الجبليّ الصالح يتألق، لا كرمز للثورة والحرية هذه المرّة، ولكن كرمز لقوة روسيا القيصرية وتسامحها.

شرعت روسيا في الوقت نفسه تبث الصورة السلبية للقوقازى في الثقافة الروسية من خلال برامج التعليم، تلك الصورة الكريهة للهمجي الوضيع المناهض للحضارة المسيحية . من أبرز الأمثلة على ذلك كتاب «رستوسلاف فاتيف» بعنوان: ستون عاما من الحرب في القوقاز، نشر سنة ١٨٦٠م، تنعكس فيه الصورة الإمبريالية عن هذا القوقازى المعتدى أكل لحوم البشر الذى كان على روسيا اقتلاعه من جذوره. ويردد الكولونيل «ديمترى رومانوفسكى» نفس النغمة الإمبريالية في سلسلة محاضرات عامة كان يلقيها بقاعة «باساج» في سان بطرسبورج خلال الفترة نفسها، تحت عنوان: «انتصار روسيا المسيحية على المسلمين الأشرار» !

مع نهاية القرن التاسع عشر بقيت صورة القوقاز بين الوضاعة والنبالة في تصارع للاستحواذ على الدراما الروسية، يمثل الوضاعة الكاتب الروسى «نيمروفيتش دانشينكو» في روايته «القلعة المنسية» (١٨٩٧م)، يتناول فيها شخصية الإمام شامل بسخرية واستهزاء، تعبيرا مباشرا عن نظرة السلطة الروسية التى بدأت ترويجها منذ سنة ١٨٥٩م، وهى وطنية عمياء انزلق إليها دانشينكو، فانحاز بموقفه هذا للافتراء الرسمى الذى يطمس الحقائق التاريخية عن لب الصراع في القوقاز وجوهره.

تولستوى :

ويمثل صورة النبالة الأديب الروسى تولستوى في روايته «الحاج مراد» (ألّفها فيما بين أعوام ١٨٩٦ – ١٩٠٤م) وهى تفنّد ملحمة الانتصار في حرب القوقاز، مع رجعة مذهلة أخّاذة إلى الخيط الرومانسى الذى بدأه بوشكين، ذلك الخيط الذى يوثق العُرى بين الجبليين البسطاء الأحرار وبين الشعب الروسى المتطلع إلى الحرية والانعتاق.

يهاجم تولستوى في روايته «الحاج مراد» خرافة الانتصار القومى ويصفه بأنه عنوان إمبريالي دبرته بليل النخبة الروسية الحاكمة المستعلية على الشعب وقادها القيصر نقولا الأول.

هذا اللون النقدى من الأدب المضاد للنزعة الإمبريالية يدمغ الحرب القوقازية بالوحشية، ويصف الباعث إليها بأنه شهوة إلى سفك الدماء مستترة بدعاية تبريرية تروج لخرافة الحرب الدفاعية ضد الآسيويين البرابرة أعداء الحضارة.

وهكذا استمر الصراع بين النزعتين أكثر من نصف قرن ابتداء من ألكسندر بوشكين وانتهاء بتولوستوى، مرورا برواد النزعة الرومانسية أمثال بستوجيف وليرمنتوف اللذين عاصرا حرب القوقاز وانفعلا بأحداثها .

لم يحسم النصر الإمبريالى الساحق فى القوقاز ملحمة الشعوب الثائرة فيه على السيطرة الأجنبية، فتلك ملحمة لا ينضب معينها ولا تتوقف عجائبها، وكأنما أراد القدر للشيشانيين عبر تاريخهم الطويل إما أن يعيشوا مسلمين أحرارا، أو يقاتلوا ويستشهدوا دون ذلك. فقد كانت الشيشان أقوى حصن للحرية والثورة فى عهد الإمام شامل وبعد الإمام شامل، حمل مريدوه وتلاميذه نهجه الذى يجمع بين مهارة الفرسان وزهد المتصوفة، واستمر هذا النهج حيا متدفقا فى ضمائر الشيشانيين خلال العهد القيصرى والعهد السوفييتى دون انقطاع.

ويعترف المراقبون السوفييت بأن جمهورية «الشيشان - إنجوشيا» هى أقوى معقل للإسلام فى الاتحاد السوفييتى كله، وتكشف دراسات علماء الاجتماع السوفييت أن سكان هذه الجمهورية هم أكثر الناس تدينا وأشدهم تعلقا بالإسلام، رغم كل محاولات السلطات السوفييتية وضراوتها لاقتلاع الإسلام وتدمير كل أثر له: حيث أغلقت جميع المساجد ومدارس تعليم القرآن وحولتها إلى مدارس لتعليم الإلحاد ومحاربة الله الذى يعبده المسلمون، وأحرقت المصاحف وحرمت - بالقوانين - حملها أو تداولها، كما جعلت كل شعائر الإسلام من صلاة وصيام وحج وجمع زكاة جرائم يعاقب القانون على ممارستها، ومضى الروس السوفييت فى حماس أيديولوجى عجيب يدمرون المؤسسات الإسلامية ويحاربون عقائد المسلمين حتى سنة ١٩٤٣، ولكن ظلت الشيشان رغم كل ذلك فى تمرد وثورة بدأت بما يعرف باسم الثورة الداغستانية الكبرى ضد النظام الشيوعى سنة ١٩٢٠، وبقيت جمراتها متقدة تحت التراب بعد المذابح التى ارتكبها الشيوعيون البلاشفة ورغم القمع والعذاب فى السجون، حتى يئس الدكتاتور ستالين ولم يبق فى جعبته من علاج للشيشانيين الثائرين سوى الاستئصال الكامل..

ستالين

وهكذا عادت صورة القوقازى الوضيع تطفو على سطح السياسة السوفييتية تجاه الشيشان، حيث اخترع ستالين تهمة زعم فيها أن الشيشانيين خانوا الاتحاد السوفييتى وانحازوا إلى العدو النازى عندما زحف الجيش الألمانى داخل روسيا متجها إلى مصادر البترول الغنى فى الشيشان أثناء الحرب العالمية الثانية.

وفى ٢٣ فبراير سنة ١٩٤٤م اقتحمت القوات السوفييتية الأراضى الشيشانية، وأمرت جميع السكان بالاستعداد للرحيل على الفور. كان الروس قد أعدوا لهم شاحنات النقل المخصصة لقطعان الماشية، فحشرت فيها ثمانمائة ألف شيشانى، اتجه بعضها إلى صحراء كازاخستان وأكثرها إلى أصقاع سيبيريا.

استمرت الرحلة أياما عديدة والبشر يعيشون بدون ماء ولا طعام ولا وسائل للنظافة، كتل من اللحم البشرى متراصة بدون غطاء فى جو ثلجى عاصف، من يصرخ مستغيثا أو يتذمر محتجا كان

حراس القافلة من رجال الـ «كى جى بى» يطلقون عليه النار فورا ثم يلقون بجثته فى عرض الطريق.

الشيوخ والأطفال والمرضى الذين لم يحتملوا عذاب الرحلة إلى الجحيم قضوا نحبهم قبل أن يصلوا إليه، فالقيت جثثهم طعاما للجوارح على رمال الصحراء وفوق جليد سيبيريا. ونتيجة لسياسة ستالين وإجراءاته القمعية وعمليات الـ «كى جى بى» فى التصفية الجسدية المنظمة، تم الإجهاز على ٦٠٪ من الشيشانيين المهجَّرين. ولم يكتف ستالين بهذا وإنما قام بتقسيم أراضى جمهورية الشيشان ووزعها على الجمهوريات المجاورة ليخفى كل أثر لهذا الشعب المتمرد.

ولكن بعد موت الطاغية تمت تبرئة الشيشانيين رسميا من تهمة الخيانة المفتراة، وسمح لمن بقى منهم على قيد الحياة بالعودة إلى وطنهم. إنه من فضول القول أن الشيشانيين الذين نشهد مأساتهم اليوم هم أبناء وأحفاد الشيشانيين الناجين من مذبحة ستالين، وبينهم قلة من الشيوخ رأيناهم يتحدثون على شاشات التلفاز، عاشوا الكارثة أطفالا ولكن انطبعت فى أعماق ذاكرتهم التفاصيل المروعة لرحلة الجحيم.

يلتسين والحملة العسكرية الأولى والثانية

لم تكد تمضى على هذه الكارثة خمسون عاما حتى جاء الرئيس الروسى يلتسين يعيد إلى الأذهان صورة السلطة الروسية التقليدية عن القوقازى الوضيع المتمرد على القانون والنظام، ويشن حملة عسكرية على الشعب الشيشانى أطلقها فى ١١ ديسمبر ١٩٩٤م بحجة الحفاظ على الدستور والدفاع عن السيادة الروسية التى انتهكها الرئيس الشيشانى جوهر دوداييف بإعلانه الاستقلال سنة ١٩٩١م، ولكن تنتهى الحملة بهزيمة مهينة للجيش الروسى سنة ١٩٩٦ .

ولذلك يعود يلتسين مرة أخرى بعد ثلاث سنوات ينتقم من هزيمته فى الحملة السابقة، ويعلن رئيس وزرائه «فلاديمير بوتين» تبريرا لهذه الحملة: أن الجيش الروسى ذاهب للقضاء على الإرهابيين وقطاع الطرق واستئصال الأصوليين الإسلاميين، وإعادة الأمن والنظام إلى الشيشان.

فهل يصدق عاقل حقا أن تجرد دولة عظمى جيشا من أقوى جيوش العالم قوامه مائة ألف جندى.. ينضم إليه خمسون ألفا آخرون من قوات وزارة الداخلية، كل هؤلاء يحشدون ليحاربوا قطاع طرق وعصابات إرهاب، تقول إحصاءات روسيا الرسمية أن عددهم لا يزيد على ثلاثة آلاف !؟

فى الحملة السابقة (٩٤ - ١٩٩٦م) دمرت روسيا البنية الأساسية فى الشيشان ثم تعهدت بموجب اتفاقية سلام توصل إليها الجنرال «الكسندر ليبيد» ووقعها مع الشيشانيين - أن تدفع تعويضات عن خسائر الحرب وتعيد إعمار ما خربته بتكاليف قدرت بحوالى ٣٤ مليار

دولار أمريكي، ولكن روسيا لم تف بالتزاماتها وتعهداتها ولم تساعد الحكومة الشيشانية في السيطرة على الأوضاع المتردية، بل عملت - بدلا من ذلك - على إشاعة مزيد من الفوضى والتخريب أولا بالاستمرار في إجراءات الحصار الاقتصادي على الشيشان الذي فرضته فور إعلان الرئيس الشيشاني جوهر دودايف استقلال بلاده كما أشرنا، وعدم دفع أي تعويضات مالية عن خسائر الحرب، وثانيا بالعمل السري داخل الشيشان، حيث زرع جهاز المخابرات السرية سبعمائة عميل له من القوقازيين العاطلين ومن رجال العصابات والجريمة المنظمة الروسيين، لتنفيذ عمليات خطف وقتل داخل الأراضي الشيشانية، خطط لها خبراء جهاز المخابرات الروسية وألصقها بالشيشانيين في وسائل الإعلام.

وفي الحملة الإعلامية الشرسة ضد الشعب الشيشاني تصدر وزارة الداخلية كتابا بعنوان: النظام الإجرامي: الشيشان من ١٩٩١ إلى ١٩٩٥م، يصف الشيشانيين بأنهم عبيد القرن العشرين وأنهم متوحشون، صابئون متعصبون، بل ينسب إليهم المسئولية عن إدمان الشباب الروسي للفودكا. كتابا حافل بالافتراءات والسباب المقذعة والصور المنفرة، والقصص المختلقة ولكن الذي يتمعن في شهادة أصحاب هذه القصص يجد خلطا مثيرا للضحك لأنهم لا يفرقون بين القوقاز وبين اسيا الوسطى.

المهم أن رسالة الكتاب الإعلامية تتلخص في آخر عبارة وردت به تقول: «لقد نفد صبر الشعب الروسي.. فمن لهؤلاء المجرمين لكي يوقفهم عند حدودهم؟»

وفي سياق اتهام شعب بأسره بالإجرام يأتي ميخائيل بارسكوف ليقول (في أخبار موسكو يوم ٢٠ ناير ١٩٩٦م): «الشيشاني قادر فقط على القتل، فإذا لم يستطع ذلك فإنه يسطو، فإذا لم يستطع السطو يسرق، وليس هناك نوع آخر من الشيشانيين خلاف ذلك».

علماء روس يتصدون لحملة التزييف الإعلامي:

استفزت هذه الصورة الزائفة عن الشيشانيين عقولا روسية نظيفة مثل «فاليري تشكوف» مدير معهد الدراسات الإثنية والسكانية بالأكاديمية الروسية للعلوم، الذي وصف هذه الاتهامات بأنها مجرد دعاية روسية لا أساس لها من الصحة، وأن هذه الدعاية وحدها هي التي خلقت صورة مافيا شيشانية غير موجودة، وأن هذه الصورة الزائفة هي التي تسببت في تراجع التعاطف الروسي والعالمي عن الشيشانيين في كارثتهم الإنسانية، ولولا ذلك لكانت المساندة العالمية للشيشانيين أقوى وأبرز. ويهاجم «فاليري تشكوف» نظرية «مادلين كارتيل» عن مناطق الإجرام التي تريد السلطات الروسية فرضها على عقول الجماهير، ويصفها بأنها خرافة ليس بها مسحة من العلم، فمستوى الجرائم عند الشيشانيين ليس

أعلى من مستوى الجرائم بين الروس والجورجيين.

جرائم الحملة الثانية :

ولكن تمضى حملة الافتراءات الروسية دون توقف، لتصب فى هدفها النهائى : شن حملة عسكرية جديدة على الشيشان للقضاء على شعبها المتمرد، أو دفنه تحت الأنقاض لمدة خمسين عاما أخرى تستريح فيها روسيا، ولكى يجد بوتين سببا مباشرا لإطلاق شرارة الحرب افتعل رجال مخابراته حوادث تفجير العمارات السكنية بموسكو وغيرها من المدن الروسية، تلك الحوادث التى أودت بحياة ثلاثمائة مدنى، ونسبتها أجهزة الإعلام إلى الإرهابيين الإسلاميين، دون أن تقدم دليلا ولا متهما ولا شاهدا واحدا ولم ترفع أمام القضاء قضية للتحقيق.

وفى موجة الذعر والغضب التى تفجرت عند الجماهير الروسية زحف الجيش الروسى داخل الأراضى الشيشانية بزعم القضاء على الإرهابيين وقطاع الطرق، فإذا بنا أمام سيناريو لحرب شاملة، لا على الإرهاب - ولكن على الشعب الشيشانى الأعزل، نشاهد فيه مسلسل القصف العشوائى والقتل والتهجير القصرى وتدمير المنازل السكنية، وسمعنا عن جرائم وحشية ومقابر جماعية على غرار ما حدث فى البوسنة وكوسوفا، لم نعرف حتى الآن سوى أطراف منها لأن التعتيم الإعلامى على أشده، فالقوات الروسية لا تسمح حتى للصحفيين الروس بالاقتراب من الأحداث فى الشيشان أو مجرد التحدث للاجئين الشيشانيين.

وفوق هذا بدأ الجيش الروسى يستخدم أسلحة غير تقليدية ومحرمة دوليا، ففى ٣٠ ديسمبر ١٩٩٩م أسقطت الطائرات الحربية على جروزنى قنبلة انشطارية ضخمة زنتها خمسمائة كيلو جرام ، وفى اليوم التالى أسقطت قنابل نابالم حارقة، وقبل ذلك بأسبوعين أسقطت قنبلة غاز سام شاهدها الناس وهى تسقط من طائرة روسية، ولكن زعمت القوات الروسية أنها من فعل الشيشانيين أنفسهم بدعوى جذب انتباه العالم الخارجى واستعطافه.

بوتين وصفقته المهينة :

ويفاجأ العالم فى آخر يوم من شهر ديسمبر الماضى باستقالة الرئيس يلتسين وتسليم السلطة إلى خليفته بوتين، ويتضح من التحليلات السياسية أن هناك ثمة صفقة متفق عليها بين الرجلين، حرص فيها يلتسين على أن ينعم فى تقاعده بحياة هادئة بعيدا عن الفضائح المالية التى حاصرته هو وأسرته، ولذلك استصدر قرارا رئاسيا يمنحه هو وأسرته حصانة تحميهم من أية محاولة لتقديمهم إلى المحاكمة بتهمة الفساد، وتمنع تفتيش بيوتهم ومكاتبهم وسياراتهم أو التجسس على هواتفهم .

أما جائزة بوتين فقد حصل على جز
منها مقدما: كان عقيدا مغمورا ف
المخابرات الروسية فجعله يلتسين رئ
وزراء روسيا، وتنازل عن الرئاسة
وهاهو يصعد فوق موجة الانتص
العسكرية فى الشيشان ليصبح
مرشح لرئاسة الكريملين، عليه فقط أن يمضى فى الحرب الشيشانية محافظا على مستوى الانتصارات التى تحققت فى الشهور الأولى، على الأقل حتى يوم ٢٦ مارس القادم موعد الانتخابات الرئاسية.

وهكذا يدخل العالم فى عام جديد وقرن جديد وألفية جديدة ، وأشياء كثيرة تتغير فى هذا العالم إلا شىء واحد هو العقلية الإمبريالية لروسيا، تظل كما هى لم تتغير منذ القيصر إيفان الرهيب إلى القيصر بوتين، سطوة القوة العسكرية وشبق السيطرة والرغبة العارمة فى قهر القوقاز وقمع الإسلام، الذى أقض مضاجع القياصرة وديناصورات الاتحاد السوفييتى، فهل ينجح قزم الـ «كي جي بي» فيما أخفق فيه أسلافه الكبار؟ لا أظن .. وحتى لو استولى الجيش الروسى على العاصمة جروزنى فلن تتوقف المقاومة الشيشانية. لم تفلح القوة فى إخضاع الشعب الشيشاني على مدى العصور الماضية كلها وما أظنها ستفلح الآن أبدا، وسوف نرى ..

القوقازى النبيل
يبعث من جديد:

وأنا فى غمرة كتابة هذا المقال
اهدت لقطتين على شاشة التلفاز بريطانى تلخصان كل شىء فى لمحات خاطفة: اللقطة الأولى لمجاهد شيشانى مع مجموعة صغيرة من زملائه فى فترة راحة، سأله الصحفى: هل تخاف وأنت تواجه القوات الروسية ؟ فأجاب الشاب وهو يبتسم قال: «عندنا مثل شيشانى قديم يقول من يأتِ إلينا حاملاً سيفه نقتله به»، وفى اللقطة الثانية جندى روسى يرقد جريحا على فراشه فى المستشفى، سأله الصحفى: ماذا رأيت فى المقاتلين الشيشانيين عندما اشتبكت معهم؟ فأجاب: «إنهم يبدون مهارة فائقة فى القتال ولا يملك أحد إلا أن يحترمهم أو يحسدهم». وهكذا تنبعث صورة القوقازى النبيل حية متوهجة مرة أخرى فى عقل جندى روسى جريح.



فردينان دوسوسير

• عالم اللغة الذى لايعرفه أحد!

• كتاباته فى العشرينات هى مابعد الحداثة اليوم!!

بقلم: د. أحمد أبو زيد

لعبت اللغة دورا أساسيا فى فكر وكتابات المفكرين البنائيين وما بعد البنائيين، لدرجة، أن أحد كبار الكتاب المهتمين بتاريخ الفكر الحديث والمعاصر يقول أن لدى كل هؤلاء المفكرين والمبدعين البنائيين نوعا من (الهوس) باللغة وقدرتها الفائقة علي العطاء، خاصة وأنها تؤلف نظاما اجتماعيا لايتوقف وجوده على وجود الأفراد، بل إن الفرد هو الذى يدخل إلى هذا النظام منذ الولادة ويظل مرتبطا به طيلة حياته، ومن هنا كانت اللغة توصف فى الدراسات الاجتماعية والانثربولوجية البنائية بأنها (لاشخصية). بل إن



كلود ليفي ستروس عميد الانثربولوجيين البنائيين فى فرنسا ومؤسس الأنثربولوجيا البنائية يذهب إلى حد القول إن اللغويات تحتل مكانا متميزا بين العلوم الاجتماعية، فهى ليست مجرد علم اجتماعى كغيرها من العلوم الاجتماعية لأنها هى العلم الاجتماعى الذى أمكنه أن يحقق أكبر قدر من التقدم بحيث يستطيع أن يدعى لنفسه - وبحق - صفة العلم على أساس أنها استطاعت أن تصوغ لنفسها منهجا تجريبيا ساعدها على فهم طبيعة المادة التى تخضع لتحليلاتها.

ولقد كانت نقطة الإنطلاق في هذا الاتجاه هو تأثر المفكرين البنائيين الفرنسيين باللغويات البنائية عند عالم اللغة السويسري فردينان دوسوسير وبكتابه الفريد الذي يحمل عنوانا غير مشوق ولايكشف عن محتواه تماما وهو «دروس في اللغويات العامة» :. والغريب أن دوسوسير لم يكتب ولم يؤلف بنفسه هذا الكتاب الذي يرتبط اسمه به، وإنما قام بتجميع مادته بعد وفاة دوسوسير نفسه بعض زملائه من المذكرات التي قام بتدوينها تلاميذه أثناء المحاضرات التي ألقاها عليهم في جامعة جنيف خلال الأعوام الدراسية ١٩٠٧ ثم ١٩٠٨ - ١٩٠٩ ثم عام ١٩١٠ - ١٩١١، وقام هؤلاء الزملاء الأساتذة بمراجعة مذكرات التلاميذ والتوفيق بينها وصياغة الكتاب في الصورة التي هو عليها الآن لأن دوسوسير نفسه لم يكن يكتب محاضراته كما أنه يدخل عليها كثيرا من التعديلات عاما بعد عام والأغرب من ذلك . والأغرب من ذلك هو أن دوسوسير لم يدخل إلى مجال اللغويات العامة وبالتالي وضع أسس اللغويات البنائية إلا بطريق الصدفة البحتة، ذلك أن تخصصه الأساسي كان اللغات الإندو أوربية ثم تصادف أن تقاعد أستاذ اللغويات العامة بجامعة جنيف في منتصف عام ١٩٠٦ فأسندت الجامعة الى دوسوسير استكمال المقرر ثم تدريسه بعد ذلك لعامين دراسيين آخرين قبل أن يحل محله استاذ آخر أكثر تخصصا في الموضوع، ومع ذلك فإن كتاب «دروس في اللغويات العامة» يتعدى ذلك المجال المحدد الضيق بحيث يمكن اعتباره كتابا في مناهج العلم الاجتماعي، وفيه يخرج دوسوسير على الاتجاه الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر والذي كان يميل إلى التفسير التاريخي والبحث عن الأصول الأولى للأشياء دون الاهتمام بالبحث عن معنى هذه الأشياء داخل النسق الذي تنتمي إليه؛ والمقصود بكلمة (الأشياء) هنا النظم الاجتماعية والثقافية، واللغة في آخر الأمر أحد تلك الأنساق الأساسية في

المجتمع .

★★★

وينتمي فرديناند دوسوسير إلى تلك الطائفة من العلماء والمفكرين والمبدعين الذين جاوزتهم الشهرة أثناء حياتهم، وعاشوا مغمورين أو شبه مغمورين، ولم يعرف العالم مكانتهم وإسهامهم في العلم أو الفكر أو الفن إلا بعد موتهم بأعوام طويلة، ومع أن كتابه نشر بالفرنسية عام ١٩١٦ أي بعد وفاة دوسوسير بثلاثة أعوام فإنه لم يخرج إلى الأضواء إلا في الستينات مع ازدهار الاتجاهات البنائية وبخاصة في الأنثربولوجيا على أيدي ليفي ستروس وأتباعه .

وحياة دوسوسير حياة نمطية رتيبة تخلو من الأحداث والمفاجآت كما هو الشأن بالنسبة لحياة الكثيرين من العلماء الأكاديميين الذين يقفون جهودهم على مجال تخصصهم الدقيق ولايشاركون في الحياة العامة إلا بقدر محدود وضئيل، وقد كانت ولادته في جنيف عام ١٨٥٧ في عائلة بروتستنتية اشتهر كثير من أعضائها بالاشتغال بالعلم، وقد أبدى دوسوسير منذ طفولته براعة في اللغات وميلا واضحا لدراستها ولكن العائلة كانت تريد له التخصص في الفيزياء استمرارا للتقليد السائد بين أفرادها، وقد درس هو نفسه ذلك التخصص لمدة عام بجامعة جنيف دون أن يحرز فيه أي تفوق ملموس، وأفلح في أن يقنع العائلة بأن تسمح له بمواصلة دراسة الفرع الذي يميل إليه وهو اللغات الإندو أوربية، والتحق فعلا بجامعتي ليبتسيج وبرلين لذلك الغرض، وكتب رسالته للدكتوراه في موضوع شديد التخصص هو «الحروف المتحركة في اللغات الإندو أوربية» ونشرت هذه الدراسة بالفعل وكان لايتعدى الحادية والعشرين من عمره في ذلك الحين، ويبدو أن الكتاب وجد كثيرا من التقدير والإعجاب في الأوساط الأكاديمية المتخصصة، وهناك من اعتبره أفضل وأروع ماكتب في ذلك الموضوع على الإطلاق خاصة، وأن التحليل النظري المنطقي الذي اتبعه دوسوسير أثبتت صحته الدراسات والبحوث الأركيولوجية التي أجريت على اللغات الأندو أوربية بعد ذلك بخمسين سنة،

ومن الطريف أنه حين عاد إلى جنيف بعد ذلك تصادف أن تقابل وأحد كبار الأساتذة المتخصصين في علوم اللغة، وحين عرف الاستاذ اسم الشاب الذى أمامه سأله عما إذا كان يمت بصلة قرابة إلى عالم اللغويات الكبير دوسوسير، وعلى أى حال فإن دوسوسير تولى منصب التدريس في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس في الفترة من ١٨٨١ إلى ١٨٩١ وذلك قبل عودته النهائية إلى جنيف للتدريس بجامعتها، وقد ظل هناك حتى وفاته عام ١٩١٣ وهو في السادسة والخمسين من العمر.

ولم يكن دوسوسير أثناء حياته غزير الانتاج فقد كان يكرس معظم وقته للبحث والتدريس دون أن يهتم بنشر نتائج أبحاثه أو نصوص محاضراته، ولم يتعد مانشره بعض المقالات والعروض القصيرة وكلها تدور حول قواعد اللغات الاندو اوربية دون أن يعرض لارائه عن الأسس النظرية للغويات، وهو الموضوع الذى كان مصدر شهرته فيما بعد والذى ترك آثاره العميقة في الفكر البنائى في فرنسا وفى الاتجاهات مابعد البنائية بل وما بعد الحداثة .. كما أن هذه الآراء تعتبر نقطة انطلاق وتحول من الاتجاهات والتفسيرات التاريخية والتطويرية التي كانت تسود في القرن التاسع عشر في دراسة الظواهر الثقافية بوجه عام إلى الاتجاه الذى ساد في القرن العشرين، والذى يركز على التفسير الاجتماعى بدلا من التفسير التاريخي ويحاول ربط الظواهر الثقافية والاجتماعية بعضها ببعض لاظهار ما بينها من تفاعل وذلك تمشيا مع المبدأ الذى وضعه إميل دوركايم حول «تفسير ماهو اجتماعى بما هو اجتماعي». فلم يكن دوسوسير يرى أن المشكلة الأساسية التي ينبغى الاهتمام بها في دراسة اللغة هى معرفة تاريخها وإنما المهم هو بالاحرى اعتبار اللغة وسيلة وأداة للاتصال والتواصل مما يقتضى تحديد العناصر المختلفة التى تدخل في تكوينها والعلاقات المتبادلة الثابتة بين هذه

العناصر دون أدنى اعتبار لتاريخها أو التطورات التى طرأت عليها، فالمهم إذن فى نظره هو دراسة بناء اللغة وليس تاريخها، وهذه هى الفكرة التى انتقلت إلى الفكر البنائي في فرنسا ووجدت أفضل تطبيق لها فى مجال الأنثربولوجيا على أيدى ليفى ستروس. وهناك من مؤرخى الفكر الاجتماعى المعاصر من يرد نجاح ليفى ستروس وبالتالى نجاح كل المفكرين البنائيين ومابعد البنائيين الى استخدام منهج اللغويات البنائية أو المنهج البنائى فى اللغويات فى كتاباتهم المختلفة، لأن اللغويات التي وضع أساسها فرديناند دوسوسير فى كتاب (دروس فى اللغويات العامة) للبنائية أن تبرز كمنهج يمكن استخدامه وتطبيقه فى كل العلوم الانسانية بل وفى النقد الأدبى أيضا .

★★★

ترجع مكانة دوسوسير فى علم اللغويات الى معالجته للغة كموضوع مستقل ومتمايز ويمكن اخضاعه للبحث العلمي، مما كان يقتضى فصل دراسة اللغة عن الاعتبارات السيكولوجية والفسيولوجية بل والاجتماعية والاتجاه بدلا من ذلك الى تفسير حقائق اللغة بالرجوع الى العوامل والمحددات اللغوية فقط. وقد اعتبر دوسوسير اللغويات (علما) للعلامات أو على الأصح جزءا مكونا من هذا العلم. وهذا موقف يختلف تماما عن الاتجاهات التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر والتى توصف فى العادة بأنها اتجاهات (ذرية) لأنها كانت تأخذ اللغة على أنها (مجموع الوحدات المستخدمة فى الكلام وتتتبع تطور العناصر المستقلة التى تتألف منها تلك اللغة) ولم تكن هذه الاتجاهات تعترف بحقيقة اللغة كنسق من العلامات، كما لم تكن تهتم بالتساند القائم بين الاجزاء والعناصر المؤلفة للغة أو علاقة اللغة ذاتها بأنساق العلامات الأخرى مثل نسق الشعائر الدينية باعتبار هذا النسق هو نوع من اللغة لأنها تقوم بنقل وتوصيل معانى معينة ومحددة تحديدا شديدا وواضحا لأعضاء المجتمع الذى يمارس هذه الشعائر الدينية ويفهم مفرداتها ومعانى هذه المفردات. وهذا لا يمنع من الاعتراف بأن اللغة تتفوق على كل تلك الأنساق فى توصيل المعانى ولذا فانها

تعتبر النموذج المثالى لعلم العلامات .

ودراسة اللغة باعتبارها (علما) للعلامات كان يفرض على دوسوسير أن يركز على دراسة هذه اللغة فى وضعها (الحالى) أو (الآنى). وهذا الوضع (الآنى) أو حسب التعبير الشائع فى الدراسات البنائية (المنظور الآنى) هو المنظور البنائى الذى يهتم فى المحل الأول بدراسة العلاقات بين أنساق اللغة فى فترة زمنية معينة بالذات، ولذا فهو يعرف باسم (المنظور التزامنى) الذى يختلف عن (المنظور التعاقبى) أو التاريخى الذى يعطى الأولوية لدراسة العلاقات التاريخية بين الحقائق اللغوية. ولم يكن دوسوسير يقلل أو يهون فى ذلك من أهمية اللغويات التاريخية ولكنه كان يرى ضرورة الفصل بين الناحيتين، وذلك حتى (لا تُفسد) وجهة النظر التاريخية الوصف الآنى للغة أو تسيىء إليه. فاللغة نسق من العناصر المتساندة والمترابطة ترابطا وظيفيا ولن نستطيع ادراك أهمية هذه العناصر وقيمتها الا عن طريق تحديد موقعها من النسق وليس عن طريق معرفة تاريخها. لأن لكل لغة (وجودا) أو (كيانا) حقيقيا ومستقلا عن تاريخها، والناس فى أى مجتمع يتكلمون لغة ذلك المجتمع فى صورتها الحالية والقائمة الآن بالعقل دون أن يعرفوا بل ودون أن يهتموا بمعرفة تاريخ تلك اللغة التى يتكلمونها ويتبادلون أفكارهم عن طريقها باعتبارها أداة الاتصال والتواصل المثالية .

وفى هذا الصدد يميز دوسوسير بين (اللغة) و(الكلام) على أساس التمييز بين اللغة كنسق وبين المظاهر التى تتخذها اللغة فى الحياة اليومية فى شكل حديث أو كتابة، أى أن التمييز هو فصل بين (النسق) الذى يكمن وراء الفعل وبين (الفعل) ذاته. فاللغة - وقد يستخدم دوسوسير كلمة (اللسان) بدلا منها - تمثل ماهو جوهرى وأساسى ، بينما الكلام يمثل ماهو كمالى وعرضى، واللغويات تهتم بالشق الأول الذى يأخذ اللغة كمجموعة من القواعد والمعايير الثابتة التى تكمن فى العقل وتبقى ثابتة راسخة رغم كل ماقد يطرأ على (الكلام) من

اختلافات وتنوعات . والمسألة هنا أشبه بما يحدث في لعبة الشطرنج التي يمكن التمييز فيها بين قواعد اللعبة وقوانينها وبين المباريات الفردية التي يشارك فيها أطراف المباراة. فقواعد وقوانين الشطرنج ثابتة ومعروفة وتؤلف نسقا مجردا يعلو فوق كل المباريات ويتجاوزها، وتتحكم في الوقت ذاته في طريقة تحريك قطع الشطرنج اثناء اللعب بنفس الطريقة التي تعلو فيها طبيعة اللغة على كل مظاهر الكلام ولكنها تحدد في الوقت نفسه طبيعة هذا الكلام، كما أن الكلام يدل من الناحية الأخرى، على قوانين وقواعد اللغة ذاتها .

وقد أدى ذلك كله إلى أن يميز دوسوسير في دراسته للغويات بين ما يسميه (مادة) اللغة و(شكل) اللغة واعتبار اللغة شكلا اكثر منها مادة. فاللغة نوع من التفكير المنظم الذي يرتبط بالأصوات، مما يعني ان هناك عنصرين أساسيين ومتكاملين يدخلان في عمل اللغة ويساعدانها على أداء وظيفتها في الحياة. وهذان العنصران هما الأفكار أو العنصر العقلي أو التصوري، والأصوات أو العنصر الصوتي. ولابد للتفكير من أن يرتبط بالأصوات التي تعبر عنه والتي تتمثل في الكلمات والألفاظ التي تكشف عن ذلك التفكير والتي بدونها يكون التفكير مجرد كتلة هلامية أو حسب تعبير دوسوسير كتلة سديمية غير متميزة وغير متفاضلة ولا شكل لها، أي أن العنصر الصوتي هو الذي يعطي العنصر العقلي أو التصوري كيانه ووجوده الحقيقي في المجتمع، كما أن الأصوات أو العنصر الصوتي لا تؤلف بذاتها أو في ذاتها وبدون الأفكار كيانات واضحة ومحددة. وهذا معناه أنه لا يمكن تصور اللغة او الحقيقة اللغوية الا من خلال ارتباط الفكرة والصورة معا، كما أن دور اللغة هو ايجاد علاقة أو رابطة بين التفكير والصوت. ولكي يقرب دوسوسير المسألة الى الاذهان فانه يرى أمكان تشبيه اللغة بصفحة من الورق بحيث يمثل التفكير وجه الصفحة ويمثل الصوت ظهرها، وكما أنه يستحيل فصل أو قطع وجه الورقة دون أن نقطع ظهرها في الوقت نفسه فانه يصعب بالمثل في اللغة فصل التفكير عن الصوت في عالم الواقع وان كان يمكن الفصل أو التمييز بينهما على المستوى التجريدي

البحث .

وتزخر صفحات كتاب دوسوسير عن (دروس فى اللغويات العامة) بالتفاصيل المعقدة العميقة عن طبيعة اللغة او اللسان وطبيعة الكلام والعلاقة بينهما، وعن التفرقة أو التعارض بين مايسميه (الدال) و(المدلول) فالدّال هو العنصر الصوتي او الصوت وقد يطلق عليه أحيانا اسم العلامة الدالة، بينما يطلق على العنصر العقلي او التصوري اسم المدلول أو العلامة المقصودة أو المعنى المقصود الذي هو فكرة عن شئ ما، أي مايتوارد إلى الذهن حين يرد ذكر علامة أو إشارة من العلامات الدالة أو الأصوات التي لها معنى ، وكيف أنه لا يمكن أن يكون هناك شئ مدلول عليه بدون وجود علامة أو إشارة دالة تدل عليه .

وأنا أدرك تماما ما فى بعض هذه الآراء والأفكار من صعوبة وتعقيد ، كما أدرك أيضا أن ما ورد فى الصفحات السابقة من الكتاب لا يوفى الكتاب ولا صاحبه حقهما كما أنه لا يحيط بكل المسائل والقضايا التي يعرضان لها ، ولكنها أمور وقضايا لا تهم فى الأغلب سوى المتخصصين تخصصا دقيقا .

والذى يهمنا هنا هو أن الأفكار التى عرضها دوسوسير فى ذلك الكتاب (الذى لم يقم هو نفسه بكتابته في صورته الأخيرة ، وجدت طريقها إلى ما يعرف الآن باسم البنائية في فرنسا وأمريكا ، بل إنها كانت مسئولة إلى حد كبير عن ظهور الاتجاهات، البنائية المعاصرة التى يمكن أن تندرج تحت عباءتها ما بعد البنائية وما بعد الحداثة .

وقد أدى ظهور ما يسميه بعض الكتاب (النموذج السوسيرى) فى اللغة إلى محاولة تطبيق ذلك النموذج في العلوم الاجتماعية . ويقضى ذلك النموذج بدراسة السلوك الانساني كنسق من المعاني بدلا من النموذج القديم الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر. والذى كان يهتم بتتبع تاريخ ذلك السلوك وعناصره وجزئياته كما يمارسها الافراد فى حياتهم اليومية . ويرتكز النموذج السوسيرى على فكرة (لا شخصانية) اللغة وأنها تعلو على

الأفراد وتتعداهم ، وقد انتقلت هذه الفكرة إلى كل المفكرين البنائيين وان كانت تتخذ أشكالا وصورا تختلف من مفكر لآخر، ولكنها تتفق كلها فى موقفها العدائى من الفلسفات الفردية . ولعل أهم ما يميز هذا النموذج هو النظرة الكلية الشاملة التى تعطى (الكل) أولوية منطقية على الأجزاء أو العناصر التى تدخل فى تكوين ذلك الكل ، وإن كان هذا لايعنى أن البنائية تغفل تماما تلك الأجزاء أو العناصر وإنما ترى على العكس من ذلك أن فهم هذه الأجزاء فهماً دقيقاً لن يتيسر إلا إذا نظرنا إليها فى علاقاتها بعضها ببعض من ناحية وفى علاقتها بالكل الذى يتألف منها من الناحية الاخرى فالمهم هو دراسة شبكة العلاقات التى تقوم بين هذه الأجزاء أو العناصر وتربطها بعضها ببعض على اعتبار أن ذلك هو الذى يكشف عن المعنى الحقيقى لتلك الاجزاء كما أنه يساعد على الغوص تحت المظاهر أو الظواهر السطحية الملموسة، والتى تعتبر من وجهة النظر البنائية مجرد شواهد على وجود (بناء تحتى) أو بناء عميق يكمن تحت هذه المظاهر السطحية مثلما تدل قمة جبل الجليد الطافية فوق سطح الماء على وجود ذلك الجليد الضخم ذاته تحت السطح.

فالبناء لا يبدو ظاهرا للعيان أو الحواس وإنما يمكن الاستدلال عليه من خلال العمليات الذهنية وحدها. وهذه كلها أفكار تنتشر بصور مختلفة فى الأعمال البنائية وما بعد البنائية كما تأثرت بها كتابات واتجاهات ما بعد الحداثة مما يجعل فردينان دوسوسير أحد المعالم الرئيسية التى أثرت وتؤثر فى الفكر الإنسانى المعاصر رغم أنه عاش فى شبه عزلة، ولم يكن يحس بوجوده سوى تلك المجموعة المحدودة، من الأكاديميين الذين كانوا يهتمون على أيامه باللغات الإندو أوربية فى المحل الاول، ثم تلاميذه وزملاؤه الذين أدركوا أهمية المحاضرات التى كان يلقيها فى جامعة جنيف فى مقرر دراسى اسمه (اللغويات العامة). وليس من شك فى أن تاثير أفكار دوسوسير فى عدد من المفكرين المحدثين والمعاصرين تحتاج إلى مزيد من التفصيل لإلقاء أضواء كافية على مدى اسهامه فى تشكيل الفكر المعاصر ، وهو ما يتطلب العودة إلى الموضوع فى مقالات تالية .

قضية للمناقشة

بين أم كلثوم والقصبجي

بقلم: د. جلال أمين

الدكتورة رتيبة الحفنى فنانة كبيرة وشخصية مرموقة في الحياة العامة المصرية. فهي فضلا عن تألقها كمغنية أوبرا، كاتبة ومؤرخة للموسيقى، وكانت مديرة ناجحة لدار الأوبرا، وتنتمى إلى أسرة تتمتع بمكانة رفيعة في ميادين الموسيقى والعلم والطب. ومع ذلك فحتي الدكتورة رتيبة الحفنى لم ترد أن تقول كلمة نقد واحدة لأم كلثوم ففى مقال طويل لها عن محمد القصبجى نشر فى مجلة «وجهات نظر» (عدد فبراير ٢٠٠٠) ويتناول معظمه، بالطبع، العلاقة بين القصبجى وأم كلثوم، تظهر أم كلثوم بريئة تماما وكأنها لم ترتكب أي خطأ أو ظلم تجاه هذا الملحن العبقرى، وصاحب الفضل الكبير علي أم كلثوم، إن لم يكن الفضل الأكبر.



محمد القصبجى



أم كلثوم

ليس فى الأمر بالطبع أى نفاق فأم كلثوم رحلت منذ زمن ولم تعد تصيب أحداً بسوء أو تجلب له نفعاً ولكنه مجرد الخوف - الخوف من المساس، ولو مساً طفيفا بهذه الشخصية العظيمة التى أجمع الناس على تقديرها وشغفوا بفنها وهو خوف لم يصب الدكتورة رتيبة الحفنى وحدها بل أصابنا جميعا. لقد تعرضت فى مقال سابق لى فى «الهلال» (عدد فبراير ٢٠٠٠) إلى إحجام المسلسل التليفزيونى الشهير عن أم كلثوم (لمحفوظ عبد الرحمن وإنعام محمد على) عن التعرض لأى شئ سلبى فى حياة أو شخصية أم كلثوم، وقد حاز هذا المسلسل قدرا هائلا من التعليق والثناء من جانب عدد كبير من الكتاب، لم يشر منهم إلا عدد قليل جدا ولو من طرف بعيد، إلى هذا النقص وهو الأحجام عن التعرض لأى نقيصة قد تكون قد شابت السيدة أم كلثوم، وقد أثرت فى ذلك المقال إلى مغبة هذا الاحجام وضرره، ولكنى أريد الآن أن ألفت النظر إلى ما يمثله هذا الاحجام من ظاهرة عامة، هى فى الواقع أعم بكثير مما نتصور.

فالظاهر أن هذا الخوف من نقد أم كلثوم، سواء فى حياتها أو بعد موتها، هو

نفسه الخوف الذى يسيطر على حياتنا الفنية والادبية كلها من نقد أى فنان أو كاتب شهير، وهو نفسه الخوف الذى يسيطر على حياتنا السياسية. فأثناء وحياة أم كلثوم، وقد كنت، ولا أزال مفتونا بفنها أشد الافتتان، لا أذكر أنى قرأت مقالا واحدا ينتقد أغنية من أغانيها .

وعندما يتعلق الأمر بشخصية عظيمة عن أم كلثوم، فكل ما يصدر عنها سواء. فالاغانى كلها، ليست فقط عظيمة ورائعة، بل ولا يجوز تفضيل واحدة على الأخرى، وكأننا بصدد الحديث عن أعمال إلهية، قد يؤدى هذا التفضيل والترتيب إلى الايحاء بأى نقص عن الكمال . وهو موقف، إذا تعلق بفنان من البشر، لا بد أن يصيب النفس بالملل الشديد، ويصيب الحياة الفنية بالعقم والرتابة، مثلما كان يصيبنا، بلا شك، من سماع كلمات الثناء التى كان يسردها المرحوم المذيع جلال معوض، وهو يقدم أغنية ستشدو بها أم كلثوم انتهت لتوّها من الشدو بها، وهو المذيع الذى كان بالطبع أثيرا لديها .

ولكن أم كلثوم لم تكن فى ذلك استثناء فقد عاملنا محمد عبد الوهاب (ولا زلنا نعامله) بنفس الطريقة، وكذلك عبد الحليم حافظ، رغم أن ما يمكن قوله فى نقد هذا وذاك كثير، أو على الأقل فى نقد هذه الأغنية أو تلك . أو فلننظر إلى حالة النقد الأدبى عندنا الآن نجيب محفوظ (خاصة بعد حصوله على جائزة نوبل) لا يجوز أى ذكر نقد له، ولو فى أشياء، ولا علاقة لها بالادب ، فكل أعماله عظيمة، بل ولا يجوز ترتيب أعماله بعضها فوق بعض. وفى الاخراج السينمائى لدينا يوسف شاهين، وفى التمثيل لدينا فاتن حمامة، وفى العلم، لدينا الآن أحمد زويل. وفى كل مجال لابد أن يكون لنا زعيم واحد، لا يجوز المساس به من قريب أو بعيد، وفيما عدا هذا الزعيم لا مانع من النقد. اللهم إلا إذا شمل الزعيم هذا الشخص برعايته وعطفه فلا يجوز نقد هذا الشخص أيضا طالما استمرت هذه الرعاية، وهذا العطف فإذا زال العطف زالت على الفور الحصانة، كما يزال كشك الحراسة من أمام بيوت الوزراء بمجرد خروجهم من الوزارة .

* * *

نجيب محفوظ



جلال معوض



الظاهرة «فرعونية» بلا شك وهي بقدر ما تدعو للأسف لما فيها من تأليه من لا يجوز تأليهه، تدعو للأسف أيضا لما تنطوي عليه من ظلم لكل من كان تحت فرعون. ففي أثناء حياة أم كلثوم مثلا أدت هالة التقديس التي أحيطت بها إلى أن خبا ضوء فنانين آخرين وفنانات أخريات كانوا بكل تأكيد سوف يحصلون على حضور أقوى بكثير مما حظوا به لولا هذه المغالاة في تقديس أم كلثوم، بل وفي بعض الأحيان لولا بعض التدخل من جانب أم كلثوم نفسها لدى المسيطرين على وسائل الاعلام . كذلك فيما يتعلق بملحنيها هم أنفسهم، لقد أصاب السنباطي وزكريا أحمد والقصبجي بالطبع بعض الرذاذ من المجد الذي انهمر على أم كلثوم، ولكن هل كان هذا هو كل ما يستحقونه في الحقيقة ؟ ليس من الضروري أن نذهب إلى المدى الذي تعبر عنه هذه العبارة الماكرة التي صدرت عن محمد عبد الوهاب في وصفه لأم كلثوم «أعظم فاترينة في حياتنا الموسيقية»، وكان يقصد بالطبع أن أصحاب المواهب (في التلحين والعزف) لا يمكن أن يتحقق لهم من التألق واللمعان ولفت الأنظار، ما يمكن أن يحققوه لو عرضت مواهبهم من خلال غناء أم كلثوم. والعبارة قد تؤخذ بمعنى أن فن الغناء ليس إلا فاترينة نعرض من خلاله الموهبة الأخرى الأهم والأعظم وهي موهبة التلحين. ليس من الضروري أن نذهب الى هذا الحد من أجل الاعتراف بالدور الاساسي الذي لعبه هؤلاء الملحنون الثلاثة الكبار : القصبجي وزكريا والسنباطي، فيما حققته أم كلثوم من مجد.

والحقيقة أني لا أستطيع أن أعفي أم كلثوم من قدر كبير من المسئولية عن أن هؤلاء لم يحصلوا على كل ما يستحقون. لا أقصد بالضبط المكاسب المالية، فهذا الأمر معروف وليس على أي حال بأكثر الأشياء أهمية.

إني كنت أسمع وأقرأ ما يكتب عن أم كلثوم من ثناء في تقديم أغانيها أو رواية أخبارها فلا أكاد أصادف جملة واحدة عن روعة اللحن وعظمة الملحن . هل كان هذا الأمر يمكن أن يمر على ام كلثوم دون

محفوظ عبد الرحمن



إنعام محمد علي



أن تلاحظه؟ أم كـان يحـدث برضـاها وموافقتها؟ .

إن الدكتورة رتيبة الحفنى أحجمت عن ذكر مـا أصـاب القـصـبجي من ظلم من جـانب أم كلثـوم ، ولكن هناك إشـارة فى كـتـاب المؤرخ اللبناني المرمـوق الدكـتـور فـيكتـور سـحـاب (السـبـعـة الكبـار فى الموسـيقى العـربيـة المعـاصـرة، دار العلم للمـلايين، بيـروت ١٩٨٧، ص٨١) الى غـضب «الست» على القـصـبـجي عندما صـرح مـرة في بيـروت بأنها لو أتاحت له الفـرصـة «لأثبت أن ألحـانه أفـضل من ألحـان السنبـاطي» ، ويضـيف فـيكتـور سـحاب قوله :ولا شك أن القصبجي كان يفوق السنباطى فى القدرة على التفكير الموسـيـقي، وعلى صـيـاغـة لوازم قـوية مـتـمـاسكة ، وعلى تطوير اللحن وعلى التجـديد فى الموسيـقى ، وإن كـان بعض النقاد يرون أن جملة السنباطى اللحنية أجمل فى الغالب» ..

وهنا يثـور اللغز الكبيـر المحير. لماذا توقـفت أم كلثـوم عن الغناء للقـصـبـجي (باسـتـثناء ألحـان ثلاثة قـصيـرة فى فيلم فـاطمـة ، سنة ١٩٤٨، يا صـبـاح الخـيـر ونورك يا ست الكل، وياللى انحــــرمت الحنان) بعـــد أن لحن لهـــا ذلك اللحن الرائع، رق الحبيب سنة ١٩٤٤ إن كل من كـتب فى هذا الموضـوع، ممن قـرأت لهم، يوحى بأن القصبجى كان على الأرجح قد نضبت مـوهبتـه ، وحتى فيكتور سـحـاب يتساءل :

«أهو النضـوب فى الهـامـه أدى إلى عزوف أم كلثـوم أم أن عزوفـهـا أدى إلى نضـوبه حقـا؟» ولكن هناك احتمـالا آخر، أريد أن أطرحه على من يهمهم الأمر فلعله يكون أقرب الى الحقيقة من نضوب موهبة القصبجى بعد ١٩٤٤ ، ويتعلق بنفس هذه الظاهرة «الفرعونية» التى أتكلم عنها .

فـمن المؤكـد من ناحـيـة أن أم كلثـوم كانت تعلق أهمية غير عادية على مجدها الشـخـصى حـتى ولو تضـمن هذا بعض الافتئات على حقوق الآخرين. ومن المؤكد من ناحية أخرى أنها كانت تعرف جيدا القيمة الحقيقية لموهبة القصبجى وألحانه بل وربما كـانت تحـمل لموهبتـه، فى قـرارة نفسـهـا ، تقديرا يفـوق مـا قـد تحـمله للآخرين. لقد نسب اليها قولها قبيل وفاتها

د . رتيبة الحفنى



رياض السنباطى



أن القصبجي «موسيقى عالم سبق عصره» (فيكتور سحاب، ص ٧٩)، ولكن هذه الحقيقة وحدها وهى سبقه لعصره قد تكفى لتفسير عزوفها عن الغناء له بعد ١٩٤٨. فأم كلثوم للسبب الذى ذكرته حالا، ولحاستها العملية المدهشة (وهى حاسة كان يتمتع بها محمد عبد الوهاب بدرجة مدهشة أيضا) ، كان يهمها نوع استقبال الجماهير لأغانيها أكثر مما إذا كانت الموسيقى «قد سبقت عصرها أو لم تسبقه» ومن الممكن جداً بل والراجح أن جمهور أم كلثوم خاصة فى العقود الأخيرة من حياتها ، كان اقرب الى الافتتان بألحان اسهل وأكثر إثارة منه إلى الافتتان بألحان أصعب. وإن كانت أقدر على البقاء وأشد قوه وأكثر تجديدا وابتكارا كألحان القصبجي فضلا عن أن كثيرا من ألحان القصبجي تحتل فيه الجمل واللوازم الموسيقية التى تربط بين عبارات الأغنية التى ينطق بها المغنى، أهمية لا تقل عن أهمية هذه العبارات المغناة ، وهذا بدرجة قد تزيد عما نجده فى ألحان الملحنين الآخرين الذين لحنوا لأم كلثوم .

قد يؤيد هذا التفسير مسلك أم كلثوم فى مجال آخر غير التلحين، وهو مستوى الكلمات التى تغنيها . إن أم كلثوم التى غنت تلك القصائد الرائعة لأحمد شوقى، وأدتها أداء يدل على فهم وتذوق ثم رباعيات الخيام ، وكلمات بيرم التونسى الشديدة البلاغة والظرف، وأبيات رامى النفاذة كيف تجد من السهل عليها أن تغنى كلاما من نوع حب إيه اللي إنت جاى تقول عليه؟ «أو قولها العيب فيكو يا في حبايبكو»، ومن هذا كثير مما غنته فى السنوات العشر الأخيرة .تفسير ذلك فى رأيى أن جمهور أم كلثوم كان فى الستينات والسبعينات غيره فى الثلاثينات والأربعينات . وكذلك كان مشترو الاسطوانات وأشرطة التسجيل جمهورا مختلفا تماما. كانت الأذواق قد هبطت ، والذى كان مطلوبا فى الاربعينات «وعلى الأقل من وجهة نظر المجد الشخصى» لم يعد مطلوبا فى الستينات والسبعينات . وقد فهمت أم كلثوم هذا للاسف فهما جيدا وتصرفت على أساسه وقد يكون هذا هو السبب الحقيقى فى محنة القصبجي معها..

محمد عبدالوهاب



احمد شوقى





حان الوقت .. لكى تسترد الجزائر عافيتها!

بقلم : مصطفي نبيل

مر عقد من الزمان، والجزائر تعيش محنة سوداء بعد أن أنهكها العنف الأسود والصراع المسلح، وحان الوقت لكى تسترد الجزائر عافيتها، مع الجهود المخلصة التى يبذلها الرئيس الجزائرى عبدالعزيز بوتفليقة، وإعلانه قانون الوئام الوطنى، ومناداته بالمصالحة الوطنية، وإصداره لقانون العفو العام لكل من لم يلوث يده بالدماء.

وفتح صفحة جديدة، لكى يسود فيها الحوار، ويستبعد سياسة الإقصاء والاستئصال، وإذا كانت هذه السياسة تلقى من البعض المعارضة، فهى تحتاج من كل مخلص إلى الدعم والتأييد حتى تصل الجزائر إلى بر الأمان، وقد جاء مقتل عبد القادر حشانى كجرس إنذار يؤكد أن أعداء المصالحة مازالوا يحاولون وقف عجلة التاريخ ..



وأقدم هنا ما جاء فى عدد من الكتب المهمة التى صدرت أخيرا والتى تلقى الضوء على بعض ما يجرى فى الجزائر، وتجيب على عدد من الأسئلة التى تبحث عن إجابات ..

أحد فوائد المعرض الدولى للكتاب، توفير الكتب المنشورة فى العواصم العربية المختلفة، فلا توجد هذه الكتب فى أى من المكتبات، ولا تعثر عليها حتى فى دار الكتب المصرية، فإذا كان عسيرا وجود مراكز للدراسات والأبحاث العربية تضم تلك الكتب المنشورة فى البلدان العربية، والتى تغذى الأبحاث والدراسات العربية ، فعلى الأقل يجب توفير هذه الكتب لمن يحتاجها .

وإذا كان المعرض قد عجز خلال السنوات الماضية عن العمل على غرار معارض الكتب فى كل الدنيا، بتقديم معلومات وافية حول أكثر الكتب مبيعا، وأكثر مايجذب القراء، وماهى فروع المعرفة التى يقبل عليها القراء، فعليه على الأقل أن يقدم الكتاب العربى الذى يصدر خارج القاهرة .

وإطلالة سريعة عن بعض الكتب التى صدرت عن الجزائر تكشف أهمية توافر هذه الكتب للباحثين.

●

ومن هذه الكتب المهمة كتاب «التاريخ السياسي للجزائر حتي عام ١٩٦٢» ، تأليف الدكتور عماد بوجوش، جمع الكتاب ماكان متفرقا من تاريخ الجزائر، وكشف ماكان غامضا، وأبرز ماحاول البعض تغييبه، وتناول تاريخ الجزائر كوحدة واحدة، بدأ بالمرحلة السابقة على الإسلام وانتهى بالتاريخ المعاصر الذى انتهى باستقلال الجزائر فى يوليو سنة ١٩٦٢، وفيه يكشف أسرار الثورة الجزائرية«وماكان يدور فى الأحراش وعلى قمم الجبال وداخل الغرف المغلقة ..

وككل الثورات عرفت الثورة الجزائرية الصراعات التى حالت دون تركيز

السلطة فى أيدى قيادة تحظى بالإجماع وتقود حرب الاستقلال، فشهدت الثورة صراعات بين العسكريين والسياسيين وبين الداخل والخارج، وبين الحكومة المؤقتة وقيادة جيش التحرير وأخيرا بين منطقة القبائل وغيرها ..

كما دفع حياته ثمنا لهذه الصراعات أمثال كريم بلقاسم وعبان رمضان ومحمد خيضر وحتى محمد بوضياف وقاصدى مرباح .. والقائمة طويلة ..

وتبدأ قصة الثورة بما يشبه الدراما الإغريقية، والتى تمثلت فى شخصيتين تاريخيتين هما مصالى الحاج وعباس فرحات، فمصالى الحاج هو الأب الحقيقى للثورة وتنظيمه هو العمود الفقرى لجبهة التحرير، والذى انفصل عن الحزب الشيوعى الفرنسى، وأقام حزبه، وصرح .. «إننا تركنا شيوعية الموت، وتمسكنا بالوطنية وهى رمز الحياة ، ونادى بتوحيد العالم العربى والإسلامى» وتولى قيادة حزب «نجم شمال أفريقيا» سنة ١٩٢٧، وأعلن أهداف الحزب «السعى إلى استعادة الأراضى المغتصبة، وحصول الجزائر على إستقلالها، وإنشاء جيش وطنى، وانتخاب برلمان جزائرى».

وأصبح مصالى الحاج سنة ١٩٣٥ أقوى زعيم يقود شعبه نحو الاستقلال، وأصبح حزبه سنة ١٩٣٧ يحمل اسم «حزب الشعب الجزائرى»، وقضى معظم سنوات عمره فى المنافى والسجون.

والشخصية التاريخية الثانية التى لعبت أهم الأدوار، سواء فى المطالبة باندماج الجزائر مع فرنسا، أو المشاركة فى حرب التحرير هو عباس فرحات، الذى كان سياسيا تقليديا يكره العنف ويؤمن بسياسة المراحل، وأكد أنه لايوجد مايمنع الجزائرى أن يكون فرنسيا، «ولايطالب حزب البيان الذى يرأسه بالمساواة مع الأوربيين ولايطالب بالاستقلال، ولايدافع عن الهوية العربية الإسلامية»..

ومن أقواله سنة ١٩٣٠ «لو عرفت القومية الجزائرية لكنت من القوميين، ولما خجلت من ذلك».. ولن أموت من أجل وطن جزائرى، لأن ذلك الوطن ليس له وجود، وبعد رفض فرنسا لفرحات عباس عمل على التقرب من مصالى الحاج والشيخ بشير الإبراهيمى زعيم جمعية العلماء، وقال لمصالى الحاج.. «لقد كنت

ضدك أدافع بحرارة عن الإندماج، وأثبتت الأحداث أنك على صواب وأنا على خطأ، واليوم أعترف لك أنى سأتبع خطاك».

وتحول عباس فرحات من الاعتدال إلى التشدد، وانتقل مصالى الحاج من التشدد إلى الاعتدال.

وفى حكاية كل منهما شبه برواية بجماليون لأناتول فرانس .. والتى تحكى قصة الراهب والغانية، أحدهما على القمة والآخر عند السفح، يتبادلان الأدوار ويصبح من فى القمة عند السفح، ومن عند السفح يصل إلى القمة!..

واستطاع عباس فرحات أن يوحد صفوف الأحزاب الجزائرية ..

وكان مصالى الحاج يعمل على إشعال الثورة المسلحة لتحرير الجزائر، وكان بن بيللا وجماعته أسرع من مصالى الحاج وأنصاره، فحددها مصالى الحاج فى يونيو ١٩٥٥ بينما قررت جماعة بن بيللا بدء الثورة فى الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤.

وبقى مصالى الحاج فى سجون فرنسا حتى يونيو ١٩٥٩، وعاش فى فرنسا يعادى الثورة التى خرجت عن طاعته حتى وافته المنية فى يونيو ٧٤، ونقل جثمانه إلى مدينة تلمسان.

كما قرر الحزب الشيوعى الجزائرى إنشاء منظمة عسكرية خاصة أطلقوا عليها «المحاربون للتحرير» بعد قيام الثورة.

جمعية العلماء

أما جمعية العلماء فكانت طرفا رئيسيا فى المعادلة السياسية، وجزءا من النواة الأولى للثورة، والتى تأسست فى ٥ مايو ١٩٣١، وهى حركة سياسية ذات رسالة ثقافية تهدف إلى حماية التراث الوطنى وبعث الروح الوطنية، وكانت حربا على التخلف وما أطلق عليه أيامها «الإسلام الفرنسى»! وشعارها «العربية لغتنا والإسلام ديننا والجزائر وطننا»، وتعتبر الزوايا الصوفية «علة العلل ومنبع الشرور»!.

وقاد الجماعة على التوالى عبدالحميد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠)، بعده

الشيخ بشير الإبراهيمي وتلاه الشيخ مبارك الميلى، ومثلهما فى قيادة جبهة التحرير توفيق المدنى.

وبعد قيام الثورة، غاب جانب من قيادتها فى عملية القرصنة الفرنسية فى ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦، كما عانت الثورة من استشهاد قادتها الأوائل مراد ديدوش فى يناير ١٩٥٥ ومصطفى بلعيد مارس ١٩٥٦ والعربى بن مهيدى الذى أعدمه الفرنسيون فى مارس ١٩٥٧، ولم يبق من القادة الستة الأوائل على أرض الجزائر سوى كريم بلقاسم ..

عبان رمضان

واستطاع عبان رمضان الذى بقى فى الداخل من توسيع الجبهة ودعمها بقادة حزب البيان، عباس فرحات وأحمد فرنسيس، وكان مؤتمر الصمام الذى عقد بوادى الصمام فى منطقة القبائل فى أغسطس ١٩٥٦، مجالا لظهور الكثير من التناقضات فى صفوف الثورة واستولى على القيادة الثلاثي عبان رمضان (قبائلي) وكريم بلقاسم (قبائلى) وأو عمران، وشاع أن قيادة الجبهة فى الخارج ليست على المستوى وأنها عبارة عن أفراد لايوجد بينهم انسجام أو إتفاق، فتقرر إرسال الدكتور الأمين دباغين إلى القاهرة بوصفه رئيسا للوفد الخارجي للجبهة، وكان معنى ذلك القضاء على زعامة بن بيلا وصحبه، وأعطى عبان رمضان الأولوية للداخل عن الخارج، كما توارت فى المؤتمر كلمتا العروبة والإسلام، وإتهام مصر والدول العربية بالتقصير فى تأييد الثورة!، وعارض المؤتمر كل من أحمد بن بيللا وبوضياف وخيضر، وتشكلت قيادة جديدة من كل من كريم بلقاسم ويوسف بن خده مع عبان رمضان، وقد تبين أن القرصنة الجوية التى قامت بها فرنسا أدت إلى تجنب الانقسام العلنى للثورة .

وسرعان مابرزت القيادة العسكرية لكريم بلقاسم الذى تمكن من أخذ السلطة من يد عبان رمضان وعزله، ثم التخلص منه فى ظروف غامضة يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٥٧..

وهذا ماجاء فى كتاب التاريخ السياسى للجزائر أما مايرويه فتحى الديب عن

ذات الواقعة فى كتابه عبدالناصر وثورة الجزائر .. فيقول .. «وصلنا خبر مقتل عبان رمضان وهو فى طريقه الى تونس وعلمنا من بعض الأخوة أن كريم بلقاسم كان وراء تصفية عبان رمضان باعتباره انحرف عن خط الثورة، وحاول تقوية نفوذ السياسيين على حساب العسكريين» .

دماء فى القاهرة

ويكشف كتاب التاريخ السياسى للجزائر حكاية اغتيال عميرة علاوة فى يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٥٩، الذى قيل أنه انتحر بمبنى الحكومة المؤقتة ، جاردن سيتى بالقاهرة، والحقيقة أن عميرة كان يعمل فى مكتب جبهة التحرير بمدريد، وكان فى طريقه إلى المغرب بناء على تعليمات قائده عبدالحفيظ بوصوف، غير أنه لم يمتثل للتعليمات، فقام مسعود بو قادوم باستجوابه، وتأكد أنه لم يرتكب أية مخالفة فتقرر نقله إلى القاهرة، وقام الدكتور الأمين دباغين بتعيينه مندوبا للجزائر فى بيروت .

ولكن قدم تقريرا لفرحات عباس بأن عميره يهاجم وزراء الحكومة المؤقتة، ويتهم فرحات عباس شخصيا بالانحراف عن مبادىء الثورة، فقام عبدالحفيظ بوصوف بتصفيته، مما أدى إلى استقالة الأمين دباغين..

ولم تؤد هذه الحادثة إلى القضاء على عميرة وحده بل قضت أيضا على الحكومة المؤقتة، ويورد الكتاب ماقاله هوارى بومدين قائد جيش التحرير الجزائرى بأن هذه الحكومة لم تقم بواجباتها تجاه غرب البلاد، ولم تمدها بالأسلحة والمؤونة، وتساءل فى سخرية .. كيف نربح الحرب..؟ هل بالأقوال الجوفاء والتصريحات الفارغة؟!.

ونكتفى بهذا القدر وهو قليل من كثير عن خفايا الثورة ومعاناتها ..

وتبقى مجموعة ملاحظات حول تاريخ وأحداث الثورة .

● تنامى دور الجيش وقيامه بالدور الرئيسى خلال حرب التحرير وفى حكم البلاد قبل وبعد تولى أحمد بن بيللا أول رئيس للجمهورية .

● وجود ظاهرة الذين يحكمون ولايملكون، وفى المقابل الذين يمسكون بخيوط السلطة ومقدرات الأمور ولايحكمون، وكما جاء على لسان أحد السياسيين «إن إشكالية السلطة ليست وليدة اليوم، ولكن تعود إلى سنة ١٩٥٨، عندما تم تعيين عباس فرحات على رأس الحكومة المؤقتة دون سلطة فعلية، وهى القضية نفسها المطروحة اليوم والتى تكررت مع بوضياف والذين اغتالوه».

● تناقص دور الجزائر العاصمة التى كانت تحت قبضة جيش الاحتلال الفرنسى، واستمرار المقاومة فى الجبال.

● استمرار الصراع حول الهوية واللغة العربية بين ذوى الأصول العربية والمنحدرين من أصل بربرى..

● رفض الزعامة الفردية من مصالى الحاج مرورا بعباس فرحات وحتى أحمد بن بيللا، وقام بالعمل أطراف متعددة يحرص كل منها على عدم إنفراد غيرها بالعمل .

●

الفتنة

ومن الكتب التى صدرت وتلقى الضوء على العقد الأخير من حياة الجزائر.



كتاب «الفتنة» والذى يقدم خلاله أحمد مرانى (من مواليد ١٩٤٨)، والذى كان عضوا مؤسسا فى جبهة الإنقاذ والوزير السابق للشئون الدينية وعضو مجلس الأمة الجزائرى والقادم من منطقة تيزى وزو، والذى يقدم شهادته التاريخية ويكشف خفايا جبهة الانقاذ، ويأمل أن يساهم فى إنهاء الفتنة، والمساهمة فى القضاء على العنف الأسود.

ويرى أن تدهور الأوضاع الاقتصادية وغياب العدالة

الاجتماعية أحد أهم أسباب اشتعال العنف، ويرصد أسباب الانزلاق الي العنف الدموى الذى عاشته الجزائر، ويؤكد أن هذه الشهادة ليست كاملة، فلم يحن الوقت بعد للبوح بكل شيء.

كما يؤكد .. «أن أطرافاً فى النظام كانت تشجع هذا التيار السياسى لاستثماره فى توجيه الرأى العام، وخلق التوتر الأيديولجى مع جماعات اليسار، عندما تحولت الجزائر عن الاشتراكية إلى اقتصاديات السوق، وأحد نتائج التغييرات الاجتماعية الحادة التى شهدتها البلاد، بعد أن قام الشاذلى بن جديد بتفكيك البنيان الذى أقامه بومدين، وقام مالك بن نبى المفكر الإسلامى المعروف بعقد ندوات فى بيته، وكان أكثر المترددين عليه من الطلبة الذين يدرسون فى الجامعة . وأخذ هذا التيار فى التنامى والذى يطلق عليه «الماسونية الإسلامية»، والذى يعتمد التهيئة والاختراق ثم التفجير حتى يتحقق لقيادته السيطرة..

ويأخذ على عباس مدنى قائد جبهة الانقاذ زعامته الفردية وعدم إيمانه بالديمقراطية داخل حزبه ويقول .. «إن مدنى حاول أكثر من مرة صرف نظر مجلس الشورى عن فكرة الدعوة لمؤتمر يعتمد الشورى حتى ينفرد بالقيادة وحده»!.

ويروى تفاصيل لقاء تم بين على بن الحاج الرجل الثانى فى الجبهة وخالد نزار أحد رجال الجيش الأقوياء خلال حرب الخليج، طالب خلاله أن تقيم المؤسسة العسكرية ثكنات لتدريب أعضاء الجبهة للقتال إلى جانب العراق..

ويتحدث عن أحد الشخصيات الأجنبية الغامضة ويدعى روجيه ديدى الذى كان ينسق مع الجبهة، ويلتقى مع على بن الحاج، والذى ألقى القبض عليه وهو يقوم بتهريب الأسلحة إلى الجزائر، وأحد الذين ساهموا فى تحضير «الطبخة» الدموية التى أصبحت على مدار السنين وجبة الجزائريين!!.

ويتضمن الكتاب الكثير من التفاصيل والخلافات عن قيام جبهة الانقاذ .

●

أما كتاب «الجزائر الحركة الإسلامية والدولة التسلطية» لمؤلفه توفيق



المدينى، فيرى أن الأخذ بقرارات روما التى أجمع عليها قــادة الجــزائر يمكن أن تقــدم الحل أو تكون المدخل المناسب لحل الأزمة، ويقول بعد استعراضه للتطورات السياسيـة فى الجزائر .. «أنه فى ظل ما أسفرت عنه التجربة الجزائرية من تفاقم الصراع الدموى، والفتك الإعتباطى والجماعى، تصبح عودة السيادة للشعب، وإعادة إنتاج السياسة من فئاته وطبقاته ضرورية .. ومن المؤكد أن هناك تفاعلات وتأثيرات متبادلة بين الأزمة السياسية والأزمة الاقتصادية والعنف المسلح .. ويطالب بالأخذ بمشروع السلام الذى هو بمثابة عقد وطنى فى روما هو المدخل لايجاد حل للأزمة الجزائرية .. وترجيح الحوار على الصراع .. »ويضيف «أنه حتى ترقى جبهة الإنقاذ إلى حل المسألة الديمقراطية عليها أن تنظر لنفسها على أنها جزء من الكل، والكل هو الحركة السياسية الجامعة والتى تشمل الأحزاب جميعا، فكل الأحزاب لها حقوق متساوية فى العمل والتعبير ..» ويضيف :

«فالمسألة الديمقراطية تجسد المجتمع المدنى، وتعبر عن سيادة الشعب، وتمهد الطريق إلى بناء الديمقراطيـة، وتؤمن هذا الانتقـال، والتداول السلمى للسلطة، وتصون حرية الفرد والأقليات والأحزاب، وتجعل الاستبداد مستحيلا..» .

●

فوق البركان

ومن الكتب المثيرة والتى نشرت فى الجزائر كتاب «**الجزائر من فوق البركان**» حقائق وأوهام، كتبه محمد تاملت أحد الصحفيين الشبان، ويلقى فيه الضوء على أبعاد الأزمة التى تعيشها الجزائر، والجماعات الإرهابية التى أعلنت العصيان فى الجبال، ويركز حديثه عن السنوات العشر الأخيرة، والصراع الذى يدور حول الديمقراطية من جانب وظاهرة العنف الأسود من الجانب الآخر، وهو الصراع الذى أدى إلى غياب دور الجزائر الإقليمى، وخسارتها لمائتى ألف قتيل



واختفاء عشرة آلاف جزائرى، وهو الصراع الذى راح ضحيته كتاب ومفكرون وسياسيون وصحفيون وفنانون، والكتاب عبارة عن تحقيق صحفي استعان بشهادات ٤١ شخصية جزائرية شاركت فى الأحداث، منهم طالب الإبراهيمى والعربى بالخير وعبدالقادر حشانى (الذى لقى مصرعه أخيرا) ومولود حمروش (رئيس الوزراء خلال بداية الصراع) ورضا مالك ومحفوظ نحناح وغيرهم. والكتاب مهمة شاقة، كأن كاتبه يمشى فى حقول الألغام، فى ظل أزمة متفجرة وفى ظل تقاطع طلقات الرصاص، فعندما يتفجر الصراع المسلح – عادة – تتوارى الكلمة وتختفى الموضوعية وتبعد العقلانية ..

لذلك فقد اختار تقديم الأحداث من خلال شهادات من عاشوها، ولم يتدخل بالتعليق إلا قليلا، فجاء الكتاب بانوراما الأحداث وضع الوقائع جنبا إلى جانب .

فإذا كان كتاب الدكتور عماد بوجوش يقدم الخلفية التاريخية للوقائع والأحداث المعاصرة، فيقدم محمد تاملت الأحداث المعاصرة، فبوابة الحل لأية قضية هى إدراك حقيقتها والتعرف على أبعادها.

ويدور الكتاب حول أسئلة ثلاث، بسبب انفجار العنف الأسود ومسئولية الأطراف المختلفة عن ذلك، وماهو دور جبهة الإنقاذ فى ذلك ، والثالث مدى سيطرة الجيش على الحياة السياسية.

وعند تقليب صفحات الكتاب تتكشف حقائق مذهلة، فما يمكن إخفاؤه اليوم سيعرف غدا ..

يقف الكاتب عند نقطة البداية فى أكتوبر ١٩٨٨ عند تفجر مظاهرات الخبز التى دمرت وأحرقت كل المبانى التى ترمز إلى السلطة والتى انتهت بتدخل الجيش، وسقوط الكثير من الضحايا، والتى اشتعلت بسبب الضائقة الإقتصادية الحادة، التي صاحبها تغيير نمط الاقتصاد الذى كان يغلب عليه المركزية

والتخطيط، وتم تغيير الميثاق الوطني، والذى عبر عنه فى خطاب الرئيس الشاذلى بن جديد قبل الأحداث وفى ٢ أكتوبر بقوله .. «إن شلل الاقتصاد الذى طبعه السيطرة البيروقراطية وانخفاض سعر البترول يؤكد ضرورة تغيير النظام الاقتصادى»، ويعلق طالب الإبراهيمى وزير الخارجية الأسبق بقوله .. «كانت الأحداث نتيجة طبيعية للتخلى عن أحد المبادىء الرئيسية للثورة وهو مبدأ العدالة الاجتماعية الذى ميز فترة بومدين، وأعطى الشاذلى هامشا آكبر للحريات الفردية والجماعية..».

ورفضت جبهة التحرير السير فى هذا الطريق، ولم ينقذها ذلك من السقوط لدى الشارع الجزائرى، وتم تعيين عبدالحميد مهدى خلفا لمحمد شريف مساعديه، كما ضم إلى اللجنة المركزية كلا من عبدالسلام بلعيد وعبدالعزيز بوتفليقة والصالح يحياوى وأحمد بن شريف وبشير بومعزة.

ولم تسد هذه الإجراءات الفراغ السياسى القائم، فقام النظام بتشجيع تيارين من التيارات الفاعلة فى الشارع الجزائرى، وهما التيار البربرى والتيار الإسلامى، ويستعين الكاتب برواية د. سعيد سعدى رئيس حزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية، وهو التنظيم البربرى المناهض لحزب حسين أية أحمد (أحد القادة التاريخيين)، «اتصل به وزير التعليم العالى بوبكر بلقايد وحدد له موعداً مع العربى بلخير رئيس ديوان رئاسة الجمهورية، وتم الاتفاق فى هذا الاجتماع على الطلب بعدم السماح لوصول الإضطرابات الى منطقة القبائل مقابل العمل على تغيير دستور ١٩٧٦، حتى يسمح للحركة البربرية التى يقود د سعدى بالنشاط علنا»، وشاع القول أن هذا الحزب، انشىء فى مكتب بلخير وفى سيارة بلقايد.

ومن ناحية أخرى تم الإتصال برموز التيار الإسلامى الذى منهم الشيخ أحمد سحنون أحد قادة جمعية العلماء خلال الثورة، ويروى الجنرال لكحل عياط اتصال وزير الشئون الدينية بوعلام باقى كبداية لاتصالات واسعة مع التيار الإسلامى، وأصدر الشيخ سحنون بيانا يدعو إلى الكف عن تحطيم ممتلكات الشعب والعودة

إلى الهدوء لكى لايكونوا من الذين «يخربون بيوتهم بأيديهم» كما جاء فى القرآن.

ويشهد مولود حمروش (رئيس الوزراء السابق) أنه يعتقد أن السلطة اضطرت لاعتماد الجبهة الإسلامية للإنقاذ بعد تسرعها فى قبول حزب د سعيد سعدى، وحصل الحزبان رسميا على الاعتماد في اليوم نفسه، ولم يكن وزير الداخلية سوى بلقايد الذى سبق وجمع العربى بلخير مع سعيد سعدى خلال أحداث أكتوبر، وعندما كان ملف اعتماد الأحزاب يتم الموافقة عليه من لجنة يرأسها ممثل المخابرات السياسية الجنرال محمد بتشين، (الذى كان سببا فى الاستقالة المبكرة للرئيس أمين زروال).

وكان الدستور لايسمح بقيام حزب على أساس عرقى أو دينى .. وهو ماتم التخلى عنه ..

بداية العنف

ويقول عن بداية العنف من جانب جبهة الانقاذ .. «أن ممارسة العنف وربطه بجبهة الانقاذ كان نتيجة للخطاب العنيف الذى شاع بين قادتها .. ولم يكن للجبهة فى أغلب الأوقات علاقة مباشرة بأحداث العنف، ولكن تقصيرها فى فرض الالتزام على أعضائها جعلها من أول ضحاياه، كما أن بعض الصحف من خصوم الجبهة كانت تبالغ فى الحديث عنه وإبرازه، وأحيانا عن طريق اختلاق وقائع لم تحدث، مع وجود جماعة هجرة وتكفير وجماعات الأفغان الذين لايؤمنون بالعمل السياسى ولا حتى بشىء اسمه جبهة الانقاذ.

وانزعجت المؤسسة العسكرية من أعضاء الجبهة الذين أعلنوا الاضراب احتجاجا على قانون الانتخابات الجديد، والذين يحتلون الشوارع بلا انقطاع، وساءها تكوين شرطة بلدية كانت مهامها غير محددة، وتخضع لأوامر الحزب أكثر مما تخضع لضوابط القانون أو أوامر الدولة بعد نجاحها فى انتخابات البلدية .

وقد هدد الجنرال مصطفى شلوفى أمين عام وزارة الدفاع أعضاء الجبهة، ونشر بيان فى مجلة الجيش فى عددها ٣٠٩، الصادر فى مارس ١٩٩٠ يهاجم ممارسات الجبهة، مما دفع قائدها عباس مدنى بلقاء الرئيس، ويبدى تخوفه من

هذه الحملة، وطمأنه الرئيس ووعده بتهدئة الوضع، ولم يهدأ الوضع وازداد توترا خاصة وأن الجيش كان يقدم التقارير محذرا رئيس الجمهورية من خطر الحزب الجديد ومطالبا بالتدخل ..

الصدام

ورغم ماكان يردده عباس مدنى من «أنه لايوجد مبرر لكسر باب مفتوح» إلا أن غرور القوة والعجلة وعدم الصبر ساهمت فى انفجار العنف، فقد أخذ مؤيدو الجبهة ينزلون إلى الشارع ويحتلون الميادين ويستولون على المساجد فى اضراب طويل احتجاجا على قانون الانتخابات الجديد، وهو الإضراب الذى أعلنه عباس مدنى، وبدأ الصدام بين السلطة والجبهة وسقط ١٧ قتيلا و ٢١٩ جريحا كما أعلنت الحكومة، وأعتقل ٢٧٠٠ من أعضاء الجهة وحجزوا لمدة شهر ونصف، واعتقال قادة الجبهة وشيوخها وتقديمهم إلى المحاكمة العسكرية فى البليدة، وحكم على عباس مدنى وعلى بلحاج بالسجن ١٢ سنة ولقمازى بـ ٦ سنوات، ولجدى وبوخمخم وعرو شيقارة بأربع سنوات.

وتمت الانتخابات النيابية وقادة الجبهة فى السجن، وقاد الجبهة عبدالقادر حشانى. وأحرزت الجبهة النصر فى الانتخابات النيابية التي جرت فى ٢٦ ديسمبر ١٩٩١ . وحصلت الجبهة على ١٨٨ مقعدا وجبهة التحرير على ١٥ مقعدا فى الجولة الأولى.

واستعجلت الحكومة تدخل الجيش، وتم إلغاء نتائج أول انتخابات تشريعية تعددية فى الجزائر وانسحب الرئيس الجزائرى الشاذلى بن جديد من الحياة السياسية، بعد أن استدعى وزير داخليته وقال له:

«لا أريد أن أكون السبب فى إراقة الدماء، أو فى إنقسام الجيش»!

ويضيف الكتاب .. «الواقع أن استقالة أو إقالة الرئيس وقعت فى بداية العام، وليس فى الوقت الذى أعلنت فيه، والدليل أن أول اتصال تم مع محمد بوضياف

بدأت قبل ستة أيام من إعلان الاستقالة، وتم الاتفاق مع الشاذلى بعدم التعرض له أو مضايقته فى المستقبل.

«وانتقل العنف من الشارع إلى خنادق الجماعات، ومن باحات المساجد إلى أعالى الجبال المحيطة بالمدن الكبرى وبالجزائر العاصمة».

ومازال هناك العديد من التساؤلات حول هذه الفترة وماجرى فيها، ولكن يلاحظ أن الكاتب تجاهل الدور الأجنبى فى الصراع، ولم يذكر مايكفى عن الفساد ودوره فى الأزمة، الذى قال عنه أحد رؤساء الوزارة السابقين وهو عبدالحميد الابراهيمى أن الفساد يساوى عجز الميزانية الذى يبلغ قيمته ٢٦ مليار، وهو قيمة ماتم سرقته خلال رئاسته للحكومة..

كما أن الكاتب أخطأ عندما ذكر .. «أن الفوز الساحق للجبهة يخيف من تكرار تجربة إيران، التى حرر فيها الشعب الإيرانى الإمام الخمينى من سجنه وتسليمه السلطة، وأن يفعل البرلمان الجديد مع الشيوخ المعتقلين..» فقد كان الخمينى فى فرنسا عندما قامت الثورة، وعاد إلى طهران وهى فى قمتها .

وبعد ..

آن لليل الجزائر الطويل أن ينجلى ، وأن يوضع حد لمشكلتين عانت منهما الجزائر، إحداهما الصراع بين العسكريين والمدنيين ، والثانية الصراع الذى يتناول الهوية الذى نشب منذ الاستقلال بين اللغتين العربية والفرنسية ، والتى ظلت الإدارة العليا تقاوم التعريب حتى لاتفقد مراكزها .

ويتركز الرهان على سى عبدالقادر وهو الاسم الحركى للسيد عبدالعزيز بوتفليقة ، الذى يتمتع بتجربة سياسية طويلة وحنكة وحصافة ، وتأييد قطاعات واسعة من المجتمع المدنى ..

وعندها يسترد الموقف العربى الجزائر، القوة التى لايستهان بها ، ويعود للموقف العربى الكثير من قدرته ❑

على هامش
مذكرات سعد زغلول

سعد زغلول

بقلم: د. عاصم الدسوقى



تمتاز مذكرات سعد زغلول التى ينشرها فى أجزاء متتالية مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بالهيئة العامة للكتاب، ومن تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان بدرجة من الشفافية يندر وجودها فى كثير من المذكرات التى يكتبها السياسيون عادة بعد خروجهم من ساحة العمل السياسى. وتعتبر هذه المذكرات مصدرا لا غنى عنه للباحثين فى تارخ مصر عن الفترة من أكتوبر ١٨٩٧ (تاريخ بداية تدوين سعد زغلول لمذكراته) وحتى ديسمبر ١٩٢٦ (تاريخ توقفه عن التدوين قبل وفاته فى ١٩٢٧).

لم يخلق الله "جماعة بها عوامل الفرقة أكثر من الوفد !!

والوفد فى المنفى

والجزء التاسع من هذه المذكرات الذى صدر أخيراً يتناول فترة دقيقة من تاريخ مصر، وهى الفترة التى تشكل فيها الوفد، واعتقل زعيمه سعد زغلول مع صحبه وإبعادهم إلى مالطة ، ثم الإفراج عنهم وسفرهم إلى باريس لمواصلة السعى لاستقلال مصر حتى بداية التفاوض مع الحكومة البريطانية ، أى فى خلال المدة من ٧ ديسمبر ١٩١٨ وحتى ١٤ فبراير ١٩٢٠ . وقد كتبها بشكل متصل فيما عدا الفترة من ٥ أكتوبر ١٩١٩ إلى ١٧ ديسمبر ١٩١٩ لمرضه ومشاغله وكسله كما يقول ، أو خشية أن يطلع عليها أحد كما يقول أيضاً ، وان كنت أعتقد أن توقفه جاء بسبب حالة اليأس التى كانت تعتريه كلما دب الخلاف بين وجهات نظر أعضاء الوفد . كما انقطع عن الكتابة قبيل اعتقاله ثم نفيه ، ولم يستأنف تسجيل يومياته إلا يوم ٢٦ مارس بعد سبعة عشر يوما من النفى قضاها فى تجميع شتات نفسه وترتيب إعاشته الجديدة حيث بدأ التسجيل يوم ٦ مارس.

وفى هذا الجزء يصف سعد زغلول وصفا دقيقا الأيام الأخيرة التى سبقت اعتقاله ومعه اسماعيل صدقى وحمد الباسل ومحمد محمود، والرحلة من محطة مصر إلى بورسعيد إلى الباخرة كاليدونيا التى أقلتهم إلى مالطة والحياة هناك ، ومجمل علاقاته مع أعضاء الوفد وانطباعاته عنهم ، ولحظات القوة ولحظات اليأس ، وتأملاته وحيدا فى مجريات الحوادث ، وتوقعاته التى خاب معظمها وكان قد أقامها على أسس أخلاقية فى عالم برجماتى لاتعرف فيه المصالح إلا سلاح القوة المادية ، وكيف بلغ منه اليأس مبلغا حتى لقد قال فى لحظة يأس أن مأمورية الوفد انتهت «وعلينا أن نستقبل كل قضاء على أنفسنا بغاية الرضى ،

وسواء أتيحت لنا العودة إلى وطننا العزيز أو لم تتح فقد أعززناه وأعزناه.

كشف المسكوت عنه!

وقيمة هذا الجزء من المذكرات أنه يكشف المسكوت عنه فى ادبيات الوفد وثورة مارس ١٩١٩ ، ويتيح الفرصة للدخول فى أعماق سعد زغلول بكل انفعالاته الوقتية وبكل علاقاته ومواقفه الصريحة وغير الصريحة ، مما يفتح الباب للتخلى عن بعض التعميمات التى لازمت الخطاب الرسمى عن ثورة ١٩١٩ والوفد.

فى المنفى أصبح سعد زغلول أكثر حرصا على اتباع الطرق السلمية والمشروعة لتحقيق استقلال مصر ، التزاما فيما يبدو بصيغة التوكيل ، واتفاقا مع طبيعته المهادنة غير العنيفة . ففى مالطة نراه يتجنب الاختلاط بأسرى الحرب مع الألمان والنمساويين والأتراك خصوم انجلترا ، ولا يفكر فى تقوية موقف الوفد «بالتحالف» مع أعداء انجلترا عملا بالحكمة القائلة «عدو عدوى صديقى». وعندما علم وهو فى محبسه بقلعة بوليفياريستا بأن مصريين فى الحجر الصحى بمالطة ومعهم بعض الألمان والنمساويين قادمون للتظاهر أمام مقر إقامته تأييدا للوفد فى مطالبه ، رفض مقابلتهم قائلاً : «إن ذلك ربما كان فيه ضرر بقضية مصر»!! وقد اتخذ الموقف نفسه مع ابن عم ملك رومانيا الذى كان أسيراً هو الآخر فى قلعة فيروالا بمالطة، إذ أرسل لسعد زغلول خطابا رقيق الحاشية فرد عليه سعد زغلول من باب المجاملة فقط ودون الدخول فى أية موضوعات ، وعقب على ذلك بقوله «ولكنا لا نريد أن تتصل المعرفة بنا». وأكثر من هذا نجد أنه يعرب عن مخاوفه لمجرد أن هذا الأمير خطب فى الرومانيين الأسرى معه وذكر اسم سعد زغلول ورفاقه فى خطابه ، وقال معقبا «فوددت ان لم يكن فعل ذلك». وتكرر الموقف مع أحد الألمان المقيمين فى مصر الذى أرسل لسعد زغلول خطابا يتعاطف معه ، وكان تعليق سعد زغلول «نريد أن نقف عند حد اللياقة لهذه المناسبة ولا نسترسل فيها». وأذكر من هذا كله أنه كان يتشكك فى كل من يحاول الاقتراب منه والتقرب إليه حتى ولو كان مصريا خشية ان يكون جاسوسا للسلطات البريطانية ، وحتى لا تسيىء هذه السلطات فهمه ويظل عند حسن ظنها به.

عدالة القضية

ورغم اعتقال سعد زغلول وصحبه ونفيهم إلى مالطة دون رحمة ودون تقدير لمكانتهم الاجتماعية والسياسية ، فإن الزعيم لم يفكر فى تغيير وسائله فى

النضال ، وظل ثابتا على مبادىء توكيل الأمة له، واعتبار الاستقلال قضية يمكن كسبها بالمرافعة أمام المحافل الدولية ، تماماً كما كان يفعل مصطفى كامل، والمسألة فى نظره لا تتطلب سوى محام قدير يستطيع اقناع القضاء الدولى بعدالة قضيته ، وارسال المذكرات هنا وهناك . ففى باريس يسعى الوفد للعثور على شخصية قانونية أجنبية عارفة بالقانون الدولى وعلاقاته ليكتب مذكرة لصالح القضية المصرية . وانتهى البحث باختيار جوزيف فولك الأمريكى من ولاية ميسور مستشارا قضائيا للوفد المصرى!! والحقيقة أن هذه الرؤية القانونية للقضية الوطنية كانت تسيطر على كل من مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول قبل نفيه ، اذ نرى سعد زغلول يسعى للحصول على تأييد المجتمع الدولى لقضية بلاده ، ففى ٣٠ يناير ١٩١٩ يرسل مذكرة بموضوع الاستقلال لكل قناصل دول الولايات المتحدة وبلجيكا وأسبانيا وفرنسا وروسيا واليونان وايطاليا وهولندا وإيران . وهذا الاسلوب يتفق تماماً مع صيغة التوكيل المسالمة.

ومن فرط ايمان سعد زغلول بالطرق السلمية المشروعة والتزامه بها ، وهى طرق قانونية فى التحليل الأخير لايعرف العنف لها سبيلا ، نراه لايرحب بحوادث العنف التى وقعت فى مصر من حيث الهجوم على رموز السلطات البريطانية ، وعلى كل ما هو حكومى، وغير ذلك من وقائع حدثت بتأثير عبد الرحمن فهمى رئيس الجهاز السرى فى الثورة وسكرتير اللجنة المركزية للوفد بالقاهرة . ويتأكد من المذكرات ان عبد الرحمن فهمي كان يتصرف في تحريك الجماهير دون الرجوع إلى سعد زغلول . وبمعنى آخر أن عبد الرحمن فهمى أدرك أنه لا ثورة دون عنف يقوى من شأن قادتها أمام خصومها ، على حين أمن سعد زغلول بالطريق القانونى وكأنه يترافع لتبرئة ساحة مظلوم من جلاديه . ولكن .. هل يمكن أن يتجاوز الانسان طبيعته التي فطر عليها بسهولة مهما فرضت عليه الحوادث أن يتصرف ضدها؟!..

محبة الاستقلال

لقد كتب سعد زغلول فى مذكراته يعلق على ما ترامى إلى سمعه من حوادث العنف «إن هذه السياسة أمقتها ولا ادعو إلا إلى الشيء المشروع فقط، وكل ما أطلب ان يتحد الناس على محبة الاستقلال ويظهروا هذه المحبة عند كل فرصة بطريقة سلمية»، ثم يحذر قائلاً «واعلم أن طريقة الإرهاب إذا نفعت مرة فإنها تضر مرات ، وإذا كانت اليوم لك فانها تنقلب عليك غدا ، لذلك يجب التحذير

منها والبعد عنها».

لم يكن سعد زغلول يتوقع بعد اعتقاله أن تخرج الجماهير للاعراب عن مشاعر الغضب تجاه الانجليز ، وأن يأخذ هذا الغضب صورة الاضراب والعنف ، إذ كان يرى فيما يبدو من ظاهر تعليقه على الحوادث أن مثل هذا السلوك من شأنه التأثير سلبيا على مسيرة الوفد ، والاساءة لسمعته لدى المحافل الدولية، ولدى السلطات البريطانية على وجه الخصوص.. وهل هناك محام نقل قضية موكله إلى الشارع !! لقد ظل سعد زغلول يعتقد جازما ان الطريق للاستقلال يمر من خلال كتابة المذكرات ، وعبر التنقل من غرفة إلى أخرى ، ومن هيئة إلى غيرها دون أن تسهم الجماهير بنصيب في تحقيق مصيرها . وكان سعد في هذا شأن النخبة المصرية آنذاك التي لم تكن تؤمن بقدرة الجماهير على العمل السياسي ..

وهل يمكن أن ننسى في هذا الخصوص قولة عبد العزيز فهمي عضو الوفد للطلاب الذين تجمهروا أمام بيت الأمة في اليوم التالي لاعتقال سعد «عودوا إلى مدارسكم ودعونا نعمل في هدوء..».

ورغم هذا الموقف المتحفظ لسعد زغلول تجاه المظاهرات خشية نتائجها السلبية على سياسة الانجليز ، فإنه لم يستطع أن ينكر ارتياحه لها ، فيقول عن المظاهرات انها «ملأت قلوبنا سرورا وابتهاجاً حتى كادت تحبب السجن إلينا ، وهانت نفوسنا علينا نفدي بها هذه البلاد». ولم يأسف إلاّ على الأرواح التي أزهقت والدماء التي أريقت . ولما جاءته أنباء جمهورية زفتى عقب في دهشة .. «هل تبدلت الأمة المصرية في هذه البرهة الوجيزة التي مضت من وقت سفرنا من البلاد» . وسعد زغلول في هذا الموقف لم يختلف عن محمد فريد الذي أدهشته أنباء مظاهرات مارس ١٩١٩ وقال في مذكراته «من الأمور التي كانت غير منتظرة ماحصل بمصر في شهري مارس وابريل وهو قيام ثورة عامة اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها..».

ولاشك في ان هذا الموقف المفاجيء من الجماهير المصرية الذي لم يكن يدور بخلد النخبة القائدة كان له تأثيره على شخصية سعد زغلول، فنراه يبدأ في تقبل اسلوب العنف ويعتمد على استمراره في مرحلة تالية . وتتغير لهجته في المذكرات فيما يتعلق بهذه النقطة حيث ينتهي إلى أنه لا مجد دون ضحايا فيقول «ولكن أي مجد قام بغير هذه الضحايا ، وأي أمة بلغت مناها بغير أن يخاطر ابناؤها باعز ما لديهم». كما ينتهي إلى أن الذين يتعرضون للأمور العامة «ليس

لهم أن يتذكروا فى أمورهم الخاصة وإلا كانوا مخادعين لأنفسهم ولأجل بلادهم».

حمق الساسة الانجليز

ولكنه وفى بعض اللحظات عندما كان يختلى بنفسه وهو رهين الاعتقال نراه يأسى مرة أخرى على جريان الأمور فى غير المجرى الذى أراده لها ، ويعرب عن إيمانه بأن السبب فى اندلاع العنف يعود إلى حمق الساسة الانجليز الذين منعوه من السفر إلى باريس حيث مؤتمر الصلح، فيقول ان ماحدث فى مصر بعد نفيه «لايرجع إلى مهارتنا ولكنه يرجع فى الحقيقة إلى سوء السياسة الانجليزية فى مصر ، إذ أنها لو تركتنا نسافر لما حصل شيء مما حصل .. ولكن الله أضلهم فأحبط أعمالهم وعكس القضية عليهم وعرف العالم كله بسوء السياسة الانجليزية».

وتدريجيا بدأ سعد زغلول يدرك أن المسألة المصرية ضحية تشابك المصالح الدولية وهى نتيجة كان يرفض تصديقها والعمل على أساسها ، وان الوفد لايملك من أوراق هذه اللعبة سوى مبادىء الاخلاق . وامام فيض المعلومات التى كانت تتسرب من مؤتمر الصلح فى فرساى (باريس) ، انتهى فى يوم ٨ ابريل ١٩١٩ إلى أن المؤتمر لن يعلن استقلال مصر ، لأن انجلترا لايمكن أن تسلم بخسارتها ، فضلا عن ان الدول الأخرى الأعضاء فى المؤتمر لها مستعمرات تريد الحفاظ عليها هى الأخرى ، وبالتالى لايمكن أن تقف ضد انجلترا من أجل مصر . كما لاحظ أيضاً «ضعف صوت ويلسون (الرئيس الأمريكى) الذى كان يعتمد على أقواله ويعده «نبى زمانه» ، بل لقد اتهمه قومه الأمريكيون بأنه يمالىء الانجليز ويحابيهم».

انتصار الحق

ولما تقرر السماح للوفد بالسفر من مالطة إلى باريس والسماح لمن يرغب من المصريين بمصر بالخروج من البلاد اعتقد سعد زغلول (فى ١١ ابريل) ان هذا يعد «أول انتصار للحق على القوة وأول ثمرة من ثمرات اتحاد الأمة على إباء الضيم». ويسترسل فى أحلام الذهاب إلى باريس لعرض قضية بلاده امام المحفل الدولى، وسرعان مايتراجع عن أفكاره السابقة المتشائمة بخصوص تأثير تشابك المصالح الدولية على مصير مستقبل مصر، ويرفض ما قال به فيظى حسن وهو من أصول تركية، من ان الافراج يعنى ان الانجليز «لابد وأن يكونوا انتهوا من أمر مصر» ، أى الاعتراف بالحماية على مصر. ولم يستطع سعد زغلول المغرق فى مثاليته وفى الايمان بمبادىء الاخلاق فى السياسة أن يربط بين خبر مغادرة ويلسون لباريس

عائداً لبلاده وتحليل فيظي التركي ، ومضمون برقيات وكالات الأنباء التي أعلنت أن عودة ويلسون إلى أمريكا جاءت بسبب اصراره على تنفيذ جميع مبادئه وإلا انسحب من المؤتمر .. رفض سعد زغلول كل هذا وقال إن عودة ويلسون لابد وأن تكون بسبب «مسائل في بلاده تستدعي عودته». ولم يسمح لنفسه بأن يتقصى كنه هذه المسائل ، وما إذا كانت تستدعي عودة ويلسون إلى بلاده أم لاتستدعي .. كل ذلك حتى لايسمح لأى احتمال آخر بأن يخترق تصوره الثابت الذى أقامه فى هذا الموضوع ، ولم يجد سوى التعلل «بأن الله هو المدبر لشئونها وليس فوق تدبيره تدبير وما لمن عوده الله الخير بالاتكال عليه ، ان يعمل فكره إلا فى اجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن».

ولقد ظل سعد زغلول يأبى بينه وبين نفسه أن يصدق ان المجتمع الدولى قد تخلى عن التمسك بالأخلاق فى الأمور السياسية ، وظل يمنى نفسه بانتصار الأخلاق على السياسة والحق على القوة . ولكن وفى ديسمبر ١٩١٩ وبعد تسعة أشهر من انعقاد مؤتمر الصلح دون صدور مايثلج صدر سعد زغلول ، لم يكن أمامه سوى تصديق التحول فى الموقف الدولى ، وأن الحماية البريطانية على مصر قائمة ذلك «ان جميع الدول حتى أمريكا نفضت يدها من هذا القطر».

وفى هذه اللحظة يدرك سعد زغلول خطورة الاعتماد على المبادىء المثالية وحدها فى تحقيق أمنيات الشعوب ، وان الحق المجرد من القوة لا يغنى صاحبه شيئاً ، ولا يجد من سبيل للمقاومة والمواجهة سوى الاستمرار فى مقاومة الشعب المصرى حتى ولو فى صور سلبية «كإغلاق الحوانيت والاعتصاب عن العمل والتوقف عن دفع الضرائب».

وفى محاولته لتفسير أسباب العجز عن مواجهة الانجليز ، والعجز عن استمالة حكومات الدول لصف القضية المصرية ، لم يجد سوى الانقسام بين صفوف الوفد ، وانعدام الثقة فيما بينهم ، واختلاف وجهات نظر كل عضو عن الآخر، وافتقار الجميع لأصول الحوار فى الاجتماعات «والذوق السياسى» . بل لقد انتهى سعد إلى القول «ان الله لم يخلق هيئة اشتملت على عوامل التفريق أكثر من هيئة الوفد ، ولا مجموعا أفراده شتى أكثر من مجموعة الوفد».

المرارة من الشقاق !

ومنذ فترة مبكرة (٢ ابريل ١٩١٩) أدرك سعد زغلول وهو فى المنفى اتجاه السياسة الانجليزية لاختراق صفوف الحركة الوطنية، واضعاف مقاومة الوفد وذلك باستقطاب عناصر موالية . ولا يبعد ان هذا الشقاق الذى عانى منه سعد

زغلول كان أحد هذه البوادر بحثا عن العناصر المنشودة . وقد تأكد لسعد زغلول ان انجلترا قد وقع اختيارها على حسين رشدى وعدلى يكن للقيام بهذا الدور كما فهم من سياق مقال نشر بصحيفة التايمز بقلم أحد المحللين الانجليز.

وعندما قررت بريطانيا التفاوض مباشرة مع حكومة دستورية وليس مع وفد شعبي، أدرك سعد زغلول حقيقة موقف السياسة البريطانية من الثورات الشعبية ، واسقط فى يده ولم يجد مفرا من قبول ما قررته الحكومة البريطانية . ولكن وحرصا منه على الا يعزل الوفد من المفاوضات فى قضية كان هو بطلها ومفجرها ، أبرق إلى عدلى يكن بتشكيل هيئة للمفاوضة تشتمل على اعضاء من الوفد بجانب الاعضاء الحكوميين . على أن سعد زغلول أبدى تخوفه من إقدام بريطانيا على المفاوضة ، ورأى ان المفاوضات من شأنها أن تخرج الحكومة البريطانية من المأزق، و «تتمكن بذلك من شطر الأمة» ، وأما استمرار المقاطعة فانه يضطر الانجليز إلى التسليم باستقلال مصر .

وتحفل المذكرات عن هذه الفترة بالمرارة من الشقاق بين صفوف الوفد، والحساسية المفرطة بين أعضائه بحيث لم يعد يحتمل أحد كلمة عارضة من أحد . ويبدو واضحا من ثنايا السطور ومن ردود أفعال سعد زغلول ان هناك من كان ينكر عليه الزعامة، وينبهه إلى أن الزعامة لاتعنى الانفراد بالأمر ، وانما تعنى الانصياع لرأى الأغلبية . ومن ذلك ان سعد زغلول كان يفكر فى السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا أن لطفى السيد ومحمد محمود لم يستحسنا سفره، وقال لطفى السيد «إنه ليس لك أن تخالف رأى الجماعة وان المركز الذى وصلت إليه كان نتيجة التفافنا حولك وعملنا معك فلا ينبغى أن تتصرف بغير رضانا .. والنبى نفسه لم يسعه أن يخالف أصحابه».

ولقد شعر سعد زغلول ان الجميع واقفون ضده بدرجة أو بأخرى ، فنراه ينتقد بشدة تصرفات كل من عبد اللطيف المكباتي وعبد العزيز فهمى ولطفي السيد وحمد الباسل واسماعيل صدقى ومحمد محمود الذى كان أصرح الجميع فى الخلاف مع سعد والاستهانة به، ولقد أبدى سعد زغلول استياءه من محمد محمود من أول يوم وصلوا فيه المعتقل فى مالطة حين كان محمد محمود يتكلم مباشرة مع الضابط الانجليزى فى أمور تخصهم دون الرجوع الي أحد ، حتي لا يبدو مترجما ويبدو زعيما للجماعة امام الضابط ..

وهكذا تنطوى صفحة من جهاد الوفد فى المنفى بين مالطة وباريس ونتطلع إلى الأجزاء التالية من المذكرات حتي تكتمل أمامنا صورة الوفد حتي وفاة زعيمه سعد زغلول.

رحيق الكتب

طعامنا المهندس وراثيا
تأليف : ستيفن نوتنجهام
ترجمة
د. أحمد مستجير.



الطعام لكل فم

تعيش الانسانية فى عصرنا هذا أكثر من ثورة، اذكر من بينها ثورتين أثرتا على عالمنا وحياتنا، على نحو يجيح لنا أن نقول أنهما بمثابة بعدين جديدين يضافا إلى غيرهما من الأبعاد التى تميز عصرنا.

وهاتان الثورتان هما: ثورة الوسائط المعلوماتية (الانفوميديا) وثورة الهندسة الوراثية.

وإذا كانت الثورة الأولى قد أوتينا بعض العلم بها بفضل بضعة كتب، معظمها مترجم إلى لغة الضاد فالثورة الثانية، على النقيض من ذلك، نكاد نجهل ماهيتها جهلا تاما.

ومن هنا، أهمية كتاب «طعامنا المهندس وراثيا - كيف تصل الأغذية المحورة وراثيا إلى موائدنا»، ذلك الكتاب الذى قام بترجمته العالم الجليل الدكتور أحمد مستجير، عن مؤلف بالانجليزية، نشره صاحبه ستيفن نوتنجهام، تحت اسم «قم بأكل مورثاتك».

فسد بذلك نقصا فى المعلومات بالنسبة إلى ثورة كبرى لم يتنبه إليها أحد تقريبا، بما تستحق من عناية اهتمام فالآن، فى وسعنا، من خلال قراءته أن نفهم ماهى الهندسة الوراثية، وماهى استخداماتها فى الانتاج الزراعى، وما قد يسببه ذلك من رخاء وشقاء فى أن معا.

وأن نعرف القضايا الأخلاقية التى قد تثيرها الأغذية المحورة وراثيا.

ومن بينها على سبيل التمثيل، قضية نقل المورثات (الجينات) من حيوانات تحرم بعض الأديان أكل لحومها (مثل الخنزير) إلى حيوانات أكلها حلال.

والكتاب، فضلا عن ذلك، يسلط الضوء على قضايا أخرى، مثل تلك التى أثارها، ولايزال يثيرها، تسجيل براءات حقوق ملكية الفتوحات البحثية فى مجال الهندسة الوراثية، بين الشركات المتعددة الجنسية، ذات النفوذ والصولجان.

ولا غرابة فى أن يثير تسجيل تلك البراءات لدد الخصومة بين ذلك النوع المهيمن من الشركات.

إذا كان حجم السوق المحتمل للمنتجات المرتبطة بالبيو تكنولوجيا داخل الاتحاد الاوروبى، قد جرى تقديره عام ألفين بمائتين وسبعة وثمانين بليون دولار.

وكان قطاع الزراعة والغذاء يشكل نصيبه من

هذا النمو حوالى سبعين فى المائة.

وكانت مبيعات الكثير من تلك الشركات يعادل الدخل القومى الكلى للدول النامية التى تمارس نشاطها أو ستمارسه فيها، بحكم هيمنتها التى تزداد على مر الأعوام.

وختاما، فالذى يستشف من الكتاب أنه، ورغم كل المخاطر، فالأغنية المحورة وراثيا ستوفر الطعام لكل فم فى مستقبل قريب.

مصطفى درويش

أرض الميعاد والدولة الصليبية، أمريكا في مواجهة العالم منذ ١٧٧٦.

تأليف: والتر أ. مكدوجال. ترجمة: رضا هلال، ٢٠٠٠، دار الشروق؛



قد يجد القارىء العربى عنوان هذا الكتاب مغرياً له بالشراء بفهم خاطىء قد يتبادر إلى الذهن عن مدلول «أرض الميعاد» و«الدولة الصليبية»، فلا «أرض الميعاد» المعنية فى هذا العنوان هى الدعوى الصهيونية التى أدت إلى اغتصاب فلسطين، ولا «الدولة الصليبية»، فيه، مقصود بها «الإدانة» للدور الصليبى «بوقعه السيىء» الذى تقوم به أمريكا مجدداً فى العالم. يقول المترجم الأستاذ رضا هلال فى سطوره الأولى من مقدمته تفسيراً لعنوان الكتاب: «عندما وصل المهاجرون الأوائل من إنجلترا إلى العالم الجديد، اعتبروا أمريكا هى «أورشليم الجديدة أو كنعان الجديدة»، وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء حين فروا من ظلم فرعون (الملك الإنجليزى جيمس الأول) وهربوا من أرض مصر (إنجلترا)، بحثا عن أرض الميعاد (الجديدة)... وعندما وصلت المجموعة الثانية من المستوطنين إلى شاطىء نيو إنجلند على ظهر السفينة (ماى فلاور) عام ١٦٢٠، وقعوا فيما بينهم (عهد ماى فلاور) الذى حددوا فيه طريقة الحياة التى يرغبونها وأسس المجتمع المثالى فى.. إسرائيل الجديدة (أمريكا)...» ويستمر المترجم فى توضيح هذا العنوان المخاتل للقارىء العربى فيقول: «وكما هو واضح من عنوان الكتاب... يلجأ المؤلف إلى الإستعارة الدينية. فتعبير أرض الميعاد مستعار من العهد القديم اليهودى، وتعبير الدولة الصليبية قصد به الإشارة إلى العهد الجديد وإلى الصليب كرمز للتبشير والتضحية من أجل خلاص البشرية. ومن ثم ... فتعكس تصور الأمريكيين عن أنفسهم وسلوك أمريكا فى الشئون العالمية خلال القرن العشرين، من منطلق أن أمريكا لها رسالة لخلاص البشرية، رسالة لنشر الحرية والتقدم..»

رحيق الكتب

وحيث أن المؤلف ماكدوجال أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية وزميل في معهد بحوث السياسة الخارجية، فقد تمعن وتأمل من خلال محاضراته لطلابه بجامعة بنسلفانيا في كثير من الأساطير التي رآها تحجب المعاني الحقيقية للمبادىء الأمريكية الأساسية التي يحب - كما قال في مقدمته أن يسبق مصطلحاتها بلفظه «ما يسمى» - كنوع من الحذر العلمي - فعناوينه لفصول كتابه - المشتمل على جزءين - كالتالي: الجزء الأول: عهدنا القديم: ١ - الحرية (أو المسماه) الاستثنائية، ٢ - الأحادية (أو المسماه) الانعزالية.

٣- - النظام الأمريكي (أو ما يسمى مبدأ مونرو، ٤ - التوسعية (أو المسماه) المصير المبين.

- الجزء الثاني: عهدنا الجديد، ٥ - الإمبرالية التقدمية، ٦ - مبدأ ويلسون (المسمى) العالمية الليبرالية، ٧ - الاحتواء، ٨ - تحسين العالم، الخاتمة - البهجة الحاضرة.

ويقول المؤلف أنه كان يظن أن تجميع محاضراته التي ألقاها على طلابه كان ممكنا لإبراز وجهة نظره وتحليلاته في أحداث القرن ١٩ والقرن ٢٠ ولكنه أنقذ نفسه بوضع تلك المحاضرات على الرف لينساها ويبدأ مشروعه البحثي التاريخي ليبين - بعد التمعن والتركيز - المفارقة الهائلة بين السياسة الخارجية الأمريكية في القرن ١٩ والتي كانت على أساس - (ما أسماه) - العهد القديم وأرض الميعاد، والسياسة الأمريكية الخارجية في القرن العشرين والتي قامت على - (ما أسماه) - العهد الجديد والدولة الصليبية (بالمعنى الإيجابي للكلمة من منظور أصحابها). ولأن المؤلف - كما نؤيد المترجم في ذلك - له أسلوب شيق أدبي يتميز بخفة الظل والاعتماد على التهكم لتمرير الكثير من الصراحة التي قد تثير حساسية بعض قرائه الأمريكيين، فإننا كقراء عرب قد نحتار أحيانا في مزج الجد بالمزاح، أيهما الجد وأيهما المزاح وهل هو شخصيا داخل أم خارج مناطق سخريته وتهكمه في مقولات مثل: «الواجب الرسولي الآن أكثر صعوبة، ببساطة: أي تقاليد أمريكية يجب علينا أن نعيد تأكيدها...» ومثل «... الريبة في الثورات بالرغم من تراثنا الثوري..» ومثل كلامه وهو يخاطب قارئه الأمريكي: «دائما هذه اللعنة التي تزدرى بها أعينكم كل من يهدد أو يقاوم، أو حتى لا يلهج بالامتنان لنا، هي سمة أخرى لها مكانة، عند تقدير الإتجاهات التي شكلت علاقاتنا الخارجية.

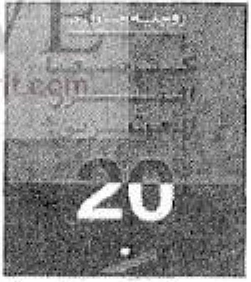
والازدراء الجميل الذي يرى به الأمريكيون الأجانب - كل ذلك يتضافر لإقناعي بتأليف قائمة جديدة للتقاليد الدبلوماسية الأمريكية تتأسس وفق المعيار التالي: إن أي مبدأ أو إستراتيجية، ليتأهل كتقليد أصيل، يجب أن يحوز دعم الحزبين وأن يعمر بأبعد من المدى الذي ولد فيه، ويدخل المعجم

الدائم لخطابنا القـومى، ويكون له صداه عند عامة الأمـريكيـين حـتى فى الفترات التى لم يلهم فيها السياسة».

إن قراءة هذا الكتاب شيقة لمن يحب أن يستمع إلى المشاحنات الودية بين أعضاء أسرة قررت إعادة تنسيق بيتها ليتواءم مع دخلها الجديد ومركزها الجديد فى مهمة رئاسية، وهى كذلك مهمة لمن يريد أن يتأكد لماذا كان عليه أن يكره هذه الأسرة منذ زمن بعيد..

صافي ناز كاظم

كـيـف صنعنا القرن العشرين ؟
تأليف: روجيه جارودى



«بدأت أستشف أخيراً أسباب اضمحلال الغرب، وإمكانات وجود أساليب حياة مختلفة تقدمها الدول غير الغربية، التى لم تتوقف عن التطور العرقى الأصلى منذ خمسة قرون».

العبارة كتبها روجيه جارودى فى كتابه الأخير «كيف صنعنا القرن العشرين؟» والذى صدرت ترجمته العربية قبل أيام..

يذهب جارودى أن المستقبل بدأ من آسيا فى يوم ٧ مايو ١٩٩٦، وتحديدا من بكين، حيث اجتمعت ٣٤ دولة من أجل الاشتراك فى إعادة «طريق الحرير» طريق القرن الحادى والعشرين والذى ربط طوال ١٤ قرنا الشرق بالغرب، وبإفريقيا، ليس فقط من خلال التبادل التجارى ولكن أيضا بالإثراء المتبادل للثقافات والعلوم والروحانيات. وسوف يتيح هذا الطريق وحدة الجزيرة الكبرى الآسيوية الأوروبية مع الوسائل العلمية والتكنيكية بالاضافة إلى شبكة كبيرة من الطرق والقنوات التى تسمح بالرى لتحويل صحارى وسط آسيا إلى مواطن للحياة وبناء مولدات كهرباء وخطوط أنابيب غاز وبترول واتصالات وبناء المدن على مدى ٢٠٠ كيلو متر إنه ليس حلما ولا هو مشروع خيالى لأن التطبيق بدأ بالفعل.

باختصار يحقق هذا الطريق ربط أوروبا بآسيا، وأفريقيا أيضا، باعتبار أن أفريقيا وآسيا ملتحمتان بشكل طبيعى، ولم يفصلهما سوى قناة السويس فى القرن التاسع عشر.

هذا الطريق بوتقة لبناء «وحدة إنسانية» تواجه «عولمة السوق» التى تعبر عن الطموحات الامبريالية للهيمنة على العالم.

روح جديدة تماما تبدأ من طريق الحرير، ودورة حضارية جديدة تنهى كل محاولة لهيمنة شعب مختار على الشعوب الأخرى، أو شعب متحضر على الهمجيين والبدائيين وبعد حضارات الدلتا من النيل إلى النهر الأصفر، وحضارة البحر المتوسط ثم حضارة الأطلنطى، فإننا اليوم بصدد جغرافية سياسية ليس للهيمنة ولكن للتحرر من خلال تفتح الأزهار فى الكون كله حتى صحاريه، فى عالم صار كيانا واحدا بدون ادعاءات لرأى فرد بالهيمنة عليه أو استغلاله.

حلمى النمنم

المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين

قراءة في الأعمال الكاملة لـ :

قاسم أمين

بقلم :صافى ناز كاظم

فى عام ١٩٨٠ كانت هناك حملة مكثفة للهجوم على ظاهرة عودة المرأة المصرية المسلمة الى الالتزام بالزى الشرعى الذى حددته العقيدة الاسلامية لها ـ وهو فى حده الأدنى الزى الذى لايظهر منه سوى الوجه والكفين. كانت الحملة شديدة وجارحة ومليئة بالمغالطات أو عدم الفهم بسبب أقلام لأقوام لم يراجعوا كتابهم «القرآن الكريم» منذ وقت طويل، فطال عليهم الأمد وأصبحوا مسلمين بشكل غائم، فاستقطبتهم أفكار غير إسلامية تطرفوا فى الانجذاب اليها فتبلبل وجدانهم الإسلامى وأصيبوا بالتطرف خارج الإسلام والعياذ بالله. فى ذلك الوقت كنت ممنوعة من النشر، لكننى لم أكف عن الكتابة، فبدأت فى كتابة ردود على تلك الحملة ـ التى رأيتها جائرة ـ تحت عنوان «فى مسألة السفور والحجاب».



محمد عبده



قاسم أمين

وكنت أفهم أن مصطلح «سفور» و«حجاب» لا يعنيان المعنى الذى تداول فى تلك الحملة، فمعنى «سفور» هو كشف الوجه فقط ومعنى «حجاب» هو الإسدال الكامل لبدن المرأة - أى ستر الوجه ضمنا - وكانت حملة «السفور» فى مطلع القرن العشرين لا تعنى «ضرب» الالتزام بالزى الشرعي الإسلامى، بقدر ما كانت تعنى «تصويب» صورة هذا الالتزام المطلوب شرعا. ولذلك فكل أدبيات معركة «السفور» و«الحجاب» كانت لا تمس الأمر القرآني بالزام المسلمة باظهار الوجه والكفين فقط مع ستر سائر بدنها. لكن كلمة «السفور» تبدلت بغياب الوعى لتعنى الأحقية فى ارتداء العارى حتى لباس البحر المسمى بالبكيني. وأصبحت كلمة «محجبة» تطلق على كل من ارتدت غطاء الشعر ولو مع «الجينز» اللاصق. واخترعوا كلمة «منقبة» لتعنى التى تحجب وجهها. على أرضية هذا اللبس، المقصود وغير المقصود، دارت أدبيات الهجمة الشرسة على الزى الشرعى للمرأة المسلمة، وزعق كل زاعق بكلمتى «سفور» و«حجاب» بعيدا عن الدلالة الحقيقية لهاتين الكلمتين. حاولت فى ردودى ١٩٨٠ أن أنبه إلى ذلك الإلتباس، كما حاولت أن أدون مراقبتى لما دار فى إيران عام ١٩٢٥ عندما أجبر مؤسس الأسرة البهلوية الصول رضا خان - والد شاه ايران السابق محمد رضا بهلوى - كل امرأة إيرانية على نزع زيها الإسلامى بالقهر والغصب، وكذلك فعل مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا عام ١٩٢٥ - نفسها - عندما أجبر تركيا باكملها أن تهجر قوانين الإسلام مظهريا

وفعليا.

وانغمست فى قراءة «الأعمال الكاملة» لقاسم أمين فى نسختها الصادرة سنة ١٩٧٦ تحقيق د. محمد عمارة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - (تمت سرقة هذه النسخة من مكتبتى وعليها تعليقاتى فى الهوامش مع نسخة الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى، تحقيق د. عمارة كذلك، وقد استطعت شراء بديل للأعمال الكاملة لقاسم أمين طبعة دار الشروق، أما أعمال الأفغانى فمازلت أبحث عنها) - حصيلة هذه الردود تجمعت لدى، بعد أن تمكنت من نشر بعضها بمجلة «المختار الاسلامى» نهاية ١٩٨٠ ، ورأيت أنه من المصلحة نشرها ككراسة صغيرة لم تتعد ٤٨ صفحة . لم يلب ناشر طلبى فى نشرها بلا مقابل، حتى قادتنى أقدامى لمكتبة الحاج حسن وهبة بشارع الجمهورية بعابدين. كان الحاج وهبة طيبا فى لقائى من دون سابق معرفة، رغب فى إمهاله يوما لقراءة الكراسة ثم سألنى بعدها : ماهى طلباتك؟. قلت : لاشىء سوى أن تتكفل بطبعها ونشرها وتوزيعها على نفقة المكتبة. وتم ذلك، كانت الكراسة تتضمن فصلا عن «قاسم أمين» يحتوى رأيى فى كتابته وأسلوبه واكتشافى أنه لم يكن مشغولا أبدا بتحرير المرأة ولكن قضيته الأساسية كانت الدعوة الى : «محاكاة أوربا». صدرت الكراسة فى طبعتها الأولى عن مكتبة وهبة مطلع عام ١٩٨١ - فى عصر الرئيس الراحل أنور السادات - ثم توالت طبعاتها حتى ١٩٩٥. كان الحاج وهبة كريما معى فلم يتقاض منى مليما واحدا عن أى عدد من النسخ التى قمت بسحبها من مكتبته - (كانت الكراسة تباع فى طبعتها الأولى بثلاثين قرشا فقط لا غير) - وكنت أعطيها مجانا للأصدقاء والأعداء والقراء والكتاب. ويبدو أن بحثى فى كتابة قاسم أمين قد أعجب البعض فصار ينقله نقلا منسوبا لنفسه من دون أى اشارة الى كراستى كمصدر منقول عنه. وكانت هذه التصرفات تدهشنى خاصة عندما تصدر عن مؤيدين لوجهة نظرى، أى من الغيورين على مبادىء الإسلام وقوانينه وقيمه .

* * *

بمراجعتى الآن لكراستى «فى مسألة السفور والحجاب» بدت لى اللغة منطلقة كالرصاص، وكانت هذه اللغة بصياغاتها واختياراتى لالفاظها العنيفة تعبر عن مدى الغيظ الذى كان يسيطر علىّ من تلك الحملة التى كانت تحط من قدر الالتزام والملتزمات بالزى الشرعى، وكنت أهتدى بقول الرسول عليه الصلاة والسلام لمن

أبدى القوة والشموخ فى مواجهة الأعداء : «هذه مشية يحبها الله ورسوله».

كنت أرد العدوان الظالم : أخمش من يخمش وأجرح من يجرح وأصد الكلمات والركلات بمثلها . بعد عشرين سنة من المعركة - التى لم تنته - لم يتغير موقفى ولا رأيى وإن أحببت أن تهدأ لهجتى و«تتكلف» لغتى الرفض «الوقور» لقاسم أمين - (١٨٦٣ - ١٩٠٨) - بصفته ممن أسهموا بجدارة فى إلتواء النهضة المصرية - منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين - عن أنبعاثها العربى الإسلامى «الإبداعى» لتكون نهضة ثقافية إجتماعية «محاكية» مستهلكة لإنتاج مصانع الفكر الغربى ونافذة عرض دعائى له : يدعو بحماس - مترقرقا بالدموع - لتقليد رجال الغرب ونسائه ونظام معيشته فيقول فى كتابه «المرأة الجديدة» الذى ألفه فى أغسطس ١٩٠٠ : «نحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت فى فهم المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها فى ذلك أكبر من خطئها فى كثير من الأمور الأخرى .....» حتى يصل بقوله إلى : «... والذى أراه أن تمسكنا بالماضى إلى هذا الحد من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل إلى التدنى والتقهقر ... هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس من دواء إلا أننا نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها .....»

- (يعنى لا بأس بماضى الغرب الذى يجب أن نعرف أصوله أما أصولنا العربية الإسلامية فهى من الأهواء التى يجب محاربتها ... الخ) - ويكون حلمه : «... إذا أتى هذا الحين ، ونرجو أن لا يكون بعيدا ، انجلت الحقيقة أمام عيوننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ...» - أنظر ، قاسم أمين، الأعمال الكاملة ، تحقيق د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنه ١٩٧٦ ، ج ٢ ص ٢٠٩ .

***

كانت ملك حفنى ناصف (١٨٨٦ - ١٩١٨) من المعاصرات لقاسم أمين والرافضات لفكره الذى تشير إليه بقولها «الدعوة القاسمية ». لأن ملك حفنى ناصف كانت من رائدات تحرير المرأة المصرية من أرضيتها العقائدية الإسلامية وثقافتها العربية ، ولعلها كانت من الأوائل الذين روعهم المزج الماكر الذى ربط تحرير المرأة المصرية المسلمة بضرورة تخليها عن أصول عقيدتها وتراثها .

***

الأعمال الكاملة لقاسم أمين - فى النسخة التى أشرت إليها من قبل - تحتوى على جزءين ، يضم الجزء الأول منها : كتاب «كلمات» ، مقالات «أسباب ونتائج » ، مقالات «أخلاق ومواعظ » ، كتاب «المصريون» مترجما رد على «دوق

داركور » ، كتبه قاسم أمين عام ١٨٩٤ بالفرنسية ، خطاب «إنشاء الجامعة »، خطاب «الإمام محمد عبده أخلاقه وفضائله وإمامته » . ويضم الجزء الثاني كتابيه : «تحرير المرأة - صدر ١٨٩٩ -، و«المرأة الجديدة » - صدر ١٩٠٠ .

قراءة الأعمال الكاملة لقاسم أمين - في وجبة واحدة - لا تترك المجال للتردد في الحسم بأن كل ما كان يعني قاسم أمين ليس سوى «التغريب » : الدعوة السافرة لإتباع الغرب في كل أحواله بعيداً عن الإسلام ومدنيته ، فيقول في كتابه «المصريون» وهو بصدد «الدفاع» عن مصر ما يلي نصه : «..... ولهذا كان أمامها - (أي مصر) - طريقان: العودة إلى تقاليد الإسلام أو محاكاة أوروبا، وقد اختارت الطريق الثاني ... إنها قد خطت اليوم بعيدا في هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه. إن مصر تتحول إلى بلد أوروبي بطريقة تثير الدهشة وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوروبي ... لقد اعتاد المصريون قضاء الصيف في أوروبا كما اعتاد الأوروبيون قضاء الشتاء في مصر ، فلعل أوروبا تقدر لمصر مسيرتها ولعلها ترد لها يوما بعض هذا الود الكبير الذي تكنه لها مصر ...» - المصدر المذكور سابقا ج ١ ص ٢٦٢ - هل أنا بحاجة إلى تعليق للإشارة إلى الموقع الدوني الذي وضع قاسم أمين فيه نفسه كمفكر مصري، يدعى فيه «الدفاع» عن مصر والمصريين؟، هل كانت هذه الصيغة النفسية لقاسم أمين صيغة دفاعية أم اعتذارية عن اننا كنا في يوم «غير أوربيين»، لنا شخصيتنا المختلفة في الادارة والأبنية والآثار والشوارع والعادات واللغة والأدب والذوق والغذاء والثياب.. إلى آخره الى آخره.. . ثم هل كان قاسم أمين صادقا في كلامه مع الذوق المتعجرف؟، هل كانت «مصر» .. كلها ـ لا أحياء من عاصمتها ـ متسمة في ذلك العهد ـ أو حتى الآن ـ بالطابع الأوروبي؟، ومن كان هؤلاء المصريون الذين اعتادوا عام ١٨٩٤ ـ أو حتى الآن ـ قضاء الصيف في أوروبا؟، وأي ود كبير هذا الذي كانت تكنه مصر لأوروبا بعد الاحتلال البريطاني باثني عشر عاما؟. ومع ذلك فلا يجب أن نعتبر كتاب «المصريون» شاهدا على أفكار قاسم أمين أو مرشدا لتحديد مبادئه ومعتقداته وموقفه لانه، على الرغم من ولائه الواضح فيه لأوروبا واعجابه التام بها بصفتها المثل الأعلى للمدنية التي يتمناها لمصر، وانحناء قامته البين أمام الذوق المتعجرف، يظل الكتاب «محاولة» من

قاسم أمين للدفاع عن صورة مصر والمصريين و«شرح» الحكمة الايجابية فى قوانين الشرع الاسلامى، وان بدأ هذا «الشرح» مستخذيا تبريريا ملتمسا السماح من الدوق مناشدا إياه أن يعتبر «الإسلام» فى مرتبة «المجوسية» ، فيقول : «إن الإسلام دين خلقى، لايقل عن المجوسية ولا عن المسيحية، وان روح القرآن لا تختلف عن الروح الإنجيلية..» المصدر السابق، ج ١ ص ٢١٧ .

لقد كتب قاسم أمين «المصريون» بدافع انفعال وقتى : رد فعل لصفعة ساخنة أحسها «إهانة ذاتية» لشخصه لكونه ـ ولا مفر ـ مسلما مصريا تحاصره وتلتصق به الاتهامات التى كالها «دوق داركور» للمصريين والمسلمين كافة، وكان عليه أن يدفع عن نفسه هذه الاتهامات التى تشينه أمام أصدقائه «الأورباويين» ، الذين يحب أن يظهر أمامهم وجيها يليق بمقامهم، فكان رد فعله الأول أن ينكر هذه الاتهامات وينفيها من أساسها. أما رد فعله الثانى، الذى أتى بعد ذلك تباعا فى كتاباته التالية من ١٨٩٥ حتى تاريخ مماته ٢٢ ابريل ١٩٠٨، فكان محاولته الخروج والتنصل من «الصورة» التى لا تعجب «الأورباويين» وذلك بانتهاج استعلاء يجعله ينفصل عن تلك «الصورة» بإعلان اعتراضه عليها وتبرؤه منها مما يحقق له «ذاتيا» احتراما واعجابا أوروبيا غربيا يستثنى به كصفوة «تنويرية» لاينطبق عليها ما أسخط الدوق وأمثاله على مصر العربية المسلمة ـ (وقد تم له ذلك على أكمل وجه والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه!) .

نصب قاسم أمين نفسه «مصلحا» و«موجها» و«مربيا» و«ناقدا» لمصر الإسلامية : يتبنى افتراءات الدوق ويتطوع على أساسها ـ نيابة عن الدوق وعن أوربا ـ العمل على إدانة الصورة الإسلامية التى لا ترضيهم والدعوة علانية بالتوجه الكلى نحو «محاكاة» الغرب، والايحاء بأن كل مصائبنا ناتجة من «أهوائنا» المتمسكة بالمدنية الإسلامية!. يقول قاسم أمين فى كتابه «المرأة الجديدة» : « فالتركى ، مثلا، نظيف صادق شجاع والمصرى على ضد ذلك، الا أنك تراهما رغما عن هذا الاختلاف متفقين فى الجهل والكسل والانحطاط ، إذ لابد أن يكون بينهما أمر جامع وعلة مشتركة هى السبب الذى أوقعهما معا فى حالة واحدة. ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعا إلا الدين ذهب جمهور الأورباويين، وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين، إلى أن الدين هو السبب الوحيد فى انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم..» ـ المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٧٢ ـ هل قال شيمون بيريز

أخيرا شيئا أسوأ من ذلك، مما دفع وزيرنا عمرو موسى إلى إعلان احتجاجه قائلا : «هذا كلام غير مسموح به»؟.

* * *

في سبيل الدعوة الى التوجه الكلى لـ «محاكاة أوروبا»، قال قاسم أمين في مشاكل اللغة العربية : «لا أدرى ماهى غاية الكتاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الأوتوموبيل.. إن كان المقصد تقريب المعنى إلى الذهن فالكلمة الأجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على أوجه أتم من الكلمة العربية، وإن كان مقصدهم إثبات أن اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم أمرا مستحيلا..» المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٥٧ .

ومع هذا المقتطف الشاهد على رغبته في الجمود على كلمة فرنسية أو أجنبية مع وجود كلمة عربية مرادفة وأسهل للناس - بدليل انقراض كلمة أوتوموبيل في بلادنا وسيادة «سيارة» و«عربية» نجد حضرته متأففا نافدا صبره يكتب شاكيا : «يظهر أن باب الاجتهاد أغلق في اللغة كما أقفل باب التشريع، فقد صار من المقرر بيننا أن اللغة العربية وسعت وتسع كل شيء..» ج١ ص ١٥٨ - أما اجتهاده فيكون بتطعيم اللغة العربية الفصحى بـ «... طرق التعبير الجميلة التي نسمعها أحيانا في لغة العامة». ج ١ ، ص ١٥٨ - وحين يكتشف أن الناس يلحنون في العربية، يجد هذا : «برهانا كافيا على وجوب اصلاح اللغة العربية..» ج ١ ، ص ١٥٨ وكيف يكون ذلك برأيه؟: «أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل». ج ١ ، ص ١٥٨ - ما رأى د. محمد رجب البيومي في هذه الفتوى من «قاسم البطل» على حد تعبيره في مقاله بالهلال فبراير الماضي ص ٢٢٩.

* * *

كتب قاسم أمين كتابيه الشهيرين «تحرير المرأة» عام ١٨٩٩ ، ثم «المرأة الجديدة» عام ١٩٠٠، وبهما من اللغة الركيكة والحشو الممل مايضيق الصدر عن عظمة الأوروبيين والأمريكان وعن أسباب تقدم الأنجلو ساكسون، كيف أن .. نشاطهم وجراءتهم وإقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التي تعترف كل الأمم بامتيازهم فيها عن سواهم هي نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل - ج ٢ ، ص ٧٨ - وحين يعدد أخطاء المرأة المصرية، التي لا يجيد حصرها

يتناقض ، فيأخذ عليها تارة كونها لا تجيد سوى التزين لزوجها ومسامرته فيقول : «ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها وانما بضاعتها أن تسلى الرجل وتمتعه.. وجهت جميع قواها الى التفنن فى طرق استمالته إليها والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه..» ـ ج ٢ ، ص ٢٣ ـ ثم يناقض قوله هذا بعد ست صفحات ويتهم المرأة المصرية بأنها جاهلة حتى بأمر زينتها ومسامرة زوجها فنراه متفلسفا . «... ذلك أن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور فاذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت فى الغالب بعكس ذلك..» ـ ج ٢ ، ص ٢٩ ـ وحين يلاحظ د. محمد عمارة، جامع الأعمال الكاملة لقاسم أمين ومحققها، أن الأجزاء الإسلامية الطيبة فى الكتابين غريبة على كاتب يقول : «في البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لا وطن له ويكفر بالله ورسله ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم.. يقول ويكتب ما شاء ولا يفكر أحد.. أن ينقص شيئا من احترامه بشخصه متى كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية.» ج ١ ، ص ١٦٥ ـ يقول د. عمارة بقرائن بحثه العلمي و«اجتهاده» : «... ففى تحرير المرأة وبالذات في الفصول التى تتناول وجهة نظر الشريعة والدين فى هذه القضية، نلتقي بمجموعة من الآراء الفقهية والمناقشات لا يستطيع أن يبحثها ولا أن يستخلصها كاتب مثل قاسم أمين.. وأهم من ذلك نجد أحكاما كلية تدل على أن صاحبها ومصدرها قد استقصى بحث هذا الأمر في جميع مصادره الرئيسية فى الفكر الإسلامي، على اختلاف مذاهبه وتياراته الفكرية، وهو الأمر الذى لا نعتقد أنه قد توافر فى ذلك العصر سوى لقلة قليلة في مقدمتهم جميعا الاستاذ الامام محمد عبده...» ـ المصدر السابق، المقدمة ، دراسة فى فكر قاسم أمين، ص ١٤٤ ـ هذا «اجتهاد» العلامة د. محمد عمارة ، ألا يكون من حقه هذا «الاجتهاد» ويكون من حق «قاسم البطل» الدعوة الى «الاجتهاد» بالعبث فى اللغة العربية والدعوة إلى «حق» المجاهرة بالكفر؟ . ياسبحان الله!.

أينعم ، أنا واحدة من المؤيدين لاستنتاج د. عمارة بأن الأجزاء الفقهية العلمية فى كتابى قاسم أمين «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» ليست من كتابته لأنها خارج قدراته العقلية المتسمة بالتناقض والتشويش والتسطيح والانحناء الذليل للمدنية الغربية، واذا لم تكن هذه الأجزاء من كتابة الأستاذ الامام محمد عبده ـ الذى يكون قد تصدق بها على «قاسم البطل» ـ فهى من كتابة عالم آخر والله أعلم .

عن ثقافتنا العربية وعن البنيوية والتفكيكية و.... إلخ

بقلـم: مهدي بندق

على صفحات مجلة الهلال قرأت فى العدد الماضى مقالة بديعة للأستاذ الدكتور مجدى يوسف يؤسس فيها لشرط واجب الإتباع - من وجهة نظره - ساعة أن يلتفت المثقف العربى إلى النظريات والمناهج البحثية الغربية ، ذلك هو شرط البدء بالعينى الملموس فى أسئلتنا نحن وليس «باستيراد» الأطر والأدوات الإجرائية من الغير . فالانطلاق من واقعنا الثقافى المحدد كفيل بتوليد وسائطه ومناهجه وأدواته الخاصة به وحده.

ولكى يؤكد الأستاذ مجدى فكرته - تلك التى سنعارضها بعد قليل - اختار شخصى الضعيف ليمثل به ، لا بطريقة الحجاج الثقفى - بل بأسلوب اللورد المهذب يلتقط بشوكته زيتونة فاتحة للشهية - قبل التهام العشاء.

وصلت الرسالة إذن ، وفحواها سؤال مترفع: وأنى لأمثالكم من كتّاب العرب إدراك الفرق بين البنية والبنيوية ناهيكم عن التفكيك (عنوان مقالتى بمجلة أخبار الكتاب) حيث دعوت أنا إلى ممارسة هذا التفكيك بشكل منهجى نقدا ونقضا للسالب من عناصر ثقافتنا العربية .

وهذا هو الدرس الذى أراد دكتورنا مجدى أن يلقنه للمثقفين العرب الذين سمحوا لأنفسهم بالخوض فى معارك فكرية لاتخصهم ولا تعود على شعوبهم إلا بالحيرة والاضطراب والغمض!

فعل هذا بمهارة ولباقة هما صفتان لصيقتان بقلمه العف النظيف ، مستبعدا ألفاظ التجريح والتجهيل والهزء بمن لم يؤد واجبه المنزلى! وإنما انطلق الرجل مباشرة إلى هدفه ذى الشعبتين : نقده هو لمركزية اللوجوس الغربى ، وتحذيره لنا من إغراء النظريات المستوردة والمناهج سابقة التجهيز.

حسناً .. لتكن إذن معركة راقية جديرة بوقار مجلة الهلال ، جديرة بغزارة علم مجدى يوسف، وجديرة أيضاً بكل صاحب قلم يفكر فى إثراء هذا الحوار بمداخلة منه أو أكثر

★★★

فإذا كنا قد أصبنا قولاً حين رصدنا هدف الدكتور فإن لنا الحق فى مناقشة شعبته الثانية علي الأقل ، باعتبار أن الأولى (نقده هو للثقافة الأوربية) تخصه هو، وتخص أصدقاءه الفلاسفة أمثال جادامر وهابرماس ودريدا وادوار سعيد وإيهاب حسن ، رغم كون الأخيرين لم يقطعا كل صلة بين الفكر الغربي المتحرر المنطلق وبين خطابنا العربى المتأزم المعاصر . بإدراك منهما أن خروج الفكر العربى من أزمته الحالية رهين الحوار مع الآخر المختلف ، الحوار الذى يلغى من قاموسه كلمات التعالى وغمغمات الدونية على حد سواء . ويكفينا فى هذا الصدد أن نستعير كلمات كلود ليفى شتراوس فى كتابه «العرق والتاريخ»: إن البربرى هو قبل كل شيء، الإنسان الذى يعتقد بوجود البربرية.

الشعبة الثانية من هدف الأستاذ إذن هى ما تهم القارىء العربى بالدرجة الأولى. وللتذكرة فإننا نعيد صياغتها – كما فهمناها من مقالة الأستاذ – على النحو التالى:

● ليس أمام المثقف العربى من سبيل لانتاج المعرفة إلا إذا انتهج منهاج الاستقراء INDUCTION وصولاً إلى التعميم فالتجريد ، ولأن الواقع هو تغير دائم فلا مندوحة من العود للاستقراء من جديد .. وهكذا إلى ما لا نهاية فيما يشبه الدور والتسلسل المنطقى .

● ولما كان مستحيلاً نزع الأدوات الإجرائية والآليات المنهجية عن المضامين الثقافية التى أنتجتها فلا أمل لنا فى استعارة هذه الأدوات والإجراءات لاستخدامها فى تحليل أبنيتنا الفكرية المختلفة مضموناً وواقعاً تاريخياً.

هنا لابد أن نختلف مع الأستاذ خلافاً شديداً وعميقاً لأسباب منهجية وتاريخية وعملية لاتخطئها العين الفاحصة .

● فأما الأسباب المنهجية فتدور حول وحدة العقل البشرى ووحدة الحضارة الإنسانية، تلك التى ساهم فى انجازها الفراعنة والبابليون والإغريق والفينيق والفرس والهنود والعرب وأوربا والصين. ومن ثم يسقط قول كبلينج Kipling : الشرق شرق والغرب غرب ولا لقاء بينهما!

نحن لا ننازع فى أن العرب المسلمين أسسوا علم أصول الفقه بإبداع منهم لآليات الاستقراء وباعتمادهم على المنهج التجريبى ، بيد أن الحضارة الإسلامية ليست علم أصول الفقه فحسب بل هى كذلك علم الكلام الذى أفاد من القياس الأرسطي حيث قام المعتزلة بتعديله –

تحت التأثير الأيديولوچى - إلى قياس الغائب على الشاهد ، وهى كذلك - الحضارة الإسلامية أعنى - الفلسفة التى بلغت غايتها عند ابن رشد ، وهى ثالثاً علم الاجتماع التاريخى الذى أسسه ابن خلدون ، وهى رابعاً الاكتشافات العلمية عند الحسن بن الهيثم وابن النفيس والخوارزمى وجابر بن حيان ، فضلا عن الوصول بعلم اللغة إلى ذروتها عند عبد القاهر الجرجانى وسيبويه وابن مضاء القرطبى ، وما كان لهذا كله أن يتم لو اقتصر الأمر على منهج الاستقراء وحده ، فضلاً عن كون منهاج الاستقراء ذاته قد أمسى بعد انتقادات كارل بوبر منهاجاً غير علمى حيث يقوم على السببية وهى مبدأ عقلى سابق على التجربة.

● وأما الأسباب التاريخية فأهمها الوعى بأن ما يكتشفه إنسان واحد فى أى مكان فى العالم لايلبث غير قليل حتى يصبح ملكاً للإنسانية جمعاء، ولولا ذلك لظل يسوع يهودياً محدود الأثر ، وظل جاليليو مجرد أستاذ للرياضيات (وظلت الأرض ساكنة لا تدور فى نظر الناس) وبقى اسحق نيوتن جالساً تحت شجرته يأكل تفاحته ويحلم وحده بقانون الجاذبية. حمداً لله أن البشر - رغم حماقتهم فى مواضع لا تحصى - قد أدركوا منذ البداية أن حضارتهم إنتاج للتاريخ ، تاريخ الفرد الواحد وتاريخ أمته وتاريخ الأمم جميعاً.

● تأتى بعد ذلك الأسباب العملية التى تعارض العزلة وتتأبى على توهم القائلين بالتفرد الثقافى فمن نافلة القول المحاجاة فيما أحدثته ثورة الاتصالات من مثاقفة Acculturation لجميع الأمم ، تحمل على يديها الإنجازات العلمية والتكنولوچية والمرسلات والمستقبلات الأدبية والفنية ربما بأسرع من الجنىّ الذى حمل عرش بلقيس إلى سليمان الحكيم ، ولو كان الأمر بخلاف ذلك لهلك عرفات فى الصحراء حين سقطت طائرته ، فماذا عن اقتناء الطائرة والسيارة والقطار ؟! لولا المثاقفة لظل العرب يركبون الجمال والحمير ، ولولاها لبقى الأفارقة يفرون أمام الرجل الأبيض خشية أن يقتنصهم عبيداً ، هم الذين أصبحوا الآن ينافسونه فى ميادين السياسة والرياضة وربما ينافسونه غداً فى ميدانه الأثير : الاقتصاد.

ولأن الثقافة أسلوب عيش فدعنا لانضيع الوقت فى احصاء مظاهر التشابه فى أساليب عيش البشر بقرننا الحادى والعشرين بدءاً من تعميم الكهرباء على كل مكان - تقريباً - تنير ليل كوكبنا الأرضى ، إلى انجازات التكنولوچيا المعاصرة التى تتيح لسكان قرية نائية فى صعيد مصر أن يتصلوا بأقاربهم فى أمريكا واستراليا ، إلى المليارات التى تشاهد محاكمة رئيس أكبر دولة فى العليا عبر القنوات الفضائية بلحظة واحدة، وصولا إلى الديمقراطية التى يعترف بها الجميع - صدقاً أو تمويهاً - نظاماً للحكم لا مهرب من قبوله.



الشاعر
أحمد عبدالمعطى حجازى



محمد توفيق

أقــــوال معــاصرة



إبراهيم عبدالمجيد

● « أبواب الرحمة لعناصر الجماعات المسلحة لن تغلق» .

الرئيس الجزائرى عبد العزيز بو تفليقة

● «أتصـور أن الكتـابة هـى محـاولة لممـارسة الحـرية فى مجتمعات تفتقد الحرية» .

الأديب إبراهيم عبد المجيد

● «الموسيقى هى حبى الضائع» .

المخرج السينمائى الايطالى مايكل انجلو انطونيونى

● «من أوهام جيلنا وأخطائه أسطورة القطاع العام» .

المفكر السورى جورج طرابيشى

● «التسوية المطروحة على العرب تنحصر فى الاختيار بين بيبسى كولا وكوكا كولا !!» .

المفكر اللبنانى جوزف سماحة

● «العبقري هو الفريد من نوعه بشكل لا يمكن فهمه أو تفسيره ، وفي الوقت نفسه لا يعي انه عبقري» .

المخرج والممثل الامريكى وودى آلن

● «المبدع الحقيقي مغيب ، والجيل الجديد يعيش في الفراغ» .

المسرحى التونسى حمادى المزى

● «لقد فتش الغرب بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عن عدو جديد، فكان الإسلام» .

المستشرقة الألمانية آن مارى شيمل

● «إننا في بداية عصر جديد، وكل ما هنالك أن البداية مختلطة بالنهاية ، كما هي حالها علي الدوام» .

الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى

● «إن بمصر الممثل المتوسط ، والجيد ، والجيد جدا ، والممتاز ، والرائع ، ولكن لا يوجد الممثل الفنان» .

الممثل محمد توفيق

المثال محمد رزق

بين الحديد والنحاس

بقلم : محمود بقشيش

إنّ حلم أى رسّام أو مثّال مصرى هو أن يحيا من عائد فنّه حياة كريمة ولايتعرض لما تعرض له بعض كبار المبدعين العالميين أمثال «ڤان جوخ» و«دومييه» و «موديلياني» من شظف العيش. وإلى الآن لم يحقق هذا الحلم فى مصر إلا قِلّة نادرة، نجحت فى تقديم أعمالٍ رفيعة فى مستواها الفنى، مستجيبة لحاجة رجال المال الى إحاطة أنفسهم بما يمتع النفس وحاجة المؤسسات الاستثمارية الى المظهر الجميل وحاجة المحافظات الى نصب تذكارية تتباهى بها. من بين هؤلاء المبدعين الذين قدموا الى حياتنا الاجتماعية فنا يجمع بين «النافع» و«الجميل» المثّال «محمد رزق» الذى استعانت به مؤسسات عديدة لتجميل واجهاتها وأبهائها. وقد زين مدخل جريدة الاهرام ومدخل فندق هيلتون النيل وفندق مريديان وسياج بالجيزة وفندق ماريوت شرم الشيخ وأكاديمية مبارك للأمن والبنك الأهلى المصرى ومركز القاهرة للأشعة. وأنجز لمصانع الدخيلة للحديد مُجسّما حديديا ارتفاعه خمسة عشر مترا .



محمد رزق

بدأ «محمد رزق» حياته الإبداعية محاولاً فى كتابة الشعر والقصة والعزف على الناى، كان ذلك فى قريته «سيف الدين» بمحافظة دمياط، يتحدث عنها حديث العاشق قائلا : «إن اللون الأخضر وسلاسة العلاقات البشرية كانت تملأ حياتى بأحلام مستقبل وردى، وكانت «القاهرة» بالنسبة لى محور تلك الأحلام، كانت تعنى : الالتحاق بالجامعة. النجومية الأدبية. وفى القاهرة تبخرت الأحلام، لم ألتحق بالجامعة بل التحقت بمصنع الحديد والصلب سنة ١٩٥٧ وتعطلت محاولاتى الأدبية وارتبكت خططى حتى سنة ١٩٦٢ .

كانت صدمة القاهرة كبيرة، ووجد نفسه محاصرا بكل ما هو مناقض لمرحلة القرية، فالقاهرة مدينة عدوانية بزحامها وفوضاها المرورية ونفاياتها المكدسة فى أحيائها الراقية والشعبية على السواء، غير أن القول الحكيم: «داوها بالتى كانت هى الداء» كان نافعا له فتخفف من النفور الى نوع من التعايش، كان من نتائجه أن استخرج من الظروف المغايرة ممكنات جديدة للابتكار. واستبدل اللون الأحمر (لون النار) باللون الأخضر واستبدل «دينامية» التحولات فى الصناعة بالاستسلام السكونى للحياة فى القرية. وشغف بشرائح النحاس وأغرته طراوتها بالاقتران بها فعل، ومن يومها وحتى كتابة هذه السطور ظل وفيا لها .

طريق الصعود

كان عام ١٩٦٢ عاما محوريا بالنسبة له، ففيه قرر الالتحاق بكلية الفنون الجميلة (القسم الحر) وهناك التقى برائد المطروقات النحاسية المثال «جمال السجينى»، ويتحدث رزق عن ذلك الموضوع بقوله : «توجهت الى السجينى كى أتعلم منه تقنية النحاس، غير أنه نصحنى بأن أتعلم هذا وحدى وكان رأيه أن الفن لا يُلقن. وتركت الكلية ولم أكن قد أمضيت بها أكثر من ثلاثة أشهر وتوجهت إلى شارع «خان الخليلى» لمتابعة الصناع المهرة والتعلم منهم. وأستطيع التوكيد بأن هذا الشارع كان أستاذى الحقيقى. والعجيب أنه حصل فى نفس العام على جائزة الدولة التشجيعية فى النحت.

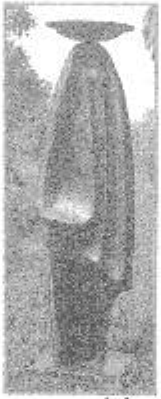
وكان هذا الاعتراف الرسمي بموهبته حافزا قويا لمواصلته الانتاج الفنى والتفرغ له - فيما بعد - تفرغا كليا .

أصداء

أقام «محمد رزق» ستة عشر معرضا، قوبلت جميعها باستحسان النقاد. واحتفى به نقاد الأدب ونقاد الفن على السواء. كتب عنه الفنان الكبير «حسين بيكار» في بابه الأسبوعي بجريدة الأخبار، يقول : «إن ارتباط الفنان «محمد رزق» ببيئته وأبناء بلده ارتباط جذرى ينعكس فى رشاقة الخطوط التى تتماوج وتتلوى فى سيولة الموال ورقة الناى، وتبرز آثار المطرقة على السطح كأنها ايقاع نقرات الدفوف والطبول تزف الشخصيات الراقصة فوق السطح اللامع». ومهما كانت الآراء التى أبداها نقاده ودرجة اختلافهم فى التلقى والتفسير فقد اتفق الجميع على أهمية هذا الفنان الذى لم يتلق - ربما لحسن الحظ - أى تعليم أكاديمي ولم ينل درجة الدكتوراه التى يتسابق على نيلها أنصاف الموهوبين بالكليات الفنية. ولم يتسلح الا بموهبته وإصراره فقدم اضافة فى مجال المطروقات والمجسمات النحتية وأضيف اسمه الى قائمة كبار موهوبى جيل الستينيات الذين لم يحصلوا على شهادات عالية ولم يتوظف بعضهم فى وظائف حكومية أمثال : عبدالرحمن الأبنودى، سيد حجاب، أمل دنقل، ابراهيم فتحي، عبدالرحيم منصور، يحيى الطاهر عبدالله ، جمال الغيطاني، ابراهيم أصلان، خيرى شلبي ومحمد يوسف القعيد .

عن فنه

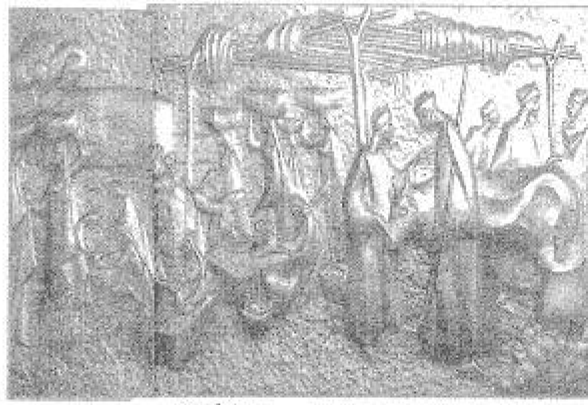
يختلف «محمد رزق» عن كثيرين من الفنانين المصريين فى رفضه الالتزام بقالب جامد، يقبل الاجترار، لهذا تزخر لوحاته بالتداخلات الأسلوبية. لا تحدد مراحله ملامح حاسمة مثلما هو الحال مع مراحل «بيكاسو» ، بل تتعايش الأساليب فى إطار زمانى أو مكاني واحد: ففى معرض واحد نلتقى بأعمال تعبيرية حُرِيفة "Fauvisme" الى جوار مستنسخة اسلامية بالغة الدقة، أنجزها للدراسة البحتة إلى جانب أشكال تجنح الى التجريدية الهندسية وأخرى تستلهم التكعيبية التحليلية.



قروية

الجرة





سوق القرية - ١٩٦٩

فلاح





المسن
تعريس

وعلى الرغم من ذلك التنوع فهى (أى الأعمال) تعبر عن جذر واحد هو الوطن المصرى بحالاته المختلفة. ويمثل الانسان محورا دالا على تلك التحولات. والإنسان هنا ليس إنسانا مطلقا، بل هو - تحديدا - الفلاح المصرى والفلاحة المصرية. ويتجلى هذا الوجه فى صور مختلفة تختلف باختلاف حالات الوطن، لهذا يظهر ثائرا أحيانا، سعيدا أحيانا أخرى، صامدا فى حالة ثالثة. وتمثل الجياد موضوعه المحورى الثانى، تظهر جامحة ومنكسرة ومختالة.. وهكذا تتحول من صورة لأخرى انعكاسا للمد والجزر فى ساحة الواقع السياسى المصرى.

١٩٦٧

أقام سنة ١٩٦٩ معرضا بقاعة «جوته» وكان المعرض صدى لمعاناة ١٩٦٧ ومن أبرز أعماله مجسمات ثلاث، تحمل العناوين الآتية: «الصمود» و«الغضب»(١) و«الغضب» «٢». لوحة الصمود تلخص الشعب المصرى فى وجه ريفى - صرحى، مفعم بالغضب، متحفز للمنازلة. ويرتكز الوجه على رقبة عملاقة، غنية بالتضاريس. وتقوم الطرقات المتنوعة باثراء السطح. وتحفل اللوحة بتفاصيل دقيقة ومفاجآت غير متوقعة فى بناء الوجه بشكل خاص، فهو لم يقم بتحليل شكل بنائى - واقعى يلتزم النسب التشريحية للإنسان بل أنشأ وجها ينتمى الى «العمارة»، وقد أعانه الأسلوب التكعيبى فى الأبنية التحريفية الحادة. ويتجلى ذلك على وجه الخصوص فى التحليل المثير للمنطقة أسفل الفم والذقن والحفر على الجبهة. وتمتد كتلة من الأنف الى الصدغ لتشترك بدورها فى معمعة كتلة المستويات الخطية المتداخلة. وتتسع اللوحة لكثير من الايحاءات القصصية. وربما أدرك الفنان ذات الطابع الروائى لعمله فقدم نقدا ذاتيا تمثل فى عمل آخر يحمل نفس الاسم ويختلف معه فى التاريخ والأسلوب: نفذ العمل الجديد سنة ١٩٨٥ وهو مسبوكة نحاسية على عكس العمل الأول الذى نفذ بطريقة الطرق على المعدن النحاسى. يرتبط العمل الأول بايحاءات رمزية، تمثل الشعب المصرى فى هيئة

المزارع الشجاع، السمح، يحاكم حالة «الهزيمة» ويدعونا (نحن المشاهدين) الى التحدى، بينما يتحول الوجه الثانى ليعبر عن انسان عصر العنف. تنتمى المجسمة الأولى الى «النحت البارز» والثانية مسبوكة تنتمى الى «النحت المدارى» أو «الفراغى» وهى تستعير من العمارة هندسيتها الصارمة وملامسها المجردة، غير أنه ـ كعادته فى المفاجآت ـ يزلزل هذا الكيان المعمارى بزلزال يفصل المقطع الأعلى من الفم عن المقطع الأسفل ويمزق جزءا من الوجه بحدة. ويعترف محمد رزق بقوله : «كنت أريد لهذا التمزق أن يمتد، غير أن مساعدى صاح : قلبى لا يطاوعنى .. لا أستطيع مواصلة التشويه أكثر من ذلك.

الكمنجات أحيانا !

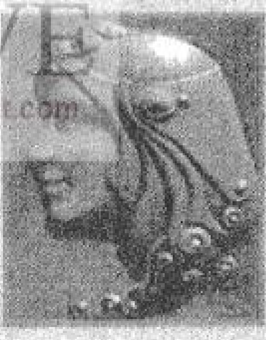
منذ خمسة عشر عاما نشرت دراسة عن الفنان محمد رزق فى مجلة ابداع وكانت تحمل عنوان «رزق عاشق المطروقات النحاسية». وفى معرضه السادس عشر الذى أقامه منذ عامين تقريبا بقاعة دار الأوبرا وخارجها، حاول أن يكمل عنوان مقالتى فوضع لمعرضه عنوانا هو : «وعاشق الحديد أيضا!.. ولم يعلق على عنوانى السابق اطلاقا، بل أراد لرده أن يكون عمليا فقدم ما يثبت به جدارته بعشق الحديد وما تزال تماثيله قائمة حتى الآن فى منطقة الأوبرا الجميلة، وقد بدا على الشخصيات التى عانت من آلام الحرب تحولات الى الاشراق وكأنما ترحب ـ بدورها ـ بما يسمى بعملية السلام فى الشرق الأوسط، ظهرت الخيول فى منطقة الأوبرا وقد تخلت عن توترها السابق وبدت هادئة ، مختالة بجمالها، مزينة بزخارف من نحاس، يتلألا تحت وهج الشمس وازداد جمال الوجه الأنثوى تألقا. وانتقلت الأنوثة الى شكل الكمان وتوحدت به فى تمثال جميل ، نسيج جسده من مسامير حديدية مدببة، فى صعودها الى الذروة أو هبوطها الى القاعدة تشكل تموجات متصلة وبالقرب منها يظهر عازف الرباب منشغلا بآلته الشعبية. ولقد سبق لمحمد رزق أن نفذ بالنحاس المطروق هذا الموضوع. وعندما نقله الى خامة الحديد كبّره الى الحد الذى لامس به الشجرة القريبة. ارتفاع

الكمان الأنثى
١٩٩٧





صدر - نحاس مطروق



فتاة - نحاس مطروق

مطروقة (صمود) للفنان محمد رزق



التمثال ثلاثة أمتار وخمسة عشر سنتيمترا .

واقعية مغايرة

ذكر المفكر الفرنسى الكبير «جارودى» فى كتابه الجميل «واقعية بلا ضفاف» أن الأسلوب «التكعيبى» كان أكثر دقة وأمانة فى نقل الواقع من الأسلوب «الأكاديمى» الذى يكتفى بنقل الزاوية الوحيدة المرئية، مغفلا الزاوية غير المرئية، فى الوقت الذى اهتمت التكعيبية باظهار ما هو مرئى وما هو مخفى من زوايا الموجودات الواقعية، جنبا الى جنب على مسطح اللوحة. وحاول «محمد رزق» أن يطبق هذا فى موضوع «العارى» وقدم سلسلة من التماثيل المسبوكة بخامة النحاس فى سياق معرض «الأوبرا». جمعت عارياته بين منظورين متخالفين فى ذات الوقت. الزاوية الواحدة تفاجىء العين بكتل أسطوانية بارزة وأخرى غائرة. ويشكل هذا التعارض ايحاءات أوسع مما نصفه بالشكل المحدب والشكل المقعر إلى الإيحاء بالحضور والغياب فى الكتلة الرئيسية التى تنتظم تلك الثانية. ويبدو لى أن تلك المحاولات لم تزل فى طور التجريب وقدم فى معرضه عينات منها لنتأكد أن بمقدوره أن يواصلها ويطورها . وقد سبقه الى تلك التجربة المثال «جمال السجينى» فى تمثاله البديع عن الفنان «سيد درويش».

من أصداء تمثال نهضة مصر

من آثار العمل الفنى العظيم أن يكون محركا لنوازع الخلق لدى متلقيه من المبدعين المعاصرين واللاحقين والأمثلة الدالة على ذلك لا حصر لها وتحتاج الى دراسة مطولة ليس هذا مجالها. واذا كنا قد ذكرنا «أصداء تمثال مختار» عنوانا لتلك الفقرة فلأنه جذر قريب، قد تناسل بدوره من جذور عميقة، تشعبت شرقا وغربا وتألقت فى الجمالية المصرية القديمة واختار منها «مختار» تمثال «ابو الهول» ليرمز به إلى حضارة تشع نورها فى ثقافات العالم. واللافت للنظر أن كل الابداعات العظيمة قد اتخذت من المرأة رمزا لخصوبة الوطن، صارت عند مختار «فلاحة» وعند المثال «محمد رزق» -

صاحب آخر التماثيل الميدانية « بنت البلد ».

واذا كان «مختار» قد اختار خامة الجرانيت التاريخية لتكون جسدا لفكرته عن النهضة فقد اتخذ «محمد رزق» خامة الصناعات الثقيلة : «الحديد» لتكون جسدا يعبر به عن موضوع تمثاله وهو : «مصر السلام». لم يحظ تمثال «رزق» بالظروف التاريخية والرومانسية التى أحاطت تمثال «مختار»، وقد ثبتت تلك الظروف فى الذاكرة القومية الطابع الاستثنائى لظهور تمثال نهضة مصر ودور الشعب المصرى، بكل طبقاته وشرائحه فى جعل التمثال حقيقة واقعة. أما بالنسبة لتمثال «محمد رزق» فقد نفّذه الفنان بتكليف من محافظ جنوب سيناء اللواء «مصطفى عفيفى» ، والتمثال موجود حاليا أمام مبنى الحكم المحلى بمدينة «شرم الشيخ» وتم تركيبه فى شهر ابريل سنة ١٩٩٨، ارتفاعه فوق القاعدة (٣٨٠ سم) . واذا كان العمل الفنى (وهو هنا التمثال) يمثل لقاء بين الفنان والنموذج والخامة فلابد من تمدد العمل الفنى الى تلك المنابع الثلاثة والاتصاف بمميزاتها : «طراوة الجسد الأنثوى» للنموذج الحى وصلابة خامة الحديد ورؤية الفنان. وقد كشفت المرأة التى جسدها لبنت البلد عن شخصية الفنان نفسه، ففى الوقت الذى انصرف «مختار» عن الايحاءات الحسّية للمرأة حرص «رزق» على إبرازها، مثلما فعل «ديلاكروا» فى رائعته «الحرية تقود الشعب» عندما عرى ثدييها الممتلئين اشارة للخصوبة (والمرأة هنا هى فرنسا) وقبل كل هؤلاء فعلها مبدع تمثال «نصر ساموتراس» قبل مولد السيد المسيح بثلاثة قرون. وعلى الرغم من صلابة خامة الحديد فقد نجح «رزق» فى ابراز الايحاء بطراوة الثديين وجمال استدارتهما. وقد استغل الفنان امكانات الشرائح الحديدية الصغيرة فى خلق ملمس يشبه النسيج المخملى، تستقر فوقه كرات العقد الذى تتقلده المرأة. ولم يصرفنا اقتراب الفنان من النسب والتفاصيل الواقعية للمرأة وطيور الحمام عن الرموز التى كان حريصا على الاشارة اليها. وقد قام الفضاء المحيط بالتمثال بدور لافت فى الايحاء برمز «السماوات المفتوحة» والاتصال بثقافات العالم مع التمسك بالجذور القومية فى ذات الوقت .



امبراطورية الذهب
الأسرار والأباطرة
بقلم : حازم الخولى
ترى أيهما أجمل : المرأة أم الذهب الذى تضعه على صدرها !

ظل «الذهب» الغطاء الذى «يستر» الدول، والأفراد، عندما يصابون بضائقة مالية باعتباره استثمارا مضمونا، ينظرون إليه كحصن أمان فى أيام المحن والكوارث وذخيرة وسلاح يحمى الفرد والدول من الأزمات الحادة!

ولذلك ظل الذهب على عرش العملات على مر العصور، وصاحب الهيبة، تزداد قيمته عاما بعد عام، بل إن قوة الدول الاقتصادية كانت تقاس بحجم أرصدتها واحتياطيها من سبائك الذهب فى بنوكها المركزية.

ولكن فى السنوات الأخيرة بدأ عرش الذهب يهتز ويفقد بريقه بعد أن تعرض لهزات عنيفة والقرن العشرون يودع آخر أيامه، ففقد قيمته فى الأسواق وتراجع ولم يعد حصن الأمان لأولئك الذين يلجأون إليه خلال الأزمات والكوارث السياسية والمالية والعسكرية أيضا!

وقد تناولت صحيفة «الهيرالد تربيون» الأمريكية محنة الذهب وضياع هيبته في الأسواق العالمية فذكرت أن اهتزاز عرش الذهب وفقده لبريقه بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن استثمار آمن أو ادخار لا تتآكل قيمته قد شكك فى قيمة هذا الحصن الحصين، فبدأ الكثيرون يبحثون عن بديل آمن، أو ادخار لا تتآكل قيمته، بل يزداد وزنا وقيمة.

ولقد ظل الذهب على مر العصور المعدن الذى يلهث الأفراد والمؤسسات بل الملوك والدول إلى اقتنائه لأنه نصير ودرع للوقاية من الأيام السوداء التى قد تواجه فردا أو شركة أو دولة.

وكانت البنوك السويسرية قد ملأت خزائنها الضخمة بكميات كبيرة من الذهب كغطاء لا مثيل له فى العالم ووصفت تلك البنوك بأنها «امبراطوريات الذهب»، وربما كان ذلك سر ثقة المودعين سواء كانوا حكومات أو مليونيرات فى تلك البنوك وليس كما يشاع أن الثقة فى البنوك السويسرية فى سريتها فقط، حتى هذه البنوك التى احتكرت الذهب واعتبرته ذخيرة قوية تسلح بها نفسها ضد الأخطار والتقلبات الاقتصادية المالية، صارت حريصة

وحذرة الآن في النظر إلى مخزونها من الذهب على أنه أقوى استثمار ثابت لها أو ذلك السلاح القوى الذى يتم توظيفه للوقاية من الأخطار، صارت بنوك سويسرا وربما بدافع الحرص على مكانتها وسمعتها تنظر إلى الذهب على أنه استثمار خائن يجب الحذر منه هكذا صار الكل خائفا من أن يظل الذهب حصن الأمان، بل صاروا ينظرون إليه على أنه أسوأ استثمار في نهاية القرن العشرين!!

هل معنى ذلك أن الذهب قد فقد عرشه، وفقد بريقه الجذاب المغرى؟

الإجابة نجدها فى تقلبات أسعاره وانخفاضها الكبير فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين وهو يودع آخر أيامه!

الفراعنة والذهب

ولكن ماهى قصة الذهب؟

ظل الذهب على مر السنين ذلك المعدن النفيس الذى خلب الألباب ومات أو قتل من أجله الآلاف بل الملايين من البشر!

ويروى التاريخ أنه بينما كانت شعوب العالم تعيش في «العصر الحجرى» أخرج المصرى القديم كنوز الذهب من بين طبقات تلك الأحجار فكان أول من عرف الذهب وأول من استخرجه وصنعه وصنع به حضارته الخالدة.

وللذهب وجهان: وجه الخير ووجه الشر:

وجه الخير الذى تزدهر به الشعوب وتبلغ أوج حضارتها، ووجه الشر الذى يجذب الغزاة والطامعين فيرتدون بحضارتها إلى عصور الاضمحلال. فبالذهب سادت حضارات.. وبالذهب بادت حضارات أيضا.

ويرى د. سيد كريم أن قدماء المصريين فى العصر الفرعونى كانت لهم أساليب علمية لاكتشاف مناجم الذهب وطرق استخراجه وتصنيعه حيث يقوم العلماء والباحثون بذلك حسب نظريات وتجارب علمية متطورة والتى اشتهر بها كهنة المعابد فى مختلف «علوم المعرفة المقدسة» التى ارتبط تفسيرها بكثير من الأساطير السحرية والرموز السرية والطلاسم الغامضة التى يحاول العلماء المعاصرون فى كثير من المعاهد العلمية الحديثة تفسيرها من منطلق تعريف كلمة سحر عند الفراعنة على صور التكنولوجيا الحديثة على أنها معادلات ونظرية علمية مؤكدة وقابلة للحل والتفسير لقد وصف الفراعنة الذهب فى متون سحر العقيدة «بأنه من لحم جسد الإله الذى لا يبلى ولايفنى ولاينطفىء

نوره» وهى الخصائص الفعلية لعنصر الذهب الذى لايصدأ ولا يتحلل ويحتفظ بلمعانه وقد اتخذ لونه من النور فلا يدخل ضمن ألوان الطيف المعروفة بل تتكون من إدماجها مجتمعة كما وصفته برديات المقدسات السحرية بأنه «أشعة نوره الإله رع المتجمدة التى أرسلها عند شروقه عندما يطل على أرض الشروق فتحتويها وتحفظها فى باطنها فى خزائن من البللور».

وقد ثبت تفسير تلك البردية علميا بوجود مناجم الذهب جميعها فى الصحراء الشرقية من وادى النيل سواء فى مصر أو بلاد النوبة كما وجدت عروقه دائما بين طبقات حجر الكوارتز الشفاف الذى يوصف بالحجر البللورى.

لقد ترك خبراؤهم بعض الخرائط الجيولوجية والجغرافية التى تحدد مواقع بعض المناجم وتخطيط مناطقها والتى ظهر منها ومن دراسة المناطق التى تحيط بها أنهم كانوا يحددون موضع المناجم وأماكن وجود عروق الذهب بالضبط وكانوا يعتمدون - كما يذكر أحد علماء الآثار الألمان - على البندول والذبذبات التى يطلقها كل معدن لاكتشاف أماكن وجوده كما هو الحال فى اكتشافهم لمواقع المياه الجوفية وآبارها بواسطة «الشوكة» وهى من التجارب التى لا يزال يمارسها بنجاح بعض رجال قبائل البدو فى الشرق وفى جنوب أمريكا.

وكانت مناجم الذهب وخاصة فى الدولة الحديثة تدل على قوة الملوك فكانت تنسب إليهم كمناجم رمسيس الثانى ومناجم امنحتب الأول ويصفها بعضهم بأنها هبة الإله لابنه الملك.

هذا وقد بدأ الإنسان التعامل مع الذهب ما بين ٧٠٠٠ سنة إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد فى مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط حيث وجدت مصوغات ذهبية فى مقابر الملك توت عنخ آمون وفى مقبرة الملك (آور) وفى العاصمة السومرية الشهيرة وجدت أنفس الآثار والحلى، ومنها حلى الملكة (شعباد). وتضم قلائد وأقراطا وأساور وخواتم من الذهب مرصعة بالعقيق وغيره. وقد عثر على دبابيس وأشكال لرءوس ثيران زينت بها القيثارات، وكلها من الذهب أو الذهب الأزورد. وكان السومريون فى ذلك الحين مضرب الأمثال فى مهارتهم والمصريون القدماء فى صناعة الذهب.

ماهو الذهب ؟

والذهب هو ذلك المعدن الأصفر البراق الذى يرمز إليه الكيميائيون بالحرفين (a.u)كما أن رمز الفضة هو (a.g) والذهب لا يتغير لونه بالانصهار

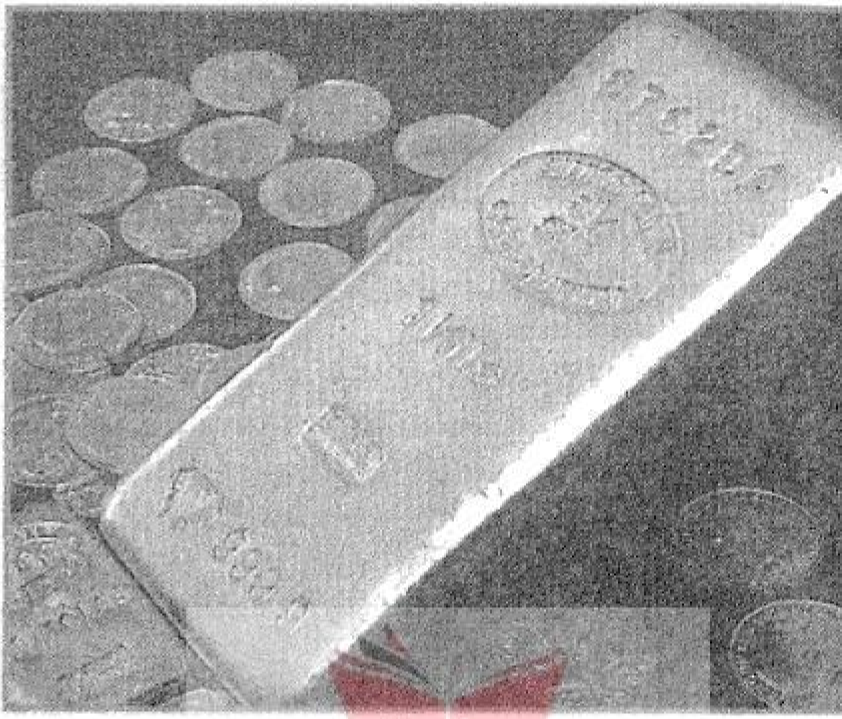


إنه يخلب الألباب .. ومات من أجله ملايين من البشر

كما لا يتأثر بالعوامل الجوية أو المواد الكيماوية، وهذا يهبه الخلود. وهو أكثر ليونة من أى معدن اخر ويمكن طرقه إلى صفائح شفافة تبلغ ألفا من البوصة الواحدة. وأوقية واحدة من الذهب يمكن سحبها على شكل سلك طوله ٥٠ ميلا دون أن تقطع.

ويختلط الذهب كما قلنا سابقا بمعادن أخرى تزيد صلابته. فاذا أضيفت إليه الفضة تزيده اصفرارا وإذا أضيف إليه النحاس يجعله يميل إلى الاحمرار. وهكذا يمكن اعطاؤه ألوانا خضراء وحمراء وبنفسجية وبرتقالية اللون.

وهو معدن ثقيل ثمين فقدم مكعبة منه تزن نصف طن وتقدر بملايين الدولارات. وللذهب استعمالات عديدة فهو ليس أساس النظام النقدى فحسب ولكنه يستعمل بكثرة فى حياتنا، فمن استعماله فى صنع سن القلم إلى



سبيكة من الذهب

استخدامه فى الأجهزة الإليكترونية الدقيقة، ونظرا لما يتميز به هذا المعدن من طواعية وقدرة على توصيل الكهرباء ومقاومته للصدأ فانه يستخدم بشكل أساسى فى صنع الآلات الحاسبة الصغيرة وأجهزة التليفزيون والحاسبات الاليكترونية (الكمبيوتر) علاوة على استعماله فى طب الأسنان.

ويوجد فى أماكن عديدة مختلطا بغيره من المعادن، مثل النحاس والفحم ولكنه بصورة اقتصادية يوجد على شكلين، إما فى عروق ذهبية تكون فى العادة موجودة فى كسور قديمة بالصخور يبلغ عمرها ما يزيد على ١٠ ملايين سنة أو فى شكل رواسب طينية محملة بالذهب، كانت محبوسة فى بعض كتل صخرية تعرضت للمياه وفتتتها وسار الذهب مع تيار المياه وتجمع فى بعض جيوب على ضفاف الأنهار على هيئة كتل أو كرات ذهبية صغيرة. ولكن

إذا حدث وغيرت تيارات المياه مجراها فإن الذهب يختلط بالحصى فى قاع النهر فى أنظار الباحثين عنه.

وفى الماضى كان استخلاصه يتم بواسطة مناخل مصنوعة من وبر الغنم ويقومون بحرق الوبر فيظهر الذهب لامعا تحت رماد الصوف.

هؤلاء والذهب

ولقد ارتبطت بعض الأسماء تاريخيا بالذهب فالملك (جيمس) أحد ملوك ليديا القديمة هو أول من سك النقود الذهبية عام ٦٥٠ ق.م وكان على أحد وجهيها أسد يمثل شعار الملك. وعندما اكتشف (كولومبس) أمريكا أرسل إلى بلدته إسبانيا قليلا من حبات الذهب ليطلعهم عليه. وعندما وضع (هرناتز وكورتيس) الإسبانى قدمه فى المكسيك ملأ الهنود خوذته بغبار الذهب. ولما دخل (فرانسيسكو بيزارو) مع أصحابه (بيرو) اعتبروها بلد العجائب حيث وجدوا الأثاث وكل الأشياء البسيطة مصنوعة من الذهب. وفى يناير ١٨٤٨م كشف (جيمس مارشال) الذهب فى أنهار كاليفورنيا. وفى العام الذى تلاه تجمع ٨٠ ألف رجل هاجروا نحو الغرب للبحث عن المعدن الثمين. وفى عام ١٨٨٠م عثر فى أستراليا على أكبر قطعة ذهبية وكانت تزن ١٦٠ رطلا.

ويحدثنا التاريخ عن مقبرة الملكة (بورباى) بالعراق القديم التى عثر فيها فى الألف الثالث قبل الميلاد على رداء من الذهب المنقوش يغطى الجزء الأعلى من جسم الملكة. ويعتبر كشف مقبرة فرعون مصر (توت عنخ أمون) الذى ينتمى إلى الأسرة الثامنة عشرة انفتاحا على عصر الذهب والمصوغات. وعندما فتح عالم الآثار (هوارد كارتر) أبواب مقبرة هذا الملك فى وادى الملوك بالأقصر كانت مكدسة بالذهب ووجد بها لوحة صغيرة بها تهديد بالموت لمن يمس ذهب الملك المصرى. وعرفت لعنة الذهب هذه (بلعنة الفراعنة) ومعروف أن قدماء المصريين قدسوا الذهب معتقدين أنه هبة إله الشمس (رع).

ويعتبر الملك المصرى (كرويوس) أول من خلص الذهب من الشوائب بحيث لا يبقى مختلطا بسبائكه سوى الفضة وقد قام بتأسيس أول دار حكومية لسك النقود من عام ٥٦٠ - ٥٤٦ قبل الميلاد.

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدت عمليات سك النقود قفزة هائلة وذلك باختراع مطابع النقود التى أخذت فى التطور حتى بلغت حدا كبيرا من الدقة فى عصرنا الحاضر.

ومعروف أن الأجيال الماضية من العلماء كانت تحلم بصنع الذهب من

المعادن الأخرى الرخيصة. وقد بذلوا جهودا كثيرة فى معاملهم المظلمة لإيجاد حجر (الفلاسفة) الذى يحول المعادن إلى ذهب.

واليوم بعد وجود (السيكلوترون) وهو جهاز تحطيم الذرة يمكن أن يتحقق هذا الحلم بواسطة الانشطار النووى، ولكن هذه العملية باهظة التكاليف، فضلا عن أن الحصول على كمية قليلة جدا من الذهب يكلف أضعاف استخراجه من الأرض.

استخدامات عديدة للذهب

وعلى الرغم من اتساع نطاق استخدامات الذهب فإن المجوهرات لاتزال - وهذا أمر طبيعى - تستأثر بحصة الأسد والتى بلغت نسبة ٨٢٫٠٧ فى المائة من إجمالى الكميات المصنعة فى عام ١٩٨٩م ولكن الواضح أن اتجاهات التسعينات وعام ٢٠٠٠ تشير إلى تحقيق المزيد من التطور فى استخدامات الذهب فى مجالات أخرى غير المجوهرات ولا سيما فى مجال الصناعة.

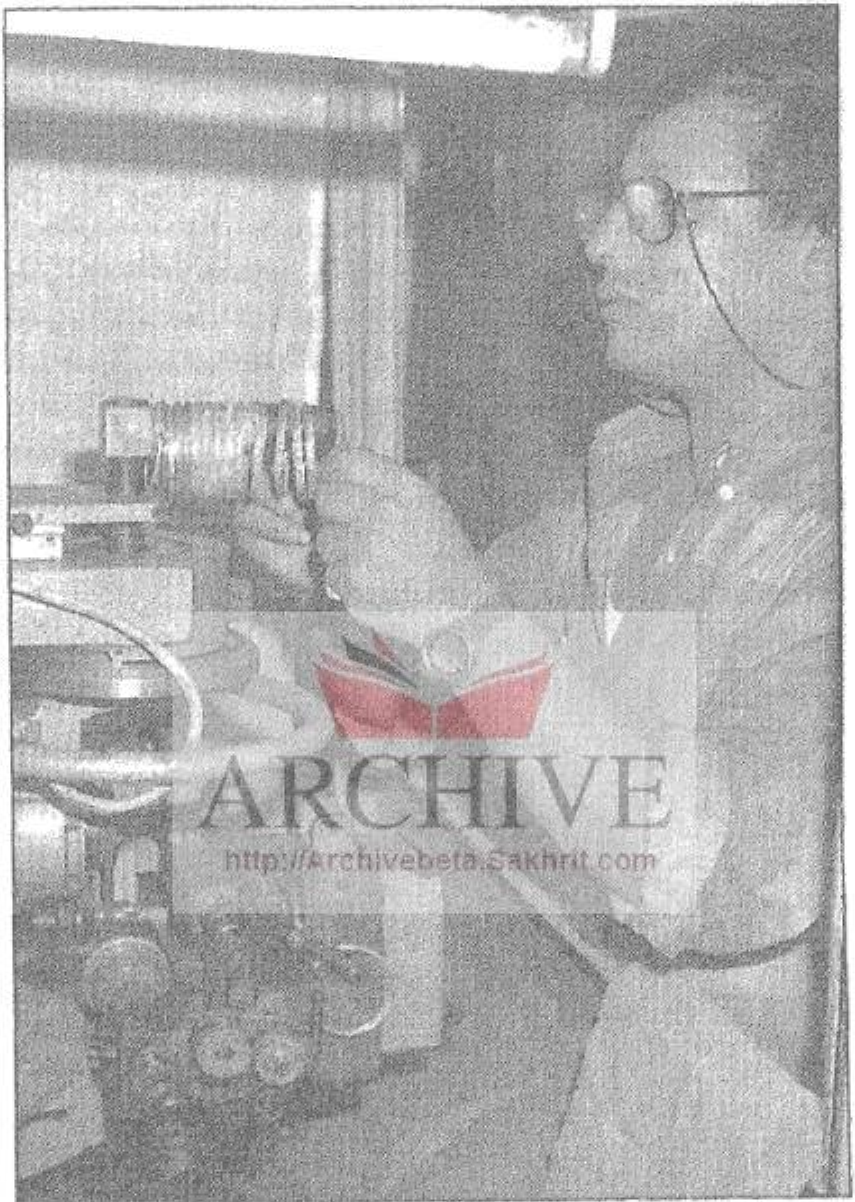
وقد احتلت الالكترونيات المرتبة الثانية فى الاستخدام (٦٫٢٦) فى المائة تليها النقود (٥٫٧ فى المائة) ثم طب الأسنان (٣٫٨٢) فى المائة.

ويبرز استعمال الذهب للأغراض الأخرى... غير المجوهرات فى الدول المتقدمة.

ففى عام ١٩٨٩ م مثلا بلغت استخدامات الدول المتقدمة ١٣٠٫٣ طن فى مجال الالكترونيات بينما استخدمت الدول النامية ١٧٫٨ طن فقط. واستخدمت الدول المتقدمة ٤٦٫٦ طن فى مجال طب الأسنان بينما استخدمت الدول النامية ٢٫٥ طن فقط ويعزى ذلك إلى الفارق الكبير بين المجموعتين على صعيد النمو والتقدم الصناعيين. لكن الواضح أن الدول النامية استخدمت فى عام ١٩٨٩م الذهب كميداليات (١٠٫٨) أكثر مما استخدمته الدول المتقدمة (٤٫٨) طن.

***

وبالرغم من أن أطراف مثلث القوة فى العصر الحديث هى النفط - الذهب - الدولار) ، واحتلال الدولار عرش الاقتصاد العالمى، إلا أن الذهب سيظل سلعة سياسية واقتصادية مؤثرة ستظل تستخدم بدقة بالغة فى مجال توازن السيولة المتاحة للتعامل الدولى العام، وسيظل رغم كل شىء سلعة أساسية لها أهميتها وقوتها رغم اهتزاز عرشه وبريقه الذى ظل متربعا عليه على مر التاريخ.



الصناع يتغيرون .. لكن أسرار الصناعة لا تزال غامضة



المرجان .. والجوهر .. أكسبا الذهب البهجة على مر العصور

الذهب

تاج المرأة عبر التاريخ

● ارتباط المرأة بالذهب ارتباط حب ومباهاة !
● لماذا كانت مقولة «المرأة تختبر بالذهب» ؟
● هل نفقد الذهب عرشه ؟

●● كانت المرأة عبر التاريخ تحب الذهب لتتزين به وتباهى به الأخريات، لأنه يبرز جمالها، وفى الوقت نفسه يميز كل واحدة عن الأخرى من حيث المكانة والجاه .

وبسبب ارتباط المرأة بالذهب وشغفها به، أرجع بعض المفكرين سر ضعف المرأة بالنسبة للذهب إلى هذا الارتباط حتى قيل «المرأة تختبر بالذهب» .

فما هى قصة الذهب مع المرأة ورجال المال والملوك والبشر؟ ●●

المرأة والذهب

هناك ارتباط وثيق بين المرأة والذهب .. فالمرأة منذ القديم تتحلى بالذهب، ومن يتأمل مجوهرات المرأة الفرعونية ومجوهرات حريم السلاطين الأتراك يجد عجبا، وقد اشتهر القفطان التركى الذى كان يتميز بالأناقة لأن خطوطه فيها فخامة وتميز وله وجهان ومشغول بخيوط الذهب .

ولايزال «الذهب» في البلاد الشرقية بنداً أساسياً فى مهر العروس الذى لابد أن يشتمل على «الشبكة»، حيث أنها تتكون فى دول الخليج من طاقم مكون من قلادة وأسورة وقرط وخاتم متناسقة مع بعضها فى التصميم. وتختلف قيمة وحجم هذه الشبكة حسب القدرة المالية للزوج.

وفي السابق كانت العروس تحاط بهالة من البريق الذي يولده الذهب الذي ترتديه من رأسها حتى أخمص قدميها ، بالاضافة إلى ثيابها ووشاحها المحلاة بالخيوط والقطع الذهبية، كما كانت المرأة في الخليج خاصة في دولة البحرين تتزين بلف خصرها بالحزام الذهبي «المقيم» وهو عبارة عن نوع من القماش المثبتة عليه قطع الذهب المختلفة الأشكال، وكذلك كانت «العبايات» أو «الدفة» تحلى «بالعلمية» وهي عبارة عن حلية ذهبية توضع في منتصف العباءة وتأخذ شكل الكمثرى تتدلى منها خيوط ذهبية تسمى «الكركوشد» ،ومن بين حلي الثياب أيضا «الزرار» وهو عبارة عن أزرار ذهبية تختلف أشكالها وأحجامها للنساء من الرجال والأطفال وبحسب المناسبات.

وفي سوريا يشتهر الصاغة السوريون بجودة وتنوع أشكال الحلي التي يصنعونها ويبرز بينهم صاغة دمشق وحلب، وفي أغلب المدن السورية هناك أسواق خاصة بالصاغة، ففي دمشق مازال سوق الصاغة القديم يعمل به الصاغة ومحلاتهم موجودة بجانب سوق الحميدية وسوق البزورية.

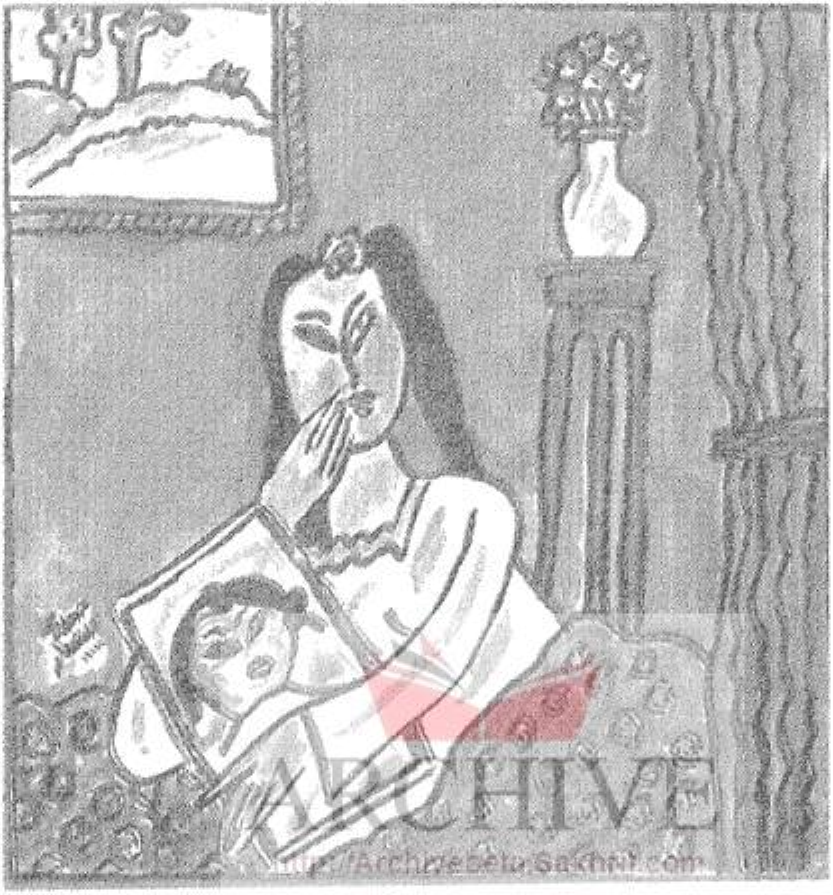
وما يصنعه الصاغة حاليا في سوريا من حلي ذهبية هو اعتداء لتراثهم وللأشكال التي عرفها الأجداد مع تطوير في هذه الأشكال بما يتناسب وتطور العصر، ومعظم الأشكال الحالية للحلي هي للعنق والجيد والصدر والقلائد وحلي اليدين والرأس والزنانير والأذن، وهناك أحزمة مصنوعة بطريقة الخياطة تستعمل فيها «أسلاك ذهبية تحاك أو تبرم بشكل نسيج الكتان وتبدو رائعة في صياغتها، ولكن هذه المصوغات أصبحت تراثا من الماضي، أما حاليا فالنساء يرغبن في اقتناء الأطواق المزخرفة الملونة والأساور المتعددة وأحيانا أسورة عريضة واحدة ، فالمصوغات أصبحت مثل الملابس حسب الموضة.

الذهب الهندي

وتشتهر المجوهرات الهندية برخص أسعارها رغم جودتها ، وقد ارتبطت الحلي الهندية بعادات وتقاليد وتراث الهند الثقافي والجمالي.

هناك مثلا قطعة حلي مميزة عبارة عن أسورة ذهبية حول الرسغ ، وتمتد لتغطي ظهر اليد، وتتصل بخواتم حول الأصابع، وهذه القطعة استخدمها المسلمون في الهند لتغطية اليد، كذلك عادة يستخدمون الحلي فوق الرأس من الذهب أو الفضة حسب درجة الثراء، وهناك أشكال تراثية من الحلي لم تعد منتشرة مثل الحلي حول الخصر، ولكن الغالب حاليا هو ارتداء الحلق في الأذنين، وسلسلة حول العنق وسوار حول الرسغ، وسلسلة أو «خلخال» حول القدم كحد أدنى ، وعدم ارتداء المرأة الحلي معناه أنها في حداد ، فالهنديات لا يهتممن بالمكياج بقدر اهتمامهن بالذهب!.

وتشتهر المجوهرات الهندية بأشكالها الجميلة المتنوعة، فالمشغولات الذهبية الهندية، مطعمة بالفصوص من الأحجار الكريمة، والنصف الكريمة من الياقوت والزمرد و الزفير.



قصة قصيرة

أثيثا

بقلم : شذا برغوث - سوريا - دير الزور

بريشة الفنان : صلاح بيصار

فضول شديد دفعني في ذلك اليوم لدخول مسكن الخادمات . أردت مشاهدتها أثناء استراحة الظهيرة ، هل تستريح مضطجعة مثلنا؟!

أم تستريح واقفة؟

أم ترفع رجلا وتبقى الأخرى على الأرض كبعض الطيور .

تلك المرأة الفلبينية التي تعمل في فيللا صديقتي التي تسكن في بلد عربي شقيق ، والتي دعتني لزيارتها حين طفح مكيال الشوق لديها ورنت أجراس الحنين لصديقة العمر التي باعدتها الأيام عنها .

«بسم الله ماشاء الله» اللهم لا حسد ، هذا ما رددته في سري عند دخولي فيلا صديقتي الفخمة .

لقد بهرني جمال الفيلا ومساحتها الواسعة . كما بهرتني أشياء أخرى وأنا أقضي أروع اجازة مع أعز صديقة .

فالحديقة المنسقة والطوابق الثلاثة التي خصص أحدها لألعاب الأطفال وأجهزة الكمبيوتر وأجهزة الرياضة وغرفة الخياطة .

وخصص الآخر للجلوس والضيافة والمطبخ، والآخر من أجل النوم بالإضافة الى سكن خاص بالخدم/ والسواق/ كما يسمونه والجنايني .

طلباتي تجاب قبل أن أتكلم .

كنت كمن يزور متحفا ، فأي أثاث وأي شيء آخر كان غريبا بالنسبة لي فقد استمتعت بمشاهدة تلك الأشياء وخصوصا/ مزينات/ الأواني المنزلية المستوردة من بقاع الأرض والتحف الرائعة التي يسيل لها لعاب أية امرأة لا تمتلكها.

كانت التحف موجودة حتى داخل الحمامات الأربعة والتي لم أشاهد مثلها حتى في أرقى الفنادق.

كان بإمكانك أن تقضي عطلة نهاية الأسبوع في الحمام دون ملل ، فالزهور والمرايا وأدوات الزينة وأنواع العطور والمسجل والمجلات ، والسجادات الملونة .

كل ذلك بنظام بديع ونظافة تامة وجو معطر .

كثر ترداي لجملة/ اللهم لا حسد/ وأتمتم متابعة بسري ولا مانع من أن تخصنا ولو بجزء بسيط .

كل شيء في مكانه المخصص وأنيتا في كل مكان رائحة غادية تلبى الطلبات أو تقوم بأشياء تعرف مسبقا أنها من ضمن مهامها .

فهي رئيسة الخادمات، تتلقى الأوامر شخصيا أو بواسطة جهاز الهاتف فتقوم بالبعض وتوزع الباقي على مساعدتها .

.. قامة قصيرة وقدمان صغيران وثوب نظيف ، تتحرك بسرعة قياسية فيتحرك شعرها الأملس الفاحم على عكس حركة قدميها .

ابتسامتها المرسومة لايتغير نمطها أبدا تكرر

نفس الكلمات على الدوام: يس مدام، شو كمان، حادر حادر .

«ربوت» بشرى كما في بعض أفلام الخيال العلمي لاسيما وأن عينيها الصغيرتين تبدوان كأن لا حركة فيهما وأنفها الأفطس يمنحها جمودا أكثر وأكثر .

نقرت على باب الغرفة الأولى ودخلت ، كان فيها اثنتان من الخادمات كانت الأولى واقفة ، وتبعتها الأخرى وقد بدا على ملامحها استغراب شديد إذ لم يسبق أن زارهن أحد من قبل .

قالت الأولى :/ يس مدام - في شي/.

- ابتسمت لها بمودة وأجبت . أبدا لا شيء . إنها زيارة فقط .

ابتسمت بتحسب - تراجعت للخلف - أشارت بيدها - فتحت فاها ، همت أن تقول تفضلي - بدت على حيرة شديدة.

هل يصح أن أتفضل في غرفتها ؟! ثم قررت السكوت ، استأذنت



مبتسمة وهي مازالت مشدوهة .

نقرت على باب الغرفة الأخرى متمنية أن تكون غرفة أنيتا .

حين لم يجبني أحد ، فتحت الباب

كانت متكومة على الأرض وقد غطت وجهها بكفيها وانسدل الشعر الأسود الناعم الى الامام مغطيا الوجه والكفين معا نبهتها الى وجودي فرفعت رأسها بتثاقل وقد احمرت عيناها وبين أصابعها صورة فوتوغرافية صغيرة .

مسحت عينيها ورددت بآلية :/ يس مدام - في شي/ .

لم أستطع الابتسام، اقتربت منها ورددت نفس كلماتها لتفهمني/ خير أنيتا في شي/ .

ولشد ما أزعجني في تلك اللحظة الضعف الذي أعانيه في اللغة الإنجليزية إذ كان بودي لو عرفت مشكلة أنيتا وحاولت التخفيف عنها.

مددت يدي الى الصورة فناولتني إياها كانت لطفلة في الثانية عشرة شديدة الشبه بها إلا أن طفولتها منحتها حيوية أكثر .

- هي ابنتك أليس كذلك ؟

- هزت رأسها دون كلام .

قدرت أن يكون شوقها لابنتها هو مادفعها للبكاء .

ربت على كتفها بكل الكلام الذي لم أستطع توصيله اليها وخرجت .

- أين كنت ؟

استقبلتني صديقتي وقد كانت تبحث عني .

- كنت في زيارة أنيتا.

- لماذا لم تستخدمي الهاتف وهي تحضر إليك؟

- أجبتها بسؤال:

- ما قصتها مع

ابنتها ؟ لم أفهم شيئا ؟!
بدت متأثرة ولم تجب.
- إذن هناك حكاية؟.
- بعدين - بعدين غيري الموضوع .
- أرجوك أريد أن أعرف .
فحكت لي قصة أنيتا بتأثر شديد قالت:
عندما استخدمنا أنيتا عن طريق مكتب التشغيل ، كانت مستوفية لكل الشروط فلا هي حامل ولا مرضعة ، فقط لديها ولدان ذكران قد جاوزا سن الفطام .
وكانت ربة بيت ممتازة تتقن كل مايمكن أن يطلب منها ، كذلك هي خبيرة بشئون الأطفال .. فكان حظنا معها رائعا وقد أثبتت جدارة بعد التجربة فكافأتها بشهر اجازة اضافي ، فكانت تذهب الى بلدها كل ستة أشهر بدلا من الذهاب كل سنتين حسب النظام .
تذهب الى بلدها لترجع أكثر قوة ونشاطا.
وقد مضى على عملها عندنا اثنا عشر عاما وكل شيء على مايرام الى أن وصلتها يوما رسالة على غير موعدها .
فتحتها باضطراب وكان شيئا في داخلها قد أنبأها بمضمون الرسالة.
قرأت على عجل - امتقع لونها - رمت بالورقة .
وقد جحظت عيناها ..
راحت تولول وتلطم وجهها وتدور حول نفسها كحيوان جريح ونحن من حولها مشدوهين .
ركضت إليها أمسكت بها ماذا هناك؟ أخبريني.
ابنتي .. ابنتي مدام لقد غرقت في النهر .
- ظننت أنها جنت إذ ليس لديها ابنة .. عرفت ما جال بخاطري .
تكومت على الأرض



تصرخ «خلاص .. خلاص .. بقي بس ولدان» لقد كذبت عليك مدام فقد كان عمر ابنتي شهرين عندما أتيت لأعمل عندكم ولم أعلمكم لحاجتي الماسة الى العمل «سامحيني مدام» .
منحناها شهرا اجازة وهذا ما استطعنا تقديمه لها كعزاء .
دوار وغثيان . خوف ورعب ، وجوه بشعة مرعبة ذات أنياب وأكف كبيرة بأظافر حديدية - تقلصت على نفسي كطفل تاه عن أمه . لفت الأشياء والأفكار في رأسي بسرعة عجيبة - تفرقت - تزاحمت - اختلطت الفيللا - بيتي - الخدم - السيارات - زوجي - أطفالي - صديقتي - أنيتا - أنا - الطفلة تراخيت على المقعد - امتلكت زمام نفسي - رتبت الصور أعدت/ تنسيقها - أعجبتني صوري القديمة.
نهضت أعد حقائبي وألف سؤال على شفتي صديقتي .... من غير جواب.

سينما عربية

لاتقول شيئا !!

بقلم : مصطفى درويش

ما إن اقترب شهر الصيام من الختام، حتى سارع أصحاب الأفلام إلى حجز دور السينما الممتنعة عن عرض أي فيلم جديد، انتظارا منها للإعلان رسميا عن رؤية هلال العيد السعيد .

وبطبيعة الحال، كان لأصحاب الأفلام المصرية الأفضلية ، بحكم القانون ، في حجز هذه الدور بدءا من وقفة العيد.

ولأمر ما ، اقتصر احتكار جميع دور السينما ، بطول وعرض البلاد ، على أربعة أفلام ، لاتزيد .

وهذه الأفلام المحظوظة هي «النمس» المخرج علي عبد الخالق صاحب «أغنية على الممر» في سالف الزمان، و«بونو بونو» لنفس المخرج، «وهاللو أمريكا» لمخرج «عادل إمام» المفضل «نادر جلال»، ثم «جنة الشياطين»، لصاحبه «أسامة فوزي» المخرج الشاب.

ولعلي لست بعيدا عن الصواب إذا قلت إن فيلم المخرج الشاب كان أقل الأفلام الأربعة حظا من ناحية الإيرادات . ولا غرابة في أن يكون حظه عاثرا .

فبطله «محمود حميده» لانراه، طوال الفيلم، إلا جثة هامدة ولانه ميت، لم ينطق لسانه بكلمة واحدة، وإن كان شاء، مستغلا أنه منتج الفيلم، أن يخرجه من فمه، مرة يتيمة، ولثوان،



محمود حميده فى جنة الشياطين

ربما على سبيل الدعابة، أو ربما من باب السخرية والاستخفاف بعقول المشاهدين الذين عبثت بهم الاقدار، ولمدة تسعين دقيقة من عمر الزمان.

● سر اللحظ العاثر

وحسب تجربتى مع الأطياف المتحركة فى الظلام على الشاشات البيضاء، لم أصادف بطل الفيلم، أو غيره، جثة هامدة، إلا لمدة قصيرة، لاتزيد على بضع لحظات.

ويحضرنى هنا طيف «جوجيليس» الذى لعب دوره «ويليم هولدن» فى «شارع الغروب» حيث نراه فى بداية الفيلم، جثة طافية فى مسبح، ونسمع صوته يحكى لنا، نحن المتفرجين، كيف آل به الحال جثة فى المسبح، برصاصات انطلقت من غدارة «نورماديزموند» نجمة السينما الصامتة المجنونة بحبه، فأردته قتيلا.

(عن أدائها لدور تلك النجمة التى تعيش أسيرة شهرة ومجد ماض زال مع مجيء السينما المتكلمة، جرى ترشيح «جلوريا سوانسون» لأوسكار أفضل ممثلة رئيسية «١٩٥٠»).

وعلى كل، فمع حكى الجثة الذى لايدوم سوى ثوان، يعود «جو» القتيل

حبًا، فنراه يتحرك وسط أحداث قصة حب مستحيل، تروّعنا بنهايتها الفاجعة، جثة كاتب السيناريو «جو» طافية فى مسبح النجمة المجنونة «نورما».

كل ذلك أقوله بشىء من التطويل، لأدلل به على أن بقاء البطل جثة بلا حراك، طوال عرض الفيلم، أمر غير مسبوق، ولامقبول من جمهورنا، أو أى جمهور آخر.

ومن هنا حظ «جنة العفاريت» العاثر مع الإيرادات، فرغم خروجه من مضمار التنافس فى مهرجان دمشق السينمائى الأخير (١٩٩٩) متوجا بجائزته الكبرى.

ورغم الإشادة به من قبل حشد كبير من النقاد. فإن الجمهور أحجم عن مشاهدته، ولا أدل على ذلك من أن إيراداته فى إحدى دور السينما الجديدة لم تتعدّ أربعة وعشرين جنيها.

وفيما عداه، أى «جنة الشياطين»، فأفلام العيد الأخرى من ذلك النوع السائد فى هذه الأيام، أى نوع الملهاة الذى لايقصد من إنتاجه سوى دغدغة الحواس.

ففيلم «أسامة فوزى» عمل سينمائى حاول أن يكون جادا، أى استثناء من أفلام العيد، ولكن خانه التوفيق.

فهو، كما تقول عناوينه، مأخوذ بتصرف كبير من رواية للأديب البرازيلى ذائع الصيت «جورج آمادو» اسمها فى الأصل «الرجل الذى مات مرتين».

التشويه لماذا؟

والحق أنه فيلم غريب، خارج عن المألوف فى كل شىء، يكاد يكون وحيد نوعه.

ومن بين غرائبه الكثيرة، فضلا عن بطله الميت بلا انقطاع، قول كاتب السيناريو «مصطفى ذكري» إنه كان لابد من خيانة رواية «أمادو»، واستعماله كلمة تشويهها فى العناوين.

وافتخاره بإدخال تفاصيل بديلة لبعض تفاصيل الرواية، أبرزها «سنتّا



بخيت وعديلة فى أمريكا



نادية الجندى فى بوتو بوتو

طبل».

ويقصد «ذكرى» «بسنتى طبل» السنتين الصناعيتين فى فم الميت اللتين قام أحد شياطين الفيلم الثلاثة بخلعهما، أو بمعنى أصح سرقتهما، بوهم أنهما من الذهب الخالص.

فتفصيلة السنتين هذه ليس لها أى وجود فى رواية أديب البرازيل الكبير .

وعندى أنها إضافة عبثية، لاتعنى شيئا .

ومن بين ماحكى عنها، فى باب الإشادة، أن بطل الفيلم «حميده»، ضحى من أجل تحقيقها بسنتين طبيعيتين وياليته ماضحى، واحتفظ بهما سنتين عزيزتين، من بقايا الزمن الجميل.

ولو استثنينا «حميده»، و «لبلبة» والمصور «طارق التلمسانى» فجميع من شاركوا فى صنع الفيلم بدور كبير من الشباب .

«فسرى النجار» و «عمر واكد» و«صلاح فهمى» و«كارولين خليل» من جيل جديد، ذى طابع خاص فى الأداء.

ومؤلف الفيلم «خالد مرعى» هو الآخر شاب وكذلك الأمر بالنسبة لكاتب السيناريو والمخرج، فكلاهما فى مقتبل العمر، وكلاهما ليس فى رصيده قبل «جنة الشياطين» سوى فيلم واحد «عفاريت الأسفلت» .

والبادى من ذلك الرصيد المتواضع أن كليهما مولع برصد حياة الهامشيين.

وهذا لايعيبهما فى شيء، فالهامشيون ناس من الناس والعرض لحياتهم فى لغة السينما من طبائع الأمور، كما هو الحال فى لغة الأدب، وذلك بحكم وجودهم فى المجتمع، وبحكم أن عددهم فى ازدياد، ومشاكلهم فى ظل رأسمالية منتصرة ومتوحشة معا، تزداد تأزما وتعقدا على مرّ الأعوام .

ولسوء الحظ لم يعرض السيناريو لحياتهم من هذه الزاوية، وإنما عرض لها على النقيض من ذلك تماما .

غموض ووضوح

فحياة الشياطين الثلاثة، وبانعتى الهوى، وهم جميعا هامشيون، تمر أمام أعيننا على نحو بدت معه وكأنها حياة مثلى، علينا أن نسعى إليها، نعيشها، فيما لو كنا نريد حقا التحرر من أغلال مجتمع عفن، متزمت، حبيس تقاليد بالية، ورهن عادات عفا عليها الزمان.

ومما يؤخذ على السيناريو أنه دار، مع الأسف، حول معان و دون أن يقدمها لنا بجلاء ومنطق واضح، يترتب لاحقه على سابقه .

فالشياطين الثلاثة يفاجأون بأن الميت المتشرد منتم إلى أسرة عريقة، فيحملون جثته إلى حيث كان يقيم، وذلك قبل فراره من أسر الأسرة، إلى حيث التشرد والتحرر، تحت اسم مستعار «طبل» استبدله باسمه الوقور «منبر رسمي» المدون فى شهادة الميلاد.

وابنته التى لاتقيم وزنا إلا للمظاهر وكلام الناس، ها هى ذى، بعد استلام الجثة، تعدّ العدّة لجنازة تليق بمقام الأسرة، وجلال الموت .

وفجأة، ودون أى تمهيد، إذا بالشياطين الثلاثة يعودون إلى بيت الميت، حيث يقومون باختطاف جثته، دون أن تحرك الابنة ساكنا .

أما لماذا حدثت العودة والاختطاف ورضوخ الابنة، فذلك ماسكت عن بيان حكمته السيناريو.

وهكذا، غادرنا دار السينما، ونحن نضرب أخماسا فى أسداس، لانعرف سبب تصرف الشياطين والابنة على النحو سالف البيان .

هذا الغموض الذى شاب «جنة الشياطين»، وهو عيب، ولاشك، جسيم، جاء فيلم «البرتقالة الآلية» غير مشوب به، متحرراً منه تماما.

والسؤال ما الصلة بين فيلم من إبداع المخرج الراحل «ستانلى كوبريك» وبين «جنة الشياطين»؟

الصلة تنحصر فى أن كلا الفيلمين قد جرى عرضه فى وقت متقارب الأول بُعيد العيد (١٧ يناير) والثانى مع أيام العيد، وفى اعتقادى أن عدد من شاهد برتقالة «كوبريك» الآلية فى العرضين الذين جرى إقامتهما فى الملتقى الثقافى السينمائى بالمجلس الأعلى للثقافة يفوق عدد مشاهدى «جنة الشياطين».

كما أن كلا الفيلمين يعرض لحياة المهمشين، وكلاهما مستوحى من رواية لأديب عالمى، «البرتقالة الآلية» من عمل أدبى للروائى الإنجليزى «انطونى بيرجيس»، و «جنة الشياطين» من عمل أدبى للروائى «أمادو» .

«فكوبريك» أقام رائعته حول فكرة رئيسية، جوهرها حرية الاختيار .

والسؤال الذى طرحه هو «هل حرية الاختيار حق لكل إنسان؟».

وعلى السؤال أجاب «كوبريك» بنعم واضحة، غير قابلة لأى تأويل، حتى بالنسبة لشخصية هامشية، كريهة، مقززة، مثل «أليكس»، بطل الفيلم الذى قام الممثل الإنجليزى «مالكولم ماكدويل» بأداء دوره خير قيام .

«فأليكس» يعبِّر فى الفيلم عن السلوك العادى للمجتمع فى أبشع

صـور ذلك السلوك الذى يجنح إليه بعض المهمشين فى أكثر من حين.

ومع ذلك ، تبنى «كـوبريك» طوال فيلمه الرأى القائل بأن حق المرء فى الاختيار، حتى لو كان منطويا على معاداة المهمش للمجتمع، يفضل فى الأهمية حق المجتمع فى حماية نفسه.

«فـأليكس» وإن كان فتى منبوذا، إلا أن جمهور المشاهدين يميل، تحت تأثير أسلوب كوبريك، إلى التعاطف معه، رغم شخصيته غير السوية.

فبفضل توظيف الإضاءة والإظلام، نجح «كـوبريك» فى إظهـار «أليكس» بمظهـر الفتى البرىء، المجنى عليه، بواسطة نظام حكم ، قاس، لايرحم.

وأجهزة تعمل على التحول به إلى إنسان أليف، سهل الانقياد، عاجز عن الاختيار.

باختصار إنسان كفّ عن أن يكون إنسانا وليس من شك أن «البرتقالة الآلية»، بفضل الجلاء والمنطق الواضح القائم عليهما السيناريو، يعد، وبحق خير مثال على أسلوب صاحبه فى الإبداع والإقناع.

وهذا ما يفتقده «جنة الشياطين»، وكان سببا فى عدم التواصل بينه وبين جمهور المشاهدين.

والآن إلى أفلام الملهاة لأقول إنه ليس غريبا أن يكون «النمس» بطولة «محمود عبدالعزيز» و «هاللو أمريكا» بطولة السفير «عادل إمام» من ذلك النوع من الأفلام.

فكلا النجمين، خاصة السفير من ملوك الضحك، مافى ذلك شك.

الغريب حقا أن يكون «بونو بونو» بطولة «نادية الجندى» من ذلك النوع، وأن تدخل بطلته فى منافسة مع من؟ نجم فى حجم السفير عادل إمام.

الشوق والحنين

ولو استرجعنا على شاشة ذاكرتنا أفلام نجمة الجماهير، لما بدا الأمر غريبا.

فقبل ستة عشر عاما، لعبت الدور النسائى الرئيسى أمام السيد السفير فى «خمسة باب»، ذلك الفيلم الكوميدى الذى صدر قرار من الرقابة بسحب

الترخيص بعرضه، بمقولة إنه يسيء إلى سمعة البلاد.

وتنفيذا لذلك القرار الجائر استمر «خمسة باب» ممنوعا من العرض العام زهاء عشرة أعوام .

ولولا حكم صادر من المحكمة الإدارية العليا بمجلس الدولة لصالح فيلم آخر جرى سحب قرار الترخيص له بالعرض العام مع «خمسة باب»، ألا وهو «درب الهوى»، ولولا ذلك، لما استرد فيلم «نادية - إمام » حقه في العرض العام، حتى يومنا هذا .

إذن فنجمة الجماهير ليست غريبة على عالم الملهاة، وذلك بحكم ذلك الماضي البعيد.

ولقد شاءت أن ترتد إلى ذلك الماضي في «بونو بونو»، ربما انطلاقا من الشوق والحنين.

وفي فيلمها الأخير لانراها، بدءا من لقطات قيامها بتغيير ملابسها وزينتها في دورة مياه أحد الفنادق الكبرى، إلا وهي متنكرة في صورة رجل ذي شنب، مرتد ثياب الرجال .



محمود عبد العزيز في فيلم الشمس

وتظل على هذا الحال زمنا طويلا.

اختيار صعب

أما لماذا تنكرت على هذا النحو، فذلك لأن الفيلم بدأ بها هاربة من معزل للمجانين.

وفي محاولة منها لتضليل مطارديها، اختارت التخلي عن أنوثتها إلى حين .

وهو اختيار صعب، لأن محاكاة المرأة للجنس الخشن بالتنكر على نحو تبدو معه وكأنها رجل، أكثر صعوبة من محاكاة الرجل للجنس اللطيف.

ومن هنا، كثرة الأفلام حيث يحاكي الرجال النساء، وندرة الأفلام حيث تجري المحاكاة على النقيض من ذلك.

ولعل «البعض يحبونها ساخنة» رائعة المخرج «بيلي ويلدر» واحد من

أشهر أفلام النوع الأول، وأكثرها نجاحا وصمودا لعاديات الزمان .

ففيه نرى «جاك ليمون» و «تونى كورتيس» متنكرين، متزينين مثل النساء، متسللين إلى عربة نوم فى قطار، منحشرين وسط فرقة من العازفات، بينهن «مارلين مونرو» نجمة الإغراء .

وبفضل هذا التنكر والاختفاء تكتب لهما النجاة من مطاردة عصابة من غلاة الأشرار .

أما أشهر أفلام النوع الثانى، فلعله «فيكتور .. فيكتوريا» لصاحبه المخرج «بليك أدواردز» زوج نجمة «صوت الموسيقى» «جولى اندروز» التى تلعب فى فيلم زوجها دورين، فهى تارة «فيكتور» وتارة أخرى «فيكتوريا».

والفيلم يبدأ بها مغنية، تبحث عن عمل فى ملاهى الليل. وبعد عناء، عثرت على عمل، ولكن بشرط ارتضته اضطرارا . أن تزعم أنها رجل، وذلك الرجل فى وسعه الظهور فى الملهى بمظهر امرأة، تغنى مثلما تغنى النساء!!

«وبونو بونو» والحالة هذه، فيلم قوامه المفارقات الناجمة عن تخفى بطلته فى صورة رجل، مثلها فى ذلك مثل بطلة «فيكتور... فيكتوريا»، ولكن مع فارق أراه كبيرا.

«فنادية» الرجل سرعان ماينكشف أمرها، ولما يصل الفيلم إلى منتصفه، فتعود نجمة حركة حسناء، مطاردة من الأشرار، ومنتصرة عليهم فى نهاية المطاف، ولصالح الوطن العزيز، بطبيعة الحال.

أما كيف طوردت، وكيف انتصرت، فذلك أمر يطول فيه الحديث.

كما أن الخوض فى تفاصيل المطاردات والانتصارات ليس فيه مايفيد.

فالسيناريو ملىء بالثغرات، وصاحبه لايكل ولا يملّ من الانتقال بنا من شىء سخيف إلى شىء أكثر سخفا .

وياحبذا، لو حاول «أحمد البيه»

صاحب السيناريو، أن يتعلّم من سيناريوهات أفلام مثل «البعض يحبونها ساخنة» و«فيكتور.. فيكتوريا».

خطر التكرار

ومن الحق على أن أتوجه بنفس النصيحة إلى «عصام الشماع» و«لينين الرملي» كاتبي سيناريو «النمس» و«هاللو أمريكا» فكلاهما يتهدده خطر التكرار، وهو خطر لو يعلمان عظيم ومن بين أسبابه الاستعجال والاستسهال.

وكلا العيبين نراه واضحا في فيلم السفير إمام الأخير فلم تكد تمض سوى بضعة أسابيع على إعلان ماحققه «همام في أمستردام» من إيرادات فاقت كل التوقعات، حتى كان سيادة السفير مستقلا الطائرة، مع طاقم سينمائي كبير .

ولم تكن الطائرة متجهة إلى أوروبا، وإنما إلى العالم الجديد، وبالتحديد إلى نيويورك، تلك المدينة التي كان لها اسم آخر «نيوأمستردام»، وذلك قبل انهزام جيش ملاكها الهولنديين أمام الجيش البرّيطاني في النصف الثاني من القرن السابع عشر (١٦٦٤) .

أما لماذا سافر سيادة السفير إلى نيويورك، نيوأمستردام سابقا، فذلك لتصوير «هاللو أمريكا» فيلمه الجديد وهو في مفهوم صانعيه تكملة لفيلمين سابقين، اقتسم بطولتهما «بخيت - إمام» و«عديلة - شيرين» .

وفيما عدا اللقطات الأولى، فجميع مغامرات «الثنائي بخيت - عديلة»، لاتدور إلا في نيويورك - سابقا نيوأمستردام.

وكما تقول العناوين، فقصة وسيناريو وحوار الفيلم من تأليف «لينين».

عطر الماضي

والفيلم خاصة حواره، ينطوي على بقايا من عطر الإبداع الذي عهدناه في أعمال سابقة للينين.

وباستثناء ذلك، فالفيلم خال من أي تسلسل منطقي، زاخر بصنوف من المبالغة والافتعال .

فضلا عن الاستسهال المتولد عن

الاستعجال، لا لسبب سوى لزوم عرض الفيلم في العيد .

هذا، وليس أدل على المبالغة والافتعال من مشهد انسكاب «المش» على أرض الطائرة، لحظة هبوطها في مطار نيويورك، فإذا ببخيت وعديلة متهمان بالإرهاب، على أساس أنهما كانا على وشك التسلل داخل الولايات المتحدة، ومعهما مادة سامة، كافية لإبادة الملايين .

وإذا برجال مكتب المباحث الاتحادية يجرون التحقيق معهما، بوصفهما من غلاة الإرهابيين، المهددين، بواسطة أسلحة الدمار الشامل لأمن وسلامة سكان أرض الأحلام .

أين عقله ؟

والمشاهد التي من هذا النوع كثيرة إلى درجة الإملال.

فعلى سبيل المثال هل يعقل، حتى لو كان الفيلم هزليا، وبحكم ذلك يغلب عليه التهويل بطبيعة الحال، هل يعقل أن تصدم «بخيب» سيارة فلا يصاب. ومع ذلك، يرفع دعوى على سائقة تلك السيارة.، مطالبا فيها بتعويض لايقل عن خمسة عشر مليون دولار.

فإذا ما اكتشف أن السائقة المتهمة ابنة مرشح الحزب الديمقراطي في انتخابات الرئاسة الأمريكية، سارع برفع التعويض إلى ثلاثين، فأربعين، فخمسين، حتى وصل به إلى مائة مليون دولار، بفضل مزايدة استغل فيها الصراع بين مرشحي الحزبين الديمقراطي والجمهوري، المتنافسين على كرسي رئاسة أغنى وأقوى دولة في عالمنا .

كل ذلك، ومرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة، والد السائقة الحسناء، شبه مستسلم لابتزاز، أو بمعنى أصح، فهلوة «بخيت».

أين كان العقل عند كتابة كل هذا الهراء؟

كان، ولاشك ، يغط في نوم عميق، يبقى لي أن أقول إن الفيلم يشهد أن نابغة الكوميديا المصرية، الزعيم والسفير عادل إمام، قد بدأ يتقهقر، وعلامة التقهقر، أنه يكرر نفسه، والأدهى والأمر أنه يقلد الغير!!

أمريكا اللاتينية .. فى مصر

■ جاءت امريكا اللاتينية مرتين في الشهر الماضي عبر الادب.

المرة الأولى، حين زار مصر الكاتب البيروفي الشهير ماريو بارجاس يوسا، المرشح لجائزة نوبل، فالتقى بقرائه في المجلس الاعلى للثقافة، والمركز الثقافي الاسباني بكل من القاهرة والاسكندرية كما حرص على اللقاء بنجيب محفوظ.

أما المرة الثانية فقد تمثلت في المؤتمر الادبي، الذي يعقد هذه الايام بكلية الالسن جامعة عين شمس حول ادب امريكا اللاتينية في مصر.

لقد صار هذا الادب بؤرة للاهتمام العالمي ابان الثمانينيات والتسعينيات خاصة بعد فوز جارثيا ماركيث بجائزة نوبل فى الادب عام ١٩٨٢، وشهدت مصر والعالم العربي حالة من شبق الترجمة للتعرف على هذا الادب وأفاقه. وتنافست دور النشر في تقديم هذه الاعمال.

وقد كان لماركيث الصدارة في الاقبال على ترجمة رواياته، يليه يوسا وارنستو ساباتو وجورجي أمادو وكارلوس فوينتس والزابيل الليندى وبورخيس وآخرين.

وكانت الهلال من أولى المجلات العربية التى فتحت صفحاتها لتقديم هؤلاء الكتاب والتعريف بهم فكان اول مقال عن يوسا باللغة العربية منشورا فى عدد شهر اكتوبر ١٩٨٢ من الهلال. ثم تتابعت مقالات عن ايزابيل الليندى وأمادو وفوينتس وآخرين ونشرت لاول مرة في روايات الهلال اعمال مثل «بحرميت» لأمادو.

وفي مصر ترجم يوسا من خلال روايته «من قتل موليرو» التى اثارت جدلا من ترجمة الدكتور حامد أبو أحمد. وفى سوريا ترجمت روايات اخرى منها «كارثة فى الكاتدرائية».. «حرب نهاية العالم».. «المدينة والكلاب» بالأضافة إلى ترجمة أخرى لـ «من قتل موليرو»..

لقد كشف يوسا فى حديثه في ندوة المجلس الاعلى للثقافة انها المرة الثانية التي يزور فيها مصر، حيث كانت المرة الاولى قبل عشرين عاما «رأيت طبيعة ساحرة» لكننى هذه المرة الأولى في تبادل الحوار مع الادباء في مصر».

وفي حديثه كشف يوسا عن سر عشقه لاستلهام التاريخ فليس هذا الاستلهام هو مجرد تسجيل للماضي بقدر ما هو إلقاء الضوء على وقائع الحاضر. فالديكتاتورية لاتزال تحكم بقاع عديدة من العالم، لذا شغف الكتاب في القارة اللاتينية بمواجهة الديكتاتور بالكلمة مثلما حدث في روايته «حرب نهاية العالم» التي تدور حول حرب اهلية حدثت في نهاية القرن ١٩ بالبرازيل. فالديكتاتور في هذه الاعمال رمز لكل الحكام المستبدين في التاريخ.

أدب
أمريكا اللاتينية

قرن من الإبداع المتواصل

بقلم : د . حامد أبو أحمد

قدم الأدب فى أمريكا اللاتينية للعالم خلال القرن العشرين مجموعة من المفاجآت فى كل الأجناس الأدبية . ففى مجال الشعر كان رائد حركة الحداثة فى الشعر المكتوب باللغة الاسبانية فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين شاعر من نيكاراجوا هو روبن داريو ، الذى جاء ديوانه «أزرق» عام ١٨٨٨ بمثابة فتح جديد، وقد نوه به حينئذ أديب من أكبر أدباء اسبانيا فى ذلك الوقت وهو خوان باليرا . ثم أكد روبن داريو بعد ذلك ريادته لشعر الحداثة بصدور ديوان «نثريات دنيوية» عام ١٨٩٦ .

وقد قال الناقد الكبير دامسو ألونصو (من جيل ١٩٢٧) : « إن كتاب «نثريات دنيوية» للشاعر روبن داريو قد نقل إلى اسبانيا روح قرن كامل من الشعر الفرنسى . وأعتقد أنه منذ يوم غرناطة الشهير (يقصد الحديث الذى دار بين خوان بوسكان والقنصل الإيطالى ناباخيرو فى القرن السادس عشر). لم توجد لحظة أخرى أكثر تفاؤلا وأكثر امتلاء بأنوار الفجر العذراء من هذه اللحظة » (١). وهذه الكلمة لدامسو ألونصو أحد الشعراء والنقاد البارزين فى إسبانيا خلال القرن العشرين تعكس مدى الأهمية وعمق التأثير الذى ارتبط باسم شاعر نيكاراجوا روبن داريو .

لقد قارن ألونصو بين لحظتين وقرنين مهمين فى تاريخ الثقافة الاسبانية هما لحظة اللقاء بين خوان بوسكان ونابا خيرو ولحظة ظهور ديوان «نثريات دنيوية » واللحظة الأولى أسفرت عن عملية تجديد رائعة للشعر الاسبانى خلال ماسمى بعصر النهضة أو

العصر الذهبي الأول للأدب الاسباني في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، واللحظة الثانية تمثل هي الأخرى بداية لما سمي بالعصر الذهبي الثاني للأدب الاسباني خلال القرن العشرين.



بوسا عندما رشح نفسه رئيسا للجمهورية



ماريو بارجس يوسا في مقابر الشاطبي مع الدكتور حامد أبو أحمد

ومثلما نقل القنصل الإيطالي إلى أسبانيا روح عصر كامل من الشعر النهضوي الإيطالي عند بترارك وغيره نقل روبن داريو إلى الشعر الاسباني في نهاية القرن الماضي روح قرن كامل من الشعر الفرنسي تمثل في الحركتين البارنتين البرناسية ثم الرمزية . وهكذا لم تكن هناك في تاريخ اسبانيا الثقافي لحظتان أكثر امتلاء بأنوار الفجر العذراء من هاتين اللحظتين ، لأن كلا منهما أدت إلى تفجر ينابيع الإبداع . ويرصد ناقد اسباني آخر هو أنطونيو بلانش ملامح التجديد التي استحدثها روبن داريو قائلا: «في مناخ مفعم بالصرامة الأكاديمية ، والانغماس في التقليدية ، واستخدام العروض السهل ذي القوافي الصعبة المفرغة جاء روبن داريو فذكر الاسبان بقيمة الكلمات وبالحرية العروضية في كتابة القصائد . وكان لاكتشاف هذه المجالات والإمكانيات أثر كبير في تنشيط الذوق ودفعه نحو التعبير الفردي ، الذي لم يكن مع ذلك خاليا من الأخطار ، لكنه حول الشعر إلى شيء يزيد عن كونه اتحادا شعوريا داخل قوالب مصنوعة سلفا » (٢) .

● أدوار كبيرة للشعراء ●

ولم يكن روبن داريو هو الشاعر الأمريكي اللاتيني الوحيد الذي مارس تأثيرا قويا على الشعر الاسباني في القرن العشرين ، بل ظهر شعراء كبار آخرون من هذه القارة لعبوا أدوارا كبيرة في الحركات الطليعية التي ظهرت خلال العقد الثاني من القرن المذكور كالماورائية والمستقبلية والدادائية والابتداعية مثل بيثينتي أو يدوبرو ، وقيصر بابيخو وسواهما . وسوف يأتي بعد ذلك في الثلاثينات بابلو نيرودا الشاعر الشيلي

ليمارس تأثيرا قويا على شعراء تيار الالتزام فى اسبانيا مثل ميجيل إرنانديث وشعراء ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية وخاصة ما سمى بجيل الخمسينات . وتتواصل المسيرة الظافرة فتحصل شاعرة شيلى جابرييلا ميسترال على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٤٥ . ويلعب شاعر المكسيك أوكتابيو باث دورا راسخا فى الحركة السيريالية ، ويقدم الشاعر والكاتب الأرجنتينى خورخى لويس بورخيس إبداعات قوية لفتت إليه الأنظار فى كل أنحاء العالم . وتأتى الأجيال الجديدة فتتفاعل بقوة مع ما يحدث فى العالم ، وتتنوع الحركات الشعرية تنوعا هائلا ، وتقام مؤتمرات للشعر فى كل مكان من أمريكا اللاتينية دعى إليها عدد من شعرائنا المعاصرين أذكر منهم الآن محمد إبراهيم أبو سنة وبدر توفيق ، وحسن طلب .

وأذكر أن حسن طلب الذى ذهب إلى مؤتمر فى كولومبيا العام الماضى (١٩٩٩) عاد يحدث بما رآه من كثرة عدد الشعراء ، واهتمامهم بإبداعات الأمم الأخرى ومن بينها الشعوب العربية . وقد أخبرنى حسن طلب أنه تعرف على عدد كبير منهم . وقد كان لنا حظ التعرف على شاعر من المكسيك حضر إلى القاهرة فى أوائل شهر ديسمبر الماضى ١٩٩٩ ، واشترك معنا فى المؤتمر الذى أقمناه بكلية اللغات والترجمة تحت عنوان «الإسلام والثقافة الاسبانية» هو الشاعر كارلوس مونتيمايور . وهذا الشاعر من مواليد شمال المكسيك عام ١٩٤٧ ، وهو شاعر وروائى وكاتب قصة قصيرة ، ومن أعماله «مفاتيح أورخيل» وهى أول مجموعة قصصية صدرت له . وخلال التسعينات نشر له «تاريخ شعب مولاس» (١٩٩٤) ، «أغانى المايا التراثية» (١٩٩٤).

وقد حصلت روايته «حرب فى الفردوس» على جائزة الرواية عام ١٩٩١.

ولم يكن الشعر هو المجال الوحيد الذى حصل فيه كتاب أمريكا اللاتينية على مكانة متميزة ، بل شهدت الأجناس الأدبية الأخرى نهضة قوية ، وخاصة الرواية التى برز فيها كتاب من جيل الريادة مثل ميجيل أنخل أستورياس كاتب جواتيمالا والحاصل على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٦٧ . وله عملان شهيران هما «السيد الرئيس» (١٩٤٦) و «رجال من الذرة» (١٩٤٩) والرواية الأخيرة يظهر فيها بوضوح الاتجاه المعروف باسم «الواقعية السحرية» . هناك أيضا أليخو كاربنتير من كوبا ، وله مجموعة قصصية فى غاية الأهمية هى «الخطوات المفقودة» (١٩٥٣) ورواية مدهشة هى «مملكة هذا العالم» (١٩٤٩) . ويرى الكاتب البيروانى الشهير ماريو بارجس يوسا أن أليخو كاربنتير من أهم من كتبوا فى اتجاه الواقعية السحرية (٣). وإذا كانت قارة أمريكا اللاتينية تضم عددا كبيرا من الدول والشعوب فإن نهضة الأدب فيها كان لابد أن تأتى شديدة التنوع والثرا. ، ومن ثم فإن الأسماء كثيرة ويصعب جدا حصرها ، لكننا فى هذه العجالة نقتصر على بعض الأسماء وبعض التوجهات ، تاركين التفصيلات لفرص قادمة تتاح فيها مساحات أوسع .

ومما هو معلوم أن الرواية فى أمريكا اللاتينية مع الأجيال التالية لذلك الجيل الرائد خطت خطوات واسعة وحظيت بشهرة عالمية لا مثيل لها ، ولعل من الأوفق أن نتوقف ، بإيجاز شديد ، عند أربع حركات تجديدية أو اتجاهات بارزة هى :

١ - الواقعية الاجتماعية التى تأثرت إلى حد ما بكتاب من أمثال إميل زولا ، وبلزاك، وكلارين ، وجالدوس ، ومن أبرز ممثليها البيروانى خوسيه ماريا أرجيداس (١٩١١ - ١٩٦٩) ، والمكسيكى كارلوس فوينتيس (١٩٢٨-) ، والبيروانى أيضا ماريو بارجس يوسا (١٩٣٦-) .

٢ - الواقعية النفسية وهى التى تستخدم تقنيات مرتبطة بالحلم ، وتعبر عن اللا شعور ، وتيار الوعى ، والخيال الجامح ، واستبطان الذات . ومن أبرز ممثلى هذا التيار أدولفو بيو كاساريس ، وخوسيه روين دوميرو ، وبدرو برادو ، وإدوارد باريوس .

٣ - الواقعية السحرية ويمثلها جابرييل جارثيا ماركيز (١٩٢٨-) ، وخوان رولف ، وخوليو كورتاثار .

٤ - الواقعية البنائية ، ولها تجليات كثيرة فى الأدب الروائى فى أمريكا اللاتينية لدرجة أن النقاد رصدوا فيها ما يقرب من عشرة اتجاهات منها التعبير عن القبح ، والتعامل مع اللغة وكأننا في معمل ، ومحاولة فهم الواقع المتعالى ، والقصة الجديدة أو اللا قصة ، والتعبير عن اللامنطق ، والتجريد الظاهرى للواقع.. الخ . وكل هذه الاتجاهات أثرت وتثرى حاليا أدب أمريكا اللاتينية لأن هناك الآن عددا كبيرا من الأجيال تتلاقى إبداعاتها منهم من هو مولود في العقد الثالث من القرن العشرين ومازال يكتب ويؤثر بقوة وفعالية مثل جارثيا ماركيز وبارجس يوسا. وقد ذكر لى الأخير أنه على وشك الانتهاء من رواية جديدة سيكون عنوانها «حفلة التيس» بها شخصية عربية اسمها «سعد الله» وكان ذلك ردا على سؤال لى يقول : لماذا لا توجد شخصيات عربية في رواياتك على نحو ما نجد عند كتاب آخرين من أمريكا اللاتينية؟ .


أوكتابيو باث


لويس بورجيس

ومن أحدث الروائيين المكسيكى خوان توبار المولود عام ١٩٤١ ، ومن أهم أعماله «أسرار المملكة» (١٩٦٦) ، و «الفتاة فى الشرفة» (١٩٧٠) ، و «الجحيم الرهيب» (١٩٧٥) عن الحياة لم تعد تحتمل فى المدينة ، وخاصة مدينة مكسيكو سيتى التى تعد من أكبر المدن وأكثرها تلوثا وأكثرها امتلاء بالسكان . هناك أيضا المكسيكى خوسيه أغسطين (١٩٤٤)

وكانت أولى رواياته هي رواية «المقبرة» (١٩٦٤) وبطلها شاب في مقتبل العمر ومن أشهر ما كتب رواية «الوقت يتأخر» (١٩٧٣) التي تفحص ما يمكن أن نسميه تدمير الذات عن طريق إدمان المخدرات . هناك كذلك كارلوس مونتيمايور (١٩٤٧) الذي تحدثت عنه فيما سبق . وإذا تركنا المكسيك وانتقلنا إلى بلاد أخرى نجد النيكاراجوي سيرخيورا ميرث (١٩٤٢) وقد عرف بانتمائه للجبهة الساندينية التي قضت على الحكم الدكتاتوري لعائلة سوموسا . ومن أبرز أعماله «زمن السطوع» (١٩٧٠) و«هل خفت من الدم» (١٩٧٧) . وفي كوبا ظهر من الجيل الجديد إدوارد ميراس (١٩٤١) صاحب أعمال «الحرب كان لها ستة أسماء» (١٩٦٨) و«الخطوات على العشب» (١٩٧٠) . هناك أيضا رينالدو أريناس (١٩٤٣) الذي نفي عام ١٩٨٠ والذي مزج بين الواقع والخيال في عمله «العالم المبهر» (١٩٦٩) . وهو في هذه الرواية يدين الحرية المقيدة في كوبا في عهد فيديل كاسترو الذي امتد منذ الستينيات إلى الآن . وفي روايته «البحر مرة أخرى» الصادرة عام ١٩٨٢ نجد رجلا وامرأة من كوبا يعودان إلى الجزيرة ويمكثان بها ستة أيام ويعانيان مما طرأ عليها من تغيرات .

أما في روايته «النجم الأكثر تألقا» (١٩٨٤) فإنه يقدم حياة شخص شاذ في أحد معسكرات الاعتقال . ولاشك أن الأجيال الشابة في كوبا لديها إبداعات مهمة ولافتة للنظر وكثير منها يرصد التغيرات التي حدثت في المجتمع في عهد فيديل كاسترو ، وبعضها يشايع النظام أو يقف ضده ، لكنها جميعا في النهاية تدخل ضمن الإبداعات الجديدة لأجيال تحاول مواصلة الطريق بنفس القوة التي وجدت لدى الأجيال السابقة التي حازت شهرة عالمية .

وفي سانتو دمينجو تبرز أسماء بدرو بيرخيس وروايته «لن تجد إلا الرماد» (١٩٨٠) وهاف سيرل (١٩٤٧) وروايته «الدكتاتور» (١٩٧٨) . وفي جواتيمالا نجد دانتي ليانو (١٩٤٨) وفيكتور مونيوث (١٩٥٠) ، وماكس أراوخو (١٩٥٠) وأدولفو مينديث (١٩٥٦) . وبالطبع كل هذه أسماء شابة مازالت تكتب وتحاول أن تحفر لنفسها مكانة قوية في إبداع الأدب.

ولاشك أن القصة القصيرة تحظى هي الأخرى بمسيرة قوية ومتأصلة وكل هذا يحتاج منا إلى مواصلة التعرف على ما يحدث في هذه القارة المدهشة .

(١) دامسو ألونصو ، شعراء اسبان معاصرون ، طبعة جريدوس ، مدريد ١٩٧٨ ، ص ٥١ .

(٢) أنطونيو بلانش . الشعر الصافي الاسباني ، طبعة جريدوس ، مدريد ، ١٩٧٦ ، ص ١٠٢ .

(٣) هذا الكلام قاله لي ماريو بارجس أثناء رحلة صحبته فيها إلى مدينة الاسكندرية يومي الثلاثاء والأربعاء ١ ، ٢ فبراير ٢٠٠٠ .

أدب
أمريكا اللاتينية

«خوان رولفو» والسهل الصامت الحزين!

بقلم: د.علي عبدالرءوف البمبي

أمريكا اللاتينية مارد جبار ظل حبيس القمقم آلاف السنين إلي أن اكتشفه التاريخ مصادفة ونزع عنه الغطاء.. لم يكن يدور بخلد «كولمبس» («أو «كولون») وهو يبحر بسفنه من مرفأ إشبيلية عام ١٤٩٢م باتجاه الغرب، قاصدا جزر الهند الشرقية، أن القدر يزفه إلي عالم بكر يتألق جمالا وسحرا.. انعقدت ألسن البحارة والعلماء المرافقون للمكتشف العظيم عندما وجدوا ما لم تره عين، ولم يخطر علي قلب بشر ماثلا أمامهم: طبيعة تضطرب جوانبها بشتي ألوان العجائب والغرائب من ينابيع وأنهار وأشجار ونباتات وزهور وطيور وحيوانات وأسماك.. إلخ. لم يعثروا لمعظم هذه الغرائب علي مسميات في اللغة الإسبانية وهدتهم قريحتهم لاختراع أو استنباط أسماء لها من الأساطير وقصص الفروسية الجامحة الخيال.

إنه عالم فائق الوصف، يكتنفه الغموض ويحتاج تفسيره لشطحات الخيال. عالم يختلط فيه الواقع بالأسطورة، ويمتزج فيه الحاضر بالماضى السحيق وتسكنه - بعد الاكتشاف - أخلاط بشرية من كل حدب وصوب. ومع هذا - أو لأجله - فهو عالم يموج بالاضطرابات والعنف، وتعشش فيه المتناقضات بالرغم من تخلصه من التبعية للفاتحين وامتلاكه لزمام نفسه.

والمكسيك التي ينتسب إليها كاتبنا «خوان رولفو» «Juan Rulfo» هى جزء من هذا العالم المدهش، وتاريخها الحديث حافل بالثورات والانقلابات وحركات التمرد والعصيان التى يحتاج بيانها إلى عشرات الصفحات، ولذا فإننا سنقتصر على الإشارة إلى تلك الحقبة التاريخية التي تشكل فيها وجدان «رولفو» وكان لها الأثر في تحديد هويته ورؤيته للعالم المحيط به كمبدع وقاص.

عندما ولد «رولفو» كان قد مر على ثورة ١٩١٠ ثمان سنوات، وعندما صدرت مجموعته القصصية «السهل يحترق» «١٩٥٣» كانت آثار هذه الثورة قد أصبحت واضحة للعيان: فقد ازدادت الكثافة السكانية وتضاعف الناتج القومى عشرات المرات، وحدث نمو كبير فى معدلات التصنيع وأنشئت الجامعات وتعددت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى، وعبدت الطرق وشقت الترع والقنوات وأقيمت المشروعات الزراعية الكبرى وهجر الفلاحون قراهم وانتقلوا إلى المدن للعمل فى مصانع السيارات والبيبسى كولا والعيش فى أحياء عشوائية بداخل أكواخ.. إلخ. لكن هذا النمو الاقتصادى لم يعد بالنفع على القاعدة الشعبية العريضة بل استأثرت به الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات، وكبار المستثمرين وعدد من الانتهازيين «القطط السمان» الذين لا تخلو منهم مجتمعات العالم الثالث.

وبالطبع فقد جندت الدولة - بحزبها الأوحد - من يتغنون بتحقيق الثورة لأهدافها. وبالرغم من الدعاية الرسمية والبطش بأصحاب الرأى المخالف فقد وجد من يعلنون زيف هذه الادعاءات أو يتهمون الثورة بخيانة مبادئها.

الكتاب الإقليميون

وعلى صعيد الأدب اهتم أصحاب الفريق الثانى «المعارض» بتسليط الضوء على المشاكل الجمة التى يعانى منها الفرد العادى وعلى الظروف الصعبة التى

تمسك بخناقه من زمن بعيد ، ولم تخفف الشعارات الثورية منها بل زادتها بلة عندما ملكت الأراضي الشاسعة الخصبة للشركات الكبرى لكى تصدر منتجاتها إلى الخارج وأجبرت الفلاحين على الهجرة إلى المدينة للقيام بأهون الأعمال أو محاولة تجاوز الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية فرارا من قسوة الجوع.. إلخ. ويطلق على أصحاب هذا الاتجاه بالكتاب «الإقليميين» أو «المحليين»، وهم يعتبرون إحدى حلقات السلسلة الطويلة التي تضم كثيراً من كتاب القصة في أمريكا اللاتينية ابتداء من العقد الثالث للقرن العشرين. فهؤلاء الكتاب قد نصبوا أنفسهم وسطاء بين الفرد الأعزل وبين الطبيعة القاسية المكفهرة، وحملوا على عواتقهم مهمة تخضير القفار المترامية الأطراف، سبر أغوار بقايا الثقافات القبلية، تسجيل النوائب والكوارث، رصد الصراعات الاجتماعية في الإقطاعيات الزراعية والمناجم والمجتمعات العمرانية الجديدة.. إلخ.

ورائد هذا الاتجاه هو البوليفي «ألثيدس أرجيداس» الذي أدان «عام ١٩١٩» استغلال البقية الباقية من الهنود الحمر. ثم تبعه بعد ذلك كثيرون مثل المكسيكي «أجوستين يانيث»، والبيرواني «خوسيه ماريا أرجيداس»، لكن أبرزهم جميعا هو الكاتب الجواتيمالي «ميجيل أنخل أستورياس».

وخصائص هذا الاتجاه الأدبي – بالرغم من حنكة أصحابه المتأخرين وبراعتهم– تتمثل في : التصوير الفوتوغرافي للواقع دون تجسيد وإبراز ملامحه، اللجوء إلى التعميم، التزام الحرفية والعناية بالصياغة الأسلوبية، اختيار النماذج المثيرة والغريبة التي يطغى إبهارها على ما يمكن أن تتركه من أثر في الذاكرة، الإغراق في اللهجات المحلية التي تحصر الشخصيات في نطاقها الإقليمي وتحد من انتشارها خارج حدودها الجغرافية.

عالمية القصة

وعندما وصلت فترة الخمسينيات – أو «الفترة المدهشة»، كما يطلق عليها النقاد– نشطت القصة في أمريكا اللاتينية من عقالها المحلي وانطلقت صوب العالمية إلى أن بلغت ذروة النضج والإتقان – أو «الانفجار» – خلال الستينيات.

وفي المكسيك كان صاحب الدعوة إلى التحرر من الإقليمية هو الكاتب «أوكتابيو باث»، حينما نادى عام ١٩٥٠ بضرورة أن يتحدث المواطن المكسيكي

فى أدبه، كما يحدث فى الغرب، وإتاحة الفرصة للتأمل الثاقب لأغوار الذات بحيث يمكن عرض الأشياء كما هى، مع تفادى - بقدر المستطاع - الروابط المحددة المحسوسة التى تصلها «بالتاريخ» . و«خوان رولفو» يعتبر مزيجا من الاتجاهين السابقين أو - بمعنى أصح - كاتب «إقليمى» متفرد، ينوء بتبعة المحلية لكنه لا يغل أنماطه بقيود تعوقها عن الانتشار . لكن، من هو «خوان رولفو» هذا؟ ولماذا كل هذا الحزن الذى يعشش فى كتاباته، وما سر استخدامه لهذا الاسلوب الشديد الصرامة المترع بالألم والوحدة والعنف؟ .

سنحاول فيما يلى الإجابة على هذه التساؤلات من خلال التعرف على رؤيته الخاصة للعالم كما تتجلى فى مجموعته القصصية الرائعة «السهل يحترق».

وبادئ ذى بدء نقول أنه مما لاشك فيه أن لحظات التوهج فى مسيرة المبدعين الكبار قليلة. فمهما كثرت أعمال هؤلاء وتعددت نجد أن روائعهم لاتزيد عن عملين أو ثلاثة أو ما لا يتعدى أصابع اليد الواحدة بأى حال. و«خوان رولفو» واحد من هؤلاء الذين حفروا أسماءهم بحروف من نور ونار فى سجل الإبداع الروائى بالرغم من أن مجمل حصيلته الإبداعية قد لا يتجاوز الأعمال الثلاثة : «السهل يحترق» «EL llano en llamas»، «پدرو پارامو» «Pedro Paramo»، «لاكورديبيرا» أو («سلسلة الجبال»). «La Cordillera».

منطقة قاسية

ولد «خوان رولفو» عام ١٩١٨ فى «أپولكو» (سايولا) التابعة لولاية «خاليسكو» المكسيكية. وهى منطقة قاسية، جافة وشبه خربة. نزح معظم سكانها فرارا من الثورات والحرائق والتصحر. ومن بقى منهم هناك يعيش فى ظروف مناخية وإنسانية غاية فى السوء، يعانون قسوة الطبيعة وظلم الفقر وإهمال السلطات المركزية. ومع ذلك فهم قابعون هناك، هامدون مثل ما يحيط بهم من أشياء مذعنون لقدرهم فى انتظار الموت - حسبما تشير إحدى قصص مجموعة «السهل يحترق».. لم يستقر «رولفو» فى «أپولكو» كثيراً لأنه انتقل مع أسرته، بعد بضع سنوات من ولادته، إلى «سان جبرييل»، وهناك أدركته ثورة «لوس كيريستيروس» «Los Cristeros» التى اندلعت عام ١٩٢٦ واستمرت ثلاث

سنوات كاملة، وفيها فقد أباه وجميع أعمامه. يتحدث «رولفو» عن الأثر العميق الذى تركته هذه الثورة فى حياته قائلا: «كانت طفولتى بالغة القسوة والصعوبة. تبعثرت أشلاء عائلتى بكاملها فى مكان تم تدميره وسحق كل ما فيه «...» لا أجد إلى الآن تفسيرا منطقيا لما حدث «...» لا يمكن إلقاء التبعة برمتها على الثورة. إنه شئ يضرب بجذوره فى أغوار الماضى، شئ قدرى، غير منطقى. لا أستطيع العثور حتى اليوم على سند واحد يبرر قتل أسرتى بهذا الشكل أو لارتكاب سلسلة الفظائع والاغتيالات دون سبب». وبعد الثورة بست سنوات ماتت أمه وتركته وحيداً فأخذته دار لرعاية الأيتام ليبقى فيها أربع سنوات: من العاشرة حتى الرابعة عشرة.

تركت هذه السنوات نُدْبة لا تنمحى داخل كيان الصبى، عندما يتذكرها «رولفو» يقول بصوت مجلل بالأسى: «ما تعلمته كان الاكتئاب، كانت فترة من الفترات التى عانيت فيها من وحدة قاسية وأصابتنى بحالة من الاكتئاب لم أشف منها حتى يومنا هذا».

وتذكرنا هذه العبارة بأخرى وردت على لسان إحدى شخصيات قصة «قل لهم يتركونى أعيش» (وهى تنتمى لمجموعة «السهل يحترق»)، تقول: «من العسير أن تنمو وأنت تدرك أن الشئ الذى يمكن أن تتشبث به جذورك قد مات».

المهم أن «رولفو» استطاع - فى ظل هذه الظروف الصعبة - إنهاء تعليمه الأساسى ودراسة المحاسبة وإمساك الدفاتر، وبعدها ذهب إلى العاصمة «مكسيكو» ليدرس القانون لكنه لم يكمل دراسته بسبب توقف الدراسة بالجامعة لمدة ثلاث سنوات. اضطر «رولفو» للعمل مبكراً فى الوظائف الحكومية، وتقلب بين العديد منها حيث اشتغل فى مجال الإعلام «التليفزيون» ومصلحة الرى وهيئة الهجرة وتوفيق أوضاع الجماعات المنعزلة من الهنود الحمر، كما عمل «سيناريست» فى فترة من حياته. ومن الوظائف التى أحبها عمله فى المشروع الحكومى لرى إقليم «بيراكروث» ذلك لأنها انتشلته من العاصمة وأعادته إلى أحضان الريف.

وفى خلال كل هذا لم تنقطع صلة «رولفو» بالقراءة التى أحبها منذ صغره، وقد أتاحت له وحدته فرصة الاطلاع على آداب متعددة منها الأدب الروسى

والأمريكي والأوروبي، ولكن الأدب الذي استهواه وملك عليه نفسه هو الأدب النورماندي.

الإقامة في دار الأيتام

من هذه الإطلالة السريعة تتضح الأبعاد المأساوية للحياة التي كان على «رولفو» أن يعيشها: فقد ولد في أقسى الولايات المكسيكية مناخا وأفقرها تربة حيث اعتاد سكانها - طبقا لتصريح له - على العمل عشرة أضعاف سكان الولايات الأخرى ليحصلوا في النهاية على نفس الناتج. وعلاوة على قسوة الطبيعة فقد عانت ولايته وتلظت بنيران الثورات والاضطرابات المتكررة التي أكلت الأخضر واليابس وأتت على جميع أفراد أسرته واضطرته للإقامة في دار للأيتام. ولم يسر عنه بعد ذلك مغادرة هذه الدار والانتقال إلى العاصمة التي كانت تنتظره بفاصل من المشاكل «أهمها الوحدة والعَوَز» أضاف إلى حمله الثقيل وزْنا آخر من الحزن والكآبة، ولذلك فهو دائماً صامت، حزين، صارم، مكتئب وخجول، ولم تشفه الشهرة بعد ذلك من هذه الأوجاع بل إنها اصطدمت مع ما يعتمل بداخله من يأس وصرامة، وكانت السبب المباشر في إقلاله من الكتابة بالرغم من موهبته المتوقدة.

نشر «رولفو» أول قصة قصيرة له عام ١٩٤٢ في إحدى مجلات «وادي الحجارة» (عاصمة ولاية «خاليسكو»). وشهدت السنوات التالية قصصا أخرى له، لكن شهرته ومكانته الأدبية الرفيعة يدين بهما لمجموعته القصصية التي صدرت عام ١٩٥٣ تحت عنوان «السهل يحترق»، ولروايته المنشورة عام ١٩٥٥ بعنوان «بدرو بارامو»، وقد توالت طبعاتهما بعد ذلك داخل المكسيك وخارجها. ثم أطبقت فترة صمت طويلة تزيد عن الأحد عشر عاما قبل أن يعود لاستكمال خيوط مشروعه الأخير، الذي اختار له عنوان «لاكورديرا» «أو «سلسلة الجبال».

ألم الرجل المعاصر

وبرغم هذه النُدرة فإن مجموعته القصصية وروايته اللتين ظهرتا في الخمسينيات تعكسان بوضوح رؤيته الخاصة للعالم والواقع المكسيكي في فترة

زمنية وتاريخية واضحة المعالم. تتجلى هذه الرؤية في الحزن واليأس اللذين ملكا عليه نفسه من جراء نشأته على أرض عاقر عبوس أراد أن يتشبث بها فخانته في وقت كان ينهار فيه كل ما بداخله. أرض تضطرب جنباتها بالألم والعنف المتراكم عبر القرون، وجاءت الثورات وحركات التمرد والعصيان لتطلقه من عقاله. يقول «رولفو» واصفا طبائع سكان قرى منطقته (مثل «سان جبرييل»، «ثابوتيتلان»، «سايولا»، «توناليا»، «سان بدرو»، «تاليا».. إلخ):

«... إذا تحدثت معهم يخيل إليك أنهم لا يجرءون على قتل ذبابة، أناس في غاية الهدوء، فلاحون من هذا النوع الذي يحتوى على قدر من المكر والاحتيال والتأهب، لكنهم في ذات الوقت سليمو النوايا، ومع هذا فخلف ذلك الرجل يمكن أن تتوارى مجموعة من الجرائم. عندئذ يختلط عليك الأمر ولا تدرى مع من تتعامل: مع قاتل محترف أو مع فلاح بسيط...».

إن «رولفو» يحمل على كاهله كرب وألم الرجل المعاصر الذي ابتلته الظروف بالعيش في الفترة الشائهة التي أعقبت الثورة وتنبأ بها «سوليس» المارق بطل قصة «الناس الى تحت» لمواطنه «مانويل أثويلا».

إنه مثل رجل منهار من الداخل يتأمل الأراضي الجافة. الذرة التي لا تكبر، الغبار، الرياح التي لا معنى لها، قوافل الحجاج إلى «تاليا»، الجرائم الغريزية العمياء، العنف الميكانيكي الأحمر، المأساة والفاقة الخرساوين، الاستسلام لتصاريف القدر العاتي.. إنه يرى هذه الأشياء مثل كوابيس لا يمكن أن تداويها برامج الإصلاح الاجتماعي ولا الوصفات الثورية.. لا يوجد أمامه، بالتالي، شئ خارجي يمكنه الاتكاء عليه، ولذلك نجد أن شخصياته - سواء من الرجال أو النساء - مجبرة على العيش بدواخلها والإذعان للقدر في انتظار الموت الذي تعتبره أملها الوحيد.

ففي مقابل البعد الخارجي الذي تعتمد عليه واقعية كتاب الثورة المكسيكية التي تستغرق في الجانب التهذيبي، وواقعية كتاب الثلاثينيات والأربعينيات التي تهتم بالواقع التاريخي وتضع الهدف السياسي - الاجتماعي نصب عينيها، نجد أن الكرب والحزن القدريين يصبغان نثر «رولفو» بصبغة قاتمة ويتغلغلان في لغته وجميع تيماته.

وتتجلى رؤية «رولفو» الشخصية للعالم فى كيفية معالجته للزمن المتعلق بشخصياته. فبينما كان النثر الروائي الجيد قبله («مانويل أثويلا» و«مارتين لويس جوثمان»، على سبيل المثال) يعالج الواقع بالطريقة الديناميكية السيارة، نجد أن «رولفو» يعيش زمنا داخليا ذاتيا يفرض إيقاعه على كل واقع منفصل عنه. ولهذا السبب نلاحظ أن السكون والإيجاز الرتيب المشبعين بالتوتر والمأساة يسيطران على قصص مجموعة «السهل يحترق» والتى تبدو وكأن الزمن فيها قد توقف وتجمد سريانه. وينسحب هذا القول على جميع القصص سواء الوصفية منها (مثل «لوبينا») أو الحوارية (مثل «قل لهم يتركونى أعيش») أو التى تتناول حدثا خارجيا (مثل «تاليا»).

وقد استطاع «رولفو»، بيده الخبيرة الماهرة، إيقاف الزمن ومحو الروابط الخارجية للشخصيات ليصيغ لنا هذا العيش الباطنى ويجعلنا نحس بالمأساة الوشيكة التى لا مناص منها.

ولشرح وبيان هذا التكنيك (توقف الزمن وتجمد سريانه) سنضرب بعض الأمثلة الموجزة ونبدأها بقصة «لوبينا»:

يقودنا «رولفو» من بداية القصة إلى زمن غير حقيقى «وهمى»، إلى زمن متوقف داخل شخص ما. فالعبارة الأولى من القصة تخلو تماما من أية إشارة يمكن أن تساهم فى تأطير المكان وتحديده.

«من بين تلال الجنوب العالية، فإن أكمة «لوبينا» هى الأشد ارتفاعا والأكثر تحجرا». ثم يتابع الوصف المثقل باللون الرمادى بهدف إبراز الجوانب السلبية للعالم الخارجى: «إنها موبوءة بتلك الحجارة الرمادية التى يصنع منها الكلس وإن كان فى «لوبينا» لايصنع منها كلس ولا يستفاد منها بشئ».

وتطالعنا الفقرة التالية بعلامات تشير إلى محذوف: «..والأرض شديدة الارتفاع»، وما حسبناه وصفا للمؤلف يخيل إلينا الآن وكأنه تأمل لشخص ما. وبالفعل عندما نصل إلى نهاية الفقرة نعرف أننا دخلنا - دون أن ندرى كيف - فى وصف منطوق ومستمر ينبعث عن أحد الأشخاص: «أحيانا يزدهر نبات «الشيكالوته» بشقائقه البيضاء، مختبئا بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظل.

لكن الشيكالوته سرعان ما يذبل. وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية..». لا نحس هنا بأن أحدا يكتب بل يتكلم. والإبهام الذى يشع من «أحد» يساعد على حجب هوية المتكلم . وهكذا نكتشف أن ما بدا وكأنه وصف خارجى ، من عمل الراوى ، ماهو إلا طرف لحادثة نابعة من داخل الحكاية نفسها .

ويزداد حجم الدهشة عندما نصل إلى الفقرة الثالثة والتى نستدل من العلامة التى تبدأ بها (الشرطة) على أن الكلام الذى سنسمعه ما هو إلا جزء من حوار : «سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على «لوبينا» . إنها قاتمة» .

وفى نهاية الفقرة الثالثة يطالعنا شخص آخر – نظن أنه المؤلف – ليقول : «بقى ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتا برهة ، محملقا فى الفضاء» .

من يتحدث ؟ ومع من ؟ وأين ؟ وبهذا الشكل ينقلب الحوار إلى نوع من «الديالوج» الداخلى «لذلك الرجل» الذى لا نعرفه ؛ إلى ديالوج عار تماما من ملابسات الزمان والمكان.

وهذه إحدى خواص «رولفو» الأسلوبية وسمة من سمات رؤيته العالم: إذ أنه لا يكلف نفسه مطلقا عناء تسمية شخصياته أو إزالة ما يكتنفها من غموض وإبهام .

ومن جهة أخرى ، فقد ساهم هذا الإبهام الذى يغلف المكان – بالإضافة إلى اللون الرمادى والإلحاح على الجوانب السلبية فى الوصف وتحول الكاتب بخفة من دور الراوى إلى تقمص دور إحدى الشخصيات – فى إضعاف الروابط بين الواقع وبين من يلاحظه (وهذا ما يسمى بالواقعية السحرية) .

وكلما تقدمت القصة زاد الإحساس بالجمود والتوقف الزمنى ، فـ«لوبينا» من الخارج لا يحدث فيها شىء (تمطر قليلا .. نعم ، تمطر قليلا) ؛ لا يتحدث فيها أحد تقريبا ولا يعمل ؛ حتى الريح بالرغم من جؤارها فهى ساكنة و«مكومة» هناك . كل شىء متوقف فى «لوبينا» : «إنه مكان يعشش فيه الحزن» ، لا يوجد هناك سوى العجائز جالسين على عتبات دورهم «معلقين أبصارهم بشروق الشمس وغروبها .. إنها العادة . يطلقون عليها هناك «القانون» .

والقانون والعادة من الأمور الثابتة التى لا تتغير.

أدب
أمريكا اللاتينية

جابرييل جارثيا ماركيث
بين الخبر الصحفى والابداع الروائى

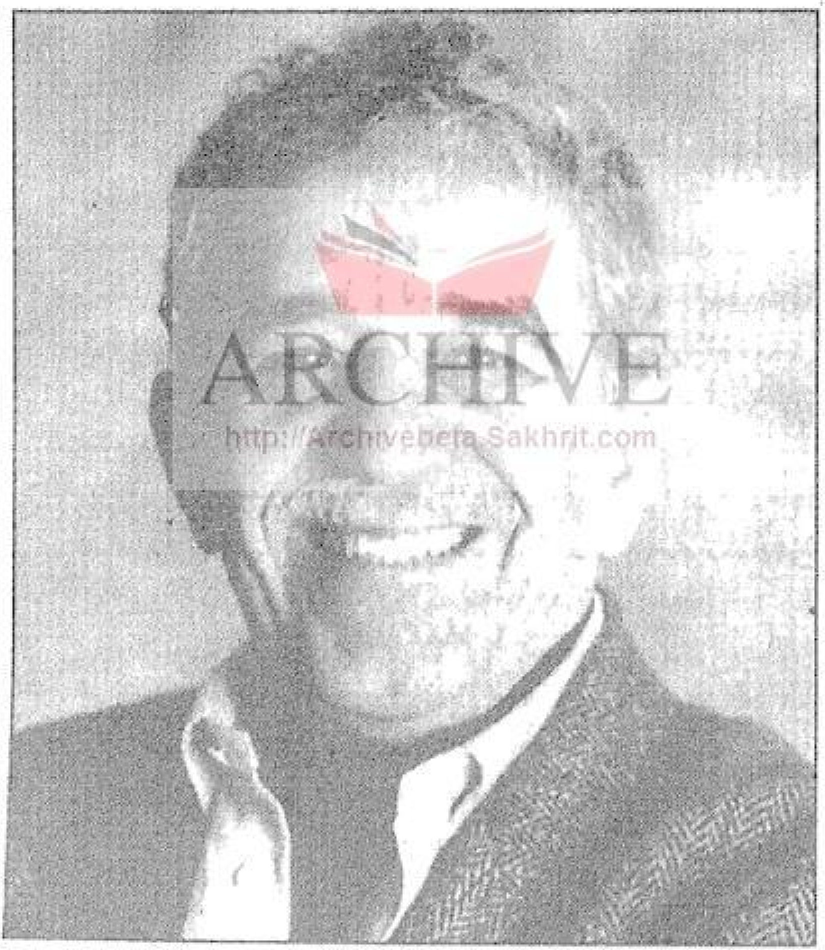
بقلم : د. عبدالفتاح عوض(★)

ليس من المبالغ فيه القول بأن «مائة عام من العزلة» قد وصلت شهرتها وشعبيتها فى العالم الناطق بالاسبانية مثل شهرة «دون كيخوته». كانت روايته تتويجا لمرحلة طويلة من التعليم المتأنى مثلما ابتدع مدينة «ماكوندو» الخيالية مسرح رواية مائة عام من العزلة. وفى روايته «ما يتساقط من الأوراق» (١٩٥٥) و«الكولونيل لايجد من يكاتبه» (١٩٦٢) و«ساعة نحس» (١٩٦٣)، وفى حكاياته «جنازة الأم الكبيرة» يكون البطل هو المدينة البعيدة المعزولة، المقسمة الى تناقضات داخلية والى مستويات من الكراهية، تلك الأرض المشتركة لكل الأجناس. ومنذ ظهور روايته الأولى «ما يتساقط من الأوراق» استطاع جارثيا ماركيث (أراكاتا ١٩٢٨) أن يثبت وجوده فى تخيله لشخصية المرتاب دائما فى مواجهة المجتمع الذى كان يحيط به .

(★) قسم اللغة الاسبانية - كلية الآداب - القاهرة

فى هذه الرواية تعتبر شخصية الطبيب الذى تبين إشكالية دفنه إطار الرواية، شخصية مبهمة غامضة. إنها شخصية الغريب الذى يصل الى المدينة الصغيرة ليمارس مهنة الطب ويتأكد من أن المترددين على عيادته بدأوا فى الابتعاد عنه، وأن الشركة المهتمة بزراعات أشجار الموز تصل الى هذه المدينة بأطبائها العديدين، الأمر الذى يؤدى بالطبيب الى أن يحبس نفسه فى عزلة اختيارية، وعندما تغادر الشركة المدينة وتنشب الحرب الأهلية يرفض العناية بالجرحى، ولهذا السبب يتم ارساله الى مدينة «كوفنترى»، ويظل هذا الحقد

جابرييل جارثيا ماركيث



بداخله زمنا طويلا حتى يتم نسيان الأسباب التى دفعته الى ذلك ويصل الى ماهو أبعد من الموت .

وهنا يظهر الانشغال الرئيسى لجارثيا ماركيث وهو إشكالية الحقيقة الفردية داخل المجتمع غير العادل. وهذا هو الموضوع الذى يتردد من جديد فى روايته «قيلولة الثلاثاء» (١٩٤٨) وتقوم على حادثة كان يتذكرها المؤلف فى طفولته: يصل إلى المدينة لص أثناء ساعة القيلولة ويقتل ابن امرأة بالرصاص وتقوم الأم بوضع إكليل من الزهور على قبر ابنها، بينما أهل المدينة يتجمعون على الأبواب وفى نوافذ البيوت وعلى وجوههم الغضب الجامح. وتظهر المرأة بالثبات فى كبريائها وجلدها. وفى روايته «الكولونيل لا يجد من يكاتبه» نجد أنفسنا أمام واحد من النماذج الأصلية فى الرواية التى تختفى فيها البلاغة والفصاحة، فنحن أمام العزلة العارية للبطل. هذا البطل المحنك فى الحرب الأهلية الذى ظل خمسة عشر عاما منتظرا الحصول على المعاش. وعندما كان يصل البريد كل أسبوع لا تتحقق آماله. ولده الوحيد، أجوستين، قتل بالرصاص بسبب توزيعه منشورات دعائية غير مشروعة، ويظل الكولونيل بدون مصادر مالية سوى ديكة المصارعة التى لا يتمكن من اطعامها بسبب ضيق ذات اليد. بالإضافة الى ذلك يسيطر على المدينة أعداؤها السياسيون، الأمر الذى لا يسمح له باختيار آخر، فليس هناك من مخرج سوى أن يسجن كرامته وعزة نفسه وجلده وكبريائه الذى يتشبث به بعناد مؤثر. ويتجسد الكبرياء فى ديكة المصارعة التى يراها رمزا للقوى المقهورة فى المدينة ويرفض بيعها فى النهاية. وفى نهاية الرواية يفقد كل الآمال ويموت جوعا ولكن بعزة نفسه وكبريائه الذى لا يمس «شعر بنقائه وبوضوحه وأنه لا يقهر».

عمل أسطورى

فى لقاء مع ماريو بارجاس يوسا (١٩٣٦)، روائى بيرو الذى يعد الآن من كبار الروائيين العالميين، قال إن رواية «مائة عام من العزلة» هى «أماديس أمريكا» ومن ثم فهى تتويج كل أعمال جارثيا ماركيث الأولية، إنها عمل

أسطورى يعالج دائما تداخل الأسطورة والهجرة وبناء المدينة. ايزابيل وخوسيه أركاديو بوينديا أبناء عمومة يخشيان أن يكون ثمرة زواجهما وحوشا. يهجران المدينة التى لا يمكن الوصول اليها، وعلى الرغم من أنه فى السنوات الأولى من وجودها تعيش «ماكوندو» فى براءتها الأولى وجهلها بالتاريخ. تقوم براءتها وجهلها ليس على الطيبة الطبيعية وإنما على الخطيئة الأصلية : «فى ذلك الحين كانت ماكوندو قرية تضم عشرين بيتا من الطين وأعواد البوص على شاطىء نهر مياهه بللورية تناسب بسرعة من لحدها ذى الحجارة الجميلة البيضاء والضخمة مثل بيض ما قبل التاريخ». وخلال فترة من الزمان كانت وسيلة اتصال ماكوندو الوحيدة مع العالم الخارجى تتم من خلال زيارات الغجر مع شيخ القبيلة ميليكياديس الذى يثير فى الناس الدهشة نحو عجائب الأسنان الصناعية والثلج والمغنطيس، كما يوقظ فى خوسيه أركاديو رغبة تملك المعرفة العلمية للعالم الخارجى. تولد سلالة بوينديا ولديها الرغبة الداخلية الجامحة فى صنع الأشياء وكسر حدودها فى حين أن النساء تمتصها عمليات الولادة والموت والبيوت والأكفان. ولكن عزلة ماكوندو لا تستمر كثيرا، فإن علاقاتها مع العالم الخارجى ستكون دائما قائمة على الخطأ فى تسلسل التاريخ، وأن التقدم والتطور قادمان: يظهر «المصلح» وعلى المدينة أن تشارك فى حرب أهلية ويتم بناء خط سكك حديدية وهناك تتم إقامة شركة تهتم بأشجار الموز يديرها أجانب، يموت ألف من المضربين فى إحدى المذابح، وتقوم عاصفة لتدمر المزروعات وتنسحب الشركة وتترك ماكوندو فى عزلتها .


ماريو بارجاس يوسا


كارلوس فوينتس

أبعاد مأساوية

وفى صورة مصغرة يكون هذا هو انعكاس عزلة أمريكا اللاتينية عن حلقة

التقدم والاستعمار الجديد. ولكن ماكوندو تمثل أيضا المأساة في مستوى اجتماعي أكثر عمقا. ففي نهاية الرواية يبدأ آخر أعضاء عائلة بوينديا في فك رموز المخطوط الذي تركه ميلكياديس ويكتشف أنه يقرأ تاريخ العائلة، وأن هذا التاريخ سيستغرق فقط مدة القراءة : «كل ماهو مكتوب فيه لا يمكن إعادته من بدايته والى الأبد، لأن السلالات المحكوم عليها بمائة عام من العزلة لم يكن لديها اختيار ثان على ظهر هذه البسيطة.. وحدث القراءة في حد ذاته هو حدث الوحدة والموت الذي لا يمكن ان يتكرر. والنهاية تواجه القارىء بشدة ليس مع الكوميديا - لأن الرواية تبدو كوميدية من الوجهة السطحية - وإنما مع المأساة. الحياة لا يمكن أن تتكرر، والحيوات لا تقبل النعاس. الموتى هم موتى. وفهم هذا سيلزم القارئ بأن يتراجع وأن يعيد التفكير في كل شيء وأمام هذه الفكاهة المدهشة لتلك الشخصيات الغريبة تبين لنا فجأة أن وراءها أبعادا مأساوية. إنهم «وحيدون في أحلامهم».

وهذه الأحلام هي سحب كبيرة من الدخان بينهم وبين النسيان مثل سمكة الذهب التي تصنعها عائلة بوينديا في ورشتها. إن الرعب الحقيقي للحياة هو أنها لا يمكن أن تتكرر وأن الطريقة الوحيدة لتحمل هذا الرعب هو اللجوء الى الفكاهة. ولهذا فان الموت يظهر دائما بطريقة ساخرة، أمطار الزهور التي تسقط على خوسيه أركاديو عندما يموت، وصعود ريميديوس الجميلة الى السماء معلقة في ملاءة بيضاء، وتقع مذبحة أثناء الحفلة التنكرية توقظ الموتى : بييروتس وكولومبيناس والامبراطورات الصينيات. وتتحول الرواية بهذا الشكل الى محاولة سحرية في مواجهة الموت. ومن خلال التناقض الظاهرى فإن الشخصيات تعيش بطريقة وحشية ويرجع ذلك الى النزعة الفردية المبالغ فيها التي تعزلهم، مثل أعمال القديسين التي تميزهم عن الشائع من الهالكين. ريميديوس الجميلة ينقصها الاحساس بالذنب إذ تتنزه وهي عارية الجسد دون الخوف من عذاب الاعتداء الجنسي. فرناندا هي صفوة النقاء والطهارة

الكاثوليكية : «كان معها مفكرة جميلة بها مفاتيح ذهبية صغيرة، أشر عليها أبوها الروحى بحبر بنفسجي اللون تواريخ صوم المسيحيين عن أكل اللحوم وباستثناء الأسبوع المقدس وأيام الآحاد والأعياد المتوقعة وأيام الجمع الأولى وأيام الخلوات والأضاحى وموانع الدورة الشهرية، اقتصرت مفكرتها السنوية على اثنين وأربعين يوما مبعثرة فى خيوط متشابكة بنفسجية اللون «أما عشيقة زوجها بتراكوتيس فهى امرأة وجيهة» اتسم حبها بخاصية السخط على الطبيعة، التى تتسبب فى أن الأبقار تتناسل بسرعة مثل الأرانب. والرجال أيضا غريبو الأطوار بدرجة مبالغ فيها ، فرجال خوسيه أركاديو حالمون ورجال أورليانو هم رجال نشطون، ولكن غزارة الحياة أنها مملوءة بدرجات مأساوية حيث أن علية القوم غريبو الأطوار محكوم عليهم أيضا بالنسيان .

ومن الجوانب المهمة فى رواية «مائة عام من العزلة» أن الرواية تكسر قالب الواقعية وتعود الى مصادر الخيال فى الأسطورة والرواية الخيالية، وأسلوب الرواية ذو لهجة تقليدية يقص حكاية شعبية : «بعد سنوات وفى مواجهة فرقة الرمى بالرصاص، كان على الكولونيل أوليانو بويندیا أن يتذكر ذلك المساء البعيد الذى حمله فيه والده ليتعرف على الجليد». انه زمن الماضى الأسطورى حيث ضمير الاشارة «ذلك» يشير الى أن الذى يحكى التاريخ هو وحده فقط الذى يستطيع أن يكشف سحره.

رواية نموذجية

ولو استطردنا الحديث عن هذه الرواية التى حصل صاحبها على نوبل عام ١٩٨٢ لما اتسعت هذه الوريقات، بل علينا الاشارة الى عدد من التعليقات الصادرة عن نقاد وأدباء. يقول الناقد والكاتب الإسبانى أندريس أموروس تحت عنوان «صحبة مع مائة عام من العزلة» : «منذ أكثر من عشر سنوات كتبت أن الاقبال الجماعى من القراء قد أجاز عملا أدبيا ذا قيمة كبيرة. مائة عام من العزلة رواية نموذجية لا تدع للناقد مجالا لانتقادها فنيا. ونفس الشىء مع كل روايات جارثيا ماركيث التى تحوز دائما اعجاب القارىء

لفائدتها الأدبية» ويقول الناقد الاسباني ريكاردو جويون: «إن هذا العمل الأدبي هو لقصاص أصيل وكاتب لا يستطيع اخفاء المتعة التى يشعر بها عندما يقص الاحداث ومدى قدرته الفائقة على سردها إذ يملك القارىء (مثل السامع لحكايات الأطفال) بطبيعته التى تضفى جوا منعشا وخيالا خصبا». وفى دراسة للباحثة كارمن أرناو «إنه عالم مستقل، يختلف عن العالم الحقيقى، رؤية عامة للحضارة. كل شىء ورد فى رواية مائة عام من العزلة. كل شىء يساهم فى خلق هذا العالم الأسطورى، هذا العالم الذى يفسر نفسه بنفسه. وبعيدا عن هذا العالم لا يوجد شىء، لأن كل شىء يوجد فى هذا العالم المتمثل فى عالم الخيال». ويقول الكاتب الارجنتينى خوليو كورتاثار: «رواية مائة عام من العزلة تقدم تجربة جديدة: كيف يكون الخيال فى قدرته الخلاقة طريقا فى مسار الرواية (امريكا الجنوبية من خلال الشرح المطول للظروف أو للحدث. ان جارثيا ماركيث يقوم بابداع روايته من من منطقة مميزة مثل ماكوندو لنصل بأقدام ثابتة لى جواناهانى».

وتقوم روايته «وقائع موت معلن» (١٩٨١) على حدث تاريخى وحقيقى: حدث عنيف وقع فى كولومبيا منذ سنوات. يقول ماركيث : «كان لدى احساس بأن أطلق على هذه الرواية عرس الدم مثل مسرحية جارثيا لوركا». أسفرت احتفالات الزفاف عن حادث اغتيال وكان الشعب هو كورال هذه المأساة، الرواية تفتح العلاقة الأبدية بين الصحافة والأدب. يلتقط الكاتب خبرا صحفيا. الخبر حقيقى. يحول الكاتب هذا الخبر الى رواية، إذ يقوم باعادة بناء ظروف وملابسات الجريمة من خلال اعترافات جميع الأشخاص الذى شهدوا الحادث، وبذلك تكون بمثابة تحقيق روائى . ولقد شرح ماركيث هذا الموقف بوضوح عندما قال فى أحد حواراته : «الشىء المؤسف هو أن بيانا كاذبا فى الصحافة يلغى كل البيانات الحقيقية الأخرى. وعلى العكس من ذلك ففى

الخيال بيان حقيقي واحد يمكن استغلاله استغلالا جيدا يضفى حقائق على الشخصيات التى يتم ابتداعها. إلا قاعدة تظلم الصحافة والخيال : ففى الصحافة يجب الالتزام بالحقيقة، على الرغم من أن أحدا لم يبتدعها، على العكس ففى الأدب يمكن ابتداع كل شيء مادام المؤلف قادرا على جعل الاعتقاد كما لو كان شيئا مؤكدا ».

وهذا يحدث هنا، فإن القارىء الذي يعتقد أن جارثيا ماركيث قد اقتصر على كتابة تحقيق فقد أخطأ تماما. وبالنسبة لى كقارىء لا يهمنى على الاطلاق أن تكون الأحداث بسيطة ويتملكنى بتصديقها. فالكاتب يتجاوز الحقيقة الفنية الشمولية الى حدود الحقيقة التاريخية. يستغنى القصاص عن المصيدة الكلاسيكية تماما : إنه يعرف ماذا سيحدث فى النهاية. هنا فى رواية «وقائع موت معلن» تحدثنا السطور الأولى عن اليوم الذى سيذهبون فيه لقتل سنتياجو نصار، وفى آخر لحظة بنهار سنتياجو فى مطبخ منزله. خلال هذا اليوم الكامل توجد تفاصيل متعددة وظروف وأحداث وأشخاص، يوم يمثل قمة الموجة التى ولدت قبل ذلك والتى ستمتد بعد أن تنفجر فى زبد الماء الذى يغطى رمال الشاطىء. البساطة الظاهرية للرواية خادعة. ودون أن يتسرع القارىء فانه يحذره وربما يعطى جارثيا ماركيث شكلا فنيا لروايته، مستخدما ـ ببراعته وخبرته المعهودة ـ مصادر فنية متعددة : يخرج فى الوقت المناسب، يبرز لحظة ، يسرع فى الحدث أو يطيل فى بطئه، يعارض وجهات النظر المختلفة حول ذات الحدث.. كثير من الأساليب الفنية تقارب أساليب السينما وقد يكون من الصعب عدم استخدام المصطلحات السينمائية.. الفلاش باك، عين الكاميرا وتبادل المناظر.. وخاصة المونتاج.. بمعرفتنا لنهاية الرواية فإن الشيء المهم هو المونتاج. مثل اينشتين واورسون ويلز يجعلنا جارثيا ماركيث فى حالة من عدم الاستقرار، بفضل المونتاج، فضلا عن الجملة الجميلة التى

يتمكن من استخدامها. ومن ثم فان المصادر الفنية تستخدم فقط إذا كانت لها فاعلية في سير الرواية ولا تعرض بطريقة ملفتة للنظر ولكنها تتوارى بطريقة رشيقة.

هذا هو الخبر لموت معلن. الكل يعرف أن سنتياجو نصار سيلقى حتفه، ولكن لا أحد يحول دون ذلك، بما فى ذلك القتلة أنفسهم يتمنون لو أن أحد تقدم لمنعهم عن ارتكاب الجريمة، الأحداث - وليس الكاتب - هى التى تحدثنا عن المصير الانسانى الذى يلعب بالرجال الضعفاء المنسيين والجبناء. انها ليست مأساة فردية ولكنها مأساة جماعية يعيشها كل سكان القرية فترة طويلة، إن ما يقدمه لنا المعلق الاخبارى بعد سنوات هو التأريخ الذى تم استخلاصه «على مراحل من ذاكرة الآخرين»، لم يظهر القدر المأساوى الآن فى اليونان، ولكن فى إحدى قرى امريكا اللاتينية - الميراث الاسبانى - التى تتسم بالعنف والرجولة. مرة أخرى يحقق جارثيا ماركيث انتقال الخبر الموثق الى الخيال، من الحدث الاجتماعى الى الحدث الأسطورى. وتحتوى المأساة الجماعية على عمق حيوى يشدنا اليه، «عمق الشخصيات التى تواصل الرقص حتى تتركنا الحياة» . «تلك الشخصيات التى تعلم أنه «لا يوجد مكان فى الحياة أكثر حزنا من السرير الخاوى» الشخصيات التى تبكى على حبها الضائع. انه القدر المأساوى الذى يحرك هذه الشخصيات كأنها الدمى.

وفى أحدث اصدارات جارثيا ماركيث «فى اغسطس نرى بعضنا» (مارس ١٩٩٩) وهى القصة الأولى من رواية قصيرة بمائة وخمسين صفحة تنضم اليها أربع قصص قصيرة أخرى. صرحت مؤخرا روسامورا، الوكيلة الأدبية الاسبانية لجارثيا ماركيث : «إن القصص الخمس، ربما بدت قصصا مغلقة كل منها على نفسها بصورة كاملة، يشكلن شخصية محورية واحدة : أنا ماجدلينا باخ، عند نهايات العقد الثالث من عمرها، تسافر كل عام فى

السادس عشر من شهر اغسطس، الى القرية الصغيرة حيث دفنت أمها، فى مقبرة الفقراء، لكي تحدثها عن أمورها وتحمل لها باقة ورد من زهور «ذيل الحصان» . وفى القصة تعيش ماجدلينا فى الرحلة الأولى مغامرة عاطفية لم تتوقعها لكنها ستغير حياتها. وبعد رجوعها لبيتها، ستعى ماجدلينا أنها كانت شخصية تختلف عن الشخصية التى تصورتها عن نفسها حتى وقوعها فى المغامرة العاطفية تلك، وانها امرأة ستعيش طوال العام بذهول دائم، مقتنعة بأنها عندما تعود فى شهر اغسطس لزيارة قبر أمها، سيحدث لها شيء ما، وفى القصص التالية ستشهد حياة ماجدلينا مغامرات جديدة، حتى تقع حقيقة بحب رجل آخر ». وكما يقول جارثيا ماركيث «المرأة تسبب الأزمات». والموضوع المسيطر على هذا الكتاب هو معالجة قصص حب لكبار السن .

وأخيرا يتذكر الكثير من محبى الكاتب، وخصوصا أولئك الذى يقرأونه ويتابعونه بالاسبانية التى يكتب بها، أن الكاتب، عندما احتفل بعيد ميلاده السبعين ـ منذ ثلاث سنوات تقريبا ـ صرح بأنه يشعر بأنه فى الخمسين من العمر. وأن هذه المرحلة العمرية بدت له الأكثر «واقعية سحرية» من كل السنين، بما احتوته من تواريخ واحتفالات، رفعت قامة هذا الكاريبى القصير، ووضعته مثلما يقول مواطنوه «في عين الاعصار» . سبعون سنة من العمر، ثلاثون سنة على نشر «مائة عام من العزلة»، الرواية التى أحدثت ثورة فى الرواية المكتوبة باللغة الاسبانية، والتى أثرت على الرواية المكتوبة باللغة العربية (سلبا وايجابا)، والتى وجدت لها معجبين توهم الكثير منهم، أنه بمجرد أن يقول انه استغرق فى كتابته للرواية سنوات عديدة، سيصبح كاتبا «واقعيا سحريا»، خمسون عاما على نشر أول مجموعة قصصية له «عينا كلب أزرق»، خمسة عشر عاما على الحصول على جائزة نوبل فى الأدب .

محطات

فى سكة الحياة

بقلم: وديع فلسطين

فى حياة المرء، ولا سيما المشتغل بالحياة العامة ، محطات تستحق التوقف عندها واستعادة ذكرياتها، والإيماء إليها لأن الأجيال الطالعة تكاد تجهلها، ولأن المخضرمين من أمثالنا قد انقرضوا أو كادوا. وفى هذه السطور وقفات عند هذه المحطات قبل أن ينطلق قطار العمر إلى نهايته.


محمود أبو الوفا


بشارة الخورى


حافظ أبراهيم


محمود حسن اسماعيل

شخصيات لا تتكرر

عرفت في سكة الحياة شخصيات لا تتكرر، اتخذت لنفسها منهاجاً تسير عليه، دون أن تحفل بالصعاب التي تجابهها، أو حتىّ بالسخريات التي تتعرّض لها.

ومن هذه الشخصيات الدكتور أحمد غلوش الذي تخصص في اللغة الانجليزية في جامعة لندن وتخرج منها عام ١٩١٣ ووقف حياته قبل ذلك وبعده على رسالتين، هما التعريف بالدين الاسلامي باعتباره دين تسامح للأجانب، فوضع كتاباً كبيراً باللغة الانجليزية عنوانه «دين الإسلام» أهداني طبعته الخامسة الصادرة في عام ١٩٥٨، وهناك طبعة منه نشرت في نيويورك عام ١٩٥٢. أما الرسالة الثانية فهي مكافحة المسكرات، ولهذا أنشأ جمعية اتخذ لها مقراً متواضعاً زرته فيه يقع في شارع محمد على بالعتبة. وإذا كانت بعض الكتائب الحزبية حاربت المسكرات بالاعتداء على محال بيع الخمور وتحطيمها - كما كانت ميليشيا أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة تعمل - فإن الدكتور غلوش اتخذ سبيل الدعوة بالإقناع، ووضع كتاباً باللغة العربية عن مضار المسكرات عالج فيه موضوعه من الناحية العلمية في المقام الأول. وقد توافقت جهوده في منع المسكرات مع امتناع بعض الصحف عن نشر إعلانات عن الخمور أو الترويج لها بأي سبيل، وعندما عملت في جريدة «المقطم» قال لي مؤسسها الدكتور فارس نمر باشا إن الجريدة قاطعت إعلانات الخمور منذ إنشائها، ورفضت الإغراءات المالية تمسكاً منها بهذا المبدأ الصارم.

ويبدو أن جمعية منع المسكرات كانت نشاطاً فردياً للدكتور غلوش لأن نشاطها توقف بعد وفاته عن ثمانين عاماً تقريبا.

ومن الشخصيات التي لا تتكرر الدكتور إندراوس شخاشيري، وهو طبيب بشري كانت عيادته بميدان فم الخليج مقصد الفقراء من المرضى يعالجهم بقروش قليلة، وهي عيادة ورثها من بعده نجله الطبيب ضياء شخاشيري وأغلقت بوفاته. وكان الدكتور شخاشيري ناشطاً في تأليف الكتب، ولا سيما ما يعالج منها مشكلات الزواج، وقد أحصيتُ له في مجلة «المقتطف» وحدها ٥٤ مقالاً طبياً بدأ ينشرها منذ عام ١٩٠١ وحتى عام ١٩٤٥. وكما أن الدكتور غلوش أنشأ جمعية لمكافحة المسكرات، فقد أنشأ الدكتور شخاشيري جمعية لمنع التدخين عاونه فيها الوزير الأسبق ابراهيم الدسوقي أباظة باشا والد الأديب ثروت أباظة. ولئن توقف نشاط هذه الجمعية بوفاة قطبيْها شخاشيري وأباظة، فمازالت لافتة «ممنوع التدخين» معلّقة في منزل أسرة شخاشيري، ولو لمحاربة التدخين في نطاق المنزل وحده.

ومن الشخصيات الفريدة التى عرفتها عيسى سلامة، وهو ورّاق أو كتبى سورى تخصص فى اقتناء الكتب النادرة، وكان فى سبيل ذلك يطوف بأوروبا وأمريكا بحثاً عن ضالته. وقد قام عيسى سلامة برحلات متعددة إلى أمريكا الجنوبية، واتصل هناك بعائلات أدباء المهجر وشعرائه الذين يجهلون العربية جهلاً تاما، واقتنى منهم كل مخلّفات الأدباء الراحلين من كتب ومخطوطات وصحف ومجلات ودواوين شعر، وشحن على نفقته الخاصة أطنانا من هذه المخلفات إلى مكتبة الأسد فى دمشق، وهى دار الكتب الوطنية فى الشام، واستطاع بذلك إنقاذ كل هذا التراث الذى كان مصيره المحتوم الإهمال. وقامت مكتبة الاسد بفرز كل هذه المطبوعات وتهيئتها لتكون فى خدمة الباحثين فى الأدب المهجرى. وعندما زرت دمشق فى عام ١٩٩٥ التقيت بعيسى سلامة، وكان مريضاً يعتمد على عكازة فى سيره، وكان أعزب يقيم فى غرفة بأحد الفنادق ضمّت أكداساً من الكتب النادرة، ولا أدرى ما هو مصيرها بعد أن لقى وجه ربه مؤخرا.

ومن الشخصيات التى عرفتها نصرى خطار، وهو من العرب الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة واستقروا فيها. وعندما زرت نيويورك عام ١٩٥٥ قابلت نصرى خطار الذى أطلعنى على نماذج ابتدعها لحروف اللغة العربية تسهيلا لعمال الجمع فى المطابع. فقبل اللينوتيب والمونوتيب والكمبيوتر، كانت المطابع تعتمد على جمع الحروف يدوياً، وكان صندوق الحروف العربية يضم نحو ٣٠٠ شكل لأن الحرف الواحد يتغيرّ شكله ورسمه إذا جاء فى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها أو إذا استقلّ بذاته. وحلا لهذه المشكلة، واختصارا لوقت عامل الطباعة ولعملية تنفيذ المطبوعات قام نصرى خطار بتصميم حروف عربية على نمط الحروف اللاتينية، بحيث يبقى كل حرف مستقلا فلا يُشبك بالحرف المجاور له، ولكل الحروف ارتفاع متساو كالحروف الافرنجية تماما. وأمكنه بهذا تخفيض عدد الاشكال فى صندوق الحروف إلى ٣٠ شكلا بعدد الحروف العربية بدلا من ٣٠٠ شكل.

وقد أخبرنى نصرى خطار وقتها بأنه بعث بمشروعه إلى مجمع اللغة العربية فى القاهرة، وكان هناك مشروع آخر مقدم من جلال قاروط مدير مطابع دار المعارف فى ذلك الوقت. ولكن المجمع ارتأى المحافظة على الرسم الحالى للحروف العربية ولو بقيت مشكلة صندوق الحروف على حالها. ومع تطور فنون الطباعة، زالت الحاجة إلى إجراء أى تغيير فى حروف المطبعة.

الإذاعة المصرية

عندما آلت محطة الإذاعة من شركة ماركونى إلى الحكومة المصرية، أصبح متعيّناً

إلحاقها بإحدى وزارات الدولة. وتقرر وقتها أن وزارة الشئون الاجتماعية هي أنسب الوزارات للإشراف على الإذاعة، وبناءً عليه صدر مرسوم ملكي في ١٨ مايو ١٩٤٧ بإنشاء إدارة الإذاعة اللاسلكية المصرية كإدارة مستقلة تابعة لوزارة الشئون الاجتماعية.

وعندما اختير وزير جديد للوزارة، أشار عليه معاونوه أن يذيع حديثاً باعتبار هذا من اختصاصات منصبه. فطلب من مساعديه إعداد حديث لكي يقرأه على الهواء مباشرة، إذ لم تكن التسجيلات معروفة في ذلك الوقت، بما يسمح بتسجيل الحديث ومراجعته «ومنتجته» وإذاعته بعد تحديد موعده. فقام مساعدو الوزير بإعداد الحديث المطلوب، وفيه استشهاد بقول الشاعر:

أوّاه لو علم الشباب   وآه لو قدر المشيب

وبدأ الوزير يتلو الحديث حتى وصل إلى هذا البيت فقرأه على النحو التالي :

واحد وخمسون وواحد من عشرة لو علم الشباب وواحد وخمسون لو قدر المشيب!

وكانت وزارة الشئون الاجتماعية وقتها تصدر مجلة شهرية تحمل اسم الوزارة ويرأس تحريرها الأديب حسن الشريف ويساعده في عمله بسبب إصابته بالفالج الشاعر محمود حسن اسماعيل. وعندما زرت الشاعر في مكتبه بالوزارة قدّم إلي نسخة من ديوانه الجديد «الملك» وهو ديوان كتم الشاعر أخباره بعد قيام الثورة خشية أن يُضار في رزقه بسببه. وقدمني محمود حسن إسماعيل إلى حسن الشريف - وكنتُ من المعجبين بأسلوبه البليغ الذي تجلى في مقالاته ومترجماته المنشورة في مجلة «الهلال»، وأعجبني منه أنه، برغم علة الفالج التي عطلت ساقه ويمناه، كان حريصاً على الانتظام في مكتبه يومياً وفي الإشراف بنفسه على مادة المجلة، ودعاني للكتابة فيها فلبيت دعوته ونشر لي فيها مقالين. وكان من كتاب المجلة الدوريين سيد قطب وسلامة موسى. ولما أغلقت المجلة نقل الشاعر محمود حسن إسماعيل من الوزارة إلى محطة الإذاعة التابعة لها، وبقي فيها إلى أن تقاعد . أما حسن الشريف فلم يعد أحد يذكره اليوم مع أنه جدير بإلقاء الأضواء عليه.

شاعر يرثي نفسه ويدعو لوالديه بجهنم

كنت أسمع باسم الشاعر البائس محمود أبي الوفا دون أن أعرفه. وفي يوم من أيام عام ١٩٥٠ وجدت على مكتبي في الجريدة التي كنت أعمل بها نسخة من ديوان «أنفاس محترقة» مهداة من مؤلّفه الشاعر محمود أبي الوفا إلى «الأستاذ أديب فلسطين»! فعذرت الشاعر لأنه أخطأ في اسمي، لما كنت أعرفه من رقة حاله ومن صعوبة متابعته لما يجري في الحياة الفكرية. وقرأت الديوان، فبهرتني شاعريته المعطاء التي تمثل «سماحة

القريحة» كما جاء في تقديم فؤاد صروف للديوان الذى قال فيه إن «ألفاظه كأنها فى معانيها ومبانيها وجَرْسِهَا وموقعها آيات التنزيل». وبادرت بكتابة مقال عن الديوان أعربت فيه عن إعجابى الشديد به، نشرته فى عدد فبراير ١٩٥٠ من مجلة «المقتطف». وبمجرّد صدور المجلة فوجئت بالشاعر يزورنى فى مكتبى - وكان بابه مفتوحاً دائماً وليس عليه حراس أمن أو موظفو استعلامات أو سكرتيرات ممّا هو معهود اليوم فى مكاتب الصحفيين - ولولا معرفتى بأنه مبتور الساق ويمشى على عكازين، لاختلف أمر هذا الزائر علىّ لأننى لم أره من قبل ولا رأيت له صورة تذكرنى بملامحه. ومنذ تلك الزيارة المفاجئة التى قصد منها شكرى على اهتمامى بديوانه (وطبعاً صوّبت له اسمى) ربطت بيننا صداقة وثيقة بل حميمة امتدت إلى نهاية عمره فى ٢٧ يناير ١٩٧٩ (وهو قد تمّ تسنينه بأنه من مواليد عام ١٩٠١). وكنت أتردّد عليه فى داره العتيقة الواقعة فى أضيق حارة وأقذرها من حوارى ميدان باب الخلق، وفى عمارة تهالكت درجاتها وتنقطع الأنفاس حتى بلوغ طابقها الثالث الذى كان يقيم فيه.

وفى إحدى زياراتى لأبى الوفا قلت له: أفهم أن ترثى نفسك فى قصيدة، ولكن الذى لا أفهمه هو أن تدعو لأبيك وأمك بجهنم الحمراء، وعهدى بك إنساناً عطوفاً محبّاً لاتضمر شراً لأحد. فكيف طاوعك ضميرك على أن تقول فى سياق هذه المرثية الذاتية:

فى ذمــة الله نفس ذات آمــال ... وفى سبيل العلا هذا الدم الغالى
بذلته، لم أذق فى العمر واحدةً ... من الهناء ولا من راحـة البـال
كأننى فكرة فى غير بيئتها بدت ... فلم تلق فــيـهــا أى إقـبـال
أو أننى جئت هذا الكون عن غلط ... فضاق بى رحبه المأهول والخالى
أبى، وفى النار مثوى كل والدة ... ووالد أنجـبـا للبـؤس أمـثـالى
ما كان ضرّك لو من غير صاحبة ... قضيت عمرك شأن الزاهد السالى؟

فاطرق أبو الوفا هنيهة، ثم قال: ها أنت ترانى موجوداً فى الدنيا - ولا أقول إننى أعيش فيها، لأن حياتى تحط عليها همومُ المرض وقلّة الرزق والكساح. صحيح أن كبار الأدباء اهتموا بشعرى مثل طه حسين ومحمد حسين هيكل ومصطفى صادق الرافعى ومحمد مندور وسيد قطب وفؤاد صروف وأحمد زكى أبى شادى وأحمد الشايب ومحمد عبد الغنى حسن وغيرهم، ولكننّى برغم هذه الشهادات التى تكتب لى الخلود لا أطمئن إلى قوت يومى، حتى وإنْ كان من الفول المدمس وحده. فمن هو المسئول عن بؤسى إلاّ

مَنْ أنجباني إلى هذه الدنيا وتركاني أصارع تيّارات الأرزاق العاتية التي لست كفؤاً لها. وما نظمتُ هذه القصيدة كراهةً في الأبوين، وإنما نظمتها كصرخةٍ مدوية في وجه الظلم ولو كان مصدره أقرب الناس إليّ. ثم ذكرني أبو الوفا بأبيات أخرى له وجهها إلى الشاعر حافظ إبراهيم عندما ترجم رواية «البؤساء» لڤيكتور هوجو صوّر فيها ما أسماه «بمعرض النكبات» حيث قال:

يا صاحب البؤساء جاءك شاعر يشكو من الزمن اللئيم العاتي
لم يَكْفِه أنّي على عكـــازة أمشي فَحَطَّ الصخر في طرقاتي
ثم انثنَى يزجي عليّ مصائباً سُحُباً كقطعان الدُّجـى جهمات
فغدوت في الدنيا ولا أدري أمن أحيائها أنا أم من الأموات

وكان أبو الوفا يقول:

أحبّ أضحــك للدنيــا فيمنعني أن عاقبتني على بعض ابتساماتي

فلمّا ابتسمت له الدنيا واستجاب له الرئيس أنور السادات فأمر بمنحه بيتاً ملائماً، اختاروا له شقةً في عمارة تحت الإنشاء في منطقة غير مأهولة من مدينة نصر ليس لشوارعها أسماء ولا لبيوتها أرقام، وكنت أخوض في كثبان رملية كثيفة للوصول إليها بعد جهدٍ جهيد في الاهتداء إلى موقعها في هذا التيه. ولم أدر هل أهنئه على هذا البيت الجديد أو أرثي لحاله، حيث قال لي: كان الناس يزورونني عندما كنت في حواري باب الخلق، أما الآن فأنا شبه منفيّ إذ لا يزورني أحد، فأعاني من الوحدة القاتلة. ولم يطل مقام أبي الوفا في هذا البيت لأنه توفي بعيد انتقاله إليه.

شوارب الشاعر القروي

الشاعر القروي هو رشيد سليم الخوري الذي عاش في أمريكا الجنوبية مهاجراً نصف قرن واختار لنفسه هذه الكنية عندما عيّره بها حاقد، فاعتبر صفة «القروي» مفخرة له يُباهي بها، لأنها لا تعيبه. أما أخوه قيصر سليم الخوري، وهو بدوره شاعر، فقد اختار لنفسه كنية «الشاعر المدني».

وديوان الشاعر القروي، الذي طبع عدة مرات في سان باولو (وكان يعرّبها إلى «صنبول») وفي القاهرة وفي بغداد وفي دمشق وفي بيروت، هو أضخم ديوان مهجري، وربما نافسه في ضخامته ديوان الشاعر زكي قنصل بأجزائه الثلاثة التي طُبعت في جدّه على نفقة الأديب الأريحي عبد المقصود خوجه.

وكان القروي يعتزّ في شبابه بشاربه الذي يقف عليه الصقر والذي كان يميزه على أقرانه من أهل البرازيل الذين حرموا الصقور من مواطىء أقدام على شواربهم، إمّا

لانهم حليقو الشارب، وإما لاكتفائهم بشارب رمزى متواضع الحجم. وإذا كان لكل آجل كتاب، فلشوارب القروى نهاية وصفها الشاعر فى قصيدة طريفة ينعي فيها «الشاربين المزعجين» بعدما أعمل فيهما مشارطه فى مجزرة لم يُسفك فيها دم، حيث قال:

قالوا: حلقت الشاربيْن وياضياع الشاربينِ
فأجبتهم: بل بئس ذانِ ولا رأت عيناي ذيْنِ
الشاغلين المزعِجين الطالعين النازلين
ويلي إذا ما أزهفا ذنبهما كالعقربين
إن ينزلا لَجَماً فمي أو يصعدا التطما بعينى
وإذا هما بسط الخوان تراهما بسطا اليدينِ
فإذا أردت الأكل يقتسمان بينهما وبيني
وإذا أردت الشرب يمتصّان كالإسفنجتين
فكأنني بهما وقد وقفا بباب المنخرينِ
عبدان من أشقي العبيد تقاضيا ملكاً بديْنِ

وقد زار الشاعر القروى مصر فى عهد الوحدة السورية المصرية ضيفاً على الحكومة وأقيمت له احتفالات هنا وهناك استأثرت بكل وقته. ولما كنت صديقه الوحيد فى مصر الذى يعرفه منذ ما كان فى مهجره، فقد كان يفتقدنى فى جميع هذه المناسبات لأننى لست ممن يدعون إليها. ولهذا توافقتُ معه على أن أزوره فى فندق (الكونتننتال) فى الساعة السابعة من صباح كل يوم قبل أن يوافيه المندوب المرافق ليتوجه معه إلى لقاءاته الرسمية أو سياحاته فى أنحاء القاهرة. فكنت أصادفه فى مطعم الفندق يتناول فطوره المؤلف من بيضتين مقليتين فى الماء، لا فى الزبد ولا فى السمن ولا حتى فى الزيت، وأمامه قرطاس كبير يحتوى على كيلو من البصل اشتراه خصيصا ليكون جزءا من طعامه اليومى. ولما أوضحت له أن للبصل رائحة نفاذة، وأنه ذاهب إلى مقابلات رسمية لا تخلو من عناق وقبلات. قال:

إن القروى لا يتغيرُ ولا يتكيّف تبعا للمواقف. ومن تزعجه رائحة البصل زهدت فى لقائه!

وفى أثناء زيارته لمصر، قررَ وزير المعارف كمال الدين حسين طبع ديوان القروى بمقدمة كتبها الوزير (والأرجح أن كاتبها هو محمد سعيد العريان الذى كان وقتها يهيمن على وزارة المعارف ومكتب الوزير)، وتمّ طبع الديوان فعلاً، ولكن على ورق شديد الرداءة وقبيل صدوره خرج الوزير من الوزارة مغضوباً عليه، فاحتُبس الديوان فى مخازن

الوزارة إلى هذا اليوم بسبب مقدمته المنحوسة! وكان القروى قد كلّفنى بعد سفره إلى لبنان أن أوافيه ببضع نسخ من هذه الطبعة المصرية، فأعيانى الحصول عليها من هذه المخازن الدهرية.

وعاش القروى ما يقرب من قرن كامل، إذ ولد في ٥ أبريل ١٨٨٧ وتوفي في ٢٧ أغسطس ١٩٨٤ عن ٩٧ عاماً.

الشاعر فؤاد بليبل

ذكرت في مقالي المندرج في عدد يناير الماضي أن النقاد جميعاً - ولا أكاد أستثنى أحدا منهم - قد تجاهلوا الشاعر فؤاد بليبل ولم يذكروه حتى من قبيل الإشارة أو الإحصاء. وقد تنبهت بعد كتابة هذا المقال إلى إن هناك استثناء واحداً من النقاد اهتم بشعر فؤاد بليبل واحتفى بشاعريته، إذ إن الأديبة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد خصّته بفصل كامل من كتابها «خصائص الشعر الحديث» الصادر في طبعته الأولى عام ١٩٧١ وفي طبعته الثانية عام ١٩٨٥، ومن حقها عليّ أن أسجّل لها هذا الفضل مُلقياً اللوم في هذا السهو على الذاكرة الخئون، لأنني قرأت كتابها يوم صدوره، بل جعلته من مراجعي عندما أصدرت كتاب «مختارات من الشعر المعاصر وكلام في الشعر» الذي نشره مركز الأهرام للترجمة والنشر. والدكتورة نعمات سبقٌ يسجل لها في الإشادة بروّاد الحياة المعاصرة، الذين خصت كلاً منهم بكتاب برأسه، ومنهم أحمد حسن الزيات وعباس محمود العقاد وأحمد رامي وإبراهيم عبد القادر المازني وأم كلثوم وإبراهيم ناجي وأبو القاسم الشابي والأخطل الصغير بشارة الخوري، بالإضافة إلى لقاءاتها مع أعلام العصر الذين سجلتهم في كتابها «قمم أدبية».

مجلة الطالبة

وفي نفس العدد من مجلة «الهلال» دراسة مستوعبة للدكتورة ليلى عبد المجيد عن المجلات النسائية في مصر في قرن كامل، وهي دراسة «لايخرُ منها الماء» كما يقولون، على الرغم من أنها تناولت في مقال واحد. واستكمالاً لما توخته الباحثة الفاضلة من حصر جميع المجلات النسائية، أشير إلى مجلة كانت تصدر في الأربعينات عنوانها «الحسان» وقد كنتُ مسئولا عن توزيعها مع نحو أربعين جريدة ومجلة عندما كنت أعمل في قسم التوزيع بجريدة «الأهرام» بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٥.

أما مجلة «الطالبة» فقد اقتصرت الباحثة على تسجيل تاريخ صدورها وهو عام ١٩٣٨، ولم تورد أي بيانات تفصيلية عنها، مع أن هذه المجلة صدرت بانتظام شهري

على مدى ٣١ عاماً من أول أعدادها المؤرخ في فبراير ١٩٣٨ إلى آخر أعدادها بتاريخ يونيو/يوليو ١٩٦٨، ومن الإنصاف أن أعرف بهذه المجلة وبمؤسستها السيدة منرفا عبيد - شفاها الله وعافاها - وهي من أسرة عبيد في قنا التي تولى الوزارة في الماضي والحاضر عددٌ من أفرادها واتخذت المجلة في عددها الأول شعاراً لها قول الشاعر حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها　　أعددت شعباً طيب الأعراق

ولأن المجلة كانت تتوجه في المقام الأول إلى الطالبات في المدارس الابتدائية والثانوية، وكانت توزع في جميع البلدان العربية، فقد حرصت محررتها منرفا عبيد على الالتزام في جميع موضوعاتها بمكارم الأخلاق وبصورة صارمة، وكأنها تدير مدرسة لتربية الفتيات تنهض بثقافتهن من ناحية وبخلقهن السليم من ناحية أخرى. وقد اتسعت صفحات المجلة من تاريخها الطويل لأقلام كتاب وشعراء منهم الأديبة مي زيادة والشاعر إبراهيم ناجي والأديبة السورية وداد سكاكيني والمربي الدكتور أمير بقطر والدكتور محمد مظهر سعيد عميد التربية وعلم النفس وزوجته نظلي الحكيم والدكتور منصور فهمي باشا والسيدة نفيسة الغمراوي والآنسة الزهرة، وهو الاسم المستعار لأوليفيا عويضة وغيرهم.

وكانت المجلة تنظم في كل سنة مسابقتين إحداهما أدبية والأخرى فنية لتشجيع الطالبات على الارتقاء بأسلوبهن الأدبي ومواهبهن الفنية، ولأن التوزيع الخارجي للمجلة في البلدان العربية كان عنصراً جوهرياً في مواجهة تكاليف إصدارها، فقد تعرضت المجلة لنكسة شديدة عندما ساءت العلاقات بين مصر وكل البلدان العربية، وترتب على هذا إغلاق الأبواب في وجه جميع الصحف والمجلات المصرية في هذه البلدان، فعزَّ على محررة المجلة أن تواصل أداء رسالتها، واضطرت آسفة إلى إغلاقها في سنتها الحادية والثلاثين.

ورغبة من منرفا عبيد في جعل المجلة متاحة ولو للمشتغلين بالصحافة، فقد قامت بتجليد مجموعة كاملة منها وأهدتها إلى مكتبة نقابة الصحفيين التي هي عضو فيها لكي يرجع إليها من يشاء.

وجهاً لوجه

شعر:
يسرى خميس



لا تقترب
أكثر مما ينبغى
فربما يصعقك التيار
أو ربما يفجؤك الغدر الذى ..
مالك والبئر ، وتفاحة
عندك ما يكفى من الفاكهة
فلتترك البئر على حاله
فطالما فى يدك الحبل الذى ..
فلتلق بالدلو ، ولا تقترب
ولتشرب الشئ الذى يأتيك
فأنت فى جوف صحارى جائعة
وحدك
والضبعان ، وجها لوجه !



لغز المكان فى الإبداع

الدجاجة والبيضة

بقلم: خيرى شلبى ● بريشة الفنان: جودة خليفة

قد لا يعرف الكثيرون أنني اشتريت سيارتي الفولكس واجن الشهيرة - موديل ١٩٦٠ - منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاما ، لا لكي أحل بها أزمة المواصلات وما يلاقيه الإنسان فيها من بهدلة ومرمطة وفقدان بإنسانية الإنسان ، بل لأستخدمها في البحث عن مكان بعيد يصلح ملتجئا للكتابة . ذلك أن الكتابة في البيت أصبحت مستحيلة وسط عدة ألوف من الكتب تناوشني باستمرار وتستدرجني للغوص فيها حتى يضيع الليل كله في استكشاف الكتب وتحضيرها والاستسلام لبعضها ؛ ووسط جهاز تليفزيون، وراديو ، وفيديو ، وتسجيل ، وأربعة أولاد كعفاريت أصواتهم وأذواقهم فلا ينتهي لهم تناحر وعراك ، وزوجة مسكينة لا تني تصرخ فيهم أن يكفوا ، وزوار من البلد ؛ في حين أن الشقة كلها لا تكاد تتسع للكتب وحدها فما بالك بالبشر ؟!.

كنت ولوعا بالكتابة فى المقاهى أيام كنت مقيما بالإسكندرية وخاصة المقاهى الشعبية وانتقلت معى هذه العادة إلى القاهرة لكننى ما لبثت حتى ضقت ذرعا بالزحام وبالضجيج والسوقية البشعة . ثم إننى قد شبعت إلى حد التخمة من الغوص فى أحشاء المدن والناس الشقيانين ؛ لا غرو فقد كنت بائعا سريحا لأشياء كثيرة لفترات طويلة أجوب البلاد من أقصاها إلى أقصاها أقتحم العزب والكفور والنجوع إذا تبين لى أن وراءها نفعاً ولو بنسبة واحد فى المائة ، لا يخيفنى ليل بهيم ولا يقعدنى مطر ولا يعوقنى طول المسافات .

صديق المقاهى

أمضيت سنوات طويلة صادقت فيها مقاهى وسط المدينة حتى صرت من خبرائها ، قهوة كازينو أوبرا ، قهوة متاتيا والمختلط ، بوفيه محطة باب الحديد ، قهوة البسفور ، قهوة ركس وقهوة الريحانى بشارع عماد الدين ، قهوة أم كلثوم وقهوة الخرس فى التوفيقية ، قهوة الشيوعيين - هكذا يسمونها - فى كوعة من شارع سليمان ، قهوة الأمريكين ، قهوة على بابا ، قهوة إيزافيتش ، قهوة سوق الحميدية ومن خلفها مباشرة قهوة الندوة الثقافية ، وعلى مقربة منها قهوة الحرية ، ناهيك عن قهوة ريش وقهوة ريتس بشارع سليمان، وفى هذه الأخيرة أمضيت سنين عددا أحاكى أستاذى الراحل محمد مفيد الشوباشى الذى كان يحتل إحدى المناضد ويستغرق فى الكتابة - بالكربون - لساعات طويلة جدا، ومن حين لآخر يريح



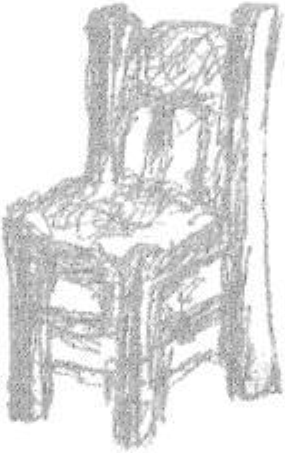
ظهره لدقائق ينفقها فى تبادل الدعابات مع الفنان زكى رستم .

مقاهى وسط المدينة - وهذه المقهى بالذات لرصيفها العريض المزدان بعلية القوم - كانت تفتننى . فأنا كقروى كنت أمارس الشعور بالبهجة إذ أرانى قد صرت فى قلب المدينة العاصمة ، ها أنذا فى قلبها حقا ، أرى الحياة كاملة أتلذذ بصخبها وضجيجها أستمد منه الحضور . إلا أننى فى أواخر الستينات كفرت بالمدينة برمتها ، صرت أمقتها ، صرت كلما توجهت إلى مكان يلتقينى فيه وجوه أكرهها وأتحاشاها صونا لدماغى وأعصابى ؛ ففى تلك الآونة - خاصة بعد رحيل الزعيم الخالد - أصيبت الأوساط الثقافية والأدبية والسياسية بطاعون جديد هو الفتك بالذات ، والفتك بالآخر بالمرة . كل واحد يلتقيك - ولو بشكل عابر - لابد أن يجرك - بشكل أو بآخر - إلى النميمة، إلى الطعن فى شخص ما . وكل غائب عن جلسة يتم نهش لحمه وعرضه بقسوة

رهيبة ، ولربما كان المنهوش مشاركا لهم منذ برهة فى نهش غائب قبله ، شوهت كل الوجوه ، أسقطت كل المثل ؛ لم يعد فى الأفق كله نقطة ضوء واحدة غير مشوبة أو مطعونة فى صلبها بخنجر من ظلام .
وكان لابد من الرحيل عن وسط المدينة ، على الأقل لاسترداد العقل والذاكرة .
وكانت الرغبة فى الرحيل آنئذ مصحوبة برائحة شىء يتخمر فى صدرى ؛ لا لم يكن قصصا أو روايات مما كنت أحلم بالتفرغ لكتابتها ، إنما كان مشروع أسلوب جديد من المقاومة الأدبية لهذا الطاعون الوبائى الفتاك ، فكثيرا ما أضبط نفسي فى لحظة غضب أكلم نفسى هاتفا بحرارة : هل فلان الفلانى حقا صفته ونعته ؟ هل يمكن أن أكون مخدوعا فى قيمة علان العلانى ؟! إلى أن تخمر المشروع بعد سنوات عديدة وبعد أن تمرست بالرواية والقصة والمقالة على نار هادئة بأعصاب رائقة فى منتجعى الأثير : حى قايتباى الجامع بين الموت والحياة فى جوار حميم ؛ حيث رحت أمعن النظر فى طيور الحديقة المصرية كلها وأختبر عمق ما تركه كل طير منها فى وجدانى وذاكرتى وعقلى ومتاعى ، فأكتشف أن قبيلة الأحباب لا حصر لأعضائها ، وإذا بى أؤرخ لسيرة الأحباب الأعيان فيما أسميته بالبورتريه على صفحات الصحف والمجلات ، وهو نوع من التكريس للنموذج، رصد لجمالياته من الداخل والخارج ، استشراف لنوره وإحياء له .
سيارتى الفولكس واجن حملتنى إلى أطراف بعيدة لكننى لم أجد فى رحابها أى قبول من جانبى ، الشعور بالاغتراب يلاحقنى ؛ فى اليوم الواحد أتنقل بين عدة أماكن ؛ ما أكثر ما خدعت فى أمكنة ظاهرها جميل آمن وباطنها حاشد بالمزعجات ؛ ما أكاد أفرد أوراقى حتى أعود فألمها ثم أبادر بالرحيل متكلفا ما لا أطيق من ثمن مشروبات وبقشيشات اعتدت أن ألوح بها مقدما فى انتظار خدمة متميزة . آنئذ أدركت حيرة الدجاجة التى كانت تستلفت نظرى منذ الصغر وهى تلف وتدور وتستغيث فى صخب مقلق؛ وتقول أمى إن «الفرخة عليها البيضة» ، أى أنها تريد أن تضع بيضة ؛ فلماذا لا تضعها وتخلص ؟ تقول إنها تبحث عن مكان آمن وأليف لتضع فيه بيضتها وهى مطمئنة على وليدها ؛ ومن اعتادت أمهاتنا مساعدة الدجاجة بحيلة خادعة لكنها - شأن كل سلوك شعبى قائم على التجربة العملية - تربوية ناجعة؛ إذ تضع الأم بيضة فى عش صناعى وتسميها : الراقوية ، أى التى ترقب البيض وتستعجل قدومه ؛ وحين تدخل الدجاجة هذا العش الموضوع فى سكتها وتجد فيه بيضة يدخل الإطمئنان قلبها متصورة أنها قد باضت هاهنا من قبل ومن ثم يكون هذا المكان هو عشها الآمن ، فترقد فيه يوما بعد يوم ، كل يوم بيضة .. الخ .
وفيما أنا حائر كهذه الدجاجة بالضبط، تاركا سيارتى تمضى بشكل عشوائى محض لعلها تكتشف مكانا يصلح عشا آمنا أضع فيه بيضى ؛ حدث أن كنت أحود من نفق الأزهر - الدراسة

- لاعتدل على طريق صلاح سالم ، فانشغل بصرى بالامتداد العمودى للنفق ولم أكن دخلته من قبل ، فشدنى بغرابته ، وفى اللحظة التى اقتنعت فيها بدخوله كنت قد حودت بالفعل وصرت فى صلاح سالم: المهم أن عجلة القيادة ارتبكت فى يدى وتراقصت السيارة ودهمنى الرعب فى المرآة العاكسة بقدوم سيارة هوجاء من تحت النفق معدولة على ظهرى مباشرة ، فانحرفت انحرافة حادة إلى اليمين لاتفاداها . فإذا بى قد صعدت على الرصيف ولبست فى سور ضريح أحمد حسنين باشا. نزلت أعاين حجم الخسارة فهالنى، إنعجن الرفرف تماما وانكسر الإكصدام والفانوس ويقرت بطن الباب الأيمن وقفت حزينا يائسا أفكر فى حل فعجل السيارة لم يعد لديه مساحة يتحرك فيها. على يمينى مقابر المجاورين الموحشة، وعلى يسارى حى الحسين والدراسة فبدأ عقلى يتجه يسارا للبحث عن ورشة. لكن طفلا صغيرا نبت فجأة فى أسفل ضريح أحمد حسنين باشا وقال لى: فيه سمكرى هناك اهه. صعدت فوق سور الرصيف ونظرت حيث أشار لى، ففوجئت بورشة سمكرة كبيرة لا يفصلنى عنها إلا ضريح أحمد حسنين، وقد عجبت كيف أمكن دخول كل هذه السيارات إلى هذه البقعة من المقابر؟ لكننى أحطت فمى بكفى كالنفير وهتفت صائحا : يا اسطى حسن . فاشرأبت رأس ناظرة فى اتجاهى، أشرت له أن يأتى ، فظهر شاب فى حوالى منتصف الثلاثينات من عمره ، اخترق ممرا ثم قفز صاعدا إلى السور صائحا وهو يرى منظر السيارة ، أووه ! ولا يهمك ! كله يرجع زى ما كان ان شاء الله ! اتفضل ! » . وسحبنى فقفزنا هابطين وهو يوصينى بأن أنساها وأنه سيبعث الصنايعية لسحبها .

كان شابا ذكيا جدا ، شهما ، جميل الشخصية ، رأى شعار الصحافة على زجاج سيارتى ، فقدم لى نفسه : إنه الأسطى حسن وردة ، كان صاحب ورشة فى جبل الدراسة أزالته الحكومة للاستيلاء على المكان ، أبوه كان «تربياً» معلما يعرفه كبار القوم ، ويملك هذا الحوش الكبير الذى دُفن فيه منذ بضع سنوات، فلما تأزمت الأمور بحسن لم يجد مفرا من اقتسام الحوش جاعلا النصف ورشة والنصف مدفنا ، ولأنه أسطى بمعنى الكلمة فإن الزبائن تبحث عنه حتى تهتدى إليه : الدليل على ذلك كثرة السيارات التى أراها قيد التصليح: وإن من زبائنه ممثلين ومخرجين ورؤساء مجالس إدارة يطلبونه بالهاتف ليذهب إليهم يتسلم السيارة ويردها صاغا سليما. ثم أدخلنى فى حارة لطيفة تقع بين حوشهم وحوش أثرى بنى بالحجر الجيرى المقتطع من المقطم . الحارة طولها عرض الحوشين ، يسدها رصيف صلاح سالم المرتفع عن أرضها بما يوازى جدار بيت من ثلاثة طوابق . فى ركن منه أقيمت عشة من الخشب والصفيح تقدم الشاى والقهوة من أى نوع وعندما يتأكدون أنهم عرفوا شخصا جديرا بالحب والاحترام فضلوه على أنفسهم بكل معنى الكلمة فى زحمة الإحتفال بى كنت ألاحظ خلال الاستغراق



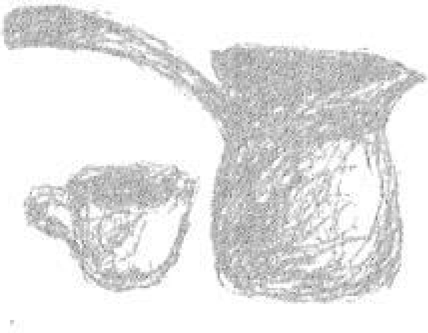
التام قيام بعض الناس للتهامس والتشاور بعيداً، فتختفي وجوه ثم تعود للظهور بعد وقت يقصر أو يطول. فلما انتزعنا أذان الفجر من خلوتنا وقمنا فوجئت بسيارتي واقفة في نهر الطريق معدولة على السكة، حيث عادت كما كانت. وأخبرني حسن ببساطة فائقة أنه اشترى الفانوس من الدراسة، وغير ميزان العجل المكسور بواحد قديم من عنده، وكذلك استبدل الإكصدام بواحد قديم من عنده أيضاً، وقال إنني يجب أن أمر عليه غداً في نفس الميعاد حيث سيكون في انتظاري عامل الدوكو ليشتغل فيها وأنا موجود، ثم إنه رفض أن يحاسبني إلا فيما بعد.

في اليوم التالي أتيت إليه داخلا بالسيارة حتى باب الورشة، ملهوفا على قعدة الأمس لأجدها مهيأة في انتظاري، وإذا بعم علي صاحب العشة قد سرح في أنحاء الورشة فاكتشف هذه الشلتة فسرقها ليضعها تحتي إذ إنني - كما قال - مسكين أجلس بالساعات الطويلة منكفئا على نون والقلم وما يسطرون. ثم أصبحت أفاجأ دائماً بأن سيارتي يتم سمكرتها للمرة الألف ربما فيما أنا معتكف داخل العشة أواصل الكتابة في ملحمة الشطار، بات من المألوف أن يرى الصنايعي عوجة في الإكصدام أو لوحة في الرفرف، بدون استئذان يسحب شاكوشه وسندته ليصلحه. أصبحت واحدا من الأسرة، بل أصبحت أحيانا أسبقهم إلى الورشة قبل طلوع الشمس لأجلس فوق حجرة من حجارة الرصيف المجوفة واقفة، لأرى الإلهام يتدفق أمام عيني صوراً حية تطلب التدوين الفوري. وآه ثم آه على جمال مثل هذه الأصبحة يوم العيد أو يوم الخميس أو أيام المناسبات الدينية، حيث تمتلئ ممرات المقابر بألوان زاهية لملابس أطفال كالزهور، وتنتشر الورود والأعواد الخضراء فوق شواهد المقابر، ويمتلئ الفضاء بصوت الشخاشيخ ومقرئي القرآن والباعة السريحة، ويتدفق الود والمجاملات بين الناس.

شيئاً فشيئا بدأ حسن وردة يسحبني إلى داخل حي قايتباي ليوقعني في أسره إلى الأبد ، كل بقعة فيه تناديني لكي أجلس ، طراز المباني ، البيوت الحجرية لا تزيد عن أربعة طوابق ، المباني التاريخية الأثرية لا حصر لها وبكثافة ، من مساجد وأضرحة للسلاطين ومدارس وأسبلة وخنقاوات وتكايا ، الدكاكين القديمة ذات الأبواب الخشبية بدرفتين تعلقان بقفل

وبرفيل ، حيث يجلس الترزية والحرايرية والسراجون والمقصبون أمام محلاتهم يعملون ، المقاهي ذات أشكال عجيبة وحميمة ، منها الغائص تحت الأرض والقائم فوق تلة جبلية والمندس داخل بناء أثرى ، حمامات بمواقد هائلة تلفظ أكواما من الرماد المشتعل تندس فيه القدرات الفخارية الملآنة بالفول المدمس . نسوان وصبايا يجلسن أمام بيوتهن أو يحملن باستلات الماء ذاهبات إلى حنفية الصدقة أو قادمات منها ، جمال فذ ، مبذول ، مرمى على الأرصفة ، أحفاد الجوارى الفارسيات والحبشيات والشركسيات والروميات والتركيات يلتقينك سافرات بسيطات برينات نقيات مسترجلات أحيانا.

وإلى أن صـــرت من سكان الحى المقيمين لم أكد بعد قد عرفت سر هذه الحميمية التى ذوبتنى فى هذا المكان حتى تمنيت ألا أخرج منه إلى الأبد . ما سر هذه الألفة؟ هل هى تفاصيل المكان ؟ محتواه الإنسانى ؟ غرابته ؟ فرادته ؟ نقاء جوه كمنطقة مرتفعة فوق القاهرة بما قيمته ناطحتى سحاب فوق بعضهما ؟ ما سر هذه الجسارة التى أهلتنى للسير ليلا فى جنح الظلام بين صفوف من المقابر الموحشة كقطيع من الافيال السوداء باركة على الأرض تحوى الخطر والمجهول؟ كيف أتيح لى أحيانا كثيرة أن أسهر فى قلب الحوش وحدى ، أن أجعل من شاهد المقبرة منضدة رخامية أفرد فوقها كتبى وأوراقى وأمكث وقتا طويلا أستقطب هسيس أوراق الشجر وأكاد أسمع حوارا



بينها وبين الأجداث الراقدة تحت هذه الشواهد منذ عشرات المئات من السنين !! كيف انتخبت لنفسى أصدقاء من الموتى أصبحت أضرب لهم المواعيد لنلتقى، معظمهم شخصيات تاريخية يوجد بينى وبينها قضايا ومسائل كثيرة مشتركة يجب أن نتحاور بشأنها كالجبرتى وأحمد حسنين وعدد من مشايخ الأزهر ورؤوس العائلات السياسية الكبيرة !! كيف أتيح لى أن أستمد الإلهام من الموت لتصعد الحياة ومن الموتى ليتعظ الأحياء؟! .

كل هذا - وإن راودنى الكثـــير من الإجابات عليه - أتركه للباحثين فى علم نفس الإبداع والمبدعين وهو مجال بكر لا يزال . وسواء حصلوا على إجابات شافية أو تخبطوا فى ذلك السبيل فإن العلاقة بين المبدع والمكان ستظل لغزا سحريا مثيرا إلى ما لا نهاية ، وسيظل غموضه نبعا ثريا للإبداع هيهات أن ينضب له معين.

كتاب الهلال

يقدم

القاهرة تبوح بأسرارها

بقلم الكاتب المغربي

عبد الكريم غلاب

يصدر

٥ مارس ٢٠٠٠

رواية الهلال

تقدم

القلوب السرى (من عذابات شهرزاد)

بقلم

فوزية رشيد

تصدر

١٥ مارس ٢٠٠٠

ذكريات لا تنسى :



الفن الشعبى

- كيف أصبحت الموالد بلا معنى ؟!
- كيف كتب صلاح جاهين الليلة الكبيرة ؟!
- كيف عاش يحيى حقى مولد السيدة زينب ؟!
- خلى السيف يجول

بقلم : حسن سليمان

ثار راجح داود ثورة عارمة وهو يخبرنى بالتليفون أن إحدى القنوات الفضائية التى تبث برامجها للعالم طلبت منه موسيقى تعبر عن وحدة القوى الوطنية لفيلم ، فاعتذر ووضع السماعة ، قلت له : ألا زالوا يكررون أخطاءهم ؟.

فمنذ زمن طويل عانى جيلي من شيء يسمى «الهز الثورى» . قال : ما هو الهز الثورى ؟ قلت له : إننا إلى الآن لا ندرى ماهو الهز الثورى ، وبالتأكيد أن الذى ركب الكلمتين معاً رجل عبقرى ، ورجوعاً إلى سنوات طويلة مضت أذكر أننى قابلت ذات ظهيرة يوسف الحطاب حاملاً كعادته حقيبة منتفخة بالنصوص ، وفي يده الأخرى ملفات لم تسعها حقيبته ، إذ كان يصر على مراجعة النصوص كلمة كلمة ، وأحيانا ماكان يعيد صياغة بعضها ، كنت أحبه .

سألته : هل لديك بضع دقائق لتشرب معي فنجان قهوة ، أجاب بالايجاب ، أخذ بيدى ومضينا ، وعلى المنضدة الرخامية فى «مقهى البن البرازيلى» . قال لى : هل تعرف ماذا حدث اليوم ؟ كان أنور فتح الله قد قدم لى سباعية إذاعية عن «الهز الثورى» وجدته قد ألف مسرحية «بريخت» «الام شجاعة» ، وجعلها بائعة طعمية ترفض البيع لليهود ، وتصبر على عدم البيع حتى ولو أدى ذلك إلى الموت جوعاً هى وأولادها . وحينما حضر إلىّ اليوم أنور فتح الله ليسألنى عن سباعيته وما تم بشأنها . قلت له ثائراً : ما هذا يا أستاذ أنور ، لقد طلبت منك سباعية عنّ الهز الثورى . قال لى : كلها ممتلئة بالثورة ، قلت له : لو وافقنا على هذا جدلا، فأين الهز ؟ فوجئت به يخلع سترته

أبو العيال دائماً محتاج ونحن على أبواب المدارس والعيد .
«يوسف الحطاب»

ويصرخ إن كان على الهز ، أهتز أنا لكم ، واقبل أنت السباعية ثم بدأ يرقص ويهز كرشه وأردافه قائلا : «دقوا على واحدة ونص» ويكرر كلمات زكريا الحجاوى لخضرة :

فاروق راح فين عوير العين
جمال الزين عطى له قلمين

ضحك كل من بالحجرة ، وضحكت أنا كذلك ، لم يسعنى سوى إلا أن أقول له : دعها يا أنور ، ثم أردف يوسف الحطاب بعد فترة وجيزة «أبوالعيال دائماً محتاج ونحن على أبواب المدارس والعيد» . فابتسمت قائلاً : هذه ليست أول مرة تصوغ فيها الأعمال يا يوسف ، كلنا فى محنة . إن مسألة تسييس الفن ستتلف كل فنوننا خصوصاً الفن الشعبى منها ، فباسميها سيمتهن كل شيء وقبل أن أكمل كلامى لاحقنى : على فكرة هل لدينا رقص شعبي، ماهذه البدعة التى اخترعها الروس لنا . إن الرقص الشعبي للشباب

والفتيات امتد من أوربا حتى توقف عند لبنان، لكتنى لا أعلم لم يأتون بفتيات بدينات ليس لهن رشاقة فى الخطوة أو التحرك مع الموسيقى، وشبان مخنثين يظلون يهتزون ويميلون ويثبون ويتقدمون ويتأخرون على أنغام أغان لا تمت إلى الرقص بصلة ، وليس بها إيقاعات راقصة . وحين قابلت أنور فتح الله كان سعيداً قال لقد صنع يوسف الحطاب من الفسيخ شربات !.

فابتسمت قائلاً : هل نجحت فى الهز الثورى ياأنور !!.

قابلنى غالب هلسه الكاتب القصصى قال لى : هيا بنا ، هناك مكان لك فى العربة سنذهب إلى السويس ، فزكريا الحجاوى سيقوم بتوعية الشعب حتى يكونوا على مستوى قيادتهم ، قلت له : دعنى ، قال : لابد أن تأتى ، أنت محتاج إلى تغيير وشدنى ، حينما وصلنا بدأ زكريا الحجاوى مخاطباً الناس قبل أن تغنى خضرة : (هل تعرفون الحكاية ياجدعان) إن عبدالناصر بالضبط كرجل فتوة بطل واثق من نفسه ، والأعداء بالضبط مثل (عيال هلافيت) جاءوا . فعبد الناصر جلس صامتاً مكانه . أخذوا يشاكسونه ويقبلون تركهم فهو لا يهتم بأمور العيال ، وأخيراً صاح فيهم (إبعد ياجدع إنت وهو إنتو مش قدى) . لكنهم إستمروا وتقدموا حتى وصلوا السويس . فقام عبدالناصر من مكانه ونزل فيهم ضرباً (فين يوجعك وفين يحرقك حتى جعلهم سطيحة بجانب القناة) لا هم قادرون على التقدم أكثر ولا هم قادرون حتى على التراجع . كان معظم الحاضرين من الأطفال ، قال لهم زكريا : (فاهمين بقه الحكاية ياجدعان) كان ينتظر الفيلم الذى بعد فقرة زكريا وخضرة ولا يعنيهم ما قاله زكريا على الاطلاق ، أما نحن فكنا نستلقى على ظهورنا من الضحك ، وأخذنا العربة راجعين فى الطريق نغنى (فات الكثير يابلدنا مابقاش غير القليل) . فجأة إنتابتنى نوبة من الضحك الهستيرى وصحت فى نشوة ممزوجة بالمرارة . (كيف لا يبقى سوى القليل فى تاريخ أمة)؟ فدائماً يمتد الأفق رغبة فى حياة أرغد وأسعد . تذكرت كلمات (تشرشل) التى كانت مقررة علينا فى المدرسة حينما تولى رئاسة الوزارة فى أحلك فترة مرت

تميز سكان منطقة السيدة زينب بتذوقهم للإنشاد الدينى وقراءة القرآن

بها بريطانيا . إذ قال لهم: «لم يعد لدى شيء أعطيه لكم سوى العرق والدموع والكد والدماء» . كان من الصراحة والشجاعة أكثر إذ قال لهم فى البرلمان الإنجليزى مرة ثانية إن فيلم الحذاء الأحمر أتى لنا من العملة الصعبة ما عجز القليل من صادراتنا أن تحققه . لم يكن بفيلم الحذاء الأحمر شيء عن نضال إنجلترا وكفاحها بل كان فقط عن قصة حب راقصة باليه تمزقها الحيرة بين حبيبها والرقص . كان تشرشل من الصراحة والشجاعة أن يدرك أن الكذب على الشعب لن يستمر كثيراً ، وأنه من الأفضل الاعتماد على شجاعة وإصرار شعب أفضل من الاعتماد على مهرجين ومنافقين .

أذكر حينما كان سكان مصر الجديدة يسمعون طلقات المدافع والصواريخ بل ويلمحون النيران فى السويس ، أن الإذاعة لدينا كانت تذيع فى هذا الوقت بالضبط (خلى السيف «يجول») !!

الليلة الكبيرة «لمولد السيدة زينب»

يختلف مولد السيدة زينب عن مولد سيدنا الحسين فى أشياء كثيرة حتى فى نوعية ما يقدم فيه ، وأهم خصائصه فى أنه أمام الباب الرئيسى للسيدة كانت توجد خيام أو غرز للمداحين أو «الصييتة» كما كان يطلق عليهم . كانوا يتبارون فى تقديم قصائدهم فى مدح الرسول والعشق الإلهى . يستثيرنى أن الإيقاع الموسيقى كان يأتى فقط من عصا نحاسية مفرغة ينقرون عليها بحبات مسبحاتهم من الكهرمان . وهذا التقليد يرجع إلى أن شيخهم «نداء» الذى كان جد الرسام حامد ندا كان مقرىء ومؤذن السيدة زينب، وأظن أنه كان يبدأ آذان الفجر بنفسه والمؤذنون فى الجوامع الأخرى يتبعونه . كان يبدأ بمقام موسيقى من المقامات فيبدأ الشيخ وأول مئذنة قريبة تسمعه تأخذ منه لتقسم على نهجه ثم يتناوله الأقرب فالأقرب، وهكذا يقسمون وينتقلون من مقام إلى آخر وفى اليوم التالى يكون هذا الأمر حديث المدينة كلها وقد سمعتهم وأنا طفل يقولون ويتناقشون ويختلفون حول الشيخ ندا . هل بدأ بحجاز كار أو سيكا أو نهاوند وأن ما انتهى إليه جامع الرفاعى كان الصبا .

وكان سكان منطقة السيدة زينب يتميزون بتذوقهم للإنشاد الدينى وقرءاة القرآن وربط كل ذلك بالموسيقى الشرقية ، ومعظم المقرئين كانوا من أبناء السيدة زينب ، وحينما أراد الشيخ عبدالباسط عبدالصمد أن يحظى بشهرة كان جواز مروره أن يختص بيوم الثلاثاء من كل أسبوع بقراءة القرآن عصر ذلك اليوم حتى المغرب فى السيدة زينب . وكان

المترددون على هذا المسجد من أهم الزواقة وفي استطاعتهم أن يجيزوا المقرىء أو لا يجيزوه . ذهب الشيخ ندا وحل محله ابنه والد الفنان حامد ندا . لكنه ليس في المستوى الروحي لوالده .

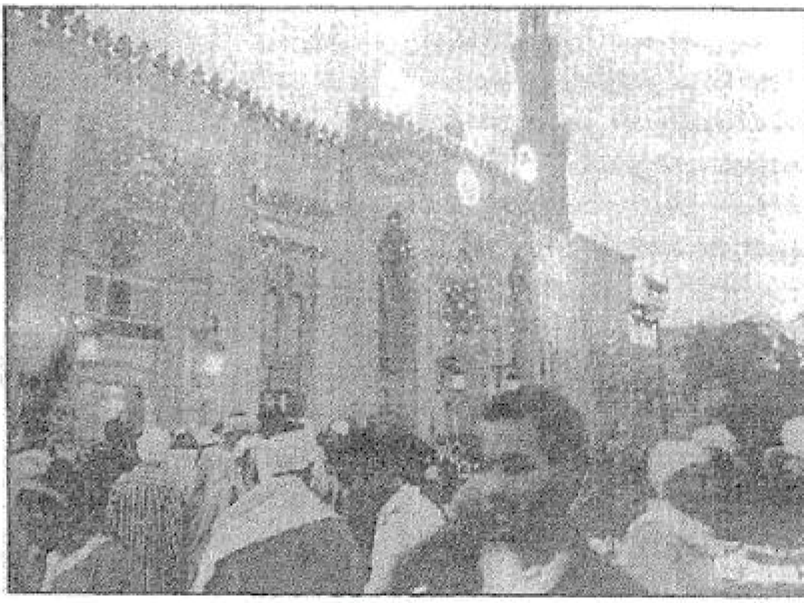
●●●

ذات مرة - أظنني - قابلت هناك عبدالهادي الجزار وكان يسبقني في كلية الفنون الجميلة بعام واحد . هذه الحادثة التي مررت بها لا يمكن نسيانها وهي الأولى والأخيرة من نوعها في حياتي . قال لي عبدالهادي : إن أردت أن ترسم فاتبعني إلى قهوة «المجاذيب» بشارع السد فانحرفنا عن المنشدين لندخل هذا الشارع وعلى الناصية الأخرى من الشارع كانت توجد مكان محل «عرفة» بائع الكنافة الجديد قهوة تسمى «قهوة الزجاج» لأن كل جدرانها زجاجية ، وهي كانت مشهورة بالمعممين من طلاب جامعة الأزهر ودار العلوم ، لكن طلاب دار العلوم كانوا يرتدون «البدلة الإفرنجي» وكانوا كثيرا ما ينسون أنهم قد تركوا الجبة والقفطان والعمامة لكنهم - دون سبب غير الاعتياد -- يحركون ايديهم اليسرى خلف اقفيتهم دافعين الطرابيش إلى الاعلى أماما كلابسي العمامة ليتمكن من هرش رأسه . أو تجدهم يرفعون سواعدهم إلى أعلى محركين أيديهم في الهواء بعصبية كأنهم يريدون أن تسقط أكمام الجبب والقفاطين خوفاً من أن تتسخ أو تسقط أطرافها فيما يشربون .

فجاة وأنا سائر مع الجزار في قهوة المجاذيب بزغ أحد المجاذيب في جبة مرقعة وطاقية عليها كتابات إسلامية وصاح فيهم : مصيركم النار ياقوم لوط .

وفي مقهى المجاذيب طلب لي الجزار شاياً وقال للنادل : أحضر له «شاياً مُمَّوناً» وكانت رائحة العنبر تفوح منه مغطية على رائحة أخرى لم أتبينها ، وفي المذاق أدركت الاختلاف أكثر لكنني لم أعلم حقيقة المواد الأخرى الداخلة . عينا الجزار ظلتا تحلق في إمرأة مجذوبة . ذات حلاوة وأنوثة على رأسها طرحها وفي يدها مسبحة . وعلى حرف الطرحة كتابات. لاحظت المرأة أن عيني الجزار لا تفارقها . مدت إحدى ساقيها وأنزلتها من على الدكة ثم دست قدمها في الكاتنلا السوداء . كما لاحظت بشكل مبالغ أن عيني الجزار انزلقتا على ساقها من أسفل حتى منتصف جسمها فشدت جلبابها الأسود وصاحت في وجهه «كله بإذنها» وهي التي تأمر .. والله لو أمرت لسعيت إليك حافية القدمين !! قال الجزار . «شي لله ياأم العواجز كلنا خدامين الست .. وستأمر إن شا . الله» !!

أما أنا فانشغلت في رسم الرجل



مولد السيدة

الذى أمامى وهو ينفخ فى مزماره الخشبى وفجأة كلما نفخ فيه شعرت أن المزمار يطول أطول فأطول مع النفخ المستمر ، وإذا بى أدفع فوهة المزمار إلى حد ملامسة الذى أرسم عليه فتعجبت وتساءلت داخليا، أهو المخدر أم ماذا ؟! وحين داومني الشعور بافتقاد النظر الصحيح وتقدير الأماكن وتداخل الألوان أدركت أن هذا هو ما يسمى «الحشيش». وحين خرجنا من المقهى كان ينطلق من مذياع قريب صوت أم كلثوم وهى تغنى : وسنة الله .. وكلما كررت لفظ الجلالة وقع نظرى على مئذنة الجامع أحسستها تطاول السحاب وتخترقه، وفى هذه الحالة فاجأنى الجزار قائلاً : هل تريد موبيلاً ؟ قلت الأمر يتوقف على شكلها . قادنى إلى زقاق جانبى . نزلنا درجات متآكلة هابطين إلى البدروم . كان الجو مظلماً إلا من ضوء ضعيف وفيه مرقت قطة سوداء أفزعتنى . وإذ برجل يمرق فجأة مرتدياً جبة وقفطاناً وعمامة خضراء . وكما ظهر اختفى . دخلنا إلى الصالة فاكتشفنا أن الضوء الخافت ينبعث من حجرة بها لمبة جاز . صفق زميلي وقال : دستور ياجماعة . ردت عليه إمرأة لم نرها بعد : ادخل ياسى عبدالهادى . الجماعة منتظرينك من مدة وحين دخلنا رأيت إمرأتين إحداهن فى العقد الثالث

والأخرى فى العقد السادس من العمر ، ويجلس على الكنبة رجل صامت أفزعنى إذ أن إبهام وسبابة يده اليمنى كانت قابضتين على شيء ما بينهما ، وعلى ظهر كفه كان وشم السبع ، وعلى جانبى صدغيه عصفورتان، وبيده اليسرى عود نعناع . كان يضع ساقاً على ساق وظهرا قدميه منتفخان بشكل لافت وسع البلغة التى بجانبه . لم يحرك ساكنا ولم يرد تحية كأن لا وجود لأحد على الأطلاق . صامت صمتاً مطبقاً. وإذا بالعجوز تكلمنا : انظر ياسي عبدالهادي وأشارت لمن يجاورها : جمال لم يكن على البال .نطق الصامت على حين غرة : حي حي ففزعت وعاد إلى صمته المطبق بشكل آلي فخرجت . جرى الجزار خلفى . قلت له : ليس هذا عالمى . إن ذلك سيجرك إلى صور أدبية وكان عمرى حين ذاك يبلغ العشرين تقريباً - ولا أدعى أن وعيى حينئذ كان مكتملاً فنياً - لكننى فيما أعتقد كانت لدى فطرة فنية رائقة ولم أكن مضطراً لافتعال الموضوعية الأدبية أو الأسطورية . سندى الوحيد فى الفن . كان شوقى عارماً نحو إبداع لوحة تقوم على بنية تشكيلية متكاملة ومتناغمة يكون أو لا يكون العامل الأدبى ضمن مكوناتها.

والآن وبعد مرور ما يقرب من نصف قرن وأنا أراجع حرية الفنان مختلفاً أو متفقاً مع وجهة نظرى أرانى لم أجاوز هذا الاعتقاد لكننى فقط قد تأكدت أن تعميق القيم التشكيلية للعمل الفنى يعطى له خلوداً مؤكداً ، وبنظرة موضوعية نجد أن الفنان الذى يتبنى الخرافة والشعوذة وصولاً إلى المحلية أو الخصوصية المصرية دون يقين ثابت من الممكن أن يصل به الأمر إلى فن الشعارات والتجريد والشكل دون مضمون .

ولذلك عاشت أعمال الجزار الأولى رغم فقدانها كثيراً من القيم التشكيلية بسبب الصدق فقط فى التعبير عن البيئة . ولوحة السد العالى تكشف عن تهافت تلك الرؤية الفارغة وحتى نهاية حياته وأعماله اللاحقة. ولا يبعد الأمر كثيراً بالنسبة للفنان حامد ندا الذى انحرف نحو مداعبة الجسد النسائى بشكل بدائى محاكاة لرسوم الكهوف ماقبل التاريخ ، وترك جذوره التى أملت عليه التعبير عن بيئته الأسطورية فى السيدة زينب فى شارع السد .

وبعد أن تركت الجزار لعالمه رجعت إلى ميدان السيدة زينب وإذ ينطلق من خيمة صوت فيه شجن ولوعة شدنى إليها كانت إمرأة تغنى بحرارة وصدق غريبين «يابهية خبرينى ع اللى جتل ياسين» . كان وراها كورس واضعاً الدفوف الكبيرة على أفخاذهم وكان الكورس مكوناً من رجل وامرأتين - يكررون خلفها نفس المقطع بصوت حزين بإيقاع جنائزى .. يابهية وخبرينى اللى جتل ياسين .. جتلوه السودانية يابوى .. من فوق ضهر

الهجين.

هذا اللحن أثر فىّ جداً حتى لازلت أذكره كأنني سمعته أمس لكنني فوجئت فيما بعد، بعد إرتباط زكريا الحجاوى بخضرة خضر، سمعتها بعد ذلك فى الاذاعة تغنى نفس الأغنية مع تغيير: جتلوه السودانية إلى جتلوه الحجازية .. لا معنى له أما السودانية فالمقصود بهم خفر الحدود المصرية وكانوا سودانيين فى ذلك العهد طبقاً لإتفاقية بين مصر والسودان أن تمد مصر برجال قبيلة معينة معروف عنها الشجاعة والشهامة ولا يخون أفرادها أبداً .. لكن وفق منطق الحجاوى كيف يكون بطل شعبى مهرباً للمخدرات مثلاً؟ إذ لابد له من أن تقص حوله قصة تصلح للسينما والدعاية السياسية. والآن تغير كل شيء فقد قام من أوعز للسلطات أنه لابد أن تكون الموالد للتوعية السياسية والثقافية ولابد أن تطهر من الدنس وأن يهدف ما يغنى إلى التوعية السياسية. فأصبحت الموالد باردة بلا طعم ولا معنى

تولد عندى عـداء للطبقة القادرة والطبقة التى تستغل حاجة البسطاء.

«يحيى حقى»

وقضى على المعنى الجميل والحقيقى للتراث الشعبى.

أصبحت باردة ثقيلة الظل. وإنعكس ذلك على الصورة فكان إظهار أشكال ورموز من التراث الشعبي والبنية الشعبية على حساب صلابة الفورم والبناء التشكيلى.

لا أذكر من الذى دفع صلاح جاهين الطالب فى السنة الأولى فنون والذى ترك كلية الحقوق رغم إرادة والده ليلتحق بها إلى الذهاب معى إلى مولد السيدة زينب لكن أعتقد أنه الفنان هبة عناية الله، وأعتقد أنهما الاثنان ذهبا معى. كان إنبهار صلاح جاهين بكل ما يراه كبيراً وولدت فكرة أوبريت الليلة الكبيرة هناك في المولد. كان صلاح يدون أحياناً جملاً يرى فيها أنها تصلح لشعره مثل المرأة التى سرقت طرحتها فقالت لزوجها فى عتاب «طار فى الهوا شاشى وأنت ما تدراشى» فهتف صلاح جاهين منتشياً إنها شعر عذب، وجملة أخرى «ياللى بينا على شارع الترومای» لم أكن فى ذلك الوقت أدرك أن صلاح جاهين أخذ الأمر بجدية. لكنى فوجئت بعد تركه الكلية، وهو فى السنة الأولى وإحترافه الكاريكاتير والشعر العامى بأن الليلة الكبيرة ظهرت للنور ونجحت لتضافر جهود كل من عمل فيها من تصميم العرائس لناجي شاكر والديكور لمصطفى كامل والموسيقى لسيد مكاوى والاخراج

الحقيقي للمدربة الرومانية المتخصصة والتي أحضرتها مصر لتدريب المصريين . نالت الليلة الكبيرة جوائز عدة خارج مصر ولا يوجد مسرحية أخرى للعرائس قد جاوزتها لأنهم كانوا يعملون فيها كلهم بروح جماعية، ورغبة في أن يضعوا عملاً مصرياً جديداً. لكن لصلاح جاهين العذر بأنها أتت بهذا الشكل لصغر سنه حين ذاك ، إذ كانت مجموعة من الفقرات المستقلة لا يربطها أي خيط درامي إلا حدوثها في قلب المولد، وكتبت بطريقة واقعية تبهر الطبقة المتوسطة التي لا تذهب إلى الموالد . لكنها طبعاً تفتقد عبق الأسطورة وعمق الحدث والحوار وارتباطهما بالجذور العميقة للتراث الشعبي ، فرؤية صلاح جاهين طبعاً ليس فيها عمق يحيى حقي ولا سريالية الجزار ولا نستطيع مقارنتها مثلاً بالسيناريو الذي وضعه «البير كامي» لفيلم «أورفيوس» الذي يعبر عن إحتفال بمولد قديس في الكنيسة . لا أذكر عدد المرات التي قرأته فيها والتي شدني إليها .

مولد السيدة زينب
يحيى حقي

يحيى حقي لا أتذكر أنني كنت معه في مولد السيدة زينب بالليل أبداً ولكن كان يجمعنا شارع السد دائماً أثناء المولد قبل الظهيرة مباشرة . شارع السد جزء من حياة يحيى حقي أو هو كل حياته فقد ولد في حارة الميضة خلف جامع الحرم الزينبي .. وحارة الميضة هدم بها المنزل الذي ولد فيه يحيى حقي وعاش طفولته وصباه . ولا أذكر أنه انتقل لمسكن آخر حتى نهاية دراسته الثانوية . وكان كثيراً ما يأخذني إلى «السرجة» التي كان يشتري منها الطحينة والعسل . وذات مرة قال لي : حسن إن ميولي إشتراكية صرفه هل تعلم لماذا ؟ تعال معي . أظن أنه بعد حارة الميضة مباشرة يقع شارع يضم سوقاً للبقالين والجزارين والحانوتية يصل إلى شارع آخر يوازي شارع السد وعلى ناصيته قسم بوليس السيدة .. لا أذكر إسمه الآن . هذا الشارع مزدحم جداً . أمسك بيدي وقال : لم نكن أغنياء وليس في مقدورنا تخزين السمن وكنت أحسد جيراننا حين أراهم يشترون طشوت الزبدة ثم نشم رائحتها وهي تسيح وتصبح سمنا وتنطلق منها رائحة طيبة . أتذكر أن والدتي كانت ترسلني خصوصاً في رمضان مع طبق إلى ذلك الشارع وسنذهب الآن لنعاين محل السمن والزبد الذي كنت أبتاعهما منه . كانت ترسلني ومعي خمسة تعريفة وطبق صاج عميق لأشتري فيه سمنا . كان صاحبه رجلاً متجهما ولم يكن ودوداً معي وكنت أعجب للحسة السمن التي يضعها في قاع الطبق وفي موسم الزبدة سألته عن سعر قنطار الزبد وبحسبة بسيطة استطاع عقلي الصغير أن يدرك كم كان الرجل يستغلنا وعلمت حينئذ أن من معه نقوداً يستطيع

العيش بأرخص مما نعيش ومن يومها تولد عندى عداء ضد الطبقة القادرة والطبقة التى تستغل حاجة البسطاء .
خرجنا من الشارع المزدحم إلى المولد بضجيجه إلى شارع السد ووجدنا حصراً ملفوفة ومستندة فى حارة الميضة على جدار المسجد . نظر يحيى إلى هذه الحُصر وقال لى : هل تعلم أننى فزعت ذات مرة وأنا راجع إلى منزلى حين وقع نظرى على إسطوانة كبيرة ملقاة من الحصير تتحرك وحدها ولم أجد تفسيراً لصغر سني وقتها وعندما كبرت أدركت أنه من الممكن أن يحدث فسق حتى بجوار المسجد .

شارع السد فى مولد السيدة زينب كانت تفترش نسوة الرصيف الآخر بعيداً عن رصيف المسجد يبعن فى وقت واحد أكواما من اللبان وبجانبها التكك الصوفية الخاصة لسراويل الفلاحين . وبجانب التكك كانت توجد الضفائر المستعارة للفلاحات لتطويل شعورهن . وبجانب كل ذلك شخاشيخ من قش القمح ملونة بصبغات مختلفة وبداخلها بعض الزلط والصفيح لتحدث أصواتاً تستثير الطفل . قال يحيى: الا ترى ياحسن أن هذه المجموعة يربطها الجنس . قلت له : كيف يأستاذ يحيى . قال هو : اللبان لجعل فم الفلاحة طيب الرائحة والتكة لسروال رجلها والضفائر لتجميل المرأة والنتيجة طفل يلعب بالشخشيخة !!.

قلت له : أذكر أغنية شعبية من سيوه قال . ماهى ؟ قلت مردداً : يابخت من رافق الزين عن الفرش شحتر عبوسه !! والمعلوم أن «العبوس» هذه هى من مثل هذه الضفائر لكنها هنا تختلف حيث تصدر إيقاعات عالية الجرس لثقل الفضة المحملة بها . توقف يحيى حقى وأمسك بساعدى وقال : يالها من بلاغة ياحسن إنظر إلى كلمة «شحترا» أنا واثق أنها ليست فى أى قاموس لكن جرسها يوحى أنها نحتت لتكون كلمة عربية صرفة ولتناسب المعنى الذى من أجله نحتت ، ولا يمكن لكلمة أخرى أن تحل محلها بذات البلاغة ، وعلى سبيل المثال تعال ننظر فى شبيهتها كلمة «بعثر» ألست معى أن «شحتر» أكثر بلاغة وسحراً ومرادفة للمعنى الخفى سالف الذكر ؟ ثم لماذا لا يهتم المجمع اللغوى باضافة كلمات مشابهة وأكثر مناسبة .. وأن المجمع يجتمع جلسة وراء جلسة لكى يصل أخيراً إلى لفظ «مسرة» بدلاً من تليفون وهى كلمة شائعة ولا تختص بمعنى واحد محدد فهناك شارع مسرة وعائلة مسرة القبطية وهناك مسرة بمعنى الفرج .. ثم إن جرس الكلمة م ، س ، ر ، ة ، لا يمكن أن يعطيك مدلولاً لآلة إتصال . وأى كاتب يستخدم لفظ مسرة لابد أن يكون هناك خلل فى تفكيره. إن الافضل أن ننظر فى الاشتقاقات الممكنة بكلمة شحتر حيث يخرج منها يشحتر .. وشحترة ..

ومتشحتر ، وكلها إضافات تغنى لغتنا الحية .

إن المتنبى نحت كلمات جديدة وسبقه فى ذلك الصعاليك العرب الجاهليين وشكسبير الانجليز نحت أيضاً كلمات جديدة دخلت فى قاموس الانجليز .. وفى باريس حين كنت هناك كانت الاكاديمية الفرنسية تناقش إدخال كلمات للشاعر العامى الشعبى عندهم «ڤيون» . ثم نظر إلىّ : هل تعرف الشاعر «ڤيون» ياحسن ؟ قلت : أجل وأظن أن ڤيكتور هوجو كان يقصد بالشاعر الذى يعيش وسط الشحاذين والفقراء والغجر شبيهاً بڤيون فى روايته البؤساء ، سالنى هل قرأته ؟ قلت : لا لأنه كان صعب علىّ جداً لأنه يستخدم كلمات من لهجة «الجلواز» قال : وكيف عرفت ؟ قلت : كنت أستأجر مدرساً يقرأه لى حتى أحس بموسيقى الشعر - التى كانت تنطلق كطلقات الرصاص السريعة - ثم يشرحه لى . قال : ما الذى أعجبك ؟ قلت : وجدت فيه العنف والقوة التى أفتقدها فى شعرائنا العاميين ، وبفضول يحيى حقى تساءل : من هو هذا الرجل الذى كان يقرأ لك ڤيون ؟ قلت : كان اسمه «ماروتى» وهو من كان يقرأ ويترجم لأحمد الصاوى محمد فقد كان معه فى باريس ويعلم أنه لم يحصل على أى شهادة ولم يحسن التكلم بالفرنسية .

قبض يحيى على ساعدى بقوة وظهر على وجهه الحزن وقال : هل تدرك أن ما قلته صدق ؟!.

●●●

كان أهم شىء يستثير يحيى حقى فى المولد تلك الخيمة الكبيرة التى يقف أمامها على منصة إمرأة فى لباس البحر مهما كان البرد قارساً وقد لطخت وجهها بالاصباغ ، وتعزف موسيقى أشبه بموسيقى «حسب الله» بجانبها طبلة كبيرة وآلتا نفخ نحاسية ضخمة ورجل يحمل لمبه فلورسنت قائلاً : بص شوف .. تحطه هنا يولع وهنا يولع وكلما تنقل بين أعضائها كانت اللمبة تتوهج . قائلاً : مفيش غش مفيش خداع .. تعال تأكد بنفسك ثم يبدأ بررر بررر نفسك يافلاح بقرشين صاغ !! بررر نفسك ياغشيم بقرشين صاغ !! يابخيل بقرشين صاغ - ياجاهل - قال يحيى : ألا تعلم أن كل سبة من هذا الرجل للفلاح تمثل سوطاً على ظهرى ؟ إنظر إلى هؤلاء البسطاء يخرجون محافظهم ولا ينتبهون إلى سباب هذا الرجل .. إنه شىء عجيب . إنها سيكولوجية معقدة ياحسن .. إننى لا أفهمها فبالتأكيد إن زوجاتهم أجمل بكثير من هذه المرأة المبتذلة . وكلما تركنا المكان يعاود الرجوع ليرى ثانية تدفق الفلاحين رغم سباب الرجل لهم .

قال : لى هل تعلم أن قصة قنديل أم هاشم كان بها كثير من الصدق والواقعية؟ لكن من الصعب علينا أن نلغى عامل الايحاء عند الرجل البسيط ، إنه

يجب أن يؤمن بشيء يربطه بأجداده .. إنه يؤمن أن أرواح أجداده تعيش معه وهي التي تحميه .. إنه لازال كما هو منذ آلاف السنين يقدم قرباناً لأجداده حتى ترضى عنه .

وعلى الفن أن يحترم المعتقد ويحترم التراث ويحترم الأسطورة . والصدق والبساطة هما يربطان الفنان والمتلقي بكل ما سبق وهذا في النهاية هو هدف الفن الشعبي . قبض على ساعدي مرة أخرى قال : هل هذا فقط في إمكانه أن يصنع فناً أو أدباً ؟ هل تعلم أنني أحيانا ما أعيد كتابة صفحة واحدة أكثر من ١٢ مرة ؟ وأنني كثيراً ما ترددت في إختيار كلمة ما عشرات المرات ؟! لم أعد أدري شيئاً إنني أحسد من يملكون السهولة ولكنني أتعب كثيراً جداً وفي الختام أجد أن ما كتبته يبدو وكأنه مكتوب من أول مرة ومن يتلقونه يطلقون عليه السهل الممتنع . ونظر بحزن قائلاً : ليت الفن يأتي دون صياغة متينة قوية لكن ذلك محال فأحياناً ما أشعر بنفسي كأنني أنحت الكلمات من حجر صلب ضنين أصلب من الماس . آخر مرة وصلت فيها يحيى حقي بعد تسكعنا في السيدة ووصلت منزله أعطاني عصاه وهو يقول : «إنك ستحتاجها يوماً ما لكنني أتمنى لك ألا تعيش عمري» .

سيبقى السؤال حائراً هل الكلمة هي وكلمات أخرى بمدلولهم القاموسي قادرة على التعبير عن نبض الحياة ودفئها متجاوزة هذا المدلول القاموسي ؟ إن الصعوبة التي كان يقاسيها يحيى وربطته بي ، هي كيف يجعل من الكلمات ما تستطيعه الألوان والظلال والأنوار والخطوط والكتل والمساحات والابعاد ؟ والوصول إلى هذا المستوى هو جواب السؤال وهو التجاوز المرتجى من الفن . توعكت وإتكأت على عصا يحيى حقي وذهبت إلى الدكتور سمير صادق وبعد الكشف وارتداء ملابسي بحثت عن العصا قائلاً له : إنها عزيزة عليّ . قال الدكتور وهو يعلم أمرها : إنها أصبحت من التراث وابحث عمن ستعطيها له من الآن . قلت : هل تظن أنني سأجد منْ يستحقها؟ ألقى بالروشتة على المكتب منفعلاً وصائحاً : أشك أشك أشك .

كم تعلمت من يحيى حقي ومن ولي الدين سامح ومن بيي مارتان ومن خالي الدكتور أحمد فخري ومن شفيق غربال ومن الدكتور صبري السربوني، ولكني في الوقت نفسه كنت أدين لهم بالولاء الكامل والطاعة عن رضا وإقتناع . ذلك الولاء الذي افتقدته ممن حاولت أن أساعدهم من الجيل الجديد . وفاء لهذا الدين . لكنهم للأسف الشديد - نسوا مقولة لدى المتصوفة الأسيويين «أن الأستاذ وحده الذي بيده يستطيع أن يضيء شمعة المريد» . وهذا لا يكون بغير الايمان المطلق بالأستاذ .

هكذا بدأت حياتى العلمية والعملية

رشدى سعيد

هذا الجزء من كتاب د. رشدى سعيد «رحلة عمر» الذى سيصدر قريبا من دار الهلال، وهى رحلة غنية مليئة بالتجارب والخبرة العلمية الطويلة.

ود. رشدى سعيد صاحب كتاب «جيولوجية مصر» وهو الكتاب الوحيد الذى يتناول أعماق طبقات الأرض فى مصر، فضلا عن أنه يعد من أوائل الحائزين على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد، وله خبرة طويلة فى العمل السياسى، عندما كان عضوا بمجلس الأمة لثلاث دورات متتالية، ورئيسا للجنة الأمن والعلاقات الخارجية بالمجلس.

كان رئيسا لمؤسسة التعدين والجيولوجيا، وأنجزت المؤسسة فى عهده خريطة جيولوجية لمصر.

وبعد هذه الخبرة الطويلة يعيش حاليا فى أمريكا بعد اتهامه فى قضية سياسية فى أوائل الثمانينات.

كل هذه الأحداث يرويها د. رشدى سعيد بخبرته الطويلة ومعرفته الواسعة بأسلوب شيق وجميل فى كتابه «رحلة عمر».





د. رشدى سعيد
فى مكتبه



د. رشدى سعيد عند اول انفاق منجم ابو طرطور عام ١٩٧١

عندما بدأت حياتى العملية فى سنة ١٩٤١ كان قد مر على مصر مائة عام بالتمام على معاهدة بلطة ليمان التى اجهضت فيها محاولتها دخول العصر قضتها راسخة تحت أغلال الديون فالاستعمار - وفيها تم هدم الصناعة التى كان قد بدىء فى انشائها فى أوائل القرن التاسع عشر، وتم اقناع المصريين بأن بلادهم زراعية فى الأساس وليس لأهلها أن يدخلوا ميدان الصناعة بأى شكل من الأشكال - وحتى العام الذى تخرجت فيه لم يكن ينظر إلى كلية العلوم إلا أنها كلية لاعداد مدرسى العلوم للمدارس الثانوية أو تشغيل بعض الأجهزة الحكومية المحدودة العدد والحجم، والتى انشئت فى أوائل القرن العشرين لرقابة الأسواق كمصلحة الكيمياء أو التمغة والموازين.

كانت درجتى بمرتبة الشرف الأولى تؤهلنى لأن أكون معيدا بالكلية إلا أن الانكماش المالى الذى واكب الحرب العالمية الثانية لم يتح للكلية أن تقوم بتعيينى بها، كما لم تكن أحوال السوق المعتمدة أساسا على الزراعة التقليدية مناسبة لايجاد وظيفتين اثنتين لخريجى قسم الجيولوجيا الوحيد بمصر فى سنة ١٩٤١ - فقد كانت عمليات التعدين والبترول استخراجية وبغرض التصدير فى الأساس كما كانت كلها بأيد أجنبية. على أن هذا العام شهد دخول إيطاليا الحرب مما أدى إلى حراسة ممتلكاتها والتى كان من بينها شركة القصير لاستخراج الفوسفات، التى كانت تستخرج حجر الفوسفات من جبال الصحراء الشرقية المطلة على مدينة القصير الواقعة على ساحل البحر الأحمر وتصدره، وكذلك إلى التحفظ على رعاياها مما ترك الشركة دون قيادة فقد كانت كل وظائفها وحتى مستوى رؤساء العمال بأيدى الإيطاليين. وقد اتصل حارس الشركة زكى الابراشى، الذى كان يعمل ناظرا للخاصة الملكية، بعميد كلية العلوم على مصطفى مشرفة فرشحنى وزميلى مصطفى عزت لملء هذا الفراغ، وهكذا أوجدت الظروف لى وظيفة ولو كانت على غير ما تمنيت، كان قلبى كله مع اتمام دراستى العالية والقيام بالبحث العلمى الذى شغفت به، ولذلك فقد قمت بتسجيل نفسى كطالب بحث بالكلية واحتفظت بعلاقة وثيقة بأساتذتى وعلى الأخص استاذى الجليل نصرى شكرى الذى كان قد عاد لتوه من بعثة بالخارج مليئا بالحماس ومحبا للعلم والبحث - وقبل أن انتهى من رسالة الماجستير التى كنت أعد لها تم تعيينى معيدا بكلية العلوم فى مارس سنة ١٩٤٣ - ومن هذا اليوم

بدأت رحلة حياتي الحقيقية التى كنت أتمناها.

على أن العام ونصف العام الذى قضيته بشركة القصير للفوسفات كانت من أخصب سني العمر ففيها تفتحت عيناى على حقائق الحياة العملية وتطبيقات العلم وكذلك على حقيقة مأساة المصرى وغربته في بلده، فقد كان عصب العمل بشركة فوسفات القصير هم عمال التراحيل الذين كانوا يساقون من بلادهم بالصعيد للعمل تحت السطح فى مناجم ذات أعماق سحيقة وفى ظروف شاقة وقاسية - وكانت ساعات العمل ثمانى لم تكن تحسب فيها ما يأخذه النزول والصعود الى ومن تحت السطح من وقت «وكان يزيد عن الساعة فى الكثير من المناجم» وكان الاجر اليومى للعامل قرشين ونصف القرش تدفع عن أيام العمل فقط. ولم يكن للعامل تأمين من أى نوع فضلا عن حق الشركة فى فصله فى أى وقت تشاء دون تعويض أو مكافأة عن نهاية الخدمة أو المعاش - كان كل ما توفره الشركة للعامل عنابر مؤقتة للسكن ونصف صفيحة من الماء العذب فى اليوم وكانتين متواضع تباع فيه اساسيات الحياة من دقيق وسكر وشاى وأنواع المعسل وبعض المعلبات رخيصة الثمن. ولم يكن يسمح للعامل بأن يصحب معه امرأته أو عائلته التى كان يتركها فى الريف يعود ما بين العام والعام، وعند نهاية خدمته الشاقة التى كانت تجهز عليه ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر على الاكثر.

كانت شركة القصير للفوسفات تستخرج الخام بطرق نصف ميكانيكية فبعد تفجير حوائط المنجم يتم جمع الخام المفتت فى زنابيل تعبأ فى عربات حديدية تجر فوق قضبان إلى خارج المنجم بأوناش - وكان متوسط ما يجمعه العامل حوالى مائة إلى مائة وعشرة أطنان فى العام كان ثمنها فى ذلك الأوان حوالى مائتى جنيه، كان نصيب العامل منها أقل من ثمانية جنيهات أجر فى العام - كانت شركة تدر ذهبا يذهب كله إلى خارج مصر التى لم يكن من نصيبها أكثر من ضرائب رمزية ومكافآت عضو أو اثنين من كبار رجالات مصر الذين كانوا يجلسون بمجلس الادارة لتسهيل مهام الشركة مع الحكومة.

هكذا كان حال مصر عندما بدأت حياتى العملية: شعبا مقهورا محصورا فى واديه الضيق لا يستطيع الخروج منه بدون تصريح - أراضيه الزراعية ملك لعائلات محدودة تأخذ خيرها لتنفقه فى سفه مظهرى، وشركاته الصناعية القليلة



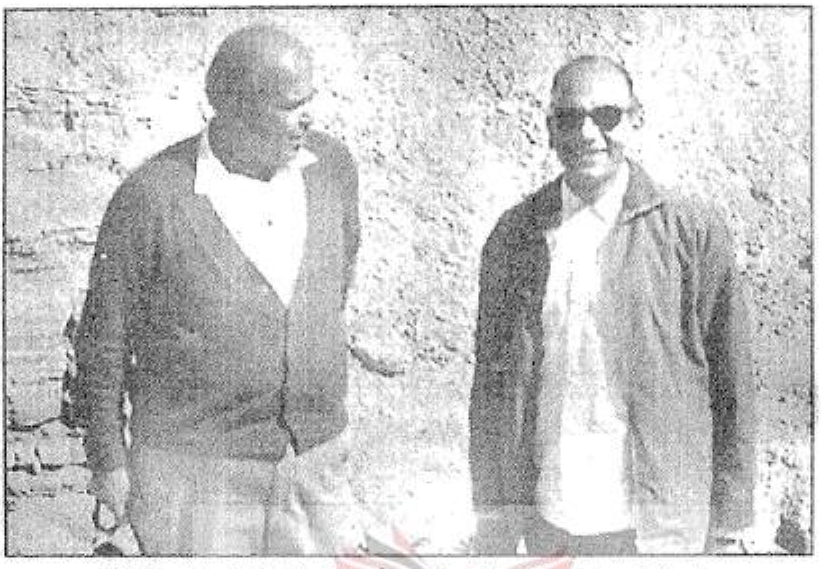
د. رشدى سعيد فى معمل كلية العلوم بالقاهرة عام ١٩٥١

وأمواله فى أيد أجنبية تنزح أرباحها إلى خارج الحدود - كان التوسع الاقتصادى ضئيلا ولم تكن الوظائف متاحة إلا لمن لهم «الواسطة» التى كانت تنتهى فى آخر المطاف الى دار «المندوب السامى» البريطانى الذى كان يقبع فى سفارته على شاطىء النيل بقصر الدوبارة يحرك كل خيوط السياسة فى مصر.

الجامعة
سنوات البعثة

كان تعيينى بكلية العلوم فى وقت بدأ فيه الضغط الشعبى لزيادة فرص التعليم فى مصر، وقد كان حتى دخولى الجامعة محدودا لدرجة كبيرة فلم يزد عدد من قبلوا بكلية العلوم الوحيدة فى مصر فى عام ١٩٣٧ عن سبعين طالبا على أن هذا بدأ فى التغير اعتبارا من عام ١٩٣٨ حين زيدت الأعداد المقبولة فى الجامعة وحين بدئ التفكير فى انشاء جامعة الاسكندرية التى افتتحت كلية العلوم فيها فى سنة ١٩٤٢.

رشحت فى أعقاب تعيينى بكلية العلوم لبعثة لاتمام دراستى بالخارج على أن يتم إيفادها حين تضع الحرب أوزارها



د. رشدي سعيد - عند بدء مشروع فوسفات ابو طرطور عام ١٩٦٩

وبالفعل تم ايفادها الى سويسرا فى شهر يونية سنة ١٩٤٥ بعد ستة أسابيع من انتهاء الحرب فى أوروبا - ووصلت مرسيليا على ظهر باخرة متهالكة أقلعت من بورسعيد كانت تقل جنودا فرنسيين وسنغاليين وهم فى طريقهم من الشرق الأقصى إلى فرنسا. وكانت أوروبا عندما وصلت اليها فى حالة يرثى لها من الفاقة وسوء النظام وروح اليأس والثورة وعدم الرضا ووجدنا عمال الميناء فى مرسيليا مضربين عن العمل فحملنا أمتعتنا الكبيرة الحجم فوق أكتافنا من الباخرة حتى مكان سيارات الأجرة التى فاوض أحد سائقيها أحد شباب اليهود المصريين الذى رافقنا فى الرحلة، وكان فى طريقه للهجرة إلى فرنسا بلغته الفرنسية الطليقة لتحملنا الى محطة السكة الحديدة لركوب القطار إلى جنيف. ولم نستطع أن نتناول فى محطة القطار أو فى أى مكان آخر فى فرنسا الطعام فقد كان تناوله يحتاج إلى بطاقات تموينية لم تكن فى حوزتنا ولم يعطها لنا أحد - ووجدنا سويسرا أحسن حالا من حيث أننا أعطينا البطاقات التموينية فور دخولنا إليها - وبدأت فى تلقى دروس

تعليم اللغة الالمانية مع مجموعة الزملاء التى رافقتنى فى البعثة، التحقت بعدها بالجامعة التى وجدت انها لم تكن تتطلب من المتقدم إلى الدراسة العليا فيه أكثر من كتابة رسالة عن موضوع توافق عليه الجامعة ـ ولم أجد بجامعة زيوريخ استاذا يمكن أن يعيننى فى دراستى لعلم جيولوجيا البترول الذى أردت أن أدرسه فقد كان هذا الفرع من العلم جديدا على أوروبا التى لم يدخل استخدام البترول فيها إلا بعد سنوات طويلة من انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولذا فقد فكرت فى نقل بعثتى إلى الولايات المتحدة التى سبقت العالم فى هذا العلم بسبب استخدامها للبترول كمصدر أساسى للطاقة منذ بداية القرن العشرين مما تسبب فى تقدمها الصناعى الكبير، وبسبب اهتمامها للبحث عن مصادره خارج حدودها وبالذات فى شبه الجزيرة العربية والتى بدأت تبدو أهميتها كمخزن للبترول فى ذلك الوقت. وتقدمت بطلب الى كلية العلوم لنقل بعثتى الى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة والتى أبدت استعدادها لقبولى إلا أن الموافقة على هذا النقل أخذت من الوقت أكثر من العامين كدت أوشك فى خلالها على الانتهاء من كتابة رسالتى التى كنت قد بدأتها بجامعة زيوريخ فى علم الحفريات الفقارية ـ وقررت عندما وصلتنى الموافقة على إلقاء هذه الرسالة جانبا والتوجه إلى الولايات المتحدة للبدء فى دراسة العلم الذى أردت أن أعرفه ـ ووصلت ميناء نيويورك فى فبراير سنة ١٩٤٨ بعد وقفة فى لندن ركبتُ منها البحر على ظهر الباخرة «كوين مارى» الضخمة، والتى كان معظم ركابها من اليهود الذين أرادوا أن يتركوا أوروبا بعد تجربتهم المريرة فيها وأن يبدأوا حياتهم الجديدة فى الولايات المتحدة ـ ووجدت الجامعة بالولايات المتحدة مختلفة تماما عنها فى أوروبا فلم يكن أمر الحصول على الدكتوراه فيها يتعلق بكتابة رسالة فى موضوع بعينه بل كان يتطلب دراسة عدد كبير من المناهج التى لابد من اجتيازها بمستوى عال من الدرجات، ثم اجتياز امتحان يقف فيه الطالب أمام مجموعة الاساتذة لكى يخبروا قدر معرفته بالعلم وابعاده وليقرروا إن كان قد أصبح مستعدا لكتابة رسالة علمية وسعدت بالجو الجديد من العمل وبالمتابعة المستمرة من الاساتذة الذين أعطونا أكبر الاهتمام، وكانوا دائما على أتم الاستعداد لمساعدتنا فى أى أمر نطلبه ـ وزاد من جو الجدية فى الدراسة نوعية الطلاب الذين زاملونى والذين كانوا جميعا من مسرحى الحرب

العالمية الثانية والذين عركتهم الحياة وزادتهم خبرة ومعرفة فشكلوا مجموعة فذة من الطلاب لمعوا فى سماء العلم فيما تلا ذلك من أيام، وارتبطت اسماؤهم بمعظم الاكتشافات الكبرى فى علوم الارض والفضاء التى حدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين.

مستقبل الأيام

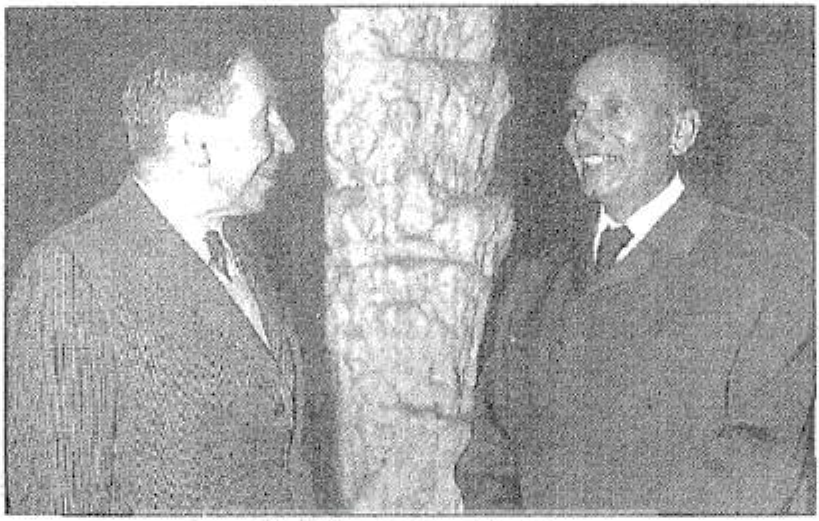
ولعل من أهم ما تعلمته فى جامعة هارفارد هو تاصيل فهمى لمنهج العلم والذى كنت قد بدأت أن أعرف مبادئه فى دراستى بكلية العلوم بالقاهرة ثم عند درساتى لدرجة الماجستير التى حصلت عليها فيها فى سنة ١٩٤٤ تحت اشراف الدكتور نصرى شكرى والتى اكسبتنى القدرة على تحليل البيانات وتقليب الاحتمالات. على ان اكبر الفائدة جاءتنى من استاذى بجامعة هارفارد هنرى ستتسون الذى اعاد معى قراءة رسالة الدكتوراه التى أعددتها وعلمنى طريق الكتابة العلمية وان افرق بين الملاحظة والتفسير وان أزن كل كلمة اكتبها ولا أزيد واحدة دون أن يكون لها لزوم وان التزم فى تنظيم كتاباتى بالفاصلة والنقط والفقرات.. وكانت هذه الامور جديدة على واحد يكتب بالعربية التى تعلم أن يجيء فيها اللفظ قبل المعنى وأن تنساب دون فصلات أو فقرات.

وقد كان لمعرفتى بطريق ومنطق الكتابة باللغة الانجليزية أثر كبير علىّ فى مستقبل الايام فقد ارشدنى الى طريقة أفضل للكتابة باللغة العربية والتى لم تؤهلنى مدرستى لها أصبحت بعدها الكتابة بها أكثر انضباطا ودقة تنقل المعنى دون أى التباس. والحق فقد كان ولايزال تعليم اللغة العربية بالمدارس المصرية متخلفا يلقن الطالب فيها قواعد النحو دون أن يتاح له فهم المنطق الذى يحكمها، ويعلم الكتابة على انها مجرد رص للالفاظ والمترادفات والجمل المحفوظة دون فصلات، ودون ان يكون للمعنى فيها دور ويجبر الطالب على الحفظ عن ظهر قلب مختارات من الأدب القديم لا توجد لمعانيها أية علاقة مع حياته أو اهتماماته، ومثل هذه المختارات كان ينبغى ان تكون من صميم اهتمامات اساتذة تاريخ اللغة لا الطالب الصغير ـ وعرفت الفائدة الكبيرة لتعرفى على قواعد ومنطق الكتابة باللغة الانجليزية عندما اضطررت إلى كتابة كتاب علمى باللغة العربية لم أجد طريقا آخر للكتابة غير استخدام هذه القواعد، ففى صيف سنة ١٩٥٥ صدر قرار من مجلس الجامعة تحت إلحاح السيد كمال الدين حسين وزير التعليم فى ذلك الوقت بتعريب التدريس بكلية العلوم ـ وكنت وحتى ذلك الوقت أقوم بالتدريس بالجامعة باللغة الانجليزية فلما صدر القرار حملت مذكراتى وقاموس شرف، القاموس العلمى الوحيد الذى كنت أعرفه والذى كان يوزع

علينا في السنة الأخيرة لدراستنا بكلية العلوم، وقضيت اجازة الصيف بمنزلي على شاطىء البحر برأس البر التي تقع على مصب فرع دمياط عند التقائه بالبحر الابيض المتوسط لاكتب محاضراتي باللغة العربية ولأعد نفسي لهذه التجربة الجديدة وجاء كتابي العربي مطبقا أسلوب العلم: جمله قصيرة استخدمت في أخرها النقط وفصلتها في فقرات، كان الاسلوب جديدا كما كانت ترجمات المصطلحات العلمية اجتهادية.

وبعد سنوات من ذلك العمل الوحيد في ميدان هذا العلم باللغة العربية والذى لم يقدر له الاستمرار بعد ان تراجعت الجامعة عن قرارها بالتدريس باللغة العربية اتيحت لي الفرصة ان اجلس مع بعض أساطين العلم في مصر لترجمة قاموس علمي أصدرته دائرة المعارف البريطانية بالانجليزية، واسندت ترجمته الى العربية الى الجامعة الامريكية بالقاهرة والتى رأت أن تشكل لجنة من كبار العلماء للقيام بهذه الترجمة واسندت لى ترجمة مصطلحات علم الجيولوجيا وكان من اعضاء اللجنة كبار الاساتذة: رياض تركي «الكيميائي» - محمود حافظ «الحشرات» - محمد عبد الفتاح القصاص «النبات» محمد النادي «الفيزيقي» واحمد عمار «الطب». كنا نجتمع في الساعة السابعة والنصف من صباح كل ثلاثاء ولساعتين بمكتبة المجمع العلمي المصري الذى كنا أعضاء فيه بميدان التحرير بالقاهرة ليقرأ كل واحد منا ترجمة مصطلحاته كما كتبها لتصقلها معه اللجنة مجتمعة في محاولة لتوحيد ترجمة الكلمات - وكان نجم هذه اللجنة هو المرحوم الدكتور أحمد عمار طبيب أمراض النساء المشهور عميد كلية الطب أنذاك. وكان الدكتور عمار عزبا لطيف المعشر أنيق الملبس عاشقا للشعر العربي وحافظا لبحوره ومحبا للغة العربية - وقد فتح الحديث معه والاستماع اليه آفاقي على ثراء هذه اللغة وامكاناتها الكبيرة للتطويع للاستخدام الحديث ولنحت مصطلحات العلم - وفى رأيى أن القاموس الذى انتهينا من ترجمته في سنة ١٩٧٧ كان ولايزال من أفضل القواميس الانجليزية العربية.

وحدث أيام دراستي بجامعة هارفارد أحد أضخم واسعد الاحداث التي غيرت حياتي وجعلتها اكثر اشراقا فقد تقابلت خلالها بوداد الفتاة المصرية التي حملتها الاقدار لتجيىء لعام واحد استقطعته من بعثتها بجامعة برن مور بالولايات المتحدة حيث كانت تعد رسالة الدكتوراه ولتستمع لمحاضرات أحد أشهر أساتذة الفلسفة بجامعة هارفارد. وكان التحاقها في ذلك العام بكلية رادكليف التي كانت معدة لاستقبال الاناث من الراغبات في الدراسة في جامعة هارفارد التي كانت مقصورة



د. رشدى سعيد مدير المساحة

فى ذلك التاريخ على الطلبة من الذكور فقط. واعجبت بهذه الفتاة المصرية فى بلاد الغربة وبادلتنى الاعجاب والحب وتعاهدنا على الزواج بعد عودتنا الى مصر، وقد تم ذلك بالفعل فى سنة ١٩٥٢. وقد درجت وداد أن تعيد معى قراءة كتاباتى وان تنتقدها وتصححها وان ترشدنى بطريقتها الرقيقة والمقنعة الى منهج العلم وأصول المنطق وهى العلوم التى كانت تدرسها بالجامعة الامريكية بالقاهرة بعد عودتها بعد حصولها على درجة الدكتوراه فى سنة ١٩٥١.

وقضيت بعد حصولى على درجة الدكتوراه فى سنة ١٩٥٠ سنة فى التدريس بالجامعة بالولايات المتحدة كانت من أخصب سنى حياتى العلمية ففيها قمت بعدد كبير من الابحاث التى نشرتها فى أمهات المجلات العلمية العالمية وذاع اسمى وعرفنى المشتغلون بفرع العلم الذى تخصصت فيه وأخذت أتبادل الابحاث معهم وبانتظام مما جعل من مكتبتى والتى لم أبخل على الانفاق عليها واحدة من المكتبات النادرة فى فرع العلم الذى تخصصت فيه، والتى كانت الأساس الذى ساهم فى بناء وحدة البحث العلمى التى بنيتها فى كلية العلوم جامعة القاهرة عند عودتى من البعثة.

أنت والهلال

«التكوين والمكان فى الرواية»

لا يمر وقت طويل إلا ونطالع فى «الهلال» بابا جديدا يطل علينا من خلاله أديب قاص ، أو شاعر ، أو كاتب مبدع فى مجالات الكتابة بأنواعها المختلفة .

فمنذ أكثر من عشر سنوات نقرأ «التكوين» لأساطين الفكر المصرى ، ونتعلم من رحلة هؤلاء الكتاب الذين يكتبون بكل الصدق كيف قرأوا ، وممن تعلموا ، وكيف يبدأون فى ممارسة كتابة إبداعاتهم ، مما يعطينا نوعا من التعلم من هؤلاء .. وقرأنا التكوين لأكثر من مائة شخصية لا أستطيع أن أحصر أسماءها فى رسالة كهذه ومن بينهم على سبيل المثال الدكاترة . شكرى عياد ، عبد العظيم أنيس ، حامد عمار ، حسن حنفى ، يوسف خليف ، سهير القلماوى ، عبد القادر القط ، الطاهر مكى ، مصطفى سويف ، فضلا عن أسماء كثيرة من بينها الأساتذة : طارق البشرى ، محمود أمين العالم ، فاروق خورشيد ، فتحى غانم ، ألفريد فرج ، والفنانون . حسين بكار ، صلاح طاهر ، صلاح أبو سيف ، توفيق صالح ، فضلا عن الروائيين من أمثال فتحى غانم ، نوال السعداوى ، أسامة أنور عكاشة .

على مدار هذه الرحلة استمتعنا بتكوين هؤلاء وغيرهم مما لا أجد متسعا لحصره وكتابته ، ومازال «الهلال» يقدم لنا فى كل مطلع شهر نجما من نجوم الفكر المصرى .

وبدأنا نقرأ الباب الجديد «الإبداع والمكان» وقد لفت نظرى هذه المقدمة الصافية للكاتب الروائى جميل عطيه ابراهيم وهو يشير إلى أنه لا يقدم مقالة نقدية أو دراسة أكاديمية ، لكنها شهادة تمس صلب العملية الإبداعية عندى ، شهادة من واقع الكاتب والكتابة ، شهادة انطباعية على حد قول أستاذنا يحيى حقى ، ربما تكون لها فائدة عند قارىء أو دارس أكاديمى فيما بعد» وهكذا نلمح كيف يهتم الهلال بتقديم تجارب الروائيين وارتباط ما يكتبونه بالمكان ، والذى جسده الفنان جودة خليفة بريشته فى الصفحات الأولى للمقال ..

وفى رأيى أن هذا هو الدور الذى دأبت «الهلال» مجلتى المحبوبة على أدائه كأفضل خدمة صحفية لأدباء بدأوا حياتهم وهم يتعلمون من جيل الكبار من الأدباء والمبدعين .

وأنا هنا أنوه إلى الجهد الكبير الذى يقدم من أجل القارىء ، وننتظر المزيد على درب ثقافة تصل إلى القلب من أوسع أبوابه .

محمد عثمان جوده
القاهرة - مدينة نصر

●● الهلال :

شكرا للقارىء العزيز . فنحن لا ندخر وسعا من أجل تقديم أفضل عمل أدبى وإبداعى لقراء الهلال، فعلى مدى مائة وثمانية أعوام تحرص على تقديم كل جديد يفيد الأديب والدارس . وكل ما يشغلنا هو المتابعة المستمرة للحركة الأدبية على كل مستوياتها العالمية . من خلال كبار كتابنا ومفكرينا الذين نعتز بدورهم المهم فى تقديم مقالاتهم وإبداعاتهم على صفحات الهلال .

صبراً أخا الإسلام

أخا الإسلام فى الشيشان إنا ... غدونا أمة موتى الإرادة
كثيرٌ نحن لكنا عجزنا ... بأن نلقى بكثرتنا القيادة
فكم من مسلم لاقى اضطهاداً ... ولم نقدر على منع اضطهاده
وكم هتكوا لنا الأعداء عرضاً ... ولم نثأر ، فصار الهتك عادة
وكم فتكوا بنا ذبحا وأسرا ... ونحن كبا بفارسنا جواده !!
وعاثوا فى الديار بنا فساداً ... وقد عنّا العدو على فساده
ترانا نحو حضن الغرب نهفو ... لنحظى فى قليل من وداده

★★★

أخا الإسلام فى الشيشان عذراً ... فإنا قد أصبنا بالبلاده
أضعنا القدس قبلا من يدينا ... وضاعت أندلسنا والريادة
فلا تعجب إذا أبصرت فينا ... جبانا هارباً ضاعت بلاده
لنا علماء ، لكن فى انشغال ... بأشياء وليس بها إفادة
فصبرا يا أخا الإسلام صبرا ... فنصر الله خص به عباده

درهم جبارى
سان فرانسيسكو

التأثير والتأثر فى الكتابات الأدبية

كثيراً ما يتأثر الأديب أو الكاتب بكتابات غيره ممن سبقه من الكتاب ، ونلمح هذا التأثر من :

١ - مجرد الكتابة فى موضوعات سبق إليها كاتب أو أكثر من الكتاب السابقين ، مع تطويع الشكل الأدبى العام للقصة أو الرواية لأسلوب العصر لغة وتصويراً ومجتمعاً .

٢ - النهج الدقيق للخط العام للمدرسة الفكرية أو التعبيرية التى اصطبغت بمنهجها كتابات الكاتب السابق (المؤثر) .

وتتضح جوانب التأثير والتأثر من خلال دراسة مدى التطابق فى منهج التعبير بين العمل اللاحق وبين جملة ما كتبه الكتاب السابقون من رواية أو قصة أو مسرحية ، وهو أمر يضم الكثير من الجوانب المجهولة التى لم تطالها كتابات النقاد والباحثين حتى الآن إلا لماماً ، وهذا يتطلب من الدارس أو الباحث أو الناقد الإلمام التام بالتراث الفكرى أو الأدبى أو الإنسانى لكبار الكتاب الراحلين ، وأن يكون على دراية كافية بكل ما انتجته عقولهم ، وأن يكون قبل كل هذا قارئاً نهماً مشغوفاً بالإطلاع واسع الثقافة جم المعرفة، فضلا عما يجب أن يكون قد حصله واختزنه من مناهج النقد ومدارسه المختلفة .

وهنا أشير إلى أن أستاذنا الكبير نجيب محفوظ قد تأثر بعدد من أدباء الغرب من بينهم : تولستوى ودستويفسكى وتشيكوف ثم توماس مان وكافكا ، ولعل تأثره بكافكا ينعكس على مجموعته القصصية «حكاية بلا بداية ولا نهاية» ، كما كان لسلامة موسى أثر قوى فى تفكيره فقد وجهه إلى القراءة العلمية (كتاب الهلال - عشرة أدباء يتحدثون - يوليو ١٩٦٥) . ورأى أن هذا النوع من القراءة، انعكس على أسلوبه من حيث سلاسة التعبير ودقة التصوير بلفظ سهل خال من التعقيد ، يصل إلى عمق الفكرة بأيسر طريق .

يحيى محمود حسين
القاهرة - مصر الجديدة

بقايا من مجد كان

للعرب روائع أمجاد
وحكايا مما قد كان
وقوافل تمتد يقينا
وتسير بفيض الإيمان
وظباء تلهو بالوادى
ونياق ترعى بأمان

وضياع تحضن (غرناطه)
وفوارس تحمي الأوطان
للعرب روائع أمجاد
وحكايا مما قد كان
اليوم رهان الاصفاد
للعرب ضياء الأزمان
بالبصرة عاشت أنهار
تمتد لتروى الشريان
ورجال كانوا للموت
هدير يخشاه الطغيان
للعرب روائع أمجاد
وشموس بين الأكوان
اليوم رماد ممتد
وبقايا من مجد كان

عبد الناصر أحمد الجوهرى
المنصورة

من أقوالهم

قال الشاعر :

مررت على المروءة وهى تبكى   فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكى وأهلى   جميعا دون خلق الله قد ماتوا

قيل للسعادة : أين تسكنين قالت : فى قلوب الراضين. قيل لها : وكيف تعيشين قالت: من قوة إيمانهم. قيل لها : وبماذا تنصحين قالت : أن تعلم النفس أنه لن يصيبها إلا ما كتبه الله لها .قيل لها : وكيف لا تدومين قالت : عندما تشعر النفس بالطمع بعد الغنى وبالشك بعد اليقين .

قال حكيم : ما أضيع المعروف عند ثلاثة :اللئيم والفاحش والأحمق، فاللئيم بمنزلة الأرض السبخة، والفاحش يظن أن معروف الناس له مخافة فحشه، وأما الأحمق فهو لا يعرف قدر ما أسداه الناس إليه .

قال رجل لمعاذ بن جبل : علمنى يا معاذ. قال : وهل تطيعنى قال الرجل : نعم. قال معاذ : صم وافطر وصل ونم واكتسب ولا تأثم ولا تموتن إلا وأنت مسلم ، وإياك ودعوة المظلوم

فى منثور الحكمة : من أظهر عيب نفسه فقد ذكاها ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رحم الله امرءا أهدى إلينا مساوينا .

بعض الناس يحسن ظاهرهم ويخبث باطنهم وهم الذين شبههم ذو الرمه.. بالماء الذى قال فيه:

ألم تر أن الماء يخبث طعمه وإن كان لونه أبيض صافيا

محمد أمين عيسوى

الاسماعيلية

تحية للشاعر العوضى الوكيل فى ذكراه

ولد الشاعر عوض الوكيل فى قرية دماص بالدقهلية فى ١٩١٥/٤/١١.تزوج الشاعر فى عام ١٩٤١ .

تخرج فى كلية دار العلوم ١٩٣٧ وتقلب فى وظائف التدريس والإدارة حتى صار فى آخر عهده وكيلا لوزارة الثقافة ١٩٧٥ م كما كان من الاعضاء النابهين فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب منذ عام ١٩٥٢ إلى ١٩٧٨ . وقد فاز بجائزة الشعر فى مجمع اللغة العربية ١٩٤٤ . وحصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى فى عهد الرئيس عبد الناصر، وتوشح بوشاح الرواد الأوائل فى عيد العلم ١٩٧٩ . ونال جائزة الدولة التشجيعية ومنح الوسام الثقافى من رئيس تونس، وقد نهل من ينابيع العقاد رحمه الله حتى صار من كبار تلاميذه .

وللشاعر تراث فنى كبير يظهر فى دواوين شعره ودراساته الادبية والنقدية. فقد اورثنا فى شعره ديوان «أنفاس فى الظلام» فى فبراير ١٩٢٥ بالاشتراك مع الشاعرين الحملاوى ومخيمر، وديوان «تحية الحياة» ١٩٣٦، وديوان «أغانى الربيع» ١٩٣٩ «أصداء بعيدة» ١٩٤٥ ، وديوان «شفق» ١٩٥٩، وديوان «رسوم وشخصيات» ١٩٦٠، وديوان «فراشات ونور» ١٩٦٤ ، وديوان «اشعار إلى الله» ١٩٧٢ وديوان «عالمى الصغير» ١٩٨٥، وديوان «محاكمات فى التاريخ» ١٩٨٦ .

ومن بين كتبه كتاب «قيم ومعايير» ١٩٤٥، «العقاد والتجديد فى الشعر» وكتاب «الشعر بين الجمود والتطور» و«قضية السفود بين العقاد وخصومه» .

رحم الله الشاعر الكبير العوضى الوكيل شاعرا أصيلا وكاتبا مجيدا .

رجب عبد الحكيم الخولى
القاهرة - حلوان - المعصرة

مطــر

فوق أوراق الشجر
مطرى
امتد مسافات
وانتحر
مطرى بللته
يد الربيع
فوق كل طرقات الندى يضيع
ترمى به
وشوشات السفر
وتطوح به
أكف القدر
حين يطول به المسير
فلا يسأل
غير الدمع من سبيل

سوسه - تونس

انشودة العربان

إنــى أرى أهــلــى مـن الـعـــــربان
قــد مــزقـــوا وتـنـاثر الـبـنـيــــان

قــد مــزقــوا من غـاصب مــســتـعــمر
لم يرحم الأطـفـــال من نـيـــــران

لـم يرحـم الـشــــيخ الـكـبـــــير ولا الـذى
فــقـــد الـذارع ومــــا له عـــيـنـان

هــب إلـى دار أمــين دكــــهـــــا
فــاليـــوم أمــســى فـــعله شـــيطان

مــــــا لـى أرى أهـلـى مـن الـعـــربان
فـى نـومـــهـم وســـبــاتـهـم لـلآن

مــــا فـكـروا أبـدا وقـــالـوا مـــا الـذى
جــــعـل الـعـــــروبـة فـى ديـار هـوان

إن الـذى جـــــعـل الـعـــــروبة هـكـذا
هــو بـعــــــدنـا عـن ربـنـا الـديـان

أحمد نادى بهلول
أسيوط - ديروط

التفاوت فى الدخل ؟

تؤدى منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية دوراً مهما فى إصدار العديد من المطبوعات المهمة ، ومن بينها نشرة التضامن والتى تصدر شهريا ، كما أصدرت ١٧٥ كتابا وكتيبا ، ومن بين أهم إصداراتها مجلة التنمية والتقدم الإجتماعى - الاقتصادى، وما أود الإشارة إليه أن العدد الأخير من هذه المجلة تناول عددا من الموضوعات منها دراسة سوسيولوجية عن البطالة وانخفاض الأجور والتفاوت فى الدخل - مثلث الفقر فى الشرق الأوسط وشمال افريقيا والتى تؤكد على أن الفقر فى هذه المنطقة قد بلغ درجة الأزمة ، وهو نتيجة ومحصلة العلاقات الاجتماعية الاقتصادية غير المتكافئة للإنتاج والتوزيع ، وتراكم الثروة فى جانب واحد لا يعنى سوى تراكم البؤس والفقر فى الجانب الآخر ، والثروة الضخمة للطبقات المسيطرة فى الوقت الراهن ! .

محمد صلاح ياسين

كفر الشيخ - بيلا

ردود الأصدقاء

●● الصديقة / إيمان ابراهيم - كلية الهندسة - جامعة حلوان

وصلتنا محاولتك الأولى لكتابة الشعر وهى بعنوان «احبكم احبائى الصغار» ، وتحتاج الكتابة الشعرية إلى مقومات كثيرة من اهمها الموهبة ، ثم قراءة الشعر والتعرف على كيفية كتابته ودراسة بحور الشعر. محاولتك هذه نذكر منها :

«فى مثل يوم ميلادك محبوبتى

اشعلتى نار الفتنة فى مهجتى

فى مثل يوم ميلادك صغيرتى

اضاءتى أول شمعة فى قبلتى !»

هناك أخطاء فى اللغة ، وكلمات ترص إلى جوار كلمات !

لابد من قراءة الشعر والتأنى حتى تتمكنى من أدواته لكى تحققى ما تتمنينه وهو أن تكونى شاعرة !.

●● الصديق : عبد العزيز محمد الشراكى - المنصورة مدينة «الفردوس»

وصلت مساهمتك الشعرية والتى سميتها «أعشاب شعرية» وأود أن أسألك ما معنى «أعشاب شعرية» أين شعرك الجميل يا عبد العزيز ؟!.

وأنشر لك «تدقيق» والتى جاءت فى أعشابك !

كنت أدقق بالعينين الفاحصتين

فأسقط فى كل الحفر

والآن أسير سليما

من بعد ذهاب البصر !

●● الصديق . عاصم فريد البرقوقى - الاسكندرية جليم

نشكرك على تحيتك للهلال والتى اشرت فيها لما تضمنه هلال يناير ٢٠٠٠ وقولك «إن عدد يناير الممتاز يؤكد أن هلالنا الحبيبة هى عروس القرن الحادى والعشرين» كما نحييك على ما تتخيله فى المستقبل .وأن تشترى الهلال من فوق سطح القمر ، وإشارة إلى ما ننتظره جميعا من مستقبل مشرق للبشرية جمعاء !.

●● الصديق : أحمد أحمد صادق - المرج - القاهرة

وصلتنا رسالتك ورأيك المختصر جدا حول القصة المنشورة فى عدد اكتوبر ١٩٩٩ (بيت العنكبوت) ونرجو أن تحدد تماما ما تقصده فى هذه الرسالة من ملاحظات !.

●● الصديق : د . أحمد عبد الحافظ عبد الباقى - منيا القمح - شرقية

تصلنا رسائلك بانتظام - ونود أن تحدد الموضوع الذى يمكن نشره فى باب أنت والهلال

●● الصديق : د . أحمد عبده محمد - بكالوريوس صيدلة

شكرا على تهنئتك ، ونؤكد أن الهلال تعتز بكتابها الذين يقدمون من إبداعهم للقراء الأعزاء، ونرحب بكل جديد يقدمه الدكتور حلمى القاعود ، وهو ليس غريبا على الهلال ، فقد كتب مقالات نقدية بها فى السبعينيات ، ويسعدنا أن نحظى بمقالاته لنشرها فى الهلال .

●● الصديق : عبد الحميد الصراف - كاردف - عاصمة ويلز

وصلتنا رسالتك والتى تشير فيها إلى تسلمك «هلال» نوفمبر ١٩٩٩ حسب طلبكم ، ونشكرك على تحيتك الرقيقة للهلال .



مــصر فى قلب العــالم

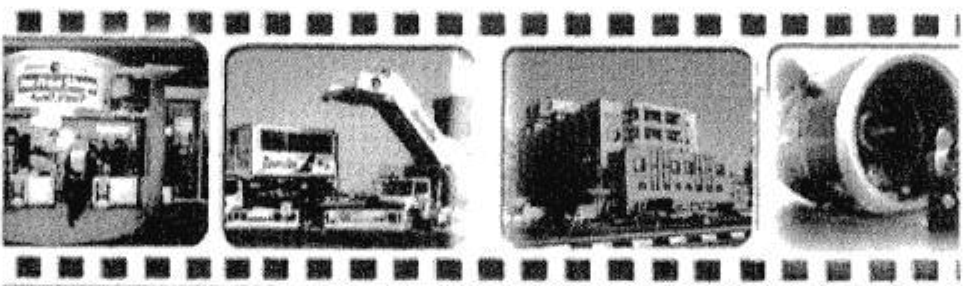
د. عبدالمنعم تليمة

عملية برشلونة التى بدأت منذ خمس سنوات هى صيغة للعمل المشترك والتعاون الدائم بين مجموعتين بشريتين عظميين، المجموعة الأوروبية «١٥ دولة»، ومجموعة دول البحر الأبيض المتوسط غير الأوروبية ابتداء من المغرب وانتهاء بتركيا «١٢ دولة» وضعت صيغة العمل والتعاون فى ثلاثة حقول عريضة: أولها السياسة والأمن، وثانيها الاقتصاد وثالثها الثقافة، وترك لأهل الاختصاص فى كل حقل وضع القواعد والمواثيق لحقلهم. عمل المثقفون، ممثلو هاتين المجموعتين على أن تكون الثقافة هى القاعدة المكينة لكل عمل وتعاون وعلى أن يمتد النظر إلى المشترك الثقافى الإنسانى توكيداً للمحاورة العظمى بين كل الثقافات والحضارات فى العالم.

وفى اجتماع مهم لمثقفى الطرفين قال مثقف أوروبى: القول فى الثقافة للمثقفين المصريين، وعلينا أن نعطيهم آذاننا برهافة، فمصر مبدعة أول وأخلد ثقافة عرفتها البشرية. وإن كان للثقافة أعمدتها الأربعة، الدين والفن والفلسفة والعلم، فإن الأعمدة الثلاثة الأولى مصرية خالصة، وجاء العلم بأخرة، فى زماننا هذا ليكون قائداً مهيمناً، ويستطيع المصريون أن يحصلوا هذا العلم وأن يمارسوا تطبيقاته «التكنولوجيا» فى سنوات معدودات، وتظل لهم الريادة الثقافية إلى آخر الزمان، إن كان للزمان آخر.

وقال مثقف مصرى: سعى المثقفون المصريون المحدثون إلى المشاركة فى النشاط العلمى والتكنولوجى العالمى. لكن عثرات جمة عطلتهم وخسرت مصر الحديثة والمعاصرة الكثير فى هذا الميدان الأساسى، بيد أن الجيل المصرى الراهن يعى هذه الحقيقة ويجد ليضع نفسه على خريطة العالم. وثمة أمر ثان عظيم لا يتم للبشرية مستقبل قويم بدونه، وهو أن طائفة طليعية من المثقفين المصريين المعاصرين تؤمن إيماناً عميقاً بأن الصعود التكنولوجى الحالى لابد له من صعود ايديولوجى - روحى فكرى جمالى - مواز، حتى تتحقق نواميس الحياة الإنسانية وحتى يعتدل الميزان، وهنا دور الثقافة المصرية المستقبلى.







روايات مصرية للجيب
النخبة الجديدة الحديثة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
تفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

الهلال

ابريل ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

هموم الأقباط

الفريق فوزى والعسكرية المصرية

ماذا حدث لأزياء المصريين؟!



...غب فى خدمة مصرفية متميزة فى كل المجالات

...شامل

...لات المحلية والأجنبية.

...ى مختلف أوجه النشاط الإقتصادية .

...جارة الخارجية (تصدير - استيراد - خطابات الضمان) .

...بط سوق المال (شراء - بيع الأوراق المالية) .

إصدار بطاقات الدفع الدولية والمحلية فيزا وماستركارد وبطاقات الدفع الإلكترونية المتنوعة .

* ترويج وتسويق وبيع حصص الأسهم لشركات قطاع الأعمال العام وتمشيا مع سياسة الدولة فى توسيع قاعدة الملكية .

* الريادة فى إدخال نظام العمل المصرفى الإسلامي طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية (٣٠ فرعا فى خدمة عملائه) .

* تقديم الخدمات غير التقليدية (سداد اشتراكات التليفون نيابة عنك وما ترغب من خدمات أخرى مثل البيع والشراء لحسابك .. وما تريد) .

* استحداث خدمات متطورة للعملاء (الفون بنك Phone Bank والهوم بنك Home Bank) .



هكذا يكون البنك

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثامن بعد المائة

أبريل ٢٠٠٠ ● ذو الحجة ١٤٢٠ هـ

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨٩٠ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا . أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً . باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا العـدد



الغلاف تصميم الفنان: محمد أبو طالب
لوحة للفنان: حسن سليمان

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنون

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة

حكمة الهلال

عزيزى القارىء :

عن نشأة ومكانة الكاتب المصرى فى التاريخ الفرعونى يقول سليم حسن: «الرجل الذى يستطيع الإبانة عمّا فى ضميره بأسلوب جميل.هو ذلك الشريف المهذب الذى تنفتح أمامه الأبواب المغلقة والآفاق الواسعة».

ويضيف : «فلا مراء فى أن المصريين أول الكتاب فى العالم... ويذكر «إن من يمعن النظر إلى كتب الحكمة المصرية ، يرى أن غرض الكاتب المصرى يسمو فوق طلب الوظيفة أو الثروة .

فهل يغزو الآفاق المغلقة أمام قومه ويبصرهم بنواحى الحياة ، ويرشدهم الى الطريقة السديدة فى الحوار والمناظرة ؟..

و لقد كان الكاتب يضمن لاسمه الخلود، إذا سمت تعاليمه، وعلت حكمته حتى تصير إرثا لذوى العقول الناضجة يتوارثونها ويتناقلونها. وكان يرى صروح الحياة جميعها عرضا زائلا، وعارضة مستردة بجوار أدبه الخالد الحى الذى يقرع الزمن فى البقاء ويسمو على البروج النحاسية فى القوة ..

وكان للمصريين القدماء أدب رفيع وآثار أدبية خلفوها مسطورة على أوراق البردي، منها مايقوله بتاح حتب : «لا تغتر بما حصلت عليه من العلم فتستكبر ، ولا تتجبر، واجعل الأمر شورى، شاور الرجل المتعلم كالمتعلم ، وإذا وجدت حكيما فاصغ إليه وإذا كنت فى صحبة جماعة، وكنت عليهم رئيسا، فعاملهم معاملة حسنة، فالعدل عظيم، قد يحصل المرء على شىء من الثروة عن طريق الشر، ولكن تبقى قوة الحق ثابتة ، وحدود الحق واجبة» .

وتحافظ الهلال على تلك التقاليد وتسير على ذات الدرب، وتبقى الهلال خزانة المعارف والفنون والآداب، وتظل صديقة للقارىء تعاشره شهرا، قبل أن تنضم الى مكتبته لتعيش وسط نخائر كتبه، وهى حريصة دائما على تقديم النظرة العربية

المعاصرة الى الحياة.

وتسعى الهلال نحو هدف بعيد أن يكون كل عدد من أعدادها جزءاً من كل هو « كل ذاكرة العالم » .

هذه الذاكرة التى تعيش لحظة حاضرة تستند الى ماض حى وتتطلع إلى الغد..

وليست مقالات الهلال مجرد موضوعات وأسماء أصحاب أقلام بل هى سياحة ممتعة في ثقافة امتدت عشرات العقود والسنين ، ويعرف من يقلب صفحاتها أن الدكتور طه حسين أخذ يكتب حلقات كتابه الشهير «الأيام» فى مجلة الهلال من أول يناير ١٩٢٧ حتى يوليو من نفس العام، وكانت الهلال أول دورية تنشر أولى قصص د. محمد حسين هيكل وهى قصة «حكم الهوى» التى نشرت فى فبراير ١٩٢٦ ، ونشرت أيضا اول قصص محمود تيمور «صابحة» فى مارس ١٩٢٨، كما نشر محمود طاهر لاشين أولى قصصه فى هلال يناير ١٩٣٣. وفاز بجائزة الهلال للقصة القصيرة الروائى محمد عبد الحليم عبدالله فى أغسطس ١٩٤٨ . وكانت قيمتها خمسين جنيها .

وبدأت صلة توفيق الحكيم بالهلال فى الثلاثينات ، وكانت قصة «الحلم والحقيقة» أول قصة تنشرها الهلال فى أغسطس ١٩٣٤، كما نشرت الهلال بعض فصول كتب الحكيم قبل صدورها ، ومن أبرزها «يوميات نائب فى الأرياف» و«عصفور من الشرق» و «مدرسة المغفلين» .

والقائمة طويلة لا يتسع المقام لذكر تفاصيلها ..

لذلك نسعى لاصدار كشاف الهلال على أسطوانة الليزر ، حتى نقدم خدمة ثقافية بالغة الأهمية للباحثين والدارسين ومن يتوقون إلى الحفاظ على الذاكرة الثقافية .

المحـــــرر



فى زيارة للجبهة قبيل حرب اكتوبر

الفريق أول محمد فوزى

بقلم : د. رءوف عباس

●● ودعت مصر الفريق أول محمد فوزي الذي لقي ربه بعد حياة حافلة بالخدمة الوطنية تضعه في مقدمة بناة الجيش المصري الحديث، ليس فقط من خلال تربيته لأفواج من الضباط الذي تعلموا علي يديه أستاذاً ومديراً للكلية الحربية لما يربو علي الخمسة عشر عاما، ولكن لفضله ودوره في جمع ما بقي من حطام القوات المسلحة بعد كارثة يونيو ١٩٦٧ الذي أعاد منه بناء الجيش المصري في زمن قياسي لم يتجاوز السنوات الثلاث حتي أصبح مهيأ لخوض معركة التحرير، وهي السنوات التي شهدت بحق حربا متصلة مع العدو زودت القوات المسلحة بالخبرات التي مكنتها ـ فيما بعد ـ من كسر أسطورة التفوق الإسرائيلي وتحقيق التوازن العسكري مع العدو عدة وأداء حتي استطاعت مصر ان تحقق ما تم انجازه في حرب أكتوبر ١٩٧٣ . فكانت عملية إعادة بناء القوات المسلحة وابقاء جذوة المعركة متقدة في نفس الوقت انجازا تاريخيا علي درجة عالية من القيمة حققته همة الفريق أول محمد فوزى ●●



ويشارك فى مناورة لسلاح المظلات

والعسكرية المصرية

وإذا كان محمد فوزى لم يستطع استيعاب سياسة أنور السادات التى اتجهت إلى تجميد قرار المعركة تمهيداً للتحول من استراتيجية المواجهة إلى استراتيجية المصالحة، فإن ذلك يرجع إلى اقتناعه تماما بأن «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، ويقينه من خطورة التوجه الجديد على بنية القوات المسلحة والخطط التى بذل فى وضعها الدماء والعرق، ففضل فوزى ان يستقيل حتى يبرىء ذمته من مغبة مسايرة التحول الذى لا يرى فيه مصلحة بلاده . وقد كلفه ذلك الموقف حريته الشخصية لما يزيد على العامين قضاهما فى السجن تنفيذاً لحكم بالسجن خمسة عشر عاما، اصدره مجلس عسكرى عقد خصيصا لمحاكمته بتهمة «العصيان والتمرد» تماما كما حوكم أحمد عرابى قبله بتسعين عاما، وعندما خرج من السجن بعد صدور عفو السادات عنه، لم ينقطع انشغاله بالهم الوطنى ولم ينس مسئوليته أمام أمته واجيال المستقبل من القادة العسكريين، فقدم خلاصة تجاربه فى مذكرات نشرت فى أربعة كتب ستظل مرجعا تاريخيا مهما لكل من يتصدى لكتابة تاريخ مصر المعاصر وتاريخ القوات المسلحة المصرية.

ولد محمد فوزى فى ٥ مارس ١٩١٥، وكان والده البكباشى أمين أفندى فوزى ضابطا بالجيش المصرى توفي قبل التحاق ابنه بالكلية الحربية عام ١٩٢٤، ولذلك ورد بملف محمد فوزى الطالب بالحربية اسم عبدالوهاب افندى زهدى سكرتير مدرسة الاورمان الابتدائية والمقيم بالعباسية كولى أمر للطالب، ولعله كان خاله، ولا يعنينا من هذا إلا ما له من دلالة على الانتماء الاجتماعى لمحمد فوزى فهو من اسرة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة التى اشتعلت من بين صفوفها جذوة العمل الوطنى على مر تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وقدمت لمصر معظم رواده ونجوم العمل الوطنى والفكر والثقافة.

حصل محمد فوزى على الابتدائية عام ١٩٢٩ وعلى الكفاءة عام ١٩٣٢، وعلى شهادة البكالوريا (القسم الادبى) عام ١٩٣٤ والتحق في اكتوبر من نفس العام بالكلية الحربية وتخرج فى يونيو عام ١٩٣٦ ليعين ملازم اول بيادة (مشاه)، وخدم خلال الحرب العالمية الثانية فى الدفاع المضاد للطائرات عن القواعد البحرية والجوية فى الاسكندرية وبورسعيد وقناة السويس عامى ١٩٤١ - ١٩٤٢، كما خدم في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، ولفت الأنظار إليه عندما طور استخدام المدفعية المضادة للطائرات فى تدمير أهداف أرضية حيث دمر برج المياه الاسرائيلى فى دير سنيد، وهو أمر غير مسبوق فى استخدامات المدفعية المضادة للطائرات. وكان لقاء محمد فوزى مع جمال عبدالناصر فى عام ١٩٤٨ على أرض فلسطين حيث ربطتهما صداقة حميمة الى جانب رفقة السلاح، فلا غرابة أن نجد محمد فوزى من اوائل من انضموا الى تنظيم «الضباط الأحرار» فى خلية كان يتولى مسئوليتها زكريا محيى الدين، وظل بعد قيام الثورة فى موقعه كضابط بالقوات المسلحة، فلم يشغل باله بالعمل السياسى أو التطلع للمناصب على نحو ما فعل بعض زملائه من «الضباط الاحرار»، وأدى واجبه فى الدفاع عن البلاد خلال العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦.

وكان محمد فوزى قد حصل على شهادة أركان الحرب عام ١٩٥٢ وعين كبيراً للمعلمين بالكلية الحربية عام ١٩٥٣، ثم أصبح مديراً للكلية الحربية

عـام ١٩٥٨، عـرف بين الطلاب بالحـزم والافراط فى الانضباط حتى قيل أنهم أطلقوا عليه «الرجل الصخرى» ولكنهم كانوا يحبونه ويرون فيه القدوة والمثل الذى يحتذى ، (وهى الصفات التى جعلت جمال عبدالناصر يختاره لحمل عبء إعادة بناء القوات المسلحة بعد كارثة ١٩٦٧).. ولم يترك إدارة الكلية الحربية إلا ليعين رئيسا لهيئة أركان حرب القوات المسلحة عام ١٩٦٤، وليصبح ـ فى نفس الوقت ـ أمينا عسكريا مساعداً بالجامعة العربية حتى عينه جمال عبدالناصر فى ١١ يونيو ١٩٦٧ قائدا عاما للقوات المسلحة ثم وزيراً للحربية فى ١٩٦٨/١/٢٠.

إعادة تنظيم القوات المسلحة

توثقت صلة محمد فوزى بالرئيس جمال عبدالناصر بعد ان اصبح رئيسا للأركان العامة، وبلغت ذروتها عام ١٩٦٦ ، وكان هذا المنصب العسكرى الرفيع قد أتاح لمحمد فوزى الوقوف على أحوال وقدرات الجيش المصرى ـ عندئذ ـ وأعد خطة شاملة لإعادة تنظيم القوات المسلحة على أسس علمية.. فقد راعه تدهور مستوى القوات المسلحة، والقصور الواضح فى تجهيز مسرح العمليات للمواجهة مع العدو، وخروج أعداد ضخمة من القادة والضباط من الخدمة لاسباب سياسية خلال حقبة زمنية قصيرة مما كان له آثاره السلبية فى الخبرة العسكرية والتقاليد العسكرية المتوارثة ، ففيما بين ١٩٥٢ ـ ١٩٦٧، كان عدد القادة والضباط الذين طردوا من الخدمة يفوق كثيرا عدد زملائهم المحالين إلى التقاعد بحكم السن أو الوفاة أو الاستشهاد مما نتج عنه عدم وجود تدرج هرمي مقرون بزمن معقول للاحتفاظ بالخبرة العسكرية، كذلك لعب الصراع الخفى بين الرئيس جمال عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر، وانفراد الأخير بالسلطة الفعلية على القوات المسلحة، دورا بارزاً فى التأثير السلبى على صنع القرار العسكرى الاستراتيجى للدولة، ناهيك عن فقدان القوات المسلحة المساندة المعنوية من الشعب بسبب الممارسات التى اتسمت باستعراض القوة واستغلال النفوذ، والخلط بين السلطات، وعدم الانضباط والتعالى والمبالغة الإعلامية فى قدرات القوات المسلحة (مقولة أكبر قوة ضاربة فى الشرق الاوسط). كل ذلك جعل محمد

فوزى يستشعر الخطر، ويفكر فى تقديم «وصفة» لعلاج أمراض القوات المسلحة ولما كان ولاؤه للقائد الأعلى صديقه القديم جمال عبدالناصر، فقد تحايل لتجاوز التسلسل القيادى الذى يلزمه بالاتصال بالمشير عامر أولا وقدم خطته لتطوير القوات المسلحة الى الرئيس جمال عبدالناصر مباشرة عام ١٩٦٦.

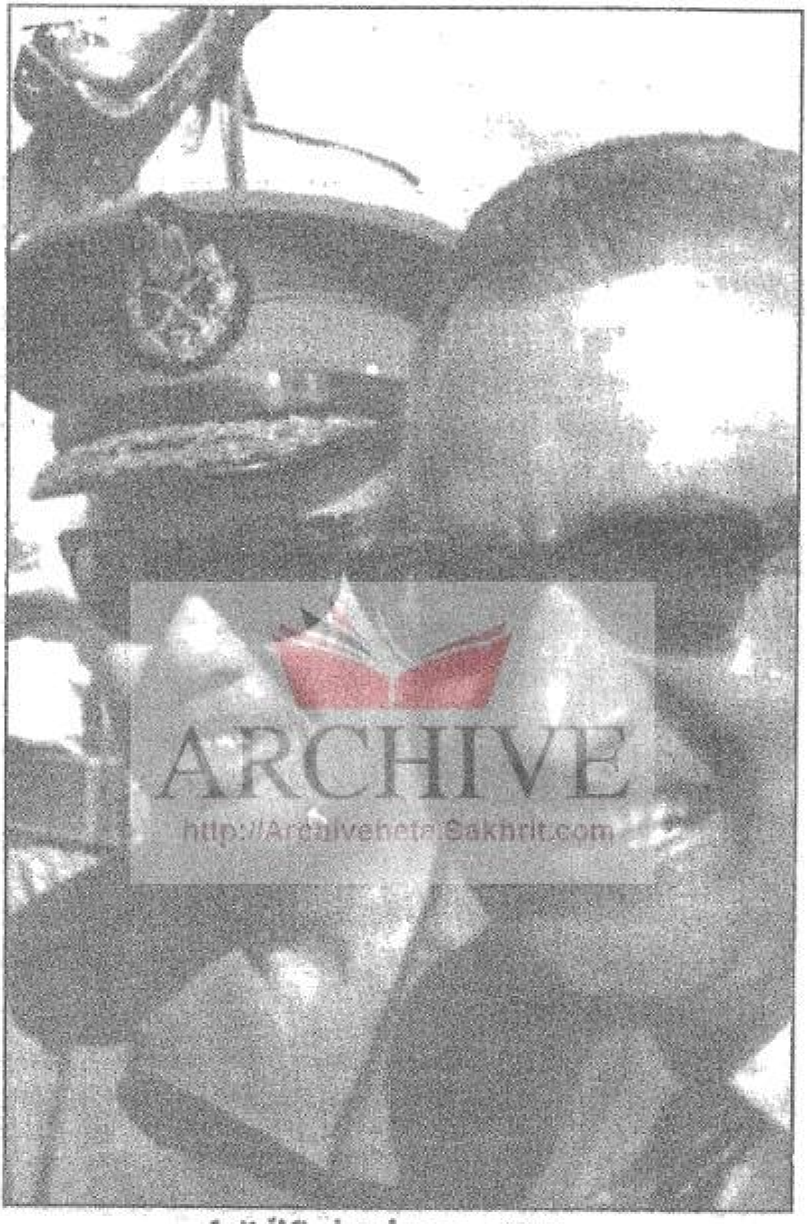
كان الزمان صيف ١٩٦٦، والمكان الاسكندرية، وقد استحسن عبدالناصر الخطة التى اقترحها محمد فوزى ، ولكنه نصح بتأجيل مناقشتها حتى يتم الفراغ من المأزق الذى كانت تواجهه القوات المسلحة فى اليمن. وفى التاسعة إلا الربع من صباح ٥ يونيو ١٩٦٧، اتصل محمد فوزى تليفونيا بالرئيس عبدالناصر ليبلغه ان الكارثة قد وقعت.. وهكذا لم تتح لمحمد فوزى فرصة تنفيذ فكرته لاعادة تنظيم القوات المسلحة إلا بعد كارثة ١٩٦٧ عندما عين فى ١١ يونيو ١٩٦٧ قائداً عاما للقوات المسلحة، ولم يعد الأمر أمر اعادة تنظيم، ولكنه اصبح اعادة بناء لحطام القوات المسلحة فى اصعب الظروف واكثرها حرجا. وقد كشفت المحنة عن معدن الرجل.. وسجلت اسمه فى مقدمة اسماء بناة الجيش المصرى الحديث.

الصمود والمواجهة والتحدى

قسم محمد فوزى فترة السنوات الثلاث التى شهدت إعادة بناء القوات المسلحة إلى ثلاث مراحل هى: الصمود، والمواجهة، والتحدى والردع.

امتدت المرحلة الأولى من يوليو ١٩٦٧ حتى مارس ١٩٦٨، وشهدت ضغوطاً سياسية للتوصل إلى حل منفرد مع اسرائيل بطريق التفاوض المباشر وعلا مد الحرب النفسية لخفض معنويات القوات المسلحة والشعب المصرى . وجاء صمود القوات المسلحة المصرية من خلال ثلاث معارك صغيرة ناجحة ليعيد الثقة فى نفس المقاتل المصرى.. وكان إنشاء أول نسق دفاعى غرب القناة وتماسك الجبهة الداخلية وراء قيادة عبدالناصر وتأييد الدول العربية الذى تحقق فى مؤتمر القمة بالخرطوم، واستمرار تدفق الأسلحة والمعدات من الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية الأخرى سنداً قويا للقوات المسلحة المصرية فى مرحلة الصمود.

وشهدت الفترة من مارس ١٩٦٨ حتى بداية عام ١٩٦٩ مرحلة المواجهة التى



عبدالناصر ومحمد فوزى فى لقطة نادرة

اتسمت بسرعة دوران عجلة تدريب وإعداد القوات المسلحة واستكمال بناء التشكيلات الجديدة المقاتلة، ودفعها إلى منطقة التجميع الرئيسى غرب القناة، وإنشاء قيادتى الجيشين الثانى والثالث الميدانيين وتحمل مسئولياتهما فى المنطقة الدفاعية، وبدء الانتقال إلى مرحلة الدفاع الايجابى والعمل ضد العدو شرق قناة السويس ليلا ونهاراً بعمليات برية، وهجمات جوية اتخذت طابع الاستنزاف لقوات العدو ومعداته ومنشآته الميدانية، فكانت مواجهة العدو وقتاله بروح الثأر أحسن فرصة لرفع كفاءة ومقدرة القوات المسلحة على القتال والحصول على معلومات ميدانية قيمة عن العدو كانت ذات فائدة كبيرة فى المرحلة التالية، واتسع نطاق المواجهة جنوبا ليشمل خليج السويس، مما زاد من أعباء العدو، واضطره إلى مواصلة تعبئة قواته حتى بدأ يشعر بالاستنزاف الحقيقى لقواته وموارده.

أما المرحلة الثالثة فامتدت من ابريل ١٩٦٩ حتى يوليو ١٩٧٠، واتسمت بتحدى العدو والقيام بمبادرات حربية من قواتنا ضد العدو فى العمق التعبوى داخل سيناء بريا وجويا وبحريا، فوصلت إلى العريش شمالاً وإيلات جنوبا مما أجبر العدو على نشر قواته وزيادة عددها فى مناطق بعيدة، واضطر إلى إشراك قواته الجوية فى العمليات فى عمق مصر وعلى خطوط المواجهة . ولكن ردع قواتنا وخاصة الدفاع الجوى وبدء انشاء حائط الصواريخ سام الشهير غرب القناة، ووجود الطيارين السوفييت وعناصر الدفاع الجوى من الصواريخ فى عمق مصر منع العدو من استخدام قواته الجوية ضد العمق المصرى، وانتهت المرحلة بتحقيق خسائر فى القوات الجوية للعدو التى تعرضت لصواريخ سام، فتحول العدو فى سيناء إلى الدفاع التقليدى وكان لهذه المرحلة مردودها السياسى ، لتبدأ الولايات المتحدة الامريكية تتجه نحو طرح الحلول السلمية للتسوية الشاملة، فقدمت مشروع روجرز لوقف اطلاق النار المؤقت.

وعندما ناقش الرئيس جمال عبدالناصر مبادرة روجرز مع محمد فوزى رأى قبول وقف اطلاق النار لمدة تسعين يومياً حتى يتم خلالها استكمال بناء المواقع الاحتياطية لصواريخ الدفاع

الجوى وزحزحة حائط الصواريخ كله إلي الشاطىء الغربى لقناة السويس، وعندما تحدد وقف اطلاق النار في الواحدة من صباح ١٩٧٠/٨/٨ استطاع محمد فوزى تحريك أربع عشرة كتيبة صواريخ بعد غروب يوم ١٩٧٠/٨/٧ لتصل الى شاطىء القناة قبل الواحدة من صباح ١٩٧٠/٨/٨ وبوقف اطلاق النار كانت القوات المسلحة قد وصلت الى قدرة وامكانيات عسكرية ومعنوية عالية بفضل المعارك المستمرة والصدام والمواجهة مع العدو التى استمرت طوال ثلاث سنوات، وبالتدريب الشاق المتواصل فى نفس الوقت، كما تم اختبار جميع التشكيلات الميدانية فى جميع أفرع القوات المسلحة على واجبات عمليات تحرير الأرض فى اطار من التنسيق والتعاون.

الخطة ٢٠٠ وتحرير الارض

فقد تم اعداد خطة تحرير الأرض (الخطة ٢٠٠) فى خط مواز لعملية بناء القوات المسلحة وتنمية قدراتها القتالية، وكان يتم تطويرها كل ستة شهور . ويروى محمد فوزى أن الرئيس جمال عبد الناصر دعا إلي اجتماع مصغر فى آخر أغسطس حضره ممثلان عن مجلس الدفاع الوطنى هما وزير الخارجية ووزير الحربية، لعرض الموقف السياسى والعسكرى بعد وقف اطلاق النار المؤقت، وبعد مناقشة الموقف أقر وزير الخارجية أن الموقف السياسي الخارجي لن يكون أفضل من الموقف الحالي. وأبدى محمد فوزى استعداد القوات المسلحة لبدء معركة التحرير فور انتهاء فترة وقف اطلاق النار . وأنهى الرئيس الاجتماع بعد أن حدد لفوزى استعداده للتصديق على خطط العملية الحربية المرحلية والشاملة لتحرير الأرض فى مرسى مطروح فى الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٧٠.

وسافر محمد فوزى مع الرئيس بالقطار إلى مرسى مطروح ومعه ١٤ خريطة تشمل قرارات (الخطة ٢٠٠) الشاملة، والخطة (جرانيت) المرحلية، وكذلك خطة القوات المسلحة السورية لتحرير الجولان موقعا عليها من وزير الدفاع السورى، أما الخطط المصرية فلم يكن ينقصها سوى توقيع الرئيس باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة. ويذكر فوزى أن الرئيس شغل بزيارة مفاجئة قام بها القذافى ثم وقعت حوادث الأردن (ايلول الأسود) فلم يتمكن من الانفراد بالرئيس عبد الناصر لتوقيع الخطط ولكنه أبلغه شفويا بالتركيز على تنفيذ الخطة (جرانيت) المرحلية بعد انقضاء الفترة

الأولى لوقف اطلاق النار فى ٧/ ١١ / ١٩٧٠. ولكن وفاة عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر حالت دون استمرار التخطيط الزمنى المقرر لبدء معركة التحرير.

ويؤكد محمد فوزى أن قياس قدرات قواتنا على قوات العدو فى أواخر ١٩٧٠ وأوئل ١٩٧١ كانت لصالح قواتنا عددا وتسليحا وكفاءة، وأن توقيت تنفيذ الخطط الموضوعة للتحرير والتى تم التدريب عليها عمليا كان توقيتا مخططا تخطيطا سليما. وقد أحست اسرائيل بذلك الاختلال فى ميزان القوى، فعززت قواتها عام ١٩٧٢ و ١٩٧٣ بتسليح أمريكى إضافى وخاصة فى قواتها الجوية والمدرعة بما يوازى ثلث قوتها العسكرية عام ١٩٧١، وبذلك بدأ ميزان القوى يتحول لصالح اسرائيل ابتداء من عام ١٩٧٣، مما يؤكد - مرة أخرى - أن توقيت معركة التحرير فى أواخر ١٩٧٠ أو أوائل ١٩٧١ كان توقيتا سليما.

***

كانت وفاة عبدالناصر، وتصفية المقاومة الفلسطينية فى الأردن فى سبتمبر ١٩٧٠ لها تأثيرها على الموقف الاستراتيجى العربى عامة، ولكنها لم تؤثر على التفوق العسكرى العربى على إسرائيل، وبدأ السادات يرسل إشارات تلمح إلى استبعاد معركة تحرير الأرض بالقوة، عندما أعلن عن مبادرته من أجل حل جزئى فى ٤ فبراير ١٩٧١، موضحا أمله فى انهاء الصراع العربى الاسرائيلى عن طريق الحل السلمى، مما أدى إلى وقوع خلافات فى الرأى بينه وبين المجموعة القيادية التى ورثها عن عبدالناصر، وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك على موقف فوزى من الرئيس الجديد الذى رأى يماطل ويسوف فى تنفيذ خطة التحرير.

جندي لا تشغله السياسة

لقد كان محمد فوزى جنديا لاتشغله السياسة إلا من زاوية تأثيرها على الموقف العسكرى، ولم يسبق له أن حرك ميدان السياسة بعدما قامت الثورة، فقد ظل منكبا على أداء واجباته كضابط ومعلم ومدير للكلية الحربية، واكتفى بدور المراقب للصراع السياسى وصراع السلطة بين عبدالناصر وعامر دون أن يورط نفسه فيه، حتى اذا وجد نفسه فى السلطة قائدا عاما ووزيرا للحربية لم تشغله السياسة طوال عمله تحت قيادة عبدالناصر إلا من زاوية هدفه وواجبه وهو بناء القوات المسلحة وتحرير التراب الوطنى، وكاد يصل إلى تحقيق الهدف

بالتحرك نحو معركة التحرير التى حدد عبدالناصر موعدها (شفويا) قبل أسبوعين من وفاته . أما السادات فله باع طويل فى السياسة وألاعيبها جعله يبقى فى دائرة السلطة طافيا على السطح، وجاء موت عبدالناصر المفاجئ ليضعه فى موقع القائد الأعلى للقوات المسلحة فكان طبيعيا أن يتخلص ممن عملوا مع عبدالناصر حتى يضمن عدم التعرض لتوجهاته السياسية الجديدة، وبعبارة أخرى كان الصدام الذى وقع بين السادات ومجموعة القادة الذين ورثهم عن عبدالناصر صداما متوقعا، فلم يكونوا رجاله، كما أنه كان يريد أن يتبع أسلوبا مختلفا فى العمل لن يستطيع اتباعه إلا إذا تخلص منهم، فكان الموقف من معركة التحرير فخا استطاع اصطيادهم به.

ونصب السادات الفخ عندما ارسل إشارات سياسة المصالحة التى أزعجت من عبئوا تحت قيادة جمال عبدالناصر للثأر من هزيمة يونيو ١٩٦٧، وشاركوا فى تحمل مشقة إعادة بناء القوات المسلحة وعلى رأسهم محمد فوزى الذى ألح على السادات أن يصدق على خطة معركة التحرير، فراح يماطل ويسوف، ثم حدد موعدا ولكنه رفض توقيع الوثائق الخاصة به، فلم يطق محمد فوزى صبرا وهو يرى أن مرور الوقت لن يكون فى صالح المعركة اذا انقضى الظرف التاريخى المناسب، ولما كان قائدا عسكريا ملتزما استقال من منصبه وقبع فى داره، وتبعته المجموعة التى ضمت رجال عبدالناصر فكان ما كان من تعرضهم للتصفية فيما سمى بثورة التصحيح التى جعلت من ١٥ مايو ١٩٧١ بداية لشرعية جديدة استند اليها السادات، وجعلها قاعدة توجهه السياسى الجديد.

* * *

وعندما أضطر السادات إلى تنفيذ خطة التحرير، لم يكن هناك مفر من الاقتصار على الجانب المرحلى مع تحجيمه ليصبح أداة لتحريك الحل السياسى، وهو ما تحقق فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ولكنه لم يستطع أن ينكر فضل محمد فوزى فأشاد به فى أكثر من مناسبة وما تحقق على يديه من إعادة بناء القوات المسلحة وإعدادها لواجب التحرير. وكان حرص الرئيس محمد حسنى مبارك على الاشتراك فى تشييع جنازة فوزى تقديرا لدوره التاريخى فى خدمة وطنه وأمته.

هموم الأقباط..

الغرب والمسألة الدينية!

بقلم: أمين يسري

فى القرية الصغيرة التى أنتمى إليها والتى تقع على مشارف محافظة الشرقية يوجد جامع وإلى جانبه كنيسة. يعود تاريخ إنشاء هذا الكنيسة، إلى مايزيد عن مائة عام، وقد عشت طفولتى وجزءا من صدر الشباب فى هذه القرية دون أن أشعر يوما بالتفرقة بين المسلمين والأقباط إلى فترة السبعينيات.

أما فى بيتنا فى القاهرة - فى حى الظاهر - فأتذكر أننا كنا نمثل الأقلية المسلمة فى هذا الحى وفى هذا البناء الذي كنا نسكنه تحديدا.. كانت أسرتى هى الأسرة المسلمة الوحيدة فى العمارة. فكانت ابنة اسكندر فرح رائد المسرح تقيم فى الطابق الثانى مع أعمامها بينما كان «الخواجة يوسف» اليهودى مع ابنته الجميلة التي فتنت بها فترة سن المراهقة راشيل يقيم فى الطابق الرابع، أما الدور الأول فاحدى شققه كانت تسكنها امرأة عجوز يهودية بمفردها وجعلت من مسكنها معبدا يهوديا صغيرا تقام فيه الصلوات وربما الاجتماعات بكثرة إبان حرب فلسطين الأولى فى عام ١٩٤٨.. وفى مواجهتها كانت تقيم أسرة قبطية.

ومن ثم فقد عشت بين الاقباط واليهود ونشأت فترة التكوين دون أن أشعر بفارق الديانة بينى وبين أقرانى وأصدقاء العمر من الجيران سواء فى القرية أو المدينة.

هموم مستجدة

من هنا كان اهتمامى كبيراً بالكتاب الذى دفع لى به الأخ والصديق رئيس التحرير - الحماية والعقاب للأستاذ سمير مرقس - لأعد له عرضا. ومن هنا أيضا كان شغفى بقراءة الكتاب قراءة متأنية لأتعرف أكثر على هموم الأخوة الأقباط وعرضه لمحاولات تدويل هذه الهموم وتوقيع العقاب على مصر من خلال قانون أمريكى إذا رأى الرئيس الأمريكى ذلك!!، وهى هموم مستجدة على الشارع المصرى بطول البلاد وعرضها لم تظهر إلا فترة السبعينيات ومابعدها، وبسبب التجاهل وعدم التصدى بحزم للأساس والسبب



الحقيقي لقيام ظاهرة مايسمى «بالفتنة الطائفية» فقد تصاعدت حتى استفحلت ليلة انتهاء السنة الأخيرة من الألفية الثانية.

لهذا كله كان شغفي بالكتاب ولهذا أيضا جاء احتجاجي خافتا لرئيس التحرير لقصر المساحة الزمنية التي منحني إياها للانتهاء من إعداد عرض له. والواقع أنني وجدت نفسي أمام كتابين وليس كتابا واحدا ضمهما وجمع بينهما المؤلف وأدخلهما داخل غلاف واحد، وكلاهما يستحق الاقتناء والقراءة بعناية.

الكتاب الأول ـ وهو الذي شغل الفصلين الأول والثاني ـ هو عن «الغرب والمسألة الدينية في الشرق الأوسط».

والكتاب الثاني ـ الذي هو القسم الثالث والأخير ـ هو «دراسة خاصة عن الأقباط : التاريخ، المواطنة، الهموم، والمستقبل».

وعلى حد قول المؤلف ـ الأستاذ سمير مرقس ـ وهو الباحث والوطني الغيور المعني بقضايا المواطنة والشأن القبطي والحوار الإسلامي ـ المسيحي، فإن دافعه للجمع بين الموضوعين أنه يرى، أنه على مدى السنوات الماضية ظلت قضية التكامل الوطني بين المسلمين والأقباط واحدة من الإشكاليات البارزة، فكان عليه مهمة أولى لدراسة «الداخل» المصري بتفاعلاته وتطوراته التي جدت على بنية المجتمع، ومهمة ثانية لدراسة «الخارج» باستراتيجيته وسياسته التي تحتل فيها قضية المسألة الدينية مساحة لا يستهان بها، باعتبارها آلية يمكن توظيفها لتحقيق مصالحه. و«الخارج» هنا هو في التاريخ الحديث الدول الكبرى بما فيها روسيا القيصرية، وفي وقتنا الراهن، الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا.

حديث عن المواطنة

هذا هو التبرير الذي يقدمه المؤلف الجمع بين الموضوعين في كتاب واحد. وهو تبرير مقنع على أية حال. ولكن شعورا انتابني بعد قراءة الكتاب أن المؤلف استهدف أصلا وضع كتاب عن هموم الأقباط لكنه تحرج لأنه واحد منهم، وخشي ـ وهو الوطني الغيور ـ من تخصيص كتاب عن هذا الهم يكتبه قبطي قد يُظهر الكتاب للقارئ، وكأن الأقباط عنصر مستقل له قضية مستقلة عن قضايا مصر والمصريين مسلمين ومسيحيين وعلى غير ما يعتقد وعلى غير مايريده بمثل ما أثبت هو ذاته في الكتاب عند الحديث عن المواطنة، فحتى ـ إذا

صدق ظني ـ وبعض الظن إثم ـ فإن هذا الأسلوب في عرض الهم القبطي جاء موفقا، وهو تصرف لبق «دبلوماسي» يحمد له، ولكني آخذ عليه ـ كما على غيره ـ وسيأتي الحديث عن هذا لاحقا ـ هذا الافراط في الحساسية المغالي فيها بالانتماء للديانة القبطية الذي يقترن ويتزامن مع الشعور بالاضطهاد، هذا مع ضرورة توضيح أن التدين العميق ـ للمسلم والمسيحي ـ متى خلا من التعصب الذي يؤذي الآخرين أمر مطلوب، ولاتثريب على فاعله بل له ثوابه في الدنيا والآخرة. فهذه الحساسية تتزايد كلما كانت مصر كلها في أزمة ـ ومن تداعيات هذا الأزمة ظهور المشكلة الطائفية، وتختفي هذه الحساسية ـ أو بالأحرى تتوارى ـ عندما تهدأ الأزمة، فالذي لابد أن يدركه ويعقله كل الأخوة الأقباط أن الهم القبطي هو هم مصري يخص كل المصريين ـ مسلمين وأقباطاً ـ ومن حق كل مواطن مسلما كان أو مسيحيا التحدث بشأنه والحديث عنه علنا باعتباره شأنا مصريا عاما، فغني عن الذكر أن الذي تناول الشأن القبطي بتعمق من المفكرين والكتاب المسلمين هم أكثر من الأقباط عددا،، وما كتاب المستشار طارق البشري «المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية» وكتاب السفير الدكتور مصطفى الفقي عن ذات الموضوع إلا نموذجا لذلك، بل إن الندوة التي دعت إليها «جمعية النداء الجديد» عن هموم الأقباط والبيان الصادر عن «المائة» في أعقاب هذه الندوة ـ وغالبية الموقعين عليه من المسلمين ـ لدليل قاطع على أن القضية مصرية وليست دينية، وأنها لاتخص «طائفة» إنما تتصل بالوطن كله وبكل من يتشرفون بالإنتماء إليه حكاما ومحكومين تقع مسئوليته عليهم جميعا بلا تفرقة بين ديانة ولا بين موقع في السلطة ولا بين موقع على خريطة الوطن شماله أو جنوبه.

ومع ذلك فنحن ازاء دراسة جادة هي نتاج عقل وفكر استقامت عقيدة صاحبه فتولدت عنها الاستقامة السياسية في الحكم وفي الموقف. وهذا مانجده في كل أقسام الكتاب وبين طيات حروفه، فعندما نطالع في الكتاب الأول أو بالأحرى القسم الأول والثاني من الكتاب عنايته بتتبع موقف الغرب من المسألة الدينية في الشرق الأوسط، نجد أنفسنا أمام دراسة تستحق اهتمام كل مصري بل كل عربي بل كل من ابتليت بلاده ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ في فترة من تاريخها بالاستعمار انجليزيا كان أو فرنسيا أو بلجيكيا... وهذا ما تنبه له المستشار طارق البشري في المقدمة التي وضعها للكتاب.. : «فما من بلد تركه الاستعمار إلا وخلف فيه مشكلة حدود تهدأ وتثور وتخبو وتشتد والاستعمار المنسحب يؤيد الضارب والمضروب لأن مايهمه هو استمرار الشقاق والقلاقل»

ثم بدأ المؤلف يتابع مسيرة التدخل الغربي السافر في تسيير شئون منطقتنا

منذ حكم الدولة العثمانية، وفي سياق المشهد التاريخي الذي عرضه المؤلف بإيجاز غير مخل، كان الظرف مواتيا مع نهاية القرن الثامن عشر، أن يجدد الغرب هجومه على منطقتنا في إطار مخطط محكم بالدمج العنيف والقسرى في المنظومة الأوربية الفتية آنذاك من خلال علاقة تقوم بين طرفين أولهما مهيمن وثانيهما ملحق، وقد احتاج تحقيق ذلك إلى التغلغل في عمق المنطقة بل والاستقرار فيها على أساس تجزئتها، انطلاقا من الخبرة التاريخية التي تقول إن الوحدة تعنى عدم القدرة على النفاذ، وقد أدت هذه السياسة إلى شق المجتمع المصرى أفقيا وإحداث مايمكن تسميته بالانفصام الحضارى بين نموذجين في التطور والتنمية .

فإذا ماتحققت التجزئة الأفقية جاءت بعدها التجزئة الرأسية أو شق الجماعة الوطنية على أساس دينى (مسلمون وأقباط)، والطائفية هي في رأى المؤلف ورأى الدكتور جمال حمدان أداة سياسية كان الاستعمار هو الذى غذاها إن لم يكن خلقها ليدعم بها وجوده.

شق الجماعة الوطنية

وقد تعددت وتنوعت محاولات الغرب في شق الجماعة الوطنية وتجزئتها إلى مسلمين وأقباط، وقد حصر المؤلف هذه المحاولات في مراحل خمس لكل مرحلة استراتيجية خاصة بها (١) مرحلة الامتيازات الأجنبية واستراتيجية الرعاية المذهبية (٢) مرحلة الإرساليات التبشيرية واستراتيجية الاقتناص والتفكيك التى مثلت خلالها الكنيسة القبطية الوطنية العائق الأكبر أمام هذه الإرساليات حتى بات مهما للغرب حتى يتحقق لهذه الإرساليات دورها من تفكيك الكنيسة القبطية وتحويل أبنائها بالتوازى مع ضرب العلاقة بين المسلمين والأقباط من خلال اثارة الجدال الدينى بينهما. (٣) مرحلة الاحتلال البريطانى واستراتيجية حماية الأقليات وتدويل مصر وسياسة فرق تسد، وينقل المؤلف عن المستشار البشرى ذكره أنه «إذا كانت مصر لاتعرف فروقا قومية ولا لغوية بين أهلها فلم يكن أمام بريطانيا إلا الفروق الدينية تحاول الارتكاز عليها»، ويضيف إلى ذلك أنه على هذا الأساس عمل الاحتلال البريطانى على تكريس ذلك من خلال العديد من الممارسات: تارة بتحفيز الأقباط ضد المسلمين، وتارة بتأليب المسلمين ضد الأقباط، ودوما كانت قضية حماية الأقليات واحدة من القضايا التى عنى الاحتلال على استغلالها خلال سنوات وجوده في مصر. ومن هنا جاء بند «حماية الأقليات» واحدة من أبرز التحفظات الأربعة التى تضمنها تصريح ٢٨ فبراير في العام ١٩٢٢، ومن هنا جاء التشدد البريطانى في استخدام هذا البند من قبل انجلترا لضمان بقاء استمرارها والحفاظ على مصالحها الاقتصادية والسياسية في مصر (٤) ثم جاءت مرحلة

غرس الكيان الصهيونى واستراتيجية التفتيت والغزو من الداخل. وأضيف من عندي أن مرحلة التسوية مع الكيان الصهيوني تستلزم حتما تفتيت أى تضامن عربى وأيضا تفتيت كل قطر عربي من داخله حتى لاتوجد الجماعة المتماسكة التي يمكن أن تشكل قوة مؤثرة على الحاكم عند اتخاذ القرار. (٥) وأخيرا، وليس أخرا، مرحلة الهيمنة الأمريكية واستراتيجية التوسع والتدخل فى شئون الدول تحت مظلة حقوق الإنسان/ الأقليات. وهنا يلحظ المؤلف أن قضية الدفاع عن اضطهاد المسيحيين فى العالم التى ظهرت في آسيا وأوربا الشرقية والعالم الإسلامي والشرق الأوسط بدأت تأخذ طريقها إلى الصعود بداية من عام ١٩٩٥، وتدرج الاهتمام بهذه القضية من كتابة المقالات وتنظيم اللقاءات الدينية والسياسية وتشكيل اللجان وإصدار الكتب التي تتناول قضية اضطهاد المسيحيين فى العالم، كذلك عقد جلسات استماع فى مجلسي التشريع الأمريكيين النواب والشيوخ، وأخيرا اقتراح قانون باسم التحرر من الاضطهاد الديني يتضمن فرض عقوبات على الحكومات ورقابتها إذا لم تجر إصلاحات من شأنها تحسين أوضاع المضطهدين، ويتتبع المؤلف أسباب الاهتمام المفاجىء بهذا الموضوع وملابساته ودوافعه ومدى مصداقيته والمحرك الرئيسي له

والمؤلف يوضح تاريخ صدور القانون الأمريكي بشأن حماية الحريات الدينية وكيف أن الحملة بدأت بمقال كتبه يهودي ثم الاستجابة الانجيلية للحملة اليهودية ومن ثم لقاء الأصوليات اليهودية والبروتستانتينية وعن التراث المشترك لليهودية والبروتستانتية وأخيرا ثمار الحملة بصدور هذا القانون.

هموم الأقباط

وبذلك يختتم المؤلف القسمين الأول والثانى من كتابه ليكون القسم الثالث عن القضية الأهم وهى هموم الأقباط وهى لب القصيد من الكتاب كله بأقسامه الثلاث.

فإذا انتقلنا إلى هذا القسم من الكتاب وقد امتلأنا حماسا ورغبة فى المعرفة لهم قبطي هو هم لكل المصريين لوجدنا أن المؤلف يحصر الهم كله فى مسألتين:

الأولى : هى الهموم الدينية المؤسسية مثل بناء الكنائس والأوقاف ويرى المؤلف ـ أو بالأحرى كما قال ـ يتصور أنه يتم فى الإطار المؤسسي والقانوني وتحديدا بين الكنيسة والدولة وأنه قد قطع شوطا فى طريق حل مشكلة الأوقاف من جهة وكذلك قضية بناء الكنائس من جهة أخرى.

أما المسألة الثانية: فهى الاستمرار المتصاعد للممارسات الموجهة ضد الأقباط فكريا وماديا، كما من حيث مرات حدوثها، وكيفا من حيث نوعية وأسلوب تنفيذها على مدى مايقرب من ربع قرن الآن ـ من الخانكة ١٩٧٢ إلى الكشح١٩٩٩ .

والكاتب يقصد بالطائفية النصوصية والفكرية التعامل مع النصوص وتفسيرها بما يدعم المناخ الطائفى كما يظهر ذلك من القراءة لأدبيات الحركة الإسلامية المعاصرة التى تجعل الاختلاف فى الدنيا مسألة يترتب عليها تفاوتا فى الحقوق والواجبات فى الدنيا وفى الآخرة!.

أما الطائفية العملية فيقصد بها المؤلف عمليات العنف الطائفى التى تمثل فى رأيه النتيجة المنطقية للطائفية النصوصية والفكرية وهى قد وقعت بالفعل.

وفي رأيى أن المشكلة الطائفية أو بالأحرى الهم القبطى إنما هو نتاج مسألتين أساسيتين: الأولى سياسية تخص المصريين جميعا مسلمين وأقباطا وهى مشكلة احتكار السلطة من قبل الفئة الحاكمة من زمان جمال عبدالناصر، فانعدام فرصة مشاركة المواطنين فى إدارة شئون وطنهم والذى يأتى متزامنا مع المشكلة الاقتصادية والاجتماعية لابد أن يولد أزمات يعانى منها الوطن كله والمواطنين جميعا بصرف النظر عن ديانتهم.

أما المسألة الأخرى للهم القبطى فهى في رأيى نتاج إفراط فى الإحساس بالانتماء إلى أقلية، ولم يستطع تجنبه دبلوماسى كبير وشهير تبوأ مكاناً مرموقا دوليا رغم أنه ما تولى هذا المنصب إلا لأنه قبطى مسيحى وهذا الإفراط فى الإحساس بالانتماء إلى أقلية إنما يحجب المسألة الأم والأهم والأكبر وهى أن الأزمة فى حقيقتها سياسية بالدرجة الأولى فى أصولها وجذورها ومنشأها واستمرارها وهى تطال الجميع مسلمين وأقباطاً.

ولايعنى هذا طبعا أنه لاتوجد مسائل تخص الأقباط تحتاج الى علاج حاسم وسريع إنما يعنى أن النظر لهذه المسائل - حتى هذه - لايجب أن يكون طائفيا أبدا وأن العلاج لايجب أن يتوقف عند حل وحسم هذه المسائل الطائفية، بل لابد من أن يتعاون المسلمون والأقباط فى مواجهة السبب الأصلى والأساسى فى نشأة أزمة الطائفية وغيرها من أزمات هى فى رأيى كبيرة وتأثيرها الضار يطال الجميع وهى قضية الديمقراطية وإتاحة الفرصة للمواطن للمشاركة فى حكم وطنه، وعندها يصبح المواطنون جميعا سواء بدلا من تميزهم وتصنيفهم بين مواطن معارض ومواطن مؤيد، ومواطن غنى ومواطن فقير، ومواطن يعيش فى كنف السلطة ومواطن يعيش خارج المدنية «بروليتاريا» ومواطن مسلم ومواطن قبطى ويصبح الجميع سواء فى الحقوق والواجبات، وعندما توضع القواعد لهذه المشاركة وتتحقق فعليا وعندما يصبح المواطنون جميعا - مسلمين وأقباطاً - مواطنين حقا وليس بالاسم ولفظا فسوف تتلاشى كل هموم الوطن وليس هموم الأقباط وحدهم.



جامعة بيرزيت

بقلم :فيصل حورانى *

●●بير زيت اسم له شهرة. فالقرية التى تحمل هذا الاسم واحدة من أجمل قرى الضفة الفلسطينية المحتلة وأكثرها أصالة. والجامعة التى تحمل الاسم ذاته هى أقدم جامعات الضفة، ولعلها أكثرها عراقة أيضاً.

وقد اقترن اسم جامعة بير زيت بمسيرة مواطنى الأرض المحتلة وهم يواجهون الاحتلال الاسرائيلى فى العقود الثلاثة الأخيرة. ووفرت الجامعة لمقاومى الاحتلال سلاحى العلم والثقافة، وأسهمت في أشكال المواجهة الأخرى، ورفدت المجتمع الفلسطينى بأفواج متعاقبة من خيرة كوادره وقادة مؤسساته الخاصة والعامة●●

---

* كاتب فلسطينى



المخاطر والتحديات

ولو تتبع المرء نشأة هذه الجامعة وتطورها، فسيضع يده بسهولة على محطات متتالية جسدت محطات تطور الحركة الوطنية الفلسطينية منذ تأسيس منظمة التحرير، وعكست أمجد ما فيها وأكثره أصالة وأشده فاعلية.

والدور الذي لعبته بير زيت لا يمكن استيفاء الحديث عنه، لا في مقال واحد ولا في مقالات عدّة. وفي هذا الدور صفحات مازال من غير الممكن كشفها وإذاعة أسرارها. وقد ينقضي وقت طويل قبل أن يصير هذا ممكنا، وللإنسان أن يتصور حجم الجهود التي بذلت كي تتحول مدرسة ثانوية خاصة في قرية إلى كلية متوسطة يدرس الطالب فيها سنتين، ثم كي تصير الكلية المتوسطة كلية عامة، ثم كي تفرّخ الكلية الواحدة كليات يدرس الطلاب فيها العلوم الطبيعية والإنسانية والآداب واللغات، وتتوفر فيها فرص الدراسات العليا. ولئن كان صحيحاً أن في العالم جامعات تطورت في النحو ذاته، فمن الصحيح أيضاً أن جامعة بير زيت شقّت طريقها بثبات في ظل احتلال قاس وبغيض هو الاحتلال الاسرائيلي الذي يغتصب الأرض كما يغتصب حقوق سكانها، ويحاول أن ينفي الإنسان ناهيك بمحاولته حجب العلم والثقافة الجديدين عن ضحاياه وتدمير الموروث منهما.

المخاطر

أما صورة جامعة بير زيت الآن فهي التي يتركز عليها هذا الحديث: صورة المنجزات المتحققة والمخاطر التي تهدد هذه المنجزات. وما حفزني على الحديث هو الحدث الذي اقترن بزيارة رئيس وزراء فرنسا للجامعة وانذياحاته في دنيا العرب.

هنا، ينبغي الإقرار بأنى لا أتوخى تقديم دراسة محايدة، موجزة أو مفصلة، بل تقديم شهادة لا أنكر أنى أدلي بها من موقع المفتون بما عانيته وسبرت أغواره بنفسي، بعد أن بقيت لمدة طويلة مطلاً من الخارج على مجرى تطور الجامعة، من خلال عضويتى فى المجلس الفلسطيني الأعلى للتربية والثقافة والعلوم الذى أنشيء في الخارج. وللقارىء أن يعلم أنى أتعمد زيارة هذه الجامعة كلما تيسر ذلك منذ رجعت إلى الوطن أواخر العام ١٩٩٥. ولهذا فإني كثيراً ما أزور هذا الصرح حريصاً على إشادة أوسع العلاقات مع طلابه وأساتذته. وأنا أزور هذه الجامعة خصوصاً كلما أثقلت عليَّ ظلمات الواقع المحيط، أجيء إلى باحة ضوء لأغتسل بنورها، وأستروح شذىً عطراً يصمد بثبات وسط ما يزكم الأنوف، أتمعن في الحاضر واستشرف مستقبلاً تكتنفه الهواجس، واستقصي كفاح الطلاب والأساتذة والإدارة لإطفاء هذه الهواجس، وأحيي شعلة الأمل، وأعزز الثقة بأن الشعب الفلسطيني مازال بخير بالرغم من تعاقب الكوارث.

لا أحب جوسبان!

وفى زيارتى الأخيرة للجامعة، وجدتني بالمصادفة وسط اللجة التي شهدت احتجاجات الطلاب على التصريحات التى أدلى بها رئيس وزراء فرنسا فمسَّ مشاعر العرب. أعترف بأنى لا أحب ليونيل جوسبان، وغنى عن البيان أن تصريحاته المالئة لإسرائيل قد استفزتنى كما استفزت غيرى، فقد عشت فى بلاد الغرب قرابة عقدين حتى الآن، وعرفت أن ممالئى اسرائيل فيها كثيرون. لكن عدد - الذين ينكرون حتى من بين هؤلاء أن جنوب لبنان أرض محتلة ويتنكرون لحق اللبنانين فى مقاومة الاحتلال - قليل. وإذا كان جوسبان قد أهان المناضلين من أجل الحرية، فقد تنكر أيضا لسياسة فرنسا المعلنة. ويز، وهو الموصوف باليسارى، يمينيى بلاده أنفسهم فى التودد للأوساط الصهيونية. لقد حك جوسبان أنوف الشعب الرازح تحت أبغض احتلال، حكها بفظاظة لا نظير لها فى سلوك أى سياسى فرنسى معتبر، فبلغ احساسى بالاستفزاز الذروة وتمنيت أن يتلقى المستفز الرد الذي يستحقه.

وعندما حضرت إلى الجامعة فى الصباح لإلقاء محاضرات في بعض صفوفها، أبهجنى مشهد طلابها الذين احتشدوا فى باحتها الرئيسية، وقد تهيأوا للاحتجاج على تصريحات الرجل القادم لإلقاء محاضرة فى كلية الحقوق فى جامعتهم. وكان هذا مشهدا ذكرني بأيام الفتوة والشباب، أيام الخمسينات الأخيرة والستينات الاولى حين كان الجمهور العربي، وأخصه الطلاب، يبادر إلى رفع الصوت ضد أى استفزاز، يستوى فى هذا أن تكون سلطات بلده ثائرة أو خائرة.

فى الصباح الذى أتحدث عنه، احتشد طلاب جامعة بير زيت فى تظاهرة انتظمت بأنظم ما يكون عليه النظام، جمعتهم الغيرة على مصالح وطنهم والرغبة فى الانتصار للمناضلين اللبنانيين من أجل الحرية. وقد نسق الطلاب نشاطات احتجاجهم مع إدارة الجامعة، ناقشوا مع مسئولى الجامعة ما يجوز عمله وما لا يجوز، واستمعوا إلى عميد شئون الطلاب، والتزموا بما اتفقوا عليه كى يجئ الاحتجاج سلميا كأرقى ما يكون عليه سلوك طلاب جامعة عريقة.

هنا، ينبغي للقارئ أن يعلم أن جامعة بير زيت أرست تقاليد راسخة، تقاليد حضارية ترسم مساهمة طلابها واساتذتها فى العمل العام. وقد انطلقت هذه صالتقاليد من إيمان الجميع بالتعددية الفكرية والسياسية وحق التعبير عن المواقف بحرية. وفى الجامعة

مجلس طلبة ينتخبه طلابها دوريا، ويجرى انتخابه بكامل الحرية، فيتمتع كل تيار فكرى أو سياسى بحق ممارسة الدعاية لبرنامجه واجتذاب الأنصار دون تدخل من أحد. ولهذا، فإن مجلس طلبة الجامعة يجسد ميزان القوى وعلاقاتها بأمانة. وتصدر قرارات المجلس بالأغلبية حين يتعذر الإجماع، وتلتزم الأقلية قرار الأغلبية. وتجرى النشاطات المشتركة بسلاسة ميزت هذه الجامعة وعززت دورها وشهرتها حتى أصبحت صرحا من صروح الديمقراطية. وفى الجامعة إذاعة داخلية يشرف عليها مجلس الطلبة وتتوافر فيها الفرص للحوارات متعددة الأغراض. ولكل طرف ممثل فى مجلس الطلبة الحق فى بث ما شاء من أفكار ودعوات ودعايات، ولكل طرف حصة من وقت الإذاعة تعادل حصته فى مجلس الطلبة.

أجواء مشحونة بالتوتر

وصل موكب رئيس الوزراء الزائر متأخرا أكثر من ساعة عن موعد وصوله المقرر، وأخرته حاجة المضيفين إلى التيقن من تمام الاستعدادات. وكان الموكب قد اجتاز قبل وصوله نوعين من نقاط المراقبة على الطريق المفضى من مدينة رام الله المجاورة إلى المدينة الجامعية. فقد أقامت الشرطة الفلسطينية نقاط مراقبتها فى حدود رام الله، أى فى المنطقة (أ) التى لا يحق لها الوجود فى غيرها، وأقام الجيش الاسرائيلى نقاطه فى المنطقة (ب) التى يتمتع فيها بالسيطرة الأمنية وحده، وهى المنطقة الممتدة بين مشارف رام الله والجامعة. والجدير بالذكر أن بير زيت وجامعتها واقعتان كلتاهما فى المنطقة (ب) حيث لا سلطة أمنية للفلسطينيين، وأن إدارة الجامعة دأبت على منع أفراد الأمن الإسرائيلى من دخول الجامعة، وأن طلاب الجامعة دأبوا على مناوأة قوات الأمن الاسرائيلية بالحجارة كلما جرؤت على الاقتراب من حرم جامعتهم. وقد ألف الإسرائيليون أن يقيموا مراكز مراقبتهم بعيدا عن مرمى حجارة الطلاب الساخطين. وهذا ما فعلوه يوم زيارة الفرنسى للجامعة.

وصل موكب الزائر، إذاً، فى أجواء مشحونة بالتوتر، التوتر الذى أهاجته تصريحات جوسبان الاستفزازية، والتوتر الذى أججته استفزازات نقاط المراقبة واضطرار الطلاب إلى اجتيازها والولوج إلى الجامعة عبر البنادق المشرعة والعيون المستريبة. وبالرغم من هذا التوتر، استقبل حشد الطلاب زائر الجامعة المبغوض بأهدأ ما يسمح به المقام: بفط من شتى الحجوم كتبت عليها الشعارات التى تعبر عن مواقف المحتجين، وهتافات منتظمة تعكس السخط الذى يتفاعل فى النفوس. وقد أبقى حشد الطلاب ممرا سالكا عبره الزائر ومرافقوه الرسميون ومستقبلوه وحراسه، دون أن يتعرض أى طالب لأى من هؤلاء بأى أذى أو يعرقل حركة الجماعة الكبيرة التى يتصدرها الزائر.

لقد شهدت دخول الجماعة بأم عينى، واشتد افتتانى بسلوك الطلاب، بضبطهم لمشاعرهم المستثارة، بإيقاع الاحتجاج الذى يجانس بين قوة التعبير وتحضره، بانتظام صفوف الحشد دون تزاحم أو تدافع، بالاحترام الذى أظهره الطلاب للطالبات المشتركات فى المشد.

عناد غريب!

وبعد هذا الاستقبال، وصل جوسبان إلى القاعة التى جاء ليلقى فيها محاضرته الموعودة. وكان أساتذة الجامعة والمدعوون من خارجها فى الانتظار. وأمكن لعدد من الطلاب الوقوع على مكان يستمع فيه إلى الزائر، فيما بقى معظم المحتجين فى الباحة.

وقد تولى نفر من أبرز المختصين الفلسطينيين بالشئون التى تطرقت لها تصريحات جوسبان مناقشته . وتناوب عدد من الأساتذة تفنيد ما انطوت عليه التصريحات وحاجوا الضيف بكفاءة عالية. ولو تمتع جوسبان فى هذا الموقف بالحصافة التى يفترض أن يتمتع بها رئيس وزراء فرنسا، لاغتنم الفرصة فتراجع عن مغالطاته التى استُنكرت فى فرنسا ذاتها بمقدار ما استُنكرت فى دنيا العرب. ولو تيسر للمستفز حصافة أكثر لقدم اعتذارا عن تصريحاته المنكرة والمستنكرة. إلا أن الرجل تشبث بممالأته لاسرائيل ، وتحدث بصلف بغيض ولم يراع مشاعر مضيفيه ولم يلن أمام حججهم الدامغة.

المحاضرة والمناقشات شهدها الطلاب المحتشدون فى الباحة عبر شاشة نقلت لهم وقائعها، فشهدوا الصراع بين موقف المدافعين عن حق المحتلة أرضهم فى مقاومة الجيش الاسرائيلى، وبين صلف الفرنسى الزائر الذى أصر على احتساب المناضلين اللبنانيين من أجل الحرية فى عداد الإرهابيين . فكان من الطبيعى ، إذاً، أن تفور المشاعر ازاء هذا الصلف زيادة على ما هى فائرة. ويبدو أن مرافقى رئيس الوزراء الفلسطينيين قد هجسوا بما يمكن ان ينجم من فورة المشاعر فنصحوا ضيفهم بالخروج من باب غير الذى دخل منه ليجنبوه مواجهة الحشد الذى اشتد سخطه . لكن جوسبان أبى الاستجابة للنصيحة وأصر على أن يغادر من حيث دخل، أى وسط الحشد.

هل ظن رئيس وزراء فرنسا أن إمعانه فى الصلف والمغالطات سوف يمر دون أن يتلقى ما يستحقه؟ هل استهان الرجل بمشاعر الساخطين ما داموا من ناس العالم الثالث، كما يفعل أى عنصرى متكبر؟ أم أن ممالئ اسرائيل هذا قرر مواصلة التحدى وفى ظنه أنه سيتقاضى ثمنا أعلى فى الأوساط الاسرائيلية والصهيونية؟ أسئلة ترد كلها فى البال. والحقيقة أن جوسبان أقبل ثانية على الحشد كأن شيئا لم يكن. والحقيقة أيضا أن أغلبية الطلاب الغالبة تلقت جوسبان فى إطلالته الثانية بما تلقته به فى الأولى: اليفط، والهتافات وتعبيراتها الفصيحة . غير أن واحدا من المحتشدين، واحدا لم تكشف التحقيقات من هو، ألقى ناحية جوسبان حفنة حصى، فلم يلبث أن امتاح آخرون فرموا ناحية الزائر ما فى متناولهم، ولم يكن فى المتناول إلا الحجارة. وبالرغم من أن أجهزة الإعلام لم تبث من مشاهد الاحتجاج التى دامت بضع ساعات إلا مشهد رمى الحجارة هذا الذى استغرق بضع دقائق ، فقد بقى واضحا حتى فى هذا المشهد أن عدد الذين رموا حجارة يشكل أقلية قليلة من المحتشدين. وهى أقلية لم يلغ سلوكها الخارج على المتفق عليه حقيقة الاحتجاج الراقى الذى مارسته الأغلبية الساحقة.

لقد مثل المحتشدون قطاعات الطلاب كلها والأطراف السياسية كلها: «فتح» والأحزاب المتحالفة معها فى السلطة وأحزاب المعارضة والمستقلين . ولم يغب عن الساحة إلا الطلاب المنتمون لـ «حماس» . ذلك أن ممثلى «حماس» فى مجلس الطلبة قرروا مقاطعة الحشد لأسباب تخص حركتهم على ما يبدو. والحقيقة الأخرى أن ممثلى القطاعات كافة لم يجيزوا استخدام الحجارة ، وقد رأيتهم بنفسى وهم يجهدون أنفسهم لثنى القلة القليلة عن استخدامها ، ويحاولون حماية الزائر من أذاها، حتى وهم يعتقدون أنه يستحق أشد عقاب. وأظن أن الزائر الذى كان فى متناول المحتشدين ما كان لينجو بجلده لو لم تحتفظ الأغلبية بالسيطرة على المشاعر المهتاجة وتوفر للزائر فرصة النجاة.

بعدها، تعجل بعض الناطقين باسم السلطة الفلسطينية الإدلاء بتصريحات غاضبة على الطلاب . وأطلق هذا البعض التهديدات والاتهامات حتى قبل أن ينتظم التحقيق، وفى هذا السياق ، تعرض قرابة مائة وثلاثين طالبا للاعتقال ، وجرت بعض الاعتقالات بفظاظة . وتعرضت بعض مباني الجامعة في الليل لتفتيش متعجل لم تعلن أى جهة أنها هى التى قامت به . لكن معظم المعتقلين أفرج عنهم فى الأيام الثلاثة الأولى ، ولم يبق منهم إلا بضعة وثلاثون طالبا . ولو افترضنا أن هؤلاء كلهم رموا حجارة حقا ، ففى هذا وحده ما يظهر ضآلة نسبة الطلاب الذين خالفوا الإجماع ولجأوا إلى هذا اللون من العنف.

وضع جديد

باعتقال طلاب والتهديد بتحويلهم إلى محكمة الأمن القومى وفصلهم من الجامعة، نشأ وضع جديد، والواقع أن التهديدات والتدابير الفظة مسّت مشاعر الجميع : إدارة الجامعة واساتذتها وطلابها وجمهور المواطنين. وازاء هذا الوضع، أظهرت تقاليد جامعة بير زيت العريقة متانتها . فمع تخطيء لجوء بعض الطلاب الى العنف ، اتحد الطلاب والاساتذة والإدارة فى الدفاع عن استقلال الجامعة وحرية ناسها فى التعبير، كما اتحدوا فى حمايتها ضد التدخل الخارجى فى شئونها، وحظيت الجامعة بمساندة الجمهور ، وانتظمت النشاطات : المظاهرات والاعتصامات داخل الجامعة وأعمال المساندة من خارجها . وتحددت المطالب : معالجة ما جرى داخل الجامعة من قبل هيئاتها وحدها ووفق أنظمتها وحدها ، والافراج عن المعتقلين، وسحب التهديد بإحالتهم الى محكمة أمن الدولة .

وقد علقت الدراسة فى الجامعة إلى أن تتم الاستجابة للمطالب ، علقها قراران متجانسان صدرا عن مجلس أمناء الجامعة ومجلس طلبتها .

وفى المحصلة ، تحققت هذه المطالب بعد أن زار رئيس السلطة الفلسطينية الجامعة، وحاور العاملين فيها والأساتذة والطلاب . وبهذا ، اجتازت جامعة بير زيت مرة أخرى عنق زجاجة أدخلها فيه حادث طارىء .

وما كان لردود الفعل المستهينة بأنظمة الجامعة والقانون العام أن تبرز بالحجم الذى برزت به، لولا وجود نوايا مسبقة يتطلع مضمروها إلى تطويع الجامعة العريقة وادخالها فى السياق الذى يقضى على تميزها واستقلالها . ولئن كسبت الجامعة جولة وكسب كل ديمقراطى الجولة ذاتها ، فمن المؤكد عليه أن هذه الجولة لن تكون الأخيرة فى النزاع بين الديمقراطيين وخصومهم . ومما لاشك فيه أن الاخطار التى تهددت الجامعة منذ نشأتها وتفاقمت مع وجود الاحتلال الاسرائيلى لم تخل الساحة . والقوى التى يسوؤها وجود بؤر الضوء لم تلق أسلحتها ولن يرضيها أن تتأسس صروح يزدهر فيها العلم والثقافة الراقية بحرية وفى معزل عن سطوتها.

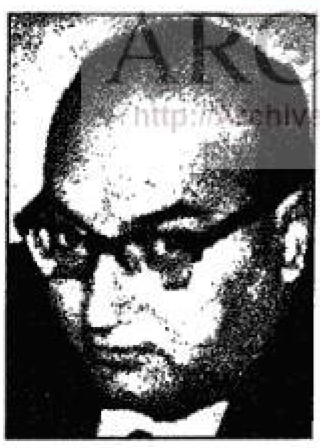
ومازال على الديمقراطيين فى أى مكان ، أيا كانت مشاربهم واجتهاداتهم ، أن يفعلوا الكثير لدعم الجامعة ، لصيانة بؤرة الضوء وتمكينها من بث ألقها دون توقف. ومن شأن القارئ أن يعلم أن الجامعة تعانى شح الموارد المالية والضغوط متعددة المصادر. وقد أثبتت الجولة الأخيرة أن مساندة الجمهور الفلسطينى والعربى عموما هى الوعاء الذى يصون هذه الجامعة ويساعدها فى متابعة دورها العلمى والثقافى والوطنى .

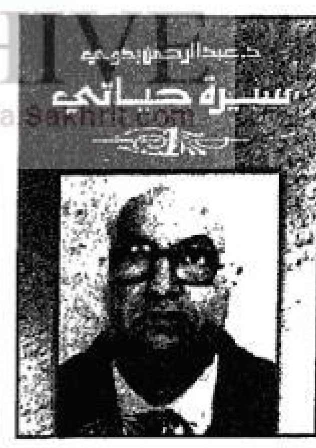
ومما لاشك فيه أن المساندة اللازمة لجامعة بير زيت ينبغى أن ترتقى إلى مستوى المخاطر والتحديات التى تواجهها، وما أشدّ هذه المخاطر والتحديات ! ●

سيرة حياتي

للدكتور عبد الرحمن بدوى

بقلم : حسين أحمد أمين





«ما أعظمه من فيلسوف!» هكذا صاح كانديد فى رواية فولتير بعد زيارته مع أستاذه دكتور بانجلوس لأحد مشاهير المفكرين «ما من شيء يعجبه. ما من شخص عنده هو خليق بالاحترام».

فيجيبه دكتور بانجلوس بقوله:

«لا يا صديقى.. أقوى المعدات ما تهضم كل ما دخل إليها من طعام، لا ما تلفظ كل لقمة تصلها».

وهى إجابة ظلت تدوّى فى خاطرى طوال قراءتى لهذا الكتاب الجديد للدكتور عبدالرحمن بدوى.

فإن كان الدكتور طه حسين قد وصف المؤلف عام ١٩٤٤ بأنه أول فيلسوف مصرى، فإن خلاصة الانطباع الذى خرجت به بعد الفراغ من قراءة هذه السيرة الذاتية هى: «إن كانت ثمرة تكريس الحياة الطويلة لدراسة الفلسفة، والتعبد فى محرابها، والعزوف عن الزواج وعن معاشرة الناس وتعهد الصداقات من أجل التفرغ الكامل لها، هى الوصول إلى مثل هذه الحالة الكئيبة اليائسة التى تبدو عليها شخصية الدكتور بدوى فى كتابه. فبعدا للفلسفة أى بعد، ولعنة الله على من أولاها اهتماما، أو نظر بعد اليوم فى كتاب فيها!».

لا أنكر، ولا يستطيع مثقف من أبناء جيلى أن ينكر، فضل بدوى على تكويننا الذهنى فى صبانا. فالكثير من الكتب التى ألفها أو ترجمها، والتى جاوز عددها الآن المائة والعشرين، قد دخل نسيج هذا التكوين، ألمنا منها لأول مرة بفلسفات نيتشه وشوبنهاور وشيلينج وكانت وشبنجلر وأرسطو وأفلاطون، ودفعتنا دفعا إلى التزيد من الإطلاع على هذه الفلسفات، وكانت قراءتنا الأولى لأسفار تشيلد هارولد لبايرون، و«الأنساب المختارة» لجوته، و«أندين» لفوكيه، ومسرحيات لوركا، هى فى ترجمة عبدالرحمن بدوى العربية لها.. كذلك فإنه ما من أحد منا بوسعه أن ينكر أن الرجل خدم الثقافة العربية كما لم يخدمها غير القليلين من أئمة التنوير فى وطننا، وأنه - بأحد معانى الثقافة والعلم - أوسع معاصريه ثقافة وعلما، وأكثرهم إحاطة باللغات الأجنبية، وأعظمهم إلماما بالتراث الغربى والتراث العربى على سواء، يسبح فى كليهما كالسمكة داخل الماء، ويتحدث ويكتب عن أيهما حديث العالم النحرير وكتابته.

كتاب مثير للجدل

ثم ها نحن نفرغ من قراءة سيرته الذاتية فنتساءل: ما محصلة أو جدوى كل ما أفاده من ذاك العلم الواسع العريض؟



هل جعله رجلا أفضل أو أسعد ؟ هل زاد من إنسانيته ورهافة حسه ومشاعره ؟ هل عززت الفلسفة من وقاره وثباته أمام تقلبات الدهر؟ هل جعلته أكثر تقبلا للحياة وتفهما لنقائص البشر حوله؟.. إنه كتاب لا يمكن للقارىء أن يخرجَ منْ قراءته وقد شعر بأنه بات بفضله إنساناً أفضل، على نحو ما نشعر به بعد قراءة «اعتراف» تولستوى أو «مذكرات ثورى» لبيوتر كروبوتكين، أو «عالم داخل عالم» لستيفان سبندر.. أو كيف يمكن أن يتسنى له ذلك بعد أن أمضى الساعات الطوال يسبح فى لجة الحقد والضغينة، والكراهية والمرارة والشكوى، والتحقير والتخوين والازدراء، والتسفيه وتلطيخ السمعة، مما تطفح به كل فقرة تقريبا من فقرات الكتاب؟.. قد نحاول التماس العذر له وإرجاع هذا وغيره من نقائص الكتاب إلى تقدم الرجل فى السن فهو وقت نشر هذا الكتاب قد بلغ الثالثة والثمانين «مد الله فى حياته ونفعنا به» . غير أن الواضح المؤكد من الشواهد الداخلية بالكتاب أنه كتب على فترات متقطعة، وأن جانبا كبيرا من المجلد الأول ألفه منذ نحو عشرين عاما حين كان فى نحو الثالثة والستين، وأن معظم المجلد الثانى كتب فى عام ١٩٨٨، أى حين كان المؤلف فى الحادية والسبعين.

فالإيغال فى الشيخوخة إذن ليس السبب فيما يعتور هذه السيرة الذاتية من مثالب، أو فيما يسود الكتاب كله من خلل رهيب فى بنائه الفنى. إذ ما يكاد القارىء ينغمس فى متابعة الأحداث، حتى يعترض طريقه حشد من الاستطرادات الطويلة المملة التى لا طائل من ورائها ، ولا هى تزيد من فهمه لعقلية هذا الرجل فهو إن وصل إلى ميونيخ ليقيم بها شهرا وبعض شهر أسهب فى الحديث عن الأهمية السياسية والعلمية والفنية للمدينة. وإن هو زار بيروجيا حدثنا عن موقعها الجغرافى، وتاريخها السياسى، وأهم معالمها ، وزودنا بقائمة بعناوين المحاضرات العامة التى حضرها، وبصفحتين عن موسم الموسيقى المقدسة فيها. ثم ها هو يزور مدينة البندقية ليوم واحد فحسب عام ١٩٣٧ . ثم ليومين اثنين عام ١٩٤٦ فيرى ضرورة لأن يذكر لنا أهم مبانيها وكنائسها، ومن اشتهر من أدبائها ومفكريها وعلمائها وفنانيها، وطوائف رهبانها وأشهر مكتباتها، وأبرز ما تحتويه متاحفها من لوحات فنية.. فإن سافر بعد ذلك إلى برن، تحدث عن الشخصيات المصرية والعربية

التى أقامت فى جنيف فى الفترة ما بين الحربين العالميتين، ثم ها هو الحديث عن الحياة السياسية فى سويسرا يستغرق خمسا وعشرين صفحة، وعن تاريخ كنيسة نوتردام فى باريس نحو خمس صفحات، وعن العطلات التى قضاها فى هولندا سبعا وثلاثين صفحة . وعن الأحوال السياسية فى ليبيا ومختلف القبائل واللهجات والطرق الصوفية فيها اثنتين وستين صفحة، وعن التاريخ السياسى لإيران بدءا بمولد مؤسس الأسرة الصفوية عام ١٤٨٧ وحتى اليوم مائة صفحة بالتمام والكمال «اى والله!»، وعن الفارق بين نظام الحكم الرئاسى ونظام الحكم البرلمانى إحدى عشرة صفحة، وعن محتويات متحف الأورانجرى بباريس أربع صفحات، وعن تاريخ أسبانيا ومشاهير كتابها ثمانى عشرة صفحة .. ليس هذا فحسب، وإنما هو يرى داعيا لأن يتحفنا بقوائم مفصلة عن التقارير التى كتبها أثناء عمله مستشارا ثقافيا فى برن. والمحاضرات التى ألقاها . والمؤتمرات التى حضرها، والمعارض الفنية التى زارها، وهو يورد قائمة بأسماء أربعة وستين شخصا تولوا منصب «مرجع التقليد» فى إيران، ونموذجا مسهبا لفصول من تمثيليات التعزية هناك، ويخصص اثنتى عشرة صفحة للحديث عن المتصوف الإيرانى روزبهان البقلى الشيرازى «١١٢٨ - ١٢٠٩ م»، ملخصا لكتبه، ومعددا لاثنين وثلاثين فصلا يحتويها كتابه «عبهر العاشقين».

الحقد والحقود

غير أنى أكتفى بهذا القدر الضئيل من بين مئات الاستطرادات التى حشا بها كتابه حتى يبلغ به حجما يضمن له عائدا ماليا ضخما، لأنتقل إلى نقطة أخرى سوداء فى الكتاب «وإن لم تكن أكثر النقاط سوادا.»، وأعنى بها تناوله لأهل زمانه «وغير زمانه أيضا» بالأوصاف والنعوت، مع ملاحظة أن أكثر الكلمات ترددا فى الكتاب هما كلمتا «الحقد» و«الحقود» ، وهو ما قد يرى فيه علماء النفس ضربا من ضروب الإسقاط.

فالإسكندر الأكبر «جبار طاغية مخرِّب، مذل للعروش والدول» والشيخ محمد عبده «مصلح دينى مزعوم، متواطئ مع الاستعمار البريطانى» وشيوخ الأزهر عامة «هم بطبعهم طماعون حاقدون يأكل الحسد قلوبهم، وفى سبيل نيل أى منصب ذى شأن لا يتورعون عن استخدام أخس الوسائل، من وقيعة وبسٍّ ووشاية واختراع الاكاذيب» وسعد زغلول «تاريخه تاريخ شائن ينضح بالخيانة والوصولية وممالأة الانجليز المحتلين» ومصطفى فهمى باشا «عميل للإنجليز موغل فى الخيانة». ومصطفى النحاس «ابله معتوه ، يرتكب المحسوبيات

الصارخة والمظالم البشعة» ـ وجمال عبدالناصر «كان لا يقدم الا على ما يكفل له الشهرة والدوى حتى لو جَرّ على مصر الخراب » وثورة يوليو «اكبر كارثة عانتها مصر منذ الفتح العثماني عام ١٥١٧» والدكتور محمود فوزى «رجل معتوه جهول لا يدرى فى السياسة شيئا عيى غبى، لا يستطيع ان ينطق بحجة، فضلا عن صوته الذى كان يموء به مواء القط المخنوق» ومحمد حسين هيكل باشا «رجل ضعيف الشوكة، مفكك الشخصية والإرادة» ـ والسعديون «وصوليون لا يستندون إلى أية مبادىء وطنية، بل يجمعهم الطمع فى الحكم، وما يجره عليهم من منافع» والشيوعيون المصريون «استولوا عام ١٩٦٤ علي كل أدوات الاعلام، وراحوا يتوزعون فيما بينهم رئاسة تحرير الصحف ، والهيئة العامة للكتاب، وإدارة المسارح وقطاع السينما والاذاعة، بل وزعوا مكافآت للتأليف والترجمة على أنفسهم عن كتب لم يشرعوا فيها ولن يشرعوا أبدا» واحمد حسين «طائش أحمق، عنيد مستبد الرأى، ضيق التفكير، مندفع انفعالى، جَرّ على حزب مصر الفتاة الدمار».

فماذا عن الكتّاب وأساتذة الجامعات؟

طه حسين «كان يبلغ رجال البوليس عن زعماء الطلبة المعارضين للحكومة فى كلية الآداب، مستعينا فى ذلك ببعض الجواسيس المتزلفين إليه من الطلاب» ـ وعباس العقاد «سليط اللسان، كان طول حياته مأجورا لحزب من الأحزاب، للوفد حتى عام ١٩٣٥، ولخصوم الوفد حتى ١٩٣٨، وللسعديين حتى ١٩٥٠، ومأجوراً لبريطانيا طوال مدة الحرب على الاقل» وأحمد أمين «حقود صفيق ضيق الأفق، تأكل الغيرة قلبه من كل متفوق، لم يصل إلى منصبه بالعلم، بل بالصلات مع من فى الحكم» ـ حسن ابراهيم حسن «وصل إلى العمادة بفضل علاقاته الحزبية الدنيئة» ـ عبد الوهاب عزام «دجال دينى وسياسى أبعد ما يكون عن البحث العلمى» ـ احمد بهاء الدين، «شيوعى قح يتلون بألوان مختلفة بحسب الظروف» عبدالرحمن الشرقاوى «متعدد الأطوار يدور من اليمين إلى اليسار. ويجمع بين عمامة الإسلام وكاسكيت الشيوعيين» أحمد صدقى الدجانى «مأجور متزلف، مرتزق وصولى» محمد الطالبى «الكاتب التونسى أحمق جاهل» فؤاد البستانى «هذا الأفعوان الهرم الخبيث» ـ قسطنطين زريق ـ «هذا المسيحى المتجر بالعروبة والمكّن للمسيحية فى الجامعة الأمريكية ببيروت» نجيب محفوظ «يلهث وراء الشيوعيين ويدعو الناس الى قراءة ماركسية لقصصه ، زاعما أنها قصص رمزية تقوم على الصراع الطبقى» توفيق

الحكيم «أرسلته اخبار اليوم عام ١٩٤٩ على نفقتها الكاملة إلى باريس ليوافيها بمقالات عنها. فبعث بمقالات هزيلة سمجة تدل على جهله التام بباريس، وأنا أعجب لهذا الرجل ذى التصرفات الصبيانية»» - على إبراهيم باشا (عميد كلية الطب) «وقح جبان، انتهازى لا مبدأ له، يأكل على كل الموائد - كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول «عش للأفاعى. وموئل للمنافقين. ومرتع خصب للجهال والدساسين». زكى نجيب محمود «لم يدرس الفلسفة دراسة منتظمة فى معهد علمى، ولم يكن له من الانتاج إلاّ مقالات مستواها لا يزيد على مستوى طالب فى المرحلة الاعدادية» - عبدالعزيز السيد «وزير التعليم العالى» «جاهل مهرج لا مؤهل له عند صاحب السلطان إلا سرد النكت والفكاهات». إسماعيل غانم « عميل جهاز المخابرات. يتولى كتابة التقارير السياسية ضد أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، فعين وزيرا للثقافة ثم مديرا لجامعة عين شمس مكافأة له على هذه الأعمال الخسيسة الدنيئة».

ثم البابا يوحنا بولس الثانى. «هذا البابا الرحالة، السندباد الجوى! الذى جعل الموضوع الرئيسى فى نشاطه البابوى ومواعظه الرعوية هو مسألة وسائل منع الحمل!».

وأتجاوز بعد ذلك عما قاله عن العشرات من الأسماء الأخرى، مثل: برنارد لويس، وسير هاملتون جيب، وفرانتس روزنتال، ولوى جارديه، وجان بول سارتر. ويوجين يونسكو. وناتالى ساروت، وريمون آرون. ورياض الصلح، ومراد غالب وعبدالسلام فهمى جمعة. وأحمد فؤاد الأهوانى. ورجال الدين الإسلامى والمسيحى، والملاحق العسكريين المصريين ومديرى مكاتب البعثات المصرية فى الخارج، لأورد الآن ملاحظة تسرى على مواقفه من الكافة: هى أن الشريرين الحقودين، الكذابين الدساسين، الأفاقين المتجورين. الدجالين الوصوليين المعتوهين، والجهلاء الأغبياء الأدعياء، السفهاء العملاء، هم عنده كل من وقف فى طريق ترقية له، أو لم يجدد له إعارة فى الخارج، أو لم يعجبه كتاب ألفه، أو عاب على ترجمة له. أو لم يحتف به الاحتفاء الواجب، وأن الأفاضل الجديرين بالود والاحترام فى كل هذه الحياة الدنيا وعددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليدين. هم:

١ - الشيخ مصطفى عبدالرازق الذى شمل بدوى برعايته منذ التحاقه بالجامعة، والذى لجأ إليه بدوى وهو طالب بالسنة الأول فى كلية الآداب يطلب منه تأييد طلبه مجانية التعليم بدعوى تفوقه، فساعده على



تحقيق بغيته ، رغم معارضة العميد الشرير منصور فهمي، بحجة أن والد بدوى من الأثرياء.

٢ ـ الدكتور طه حسين «رغم ما سبق أن أوردناه من وصف بدوى له» لأنه أرسله وهو طالب في رحلة صيفية إلى ألمانيا وإيطاليا، ولأنه أيّد تسجيله لرسالة الماجستير في وجه معارضة العميد الحقود أحمد أمين.

٣ ـ أحمد نجيب هاشم وزير التربية والتعليم، «وهو رجل يتحلّى بالنزاهة ونبالة الأخلاق وحسن التقدير» الذى وافق على ترقية بدوى الى درجة أستاذ ذى كرسي.

٤ ـ السفير محمد التابعي سفير مصر في إيطاليا «الذى أفاض علىّ أثناء إقامتى فى روما من كرمه وسماحة خلقه وحرارة استقباله ما ضاعف من سعادتي»

٥ ـ محمد حسن الزيات وزير الخارجية الذى توسّط لدى السادات عام ١٩٧٣ من أجل العمل على إطلاقه سراحه من معتقله فى ليبيا.

٦ ـ أحمد حسن الفقى «ذلك السفير المصرى الممتاز فى الهند الذى سعى سعيا مشكورا لدى وزارة الثقافة الهندية حتى ترسلنى على نفقتها في جولة من المحاضرات في أربع جامعات هندية كبيرة، والذى تعرفت بفضل كرمه ـ وهو امر نادر جدا بين السفراء المصريين ـ إلى نائب رئيس جمهورية الهند فى حفلة عشاء أقامها السفير فى السفارة».. قارن بين هذا التصرف للسفير الفقى وبين تصرف الأساتذة الإنجليز اللصوص بجامعة كمبريدج التى شارك بدوى فى إحدى ندواتها، «إذ أجبرونى على دفع أجر الإقامة لستة أيام، مع أنى لم أقم إلاّ خمسة!».

وتتراوح مراكز المغضوب عليهم والضالين عند عبدالرحمن بدوى ما بين جمال عبدالناصر «الذى استولى الإصلاح الزراعي في عهده على ٢٥ فدانا من أملاكي، ولم أحصل على مليم واحد تعويضا عما استولى عليه، والذى قرر فرض الحراسة على أسرتنا فكانت إحدى ضحايا اللجنة العليا لتصفية الإقطاع» وبين موظف لبنانى فى مطار بيروت . اكتشف أنه ليس بجواز سفر عبدالرحمن بدوى تأشيرة دخول، «فراح يهرف بما لا يعرف، وكان غبياً غليظا جبانا معا. ذا خيال مريض، وحقد دنىء» فأبى أن يسمح له بدخول لبنان.

الفيلسوف الأوحد

غير أن الذي يعجب المرء إزاءه حقا هو ضعف المنطق عند هذا «الفيلسوف المصرى الأوحد» الذى حصل على مجانية التعليم بكلية الآداب بدعوى تفوّقه فى «المنطق» . تأمل قوله عن المصريين إبان الحرب العالمية الثانية: «وكان المصريون جميعا - باستثناء الخونة من أذناب الانجليز وعملاء الشيوعية - يتمنون انتصار ألمانيا. لأن هذا الانتصار هو الذى سيحلّ مشاكل كل البلاد العربية » أى منطق هذا؟ المصريون جميعا؟ باستثناء الخونة؟ انتصار ألمانيا كان سيحل مشاكل كل البلاد العربية؟.. أو انظر إلى حديثه عن عزيز المصرى: «كنت وأصحابى - رغم ذلك - معجبين به، لأنه القائد المصرى الوحيد الذى خاض معارك حربية، بينما لا يوجد فى الجيش المصرى كله ضابط - بأىّ رتبة كان - قد خاض غمار اى حرب».. الوحيد؟ فى الجيش المصرى كله؟! أو اقرأ عن سبب معارضته لإجراء حوار بين الإسلام والمسيحية «فكل حوار من هذا القبيل هو نوع من حوار الصم لأنه لا يمكن التغلب على الخلافات الجوهرية التى تفرق بين هذين الدينين فإن كان المقصود هو عدم العدوان بين الواحد على الآخر، فهذا امر تكفله القوانين الوضعية التى تحمى حق كل طائفة فى ممارسة عباداتها ولا تسمح لطائفة أو فرد بالعدوان على طائفة أخرى تخالفها فى الدين..» لا يا شيخ؟! كما فى أحداث الكشح مثلا؟.

حال السفراء في الخارج!

أو اقرأ حديثه عن الدبلوماسيين المصريين وتلك هى حال كل أو جل - رجال السلك السياسى المصرى فى الخارج منذ سنة ١٩٢٤ «أى إنشاء وزارة الخارجية المصرية» حتى هذا اليوم الذى اكتب فيه.. انهم لا يهمهم من امر مصر وكرامة مصر أى شىء. بل كل همهم محصور فى البقاء فى اماكنهم ان كانت فى عواصم دول متحضرة، أو السعى للانتقال منها إلى عواصم دول كبرى.. ولذلك لا يهمهم من الصحف المصرية إلاّ ان يقرأوا منها شيئا عن «الحركة »، اى حركة الترقيات والتنقلات وما عدا هذا مما يرد فى الصحف فلا يعنيهم فى شىء. ولا يثير فى نفوسهم اى انفعال .. هذه هى حال جميع السفراء ورجال السلك السياسى المصرى فى الخارج: لا يهمهم من مصر غير الحركة ، ولتذهب مصر كلها إلى الشيطان فهذا لا يحرك فى بدنهم شعرة هذه حالهم دائما، ولا سبيل مطلقا لتخليصهم منها. ذلك أن الجهل والتفاهة والتملق هى المؤهلات الأساسية عندهم جميعا. وبفضلها وحدها يترقون فى سلم المناصب الدبلوماسية ، وينعمون بالعمل فى عواصم البلاد الكبيرة المتمدنة.. وإذا ظهر بينهم

واحد أوتى شيئا من العلم او الاهتمام بوطنه . فالباقون جميعا اعداؤه.. وأهم ما يتباهى به الواحد منهم هو ملابسه.. وكيف يراعى البروتوكول فى الوقوف والجلوس والسلام ، وترتيب الجلوس على موائد الطعام، إلى آخر هذه التفاهات، لأن المثل الأعلى عند الواحد منهم ان يكون رئيس جارسونات «ميتر دوتيل» إما عن جهلهم بشئون البلد الذي يوجدون فيه، وبشئون السياسة العالمية. بل وبشئون مصر كلها. فحدث ولا حرج. جهل مطبق مركب، لا حياء فيه ولا خجل منه، ولو أردت ذكر ما عرفته من شواهد على هذا الجهل الفاحش، لاحتجت الى مجلد كامل، يندى له جبين مصر . التى هى الضحية الدائمة للعبث فى اختيار ممثليها فى الخارج».

أفى مثل هذه الأمثلة منطق، والمنطق علم يحذر دارسيه من مغبة التسرع فى التعميم. ومن الانزلاق إلى مهاوى الاحكام المطلقة؟.

الزهو بالنفس

بوسعى ان أتعاطف مع الدكتور بدوى، وهو كبير مثقفى مصر. إذ اتخيله يحادث ملحقا. أو حتى سفيرا فى حفل عشاء بإحدى السفارات المصرية فى الخارج غير أنه من الصعب على أى إنسان أن يتعاطف مع كل هذا الغرور والزهو بالنفس «واذكر هنا على وجه التخصيص كتابى «أرسطو عند العرب» الذى قامت على أساسه مئات من البحوث بالعديد من اللهجات . ثم «منطق ارسطو». وهو يشمل ترجمة كاملة لكل مؤلفات أرسطو المنطقية اذ كم تهيب العديد من المستشرقين الاوروبيين من تحقيقه منذ أكثر من مائة وخمسين عاما أو يزيد ، وكل ما استطاعوه هو تحقيق عشر وريقات منه فحسب، وامام هذه العمل العملاق الجبار جن جنون العاجزين الحاقدين من هؤلاء المستشرقين الأدنياء. وتلاميذهم الأغبياء، فحاولوا نقده. وهيهات هيهات أن يؤثر طنين هؤلاء الذباب فى جبل شامخ». «وهكذا أنجزت هذا العمل الجبار «كتاب الخطابة» متحديا كل الباحثين ، القدماء والمعاصرين وهو ما أثار حقد العاجزين الحاسدين الأدعياء الذين راحوا يخبطون فيه على عادتهم ، دون علم ولا دراية. ولم يصححوا موضعا واحدا من النص الذى حققته. وبهذا العمل العظيم الذى لا أجد له مثيلا فى تاريخ تحقيق المخطوطات فى العالم كله. وبأية لغة، أكون قد أديت مهمة عظيمة الفائدة».. «وربما كان لفصاحة عبارتى العربية دور بارز فى هذا الاهتمام الشديد بمحاضرتى العامة فى طهران».. وقد أصدرت تقريرى عن التربية والتعليم فى مصر فى كتاب باللغتين الفرنسية والانجليزية، وهو أمر لم يحدث لا من قبلى ولا من بعدى.»

غير أننا نترك كل هذا إلى الحديث عن مدى إعجاب عبد الرحمن بدوى بهتلر والنازية ، وبما فعلته النازية باليهود .. فأدولف هتلر هو عند فيلسوفنا أحد العشرة المبشرة بالجنة ممن سبق أن أوردنا أسماء ستة منهم . يقول فى كتابه : «أما حملات النازية على اليهود فكانت جزءا من حملاتها على من كانوا خصومها فى الفترة السابقة على توليها الحكم ، فكانت إذن عملا سياسيا محضا لا تفرّق فيه بين يهودى وغير يهودى ، ولا شك فى أن اليهود فى ألمانيا (قبل عام ١٩٣٢) كانت لهم قوة ضخمة فى الحياة السياسية والاقتصادية والفنية الألمانية. فبأى حق ، وفى أى شرع ، يجوز أن يتحكم نصف مليون يهودى فى أكثر من ستين مليونا من الألمان ؟ إن أبسط قواعد العدالة والواجب كانت تقضى على كل ألمانى حرّ الضمير أن يتخلص من سلطان هذا النصف مليون. وهذا ما فعلته النازية تدريجيا وبالطرق القانونية السليمة . فلماذا يقيم اليهود الدنيا ويقعدونها متهمين النازيين بالفظائع والمنكرات والجرائم ضد الجنس البشرى ؟ إن المرء يعجب كل العجب من وقاحة هذا الافتراء ، ومن غفلة من يصدقونهم . ولكنها الوقاحة فى الكذب ، والسيطرة على وسائل الإعلام هما السبب الأول فى هذا الأمر العجيب . أما ما حدث لليهود فى ألمانيا وفى المناطق التى استولت عليها إبان الحرب ، فأمر تحكمه ضرورات الحرب . وفى اعتقادنا أن الأخبار الخاصة بهذا الموضوع كلها مشوشة مبالغ فيها كل المبالغة ، و٩٩٪ منها ملفق مخترع» .

ثم يقول :-

«وقد قررت إبان إقامتى فى ميونيخ - عاصمة الحركة النازية - عام ١٩٣٧ أن أدرس هذه الحركة دراسة عميقة ، وبدأت بكتاب «كفاحى» لهتلر ، وتلوته بكتاب «أسطورة القرن العشرين» لألفرد روزنبرج ، وغيره من الكتب العديدة التى اعتمدت عليها فى سلسلة المقالات التى كتبتها فى جريدة «مصر الفتاة» فى صيف ١٩٣٨ وما تلاه . وعلى الرغم من أن إقامتى فى ميونيخ استغرقت شهرا وأحد عشر يوما فقط ، فقد تبلورت أثناءها أفكارى السياسية ، ومنها إيمانى بأن النموذج الذى ينبغى لمصر استلهامه هو ما تحاول النازية تحقيقه لوطنها ألمانيا . ولما كانت ألمانيا لم تستعمر مصر ولا أى بلد عربى أو إسلامى ، وكان الإعجاب بألمانيا أصيلا فى الشعب المصرى ، بل وسائر الشعوب العربية والإسلامية ، فلم يكن ثمّ أىّ تحرّج فى استلهام نموذج ألمانيا» .

وقد رأى بدوى فى فبراير ١٩٣٨ أن يتصل بزعماء جماعة «مصر الفتاة» ، أقرب الجماعات والأحزاب المصرية شبها



بالحركات الفاشية ، وأن يتعاون معها ، وأن يكتب في جريدتها معرّفا قراءها بأيديولوچية الفاشستية والنازية «فكتبت عدة مقالات عن النازية ، مبادؤها ، والفلسفة السياسية التى تقوم عليها ، وتنظيماتها الحزبية، وترجمت وشرحت برنامج الحزب النازي ، مستعينا بكتابي هتلر وروزنبرج ، وبرسائل صغيرة كانت من مطبوعات حزب النازي حملتها معى من ميونيخ . وكانت كل هذه المقالات بتوقيعى وباسمى بالكامل » .

دفاع عن جريمة اغتيال !

من هذا المنطلق النازى إذن يدافع بدوى عن جريمة اغتيال العيسوى لرئيس الوزراء أحمد ماهر فى أول فبراير ١٩٤٥ عقيب إعلان ماهر في مجلس النواب قرار إعلان مصر الحرب على ألمانيا وإيطاليا واليابان ، على ضوء قرار الحلفاء بعدم السماح بالانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة إلا للدول التى أعلنت الحرب على دول المحور قبل انتهاء الحرب . يقول بدوى :

«لقد كان عملا مشينا خسيسا عاريا من كل شهامة وكرامة ، أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا فى فبراير ١٩٤٥ ، فى الوقت الذى أطبقت فيه جيوش الحلفاء على ألمانيا وتيقن أمر هزيمتها بعد بضعة أسابيع .. ثم ماذا كان سيحدث لو لم تُضم مصر إلى هيئة الأمم المتحدة ؟ .. لقد اعترف العيسوى منذ اللحظة الأولى بكل شجاعة ورباطة جأش أنه هو القاتل ، وأنه هو وحده المسئول ، وأنه قام بهذا العمل دفاعا عن شرف مصر ، ويدافع من الوطنية الخالصة ، لأنه شعر أن إعلان مصر الحرب على ألمانيا هو عمل دنئ ، يلوث كرامة مصر ويجعلها مجرد ألعوبة فى يد بريطانيا فماذا جنت ألمانيا ضد مصر حتى تعلن مصر عليها الحرب ! إن الجانى على مصر هو بريطانيا التى تحتل مصر منذ ثلاثة وستين عاما وتسومها الذل والهوان . فبأى حق إذن تعلن مصر الحرب على عدو عدوّها ؟.

كذلك يدافع بدوى عن جريمة اغتيال حسين توفيق فى ديسمبر من نفس العام لوزير المالية الوفدى أمين عثمان ، «الرمز المتجسد للخيانة العظمى ، الذى كان من المتوقع أن يلقى جزاءه عن هذه الخيانة على يد أحد الشباب الوطنيين» فإن نحن غضضنا الطرف عن هذه المباركة النظرية من جانب بدوى لجرائم الاغتيال السياسي، فإنه لمن المذهل المدهش حقا أن

نرى فيلسوفنا لا يتحرّج من أن يلعب دور القباضيات والبلطجية وعصابات النازيين والفاشيين إزاء مفكر مرموق مثله ، هو عباس محمود العقاد . إسمعه يقول :

«كتب العقاد مقالات ضد الإخوان المسلمين ، لكن هؤلاء سكتوا ولم يحركوا ساكنا . ثم انكفأ بعد ذلك يهاجم مصر الفتاة ، فلما كتب أول مقال تشاورنا في مصر الفتاة بماذا نرد . فرأى محمد صبيح أن يكون ذلك بالرد القاسي في مجلتنا ، وكتب فعلا مقالا بعنوان «العقاد جهول يريد أن يعلم الناس ما لا يعلم» فكتب العقاد مقالا آخر أشد وأعنف . وكان من رأيي أنا أن العقاد يرحب بالمقالات ، فلا علاج له عن هذا الطريق ، بل لابد من استخدام العنف معه لأنه لا يردعه غير العنف . وأخذ برأيي اثنان من أعضاء الحزب ، أحدهما هو الذي كان قد أرهب قاضي الإحالة . فتربصا للعقاد وهو عائد إلى بيته رقم ١٣ شارع سليم في مصر الجديدة ، وانهالا عليه بالضرب والصفع والركل ، وأفهماه أن هذا تأديب مبدئي بسبب مقاليه ضد مصر الفتاة ، فإن عاد ، عادا إليه بما هو أشد نكالا . وأحدثت هذه العلقة أثرها الحاسم . فخرس العقاد خرسا تاما ، ولم يعد إلى الكتابة ضد مصر الفتاة .

★ ★ ★

تلك إذن مجرد لمحات من الحياة الكثيبة المثمرة لهذا الفيلسوف التعس . حياة قضى ساعاتها بأسرها في القراءة والكتابة ، دون أن يسمح إلا لماما للصداقة أو الحب أو الزواج بأن تقتطع من هذه الساعات . (سأله الضابط الليبي وهو معتقل في سجن الكويفية شمال بنغازي : «لماذا لم تتزوج ؟» فأجاب بقوله : «لأني آثرت التفرغ للعلم وحده ، ولم أرد أن يشغلني عن العلم والبحث العلمي شيء ، وأنت تعلم مشاغل الأسرة والأولاد » .

وكم كنت أود – لولا ضيق المساحة المحددة لمقالي – أن أتناول بالتحليل موقفه من المرأة فهو يحرص كل الحرص على أن يورد هنا وهناك في هذا الكتاب أسطرا عن فتيات أوروبيات التقى بهن أثناء إقامته في ميونيخ (٤١ يوما) ، وبيروچيا (٤٣ يوما) ، وهولندا (٤٢ يوما) ، دون إشارة واحدة في الكتاب كله إلى صلة بامرأة مصرية واحدة . وهو يتحدث في تلك الأسطر عن جلوسه مع فتاة ألمانية في السادسة عشرة تحت ظلال الزيزفون في الحديقة الانجليزية بمدينة ميونيخ «نتساقى أحاديث الغرام وملاطفات الهوى ، حتى انتصف الليل ، لكني لم أرها بعد ذلك أبدا» . وعن فتيات ألمانيات ونمساويات في بيروچيا بإيطاليا ، «كنت أوثر واحدة منهن بالنزهة الخلوية في الروابي المحيطة بالمدينة ، فنقضي المساء حتى ساعة متأخرة من الليل ، والعفاف

أقوى رقيب علينا ، فلا نتبادل أكثر من لمسات الأيدى أو المخاصرة فى المشى ، وحرّمنا على أنفسنا ما يتجاوز ذلك . حتى القبل الخفيفة» ثم يستقر قلبه - ولمدة أربعة عشر يوما - على فتاة نمساوية ، كان يقابلها كل مساء عقب انتهاء المحاضرات العامة فيتجاذبا أطراف الحديث حتى منتصف الليل ، وسافرا معا إلى فلورنسا حيث أمضيا بها نهارا كاملا قضياه فى زيارة المتاحف . ثم كان أن اضطر إلى العودة إلى مصر ، فتبادلا فى ليلة الوداع الأقسام على الوفاء فى الحب وهما جالسان على الصخر خارج بيروچيا وكان القمر وقتها ساطعا ، «فاستحلفناه أن يكون شاهدا على هذه الأيمان» . وثمة فتاة هولندية رائعة الجمال، تبادلنا أحاديث الغرام البرىء ، لكن علاقتنا لم تستمر إلا أسبوعا واحدا ، لأنها كانت مضطرة إلى السفر» . أما الهولندية الثانية «فقد عرفتها ١٩٥٠ فى متحف اللوفر بباريس وأنا واقف أتأمل لوحة الموناليزا ، وقد زادنى بها إعجابا ثقافتها الأدبية والفنية الواسعة ، فخرجت أتجول معها فى حديقة اللوكسمبورج ، ثم التقينا فى المساء فى مقهى غنائى تونسى ، وقد أحضرت هى معها أخاها الأصغر ثم ودعتها إذ كان عليها أن تستقل القطار فى اليوم التالى عائدة إلى أمستردام» .

إنه لا يتحدث أبدا عن علاقة جنسية كاملة .. ولعل إقدامه على الحديث عن تلك العلاقات السطحية غير الكاملة هو من قبيل التفاخر بأن له صولة حتى فى هذا المجال غير الإبداعى . غير أنه لا يذكر فى هذا المجال إنجازات له «لم تحدث لغيره من قبل أو من بعد ! » . والغريب حقا أنه يرى مناسبا أن ينهى هذا الكتاب الضخم بأسره (٧٦٥ صفحة من القطع الكبير جلها مخصص لاستعراض إنجازاته العقلية) . بالحديث عما انتابه أثناء زيارته لإيران عام ١٩٧٣ (وهو فى السادسة والخمسين من العمر) من حسرة على صعوبة التعرف إلى فتيات أو سيدات فى إيران «لحرصهن كل الحرص على عفافهن» ، ثم يورد أبياتا من قصيدة هزيلة سقيمة كتبها فى هذا الموضوع الهام ، مطلعها :

شكوت إليك يا خيام من حالى بطهران

فلا «شيرين» تبسم لى ، ولا «زهرا» تمنانى

* * *

أثمة قراءة هى أدعى إلى إحساس المرء بالحسرة والألم وخيبة الأمل من قراءة هذا الكتاب لفيلسوف مصر الوحيد ؟.


نجيب محفوظ


نلسن مانديلا

أقــوال معاصرة


جاك دريدا

● «السجن علمنى التواضع والتأمل والغفران»

نلسن مانديلا
الرئيس السابق لجمهورية جنوب افريقيا

● «الأمريكيون يرون أبعد الآن لأن قامتهم أطول!!»

مادلين اولبرايت
وزيرة خارجية الولايات المتحدة

● «لا شئ فى الوجود يستطيع أن يعيد عشرة الماضى الجميل»

نجيب محفوظ
الأديب العالمى

● «الصراع فى روسيا يجرى وفق قاعدة إما أن تبيد أو تباد»

بوريس بيريزوفسكي
رجل الأعمال الروسي من أصل يهودي

● «النخبة الفاعلة فى ظل العولمة تنحصر فى ثلة من الوصوليين والذيول والمهربين وسماسرة البنوك والشركات الأجنبية»

د. محمد بن عبدالحي
الأستاذ بجامعة نواكشوط عاصمة موريتانيا

● «كل ما كتبته مجرد مقدمة نص لا اجرؤ على كتابته»

الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا

● «الفجوة بين أهل الكومبيوتر والمحرومين ستكون فى البلدان الفقيرة جدا أصعب من أن تردم»

مايكل ديرتوزوس
مدير مختبر كومبيوتارات ام. آي. تي

● «من البداية، وأنا شاب، اتخذت من المأثور اللاتينى «اسرع بتمهل» شعارا شخصيا»

الأديب الايطالي ايتالو كالفينو

● «الشهرة عفريت لا تستطيع السيطرة عليه، وعندما تحاول محاربته يزداد لهيبه تألقا»

النجم ليوناردو دي كابريو

● «الدراما المصرية مارد، قد يكون نائما لأسباب إدارية أو بيروقراطية، وصحوته مفيدة لنا»

المخرج السوري نجدت انزور

بين
جمال الدين الافغانى
ومحمد عبده

الشرق

والمستبد

العادل



بقلم :

د. محمد رجب البيومى



●● نسب إلى السيد جمال الدين الأفغانى أنه قال: «إنما ينهض بالشرق مستبد عادل» وقد اشتهرت هذه العبارة عنه حتى أصبحت من قبيل المسلمات، وأذكر أن الكاتب الكبير الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الأسبق كتب مقالا لمجلة الرسالة بالعدد الصادر فى ٢٤/٤/١٩٣٩م حاول فيه أن يؤوّل العبارة على وجه متفق مع أقوال السيد المشتهرة فى محاربة الاستبداد، ولكنى قرأت منذ خمسين عاما كتابا للعلامة الشهير الشيخ عبدالقادر المغربى نائب رئيس المجمع العلمى بدمشق عن جمال الدين أصدرته سلسلة اقرأ المعروفة، ذكر فيه حديثا للأفغانى عن الحكومة الاستبدادية رماها فيه بكل موبقة، فجعلت أسأل، اذا كان الرجل الكبير يذم الاستبداد فى شتى صوره هذه المذمة فكيف تصدر هذه العبارة عنه، ولماذا لا نبحث عن مصدرها قبل أن نسلّم بصحة نسبتها إليه ؟ ●●

وعن طريق المصادفة البحتة وقع فى يدى عدد أكتوبر سنة ١٩٦٥ من مجلة العربى فوجدت سؤالا عن مدى صحة هذه العبارة، أجاب عنه مسئول المجلة بقوله

(إن عبارة المستبد العادل) ما تزال تنسب إليه، تلوكها الألسن، وتجرى بها الأقلام دون أن يُحاول الذين يرددونها أن يحققوها، أو يتحققوا من صحتها، مع أن الاستبداد لا يتفق مع العدل، والسيد لم يكن داعيا ثوريا فحسب، بل كان أول داعية للحرية في الشرق الإسلامي وأول شهيد من شهدائها ، وليس معقولاً أن يدعو للحرية، ويستشهد في سبيلها، ثم ينادي في الوقت نفسه بحكومة استبدادية، علي أنك لو رجعت إلي تاريخ السيد جمال الدين، أو قرأت خاطراته التي سجلها محمد المخزومي باشا أحد تلاميذه لوجدت ما يريح بالك، يقول المخزومي باشا إنه سأل السيد عن صحة ما ينسب إليه من عبارة «المستبد العادل» فصححها له، وأن حقيقتها هي أنه - لا تحيا مصر ولا الشرق إلا إذا أتاح الله لكل دولة من دوله رجلاً قوياً عادلاً، فان خير صفات الحاكم القوة والعدل، وأن المطلوب هو القوى لا المستبد لأن الاستبداد يتنافى مع العدالة والحرية».

وإذن فقد أشاع المرجفون هذه العبارة عن السيد، ، دون أن يقولها، وحين سئل عن رأيه أبدى ما يدل عن تبرئه منها! ومع تعدد طبعات كتاب المخزومى فقد راجت العبارة، لأن الذين وصفوا جمال الدين بالإلحاد والزندقة، وسخروا الأقلام المأجورة لمحاربته عزّ عليهم أن تبطل هذه النسبة، فأرجفوا بها وموضع المفارقة في ذلك أن هؤلاء المأجورين هم الذين يروجون لحكومات الاستبداد ، ويسبحون بحمدها، ويأخذون مناصبهم المرموقة، وأموالهم الطائلة عن هذا الطريق؟ ولكنهم لا يستحيون أن يصموا الشيخ بما لم يقل، لأن نمه الشنيع يقع موقع الرضى من سادتهم الكبار! وهم غير محاسبين على تناقضهم السافر، إذ المهم لديهم أن يكتبوا ما يقع موقع القبول!

. كيف ينهض الشرق ؟

لم يثبت إذن أن جمال الدين قد قال هذه العبارة (إنما ينهض بالشرق مستبد عادل) ولكننا لم نبعد عنه كثيرا، حين نعلن أن تلميذه وصفيه الأستاذ الإمام محمد عبده قد قالها فعلاً، وتحدث عن فحواها في مقال نشر بين آثاره الرائعة، ونقلت عنه مجلة الهلال الصادرة في أول نوفمبر سنة ١٩٢٣ ص ٧٢ قوله تحت عنوان (كيف ينهض الشرق):

« إنما ينهض بالشرق مستبد عادل ، مستبد يكره المتناكرين على التعارف، ويلجىء الأهل إلى التراحم ويقهر الجيران على التناصف، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه

الذى يحكمه، فإن عرض حظ لنفسه، فليقع دائما تحت النظرة الثانية ، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه، يكفى لإبلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة، وهى سن مولود يبلغ الحلم، يولد فيها الفكر الصالح، وينمو تحت رعاية الولى الصالح، ويشتد حتى يصرع من يصرعه، خمس عشرة سنة تثنى فيها أعناق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج، ومنها البتر والكى إذا اقتضت الحال، وينشىء فيها نفوس الصغار على ما وجّه العزيمة نحوه ، ويسترد نياتهم بالتثقيف.. خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيما من أعوان الإصلاح، من صالحين كانوا ينتظرونه، وناشئين شبوا وهم ينظرونه، وآخرين ترهبوه فاتبعوه ، وغيرهم رغبوا فى فضله فجاروه، هل يعدم الشرق مستبدا عادلا فى قومه، يتمكن به العدل أن يصنع فى خمس عشرة سنة ما لا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرنا؟!

هذا ما قاله الإمام بنصه، ولابد من مناقشة أمور تتعلق بهذا الرأى، فنعرف فى أى مناسبة قال الإمام ما قال ؟ وما معنى الاستبداد فى رأيه؟ أهو المعنى السياسى الشائع أم المعنى اللغوى المعترف به؟ ولماذا جعل للحاكم مدة لا يتجاوزها حتى إذا انقضت أنهى دوره، وأسلم الأمر إلى سواه، هذه أسئلة ثلاثة توضّح اتجاه الإمام كما يستشف من سيرة حياته، وواقع ما قرر من سمات الحاكم المستبد العادل، ونترك بعدها ما يلهج به المتشنجون من انفعالات لا تقف عند حد ، لأنهم يتحدثون فيما لا يدركون !

أما الظروف الأليمة التى دفعته إلى هذا الرأى، فيمكن أن نلم بها حين نعرف مبدأ اشتغاله بالكتابة السياسية، وعقبى ما انتهى إليه من السجن بمصر ثم النفى عنها إلى بيروت ، فحين عين الإمام محررا للوقائع المصرية جعل من همه نقد ما يراه من أخطاء النظار (الوزراء) بصراحة واضحة لا تعرف التلويح الرامز، حتى ضاق به ناظر المعارف، وكان ذا صلة ماسة بالخديوى. فشكا إلى رياض باشا طالبا تنحية محمد عبده عن موقعه، ولكن الحق قد ظهر فيما كتبته الوقائع، فترتب على ذلك أن ينشأ مجلس أعلى للمعارف يكون صاحب الرأى فى شئون التعليم والموظفين . ويكون محمد عبده عضوا فيه، وبذلك أصبح الناظر مقيدا برأى المجلس، ثم اتسع الشيخ فى نقد الكبار من رجال الإدارة فى شتى الأقاليم، وكتب ما ينطق بأنهم أجراء للدولة يلتزمون بمصالح الشعب، وإذا حادوا عن ذلك فقد فقدوا مبرر بقائهم ، لأن الشعب صاحب الكلمة، وتلك نغمة لم تسمع بالجريدة قبل الإمام

وقد أشرت من قبل إلى هذا في مقالي بالهلال (فبراير ٢٠٠٠) . لقد اعتقد الشيخ أنه بما غرس من بذور الحرية قد ساعد على تكوين رأى عام مستنير، وحين قامت الثورة العرابية تأكد لديه هذا الاعتقاد، فكتب ما يؤكد حق الشعب فى ولاية شئونه، ورد على من يقولون إنه أمى جاهل لا يملك حق الرأى بأنهم مخطئون ، وأن الصفوة من العلماء والمفكرين يملكون من البصيرة والنفاذ ما يجعلهم يتحملون المسئولية فى كفاءة واقتدار، وبهذا التصور دعا إلى المجلس النيابى، وضرب المثل بما يعلمُ فى أوربا عن مجالس النواب والشيوخ، ثم حلت الكارثة فأخفقت الثورة العرابية وسيق الإمام إلى السجن المنفرد وحيداً دون أنيس، ونظر فإذا المترزقة من أحذية السلطة تنهشه نهشاً ظالما دون مبرر ، وفيهم من كان الشيخ واسطة ارتقائه، وباعث شهرته، وقد انتظر من قرائه الذين رباهم فى الوقائع المصرية أن يجهروا بالحق، ومنهم من يملك الرأى والقلم، فوجدهم إلباً عليه، لقد كانت المرارة ذات طعم حادٌ فى حلقه ، فعرف أن الشعب لا يملك لأمره دفعاً ، وزاد الأمر سوءا حين كتبت تقريرات عنه تصمه بالخيانة والغدر يشترك فى تدبيجها من غمره الشيخ بفضله ، إنه ليفصح عن ذلك بقوله.

«هذا اللئيم الذى كنت أظن أنه يألم لألمي، ويأخذه الأسف لحالى ويبذلُ وسعه إن أمكنه فى المدافعة عنى فقد قدّمت له نفعاً ، ورفعت له ذكرا ، وجعلت له منزلة فى قلوب الحاكمين.. لم أنقض له عهدا ، ولم أبخسّ له ودا ، فما باله أصبح من الناكثين» (كتاب الهلال «مذكرات محمد عبده ص ٢١٠») .

أشياء كثيرة أفسدت رأى الشيخ فى العامة والخاصة معا، وقد عبّر عن شجونه فى خطابه البليغ الذى أرسله من السجن إلى أحد أصدقائه(المصدر السابق ص ٢٠٨) مبتدئا بقول الشاعر

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة
كأننى صارم فى كف منهزم

وهو قطعة فريدة من مختار الرسائل فى البيان العربى، فقد قارن الشيخ بين أمسه حين كان صاحب قلم يردع النظار والمديرين، وبين يومه حين صار مكبلا بالقيود فى ظلمة السجن. قد ضاع جاهه، وفقد سلطانه، وقد أتى بتمثيل بيانى لا أجد أروع منه فى بابه، ومن حق القارىء أن يتحف به، ليرى نعمة الله فى إبداع الصورة، وسحر التشخيص.

«لقد صار سقوط الجاه عنى كمرض يصيب (الإنسان) الجميل الفاتن، فيخف الجسم، ويغير اللون، ويقعد عن الحركة، ويثقل على الأهل والعشيرة فى التمريض،

وقد كان ربّا لهم ، وهم له ساجدون، يذهب عنه الضياء، وينكسف من وجهه البهاء، وتنكره عند الرؤية أعين العشاق، فينحرف عنه السالكون إليه، وقد كانوا من قبل على آثار غباره يتدافعون! ويقاس على مرض الجميل، مرض صاحب الجاه».

اليقظة الفكرية

هذه أيام السجن بالقاهرة، أما أيام المنفى ببيروت، فقد أرته من ألوان العقوق ما لا قبل له باحتماله، إذ تعاوى الوصوليون بتهجينه وثلبه فى صحف الاستعمار بمصر، وتأتى الصحف إليه فلا يجد بها غير ما يمض النفس ويقدح القلب، وكان الذين يراسلونه من أمثال سعد زغلول وحفنى ناصف وعبدالكريم سليمان يحاولون أن يهوّنوا عليه بانتقاص هؤلاء الأذناب، وهنا شغل الإمام نفسه بإلقاء دروس فى مسجد السلطانية ببيروت فوجد من المستمعين استجابة فاقت كل تصور، فمال إلى اتجاه آخر غير اتجاهه السياسى فى طريقة اليقظة الفكرية، وهو أن يعمل على تنشئة جيل جديد من نابتة الأمة يفهم حقوق الوطن، وأصول الكرامة النفيسة، فيشب مطالبا بالحرية عن طريق التثقيف المتصل، وتأصلت هذه الفكرة لديه، فتحدث بها إلى أستاذه جمال الدين الأفغانى فلم تلق ارتياحا لديه، لأن جمال كان لا يُطيق الانتظار، فكل خالجة من خوالجه تهتف به: العمل، العمل، فكيف ننتظر حتى ينشأ جيل جديد ! وقد أزعجه تكرار هذا الاتجاه من تلميذه . فصاح به: أنت مخذل، ولكن التلميذ قد علم عن أحوال مصر والشام ما لا يعلم أستاذه فأصرّ على موقفه، وكتب كثيرا من المقالات فى تصوير آماله المرتقبة، ومن بينها مقال «المستبد العادل» ! . وهنا تأتى الإجابة عن معنى كلمة الاستبداد فى تفكير الشيخ، إن الإمام عريق فى فهم الأصول اللغوية فى العربية. وقد فسّر طرفاً من كتاب الله، وشرح نهج البلاغة للإمام على ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، فأوقعه ذلك على دقائق لم تجل فى خاطر أستاذه الأفغانى، وكتب اللغة تقول جميعها: استبد بالشىء أى انفرد به ، فلم يكن معنى الاستبداد فى ذهنه هو التغطرس والتجبر، كما فهم ذلك عبدالرحمن الكواكبى حين سمى كتابه طبائع الاستبداد، بل كان معناه الانفراد بالأمر، وهذا الانفراد إنما يمدح أو يذم وفق اتجاه صاحبه، فإذا اتجه المنفرد إلى العدالة والإنصاف وحب الشعب، فذلك ما يدعو إليه الشيخ. وإذا اتجه إلى نحو ما فهمه الكواكبى فهذا ما يحاربه . ويقيم الدنيا ويقعدها فى منازلته، لذلك كان من شروط (المستبد) لديه أن يلجىء الأهل إلى التراحم، ويحمل الناس على سعادتهم بالرغبة، وأن يكون عادلاً لا يخطو خطوة إلاّ ونظرته الأولى إلي شعبه الذى يحكمه، وإذا تعارض نفعه مع نفع الشعب، كان الشعب هو المقدم، ولم يجعل حكم هذا المنفرد ممتدا إلي أكثر من خمس عشرة سنة! وهى المدة التى ينشأ فيها جيل يعرف حقوقه وواجباته، ويعلم أن الحاكم

خادمه الذي يرعى مصلحته في ظل القانون! إن الإمام منطقي مع نفسه تماما! حين صمم على تنشئة جيل جديد، وعلى أن يكون الأمد المتاح لهذه التنشئة في ظلّ حاكم يثني أعناق الكبار إلى ما فيه خيرهم، ويعالج ما اعتلّ من طبائعهم بأنجع أنواع العلاج، ومنها البتر والكى إذا لزم الحال، وإن خمس عشرة سنة تستطيع أن تحشد له جمهوراً عظيما من أعوان الاصلاح كانوا ينتظرونه وآخرين من الناشئين عرفوا حقوقهم وواجباتهم فتدافعوا إلى اعتناق مذهبه!! فليت شعرى بعد ذلك كله أيكون المستبد فى رأى الإمام هو الدكتاتور الطاغية أم هو الراعى الشفيق! .

الديمقراطية المزعومة

وقد يظن ظان أن الإمام قد تجاهل ما تسير عليه أوربا وأمريكا من الرجوع إلى رأى الأكثرية الممثلة فى البرلمان المنتخب انتخابا صحيحا، يعبر عن رأى الأمة ، والحق أن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده معاً قد عرفا هذا النظام ورأيا فيه من المآخذ ما دفعهما إلى اجتنابه، لأن الديمقراطية المزعومة فى المجالس النيابية ذات منحى دكتاتورى واضح حيث أن قرار الأغلبية يكون فى يد أفراد معدودين بين زعماء الحزب المتغلّب، يصدرون رأيهم كما يشاءون، وعلى الأعضاء المنتسبين إليهم الموافقة التامة، فالكلمة فى المجلس ليست للأكثرية، ولكن لقلة ترسم الخطة للأكثرية لتسير وراءها، وكثيراً ما تقوم هذه الأقلية بمجافاة مَن تحدثه نفسه بالمعارضة، وقد يؤدى ذلك إلى فصله! وهذا كله فى الغرب المتحضر الذى تأتى نتيجة الانتخاب عنده صحيحة لا تلتبس بالتزييف ، أما المجالس النيابية فى الشرق، فهى فى أكثرها مجالس صورية تزيف فيها إرادة الشعوب تزييفاً صارخا يقبله الحاكمون وكأنه شيء طبيعى لا خطأ فيه، وهنا يكون أعضاء المجلس أدوات محركة فى أيدى الأقلية المسيطرة، لأنهم يعلمون أنهم لم يأتوا عن انتخاب صحيح، بل عن تزييف فاضح لا يرى فيه أصحابُه شيئا يُعاب، وقد رأينا فى هذه المجالس ما لا يكاد يصدقه عاقل! وحسبُك أن تعلم أنّ مأساة يونيو سنة ١٩٦٧ الفادحة التى كانت بمثابة زلزال مروع هدم الأمة هدما، أحدث الدّمار فى النفوس، والخيبة فى الآمال ، هذه المأساة الطاحنة ما كادت تعرض على مجلس الأمة حتى وجد من النواب من يرقص ويطبل ، وكأنه فى مقهى غجرىّ! فقلْ لى بربك: أهذا مجلس !! وإذن فالذين ينفعلُون حين يرون الإمام يتحدث عن الفرد العادل الملتزم بالنهج الصحيح، عليهم أن ينظروا إلى تاريخ المجالس النيابية، ليعلموا أن هذا النظام المتزيى بزىّ الديمقراطية ، ليس فوق النقد النزيه.

وتسألنى لماذا أعطى الإمام مهلة للحاكم المنشود لا تتجاوز خمسة عشر

عاما؟ فأجيب بأن الإمام يعرف أن الحاكم في الإسلام مُقيدُ بشريعة الإسلام. وأنها في صميمها شريعةُ العدل والإخاء والمساواة بل شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صراحة دون جمجمة هذه الشريعةُ ذات الأحكام الصارمة في سياسة الحكم ونزاهة الحاكم كانتْ كالمجهولة في عصره. والأغلبية الساحقة من دارسي الفقه الإسلامي يتعمقون في مسائل العبادات من طهارة وصلاة وصيام وزكاة وحج ، فإذا جاوزوا العبادات إلى شيء من المعاملات فحسبهم شذور عن البيع والرهن والربا والشفعة والإجارة ! أما سياسة الحكم فلا شأن لهم بها على الإطلاق. والاستاذ في دروس التفسير كان يصلّ ضليلاً مرتفعاً حين يتحدث عن آيات القرآن الخاصة بأولي الأمر، فيجزم أنهم أهل الحل والعقد من رجال التشريع، ولا يترك مناسبة تحين حتى يستطرد إلى أحكام السياسة الشرعية، وهو أول من درس في هذا العصر آراء الماوردي وابن تيمية والشاطبي وغيرهم ممن أفاضوا في سياسة الحكم بالإسلام، فإذا اشتهرت هذه السياسة في مدى خمسة عشر عاما فإنها تصبح قانوناً ثابتاً لا خلاف عليه إذا أنه مؤسس على هدى من كتاب الله وسنة رسوله ومواقف البررة من الخلفاء والمصلحين.

وقد يتساءل متسائل أيمكن أن يتحقق المستبد العادل واقعاً كما تصوره الإمام محمد عبده أم أنه مثل أعلى يتراءى من بعد ولا يمكن اللحاق به؟ .

والإجابة على هذا التساؤل سهلة . فلدينا المثل الواقعي في سيرة عمر بن الخطاب، كان متفردا قويا، ولكن في ظلال ما يعلم من كتاب الله وسنة رسوله ، فهو يلتزم التزاماً صارما بكل ما يعلم من أحكام الدين ، وما لا يعلم مما جد من أمور الناس في عصر الفتح الإسلامي الشاسع، لا يدع فيه مجالاً للتردد، بل يجمع حوله صحابة رسول الله ليشاورهم فيما استجد مستريحا إلى ما قام عليه البرهان الهادي إلى سواء السبيل، وكان عماله على البلاد المختلفة لا يرهبون شيئا غير لقائه في موسم الحج، إذ يُدعو الوالي، ويسألُ عن مواطنيه من الحجاج ليخبروه عن أمره، وكم اقتص لمظلوم فأرجع له اعتباره، وجازى المعتدي بما استحق ! وكلنا نعلم جوابه لعمرو بن العاص حين قال له : أرأيت ياأمير المؤمنين إن أدّب أحد الولاة بعض رعيته أإنك لتقتص منه؟ فقال عمر: والذي نفسي بيده لاقتص منه، ومالي لا أفعل؟ وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتصّ من نفسه؟!

أليسَ عمر مثلاً واقعيا! ولم يكن صورة خيالية تراءت في مخيِّلة فنان ؟!

خواطر مع مؤتمر

الجيولوجيين العرب

بقلم: د. رشدى سعيد

(١)

أقيم بالقاهرة فى شهر فبراير سنة ٢٠٠٠ المؤتمر الدولى الخامس لجيولوجية العالم العربى الذى نظمته كلية العلوم بجامعة القاهرة وحضره عدد كبير من المشاركين أربى على الألف.. كان منهم حوالى المائتين من جيولوجيى العالم العربى وغير العربى.. وكان الافتتاح والجلسة الأولى التى حضرتها فرصة طيبة للقاء زملائى القدامى وأبنائى من العاملين فى المهنة الجيولوجية والذين فرقت الأيام والسنون بينى وبينهم، وللتأمل فيما حدث فى مهنة الجيولوجيا من تطور منذ أن بدأت العمل بها منذ نيف وستين سنة مضت.

كان أول خاطر خطر لى هو هذا العدد الهائل من العاملين فى هذه المهنة - وكنت عندما بدأت العمل فيها واحدا من أقل من عشرة من الوطنيين العاملين بها على طول الوطن العربى، الذى لم يكن يعرف شيئا عن هذه المهنة التى كانت حكراً على الأجانب، كما لم يكن فى أى ركن منها جامعة تدرس هذه المادة غير الجامعة المصرية القديمة والتى لم يكن قد مر عليها عند دخولى فيها أكثر من اثنتى عشرة سنة - واليوم وبعد ستين سنة من هذا التاريخ فقد أصبح فى العالم العربى ما لا يقل عن مائة جامعة انتشرت على طوله وفى كل مدنه الكبرى بل وفى بعض بلداته وقراه، وأصبح عدد العاملين فى المهنة مقدرا بالآلاف، يعمل الجزء الأكبر منهم فى الجامعات ومراكز البحوث والجزء الأقل فى أعمال تطبيقية سواء فى

مجال استخراج البترول أو المعادن - وكما أظهر المؤتمر فإن هذه الجامعات تخرج فيضا هائلا من الأبحاث العلمية الخاصة بجيولوجية العالم العربي، التي يقوم بها العاملون فيها والذين يشكلون قوة لا تقل في حجمها عن أي تكتل علمي في أي مكان آخر على ظهر الأرض.

على أن الشيء الذي يلفت النظر هو أن هذه القوة الهائلة ذات القدرة الفائقة على انتاج هذا الكم الكبير من الانتاج العلمي ليس لها أثر يذكر عندما يأتي الأمر إلى ترجمة هذه الأبحاث إلى شيء ملموس، يمكن أن يعود على شعوب العالم العربي بفائدة عملية - فلازالت الموارد المعدنية التي يمتليء بها العالم العربي والتي تشمل فيما تشمل بالاضافة إلى مختلف المعادن البترول والمياه الأرضية مهدرة، والجزء الأكبر من المستغل منها في أيدي الأجانب وموجه لخدمتهم وللاستخدام خارج الوطن. فحقول البترول والغاز تدار وتملك في معظمها بالأجانب ويصدر معظم المستخرج منها للاستخدام في الدول الصناعية. ومناجم خامتي الفوسفات والحديد في المغرب وموريتانيا والتي تشكل أكبر مناجم العالم العربي من حيث الحجم يديرها بل ويملك الجزء الأكبر منها الأجانب، كما يصدر الجزء الأكبر من خاماتها إلى خارج الوطن العربي، أما الجزء الصغير من الموارد المعدنية الذي يستخدم محليا فإنه يدار بطرق عتيقة لا تأخذ في الاعتبار الحفاظ عليه أو تنميته تنمية مستدامة أو حامية للبيئة كما هو الحال في خامات المحاجر، والقليل من المواد الترابية التي تستخرج هنا وهناك ولا تضيف شيئا يذكر الى جملة الناتج القومي الاجمالي للوطن العربي.

وهذه الصورة المليئة بالتناقض تثير في النفس الأسى لعجز النخب العربية الحاكمة عن الاستفادة من هذه القوة الضاربة التي هي تحت أيديهم، والتي كان من الممكن أن تكون رأس الحربة للاستفادة من موارد بلادهم الطبيعية وإدارتها لصالحهم وبأنفسهم، ونقل أوطانهم إلى المكان الذي ينبغي أن يكونوا فيه، بدلا من أن يكونوا في ذيل قوائم بلاد العالم من حيث معدلات التنمية أو مستوى دخل أبنائها وبناتها.

ويبدو لي من واقع هذه الصورة أن إنشاء الجامعات في البلاد العربية لم يأت بالأثر الذي كان جيلي يرتقبه، فقد جاء انشاؤها بغرض استكمال صورة الدولة الحديثة واستجابة لضغط شعبي متزايد، ولم يدر ببال النخب الحاكمة التي انشأتها أن لها فائدة تزيد على ذلك.

كان هذا هو الخاطر الأول الذي دار بخلدي وأنا أجلس فوق منصة أولى جلسات المؤتمر واتطلع إلى هذا العدد

الغفير من المشتغلين بالعلم والممتلئين بالحيوية والرغبة فى التعلم، وقارنه بالاستخدام المتدني وغير الرشيد للموارد الطبيعية للبلاد العربية - وتخيلت لو أن هذا الجمع كان تحت قيادة ذات رؤية لكان حال العالم العربي على غير ما أراه.

(٢)

أما الخاطر الثاني فقد جاءني عندما كنت أحاول أن أعبر شارع ثروت الذي يفصل بين حرم الجامعة حيث حدثت وقائع حفل الافتتاح فى صالة الاجتماعات الكبرى وقاعات اجتماع المؤتمر فى المبنى المقابل بالمدينة الجامعية.. فقد تطلب هذا الانتقال بين المبنيين إلى عبور هذا الشارع الذى لا ينقطع فيه مرور السيارات مما شكل بالنسبة لى مغامرة كبيرة، احتاجت منى إلى الاستعانة بأحد ابنائنا ممن اعتادوا على اقتحام مغامرة الدخول فى تحد مع السائقين حتى يجبروا على الوقوف أو التهدئة حتى يتم عبور الشارع.. وقد تملكنى الأسى من أن أحدا من مسئولى جامعة القاهرة لم يفكر فى سلامة الطلاب والأساتذة الذاهبين والآتين إلى ومن المبنيين بتكليف أحد الحرس لتنظيم المرور وإيقافه بين الحين والحين حتى تكون هناك فرصة للعبور الآمن عبر هذا الشارع الشديد الازدحام وهو أضعف الايمان.. أما اشده والواجب أن ينفذ فهو ربط المبنيين بنفق تحت الأرض.

(٣)

الخاطر الثالث جاءني وأنا استمع إلى المحاضرة الاستهلالية التي دعى الى القائها الأستاذ الدكتور محمد يوسف حسن عضو مجمع اللغة العربية والذى يتقارب سنه مع سنى والذى جاء بعصاه يقوده أحد الطلاب ليلقى محاضرة فى هذه الجلسة الأولى التى دعيت فى آخر لحظة لرئاستها وتقديم محاضرها. وجاءت المفاجأة الكبيرة عندما قرأت عنوان المحاضرة التي كان الدكتور يوسف حسن سيلقيها فإذ بها عن موضوع اكتتابات اخوان الصفا فى علم الجيولوجيا وهو الموضوع نفسه الذي كتبت عنه مقالا ظهر منذ خمسين سنة بالتمام فى المجلة الأمريكية العلوم - وقد نوه الدكتور يوسف بهذا المقال القديم وأسهب فى الحديث عنه فأعطى بذلك مثالا طيبا لشبابنا الذى ينقل الكثيرون منهم أعمال غيرهم دون الإشارة اليها، ولا شك فى أن الدكتور يوسف ينتمى فى ذلك إلى الجيل الذى تربى على احترام العلم ومعرفة أصوله.

وقد أعادت محاضرة الدكتور يوسف ذكريات وحنين إلى ماض بعيد كنت أحاول فيه أن أعرف شيئا عن حضارات العالم وتطورها.. وكنت عندما كتبت ذلك المقال أحضر محاضرات الأستاذ كيرك

بريان عالم الجيومورفولوجيا المشهور عن نشأة الظواهر الجغرافية وتطورها بجامعة هارفارد عندما كنت طالبا بها - ووجدت النظريات والأفكار التى كان يثيرها هذا الأستاذ الكبير لا تختلف كثيرا عن الأفكار التى جاءت فى رسائل اخوان الصفا التى كتبت فى القرن العاشر الميلادى إبان النهضة الكبرى التى شهدها العرب بعد أن أخذوا عن الفلسفة اليونانية وانطلقوا بها إلى أبعاد جديدة فى ذلك الزمن البعيد.. ولما أخبرت الأستاذ بريان بما وجدته فى هذه الرسائل أبدى اهتماما كبيرا وطلب منى أن أترجم له قطعة منها وفعلت ذلك، وعلقت عليها وأعطيتها له فأصلح منها قليلا وصمم على نشرها فى أحد أهم المجلات العلمية الأمريكية.. وقد أصبحت هذه الورقة العلمية من المراجع الأساسية فى ميدان تاريخ العلوم.

الشيء الذى تركه كشف هذا القرب الشديد بين ما كان يلقيه علينا الأستاذ كيرك بريان بجامعة هارفارد فى القرن العشرين وبين ما كتبه اخوان الصفا فى بغداد فى القرن العاشر هو أن كليهما لابد وأن يكونا أبناء حضارة واحدة شارك العرب فى بنائها، والتقطها الغربيون منهم ونموا بها فى الوقت الذى تخلفنا نحن عن ركبها.. وزادت تلك الملاحظة من يقينى من وحدة الحضارة ومن أن ما نسميه خطأ بالحضارة الغربية هى فى حقيقتها حضارة جامعة شارك الكل فى بنائها وهى نتاج تراكم كل الحضارات السابقة.

بل ولعلى أذهب إلى أكثر من ذلك لأقول أن الأوروبيين هم فى الحقيقه سدنة هذه الحضارة والوارثين الحقيقيين لها وأنه ليس لأحد ممن يتكلمون اليوم عن الحضارة الإسلامية المعاصرة الحق فى الحديث أو الالتصاق بها فليس لهؤلاء المتكلمين أية علاقة بها، فقد قام أجدادهم بمطاردة هذه الحضارة «لتهافتها» على فلسفات اليونان وقتلوا بأبشع الطرق حاملى لوائها، وفضلوا العيش فى مجتمعات اعتمدت على النقل وأوقفت الاجتهاد وإعمال العقل فعقمت حياتهم وتوقف الإبداع فيهم حتى أصبحوا اليوم يعيشون على ما تجود بهم الحضارة الحديثة من عدد أو أفكار.

كانت المحاضرة فرصة لأن اختمها بتذكير شباب الحاضرين بماضيهم المجيد ولحثهم لكى يحذو حذو الأجداد، وأن يحكموا العقل وينطلقوا فى إعماله دون قيود أو حدود حتى يستطيعوا أن يبدعوا وأن يشاركوا فى تقديم الحضارة وبنائها بدلا من أن يكونوا متلقين لمنتجاتها.



أزياء المصريين : كيف تطورت فى نصف قرن ؟

بقلم : د. جلال أمين

كانت الملابس فى طفولتى ، أى منذ أكثر قليلا من نصف قرن ، وسيلة سهلة للغاية لتصنيف المصريين إلى طبقات : دنيا ووسطى وعليا ، فبمجرد النظر إلى شخص ما كان من السهل عليك أن تحدد الطبقة التى ينتمى إليها . ثم رأيت الأمر يتغير مع مرور الزمن . لا زالت بالطبع حالة الفقر المدقع واضحة كالشمس ، وكذلك الغنى الفاحش ، ولكن فيما بين هاتين الحالتين المتطرفتين ، أصبح تصنيف الشخص طبقيا بالنظر إلى نوع ثيابه ، أصعب بكثير مما كان عليه الأمر فى طفولتى .

الطبقة الدنيا :

منذ نصف قرن كان من أسهل الأمور الجزم بأن شخصا ما ينتمي إلى الطبقة الدنيا وذلك بشيئين رئيسيين يتعلقان بما يرتديه أو لا يرتديه من ملابس، أولهما الجلباب . ذلك أن أفراد هذه الطبقة كانوا ، بدون استثناء تقريبا ، يرتدون الجلباب ، وكان هذا ينطبق على الرجال والنساء على السواء ، على الأطفال والشباب والكهول ، وفي المدينة كما في الريف . قد يختلف نوع القماش في حالة المرأة عنه في حالة الرجل ، وقد يختلف اللون ، ولكن الجلباب كان هو «الرداء الرسمي» لهذه الطبقة كان من المستحيل تقريبا أن تجد من بين أفرادها رجلا يلبس البنطلون أو القميص ، ناهيك عن أن تجد امرأة ترتديهما ، كالذي أصبح شائعا اليوم . كان ارتداء الرجل للبنطلون في ذلك الوقت يجعله «أفنديا» على الفور ، أي يدخله في عداد طبقة أخرى ، أما ارتداء المرأة للبنطلون في ذلك الوقت ، فكان من الصعب تصوره أصلا ، وقد يؤدي إلى وصف المرأة بأوصاف لا يليق ذكرها .

أما المميز الثاني للطبقة الدنيا منذ خمسين عاما فيتعلق بارتداء الحذاء ، ولا أقصد بذلك نوع الحذاء بل عدم استخدامه أصلا ذلك أن «الحفاء» «أي السير عاري القدمين» كان سمة طاغية من سمات هذه الطبقة ، مما جعل مشروع «القضاء على الحفاء» أحد المشروعات الاصلاحية (بل الثورية !) الكبرى في الأربعينات ، الأمر الذي يدل بذاته على المدى الذي بلغه العجز عن إشباع بعض الحاجات الأساسية في مصر في منتصف القرن العشرين .

كان الجلباب وشيوع الحفاء أمرين يشترك فيهما رجال ونساء الطبقة الدنيا في مصر في ذلك الوقت ، ولكن نساء هذه الطبقة كانت تتميز عن نساء الطبقتين الأخريين بشئ ثالث هو تغطية الرأس بشئ كاد يندثر إندثارا تاما وهو ما كان يسمى «بالمنديل أبو أويه» . فبقدر ما كان الخروج إلى الشارع بدون أي غطاء للرأس شائعا بين نساء الطبقة الوسطى ومقبولا تماما ، في منتصف القرن ، كان هذا يعتبر غير لائق بتاتا بين نساء الطبقة الدنيا ، إذ كان يجب تغطية الشعر بهذا «المنديل أبو أوية» وإلا ظن بالمرأة الظنون كانت الفتاة ، أو المرأة التي تشتغل بالخدمة المنزلية ، إذا ظهرت دون أن تغطي شعرها بهذا المنديل ، ينظر إليها وكأنها قد ذهبت في سوء السلوك إلى أبعد مدى ، بينما كانت سيدتها تخرج دون غطاء للرأس دون أن يسئ أحد بها الظن .

كل هذا أصبح الآن من ذكريات الماضي، بل لم يعد الآن حتى جزءا من ذاكرة معظم المصريين . لقد أصبح الحفاء ظاهرة نادرة للغاية في المدن ، إذ أصبح أفقر الفقراء قادرا على العثور على حذاء أو نعل من أى نوع ، ولو كان مصنوعا من البلاستيك وانخفضت نسبة مرتدى الجلباب بشدة ، حتى بين أفراد الطبقة الدنيا ، واستبدل به البنطلون والقميص ، فلم يعد ارتداؤهما كافيا لتصنيف الناس في طبقة دون أخرى ، وكاد يختفى أيضا «المنديل أبو أوية» وحل محله ما يسمى «بالحجاب» ، ولكن الحجاب انتشر أيضا بين نساء الطبقة الوسطى ، بمختلف شرائحها ، فلم يعد غطاء الرأس بدوره كافيا للتمييز بين الطبقات .

الطبقة الوسطى

أما الطبقة الوسطى فإني أعرف عنها أكثر مما أعرف عن غيرها ، لانتماء أسرتي إليها ، وتحكى لى أمي كيف أنها انزعجت انزعاجا شديدا عندما رأت والدى قادما لخطبتها ، وكانت مختفية وراء الشيش ترقب قدومه لكى ترى لأول مرة ما شكل هذا الرجل الذى سوف يكون على الأرجح زوج المستقبل ؟ انزعجت بشدة إذ رأته يرتدى الجبة والقفطان، وكانت تتمنى رجلا يرتدى الزى الأوروبى . «الجاكتة» والبنطلون ، فقد كانت ترى فى الزى الأوروبى دليلا على «العصرية» ومن ثم معاملة أفضل للمرأة ، وربما أيضا دليلا على خفة الروح والميل إلى المرح ، أيا كان الأمر ، فقد تزوجته على أى حال ، ولا أذكر أنها علقت بعد ذلك أى أهمية على نوع الزى الذى كان يرتديه أبى ، ولا أنها ربطت بين صرامته وقلة ميله للضحك وبين ما يرتديه من ثياب ، إذ لابد أنها صادفت فى حياتها بعد ذلك ما بيّن لها أنه لا علاقة البتة بين الأمرين ، بل لقد خلع أبى بعد ذلك الجبة والقفطان وارتدى الزى الأوروبى بعد تردد طويل ، دون أن يترتب على ذلك زيادة مرحه أو زيادة مقدار الحرية التى سمح بها لوالدتى أو أخوتى .

كان زى الرجال ، من المنتمين للطبقة الوسطى ، ينقسم إلى نوعين أساسيين ! الزى الدينى والزى المدنى أو الافرنجى ، وكان الأول أكثر انتشارا بكثير فى منتصف القرن منه الآن ، إذ ظل التعليم الأزهرى هو الشائع حتى الثلاثينات ، وظلت نسبة المتعلمين فى المدارس الثانوية غير الأزهرية ضئيلة





حتى ذلك الوقت ، واستمر كثيرون ممن تعلموا تعليما أزهريا فى ارتداء زيهم الأزهرى حتى بعد حصولهم على قدر لا يستهان به من الثقافة العصرية ، وحتى لو لم يكن لعملهم أى صلة بالدين . وقد ظل أبى يرتدى الجبة والقفطان لعدة سنوات حتى بعد تحوله من القضاء الشرعى إلى تدريس الأدب العربى بالجامعة المصرية ، حتى غلبه تيار «العصرية» ، وأقنعه بعض زملائه الذين تعلموا فى أوروبا بأن الأدب العربى ، الذى كان يدرسه ، شئ والجبة والقفطان شئ آخر ، ولكنه ظل فترة طويلة يشعر بالاغتراب والاضطراب والخجل وهو يسير بالزى الأوروبى بين زملائه وتلاميذه .

★★★

عندما استرجع فى ذهنى صورة أبى وأنا طفل ، لا أجد فى ثيابه ما يختلف عن ثياب أى رجل آخر فى مثل طبقته ومهنته فى وقتنا الحالى ، باستثناء ثلاثة أو أربعة أمور :

أولها : أنه كان يرتدى الطربوش الأحمر ، وظل على ذلك حتى وفاته فى ١٩٥٤ . وسرعان ما اختفى الطربوش تماما من حياتنا بعد ذلك ، كأثر من آثار ثورة ١٩٥٢ ، وتخلصها من آثار الحكم التركى ، كالطربوش وألقاب

الباشوية والباكوية وأسماء الرتب العسكرية . قد يستغرب بعض القراء أن جيلي ظل مضطرا إلى إرتداء طربوش أحمر ، للذهاب إلى المدرسة حتى بلغنا مرحلة الشهادة الابتدائية ، في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وكان البنطلون القصير شائعا أيضا حتى في تلك السن ، ومن ثم فلابد أن منظرى بالبنطلون القصير والجاكتة والكرافتة مع ارتداء طربوش أحمر وذى زر أسود فوق هذا كله ، كان سيبدو مضحكا للغاية لو رآني أحد اليوم ، ولكن كان هذا حينئذ يبدو طبيعيا تماما .

كان أبي أيضا كثيرا ما يمسك بعصا جميلة يستند عليها أحيانا ، ولا يحتاج إليها في معظم الأحيان ، ولكنها كانت من سمات اكتمال الرجولة في هذا العصر ، بينما لم تعد الآن تستخدم إلا عند وجود حاجة حقيقية إليها ، كثيرا ما كنا نرى أيضا في يد أبي «منشاة» ، وهي عصا قصيرة متصلة بكمية من الشعر الغزير المصنوع من ذيل الحصان ، تستخدم في طرد الذباب، وكثيرا ما كانت يد المنشاة ذات جمال ، ومصنوعة من الخشب الفاخر أو الأبنوس ، كان انتشار المنشاة في منتصف القرن واختفاؤها الآن علامة على عدة أشياء من بينها أن مستوى النظافة العامة كان أقل منه الآن ، ولكن ربما كان الأهم من ذلك ما ابتدعه التقدم التكنولوجي من أدوات تغني عن المنشاة ، كالثلاجة وأجهزة التكييف والحواجز المصنوعة من السلك المانع لدخول الذباب والناموس من النوافذ والأبواب ، بل وربما أيضا زيادة الحركة بوجه عام وندرة جلوس الرجال ساعات طويلة على المقاهي دون عمل إلا تبادل الحديث وطرد الذباب .

لم يعرف أبي أيضا ساعة اليد، فهذه أيضا كانت بدعة عرفتها أنا وأخوتي ولم يعرفها أبي ، إذ كانت الساعة نفسها شيئا ثمينا للغاية وأقل شيوعا بكثير منها الآن (إذ ما الحاجة إلى معرفة الوقت بالضبط إلا لمعرفة ما إذا كان قد حل وقت الصلاة ؟ وحتى هذه المهمة كان يقوم بها المؤذن خير قيام) كانت الساعة في نظر جيل أبي وأمي أقرب إلى المجوهرات يعتبر ضياعها خسارة فادحة يصعب تعويضها . كان لدى أبي ساعة ولكنها كانت ساعة «بكاتينة» أي سلسلة ذهبية ثبت أحد طرفيها في الصديري بينما توضع الساعة في أحد جيوبه .

فيما عدا هذه الفروق البسيطة كانت ملابس أبي لا تختلف عما يرتديه رجال الطبقة الوسطى الآن ، وذلك يعكس ملابس النساء التي طرأ عليها تطور ملحوظ خلال الخمسين عاما الأخيرة ، بل هو تطور «ثوري» بمعنى الكلمة ، يعكس ما

حققته المرأة المصرية من تطور سريع خلال هذه الفترة ، من حيث خروجها من المنزل للعمل ، واشتراكها فى الحياة العامة .

★★★

مما أذكره مما يتعلق بملابس النساء فى طفولتى ذلك الالتزام الغريب من جانب أمى ، باللون الأسود ، فلا أذكر أنى رأيتها قط خارج المنزل ، وهى ترتدى شيئا غير فستان أسود وطرحة سوداء ، وهكذا كانت تفعل بقية النساء من جيلها ، ومن نفس طبقتها ، حتى قبل أن يفارقن سن الشباب . كان غير ذلك يعتبر من قبيل التبرج غير المقبول اجتماعيا ، بل إنه حتى فيما يتعلق بالبنات اللاتى لم يتزوجن بعد ، كانت الألوان المتاحة لهن محدودة العدد ، وبعيدة كل البعد عن الألوان الزاهية والصاخبة الشائعة اليوم .

هكذا كانت ملابس الخمس أو العشر طالبات فى دفعتى بكلية الحقوق بجامعة القاهرة فى أوائل الخمسينات ، ليس فى ألوانها أو تصميمها شئ يلفت النظر ، وهن يسرن فى غاية الخجل بين نحو ألف من الطلاب الذكور وقد التصقت كل منها بالأخريات خوفا من أن تلتهمن عيون الطلبة الذكور ، لم يكن بين ملابسهن البنطلون أو الحجاب ، ولكنى عندما أنظر الآن إلى أى صورة من صور الطلبة والطالبات فى ذلك العصر ، ألاحظ بدهشة بالغة كيف كانت هذه الملابس ، غير مناسبة ، فى معظم الأحيان ، لحجم الفتاة التى ترتديها فما تراه من ملابس يبدو دائما أوسع كثيرا من اللازم أو أضيق مما يجب ، مع الافتقار بالطبع إلى أى أناقة . ربما كان تفسير ذلك أن الطبقة الوسطى فى مصر ، فى ذلك الوقت ، كانت أكثر اطمئنانا منها الآن ، إلى أن ما ترتديه من ملابس كاف لتمييزها عن الطبقات الدنيا ، ولو كانت ما ترتديه أقل أناقة بكثير مما ترتديه الآن ، ذلك أن الطبقات الدنيا ، كما سبق أن أشرت ، كانت ترتدى أنواعا مختلفة تماما من الثياب ، وكافية بمجرد النظر إليها ، لتمييز هذه الطبقة عن غيرها ، ولكن ربما كانت قلة حظ بنات الطبقة الوسطى من الأناقة ، فى ذلك الوقت ، بالمقارنة بها الآن ترجع أيضا إلى اعتماد هذه الطبقة إلى درجة أكبر بكثير من اعتمادها الآن ، على ما تقوم به الأمهات فى منازلهن من تفصيل الثياب لبنات الأسرة ، كانت ماكينة الخياطة «سينجر» ، قطعة ثابتة من أثاث هذه الطبقة ، و جزءا أساسيا من «جهاز» العروس ، التى لابد أن تدخل بها بيت الزوجية .

وكان جهل الزوجة بمبادئ الخياطة يعتبر شيئا مشينا يضعف من فرصتها فى الزواج . كانت هذه الماكينة الصغيرة تدار باليد ، وهذا هو ما كانت أمي تستخدمه باستمرار ، وكان ذلك يتطلب درجة لا يستهان بها من مهارة ، إذ تحرك أمي عجلة الماكينة بإحدى اليدين وتحرك قطعة القماش فى الاتجاه المطلوب تحت الأبرة المتحركة ، باليد الأخرى . ثم تطورت الماكينة قليلا فأصبح من الممكن ادارتها بتحريك إحدى القدمين ، وهذه هى الماكينة الفاخرة التى دخلت بها أختى بيت الزوجية ، وإن لم تستخدمها بكثرة مثلما كانت أمي تستخدم ماكينتها الصغيرة .

الملابس الجاهزة :

ذلك أن تطوراً مهما بدأ يظهر فى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وهو كثرة المعروض من الملابس الجاهزة ، الأمر الذى كان يتطلب لظهوره اتساع حجم الطبقة المتوسطة ، القادرة على شراء هذه الملابس، بدرجة كافية تسمح بانتاجها بحجم كبير يخفض من نفقتها .

وقد ترتب على هذه الظاهرة أيضا ، أى زيادة المعروض من الملابس الجاهزة ، أن أخذت فى التوارى عادة أخرى كانت أكثر انتشارا بكثير منذ خمسين عاما وهى اشتغال النساء من الطبقة الوسطى بأعمال «التريكو» ، حيث يقمن بنسج الملابس الصوفية لأفراد الأسرة قبل أن يشيع توافر هذه الملابس فى الأسواق .

ومع انتشار الملابس الجاهزة ، للإناث والذكور ، بدأت ماكينة الخياطة تختفى من المنازل ، وكذلك بدأت تختفى وظيفة «الخياطة» التى كانت إحدى الشخصيات المهمة فى حياة الطبقة المتوسطة المصرية ، كما توارت بشدة وظيفة «الترزى» الذى يقوم بتفصيل الملابس للرجال لنفس السبب . ومع توارى وظيفة «الخياطة» ، وندرة زياراتها لأسر الطبقة الوسطى المصرية ، كان على بنات هذه الطبقة ، اللاتى بلغن سن الزواج ، أن يبحثن عن طرق أخرى للعثور على العريس المناسب ، والذى كانت أخباره تصل إليهن بانتظام عن طريق هذه «الخياطة» .

★★★

ليس من الغريب أن انتشار ظاهرة الملابس الجاهزة فى مصر قد تأخر كثيرا عن انتشارها فى البلاد الأوروبية ، فالأمر يتوقف فى الأساس على حجم الطبقة المتوسطة ، وهذه الطبقة لم تأخذ فى النمو فى مصر بسرعة كبيرة إلا منذ الخمسينات من القرن العشرين ، كان من الطبيعى أيضا أن تبدأ ظاهرة الملابس الجاهزة فى الانتشار أولا فى السلع الأكثر أهمية ، كالأحذية مثلا والجوارب ، ثم





فى القمصان والبلوفرات ، قبل أن تشمل أيضا الجاكيات والبدل الجاهزة التى لم تبدأ فى الانتشار فى مصر إلا فى أواخر السبعينات .

كان أبى إذا أراد أن يشترى لنا بعض الملابس اصطحبنا إلى أحد المحلات فى شارع فؤاد (٢٦ يوليو الآن) أو ميدان العتبة الخضراء ، حيث كان المحل فى العادة ذا اسم أجنبى أفيرينو أو شيكوريل أو شملا أو صيدناوى .. الخ .

واستمرت تجارة الملابس حكرا للأجانب من الأوربيين ، وكان كثير منهم من اليهود ، أو من «الشوام» ، أى اللبنانين والسوريين والفلسطينيين ، بما فى ذلك المحل الضخم ذو الاسم المصرى «عمر أفندى» ، حتى نهاية الخمسينات ، حين بدأ التمصير على يد ثورة ١٩٥٢ . كانت هناك بعض الاستثناءات البسيطة : محلات ملابس صغيرة ، مملوكة لمصريين ، أهمها محلات «شركة بيع المصنوعات المصرية» ، التى كانت تبيع فى الأساس منتجات الشركات التى أسسها بنك مصر ، كانت هذه المحلات كالجزر الصغيرة فى بحر واسع يسيطر عليه الأجانب ، ولكن حتى المحلات الأجنبية كانت تبيع فى

الأساس ملابس مصنوعة فى مصر ، إذ كانت الطبقة المتوسطة المصرية غير قادرة ، فى ذلك الوقت ، على شراء غيرها ، وكانت الطبقة العليا من صغر الحجم بحيث لم يكن من الممكن أن تعتمد هذه المحلات عليها وحدها . وقد استمر الأمر على هذه الحال حتى نهاية الخمسينات .

★★★

من الممكن أن أصور للقارئ بعض ما حدث من تطور فى ملابس الطبقتين الدنيا والمتوسطة ، خلال نصف القرن الماضى ، من وصف بعض ما رأيته من تطور على ركاب قطار حلوان ، الذى أصبح الآن مترو الانفاق الأنيق ، منذ بدء ركوبى له فى أوائل الستينات كانت التذكرة من المعادى إلى باب اللوق فى أوائل الستينات بثلاثة قروش ، ويمكنك شراؤها من شباك التذاكر قبل ركوب القطار أو الانتظار حتى يأتيك المحصل فى القطار فتدفع وقتها غرامة تصل بسعر التذكرة إلى خمسة قروش ، ولكن حيث أن المحصل كان نادرا جدا ظهوره ، فإن ركوب القطار كان فى الواقع مجانا ، بالنسبة لمعظم الركاب ، إذ لم يكن أحد يسألهم عن التذكرة لا عند الركوب ولا فى القطار ولا عند النزول كان معظم الركاب وقتئذ من مرتديى الجلباب ، وكانت نسبة النساء منخفضة للغاية والحجاب بينهم شبه منعدم، كما كان القطار مليئا بالصبية الحفاة الذين يمرون بين الركاب صائحين ومعلنين عما يحاولون بيعه لهم ، أقراص النعناع ، أو أمشاط الشعر ، أو أحجبة صغيرة للوقاية من الحسد . انظر إلى ركاب هذا القطار الآن فلن تجد رجلا يرتدى الجلباب إلا نادرا مع أن الكثيرين من الركاب من الحرفيين الذين كان الجلباب هو كل ما يعرفونه من ثياب ، وليس هناك رجل أو طفل حافى القدمين ، وارتفعت بشدة نسبة النساء الذاهبات إلى العمل والعائدات منه ، حتى تكاد نسبتهن فى الصباح الباكر تفوق نسبة الرجال ، وتفوق نسبة المحجبات منهن النصف ولكنى لاحظت فى السنوات الأخيرة أن الحجاب قد أصبح أكثر تنوعا ، وأن عناية أكبر تبذل الآن فى اختيار لونه وطريقة تثبيته على الرأس ، وأن كثيرات من مرتديات الحجاب يسمحن الآن بظهور جزء ولو صغير من الشعر المطلوب إخفاؤه ، وأن العناية التى كانت تبذل فى تصفيف الشعر أصبحت تبذل فى اختيار أصباغ الوجه ، بل إن ارتداء الحجاب لم يعد ، فيما يظهر ، يعتبر متعارضا مع مراعاة اعتبارات الجمال فى ارتداء بقية الملابس ، كالحزام الذى يحيط بالوسط ، ولا يتعارض مع ارتداء «جونلة» ضيقة بعض الشئ أو حتى مع ارتداء بنطلون ، وهو

ما كان لا يتصور أن ترتديه النساء منذ ثلاثين عاما .

يحدث لي أحيانا ، إذا ركبت هذا القطار فى طريقى إلى عملى ، أن أقوم من مقعدى لأعرضه على سيدة واقفة ، فإذا بها ترفض منزعجة أشد الانزعاج ، وكأن قبولها لهذا العرض من قبيل المستحيل . قد يكون هذا الرفض راجعا للفرق بين عمرها وعمرى ، ولكنى ألاحظه أيضا عندما لا يكون فارق السن كبيرا . وإذا بى أتأمل السيدة الرافضة فأجد أن من الممكن جدا أن يكون لرفضها أسباب «طبقية» بمعنى أنها لازالت تشعر بأننى «أحق» منها بالجلوس ، وأن الملابس التى ترتديها أصبحت تخفى تماما ما حققته من صعود اجتماعي من طبقة إلى أخرى .

الطبقة الراقية

كان شراء الملابس المستوردة يكاد يكون مقصورا على الطبقة العليا ، وهى التى كانت كثيرا ما يشار إليها بالطبقة الراقية ، هكذا كانت تسمى فى المجلات والصحف فى تلك الأبواب التى تحمل عنوان «أخبار المجتمع» ، وكأن المجتمع المصرى وقتها لم يكن يشمل إلاّ هؤلاء الجالسين فى أعلى السلم الاجتماعى ، وكل من عدا ذلك لا يستحق أن تروى عنه أى أخبار .

كانت ملابس هذه الطبقة كما كنا نراها فى هذه المجلات وبعض الأفلام ، تتسم بعدة أمور ، منها التسامح الشديد فى إظهار أجزاء عارية من الجسم ، كالصدر والذراعين ، مما لا يمكن أن يخطر على بال أفراد الطبقتين الأخريين أن يفعلوا مثله أو ترك الشعر مرسلا ، مما لا يخطر ببال أفراد الطبقة الدنيا ، ومنها أيضا الاعتماد اعتمادا كليا على استيراد الملابس من الخارج ، مما لا طاقة للطبقات الدنيا أو الوسطى بمثله ، بالإضافة إلى المجوهرات المتلألئة على الجسم والخاطفة للأبصار .

كان الفارق بين منظر هذه الطبقة وأفراد بقية الطبقات شاسعا ، ويفوق بدرجة كبيرة أى فارق بين ملابس طبقات الدخل المختلفة فى مصر الآن ، فلم يكن من المتصور مثلا أن ترى مليونيرا مصريا فى الخمسينات (الذى كان وجوده هو نفسه نادرا) ، يرتدى بلوجينز من أى نوع ، كما قد ترى الآن ، أو شيئا شبيها به ، كما لم يكن من المتصور أن ترى زوجة لمليونير مصرى ، منذ خمسين عاما ، تغطى شعرها بحجاب ، كما يمكن أن ترى اليوم. من المؤكد أن الفوارق بين الدخول والثروات اليوم هى أكبر بكثير مما كانت منذ خمسين عاما ، ولكن من المؤكد أيضا أن هذه الفوارق الشاسعة بين الدخول والثروات لم تعد تظهر سافرة أمام الجميع فى نوع ما يرتديه الناس من ملابس .

بحر حسن سليمان

بقلم : محمود بقشيش

افتُتح بقاعة الهناجر للفنون الجميلة - في المدة من ١٦ فبراير إلى ١٥ مارس ٢٠٠٠ - معرض للفنان المعروف «حسن سليمان». يضم المعرض حصيلة إنتاج ثلاثة عقود حول موضوع رئيسي هو «البحر» وموضوع محوري / مساعد هو «البورتريه». وفي النشرة المصاحبة للمعرض كتب الفنان خطابا شخصيا إلى «أفروديت» إلهة الحب والجمال والإخصاب. وهي - كما تذكر الأسطورة - إبنة كبير الآلهة «زيوس». وهي تحمل أسماء عديدة، أشهرها اسم «فينوس». وقد جسدها الفنان الإيطالي الفذ «بوتشيللي» (١٤٤٥ - ١٥١٠) في رائعته المسماة: «مولد ڤينوس»، كما استلهمها الفنان الفرنسي «فرانسوا بوشيه» (١٧٠٣ - ١٧٧٠) في رائعته المعروفة باسم «مجد ڤينوس».



وإذا كان هذان الفنانان العظيمان قد استلهماها عبر قرون مختلفة فقد تأبت على فناننا المصرى ولم تظهر بصورتها المادية. وأراد لنا «حسن سليمان» باختفائها من لوحاته أن نتنسم عطرها، مثلما فعل الفنان نفسه، واتخذ من بحر الاسكندرية وشاطئها مسرحا للوحاته. وهو مسرح يحرك الشعر والمشاعر، ويثير الفضول إلى ما هو كائن في الخفاء، ويغرى الفنان بأن يكون شاعرا رومانسياً.

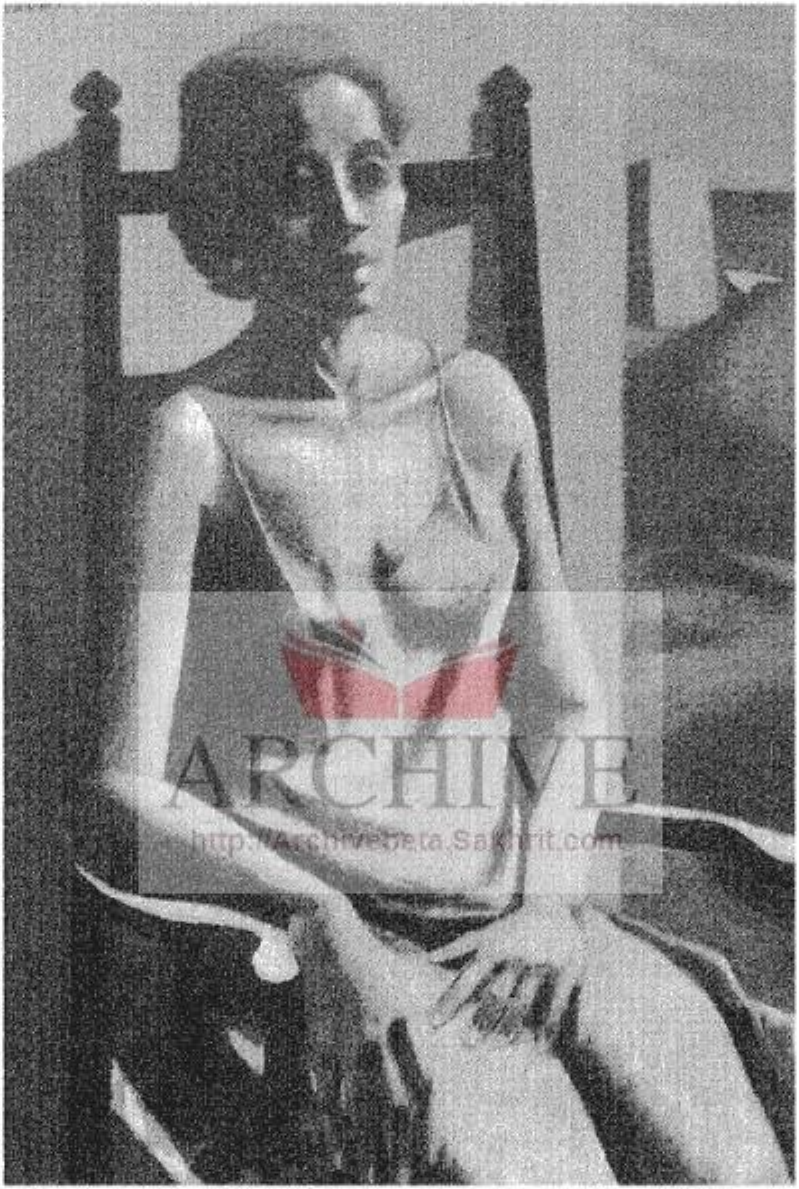
موجودات الطبيعة والواقع

فى الدنيا بحور وجبال وصحراوات وغير ذلك من موجودات الطبيعة، تظل على ما هى عليه إلى أن تدخل بوابة الفن السحرية، عندئذ تكتسب ميلادا جديدا، مغايرا للأصل وإن تشابه معه فى بعض ملامحه الخارجية. قد تتساقط بعض حقائق المنبع الأصلى، فيما يبقى ارتباطها بالفنان متجددا، قد تغيب عن ذاكرة بعض مؤرخى الفن ونقاده تلك الخرافات الشعبية التى ارتبطت بجبل «سانت فيكتوار» غير أنهم لا ينسون الدور التاريخى للوحة «سيزان» التى استلهم بها هذا الجبل. والآن عندما يذكر إسم اللوحة يذكر إسم الفنان قبل الجبل. وعندما تدخل مشاهد الطبيعة والحياة المعيشة عبر البوابات السحرية يصبح الفن هو الأعلى قدرا وقيمة: ويمكننا أن نسأل: هل اكتسبت السيدة «موناليزا» أهميتها التاريخية لكونها جميلة الملامح، أم لأنها تزوجت السيد «فرنشيسكو دل جوكو ندو» أم لشئ أعظم من ذلك، هو أنها صارت لوحة بريشة عبقرى عصر النهضة الإيطالية «دافنشى» (١٤٥٢ - ١٥١٩)؟.. وهل كان من الممكن أن يكتسب دير فى غابة موحشة أى أهمية قبل أن يصبح لوحة رائعة، رسمتها ريشة لا نظير لدقة صاحبها بين فنانى القرن التاسع عشر، تلك الدقة والبراعة المدعومة بفيض إيمانى عميق لمبدعها الفنان الألمانى «فريدريش» (١٧٧٤ - ١٨٤٠)؟.. وقد تزداد المسافة بين الواقع واللوحة للدرجة التى يبدو فيها الانقلاب شديدا، مثلما حدث مع لوحة «بيكاسو» الشهيرة «فتيات أفينيون»، فما أبعد المسافة بين فتيات الهوى اللاتى يعملن فى شارع أفينيون للدعارة بمدينة برشلونة ولوحة بيكاسو التى أعلن بها مولد التكعيبية سنة ١٩٠٧ وفجرت اللوحة ثورة لا تزال آثارها قائمة حتى الآن.

تجليات البحر

عندما دخل البحر عبر بوابة الفن السحرية تجلى فى حالات متباينة، اختلفت باختلاف الفنانين أنفسهم، واختلاف مذاهبهم الفنية، وارتبطت ملامح كل بحر بالمبدع الذى استلهمه، فهو عاصف، عنيف عند «تيرنر» مأساوى عند «جيريكو» -

خصوصا مع رائعته المسماة «طوف الميدوزا» - وقد شاهدت تلك اللوحة في متحف اللوفر وشعرت وأنا أتأملها بأني أتعرض لنفس الهول الذي يتعرض له هؤلاء المساكين، تتقاذفهم أمواج عاتية، لا سبيل إلى مقاومتها. زاد من جسامة شعوري بالألم ضخامة مساحة اللوحة: (٤٩١×٧١٦سم) وأذكر يومها - رغم إعجابي بعبقرية الفنان الذي اختطفه الموت في عز الشباب - أني لعنت كل بحار العالم عندما تكون غاضبة!.. وهناك بحر ديلاكروا الرهيب وقد استلهمه من جحيم «دانتي». وهناك بحر «فريدريش» - أعظم رسامي المناظر الخلوية في القرن التاسع عشر - تتراوح بحاره التي رسمها بين الوحشة والتصوف والعنف. ومن يستطيع من نقاد الفن أن ينتزع من ذاكرته بحر «ماجريت» المفزع - خصوصا رائعته المسماة «صخرة ديبيرنيه» وقد ظل انتحار أمه من فوق أحد الكباري يلاحقه كلما رسم سطحا مائيا. ويحتاج تفصيل كل ما ذكرت إلى كتاب، ما يعنينا الآن هو بحر «حسن سليمان» وهو إبن القاهرة - بكل ما تعنيه الكلمة من معنى - وعندما اختار موضوع البحر وشرع في تنفيذه منذ ثلاثين عاما كان أمامه تحد كبير هو أن البحر بالنسبة لمحمود سعيد وسيف وانلي يمثل موضوعا رئيسيا في لوحاتهما. وكان على «حسن سليمان» أن يقدم شيئا مغايرا لما قدمه الفنانان الكبيران. ولأنه معتد بنفسه، واثق من موهبته، طفل مشاكس - على حد تعبير صافي ناز - فإنه أعد نفسه للمنازلة، وأدرك أنه لكي يحدث هذا فإن عليه أن يكون صادقا مع نفسه وأن يكون البحر بفضائه الفسيح امتدادا لموضوعاته البيتية، الحميمة التي استغرقته سنوات طويلة، وكانت سببا في شهرته - أعني - القوارير والأواني والفواكه التي لا يرسمها إلا بعد أن تكون قد تيبست. كان يزهد فيها عندما تكون نضرة، متألقة باللون، على النقيض مما كان يفعله «سيزان» مع تفاحاته المزدهرة. كان ولا يزال - فيما أظن - يفضل أن يتأمل بصمة الإهمال في جسد الثمرة ولا تنشط شهيته لرسمها إلا بعد أن تكون قد ذبلت. وفي ظني أن «حسن سليمان» يرى أن البهاء الذي يغري التأثيريين بالرسم وقتي وزائل أما ما يتركه الزمن من الآثار في المادة فإنه باق بها لأن في الآثار زمانين: زمن في الماضي وقد انتهى أمره، وزمن في الحاضر يعلن عن نفسه عبر تحولات الشكل. ولا شك في أن تلك التحولات تحرك نوازع التأمل لدى المصورين الشعراء أمثال «حسن سليمان» وعلى النقيض من مشاشة أشكال الرسامين التأثيريين كان يحرص «حسن سليمان» على تأكيد كتلة الشكل، تأكيد للدرجة التي يبدو فيها أشبه بقطعة نحت،



ذات الرداء الأخضر



من لوحات البحر.. للفنان : حسن سليمان



مما أعطى أشكاله تماسكها وصلابتها، لهذا بدت قواريره وأوانيه أشبه بصخور نفض عنها كل الألوان التي يتعلق بها التأثيريون عادة وتمسك بالجوهر. والجوهر هنا هو الكتلة. كان من الطبيعي أن يذهب إلى بحر الإسكندرية مفعما بعطر الزمن القديم ووقار الألوان الرمادية.

المراكب

لم يذهب فنان مصري إلى البحر دون أن يرسم مراكب الصيادين الصغيرة على شاطئه. وكان من الطبيعي أن يفعل «حسن سليمان» ذلك. وبالنسبة له لم يرسمها باعتبارها من لزوميات البحر وحسب، بل لأنها أقرب الأشكال المعمارية إلى موضوعه الحميم وهو «الطبيعة الصامتة»، ومثلما كان يفعل مع عناصر الطبيعة الصامتة فعل مع هياكل المراكب الخشبية، بأن أسبغ عليها حسا فظهرت وكأنما هي كيانات حية، تناسلت من الخيال، وهو ما لم يفعله غيره من الفنانين المصريين الذين رسموا شاطئ البحر. وكان أحسنهم حالا من توقف خياله عند حدود الوصف المحايد. إن «حسن سليمان» يتمتع بمقدرة لافتة في جعل الشكل المألوف يبدو وكأنك تراه للمرة الأولى، ويغويك بالدخول عبر دروب تبدو - للوهلة الأولى - وكأنك عبرتها من قبل وإذا به يقودك إلى متاهة في نهاية المطاف: في إحدى لوحات المعرض (وهو لا يسمي لوحاته) تظهر شخوص بدل تماسكها على أنها أسرة واحدة تتجه نحو البحر. ويظهر في ركن من الأركان شكل كرة. المشهد يبدو بسيطا، غير أنك عندما تتجاوز اعتيادية الوهلة الأولى تكتشف مالم تكن تتوقعه وهو أن الأسرة في طريقها إلى متاهة لا تعلم من أمرها شيئا، تؤكده تلك المساحة الظلية العريضة التي تبتلع معظم مسطح اللوحة. وهو ظل بلا مصدر اعتاده الرسامون الميتافيزيقيون لإثارة الشعور بالرهبة وبالفضول في آن واحد..

الوجوه

عندما ظهرت الوجوه تراجع البحر إلى خلفية اللوحة، أما الوجوه التي رسمها فهي وجوه تليق بالبحر، استبطانية، متأملة، يشوبها شيء من الحزن، تبدو متعففة إذا قيست بنساء محمود سعيد اللاتي يكشفن بوضوح عن رغبات الجسد. في لوحة بعنوان: «ذات القميص الأخضر» (والعنوان وصفي من عندي) لا أستبعد أن يكون «حسن سليمان» قد رسمها خصيصا لمواجهة لوحة «سعيد» المسماة «ذات الرداء الأزرق» وهي تناقض الحالة التعبيرية التي ظهرت بها لوحة «سعيد» فهي عند حسن سليمان مغتربة حزينة فيما ظهرت لوحة محمود سعيد مفعمة بالأنوثة والاعتداد بالنفس وحب الحياة.. ولتأكيد الجو الميتافيزيقي للبحر، في إحدى لوحات «الوجوه الشخصية» اختار الفنان

وجيه وهبه ليكون (موديل) وألبسه ملابس الرهبان القاتمة، وسيد «حسن سليمان» حالة تعبيرية ثابتة في كل الوجوه بغير استثناء هي حالة الانطواء والحزن. ومن ثوابتـه أيضـا والتي تناسلت من مرحلة القوارير والأواني وظلت تلازمـه، مشيرة إلى الزمن، هي طريقته في معالجة عجائن الألوان الزيتية، فهو يرفض العجالات الاستعراضية التي يحتفل بها الفنانون التأثيريون، حيث يبدأ الواحد منهم وينتهي من رسم لوحته في موقع الرسم، في حين تظل طبقة العجائن اللونية عند «حسن سليمان» زمنا قد يطول لسنوات قبل أن تستقبل طبقة جديدة. ومع الزمن يمنح تيبسها الإحساس بآثار الزمن وإيحاءاته الشعرية. إن تلك الطبقات المتراكمة أو المتراكبة تتسق مع الدعوة التي تلح عليها لوحات «حسن سليمان» وهي الدعوة إلى إعلاء قيمة الزمن.



قيثارة إيهاب شاكر

بين اللعب .. والتجريب .. والتفجير !

بقلم :عزالدين نجيب

يحار المرء وهو يتأمل لوحات الفنان إيهاب شاكر الجديدة (بمعرضه بخان المغربي) : هل تتطلع إلى ذرى حسية مجنونة، سكرى بخمر الأنثى .. أم إلى ذرى موسيقية نشوى بدغدغة الطرب .. أم إلى ذرى صوفية عطشى لمنابع عشق مستحيل إلا في الجنة ؟.. أم هى جماع كل تلك التطلعات ؟..

لقد عودنا إيهاب - من خلال تجاربه المتوالية - على الإبحار عكس التيار، وعلى المفارقة مع السائد من أساليب الفن، بل مع نفسه فى كثير من الأحيان .. فهو حداثى النزعة حتى النخاع، لكنه يسبح عكس تيار الحداثة المغتربة والمتأمركة فى حركتنا الفنية المعاصرة، مبتدعا حداثته الخاصة، النابتة من أرض وطنه، والمضمخة ببخور إبداعها الشعبى وروحها الفطرية وحضاراتها المتصلة، وهو حميم الارتباط بالواقع، لكنه دائب التجاوز له والتحليق فى سمائه، صانعا كوكبه الخاص المستعصى على التنميط والتقليد، وهو شديد الالتصاق بالحسى



من أعمال الفنان إيهاب شاكر «نبع الموسيقى»

والعيني والعضوى فى الحياة والإنسان ، لكنه مسكون بالحلم والخيال الجامح ، محلق فوق المحسوس والمتجسد ، إلى حد ملامسة التجريد معنى ومبنى . وهو بسيط الموضوع والأسلوب ، أحيانا إلى حد السذاجة والفطرة ، بما يخاطب مختلف مستويات التذوق والتلقى ، لكنه مركب التكوين إلى حد التعقيد أحيانا أخرى ، وهو مرهف الخطوط والألوان حتى الشفافية والتماهى مع فضاءات بغير حدود ، لكنه كثيف الظلال محدد الأشكال فى الفراغ إلى حد مقاربة الكتل النحتية .. وأخيرا فهو شغوف بالتفاعل والتأثير فى جمهوره حتى الكاريكاتير والرسوم التوضيحية أحيانا ، لكنه حريص على بقاء مسافة غامضة ملتبسة بينه وبين مشاهده، تسمح بالتأويل على مختلف الأوجه ، وقد لايعنيه أن تحمل لوحته أنه رسالة غير رسالتها الجمالية فى أغلب الأحيان .

● التجريب

فى معرضه السابق خلال العام الماضى (بنفس القاعة) ، كان إيهاب يزداد اقترابا من المزاوجة بين كثير من هذه النقائض ، من خلال عنصر العازف الشعبى ، وأتاح له ذلك ممارسة التجريب بحرية على أوسع نطاق ، لكن ظل هاجس التجريب هو المسيطر ، وبقيت المسافة بادية - عند تلقى أثر لوحاته - بين الحس والإدراك ، بين الشكل والمعنى ، ومن ثم ظلت التجربة محصورة فى إطار تجريبى ، كمن يؤلف لحنا للحجرة ، كنوع من الرياضة التقنية للسيطرة على أدواته البنائية ، يطرب له شخصيا دون أن يشغل نفسه بأن يطرب أحداً غيره ، وفى هذا السياق فقد أنجز تجارب شديدة الأهمية على وسيط آخر هو شفافات الرسوم المتحركة فى السينما ، التى كانت حقل تجاريه على جماليات العزف بالأشكال والألوان ، وعلى التوافق الحركى والقياس الزمنى لإيقاع الصورة واللحن ، ما أهله للحصول على جائزة كبرى للإبداع فى هذا المجال بفرنسا منذ سنوات بعيدة .

لقد كان أثر هذه التجربة جليا فى لوحات معرضيه الأخيرين .. إن بوسعنا أن نحلل لوحته بمقاييس هندسية من خلال أشكال خط مستقيم والمنحى والمستدير وأسس التقابل والتعامد والتوازى والتقاطع والتداخل والتباعد ، عبر الخطوط الأفقية والرأسية ، والزوايا الحادة والقائمة والمنفرجة ، والتوازن السيمترى والترديد الزخرفى للوحدات ، بما يشبه الذبذبات الصوتية .

فماذا يميز - إذن - معرضه الجديد عما سبقه ؟

لقد إندمج الحس التجريبى الهندسى السابق فى حالة شعورية جياشة ، ما ولّد لدينا شعورا بنبض قوى متفجر ، وذلك

من خلال بطل أساسي هو جسم المرأة ، الذي لم يعد مجرد جسم يحتضن آلة موسيقية مثل القيثارة أو الكمان ، بل هو كيان «تموسق» متوحدا مع اللحن الموسيقى والآلة التى يخرج منها. إن الجسم ذاته يتشكل تشكلاً موسيقيا ، ليس فقط من خلال تداخل أوتار الآلة الموسيقية ونقوشها وهيكلها داخل جسم المرأة وكأنهما نسيج واحد ، بل أيضا من خلال ذبذبات وترية لحركة الجسم ، إذ تتكرر خطوطه فى أقواس متواترة متوازية ، أو ينتفخ وينقبض مع طبقات صوت آلات النفخ ، أو يهتز راقصا رقصة مذابة فى أنغام السيكا والنهاوند ، أو يتمطى ويتلوى ويلتف حول نفسه كالبريمة ، أو ينفتل كالحبل ، أو يتكور كالبالون حتى يطير ، أو ينضغط كقطعة من الاسفنج فى قبضة اليد .

إن قانون التشريح الفيزيائى يتخلى عن شريعته لقانون الطاقة الديناميكية المنفلتة من عقالها ، معلنة العصيان ضد قانون الطبيعة ، لتفجر كل أسوار كبح العواطف والانفعالات ، محكمة فى الوقت ذاته قانونها الرياضى الخاص ، ليحمى هذا الانفلات العاطفى من العشوائية والاستهلاك المجانى ، ويقوده نحو حالة من الوجد الصوفى ، حيث تذوب الرغبات والحواس ، وتتماهى فى كنه الوجود .

لايهم أن نسأل من أين ينبت الذراع وكيف ينثنى الجذع أو الركبتان ، وكيف تنتهى أصابع القدمين مثل زعانف السمكة، وإلى أى إتجاه يلتوى الخصر فوق انتفاخ العجزين وإستدارة الفخذين ، ولا يهم أن نسأل أين تضع العازفة قيثارتها وكيف تعزف عليها وكيف تتداخل الأوتار مع تلافيف جسمها وما إذا كانت تمسكها بيديها ، أو بقدميها إنها تولد من داخلها وتظل ترتبط بها بحبل سرى ، بل حتى لايهم أن نسأل عما إذا كانت تلك القيثارة جمادا أم عضوا فيزيائيا ينمو ملتحما بجسدها ... لأن كل تلك أسباب مادية ومبررات منطقية ، تتضاءل أمام «الحالة الكلية» من الذوبان المحموم لحواس الجسد الأنثوى فى أنغام الموسيقى ، تلك الحالة التى تمثل غاية ذاتها ، ولا تضع فى حسبانها من يراها ومن يتأثر بها ، تماما كما يذوب عازف الجيتار داخل معزوفته ، وينسى تماما أين يعزف ولمن ولماذا يعزف ، فهو منفصل منسجم مكتف محلق طائر فى سماوات بغير حدود .

● الوجدان الشعبى

وقد يتجاوز الفنان حالة الذوبان فى الموسيقى ، إلى حالة أخرى من تحول الأجسام البشرية إلى أشكال أسطورية ، كالحيوان أو الطائر أو السمكة ، فتحيلنا إلى صعيد من التداعيات التى تعشش فى الوجدان الشعبى والحكائى المتوارث ، عن





الطائر والفارس والطبلة
فرسة جامحة

ولوحتان ضمهما المعرض الأخير للفنان
ايهاب شاكر





حواديت النداهة والجنية والشاطر حسن وعروس البحر ، لكنها في المردود الجمالي والتعبيري الأخير : حالة أخرى من إنعدام الوزن ، والخلاص من قانون الجاذبية الأرضية ، يتم فيها تحرير الإنسان من أية كوابح أو «تابوهات» وضعية ، ليمتلك كامل إرادته الحرة في التعبير عن نوازعه الطبيعية ..

أنظر إلى تلك المرأة باللون الرمادي المزرق ، وهي تتأود وتتثنى مثل حرف S مقلوب : أليست أقرب إلى فرسة جامحة تستنشق ، بخياشيمها كل أوكسجين الكون ؟.. وأنظر إلى ذلك الطائر إذ يجثم بجناحيه على صدر الفارس وهو ينقر على الطبلة فيما يدغدغ وجهه بمنقاره .. أليست حالة من الوجد المشبوب تقمصت إطارا سرياليا محفوفا بالأسطورة ؟!

ولعل هذا الإطار السريالي الأسطوري كان عاملا مساعدا للفنان في تخطى المقاييس والأعراف الطبيعية والمنطقية والأخلاقية ، وفي ممارسة العملية الإبداعية من منظور الطفل الذي يلعب مع نفسه دون حساب لشيء ، فيكفيه أن يستمتع بلعبته ، واللعب يغري بمزيد من اللعب ، ويعدي الآخرين ليشاركوا فيه ... وهكذا يجد المشاهد نفسه شريكا في اللعبة بغير استئذان ، أو مثيرا للأسئلة التي تولد بدورها أسئلة أخرى ، ولن تجد إجابات لها إلا من داخله هو .

وقد اختار الفنان أبسط الأدوات لممارسة لعبته الإبداعية : ورقة بيضاء ، وقلما خشبيا صغيرا جاف الألوان محدود القدرة ، لكنه ممدود الخط منساب بغير توقف كخيوط دودة القز ، قادر على خلق قدرات تقنية تتجاوز طاقة الخامة ، منقاد «بريموت كونترول» يبدأ من عقل الفنان في موجات كهرومغناطيسية ، تلهب في طريقها إلى يده مخزون المشاعر بداخله ، فتفيض على الورق منسابة دافئة ، أو ملتاثة صاخبة ، أو محمومة مهتاجة ، أو راقصة منتاجة .

وإذا كانت الحصيلة النهائية لهذه الرؤية الإبداعية المدهشة هي تحقيق أقصى قدر من الحرية للإنسان ، من خلال عزف الفنان على آلته الموسيقية الخاصة ، سواء كانت قيثارة أو عودا أو جسد امرأة، فلعل من حق الناس عليه أن يوسع مساحة ملعبه ومفرداته الموسيقية ، لتشمل المزيد من التنوع كما الحياة ذاتها ، فهذا كفيل بتحقيق المزيد من المتعة لهم ، ومن فرص النجاة لإيهاب شاكر نفسه من الوقوع أسيرا لأنماط محدودة صنعها بنفسه ، فصارت قيدا على خياله !.

القوقاز.. الحرب والشعر من بوشكين إلى حمزاتوف

بقلم : أحمد الخميسى

«النبيل والوضيع فى حروب القوقاز من بوشكين إلى بوتين» عنوان مقال الأستاذ محمد يوسف عدس المنشور في عدد الهلال السابق. و«بوشكين» هو عاصفة التجديد والبناء التى فتحت للأدب الروسى الحديث كل الدروب الفنية للمرة الأولى، أما «بوتين» فهو رئيس الوزراء الذى يحكم الآن. وعلى نفس نهج عنوان المقال الذى جمع بضربة سريعة بين أول شاعر روسى عظيم وآخر حكومة هزيلة، مضى الكاتب فأجرى قضايا الأدب فى عروق السياسة، وشئون السياسة فى شرايين الأدب، بحيث أصبح الفصل بينهما - للمناقشة - أمرا يحتاج إلى مشرط دقيق.

وبداية فإن المقال يجتهد لمناقشة الصراع الروسى - الشيشانى من منظور جديد: ثقافى سياسى، وهذا خلاف للتناول الشائع بطابعه السياسى الأحادى الذى يتعرض لقشور المسألة دون الخوض فى أبعادها الأخرى. إلا أن هناك بعض النقاط التى تستوجب استكمال هذا الحوار الهام.

وعلى الصعيد الأدبى يعتبر الأستاذ عدس على حد قوله إن محاولة التعرف الروسية على حياة شعوب القوقاز كانت حافزا على: «إنتاج أدبى هو الأكثر ثراء فى تاريخ الأدب الروسى الكلاسيكى كله». وهو حكم يجافى الحقيقة بالكامل، لأن تاريخ الأدب الروسى الكلاسيكى أكبر بكثير من مجرد أربعة أو خمسة أعمال تعرض فيها الأدباء الروس للقوقاز. وإذا كان بوشكين أمير الشعر الروسى قد كتب «أسير القوقاز» فإن أعماله الكثيرة اللاحقة هى التى بلورت أهميته الأدبية والفكرية، أما «ليرمنتوف» فلم يكتب عن القوقاز سوى قصائد معدودة. أما ليف تولستوى فإن عظمته كروائى عالمى تعود إلى «الحرب والسلام» و«آنا كارنينا» وليس بفضل روايته «الحاج مراد». ولا يستطيع أحد أن يدعى أن الأعمال الأدبية القليلة كما والبسيطة كيفا والتى استشهد بها الأستاذ عدس هى: «الأكثر ثراء فى

تاريخ الأدب الروسى الكلاسيكى كله»! .

من ناحية أخرى يشير الكاتب إلى قصة (وفى موضع آخر رواية) «سجين القوقاز» التى كتبها بوشكين ، والاسم الصحيح لهذا العمل ليس «سجين القوقاز» بل «أسير القوقاز» وشتان بين المعنيين، الأكثر من ذلك أن العمل المشار إليه ليس قصة أو رواية كما يقول الأستاذ عدس بل قصيدة شعرية طويلة! .

الأكثر أهمية من مجرد الخلط بين ما هو قصة (أو رواية) وما هو قصيدة شعرية طويلة، ذلك التفسير الخاطئ لموقف بوشكين من القوقاز وفقا لقصيدته الشهيرة. وقد أعتبر الأستاذ عدس أن بوشكين يقدم قبائل الشركس القوقازية باعتبارها: «شعبا حرا، مستعدا للقتال حتى الموت فى سبيل حريته» .

إن تاريخ الشعر والشاعر الذى مات مبكرا فى مبارزة دفاعا عن شرفه لا يوحى بأنه أضاف الأبيات التى يشير إليها الأستاذ عدس احتياطا لغضب السلطات الروسية! أما التفسير الحقيقى لتلك الأبيات فهو أنها - لا تتناقض مع موقف بوشكين المفترض - بل إنها تتويج لهذا الموقف الذى تشبعت به القصيدة بكاملها: أى موقفه القومى كروسى يستشعر أن عظمة بلاده فى توسيع رقعة أراضيها وإخضاع المناطق الملاصقة لها!.

يقول بوشكين فى نهاية قصيدته:

«فلتنحنى الرؤوس البيضاء

ولتستسلم أيها القوقاز:

إن يرميلوف فى الطريق إليك»

ويرميلوف هذا هو قائد الحملة العسكرية على شعوب القوقاز عام ١٨١٧ وهو صاحب العبارة الإجرامية الشهيرة : «أريد لاسمى أن يلقى بالرعب فى نفوس القوقاز وأن تكون كلمتى قانونا يخضعون له كالموت الذى لا مفر منه»!

وبعد ذلك يمضى بوشكين فى قصيدته ليقول بصراحة أشد:

«ما من شئ لا يخضع للسيف الروسى:

أبناء القوقاز المتكبرون

يا من قاتلتم وقتلتم بوحشية

سيأتيكم الروسى من دون خوف

حيثما اختنتم اختبأتم فى أوكاركم».

وقد وصف بوشكين حياة القبائل الشركسية القوقازية وصفا موضوعيا معربا عن اعجابه بالطبيعة الجبلية ونهر «تيريك» الذى وصفه قائلا : «أصطخب النهر وزمجر كوحش صغير يلمح الطعام من داخل القفص»، ولكن ذلك كله كان مبطنا فى نسيجه العام بالدعوة إلى روح المغامرة والقوة والغزو. وفى رسالة له يقول بوشكين بصدد هذا العمل: «أردت أن أصور شيخوخة الروح السابقة على أوانها والتى غدت سمة مميزة لشباب القرن التاسع عشر».

بهذا المعنى الذى تشى به مجمل قصيدة «أسير القوقاز» فإن الأبيات

الأخيرة منها لا تتناقض مع مجمل العمل بل على العكس تتسق معه. ومع أن «العظمة القومية» كانت تسكن روح الشاعر إلا أنه هو الذى أطلق فى نفس الوقت أقوى عاصفة فكرية وفنية فى مواجهة طغيان القياصرة! . كان بوشكين يحلم بروسيا المتحررة من الحكم المطلق، ومن عبودية الفلاحين الأقنان.. لكنه كان يحلم بروسيا قومية كبرى ودولة عظيمة! .

وفيما بعد رد الشاعر الداغستانى العالمى رسول حمزاتوف على قصيدة بوشكين تلك القديمة قائلا:

«لقد جئتنا يا روسيا ذات يوم،
لكن .. ليس بالزهور،
حين داهمت حدود جبالنا
فصارت صخور الجبال كالدروع
مازالت تعشش فيها الطلقات
إلى الآن»

وقد كان ليرمنتوف الشاعر اللاحق على بوشكين أكثر إنصافا للقوقاز وهو الذى قضى فترة فى القوقاز بصفته ضابطا فى الجيش الروسى سنوات نضال الإمام شامل، ولمس ليرمنتوف قسوة الحرب ضد شعوب القوقاز وخفق قلبه بتعاطف واضح معهم، ولهذا كتب فى إحدى رسائله الأخيرة يقول لجدته: «شاهدت معركة قاتل فيها القوقازيون جنودنا لمدة ساعتين ، وقد غطاهم العرق فى صمت وقسوة كالوحوش صدرا بصدر حتى طفت الجثث فوق سطح نهر تيريك» .

وفى قصيدة له بعنوان «الهارب» يستنكر ليرمنتوف سلوك أحد السكان الذى أبلغ عن مقاتل جبلى شجاع كان على حد قول الشاعر: «يدافع عن الحرية والشرف» وفى قصيدة أخرى له بعنوان «عطايا تيريك» يصف فارسا جبليا قتله الجنود الروس فيقول : «كان صدره مغطى بصدارة حديدية، وأحاطت مرفقيه حاميتان من الفولاذ نقشت عليهما بالذهب آيات من القرآن الكريم. كان راقدا مقطبا بين حاجبيه، بينما سال على طرفى شاربه خيط من دمائه الساخنة النبيلة، أما عيناه فكانت مفتوحتين ممتلئتين بالعداء القديم.. لكن الحرب لم تنته، لأن الشيشانى يترقب معارك الليل بين الجبال فيستل خنجره ليبتر به رأس أعدائه»! .

هكذا يعتبر ليرمنتوف أن الجبلى كان يدافع عن الحرية والشرف ويصف الفارس المقتول كأنه حى يسير إلى المعركة! ويقف ليف تولستوى نفس الموقف حين يصف فى روايته بطله «حاجى مراد» أحد المريدين من أتباع الإمام شامل الذى واصل القتال بعد هزيمة الإمام فيقول: «كان ذلك صوت خانفى وهو يقص حكاية حمزات الفارس الجسور الذى انتزع مع رفاقه قطيعا من الخيول البيضاء من أيدى الروس، فلحقه الأمير الروسى وطوقه بقوات ضخمة، وحينئذ ذبح حمزات الخيول كلها وظل مع رفاقه طالما كان خنجره معه يقاتل الروس حتى آخر رصاصة وآخر قطرة دم فى

عروقه. وعندما أوشك حمزات على الموت رأى طيرا يعبر السماء فهتف نحوه: أيها الطير المهاجر.. طر صوب بيوتنا وانقل لأمهاتنا وأخواتنا والفتيات الحسناوات أننا جميعا متنا في سبيل الجهاد. ومازالت إحدى القرى في الشيشان تحمل إلى الآن اسم «تولستوى - يورت» أي قرية تولستوى اعترافا بفضل ذلك الأديب الكبير.

وثمة أخطاء أخرى عابرة تضمنها مقال الأستاذ عدس كالقول بأن زوجة الإمام شامل «آنا أوليخانوفنا» روسية أسلمت، مع أنها أرمينية. وفي موضع آخر يقول الكاتب أن: «الجنرالات الروس لكي يشوهوا كعادتهم الصورة الحقيقية أضافوا في دعايتهم فرية تذهب إلى أن الإمام شامل كان يعد الهاربين من الجيش الروسي بالحرية وامتلاك الأرض في القوقاز. ولا أدري لماذا يعتبر الكاتب أن تلك فرية؟ مع أن دعوة الإمام شامل لحرية الشعوب وتمليكها الأرض كانت أحد أسباب شعبيته الهائلة حتى داخل روسيا نفسها؟ .

لقد أطلق الإمام شامل الصيحة التى أرعدت فى سماء القوقاز وأججت الحرب على القياصرة نحو ثلاثين عاما حين خاطب الجبليين قائلا: «قدسوا الحرية يا أهل الجبال! قدسوها ودافعوا عنها كأنها أمهاتكم، ولا يغرنكم ذهب ولا ثروة !» كان ذلك عام ١٨٣٤ ما أن أصبح شامل إماما دينيا للقوقاز وهو في السادسة والثلاثين .

وفي حربه على روسيا القيصرية عقد الإمام شامل صلات مع محمد على باعث نهضة مصر وتبادل معه الرسائل وحاول الاثنان معا أن ينسقا خطواتهما ضد الإمبراطورية العثمانية، وقد نقل ضابط في الجيش المصرى - شيشاني الأصل - هو يوسويوف سافاروف سرا خطابا من محمد على إلى الإمام شامل في القوقاز، ثم لم يفارق الإمام بعد ذلك وأصبح من المقربين إليه، وهو نفس الضابط الذى وضع فيما بعد «نظام» (دستور) أول دولة أقامها الإمام شامل موحدا بداخلها شعوب القوقاز. وعلى حد قول المؤرخ أركادى جولدشتاين في كتابه «قلاع في الجبال» فإن الإمام أصبح : «أسطورة تغنى بها ليس فقط الداغستانيون في ملاحمهم، بل الشعب الروسى نفسه الذى أبدع مختلف الأغنيات الروسية الرومانسية عن شامل ولعل الشعب الروسى قد وجد في شخص الإمام شامل امتدادا لثواره الذين قادوا الانتفاضات الفلاحية العارمة بدءا من بولوتنيكوف عام ١٦٠٦، ثم الفلاح الأسطورة ستيبان رازين، ثم ايمليان بوجاتشوف الذى قاد انتفاضة فلاحية روسية على امتداد عامين لأن الشعب على حد قوله: «فقير في كل مكان، ويتعرض لكثير من الإهانات والضرائب» فنظم جيشا من عشرات الألوف ووعد كل من ينضم إليه ب: الأرض

والعشب والرصاص والخبز وقد استقبل الشعب الروسى حركة الإمام شامل على هذا النحو، فانضم إليه الكثيرون، بأمل الفوز بالحرية والكرامة.

ويصف أ. رونوفسكى الضابط الروسى المكلف بمرافقة الإمام شامل فى منفاه بمدينة كالوجا الروسية المشهد التالى من حياة الإمام فى المنفى قائلا:

«تصادف أن كان بين جنود حامية كالوجا بعض الجنود الذين وقعوا أسرى فيما مضى لدى قوات الإمام، وما أن علموا بمقدمه إلى كالوجا حتى هرعوا إلىّ يرجوننى بالحاح أن أسمح لهم بلقاء الإمام.. وكان أحدهم جنديا بفرقة المدفعية ٢١ وقع فى الأسر لدى قوات شامل مع آخرين فى قرية «كورخول». وما أن دخل ذلك الجندى إلى البيت ووقع بصره على الإمام حتى اندفع نحوه يقبل يده. ولم أكن الوحيد الذى أحس بالدهشة لذلك، فقد حطت الدهشة أيضا على الإمام الذى اعتاد على مظاهر الاحترام تلك من المسلمين فقط. وحين شرع الجنود ينصرفون توقفت عند مدخل البيت أسأل ذلك الجندى:

– لم فعلت ذلك؟ ربما كانوا يرغمونك على هذا وأنت أسير بين الجبال.. لكن ما الذى يجبرك هنا على هذا السلوك؟ .

أجابنى الجندى:

– الحق أقول لسعادتكم إنهم لم يجبرونا على ذلك بين الجبال. بل ولم يكن أحد من الأسرى يتعرض لأقل إهانة هناك حيثما يمر الإمام. وكان الإمام إذا بلغته أهون شكوى من أسير يضعه تحت رعايته فورا، ويعاقب من أهانه. وقد قبلت يده هنا لا لشئ، لكن من صميم قلبى لأنه إنسان جدير بذلك! .

لقد تمكن الإمام من مكافحة طغيان القياصرة نحو ثلاثين عاما لأنه وعد الجميع بالحرية. لكن التفوق العسكرى لقوات القيصر بقيادة الجنرال ميلوتون وضع النقاط الأخيرة فى مصير الامام الثائر صباح ٢٥ أغسطس ١٨٥٩ . وتصف «تشيتشاجوفا» فى كتابها «شامل فى روسيا والقوقاز تلك اللحظات الأخيرة قائلة:

كان المساء قد حل ناشرا فوق الجبال ثوبا من العتمة عندما خرج الإمام شامل بهدوء من جونيب التى تقع فى أعالى الجبال، خرج وهو شيخ فى الثالثة والستين يحيط به من تبقى من مريديه المخلصين شاهرين سيوفهم فى الظلمة والريح. ومضى الإمام حتى بلغ معسكر القوات الروسية فاصطفت له جنود المعسكر كلها بأمر البارون فرانجيل القائد العام للحملة لتؤدى له تحية الشرف إجلالا واحتراما للرجل الذى أنهك بكفاحه القياصرة، ثم اصطحبه الجنود إلى خيمة كبيرة حيث قدموا له الشاى فى أقداح من الفضة، وبعد ساعات ودع الإمام أرضه وأهله ورفاقه منطلقا على حصانه فى

حراسة كبيرة قاصدا بطرسبورج حيث كان القيصر الكسندر الثاني في انتظاره لكي يتعرف إلى ذلك المقاتل الأسطورة، ومن هناك اتجه الإمام إلى منفاه في كالوجا.

ويصف أ. رونوفسكي وصول الإمام شامل إلى فندق «زنا مينسكايا» ببطرسبورج عام ١٨٥٦ قائلا:

عندما دقت الساعة الرابعة بالضبط ارتفعت أصوات المحتشدين في الساحة وحول الفندق تهتف: إنه قادم من بعيد. وبعد بضع دقائق لاح الإمام وهو يتكئ على ذراع أحد مرافقيه وأحاط الجمع الغفير بالرجل حتى أنه ارتقى سلم الفندق بصعوبة بالغة بسبب الزحام. وبالرغم من التعب الذي كان باديا على وجهه بسبب رحلته بالمركب لأول مرة في حياته إلا أن شعورا بالارتياح كان يرف في ملامحه لاهتمام الناس به، لكنه لم يكن ذلك الشعور بالرضى عن النفس أو الزهو الذي يحسه الإنسان العادي عندما يحيطه الآخرون باهتمامهم. كلا. فالشعور الذي شاع في وجه شامل لم يستطع أن يطغى على قسمات الإنسان المتأمل شديد الكبرياء الذي اجتمع له العقل إلى العظمة . تحرك الإمام ببطء شديد مما سمح لي أن أراقب بانتباه التعبيرات المختلفة لوجوه المحتشدين . ولم أجد في أية نظرة أو وجه ظلا من العداء أو اللوم . على العكس كانت كل عيون المواطنين الروس المتطلعة إلى الامام مليئة بالاحترام العميق والتعاطف مع الرجل الذي يمر أمامهم » .

إن وعود الإمام بالأرض والحرية - وهو ما يعتبره الأستاذ عدس - فرية روسية كان السر وراء شعبيته المذهلة في القوقاز وفي روسيا نفسها . ولهذا كتب فريدريك انجلس في مقالته «فرص الحرب» يقول : «إننا لم نشهد مع تعاقب عدة أجيال حروبا حقيقية في وسط أوروبا تشارك فيها الشعوب بنفسها ، لكننا شهدنا هذه الحروب في القوقاز والجزائر حيث استمر الكفاح دون انقطاع عشرين عاما » . ولم تكن مصادفة أيضا أن يتبادل الأمير عبد القادر الجزائري والإمام شامل الرسائل ، ولم تكن مصادفة أن كارل ماركس اعتبر أن الإمام شامل «ديمقراطي مهول» كما أنه هاجم بشدة تأييد البرلمان الإنجليزي للاحتلال الروسي للقوقاز في مقال له عام ١٨٥٣ بعنوان «لورد بالمرستون» .

إن ما اعتبره الأستاذ محمد يوسف عدس «فرية» كان سر تلك القوة الرهيبة للإمام شامل ، وسر الأسطورة التي ترنمت بها جموع الفقراء من الفلاحين في روسيا والقوقاز وأكرانيا ، وسر التأثير الهائل للإمام في الجماهير الشعبية ، ولهذا تدفق المقاتلون صوبه من كل البلاد.

وبالرغم من كل تلك الملاحظات فإن القضية الهامة التي يثيرها مقال الهلال العدد الماضي هي صورة القوقازي بين

أجهزة الإعلام الواقعة في قبضة الدولة وبين الضمير الشعبي . وقد حرصت الدولة على تشويه تلك الصورة وتقديم القوقازي باعتباره كائنا متوحشا ، على حين سعى الضمير الروسي الشعبي دائما ليستبين صورة الإنسان وراء الأكاذيب . وتثير تلك القضية مسألة أخرى أشد أهمية في تاريخ الفكر الروسي بل وتكون القومية الروسية . فمازالت روسيا هي الدولة الأكبر في أوروبا من حيث عدد المسلمين فيها ، كما أن روسيا تاريخيا هي أكبر دولة أوروبية - أسيوية في نفس الوقت ، وتكوينها الثقافي والحضاري - خلافا لفرنسا وألمانيا وغيرهما - ثمرة مزيج خاص من التفاعل الأوروبي - الشرقي ، والمسيحي - الإسلامي ، ولهذا يلح على القوميين الروس هاجس الهوية الروسية باعتبارها في المحصلة النهائية بلورة للنزعة «الأورو - أسيوية» تحديدا والتي قد لا تجد روسيا صورة لنفسها خارجها . ويقوم التفاعل الذي تفرضه الحدود المشتركة بين روسيا ودول آسيا الوسطى بدور هام في تشكيل تلك الهوية الروسية الأوروبية - الشرقية . وهو تفاعل قديم بدأ منذ أن هبطت أولى السفن العربية إلى دير بند بداغستان عام ٦٤٢م، ثم سيطروا عليها نهائيا عهد مسلم بن عبد الملك أوائل القرن الثامن ميلادي . وظل القوقاز من القرن الثامن ميلادي حتى القرن الثامن عشر يحيا بالكامل تحت تأثير اللغة والثقافة العربية ، وباللغة العربية صدرت أولى الصحف والمجلات والكتب في تاريخ القوقاز بداغستان ، وباعتراف المراجع السوفيتية ظلت الثقافة العربية محتفظة بثقلها حتى ما بعد ظهور الاتحاد السوفيتي . وحتى منتصف القرن الـ ١٩ كانت رسائل الإمام شامل وأنصاره كلها تكتب بالعربية ، وكانت مكتبة الإمام كلها من الكتب العربية ومنها «منهاج الطالبين» وكتاب النموذج للزمخشري و«ألفية ابن مالك» وغيرها . وعندما أراد محمد طاهر الكراخي مساعد الإمام شامل أن يؤرخ لحركة الإمام وكفاحه أصدر كتابا عام ١٨٧٥ باللغة العربية بعنوان «بارقة السيوف الداغستانية في الغزوات الشاميلية»! وفي النصف الثاني من القرن السابع دخل الإسلام إلى آسيا الوسطى ، وأخيرا بدأ الإسلام في القرن العاشر ميلادي رحلته إلى روسيا نفسها مع رحلة ابن فضلان وتبشيره بالإسلام على ضفاف الفولجا .

إن وجود نحو خمسة عشر مليون مسلم داخل روسيا ونحو خمسين مليونا آخرين يحيطون بها في دول آسيا الوسطى قد أخصب عملية التفاعل الثقافي والحضاري داخل الثقافة الروسية بحيث أصبح الكثيرون من المفكرين الروس يتحدثون اليوم عن هوية روسية ذات وجه خاص : «أورو - أسيوية» .

من الجدير بالذكر أيضا أن الأستاذ

محمد يوسف عدس يخلط بين الآسيويين وسكان شمال القوقاز حين يتحدث عن «الشعوب الآسيوية التي تربض على حدود روسيا الجنوبية» ، على حين أن شعوب شمال القوقاز تنتمى لغويا وعرقيا لمجموعات مختلفة عن تلك التي ينتمى إليها سكان آسيا الوسطى . أما الشيشان تحديدا فقد ورد أول ذكر لهم فى القرن السابع الميلادى ، كما جاء ذكرهم فى كتاب «المسالك والممالك» عند الأصطخرى أبو اسحاق أشهر علماء الجغرافيا ، وعند المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» فى القرن العاشر الميلادى . ويعتقد البعض أنهم يعودون بأصولهم إلى قبائل هاجرت من آسيا الوسطى ، ويرى آخرون أنهم أصلا من العرب الوافدين خاصة أن ثمة أسطورة شعبية شيشانية قديمة بهذا الصدد ورد فيها اسم حلب المدينة السورية ، وتشير صحيفة «نداء الأجداد» التى تصدر فى جروزنى إلى ذلك بل وتحدد اسم المهاجر العربى الذى ينحدر منه الشيشانيون وهو «على عرب» . ويجزم المؤرخ الروسى «ن . س . سيمونوف» فى كتاب له صدر عام ١٨٩٥ بأنه طالع بنفسه مخطوطا قديما بالعربية يشير إلى أن الشيشان يعودون بأصولهم إلى موجة من الهجرة العربية استقرت بشمال القوقاز . ويرجح آخرون أن أصلهم شركسى ، أما أستاذ التاريخ «ياوز أحمدوف» فيقول إنهم عرق مستقل عرف بالشجاعة والفروسية ومنهم كانت فئة المماليك المصرية التى حكمت مصر حتى أبادها محمد على فى مذبحة القلعة . وأيا كان فإنهم ليسوا «الآسيويين» .

يبقى بعد ذلك كله التفسير السياسى للحرب الشيشانية الحالية ، والحرب التى سبقتها ما بين عامى ١٩٩٤ - ١٩٩٦ ، وهى مسألة غاية فى التعقيد إلا أنه من الصعوبة بمكان تخيل وقوع أية حروب صغيرة الآن بعيدا عن المخططات الدولية للقوى العظمى ، ورغباتها ، وصراعاتها . ذلك أن الحرب الأخيرة تطرح العديد من الأسئلة عن طبيعة القوى المحركة لها ، وأهدافها ، بل ووسائلها ، وطابع «الحرية» التى يمكن أن يتمتع بها بلد صغير لا يتجاوز تعداد سكانه المليون ونصف المليون بالقرب من بلدان ما وراء القوقاز : أرمينيا وأذربيجان وجورجيا التى يمسك بمقاليد الحكم فيها ممثلون لحلف شمال الأطلسى وأنقره ، وربما لا يخلو من مغزى حديث الشاعر العالمى رسول حمزاتوف حين قال فى حوار أجريته معه :

«لقد انتهت الإشتراكية والديكتاتورية برحيل بريجنيف وتشيرننكو ، لكن السوق والديمقراطية مع جورباتشوف ويلتسين لم تجىء بالخير» .

رسالة أمريكا

من: صلاح المراغي

كتاب أثار ضجة بين العلماء.. لم ينشر بعد

ما الذى يحرك «المغتصب» ؟

العنف.. أم الجنس ؟!

الكتب دائما تثير الضجة والجدل عندما تنشر.. لكن هذا الكتاب أثارها وهو لم ينشر بعد!.. ربما شاء مؤلفاه وهما د. راندي ثورنيل الأستاذ المساعد بجامعة نيومكسيكو ود. كريج بالمر أستاذ الأنثروبولوجي بجامعة كلورادو أن يثيرا الضجة مبكرا، وأن يلقيا حجرا في بحيرة العلماء والدارسين، فقد نشرا مقالا ضم مقتطفات من كتابهما المشترك «التاريخ الطبيعي للاغتصاب.. الأسس البيولوجية للإكراه الجنسي».. والكتاب تضعه مؤسسة M.I.T للنشر في خطتها التي تبدأ من أبريل ٢٠٠٠

المقال يقول: لقد دأب العلماء على اعتبار الاغتصاب عملية عنف وقوة، وليس عملية دافع جنسي، أجيال وأجيال من الدارسين والمدافعين تعصبا عن حقوق المرأة ظلوا على هذا الرأى.

أما ما يقوله الكتاب الذى كتبه عالمان من علماء التطور والارتقاء الذي يستند إلي نظرية داروين المعروفة، والتى تلاحظ أن صراع الحيوانات مع ظروف الحياة ومع بعضهم البعض، تشكل مع الوقت أداء متطورا لأعضائها، وبقاء للأقوى فى عملية الصراع الدائم.. داروين لم يطبق نظريته على الإنسان، فيما يتصل بتطور الأعضاء أو بقاء الأقوى فى صراع الحياة، لكنه طبقها فى مجال السلوك الغريزى.. وارتقائه انطلاقا من الحياة الغريزية الفطرية التى كان عليها الإنسان الأول.

المقال يقول: إن الاغتصاب فى جوهره هو عمل جنسي تماما.. إنما الممارسة تختلف أشكالها، والتطبيق يختلف بتفصيلاته.. وإذا كانت محاولات التوجيه والنصيحة والتأنيب توقف أو تخفف من اللجوء إلى الاغتصاب، فإن نظرية التطور يجب أن توضع فى الحسبان، فمثلا لو أننا وجهنا النساء إلى أن طريقة ارتداء الملابس المثيرة تعرضهن للخطر، وإذا نصحنا الشباب قبل إعطائهم رخص قيادة السيارات بأنه مهما كانت ملابس من يراهن أو يتعامل معهن من النساء مثيرة، فليس معنى هذا أنهن ينادين طلبا له، وأن طريقة الحديث لاتدل على الرغبة.. فالعملية كلها رغبة جنسية لا مجال فيها للعنف أو القوة، وهى رغبة تعود إلى «فطرية» الإنسان الأول الذى

لاقيود عنده على الجنس، سواء كان له الحق في أدائه أو كان رضا الطرف الآخر متحققا.

الانتصار في الحروب

العلماء السابقون على هذا الكتاب الجديد متأثرون بارتباط الجنس بسلوكيات الجيوش في الحروب التاريخية، والتي كان «السبي» فيها سلوكا عاديا، دليلا على القهر والانتصار.. سواء انتهى السبي بالزواج، كما فعل خالد بن الوليد في التاريخ الإسلامي أم كان نوعا من النصر الطبيعي كما حدث كثيرا، وكما تشير لوحة بيكاسو الشهيرة بعنوان «اغتصاب امرأة من «سابين» وسابين جماعة كانت تسكن مناطق ساحلية جبلية في وسط ايطاليا، تعرضت لهجمات شرسة من الرومان في القرن الثالث قبل الميلاد.. هزم فيها قوم «سابين» وكانت عملية اغتصاب جماعية لها حكاياتها في التاريخ؟!.

كلام غير مسئول

تعليقا على الكتاب، يقول د. جيري كوين أستاذ الأحياء بجامعة شيكاغو، والذي قرأ المقال ومقتطفات الكتاب في مجلة «العلوم».. قال لصحيفة النيويورك تايمز: «إن هذا طفح سيء» وهو أسوأ ماظهر حول النشوء والارتقاء.. وهو كلام غير مسئول.. ومتحيز، والعلم في هذا الكتاب لامكان له»!.

دكتورة ماري كس أستاذة الصحة العامة بجامعة أريزونا قالت: إن الاغتصاب هو نوع من التفوق الجنسي، هكذا يعتقد الرجال، مع أن هذا ليس صحيحا بالطبع.

وتميل د. ماري إلى أن الاغتصاب هو عمل غير طبيعي، وهو حالة مرضية غير طبيعية، وأنك لو جمعت عددا من الشبان لتنصحهم حول الاغتصاب، فسوف يشعرون أنك تقول كلاما غير طبيعي، ويشعرون بالفزع، وكذلك لو أنك نصحت عددا من النساء بعدم ارتداء الملابس المثيرة فسوف يضحكن منك!.. فهن بالقطع تراعين ماهو مقبول أو غير مقبول، في إطار الجمال والسعادة.

بحثا عن السلام

رونالد سيمون أستاذ الأنثربولوجي (Anthropology) بجامعة كاليفورنيا، والذي يدرس النشاط الجنسي للإنسان القائم على نظرية التطور لداروين يقول: إنه من الطبيعي أن يعترض العلماء ويرتابوا في توجهات الكتاب، فهذا الحقل من النشاط الجنسي لدى الإنسان لايزال مثيرا للجدل والنقد.. ونظرية داروين قائمة على الملاحظة وهي تتحدث عن النشوء، والارتقاء كنجاح وتطور، فالحيوانات تعيش في عالم كله صراع وقتال، وتعيش على واقع هو أنها تأكل بعضها بعضا.. لكن الإنسان يتطور دائما بحثا عن مجتمعات أفضل.. وسلام أكثر.. وتعاون أكبر.

العالمان ــ مؤلفا الكتاب يردان: لقد لوحظ أن الاغتصاب يتم في عمر تكون فيه المرأة في مرحلة الإنجاب.. وهن يكن في هذا العمر أكثر إغراء.. ليس لجمالهن أو إثارتهن، ولكن لأعمارهن.. كما أن الاغتصاب موجود أيضا بين الحيوانات بشكل طبيعي كالعقرب الطيار والحشرات.. كما أنه موجود لدى الأسماك، والطيور، والقرود، وإنسان الغاب.

كما اعترض عدد من الناقدين ــ في موضوع النيويورك تايمز، بأن ضرب الأمثلة بالحيوانات أمر غير مقبول، فنحن لانستطيع أن نسأل السمكة الأنثى لإثبات حالتها من القبول أو الرفض؟!.

الهنود الحمر لايزالون يحافظون على تراثهم

فى الولايات المتحدة، دولة المهاجرين، يحافظ كل إنسان على أصوله العرقية، وعلى علاقاته مع بلده الأصلى.. يتزوج منها ويحفظ تاريخها وأغانيها، وتزدحم جدران بيته بصورها ولوحاتها .. أطباق الطعام.. والملابس.. والذوق العام فى جنبات البيت واللغة الأم بالطبع هى لغة الزوجين والأبناء.. فما بالك بالهنود الحمر.. أصحاب البلد نفسها قبل أن يأتي المهاجرون، الذين بدءوا غزوها منذ ٤٠٠ سنة!.

القوانين فى الولايات المتحدة تحترم احتفاظ كل مواطن بأصوله.. تعطى الزوجة والأبناء وأقارب الدرجة الأولى حق الإقامة والجنسية بمجرد حصولك على الجنسية واستدعائك لهم.. والمجتمع بشكل عام يحترم عاداتك وتقاليدك.. ويعتبرون هذا التنوع قوة لوحدة الأمة، وثراء لثقافتها وفنونها.

لقد عاني الهنود الحمر في الولايات المتحدة حتى نصف قرن فقط، من هؤلاء الغزاة، وظلوا رافضين ومرفوضين ومزجورين.. وكانوا في مرتبة أقل من الزنوج الذين اشتراهم الغزاة لخدمتهم!.. لكن نصف القرن الأخير بالذات، شهد انفتاحا إنسانيا وقانونيا عادلا للهنود الحمر، وكانوا ولايزالون في بعض مناطقهم أحرارا فيما يريدون.. يملكون الأرض التى يقيمون عليها ويحتفظون بحق المطالبة بأراضيهم التاريخية، وتحكمهم القوانين الفيدرالية التى تميزهم بالدعم والقروض، بعيدا عن قوانين الولايات المختلفة.

فى شهر يناير الماضى تقدمت قبيلة زيا بيبلوا وعدد أفرادها ٨٥٠ نسمة فقط، إلى المحكمة، بشكوى يطالبون فيها ولاية نيومكسيكو، التى يقيمون فيها، بمبلغ ٧٤ مليون دولار، لأن الولاية تستخدم شعارهم، وهو وجه الشمس، تخرج منه خطوط فى الاتجاهات الأربع.. وقد تحدد المبلغ على أساس مليون لكل سنة، تعويضا عن استخدامه حتى الآن لمدة ٧٤ سنة؟!.

من جانب آخر تقدمت القبيلة بشكوى أخرى ضد عشرات المؤسسات والشركات التى تستخدم الشعار نفسه، قدمتها إلى وكالة البراءات والشعارات بالولاية.. فالجميع يجدون فى هذا الشعار انتماء مجانيا للمنطقة.. الهيئة سألتهم: ولماذا تشكون اليوم.. وهذه الشركات والمؤسسات تستخدم هذا الشعار بأشكال مختلفة منذ سنوات، وأصبح ذلك من حقهم، لأنهم سجلوه لشركاتهم، بينما شعار القبيلة غير مسجل؟!.. برتا برايس محامية القبيلة قالت: إن القبيلة لم تتقدم منذ سنوات بشكاويها لأنها كانت تابعة مباشرة للقوانين الفيدرالية وليس لقوانين الولاية، وكانت أوضاعهم خاصة ولا ينتمون إلى الجنسية الأمريكية، ثم إنه من المفهوم والبديهى أن هناك شعارات معنوية وتاريخية لايجوز لأحد أن يستغلها تاريخيا، كصورة مريم العذراء!، وهذه الشعارات المعنوية لن تكتسب اعترافا قانونيا تحتاجه، أقوى من معناه التاريخى.. من المؤسسات التى تستخدم الشعار شركة سياحية تستخدم موتوسيكلات هارلي، وفندق بالمنطقة.. المحامية برايس وبيترنو حاكم

القبيلة طلبا تدخل جيف بنجمان السيناتور الديموقراطى عن الولاية الذى قال: نحن نعمل على حماية الشعارات والأفضل تسجيل شعار القبيلة ليكون الوضع قانونيا.. وكالة البراءات والشعارات قالت: إنها طلبت من ٥٠٠ قبيلة هندية إرسال معلوماتها وشعاراتها لتسجيلها وكان ذلك عام ١٩٩٤ فلم تتلق سوى ١٠ ردود فقط!.. فكيف تريد القبائل أن تحمي شعاراتها ثم لا تستجيب؟!.

الشعار موجود تاريخيا على مناطق القبيلة، وعلى «جرة» قديمة فى المتحف.

إعادة الأرض

منذ أيام قررت الحكومة الفيدرالية الأمريكية إعادة ٨٤ ألف ايكر (Acre) من الأراضي (الإيكر الواحد يساوى ٤ آلاف متر مربع) إلي الهنود الحمر، يملكونها تاريخيا، وكانت الحكومة قد استولت عليها في عام ١٩١٦ لحماية منطقة مجاورة كان يتم فيها استخراج الفحم الحجرى، وهذه أكبر صفقة إعادة أراضى إليهم تقوم بها الحكومة منذ مائة سنة.. بيل رتشاردسون وزير الطاقة الأمريكي أعلن ذلك أخيرا، والذى يرى أنها مبادرة طيبة للرئيس كلينتون فى آخر عام لرئاسته وإضافة إلى رصيد الحزب الديموقراطي ومرشحه الحالى آل جور!.

الوزير أعلن عودة الأراضى فى مركز القبيلة فى فورت استونرن بولاية يوتا.. وقال: إن القبيلة ستستفيد من استثمارات البترول والغاز الطبيعى الذى يتم استخراجه من هذه الأرض، لكن سيتم فى عقد تسليم الأرض للقبيلة الاتفاق على أن تدفع القبيلة ٨,٥٪ من أرباح البترول والغاز مساهمة فى مشروع تطهير البيئة في منطقة مجاورة معرضة لنفايات من الإشعاع الذرى بجوار شواطىء نهر كلورادو الذى يمد كاليفورنيا بمياه الشرب.. مشروع التطهير لايزال في الكونجرس ومن المتوقع أن يتكلف ٣٠٠ مليون دولار.

رجال القبيلة لايزالون مترددين فى تفهم ماتريده الحكومة فى عقدها لإعادة الأرض، مؤكدين أن المنطقة فقيرة وبحاجة إلى كل ما يتاح لها من أرباح البترول، حيث تقول الإحصاءات: إن البطالة فى المنطقة تصل إلى نسبة ٢٩٪ وأن متوسط الدخل السنوى للفرد ٤٥٢٠ دولارا وأن هذه النفايات متراكمة منذ سنوات!.

أقل الأقليات

الهنود الحمر يبلغ تعدادهم الكلى فى الولايات المتحدة ٢ مليون و٤٠٠ ألف نسمة، أى أقل من ١٪ من التعداد الكلى للدولة، والذي يبلغ حسب تقديرات نوفمبر ١٩٩٩ (٢٧٣ مليونا و٨٦٦ ألف نسمة).. البيض منهم ٢٢٥,٣٥٥ مليون نسمة، والسود ٣٥,٠٧٨ مليون نسمة، والذين من أصل آسيوى ١١,٠٢٢ مليون نسمة، والذين من أصل أمريكا اللاتينية ٣١,٧٦٧ مليون نسمة، والأخيرون أكبر الأقليات في الولايات المتحدة، ويمثلون قوة انتخابية يحسب حسابها ويتوقع أن يصبحوا ربع السكان عام ٢٠٥٠م، وبذلك يعتبر الهنود الحمر أضعف الأقليات وأكثرهم رغبة فى الانفراد بمناطقهم وعدم الاندماج الكامل فى المجتمع.

رسالة دكتوراه





ما الذى يستفيده القارىء من مجلة الهلال ؟!

بقلم : مصطفى نبيل

هذه رسالة أكاديمية ذات هدف نبيل، وطموح كبير، فهى تسعى إلى الإمساك بتأثير الكلمة المكتوبة على القارىء، ومدى مساهمتها فى تكوين معارفه وثقافته، والخطوة التى تتلوها بالضرورة هى تأثير الكلمة المكتوبة على سلوك القارىء وأفعاله، وتدور رسالة الدكتوراه على تأثير ما تتناوله مجلة «الهلال» قدمتها مدرسة بكلية الإعلام سناء جلال عبدالرحمن، وعنوان رسالتها .. «دور مجلة الهلال فى تشكيل الأنماط الثقافية فى المجتمع المصرى..» .

وناقش الرسالة كل من د. فاروق أبوزيد عميد كلية الإعلام، و د. ليلى عبدالمجيد وكيلة كلية الإعلام، والكاتب رجاء النقاش رئيس تحرير الهلال الأسبق.



بداية .. لا يفوتني ذكر ملاحظة مؤسفة، حول ما يجري في الجامعة ، وهل معقول أن لا يحضر رسالة دكتوراه، على هذه الدرجة من الأهمية، وفي صلب اهتمامات ومقررات كلية الإعلام، وصاحبة الرسالة مدرسة بالكلية ويشرف عليها عميد الكلية مع وكيلة الكلية ، ورغم كل ذلك لا يحضر المناقشة سوى عدد جد قليل ، لا يتجاوز عشرة أشخاص، ولا تثير الرسالة فضول الطلاب الذين يتسكعون حول المدرج !.

مما يؤكد ظاهرة انصراف الطلاب عن المعارف الداخلة في صلب دراستهم، وخاصة تلك التي لا تدخل مباشرة في المقرر الذي سيؤدون فيه الامتحان، وهو عكس ما كان يجري في الماضي. عندما كان الطلاب يتسابقون لحضور مناقشات رسائل الدكتوراه، التي يزدحم على حضورها الطلاب والباحثون وحتى المواطنون العاديون .

وهي ظاهرة تحتاج إلى الدرس والبحث والتأمل لاكتشاف موضع الخلل في حياتنا الفكرية والثقافية.

ونعود إلى عرض الرسالة ومناقشتها .

تأتي أهمية هذه الرسالة في إطار أهمية ربط الجامعة بالمجتمع، ووصل الدراسات الأكاديمية بالواقع، فهذه الرسالة تعد نموذجاً لإمكانية الاستفادة من البحوث الأكاديمية.

فعندما يستغرقك العمل، تعيش تفاصيله الدقيقة اليومية، ثم يظهر عمل أكاديمي يتناول بعض جوانب هذا العمل

ومعالجة تفاصيله ورصد آلياته، والبحث عن تأثيره على القارىء وذكر سلبيات هذا العمل وإيجابياته فمن المؤكد أنك ستحتفى به وتجد فيه إثراء لهذا العمل .

فأى عمل يحتاج - بين وقت وآخر - إلى وقفة تأمل وإعادة نظر، وخاصة العمل فى الصحافة والثقافة ووسائل الاتصال، ومع تلك التغيرات السريعة المتلاحقة التى تجرى حولنا ، إنه أشبه ما يكون مثل الذى يجدف ضد التيار، لا يملك أن يتوقف عن التطوير والتجديد، وإذا توقف فلا مفر من أن يجرفه التيار ويأخذه إلى الوراء .

هذا رغم ما يشوب هذا النوع من الدراسات الأكاديمية من قصور فى الكثير من الأحيان، ومن أوجه هذا القصور اعتمادها على الاستبيانات والمقابلات والاستمارات، التى لا يكاد أحد يأخذها بالجدية المطلوبة، مما يلقى ظلال الشك على بعض نتائجها.

ومن أوجه القصور الأخرى لهذا النوع من العمل العلمى، أن هذه الرسالة استخلصت كل نتائجها من ستين عدداً من الهلال بين سنتى ١٩٩٠ و١٩٩٥، وتتوالى أعدادها منذ عدده الأول فى سبتمبر سنة ١٨٩٢ .

ويلاحظ أنه رغم قلة الأعداد محل البحث، فلم تشر الرسالة إلى مقال مميز واحد، أو ما يمكن اعتباره نموذجاً لما يجب أن تكون عليه المقالات فى المجلة الثقافية، أو لم تميز الرسالة بين مقال جذاب وشيق ، وآخر مفيد ، أو تحدد متى نجحت الهلال فى اقتحام مجالات جديدة وغير تقليدية، أو متى تناولت عملاً ثقافيا وصحفيا لفت انتباه الباحثة، سواء لقيمته أو حتى لعدم مناسبته لطبيعة المجلة الثقافية، أو تقدم الباحثة غلافاً مميزا أدى إلى الانتشار وزيادة توزيع الهلال.

فكثيراً ما يكون المنهج الأكاديمى مثل الحذاء القديم للمرأة الصينية، يحول دون إنطلاقها ونمو قدمها، وكذلك المنهج الصارم يحول دون التقاط العديد من الملاحظات والوصول إلى كثير من النتائج!

وعلى أية حال .. عندما تشير الرسالة إلى الفئة العمرية الغالبة لقراء الهلال والتى تحددها بين ٣٦ و ٤٥ عاماً والتى تصل نسبتها إلى ٣٨٫٣٪ فهى تلقى على الهلال مسئولية كبيرة، فى ضرورة العمل على جذب الفئات العمرية الأكثر شباباً إلى متابعة مجلة الهلال وقراءتها ، رغم انصراف الأجيال الجديدة إلى الوسائط الحديثة. إلا أنه لا ينبغى أن يمثل ذلك عقبة وإنما تحد يجب الاستجابة له والتغلب عليه ، وتقول الرسالة.. «لا تقبل الفئات العمرية الأقل على قراءة هذا النوع من المجلات لعدم اكتمال تعليمها من ناحية ، ولسيطرة وسائل الإعلام الأخرى على اهتماماتها من ناحية أخرى..».

وعندما تشير الرسالة إلى أن ٨٢٪ من قراء الهلال من الذكور، رغم ما تبذله الهلال عندما تفتح صفحاتها إلى أكثر الأقلام النسائية تأثيراً، وتقف المجلة بوضوح إلى جانب حقوق المرأة، فيمثل

ذلك تحديا آخر ينبغى مواجهته، فالعمل على جذب المرأة والشباب إلى قراءة الهلال، هو فى حقيقته رهان على المستقبل، وهو المعيار الحقيقى لقيام المجلة الثقافية برسالتها.

بدأت الرسالة باستعراض موضوع البحث ومنهجه، ولماذا اختيرت «الهلال»، مع استعراض جانب من تاريخها خلال المائة وثمانية أعوام الفائتة.........

وتهدف الرسالة إلى بحث دور المجلة الثقافية فى تشكيل أنماط وأساليب الحياة فى المجتمع، بعد أن أصبحت الكلمة مصدراً أساسيا فى تكوين المعارف والصور الذهنية ومصدراً للقيم والأنماط السلوكية، كما تهدف الرسالة إلى التعرف ووصف تقديم الأثر المعرفي لمضمون مجلة الهلال على قرائها.

وتجعل شطائن البحث يدور حول ما تنقله المجلة من ثقافات أجنبية.

وتتناول الرسالة، كيف كان صدور مجلة «الهلال» إيذانا بمرحلة ثقافية جديدة، واتجاها جديداً فى الصحافة العربية فى نهاية القرن التاسع عشر، وقدمت الهلال صيغة جديدة تميزها، فالأدب ليس هو التراث فقط، وما يستخرج منه، وليس العلم هو العلوم الدينية وحدها، فكانت تقدم أدوات العصر الحديث من العلوم والمخترعات، وتلبى الحاجة إلى المعارف الحديثة، يمتزج على صفحاتها العلم والتاريخ، ويمتزج أيضا العلم بالفلسفة وتقرأ على صفحاتها العلم

رسالة دكتوراه

والفن جنبا إلى جنب.

وجاءت المجلة الجديدة لتعطى الثقافة آفاقا جديدة، بمعناها الواسع كجماع للفكر والفن، واتسع فيها الأدب وشمل كل الفنون : التصوير والتشكيل والمسرح والسينما والتليفزيون، وأخيراً الانترنت والكتابة على اسطوانة الليزر، واهتمت بكل جديد يتطلع إليه القارئ، وأصبحت ملتقى الفكر العربى، تبحث وتقدم المواهب الجديدة، وتسعى دائما لاستشراف المستقبل.

وكثيراً ما زاحمت الصحف اليومية المجلات الثقافية، وتوسعت الصحف فى نشر صفحات الثقافة، الأدب والنقد والفلسفة.

واستمرت «الهلال» ذات صيغة غلابة وشخصية مميزة، سيطرت على كل من تولى تحريرها، وجذبت هذه الصيغة إليها ألمع الكتاب، فهى تقوم على تبسيط مادتها والسعى إلى جذب القارئ لها. فتقدم مادتها شيقة جذابة حتى تحقق رسالتها.

وسر استمرار وتألق مجلة الهلال، أنها تواكب العصر، دأبت على تقديم الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ومازالت تسير على ذات النهج.

ولدت متواضعة وكبرت مع الزمن، كان عدد صفحاتها ٤٠ صفحة، وكبرت مع الأيام، فصدرت الهلال شهرية لمدة عام، وفى العالم التالى تحولت إلى مجلة

نصف شهرية، واستمرت نصف شهرية لمدة أربع سنوات، عادت بعدها إلى الصدور الشهرى، وفى سنتها الثالثة عشرة عادت تصدر شهرية لمدة عشرة أشهر فى العام، وفى الشهرين الباقيين تقدم كتابا هدية للمشتركين، كما شهدت المجلة تحولات فى دورية الصدور، تأثرا - كما تقول الرسالة - بالظروف السياسية والصحفية ، فأثناء الحرب العالمية الثانية صدرت مرة كل شهرين لندرة الورق المستورد، وفى مطلع عام ١٩٤٧ عادت الهلال إلى الصدور شهرياً، ويعطى البحث للدكتور أحمد زكى دوراً رئيسيا فى تطوير مجلة الهلال والارتفاع بمستواها، والذى تولى رئاسة تحريرها عام ١٩٤٧، وجعل سنتها اثنى عشر شهراً.

وكما نافست الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية المجلات الثقافية، كانت تصدر فى الفترة محل الدراسة الكثير من المجلات الثقافية ، مثل القاهرة التى صدرت فى فبراير ٨٥ ثم توقفت ، وإبداع، وأدب ونقد.

وتغير الكثير من حول مجلة الهلال وبقى نهجها ثابتاً، تغير القطع، من القطع المتوسط إلى القطع الكبير إلى القطع الصغير، حتى يمكن حملها فى الجيب لكى تقرأ فى الحافلة أو الطائرة، وبقى منهجها والدفاع عن رسالتها.

وذكرت الرسالة أن عدداً من القراء يصحبون الهلال إلى دور العبادة لقراءتها بين الصلوات وهرباً من ضوضاء المنازل!.

وتستعرض الرسالة بعض الأحداث التى مرت بها مجلة الهلال، مثل تولى على أمين رئاسة تحريرها فى يناير ١٩٦٢، وذكر فى افتتاحية الهلال، ستتحول إلى مجلة.. «تنبض سطورها بالحركة والحياة، وتبدو كل صفحة من صفحاتها مثل كأس الشمبانيا التى ترقص كل نقطة فيها»، وصدر العدد الجديد يكتب فيه كل من هيكل وبهاء وأمينة السعيد وكامل الشناوى وإحسان عبدالقدوس وأنيس منصور ومصطفى أمين وناصر النشاشيبى والرسامون رخا وصلاح جاهين وصاروخان بالاضافة إلى كتابها طه حسين وفكرى أباظة وسهير القلماوى وعبد الحليم عبدالله.

وصاحب ذلك العدد حملة إعلانية ضخمة، وقفز التوزيع إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه.

وتقول الرسالة .. «رغم النجاح الذى حققه على أمين من الناحية الصحفية، وزيادة التوزيع، فقد تراجع تأثيره» وأقول .. بل انخفض توزيع المجلة انخفاضاً كبيراً ، ونقص توزيع العدد التالى بعد التجديد عما كان عليه قبله ، فقد تجاسر رئيس التحرير وأخرج المجلة عن صيغتها وطبيعتها الثقافية..

وتخلص الرسالة فى هذه النقطة. إلى .. «أن تحرير الهلال تأثر بعدة عوامل ، طبيعة الأحداث التى مرت بها ، وطبيعة المنافسة التى تواجهها ، بالاضافة إلى شخصية واهتمامات رئيس التحرير».

* * *

وتتناول الرسالة دوافع القراء

للحصول على مجلة الهلال، ومدى الإشباع الذى تحققه قراءتها، وترى كاتبة الرسالة أن مستوى مادتها وانخفاض سعرها ومتابعة القراء لكتاب بعينهم وتنوعها وعدم اقتصار المجلة على نوع واحد من الموضوعات ، وعدم وجود مجلة منافسة على المستوى نفسه، وقبل ذلك وبعده الرغبة لدى القارىء فى التثقيف.

وكذلك التعرف على تجارب وأفكار ورؤى فكرية وأدبية وفنية وتاريخية، لا يعثر عليها القارىء فى مصادر أخرى، وأيضا المساهمة فى تنمية القدرات الإبداعية لمن لديهم رغبة فى الإبداع الأدبى، وإشباع الرغبة فى قراءة الأدب وتحقيق مكانة فى محيط المرء من خلال استخدام ما جاء فى «الهلال» من معارف، ويتمكن المعلم – مثلا – فى تقديم معارف خارج المقرر لتلاميذه.

وتحت عنوان .. «قراءة المجلات الثقافية» كشفت الدراسة أن ٧١٪ من القراء يقرأون الهلال بانتظام ، و٢٩٪ من القراء يقرأونها أحيانا، وتأتى بعدها مجلة «العربى» من حيث درجة القراءة ، فيقرؤها ٧ر١٩٪ من حجم العينة بصفة منتظمة أما مجلة الفيصل فتصل نسبة قراءتها الاجمالية إلى ٨ر٩٪، وكذلك مجلة إبداع التى يقرؤها نحو ٦ر٣٪ ، ويصل قراء مجلة «أدب ونقد» إلى ١ر١٠٪.

وتذكر الرسالة.. أن نحو ٣ر٦٢٪ من القراء يعودون إلى أعداد الهلال القديمة بحثا عن مقال أو معلومة سابقة.

ومن الملاحظات المفيدة التى قدمتها الباحثة :

● أشارت الباحثة أن الهلال تقيم

رسالة دكتوراه

توازنا دقيقا بين الداخل والخارج، وبين العرب والعالم، فى إطار سعيها إلى تحليل القضايا والظواهر والأحداث والأفكار والمذاهب ، وتشكيل قاعدة معرفية حولها لدى القارىء. وتأخذ على المجلة عدم الاهتمام بالمقال النقدى فى مجال النقد الإذاعى والتليفزيونى.

● تقول الباحثة عن الأجزاء الخاصة فى الهلال .. «إن إصدار الأجزاء الخاصة تتيح للمجلة إشباع حاجات القراء المتنوعة، على عكس العدد الخاص، الذى قد يرضى قطاعاً من القراء دون آخر، فالجزء الخاص لا يطغى على أبواب المجلة، ويسمح بالتنوع فى المضامين..».

وتضيف .. «ساهمت المعالجة الموضوعية والتحريرية للأجزاء الخاصة فى دعم دور المجلة فى تشكيل معارف القراء حول موضوعات متنوعة ، وبذلك حققت الأهداف التالية :

● إمداد القارىء بمعلومات منوعة حول موضوعات جديدة أو غير مطروقة ويغلب عليها طابع التخصص.

● إطلاع القارىء على فكر المدارس والمذاهب الفكرية والأدبية حول موضوع واحد، مما يمكنه من المقارنة بين المدارس والمذاهب.

● تكوين قاعدة معلومات ثابتة يمكن للقارىء الاحتفاظ بها والرجوع إليها فى موضوع محدد.

● تشكيل وتنمية معارف القارىء

رسالة دكتوراه

حول الثقافات الأخرى.

من الواضح أن إزدهار الحياة الثقافية يرتبط بازدهار الحياة الأكاديمية، وكل منهما يساهم في نمو الآخر ويمده بالحياة والعنفوان، وها هي تتوالى رسائل الماجستير والدكتوراه التي ترى في مجلة الهلال موضوعاً للبحث والدراسة ، وهذه عناوين بعض هذه الرسائل :

> محمود عبد الرحيم الصاوي : مجلة الهلال وموقفها من الثقافة الإسلامية في الفترة من ١٨٩٢ - ١٩١٤.

كلية أصول الدين - جامعة الأزهر ١٩٩١.

> وائل ماهر قنديل : معالجة الصحافة المصرية لأفكار الحقبة من سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٩٠٠ وقضاياها بالتطبيق على الهلال والمقتطف .

كلية الإعلام - جامعة القاهرة ١٩٩٤.

> عبد الصبور فاضل : تحرير المجلة الدينية والعامة ، دراسة مقارنة لمجلات الأزهر والهلال.

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر ١٩٨٨.

> عبد الجواد سعيد محمد ربيع: النظم الإدارية في المؤسسات الصحفية ، دراسة مقارنة بين مؤسستي دار الهلال وروزاليوسف في الفترة ما بين ١٩٨٠ و١٩٨٦.

كلية الإعلام . جامعة القاهرة ١٩٨٩.

> رشدي أنور البدري : فن التحرير الصحفي في المجلة الثقافية دراسة تطبيقية على مجلات : الهلال ، العربي ، الدوحة، الفيصل في الفترة ما بين ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٦.

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر.

مما يؤكد الحاجة الملحة لكشاف الهلال طوال عهده ، والذى سيقدم خدمة واسعة للحياة الثقافية طوال القرن الماضي، وقد توقف كشاف الهلال عند سنة ١٩٢٧ والذى كان يتولى مشروعه المرحوم د. أحمد الصاوى، وتعجز الامكانيات المتاحة عن القيام بهذه النقلة الضرورية ووضع «الهلال» على سى. دى مع كشاف لكل موضوعاته وكتابه.

وهو الدور الحيوى الذى يجب أن يقوم به المجلس الأعلى للصحافة، أو صندوق التنمية الثقافية . والذى ينتهي بأن يصبح لمجلة الهلال موقعا على الانترنت .

وأخيراً..

لا يفوتني أن أنوه بهذه الرسالة الممتازة، والطريق الجديد الذى شقته ، والذى سيكون له أبلغ الأثر على الدراسات في المستقبل، والذى يمثل بداية مهمة لما بعدها، ويحقق هذا النوع من الدراسات أحد أهداف وأحلام الكتّاب ، ألا وهو امكانية قياس تأثير «كلمته» ، وأن تصل هذه الدراسات إلى معيار موضوعى يمكن قياسه، يراقب النبتة وهي تنمو وحتى تزدهر ويحين جنى ثمارها .

صراع اللغات

في القرن الحادي والعشرين

● بين هيمنة اللغة الانجليزية واللغة الصينية !

بقلم : مجدى شرشر ★

حين طوى القرن العشرون آخر صفحاته كانت خريطة اللغة - كلغة أولي أو ثانية - تتوزعها اثنتان من اللغات العالمية بوصفهما أكثر لغات العالم تحدثا، وتجرى على لسان نحو مليار نسمة أو أكثر قليلا كل منهما . فعلى مدار الساعة تتبادل اللغتان المواقع ، وعندما تغرب الشمس عن غرب المحيط الهادى ويخلد الصينيون إلى النوم، تسود الانجليزية باعتبارها أكثر اللغات تحدثا ودراسة .

لكن يجب التنويه إلى أن الاصطلاح اللغوى (الصينية) ربما ينطوى على قدر من الالتباس . فما يسمى بلهجات أوسع نطاقا للغة صينية بما فى الماندرين أو لغة البوتونخوا (لغة أهل الشمال الأصلية) و(مين) و(هاكا) و(ايوى) . لغة (الكانتونيز) نسبة إلى بلدة كانتون، هى فى واقع الأمر لغات منفصلة رغم ما بينها من ارتباط، وهى غير مقروءة إلا فى شكلها المكتوب ، ولذا فإن الماندرين أو البوتونخوا (أى اللغة المألوفة والشائعة والمفهومة) هى اللغة الرسمية للصين أى لغة الحديث والدراسة. وبهذا قاسم (اللغة

★ كاتب بوكالة أنباء الشرق الأوسط

صراع اللغات

الصينية) اصطلاحا يسرى عليها مقابل (اللغة الصينية الأشمل) لمجموعة اللغات وثيقة الارتباط بالصين .

اللغات الأكثر تحدثا

ويأتى بعد هذا من اللغات الأكثر تحدثا فى العالم لغتان يتحدث بكل منهما أكثر من خمسمائة مليون نسمة ، أولهما (الهندى - أوردية) وإذا أضيف إليها عدد متحدثى لغات قريبة منها أو مرتبطة بها مثل لغة (البنجاب) (ولغات الدرا ويدانية) التى تنتمى إلى العائلة (الهندى - أوردية) والسائدة فى جنوب الهند مثل اللغة التاميلية والتيلوجو والكانذا ومالاعيلام والبلوخستان . وثانيهما الأسبانية والبرتغالية .

أما الفئة الثالثة لأكثر اللغات تحدثا فى العالم ، ويتحدث بها أكثر من مائتى مليون نسمة، فهى الروسية والبنجالية والعربية ، والروسية مرتبطة بشكل صغر أم كبر بمجموعة اللغات السلافية مثل البيلاروسية والأوكرانية والعرب كرواتية .

ويلى ذلك اللغات التى يتحدثها مائة مليون نسمة أو أكثر فى العالم وهما اللغتان اليابانية والملايو ، الاندونيسية.

فى آسيا والهادى ثم الألمانية فى أوربا والفرنسية فى مختلف أنحاء العالم .

ولعل الفرنسية هى الأكثر أهمية لأنها مع اللغة الانجليزية الأكثر وجودا وتمثيلا فى قارات العالم وهى اللغة الرسمية لأكبر عدد من الدول أكثر من أى لغة أخرى .

ولها مكانتها الدولية كثانى لغة عالمية بعد الانجليزية ، رغم قلة عدد متحدثيها كلغة أصلية وتركزهم فى أوربا الغربية وأقليم كيبك بكندا (وعددهم ٦٠ مليون نسمة) .

وفى آخر القائمة تأتى (١٢) لغة كبيرة تنتمى لأكثر من ثمانين فئة لغوية صغيرة ويتحدث بها ما يقدر بأكثر من عشرة ملايين نسمة كلغة أولى أو ثانية.

اللغة العالمية الأولى

وعلى هذه الخلفية يدور جدل هادىء حول مما إذا كانت اللغة الانجليزية هى اللغة العالمية الأولى بحق. ويعتقد الكثيرون أن الانجليزية بلغت بالفعل مكانتها المتوقعة منذ أمد بعيد . ويثير احتلالها لهذه المرتبة العالمية الكثير من التساؤلات غير المسبوقة وغير المتوقعة أيضا .

ولكى تكون اللغة لغة عالمية بالفعل يجب أن توجد فى كل بلد فى العالم. والانجليزية تتمتع بهذا الوجود بالفعل

. فهي اللغة الأولى في العالم، يتحدث بها نحو (٣٧٥) مليون نسمة كلغة أصلية في الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا وأيرلندا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا. وحصلت على مكانة استثنائية خاصة كلغة ثانية يتحدث بها (٣٧٥) مليون نسمة في أكثر من (٧٠) بلدا مثل غانا ونيجيريا والهند وسنغافورة وغيرهم. وفي باقي الدول نجد أنها لغة يدرسها الأطفال . والمعتقد أن نحو (١.٥) مليار نسمة أي نحو ربع سكان العالم يستخدمون الانجليزية في اتصالهم.

ومع هذا ، هل يمكن أن تكون الانجليزية لغة عالمية حقيقية مع أن ربع سكان العالم يتحدثون بها ! أي بمعدل فرد من كل أربعة أفراد ؟ والحقيقة فإن الإجابة على هذا التساؤل تنبع من الدور الحيوي للغة ، فاللغة أو الإطار اللغوي يقدم إطارا عالميا لتنظيم المجتمع الإنساني ، ويشكل أداة لتراكم نتاج التواصل والإبداع الإنساني . فاللغة الحية على هذا هي أداة فكرية وثقافية خلاقة لمستخدميها . ولذا وفي ضوء الدور الحيوي الذي تضطلع به الانجليزية في عالم اليوم، يمكن القول بالفعل إنها كانت اللغة العالمية الأولى في القرن العشرين . وستكون الأولى في الحادي والعشرين . فالانجليزية الآن هي اللغة السائدة والمسيطرة في السياسة الدولية والبنوك والصحافة ووكالات الأنباء والإعلان والإذاعة والتسجيلات والسينما والعلوم والسياسة والتكنولوجيا وإدارة المعرفة والاتصالات . ولم تستطع لغة أخرى أن تحقق مثل هذا الانتشار الواسع، ومن غير المنتظر أن تحققه في المستقبل القريب .

أهمية اللغة الانجليزية

ولا ترجع المكانة العالمية للغة الانجليزية إلى عدد المتحدثين بها كلغة أولى ، فثمة لغات أخرى تحظى بوجود عالمي مهم كالصينية(الماندرين أو البوتونخوا) والأسبانية، حيث عدد المتحدثين بها كلغة أولى يفوق عدد المتحدثين بالانجليزية كلغة أصلية. كما أن عدد متحدثي الأسبانية يتزايد بسرعة بالغة خاصة في الأمريكتين. لكن أهمية اللغة الانجليزية تعود إلى أن ثلاثة أضعاف متحدثي اللغة الانجليزية كلغة أولى يتحدثون بها كلغة ثانية، مع التأكيد على تزايد انتشار اللغة بين هذه الشريحة تأسيسا على تزايد معدل الزيادة السكانية في تلك البلدان مثل الهند ونيجيريا ، مقارنة بمعدل الزيادة السكانية في دول

صراع اللغات

كالولايات المتحدة والمملكة المتحدة.

ونتيجة لهذا لم تعد الانجليزية ملكا لأحد بعينه أو حكرا عليه وحده . وربما تكون الانجليزية قد نشأت فى بريطانيا وتدين بوجودها ومكانتها العالمية الحالية للولايات المتحدة ، لكن عدد سكانهما معا لايتجاوز (٣٠٠) مليون نسمة أى ثلث عدد متحدثى الانجليزية. ومع انتشار اللغة لايكون لها مركز نفوذ أو تأثير واحد . وهكذا فإن الانجليزية تصطبغ بتغيرات تأتى من طريقة استخدامها فى بلاد مثل جنوب أفريقيا والهند والصين وسنغافورة، وهى تغيرات لايستطيع أحد مهما كان حتى ولا أكاديمية انجليزية دولية التأثير فيها. والنتيجة الفورية لمثل هذا التغير هى بالقطع بزوغ تنويعات جديدة للغة الانجليزية يتحدثها عامة سكان مختلف أنحاء العالم ، وبدأ العالم بالفعل يشهد (لغات انجليزية جديدة) - إن جاز التعبير - مثل (الانجليزية السنغافورية) فى سنغافورة (والانجليزية الإسبانية) أى مزيج من الإسبانية والانجليزية بات يسمع ويتردد الآن فى الولايات المتحدة. وهذا الشكل اللغوى الجديد موجود ببساطة ، لأن الناس يريدونه ، فهم يريدون أشكالا محددة للغة تعبر عن هويتهم المحلية أو العرقية . وفى غمرة هذا التعبير يبتكر المتحدثون مفردات وقواعد نحوية ونطقا جديدا بشكل يختلف عن اللغة الانجليزية المألوفة السائدة، وسوف تتزايد وتتعمق تلك الاختلافات بمضى الوقت ، ومن يدرى فربما نكون بصدد تفكك اللغة الانجليزية لتصير (عائلة اللغات الانجليزية) بنفس طريقة انقسام اللغة اللاتينية لعائلة اللغات الرومانسية قبل ألف عام مضت .

المزج اللغوى

وهناك الكثير من الدوافع القوية التى تدفع نحو هذا المزج اللغوى ، وأقواها هو أن اللغة الانجليزية المألوفة السائدة، تشكل واقعا دوليا مؤكدا فى عالم الطباعة، كما أنها أداة الاتصال المتاحة على المستويين الوطنى والعالمى لسكان العالم ، فأى فرد يتمتع بمستوى تعليمى مقبول يكون قادرا على قراءتها ، بل إن الجميع يتعرضون لضغوط لتعلمها . وهناك دعاوى للتخلى عن اللهجات المحلية كتلك التى أطلقها جوه تشوك رئيس وزراء سنغافورة مطالبا مواطنيه

بالتخلى عن (الانجليزية السنغافورية) والتحول إلى الانجليزية المألوفة السائدة حتى يتسنى للعالم الخارجى أن يفهمهم، لكن من غير المتوقع نجاح تلك الفلسفة الإحلالية، فحاجة الناس للتعبير عن هويتهم اللغوية بطريقة قاطعة هى حاجة عميقة الجذور . ولعل خير الأمثلة على ذلك هو سكان ويلز وليفربول الذين لم يتخلوا عن لهجتهم المحلية عند تعلم اللغة الانجليزية المألوفة ، فكثيرون يتحدثون باللهجتين إحداهما للداخل والثانية للخارج ، وتظهر التجربة البريطانية عقم وعدم جدوى تعليق الآمال فى أن يتعلم الأطفال اللغة الانجليزية على حساب لهجتهم المحلية.

والتوجه السائد فى بريطانيا الآن هو التمسك والاعتزاز بكلا اللهجتين ، والمتوقع أن تكون ثنائية اللهجة هى التيار السائد خارج بريطانيا .

وتساهم التكنولوجيات الحديثة فى تعظيم مكانة اللغة الانجليزية ، فتلفزيونات الأقمار الصناعية التى تستخدم اللغة الانجليزية المألوفة باتت تصل الآن إلى مناطق لم تكن تصلها من قبل ، وكانت محرومة منها فى السابق كما أنها هى اللغة المسيطرة على الانترنت بنسبة (٨٠ فى المائة) رغم التوقعات بتراجع هذه النسبة مع دخول لغات أخرى على الشبكة.

وبقدر ما يشكل انتشار الانجليزية فى العالم من مميزات بقدر ما ينطوى على مثالب لأبنائها الأصليين ، الذين سيجدون أنفسهم مقيدين بعالم أحادى اللغة، حين يسافرون إلى الخارج لايستطيعون التواصل أو التحدث أو التفكير بلغة ثانية، ولذا فإنهم بحاجة لعدم السقوط فى فخ أحادية اللغة .

وإذا كانت الانجليزية تشكل الآن التيار الكاسح فى العالم، إلا أنه لا شىء مضمونا على اطلاقه فى عالم اللغويات والإنسانيات . فمع بداية الألفية المنصرمة لم يكن أحد يدرى أن متحدثى اللاتينية سيصبح عددهم محدودا فى نهايتها . فهيمنة لغة ما مرتبطة بتحول التوازن الاقتصادى والسياسى للغة أخرى بما يجذبها من الهامشى إلى المركز . وهذا يلقى بمسئولية كبيرة على المناطق التى تنتشر فيها اللغة العالمية المسيطرة لبذل جهود خارقة للحفاظ على لغاتها ولهجاتها المحلية ، وإلا فسوف تتعرض لأخطار محدقة ربما تندثر معها فى نهاية المطاف .


محمد فتحى


محمد محمود شعبان


حافظ عبدالوهاب


أنور المشرى


عبدالوهاب يوسف

طاهر أبوزيد

بقلم: صافى ناز كاظم

مع «أسبوعياته» و«جبهة حماة العربية»، عاد النجم الإذاعى العريق طاهر أبوزيد ليتألق من جديد، فى البرنامج العام للإذاعة المصرية، بعد غيبة سنوات طويلة، كانت نتيجة تنحيته قسرا عن الميكروفون منذ مطلع السبعينات. خلال تلك السنوات، التى قاربت العشرين، لم يتوقف طاهر أبوزيد عن إبداعاته الإذاعية التى كانت غذاء محبوبا لمحطات عربية أخرى، إذ لم يفلح القهر الغادر إلا فى حرمان المستمع المصرى من الصوت الصبوح البشوش المتفائل الذى لم ينقطع صداه فى آذاننا، رغم الانقطاع، يعلن عن برامجه التى منها «جرب حظك من ١٩٥٣ ـ ١٩٦٨»، «رأى الشعب من ٦١ ـ ٦٧»، «فن الشعب من ٥٦ ـ ٦٧»، «مع مجلس الأمة من ٦٢ ـ ٦٧». منع طاهر أبوزيد من الإذاعة وهو يشغل مسئولية رئاسة إذاعة الشرق الأوسط. حين استضافنى لأقدم برنامجى «كنت فى أمريكا» عام ١٩٦٧، وبرنامجى «مونولوج» عام ١٩٧٠، قلت له وقتها أنه حقق لى حلما عزيزا، داعبنى منذ الطفولة، وتوارى خلف الكتابة فى الصحف، وهو أن أكون مذيعة، ضحك وقال أنه لم يحلم يوما بأن يكون مذيعا بل حلمه الدائم كان المحاماة.



طاهر أبوزيد فى شبابه



طاهر أبوزيد سنة ٢٠٠٠

كان الحلم منطقيا مع بداياته حين اضطرته الظروف ليأخذ وظيفة «محضر» بعد حصوله على شهادة إتمام الدراسة الثانوية. أفاده عمله هذا فى سبر غور مشكلات الشعب الحقيقية، الشعب ساكن القرى والنجوع والدروب المنسية. يذكر مرة كان عليه أن يذهب مع مندوب شركة سنجر لماكينات الخياطة لينفذ حكما باسترداد ماكينة اشترتها أرملة فقيرة بالتقسيط ولم تستطع أن تفى بالتزامها، وعند التنفيذ فوجىء المحضر الشاب الذى لم يتجاوز العشرين، والذى كان عضوا بحزب مصر الفتاة فى بلدته طلخا، بالسيدة تولول هى وبناتها نادبات ماكينة الخياطة عند وداعها، كأنهن يشيعن عزيزا لايعوض ونزل بهن المصاب نزول الصاعقة، لعله كان عام ١٩٤٢ وحين يقال فقر فهو مدقع، لم يستطع المحضر الشاب تحمل المشهد، وبدا لنفسه كأنه الجلاد الذى ينفذ حكما بالإعدام على أبرياء، سأل مندوب سنجر: كم هو المبلغ المتأخر؟، وكان خمسة جنيهات، وكان المبلغ قدر المرتب الشهرى للمحضر الشاب وقد استلمه للتو، قال لمندوب سنجر، خذ هذا مرتبى كله وأعد لهن الماكينة، ويبدو أن مندوب سنجر كان ينتظر مثل هذه المبادرة، فتقاسم المبلغ مع طاهر أبوزيد، وانقلب المأتم فرحا

أطلقت فيه الزغاريد. هذه الروح المصرية السمحة التي تجود بما في طاقتها للإنقاذ ظلت السمة الرئيسية لطاهر أبوزيد وتتبدى بوضوح في بشاشة صوته وعباراته وطلاقة وجهه.

★★★

لم يرض الشاب طاهر أبوزيد أن يكتفي بدور «المحضر المنقذ»، فقرر أن يكون محاميا عن المظلومين لعله يمنع مثل تلك الأحكام الجائرة في بلد يطحن البؤس ناسه، «أيام يقال عنها الزمن الجميل!»، ذهب يستأذن في الإلتحاق بكلية حقوق جامعة الاسكندرية، فقال له رئيس المحكمة المسئول، السنهوري باشا وكيل وزارة العدل أصدر قرارا بمنع الجمع بين الوظيفة والدراسة، وبتهكم قال للشاب الطموح: هات موافقة من السنهوري باشا!، ظن الرجل أنه يضع المستحيل عقبة أمامه، لكن طاهر أبوزيد ركب القطار إلى القاهرة، إلى وزارة العدل، إلى مكتب السنهوري باشا وألح على السكرتير في ضرورة مقابلة الباشا لعرض مظلمته . أثناء انتظاره دخل المحامي الشهير والقطب السياسي فتحي رضوان، فتقدم منه طاهر أبوزيد وطلب مساعدته في مقابلة السنهوري، تمت المقابلة وقال السنهوري: وماله المحضر؟، بكره تترقى، قال طاهر أبوزيد: سعادتك كنت كاتب في مصلحة التلغراف ولم تكتف بذلك، فضحك السنهوري وفتحي رضوان معا، ووقع السنهوري بالموافقة على الطلب وهو يقول: صدقت!. هل كانت هذه روحا قتالية، أم ثقة في الخير وتفاؤلا، أم حسن ظن، لم يخب، في القانوني العظيم عبدالرزاق السنهوري؟، أعتقد أن «كل ذلك»، هي الإجابة الصحيحة.

★★★

جمع طاهر أبوزيد بين دراسة الحقوق ووظيفته الشاقة ـ (كان هذا الجمع هو النموذج السائد لكل طالب للعلا في حقبة الأربعينيات الصعبة، التي توهج فيها الوعي الوطني الطامح إلى الترقي والتقدم لشغل المواقع التي تحقق للوطن ولفقرائه الحلم بكريم العيش) ـ وظل بعد التخرج ١٩٤٨، محاميا تحت التمرين لمدة قصيرة، إلى أن ساقه القدر لموافقة صديقه صبحي باسيلي، وكان يعمل مساعدا فنيا للإذاعة بالاسكندرية، وهو الآن محام كبير بالإسكندرية، ليجرب حظه في اختبار للمذيعين. هكذا بلا حلم مسبق وبلا تخطيط وجد طاهر أبوزيد نفسه ناجحا صالحا، بشهادة الخبراء المتشددين في الانتقاء، للعمل مذيعا

وتم تعيينه ١٤ مايو ١٩٥٠ . كان هو واحدا ممن يمكن أن نسميهم الرعيل الإذاعي الثاني بعد الرواد أمثال محمد فتحي، محمد محمود شعبان، حافظ عبدالوهاب، عبدالوهاب يوسف، أنور المشري، صفية المهندس وتماضر توفيق، وكان الأقرب إلى قلبه الراحل العظيم والفنان الفذ عبدالوهاب يوسف، الذي دخل الإذاعة عام ١٩٤١ وتوفي فجأة في ٢٩ نوفمبر ١٩٥١، قدم خلالها ـ ١٠ سنوات فقط ـ تحفه الإذاعية الخالدة، إعدادا وإخراجا وتمثيلا، منها «السيرة العطرة»، و«قطر الندى» و«خوفو»، و«على بابا والأربعين حرامي»، و«في جزر هاواي»، و«السوق»، و«غروب»... إلخ، مع مشاركة بالتمثيل في برامج من إخراج زملائه مثل البدوي في «عوف الأصيل» إخراج أنور المشري وحمدان في «راوية» إخراج حافظ عبدالوهاب.

ـ (أنا لست مؤرخة إذاعية، كل معلوماتي هذه، هي معلومات وانحياز مستمعة ذواقة التصقت أذنها بالمذياع منذ طفولتها وصارت الإذاعة منذ ١٩٤٤ حتى ١٩٥٤ مصدرا رئيسيا من مصادر تشكيلها الثقافي والفني والوجداني، مدينة في ذلك بالفضل بالذات لعبدالوهاب يوسف ومحمد محمود شعبان رحمهما الله آمين، وحين أقول ثقافة لا أقصد التعليم والتربية في المدرسة، بل أعني عملية التغذية اللذيذة، بالمعرفة التي نجحت فيها الإذاعة المصرية في بداياتها رغم بساطة أدواتها، إلا أن روادها حققوا بالفعل المخلص المتفاني المثل القائل «الشاطرة تغزل برجل حمار!»).

★★★

تأثر طاهر أبوزيد بالتنافس وبالجو الفني الإبداعي وأخرج برنامجا غنائيا بعنوان «المنتصرون» قال عنه بابا شارو محمد محمود شعبان: «أول مرة منذ سنوات أري نواة لمخرج حقيقي»، ولم يكن بابا شارو من الذين يجاملون في الفن، مازلت أذكر برنامجه الشهير «جرب حظك»، الذي بدأه ١٩٥٣ وأنا مازلت تلميذة في المرحلة الثانوية، وكيف كان الجميع يتوق ليكون واحدا من فرسانه، أي شخصياته، التي يستضيفها ويحاورها ويناغشها متبسطا وضاحكا وتلقائيا ليخرج من ملامح الشخصية، الطريف والشيق والإنساني، وتراوحت شخصيات برنامجه من المجهول تماما وغير ذوي الحيثية من بسطاء الشعب، إلى النجوم الزاهرة في أجواء الفن والصحافة والأدب، مرورا بتقديم الهواة، من يملك

منهم موهبة حقيقية ومن يسيطر عليه الوهم بالموهبة.. ثم.... اختفى اسم طاهر أبوزيد بمدلوله الأصلي الحقيقي، وصعد الاسم وحده يحمله نجما تألق في ملاعب الكرة، كان أبوه أبوزيد قد أسماه حين مولده «طاهر» إعجابا وتيمنا باسم النجم الإذاعي المتألق، وهكذا شاء الله ألا يختفي اسم «طاهر أبوزيد» أبدا!.

★★★

في آخر حلقة سمعتها من برنامجه الإذاعي «أسبوعيات طاهر أبوزيد» الذي يبثه البرنامج العام كل يوم جمعة قبل منتصف الليل، قدم فقرة جميلة من سجل تسجيلاته القديمة، وكانت لقاء مع ليلى مراد التي أكدت أنها تعلمت «عفق» النغم من الفقها ـ وتقصد قراء القرآن الكريم والمبتهلين بالإنشاد الديني.. وأعجبني تعبيرها «عفق» نطقت القاف ممزة ـ الذي يعني الصحيح والأصولي في الإمساك بالآلة الموسيقية ومن ثم التوصل إلى السيطرة واتقان العزف أو الغناء، ولقد ظللت أياما أحاول «عفق» قلمي ليمكنني من «عفق» لب موضوعي الذي يهوم حول رأسي ولا أتمكن من الإمساك بتلابيبه ليجلس مرتاحا على الورق، ألاحظ حالا أن «عفق» يمكن أن تكون مرادفة للإمساك بالتلابيب، هذا التعبير العربي البليغ الذي لم يستطع أحد، من الذين حاولوا، أن يترجمه إلى الانجليزية والفرنسية، الإمساك بالتلابيب، حركة تجعلنا نسيطر بها على المسوك «عفق لها في قاموس المنجد سبع معان منها جمع الشيء أو لاذ به ومنها عفق الأسد فريسته!»، لب موضوعي الذي حاولت «عفقه» هو:

● أولا: الشهادة، ضمنا، للإذاعة المصرية في المرحلة مابين ١٩٤٤ حتى ١٩٥٤ بأنها كانت ضمن مكوناتي الثقافية، ولهذه الشهادة حيثيات يجب أن أعبر عنها بدقة ورقة تقارب جانبية الفن، فهي حيثيات مع تداعيات تروح وتجيء وتعلو وتخفت وبها «عُرَب» مثل «عُرَب» مغني المواويل وزركشة ياليل وياعين، والميجانا والعتابا، والتقاسيم الشرقية على الآلات الوترية.

● ثانيا: أن أشهد، ضمنا، بأن الإذاعة في تلك الفترة كانت فنا قبل أن


صفية المهندس


نماضر توفيق

تكون إعلاما، ولذلك ازدانت بالفنون الإذاعية وبالإذاعين الفنانين أو بفناني الفن الإذاعي، (كنا ندرس بقسم صحافة آداب القاهرة مادة اسمها الفن الإذاعي!)، ولذلك كانت الركيزة في الاختيار والاختبار لمن يتقدم للعمل بالإذاعة هو المعيار الجمالي: جمال الصوت، سلامته وصحة مخارج الحروف، حسن اللفظ، جودة الإلقاء، متانة الأداء، أما معيار تحديد جمال الصوت فكان الحضور المتميز الجاذب للأذن والشخصية الظريفة للصوت، كان الفرز دقيقا وأمينا، ينتقي الموهبة ويبحث عنها ويتنبه إليها فيستدعيها حتى وإن لم يكن صاحب الموهبة مدركا لصلاحيته، هكذا استدعى طه حسين تلميذه المعيد الشاب بقسم اليونانيات، محمد محمود شعبان ورشحه ليقابل المسئول الكبير ليعمل بالإذاعة عام ١٩٣٩ ويترك دراسته الأكاديمية ومساره للتدريس بالجامعة، وهكذا تم استدعاء الشابة صفية المهندس التي لفتت الأنظار بجمال صوتها وأدائها وهي تمثل لشكسبير في حفل التخرج لقسم اللغة الانجليزية عام ١٩٤٥، فكانت أول صوت نسائي يعتمد كمذيعة معينة تقول: «هنا القاهرة»، وهكذا اختار الصديق صبحي باسيلي صديقه المحامي طاهر أبوزيد ودفعه دفعا إلى لجنة اختبار المذيعين، فيغريه نجاحه بترك حلم المحاماة الذي داعبه طويلا من أجل استقطاب الإذاعة الطارئ له، تنوعت الأصوات فكان هناك الصوت الموسيقي الذي استحق به محمد فتحي لقب كروان الإذاعة، وكان هناك الصوت القطيفي الودود الذي استطاع محمد محمود شعبان به أن يكون «بابا شارو» ويسجل اعجازا غير مسبوق أو ملحوق في الحديث إلي الأطفال، وكان هناك الصوت الرومانسي الشاعري لعبدالوهاب يوسف القادر على اللهجات العربية المختلفة، والصوت المفرد الوقور المليء بالحيوية والاستقامة معا لصفية المهندس، والصوت الضياف البشوش المتفائل لطاهر أبوزيد، ذلك كله وغيره قبل أن يستفحل الصوت القنبلة، والصوت الناعي، والمقرّع، والمتعالي، وماضغ اللبان، مع الكابي والباهت والمل.

● ثالثا: أن أحقق الباعث الأصلي لكتابة هذا المقال ألا وهو الاحتفال بمناسبة بلوغ طاهر أبوزيد الثامنة والسبعين يوم ٥ هذا الشهر ابريل - إن شاء الله - فكل سنة وهو طيب، وله أدعو بدوام الصحة والبركة وحيوية العطاء.

من معين الذكريات

بقلم: وديع فلسطين

أجتهد فى هذه الكلمات فى استحضار بعض الذكريات حول الحياة الفكرية التى أتيح لى أن أكون شاهداً على أطراف من أحداثها ، ولا تخلو تلك الذكريات من طرائف لم تعرف سبيلها إلى الذيوع ولا تناولتها الأركان الأدبية فى الصحف السيارة .

التقيت بالشاعر أحمد رامى للمرة الأولى فى أوائل الخمسينات فى حفل كبير كانت السفارة الإيرانية تقيمه فى مقرها بمناسبة العيد الوطنى لإيران . وكان هذا اللقاء السريع بداية صداقة طويلة امتدت إلى أن غادر الدنيا فى ٤ يونيو ١٩٨١ «وهو من مواليد ١٩ أغسطس ١٨٩٢»، وكان أحمد رامى يناديني دائماً بالعبارة الرقيقة «ياحبّوب» ، ولا أدرى هل كان يخصنى بها أو كان يطلقها على جميع أصدقائه.

وذات مرة قال لى أحمد رامى إنه منذ ماترجم رباعيات عمر الخيام بعد عودته من باريس حيث درس اللغة الفارسية، وهو يتوق إلى زيارة ضريحه المتفرد بجماله المقام فى نيسابور فى إيران. وكان رامى يعرف أن بينى وبين السفير الإيرانى بهرام بهرامى صداقة، فسألنى هل يمكننى مفاتحة السفير فى هذه الرغبة، فوعدته بأن أجتهد فى ذلك . وعندما سنحت لى فرصة مواتية نقلت هذه الرغبة إلى السفير الذى بادر بنقلها إلى حكومته


الشاعر احمد رامى

التي رحبت باستضافة أحمد رامي وزوجته.

وكانت فرحة رامي كبيرة، فاستخرج جواز سفر له ولزوجته وأخذ يتهيأ للسفر . ولكن توعكاً طرأ على صحته فطلب إرجاء موعد الرحلة على أمل أن تتحسن صحته فتحتمل عناء السفر والانتقال . ولكن الضعف كان قد دب في جسمه، واضطر آسفاً إلى وأد هذه الرغبة التي رافقته سنوات طويلة.

الشاعر الماحي في قفص الاتهام

كان من عادة الشاعر محمد مصطفى الماحي أن يقيم في بيته بحدائق القبة ، وكان يقع في شارع البحتري ، فالتقى الشاعر القديم بالشاعر المعاصر في مكان جغرافي واحد .... أقول كان يقيم في بيته ندوات أدبية حول أقداح الشاي وملحقاته ، وكان يختلق المناسبات لجمع أصدقائه ، ولاسيما الشعراء منهم. وكان الماحي منذ ما التقيت به للمرة الأولى في ندوة الأديب الدكتور كامل السوافيري (ولم يكن قد تدكتر بعد) في الأربعينات يجاملني بدعوتي إلى ندوته ، فكنت أنعم فيها بجو ودي تدور فيه أحاديث الأدب مختلطة بمرويات الشعر وبالفكاهة أيضاً .

وذات يوم هاتفني الماحي داعياً إياي لحضور ندوته قائلاً إنه سيؤخر ميعاد انعقادها إلى الساعة الثامنة مساء لظروف خاصة . وفي الموعد المحدد ، توجهت إلى بيته فألفيته جالساً في الحديقة الخلفية مع جاره الشاعر أحمد رامي الذي كان يقيم في شارع موازٍ اسمه منية الإصبع ، وبعد قليل بدأ ضيوفه يصلون تباعاً ، وكلهم من الشعراء : محمود غنيم والعوضي الوكيل وحسن كامل الصيرفي وأحمد مخيمر ومختار الوكيل وعبد السلام شهاب . وكنت الوحيد بينهم الخارج عن الهيئة ، لأنني لست من الذين يتبعهم الغاوون!.

وبعدما اكتمل الحضور ، دعانا الماحي إلى داخل المنزل ، فألفينا موائد منصوبة تراصت عليها ألوان من البط الدمياطي الشهير، فمنه المحمّر والمقلي والمسلوق والمشوي والمحشي ، هذا إلى جانب «التحابيش» الأخرى . فقلت للماحي إننا لبينا دعوته إلى ندوة أدبية بريئة ، فإذا نحن أمام مأدبة عامرة بصنوف من الطعام تصعب علينا مقاومتها ، فكيف نعتذر عن كل هذه المشهيات؟ وانهمك المدعوون في تناول الطعام ، وكنت ألاحظ أن الماحي ومحمود غنيم يتبادلان نظرات لاتخلو من مغزى ، ولكنني لم أعلق أهمية عليها على اعتبار أنها إمارات على فرط الود بين الشاعرين .

ولما فرغنا من الطعام ، دعانا الماحي إلى الصالون حيث افتتحه بقوله إنه تعرض لحملة جائرة من صديقه غنيم الذي يرميه بالبخل والتقتير ، وهو ما اشتهر به أهل دمياط وهي المدينة التي ينتمي إليها الماحي والتي يكثر من التردد

عليها ويقيم أشهر الصيف الأربعة فى عشة يمتلكها فى رأس البر، وهو المصيف التقليدى لدمياط . وقال إن غنيم نظم مطولات شعرية فى هجائه وفى إلصاق تهمة التقتير عليه ، ولهذا دعانا لكى نكون شهوداً عدولاً فى هذه القضية ننتصف له من خصمه اللدود. ثم أفسح المجال للشاعر محمود غنيم الذى شرع يسمعنا هجائياته الشعرية فى قصيدة تلو أخرى حيث تتصاعد لهجتها الحادة من قصيدة إلى غيرها، حتى بلغ الذروة فى هجومه عندما قال إن الاسكندر الأكبر بكل جحافله لايستطيع أن يخلّص الماحى من رذيلة الحرص ، وإن نابليون بكل أساطيله يعجز عن إصلاح حال ابن دمياط الوارث لخصائصها العالية فى الشح!.

ولما فرغ غنيم من مرافعاته الشعرية ، رد عليه الماحى دافعاً عنه هذا الاتهام ، قائلاً إن بيته مفتوح على مصاريعه لكل الأدباء ، ولكنه غنيم «عينه فارغة» ولا يخلو من طمع وجشع . وظل الماحى يفنّد التهم واحدة واحدة فى قصيدة تلو قصيدة.

ثم فتح الباب أمام الشعراء الحاضرين ، فتسابقوا فى الدفاع عن الماحى شعراً قائلين إن البط الدمياطى الذى التهموه الليلة هو خير رد على تخرصات غنيم وافتراءاته.

وكان مسك الختام أرجوزة زجلية فكهة ألقاها عبدالسلام شهاب واختار لها قافية الطاء، فكان يختم أبياته بعبارات «بنت الشاطى» و«الدمياطى» و«طاطى طاطى» وهلم جرا .

ولكن غنيم طلب الكلمة مرة أخرى ، وقال إنه مازال مصراً على اتهام الماحى بالبخل ، وآية ذلك أنه لايقيم أمثال هذه المأدبة إلا مرة فى كل قرن كامل ! أليس هذا أبلغ دليل على أنه دمياطى لاغشّ فيه؟.

كانت سهرة جميلة لمعت فيها بدور «الشيخ الكبسى» ، وهو الممثل اليمنى الذى أوفده الإمام يحيى لحضور أول اجتماع لتقرير إنشاء جامعة الدول العربية، ونبه عليه إمامه بالاستماع دون أن يفوه بحرف ، لأن الإمام كان يتشكك من هذه الجامعة . ومن ناحيتى ، لم أكن أملك أداة الشعر لأجرى مع الشعراء فى هذه الحلبة ، ولهذا بعثت إلى الماحى برسالة قلت فيها مامعناه إن براءته من اتهامات غنيم ناصعة ، وإن البط - وإن كان صامتاً لا «يصوصو» - شاهد على سخائه وكرمه.

وجمع الماحى كل هذه المساجلات الطريفة على أمل أن ينشرها فى كتاب ، ولكن الوفاة المفاجئة لزوجته والانهيار التام الذى أصابه بعد وفاتها وعجل بمنيته فى ٧ نوفمبر ١٩٧٦ (وهو من مواليد ٢٤ سبتمبر ١٨٩٥) حالا دون صدور هذا الكتاب الذى يذكرنا موضوعه الطريف بكتاب «مقطّفة النجوم» . ولهذا الكتاب الصادر فى سان باولو بالبرازيل

فى عام ١٩٧٠ قصة تستحق أن تروى هنا.

مقطفة النجوم

عاد الشاعر المهجرى شفيق معلوف وزوجته روز من زيارة لبنان والتعريج على مدينتهما زحلة ، فجاء لزيارتهما قريبهما الشاعر نقولا المعلوف صاحب ديوان «حور وخمور» لتهنئتهما بسلامة العودة . وأهدت السيدة روز - واسمها يعني الوردة - قنينة من الشراب إلى ضيفهما نقولا المعلوف الذى توهم أنها تحتوى على العرق اللبنانى الذى يعتقه أهل زحلة، فلما فضّها تبين أنها تحتوى على شراب الورد، وهو ليس بضالته المنشودة!.

وعندما أراد شكر الوردة روز، نظم قصيدة عنوانها «مقطفة النجوم» إذ أن زوجها شفيق معلوف صاحب ديوان «عبقر» خاطبها بقوله :

بالتى تقطف النجوم يداها
ثم ترمى بهن تحت وسادى
بفتاة كأن أجنحة الشحرور
كحّلن عينها بالسواد
نقلى يايد النسيم على أهدابها
السود ريشة العواد
إن أهدابها بقيّات أوتارى
شُدّت إلى بقايا فؤادى

أما نقولا فقال فى قصيدته :

مقطفة النجوم لك المعالى
وماء الورد ياورد الجوالى
هديتك النفيسة فرحتنى
ولكن لم يطل فرحى الخيالى
فضضت ختامها فإذا الغوالى
بها لا خمر، وارفة الظلال

ولم تكد قصيدة نقولا المعلوف تنشر فى البرازيل حتى عارضها أكثر من ثمانين من شعراء المهجر الجنوبى والشمالى ، وقام الأديب السورى الدكتور عبد اللطيف اليونس بجمع كل هذه المعارضات ونشرها مع دراسة مسهبة فى كتاب طريف بهذا العنوان.

جماعة علم النفس التكاملى

من أبرز أساتذة علم النفس فى مصر الدكتور يوسف مراد الذى تخرج على يديه عشرات من المتخصصين فى هذا الميدان ، واصطفى منهم مجموعة أطلق عليها اسم «جماعة علم النفس التكاملى» كان يجتمع بأعضائها فى بيته فى روض الفرج قبل أن ينتقل إلى حى الدقى . ومن أبرز أعضاء هذه الجماعة الدكتور صبرى جرجس والدكتور مصطفى زيوار والدكتور اسحق رمزى والدكتور أبو مدين الشافعى رحمهم الله والدكتوران مصطفى سويف ومصطفى صفوان المقيم فى باريس أطال الله بقاءهما.

وتأصيلاً لعلم النفس فى المجتمع أصدر الدكتور يوسف مراد «مجلة علم النفس» فى عام ١٩٤٥ وكانت تصدر ثلاث مرات فى السنة ، وكان ينفق عليها من

حر ماله ، واضطر بعد ثماني سنين من إصدارها إلى إغلاقها لأنها - باعترافه - لم تكن توزع إلا ٨٠ نسخة مع أن قيمة اشتراكها السنوى خمسون قرشاً .

ومن الأعمال الباقية للدكتور يوسف مراد - الذى قل أن يذكر أو تعترف له بريادته - إعداده مسرداً وافياً لجميع مصطلحات علم النفس باللغتين العربية والانجليزية ، وتنبيهه على جميع طلابه وأعضاء جماعته بألا يستخدموا إلا هذه المصطلحات التى استقرت بفضله وشاعت بعد ذلك ، ولاسيما لأن جميع مطبوعات الجماعة كانت تشتمل على ذيل يورد جميع هذه المصطلحات بلغتيها .

وقد تعرض اثنان من أعضاء جماعة علم النفس التكاملى لاعتداءات على حياتهما من مرضى كانا يعالجانهم . أما أولهما ، فهو أبو مدين الشافعى ، وهو شاب من الجزائر لعله من أوائل المشتغلين بالطب النفسى من أبناء بلاده وله كتاب كبير عنوانه «الانتباه الارادى» . كان الشافعى يعالج مريضة فى عيادته فى شارع قصر العينى - إذ كان قد استقر فى القاهرة - فتوهمت أسرتها أن كثرة ترددها على العيادة دليل على أن وراء الأكمة ما وراءها، فهاجمته فى عيادته وأردته قتيلاً.

أما الثانى فهو الدكتور اسحق رمزى الذى كان يعالج طالباً من أزمة نفسية ، وفى نوبة من نوبات المرض أطلق الطالب الرصاص على طبيبه فنجا بأعجوبة، لأن الطلقات مست القلب دون أن تعطله . وبمجرد شفائه من هذا الحادث ، أغلق عيادته وانسحب من جامعته وهاجر إلى الولايات المتحدة حيث صار من كبار الأطباء النفسيين فيها ، ولم يعد إلى مصر أبداً إلى وفاته فى عام ١٩٩٢ عن نحو ثمانين عاماً.

وقد أصدر أعضاء جماعة علم النفس التكاملى مجموعة نفيسة من الكتب ما كان منها مؤلفاً أو مترجماً بما فى ذلك ترجمات موثقة لمؤلفات فرويد .

نزار قبانى يرافق جثمانا

كانت بداية الحياة الدبلوماسية للشاعر نزار قبانى فى القاهرة ، إذ أوفدته حكومته للعمل كدبلوماسى مبتدىء فى المفوضية السورية - ولم يكن التمثيل قد رفع إلى مستوى سفارة بعد . وكان نزار مشغولاً وقتها بطبع ديوانه الثانى فى القاهرة وعنوانه «طفولة نهد» ، فى حين أن ديوانه الأول الذى طبع فى دمشق بعنوان «قالت لى السمراء» أهاج أعضاء البرلمان السورى عليه بسبب جرأته غير المعهودة فى اقتحام عالم حواء ، فرئى إبعاده فى القاهرة لإسكات الضجة التى أثارها ديوانه فى الشام .

وحدث فى تلك الفترة أن توفى الوزير المفوض السورى فى القاهرة ، وهو من

أسرة أرسلان، فتقرر شحن جثمانه إلى دمشق ليدفن هناك، وكلف نزار قباني بأن يرافق الجثمان كبادرة بروتوكولية طيبة. وكانت هذه تجربة غريبة للدبلوماسي المبتدىء، والغريب أنه لم يشر إليها في الذكريات التي نشرها عن عمله في القاهرة في ذلك الوقت.

ولم يتم رفع التمثيل الدبلوماسي بين مصر وسورية إلى مرتبة سفارة إلا في عهد الأمير مصطفى الشهابي الذي كان وزيراً مفوضاً، وقدم أوراق اعتماده بهذه الصفة إلى الملك فاروق في الإسكندرية - وخصني وقتها بأول حديث أفضى به إلى الصحافة المصرية - ثم أصبح سفيراً وعاصر قيام الثورة المصرية وتعامل معها. ولكن كانت الصفة المجمعية للأمير الشهابي بوصفه نائب رئيس مجمع دمشق ثم رئيسه، أبرز من الصفة الدبلوماسية وقبلها الوزارية لأنه شغل عدة وزارات في سورية.

العرب يغزون نيوزيلندا

أهداني الأديب العراقي ناجي جواد كتابه الجديد «بغداد : سيرة ومدينة» وهو كتاب يتحدث فيه عن حياته في عاصمة الرشيد وذكرياته عن الأدب والأدباء ورجال السياسة الذين عاشرهم وعرفهم عن قرب، على الرغم من انه كان وكيلاً لساعات «أوليا» السويسرية، وكان يقوم بنفسه بإصلاح الساعات في محله الواقع في شارع الرشيد في بغداد.

ولكن صناعة الساعات لم تحل بين ناجي جواد وبين العمل الأدبي، فأصدر طائفة من الكتب السياحية عن البلدان التي زارها مثل الأندلس والمغرب العربي والهند ونيوزيلندا. ونيوزيلندا هي آخر محطة اختارها ناجي جواد للإقامة فيها حيث الطبيعة البكر بغاباتها وبحيراتها وحيواناتها وجوها الخالي من التلوث. وقد أخبرني ناجي جواد أن مدينة أوكلاند التي يقيم فيها تضم نحو ٢٠٠ عائلة مصرية مهاجرة إلى هناك، وأن مايقرب من عشرة آلاف أسرة عربية، أغلبها من العراق، تقيم في هذه المدينة. وخدمة لهذه الجالية العربية الكبيرة أقيمت هناك محطة إذاعة عربية باعتبارها مشروعا يكمل الرسالة التي تقوم بها جريدة «المصري» التي تصدر في سدني عاصمة استراليا وتوزع في نيوزيلندا.

وبفضل الهجرات الواسعة من العالم العربي في السنوات الأخيرة إلى أنحاء شتى من العالم، بما في ذلك نيوزيلندا وأستراليا، صح أن يقال إن الشمس لاتغيب عن دنيا العرب، وكانت الشمس في الماضي لاتغيب عن الامبراطورية البريطانية قبل زوالها!.

الضحية الحديثة

شعر:
د. عبده بدوي

١

كانت أصواتاً خاشعة ... تجتاحُ وجوداً مأهولا
قد غطت أشجاراً ملأى ... والزهر يعانق أيلولا
وتضيء بأثمار دارت ... وتشع الإشعاعات الأولى !
.. ما زالت تجأر في قربي ... وتطالبُ أن تعطي سولا
وتدور بمحراب رحب ... فتمس هناك التنزيلا
قد لفّت آفاقاً عليا ... ومضت تبكي جيلاً جيلا
ذكرت أياماً يانعة ... ومآذن قد فاقت طولا
والخيل تغادرُ إفريقيا ... وتهُزّ السيف المسلولا
والقمر يُضيء على كفٍ ... والشمس تشد المنديلا
قد كانت أياماً خضرا ... والعمر جميلاً مسئولا !

٢

كل الأصوات مضت تعطي ... نوراً . تكبيراً . تهليلا
إلا صوتاً قال بحزن ... ضَيعتم هذا القنديلا
ما كان فداءً في الماضي ... قد بدّلناهُ .تبديلا
فلنذكر أن ضحيتنا ... كانت سراً «إسماعيلا»

٣

وتظل الأصواتُ الخجلى ... ترتيلاً، يتبع ترتيلا
ويظل الدمع على حزن ... من «هاجر» بحراً موصولا
«وأبو لهبٍ» سيرى أبداً ... ويضيف فصولا وفصولا
من صيّرنا خزفاً ملقى ... ووجوداً أضحى مشلولا !
.. من ردّ فوارس قد كانت ... تتأمل حلماً مأهولا
وأدار «لعُقبة»(١) رايتهُ ... والحزم وما يعنيه عويلا !!
«ولطارق» قد هامش أضحى حبساً ... ووراء المنتصرين عليلا..(٢)

---

(١) عقبة بن نافع
(٢) طارق بن زياد

ذكريات لا تنسى :

الفن الشعبى

● لوحة رقصة «الدلوكة» على جدران أحد المقابر فى الأقصر مازالت ترقص حتى اليوم .

● ضحى د. شيفرز ببصره من أجل الحفاظ على التراث الشعبى الموسيقى ..

● أين الفدائى «المجنون» الذى يجمع تراثنا الموسيقى ؟!

بقلم: حسن سليمان

●● إن ما حدث كأنه حدث أمس . أظن ذلك كان فى سنة ١٩٣٩ . لازلت أذكر أن المذيع بالتأكيد هو محمد فتحى بيه . صعقنا وشدنا بلغته العربية الرصينة ووصفه الرائع . اجتمعت الأسرة كلها حول «الراديو» لأنه قال : أنهم سيخرجون آلات موسيقية من المتحف المصري القديم وخصوصا آلات نفخ ، فهناك ألمانى قد أثبت أنها صالحة لتؤدى الغرض . يريد أن يجربها ليتأكد من نظرياته عن جذور وامتداد الفن الشعبى المصرى عبر الأجيال ●●

حينما جاء خالى من الخارج أخبرنا أن التجربة قد نجحت جدا ، واستطاع الألمانى إثبات أن هناك علاقة تربط بين ثقوب آلة النفخ مع مسافات وسمك أوتار الهارب. أتى ببعض النغمات – التى مازالت تعمل فى التراتيل القبطية والنغمات التى لازالت ببعض مناطق الصعيد فى موسيقاه الشعبية – المشتركة بينهما . نسيت اسم الرجل الذى نطق به خالى فى ذلك الوقت فهمنا كان منصباً على التجربة فى حد ذاتها ، وسرد محمد فتحى الرائع لتاريخ مصر وعظمتها كما عودنا دائما بصوته العذب ، وعربيته الممتعة .

مضى الزمن ، وقبل أن أسافر مرسم الأقصر سألت خالى عن ماذا ينصحنى أن أفعله فى مرسم الأقصر . قال لى : لا تضيع وقتك فى زيارة عابرة للمقابر فعددهم أكبر مما تتوقع ولن تستطيع أن تلم بكل شئ لا فى خلال سنتين أو حتى عشرة . لكن أنصحك بمقبرة مجهولة إلى الآن بمنطقة الخوخة رقم ٣٨ – حسب الترقيم حين ذاك . قال لى : هى لأميرة ماتت قبل أن تتم المقبرة رسمها ، وأظن أن الفنان كان فى حالة وجد وحب حين رسمها ، وإن وجدت لديك وقتاً فلا تضيعه إلا مع نائحات راموزا وعلاقة أيديهن المرتفعة مع انحناءات شعورهن المتكررة .



د. سمحة الخولى

لم أضيع وقتاً فى الأقصر ، وبما أن الخفراء يدركون علاقتى بخالى فقد فتحوا لى المقبرة المغلقة . كان الرسم فى المقبرة محصورا على جدار يسار المدخل . الرسم يعبر عن خادمات تقدمن عقود اللوتس للزائرة ، وهناك راقصتان انثنى جسدهما عكس بعضهما وجلست العازفات تنفخن فى الناى . صعقت أمام رشاقة الخطوط وجمال الألوان والوجد الذى يحمله العمل الفنى لى . ضيعت معظم الوقت فى نقل هذه المقبرة بالألوان ، وحينما أتى طه حسين بالفنان «أندريه لوت» ليدرس لنا فى مرسم الأقصر أخذته إلى هذه المقبرة .

صعق «أندريه لوت» بجمال هذا الحائط المهجور وعذوبة الفتيات المرسومة وأخذ يصورها ، وطبعها فى كتابه عن الفن المصرى القديم حينما رجع إلى فرنسا ، ثم تبعه الكثير ممن نشروا عن الفن المصرى القديم .

لا أعلم الآن ماذا أصبح رقمها أو ماذا حدث لها . حينما رجعت إلى

القاهرة، وأطلعت خالى على الرسوم التى رسمتها اشتراها كلها . لم أكن أتوقع أنه سيعجب بها إلى هذه الدرجة . سألته : إن الراقصتين اللتين تقفان عكس بعضهما فى حركات راقصة - هل يتذكر أن أى أثر من تلك الحركات الثنائية بين الراقصتين امتد إلى الآن ؟ قال لى : أنا أذكر أنه مازالت تلك الحركات الثنائية إلى الآن فى شمال السودان تسمى برقصة (الدلوكة) ، ولابد أن هناك مكاناً ما فى القاهرة مازالوا يرقصون فيه هذا الرقصة . بسهولة وأنا فى مولد عرب المحمدى سألت عن تلك الرقصة، فدلونى عن مكان فى «عزبة أبو حشيش» لازالت تمارس فيه هذه الرقصة، وأخذنى صديق خضرة خضر «عم بشير» إلى هناك . وجدت حجرة متسعة غطى سقفها بجذوع النخل وسعفه . طليت الحجرة بالأزرق .. تنفذ الشمس من خلال ثقوب السقف كأنها دنانير ذهبية منثورة على الجالسين وعلى الجدران الزرقاء . الجالسون كلهم سودانيون يستندون إلى الحوائط الزرقاء بملابسهم البيضاء على «الحصر» التى تفترش الأرضية كلها ، وأمام كل واحد منهم «قرعة البوظة» وطبق صاج صغير فيه «الشطيطة» وهى كبدة الجمل مقطعة قطعا رفيعة صغيرة تغرقها الشطة والليمون - يأكلونها نيئة - فجأة دخلت فتاتان ترتديان فى وسطيهما تنورة كلها أحبال وبها حوافر معيز جافة - أما أعلى أجسامهما إما أن تكون صدرية خضراء شفافة ملتصقة أو عارية الصدر ، بدأتا الرقص على إيقاعات دقات بدائية ساذجة من الطبلة ذات الجانبين ودف كبير، يحرك العازف الطبلة يميناً ويسارا بسرعة . أما الشئ الملفت للنظر كثيرا فقد كان آلة موسيقية غريبة لا أتذكرها جيدا ، لكنى أذكر أنها عبارة عن طبق صاج قشر بعض سطحه وشدت عليه أسلاك مختلفة وله يد قصيرة والعازف يشد الأسلاك . حينما بدأت الراقصتان ترقصان عكس بعضهما بالضبط . فوجئت بأنه لولا حوافر المعيز الكثيرة التى تحدث أصواتاً غريبة متحركة يمينا ويسارا واصلة إلى أسفل ركبتيهما - لولا هذا لكأننى أمام الرسم الذى فى المقبرة تماما مع انثناءات أيديهما . دائما يتحركان ولكن عكس بعضهما .

★ ★ ★

بالشقة التى بجانب مرسمى كانت تسكن راقصة سويسرية ترقص فى «صحارى سيتى» تسمى «ليزا ماى» . مدربها على الرقص كان يسمى الشيخ سيد ، كان يرتدى جلباباً أصبح فيما بعد الجلباب الشائع الذى تلبسه الطبقة العليا فى العجمى وهو مفتوح الجانبين وبه

تطريز . سألته أنني قرأت في كتاب عن خطابات «فلوبيـــر» للكاتب «جي دي موبسان» وهو في زيارته لمصر . في أحد الخطابات ذكر «فلوبير» أنه طلب منهم أن يرى رقصا شرقيا ، فأجابوه أن الخديوي نفى كل «العوالم» والراقصات إلى المنيا . لكن بقيت مقهى في بولاق لازال يمارس فيها الرقص الشرقي من فتية مخنثة . حينما أخبرت الشيخ سيد بهذا قال لي : «ياه دا كان زمان وخلص» الحكومة أغلقت هذا المقهى مع إنتهاء الدعارة لكنهم مازالوا يمارسون هذا الرقص في شقة ببولاق ، وكان في بالي إلى أي مدى احتفظ الرقص الشرقي وعلاقته بالرقص المصري القديم قبل أن تأتي عليه المؤثرات التركية ، وفي حديثي معه صرح بأنه منذ سنين طويلة يسيطر على تدريب الراقصات المشهورات الشواذ من الرجال . سألته : هل تستطيع أن تدبر لي زيارة لهم . قال : أظن أنه من الصعب لكني سأحاول وسأخبرك. بعد أيام أخبرني أنهم وافقوا وعليّ أن أذهب خلف الفسخاني الذي كتب على لافتته «الهلوتي المشهور بـ ..» يمنعني الحياء أن أقول الكلمة وتحتها مكتوب دون إحراج . قال لي : قف على الربوة التي خلف الحانوت بجوار ضريح سيدنا أبو العلا ، وانتظر من سيأتي لك . لم تطل وقفتي طويلا إذ بزغ أحدهم واضعا طرف جلبابه في فمه ليصبح الجلباب ملتصقا على فخذيه . بادرني بلهجة أنثوية : «أنا اسمي حودة .. إنت بقى الأفندي الذي سيشرفنا» ؟ قلت له : أجل . قال : اتبعني لكن اعمل حسابك النقطة في كل مرة لن تقل عن عشرة جنيهات . سبقني وهو يقول: «وسع يا ولا» ، وجلبابه لازال في يده أو فمه ، كل ما أذكره أننا دخلنا شارع الواجهة المتسع الذي يواجه ضريح أبو العلا ، وفي الناحية اليمنى المواجهة لوكالة البلح دخلنا إلى زقاق ضيق ثم انعطفنا لزقاق أضيق حتى كدت أن أخشى أني لا أستطيع الخروج من هذه الأزقة الملتوية وشعرت بخوف ، صعدنا درجات سلم متآكل وكانت تترامى إلى مسامعي موسيقى «أكورديون» وطبلة . فجأة وجدت راقصتين يرقصان بالضبط عكس بعضهما ، بملكان نفس انثناء الراقصتين المرسومتين في المقبرة – وحركة ساقيهما حتى تعطي فرصة لتحريك أردافهما . من وقت لآخر يقول أحدهما : (هلا هلا يا أخا) .

سألت ما معنى كلمة (أخا) فقالوا لي: : بأنها بلغة العوالم أختي . توقف الراقصان ومروا عليّ كي أدفع النقطة فدفعت عشرة جنيهات . فجأة قال أحد الراقصين : «يا لا يالا يا معلمتي دي الأفندي يرى الرقص على أصوله !!» ، فوقف رجل في منتصف العمر يميل إلى البدانة قليلا وأحد الراقصين اندفع إليه ليحزم شالا أسفل بطنه . إذ بهذا الرجل

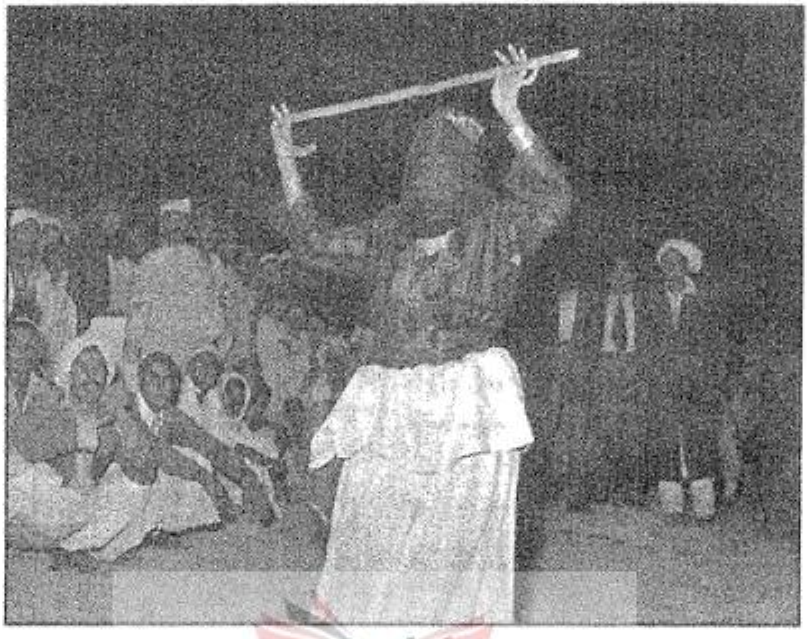
يدهشنى بمرونة جسمه التى لا تتناسب مع سنه وثنى جسده وهو يميل إلى الخلف حتى يمس الأرض بكفيه ثم ينتصب سريعا كالصور التى على المقابر الفرعونية.

مع صوت الطبلة المتلاحق الذى يصمت فجأة ليبدأ من جديد - رأيت ما أريد أن أراه - لكنى لم أشعر بارتياح ربما لنظرة الطبقة المتوسطة التى أنا منها للشذوذ فى ذلك الوقت .

ما أن وصلت إلى شارع الواجهة ورأيت الأضواء تزين حانوت الفسخانى مع جامع وضريح أبو العلا تنفست الصعداء وقلت لنفسى : لازالت جذور من أيام الفراعنة باقية تصورتها كما هى ، لكن حينما سألت علماء الآثار قالوا : لا أحد يستطيع التكهن بنوعى الرقص اللذين كان أحدهما يمارس فى المنازل لتسلية الضيوف أو رقص فتيات المعابد والفرق بينهما ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال ثبات أشياء بذاتها عبر آلاف السنين مع مؤثرات أخرى دخلت إلى مصر من شعوب أخرى .

***

كبرت ومن مناقشات خالى بمنزله واستراحة الهرم علمت أن الرجل الذى اتهمه البعض بأنه معتوه لأنه أصر على أن يخرج الآلات الموسيقية من المتحف ويجربها هو الدكتور «شيفرز» ، وأنه أضاع عمره كله - رغم دراسته العميقة للموسيقى - فى تتبع الموسيقى الشعبية المصرية والآلات من أقصى الصعيد حتى أعلى شمال الدلتا ومن سيناء حتى الصحراء الغربية ، لا أدرى من أين كان يأتى بالمعونة والمساعدة . هل هى من معهد الموسيقى الشرقية .. أم من القصر الملكى .. أم الحكومة الألمانية ؟ لكنه كان دائم البحث والسؤال والسفر والترحال والتدوين بالألفاظ العربية وبجانبها اللغة الألمانية والنوتة الموسيقية . خالى دائما يستقبله ويحضر له كتباً من مكتبته . لا يضيع وقته أبدا لابد أن يسأل فى شئ مهم . أصبح اسم «د. شيفرز» بالنسبة لى أسطورة . كلما قلت لخالى شيئاً فى الموسيقى الشعبية أو جذور تراثنا الموسيقى أو ذكرت له مكاناً إلا وقال لى : سبقك إلى معرفة هذا ودراسته بعمق «د. شيفرز» . حينما قررت الذهاب إلى سيوة سنة ١٩٥١ قال لى خالى : إن أردت أن تنصت للموسيقى الحقيقية للصحراء الغربية فلابد أن تذهب إلى «الزيتونة» . سبقك إليها «د. شيفرز» لكنك لن تستطيع الذهاب إليها بمفردك ، فلابد أن أكتب إلى المأمور خطاباً ليرسلوا معك خفيرين لأنها منطقة خلف ملاحات ينضون فيها المتمردين والسكارى ، وهم فى سيوة



لوحة رقص شعبي

يشربون شراب «اللبجي» وهو عبارة عن عصارة النخل . يقلمون النخلة من سعفها، ثم يشقون شقا يربطون أسفله وعاء فخاريا له فوهة ، أنا واثق أنك ستحتفظ به لجماله كفن شعبي يتعدى كل العصور والأماكن. «اللبجي» إن شربته في الصباح فائدته عظيمة وطعمه ورائحته لن تنسى، إنه يشبه عصير القصب لكنه بدون سكر وبه مزازة وبه رائحة «الجمار» وأكثر كثافة لكن احذر أن تشربه خميرا أو ثاني يوم فهو خمر شديدة إلى أقصى درجة .

في سيوة بالتأكيد قررت أن أذهب إلى «الزيتونة» وهي عبارة عن غابة من أشجار الزيتون والنخيل على ضفاف ملاحات . قال لي المأمور : إن أردت أن تنصت إلى موسيقاهم وأغانيهم فلابد أن تقضي الليل معهم ، فلا يبدأون في الغناء إلا ليلا يسهرونه معربدين يشربون «اللبجي» الخمير . ليلتي هناك ليلة لا تنسى ، ولا يمكن لأحد أن يتصور وهج النيران المشتعلة والمشاعل منعكسة على صفحة الملاحة الساكنة ، لم أكن أتوقعهم وقد صورهم خالي لي شرسين أو متهورين ، رأيتهم بالعكس وديعي الخلق دمثي الأخلاق . الموسيقى لديهم تنحصر تقريبا في آلتين «الناي» ونوع من «الطنبور»

أوتاره مشدودة على أربع خشبات . كانت ليلة غريبة . أصواتهم متنوعة وكل فرد يأخذ النغمة من الآخر منوعا إياها بصوت يختلف من حيث الارتفاع والانخفاض أو الصوت الرفيع والأجش . إنه شئ لا يوصف الفجر هناك . الملاحة الرمادية اللامعة ، الصمت ، و(وشوشة النخيل) ترد عليها شجيرات الزيتون الرمادية ، وبقايا النيران المنطفئة وسط رجال ثملين وقد التفُّوا فى أحرمتهم الصوفية البيضاء. حين رجعت إلى القاهرة قصصت على خالى شاكرا هذه الزيارة . رد على : سبقك فى الإعجاب «د. شيفرز» ، ولكنه سجل كل هذا . أصبح «د. شيفرز» عقدتى كلما ذهبت إلى مكان أو أعجبنى نغم شارد فالاجابة . سبقك «د. شيفرز» .

***

التحقت بـ «البريتش كانصل» مع بداية دراستى بكلية الفنون لأحصل على «المتروكليشن» ، وحينما وصلت إلى السنة الرابعة كان علىَّ أن أختار مع الأدب الانجليزى إما الموسيقى أو العمارة أو الرسم ، ففضلت الموسيقى . مدرّسة الموسيقى كانت سيدة بها مسحة من جمال ليست فى سن صغيرة ولكنها دائما كانت لا تفيق من الخمر . لا أستطيع القول أنى كنت طالب مجد أو دائم الحضور ، أضف إلى هذا أنها كانت تتكلم سريعا جدا وهى سكرانه مضغمة الكلمات ببعضها ، لم أحضر لها من الدروس إلا لماما ، واعتمدت على مذكراتها . كان البرنامج ينحصر فى موسيقى «الباروك» إلى «ديبوسى» و«رابيل» ، ولم يكن أحد يتوقع منا أن الامتحان سيكون فى «ديبوسى» ، وبما أنى لم أكن مذاكرا فقد اعتمدت على ذاكرتى وأخذت أحوم حول الموسيقار ذاكرا أثر الحرب السبعينية على فرنسا و«جمباتا» والفنانين التأثيريين و«رودان» والشاعر «سلارميه» ، واختتمت كلامى بأن أهم شئ فى موسيقى «ديبوسى» هى «الارابيسك» ، وأهم عزف لها هو عزف «د. هيك مان» ذهبت فى موعد أخذ الدرجات ، فصرفت لكل التلاميذ الورق إلا أنا ، فعلمت أنى راسب. نادتنى فذهبت إليها قالت لى : من أنت وماذا تعمل ؟ قلت لها : إنى انتهيت توا من دراستى فى كلية الفنون الجميلة. استطردت : لذلك فأنت تعرف كثيرا عن الرسامين التأثيريين ، لكن هناك شيئاً أهم وهو ربطهم بالحرب السبعينية ، و«جمباتا» وما يحيرنى أكثر هو من قال لك عن أحسن من عزف «ديبوسى» هو «د. هيك مان» ، فكل الأسطوانات التى تستعيرونها من «البريتش كانصل» هى إنتاج شركة (صوت صيدو has master voise) .

أجبت بشبه ابتسامة : لقد اشتريت الاسطوانات من شركة «دكا» الاسطوانات الكبيرة والصغيرة ، فقد أعجبت جدا بعزف «د. هيك مان» . قالت حقيقة هو

أعظم من عزف «ديبوسى» ، وأخذ الدكتوراة وكرس حياته فيه ، وأحسن من عزف «الأرابيسك» ، ولدهشتى فوجئت أنى أخذت أفضل درجة .

***

مضت الأيام وقابلت ولى الدين سامح، وكان قد دعانى للعشاء ، أخبرنى أنه لابد أن نذهب أولا لنودع السيدة «د. شيفرز» قبل سفرها من مصر نهائيا . قلت له : إننى أذكرها لكنى غير واثق أنها لازالت تذكرنى كطالب عندها فى «البريتش كانصل» استقبلتنا سكرانة كعادتها وللمفاجأة نظرت إلى ولى الدين سامح وقالت : هل تعرفه لقد كتب بحثا هائلا عن «ديبوسى» وعزف «هيك مان» له منذ سنوات . علمت فى الجلسة أنها زوجة «د. شيفرز» الذى حيرنى لتكريسه زهرة عمره لدراسة الموسيقى الشعبية وجذورها لشعب غريب عنه ، وهى ستلحق به فى برلين .

انصرفنا وعلى مائدة العشاء «بمحل الجمال) حيث كنا نجلس دائما أخبرنى ولى الدين سامح بالقصة وهو يعصر الليمون الكثير فى المياه قبل أن يشربها – ذكر أنه – ذات أمسية كان على «د. شيفرز» أن يترك مصر نهائيا ربما كان ذلك سنة ١٩٥٦ . ثم استطرد– طلبنى «د. شيفرز» بالتليفون وطلب منى الحضور للأهمية القصوى . قال : إن عليه الآن الرحيل من مصر ولا يدرى لمن سيترك أبحاثه كلها وهل سيحافظ عليها أم لا ؟ ، وهل ستترجم أم لا ؟ ، وخصوصا أنها ليست بالعربية . لم تدم المناقشة طويلا وقرر من فى الجلسة بالإجماع حفظا لها أن يأخذها كلها معه فى الخارج من شرائط مسجلة ونوت موسيقية ونصوص بالعربية وتحتها ترجمتها . سيحافظ عليها أكثر وربما فى مصر سيكون مصيرها العدم . فى وقت من الفوضى لا ندرى متى سينتهى . مضت السنوات وعلمت أن الموسيقار كمال عبدالرحيم ترجم كتيبا صغيراً كتبته زوجة «د. شيفرز» ، وأكد لى الموسيقار راجح داود أن الدكتورة سمحة الخولى رأت التسجيلات والأبحاث محافظاً عليها كلها فى برلين ، وهناك من قال أنها فى تل أبيب .

أظن أننى لا أستطيع أن أختتم كلامى سوى بكلمة كفى .. كفى !!

وتتجمع الدموع فى عينى . لماذا ضحى «د. شيفرز» بأجمل سنوات حياته من أجل المحافظة على تراثنا الشعبى الموسيقى ؟ .

ولماذا لم يوجد إلى الآن لدينا ذلك الفدائى الذى يشعر أنه لابد له أن يذهب إلى برلين ليترجم لنا ما ضحى «د. شيفرز» بعمره كى يحققه ، خصوصا وأن معظم بعثات «الكونسرفتوار» إلى النمسا وألمانيا .. الحقيقة إننا أصبحنا عقلاء نجرى وراء مصالحنا الذاتية وليس فينا الفدائى المجنون .. وللأسف الشديد البشرية والحضارة سطرها مجموعة من الفدائيين والمجانين منذ عهد اليونان ●●



قضايا بيئية

كيف نواجه الموسيقى المدمرة والتلوث السمعي؟

بقلم: د. نبيلة ميخائيل



إذا كانت الموسيقي مصدرا للمتعة الجمالية وعاملاً مهدئاً للأعصاب المرهقة، فإن العلم الحديث يقول إنها لم تعد مجرد مصدر للمتعة الجمالية بل أصبحت تلعب دورا مهما في أجهزة المرء الحيوية حتي تجعله قادرا علي مقاومة الأمراض نفسها أو العلاج منها. ومن المفارقات المؤسفة في عالم الموسيقي أن يبرز إلي جانب الموسيقي الجميلة بكل تأثيراتها الجمالية علي وحدات الإنسان. فإن هناك أيضاً ما يطلق عليه حالياً اسم «الموسيقي المدمرة»، فما حقيقة مثل هذا اللون من الموسيقى وما تأثيره على كيان الإنسان وأعصابه؟.

- بداية أريد أن أوضح الصورة بمثال مبسط إذا وضعنا مثلا «آلتي كمان» على بعد مترين إلى أربعة أمتار بينهما.. وإذا عزفنا الوتر «ري» مثلا للكمان الأولى، فإن الوتر «ري» من الكمان الثانية سيتحرك وحده محدثاً صوتاً متجاوباً مع درجة «ري» للكمان الأولى دون باقي الأوتار.

معنى ذلك أن النغمتين متوافقتان، فتجاوبتا معا.. كذلك بالنسبة لأية نغمات تصدر من أي مصدر.. فإذا توافقت مع روح الإنسان وأحاسيسه فإن هذه الأصوات تحدث تجاوبا معه، وبالتالي

يتأثر بها تأثراً إيجابيا مفيداً.. أما إذا تأخرت معه فإن ذلك يحدث عنده رد فعل سلبياً سيئاً يمكن بتكراره إصابة الإنسان بأشد الأضرار نفسياً وجسدياً، فتصبح الموسيقى بذلك أداة تدمير بدلاً من أن تكون أداة متعة وراحة.

وحينما أتحدث عن الموسيقى المدمرة والتي أعني بها الموسيقى الصاخبة، فإني أضم إليها في نفس الوقت الأصوات المزعجة المثيرة للأعصاب مثل أصوات الكلاكسات أو ضجيج وسائل المواصلات أو مكبرات الصوت المنتشرة في كل مكان، في ساعات الليل والنهار. بلا رادع أو رقيب.

مرض العصر

إن كل هذا الصخب المثير والمدمر للأعصاب يشكل مرضا عصريا يهدد البشرية بأخطر الأمراض، بل ويمتد أثرها إلى الجنين في بطن أمه، حيث يبدأ في المعاناة من آثارها الضارة حتى قبل ولادته، بل إن هذه الآثار السلبية قد تحدث له بعض التشوهات الخلقية. وتسبب الموسيقى الصاخبة أضراراً عصبية ونفسية مدمرة ليس لسامعيها فقط بل لعازفيها أيضاً.

وقد اهتم العلماء والباحثون في العالم بالآثار السلبية الهائلة للصخب والضجيج، حيث أعلن العالم الأمريكي «تيودور فيدلاند» أن ارتفاع الصوت المتزايد في الحياة الحديثة بدون تحكم مناسب، يعتبر أحد أسباب الاضطراب العصبي في مجتمعنا المعاصر.

كما أشارت بعض الأبحاث الألمانية أن أعدادا كبيرة من البشر سيصابون بالصمم خلال السنوات العشر المقبلة بسبب الضوضاء الناتجة عن وسائل المدنية الحديث، وبسبب تلك الموسيقى الصاخبة التي وصل سماعها عند البعض إلى حد الإدمان.

كما أشارت عشرات الأبحاث إلى أن الأصوات الصاخبة تتسبب في إصابة الإنسان بعدد كبير من الأمراض من بينها، ضعف السمع وأحيانا الصمم، وارتفاع ضغط الدم، والأرق، وتوتر الأعصاب، واضطراب ضربات القلب، وغير ذلك من الآثار السلبية المدمرة من بينها بعض الأمراض النفسية والعقلية التي تدفع البعض إلى ارتكاب الجرائم البشعة.

وفي هذا المجال تذكر د.«باربارا جوهان» الأستاذة بجامعة واشنطن «أن سماع صوت عال يحرك رد فعل عصبيا يكون مماثلا للصدمة العنيفة، حيث يؤثر على نسبة «الأدرينالين» في الدم ويسرع ضربات القلب، فتتوتر الأعصاب، وتتسع حدقة العين، وتتعرض المعدة لتشنجات حادة.

كما أشار العالم الأمريكي «جيمس فلوجراس» المتخصص في مجال السمع والكلام إلى أن موسيقى الروك اندرول بإيقاعاتها السريعة وبضوضائها المزعجة تخلق أمة من المرهقين الذين يتسمون بثقل السمع قبل بلوغ سن الثلاثين.

وقد اعترف عشرة فتيان في سن الرابعة عشرة أنهم يشكون من حدوث طنين في آذانهم، والبعض الآخر شكا من

انسداد فيها مع حالة إحياء تام، حتى بلغ نسبة فقد السمع لأحدهم خمس وثلاثين درجة بعد سماع بعض الموسيقى الصاخبة لمدة ساعة.

وهذا ليس مستغربا فقد سجلت أجهزة قياس الضوضاء داخل الحفل الموسيقى الصاخب ارتفاع المؤشر إلى ١٢٠ديسبل، وهى الدرجة التى يعتبرها العلماء خطرة على مختلف أعضاء الجسم ولا يقتصر الخطر والضرر على الإنسان وحده بل يشمل الحيوان والنبات، إذ ان التلوث الصوتى يقلل من إدرار الأبقار للألبان، كما يقلل من الإنتاج الحيوانى ويضعف نمو النبات.

المواجهة

فإذا كانت هذه هى اضرار الضجيج والصخب والتلوث السمعى الرهيب الذى زادت معدلاته بدرجة كبيرة، فكيف يمكننا مواجهة هذا الخطر؟

فى مواجهة ذلك التيار الكاسح من الضوضاء والتلوث السمعى تبارت بعض الأقلام، والبرامج الإذاعية والتليفزيونية تدعو للحد من ذلك الخطر، لكن تلك الحملة لم تستمر بل توقفت فجأة مثلما ثارت فجأة دون أن تحقق أهدافها، بل زاد معدل الضوضاء الصادرة من وسائل الإزعاج المختلفة مثل مكبرات الصوت وأجهزة التسجيل والموسيقى الإلكترونية الصادرة من أجهزة تضخيم الأصوات والتى تنتشر بشكل واضح ومزعج بين بعض شبابنا.

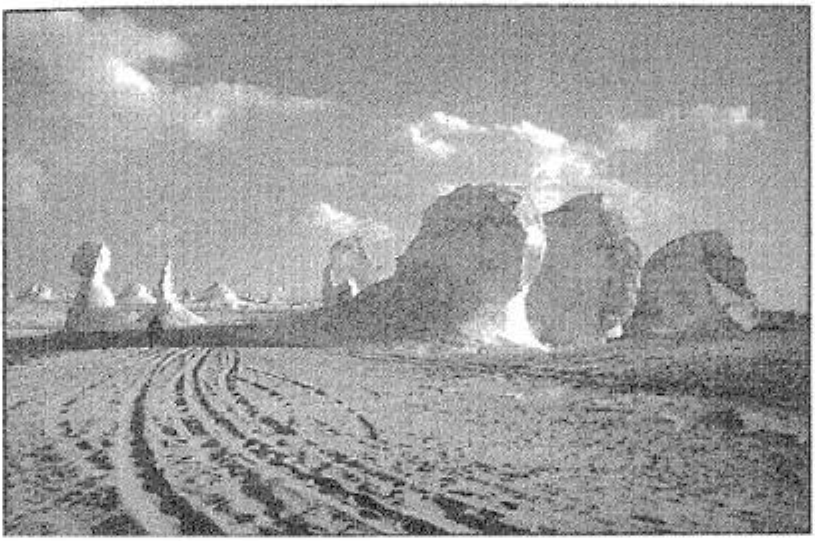
ولكى تحقق معركة محاربة الضوضاء أهدافها ضد هذا الخطر المستفحل، ينبغى علينا مواجهة هذه الظاهرة بالأسلوب العلمى، فمن الضرورى أن تكون هناك تعبئة إعلانية بالصوت والصورة والكلمة فى مختلف وسائل الإعلام توضح خطورة هذه الظاهرة، بجانب إنزال عقوبة صارمة بكل من يتسبب فى هذا الوباء المستشرى.

وعلينا أن نبدأ بالمدارس، فالحملة ضد الضوضاء يجب أن تمتد إلى مناهج التعليم فى مختلف المستويات بحيث تدخل ضمن مقررات العلوم وكتب القراءة وموضوعات التعبير، بهدف توعية الإنسان المصرى منذ طفولته بأخطار تلوث البيئة بشكل عام والتلوث الصوتى بشكل خاص.

بحيث تتطور أشكال تدريس هذه المادة مع تطور مراحل التعليم لتصل فى النهاية إلى الإنسان المصرى المدرك بعمق لأخطار الضوضاء، مثلما نهتم مثلا بالتوعية الصحية من أخطار ميكروب الكوليرا أو شلل الأطفال.

★ ★ ★

وأخيراً، فليس ما يدعو للدهشة عندما نطالب بوضع لافتات مكتوب عليها مثلا «احذر الضوضاء والتلوث السمعى فهى تفتك بالأذن والأعصاب والدورة الدموية والمعدة والقلب بعنف لا يقل خطورة عن أشرس الميكروبات» أو لافتات أخرى مكتوب عليه «احذر الانتحار بالأصوات» أو «إحذر سموم الضوضاء». وبالفعل لقد آن الأوان لمواجهة هذا الخطر القاتل المتمثل فى التلوث الصوتى، قبل أن يستفحل ولا نستطيع إيقافه.



الصحراء البيضاء، تكونت على مدى ملايين السنين من مادة الطباشير ، أو كربونات الكالسيوم

الواحات البحرية .. والفرافرة
الربيع الأخضر في جوف الصحراء

نجوي صالح .

●● ثنائي الواحات البحرية والفرافرة .. منخفضات في الصحراء تتباهى متفردة ، باللون الأخضر، وسط بحر من الرمال الصفراء ..

غابة من النخيل المتلاصق .. وأشجار الزيتون ، والفواكه .. تنساب من بينها جداول المياه الرقراقة.. منبثقة من العيون الكبريتية التي تمتلىء بها الواحات.. تحفر مجرى من اللون الأحمر ناتجا عن ترسب خام الكبريت الذي تراه العين يتألق في قاع القناة تجرى بين الحقول أو الحدائق ، إذ أنها مساحات من الأراضي صغيرة ومتلاصقة - يمتلكها أهالي الواحة الجميلة - تفصلها أسوار ، هي خليط من الطين وزعف النخيل تتشكل منها حديقة شاسعة غناء ●●


في قلب واحة

وتقع هذه الحدائق على امتداد البصر، وعلى درجات متفاوتة من المرتفعات والمنخفضات، مما يضيف درجات جديدة فى التضاريس الطبيعية بجانب السيمفونية اللونية التى يؤكدها فصل الشتاء حين يكسو الأرض بردائه الأصفر من الأوراق الذابلة، حيث تنضج الموالح على أشجارها بألوانها الأخضر والبرتقالى.

كلما تقدمنا فى جوف الصحراء وتركنا الواحات وراءنا، قلّ اللون الأخضر الرائع واختفى تماما، وبدأت الصحراء بمرتفعاتها وتضاريسها المتميزة التى تختلف تماما عن تضاريس الصحراء الغربية التى تميل الى الاستواء والنعومة.

إن صحراء الواحات بموقعها الفريد بصحراء مصر الغربية، من الصحارى شديدة التعقيد والتميز، فهى فى الشكل العام غير متشابهة لا تشعر الزائر لها بالملل، لاختلاف تضاريسها وجغرافياتها وتباين ألوانها، من الأبيض الشاهق الى الأسود الداكن، ومن الأحمر القاتم الى البنفسجي الزاهى، وقد يحوى الجبل الواحد جميع ألوان الغسق!

بجانب الألوان تختلف التضاريس، حيث أن الأوتاد مختلفة الأنماط، من المصطبة الى الشكل الهرمى، وكأن هذه الصحراء كانت الهادى الأول للأنماط الأثرية التى تركها الفراعنة الأجداد الى أشكال من الجبال الشاهقة الملتصقة، شديدة الوعورة!

وتجد نفسك منساقا الى التوغل فى هذه الصحراء التى كلما توغلت فيها، صباحا أو مساء، تأخذك فى عالم ساحر مع تغير الضوء عبر ساعات الليل والنهار، هناك فى الليل ترى السماء والنجوم صافية واضحة هى مصدر الضوء فى الصحراء، ودليل العرب الرحل، الذين مازالوا ينتقلون وراء العشب فى هذا الفضاء الذى «يملكهم» اذ لايقبلون بديلا لهذه الحياة.. يشربون لبن الماعز مع رغيف العيش السن.

وتعتبر الواحات من مراكز الجذب القوية بالنسبة لدارسى الجيولوجيا ـ علم طبقات الأرض، وعلماء الجغرافيا، وعلم الأجناس والتاريخ، فهى تعد متحفا حيا لأحقاب متتالية من كل تلك العلوم وكتابا مفتوحا عمق صفحاته

يصل إلى ٥٢ مليون سنة .

لغة الأحجار

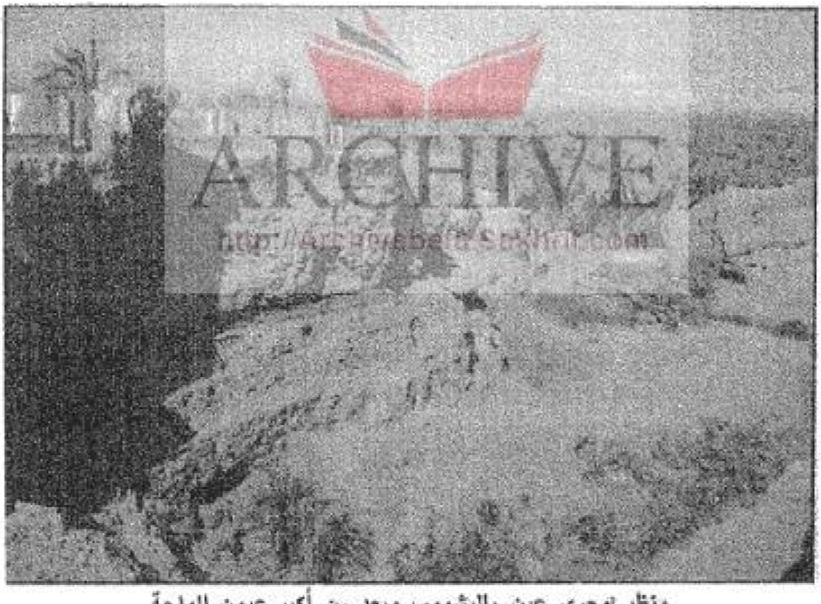
إن الجبال والصحارى فى الواحات لها اسماء، قد تتشابه او تتنافر مع المسميات المصرية العلمية.. هناك جبل الكريستال حيث يذكر الدكتور رشدى سعيد الرئيس السابق لهيئة المساحة الجيولوجية والتعدين المصرية والاستاذ الزائر فى عدة جامعات أمريكية : إن هذا الجبل ينتمى الى العصر الكريتاسي وهو يتألف من عدة طبقات أسفل بعضها البعض، وقد يزداد عمرها قدما عن الكريتاسى، كلما زاد سمكها، ويصل مجموع سمكها الى أبعاد عظيمة قد تصل الى عمق يزيد على ١٨٠٠ متر تحت سطح الواحة».. ويستطرد: «إن طبقات الحجر الرملى هذه تظهر مكشوفة فى بعض المقاطع، وتكشف عن طبقات من الحجر الجيرى المتبلور. فتتألق فى ضوء الشمس مثل قطع من الكريستال، ثم هناك الصحراء البيضاء!» .

ويستطرد الدكتور رشدى سعيد قائلا: «مصر كانت عبارة عن بحر منذ ٨٠ مليون سنة والى ٤٠ مليون سنة والبحر يتغير، ويختلف من مكان الى أخر يعمق أحيانا، وتظهر طبقاته الرملية فى أحيان أخرى، وتحدث تعرية لهذه الطبقات وتظهر الصخور.. والصحراء البيضاء ماهى الا بحر عميق تعرت صخوره مع مرور الزمن، وهى من مادة الطباشير (كربونات الكالسيوم) وقد وجد فى حفريات هذه الصخور قنافذ بحرية، وأصداف وحيوانات بحرية ميكروسكوبية».

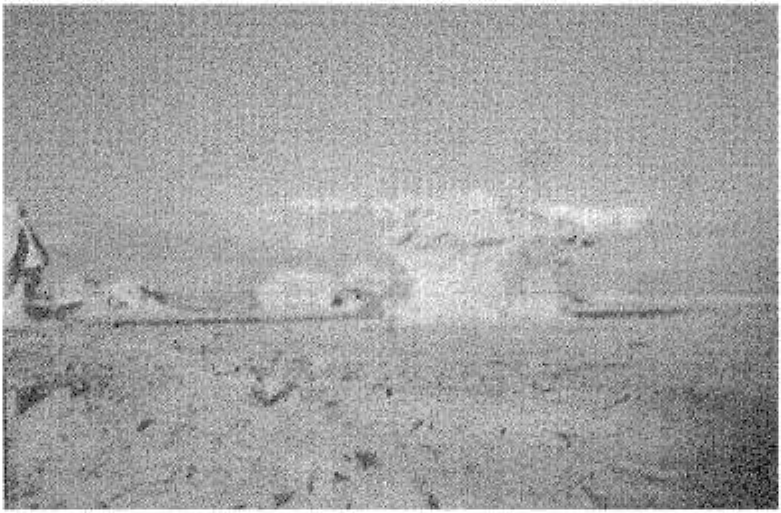
ويستطرد «وفى دائرة القصر احدى قرى الواحات البحرية توجد الصحراء السوداء ، كما يطلق عليها العامة، تبرز أربع كتل يعلو مستواها عن الأرض بنحو ١٣٠ مترا، وهى من الشمال جبل ميسرة ثم جبل منديشة فجبل الهفوف، وكلاهما قاتم اللون ويعلق الدكتور رشدى سعيد : «إن هذه الجبال يغطيها غطاء من الدولوريت وتعد انسياسات بركانية حدثت فى عصر الأوليجوسين وقد إنبثقت كقبو أو كقبة جوفية صخرية وهى ممتلئة بقطع صغيرة قاتمة اللون من حفريات الكالسيوم كاربونيت تبدل الى أوكسيد حديد وهو بقايا حيوانات قديمة وأصداف ليمونيت .



أحد عيون «الواحات البحرية»، ضمن ١٢٥ عينا كبريتية



منظر لمجرى عين «البشمو»، ويعد من أكبر عيون الواحة



جزء من الصحراء البيضاء، حولتها عوامل التعرية الى شكل نبات الفطر

فلسفة المكان

لا ينفـــصل الاقليم، وتكوينه الجيـولوجى عن الانسـان، وهو مـا يؤكده الدكتور جمال حمدان فى كتابه «شخصية مصر».

«إذ أن الشخصية الاقليمية تبدأ حيث تنتهى دراسة الجغرافيا» وأعلى مراحل الفكر الجغرافى، بعد دراسة جسم الاقليم بالتشريح والتحليل، يبقى الهدف هو الشخصية الاقليمية فهى فلسـفة المكان» إن الحيـاة فى الواحات سواء فى الواحات البحرية أو واحة الفرافرة تقوم بشكل أساسى حـول العيـون الكبريتيـة التى تملأ الواحات ـ ٢٠ بئرا فى الفرافرة ـ أما فى البحرية فتعد عين «البشمو» من أكبر عيون الواحة، اسمها رومانى الأصل، ومعناها «الماء الجميل»، وهى مشقوقة بين الصخور، لها منبعان واحد ساخن والآخر بارد! تختلط مياههما فى قناة طويلة الى الحقـول والحدائق.. يتحلق الشباب حول العين للاستحمام نهارا أو ليلا فى الشتاء ـ ٥ فوق الصفر ـ ويعتقد أهل الواحة أن مياه العيون منبع للصحة ـ تشفى الروماتيزم ـ وتجلب السكينة النفسية قبل النوم ، ثم

هى فرصة للقاء والتسامر والتسلية والمتعة، وقضاء الوقت بين الرجال.

إذ أن المجتمع الواحاتى هو مجتمع للرجال فقط.. فلا ترى أثرا فى شوارع القرية للمرأة الواحاتية الا اذا كانت منقبة الوجه، اذ أن بعضهن يعملن فى بعض الأعمال الادارية او مدرسات فى المدارس الحكومية، ومعظمهن حاصلات على التوجيهية، ويفضلن العمل، ولكن المرأة العاملة تعود الى البيت وتجلس امام «الفرن» فى يوم الخبيز . ولا تغادر البيت الا للعمل وللواجبات الأسرية المهمة، والزوج لا يصحب زوجته الى نزهة خلوية الا اذا كان يملك منزلا آخراً فى الخلاء تقضى فيه العائلة النهار حتى مغيب الشمس .

ولكن الرجل الواحاتى يفضل أن يجتمع مع أصدقائه من الرجال الذين يحرصون على الخروج الى الصحراء فى السيارات الجيب الامريكية القديمة على الاقل مرتين فى الاسبوع، فهم يقدسون هدوء الصحراء وجوها النقى، يتحلقون حول «ركية النار» تصاحبهم الطبلة والربابة والناى.. وهى الآلات الموسيقية الاساسية بالنسبة للواحاتى، يغنى أحدهم المواويل الشعبية الشجية التى يرددها صدى الليل الساكن فى الصحراء :

ده اللى فتح جلبك .. فتح على جلبى

بس انت صفى الجلب وروح .

أو :

ياعاشق الفن قوم واسهر واسمع منادى بصوت هادى بيقول :

ياليل ياعين .

وأحلى النغم بالليل.. أمانة لتوصى علينا الليل

احنا غلابة سهارة.. بعد الهم نتلم ونغنى ياعين ياليل

وفين عيون الغزال .. اللى راح منى وزال .

وينسجم الجالسون ، وتشتد الموسيقى وتعلو دقة الطبلة، ويقوم أحدهم، ويرتدى جلابية نسائية، وطرحة يغطى بها وجهه ورأسه تماما، ويبدأ فى تقليد رقص النساء وهى رقصات ذات خطوة متكررة، مع تحريك المؤخرة يمينا ويسارا، وفى بعض الأحيان يتكىء على عصا حتى تنضبط الحركة، ويأتى الرجال امامه برقصات تتسم بالشجاعة والفروسية.. لاغراء المرأة المتخيلة فى ذهن كل منهم - والتى يذهب لخطبتها فى صحبة أربعين رجلا من عشيرته - ويستمر

السهر ، ودق الطبول مع شواء الفراخ، وعمل الأرز الأبيض ، على «ركية النار» وينشغل أحدهم فى عمل السلطة الخضراء، والدجاج طعامهم الاساسى فى الواحة، اذ قد يأكلون اللحم مرة واحدة فى الأسبوع، ولا يوجد محل للجزارة فى البحرية أو الفرافرة! .

وعند انبلاج الفجر يبدأ الواحاتى فى لملمة أشيائه ايذانا بالرحيل الى داره وذلك من شدة حرارة الجو فى الليالى الصيفية .

البحث عن الصخور النادرة

والواحات البحرية تقع على بعد ١٨٠ كم من المنيا، وعن القاهرة ثلاثمائة كم، وتبعد عن منخفض الفيوم ١٦٠ كم، فهى اذن اقرب الواحات الجنوبية الى الوادى وصغرى واحات الصحراء الشرقية «الواح الصغير» بالرغم انها عدة واحات متجاورة ، أما واحة الفرافرة فهى تبعد عن البحرية ١٦٠ كم وهو منخفض فى مجمله اكبر حجما من الواحات البحرية ، وقد اكتشف بها اكبر خزان مياه جوفية، وأكبر رقعة صالحة للزراعة. وبالرغم من عدم بعد الواحات عن العاصمة، ولكنها كانت تعتبر المنفى بالنسبة لموظفى الحكومة خاصة واحة الفرافرة، وذلك لنقص الخدمات.. اذ منذ سنوات قريبة بدأ بعض السياح الأجانب خاصة «الألمان» القدوم الى تلك المنطقة، وقد استوطنها البعض، وأول فندق سياحى فى الواحات البحرية يملكه رجل ألمانى الجنسية، وتليه عدة فنادق لا تزيد على أصابع اليد الواحدة يملكها ويديرها من أهالى الواحة، وهذه الفنادق الأخيرة من النظافة وحسن الادارة التى تفوق الفندق الذى يديره الألمانى الجنسية ويبدأ السياح يتوافدون بشكل مستمر على الواحة خاصة فى فصل الشتاء، ويأتى بعض المصريين الذين يهوون الصحراء من الدارسين والهواة، وكثرت الحركة السياحية فى المنطقة مما أسفر عن وظائف جديدة لأهل الواحة، بدلا من الزراعة، وفتح المتاجر الصغيرة، أو العمل بالمؤسسات الحكومية.

بدأ قطاع ليس بالقليل من أهل الواحة شراء سيارات الجيب ـ بعضها منذ الحرب العالمية الثانية ـ وهى سيارات متينة وقوية تتحمل طبيعة الصحراء، وسعة العربة ستة أشخاص، وقيادة السيارات فى الصحراء تحتاج لحنكة خاصة وقيادة سريعة وحكيمة فى آن واحد، وهذا السائق يعتبر دليلا فى نفس الوقت،



في [illegible] البحرية التي [illegible] الأهالي [illegible] بدائية لاستخلاص الماء [illegible]

فهو يعلم دروب الصحراء بدقة، ويتفق معه السائح على رحلة داخل الصحراء متوغلا لمسافة خمسمائة كيلومتر وقد تستغرق عشرة أو خمسة عشر يوما، يخزن هذا السائق خلالها كل ما يلزم السائح من طعام وشراب ويوفر له طريقة مريحة للنوم، ويعلم من السائح هدف الرحلة، هل هي بغرض صيد الثعالب - أم لأخذ عينات من الجبال المختلفة، حتى يتجه للمنطقة التى تتيح للسائح ممارسة هوايته.. ومعظم زوار هذه المنطقة يهوون جمع الأحجار النادرة، وهى هواية لا يعلمها الكثيرون، ولكنها معروفة بين الأجانب وبعض المصريين. فقد يعثر الزائر على قطعة من الحجر أو الزلط الضارب فى القدم قد تفوق قيمتها تمثال من صنع فنان عالمى، ويوجد فى الخارج من يقدرها كقطعة متحفية، وهذه الأحجار لها متاحف «جيولوجية» لعرض طبقات الأرض من الأحجار والصخور النادرة . ولكن مما يؤسف له أن الأجانب منذ عدة سنوات قاموا بنوع من المسح للبحث عن الحفريات القديمة، من الفيلة والحيتان والأسماك، والأصداف، والمخلوقات البحرية النادرة التى تخلفت عن البحر القديم، ودفنت منذ ملايين السنين، وذات ندرة فائقة وتباع فى متاحف العالم بالملايين .

أما بالنسبة للسياح راغبى الآثار الفرعونية، فقد بنى فيها أمنحتب ٥٢٠ق م من الأسرة «٢٦»، عدد ١٧٠ معبدا صغيرا ويسمى باللغة الفرعونية «منديشة»، متفرقة فى ثمان قرى فى الواحات، أهمها معبد ماتسيس الذى كان يرأسه الكاهن زدخنسو، أما أشهر المعابد الفرعونية فهو معبد التكهنات فى سيوة والذى توج فيه الاسكندر الأكبر كاهنا لآمون - فقد تنبأ هذا الكاهن ، بغرق القائد قمبيز الذى كان يقود جيشا جرارا قادما من جهة ليبيا. فى بحر الرمال الأعظم بجانب الواحات البحرية، وقد دفن الجيش بأكمله تحت الرمال المتحركة، وهذه القصة من القصص التى يرددها دائما أهل الواحة للسائحين.

أما المطلب الأول والأخير لأهل الواحات فهو أن تقوم الحكومة، أو جهة أهلية بفتح مدرسة لتعليم اللغات الأجنبية لأهل الواحة، ان الواحاتى على يقين أن تلك المنطقة ستصبح منطقة جذب سياحى مهم، لذا يشرع الأهالى فى بناء عدة فنادق جديدة، وهو يفضل العمل فى بلده، ولا يتحمل النزوح والعمل خارج موطنه الأصلى.

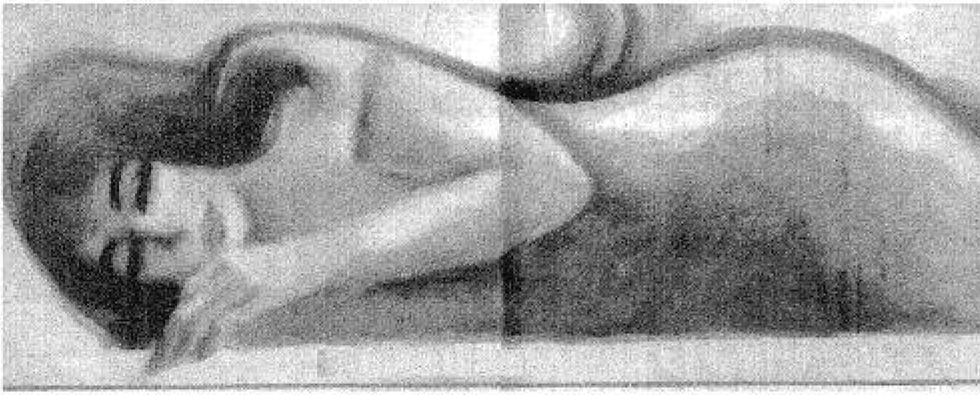
فكيف يترك أهل الواحة الجنة!.

نيلنا الخالد

شعر : جليلة رضا

يا نيل مـــا أبهى رؤاك بناظرى
بك هينم الماضى البعيد بخاطرى
تمضى الدهور وأنت أنت مخلد
بالله هل أحسست راحة كائن
خننى بعيدا إن أطول رحلة
قلبى على كفيك يسبح فى المنى
يا نيل هل بين الأحبة عانق
وهل استطاعت أن تكاتمك الصوى
إنى لأعجب كيف يحيا فى الورى
كيف السبيل الى ارتواء نفوسهم
هل ذلك القمر المتيم فى العلا
أيميل فى أحضان غيرك راقصا
يا دفقة الأشواق يا عطر المنى

يا سائرا فوق الزمان السائر
ومضى يشد غدى ويربط حاضرى
ترنو إلى الدنيا بنظرة ساخر
لمستك مثلى فى حنان زاخر
هى أجمل الرحلات عند مسامر
روحى تهيم على جناحى طائر
لم ترعه . هل من شريد ساهر
خلجات شاعر وأنة شاعر
قوم بدونك قرب نهر آخر
بالطهر من نبع شفيق طاهر
يهفو لثغر غير ثغرك عاطر
أم هل يجاملهم بنظرة عابر
وضياء روحى فى ظلام أعاصرى



قصة قصيرة

حدائق الليمون

بقلم : عبد الرشيد الصادق محمودي

السيارات تزمجر في اختناقات المرور بعد انتهاء اليوم الأخير من أسبوع العمل . وقد شاعت في الجو حمى ليلة السبت . الكل يتزاحم ليعبر الحزام الاول يدور حول باريس ويفصلها فصلا حاسما عن عالم الضواحي . البعض يريد أن يعود الى بيته استعدادا للعشاء ، والبعض الآخر يريد أن يغادر المدينة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الريف وهناك من يستعد للسهر . مثل تلك الفتاة الشمسية اللون التي انحسر فستانها عن ساقيها في سيارتها الكشوفة وأخذت تترنح على وقع الموسيقى الراقصة لعلها تتهيأ لليلة من ليالي الحب . أما أنا فكنت أبحث في لهفة عن مكان أوقف فيه سيارتي بالقرب من

مطعم تركي أعرفه لكي أشتري ثلاثة أرغفة من الخبز ، فلن يكتمل عشاء الجمعة وإفطار السبت بدون الخبز التركي الجميل .

قال الخباز :

- للأسف ليس لدينا خبز جاهز ، هل تستطيعين الانتظار قليلا؟

ولما رآني أنظر في الساعة قال :

- ربع ساعة فقط وتأخذين الخبز عند خروجه من الفرن .

قلت :

- ليس أزكى من رائحة الخبز عند خروجه من الفرن . تشبهها رائحة أمهاتنا .

قال :

- صدقت والله . ولابد أنك عربية . من أى البلاد أنت ؟

فلما أخبرته أنني مصرية تهللت أساريره :

- إذن تفضلي .

وأعد لجلوسي مقعدا بالقرب من إحدى الموائد . فلما جلست قال :

- المصريون أهلنا نحن العراقيين . ولابد أن تشرفينا بشرب قهوتنا . دقيقة واحدة حتى أعدها .

وحاولت أن أعترض ولكنه لم يمهلني ، فقد انصرف فورا لإعداد القهوة . وانتهزت فرصة غيابه لكي أنظر في المرآة ورأيت - ربما للمرة الألف - البياض الذي بدأ يتسلل إلى شعري . لقد جاء مبكرا . والمصيبة أن هذه الخصلة الكثة السوداء هي أجمل ما لدي . كان من عادة حاسد أن يقول [illegible] بت [illegible] الشعر [illegible] ولكن انشغالها بتكري [illegible] وعاد الخباز بالقهوة التي تفوح منها رائحة الحبهان . وقال :

- لن يطول انتظارك . العجين جاهز .

وبدأ بالفعل يعد الكريات البيضاء للخبز . يذر عليها الدقيق ثم يسطحها ويسويها في شكل بيضاوي ثم يدهنها بقليل من الزبادي . وفي المرحلة الأخيرة يضغط على الرغيف العجين بأنامله ليزخرفه مربعات مربعات . وكنت أراقب كفيه الكبيرتين وأصابعه الطويلة وهي تتحرك بسرعة خاطفة كأنه موسيقي حاذق يعزف على الآلة التي يتقنها . وتذكرت بزبيدة وهي تعد أقراص العجين للخبز تبسطها على شكل دائرة ثم تقذف بالاسطوانة المستديرة في الهواء وتتلقاها بالطرحة عدة مرات حتى تكتمل استدارتها ثم تقذف بها في الفرن . وسألت الخباز :

- ولكن أين تعلمت صناعة هذا الخبز ؟

فأجاب :

- في القطاع التركي من قبرص . كان ذلك بعد انتهاء حرب الخليج . اشتغلت صبيا في مطعم وهناك بدأت أتعلم ولكنني لم أتقن الصنعة إلا في لندن . في حي كله

أزراك.

قلت

– وماذا كنت تفعل في العراق قبل الهجرة ؟

قال

– كنت أعمل محاسبا. لقد اضطررت إلى امتهان هذه الحرفة، ولكنني لا أبالغ إذا قلت إنني الآن أفضل الخبز على المحاسبة. انظري

ورأيت الأرغفة البيضاوية وهي تخرج من الفرن متوردة الوجه بضوع شذاها وهكذا كان بيت زبيدة يوم الخبيز: تفوح منه الرائحة الزكية حتى تبلغ سابع جار. وبعد الخبز يأتي دور فطائر القيمة اللدنة أو فطائر الذرة المدهونة بالقشدة. وربما تلا هذا وذاك صينية سمك. وفي الليل قبل النوم توضع في الجمر قدرة الفول المدمس (أو «الدميسة» كما تقول في ابو كبير) لتنضج على سهل صينة الليل. وهكذا يأتي الخير مع الخبز.

وردني إلى الحاضر صوت الخباز:

– لا شك أنك تعرفين الدكتور زكي مبارك ؟

فأجفلت قائلة:

– زكي مبارك ؟ لا أعرفه. من هو ؟

فقال:

– زكي مبارك هو الذي علمني حب مصر. إنه كاتب مصري عاش في العراق في الثلاثينات وألف كتابا عنوانه ليلى المريضة في العراق.

قلت وأنا خجلانة من نفسي:

– يؤسفني أنني لا أعرفه.

وضحكت في حرج:

– الواقع أن القراءة ليست من هواياتي. ولا أخفي عليك أنني جئت من بلد ليس فيه مكتبات ولا كتب، إلا الكتب المدرسية بطبيعة الحال.

قال:

– وما اسم ذلك البلد؟

فلما قلت: «أبو كبير» ضحك قائلا:

– لا أعرفها، ولكني أعرف سنتريس، عن طريق الدكتور زكي مبارك. كان يعشق بغداد وسنتريس وعلمني أن أحب مصر.

وقلت له وأنا أتوجه إلى باب الخروج:

– سأبحث عن الكتاب وسأقرؤه.

قال:

– تستطيعين أن تستعيريه مني في المرة القادمة.

قلت:

– وقد حملته طيلة تلك الرحلة: من بغداد إلى باريس عبر قبرص وتركيا؟

فقال:

– بل من البصرة، حيث عثرت عليه بالمصادفة، إلى باريس عبر تركيا فقبرص فروما ففرانكفورت فلندن.

قلت:

– إنها رحلة طويلة ومن العجيب أنه نجا.

فقال:

– إنه الشيء الوحيد

الذي نجا .. فيما عداي .

وكنت عندئذ أخطو نحو الشارع ، ولكنني توقفت وسألته :

- ماذا تعني ؟

فأجاب بعد فترة من الصمت :

- لقد قتلت زوجتي بين من قتل في مخبأ العامرية ، وفقدت ولدي عند عبور نهر الذاب الصغير هربا الى تركيا . كنت أحمله على كتفي اليمنى وأحمل حقيبة بداخلها الكتاب على كتفي اليسرى. إلا أن التيار جرف الصبي وترك لي الحقيبة .

قلت وصوتي يكاد يختنق :

- ألم تحاول أن تنقذه ؟

فأجاب :

- كان التيار جارفا ، وقد حاولت رغم جهلي بالسباحة أن ألحق به حتى وجدت أنني يمكن أن أغرق معه .

وبعد فترة من الصمت قال :

- وهكذا ترين . لقد فررت من الجيش وأفلت من الموت عدة مرات. فهل كان ينبغي أن أموت مع الصبي ؟

ولم يكن لدي ما أقوله. ولكنني سألته عن اسمه فلما أخبرني أنه يدعى نزار أخبرته أن اسمي عائشة. وتوجهت نحو الباب لأخرج ولكنني توقفت فجأة وقلت له :

- تقول إن زكي مبارك علمك حب مصر . ألم يعلمك حب العراق ؟ لماذا فررت من الخدمة العسكرية ؟

نهضت وتركته واقفا كالتمثال وهرولت نحو السيارة ، كما كنت أركض في طفولتي ببغداد .

وعندما بلغت حينا وجدت الشارع الرئيسي غاصا بالناس ، فقد كانت السوق التي تقام كل صيف لترويج التجارة المحلية مازالت قائمة. وكان الرصيف المحاذي للمبنى الذي نقيم فيه قد احتله باعة الأشياء المستعملة من كتب واسطوانات وأدوات منزلية وأثاث وتحف. وغير بعيد من البيت كانت هناك فرق موسيقية وحواة وراقصون على الحبل. وانصرفت عن المهرجان الى الحديقة العامة كي أستعيد بنتي من السيدة الفرنسية التي ترعاها أثناء وجودي في العمل. ودخلت الحديقة فوجدت فرانسوار منهمكة في الثرثرة مع بعض أصدقائها من نساء الحي. فلما سألتها : «أين سامية؟» نهضت عن الكنبة الخشبية وقالت :

- كانت هنا منذ دقائق. لابد أنها تلعب مع غيرها من الأطفال في حفرة الرمل .

لكننا لم نجد الطفلة في حفرة الرمل. ولم نجد لدى الأطفال اللاعبين في الرمل ولا عند أمهاتهم إجابة شافية عن مكان سامية في الحديقة . ودرنا بحثا عن الطفلة

بين الشجيرات المتشابكة الأغصان ولكننا لم نعثر لها على أثر . أتكون قد تركت الحديقة وضلت طريقها في السوق الحاشدة ؟ وأصابتني الفكرة بالدوار . فلما انتهينا الى بوابة الحديقة توقفنا مترددتين لا ندرى ماذا نفعل. كان فرانك وشلته من مدمني المخدرات مجتمعين كعادتهم خلف كشك الجرائد. وكان يتوسطهم ممسكا بالجيتار كأنما كان يتأهب للعزف، والى جانبه جلست صديقته. كانوا يقيمون في بيت تابع للبلدية [illegible] أمثالهم، ولكنهم يخرجون للتسول في أيام انعقاد السوق وغير ذلك من المناسبات لكي يتسولوا. وتقدمت منهم في وجل لأنني كنت قد كتبت الى المحافظ أشكوهم وأطلب اليه أن يحرم عليهم دخول الحديقة لقذارتهم وباعتبارهم خطرا على الأطفال. وسألتهم عما إذا كان أحد منهم قد رأى سامية في طريقها الى الخارج، فنظروا باستغراب بعضهم الى البعض وزموا شفاههم وهزوا رؤوسهم علامة النفي. وقالت صديقة فرانك التي كانت لا تخلو من جمال رغم قذارتها وتورم وجهها شيئا ما :

- البنت السمراء الواسعة العينين؟

لم أرها اليوم

أما فرانك فقد أشاح بوجهه الى الناحية الأخرى. كان [illegible] يفزعني . فقد كان عاري الذراعين صيف شتاء [illegible] آثار [illegible] الحك على ساعديه وكان [illegible] الأحد الى السوق مع صديقته وكلبه وقد حمل هذا الأخير في عنقه لافتة كتب عليها أقل مبلغ يمكن لصاحبه أن يقبله تكفي قطعة من ذات العشرة فرانكات . ونيابة عن نفسي وعن صاحبي أشكركم على سخائكم. واستدرت نحو فرانسواز لأوبخها على إهمالها بينما بدأ فرانك يغني واستأنفت الزجاجة دورتها بين الصحاب .

وخرجنا الى الشارع نخوض الزحام بحثا عن سامية حتى بلغنا أطراف السوق دون أن نهتدى الى مكانها. ثم عدنا أدراجنا الى الحديقة والأفكار السوداء تجتاحني فقد طافت بذهني صورة ابن نزار وهو يستغيث بأبيه حتى غرق التيار الجارف بينهما. وتذكرت قصة طفل من أبناء الحي اختطفه رجل معتوه في الحديقة العامة والقى به من الشرفة في الطابق الرابع بعد أن اعتدى عليه جنسيا. وثارت في نفسي شكوك في فرانك وأصدقائه. وانتابني الهلع عندما عدنا الى الحديقة فلاحظت فورا أنهم اختفوا كأنما انشقت الأرض وابتلعتهم. وداهمني شعور بالندم

لأننى أمضيت وقتا طويلا مع نزار. لولا أننى تلكأت لديه لما حدث ما حدث. لولا أننى ... وخيل الى أننى ما أطلت البقاء معه إلا لأننى اشتهيته. عندئذ جن جنونى فصرت ألطم وجهى وأولول . واستغثت بعمتى : «يا زبيدة ! يا زبيدة !» والتفت النساء من حولى ورأيت الشجر يدور وأحسست أننى أهوى ثم لم أعد أدرى ماذا حدث .

فلما أفقت من الغيبوبة وجدتنى مستلقية على الأرض وقد انحنى نحوى رجل وامرأة كانا يقدمان لى الاسعافات الأولية. وسمعت من يتحدث عن نقلى الى أقرب مستشفى فصحت أننى لن أبرح مكانى حتى تعود الى ابنتى ورأى البعض أن من الضرورى تبليغ البوليس بالحادثة. ولكننى لم أكن أستطيع الوقوف على قدمى وكانت فرانسواز وامرأة أخرى تحاولان مساعدتى على الوقوف عندما لمحت من بعيد فرانك يدخل الحديقة وقد أمسك بيده اليمنى سامية. كانت منهمكة فى حديث طويل معه . ثم توقفت عندما رأتنى وابتسمت واندفعت نحوى فى الوقت الذى اندفعت فيه نحوها أعدو. قال فرانك :

– وجدتها جالسة مع طفل على عتبة أحد البيوت

ورفعتها الى صدرى وانخرطت فى بكاء طويل، ثم تلفت لأشكر فرانك ، ولكنه كان قد اختفى مثلما ظهر، وكنت منهكة أجرجر قدمى فى الطريق الى البيت وأشعر بالضياع .

وبعد العشاء جلست سامية على ركبتى فى مواجهة التليفزيون ، فقلت لها :

– ستنامين الليلة فى حضن ماما. ما رأيك ؟

فقالت:

– بل سأنام فى سريرى .

فلما سألتها عن سبب رفضها قالت:

– لأننى عندما أطلب إليك أن أنام معك ترفضين .

قلت :

– ولكننى الليلة محتاجة الى أن تكونى فى حضنى

فقالت وكأنها تلقننى درسا :

– وأنا أيضا أحتاج أحيانا الى أن أنام معك.

ولم أجد على ذلك جوابا. وبعد فترة من الصمت قالت بلهجة من تتذكر شيئا :

– أين ذهب بابا؟

– لقد مات .

– وماذا حدث عندما مات ؟

– انتقل الى السماء فى جوار الله

– وهل يسكن الله السماء ؟

وسكت لحظة ثم قلت:

– الله فى كل مكان ولكنه يأخذ الذين يحبهم الى السماء. وقد كان

يحب بابا .
فتشير الى السماء عبر زجاج الشرفة :
- أهو هناك إذن ؟
فلما أجبت بالإيجاب قالت :
- فهل نستطيع أن نراه على سحابة ونحن فى الطائرة ؟
قلت :
- لا يمكننا أن نراه ولكن لعله يرانا
فتنهدت فى أسى :
- كم أتمنى أن أراه!
وكان ذلك آخر ما قالت قبل أن تسند رأسها الى صدرى وتستسلم للنعاس . وعدت بانتباهى الى التليفزيون لأشاهد فيلما كان قد بدأ لتوه . ولكن أحداث الفيلم سرعان ما انتهت الى مشاهد جنسية. وعندما وجدتنى أتابع ما يجرى باهتمام بالغ أطفأت التليفزيون وأسندت رأسى الى رأس الصغيرة. كنت أحتمى بها

ورأيتنى قبالة المقهى العتيق على ناصية «الشارع الكبير» فى أبو كبير. وسرت فى اتجاه السكة الحديد حتى إذا بلغت مكتب التلغراف بدأت أجوس بين الشجر باحثة عن بيت الخواجة ملتياديس ففى الزمن القديم - فيما تروى زبيدة - كان للخواجة خمارة أقامت فوقها أسرته. وبحثت عن شجرة بعينها كانت تقف فى مواجهة نافذة ماريكا بنت الخواجة الحسناء التى كان جمالها يخلب عقول زوار الخمارة من أبناء الأغنياء. وفى الليالى المظلمة كان يأتى الى المكان عاشق جسور. كان يأتى ممتطيا مهرته. فإذا بلغ الشجرة وقف على ظهر مطيته وتسلق الأغصان الى أن يصل إلى نافذة ماريكا. كيف كانت تلقى حبيبها ؟ هل كانت تنتظره واقفة أم مستلقية فى فراشها ؟
ولم يكن ذلك الفتى الجسور إلا عمى زكى أكبر إخوته. فإذا سار الإنسان فى «الشارع الكبير» المتقاطع مع الطريق الزراعى انتهى بعد بضعة كيلو مترات الى منعطف يتجه يسارا الى قرية الشرفا حيث يجد وسط الحقول بيتنا عندما كان أبى حيا. كان من عادته أن يقف فى أوائل المساء أمام البيت ينتظر زواره فى شوق ، فلم يكن هناك ما هو أحب الى قلبه من إكرام الضيف حتى ولو كان عابر سبيل. ولم يكن له من متعة سوى القيام على خدمة مدعويه بنفسه، فهو الذى يعتنى بمطاياهم عندما يترجلون عنها وهو الذى يدور على الكوانين ليشرف على الطهى وهو الذى يحمل الابريق ليصب الماء على ايدى الآكلين بعد انتهاء الوليمة، وقد انفق كل ما يملك فى كرم الضيافة .
تروى زبيدة انه فى أواخر ايامه كان يقف ساعة الاصيل على قارعة

الطريق يستحلف كل عابر ان يشاركه طعامه، ولم يكن يلبى الدعوة الا الغريب الذى يجهل ان الرجل قد صار معدما. ولكن البيت مازال قائما ومازال يسمى «بيت هاشم» رغم ان هاشم رحل عنه وعن الدنيا منذ زمن طويل.

وفي وقت من الاوقات كانت ابو كبير هى العالم كله. قذرة دائما وموحلة اذا امطرت السماء وعلى ألفة شديدة بفضلات الانسان والحيوان وبالفئران. ولكنها كانت بداية الحضر «او البندر» بالنسبة لاهل القرى المجاورة، وكان لها رغم كل شيء وجه ناعم جميل. كان السير فى الطريق الزراعى هو النزهة التى ما بعدها نزهة، وكانت النزهة فى أسعد الحالات تمتد من محلج القطن فى طرف الى وابور الثلج فى الطرف الآخر. وكم سار هناك عشاق مولهون.

وكان ذلك هو الطريق الذى يسلكه زكى الى حبيبته اليونانية. وفيما وراء وابور الثلج تنبسط حدائق الليمون ذى الزهر الابيض والأريج العطر الذى يحمله النسيم.

وقد استوقفنى حامد ذات يوم على حافة سوق الاربعاء فنهرته:

- لماذا اراك تتبعنى اينما ذهبت ؟ الا تستحى مما قد يقوله الناس؟

فقال:

ليقولوا انن إننى أحبك، فهذا صحيح.

ومادت الأرض بى.

قلت.

- أنت تعرف الطريق الى بيت عمتى. ولكن لا تنس أن تأتى بأبيك معك.

ولكن حامد لم يأت الى بيت زبيدة ليطلب يدى الا بعد ان التقيت به - ليلا - بين شجر الليمون. وكان يحدث احيانا بعد الزواج ان استيقظ فأجده الى جانبى يحملق فى. فاذا سألته «لماذا تحدق فى؟» قال: «تلك القبلة الاولى بين اشجار الليمون! لا استطيع حتى اليوم ان اصدق. كانت معجزة». وكثيرا ما كان يسىء فهمى. كنت اطلب اليه احيانا ان يضع يده على ظهرى ولكنه كان ينقل يده الى موضع اخر حتى أمسك بها وأعيدها الى الموضع الذى أريد: «لست اريد منك الليلة سوى هذا. ملمس كفك يخفف من أوجاع ظهرى فيتنهد: «آه يا بنت يا ام الضفاير. رأسك ناشفة».

والشارع الكبير يوصف بالكبر رغم ان عرضه لا يتجاوز ستة امتار، فهو اكبر شارع فى شبكة من الحوارى فى البلدة الموحلة، وقد ذهلنا لضيق الشارع عندما عدنا ذات يوم بعد فترة طويلة من الاقامة فى باريس. فقال حامد وهو يضحك:

ها هو شانزليزيه ابو كبير.

ولكنني لا أطأ أرض الشارع حتى يرفرف قلبي في صدري. فهو في موضع منه يؤدي الى سوق الاربعاء، وفي موضع آخر يؤدي الى بيت هاشم بالشرفا. ويستطيع السائر ان ينحرف يمينا في موضع ثالث ليجد بيت زبيدة في صف من البيوت التي تطل على المقابر. ولكن ليس في المكان ما يثير الشعور بالوحشة او الاكتئاب. فكأن الميتين لم يموتوا. وكأنهم مازالوا معنا. وزبيدة تعتقد على اي حالة انهم مازالوا معنا. وهناك امام البيت يقيم زكي ويقيم هاشم ويقيم حامد وتقيم امي. وهي تجلس احيانا على عتبة بيتها تبكيهم وتترحم عليهم رغم أنهم مازالوا «بيننا». وهي في الأعياد تخبز من اجلهم فطائر «الرحمة» التي توزعها على الفقراء بعد ان تعطي لكل من قارئي القرآن نصيبه منها.

ولاتزال الايات ترتل من الضحى حتى غروب الشمس. وعندئذ – فيما تقول زبيدة ـ تنزل الملائكة لتؤنس الأخيار من سكان القبور وتمسح دموع المحزونين من أهلهم. وزبيدة بمثابة الجميزة العتيقة التي تنشر أغصانها على رقعة فسيحة من الارض وتظل كل من أوى اليها. وهي رائحة الخبز عند خروجه من الفرن وعبير المسك الذي يضوع من ثوبها الاسود الفضفاض والذي مازلت انكره منذ استنشقته وانا طفلة.

وقد كنا في ابو كبير عندما مات حامد. كان المرض قد امتد الى كبده بعد ان قضى على الطحال والمرارة. وذات ليلة اشتد به الألم. ثم أفاق برهة ليقول:

– لقد شاء ان أموت قطعة قطعة. فماذا جنيت؟ ولماذا لا تتوسلين اليه كي يرفع غضبه عني؟

وقد كنت من الجزع وشرود الذهن بحيث سألته من يعني. ثم اغمض عينيه وتفجر الدم منه.

ونهضت عن مقعدي امام التليفزيون لاحمل سامية الى الفراش، ففتحت عينيها:

– ماما يا حبيبتي .. سأنام معك.

وهمست في اذنها :

– إننا لا نستطيع الاقامة هنا في غياب بابا. سنعود الى ابو كبير وسنعيش مع زبيدة.

ولكنني ما كدت اغمض عيني حتى اصابتني رجفة، فقد تذكرت ما قرأت منذ فترة في الأهرام عن الطفلة التي اختطفها رجل وظل يعتدي عليها شهرا او يزيد ثم حملها الى المستشفى وهي بين الحياة والموت. كان عمرها ثلاث سنوات. وطار النوم من عيني، فالأطفال يغتصبون.. حتى في مصر.

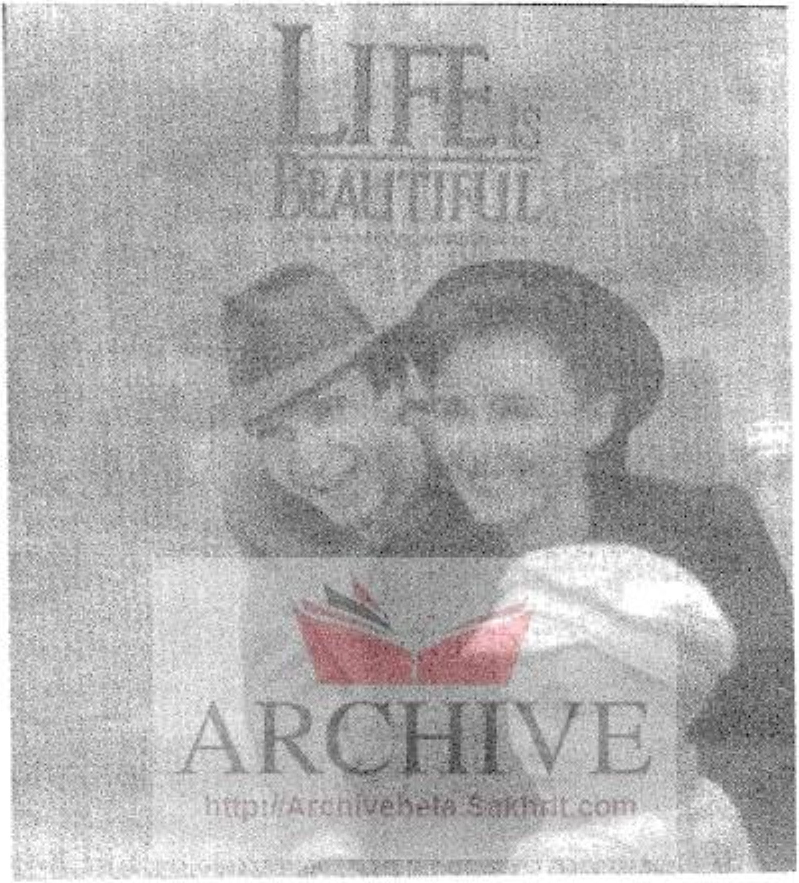


الجمال الأمريكى وأسرار أوسكار

بقلم : مصطفى درويش

تلمس فى الأفلام الأمريكية التى جرى ترشيحها للأوسكار فى مطلع العام، أن أغلبها كان متمحورا حول أزمة الذكورة فى المجتمع الأمريكى، بكل ما ينطوى عليه معنى كلمة الذكورة من تباديل وتنويعات.

ويعد الجمال الأمريكى أكثر الأفلام المرشحة تعبيراً عن هذه الأزمة وهو واحد من أفلام خمسة جرى ترشيحها لاوسكار



أفضل فيلم، هى «شروط عصارة التفاح» للمخرج السويدى «لاس هولستروم»، «الحاسة السادسة» للمخرج المنحدر من أصل هندى «نايت شيامالان»، «الميل الأخضر» للمخرج «فرانك درابونت» و«المَطلع» للمخرج «مايكيل مان»..

وحتى الآن لم يعرض في ديار مصر من تلك الأفلام سوى «الجمال الأمريكى» و«الحاسة السادسة»

وقد انفرد الفيلم الاول دون الأفلام الأربعة الأخرى بترشيحه لثماني جوائز اوسكار، كلها من ذلك النوع المرموق الذى تصبو إليه النفوس.

فعلاوة على أوسكار أفضل فيلم، أتيحت له فرصة المشاركة فى مضمار التنافس على أوسكار أفضل إخراج «سام منديز» وممثل رئيسى «كيفين سبيس» وممثلة رئيسية «أنيت بيننج» وتصوير «كونراد هول» وتوليف «طارق انور» وسيناريو مبتكر «آلن بول» وموسيقى مؤلفة خصيصا للسينما «توماس نيومان».

الجمال في البساطة

وأغلب الظن أنه لو كان للملصقات حق فى الترشيحات للاوسكار، لكان ملصق «الجمال الأمريكى» على رأس المرشحين وهذا الملصق لفت نظرى، وأنا داخل مجمع سينمائى فى سان فرانسيسكو، تلك المدينة الرائعة الجمال.

أما لماذا لفت نظرى، فذلك لأنه عبارة عن صورة مكبرة لبعض من جسد امرأة عار، وأصابع يد ممسكة بغصن وردة حمراء، كل ذلك دون أى خدش للحياء وفى أعلاه قول «لستيفن سبيلبرج» صاحب الفك المفترس وإنقاذ النفر رايان، يشيد بالفيلم وبسام مندز مخرجه الشاب.

ونفس الاشادة صاحبت عرضه فى نيويورك، تلك المدينة الصاخبة، التى تعتبر حالياً فى نظر الكثير عاصمة العالم ماليا وثقافيا.

فلا أحد من نقاد صحافتها إلا وتحمس له حماسا شديداً، قل أن يكون له مثيل.

ولسوء الحظ لم تتح لى فرصة مشاهدته فى نيويورك، لا لسبب سوى ضيق الوقت، ذلك أن إقامتي فيها كانت محدودة بأربعة أيام لا تزيد.

ولكن الحرمان لم يدم طويلاً. فسرعان ما جاءت إلى القاهرة نسخة من «الجمال الأمريكى»، الفيلم الذى فتنت بملصقه الجميل، بفضل بساطته الأخاذة وكما هو معروف فالجمال فى البساطة، وهى ليست بالأمر اليسير.

وعلى كل، فقد تزامن عرضه فى عاصمتنا، دون غيرها من مدن مصر المحروسة، مع فوزه بأكثر من كرة ذهبية، وبترشيحه للعديد من جوائز أوسكار.

إدمان الرقابة

ولأمر ما، لعله إدمان اجراء عمليات جراحية للأفلام تدخل مقص الرقيب، فحذف لقطة، رغم قصر عرضه على الكبار ثم عاد فحذف لقطة أخرى، بناء على طلب متفرج راشد، راعه أن تقع عينا صغيريه اللذين كانا فى رفقة أمهما، أثناء العرض، على اللقطة محل الاتهام. وهكذا، فقد حرمنا من مشاهدة اللقطة، بسبب خلل نجم عنه تسلل صغيران إلى

عـرض مـشـاهده مـحظوره رقـابيـا على الصـغـار . وعلى كل، فـبـعـد مـشـاهدة «الجمال الأمريكي» والاستمتاع به في دار سينما مزدحمة، رغم ارتفاع سعر التذكرة إلى عشرين جنيها.

أشـهـد أنه واحـد من أجـمل واجـرأ وأغرب الأفلام التى تجيئنا من هوليوود بانتظام، على مر عشرات الأعوام.

ولأول وهلة تبدو قصة الفيلم فيما لو حكيت، عادية، كثيراً ما تناولتها السينما الأمريكية فى العديد من الأفلام.

تراث مصنع الأحلام

فمن كان منا على علم، ولو قليل، بتلك السينما، فلن يفوته عند مشاهدة الجمال الأمـريكى، تأثر الـفـيلم برائـعـتـى «بيلى ويلدر» و«الفريد هتشكوك» شارع الغروب والنافـذة الخلفـيـة، وكـذلك تأثره بأفـلام أخرى، عرضت بصدق لطريقة الحياة الأمريكية وإنعكاساتها على الأسرة فى بعض الأحيان.

فالجمال الأمريكى، مثله فى ذلك مثل «شارع الغروب» يبدأ بصوت بطله «ليستر برنهام» - كيفين سبيس - يتحدث إلينا من عالم الأموات قائلا بصوت ساخر «فى أقل من سنة سأكون ميتا، وطبعا أنا لا أعرف ذلك بعد».

أما لماذا، وكيف مات، فذلك ما يحكيه صوت الميت «ليستر» من حين لآخر.

الأسرة السعيدة

وهو، كما يبين من الحكى، رب أسرة فى خريف العمر «٤٢ عـامـاً» له زوجـة حسناء «كـارولين» - انيت بيننج - وابنة وحـيـدة فى عـمـر الزهور «جـين» تورا بيرسون.

ويدءا من فاتحة الفيلم نعرف أن أسرة «ليستر» قد توافرت لها جميع أسباب السعادة والهناء . البيت الكائن فى حى هـادئ، راق، كل سكانه من وجـهـاء البيض. والمؤثث بأغلى الرياش والأجهزة، وما إلى ذلك من نفيس الأشياء.

العـربات آخر صـيـحـة من ماركـة المرسيدس فما فوق.

ومع ذلك فهذه الأسرة مفككة، ينخر السوس فى عظامها حتى النخاع فالابنة لا تحمل لوالديها سوى المقت الشديد والزوجة امرأة قهارة، قاسيـة، زائفة الطبـاع ، والزوج رجل مـسـحـوق، بدون شخصية، أو إرادة، عاجز عن اتخاذ أى خطوة إلى الأمام أو الوراء.

التمرد

غير أن حاله هذا سرعان ما تغير لحظة أن وقعت عيناه على صديقة ابنته «انجيلا - مينا سوفارى - وهى تؤدى رقصة مع «جين» وفتيات اخريات فى أثناء استراحة إحدى مباريات كرة السلة . فمنذ هذه اللحظة الفاصلة أخذ «ليستر» فى التمرد على حياته الرتيبة.

فلم يطل به الوقت، حتى طرح وظيفته المجزية طرح النفاية، وأخذ يعيد بناء عضلاته الضامرة فى محاولة منه لاسترجاع الشباب.

ويبدو تأثر الجمال الأمريكية «بالنافذة الخلفية» واضحا فى الشاب «ريكى فيتس» – وس بنتلى – ابن الجيران «ابوه جنرال متقاعد من مشاة البحرية، ذو ميول فاشية».

فذلك الشاب يتعاطى ويتاجر فى المخدرات وفوق هذا يهوى التصوير بكاميرا فيديو. ولا يكل ولا يمل تصوير «جين» وهى فى حجرة نومها دون أن تدرى إلى أن يلتقيا ويتحابا. ولن أحكى كيف التقى «ليستر» بذلك الشاب الذى امده بالمخدرات، ولا كيف شك الجنرال المتقاعد بأن ثمة علاقة آثمة بين ابنه والجار، ولا كيف انحدر الطموح بالزوجة «كارولين» إلى حضيض خيانة الرباط المقدس.

مواهب جديدة

لن أحكى شيئاً من تفاصيل ذلك، مكتفيا بأن أقول بأنه رغم عمق ما يطرحه الفيلم من موضوعات، فعرضه مر مرور النسيم، فلم نحس نحن المتفرجين، بأى ملل.

والفضل فى ذلك إنما يرجع بداية إلى سيناريو «آلن بول» الملئ بالمفاجآت، المشع حواره بشاعرية فياضة. ونهاية إلى إخراج «سام مندز».

وهنا لا يفوتنى أن أقول أن كليهما «بول» و«مندز»، لم يسبق له إبداع شئ للسينما، قبل كتابة الأول لسيناريو «الجمال الأمريكى» وإخراج الثانى له وإن دل هذا فإنما يدل على أن كليهما موهوب، ويرجى منه خير كثير.

والغريب أن ترشيح الجمال الأمريكى والأفلام الأربعة الأخرى لم يكن محل رضاء الجميع، دون أى استثناء فلقد عاب نفر من النقاد الأمريكيين، وبالذات «ريتشارد كورليس» ناقد مجلة «تايم» الأمريكية، على أكاديمية هوليوود، واسمها رسميا «أكاديمية فنون الصور المتحركة والعلوم»، جنوحها إلى ترشيح الأفلام الخمسة، رغم أن ثمة أعمالا سينمائية أخرى أعلى منها منزلة، وأرفع شأنا.

تعصب وتعال

وذهب ناقد «تايم» إلى أبعد من ذلك، عندما قال أن أيا من تلك الأفلام لا يرقى إلى مستوى «شكسبير عاشقا» و«إنقاذ النفر رايان» الفيلمين اللذين حصدا جوائز أوسكار، قبل عام وأن أعضاء الأكاديمية كانوا أكثر تعصبا لكل ما هو أمريكى من أى عام مضى، الأمر الذى انعكس على ترشيحاتهم للأفلام.

فأحداث الأفلام الخمسة لا تدور إلا على أرض الولايات المتحدة، ولا تعرض إلا لطريقة الحياة الأمريكية، وكأن العالم ليس له وجود خارج بلاد العم سام.


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن بين انتقاداته لأعضاء الأكاديمية وصفه لهم بالتعالى على أنواع معينة من الأعمال السينمائية مثل أفلام الرسوم المتحركة والملهاة والحركة.

فأفلام الرسوم المتحركة لا يجرى ترشيحها إلا نادراً، لأوسكار أفضل فيلم طويل.

وحظها من الجوائز غالباً ما ينحصر فى أوسكار أفضل أغنية، مثلما حدث قبل عام مع فيلم «أمير مصر».

وأفلام الملهاة، هى الأخرى، ليست اسعد حظا، ولا أدل على ذلك من جنوحهم إلى استبعاد النجم الكوميدى «جيم كارى» من الترشيح لاوسكار أفضل ممثل رئيسى عامين متتالين، وذلك رغم سابقة فوزه بالكرة الذهبية مرتين عن أدائه لدورين يغلب عليهما الجد، لا الهزل الهازل.

المرة الأولى عن «استعراض ترومان» «١٩٩٩»، والثانية عن «رجل على سطح القمر» «٢٠٠٠» لصاحبه ميلوش فورمان، ذلك المخرج الذى فاز بالاوسكار مرتين هو وفيلماه «طار فوق عش المجانين» و«أماديوس» المستوحى من مسرحية بنفس الاسم، تدور حول سيرة الموسيقار «موزار».

المحرقة والاوسكار

ومن باب السخرية بأعضاء الأكاديمية قال ناقد «تايم» أن حظ «جيم كارى» عاثر، وآية ذلك إنه لم يشأ له أن يمثل فى فيلم يعرض فى بعض لقطاته لمحرقة اليهود بأيدى سفاحى ألمانيا الهتلرية فى أثناء الحرب العالمية الثانية، مثلما شاء للممثل الكوميدى «روبرتو بينينى» قبل عام.

فلو لم يكن حظه عاثرا، لأتاح له فرصة مماثلة لتلك الفرصة التى اتاحها «لبينينى»، عندما هيأ له ظروفا مواتية أهلته لإخراج فيلمه «الحياة جميلة» المتعاطف مع ضحايا تلك المحرقة، واهلته كذلك لاداء دور «جيدو» الضحية الرئيسية فى أحداث ذلك الفيلم.

وكل ذلك لعب دوراً كبيراً فى ترشيحه لا لاوسكار أفضل فيلم أجنبى فحسب، بل ترشيحه رغم أنه فيلم إيطالى ومتكلم بالايطالية، ضمن الأفلام الخمسة الأمريكية أو المتكلمة بالانجليزية المرشحة لاوسكار، مما كان سببا فى فوزه باوسكارى أفضل ممثل رئيسى «بينينى»، وموسيقى تصويرية، علاوة على فوزه باوسكار أفضل فيلم أجنبى.

وفى رأى ناقد «تايم» أن أفلام الحركة ليس لها هى الأخرى أن تطمع إلا فى الترشيح لجوائز أوسكار الثانوية مثل تلك المخصصة للصوت ولتوليف المؤثرات الصوتية والمؤثرات البصرية.

خطأ جسيم

وضرب مثلا على ذلك بفيلم «الماتريكس» - بالعربية المتمرد - لصاحبيه المخرجين دانى ولارى تشوفسكى. ففيما عدا ترشيحه لجائزة أوسكار الخاصة بالتوليف، لم يجر ترشيحه إلا لجوائز ثلاث أخرى، هى بالتحديد الجوائز الثانوية سالفة البيان.

وحرمان «الماتريكس - المتمرد» من

الترشيح للجوائز الكبرى لا سيما جائزتى أوسكار أفضل فيلم ومخرج لما يدخل فى باب العجب العجاب.. لماذا؟.

لأنه من أفلام الحركة القليلة التى يتطلب خطابها من المتفرج إعمال الكثير من التفكير.

وعلاوة على عمق الخطاب، فالفيلم زاخر بمزايا أخرى سلبت لب النقاد اينما شاهدوه فكان إجماعهم على الاشادة به .ولا غرابة فى هذا الاجماع، فالفيلم بصريا آية من آيات الجمال.

يخطف الابصار بتكوينات لقطاته وتشكيلاتها، التى تمر سريعة كالحلم فى ثوان.

وكم كان صاحبا الفيلم «دانى» و«لارى» موفقين فى اختيار الممثلين خاصة «كيانو ريفز» نجم فيلم «بأقصى سرعة» و«لورنس فيشبيرن» نجم فيلم «عطيل» عن مسرحية شكسبير. والحق إنه فيلم ظاهرة يستحق الوقوف عنده كثيراً.

سينما الألفية الجديدة

فأمامه تتضاءل معظم الأفلام التى شاهدناها خلال العام الأخير من القرن العشرين، برغم دوران اسماء بعضها على الالسنة والاقلام.

وبفضله نستطيع أن نقول فى ثقة أن سينما جديدة رائعة قد ولدت مبشرة بسينما القرن الواحد والعشرين.

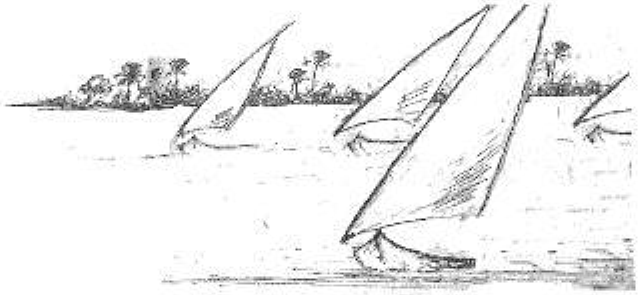
وأعود إلى ناقد «تايم» لأقول أنه لم يكتف بلوم أعضاء الأكاديمية على ما اقترفوه من خطأ جسيم فى حق «الماتريكس - المتمرد» بعدم ترشيحه لجائزتى أوسكار أفضل مخرج وفيلم، بل تجاوزه إلى وضع قائمتين، تنبأ فى كليهما باسماء الفائزين بجوائز أوسكار الرئيسية الأولى بأسماء من سيفوزون، وكان من بينهم «الجمال الأمريكى» ومخرجه «سام مندز».

والثانية باسماء من يتعين فوزهم، وكان من بينهم «الماتريكس - التمرد»، وذلك رغم أنه غير مرشح لاوسكار أفضل فيلم!!.

كل شئ عن أمى

ولا يفوتنى هنا، أن أذكر أن الفيلم الوحيد الذى فاز فى كلتا القائمتين باوسكار أفضل فيلم أجنبى هو «كل شئ عن أمى» لصاحبه المخرج الأسبانى «بيدرو المودوفار» وأن «الماتريكس - المتمرد» قد حالت رقابتنا بينه وبين العرض العام . والأمل فى أن نشاهده مرتهن بقرار يبيح عرضه، تصدره لجنة التظلمات المنظور أمامها تظلم أصحابه من تعسف الرقابة، باصرارها على منعه، رغم انتهاء رأى اللجنة العليا للرقابة إلى إنه غير مشوب بأى عيب يتهدد النظام العام وكم أتمنى ألا يقسو أعضاء تلك اللجنة على «الماتريكس - المتمرد» كما قسا أعضاء الأكاديمية فى بلاد العم سام!!.





المكان في الرواية

مطارح العشق من الإسكندرية إلى أخميم..

بقلم إدوار الخراط

بريشة الفنان: جورج خليفة

انتهيت ، منذ قليل، من كتابة رواية «صخور السماء» .

«صخور السماء» تدور في أخميم ، بلد أبي ، التي لم أولد فيها ، ولكنني في السابعة من عمري ، عرفت فيها طقس المعمودية في كنيسة دير الملاك ميخائيل العريق.

فإذا كانت الاسكندرية مسقط رأسي ومطرح معاشقي الأولى ، فيها عرفت مباهج الصبا والطفولة، وأحزانهما الغريبة، ونشوات الشباب ، وفيها أيضا نهلت من ينابيع العلم الأولى وترشفت قطرات من غدق المعرفة ومضض الاسئلة التي لا إجابة عنها، فقد كانت أخميم - التي أتصور - أن «صخور السماء» ترنيمة عشق لها تدور أحداثها وشطحات تأملاتها وتباريح وقائعها في الأربعينيات وحتى التسعينيات ، كما لعلها تقع في «اللازمن» الذي ما أني أراوده ، فهي بلد أبي وأسلافي الصعايدة العظام الذين ماكتبت «صخور السماء» إلا على سبيل تكريمهم وإسداء الولاء لهم، والتمرد عليهم في آن معا ، ذلك شوق لايريم من بين أشواق لاعجة أخرى تلهم هذه الرواية.

ها أنذا في أخميم

البلد العريق الذي ينتمي إلى عمقي وأصلي وأهلي ، مسقط رأس أبي ، «قُلته الخراطه» ، الحكاء العظيم ، المكافح العظيم. وهي منبتي وإليها أنيب ، بلد الشموخ والسموق ورفعة الجبل وخصب الوادي ورحابة النيل الإله حابي العظيم .

مدينة عسلها مشهور بصفاء اللون وصدق الحلاوة . مشهورة بناسها الطيبين، بالمصرية القديمة خنْت مين إله الخصوبة، پانوپوليس الاغريقية ، شمّين كمّين القبطية، مدينة پان الذي هو أصلا أمون خالق الموجودات ومجددها باستمرار ، مدينة البرابي الفاخرة الباقية بمصر من أيام جاهلية الزمن وعصور قدامى المصريين، بها من التصاوير الجميلة والمنحوتات والتماثيل والمدوّنات بالقلم الهيروغليفي، قلم «الكتابة المقدسة» مالا يحصيه حصر ولا يحيط به علم .

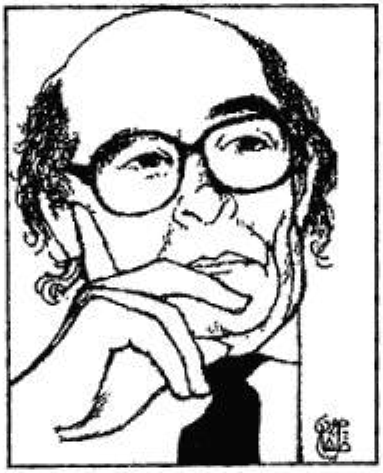
مدينة مين التي يستبيحها ويتجلى لها ويطوف بمغانيها ليلا وأهلها نائمون أو يترصدون حفيف أقدامه، وفي الصبح يعثرون على أحد نعليه مخصوفا على طريقة القدماء طوله قدمان أو ذراعان ، يقيمون له المولد العظيم الذي يلعب فيه اللاعبون بالعصا والأقواس ويراهن فيه الناس على الفائزين ، لأنه هو الذي قتل الجرجون الحيوان القاتل المخوف ، بأنفاسه النتنة ، صاحب العينين اللذين يغطيهما شعره الملبد الغزير يرفعه عنهما ويصوبهما إلى كل حي فيستحيل حجرا أو صخرا من الصخور .

أخميم مدينة أبي وأسلاف أبي فلتس يوسف عبد الملك صموئيل منقريوس

هرمينا الخراط، أصحاب الصنايع والمتاجر والمزارع ، المشهورة ، عاصمة الإقليم التاسع في مصر الخالدة أبدا ، مدينة العظيم أخميم بن مصرابيم ، خصّه أبوه بقسم مصر الجنوبية ، مدينة سقوط طفولتي من على سلم يعقوب وصعود دماء صباي بين ذراعي البطة الصغيرة التي اسمها مارينا والتي هي إرهاص باكر بعشيقتي وكل معاشقي ، مدينة معموديتي تنصيري بملكوت النور البهي، «مبنية بأحجار مرمرية - مثل اسكندريتي - طول كل حجر منها خمسة أذرع في سمك ذراعين، وهي سبعة دهاليز سقوفها حجارة طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعا في عرض خمسة أذرع مدهونة باللازورد وغيره من الأصباغ التي يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهان منها الآن لفرط جدتها، وكل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة السيّارة، جدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيئات والمقادير، فيها رموز علوم القبط من الكيميا والسيميا والطلسمات والطب والهندسة والتنجيم» .

أي صدقت يامقريزي ياصاحب النظرة الصادقة التي رأت ماهو دفين الآن.

مدينة ميريت ابنة الملك ومغنية الإله آتوم ولابسة تاج الإله مين، مضيئة قصرها عازفة الهارب صانعة صديرية



الإلهة حتحور ، ميريت أجمل امرأة في العالم ، مازال الروح على شفتيها المفترتين عن ابتسامة مكنونة ورهيفة .

***

أراك يا أخميم ، حتى القرن الخامس الميلادي ، مازالت الصروح سامقة مرفوعة البنيان للآلهة القدامى، أوزير وزيوس ، إيزيس وأفروديت معا، بينما الفلاحون المطحونون تحت سطوة الإغريق قد انضووا تحت لواء المخلص الفادي أفواجا بعد أفواج ، الإغريق أصحاب السلطة والجاه والثروة يفرضون طغيان الثروة وينعمون ببذخ الحياة ، معابدهم قائمة بآلهتها الرخامية البيضاء على أرضك الأفريقية السوداء ، يا أخميم كيمي ، والمذابح تسيل عليها دماء الضحايا الحيوانية الفضة لتروى هذه الأرض التي

لم تشبع قط من الدماء حتى الآن ، المتع الأبيقورية الفاضحة جنبا إلى جنب مع نسك الرهبان بقيادة شنودة المولود فى قرية من تخومك ، جمحات الجسد المتمرغ فى شهوات حسية صارخة حينا ومملة أحيانا جنبا إلى جنب مع قمع الجسد وعنف اقتلاع الأوثان، تداعى اللغة اليونانية التى أرهقتها العصور والأمجاد القديمة جنبا إلى جنب مع عنفوان القبطية اليانعة التى تستجيش فى نفوس المظلومين أشواقا لا تغلب ، تفلسفات الأريوسيين والنسطوريين وتحليلاتهم العقيدية التى تشطر شعرة الإيمان إلى ألف تفريعة جنبا الى جنب مع صرامة الأرثوذكسية الباحثة عن نقائها، المتشبثة حتى الموت بمصريتها ، سرف الفجور الديونيزى والعربدة الحسية والعقلية جنبا إلى جنب مع طهارة كره العالم ونفى غواياته ، معابد الآلهة القدامى بأروقتها التى ترتكز أكتافها على تيه لا ينتهى من الأعمدة اللازوردية الشامخة المكللة بتيجانها زاهية الألوان ، وهياكلها المسدل عليها ستائر مطرزة بالذهب جنبا إلى جنب مع الصوامع الضيقة فى البرارى الموحشة وقلالى الرهبان المتوحدين مع إيمانهم وجهادهم فى رمال الصحراء النقية الخاوية المجردة عن كل شىء فى عرائها المطلق .

أخميم المدينة التى سالت فيها دماء ثمانمائة وأربعة عشر شهيدا دفاعا عن عقيدتهم الأرثوذكسية ، قتلهم أريانوس فى ثلاثة أيام ، حتى اغرقت الدماء درب الظلى الذى يأتيه المؤمنون من الشرق والغرب حفاة الأقدام خاشعين يركعون على أرضه ، ويقبلون ترابه تمجيدا وعرفانا بالجميل ، لأن مذابح الشهداء لاتنتهى .

مدينة الأنوال التى تنسج خيوطها الحريرية من صميم الروح .

مدينة تى أم الفرعون العظيم الشاعر العظيم اخناتون ، بنت يويا ذى المقام المرموق .

أخميم التى من أحجارها بنيت مزارات أبيدوس وكعبة مكة المكرمة .

مدينة كنيسة المخلص من العذاب وكنيسة أبى سيفين ومارميخائيل ، بلدة القديسين باخوم ، وضالوشاه، يسقوروس، واسكلابيوس ، أوليجيوس، وأرسانيوس ، والأنبا شنودة ، والأنبا بسادة ، مدينة الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر صاحب مسجده ، ومدينة العارف بالله ذى النون المصرى بن ابراهيم الذى تقلد علم الباطن وأشرف على كثير من علوم الفلسفة وكان كثير الملازمة للبرابى بيوت الحكمة القديمة، فيها التصاوير العجيبة والمثالات الغريبة التى تزيد المؤمن إيمانا والكافر طغيانا وقد فتح عليه علم مافيها المكتوب بالخط المطلسم القديم وله كرامات، فقد

كان من الملامتية وحوّل الحصى الى حجر كريم، رضوان الله عليهم أجمعين .

مدينة أعجب الهياكل

أخميم مدينة أعجب الهياكل المتحدث بغرائبها في الدنيا ، وهو هيكل عظيم في شرق المدينة وتحت سورها ، وحتى إذا كان مطمورا فإنه يبقى ماثلا : «طوله مائتان وعشرون ذراعا، وسعته مائة وسبعون ذراعا، وهو قائم على أربعين سارية سوى الحيطان ، دائرة كل سارية خمسون شبرا، وبين كل ساريتين ثلاثون شبرا، ورؤوسها في نهاية العظم كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها ، وبين رأس كل سارية والأخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت ، منها ما ذرعه ستة وخمسون شبرا طولا في عرض عشرة أشبار ، وارتفاع ثمانية أشبار، وسطحها من ألواح الحجارة، كأنها فرش واحد فيه التصاوير البديعة والأصبغة الغريبة كهيئة الطيور والآدميين وغير ذلك في داخلها وخارجها ، وعرض حائط البربي ثمانية عشر شبرا في حجارة مرصوصة ، كذا قاسها ابن جبير في سنة ٥٧٨ هـ الذي قال أيضا إن سقف هذا الهيكل كله من أنواع الحجارة المنتظمة يخيل للناظر أنها سقف من الخشب المنقوش ، والتصاوير على أنواع في كل بلاطة من بلاطاته ، فمنها ما قد جللته طيور بصور رائقة باسطة أجنحتها توهم الناظر إليها أنها تهم بالطيران ، ومنها ما قد جللته تصاوير آدمية رائقة المنظر رائعة الشكل، قد أعدت لكل صورة منها هيئة هي عليها. كإمساك تمثال بيدها أو سلاح أو طائر أو كأس، أو إشارة شخص إلى آخر بيده، أو غير ذلك مما يطول الوصف له ولا تأتي العبارة لاستيفائه.

وداخل هذا الهيكل العظيم وخارجه وأعلاه وأسفله تصاوير، كلها مختلفات الأشكال والصفة، منها تصاوير هائلة المنظر خارجة عن صور الآدميين، يستشعر الناظر إليها رعباً ويمتلئ منها عبرة وتعجباً، وما فيها مغرزاشفى، ولا إبرة إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم، قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع، ويتأتى في صمم الحجارة من ذلك ما لا يتأتى في الرخو من الخشب، فيحسب الناظر استعظاماً له أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه، فسبحان الموجد للعجائب لا إله سواه.

وعلى أعلى هذا الهيكل، سطح مفروش بالحجارة العظيمة يحار الوهم فيها ويضل العقل في الفكرة في تطليعها ووضعها، وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والمسارب والموالج ما تضل فيه الجماعات من الناس، ولا يهتدي بعضهم لبعض إلا بالنداء العالي. عرض حائطه ثمانية عشر

شبراً من حجارة مرصوصة، وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم، ومرآه أحد عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف ولا ينتهى إليها الحد.

أخميم مدينة الاثنى عشر ألف عريف من السحرة، وبها شجرة البنج والاهليلج الكابلى والأصفر وشجر المسيح الذى ليس فى بلد، ويعمل بها طرز الصوف الشفاف والمطارف المطرز والمعلم الأبيض والحرير الموصوف، وكان من عوائد أهلها النصارى فى أحد الشعانين وقت إشهار الصلوات الموسمية أنهم يخرجون من الكنيستين مع القسيسين والقمامصة فى هيئة محفل، حاملين المباخر والعطر الزكى والصلبان وكتب الأناجيل والشموع العظيمة موقدة، ويقفون أمام باب القاضى برهة من الزمن يتلون صحفاً من الانجيل، ويغنون ببعض شطرات منظومة تتضمن مدحه، ثم يقفون على باب كل واحد من أمراء الإسلام وأعيانهم ويفعلون كما فعلوا أمام بيت القاضى.

أخميم التى فى غربيها جبل من أصغى إليه بأذنه سمع خرير الماء ولغطا شبيها بكلام الآدميين لا يدرى ما هو.

هاأنذا فى أخميم.

***

الإسكندرية .. علاقة خاصة

أما علاقتى بالاسكندرية فهى علاقة خاصة، فقد كانت الاسكندرية عندى - ومازالت - موقعا حلميا، على كل واقعيتها.

هى ليست موقعاً جغرافياً جميلاً فقط، وليست - فقط - ساحة لالتقاء واصطدام الناس الذين يعملون ويكدحون ويحبون ويموتون على أرض الحياة اليومية، وليست - فقط- مستودع ترسيب ثقافات وحضارات تاريخية، عريقة وراهنة، هى ذلك كله. وهى كذلك حالة من حالات الروح ومغامرة سعى لاستيعاب حقيقة داخلية، وهى مواجهة ميتافيزيقية أيضاً لغموض المطلق والموت الممتد على صفحة بحر ساجية أو جياشة، نحو أفق ملتبس، بلا حد.

***

ولعلنى لا أعرف كاتبا آخر فى العربية توله بعشق هذا الموقع - الحلم - الواقع، كما فعلت.

لكأنها امرأة فردانية ومتكثرة بلا نهاية.

ومهما كان من حفاوة كاتب مثل نجيب محفوظ بأزقة وحوارى الجمالية، أو كاتب مثل عبدالرحمن الشرقاوي، وغيره من كتاب الريف، بقراهم، فقد كانت المدينة - والأرض - عندهم، فى نهاية الأمر ديكورا خلفياً، وفى أحسن الأحوال موضوعاً أو ساحة للفعل الروائى.

الاسكندرية عندى هى نفسها الفعل الروائى، بمعنى ما، هى قوة فاعلة، وليست

مادة للعمل ولا مكانا له، ولا يعنى ذلك – بداهة – أننى «أريد أن أحتكر الكتابة عنها» ذلك قول لا يستقيم بأى منطق.

والمأمول أن تفضى كتاباتى عن «اسكندريتى» فى تجميعها الخاص إلى تكوين صورة جديدة ومتباينة الظلال والدلالات لاسكندريتى، مدينتى التى أعرفها وأصونها فى عمق قلبى، وأعشقها حتى حد التوله، والتى ترابها زعفران، حلم وتراث عريق وساحة للحب، والكد، ومساحة للمجهول، فى وقت معا. وليس ضمير التخصيص فى «اسكندريتى» ضمير امتلاك أو احتكار بل هو ضمير حب أو عشق.

أما لورنس داريل فلم يعرف الاسكندرية، فى تقديرى مع أنه كتب مئات الصفحات من رباعيته الشهيرة، فالاسكندرية عنده أساسا هى وهم غرائبى، كأنما كتب لكى يرضى نزعة لاتنتزع عند الكاتب وعند قرائه الغربيين، سواء فى اختلاق وابتعاث خرافة راسخة الجذور عن «الشرق» الذى يموج ويصطخب بشخوص عجيبة غير مفهومة تتقلب بين العنف تارة وبين الخنوع والذلة تارة، ولا تكاد تنتمى إلى البشر أيا كانت جنسياتهم وبيئاتهم وثقافاتهم، وتحتشد هذه الخرافة الغرائبية بأجواء خارقة، يجهد الكاتب فى أن يضفى عليها جاذبية غير المألوف، إلى درجة منفرة بل ومقززة أحيانا، فهى جاذبية الخيال المغرق، والجمال المصنوع، والقبح النافر أيضا.

الاسكندرية عند داريل هى أسطورته الشخصية أولا وأخيرا، أسطورة تكونت من مشاهد خارجية التقطتها عين أجنبية، ومشاهد داخلية تخلقت فى نفس منفصلة محجوزة عن قلب البلد وروحها، بانحيازات رازحة وراسخة، وما أفدح خطأ من تصوروه عاشقا للاسكندرية بينما هو فى حقيقة الأمر لايعرفها، بل يزدريها ويحتقر أهلها.

لم يعرف داريل من الاسكندرية إلا قشرتها السطحية: بيوت ومكاتب الدبلوماسيين، الفئة الفوقية التى تطفو على عباب مدينة تمور بالحياة، كالزبد أو الرغوة، الشوارع والبيوت التى كانت محرمة على أهل البلد، «المتمصرين» الذين لم يعرفوا من مصر إلا كيف يستغلونها، ثم من يدور فى فلك هؤلاء الخدم والبغايا الذين لا يراهم داريل إلا من الخارج، دون مبالاة، وبشيء قليل من النفور، ولذلك فإن «فنيته» التى تبدو لأول وهلة باهرة، ليست إلا زيفا صراحا.

المدينة العربية

أما الاسكندرية الحقيقية، التى يسميها باستعلاء متوقع ومنتظر: «المدينة العربية» أو بعبارة أدق بالعامية المصرية «الحتة البلدى» فهى عنده مشاهد شرقية تلوح باذخة الزينة وغريبة الوقع، لا صلة

لها بالواقع ولا يصدق الفن غير المصطنع.

من الأمثلة الصارخة على ذلك ، و أقع عليها عفو الخاطر ، فالرباعية حاشدة بأمثال ذلك المشهد الذى نرى فيه «الدرويش» يرقص في مولد ست دميانة القبطية، وقد تحول الى شمعدان آدمى، مغطى بالشموع الموقدة ، وقطرات الشمع الذائب الساخن تتساقط على جسمه، ويأتى صبى ليدفع «خنجرا هائلا» فى كل من خديه وعلى طرفى الخنجر اللذين يبرزان من جانبى وجهه يضع الصبى شمعدانا آخر، على الجانبين وفيه الشموع المشتعلة، «ماونت أوليف ص ١٢١» وغيرها كثير .

عرّشت أشواق عشقى فى مدينتى العظمى الاسكندرية، الثغر المحروس، الميناء الذهبيه رؤيا ذى القرنين وصنيعة سوستراتوس المهندس العظيم ، ولؤلؤة قلبطرة الفانية الأبدية، المدينة الساطعة المرخمة لاتحتاج بالليل الى نور لفرط بياض رخامها ، أكاديمية أرشميدس وأراتوستنيس الفيلسوف والشعراء أبولونيوس وقاليماخوس ، وكافاتيس المأساوى الجميل، مثوى الميوزات جميعا، عاصمة القداسة والفجور معا، أرض القديس مرقس والقديس أثانيوس وأصحاب الكنيسة البوقالية أوريجانوس والأسقف ديونيزيوس والأنبا أثناسيوس الرسولى الواقف وحده مع الحق ضد كل العالم، مدينة البطاركة أعمدة الأرثوذكسية القويم، أكليل السبعين ألف شهيد الذين سوف يبعثون إلى جانب المسيح، وجوههم بيضاء كاللبن والصاروفيم ، يغنون فى مكرمتهم ويسبحون، رأس فاروس يلقى نوره من إليوسيس الحضرة الى قانوب «أبو قير» من الجومنازيوم ومعبد باسيدون إلى الامبريون والستاديون من الهيبودروموس الى معبد السيرابيوم من تل راتوتيس كوم الشقافة إلى السلسلة رأس لوقياس، من تل بانيون كوم الدكة وكامب شيزار الى بتراى حجر النواتية، المرسى العظيم الشأن لا يضارعه إلا مرسى قاليقوط فى بلاد الهند، تنبثق من قلبها المسلة الجسيمة التى ليس تحت قرار الأرض مثلها بنيانا ولا أوثق عقدا، أفرغ الرصاص فى أوصالها فهى مؤصرة لاينفك التئامها ، وعمود السوارى المنحوت من رخام جبل ابريم الأحمر تاجه منقوش محزم بأحكم صنعة وأتقن وضع ليس له قرين، مدينة المراتع والمحارس والمدارس والمسارح والجنان ، ذات العماد ذات الأربعة آلاف حمام، الأربعة آلاف ملهى كلها قمينة بالملوك ، الأربعة آلاف بقال لايبيعون إلا البقل الأخضر، دعك من الآلاف الأخر ، عروس البحر الدفّاق من القلزم الى بحر الزقاق، جامعة المزارات من سيدى المرسى أبى العباس وسيدى أبى الدردار الى سيدى الشاطبى وسيدى جابر وسيدى كريم رضوان الله عليهم أجمعين ، ذات الشوارع الفساح، وعقائد البنيان الصحاح ،جليلة المقدار رائعة المغنى شامخة الكبرياء، اسكندرية يا اسكندرية

شمس طفولتي الشموس وعطش صباي ومعاشق الشباب .

اسكندريتي هي الست وهيبة وحسنية وتلميذات مدرسة نبوية موسى وحسين أفندى مراقب «الكوبرى» بين غيط العنب وراغب باشا وفتاة باب الكراستة التى أنقذتنى من الشرطة السرية، والمعلم عوض صاحب سيرجة الزيت، اسكندرية رفلة أفندى وأخــــوالى ناتان ويونان وسوريال ، اسكندرية شارع ١٢ ووابور الدقيق واصطبل عربات الحنطور جنب ترعة المحمودية، اسكندرية أصدقائى من جـــابر إلى المردنى ، والبنات اللاتى أحببتهن مصريات، شاميات، ويونانيات كلهن من بنات اسكندرية حــقــا، ولسن أجنبيات أو غريبات أو غرائبيات، اسكندرية الريس نونو وبيوت الفراهدة وعمال المخازن من عم على والاسطى مرسى النجار الى «أبو شنب» العجوز و«حميدو شورتى» اسكندرية سيدى المرسى أبو العباس والكنيسة المرقسية، لها أبعادها الأسطورية حقا ولكن لها صخرها الواقعى وتراب أرضها فى أن معا، إن شطح الخيال والفانتازيا فى اسكندريتى يغوص فى داخل الواقع وينبع منه ـ الواقع الخارجى والداخلى معا ـ ويتفاعل هذا الواقع بكل مافيه من قسوة وجمال مع الأسطورة والفانتازيا تفاعلا متبادلا، أو هكذا أرجو ، ومع ما أسعى اليه من دقة التفاصيل الخارجية فإن اسكندريتى هى نبض متصل متراوح ومتلاحق، حشد من الاحساسات والتأملات فى حركة دائمة، هذا ما أرمى اليه، وهى واقع جوهرى ـ أو عدة تجليات لهذا الواقع يوضع موضع تساؤل بلا نهاية وبلا خاتمة .

الإسكندرية معشوقتى

العطف والحزن الربانى الشفيق الذى يملأ على شوارع طفولتى وهواجسها وآمالها فى غيط العنب، أين هى الآن منى؟ وهل استطيع أبدا أن ابتعث من جديد هذه الجنات الواعدة البعيدة مفتوحة الأبواب عن كرماتها وموصدة فى وجهى إلى أبد الآبدين ؟ وهذه الأشجار المثقلة برمان اللبن العسل والمز ، والخمر الصهباء التى يشعشعها لى أبى بماء حنوه ومحبته ويسقينى، وأنا طفل غرير؟ فوانيس الغاز المضلعة الزجاج متقدة أشعلها لنا عفريت الليل بعصاه الطويلة التى يطقطق شررها، ثم مضى فى مملكة ليله التى لانعرف لها حدودا، من أين جاء؟ والى أين يمضى ويترك لنا حبات النور، فاكهته المهتزة الفضة على شوارعنا الناعمة الغامضة التراب، أين هى ؟ والبيت الخفيض جنب بيتنا، من دورين فقط، مقفل دائما وغريب ولكننا نعرف أنه معمور ، نحس الحركة الحية فيه ولانرى سكانه أبدا، نوافذه لاتنفتح ولايبوح بأسراره قط. دائما مكنون على بحيراته الشاسعة الخفية الساكنة الماء، وعلى أهل مملكته البنات الطيور اللاتى يأتين مرة واحدة كل عام، ويخلعن ريشهن فإذا هن الحور الخود لامثيل لجمالهن فى الأرضين، أين ذهبت البنات؟

قوة حضور الذكر تنقض القلب.

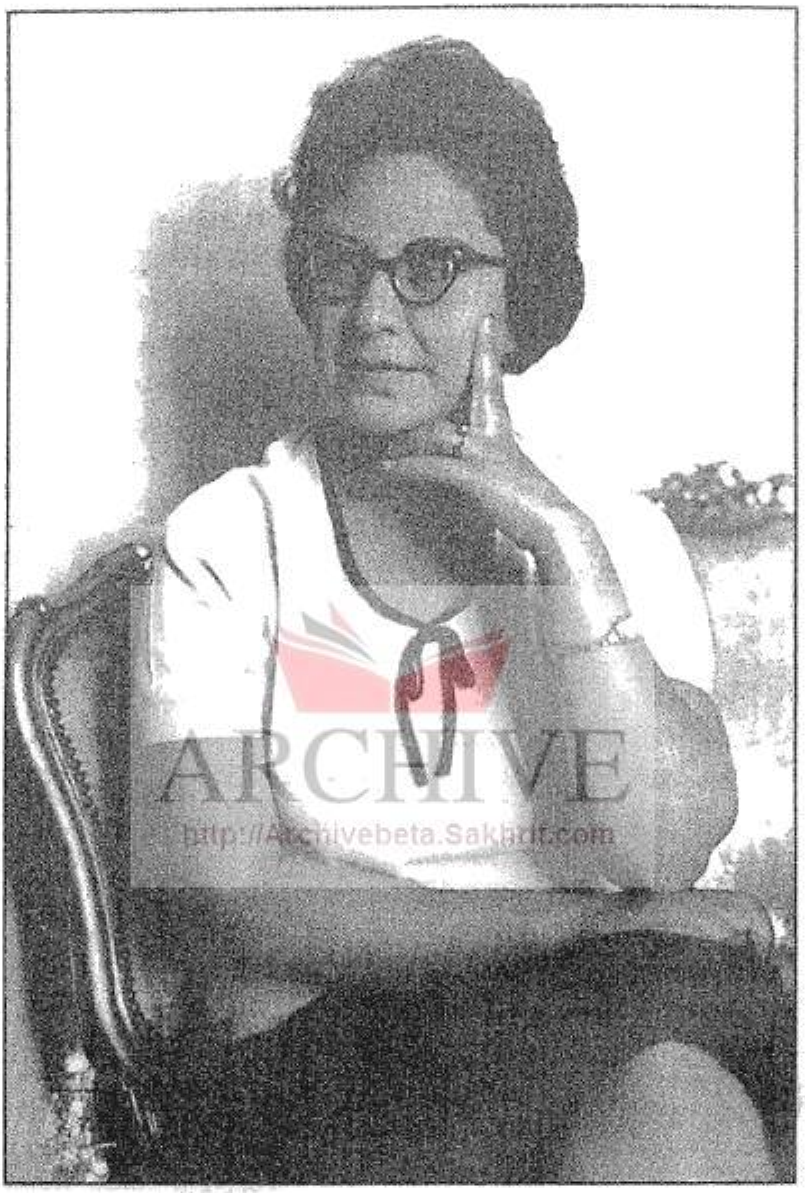
الشاعرة

ملك عبد العزيز

بين الرومانسية والواقعية

بقلم : محمد إبراهيم أبو سنة

** خسر الشعر العربى الحديث صوتا بارزا من أصوات الشعر النسائى فى مصر هو صوت الشاعرة ملك عبدالعزيز، والتى وافاها الأجل إثر حادث مأساوى عبثى فى مساء السبت السابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٩٩ **



الشاعرة ملك عبد العزيز داخل مكتبتها

الشاعرة ملك عبد العزيز ...

ولدت الشاعرة المبدعة الرائدة ملك عبدالعزيز في الرابع من شهر أكتوبر عام ١٩٢١ في مدينة طنطا ، التحقت بعد إتمام المرحلة الثانوية بكلية الآداب قسم اللغة العربية حيث التقت بأستاذها الناقد الكبير الدكتور محمد مندور وتزوجا في الثامن والعشرين من شهر مارس عام ١٩٤١، وهي لا تزال طالبة بالسنة الثالثة بكلية الآداب جامعة أحمد فؤاد الأول القاهرة حاليا . تفتحت بواكيرها الشعرية الأولى وهي في المرحلة الثانوية في الثلاثينيات من القرن العشرين بينما كانت مدرسة أبوللو والديوان ومدرسة شعراء المهجر تملأ الأفق الثقافي بالرومانسية وبما تحمله من مثاليات ووعي جديد .

وكان أول ديوان قرأته الشاعرة هو ديوان حافظ إبراهيم ثم قرأت وتأثرت بشعر العقاد وإبراهيم ناجي وحسن كامل الصيرفي وميخائيل نعيمه . تقول .. «على أنني قد أحببت بعد ذلك شعر المهجر بصورة عامة لصدقه وإنسانيته ولقربه في موضوعاته وطرائق تعبيره من نفوسنا المعاصرة في ذلك الوقت ونجاحه في الترجمة عنها ترجمة صادقة ».. وقد طبعت هذه المرحلة من المؤثرات الشعرية عالمها بالصفاء اللغوي والمثالية والصدق والتعلق بالعواطف النبيلة والحماس لقضايا الإنسان ، ورغم أن الهمس كان صفة مميزة لنبرتها الشعرية فإن نفسها الشعري كان قويا عميق التأثير .

إن ديوانها الأول «أغاني الصبا » والذي صدر في عام ١٩٦١ قد ضم إبداعها في المرحلة الأولى في الفترة من عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٤١ . ويبدو أن الشاعرة قد انشغلت بواجباتها الأسرية ووقوفها إلى جانب زوجها المناضل وتحمل تبعات مواقفه الثورية إلى درجة صرفتها عن الإبداع الشعري لبعض الوقت . ومع تفجر حركة الشعر الحديث وتحولات الساحة الثقافية وبروز أصوات شعرية جديدة عادت ملك عبدالعزيز لتواصل رسالتها الشعرية من أجل الحق والعدل والحرية . لقد جاء ديوانها الأول متأثرا بالإشعاع القوي للمدرسة الرومانسية أو الاتجاه الوجداني كما يسميه أستاذنا الدكتور عبدالقادر القط . فهي تصادق النجوم وتهتف بالحياة وتناجي القمر وتتحدث عن زهرة البسلة وتنتشي بالفرح والنشوة تقول في قصيدة نشوة:

تعالى نشوة الدنيا
وهاتي الشعر من سحرك
تعالى نشوة الدنيا
وروّى النفس من نهرك
وشعى النور من عينيك
والاسعاد من ثغرك
وهاتي اللحن خفاقا

كـــدفع الموج فى بحـــرك
تعـــالى نشـــوة الدنيـــا
وهاتى الشعـر من سحـرك

وتتحدى صعاب الحياة وتضع نفسها فوق كل الأحوال حين تقول فى قصيدتها تحدى:

فلتعصف الريح فلتقصف صواعقها
فلتقذف الأرض بالأثقال والشرر
فليهدر البحر فلتهدر غوائله
أنا الضعيفة فوق البحر والقدر
فلتزفد النار فلتصرخ مراجلها
فلتحرق الكون من ماء ومن حجر
فليـــزيد الناس فليـــرغـــوا و يضطربوا..
أنا الضعيفة فوق النار والبشر
لا تقصف الريح عودي إنه مرن
أقوي علي هجمات الدهر والغير
لا يغرق البحر نفسي إن في مني..
تسمو بها لمقام الأنجم الزهر
لا تحرق النار روحي إنني شرر..
.. وكيف تحرق نار شعلة الشرر؟.
ولا يروعني هذر الالي جهلوا ...
يفني الحباب وشيكا دون ما أثر

لقد عبر ديوانها الأول عن روح قوية متوثبة ولكن القلق والحيرة والتطلع المرهف تحيط بهذه الروح فلا تجد العزاء إلا فى الشعر . لقد واكبت الشاعرة ثورة الشعر الحديث فى مصر والعالم العربى بعد الحرب العالمية الثانية، واندفعت لتكون واحدة من أبرز شاعرات هذه المدرسة التى ازدهرت فى الخمسينيات والستينيات، ومازالت براكينها تدفع بموجات جديدة من الإبداع الشعرى فوق رقعة متسعة من التنوعات الشعرية والتيارات الهادرة والهامسة والتحولات، وأصبح اسم ملك عبدالعزيز مرتبطا بهذا الجيل الذى عرف بجيل الستينيات فى الشعر العربى الحديث ذلك أن ينبوعها الشعرى قد عاد للتدفق منذ مطلع الستينيات ليمثل موجة من موجات هذا النهر وتعاقب صدور دواوينها فصدر لها بعد أغانى الصبا ديوان «قال المساء» وتضمن شعرها فى الفترة من عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٦٣، ثم ديوان «بحر الصمت» ويتضمن القصائد التى كتبتها من عام ١٩٦٤ وحتى عام ١٩٦٦ وبعض القصائد التى لم يتسع لها الديوان السابق قال المساء، ثم جاء ديوان «أن الس قلب الأشياء» ثم ديوان «أغنيات لليل» وأخيرا ديوانها الذى صدر قبل رحيلها بشهور وهو ديوان «شمس الخريف» ١٩٩٩ - لقد انخرطت الشاعرة ملك عبدالعزيز فى ممارسة التجارب الشعرية التى ملأت الأفق الستيني، وتبنت شعر التفعيلة بعد أن كانت قد راوحت فى المرحلة الأولى بين الشعر العمودى والشعر المقطعى وبعض الخروج على إيقاع «الخليل» التقليدى . ورغم أن الشاعرة

ظلت تبتهل إلى الطبيعة وتناجي البحر والمطر والنجوم إلا أنها التفتت إلى القضايا الوطنية والقومية وظهرت لذعة ندم وأسى تلون نبرتها الهامسة تقول فى قصيدتها قال المساء:

قال المساء : ما الذي صنعت فى نهارك الطويل
أسندت رأسك الثقيل للجدار
وغيمت فى عينك الوسنى مشاعل النهار
واحتضنت كفاك طفلك العليل
الحزن .. ألقى رأسه بصدرك الهزيل
أرضعته .
أرضعته دماك وهو لم يزل عليل
وكيف يربو وهو نبتة الظلال

- لقد حاولت الشاعرة أن تذوب فى عناصر الجمال الطبيعى والإنسانى توقا إلى الفرح والنشوة والحرية .. تلمح عنصر التحول فى شعرها عبر مراحل تجربتها المختلفة والشوق إلى أن تصبح كائنا آخر يتعالى على ما فى الواقع من قبح ودمامة وقيود . إنها تهفو إلى الجوهر الباقى من خلال محاولة الاقتراب من قلب الأشياء تقول:

- أن ألمس قلب الأشياء
أتغلغل فى لب الشجر الممتد الأفياء
أتمدد فى الخضرة
أتوهج فى الثمر العذب الإرواء
وأغوص بعمق البحر واشتف الانحاء
أتحلل فى اللؤلؤ فى أعشاب البحر الخضراء
أتحلل فى حضن النهر ..
قطيرات من ري وخصوبة
وأذوب عطاء وعذوبة
أن أسري في الزهر عطورا فواحه
في الأفق رياحا
فى قلب الطير لحونا وغناء
فى زبد البحر ضياء
لونا فى الشفق الذائب فى الآفاق
ألقا فى النور السابح فى الأحداق
نغما فى الموج رعودا فى الاعصار
ظلا فى الغيم رذاذا فى الأمطار
وهجا فى الصبح ندى فى قلب الأسحار

إن توق التحول إلى كائن يذوب فى الكائنات الأخرى يظل معبرا عن طبيعة هذه الشاعرة وعن روحها التى ترغب فى العطاء والتوحد بكل ما هو حقيقى وباق وصادق وجميل، بل إن هذه الرؤية رؤيا التحول شوقا إلى السمو وبحثا عن الحرية تتجلى فى ديوانها الأخير «شمس الخريف» حيث تهفو الشاعرة إلى الرحيل إلى عالم أصفى يمنحها كل ما افتقدته فى هذا العالم

الأرضي تقول في قصيدة .. «الريح تعود» :

- حين رفضت حياتي الفانية
الإنسية
في هذى الأرض الهمجية قلت
أتناسخ في شجرة
تمد الجذر إلى الأعماق
ترشف ترشف ماء
يتسلل من قلب النيل المعطاء
يغذوها . تسغا نسغا
جذرا جذرا
تورق تضطرب نماء
يتألق زهر أحمر جمرا في
أحضان الأغصان
يتوهج . يتكور ثمرا
يبدو يختبئ خلال الأوراق
يحلو تقطفه أيدى العشاق

ولكن الشاعرة تتململ من اختيارها فتقول:

لكنى فكرت وقلت
هل أبقى في قيد الجذر
المغروس ببطن الأرض
مهما أشتد ومهما امتد
فليس يطير
فهو الوتد المقهور

ثم تحاول الشاعرة التناسخ في الطير لكنها عادل وفكرت :

هل آمن أن يفلتنى الصياد
أو يطلقنى الشبك المشتد
الحرية لا تحلو للكلاب الصيد

ولا تجد الشاعرة خيرا من الريح لتتناسخ فيها بما تحمله من دلالات الحرية المطلقة والبعد عن قيود المادة، وكأنها في الحقيقة قد اختارت عالم الروح الأسمى والأبقى .

فلأتناسخ في الريح
تنطلق بلا حد أو قيد
تعبث برؤوس الأشجار
في الصحو وفي الاعصار
تحدو السحب إلى الأمطار
لا يحبسها سهل أو حزن
تتغنى تهمس أو تعصف
وتنوح إذا اظمأها الوجد

- سوف تفتقد الحركة الشعرية والحياة الثقافية صوت الشاعرة ملك عبدالعزيز الهامس العميق المتميز بالأصالة والمتشح بالتسامح والكبرياء وسيظل العزاء في هذا الشعر الجميل الذى جسد موهبتها وشخصيتها وتجربتها الكبيرة في الحياة والأدب على السواء، ويبقى عطر حضورها نفاذا يوقد في الذكرى الحية كل المعانى الجميلة التى نذرت حياتها وشعرها لها، وهى الحب والحق والعدل والحرية. رحم الله ملك عبدالعزيز وأسكنها فسيح جناته.

رحيق الكتب ..

٥ سنوات في بيت من زجاج

تأليف : د. بطرس غالي



«٥ سنوات في بيت من زجاج» هو آخر ما أفرزته قريحة الدكتور بطرس غالي، وهو كتاب يروي تجربته كأمين عام للأمم المتحدة، ومنذ السطور الأولى يصرح بوضوح أن «إعجابه بالولايات المتحدة الأمريكية لم ينقص مطلقاً»، رغم أنها استخدمت «الفيتو» لمنع إعادة إنتخابه كأمين عام.

وعندما يكتب الدكتور، فلابد أن ننتبه بشدة، فهو ليس شخصا عادياً، فمن ناحية لابد أن كتاباته ستتوخى الجدية العلمية بوصفه أستاذاً جامعياً لسنوات عديدة، ولاشك أن ذلك سيجعله يعرف ما يقول، ويقول ما يعرف، ومن ناحية أخرى فقد مارس الكتابة في الصحف والمجلات وأشرف على إصدار واحدة من أهم الدوريات السياسية المصرية وهي مجلة السياسة الدولية، ثم أنه احتل موقعاً وزارياً مهماً في فترة من أخطر فترات مصر في العصر الحديث، وهو منصب وزير الدولة للشئون الخارجية، وذلك يعني باختصار أننا أمام كتاب لا نملك ترف إهماله أو المرور عليه مرور الكرام.

لقد صور لنا الكتاب صراع بطرس غالي مع الإدارة الأمريكية تصويراً درامياً، بدت فيه العلاقة بينهما وكأنها «حب من طرف واحد»، فلم يفتأ الدكتور أن يذكر في كل فصل بمدى ولائه وموالاته للغرب وخاصة الولايات المتحدة، في الوقت الذي يصف فيه الاسلوب المهين والمزرى الذي كان يعامله به ممثلو هذه الدولة العظيمة وخاصة الشمطاء الحسناء مادلين أولبريت، كي يقنعها بجدوى بقائه في منصبه كأمين عام للأمم المتحدة.

في لقاء مع وارين كريستوفر (وزير الخارجية الأمريكي)، طلب الدكتور

منه أن يفسر له معارضة أمريكا لإستمراره كأمين عام، وذلك حتى «يفهم الأخطاء التى ارتكبها»، وقال للوزير: «أنت محام مرموق، فلماذا لا تتولى الدفاع عني لدى الرئيس كلينتون؟»، فأجابه «كريس»: «أنا محامي الرئيس ولست محاميك!».

ولم ييأس الدكتور، فقد أشار إلى الأمريكيين الكثيرين الذين عينهم فى وظائف فى الأمم المتحدة بناء على طلب واشنطن، وبالرغم من معارضة الدول الأخرى، أى أنه ساعد فى حل مشكلة البطالة فى أمريكا رغم أن تلك الدولة العظيمة لا تدفع ديونها للمنظمة الدولية، وفى الواقع هذا منطق لا غبار عليه، فمن قدم «السبت» لابد أن يكافأ يوم «الأحد»، والمشكلة أن الفلسفة الأمريكية لاتقبل بهذا المنطق، فليس فى قاموسها دفع ثمن بضائع تم تسليمها بالفعل!!.

وفى موقع آخر من الكتاب، يتجلى عشق الدكتور لأمريكا فى أروع صوره، حيث يصرح بأنه كان رئيساً لجمعية الصداقة المصرية/ السوفيتية، «وهو منصب سعيت إليه بالتحديد لأنى من أنصار أمريكا، ولم أكن أريد أن يذهب المنصب إلى شخص ربما يقوض السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط».

ورغم هذا الغزل الصريح، إلا أن السيدة أولبريت لم تبادله نفس الشعور، كان الدكتور يعلم أن «جون بولتون» مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون المنظمات الدولية على خلاف مع الأمين العام خافيير بيريز دى كويلار لشعوره بأنه لم يكن يراعى المصالح الأمريكية بالقدر اللازم، لذلك حرص الدكتور فى لقاء مع بولتون أن يؤكد له أنه: «يولى اعتباراً جاداً للسياسة الأمريكية».

يقول الدكتور - وقد فاض به - بعد فشل محاولاته المتكررة لإستمالة الإدارة الأمريكية أنه «استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يدرك تمام الإدراك أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تؤمن كثيراً بالدبلوماسية، فالقوة تكفى. أن الضعفاء وحدهم يعتمدون على الدبلوماسية»، ومن عجب أن يدرك الدكتور هذه الحقيقة فى شيخوخته، رغم أنه كان فى مجال السياسة والقانون الدولى كأستاذ وصحفى ووزير، ولكن لا بأس، فلقد اكتشف «نيوتن» قوانين الجاذبية عندما رقد تحت شجرة تفاح وسقطت عليه تفاحة، وكان من الممكن أن تظل تلك القوانين وغيرها مجهولة لو كان حجر هو الذى سقط على

رحيق الكتب ..

رأس نيوتن وهشمه تهشيماً ولكن الله سلم، كما أن نيوتن لابد وأنه شاهد آلاف الأشياء تسقط دون أن تثير دهشته العلمية، وكان قدره مع سقوط تفاحة كي يخرج على البشرية باكتشافه العظيم، وبنفس القياس يمكن أن نعتبر أن الأمر تطلب من الدكتور/ بطرس سبعين عاما ونيفا، وأن يصطدم هو شخصياً مع الإدارة الأمريكية كي يدرك ما يدركه أي طالب في العلوم السياسية.

إلا أن هذا الاكتشاف الخطير لم يغير من مشاعر الدكتور حيال أمريكا، وهذه من مسائل القلوب والمكاشفات الروحانية، وقد تجد لها مكاناً في كتب علم النفس.

ويقول - نقلا عن السيدة أولبرايت - أنها قالت عنه: «أنه أضحوكة، وهدف للنكات»، وأنه «كرر مرة أخرى طلبه بإتاحة الفرصة للتحدث مع وزير الخارجية بصفة شخصية، غير أن كريستوفر رفض» «وقد حزت في نفسه الطريقة التي تكلم بها معه».

وفي موضع آخر يؤكد الدكتور «أن فرنسا وليست مصر هي التي تتخذ زمام المبادرة في الدفاع عني، وذلك بسبب خشية مصر من أن يكون لأية محاولة مباشرة منها تأثير معاكس على العلاقات الأمريكية مع مصر، التي تحصل على ثلاثة مليارات دولار أمريكي كمعونة أمريكية سنويا».

وفي عشاء خاص مع مادلين أولبرايت، قال لها: «انني أشاطر أمريكا في المثل والمبادىء التي تساندها، ولقد دفعت ثمنا سياسيا لذلك في الماضي، فبعد أن جرى تأميم قناة السويس بواسطة ناصر، وصفت بأنني مناصر لأمريكا، ولم يسمح لي بالسفر إلى الخارج».. إلا أن ذلك أيضا لم يستدر عطف السيدة العجوز التي سألته فجأة: «لماذا لا تتخلى عن هذا المنصب بكرامة؟؟»، فيتذكر سيادته أن مصر - التي تخشى تأييده بسبب المعونة الأمريكية - هي التي تريد بقاءه، فيقول: «كيف أستطيع أن أفعل شيئاً يتعارض مع ما يريده بلدي مصر، الذي يؤيد إعادة إنتخابي؟».. وذلك -

لعمرى - موقف وطنى فريد سيتأمله التاريخ طويلاً..

ويواصل الدكتور محاولاته المستميتة فى إقناع الإدارة الأمريكية بجدوى استمراره فى منصبه، حيث يحاول فى لقاء آخر مع السيدة أولبرايت أن يحذرها من «معاداة السامية» فى العالم العربى، ويحضر لها «مقالة فظيعة منشورة فى صحيفة الأهرام» تؤكد أن هناك إتجاها لمعاداة السامية، وهكذا لم يجد الدكتور ما يقدمه من حجج لإقناع هذه السيدة سوى أن يخوفها بمعاداة السامية فى العالم العربى، ولاأدرى متى كان العرب معادين للسامية، ومتى برأوا من هذا المرض حتى يعودوا مرة أخرى إلى تلك المعاداة؟؟.. ومن المؤكد أن الدكتور بقامته العلمية الرفيعة يعرف أكثر!!.

قد لانتفق مع تهور البعض الذين هاجموا هذا الكتاب وأشاروا إلى بطرس غالى الجد ودوره فى معاهدة ١٨٩٩ التى كانت السكين الذى قطع السودان من خريطة مصر، وكذلك دوره فى مأساة دنشواى، فحتى لو صحت إتهاماتهم، فليس من العدل أن يحاكم الأبناء على أخطاء الأجداد، كما أن هناك من تعرض لدور الحفيد فى العلاقات مع إسرائيل خاصة بعد زيارة السادات للقدس، تلك الزيارة وما تبعها من استقالة ثلاثة وزراء لخارجية مصر على التوالى، بينما ربض الدكتور فى موقعه حتى تبوأ أعلى منصب دولى، وأظن أن ذلك خروج على الموضوع، لأن الكتاب يتحدث عن دوره فى الأمم المتحدة، والأمانة العلمية تقتضى الإقتصار على قراءة ما جاء فيه.

ومع ذلك، لا أظن أن أحداً قد تعاطف مع الدكتور وهو يصور طلبه للحفاظ على منصبه رغم المعاملة الكريهة التى كانت تعامله بها الإدارة الأمريكية، وأياً كانت مبرراته الشخصية، خاصة حين تأتى هذه التصرفات من شخصية لها وزن وحجم وعمر الدكتور، فهو كما قال لأحد مساعديه - بحق - «حياته وراءه وليست أمامه»، كما أنه شبع مناصب رفيعة فى مصر.

وقبل أن أختتم هذه المقالة، أجد من واجبى أن أشير إلى خطأ فادح ما كان ينبغى أن يقع فيه الكاتب أو مؤسسة الأهرام القومية، ففى الصفحة رقم ٦٩، نشرت خريطة بها خطأ جسيم فى رسم حدود مصر الجنوبية، ولابد من تصحيح هذا الخطأ مع التنويه به فى طبعات الكتاب القادمة.

معصوم مرزوق

رحيق الكتب ..

أعاتب فيك عمرى

فاروق جويدة -

دار غريب للطباعة



ديوان «أعاتب فيك عمرى» لفاروق جويدة يضيف الابتكار المبدع إلى الرصيد الذهبى للذاكرة الشعرية العربية . وقد يقول بعض الناس: إن قصائده التى تغلب عليها النزعة الرومانسية هى بألفاظ الشاعر: شىء معاد أو حلم معاد أو موت معاد . ولكن فاروق جويدة الذى مازال يعرف أن هذا الثوب قديم، يعرف جيدا أنه يشبه النيل القديم والوطن القديم والجرح المقيم . فهو لايطارد الجديد من أجل الجديد ، ولا يلهث وراء أحدث الأزياء ولا يعزل الشعر بعيداً عن الحياة والناس، فلا يعود الناس يقرأونه. ويقول فاروق جويدة عن نفسه إنه صرخة من زمان عريق . فهو ينشد بملء فمه وبأعلى صوته فى انطلاق وحرية، وكأنه ممثل لأمجد أيام الماضى القومى يطل من عليائها إلى تدهور الحاضر والزمن اللقيط وسطوة الجلاد والمزاد الذى يدق أعناق الشعوب. والشاعر يعلن مع حبيبته العصيان فى وجه الدمامة والسوقية والجدب والهوان . إن عناكب الكهان تنفث سمها، والأرض يحاصرها الجراد، وهناك الذين خرجوا يبيعون المصانع والمزارع والمساجد والكنائس والعباد، بعد أن انتهى زمن البراءة والترفع والعناد. فالشاعر ليس ذاتا متشظية بلا مركز أو تكامل تطفو فوق مياه الهامش الضحلة وتحيا أنفه التفاصيل كما نلتقى بها فى الكثير من الكتابات اليوم، بل هو نسر جامح محلق لا يستنيم إلى سلام الحمائم الداجنة، وهو جذوة حريق متقدة بعد أن خبا الحريق.

ولنقل إن رومانسية الشاعر فى ديوان «أعاتب فيك عمرى» لا تجتر القوالب الرسمية للرومانسية، فهى رومانسية شديدة التفرد والخصوصية ، لا تلوذ بالذات المنكفئة على نفسها ولا تهرب إلى عاطفية صارخة متورمة أو إلى خيالات غامضة بلا شكل . ونجد أن بستان ورد هذه الرومانسية الخاصة يحوى قنبلة فى موضع منه، كما تتفتح ذاتيتها الفاعلة على قضايا المصير الإنسانى فى الوطن العربى ، فهى

رومانسية تضرب جذورها في خصوبة الأرض وأشواكها ، إنها ترفض النضال بالحناجر الصاخبة التي تبتلع الهواء ، والسنين الطويلة المنقضية بين أوسلو والولائم وموائد المفاوضات، وسكرة الدجالين في حانة التطبيع، والعجز المهين للخروج من التاريخ وهرولة القطيع إلى حمى الأعداء.

ويثبت هذا الديوان أن النموذج الرومانسي لم ينكسر، فهو نموذج شديد المرونة قابل للتطور يحتفي بفاعلية الفرد الجسور ويعمق العاطفة وبالخيال الخلاق وبتلقائية الفكر والفعل والتعبير وبالحرية الإبداعية للوجدان والروح. فالشاعر وهو يرد الاعتبار لرومانسية جديدة يقترف وهو المقتول بداء العشق جرم الإصرار على العشق، وينضم إلى العارفين الواصلين أصحاب الرؤى وهم نخبة نادرة ، فيكتشف السر المحجوب ويبوح به، سر الإيمان بالإنسان الذي يبلغ حد العشق وما يستتبعه من حلم يتناثر رماد الطغاة في الفضاء، وباقتسام الأطفال قرص الشمس، وبثورة الوطن في شمم وإباء، ولكن هذا السر الذائع يملأ الخانعين رعبا، ويجعل الشاعر مطرودا على الأبواب متهما من جانب الركب الذي ضل الطريق منكسرا بالذنب العظيم. ويشبه الشاعر نجما لا يخضع للمدار ويبدو في تمرده كأنما ضل المسار وضاع، ولكنه سيكون أغنية على كل الشفاه لإيمانه بالإنسان وحب الإنسان. ومن الواضح أن لشاعر الحب صوته الفريد. فلن نجد في الديوان ما ألفنا الالتقاء به في قصائد الحب التقليدية من عبادة حسية لتفاصيل الجمال الجسدي الأنثوي، ومن اجترار لسكوكات نعيم الوصل وآلام الهجر، ومن انحصار في امرأة محدودة بعينيها وشفتيها. ولكننا سنلتقي بالحب بوصفه عاطفة صوفية عاتية نبيلة، ونزعة وجدانية محلقة وإن لم تكن منزوفة الدم . وتتبع قصائد الحب باتجاهها الانفعالي الروحاني الحار من القلب الإنساني وتعود لتؤثر في قلوب المتلقين وتضعها في أسر الافتتان. وتلك القصائد لا تستند إلى مواقف قصصية بين الشاعر والحبيبة أو إلى حوار بينهما، بل تبنى على بوح ومناجاة، ونفثات عاطفية عميقة. وتتنوع الانفعالات وتتصاعد في ذروة تتلوها ذروة ، وتبقى العلاقة بالحبيبة علاقة ذوبان وانصهار والتحام وتوحد.

فالشاعر كان قبل

رحيق الكتب ..

مجيء الحبيبة أو رجوعها من مجال الحلم إلى مجال التحقق رمادا منطفئا صامتا، والحبيبة الآن هى التى توقد فيه النيران ليصير بركانا متأججا. وعندما يتعانق شوقه وشوقها تنطمس حدود وجوده، وتتساقط أحلامه الزائفة قبل انصهارهما معا ليعودا طفلين ناضرى الامكانات والأمنيات.

وعلى خلاف الرومانسية التقليدية لا تكون قصائد الحب انغلاقا داخل علاقة الشاعر بالمرأة ففى الديوان تتحول المرأة إلى مبدأ كونى شامل يضم الحياة والجمال والحلم والمصير، ويصوغ الشاعر تلك المرأة أو المادة الوجدانية فى تشكيل متخيل. ففيها جنوح الموج حين يعانق الشطآن، وفى صوتها وتر إذا انطلقت بلابله يصير الكون أغنية، وهى تنساب كالأنهار فى صحراء العمر. لقد ظل يحلم بها من ألف عام . فالتراث الشعرى المتواتر منذ ألف عام يصنعها من أجمل وعود التحقق والسعادة، ويحلم بها الشاعر حلما يمتد إلى أحقاب سحيقة القدم. إنه يرسم لها صورة يرى فى وجهها كل الفصول . ففى هذا الوجه تتجلى الدراما الطبيعية لتعاقب الفصول وما تكشف عنه من اسقاطات تتسم بالمعانى الإنسانية المسبغة على كل فصل من الفصول، وبالاضافة إلى ذلك ترمز تلك الحبيبة الحقيقة متعددة الأوجه التى تعانق الشاعر كلما عصفت به وبنا الظلمات، كما يرى فيها نفسه: حنين الطير، إصرار الخيول ووداعة قطته البيضاء، وعلى شطآنها يلقى الرحال لذلك يمتزج بها، ويبنى لها عشا على العينين (مثلما فعل بول إلوار حينما يقول عن حبيبته إنها تقف على أهدابه)، ويسكنها ضلوع القلب وهو بالمثل يريد أن ينام على جفونها لكى يرى كل منهما العالم من خلال الآخر. فحدودهما متداخلة . وهما معا يواجهان فحيح الجلاد ووقع أقدام الطغاة.

والغنائية هنا ليست مقصورة على التعبير عن مشاعر متكلم مفرد على نحو ذاتى مغلق، فهى غنائية ذات مدى واسع وتنوع غزير؛ لأن التجربة فيها لا تقف عند تفاصيل جزئية لحياة شخصية، بل تتسع لأشواق وأحلام رمزية معممة. وتقوم هذه الغنائية بتطويع المفردات والتراكيب لتتلاءم مع طزاجة الانفعالات وشدتها ولكى تحقق اللغة فى الشعر عبقريتها الأصيلة، فهو شعر نقى مصفى من الشوائب وهناك القيم الموسيقية الماثلة فى تناغم المعانى وظلالها وتدرجاتها مع الأصوات التى تنقلها عناقيد الكلمات.

إبراهيم فتحى

العلمانية

بقلم: د. محمد عمارة

مصطلح «العلمانية»، هو الترجمة التي شاعت، بمصر والمشرق العربي، للكلمة الانجليزية SECULARISM بمعني الدنيوي، والواقعي، والعالمي .. ذلك لأن العلمانية هي نزعة فلسفية وفكرية وسياسية واجتماعية تري العالم مكتفيا بذاته، تدبره الأسباب الذاتية المودعة فيه.. فالعالم والواقع والدنيا هي مرجعية التدبير للاجتماع الإنساني والدولة والحياة، ومن ثم فإن الاجتماع والحياة والدولة ليست في حاجة إلى مدبر من خارج هذا العالم ومن وراء هذه الطبيعة .. والإنسان مكتف بذاته، يدبر شئونه ويبدع قيمه ونظمه بواسطة العقل والتجربة، وليس في حاجة إلى شريعة سماوية تحكم هذا التدبير.

رفاعة الطهطاوى



محمد على



عبدالرازق السنهورى



العَلْمانيَّة

فالعلمانية - لذلك - تضبط بفتح العين، لأنها نسبة إلى العالم، أي الدنيا والواقع الدنيوي، فهي مصدر غير قياسي، إذ القياس فيها هو «العالمانية» - نسبة إلى العالم - وهناك في المغرب العربي من يترجمها «بالدنيوية».

ولقد نشأت العلمانية - بأوربا - في سياق النهضة الحديثة، وكانت من أبرز معالم فلسفة التنوير الوضعي الغربي، التي جابه بها فلاسفة عصر الأنوار - في القرنين السابع عشر والثامن عشر - سلطة الكنيسة الكاثوليكية، بعد أن تجاوزت هذه الكنيسة الحدود التي رسمتها لها النصرانية، وهي خلاص الروح، ومملكة السماء، وترك ما لقيصر لقيصر، والاقتصار على ما لله. لقد تجاوزت الكنيسة حدود رسالتها واختصاصاتها، فبعد عصور من سيادة نظرية «السيفين» Theory Of The Two Swords أي السيف الروحي - أو السلطة الدينية للكنيسة - والسيف الزمني - أي السلطة المدنية للدولة - جمعت الكنيسة السلطتين معا، فضمت ما لقيصر إلى ما للكنيسة واللاهوت، في ظل نظرية «السيف الواحد» Theory of one Sword.

وتحت حكم «الباباوات - الأباطرة»، أضفت الكنيسة قداسة الدين وثباته على المتغيرات الدنيوية والاجتماعية - أفكارا وعلوما ونظما - فرفضت وحرمت وجرمت كل ما لا وجود له في الأناجيل، وبذلك دخلت أوربا عصورها المظلمة، الأمر الذي استنفر رد الفعل العلماني، الذي حرر الدنيا وثبتها من كل علاقة لها بالدين. ففي مواجهة الكهنوت الكنسي الذي قدس الدنيا وجعل اللاهوت النصراني - وهو خال من الفلسفات المنظمة للدولة والاجتماع - المرجع الوحيد للسياسة والعلم والدولة والاجتماع - في مواجهة هذا الفعل، جاء رد الفعل العلماني لينزع كل قداسة عن كل شئون الدنيا، وليحرر العالم من سلطان الدين، وليعزل السماء عن الأرض، جاعلا العالم مكتفيا بذاته، والانسان مكتفيا بذاته، والاجتماع والدولة والنظم والفلسفات محكومة بالعقل والتجربة، دونما تدخل من الدين.

ولقد ساعدت الملابسات التي نشأت فيها العلمانية، وكذلك المواريث الدينية والفلسفية الغربية على هزيمة الكنيسة وتراجع اللاهوت النصراني أمام النزعة العلمانية.

فلقد كان التخلف الأوربي شاهدا على فشل الحكم الكنسي الكهنوتي ... وكان موقف النصرانية ، الذي يدع ما لقيصر لقيصر ، ويقف بالكنيسة ولاهوتها عند خلاص الروح ومملكة السماء، سلاحا بيد العلمانية ضد اغتصاب الكنيسة للسلطة الزمنية .. وكانت الفلسفة اليونانية - وخاصة عند أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م) - والتي رأت الذات الإلهية مجرد خالق ومحرك أول للكون، ترك تدبيره ورعايته للأسباب المادية المودعة فيه - أي أن العالم مكتف بتدبير ذاته ، لايحتاج إلى مدبر مفارق له - كانت هذه الملابسات الواقعية والمواريث الدينية والفلسفية - في أوربا - عونا لانتصار العلمانية على الكنيسة وسلطانها ..

ولقد تميز، في إطار فلاسفة العلمانية الأوربية تياران:

تيار مادي ملحد ، طمح إلى تحرير الحياة - كل الحياة - من الإيمان الديني .. وكانت الماركسية أبرز إفرازات هذا التيار .. أما التيار الثاني، فهو مؤمن بوجود خالق للكون والإنسان ، لكنه يقف بنطاق عمل هذا الخالق عند مجرد الخلق، فيحرر الدولة والسياسة والاجتماع من سلطان الدين، مع بقاء الايمان الديني علاقة خاصة وفردية بين الإنسان وبين الله .. ومن فلاسفة هذا التيار هوبز (Hobbes) ، (١٥٨٨ - ١٦٧٩م) ولوك Loke (١٦٣٢ - ١٧١٦م) وليبينز Leibniz (١٦٤٦ - ١٧١٦م) وروسو Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨م) وليسينج Lessing (١٧٢٩ - ١٨٧١م) .

* * *

ولقد ظلت العلمانية خصوصية غربية حتى القرن التاسع عشر، عندما جاءت إلى بلادنا الاسلامية في ركاب النفوذ الأجنبي والاستعمار الغربي الحديث .. وإذا كانت مصر - بحكم الموقع والسبق في التطور، والاستقلال النسبي عن السلطان العثماني منذ ولاية محمد علي باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) عليها سنة ١٨٠٥م - قد مثلت طليعة الأقاليم الشرقية في التأثر بالفكر الأوربي - ومنه العلمانية - فلقد كان وفود العلمانية إليها نموذجا لتسللها من أوربا إلى بلاد الشرق الإسلامي في ركاب النفوذ الأجنبي والاستعمار الحديث .

فبعد تحطيم النظام الحمائي - للصناعة والتجارة - الذي أقامه محمد علي باشا في مصر زاد نفوذ التجار الأجانب، ونشأت على عهد الخديو سعيد في سنة ١٢٧٢ هـ - ١٨٥٥ م - أول محكمة تجارية مختلطة بين المصريين والأجانب «مجلس تجار» تسلل إليها القانون الوضعي الفرنسي.

ومع تزايد أعداد الجاليات الأجنبية ونفوذها - وخاصة بعد عقد اتفاقية حفر قناة السويس - نشأت «المحاكم القنصلية» لتقضي في المنازعات الناشئة

العلمانية

بين المصريين وبين الأجانب، وقضاتها أجانب ، ولغتها أجنبية ، وقانونها، وضعى علماني .

ولما زادت فوضى «القضاء القنصلي» الذى توزعته سبع عشرة محكمة قنصلية - نظمت هذه الفوضى سنة ١٨٧٥م بإنشاء «المحاكم المختلطة» - وقضاتها أجانب، ولغتها فرنسية ، وشريعتها هى قانون نابليون..

وبعد أن كان هذا الاختراق - فى المحاكم القنصلية .. ثم المختلطة - مقصورا على المنازعات التى يكون أحد طرفيها أجنبى حدث تعميم لبلوى هذا الاختراق العلمانى فى كل «القضاء الأهلى» - أى فيما عدا المحاكم الشرعية، التى انحصر اختصاصها فى شئون الأسرة والأحوال الشخصية - وكان ذلك عقب استعمار الانجليز لمصر ، فيما سمى «بالإصلاح القضائى» سنة ١٨٨٣م.

ولقد استعان الغرب الاستعمارى بنفر من أبناء الأقلية المارونية ، الذين تربوا فى مدارس الإرساليات بلبنان، فى الدعوة إلى نموذجه الحضارى العلمانى .. فكان فرح أنطون (١٢٩١ - ١٣٤٠ هـ ١٨٧٤ - ١٩٢٢م) أول دعاة العلمانية فى بلادنا ..

ثم تخلق للعلمانية تيار فكرى بلغ ذروته فى كتاب الشيخ على عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ - ١٨٨٧ - ١٩٦٦م) عن «الإسلام وأصول الحكم» الذى صدر سنة ١٩٢٥م مصورا الإسلام - كالنصرانية - دينا لا دولة ، ورسالة لا حكما ، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله..

وفى مواجهة هذا التسلل العلمانى إلى بلادنا ، كانت مقاومة تيار الإحياء والتجديد الدينى لعلمنة القانون والنهضة .. فلقد رأى هذا التيار الإحيائى التجديدى فى العلمانية عدوانا على شمولية المنهاج الإسلامى لأنه دين ودولة، وجامع بين ما لقيصر وما لله .. ولأن نطاق عمل الذات الالهية - فى التصور الإسلامى - لا يقف عند مجرد الخلق، وإنما هو - سبحانه وتعالى - خالق ومدبر للعالم والاجتماع بواسطة الشرائع والرسالات (ألا له الخلق والأمر) الأعراف:٥٤ .

«قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له» - الأنعام ١٦٢ - ١٦٣.

فكان رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ، ١٨٠١م، ١٨٧٣م) أول من

انتقد تسلل القانون التجارى لنابليون إلى المجالس التجارية فى الموانى التجارية، ودعا إلى تقنين فقه المعاملات الإسلامى «الوافى بتنظيم المنافع العمومية ، لأن بحر الشريعة الغراء لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها».

ونهض القانونى البارز محمد قدرى باشا (١٢٣٧ - ١٣٠٦ هـ، ١٨٢١ - ١٨٨٨م) وهو من تلامذة الطهطاوى بتقنين فقه معاملات المذهب الحنفى ، ليقدم البديل الاسلامى فى القانون، كجزء من الرفض والمقاومة للقانون الوضعى العلمانى.

ولقد عبر الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) بلسان مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى - عن ضرورة إسلامية النهضة ، لأن الإسلام - على عكس النصرانية منهاج شامل «فهو كمال للشخص ، وألفة فى البيت ونظام للملك ، ولأن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها»..

ومنذ ذلك التاريخ ، ظل التدافع سجالا - فى واقعنا الفكرى والقانونى والسياسى- بين دعاة العلمنة لمشروعنا النهضوى وبين دعاة إسلامية هذا المشروع.

وعندما أعادت مصر صياغة قانونها المدنى، الذى وضعه الدكتور عبد الرازق السنهورى باشا (١٣١٣ - ١٣٩١ هـ، و١٨٩٥ - ١٩٧١م) والذى طبق عقب إلغاء الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٤٨م، زادت فى هذا القانون مرجعية الشريعة الإسلامية عنها فى سابقه الذى وضع سنة ١٨٨٣م .ولما وضعت مصر دستورها الجديد سنة ١٩٧١م نصت مادته الثانية على أن مبادىء الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للقوانين. وفى التعديد الذى تم الاستفتاء عليه لهذه المادة سنة ١٩٨٠م غدت الشريعة هى المصدر الرئيسى للقوانين، فانفتح بذلك الباب الدستورى أمام المشرع المصرى لأسلمة القانون، ولإجلاء العلمانية عن المواقع التى احتلتها فى بلادنا تحت نفوذ وحراب الاستعمار .

مراجع :

١ - (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) تحقيق ودراسة د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

٢ - (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) وتحقيق دراسة د. محمد عمارة طبعة دار الشروق القاهرة ١٩٩٣م.

٣ - (تقويم النيل) لأمين سامى باشا طبعة القاهرة ١٩٣٦م.

٤ - (عصر اسماعيل) لعبد الرحمن الرافعى طبعة القاهرة ١٩٤٨م .

٥ - (العلمانية بين الغرب والإسلام) للدكتور محمد عمارة طبعة دار الوفاء القاهرة ١٩٩٦م.

عالم الجوائز الأدبية
بين الإجحاف والإنصاف

بقلم: د . صالح جواد الكاظم

●ماهى جدوى الفوز في مسابقة أدبية ؟
ومــــا هــــو دور المحكميــــن ؟

يزداد عدد المسابقات الأدبية فى الولايات المتحدة الأمريكية ازديادا كبيرا كل عام ..

وتمتلىء الصحف والمجلات الأدبية كل فترة بإعلانات عن مسابقات تجريها مؤسسات وأفراد وفق شروط وبمكافآت مختلفة .

وبالرغم من الزيادة الكبيرة فى عدد المسابقات الأدبية بالولايات المتحدة وبخاصة فى السنوات الأخيرة ، لم تتحسن إمكانات الفوز ونشر المخطوطات الفائزة فيها . وبتعبير الشاعرة «مولى بيكوك» مازال هذا الفوز «ضربة مفاجئة» وهذا مصطلح مأخوذ أصلا من معجم للقمار يستخدمه المحكمون فى المسابقات .

وقد كتب الشاعر والناقد اللاذع «جيمز وولتر» دراسة في هذا الشأن بمجلة «شعراء وكتاب» الصادرة فى يوليو ١٩٩٩ ، وبعد مقابلات موسعة مع شعراء وكتاب ومحكمين من مختلف المستويات انتهى فيها إلى أن نشر الأدب الجاد لاسيما فى الولايات المتحدة الامريكية - لا سيما الشعر - مقيد بالمسابقات الأدبية..

ولا ينكر أن بضعة أشخاص فازت كتبهم بغير نفقات كبيرة ناجمة عن جهود التنافس . ومثال ذلك أن الشاعرة (ربيكا

رينولدز) التى فاز كتابها بجائزة مؤسسة (ثمار المطابع الجديدة) عام ١٩٩٧ ، لم تدخل إلا مسابقتين أو ثلاثا قبل أن تفوز بهذه الجائزة . ومن ثم فاز كتابها هذا بجائزة (نورما فاربر) عام ١٩٩٨ ، وهى الجائزة التى تمنحها (جمعية الشعر الأمريكية) لأفضل كتاب أول . ومع هذا، صرحت بأنها تمقت نظام المسابقات .

وكانت (سوزان ويلير)، التى فاز كتابها الأول فى مسابقة أجرتها دار نشر جامعة (جورجيا) عام ١٩٩٣ ، أدخلت مخطوطة كتابها فى (٨٨) مسابقة ، رشحتها أربع أو خمس منها لدور نهائى . وقد قالت : «لم أكن أحسب عدد المرات عندما أقدم مخطوطتى لأننى رأيت هذا مجرد غباوة» ثم أتيحت للشاعرة فرصة أكثر مؤاتاة لنشر كتابها الثانى، (أدخنة) عام ١٩٩٨، الذى فاز بجائزة (فور واى) قبل عامين .

ويرغم الآن على التنافس ضمن «ثقافة التنافس» حتى شعراء لهم مكانتهم السامقة . ومثال هؤلاء الشاعرة (نانسى شويرينجر)، التى فاز كتاباها الشعريان المنشوران وهما : (فتاة فوق رواق أبيض) و (وطويل كما هو النهر) ، [من منشورات جامعة نيويورك] ، فى مسابقتين عام ١٩٨٧ وعام ١٩٩٨ . وهى قلقة من أن العديد من دور النشر المعتمدة على الأموال التى تجمعها من أجور المشاركة فى مسابقاتها تتخلى عن تلك الممارسة المتميزة بعراقتها فى إقامة علاقات طويلة بالشعراء الذين تنشر آثارهم ، وفى تشجيعهم . وقالت :

«إنك تود أن تظن أنه سيوجد محرر أو دار نشر يهتمان بك فى الوقت الذى تنشر فيه كتابك الرابع ، ولكن من سلبيات المسابقات أن دور النشر لا تبقى الآن مع أديب » ..

أجور المحكمين

وصف بعض المشاركين فى المسابقات استخدام أجور المسابقة الواحدة بأنه مفرط أو غير ضرورى . وكانت أجور المشاركة فى المسابقة على الكتب تزداد ببطء فى السنوات القلائل الماضية ، ويبلغ معدلها الآن عشرين دولارا . وتستخدم دور النشر الصغيرة التى ترعى مسابقات القسم الأعظم من الموارد التى تجمعها من أجور المشاركات لتمويل نشر الكتب الفائزة . وإذا وجد أى فائض أعيد إلى دار النشر . ويستفاد مما ذكره (ريك كامبيل) ، الذى أدار جائزة دار نشر (انثينجا) منذ أن أصبح محررا لدار نشر (فلوريدا) الصغيرة للشعر عام ١٩٩٢ ، أن أجور المشاركات عادت بما يقرب من أحد عشر ألف دولار ، وقد أنفق ما يقرب من سبعة آلاف دولار على إنتاج كتاب الفائز ، واستخدم الباقى ليدفع إلى الفائز بالجائزة، وليساعد على الإنفاق على بقية كتب الشعر التى تنشرها (انثينجا). ويتسلم (كامبيل) نفسه مرتبا سنويا كبيرا هو ألفا دولار مقابل كل ما يقوم به من أعمال بصفته محررا لهذه الدار .

وقد طالب بعض النقاد بإعادة أجور المشاركة عندما لا تمنح الجائزة لأية مخطوطة ، أى عندما لا يوجد أى فائز . ورأى آخرون أنه ليس من الإنصاف أن ترجع هذه الأجور ، جزئيا على الأقل ، حيثما كان من شأن ذلك المساعدة على استخدام الأجور للمساعدة على تمويل نشر الكتب الفائزة . أما الادعاء باحتمال أن يكون هذا غير ملائم للمنظمة الراعية فهو يبدو تذرعا واهيا للإبقاء على هذه

الأموال أو حجزها لدى المنظمة بلا مسوغ، منطقى أو مشروع .

ومن البداهة ألا تكون لجميع المشاركين في المسابقات مواهب متساوية أو مستويات ثقافية متقاربة . ولذلك ليس مستغربا أن تجيء المخطوطات التى يقدمها المشاركون متفاوتة ، مضمونا وأسلوبا وتأثيرا . وليس بدعا فى هذا (الماراثون الشعرى) ، أن تكون أعداد كبيرة من النتاجات فى بعض المنافسات هابطة إلى حد قال معه مدير إحدى المسابقات إن ربع المخطوطات المقدمة يتألف من «بطاقات تهنئة شعرية ، بعضها مطبوع بحروف مضحكة أو مصحوب بصور رسمها أطفال المؤلف » . وقال مدير مسابقة أخرى إن من الجلى أن نصف أصحاب المخطوطات لن يجعلوها مؤهلة للجولة الثانية من التدقيق ، واعترف أحدهما بأن كل مسابقة تحتاج إلى هؤلاء المتشاعرين من أجل الدعم المالى الذى توفره أجور مشاركاتهم .

أى شعر يكتب له الفوز ؟

من المخاوف الكبرى التى تتملك المشاركين فى المسابقات الشعرية هو أن هذه عبارة عن تركيبة ، وليس من الضرورى أن يختار المحكمون أعمال طلابهم ، بل يمكن القول بصورة عامة بأنه لا يفوز بالجوائز إلا نوع معين من الشعر. وقد كان هناك شبه اجماع في الرأى بين المحكمين الذين قابلهم (جيمس وولتر) مفاده أن الشعر الذى يفوز فى المسابقات بالولايات المتحدة اليوم متنوع من حيث الأسلوب والموضوع تنوعا لا يصدق . ولكن الشاعرة والمحكمة (بريندا هيلمان) وجهت شيئا من الاعتراض على هذا الإجماع، معربة عن قلقها من أن سلسلة واسعة من الشعر غير التقليدي لا يمثلها اختيار المحكمين الذى هو اختيار محافظ فى أغلب الأحيان .

وفى هذا المضمار ، يلقى سؤال هو : هل يجنح المحكمون إلى اختيار العمل الشعرى الذى يشبه أو يجانس عملهم أنفسهم ؟ إن ثمة إجماعا على رفض الفكرة القائلة بأن ذوق المحكمين شيء يمكن التنبوء به استنادا إلى تكويناتهم أو مواقفهم أو أساليبهم .

وهنا أصرت (بريندا هيلمان) على أن المحكمين على مختلف مشاربهم قادرون على اتخاذ قرارات «محايدة». ثم أكدت «إننى أملك حسا جماليا خاصا بى ولكننى أرنو إلى أن أقدر على رؤية العمل الشعرى من خلال العديد من التقاليد الجمالية القائمة» ..

ويثير الانتباه أن منافسات الكتاب الأول ، التى أعلنت نتائجها فى مجلة «شعراء وكتاب»، خلال العام الفائت ، جاءت بعدد من الأديبات أكبر بكثير من عدد الأدباء . وقد لاحظ (ريك كامبيل) أن دار(انشيجا) لم تتسلم فحسب مخطوطات من النساء أكثر مما تسلمت من الرجال ، بل وجدت أن عمل النساء كان ، بصورة عامة ، يفضل عمل الرجال. ولم تفسر حتى الآن هذه الظاهرة الجديدة ، التى عدتها (بريندا هيلمان) تحولا لمصلحة النساء .

المحكمون ومسار التحكيم

يؤكد (جيمس وولتر) أن معظم المسابقات التى حقق فيها بذلت مستطاعها لتضمن هدفين هما عدالة الحكم، ثم اختلاف نوع الشعر الفائز من عام إلى آخر . ولم يبين معنى العدالة هنا أو معاييرها ، وإن كان هذا صعبا بل

مستحيلا أحيانا . ولكن يبدو أن معيارا جزئيا طبق على معنى العدالة في هذا الصدد . فقد قيل إن بقاء نفس المحكم في عمله ثلاث سنوات متواليات لا ينصف المشاركين الذين يكررون تقديم مخطوطات بذاتها . وكانت دار (انثينجا) فعلت هذا في وقت مبكر من التسعينيات لكنها تخلت عنه فيما بعد .

وعن عمل المحكم نفسه ، للمرء أن يتساءل عما إذا كان للمحكم أن يمتنع عن تسمية أي فائز بالجائزة بعد كل مراحل التحكيم السابقة ، وبالرغم من مشاركة العشرات أو المئات في المسابقة، ويقتضي المنطق أن تكون للمحكم سلطة تقديرية واسعة تشمل حتى الامتناع عن هذه التسمية إذا وجد من الأسباب الموضوعية ما يدفعه إلى هذا .

لكن يبدو أن الامتناع عن تسمية فائز لا يمر بمثل هذه السهولة والمنطق هنا ، بل يثير اعتراضا واضطرابا ملموسين ، وها أن (روك كامبيل) ، يقول إن كارثة حقيقية يمكن أن تحل بدار ترعى النشر عندما يمتنع محكم فيها عن تسمية فائز ما . واستشهد بما وقع لدار (انثينجا) في أوائل التسعينيات ، حيث امتنع (دينيس ليفرتوف) عن تسمية فائز في منافسة معينة أجرتها الدار . ووصف الامتناع بأنه كان «ضربة موجهة إلى سمعة الدار» مضيفا أن «المشاركات انخفضت ، وتلقينا شكاوى عنيفة إلى حد ما» . وفي واقعة مماثلة ، اتهمت الدار والمحكم معا بالعجرفة .

وفي عالمنا العربي ، حجبت مؤخرا جائزة ، وكان هذا الحجب موضوع ترحيب عام .

وبالرغم مما لقيه امتناع المحكمين من امتعاض واستنكار هنا، وجدت أصوات تثني على هؤلاء ، وتعد ما قاموا به محاولة للإبقاء على معايير الشعر الجمالية ، في عالم مترهل جماليا . ولا ارتياب في أن الدافع وراء الشكوى من هذا الامتناع مادي في المقام الأول، لأن موقف المحكمين هذا يفضي إلى خفض المشاركات التي تؤلف الموارد الأساسية للمنظمات الراعية، ويحرم أعدادا من المشاركين فرصة الحصول على جوائز كانت موضع آمالهم ، سواء عن طريق المصادفة أو ضربة الحظ أو «اليانصيب الشعري» إن صح التعبير .

بين التنافس والإنصاف

تصدر دور النشر تعليمات بشأن الجوائز التي تمنحها للفائزين في المسابقات الأدبية التي تجريها . وتحرم المخطوطات التي تخرق هذه التعليمات من حق المشاركة في المسابقة، ومن هذه التعليمات ما يتعلق بإخفاء أسماء المشاركين في المسابقة . والمفترض أن الغاية من هذا الإخفاء هي حماية حق كل مشارك في أن يعامل بإنصاف ، أي دون تأثر بأي اعتبار غير موضوعي . ولكن المفترض، مبدئيا ، أن يكون المحكمون على حد من النزاهة والحيدة والإنصاف بحيث لا تكون بهم حاجة إلى إخفاء أسماء المشاركين ، شأنهم في ذلك شأن قضاة المحاكم القانونية .

وفي التطبيق العملي ، تختلف المواقف من مسألة إخفاء الأسماء . فقد قال (ريك كامبيل) إن المخطوطات التي تخرق تعليمات جائزة (انثينجا) لا تؤهل للمشاركة في المباراة ، وأشارت (روبس) من دار (فور واي) إلى أنها لم تتحمس قط لحرمان مخطوطة من حق المشاركة .

وقالت «إننا نعد تعليماتنا مجرد إرشادات للعمل، وما يعتبر قاعدة ملزمة مسألة تتعلق بحكم عقلي عام» . ولكنها أكدت أنها لا تؤهل مخطوطة للفوز إذا عرف اسم كاتبها.

ولكن ماذا يفعل المحكمون إذا تعرفوا على اسم المشارك بطريقة ما ، وماذا عليهم أن يفعلوا ؟ لقد قيل إن مثل هذا النوع من المواقف حالة نادرة ، ولاسيما عندما يحكم على المخطوطات غفلا ، ولكنها حالة يمكن أن تقع . والحقيقة أن مديرى المسابقات لم يطلبوا من المحكمين أن يحرموا أية مخطوطة من المسابقة إذا حدث مثل هذا الوضع . ويمكننا الاستنتاج مما صرح به بعض المحكمين بأن مواقف هؤلاء كانت تتسم بالمرونة والتيسير بصورة عامة ، إذ لم يتخذوا من هذه الحالة ذريعة لحجب حق المشاركة بالمسابقة عن الذين انكشفت هوياتهم لهم..

وهكذا قالت (بريندا هيلمان) : «أستطيع أن أقول لك إن من بين الكتب الستة التي اخترتها في المسابقات، لم أكن أعرف من مؤلفيها إلا مؤلفة واحدة كنت قد رأيت مخطوطتها من قبل . ومازلت أعتقد بأنني فعلت الشيء الصحيح بالتأكيد» ..

واعترفت (مولى بيكوك) بأنها اختارت عملا كانت تعرفه من قبل . وقالت : «إنك تختار أحيانا عملا تعرفه، وتصيبك معاناة أو شعور بالألم شديد، ثم تكون فرحا جدا لأن مدققين وجدوا قبلك» .

وخليق بنا أن نستذكر ما قاله (جيمس وولتر) في الأثر الفعلي لإخفاء الأسماء، وهو «إنه ليس واضحا ما إذا كان فرض غفلية مطلقة على المخطوطات يضمن عملا - لا قولا فحسب - أن يكون الحكم في المنافسة منصفاً» ..

ويبدو أن جو الشك هذا أضعف الثقة بفاعلية الغفلية ، فلم يرها البعض ضمانة بذاتها للحيدة في المسابقات . ولذا لم تجد (أكاديمية الشعراء الأمريكيين) حرجا في أن تزود المدقق الخارجي والمحكم النهائي بقائمة كاملة لأسماء الشعراء المتقدمين إلى المسابقة وعناوينهم، ولا غرابة أن تعلن (جمعية كاليفورنيا الشعرية) طلبا لقصائد، واشترطت أن تضم هذه اسم المشارك وعنوانه على جميع صفحات المخطوطة التي يقدمها .

الفائزون وعوائد بيع الكتب

إن عدد نسخ الطبعة الأولى من الكتاب الفائز منخفض إلى حد ما ، إذ يتراوح بين خمسمائة نسخة وألف وخمسمائة نسخة ، أما المعدل فيبلغ ألف نسخة ويزداد هذا العدد عندما يوزع الذين يرعون المنافسة نسخا على غير الفائزين وعلى أعضاء الدار . وتنشر بعض الدور الراعية الكتاب الفائز بغلاف ورقي، وبغلاف سميك وإن كانت الطبعة بهذا الغلاف محدودة جدا . ويتسلم الشاعر الفائز عشر نسخ مجانا من كتابه. وله أن يشترى أي عدد من النسخ بتخفيض لسعر الكتاب قدره أربعون بالمائة .

ويرسل رعاة بعض المنافسات على الكتاب الأول ، من أمثال جائزة (ماى سوينسن) وجائزة (ت . س . اليوت)، نسخا من الكتب الفائزة إلى كل شخص شارك في مسابقة ذلك العام. وترسل نسخة مجلدة من الكتاب الفائز بجائزة (والت ويتمان) ، إلى كل عضو من

(أكاديمية الشعراء الأمريكيين)، ولكن ليس إلى المتنافسين غير الأعضاء . وقد قيل إن إعطاء غير الفائزين نسخا من الكتاب الفائز ربما يحقق بعض ألمهم . لدفعهم أجر المشاركة دون مقابل ..

حصيلة الفوز ..

لامرية في أن الفوز بمسابقة - وطبع كتاب - يمكن أن يكونا نعمة على حياة الشاعر المهنية . وقالت (جاكو بيك)، الفائزة بجائزة (جونيبير)، «إن هذا يحدث فرقا كبيرا من الناحية النفسية، فأنا أشعر بأنى أكثر ثقة بنفسى لأن لى كتابا. وهذا خلق جمهورا لعملى ، ومن الأكيد أننى منحت العديد من القراءات الإضافية، والآن تقع أشياء لم تقع من قبل .. وها أنذا أحصل على طلبات لعملى من محررين» ..

إن تجارب الفائزين وأوجه إفادتهم من الفوز، تتفاوت إلى حد كبير .. وهكذا تعتنى بعض المنظمات الراعية اعتناء فائقا جدا بالفائزين فى مسابقاتها فتقيم احتفالات للجوائز ، وتقدم إلى المؤلفين نسخا من مراجعات كتبهم ، وتدخل الكتب الفائزة فى مسابقات الكتب المنشورة فى السنة الماضية ، وتهيىء قراءات من هذه الكتب، وتساعد فى حالات نادرة على تسديد بعض نفقات السفر للقيام بأنشطة ترويجية للكتب الفائزة . وهذا ما تفعله (فور واى) .

إلا أن منظمات راعية أخرى تقتصر إفادتها على دفع جائزة نقدية ، وقد توزع نسخا للمراجعة . ومثلما توجد فروق بين مبالغ النقود التى تحملها مختلف الجوائز، ثمة فروق بين السرعات التى تصل بها صكوك المبالغ، إذ هى بين شهر وستة أشهر بعد الإعلان عن الفوز . كذلك تتفاوت المدد بين إعلان أسماء الفائزين ونشر كتبهم .

هذا وقد رأت (ميشيل وولف) ، - الفائزة بجائزة أنثينجا عام ١٩٩٧ عن كتابها (محادثات خلال النوم) ، - كتابها هذا مطبوعا بعد خمسة أشهر فقط من علمها بالفوز بالمسابقة . ولكن هذه سرعة استثنائية . والأغلب أن ينتظر الفائزون سنة أو ثمانية عشر شهرا أو فترة أطول قبل أن يروا كتبهم مطبوعة .

وتتراوح المبالغ النقدية لجوائز الكتاب الأول بين خمسمائة دولار وخمسة آلاف دولار . ولكن معظمها يتراوح بين ألف دولار وألفى دولار . (وجدير بالذكر أن جائزة الشعراء الشباب التى تمنحها جامعة (ييل) وهى واحدة من أعلى الجوائز مكانة ، لا تقدم أى مبلغ نقدى) .. وبين المنافسات التى تقدم مكافآت نقدية إلى المحكمين ، تتراوح معظم المبالغ التكريمية بين مائة وخمسين دولارا، وألف وخمسمائة دولار . وفى القليل من الحالات يصل المبلغ التكريمى إلى حد أقصاه ألفان وخمسمائة دولار . ويتسلم مدققو الجولة الثانية مبلغا أقل من هذا . أما مدققو الجولة الأولى فيتسلمون مبلغا زهيدا هو دولاران للمخطوطة الواحدة ، إذا ما دفع اليهم شيء ما .

ويمكن الاستنتاج من هذه الأرقام التقديرية أن ما من أحد من المديرين أو المحكمين أو المدققين أو الفائزين لا يحصل على جوائز ضخمة تحقق له ثروة كبيرة . وثمة شعور بمحنة الشعراء بل تعاطف عميق وإياهم ●

التكوين

أدركت أن حرب المال لا تقل حدة وقسوة عن حرب الجيوش

أحمد أبو زيد

أن يولد طفل في مصر وفي الإسكندرية بالذات في أوائل العشرينات، وترى الثلاثينات من القرن الماضي (القرن العشرين) نشأته الأولى وصباه بل وشبابه المبكر معناه أن ينشأ هذا الطفل في جو مليء بالحركة والأحداث السريعة المتلاحقة على المستويين السياسي والوطني وأن يرى منذ الصغر، حتى وإن لم يكن يدرك الأبعاد الاجتماعية لما يراه، كيف تتداخل وتتفاعل هذه الأحداث مع حركة السكان أنفسهم الذين كانوا يؤلفون وحدة عضوية متكاملة ومتماسكة رغم ما بينهم من فوارق عرقية ولغوية ودينية .

وذلك إذا استثنينا بعض عناصر الأرستقراطية التركية والدبلوماسية الأجنبية و (الشوام) الذين رأوا أن يربطوا أنفسهم وحياتهم ومستقبلهم بتلك الفئات الغربية والمنعزلة عن بقية فئات الشعب بما فى ذلك أعداد هائلة من الأجانب الذين ارتبطوا عاطفيا وليس فقط اقتصاديا بالمدينة وأهلها الأصليين وكانوا يعتبرون أنفسهم (أولاد بلد) إلى حد كبير حتى وإن حاولوا التظاهر بغير ذلك . وكان خليقا بهذا التداخل والتفاعل بين السكان الأصليين من مسلمين وأقباط ويهود مع تلك الجاليات الأجنبية التى عاشت عشرات السنين فى الاسكندرية أن يدفعا مثل هذا الطفل إلي أن يدرك حين تتقدم به السن وتتفتح مداركه معنى التسامح القائم على الاحترام المتبادل رغم الاختلافات بين الناس ، بل وأن يعتقد أن



د. أحمد أبو زيد

هذا التسامح هو الشكل الطبيعي للعلاقات إلى أن تتدخل المصالح الاقتصادية أو الانتماءات الحزبية أو الاتجاهات السياسية فتفسد الأمور وتؤدى إلى الشقاق والعداء .

الصبا والحركة الوطنية

كانت هذه الفترة التى شهدت مولدى أنا شخصيا ونشأتى ومرحلة الصبا زاخرة وغنية بأحداثها السياسية وبالحركة الوطنية التى تفجرت فى مصر كلها بعد الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ والمطالبة بالحياة النيابية السليمة الصحيحة وصدور دستور ١٩٢٣ وسيطرة حزب الوفد على مشاعر الأمة والجماهير العريضة وتزايد العداء نحو الانجليز . ومع أننى لم أكن بطبيعة الحال أدرك معنى أى شىء من ذلك إلا أننى أذكر جيدا أن عائلتى سيطر عليها ذات يوم وبدون سبب واضح لى على الأقل حزن عميق عرفت بعد ذلك أنه بسبب موت زعيم الأمة سعد زغلول الذى كان اسمه يتردد على كل لسان حتى على ألسنة الأطفال الصغار ويبلغ من تعلق الناس به أنهم كانوا يطلقون اسمه الكامل (سعد زغلول) على مواليدهم الجدد. وقد كانت عائلتى وفدية صميمة مثل الغالبية العظمى من العائلات فى ذلك الحين لأن الوفد كان هو الذى يحمل آمال الأمة بالاستقلال ومستقبل باهر .

وقد ظلت العائلة متمسكة بوفديتها حتى بعد سلسلة الانشقاقات التى تعرض لها ذلك الحزب لأن الوفد كان يقف موقف المناوأة الصريحة من الانجليز وبالتالى من نفوذ الأجانب فى مصر مما كان يتفق مع أهواء العائلة ويوافق مصالحها الخاصة . فقد كان الوالد من رجال الأعمال المشتغلين فى حقل استيراد الفحم الذى كانت تعتمد عليه السكك الحديدية فى تسيير قاطراتها وكان يدخل بحكم العمل أو (التخصص) فى صراعات ونزاعات طويلة ومريرة مع عدد من رجال الأعمال الأجانب الذين يعملون فى ذلك المجال وهى صراعات ومنازعات كانت تقود بالضرورة إلى المحاكم المختلطة حيث لم يكن المصرى يجد العدالة الموضوعية.

ولكننى أذكر أن والدى كان قد أقسم على أن يحارب أحد كبار المستوردين من

اليهود البلجيكيين حتى تفلس شركته ويغلق مكتبه وأن يطارده حتى يترك مصر إن أمكن ، وقد استمر عرض النزاع سنوات طويلة على المحاكم المختلطة ثم تدخل القضاء المصرى بعد معاهدة ١٩٣٦ وإلغاء الامتيازات الأجنبية . وعلى أى حال فإن قيام الحرب العالمية الثانية أعفى والدى من ذلك القسم إذ آثرت عائلة ذلك اليهودى أن تهرب من مصر إلى جنوب أفريقيا حين اقتربت الحرب من أبواب مصر الغربية نتيجة لتقدم قوات روميل وانتصاراته فى أول الأمر .

ولقد شاهدت بذلك مدى عمق العداوة وضراوة الصراع الذى قد ينشب بين رجال الأعمال حين تتصادم المصالح وأدركت أن حرب المال لا تقل حدة وقسوة عن حرب الجيوش المتقاتلة ، إذ رغم اختلاف الوسائل والأساليب وأدوات القتال فإن الهدف النهائى هو (القتل) سواء أكان ذلك قتلا جسمانيا فيزيقيا أو معنويا أو اقتصاديا وأن الحرب أيا كان نوعها ومبرراتها لن تنتهى إلا بقتل أحد الطرفين أو هروبه أو استسلامه والهروب والاستسلام نوعان من الموت على أى حال، وقد ترسب ذلك فى ضميرى وأعتقد أنه كان أحد الأسباب التى صرفتنى عما كان الوالد يريده لى من أن أتولى أعماله الضخمة من بعده .

نشأتي في المدينة العريقة

كانت نشأتى فى أحد أحياء الاسكندرية القديمة العريقة القريبة من الميناء بحكم عمل الوالد وهو حى القبارى الذى كان يقوم فى ذلك الحين قرب نهاية الطرف الغربى للمدينة حيث كانت تبدأ الصحراء بعده بكيلومترات قليلة ، وذلك قبل أن تمتد المدينة وتتسع وتتشعب وتتحول مناطق واسعة ومترامية من تلك الصحراء إلى مناطق سكنية مأهولة وكثيفة الزحام بشكل يثير الأسى والفزع . وكانت المنطقة التى تقيم فيها العائلة داخل ذلك الحى لها طابع خاص فقدته بمرور الزمن وزيادة السكان وهجرة أهلها الأصليين . فقد كانت منطقة شبه مغلقة لا تضم سوى اثنين وثلاثين بيتا كبيرا ذات ارتفاع واحد (ثلاثة طوابق) ويملك كل بيت منها عائلة واحدة كبيرة ينتمى أعضاؤها إلى ثلاثة أجيال فى الأغلب ولكن كل أسرة من أسرات هذه العائلة كانت تنفرد فى الأغلب بمسكنها الخاص وحياتها الخاصة المستقلة أيضا .

وكانت البيوت موزعة فى مربعات يضم كل مربع منها أربعة بيوت وتمتد المربعات على جانبى شارع فسيح بحيث تقوم أربعة مربعات تضم ستة عشر بيتا على كل جانب من جانبى ذلك الشارع الممتد من الشمال إلى الجنوب كما كانت تفصل المربعات بعضها عن بعض شوارع عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب،

وكانت المنطقة معروفة باسم (التيرو) نظرا لقربها من ميدان رماية وصيد الحمام الذى كان يمارسه بعض أمراء وأرستقراطيي ذلك العصر، فقد كان يقوم فى ميدان الصيد بقايا قصر قديم متهدم يقال إن الذى بناه هو والى مصر سعيد باشا وكان يفصل هذه المنطقة عن بقية الحى ثلاثة شوارع رئيسية واسعة وفسيحة حتى تتحمل حركة النقل والمواصلات ثم تأتى بعدها إما مساكن بقية سكان الحى وإما بعض المخازن الضخمة وإما الحقول الممتدة تجاه الجنوب والتى كانت تزود الحى كله وبعض الأحياء الأخرى باحتياجاتها من الخضراوات والفاكهة (الموالح والموز) .

كانت هذه منطقة سكنية بكل معانى الكلمة وهو ما نفتقده الآن فى كل المدن المصرية . فلم يكن بها سوى محلين اثنين للبقالة لسد احتياجات السكان الضرورية، أما بقية أنواع النشاط التجارى والصناعى والخدمات وحتى المقاهى فكانت كلها على الجانب البعيد من الشوارع الرئيسية الثلاثة التى تحيط بهذه المنطقة على أساس أن الطرف الرابع للمنطقة كانت تحده الحقول والمزارع .

وكانت بعض البيوت تعرض وحدات قليلة منها (شقق) للإيجار لأن البيت أكبر من أن يشغله أفراد العائلة ، وبذلك أقامت فى المنطقة ثلاث أو أربع عائلات قبطية وعائلة واحدة يهودية كانت تقيم فى بيت فى الطرف الجنوبى الملاصق للمزارع ، وعائلتان يونانيتان كان رجالهما يعملون فى بعض الشركات وبخاصة شركة النور وشركة المياه وبعض شركات الاستيراد أو تصدير القطن . وهذا التنوع هو الذى أعطانى منذ الصغر الإحساس بوحدة (السكان) وتآلفهم رغم اختلاف الدين والعرق واللغة، فكان أطفال العائلات جميعا يلعبون معا وكانت السيدات يتزاورن بينما كان الرجال يمضون جزءا من أمسياتهم فى المقاهى وبخاصة مقهى كان يملكه أحد اليونانيين من خارج المنطقة ولكنه يسكن فى منطقة أخرى فى نفس الحى . ولم تكن تعبيرات مثل (الوحدة الوطنية) التى تتردد على كل لسان هذه الأيام معروفة حينذاك وإن كانت مطبقة تطبيقا عمليا بطريقة تلقائية سليمة .

أسرتى ذات تركيب غريب

كانت الأسرة التى أنتمى إليها داخل العائلة الكبيرة أسرة ذات تركيب غريب يبدو متنافرا لأول وهلة وإن كان هناك فى واقع الأمر تكامل قوى وفريد . وقد بدا هذا التنافر الظاهرى فى اختلاف الاتجاهات والاهتمامات بل وفى الأصول العرقية الأولى ، فقد كانت الأسرة تنتمى من ناحية الأب إلى أصول مغربية وصعيدية، والروايات كثيرة ومتضاربة حول الأجداد أو الأسلاف الأوائل الذين قدموا من المغرب وأقاموا لبعض الوقت

فى تونس وليـبـيـا حـتى وصلوا إلى الإسكندرية وأقـامـوا فـيـهـا واشـتـغلوا بالتجارة وانتقل بعضهم إلى الصعيد وإلى الفيوم . أما على جانب الأم فإن الأسرة كانت تنتمى إلى أصول تركية تدور حولها هى الأخرى بعض القصص والأساطير التى لا أعرف مدى نصيبها من الصدق والتى يبدو أن بعضها تم صنعه من وحى الخيال لإشباع الكبرياء وتوكيد الذات . ولكن المؤكد أن بعض الأجداد من ناحية الأم ومنهم جدى المباشر كانوا من رجال الدين بل إن جدى والد أمى كان شيخا أزهريا (مستنيرا) على ما سترى . وهكذا اجتمعت فى الأسرة المباشرة أو العائلة الصغيرة النواة - حسب التعبير الأنثربولوجى - الثقافة الدينية مع الخبرة الاقتصادية أو المالية العملية المستمدة من التعامل مع السوق على نطاق واسع . ولست أعرف تماما كيف (اجتمع الشامى مع المغربى) كما يقول المثل السكندرى، والشامى هنا هو العرق التركى، وإن كان هناك ما يدل على أن علاقات المصاهرة قديمة وأن الوالد يمت بصلة قرابة ما إلى الوالدة من ناحية الأجداد . والمهم هو أن الجو الذى نشأت فيه كان يجمع بين الثقافة الدينية الروحية بكل أعماقها والميول والتعاملات الاقتصادية المادية العملية دون أن يكون هناك تناقض واضح ودون أن يؤدى ذلك إلى أى نوع من التشتت أو التمزق العائلى ومع ذلك فإن تأثير الثقافة الشرقية التركية والإسلامية كان قويا وظاهرا بوضوح فى كثير من نواحى الحياة اليومية العادية ابتداء من تأثيث المنزل بالأرائك والسجاد والمرايا المذهبة الضخمة إلى (التصاوير) على الجدران والتى كانت تمثل أهم وأشهر مساجد اسطنبول وملامحها الفيزيقية إلى الشمعدانات والشربات و (القازات) المصنوعة مما كان يطلق عليه اسم (الزجاج التركى) إلى لوحات الآيات القرآنية بخطوطها الجميلة وذلك إلى جانب مكتبة دينية وتراثية إسلامية كبيرة انتقلت من الجد إلى الأم ثم كانت من نصيبى بعد ذلك . وكان الجد للأم كما ذكرت شيخا أزهريا مستنيرا عرفت فى مكتبته كتب التاريخ والفقه والأدب إلى جانب كتاب الحيوان للجاحظ والحيوان للدميرى بالإضافة إلى المجموعة الكاملة للأغانى ثم كتاب ألف ليلة وليلة (الطبعة الكاملة الأصلية) إلى جانب غزليات ابن أبى ربيعة وخمريات ومجونيات أبى نواس وذلك فضلا عن عدد كبير جدا من الكتب المترجمة فى مختلف فنون المعرفة . ويضاف إلى هذه الثروة الذهنية والعقلية الهائلة ثروة فنية لا تقل روعة وتتمثل فى عدد كبير من الأسطوانات الغنائية والموسيقية وبعضها - وهو ما قد يبدو غريبا - كان فى الموسيقى الكلاسيكية

الغربية وبالذات العزف على البيانو ، وقد كان الجد نفسه كما أخبرتني الوالدة يعزف على العود وعلى الكمان .

الجمع بين الشرق والغرب

ولكن وسط هذا الجو المشبع بروح الشرق والإسلام كانت الحياة الغربية تجد لها مكانا فسيحا وإن لم يكن له في نفسي أنا على الأقل نفس الدرجة من التأثير . فقد كان البيت يستقبل أعدادا كبيرة من الشوام و (الخواجات) من رجال الأعمال وبخاصة في الليل حين تتردد اللغات الأجنبية ، وبخاصة الإيطالية واليونانية إلى جانب (الرطانة) بالعربية المصرية ، وقد عرفت معاملات هؤلاء (الخواجات) وكان هناك بعض التفكير في إرسالي إلى إحدى المدارس الفرنسية أو إلى معهد دون بوسكو الإيطالي حتى يمكن إعدادي منذ الصغر للدخول إلى جو المعاملات التجارية والمالية ، ولكن كان القرار النهائي - الصائب من وجهة نظري - هو إرسالي إلى إحدى المدارس المصرية (الحكومية) حيث كانت المدارس الحكومية في ذلك الوقت تتمتع بالمكانة المحترمة والسمعة الطيبة وتتفوق في ذلك على التعليم الخاص . وليس من شك في أن الوالدة لعبت دورا كبيرا في الوصول إلى هذا القرار المناسب خاصة أنني في المرحلة المبكرة كنت أتلقى تعليمي في إحدى المدارس الأولية التي تعني باللغة العربية وتحفيظ جانب كبير من القرآن الكريم إلى جانب الحساب . كما لعب دورا مهما في ذلك القرار بعض المحامين المصريين من أصدقاء الوالد وقد تولى بعضهم الوزارة فيما بعد مثل أحمد مرسي بدر (باشا) وعبد الفتاح الطويل (باشا) .

وكان يسيطر على جو البيت والأسرة شيء من الالتزام الأقرب إلى الصرامة وذلك بفضل شخصية الأم الجميلة المهيبة التي تجمع بين الطيبة والحزم ، وشخصية الأب رجل الأعمال الملتزم إلى أبعد حدود الالتزام ، وليس من شك في أن تأثير الوالدة كان أقوى وأعمق في نفسي ، لأنها كانت تعني بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياتي وحياة إخوتي ، وعلى أي حال فقد كنت ثاني إخوة وأخوات ستة ولذا حظيت بجانب كبير جدا من عنايتها قبل أن يأتي الأربعة التالون لي . وأذكر أنها كانت تهتم اهتماما كبيرا للغاية باختيار ملابسي ، ولست أذكر على سبيل المثال أنني لبست طوال حياتي وحتى الآن قميصا ملونا فقد كانت تحرص على أن يكون قميصي دائما ومنذ الصغر من اللون الأبيض وأن تكون البدلة دائما من اللون الرمادي بدرجاته المختلفة ثم بعد ذلك من اللون الكحلي الذي يبرز (بياض) ونظافة القميص ولم ألبس اللون البني بدرجاته المختلفة إلا في المدرسة الثانوية حين أتيحت لي بعض

الحرية وحتى أجارى زملائى من الشباب ، بل إنها كانت تحرص على أن تضع فى جيب سترتى العلوى منديلا أبيض اللون تظهر أطرافه من الجيب ولا تزال هذه عادتى حتى الآن وإن كانت أطراف المنديل أصبحت الآن أكثر بروزا إلى جانب تعدد الألوان ، ولم تسمح لى بأن أرتدى البنطلون الطويل إلا بعد أن بلغت الرابعة عشرة وأنا فى المدرسة الثانوية ، فالصورة المثالية للتلميذ فى نظرها هى أن يكون أنيقا ونظيفا وأن يكون بنطلونه قصيرا (فوق الركبة) وهكذا ، ومع التزامى حتى الآن بما تعودت عليه منذ الصغر فيما يتعلق بالألوان فإننى لم أستطع تطبيقها على أولادى ربما لأن أم أولادى ليست تركية وإن لم تقل عن أمى فى اهتمامها بملابس الأولاد وملابسها هى أيضا بدون شك .

الشارع وتأثيره في حياتي

كان للشارع دخل كبير فى تربيتى وتنشئتى ولكن بطريقته الخاصة . فقد كان أطفال هذه المنطقة السكنية المحدودة يتجمعون معا للعب فى الشوارع النظيفة المرصوفة رصفا جيدا والتى لا تكاد تدخلها أى وسيلة للانتقال إلا فى النادر جدا وبذلك كانت العائلات تأمن على أولادها ، ولم يكن اللعب يخرج عن إحدى إثنتين : إما لعب الكرة وإما لعب (البلى) الملون . ولست أذكر أن لعب الكرة اجتذبنى إليه أبدا ، وحتى الآن لا أكاد أتابع المباريات حتى الدولية منها ربما نظرا للصخب الشديد الذى يلازمها وما قد ينشأ عنها أحيانا من عنف وكنت دائما أعتبرها لعبة (غوغائية) . ومع ذلك فإن لعب الكرة فى الشارع فى المنطقة التى كنا نعيش فيها لم يكن يثير كثيرا من الضجة أو الضوضاء وربما لأن اللاعبين فى العادة كانوا هم جمهور المشاهدين . أما لعب البلى فقد استهوانى تماما وكنت أنفق على شرائه معظم نقودى القليلة ، ولم يكن يصاحب اللعب أية ضوضاء ، فهى لعبة تحتاج إلى الهدوء والتركيز بل وفيها درجة لا بأس بها من (الذوق) الرفيع فى التعامل .. وكنت أمضى ساعات طويلة فى البيت وأنا أحصى ما عندى من بلى وأقوم بترتيبه وتصنيفه حسب الحجم واللون وتناسق الألوان بل وأصنع منه أحيانا لوحات جميلة ، وقد ساعدنى ذلك على نمو الرغبة فى الانفراد بالذات بعيدا عن الآخرين دون أن أشعر بالضجر أو السأم ، وكان ذلك مفيدا لى فيما بعد إذ أستطيع أن أنقطع عن الآخرين وأنفرد بنفسى مع الكتب ومع الموسيقى لأوقات طويلة جدا . فقد استبدلت بالبلى القراءة وسماع الموسيقى.

ومن بين أطفال المنطقة استطاعت مجموعة صغيرة أن تميز نفسها منذ الصغر بحب القراءة ، وكانت البداية مجلة

أسبوعية للأطفال اسمها (مجلة الأولاد) تصدر كل خميس وثمنها خمسة مليمات ، وكنا نتناولها معاً . ثم ارتقت أذواقنا ومداركنا بعض الشيء وعرفنا على الجانب الآخر من الشوارع الرئيسية ثلاث أو أربع (مكتبات) لبيع الجرائد والمجلات و (تأجير) الكتب نظير قرش واحد للكتاب الواحد لمدة أسبوع كامل ، وكان من السهل أن يستعير كل فتى منا أحد الكتب ثم نتداول فيما بيننا تلك الكتب كلها وبذلك يقرأ كل منا أربعة أو خمسة كتب على الأقل كل أسبوع نظير قرش واحد ، وتطورت قراءاتنا إلى كتب المنفلوطي الذي لعب دورا كبيرا في تنشئة أجيال كاملة على حب القراءة والأدب ويحتاج دوره إلى التسجيل والتقويم بما يستحق من عناية ، ثم جاءت الروايات العالمية المترجمة وبخاصة سلسلة (مسامرات شهرزاد) و (روايات الجيب) وهكذا . وحين دخلت إلى مدرسة رأس التين الابتدائية كانت لدى حصيلة هائلة - بالنسبة لسنّي - من القراءة في الأدب العربي والآداب الأجنبية المترجمة ، وقد لازمتني عادة الاستعارة بهذه الطريقة لعدة سنوات .

وفي الشارع أيضا عرفت فن التمثيل المسرحي ، وكانت للاسكندرية فرق مسرحية خاصة بها مثل فرقة المسيري وفرقة خميس سكر وفرقة مصطفى حمام وكانت تعرض من حين لآخر مسرحياتها في الحي في أرض فضاء واسعة على الجانب الآخر من أحد الشوارع الرئيسية المحيطة بالمنطقة التي أسكنها ، وكانت تقدم عروضا خاصة للأطفال في الصباح إلى جانب عروض الأراجوز وغيرها ، وقد ظهر من بيننا أطفال وفتيان لا يزيد عمر أكبرهم على عشر سنوات أرادوا محاكاة هذه الفرق ، وتكونت من بيننا فرقة تمثيل كنت أحد أفرادها ، وظهر أيضا من بيننا من تصور في نفسه القدرة على التأليف أو الإخراج ، وكنا نقدم عروضنا فوق سطح أحد المنازل مستخدمين حبال الغسيل وملاءات السرير لتكون بمثابة ستار المسرح ، وبعض المناضد لتكون بمثابة خشبة المسرح ، وكانت الأمهات يباركن ذلك بل وأحيانا يحضرن العرض ، وقد نمت عندي رغبة التمثيل وأشبعتها إلى حد كبير في فرق التمثيل في المدرسة الابتدائية والثانوية وحتى الجامعة .

وإذا كانت أسرتي اتخذت قرار إرسالي إلى مدرسة رأس التين وإذا كنت وجدت في مكتبة جدي كتب التراث والقراءات الجادة فإن الشارع هو الذي هيأني بطريق مباشر لتنمية قدراتي على التركيز والانفراد بالذات وتنويع القراءات وإشباع هوايتي للتمثيل والفن وكلها ظهرت بوضوح بعد التحاقي بالمدرسة الابتدائية التي تمثل مرحلة مهمة في حياتي .

مسلسل أم كلثوم بين الايجاب والسلب

أعجبنى مقال د. جلال أمين المنشور بعدد فبراير ٢٠٠٠ من مجلة الهلال «أم كلثوم فى الحقيقة والمسلسل التليفزيونى» لما يحويه من نقد صادق

١ - فبالنسبة لنجاح المسلسل رغم الضعف الشديد فى عنصر الدراما .. فهذا يثبت أن هناك عنصرا أكثر أهمية، وهو عنصر الصدق، فالعمل الفنى ينجح فى الغالب إذا كان يغلفه الصدق من الداخل، ولا ينجح أو لا يستمر إذا اعتمد فقط على عنصر الدراما والأحداث المفتعلة، أما إذا اعتمد على العنصرين فقد اكتمل العمل وهو ما لا يحدث إلا نادرا .

٢ - وبالنسبة للتركيز على الجانب الايجابى فى شخصية أم كلثوم دون إبراز الجانب السلبى منها .. فهو أيضا سمة من سمات أفلامنا العربية.

٣ - برغم إتقان دورى كل من القصبجى والسنباطى فى المسلسل.. فإنه لم يقدم لنا الحقيقة كاملة .. فالقصبجى لم يكن متجهما طوال الوقت، فهو فنان حقيقى والفنان لا يمكن أن يكون هكذا دائما، كذلك السنباطى فهو لم يكن سلسا لهذا الحد الذى ظهر به فى المسلسل، فقد كان كما يقال «منطويا» ولقد ابتعد هو الآخر عن أم كلثوم حينا من الوقت ليثبت أن ألحانه هى الأقوى.

عادل شافعي الخطيب
عضو اتحاد الكتاب

توافق

ما ضرّ أن تبنى قصورا من غسق
متسللا
بين انحناءات المسالك والبشر
وتحاور الطير المعاند والسماء
وجدائل الليل المضمّخ بالزهور
تلقى ستورا فوق نافذة القمر
وتطرّز القصص الذى انهمرت به
سُحُب الشتاء العابرة

فوق الوسائد والمقاعد والصور
قبل النسئ وقبل طوفان الحجر
ومن الممالك قد جلبت السندباد
ومطهّمات تستمد من الشفق
لون تقادم في الدهور
لون تقاطر في شقوق الأرض
في صخر الألم
***
ما ضَرّ لو أكرمت من سقطت خطاه من الزمن
واستدبرته موائد الأفلاك في سوق المحن
حلس تمزّق أو كفن
وشَرابه صبر أسن
ونزاعه بين المجرّة والحُفرَ
ينهى التضاد توافقا
بين الرفاة الغابتات زهور صبّار بدم
قتل العدم

د. حسنة عبدالحكيم عبد الله
كلية بنات عين شمس

تعقيب حول مقال الدكتور رجب البيومى

قرأت في مقال الدكتور محمد رجب البيومي المنشور بمجلتكم الموقرة عدد فبراير ٢٠٠٠ مقالا بعنوان «مناقشة هادفة.. تحرير المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين» وقد لفت نظري ما كتبه الدكتور البيومي في صفحة ٢٩.

ويدور المقال كله على أن محمد عبده قد كتب مقالات في كتاب تحرير المرأة، ومن مراجع الكاتب التي اعتمد عليها ما كتبته الدكتورة درية شفيق بنت أحمد شفيق باشا في كتابها «تطور النهضة النسائية في مصر .. إلخ».

وأشير إلى أن والد السيدة درية شفيق كان يعمل مهندسا في طنطا، وهو من أسرة متوسطة الحال ، ونقل بعدها إلى المنصورة ومنها إلى الاسكندرية ، وليس أحمد شفيق باشا ولا يمت له بأية صلة قرابة..

محمد إبراهيم عامر
طنطا

انت والهلال

بابا الفاتيكان ولماذا لم يزر العراق؟

كتبتم فى عدد يناير ٢٠٠٠ من الهلال فى موضوع «إبراهيم الخليل أبو الأنبياء» بأن بابا الفاتيكان سيقوم برحلة هى الأولى من نوعها، يبدأها بزيارة أور فى العراق، ومنها يسير فى رحلة على خطى سيدنا إبراهيم عليه السلام، ذلكم أبو الأنبياء قدر الله نشأته فى مدينة أور على الضفة الغربية من نهر الفرات جنوبى العراق..

كان من المقرر أن يسير البابا فى رحلته على خطى سيدنا إبراهيم، ولكنه أتى لزيارة مصر، ثم ذهب إلى عمان ومنها إلى فلسطين، فلماذا لم يبدأ زيارته من العراق التى ولد بها سيدنا إبراهيم؟

خالد يحيي نويشى
المهندسين - الجيزة

الهلال:
لقد كنا أول من كتب عن رحلة البابا هذه، لكن الضغوط الأمريكية وللأسف الشديد - نجحت فى منع البابا من زيارة العراق.

فى انحدار الموج للموج وفقدان الشواطئ،
يصبح الريح المناوئ
فرصة الإفلات بالحلم من الأرض الموات
فالدلالات التى قد جاوزت حد التجلد
تشرع الكفين ميقاتا يوافيه، حنو العمر يبقيه
شموسا فى مدارات من الضوء المفاجئ
وخفوت الذكريات
والصبابات التى قد أورقت دون ارتعاشات التهجد
فى ضجيج الأمسيات
لم تعد تشفى غليلا
فالصبابات انشطار
ينحنى فى دفئه نصف إلى نصف مناوئ
يرتجى منه القبولا
أى حلم يمتطى الضوء الجميلا
ترتوى منه الشطوط المقفرات

ترتضى فيه انفلاتات الموانىء
رجفة الوجد انتشاء بالشخوص المبحرات
تلتقى حينا وتبعد
دونما الافصاح عن شيء محدد

مدحت قاسم
القاهرة

نشر الثقافة

احتلت مجلة الهلال حينما أصدرها جرجي زيدان عام ١٨٩٢ مكان الريادة والصدارة في الوطن العربي كمجلة أدبية علمية جامعة أخذت على عاتقها نشر الثقافة الحديثة من أدب وعلم لتقدم للناطقين بالضاد خدمة ثقافية رفيعة.

ثم صارت دار الهلال أكبر دار نشر في العالم العربي حينما توسعت في نشاطها عندما تولى زمام إدارتها ابناه أميل وشكري زيدان - بعد وفاته عام ١٩١٤ - خاصة بعد أن عززت إصداراتها من مجلات يجيء في مقدمتها : المصور، الكواكب والاثنين والدنيا، والفكاهة، وإن كانت الأخيرتان قد توقفتا عن الصدور منذ وقت طويل .

وقد تنوعت توجهات هذه المجلات لكي تغطى مجالات ومناحى شتى من مجالات ومناحى الحياة، وأثرى نشاط «الهلال» أن تولى إدارتها بعض كبار المفكرين في مصر والعالم العربي من بعد جرجي زيدان وولديه ، وعلى رأسهم العالم الدكتور أحمد زكي وسلامة موسى.

وقد كان لإصدار دار الهلال «كتاب الهلال» وسلسلة «روايات الهلال» أفضل الأثر :

كل هذا كوّن وجدان الطبقة المثقفة في مصر والعالم العربي منذ مطلع القرن العشرين، كما اجتذب إلى القراءة الكثير من المتعلمين ووسع دائرتهم.

ومازالت دار الهلال تقوم بواجبها جاهدة لنشر الوعي الثقافي وتشجيع القراءة مع ما استجد من نشاط مزدهر في وقتنا الراهن لنشر الثقافة الرفيعة متمثلاً في «مهرجان الثقافة للجميع»، رغم ما حدث من انحسار وقتي في أعداد القراء واتجاههم إلى أنماط التسلية الرخيصة من فيديو وكاسيت.

ويا حبذا لو تتبنى «دار الهلال» إعادة نشر روائع الأعمال الأدبية التى سبق أن نشرتها في سلسلة «روايات الهلال» لكبار الأدباء المصريين والعالميين ومن أبرزها عيون الأدب الروسي والفرنسي - بقدر ما يمكن - ليتمشى هذا جنباً إلى جنب مع نشر الأعمال الأدبية للناشئين المحدثين .

يحيى محمود حسين
جامعة حلوان

أنت والهلال

نحو تفسير قرآني معقول

فى مقاله (نحو تفسير قرآنى متفق عليه) والمنشور فى الهلال عدد مارس الماضى تحدث الدكتور محمد رجب البيومى حديثاً شاملاً وبين ضرورة وأهمية وجود تفسير جديد على الطريقة التقليدية من خلال لجنة علمية، تتولى ذلك لصعوبة وجود عالم واحد يمتلك الأدوات والشروط الواجبة فى المفسر كما أنه أشار إلى إتجاه حديث عن التفسير الموضوعى.. وأشار أيضاً إلى وجوب (أن يكون المنطوق صريحاً دون اعتساف فى التأويل فلا نجر الآية جراً إلى معنى لا تسفر عنه بلسان مبين...) وهذا الكلام واضح وجيد وجدير بالأخذ به فى كثير من الآراء التى فسر بها بعض المفسرين مثل ما حدث فى تفسير الآية الكريمة (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ... الآية) فقد فسروا أو زعموا أن الأسرى فى هذه الآية هم أسرى معركة بدر وأن القرآن نزل موافقا لرأى عمر بن الخطاب فى قتلهم ومعاتباً النبى صلى الله عليه وسلم لموافقته رأى أبى بكر فى أخذ الفداء منهم وأنهما أى النبى وأبو بكر جلسا يبكيان ويقولان لو نزل من السماء عقاب لما نجا منه غير ابن الخطاب، ولذلك يجب أن يضاف إلى ما يقول به الدكتور البيومى هدف آخر هو تنقية هذه التفاسير أيضاً مما شابها من أمور يرفضها العقل لأن هذا التفسير للآية لا يمكن أن يصح للأسباب الآتية :

أولاً : أنه من الثابت تاريخياً ودينياً أن المسلمين خرجوا من المدينة بقيادة النبى صلى الله عليه وسلم ونيتهم الوحيدة هى أسر أبى سفيان والعير التى تحمل عروض التجارة بدليل قوله تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ... الآية)، فلما نزل جبريل وأخبر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن ذات الشوكة أو النفير فى طريقها إليهم قام صلى الله عليه وآله وسلم بتحويل اتجاه الركب من طريق البحر الأحمر إلى ماء بدر فاعترض بعض المسلمين ومنهم عمر قائلين (نحن لم نلبس عدة الحرب) وبناء عليه فالعتاب الذى فى الآية (ما كان لنبى أن يكون له أسرى...) موجه إلى جميع للذين قالوا (لم نلبس عدة الحرب) ولم يكن النبى من بينهم والأسرى المشار إليهم هم أبو سفيان والعير وليسوا أسرى المعركة التى تمت بين المسلمين وبين النفير أو ذات الشوكة.

ثانياً: أن المواجهة بين المسلمين وبين ذات الشوكة أو النفير تمت بوحى من الله عز وجل لاستئصال شوكة المشركين لأن المسلمين لو آسروا أبا سفيان والعير التى معه لاستطاع المشركون أن يخلصوهم من أيدى المسلمين بل ويكثروا القتل فى المسلمين لضعف موقفهم وحرصهم على الغنائم وكانوا سيولون الأدبار ويصبح موقف المشركين هو الأقوى.

ثالثاً : صرف التفسير بأن المقصود من الأسرى فى الآية الكريمة بأنهم أسرى المعركة لا يتناسب مع منطوق القرآن الكريم الذى صرح بأنه لا يصح أن يكون لنبى أسرى حتى يثخن فى الأرض، والنبي صلى الله عليه وسلم أثخن فى الأرض فعلا وقتل أكثر من سبعين من صناديد الشرك ويستحيل أن يكون المقصود فى الآية بالاثخان فى الأرض هو قتل الأسرى بعد المعركة والروايات التي وردت في أسباب نزول الآية (ما كان لنبى أن يكون له أسرى...) كلها روايات واهنة يعتريها الشك فى صحتها ودونت فى عصر قلق أمسكت فيه الدولة بأرزاق الناس فكتبوا على هواها وأما الاشادة بالإمام محمد عبده فى مقال الدكتور البيومي فهى إشادة فى محلها.

نبيل عبد الرحمن دريك
موجه عام التربية الاجتماعية سابقا

ترانيم الخشوع

النور يسبح فى فضاء الله يطـ
ـلق فى البراح سنا شروق يهتف
ران الخشوع على الورى إذ راح ينـ
ـشد هائما حول المدار وينذف
أنداء ربى فى المدى فسيفحا تلا
لأسمتها فوق الروابى ترشف
حتى الظلال تعانقت حول الشذى
تغشى الوجود بحسنها وترفرف
من كل صوب تأتنا أطياف فجـ
ـر فى النهى والشرك أضحى ينزف
يا أيها الإشراق مرحى فالقنا
ديل انزوت - من فيض نورك - ترجف
هذى السباع على التلال تضرعت
والليل أمسى ، بين هدء يزحف ؟!
والطير راح مغرداً بين الحقو
ل يرتل الألحان ، يشدو، يعزف
والشمس ألقت الأنام بشائراً
تنساب عرسا - فى المعالى - تعطف
سبحان مولج سر ماء فى الثرى
يحنو على الجدباء مزنا يجرف
ما لى سواك مناجيا عند الحتو
ف فأنت وحدك - بالدياجى - تعصف

عبد الناصر أحمد الجوهرى
نادى أدب المنصورة

انت والهلال

لقـــاء

نثـــرت الورد من حـــولك
وكـــنـــت لـــنـــا ريـــاحـــين

فـــهـب العطرُ من أجلك
أريج العطر من حـــبـــك

وحـــبـــك دائم يســـرى
كـــمـــثل الدم فى الشـــريان

وفى أحـــشـــائى يجـــرى
والأنهـــار يا عـــمـــرى

رســـمـــتك وردة للروح
وأهتف حين القـــاكى

تنفس من شـــذى العطر
أحـــبك أنت يا عـــمـــرى

أعـــيش الليل فى سُـــهـــد
واهتف حين إصـــبـــاحى

أفـــكـــر فـــى ثـــنـــايـــاك
وأرقص حين أُلقـــيـــاكى

فـــهـــذا الضـــوء من ثغـرك
وقـلـبى دائـمـــا يبـكى

وهذا الليل منِ شـــعـــرك
يخـــاف علىّ من ســـحـــرك

أنا المجنون فـــانعـــيـــنى
ألا تبكى حـــبـــيـــبـــاً ضَلّ
وداعـــا حـــتى ألقـــاكى

أنا المفـــقـــود فـــابكينى
فى أســـرى المحـــبـــين
تـــودعـك شـــرايـيـنـى

أحمد نادى عبدالرحمن بهلول
أسيوط - ديروط
المندرة بحرى

●● ردود سريعة للأصدقاء ..

●● د. أحمد عبدالحافظ عبدالباقى : منيا القمح - شرقية : شكرا لك على اقتراحاتك .. لكن نود منك أن تكتب لنا عن فكرة واحدة من هذه الأفكار التى تقدمها لنا شهريا .

●● عصام الدين محمد أحمد - بولاق الدكرور - القاهرة : قصتك «غيوم» على عكس ما نشرناه لك من قبل ، فهى مليئة بالألفاظ العامية، والفكرة غير واضحة ، نتمنى لك حظا أوفر فى المرات القادمة.

●● شاكر صبرى محمد السيد - دمياط - كفر سعد - كفر سليمان .. وصلتنا مجموعة من أشعارك أذكر لك منها بعض الأبيات فى قصيدتك «أنا بشر» تقول :

أنا بشر على دنياك لا أسطع   أنا الحيران فى عينيك مستودع

ولكنى نذرت لنفسى الأهـواك كى أضـــــــنى وكى أركـــع

....

أنا للحب موكول ومتروك لحرمانى

هل هذا شعر يا صديقى.. نرجو الاهتمام بالشعر مثل اهتمامك فى دراستك الخاصة بالوراثة !.

●● علاء العوانى – طنطا – سيجر

شعرك يحتاج إلى جهد كبير ، تتعرف فيه على قواعد هذا الفن وأصوله الصحيحة فلا يمكن أن نعتبر هذا الكلام شعرا :

كنت والآلام على الطـــــــــاولة

والطبيب «يتسائل» عن كبير العائلة

تلاشـــــــــــــــــــــت الآلام

والجســـــد توســـط القافـــلة

ما هذا أيها الصديق ؟!..

●● رمضان إبراهيم بشير إبراهيم – قنا – أبو دياب شرق .

«ستظل لى وأظل لك» تحتاج إلى دراسة طويلة وقراءات دءوبة فى مجال الشعر، ليتحقق لك ما تصبو إليه.

●● صلاح جميل سعد – غزة – الزيتون : نشكرك على رسالتك الرقيقة التى تتناول فيها كتاب الهلال بالتقدير والإعزاز ، ونرجو أن يتواصل الحوار بيننا ويصلنا منك مادة يمكن نشرها فى الهلال .. ويخصك رئيس التحرير بالشكر على التحية الخاصة به كما أن الناقد مصطفى درويش يفكر جديا فى نشر مقالاته الجادة بالهلال فى كتاب عما قريب بإذن الله .

●● سليمان سحاب المحمودى – ليبيا – طرابلس : قصتك «حالة قلق» ، تحتاج منك إلى قراءة متأنية ، لضبط الأخطاء النحوية بها، وكذلك تسلسل الأحداث وخاتمة القصة .. ونشكر لك هذا الاهتمام الخاص بالهلال ، وفى انتظار إنتاجك الأدبى .

●● عاصم فريد برقوقى : الاسكندرية – جليم – صديقنا الدائم والذى نتمنى أن نحقق له فكرته التى طرحناها من قبل فى هذا الباب.. فكرة عيد «الضحك» وعلى الرغم من أنها فكرة «ضاحكة» إلا أننا نتمنى فعلا أن تتحقق، وبخصوص قصتك التى تتحدث عنها فنرجو أن ترسل لنا واحدة أخرى تصلح للنشر .



الكلمة الأخيرة

علم اسمه الميمياء

بقلم : د. أحمد مستجير

فى كتابه الخطير «الجين الأنانى» الذى ظهرت أولى طبعاته عام ١٩٧٦ ، جادل ريتشارد دوكينز بأن الكثير من قضايا علم الوراثة والتطور يمكن أن يفسَّر إذا نحن عالجناه من وجهة نظر الجين . (والجين هو وحدة الوراثة ، وهو مصنوع من مادة اسمها الدنا) . فالكائن الحى ليس إلا وسيلة الدنا لصناعة دنا جديد . اقترح دوكينز فى نهاية كتابه هذا أن هناك وحدات للثقافة تسمى الميمات ، تسلك سلوك الجينات . فهى الأخرى «أنانية» ، تنتشر وتتكاثر لمصلحتها هى ، وبقوانينها الخاصة ، بغض النظر عما قد تقدمه من فوائد لحامليها. أى أن طالب العلم فى هذا المفهوم هو «وسيلة المكتبة لصناعة مكتبة أخرى» ، كما قال دانيل دينيت ، أهم الفلاسفة الذين أخذوا فكرة الميم مأخذ الجد . الميم إذن هو النظير الثقافى للجين ، هو الذى يلعب دور الجين فى نقل الكلمات والأفكار والعقائد والفنون واللغات والسلوك هو حزمة من المعلومات يمكن أن تنتقل من إنسان إلى آخر. وهو ليس وحدة مادية فيزيقية كالجين ، فليس له ما للجين من مخطط يحدد طريقة التناسخ والتكاثر ، إنما هو خصيصة تميز العقل البشرى – فأنت لن تجد الميمات إذا قمت بتشريح المخ البشرى ، تماما مثلما لن تجد الروح إذا أنت شرّحت الجسد البشرى .

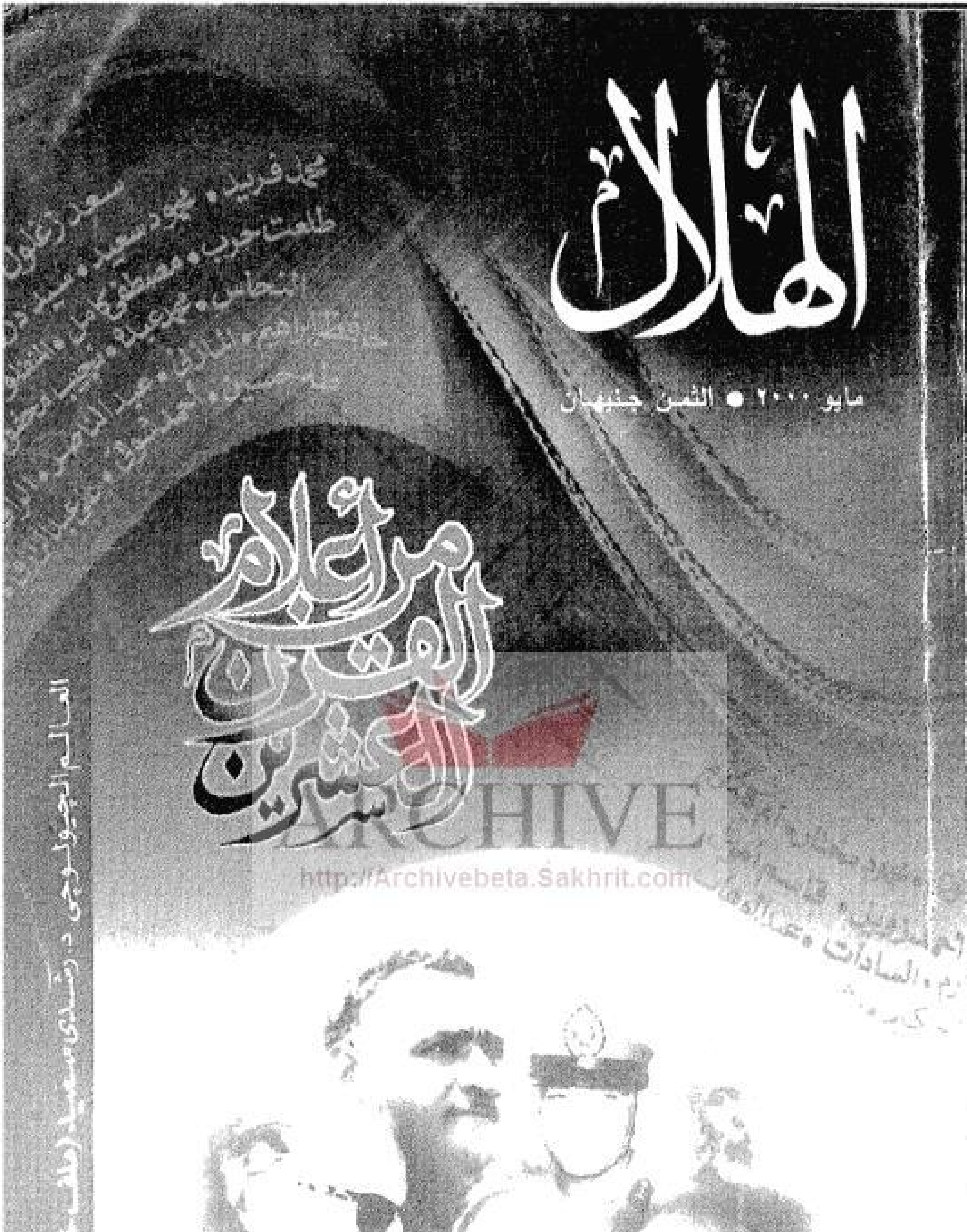
ولأن الميمات كالجينات أنانية لا تهتم إلا بتخليد نفسها ، فقد وجهت الانتخاب الطبيعى - من خلال الجينات - إلى تأكيد حجم كبير للمخ ، وتطوير اللغة والدين والانتخاب الجنسى والإيثار والتمدن ، فهى تتباين ، وهى تنتشر بقدر نجاحها فى التكاثر فى بيئتها ، أى بمعدل القدر الذى به تحاكى. فإذا تعلم الطفل بملاحظته أمه كيف يقشر ثمرة الموز ، قلنا إن الميم قد تكاثر . أما العملية التى تجعل التطور الميميائى ممكنا فهى القدرة على المحاكاة فالميم هو وحدة المحاكاة.

يتميز الانسان من بين كل الحيوانات بقدرته الفائقة على التقليد والمحاكاة ، فهو يستطيع ببساطة أن ينقل عن زملائه الأفكار والعادات والمهارات والسلوكيات والابتكارات ، والأغانى والقصص والنكات . وكل هذه ميمات ، تكاثر نفسها ، وتتنافس فيما بينها لتدخل أكبر عدد من الأدمغة . ومن هذا التنافس تشكلت عقولنا وخصائصنا مثلما شكل الانتخاب الطبيعى أجسادنا فلماذا تشيع مثلاً ظاهرة الإيثار بيننا ؟ شاعت لأن من يحاكى سلوك الناس الطيبين أكثر ممن يحاكى سلوك الأشرار ، ومن ثم كان لميم الإيثار فرصة أكبر للتكاثر .

إننا إذن صنيعة الميمات ، نحن مجرد ماكينات ميمية ، كما تقول سوزان بلاكمور فى كتابها «ماكينة الميم» الصادر عام ١٩٩٩ . الميمات – لا نحن – هى القوة المحركة فى عالمنا كما تؤكد بلاكمور الميمات – لا الجينات – هى التى تحتاج إلى المخاخ الكبيرة من أجل تكرير نفسها وانتشارها . الميمات – لا نحن – هى من ألف الكتب وماكينات النسخ والتليفونات والفاكسات ، من أجل أن تنتشر . الميمات – لا نحن – هى القوة المحركة التى أنتجت الإنترنت والتى ستحدد أثره على العالم – وعلينا. حاولت بلاكمور بكتابها أن تضع الميمياء ، نظرية الميمات ، على قدم المساواة مع النظرية الوراثية . فهل ستنجح ؟ .



مصر للطيران
بأحدث ما أبدعته التكنولوجيا تواكب الألفيه الثالثه
فى مجال الأنشطة و الخدمات الجديدة للحجز المركزى
• تطبيق نظام صحارى الخاص بحجز الفنادق و السيارات كخدمه جديدة لعملاء مصر للطيران وبأسعار خاصه لجميع المستويات فى عدد كبير من الفنادق تصل الى ٠ ٧الاف فندق فى مختلف أنحاء العالم ٠
• ميكنه حجز البضائع لخدمة المصدرين بجميع مكاتب مصر للطيران على مستوى العالم ٠
• نظام تقسيم الدرجه السياحيه الى عدة درجات وفقا لكل سعر ٠
• اعداد نظام لاختيار الركاب للمقاعد عند شراء و حجز التذاكر وفقا لرغباتهم ٠
تواكب الجديد دائما لخدمتكم


الهلال
مايو ٢٠٠٠ ● الثمن جنيهان
من أعلام القرن العشرين
العالم الجيولوجي د. رشدي سعيد (ملف خاص)

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثامن بعد المائة

مايو ٢٠٠٠م ● محرم ١٤٢١ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت . ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب ٦ - العتبة - الرقم البريدي ، ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج م ع مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني : darhilal

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ٩٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت - ٧٥٠ فلسا ، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٢٤ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولاراً - أمريكا وأوربا وافريقيا ٢٥ دولاراً - باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد



الغلاف تصميم الفنان: محمد أبو طالب

الأبواب الثابتة

فكر وثقافة

دائرة حوار

رشدي سعيد – جزء خاص

فنون

قصة وشعر

التكوين

فى هذا العدد

نقدم فى هذا العدد ملفا خاصا يتناول مسيرة الدكتور رشدى سعيد العلمية والعملية، ومشوار حياته بمناسبة بلوغه سن الثمانين – أطال الله عمره.

وسوف تعود «الهلال» إلى تقليدها القديم فى عمل ملفات عن الشخصيات المعاصرة التى أثرت الفكر المصرى وأثرت فيه يكتبها تلاميذ وأصدقاء وعارفو فضل هذه الشخصيات فسبق وقدمت أعداداً خاصة لكل من توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ويحيى حقى وإحسان عبدالقدوس.. وغيرهم..

كما نقدم شخصية الدكتور ثروت عكاشة والذى احتفلت به الأوساط الأدبية أخيراً وصدر كتاب تذكارى عنه نقدمه فى العدد القادم بقلم الدكتور أحمد أبوزيد. ويعرض الدكتور عاصم الدسوقى لكتاب أحمد طعيمة «شاهد حق» والذى يكشف أسرارا مبهمة للصراع على السلطة بين محمد نجيب وجمال عبدالناصر، وعدد من الشخصيات التى لعبت دورا مؤثراً فى حياة مصر بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

ويلقى د.عبداللطيف عبدالحليم الضوء على مجلة «الكاتب المصرى» التى كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين، مع تحليل لما تضمنته من مقالات، ولماذا لم ينشر عدد من المبدعين والكتاب فى هذه المجلة التى لم تصدر سوى ثلاث سنوات فقط.

التعريب فى الجزائر

يحذر وينبه الكاتب الجزائرى عثمان سعدى من استمرار خطط فرض اللغة الفرنسية واستبعاد اللغة العربية في الجزائر ..

وأخر الإجراءات في هذا الطريق ، قرار الحكومة الفرنسية الصادر فى ٧ يناير الحالي باستبعاد اللغة العربية الفصحى من كل المعاهد الفرنسية، باعتبارها من اللغات غير الحية ، واستبدالها باللهجات المحلية ، اللهجة المغربية والشامية والمصرية والبربرية ، كما تستبدل الحروف العربية بالحروف اللاتينية عند كتابة هذه اللهجات(!) ، ويبدى عثمان سعدى دهشته من عدم ظهور أى رد فعل عربى على هذا القرار ، ولم ترتفع صيحات الاحتجاج على هذا القرار سوى من منظمات فرنسية والتى وصفته «بأنه موقف عنصرى ينطلق من أطروحات الاستعمار الجديد الذى يسعى إلى فرض اللغة الفرنسية».

وتتم خطورة هذا القرار ، إذا علمنا بما تشهده الجزائر من محاولات من أجل استمرار الفرنسة، وإذا علمنا أيضاً أن عدد الجزائريين المقيمين فى فرنسا يبلغ مليونى جزائرى يعلمون أبناءهم فى المعاهد الفرنسية.

ويقول عثمان سعدى : «توجد فى الجزائر عدة لهجات ، لهجة الشرق الجزائرى، ولهجة شرق الصحراء، وجنوب غربها ، ولهجة قسنطينة، ولهجة جيجل، ولهجة وهران ، ولهجة العاصمة الجزائر .. وإذا صنفنا هذه اللهجات من ناحية صفائها وقربها من اللغة العربية ، جاءت لهجة العاصمة فى آخر القائمة .. فتركيز الاستيطان الفرنسى كان على مدينتى الجزائر ووهران ، وغزت الحياة الإجتماعية الفرنسية المدينتين ، وإذا استمعنا إلى حديث أحد قاطنى حى القصبة من غير المتعلمين والذين لايحسنون الفرنسية، وجدنا أنه يستعمل لهجة مفرداتها مزيج من الفرنسية والأسبانية والتركية والعربية!!.

وقضية اللغة واللسان العربى فى الجزائر إحدى القضايا الحساسة التي يدور حولها الصراع، والتى تلقى الضوء على مغزى كثير مما يدور اليوم فى الجزائر ، وهى منذ الاستقلال القضية الثقافية الاولى على اعتبار أن استقلال الجزائر لايكتمل إلا بتحررها الاقتصادى والثقافى ، وشهدت جهود التعريب ردة منذ إلغاء الانتخابات البرلمانية سنة ١٩٩١، وانتشرت اللغة الفرنسية فى سنوات قليلة أكثر مما انتشرت أيام الاستعمار.

عزيزى القارىء

وخلال زيارتى الأخيرة للجزائر ، تعطلنا طويلاً فى المطار لكتابة طلب تأشيرة الدخول باللغة العربية ، فاحتار رجال الجوازات فى فك طلاسمها . ومن لايعرف الفرنسية فى الجزائر لايستطيع متابعة التليفزيون الذى يختلط فيه الحديث بالعربية والفرنسية، كما لايستطيع متابعة الكثير من الأفلام الجزائرية . وأعداء التعريب كثيرون فى الجزائر .

ويمكن رصد مايجرى فى الجزائر من خلال تعثر محاولات تطبيق قانون التعريب الذى صدر أيام الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين ، وحدد فترة زمنية يتم خلالها تعريب الجزائر تعريباً كاملاً، وأخذت قوانين التعريب تتأرجح بين التجميد والتطبيق ، ولكن لم ينفذ حتى اليوم.

ومازال الكثير من الإدارات تتعامل مع اللغة الفرنسية وحدها ، ويدار النشاط الاقتصادى والمالى بها .

ويستغل دعاة استمرار الحال على ما هو عليه ، وجود بعض اللهجات البربرية فى بعض أنحاء الجزائر ، كما أن التعريب سيهدد أوضاع الناطقين بالفرنسية . وهى قضية تتشابك معها الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والقيم السائدة، والعلاقات الاقليمية والدولية للجزائر.

والتعريب عند أولئك الذين تقتصر معرفتهم على اللغة الفرنسية ، هو مخاطرة بالمستقبل فالعرب بدو متخلفون، واللغة العربية لاتصلح أداة لتعليم العلوم ، ويمكن أن تقتصر على تعليم الدين وبعض العلوم الانسانية ، فهى فى أحسن الأحوال لغة الشعر والأحلام ، أما اللغة الفرنسية فهى لغة العلم والحضارة!.

وكان طرح شعار ازدواج التعليم ، أى استمرار التعليم باللغتين العربية والفرنسية، يهدف إلى تعطيل قانون التعريب.

وعندما طرحت هذه القضية على الرئيس الجزائرى الأسبق ، وأبديت ملاحظة تقلص استخدام اللغة العربية .. قال .. «إن ما تلاحظه قائم فى العاصمة وحدها ، أما خارجها فتحتل اللغة العربية مكانتها» ، كما لاحظت غياب الكتاب المنشور فى الدول العربية ، ووفرة الكتب الصادرة فى فرنسا!.

فماذا سيفعل العرب لدعم دعاة الحفاظ على اللغة العربية؟! حيث يخوض الكثيرون منذ الاستقلال معركة قاسية حماية للغة والهوية الجزائرية، ومن هؤلاء السيد عثمان السعدى الذى أخذ يثير هذه القضية فى كل مناسبة، ويكتب فى الصحف ويؤلف الكتب . وغيره كثيرون..

ألا نقوم على الأقل بتوفير الكتاب العربى لمن يطلبه فى الجزائر ؟!.

المحـــــرر

الإزدواج الثقافى
فى نظامنا التعليمى
وتحديات المستقبل

بقلم : د. شبل بدران ★

نشهد فى وداعنا للقرن العشرين سيادة العولمة بتداعياتها المختلفة فى كل المجالات والتى تعنى فى التحليل الأخير تسييد نمط من الفكر والثقافة والسلوك والمفاهيم على الثقافة العالمية، بوصفها ثقافة التحضر والتقدم. ولاشك أن تلك المفاهيم تنتسب بالدرجة الأولى إلى ثقافة وهيمنة المجتمع الصناعى المتقدم فى الغرب وتهميش دور الثقافات الوطنية والقومية، بل وصل الأمر فى أحد التحليلات إلى القول بانتهاء الدور القومى للدولة فى ظل العولمة التى تتطلب من مجتمعاتنا جهداً جباراً لمحاولة الفهم والاستيعاب والتفاعل الإيجابى معها ومحاولة المشاركة فيها، وذلك لأن الموقف الرافض لن يقدم حلولا تساعدنا على تجاوز تلك المعضلة، بل سيقودنا إلى السلبية والانزواء.

★ أستاذ ورئيس قسم أصول التربية - كلية التربية - جامعة الإسكندرية

ونشـهـد أيضـاً فى وداعنا للقـرن العشرين تطورات علمية وتكنولوجية مذهلة ومتلاحقة ، تجعلنا نعيش فعلا فى عصر الموجة الثالثة ، والتى تقوم بتسريع الزمن وتجاوز المسافات والحدود بصورة غير مسبوقة ، وسوف يؤدى ذلك إلى تهميش وإلغاء العديد من المهن والوظائف ، وتحل محلها مـهن ووظائف القـرن الحادى والعشرين .

وفى ضوء هذه التغيرات المتلاحقة ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه هو : كيف سنربى الجيل الذى سيعيش فى القرن القـادم ويتـفـاعل مـعـه ؟ لاشك أن نظام التـعليم فى مجـتـمـعنا منوط به بالدرجة الأولى تكوين الأفـراد القـادرين على التعامل والتفاعل مع هذا التغير السريع والمتلاحق.

من هنا فـإن التـعليم أصـبح خـلال العقود الثلاثة الماضية يتصدر الخطاب السـيـاسـى ويحـتـل مكان الصـدارة فى مفرداته . فالولايات المتحدة الأمريكية بدءاً من تقـريـر «أمـة فى خطر» إلى تقـريـر



«أمريكا ٢٠٠٠» ثم إلى «البيان الأخير» للرئيس بل كلينتون ، كل ذلك يدعم أن التعليم أصبح مفتاحا ورافعة أساسية من روافع التقدم ، وأصبح المدخل الحقيقي لأى تطوير . ولأى استراتيجية للتغيير فى المجتمع ، فلا يمكن أن يتم وضع استراتيجية لتطوير المجتمع دون اعتبار التعليم أحد أهم آلياتها الأساسية ، حيث يقع العبء الأكبر على التعليم فى إكساب الأفراد القدرات والمعارف والعلوم التى ستساعدهم على التعامل مع مستجدات القرن الحادى والعشرين .

وإذا كان العالم شرقه وغربه ، شماله وجنوبه قد أولى التعليم اهتمامه وأفرد له من الميزانية العامة ما يساعده على تحقيق الآمال والأهداف الملقاة على عاتقه. فإن نظامنا التعليمي ومنذ التسعينات يشهد حركة تطوير وتحديث غير مسبوقة، سواء بمحاولات إدخال التكنولوجيا الحديثة فى مناهجه وعلومه ، أو بمحاولات تغيير بعض الثوابت القديمة فى العملية التعليمية من الانتقال من التعليم إلى التعلم الذاتى والتعليم مدى الحياة وذلك باستخدام أحدث منجزات العصر التكنولوجية «شبكة الإنترنت» والتى سوف تغير العديد من المفاهيم البالية ، ولقد تجاوزت ميزانية التعليم لعام ١٩٩٩ أربعة عشر مليار جنيه بعد أن كانت فى مطلع التسعينات لا تتجاوز مليارين من الجنيهات . ولكن على الرغم من كل تلك الجهود الساعية نحو تطور التعليم المصرى، إلا أن التعليم المصرى يعانى من مرض عضال يهدد كيانه وهويته ويفقده أسس مقوماته الوطنية والقومية .. والتى تعد ركيزة أساسية ينهض عليها كل تعليم وطنى يسعى نحو خلق الشخصية الوطنية الديمقراطية ، هذا المرض هو الازدواج التعليمى ، والذى يؤدى إلى تصدع فى بنيان الشخصية المصرية بخلق أنواع وأنماط من التعليم تستجيب للبنية



الاجتماعية والثقافية السائدة والظالمة.

وإن نظامنا التعليمي سيظل عاجزاً عن التفاعل مع منجزات الحضارة الحديثة ومستجدات القرن الحادي والعشرين، مالم يحاول أن يتجاوز تلك المعضلة والأزمة المهددة لكيانه ولكيان خريجيه.

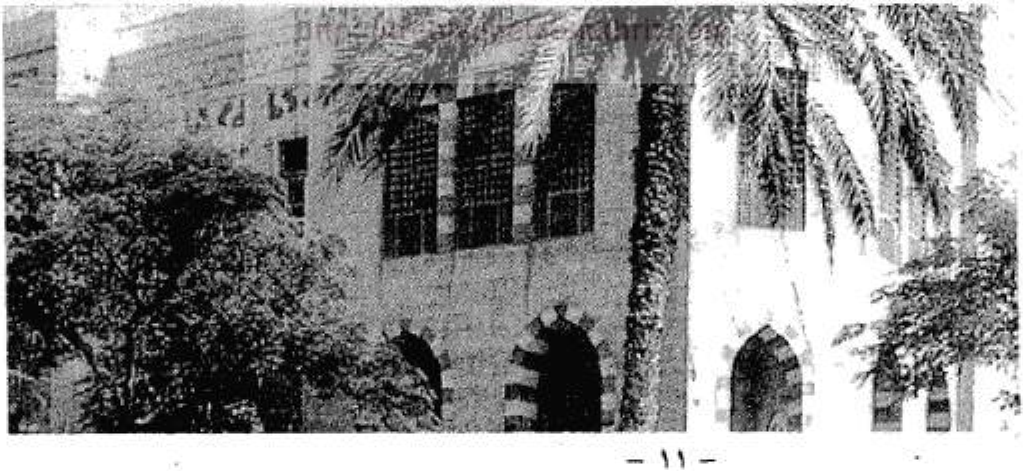
الازدواجية الأولى :

إن نظامنا التعليمي يعاني من ازدواجيات متعددة في أنواعه ومراحله، وتلك الازدواجيات في نمط التعليم السائد تعوق بشكل رئيسي أي جهد نحو تكوين شخصيات ذات هوية متجانسة، واطار ثقافي واحد وبنية معرفية متجانسة وليست متناقضة.

فمنذ مطلع القرن التاسع عشر وتحديداً منذ أن استقدم محمد على النظام التعليمي الحديث في مصر من أوروبا وعلى وجه الخصوص فرنسا، ونظامنا التعليمي يعاني من الازدواجية الأولى في مسيرته، حيث ترك محمد على نظام التعليم التقليدي - الديني، الكتاب، الأزهر - على حاله وأعطاه حرية كاملة، لأنه تعليم لم يكن يؤدي إلى مهنة أو حرفة أو صناعة، لذلك استحوذ النظام التعليمي الجديد - الحديث - على اهتمام الدولة والأفراد، لأنه تعليم يقود إلى العمل والتوظيف، وارتبط بالوضع والمكانة الاجتماعية للأفراد في مرحلة لاحقة.

منذ تلك اللحظة، والعقلية المصرية تتعرض لنمطين من التعليم والثقافة، ثقافة دينية تقليدية في مقابل ثقافة علمانية حديثة وافدة ارتبطت ببناء الدولة الحديثة في مصر، وكان هناك إلى جوار تلك الثنائية الأولى، نمط ثالث تجسد في مدارس الطوائف غير الإسلامية : مدارس الأقباط ومدارس اليهود وكذا مدارس الجاليات الأجنبية : الأرمن واليونان والإيطاليين.

وتولدت عن ذلك حركة تفاعل ثقافي وتعليمي وقيمي بين الأنماط الثلاثة من



التعليم ، التعليم الحكومى الرسمى المرتبط بالدولة وهيمنتها ومصالحها وتطلعاتها ، والتعليم الدينى الحر الذى لايؤدى إلى عمل أو وظيفة ، فأهمل وأهمل بالضرورة الملتحقين به ، إلى جانب التعليم الدينى للطوائف غير الإسلامية ، وهو تعليم فى جملته لن يخرج عن الإطار السائد فى الكتاب والمسجد ، ويبقى التعليم الأجنبى الوليد والذى ارتبط بالدرجة الأولى بأبناء الجاليات الأجنبية التى وجدت فى مصر فى القرن التاسع عشر .

ومع تطور الحركة الاجتماعية والسياسية والثقافية فى المجتمع المصرى وتطوره من مجتمع تقليدى إلى مجتمع حديث احتك بالحضارة والثقافة الغربية إبان الحملة الفرنسية وحركة البعوث للخارج ، تطور التعليم بدوره وازداد واتسع نطاقه وأصبح يستوعب العديد من الطلاب فى أنواعه المختلفة ، وارتبط منذ تلك اللحظة بالوضع الاجتماعى والطبقى للطلاب ، ومع نهاية القرن التاسع عشر ، وهيمنة القوى الاستعمارية متمثلة فى الاحتلال البريطانى لمصر ، أخذت تلك الازدواجية منحى جديدا ومتفاعلا مع حركة الواقع الاجتماعى والثقافى .

الازدواجية الثانية :

كانت الأعداد الملتحقة بالمدارس الأجنبية ومدارس الطوائف غير الإسلامية محدودة ، وظل الباب مفتوحا على مصراعيه أمام التعليم الرسمى الحكومى ، إلا أن قوى الاستعمار والاحتلال ومستشاريه (دانلوب - كرومر - كتشنر) طوعوا التعليم والثقافة إلى إدارة للسيطرة والهيمنة الغربية على تشكيل العقلية والوعى والوجدان للمواطن المصرى .

كانت سياسة الاحتلال البريطانى التعليمية تهدف إلى نجلزة التعليم والثقافة فى مصر بفتح مدارس إبتدائية تدرس اللغة الانجليزية وتقود إلى مراحل التعليم الأعلى ، ومدارس أولية تشبه الكتاتيب تنتهى بانتهاء المرحلة الأولية من التعليم وتقود إلى العمل فى الوظائف الدنيا بدواوين الحكومة . ومع تزايد عدد المدارس الأجنبية ومدارس الجاليات والمدارس التى تدرس المناهج الغربية ، أصبحت فى مصر ازدواجيات تعليمية جديدة ، المدارس الرسمية الحكومية فى المرحلة الابتدائية وهى نوعان، نوع يؤدى إلى التعليمين الثانوى والعالى ويلتحق به أبناء القادرين والميسورين ، ونوع أدنى يؤدى إلى العمل الحكومى المتواضع فى الوظائف الدنيا، وذلك إلى جانب التعليم فى الكتاتيب والأزهر . وأخذت الازدواجية فى التعليم والثقافة تخلق بنيات ثقافية وتعليمية موازية للبنية الاجتماعية فى الواقع المعاش.

وفى أواسط القرن العشرين ، ومع مشروع طه حسين النهضوى «مستقبل الثقافة فى مصر» تحول التعليم إلى آلية من آليات الحركة الوطنية فى مواجهة القوى الاستعمارية ، وأخذت مشكلات الازدواجية تطرح فى الواقع الثقافى أنماطا من المتعلمين متباينين ثقافيا واجتماعيا ، ووصل ذلك التباين إلى حد

الصدام والصراع الذى تجسد على ساحة العمل السياسى والثقافى خلال الثلاثينات والأربعينات . وكانت محاولات طه حسين هى السعى الحثيث نحو توحيد التعليم الأولى فى المرحلة الابتدائية وإتاحة التعليم لأبناء الفئات الفقيرة والمحرومة منه أصلا بحكم وضعها الطبقى ، وظل شعاره الشهير «التعليم كالماء والهواء» شعاراً دالا ثقافيا واجتماعياً وسياسياً .



محمد علی



طه حسين

وفى خلال حقبة الستينات - المد الثورى - انكمش التعليم الخاص والأجنبى، وظلت الازدواجية منحصرة فى التعليم الحكومى الرسمى والتعليم الأزهرى ، وبعض المدارس الخاصة - المؤممة - والمدارس الأجنبية التى فتحت أبوابها لأبناء الشعب المصرى من القادرين والميسورين والمتعاطين بلغات تلك المدارس - الانجليزية والفرنسية - وكان ذلك إلى جانب الفئات المتعلمة بتلك الثقافات مجالا لتذويب الهوية الثقافية واندماج الثقافة الوطنية فى إطار الثقافة الغربية . وعلى الرغم من انكماش عدد وطلاب تلك المدارس ، إلا أن جمهورها كان كبيراً ومنتشراً على ساحة العمل الثقافى والوطنى .

الازدواجية الثالثة :

ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال بصورة غير مسبوقة خلال عقد السبعينات وللآن ، حيث يعانى نظامنا التعليمى منذ بدايته إلى نهايته أنماطا من الازدواجية تتمثل فى التعليم الحكومى الرسمى ، والتعليم الخاص ، والتعليم الأجنبى ومدارس اللغات ، وهذا النوع الأخير ظهر خلال فترة الانفتاح الاقتصادى وتم التوسع فيه بشكل كبير ، وكل تلك الصيغ التعليمية تبث فى عقول الناشئة ثقافات مختلفة ومتباينة ، ولم تصبح الهوية الثقافية والنسيج الثقافى للوطن والمواطن هاجسا على صانع القرار والسياسة التعليمية . إن الخطورة ليست فى دخول تلك الأنماط التعليمية إلى نظامنا التعليمى، بقدر ما تكمن الخطورة فى ماسيسود تلك الأنماط من تفاعل ومناخ مدرسى يكرس ويعزز الثقافات الوافدة باعتبارها الثقافات الأرقى والتى تخاطب العقل والاستنارة فى عقول البشر .

ومع نهاية الألفية الثانية يواجه نظامنا التعليمى انشطاراً على مستوى الازدواجيات الثقافية والتعليمية ، أولى تلك الازدواجيات بين التعليم الرسمى الحكومى والتعليم الأجنبى ، والثانية مع التعليم الخاص ، والثالثة مع تعليم اللغات ، والرابعة مع التعليم الدينى الأزهرى

والخامسة بين الجامعات الحكومية والجامعات الخاصة التى انشئت عام ١٩٩٦ ، والسادسة مع التعليم العالى والجامعى الأجنبى : الجامعة الأمريكية . والفرنسية المزمع إنشاؤها وكذا الألمانية والبقية تأتى مع الألفية الثالثة .

وهذه الثنائيات التى تكبل النظام التعليمى وتعوق حركته على صهر الإنسان والعقلية المصرية فى بوتقة واحدة ، ان أهم مكون فى أى نظام تعليمى كفء هو تشكيل المواطنة وتشكيل العقلية فى إطار الثقافة الوطنية والقومية التى تحافظ على كيان وبنية المجتمع .

ففى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ، التعليم عام وإلزامى وموحد حتى نهاية المرحلة الثانوية ، من هنا فإن هذا النظام التعليمى يدعم بنية المواطنة والانتماء ، وكذا تشكيل العقلية المتجانسة التى تشكل سندا رئيسيا وجوهريا فى مواجهة ظواهر العولمة والهيمنة الثقافية من بلدان المركز وتحديداً الولايات المتحدة الأمريكية ، التى تخوض صراعاً ثقافياً مع أوروبا من أجل فرض السيطرة والنفوذ الثقافى والمعرفى ، وإذا كانت أوروبا وتحديداً فرنسا تحاول الاشتباك والتصدى لأنها تملك عوامله وعناصره ، لكن نحن فى دول العالم الثالث ومنها مصر ، لا نملك عوامله ولا عناصره، فستكون العولمة قدراً محتوماً علينا ، إذا لم نستطع من الآن فك تلك الثنائيات والازدواجيات وخلق بنية تعليمية متجانسة، يكون نصب أعينها تشكيل العقل والوجدان فى إطار منظومة ثقافية وطنية تستند إلى أسس ديمقراطية تحفز الإنسان على الفعل والحركة والإبداع من أجل تغيير الواقع - إلى واقع أكثر رحابة وإنسانية .

ولاشك فى ان تلك التعليميات تهدد الكيان الثقافى وتبعثره . لأن تلك الأنماط التعليمية تدعم وتكرس ثقافة النخبة فى مواجهة الثقافة الوطنية والقومية ، وإذا كان القرن المقبل ستهيمن عليه القوى الصناعية والرأسمالية بمعارفها وعلومها وتقنياتها من خلال الحاجة إلى تدعيم الجسد الثقافى وبلورته وصهره فى بوتقة واحدة - الوحدة فى إطار التنوع - متماسكة تجعله قادراً على المواجهة والتفاعل مع مستجدات القرن المقبل .

ونحن هنا لا ندعو إلى الانعزال أو التقوقع والانكفاء على الذات بدعوى أن الآخر الثقافى معاد لنا ، لأن الانعزال فى حد ذاته يعد وسيلة سلبية للمواجهة ولا يقدم تعزيزات دفاعية بقدر مايقود إلى الركون والسلبية والتخلف . إننا نرى أن التفاعل الثقافى والحضارى مع الآخر أمر تحتمه مستجدات العصر ومقتضيات المنطق والعقلانية . ولكن المواجهة والتفاعل البناء لايمكن أن يستندا إلى هوية ثقافية مشتتة ومبعثرة ولا منتمية . ولا يمكن أن تتم المواجهة بخلق كيانات بشرية لا متجانسة وتفكر بعقليات متباعدة متصادمة ومتصارعة أيضا ، منها : التقليدى والمحافظ والمنفتح والفوضوى ، إننا نعتقد أن نظامنا التعليمى فى استقباله للألفية الثالثة ، مطالب بتوحيد التوجه الثقافى والتعليمى للطلاب الملتحقين بهذا النظام ، وذلك لايمكن أن يتم من خلال الأنماط التعليمية السائدة والتى تعتمد بشكل رئيسى على الثنائيات والازدواجيات .

وربما يبدو الأمر غريبا إلى حد ما ، حيث يعتقد البعض أن توحيد المناهج والمقررات الدراسية كفيل بخلق التجانس

والوحدة الثقافية والمعرفية للطلاب . إن الأمر أخطر من ذلك بكثير . فلو تصورنا مثلا أن مناهج الدراسة بالجامعة الأمريكية تماثل مناهج الدراسة بجامعة طنطا . فإن المناخ الجامعي وأنماط التفاعل الاجتماعي والثقافي ، والمعلمين والبيئة المدرسية والجامعية والمستوى الاقتصادي والاجتماعي للطلاب . هي جد مغايرة . وهي التي تشكل البناء الثقافي والتعليمي للطلاب . فليس وجود مقرر دراسي أو منهج دراسي واحد يترتب عليه بالضرورة خلق التجانس والحفاظ علي ثوابت الهوية في انتمائها. إن العوامل غير المسيطر عليها والتي تخرج عن إمكانية الضبط والتي نسميها نحن في الأدبيات التربوية والعلم التربوي - المناهج الخفية - وأنماط التفاعل الاجتماعي والثقافي هي التي تخلق وتشكل المعتقدات والأفكار والقيم والسلوكيات . وهي التي تحدد بشكل قاطع الإطار المرجعي والثقافي للمتعلمين .

لذلك فإن التباين في الأنماط والصيغ التعليمية بالشكل الذي تحدثنا عنه يؤدي بالضرورة إلى خلق الازدواج الثقافي والثنائيات التعليمية تهدد البنية المعرفية والذهنية والسلوكية للطلاب . والسؤال: كيف سيواجه نظامنا التعليمي ببنيته هذه مستجدات القرن الحادي والعشرين وتحدياته المعرفية والاتصالية ؟! والتي هي في جوهرها تدعو إلى هيمنة ثقافة ونظام الأقوى - بلدان المركز - على ثقافة ونظام الأقل قوة - الأطراف - إن العديد من المؤشرات التي بدأت تظهر على الساحة بعد عام ١٩٨٩ . عام انهيار الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية تدعم نمط الهيمنة الجديد. والصيغة الساعية نحو السيطرة ، تدعم يوميا على صعيد العلاقات والسياسات الدولية والاقتصادية والثقافية والعسكرية ، إن هيمنة النظام الرأسمالي العالمي بقيادة الولايات المتحدة تتسيد الموقف يوما بعد يوم وتلف حولها العديد من الأنصار ولم يبق أمام بلداننا سوى محاولة التكيف والمواجهة وفق مقتضيات الحال .

إن ذلك يظهر من خلال تجليات العولمة في كل أشكالها وجوانبها وتبشر في ذات الوقت بسيادة نمط ثقافي وفكري وسياسي واقتصادي واحد ، هو الأنموذج الرأسمالي الغربي الذي يسعى بكل جهد إلى السيطرة والهيمنة ، وليس في الأفق حتى الآن أي بادرة أمل في الانفلات من ذلك النمط على الصعيدين العالمي والمحلي.

من هنا فإن دعوتنا تنحصر في جعل نظامنا التعليمي قادرا على صياغة وتشكيل العقلية في إطار الوحدة الثقافية التي بدونها لن نستطيع أن نواجه أو نجابه مظاهر العولمة وهيمنة النظام الرأسمالي العالمي ، الذي يبني مشروعه في إطار فرض ثقافة الغرب بما فيها وعليها على الثقافات الوطنية في بلدان العالم الثالث ، إن المعركة القادمة سيكون للتعليم دوره فيها دور حاسم وفاعل .





الصاغ

أحمد عبد الله طعيمة

شاهد على

صراع السلطة فى مصر

(١٩٥٢ - ١٩٧٤)

بقلم : د . عاصم الدسوقى


جمال عبد الناصر


محمد نجيب


علي صبري


زكريا محيي الدين

تحت عنوان «شاهد حق» ، قدم أحمد عبد الله طعيمة شهادته علي صراع السلطة في مصر بين محمد نجيب وعبد الناصر ، وبين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، ثم بين أنور السادات ومجموعة علي صبري.

وأحمد عبد الله طعيمة ، أو الصاغ طعيمة كما كان يعرف في الوسط السياسي بين العمال والشباب منذ إنشاء هيئة التحرير (١٩٥٣) ، أحد الضباط الأحرار ممن كانوا قريبين من عبد الناصر ، وأسندت إليه مسئوليات سياسية وتنفيذية ، فاشترك مع إبراهيم الطحاوي في تكوين هيئة التحرير لملء الفراغ الذي نجم عن إلغاء الأحزاب السياسية ، ثم عين سكرتيراً عاماً مساعداً للاتحاد القومي ومعه الطحاوي أيضاً (١٩٥٧) ، وتولي وزارة الأوقاف ١٩٥٩ - ١٩٦١ ، ثم ترك البلاد سفيراً لدي الأرجنتين لعام واحد (١٩٦٣ - ١٩٦٤) عاد بعده إلي مصر لممارسة خبراته التنظيمية في الاتحاد الاشتراكي العربي (١٩٦٥) . وقبيل وفاة عبد الناصر ترك التنظيم السياسي بناء علي رغبته إلي رئاسة الجمهورية بدرجة وزير ، ظل كذلك إلي أن قرأ في الصحف نبأ إحالته للمعاش في أواخر ١٩٧٤ .

وطوال فترة وجوده في دائرة السلطة اشتهر باستقامة الأداء ونقاء الخلق ، فلم تطله الشائعات والأقاويل التى كانت تنسج حول حياة الضباط الأحرار الخاصة والعامة ، ولم يتردد اسمه فى قضايا انحراف بالسلطة أو الصراع عليها ، ولم تنسب إليه تجاوزات أخلاقية هنا وهناك ، ومن هنا تكتسب شهادته قوة فى إقناع القارىء بها .

أما الحق الذى أراد طعيمة أن يقوله للناس ، فإنه يتعلق بما شاهده من صراع على السلطة بين محمد نجيب وعبد الناصر ، ثم النفوذ الذى كان يتمتع به عبد الحكيم عامر مما أطمع مجموعته فى السلطة ، ثم صراع السادات مع مجموعة على صبرى فى مايو ١٩٧١ ، حيث انفرد بعده بالسلطة دون منازع شرعى يستند إلى ثورة يوليو . ومن هنا فإن ما كتبه

يختص بأحد جوانب حياته السياسية وليس كل حياته .

وكان عزيز باشا أباظة قد اقترح عليه فى مطلع عام ١٩٧٠ أن يكتب مذكراته (!!) ، ثم تحولت الفكرة عنده إلى كتابة تحليل تاريخى للثورة ، غير أن عبد الناصر طلب تأجيل إصدار الكتاب إلى ما بعد وفاته . ثم مات عبد الناصر فى العام نفسه ، ولم ينشر طعيمة كتابه عن ثورة يوليو ، بل ولم يكتب مذكراته كما فعل كثيرون غيره . ولكنه وبعد حوالى ثلاثين عاما من طرح الفكرة ينشر شهادة عن جزئيات محددة من تاريخ الثورة .

ومن بين حوادث الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٧٤ ، وهى حوادث كثيرة ومتلاحقة ومتنوعة ، اختار أحمد طعيمة المواقف التى أحاطتها الشبهات والجدل أكثر من غيرها . وقد سطرها بقلم يقطر تقديرا ومحبة للزعيم عبد الناصر رغم اختلاف الرأى بينهما ورغم أقاويل بطانة السوء ضده وتأثر عبد الناصر بها ، ويقطر حسرة نحو محمد نجيب لوقوعه أسير أركان النظام القديم وكذا للإخوان المسلمين الذين أعماهم الحقد عن رؤية فضائل الثورة ، ويحمل مرارة لكل من عبد الحكيم عامر والسادات مع اختلاف الأسباب .

تقديرات صحيحة

والآن .. ما هى المواقف التى قال فيها طعيمة «شهادة الحق» ؟ .. فى مقدمة وجيزة فى إحدى عشرة صفحة ، عرض طعيمة عرضا سريعا لنشأته ، وتعلمه ، وانضمامه للإخوان المسلمين بالشعبة العسكرية تحت قيادة الصاغ محمود لبيب (متقاعد) ، وهروبه إلى الضباط الأحرار بمفاتحة من الصاغ وحيد رمضان الذى كان بجماعة الاخوان أيضا ، ذلك أن مهمة الشعبة العسكرية بالإخوان فى تدبير أعمال الاغتيال والقتل «تتنافى مع طبيعته الدينية والوطنية» ، ثم التقائه بجمال عبد الناصر بكازينو أوبرا ، وموقعه من الإعداد للثورة حتى ليلة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ .

وينتهى من هذه المقدمة إلى القول بأن تحليل عبد الناصر لطبيعة الانجليز المترددة فى التصدى لتحرك الجيش وحساباته فى هذا الخصوص ، كانت صحيحة وصادقة مائة بالمائة .

أما بالنسبة لأزمة مارس ١٩٥٤ التى تذكر أحيانا فى بعض أدبيات التاريخ لثورة يوليو بأنها أزمة الديمقراطية التى أظهرت دكتاتورية جمال عبد الناصر ، فإن طعيمة يقول إن نجاح ثورة يوليو المفاجىء والسريع دون إراقة دماء ، أطمع الكثيرين من ضباط القوات المسلحة حتى من رتبة «الصولات» لتدبير مؤامرات للانقضاض على الثورة فشلت جميعها .

ثم يقرر أن أزمة مارس ١٩٥٤ هى إحدى هذه المؤامرات التى رفعت شعار الديمقراطية ، فكان الحق الذى يراد به الباطل ، وقد بدأت الأزمة من سلاح الفرسان بقيادة خالد محى الدين حتى كادت تنشب حرب أهلية . وللخروج من هذا المأزق عرض جمال عبد الناصر الوزارة على خالد محى الدين الذى كانت علاقته قد توثقت بالرئيس محمد نجيب عندما رافقه فى رحلة إلى النوبة . وقرر مجلس قيادة الثورة حل نفسه وعودة الضباط إلى الثكنات يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٤ . لكن أعداء الثورة كما يقول طعيمة ، لم يكونوا مطمئنين إلى تنفيذ

القرار في موعده فقرروا التعجيل بتنفيذه.

وفي هذه الأزمة قام الشيوعيون والإخوان المسلمون والوفديون باستغلال محمد نجيب للتخلص من الضباط الأحرار. ووقع محمد نجيب في أسر هذه القوى الثلاث ، ولم يكتشف حقيقة مراميها البعيدة للتخلص منه هو نفسه بعد أن يصفو الجو لها . ووقف بجانب محمد نجيب وخالد محي الدين ويوسف صديق الذي استدعى قريبه صاوي أحمد صاوي رئيس اتحاد عمال النقل المشترك ومحمدى عبد القادر سكرتير الاتحاد . وتم الاتفاق في منزل نجيب على أن يقود صاوي عمال النقل في إضراب واعتصام لإجبار الضباط الأحرار على العودة إلى الثكنات دون انتظار ليوم ٢٣ يوليه ١٩٥٤ . غير أن صاوى ومحمدى بعد أن غادرا منزل محمد نجيب توجها مباشرة إلى هيئة التحرير وقابلا أحمد طعيمة وإبراهيم الطحاوي ، وأبلغاهما بمضمون لقائهما مع محمد نجيب ، وكيف أنهما في حيرة من أمرهما لأنهما لا يعرفان نجيب أو عبد الناصر ، وإنما يعرفان طعيمة . وقد قال طعيمة لهما إن جمال عبد الناصر زعيم وطني ولا يعمل إلا لخدمة مصر . وتم الاتفاق على تحويل الإضراب المتفق عليه مع محمد نجيب إلى المطالبة ببقاء مجلس قيادة الثورة وليس عودة الضباط إلى الثكنات . واشترك في الإضراب الذي بدأ يوم ٢٥ مارس عمال النقل المشترك ونقابة سائقي التاكسي وعمال السكك الحديدية وكافة النقابات باستثناء عمال المياه والكهرباء والمخابز ، وبلغت حركة العمال ذروتها يوم ٢٩ مارس . وقد خرج عبد الناصر منتصرا بعد أن كان قد فقد الأمل في وجود حل للخروج من هذه الكارثة حتى لقد اقترح على طعيمة والطحاوى ، وكانا يزورانه ، ترك السلطة ومعاودة النشاط تحت الأرض . غير أن هذه الرواية لا يصدقها من وقر في ذهنه أن حركة مارس المضادة لمحمد نجيب مجرد انقلاب ضد الديمقراطية ، ويرفض أن يصف حركة محمد نجيب بأنها مؤامرة على الثورة ؟!.

مشكلة عمال النقل المشترك

أما لماذا لجأ صاوى ومحمدى إلى أحمد عبد الله طعيمة في هيئة التحرير للمشورة ؟ ولماذا كانا يعرفانه هو ولا يعرفان نجيب أو ناصر ؟! . فإن هذا يعود – كما نقرأ في الشهادة – إلى دور طعيمة في هيئة التحرير حيث تولى مسئولية تسوية مشكلات العمال مع أصحاب الأعمال ، وقد كسب طعيمة ثقة الطرفين فيما كان يقترحه لحل المشكلات (لاحظ هنا أن الاقتصاد في مصر آنذاك كان لا يزال في دائرة الاقتصاد الرأسمالي) . وكانت أعقد المشكلات التي تصدى لها ، مشكلة نقابة عمال النقل المشترك برئاسة صاوى وسكرتيرية محمدى عبد القادر ، إذ كانت تضم عمال سبع شركات بما فيها شركات الترام وترام مصر الجديدة . وهكذا كانت جهود طعيمة في تسوية مشكلات العمال مفتاح الموقف في مارس ١٩٥٤ .

ولقد خرج طعيمة من هذه الأزمة بطلا منقذا ، وعرض عليه جمال عبد الناصر أن يكون وزيرا للعمال حتى يتمكن من ربط العمال أكثر وأكثر . لكن طعيمة رفض وقال إنه ربط العمال بالثورة وبجمال عبد

الناصر لكن «بطانة السوء صورت لعبد الناصر أن منصب الوزير لا يكفى طعيمة، وأنه يتطلع إلى رئاسة الجمهورية ، وأنه مثل بيرون الأرجنتين الذى صعد إلى السلطة بعلاقاته بالعمال» .

وبعد أن ينتهى طعيمة من توضيح أزمة مارس ١٩٥٤ ، يتناول الأزمة بين جمال عبد الناصر والإخوان المسلمين التى كانت ذروتها إطلاق الرصاص على جمال عبد الناصر بالمنشية . ويلخص طعيمة العلاقات وأزمتها بقوله : إن الإخوان اعتبروا أنفسهم أصحاب الحق فى الثورة ومن ثم فى السلطة ، وإنهم هم القاعدة الشعبية التى يجب أن تسلم لها الثورة مقاليد الحكم وينتهى دور الضباط الأحرار ويعودوا إلى الثكنات ، ومن هنا نفهم التقاءهم بمجموعة محمد نجيب فى أزمة مارس . ولنتذكر هنا أن صاحب الشهادة كان عضوا بالإخوان المسلمين فى بدايته ، ولم تنقطع صلته بهم حتى لقد لجأ إليه السادات بعد مايو ١٩٧١ عندما أراد توظيف الجماعة لصالحه .

فلما لم يحدث السيناريو الذى رسمته الجماعة من حيث عودة الضباط إلى الثكنات ، طالبت الجماعة بأن يكون الوزراء منهم ، ووقفوا ضد فكرة إنشاء هيئة التحرير «لأن الثورة ليست فى حاجة إلى جهاز شعبى غير جماعة الإخوان المسلمين» وقد رفض جمال عبد الناصر هذا المبدأ على أساس أن «مصر تشمل المسلمين والأقباط ، فإذا انحصر النشاط السياسى فى جماعة الإخوان المسلمين فكيف يطلب من الأقباط الانضمام إلى الإخوان المسلمين لمباشرة حقوقهم السياسية» . وقد عبر الإخوان عن موقفهم المعارض لهيئة التحرير عندما كانوا يحضرون اجتماعاتها هاتفين : الله أكبر ولله الحمد ، مما جعل الهيئة تبتكر الهتاف المضاد : الله أكبر والعزة لمصر .. الله أكبر والعزة للعرب .

عبد الناصر والإخوان

وقد كشف طعيمة عن الأفكار المتأخرة للجماعة ، من ذلك قول حسن الهضيبى المرشد العام : إن الجماعة تنظر إلى العالم الإسلامى ككل ، ولها أن تحدد أولويات الجهاد ، فقد يكون الجهاد فى الجزائر أهم من الجهاد فى منطقة القناة .. يقول هذا فى الوقت الذى كانت قيادة الثورة تعبىء الجماهير لخوض معارك قتالية فى منطقة القنال لإجبار الإنجليز على الجلاء . بل إن أعضاء من الجماعة تتصل بعناصر فى السفارة البريطانية بهدف تأجيل اتفاق الجلاء حتى يتسلم الإخوان السلطة فى مصر .

غير أن عبد الناصر ظل يأمل فى أن يعود الإخوان إلى «منطق الحق والعقل» . وفى تلك الأثناء قدم بعض أعضاء الجماعة من المتعاونين مع طعيمة والطحاوى كشفا بأسماء ثلاثمائة شخص من أعضاء الجهاز السرى للإخوان يمكن أن يقوم أحدهم باغتيال عبد الناصر . واقترحوا على الزعيم فصلهم من عملهم وبذلك ينشغلون بأنفسهم وبعائلاتهم عن أى نشاط آخر . غير أن عبد الناصر لم يصدر قرار الفصل رغم الإلحاح عليه ، وكان ذلك قبل حادث المنشية . وكانت وجهة نظره أن فصل ثلاثمائة يعنى تعريض ألف وخمسمائة فرد لأخطار ومصائب هم غير مسئولين عنها ، وذلك على أساس أن كل شخص من الثلاثمائة


عبد الحكيم عامر


خالد محيي الدين


السادات


حسن الهضيبي

لديه أسرة من خمسة أفراد في المتوسط . ويختتم طعيمة هذا الجزء من شهادته بقوله «إن الاختلاف بين الثورة والإخوان لم يكن خلافا دينيا أو عقائديا أو وطنيا ولكنه كان صراعا بحتا على السلطة والسلطة وحدها» . ويضيف : «إنه لو تعاون الإخوان مع الثورة لخدمة مصر وليس بغرض السلطة ، خاصة وأن عبد الناصر استثناهم من قانون حل الأحزاب، لتجنبت الثورة كثيرا من الأخطاء التي حسبت عليها» . وهي إشارة من طعيمة إلى تحول عبد الناصر بعد المنشية إلى أسد جريح يصيب كل من يصادفه .

ويتوقف طعيمة عند فترة الانتقال التي حددها مجلس قيادة الثورة بثلاث سنوات للتمكن من الإمساك بزمام الأمور في البلاد بعد حل الأحزاب السياسية . ويقول إن هذه الفترة «أضرت بالثورة من ناحية الديمقراطية ضررا بالغا» ، إذ لم تكن توجد أي جهة رقابية على تصرفات الوزراء، فبدأ الانفراد بالسلطة وانفتح السبيل أمام الدكتاتورية ، بحيث إنه عندما انتهت الفترة الانتقالية، وأعلن دستور ١٩٥٦ وأنشيء مجلس الأمة ، كان الوزراء – عسكريين ومدنيين – يضيقون ذرعا بأي سؤال من أحد النواب بالمجلس.

وقد أعرب طعيمة عن استيائه الشديد من حل هيئة التحرير وإنشاء الاتحاد القومي ، وتساءل .. إذا كانت الهيئة قد نجحت في مهمتها منذ أنشئت فلماذا الإقدام على حلها ؟! . ولم يجد طعيمة من تفسير سوى أن التخلص منه ومن الطحاوي هو القصد خوفا من الزعيم على الزعامة ، وأن وراء الأمر الدس ضدهما لدى عبد الناصر . وقد نسب طعيمة هذا الدس إلى كل من كمال الدين حسين والبغدادي وحسن ابراهيم والسادات الذين فشلوا في أن يحظوا بقبول جماهيري عكسهما ، ويذكر طعيمة أنه حدثت أمور بينه وبين السادات شهدها عبد الناصر ولكنه «يعف عن تدوينها لأن السادات بين يدي الرحمن» . وقد نجحت الوقيعة إلى الحد الذي جعل جمال عبد الناصر يقول : «أريد أن أكسر حاجة اسمها الطحاوي وطعيمة» .

من المسئول ؟

ثم تابع طعيمة الظروف المصاحبة لهزيمة يونية ١٩٦٧ لتحديد المسئولية ، فنراه يخص المشير عامر بسبب واحد وهو الحفل الساهر في أنشاص مساء ٤ يونية

حتى الفجر رغم تأكيد عبد الناصر بأن العدوان يقع يوم ٥ يونيه ، على حين يخص عبد الناصر بعشرة أسباب أبرزها : إغلاق مضايق تيران وخليج العقبة دون الأخذ فى الاعتبار رد فعل إسرائيل ، وطرد قوات الطوارىء الدولية دون اعتبار لرد الفعل الأوربى - الامريكى، وعدم الانتباه لفخ جر مصر للحرب بادعاء وجود حشود إسرائيلية على حدود سوريا دون التأكد من وجودها ، واستعراض القوة الذى استغلته إسرائيل للحصول على مزيد من الدعم العسكرى الأمريكى . وفى هذه النقطة أشار طعيمة إلى حقيقة الصراع الغامض بين عامر وناصر حيث قال له عبد الناصر غداة الهزيمة : إن المشير عامر أضاع البلد ، وإنه كان مغلوبا على أمره من المشير وعصابته . ورغم هذا التحليل السببى للهزيمة ، إلا أن طعيمة يتبنى إلى القول بأن بطانة السوء التى أحاطت بعبد الناصر كان لها أكبر الأثر فيها ، وإن الظلم الذى حاق بمن فرضت عليهم الحراسات من كبار العائلات كان من أهم اسباب الهزيمة ، ويردف قائلا : وما كان الله بغافل عما يفعل الظالمون .. والظلم ظلمات . والحق أن طعيمة لم يختلف كثيرا فى هذا التحليل عما كان سائدا فى أوساط كثيرة فى مصر غداة الهزيمة ، وهو تحليل ساعد كثيرا على سيادة مناخ الغيبيات فى تناول الواقع السياسى ، وما صاحبه من تهيئة الأذهان للرجوع عن كثير من منجزات الثورة بدعوى الإصلاح. وتتضح آفاق هذه الروح الانهزامية فى الاقتراحات التى قدمها طعيمة لعبد الناصر بتاريخ أول سبتمبر ١٩٦٧ للخروج من الهزيمة والنجاة من آثارها ، قدمها فى صيغة خطاب حرص على أن ينشره فى أول الكتاب وليس فى موضعه من الشهادة !! .. وقد تضمنت الاقتراحات فى جانب الإصلاح السياسى ، إعلان الدستور الدائم ، وإقامة حزبين سياسيين، وفى الإصلاح الاقتصادى ، تحرير الاقتصاد من يد الدولة التى أصبحت المتحكم الوحيد فى لقمة العيش ، وتحرير الفلاح من عبوديته للدولة . وفى جانب الإصلاح الاجتماعى ، ضرورة اعتبار الدين الاسلامى مادة أساسية فى جميع مراحل التعليم حتى الجامعة ، لا تضاف درجته إلى المجموع الكلى وإنما يعتبر مادة رسوب أو نجاح ، وعدم ممانعته تدريس الدين المسيحى للمسيحيين بالمثل ، وتطهير أجهزة الدولة فى الإعلام والثقافة والصحافة من الشيوعيين الملحدين خريجى السجون والمعتقلات (!!) ، والاهتمام بالمظاهر الدينية ، والبدء فى نهضة دينية شاملة للدعوة الإسلامية داخليا وخارجيا ، وأن يعود لمصر اسمها بإلغاء اسم الجمهورية العربية المتحدة .

ومن الواضح أن عبد الناصر لم يقتنع بأى اقتراح من تلك الاقتراحات التى كانت فى جملتها ردة عن الثورة وتراجعا عن مبادئها ومثلما لم يجد طعيمة تفسيرا لهزيمة يونية إلا على مستوى الدين «لأن الله لم يكن معنا بعد أن تركنا طريقه ودينه» ، لم يجد أيضا فى تعيين أنور السادات نائبا لعبد الناصر ثم رئيسا للجمهورية سوى إرادة إلهية ، وتطبيقا للآية الكريمة «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ..» . وأما نجاح السادات فى السيطرة على الموقف بالتخلص من

«مجموعة على صبرى ، فإنه يعود - فى رأى طعيمة - إلى عجز قدرات هذه المجموعة أكثر من تمتع السادات بقدرات خارقة . بل إن اختيار عبد الناصر لهذه المجموعة لم يخل من مغزى ، فهى جماعة تقاد ولا تقود . والدليل على ذلك كما رأى طعيمة أنهم قدموا استقالات جماعية من مناصبهم . وكان يمكنهم عزل أنور السادات بإرسال دبابة وفصيلة جنود إلى منزله وإعلان عزله .

نصر عزيز

ويؤكد طعيمة فى هذا الجزء من الشهادة أن المدبر الحقيقى لحرب ١٩٧٣ هو عبد الناصر وليس أنور السادات ، بل إن تدخل السادات فى العمليات العسكرية كان سببا فى عدم تحقيق القوات المسلحة نصرا عزيزا على إسرائيل ، وحول نصر أكتوبر من نصر بلا حدود إلى نصر محدود ، ولكنه لم يقل لنا لماذا كان السادات يتدخل فى العمليات العسكرية !!

وقال إنه إذا كانت حرب ١٩٥٦ هزيمة عسكرية ونصرا سياسيا ، وإن حرب ١٩٦٧ هزيمة عسكرية وسياسية ، فإن حرب ١٩٧٣ كانت نصرا عسكريا وهزيمة سياسية وهوان سياسى تمثل فى أن إسرائيل تمكنت من تنحية مصر وأخرجتها من الميدان لتنفرد بالدول العربية ، وفيما صاحب تسوياتها السياسية من انفتاح اقتصادى كان «انفتاح الشر والفساد والرشوة والثراء الحرام واستغلال النفوذ والانصياع لتوجيهات البنك الدولى» ، على حين أن عبد الناصر - كما يقول طعيمة - اعترض على قرار وزارة زكريا محى الدين رفع ثمن كيلو الارز قرشين وانحاز إلى الفقراء، وعندما أراد زكريا محى الدين إصلاح المسار الاقتصادى بناء على توجيه البنك الدولى بتخفيض قيمة الجنيه المصرى رفض عبد الناصر لأن الفقراء سيدفعون ثمن ذلك ، وأن عبد الناصر عمل قدر الإمكان على تذويب الفوارق بين الطبقات. أما السادات فقد رفع أسعار قائمة كبيرة من السلع الاستهلاكية مما أدى إلى مظاهرات ١٨ - ١٩ يناير ١٩٧٧ وصفها بانتفاضة الحرامية ، وفتح الباب على مصراعيه لكل طامع فى الثراء العاجل دون البحث عن صالح البلاد .

★ ★ ★

إن الشهادة التى يقدمها أحمد عبد الله طعيمة عن المناخ السياسى فى مصر ١٩٥٢ - ١٩٧٤ تؤكد خطورة كتابة التاريخ اعتمادا على الذاكرة ، لأن شهادته غفلا من تحديد تاريخ أهم منعطفات الحوادث ، وغفلا من أكثر الأسماء التى ارتبطت ببعض المواقف المهمة . وتؤكد أهمية المقابلة النصية لكل المذكرات التى نشرها بعض الضباط الأحرار أو الذين كانوا قريبين من دائرة السلطة بدرجة أو بأخرى ، وذلك للتثبت من بعض الوقائع الواردة بغية الحقيقة طالما أن الوثائق غائبة أو مغيبة ، وقد لا يكشف عنها وقد لا تكون موجودة أصلا . وعلى هذا سوف تظل الحقيقة المعقولة غائبة ، لأن كل المذكرات التى تنشر بما فيها هذه الشهادة ، لم تتحرر من الظاهرة المرضية التى اتسمت بها كل المذكرات ، ألا وهى إدانة الآخرين ، وإضفاء البطولة على أشخاص أصحابها !! دون الاعتراف ولو بخطأ واحد وقعوا به حتى على سبيل الاستثناء .

«ويأكلون التراث أكلا لما»

بقلم : د. محمد رجب البيومي

●● أكتب هذه الآية الكريمة للاستئناس لا للاستشهاد ، لأنها جاءت في الذكر الحكيم في مناسبة غير التي أعنيها ولكن الاستئناس بها يرفع من قيمة المقال ، وعهدي أن أكتب ما أكتب فأسير في ظلمات تتراكم ، فإذا سنح المجال بذكر نص قرآني شعرت أن برقا ساطعا قد أضاء ، وأن سطورا من النور أخذت تتوهج أمام عيني ، فأستريح.

وكتب التراث عزيزة علينا ، أو على الأقل عزيزة على من في طبقتي من معلمي اللغة العربية ، فإذا لمحت انحدارا شائنا في نشرها اليوم ، فأنا ألتاع لشيء عزيز عليَّ ، وهل يملك الملتاع إلا أن يصيح ●●

لا يكاد يمر يوم حتى نقرأ في إعلانات الصحف عن كتب من التراث قام بنشرها قوم من الناس ، ليس لهم في هذا المجال قدم راسخة ، وتتعاظم الدهشة حين تكون هذه الكتب قد نشرت من قبل بتحقيق أفاضل من الباحثين الأصلاء ، بذلوا نور العين في قراءة ما تآكل من الحروف في المخطوطات ، ونور العقل في توضيح ما أبهم من العبارات ، ومدخر الجيب في نفقة ما قُدِّم من الأجزاء ، ثم يأتي قارئ أي قارئ فيعمد إلى كتاب محقق مخدوم ، فيعيد نشره مرصعا الصفحة الأولى باسمه الكريم ، وقد ينشر الكتاب الضخم في أعداد تتوالى على

مدار العام ، وفي كل أسبوع تظهر الأسماء الغاصبة في إعلان عن الكتاب المغصوب ، وكأن ذلك أمر طبيعي لا اعتراض عليه ، وأكثر ما نرى ذلك في الكتب الدينية من تفسير وحديث وقصص أنبياء ، لأن الناشر يعلم تكالب الجمهور المؤمن على اقتناء هذه الآثار ، وأقول على اقتنائها لا قراءتها ، إذ لو كان المشترى من ذوى الأصالة لآثر الكتاب المستقل بمجلداته المحققة من قبل ، ولكنه يشترى حسبة في الأجر وطمعا في المثوبة ، وقد ضحكت حين أخبرني بعض هؤلاء أنه اشترى سلسلة بعض التفاسير ، دون أن يدرى أن التفسير لديه قد اشتراه من سنوات ! ويحار الآن ماذا يصنع بالوافد الجديد ؟.

• أضواء الفجر

تشتد الحملة الظالمة على الكتب التي صدرت في منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، لأن المطبعة العربية حين أنشئت في مصر منذ عهد محمد على ، ولا أقول منذ الحملة الفرنسية حيث أن دورها حينئذ كان وقفا على صدور المنشورات ، وطبع الأحكام العسكرية لا لتوزع على الناس بل لتلصق على الجدران ، هذه المطبعة العربية أخذت تنشر كتب التراث في نهم زائد ، وقد ألفت جمعية المعارف سنة ١٨٦٨ ، ومهمتها نشر الكتب النافعة برياسة محمد عارف باشا ، وطبعت لأول مرة طائفة من الكتب الجيدة مثل : أسد الغابة لابن الأثير ، وتاج العروس للزبيدي ، وغيرهما ، ثم تعددت المطابع ومن أشهرها مطبعة بولاق، فتوالى نشر مئات الكتب ، منها ما يصدر عن الجمعيات العلمية وقد ذكرها جورجى زيدان بإفاضة ، ومنها ما يقوم به الأفراد ، ومن هنا انهمر سيل دافق من المؤلفات العلمية والأدبية ، وبخاصة ما كان يدرس في الأزهر من الحواشي والشروح والتقارير ! وطبيعي أن يكون النشر كما اتفق ، فالتصحيح محدود الأثر ، والأغلاط لا حدَّ لها ، ولكن وراء ذلك كله حركة علمية ساعدت على نشر المعارف ، وآتت أكلها ضعفين ، وأنا أسأل هؤلاء الذين يتجهمون لهذا العهد ، ويعدونه عهد الوراقة نَبْزاً وتهجينا ، أسأل هؤلاء ، ماذا قرأ محمد عبده والمنفلوطي وسيد على المرصفي وعبدالرحمن البرقوقي وأحمد شاكر وحسن السندوبي ومحمد محيى الدين عبدالحميد من علماء الأزهر؟ ، وماذا قرأ محمد المهدى والاسكندرى وحفنى ناصف ومحمد الخضرى وعبدالوهاب النجار وطنطاوى جوهرى وأحمد إبراهيم والجارم من نبهاء دار العلوم؟ ، وماذا قرأ أحمد أمين وعبدالوهاب خلاف وأمين الخولى وعبدالوهاب عزام ومحمد أبو زهرة وعلى الخفيف من علماء مدرسة القضاء الشرعي؟ أليست هذه الكتب (المنبوذة) هي التي أدت دورها في تكوين هؤلاء قبل أن يبزغ صبح التحقيق ، كان العالم الأزهرى يعين مصححا في المطبعة ، ليخرج الكتاب على قدر ما يستطيع ، دون أن يباهي بذكر اسمه في الصفحة الأولى ، وعلم الله كم تكبد في قراءة كلمة محرّفة ، أو مراجعة نص مبتور ، أو تصحيح بيت شعرى ، حتى تم الكتاب بأجزائه المتعددة ، ولا تعلم

عن هذا المصحح الفدائى شيئا غير قوله فى الآخر «يقول مصححه فلان انتهى الكتاب بتوفيق الله فى يوم كذا» وأكثر القراء لا يلمون بهذا السطر الضئيل ولا يعرفون جهد من تكبد وعانى وأرهق، بل إن من الكتب الآن فى الأصول والمنطق والتوحيد مالاتزال الأوراق الصفراء مستكنها الهادئ فلا يجرأ أحد على نشرها ؟ ومن ذا الذى يتطاول إلى نشر كتب العصام، والكمال بن الهمام، وعضد الدين الايجى والبيضاوى والتفتازانى فى علوم لم يعد يتقنها الآن أحد ! بعد ذلك كله تجد من يذم عهد الوراقة، ويسب التجار الذين طبعوا العقد الفريد والكشكول والأغانى وزهر الآداب، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والمستظرف لأول مرة منذ مطلع هذا القرن وما سبقه ! وبهذه المؤلفات وحدها تثقف من ذكرت من قبل من أعلام النهضة فى الأدب الحديث ! أذكر أن العلامة اللغوى الشهير الامام محمد بن محمود الشنقيطى كان يصحح أجزاء المخصص فى حجرة رطبة بمنزله المتواضع فى شارع أم الغلام خلف مسجد الإمام الحسين رضى الله عنه، وكان البرد يأكل صدره أكلا والحجرة الباردة مبلطة بالحجر الثقيل الذى نعهده فى مساجد العصر المملوكى ونور المصباح الزينى الضئيل يأكل عينه، وقد ألح عليه السعال ذات ليلة فانكفأ على الأرض، وجاء خادمه الأسود ليرفعه من مهبطه فلما استوى ناهضا، قال بصوت يقطعه السعال : أنا قتيل المخصص، أنا قتيل المخصص !! هكذا روى عنه تلميذه العلامة أحمد تيمور، وكم عانى المصححون من أمثاله فى إخراج هذه الكتب المتواضعة، وبدل أن نذكر نشاطهم بالتقدير، يصيح الصائحون تجارة ! وراقة! جهل ! كأننا الآن فى مطلع القرن الحادى والعشرين لا نقوم بالوراقة فيما تنشر من مسلسلات التراث على نحو ما سيجئ!! على أنى أصارح القارئ أن الكتاب الأول الذى يقرؤه الإنسان لأول مرة فى طبيعته المتواضعة، لا يغنى عنه خلفه الذى ظهر فى طبعه أنيقة، أذكر أن الأستاذ الجليل على البجاوى رحمه الله، قد أهدانى مشكورا، كتاب (الاستيعاب لابن عبدالبر) فى أجزائه الناصعة المحققة، وكنت قد قرأته فى طبعته المتواضعة ذات الورق الأصفر فعرفت مكان كل صحابى من الكتاب، فإذا رجعت إلى الاستيعاب آثرت النسخة الصفراء، لأنى قرأتها فى صباى، وانطبعت فى مخيلتى، وقد أكون غريبا فى هذا المنحى ولكنه على غرابته واقع ملموس ! وماذا تستغرب من ذلك. ولدينا الآن من لا يقرءون كتاب الله، إلا فى المصحف الذى حفظوا منه الكتاب الشريف لأول مرة، فهم يعرفون موضع السورة، بل السطر، بل الكلمة، ويباهون بما يعرفون.

● نور الصبح

ثم ظهر عهد التحقيق، بدأ به المستشرقون، فكان من همهم جمع الأصول الكثيرة للكتاب الواحد، ومقارنة

العبارات بعضها ببعض والحرص على إثبات وجوه الخلاف في النسخ ، وأن تكون النسخة القديمة تاريخيا هي الأصل الذي يكتب في الأعلى ، وفي الهوامش يذكر الخلاف . فيقال في نسخة كذا هذا التعبير . وقد تتعدد النسخ ، فتذكر الألفاظ المختلفة دون سأم ، ويعيب هذا المسلك أمران . أن عبارة الأصل قد تكون واضحة الخطأ ، ومع ذلك تكون هي المختارة ، وأن بعض ما ينص عليه في الهامش قد يكون مما لا معنى له ، ومع ذلك ينص عليه ، ويعدون ذلك أمانة دقيقة ، والحق أن الأمانة الدقيقة لا تكون في رصد ما وضح بطلانه . وفي التركيز على عبارة النسخة القديمة مهما ظهر عوارها ، والسبب في ذلك كله أن المستشرق يفهم اللغة العربية من القواميس . وليس لديه الذوق العربي الذي يرجح كلمة على كلمة ، كما أن حصيلته من العلوم المساعدة على التحقيق نحوا واشتقاقا ومجازا وكناية تعتبر مفقودة أو كالمفقودة ، لكن الله قد هيأ من أبناء العربية الأصلاء من أخذوا عن المستشرقين أحسن ما لديهم من الاستكثار من النسخ المختلفة ، ومطابقتها ، ومن إتقان ما ابتدعوه من الفهارس المختلفة ، والملحقات الخاصة بالاستدراكات العلمية وغيرها مما لا تفيض في تسجيله ، ومن أجدر هؤلاء الأصلاء بالذكر الأستاذ عبدالسلام محمد هارون . فقد ظهر ظهورا جذابا حين نشر كتاب الحيوان للجاحظ على نحو لم يعهد من قبل في استكمال أدواته ، وذلك لأن هذا المحقق رزق علما وبيانا وذوقا ، فهو في الناحية العلمية كان بصيرا بأوجه الترجيح ، وفي الناحية البيانية كان ذا قدرة على التمهيد في المقدمة ، ودفع ما يتوهم من الآراء غير الصحيحة ومن الناحية الذوقية تجلت نعمة الله عليه في الإخراج الجيد تبويبا وعنونةً ، وترقيما ، ووضعا لفهارس لم تعهد من قبل في اللغة والنحو والتاريخ ، وشدة احتياط في اختيار ما يتناسب من الألفاظ المحددة ، والعبارات القاطعة ، وذلك جهد جاهد لا يبلغه إلا الصفوة من طرازه !! وقد استحق الجائزة الأولى للنشر والتحقيق من مجمع اللغة العربية عن جدارة واستحقاق !! أيدري القارئ ماذا حصل بعد ذلك كله؟ ! جاء وراق في بيروت فكلف من أخرج الحيوان في جزءين فقط ، وقد اغتصب كل ما عاناه الأستاذ في تحقيق النص ليقدمه دون هوامشه وملحقاته !! يقدمه بعناوين الأستاذ وفواصله ، دون أن يشير إليه أدنى إشارة ! وكأنه ينقل عن مخطوطة لم تعرف الضوء من قبل! والأعجب أن تنتشر هذه الطبعة ، ويكتب عليها اسم المحقق الجديد ، دون إشارة ما إلى موضع الاغتصاب والانتهاب ! لقد جاء هذا الدعي إلى حديقة تعب صاحبها في إصلاحها وبذرها ، وسقيها حتى استوت ذات أثمار وأفنان ، فقطف الفاكهة في عدة أقفاص ، ثم حملها إلى السوق وكأنه جناها من مزرعته !! فأي لصوصية تلك!!.

وكتاب الحيوان مثال لعدة أمثلة تتحاشد أمام العين ، فأشيح عنها مغيظا ، وقد عضضت على شفتي !! وإذا كنت قد أحسست بهذا الضيق الكارب ، فأي

معاناة يكابدها من قام بالتحقيق كادحا باذلا نور عينه ، ودم شرايينه ، وشحيح ماله ، كي يحقق كتابا ثبتت لديه جدواه ! ثم يغتصبه من يتمسح بالمعرفة ، وهو منها براء ! .

هذا ، وقد يقوم باحث جامعي بتحقيق رسالة علمية عويصة تدور حول كتاب فلسفي من كتب المذاهب الفكرية المعقدة ، فيصل ليله بنهاره باحثا مجهدا ، وهو يعلم أن رسالته ستناقش في مجتمع فكرى يضم صفوة الأساتذة ، فلا يهدأ له بال ، حتى يصدر رسالته في أربعة مجلدات ضخمة ، تحمل اسم (تخريج كتاب الملل والنحل للشهر ستانى) وتجتمع اللجنة فى كلية أصول الدين برياسة الدكتور منصور فهمي باشا ، وعضوية الدكاترة محمد البهي ومحمد غلاب ومحمود حب الله ، ومحمود الخضيرى ، ويقوم نقاش فكرى خصب يقول عنه الأب قنواتي في مجلة الرسالة (١٣/٨/١٩٤٦) :

(ثم وقف الباحث (محمد فتح الله بدران) أمام المجلدات الأربعة يشرح موضوع رسالته ، رابط الجأش ، ويجيب بهدوء عن الأسئلة التى وجهها إليه أعضاء اللجنة ، وهى أسئلة دقيقة تنفذ إلى لب الموضوع ، وتحاول تارة نقد منهج البحث ، وتستفسر طورا عن بعض نتائج الرسالة ، في حوار علمي بديع رزين أعاد إلى ذاكرتي تلك الرسالات التى تناقش فى أوربا ، ولكن هنا مع شئ من الظرف المصرى الذى لم يقلل شيئا من جد المناقشة ، بل يكسبها روحا شرقية لم أجدها فى الخارج) . ثم قررت اللجنة منح الباحث شهادة العالمية (الدكتوراه) مع لقب أستاذ من درجة ممتاز فى التوحيد والفلسفة) . وقد رأى الباحث أن يطبع المجلدات الأربعة كيلا يضيع جهده هباء ، وفعلا قامت مطبعة دار الكتب المصرية وهى من أرقى المطابع بمصر ، بانجاز الرسالة بعد أن باع الرجل قدرا من عقاره الأرضي ليستوفى النفقات ، وخرجت المجلدات الأربعة كاسية حالية . ثم ماذا ، نفاجأ بعد سنوات بظهور كتاب (الملل والنحل) فى جزءين مجردا من هوامشه وشروحه كدأبك فيما صنع بكتاب (الحيوان) ومنسوبا إلى باحث لا يعرف عنه أدنى اشتغال بعلوم الفلسفة والكلام !! وأقول باحث وأنا أضحك متهكما ! لأن المغتصب لا يكون باحثا !.

أنا أعلم أن الضرورة العلمية قد تدعو إلى نشر تحقيق آخر لكتاب حقق من قبل، إذا كان هناك من وجهات النظر ما يسمح بإعادة التحقيق ، والجاحظ لايزال موضوع البحث فقد رأت وزارة المعارف المصرية أن تضع بين أيدى الطلاب فى المدارس الثانوية كتاب (البخلاء للجاحظ) وندبت لذلك عالمين كبيرين من رجالها المرموقين ، بهما الأستاذان الجليلان أحمد العوامرى وعلى الجارم ، وناهيك بهما ، فقاما بالعمل الجاد وفى ذهنهما أن التلميذ سيقرأ الكتاب ، فلابد أن يخلو مما تبذل به الجاحظ حين ساق بعض قصص اللهو والعبث ، كما أن التلميذ فى حاجة إلى إعراب بعض الكلمات ، وبيان أوجه البيان فى ما اشتمل عليه النص من مجاز ،

فقاما بإيضاح ذلك للطالب الناشئ ، وقد رأى الدكتور طه الحاجرى بعد سنوات أن يخرج البخلاء دون حذف ، وأن ينشره نشرا لا يلتفت إلى حاجة الطالب العلمية ، وقد اعترف بما قام به الأستاذان من جهد مشكور ، وقال «إن مدرسيّة هذه الطبعة فرضت على الاستاذين اسقاط بعض النصوص فيها ، وقد قالا فى ذلك «وإذا كان من المزمع أن تتداول هذا الكتاب أيدى شبابنا رأينا من الخير أن نتجاوز ما عسى أن يمس الحياء ، كما عدلنا عما يبلغ صفحة أو ما فوقها مبعثرا هنا وهناك مما شوهه التحريف وتعاصت تجليته ». ولذلك جاء عمل الدكتور الحاجرى مكملا ، وذا جهد تال في مراجعة المخطوطات ، ومقارنة قراءاتها وقد اعتمد على مخطوطات لم تعرف من قبل ، وهو ذلك كله أمين مأمون، وقد قدم الكتاب ببحث ضاف عن أدب الجاحظ كان نصيبه من الابتكار والاستنباط مما يحمد ويروق ، فهل يجوز أن نقول إن الحاجرى قد اعتدى على غيره ؟ كلا !!.

● مثال معيب

كان الدكتور أحمد عزت راجح يدرس لنا أصول علم التربية بالمعهد العالي للتربية بالاسكندرية ، وهو أيضا مؤلف كتاب (علم النفس الجنائى) لذلك كان يسبح معنا فى أمور تتعلق بالجريمة والاجرام ، وأذكر مما قاله أن المذنب مهما اجتهد فى إخفاء جريمته ، فلابد أن يلوح أثر منها إذا تم البحث الجنائي على أكمل أموره ، وأخذ يضرب أمثلة لبعض القضايا التى تؤكد وجهته ، وقد تذكرت هذا القول بعد مدى نصف قرن ، إذ كان ذلك في سنة ١٩٥٠ م . حين وقفت أمام سطو شائن لدكتور قال عن نفسه إنه أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة اللبنانية أو عضو الهيئة الاستشارية للمنشورات التاريخية فى اتحاد المؤرخين العرب !! هذا الدكتور وليعذرنى أخى الشاعر الكبير الأستاذ عبداللطيف عبدالحليم إذا جعلته ممن عناهم فى مقاله الموجع «طوفان الدكتوراه إلى أين ؟ المنشور بعدد يناير ٢٠٠٠ من مجلة الهلال ، هذا الدكتور قد سطا على عمل مكتمل للأستاذ المحقق الدءوب الأديب محمد محمود حمدان فاغتصبه ونسبه إلى نفسه ، وحاول أن يخفى معالم السطو، فأشار إلى مخطوطات ومنشورات مطبوعة زعم أنه رجع إليها ، ولم يشر قط إلى الكتاب المغتصب ، وكأنه كان يحسّ بلذع النار سلفا نلقاء سطوه ، فآثر أن يتجاهل ما غصبه اغتصابا لا شبهة فيه . وقد كتب الأستاذ حمدان بيانا مفصلا يوضح هذا السطو بما لا يقبل الجدل، ولكنى أدع هذا البيان ، لأعود إلى كلمة الدكتور أحمد عزت راجح الخاصة ببقاء أثر شاهد يدل على الجرم مهما حاول صاحبه الحذر ، ذلك أن الباحث نشر نموذجا من المخطوطة التى ادّعى أنها أصل لتحقيقه، ولم يأخذ هذا الأصل من النسخة المشار إليها ، ولكنه أخذه من كتاب المغازى الذى حققه الأستاذ حمدان؟ أما دليل الأخذ فأمر لم يخطر للآخذ على بال . ذلك أنه كان بالصفحة المأخوذة شطب فى الأصل

صححه الأستاذ حمدان بفراسته في كلمتين خطّهما بقلمه . وجاء صاحبنا فنقل النموذج ، وبه خط الأستاذ ولفظتاه اللتان اهتدى إليهما !! فإذا كان الباحث لم ير كتاب حمدان ، وإذا كان كل تعليقاته المسروقة من باب توارد الخواطر ؟ فمن أين أتى بهذا النموذج ؟ وهو لا يوجد إلا في طبعة حمدان التى تجاهلها ما استطاع ! . والدكتور السارق يقول عن نفسه «أنه طالب العلم العبد الفقير الى الله تعالى الطرابلسي مولدا وموطنا ! والعبد الفقير الى الله لا يتسم بالسطو الأثيم ! لاسيما من كتاب يتحدث عن مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! أفما كان جلال الموضوع ، وعظمة المتحدث عنه مما يبعث الخشية في نفس طالب العلم العبد الفقير ! فيا حمرة الخجل لم لا تكسين الوجوه ! ويا عرق الحياء لم لا تتساقط من الجبين ! .

● ظن واهم

يظن بعض الناس أن التحقيق أيسر سبيلا من التأليف ، وقد أجادوا ما يتعلق بالشكل دون الجوهر ، ففهارس الأعلام وفهارس الآيات القرآنية ، وفهارس الأحاديث النبوية . وفهارس الأماكن ؟ كل ذلك يأخذ وضعه المطمئن ، وقد يشمل أكثر من خمسين صفحة ! أما النص نفسه فلا قبل المحقق به ، ولعله ظنّ أنه غير مسئول عنه ، لأنه من كلام المؤلف ، ومن العجيب أن الاستاذ الذى لا مغمز في علمه ، ولا مطعن في ثقافته قد يتجاسر على تحقيق كتاب ليس في مجال تخصصه المعروف، فيكبو كبوات متعددة ، ونحن لا نجد بين الأحياء في تاريخنا المعاصر اسما ثقافيا لامعا كاسم الدكتور عبد الرحمن بدوى إلا أنه دخل في غير بابه ، فحقق كتاب « الاشارات الالهية » لأبى حيان التوحيدى تحقيقا كثر فيه الغلط الواضح حتى خصه الاستاذ المحقق السيد صقر ببضع مقالات في مجلة الثقافة كلها حق صريح ! أما كان الأجدر بفاضل مثله أن يترك أبا حيان لمن ألفوا التراث العربى وعرفوا مطارح التوحيدى ، وأقاصيه النائية ، لقد كان الاستاذان أحمد أمين وأحمد الزين يقضيان أياما طوالا في فهم عبارات التوحيدى . «قد قال الاستاذ أحمد أمين في مقدمة ديوان الزين : «كان رحمه الله - أحمد الزين - يحمل عنى أكبر العبء - في تصحيح كتاب الامتاع والمؤانسة لأبى حيان - ولست أنسى يوما وقد وقفنا في عبارة نحو أسبوعين لم نعرف تصحيحها ، وهى عبارة أبى حيان عن ابن مسكويه (كان غبيا بين أنبياء) فوقفنا فيها حتى جاء الزين يوما فرحا وقال إنى وجدت حلها . وهى أنه (كان عييًا بين أبيناء» فشكرته على اكتشافه ، وهنأته بحسن توفيقه ، ومثل هذا عشرات من الكلمات » .

أحمد أمين وأحمد الزين يقفان أمام عبارة واحدة أسبوعين كاملين ، حتى يهتدى الى تصحيحها أحدهما. فيشكر على اكتشافه ، ويقدم له التهانى ! وفي الواقعين من يحقق الكتاب اليوم في أسبوع!! وهو مغصوب .

● عود على بدء

ولنا أن نتساءل عن هذا الفيض الدافق مما يعلن عنه في الصحف من كتب التراث التي تعددت طبعاتها من قبل، والتي أخذت تظهر بأسماء جديدة لا نعرف لها سابقة في النشر الجاد؟ فهل فتح الباب على مصراعيه لكل هيئة نشر في صحيفة لها قسم خاص بالطبع والتوزيع كي تغفل حقوق القارئ في الانتفاع بالجديد، وحقوق الراحلين من الذين حققوا الكتاب للمرة الأولى، وأصبح لورثتهم الحق فيما يجني من كسب متواصل، أما يوجد في كل إدارة مفكر أمين يعرف أن ما لم ينشر من المخطوطات أضعاف ما نشر، وأن دار الكتب بالقاهرة وحدها تضم من كتب التفسير والحديث وتاريخ الصحابة ما يضيف الجديد للمكتبة العربية إذا نشر وذاع! ألا يعلم القائمون على نشر أمثال تفسير الألوسي والقرطبي والطبري من المشتهرات في مخطوطات التفسير بالقاهرة نفائس يشتاق إليها الدارسون، وفي إذاعتها ثراء للمكتبة الإسلامية ! ولكن المنطق التجاري يمنع هذا الاتجاه؟ فالمخطوط في حاجة إلى محقق ناضج، وعناء متصل في المراجعة والتوثيق. وذلك يتطلب جهداً مالياً لا يرى أصحاب المنطق التجاري أن يبذلوه، ما دام البديل ناهضاً؟ وما دام النشر في عرف هؤلاء هو إعادة طبع ما لا يحتاج إلى تغيير إلا في اسم الدار الطابعة ، ومن يلصق اسمه بالكتاب على أنه محقق! أما الكارثة الكبرى فهي أن تشيع رغبات السذج من القراء بنشر كتب تتعلق بالحساب واليوم الآخر حيناً، أو بالمعجزات الأسطورية حيناً آخر ، أو بالحديث عن كرامات أناس خلقت لهم المناقب خلقاً دون تمحيص! وهذا تساعد في انتشار الغفلة الضالة وتبعد المسافة بين قارئ اليوم وما يتطلبه عصره رجوعاً إلى عصور التقهقر الفكري والجمود العقلي، وبعداً عن الإسلام في مفهومه الصحيح، وقد سمعنا كلاماً يتعلق بحماية حق المؤلف ومعاقبة من يتجرأ على انتهاك هذا الحق ولكن أين التنفيذ؟.

● من المحقق ؟

أتى على التحقيق في البلاد العربية حين من الدهر كان المحقق فيه نظيراً للمؤلف يؤيده ويعارضه ويكتب في الهوامش ما يعد كتاباً آخر، فكان من مفخرة هذا العصر، أن يكون سيد بن علي المرصفي قريع المبرّد في كامله، وأن يكون عبد العزيز الميمني نظير أبي علي القالي في أماليه، وأن يكون محمد علي النجار قريع ابن جني في هوامشه على الخصائص، وأن يكون عبد السلام هارون نظيراً لعبد القادر البغدادي في تعليقاته على الخزانة، أما ابن سلام الجمحي فقد جلس القرفصاء في السطور الأولى بالصفحات المتخمة بتحقيقات محمود شاكر في طبقات فحول الشعراء وياليها!

فليت شعري أيجود الزمان بأمثال هؤلاء؟

اقرأ على الوشل السلام وقل له
كل المشارب مذ هجرت ذميم!



للتاريخ :

ثروت عكاشة وأنا

بقلم :د. عبدالعظيم أنيس

أسعدنى تماما ما فعلته الدكتورة سعاد الصباح - التى أحمل لها كل تقدير منذ لقائنا فى ندوة للأمم المتحدة منذ سنوات طويلة - من تكريم للدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة الأسبق . ففضل هذا الرجل على الثقافة فى مصر طوال سنوات وزارته لا يمكن إنكاره إلا لجاحد. وأنا شخصيا أحببت هذا الرجل طوال حياتى وطوال الأيام التى عرفته فيها ، وقد عملت تحت رئاسته عاما كاملا (من نوفمبر سنة ١٩٦٧ حتى نوفمبر سنة ١٩٦٨) كنت فيها معارا من الجامعة كرئيس مجلس إدارة شركة الكاتب العربى للطباعة والنشر ، فكان كريما غاية الكرم فى تعامله معى حتى عندما كنا نختلف فى الرأى ، وكان من عادته أن يعقد اجتماعا أسبوعيا فى مكتبه يحضره كل رؤساء المؤسسات والشركات التى تتبع وزارة الثقافة ، من جهابذة المثقفين المصريين : نجيب محفوظ ، عبدالرازق حسن ، محمود أمين العالم ، سهير القلماوي ، سعد وهبة ، سعد كامل ، على الراعى .. الخ .

ولقد عرفت ثروت عكاشة قبل الثورة ؛ إذ كنا من شباب حى العباسية ، ومع أنها كانت معرفة عابرة ، إلا أنها تجددت بعد الثورة ، عندما كان هو الملحق العسكرى لمصر فى باريس ، وكان سكرتيره الخاص آنذاك أحمد طرباى - أحد شباب الطليعة الوفدية - الذى توثقت علاقتى به عندما كنا سويا فى معتقل الطور عام ١٩٤٩ .

وعند عودتى من بريطانيا إلى القاهرة فى صيف ١٩٥٤، مررت بباريس وقابلنى أحمد طرباى ودبر لى لقاء ثروت عكاشة فى مكتبه الذى سألنى عن الأحوال فى مصر فتحدثت معه بصراحة ، والغريب أننى عندما قابلته فى باريس فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ لم أكن على علم أن قرارا من مجلس قيادة الثورة بفصل ٤٢ أستاذا من الجامعة كان قد صدر وأننى واحد من المفصولين . ولم أعلم بهذا القرار إلا عند وصولى إلى الإسكندرية .

ولقد انقطعت صلتى بثروت عكاشة حتى وقعت كارثة يونيو سنة ١٩٦٧ ، فقام بدعوة عدد من المثقفين إلى اجتماع فى



مكتبه ، وكنت واحدا منهم وأتذكر من الحاضرين يوسف إدريس وعبدالرحمن الشرقاوى ومحمود العالم وعلى الراعى وآخرين ، وكنا جميعا فى غاية الثورة على حجم الهزيمة وعلى الخديعة التى مررنا بها جميعا عن أحوال الجيش المصرى. وكان ثروت عكاشة صبورا مع صراحتنا التى تحدثنا بها ، وقد خرجنا من هذا الاجتماع باتفاق على عقد اجتماعات أخرى ، لكن هذا لم يحدث .

حتى جاء شهر نوفمبر عام ١٩٦٧ . وكنت أحاضر كالعادة يوم الخميس فى كلية العلوم بجامعة عين شمس عندما فتح الباب وإذا بأحد سعاة الكلية يقول لى إن مكتب وزير الثقافة على التليفون ، واستاءت من دخوله هكذا ، وقلت له أن يبلغهم أننى سوف أتصل بهم عندما تنتهى محاضرتى.

وبالفعل أبلغنى د. ثروت عكاشة عندما اتصلت به ضرورة حضورى فورا إلى مكتبه لأمر مهم ، وعندما قابلته أبلغنى أنه قابل الرئيس عبدالناصر فى اليوم السابق وعرض عليه ترشيحات وزارة الثقافة وأن عبدالناصر اقترح اسمى رئيسا لمجلس إدارة الكاتب العربى للطباعة والنشر بدلا من الأستاذ محمود العالم الذى عين رئيسا لمؤسسة المسرح .

وحاولت أن أعتذر قائلا إننى أفضل عملى بالجامعة على أى عمل آخر، فقال لى: « إنك لا تستطيع أن تعتذر ، فهذا توجيه من الرئيس » . قلت « إذن : ليكن هذا التعيين بمثابة إعارة من الجامعة لمدة عام أجرى فيها عملى الجديد، وبعدها يكون لكل حادث حديث » ووافق على ذلك وقد تبين بعد ذلك أنه كان قد حصل على موافقة وزير التعليم العالى دون أن تعلم الكلية أو الجامعة شيئا عن هذه الإعارة .

وقد حاولت إنقاذ هذه الشركة من ظروفها المالية السيئة وأعدنا تنظيم العمل فى مطابعها، واستعنت بعلاقتى القديمة بوزير الخزانة - الدكتور نزيه حنين - للحصول على قرض للشركة يساعدها على دوام نشاطها فى النشر. وتعاقدت مع وزارة التربية والتعليم فى ليبيا لطبع كتب مدرسية بحوالى ربع مليون جنيه استرلينى فضلا عن نشاط الشركة فى نشر الكتب والموسوعات . وبعد انتهاء العام تمسكت بإنهاء إعارتى وعودتى إلى الجامعة مرة أخرى .

***

إن السبب الذى دعانى إلى كتابة هذا المقال الذى أعبر فيه عن سعادتى بتكريم ثروت عكاشة، هو أننى أحسست منذ صدور كتابه «مذكرات ثروت عكاشة» وما كتبته من مقالين أنذاك عن هذه المذكرات فى صحيفة «الأهالى» بأنه - أى ثروت عكاشة - غاضب مما كتبته ، وقد اتصل

آنذاك بالأستاذ خالد محيي الدين في ثورة عارمة وهدد برفع دعوى ضد جريدة الأهالي وضدي . وحاول خالد محيي الدين كما حاول الأستاذ حسين الشافعي إقناعه بأن ما كتبته لا يحوى أي طعن فيه ، لكنه كان تحت فكرة متسلطة عليه قوامها أن ما دفعني إلى كتابة ما كتبت هو الصديق محمود العالم - وثيق الصلة بشعراوى جمعة وزير الداخلية الأسبق - الذي يحاول الإساءة إلى اسم ثروت عكاشة .

ونظرا لأهمية الموضوع ولأن الموضوع قد أحاطه سوء الظن من أوله إلى آخره ، ولأننا - ثروت عكاشة وأنا - نقترب من أيام عمرنا الأخيرة ، رأيت أن أكتب للتاريخ هذه الكلمة أشرح كيف وقع سوء الظن هذا الذي لم يكن لمحمود العالم أي دخل فيه .

عندما نشر ثروت عكاشة مذكراته كان من الطبيعي أن يتطلع إلى تعليق من جريدة الأهالي عليها واتصل بخالد محيي الدين - وهو صديق عمره في سلاح الفرسان - يسأل عن ذلك الذي اتصل بدوره بالأهالي فقال له رئيس التحرير إنه اتفق معي على الكتابة عن هذه المذكرات . ثم قابلني خالد محيي الدين في عزاء أحد الأصدقاء وقال لي إن ثروت عكاشة يسأله عن هذا الموضوع فاستمهلته حتى انتهى من محاضراتي في الجامعة ، ثم أكتب التعليق .

وبالفعل كتبت مقالين عن هذه المذكرات أشدت فيهما بجهوده في ميدان الثقافة، لكن لفت نظري فيها أمران : أولهما اختلاط بعض التواريخ على الدكتور عكاشة ، وهذا أمر طبيعي يحدث لنا جميعا ، فحاولت تصحيح بعض هذه التواريخ . أما الأمر الثاني الذي لفت انتباهي - وكنت خالي الذهن تماما عنه - فهو الإشارة في هذه المذكرات إلى محاولة جر اسم الدكتور عكاشة إلى قضية صلاح نصر والمخابرات وتحقيقاتها التي جرت بعد كارثة يونيو سنة ١٩٦٧ . وقد ورد في هذه المذكرات أن السادات - بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية - طلب من شعراوى جمعة - وكان لايزال وزيرا للداخلية - طلبا يخص الدكتور عكاشة، اعتذر عنه وزير الداخلية .

كان من الطبيعي أن يلفت نظري هذا الكلام في المذكرات التي لم يكن بها أي تفصيل في هذا الموضوع . لكن الذي أثار انتباهي أكثر أنني قرأت حديثا لشعراوى جمعة في مجلة روز اليوسف - في الوقت نفسه الذي كنت أكتب فيه مقالاتي - ينفي فيه بعض ما جاء في مذكرات ثروت عكاشة .

وبالطبع أدهشني هذا ونوهت به في جملة عابرة في مقالي الأول ، وكنت حتى تلك اللحظة خالي الذهن تماما من حقيقة التوتر الذي كان قائما بين ثروت عكاشة وشعراوى جمعة ، ومن قضايا تحقيقات المخابرات بعد عام ١٩٦٧ . ويهمني أن أوضح أنني لم التق بشعراوى جمعة - وهو وزير للداخلية - أبدا ، وأنني كنت التقى به أحيانا لقاءً عابرا في شوارع



مصر الجديدة فيعلق على مقالاتى فى صحيفة الأهالى مستحسنا ، وذلك فى مرحلة الثمانينيات .

لم أدخل التنظيم الطليعى !

بمعنى آخر لم تتوافر لى علاقة بشعراوى جمعة ولا بأى قطب ناصرى عندما كانوا فى السلطة ، كما أننى لم أدخل فى التنظيم الطليعى . ولذلك فإن ما تصوره الدكتور عكاشة من أن إشارتى المقتضبة إلى بعض ما لفت نظرى فى هذه المذكرات هو من تحريض محمود أمين العالم بإيعاز من شعراوى جمعة رئيسه فى التنظيم الطليعى هو محض خيال يعلم الله أن محمود العالم برئ منه تماما ، وأننى لم أكن على علم بخلفيات هذه الأمور عندما أعددت مقالى للنشر فى «الأهالى» . لكن الأمور تطورت بعد ذلك، فقد اتصل بى شعراوى جمعة تليفونيا بعد ظهور مقالاتى فى الأهالى ورجانى أن أمر عليه فى منزله بشارع نزيه خليفة أمام حديقة الميرلاند فى مصر الجديدة .

وقد مررت عليه الساعة الثانية ظهرا - وكنا فى شهر رمضان فيما أذكر - وشرح لى شعراوى جمعة وجهة نظره فيما قيل من توتر بينه وبين د. ثروت عكاشة .

وخرجت من منزله وقد اكتشفت مدى جهلى بأشياء عديدة تتعلق بالسلطة فى مصر أيام المرحلة الناصرية وما بعدها . ولقد كتبت ما كتبت فى مقالات الأهالى دون أن أعلم أى شئ عن هذه القضايا ، وإنما نوهت بما لاحظته من تباينات بين كلام وزيرين سابقين كانا يعملان فى نظام سياسى واحد ، كما نوهت بما بدا لى غامضا فى المذكرات .

وقد انتهى هذا الموضوع كله عندما قام الأستاذان حسين الشافعى وخالد محيى الدين بإقناع الدكتور عكاشة أن المقالين اللذين نشرتهما الأهالى ليس بهما ما يسئ إليه ، وأننى من باب أولى لم أقصد الإساءة إليه من قريب أو بعيد . ولعله اقتنع بحسن نيتى عندما كتبت ما كتبت وإن كنت أشك فى ذلك .

ويهمنى اليوم - بمناسبة الاحتفال بتكريم د. عكاشة - أن أقول إننى حملت له طوال حياتى كل التقدير فى هذا العمل الفذ الذى قام به كوزير للثقافة ، وإننى أرجو له موفور الصحة والمزيد من النشاط الفكرى الكبير الذى يخلد اسمه ضمن كبار مثقفى مصر والعالم العربى ، كما يهمنى أن أشكر الدكتورة سعاد الصباح على هذه اللفتة الكريمة التى كان من المفروض أن تبدأ فى مصر .


بيل كلينتون


بنازير بوتو

أقوال معاصرة


ادوارد سعيد

«الكمبيوتر والإنترنت من أسرع وأفضل الوسائل فى التاريخ لانقاذ البشر من الفقر!!».

الرئيس الامريكى بيل كلينتون

«سحرالكمبيوتر سيوجد مجتمعا بلا روح».

دافيد هوب استف يورك

«لا يوجد احتمال لبقاء بنية سلك الخدمات الادارية صامدة أمام تغيرات العصر الجديد».

نيوت جنجريتس

الرئيس السابق لمجلس النواب الامريكى

«العالم بحاجة لزعامة الولايات المتحدة، ولا توجد حدود نهائية لبلادنا».

وزيرة الخارجية مادلين اولبرايت

«فى بلدنا حزب واحد هو حزب المال».

النجم الامريكى وارين بتى

«النظام الأمريكي، اذا ما وضعنا المقارنات فى الحساب، سيحصل على الأوسكار، وإن كان ليس جميلا».

الكاتب الاكاديمى الأمريكي بول كروجمان

«الشاعر لا يصل الى الآخر عبر اللغة بحد ذاتها، وانما عبر هواجس مشتركة، وقضايا مشتركة، وأفق مشترك».

الشاعر ادونيس

«فى الفن ليس هناك دولة عظمى، وهيئة اركان الفن ليست فيها اسلحة للدمار الشامل».

المخرج السوري نجدت انزور

«مستشارو النظام العسكرى الحاكم يفتقرون الى الكفاءة، ويعجزون عن رؤية حقائق عالم مستقر، تحلّ فيه الاسواق مكان الصواريخ كمقياس للتفوذ».

بنازير بوتو

رئيسة وزراء باكستان سابقا

«لا يمكن لأى دولة على الأرض أن تحيا بشكل طبيعى عندما لا تكون دولة مواطنيها، بل دولة شئ غامض وعام».

المفكر د.ادوارد سعيد

فى توصيفه لدولة اسرائيل

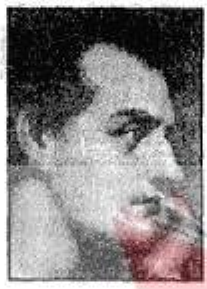
«انتمى الى نوعية من الناس باتت قيد الانقراض !!».

المخرج الأمريكى الأشهر مارتين سكورسيزي

هل كان بوشكين مجرد تلميذ لبايرون ؟



بوشكين



بايرون

بقلم : حسين أحمد أمين

رغم ضرورة الاعتراف بتأثير بايرون في شعر بوشكين، ورغم سموّ منزلة الأول على منزلة الثاني في ميدان الشعر، فإنه من الإجحاف ببوشكين أن نطلق عليه كما فعل البعض صفة «بايرون الروسي»، كما أن هذا الوصف يتضمّن ثناء على بايرون لايستحقّه .. فبوشكين قبل كل شيء شاعر قومي، وجزء من كيان الأمة الروسية، قد تمكن من أن يتمثل خصائصها وفضائلها، وأن يعبّر عن استيعابه لها في أدبه، بينما لم يضف بايرون الكثير مما يساعدنا على فهم طبيعة أمته .

كذلك فإن أثر بايرون فى الشاعر الروسى مقصور على مرحلة معينة من حياة بوشكين، وعلى فن واحد من فنون أدبه، هو الشعر القصصى . فإن نحن قارنا بين أعظم مؤلفات الرجلين : «دون جوان» لبايرون و «يفجينى أونيجين» لبوشكين (وكل منهما رواية فى قالب شعرى) وجدنا بوشكين مدينا للشاعر الإنكليزى بفكرة كتابة قصيدته الكبرى على النحو الذى كتبت عليه «دون جوان»، وبأسلوبها الذى تمتزج فيه جدّية الموضوع بروح الدعابة والمرح والسخرية .. حتى إذا ما وصلنا إلى هذا الحدّ، افترقت الطرق، وإذا بقصيدة بايرون تفيض كالبحر الصاخب اللا نهائى فى قوة وبطش، وإذا بالقصيدة الروسية تتميز بهدوء أوفر، وحبكة أفضل ، وتبدو فى النهاية قصة ذات بداية ووسط ونهاية، فى بناء متماسك متناسق لاتعرفه قصة بايرون، ثم إذا بقصيدة «يفجينى أونيجين» تُثبت فى خاتمة المطاف (رغم غرابة هذا القول) أنها أقوى هجوم ظهر فى ميدان الأدب على الروح البايرونية، وأعنف نقد موجّه إليها .

غير أننا نبدأ بالقول بأنه إذا كان بطرس الأكبر قد أفلح فى أن يجعل من روسيا جزءا من أوروبا وأن يخلق منها دولة أوروبية عظمى، فإن الكسندر بوشكين تمكّن من بعده بنحو قرن من الزمان من أن يحقق شيئا مشابها فى مضمار الأدب الروسى، وقد كان ثمة فى الواقع مايقرّب بين هاتين العبقريتين، فالاثنان هما حاملا لواء عصر النهضة الذى هبّت نسماته متأخرة على روسيا، فحاولا، كلٌ فى ميدانه، الإسراع من أجل تعويض روسيا عما فاتها من وقت، وحثّ الخُطا للّحاق بالغرب، فلا عجب إذن أن نرى بوشكين يكنّ الإعجاب والاحترام لشخصية لم يكنّ لها تولستوى فيما بعد سوى البغض والنفور، لنفس السبب الذى أحبّها بوشكين من أجله .

كان أمام روسيا فى ذلك العهد من تاريخها ثلاثة طرق يتعيّن عليها اتباع واحد منها: إما أن تنهج نهجا روسيًا محضا، رافضةً كل ماهو أجنبى، فتقيم ستارا حديديا بينها وبين الغرب، أو أن تنهل دون تمييز من النّبع الأوروبىّ،

مقتبسة من النظم والقيم الغربية مايصلح ومالايصلح لها باعتبار الاقتباس من الحضارات الأجنبية «صفقة مُجملة»، أو أن تفتح أبوابها فى حرص وحيطة، فتسمح بقبول مايمكن أن يُغذى الروح الروسية وينمّيها من ثقافة الغرب، وترفض ما يهدّد طابعها الخاص وعبقريتها الفريدة بالاندثار، فيضحى بوسع روسيا عندئذ - وعندئذ فقط - أن تسهم بقسط وافر فى بناء الحضارة وخدمة الإنسانية العالمية .

وكان هذا الطريق الثالث هو الذى اختاره بوشكين ، وهو الطريق الذى انتهجته فيما بعد الموسيقى الروسية التي اتبعت أساليب الغرب فى التعبير فى علاجها لموضوعات وأحاسيس روسية محضة، والواقع أن بوشكين كان أكبر الروس قدرة على الربط بين الإعجاب بالحضارة الأوروبية وبين الثقة فى فضائل ومستقبل بنى وطنه، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان من الصعب أن نفهم سرّ ذلك التقديس القومى الذى لايزال الروس يكنّونه لشاعرهم الأكبر حتى يومنا هذا .

المرحلة البايرونية من حياة بوشكين

قبل شهر من بلوغ بوشكين سن الحادية والعشرين قضت حكومة القيصر الإسكندر الأول بنفيه بسبب قصائد له تغنّى فيها بالحرية ودعا إلى إلغاء نظام الرق، بسبب صلاته ببعض الضباط الداعين إلى أن تنتهج الحكومة سياسة تقدمية مستنيرة، وكان هذا النفى له نعمة فى صورة نقمة، فهو ما إن وجد نفسه فى محيط خلت منه ماعهده من صنوف اللهو، حتى كرّس جلّ وقته للقراءة والكتابة والسفر، وفى القوقاز بدأ يقرأ لأول مرة مؤلفات بايرون التى خلّفت أثرا عميقا فى تكوينه الذهنى وفيما ألّفه من أشعار خلال السنوات الثلاث مابين ١٨٢٢ و١٨٢٤ ، وتبدأ هذه المرحلة البايرونية بقصيدته القصصية «نافورة باختشيساراى» وهى تروى ماحدث فى قصر الخان التترى «غيراى» بالقرم بعدما عاد من غزواته بأسيرة بولندية جميلة تدعى «ماريا» وقع الخان فى غرامها رغم (أو بسبب) صدّها له،

ونفورها منه، ويبلغ حبّه لها مبلغا جعله يهجر زوجته «زاريما» ويتجنب رؤيتها، وتتملك الغيرة قلب الزوجة فتقتل ماريا، وتلقى هي حتفها على يد الخان ساعة علمه بمصرع حبيبته .

ويستمر تأثر بايرون قائما إلى مابعد شروعه في نظم رائعته «يفجيني أونيجين» عام ١٨٢٣، غير أن السنوات السبع التي استغرقتها كتابة هذه القصيدة الطويلة شهدت ضعفا مطردا في هذا التأثير، ونموا متزايدا للملكات بوشكين وسمات أدبه الفريدة، بحيث يمكن القول بأن القصيدة نمت وتطوّرت بتطور مؤلفها ونموّه الروحي، فما تمت كتابة الفصول الأولى منها حتى كان قد تخلّص من تأثير بايرون إلى الأبد، بل وأضحى شديد العداء لما تمثله الشخصية البايرونية من معان تجسّدت في شخصية أونيجين .

يفجيني أونيجين

يبدأ بوشكين قصيدته الكبرى بوصف لطفولة أونيجين وصباه، وترعرعه في جوّ المجتمع الراقي ببطرسبورج، وإحاطة عائلته له بعدد من المربيات والمدرسين الخصوصيين وسياج من التقاليد الأرستقراطية والأحاسيس الطبقية، مما يجعله في النهاية نتاجا صرفا لطبقته .

ورغم أن أونيجين يتقبّل راضيا هذا الوضع، ولا يفكر في الثورة عليه أو الفكاك منه، فإن لديه من الذكاء مايجعله يدرك أن حياة كهذه لم يتعلم فيها غير رقص المازوركا، والتحدث بالفرنسية، وركوب الخيل، حياة فارغة لاقيمة لها، جديرة بالاحتقار، ولاينجم عنها في النهاية غير ملل قاتل. كانت في نفسه بذور قوة خاملة، ونشاط معطّل، وذكاء غير مستغَلّ، وكان هذا الخمول والتعطل نتيجة لرضاء المجتمع الذي يتحرك فيه عنه كما هو، والافتقار إلى دافع قوي إلى أن ينفض عن نفسه ذلك العقم الروحي.

وإن يكاد الملل يفتك به، يهرع إلى ضيعة ريفية له ورثها عن عمّه ، غير أن السأم هنا أيضا لايفارقه، فالآراء التقليدية التي يتفوه بها معارفه من السادة في الريف تضجره ، ونمط عيشهم البورجوازي يثير اشمئزازه . غير أنه يستثني شخصا واحدا يختلف عن الآخرين، هو الشاعر لينسكي الذي كان قد عاد لتوّه من ألمانيا حيث درس في إحدى جامعاتها، وتنمو بين الرجلين

صداقة، لا لاتفاق المشارب والميول أو لتوافق بين الشخصيتين ، وإنما لما ارتآه كل منهما فى الآخر من مناقب تنقصه، وسجايا لايتحلّى بها .

ويعرّف لينسكى صديقه الجديد بمدام لارين الأرملة وابنتيها أولجا وتاتيانا ، كانت أولجا ، خطيبة لينسكى، فتاة جميلة مرحة، تفيض حيوية ونشاطا. أما تاتيانا أختها الكبيرة فتختلف عنها ، فما كانت بالجميلة أو المتوثبة المرحة، وإنما هى صامتة دائما عن حياء، يشوب ملامحها شىء من الحزن وكثير من الجد، غير أنها تخفى وراء القناع والمظهر شخصية قوية، وقدرة لاحدود لها على الحب وإسباغ الحنان والعطف على الآخرين. وهى على استعداد لأن تهب قلبها لامرىء يختلف عمن تعرفهم ويحيط بها من أناس يضجرونها بضيق أفقهم، فما قابلت أونيجين حتى توهّمت أنه رجل فريد فذّ، ذو شخصية غير عادية، فإذا بقلبها الساذج يقع فى حبه .

وتاتيانا هذه هي على طرف نقيض من أونيجين، فهى على سجيتها دائما، غاية فى البساطة والبعد عن التكلف، مخلصة سانجة فى كل ماتقول وتفعل، وهى روسية صميمة، جمعت زبدة مناقب النساء من بنات جلدتها ، وإذ تقع فى غرام أونيجين تحاول أن تستشف منه اهتماما بها، ولكن دون جدوى، فهو لايرى فيها غير فتاة كغيرها من فتيات الأقاليم، ليس بها من الصفات مايبرّر التفاته إليها ، وتتألم تاتيانا فى صمت، حتى إذا ما بلغ عذابها حدًا لاتستطيع معه صبرا ، تتناول القلم لتسطّر رسالة سانجة مخلصة إليه تكشف له فيها عن خفايا قلبها وحبّها العميق له، ويقرأ أونيجين الرسالة فلا يعبأ بالرد، غير أنه يقابل تاتيانا بمنزلها بعد فترة، فيعترف لها بأنه غير قادر على الإحساس بالحب، وأن قلبه من النضوب بحيث لايمكنه أن يبادلها عاطفة بعاطفة، وإذ يشرح لها كل ذلك يبدو وكأنما هو فى قرارة نفسه فخور بهذا النضوب وهذا العجز عن الحب، واصفا لها الزواج فى نهاية حديثه بأنه قيد على حرية الرجل، يرتعد بدنه لمجرد سماع اسمه.

يترك أونيجين تاتيانا ذليلة محطمة، وتتركه هى ثائرا على الريف وأهله، ناقما على صديقه لينسكى الذى اقتاده إلى تلك العائلة، ويحاول مضايقة صديقه فيغازل خطيبته أولجا خلال حفل راقص مغازلة تُثلج صدر الفتاة، وتحدو بها إلى تجنّب خطيبها الذى يبلغ به البؤس حدّ دعوة أونيجين إلى المبارزة. ويحاول أونيجين تجنُّب هذه المبارزة التى لا طائل من ورائها، غير أن خشيته من أن يصفه الناس بالجبن تدفعه إلى القبول، وتتم المبارزة التي يلقى لينسكى فيها مصرعه.

يسرع أونيجين بالرحيل عن تلك الضيعة المشئومة، ويشرع فى القيام برحلات عديدة فى أنحاء روسيا محاولا قتل الوقت واستئصال الملل. وأما تاتيانا فتحاول الاستسلام للأمر الواقع وطرد صورة أونيجين من مخيلتها، ثم يصادف أن تقوم بزيارة للمنزل الخالى الذي كان حبيبها يقيم به فى الضيعة، فتتأمل كتبه ومظاهر الحياة التى كان يحياها، فتكتشف الكثير مما كان خافيا عنها من طباعه وسلوكه، فتدرك فى النهاية أنها كانت تعشق خصالا لم تكن فيه، وأن الصورة التى كوّنتها عنه فى ذهنها لاتمتّ إلى الواقع بصلة .

وتمرّ الأعوام، وينتقل مسرح الأحداث إلى بطرسبورج التى عاد إليها أونيجين بعد أسفاره الطويلة. ففى حفل راقص يحضره بالعاصمة يجد نفسه وجها لوجه مع تاتيانا التى نجدها الآن متزوجة من رجل غنى متقدّم فى السن، تنعم بكل مايسبغه عليها مركزها الاجتماعى الجديد من مزايا .. هى الآن امرأة ناضجة ذات جمال ووقار، ترمقها أعين الناس فى إعجاب ومودّة. وعندما يسعى أحد الحاضرين إلى تعريفها بأونيجين، تتحكم على الفور في عواطفها وتصافحه دون أن تُظهر شيئا مما يعتمل فى قلبها .

ثم إذا بالأدوار وقد تغيرت : فأونيجين الآن هو الذى يقع فى غرام تاتيانا، وتاتيانا التى تصدّه، ويسطّر إليها خطابا فلا يتلقّى ردًا عليه، ويصيبه القنوط فيهرع إلى منزلها ليقابلها، فإذا هى وحدها تقرأ رسالته وهى تبكى وقد غطّى وجهها الدمع، ويمسك أونيجين بيدها مضطربا ويركع أمامها ليصف لها مدى حبه أياها، غير أن المرأة العاقلة تدرك أن كبرياءه الذي

دفعه في الماضي إلى رفضها هو نفسه الذي يدفعه الآن إلى خطب ودّها، ورغم أن قلبها لايزال يشعر نحوه ببقية من الودّ القديم، فإنها تخبره في صراحة وحزم أنها مع حبها له قد وهبت قلبها ونفسها لزوجها وأنها ستظل مخلصة له حتى الموت، وبهذا التصريح منها يفترق الاثنان .

تحرّر بوشكين من أربقة البايرونية

قلنا إن السنوات السبع التى استغرقتها كتابة هذه القصيدة سجّلت فى طياتها التطور الروحى للشاعر فيما بين عامه الرابع والعشرين وعامه الحادى والثلاثين، وانتقاله التدريجى من ذروة المرح والخفّة الغالبين على الفصول الأولى إلى الحزن العميق والاستسلام الواضحين فى الفصول الأخيرة ، والمؤكد أن بوشكين أثناء كتابته للأبيات الأولى من قصيدته (وكما اعترف هو نفسه فى أحد خطاباته) كان ينوى أن يسطر عملا أدبيا ساخرا مرحا على غرار قصيدة بايرون «دون جوان» غير أن السخرية سرعان ما أفسحت الطريق لواقعية صارمة، وتصوير للشخصيات لم يصل الشاعر الإنجليزى فى أىّ من كتاباته إلى مايقربه من الدقة.

كانت الصورة الواقعية الشعرية التى رسمها بوشكين فى قصيدته للمجتمع الروسى خلال فترة بالغة الأهمية من تطوّره، هى التي حدت بالناقد بيلينسكى إلى وصف «يفجينى أونيجين» بأنها «دائرة معارف للحياة الروسية»، فهى بالإضافة إلى كونها أعظم روائع بوشكين، فإنها تعتبر حجر الزاوية فى الأدب الروسى، ومن أشهر معالمه، فهنا نجد نفس أسلوب تناول الموضوع الذى نلمسه فى الشعراء بعده، بل إن أثرها لم يقتصر على ميدان الشعر، ذلك أن هذا الصنف من الواقعية الذى ابتدعه بوشكين فى هذه القصيدة، ومنهاجه فى تصوير شخصياتها، كانا الأساس الذي استند إليه عمالقة القصة والرواية الروسيتين فيما بعد فى تأليفهم لقصصهم ورواياتهم، وهنا نصادف للمرة الأولى تلك الواقعية التى أثرت عن الأدب الروسى وأطالت فى

الإشادة بها كتب النقد وتاريخ الأدب، واقعية شاعرية دون إفلات عنان، جميلة فنية دون مروق عن الحقيقة، نبيلة سامية الهدف دون غضّ الطرف عن العقبات فى الطريق.

وقد عادت واقعية «يفجينى أونيجين» إلى الظهور فى أدب ليرمونتوف، وفى روايات تورجينيف وجونشاروف، وفى «الحرب والسلام» و«أنا كارينينا» لتولستوى، وخيرة ما كتبه تشيخوف من قصص ومسرحيات، بحيث أصبح أونيجين قبل أن ينصرم القرن التاسع عشر ربًا لعائلة كبيرة من الشخصيات الروائية التى تدين له بالوجود، فإذا بهذه الشخصية الذكية دون قوة فى العزم، المثقفة دون مضاء فى الإرادة، الخاملة غير المجدية، تطفو إلى السطح مرارا فى أدب جونشاروف (أوبلوموف)، وتورجينيف (رودين)، وتشيخوف (إيفانوف)، وإذا بالمرأة القوية تاتيانا وقد تعددت لها الصور فى روايات تورجينيف دون تغيير أساسى فى الملامح، وفى أدب كل من دوستويفسكى وتولستوى وغيرهما بعد إنمائها وتثقيفها.

قد نلمح فى بعض أبيات القصيدة مسحة من الرومانسية غير أن روحها العامة خالية منها، فهنا تعمل قوانين الطبيعة دون تدخل من الشاعر، وهنا تؤدى طبيعة الشخصيات تدريجيا وخطوة خطوة إلى النتائج الحتمية لتطوّرها، وقد تتمثل عظمة بوشكين فى أنه لم يحاول أن يخلق من هذه المرأة القوية (تاتيانا) مثالا سماويا للمرأة الطاهرة التى تردّ من تحبه وتنأى بنفسها عن الرذيلة، فإنسانية تاتيانا عند بوشكين إنما تتمثل فى حزنها الذى لن تقهره، والذى لن يمكنها من أن تعيش بعد ما وقع لها حياة خالية من عذاب الفكر.

وأخيرا، فإن كانت بساطة الموضوع، وتطور الأحداث تطورا ناجما عن خصائل الشخصيات، والنهاية الأليمة المكتوبة، قد أضحت بعد نشر «يفجينى أونيجين» نبعا ينهل منه الأدباء الروس وأدبهم الواقعى، فإن التفهّم العميق (ولكن دون شفقة أو تعاطف) لشخصية البطل البايرونية، والإعجاب والتقدير (ولكن دون جزاء) لشخصية تاتيانا، لم يظهر لهما نظير أبدا فى تاريخ الأدب الروسى.

لماذا المستبد العادل ثانية والآن؟!

بقلم : بلال فضل

كان ينبغى وأنا أقرأ مقالة استاذنا الدكتور محمد رجب البيومى المنشورة فى هلال ابريل ٢٠٠٠ تحت عنوان (الشرق والمستبد العادل) أن أتذكر أن المقالات - كالأمور - بخواتيمها ونتائجها لا بمقدماتها واستهلالاتها، لكن حبى الشديد لكتابات استاذنا د. البيومى والذى يشاركنى فيه دون شك قراء (الهلال) جميعا - جعلنى استبشر خيرا وأتهلل فرحا، لأن ثائرا ومصلحا عظيما مثل السيد جمال الدين الأفغانى رحمه الله وجد بين أحفاده وتلامذته من يهب لتبرئة ساحته من تلك المقولة الشنيعة التى ألصقت به، والتى تزعم أن الشرق لا ينهض به إلا مستبد عادل.

(إن عبارة المستبد العادل) ما تزال تنسب إليه، تلوكها الألسن، وتجرى بها الأقلام دون أن يُحـاول الذين يرددونهـا أن يحققوها، أو يتحققوا من صحتها، مع أن الاستبداد لا يتفق مع العدل، والسيد لم يكن داعيا ثوريا فحسب، بل كان أول [illegible]ة للحرية في الشرق الإسلامي [illegible] ليس معقولاً أن [illegible] المأجورة لمحاربته عز عليهم [illegible] النسبة، فأرجفوا بها وموضع [illegible] ذلك أن هؤلاء المأجورين هم الذين [illegible] لحكومات الاستبداد، ويسبحون بحمد[illegible] ويأخذون مناصبهم المرموقة، وأموال[illegible] الطائلة عن هذا الطريق؟ ولكنـ[illegible] يستحيون أن يصموا الشيخ بما [illegible] لأن ذمة الشنيع يقع [illegible] وهم عد[illegible]

فها هو الدكتور البيومي يطمئننا – نسبة الى مصادر موثوقة على رأسها محمد المخزومي باشا أحد تلاميذ الأفغاني – أن الأفغاني تبرأ من تلك العبارة عندما سئل عنها، وقال: إنه كان يقصد أن مصر والشرق لا يحيا أى منهما إلا إذا أتاح الله لهما رجلا قويا وعادلا، وأن المطلوب هو القوى لا المستبد لأن الاستبداد يتنافى مع العدالة والحرية.

ولكن .. يافرحة ماتمت، هاهو أستاذنا د. البيومي يكشف لنا أن العبارة التى أسيىء فهمها عن الأفغانى قد ثبتت على تلميذه الإمام محمد عبده الذى قرر فى مقال له أن الشرق لا ينهض به إلا مستبد عادل يتولى مقاليد الأمور فيه «خمس عشرة سنة تثنى فيها أعناق الكبار الى ماهو خير لهم ولأعقابهم» بل إن الإمام محمد عبده يتساءل متحسراً مشتاقا «.. هل يعدم الشرق مستبدا عادلا في قومه يتمكن به العدل أن يصنع في خمس عشرة سنة ما لايصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرنا». وتوقعت أن ينبرى أستاذنا د. البيومي لتفنيد مقولة الإمام محمد عبده، ولو من باب اعتبارها حكما عاطفيا لمصلح عظيم ضاق صدره بما فى الشرق من تردٍ وضياع وهوان، خاصة أن

ما أنهى به الإمام محمد عبده حديثه لايبدو إلا كتشبيه فرضته ضرورات البلاغة، فلا يعقل أن يعتقد الإمام محمد عبده (وهو من أبرز دعاة العقل والعلم وقد دفع فى سبيل ارسائها أثمانا باهظة) أن ما يصنعه العقل فى ١٥ قرنا لايساوى مايصنعه العدل فى ١٥ سنة، وحديثه هنا بالتأكيد أقرب الى البلاغة الساعية لتقريب المعنى الى ذهن القارئ أكثر من كونها مبدءا ينحاز إليه، خاصة أنه لا تعارض من البدء بين العدل والعقل .

اسئلة ثلاثة لمقصد الإمام

لكن الدكتور البيومى وضع مسبقا حكما على من قد يعترضون على عبارة الإمام محمد عبده فقال: إنه سيجيب على أسئلة ثلاثة توضح ما يقصده الإمام، ثم أضاف «.. ونترك بعدها مايلهج به المتشنجون من انفعالات لا تقف عند حد، لأنهم يتحدثون فيما لا يدركون». وليمنعنا الحب وحسن الظن من أن نسىء فهم استخدام استاذنا لهذه العبارة قبل أن يترك لقارئه حق متابعة أفكاره والحكم عليها ، ولذلك فلتكن الضرورة البلاغية حجتنا هنا أيضا . خاصة والدكتور البيومى يقول لنا : إن هناك «ظروفا أليمة دفعت الإمام محمد عبده الى هذا الرأى» إذن فهو يختلف مع الإمام محمد عبده فى رأيه هذا، أو هذا ما نفهمه عند قراءتنا لهذا الجزء من مقاله، خاصة وهو يصف لنا فى إيجاز بديع كيف تقلبت الظروف والأحداث بالإمام محمد عبده من صاحب كلمة مسموعة فى المجتمع ولدى أولى الأمر الى سجين سياسى ومنفى، وكيف خاب أمله فى تكوين رأى عام مستنير، خاصة وأن أحدا من الشعب (الذى كان الامام يؤكد حقه في ولاية شئونه) لم يستنكر ما تعرض له من سجن ونفى ، وبينما بذل الإمام وسعه فى المدافعة عن هذا الشعب فقد جزاه الشعب «نكوثا» وجحودا»، ولذا فإن هذا الشعب لم يعد يستحق أن يطالب له الإمام بحقه فى ادارة شئونه، فصار الحل له مستبدا عادلا يحكمه ١٥ سنة ليصلح حاله «ويعالج ما اعتل من طباعه»

موقف عاطفى !

وتوقعت - توقع التلميذ الخير من استاذه الذى يبجله - أن يعتبر الدكتور البيومى موقف الإمام محمد عبده موقفا عاطفيا خاطئا لأنه نبع من خيبة أمله فى شعب كان ينتظر منه الانصاف ، فلما لم

بنصفه - شأن الشعوب مع مفكريها وحاليها - أخذ يحلم بمستبد عادل يصلح حال هذا الشعب، فى حين أن أستاذه الأفغانى - كما يقرر الدكتور البيومى بنفسه - وبرغم كل ما تعرض له من أذى لم يكل ولم يمل عن العمل والمجاهدة فى سبيل الحرية واعتبر أن اتجاه تلميذه الى العمل على المدى الطويل ليس سوى «خذلان». لكن الدكتور البيومى يحب الإمام محمد عبده حبا جما، (وكلنا والله نشاركه فيه وإن كنت لا أرى عيبا فى ذكر أخطائه كموقفه من اللورد كرومر وتعامله مع الانجليز فى مرحلته الفكرية الثانية) ولذلك فقد راح يبرر للإمام محمد عبده هذا الموقف ويلتمس له الأعذار والتبريرات، بل وينحاز لموقفه على حساب آخرين مثل الأفغانى والكواكبى، وهو يرى أن محمد عبده - مع حفظ الألقاب - كان أقدر على فهم الأصول اللغوية فى العربية والتفسير من الأفغانى الذى لم تجل بخاطره دقائق جالت بخاطر محمد عبده، وهو رأى لا يتسق مع كون عدد كبير من أبرز علماء العربية والتفسير والفقه من المسلمين الذين جاءوا من أصول غير عربية، وهو ما يؤكد أن فهم العربية لم يكن أبدا مرتبطا بالأصل العربى. كما أن الدكتور البيومى يقع فى خطأ عندما يقول أن محمد عبده فهم الاستبداد بأنه (الانفراد بالأمر) طبقا لجميع كتب اللغة، ولم يفهمه كما فهمه الكواكبى فى كتابه (طبائع الاستبداد) على أنه التغطرس والتجبر، والحقيقة أنه لو رجع الى كتاب الكواكبى - صفحة ٣٠ طبعة دار النفائس - لوجد أن التعريف الذى يثبته الكواكبى للاستبداد هو (اقتصار المرء على رأى نفسه فيما تنبغى الاستشارة فيه)، أى أن الكواكبى اتفق مع ما يذهب اليه الدكتور البيومى وينسبه الى الامام محمد عبده من أن الاستبداد هو الانفراد بالأمر، الفرق هنا أن الكواكبى - الذى اكتوى بنار الاستبداد والانفراد - خصص كتابه كاملا لمحاربة اقتصار المرء على رأى نفسه وانفراده بالقرار، فى حين أن الإمام محمد عبده أخذ يضع شروطا انشائية لهذا المستبد أو المنفرد، وهى شروط أشبه بالبيانات الأولى لكل الثورات العربية التى تحمل أجمل الأهداف والأمنيات، ثم تنقلب بعد سنين الى كوابيس مروعة تتمنى الشعوب أن تنزاح على خير.

الاستشارة تناقض التفرد

والعجيب أن الدكتور البيومى يسارع الى مدح هذه الشروط والاعجاب بها،

قائلا : إن الانفراد بالأمر إنما يمدح أو يذم وفقا لاتجاه صاحبه، وأن الشيخ محمد عبده يمدح المنفرد إذا اتجه الى العدالة والانصاف وحب الشعب، وإذا لم يتعد حكمه أكثر من ١٥ سنة لأن تلك هى المدة التى ينشأ فيها جيل يعرف حقوقه وواجباته. ولأن الإمام محمد عبده لم يشفع هذا الكلام الانشائى الحالم بمثل واحد من التاريخ يحدثنا عن حاكم منفرد بالرأى كان عادلا مع شعبه فقد تطوع الدكتور البيومى ليعطى مثالا على كلام الإمام عبده، ويا ليته ما تطوع، فهو يختار الفاروق عمر رضى الله عنه كمثال يصفه بأنه كان «متفردا قويا»، ورغم أنه بعد سطور يقرر أن عمر كان يجمع حوله الصحابة ليستشيرهم فيما يستجد، وعلى حد علمى فإن الاستشارة تناقض التفرد وتخاصمه، لكنه رغم ذلك يصف عمر رضى الله عنه بالتفرد، وربما كنت أرحت نفسى والسامعين لو قلت للدكتور البيومى «هات لنا مبشرا بالجنة يمشى الشيطان فى واد غير الذى يمشى فيه ويفرق بين الحق والباطل، ونعدك ونعد إمامنا محمد عبده أننا سنجعله ينفرد وينثنى بحكمنا الى ما شاء الله». لكن حاشا لله أن نسلم بأن عمر بن الخطاب كان «متفردا أبدا، ولن أكرر هنا الوقائع المتداولة عن عدل عمر رضى الله عنه فأستاذنا أعلم بها منى، ولعله سيحتج بأن العدل ليس ضد التفرد، لكنى أؤكد له أن عمر كان أول من أدخل فى التاريخ الاسلامى مبدأ تقسيم السلطات وعدم جمعها فى يد واحدة وعدم الانفراد بها، ولعل استاذنا يقبل من تلميذ له نصيحة بقراءة دراسة تاريخية بديعة لمفكر سورى هو الدكتور أيمن ابراهيم اسمها (الاسلام والسلطان والملك) - دار الحصاد ١٩٩٨ - تناول فيها بالتفصيل اعتمادا على مصادر المؤرخين الثقات دور سيدنا عمر بن الخطاب فى انشاء تنظيم وتأطيـــر لسلطات الدولة وتوزيع هذه السلطات على الأكفاء من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل إنه حتى عند انشائه لهذه السلطات الجديدة مثل نظام العرافة والديوان.. كما ينبئنا الطبرى والبلاذرى وغيرهما - افسح المجال لمناقشات واسعة ومتشعبة وعنيفة أحيانا اشترك فيها كبار الصحابة، ووصلت أحيانا الى حد الخلافات الجذرية عندما طرحت فكرة ادخال جميع الأعاجم المسلمين فى الديوان. وفى كل هذا وغيره

ما ينفي تماما صفقة التفرد عن عمر بن الخطاب، وما يبطل الاستدلال به على امكانية وجود مستبد عادل أو متفرد عادل. لاحظ أن الدكتور البيومي أورده في اطار الاجابة على سؤال حول وجود المستبد العادل. وحاشا لعمر بن الخطاب أن يكون مستبدا أو حتى متفردا.

الكتل البرلمانية تعبر عن مصالح الناخبين

ولا يكتفي أستاذنا الدكتور البيومي بتخييب آمالنا في هذه النقطة فحسب، بل يقول لنا: إن الإمام محمد عبده عندما دعا الى وجود المستبد العادل فئة الـ ١٥ سنة « لم يتجاهل ما تسير عليه أوروبا وأمريكا من الرجوع الى رأى الأكثرية الممثلة في البرلمان المنتخب انتخابا صحيحا يعبر عن رأى الأمة، بل يقول لنا إن الامام محمد عبده عاصر هذا النظام وأدرك خطأه وضرورة اجتنابه، لماذا؟! يقول الدكتور البيومي لأن «الأغلبية في هذا النظام تكون في يد أفراد معدودين يصدرون رأيهم كيفما يشاءون، وعلى الأعضاء المنتسبين اليهم الموافقة التامة». ويبدو أن أستاذنا الدكتور البيومي لم يعد يتابع بدقة تطور النظام النيابي في الغرب، مع خطأ تعميم كلمة الغرب، إذ أن لكل دولة حالة خاصة وظروفا مختلفة، وإن كان القاسم المشترك الأعظم في التجارب البرلمانية الغربية هو قيامها على نظام الكتل البرلمانية التي تجمعها أهداف وسياسات مشتركة تعبر عن مصالح الناخبين الذين أدلوا بأصواتهم لهذه الكتلة أو تلك، وبالتالي فإن منح القيادة لشخص ما على كتلة ما ليس سوى اجراء تنظيمي بحت، بدليل أن قائد هذه الكتلة ملزم باستشارة أعضاء كتلته والسماح لمن يختلف مع رأى هذه الكتلة من أفرادها بالتعبير عن رأيه، واتباع مبدأ الأغلبية في اتخاذ القرارات، كما أن موقع قائد الكتلة يتغير بانتظام في بعض التجارب النيابية، أى أن فكرة سيطرة أشخاص ما على النظام البرلماني ليست دقيقة تماما، والقوة التي يكتسبها شخص مثل نيوت جينجريتش داخل مجلس النواب الأمريكي لا تنبع من كونه ضخم الجثة أو يزغر في النواب، بل لأنه زعيم منتخب للأغلبية الجمهورية داخل مجلس النواب والتي بوسعها الإطاحة به إذا اختلف مع توجهات الحزب ومصالحه..

تطور النظام البرلماني الغربي

ثم ان الإمام محمد عبده اذا كان له في زمنه رأى في النظام البرلماني الغربي

وقتها، فإن هذا الرأى لا يكون بالضرورة صحيحا الآن، خاصة والنظام البرلمانى الغربى- مع التأكيد على عدم دقة التعميم وادراك الفروق بين تجربة وأخرى - تطور تطورا لا يمكن انكاره حتى وصل الى درجة من القوة ليست هى الأكمل وإن كانت الأجمل فى زمننا هذا، بدليل أن رئيس أكبر دولة فى العالم يقف كالفأر المذعور ليسأل عن أدق تفاصيل حياته الشخصية وما إذا كان قد كذب على الشعب بشأنها، ولم يحدث ذلك من فراغ بل جاء عبر تطور حضارى متصل ومتدرج ومتنام، وانتزعه الشعب انتزاعا دون الركون لنظرية المستبد العادل أو المتفرد العادل. ولعلى لا أتهم هنا بالانبهار بالنموذج الغربى أو الأمريكى فقد ذهب مفكرون اسلاميون عظام مثل الشيخ الغزالى والدكتور يوسف القرضاوى وغيرهما الى التأكيد على أن نموذج الديمقراطية البرلمانية هو أقرب النظم المعاصرة التى يمكن الأخذ بها الى نظام الشورى الذى دعا اليه الاسلام، وحتى لو طرحنا آراء هؤلاء جانبا واقتصرنا على النظام الاسلامى وحده لوجدناه يخاصم التفرد والاستبداد بالرأى ويوجب الشورى ويقصر التفرد بالأمر لله وحده، ويوجب على نبيه مشاورة المؤمنين، وعلى حد تعبير الكواكبى فإن «القرآن الكريم مشحون بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتساوى».

والغريب أن الدكتور البيومى فى سعيه لانتقاد النظم البرلمانية يضرب المثل بالمجالس النيابية فى الشرق مستشهدا على وجه التحديد بمجلس النواب فى عهد الثورة والذى رقص بعض نوابه بعد هزيمة ٦٧، ثم يقول «... وإذن فالذين ينفعلون حين يرون الإمام يتحدث عن الفرد العادل الملتزم بالنهج الصحيح، عليهم أن ينظروا الى تاريخ المجالس النيابية ليعلموا أن هذا النظام المتزيى بزى الديمقراطية ليس فوق النقد النزيه ورغم أن الدكتور البيومى يعترف قبلا بأن مجالس الشرق النيابية مجالس صورية تزيف فيها إرادة الشعوب لكنه يعود للاستشهاد بها، فأى عجب هذا، كيف تؤخذ على النظام النيابى مآخذ منسوبة الى من لاعلاقة لهم به ناهيك عن أن نظرية المستبد العادل هذه التى دعا اليها الإمام محمد عبده ويؤيده فيها الدكتور البيومى هى التى حاول البعض أن يضفى بها شرعية على حكم عبدالناصر.

ألعن نتيجة للانفراد بالرأى

ولعل من سخريات القدر أن عبدالناصر حكم مصر منذ ١٩٥٢ - خلف ستار نجيب ثم صراحة وفي السنة الخامسة عشرة لانتهاء فترة المستبد العادل التي حددها الإمام محمد عبده وقعت هزيمة ١٩٦٧ المشئومة المريرة كألعن نتيجة للانفراد بالرأى والاستبداد تحت شعارات لا تختلف كثيرا عن تلك التي دعا اليها الإمام محمد عبده الذي نسي في غمرة وطنيته وعاطفته أن الانفراد بالرأى لا يستقيم معه سعي ولا تتحقق به غاية، وأن الاستبداد أصل لكل فساد كما قال الكواكبي، وأن إتاحة الفرصة لحاكم أيا كان طيب أصله وصلاح محتده لكي ينفرد بالحكم خمس عشرة سنة سيتيح الفرصة لظهور طبقات من المتنفعين من حوله تنحرف به وبقراراته حتى لو أراد عكس ذلك، ناهيك عن أن أمتنا في تاريخها لم تعهد - إلا في حالات نادرة - حاكما يسلم الحكم لخليفة يختاره الناس أو حتى يختاره هو، وما تعودنا منهم طيلة تاريخنا - منذ أن نشأ الانفراد بالرأى في عهد معاوية وما تلاه والذي وصفته النبوءة النبوية بـ (الملك العضوض) - إلا أن يسلموا الحكم لعزرائيل، وقد زادت فترات حكم أغلبهم على الثلاثين والأربعين عاما فلا تربت أجيال ولا صلحت أحوال. فهل من المعقول وقد استقر الآن في الوجدان الجمعي للمواطن العربي - بعد سنوات وقرون من القهر - الايمان بالديمقراطية والحرية والحلم بانتخابات نزيهة ومجالس نيابية قوية وصحف حرة، وصارت الحكومات العربية تعلن ترحيبها بكل هذا حتى وإن لم تطبقه سعيا منها للظهور بمظهر حسن امام المجتمع الدولي، وبدأ كابوس القمع والاستبداد ينزاح ، ولو حتى نزرا يسيرا تحت وطأة الفضائيات والانترنت ووسائل الاتصالات، هل من المعقول أن نأتي لنجدد الدعوة الى المستبد العادل بدلا من أن نواصل سعينا وصبرنا وحلمنا - الذي بالتأكيد يشاركنا فيه استاذنا الدكتور البيومي - بيوم تنفك فيه المظالم، أبيض على كل مظلوم، أسود على كل مستبد عادل.

ملاحظة :

سلمت جدلا بتعبير المستبد العادل للضرورة البلاغية ولاستخدام أئمتنا له، وإن كنت أراه مرادفا لتعبيرات كثيرة ليست سوى أوهام لا تجلب سوى التعاسة مثل الفجر الكاذب والحمل الكاذب وقصيدة النثر والمسرح التجريبي.

دور بريجيت شيفر وهانز هيكمان في جمع ودراسة

مأثوراتنا الموسيقية

بقلم : فرج العنترى

إن لذة التمتع بقراءة الموضوع المغناطيسى لفناننا الأديب حسن سليمان فى هلال إبريل الماضى عن صادق انحيازه الممتازة لأصالة الفن الشعبى، وعن ذكرياته معه، وعن الشخصيات الغامضة التى حام قلمه حول تذكره لحقيقة دورها، وعن اطلاقه لندائه الصادح والصارخ فى البحث عن كل فدائى «مجنون» يأتينا جاهزا بسلاحه العلمفنى ليجمع لنا فلكلورياتنا من مظانها.. قد أسعدنى كل السعادة كفاتح شهية على الدخول معه طرفا مشاركا، أولا بتقديم وافر الثناء على فناننا الأديب، وثانيا بالاسهام الودود فى كشف الغوامض الموسيقية التى تكرر ورودها فى مقاله الممتع، وربطها ما أمكن بدوافع وأدوات تحريكها.

- ١ -

وحينما نبدأ بالشخص الألماني «المبهم» الذى استخرج بعض آلات الموسيقى الفرعونية من المتحف المصرى فى سنة ١٩٣٩، وليجرب عزفها اذاعيا بتعليق من «كروان الاذاعة» وهو محمد فتحي بك حينئذ - ثم نجحت التجربة فى إثبات التأكد من امتداد جذور الفن الشعبى المصرى عبر الأجيال.. الخ، سنجده الموسيقار والعالم الألماني اليهودى هانز هيكمان (١٩٠٨ - ١٩٦٨) الذى كان قد لجأ إلى الاقامة فى بلادنا تفاديا من الاضطهاد النازى، وتولى رئاسة القسم الموسيقى فى المتحف المصرى بدءا من سنة ١٩٣٤، كما قام بالتدريس فى كل من المعهد العالى لعلمات الموسيقى، والمعهد العالى للموسيقى المسرحية فى ظل أشراف الدكتور محمود احمد الحفنى، الذى كان زميلا له فى دراستهما الموسيقية للتخصص مع الزميلة الثالثة بريجيت شيفر فى «علم الموسيقى المقارن» بجامعة برلين وهو علم ألماني صرف، كان قد نشأ فى مطالع القرن العشرين، وحاز اعترافا أكاديميا فى جامعات ألمانيا، وأصبح أداة التخصص فى إجراء الدراسات الميدانية والتحليلية لجميع موسيقات الشعوب البدائية البعيدة عن التحضر الأوروبى بصفة خاصة، كما تشكلت له فى برلين سنة ١٩٣٠ هيئة تنفيذية من كوادر التخطيط والتوجيه والحركة بعنوان : «جمعية البحث فى موسيقات بلاد الشرق» ògeselschaft zur Enfer schung der musik des orientså .

ونعود لنتعرف على مقومات شهرة هانز هيكمان فنجده أنشأ فى القاهرة «جمعية ومعهد الموسيقى الحية» Mus-ica viva . كما تولى تنظيم واقامة العديد من المحاضرات ومن الحفلات الموسيقية لنشر التذوق إلى جانب بحوثه فى غوامض الموسيقى الفرعونية والقبطية، وقيامه بعديد الرحلات خارج القاهرة لعمل الحفريات الأثرية ولجمع آلات الموسيقى القديمة لترميمها واعادة تشغيلها بمنهجه الخاص فى علم الآثار الموسيقية. غير أن الذى يستلفت النظر بالنسبة لموضوعنا هو قيامه بمرافقة الباحثة بريجيت شيفر فى اعقاب انفضاض مؤتمر الموسيقى العربية سنة ١٩٣٢، ومزاملتها فى رحلتها المقررة لدراسة وجمع وتحليل المواد الموسيقية

لواحة سيوه، وقيامه أيضا فى سنة ١٩٥٦ أثناء زحمة الانشغال الوطنى الساخن بمشاكل العدوان الثلاثى - بمرافقة الدوق مكلنبرج فى عملية جمع ودراسة الموسيقى فى منطقة التماس الحدودى مع السودان بدءا من عالى صعيدنا الأعلى فإلى الداخل جنوبيا.

وأما عن حكاية ودور الباحثة الألمانية بريجيت شيفر فهى كذلك يهودية من مواليد برلين فى سنة ١٩٠٩، غير أنها كانت قد حضرت إلى مصر لأول مرة فى سنة ١٩٢٣ للاقامة مع نويها فى مدينة الاسكندرية حيث التحقت بمدارسها وحصلت منها على شهادة البكالوريا الفرنسية، ثم سافرت من جديد إلى ألمانيا لدراسة التخصص فى علم الموسيقى المقارن مع زميليها الحفنى وهيكمان وعلى كبار أساتذته اليهود هورنبوستل، كورت زاكس، روبرت لاخمان، وعادت إلى مصر بعد التخرج لدراسة موسيقى واحة سيوة فى عامى ١٩٣٢، ١٩٣٣ وما بعدهما لنيل درجة الدكتوراة من جامعة مردريسن فلهلم ببرلين. ولنا أن نعرف أنها قد تمتعت هى الأخرى برعاية الدكتور الحفنى فى توليها لعمادة المعهد العالى لمعلمات الموسيقى لمدة عشر سنوات بدءا من عام ١٩٤٣، وعندما تم افتتاح معهد الكونسير فاتوار فى سنة ١٩٥٩ تولت التدريس فيه لفترة، ثم غادرتنا نهائيا إلى لندن حيث وافاها الأجل فى إبريل سنة ١٩٨٥ من بعد ما تركت فى أوراقها نسخة خطية عن رسالتها فى واحة سيوة، هى التى قدمتها الدكتوره سمحة الخولى إلى المجلس الأعلى للثقافة فى ترجمة عربية بقلم زوجها المرحوم الاستاذ جمال عبد الرحيم وبمقدمة منها للطبع والنشر ضمن المشروع القومى للترجمة فى عام ١٩٩٦ .

- ٢ -

وإلى هنا لابد أن يثور التساؤل المشروع: لماذا يا ترى حدث ويحدث مثل هذا الاهتمام الأجنبى ببذل الجهد والمال فى دأب العمل على جمع ودراسة مأثوراتنا الشعبية من الداخل وفى مناطق التماس لحدودنا شرقا وغربا وجنوبا؟؟! ويكون من حسن حظنا فعلا أن نعثر فيما يلى على تنويعة من أضواء هذه الاجابات الكاشفة:

* فالاستاذ الاخصائى الكبير احمد رشدى صالح يشير فى كتابه عن الأدب الشعبى» صفحة ٤٢ وما بعدها إلى أن كثيرا من الكتب والدوريات التى حفلت بجهود الغربيين يتضح فيها أن الفلكلور

المصرى واقع فى نطاق دراساتهم لاكثر من قرن ونصف القرن، وأن الدول الكبرى كالمانيا، وفرنسا، وانجلترا، وروسيا القيصرية، قد شجعت على درس تراث الشعوب الشرقية، ولا جدال فى أن أول دافع لهذه الدول فى هذا المجال كان هو السيطرة على مصر والبلاد العربية، وذلك لأن الحركة الاستعمارية التجارية وما تلاها من حركتى الاستعمار الصناعى والامبريالى قامت كلها على نتائج العلوم وبأطماع التفكير التوسعى، ولهذا تبرمجت عندهم دراسة البيئات المختلفة للشعوب.

ويحدثنا الاستاذ الكاتب مرسى سعد الدين عن فرق ما بين الاستشراق القديم والحديث أهرام ١٩٩٩/٨/٢٤ بأن القديم كان يقوم به مفكرو الدول الاستعمارية، وأن كل الكتب التى صدرت عن بلادنا جاءت بأقلامهم، وأما غالبية كتب الاستشراق الجديد ان لم تكن جميعها فهى بقلم كتاب معظمهم من أساتذة الجامعة الامريكية، وهم نوعان نوع المتخصصين الذين يسعون وراء بحوث خاصة فى التاريخ المصرى القديم والآثار الفرعونية، ونوع آخر يقوم به متخصصون أيضا ولكن فى اطار جمع المعلومات وأنه ليس بالضرورة أن يكون المستشرقون من عملاء المخابرات، ولكن الذى لا شك فيه هو أن أبحاثهم المنشورة فى كتب إنما تقدم معلومات مهمة لأجهزة المخابرات فتساعدها على التعامل مع دول المنطقة.

* ويفتح أذهاننا الكاتب الكبير احمد بهاء الدين فى كتابه عن «الاسرائيليات ط٢ دار الهلال» على أن الاستعماريين مجبولون أينما حلوا على خلق مشكلة من مشاكل الاقليات فيخلقونها اذا لم تكن موجودة، أو يعملون على تنميتها ان كان لها وجود، وذلك بقصد استخدامها فى خلق الأزمة التى تصرف جهد الشعب عن مواجهة مشكلته مع الاستعمار، ولكى يوجد فى المجتمع نقطة ضعف داخلية دائما يبنى عليها وجوده واستمرار تدخله.

* ويكشف لنا الاخصائى المعروف الاستاذ شوقى عبد الحكم فى ركنه الخاص بالتراث والمأثور فى جريدة الاهرام عن دوافع وأهداف رحلة الاثنوجرافى المشهور أدوارد وليام لين الانجليزى صاحب كتاب «المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم» بأنه كان قد حضر إلى مصر فى سبتمبر سنة ١٨٢٥، ثم عكف على تعلم اللغة العربية ولهجاتها وراح يواصل تغلغله فى داخل الأحياء الشعبية بطول وعرض مساحة الوطن من

الاسكندرية حتى أسوان لجمع وتدوين ورسم كل ما صادفه من قصص، وأشعار، ومواويل ، ومن شعوذات المشعوذين وأعمال الحواة والندب للموتى، وأنه ظل يقوم بهذا العمل حتى استكفى وكر راجعا بحمولته من المعلومات الإثنية التى قدمها إلى الهيئة الملكية التى تولت رعايته فى مهام رحلته لدراسة دول الشرق القديم، مما أسهم بكفاية فى فتح الطريق أمام الاستعمار الانجليزى لمصر.

وإذن فقد برح الخفاء فى سر الاهتمام الأجنبى الاستعمارى بجمع وتسجيل ودراسة فلكلوريات بلادنا من الداخل وفى مناطق التماس الحدودية فى غربنا وشرقنا وجنوبنا، ويمكننا أن نستعرض فيما يلى ملامح صارخة عن بعض الوقائع .

-٣-

فى المدة من عام ١٨٠٥ إلى ١٨٢٨ كان المدعو ريفو C.J.Rifaud قد شد رحاله من فرنسا إلى مصر فإلى النوبة لكي يستمر عاكفا لمدة ثلاث وعشرين سنة على رصد كافة أوجه الحياة النوبية بالذات، وأمكنه أن يصف ويرسم ويثبت هنالك كل ما كان يستخدم من الحرف ومن أدوات العمل ووسائل المعيشة، وطرق الانتقال على البر وعلى سطح النهر، فضلا عن كل العادات والتقاليد وأشكال الرقص ووظائفه وأسلوب أدائه ثم راح يقدم كل حصيلة هذا الجهد إلى فخامة قيصر الروسيا لتصرف بحسب ما رواه لنا الاستاذ سعد الخادم فى كتابه عن الرقص الشعبى فى مصر بسلسلة المكتبة الثقافية (٣٨٦) سنة ١٩٧٢. وكما عرفنا تاريخيا فان الحملة الفرنسية التى جاء بها نابليون الينا فى مستهل يوليو سنة ١٧٩٨ كانت لانشاء امبراطورية فرنسية أصلا، ولكن ما أن تجفف عرق مشوارها أو كاد حتى ووجهت من جموع شعبنا بمقاومة فعالة ومتواصلة هى التى أرغمتها إرغاما على الانسحاب بعد قضاء ٣٩ شهرا فى عذاب السعير الذى لم يترك لها يوم راحة واحدا بطول الساحة من مصرنا السفلى إلى العليا، فكان أن لملمت بقاياها وانكفأت راجعة إلى أهلها فى فرنسا ورأسها فى الأرض لكن المدعو فيللوتو أو بالكامل جيوم أندريه فيللوتو Guillaum Andreu Villoteau" وهو أصلا موسيقى جوال لا هو فى العير ولا فى النفير، وجاءت به الحملة للقيام بعمليات الرصد لأغانى مصر وموسيقاها ضمن خبراء وصف مصر فما لبث أن تناول الموضوع من قصاراه وراح يفبرك

بالزور وبالبهتان أغانى عن شعبنا تزعم الترحاب بحملة «الجنتار راخى العذار» وبأن نساءنا كن يهيئن استقبالات فى فراش مخادعهن لجنود الحملة من مستوى الامتاع الكامل!! ، وكان هذا هو نموذج الجمع الميدانى الذى أورده لنا الجزء الثامن من وصف مصر فى ترجمة زهير الشايب لمكتبة مدبولي سنة ١٩٨٣ وفى مثل هذه العينة البيّنة:

محبوبى لابس برنيطه

ودكته عقده وشنيطه

طلبت وصله قال (أسيطه) (١)

ما احلي كلامه بالطليان يا سلام

أوحشتنا يا صارى عسكر

نشرب القهوة بسكر

وعسكرك داير يسكر

وفى البلد حبوا النسوان يا سلام

أوحشتنا يا جبنتار (٢)

يا حلو ياراخى العذار

من يوم ما جيتنا هل النور

زى القناديل فى البنور يا سلام

ياما أحسنك فرط الرمان (٣)

فى إيديك ماسك فرمان

لما تنادى بالأمان

قلب الرعيه يكون فرحان يا سلام

والآن، فإذا كان من شأن فيللوتو الفرنسى أن يروج الأكاذيب للايحاء بأن مصر رحبت بقدوم ووجود الحملة وقائدها وإلى الدرجة التى قدمت نساؤها وفتياتها هدايا لامتاع الجنود، فإن الذى زاد وغطى هو السكوت الأخرس بلا ادنى اعتراض أو حتى الامتعاض بإزاء اتهام نسائنا بالدعارة ورجالنا بالدياثة. وخاصة من فئة الفرانكوفونيين المصريين الذين أوتوا فرصة قراءة وصف مصر فى لغاته الأجنبية قديماوقبل أن يتمكن الشعبيون من قراءته باللغة العربيه فى سنة ١٩٨٣ إنها فعلا فضيحة، وما عاد يمحوها إلا قيام المسئولين فورا بشطب هذه الشناعات رسميا من وصف مصر، وباعلان هذا الاجراء على جميع المحافل الثقافية والتعليمية فى قارات الدنيا، وإلا حقت علينا بالباطل عبارة ذاك المسئول الأمريكى التى اطلقها فى مجال توكيدنا على تحرير أراضينا بأننا مجرد جثث هامدة أو خامدة أو جامدة، نتيجة الاطلاع الأوروبى الواسع على تشنيعات فيللوتو علينا فى وصف مصر المنتشر باللغات الاجنبية!!.

وإذا كان الشئ بالشئ يذكر فان النشاط الصهيونى لكوادر علم «الموسيقى المقارن» وبجهود جهازه الحركى فى «جمعية دراسات موسيقات الشرق» كان ولايزال علامة بارزة فى التخطيط والتنفيذ والافادة من فرصة عقد مؤتمر دولى للموسيقى العربية فى القاهرة سنة ١٩٣٢

إبان عهد وزارة اسماعيل صدقي الأولى وما صاحبها من عنف الاضرابات والاضطرابات طوال المدة من ١٩ يوليو سنة ١٩٣٠ حتى ٤ يناير ١٩٣٣. فلقد حضر من ألمانيا للعمل فى رئاسة لجان هذا المؤتمر وعضويته كل من الكوادر: فون هورنبوستل، كورت زاكس، روبرت لاخمان، بول هندميت، هابنتز، فولف، واستلفت نظرنا وباصرتنا ما ستره تقرير الصهيوني روبرت لاخمان - باعتباره رئيسا للجنة التسجيل الموسيقى العام للمؤتمر عن موسيقى شبه جزيرة سيناء بالذات، بأنها تختلف اختلافا شديدا عن أغانى بدو الصحراء الغربية وعن أغانى الفيوم وبأن طراز الغناء البدوى الرتيب والذى على وتيرة واحدة يمتد من النيل إلى الغرب على حين تبدو الموسيقى البدوية الأسيوية لشبه جزيرة سيناء من تقاليد مختلفة، وهكذا وبكل بجاحة الصفاقة لم يتردد هذا الكادر الصهيونى فى أن يتقول وهو مطمئن فى بلادنا أمام أسطوات أهلنا الفنانين الذين لم نكن نملك سواهم حينذاك، والذين لايعرفون عن علوم ونظريات وتاريخ وصيغ الموسيقى الا الطقاطيق والدواليب والتحميلات وحركات التغني الطروب بذل الهوى وأوجاع الغرام ومكايد العزال بالهنك والرنك التتريكيين، اكرر أنه لم يتردد فى أن يدعى بأن موسيقى سيناء المصرية مقطوعة الصلة بمأثورات النغم المصرى انقطاعها عن بقية موسيقات البدو فى البلاد العربية !! وهذا على حين اثبتت الدراسات الميدانية المبرأة من غرض المرض الصهيونى أن أغانى حداء الإبل وسقياها وأغانى تخصيب النخيل، موجودة فى سيناء وجودها فى جميع بوادى العرب، وأن صيغة الموال السيناوى هى هى سواء فى مصر أو فى البلاد العربية من تفعيلات البحر البسيط وبأسلوب الغناء المرسل، وأن رقصة الدحية ومترادفاتها فى سيناء من الرادى والمربوع لها نظائرها فى رقصة كف العرب بمحافظة الشرقية فى الدلتا، وفى رقصة المربوع بمركز دراو فى محافظة أسوان فضلا عن ثبوت استخدامها فى كل من الأردن والعراق، وأن صنوف الاراغيل والنايات والرباب ومزامير الخشب ومسميات الطنبوره بالسمسمية فى مدن القنال وعند صيادى السمك فى بحيرة البردويل بسيناء وبالباستكوب فى مثلث حلايب، إنما تكشف عن وحدة النوع والاتفاق فى وظيفة استخدامه مع اختلاف فى المسميات.. لكن غرض المرض الذى يستنطق كوادرهم بأنهم بناة الاهرام، هو الذى يطلق ألسنتهم بأن موسيقى شبه جزيرة سيناء ليست لغير شعب الله المختار إياه، وبأن سيناء ليست سوى جزء من أرض

اسرائيل إياها!! Erets israel ونحن لا ننسى للحظة أن الكادر روبرت لاخمان قد تمكن بالخبث وبالدهاء من تجميع كل تسجيلات فرق المؤتمر من مصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس والجزائر ومراكش في حصيلة بلغت ألفا وخمسمائة نموذج، وتضمنت موسيقى الشمال الافريقى وموسيقى المذاهب اليهودية القديمة، ولبعض كنائس الشرق ولجميع ما يستخدم من ألوان العزف والغناء في كل من مصر وسوريا والعراق إذ أخذها وانتقل بها نهائيا إلى القدس فى ١٩٣٥ حيث أنشأ له بها الصهاينة قسما لموسيقى الشرق الأوسط فى الجامعة العبرية وأوكلوا اليه رئاسته ومن ثم هرولت مجلة معهد الموسيقى الشرقية برئاسة تحرير الحفنى لارسال آخر التهانى إلى الجامعة العبرية ولرئاسة قسم الموسيقى الجديد فى شخص روبرت لاخمان عددها الصادر فى يوم السادس عشر من مايو سنة ١٩٣٥!!.

وهكذا كان قد ارتبط علم الموسيقى المقارن مع كوادره وتلامذتهم بالتوضيب التخطيطى بسلب جميع مأثورات الموسيقى العربية وترحيلها إلى «اسرائيل المستقبل» للانتفاع بها على النحو الصهيونى ، وكان دور هانز هيكمان ينصب على دراسة صلة الموسيقى القبطية بالفرعونية وبأن يعاون بريجيت شيفر فى رحلتها إلى واحة سيوة لدراسة منطقة التماس الحدودية الغربية مع ليبيا فى سنة ١٩٣٣ ، وأن يرافق الدوق مكلنبرج فى دراسة منطقة التماس الحدودية مع السودان بدءا من صعيد مصر الأعلى، وأن يقتصر دور بريجيت شيفر على درسها لواحة سيوه وأن يتولى روبرت لاخمان دراسة منطقته شمال سيناء باعتبارها منطقة الحدود الشرقية مع العرب، وأن يسطو على شتى نماذج المأثورات الموسيقية لجميع الشقيقات العربية ومصر ويقدمها لاسرائيل المستقبل!! وعساى بعد أن أكون قد أوضحت الغوامض ، وربطت النتائج بمسبباتها وديناميكيات تحريكها.

---

(١) «أسبيطة»: aspetta لفظ إيطالي يقال فى طلب التريث

(٢) جبنار: النطق الشعبى للفظ «الجنرال»

(٣) «فرط الرمان»: النطق الشعبى لاسم برتولمى الذى عينته الحملة قائدا لما كان يعرف بجيش الشرق ثم عهدت اليه بأمن القاهرة.

رحيق الكتب

زهرة البن

بقلم: صنع الله ابراهيم



من النادر الآن أن يقع المرء على قصة جميلة تدخل القلب دون مساعدة أدوات الحداثة المرعبة والمعقدة! وهذه الرواية الفاتنة (زهرة البن) للكاتب اليمنى «على محمد زيد» مثل على ذلك. فهى قصة بسيطة للغاية رواها الكاتب بعذوبة بالغة ورغبة حارقة فى التواصل فحرك لدى القارىء أمواجا وراء أمواج من الذكريات والتساؤلات والأشواق.

وتكاد العبارة الافتتاحية للرواية أن تلخصها كلها: «من مشنقة إلى مشنقة فرج» وهو مثل يمنى يعنى: من «سجن إلى سجن» ويصور حياة بطلها التى ترويها الرواية على خلفية من تاريخ اليمن الحديث.

أحمد شاب يمنى بسيط يبدأ مراهقته فى السجن حيث قبض عليه رجال الإمام (آخر ملوك اليمن) بتهمة ملفقة موجهة أساسا لأبيه، لفقها رجال «القلعة» وهو الاسم الذى عرف به المركز الإدارى المحلى، ليغطوا على سرقاتهم. وظل الاثنان فى السجن مقيدين بالحديد إلى أن مات الأب وتمكن المراهق من الهرب إلى عدن التى كانت قبلة الفارين من عسف الإمام والباحثين عن عمل والراغبين فى الهجرة.

فى عدن ينضم إلى جيوش الباحثين عن عمل الراقدين فى الطرقات إلى أن يقوده «الحظ النحس» إلى العمل بائعا للآيس كريم لدى مطلقة متوسطة العمر تعيش مع أمها الأرملة. تبدأ «عيشة» صاحبة العمل فى نسج شباكها حوله. فتأويه فى بيتها وتحقق له حلمه فى امتلاك راديو. ومن خلال هذا الراديو يتعرف على العالم ويسمع صوت الزعيمين الثائرين «الزبيرى ونعمان» يهاجمان الإمام فى «صوت العرب» كما تتوطد العلاقة بينه وبين جمال عبدالناصر وشعارات الحرية والقومية. تحكم «عيشة» الحصار من حوله كى يتزوجها فيجد نفسه على شفا «من سجن إلى سجن فرج». يهرب إلى الشارع وإلى مظاهرة ضد الانجليز تردد شعارات لايفهم معناها فينضم اليها ويتزعمها ويقبض عليه الانجليز ويعذبونه ويسجنونه لكنه يتمكن من الهرب.

يعود إلى قريته ليفتح دكانا متواضعا لزبائن أكثر تواضعا. يقع فى حب «زهرة» الابنة الوحيدة لمزارع. فتاة رائعة ذات جمال وكبرياء لايريد أبوها التخلى عنها ويبعد عنها الخطاب. عندما يتأكد أنها تبادله المشاعر يتقدم لها لكن والدها يرفضه كالعادة فيتعاهدان بالدم الذى تسيله بغرز ابرة فى باطن اصبعها. ويشعر الأب بخطورة الأمر فيقدم على خطوة غريبة كى يقطع عليهما الطريق. يوافق على تزويجها لأحد رجال القلعة: عجوز مزواج، وتقاوم «زهرة» الزواج بدون جدوى فتنتقل إلى منزل العجوز لكنها لا تسلم نفسها اليه فيضربها ويطردها. ويعيدها

أبوها غصبا إلى زوجها فتقاومه عندما يحاول اغتصابها وينتهي بها الأمر أن تقيم فى منزله فى وضع لا هو بالزوجة ولا بالمطلقة. أما أحمد فتتراكم عليه الضرائب الفادحة التى يفرضها رجال الإمام ويتفننون فى جبايتها لدرجة الاقامة فى منزل الضحية والتعيش على حسابه. النقطة المضيئة الوحيدة فى حياته هى الراديو الذى يسمع من خلاله فى يوم ٢٦ - ٩ - ١٩٦٢ نبأ الثورة. الناس لا تصدق أو تخشى التصديق وعلى كل لم يتغير الكثير فى حياتهم. فباسم الجمهورية يواصل قائد القلعة التحكم فى المنطقة وأهاليها. لكن الظروف أصبحت مهيأة لأن تنطلق زهرة من العجوز وتتزوج أحمد.

تحققت أحلامه أخيرا. لكنه لم يعد ذلك المراهق الساذج الجاهل. لقد تغير كثيرا. إنه «يتابع بكل جوارحه الوضع الجديد. أغرب ما فيه انشغال المذياع كل ليلة بقراءة قائمة طويلة من الترقيات للمؤلفة قلوبهم من العسكر القديم». (يقصد الكاتب الملكيين الذين ألف بينهم الذهب السعودى). وسرعان ما يتطلع للدفاع عن الثورة فى الشمال والاشتراك فى الحرب التى دارت بين الجمهوريين المدعومين من مصر والملكيين المدعومين من السعودية واستمرت ثمانى سنوات حتى سنة ١٩٧٠. ويترك زوجته ويسافر الى صنعاء لينضم إلى حشود فوضوية ويشترك فى معركة تنتهى بالوقوع فى أسر الملكيين. حصار جديد فى يد جنود من العصور الوسطى يعتبرون الجمهورى كافرا معاديا للإسلام ومؤمنا بمشاعية الملكية والزوجة!! مرة أخرى «مشنقة فرج».

وتتكشف المأساة اليمنية: إن شيئا لم يتغير بعد انتهاء النظام الملكى. العسكر على بؤس حالهم أيام الإمام انقلبوا عليه ولما أتت الثورة استولوا على السلطة ومارسوا على الشعب ما هو أفظع.

لكن أجمل صفحات الرواية تتجلى عندما يأتى ذكر المرأة: إنها دائما قوية الشخصية مبادرة متحررة من أغلال الأفكار العتيقة. بدءا من زهرة إلى عيشة صاحبة تجارة الأيس كريم إلى أميرة القلعة التى كانت تكبر أحمد فى السن وتدير مقهاية «تبث دفء المشاعر فى زمهرير القلعة باشراق ضحكاتها المجلجلة فى جرأة لا تحدها قيود الحشمة المتصنعة أو المفروضة فى مكان داعر».

سر عذوبة هذه الرواية هى بساطتها و«براءتها» وما تنبض به صفحاتها من شبق الى الحياة والحب والحرية. وربما أضر بها المؤلف عندما حاول أن يجارى بعض التكنيكات الحديثة فاعتمد تداخل الأزمنة. فى ظنى أنه تصور أن ذلك يمكنه من ابراز عقم التغيير الذى حدث فى اليمن، لكنه من ناحية أخرى أربك القارىء الذى لايعرف تفاصيل التطورات التاريخية. ومن حسن حظى أنى قرأت نسخة قام أحد أصدقاء المؤلف باضافة هوامش بسيطة اليها بالقلم الرصاص اضاءت التطورات وأيقظت الذكريات.

ولعل هذا يطرح من جديد مسئوليات الناشر. التصور السائد حاليا أنه مجرد شخص يوافق على نشر عمل فيعهد به الى المطبعة وانتهينا! لكن الناشر الحقيقى له دور أكبر سواء قام به بنفسه أو بواسطة أحد المحترفين: يراجع النص و يخلصه من الأخطاء اللغوية أو التناقضات العادية التى يقع فيها كل مؤلف (فى هذه الرواية مثلا يدعى زوج زهرة العجوز مرة حسين ومرة أخرى حمود) وربما يقترح اضافة أو حذف فقرة أو فصل أو اعادة بناء أو هوامش تعين على الفهم. وفى حالة هذه الرواية الفاتنة كان يتعين على الناشر أن يميز فقرات الفلاش باك بحرف طباعى مختلف أو أى طريقة أخرى.

مؤتمر علم المصريات

المسرح في مصر القديمة

- كلمات قبطية فى اللهجة المصرية.
- مقارنة بين الخطابات إلى الإمام الشافعى وما يبعثه المصريون القدماء إلى موتاهم.

بقلم: د. مجدى يوسف

ذهبت من باب حب الاستطلاع لأشاهد المؤتمر الثامن للجمعية الدولية لعلماء المصريات القديمة الذى عقد فى فندق ميناهاوس تحت سفح الأهرام. ولكن ما أن اطلعت على برنامجه وتصفحت الكتاب الذى احتوى على ملخصات أبحاثه، وهو باللغات الثلاث التالية: الانجليزية، والفرنسية، والألمانية، حتى تبينت أنه كان فى إمكانى أن أسهم فى هذا المؤتمر ببحث قمت به منذ ربع قرن حول المسرح المصرى القديم وعلاقته بتحريرنا نحن المصريين



المحدثين من التصور السائد بأن المسرح ظاهرة إغريقية لم تعرفها مصر القديمة، وهى النظرية التقليدية التى تأسست على كتاب «إتين دريوتون» عن «المسرح المصرى القديم» وتصوره الذى شاركه فيه «سيته» الألمانى بأن مصر القديمة لم تعرف المسرح كما عرفته اليونان العتيقة، وإنما اقتصر على أداء الطقوس الدينية فى داخل المعابد على عكس ما فعل الإغريق من عروض مسرحية فى الخلاء.

أقول إن هذا الاعتقاد الذي ذهب إليه كل من «دريوتون»، الذي كان مديرا للمتحف المصري، و«سيته» عالم المصريات القديمة الألماني المعروف، قد ذهب أدراج الرياح عندما أصدر «فيرمان» الانجليزي كتابه «نصرة حورس» عام ١٩٧٤. فقد أدت قراءة «فيرمان» للنصوص المصرية القديمة على أكتاف معبد الكرنك إلي ترجمة مختلفة عن تلك التي توصل إليها «دريوتون»، وذلك من خلال ربط هذه النصوص بالرسوم المجاورة لها، وقراءتها كوحدة واحدة، وهو ما لم يفعله «دريوتون» إذ فصل بين النصوص والرسوم. ولقد أدت طريقة «فيرمان» هذه إلي انقلاب في فهم النص المصري القديم، إذ تبين من الترجمة الجديدة أن المصريين القدماء عرفوا المسرح في الخلاء على ضفاف بحيرة الكرنك حيث كانوا يقدمون عرض «نصرة حورس» لمبايعة الحاكم.

منهج جديد لقراءة النصوص القديمة

إلي هنا كان انجاز «فيرمان» في فتح الباب أمام منهج جديد في قراءة النصوص المصرية القديمة، فما دوري إذن وأنا لست متخصصا في المصريات القديمة، ولا أستطيع أن أفك شفرة كتابتها، بل قل أني أكاد أن أكون أميا في تلك اللغة؟ لقد استفدت بما توصل إليه نقد «فيرمان» لقراءة معاصريه وأسلافه للمصرية القديمة، وقمت بتوظيفه لنقد ما أسميته «عقدة دريوتون» أو التصور السائد في دراساتنا المسرحية المعاصرة بأن المسرح ظاهرة غربية المصدر إغريقية الأصول، لم يكن لها نظير في مصر القديمة، وهو ما ترتب عليه تبعية ثقافية للمسارح الغربية ولهفة على «اللحاق بها» وتوطين موداتها، وأكسسواراتها وديكوراتها، بل وتعبيراتها الخاصة بفنون عرضها. والأغرب من ذلك أن محاولات التحرر من هذه التبعية المسرحية التي شاهدناها خلال الستينات على أيدي علي الراعي ويوسف إدريس كانت تتوقف في تأصيلها التاريخي لظاهرة المسرح في مصر عند بابات ابن دانيال، أي القرن الثالث عشر الميلادي، أما مصر القديمة فلم يجرؤ أي منهما أو غيرهما على أن يرصد فيها ظاهرة المسرح، إذ كان دريوتون بكتابه الذي نشره بالفرنسية أثناء الأربعينات، ثم ترجمه إلي العربية ثروت عكاشة أثناء الستينات «نشر في ١٩٦٧ لازال مخيما على الثقافة المصرية قاطعا عليها الطريق في البحث عن سبل التحرر الثقافي من هيمنة النماذج الغربية بحجة أن أجدادنا القدامي لم يعرفوا هذا الفن، وأنه استحدث مع «النهضة الحديثة» التي أتت في أعقاب الحملة (وصحتها الغزوة) الفرنسية لمصر أذكر على سبيل المثال: محمد يوسف نجم «المسرحية في الأدب العربي الحديث، بيروت ١٩٥٦» ولويس عوض الذي طلع علينا بنظريته في تفسير افتقار ثقافتنا إلي ظاهرة المسرح بينما ظهرت وترعرعت عند اليونانيين القدماء، بأن حضارتنا زراعية سكونية، بينما ثقافة الإغريق تجارية، دينامية والمسرح صراع

وجدل لا ينشأ إلا في مثل تلك المجتمعات الغربية، أما حضارتنا الزراعية فلم تكن قادرة سوي علي انتاج السير والاقاصيص، وأننا من خلال اتصالنا بالغرب في العصر الحديث، وتحول حضارتنا من الزراعة نحو التجارة أصبحنا «قادرين» علي أن ننتج ونستقبل هذا الفن الذي استزرعناه في أرضنا الثقافية.

افتقار ثقافتنا إلى المسرح

والطريف أن لويس عوض كان يحاضر طلبة معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية في نظريته هذه التي تم طبعها ضمن محاضراته في كتاب حرصا منه ومن المعهد علي «تعميم» الفائدة المرجوة منها!!.

استعنت إذن بنقد «فيرمان» لقراءة «دريوتون» لنصوص المسرح المصرى القديم فى نقض تأصيل تبعيتنا المسرحية للنماذج الغربية، ومحاولة محاكاة هذه الأخيرة فى أساليب عرضها وأنماطها باسم التقدم والعصرنة ! ولكنى لم يطف بذهنى أبدا أن أكون باحثا فى المصريات القديمة وأنا أمى فى أبجدية لغتها .. إلى أن حضرت جلسات هذا المؤتمر الذى عقد في ظلال أهرامات الجيزة. فعلى العكس مما نعرفه عن الدراسات المصرية القديمة من توجه محض فيلولوجي لغوى ، أو حفرى أثرى ، تطغى فيه اشكالية التعرف علي الأجزاء على منهجية اكتشاف العلاقات وتفسيرها انطلاقا من معرفتنا المعاصرة . إذ بهذا المؤتمر يفوق كل التوقعات ، فانت تجد فيه من يحدثك عن الطب الفرعونى وطرق العلاج الحديث لأمراض القلب «روجوريو دى سوزا من البرتغال» وعن مصر القديمة كيف أنها لازالت حية فى مصر الحديثة من خلال شهورها القمرية، وعاداتها الشعبية التى لازالت قائمة حتى يومنا هذا فى أوساطنا الشعبية والفلاحية، وهو بحث قدمه السيد م.أ. نور الدين - وهو مصرى عربى فيما اعتقد - «يفضل أن يختزل اسميه الأول والثانى إلى حرفيهما الأولين على الطريقة الغربية» !! وتجد آخرين لايفعلون كالسيد نور الدين فيفصحون عن أسمائهم التى تحملها ورقاتهم المتميزة، كتلك التى قدمها أشرف فتحى فى دراسته اللغوية الاجتماعية للكلمات المصرية القديمة فى اللغة العربية، ككلمة «طفل» التى تعنى «يتيما» بالمصرية القديمة، حيث يتابع الباحث العلاقة بين دلالتى اللفظين من منظور اجتماعى يبحث فى تعريف ظاهرة «اليتم» من خلال فقدان أى من الأبوين .

تأصيل للأمثال المصرية الشعبية

وهذا عبد الحميد يوسف يقدم ورقة عنوانها «كلمات قبطية فى اللهجة العامية المصرية» يؤصل فيها للأمثال المصرية الشعبية السائدة حتى يومنا هذا «مصر أم الدنيا واللى ينسى قديمه يتوه» وأسماء لأشخاص مصريين لازلنا نسمعها حتى يومنا هذا مثل باهور، وأبنوب، فضلا عن الأشهر القبطية التى لازال الفلاح المصرى يستخدمها فى حياته اليومية «توت وهاتور» الخ .

كما تجد بحثا عنوانه «خطابات إلى

الأصوات: دراسة مقارنة بين مصر القديمة والحديثة»، قدمه الباحث هشام الليثى مقارنا بين الخطابات التى يوجهها الأحياء فى أيامنا هذه الى الإمام الشافعى فى ضريحه، وتلك التى كان أجدادنا القدماء يبعثون بها إلى موتاهم، ولكنك تعجب أن هذه الأبحاث جميعها التى قدمها مصريون الى جانب زملائهم الأجانب، لم يلق واحد منها باللغة العربية، وإنما بالانجليزية أو الفرنسية، وفى بعض الأحيان بالألمانية، والحقيقة أنى أشفقت كثيرا على باحثة مصرية تقوم بالتدريس فى إحدى جامعاتنا، ـ ولا داعى لذكر اسمها ـ كانت تقدم بحثا عن نشأة طقس «حتحور» «إلهة الخصوبة» فى الديانة المصرية القديمة بلغة ألمانية مضعضعة، فعلام كل هذا العناء وكان بمقدورها أن تقدم ورقتها بلغتها العربية، بينما تقرأ ترجمتها باللغات الأجنبية ليستمع إليها ضيوفنا الأجانب، كل بلغته من خلال سماعات خاصة؟! على أية حال، سأتعرض لهذه القضية فى ختام هذا المقال.

دراسة فى الاختلافات الأنثروبولوجية

أما البحث الذى شد اهتمامى بقوة، فهو ذلك الذى قدمته الدكتورة عزة محمد سرى الدين، الباحثة فى قسم الوراثة البشرية، فرع الأنثروبولوجيا الفيزيقية بالمجلس القومى للبحوث، وموضوعه «الاختلافات الأنثروبولوجية بين العمال «الذين شيدوا الأهرام» وكبار الموظفين فى المملكة القديمة فى الجيزة»، وهو تلخيص ومتابعة لبحث مقارن فى الهياكل العظمية لكل من العاملين فى بناء الأهرامات بسواعدهم، ومن أشرفوا على البناء من «النبلاء»، كانت قد تقدمت به الباحثة لنيل درجة الدكتوراه فى الانثروبولوجيا الطبيعية من معهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة عام ١٩٩٥، تحت إشراف أستاذتها الدكتورة فوزية حلمى حسين، التى اقترحت عليها موضوع الدرس، وكانت خير موجهة لها فيه، والباحثة بهذه المناسبة ليست متخصصة فى المصريات القديمة بالمعنى اللغوى الفيلولوجى، وإنما هى طبيبة أسنان فى الأصل تخصصت فى البحث الأنثروبولوجى الطبيعى للبقايا البشرية القديمة، ولاسيما العظام والأسنان، تستنطقها ما كان يقوم به الأحياء آنذاك، وقد دفعنى اهتمامى ببحثها إلى الاتصال بها والاطلاع على رسالة الدكتوراه التى هى أساس هذه الورقة، وكانت قد قدمتها باللغة الانجليزية لجامعة القاهرة. فتأسيت غاية التأسى لأنها لم تكن باللغة العربية، اللغة الأم للباحثة، وليكن لها مخلص أو ملخصات بأكثر من لغة أجنبية، أما أن تكتب بالانجليزية لتخاطب عربا فى عقر دورهم فهو ما لا أفهمه ولا أجد له مبررا، وقد يرى البعض أن فى درس الظاهرة مناط البحث بلغة أجنبية غنية بإنتاج المعارف فى هذا التخصص مافيه تقوية للباحث الذى يتجشم عناء صياغة دراسته بلغة هى ليست لغته الأم مهما تمرس بها ولكنى أرى فى ذلك انتقاصا

من ثقتنا بأنفسنا على إنتاج المعرفة التخصصية الدقيقة، فلا مانع أبدا بل يتعين إجادة الاطلاع باللغات الأجنبية الغنية بالأبحاث المنشورة فى فرع التخصص، أما الإنتاج البحثى فلا يكون أصيلا فى ثقافته إلا فى الوعاء المفاهيمى للغة القومية، وقد أثبتت الباحثة أنها قادرة على الأداء البحثى المتميز ، ومن ثم على إنتاج المعرفة التخصصية، فلم لا تصيغها بلغتها القومية. وتلخصها أو يلخصها من شاء بأى لغة أجنبية، ليس فى هذا المطلب تحزب لدعوة قومية، وإن كان الطب يدرس - مثلا - فى سوريا بالعربية، ولازال يدرس عندنا بالانجليزية، بل أن بعض أطبائنا فى مصر لايؤلفون فى تخصصاتهم سوى بالانجليزية، وأحدهم دون على الغلاف الخلفى لكتاب له صدر بالعربية أنه يزهو بأن كتابه هذا ترجم الى الانجليزية ليدرس على طلبة كليات الطب «ليس فى انجلترا أو أمريكا» وإنما فى الجامعات المصرية !! وهذا طبيب آخر شغل طوال عمره يدرس الطب فى مصر القديمة، وإذ به ينشر خلاصة بحثه وجهده فى كتاب بالانجليزية عن الطب المصرى القديم لتطبعه الهيئة العامة للكتاب التابعة لوزارة الثقافة !!.

إدعاء غير صحيح

فإن يدعى مستشرق متحيز بأن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب أو صياغة المفاهيم العلمية الحديثة ، هو ما يجب التصدى لتفنيده بالوثائق والحجج الملموسة ، أما أن ينبأ سلوكنا - نحن أبناء العروبة - عما يدعم مثل هذه الإدعاءات العنصرية بإزائنا، بأن «نتحلى» بالتأليف باللغات الأجنبية ونحن نخاطب أنفسنا فى عقر دارنا فهو مالا أفهمه ولا قدرة لى على استيعابه. ولست أقول ذلك لأنى أخاصم اللغات الأجنبية فلى إنتاج بحثى منشور بست لغات أوربية أكتب وأحاضر فى مستوى النشر العلمى بثلاث منها، وأقرأ وأطلع بثلاث أخر غيرها، إنما حين أكتب بأى منها أوجه رسالتى إلى أصحاب تلك اللغة مناقشا قضاياهم الفكرية والثقافية وصورهم عن أنفسهم وعن سواهم من أصحاب الثقافات المغايرة. أما أن يكتب أحد منها إليهم بالعربية، فذلك لايكون إلا على سبيل تدريب المستعربين منهم على لغتنا القومية، وقد طالعت بنفسي خطابا باللغة العربية كان قد بعث به المستعرب الألمانى الشهير «ارنست فيشر» الذى كان عضوا مراسلا للمجمع اللغوى بالقاهرة، الى تلميذته المستعربة الشهيرة «أنيمارى شيمل» يشكو اليها فيه تخوفه من ضياع جهوده التى بذلها فى وضع معجم اللغة العربية القديمة بسبب ما أحدثته الحرب العالمية الثانية من دمار، وقد ثبت بعد الحرب أن مخاوف الأستاذ «فيشر» لم تكن فى محلها، وأن معجمه كان مصونا، فإن يكتب مستعرب غربى مولع بالعربية الي زميلة له خطابا باللغة العربية لايعنى أن هذه هى القاعدة فى الدراسات المهتمة بالعربية فى ألمانيا، إذ أنها لاتدرس إلا بالألمانية، وقس على ذلك بسائر اللغات الأوربية الأخرى فى أوطانها .

عين الخبير.. معرض المصريات في بروكسل



عصر بناة الاهرام - معرض المتروبوليتان



الشغف بالفنون الفرعونية القديمة ليس مذهبا فنيا يذهب بذهاب زمانه

بقلم : د. محمد المهدي (*)

* أستاذ بكلية التربية ومستشار دار الآثار الاسلامية في الكويت



فازة في اللوفر صنعت ١٨٠٦ مستوحاة من رسوم (دينون) الفرعونية

«الولع بالمصريات ليس مدرسة غربية يخلق خلالها السابق الآتي، ويخلق الآتي اللاحق، بل انها تمثل بمصر القديمة في ابداعات مختلفة، استمرت خمسة قرون ومازالت قائمة، على اعتبار انها لا تمثل مذهبا فنيا يمكن الخروج عليه، ولكنها منبعا خصبا للاستلهام منه في كل عصر»

كانت هدية باريس لسكانها من فرنسيين وغيرهم في عيد الميلاد، هي فتح أبواب «اللوفر» الجديد للزوار مجانا من الساعة السادسة بعد الظهر الى الساعة العاشرة مساء، تتابعت صور الأخبار تسجل صفوفا متراصة طويلة أمام هرم «اللوفر» الشفاف للوصول الى قاعة الفرعونيات الجديدة. وقد تجاوز الرواد في اليوم الأول ٣٠٠٠٠ سجلت التحليلات المتأنية، والتعليقات السريعة، والهمسات الدافئة، أنها عودة الى الهوس بالمصريات .

مكتشف حجر رشيد

الهوس أو الولع بالمصريات . أو ما يمكن أن نسميه بالتمصر "EGYPTOMANIE" مصطلح مستقر في تاريخ الفن التشكيلي الغربي. يستعاد معه الزمن المفقود بين الصين والآخر .. وفي فرنسا خاصة، في عام ١٩٧٢ أعيد تشكيل واخراج أوبرا «عايدة» بمناسبة مائة عام على عرضها. وفي عام ١٩٩٠ قام احتفال (اعادة اكتشاف مصر). أعيد فيه الحديث عن (جان فرنسوا شمبليون) قارىء حجر رشيد ، ومكتشف الأبجدية المصرية القديمة، بمناسبة مرور ٢٠٠ عام على ميلاده. وأقام معهد العالم العربي في باريس معرض (مصر .. مصر) . وجرى عام ١٩٩٨ استعادة ذكرى الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨) ، وأهم حدث ثقافي أنتجته كتاب (وصف مصر) . الموسوعة المعرفية المهمة، وفي فبراير عام ١٩٩٩ جعل (قصر الفنون الجميلة) في بروكسل عين الكاتب المصري شعارا لمعرضها حول الآثار الفرعونية تحت عنوان (عين الخبير) ومن سبتمبر إلى أكتوبر عام ١٩٩٩ أقام متحف (المتروبوليتان) للفن معرض (عصر بناة الاهرامات) احتفالا بالدولة القديمة من تاريخ مصر الفرعونية مع حلول الألفية الثالثة. وفي ليلة رأس السنة الجديدة والألفية الجديدة حولت عروض الأهرام في مصر الشفق بالمصريات الى بريق كوني. وأقيم - أبريل الماضي - في تورنتو بـ كندا معرض (عصر بناة الاهرامات) ويستمر خلال هذا الشهر ويضم نحو مائتي تحفة جمعت من ثلاثين متحفا .

وفى مجال الإصدارات صدر عن مكتبة الأسرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب) كتاب (مصر ولع فرنسى) لمؤلفه (روبير سوليه) جاءت صفحاته انطباعات حميمة لكاتب عاش وعشق مصر ، ولكنها لم تكن دراسة أكاديمية بالمعنى الدقيق لظاهرة (التمصر) فى العالم. لذلك ما يزال كتاب (التمصر فى الفن الغربى) (L'EGYPTOMANIE .DANS L'ART, OCCIDENTAL) لمؤلفه (جان مارسيل هامبير JEAN-MARCEL, HUMBERT) . أهم دراسة موثقة لظاهرة التمصر أو الشغف بالمصريات. يقع الكتاب فى ٣٣٦ صفحة من القطع الكبير والطباعة الفاخرة، ويضم ما يزيد على ٢٠٠ لوحة ملونة تتابع هذه الظاهرة زمانا على مدى خمسة قرون كاملة. من القرن ١٦ م والى الآن. وتتابعها مكانا فى مدن أوربية وأمريكية عديدة. وتتابعها تحفا ساحرة تتداح من أدوات الزينة الى الأزياء، ومن المنحوتات واللوحات الى الديكور الداخلى والاثاث، ومن الواجهات الى العمارة والساحات، ومن فنون الأوبرا والباليه الى السينما والاعلان .

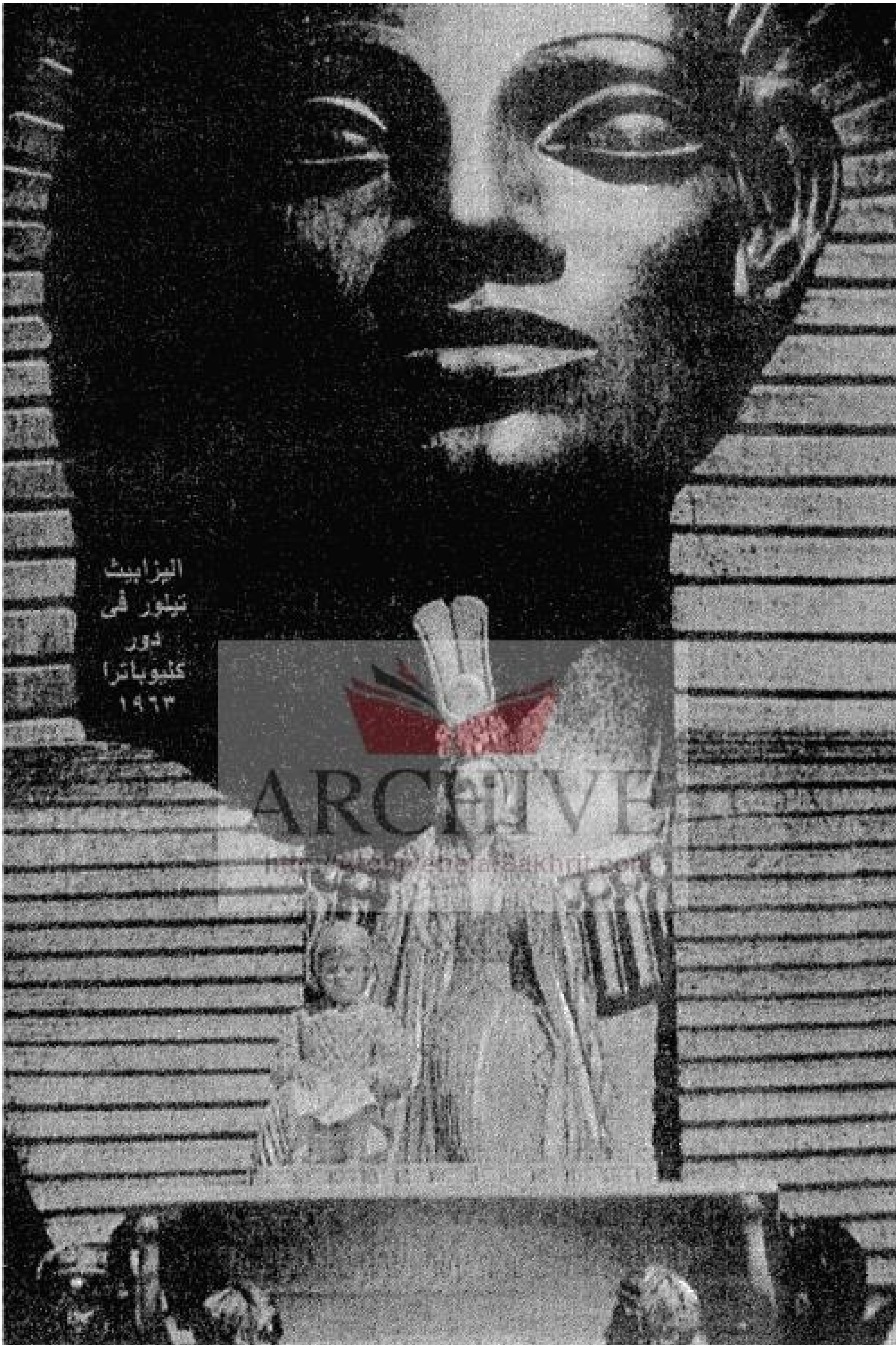
من انطوانيت الى ثوار فرنسا

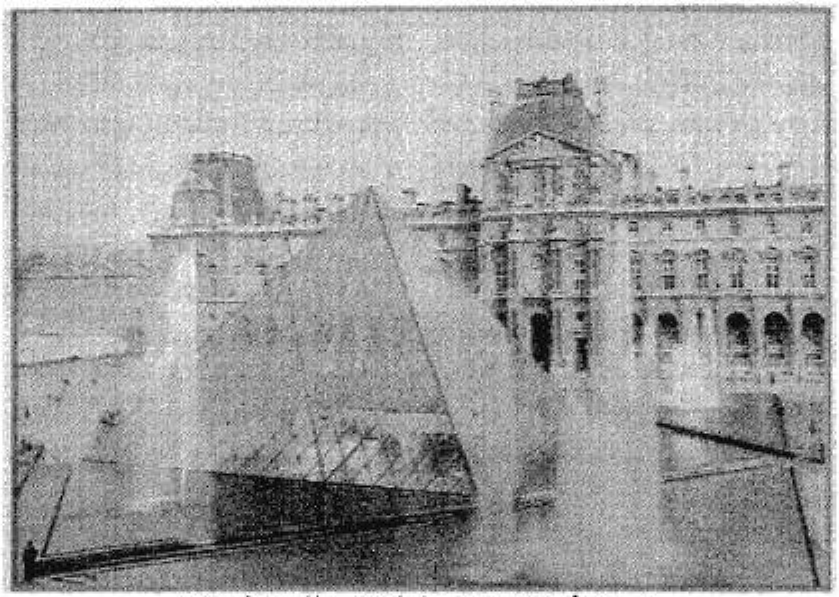
لم يكن (التمصر) أو الشغف بالمصريات موضة عابرة. كان ومازال تيارا عاما للأفكار مدفوعا بقوة كبيرة. اذا توقفنا معه قبيل الثورة الفرنسية التى قامت ١٧٨٩ سنراه منتشرا فى قصور الملكية الفرنسية. نماذج لأبى الهول، ديكورات داخلية تستخدم بشكل واضح عناصر مصرية. أجنحة مختلفة للملكة (مارى انطوانيت) تشكلت بأدوات مصرية.

لقد لعبت هذه الملكة دورا مهما فى نشر النموذج المصرى فى فرنسا خاصة، وفى أوربا بشكل عام. أضافت تماثيل «ابو الهول» لديكور غرفتها فى (فرساى)، وفى صالونها فى (فونتينبلو) . اختارت بنفسها بين الموضوعات الفنية التى تزين عرشها قارة كبيرة من اللازورد قوائمها على شكل «ابو الهول» لتوضع فوق مدفئتها فى قصر «فرساى».

طلبت من الفنان (باتيست سينيه) عمل أثاث بقواعد لها طابع مصرى لقصورتها الخاصة فى قصر (سان كلو) . ونستطيع أن نشهد فى (فرساى) وفى (فونتينبلو) مقاعد تقترب من نفس النهج، ورسم لها الفنان (بوازو) تصميما لعصى مدفأة على شكل فرعونى. وأعجبها فطلبت منه نموذجا آخر لصالة ألعاب الملك فى (سان كلو) .

وحوت صالة البردى، وقاعة السجاد فى الفاتيكان نماذج ايطالية ذات طابع مصرى. ووصلت موجة (التمصر) الى انجلترا وألمانيا فى فترات متأخرة. ثم انتشرت فى أوربا. وعبرت الى الولايات المتحدة الامريكية. وعندما قامت الثورة الفرنسية اتخذت لنفسها نماذج مصرية


اليزابيث
تيلور في
دور
كليوباترا
١٩٦٣



هرم اللوفر الكبير من عمل اليابانى (ليومنج) ١٩٨٩



ديكور (الناى السحرى) لموزار فى عرض قدم عام ١٨٩٣ (ميونيخ)

ولكن بما يتفق والاتجاهات الثورية الجديدة، وبما يوحى بالحرية وتحطيم الأغلال الملكية والاقطاعية. وما يتفق وفكرة انصاف الشعوب، واحترام الحضارات الأخرى وعلى رأسها الحضارة المصرية .

ليس مجرد هوس

ولا يجب أن نطلق مصطلح (التمصر) أو الهوس بالمصريات على كل ما يتعلق بمصر.. لوحة تقدم منظرا من مصر.. نخيل، أو خيمة فى الصحراء، لقد سيطرت هذه النماذج على معظم الاستشراق الفنى وما عرف بالاكزوتيزم -EXOTIS ME†أى البحث عن كل ماهو غريب أو شاذ أو غير مألوف للحضارة الغربية .

وليس (التمصر) أيضا مجرد رحلة الى مصر متشربة بأشياء قديمة، مشحونة أو مستعرضة لقالب من الفضول لكل ماهو مصرى . وليس (التمصر) أيضا هو مجرد استعارة من أنواع مصرية وقد شاع ذلك فى القرن التاسع عشر . أو خلق بعض التصميمات الاستعراضية الشكلية كعمارة محطة محافظة (الجيزة) ، أو مدخل حديقة الحيوان، أو بعض الفيلات التى أقيمت خارج القاهرة .

يقول جان مارسيل هامبير : «التمصر هو وعاء للرموز ، ولا يجب ان نعتقد أن هذه الرموز القديمة يجب أن ترتبط بقدر ما تستطيع بأشكال تعادلها. الأمر يتعلق بالعكس، أنها رموز جديدة تلبست هذه الأشكال على طول الخيط الذى يربط القرون باستحواذ محرك للأذواق والأفكار، مقدرين أن كل عصر كانت له أشكاله المصرية المختارة من قبل فنانيه وعن وعى، ولهدف واضح الخصوصية».

كانت هذه العصور تعيد خلق أسرار بلد أسىء فهمه، وتكريما لحضارة وأيضا لكتابة كانت لفترة تثير الفضول. والحقت هذه الأسرار أحيانا بالماسونية التى أدعت أنها المحرك لحملة نابليون على مصر ، وبالغت فى الادعاء فصورت نابليون نفسه أسطورة من صنعها.

التمصر قام على حقيقة ركائزها ثلاث:

< المنابع المتعلقة بالآثار والفنون المصرية .

< الذوق العام الذى يميل عادة ناحية التجديد.

< الرمزية المتفردة التى حملتها ظاهرة التمصر .

وبصورة موازية كان (التمصر) أيضا تعبيرا عن أسلوب مصرى جديد، بعث للفن المصرى القديم مع اعادة استخدامه فى اطار جديد. أى المداخلة بين طاقات الابداع القديمة مع طاقات الابداع الحديثة، بما يولد تمصرا داخليا عناصره متشابهة وغير متشابهة فى آن، وبأشكال متنوعة، ولعل أبرز التجارب الناجحة فى هذا الاطار ما أبدعه الفنان المصرى الكبير محمود مختار .

ويقول هامبير «إن التمصر أبعد ما

يكون عن مجرد الهوس بالمصريات والمصطلح الانجليزى EGYPTIAN REVIVAL في هذا المجال يبدو هو الاكثر ايحاء ، لأنه لايكفى بالطبع نقل الأشكال المصرية القديمة، بل يجب على الفنان أن يعيد خلق هذه الأشكال فى حساسية نقية رابطا إياها مع عصره حتى تعيد اعطاء مظهر الحياة من خلال أداء وظيفة جديدة رغم انتظامها على النسق المصرى الأصلى» .

والى الآن تقدر عودة (التمصر) الى بداية القرن التاسع عشر ، فقد بدأت فى فرنسا تحت عنوان (عودة مصر RE-TOUR, D'EGYPTE) وهو شعار استخدم دائما لصنع ديكورات على النسق المصرى ، بل والى وقت متأخر عن ذلك، ولا يعرف مؤرخو الفن كيفية تصنيف هذا الشكل الخاص الذى مزج دائما بين عدة أساليب، حيث أرفقوه بمفاهيم متسعة مثل الكلاسيكية الجديدة أو الانتقائية، وهنا تشابهت ظاهرة (التمصر) مع أشكال أخرى من حيث المنطلق، كالاستعارة من الاغريق، أو الرومان، أو الأتروسيكين. أو الصين أو اليابان.

رفقة الرومانسية والاستشراق

ظاهرة (التمصر) كانت بالطبع واحدة من المشاركات في العديد من التيارات الغربية، لكن كانت لها أيضا حقيقتها الخاصة بمستوى كل التيارات مع تقدير خاص لجوهرها الأصيل ، صاحب حضورها على مر العصور .

وقد يثير الدهشة أن هذا المصطلح لم يأخذ حقه فى مجال الاستشهاد به فيما عدا ما يرد فى تاريخ الفن .

لقد ازدحم القرن التاسع عشر بالعديد من المذاهب الفنية التشكيلية ، واتصف منتصفه بانقلاب هام فى الرؤية الجمالية الغربية . لقد خرجت لأول مرة من التصنيف الكلاسيكى الذى يتمثل بالواقع فى صورة مثالية أو واقعية ، ودخلت فى إطار جديد نتيجة تمرد الفنان الغربى على نظرية (التمثل) واكتشافه نظرية الخلق الخاص برؤيته البصرية والبصيرية . جاء ذلك ثمرة للحوار الحضارى والتشكيلى مع الحضارات الأخرى ، وخاصة الشرقية المطلة على الغرب .

ومن بعد الرومانسية التى ارتبطت شكلا بالشرق، جاءت الواقعية الحادة ، ومنهما خرج الاستشراق الفنى بفرعيه ، أما الاستلهام من الشكل ، وإما النقل المباشر. ولم تتم قراءة بنية الفكر الشرقى بشكل عام تشكيليا إلا فى أواخر القرن الـ ١٩ م.

ونسأل لماذا استمر (التمصر) أو الشغف بالمصريات يؤكد ذاته ، ولم يكن ريحا مذهبية عابرة كالمدارس التشكيلية التى ازدحم بها القرن الـ ١٩ ؟.

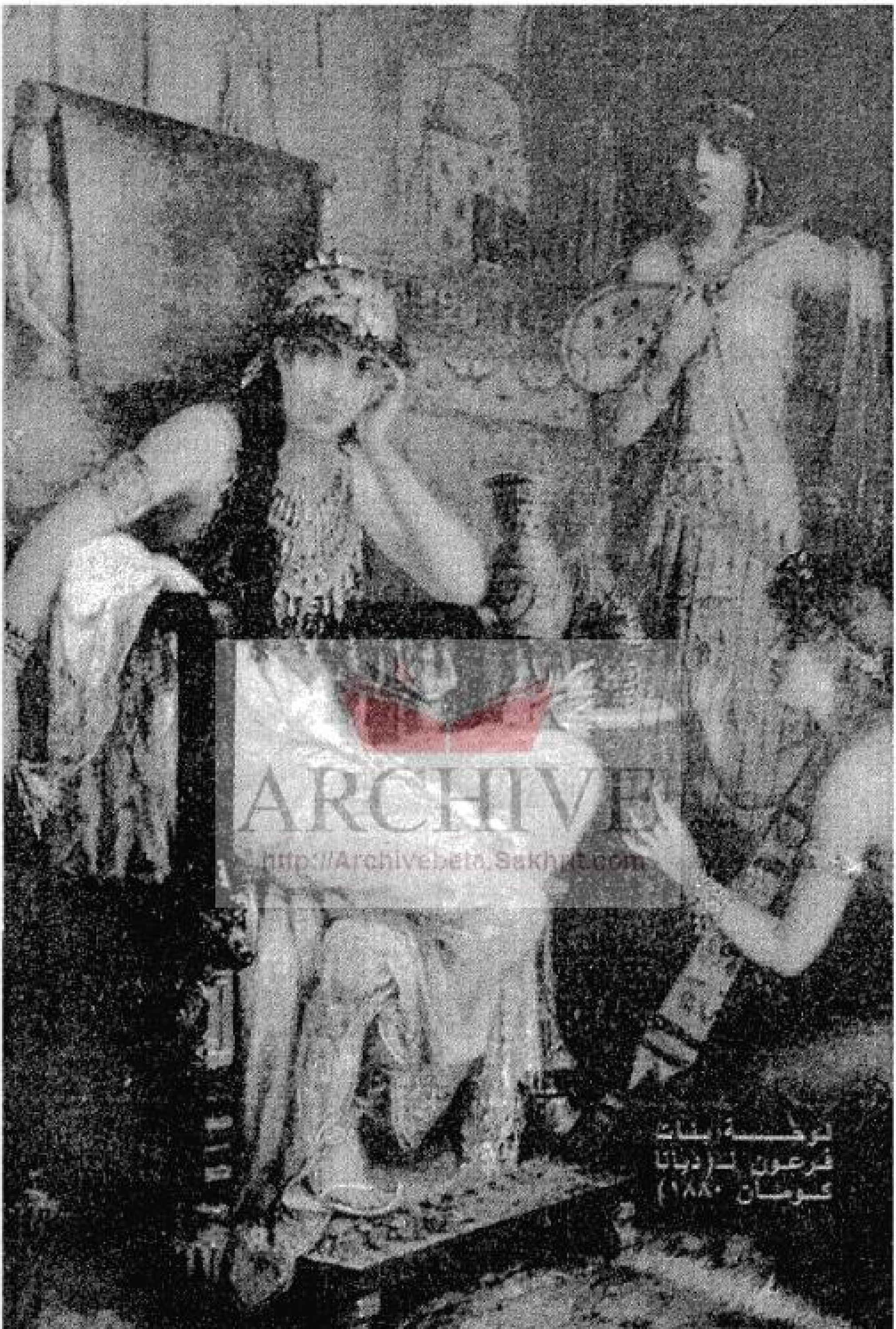
(التمصر) ليس مدرسة غربية بحيث يخلق السابق الآتى ، ويخلق الآتى اللاحق. إنه تمثل بمصر القديمة فى إبداعات



لوحة السوق لجوجان .. مستوحاة من الرسوم الجانبية الفرعونية



مدفأة حجرة مارى انطوانيت فى فرساى ١٧٨٦


لوحة بنات
فرعون لـ(ديانا
كومان ١٨٨٠)

عديدة استمرت خمسة قرون ومازالت قائمة الى الآن . على اعتبار أن هذه الحضارة لا تمثل مذهبا فنيا عرضة للتمرد عليه مع التطور الجديد ، ولكنها منبعا خصبا صالحا للاستلهام منه في كل عصر حسب تطور هذا العصر، أو حسب قالبه الخاص.

تساؤلات

دعوة العودة للمصريات تعيد تساؤلات من بينها .. هل من الممكن إعادة أركان حضارة سابقة ، أم أن الرينسانس RENAISSANCE أي إعادة الميلاد خرافة ؟..

في عام ١٩٨٣ عند افتتاح متحف الفن الاسلامي في الكويت (دار الآثار الاسلامية) نقلت لمصممه المعماري والأثري الكبير (ميشيل ايكوشار) ان بعض الزوار يعيبون خلو البناء من طابع معماري اسلامي، فاندهش وقال :

..إن ذلك يعني أن أهل زماننا قد نضب معينهم ، ولم يبق لهم الا النقل من القديم .

ومعه حق ، فهناك فارق بين استنساخ النسيج، وبين اتصاله بخيوط وألوان زمن جديد.

دعوة الشغف بالمصريات يثير قضية أكثر حدة . هي المقابلة التي نضطر لها دائما بين موقفنا من فنون حضاراتنا القديمة، وموقف - لا أقول الغرب - ولكن الثقافة العالمية منها .

ينقل لنا كتاب (وصف مصر) هذه الصورة .

«في عام ١٧٩٩م أحضر الفنان (ريجو) عضو المجمع العلمي المصري أثناء حملة نابليون على مصر الى مرسمه نوبيا ليرسمه بعد مفاوضات عنيفة . حضر للمرسم في حراسة ١٢ من إخوانه . وكان كلما انتهى الفنان من رسم جزء من الوجه ، كان النوبي يشير إليه ويقول .. طيب .. وعندما شرع في وضع الألوان ذعر المسكين وهرول الى الشارع صارخا ، لقد نجاه المولى من منزل ينزع الملامح والرؤوس » .

صورة قد ترسم على الوجوه الآن ابتسامة ساخرة عن ذاك الزمان ، ولكنها تستبطن مرارة ما يجري في زماننا . فإذا عذرنا عامة الناس لتصوراتهم الساذجة قديما، فكيف نعذر في زماننا طبقة متعلمة، وربما مثقفة تبدأ بالدعوة لتحريم التصوير، وتنتهي بالمطالبة بضرورة دفن المومياوات ، وتدمير متاحفها ، واعتبار عودة (التمصر) كفرا .

ويحدثنا تاريخ الفن أن التصوير ازدهر في القرن الثامن الميلادي في العصر الأموي، ولم يجد أهله حرجا من التعامل مع التصوير البيزنطي أو الروماني، بينما كان (ليو الايزوري) الامبراطور البيزنطي في زمان تدهور دولته يحرم التصوير، فقد لاذ الشباب ركونا للخرافة بالاديرة هروبا من الدفاع عن دولتهم ، واكتفوا بالايقونات المصورة أملا في راحة أبدية .

هل رددنا لزمن أسوأ ؟.

لزمن قلعة (الموت) التي اخرجت فرقة الحشاشين كان صاحبها الحسن الصباح يدعي قدرته على ادخال اتباعه الجنة. فبعد أن (يسطلهم) يدخلهم حديقة الغناء، وقبل أن يفيقوا يخرجهم منها فيصيروا ادوات تسعد بالاوامر الانتحارية، والشهادة الدعاة، والجنة الموعودة.

الوادى الجديد

شعر: سليم الرافعى - لبنان

مسّ التراب بنوها فاستوى قمما   يشيّد الحلم من قد شيّد الهرما
من التراب المندّى صاغ أنية   يسقى ملائكة أو يرتجى حرما
هل السكارى على النيل الذى طفحت   كئوسه.. قدّسوا الّدن الذى اضطرما؟
يا أيها الغد كن ماء وكن حجرا   يا أيها الشعب كن روحا وكن علما
مسربل أنت بالصحراء مضطلع   باللا نهائى .. مهما راع وانبهما
ماذا وراء المعالى من مخبّأة   يا أيها الوعد.. هل مازلت محتشما؟
عزائم ومروءات هياكلها   تعانق السرمدى المنتشى عظما
واد يحلق بالنهر الذى اكتتبت   أمواجه فى السماوات العلى كلما
واد.. ووادٍ .. همها نهران فى فلك   جرى بزوبعة الإلهام مقتحما
لن صحارى على أكتافها اضطجعت   وعود مستقبل قد لاح مبتسما؟
مبارك أيها الوعد العظيم اذا   بلغت واحة حلم طالما ارتسما
إنى أشم نسيم الزهر منتشرا   تنسّق الزهر فى حقلين وانتظما
إنى أرى فوق ألواح منضدة   مداخن الغد والانسان قد كرما
منْ الصحارى هى الآمال راقدة   مبارك من سقى صحراءنا ديما
غدا يقولون واديها الجديد سقى   عظام مجد وأحيا تلكم الرمما
حسنيُّها العبقرى اختار منزلة   فى الخالدين وجارى العصر والأمما
بالواديين نرى الأهرام مطلقة   من العقال تجوب الصخر والسدما
تشتق من تربة الوادى أخا حدثا   كم غاص فى الوعى واللاوعى متهما..
يا بانى الشرق. عز الشرق فى مدن   تبنى .. وعزّ حكيم الرأى إن حكما





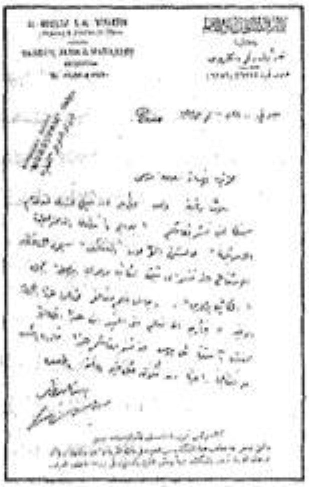



أحمد لطفى السيد


العقاد


المازنى


عبد الرحمن صدقى









محمد حسين هيكل باشا — سليمان حزين — سلامة موسى

طه حسين ومجلة الكاتب المصري

بقلم : د. عبد اللطيف عبد الحليم

سفر نفيس ، في حقبة ناهضة ثقافيا، رغم سوانح الأفول السياسي التي كانت تلوح في الأفق ، منذرة ومتوعدة ، يناهضها الناس ، متطلعين إلي بشائر التحول ، وصامدين - بفضل النهضة الثقافية - وصمودهم لا يقل روعة عن لحظات زهوهم ، كانت لحظات نهضة صامدة تمثلها أوفي تمثيل كوكبة لامعة ؛ حماستها حكمة ، وحكمتها حماسة بعد نضج السن واستحصاد الملكات ، تحمل في أصلابها عراقة التراث ونبالته ؛ وتشرئب إلي المدي اللاحب والأفق الرحب، وكأنها رأت أن تعوض الإنكسارات السياسية بكثير من الوهج المتزن المضيئ ، ثلة كريمة علي اختلاف منازعها ، وثقافاتها ، مرتئية أن الثقافة أصفي نورا، وأهدي سبيلا ، حين تشتجر نزعات السياسة ، وأهواء الحزبية الضيقة ، تحمل اعتزازا ربما لم يتسن نظيره للأجيال التالية مجمعة علي هدف كريم ، وطريق قاصد ؛ تمثلت في أحمد لطفي السيد ، والعقاد وطه حسين ، والزيات والمازني ، وشعراء أبوللو ، وهيكل باشا ، وإخوان هذا الطراز .

وكان هؤلاء - على تفاوت - قد قرت لهم فكرة النهضة بعد شرة الشباب وحدته، وإن لم تخل من النضال الذى لم تتخل عنه الأمة آنذاك، وكان طه حسين - كما كان كثير من رصفائه - يشتعل حماسة وتوقدا، يناجز ويصارع، واثقا شديد الثقة، تتناشه السهام فتزيده جلدا، يوقف - من قبل - عن التدريس فى الجامعة فلا يهن ولا يستخذى، وحين تقاعد سنة ١٩٤٤ بسبب مقاله «القلب المغلق» فلا يهادن؛ لأن طبيعته مجبولة على القلق وإثارته «على قلق كأن الريح تحتى»، كما يقول صديقه أبو الطيب.

فى تلك الأثناء يصدر مجلة «الكاتب المصرى» بعد انتهاء الحرب، منذ أكتوبر ١٩٤٥ حتى مايو ١٩٤٨. ولهذا قصة تروى: (نعتمد فى هذه الرواية على مقدمة د. عبدالعزيز شرف لمجلدات المجلة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب).

«فى سنة ١٩٤٥ تكونت شركة الكاتب المصرى للطبع والنشر والأدوات الكتابية، وهى شركة مساهمة مصرية، كان يمتلكها سبعة أشخاص من آل هرارى الذين كانوا من الأسر اليهودية فى مصر، ولم يأت اسم أحدهم فى أى تجمع صهيونى طوال وجودهم فى البلاد، وعهدت الشركة إلى الدكتور طه حسين الإشراف على نشاطها الثقافى حين قررت إنشاء دار للنشر ومجلة شهرية باسمها» (مقدمة د. شرف ص ٢٣).

تاريخ مصر القديم والحديث

وفى مستهل العدد الأول من المجلة «برنامج» يحدد خطتها، والهدف منها، وممهور بتوقيع «الكاتب المصرى» أو كما نقول الآن «المحرر»، وواضح أنه بقلم طه حسين. فيه سماته وأسلوبه يقول فى بعضه: وقد اتخذت هذه الدار من الكاتب المصرى القديم اسما لها وشعارا، وهذه المجلة تستمد برنامجها وخطتها وسيرتها من تاريخ مصر القديم والحديث ومن المهمة التى نهضت بها مصر منذ شاركت فى الحضارة الإنسانية العامة.

ثم أخذ البرنامج يرسم سبق مصر الثقافى، وهى من بلاد البحر الأبيض المتوسط، ذات صلات وشيجة بأمم الحضارة، ونهضت بمهمة التوسط بين الشرق والغرب فى شئون الثقافة والسياسة والاقتصاد، ومضى يرصد دورها القديم من أيام اليونان مستأنفة دورها مع دمشق وبغداد وقرطبة، وتمضى الآن بارزة الدور مع بلاد الشرق كله ومع بلاد الغرب كله.

وملموح فى هذه الكلمات تحديد موقع مصر حيث هى من بلدان البحر المتوسط كما حدده طه حسين فى «مستقبل الثقافة» وإن كان هنا يذكر إسهامها مع دمشق وبغداد وقرطبة المسلمة، وهو رأى يتسم بكثير من الاتزان، وتأخذ المجلة طابع طه حسين عامة من حيث الالتزام بالشدة

وأخذ النفس بالجد ، مطالبة القراء أن يلتزموا بما التزمت به المجلة ، وتبرز «الديباجة» أيضا موقف المجلة من الحرية التى تنعتها بالواسعة الكاملة السمحة فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ومن آثار الشرقيين والغربيين .

وهذا الأخذ بالجد طبع غالب على طه حسين إلا فيما حكاه عن نفسه وهو يكتب كتابه عن «المتنبى» ولعله كان يميل إلى المزاح لا الجد الوعر ، وإن كان المازنى قد شدد النكير عليه في هذه الرسالة .

وارتأى البرنامج أيضا أن من ثمار الحرية التى تلحد إليها عدم انحيازها لشعب دون شعب وفريق من العرب دون فريق . ولا تقيد نفسها إلا بحقوق مصر والأمم العربية فى الكرامة والعزة والحياة الصالحة .

خطة تنويرية

وقد برت المجلة بعهدها فجاءت أبوابها وفقا لخطتها التنويرية ، تذيع جواهر التراث ، وطمحت ببصرها إلى الثقافة العالمية ، بل إنها قد اتفقت مع طائفة من كبار الأدباء الأوربيين والأمريكيين - كما جاء فى صفحتها الثانية - على أن يوافوها بمقالات وقصص تكتب لها خاصة، بحيث تنشر لأول مرة باللغة العربية قبل نشرها بأية لغة أخرى ، فيكون قراء هذه المجلة أسبق الناس إلى الوقوف على ثمرات عقول هؤلاء الكتاب . ترى كم مجلة صنعت هذا الصنيع أو تصنع هذا الآن ؟

ولعبت المجلة دورا بارزا فى تقديم طائفة من شباب الشعراء والنقاد والمترجمين آنذاك ، غدا أكثرهم فيما بعد من شيوخ الجيل ، وإن كان بعضهم قد غير وجهته التى استهلها ، مثل عبدالقادر القط وسهير القلماوى حيث عرفهما القارئ شاعرين أولا ، وغدوا ناقدين ومؤرخين للأدب ، ولم يقف دور المجلة لدى الشعر والنقد ، بل عالجت موضوعات الساعة كالقنبلة الذرية ، والشهريات الثقافية البارزة وهى باب ثابت من أبواب المجلة ، ولأن الدار التى تصدر عنها دار نشر ، فقد نشرت بعض كتب التراث ، والكتب المترجمة كالبخلاء للجاحظ ، والعقيدة والشريعة لجولد تسهير ، وطعام الآلهة لويلز والمقامر لدستويفسكي والباب الضيق لأندريه جيد وبعض الروايات لسعيد العريان ، وبعض فصول روايات طه حسين، واحتوت المجلة أسماء لامعة أو لمعت فيما بعد مثل على أدهم وعبدالرحمن صدقى ، ومحمد عبدالله عنان وسليمان حزين وبشر فارس ولويس عوض ويحيى حقى ومحمود عزمى ، وإبراهيم نجا وعلى النجدى ناصف وحسين فوزى وسلامة موسى ، ومحمد كامل حسين ، ووداد سكاكينى ويحيى الخشاب وشكرى عياد ، وآخرين كثيرين .

وقد أحسنت هيئة الكتاب المصرية صنعا حين نشرت هذه المجلة وغيرها

مجموعة في مجلدات ، فقد بعد عهد الناس بها ، وأضحت مثل المخطوطات التى يعسر الوصول إليها ، وإذا تيسر الحصول عليها فإنما تكون فى الأغلب الأعم ناقصة مبتورة أو عبثت بها الأرضة ، أو الرطوبة أو عبثت يد الباحثين غير المسئولين أدبيا وأخلاقيا ، حيث كانت هذه اليد تمتد بالبتر للمقالات أو المواد المطلوبة ، قبل زمن التصوير ، وربما بعده أيضا وقد عاينت رهقا شديدا وأنا أعد بحثى عن المازنى الشاعر ، فكنت أقع على هذه الجرائم فى البلاغ والسياسة الأسبوعية والفجر الجديد وغيرها من الصحف والمجلات ، فإذا جاءت الهيئة لتنتشل البقية الباقية - وهى كثير - فإنما تسدى إلى هذا الجيل والتالى له يدا بيضاء ، حيث قارئ المجلد غير قارئ الدورية ، وهى أيضا تقفنا على التاريخ المنسى لكثير من كتابنا الذين لم يسعفهم الزمن بجمع ما تناثر من تراثهم ، أو أغفلوه عمدا فلم يجمعوه ، وأذكر هنا أن الصديق العالم الجليل الدكتور محمد أبو الأنوار قد جمع طائفة صالحة من مقالات سحب النسيان ذيوله عليها منسوخة بقلمه أو بأقلام النساخ قبل زمن التصوير. وهى كذلك - أى الهيئة - تدلنا قاصدة أو غير قاصدة على طريقة الكتابة أنذاك ، وعلى ذوق الكتاب وذوق الناس أيضا الذين يوجه إليهم ما يكتب ، وعلى الرصانة الجادة التي يتناول بها الكتاب الفكرة والأداء ، وكلها فيما نعتقد فى صالح ذلك الجيل الذى خلف من بعده خلف أضاع تراثا كثيرا ، وافتقد همة تمتع بها سلفه الكريم ، ويكفي أن نعلم أن طائفة من كتابنا أنذاك كانت كتبهم مقالات ذاعت فى المجلات وفى الإذاعة ، يسمعوها حيث كان الجهد المبذول فيها كالجهد المبذول في الكتب المبسوطة ، بيد أن الأغلبية لم تجمع هذا المنثور أو أغفلته كما قلنا أنفا ، ومن ثم يكون فضل نشر المجلدات كاملة .

قضية تمويل المجلة

لكن لغطا أثير حول هذه المجلة ، وجهات تمويلها وقد رد عليه طه حسين فى أوانه ، وتتعلق القضية بتمويل آل مراری لها وهم من اليهود المصريين ، وهى شبهة واردة ، حيث توقفت المجلة سنة ١٩٤٨ سنة الهزيمة العربية النكراء في فلسطين ، وجاء رد طه حسين ساخرا جدا حين ذكر أنه يخدم الصهيونية لأنه أحيا الأدب العربى القديم وأشياء تتصل بعلوم القرآن الكريم ، وأرجع التهمة إلى المنافسة التجارية والضغينة السياسية والحسد البغيض ، وذكر أنه لم يقبل العمل إلا بعد أن استقصى وأحسن الاستقصاء ، وتبين أن الأمر لا يتصل ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد ، وتحدى أن يجد الناس فيها ما يخدم الصهيونية بل سيرون فيها خصومة عنيفة لها ، ودفاعا عن العرب في وطنهم فلسطين .

ويمكن ألا نعير طه حسين تصديقا

لقولته ، لانه يدافع عن نفسه ، لولا أننا لم نجد فى المجلة أى دليل لاتهام ، وقد دافع لويس عوض عن مقاصد طه حسين ولكنه تشكك فى نية أصحاب الدار بشكل غير مباشر (راجع ص ٦٢ من مقدمة د. شرف) .

ينبغى - فى رأينا التفرقة بين اليهودية والصهيونية حيث كان اليهود المصريون جزءا من نسيج المجتمع المصرى المتسامح دائما وفقا لطبيعته وتاريخه ، وكانوا يحظون بقدر هائل من الشهرة فى مجالات الاقتصاد والمال ، ومحلاتهم التجارية الكبرى لا تزال شاهد عيان على ذلك ، ولهم بلا ريب أثرهم فى النفاذ إلى الحياة السياسية شأن رجال المال دائما فى كل قطر وقبيل بصرف النظر عن الديانة ، وفى مجال الثقافة كان حاييم ناحوم عضوا بارزا فى أكبر مؤسسة علمية فى مصر (المجمع اللغوى) وحين مات رثاه العقاد العدو الأكبر للصهيونية فى العالم العربى كله ، ولو كانت هناك شبهة لأحجم العقاد حتى عن مجاملة يسيرة .

استشعار الخطر الصهيونى

وليس من الضرورى أن يكون كتاب المجلة - مع افتراض صدق التهمة - عارفين ببواطن الأمور حيث كانوا فى ذروة الوطنية والعروبة ، ولا يمكن أن تحوم حولهم أى ريبة ، وكان المصريون حتى ذلك التاريخ ١٩٤٨ لا يرون حرجا فى التعامل مع اليهود المصريين حيث كانوا أبناء وطن واحد ، وللعقاد رحلة إلى فلسطين فى ١٩٤٥ وكتب عنها مقالات مسهبة جمعت فى كتابه «حياة قلم» الصادر بعد وفاته ، وإن كانت له رسالة عن «رجعة أبى العلاء» صدرت ١٩٣٩ ، ذكر فيها على لسان المعرى رفضه لزيارة أرض أجلى عنها العرب ، ونود أن نصل من ذلك إلى أن الناس - وخاصة كبار الكتاب - كانوا يستشعرون الخطر الصهيونى قبل ١٩٤٨ ، وإن كانوا لسماحتهم يعاملون يهود مصر معاملة المواطنة ، كما نود أن نخلص من ذلك أن طه حسين ، وهو فى ذؤابة المثقفين المصريين كان يستشعر مثل هذا الخطر ، خلافا لما كان يراه عبدالمنعم شميس من أنه كتب منبها أستاذه طه حسين إلى خطر المجلة وارتباطها باليهود ، وأورد الأستاذ سامح كريم فى مقاله بالأهرام فى ١٩٨٨/١٢/٩ دفاعا جيدا وموضوعيا عن طه حسين ، ونذكر هنا أن شميس أراد الدفاع عن أستاذه فاتهمه بالغفلة على حين كان طه واعيا منذ الوهلة الأولى حين نشر فى مجلة الاثنين فى ١٩٤٥/١٠/٨ ، شهر صدور العدد الأول من المجلة دفاعا عن نفسه وعن المجلة ، ومعه كل الحق ، وختم أعدادها بقوله : والآن وقد انتهى عمر هذه المجلة فإن أعدادها بين أيدى القراء فهم لا يرون فيها إلا دفاعا عن مصر والعروبة .

كان طه حسين يدافع عن شبهات ، واتهامات تركن إلى سماع دون تحقق ، وهو ما يرفضه منهج طه حسين ويرفضه كل منهج قويم ، والمحك الذى لا يخطئ فى رأينا دراسة مادة المجلة وكلها تدفع تلك الظنة الباغية ، ولم يكن لليهود ما لهم الآن من شرة وطغيان ولم يكن هناك ما يدفع شاعرا مثل ابن البواب الذى يرى أن الفلك قد تهود فى أيامه : أيام الدولة الفاطمية «تهودوا قد تهود الفلك» ، لأن لمصر عاصما لا يهوى بها ذلك المهوى الوخيم ، وإن كانت الثقة المفرطة سلاحا ذا حدين كما يقولون .

ولعل الحوم حول الشبهات هو الذى أرث هذه التهمة ، لكن طه حسين - وهو غير ظنين عندنا - لا يمكن أن تنتزعه من فطرته التى ذرأه الله عليها ، فهو لا ينكص حين لا يكون هناك مفر من الإقدام ، وهو رجل حديد القلب ، جرئ اللسان ، عظيم التحدى فاتدم غير هياب ولا وجل ، ما دامت له رسالة تنويرية يؤمن بها ، ويقود إليها الناس ، وإذا استقام له هذا الهدف فلا تلبث له تجاه الظنون والتهم ، بل يدوسها دوسا وصولا إلى غايته ، ما تخلف وما نكص .

صديقان لدودان

غير أننا نتساءل : لماذا لم يستكتب طه حسين العقاد فى أى عدد من أعداد مجلته، ورسالتهما مجددة ورائدة ، وهو يدرى أن العقاد لن يقبل الكتابة لديه دون دعوة منه حارة وصادقة ، وهما صديقان لدودان - إن صح النعت - ولهما مجاملات شهدها التاريخ الأدبى ، مع أن بعض تلاميذه كانوا يكتبون بها مثل على أدهم وعبدالرحمن صدقى ، ومحمد غلاب - كان الأخير عدوه منذ مجلة النهضة الفكرية ١٩٣١ بعد خروج العقاد من السجن ، ثم فاء إليه ودودا ومعجبا به - ؟

نود أن نستخلص من ذلك بعض الرؤى المحتملة: لعل العقاد لم يشأ أن تثور حوله شبهة ، مع أنه رثى حاييم ناحوم ، أو لعل طه دعاه للكتابة واعتذر العقاد ، أو لعل دعوة لم توجه إليه أصلا ، غير أن العقاد لو قرت لديه عقيدة بأن المجلة متهمة لنصح - على الأقل مريديه ألا يكتبوا درءا لهذه الشبهة أما وأنه لم يصنع ، فإن موقف العقاد من أصدقائه الكاتبين فى المجلة يعد دفاعا عن طه حسين وعن مجلته .

ولعلنا حين نستعرض بعض المجلات المشبوهة فى بعض البلدان ، وموقف بعض الجهات منها مثل مجلة «شعر» و«حوار» ، والمجلات الصفراء المعاصرة ، ومساعى الإبراشى باشا فى عالم الأدب لرأينا أننا نطلب من طه حسين أن يكون من الملائكة المقربين ، فى حين أن مناوئيه فى هذا من الشياطين الأرذلين حين يتكففون موائد اليهود الأمريكيين ، أو الأمريكيين الصهيونيين ، ولا الضالين آمين !!.

جـزء خاص



رشدى سعيد
العالم والمفكر

الدكتور رشدى سعيد شاب يبلغ هذا الشهر الثمانين من عمره ، تزخر شخصيته بالحيوية والنشاط واللماحية ، يتابع بدقة متناهية ما يدور على أرض مصر ، يجمع فى كتاباته بين أحلام الشاعر ورقة العالم ، يغوص العالم الجيولوجى فى طبقات الأرض ومكوناتها وطبقات ومكونات المجتمع المصرى ، وهو نموذج فريد للجمع بين الفكر والعمل، مارس العمل السياسى والتنفيذى ، فتولى رئاسة هيئة المساحة الجيولوجية فى أدق الظروف ، وأصبح عضوا فى المجلس النيابى ثلاث دورات متتالية وتولى رئاسة لجنة العلاقات الخارجية والأمن القومى ، لم يكتف بدوره كعالم وأبى إلا أن يقوم بدوره كاملا فى الحياة العامة .

يقدم نموذجاً يحتذى للأجيال الشابة، ويضع كل خبرته فى كتبه، «النيل» و«جيولوجية مصر» و«الواقع المصرى بين الوهم والحقيقة» ، فضلا عن تقديم خبرته الجليلة فى كتابه «رحلة عمر» الذى سيصدر عن دار الهلال .

يكتب بلغة عربية جميلة ، لا زيادة فيها ولا نقصان ، وكتابته تعد نموذجاً للمزج بين العلم والأدب .

ولا يمكن لمن يقدم د. رشدى سعيد بقلم أصدقائه وعارفى فضله إلا أن يتذكر قرينته الدكتورة وداد أستاذة الفلسفة التى مازالت تحافظ على لهجتها الصعيدية ، بشخصيتها الجميلة ، والتى كانت خير عون له .

تحية حب وتقدير، أطال الله عمره ، وأمتعنا بكتاباته وخبرته الواسعة .

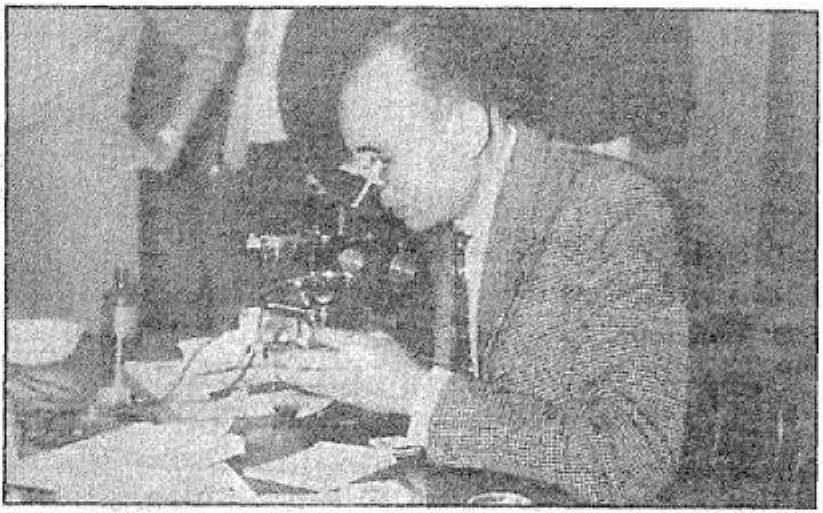


رشدى سعيد .. جزء خاص

الچيولوچى.. المدرس
العالم.. السياسى

بقلم : د. محمد البهى عيسوى

فى يناير عام ١٩٥٢ كانت مجموعة من شباب قسم الجيولوجيا - كلية علوم جامعة القاهرة تقف أمام المبنى الرئيسى للكلية فى استراحة قصيرة بين المحاضرات - وظهر شاب طويل رفيع القوام يرتدى زيا غير تقليدى بين الجامعيين . كان يلبس رباط عنق يعرف باسم البابيون ويدخن غليونا - وكان تفصيل الجاكت غريبا عن المصريين آنذاك - فكانت بعض جيوبه مغطاه - والجيب فتحته غير أفقية بل مائلة بعض الشىء - وتوقف هذا الغريب بيننا وسكت عنا الكلام - وكان أول ما قاله القادم الغريب «الجو بارد شوية النهاردة» . ولم نعقب بل تساءلنا من هذا؟ وأجابنا بعض الزملاء القدامى هذا هو د. رشدى سعيد وصل حديثا من أمريكا حاصلا على الدكتوراه فى فرع جديد من العلوم الجيولوجية اسمه «الميكروباليتنتولوجى» ومن جامعة هارفارد . وسرت بين مجموعة الشباب الواقف رعشة ورهبة من هذا القادم الجديد من أرقى جامعات العالم، وإن كنا قد امتلأنا فخرا بأن يكون بالكلية مثل هذا النمط من العلماء.



د. رشدى سعيد في معمل كلية العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٥١

كنت حينذاك بالسنة الأولى بقسم الجيولوجيا - ولم يكن د. سعيد من القائمين على تدريس أحد مواد هذه السنة أو حتى السنة الثانية. وخلال هاتين السنتين اقتربنا من د. سعيد لنشاطه المتعدد الأوجه في اللجان الرياضية وخاصة في لعبة كرة السلة حيث سمح له بنيانه الطويل حوالى ١٨٠ سم - أن يجيد هذه اللعبة. ودرجت الكلية آنذاك على قيام يوم رياضي .. كان من أحد أركانه أن يشترك الأساتذة مع الطلبة في بعض الأنشطة - وأن يكون للأساتذة فريق خاص بهم ينافس فريق الطلبة. وفي إحدى المرات كان رشدى سعيد حكما بين الأساتذة والطلبة في مباراة كرة السلة. ولاحظ تفوق الطلبة كثيرا وبفارق كبير على فريق الأساتذة - ومال رشدى سعيد ميلا كبيرا لمساندة الأساتذة - وكان مع كل صفارة ظالمة للحكم تتصاعد الاعتراضات والصيحات من جانب الطلبة بالملعب والآخرين الذين يشاهدون المباراة. وكان الحكم رشدى سعيد يمتص الاعتراضات بلباقة شديدة تتعالى بعدها ضحكات الجانبين واستحسانهم . وأسر رشدى سعيد قلوب الطلبة جميعا من خلال احتكاكاته المستمرة وزاد هذا الأسر عندما شكل في نهاية عام ١٩٥٣ ما يعرف باسم النادى الجيولوجي وانضم إليه أغلب طلبة قسم الجيولوجيا - وكان نشاطه رياضيا في المقام الأول وثقافيا في المقام الثاني، وأهم من هذا وذاك كانت اللقاءات

المستمرة بين الأساتذة والطلاب تذيب الحواجز والرهبة بين هؤلاء وهؤلاء - كانت تلك هى الروح الجامعية التى كنا نسمع عنها ونقرأ أخبارها . كان رشدى سعيد ومعه المرحوم د. يوسف شوقى مصطفى خريج هارفارد أيضا - يقودان هذه الحركة الانفتاحية بحب واخلاص أدت إلى تنمية ملكات شباب صغير السن ووضعتهم على أعتاب أول مراحل الرجولة المبكرة .

الاهتمام بالعلم والثقافة

دخل علينا د. رشدى سعيد محاضرات السنة الثالثة مدرسا لعلم الحفريات وكانت المحاضرات أشبه ما تكون بندوات ثقافية وليست محاضرات متخصصة. كان التخصص العلمي يحتل أقل من نصف المحاضرة قليلا - وكانت الثقافة العامة تأخذ بقية الساعة . وكنا نأمل ألا تنتهى المحاضرة فالحديث أكثر من شيق والروايات مثيرة ومبهرة - منها على سبيل المثال مطب أو حفرة تحت نفق العباسية. وكم عدد السيارات التى تعبر هذا النفق يوميا وكم عدد الأعطال التى تتعرض لها السيارات وما هى تكلفة الاصلاح؟ - ثم كم يتكلف إصلاح الحفرة؟ - وبالمقارنة سنجد أن مصر ستستفيد كثيرا لو تم اصلاح هذه الحفرة. تعلمنا أيضا أن سيناء صحراء صنعها الإنسان فهي ليست صحراء أبداً بالمقاييس العلمية وما يقال عن أنها سهول مكشوفة ما هو إلا فرية تدل على جهل شديد - بل أن الأجزاء الوسطى والجنوبية من سيناء تشكل طبوغرافيا بعضا من أعقد الأماكن الجبلية فى العالم قاطبة. ثم انتقلنا إلى السنة الرابعة والأخيرة حيث درس لنا د. رشدى سعيد مادة الجيومورفولوجيا - وهى مادة كانت تدرس لأول مرة فى كلية العلوم - وظل الحال كما هو عليه : خروج عن المألوف للعلم نصف ساعة وللثقافة العامة نصف ساعة. وأعطته مادة الجيومورفولوجيا بعداً أكبر من علم الحفريات فى سرد ما يعرف وما يقرأ عنه - ثم كانت هذه المادة تحتاج إلى زيارات حقلية - وفيما بين أبو رواش ووادى حوف وطريق القاهرة - السويس حيث تكثر الأنماط الجبلية التى يصفها د. رشدى - دارت حوارات ومناقشات علمية عن أصل هذا الاصطلاح ومعناه . ففى أبو رواش مثلا - علمنا أن ما يطلق عليه اسم النصف

مسرح Amphitheater مشتق من ملاعب الرومان عندما كان الأباطرة يتمتعون بقسوة وبغير ضمير بمشاهدة المسيحيين وهم يصارعون الحيوانات المتوحشة.

وعندما تخرجت عام ١٩٥٥ لم أكن أستطيع أن أقطع الصلة بين هذا الرجل الذي علمني كثيرا بالجامعة وبيني - فكنت زائرا دائما له في ٢ شارع المساحة بالدقي ثم في ٢٢ شارع ٦ المعادي عندما انتقل إلى هناك وساعدتني ظروف عملي بالمساحة الجيولوجية على استكمال أحاديثنا الجيولوجية ومتابعة مستحدثات هذا العلم.

واستمريت زائرا له حتى اتيحت الفرصة أن يشرف على رسالتي الماجستير والدكتوراه - وتم منحي الدرجتين في وقت قياسي حوالي خمس سنوات من جامعة القاهرة . وكنت أول طالب دكتوراه مع د. رشدي سعيد.

وفي عام ١٩٦٢ عندما بدأت الحكومة المصرية في انشاء السد العالي - كانت هناك عمليات انقاذ لآثار النوبة الظاهرة - تلتها أو تمت معها عمليات أخرى للبحث عن حضارات الإنسان في عصور ما قبل التاريخ . وساهم د. رشدي سعيد بجهد عظيم في هذه الدراسات وفي تعظيم دور البحث الجيولوجي المصري مع البعثات الأجنبية التي جاءت لمنطقة النوبة خصيصا للعمل في هذا المجال. كانت سنة ١٩٦٢ من السنوات القليلة بمصر التي شهدت تطوراً خطيراً في حياة رشدي سعيد العلمية . فبعد هذا الانخراط الجيولوجي في علوم حضارات الإنسان في ما قبل التاريخ - نشر د. رشدي سعيد في السنة نفسها كتابه الجامع الموثق بالخرائط والتفاصيل الجيولوجية عن مصر . وجاء الكتاب الذي طبعته دار السفير في هولندا في ٣٧٧ صفحة باللغة الإنجليزية تحفة فريدة علمية موسوعية وقف على قدم المساواة وان لم يفق بكثير وكثير جداً - أي مرجع علمي آخر عن أقطار العالم الغربية سواء في أوروبا أو أمريكا. كانت المكتبة المصرية العلمية عطشى لمثل هذا المرجع المفصل، وتلقفه الكثيرون الذين يعملون في مجالات العلوم الجيولوجية وأصبح في خلال فترة وجيزة لا تتعدى السنة الواحدة مرجعا أساسيا في هذه العلوم. ونال د. رشدي سعيد عن هذا الكتاب جائزة الدولة التشجيعية من يد المرحوم الرئيس جمال عبدالناصر ثم وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى. وعندما أهداني د. رشدي هذا الكتاب وكتب بخط يده إلى الزميل العزيز.... شعرت بفخر ونشوة شديدتين لأنني اقتربت من أحد علماء هذا القرن . ثم عندما قرأت داخل الكتاب أنه أشار لي وذكرني بالاسم في بعض المناطق التي عملت بها ، كانت الفرحة أكبر والفخر أعم.

البحث عن حضارات الإنسان

اشتركت مع د. رشدي سعيد في كل البعثات التي قامت بالبحث والدراسة عن حضارات الإنسان القديم - وكان هذا التحول الخطير عن طريق البحث الجيولوجي التقليدي مقدمة لكتاب د. رشدي سعيد الثاني عن جيولوجية نهر النيل الذي نشرته دار سبرنجر فيرلاج بألمانيا عام ١٩٨١. وبين الكتابين كانت هناك مئات الأبحاث المنشورة في مختلف فروع العلوم الجيولوجية وفي أكبر الدوريات العلمية العالمية والمحلية.

وفي عام ١٩٦٥ اختير د. رشدي سعيد عضوا في البرلمان المصري من ضمن الأفراد العشرة الذين يقوم رئيس الجمهورية باختيارهم. واندمج د. رشدي سعيد في مهماته الجديدة بالجدية نفسها - حتى فاز بعضوية قيادة الحزب الحاكم بمصر وكان أحد رجالاته الثمانية عشر. وتوج رشدي سعيد كفاحه السياسي بانتخابه رئيسا للجنة العلاقات الخارجية المصرية فيما بين ١٩٧٠ وحتى ١٩٧٦. وأدى به هذا المنصب الجديد إلى زيادة اتصالاته الخارجية واكتسب شهرة واسعة في المحافل الدولية ومما ساعده على ذلك إجادته التامة للغتين الإنجليزية والفرنسية ومعرفته الواسعة باللغة الألمانية.

وفي أعقاب هزيمة ١٩٦٧ - أعاد الرئيس عبد الناصر تشكيل الحكومة المصرية وعهد إلى د. عزيز صدقي الذي أسس الصناعة المصرية الحديثة وكان أول وزير صناعة مصري عام ١٩٥٦ - بالعودة إلى وزارة الصناعة بعد أن أبعد عنها حوالي السنتين .

وجمع د. عزيز صدقي حوله نخبة من خيرة رجالات مصر حتى أن صحيفة الأهرام في أواخر مايو ١٩٦٨ نشرت صباح أحد الأيام على الناس باقصاء ٢٥٠ فردا من كبار رجال الصناعة آنذاك وأتى بمثل هذا العدد ليحلوا محلهم. كانت المساحة الجيولوجية من نصيب د. رشدي سعيد - الذي كان على وشك السفر إلى الولايات المتحدة ليعمل أستاذا زائرا بإحدى جامعاتها . وكان على كاتب هذه السطور أن يعيد التذكرة التي حجزت بالفعل يوم ١٩٦٨/٥/٢٨ إلى شركة .T. W. A . كانت المساحة الجيولوجية في هذه الفترة - تمر بفترة سكون شامل إذ كان يحكمها رجل عمل

بالمحاجر لمدة ٢٧ سنة وكانت خبرته كلها منصبة على كيفية ابعاد المقاولين غير الشرفاء عن مجالات المحاجر. وإن كانت المساحة الجيولوجية المصرية قد أنشئت فى عام ١٨٩٦ وبدأت عملها بمجموعة من أفضل العلماء الإنجليز أسهمت اسهاما كبيرا فى زيادة معارفنا الجيولوجية والتعدينية بمصر.

وعندما اختير د. عزيز صدقى لتطوير الصناعة اختار أحد أفضل رجالات الجيولوجيا بمصر لرئاسة الهيئة وهو د.رياض عبدالمجيد حجازى الذى ظل فى موقعه لمدة عشر سنوات تقريبا ثم لمدة سنة ونصف رأسها د. أحمد توفيق وهو ما يعتبره الجيولوجيون فترة عدم توافق وانحسار فى النشاط حتى تولى د. رشدى سعيد رئاسة الهيئة. واعتبرت فترة د. سعيد امتدادا لفترة د. حجازى، وخلال هذه الفترة الطويلة التى تقترب من عشرين عاما تم تطوير المساحة الجيولوجية لتساير ركب الحضارة والتقدم فى كافة أرجاء العالم . فادخلت أقسام الحفر الميكانيكى والجيوفيزياء والاستكشاف الجيولوجى والجيوكيميائى - وتم تطوير المعامل الكيميائية والمعدنية وتركيز الخامات واستحدث قسما للتوثيق والنشر والمكتبات . كما تم توسيع المتحف الجيولوجى وأضيفت إليه معامل للحفريات الدقيقة والكبيرة ومعمل لحبوب اللقاح والحفريات الفقارية.. والدراسات المعدنية كما اهتم بالنشر العلمى وأنشأت حولية المساحة الجيولوجية التى ضمت أحدث الأبحاث التى يقوم بها الباحثون الجيولوجيون والكيميائيون من مصر والخارج. وزيدت أعداد المهندسين والجيولوجيين والجيوفيزيقيين والكيميائيين حتى وصل عددهم إلى أكثر من ٥٠٠ باحث فى أوائل الثمانينات - حصل أكثر من ١٠٪ منهم على شهادات الماجستير والدكتوراه . وأصبحت الهيئة معهدا لتدريب وتوريد الفنيين إلى جهات داخلية كثيرة كالمناجم وشركات البترول والجامعات - وغزا العلماء المصريون بلاداً خارجية فعملوا فى مجالات تعدين المناجم بأفريقيا واستراليا وكندا.. وأصبحت الهيئة معهدا لتوريد أساتذة الجيولوجيا لدول العالم العربى وافريقيا بل والولايات المتحدة.. وخلال هذه الفترة المزدهرة نشرت المساحة الجيولوجية ثانى خريطة جيولوجية لمصر عام ١٩٧١ بعد خريطة هيوم الأولى عام ١٩٢٨ . وحرر د. رشدى سعيد الكتيب التفسيرى للخريطة فى السنة نفسها .

كوادر من الشباب

ومن خلال التعاون البناء بين العلماء المصريين بالهيئة وزملائهم بالخارج عرفت الجيولوجيا المصرية فرعا جديدا من العلوم الجيولوجية يعرف باسم جيولوجية الحقب الرابع، وهو العلم الذى يدرس تاريخ الأرض والإنسان خلال المليونى

سنة الأخيرة من عمر الأرض. وتوج د. رشدى سعيد هذا النشاط بنشره كتاب عن جيولوجية نهر النيل ١٩٨١.

ومن خلال الاحتكاك المستمر بين العاملين بالهيئة وزملائهم الأجانب تمكن د. رشدى سعيد من تربية كوادر من الشباب المتعلم بأحدث تقنيات العصر - استطاع أن يعبر بهم بعض عثرات النكسة الأليمة عام ١٩٦٧. فقد فقدت مصر خلال هذه الحرب مناجم سيناء ومنها خامات الكاولين التي تعتمد عليه عدة صناعات كثيرة بمصر مثل صناعة القيشاني والبورسلين وتبييض الورق ... إلخ . وفى خلال فترة لا تتجاوز عاما ونصف العام تم تنمية حقل جديد للكاولين فى جنوب غرب أسوان، وتم توفير عدة ملايين من الجنيهات - عملة أجنبية - كانت ستنفق فى استيراد كاولين من الخارج . وفى خلال فترة رئاسة د. سعيد للهيئة تخلص من الشركات التعدينية والتى كان أغلبها لا يحقق أى عائد اقتصادى مجز للدولة، وألحقها بالهيئات الأخرى ذات النشاط المماثل وبهدف خلق تكامل صناعي مثلا بين شركات الفوسفات وشركات الأسمدة وشركات مواد البناء ومناجم الجبس ... إلخ .

واهتم د. رشدى سعيد بتنشيط القطاع البحثى لإيمانه بأن صناعة التعدين الجيدة لن تقوم إلا على شركات تمتلك قدرات علمية وخامات بكميات ضخمة تسمح للشركات بالوجود والاستخراج من صحراء مصر ذات ظروف معيشية غير طبيعية . فإذا لم تتوافر الخامات العالية الدرجة وبكميات اقتصادية فلا معنى لوجود الشركة .

من هذا الفهم، انطلق د. رشدى سعيد بهيئته فى برنامج طموح غزا به الصحراوات المصرية . ففي وقت واحد خلال السبعينات كان هناك المشروعات التالية .

● مسح جيولوجي شامل للمنطقة الواقعة بين ادفو وقنا لتقدير احتياطيات الفوسفات بالمنطقة.

● إعادة تقييم خام النفلين سيانيت بجنوب الصحراء الشرقية اللازم لاستخراج الألومنيا.

● البحث الجيولوجى والجيوفيزيقى الدقيق لامتدادات خام حديد الواحات البحرية.

● البحث الجيولوجى والجيوفيزيقى



د. رشدى سعيد مع مجموعة من تلامذته عند مدخل أول أنفاق منجم أبو طرطور عام ١٩٧٦

والحفر لتأكيد مزيد من احتياطيات فحم المغارة فى سيناء.

● تقييم الحجر الجيرى على جانبى نهر النيل اللازم لصناعة الألومنيا.

● البحث المعدنى فى بعض مناطق جنوب الصحراء الشرقية بداخل الدوائر المعقدة من صخور القاعدة.

● تقييم خامات النيوبيوم والتنتالم فى وسط الصحراء الشرقية.

● تقييم خامات الفوسفات بمنطقة أبوطرطور بالصحراء الغربية.

عندما ترك د. رشدى سعيد المساحة الجيولوجية فى نهاية ١٩٧٧، ترك هيئة غنية بالخبرات والرجال - الذين روضوا الصحراء وطوعوها دون خوف من المجهول أو من صعوبة المعيشة . تركها ومستوى النشر العلمى يعادل بل ويفوق كثيرا من هيئات الجيولوجيا فى أنحاء المعمورة . تركها وهى خلية من العمل والبذل والعطاء لرجال آمنوا وأحبوا بلدهم وضحوا فى سبيل ذلك بكثير من متع المدينة الزائفة . أحبوا الصحراء فأعطتهم الصحراء خيراً كثيرا. تركها واستمرت دفعته وجهده بعد ذلك لمدة أكثر من خمس سنوات إبان رئاسة كل من جلال على مصطفى ومحمود زعطوط . لكن دوام الحال من المحال فقد تعرضت الهيئة لنكسة خطيرة فى أوائل عام ١٩٨٤ وتتذكر الجميع عطاء رشدى سعيد المبهر وقيادته المثمرة.

متع الله أستاذنا الفاضل د. رشدى سعيد بالصحة وأبقاه الله لنا رمزا وعلما - رجل أعطى كثيرا وأحبه الناس كثيرا .



وفد مصر بالمؤتمر البرلمانى بطوكيو اكتوبر ١٩٧٤ مع جمال العطيفى



فى موقع شركة مصر للرخام بالمعرض الصناعى ١٩٦٩ مع السيد حسين الشافعى ود. عزيز صدقى والمرحوم خليل قنديل رئيس الشركة

رشدى سعيد. جزء خاص



نهر النيل ورشدى سعيد

بقلم : د. محمد عبد الفتاح القصاص

(١)

نشأت دراسات الجيولوجيا ومسوحاتها في مصر علي أيدي عدد من الخبراء الأوربيين سعيا وراء المعارف الجيولوجيا عامة ، وبحثا عن الموارد المعدنية والبترولية والمياه الجوفية . لهذا الغرض انشئت مصلحة المساحة الجيولوجية في أواخر القرن التاسع عشر . ثم كان انشاء كلية العلوم بالجامعة المصرية عام ١٩٢٥ ، واستقدم لها اساتذة من خيرة العلماء الأوربيين لتدريس العلوم ومنها علم الجيولوجيا .

وبدأت أجيال الجيولوجيين المصريين تتخرج في الجامعة وتذهب للعمل فى شركات البترول والتعدين والمحاجر ، وفى مصلحة المساحة الجيولوجية . أرسلت الجامعة عددا من خريجيها النابهين لاستكمال دراساتهم العليا فى الخارج ، كان من بينهم رشدى سعيد الذى أوفد إلى سويسرا ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية فيما بين ١٩٤٦ إلى ١٩٥٠ ، عاد بعدها للعمل فى قسم الجيولوجيا بجامعة القاهرة وتحلق حوله عدد من طلاب الدراسات العليا ، وعكف هو وتلاميذه على دراسات فى جيولوجية مصر عامة ، وفى مجال الحفريات الدقيقة فى

التكاوين الرسوبية خاصة.

كان علماء الجيولوجيا الأجانب والمصريون - ومنهم الدكتور رشدى سعيد - فى الجامعات وهيئات المساحة الجيولوجية والثروات المعدنية وشركات البترول يتابعون دراساتهم فى جيولوجية العصور القديمة التى تحسب بعشرات الملايين من السنين ، والتى تتمثل فى تكاوين صخور القاعدة (الجرانيت وغيره) وما ترسب فوقها من رسوبيات الأحجار الرملية والكلسية على تباين بنياتها ، وما تحويه من خامات معدنية وحقول البترول وطبقات الفحم وتكاوين المياه الجوفية . تجمع من هذه الجهود الموصولة على مدى النصف الأول من القرن العشرين قدر عظيم من المعارف العلمية، عكف عليها الاستاذ الدكتور رشدى سعيد بالتصفية والتقطير على مدى ربع قرن ، ووضع هذا فى كتابين موسوعيين عن جيولوجية مصر ، الأول من تأليفه والثانى من تأليف كوكبة من العلماء بقيادته ومشاركته فى التأليف والتحرير

كانت دراسات العصر الجيولوجى الرابع (المليون سنة الأخيرة من تاريخ الكرة الأرضية) موضع اهتمام علماء الجغرافية ، وتمثل رسالة المغفور له

رشدى سعيد. جزء خاص

الأستاذ الدكتور سليمان حزين عن موضع مصر فى التاريخ القديم والتى نشرها المجمع العلمى المصرى عام ١٩٤١ النموذج البارز لأعمال هذه المدرسة ، التى ضمت عددا من فحول أساتذة الجغرافية التاريخية المؤسسين من أمثال الأعلام الدكتور مصطفى عامر والدكتور إبراهيم رزقانه وغيرهم . وبقى علماء الجيولو جيا مشغولين عن هذا المجال ولكن الدكتور رشدى سعيد ، بعد أن أكمل كتابيه عن الجيولوجيا التقليدية توجه باهتمامه إلى دراسات هذا العصر الخاتم الذى ترجع أهميته إلى أنه العصر الذى ظهر فيه الإنسان الحديث وبدأ فى حقبه الحديثة تاريخ البشرية ، أى أن التغيرات التى شهدها العصر الرابع من تغيرات المناخ وتحولات البيئة كانت لها الآثار البارزة على تاريخ الإنسان وعلى جغرافية الجماعات البشرية بين الهجرات والاستقرار حتى وصل إلى مراحل الحضارات .كان مدخل علماء الجغرافية التاريخية لدراسات هذا العصر من باب الإنسان وتطوراته العرقية والحضارية ، وبقى استكمال هذه الدراسات من باب

البيئة الفيزيقية : الرواسب والتكاوين السطحية والتحركات الأرضية من الصدوع وغيرها وعمليات الترسيب والنحر بفعل الرياح والمياه . كان دخول الدكتور رشدى سعيد وشركائه من المصريين ومن أبرزهم الدكتور بهى العيسوى والأجانب وعلى رأسهم العالم الأمريكى فريد ويندورف الذى قاد فريقا دوليا أوربيا أمريكيا مصرياً للبحث - كما كان يفعل الجغرافيون المصريون الرواد - عن حضارات ما قبل التاريخ الفرعونى ، أو ما يشار إليه بعصور الأدوات الحجرية . اتسع مدى تنقيب هذا الفريق الدولى ليشمل - بالأضافة إلى وادى النيل وتخومه - مساحات واسعة من الصحراء الغربية وامتدادها فى السودان . وجدوا حلل الإقامة لمجتمعات هذا التاريخ القديم متناثرة على اتساع الصحارى المصرية والسودانية، ودلت على ظروف مناخية أسخى بالمطر ، وظروف بيئية عاونت على نشأة مراعى واسعة وزراعات فى الحطيات. ودل تتابع الحضارات على مراحل الاقتراب من النيل ، وعلى شواهد للتغيرات التى توالت على النهر تجمعت من هذه الدراسات ، ومن غيرها مما نهضت به فرق بحثية أخرى فى صحارى مصر والسودان ، حصيلة ثرية من المعارف العلمية ذات الأوجه والاتجاهات المتعددة والمتشعبة .

كتابان موسوعيان

تناول الدكتور رشدى سعيد هذه المعارف من زوايا علاقاتها مع تاريخ نهر النيل ، وأحاط بدراسات النهر وأرصاده على مدى التاريخ الطويل ، واستقطر منها كتابين موسوعيين عن نهر النيل . الأول نشرته دار سبرنجر للنشر عام ١٩٨١ وتناول على وجه الخصوص نهر النيل فى مصر ، والثانى وضعه باللغة الإنجليزية ونشرته دار برجامون للنشر عام ١٩٩٣ وترجمه إلى اللغة العربية ونشرته دار الهلال فى طبعات متوالية أولها ١٩٩٢ ، وتناول نهر النيل جميعا وحوضه الممتد من خط عرض ٤° جنوب خط الاستواء إلى خط عرض ٣١° شمال خط الاستواء، والذى تشارك فيه عشر دول افريقية فى هضبة البحيرات الكبرى فى أقصى الجنوب ، ومرتفعات شرق أفريقيا (أثيوبيا وارتريا) ثم سهول السودان ومصر. المعارف والبيانات المتصلة بهذا النهر ذى التاريخ الممتد والجغرافيا المعقدة تفوق القدرة على الإحاطة . هنا تبرز قدرة الدكتور رشدى سعيد على استخلاص

المعارف الأساسية والربط بين عناصرها .

(٢)

الكتاب الأول : التطور الجيولوجي لنهر النيل (١٩٨١) يمثل حلقة الوصل بين دراسات جيولوجية مصر ، وهي موضوع الكتابين المرجعيين اللذين نشرهما الدكتور رشدي سعيد عام ١٩٦٢ وعام ١٩٩٠ ، بين دراسات تاريخ نهر النيل . ويستدل على تاريخ نهر النيل من دراسات متباينة منها (١) دراسة الرواسب السطحية التي حملها النهر من منابعه المتباعدة والمتعاقبة ورسبها على جوانب مجراه على شكل مصاطب ، وبنى بها دلتاه على شكل رواسب متراكبة ردمت الخليج البحري الذي تحول إلى دلتا . (٢) دراسة التكاوين الجيولوجية التي شق النهر مجراه فيها أو التي جرى على طول ما انشق أو تيسر في هذه التكاوين . (٣) دراسة التحولات الجيولوجية والمناخية التي انخفض بها سطح مياه البحر المتوسط فانحسرت عن التخوم الشمالية للدلتا ، والتي ارتفع بها سطح مياه البحر فغمرت أجزاء من الدلتا ، وقد تبدل سطح البحر من الارتفاع والانخفاض أكثر من مرة . (٤) دراسات تتبع التاريخ

رشدى سعيد . جزء خاص

الجيولوجي للحيز المصرى خاصة ظواهر جريان المياه السطحية في عصور المطر ، وهو تاريخ معقد لأنه تغير على مدى الحقب الجيولوجية المتوالية . هذه مسألة قد تضل فيها السبل لتشعب المسالك ، وذلك لأن نهر النيل الذى نعرفه كيان حديث سبقته كيانات عديدة ذات دروب متباينة ، ولكن السبيل لا تضل بالأستاذ الحجة الذى لا تغفل بصيرته عن تبين العناصر المتداخلة ، ولقد ضلت السبل بغيره في دراسات لمجارى المياه القديمة في الصحراء الغربية .

في هذا كله اعتمد المؤلف في تقصية على تحاليل نتائج حفر الآبار العديدة في الدلتا وفي التخوم البحرية للدلتا ، وفي الوادى بصعيد مصر وفي تخومه الشرقية والغربية ، وعلى نتائج الدراسات الجيوفيزيقية التي تكشف القيعان وما دونها من الطبقات العميقة من التكاوين الجيولوجية بالإضافة إلى الدراسات الجيولوجية التقليدية . وقد أضاف للكتاب ملاحق فيها بيانات تفصيلية عن حدود الطبقات وتتابعها الزماني ، وثبت به تعريف التكاوين الجيولوجية بأسمائها

وأعمارها ، وهي بيانات ثرية تعين الباحثين الذين يرغبون في متابعة هذه الدراسات . وفي هذا تبرز حميدة للأساتذة الكبار الذين يعملون على تعبيد السبيل لمن يتبعهم من الباحثين .

(٣)

الكتاب الثاني نهر النيل الذي نشرت دار الهلال طبعته العربية الأولى عام ١٩٩٢ وأعادت طبعه ، من الكتب الفريدة ، ذلك لأن كتبا عديدة منها كتاب الجغرافي المصري الرائد الدكتور محمد عوض محمد تناولت نهر النيل ووصف أجزائه من المنابع في الهضبة الاستوائية وفي المرتفعات الأثيوبية ، ومسارات أحباسه في سهول السودان وصحاري مصر ، وكتب عديدة تناولت هيدرولوجية نهر النيل وحساب مياهه المتدفقة من المنابع إلى المصبات الدلتاوية. وكتب عديدة على مدى القرون جمعت أرصاد النهر وجريانه في السنوات السمان وقصوره في السنوات العجاف. وكتب عديدة تناولت تاريخ استيطان الإنسان لوادي النهر في تخومه وفي دلتاه ، وتاريخ الحضارات المتوالية التي تتابعت على جنبات النهر ، وكتب عديدة تناولت مشروعات ضبط النهر من عهود العمل على توقي مخاطره ونزوات فيضانه إلى عهود العمل على التحكم في مجراه وضبط مساره وتخزين مياهه منذ القناطر الخيرية التي بناها محمد علي في منتصف القرن التاسع عشر حتى السد العالي الذي بناه جمال عبد الناصر في منتصف القرن العشرين. كتب تملأ الخزائن ولكن الأجزاء الثلاثة الأولى لكتاب نهر النيل للاستاذ الدكتور رشدي سعيد جمعت كل هذه المعارف الغزيرة المتعددة والمتشعبة في ٢٧٢ صفحة ، وضعته في كلام يجمع بين الإيجاز والوضوح وفي نسيج متكامل جمع بين علوم الجيولوجيا والجغرافيا والتاريخ الجيولوجي وتاريخ المناخ وتاريخ المجتمعات البشرية . وهذا التكامل العلمي الذي لا يقدر عليه إلا أستاذ راسخ القدم ، مهد السبيل - وكانت وعرة - لدراسات وبحوث في مجالات عديدة تتصل بتاريخ الإنسان وتاريخ الحياة ذاتها من النبات والحيوان في هذا الوادي الذي يمتد من قلب القارة الأفريقية إلى شواطئ البحر المتوسط ، ومن ثم فهو يمثل دهليزا يربط

بين المناطق الاستوائية والحارة فى أواسط أفريقيا والمناطق المعتدلة فى شمالى القارة .

الجزء الأول من الكتاب يتناول تاريخ النهر كظاهرة جغرافية ، ويدلنا على أن نهر النيل الذى نعرف أكثر الأنهار تعقيدا ، لأنه نهر مركب من عدة أنهار اتصلت وانفصلت على مدى تاريخها الجيولوجى الذى امتد إلى عدة ملايين من السنين ، ومتابعة علاقات هذه الأنهار وتطورها وتطور العلاقات بينها أمر بالغ الصعوبة ، ولكن الأستاذ يعرض متابعة هذه الأحداث على نحو يجعل الفهم والمتابعة أقل عسرا .

اكتشاف منابع النيل

الجزء الثانى من الكتاب يتناول النهر كظاهرة هيدرولوجية : المياه وتدفقها. يمهد المؤلف لهذا الجزء بفصل عن تاريخ اكتشاف منابع النيل ، وهو تاريخ امتد على مدى قرنين من الزمان ، وجمع بين مغامرات المستكشفين الأفراد، وحملات الجماعات العسكرية، وروى فى عشرات المجلدات بسائر اللغات . وقد أحسن المؤلف صنعا أن أوجز هذا كله ويسره لنا. ثم يعرض هيدرولوجية النهر فى أحباسه العليا عند المنابع وفى

أحباسه الوسطى عبر السودان حتى يصل إلى أسوان. وفى هذا العرض بين عن تقلبات النهر بين البسط والقبض ، ويذكرنا بكوكبة من مهندسى الرى المصرى ومن شاركوهم من الخبراء الأجانب ، نذكر منهم العالم البريطانى هرست وزميله العالم المصرى يوسف سميكه مؤلفى الكتاب الموسوعى «نهر النيل» وهو مؤلف ليس له نظير فى أحواض أنهار العالم جميعا. والفصل الخامس من هذا الجزء يؤرخ تقلبات النهر على مدى عمره الحديث - أى عشرة آلاف سنة ، وقد أوجز هذا الفصل ما ورد فى عشرات وعشرات من مجلدات ودراسات قديمة ، عكف عليها المؤلف فى صبر وأناة بالمراجعة والتدقيق ، وخرج علينا بموجز يدل على جهد خارق لا يقدر عليه إلا أهل العزم.

الجزء الثالث يتناول تاريخ الإنسان فى وادى النيل ، واستخدامات أرضه ، وهو تاريخ الرى والزراعة ، تاريخ الحضارات الأولى للإنسان، وقد كان لأهل وادى النيل فى مصر قسط عظيم من هذا التاريخ الحافل بالجهد البالغ والمشقة والعبقرية

أيضا. فى هذا الجزء قصة التحول من رى الحياض إلى الرى الدائم ، والتحول من رهبة النهر وتوقى نزواته الى ضبط النهر والتحكم فيه، وهو تحول بلغ مداه ببناء السد العالى. ويتناول المؤلف هذا المشروع العظيم بالتحليل ، وتقييم جدواه وبيان آثاره الجانبية، كل ذلك فى إحاطة علمية موضوعية.

الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب الموسوعى ينظر الى المستقبل، مستقبل النهر وتنمية موارده، ومستقبل العلاقات بين دول حوضه، ومستقبل مصر التى تقع فى أدنى النهر وتعتمد على مياهه اعتمادا بالغ الخطر، ويتناول المؤلف التشريعات والأعراف الدولية التى تنظم علاقات دول أحواض الانهار الدولية والاتفاقيات المتصلة بمياه النيل، وهذه أمور لا تخفى صعوباتها وخطرها ومحاذيرها. ويطرح المؤلف هذا بين يدى مخططى التنمية فى مصر والأمناء على مستقبلها طرحا يفتح العيون على الامكانات الواعدة والمزالق الخطرة، وكأنما يدعو الى اليقظة والى مقابلة احتياجات الغد بنظرة تستشرف المستقبل ولا تقعد حتى تدهم الاحداث، ولتكون سياسة مصر فى هذا المجال الحيوى قائمة على أسس من المعارف العلمية الموثقة.

هذا الكتاب الموسوعى منجم من المعارف التى احاطت بالنهر الذى هو شريان الحياة لمصر. يجد فيه الباحثون فى مجالات الجيولوجيا والتاريخ القديم علما نافعا. ويجد فيه مهندسو الرى والمشتغلون بالرى والصرف والزراعة وتنمية موارد الأرض زادا ثريا، ويجد فيه واضعو سياسات التنمية ومخططو مستقبل السياسات المصرية أضواء هادية، ويجد فيه واضعو المناهج التعليمية والكتب المدرسية مرجعا ثريا وخزانة للمعارف النافعة.

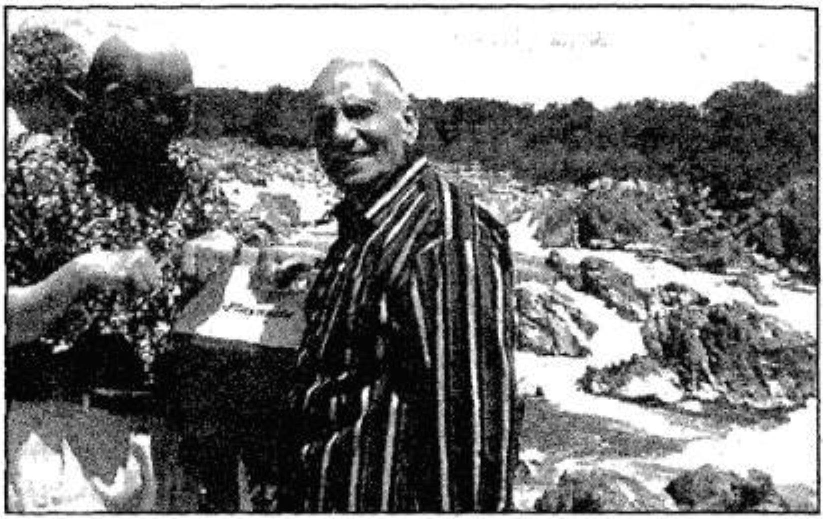
والكتاب - من بعد - نموذج للأدب العلمى. لغة عربية فصيحة وسليمة تدل على قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم فى أعقد صورها. ونص مصفى - وهذه هى اللغة العلمية - لا زيادة ولا فضول فى الكلام ولا نقص يخل. هذه لغة تحتاج الى تركيز واستيقاظ دائم، فيها حفز للعقل والتنبه. وقد عرض الأستاذ الدكتور رشدى سعيد فى مؤلفه هذا نموذجا يحتذى للأدب العلمى. نفع الله به أمته ، وبارك فى جهده ومد فى عمره بالعمل النافع.



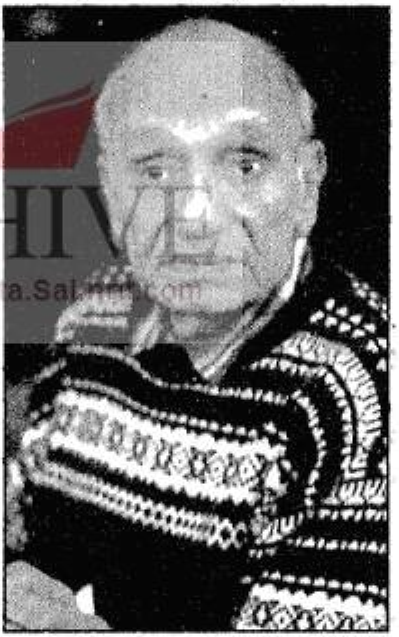
رشدى سعيد الذى أعرفه

بقلم : محمود أحمد

لا يعادل متعة قراءة مذكرات الدكتور رشدى سعيد، والتى ستصدر عن «دار الهلال»، سوى استعادة الذكريات الحميمة معه. فقد كانت لى معه ذكريات كثيرة، منذ أن تعارفنا فى عام ١٩٦٤ عندما كان هو عضوا فى مجلس الأمة (مجلس الشعب فيما بعد) وكنت وقتها محررا برلمانيا «للأهرام»، وكان من حظى أن تطورت علاقتنا إلى صداقة متينة على مدى السنين، توثقت بشكل خاص عندما انتقلت إلى الولايات المتحدة حيث عملت لمدة ثمانى سنوات مراسلا صحفيا فى العاصمة الأمريكية واشنطن التى كان هو قد انتقل للعيش فيها قبل سنوات.



صورة تجمع د. رشدى وكاتب السطور، التقطت عند شلالات نهر البوتوماك بالقرب من واشنطن



د. رشدى صورة له بمنزله في واشنطن يشهد مناقشات ممتعة وحوارات مع الاصدقاء



أثناء إحدى زياراته المنتظمة لمصر د. رشدى سعيد مع مصطفى نبيل رئيس تحرير «الهلال

وعلى مدى هذه الفترة الزمنية الممتدة، أتيح لى أن أعرف الكثير عن رشدى سعيد العالم المصرى ذى السمعة العالمية، وصاحب الاهتمامات الواسعة والثقافة العميقة، والذى لا يفتأ يدهش الجميع بهذا الدفق من الأفكار الباهرة والنابضة فى مختلف نواحى الحياة.. وخاصة ما كان منها يتعلق بوطنه الذى أحبه: مصر.

واليوم ونحن نحتفل مع د. رشدى سعيد ببلوغه سن الثمانين من عمره المديد الحافل بالعطاء، يتأكد لنا مرة أخرى دون أن تكون فى ذلك أية مفاجأة أنه لا يزال كما عهدناه: صاحب رؤية ثاقبة وحيوية متدفقة وأفكار لا تزال قادرة على جذب الانتباه وإثارة الاهتمام ، فقبل ثلاثة شهور فقط وخلال زيارته الأخيرة للقاهرة نشر رشدى سعيد العديد من المقابلات وتحدث فى ندوات عقدها له العديد من الجمعيات والمعاهد الأكاديمية والهيئات الثقافية، فضلا عن مقالات نشرت له وأحاديث تليفزيونية أجريت معه.

واعترف أننى لم أستطع، وسط مشاغل الحياة، أن ألاحق نشاط الدكتور رشدى سعيد، خلال زيارته الأخيرة تلك، رغم رغبتى الشديدة فى ذلك ولكننى استمعت إليه فى إحدى هذه الندوات والتى تركزت كلمته فيها عن «مصر ما بعد السلام» وهى كلمة حملت تحذيرات ضمنية، ولكنها واضحة، من التهاون فى

رشدى سعيد.. جزء خاص

تدارك أوجه القصور التى تعانى مصر منها. ولعل أبرز مثل لذلك، هو ما طرحه بالنسبة لمسألة «الطاقة»، حيث أوضحت مقارنة سريعة أجراها أن ما يعود على مصر من كل كيلو وات كهرباء تنتجه لا يتجاوز ١.٧ دولار.. فى حين يقدر عائد اسرائيل من كل كيلو وات تنتجه ٥.٢ دولار أى ثلاثة أمثال. وفى محاضرة أخرى، خلال زيارته الأخيرة أيضا، لاحظ أن ما يرد إلى مصر من مياه النيل يبلغ نحو ٥٥ مليار متر مكعب سنويا، وأنه يتم استهلاك أربعين مليارا منها فى أغراض الزراعة (الرى) ونظرا لأن دخل مصر من الزراعة يبلغ فى المتوسط أربعين مليار جنيه فى العام.. فإن ذلك يعنى أن المتر المكعب من المياه الذى يستخدم فى الزراعة لا ينتج أكثر من جنيه واحد، وهو انتاج ضئيل إلى درجة مزعجة.

وقد أردت بهذين المثلين أن أوضح فقط قدرة الدكتور رشدى سعيد على ترتيب الأفكار واستخلاص النتائج، ولا شك أنه استطاع أن ينمى هذه القدرة باستخدام المنهج العلمى الذى اكتسبه من تكوينه ودراساته كعالم جيولوجى لفتت أبحاثه أنظار المحافل العلمية على مستوى العالم.

ويبدو أن نشأة رشدى سعيد الأولى هى التى ساعدته على أن يسير فى هذا الدرب الذى اختاره، وأن يصبح فى النهاية هذا العالم المفكر المثقف الذى لا تزال أفكاره تبهرنا إلى اليوم. فقد كان المجتمع المصرى فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، أى أثناء صباه وشبابه الباكر، لازال يمر بمراحل تطوره الأولى.. ولكن الأقدار هيأت له أن ينشأ فى أسرة تختلف عن معظم الأسر المصرية فى ذلك الوقت. فقد كان له أب عصرى قادر على استشراف المستقبل، وبالتالى كان يوجه أبناءه على غير ما كان غيره من الآباء يوجهون أبناءهم إليه، وقد روى لى رشدى سعيد أنه عندما نجح فى اتمام تعليمه الثانوى وحصل على شهادة «البكالوريا» كانت هدية والده إليه هى السماح له بأن يذهب فى رحلة إلى أوروبا.. وقد أعطاه لذلك خمسة جنيهات كاملة، اشترى بأحدها – أى بجنيه – تذكرة باخرة نقلته إلى أوروبا! وكان هذا الأب نفسه وكما جاء فى مذكرات د. رشدى سعيد التى نشرت مؤخرا، قد وافق من قبل على أن تنضم ابنته انعام – شقيقة رشدى الكبرى – إلى بعثة نظمتها الحكومة المصرية وضمت عددا من فتيات المدارس للدراسة فى لندن لعدة سنوات.

البرلمانى الموهوب

وأستطيع أن أقرر اليوم، بعد أكثر من ٣٥ سنة عرفت خلالها رشدى سعيد عن قرب، أن شخصيته وملكاته وما يتمتع به من قدرات هى التى جذبتنى إليه وحولت علاقتنا من تعارف عادى إلى صداقة ممتدة. وأسارع هنا إلى القول إن د. رشدى سعيد، رغم علمه الغزير واهتماماته التى لا تنقطع بالعمل العام ليس شخصا جهما مفرطا فى جديته بل إنه يغلب عليه فى الواقع طابع من المرح يعهده فيه أصدقاؤه ، وقد كان له من قوة الإرادة ما جعله يستطيع الاحتفاظ بهذا الطابع المعروف عنه، وذلك على الرغم من التجارب الشخصية والعائلية المؤلمة التى مرت به أخيرا.. وخاصة خلال العامين الأخيرين.

وفى بدايات تعرفنا، أتيحت لى فرصة أن أنضم إلى وفد برلمانى كان د. رشدى سعيد أحد أعضائه لحضور اجتماع المؤتمر البرلمانى الدولى الذى عقد فى طهران عام ١٩٦٦.

كان رئيس الوفد هو الدكتور فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء فيما بعد، كما ضم الوفد أيضا الأستاذ محمد عبد السلام الزيات الذى كان يشغل وقتها منصب الأمين العام لمجلس الأمة، والذى كان صديقا شخصيا لى وللدكتور رشدى فى الوقت نفسه. وفى هذه الرحلة إلى طهران، عرفت المزيد من قدرات رشدى سعيد وأنا أراه يتحرك بين لجان المؤتمر

ويجرى اتصالات مع أعضاء الوفد ويعمل فى الكواليس لتمرير صيغة قرار يؤيد وجهة نظر مصر. وفى وقت كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين طهران والقاهرة.

قد أدهشتنى هذه المواهب التى لم أكن أعرفها عن رشدى سعيد صاحب الشهرة فى العالم كباحث جيولوجى، وصاحب الكتاب الكلاسيكى المعروف عن جيولوجية مصر. وفيما بعد، لم أفاجأ عندما سمعت عن المهام البرلمانية العديدة التى اضطلع بها، والتى كان من بينها اختياره عضوا فى لجنة تقصى الحقائق التى رأسها الدكتور جمال العطيفى فى السبعينيات للتحقيق فى أحداث الفتنة الطائفية التى نشبت بسبب أحداث «الزاوية الحمراء». كذلك لم يدهشنى ما رواه هو لى فيما بعد عن أنه كاد يفوز برئاسة الاتحاد البرلمانى الدولى، لولا أن الظروف التى مرت بمصر حينذاك حالت دون ذلك.. إذ وقعت مصر اتفاق «كامب ديفيد» مع إسرائيل، وكانت عزلتها عن العالم العربى ومقاطعة دول أخرى لها مما كان لابد وأن يفقد المرشح المصرى التأييد الذى يحتاجه للفوز بمنصب دولى.

وقد جره الاهتمام بالمشكلات المصرية إلى خضم العمل العام الذى عززته عضويته فى مجلس الشعب وفى رئاسته لإحدى المؤسسات الكبرى، ولكن هذه

رشدى سعيد.. جزء خاص

المشاركة فى العمل العام قادته فيما بعد، لسوء الحظ، إلى الصدام مع القيادة السياسية ممثلة فى الرئيس أنور السادات الذى فصله من رئاسة مؤسسة التعدين أولا، ثم أدرج اسمه بين قوائم الشخصيات التى أمر باعتقالها فى سبتمبر ١٩٨١ قبل اغتياله بأسابيع.

محاورات في واشنطن

طوال السنوات التى عملت خلالها مراسلا صحفيا فى العاصمة الأمريكية، شكلت علاقتى بالدكتور رشدى سعيد أحد «مرتكزات» نشاطى وحياتى اليومية ، كنا نلتقى كلما سنحت الفرصة فى منزل أى منا أو فى أحد الأماكن العامة، أو كان هو يدعونا للغداء فى نادى «كوزموس» وهو نادى الصفوة من العلماء الأمريكيين والذى هو عضو فيه. ولكن إلى جانب هذه اللقاءات. وربما أهم منها، كانت لنا محادثات تليفونية يومية لا تنقطع حول مختلف الشئون. وخاصة ما يتعلق بمصر التى كنا نتنسم أخبارها ونتابعها باستمرار.

فى تلك السنوات، أستطيع القول إننى عرفت رشدى سعيد حقا وعن قرب كاف، وهو ما حبب إلى هذه الصداقة البديعة وجعلنى حريصا على لقاءاته ومناقشاته

التي لا ينضب خلالها معينه من الأفكار اللامعة والمتدفقة.

كان يتحدث بحماس كبير، عن ضرورة وقف اتساع الهوة بين المصريين وينبه إلى خطورة انزلاق الأمور حيث يزداد أثرياء المصريين ثراء ويزداد فقراؤهم فقرا.

ومن أفكاره - أو تشخيصاته - المشهورة في ذلك، تقسيمه للمصريين إلى كتلتين وصف إحداهما بأنها «كتلة غاطسة» وتتكون من ٨٦٪ من المصريين لا يحصلون على أكثر من ربع مجمل الدخل القومي. والأخرى «كتلة طافية» تحصل على أكثر من ثلثي الدخل القومي رغم أن نسبتها لا تزيد عن ٨٪ من مجموع المصريين.

وظل د. رشدي سعيد يحرص على استقاء البيانات والمعلومات من أوثق المصادر، مصرية كانت أو أجنبية، بما في ذلك ما قد يكون لدى الهيئات الدولية كصندوق النقد والبنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، وغيرها وكان يعكف على هذه البيانات التي يدخلها في جهاز الكمبيوتر الشخصي الخاص به، يرتبها ويقارن بينها ويستخرج منها النتائج.

وفي أحد الأيام اتصل بي تليفونيا ووجدت صوته ينم عن انفعال لم يستطع أن يخفيه.. وقال لي إنه وجد، وهو يجرى عملية حسابية على أساس ما لديه من بيانات، أن أبناء الشريحة العليا من «الكتلة الطافية» من المصريين والذين لا يزيد عددهم عن المليون، قد يدفع أحدهم عشرين جنيها ثمنا «للهطة» من الآيس كريم المستورد!.

وكانت هذه الأفكار تثير بيننا الكثير من المناقشات التي شاركنا فيها أصدقاء آخرون أيضا، وكنت أجد فيما دائما متعة كبيرة. وقد عمد هو فيما بعد إلى جمع هذه الأفكار، أو الكثير منها ليضمنها كتابه المهم الذي جعل عنوانه «الحقيقة والوهم في الواقع المصري» وهو كتاب حصل على جائزة معرض الكتاب عام ١٩٩٧. وقد تلطف الدكتور رشدي فجعل في صدر الكتاب اهداء خصني به مع الصديق الدكتور فوزي هيكل ووصفنا بأننا الصديقان «اللذان كثيرا ما شاركاني مناقشة موضوعات هذا الكتاب».

وبعد عودتي من واشنطن، ورغم بقائه هو فيها، استمر التواصل بيننا سواء من خلال اللقاءات «الموسمية» في مصر أو في أمريكا، ومن خلال الاتصالات التليفونية بين الحين والآخر. وكان يسعدني دائما أن أستمع إلى الجديد والمتجدد من أفكاره التي لا ينضب معينها والتي تحتفظ دائما بالبريق ذاته الذي اعتدناه منه.. فلا أملك إلا أن أدعو له بالصحة ودوام العطاء.



رشدي سعيد . جزء خاص

تجربة رشدى سعيد السياسية

يا لها من خبرة ويا لها من نصوص

بقلم : نبيل عبد الفتاح

ثمة شخصيات عصية على عملية صياغة وبناء الصور النمطية والتصنيفات السريعة ، أو حتى على التجنيس السياسى والايديولوجى، تلك اللعبة الذهبية البسيطة ذات الطابع الجنائى، التى تميل إلى وضع الشخص - ولا أقول الفرد - فى مكان ما من الذاكرة والسياسة والجماعة ، هى عملية تهدف إلى تحديد موقع الشخص ، وانحيازاته ، وأفكاره حتى يسهل تسكينه واتخاذ موقف ادراكى وعملى ازاءه حبا أو كرهاً أو تحالفاً أو نزاعاً ، هى محاولة - فى أفضل أحوالها - تميل إلى كسر فكرة أن الشخص كائن معقد ومركب وملغز وهو مساحات وشبكات وانتماءات ، وهويات ، إذا شئت الصراحة بلا لبس أو مراوغة هى خفة لاتحتمل إذا أردت استعارة تعبير كونديرا.



رشدى سعيد ضمن قلة من الصفوة الفكرية المصرية المصطفاة تستعصى على التنميط وعلى نزق التصنيف الاتهامى أو القبلى السياسى. ومن ثم تغدو دائماً محاولة اصطياده من أحد المداخل، أو المفاتيح لفهمه وتحليله وتبسيطه وتقديمه سائغا كعنصر فى قبيلة سياسية أو ملية أو سياسية إلى القارىء المثقف أمراً محفوفاً بخطر الخفة ان لم أقل نزق كتابة عابرة حول الشخصية وإنتاجها الفكرى والأكاديمى وخبراتها المهنية ، وتجربتها السياسية الغنية فى العمل البرلمانى ، وفى دهاليز الدولة التعبوية، وسلطانها التسلطى الجبار. تبدو هيبة وصعوبة الكتابة عن أساتذنا الجليل رشدى سعيد، مشوبة بالوجل والتردد ، والخوف ! نعم هو ذلك! ثمة حاجة لتكثيف وبلورة خبرات وتقاليد المدرسة الوطنية للصالح العام كما أسميتها، والتى يعد رشدى سعيد واحداً من رموزها وأعلامها الكبار ، تلك الجماعة النادرة من المثقفين، والباحثين، ورجال السياسة والتكنوقراط - ولم لا ! - التى نذرت نفسها ورعا فى خدمة الصالح الوطنى بلا طلب شخصى لا من السلطات السياسية أو الثقافية أو الأخلاقية ، ولا من المجتمع أيا كانت تركيباته وهياكله ، وتوجهاته . جيل فريد أعطى بلا حدود ، وبعض من موهوبيه الكبار لم يأخذ حقه، بل كان موضوعا لكراهية ونبذ واستبعاد من يحاولون عن ضعف فى الروح وهمة خائبة - وكفاءة دون الحد الأدنى، وموهبة غير متحققة - أن يغتالوا المواهب المصرية النادرة واللامعة كى يعيشوا فى الحياة ضجيجاً ولغوا وفساداً! . ثمة أهمية قصوى وآنية لتبديد الأضاليل، وهتك الأقنعة وزيف قوة الخديعة السائدة الآن، حيث فوضى ولغو وصخب حقول السياسة والأفكار والتأويلات الفقهية واللاهوتية والمال والاعلام والشجارات والتنابذ والهجاءات وكيل المديح بلا ضوابط أو حساب فى سوق المصالح السائد فى مصر المحروسة.

لغة خاصة

رشدى سعيد هو أحد هاتكى سلطة الكذب البارزين فى كتاباته المختلفة ، وتحليلاته التى تتسم بالعمق والذكاء والقدرة الفائقة على الرصد والالتقاط للظواهر، وإعادة بناء مشاهد السياسة والاقتصاد والاجتماع فى بلادنا، وهذا المسعى التحليلى والتركيبى، يكشف عن يقظة العين والأذن وحساسية سياسية من نوع فريد، والغريب منذ أول لقاء معه فى

نهاية عقد السبعينيات المنصرم - مع أستاذنا الجليل أبو سيف يوسف ، ود. رضا محرم في منزل د. مراد وهبة - اكتشفت أنه لا يتحدث لغة ورطانة وطقوس وكليشيهات تلك الأيام . حيث لا تجد منذ ذاك وإلى الآن مجازات لغة ايديولوجية محنطة أو متحفية. نعم تلك اللغة الميتة والجافة والخشبية والمجانية التي تستخدم في وصف وتحليل ظواهر ، ومشكلات وعوالم وحوادث و.. و.. نعم لغة واصطلاحات ومناهج تفكير عن كل شيء، ولتفسير كل ظاهرة، وتقديم حلول مجانية لكل مشكلة .. لغة ناطقة بالفراديس والجنات الأرضية وتحوز الحقائق المطلقة في تصورها ، أي لغة لاتصلح لأي شيء .. لغة رشدي سعيد - وخطابه الثاوي داخلها والناطقة والحاملة له - خارج المألوف منذئذ وحتى الآن، أي لغة بعيدة وقصية عن استلابية اللغة - أو اللغات السائدة - والتي تبدو وكأنها في جوهر العالم الذي تحمله واحدة ، نعم تم إنتاجها لمرة واحدة وتم توزيعها على الجميع بهدف إنتاج كلام واحد ! لنمط واحد ! لغة خاصة تجدها في كتبه الاكاديمية «نهر النيل» و«جيولوجية مصر» ، و«الحقيقة والوهم في الواقع المصري»، وذكرياته السياسية التي سنعود لها، ناهيك عن اسهاماته العديدة بالأوراق البحثية والمقالات . لغة غريبة أزاء سلطة اللغة والكتابة المسيطرة على حقل إنتاج الأفكار ، أو فلنقل حقل إعادة مايعتقده كثر بأنه بداهات أو أفكار ، تلك التي أفلت وجف رؤاها وتبددت معانيها القديمة وفقدت صلاحيتها الدلالية والوظيفية. لغة رشدي سعيد بها اقتصاد لغوي نادر وانضباط دلالي ، تبدو رياضية وكأنها معادلات معقدة، لكن سرعان ما تفك تعقيداتها ، وتركيبها في سلاسة وصفاء ونصاعة. عندما تتأمل خطابه السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، تكتشف تعدد مستوياته ، وتداخلاته، على الرغم من أن القراءة العجلى قد تحيلك إلى تبسيط أمرها إلى كونها رياضية أحادية البعد - إذا شئت استعارة ماركوزة - في حين أن امعان النظر في لغة خطابه الشفاهي والمكتوب تكشف عن صفاء تحليلي ، ورهافة وعمق وتركيب تردع أية محاولة لصياغة صورة نمطية عن عقل رشدي سعيد المفكر والسياسي وخطابه . منذ نهاية عقد السبعينات من القرن الماضي وحتى الآن ، يدهشك هذا العالم في اهاب الحكيم الرصين - حيث لايزال عقله اليقظ وحيويته الوثابة ووطنيته الغامرة والخالصة تكشف عن حجم عطاء

مدرسة حب الوطن بتعبير الصديق الراحل الكريم وليم سليمان قلادة أو المدرسة الوطنية للصالح العام، التي يحاول ناهبو المال العام ، وأكلو السحت السياسي و.. و... - من نخبة هرمة محدودة التكوين والمعرفة وضحلة الخيال السياسي، وفقيرة الذمة - أن تطلق هزء الجهال عن هذه المدرسة الوطنية ورموزها تشويها أو لغطاً. من هنا تشكل كتابات رشدى سعيد وحضورها الفعال أهمية خاصة في دفاعها عن تقاليد حب الوطن ووجهه الانساني وغناه الثقافي ، ودوره ورسالته بين الأمم . إن قول الحقيقة ومطاردة سلطة الكذب، والتأسيس لحب الوطن المتنوع بخصب تعدديته ووحدته الوطنية الراسخة المتجددة ، هي مهمة أجيال من أبناء المدرسة، وهي أيضاً ... وأيضاً حصاد خبرة الرجل السياسية في اطار الدولة التعبوية حيث شارك في اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية ثم في المؤتمر . ولم يعرف الرجل - الذي حاول بعد عودته من بعثته في هارفارد أن يؤسس قسما للجيولوجيا في كلية العلوم كما تعرفه الجامعات العريقة في الغرب - دهاليز السياسة المصرية إلا في عام ١٩٦٤ خاصة بعد الانقطاع في الخبرات والتقاليد والمعارف السياسية منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ من النظام النيابي التمثيلي - في حدوده وشروطه وايجابياته آنذاك - وتجارب التنظيم السياسي الثلاث من هيئة التحرير، والاتحاد القومي ، والاتحاد الاشتراكي العربي. كانت هذه التجربة الثانية في تطور النظم السياسية والدستورية المصرية الحديثة تدار عبر الآليات التعبوية والأمنية . ومن ثم اثرت على أساليب التجنيد والجذب السياسي، واختيار الكوادر في العمل السياسي والبرلماني، سواء من كوادر الضباط الأحرار ، أو من النخبة الجديدة التي بدأت تتشكل من حنايا الفئات الوسطى - الوسطى ، والتكنوقراط تحديداً.

إن نظرة على تجربة رشدى سعيد السياسية - ومذكراته - تكشف وبصراحة نادرة عن الحدود الفعلية للتجربة السياسية ، وامتداداتها المختلفة حتى الآن. ثمة اختيارات للمواقع الحكومية والسياسية والنيابية والبيروقراطية ايا كان مستوياتها كانت محجوزة وخاضعة لسلطات الأمن والرقابة السياسية الخانقة آنذاك . خاصة في ظل استراتيجية سياسية واضحة لتغيير تركيبة هياكل القوة السياسية والاجتماعية، وشبكاتها المتعددة. من ثم رمت السلطات آنذاك نحو استبعاد الفئات السياسية القديمة ، تلك

التى تمرست على السياسة فى أروقة المدارس الحزبية آنذاك، ومعها تكوين وثقافة وبدايات تأسيس - تقاليد وسنن سياسية - لم تستكمل فى المرحلة شبه الليبرالية ، وكانت للتجربة ايجابياتها المتنوعة والعديدة إلا أنها انطوت وبأمانة على ثغرات، وعوار مما جعل النظام السياسى والاجتماعى باختلالاته يقع سائغاً مع خروج الضباط الأحرار من الثكنات إلى الدولة . إن اختيار رشدى سعيد جاء عن معرفة بعض العناصر المتمرسة بدهاليز السلطة والخبيرة بمشاكلها آنذاك . ادرك بعضهم والرئيس جمال عبدالناصر أن الاختيارات الأمنية ، ونظام الدفعة ، لايمكن أن يكون الاداة الوحيدة فى التجنيد السياسى، ومن هنا كان افتتاح صفحة الرأى بالأهرام ترمى إلى اجتذاب واكتشاف عناصر مختلفة عن المشهد ، وإن كانت ليست فى خصومة مع نخبة يوليو ، من ناحية أخرى البحث عن عناصر تحمل الرطانة السياسية للخطاب الرسمى ازاء رطانات احتجزت بعيداً لخصومتها للنظام كالليبراليين والاخوان المسلمين ، أو الماركسيين ، وإن كان بعضها يجد بين الحين ، والآخر مجالا للحضور فى المشهد خارج أطر الحجز والحجب، والسرية لمن اعتبروها ملاذاً للعمل خارج اطر النظام وحدوده ، وقواعد تأييده.

تجربته السياسية

إن ملاحظات وخبرات د. رشدى سعيد حول الأداء البرلمانى الرقابى أو التشريعى لا تزال تصدق على اداءات مجالس عديدة وممتدة . هذه المجالس ترتبط فى الواقع ببنية السلطة ، وعدم توازن العلاقات الواقعية بين السلطات ، ولا شك أن الصيغة البرلماسية - الوسط بين النظام البرلمانى والرئاسى والتى هى أقرب إلى دستور الجمهورية الخامسة الفرنسية ، مع غياب بعض ضوابطه الدستورية - ، تحولت إلى ممارسة دستورية بلا ضوابط إلى الصيغة الرئاسية على النمط الأمريكى بلا توازن أو فصل سلطاتها الشهير ! . هذا أمر يبدو وكأنه بدهى !.

أحد الجوانب المهمة التى تشير لها تجربة الرجل السياسية هو تفسيره لماذا كان أداء البرلمان لدوره غير فعال ألا وهو «أنه يمثل جسما غريبا فى مجتمع لا تحكم أى جزء منه العملية الديمقراطية ... فالمصرى لا يمارس الحوار أو اختيار من يمثله على أى مستوى ومنذ مولده وحتى مماته ....» (ذكريات سياسية - مرجع

سبق ذكره) .

هذا التحليل مهم لأن المسألة ليست مقصورة على غياب الديمقراطية عن هياكل السلطة والدولة في مستوياتها العليا فقط ، وإنما على جميع الدرجات . لأن أساليب التنشئة الاجتماعية والسياسية سلطوية بامتياز وأبوية غير أن هذه البنيات تتعرض لشروخ عديدة مع العولمة والإنترنت والبث المباشر للصور المرئية والمعلومات والرؤى والأفكار عبر الفضاء والأثير والبريد الالكتروني بكل انعكاسات ذلك على دور سلطات الرقابة كافة ! .

من أهم ما في تجربة رشدي سعيد السياسية اشارته إلى بعض الصور النمطية عن الأقباط وعن المسلمين أيضا ومن كل طرف إزاء الآخر ، وكيف أنها خطرة إذا لم تصحح لأنها تؤثر على مسار العلاقات بين أبناء الشعب الواحد والأمة الواحدة والوطن الواحد . اعتقد أن ما جاء في ذكرياته عن لجنة تقصي الحقائق برئاسة د. جمال العطيفي - يرحمه الله - تكشف عن الدور الخطير الذي تلعبه الشائعات على وحدة الوطن وتكامله القومي ، فضلا عن أكاذيب الغلاة وأنها من أسف تصل - عبر آليات الدولة - إلى قمة النظام كما في أكذوبة واسطورة الدولة القبطية في الصعيد التي ذكرها الرئيس أنور السادات في أحد خطبه في عقد السبعينيات من القرن المنصرم!.

يبقى أن أشير إلى أن خبرة رشدي سعيد السياسية والإنسانية والثقافية هي تعبير عن شخصيته وتخصصه في الجيولوجيا ، هي طبقات نوعية من الثقافة والخبرة والاحساس والروح ، ولكنها متداخلة ، ومتراكمة وتشي بعمق شخصي، وجيلي ، يبدو خلاله هذا الشاب الثمانيني - أطال الله في عمره - ديناميكيا وشجاعا في رصانة ودقة ، وتبدو نصوصه وكأنها خارج ما يسميه رولان بارت في «لذة النص» نصوص الحاجة الأولية للكتابة تلك التي تحكمها الحاجة ... والحاجة فقط للكتابة !!! . وهي نصوص الطوفان التي تكاد تغرق عقل مصر وتضغط على روحها وأعصابها الحساسة طيلة عقود طويلة ، ومديدة من أسف ! .

نص رشدي سعيد خارج عن هذه الحالة بامتياز لأنه ينطلق عميقا ومركبا ومتعدد المستويات في شجاعة نادرة . يا لها من خبرة ، ويا لها من نصوص تكسر سلطة الغوغائية والضوضاء الطوفانية في مصر الآن .



رشدي سعيد : جزء خاص

شاب فى التسعين

من لا يعرف رشدى سعيد عن قرب لايعرف أنه شاب يقترب من العقد التاسع بنفس الحيوية والنشاط اللذين عهدتهما منه ، منذ عرفته شابا فى العقد الخامس من عمره لم تتبدل نظرته الثاقبة حين يستطلع أمرا ، ولم تتغير ابتسامته الساحرة التى تأسرك بصفائها وحرارتها ، ولم تختلف قدرته على معالجة الأمور من وجهة نظر جديدة أو على إدهاش سامعيه بما يسوق من أدلة وبراهين من مختلف فروع المعرفة لبعض افتراضاته ونظرياته وتصوراته ، وقد تختلف مع رشدى سعيد ولكنك لن تفلت من الإعجاب ببراعته فى الحوار وإنسانيته فى التعامل مع كل من يقترب منه وخاصة من طلاب المعرفة من الشباب .

ولم يختلف رشدى سعيد عن ذلك منذ عرفته عندما كنت معيدا بكلية العلوم جامعة عين شمس منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وكان رشدى سعيد حينذاك فريدا بين أقرانه من علماء الجيولوجيا ، وعلما من أعلام أساتذة الجامعة، وكنت أسمع عنه قبل أن ألقاه، وكان اسمه يتردد فى المحافل الجيولوجية لا لما قام به من أبحاث رائدة ومتميزة فى مجال تخصصه - علم الحفريات الدقيقة - فحسب ولكن لكتابه الفريد عن «جيولوجية مصر» وهو أول عمل مرجعي جامع شامل فى هذا المضمار يصدر بالانجليزية في إحدى دور النشر العالمية ليعلن ميلاد عالم مصرى على الصعيد العالمي.

وكان اسم رشدى سعيد يتردد مقرونا بهذا العمل بالتقدير والإعجاب وإن شاب ذلك بعض من النقد ولن أنسى ما أثاره المجلد ذو القطع الكبير والورق اللامع فى نفسى من الانبهار بما تضمنه من المعارف الخاصة بمناحي جيولوجيا مصر المتعددة ، وبما قدمه من رؤية جديدة ربط فيها هذه المعارف فى إطار تركيبي مبتكر .

د. فكرى حسن

مصر فى وجدانه

فى عامى ١٩٦٠ - ١٩٦٢ كنت تلميذا للدكتور رشدى سعيد بكلية العلوم جامعة القاهرة ، حيث تخصصت فى مادتى الجيولوجيا والطبيعة ، وكان د. رشدى يدرس لنا مادة الحفريات الدقيقة ، وامتازت محاضرات د. رشدى بالإحاطة والعمق ، وفى الوقت نفسه كان يخفف المادة العلمية بروحه المرحة وبساطته، وكان له الفضل فى شرح أبعاد عبقرية قدماء المصريين فى علوم الجيولوجيا وهندسة المناجم. وضرب أمثلة على ذلك تمثال «أبو الهول» و«مقابر وادى الملوك» بالأقصر ، وكانت مؤلفاته عن «جيولوجية مصر» ثم «جيولوجية وادى النيل» الذى يختص بالرواسب والطبقات الحديثة وتاريخ قدماء المصريين وأسلافهم من المراجع الأساسية المتميزة فى مجالها.

وبعد هجرتى لأمريكا عام ١٩٦٨ داومت على الاتصال به ومتابعة نشاطه العلمى والفكرى.

وقد قرأت كتابه «الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى» الذى صدر فى «كتاب الهلال» سنة ١٩٩٦ ، فأعجبت بتحليله الموضوعى ، وحرصه على مستقبل مصر وتقدمها فى شتى المجالات ، بدافع وطنى ، ولم تنسه غربته فى أمريكا شئون مصر وشجونها ومستقبلها فحرص دائما على المتابعة والتواصل والمساهمة بفكره فى كل ما يتصل بمستقبل مصر وتقدمها.

ومن موقعى وعملى بهيئة المساحة الجيولوجية بولاية كاليفورنيا الأمريكية أبعث بكل التقدير والتحية لأستاذنا د. رشدى سعيد.

د: طوسون رشدي طبوزاده
كاليفورنيا - أمريكا

التحق رشدى بعد تخرجه فى التوفيقية الثانوية بكلية العلوم ، وكان من أوائل الملتحقين بقسم الجيولوجيا ، حيث عاصر في هذا العصر الذهبي لكلية العلوم العديد من الأسماء اللامعة مثل طلبة والقصاص ووليم عوض وعبد المنعم الجبيلي وعلى رأسهم د.مصطفى مشرفة ود. أحمد زكى.

وكانت جمعية الشبان المسيحية تضم فى عضويتها عددا لا بأس به من الشباب المسلم، من أبرزهم د. على فؤاد أحمد، وجمال شوقى، وشقيقه عبد المنعم . وكانت لنا نشاطات ثقافية عديدة فى هذه الفترة، وكان جانب منها يعقد حول منبر سلامة موسى فى جمعية الشبان المسيحية ، الذى كان يحضره العديد من المثقفين منهم نجيب محفوظ والفنان المسرحي عادل خيرى.

وكونا جماعة كنا نجتمع كل أسبوعين نتناول موضوعات علمية وموسيقية وفنية ، وكنا نستضيف أحيانا شخصيات أدبية وفكرية ، ثم بدأت علاقتنا بالفكر الماركسى وكانت بذور هذا الفكر قد زرعت في ندوات سلامة موسى ، وانضم إلينا رشدى مع مجموعة من اليساريين مثل أنجى أفلاطون ولطيفة الزيات وجمال غالي ود. الجبيلى ، كما اتصل رشدى بجماعة الفجر الجديد (أحمد رشدى صالح) .

ثم سافر رشدى فى بعثته إلى سويسرا ثم أمريكا وتحولت الجماعة تدريجيا إلى نشاط اجتماعى حول رحلات وجلسات سمر ، وبعد أن عاد رشدى من بعثته فى هارفارد بدأ عمله فى كلية العلوم وأتم كتابه عن جيولوجية مصر بالانجليزية ، حيث أصبح هذا الكتاب أهم مرجع عالمى فى موضوعه.

ثم عين رشدى رئيسا لهيئة المساحة الجيولوجية (٦٨ - ٧٨) وقد قفزت هذه الهيئة بإدارته قفزة عظيمة.

د. سمير حنا صادق
أستاذ بطب عين شمس

القلب الكبير

بداية معرفتي بالدكتور رشدى سعيد أثناء دراستى فى كلية العلوم جامعة عين شمس قسم الجيولوجيا عام ١٩٧٠ ، عندما تكرر ذكر اسمه على لسان الأساتذة الذين كانوا يدرسون لنا الجيولوجيا . وعندما وصلت إلى السنة الرابعة فى الكلية وأثناء عمل بحث عن «جيولوجية منطقة أهرام الجيزة» لم أجد مرجعا أفضل من كتابه «جيولوجية مصر» .

وبعد تخرجي عملت في هيئة المساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية بالقاهرة بوظيفة جيوفيزيقى تحت رئاسة د. رشدى سعيد ، فتحولت الهيئة فى عهده إلى مسرح علمي وأكاديمي وتطبيقى ، حيث شجع البحوث العلمية والجيولوجية ، ولا أنسى مواقفه الإنسانية والعلمية العظيمة معى ، عندما وقف بجانبى ورشحنى للعمل بإحدى شركات البترول الأمريكية ، وبالرغم من عدم التحاقى بتلك الشركة لظروف إجراءات الهجرة إلا أننى عملت فيما بعد كجيولوجى فى أكبر الشركات الأمريكية فى مجال البيئة والطاقة حتى وصلت إلى مركز مدير برامج الشرق الأوسط فى هذه الشركة ، والتى تعنى بكيفية البحث عن المناطق الملوثة فى التربة والمياه الجوفية من التلوث الكيميائى وغيرها ، وكنت دائما على اتصال بالدكتور رشدى أستفيد بنصائحه وخبراته الكبيرة كأستاذ قدير وقلب كبير .

جيولوجى يحيى شفيق ملك
كاليفورنيا - أمريكا

مواقف مشهودة !

إن الدكتور رشدى سعيد موسوعة فنية وثقافية وسياسية وعلمية لا يمكن لأى باحث أن يشمل جميع جوانب حياته فى صفحات قليلة ، ولو تركت لنفسى العنان لما أمكننى التوقف عن إحصاء مآثر د. رشدى على قطاع الجيولوجيا والتعدين فى مصر ، وقد بدأت معرفتى بالدكتور رشدى فى عام ١٩٦٨ حيث تبوأ مقاليد الأمور كرئيس لمؤسسة التعدين عقب نكسة ٦٧ واحتلال القوات الإسرائيلية شبه جزيرة سيناء بالكامل ، ونتج عن احتلال سيناء انقطاع إمدادات مصانع الحراريات بالكاولين والطفلات التى يتم إنتاجها من سيناء، وكذلك انقطاع خامات المنجنيز اللازم لصناعة البطاريات وخامات الجبس لمصانع الجبس وخامات رمال الزجاج اللازمة لمصانع الزجاج ، بالإضافة إلى الخامات الأخرى.

وكانت هذه هى أولى التحديات التى واجهته فى بداية عمله كرئيس لمؤسسة التعدين ، لكن هذا العالم الجيولوجى المتمكن استطاع أن يدير دفة البحث ، وأمكن اكتشاف خامات الكاولين بمنطقة كلابشة بأسوان ، وكذلك الطفلات بمنطقة أسوان واكتشاف الجبس فى الساحل الشمالى ، ورمل الزجاج بمنطقة الزعفرانة جنوب السويس ، والمنجنيز بمنطقة علبة على ساحل البحر الأحمر جنوب الصحراء الشرقية ، وبدأ الإعداد الجيد لاستغلال المواقع الجديدة وإنتاج الخامات اللازمة لهذه الصناعات ، وتم كل هذا فى وقت قصير ، ولم تتوقف المصانع عن الإنتاج ، ولم يشعر أى مواطن بأى نقص فى إنتاج هذه المصانع.

مهندس أنور بشاى

هل تراجعت الثقافة العربية ؟!

بقلم : سمير غريب (*)

لعل الأمر المدهش والذى يستحق الدراسة أن الثقافة العربية شهدت تراجعا فى العقود الأخيرة من القرن العشرين - ربما منذ الستينيات من ذلك القرن - عما كانت عليه فى بدايات القرن نفسه ونحن تحت حكم المستعمر !! ولقد أخذ هذا النكوص مظاهر عدة منها :

١ - تدهور الإحساس بالتضامن والمشاركة والانتماء إلى عالم واحد ، هذا الإحساس الذى بدأ واستمر على مستوى المواطن مع الدول الكبرى التى حكمت العالم العربى باسم الإسلام ، وأعيد له الاعتبار مع ظهور القومية العربية بالمعنى الحديث . وانتشى مع نجاح بعض الثورات فى بعض البلدان العربية ، لكنه تحطم وأخذ يتلاشى بعد ذلك . لماذا ؟ ربما يكون من بين الأسباب ما يلى :

أ - فشل هذه الثورات نفسها فى تحقيق عدد من أهدافها ، وكان هدف تعزيز القومية أو الوحدة العربية من الأهداف المشتركة لهذه الثورات .

ب - فى المقابل نجاح القوى المناوئة للعرب ، وبخاصة لأنظمتهم الثورية الجديدة فى تحقيق أهدافها .

ج - نجاح الأنظمة العربية غير الديموقراطية فى السيطرة على شعوبها ، بمختلف أشكال السيطرة ، وكان الكتاب والمبدعون العرب - ومازالوا - هدفا أساسيا فى كل عمليات السيطرة .

ونتيجة تدهور الإحساس بالتضامن والانتماء العربى انكفأت الأنظمة العربية

(*) رئيس دار الكتب والوثائق



الجامعة العربية

كل على نفسه ، وتحولت إلى أنظمة عنترية صوتية ، تنكرت حدودها الدولية التى لم تكن مؤثرة حتى القرن التاسع عشر ، وتحول الإخوة لمحاربة بعضهم البعض !! الجزائر والمغرب ، والسعودية واليمن ، مصر والسودان ، العراق والكويت .. وهكذا ..

٢ - تصاعد الاتجاهات الدينية المتطرفة وانتقالها إلى استخدام العنف المسلح ووسائل الإرهاب .

٣ - شراء أو قمع مفكرين وكتاب بأشكال مختلفة . والأخطر محاولات شرائهم أو قمعهم من قبل قوى ومؤسسات غير حكومية تحقيقا لمصالح هذه المؤسسات أو تطبيقا لآرائها أو سياساتها . وإذا كان بين هذه القوى جماعات متطرفة غير معترف بها فذلك مفهوم ومتسق مع أفكارها . أما نذير الشؤم ودليل التراجع الثقافى فهو موقف مؤسسات قضائية ودينية وإعلامية غير حكومية !!

٤ - والمحزن تراجع الفكرة المحورية للثقافة العربية الحديثة ، وهي فكرة القومية العربية ، التى نادى بها العديد من المفكرين والكتاب والسياسيين العرب ومنذ أوائل القرن العشرين وبخاصة ساطع الحصرى (١٨٨٠ - ١٩٦٨) وعبدالرحمن عزام (١٨٩٣ - ١٩٧١) ، وجمال

عبدالناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠) وميشيل عفلق (١٩١٠ - ١٩٨٩) . ونجح العرب فى إقامة مؤسسة مركزية تجسد هذه الفكرة ممثلة فى الجامعة العربية . وبينما كان حلم الوحدة العربية يراود كل مواطن عربى فى سنوات المد القومى والثورة فى النصف الثانى من الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن الماضى ، من يذكر الوحدة العربية الآن ؟؟ بل من يجرؤ على الحلم بها؟؟ بعد أن ضاع هذا الحلم بين نزعات العظمة الشخصية ، وأصابع مخابرات دول عظمى، وأفكار أيديولوجيات متعارضة، لكنها تتفق على نفى الوحدة العربية من اليسار الماركسى إلى دعاة إسلاميين أمثال محمد قطب ومحمد الغزالى وعبدالعزيز بن باز .

ولن أنسى عندما كنت منذ عامين فى مؤتمر ثقافى عربى وكتبت فى مشروع التوصيات عبارة «الوحدة العربية» فشطبتها سكرتارية المؤتمر !!

٥ - وبشكل عام تراجع مستوى الإبداع والنقد ، وتدنى مستوى الحوار والنقاش بين المبدعين والنقاد والكتاب . وسيطرت على كثير منهم الشللية والمصالح الشخصية وروح العداء والتربص والخصومة . وضعف ما كنا نراه أو نقرؤه من تجديد وثورة على المذاهب الفكرية والأدبية والفنية ، وابتكار أشكال جديدة فى الفن والأدب والكتابة .

٦ - تدهور مستوى التعليم العام والجامعى ، ولا أحد من المسئولين العرب يدرك خطورة هذا التدهور على المجتمعات العربية نفسها وعلى مستقبل شعوبها المظلم بسبب هذا التدهور ، ومن يدرك لايفعل مايجب فعله من إنقاذ لسبب أو لآخر .

● ● ●

لماذا حدثت هذه الانتكاسة أو ذلك التراجع فى وقت كان من المفروض فيه أن يحدث العكس ؟ لقد زال الاستعمار ، وتحررت الشعوب العربية، وازدادت ثروات الدول بظهور النفط وبعض العوامل الأخرى ، وأخذت كل الدول العربية فى تنفيذ مشروعات إنمائية بقدر أو بآخر ، وبشكل أو بآخر ، وتقدم العالم من حول العرب بشكل غير مسبوق فى التاريخ .

أسباب النكوص :

على سبيل المثال :

١ - تولت الحكم فى كثير من الدول العربية أنظمة ديكتاتورية أيا كان توجهها السياسى وشعاراتها .

٢ - لم تغير هذه الأنظمة ولا المؤسسات غير الحكومية ولا المجهودات الفردية تغييرا جذريا من تراث الماضى الثقيل .

٣ - بل إن الاستعمار نفسه لم يرحل تماما ، وإنما غير من شكله وأساليبه :

أ - بتحوله إلى الاقتصاد وتحكمه فى كثير من ثروات العرب برضاهم أو رغما

عنهم .

ب - ويفرض الحماية والتدخل العسكري، أيضا برضاهم أو رغما عنهم.

ج - وقبل ذلك بزرعه لذراعه في قلب العرب قبل رحيله ، وهي إسرائيل . هذا الذراع الذي تطلب من العرب لمحاولة مواجهته دون جدوى ، خوض ثلاثة حروب عسكرية في ربع قرن فقط ، وما تطلبه ذلك من نزيف مالي وبشري رهيب وشلل في نواحي مدنية استراتيجية في كثير من الدول العربية وبخاصة المحيطة بإسرائيل، وهي بالمناسبة الدول التي تخلصت قبل غيرها من الدول العربية من نير الاستعمار التقليدي ، والتي بدأت فيها محاولات التحديث والتنوير الثقافي ..

وبينما كان من المفروض أن يشكل تحدي الاستعمار وإسرائيل دافعا للأنظمة والمجتمعات العربية للتعجيل بالتغيير من أجل التقدم ، وبالتعجيل بالممارسات الديمقراطية الحقيقية ، والاهتمام بالبحث العلمي والتكنولوجيا ، وبتحديث المجتمعات العروبية ومحو أميتها وتغيير أفكارها وممارساتها المتخلفة .. إلا أن ذلك لم يحدث ، أو على الأقل لم يحدث كما هو مفترض ، والدليل : الواقع الذي نعاني منه جميعا ، ما عدا المستفيدين من هذا الواقع، في العالم العربي ..

٤ - أسلوب تعامل الأنظمة العربية مع المبدعين والكتاب والمتمثل في هذه المفارقة: أن كثيرا من هذه الأنظمة شجعت النشاط الثقافي في مظاهر متنوعة مثل النشر والمسرح والسينما والفنون التشكيلية والندوات وبخاصة المهرجانات .. لكن نسبة كبيرة من هذا النشاط الثقافي كان ذرا في الهواء ، لسبب بسيط هو أنه موجه، فمعظم المؤسسات الثقافية في العالم العربي تملكها الدولة ، والقائمون عليها موجهون ، والداخلون فيه يشعرون بهذا التوجيه ، ولا يمكن أن تنتظر حصادا حقيقيا في غير موسمه . ولا إبداعا حقيقيا بغير حرية حقيقية ، وليس تمثيل الحرية التي لاينفع معها التمثيل . كما أن المؤسسات الحكومية في مجال الثقافة لعبت دورا كبيرا في إتاحة الفرصة لكثير من المبدعين لتقديم إبداعهم بما لا يتعارض بالطبع مع سياسات هذه الحكومات ، بالإضافة إلى إتاحتها الفرصة للجماهير العربية للاطلاع على إبداعات عربية وأجنبية أخرى من خلال برامج التبادل الثقافي وبحكم الإمكانيات المادية للمؤسسات الثقافية الحكومية ..

٥ - لم تساعد الحكومات ولا الأفراد على إيجاد بديل قوي من المؤسسات الخاصة والأهلية يحول دون تراجع الثقافة العربية ويعمل على دفعها إلى الأمام ، ودخولها القرن الواحد والعشرين .

٦ - هذا يدعونا لمعرفة مسئولين آخرين عن هذا النكوص الغريب ، وهم للأسف من كان عليهم أن يقاوموا النكوص، ويدفعوا إلى الأمام ، بل ويثوروا على هذا الواقع . ألا إنهم كثير من الكتاب والمبدعين ، كيف؟:

أ - سمحوا لأنفسهم أن يوجهوا في

إبداعهم ، أو يوجهونه هم بما يخدم مصالح شخصية ، وفى كل بلد عربى بلا استثناء هناك كتاب يسودون الصفحات فى مآثر الأنظمة الحاكمة حتى ولو كانت مآثرهم فى الحقيقة مثالب ، بل ، وينظرون مبررين سياسات الأنظمة حتى ولو كانت ضد مبادىء التقدم والتطور الفعلى .. مما لم يضر فقط بمستوى الفكر بل بشرفه نفسه. سمحوا لأنفسهم بذلك طمعاً فى مال أو فى سلطة .. ضعف إنسانى مفهوم ومعروف عبر التاريخ ، لكنه يسىء إلى الواقع العربى وآماله فى المستقبل .

ب - انتشر الكذب والنفاق فى وسائل الإعلام ، بعد التحرر من الاستعمار ، يمارسه مسئولون حكوميون ، كما يمارسه كتاب وأدباء وفنانون ، بل وعدد من أصحاب المؤسسات الإعلامية الخاصة . وهذه طامة كبرى ، إذ تنشر بعض المؤسسات فى أحيان كثيرة ما يتعارض تماما مع ثقافة أصحابها ومعتقداتهم وممارساتهم الفعلية وانتماءاتهم لترويج وسائلهم وتضليل القراء بإيهامهم بأنهم ليبراليون حقيقيون . وبهذا تضيع الفوارق والسمات الحقيقية فى المجتمع المضلل بفتح اللام ، ويظن البسطاء من الناس أن ما يقرأونه يعبر عن حقائق من خلال حرية الرأى والتعبير، فيتكرس التخلف فى المجتمع العربى .

إذن هناك من يعمل على تكريس التخلف علنا ثم يتشدق بلا خجل أمام الناس ، وفى الأسواق بكل القيم التى يدوسها بحذائه .

ج - ومما يسىء إلى مستقبل الثقافة العربية أيضا هروب صفوة أخرى من الكتاب والأدباء بالانكفاء على الذات ، أو الانشغال بالفروع . وكذلك تعالى بعض آخر منهم باستخدام أساليب معقدة وغير مفهومة ، بحيث أصبح تعبير الثقافة عند كثير من الناس يعنى طلاسم عجيبة . وقد ازداد الأمر سوءا مع تراجع الإبداع والتفكير العربى ، واستلاب عدد كبير من الكتاب والمبدعين العرب فى الثقافة الغربية، واعتمادهم عليها - صدقا أو مظهرية - فى إنتاجهم ، وبخاصة فى تيارات الحداثة وما بعد الحداثة .

المتابع الواعى لحركة النشر العربية لكتاب عرب فى السنوات الأخيرة سواء فى الكتب أو الدوريات يلاحظ فى الأغلبية العظمى مما ينشر ظاهرتين :

أ - الاستشهاد بكتب وكتاب أجانب بشكل عام وغربيين بشكل خاص ، وفى أحيان كثيرة بلا داع موضوعى وبشكل مقحم على النص . فقط للاستعراض . ويحدث كثيرا أن يكون الكاتب ناقلا عن ترجمة عربية لأنه يجيد اللغة الأصلية المستشهد بنص منها .

ب - طوفان من الكلمات العجيبة وأساليب الصياغة الغريبة على لغتنا العربية والتى اخترعوها أو قلدوها للتعقيد والاستعراض ! بينما اللغة العربية غنية

بالكلمات والمصطلحات وأساليب الصياغة الواضحة الجميلة التعبير . لكنه مزيج من العجز والانتفاخ . وأنا لا أنكر إطلاقا الحاجة إلى استنباط كلمات ومصطلحات جديدة تواكب الزمن ومتغيراته المحلية والعالمية وتتصل بالثقافات الأخرى ، فاللغة كائن حى تعبر عن أحياء . وإلا ماتت مع الموتى . ولكن هناك فارقا كبيرا بين التقعير والاستجابة لمتطلبات الحياة . ويمكننا أن نعرف الفارق بسهولة إذا وجدنا فى لغتنا المعروفة ما يعبر عما نريد أن نعبر به ، وإن لم يكن جاز لنا ابتكار أو نحت الكلمة أو المصطلح الذى يستجيب لشرح المراد . وفى كل الأحوال تتم هذه العملية فى ظل ضوابط تحافظ على اللغة العربية ، وبشرط فهم القراء لها ، لأنه ما جدوى أن تكتب ما لا يفهمه القارىء . ومن المفروض أن مجامع اللغة العربية قيمة ساهرة على هذا الموضوع .

على سبيل المثال يكتب أحدهم فى مقالة واحدة ما يلى من تعبيرات : «محور الوجود فى زمانية الوجود» ، «عملية من التثاقف على هامش عملية التباني بين وعى محلى وسيط» «الحداثة التى تتحدد بذاتية الحداثة الإبداعية» ، «الدخول فى زمانية الحداثة وصياغة نهضتهم الثالثة التى تقرن الماضى بالحاضر فى لحظة الوجود المضارع» ، «إعادة قراءة وكتابة النهضة ، إعادة تحقيبها..» ، «نهضتنا كانت نهضة مرآوية ، صورية ، ولدت فى مساق متعال على التاريخ الحدثى ، فنتج عنها حركة من التثاقف والتناص الماهوى ، لئن أغنى العقل والبيان جزئيا ، فإن عكس فى سياقاته الأفهومية والدلالية التكسر المجتمعى والتطور اللامتكافىء والتباني المتخارج فى علاقة الذات بالآخر»!!

والله العظيم هذا الكلام السابق قرأته بالنص ولم أضف عليه حرفا فى جريدة عربية فى أحد أيام شهر سبتمبر ١٩٩٩ ، ولا داعى لذكر اسمها ولا اسم الكاتب .

والمصيبة أن صاحبنا كاتب التعبيرات والصياغة العجيبة السابقة كان يتحدث فى مقالته عن نهضة ثالثة للعرب . فكيف يقرأ العرب أصلا مقالته ليستفيدوا منها فى نهضتهم ؟

ويذكرنى النموذج السابق بمقالة طريفة ساخرة للكاتب محمود السعدنى فى مجلة المصور المصرية نشرها من نيف وعشرين عاما تقريبا يتهكم فيها على امتحانات طلاب المدارس فى مصر ، فكتب أن سؤالا فى اللغة العربية ورد فى امتحان للتلاميذ جاء فيه : «اكتب فيما لا يقل عن خمسمائة سطر فى الموضوع التالى : «تجعلق الخرطاف فى خردابه فتشوشن وتبعرط بعرطة شديدة» !!

لقد أصبحت هناك دوائر مغلقة من المبدعين تضم نقادهم الذين يشيدون بكل غامض مرتبك ويؤولونه كما يشاءون ، أصبحت تلك الأساليب هى الإبداع فى نظر شباب مقبل على الإبداع !! الأمر الذى أدى إلى فجوات بين كثير من المبدعين العرب وبين باقى فئات المجتمع . فجوات فى العلاقة بينهما وفى التعبير عن المجتمع أيضا . هذه الفجوات لايمكن أن تساعد بلاشك على دخول الثقافة العربية القرن الواحد والعشرين .

لوحات مصطفى عبدالفتاح:

بين الريف المصري وصحراء الجزيرة العربية

بقلم : محمود بقشيش

تمثل المراحل الفنية فى حياة الفنان علامات دالة فى درب طويل، تمتد شرايينه لتصل ما بين حياتين: حياة الفنان الفرد وحياة العصر الذى يعيشه.

ارتبطت لوحات فناننا «مصطفى عبدالفتاح» بمنابع مكانية متعددة، كان أولها قريته التى ولد ونما بها، إلى أن التحق بكلية الفنون التطبيقية، وهى قرية صغيرة من القرى المتناثرة بمحافظة الجيزة. وقد تركت تلك القرية آثارها فى لوحاته وإن اختلفت عنها فى المظهر بحكم طبيعة الاختلاف الحتمى بين قرية الواقع وقرية اللوحة الفنية.

وقد انتقل الفنان عبر رحلته الفنية من مثير جمالى/ مكانى إلى مثير آخر: أماكن داخل مصر، كانت القرية رمزاً لها - أحياناً - وصحراء شبه جزيرة سيناء - أحياناً أخرى - وكان دافعه إلى رسم الصحراء المصرية تلك الرحلات التى كانت تنظمها هيئة قصور الثقافة للفنانين، بقصد اكتشاف جماليات البيئة المصرية - وما أكثرها - وقد تركت تلك الرحلات آثاراً عميقةً فى إبداع بعض الفنانين، الذين انقسموا بتأثير جلال المشاهد البيئية إلى موقفين مختلفين: موقف «الناقل» الأمين وموقف «المستلهم لمعطيات المشهد المرئى، الذى



الرحيل

ترك نفسه تستضئ من قبس جماله. من الأسماء التي لمعت من الفريقين «دون تمييز» زهران سلامة وعزالدين نجيب ورضا عبدالسلام وأبو بكر النواوى وعبدالخالق حسين ومصطفى عبدالفتاح. وقبل هؤلاء جميعاً كانت لوحات «جماعة التجريبيين» تمثل مقدمة ممهدة لهذا الغزو الجمالي. وتجد لوحات «مصطفى عبد الفتاح» مساحة لها متاحة بين ما أسميه «لوحات الوجدان» حيث لا يحفل الفنان بوصف المظهر الخارجي للبيئة بقدر ما يكون ذلك المظهر ذريعة للتعبير عن جوانيات النفس، بهذا تصبح اللوحة - في جانب من جوانبها - أشبه بالوثيقة النفسية. التي تعبر عن صاحبها بلغة اللون والملمس والتكوين والإيقاع.

وإذا جاز لنا أن ننظر نظرة خاطفة، إجمالية أو ما يسمى بمنظور الطائر، قبل الدخول في تفاصيل العوالم التي قدمتها لوحاته المصرية ولوحاته في شبه الجزيرة العربية فإننا نقول: كانت لوحاته المصرية مفعمة بإيحاءات القلق، واختفى أكثره في لوحات الجزيرة العربية. وأظهرت تلك اللوحات وئاماً وانسجاماً مع بيئته الجديدة وقد امتدت فترة إقامته في «القصيم» أربع سنوات، عمل خلالها أستاذاً في كلية التربية.

القرية وتداعيات اللون الأزرق

إن لوحات القرية المصرية هي الحلقة الأولى في سلسلة التتابع. وهي قرية متخيلة وأليفة في آن واحد، لأنها تستضيف من الواقع الحي بعض رموزه وتحلق بها في آفاق الحلم. وتظهر صورة الحمار وقد اكتسب سمت المفكر المتأمل الصامت الصابر الحليم!».. وتسود تلك اللوحات فضاءات ليلية زرقاء، يلوثها اللون الأسود - أحياناً- ويجذبها إلى أشد الدرجات دكنة ويشغفها لون «التركواز» - أحياناً أخرى - ويلطف من جهامتها، غير أنه يفاجئ هذا الاسترسال الأزرق بومضات ضوئية تشع من النوافذ والأبواب أو تتسلل فوق الأسقف الواطئة راسمة حدودها المعمارية. وعلى الرغم من أن ستارة الليل الزرقاء قد غطت الأبعاد الفاصلة والواصلة بين «القريب» و«البعيد» فقد استطاع بلمسات بليغة ومقتضبة أن يوحي بأبعاد المنظور، ويزيد من ألق هذا المشهد الشعرى ظهور الهلال في كبد الفضاء السماوى، ويبدو في موضعه أقرب إلى أن يكون شاهداً كونياً. إن

ومضات الضوء التي تخترق العتمة تأتي موحية بالأمل، تؤكدها تلك الحليات المهندسة فوق البوابات. وتبدو قرية «مصطفى عبدالفتاح» أشبه بالأديرة الصحراوية المهجورة في البراري. وإذا كان الشئ بالشئ يذكر فإن قرية فناننا «مصطفى» تذكر بمرحلة بيكاسو المسماة بالمرحلة الزرقاء وقد وصفها نقاده بالمرحلة الحزينة، وقد تولدت تلك المرحلة من حادث مأساوي تعرض له صديق بيكاسو الحميم «كاساجيماس» وكان مصوراً وشاعراً أسبانيا موهوباً. وانتحر في عز شبابه في مرسم بيكاسو. وأصابته تلك المأساة باكتئاب عميق لم يخرجه منه إلا لوحاته الزرقاء الحزينة. وقد سألت «مصطفى عبدالفتاح» إن كان قد تأثر بمرحلة بيكاسو الزرقاء، فأنكر ذلك وأجاب بأن ليل القرية هو المسئول عن تلك الزرقة. إن الانتقال من الجذر الواقعي إلى تجلياته في العمل الفني أمر بالغ التعقيد ويستحيل متابعته متابعة معملية.

وأذكر أن الفضاءات الليلية الزرقاء والومضات الضوئية قد ظهرت في لوحاتي، وعلى الرغم من أن موضوعها المحوري كان «القرية» فلم تجئ زرقة لوحاتي من القرية المصرية التي كنت أزورها بين حين وحين. ولم تجئ من مرحلة بيكاسو الحزينة بل جاءت من تأملاتي الليلية الطويلة في فضاء البحر الأبيض المتوسط من شرفة منزلنا بمدينة بورسعيد. وأذكر أنني كنت أشاهد في طفولتي النّدابات وهن يصبغن وجوههن بالنيلة الزرقاء استعداداً لطقس الندب على الميت. كيف انتقلت مأساة «كاسا جيماس» إلى اللون الأزرق. وما هي الدروب المعقدة التي سلكتها النيلة الزرقاء لتستضيفها لوحاتي بعد عدة عقود. لقد كمنت الزرقة الليلية في ذاكرة «مصطفى عبدالفتاح» ولم تكشف عن نفسها إلا بعد سنوات من تخرجه في كلية الفنون التطبيقية وامتلاكه لأدوات التعبير الفنية. قد نستطيع أن نقول: إن في معالجته للضوء في لوحات القرية الزرقاء ما يشبه معالجة الفنان الفرنسي الحداثي «سولاج» للضوء، في لوحاته التي يغلب عليها التجريد، غير أن الناقد في تحليلاته المقارنة يجب أن يكون محاذراً من السقوط في عسف الحسم في أمور تتأبى على اليقين، وكل ما يرجوه الناقد من تحليلاته المقارنة هو تقديم صورة مقاربة للفنان وفنه.





أضواء المدينة

▶ من حياة البدو للفنان مصطفى عبد الفتاح

مرحلة البادية

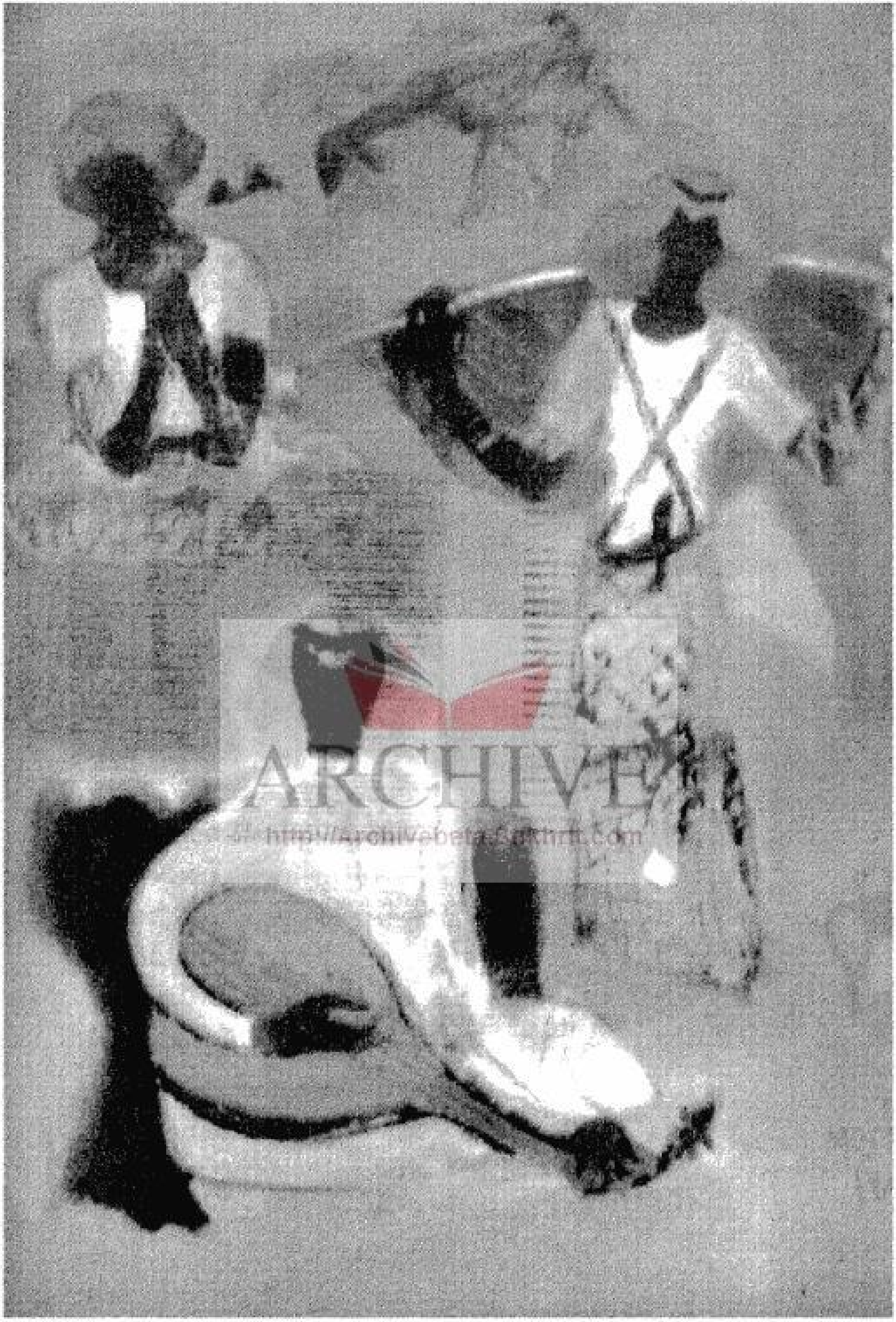
شهدت لوحاته التى أنجزها فى بيئته الجديدة «١٩٨٥ - ١٩٨٩» انفراجاً فى اللون وتغيُّراً فى الموضوع والمضمون، اختفت جهامة اللون واحتل مكانها لون «نهارى» مشرق، ظهر الأصفر والأحمر صريحاً، وظهر الأزرق بعد أن تخلى عن جهامته وصار شفافاً، سماوياً وامتزج الأخضر بالأصفر ليزداد بهاءه، وامتزج الأحمر والأصفر ليتناسل منهما البرتقالى لونا للدفء والألفة. وفى هذا البهاء ولدت موضوعات تحتفل بجلسات الطرب والسرور، يسودها الأمان والسكينة، وانعكس كل هنا على الطابع الرتيب، المغلق فى تكوين لوحاته، وقد أتاح هذا الطابع السكونى لكل عناصر اللوحة - سواء ما كان منها إنسانياً أو نباتياً أو شيئياً - أن يظهر بجلاء وذلك على النقيض من ضبابية اللوحات المصرية التى رسمها قبل السفر وبعد العودة وجهامة الأزرق فى قريته وقذائفه الضوئية المتناثرة عليها. فى لوحة بعنوان «إنسان وجامع ونخلة» نرى كل عناصر مشهده الروائى واضحة المعالم: فهناك طيف رجل بدوى يقف شامخا وسط ممتلكاته:

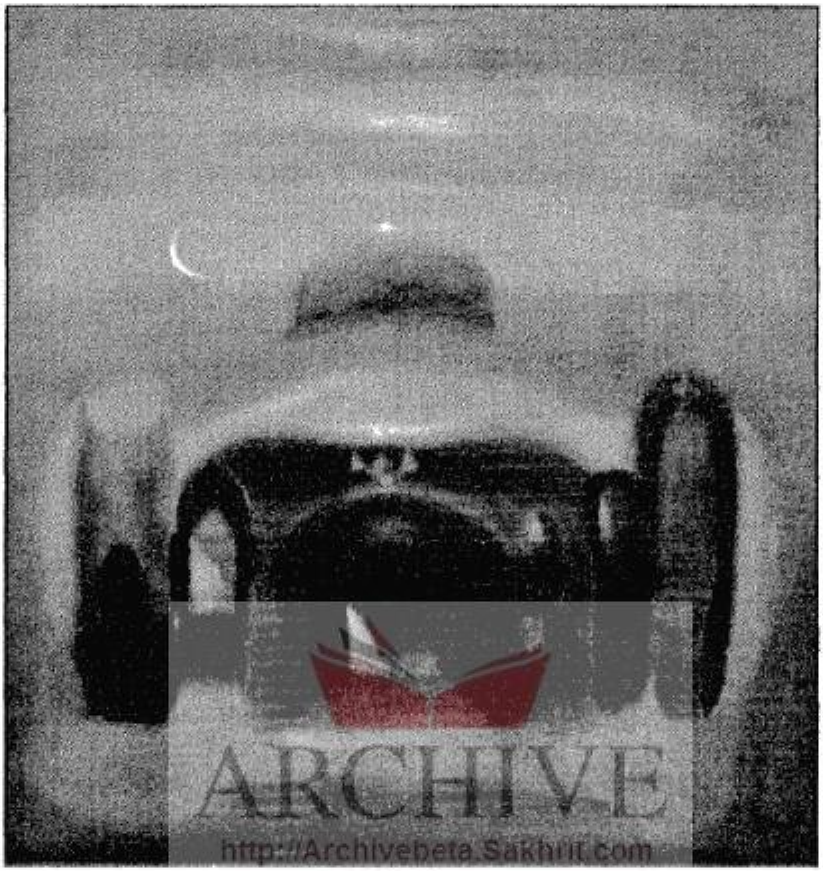
البيت، النخلة.. ومن خلفهما تظهر مئذنة جامع. كل عناصر اللوحة تماثل فى سكونها سكون «الطبيعة الصامتة» وإذا كان «الحمار» عنصراً محورياً فى لوحات القرية المصرية فقد احتلت مكانه فى لوحات الجزيرة العربية «العنزة العجفاء». ويبقى البيت في البيئتين عنصراً مستمراً وإن اختلفا فى المظهر الخارجى، فالبيت فى لوحات القرية المصرية اتسم بالتقشف وانغمس انغماساً فى العتمة، فيما ازدانت واجهات بيوت نجد بالزينة والزخارف الفطرية. واتخذ الفنان من تلك الواجهات فرصة لنقل بعض معالم البيئة الطبيعية، مثل النخيل والجمال والأهلة وكأنه يرسم لوحة داخل لوحة على غرار فكرة «المسرح داخل المسرح» ليميز الحقيقى من غير الحقيقى وإن كان الأثر الذى تتركه اللوحة فى الانطباع الأول هو التوحد بين الحقيقى والوهمى.

الرحيل

عاصر الفنان «مصطفى عبدالفتاح» الحملة الدعائية الضخمة التى أشعلها الإعلام المصرى حول مشروع «توشكى»،

تلك الحملة التى كان لها أثرها على بعض الفنانين، كان من بينهم «مصطفى عبدالفتاح» ودفعه حماسه لتأييد فكرة الخروج من الوادى الضيق إلى إقامة معرضين دارا حول موضوع واحد هو «الرحيل إلى توشكى». وإذا كانت الأحداث الكبرى فى مصر والعالم قد ألهمت فنانين من كل المدارس والأساليب الفنية، غير أنه لم يبق من تلك الإبداعات إلا أكثرها عمقاً وموهبة، فالأحداث الكبرى تحتاج إلى مواهب كبيرة للتعبير عنها، لهذا بقيت «جرنيكا بيكاسو» و«الحرية تقود الشعب لديلاكورا» و٢ . ٣ مايو لجويا ومن مصر «نهضة مصر لمحمود مختار» و«إنسان السد العالى لعبد الهادى الجزار» و«الخبز الحجرى لتحية حليم» وقد استلهمتها من النوبة. وعلى الرغم من النوايا الطيبة لبعض الفنانين المصريين الأحياء فإن أحداً منهم لم ترتفع موهبته إلى قامة مختار أو الجزار أو تحية حليم. لا يعنى هذا بالطبع المصادرة على أى محاولة أمنية حتى لو لم يكن صاحبها فى عبقرية «مختار». من هنا فإن تجربة الفنان فى هذا الموضوع تستحق التأمل، وأول ما يلفت النظر إلى لوحات «الرحيل إلى توشكى» هو خروجها من الطابع السكونى الرتيب الذى ظهر واضحاً فى لوحات الجزيرة العربية إلى حالة «ديناميية» استدعى إليها من الموروث الجمالى المصرى القديم الأساس التكوينى للجداريات المصرية القديمة: وهو اصطفاف «العناصر» المتوالى والمتراتب، وكان أول من استعار ذلك النظام التكوينى هو الفنان الرائد «راغب عياد». وإذا كان «راغب عياد» قد ألغى المنظور عامداً، حرصاً على المواءمة مع الجمالية المصرية القديمة التى كانت لا تعنى بالمنظور الثابت مثلما فعل فنانو عصر النهضة الإيطالية، وحاول «مصطفى عبدالفتاح» إيجاد طريق وسط يجمع بين الأساس التكوينى القديم والإيحاء بمنظور هوائى يقترب من منظور اللوحة التأثيرية، وأغرق فضاء لوحته بضباب لا يكشف - إن كشف - إلا عن حالات زحام وهرولة، لهذا اقتربت لوحاته عن توشكى من مذاق الرسوم التحضيرية والأفكار الأولية الطازجة التى تسبق التنفيذ الدقيق المتأنى.





القرية والهلال

▶ رقصة بدوية للفنان مصطفى عبد الفتاح

تجربة في المصادمة والمصادفة

بعد رحلة خرافية

في لوحات

عدلي رزق الله



بقلم : بدر الديب

فى رحلة طويلة مع عدد لا يكاد ينتهى من اللوحات التى قدمها لى عدلى رزق الله أدركت لأول مرة أن هناك لغة للون والحجم والشكل يعرفها الجسد، جسد المتلقى وجسد الفنان. وهل هناك فارق بين جسد الفنان وجسد اللوحة وهل هناك مسافة بين هذين الجسدين والمتلقى. من الذى يستطيع أن يجيب عن ذلك ؟.

كانت هذه اللوحات تجربة غريبة فى صناعة الحجم والشكل وكأنها عملية خلق أولية قبل أن تُسمى الأشياء وقبل أن يجلبها الرب أمام آدم ليسميها.

كل لوحة تبعث فى بدن المتلقى رعشة خاصة ليست هى رعشة المعرفة ولكنها رعشة اللقاء وكأنها ممارسة للغرام. وليس هناك أقرب فى الوصف لهذه اللوحات من أنها ممارسة جسدية الحجم وللون وكأنهما يصنعان علاقة جسدية.

وقد تميزت هذه اللوحات بمجموعة خاصة من الخصائص فهى فى حجمها الصغير تخلق هذه العلاقة الحميمة وكأنها حرارة البدن وهى تصنع فى معالجتها اللون. إذا كانت هذه معالجة، مصادفة اللقاء كنفس المصادفة التى يعانيها المرء عندما يلتقى فجأة بمن سيحب أو عندما يشرف فجأة على شروق شمس أو بزوغ قمر أو التماع نجم أو عندما يواجه فجأة بإدراك عمق الحياة و طبيعتها وقربها الشديد من الطبيعة ومن الحب ومن العلاقة الإنسانية.

هناك فى اللوحات ألوان تخلق الحزن وتصنع الفرح والبهجة ولكن فى كل هذه الحالات يحدث ذلك وكأنه نتيجة صدمة أو على نحو أدق لقاء وصدفة. وما هو الفارق بين الصدفة واللقاء. كل لقاء هو مصادمة ومصادفة وهو فى الآن نفسه إدراك وتبصر ووعى بما يحدث فى الجسم من رعشة.

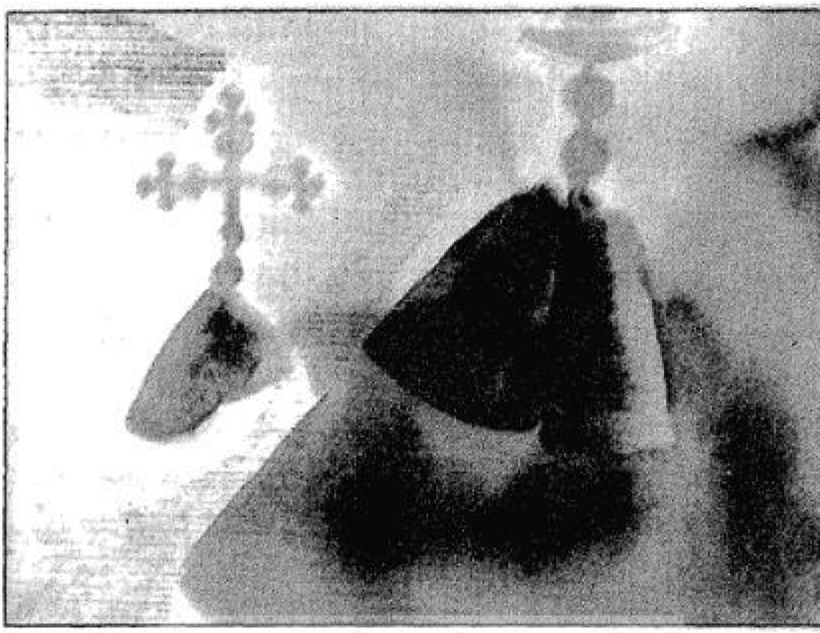
وإذا كان الغرام يمارس ولا يمكن وصفه أو تحديده بعد ممارسته فهكذا أيضاً يمكن وصف أو تحديد هذه اللوحات.

فكل لوحة هى تجربة جزئية لا تتكرر بل ولا يستطيع حتى الفنان نفسه أن يكررها أو أن يشرحها .

بعد كل لحظة للوحة مثل بعد كل ممارسة للغرام، لا يريد المرء إلا أن يستبقى التجربة ولكنها لا تبقى إلا مستقلة بعيدة عن المرء محفوظة فى اللوحة وفى مصادفة صناعتها.

فهل فى هذا وصف للوحات . طبعاً لا. إنه محاولة للاستبقاء لما لا يبقى إلا فى العمل الجزئى النادر نفسه . وكلما توقف المرء عن محاولة الوصف أو التحديد شعر برعشة اللقاء الأول مع اللوحة وهى نفس الرعشة التى يحسها المحب عندما ينال مايحب ؟

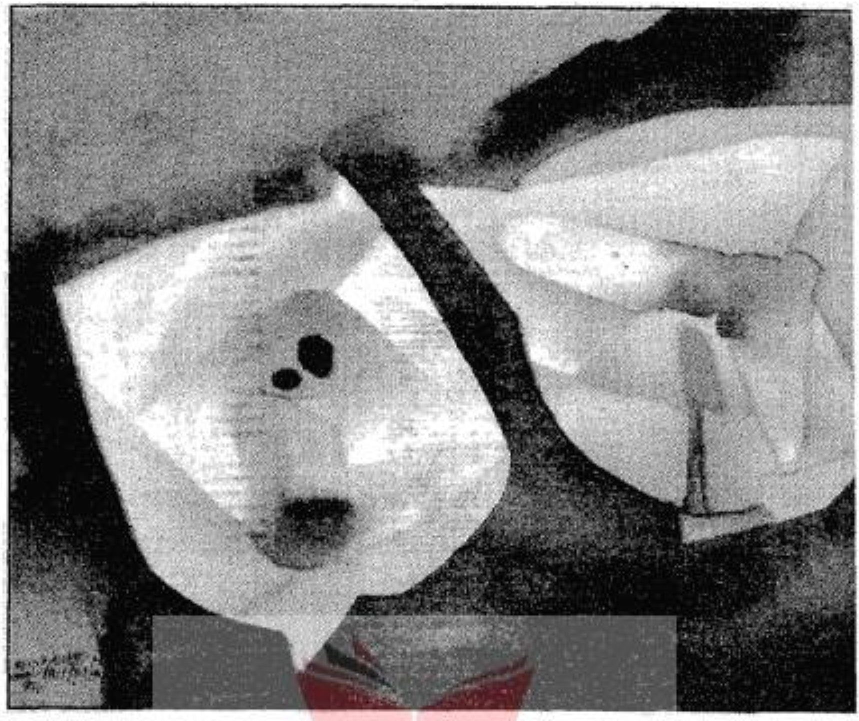
إن كبرياء الفنان فى صناعة هذه



مائيات عدلى رزق الله







مائيات عدلى رزق الله

اللوحات لا تعادلها إلا كبرياء الطبيعة نفسها عندما تحتفى بمعانى الغائية والوظيفة فى الوجود . وهل هناك أشمل من الوجود من استيعاب الغائية والوظيفة. ولا يمكن جمع هاتين الخاصتين إلا فى هذا الفن وفى هذه اللوحات الخاصة الصغيرة الحجم والخاصة فى اللون وفى شكل الأشكال المتعددة المختلفة التى تشملها كل لوحة.

ومجموعة المشاعر والانفعالات التى تحفظها كل لوحة فى حجمها الصغير تكاد تكون لا نهائية مثل الانفتاح المخيف للفن الذى يبدع ويواصل فى الإبداع دون أن تنفذ جدته أو حرارته ودون أن يفقد سر الرعشة الوجودية. فهل يتوقف الكلام أم ينهض المرء لممارسة الغرام من جديد مع اللوحات الصغيرة؟!.



قصة قصيرة

بقلم :
رياض بيدس - لبنان
بريشة :
الفنان : جودة خليفه

لا يعرف كيف وصل إلى العرس. مجيئه وصل، وصل، وهنا هو؟! هل حكي لا يتحكى، ما الذي جاء به إلى هنا؟! يبدو قلقاً وما يكاد لا يتعرف على نفسه، يدخل تحت انكاره الذي يكاد لا يهضم ما يحدث أمامه ألوان ممدودة، ثم يتذكر أن المنادي كان ينادي بمكبر الصوت داعيا أهل البلد عن بكرة أبيهم لحضور حفل زفاف خليل على عروسه سمية.

من يكون خليل هذا؟! ومن تكون سمية هذه التي لم ير صورة لوجهها من قبل؟! أمر يثير العجب. كيف يجرؤ على القدوم إلى عرس لا

يعرف أحد من أهله أو حتى أيا من مدعويه؟!. هل هو اللامدعو بامتياز؟! يعمل جهده على إخفاء ابتسامة هزء كادت تطفو على وجهه إثر تفكيره بلقبه الجديد «اللامدعو»، الذي يبدو أنه راق له. لقد تجنب دائما حضور الأعراس التي دعي إليها مرات ومرات. وها هو الآن يجد حاله في العرس دون سابق تخطيط أو إنذار.

شيء يحيره ويكاد يطيّر ضبان عقله! الاستغراب والاستهجان المرتسمان على وجهه بوضوح يغلّفان عليه. يعاود النظر إلى الوجوه: إنها وجوه باسمة مرحبة. لي أنا؟! يكاد يغلق عينيه ويفتحهما على وسعهما مشدوها مذهولا. الموسيقى الخفيفة تنساب. يدفن أفكاره وينصت إلى الموسيقى، دوزنات خفيفة لعازفين هواة كانوا يعزفون بخفة وسرعة من قبيل المرح والاستعداد. إنها مقدمات موسيقية لأغان يحبها.. الحب كله، وزي الهوى، وأنت فين، والحب وين. يجفل ملتشا كمن يصحو من سهو مزمن على صوت قوي.. ثمة من يناديه.. ينظر إلى مصدر الصوت.

إنهما والدا العريس والعروس. أمن المعقول أنهم ينادونني أنا؟! منذ متى صاروا يحتفون بالحضور إلى هذا الحد؟! ومن مثله يعرف كيف تسير الأمور هنا؟! يتوجهون قليلا بعد أن يشفطوا النقوط وهذا هو.

وفي البيت، بعد انتهاء السهرة، يفردون مظاريف النقوط. إذا كان النقوط مش قد المقام يشقعون المنقّط الخسيس الواطي ببعض المسبات أو يسلقونه بألسنتهم الحادة كالشفرات، طبعا حسب المبلغ في المظروف.

الصوت يعلو مرة أخرى يناديه باسمه. الله، ما هذا؟! يكاد ينفجر معتذرا: «ارحموني يا جماعة الخير، حلّوا عني . شوفوا حدا غيري، أنا لست من أصحاب العرس. الحق مش عليّ، الحق على رجليّ اللتين أوصلتانني إلى هنا، والله العظيم هذه هي الحقيقة». «إلا أنه أمسك عن التفوه بهذه الكلمات وقال مبغوتا حييا: «مجرد سمعت النداء في الميكروفون فجئت.. المعذرة» . العريس والعروس والآباء يرددون بصوت واحد أجمع على استنكار ما قاله: «اسمع أسمع، ماذا تهرف؟! أنت من أصحاب العرس.. أهلا وسهلا».

يتفحص المكان حوله، خوفا من أن يكون التأهيل والترحيب الصادر عن أهل العرس إلى شخص غيره، لكنه لا يجد إلا نفسه في تلك المساحة الصغيرة التي يقف عليها مسمرا، لابد أن الكلام موجه إلى حضرته وليس إلى حضرة أحد غيره.

العريس والعروس يكادان يصيحان فرحا : «لماذا تتأبى منا؟! مالك هيك مش على بعضك؟! لم لا تتقدم منا؟!.. العرس عرسك والفرح فرحك». حتى أنهم يعرفون اسمي أيضا. لكنني لا أعرفهما من قبل

ولا أعـرف أحـدا من المدعـوين أيضـا. أمن المعقـول أننى لا أعـرف أحدا وثمة من يعرفنى. لا بل إنـهـم ينـادونـنـى باسمى؟! ما الذى يجرى لى هنا؟!

يتوقف عن التفكير. بعـد أن يترك العريس والعـروس وأباهما الطاولة التى يقفـون إلى جانبهـا مستقبلين المدعوين للمبـاركـة ويتـقـدمـون منه. يصافحونه بحرارة. مالك تبدو مستغربا؟! منذ دخلت ونحن نقـول لك العـرس عـرسك. يصافحهم واحدا فواحدا مستهجنا مستشعرا فرحا خفيا لم يشعر به من قبل.. البهجة تتسلل إلى نفسه تدريجيا، رغم حذره واحتراسه من أن تكون تلك البهجة ليست إلا خيبة أخرى من تلك الخيبات التى تطارده دائما وتكويه كيّا . خيبات متلاحقة تهد البدن والروح.

يتهاوى احتراسه متهشما ولا يسيطر على نفسه. يردد فرحا منطلقا مستبشرا خيرا على غير عادته: «اعذرونى ، إلفرح فـرحى.. اعـرف هذا!» ويردف معتذرا أنه اعتقد للوهلة الأولى أنه أخطأ فى العـرس ووقع على عرس آخر . عرس آخر؟!

متى كان يحضر الأعراس وأفراحها؟! ضحكوا منه مرددين: «أحلى شىء هو أن نشوفك فى عرس. وأى عرس؟! عرسنا ! يا ألف أهلا وسهـلا. «نورت العرس» وكاد ينطق لسانه بما يعتمل فى قلبه من أن العرس منوّر معه أو بدونه إلا أنه لجأ إلى الصمت. ثم قال مترددا: «لم تصلنى الدعوة.. ربما تصلنى بعد أسبوع على انقضـاء العرس. البوسطجى واحـد كسلان».

يضحكون منه مرددين بصوت واحد ، كما لو أنهم كانوا يعرفونه منذ أطلق صرختـه الأولى فى الحياة: «دائما كان مزحك حلو ومر» . حلو ومر ؟! متى كان يمزح معهم ؟! يتنفس الصعداء بعد أن يتلو الأعذار لهم بوضوح شديد . يحدث نفسه قائلا إن الوجه الذى يعرفك أحسن من الذى تعرفه ، ويهوّن على حاله أنه ما من خطأ فى ذلك ، ومع هذا، فإنه يعرف تمام المعرفة أنه لا يعرف احدا .

وكأن ذكرى مؤلمة تعـود إلى ذاكـرته المشحونة بالانشغالات الطارئة فجأة ،فإن توازنه يختل أكثر مما هو مختل حين يتذكر أنه صافح العريسين بيد خاوية وقلب واجف . كانت جيوبه فارغة .. لو حمل نفسه وكت حاله لما سقط منه قرش واحد ! يحضر بدون دعـوة ، والآن يكملها بأن لاينقط؟! ليس من المعقول أن يحضر عرسا بدون نقوط. سيشرشحونه ويعزرونه ويشرون عرضه . عزارة وعليها شهود.

والد العريس يقطع حبل أفكاره : «انت من أهل البيت وربعه» يهز اللامدعو رأسه مؤمنا على هذا الكلام باذلا أقصى جهده ليتناسى النقوط متشاغلا بتصفح الوجوه دون أن يفلح فى التعرف على أحد من أهل

البيت أو من الحاضرين. يعود أهل العرس إلى طاولاتهم الإيقاع يحمى ليحمى الجو معه. هذا العرس يختلف عن باقي الأعراس. الفرقة الموسيقية لاتترك مجالا لأحد أن يبقى جالسا. المغنى الشاب يقول بصوت حازم: «يا جماعة، السهرة ليست من أجل القعود وشرب الخمر، وأكل الشواء. إنها من أجل الفرح والرقص».

الطاولات المليئة بشتى أنواع الأطعمة المختلفة من شواء إلى حمص وكبة وتبولة وفول وترمس ومازات أخرى تفتح الشهية على احتساء العرق وغيره من المشروبات تترك إلى حين.. ينتبه إلى الحلبة، فيراها تغص بالراقصين والراقصات الذين يكادون يرقصون رقصة واحدة تبدو غريبة عليهم وعلى أجسادهم وعلى حركاتهم، فتظهر أجسادهم فى ناحية ورقصهم فى ناحية أخرى، كما لو أن أجسادهم كانت تصر على ملاحقة ومطاردة حركات ليست صادرة عنها بل هى مستحضرة من كون آخر لا يمت إليهم بصلة.

يسارع بإلقاء نظرة إلى المقاعد، فيلفاها مهجورة تماما. كل المدعوين كانوا فى حلبة الرقص. يسقط على اللامدعو مزيدا من الحرج الشديد. إنه لا يجيد هذا الرقص ولا يجد أية رغبة فى نفسه تستحثه على تقليد هذه الحركات الغريبة عليه. ماذا يفعل؟ هل يستوعب ما يحدث له وحوله؟! ينظر ثانية.

الكل يتمايل ويرقص متخاوعا. غريب. كيف اتفقوا وأجمعوا جميعا على الرقص رغم أنهم لا يتفقون ولا يجمعون على شىء واحد؟! ومع أن الراقصين كانوا فى غاية الحماس والانتشاء، فإن الرقصة لم تكن سوى رقصة باردة متشابهة إلى حد عجيب وكئيب. ألا يشعرون بهذا؟! ولم يلفت انتباهه من بين جميع الراقصين سوى ختيار فارع الطول يرتدى قنبازا وحطة وعقالا.

للحظات يظن أنه أبو خالد صديق أبيه الحميم، إلا أن ظنه يتهاوى بعد أن يتفرس فى ملامح وجهه البعيدة ليتضح له أنه لا يعرفه وأنه يشبه أشخاصا كثيرين عرفهم أيام زمان.

فى الماضى كان هناك الكثيرون من أمثال هذا الختيار المتميز بلباسه العربى التقليدى والذى يبدو الآن، مقارنة بكل الحاضرين، كما لو أنه كان قادما من عالم آخر. يتجلى الختيار راقصا رقصته لوحده. الكل يرقص الرقصة الوحيدة الغريبة وهو يرقص رقصته التى تختلف عن رقصتهم محلقا مسلطنا.

كانت أطراف الختيار تتثنى بسهولة ووجهه يرشح عرقا والعصا القديمة المليئة بالمسامير ولصوقات البلاستيك تتحرك فى يده مشيرة إلى أنه يتقن الرقص الذى لم يعد يتقنه أحد سواه. كانت كل حركة من حركات هذا الختيار تدل على أنه سيد من

أسياد الأعراس القدامى، عندما كان العرس عرسا حقيقيا. أهذه أعراس وأفراح؟! ومع هذا، كان الختيار لا يجد غضاضة في أن يرقص الجميع رقصا يخالف رقصه. بالعكس، كان يوزع عليهم الابتسامات العريضة دلالة على أنه قادر على مشاركتهم الفرح حتى النهاية دون أدنى تذمر أو اعتراض من جانبه. وبقدر ما كان رقصهم النابع عن حماسة كبيرة يبدو فاترا غريبا، فإن رقصه شبه البطيء والمتئد كان يظهره أكثر حيوية وحماسا منهم ومن رقصتهم الواحدة الرتيبة التي تكاد لا تتغير ولا تتبدل، حتى وإن تغيرت أو تبدلت فعلا.

إلى جانبه كانت تقف امرأة كبيرة في السن تتوهج حماسا وتضع على رأسها منديلا مطرزا مائلا إلى الأمام من الناحية اليسرى مغطيا طرفا من جبهتها السمراء المليئة بالتجاعيد العميقة.. كانت هذه المرأة تصفق للختيار بحرارة ووجهها يشع حبا وحياة وفرحا. كان الختيار الفخور يبادلها نظرات العشق والهيام .. من المؤكد أنها زوجته، إذ ليس من المعقول أن تبادله كل هذا الحماس وهذه النظرات لو لم تكن زوجته. تغني له بصوت جميل عال: «يا شب ياعيوق ما أحلى حركاتك.» ثم تطلق زغرودة قوية مجلجلة لايكاد يصدق أحد أنها صدرت عنها. وتشارك الختيار الرقص مبدية قدرة فائقة على معرفة كل حركاته والتجاوب معها بتلقائية وعفوية، مما جعلهما يبدوان وهما على تلك الحال كما لو كانا يسبحان في بحر صافي المياه خالقين رقصة حب وتآلف وانسجام بسيطة وعصية على أي تقليد. إنهما يعيشان عرسا أبديا يتجلى الآن واضحا. من قدهما ومثلهما؟!

يحوّل اللامدعو نظره عنهما خوفا من أن يحسدهما. يقع بصره على الراقصين الآخرين. لا شيء يعكر صفوهم. مازالوا على رقصتهم. هذا أعجب عرس يراه.. لا، بل يحضره.. إذا لم يكن هو الذي يحضره، فمن هو الذي يحضره إذن؟! يكاد يتحسس نفسه ليتأكد من أنه أحد الحاضرين. لا يملك وقتا لذلك. تسحبه يد بسرعة دون أن تمهله ليفكر أو يتحقق مما يجرى. إنها يد رقيقة لدنة. يجد نفسه في الحلبة مع الراقصين. يفغر فاه. يذهل من حجم المفاجأة الجميلة.. إنها هي.. هي بعينها. وليس غيرها. يكاد لا يصدق ما يجرى. كيف حدث كل هذا؟! هل أحست به أخيرا؟ هل عرفت بحبه الصامت لها؟ هل أدركت مكنونات قلبه؟ لم يجرؤ ولا مرة أن يفاتحها ولو بكلمة .. لم يجرؤ أن يصبّح عليها بالخير. السلام والصباح لله. هذا ما كان يسمعه دائما من ختيارية البلد. لكن كيف يصبّح عليها خيرا هكذا من الباب للطاقة؟! هذا ليس السبب الحقيقي.

السبب الحقيقي أنه كان يفقد القدرة على النطق عندما كان يراها.

وكــان كلمــا ينوى أن يقاتحها أو يصبح عليها يضطرب ويحمرق ويعلق لسانه وتتعالى دقات قلبه. الآن جاءت من حــالهــا. يتــأملهــا فــرحــا وهو يراقــصــهــا . إنهــا هى بعـينهـا وفـجـأة تأخـذ المنغصات بالظهور. لماذا يخطر على باله الآن شبح الموت الذى كــان يخـيـم على أجواء البيت؟! إنه لا يريد أن يعـود بذهنه إلى ما يخيفه أو يزعجه أو يشله. لم لا يرقص الآن وكفى؟! لم لا يترك شعور الموت الذى عذبه جانبا؟ لابد أن أباه بخـيـر. لا ، لن يحدث شيء. ما هذه الهواجس المخيفة التى تساوره بأن أباه معرض للموت كل لحظة؟! الموت، هذا الغــول المرعب الذى يقض مضجعه ونهاره وكل حــيــاته. منذ سنين. وهو يعـيش رعـبـا قـاتلا بأن أباه مــوشك على الموت فى أية لحظة. قــد يحــدث هذا أثناء لحظة فــرح. مــا العــجب فى الأمــر؟! هذا وارد جدا. إنه دائم الانشغال بهذا.. لا ، لا. مــا هذه الأفكار السوداء التى لا تبارحه ؟

هل وجدت مستقرها الآمن عنده؟

سنــاء تهــــزه وهـو يرقص بحــركـات خرقـاء: «اصبح! أين أنت؟!» يفتح عينيه على وسعهما مــــذهولا من أن التى تراقصه هى سناء التى أحبها من كل قلبه. إنها هنا، وأنا هـنا. أرقص.. يا الله مــا هذا؟! هل هو حلم أم علم؟! يكاد يمسح عينيه ليتأكد مما يراه. لكن أمورا كثيرة تتغير على نحو فجائى ولا تترك له فـرصــة لأن يفكر أو يتحسس نفسه متأكدا من أنه هو نفسه حقا وليس أحـدا آخـر. وهل يجرؤ أحد غيره على أن يلعب دوره إلى هذا الحد من الإتقـــــان؟! يكـاد يضحك من نفسه جراء هذا التفكير العابر. سناء تسحبه من يده. يطلق ضـحكة فـرح مــا كــان يعـرف أنهـا كــامنة فى أعـمـاقـه وأنه قـادر على إطلاق عنانها لتسبح فى الفضاء. ينظر إلى طاولة العريس والعـروس، فـلا يراهما. انهما ليسا فى الحلبة.

سناء تشده من يده قـائلة بفـرح: «تعـال!» يسـأل محتارا: «أين أهل الفرح» ؟! لا تهتم ، تقول سنـاء :«هـذا الفـــــرح فرحنا» . الفرح فرحنا؟! تنطبع امــــــارات الاستغراب على وجهه. يتذكر المنادى والأسماء التى ناداها ويقـــول بذهول: «اسمنا لم يذكر بالمرة» تقول سناء : «هذا ليس مـهـمــا». ينظر إلى أهل العروسين، فلا يرى أحدا . لقد اختفوا . هل من المعقول أنهم تركوا العرس واختفوا؟! ينظر إلى حلبة الرقص. مازال المدعوون يرقصون. ما من هدنة. المغنى يتوقف عن الغناء ثانية قـائلا بحزم: «يا جـمـاعـة . القــواص ممنوع هذا فــرح مش حــرب. ومش كل مرة بتسلم الجرة ، «وتـابـع بمـزح ممـزوج بجـــدية «أنا مــا بدى أموت». لا يعيره أحد من الراقصين أدنى اهتمام، وأمعنوا فى الإعراض عن قوله بإيحائهم له أنه حتى لو حـصل وأن توقف عن الغناء وسكتت الموسيقى تماما فإنهم لن يتوقفوا عـن الرقـص. إلـى هـذا

الحد؟! وأكثر من هذا.. أنهم بغنى عنه وعن غنائه وفرقته إذا زادها.

ورغم إعراضهم عن سماع ما قاله المغنى الذى شعر باستخذاء، فإن أحدا لم يطلق عيارا ناريا واحدا. الرقص كان هو المهيمن والطاغى. يتابع المغنى الغناء بصوته القوى شبه المبحوح. يخرج اللامدعو من ذهوله الذى توشى بفرح نادرا ما اعتراه. آه، أين أنت أيها الفرح؟! يسأل نفسه سعيدا مبسوطا . تتتالى الأمور مرة أخرى على نحو يخلو من أى تسلسل أو تتابع أو ترتيب منطقى. لا يعرف كيف حدث كل هذا مرة واحدة.. فجأة يجد اللامدعو نفسه مرتديا بذلة عرس وسناء تقف إلى جانبه. العرس لنا؟

للحظة ينوى اللامدعو إطلاق صرخة فرح، إلا أنه يتمالك نفسه متذكرا أنه هو وسناء احتلا مكان العريسين السابقين وخاطب نفسه باستياء ، كنت لا مدعوا أو حتى دخيلا فأصبحت عريسا لسناء التى تقف إلى جانبى سعيدة تتسلم النقوط فرحة مبسوطة . يكاد يتملكه غضب شديد يخرجه عن طوره. أنا أعمل سهرة وآخذ نقوطا؟! هذا مستحيل. واحتل عرس الآخرين كمان؟! كيف يحصل كل هذا؟! منذ قليل كنت لا مدعوا مترددا إلى عرس لم أدع عليه ولا أعرف أحدا من أهله ، والآن غدوت عريسا؟! هذا لا يصير.

يفاجأ اللامدعو وهو ينظر إلى الفرقة الموسيقية. صوت المغنى يضعف.. يتضاءل.. يكاد يتلاشى .. يبدو المدعوون متعبين دون أن ترشح جباههم بنقطة عرق واحدة. أنهم يرقصون رقصا بطيئا الآن. انهم على وشك الاستعداد لأن يكفوا عن الرقص. هدنة؟! ربما ، أو استراحة قصيرة . بعدها يستجمعون بقايا طاقتهم ويلهبون أرض الحلبة رقصا باعثا على الملل والضجر. يتباهون ويتفاخرون برقصهم، يزدادون فخرا وتيها حين يعترفون أمام الجميع أنهم يستطيعون الرقص لساعات وساعات بدون موسيقى. أجل، بدون موسيقى أو غناء. وهذا ما كانوا يفعلونه الآن.

يبدو رقصهم مضحكا . ينظر اللامدعو إلى فوق. أجل إلى فوق. كيف تغيَّر المكان بهذه السرعة؟! منذ قليل كان الفرح على أشده. يغمر الحزن وجهه. أنا الذى عشش الحزن فى حياتى كنت فرحا. يتحسس نفسه.. لم أعد عريسا..

يقف مع الواقفين الآخرين الذين أمسكوا عن الرقص متطلعين إلى فوق. كانت أرض الحلبة مستوية، فيما كانت الفرقة الموسيقية تحتل مكانا عاليا شبيها بقمة تلة وكان عازفوها يعزفون بقوة، وكان المغنى المتضائل يغنى بكل قوته دون أن يصل صوته إلى أى مكان . كانت بعض أجساد الراقصين تتحفز للرقص. إلا أن ابتعاد

الفرقة الموسيقية والمغنى حالا دون ذلك. هذا امر لم يحدث من قبل أبدا. من حقهم أن يديروا ظهرهم للمغنى أو ربجه قتلة جامدة إذا تسامح أو لم يعجبهم، لكن أن تبتعد الفرقة هكذا. فهذا غير مقبول ومرفوض بالمرة.

أحد الأشخاص يصرخ غاضبا: «ليس من المعقول أن تغنى الفرقة ونحن لا نسمع». يرد والد العريس خائفا: «اعذرونا يا جماعة. لم نتوقع أن يحدث مثل هذا الأمر المخيف، ولم نعرف كيف صار. لكن لنصلّ أن ترجع الفرقة إلى مكانها بيننا. تعلو الأصوات غاضبة منددة، فيما يلوح المغنى بيديه مغنيا وطالبا النجدة من الحضور.

يصرخ أحد الأشخاص مشيرا إلى الفرقة والمغنى: هذولا كلاب. ما لازم حدا يساعدهم. تركونا وزنقونا في عزها وحماها.. الله يلعنهم دنيا وآخرة» واختلطت الأصوات مرددة شتائم مقذعة ونابية، لتخترق الآذان وأجواء المكان. ثمة من يرتد بصوت شبه باك متوسلا: «ارحمونا يا جماعة، الغلط ما هو غلطنا ولّ، احسبوا العرس هو عرس واحد من أولادكم.

ينظر اللامدعو صوب صاحب الصوت، فيتبيّن له أنه والد العريس. يبدو العريس والعروس مسرسبين من الخوف.. راح العرس والفرح والطبخ والنفخ؟! يحاول الأهل أن يهدئوا المتقاتلين. يتدخل الختيار محاولا أن يفسخ بين المتخاصمين قائلا بصوت جهورى وقور: «يا جماعة الخير. يا أهالينا، يا حبايبنا. عيب هذا اللى عم بيصير. شو رايح يقول عنا المعازيم الأغراب؟! إحنا أهل وفى بيننا عيش وملح وأكثر من هيك كمان». إلا أن صوته ضاع فى زحمة الصراخ والزعيق، وتقدم منه أحد الشباب الغاضبين وكسر عصاه بتحد. فتفتت العصا إلى شقف صغيرة.

يحدق الختيار الى اشلاء عصاه بعينين حزينتين شبه دامعتين ويوشك ان يهجم على الشاب المتخنصر أمامه بتحد فاتكا به. إلا أن رحمته الكبيرة سيطرت عليه وقويت على غضبه المحتدم العارم وأخذ ينظر إلى بقايا عصاه بحسرة وبقلب كسير، وانسحب من السهرة - الطوشة - لا يلوى على شيء. يتأزم الوضع أكثر وأكثر. تتكون جاهة حالا. تحاول إصلاح ذات البين.

بعد مشاورات قصيرة لا تدوم سوى دقيقة أو دقيقتين تؤثر الجاهة درب السلامة وتسرع إلى الاختباء تحت الطاولات بعد أن تتطاير شظايا القنانى والصحون فوق رؤوسها من كل الجهات. يتقدم المغنى من الناس جاعصا معرما نافشا حاله كديوك المزابل، «انفرجت انحلّت مشكلتنا وخلصنا من العلقة التى علقناها وعدنا إلى مكاننا.» ثم يتابع بصوت كله استغراب واستنكار مما يرى: «يا جماعة هذا فرح». وما إن فرغ المغنى من قوله هذا حتى سارع

بالانحناء وحتى الزحف تحت الأقدام مداريا شظية قنينة طائشة طارت من جانب أذنه اليمنى وكادت تترك كدمة ابدية في رأسه أو حتى ترديه قتيلا في حال إصابته . يصرخ المغني خائفا بصوت شبه باك «أي لاعمر ما حدا غنى ولا فرح !» ويرمي الميكروفون في الفضاء ويطير راكضا .

كان كل هذا يجري أمام عينيّ اللامدعو على نحو سريع مستصعبا استيعابه . الحقيقة أنه لا يريد أن يستوعبه لما في ذلك من خيبة والم ومرارة .. يماطل ويسوّف .. لكن لامناص من ذلك .. يشعر بأسى شديد ، ويأخذ الفرح القليل الذي كان برعما في داخله منذ قليل بالزوال . أين سناء ؟

ينقل بصره حولة فلا يراها هي الأخرى اختفت؟ ! أناس يدبون الصوت . الطوشة تحمى شرطة . مسلحون بهراوات يحضرون . على من سيقبضون ؟! ترتجف قدما اللامدعو تحته أرجو ألا يقبضوا عليّ انا الذي لا أعرف إذا ما كنت قد حضرت العرس مع دعوة أو بدون دعوة وصفن مفكرا قليلا ، هل دعوا أهالي البلد بمكبر صوت ام كان تهيأ لي ذلك ؟! فضيحة إذا جئت حتى بدون دعوة مكبر الصوت أيضا . من أين خطرت له فكرة مكبر الصوت المعلق على سيارة بيجو قديمة يدعو بواسطته مناد كل أهالي البلد لحضور العرس ؟! انتهت هذه العادة .

يبدو الامتعاض واضحا على وجهه ينفض فكرة مكبر الصوت التي يتأكد من أنها لم تكن أبدا جانبا . ينشغل بما يجري أمامه ، ألا يكفي هذا ؟! هل استكثروا علينا فرحا لم نكد نستشعره ؟! لا، لا، انا لا أحضر الأعراس . لادخل لي في الطوشة . تئز شظية قنينة فوق رأسه يصاب بالذعر . ألا يكفي ما يحدث ؟! هذه كلها ليست أعذارا مقنعة . من حضر السوق باع واشترى . لن يكون مختلفا عن الآخرين الذين يداورن الشظايا . تنقض عليه الشرطة لتقبض عليه وتقوده مع آخرين لا يعرفهم . يوشك أن ينفجر قائلا إن هذا كابوس حقيقي، إلا أن قبضة الشرطي الضخم الجثة كانت له بالمرصاد، فيؤثر صمت السلامة .

ماذا فعلت يا ربي تحت سمائك حتى عاقبتني كل هذا العقاب؟! هل هذا عدل؟! وقبل أن يخطو مغادرا الحلبة ينظر بعينين حزينتين إلى حيث كانت الفرقة والحلبة ليستعيد ذكرى سناء والفرح، إلا أن الخوف يسيطر على كل حواسه ويشله .

يجيل بصره حوله وفي كل مكان ،فيوقن أنه لا وجود لأية شرطة تقوده هو أو غيره . وكما لو أن كل شئ انقلب، فإن المدعوين لم يكونوا يرقصون ، بل كانوا يقفون واجمين مقطبين، فيما لايأتي والدا العريس والعروس بأية حركة . كان الحزن العميق يشمل الجميع أين الفرح؟! ما الذي حدث ؟! قبل قليل كان الفرح على أشده، وكان فرحه الشخصي الذي لم يذق له طعما من قبل يغمره صحيح ، أخذه وقتا حتى

استوعب ما يحدث له، لكنه أدرك أخيرا أنه من أهل الفرح ، إذن كيف تخربطت الأمور وعادت حياته إلى سابق عهدها وتخلى الفرح عنه ؟! ولا يمكن ...يردد لنفسه . يلقى نظرة على المدعوين،فلا يراهم كمدعوين .

كذلك لم يبد اهل العرس كأهل عرس ، بل بدوا اشبه بأهل حزن . والفرقة الموسيقية لم تكن هناك . لايريد أن يصدق ما تراه عيناه قلبه يدق بسرعة . هذا ليس عرسا ولافرحا . لاحاجة للتفكير كثيرا . كل شئ يبدو أمامه جليا وواضحا. كل ما عليه هو أن يفتح عينيه جيدا ليرى الأمور على ما هي عليه وليس كما رآها أو كما يراها. على الحلبة حيث كانت الفرقة الموسيقية والمغنى كان هناك تابوت . يصاب بذعر حين يتأكد على نحو قاطع أنه تابوت وليس صندوقا عاديا .

أرجو ألا يكون قد حدث ما لم يكن متوقعا. من القاتل ومن المقتول؟! وهل جرى القتل دون أن ينتبه له أحد ؟ هل اطلق احد عيارا ناريا وقتل المغنى وتحول الفرح إلى مأتم؟ هل قتل أحد ما ؟ وهل علق هو ؟! كانت مجموعة من النسوة يتحلقن حول التابوت وهن ينـدبـن دون أن يصدر عن أفواههن أى صوت .

لم تعد الحلبة معلقة في الاعالي كما كانت ، بل تفرقت وحل محل أعضائها الذبابات .. باستطاعة أى من الحضور النظر إلى التابوت ليرى أنه خاو تماما ، أين الميت ؟! يفنجر عينيه مرعوبا كاتما دبة صوت عميقة كانت تعيش فيه منذ القدم . يخلد إلى الصمت الحزين عندما يتمخض أن الكل يرى ما يشاهده هو ولا يفتح أحد منهم فما . من الميت أو من سيموت ؟ لا يبارحه الرعب الشديد. كيف تحول العرس إلى مأتم ؟! من هو الميت ؟ يتصفح الوجوه جميعا .

إنها وجوه جامدة لاتتحرك أية عضلة من عضلاتها إلى درجة الفزع والرعب . الوجوه الوحيدة التى بدت حية قليلا هى وجوه النساء اللواتى كن يندبن بقوة دون أن تقوى أفواههن على إطلاق أى صوت ، يرتجف لم لاتتركنى أيها الخوف ؟! أى بجاه الله واستغفر الله حل عنى ، شوف حدا غيرى .. ينفخ أنفاسه مشجعا نفسه، ثم تسكن ملامح وجهه اثر تفكير سريع ويشعر بالفرج وهو يكتشف أن الخوف هو الدليل الوحيد على.أنه حى حقا فى هذه الحالة .

ابق أيها الخوف! ابق أين ستذهب ؟! هل ستجد مرتعا أفضل منى؟! ستشعر بغربة ووحشة مع شخص آخر .. أنت توأمى من هذا المراح ما فى رواح .. قد تموت إذا تركتنى أو أموت أنا إذا تخليت عنك ذات يوم أو نجحت في اقتلاعك من داخلى . أنت خوفى الحبيب الذى لاغنى لى عنه .. يهون عليك أن تتركنى ؟! ابق .. رجاء ابق ولا تخذلنى أو تتركنى حطاما لا شكل له ..

يتوقف اللامدعو عن الهمس السرى لخوفه ويحاول أن يحاكى خوفه بصوت عال جهرا، لكن شفتيه لا تتحركان ولا تنطقان بشئ . هل هو .. هل اصابه شئ ؟!

لايجرؤ حتى على هذا التفكير الموت لا،لا . الفرح فى عزه . التابوت الخاوى يقول إن الفرح انتهى او أنه لم يكن هناك أى فرح على الإطلاق . وهؤلاء الناس حوله ، لم لايتحركون؟! هل هو ميت حى ؟! يكاد يستسلم لضحك غزير . أجل إنه يرغب فى الضحك . الضحك من قراقيع قلبه. ما من شئ غير الضحك يؤكد له أنه حى أجل حى .

يبذل جهدا فى انتزاع ضحكة من أعماقه ، إلا أن الضحكة لاتتشكل أو تتألف جواته. ليس من المعقول الضحك فى مأتم، يخاطب نفسه . لقد ولّى الفرح . ما هذا يا ربى؟! عرس ومأتم ؟! وتساءل بغيظ وقهر : من هو الميت ؟! ينظر إلى الوجوه الجامدة شبه المتيبسة ، فلا يقرأ شيئا فى تعابيرها الميتة . وجوه ساكنة معلقة فى الهواء . ثمة خواء وريح تصفر أصوات النساء النادبات لا ينطلق من أفواههن ويظل عالقا فى حناجرهن . يقترب من التابوت إنه حقا خاو . ثمة لائحة من الأسماء فى داخله . من هم المرشحون؟

يتراجع خائفا . يجمد فى مكانه هل تحركت فى مكانى ؟! يفاجأ ويحاول التحرك ثانية، إلا أن قدميه تتجمدان فى مطرحهما . يحاول أن يصرخ مستغيثا دابا الصوت «يابابا» ، لكنه يصحو من تفكير مضطرب ومشوش وغائم مدركا أن أباه رحل عن هذه الدنيا القاسية منذ زمن بعيد . إنه لوحده عالق هنا ، لم يبق إلا هو .

الصوت يخذله كما خذله مرات كثيرة . لا فائدة . ينوى الفرار، إلا أن أهل العرس أو المأتم يحولون دون ذلك . أنت كنت معنا من البداية ويجب أن تبقى حتى النهاية . ينطق لسانه الثقيل : هل كان هناك عرس حقا ؟! لا أحد يجيب . لقد أعادوه إلى مكانة ووقفته . لم لاينطقون أو يتحركون الآن ؟! ما الذى جرى الآن ؟! قبل قليل كانوا يتحركون ويهزون ويخلعون . يساوره الشك، ربما لم يتحركوا بالمرة، وأنا الآخر لم أتحرك وإنما تهيأ لى كل ذلك يتفحصهم . مازالوا لايتحركون . هواجس مرعبة تنتابه .

يعتزم العودة من حيث أتى ، الا أن قدميه تلتصقان فى المكان حيث يقف، أو حيث أرغم على البقاء واقفا... ماهذا ؟! كلما حاول الحراك ومبارحة المكان هناك شئ يجعله مكانك قف . ضيق شديد يحكم القبض علية من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

يستجمع أشلاء قوته وصوته للصراخ مستنجدا أهل النخوة ، إلا أن صوته يموت ، كما مات كل شئ واختلط عليه منذ قليل . لم يعد قادرا على الصبر. كل شئ يضطرب فيه اضطرابا شديدا . أنفاسه تتسارع كالموج وصدره يعلو ويهبط بسرعة وقلبه يخفق بقوة. العرق البارد يجاهده . السرير يقبض عليه كما لو أنه تابوت محكم الصنع على مقاسه .

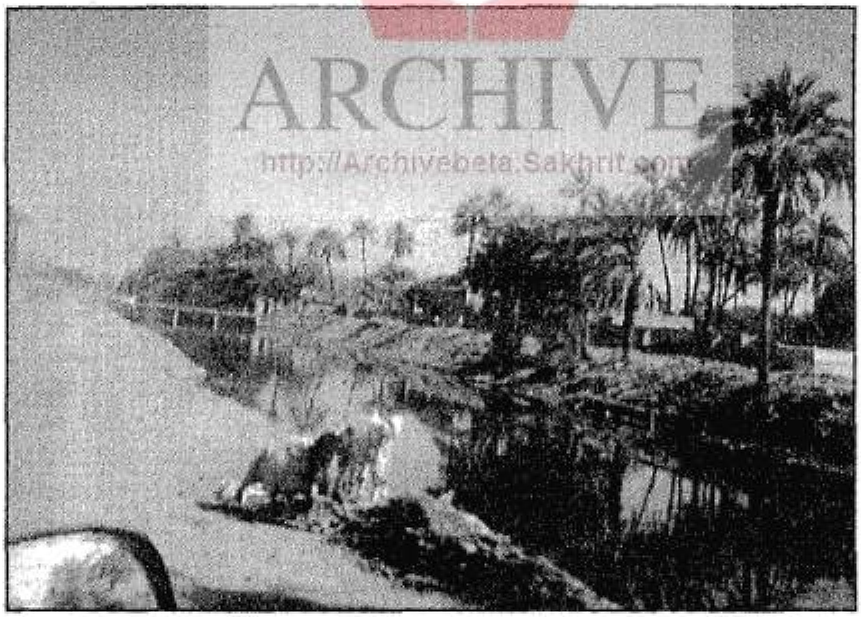
(باريس، ٥ نوفمبر ١٩٩٩)

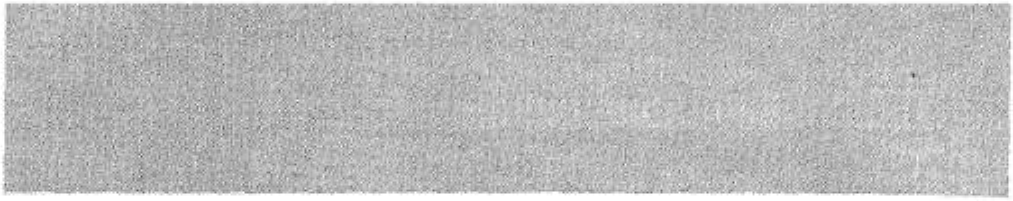
ديروط الشريف

أم القـــرى المصرية

بقلم : محمد مستجاب

بعيدا هناك سوف تجد كوبرى البقيلى الجديد الذى يربط القرية بمنطقة الجبانة





تتـراقص مـزهوة لتـداعب المدن والقـصص والحكايات والتاريخ والأساطير.

لها عمدتان : واحد قبطى وواحد مسلم، وشعب واحد.

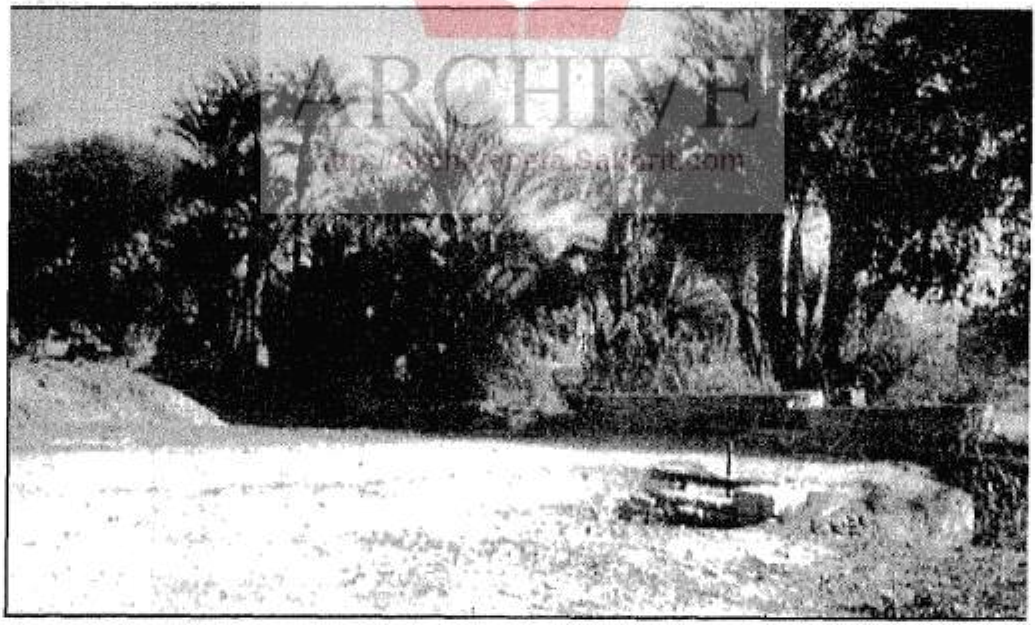
حرموها من القناطر ومحطة السكك الحديدية لكنها ظلت أكبر من القرى ومن المدن أيضا .

فى أوائل القرن العشرين أنشئت مدرسة للبنات.

تتـراقص حـولهـا عـدة ترع : الإبراهيـمـيـة وبحـر يوسف والديروطيـة والشـريفـيـة والجنابيـة .. مع عـدد من الجـداول الهادئة.

ليست موطن رأسى، بل قلبى أيضاً .

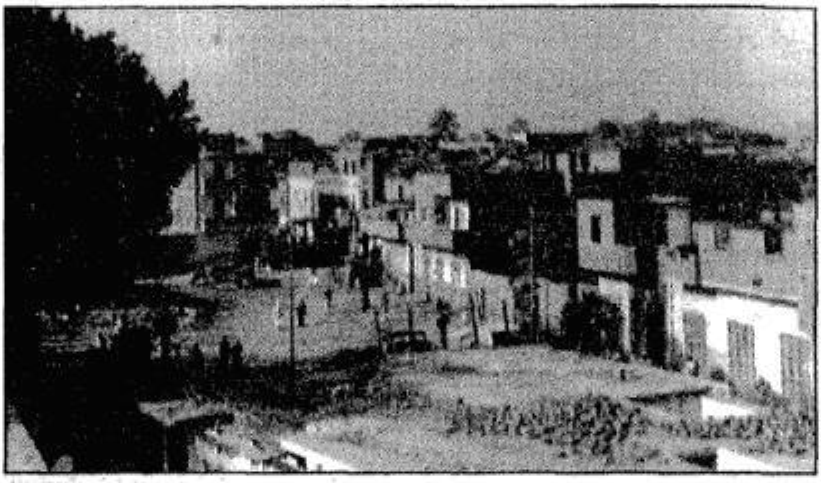
بربخ طلبة .. وهو مكمن عم طلبة على ترعة المريوطية



فى عام ١٩٣٨ ولدتنى السيدة والدتى ذكراً أول على طابور من البنات ، لأوقف تيار السخرية العارمة - سرية أو علنية - من أهل والدى الذين كانوا - فى ذلك العصر - يفخرون بأنهم يبدأون عملية الانجاب - دائماً - بالذكور، لكن الأمر دخل - حينذاك - فى منعطف إغريقى لم أدركه إلا بعد أن أصبحت - بسم الله الرحمن الرحيم - كاتباً يشار إليه بالبنان، كان أبى قد تسلل بأمى - أم البنات - ليلاً ليخرج من ذاك البنيان الذى يحكمه جدى بتنظيمه الفائق لأولاده الرجال المتزوجين فى غرف متلاصقة متداخلة، تلتف - هذه الغرف - حول غرفته فى تكوين يفح بأصوات العيال ونار الكانون وتوزيع المسئوليات اليومية مع السخرية المريرة بمن يكون قدرها إنجاب البنات ، لم يخرج أبى وأمى وبناته الأربع من البنيان فقط، بل ومن القرية كلها ، حيث كان - فى سرية شديدة الكتمان - قد ابتاع قيراطا ليقيم فيه بأسرته لتضعنى أمى - أول ذكر لهما - بعد ذلك بشهور قليلة ، كى أنمو فى هذا البيت (الكوخ) وسط حقول وبرارى وعلى حافة برك ومستنقعات ، وتحت ظلال سبع نخلات قريبا من معامل كناكيت أولاد مغاريوس، وعلى مسافة قريبة كانت ديروط الشريف تنظر إلينا فى ابتسامة شديدة الإمعان وكأنها - وحتما - سوف تستقبلنا عائدين فى استرحام خاشعين إليها طال الزمن أو قصر .

قريتى فى خلايا ذاكرتى

ومرت أحقاب منذ تلك الأيام ، سافرت وتغربت - جوعاً وشبعاً ، ضيقاً واختناقاً، بؤساً ومرحاً ، دون أن تغادر قريتى خلايا ذاكرتى المتفاعلة معها، وفى الثلاثين عاماً الأخيرة اخترقت مدناً وقرى وبواخر وطائرات وسيارات ومقطورات ، أديرة الرهبان فى سيناء وجبال البحر الأحمر ووادى النطرون وتلال الصحراء الغربية وأسوان ، هياكل ومعابد فى دندرة والأقصر والواحات ، بل إننى عشت بين ضجيج موتورات وتفجيرات وكراكات مشروع السد العالى - ثم فى بغداد ومشروع قناة كركوك فى العراق ، وتجولت حول مقامات السيد البدوى وسيدى عبدالرحيم القناوى والشيخ الفرغل وعلى أبو الهوا والحسن والحسين والشاذلى وعلى بن أبى طالب، فى مصر أو فى خارجها ، وشاركت فى مؤتمرات وليالى ذات صخب ومتعة فائقة ، وسراديب وأنفاق ودرب الأربعين وسوق جمال واحة باريس ، وآبار تنطلق مياهها تلقائيا وسط الصحارى، لكن قريتى ظلت - أينما وكيفما كنت - مسكوبة فى شرايين القلب والدماغ وقاع العين،



ديروط .. القرية الجميلة

ترعة الديروطية



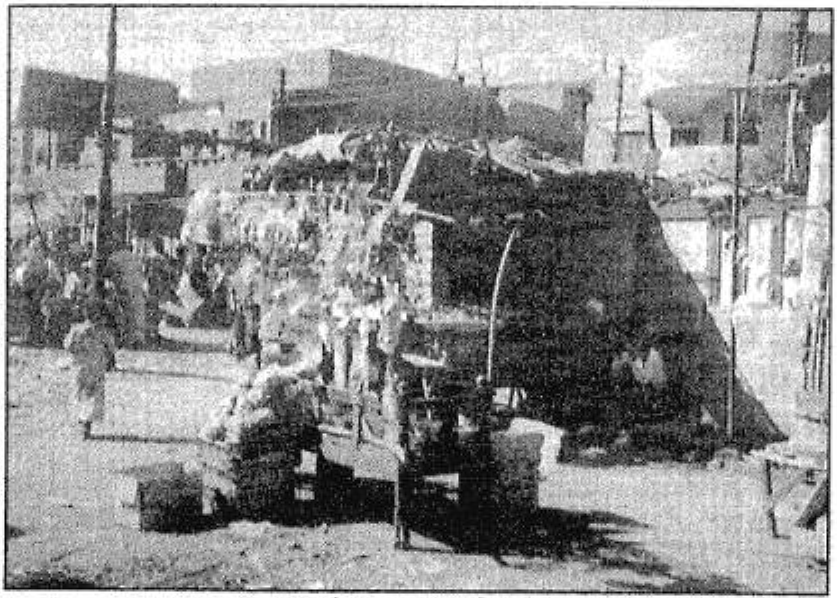
وكـــأننى النبى يوسف الذى تؤرخ به حكاياتنا المصطبية - خارج الكتب - هذا الذى ظل ممتطياً حصانه الجميل بعد أن أفرج عنه عزيز مصر ليطلق سراحه من السـجن كى يحـقق الحلم الأبدى فى المشروع الاقتصادى الشهير المتمثل فى البقرات السبع العجاف التى إلتهمت سبعاً من البقرات السمان ، وسنابل القمح - التى عانت مثلما عانت الأبقار من الجوع فالتهمت سبعا من السنابل الناضجة ، وظل سيدنا يوسف يطوف فى برارى النهر المتاخمة للصحراء العجفاء حتى أرهق فأخذته سنة من النوم - وهو على حصانه ، حينئذ أفلتت عصاه دون أن تسقط على الأرض ، والجواد لايزال يسير فى هدوء المتعب ليلامس سن عصا يوسف (وهى غير عصا موسى - رجاء الانتباه) تراب الأرض لتترك خطاً متعرجاً، ولم تلبث مياه نهر النيل أن اندفعت فى هذا الخط ليتخلق بحر يوسف فى مجرى العصا ، بادئا من قريتى ومخترقا ما يقرب من مائتى كيلو متر شمالاً، حتى يرتاح منتهاه فى بحيرة قارون بالفيوم، هكذا شاعت حكاية ظهور قريتى فى الوجود .. والخلود أيضا .

ويقول ياقوت الحموى فى (معجم البلدان) أن دَرْوت سرابام (بفتح الدال وسكون الراء) : قرية كثيرة البساتين والنخل، أنشأ فيها الشريف بن ثعلب جامعاً على فم المنهى (وهى المستنقعات التى بدأ منها بحر يوسف). ويجمع الجغرافى المصرى الأصيل محمد رمزى فى (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية) الذى بدأت اصداره دار الكتب المصرية عام ١٩٤٥ - معلومات لها جمالها ورونقها حول ديروط الشريف فيقول إنها من القرى القديمة ، ذكرها اميلينو فى جغرافيته (حاولت أن أعرف شيئاً عن اميلينو دون جدوى) فقال عن ديروط الشريف إن اسمها القبطى : تيروت سرابان نسبة إلى القديس سرابامون ، (ولا يزال أثر لدير قديم يطلق عليه أبوسربانة قريبا من قريتى ، وتوجد به كنيسة قديمة ، لكن الدير تحول إلى مدفن ذى أسوار لأقباط ديروط الشريف بعد أن أصبح واقعاً وسط المزارع حيث فقد بذلك معنى الانقطاع المعروف داخل أديرة الصحارى والجبال) ، ويضيف محمد رمزى أن هذه القرية وردت باسم دروط سربان فى كتاب المشترك لياقوت الحموى وأنها تتبع كورة الأشمونين - وهى القطاع الإدارى الضخم قبل تقسيم وادى النيل إلى مديريات ثم إلى محافظات ، ووردت فى قوانين ابن مماتى : دروطه سرابام، ثم تنتهى المعلومات العديدة إلى أنها فى عام ١٢٣٠ هجرية ـ حوالى عام

١٧٥٠ ميلادية - رجاء عدم التدقيق) وردت باسمها الحالى ديروط الشريف . ولما أنشئت قناطر ديروط ثم خطوط السكك الحديدية أصبحت المستعمرة العمالية التى جمعت عمال هذه المشروعات قاعدة لمركز ديروط اعتبارا من عام ١٨٩٠ ميلادية ولتصبح ديروط - دون ديروط الشريف - المركز الأساسى الإدارى والتعليمى للمنطقة .

والسبب فى ذلك أن المهيمن على ديروط الشريف أيامها - أمين بك - أو ابنه شلقامى - استخدم نفوذه كى لا يتم تنفيذ القناطر، أو محطة السكك الحديد على واجهة القرية التى يحكمها ، وهو ما أدى إلى انشاء كوبرى المعاهدة - بعد ذلك - عام ١٩٣٦ بعيداً عن القرية، كان يخشى أن تصاب هذه القرية الضخمة بما أصاب كثيراً من المواقع من تواصل مع المدنية والرقى والامتزاج بالثقافات الأخرى ولو كانت محلية، ولذا فقد ظلت ديروط الشريف قرية مع أنها أضخم وأكبر من ديروط - الجديدة - ذات السطوة والسلطة، وحتى الطريق الشهير: طريق الصعيد الذى يخرج من العاصمة الكبرى - أى من الجيزة إلى أسوان - محاذياً لشاطىء ترعة الإبراهيمية : ظل مفصولاً عن ديروط الشريف بمنطقة جبانة دفن الموتى ، والتى فيها كوبرى البغيلى هذا البُغيلى - الذى تخترقه قريتى وتعبره لتصل إلى المدافن، والذى أصبح عنواناً لواحدة من قصصى التى أعتز بها ، والتى ترجمها آلان روسيون الفرنسى الذى عاش فترة فى المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة ، وكتب عنها دراسة مطولة فى المجلة الفصلية الشهيرة : «أدب البحر المتوسط» التى تصدر فى باريس .

ظلت ديروط الشريف - قريتى - تمور وتفور وتنام وتهمس وتضحك وتلعب التحطيب وتقيم الأفراح والمآتم وطقوس الزار والختان - مع رش الملح فى وقت مبكر كيداً للأعداء ومنعاً لحسدهم الشرير، وأنا خارجها أنظر إليها - طفلا- أتسلق نخلة من تلك التى يقع تحت ظلالها قصرنا العظيم ، والذى كان ذا غرفة واحدة مع مجموعة متوالية من المساحات ذات الحوائط ودون سقف بالمرة إن الانصات إلى أصواتها من بين جريد النخيل كان أجمل ما حاق بى من متعة تعويضاً عن زُخمة سيدنا الشيخ محمد عثمان (والزُخمة - لمن لا يعرف - قطعة من الجلد السميك فى شكل لسان ثابتة فى قطعة خشب تؤدى دورها فى الجلد عقاباً لمن لا يحفظ المطلوب اليومى من واجب الآيات القرآنية المكتوبة بالحبر الزُفر على اللوح الصاّج)، وتعويضاً أيضاً عن الغضب الدائم الذى كان يعاملنى به

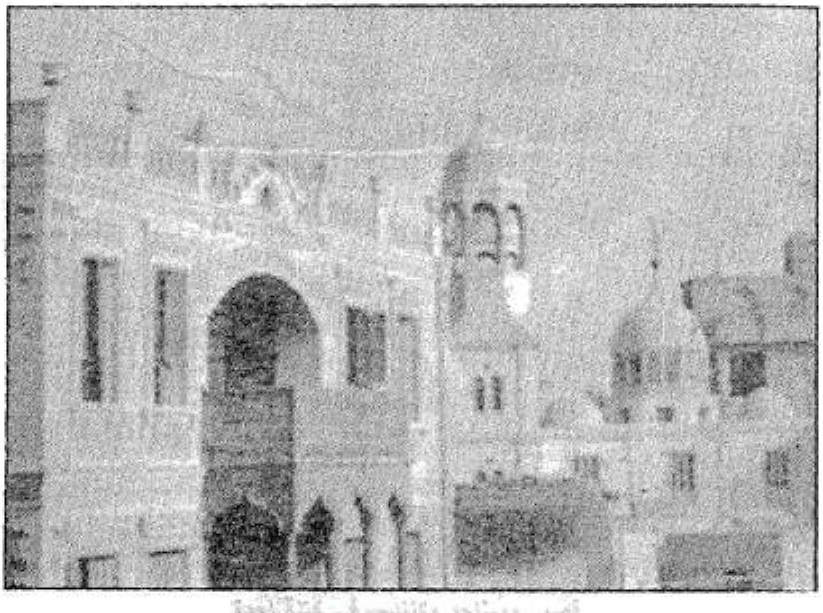


السويقة الآن.. كانت رائعة ذات عصر

خالى أحمد خميس كى أظل جاداً بعيداً عن مساخر المرح ، ويسببه دخنت السجاير في سن العاشرة .

أضخم قرى مصر

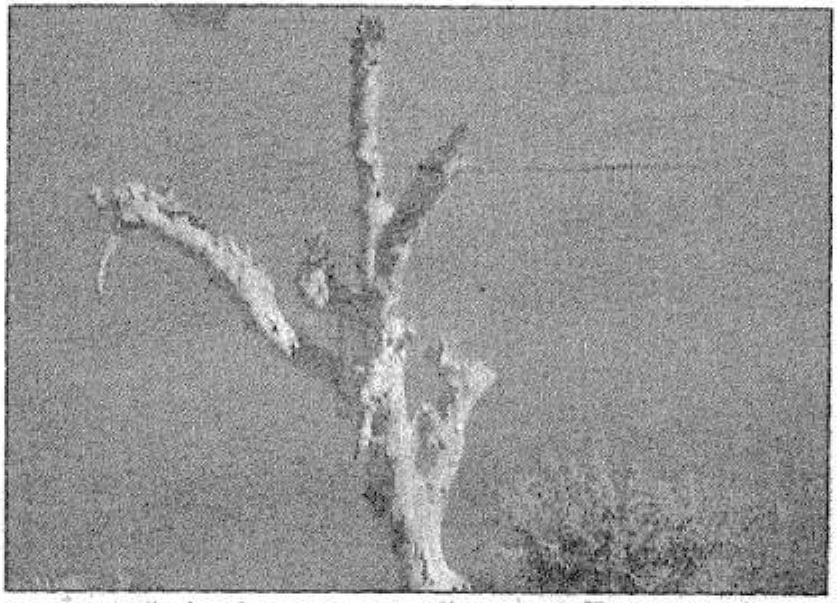
وديروط الشريف - القرية - ليست فقط أكبر وأضخم من قاعدة المركز : ديروط ذات القناطر والمأمور والشرطة والمدارس الأميرية ومحلات القماش والبقالة ، والتى أصبح فيها المحكمة والسينما والكازينو، بل إن تلك القرية كانت من أضخم قرى مصر كلها تعداداً للسكان، حتى أن كثيرين من أهل قريتى فى جنوبها - قبلى البلد - نادراً ما يزورون بحرى البلد - شمالها ، ولا سيما أن بحرى البلد هيمن على مراكز حركة القرية بسبب وجود عمدتين - وهو أمر غريب - ينتميان إلى وسط وبحرى البلد ، عمدة قبطى فى الشمال الشرقى ، وعمدة مسلم فى الشمال الغربى ، وقد يعتقد البعض - استنتاجاً من ذلك - أن الأقباط يتبعون العمدة الذى من ملّتهم ، وفى المقابل يكون العمدة المسلم للمسلمين بالعكس ، فقد كانت الشرائح القبطية والمسلمة متناثرة فى اختلاط عجيب بين العمدتين ، مع عدم خضوع هذا التوزيع والتقسيم لخطوط جغرافية ،



قصور ومساجد وكنائس في قبلى البلدة

والذى لم أستطع استجلاء أسبابه حتى الآن ، فنحن فى الجزء الغربى من قبلى البلد كنا نتبع العمدة القبطى ، مع أن الجغرافيا تفرض بمنطقها أن نكون تابعين للعمدة المسلم الأقرب ، إلا أن ذلك لم يكن موضع جدل أبداً ، تماماً كما أن أول خط مياه نقية دخل قريتنا توجه مباشرة إلى بيوت العائلات الحاكمة ، وبعد سنوات طويلة - فى الحلقة الأخيرة من عصر عبدالناصر - بدأت مواسير المياه تتفرع إلى شوارع عديدة تمتد إلى مناطق لا أثر للثراء الضخم فيها .

وهذه القرية الواسعة عرفت المدارس (الالزامية أو الأولية) مبكراً ، بجوار الكنيسة مدرسة النصارى - وهذا اسمها الذى عرفناها به دون أن تكون مركزاً للمسيحيين أو تقوم بالتدريس حسب ما قد يبدو من الاسم ، إنهم فقط - الأقباط- بنوا المدرسة وتركوا أمرها لوزارة المعارف ، تماماً مثلما أقاموا أول مدرسة للبنات فى هذه المنطقة كلها لكى تتجاوز ديروط الشريف كل قرى المنطقة التى لم يكن بها - حتى - مدرسة للصبيان، وإلى شمالها بقليل - وقريباً من السوق - كانت المدرسة الالزامية البحرية، أما قبلى البلد - التى منها أنا - فقد ظل نصف



هذه الشجرة الممزقة تقف أمام نافذة مسكن محمد مستجاب على الابراهيمية

القرية الجنوبى كله بلا مدرسة حتى حدث الجدل الشائك أيام سطوة الاخوان المسلمين أواخر الأربعينيات ، قبل الثورة بقليل ، أى بعد انشاء هذه المدارس بما يقرب من خمسين عاماً ، بسبب ما رآه البعض من إحساس بالأذى نتيجة وجود مدرسة فى ظل أجراس الكنيسة، مع أن مكتب البريد الوحيد ، ومكتب التلغراف ، يقعان فى المربع نفسه دون شكوى - ولا يزالان فى ذات الموقع حتى الآن - ، وقد ترتب عن ذلك استئجار بيت عوف شناوى الواقع فى الجنوب الشرقى من القرية ليصبح مدرسة ابتدائية عام ١٩٥١ - وكانت كلمة (الابتدائية) غير معروفة إلا فى مدرسة البندر هناك فى مدينة ديروط ، وتفخيما لهذه المدرسة - ذات الفناء الذى كان واسعاً أيامها - أطلقوا عليها المدرسة النموذجية ، وكان خالى أحمد خميس أول ناظر لها .. لقد ظللنا نفخر بذلك كثيرا .

ياسمين الفجرية

كنت - ورفاق العمر - نذرع - بالذال - الحقول والبرارى ، ثم نلعب ليلا فى شارع قبلى البلد، نجيد العوم (السباحة ذات النفس الطويل) ، ونقفز من فوق الأشجار إلى الترعة ، نكاد لا

نستحم فى البيوت ، تتلمس الوسائل لسرقة المزروعات كى نستطيع المشاركة الموسمية فى مراجيح الأعياد وركوب الخيول الخشبية ، ثم لابد لنا أن نذهب إلى السينما – فى مدينة ديروط القريبة ، وإلى بيت الغوازى والراقصات، لكن المتاح – أيامها – كان يسمح لنا بالوصول إلى ياسمين الغجرية النشطة المتجولة دائما فى شوارع القرية نتبادل التعليقات المرحة – والبذيئة – الضاحكة مع الرجال الجالسين أمام مقهى محمد عوض ومحل أبو حسيبة المكوجي ودكان أحمد سليمان (الذى كان ناظراً لمدرسة ثم عزل فى مسألة لا أعرف تفاصيلها)، وكل أنواع الغرز والجلسات ذات السمر والأصوات العالية ، كان ذلك وسط القرية فى الشوارع التى تؤدى إلى السويقة – (تصغير سوق) – وكانت ياسمين تتجاوب مع صبيانيتنا النشطة المشتعلة عشقاً بسبب سينما قرشى ومواويل حسن ونعيمة ومشهد رقص الغوازى ، حيث لا نلبث أن نخرج إلى أى ترعة من هذه الجداول التى تلتف حول ديروط الشريف أو تسير متوازية مع طريق الصعيد، عدد كبير من هذه الترع لم تتميز به قرية فى كل الوطن: الإبراهيمية الواسعة متوازية مع نهر النيل الذى يقع فى آخر شرق الدنيا – والذى لم نشهده أبداً ، إلا بعض الكبار الذين يمكنهم الاتجاه شرقاً للعوامر والحوطة وجرف سرحان وشلش وبنى يحيى ، الإبراهيمية شرقا وبحر يوسف غرباً، لقد تولدت من بين عيون القناطر القريبة ترع أخرى عتيدة مثل الديروطية والشريفية والبدرمانية (ثم الجنّابية) ، مع امتداد فروع تلامس القرية وقد تخترق جزءاً منها ، وهى الفروع المائية الرفيعة التى تعلمنا فيها العوم فى البدايات المبكرة ، تماماً مثلما تفرعت – بعد ذلك – مدارس عديدة – ولا يزال غرب البلد القبلى خالياً منها حتى الآن .

الشيخ الصبى !

ولقد ظللت أتشجع كى أخترق القرية بمفردى وكان أجرأ وأقدم اختراق حين صحبتنى السيدة والدتى لتعرضنى على الشيخ محمد عبداللطيف كى يشفينى، وكان الشيخ صبياً فى مثل سنى، بل وكان زميلى فى المدرسة الابتدائية، حينما مات والده الشيخ عبداللطيف ذو الشهرة المدوية فى إغداق الرحمة والسلوان فى قلوب البائسين، وكان واضحاً أننى أعانى من الانيميا الناتجة من سوء التغذية (لم نكن نذوق اللحم إلا كل بضعة شهور - أمى ظلت دهوراً تنكر ذلك)، وهالنى أن الشيخ محمد عبد اللطيف - زميل الفصل المدرسى - اصبح يرتدى عمامة ضخمة وعباءة واسعة. ويجلس على أريكة المشيخة صبيا لا تصل قدماه إلى الأرض، وقد مسح على رأسى وهو يتلو أيات كريمة تحمينى من لعنة العفاريت ،

وكان (أبو رجل مسلوخة) يطاردنى فى تلك الايام ـ بالذات فى ليـــالى برودة الشتاء، يداهمنى فى نومى، ويرفع ساقه المسلوخة المجروحة من الركبة حتى القدم، والمربوطة بقطعة بالية من القماش الدموى، وكان واضحا ان الصبى لم يعد صبيا ، وأنه أصبح شيخا قادرا على انقاذى من براثن مشهد سيقان ابو رجل مسلوخة، وقد هدأت أنفاسى بالفعل، وصب الشيخ العظيم نقطا من زيت ذى رائحة بالغة النفاذ فى رقبتى وتحت إبطى، أحسست برغبة عارمة فى البكاء، وبعدها كدت أجلس على الأرض لأنضم إلى مريدى الشيخ ومحبيه، وجهه أصبح يشع نوراً، وابتسامته بالغة العذوبة، وكان واضحا أن أريكة آل عبداللطيف ـ بما تفوح به من بركة نافذة ـ تخضع لقانون يخص آل عبداللطيف أدى إلى أن يأتى الدور على زميل الفصل كى يصبح شيخا، لقد مات شيخنا الصبى الجليل بعد ذلك بعام أو عامين، وكنت غير قادر على متابعة ما يجرى فى شأن أريكة هؤلاء المشايخ الكرماء، لكنى عرفت ـ وبعد أربعين عاما، أن واحداً من هذه العائلة قد استدعوه من العاصمة حيث كان يدرس القانون والإجراءات المدنية والجنائية فى كلية الشرطة، ليحتل موقعه من الأريكة ليحافظ على تقاليد العائلة الموروثة، واعتقد أنه هو القائم بذلك حتى الآن.

الأمر ـ بعد ذلك ـ أو خلال مرحلة الصبيانية ـ لم يعد أمراً يسمح لنا بتلك المتعة القصوى : صلاة الجمعة فى المساجد، والذهاب الى الكنيسة فى أحد السعف وسبت النور ويوم شم النسيم ووراء صناديق بعض أخـــواننا من الأقباط، وزيارة مقابرنا ـ نحن المسلمين ـ فى منطقة البغيلى ، والاندساس بين وقت وآخر فى حلقات الأذكار ورفع البيارق احتفالاً بمولد الرسول الكريم أو الموالد الاخرى (التى توقفت كلها أخيراً لأنها خارجة على قواعد الاسلام الحنيف) مثل مولد السيد البدوى والشيخ الفرغل، وما إلى ذلك من مشايخ لهم علامات نتجت عن قدومهم ـ أحلاما ـ فى رءوس بعض المحبين ، بل وكنا ايضا نستطيع التسلل الى طبول مجالس الزار التى كانت تقيمها حافظة زوجة خالى غير الشقيق، أو تلك الطقات التى كان يقيمها فى المنطقة البحرية الغربية أعظم المتخصصين فى حفلات الزار: أولاد علام، ثم لم يكن الأمر ـ بين هذا وهذا ـ يخلو من احتفالية ختان ولد لأحد الأقارب (البنات لا احتفال بختانهن).

كما إننا كنا فى غاية السعادة حين نشارك بصبيانيتنا النشطة فى التصفيق الضاج أثناء دخول عريس على عروسته مخترقا موضع العفة فيها بأصبعه ليخرج من الغرفة فيلقي بالمنديل ذي البقع الدموية على رءوس المحتفلين،

ليصحب الجميع العريس الموفق إلى بحر يوسف كى يلقى فى مجراه الهادر بالطوبات السبع.

خلال ذلك وقع المحظور بسرعة غريبة، فقد انتشرت شائعة ملعونة بأن حافظ أفندى - معلمنا الذى كنا نحبه جدا فى مدرسة النصارى - قد اختطف عيلاً من عائلة البطران وألقاه فى بئر طريق السوق، وغاب حافظ أفندى أياما طويلة عرفنا خلالها أنه كان بريئا - مع نقله الى مدرسة أخرى فى منطقة أخرى لا أعرف لها اسما بسبب ضعف معلوماتى الجغرافية ، وبعدها بشهور وجدنا على ابن عمى عبدالنظير - قريبى ومن عائلة أبى - بقايا جسد محترق ذى رقبة ممزقة بالساطور ملقى وسط حقل برسيم يلمع الصقيع على أوراقه، لكننا لم نلبث أن استعدنا سرورنا وابتهاجنا حينما تم زفاف ثريا بنت خالتى - الجميلة والتى كانت فى التاسعة من عمرها - إلى ابن عمتها الشاب الهادى، المبتسم، وبعد ذلك بشهور قليلة كانت ثريا تتعمد أن تأتى من بيت زوجها الى بيت أمها خالتى وهى تسير كالبطة رائقة الجوانح وقد وضح أن بطنها الصغير قد تكور معلنا زهو الحمل المبكر بافتخار ، حتى وصل التكور إلى ساعات الوضع المنتظرة، وقد عشنا أياماً متوالية لعدم قدرة الداية (المولدة) على توليدها، وظلت ثريا نائمة على ظهرها وخبيرة التوليد تحاول تسهيل الوضع بتضمين الرحم كميات من التبن أو النخالة عدة أيام ، كل البلد سمعت عن هذا التعثر المؤلم الذى أدى بالبعض أن طلب عربة الاسعاف التى جاءت من مستشفى بندر ديروط، لتحمل ابنة خالتى - نائمة على ظهرها وقد حاولوا سترها بملاءة دموية ، حيث فى صباح اليوم التالى اخرجوها من غرفة المشرحة جثة ممزقة البطن والرحم - ومعها لفافة تحمل قطعة مدممة لجنينها الفقيد... لقد رأيت ذلك ولم أكن قد تعديت الخامسة عشرة سنة من عمرى.

وهو ما أدى أن تحمل هذه الوقائع كل أفراح ومقابر وأجساد وحلقات التحطيب فى قريتى الجزء الأساسى من عمرى، حيث يصبح مناسبا لمن يريد أن يعرف بطولات هذه البلدة فى ثورة ١٩١٩ - مثلا - أن يطلع على ما كتبه عنها عبدالرحمن الرافعى (حادثة قطار ديرمواس وديروط)، أما غير ذلك، فإنها : ديروط الشريف، الشوارع والحقول والمساجد والكنائس وهمس الليل وجثث الترع وغابات القصب والفوازى والطريقة التى كنا نشترى بها البسبوسة والهريسة - والطعمية والحلاوة الطحينية، فعليه أن يكون رحيما معى وهو يدخل قصصى التى احتوتها شرايينى، ونزفتها على الأوراق التى جعلت لديروط الشريف موقعها فى مركز العالم كله حبا لها: قلبى، أينما كنت وكيفما كنت .

حيرة السينما المصرية

بين وضوح وغموض الأفكار

بقلم: مصطفى درويش

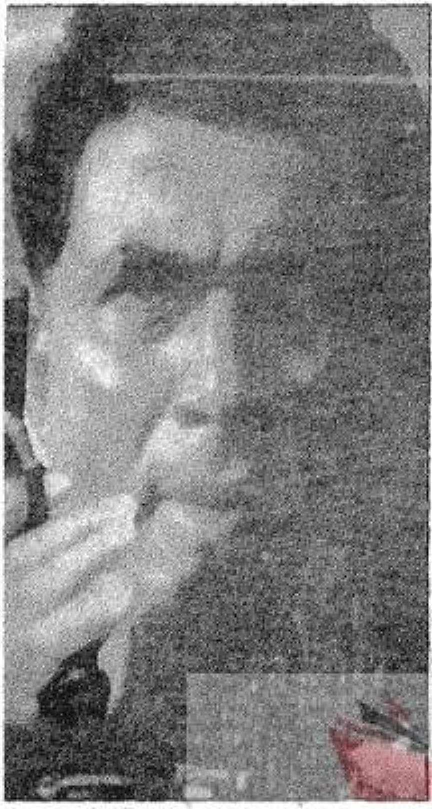
تزاحمت الأفلام مصرية وأمريكية على العروض فى دور السينما بدءا من أيام عيد الأضحى ، وحتى كتابة هذه السطور ، وتنوعت وتراكمت على نحو غير مسبوق ، بحيث لم يعد لى بد من الاختيار، فاكتفى بمشاهدة بعضها دون البعض الآخر ، مضحيا على سبيل التمثيل «بزنقة الستات» ، فيلم فيفى عبده الأخير مع مخرجها المفضل فى هذه الأيام علاء عبد الكريم . الفائز هو وفيلمه «الجراج» بجائزة المهرجان القومى للسينما المصرية ، قبل بضعة أعوام.

ومكتفيا بمشاهدة فيلمين مصريين ، هما «توابع - كرسى فى الكلوب» و«أرض الخوف» .

أما لماذا وقع الاختيار على الفيلم الأول ، رغم أنه أول فيلم روائى طويل يخرجه صاحبه «سامح الباجورى»، فذلك لأن «هانى فوزى» هو كاتب السيناريو.

ومما يعرف عنه أنه مقل، لا يعرض فيما يكتب إلا لما هو جاد ، ويتناوله بقدر كبير من الابتكار وليس أدل على ذلك من سيناريو أرض الاحلام، آخر فيلم للنجمة «فاتن حمامة».

«فهانى» هو صاحب ذلك السيناريو الذى يعتبر، بحق، واحداً من أفضل ما




جونى ديب بطل «دون جوان دى ماركو» — أحمد زكى و«أرض الخوف»

أبدعته السينما المصرية من سيناريوهات، إبان السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين.

ولأن الفيلم، وصاحبه داوود عبد السيد مخرج «أرض الخوف»، أحد أفلام عيد الاضحى، لم يحقق، لسوء الحظ، نجاحاً تجارياً يذكر، فالسيناريوهات التى عانى «هانى» فى تأليفها، بعد فشل «أرض الأحلام»، لم يكتب لأى منها أن يترجم إلى لغة السينما، زمناً طويلا، قارب الأعوام الخمسة.

انهيار الحصار

ولكن، هاهو ذا، بعد تلك الأعوام العجاف، يفك الحصار، عائدا بسيناريو «توابع = كرسى فى الكلوب»، وموضوعه يدور وجودا وعدما حول ماترتب على الزلزال الذى ضرب بر مصر، فى أكتوبر، قبل ثمانية أعوام، من آثار.

فأحداث الفيلم تنحصر زمنيا فى بعض من نهار اليوم الذى ضرب فيه الزلزال القاهرة، وفى ليلته الليلاء، وذلك حتى صياح الديكة فى الصباح.

وهى تبدأ بلقطة من قريب لوجه «شادية» أو «شوشو» - «لوسى» فى الحمام، حيث نراها تمسح البخار عن المرآة، فينكشف لنا شيئاً فشيئاً وجهها،

ونسمعها تغنى طربا.

أما لماذا هى فى الحمام تغنى وتتزين، فذلك لأنه لن تمضى سوى بضع ساعات، وتزف إلى عـــريس الهنا - يؤدى دوره «صــلاح عـبـدالله» - العـائد لتـوه من السعودية لبضعة أيام، يدخل فيها علىّ شوشو ابنة الجيران، وفى احضان شقة فى عمارة راقية، اشتراها وجهزها بتحويشة العمر، كى تكون خير ملاذ له، ينتشله من بئر الحرمان.

ما قل ودل

وماهى إلا بضع لقطات بعيد مشهد الحمام، حتى يكون قد جرى تعريفنا بكل من أفراد أسرة العريس المكونة من أم نكدية - تؤدى دورها «عليه الجبـاس»، واشقاء سمان، جميعاً من فصيل الأفيال، وصديق العريس «مدحت صالح».

وأفراد أسرة العروس المكونة من أب أرمل مقصوص الجناح، وحبيبها السابق «محمد شرف»، فضلا عن صديقة عمرها «انتصار».

وبينما الجميع، فيما عدا أم العريس وحبيب العروس، فى هناء وسرور، إذا بالزلزال يضرب ضربته، وإذا بالبيت القديم ينهار.

ومع انهياره تزلزلت النفوس، وتعرت، على نحو أدى إلى تمزق العلاقات؛ فإذا بكل واحد فى غير المكان الذى هيأه لنفسه، وإنما فى مكان آخر دبرته له الاقدار.

ونظراً إلى أن الزلزال هو الحدث الذى تمحورت حوله جميع وقائع الفيلم، فقد اهتم «الباجورى» بتنفيذ مشهد وقوعه وكيف ضرب البيت القديم.

ولو قسنا تنفيذه، بكيفية تنفيذ مشهد نفس الزلزال فى فيلم «الضائعة» لصاحبه المخرج «عاطف سالم» لاستبان لنا البون شاسعا، وبدون تردد، لصالح فيلم «الباجورى»، ذلك المخرج الجديد، والذى يرجى منه الكثير.

عودة المعجزات

فكم كان موفقا فى إخراج مشهد انهيار البيت فى اثناء وما بعد الزلزال، مراعيا فى ذلك أدق التفاصيل، بحيث بدا لنا الأمر، وكأننا امام معجزة لم تكن فى الحسبان، بفضلها تجاوزت السينما المصرية أزمة، أو بمعنى أصح، مقولة ضعف الامكانيات.

وليس من شك أن الفضل فى ذلك الاتقان انما يرجع إلى مصمم المناظر «مختار عبد الجواد».

ولأن المطرب «مدحت صالح» يلعب دورا أساسيا لاينازعه فيه سوى «صلاح عبدالله» فى واحد من أحسن أدواره، فقد اتخذ الفيلم طابعاً غنائياً، أدخله، بحكم ذلك، فى عداد أفلام الملهاة الموسيقية.

وبطبيعة الحال، فلانه لايعرض إلا لتوابع الزلزال، اعنى آثاره، فملهاته، اكتست، بالضرورة، بطابع الملهاة السوداء.

و«أرض الخوف»، على النقيض من

ذلك تماما فمشاهدتي له سبقتها دعايات وجوائز توج بها في أكثر من مهرجان ، وكتابات نقاد تراوحت بين تحمس نفر منهم له أشد حماس ، وانكار نفر آخر له أشد انكار.

عبث المهرجانات

ولقد شاء لي قدري ألا اشاهده إلا متأخراً، وذلك بعد انتهاء أيام مهرجان السينما العربية الأول في إمارة البحرين ، حيث جرى عرضه ضمن أفلام المسابقة، وحيث خرج من مضمار التنافس على جوائزه، بثلاثة منها، بينها جائزة أفضل سيناريو.

أما لماذا التمهل في مشاهدته ، وذلك رغم سابقة عرضه ، قبل بضعة شهور في مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، حيث فاز بجائزة أفضل فيلم ؛ فذلك لانني، ولأول مرة في عمر ذلك المهرجان المضطرب اشد اضطراب، عزمت ألا اشاهد أياً من أفلامه المدرجة في برامجه،

جودي فوستر في "آنا وملك سيام"



وذلك حتى لا أشقى بفوضى العروض المتجذرة، على نحو لا يرجى معه أي شفاء.

وعلى كل ، فكما شاء لي القدر ألا أشاهد «أرض الخوف» في أيام ذلك المهرجان ، ولا حتى في أيام العيد ، حيث جرى عرضه في العديد من دور السينما، مصحوباً بدعاية تصم الآذان.

شاء قدر الفيلم ألا تجيء مشاهدتي له لا قبل ، بل بعد مشاهدتي لفيلم «سليبي هولو» اسم قرية أمريكية في قصة «ايريفنج واشنطن» اسطورة سليبي هولو - وهو آخر فيلم ابدعه المخرج الأمريكي «تيم بيرتون» ، وثالث فيلم له يسند بطولته إلى نجمه المفضل «جوني ديب»، ذلك الممثل الذي يعتبر وحيد نوعه بين الممثلين ، وما أكثرهم في هذه الأيام ، حيث اختلط الحابل بالنابل ، فما عدنا نستطيع التفرقة بين العمالقة والأقزام!!

ولأنه لم تمض بين مشاهدة «سليبي هولو» و«أرض الخوف» سوى بضع ساعات ، كانت المقارنة بينهما حتما. لا فكاك منه بأي حال من الأحوال.

أرض وسماء

ولم تكن المقارنة لصالح «أرض الخوف».

بل إن الفرق بين الاثنين كان، لدهشتي، بعيداً بعد مابين الأرض والسماء.

فسليبي هولو كان ، والحق يقال ، عملا سينمائياً خالصاً، بعيد الاغوار ، متشعب الجوانب ، متعدد الأبعاد، في حين أن «أرض الخوف» كان على نقيض ذلك فيلما مشوبا بعيب التبسيط البدائي ، المخل ، على نحو جرده من أي عمق في التفكير ، أو براعة في الابتكار.

وبالتالي كان امتحاناً أليما لي ، وأنا أشاهده ، ثم وأنا استرجعه على شاشة ذاكرتي كي اقارن بينه وبين رائعة بيرتون - ديب.

أما لماذا كان الامتحان أليما ، فذلك لأن مشاهدته جاءت مخيبة لما علقته عليه من آمال كبار ولا غرابة في أن أعلق عليه كل هذه الآمال ، فمخرجه ليس إلا «داوود عبد السيد» ، فضلا عن أنه كاتب السيناريو والحوار.

ومما يعرف عنه أنه ينشد الكمال فيما يصنع من أفلام، ومن هنا قلتها - على نحو غير مألوف بالنسبة للمشاهير من بين مخرجينا .

فرغم تخرجه في معهد السينما عام ١٩٦٧ ، لم يخرج فيلمه الروائي الطويل الأول «الصعاليك» إلا بعد تاريخ تخرجه بثمانية عشر عاماً.

وحتى يومنا هذا لم يخرج سوى ستة أفلام ، أي بواقع فيلم كل ثلاثة أعوام.

ومما لوحظ على سيناريوهات تلك الأفلام انها جميعاً من تأليفه وذلك فيما عدا سيناريو «أرض الأحلام» (١٩٩٣).

وأنه باستثناء سيناريو «الكيت كات» (١٩٩١) وسارق الفرح» (١٩٩٥)، وكلاهما مأخوذ عن قصتين للأديبين

«إبراهيم أصلان» و«خيري شلبي» فسيناريوهات أفلامه الأخرى مبتكرة، وإن كانت أغلب أفكارها مستوحاة من أعمال سينمائية أمريكية، مثل «مابعد الساعات العادية» لصاحبه المخرج «مارتين سكورسيزي» و«دوني براسكو» لصاحبه «مايك نوييل»، ذلك المخرج البريطاني الذي جاءته الشهرة بفضل نجاح فيلمه «أربعة أفراح وجنازة» نجاحاً فاق كل التوقعات.

أمن البلاد

وقد جاء «أرض الخوف»، فيلمه السادس متأثراً في خطوطه العامة «بدوني براسكو».

فالضابط «أحمد زكي» الذي يتمحور الفيلم حول شخصيته انطلاقاً من استدعائه أمام مسئول أمني كبير، كلفه بمهمة غاية في السرية، قوامها تقمص شخصية أخرى، تحت اسم حركي «آدم» يجري زرعها في أوساط عصابات المخدرات التي استفحل خطرها إلى حد تهديد الأمن القومي للبلاد.

ذلك الضابط لاتختلف - إلا في بضع تفاصيل قليلة وليدة عملية التمصير، عن شخصية «دوني براسكو» التي تقمصها «جوني ديب» نجم «سليبي هولو».

وكذلك الحال بالنسبة لشخصية كبير تجار الكيف في حي الباطنية التي تقمصها «حمدي غيث».

فهو في «أرض الخوف» لطيف المعشر، يحيط نفسه بهيل وهيلمان، ويثق في «يحيى أبو دبورة» - الاسم الآخر لآدم في عالم الاجرام؛ خاصة بعد أن انقذه من موت أكيد.

ورسم شخصيته على هذا النحو لا يختلف، إلا في أقل القليل، عن رسم شخصية «لفتي روچييرو» - آل باشينو - أحد زعماء عصابات المافيا، في «دوني براسكو».

فإذا ما انتقلنا إلى صراع العصابات الاجرامية وتقاتلها، في الفيلمين، إلى حد التصفية الجسدية، فسنجده غير مختلف في بر مصر، عنه في بلاد العم سام.

وعند هذه المحاكاة لقطبي الفيلم الأمريكي «ديب» و«آل باشينو»: ولصراع العصابات، عندها ينتهي التأثير، ويبدأ التمصير.

ووجه القصور في التمصير يكمن في جنوح «داوود عبد السيد» إلى الجمع بين ضدين لا يلتقيان.

أحدهما توابل الفيلم التجاري، نراها متناثرة في مشاهده حيث يكون لوجودها داع من سياق السرد، وحيث لا يكون.

ومن بين هذه التوابل أذكر على سبيل التمثيل وقوع ثلاث نساء، احداهن راقصة غانية «صفوة»، وأخرى مهندسة معمارية «فرح» وثالثة فتاة بريئة وجارية، وقوعهن في اسر فحولة «آدم» أو «يحيى أبو دبورة» أو «دبور» حسب تسمية أحد تجار الكيف له في مجلس انس وفرفشة.

رموز وألغاز

أمـا الضـد الآخـر فـهـو القـفـز من تفصيلات الحياة الإجرامية، كما هي حادثة بالفعل على أرض الواقع، سواء أكان أمريكيا أو مصرياً ؛ القفز منها إلى تصورات ورموز مجردة، ربما تحت تأثير «فرانز كافكا»، لاسيما قصصه الثلاث الكبرى، وهي القضيـة، والقصـر، وأمريكا.

ففي تيهها الغريب ينتقل بنا «كافكا»، من لغز غامض إلى لغز غامض، ومن رمز خفي إلى رمز أشد منه خفاء، إلى أن ينتهي بنا الأمر، معلقين دائماً في عالم، لاهو بالواقعي، ولا هو بالوهمي، وانما هي شيء بينهما، يملأ النفس حيرة، لا سبيل إلى الخلاص منها أبداً.

هذا العالم الكافكاوي بألغازه ورموزه، حاول «داوود عبد السيد» جاهدا أن يجسده في أرض الخوف، فلم يصادفه التوفيق.

وفي اعتقادي أن فشل محاولته إنما يرجع إلى سيناريو جمع بين أضداد انتهت به إلى شيء لايصلح أن يكون غاية لفيلم مقنع، لايدفع بأسلوب تناوله للموضوع إلى نشاط عقلي عقيم.

عبارة هادية

وهنا تحضرني، إذا ما صدقتني الذاكرة، عبارة هادية للمخرج «ألفريد هتشكوك» تجرى كما يلي.

ثلاثة عناصر أساسية لايكتمل الفيلم إلا بتوافرها هي:


لوسي عروس يوم الزلزال

أولاً : السيناريو، ثانياً السيناريو، وثالثاً السيناريو.

والاهتمام بالسيناريو الذى نصح به «هتشكوك» في عبارته الهادية تلك، بدا واضحا في الأفلام الأمريكية التي غزت شاشات دور العرض في القاهرة، فور وداعنا للعيد.

ولضيق المجال، اكتفى بالحديث عن «أنا والملك» لقيامه على سيناريو قدم مايقصد اليه من معان بجلاء ومنطق واضح، يترتب لاحقه على سابقه، دون أي لبس أو ابهام.

وبداية، فموضوع الفيلم ليس جديداً. فهو مأخوذ عن مذكرات بقلم «آنا ليونونيس» وهي أرملة شابة، بريطانية الجنسية، حكت فيها قصة سفرها، ومعها صغيرها الوحيد، إلى مملكة سيام (تايلاند حالياً)، عام ١٨٦٢، حيث تولت أمر تعليم أولاد الملك «مونجكوت»، وكان عددهم ثمانية وخمسين بالتمام.

ولقد سبق لمذكراتها أن ترجمت إلى

لغة السينما مرتين. الأولى قبل أربعة وأربعين عاماً فى فيلم «أنا وملك سيام»، بطولة «ايرين دن» و«ركس هاريسون» والثانية ، بعد ذلك بعشرة أعوام ، بطولة «ديبورا كير»، و«يول برونر».

ومن الاكيد أن ولع هوليوود بقصة آنا فى بلاط ملك سيام، وبعض وقائعها من بنات خيال صاحبة المذكرات ؛ ولع له مايبرره ، فالقصة ، ممتعة ، فيها من الطرائف والمشوقات الشيء الكثير.

صدام أم تعايش

وفى الترجمة السينمائية الجديدة لها تلعب دور «آنا» النجمة «جودى فوستر» الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية مرتين.

أما ملك سيام فلم يلعب دوره نجم انجليزى أو أمريكى كما كان الحال فى الفيلمين القديمين ، وإنما لعبه نجم اسيوى من «هونج كونج» هو «شوبون فات».

وكم كان «اندى تينانت» مخرج الفيلم موفقا فى اختيارهما، وكذلك فى اختياره لممثلى الادوار الثانوية ، لاسيما «باى لنج» التى برعت فى اداء دور «تبتم» محظية الملك بالاكراه، والهاربة من حريمه ، من أجل الرجل الذى تعلق به قلبها حباً ولعل مشهد اعدامها من أجمل مشاهد الفيلم ، وأكثرها ايلاماً . واقف عند سيناريو الفيلم المحكم البناء، لاقول أنه شارك فى تأليفه «ستيف ميرسون» مع «بيتر كرايكس».

وهما لم يعرضا فيه للاختلاف بين المجتمعين البريطانى والسيامى كما عرض له الفيلمان القديمان ، أى من منطلق تصادم الحضارات، بمعنى أن الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا، كما جاء على لسان «روديارد كبلنج» شاعر الامبراطورية البريطانية.

وإنما تعرضا لذلك الاختلاف من منطلق أكثر انسانية وتفاؤلا ، قوامه أنه فى وسع الحضارات أن تتعايش وأن تتفاعل فيما بينها ، على نحو مؤداه إذابة الفروق المترسبة على مر العصور.

فآنا عندما غادرت مملكة سيام، كانت امرأة أخرى غير تلك التى رأيناها فى بداية الفيلم.

فكما أثرت فى «مونجكوت» وأولاده وحريمه، تأثرت هى الأخرى بهم ، وخاصة بانسانيتهم التى لم تلوثها بعد سلوكيات مجتمعها البريطانى، حيث تقاس قيمة الشخص بمقدار نفعه لنفسه، لانفعه للناس.

فلم تعد تلك المرأة الأجنبية المتعالية، لا لسبب سوى أنها قادمة من بلد متقدم صناعياً، وصاحبة رسالة، هى الأخذ بيد همج هامج، استبدت به الخرافات والخزعبلات.

والسيناريو يعرض لكل هذا بسلاسة، غير مشوبة بأى غموض أو تعقيد ، ممهدا بذلك الطريق أمام زحف العولمة لا بقوة السلاح، وإنما الاهم بقوة الأفكار، تحمل رسالتها الأفلام .

الشاعر

محمد إبراهيم أبو سنة

و

«شجر الكلام»

بقلم :

صافى ناز كاظم



« لا تسألينى
أن أقيم فقد تعبت
من المقام
ذبلت غصون
الحلم
فى شجر الكلام
............»

تماما هذا هو صوت أخي وصديقي العزيز الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة : هو دائما في «شجر الكلام» ، بكل مدلولات «شجر» من «الشجار» ومن «الأشجار» .

بمناسبة صدور ديوانه الحادي عشر «شجر الكلام» ، عن دار الشروق مفتتحا حصاد الشعر لسنة ٢٠٠٠ ، جلست أمامه الثلاثاء ٢٠٠٠/٤/٤ على منضدة شاي في جروبي طلعت حرب ، تماما كما جلست منذ ٣٤ عاما ، إلا أربعة أشهر ، أغسطس ١٩٦٦ ، في جروبي عماد الدين. قلت له : « معقول يا أبو سنة أدوخ كل هذا الدوخان حتى أعثر على رقم هاتفك لأصل ما انقطع سنوات طويلة من صداقة بيني وبينك كانت دائما بلا لقاء ؟ . » كان على وشك أن يفتح فمه للكلام بتعبير التوجس الذي يلازمه ، كأنه يتوقع أن يتلقى طعنة مازال يدرس كيف يتلافاها ، ولكني واصلت كلامي : « كنت سأحضر معي مسجلا مثل شباب الصحافة ، لكني ظننت أن هذا لا يكون لائقا .. » وقبل أن أكمل « لا يكون لائقا بين الأصدقاء » ، كان قد قال بسرعة : « لماذا ؟ ، أنا متعود على التسجيلات .. » ، لم يلتقط إذن روح المودة التي أتيت بها فتغاضيت مواصلة : « لا أذكر آخر مرة تهاتفنا .. إنني أدعوك صديقي القريب البعيد .. الأفضل أن نعد مرات المقابلة والكلام منذ أول لقاء لي معك عبر قصيدتك : غزاة مدينتنا عام ١٩٦٥ .. » قاطعني : « ١٩٦٦ » ، واصلت : «مطلع ١٩٦٦» .

★★★

كنت في نيويورك وكان بالقاهرة ، كان قد أتم التاسعة والعشرين في ١٥ مارس ، وكنت مازلت في الثامنة والعشرين - (كلانا من مواليد ١٩٣٧ لكنه يكبرني بخمسة أشهر كاملة : حلوين !) - كانت القصيدة تكشف واقعنا المغطى عاريا بكل حيثياته المشئومة وبالنهاية تدق جرسا :

....

حين فقدنا صدق القلب ،
حين تعلمنا أن نتقن
أدوارا عدة
في فصل واحد ،
حين أقمنا من أنفسنا
آلهة أخرى ،
وعبدنا آلهة شوهاء ،
حين أجبنا الغرقى بالضحكات ،
حين جلسنا في أعراس الجن
حين أجاب الواحد منا
مادمت بخير
فليغرق هذا العالم طوفان ،
كنا نحن الأعداء:
كنا نحن غزاة مدينتنا ! ،

وحين عدت إلى القاهرة ، في أغسطس ١٩٦٦ ، لم يكن على لساني سوى : هل تعرفون أين أجد محمد

الشاعر

محمد إبراهيم أبو سنة

إبراهيم أبو سنة ؟ . كنت أود أن أؤكد له أنني سمعت جرسه ، وأنني أشاركه الإحساس بالخطر . لم تكن حيثياته خطابية رنانة ، كانت تساؤلية ، تتجول بعينين أسيفتين تقرأ الدمار في الماوراء ، وتهمس في خفوت بنواح تجتهد في كتمانه:

« وتساءلنا :
أي غزاة جاءوا في منتصف الليل ،
رجعوا بالأشجار بعيدا عن مجرى النهر ،
هدموا أعمدة الضوء ،
رحلوا بالأزهار إلى مقبرة وحشية ،
وضعوا سيفا بين شفاه
تدنو من عنقود القبلات ؟
داسوا بالخيل جبين المعبد ،
طردوا منه الصلوات ،
صرخوا في وجه الفجر ،
ماتت زهرات الحلم
على شفة الماء ،
ماذا ؟ هل كان الجدول مسموما ،
هل كان القمر صديقا للأشباح ،
من أوقف زحف الوردة
نحو النجم ،
من دس الخنجر بين غشاء القلب ،
من علق أجراس الرعب
فوق صدور الأطفال ؟
..... »

في حديقة جروبي عدلي جلسنا متقابلين : طويلا نحيلا وسيما باسما مقبلا على الحياة . بمزاح قلت له إنه لا يشبه قصيدته فليست عليه أي مسحة من العناء ، وقبل أن يتكدر أضفت أنه يشبه في هذا التناقض الشاعر ت . س . إليوت. ولا أذكر من هذه المقابلة سوى أننا كنا لطيفين دمثين متفاهمين مثل صديقين في الدراسة والقراءة تزاملا ولم يفترقا منذ روضة الأطفال - (لم يدخل روضة أطفال فقد حفظ القرآن الكريم وعمره عشر سنوات في مدرسة شيوه كار قادن غرب مسجد الحسين ، ولبس العمامة والجبة والقفطان ودخل الأزهر ، الابتدائي والثانوي من معهد القاهرة الديني ، حتى نال الإجازة العالية من كلية الدراسات العربية ، جامعة الأزهر عام ١٩٦٤ بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف، خلع العمامة

وهو فى الثامنة عشرة عام ١٩٥٥ وظل دائما مزاوجا بين دراسته فى الأزهر وقراءاته الأخرى فى دار الكتب عن ثقافات العالم) - فى ذلك اللقاء صدقت على كل شئ قاله ووافقنى على كل شئ قلته وتصافحنا فى فرح على وعد بلقاء ثان لم يتم أبدا (إلا بعد ٢٤ سنة!) .

***

فى ذلك الزمن كانت الساحة «الشبابية» الأدبية والثقافية مليئة بالمخالب الجارحة وكان الشاعر أمل دنقل أكثر المخالب تجريحا ، ينشط بشهية لإسالة الدماء : ينغرس فى كل اسم ويدميه ، ومسرحه اليومى «مقهى ريش » ، وكان أبو سنة هدفا مغريا له على الدوام : قابيل دنقل وهابيل أبو سنة - (أفكر الآن لتحليل موقف أمل دنقل من محمد إبراهيم أبو سنة ، ويداهمنى احتمال ، لعل أبو سنة لم يتصوره أبدا ، فربما كان أمل دنقل شديد الإعجاب بأبو سنة، يتمنى لو كان هو ، لو كانت له وسامته ، لو كانت له شهادته الأزهرية العليا ، التى لم يحصل أمل عليها ولا على غيرها ، لو كان له نبل أبو سنة وتعففه وترفعه وقدرته على كبح اللفظ الخشن والظن السيىء، ربما؟، ربما!) - كان أمل دنقل دائم الاصطياد لأبو سنة يمكر ويكيد له ويغيظه ويقلل من قدر شاعريته خاصة لدى المعجبين بشعر أبو سنة - (يصغرنا أمل دنقل بثلاث سنوات ، لكنه كان يبدو لى دائما عجوزا ، حتى ما قد كان يند عنه من طفولة فقد كانت مثل طفولة العجائز ، أو صبيانية . يكره الجميع وإذا ما عنْ لك أن تكره أحدا أمامه تجده قد انقلب إلى مغرم صبابة بذلك الذى تكرهه . مناوئ . مرهق المصاحبة . شديد الوله بالاستفزاز) - عندما عرف أمل دنقل عن إعجابى بقصيدة أبو سنة هاجمنى قبل أن يلقانى - (ليس هناك من لم يصبه منه سهم طائش أو متعمد ، كانت له ملامح أخناتون ودور ست ، إله الشر المزعوم) - ومما شحذ عداوة أمل دنقل تجاهى كان رأيى السلبى فيما كان ينشره وقتها من شعر غزلى حسى سمج بمجلة الكواكب . كرهنى جدا وكرهته أكثر وكان ذلك معلنا على «مقهى ريش» حتى داهمتنا ١٩٦٧/٦/٥ . وفى ردهة مبنى الاتحاد الاشتراكى بميدان التحرير حيث كانت تقام ندوات ، أشبه بسرادقات العزاء ، عن شحذ الروح بعد الهزيمة المختبئة وراء لفظ «النكسة» المخفف ، فوجئت بأمل دنقل يدفع إلى بقصيدته الخارقة : «البكاء بين يدى زرقاء اليمامة» ، قائلا إنها ممنوعة رقابيا من النشر وتحدانى أن أكون موضوعية وأعلن إعجابى ، لو أعجبتنى ، رغم عداوتى لعداوته . طرت بالقصيدة فرحا مماثلا لفرحى بقصيدة «غزاة مدينتنا» لأبو سنة : كانت قصيدة أبو سنة

الشاعر
محمد إبراهيم أبو سنة

تعلن عام ١٩٦٦ رؤية زرقاء اليمامة التي أثبتتها ٥/٦/١٩٦٧ ، ونعاها بعده أمل دنقل في بكائيته . لم أكتف بالحماس في الأروقة واجتهدت في التحايل على الرقابة ونشرت القصيدة كلها تقريبا، عدا بضعة أسطر غير مؤثرة ، تحت عنوان آخر لم ينص الأمر الرقابي على منعه : « تكلّمي لشدّ ما أنا مُهان !» ، ومعها تحليل نقدي مكثف ومختزل وشديد الاختصار حتى أفسح المجال للتألق الذاتي للقصيدة . وحتى تم صدور عدد مجلة المصور وبه القصيدة منشورة ، سمحت لنفسي بفرحة لنجاحي في التحايل على الرقابة والرقيب من أجل أن تتواصل آهات الشعب المصري الذي لم يكن من المسموح له الإعلان عن حزنه بحجة أنها - الهزيمة - ليست ساعة للحزن بل ساعة للعمل . انشكح أمل دنقل للنشر ووجدها مناسبة ليعلن على «مقهى ريش» ما تصوره انتصاره على أبو سنة ، كأنه لا يجوز أن نبتهج بشاعريتهما معا . والحقيقة أن مصر كانت وقتها - ولا تزال - تعج بالشعراء ، الذين لولا بعضهم ما استطعنا أن تزدرد الطعام ، ولولا البعض الآخر لكانت حياتنا أفضل . كنت أحب مع شعر أبو سنة ، شعر يسرى خميس ، وشعر نجيب سرور بالفصحى والعامية ، وصلاح جاهين ، ومحمد عفيفي مطر ومظفر النواب من العراق ، وممدوح عدوان من دمشق ، لكن «نمط» الثنائيات كان سائدا، بعد الثنائي التاريخي شوقي وحافظ ، وكان الثنائي الأشهر في جيلي صلاح عبدالصبور في مقابل عبدالمعطى حجازي، واخترع أمل دنقل الثنائي : أبو سنة أم أمل دنقل؟ . في كل شعر أمل دنقل لم أستسغ إلا قصيدتيه «البكاء بين يدى زرقاء اليمامة» عام ١٩٦٧ و «لا تصالح ولو قلدوك الذهب» عام ١٩٧٧ . ولم يكن صحيحا بالمرة ما أراد أمل دنقل أن يوحى به إلى أبو سنة من أنني خاصمته وعرفت طريق الشعر الحقيقي ممثلا في أمل دنقل. ويبدا أبو سنة مصدقا لصخب أمل دنقل وضجيجه وتشنيعاته ، يقف بعيدا مفضلا البعد عن الشحناء :

، ....\
واقف أستعيد ،\
بعض ما كنت أعرف نفسي به ،\
في الظلام الشديد ،\
وسط هذا السراب الذي

كان يبدو مدينة ،
والربيع الذى قد تناثر
فوق الجليد ،
واقف فى انتظار البريد
علّ بحرا يريد مراسلتى
أو غيوما
تحاصرنى من جديد ،
واقف ..
فى دموع النشيد
فى انتظار احتضار الزمان
البليد ،
واقف كالجواد ،
وسط دغل القيود،
والصهيل الطويل
يتخطى الحدود»

(من ديوان أبو سنة :
«مرايا النهار البعيد»)

***

كان أمل دنقل له عبقرية أخرى ، غير الشعر ، لم يطاوله فيها أحد ، وهى قدراته فى التفنن لصياغة أجواء الشحناء اليومية، متنقلا بها سريعا ، ينقل الحرائق من مكان إلى آخر ، يوزع حطب النميمة والوقود الكافى من الأخبار الصادقة والكاذبة . وكنت أندهش من الدعم المعنوى الذى كان يلقاه من صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى وآخرين فى مواقع سلطوية فى النشر والثقافة وغيرها، هذا بينما يأخذ الزهد فى الشحناء أبو سنة بعيدا بعيدا حتى لم أعد أراه فى ساعات الهدوء التى كنت أستطيع أن أجلس فيها بمقهى «ريش» . كلما جلست يجئ أمل دنقل يناوش بالذوق وبالعافية وأحبط كل خططه ، وكانت لديه حكايات عن ضرب بالأمس أو قبل دقائق بين فلان وفلان . كانت له طرقه فى أسلوب الحكي لا يمكن لأحد فى مواجهتها أن يهرب من غلبة الضحك عليه. لم يكن أمل خفيف الظل مثل نجيب سرور ، لكنه كان يتقن التصوير الدقيق لأحداث مضحكة .

-(قال أبو سنة إنه تجنب مقهى ريش بعد ١٩٦٧/٦/٥ حتى قال له نجيب محفوظ وقد صادفه عند مصلحة الاستعلامات : مش بشوفك ليه على ريش .. ده مفيش غير ضرب قزايز بس !) - وهكذا لم أعد ألتق بأبو سنة بالكثافة التى كنت أرى فيها أمل دنقل بوجهي باستمرار ، حتى التقيت، فى غفلة من دنقل ، بالشاعر أحمد فؤاد نجم وقررت أن أفتديه وأسدد له ، بالإنابة عن مصر ، الدين الذى رأيته فى أعناقنا تجاه شجاعته المباشرة التى ألقاها بصريح العبارة فى جملة أشعاره معبرا عن نبض الشارع المصرى ١٩٦٧/٦/٥ وما بعدها وتقاضى الثمن سنوات فى المعتقل متنقلا من سجن لآخر ، ومن تجويع لتجويع أكبر. وطاش صواب أمل دنقل ولم يرتدع حتى قذفته بكوب شاى ساخن فضل بعدها ألا يقترب منى

الشـــاعر
محمد إبراهيم أبو سنة

إلا وأمامي منلجات.

***

بلاد شـــالتنا وبلاد حطتنا ، وأيام داستنا وأخرى غيبتنا ، لكنني كنت أعرف أن أبو سنة لا يزال صديقي ، أقرأ قصيدة له هنا أو هنا . أستمع له قدرا وأنا أحرك مـــؤشـــر المذياع ، ثم ها نحن نجلس متقابلين – بعد ٣٤ سنة – سالمين كأن لم يكن هناك طوفان ، كأننا لم ننج من بحر النار وبحر الشوك وحقول الألغام . قرأ من شـعـره . يحب صـوته . يحب إلقـاءه . يتمسك برأيه . ازداد وزنه . وازداد وزني ، لكنني أستحثه على الاغتباط : يا أبو سنة أليس هذا مفرحا أننا مازلنا قادرين على السـيـر من دون عكاز ، مازلنا نتـمـتع بالسمع والبصر والفؤاد ، ولا تزال أمامنا فرص جيدة مثل «العبوات الاقتصادية» الأرخص تكلفة ! ضحك . قهقه . ياه ! .. لم يكن في جماعة «الويسكي» ولم يكن في غـرز «الحشـيش» ، ولم يكن في قـائمـة السلطة ولم تجنده تيارات يسار أو يمين. ظل شاعرا . ظل كاتبا . ظل راصدا . ظل مكابدا الوحدة لأن فلسفـتـه في مـشـوار حياته قالت :

« – وتقول :

بأن الوحدة قاسية ،
لكن الأقسى منها
أن تلقي من لا تألفه ،
وتظل تلازم من لا يعرفك
ولا تعرفه ،
وتعيش تشاطره اللقمة
والصمت المفترس القاتل
والرقدة فوق سرير
تأنفه ،
ترتجل الأحلام نهارا
وتغادر أيامك
تنتظر زمانا
مجهولا تستشرفه ،
ونحن إلى ربتة كف
أو كلمة عطف
أو كأس حنان ترشفه ،
تبقى تتملى الموت
لينجيك
وأن يأتي في ميعاد
لا يخلفه ،
تتزلزل أركان الدنيا
والسر المكنون
بأعماقك .. لا تكشفه ،
تمضي وحدك في أدغالك
تتقلب ما بين الأحجار وأشواكك

حتى ليحاصرك الحنظل تقطفه ،
وتقلب عينيك الواسعتين حسيرا ،
في كون تستعطفه ،
لا أحد يدلك من أين
يجيء الحلم الموعود
وهذا العمر المنثور
على طاولة الوهم
يواجه ريحا تتخطفه ،
تتجمع في جرحك
كل الأيام الماضية
وتنزف تنزف
لا يلقى جرحك أحداً يسعفه !» .
(من ديوان أبو سنة : ورد الفصول الأخيرة)

***

- إلى جانب دواوينه الأحد عشر ، كتب مسرحيتين شعريتين :

«حمزة العرب» و«حصار القلعة» وأحد عشر كتابا آخرها بين دراسة ونقد ومختارات . قدمت له كتابي «تلابيب الكتابة» وعليه اهدائي : أحيي لقاءنا بعد ٣٤ سنة وأتمنى آخر بعد ٣٠ قادمة إن شاء الله . ضحك . مستحيل ؟ إذن اجعلها ١٥ سنة .. معقولة ؟! إن شاء الله، على ألا تكون حزينا هكذا ، كن حزينا بشكل ضاحك ، مقبلا على الحياة كما كنت عندما التقيت بك عام ١٩٦٦ ، وحتى ولو كان ذلك الإقبال هو على الحياة الأخرى . لم يجد نظارته للقراءة ، قدمت له نظارتي لعلها تفلح ، يا سلام ، تصوري، نفس مقياس النظر : هل هناك نتيجة بعد كل هذا العمر أفضل من ذلك ؟. معك حق . الحمد لله . مد يده للمصافحة وهو ينشد بيت شعر غم من أبيات المتنبي، اعتذرت عن عدم المصافحة لأنني لا أصافح ، وجاء اعتذاري متناغما مع بيت المتنبي .

***

كنا قد عبرنا إلى الرصيف أمام «مقهى ريش » في ثوبه المجدَّد الجديد ، وتركته يبحث عن سيارته وصويت وجهي إلى الاتجاه المعاكس نحو عبدالخالق ثروت أبحث عن مكتبة لم تغلق أبوابها بعد لأشتري حبرا لجهازي الفاكس . كان المساء ٤/٤ هو ذكرى وفاة والدي منذ ٥٦ سنة . نشطة في السير أدندن من شعر أحمد فتحي أغنية عبدالوهاب «الكرنك» وقد امتلأت بها أذناي :

« .. أين يا أطلاااال جندو الغالبي
أين .. أين آمون وصوت الراااهبي..
وصلاة الشمس .. وهمي طار بي
.. تاتا .. تاتاتاتا .. تراتاتا .. تيتاتا..
صور الماضي .. ورائي وأمامي ..
هي وهمي وغنائي .. وهي في حلمي جناح الطائر ..
تاتا .. تاتاتاتا .. تررررم .. تم .. تم .. ذلك الطائر مخضوب الجناح ..» . تاكسي .. من فضلك العباسية .. عند جامعة عين شمس !

أحاديث

عن الأدب والأدباء

بقلم: وديع فلسطين

أروى فى هذه الأسطر بعض ما عاصرت أو عرفت من شئون الأدب والأدباء، مما لا يخلو من الطريف والغريب والعجيب من أخبارهم، ولكل من الأدباء حظوظه المقسومة من الشهرة أو الخمول.

ملك ومندور

ذكرياتى عن هذا الثنائى الجميل وقبيلتهما - كما كان مندور يصف أسرته الكبيرة - ذكريات كثيرة، غير أننى أقتصر فى هذه العجالة على واقعة طريفة أسوقها متحسراً على وفاة الشاعرة ملك عبدالعزيز تحت أفرع شجرة سقطت فوقها وهى تسير فى الطريق يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٩٩.

فى عام ١٩٥٩ دعانى الأديب حليم مترى - وسيرد كلام عنه فى هذا المقال - إلى المشاركة فى ندوة ينظمها بوصفه الرائد الثقافى لموظفى شركة إيسترن للدخان حول موضوع علم النفس والأدب وقال أن المشاركين فى هذه الندوة - أو المناظرة على الأصح - هم الدكتور محمد مندور وزوجته الشاعرة ملك عبدالعزيز وعميد علم النفس والفلسفة الدكتور محمد

مظهر سعيد وزوجته السيدة نظلى الحكيم والناقد مصطفى عبداللطيف السحرتى وكاتب هذه السطور. وفي الموعد المحدد اجتمعنا في النادى الثقافى لهذه الشركة أعلى العمارة التى يحتل محل الأمريكيين ناصيتها على شارعي فؤاد الأول وعماد الدين، وانقسم المتناظرون إلى فريقين، فريق يرى أن للأدب استقلالية تامة عن علم النفس وعن غيره من العلوم، وفريق يرى أن دراسة الأدب لاتستقيم إلا بتطبيق قواعد علم النفس عليه وعلى الأدباء أنفسهم. وانضم الدكتور مندور إلى فريق، في حين انضمت ملك عبدالعزيز إلى الفريق الآخر. وبعدما فرغ كل من المتناظرين في سوق حججه، أراد الدكتور مظهر سعيد بخفة دمه وقدرته الفذة على الارتجال والتأثير في السامعين أن يوقع بين مندور وزوجته، فقال ما معناه إن هذه الليلة لن تمر بسلام في بيت مندور، فكيف تجرؤ زوجته على معارضته في قضية حيوية كهذه أمام هذا الملأ الغفير لابد أن معركة حامية الوطيس ستنشأ بين الزوجين لايعرف عقباها إلا الله وحده.

والمفروض في الحياة الزوجية أن تتفق آراء الزوجين حول جميع القضايا، ولكن ما بال الشاعرة ملك تحدت زوجها وخالفته في جهارة وجرأة تحسدان عليها. وبينما كان مظهر سعيد يوغل في المشاغبة مع مندور لكي يخرجه من وقاره المعهود، كانت القاعة تضج بالضحك والتصفير. فما كان من مندور إلا أن جذب إليه زوجته وعانقها وقبلها أمام جمهور السامعين، فازداد تصفيقهم وضحكهم، وبهذه المناورة أفحم مندور غريمه مظهر سعيد وخذله خذلاناً مريراً. وقمنا جميعا في ختام هذه المناظرة الطريفة نتصافح ونتبادل التحيات في جو ودى جميل.

وقد وصف الدكتور مندور هذه المناظرة في مقاله الأسبوعي بعنوان «مع الأيام» الذى نشره في جريدة الجمهورية ٢٥ ديسمبر ١٩٥٩، ولكنه تحرج طبعاً من الإشارة إلى «الحجة الدامغة» التى أفحم بها مناظره الدكتور محمد مظهر سعيد.

الشاعر الجريح

عندما زرت لبنان للمرة الأولى في عام



ملك عبدالعزيز



د. محمد مندور

١٩٥٥، رغبت فى التعرف بأعلامه الكبار الذين عرفت بعضهم بحكم الشهرة، وعرفت البعض الآخر بما جرى بينى وبينهم من مراسلات سابقة. وكان فى طليعة الأدباء الذين حرصت على زيارتهم الشاعر بولس سلامة الذى اشتهر بأنه «الشاعر الجريح» لأنه أصيب فى عام ١٩٢٦ بعلة فى الظهر لم تفلح ٢٣ عملية جراحية فى علاجها ولا أفلحت إقامته فى المستشفيات لأكثر من سبع سنين وبقائه مسمراً على سرير العذاب ستة آلاف ليلة فى إبرائه من هذه المحنة الصحية.

فلما زرته فى بيته، اقتادتنى زوجته إلى غرفة نومه فألفيته راقداً فى فراشه، تتكدس الكتب والمعاجم إلى جواره، وعلى مقربة منه أوراق وأقلام لكى يدون بها مايريد، وبعد الترحيب بى قال إنه يعانى من فالج نصفى يسمره فى الفراش فلا يستطيع فيه حراكا، ولكنه يجد ملاذاً فى نظم الشعر وتأليف الكتب والمطالعة، وهو فى مرضه المقعد قد ألف ثلاثة ملاحم طوال، هى «ملحمة عيد الغدير» فى أكثر من ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط و «ملحمة عيدالرياض» في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير و «ملحمة فلسطين وأخواتها»، وهى أصغر حجماً، كما أصدر عند بلوغه الستين من العمر «ملحمة عيد الستين» فى أكثر من ١٥٠ صفحة من القطع الصغير، وكل أبياتها من نفس البحر والوزن والقافية، هذا عدا عشرات من الكتب الضخام وألفيت نفسي ضئيلاً أمام هذا الهرم الشامخ المسجي أمامي، فاعتصمت بفضيلة الصمت أصغى إليه وهو يتدفق فى الحديث عن الشعر والأدب وأخطاء المعاجم والترجمات والفلسفات، وهي ميادين ألم بمحيطاتها في حين تذرعت بجهلي عن التعليق عليها.

وانصرفت من محضره وبى لعثمة فى لسانى فماذا أقول له وأنا أودعه من عبارات المجاملة أو الإشفاق أو الرثاء لحاله أو الإعجاب المبهر بعلمه وشخصيته ومواهبه وعزيمته الجبارة؟ وكان قصاراى أن دعوت له بتمام الشفاء.

وليس أبلغ من بولس سلامه فى تصوير مأساته في كثير من القصائد الطوال، ولعلى أجتزىء هنا بعضاً منها حيث قال:

سالت على حد المباضع مهجتى
فشفارها مصبوغة بدمائى
وتشابهت منى الجراح فأصبحت
حفراً تضل بها جفون الرائى
أواه! لو كان الرقاد يزورنى
لرضيت من دنياى بالإغفاء
لايلتقى جفناى إلا خلسة
فكأن بينهما قديم عداء
أيوب، ما أيوب، ماذا خطبه
هو قطرة وأنا خضم بلاء
وإذا المريض أتيته لتعوده
فلقد أتيت مقابر الأحياء

كان أمرا مقضيا على بولس سلامة أن يستسلم لمقاديره ، فقد عالته الطب بالا جدوى من أى جراحة جديدة ، فقد صارت حالته ميئوسا منها . ولكن صديقا أشار عليه أن يحج الى مدينة لورد فى فرنسا حيث مزار للعذراء مريم ، إذ قيل إن كثيرين من المرضى الذين استعصت أمراضهم على الشفاء نالوا البرء فى هذا المزار . وفى عام ١٩٥٨ سافر إلى هناك محمولا على محفة فى الطائرة ، فوجد نفسه عند وصوله الى لورد فى عباب زاخر من المرضى الألى تقطعت بهم الأسباب . وقد وصف حاله بقوله : «صليت فى لورد صلاة قصيرة ، قلت : اللهم لتكن مشيئتك» ولأول مرة منذ رقدته الطويلة استطاع أن يقف على قدمين واهنتين ، معتبرا أن معجزة حدثت معه ، وإن كان المسئولون فى المزار يقولون إن المعجزة يشترط فيها أن يكون الشفاء فوريا وتاما . ثم يقول «بيد أنى تحسنت تحسنا واضحا ، واستقويت جسديا وروحيا ، وما هم أن أنهد إلى الحركة مسرعا أو بطيئا ، وإنى لمؤمن أن نعمة الله أدركتنى ، وهذا حسبى».

عاد إلى بيروت ، وصار فى وسعه أن يجلس الى مكتبه ليسجل سيرة حياته فى كتاب ضخم عنوانه «حكاية عمر» وهو جالس الى منضدته وليس وهو مستلق فى سرير كساحه.

وكنت عرفت هذه الأخبار من رسائله ومن مطالعة الصحف اللبنانية دون أن أصدق ماحدث .

وعندما زرت لبنان فى عام ١٩٧٢ قبل الحرب الأهلية ، حرصت على زيارة بولس سلامة ، فاستقبلنى واقفا وفى يمينه عكازة صغيرة ، وكان يحيط خاصرته بحزام جلدى عريض ، وقال : أنظر، لقد صار فى وسعى الآن أن أعانقك واقفا ، فقلت له إن هذه الملحمة الحيّة أعظم من جميع ملاحمه المسطورة . وهو قد عاش بعد شفائه ٢١ عاما وتوفى فى ١٤ أكتوبر ١٩٧٩ عن ٧٧ عاما .

طه حسين وسكرتيره

فريد شحاته هو سكرتير طه حسين

د. مظهر سعيد



د. طه حسين



الذى لازمه أطول من أى سكرتير سابق أو لاحق .

كان يخرج مبكرا من بيته فى ميدان باب الحديد ويتوجه الى بيت طه حسين فى الزمالك أولا ثم في طريق الأهرام ، ويظل فى صحبته ملبيا جميع أوامره ، مرافقا إياه في جميع مقابلاته ، مدونا ما يمليه عليه وقارئا لما يطلب قراءته . بل كان يرافقه فى رحلاته الخارجية ، وكان طه حسين يتحمل أداء راتبه . أما عندما كان طه حسين يتولى منصبا حكوميا ، بما فى ذلك منصب وزير المعارف، فقد كان فريد شحاته يعين مديرا لمكتبه يتقاضى راتبه من الحكومة. وهكذا انقطع فريد شحاته لطه حسين تماما ، فهو عينه التى بها يبصر ، ويده التى بها يكتب ، ودليله الذى يهتدى به . وكان فى حالات كثيرة يعود إلى بيته فى ساعة متأخرة من الليل إذا كانت ارتباطات طه حسين تستدعى المشاركة فى مناسبات ليلية رسمية . أما المناسبات الاجتماعية فكانت زوجة طه حسين ترافقه فيها .

وقد زرت طه حسين مرة فى بيته فى الزمالك ومرتين فى «رامتان» فى طريق الأهرام، وكان فريد شحاته يستقبلنى ويقودنى إلى غرفة المكتب الى أن يوافى طه حسين . وفي الزيارة الأخيرة اختلى بى فريد شحاته وقال إنه لم يعد يطيق أن يعيش كالظل عند طه حسين ، ولا سيما لأن زوجته الفرنسية تعامله كواحد من الخدم ، بل بدأت تشك فى ذمته لأنه كان مسئولا عن حسابات طه حسين . وقد رأيته بعينى رأسي يستخرج حافظة نقود طه حسين من جيبه وهو جالس بيننا ليستخرج جنيهات طلبتها زوجته .

وبعيد ذلك عرفت أن فريد شحاته ترك خدمة طه حسين . وذات يوم التقيت به فى ميدان باب الحديد ، فأكد لى أنه أضاع شبابه في العمل لدى طه حسين فلم يتزوج إلا فى سن متأخرة وعندما أنجب طفلين لم يجد لهما مكانا فى المدارس ، فاستنجد بكبار العاملين فى وزارة المعارف الذين كانوا يأتمرون بأمره عندما كان مديرا لمكتب الوزير طه حسين ، فلم يساعده أحد فقرر أن يهاجر الى كندا لأن أسرة زوجته سبقته الى الهجرة وأخبرته أن إلحاق الأطفال بالمدارس لا يمثل مشكلة هناك.

وكانت بعض الصحف قد انتهزت فرصة القطيعة التى حدثتْ بين طه حسين وسكرتيره ، فزعمت أن فريد شحاته سيؤلف كتابا عن أيامه مع طه حسين تسوء عميد الأدب العربى ، بل زعمت أن فريد شحاته يؤكد بأنه هو المؤلف الحقيقى لجميع كتب طه حسين ، وأن عميد الأدب برىء من تأليفها ، وقيل ان كتاب فريد شحاته سيطبع فى بيروت لاستحالة طبعه

في مصر ، وانه سيوزع منه مئات الآلاف من النسخ . وأيا كان حظ هذه الروايات من الصحة ، فالمؤكد أن الكتاب المذكور لم يصدر أبدا سواء لأن فريد شحاته لم يؤلفه أصلا ، أو لأنه لم يجد له ناشرا هنا أو هناك .

وقد حاولت من فترة قريبة تسقط أخبار فريد شحاته في كندا ، فرجوت أصدقاء لي في ولايات مختلفة أن يبحثوا عن اسمه وعنوانه في دليل التليفون ، فكان ردهم أنهم لم يعثروا على ضالتهم .

روبير سوليه

روبير سوليه هو محرر جريدة ليموند الفرنسية الواسعة الانتشار ، وهو قد أمضى فترة صباه في مصر ، واستوحاها في كتابين أصدرهما باللغة الفرنسية ، أولهما رواية تدور حول الطربوش وثانيهما كتاب تُرجم الى العربية مؤخرا بعنوان «مصر ولع فرنسي» .

وعندما اطلع الدكتور أنور لوقا الاستاذ بالجامعات السويسرية والفرنسية على ما نشرته في شهر يناير الماضي من «الهلال» عن جاك تاجر أمين المكتبة الخاصة لجلالة الملك فاروق، كتب إليّ يقول إن روبير سوليه هو ابن شقيقة جاك تاجر وإنه التقى به في باريس في إحدى المرات أي أنه من الشوام المصريين .

أدباء ولكن مجهولون

عرفت في مسيرة الحياة عددا من الأدباء الذين كان لهم في دنيا الأدب إسهام، ولكن أخبارهم تنوسيت مع ترادف الأيام. وهذه لمحات موجزة عن بعضهم:

عوض جندي وكان موظفا حكوميا، ولكن هوايته انصرفت إلى ترجمة الموضوعات العلمية، وسك مصطلحات عربية تقابل المصطلحات الفرنجية. وكان من الدؤوبين في كتابة باب الأخبار العلمية في مجلة «المقتطف». وذات مرة أطلعني على قاموس انكليزي/ عربي وقد ملأ حواشيه بالتعليقات والتصحيحات والإضافات من اجتهاده الخاص. وقل اليوم من يذكره في أي مناسبة.

ومثله في هذا التخصص **مبارك إبراهيم** الذي كان مفتشا عاما بمصلحة التليفونات، ولكنه كان يهوى الترجمة ونشر عشرات من الفصول في مجلة «الثقافة» أربى عددها على ٢٠٠ فصل، لأنه كان من المنتسبين إلى لجنة التأليف والترجمة

سلامة موسى



عباس محمود العقاد



والنشر برياسة الدكتور أحمد أمين بك. ولم يصدر له إلا كتاب واحد فى سلسلة «إقرأ» عنوانه «نساء شهيدات»، وهو بدوره ساقط قيد فى مفكرة الأدب ولا بأس أن أذكر أن مبارك إبراهيم هو والد السفير إسماعيل مبارك.

حليم متري كان أديبا واسع الثقافة يعد نفسه من تلاميذ سلامة موسى، وكانت له كتابات كثيرة فى المجلات الأدبية مثل «السياسة الأسبوعية» و«المقتطف» و«الثقافة» وغيرها. ولم يصدر إلا كتابا واحدا عنوانه «من رواد أدبنا المعاصر» وكان يعمل رائدا ثقافيا لموظفى إحدى الشركات الخاصة بصنع السجاير مع أنه لم يكن يدخن.

محيي الدين رضا هو ابن شقيق الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» وكان يزاملنا فى «المقطم» فى قسم التصحيح، ولكنه كان يراسل عددا من الصحف السورية واللبنانية. كما أنه أصدر عدة كتب أهمها «بلاغة العرب فى القرن العشرين» وهو أول كتاب يصدر فى العالم العربى عن أدباء المهجر، وهو الذى عرف ميخائيل نعيمة عندما كان فى الولايات المتحدة بعباس محمود العقاد فكتب له مقدمة كتاب «الغربال».

الشاعر ابن محمود كان يتردد علينا فى رابطة الأدباء التى أنشأها الشاعر الدكتور إبراهيم ناجى فكان رئيسها وكنت وكيلها لتوالى انتخابنا منذ إنشائها فى عام ١٩٤٥ إلى انفضاضها فى عام ١٩٥٢ شاعر يكتى نفسه بهذا الاسم، واسمه الكامل محمد محمود وقد صدر له فى ذلك الوقت ديوان عنوانه «البعث» كتب مقدمته الأديب أحمد الشايب، وكان قد أصدر قبل ذلك جزءين من «ديوان ابن محمود»، ثم أصدر ديوانين بعنوان «نايات وطبول» و«عصارة الوجدان»، وهناك ديوانان آخران لعلهما مازالا مخطوطين عنوانهما «ديوان الثورة» و«ديوان قبض الريح» ومع ذلك، فقل من يعرف هذا الشاعر، وربما خلط الباحثون بينه وبين الشاعر الفلسطينى عبد الرحيم بن محمود الذى حقق ديوانه الدكتور كامل السوافيرى.

حبيب عوض الفيومي: عندما هاجر الدكتور أحمد زكى أبو شادى رائد جماعة أبولو إلى الولايات المتحدة أوصانى فى رسائله بالتعرف بالشاعر والمحقق اللغوى حبيب عوض الفيومي، الذى كان من مؤازرى مجلة «أبولو» وله فيها قصائد ودراسات مطولة. وقد سألت وقتها الباقين على قيد الحياة من أعضاء جماعة أبولو عن عنوانه فلم يستطع أحد أن يهدينى إليه، ربما لأنه كان يعيش فى الفيوم ويتعامل بالبريد مع مجلة أبولو. وهكذا يضيع الأدباء فى دنيانا وهم بعد أحياء، فلا يعرف أحد السبيل إلى الوصول إليهم.

حديقة جبران التذكارية

فى عام ١٩٨٩ قررت حكومة الولايات المتحدة منح مؤسسة جبران الوطنية قطعة

أرض مساحتها ٨٠٠٠ متر مربع في وسط مدينة واشنطن العاصمة حيث أطلق عليها اسم «حديقة جبران التذكارية»، وتم تدشين هذه الحديقة في العام التالي بحضور وزير الداخلية الأمريكي. يتوسط الحديقة تمثال لجبران، وهناك ثلاثة أشجار أرز نقلت خصيصا من لبنان لزراعتها في الحديقة مع الزهور والمزروعات، وأعدت مقاعد حجرية نقشت عليها عبارات لجبران خليل جبران، وأقيمت بركة جميلة تتوسطها نافورة. وفي عام ١٩٩١ زار الرئيس جورج بوش هذه الحديقة وألقى فيها كلمة أشاد فيها بجبران مع أن جبران لم يتجنس بالجنسية الأمريكية وحافظ على جنسيته اللبنانية.

ومن بضعة أسابيع خلت كان يزور الولايات المتحدة للاشتراك في مهرجان أقامته جامعة ماريلند لتخليد ذكرى جبران اثنان من المعنيين بسيرته، هما الأديبة السورية الكبيرة سلمى الحفار الكزبري والشاعر اللبناني هنري زغيب، وانتهزا الفرصة لتفقد حديقة جبران، فماذا وجدا؟ لقد وصف الشاعر زغيب حال الحديقة بقوله إن الشجر يابس كما لو مرت عليه دهور، وإن المكان شملته حالة من العفونة والرطوبة. أما البركة فقد جف ماؤها. وأما الحصى في قعر البركة فقد عشش فيه العشب الأخضر النتن. وصارت المقاعد الحجرية محطا لبراز الغربان. ولم تعد أقوال جبران المنقوشة على المقاعد واضحة لأن الغبار والوحل حجباها. وظهر الصدأ الأزرق المبقع على زوايا تمثال جبران ... المكان حزين مهجور، لا زهر، لا شجر مورقا، لا حياة ترطب المدخل ... وختم الشاعر زغيب كلامه بقوله: هو ذا المكان الذي كان يعج بالآلاف يوم افتتاحه، بات بؤرة لبراز الغربان! هي ذي الحديقة التي كانت فخرا للبنان، باتت بقعة منسية مهجورة على قارعة جادة ماساتشوستس!

ذكرني هذا الوصف بالغابات التي زرعناها في بدايات الثورة، فهل هناك من يدلنا على مصيرها اليوم؟

ابراهيم ناجي



جبران خليل جبران



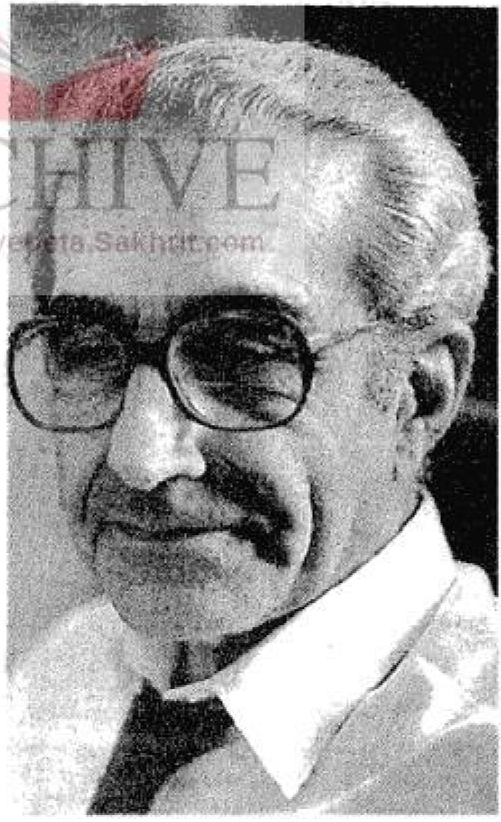
التكوين

أيام دراستي في الجامعة كنت أقرأ
أضعاف ما أسمع من شروح ودروس
محمود أمين ...

❞

بعض الأعوام تبدو منبئة أكثر من بعضها الآخر، ومسرعة الخطو أكثر من بعضها الآخر، ومتخمة بالأحداث أكثر من بعضها الآخر : هكذا كان العامان ١٩٤٣/٤٤ و١٩٤٤/ ٤٥، كانا كذلك بالنسبة لى، ولمصر، وللعالم من حولنا .

في سبتمبر سنة ١٩٤٣ كنت أبدأ دراستى فى السنة الثالثة بقسم الدراسات الفلسفية. وكنت أعرف مقدمًا أننى مقبل على تلقى دروس في الفلسفة الحديثة، وكان هذا التوقع وحده مصدر أفكار ومشاعر تحيط بها هالة موحية، ولم أكن أعرف على وجه اليقين بماذا توحي، ولكن هذا الإيحاء الغامض نفسه كان يحدد لها اتجاها بعينه، مؤداه أن النظريات الفلسفية المرتقبة وما سوف تثيره عندي من مشاعر ستكون في مجملها أقرب إلى روح الفكر الحديث والوجدانات الحديثة، وذلك في مقابل



أجواء القِدَم والعتاقة التي كانت تغلب على دروس الفلسفة في السنتين الأولى والثانية. وكان هذا يكفيني لأبدأ السير بعد ذلك في الطريق الذي رسمته لنفسي طلبا لكشوف فكرية لا تنقطع، وإمتاع لا ينحسر.

وقبيل بدء العام ١٩٤٢ توالت على مصر أحداث بالغة الدلالة: فقد وقع بحزب الوفد (حزب الأغلبية الشعبية، وكان في كرسي الوزارة حينئذ) أخطر الانشقاقات في تاريخه، إذ تفجَّر الخلاف بين زعيمه مصطفى النحاس، والرجل الثاني، مكرم عبيد. وقرأنا هذا التفجر حينئذ على أنه يعني انحياز الزعامة إلى جانب سطوة المال (ممثلة في فؤاد سراج الدين بوجه خاص) على حساب التاريخ النضالي المرموق لأمثال مكرم عبيد. وفي تلك الفترة المبكرة أيضا حدثت أحداث أخرى مهمة (ولكنها إيجابية في هذه المرة)، من أهمها صدور قانون الاعتراف بالنقابات، ثم في سنة ١٩٤٢ صدر مشروع القرض الوطني لسداد الدين الأجنبي وهو الدين الذي أوقع مصر (على امتداد الربع الأخير من القرن ١٩) في حبائل التدخل الأجنبي الذي انتهى بالاحتلال الانجليزي المشئوم. ومع أن هذا المشروع آتى أكله وتم سداد الدَّين فعلا في شهور قليلة، فلا أجد في ذاكرتي الآن ما يشهد بأن صحافة ذلك العهد احتفلت به بالصورة التي كان يستحقها .

وفي سبتمبر سنة ١٩٤٣ كانت فاتحة الأحداث الكبرى في الحرب العالمية الثانية: خرجت إيطاليا من الحرب وأبرمت معاهدة سلام مع الحلفاء. وبعد ذلك بشهور قليلة أعلن عن تعيين الجنرال أيزنهاور (أمريكي الجنسية) قائدا عاما لقوات الحلفاء. وفهمنا فيما بعد أن هذا كان تمهيدا لهبوط قوات الحلفاء على سواحل نورماندي (وهو الحدث الذي عرف حينئذ باسم فتح الجبهة الثانية)، وفعلا فتحت الجبهة الثانية في منتصف سنة ١٩٤٤. هكذا كنت ، وكانت مصر،

التكوين

وكان العالم من حولنا فى سنة ١٩٤٣ / ٤٤.

نحن وأساتذتنا والمحاضرات

لا أذكر أننا أسأنا الى أساتذتنا بالتصريح أو بالتلميح، سواء في حضورهم أو من وراء ظهورهم، عندما كنا بعد في بواكير الشباب نستمع إلى محاضراتهم في قاعات الدرس، وأنا أدلي بشهادتي هذه لأضيف بها شاهداً أراكمه على شواهد أخرى تشير إلى حجم التدني الذى وصلت اليه أخلاقيات الطلاب الجامعيين لدينا في الآونة الحاضرة. ولا أزال إلي يومنا هذا أتذكر الأحاديث التى كنا نتبادلها إذ ذاك بشأن محاضرات الأساتذة، أنا والأصدقاء محمود العالِم، ويوسف الشاروني، ومحمد جعفر وأمين عز الدين، وعباس أحمد. ولا أظن أننا كنا فى أحاديثنا تلك نصدر عن انبهار ساذج، ولا عن غفلة تبطنها الجهالة، فما كنا سُذَّجاً ولا كنا غافلين، بل ولا كنا نقصد عن وعى وتدبُر أن نعقل ألسنتنا عن الإساءة، ولكن هكذا جرت الأمور بتلقائية لا تشوبها صنعة ولا تصنع . ومع ذلك فقد كانت أحاديثنا عن محاضرات الأساتذة زاخرة بالملاحظات النقدية لا لشيء إلا لأننا كنا نقرأ أضعاف ما نسمع من معلومات وشروح، وكنا نقرأ المراجع الأجنبية إضافة الى المؤلفات والمترجمات العربية. وكانت أذهاننا منصرفة إلى العلم، مبتعدة عن لغو الحديث .

كان عثمان أمين يحاضرنا فى الأخلاق عند سبينوزا، وكان على عبدالواحد يقدم لنا أساسيات الفكر الاجتماعى عند أوجست كونت، معرّجا أحيانا على ابن خلدون، وممتدا بعد ذلك الى إميل دوركهايم، وكان مصطفى حلمي يشرح لنا «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال»، وكان يوسف مراد يشرح مبادئ علم النفس العام .

ووجدتنى أتقدم من خلال هذه الدروس إلى الجوهر الذى ابتغيته وسعيت إليه منذ اعتزمت الالتحاق بكلية الآداب . وكان الجوهر المنشود أن أتمثل الفلسفة كما يتمثل جسمي الطعام

والشراب . وهاأنذا استوعب وأتمثل ما أستوعب، وأعاين رنين الحداثة في هذا كله فأزداد اقترابا منه يصل إلى حد التوحد أحيانا، وأشعر بأقدار من الثقة تغمرني؛ إذ تشير بأن الدرب الذي سلكته واصل بي في نهاية المطاف إلى بُغيتي . وكنت أتأمل هذه الثقة من حين لآخر فأجدها أمرا جديدا عليَّ، لم أعرفها على امتداد الفرقتين الأولى والثانية، فقد ألهاني حينئذ استكشاف الجديد في البيئة الجامعية، وما كان يثيره في نفسي من دهشة ممتعة، فلما آن أوان التقدم للفرقة الثالثة انحسرت أمواج الدهشة والفرحة، وخلَّفت وراءها تربة شديدة الخصوبة لاستنبات النبت الجديد المنتظر، واكتشفت عندئذ أن الثقة المفعمة بالطمأنينة تطرح نفسها كخاصة من أهم خواص هذه التربة. وهكذا تلقيت دروسي في الفرقة الثالثة بنفس صافية، وقرأت المزيد بنفس راضية، واستذكرتُ واستوعبتُ هذا وذاك بسلاسة لم أعرفها طوال حياة التلمذة من قبل. وانتقلت إلى الفرقة الرابعة وقد رسخ في أعماقي أن قبسا من السلام الداخلي الذي تحدث عنه الروائيون أخذ يستقر في نفسي. وبدا لي واضحا منذ ذلك الوقت المبكر أن هذا النوع من السلام سوف يكون حصني الحصين في مقبل الأيام .

وفي ذاكرتي الآن أن هذه الأمور جميعا بدأت تباشيرها تتراءى لي في أواخر تلمذتي في الفرقة الثانية ، لكن شروطا بعينها لم تتوافر عندئذ، فبقيت التباشير أقرب إلى الكمون منها إلى الإفصاح . كنا نستمع في الفرقة الثانية إلى دروس عبدالرحمن بدوي في المنطق، وفي فلسفة العصور الوسطى المسيحية، وكنا نحب شبابه ونلمس اجتهاده المتمثل في غزارة المادة المحتواة في دروسه، ولكن لم يرق لنا أسلوبه في تقديم هذه المادة، فقد كان يقرؤها في كراسة تلازمه دائما، وقلما كان يتطوع بالشرح، بل كان يظهر الضيق بالشرح إذا طلب إليه، وكنا نتلقى القراءة على أنها إملاء، وكنا نكتب ما يملى علينا، وكانت الجهامة لا تفارق وجهه. واستمعنا ضمن ما استمعنا كذلك في الفرقة الثانية إلى دروس عبدالعزيز عزت في مبادىء علم الاجتماع، وتعاملت معها كمادة للحفظ استعدادا لامتحان آخر العام، لا أكثر ولا أقل. أما دروس محمود الخضيري في الفلسفة الإسلامية فقد تلقيتها بمزيج من مشاعر الاستمتاع

التكوين

الهادىء والاحترام الأسر ، كان الرجل يشرح الأفكار اعتمادا على النص الفلسفي مباشرة، وكان النص هو «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا، وكان النص صعبا. وكانت البشاشة لا تفارق وجه الأستاذ. ولا أزال بعد مرور أكثر من نصف قرن على الأيام التى تعرضت فيها لهذا النموذج فى التدريس (أعنى الرجوع المباشر للنص) أقتدى به وأنا على بيّنة من هذا الجذر البعيد للاقتداء .

جرى هذا كله ونحن بعد فى الفرقة الثانية، فلم تزد آثاره على أن كانت إرهاصات متفاوتة الوزن بما نحن مقدمون عليه فى المرحلة التالية. فلما كانت الفرقة الثالثة، كنا قد تأزر نضجنا مع حيوية العرض الذى أنعم به علينا الأساتذة الكبار، وتفاعل هذا كله مع رنين الحداثة الذى عايناه فى أفكار سپينوزا وفلاسفة القرن السابع عشر بوجه عام، فكان ما وقع لنا من معايشة حميمة لمضامين الدروس التى ألقيت إلينا. ثم إن ما استقر لنا فى السنة الثالثة زاد استقراراً ونضوعا فى الفرقة الرابعة. سواء فى تعاملنا مع دروس الفلسفة الحديثة حول نقد العقل ونقد الحكم عند إمانويل كنت، أو مع محاضرات التصوف الإسلامى، وما وراء الطبيعة، أو مع دروس علم النفس وعلم الاجتماع. وعندما آذن العام بالانتهاء أقبلنا على الامتحان فى شهر مايو سنة ١٩٤٥، وأديناه كما ينبغى أن يكون الأداء.وأفقت بعد ذلك على سؤال استأثر بمعظم ما كان لدى من رصيد الفكر والوجدان : فماذا أنا فاعل بنفسى الآن؟

وهو السؤال ذاته الذى واجهته مصر، وواجهه العالم كله فى التوقيت نفسه. فقد انتهت الحرب العالمية إذ ذاك فى أوروبا ، وبدا واضحا أنها تقترب من النهاية فى الشرق الأقصى كذلك. ووقفت مصر ودول العالم أجمع تتفكر فى تبعات السلام .

مصر على مشارف السلام

على امتداد النصف الأول من عقد الأربعينيات كان مشهد الساحة السياسية فى مصر يتسم أساسا بصراعات لا تفتأ تزداد عنفا واتساعا، كان هناك الصراع الزاعق بين حكومة

الوفد من ناحية وأحزاب الأقلية ورجال القصر من ناحية أخرى، ثم كان هناك الصراع المكتوم بين حكومة الوفد من ناحية وجماعة الإخوان المسلمين من ناحية أخرى. ثم كان هناك صراع داخل حزب الوفد نفسه انتهى بانشقاق مكرم عبيد ونشره ما أسماه بالكتاب الأسود إشارة إلى ما اعتبره أعمالا سوداء وقعت في عهد أسود قام بها رجال الوفد، ولا يبرأ من بعضها مصطفى النحاس. وأخيرا وليس آخرا كانت هناك صراعات متعددة تدور بين الجماعات الماركسية، كل جماعة تدين الأخرى بالانحراف الأيديولوجى، وقد تدينها بالخيانة والعمالة. وكنت حريصا على أن أسمع لأعرف وأفهم. وسمعت وفهمت أن هذه الصراعات جميعا كانت تتسم بسمتين رئيسيتين، أولاهما المغالاة فى ردود الأفعال حتي أن «الآخر» تجتمع فيه كل الصفات السيئة، فإذا كل ما يصدر عنه مرفوض سلفا. والسمة الثانية تمركز المعركة حول أشخاص بأعيانهم لا حول مبادىء أو برامج. ونتيجة لاجتماع هاتين السمتين معاً كان معظم ما نسمع عن هذه الصراعات أدخل فى باب التجريح الشخصى والسباب.

وفى أكتوبر سنة ١٩٤٤، وسط هذا الضجيج أقيلت حكومة الوفد مرة أخرى، وجاءت الإقالة فى هذه المرة أيضا مهينة، وتم تشكيل الحكومة الجديدة برئاسة أحمد ماهر رئيس الحزب السعدى. وكان واضحا من توقيت الإقالة أن الحومة البريطانية وقد اطمأنت إلى قرب انتهاء الحرب، وأن النهاية آتية فى صالحها (وفى صالح الحلفاء عموما)، فقد أسقطت من حسابها الاهتمام بما يدور فى الجبهة الداخلية (فى مصر) ، بل إن المسألة لم تكن مجرد إسقاط من الحساب فقط، ولكنها كانت تنطوى كذلك على قدر من الاستجابة المحسوبة لبعض النذر التى بدأت تلوح فى آفاق عدد من الدول المغلوبة على أمرها مثل مصر والهند وأندونيسيا والهند الصينية تدل على أن القوى الوطنية فى تلك الدول تنتظر بفارغ الصبر انتهاء الحرب لتطلب إلى جيوش الاحتلال الرحيل عن أراضيها لتستكمل استقلالها وتنهض بتشكيل مستقبلها. فى أجواء التربص والتربص المضاد هذه أوحى الى أعداء حزب الأغلبية بأن ما يدور داخل مصر لم يعد يهم الحكومة

التكوين

الانجليزية، وسرعان ما انتهز الملك وحاشيته الفرصة وأطاحوا بالوفد، ورحبت أحزاب الأقلية بالإطاحة. وفي تلك الفترة ظهرت على الساحة جريدة «أخبار اليوم» وبدا اتجاهها واضحا منذ أول يوم لصدورها، فقد كانت أنشط الجرائد وأكفأها في القيام بمهمتين معا : تلطيخ سمعة الوفد، وتجميل صورة الملك. وأحاطت الجريدة هاتين المهمتين بهالة من الضوضاء الإعلامية لم تعرفها مصر من قبل. وغرق المواطنون العاديون في هذه الهالة إلى آذانهم. وشعرنا بأننا أمام طراز جديد من الإعلام. وقبل ذلك بقليل كان الوفد يصدر جريدة حزبية باسم «الوفد المصرى»، كان شغلها الشاغل تجميل صورة الحزب، وقد تولى رئاسة التحرير فيها محمد مندور، وكان قد عاد في أواخر الثلاثينيات من بعثة علمية طويلة الأجل في باريس، وكان لاسمه وزن بيننا في الجامعة. ومع أنني كنت أقرب إلى التعاطف مع الوفد فقد استثار صدور جريدته على هذا النحو (حاملة اسم مندور كرئيس للتحرير) سؤالا ظل يتجدد في نفسي من حين لآخر، مؤداه : أليس هذا إهدارا للعلم الذى تعلّمه مندور في بعثته؟ وللمال العام الذى أنفق على هذه البعثة طوال الثلاثينيات؟ ولحق الجامعة عليه وعلى من بيدهم الأمر يوم تقرر إيفاده في تلك البعثة؟ وأخذت ، ولازالت تتوالى في ذهني توابع لا حصر لها لهذا السؤال. الشيء المهم أن هذا الضجيج الفارغ الذى امتلأت به الساحة السياسية انتهى بحكومة أحمد ماهر إلى إعلان الحرب على ألمانيا واليابان في فبراير سنة ١٩٤٥، وكان ذلك أسوة بما فعلته عدة دول صغيرة في الفترة نفسها إظهارا لولاء التبعية (بارجواى، وبيرو، وشيلي، وفنزويلا، وأوراجواى، وتركيا). وفجأة وعلى غير توقع، اغتيل أحمد ماهر، اغتاله شاب اسمه محمود العيسوى. وجاء هذا الحادث إيذانا بانتقال العمل السياسى لدينا إلى مستوى جديد من العنف : عنف الأفعال، بعد أن كان يقتصر على عنف الأقوال، ولا أزال أذكر سؤالا محوريا فجره الحادث في ذهني وقتئذ : ماذا عساه

يحدث في مصر بعد ذلك؟ وفيما بعد اقترنت بالسؤال عبارة قاتمة : ويل لمصر من بعض أبنائها .

مستقبل العالم

وبقدر ما كانت النزاعات على مسرح السياحة الداخلية تتسم بالتخبط كانت محصلة الصراع على مسرح السياسة العالمية من الربع الثاني من الأربعينيات واضحة المعالم محددة الاتجاه. وبقدر ما كانت النزاعات الداخلية تطفح بالعبث والطفولية وانعدام الشعور بالمسئولية كانت الصراعات على مسرح السياسة العالمية تتميز بدرجة عالية من الجدية، إذ تدار حول التخطيط للمستقبل القريب والبعيد، وتستخدم الفكر، وتفصل البرامج.

في أواخر سنة ١٩٤٣ اشتد الجدل داخل دوائر الحلفاء حول ضرورة فتح جبهة ثانية في غرب أوربا لتخفيف الضغط الواقع من القوات الألمانية على الجبهة الشرقية حيث يكاد الاتحاد السوفييتي يتحمل وحده عبء دحر هذه القوات. وفتحت الجبهة الثانية في نهاية الأمر، وبدأ إنزال الجنود والعتاد على الشواطىء الغربية لفرنسا حوالى منتصف سنة ١٩٤٤. وفي توقيت مقارب عقد الحلفاء الغربيون مؤتمرا اقتصاديا في مدينة هامبشاير عرف باسم مؤتمر «بريتون وودز» وذلك لصياغة المبادئ العامة لاقتصاديات العالم فيما بعد الحرب وابتكار الآليات المناسبة، وفي إطار هذا المؤتمر أنشىء صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي. هكذا تم التدبير لخطوات الحرب القريبة، والتخطيط لاقتصاديات العالم البعيدة، أما التفكير فيما سيكون عليه العالم سياسيا فقد عقد له مؤتمر يالطة بين كبار الكبار : روزفلت، وستالين، وتشرتشل في فبراير سنة ١٩٤٥. وتوالت في الوقت نفسه أحداث انتحار الألمان حدثا بعد الآخر. حتى كان آخرها توقيع المارشالات الألمان وثائق الاستسلام بدون قيد ولا شرط في مايو سنة ١٩٤٥. وانتهت الحرب في أوربا . ولا أزال أذكر مشاعري وأفكاري قبيل بلوغ هذه النهاية، كنت حريصاً على متابعة الأنباء، وكان ما يشغلني فعلا هو شعور الإجلال والإكبار لجميع الفرقاء المشاركين فيها، لأن كل فريق بدأ وقد

التكوين

أدى واجبه إلى آخر قطرة من دمه؛ وأتساءل الآن، ألم أكن انفعل للجانب المأساوى فيها؟ لا أظن أننى شغلت بالتعرض لهذا الجانب، وربما كان السبب أن المأساة كانت فى يقينى أكبر بكثير من أن يتناولها أى انفعال .

ونعود إلى سيرة الحرب، وبلوغ نقطة النهاية فى أوربا. فلم تكن تفرغ من أنباء أحداثها حتى فاجأتنا أنباء أحداث لا تقل أهمية فى تأثيرها فى حركة التاريخ، وإن اختلفت الدلالة هذه المرة، إذ جرت الأمور فى الغرب بصورة شدت انتباهنا لحسابات جديدة، فلم ينفرد ساسة الحرب بالتخطيط لما بعد الحرب كأنما أصبحوا أوصياء على شعوبهم، ولم تترك هذه الشعوب لساساتها أى فرصة لكى يحلموا بهذه الوصاية، ناهيك عن ادعاء الحق فيها، فبعد انتهاء الحرب بشهرين اثنين، أى فى يوليه ١٩٤٥ جرت الانتخابات التشريعية فى انجلترا، وإذا بالشعب الانجليزى يسقط تشرشل وحزب المحافظين، ويولى رئاسة الوزارة كلمنت أتلى وحزب العمال، مع أن تشرشل (على رأس حزب المحافظين) كان البطل الذى أنقذ بريطانيا فى الحرب بفضل صلابته المتبصرة وحنكته السياسية عالية الاقتدار. ولكن هذه الشهادة التى كانت تلقى الإجماع لم تكن لتغرى أحدا أو تبرر له أن يضفى على الرجل أى معنى من معانى التقديس. وقرأنا نحن فى مصر هذه الأخبار، ورأى بعضنا فيها مظهرا من مظاهر نضج الشعوب والساسة معا، ورأى بعضنا الآخر فيها جحودا من الشعب الانجليزى نحو زعيم عظيم، ورد البعض الأول على ذلك بأن مصالح الشعوب لا يجوز التعامل بشأنها كما تعامل الأوسمة والنياشين، تمنح لهذا أو ذاك على سبيل الشهادة بالأمجاد الشخصية!

أقبح من الحرب

وبعد استسلام ألمانيا اتجهت الأنظار إلى الشرق الأقصى، حيث كانت الحرب لا تزال تدور بين الحلفاء واليابان، وفى

ذاكرتى الآن أن المشهد هناك بدا وكأنه فى تصعيد يتسارع يوما بعد يوم؛ ففى مايو ١٩٤٥ أعلن عن تدمير ما يقرب من نصف مدينة طوكيو نتيجة تكثيف الغارات الجوية عليها، وفى يولية انعقد مؤتمر بوتسدام (بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وانجلترا) وطلب إلى اليابان الاستسلام دون قيد ولا شرط. وفجأة جاءت الأنباء فى أغسطس باسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما، وبعد ثلاثة أيام جاءت الأنباء بإسقاط القنبلة الذرية الثانية على نجازاكى. ثم بعد خمسة أيام أخر أعلن إمبراطور اليابان استسلام بلاده غير المشروط .

وثارت فى جميع أنحاء العالم أسئلة لا حصر لها. كان معظمها يدور حول سؤال رئيسى واحد: هل صحيح ما تناقلته وكالات الأنباء عن القوة التدميرية للقنبلة الذرية؟ وهل كان استخدامها ضروريا لإنهاء الحرب؟ وسرى فى دوائر متعددة الشعور بأن قرار إسقاطها على المدينتين المنكوبتين جاء متسرعا. وثار على الأثر سؤال: ولماذا هذا التسرع؟ قيل إن التسرع كان فى حقيقته إسراعا بتوجيه رسالة ضمنية إلى الاتحاد السوفييتى. وثار سؤال آخر حول توقيت الإسراع نفسه؛ لماذا هذا التوقيت بالذات مع أنه كان من الممكن تقنيا أن يتخذ قرار الإسقاط قبل أغسطس بعدة شهور لحسم الحرب فى أوربا، فلماذا لم يتخذ حينئذ واتخذ فى أغسطس ليتم تنفيذه فى الشرق الأقصى، على اليابان؟ فهل كانت لهذا القرار جذور عنصرية؟ ولم تكن الولايات المتحدة في ذلك الوقت مبرأة من وصمة الأيديولوجية العنصرية .

وهكذا كانت سنوات الربع الثانى من الأربعينيات، بالنسبة لى، ولمصر، وللعالم، مثبثة أكثر من غيرها مما سبقها، ومسرعة وأشد امتلاء. وتخرجت فى الجامعة عند منتصف الأربعينيات، فكان السؤال أمامى: وماذا أنا فاعل بنفسى الآن؟ واغتيل أحمد ماهر رئيس الحكومة فى ذلك التوقيت فكان السؤال المطروح على الجميع: وماذا تخبىء الأيام لمصر بعد اليوم؟ وفتح ساسة أميريكا فى وجه العالم أبواب الجحيم الذرى. وتساءل الجميع، الغالب والمغلوب. إلى أين المصير؟

أنت والهلال

ظواهر جامعية جديدة !

جاء بمقال الاستاذ مصطفى نبيل رئيس التحرير والذى نشر فى عدد ابريل الماضى، ملاحظاته والتى وصفها بأنها مؤسفة فى الجامعة فيما يختص بعدم حضور الطلاب لمناقشة الرسائل الجامعية سواء الدكتوراه أو الماجستير ، عكس ما كان يجرى فى الماضى .

وإذا كنا بصدد تشخيص موضع الأزمة فى حياتنا الفكرية والثقافية ، فإن الظاهرة موضع الدراسة ، ما هى إلا مؤشر واضح لمشكلة أكبر وأخطرمن ذلك ، وهى تراجع وفشل النظام التعليمى فى مصر عن تحقيق أهدافه !

وأستشهد هنا بما قاله الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه «آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة : «فى اعتقادى أن أية مناقشة جادة لمشكلات التعليم ، إذا ما سارت إلى مداها الطبيعى ، وامتدت إلى أبعادها المنطقية ، فلابد أن تقضى آخر الأمر إلى مناقشة أسلوب حياتنا فى أعم صورة ، ولابد أن تنتقل من المنظور الضيق للمشكلات التعليمية على وجه التخصيص إلى المنظور الأوسع لمشكلاتنا الاجتماعية فى المرحلة الراهنة من تاريخنا .

محمد صلاح ياسين غازى
جامعة طنطا

●● الهلال :

فى كثير من المقالات والدراسات التى ننشرها ضرورة الاهتمام بمشكلات التعليم وإعطائها الأولوية حتى يمكن أن ننطلق فى تحقيق الكثير من النجاحات فى حياتنا العلمية والعملية .

مسافر بلا أمل

أيا وطننا نفى الأبناء منه ... ويزعم أنه منهم قريب
ألا تشتاق للأحباب يوما ... كما يشتاق تربتك الحبيب
جراحى منك تنزف كل يوم ... فهل يا جارحى أنت الطبيب
أيا وطنى لك العينان شمسا ... فخذها قبل أن يدنو الغروب
ولا تعجب لعشقى يا حبيبى ... فما فى العشق من شىء عجيب
إذا بادلتنى حبا بحب ... ستعذر مهجتى عما تذوب
فإنى ما دفئت بأى حضن ... لغير هواك قلبى لا يطيب

درهم جبارى
سان فرانسسكو

تحيتان .. وعتاب !

شد ما أعجبني مقال الكاتبة / صافي ناز كاظم ، في عدد مارس ٢٠٠٠ م ، عن «قاسم أمين» وأعماله الكاملة ، وما أبدته من آراء حصيفة ، تنم عن قلم نظيف ، وفهم عميق لحقائق الأمور عامة ، والإسلام خاصة .. فإليك تحيتي .

تلك كانت أولى تحيتيّ ، أما ثانيتهما فلمجلتنا العريقة «الهلال» لما تحويه بين دفتيها من درر مختلفة ألوانها وأشكالها .

أما عتابي الوحيد ، امتثالاً لقول الشاعر :

«أقلي اللوم عاذل والعتابا»

فأهمس به في أذن صاحبة التحية الأولى - الكاتبة / صافي ناز كاظم ، لإصرارها على وضع همزة القطع موضع همزة الوصل . والفصل بينهما من القواعد المقررة عند أهل «الذكر» من علماء اللغة .. وليس الفصل بينهما ترفا ، وإنما هو من مظاهر الدقة في استعمال اللغة ، هذه الحقيقة أسوقها على استحياء ، لولا ما أتوسمه في الكاتبة الفاضلة من حب للحق ، وهي التي حملت على «البطل» ! لاجتهاده في جعل اللغة العربية تابعة خاضعة لكل دخيل من لغة «الأسياد» ! ودمت لنا .. يا سيدتي حاملة لراية الحق .

محمد محمود الشناوى

بورسعيد

بين أروقة السراب

يا عـــشق أوهمـــتني أنّ الجـــوى قـــدرى
مـــا غـــرني غـــير طيف حين ســـامـــرني
ألقـــيت في رحـــبي وجـــدا غـــشى ولهي
ناديت أطيـــارك الثكلى تحـــاصـــرني
تنســـاب في وهج ، كـــيـــمـــا تســـاومني
فـــالشـــجـــو في زمن يجـــفـــو ، يصـــادرني
لكنّ لي قـــســـمـــا مـــا كنت أغـــفله
فـــالقلب حـــذرني ، كي لا تشـــاطرني

والجرح علمني درساً بذاكرتي
لو كنت أنساه ، أشواق تبادرني
فالليل عاهدني ، بالدوح سربلني
حتى وإن صرت أنساه أتؤازرني
فالشمس لو بزغت يوماً بأنسجتي
فالظل لي لغة يوماً يحاورني

عبد الناصر الجوهري
عضو نادى الأدب - المنصورة

كيف نعد علماء المستقبل ؟

احتفلنا واحتفينا بالدكتور زويل لما حققه بعد حصوله على جائزة نوبل ، وهذا الاكتشاف الكبير المدوى الذى بفضله حصل على الجائزة ، وما سوف يحققه للبشرية من تقدم وازدهار فى ميدان العلوم والطب .

لكن ما أتمناه هو أن يحذو العلماء فى مصر حذوه ، ويحققوا ما حققه .. صحيح أن النبوغ الذى حققه جاء نتيجة لاستكمال دراسته فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتوفير المناخ المناسب ، وهذا الفريق من الباحثين الذين عملوا معه حتى تحقق اكتشاف (الفيمتو ثانية) .

وبالطبع لابد أن يتوفر المناخ الملائم لعلمائنا المصريين ، حتى يمكن أن نجد عشرات منهم مثل د . أحمد زويل .

وهذا يتطلب تكاتف المؤسسات العلمية وبعض الشركات المهتمة من أجل تيسير البيئة البحثية المناسبة وتقديم التمويل المناسب وتفرغ العلماء فى فرق بحثية متكاملة ، بدلا من الجهود الفردية التى تضيع سدى .

أيضا لابد من تطوير التعليم فى جميع مراحله وبما فى ذلك الجامعة والمراكز العلمية والبحثية ليكون أسلوب الابتكار والبحث والاجتهاد والخروج بنتائج وأفكار متطورة ، بدلا من أسلوب الحفظ والتلقين .

حسن عبد المجيد منتصر
فارسكور - دمياط

●● الهلال :

نحن أشرنا إلى هذا فى افتتاحيات «الهلال» وبعد فوز د. زويل وبينا بصراحة رأى الفائز بنوبل فى توجهاته لإنشاء الجامعة التى وضع حجر أساسها ولتكون معملا حقيقيا لتفريخ العلماء من أبناء مصر ، وليحقق علماؤنا الريادة كما كنا فى الماضى .

أشعار الحب والمحبين

سئل أعرابى عن الحب فقال : ما عساه أن يكون هل هو إلا سحر أو جنون أو زفرة بعد زفرة وحر على الأحشاء ليس له برد . يقول الشاعر محمد بن مبادر :

من فتا اصبح في الحب   سقاه الحب سما
كلما أخفى جوى الحب   عليه الدمع نما
ساهر لا يطعم النوم   إذا الليل أدلهما
أنتم كل همى فإن لم   تصلونى مت غما

وتتصاعد الشكوى من قلوب المبتلين بالحب حارة كألسنة اللهب يقول الشاعر محمد ابن أمية :

فوالله ما أدرى أمن لوعة الهوى   صبرت على التقصير أم ليس لى قلب
أتح لنا أمـــرا والفـــؤاد يسوده   أجن فؤادى فى الهوى هل هو الحب

ويشفق ابن أبى حصين على العشاق مما يلاقونه من الهجر والفراق ومن الحرقة والجوى لذا فهو يحسد من لم يحب ويقول :

والعشق يجتنب النفوس إلى الردى   بالطبع واحسدا أن لا يعشق
ترك الخيــــال فهاج لى بطروقه   ولها فليــت خيالها لم يطرق

محمد أمين عيسوي
الاسماعيلية

القصبجى عازف العود الشهير

تحدث د . جلال أمين فى مقاله «أم كلثوم والقصبجي» فى مارس ٢٠٠٠ عن هالة التقديس التي أحاطت بأم كلثوم وأدت إلى حجب الضوء عن فنانين آخرين كالقصبجي .. وبالرغم من صدق هذه المقولة إلا أن أسبابا أخرى لا يجب إغفالها أدت إلى إهدار حق هؤلاء الفنانين ، منها مسئولية الملحن .

فبالنسبة لمسئولية الملحن فإن محمد القصبجي الذي يعد من أمهر عازفي العود ومعلما لمحمد عبد الوهاب ذاته في عزف هذه الآلة قد انكفأ على نفسه ولم يحاول إثبات ذاته وقدرته على الخلق والإبداع ، بل لم يسع لأن يحتل العود المكانة اللائقة به فى فرقة أم كلثوم ، حيث تعودنا أن نسمع دائما قانون محمد عبده صالح يطغى على الآلات الأخرى ويقويها ، ولا نكاد نسمع صدى لصوت العود فى أغنية من أغنيات أم كلثوم إلا فيما ندر .

وقد نعذر الرجل لأنه فنان صادق مرهف الحس وتضطرم رأسه بألحان شتى ربما كان يخشى عليها من نفسه ومن الآخرين أيضا ، فازدحام الألحان على الأوتار قد يودى باللحن والأداء معا .

ولو كان القصبجي قد نجح في إبراز شأن العود وشأنه هو كملحن ملهم فلربما كان قد تغير حاله وحال غيره من الملحنين ، ولما انكمش دور العود في فرقة أم كلثوم وفي غيرها من الفرق ، خاصة إذا قدرنا أن العود يكاد يكون هو الآلة الوحيدة التى كان يعتمد عليها الملحن فى ذلك الوقت الكلثومى الجميل .

عادل شافعي الخطيب
عضو اتحاد الكتاب

كم السموات ؟

كم الحزن يا سيدى؟
كل نبضة قلب تقاذفها الحسرات
كم العمر يا سيدى؟
ألف صيف ومليون قلب نحرت على مقصل الأضحيات
كم اللون يا سيدى؟
شفقى.. تلبد حمرته بالرماد
كم الوقت يا سيدى؟
قرب مشرق شمس من الغرب.. قرب شتات الشتات
ومازلت تغرس فى دمنا الأمنيات!
وتنساب شعرا وتمضى
كأنك ترغب تخبىء ما اشتقت من دمع عينيك عنا حييا
ونرجوك تبقى قليلا.. قليلا
تشاركنا اللحظات
فيفتر قلبك عن بسمة ورويدا رويدا
تقاسمنا الضحكات
عن الزمن العذب تروى الحكايا
وتروى الظمأ

إيهاب البشبيشى

تعليق حول مقال الدكتور رجب البيومى

علق الأستاذ محمد إبراهيم عامر فى باب «أنت والهلال» بمجلة الهلال عدد إبريل ٢٠٠٠ على مقال الدكتور محمد رجب البيومى «المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين» ذاكرا أن الدكتور رجب البيومى هو الذى قال إن والد السيدة درية شفيق هو أحمد شفيق باشا المؤرخ المعروف. ولكن الحقيقة أن من يقرأ مقال الدكتور رجب البيومى يجده يصحح ما قاله عن غيره، وينفى ذلك كلية. كما ذكر المعلق أن مقال الدكتور رجب البيومى يشير

إلى أن الإمام محمد عبده كتب مقالات في كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين. والصحيح أن من يقرأ مقال الدكتور رجب البيومي يجده ينفي عن محمد عبده كتابته لهذه المقالات. لذلك أتوجس خيفة أن يتصور أحد ممن لم يقرأ مقال الدكتور رجب البيومي في الهلال عدد فبراير ٢٠٠٠ ثبوت هذا الكلام عنه. لاسيما أننا عهدنا دائما في أي مقال يكتبه الدكتور رجب دقته في تحري الحقيقة، وحرصه على أمانة الكلمة، وصدقه في كل ما يقول ويكتب. ورجائي من الأخ العزيز المعلق أن يعيد قراءة المقال المذكور مرة أخرى حتى يطمئن قلبه، ويستريح فكره على حقيقة ما غاب عنه.

صلاح عبدالرحيم محمد

المنصورة - شارع الجلاء

رحيل قاص في صمت شديد!

فقدت الحركة الأدبية ناقدا مهما هو عبدالرحمن شلش والذي أدى دورا في الحياة الأدبية المصرية من خلال جهوده في نادي القصة وإسهاماته في مجال القصة القصيرة ومقاله النقدي الأسبوعي في صحيفة المساء. كتب في العديد من الصحف العربية، وشارك في تحرير العديد من المجلات الأدبية. وبعد هذا الجهد الكبير داهمه المرض وانتصر عليه ليرحل عنا في منتصف ابريل الماضي.

وكان حتى الساعات الأخيرة يمارس نشاطه في نادي القصة، في عقد الندوات والاتصال بالأدباء.

وعلى الرغم من انتاجه الغزير فإنه لم ينشر كتبه في أية مؤسسة خاصة أو حكومية، وكان يحرص على نشر كتب شقيقه الراحل د. علي شلش في هذه الموسسات.

لكن هل يظل الموقف من عبدالرحمن بعد وفاته، فلديه تحت الطبع روايتان وثلاثة كتب نقدية، فياترى أي هذه المؤسسات سوف تسهم في طبع أعماله؟!

فرج مجاهد عبدالوهاب

شربين - دقهلية

ردود الأصدقاء

●● كثيرا ما تشاجرنا
يحطم أوان الزهر، يحطم المرايا
يحطم الأباريق الكرستالية النادرة الصنع!!
وحينما يهدأ. أميل عليه ، أقبله، ألملم بقايا البلور المكسور.

هكذا كتبت إلينا الصديقة إيمان محمد العطيفى بعضا من إنتاجها وتقول : بالله هل قرأت يا عزيزتى شعرا هكذا..

بقية ما تسمينها قصيدة، هى على شاكلة قصيدة النثر إياها والتى لا نفهم منها شيئا..

الشعر فن جميل، يحتاج إلى الموهبة والدراسة العميقة الصعبة، فإذا توفرت الموهبة، فعليك بالباقى.

●● الصديق قدري صابر توفيق ـ سوهاج

وصلتنا رسالتك، ونؤكد لك بأن «الهلال» حريصة على تقديم كل فنون الكلمة فى النقد والقصة والعلم والأدب، فضلا عن الشعر ويكتب لنا بشكل منتظم الآن الكاتب الكبير الدكتور محمد رجب البيومي والكاتب الكبير الدكتور محمد عمارة فى مجالات الثقافة الإسلامية ، كما أننا نضم صوتنا إلى صوتك فى أن يكتب الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل مقالات للهلال، وكما تعلم فقد تفرغ منذ وقت طويل لكتابة كتبه السياسية والتى نحرص على عرضها على صفحات الهلال.. ونشكرك كثيرا.

●● الصديق عاصم البرقوقي

نرفض تماما مثل تلك الأغانى التي لا معنى لها، ولكن يا صديقى، الفن الهابط ينتهى بسرعة وينساه الناس!.

●● الصديق سعيد عبدالقوي محمد ـ بني سويف

وصلتنا قصيدتك «من وحى الهجرة المباركة» والتى تقول بعض أبياتها:

يا اكرم الخلق ... من سام ومن حام
أنت الملاذ لنا ... من كل أوهام
ما أجمل الذكرى ... تأتي بأنسام
يا يوم هجرته ... ياخير أيامي

●● الصديق د. وليد ربيع المحجوب ـ كلية الطب ـ أسيوط – ديروط:

«رسالة إلى أب» .. القصيدة التى أرسلتها إلينا فكرتها جميلة ، وفى انتظار قصائد أخرى منك..

ونشكرك على كلماتك الرقيقة عن «الهلال» : «إنها حقا تحفه فريدة فى زمن قلت فيه الاهتمامات الأدبية».

●● الصديق زكريا عبدالرحيم عبدالوهاب ـ أبنوب ـ أسيوط

«قصيدتك: وهج الصبابة فى عيون قصائدى» بها بعض المقاطع تحتاج إلى تعديل في الوزن، لكننى أنشر مقطعا منها:

«عمرى المنثور فى عينيك
أغرى أمنياتى
أن تسافر للسديم
وأن تجوب العالم المخبوء
بحثا عن زمان حاتمى
يمنح الأشعار روحا
لم تذق طعم التغرب
ترحم الشعراء من عبث المدائن

●● الصديق عبدالرحيم أحمد عبدالخالق ـ شبراخيت

قلت فى رسالتك أنك تجمع بين بعض الفنون مثل النحت والرسم والخط العربى وكتابة الشعر الحر.. وأما عن الشعر، فتحتاج إلى وقت، ولكننا لم نشهد بقية هذه المواهب، ربما تكون فيها أفضل!

●● الصديق د. أحمد عبدالحافظ عبدالباقي ـ منيا القمح ـ شرقية

كلامك حول عيد العمال جيد جدا، ومطلوب فعلا رفع الكفاءة العلمية وتحسين الأداء المهارى والتكنولوجي لدى عمالنا . كما ينبغى فعلا الاهتمام فى مجال السوق بالتخطيط السياسى والاقتصادى وتنويع مصادر الانتاج.

●● الصديق عصام الدين محمد ـ بولاق الدكرور ـ زنين

قصتك «مقام الريح» جيدة، ونعتذر عن النشر لضيق المساحة.. وشكرا لك.



لافضل لأعجمى على عربى

د. جلال أمين

حز فى نفسى أن أسمع أن فرق الموسيقى العربية تعامل من دار الأوبرا المصرية معاملة رديئة، ويميز ضدها لصالح الفرق التى تعزف موسيقى أفرنجية ، وأن عقدة النقص المشهورة قد زحفت إلى دار الأوبرا أيضا . ولم لا ؟ فلم لايكون حظ الموسيقى العربية مثل حظ اللغة العربية والأدب العربى والأخلاق العربية..إلخ.

أنا أعرف أن فى الموسيقى الغث والسمين ، العابر والباقى ، الذى سرعان ما يملّه الناس وما لا يمله الناس مهما مر الزمن. وهناك من الموسيقى ما يثير مشاعر عدوانية أو الشهوة الجنسية ، ومنها ما يثير مشاعر رقيقة للغاية كالتعاطف مع الآخرين وحب الحياة... إلخ . ولكن هذا موجود فى الموسيقى العربية والموسيقى الشرقية على السواء ، العربية وغير العربية. فلماذا هذا التكبر على الموسيقى؟!

أنا بصراحة أطرب كل الطرب لسماع لحن مثل «غنى لى شوية شوية» لزكريا أحمد ، ولا أمل سماعه مهما مر الزمن، مثلما أطرب لسماع لحن «الدانوب الأزرق» لشتراوس ولا أملّ أيضا سماعه، ويستحيل علىّ أن اعتبر أحدهما «أفضل» أو «أرقى» من الآخر ، كما أتأثر تأثرا شديدا بسماع لحن «رق الحبيب » للقصبجى ، الذى مر عليه أكثر من نصف قرن ، مثلما أتأثر بسماع الحركة الأخيرة ، ذائعة الصيت ، من سيمفونية بيتهوفن التاسعة ، ولايمكن أن أسمح لنفسى بأن أعتبر الأولى «متخلفة» بالمقارنة بالثانية، بل إنى فضلا عن تأثرى بجمال القطعة ، أجد فى نفسى جانبا تخاطبه المقطوعة العربية ولاتخاطبه القطعة الغربية. ولعل السبب أن اللحن العربىْ يتميز فى تكوينه على عناصر دخلت فى جهازى العصبى وتاريخى النفسى والعقلى منذ الطفولة . كلغتى ودينى وعاداتى... إلخ ، مما لا يتوفر فى اللحن الغربى ، مهما كان جماله.

فلماذا يصرّ بعضنا على التنكر لأصله ، وعلى التنازل بطيب خاطر عن شىء من أجمل وأثمن ما لدينا؟.



مصر للطيران
بأحدث ما أبدعه التكنولوجيا تواكب الألفية الثالثة
اكبر مجمع هندسى لصيانة و عمرة الطائرات
المجمع الهندسى نقله تكنولوجيه حديثه لصيانة و عمرة الطائرات بالكامل.
القاعدة الهندسية تضم أحدث جهاز لاختبار المحركات.
هنجر لصيانة و طلاء الطائرات العملاقة.
تتسع القاعدة لطائرتين عملاقتين وطائرتين متوسطتين.
بلغت تكلفه المجمع الهندسى الجديد ٣٥٠ مليون جنيه مصرى.
مصر للطيران
تواكب الجديد دائما لخدمتك


روايات مصرية للجيب
النهضة الجميلة العذبة في ربوع الوطن العربي من شرقه إلى غربه
رجل المستحيل
زهور
رجل أحببته
دائرة الشك
روايات مصرية للجيب
لتفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الهلال

يونيه ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

علاقة الأنبياء بمصر

التراشق بالمذكرات فى الجزائر



تكفير وهجرة أمريكى

الفراعنة أول من اكتشف السلم الموسيقى

اهداءات ٢٠٠١

أ.د أحمد أبو زيد

أنثروبولوجى

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثامن بعد المائة

يونيه ٢٠٠٠ ● صفر ١٤٢١ هـ

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويُرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا العـدد



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبوطالب

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنون

شعر وقصة

التكوين

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء

فى ذكرى ٥ يونيو

□ فى يونيو .. ومع بداية صيف ساخن ، نعود بذاكرتنا إلى الوراء ثلاثة وثلاثين عاماً ، ونتذكر هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ، وما أحدثته من أثر فى الوجدان العربى .

ولا يجوز ذكر هزيمة يونيو . دون الوقوف عند انتصار أكتوبر ، الذى كان بمثابة معكوس هزيمة يونيو ، ولا يجوز أن تتحول يونيو إلى حائط مبكى ، فلا وقت للبكاء على الأطلال ، ولا الحزن على اللبن المسكوب ، وإنما الوقت وقت جد وعمل .

ويبق استخلاص عبر يونيو ، فليس صحيحاً ما يتردد ويروج من أن يونيو تعنى هزيمة أفكار ومبادىء ثورة يوليو ، وليس صحيحاً ما تردد أيامها من أن مصر ليست بلداً مقاتلاً ، فتلك محاولات العدو لاستكمال انتصاره العسكرى ، وحتى تصل الهزيمة إلى العقل وإلى أعماق النفوس . وقد أخذ يعمل على التشكيك وهز ثوابت المجتمع المصرى حتى الجغرافية والتاريخية منها ، على أمل تفكيكه وصرفه عن قضايا العدل والحرية ، وبدلاً من القول أن ما جرى فى يونيو كان نتيجة أننا لم نأخذ المنهج الوطنى بالجدية المطلوبة ، ولم نأخذ أنفسنا بالشدة الضرورية ، من أجل جعل الوطن أكثر حداثة وموطنا للحرية والتقدم ، بعد أيام طويلة من السيطرة الاستعمارية .

فيونيو ترمز فى التاريخ إلى انتشار مناخ التخلف والاستسلام الذى يقضى على كل تطور ، ويونيو هى السعى الدائم إلى تدمير خلية من خلايانا الفكرية ، وتفكيك ثقافتنا الوطنية والنيل منها ، فلا يمكن لأحد أن يتخيل أن مجموعة شديدة التعصب تعتنق منطق محاكم التفتيش وتتصور أنها وحدها تملك الحقيقة ، وتجعل من نفسها حكماً على الإنتاج الأدبى والفنى ، وتستبدل الإرهاب الفكرى بالحوار الهادىء . وكأننا نعود سريعاً إلى عصر الدجالين والجهلاء . ونفتش فى تلافيف العقل والضمير .

ويونيو هي أن يتهم بعضنا بعضا بأبشع التهم ، ونتجه إلى الاستقطاب والانقسام وكأننا نتجه مغمضى العينين إلى الهاوية .

وأكتوبر تعنى التصدى الشامل للتخلف ، وحماية أصحاب العقول من فتاوى التكفير ، وظهور تيار عام يبادر ويعمل ويشغله مستقبل وطنه ، ويعمل خلال جدول صارم للأولويات .

وقضية أخرى كثيراً ما تكون محل إلتباس .. فلا يعنى بأية حال توقيع إتفاقيات السلام بين مصر وإسرائيل نهاية الصراع ، وإنما معناها تحويل الصراع ليأخذ منحى آخر ، يستبدل الصراع المسلح بصراع حضارى ، ميادينه المثلث الذهبى بأضلاعه الثلاثة التعليم والثقافة والإعلام ، صراع يدور فى كافة مواقع الإنتاج ، تنافس على ما تحقق فى العلوم والاستثمارات والخدمات ، صراع على مستوى المعيشة ، وهو صراع له السبق فيه الأكثر علماً والأكثر حكمة ، ينتصر المجتمع الذى يتمتع الفرد فيه بالعدل والحرية ، والذى لا يحول دون السيادة والجسارة فيه الإرهاب أو القيود أو القمع ، ويكون للمواطن نصيب عادل من الحكم والثروة .

ويتوازن فيه الخاص والعام ، ويستطيع فيه المجتمع المدنى أن يملك آليات التصحيح وخريطة التقدم ، ولا يغرق أبناؤه فى قضايا هامشية لا تقدم ولا تؤخر .

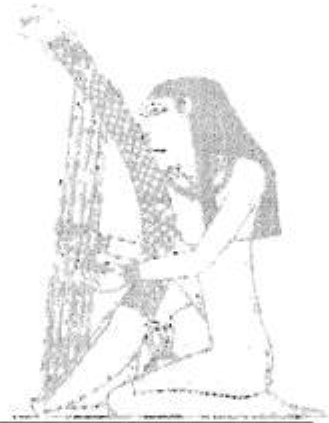
وهاهى الخريطة التى وضعتها إسرائيل عقب يونيو عام ١٩٦٧ ، تحدد أهداف الصهيونية ، وترسم مجالات الصراع ، ورغبتها فى الهيمنة على الشرق الأوسط كله (مقال ص ١١٤) .

وهل لنا أخيراً أن نتساءل : لماذا لم يعد الألمان يتحدثون عن الهزيمة التى لحقت بهن فى الحرب العالمية الثانية ؟. ولماذا لم يتوقف تاريخ اليابان عند اليوم الذى ألقى فيه «ماك آرثر» بالقنابل النووية على بلادهم ؟!.

وكانت الهزيمة فى كليهما أكبر كثيرا من يونيو عام ١٩٦٧ ، فبعد أن وصلتا إلى ماهما عليه من تطور اقتصادى ، ومكانة سياسية .. وحد المجتمع فى كل منهما جهوده ، وتجنب العقل الجمعى الغرق فى مناقشات سفسطائية لا معنى لها ، وقبل وحدة ألمانيا ، لم تسمع من أى مسئول حديثا عن الوحدة الألمانية ، والعمل يجرى على قدم وساق لإقامتها ، ووجهت كل من ألمانيا واليابان جهودهما لامتلاك عناصر القوة الحقيقية فى العالم المعاصر.

أقول ذلك تعليقا على مناورات إسرائيل ، ومحاولاتها الهيمنة على الشرق الأوسط ، وتبين أن السلام عندهم يعنى تنازل العرب عن أرضهم وحقوقهم .

المحـرر



اكتشاف الموسيقى في العصر الفرعوني

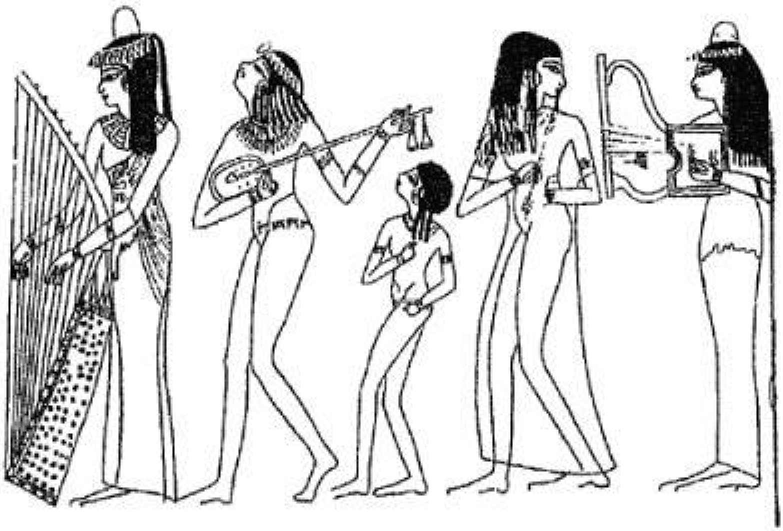
قال أفلاطون :

«إن الموسيقى الفرعونية مناسبة لجمهوريتي»

بقلم : د. فتحي صالح●

الموسيقى جزء من المنظومة الاجتماعية المتكاملة التي نشأت وترعرعت في الحضارة الفرعونية وسبقت غيرها من الحضارات في تكامل الأوجه المختلفة من الحضارة من علوم وفنون وحياة اجتماعية وأفكار دينية . وفي هذا المقال نوضح كيف أن هذه المنطقة المتكاملة هي انعكاس للتعبير الشائع «مصر أم الدنيا» وكيف تفوقت مصر في المجالات المختلفة وأنه لا عجب أن تتفوق مصر أيضا في مجال الموسيقي والغناء كجزء من هذه المنظومة . وفي النهاية نوضح كيف ان فريق بحث يضم مؤلف هذا المقال أمكنه التوصل إلى نتائج علمية مبهرة تؤكد أن مصر كانت أول من استخدم السلم الموسيقي السباعي المعروف للعالم اليوم في موسيقاه السائدة وهو ما عدل مفاهيم كتب تاريخ الموسيقي التي كانت تنسب ذلك للحضارة اليونانية.

● سفير مصر السابق في اليونسكو.



فرقة من العازفات مكونة من عازفة هارب وعازفة عود وراقصة وعازفة ناى وعازفة قيثارة من الأسرة الثامنة عشرة

مصر أم الدنيا

فهى البلد والأمة التى نشأت جذورها منذ حوالى ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد على شكل أول تجمعات قبلية معروفة فى العالم وبذلك بدأت فيها التجارب الاجتماعية الأولى قبل أى مجتمعات أخرى وفى كتاب صدر فى فرنسا بعنوان «مصر أم الدنيا» يوضح المؤلف كيف أن فى هذا البلد مصر نشأت كل المعارف المختلفة التى يعيش عليها العالم حتى الآن. سواء المعارف الدينية أم العلمية بجوانبها المختلفة من طب وفلك وهندسة وطبيعة وكيمياء إلى درجة أن كل ما حدث بعد ذلك فى الحضارات الأخرى ما كان إلا امتدادا لهذه المعرفة فى مجالاتها المختلفة.

مصر أم المعرفة

وقد تقدمت المعارف فى مصر الفرعونية منذ بداية عصر الأسرات. وليس هناك دليل على مدى رقى هذه المعارف مثل ما يعطيه هرم خوفو والذى تم بناؤه منذ حوالى ٢٧٠٠ سنة قبل الميلاد.. ففى هذا الهرم تتجلى المعرفة الفلكية بالطريقة التى تم بها

توجيه هذا الصرح العظيم بدقة متناهية نحو الاتجاهات الأصلية الأربعة وهو ما يعجز معه العصر الحديث بأجهزته المعقدة. وكذلك فى التوجيه الدقيق للممر الخاص بغرفة الدفن اسفل الهرم نحو النجم القطبى.

كما تتجلى فيه أيضا المعرفة بعلم الهندسة لما فيه من قياسات هندسية على درجة عالية من دقة سواء فى هندسة قاعدتها أو نسبة الهرمية التى تحتوى فى طياتها على النسبة الهندسية «ط» والرقم الذهبى «فاى» ويتجلى أيضا باعجاز تمكنهم من علم الميكانيكا والذى استطاعوا بفضله رفع قطع من الحجارة يبلغ متوسط وزنها ثلاثة أطنان إلى ارتفاعات تصل إلى حوالى ١٥٠ مترا من قاعدة الهرم. كما تجلت معرفتهم فى علم الطفو وقواعد ارشميدس فى تمكنهم من تصميم المراكب المناسبة لنقل قطع من الجرانيت يبلغ وزنها عشرات الأطنان من منطقة أسوان إلى الجيزة لاستعمالها فى غرف الدفن وكسوة أجزاء من الهرم وكذلك معرفتهم لأصول علم ميكانيكا التربة الذى يمكنهم من اختيار الموقع المناسب لبناء هرم مكون من حوالى ٣ ملايين قطعة حجرية وزن كل منها ٣ أطنان أى بوزن إجمالى للهرم يقدر بحوالى ٩ ملايين طن. ونحن نعرف انه لبناء عمارة عادية اصغر بكثير من حجم هذا الهرم يتم عمل اختبارات للتربة للتأكد من تحملها لثقل هذه العمارة فما بال ثقل هذا الهرم الذى يزن مئات بل آلاف المرات ثقل العمارات الكبيرة.

وأخيرا فإن بناء الهرم يعتبر مدرسة فى الإدارة فهو مشروع يقوم فيه عشرون ألف عامل بالعمل لمدة عشرين عاما. وناهيك عن متطلبات هذه المؤسسة من إدارة وتنظيم وتوفير احتياجات ومتابعة إنجازات. وهو ما يتم تدريسه الآن كمثال لإدارة المشروعات الكبرى فى العالم.

مصر أم الفنون

كل ما ذكرناه فى الفقرة السابقة يعبر عن أحد أبعاد الحياة فى الحضارة المصرية القديمة وهى جوانب المعرفة العلمية والإنشائية ولكن يجب أن نتذكر أن هذه الجوانب هى جزء من منظومة المجتمع المتكاملة التى كانت كلها على قدر من الكمال والإتقان يدخل فى ذلك الحياة الدينية والاجتماعية وكذلك الحياة الترفيهية والابداعية.

لذا فإننا نرى هذا الإتقان ينعكس أيضا فى التماثيل التى تم نحتها على مر العصور الفرعونية ومنذ بدايتها فى الدولة القديمة. والعالم كله يقف

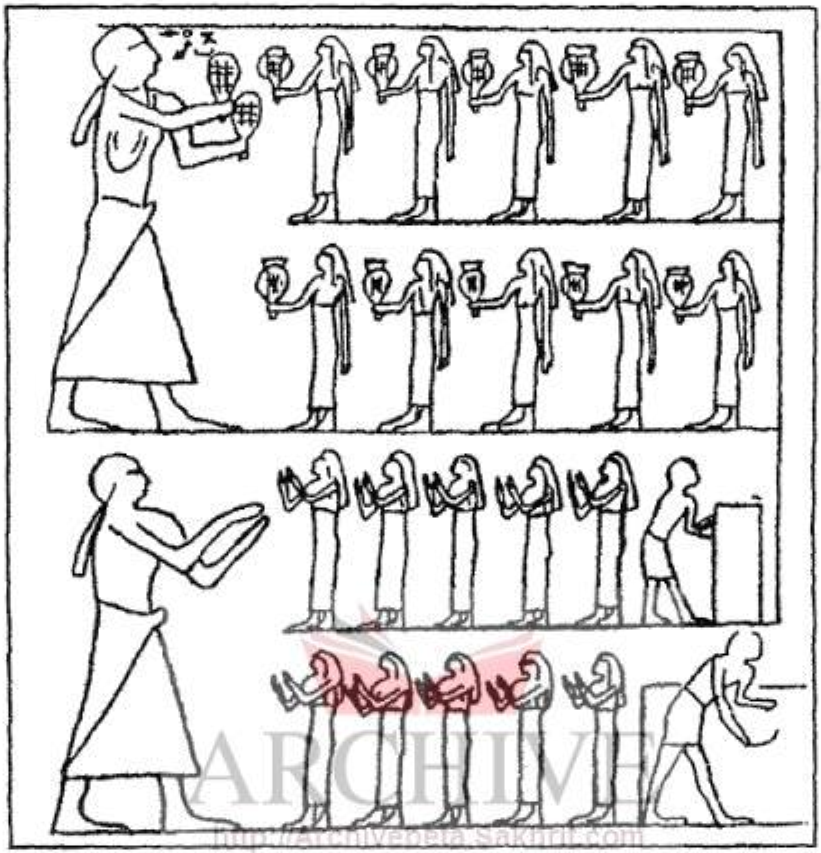


عازف الهارب خيكلو مع المغنية أيتى - منظر من مقبرة بسقارة - الأسرة الخامسة

بإعجاب أمام تمثال الملك خفرع الضخم والمصنوع من الجرانيت الصلب والموجود بالمتحف المصرى وكذلك التماثيل الثلاثية للملك منقرع. وأما النقوش التى على الجدران فهى أيضا بلغت نفس الدرجة من الإتقان والجمال ويحتفظ العديد منها بألوانها الزاهية حتى يومنا هذا.

فن الموسيقى عند قدماء المصريين

وما ينطوى على هذه النواحى الابداعية من فن النحت وفن النقوش الجدرانية ينطبق أيضا على الجوانب الأخرى من الفنون وعلى رأسها



مدرب موسيقى أمام فريق من آلات الإيقاع ومدرب آخر أمام فريق من المصفقين

الموسيقى. فإنه بالرغم من صعوبة ترك آثار موسيقية كتلك التى تركها الفراعنة فى مجال النحت والنقوش الجدرانية إلا أن سجلاتهم على جدران المعابد من مشاهد للحياة الفنية من موسيقى ورقص وغناء وكذلك النصوص المصاحبة لذلك تنم عن غزارة هذا الفن منذ العصور الأولى للحضارة المصرية. وذلك بالإضافة لما تزخر به المتاحف المختلفة التى بها مقتنيات للآلات الموسيقية الفرعونية وخاصة المتحف المصرى والذى يوضح أن أصول معظم الآلات المعروفة حاليا نشأت جميعها فى مصر القديمة ومنذ البدايات الأولى

سواء كانت آلات إيقاع أو آلات وترية أو آلات نفخ بأشكالها المختلفة. وتنسب المعتقدات الفرعونية آلة الناى إلى الإله أوزوريس ونشأة آلة الهارب إلى الإله حتحور. وقد حظيت الموسيقى والموسيقيون بمكانة خاصة عند المصريين سواء على مستوى المجتمع العادى أو على مستوى البلاط الملكى وكذلك على مستوى الطقوس الدينية والحديثة.

وتدل الكتابات المحفورة على جدران المعابد والمقابر والخاصة بالمناظر الموسيقية على مكانة الموسيقيين فى المجتمع وعند البلاط الملكى. فنجد فى إحدى المقابر بالجيزة أن صاحب المقبرة ويدعى «إيتى» يعمل «ملاحظ المغنين بالبلاط» كما أن مقبرة «خوفو عنخ» من الأسرة الخامسة توضح انه يعمل «ملاحظا لعازفى الناى ومدرب المغنين بالقصر» وفى مقبرة «روؤير» من الأسرة السادسة نجد انه يعمل «معلما للمغنين الملكيين» كما نجد نفس المناصب تتكرر لسيدات فهناك «ملاحظة للمغنيات السيدات» ونجد بصفة عامة أن هناك مناصب معينة تكررت فى معظم المقابر ابتداء من «ملاحظ» المغنين أو العازفين إلى «مدرب» إلى «معلم» وأخيرا «مدير فرق المغنين أو العازفين» . وهو ما يوضح انه كان هناك تقدير خاص للموسيقى والغناء فى المجتمع والبلاط المصرى القديم منذ الدولة القديمة وعلى مر العصور المختلفة.

وكذلك تتم هذه المناظر عن العديد من المعلومات عن مجموعات العزف فيما يشبه ما يسمى اليوم بأوركسترا الحجرة. وهى مجموعات عزف تتراوح بين ثلاثة إلى عشرة أشخاص، فهذه مجموعة من ثلاثة عازفين اثنان على الهارب وواحد على الناى، وتلك مجموعة من ثمانية عازفين منهم ثلاثة على الهارب واثنان على الناى واثنان على آلات وترية وواحد على آلة إيقاع... وهكذا . وكثيرا ما نرى فى المناظر العديد من المغنين والعديد من الراقصين المصاحبين لهذا العزف .. ومن العجيب أن نرى المغنين وقد وضعوا يدهم على أذنهم أثناء الغناء على منوال ما يحدث من المغنين والمنشدين الشرقيين إلى يومنا هذا . ونجد فى بعض المناظر بعض العازفين وأمامهم مدرب. فهذه مجموعة من عشرة أفراد من عازفى آلات الإيقاع وأمامهم مدرب لضبط الإيقاع وآخر من المصفقين وأمامهم المدرب وهكذا. وتوضح المناظر أيضا المجالات الاجتماعية والدينية المختلفة التى كانت تستعمل فيها الموسيقى فهذا منظر

لبعض العازفين فى مناسبة دينية أمام تماثيل لبعض الآلهة ومنظر آخر لبعض العازفين أمام فرقة من الجنود أثناء تحركهم فى معسكرهم ومجموعة ثالثة لعازفى موسيقى وراقصين اثناء حفلات اجتماعية ودينية. ولم تخل أماكن العمل أيضا من موسيقى مصاحبة سواء لجمع الثمار أو لحرث الأرض وخلافه.. وهذه فرقة موسيقية تعزف فى حضرة البلاط الملكى.. وهكذا . وقد اشتهر بعض الموسيقيين والمغنين حتى أننا نجد أسماءهم مكررة فى معابد متعددة على غرار ما يقابل من شهرة عبد الوهاب وأم كلثوم فى يومنا هذا.

هجر رشيد

الموسيقى الفرعونية

على مدى حوالى مائة عام حاول العديد من الباحثين اكتشاف السلم الموسيقى الفرعونى وذلك عن طريق دراسة الآلات الموسيقية وخاصة آلات الناى الموجودة بالمتاحف المختلفة وخاصة المتحف المصرى.

وتنقسم آلات النفخ عامة إلى نوعين نوع يستخدم مبسما للنفخ وهو ما يوازى آلة الكلارنيت والنوع الآخر بدون مبسم مثل الناى المعروف حاليا. ونظرا لضياع المبسم من كل هذه الآلات المحفوظة بالمتاحف فقد اصبح صعبا التكهن بأداء هذه الآلات وتبقى الآلات التى من النوع الثانى والتى لا تستخدم مبسما وهى آلة الناى.. وقد حاول بعض الباحثين الغربيين التعامل معها ولكن دون جدوى نظرا لجهلهم لطريقة التعامل معها..

التجربة الحديثة

لتحقيق تجربة إعادة فحص آلات النفخ الموجودة بالمتحف المصرى وخاصة تلك التى تقع فى فصيلة الناى (أى تلك التى لا تحتاج لمبسم للعزف) فقد تم تكوين فريق عمل مكون من المرحوم محمود عفت عازف الناى المصرى الشهير وكل من كاتب هذا المقال والبروفيسور روبرت كريس من جامعة كاليفورنيا، وقاموا بتصميم أجهزة الكترونية يمكن عن طريقها القياس بدقة لدرجات النغمات الصادرة من الآلات الموسيقية. وقد تم الحصول على تصريح من هيئة الآثار لإجراء هذه التجربة بهدف استكشاف مسائل ثلاث:

أولاها: ما إذا كانت الحضارة الإغريقية هى أول من عرف السلم الموسيقى السباعى الحالى.

وثانيتها : ماهية السلالم الموسيقية المختلفة التى كانت تستعمل فى عصر الفراعنة.



العزف أمام الآلهة .. مشاهد من الأسرة الواحدة والعشرين

وثالثها: العلاقة بين السلم الفرعوني القديم والسلم الموسيقى الحديث .

وقد كان مما أثار هذه التساؤلات الحقيقة التاريخية التى توضح أن العالم الإغريقى فيثاغورث الذى يعتبر «أبو الرياضيات» ويعزى إليه وضع أسس السلم الموسيقى الغربى الحديث، قد عاش فى مصر لمدة ٢١ عاما .

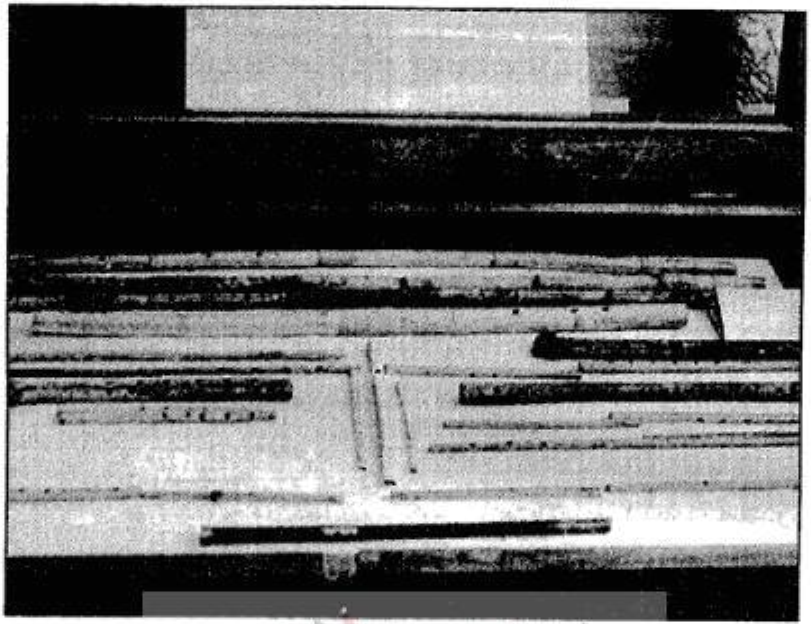
وتعلم الكثير خلال هذه الفترة من المعارف المصرية المختلفة . وان العلماء اليونانيين المعروفين مثل أرسطو



فريق العمل الذي قام بتسجيل أصوات الآلات الموسيقية الفرعونية.. الفنان محمود عفت والدكتور فتحي صالح والبروفيسور روبرت كريس والأستاذة [illegible] عبدالعال وكيل المتحف المصري.

وأفلاطون كتبوا الكثير عن سمو الموسيقى المصرية الفرعونية وعلو قدرها على موسيقى الشعوب الأخرى، في حين وصفها أفلاطون بأنها الموسيقى المناسبة لجمهوريته. وكذلك فقد وصفها بأنها تسمو بالروح ومليئة بالقيم.

ولذا فقد كان من الطبيعي أن يكون قدماء المصريين على قدر عال من المعرفة الموسيقية وبالتالي فلا يستبعد ان يكونوا قد عرفوا السلم الموسيقى السباعي (دو - ری - می - فا - صول - لا - سی) قبل غيرهم وكذلك أن يكون فيثاغورث قد تعلم ذلك منهم أثناء إقامته في مصر مثلما تعلم الكثير من علوم الرياضيات والهندسة والتي عرفت عنه بعد ذلك . ولكن ما هو الدليل على هذه المعرفة الموسيقية. فان الكتابات الفرعونية الموجودة على الجدران أو في أوراق البردى لم تنقل لنا شيئا عن هذه المعرفة الموسيقية حتى الآن. ولذا فقد كان السبيل الوحيد لذلك هو التعامل



آلات الناى الموجودة بالمتحف المصرى

مع الآلات الموسيقية التى تركها لنا الأجداد ومحاولة إعادة اكتشاف أسس هذه الموسيقى من خلال هذه الآلات، لذا اتجهت المجموعة التى قامت بهذه التجربة إلى فحص الآلات الموسيقية الموجودة بالمتحف المصرى. فوجدت أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع من الآلات. أولها آلات الإيقاع وهى لا تحمل عادة آثارا لأى سلم موسيقى. ثم الآلات الوترية وهى آلات إذا ترهلت أوتارها، إن وجدت، فلا يمكن الاستدلال على طريقة ضبطها الأصلية. وأما النوع الثالث فهو آلات النفخ وهى لها نوعان نوع يستخدم مبسما على غرار آلة الكلارنيت، وقد وجد من هذا النوع عدة عينات بالمتحف ولكن ينقصها جميعها هذا المبسم مما اصبح معه استحالة التعامل معها. والنوع الثانى هو الذى لا يستخدم مبسما لإصدار الصوت مثل آلة الناى الحالية. وقد وجد فريق العمل ستة نايات من هذه النوعية. وعند فحص هذه المجموعة وجد أنها

فى حالة لا تصلح للتعامل معها إلا بعد محاولة ترميمها. لذا لجأ الفريق إلى طريقتين. الأولى محاولة ترميم اثنين منها ، وجدتا فى حالة معقولة. والثانية هى عمل نماذج طبق الأصل لهذه النايات سواء من حيث استعمال نفس نوعيات الغاب أو من حيث الأبعاد المستعملة من أطوال وأقطار هذه النايات ومواقع الثقوب الموجودة بها . ثم تم وضع منهج علمى للتعامل مع هذه الآلات يتمثل فى إعداد أجهزة علمية حديثة لتسجيل الصوت الصادر من هذه الآلات سواء أجهزة تسجيل صوت عادية ذات جودة عالية أو أجهزة تسجيل رقمية (حاسبات) يمكن عن طريقها قياس الذبذبات الصادرة من هذه الآلات بدقة متناهية.

وفى اليوم الموعود اتجه فريق العمل إلى المتحف المصرى ومعه الأجهزة المطلوبة والآلات الموسيقية التى تم تصنيعها وكما قام المتخصصون بالمتحف بترميم النايين اللذين تم الاتفاق على قابليتهما للترميم. وقام الفريق فى هذا اليوم على مرأى ومسمع من كوكبة من الصحفيين والأثريين بالعزف على الآلات الموجودة واحدة تلو الأخرى. فقام الفنان محمود عفت بالعزف على كل آلة ناى مرتين بحيث قام فى المرة الأولى بإصدار النغمات الموسيقية الممكنة من الناى. واحدة تلو الأخرى مع تسجيلها على الأجهزة المختلفة ثم قام بعد ذلك بعزف تقاسيم مناسبة للسلم الخاص بكل ناى. وبالنسبة للنايين اللذين تم ترميمهما فقد تم إصدار النغمات من كل من الناى الذى تم ترميمه والنماذج المصنعة على غراره للتأكد من دقة التصنيع وقد كانت لنتائج هذه التجربة أبعاد كثيرة نذكر منها ما يلى:

أنه قد تم التعرف على ستة نايات. أحدها من الأسرة الثامنة عشرة والثانى من الدولة الوسطى واثنان مجهولا التاريخ ولكنهما وجدا فى منطقة سقارة ويرجح انهما من الدولة القديمة واثنان من العصر اليونانى. وعند العزف على هذه النايات أو النماذج المماثلة لها أعطت النتائج التالية :

- الناى المؤرخ من الأسرة الثامنة عشرة أعطى سلما موسيقيا سباعيا واضحا يضاهى السلم الموسيقى الغربى من مقام «لا - صغير».

- أما الناى المؤرخ من الدولة الوسطى فقد أعطى سلما خماسيا.

- النايان الآخران أعطيا سلما موسيقيا سباعيا ذا طابع شرقى أى

أن الدرجة الثالثة والسابعة تعطيان ثلاثة أرباع نغمة.

ومن اعجب النتائج التي تم الحصول عليها أن النغمات الصادرة من هذه النايات على الرغم من أنها تنتمي لعصور منفصلة تفصلها مئات السنين إلا أن النغمات الصادرة منها متوافقة الواحدة مع المناظرة لها في النايات الأخرى بدقة تفوق الوصف مما يوحي بأن قدماء المصريين كانت عندهم وسائل لضبط آلاتهم الموسيقية على ذبذبات قياسية. وقد كان لهذه النتائج اثر علمي هائل وهو أنها عدلت من مفاهيم ما جاء في كتب تاريخ الموسيقى الكلاسيكية التي تنسب السلم السباعي للإغريق في حين انه اصبح من الواضح بالقياسات أن هذا السلم كان معروفا ومستعملا قبل الإغريق بحوالي ألف سنة على الأقل. هذا وقد تم نشر هذه التجربة في حينها في الصحافة والاذاعة والتليفزيون المصري كما تم النشر العلمي لنتائج هذا العمل في المؤتمر العالمي للمصريات الذي عقد بمدينة تورينو بإيطاليا عام ١٩٩٢ كما قامت محطة سيانتفك أمريكان الأمريكية بتسجيل برنامج عن هذه التجربة العلمية المهمة أذيعت في جميع محطات التليفزيون الأمريكية.

وأخيرا يمكن القول بوضوح بان الحضارة المصرية تعتبر بحق أم الحضارات اللاحقة وان المعرفة التي توصلت اليها هذه الحضارة في شتى مواطن المعرفة تعتبر بحق معرفة متأصلة. وهذا ينطبق على كل جوانب النشاط الإنساني بما فيه مجال الموسيقى والغناء الذي ازدهر كثيرا في هذه الفترة حتى أن العلماء والمفكرين الإغريق فيما بعد أشادوا بما لهذه الحضارة من جذور موسيقية متأصلة وأنها على درجة عالية من الرقي. وقد ثبت من الشواهد الموجودة على الجدران في المعابد والمقابر وكذلك من الآلات الموسيقية التي تم اقتناؤها في المتاحف المختلفة أن الموسيقى كان لها وجود عظيم على مستوى الحياة الاجتماعية ابتداء من الفرد العادي حتى البلاط الملكي. وأنها كانت لها مدارسها ومدربوها ومعلموها بل ومديروها. كما أثبتت التجربة العلمية التي قام بها فريق من الباحثين منذ عدة سنوات بما لا يدعو للشك بان المصريين عرفوا قبل غيرهم من الشعوب السلم الموسيقي السباعي الذي هو أساس الموسيقى الحديثة والمعاصرة.

إنهيار القيم
فى ظل العولمة

بقلم : حسين أحمد أمين

مما من شأنه أن يسهل علينا الإدلاء بتوقعاتنا لمستقبل الأخلاق فى ظل عولمة القرن الحادى والعشرين ، أن نلقى نظرة على تطور الأخلاقيات الأمريكية خلال القرنين الماضيين.. ذلك أن الانفتاح الحتمى المنتظر لمجتمعات العالم ، بعضها على بعض ، فى ظل شيوع العولمة ، مع ما يصحبه من تطورات هائلة فى مجالى التكنولوجيا والاتصالات ، نجد له مثالا مصغرا فيما حدث بالولايات المتحدة من انصهار جماعات من جنسيات وأعراق مختلفة فى بوتقة واحدة .. وقد أدى هذا الانصهار فى النهاية إلى ظهور شعب واحد جديد ، له سماته المتميزة عن العناصر المكونة له ، من سياسية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية ، أبرزها تبنى موقف إيجابى وعملى بحت من الحياة ، والإصرار على ضمانات للحرية الشخصية والسياسية وللحقوق المدنية ، وتأكيد ضرورة التسامح الدينى وتعايش الملل والنحل المختلفة فى جو من الوئام ، وشيوع روح قوية من المبادرة الفردية واغتنام الفرص ، والإيمان بقدرة الفرد على الصعود من الحضيض إلى القمة دون أى اعتبار لامتيازات خاصة .

تحول المجتمع الأمريكي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين (كما سيتحول مجتمع العولة في القرن الحادي والعشرين) إلى مجتمع قوامه التجار وأرباب الأعمال والصناعة والمضاربون، يميزهم النشاط والطاقة والرغبة الفجة في إثبات الذات.

الكل في عجلة من أمرهم، لا شاغل يشغلهم غير الدولار وسبل تحصيل الثراء الطائل والعاجل، لا يتمسكون بغير مبدأ المساواة في الفرص، وبغير شكل من أشكال الديمقراطية يوافق هواهم، ويحقق مصالحهم. وقد لاحظ الزائرون الأجانب للولايات المتحدة في عهد الرئيس أندرو جاكسون في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أن الحياة باتت أكثر ديمقراطية، وأن تعامل الأفراد بعضهم مع البعض أصبح أبعد عن الشكليات والرسميات، وأن السلوك بوجه عام أضحى أقل تهذيبا وأشبه بسلوك رعاع الناس: يتناولون الطعام في عجلة وهم وقوف ويسرعون الخطو في الشوارع وكأنما يهرعون لإطفاء حريق، ويدسون أنوفهم بوقاحة في شئون الغرباء، ويميلون إلى استخدام العنف وإلى البلطجة، في خلافاتهم. كذلك أضحت قيمة الفرد في تلك البيئة الجديدة التي لاتمت لبيئة العالم القديم بتقاليده وعاداته بصلة، لاتحددها عراقة أسرته، أو عدد السنوات التي قضاها في الدراسة وما حصل عليه من شهادات جامعية، وإنما تحددها قدراته وإمكاناته الذاتية العملية، لا وقت لديه أصلا لتحصيل ثقافة عريضة، مع نزوع ملحوظ إلى الجريمة، إذ بات لا يثنيه عن المضي في تحقيق أغراضه وازع من الضمير، ولا تتسم ميوله وطباعه بأي قدر من الذوق الرفيع، ولا يمكن وصفه إلا بالسوقية والجلافة، والابتذال والصفاقة، والجشع المفرط.

إمبريالية اقتصادية

كذلك فقد أضحت السمة الغالبة على الولايات المتحدة بعد عدة سنوات من انتهاء الحرب الأهلية، هي النمو: نمو في المساحة وفي تعداد السكان، وفي الثروة والنضج الاقتصادي، واتجهت أبصار أرباب الصناعة والتجارة والأعمال فيها من المتطلعين إلى أسواق جديدة، وأصحاب المصارف من المتعطشين إلى المزيد من الاستثمارات، صوب استحداث الأساليب الكفيلة بتحقيق إمبريالية اقتصادية.. ومنذ ذلك الحين لمعت اسماء كبار رجال المال والأعمال والتجار، وذهب بريقها بشهرة الساسة والكتاب والفنانين، وأضحت للثروات الهيمنة والقدرة على توجيه سياسات الحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات، فتراجع دور تلك الحكومات وتقلصت أهميتها. ثم كان أن فتح الباب

على مصراعيه أمام انتشار الفساد والرشوة والمحسوبية في المجتمع ، وكان أن هيمنت جماعات من المموّلين الأفاقين على الكونجرس وأعضائه ، وأن بات الوزراء يتقاضون الرشاوى من المقاولين ورجال الأعمال ..

ومع ذلك فقد اقترن الفساد في تلك الفترة بانتعاش كبير في الحياة الاقتصادية ، وبظهور الاختراعات العديدة المهمة كالمراكب البخارية والتلغراف الكهربائي والهاتف والقطارات الكهربائية ، فالسيارات فالطائرات ، والآلات الكاتبة والحاسبة ، والمصباح الكهربائي والسينما والإذاعة . وقد أسهم الكثير من هذه الاختراعات إسهاما عظيما لا في تقصير المسافات وتسهيل الاتصالات فحسب ، وإنما أيضا في تضييق الفجوة بين العادات المعيشية والأخلاقيات لدى مختلف الطبقات . وحيث إن تعميم الفائدة من تلك الاختراعات والأساليب المستحدثة كان يتطلب استثمارات ضخمة لرأس المال ، وقيام مؤسسات كبرى للنهوض بأعبائها ، فقد أدى ذلك إلى الإسراع بنمو الشركات التجارية الضخمة ، ثم باندماج المشاريع الصناعية المستقلة في صورة احتكارات ومؤسسات موحدة ، بغية تخفيض النفقات، واستئصال الإدارات الأقل كفاءة، وتقوية موقف الرأسماليين في تفاوضهم مع العمال ، وزيادة نفوذهم السياسي في الدوائر الحاكمة ، وإحكام قبضتهم على سلطة تحديد الأسعار .

وقد كان من الطبيعي أن تتأثر بهذه التطورات حياة الفرد العادي وأخلاقياته ، خاصة إن كان من سكان المدينة . فكل أو جل ما يأكله ويلبسه ، وما يؤثث به مسكنه، وما يستخدمه من أدوات وآلات ، ويركبه من مواصلات ، هو من إنتاج تلك الشركات أو الاحتكارات .. صحيح أن الطعام والملبس صارا أفضل من ذي قبل، وأن وسائل الاتصالات صارت أكثر كفاءة، غير أن الصناعات والمتاجر الصغيرة إما أفلست ، أو بيعَت واندمجت في الصناعات والمؤسسات التجارية الأكبر، فغدا الناس تحت رحمة سياسات المحتكرين التي لا دخل لهم فيها .. تركزت الثروة والقوة في أيدي حفنة من القوم يتحكمون في معيشة الملايين من البشر كما لم يتحكم فيها من قبل أقوى الملوك ، وقفزت إلى السطح فئة جديدة من الرأسماليين العتاة ، هم من القوة بحيث باتوا يملون على الدولة سياساتها الخارجية والداخلية.. نعم تمكن هؤلاء من استئصال قدر عظيم من المنافسة والصراعات ، ومن تحقيق مستوى أعلى من الكفاءة والتحسينات ، ومن النهوض بالأبحاث الجديدة وتشجيع الاختراع ، ومن زيادة الإنتاج وخفض بعض الأسعار. غير أن ذلك كله كان على حساب المجتمع ونمط الحياة . فإن كان أندرو كارنيجي وصف الأوضاع الجديدة بأنها انتصار للديمقراطية ، فقد كان ثمة من اعترفوا بأنه انتصار ولكن ليس للديمقراطية التي باتوا يشكون في إمكان استمرارها .

طوابير الجوعى والمطاعم الفاخرة !

فى المدن بالأخص اجتمع الغنى الفاحش بالفقر المدقع ، والقصور الرخامية بالأحياء العشوائية ، وهنا اصطفت طوابير الجوعى أمام المطاعم الفاخرة، وتكونت حلقات من أناس لا خلاق لهم ولا حياء ، يتعيشون على الجريمة والرذيلة ومختلف ضروب الفساد . وهنا انتعشت الحانات والمواخير يحميها ويشجع على إقامتها أصحاب المصالح والسياسيون ممن يفيدون مالياً منها ، وانتشرت الجريمة التى كانت الشرطة تتغاضى عنها مقابل أجر معلوم ، وتعاظم عدد محترفى الإجرام ممن يسعى إلى الاستعانة بهم كل رجل أعمال يريد قتل غريم ، أو التخلص من منافس . وقد اتسع نطاق الفساد فى كل مكان وموقع ، وزادت جاذبيته ، وأضحت ثماره بلا حدود . فرجال الأعمال وأصحاب البنوك والشركات الصناعية والتجارية الكبرى كانوا على استعداد لدفع أموال طائلة مقابل مايقدم إليهم من أفضال ، أو يحصلون عليه من امتيازات وإعفاءات ، أو توفر لهم من حماية . ولم يكن الثمن دائما فى صورة رشوة صريحة، بل كثيرا ما تخفى وراء قناع المساهمات السخية فى الحملات الانتخابية ، والتعضيد السياسى، أو إشراك كبار رجال الدولة فى الأرباح التجارية ، أو تعيين أقربائهم أو عشيقاتهم فى مراكز ذات رواتب عالية فى هذه المؤسسة أو تلك. وكانت نتيجة كل هذا هو أنه بعد أن كان كبار رجال المال والأعمال والتجار يصرون فى البداية على حرية المشروع الخاص ، والحيلولة دون تدخل الحكومة فى شئونه ، أضحت لهم الآن هيمنة شبه كاملة على الحكومة ، يتدخلون فى شئونها وقتما شاءوا ، وكيفما شاءوا ، بحيث باتت الحكومة مجرد لعبة أو أداة فى أيديهم .

أما عن المجتمع فقد سادت بين أفراده المادية الصارخة ، وأخلاقيات السوق ومثله، لا تستهويهم غير الضخامة وكفاءة الأداء ، ولا يعترفون بأبطال غير كبار السماسرة والمضاربين ، والتجار والمهندسين ، ورجال الإعلان ونجوم السينما .. باتوا يتحدثون عن «حقبة جديدة» من تاريخهم ، شعارها «دجاجة على كل مائدة ، وسيارتان فى كل جراج»، وصار أكثر ما يبهجهم أن يروا المدن وقد باتت أكبر ، والمباني وقد صارت أعلى ، والطرق أطول وأوسع ، والسيارات والقطارات أسرع ، والجامعات أفخم ، والثروات أضخم ، والمؤسسات المالية أقوى وأغنى .. ثم كان أن تملك الفرد منهم الخوف من أن يكون مختلفا عن الآخرين حوله ، سواء فى تكوينه النفسى والذهنى أو فى الميول والرغبات ، بل وبات الشباب يخفون ميلهم إلى قراءة الشعر - ناهيك عن قرضه - خشية أن يتهمهم أقرانهم بالافتقار إلى الرجولة ، ويستجيبون للدعوة إلى الولاء الكامل للمؤسسات الاقتصادية ، وإلى وصف الرافضين لأخلاقيات التجار ، أو للمثل العليا للسوق ، بالمهيجين .

ولاشك فى أنه مما يسهل سيادة هذه النمطية فى السلوك والأخلاقيات والأفكار، ظهور اختراعات مثل السيارة والسينما والراديو والتليفزيون . فقد أنهت السيارة العزلة ، وزادت من سرعة إيقاع الحياة ، وخلقت مجالات جديدة لقضاء وقت الفراغ، ووفرت للشباب من الجنسين حرية أكبر ، بحيث أصبحت من ضرورات الحياة، بل هى الضرورة الأولى التى لايمكن الاستغناء عنها بأى حال . أما السينما والتليفزيون فمنهما يستقى كل جيل صاعد أفكاره عن الحياة وقيمه ، ويكيف سلوكه على هدى سلوك نجومهما مهما اتسم ذلك السلوك بالإباحية أو العنف ، ومنهما يستوحى المشاهدون أذواقهم فى « الملبس وتصفيف الشعر ، وفى الأثاث والديكور الداخلى . أما عن الراديو فقد قيل إن خروجه من ملكية الدولة إلى ملكية المشروع الخاص ، واعتماده فى التمويل لا على الضرائب وإنما على دخله من الإعلانات عن السلع ، جعل برامجه - كبرامج التليفزيون - تحت رحمة تجار لا شأن لهم بالثقافة ، ولا مطمح لديهم غير الربح .

والواقع أن قدرة أصحاب الثروات على إحكام قبضتهم على الرأى العام وعلى تكبيفه، ونجاحهم الباهر فى أن يستأصلوا من كافة وسائل الإعلام أى اتجاه إلى الموضوعية ، وأى ميل إلى المعارضة ، من أكثر مظاهر الحياة المعاصرة إثارة للعجب.. صحيح أن بوسع المواطن الذكى متى توفر لديه الوقت والطاقة ، أن يصل إلى حقيقة الأمور . غير أن الأكثرية لا فائض وقت لديها ولا فائض طاقة يمكنها من تحصيل الأخبار من خارج وسائل الاعلام. وأخبار وسائل الإعلام - شأن الإعلانات التجارية - لا هم لها إلا إبقاء جموع الشعب على وداعتها ، ورضاها وطاعتها ، ونهمها إلى استهلاك السلع أو حيازتها .

★ ★ ★

ما أطلت فى عرض تطورات الأخلاقيات ونمط الحياة الأمريكية إلا لسببين : السبب الأول : هو أن الولايات المتحدة ستظل لأمد طويل أقوى الدول المؤثرة فى سمات مجتمع العولمة فى القرن الحادى والعشرين ، وأنها بالضرورة ستكون راغبة ، وستمضى ساعية ، إلى فرض قيمها ، وأخلاقياتها ومفاهيمها عن الحياة على سائر شعوب العالم ، وهى شعوب سيكون معظم أفراد صفوتها وقادتها وأغنيائها على أتم استعداد لأن يتشربوا طوعا تلك القيم والمفاهيم والأخلاقيات من قبيل التشبه بالأقوى ، ومن أجل إحراز شرف اقتفاء أثره .. أما السبب الثانى : فهو أنه يبدو أن عملية انصهار الأجناس والأعراق والثقافات والحضارات المختلفة فى بوتقة واحدة تؤدى دائما إلى نفس النتائج ، أو نتائج متماثلة ، بحيث يمكن القول بقدر كبير من الثقة إن كل أو جل ما ذكرناه عن تطور المجتمع الأمريكى إبان القرون الثلاثة الأخيرة سيتكرر حدوثه فى العالم كله فى ظل عولمة القرن الحادى والعشرين .

ثم أمضى فأحاول استكناه المعالم الرئيسية فى هذا «العالم الطريف الجديد»:

أولا : أنه مع التقدم في طريق العولمة، سيتزايد عجز الحكومات عن اتخاذ زمام المبادرة من أجل إجراء الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الضرورية في الدولة ، ومن أجل حماية الأخلاقيات والقيم التقليدية والدفاع عن الثقافة القومية ضد حضارة «التنميط» التي تسعى العولمة إلى فرضها ، وسيقتصر دورها على حراسة المصالح المالية لرجال الأعمال والمال ، وضمان مزاولتهم لنشاطهم في جو من استتباب الأمن والنظام ، دون مراعاة البعد الاجتماعي والأخلاقي ، أو الاهتمام بسد احتياجات الطبقات الدنيا ، ودون أن ترى ثمة حاجة إلى إشراك الناس في اتخاذ القرارات ، ورسم السياسات الجديدة ، أو حتى إلى موافقتهم عليها .. عندئذ يتحول المواطنون إلى رعايا من جديد، ويتخلقون بأخلاق العبيد ، لا يد لهم في إدارة شئون دولتهم ، ولا يعرفون مبدأ المساواة ، ولا ثمة من يذكرهم بمبادئ تناوب السلطة .

والمؤكد أن الإحساس بضياع الحقوق سيقضي بدوره على الالتزام بالمساهمة في النهوض بالأعباء العامة ، ومراعاة «الصالح المشترك» ، وأداء واجبات المواطنة .

ثانياً : التآكل السريع في وعى الناس بمفهومي الوطن والمواطنة ، (وهو تآكل ينذر باندثار كامل لهذين المفهومين في المستقبل المرئي) . فنمو الادعاء بأن ثمة معايير تفوق في أهميتها وأولويتها معايير الدولة والقومية والمواطنة ، وبأن العولمة تطور لازم هو أشبه ما يكون بالظواهر الطبيعية التي لا سبيل إلى الوقوف في وجهها ، يؤدي إلى اعتبار المجتمع الإنساني بحالته الراهنة من التحول السريع كالحشرة في طور التكوين : قد تتحول الدودة إلى فراشة ، أو قد تموت ، غير أنه لن يمكنها أن تعود دودة من جديد. وقد باتت الآن إدارة العالم كله باعتباره وحدة واحدة أيسر من إدارة دولة كبيرة واحدة منذ قرن مضى ، بل ومن إدارة مدينة واحدة في حوالى القرن الخامس قبل الميلاد . فالصعوبة إذن ليست صعوبة تنظيمية ، وإنما الصعوبة هي في تهيئة الشعوب للتخلي عن عادات وتقاليد وقيم وأخلاقيات ومفاهيم راسخة لديها ، وعن تعلقها بالسيادة الوطنية ، والمشاعر القومية .

ثالثا : سيصبح من أبرز خصائص شباب القرن الحادي والعشرين التعجل ونفاد الصبر . لا أحد يطيق الانتظار أو التدرج ، أو يؤمن بضرورة المران وإعداد النفس ، أو يقبل «إضاعة» الوقت في النمو.. ستصبح كلمة «الغد» وتعبير «في الوقت المناسب» مرفوضين من الكافة تقريبا ، كما سيتحول «الأمل» في بلوغ أمر أو نوال شيء في خاتمة المطاف ، إلى مجرد رغبة جامحة في بلوغه أو نيله في التو والساعة.. لن يفكر خريج الجامعة متى حصل على شهادته في الالتحاق بالعمل الكفيل بتحقيق ذاته ، أو خدمة وطنه وبنى قومه ، أو الذي يتفق مع ميوله

واستعداداته الذهنية ، وإنما سيبحث عن العمل الذى يدر عليه أعلى دخل متاح لأمثاله فى السوق ، كوظيفة فى بنك ، أو فى هيئة أجنبية ، أو شركة من شركات التصدير والاستيراد ، أو خارج وطنه فى دولة منتجة للنفط ، بعد أن بات شعار الشباب هو ليس بينك وبين بلد نسب ، خير البلاد ما حملك ، أو قولة على بن أبى طالب «الغنى فى الغربة وطن ، والفقر فى الوطن غربة» .. فإن هو أقدم على الزواج حرص هو وزوجته على أن تتوافر فى مسكنهما كل الكماليات دفعة واحدة . فالكل يريد الثروة الفورية والرفاهية الكاملة ، قد تمكنت من عقله فكرة أن من لايمتلك الإثنتين منذ البداية فلن يتملكهما أبدا ، ومن قبل فى مستهل حياته العملية مركزا صغيرا فسيظل فيه على الدوام . وهو ماقد يفسر لنا قبول بعض المنحرفين الانخراط - ولو مرة واحدة - فى نشاط غير مشروع ، تمكنه حصيلته منه من وضع أساس للحياة الرغدة التى لايقبل عوضا عنها .. كما يفسر لنا ظاهرة افتقار التجار والوسطاء ومقاولى البناء ، بل والكثيرين من الأطباء والمحامين وغيرهم من المشتغلين بالمهن الحرة ، إلى أدنى مستويات الذمة والأمانة .

سينحصر الشغل الشاغل للجميع فى وسائل الكسب السريع .. الكادحون يلهثون وراء القرش ، ومن توفر له القرش أراده قرشين . وستنمحى الفوارق فى هذا الشأن بين الطبقات ، فالجميع فقراء بالمعنى اللغوى لكلمة الفقر: وهو الحاجة. الجميع مرهق يلهث، ساخط يتأفف .

الكل تجار !

كان ثمة فى مجتمع الماضى تجار . غير أن الناس كانوا وقتها فريقين . تجارا وغير تجار. أما فى ظل العولمة فسيصبح الجميع تجارا : لا فارق بين البائع على قارعة الطريق ، وبين أستاذ الجامعة أو المدرس أو الصحافى أو الدبلوماسى أو الطبيب أو من شئت . فإن نحن نظرنا إلى من اعتزل دنيانا وتدروش ، فإنما ننظر إلى الوجه الآخر من نفس العملة : أناس عجزوا عن المدافعة والمزاحمة فى ظل العولمة ، وكانوا أضعف من أن يطأوا غيرهم تحت أقدامهم ، فاختاروا إدانة المجتمع كله على أساس من الدين ، حتى لايفقدوا احترامهم لأنفسهم .

وكيف يمكن فى مثل هذا المناخ الجديد أن تنتعش حياة ثقافية ، أو يكون هناك فكر أو فن ، اللهم إلا إن كان فكرا تجاريا، وفنا تجاريا؟ فإن كان الأساتذة الجامعيين سيتجهون إلى الاتجار بالعلم ، وملائكة الرحمة بالرحمة ، فما الذى سيحول بين الأديب أو الصحافى أو الفنان وبين أن يبيع قلمه أو فنه لمن بيده سلطة إغداق المال ، خاصة أن هدفه لن يصبح مجرد الحصول على ما يعينه على مواجهة أعباء الحياة ، وإنما هو الاستمتاع ، وإلى أقصى حد متاح ، بأطايب الحياة ومباهجها ، وهو ما لن يكون بالوسع من أجل تحقيق الاعتماد على القلة القليلة والمتضائلة ممن لايزال بمقدورها أن تقدر أدبا ، أو تسيغ فنا ؟

رابعا : سيعم مفهوم زائف خاطئ عن ملذات الحياة ومباهجها وسبل قضاء الأوقات السعيدة . فالناس في الماضي كانوا يقبلون في أوقات فراغهم على ضروب من اللهو والتسلية تتطلب منهم بذل قدر معين من الجهد الذهني ، ومن المشاركة الإيجابية . أما الآن فقد قامت مؤسسات وهيئات مهمتها توفير التسلية الجاهزة ، تسلية لا تستدعي من طالب المتعة واللذة أي إسهام شخصي من جانبه، أو أي نوع من أعمال الفكر . كان الناس إن أرادوا الموسيقى عزفوها ، أو الغناء تغنوا به ، أما اليوم ، فما عليهم الا ان يديروا التليفزيون أو المذياع ، أو أن ينتقوا الأسطوانة ويديروا الجرامفون، ثم يجلسون في مقاعدهم للاستماع ، أو يفتحون أعينهم للمشاهدة ، وقد شردت أذهانهم ، فتشكل الموسيقى أو الأغنية أو الفيلم مجرد خلفية لتفكيرهم في مشاكلهم.. أما عادة قراءة الكتب فالغالب أنها ستندثر خلال القرن الحادي والعشرين بشيوع الكومبيوتر والإنترنت ، وأن تصبح القراءة مقصورة على الصحف والمجلات ، الصفراء قبل غير الصفراء .. كانت مهمة الصحافة نقل المعلومات والأخبار ، ثم أصبحت أو ستصبح - شأن السينما والتليفزيون - مجرد تسلية تشغل الذهن بفضائح أمثال مونيكا لوينسكي ، وأ.ج. سيمبسون ، دون أن تقتضي أدنى تفكير من قارئها .

الجنس والعنف

هذه المتع وأساليب التسلية الجاهزة هي التي ستصادفها في كل أرجاء الدنيا، وهي التي تشكل من الخطر على الحضارة الإنسانية ما يفوق خطر تلوث البيئة ، وثقب الأوزون ، والانفجار السكاني . ذلك أن عملنا اليومي ، في المصنع أو المتجر أوالمكتب أو ماشئت ، نؤديه في العادة بصورة آلية لاتقتضي مبادرة أو مجهودا عقليا كبيرا ، ولا تتيح لنا فرصة ممارسة مواهبنا وقدراتنا الذاتية . وها نحن نتجه في أوقات فراغنا أيضا صوب تسليات لا تقل آلية عن آلية عملنا اليومي ، فمتى إذن سيتاح لغالبية الناس أن تستخدم عقولها ، وأن تسلي نفسها بنفسها ؟ الأرجح إزاء هذا أن يعم السأم والملالة ، كما أن الأرجح أن يجد الناس السبيل إلى مقاومة هذا السأم وهذه الملالة باقتضاء المزيد من الجنس ، والتحول إلى المزيد من العنف ، تماما كما اقتضى شعب الإمبراطورية الرومانية في حقبة أفول مجدها مزيدا من ألعاب السيرك ، ومصارعات الجلادين ، والفتك بالأسود والنمور والدببة أمام ناظرهم ، وهم يقضمون طعامهم ، ويكتمون تثاؤبهم .

خامسا : ذهب الفيلسوف الألماني هيردر إلى أن الدولة هي لضمان مصالح وسعادة جماعة معينة ، وما من دولة حتى اليوم سمحت عن طيب خاطر بأن تنتقل هذه السعادة إلى غير الجماعة التي تهيمن عليها.. ومصداقا لهذا القول نورد هنا ملاحظة غريبة : هي أنه بالرغم من توسع معظم الدول في التعليم وفي محو الأمية ، فإن هذا لم يؤد - كما كان البعض في

الماضى يأمل ويتوهم - إلى رفع مستوى الثقافة .. كان هذا البعض واثقا من أن محو الأمية سيؤدى لا محالة إلى زيادة إقبال الناس على القراءة ، ثم على الاستزادة من الثقافة ، وإلى الطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب ، غير أن هذا الحلم لم يتحقق ، ولن يتحقق في ظل العولمة ، لمجرد أن القائمين على المجتمع الصناعى التجارى لايرونه في صالحهم . فالآلات الصناعية الحديثة تجعل من غزارة الإنتاج (Mass production) شرطا رئيسيا لازدهار الصناعة وثراء أربابها .. وغزارة الإنتاج أمر يستحيل دون أن يتحقق توسع المستهلكين في استهلاكهم (Mass Con-sumption) . غير أن المعروف أن انشغال المرء بالفنون والآداب وشئون الفكر يؤدى حتما إلى تقليل استهلاكه من الخدمات والسلع (يحكي عن سقراط أنه أثناء تجواله بالسوق وتأمله للمعروض فيها من البضائع ، هتف يقول : ألا ما أكثر الأشياء التى لا أريدها!) . فالإنسان الذى تتركز اهتماماته على احتياجاته العقلية والروحية سيكون سعيدا إن هو خلا بنفسه فى داره ، يقرأ أو يفكر أو يستمع إلى الموسيقى أو يمارس هواية له .. أما من لاتشغل ذهنه اهتمامات عقلية أو فنية ، فعادة ما يصاب بملل قاتل إن هو لزم داره ، فيلجأ عندئذ من أجل الترفيه عن نفسه إلى شراء سلع يحسب أنها تعوضه عن فقره الروحى ، أو إلى تجول وأسفار وحركة يجد فيها الغناء عن السياحة بفكره، وتحريك وجدانه وعقله .

الإعلاء من شأن الغباء

مثل هذا الشخص العادى هو المستهلك الأمثل ، هو الهدف الذى يقصده أرباب الصناعة والتجارة ، وتخاطبه إعلاناتهم ، وهو الخليق بالرعاية والتشجيع. أما من جاوز الإلمام بالقراءة والكتابة إلا الاهتمام بالثقافة والفنون ، فاستغنى بذلك عن السلع الصناعية والخدمات التجارية ، وانهمك فى غرفته الهادئة فى قراءة الكتب أو الاستماع إلى الموسيقى ، فكثيرا ما يصبح هدفا للسخرية أو الازدراء ، حيث إن السعادة والمتعة والأوقات الحلوة باتت فى يومنا هذا تتمثل فى الضجة والصحبة والحركة وتملك السلع ، وفى أن يظل الإنسان فردا عاديا كغيره من الناس .. وإذ يرى أرباب الصناعة والتجارة أن المستهلك هو المواطن الصالح ، وأن الفرد العادى هو الإنسان الأمثل ، فلا مفر من أن يكون شعارهم الإعلاء من شأن الغباء والجهل كذلك فإنه متى لم يعرف المجتمع معيارا للنجاح فى الحياة غير المعيار الاقتصادى ، فلا مناص من أن يكون هدفه الحد من نمو المواهب والقدرات العقلية ، والحيلولة قدر الإمكان دون اقتراب المواطنين من الثقافة الحقة .

سادسا : سبق لفردريك إنجلز (وهو الثورى الشيوعى العتيد وصديق كارل

ماركس) أن عبر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عن استفظاعه لنبأ تفجير قنبلة في البرلمان البريطاني أصيب من جرائه عاملان أو ثلاثة ، واصفا مثل هذا العدوان الدموي في غير ميادين القتال بأنه عمل لا أخلاقي .. فما الذي عساه ياترى قد حدث منذ ذلك الحين بحيث بتنا نسمع يوميا أنباء مجازر إرهابية رهيبة تجرى في هذه البقعة من العالم أو تلك ، دون أن يتحرك منا ساكن أو تزيد نبضات القلب نبضة ، وكأنما الأمر بات أمرا عاديا متوقعا وغير جدير بالاهتمام ؟ أكان بوسعنا البارحة أن نتصور ، مع كل حديثهم المتكرر عن إنجازات المدينة الحديثة، أن يجئ يوم نقرأ فيه أن مائتين وخمسين طفلا يموتون يوميا في العراق بسبب سوء التغذية وعدم توافر الدواء ، فلا نتحرك أو حتى ننزعج ؟ الظاهر إذن أن العالم في القرن الحادي والعشرين ، ستصبح قلوب أبنائه في مثل غلظة أقدام الفلاحين المصريين ، لايؤثر فيها شيء .

مجرد مقارنة البرود وعدم الاكتراث اللذين يتلقى بهما الناس تفاصيل علاقة الرئيس الأمريكي كلينتون بمونيكا لوينسكي ، أو أخبار اتهام ثلاثة من الوزراء في حكومة توني بلير بالشذوذ الجنسي ، بالموقف الشعبي الغاضب الثائر من فضيحة الوزير جون بروفيومو مع عارضة الأزياء كريستين كيلر (وهي فضيحة كادت تعصف بحكومة هارولد مكميلان عام ١٩٦٣ ، تبين لنا على الفور ما طرأ من تغير على الحس الخلقي عندنا .. كانت الدنيا تسمع أنباء ما يرتكبه الاتحاد السوفييتي والنظام النازي في انزعاج واستنكار .. فما بالها اليوم لا تلتفت إلى ممارسات مماثلة ترتكبها روسيا في حق شعب الشيشان ولا يتحرك منها ساكن ؟ قد يرد البعض بأن منظمات حقوق الإنسان العالمية تقف بالمرصاد لانتهاكات الأنظمة في كل مكان لتلك الحقوق.. غير أن الواضح أن هذه المنظمات في أغلب الأحيان لا تعبر عن غضبها إلا إن حركتها دوافع سياسية محضة من أجل الضغط على أنظمة لاترضى الولايات المتحدة والنظام العالمي الجديد عن بعض سمات سلوكها وسياساتها .

كيف يمكن إزاء كل هذا ، وإزاء مابات السائحون يلمسونه مثلا من تفاقم مشكلة القذارة في شوارع لندن وقطارات الأنفاق فيها ، والاتجار العلني بالمخدرات في طرقات أمستردام ، وصخب الشباب وعبثهم بالقانون في الدولة الألمانية التي اشتهرت في الماضي بالالتزام الصارم بالنظام ، أن يتحدث القوم عن فكرة التقدم المستمر في أحوال البشر ، أو عن توقعات مبهجة للقرن الحادي والعشرين ، أو عن تأثير المدنية الحديثة في زيادة رهافة الحس ؟



تشرشل



كارل ماركس



لينين

الثورة على الرأسمالية المتوحشة

بقلم : عبدالرحمن شاكر

شهد الاحتفال بعيد العمال فى أول مايو المنصرم من هذا العام، مظاهرات صاخبة، بل دامية أحيانا فى عدد من العواصم والمدن الكبرى فى الدول الغربية الصناعية المتقدمة ، بل إن بعض هذه المظاهرات كان متوقعا من جانب السلطات الحاكمة لوجود سوابق لها قريبة، منها مظاهرات فى مدينة سياتل الأمريكية فى ٣٠ نوفمبر من العام الماضى، وفى واشنطن قبل أسابيع قليلة من أول مايو. وكلها تصب فى بوتقة الثورة على الرأسمالية التى توصف الآن بأنها «متوحشة» !.


خروشوف


ستالين


البابا يوحنا

ولعل هذه الصفة تكون علما على رحلة جديدة من الرأسمالية ، مثلما شهد تاريخها مراحل سابقة، منها الرأسمالية التجارية في القرون السابقة على الانقلاب الصناعي، ثم الرأسمالية الصناعية، فالرأسمالية المالية في أوائل القرن العشرين، وصولا إلى الرأسمالية المتوحشة المصاحبة لثورة المعلومات والاتصالات والعولمة، والتي نجحت في اسقاط النظام الاشتراكي الذي بدأ في روسيا عام ١٩١٧ وانتهى في أواخر القرن ذاته، وكان ممن استخدموا هذا المصطلح في وصف الرأسمالية المعاصرة، بابا الفاتيكان الحالي يوحنا بولس الثاني، الذي كان له دور بارز في إسقاط النظام الاشتراكي في بلده بولندا، وسائر أنحاء أوروبا الشرقية، لما لمسه من تفشي مظالم تلك الرأسمالية العائدة إلى تلك البلاد، وفي سواها، وما أشاعته من بؤس وفقر وبطالة وجوع للأغلبية العظمى من سكانها وسكان المعمورة بصفة عامة!.

الميدان الطبيعي

إن الثورة التي عبرت عنها مظاهرات سياتل وواشنطن ونيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، ولندن وبرلين، وأوسلو عاصمة النرويج في أوروبا ، إنما تعود بالثورة على الرأسمالية إلى ميدانها «الطبيعي» طبقا للمقولات الماركسية الكلاسيكية، حيث شهد كارل ماركس ثورة ١٨٤٨ في منتصف القرن التاسع عشر والتي شملت عددا من العواصم الغربية مثل لندن وباريس وبرلين، وأنشأ خلالها هو ورفيق نضاله «فردريك انجلز» «البيان الشيوعي»، وتوقعا فيه أن يؤدي اطراد

التقدم الصناعى، على يد «البرجوازية» فى بلدان الغرب المتقدمة إلى سقوط النظام الرأسمالى ، وقيام النظام الاشتراكى على يد «البروليتاريا» الصناعية التى يزداد عددها وتنظيمها مع استمرار التقدم الصناعى بفضل ما يقدمه العلم من وسائل جديدة أكثر تطورا للانتاج، تؤدى إلى انسحاق المنتجين الصغار فى حلبة المنافسة وسقوطهم إلى مراتب البروليتاريا، أى العمال المأجورين، وانتشار البطالة فى صفوف هؤلاء ، وتزايد عدد الأزمات الدورية فى الانتاج . بفضل ظاهرة «الاستقطاب» التى تتمثل فى تركز الثروة والملكية فى يد قلة من الرأسماليين ، مقابل كثرة من المملقين . وتكدس السلع فى مخازنها لأن العمال الذين أنتجوها لم يعودوا قادرين على شرائها رغم حاجتهم إليها لقلة أجورهم وتفشى البطالة فى صفوفهم.

ولكن الرأسمالية الصناعية فى الغرب استطاعت الافلات من المصير الذى توقعه لها كارل ماركس فى القرن التاسع عشر، حينما تحولت فى أواخره وأوائل القرن العشرين، إلى امبريالية تسعى إلى استعمار البلدان المتخلفة وفتحها بقوة السلاح، لا لكى تستولى على أسواقها وتغمرها بصادراتها الصناعية فحسب، بل لكى تستثمر فيها فوائض رءوس أموالها أيضا. وأتاحت لها هذه السياسة أرباحا مضاعفة، أمكنها منها أن ترفع مستوى معيشة عمالها بحيث لم يعودوا بحاجة إلى الثورة عليها، بل ونشأت إلى جانبهم فئات جديدة من الطبقات المتوسطة تعمل أساسا فى مجال الخدمات، بحيث تخف ظاهرة الاستقطاب ويزداد استقرار المجتمع الرأسمالى . فيما عدا ما يسببه التنافس الرأسمالى على المستعمرات من نشوب حروب عالمية مدمرة، تزداد فيها مكاسب فئات جديدة من الرأسماليين مثل منتجى السلاح، وصانعى المواد الاستهلاكية التى تحتاجها الجيوش بصفة عامة، والمستفيدين من إعادة بناء ما دمرته الحروب، والفائزين بمستعمرات وأسواق جديدة من المنتصرين على عكس ما يلحق بالمنهزمين طبقا لقاعدة «ويل للمغلوب»»!

الجملة الاعتراضية

إذا كان لينين زعيم الثورة البلشفية فى روسيا قد اعتبر أن الامبريالية هى أعلى مراحل الرأسمالية ، والأخيرة من تلك المراحل، والتى سوف تشهد الثورة الاشتراكية عليها. والتى لا يتحتم أن تقع أولا فى البلدان الصناعية المتقدمة كما كان يتوقع كارل ماركس، وإنما حيث تكون تناقضات الامبريالية مجتمعة اكثر تفاقما كما كان عليه الحال فى بلده روسيا، فإن الثورة التى قادها لينين فى بلده باسم

الاشتراكية ، والتى انتقلت بعد الحرب العالمية الثانية إلى بلدان أخرى كانت تماثل روسيا ، بل تزيد عنها فى تخلفها الصناعى، إنما كانت تعبيرا عن حاجة تلك البلدان إلى اللحاق بالتطور الصناعى الذى حققته الرأسمالية فى الغرب. وقد نجحت الثورة الروسية ومثيلاتها فى بلدان أخرى فى إحراز قدر من التقدم فى التصنيع والتنمية الاقتصادية بصفة عامة حيث قامت الدولة باسم «بناء الاشتراكية» بالدور الذى عجزت الرأسمالية المحلية الضعيفة عن القيام به. ولم يكن استبدالا للنظام الرأسمالى فى مجمله بنظام أكثر تطورا كما توقع كارل ماركس على العكس من ذلك، فإن التحدى الذى مثله النظام الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى السابق، وتحوله على حد تعبير أحد قادته. وهو نيكيتاخروشوف الذى خلف ستالين فى منصب سكرتير عام الحزب البلشفى، إلى نظام عالمى لا يمكن قهره.. وذلك فى مرحلة الحرب الباردة التى استعرت بين المعسكرين فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كان هذا التحدى حافزا لاستخراج أقصى طاقات الرأسمالية الصناعية فى بلدان الغرب المتقدمة وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، حتى أمكنها إنجاز الثورة التكنولوجية وثورة المعلومات . بحيث ألقت بالاتحاد السوفييتى وسائر بلدان المعسكر الاشتراكى، والبلدان النامية التى أخذت بأنظمة شبيهة به إلى هوة التخلف من جديد، وأجبرت تلك البلدان، على التحول بصورة أو أخرى عن نظامها السياسى والاقتصادى . لمحاولة اللحاق من جديد بالثورة التكنولوجية التى تحققت فى الغرب المتقدم، وأكدت احتفاظه بصدارة هذا التقدم!.

والآن حين تعود الثورة على الرأسمالية إلى ميدانها الطبيعى فى الغرب المتقدم . فإن الثورة التى قادها لينين فى روسيا . وما تبعها من بلدان متخلفة، إنما تبدو بمثابة «جملة اعتراضية» فى المسار التاريخى للرأسمالية! انتهت هذه الجملة، وأصابت الرأسمالية التى هضمتها بالتخمة وبالتوحش فى آن معا! حيث بيع القطاع العام الى لصوص حقيقيين فى عصابات المافيا.

آفاق جديدة

إن الرأسمالية التى يثور عليها عمالها الآن فى البلدان الغربية المتقدمة ، ليست هى رأسمالية كارل ماركس فى القرن التاسع عشر، ولا الامبريالية التى ثار عليها لينين فى القرن العشرين، فتصدير رءوس الأموال ، ومعها التكنولوجيا الحديثة إلى البلدان المتخلفة، أو النامية كما تحب أن تسمى نفسها، على يد

الشركات متعددة الجنسية، لا يساعد رأسمالية الغرب على أن ترفع مستوى معيشة عمالها. بل على العكس، فإنها تلقى بأعداد جديدة منهم إلى البطالة لأنها فى المجتمعات النامية تنشىء خطوط انتاج مشابهة لتلك التى كان يعمل عليها مواطنوها فى الدول المتقدمة، مستفيدة من رخص سعر العمل فى البلدان النامية لكى تبيع منتجاتها بأسعار تنافسية ويظهر تناقض جديد، ما بين مصالح العمال فى الدول المتقدمة، ومصالح عمال الدول النامية التى ترحب بالاستثمارات الجديدة، بل تكاد تستجديها!.

وبالطبع لن تكف الرأسمالية فى ظل حرية التجارة وانتقال رءوس الأموال والسلع، عن أن تنشىء خطوط إنتاج فى الدول النامية ولن تكف هذه الأخيرة على الترحيب بها. ويبدو وكأن التناقض القائم ما بين الفريقين من «ضحايا» الرأسمالية لا حل له!.

ويقوم تناقض آخر ما بين الفريقين السابقين معا، وفريق ثالث من دعاة حماية البيئة، من نوع الذين ركبوا الدراجات فى شوارع لندن خلال مظاهرات مايو المشار إليها فى أول المقال، لكى يعرقلوا بصفوفها المتراصة حركة سير السيارات، التى هى من انتاج كبرى الشركات العالمية متعددة الجنسية والتى تمثل استهلاكا جنونيا لمواد الانتاج والطاقة، وتعمل على تلويث البيئة بنواتج الاحتراق المدمرة لطبقة الأوزون، وتلويثها سمعيا بالضوضاء، واجتماعيا بالتحاسد بين من يملكون ومن لا يملكون!.

وإذا كان بعض المشاركين فى مظاهرات لندن قد عمدوا الى رسم شعار المنجل والمطرقة «رمز الثورة البلشفية» على تمثال تشرشل، المدافع العتيد عن الرأسمالية، والعدو الصارم للبلاشفة، الذى كان يطلق على نظامهم المسمى دكتاتورية البروليتاريا اسم «ديكتاتورية اللصوص» لأنهم قد أقدموا على تأميم المصانع التى كانت تملكها الرأسمالية، وتوزيع الأراضى التى كان يملكها الاقطاعيون على الفلاحين. فإن اجراءات من هذا النوع لن يكون فى المقدور تكرارها، فمن الذى يستطيع تأميم مؤسسة من نوع الشركات العابرة للقارات متعددة الجنسية ولها مقار وفروع وأموال وبنوك فى كل مكان من المعمورة؟!.

لم تعد الحلول التقليدية للاشتراكية مجدية إزاء الطبقة الرأسمالية المتوحشة التى تتكون من الذين يتحكمون فى أقدار البشر بوسائلهم الانتاجية المتطورة، وما وراءها من علم وتكنولوجيا وما تحت أيديها من وسائل دفاعية وهجومية لحماية مواقعها فى كل مكان على ظهر المعمورة.

بل وفى سمائها بما تملكه من أقمار التجسس والاتصالات!.

ولكن كما أن الرأسمالية المتوحشة لها آفاقها الجديدة فى العمل والانتاج والابتكار، وأيضا فى الاستغلال والفتك والتآمر.. الخ فإن الثورة عليها ولابد وأن يكون لها آفاقها الجديدة أيضا!.

هدف محدد

إن فى مقدور الجماهير المحرومة الساخطة أن تجعل الحياة فى أى بلد من بلدان العالم شبه مستحيلة بالتمرد، والمظاهرات المستمرة والصدام مع أدوات السلطة، ولكن فى النهاية لابد وان يكون هناك هدف محدد من كل ذلك، يتجاوز حد إظهار السخط فحسب!.

إن الهدف الذى يمكن أن يجتمع عليه الذين يشكون البطالة وانخفاض الأجور من عمال البلدان المتقدمة، ودعاة حماية البيئة فيها، وأبناء الدول النامية الذين قد يستفيدون جزئيا من تدفق استثمارات جديدة على بلادهم ولكن حرية التجارة التى تتم باسمها هذه العملية قد تؤدى الى دمار هائل لما لديهم من موارد اقتصادية. هذا الهدف لابد وأن يكون نظاما عالميا جديدا يقوم على العدل الاجتماعي. وليس على تسلط دولة واحدة. أو الطبقة الرأسمالية فيها على أقدار العالم!.

النظام العالمى الجديد، العادل، لابد وأن يبدأ من تأكيد سلطة الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة التابعة لها، وتعديل مواثيقها بحيث تكون أكثر ديمقراطية وتعبيرا عن شعوب العالم ومصالحها، وأن تعمل أجهزتها بفضل جميع ما أنجزته الثورة التكنولوجية على وضع تخطيط شامل للموارد والطاقات من كافة أنحاء العالم، واختيار أفضل عناصر الانتاج وأقلها تدميرا للبيئة وإدارتها طبقا لتقسيم عالمي جديد للعمل، واستبعاد أشدها ضررا وفى مقدمتها أسلحة الدمار الشامل ووسائل إنتاجها، بحيث يكون الهدف من ذلك التخطيط، أن تحقق للجنس البشري، على المدى الطويل شعار «من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته!!».

وقد يقول قائل: إن ذلك كان الشعار الذى صاغة كارل ماركس لحقبة الشيوعية التي كان يعتبرها المرحلة التالية لمرحلة تحقيق الاشتراكية، فإذا كان ذلك صحيحا، فهل كان سقوط الاشتراكية التى بدأها لينين مقدمة ضرورية لتحقيق الأحلام النهائية لأستاذه كارل ماركس؟!.

حركات الشباب
فى التاريخ المصرى الحديث

بقلم: طارق البشرى

بدا لى أن أتابع مايسمى بحركات الشباب فى التاريخ المصرى، ماهى وما وضعها وكيف تكونت وما دلالتها . وهى ظاهرة تكررت على مدى القرن العشرين عددا من المرات يسمح بإجراء مايشبه الاستقراء لاستخلاص مفادها.

ونحن لايكاد يظهر لنا مانسميه حالياً بحركات الشباب على مدى القرن التاسع عشر، ولا فيما سبقه من قرون، قد تكون حدثت ولم يسجل التاريخ هذا الحدوث ويحفظه وينقله لنا عبر السنين. فإن وسائل تسجيل الأحداث لم تكن على مستوى التسجيل التفصيلى الذى يحفظ مثل هذه الأحداث ، ولم تكن الصحافة ووسائل الرصد المؤسسى للأحداث بالشمول والتنظيم الذى بدأ يتشكل فى القرن الأخير.

ومن جهة أخرى فإن حركات الشباب تحتاج لتجمعات شبابية، أى لمجال اتصال كثيف يجمع الشباب فى الفئة العمرية المتقاربة . هذا المجال لانجده إلا فى معاهد التعليم، ولم تكن معاهد التعليم منتشرة ولا كان طلبتها بالكثافة العددية التى بدأت مع القرن التاسع عشر من منتصفه وتبلورت مع بدايات القرن العشرين ومن جهة ثالثة فإن المؤرخين لم يلتفتوا لأحداث الماضى السابق على القرن العشرين بمعيار التقاط الأحداث

التي جرت على ايدى شباب أو تشكل مايمكن أن نسمى بظاهرة شبابية . ولعلهم إن اهتموا فى قراءتهم لأحداث الماضى بالتنقيب وفقا لهذا المعيار ، ان يهتدوا إلى اثبات وجود مثل هذه الظاهرة. لعلهم يصلون إلى أمر كهذا ان رصدوا الأحداث التى كانت تحدث فى الأزهر مثلا ووصفوا مجال حدوثها واثبتوا تميزها . مع ملاحظة ان التعليم الأزهري وغيره كان يتسع لشرائح عمرية تجاوز سن الشباب ، وان الغالب على طلبة العلم قديما انهم لم يكونوا بالضرورة متفرغين لطلب العلم ، وان الكثير منهم كان يجمع بين طلب العلم والاشتغال بالمهن والحرف.

***

فى ظنى ان أول ظهور لهذه الحركات فى القرن العشرين كان فى سنة ١٩٠٦ ، بإضراب طلبة الحقوق وغيرهم ثم تأسيس ماعرف بنادى المدارس العليا.

وفى سنة ١٩١٩ لايظهر لى ان حركة شباب مستقلة أو متميزة ظهرت فى ذاك الوقت، قد تكون أولى شرارات ثورة ١٩١٩ بدأت مع خروج الشباب فى يوم ٩ مارس ١٩١٩ عندما عرفوا بنفى سعد زغلول وأصحابه خارج مصر . ولكن أحداث الثورة استوعبت الشباب كما استوعبت غيرهم من الطبقات الأخرى ومجالات العمل المختلفة ، بما لم يبق حركة للشباب متميزة بذاتها.

وبين عامى ١٩٢٨ - ١٩٣٠ قامت حركة من الشباب بدت في الحركة الاسلامية التى ظهرت فى ١٩٢٨ وفى مشروع القرش فى ١٩٣٠.

وفى عام ١٩٣٥ حدثت الانتفاضة التى ادت إلى إسقاط دستور اسماعيل صدقى الذى أصدره سنة ١٩٣٠ وإعادة دستور ١٩٢٣ والتمهيد لعودة حزب الوفد إلى الحكم . ورغم أن هذه الحركة قام بها الطلبة فى الاساس ، فهى لا تعد فى ظنى مما يصدق عليه أنه من حركات الشباب ، لانها كانت جزءا من تحرك سياسى حزبى قاده الوفد .

وفى عام ١٩٤٦ ظهرت حركة من حركات الشباب ، قامت بقدر من التميز عن التشكيلات الحزبية القائمة التى ينبنى بها التكوين السياسى السائد . وظهرت بما عرف باللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، واللجنة القومية ، والأولى ضمت الحركات اليسارية سواء الماركسية أو من شباب الوفد اليسارى ، والثانية ضمت حركات الشباب ذوى التوجه الاسلامى ، ومنهم الاخوان ومصر الفتاة وغيرهما من الجمعيات.

وفى الفترة من ١٩٦٨ إلى منتصف السبعينات ظهرت حركة شبابية بموجات متتابعة، فى ١٩٦٨، ١٩٧٢ ومنتصف السبعينات ، بإضرابات ومظاهرات وتشكيلات تنظيمية فى الجامعات .

***

أتصور أن مايمكن أن نسميه حركات الشباب ، إنما يستبعد تحرك الشباب ضمن القوى السياسية والاجتماعية ذات الوجود والنشاط الذى تتشكل به بنية الحياة السياسية والاجتماعية وهياكل النظام السياسى الاجتماعى السائد ، ومن ثم لا يدخل فى حركات الشباب المعنية هنا تحرك الشباب فى ثورة ١٩١٩ لأنهم كانوا مشمولين بحركة أعم ، ولا

تحركاتهم ضمن حزب الوفد مثلا في سنة ١٩٣٥ ، ولا حركتهم في مقاومة العدوان الثلاثي في ١٩٥٦ لانهم كانوا يتحركون ضمن حركة المقاومة التي نظمتها الدولة .

وفي هذا الاطار يمكن القول بأن حركة الشباب تقوم عادة بين الطلبة ، وبخاصة طلبة المعاهد العليا والجامعات ، باعتبار أن التجمعات الجماهيرية الأساسية في المدن انما تكون من الطلبة في المعاهد التعليمية ، ومن العمال في المصانع ، والطلبة دون العمال هم من يختصون بشريحة عمرية شبابية . ولكن ليس من الحتم أن تجرى حركة الشباب من الطلبة فقط، وهي ليست حركة طلابية تتعلق بطلبة العلم وتقتصر على أوضاعهم التعليمية، وان حركة الشبان المسلمين التي ظهرت جمعيتها في ١٩٢٧ وحركة الاخوان المسلمين التي بدأت بين الشباب في ١٩٢٨ كلتاهما تكونت خارج اطار الطلبة وان ضمت منهم الكثير ، وصار نموها من بعد عبر الثلاثينات يعتمد أكثر مايعتمد على جيل الطلاب ، كما أن الحركات التي ظهرت بين الطلاب أساساً ضمت إليها نسبة غير قليلة من شباب الخريجين ومن غيرهم من ذات الشريحة العمرية.

ومن جهة ثانية فهي حركة سياسية أو حركة اجتماعية وثقافية ما تلبث أن تتخذ طابعا سياسيا . وهي في كل الأحوال ليست حركة فئوية تقتصر على مطالب تعليمية للطلبة أو على مطالب اقتصادية لشباب العاملين والحرفيين مثلا . وفي سنة ١٩٣٨ قامت حركات ومظاهرات طلابية اقتصرت مطالباتها على تفتيح مجالات العمالة أمام خريجي الجامعات، وكانت ظهرت وقتها مشكلة البطالة بين المتعلمين . وفي ١٩٢٢ تقريباً ظهرت بين شباب طلبة الأزهر حركة للمطالبة بتوسيع فرص العمالة بينهم . ولم يعتبر أي من ذلك حركة شباب لاقتصارها على هذه المطالب الفئوية .

وحركة الشباب ، حتى ان بدأت باحتجاج على مشاكل فئوية ، فإنها سرعان مايظهر ان مثل تلك المشاكل لم تكن إلا مثيرات التجمع والتحرك الجماعي، وهي سرعان ماتستقر على موقف المواجهة لأوضاع عامة قائمة ، وتطالب بتعديل جوهري في بعض الأسس السياسية الاجتماعية أو الأسس الثقافية السائدة . وهي بموجب هذا الطرح لتعديلات جوهرية تستثير الرأي العام وتستلفت انتباهه لا اليها بوصفها حركة شباب ولكن إلى نفسه وإلى مجتمعه وبلده.

هذه الحركة تكون ذات قدر من التميز أو التمرد على الأوضاع المستقرة وعلى الابنية والمؤسسات الهيكلية الموجودة في فترة ما . سواء مؤسسات الدولة أو المؤسسات الحزبية والأهلية القائمة . بل انها في الغالب تتميز بخروجها على تلك المؤسسات الحزبية الأهلية القائمة .

إن الابنية الحزبية القائمة هي أوعية يمثل كل منها تيارا سياسيا اجتماعيا له جذوره في الأفكار السياسية الاجتماعية والثقافية السائدة : وان حركة الشباب بخروجها عن هذه الأبنية القائمة وبعملها من خارج القنوات الموجودة والمعدة من قبل للحركات الاهلية ، انما تكون في الغالب وبالضرورة صادرة عن عدد من الأفكار والتصورات والمطالب تجاوز الاطر السائدة . لذلك كان أول مالوحظ مثلا في حركة الشباب الأوروبي في ١٩٦٨ انها ظهرت بشعار «المعارضة خارج البرلمان». والبرلمان في النظم الديمقراطية الحزبية يمثل

همزة الوصل بين مؤسسات الدولة لأنه منها وبين المؤسسات الحزبية الاهلية لأنها تعمل من خلاله . ومعنى المعارضة خارج البرلمان انها معارضة خارج المؤسسات السياسية السائدة عموماً ، سواء ما مثل الدولة أو ما مثل التشكيلات الحزبية السائدة .

وهي بهذا الوضع ، أي بتميزها عن المؤسسات الرئيسية السائدة وعن الأطر الفكرية الثقافية السائدة ، فإنها في العادة ماتنشيء لها قنوات جديدة للحركة . لذلك فان واحدا من سماتها انها تنبعث عنها قيادات شابة جديدة لم تكن عاملة من قبل، وتطرح بذور نخبة سياسية أو ثقافية جديدة ما تلبث ان تنمو . وهي في بدايتها عادة ماتظهر نوعا من النشاط المباشر الذي يتسم بغير القليل من العفوية والتلقائية .

فما يمكن ان يسمى بحركة الشباب في التاريخ المصري ، هي الحركات السياسية أو الثقافية التي تقوم بين جماهير من الشباب ، وتتصف بالتميز عن هياكل التنظيمات السائدة في الحياة السياسية والاجتماعية ، أو عن الأطر الفكرية الذائعة بتياراتها المختلفة .

***

مادمنا استبعدنا تحركات الشباب من خلال الأحزاب القائمة فعلاً ، أو تحركاتهم ضمن حركات ثورية عامة مثل ثورة ١٩١٩. فقد بقيت الظاهرة محل الحديث ، وهذه الحركات الشبابية المعنية يمكن باستقرائها على مدى القرن العشرين القول بانها تنجم عن حدوث تغيير أساسي في الهياكل الاجتماعية أو في التوازنات السياسية القائمة أو تغيير يكون حدث في التشكيل الثقافي . وان يكون تغييرا تقوم به الفجوة بين التكوينات السياسية الاجتماعية والثقافية القائمة وبين مجموعة من المتطلبات الجديدة لم تنعكس بعد في التكوينات القائمة . أي ان الواقع يكون قد اسفر عن متطلبات لاتجد لها تعبيرا كافيا في التشكيلات والمؤسسات السياسية والاجتماعية السائدة .

ومن ثم لم تعد المؤسسات القائمة قادرة على تمثيل الحركة الاجتماعية والثقافية الموجودة في الواقع . ولا اقصد بالمؤسسات مؤسسات الدولة فقط ، انما الأمر متعلق بالمؤسسات الاهلية أيضاً وبالأنساق الفكرية والثقافية السائدة .

أو ان تكون الأوضاع السياسية الاجتماعية أو الأوضاع الثقافية قد استوجبت تصنيفا جديدا للقوى السياسية والثقافية ، اذ يكون ضمر بعضها واشتد ساعد البعض الآخر عبر مرحلة تاريخية بحيث ان الاحجام النسبية للتوازنات بين هذه القوى تكون تعدلت تعديلا جوهريا .

أو ان تكون الظروف السياسية الاجتماعية أو الأوضاع الثقافية قد استوجبت ظهور قوة سياسية أو اجتماعية جديدة أو ظهور تيار فكري ثقافي جديد ، وصار من الحتم ان تتشكل له قوته المؤسسية وان يمثل مكاناً يليق به من المؤسسات الفاعلة أوالتيارات الرائدة .

لقد ظهرت أولى هذه الحركات الشبابية طبقا للعرض السابق وافتتحت في فبراير ١٩٠٦ بإضراب طلبة مدرسة الحقوق الخديوية ، وانشيء في السنة ذاتها نادي المدارس العليا . ورغم ان نشاط مصطفى كامل وصحيفة اللواء قد جرى قبل ذلك بسنوات

(أسست صحيفة اللواء فى ١٩٠٠) ، فإن الحزب الوطنى لم ينشأ ويتأسس إلا مواكباً لهذه الحركة الشبابية التى جرت فى ١٩٠٦ . وبه ظهرت على سطح الحياة السياسية الاجتماعية قوة وطنية جديدة منظمة، وشاركت فى صياغة الرأى العام على مدى من السنين ممتد. وقدمت صيغة جديدة للنشاط السياسى اساسها المطالبة بجلاء الاحتلال العسكرى البريطانى اعتمادا على القوة الذاتية للشعب المصرى ، وتكونت هذه القوة السياسية ممن كانوا شباباً وقتها نشأت منهم وتشكلت قيادات تنظيمية وسياسية وثقافية على المدى الممتد من السنين التالية.

وظهرت ثانية هذه الحركات فى عامى ١٩٢٧ و١٩٢٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٨، وقيام ثورة ١٩١٩ فى مصر وإلغاء الخلافة الاسلامية فى ١٩٢٤. وكانت الاحداث كلها تكشف عن ان النداءات السياسية والاجتماعية والوطنية قد ابتعدت عن المرجعية الدينية الاسلامية، وسادت النظم الوضعية المنبتة عن الاطار المرجعى الثقافى الاسلامى، وتعينت الأهداف السياسية مفصولة عن هذا الإطار المرجعى. وبدأت حركات التبشير الغربية تعقد المؤتمرات وتمارس النشاط فى مصر والبلاد الاسلامية وبين المسلمين وقامت حركة الشباب هذه لتدافع عن الشمولية الاسلامية باعتبارها اطارا مرجعياً للنظم والمعاملات والقيم وقواعد السلوك على سواء . وتشكلت فى اعقابها «الشبان المسلمون» ثم الاخوان المسلمون .

وظهرت أيضاً فى ١٩٣٠ حركة شبابية، كانوا من طلبة الجامعة فى الاساس، عرفت بحركة «مشروع القرش» وتحددت دعواها فى جمع التبرعات من المصريين جميعاً لإقامة الصناعات المصرية، وكان أساس المشروع أنه نوع من الدعوة لمبدأ الاستقلال الاقتصادى ، وان المطلوب رفع السيطرة الأجنبية عن المشروعات الاقتصادية . ومن هذه الحركة الشبابية ظهرت جمعية مصر الفتاه ثم اسميت حزب مصر الفتاه، وكانت تقف متجاوزة الاعتدال الوفدى فى المطالب الوطنية الاجتماعية.

وظهرت فى ١٩٤٦ حركة شباب بلغت ذروتها بتكوين اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، ومنها طفا على سطح الحياة السياسية الاجتماعية فى مصر عدد من التنظيمات الماركسية وتيارات يسارية أو اشتراكية بين شباب حزب الوفد أو غيره، كما تشكلت وقتها اللجنة القومية من تجمع الأحزاب والتيارات ذات التوجه الاسلامى تنادى بأهداف سياسية واجتماعية متوازية ولكنها تتمسك بالمرجعية الاسلامية . وكل من الحركتين كان يظهر استجابة للأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية لما بعد الحرب العالمية الثانية.

وفى ١٩٦٨ - ١٩٧٢ ظهرت حركة شباب طلابية فى اعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، وكان مطلب الديمقراطية السياسية من أهم مطالبها بحسبان غياب هذا المطلب على مدى التجربة السياسية للنظام المصرى الوطنى خلال الخمسينات والستينات وكانت الهزيمة قد كشفت عن عوار أساسى فى التكوين التنظيمى للدولة والمجتمع ، مما لم يمكن معه المحافظة على الاستقلال من خلال الاطر التنظيمية التى قامت عبر العقدين السابقين وامتدت هذه الحركة لتطرح مبدأ استرداد الأرض السليبة بالقوة.

وفى منتصف السبعينات ، ظهرت الحركة الاسلامية بوصفها حركة شباب ، سواء

بين طلبة الجامعة أو خارج اسوار الجامعة ، بحسبان ان النداءات الاسلامية السياسية كانت استبعدت من ان تكون ذات اثر أو ذات سهم فى تحديد مشروع النهوض والتنمية المستقلة فى بلادنا ، كما كان استبعد التيار الاسلامى من أن يكون ذا سهم فى المشاركة بين القوى السياسية التى اعترف بوجودها وبعملها فى هذه الفترة. وكانت مصر قد مرت بعهد تجربة الليبرالية الغربية بحسبانها مرجعية فكرية للنظم وللمعاملات في فترة ما بين الثورتين ١٩١٩ - ١٩٥٢ ثم مرت بعهد الاشتراكية الثورية فى الخمسينات والستينات، واذ كانت مصر تقدمت تقدما لاشك فيه خلال هذين العهدين ، فان هزيمة ١٩٤٨ فى العهد الأول ، وهزيمة ١٩٦٧ فى العهد الثانى ، كل ذلك كشف عن أن ثمة عوارا هيكليا فى الصيغة الحضارية والتنظيمية لكل من التجربتين . وكانت كلتا التجربتين تصدران عن المرجعية الغربية ، الأمر الذى أوجد احتياجا لربط منجزات العهدين بالمرجعية الاسلامية حضاريا وعقيديا ، ومن ثم انبثق التيار الاسلامى.

ومن هذا الاستعراض يظهر ان كلا من هذه الحركات كانت تحمل فى احشائها جنين تنظيم سياسى أو تيار فكرى سياسى ، وأنه ولد منها . وان أيا من هذه التنظيمات أو التيارات يمكن أن تعود نشأته إلى مرحلة سابقة عن حركة الشباب التى واكبته ولكن تظل هذه الحركة الشبابية فى كل هذه الأمثلة هى الحدث المعاصر لتاريخ الميلاد الشعبى لتنظيم سياسى أو تيار فكرى ثقافى.

***

يظل ثمة سؤال عن سبب كون حركة الشباب بخاصة هى مايعبر عن ظهور تيار جديد . والجواب فى ظنى ، أو محاولة الجواب ، هى أن أى حركة يمكن أن تكون تعبيرا عن أمر جديد . والثورات تفيد انها تعبير عن تكوينات جديدة وعلاقات جديدة وتوازنات جديدة فى المجتمعات ، سواء من الناحية السياسية والاجتماعية أو من الناحية الثقافية الحضارية . وحركة الشباب ليست ثورة وليس لها شمول الثورات ولا عمقها ولا انها تتعلق بمرحلة كاملة من مراحل تاريخ مجتمع معين . ان حركة الشباب فى ظنى هى ما يرهص «بتعديل» هيكلى أو تغيير فى «الأبنية» المؤسسية السياسية الاجتماعية أو الثقافية دون أن يكون هدفا شاملا ولا بناء كاملا .. ويمكن أن تكون هناك حركات أخرى شعبية تنتمى إلى فئات من الشعب وتفضى إلى ماتفضى اليه حركة الشباب من تكون حزبى أو تبلور لتيار ما. على أنه يمكن أن نلحظ لحركة الشباب خصائص ذاتية تساعدها ، وساعدتها على اداء الدور الذى امكن استقراؤه من وقائعها .

فان مراكز التعليم ومعاهده هى مجالات للتجمع الشعبى لايشاكله فى هذه الصفة إلا المصانع بوصفها تجمعا عماليا. ولكن معاهد التعليم تعتبر تجمعات أكثر رحابة من الناحية الاجتماعية والثقافية، فهى لا تتكون من جماعة ذات وضع اجتماعى طبقى واحد ، ومن ثم تكون التفاعلات السياسية والفكرية فيها أسرع.

ومن ناحية أخرى فان جماهيرها من الشباب الذى لاترهق حيويته وقدرته على تقبل الجديد وملاحظاته خبرات الماضى ومشاكله ، ولا تقيد حركته منجزات الماضى واحساسه بأن حاضره أفضل مما كان عليه حال الجيل السابق عليه . فالشباب ينشأ ويقف حيث

انتهى الآخرون ومن حيث ما صار اليه المجتمع، وهو بهذا اقدر على التقاط المشاكل الجديدة وتبنى الحلول الجديدة ، وهو أكثر قدرة على الفعل المتحرر من الخوف واكثر قدرة على اقتحام التجربة بغير ان يكبله الحذر من الخطأ.

ومن ناحية ثالثة فان جماهيرها هم من الشباب المثقف عادة وممن بدأوا يتدربون على المعالجات الفكرية . والجديد فى بدايته يكون فكرا أو حلولا فكرية لمشاكل فعلية ، فهم اسرع من غيرهم على الانجذاب إلى ما يمكن أن يسمى بالفكر الجديد أو الفكر غير السائد فى صورته المثلى ، وقبل أن يتجسد هذا الفكر وتصوراته الذهنية فى مؤسسات تنظيمية وترتبط به المصالح النسبية . فحركتهم فى هذا الطور تكون فى مرحلة الدعوة التى لم تتحول بعد إلى مصالح إن صحت هذه التعبيرات العامة .

ومن جهة أخيرة ، فانه يصعب على القوى السائدة فى المجتمع وعلى المؤسسات ذات الفاعلية فى هذا المجتمع أن تتصدى لها تصديا سريعا ، وحركة الشباب تتكون من عناصر لاتزال فى دور التشكل، وهى عناصر لم تستوعب بعد لافى مؤسسات الدولة ولا فى التشكيلات الحزبية القائمة وهى تنشط من خارج ذلك كله . ولم تدرك المؤسسات القائمة بعد كيف تتعامل معها استيعابا لها أو مخاصمة . ومن حيث هى تيار فكرى لم يتبلور بعد لدى القوى القائمة كيفية المواجهة الفكرية لها استيعابا أو رفضا ، ومن حيث الأشخاص لم يعرفوا بعد ولم يعرف بعد دور قياداتهم الشابة الوليدة ، ولم تفتح لهم ملفات بعد سواء للتعامل الأمنى أو للتعامل السياسي أو الفكرى ، من مؤسسات السياسة والفكر.

والشباب هم جمهور من شريحة عمرية محددة ، وهى شريحة تتغير كل سنوات جد محدودة ، والطلبة مثلا يتغيرون جلهم إن لم يتغيروا كلهم، كل مدة تتراوح بين السنوات الأربع والسنوات الست ، ومهما كانت القدرة على المتابعة فإنه يصعب جداً ملاحقة تجرى بهذه السرعة فى التشكيل الاجتماعى البشرى الذى تصدر منه حركات الشباب، فلذلك فهى فى ظهورها ذات قدرة عالية على التفلت من حواجز الأوضاع القائمة ، والتسرب من جدران الأوضاع السائدة.

وعلى الجملة، فانها لاتستطيع عادة ان تغير النظم السياسية الاجتماعية القائمة لانها حركة مؤقته بطبيعتها .. انما تستطيع أن تؤثر فى الأوضاع السائدة تأثيراً فعالاً وان تترك بصمتها على الوجود الاجتماعى الثقافى وان تعدل الأوضاع القائمة فى جانب منها .

فهى تكشف أولا عن وجود خلل فى الأسس القائمة ، أو فراغات حدثت فى التكوين البنائى القائم . ومنها يظهر تيار جديد إما فى صورة تنظيم سياسى أو فى صيغة تيار فكرى.

وقد تستطيع المؤسسات القائمة أو التيارات السائدة أن تعدل من نفسها وتغير من الأوضاع والتوازنات التى كانت موجودة ، وذلك بما يمكن من استيعاب هذه الحركة . والأمر فى ذلك يرجع إلى مدى المرونة التى يتحلى بها الوضع القائم والتى تمكنه من استيعاب هذه الحركة، لأن الاستيعاب هنا مشروط بقدرة الأوضاع القائمة على أن تعدل من نفسها وتغير بعض جوانبها بما يمكنها من تحقيق هذا الاستيعاب.


د. سعد الدين ابراهيم


عمر البشير

أقـــــوال معاصرة


د. جابر عصفور

● «كان يجب أن يكون اللبنانيون أغرابا مثلى حتى يعرفوا قيمة لبنان، وحتى يمتنعوا عن قتله باقتتالهم» .

المفكر جورج طرابيشى

● «طائفية اللبنانيين كالنباتات السامة، قاتلة مع الجهل، وعلاج مع المعرفة» .

يوسف الحورانى
باحث لبنانى فى التاريخ الحضارى

● «لو» التاريخية تعوق التحليل العقلانى لانطوائها على تمنيات ورغبات وأحكام قيمية .

الكاتب د. سعد الدين ابراهيم

● «ليس هناك بعد اليوم مؤسسية، هناك بندقية» .

الرئيس السودانى عمر البشير

● «أفضل الانتحار على السماح لروحى أن تظل حبيسة فى جسد ميت» .

المخرج السويدى انجمار برجمان

● «الشهادات والوثائق لا تكفى، لأننا نرى الحقيقة بمزاجنا وأهوائنا» .

د. ناديا خوست
الأديبة والباحثة السورية

● «خير وسيلة لفتح الأبواب السياسية المغلقة هى اثارة المشاعر الدينية، عند شعب يغلب عليه الايمان» .

د. جابر عصفور

● «الناس بالملوك، ولا يصلح عرب ملوكها عجم» .

الشاعر ادونيس

● «من الأشياء القليلة التى أستطيع أن أؤديها القيام بغلى الماء» .

النجم الامريكى مايكل دوجلاس
الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى

● «تولى منصب المدير الموسيقى لاوركسترا برلين الفلهارمونى مثله مثل تولى منصب البابا، ولكن بدو العزوبية»

سير سايمون راتل لدى انتخابه رئيسا للاوركسترا



١٨٢٣م

١٨٩٣م

على باشا مبارك

بورتريه لمثقف من القرن ١٩

بقلم : د. عاصم الدسوقى

على مبارك أحد الشخصيات البللورية فى تاريخ مصر الحديثة، التى لم تتكرر على مدى قرنين من الزمان إلا قليلا بالقياس إلى عدد المثقفين المصريين ، فهو من الشخصيات ذات الجوانب المتعددة ، والاهتمامات المختلفة ، والتخصصات المتنوعة ، وهو موسوعى الثقافة له فى فروع العلم والمعرفة إنجازات ملحوظة وأفكار مأثورة ، انشغل به الدارسون فى التاريخ والجغرافيا والحضارة والأدب والاجتماع والتربية فضلا عن الهندسة والرياضيات ، واختلفوا فيما بينهم حول أعماله وكتاباته ما شاء لهم الاختلاف .



وعلى مدى ثلاثين عاما «١٨٦٣ - ١٨٩٢» من عمره كتب خمسة عشر مؤلفا ، نشرت جميعها عدا أربعة فقط ، وكانت أولى مؤلفاته فى ١٨٦٣ «تقريب الهندسة» لتعليم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة والحساب وقواعد الهندسة ، وآخر مؤلفاته فى عام ١٨٩٢ بعنوان «الميزان فى الأقيسة والأوزان» وهو دراسة مقارنة فى تاريخ الأقيسة والمكاييل والأوزان فى مصر منذ العصر القديم ، وفيه يقول إن الوزن منسوب إلى القدم والمكيال منسوب إلى الذراع وهى أقيسة طولية ، وبين هذين المؤلفين وهما فى العلوم الرياضية بدرجة أو بأخرى نشر سائر مؤلفاته المتنوعة.

على مبارك وبدء الكتابة

ومن الملاحظ أنه بدأ الكتابة وهو فى سن الأربعين ، وبعد أربعة عشر عاما من عودته من بعثته الدراسية فى باريس ، وذلك بعد أن تزود بكثير من الخبرات التى ازدادت مع الزمن واتضحت فى أعماله ذات الطابع الفكرى أكثر من أعماله فى الجانب التقنى والعلمى ، وقد تبدو مؤلفاته الخمسة عشر فى خلال الثلاثين عاما قليلة بالقياس إلى الزمن . إلا أنها تصبح كثيرة فعلا إذا أدركنا أنه لم يكن كاتبا محترفا، وأنه كتب أثناء توليه مسئوليات إدارية ووزارية متعددة ، لولا أن الكاتب بداخله كان أقوى من الموظف السياسى والإدارى ، حين تصبح الكتابة متنفسا وحيدا للتعبير عما يجول بصدره شأن كثير من المثقفين .

وإذا عرفنا أنه بدأ حياته العملية فى عام ١٨٥٠ مدرسا بمدرسة طرة الحربية ، وظل يتدرج فى وظائف الحكومة ، ويتنقل بين مناصبها حتى مايو ١٨٩١ «قبل وفاته بعامين» ، وأنه شرع فى الكتابة والتأليف من عام ١٨٦٣ وحتى ١٨٩٢ «قبل وفاته بعام» ، أدركنا أن سنوات الأعباء الحكومية هى نفسها سنوات الإنتاج الفكرى والإبداع.. فمن مدرسة طرة الحربية اشترك فى حرب القرم سنة ١٨٥٤ بين الدولة العثمانية وروسيا . وتفاوض خلالها مع الروس باسم الأتراك . ثم عين وكيلا لديوان المدارس «وزارة المعارف فيما بعد» عام ١٨٦٧ ، وفى ١٨٦٨ يُعين ناظرا لديوان الأشغال والأوقاف ، ثم يصبح ناظرا لديوان المدارس على فترات متقطعة : من أبريل ١٨٦٨ - سبتمبر ١٨٧٠ ، ومن مايو ١٨٧١ - أغسطس ١٨٧٢ . ومن أغسطس ١٨٧٨ - أبريل ١٨٧٩ ، ثم من يونيو ١٨٨٨ - مايو ١٨٩١ . كما تولى نظارة الأشغال فى ١٨٨٢ ، كما عين مستشارا للأمير حسين كامل لديوان المدارس من



أغسطس ١٨٧٢ - أغسطس ١٨٧٣ حين كان بعيدا عن الإدارة الحكومية ، وعين عضوا بالمجلس الخصوصى «أشبه بمجلس الوزراء» عام ١٨٧٣ .

روضة المدارس مع نظارة ديوان المدارس

وفى فترة توليه نظارة ديوان المدارس أصدر مجلة روضة المدارس ١٨٧٠ التي نشر فيها بعض كتبه المدرسية على حلقات، وأنشأ كذلك دار الكتب المصرية ١٨٧١، وخصص قاعة للمحاضرات العامة للجمهور ١٨٧١ بدرب الجماميز قريبا من دار الكتب ، وأسس دار العلوم فى ١٨٧٢ .

وقد بدأ على مبارك الكتابة بشكل يكاد يكون منتظما منذ أواخر ستينات القرن التاسع عشر ، حيث نشر فى السبعينات أربعة كتب .ففى ١٨٧٠ نشر «حقائق الأخبار فى أوصاف البحار» يتناول فيه عجائب البحار وتركيب مياهها ، وكيفية تكوين الأمواج، وظاهرة المد والجزر، وتأثير ذلك على الشواطىء ، وفى ١٨٧٢ نشر عملين هما : «خواص الأعداد» ويختص بمسائل فى الحساب ، وكتاب «تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام» عن التغذية الصحية والدورة الهضمية مستلهما فيه كتابا بالفرنسية . وفى ١٨٧٦ ينشر «تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين» وهو كتاب مدرسي فى الهندسة يتناول الشكل المثلث، والرباعى، وشبه المنحرف ومساحة الدائرة وأجزاءها .

الخطط التوفيقية

وفى الثمانينات ينشر «نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» ١٨٨١ ، وإن كان قد انتهى من كتابته فى ١٨٧٣ ، ويتناول تاريخ نهر النيل ، وأهمية العناية بالرى لصلة ذلك بالعمران أو بالخراب ، وحلول الشقاء أو السعادة على أهالى مصر تبعا لذلك . وفى ١٨٨٢ ينشر «علم الدين» وهو عمل من أربعة أجزاء . أرسله فى شكل حوار متخيل بين عالم أزهرى ومستشرق انجليزى محب للشرق ، وقد تم جزء من الحوار فى مصر والجزء الآخر فى بلد المستشرق وبلدان أوروبية أخرى مقارنا بين أحوال الشرق وأحوال الغرب . وفى عام ١٨٨٣ نشر الجزء الأول من كتابه «طريق الهجاء والتمرين على القراءة باللغة العربية» وكان قد كلف بكتابته فى عام ١٨٦٦ أثناء نظارته للقناطر الخيرية. والكتاب يتناول بالشرح الحروف الأبجدية بحروف الثلث والفارسى والرقعة مع بعض أمثلة وعظات . ثم ينشر الجزء الثانى من الكتاب فى ١٨٨٦ ، ويشمل موضوعات علمية فى شكل أقاقيص خفيفة تناسب عقل الأطفال مع

معلومات أدبية ، وعلامات ضبط القراءة، فضلا عن بعض النصائح والإرشادات الإسلامية ، وطرف من أخبار السيرة النبوية . وفى ١٨٨٨ - ١٨٨٩ ينشر «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة» في عشرين جزءا يستكمل بها خطط المقريزى «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة» وقد خصص الأجزاء الستة الأولى منها لمدينة القاهرة ، وخصص الجزء السابع للإسكندرية ، والأجزاء من الثامن إلى السابع عشر عن أقاليم مصر . والثامن عشر عن مقياس النيل ، والتاسع عشر عن الترع والخلجان ، والجزء العشرون خصصه للنقود المصرية وأشكالها وقيمتها . وقد استغرق إعداد الأجزاء كلها نحو ستة عشر عاما ، إذ بدأ فى كتابتها عام ١٨٧٢ . وفى عام ١٨٩٠ ينشر بمجلة الأزهر مقالة بعنوان: «المزاحمة وتأثيرها فى الارتقاء البشرى» ، أي المنافسة بالتعبير المعاصر ، والمقالة انعكاس لتطور الأوضاع في مصر بعد دخول رأس المال الأجنبى وتأثير ذلك على طوائف الحرف والتجار المصريين .

وفى التسعينات كانت صحته قد اعتلت . وترك المسئوليات الحكومية «ترك نظارة المعارف فى مايو ١٨٩١» ، وبدأ مرحلة أخرى من الحياة كان نشاطه فيها قليلا . وفى هذه المرحلة الأخيرة يراجع ترجمة كتاب «خلاصة تاريخ العرب» للفرنسى سيديو Sideillot† ويكتب له مقدمة طويلة ، وكان قد كلف محمد أحمد عبدالرازق مدرس اللغة الفرنسية بالمدارس المصرية بترجمته لنزاهة المؤلف واعترافه في الكتاب بفضائل الإسلام ومآثر العرب ، وقد نشرت الترجمة فى ١٨٩١ . وفى العام التالى ١٨٩٢ وقبل وفاته بعام واحد نشر كتابه «الميزان فى الأقيسة والأوزان» الذى سبقت الإشارة إليه .

وهناك أعمال أخرى لكاتبنا ورد ذكرها عرضا فى «الخطط» لكن أصولها غير موجودة ، من ذلك ، مخطوطة عن «التربية وما يترتب عليها من تقدم الشعوب» ، وكتاب فى العمارة تقرر على المدارس ولم يطبع ، وآخر عن فن الاستحكامات العسكرية وقيادة الجيوش فى الحروب ضاعت أصوله منه .

وهناك مؤلفات أخرى ذكرها آخرون ممن ترجموا لحياة على مبارك لكنها غير موجودة أيضا ومنها : كتاب : «جغرافية مصر» الذى ذكره يوسف إلياس سركيس فى «معجم المطبوعات العربية والمصرية» ، وكتاب «آثار الإسلام فى المدنية والعمران» أورد ذكره محمد بك درى الحكيم فى كتابه «حياة المغفور له على مبارك باشا» .

ومن بين كل هذه الأعمال المتعددة حظيت «الخطط» بشهرة فائقة حيث ارتبط اسم على مبارك بها ، فإذا ما ذكرت «الخطط» ذكر على مبارك والعكس صحيح ، مع

أن «الخطط» لا تعبر تعبيرا حقيقيا عن ثقافة علي مبارك وتكوينه الفكري . أما أعماله التي تعبر عن ذلك في تقديري فهي : نخبة الفكر ، وعلم الدين ، ومقالة المزاحمة ، ومقدمة ترجمة كتاب «خلاصة تاريخ العرب» (راجع مقالتنا «الوعي بالتاريخ : دراسة في فكر علي مبارك» في كتابنا «أفكار لم تنشر» ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٩٦) . ومن بين كل إسهاماته وإنجازاته لايذكر إلا دوره في ترقية التعليم وضبطه حتى لقد أخذ لقب «أبو التعليم» .

الخطط مصدر لا غنى عنه

ولعل شهرة الخطط جاء ت على أساس أنها مصدر لا غنى عنه لكل من يبحث في تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي والأدبي والعمراني ، ليس في القرن التاسع عشر فقط، وإنما لفترة سابقة قد تعود إلى القرن الخامس عشر حيث توقف المقريزي في خططه ، وذلك نظرا لطبيعة التغير البطيء في الحياة الاجتماعية ، ومما يزيد في قيمة أجزاء الخطط علميا . التوثيق الذي اتبعه على مبارك في كتابته . فقد رجع إلى حجج الأوقاف والأملاك وكتابات العرب والإفرنج الذين ساحوا في ديار مصر، والرسوم التي زودوا بها كتبهم . وما كتبه الموظفون الأوروبيون الذين عملوا في خدمة أسرة محمد على مثل كلوت بك . كما رجع في الأحوال الدينية للمسلمين لما رأى علماء الأزهر. وإلى القساوسة بالنسبة لأحوال الأقباط . وتبدأ خطط على مبارك من حيث تنتهي خطط المقريزي متابعا وصف طبوغرافية المدن والقرى، ومتحدثا عن كل مدينة منذ نشأتها وما تحويه من مبان ومرافق وأماكن عبادات ومدارس . ومترجما لمن نشأ بكل مدينة من شخصيات ذا ع صيتها من العلماء والأمراء ومشاهير الرجال. واستند إلى الجبرتي في الإحاطة ببعض تاريخ من ترجم لهم . كما استكتب معاصريه عن تاريخ حياتهم . وقد أجمع كل من كتب عن على مبارك على أنه اعتمد في جانب كبير من جمع مادة الخطط على مرءوسيه من موظفي النظارات التي تولاها : المعارف والأوقاف والأشغال .

علاقة المثقف بالسياسة

على أن متابعة تاريخ على مبارك يثير إشكالية على جانب كبير من الأهمية والخصوصية ألا وهي علاقة المثقف بالسياسة ، وخصال البورجوازية الصغيرة ذات الأصول المتواضعة ، واتخاذ البعض مواقف تبدو منافية للتكوين الفكري الذي اكتسبوه من مصادر المعرفة المتعددة ، ومن حصيلة مختلف التجارب الغنية ، ومن واقع التناقض مع الغير . والحاصل أنه في ١٨٧٣ تحول على مبارك لأول مرة عن الكتابة في الهندسة والرياضيات إلى الكتابة بتكليف في موضوع فكري تحليلي



فكتب: «نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» ، وبعد أن امتدح محمد على باشا لعنايته بالزراعة أعلن أسفه «لعدم استمرار خلفائه على منواله فى الاعتناء بنماء هذا المشروع الجليل» ، وحدث أن اطلع إسماعيل صديق المفتش على مخطوطة الكتاب - كما يفهم من سياق حديث على مبارك فى «الخطط» - فوشى به عند الخديو إسماعيل وقال له «إن كتاب نخبة الفكر مشتمل على ذم الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها» . وكانت النتيجة فصل على مبارك من المجلس الخصوصى وكان حديث العهد به . ولزم بيته مع استمرار صرف المرتب .

وقد ظل الرجل بعيدا عن الإدارة قرابة الخمس سنوات بعد هذه الواقعة وحتى أغسطس ١٨٧٨ حين عين ناظرا للمعارف ، وظل الكتاب حبيسا قرابة الثماني سنوات إلى أن نشره سنة ١٨٨١ أيام الخديو توفيق .

ومن الواضح أن هذه الحادثة أصابت على مبارك فى مقتل ، وزلزلت أركان تفكيره ، وعلمته الحكمة والحيطة ، ولهذا عندما كتب «علم الدين» سنة «١٨٨٢» نراه يلجأ إلى الرمز . ويصطنع حوارا لنقد الأحوال العامة فى مصر على لسان شخصيات من صنع خياله وهم الشيخ الأزهرى علم الدين وابنه برهان الدين والمستشرق الانجليزى، وأرسل أخطر أفكاره فى هذا العمل على لسان الانجليزى ، وأقلها خطورة على لسان برهان الدين ، وأكثرها اعتدالا على لسان علم الدين الذى هو فى تقديرى على مبارك نفسه . وعندما كتب «الخطط» تحاشى ذكر القرى التى نشأ فيها زعماء الثورة العرابية حتى لايضطر إلى ترجمة حياة كل منهم فخرج بذلك عن أسلوبه فى الكتابة عن قرى مصر ومدنها . وعلى هذا لم يرد ذكر لأحمد عرابى والإمام محمد عبده وعبدالله نديم فى «خططه» حتى لايثير خاطر الخديو توفيق .

على مبارك والثورة العرابية

وعندما فرضت عليه الظروف أن يشهد اللحظات الحرجة فى حوادث الثورة العرابية ، وفرض عليه أن يقول رأيا وكان ناظرا للأشغال ، اتخذ جانب الخديو توفيق .. ففى ١٧ يوليه ١٨٨٢ وبعد ضرب الأسطول الإنجليزى للإسكندرية ، أبرق الخديو توفيق ، الذى أصبح فى حماية الإنجليز ، إلى عرابى «ناظر الحربية» يأمره بإنهاء التجهيزات الحربية والحضور إلى قصر رأس التين لتلقي التعليمات الجديدة ، لأن ضرب الإسكندرية جاء كإجراء وقائى من جانب الإنجليز. وفي الحال رد عرابى مفندا مزاعم قائد الأسطول البريطانى ، وطلب من الأمة عقد مجلس من أعيان البلاد



وعلمائها لبحث مشروعية انحياز الخديو لأعداء البلاد وشرعية ذلك دينيا . وبدعوة من وكيل الداخلية حضر على مبارك الاجتماع الذى ضم قرابة أربعمائة شخص .

وفى هذا الاجتماع قام الشيخ محمد عبده بتلاوة البرقيات المتبادلة بين الخديو وعرابى وقال : «إن كل من يتهاون فى تأدية واجباته الوطنية فضلا عن كونه يعاقب بمقتضى القانون العسكرى يصير ملعونا فى الدنيا والآخرة» ، وطالب الشيخ العدوى بعزل الخديو . واضطرب الموقف وحدث هرج ومرج وأهاب وكيل الداخلية الحضور بالتزام الهدوء . وهنا طلب على مبارك الكلمة ونجح فى تهدئة المجتمعين وتحويل موقفهم من العنف إلى اللين .

وفى هذا قال إنه لابد أولا من التحقق مما ورد فى برقية عرابى بشأن ما إذا كان الخديو توفيق محجورا عليه فى الإسكندرية وأنه فى قبضة الانجليز من عدمه ، وفى ضوء نتيجة التحقق يعقد الاجتماع مرة أخرى للنظر فى الأمر وفى «الكيفية». وعلى هذا تقرر إرسال وفد سداسى برئاسة على مبارك للقيام بالمهمة . وقد رفض على مبارك التوقيع على قرار المجتمعين فى هذا الشأن إلا بعد عدة أيام وبناء على نصيحة صديقه على الروبى . وقبل أن يصل الوفد إلى الإسكندرية عرج على كفر الدوار لمقابلة أحمد عرابى لاستيضاح موقفه .

ولما سأله على مبارك عما إذا كانت مهمة الوفد مقتصرة على التحقق فقط من وضع الخديو من حيث الحجر أو عدمه . أجابه عرابى بأن حل المشكلة لا يكون إلا بعزل الخديو . فما كان من على مبارك إلا أن قال لعرابى «إن الخديو يعاملكم بالحسنى وإنه مؤيد بالفرمانات وبالدول وليس لأحد من الأهالى أن يمس مسنده» «أى شرعيته» . وفى الإسكندرية أثار على مبارك الخديو على عرابى ورفاقه ووصفهم «بالعصاة وبالخوارج» ، وظل بالإسكندرية ، بل لقد حث فلاحى الشرقية على عدم مساندة عرابى الذى كان قد انتقل من كفر الدوار إلى التل الكبير لملاقاة الإنجليز إذا ما فكروا فى استخدام قناة السويس للتسلل إلى داخل البلاد .

مزاجه غير ثورى

ولما دخل الإنجليز القاهرة «١٤ سبتمبر ١٨٨٢» وحوكم زعماء الثورة وصدرت بشأنهم مختلف الأحكام ، وحان وقت الكتابة عن هذه الفترة فى «الخطط» ، كتب على مبارك يقول إنه فى عهد توفيق «استقامت البلاد وأهلها ولكن هذا السير لم يوافق أغراض المفسدين فوسوس لهم شيطانهم وكفروا النعمة ورفضوا حقوق ولى

الأمر عليهم وحقوق وطنهم» وأكثر من هذا قال علي مبارك إن الخديو توفيق«لم ينحرف عن سيره المعتدل و ثبت عند هذه الشدائد حتى زالت الفتنة المشئومة» .

والحقيقة أن كل من كتب عن علي مبارك ينتهي إلى وصفه بأنه معتدل ، ومزاجه غير ثوري ، ويشعر بالولاء للحاكم «ولي الأمر» . وفي مقدمة هؤلاء جورجي زيدان في كتابه «مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر» ، وأحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» ، وسعيد زايد في كتابه «علي مبارك وأعماله» . ومحمود الشرقاوي في كتابه «علي مبارك : حياته ودعوته وآثاره» .

ويتضح صدق هذا التحليل لشخصية علي مبارك عندما نلحظ في «خططه» أنه لا يهتم إلا بأخبار الشرائح العليا من المجتمع الحاكمة على حساب الفلاحين الذين ينتمي إليهم وهو منهم ، بل إنه لم ير في انتفاضات الفلاحين التي قامت في عهد محمد علي وأوائل حكم إسماعيل كما أوردها في «الخطط» ، سوى أنها خروج على طاعة الإمام الذي هو الحاكم . ولم يوجه أي نقد لأسرة محمد علي ، بل نراه يصف أفرادها بعبارات الاحترام والتوقير متجاوزا في ذلك وقائع متفقا عليها . مع أن أسرته على سبيل المثال كانت ضحية لنظام العهد الذي قرره محمد علي في الثلاثينات وكان يقضي بتحميل القرية كلها الضريبة المقررة التي يعجز فلاح أو أكثر عن دفعها . وهي معاناة عاشها علي مبارك وكانت وراء سعيه للابتعاد عن حياة الفلاحين بالتوظف في الحكومة ليكون «في حالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها» . فكان التحاقه بالتعليم الجديد وهو في سن الثانية عشرة «١٨٣٥» ، وتحمل منذ صغره حياة الضبط والربط حيث كانت مدارس محمد علي باشا عبارة عن ثكنات عسكرية ، والتلاميذ فيها جنود ، ومواعيد الدروس تعلن بالبروجي «النفير» . ولعل سنوات التعليم في مصر وسنوات البعثة في المدارس الحربية الفرنسية طبعته بروح الصرامة ، والانضباط التام . والانصياع إلى الأوامر . والمحافظة على النظام ، خاصة وأن سنوات الدراسة هي نفسها سنوات التكوين الأساسية في تفكير الإنسان وفي نظرته للحياة ، إذ عاد من البعثة وعمره ستة وعشرون عاما .

إن حياة علي مبارك وكتاباته ومواقفه تؤكد دور الظروف الموضوعية في توجيه حياة الفرد وخصوصية الاستجابة : هل تكون بالخضوع للظروف . أو بالتمرد عليها !! ولعل هذا ما يفرق بين إنسان وآخر رغم وحدة الظروف .. بين الانحياز إلى جانب الصفوة الحاكمة ، وتبرير اختياراتها . أو الوقوف إلى جانب عامة الناس وتقديم مصالحها . واختيار الشعار الذي يتحرك تحته ، هكذا ببساطة ودون حاجة إلى استدعاء تعريف جرامشي للمثقف العضوي أو تعريف سارتر للمثقف الملتزم .

في ذكرى المولد النبوي

أمام غار حراء

بقلم :
د. محمد رجب البيومي

بريشة الفنان: جودة خليفة



تعتبر فريضة الحج قراءة ميدانية لسيرة رسول الله ﷺ ، فأكثر الأمكنة فى مكة تذكر قارئى سيرته الشريفة بما كان له من موقف تاريخى مشتهر بها ، وغار حراء ليس من مناسك الحج ، ولكنه يذكر رائيه بأول حلقة من حلقات الإسلام فى تاريخه المديد إذ نزل به الوحى على النبى ، فكان مهبطا لأول اتصال تم بين السماء والأرض فى مكة. وأذكر أنى كنت فى الحافلة راجعا من منى إلى مكة ، فوجدت صديقا من الراكبين ، يوقف السائق ويقول: سأنزل لأقف أمام جبل حراء ورأيتنى مدفوعا إلى مصاحبته تلقائيا دون أن يكون فى خطتى الوقوف أمام هذا الأثر الخالد ، وعجبت كيف ينهض الجبل بروقه الممتد إلى أجواز الفضاء ، ثم لا يلفت الزائرين إلى مشاهدته ، والتمتع بذكريات سعيدة تدور حوله !.

سرت وسار صديقى صامتين لا نتحدث ، وكأن إيحاء الذكرى قد ملأ الخاطر بما عقد اللسان عن الحديث ، وقد توقعت أن أرى أفواجا من الحجاج تقف وقفة المتأمل . فوجدت المكان خاليا إلا من مقهى صغير ليس به غير كرسيين ، وقد تراخى صاحبه إذ كان لا يتوقع زائرا فى هذا اليوم الذى اتصلت به حلقات السير الراكض من منى إلى مكة ، فأيقظناه برفق ، ونهض ليعد الشراب ، وليجيب عن أسئلة حاولت أن أستمع إلى جوابها منه ؛ فقلت له ؟ كم من الزمن يكفى للصعود إلى القمة العالية لنرى الغار المبارك ونرجع ؟ فأدهشنى أن قال لى : لا تحاول ، قلت متعجبا : لماذا ؟

قال الطريق وعر ، وليس به مسلك مستقيم يساعد على الصعود ، وقد جاء هنا منذ أسبوع فريق من الكشافة من إحدى البلاد الإسلامية وكلهم شباب متمتع بالصحة ، وحاولوا الصعود فرجع أكثرهم مبهورا يتصبب عرقه ، رجع من منتصف الطريق ؟ أما الذين ثابروا حتى بلغوا القمة فقليلون ، وما جهدوا أنفسهم إلا استنكافا من أثر الخيبة . وأن يقال

عنهم ، إنهم غير شجعان متمرسين .

قلت : ولكنى أقرأ فى كتب الرحلات عن كثير من الشيوخ والشباب قد صعدوا إلى القمة ، ورأوا الغار فعلا . وفيهم من دخله ، واستمتع بذكريات حلوة عنه .

قال : صحيح ... صحيح ، وهؤلاء محظوظون !.

كان حديث الرجل دافعا بى إلى خواطر عجيبة ، أخذت تنهال على خاطرى، فقد قلت فى حديث صامت بينى وبين نفسى :

يالله ! فريق من الكشافة ! كلهم شباب أشداء ، وقد قدموا إلى الجبل يركبون السيارات المريحة ، فلم يعانوا مشقة الطريق ، ثم ينكص أكثرهم دون القمة ، فلا يبلغونها ويفضلون الرجوع ، ورسول الله ﷺ كان يأتى من منزله فى أقصى مكة سائرا على قدميه ، يحمل زاده الخاص به طيلة شهر رمضان المبارك ، حتى إذا بلغ الغار، وقد يكون ذلك فى مقدمة الليل ، حمل ما معه من الزاد وأخذ فى الصعود يجتاز العقبات ، وتعترضه الصخور والأحجار ، وتدمى قدمه الأشواك، ثم لا يعبأ بما يصادمه من عوائق ، حتى يبلغ مأمنه ! وقد كرر ذلك مرات عدة ! أليست هذه معجزة !.

والتفت إلىّ صاحبى أسأله الرأى فيما عنّ لى من خاطر ؟ فوجدته أيضا يسبح فى موج صاخب من الأفكار عبر عن بعضه حين قال لى :

دعك يا أخى من مشقة الصعود إلى الجبل فى حندس الليل ، ومما يعترض من الصخور ، ومما يخاف منه من سقوط بعضها تحت قدم الصاعد فتهوى به إلى حيث لا يذوق طعم الحياة ، دعك من ذلك كله يا أخى وانظر معى متسائلا؟.

أكان الجبل مستقرا آمنا ، أهو فندق سياحى يلجأ إليه المتعب فيستريح ؟ أهو روض يزدان بالأزهار والنخيل وتجرى تحته الجداول ، إنه مكان منعزل قد تأوى إليه اللصوص فتعترض القادم ناهبة إياه وقاضية على حياته . وقد يكون به الوحش الكاسر المتربص بكل قادم ليجعله زاده بعد سغب طويل ؟ وقد تكون به الحيات المتوحشة ، والأراقم السامة، تكمن فى كل مكان ، بل تختبئ بالغار نفسه . لتجد من القادم مائدة مستطابة ! ماذا تظن بجبل موحش منعزل فى مكان مخوف ، كيف يجرؤ على الصعود إليه إنسان يعلم عن حقيقة أمره هذه الأهوال ؟ أفيفكر عاقل فى اقتحامه ؟ ومتى ؟ فى حندس الليل ، وسكون الظلام ؟ وإذا تم ذلك فعلا ؟ أليست هذه معجزة ؟.

الحق ، أن الخواطر المتشعبة قد ملكت عنان تفكيرى فما استقر على جواب مريح! إلا أن يكون الإلهام الربانى وحده هو الذى قاد نبى الله إلى معتزله الكريم !.

زوجة مفكرة مدبرة

ولنترك رسول الله ﷺ قليلا إلى أهل بيته ، وفيهم زوجته العاقلة المدبرة خديجة بنت خويلد ومن يلوذ بها من الحميمات الأثيرات ! أما كنَّ يعرفن خطر الرحلة ؟ وماذا ينتظر الزوج الكريم عاقبة : لم تكن خديجة بالسيدة الغافلة ، فهى من بيت مرموق ، ولها تجارة تقوم على إدارتها ، وتعلم من أحوال مكة وجبالها ووحوشها وناسها ما لا يجهله الغافل الساذج ، فكيف بزوجة مفكرة مدبرة ، كيف وافقت على هذه الرحلات المتكررة ، وكيف عاونت زوجها على الاعتزال البعيد فى جبل موحش قابض ؟ وهى التى تحبه وتفتديه ؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة أقول . إن معاشرة خديجة لزوجها الكريم ، جعلتها تعتقد اعتقادا جازما أنه ليس رجلا ككل الرجال ! لقد شاهدت من أحواله ما أجلسه فى رأيها مجلسا لا يتشابه مع أحد سواه ! ألم تعرف أنه صاحب الرؤيا الصادقة ؟ كان لا يحدثها عن حلم رآه إلا وجدت تحقيقه فى الحياة دون مهل ! تكرر ذلك حتى أصبح شيئا بدهيا لا مجال للشك فيه ، فليست الرؤيا الصادقة فلتة من الفلتات جاءت مرة على سبيل المصادفة ، ولكنها أمر تقرر وعلم ، فهل تشك بعد ذلك فى سلامة اتجاهه مهما بدا للنظر المجرد أنه صعب عسير .

ثم ما رأيها فى سلوكه الشخصى ، هل كان أنانيا كغيره من الأزواج ، وقد جربت قبله اثنين ! لم يكن غير إنسان سامى الخلق ، رحيم القلب ، فسيح الصدر ؟ ألم تقل عنه حين جاءها مرتعشا مما نزل به عند هبوط الوحى عليه أول مرة: والله ، لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَّل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق !!.

لقد ذكرت أمثلة من سلوكه الإنسانى فى الحياة ، لمستها لمس المشاهد المجرب عن قرب ، وأعجبت بها لنزاهة أصيلة فى خلقها ، لم تقل له إنك تكره عبادة الأصنام، وتجتنب الخمر ، وتعزف عن أماكن اللهو ، فكل ذلك خاص به بينه وبين ربه ، ولكنها امتدت بسلوكه إلى أثره فى الناس ، وإلى مقدار ما يهمى على يديه من بر ! فهو يصل الرحم ، ويحمل الكَّل الضعيف ، ويكسب المعدوم ، ويقرى الضيف ، ويعين على النوائب ! أيكون هذا المتسامى فى سلوكه ، المتدفق بالخير عن يمين وشمال ، مجزيا من ربه بغير الثواب والنعيم ! فإذا جاءه الملك ، فلن يكون ذلك إلا جزاء وفاقا لهذه المآثر وحبا خالصا من

رب أورثه هذه المحاسن ! لقد شاهدت هذه النواحي الممتازة في سلوكه فعلمت أنه فوق الناس جميعا ! وأن الذي يعتزل الناس لابد أن يكون رب الناس قد وفقه إلى هذا الطريق ، وليس لها أن تعترض بعد هذا اليقين !.

حلم أصبح حقيقة

وناحية أخرى بدت من خديجة رضي الله عنها ، تدل على تقديرها الروحي لزوجها ، وأن له بالسماء صلة ليست للناس ، هذه الناحية تتجلى في سعيها إلى ابن عمها الراهب النصراني ورقة بن نوفل لتسأله عن تفسير ما نزل بزوجها في الغار عند مشاهدة الملك ؟ لم تلجأ إلى كاهن من كهنة الجاهلية ؟ لم تلجأ إلى عراف يضرب الرمل ، ويتنبأ كاذبا بالغيب؟ لم تلجأ إلى ساحر ينفث في العقد، ويزمزم بغوامض الكلمات ! إنها في وعيها الحريص ، وفكرها العميق تكفر بهؤلاء جميعا ، ولكنها تعلم أن ابن عمها يقرأ الكتاب ، ويلم بأخبار النبيين من قبل، فلابد أن يكون لديه ما يريح في هذه الموجة الغاشية ، وقد زاد قلبها رسوخا في إيمانه حين سمعت ورقة يبشره بالنبوة، ويقرنه بموسى عليه السلام ، كانت رضي الله عنها تتحسس في أعماقها ما يرتفع بزوجها إلى مرتبة النبوة، تحسسا لم يأت من فراغ ، ولكن عن خبرة حية ملموسة ، تتراءى للعين ، وتتجسد باليد حتى لتلمس لمسا ، فجاء ما قاله ورقة مصداقا لظن صار يقينا ، وحلم أصبح حقيقة !.

هذا إذن سر موافقة خديجة على اعتزال زوجها الأيام ذوات العدد في الغار؟ ولم تسمع عنها أنها قلقت عليه في معتزله، أو أنها أرسلت إليه من يدعوه ، وبنتاه وابناه من حولها يسألون عن أبيهم فتزيدهم اطمئنانا ، ومن يزورونها من أقاربها يتساءلون فتبتسم وتعلنهم أنه يتعبد على دين إبراهيم ، وهي واثقة أنه سيعود متى رأى أن يعود ، وأن أمره بيده، وحاشا أن تكون كالزوجات السائجات ممن يسألن عن غياب الزوج ؟ أين بات ، ومع من ؟ فقد عرفت أنه من ربه في حرز حصين !.

ولنا ونحن أمام الغار أن نمتد بالأسئلة إلى شتى اتجاهاتها الواسعة ، فلا نقف عند سؤال أو سؤالين بل نحاول أن نجيب عما يرد على الذهن فنتساءل : فيم كان يفكر الرسول ﷺ في معتزله الأمن بغار حراء ؟ أكان معتزلا صامتا ينقطع فيه صاحبه عن التفكير ، وقد بعد عن الناس ، وخلص من دوامة الأحياء ! أم أنه قد تفرغ في هذا المعتزل ليبحث في أمور أخذت عليه مناقد تفكيره ؟ يبحث فيما عليه الناس من أباطيل ، حين عبدوا الحجارة الصماء ؟ وحين شربوا الخمور وارتكبوا الأوزار ؟ وحين شنوا الحروب

للغارة والنهب وسلب الأموال ، وغصب النساء ؟! أليست هذه كلها شرورا يضيق بها صدر الحليم؟.

قد لا يجوز لمثلى أن يتصور أحلام الرسول وخواطره الشريفة فى هذا المعتزل، لأن الذى يصدق فى تصوير هذه الخواطر لابد أن يكون لديه من الإحساس الشريف ما يماثل إحساس الرسول ، وكيف يتأتى ذلك لغير رسول كريم ! إنما أحاول محاولة أن أقرب بعض الشئ من هذه الخواطر فى ضوء ما قرأته من سيرته، وما حفظته من كلماته ، فلا جرم كانت هذه الكلمات الشريفة خلاصة لتفكير سام راوح الرسول وغاداه فى مفتتح حياته النبوية ، إنه اعتزل بالغار فرارا من الناس ليتأمل فى أعلى مكان بمكة ما يصل بينه وبين السماء من وشائج ، فهو يرى انتظام حركة الكون فى النجوم المتلألئة ، والليل المدلهم ، والشمس الساطعة ، كل يجرى إلى أجل مسمى ، ثم ينحدر إلى مجتمعه فلا يشاهد هذا الانتظام الكونى فى أمور الناس ، فهنا الاتزان والضبط والالتزام فى ملكوت السموات يشهده من قمة الجبل ، وهناك الفساد والطيش والبغى فى ملكوت الأرض يعلمه ، فيفر هاربا من مآسيه ، فإذا كانت أمور الكون فى أعلاه تجرى على نسق رتيب لا يتبدل ، وإذا جرت أمور الناس فى أدناه على هذا الخلل والاضطراب ، فلابد من إصلاح لهذا الفساد الشامل ، والبلاء المحيق ، إن غفلة الناس عن اليوم الآخر ، واعتقادهم ألا حياة بعد هذه الحياة هى السبب الأول فى هذا الفساد ! وهذا ما أستنتجه استنتاجا من أول خطبة ألقاها رسول الله ﷺ معلنا رسالته إلى قومه ، فأول خطبة نبوية لابد أن تكون خلاصة لتفكير متصل امتد سنوات وسنوات حتى انتهى إلى نتيجة جازمة لا تقبل الشك ، وكان الرسول منطقيا مع قومه حين جمعهم لإنذارهم فابتدأهم بهذا السؤال :

«أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى ، تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدقى ؟ فقالوا جميعا: نعم، ما جربنا عليك كذبا ؟

بهذا السؤال وبهذا الجواب قد ألزمهم الرسول بما يشق عليهم الانحراف عنه دون جهد جاهد ، حتى إذا اطمأن إلى ثقتهم فيه ، تابع حديثه فقال : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم انى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ؟ والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وأنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا» .

إن فساد المجتمع كله يكمن في عدم الإيمان بالبعث ، وإن الرسول ليعلم أن قضية البعث في رأى المشركين تحتاج إلى دليل يقربها للأذهان ، وقد انتهى من تفكيره في الغار إلى صدق هذه القضية التي توجب المساءلة والمؤاخذة ، والثواب والعقاب ، وجاءه الوحي معلنا حقيقة هذه القضية في أول سورة نزلت بعد سورة (اقرأ) التي بشر فيها بالرسالة ، حيث يقول الله تعالى (يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر . وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ، فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير» ! أما الدليل المشاهد فقد جاء في قوله ﷺ لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون فإذا أنكر إنسان أنه يستيقظ بعد أن ينام، فلينكر أنه سيبعث بعد أن يموت !.

★★★

هذه خواطر جاشت بخاطرى، وأنا أقف أمام جبل حراء، وتلتها خواطر أخرى تدور مدارها وقد تركتها تتعارف فيما بينها. دون أن أفصح عنها، وحين رجعت إلى مثواى نشطت إلى قراءة ما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (في منزل الوحي) خاصا بوقفته أمام جبل حراء، فرأيت من المعاني السامية ما أعهده لدى كاتب مقتدر تتدافع هواتفه السامية كما يتدافع الموج من أعالي القمم إلى الوهاد السحيقة ، وقد قال متعجبا :

«ما للمسلمين ممن يقصدون مكة للحج أو العمرة لا تميل بهم الأسوة إلى معالجة هذه الرياضة الروحية ولها في تهذيب النفس أكبر الأثر ، وأي تهذيب للنفس كاتصال الإنسان بالكون في مثل هذا المنقطع الرفيع اتصالا يسمو به المرء فوق غايات الحياة ، ويرى أثناءه في شظف العيش والغنى بالنفس ما يزيده إيمانا بالله وحده .. إنما يرغب المسلمون عن مثل هذه الأسوة الحسنة لأنهم انحرفوا عن أمر الروح ، وأذعنوا لسلطان المادة ، فاستولت عليهم الأثرة وما يتبعها من ابتغاء المال والجاه ، والناس إذا هووا إلى هذا المنحدر فاتهم معنى العبادة على وجهها الحق . فالوحدة للتفكير ابتغاء الحقيقة لا يطيقها إلا ذوو الأرواح القوية يتلمسونها هروبا من ضعف الجماعة وضلالها لأن الحق لا يتمثل في الجماعة الإنسانية قدر ما يتمثل في أطواء النفس وبخيلة القلب لدى من يتلمسون الحقيقة في أعماقهم ويتجهون إلى القوة العليا التي برأتهم ، فإذا اهتدوا إليها اهتدت الإنسانية بهداهم وسعدت برأيهم» .

رباه ، ألا عزلة نافعة مثمرة بإيحائها الهادف ، لا عزلة جدباء كالأرض المواتا.

وقد يتقارب الوصفان جدا
وموصوفاهما متباعدان.

أنبياء مصر

بقلم :د. محمد عمارة

كل الناس يرددون: «مصر أم الدنيا» لكن يبدو - من حقائق هذه الدراسة - «أن مصر هى أم الدنيا والدين أيضا».

بآدم ، عليه السلام ، بدأت مسيرة الإنسان على الأرض ، فهو أبو البشرية ، الذى خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه .. ولطفا من الخالق ، سبحانه وتعالى ، بخلقه ، اقترنت رعايته لهذا الإنسان بلحظات الخلق والاستخلاف والأمر والنهى والتكليف ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ - البقرة : ٣٠ - ٣٣.

عبر التاريخ

ويوحى الله لآدم ، عليه السلام ، بدأت النبوة في المسيرة الإنسانية ، مقترنة بلحظة استخلاف الله لهذا الإنسان، وتكليفه إياه .

وإذا كانت الدراسات الآثارية والحضارية تكاد تجمع على أن حضارة مصر هى أقدم وأعرق الحضارات .. فإن أولية مصر في الرسالات السماوية شاهد علي أن حضارتها هذه قد اقترنت بالدين الإلهي والتوحيد الديني ، الأمر الذي جعلها الأم في المدنية الدنيوية وفي التوحيد الديني أيضا .

١ - نبوة ورسالة إدريس عليه السلام :

لقد بدأت النبوة بآدم ثم تلاه «شيث» .. ومنذ حياة آدم ، في فجر الإنسانية ، اصطفت مشيئة الله مصر - كنانة الله في أرضه - لتبدأ على أرضها النبوة والرسالة الدينية .. ففي ربوعها ، وانطلاقا منها كانت بعثة نبى الله إدريس ، الذي مثل في سلسلة النبوة ثالث الأنبياء ، والذي عاش وبعث فى حياة آدم - عليهم جميعا الصلاة والسلام.

وإذا كان آدم قد وقفت علاقته بالشرائع الإلهية عند «النبوة» فقط ، ولم يكن «رسولا» .. وإذا كان هذا هو حال «شيث» أيضا - والذى لم يحفظ لنا التاريخ الوطن الذى عاش فيه - فإن الوضع مع إدريس كان متميزا .. فهو معدود ضمن الأنبياء المرسلين ، ولقد حفظ لنا التاريخ - وخاصة تاريخ الحكمة والحكماء - ذكر مصر ، باعتبارها الوطن الذي بدأت فيه أولي وأقدم رسالات السماء إلى الإنسان ، علي يد إدريس ، عليه السلام .

وعن إدريس تحدث القرآن الكريم فقال (وأذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا) - مريم: ٥٦ ، ٥٧ - (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) - الأنبياء : ٨٥ ، ٨٦ .. وفى الصحيحين - من حديث الإسراء - أن رسول الله محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وسلم ، مر بإدريس فى السماء الرابعة - فى رحلة المعراج - ضمن من مر بهم من الرسل

والأنبياء .

وعن ترتيب إدريس وسبقه على درب النبوة والرسالة ، ومن ثم سبق مصر على درب الاصطفاء ، هذا ، يتحدث الذين كتبوا قصص الأنبياء .. فيقول الحافظ ابن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ ١٣٠٢ - ١٣٧٣م) - في (البداية والنهاية) .. «إنه كان أول بني آدم أعطى النبوة بعد جده آدم وبعد شيث ، عليهما السلام» .. كما يقول الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣م) : «ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة، فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث» .

وعن معاصرته لآدم ، يقول ابن اسحاق (١٥١هـ ٧٦٨م) «إنه أدرك من حياة آدم ثلثمائة سنة وثمان سنين» .

لقد ولد إدريس «بمنف» ، وخرج من مصر ، وجاء الأرض المعمورة يومئذ كلها، ثم عاد إلى مصر ، وفيها بعث ، حتى رفعه الله فيها مكانا عليا ، بعد اثنين وثمانين عاما.. واسمه في التوراة العبرية «خنوخ»، وفي ترجمتها العربية «أخنوخ» .. أما في اليونانية فإن اسمه: «أرميس» وعرب اسمه إلى «هرمس» .. ولأبوته ومرجعية رسالته في الحكمة والتوحيد اشتهر «بهرمس الهرامسة» ، وترجمت له كتب طبقات الحكماء مع كتب قصص الأنبياء..

ومعنى ذلك ، أن مصر قد دخلت في دين الله ، وعرفت التوحيد ، وحيا إلهيا ، وليس وضعا بشريا وإفرازا إنسانيا ، وتلقت علم النبوة ، واحتضنت الرسالة السماوية منذ فجر الإنسانية ، وفي حياة أبي البشرية آدم ، عليه السلام ..

بل إن ما بقي لنا من قصص نبي الله ورسول مصر إدريس ، عليه السلام ، ليوحي بأن هذا العمق الحضاري والسبق في التمدن الدنيوي ، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات ، إنما كانت لهما عروة وثقى بعلم النبوة الذي جاءها به رسولها إدريس، عليه السلام .. فأمومتها «للدنيا» هي جزء من أمومتها «للدين» .. فمنذ فجر الإنسانية تميزت الرسالة التي شرفت بها مصر بعلوم: الحكمة، والتمدن، والسياسة المدنية، وعلوم الكون، الأرضية منها والسماوية ، إلى جانب علوم الشرع والدين .. حتى ليتحدث الذين أرخوا للحكمة والحكماء - ومنهم القفطي ، جمال الدين أبي الحسن على بن يوسف (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ ١١٧٢ - ١٢٤٨م) - صاحب كتاب (تاريخ الحكماء) - وابن جلجل ، داود بن حسان (بعد ٣٧٢ هـ ٩٨٢م) - صاحب كتاب (طبقات الأطباء والحكماء) - يتحدثون عن هذه الأبعاد العلمية والحضارية في رسالة إدريس فيقولون : «إنه دعا إلى دين الله ، والقول بالتوحيد ، وعبادة الخالق ، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا ، وحض على

الزهد فى الدنيا ، والعمل بالعدل ، وأمر الناس بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها ، وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شهر ، وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم ، وأمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء بها ، وغلظ عليهم فى الطهارة من الجنابة ، وحرم المسكر من كل شيء من المشروبات ، وجعل لهم أعيادا كثيرة فى أوقات معروفة وقربانات ، منها : دخول الشمس رؤوس البروج ، ومنها رؤية الهلال ، وكلما صارت الكواكب فى بيوتها وشرفها وناظرت كواكب أخرى .

ولقد أقام إدريس بمصر - ومن معه - يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وطاعة الله ، عز وجل .ورسم لهم تمدين المدن ، وجمع له طالبو العلم بكل مدينة ، فعرفهم السياسة المدنية ، وقرر لهم قواعدها .. وعلمهم العلوم .. وهو أول من استخرج الحكمة ، وعلم النجوم ، فإن الله، عز وجل ، أفهمه أسرار الفلك ، وتركيبه، ونقط اجتماع الكواكب فيه ، وأفهمه عدد السنين والحساب.

كذلك نجد فيما جاء عن إدريس، عليه السلام، ما يشهد بأن رسالته كانت عالمية لا محلية، انطلقت من مصر لتشمل كل المعمور من الأرض فى ذلك الحين، فهو قد كلم الناس يومئذ بألسنتهم المتعددة .. وعلمهم العلوم.. فبنت كل جماعة مدنا فى أرضها.. وأقام للأمم سننا - طرقا - فى كل إقليم سنة تليق بأهله.. ووعد أهل ملته بأنبياء يأتون من بعده، وعرفهم صفة النبى، فقال: يكون بريئا من المذمات والآفات كلها ، كاملا فى الفضائل الممدوحات ، لايقصر عن مسألة يسأل عنها، وأن يكون مستجاب الدعوة ، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذى يصلح به العالم .. وطبقت شريعته المعمور من الأرض ، وكانت قبلته إلى حقيقة الجنوب على خط نصف النهار - أى إلى أول بيت وضع للناس فى الأرض - ..

وإلى إدريس ترجع جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان .. وهو أول من خط بالقلم ، وعلم أسرار الحروف .. وأول من تكلم فى الجواهر العلوية والحركات النجومية .. وأول من بنى الهياكل ومجد الله فيها ... وأول من نظر فى علم الطب ، وألف لأهل زمانه قصائد موزونة فى الأشياء الأرضية والسماوية .. وحتى يخلد هذه العلوم ، ويحفظها من عاديات الدهر وآفات النار والطوفان ، بنى الأهرام والبرابى ، وصور فيها جميع الصناعات والآلات ، ورسم فيها صفات العلوم ، حرصا منه على تخليدها لمن بعده ، خيفة أن يذهب رسمها من العالم...

كل هذا نسبته كتب طبقات الحكماء وقصص الأنبياء إلى إدريس ، عليه السلام .. وذلك قبل كشوف الأهرامات وآثار ومخلفات حضارة المصريين القدماء ..

ففى مصر ، إذا ، بدأت بواكير التوحيد الدينى فى الألوهية ، وحيا سماويا ، منذ عصر آدم عليه السلام - وليس - كما يزعم الوضعيون والماديون من علماء المصريات - إفرازا بشريا ،

واختراعا مصريا قبل الديانات والرسالات !- .. فالإنسانية بدأت بالإيمان الديني والتوحيد في الألوهية ، والعمق والسبق المصري في هذا التوحيد ، هو جزء من رسالة إدريس ، عليه السلام ..

وكما علم الله آدم الأسماء كلها ، أوحى ، سبحانه وتعالى ، إلى نبي مصر إدريس علوم الحكمة والتمدن والسياسة المدنية وحقائق العلوم الطبيعية ، فعلمها للمصريين ، لتتواصل ومضات التوحيد الديني مع عبقرية العلوم المدنية على أرض مصر ، جيلا بعد جيل - صعودا تارة وهبوطا تارة أخرى - منذ فجر الإنسانية وإلى أن دخل أهلها - بالفتح الإسلامي لأرضها - في الشريعة المحمدية الخاتمة أفواجا ، وذلك عندما اكتمل دين الله الواحد بنبوة ورسالة محمد بن عبدالله ، عليه وعلى كل الأنبياء والرسل أفضل الصلاة وأزكى السلام ..

★ ★ ★

وعبر هذا التاريخ المصري - الذي هو أطول وأعرق ماحفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ - ظلت ومضات التوحيد الديني في مصر شاهدة على انتماء المصريين إلى دين الله .. ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها وبشر من الأنبياء والمرسلين .. وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منهم ، ممن قص علينا قصصهم في القرآن الكريم .. وأيضا في حكمائها ، الذين جددوا الدعوة إلى التوحيد ، ورفعوا راياته في مواجهة طواريء الوثنية .. والذين قد يكونون أنبياء ورسلا ممن لم يرد ذكرهم في القرآن الكريم (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) - النساء : ١٦٤ - ..

٢ - إبراهيم الخليل

فالى مصر رحل إبراهيم الخليل ، عليه السلام - وهو أبو الأنبياء - وكان ذلك في عصر الهكسوس (١٦٧٥ - ١٥٨٠ ق.م) - .. بل إن هناك من يقول إنه نشأ بمصر وبعث فيها ، بدليل أن دعوته إلى التوحيد قد بدأت بالاعتراض على عبادة قومه «لآزر» - الذي هو «أزوريس» - وكان معناه عندهم الإله القوي المعين - (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين) - الأنعام : ٧٤ - .. ولما كان أبو إبراهيم هو «تارح بن ناحور» - وليس «آزر» - فآزر مقول القول، أي : أتتخذ - يا أبي - آزر الصنم إلها معبودا ؟! .. وبدليل احتجاج الخليل إبراهيم بمنطق الفلك والكواكب والنجوم ، والذي لا يستقيم إلا في مناخ - كمصر - كان له السبق - منذ إدريس - في ازدهار مثل هذه العلوم (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا

ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) – الأنعام : ٧٥-٧٩. (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين) – البقرة: ٢٥٨ – ..

ومن بنات مصر – هاجر عليها السلام – أنجب إبراهيم نبى الله ورسوله إسماعيل ، عليه السلام – وهو الذى زوجته أمه هاجر من مصرية أيضا . فجاء منها نسل العرب العدنانيين ..

وفى إحدى رحلات إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، أعاد العمران إلى أول بيت وضع للناس فى الأرض – البيت الحرام ، قبلة إدريس وقومه – الذى سيكون الحرم الآمن والقبلة للأمة الخاتمة – أمة خاتم الأنبياء محمد ، التى ستحيى ملة ومناسك الخليل أبى الأنبياء .. (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) – البقرة: ١٢٧ – ١٢٩ .

٣ – لوط :

وفى مصر ، صحب لوط بن هاران بن تارح ، عليه السلام ، عمه إبراهيم الخليل، عليه السلام ، وآمن برسالته ، واهتدى بهديه .. ومنها خرج – بأمر الله – رسولا إلى أهل «سدوم» – فى دائرة الأردن . (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم) – العنكبوت : ٢٦ .

٤ – يوسف :

وإلى مصر جاء يوسف بن يعقوب ، عليهما السلام .. بعد أن التقطته قافلة من «المديانيين» ، وباعته إلى قافلة من «الإسماعيليين» ، الذين باعوه إلى قائد شرطة عاصمة الهكسوس «صان» وفيها امتحن .. وسجن .. وأوحى إليه ربه .. وبها بلغ رسالته .. وعمل وساس وأصلح.. وكان ذلك على عهد الأسرة الخامسة عشرة – فى حكم الهكسوس – التى يبدأ حكمها سنة ١٦٧٥ ق.م – وكان دخوله لمصر حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م – على عهد الملك «أبابى الأول» – .. (يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد

يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) - يوسف : ٤٦ - ٤٩ - (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليهم . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من تشاء ولا نضيع أجر المحسنين) - يوسف : ٥٤ - ٥٦ .

٥ - يعقوب :

وباستدعاء من يوسف ، عليه السلام ، جاء إلى مصر وعاش فيها ، وعبدالله ودعا إليه نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام .. وعدد من بنيه سنه ١٦٢٧ ق.م.. (فلما دخلوا عل يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .. ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) - يوسف : ١٠٠ .

ولقد عاش يعقوب بمصر سبع عشرة سنة .. وفيها توفي ، بعد أن أوصى بنيه - على أرض مصر - بالإيمان بالإسلام (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) - البقرة : ١٣٣ .

وفي مصر ، ارتفعت رايات دعوة التوحيد الديني ، كأثر من آثار النبوات والرسالات السماوية ، في مناجاة «أمنحتب الثالث» (١٣٩٧ - ١٣٦٠ ق.م) لله الواحد الأحد :

أيها الموجد ، دون أن توجد ،
مصوِّر دون أن تصوِّر ،
هادى الملايين إلي السبل
الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر .

وأيضا في رسالة التوحيد التي دعا إليها «أمنحتب الرابع»- أخناتون - (١٣٧٠ - ١٣٤٩ ق.م) :

أنت إله ، يا أوحد ، ولا شبيه لك
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى ،
أنت وحدك ،
خلقتها ولا شريك لك .
أنت خالق الجرثومة في المرأة .
والذي بذرأ من البذرة أناسا .
وجاعل الوليد يعيش في بطن أمه ،
مهدئا إياه حتى لايبكى ،
ومرضعا إياه حتى في الرحم .
وأنت معطى النفس حتى تحفظ
الحياة على كل إنسان خلقته ،
حينما ينزل من الرحم في يوم ولادته ،
وأنت تفتح فمه تماما ،
وتمنحه ضروريات الحياة ..

وكذلك ، عند رمسيس الثانى (١٢٩٠ – ١٢٢٣ ق.م) – الذى أخذ العلم والحكمة والأخلاق من تراث نبي الله إدريس ، عليه السلام .

٦ ، ٧ – موسى وهارون :

وفى مصر ، ولد ونشأ وتعلم نبى الله موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب وأخوه هارون ، عليهم السلام .. وفيها أوحى الله إليهم ، وأنزل عليهم التوراة والألواح (حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م) باللغة الهيروغليفية – لغة مصر – فجابهت حرية التوحيد عبودية الفرعونية على ضفاف وادى النيل .. ولقد ولد موسى فى زمن الملك رعمسيس الثانى (١٢٩٠ – ١٢٢٣ ق.م) .. وكان خروجه فى زمن الملك منفتاح بن رعمسيس الثانى (١٢٢٣ – ١٢١١ ق.م) .. (إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، إذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) – طه : ٤٢ – ٤٤ .

ثم يتجدد – فى مصر – ويسطع شعاع التوحيد عند رمسيس الثالث – الأكبر – (١١٩٢ – ١١٦٠ ق.م) ، الذى قال – عندما احتدم القتال بينه وبين الوثنيين فى معركة «قادش» – :

رأيت الله فى المعركة .
كان أقرب إلىّ من جنودى
هو الذى نصرنى .

حتى لقد عذت شريعة السماء وعقيدة التوحيد – اللتين عرفتهما مصر منذ فجر الإنسانية – روحا سارية فى الثقافة المصرية ، تغالب «غبش الشرك والوثنية» عبر التاريخ المصرى الطويل ، فتعكسها وتجسدها شهادة المصرى ، يوم الحساب ، بين يدى الواحد الأحد – كما جاء فى «متون الأهرام» .

أنا لم أشرك بالإله
أنا لم أعقّ والدىّ
أنا لم ألوث ماء النيل
أنا لم أصد الماء فى موسم جريانه .
ولم أقم سدا فى مجراه .
أنا لم أنقص المقياس .
ولم أطفف الميزان .
أنا لم أطرد الماشية من مراعيها .
أنا لم أتسبب فى بكاء أحد .
أنا لم أحرم إنسانا من حق له .
أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع .
أنا لم أطفىء شعلة في وقت الحاجة إليها .
أنا لم أعترض على إرادة الله ..

حتى ليقول ابن كثير (٧٠١ – ٧٧٤ هـ ١٣٠٢ – ١٣٧٣) – في (البداية والنهاية) – عن مغالبة نقاء التوحيد لغبش الوثنية عند المصريين ، عبر تاريخهم الطويل : «وأهل مصر وإن كانوا يعبدون أصناما ، إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك» – جـ١ ص ٢٠٤ .

٨ – عيسى بن مريم

وإلى مصر ، لجأ عيسى بن مريم ، مع

أمه - سيدة نساء العالمين - طلبا للأمن ، ونجاة من طلب «هيرودس» (٤ ق.م - ٣٩م) - الذى أراد أن يقتله ... وفى مصر، وجدوا الأمن والقرار (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) - المؤمنون : ٥٠ .

وعندما جدد المسيح ، عليه السلام ، رسالة التوحيد ، وأعاد الروح إلى الشريعة - بعد أن تحول التوحيد إلى «وثنية - مادية» على يد اليهود - .. احتضنت مصر، على الفور ، دين التوحيد ، الذى بشر به عيسى ، عليه السلام .

فلما انحرفت الدولة البيزنطية - والمجامع التى انعقدت فى المدن البيزنطية .. «مجمع نيقية» سنة ٣٢٥ م و «مجمع القسطنطينية» سنة ٣٨١م - بتوحيد النصرانية ، وأفسدت «الغنوصية الهلينية» هذا التوحيد ، خاضت مصر معركة الدفاع عن التوحيد ، وذلك عندما رفعت «الآريوسية» - نسبة إلى أسقف الإسكندرية «آريوس» (٢٥٦ - ٣٣٦م) - رفعت لواء التوحيد فى الألوهية ، وتمسكت بأن الله جوهر أزلى أحد ، لم يلد ولم يولد، وكل ما سواه مخلوق ، حتى «الكلمة» فإنها، كغيرها من المخلوقات ، مخلوقة من لا شىء . وأن المسيح لم يكن قبل أن يولد .. وأن الله قد نجاه من الصلب - الذى وقع على الشبيه - .

ولقد حفظت مصر كل هذا الفكر التوحيدى ، حتى بعد أن طغت عقائد قانون الإيمان البيزنطى على أغلب كنائس النصرانية ، فضمت «مخطوطات نجع حمادى» - التى اكتشفت سنة ١٩٤٧م - أقدم الأناجيل التى حفظت نقاء التوحيد النصرانى - «إنجيل توماس» و«إنجيل مريم المجدلية» و«إنجيل فيليب» و«إنجيل بطرس» و «إنجيل المصريين» - وغيرها .. وفيها ثلاثة وخمسون نصا ، تقع فى ١١٥٣ صفحة ، جمعت فى ثلاثة عشر مجلدا - تجسد شهادة التاريخ على ولاء المصريين لعقيدة التوحيد ، كما مثلتها النبوات والرسالات السماوية التى تعاقبت على ضفاف النيل ..

وإذا كانت هذه الأناجيل قد نجت من الدمار الذى أصاب به البيزنطيون تراث التوحيد النصرانى ، عندما أحرقوا مكتبة معبد «سرابيوم» -بالإسكندرية - وغالبية مخطوطات مكتبة الإسكندرية ، وأغلقوا أبوابها ، بعد قتل عميدها .. فإن بقاء هذه الأناجيل - التى يسبق تاريخ تدوينها تاريخ تدوين الأناجيل المشهورة - متى ، ومرقص، ولوقا ، ويوحنا - بعشرين عاما - قد فتح الباب لإعادة كتابة هذا التاريخ ، الذى يتميز فيه دور مصر - صاحبة أول كنيسة نصرانية - على درب التوحيد الدينى ، منذ عصر آدم ، ونبى مصر إدريس ، وحتى رسالة المسيح ، عليهم جميعا الصلاة والسلام ..

★ ★ ★

ذلك هو تاريخ مصر مع النبوات والأنبياء والرسل والرسالات ..

بل لعلها ذات دلالة لا يخطئها الفكر أن يختص القرآن الكريم - في صفات الأنبياء والمرسلين - صفة «الصديق» بالذين بعثوا في مصر أو عاشوا فيها : إدريس .. وإبراهيم .. ويوسف .. ومريم - عليهم السلام - (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا) - مريم : ٥٦ (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا) - مريم : ٤١ - (يوسف أيها الصديق) - يوسف : ٤٦ (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة) - المائدة : ٧٥ .

بل إن المرأتان اللتان تحدث القرآن الكريم عن أن الله قد أوحى إليهما - أم موسى .. ومريم - قد عاشتا في مصر (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) - القصص : ٧ - (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) - آل عمران : ٤٢ ، ٤٣ .

ولهذا التاريخ المصري مع النبوات والرسالات .. ومع عقيدة التوحيد .. والذي هو أقدم وأعرق تاريخ لوطن من أوطان الدنيا مع الرسل والأنبياء .. كان دخول أهل مصر أفواجا في الإسلام ، عندما أهلت عليهم عقيدة التوحيد الإسلامية ، في أرقى صورها تنزيها وتجريدا .. فلقد استراحت إليها عقولهم وقلوبهم ، بعد ما عانوه من التعقيدات التي أحدثتها الفلسفة الهلينية بعقائد الدين .. فكان العطاء المصري ، في ظلال الإسلام ، امتدادا للعطاء التاريخي لمصر تحت رايات النبوات والرسالات .

مراجع :

في حقائق هذه الدراسة - غير القرآن .. وكتب السنة - ومعاجمهما وفهارسهما - أنظر :

١ - (قصص الأنبياء) لعبدالوهاب النجار - طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٢ - (طبقات الأطباء والحكماء) لابن جلجل - تحقيق : فؤاد سيد - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م .

٣ - (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي) جـ٣ - تحقيق ودراسة : د.محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ .

٤ - (أخناتون) للدكتور عبدالمنعم أبوبكر - طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م .

٥ - (دائرة المعارف) لفؤاد أفرام البستاني - المجلد الأول - طبعة بيروت سنة ١٩٥٦م .

٦ - (الموسوعة الأثرية العالمية) - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

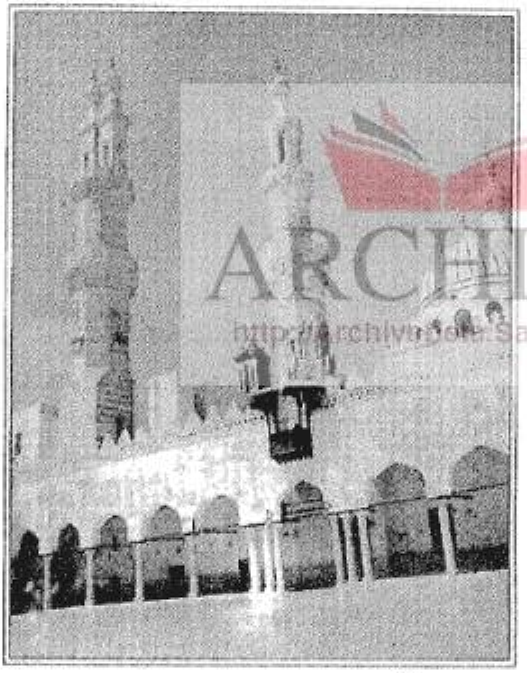
٧ - صحيفة (الأهرام) في ٣٠ - ١٠ - ١٩٩٦م - مقال للدكتورة نعمات أحمد فؤاد .

٨ - مجلة (الهلال) عدد يونية سنة ١٩٩٥م - مقال للدكتور أحمد عثمان .

قراءة فى كتاب ..



الشيخ محمود أبو العيون



الجامع الأزهر جامع وجامعة

بقلم :

صافى ناز كاظم

الشيخ محمود أبو العيون ، الذى كان السكرتير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية فترة الأربعينات ، رجل فاضل له فى ذاكرتى مكانة خاصة . كنت طفلة مولعة بالقراءة ، وكانت أسرتى تشترى بإنتظام صحيفة دأبت على مداعبة الشيخ أبوالعيون بالكاريكاتير . لا أذكر تماماً طبيعة المداعبة ، هل كان المقصود منها هدم شخصيته أم بناؤها ، فالأهم أن هذه المداعبات استرعت إنتباهى لقراءتها ومتابعتها مما أعطى الشيخ أبوالعيون شهرة عامة تميز بها عن سائر شيوخ عصره، والذى ترسخ فى ذهنى عنه أنه شيخ نحيف جاد يمسك بالعصا لتأديب النساء فى ثياب البحر أو أى ثياب أخرى غير شرعية .

وقد وجدت فى مكتبتى كتابا بقلمه عنوانه «الجامع الأزهر : نبذة فى تاريخه»، مطبعة الأزهر عام ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م، وهو مهدى بخطه إلى إحدى قريباتى : «إلى بنيتى العزيزة آنسة إحسان السيد مع تحيات الإخلاص ، محمود أبوالعيون، ٢٠/١١/١٩٤٩م» . وكانت فى بداية عملها الصحفى بدار الهلال قبل أن تصبح فى نهاية الأمر أول وكيلة لوزارة العمل للشئون الثقافية ، ولفت إنتباهى أسلوب إهدائه السمح الكريم ، وابتسمت وأنا أستحضر صورته التى رسمها فنان الكاريكاتير ولم تثر غضبه ، بل أعرض عنها مسترشدا بحكمة «وأعرض عن الجاهلين» .

أهمية هذا الكتاب - الذى تم وضعه فى يناير ١٩٤٩ - إنه مكتوب بحب واضح للأزهر من شيخ من شيوخه يقول : «.. إننا زاملنا القوانين فى الأزهر من أولها ما عدا قانون ١٨٧٢ ، فنحن نكتب فى تاريخ الأزهر كما شاهدنا فى مدى خمسين سنة ، ونظن أننا نكتب الحقائق التاريخية كما هى ، لأننا عاصرناها وعرفناها فى صورها وملابساتها الصحيحة ، وكنا نتمنى أن يتسع لنا الوقت فنذكرها مفصلة ، ولكنا سنتدارك ذلك فى مناسبة الكتابة عن الأزهر ، وتاريخه فى عيده الألفى ، إن شاء الله تعالى» . فهذا الكتاب إذن مكتوب بيد شاهد عيان ، عاش فى جنبات الأزهر من

١٨٩٩ حتى تاريخ إصدار الكتاب فى ذلك الحين ١٩٤٩م. الذى يثير حزنى فقط هو أن الشيخ أبوالعيون لم يكتب مرة أخرى عن الأزهر وتاريخه فى عيده الألفى الذى كان عام ١٩٧٠ - ١٩٧٢ كما وعد، إذ أنه قد توفى إلى رحمة الله تعالى فى نوفمبر ١٩٥١، إثر حادث أليم عندما أغلق باب مترو مصر الجديدة على طرف جبة ثوبه الأزهرى وهو يهبط منه متوجهاً إلى منزله.

★ ★ ★

كانت مناسبة إصدار هذا الكتاب القيم هى تمثيل الجامع الأزهر ومعاهده التابعة له بأرض المعرض الزراعى الصناعى سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩م)، وعرض بعض مشاهده ومنشآته القديمة والحديثة، وأدوار حياته الدينية والعلمية والثقافية «من منذ نشأته إلى الآن» على حد تعبير الشيخ أبوالعيون عام ١٩٤٩م. ورأى الأزهر إتماماً للفائدة أن يطلع الناس على شىء من «جلال ذلك المعهد التاريخى القديم» فقام فضيلة الشيخ أبوالعيون بوضع هذا الكتاب الذى يسميه «نبذة مختصرة» ويقع فى ١٥٠ صفحة، وبه ٢٨ صورة للمواقع والشخصيات، و٢٨ موضوعاً هى كالآتى: «الجامع الأزهر - تأسيسه والغرض منه، الأزهر جامعة إسلامية كبرى، مواد الدراسة بالأزهر قديما، شيوخ الأزهر، أشهر رجال الأزهر، الدراسة فى الأزهر قبل النظام، قانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠، قانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦، مراحل التعليم فى القانون الجديد، المعاهد الدينية التابعة للأزهر الشهادات، إدارة الأزهر - مجلس الأزهر الأعلى - عدد علماء الأزهر، بعوث الأزهر، عناية الأزهر بالمكفوفين، الوعظ بالأزهر، مجلة الأزهر، لجنة الفتوى بالجامع الأزهر، النشاط الرياضى فى الأزهر، الوحدة الطبية للجامع الأزهر، مكتب البحوث والثقافة بالأزهر، وثائق وإحصاءات - وقفية الحاكم بأمر الله، ميزانية الجامع الأزهر والمعاهد الدينية، الأزهر فى عهد العاهلين العظيمين، آمال الأزهر فى المستقبل».

★ ★ ★

يذكر المغفور له إن شاء الله، الشيخ محمود أبوالعيون فى موضوع تأسيس الجامع الأزهر إنه «أول جامع أسس بالقاهرة، أنشأه جوهر الصقلى، قائد الإمام الخليفة الفاطمى، المعز لدين الله. وقد شرع فى بنائه يوم السبت لست بقين من شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م)، وكمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م)» ونلاحظ فى صياغة الشيخ أبوالعيون إطلاقه لقب «الإمام» على الخليفة الفاطمى فى إحترام لهذه الحقبة من تاريخ مصر،

لا تجده عند غيره إلا فى النادر . ويواصل سرده ، متبعا سياسة إحترام كل العصور التى مرت على الأزهر خلال ألف عام إلا عشرين ، وتتوالى المعلومات التى قد يحب البعض أن ينعش بها ذاكرته : «وإذا ذكر الأزهر رجع الذهن إلى ألف عـام مـضت عندمـا فـتحت الدولة الفـاطمـيـة مصـر ، واتخذت القـاهرة عـاصـمـة لهـا ، ومـقـراً لسلطانهـا السـيـاسى ، وأنشـأت الجـامع الأزهر ليكون رمـزاً لسيـادتها الروحية ، ومنبـراً للدعـوة التى حـملتـهـا هذه الدولة الجديدة إلى مصر ، وكان الأزهر الشريف فى أول نشـأته مـوضـوع عناية الخلفـاء الفـاطمـيين .. ومن بعـدهم من الملوك والأمـراء والوزراء وذوى الجـاه منهـا ، يتنافـسـون فى خـدمـة هذا الجـامع ، يتعـهدون أهله ، ويشيدون دور الكتب فى علوم الدين والحكمة والفلسفة ، مما كان له الأثر فى حفز همم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للتعلم والتعليم ، وقد استمر الأزهر يتسع نطاقه .. ومما زاد فى إتساعه ما أنشأه الأمـير علاء الدين طيبرس نقيب الجـيـوش ، وهى مـدرسـتـه التى عـرفت باسـمه - الطيبرسية - بجوار الأزهر من الجهة الغربية البحرية التى كمل بناؤها فى سنة ٧٠٩ هـ - (حوالى ١٣٢٠م) - وبعد ذلك بقليل أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبدالواحد مدرسته المقابلة لها فى الزاوية البـحرية الغـربية للجامع الأزهر ، وقد تم بناؤها سنة ٧٤٠ هـ - (حـوالى ١٣٥٠م) - ولا تزالان قـائمـتين فى مكانيـهمـا إلى اليوم.

وكذلك أنشأ جوهر القنبقائى مدرسة رواق الجـوهرية فى أوائل القـرن التـاسع الهـجـرى ، ودفن بهـا سنة ٧٤٤ هـ (١٣٥٤) - وأنشىء فى عـهـد الخـديو عبـاس باشـا الثـانى الرواق العبـاسى ، واحـتـفل بافـتـتـاحـه فى ٢٤ شـوال سنة ١٣١٥ هـ (حـوالى ١٨٩٥م) - وهى غـاية فى الدقـة والفن .وأعظم زيادة دخلت فيه هى بناية الأمـير عـبدالرحـمن كـتـخداى حسن جاويش القـازوغلى سنة ١١٦٧ هـ - (حـوالى ١٧٤٨م) - فـزادت فى سـعـة هذا الجـامع بمقدار النصف تقريبـاً .وهو عمل تاريخى جليل» . وكـان بالأزهر وقت صدور الكتاب عام ١٩٤٩ ، خمس منارات يؤذن عليـهـا فى الأوقـات الخـمـسـة وفى الأسـحـار، وتضـاء بالكهرباء فى ليـالى رمضـان والمواسم ، منها ثلاث منارات من داخل باب المزينين مـشـرفـة على صـحن الجـامع ، واحـدة أنشـأهـا السلطان الأشـرف قـايتـبـاى والأخـرى أنشـأها السلطان الغـورى وهى أعلى مناراته وأعظمها .

ويذكر الشيخ أبوالعيون أن الأمير طيبرس مشيد المدرسة الطيبرسية ، عندما أحضروا له حساب نفقات بناء مدرسته ، استدعى بطست مملوء بالماء وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يراجعها وقـال : «شىء خرجنا عنه لله لا نحـاسب عليه» .

القـول بأن الأزهر أقـدم جـامـعـة إسـلامـيـة استـمـرت بلا انقطاع فى أداء

رسالتها العلمية ، من الأقوال الناقصة ، فالحقيقة أنه أقدم جامعة في العالم لاتزال تواصل مسيرتها منذ إنشائها (٩٧٠م حتى الآن ٢٠٠٠) - ٣٥٩ هـ حتى ١٤٢١ هـ . يقول الشيخ أبوالعيون في هذا : «للأزهر في سجل التاريخ ماض مشرق الغرة ، وضاح الجبين ، فهو الجامعة الإسلامية الكبرى التي عالجت علوم الدين فيسرت سبلها ، وأكثرت كتبها ، واهتمت بشئون اللغة العربية ، فهذبت طرقها ، وأصلحت شئونها ، وبقيت على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها ، وفية لأمانتها ، فأزهرت فيها العلوم والفنون ، وأمدت العالم الإسلامي في الشرق والغرب بما هو في حاجة إليه .. وأول ما دُرِّس فيه الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة ، وبقي مذهب الشيعة يدرس في الأزهر ، ويقضى به في دور الحكم ، إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية . ولما انتقلت مصر إلى الأيوبيين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) وجلس على عرشها صلاح الدين الأيوبي ، حرص على ما لمصر من المكانة الممتازة في العلوم الإسلامية ، فأنشأ بها المدارس ، ورتب بها العلماء والطلبة ، وحذا حذوه خلفاؤه من بعده حتى بلغت خمساً وعشرين مدرسة فيها علوم الدين واللغة ، وخاصة فقه المذاهب الأربعة . وفي تلك الفترة التي توزع فيها العلماء على المدارس ، انتقلت حركة التعليم المزدهرة من أبنية الجامع الأزهر إلى تلك المدارس ، وإن لم تنقطع حركة التعليم فيه ، ولكنها كانت ضئيلة بجانب مدارس الأيوبيين ، إلى أن جاء الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) فجدد من شباب الأزهر ، وأعاد إليه حياته وازدهاره بهمة الأمير عزالدين أيدمر الحلِّي ، وسار على أثره ملوك وأمراء جاءوا من بعده ونهجوا نهجه. فكانت نهضة مباركة رفعت من شأنه ووسعت من نطاقه ، فاتجهت إليه أنظار العالم الإسلامي ، خصوصا بعد سقوط بغداد وإتلاف كتبها وذخائرها العلمية . وأصبحت مصر المثابة الوحيدة .. يقصدها العلماء والطلاب من جميع الأقطار ، حتى وصف ذلك العهد على لسان المستشرقين بأنه العصر الذهبي ..» - ومنا نقف لنستوعب وضع مصر الذهبي في ظل عصر المماليك ، والعصور الوسطى ، تلك العصور التي لا تنفك قبيلة العلمانيين الجاهلة من نعتها بعصور الظلام والتخلف - يقول الشيخ أبوالعيون : «ظل الأزهر حقبة من الزمان قائماً بوظيفته ، من إنماء الحياة العلمية في مصر والعالم الإسلامي ، بفضل محافظته على تراث الشريعة واللغة العربية، في العصور الوسطى ....» .

لا يقف الشيخ أبوالعيون كثيراً عند فترة الحكم العثماني لمصر ويكتفي

بالإشارة إلى الخمول الذى استولى على الأزهر بسبب اضطراب البلاد واضطهاد العلماء والقادة المفكرين . بعدها ينتقل إلى عهد محمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية التى انتهت بتنازل الملك فاروق عن العرش عام ١٩٥٢ . ويذكر الشيخ أبوالعيون أن محمد على باشا أعاد الاهتمام بالأزهر واختار من طلبته النواة الأولى لمدرسته الطبية ، ومدرسة الألسن والإدارة التى هى الحقوق . ولما أرسل محمد على البعوث إلى فرنسا كان منها شيوخ أزهريون ، ويقول الشيخ أبوالعيون «ومن بينهم رفاعة بك الطهطاوى ، ذلك العالم الكبير الذى أفاد الأمة المصرية بعد عودته من البعثة ، بالتأليف تارة ، وبالترجمة والتعليم تارة أخرى ، حتى عد بحق شيخ المترجمين وإمام المؤلفين فى عصره . وإبراهيم بك النبراوى أحد نوابغ البعثة الطبية ...» .

ويذكر الشيخ أبوالعيون بلباقة شديدة «عناد» الأزهر وعدم استجابته لكل تدخلات محمد على باشا تحت زعم الإصلاح والتجديد التى كانت بداية المحاولات فى الزج بمصر فى طاحونة محاكاة النموذج الغربى الأوروبى بالحق والباطل، فيقول الشيخ الحصيف ، الذى لم ينس أنه يكتب فى ظل حكم حفيد محمد على مع التزامه بالأمانة التاريخية والولاء لدينه ولأزهره : «ولئن فات الأزهر أن يبادر بالاستجابة لعزيز مصر محمد على باشا فى إدخال الإصلاح والتجديد فيه ، فقد حافظ بسخاء وكرم فى ذلك الزمن على ذخائر الكتب القديمة ، والتراث العلمى النفيس ، وتفرد بالثقافة العامة للبلاد ، ولعب دوراً سياسياً خطيراً فى زمن الحملة الفرنسية .. وبرز فى الأحداث السياسية التى ألمت بالبلاد ، فكان يحسم فيها بحزم ومضاء» .

فالتحجر الذى ينعت به الأزهر وشيوخه ، أحيانا ، كان شكلا من أشكال المقاومة حين لايكون بحوزة المقاوم سوى الامتناع عن المسايرة . تلك الحالة التى يصفها الشاعر محمد عفيفى مطر بقوله : «أقوى خطى الحجر الوقوف !» .

★ ★ ★

يستعرض الشيخ أبوالعيون المواد الدراسية التى بدأ بها الأزهر عند افتتاحه فيقول : «أول كتاب درس بالجامع الأزهر هو كتاب الاقتصار الذى وضعه أبوحنيفة النعمان بن محمد القيروانى قاضى المعز لدين الله فى فقه آل البيت ، وكان يتولى دراسته بالأزهر ولده أبوالحسن على بن النعمان .. ودرسه بعده بنو النعمان الذين تعاقبوا فى قضاء مصر حتى نهاية القرن الرابع . وكان يدرس بجانب الاقتصار كتب أخرى فى فقه الشيعة للنعمان القيروانى أيضا ، وهى كتاب : دعائم الإسلام ، وكتاب اختلاف الأصول ،

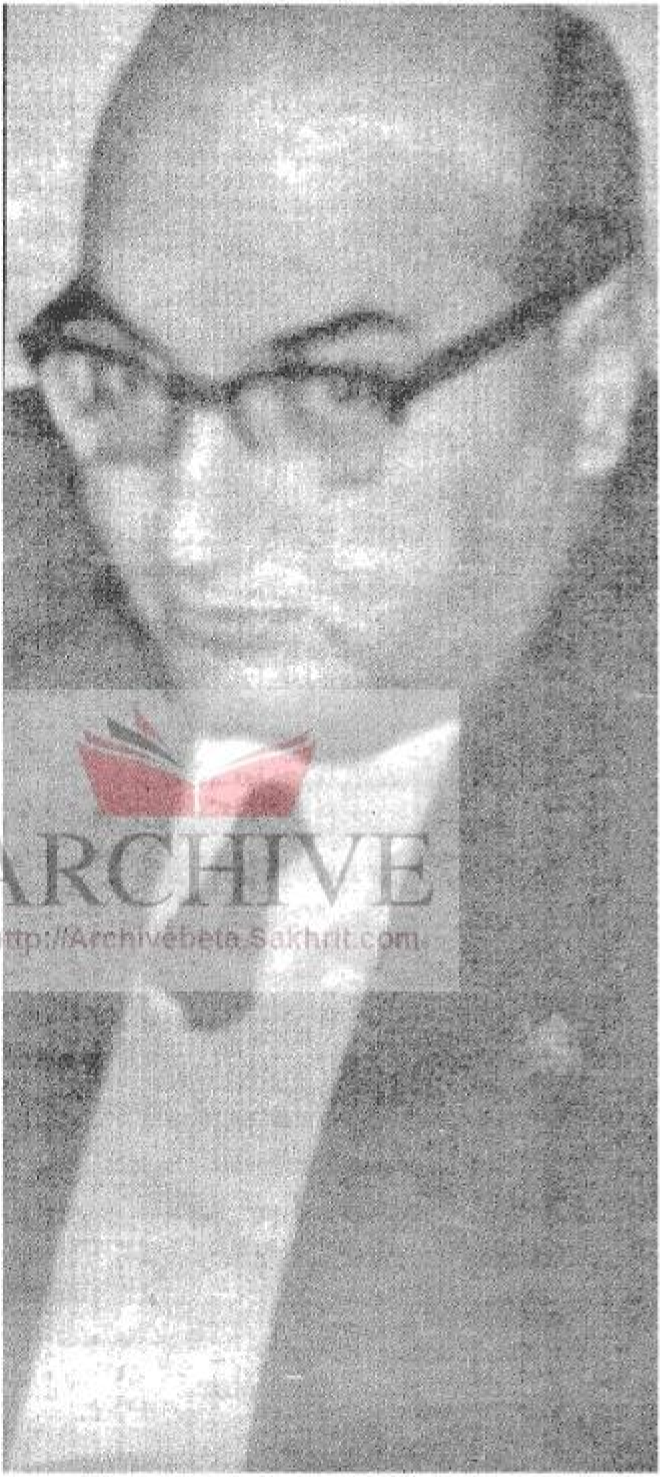
وكتاب الأخبار ، وكتاب اختلاف الفقهاء» . وأحب أن أنوه هنا، حتى نستبعد الخلط، أن القاضى أبو حنيفة النعمان بن محمد القيروانى غير الإمام أبو حنيفة النعمان ابن ثابت ، الذى كان فارسى الأصل ، ويسمى الإمام الأعظم ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٥٠ هـ وكان إمام العراقيين وهو مؤسس المذهب الحنفى . ومرجعى فى هذا التعريف كتاب الأستاذ مصطفى أحمد الزرقا : «الفقه الإسلامى ومدارسه» من سلسلة كتب قيمة ، دار القلم دمشق والدار الشامية بيروت .

وكان هناك كتاب ألفه الوزير يعقوب بن كِلِّس ويقوم بتدريسه بنفسه للطلاب ويفتى الناس بما فيه وموضوعه الفقه الشيعى على مذهب الإسماعيلية «مما سمعه الوزير ابن كلس من المعز لدين الله ، والعزيز بالله ، ولهذا اشتهر بالرسالة الوزيرية . وكان التدريس بالأزهر يجرى على مذهب الشيعة يومئذ ، وكان فى أول الأمر محظور أن يدرس غير ذلك ، ولهذا قبض على رجل وجد عنده كتاب الموطأ للإمام مالك ، فحبس وجلد فى سنة ٣٨١هـ فى عهد العزيز بالله، وفى أواخر الدولة الفاطمية كادت تكون الدراسة فى الأزهر حرة ، ولكن لم يعرف بالضبط أسماء الكتب التى كانت تدرس فى ذلك العصر» .

وإلى جانب أسرة النعمان تولى التدريس بالأزهر فى العصر الفاطمى آخرون منهم المؤرخ الحسن بن زولاق المتوفى سنة ٣٧٨ هـ والمسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ وكان من أعلام التفكير والأدب والفلك والتاريخ ، وأبوعبدالله القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ ، والحوفى النحوى وأبوالعباس أحمد بن هاشم المصرى وابن بابشاذ النحوى .

وعقب انتهاء الدولة الفاطمية وفد إلى مصر أبوالقاسم الرعينى الشاطبى الضرير ، المقرىء الشهير المتوفى سنة ٥٩٠ هـ وهو صاحب «حرز الأمانى» و«وجه التهانى» اللذين لايزالان من أهم متون التجويد وقراءات القرآن الكريم . وفى زمن الظاهر بيبرس البندقدارى المملوكى ، عادت للأزهر حياته العلمية والدينية التى بهتت زمن الايوبيين وأول ما درس به من مذاهب أهل السنة مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ثم تبعته المذاهب الأخرى. وتسابقت همم العلماء فى تدريس العلوم الدينية وإتقان آلاتها من نحو وصرف وبلاغة، ونبغ بمصر أئمة أعلام كالإمام عزالدين بن عبدالسلام ، والإمام السبكى وأبنائه – (جدى من ناحية والدة أمى للعلم !) – والشهاب القرافى ، وابن هشام ، والسراج البلقينى ، وجلال الدين السيوطى وغيرهم من

المصريين بالإضافة إلى إبراهيم بن عيسى الأندلسى ، وعز الدين عمر القدسى ، والإمام الأصفهانى ، والإمام الزيلعى ، وابن الحاج محمد العبدرى الفاسى ، والغرناطى ، والتبريزى ، والحافظ العراقى ، والحافظ بن حجر العسقلانى ، والحموى والرضى الشاطبى والبغدادى ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، وقاسم بن محمد التونسى ، وغيرهم كما يقول الشيخ أبوالعيون : «من الذين رحلوا من أقاصى الأرض لمصر لتعلم العلم بأزهرها» وكما نرى : هذا كان التنوير الحق بتجمع علماء أمة الإسلام من كل حدب وصوب لخدمة الدين والقرآن واللغة العربية وبناء عقل وهوية الناس التى لم تك سوى هوية الإسلام ولغته العربية الشريفة . ويذكر الشيخ أبوالعيون أن العلوم العقلية من رياضية وغيرها كانت تدرس أيضا وإن كان المشتغلون بها نزراً من الطلبة . ولا ينسى الشيخ محمود أبوالعيون أن يذكر مرحلة الانصراف عن تدريس العلوم العقلية والفلسفية والرياضية والجغرافية فى الأزهر فى ظل الحكم العثمانى الذى بدأ عام ١٥١٧م ، حين بدأ القول بحرمتها ، وظلت مهجورة ينظر إليها بنفور وسخط حتى صدرت فتوى من شيخ الأزهر الشيخ الأنبابى والشيخ محمد محمد البنا مفتى مصر بجواز تعلمها وعدم حرمة تدريسها . لكن هذا لا يعنى إنه لم يكن هناك من يدرس هذه العلوم حتى فى الفترة المتجمدة فالشيخ أبوالعيون يذكر : «الشيخ أحمد عبدالمنعم الدمنهورى شيخ الأزهر المتوفى سنة ١١٩٢هـ فقد جاء فى سند إجازته ما ملخصه : إنه تلقى فى الأزهر العلوم الآتية وله تآليف فى كثير منها وهى : الحساب ، والميقات ، والجبر ، والمنحرفات ، وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الاسطرلاب والزيج ، والهندسة ، والهيئة وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلاج البواسير ، وعلم التشريح ، وعلاج لسع العقرب ، وتاريخ العرب والعجم .. ويحسن أن نثبت هنا وثيقة رسمية لمشيخة الأزهر وضعتها بناء على طلب الحكومة لتبعث بها إلى لجنة معرض باريس ، وذلك فى عهد الخديو إسماعيل سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٤م) ، وقد جاء فى الوثيقة أن المواد التى كانت تدرس بالأزهر فى ذلك العهد هى : الفقه ، الأصول ، التفسير ، الحديث ، التوحيد ، النحو ، الصرف ، المعانى والبيان والبديع ، متن اللغة ، العروض والقافية ، الحكمة الفلسفية ، التصوف ، والمنطق ، الحساب الجبر والمقابلة ، الفلك والهيئة» .





د. محمود فوزى
وزير الخارجية



جمال عبد الناصر



نيتشه الفيلسوف
الألمانى

دائرة حوار

د. عبد الرحمن بدوي

وسيرته الذاتية

بقلم :السفير شكري فؤاد

كنا فى مطلع العام الدراسى ١٩٤٩ - ١٩٥٠ بالسنة الثانية بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) عدد المقيدين بالسنة الثانية لا يتجاوز الثلاثين طالبة وطالبا ومتوسط من يحضر منهم المحاضرات حوالى الخمسة والعشرين، لذلك كانت محاضراتنا دائما فى احدى القاعات الصغيرة بالكلية، وهى أشبه بالغرفة منها بقاعة المحاضرات. انتهت المحاضرة الأولى وكنا بانتظار بدء المحاضرة التالية التى كانت كما جاء بالجدول «منطق» للدكتور عبدالرحمن بدوى. تجمع كل ثلاثة أو أربعة من الطلبة فى مجموعات صغيرة يتبادلون بين المحاضرتين أطراف أحاديث سريعة وضحكات مكتومة، ولم تمض دقائق حتى دخل القاعة رجل فى أوائل الاربعينات من عمره فأغلق الباب خلفه وتقدم بهدوء ليقف صامتا خلف منصة صغيرة وضعت أمام السبورة، وهمس أحد الزملاء الذين كانوا يعيدون السنة الدراسية «الدكتور بدوى»، وكان أغلبنا لا يعرفه، فسارع كل منا يتخذ مكانه وساد القاعة سكون تام.

ألقى الدكتور بدوى علينا تحية مقتضبة وقال إنه سيدرس لنا هذا العام علم المنطق واستدار الى السبورة يكتب المراجع التى يمكن أن نستعين بها. الى جانب المراجع الانجليزية والفرنسية أضاف بعض المراجع العربية التراثية مثل شرح القطبى على الشمسية ومنطق الشرقيين لابن سينا وشرح الملوى على السلم للأخضرى، فكان أول أستاذ يلفت نظرنا الى التراث الفلسفى العربى ، ولم يكن للدكتور بدوى كتاب فى المنطق يفرضه علينا لذلك كان حضور محاضراته أمراً لا غنى عنه .

طوال عام دراسى كامل درسنا عليه المنطق، مدنا الدكتور بدوى بعلمه الواسع وببلاغة أسلوبه وفصاحته البعيدة عن التكلف وكان كثيرا ما يأتى الى المحاضرة ومعه كتاب بالألمانية أو الفرنسية أو اليونانية ليقرأ لنا منه بعض النصوص بالعربية مباشرة مما كان يثير اعجابنا الشديد ولعله كان يقصد ذلك.

صرامة شديدة !

واذ استحضر الآن ذكرياتى عن هذه السنة التى تتلمذنا فيها على الدكتور بدوى وانطباعاتى عنه ، تأتى الى ذهنى عدة ملاحظات منها اننى لم أره يضحك أو يبتسم طوال العام، فقد كان على وجهه دائما تعبير خفيف من الاشمئزاز أو «القرف» لم يفارقه حتى صار شيئا ثابتا من ملامحه ، ولكن ذلك لم ينعكس على تعامله مع طلبته فلم نشعر يوما بأنه يتعالى علينا بعلمه الغزير أو يحاول أن يشعرنا بضآلة شأننا بجانبه، ولا أذكر أنه وجه كلمة قاسية الى أحد أو أن صوته ارتفع فى غضب اثناء محاضرة من محاضراته، لذلك كان محل تقديرنا واحترامنا واعجابنا، وبالرغم من ذلك لم ينجح أحد منا فى اقامة علاقة شخصية أو انسانية معه فلم يتبادل مع طالب حديثا خارج موضوع الدرس، ولم يشارك معنا كغيره من الأساتذة فى رحلة من الرحلات القصيرة التى كنا نقوم بها الى أماكن مثل القناطر الخيرية أو حلوان ، ولم يسأل يوما عن طالب انقطع عن المحاضرات لفترة أو طالبة حضرت وهى تلبس ملابس الحداد، مع أن عددنا لم يكن كبيرا، ولكنا غفرنا له كل هذا بسبب اعجابنا الشديد بعلمه وبأسلوب تدريسه.

ومنها اننا وان كنا قد افتقدنا فيه التواصل الانسانى معنا فإننا لم نفتقد فيه روح الأستاذية الحانية التى تتعهدنا بالتعليم والتثقيف، كان يطلب من كل منا أن يعد بحثا فى موضوع من موضوعات المنطق وعندما يعيد الينا أوراقنا التى قدمناها له نشعر بمقدار الجهد الذى بذله فى قراءتها يصحح أخطاءها، ويضيف تعليقاته على الموضوع ثم يستطرد الى ضرورة الاعتناء باللغة العربية والاهتمام بها ويتبع ذلك بأسماء بعض الكتب التى ينصحنا بقراءتها والرجوع اليها، ولم تكن

تأخذه العزة بعلمه الغزير فيسخر منا أو من جهلنا بل كانت تقديراته ودرجاته لنا تتناسب مع حصيلتنا الفقيرة من العلم، ولم يكن كثير من الأساتذة يفعلون مثله .

ومنها أنني لم أشاهده يتبادل حديثا مع أحد من زملائه أساتذة قسم الفلسفة وكان يشيع بيننا أنه على خلاف دائم معهم جميعا أو مع أكثرهم .

وأخيرا كان يستلفت نظرنا انه أنيق بدون تكلف أو بهرجة حسن الهندام دائما ولكنه لم يغير أبدا ألوان ملابسه فهى دائما عبارة عن «جاكت» كحلى داكن و«بنطلون رمادى»، ولم يغير طوال العام هذين اللونين حتى لتظن انه لا يمتلك الا بدلة واحدة لولا ما يبدو عليه من أناقة، وقد اختلفنا فى تفسير هذه الظاهرة ثم قبلنا ما ذكره البعض من أنه كان يحب امرأة تفضل هذين اللونين ثم فرق بينهما الموت أو ظروف الحياة فظل على وفائه لها

وانقضى العام الدراسى وانتقل الدكتور عبدالرحمن بدوى الى جامعة ابراهيم (جامعة عين شمس الآن) فانقطعت صلتنا به ولم نعد نسمع عنه الا أخبارا متناثرة فعلمنا أنه عين مستشارا ثقافيا فى سويسرا وأنه ذهب للتدريس فى الكويت وفى ليبيا، حتى كانت «هجرته» - كما يسميها - الى باريس فى فبراير ١٩٦٧ ليحاضر فى جامعة السربون واستقر هناك الى الآن. خلال كل هذه السنوات لم يتوقف عن الانتاج الفلسفي والأدبى ومع ذلك كان من النادر أن تقرأ عنه خبرا فى جريدة أو مجلة حتى ظن البعض أنه رحل عن دنيانا، وفجأة ومع بداية عام ٢٠٠٠ أصبح الدكتور عبدالرحمن بدوى ملء السمع والبصر ولم تعد تفتح صحيفة عربية من المحيط الى الخليج ومن لندن الى باريس دون أن تجد فيها مقالا أو تعليقا على كتابه الأخير «سيرة حياتى» الذى تناول فيه بأسلوب صريح حاد كثيرا ممن عرفهم أو زاملهم فى المجال الاكاديمى والحياة السياسية .

أضعف ماكتب !

هذا أستاذ مرموق ومفكر مبدع له مشروع فكرى ذو اتجاهات ثلاثة: الأول عبر فيه عن مذهبه فى الفلسفة والثانى عرض فيه الفكر الأوربى والأخير أسهم به فى دراسات الفلسفة الاسلامية (سيرة حياتى جـ١ ص١٥٠)، بدأ الكتابة عام ١٩٣٩ عندما نشر أول كتبه عن الفيلسوف الالمانى نيتشه وله من العمر اثنان وعشرون عاما، واستمر فى الكتابة أكثر من ستين عاما أصدر خلالها ما يزيد على المائة والعشرين كتابا فى الفلسفة الاسلامية والفلسفة الغربية والأدب والشعر وتحقيق المخطوطات العربية واليونانية والترجمة والدراسات الاسلامية التى دافع فيها عن الاسلام باللغتين العربية والفرنسية وأصدر سلسلة خلاصة الفكر الأوربى وسلسلة الروائع المائة، ومن

الغريب أن كل هذا الجهد مر في حياتنا الثقافية دون أن يشعر به أحد تقريبا وقلما تناوله كاتب بالدراسة أو التعليق إلا في سطور قليلة في أحد أركان الصفحات الثقافية بالصحف والمجلات وعلى فترات متباعدة حتى كاد يصبح المؤلف ومؤلفاته نسيا منسيا الى أن أصدر كتابه الأخير، وهو بلاشك أضعف ما كتب، فكان كمن ألقى بحجر في ماء آسن، وهب الجميع يعلقون على الكتاب وعلى الأسلوب الفظ الذي استخدمه عند الحديث عن عدد من زملائه ومن السياسيين وكاد كل ما كتبه عبدالرحمن بدوي يضيع هباء ولايبقى منه إلا أنه أصدر كتابا هاجم فيه «رموز مصر» واستخدم في التعبير عن رأيه فيهم أقسى الألفاظ وأقبح الصفات .

والدهشة والاستنكار اللذان تلقى بهما القراء والنقاد مهاجمته لبعض الشخصيات العامة بأسمائهم وبلغة حادة وصراحة بالغة لا تخلو من التجريح لهما في تقديري وجهان : الأول أننا لم نألف في كتب السيرة الذاتية التي تخرجها لنا المطابع في مصر أن يذكر الأشخاص بأسمائهم أو أن تستخدم في تقييمهم من الصفات ما قد يسيىء اليهم بشكل مباشر وانما يلجأ الكاتب عادة الى التجهيل فيتحدث عن زميل ارتكب في حقه كذا وكذا من الأفعال الشائنة أو عن صديق تخلى عنه في شدته أو خان الصداقة فانحاز الى خصومه طمعا في منفعة أو منصب، حتى أن الاستاذ أحمد أمين في كتابه «حياتي»، وهو من أفضل ما قرأت من كتب السيرة الذاتية وأشدها صراحة، عندما تناول خلافه مع الدكتور طه حسين وكان خلافا أكاديميا في جملته يعرفه كل من له صلة بكلية الآداب لم يذكره بالاسم واكتفى بالاشارة اليه دون افصاح رغم الأسلوب العف الذي تميزت به كتابات أحمد أمين وهو في ذلك يلتزم بما اتخذه شعارا لكتابه المذكور وهو أنه لم يكتب الا الحقيقة ولكنها ليست كل الحقيقة.

كما أن ركود الحياة السياسية منذ يوليو ١٩٥٢ وانتهاء الصراعات الحزبية والمساجلات السياسية جعل القراء ينسون أن أسلوب الدكتور بدوي في حديثه عن السياسيين الذين عاصرهم وتجريحه لهم ونعتهم بألفاظ قاسية كان أمرا مألوفا في الصحف الحزبية قبل عام ١٩٥٢ تطالعنا بمثله كل صباح .

الوجه الثاني هو أن كثيرا مما ذكره الدكتور بدوي عن بعض زملائه من الأساتذة وغيرهم كان معلوما لدى الطلبة يرددونه فيما يدور بينهم من أحاديث فهذا أستاذ ضعيف في مادته فقير في حصيلته العلمية، وثان لا يعنيه الا بيع كتابه وثالث يتملق العميد ليرفعه الى درجة الأستاذية أو ليعينه رئيسا للقسم ورابع يتودد الى الجميلات من الطالبات ويتحرش بهن (أدانت محكمة القضاء الاداري والمحكمة الادارية العليا أحد الأساتذة بهذه التهمة

وتضمن حكمها وقائع محددة مع طالبات بعينهن) ولم يكن الأمر فيما بين الأساتذة يختلف كثيرا فكنا نسمع عما بينهم من خلافات واتهامات متبادلة ويكفي أن يعرف القارئ انه عندما بدأت لجان التطهير في الجامعة عملها بعد ثورة ١٩٥٢ تلقت اللجنة شكاوى مختلفة ضد أحد الأساتذة المعروفين في كلية الآداب من خمسة عشر أستاذا من زملائه. فالدكتور بدوى لم يزد على أن سجل في كتابه ما كان كثير منه معروفا تتناقله الألسنة ولا يجرؤ أحد علي كتابته. وإذا أخذنا مثلا رأيه القاسي في الدكتور محمود فوزى الذى ظل وزيرا للخارجية لما يزيد عن ثمانية عشر عاما، والذى يعده كثير من الدبلوماسيين عميد الدبلوماسية المصرية وله تلاميذ من أبرز الدبلوماسيين المصريين، وأكثرهم كفاءة يكنون له كل تقدير واحترام ويدينون له بالفضل ويعتبرونه مدرسة في الدبلوماسية، ومع ذلك فإن هناك عددا آخر من الدبلوماسيين لايشاركون تلاميذه وجهة نظرهم فيه، ويرون أنه عندما كان وزيرا للخارجية ترك إدارة الوزارة ومصيرها في يد أشخاص وجهات من خارجها ورأى زملاءه وأصدقاءه يفصلون من الوزارة بغير الطريق التأديبي ويحالون الى معاش مبكر لشبهات لم تتأكد ، فلم يحرك ساكنا ولم يرفع أصبعا اعتراضا على هذه الممارسات، كما يرون أنه لم يتخذ يوما موقفا حاسما من قضية خلافية كما فعل الوزيران اسماعيل فهمي ومحمد ابراهيم كامل مثلا، ولم يكن له توجه أو رؤية سياسية خاصة به مثل الدكتور بطرس غالى فى توجهه الإفريقى أو الوزير عمرو موسى فى اتجاهه الى آفاق جديدة فى علاقات مصر الخارجية تتجاوز الدوائر الثلاث التقليدية التى تبنتها ثورة ١٩٥٢ لفترة طويلة، صحيح أن السياسة الخارجية تتولاها بشكل عام مؤسسة الرئاسة الا أن ذلك لم يمنع بعض الوزراء من أن يتركوا بصمات عليها .

نرجسية واضحة!

يبقى بعد ذلك تساؤل عما دفع الدكتور بدوى الى الكتابة عن الآخرين بهذا الأسلوب الهجومي الحاد، وأظن اننا قد نجد تفسيرا لهذا فى اعتزازه الشديد بعلمه وبنفسه ومبالغته فى تقديره لشخصه، مما يشيع فى كل صفحات كتابه، بدرجة تستفز من حوله وجعل هذا منه انسانا وحيدا يكاد أن يكون بدون صديق وقد رأى في عزلته من هم فى نظره أقل منه علما يشقون طريقهم الى المناصب والى صفحات الجرائد والمجلات بينما حالت نرجسيته بينه وبين اقامة علاقات انسانية مع زملائه من الأساتذة والنقاد والمفكرين فلجأ الى التعالى عليهم والازدراء بهم ثم صب جام غضبه عليهم فى كتابه الأخير. وتحضرنى هنا شخصية الدكتور جمال حمدان ـ مع ما بينهما من

اختلاف - ولعل هجرة الدكتور بدوى الى باريس منذ عام ١٩٦٧ قد أنقذته من مصير مثل مصير الدكتور حمدان .

وأخيرا فان هذا الأسلوب غير المألوف فى الكتابة عن الآخرين قد صدم النقاد فلم يتعرض أغلبهم إلا الى هذا الجانب من الكتاب مع أن الكتاب فيه كثير من المآخذ والمثالب غير ذلك ومنها : أولا : أن كراهية الدكتور بدوى للشيوعيين ولنظام حكم عبدالناصر قد أوقعه فى تناقضات كثيرة فى أحكامه منها مثلا أنه يقول أن الفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٦٦ كانت من أخصب فترات انتاجه (ج ١ ص ٣٥٢) ثم يسرد هذا الانتاج فاذا به تسعة كتب من تأليفه وأحد عشر كتابا مترجما وسبعة كتب حققها من العربية واليونانية، وقد نشرت جميعها تقريبا فى القاهرة ومنها مقالات ظهرت فى مجلات حكومية مثل «المجلة» ثم يضيف أن بعض هذه الكتب قصد منها مقاومة المد اليسارى الذى فرضه عبدالناصر ومن ورائه الاتحاد السوفييتى وأتباعه فى مصر، وأنه استخدم فى هذا أسلوب الخطاب غير المباشر، لأن الرقابة كانت بالمرصاد ، والنفوذ الشيوعى فى ادارة الدولة كان كفيلا بالقضاء على كل صاحب قلم يجرؤ على الهجوم المباشر على الماركسية والاشتراكية العلمية، ويذكر أمثلة على خطابه غير المباشر فيقول إن كتابه عن المثالية الألمانية هو مقاومة للمادية الجدلية بأقصى سلاح لمقاومتها ، ودراساته فى الفلسفة الوجودية وعرضه للمذاهب الوجودية استهدفت تأكيد معنيين هما الحرية والفردية وهما المعنيان اللذان تحاربهما الايديولوجية الماركسية اشد المحاربة، وأن مقالاته عن الفلسفة والسلام أراد منها تفنيد دعوى الشيوعيين فى السلام، فهل كان ذلك كله يخفى على الشيوعيين الذين ذكر انهم سيطروا على أجهزة الدولة؟ وهل فاتت كل هذه الأفكار التى يعرفها أى دارس للفلسفة على الرقابة التى كانت تقف بالمرصاد لكل كاتب كما يقول؟ وكيف تكون أخصب سنوات انتاجه هى سنوات القهر وقمع الفكر الحر؟. بل إنه يتحدث عن المعركة التى قامت عام ١٩٦٥ حول الشعر الحر فى الظاهر وكانت فى حقيقتها معركة بين أهل اليمين وأهل اليسار أو بين أنصار الفكر الليبرالى (وهو منهم) من جانب وأنصار الشيوعيين من جانب آخر، وإن اليمين كان له منبران هما مجلة «الثقافة» ومجلة «الرسالة» فى ذلك الوقت فأين اذن سيطرة الشيوعيين واستيلائهم على جميع أدوات الأعلام اذا كانت هناك معارك تحتدم بين الطرفين ولكل طرف منابره .

ثانيا : للدكتور بدوى رأى فى الفلاح المصرى لا يخفيه فى كتابه فهو مزاج من

طيب النفس والخبث وهو أمكر من أى مالك، ويتحدى المؤلف أى انسان يدله على مالك لم يغلبه الفلاح الذى يعمل فى أرضه! فالفلاح ان كان يعمل فى الأرض بطريق المزارعة يصطنع كل أنواع الحيل لاقتناص (سرقة) جزء من المحصول . وان كان يعمل بطريقة الايجار يماطل فى دفع الايجار وحين تتفق معه على تربية ماشية بالمشاركة يحتال عليك كى لا تنال منها شيئا (ج ١ ص ٢٣ وص ٢٤) .

هذا رأى أحد كبار الملاك فى الفلاحين وهو أمر قد يكون مفهوما خصوصا وأنه عانى كثيرا من خبث من تعاقد معهم على تربية ماشية على حد قوله كما أن الاصلاح الزراعى استولى على ٢٥ فدانا من أراضيه، ولكن ذلك لا يبرر ان ينظر الى قضية كمشيش ومقتل مناضل سياسى على يد أسرة من كبار الملاك على انه حادث تافه يحدث مثله فى أرياف مصر كل يوم دون أن يلتفت اليه أحد» . قد يعترض على بعض ممارسات أجهزة الأمن وتجاوزاتها أثناء التحقيق ولكن أن يختزل القضية كلها فى انها حادث تافه يحدث كل يوم فهو أمر لا يمكن قبوله .

وأخيرا فإن التبسيط والتعميم أمر لا يتوقعه القارىء من أستاذ فى المنطق والفلسفة ويقود صاحبه الى الشطط فى أحكامه والوقوع فيما يقع فيه عامة الناس من أخطاء ومن ذلك نظرته الى الدبلوماسية المصرية والى سفاراتنا فى الخارج وأسلوب عملها وهى نظرة فيها كثير جدا من الاتهامات الظالمة والتجنى على الحقيقة، ومع أن هذه النظرة الخاطئة يشاركه فيها عدد من رؤساء المكاتب الفنية فى الخارج الذين يلحقون بالسفارات لمدة خدمة واحدة لا تتكرر خلال حياتهم الوظيفية فيقضون ثلاث أو أربع سنوات يتمتعون فيها بما يتمتع به الدبلوماسيون من امتيازات ومرتبات مرتفعة وحياة يرونها رغدة، وعندما تنتهى مدة خدمتهم ويعودون الى وزاراتهم فى مصر تمتلئ نفوسهم بالحسد لهؤلاء الدبلوماسيين الذين يقضون اكثر من نصف حياتهم الوظيفية فى الخارج، والغيرة من استمرار تمتعهم بما استمتعوا هم به لفترات قصيرة فيستقر فى نفوسهم أنهم أكثر كفاءة من اولئك الدبلوماسيين وأحق منهم بكل هذه الامتيازات، فينهالون عليهم تجريحا، وهى نظرة سطحية يجانبها الصواب كنا لا نظن أن الدكتور بدوى يقع فيها ولسنا على كل حال فى مجال الدفاع عن وزارة الخارجية وبعثاتنا فى الخارج .

غفر الله للدكتور عبدالرحمن بدوى وغفر لنا .

حكايات من الجزائر

التراشق بالمذكرات

بقلم : مصطفى نبيل

على كافى :« عند الاستقلال بعث ديجول بالضباط العاملين فى الجيش الفرنسى» .

خالد نزار : «لم يكن بامكانى تولى زمام البلاد بعد اغتيال بوضياف عندما اغتاله عسكرى ؟!» .

على كافى





بعد تطبيق قانون الوئام الوطني في الجزائر ، بدأت الفتنة تتقشع ، وترك ما يزيد عن ٢٢٠٠ مسلح أسلحتهم ، وأعلنوا نبذ العنف والجنوح إلى السلم والحوار ، وارتفعت قيمة الكلمة لتعلو على الرصاصة.

وظهر عدد كبير من الكتابات التي تتناول العقد الأخير، وفيها تراجع الجزائر نفسها ، ويقدم كل طرف دفاعه ، ويخلي مسئوليته من العنف والدماء الزكية التي أريقت ، ويطالب الجميع بجزائر تخلو من الاقصاء والنفي .

وتطرح الأزمة الكثير من الأسئلة والقليل من الإجابات ، ويبقى السؤال الملح عن طريقة الخروج من الأزمة ، فلقد آن الأوان لكي تسترد الجزائر عافيتها.

وتوالت المذكرات ، ونشر علي كافي الرئيس الجزائري الأسبق رؤيته ، ونشر خالد نزار وزير الدفاع السابق ورجل الجزائر القوي خلال العقد الأخير مذكراته .

وبدأت ظاهرة التراشق بالمذكرات ، مما يلقي الضوء على جوانب مهمة من التجربة الجزائرية.

سجل علي كافي مذكراته ، ورغم أنها تتناول الفترة ما بين ١٩٤٦ و١٩٦٢، فانه يكشف الكثير من الاسرار ، وبقايا المعارك التي وقعت خلال حرب الاستقلال، ويقدم الرئيس الجزائري السابق خبرته وتجربته التي استمرت نصف قرن بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٩٦، في ثلاثة أجزاء صدر الجزء الأول منها والذي يتوقف عند حصول الجزائر على استقلالها .

وعندما قابلته خلال زيارتي الأخيرة للجزائر ، في بيته الذي يقع وسط غابة برية في ربوة على مشارف الجزائر وتطل على البحر ، في مجتمع أمني تحت حراسة مشددة ، وهو مكان مغلق ومحاط بأسوار، ويضم هذا المنتجع عددا من

خالد نزار



المسئولين الحاليين والسابقين وعددا من السياسيين والصحفيين المهددين من قوى الإرهاب والظلام.

قال لي : إنه انتهى من الجزء الثاني من مذكراته والتي ستصدر قريبا، وتتناول الأحداث بعد الاستقلال، وسيتلوها الجزء الثالث الذى تولى فيه المسئولية ورئاسة المجلس.

وسى على كافى أحد الوجوه العربية المشرفة للثورة الجزائرية ، والمعروف جيداً في القاهرة ، فقد كان أول مبعوث للثورة الجزائرية بعد انتصارها ، وكثيراً ما كنا نلتقى به ، عندما كانت الثورة الجزائرية رمزا لكل ما هو نبيل في الحياة العربية ، وكان قبلها قائداً عسكريا للولاية الثانية «ولاية قسنطينة» ، وهى إحدى الولايات الست التى قسمت إليها الجزائر خلال حرب التحرير.

وبدأ كافى نشاطه السياسي داخل حزب الشعب الجزائرى ، الذى يمثل المدرسة الوطنية الرئيسية ، وعمل كمعلم للغة العربية بإحدى المدارس في مدينة سكيكدة ، ودخل سجن سكيكدة، ثم التحق بجيش التحرير في بداية عام ١٩٥٥، وعين فى خريف ١٩٥٦ قائدا عسكريا لقسنطينة، وشارك فى أهم العمليات العسكرية والسياسية خلال الثورة ، وانتهى به الحال بعد الاستقلال للعمل مبعوثا في القاهرة في سبتمبر ١٩٦١ ، ثم في بيروت ١٩٦٣ وفي دمشق ١٩٦٦ وفي طرابلس ١٩٧٠ وفي تونس ١٩٧٥ واختير سنة ١٩٩٠ رئيساً لمنظمة المجاهدين ، ثم عضوا فى المجلس الأعلى للدولة عام ١٩٩٢ ، عقب إلغاء نتائج المسار الانتخابي .

ثم رئيساً لهذا المجلس فى ٢ يوليو ١٩٩٢ بعد اغتيال بوضياف ، وسلم السلطة لخلفه الأمين زروال سنة ١٩٩٤.

●

وحكمة الأيام التى يقدمها كافى فى مذكراته ، أنه إذا كانت الثورة قد نجحت فى تحقيق الاستقلال ، فإنها فشلت في إقامة الديمقراطية ، ولم تنجح فى إقامة حزبها السياسى ، وإذا كانت نجحت عند اشتعال الثورة إلى وجود صيغة تجمع الشعب من حزب الشعب إلى جماعة العلماء، إلا إنه سرعان ما تفتتت النواة حتى حصلت على الاستقلال ، وأخذت تتنازع الجزائر تيارات وقوى متعددة .

وجاءت قوة جيش التحرير على حساب حزب جبهة التحرير ، الذى عاش خمس سنوات طويلة من الهزات المتعاقبة، يقول .. «في النهاية في مقابل جيش التحرير الوطنى الذى دخل التاريخ بكل شجاعة وبطولة .. فهل تكون بقايا الفلول الأخرى للثورة مجرد تسابق للاستيلاء على السلطة ؟.. فالقائم لايوجد إلا برغبة وإرادة الذين يمثلون واقع السلطة من خلال الزى العسكرى!

بومدين

ويروى بتفاصيل دقيقة الكثير من أحداث الثورة ، ونستطيع من خلال ما يرويه تحديد مواقفه التاريخية والسياسية، ومن الصعب تصور قدرته على التخلص من تحيزاته القديمة ، فمثلا يحكى عن الرئيس هوارى بومدين ، أنه

تقدم إلى معهد الكتانية فى تونس للدراسة فى منتصف عام ١٩٤٨، عندما كان على كافى نشيطا فى العمل السياسى إلى جانب الدراسة، بصفه يرتدى «برنوساً» ولباسه رثاً ، وعندما وجد صعوبة فى الالتحاق بالمعهد تدخلنا لتسجيله ، وعندما سعيت إلى اقناعه بالانضمام إلى حركتنا التى كانت جزءاً من حزب الشعب - قال ، «والدى أرسلنى للدراسة ، وليس لممارسة العمل السياسى» ، وكان اسمه أيامها محمد بو خروبه .

ثم يعود فيحكى عنه فى ربيع ١٩٥٨ عندما تشكلت قيادتان للعمليات العسكرية، قيادة غربية وقاعدتها الناظور بالمغرب تتبعها الولايات الرابعة والخامسة والسادسة ويسيرها العقيدان هوارى بومدين وقايد أحمد المدعو سليمان .. أما قيادة العمليات الشرقية وقاعدتها فى تونس، وكلفت بالولاية الأولى والثانية والثالثة ، والقيادة محمدى السعيد وعمارة بوقلاز ومصطفى بن عودة والعمورى محمد وعواشريه محمد .

ويعلق على تاريخ بومدين فى الثورة قائلا .. «لم يناضل بومدين فى أى حركة سياسية ، وكان مجهولاً عند انطلاقة الثورة ، ووصل المغرب سنة ١٩٥٦ ، حاملاً برسالة توصية من أحمد بن بيللا ، ثم جاء صعوده السريع والمبهم (ص ٢٥٩)، أما قايد أحمد ، فكان عضوا فى إدارة حزب الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى ونائب شيخ بلدية فى تيارت ، اتجاهاته وميوله البرجوازية معروفة .

ويكمل قصة بومدين قائلا .. «ظهر بومدين قائداً لا منازع له للعناصر الجديدة، فهو مخالف ومغاير للجميع ، ويعمل كل ما يستطيع لتأكيد هذا الاختلاف ، وأحاط نفسه بهالة من الغموض والتقشف والنزاهة الثورية ، وعرف كيف يستخدم ذكاءه ، كرجل جديد من قالة لا يغامر أبداً ، ولا يعرض نفسه لأى خطر ، فالسلطة دائما تكون لأولئك الذين يصلون «أحياء سالمين» إلى نهاية المطاف (ص ٢٦٥).

وكشفت هيئة الأركان التى يرأسها عن طموحاتها الواضحة، ولأنها تمسك بزمام القوة العسكرية أرادت أن تظهر كقوة سياسية مستقلة ، وظهر بومدين قائداً لا منازع له، بعيداً عن خلافات الحاضر ، أى انتزع جيش الخارج السلطة من السياسيين ومن جيش الداخل.

عبان رمضان

ويقدم أبعاداً جديدة لظهور واختفاء شخصية جزائرية مهمة هى عبان رمضان- وأدى ما كتبه إلى إقامة أسرة عبان رمضان قضية ضد كاتب المذكرات- الذى استطاع فى فترة من تاريخ الثورة أن يمسك بخيوط العمل فى الداخل ، وأن ينتصر الداخل فى مواجهة الخارج، وللسياسى فى مواجهة العسكرى، ودعى إلى أهم مؤتمر فى تاريخ الثورة الجزائرية وهو مؤتمر الصومام .. ويقدم كافى رؤية مغايرة ويقول : «هدف المؤتمر الأول والأخير القضاء على الثوريين الحقيقيين ، وفى طليعتهم رجال جيش التحرير الوطنى، صانع أول نوفمبر، والعمل على



على كافى وبن خده وأحمد [illegible] فى الوسط

تكريس فكرة التفاوض ، فعبان رمضان هو الذى اقترح عباس فرحات «رئيس الحكومة المؤقتة» المرفوض نضاليا وثوريا، عضواً أساسياً فى مجلس الثورة، ويضيف .. «كان كل نشاط تيار عبان رمضان تحت غطاء «الوحدة الوطنية» سعيا لاستقطاب سياسة محترفين من مختلف التيارات، وبالتالى العمل على العودة بالثورة إلى الكفاح السياسى ومواصلة طريق التفاوض» (ص ١٠٣).

وأثبت التاريخ - يقول كافى - أن قرار «أولوية السياسى على العسكرى» أدت إلى شرخ كبير وأليم فى صفوف الثورة .. وأكدت الخلافات بين الداخل والخارج، وازداد التسابق على السلطة وتبلورت الأطماع وعادت الانقسامات ومخلفات وأجواء ما قبل قيام الثورة ، وظهرت مراكز سلطة أدت إلى تناقضات واصطدامات فى صفوفها كادت تمزق قوات الثورة، لولا يقظة وإيمان وتضحية أبطال جيش التحرير فى الولايات بالداخل».

فلم يكن لـ«عبان رمضان» توجهاً يساريا - مازال الحديث لكافى - ، وليست له توجهات فكرية خاصة ، وإنما هاجسه الأساسى هو بسط سلطانه على الثورة واضعاف سيطرة الخارج عليها ، ونزع السلطة من القيادات العسكرية ووضعها فى أيدى القيادات السياسية باعتباره سياسيا.

وبعد عام من انعقاد مؤتمر الصومام، سمعنا كلاماً مختلفا من قادة الثورة ، وأكد عميروش وكريم بلقاسم وبن طوبال وجود علاقات بين عبان وفرنسا ، واتهموه بفتح قنوات مع العدو دون علمهم .. وأشيع أيامها أن الثورة حكمت عليه



من اليسار إلى اليمين . نظافى، بومدين ، على كافى ومصطفى بن عودة

بالاعدام .

ويروى على كافى تفاصيل إجتماع لجنة التنسيق فى القاهرة الذى عقد فى ٢٠ أوت (أغسطس) ٥٧ واستمر مدة ٩٤ يوما، وخلال هذا الاجتماع ندد الأخضر ابن طوبال بالخلافات الحادة ومحاولات استقطاب داخل القيادة والثورة، وندد بموقف وتصرفات عبان رمضان، وأعلن .. «أن له طموحات واتصالات مشبوهة مع الطرف الفرنسى دون علمنا» .

ويضيف كافى « .. دعانى عبان رمضان وحدى وأطنب فى التنديد بالجماعة الأخرى وأخطائها وانحرافاتها وخاصة كريك بلقاسم محاولا كسب الولاية الثانية إلى صفه، والهدف الصراع على السلطة.

واتهم عميروش «قائد الولاية الثالثة» عبان فى محضر أورده كافى فى الوثائق الملحقة بالمذكرات ، جاء فى النص الرسمى لعبان رمضان بعد أن لقى حتفه، أنه سقط فى ميدان الشرف وهو على رأس جيش متوجها إلى الشمال القسنطينى، ودخل فى اشتباك مع العدو.. والواقع أنه لم تقع هذه الاشتباكات، وتم ابلاغ ولايتى ، أن عبان قتل لأنه يعمل لنفسه!.. ، وأشيع أن عبان «على مشارف الخيانة»، وينفى قادة الثورة صدور حكم عليه بالاعدام ، وكل ما أكدوه ، وجود اتصالات بين عبان والعدو ، وعندما حامت حوله الشكوك ، تم استدراجه إلى المغرب بحجة مقابلة الملك محمد الخامس، وهناك تمت محاكمته ونفذ فيه الحكم (ص ١٢٣).

وكشفت قضية عبان رمضان حدة التناقضات فى صفوف الثورة ، وتآمر «الخارج» وحدة صراع السلطة .

القتل للمثقفين !

ومن المؤكد أن أكبر ما أصاب الثورة

عمليات التصفية فى صفوفها التى كثيراً ما تكون عشوائية، ويروى كافى أحد جوانب التصفيات الدامية ، فقد شهدت ولاية بجاية «القبائل الصغرى» تصفيات ومذابح أدت إلى فقدان الثقة بين الشعب والثورة.

ولا تبعد كثيراً الفتنة التى تشهدها الجزائر خلال العقد الأخير عن ما جرى خلال الثورة، يقول كافى .. «سارع عميروش قائد الولاية الثالثة ، دون تحرٍ ولا تعمق ولا تدبر ، إقامة محاكمات صورية والتعجيل بالإعدامات، فكانت النتيجة إعدام حوالى ألف وثمانمائة من الضحايا أغلبهم من المثقفين !

وامتدت العدوى إلى الولاية الرابعة فى مذبحة أخرى ذهب ضحيتها خمسمائة شخص ، ويعلق كافى قائلا: «إن كتابة تاريخ نزيه تفرض أن نسجل أن من أخطاء عميروش ، التسرع فى الحكم والتنفيذ ، ذلك أن الخيانة التى أحكم خطتها العدو وأشار إليها لم تكن تتهم واحداً أو عشرة بل شملت «كل المثقفين» وأتت على طلبة الجامعات وحتى الثانويات (ص ١٢٥).

ويقدم هذه الوقائع كإحدى المؤامرات التى حيكت ضد الثورة من الداخل والخارج .

ومن حقنا أن نتساءل .. أليس ذلك هو جذور العنف الذى تشهده الجزائر اليوم..؟!

ويمضى على كافى قائلا .. «انتشرت فكرة المؤامرة كالنار فى الهشيم ، وانتقلت عدواها من الولاية الثالثة إلى الولاية الرابعة، وأصابت الفتنة معظم الولايات عن طريق رسالة وصلت من الولاية الثالثة إلى الولايات الأخرى، تتهم - مع غرابة ذلك - الذين خرجوا من الجامعات والثانويات والمعاهد والمدارس والأطباء وغيرهم بالخيانة !.

وشملت الاتهامات جميع المناضلين ، والرقم المتداول فى الولاية الثالثة يزيد على رقم ٢٠٠٠ ، وبدأت عمليات التصفية.. وكنت على اقتناع بأنها مؤامرة حيكت فى المكتب الخامس الفرنسى والذى قام بديلاً عن المكتب الثانى!.



بومدين وبوصوف فى تونس

وهناك ثمة علاقة بين تصفية عدد كبير من المثقفين وبين تصفية عبان رمضان.

يقول عميروش – قائد الولاية الثالثة – منذ ٢٠ أوت «أغسطس» ١٩٥٦ ، ظهرت لنا هيئة عبان مشبوهة، من خلال الدور الانشقاقي الذي يقوم به بين مسئولي الولاية الثالثة، وكانت أغلبية أعضاء المؤامرة الذين اعتقلوا أصدقاء عبان مثل بن مرزوق ومحمد المدعو عبدالله الذي التحق بالعاصمة بعد مؤتمر أوت «أغسطس» وهو «مقدم» في صفوف العدو الذي التحق به في جوات «يوليو» ١٩٥٨.

هكذا تكلم خالد نزار

سارع خالد نزار بتقديم شهادته، وادعى أنه قادر على الكلام أكثر من غيره من العسكريين وهو متقاعد، وبعد أن استكمل التغييرات في الجيش، فهو أحد الجنرالات الذي أمسك خيوط السلطة طوال العقد الفائت ، فضلا عن أنه هو الذي ألغى نتائج المرحلة الأولى من الانتخابات النيابية عندما كان وزيراً للدفاع .

وهذه الشهادة لا تخاطب الماضي وإنما تخاطب الحاضر والمستقبل ، وتحتوي المذكرات على بعض الطلاسم التي تحتاج لمن يكشفها، وألقت الضوء على الكثير من الأحداث السياسية، وكشفت بعض أبعادها التاريخية، وأن الكثير من هذه الأحداث من بقايا معارك التحرير والتي لم تصل إلى نهايتها بعد، بقايا الصراع القديم بين جيش الخارج وجيش الداخل، بين الضباط المحترفين الذين كانوا ضمن جيش فرنسا، وأولئك أصحاب الأصول الريفية الذين خاضوا حرب التحرير في الداخل.

وهي أيضا بقايا معارك التعريب في مواجهة الفرانكفونية التي تجد في الأمزيغية سنداً، وهي أخيراً صراع الأفكار المختلفة المطروحة للخروج من الأزمة ومدى استعداد الأطراف المختلفة لقبول الحرية وتحمل مسئولية الديمقراطية.

وخالد نزار اسم لمع في سماء الجزائر خلال السنوات العشر الماضية، وهو ضابط محترف فر من الجيش الفرنسي والتحق بجيش التحرير، ووالده كان جنديا في القوات الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية، عين وزيراً للدفاع عندما أحدث الرئيس الشاذلي بن جديد تغييرات جوهرية في النظام السياسي في اتجاه المزيد من الليبرالية، وأخرج ضباط جيش التحرير من اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير، وتخلى عن وزارة الدفاع لخالد نزار، وعمل على أن تنتقل الجزائر لكي تكون جزءاً من السوق العالمي، وانتقل من الحزب الواحد إلى التعدد الحزبي، وأعطى حرية إصدار الصحف، وهي التغيرات التي وقعت بين أكتوبر ١٩٨٨ وحتى إلغاء المسار الانتخابي سنة ١٩٩١ واستقالة الرئيس الجزائري ، والذي قيل إنه إنقلاب عسكري بقيادة خالد نزار، ويروي خالد نزار هذه الأحداث وما تبعها خلال التسعينات كصاحب القرار والممسك بكل خيوط السلطة.

وهي ظاهرة نادرة أن يفصح مسئول عن المسكوت عنه، ويقدم شهادته عن أحداث جارية لم تصل لنهايتها بعد، ولعل



من اليمين : عبدالعزيز بوتفليقة ، علي كافي ، بومدين ، نصار الحاج ، الحاج باريقو

ذلك سببه أن الأدوار المهمة والحاسمة التى قام بها خالد نزار كانت تجرى من وراء ستار ، وإن لم يكشفها يمكن أن ينسبها غيره لنفسه، ونصب من نفسه قاضياً يصدر أحكاماً نهائية على كل ما جرى من أحداث، ويعترف فى مذكراته بعمليات التعذيب داخل السجون باعتبارها «قذارة يجب السعي لمحوها» ، وحتى يغسل يديه من تبعاتها.

ولد خالد نزار فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٧ ، ببلدة سريانة التي تبعد ٢٦ كيلو متراً عن مدينة باتنة التى أطلق عليها أسم العالم الفرنسي باستير الذى مازال تمثاله قائما بها، والتحق بالجيش الفرنسى عندما كان عمره ١٨ سنة ، أى بعد إعلان قيام الثورة ، وعين فى مارس ١٩٥٧ فى المجموعة الثالثة للقناصة المتمركزة فى «لوندو» بألمانيا، وهرب منها بعد ثمانية شهور فى أواخر سنة ١٩٥٧ والتحق بجيش التحرير فى تونس .

وعقب الاستقلال لعب دوراً قيادياً فى الجيش، وأخذ دورات عسكرية فى كل من الاتحاد السوفييتى وفرنسا، وأصبح قائداً للقوات البرية على الحدود المغربية الجزائرية.

انقلاب ١٩٦٥

ويروى خالد نزار فى مذكراته .. «أنه كان على علم بما يسميه «التصحيح الثورى» الذى وقع فى ١٩ جوان «يونيه» سنة ١٩٦٥، أى الانقلاب العسكرى ضد الرئيس بن بيللا، يقول.. «علمت بأمر هذا التصحيح قبل شهر من وقوعه»، ولا يفوته



خالد نزار مع زملائه في حفل التخرج
من مدرسة سان ميكسان ، وهو الثالث على اليسار

أن يلمح عن محاولة مصرية للتدخل لصالح بن بيللا فيقول .. «هناك أسئلة ليس لها إجابات ، مثل أني أوقفت رئيس الأمن المصرى (!) أمام فندق سفير بالجزائر غداة يوم ١٩ جوان «يونيه» ، وفي اليوم التالي اقتربت غواصات مصرية من مياهنا الإقليمية، وكانت تكرر نداءات طلب التزود بالوقود.. واتفقنا على منعها من الدخول إلى الميناء».

وقد عاش فترة على الجبهة المصرية مع قوات جزائرية خلال حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر، وسجل انطباعاته على أهمية حرب الاستنزاف واعتبارها المقدمة الطبيعية لحرب أكتوبر يقول .. «إنني مقتنع أنه بفضل هذه الدروس تم العبور الناجح لقناة السويس» ويضيف .. «استنتجت خلال تلك الفترة أن المصريين فقراء بحاجة إلى المال «عصب الحرب»، الذي يسمح لهذا البلد بتنظيم الجبهة الخلفية وتأمين الحد الأدنى من احتياجاتهم .. فقد كان المال غير كاف لخوض حرب والانتصار فيها!» ص ٩٥ ، ويقول .. «كانت نظرة السادات صائبة عندما اختار طريق السلم لشعبه، وفي الوقت الذي كنا نحارب فيه على الجبهة المصرية، لم تكن لي أية عداوة إزاء الجندي الإسرائيلي!، ويستطرد .. «كشف العبور قدرة المصريين على تنفيذ كل ما خطط له مسبقا، وضعف القيادة في تسيير عمليات مفاجئة ، وبرهن الجيش الإسرائيلي قدرة قيادات أركانه على المناورة» ويقرر.. «لقد انتصر

الإسرائيليون فى الحرب (!) ، لأنه يتوفر لديهم هيئة أركان قادرة على القيادة حسب المتغيرات ، وبسبب التفوق التكنولوجى كما كان حجم وطبيعة قواتهم أقوى من المصريين.. علاوة على أن الأمريكيين يشكلون لهم قاعدة إسناد حقيقية».

هذا هو ملخص تجربته على الجبهة المصرية.

البارونات والكفاءات!

يأخذ خالد نزار وهو العسكرى المحترف على الرئيس الراحل بومدين، ارتكابه لأكبر خطأ استراتيجى أوصلنا إلى حكم الشاذلى بن جديد نتيجة الفراغ السياسى الذى تركه، ولم يكن اختيار الشاذلى كخليفة لبومدين هو الأفضل ، فيستطيع الشاذلى فى أحسن الأحوال العمل فى الجيش وليس كرئيس للجمهورية، وتم اختياره على قاعدة كثيراً ما تسود وهى اختيار الأقل مهارة ، أما الخطأ الاستراتيجى الثانى فى اعتقاده أنه لم يعد هيكلة الجيش، أى لم يبعد غير المحترفين من جيش التحرير أو على حد قوله .. «إبعاد البارونات لصالح الكفاءات».

ويتناول فى مواضع مختلفة «صراع الملوك الصغار» ويعنى صراع الجنرالات ويحكى قصة الصراع الذى دار بينه وبين الجنرال زروال والذى أدى إلى استقالة زروال من الجيش، فطالما ساد منطق القوة بديلاً عن الشرعية، ودار الخلاف حول رؤية كل منهما لإعادة هيكلة الجيش... فكانت مركزية القيادة تجرد «الملوك الصغار» من نفوذهم، وهو هنا يتحدث عن الجميع باستهانة واستعلاء . يقول .. «إن جيش التحرير لم يخرج قيصرا» ص ١٦٣، ويعود فيقول فى موضع آخر إن الشاذلى بن جديد ليس أكثر من قيصر، ويعترض على الثلاثية التى كانت تحكم من خلف الستار أيام حكم الشاذلى، وهم حمروش/ محمدي/ حيدوسى.

ويقول .. «كان لقاصدى مرباح (رجل الأمن القوى الذى لقى مصرعه) دوراً حاسماً فى اختيار الشاذلى، وأحب أن أؤكد أن معظم الجيش كان ضد هذا التعيين» ويضيف .. «كان على قاصدى مرباح قبل أن يتخذ قراره أن يجتمع بالإطارات العسكرية» وينسى المجتمع المدنى ومؤسساته بالكامل.

ويتهم الشاذلى بن جديد بالتواطؤ مع ملك المغرب، فطالما بقى رئيساً، وبعد أن أصبح صديقاً لملك المغرب، وأصبحت الزيارات بين عاصمتيهما أمراً مألوفاً، «فهمت أنه تم الانتهاء من مسألة الصحراء المغربية»!.

وقف المسار الانتخابى

ويعلن أنه أوقف المسار الانتخابى، وهو غير نادم على ذلك .. «تحملت مسئولياتى بعد استقالة الشاذلى تجنبا للفوضى...» .. «اتفقنا فى الجيش على أنه لم يعد بإمكاننا إلزام الجيش بحكومة فشلت فشلا ذريعاً ...» وترى «أن مسعى محمد غزالى - رئيس الحكومة - فاشل» رغم أن خالد نزار كان وزيراً للدفاع فى وزارته!، ولم ينتظر فلم تحصل جبهة

الإنقاذ سوى على ٢٦٪ من الأصوات وثلث المقاعد، ويعطى الدستور الحق فى حل المجلس، وكأن خالد نزار قرر أنه بيده لا بيد سواه فرض النظام الشمولي، وخطى الخطوة الأولى، يقول .. «فيما يخص التشكيلات الديمقراطية، فإنها بعيدة عن أن تمثل حاجزاً ذا مصداقية في مواجهة الخطر الشمولي..» .

ويروى نزار «أعلن الشاذلي فى مؤتمر صحفي يوم الثلاثاء ٢٤ ديسمبر ١٩٩١ ، أنه مستعد للتعايش مع جبهة الإنقاذ ، وأثارت نتائج الانتخابات موجة من الارتباك والاحباط وقلق البلدان المغربية والأوربية وخاصة فرنسا» ص ٢٠٧ ويضيف .. «يرفض الجيش نتيجة الانتخابات... وأقر احتمال اللجوء إلى اجراءات قصوى لحماية الجمهورية ، وحدد اجراءات عملية ، سياسية وعسكرية وجاءت استقالة الرئيس الشاذلي، فمكنتنا من تجنب اللجوء إلى هذه الاجراءات القصوى» ولم يفصح عن طبيعة هذه الاجراءات!، ثم يقول .. «كانت الرسالة الشهيرة التى قرأها الشاذلى فى التليفزيون من إعداد الجنرال التواتي وعلى هارون» ويضيف .. «كنا نبحث عن الاجماع ، وأدهشنا وزير العدل بتردده، وعندما لم نصل إلى نتيجة، قام العربى بالخبر (جنرال، كان مديراً لمكتب الرئيس ثم وزيراً للداخلية) وضرب بقبضة يده على الطاولة وقال حازما.. «سأصدر أمراً للولاة (المحافظين) لوقف المسار الانتخابى» !!

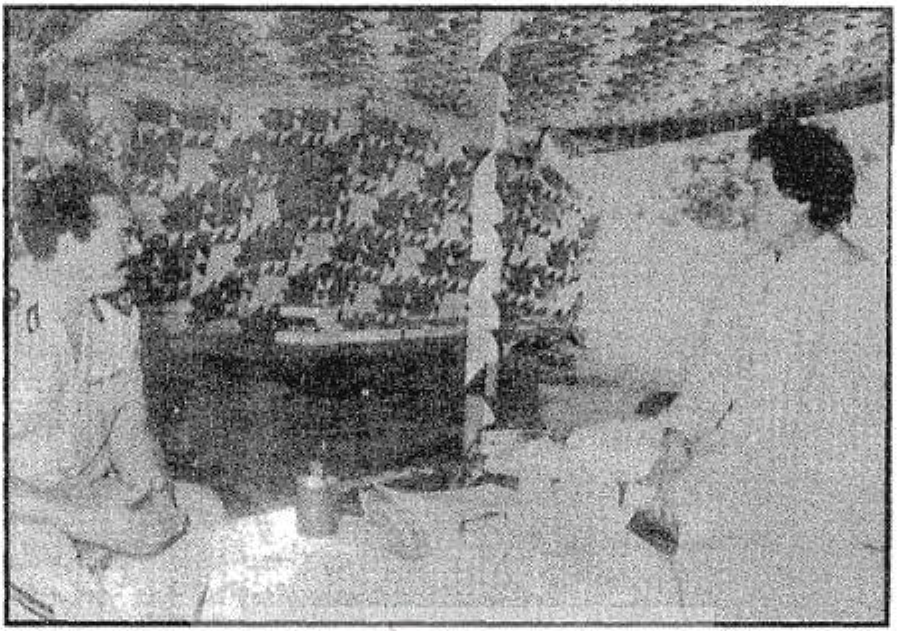
وقررنا عدم التوجه إلى المرحلة الثانية من الانتخابات ، على أمل أن يعى الرئيس خطورة الوضع ويقدم استقالته، فلم يكن أمام الجيش أى اختيار آخر..» وتمت أربعة لقاءات بين وزير الدفاع والرئيس ، وخلال اللقاء الثالث قال الرئيس : إنه لا يرى حلا سوى تسليم الأمر للجيش مع ضرورة تفادى أية شوشرة.. عندها فهمت أنه ينوى الاستقالة ، فطلبت من الرئيس توفير مهلة قبل الإعلان (!)، وتم الاتفاق على موعد الإعلان عن الاستقالة... إن الاستقالة مكنت من تجنب طريق المغامرة (ولم يفصح عن المغامرة التى كان ينوى القيام بها).

ويسأل حسين أية أحمد عن رأيه ، وكان رأيه أن استمرار الديمقراطية مهم، وأن الرئيس يملك صلاحيات حل المجلس.

أما بن بيللا فيقول .. «لقد اخترتم رجلا تاريخيا، يقصد بوضياف، ولكن حاولوا تنظيم انتخابات فى ظرف ستة أشهر».

صانع الرؤساء

ويقدم خالد نزار نفسه بوصفه صانع الرؤساء ، فهو الذى اختار بوضياف رئيسا، وهو الذى شكل المجلس الأعلى للدولة ، وهو الذى جعل من على كافى رئيساً لمعرفته باللغة العربية، ويقول كلمات لا تنقصها الصراحة .. «لم يكن بإمكانى تولى زمام البلاد بعد اغتيال بوضياف لأنه اغتيل من طرف عسكرى عندما كنت وزيراً للدفاع»، ويؤكد فى كل سطر من سطور مذكراته أنه يمسك بخيوط الأحداث، ويسلم على كافى المشعل لرئيس جديد هو الأمين زروال ، ولا يخفى أنه اختار زروال وزيراً للدفاع ثم رئيساً، ..



خالد نزار فى لقاء مع العقيد معمر القذافى

«ثم وقع اختيارى على الجنرال المستقيل اليمين زروال» ويضيف .. «واختيار زروال راجع إلى الفراغ الذى حدث بعد ذهاب المجلس الأعلى للدولة».

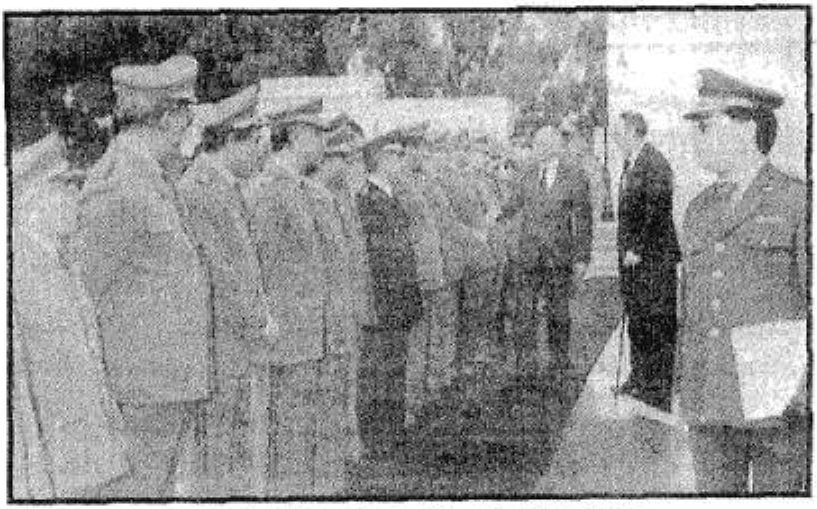
ويعبر عن دهشته البالغة أنه ما أن يصل أى من هؤلاء إلى السلطة حتى يعمل على جعل المؤسسة العسكرية بعيدة عن أى تأثير سياسى! .

المغرب والارهاب

وجاء فى المذكرات اتهام صريح للمغرب ، بأنها تدعم الإرهابيين كرد فعل لتأييد الجزائر للجمهورية الصحراوية، يقول .. «من حق الجزائريين أن يعرفوا أنه سنة ١٩٩٢ ، تمكن الأمن الجزائرى من تحديد دقيق لمكان وجود قائد الجماعة الإسلامية «الجيا» المدعو عبد الحق العيادة، بأحد فنادق مدينة وجدة، ومن تحديد وجود مسدسات «عوزى» وبنادق «كلاشينكوف» وذخيرة ومتفجرات وشبكة كاملة تضم مغاربة وجزائريين .

وسافرت إلى المغرب والتقيت بالملك مدة ساعتين ، ولم يدهشني عندما أثار قضية الصحراء المغربية موضحاً أن الأمن بالنسبة له كل متكامل، وأن الأمرين مرتبطان بشكل وثيق .مشكلة الصحراء المغربية والعنف والإرهاب فى الجزائر .

ولم يتم بعد اللقاء بثلاثة شهور تسليم



بوضياف وخالد نزار خلال زيارة لوزارة الدفاع الوطنى

سوى عيادة وحده ، أما بقية الشبكة فلم يتم تسليمها إطلاقا، ولم تأت أية معلومات خلال الشهور الثلاثة وهي الفترة التى تساقط فيها رجال الثقافة والعلم والصحفيين والعسكريين والمواطنين البسطاء ، وكان بإمكاننا أن نعرف من هذا الإرهابى معلومات من شأنها التقليل من الخسائر» ص ٦٩، ويقول .. «لا يوجد من بإمكانه الزعم أنه ينحدر من أصول عربية، وتبنى المجتمع بربريته أيام الشاذلى، ويجب العودة إلى التاريخ للتأكد من أن جذورنا بربرية، ووجدت العناصر الفرنكفونية الدعم والمساندة من الظهير البربرى! .

التراشق بالتاريخ

ومن خلال قراءة مذكرات كل من على كافى وخالد نزار، لا يفوتنا ملاحظة الفارق في التناول بينهما ، وإن كان كل منهما يتناول مرحلة تاريخية تختلف عن الأخرى، فهما عقليتان مختلفتان ومنطقيان ورؤيتان متباينتان، كثيراً ما يتعارضان مما يفجر الخلاف والتراشق بينهما ، فعلى كافى من مجاهدى الداخل، أما خالد نزار فهو من الضباط الذين عاشوا على الحدود في تونس، يعمل في رفع كفاءة المقاتلين، يمثل أحدهما جيش الداخل ويمثل الآخر جيش الخارج. وانتقل على كافى من قائد الولاية الثانية في الداخل إلى مناصب سياسية فى الخارج ، وأخيرا يرى على كافى أن الجيش أخفق في القضاء على الإرهاب، بينما يرى خالد نزار أن مواجهة الإرهاب مهمة الجميع .

وهذه بعض الوقائع التى تكشف التفاوت فى نظرة كل منهما :

يشكو على كافى من صعوبة ونقص السلاح فى الداخل، ويقول خالد نزار على جيش الداخل أن يتسلح بما يغنمه من سلاح العدو ويضيف .. «إنى أعتبر التصريحات القائلة أننا لم نمون بالأسلحة

بسبب جيش الحدود، غير صحيحة ، لقد نقلنا السلاح إلى الداخل وتوليت شخصيا تمرير الكثير عبر مناطق غير ملائمة .. والادعاء بأننا مكثنا على الحدود مكتوفي الأيدي هو تخريف، وإهانة لذاكرة الشهداء».

ويضيف .. «لم يظهر إلى الوجود جيش الحدود سوى بعد قدوم بومدين في نهاية ١٩٥٩، وفشلت المجموعات المشكلة من حوالي مائة رجل التابعين للولايتين الثانية والثالثة لأنها لم تكن جاهزة تجهيزاً جيداً ، وكان البعض يسعى للاعتماد على هذه القوات لفرض آرائه.. وقد تم إنشاء جيش الحدود سنة ١٩٦٢».. وجيش الحدود تسمية أراد بها الجيش الفرنسي زرع التفرقة بين الداخل والخارج ، ووقع للأسف بعض المسئولين في هذه المكيدة».

أشبال فرنسا .. يقول على كافي في مذكراته» .. سعت فرنسا إلى إقامة قوة ثالثة لعزل الثورة ، وفي بداية الثورة سنة ١٩٥٥ ، تم تصفية جمعية الأخوة العربية الإسلامية .. واستمرت محاولة خلق هذه القوة الثالثة من العملاء والسياسيين المحترفين، وعندما قام ديجول بالدعوة إلى الإصلاحات في محاولة فصل الشعب عن الثورة وفشل ، أقنع الواقع في الداخل ديجول بضرورة حق تقرير المصير ، هذا بعد فشل التلويح بالمشاريع الاقتصادية والاجتماعية والإدارية ، وفشل سياسة التهدئة والأخوة وسلام الشجعان الذي كان يهدف إلى تصديع الداخل وفصل الداخل عن الخارج، وإظهار قيادة الخارج بلا سلطان على الداخل. فاستقر رأي ديجول على التخلص من «الجزائر فرنسية» وقبول فكرة الجزائر جزائرية وخاصة بعد مظاهرات ديسمبر ١٩٦٠.

ويكمل على كافي في حديث خاص ، يقول .. «إن ديجول كان أخطر على الثورة من سواه، وعندما أدرك ضرورة حصول الجزائر على الاستقلال، سعى إلى خلق حصان طروادة في الجزائر المستقلة، فبعث بالضباط الجزائريين في الجيش الفرنسي وخاصة المقيمين في ألمانيا للالتحاق بالثورة!».

ويمضي على كافي متحدثا عن أشبال فرنسا ، ويقول «من المعروف أنه بين عامي ١٩٥٨ و١٩٥٩ وفد إلى الثورة حوالي أربعين ضابطا جزائريا من العاملين في القوات الفرنسية الموجودة في كل من ألمانيا وفرنسا، وهم الذين فضلهم كريم بلقاسم على ضباط جيش التحرير، وعين أحدهم مديراً لمكتبه، وهم الذين يسعون إلى إقامة جيش تقليدي ، واستخدم بعضهم للسيطرة على الحكم .

ولدى خالد نزار رأي مخالف تماماً .. ويقول .. «نتج عن فرار الجنود الجزائريين من الجيش الفرنسي إرسال أغلب الوحدات إلى جزيرة كورسيكا في فرنسا، وإلى ألمانيا، مما صعب محاولات الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني، وفي بداية الثورة كانت الأسلحة الموجهة للعسكريين الجزائريين مربوطة بسلاسل لغياب الثقة فيهم.

وأتحدث هنا عن الفارين من الجيش الفرنسي الذين التحقوا بالثورة، ليس لكوني واحدا منهم، ولكن احتراماً لذاكرة أولئك الذين سقطوا شهداء وأبرز مثال مدرسة القليعة «مدرسة عسكرية فرنسية»

التي زودت الجزائر بالكثير من الإطارات من بينها أربعة وزراء ، عبد المجيد علاهم، سليم سعدى، وعبد النور بقه وأنا، وقدمت ثلاثة قادة لهيئة أركان الجيش الوطني الشعبي (ص ٢٥٣).

ويضيف .. «يجدر أن أفند تسميات تقسيمية ضارة مثل تسمية «ضباط فرنسا» أي الاسم الذي يطلق على الضباط الجزائريين الذين فروا من الجيش الفرنسي والتحقوا بجيش وجبهة التحرير.. ، وقد عاصرت خلال سنوات الحرب عدداً من جنودنا الذين فروا من الجيش الفرنسي، وليس هناك ما يثير الخجل عن الحديث عن هذا الصنف من المجاهدين، بينما كان آخرون يضحون ببلادهم مقابل تأمين مستقبلهم الشخصي، وقد وصل الأمر بهؤلاء إلى قتال إخوانهم .. ومن بين الفارين من الجيش الفرنسي تولى العديد منهم مناصب كبيرة سواء قيادة ولاية أو منطقة أو مجموعة .. كما يوجد بين أبناء الثورة العديد من العسكريين القدماء الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية (ص ٢٥١) .

ويكفي العودة إلى مذكرات الجنرال جوهر لمعرفة العدد المرتفع من الفارين الجزائريين، رغم أن جوهر لا يذكر سوى الفارين من الداخل، ولا توجد وحدة قتالية في حرب التحرير لا تضم بين صفوفها مجاهدين أعطوا أسماءهم لمعارك أو مدن فيتنامية !.

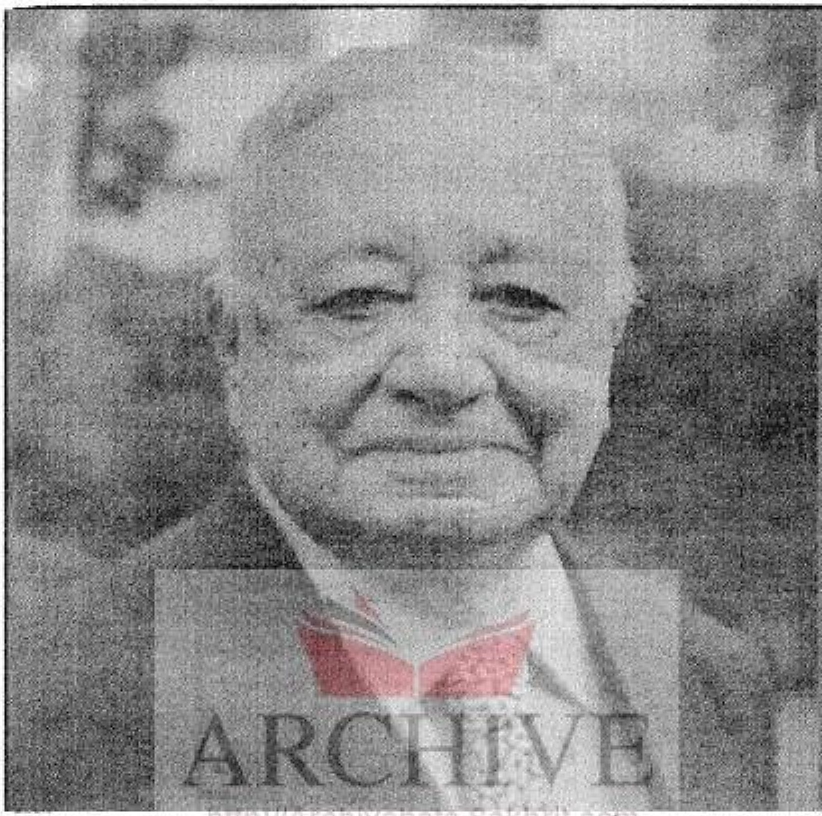
ويعلق خالد نزار على ما جرى من تصفيات في الولاية الثالثة بقوله.. «الجميع يعلم أن المخابرات الفرنسية نجحت في اختراق صفوف الولاية الثالثة بعد ضعف جبهة التحرير عقب معركة الجزائر، فقد استغل الجنرالان ماسو وبيجار كل الوسائل وخاصة التعذيب للوصول إلى هدفيهما، فجعلت فرقة المظليين مدينة الجزائر قلعة ، وترك اعتقال سي ياسف سعدي واستشهاد علي لابوانت ورفاقه وحسيبة بن بو علي، المجال مفتوحاً أمام مناورات الاستعمار.

بعدها أرسلت قائمة بأكفأ إطارات جيش التحرير اتهموا باطلا بالخيانة، وأعقب ذلك حملة تصفية واسعة في الولايتين الثالثة والرابعة ، وهكذا تمت عملية «لابلويت» لمنع الولاية الثالثة من مواصلة المعركة في العاصمة .

وأخيرا ..

هل مازال قول الرحالة ابن زاكور في آخر القرن السابع عشر ساريا .. «لما من على المولى الكريم، بدخول مدينة الجزائر، ذات الجمال الباهر، وحلول مغانيها النواضر، التي غص ببهجتها كل عدو كافر، لذلك يتربصون بها الدوائر، في الموارد والمصادر، ويرسلون عليها صواعق لم تعهد في الزمان الغابر أبرأني من غليلي ووجدي، ما عانيته من روائها وبحرها اللازوردي ..»

ومازالوا يتربصون بها الدوائر، ويرسلون عليها صواعق . ☐



ثروت عكاشة

بين السياسة والثقافة

بقلم : د. أحمد أبو زيد



●● عنوان هذا المقال مستمد من كتاب الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة الأسبق بعنوان « مذكرات فى السياسة والثقافة » ، لأن الكتاب بعنوانه ومحتواه يعطى صورة واضحة ومتكاملة عن حياة وجهود وانجازات ذلك الوزير الإنسان المثقف، الذى وجد طريقه إلى عالم الثقافة الرفيعة العميقة من خلال الجيش والدور الذى لعبه فى ثورة يوليو ١٩٥٢ باعتباره أحد الضباط الأحرار ، ثم اشتغاله بالسياسة كوزير للثقافة مرتين وانخراطه فى سلك الديبلوماسية كسفير لمصر فى الخارج واتصاله بالمنظمات الثقافية الدولية من خلال تمثيله لمصر فى اليونسكو وعلاقاته القوية بالسنيور فيرونيزي المدير العام لليونسكو ورينيه ماهية نائب المدير ثم بعد ذلك المدير العام لهذه المنظمة الثقافية الرفيعة الشأن، وصداقته لأندريه مالرو وزير الثقافة الفرنسي وغيرهم من الشخصيات الثقافية المرموقة الذين كانوا يدركون عمق توجهاته الثقافية وأهمية المشروعات الثقافية الضخمة التى كان يهفو إلى تنفيذها فى مصر فلم يبخلوا عليه بالمشورة والمعاونة والتعاون ●●

والمقال نفسه مستوحى من الاحتفالية الثقافية الراقية التى اقامتها دار سعاد الصباح للنشر بمناسبة صدور كتاب احتفالى - ولا أقول «كتاب تذكارى» عن ثروت عكاشة بعنوان «وردة فى عروة الفارس النبيل» وقد شارك فى كتابة فصول هذا الكتاب ما يزيد على الخمسين كاتبا ما بين أستاذ جامعى ومفكر وأديب وفنان يدركون جميعا فضل ثروت عكاشة فى الثقافة المصرية والعربية، كما يشعرون جميعا نحوه بكثير من الامتنان على ما قدم للثقافة بوجه عام وما أتاحه لهم شخصيا من فرص الاسهام بجهودهم فى ذلك النشاط الثقافى فى تخصصاتهم ومجالاتهم المختلفة والمتنوعة . وكانت هذه الاحتفالية فرصة للتعبير عما يحمله جميع الذين حضروا الاحتفال والذين زاد عددهم على خمسمائة من رجال الثقافة من تقدير واحترام لذلك الرجل الذى أفلح فى أن يحفر اسمه عن جدارة واقتدار فى سجل الثقافة العربية العريقة الرفيعة إلى جانب الأفذاذ الذين أقاموا صرح هذه الثقافة على أسس قوية وراسخة ، وأن يضمن بذلك بقاء إنجازاته الباهرة حية فى الأذهان على مر العصور .

ثروت عكاشة مكانة رفيعة

ولكن إذا كان ثروت عكاشة احتل مكانة رفيعة فى هذا السجل بما أنجزه سواء وهو يشغل كرسى الوزارة (وزارة الثقافة) بكل ما يتيحه هذا الكرسى لشاغله من قدرة على اتخاذ القرار وتنفيذ ذلك القرار ، أو وهو خارج السلطة والوزارة بإبداعاته وكتاباته ومؤلفاته العديدة الراقية، فإن مؤسسة دار سعاد الصباح للنشر - وهى مؤسسة كويتية - تستحق هى أيضا الكثير من الحمد والثناء لأنها فكرت ونفذت مشروع تمجيد هذا الرجل من خلال ذلك الكتاب الاحتفالى أو التذكارى كما تسميه المؤسسة ذاتها . وليس من شك فى أن تلك المؤسسة تضرب بهذا السلوك الراقى مثلا رائعا لما يجب أن يكون عليه تكريم (الأحياء) من كبار المثقفين الذين يسدون خدمات جليلة ومتميزة للثقافة العربية ، حتى يشهد هؤلاء المثقفون الكبار بأنفسهم - لا فى أثناء حياتهم - تقدير الآخرين لجهودهم الهائلة الجبارة ، وهذا فى رأيى واعتقادى هو خير ما يمكن اهداؤه لهؤلاء الأفذاذ جزاء ما بذلوه من جهد مشكور .

ولقد وقع علىّ أنا نفسى شرف الحديث باسم الاساتذة الذين شاركوا بإسهاماتهم فى الكتاب ، ولست أنكر - كما قلت ذلك صراحة أثناء إلقاء الكلمة - أنه داخلنى كثير من الفخر والاعتزاز مع بعض الغرور ، إذ ليس بالشئ القليل أن يقف المرء أمام كل ذلك الجمع المتميز من خاصة المثقفين الذين حضروا الحفل لكى يتكلم باسم فريق من كبار المثقفين الذين يشعرون بالامتنان لثروت عكاشة، وأن يعبر عن الشكر للمؤسسة التى أتاحت الفرصة للتعبير من خلال اسهاماتنا عن صدق مشاعرنا نحو ثروت عكاشة وعن إعجابنا واكبارنا لما أنجزه من اسهامات ضخمة فى النشاط الثقافى العربى، ولأن نشارك من الناحية الأخرى فى هذه الاحتفالية الثقافية التى وصفتها بأنها

احتفالية راقية مهيبة .

وليس من شك في أن الدكتور ثروت عكاشة اتاح الفرصة للكثيرين من المثقفين في مصر للمشاركة بشكل أو بآخر في النشاط الثقافي الزاخر الذي ملأ به جو مصر أثناء توليه الوزارة ، وهو بذلك يعطي مثلا رائعا لأسلوب التعامل بطريقة راقية مهذبة ومفيدة في وقت واحد مع هؤلاء المثقفين من مختلف التخصصات ، بحيث تفيد الثقافة والمجتمع من إمكانات وقدرات هؤلاء المثقفين ، كما يفيد المثقفون أنفسهم من الفرص المتاحة لهم لابداء آرائهم وأفكارهم والمشاركة بجهودهم في تنفيذ السياسة الثقافية للدولة والإسهام في إثراء الحياة الثقافية .

ولقد عرفت الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة عام ١٩٦٩ من خلال صديقنا المشترك المرحوم الدكتور مجدي وهبه أحد كبار المثقفين في مصر والذي فقدناه وهو في قمة عطائه - وأثناء اللقاء القصير الذي كنت أحسبه لقاء للتحية فحسب عهد إلى ترجمة كتاب الغصن الذهبي لسير جيمس فريزر ، وهو من أهم الأعمال الكلاسيكية التي ساعدت في توجيه البحوث في مجالات الانثربولوجيا والميثولوجيا ودراسة الأديان بل وتاريخ الفن . والكتاب نفسه موسوعة ضخمة تضم طائفة كبيرة جدا من المعلومات المتعلقة بثقافات وحضارات العالم القديم من خلال الأساطير التي هي في آخر الفكر سجل عميق لفكر الشعوب التي أنتجت هذه الأساطير وأبدعتها في صور رمزية تكمن وراءها أفكار ومعتقدات وآمال هذه الشعوب ونظرتها إلى العالم ، واهتمام ثروت عكاشة بذلك الكتاب الضخم وترجمته يعكسان اتساع أفقه الذي شمل مجال الأساطير في العالم القديم ، وهو اهتمام ترجم عن نفسه بشكل عملي في قيامه هو نفسه بترجمة كتاب أوفيد عن «مسخ الكائنات» واخراجه في صورة فنية رائعة قال في مقدمتها : « وحسبي فيما سأقدم من أعمال أوفيد أنني سأتيح لعيني القارئ أن تقعا على قصص يسحر الوجدان ولفكره أن يشرد في عالم أسطوري . ولست أحسب في ذهب الأرض كله ما يعدل نشوة الفكر حين يصيبه الدوار ويترنح محلقا في عالم الخيال الخصيب» ، ثم يزين هذه التحفة الرائعة بمجموعة كبيرة من الصور المحفورة التي قام بها الفنان ب . بيكار بمعاونة فنانين آخرين تحت اشرافه، وذلك في طبعة قديمة للكتاب صدرت عام ١٧٣٢ بامستردام باللغتين اللاتينية والانجليزية وبتعليق باللغة الفرنسية . وهذا كله يدل على مدى احتفاء ثروت عكاشة بالثقافة الرفيعة واهتمامه بتقديم روائعها إلى المثقفين في العالم العربي كجزء من الرسالة التي يحملها للارتقاء بالثقافة العربية وخلق قنوات اتصال بينها وبين ثقافات العالم .

مشروع ترجمة الغصن الذهبي

أثناء ذلك اللقاء القصير ذاته عهد إليّ برئاسة تحرير مجلة «تراث الإنسانية» التي كانت تقدم للقارئ العربي خلاصة روائع الفكر الإنساني على مر العصور ومن مختلف الثقافات ، وهذا أيضا

مشهد وصول ماريادى ميدتش إلى ميناء مرسيليا - روبنز (متحف اللوفر)





لوحة من
الفسيفساء فوق

يكشف ليس فقط عن اهتمامه بنشر الثقافة الرفيعة والتعريف بمجالاتها المختلفة كتمهيد لاغراء المثقف العربي على معرفة هذه الروائع بطريق مباشر من خلال الاطلاع على تلك الأعمال ذاتها في صورتها الأصلية ، وإنما يكشف عن تنوع ثقافته هو نفسه ورغبته في ارتياد مختلف الميادين بحيث تصبح جزءا من كيانه الثقافي الخاص ، ومما يؤسف له أنه حين ترك ثروت عكاشة الوزارة توقف مشروع ترجمة الغصن الذهبي بعد أن صدر منه الجزء الأول ، كما توقفت «تراث الإنسانية» مثلما توقفت كل المجلات الثقافية التي كانت تصدرها وزارة الثقافة على عهده .

وحتى حين ترك الوزارة أبى إلا أن يواصل تزويدي ببعض نتاج فكره وذلك أثناء اشرافي على مجلة «عالم الفكر» التي تصدرها دولة الكويت ، فأسهم بعدد من الدراسات الرائدة في تاريخ الفن اعتبارا من الحديث عن رينيه ويج إلى الكتابة عن بوتتشيللي وميكلانجلو والتصوير الاسلامي وريتشارد فاجنر وليوناردو دافنشي والعمارة الإسلامية وغيرها. وكلها تعتبر مراجع في الموضوعات التي تدور حولها .

وقد أكون بدأت بذكر ما يتصل بي أنا شخصيا من انجازات الدكتور ثروت عكاشة كبداية فقط أو كمدخل إلى ذكر بعض أعماله الكبرى الأخرى التي أضافت قدرا كبيرا من الثراء إلى الثقافة العربية ، وهي أعمال تتراوح بين ترجمته لعدد كبير من ابداعات جبران خليل جبران مثل «النبي» و «حديقة النبي» و «عيسى ابن الانسان» و «رمل وزبد» و «أرباب الأرض» إلى ترجمته الرائعة لكتاب برناردشو عن ريتشارد فاجنر، والتي صدرت تحت عنوان «مولع بفاجنر» وترجمة كتاب هنرى لنك عن «الطريق إلى السعادة» وكتاب بيير دانيو الطريف عن «مذكرات الرائد طومسون» وهكذا ، ولكن العمل الذي سوف يخلد اسم ثروت عكاشة في سجل التراث الثقافي العربي هو بغير شك كتابه الموسوعي الضخم عن «تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى» فهو موسوعة جبارة تحيط بتاريخ أقدم الحضارات الراقية حتى العصر الحديث بما في ذلك بغير شك الفن الإسلامي كما يتمثل - على سبيل المثال - في «فن الواسطي من خلال مقامات الحريري» وفي «التصوير الإسلامي الديني والعربي» وكذلك في «القيم الجمالية في العمارة الإسلامية » وفي «التصوير الفارسي والتركي» .

ومضات في حياة ثروت عكاشة

وقد يكون من الصعب الاحاطة بتاريخ حياة ثروت عكاشة الزاخرة بالأحداث والمفعمة بالنشاط الثقافي والغنية بالاتصالات المتنوعة سواء وهو يعمل في الجيش أو في السلك الديبلوماسي أو في المجال الدولي ، ولكن هناك مع ذلك بعض الأمور التي لا يمكن اغفالها والتي تعتبر معالم في تاريخ حياته الثقافية واسهاماته في خدمة الثقافة كما تكشف في الوقت ذاته عن ارتباطه القوي بمصر وانتمائه للوطن انتماء شديدا كان يملك عليه فكره ووجدانه طيلة الوقت ويقود خطواته ويوجه قراراته في مجال الثقافة ، وهو المجال الذي يهمني هنا في المحل الأول .

الأمر الأول . هو علاقته برينيه ويج التى كانت البداية الحقيقية لدخوله إلى عالم الفن الرحب الفسيح ، فقد كانت زياراته أثناء إقامته بباريس إلى متحف اللوفر ويصاحبه فيها رينيه ويج هى المفتاح الذى فتح أمامه أسرار الفن ، إذ كان رينيه ويج يشرح له في كل زيارة اللوحات التي يضمها جناح واحد فقط من أجنحة المتحف مما كان له أثره فى ذلك التعلق الشديد الذى يصل إلى حد العشق العميق القائم على الفهم والوعى بروعة فنون العالم والفلسفات التى تكمن وراءه ، وهو ما ظهر بشكل واضح فى موسوعة «العين تسمع والأذن ترى» .

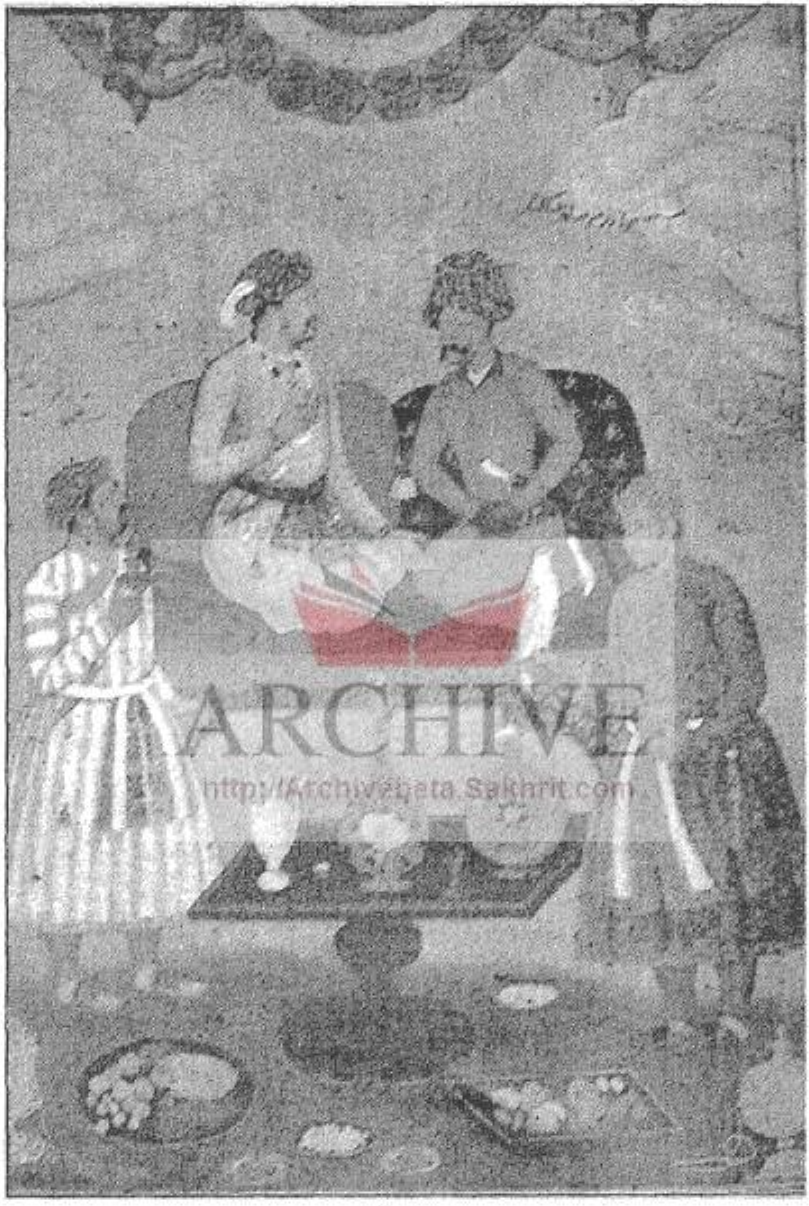
الأمر الثانى : هو صداقته مع أندريه مالرو وزير ثقافة فرنسا وهى صداقة من نوع خاص أدت إلى أن يقدم مالرو من المساعدات لوزارة الثقافة المصرية ما جعل ثروت عكاشة يقول لى أثناء إحدى مقابلاتى معه «إن مالرو كان يعمل معه كما لو كان هو وزيرا للثقافة فى مصر» وذلك فى ضوء حجم تلك المساعدات وتلبيته لرغبات ثروت عكاشة ، وهى مواقف لا يمكن أن تصدر إلا من إنسان مثقف وكاتب ملتزم له حجمه ووزنه فى عالم الأدب والثقافة إلى جانب كونه وزيرا للشئون الثقافية في بلد مثل فرنسا ، وكانت أحاديثهما مصدر وحى لتنفيذ مشروع الصوت والضوء فضلا عن التسهيلات التى قدمها لتنفيذ مشروع ثروت عكاشة عن فن التابيسيرى الذى أطلق عليه اسم «فن النسجيات» ، وكتاب ثروت عكاشة «مذكراتى فى السياسة والثقافة» يضم كثيرا من التفاصيل الشائقة عن هذا المشروع والخطوات التى اتخذت لاخراجه إلى حيز الوجود بل والدوافع الوطنية وراءه .

أما الأمر الثالث : الذى أود الاشارة إليه فهو علاقته الطيبة برينيه ماهيه حين كان نائبا لمدير عام اليونسكو ثم بعد ذلك مديرا عاما لتلك المؤسسة الثقافية وقدرته الفائقة على الاقناع، التى سهلت إلى حد كبير جدا تنفيذ المشروع الدولى الضخم الذى يعتبر قمة نجاح ثروت عكاشة فى عمله كوزير للثقافة كما يعتبر فى الوقت نفسه هدية مصر إلى العالم وإلى الثقافة العالمية وإلى الحضارة الإنسانية، وأعنى به مشروع انقاذ آثار النوبة الذى تم بمعاونة دولية نتيجة للأسلوب الراقى الذى قدم به ثروت عكاشة المشروع للرأى العام الدولى المثقف ، ولست هنا بصدد الحديث عن تفاصيل هذا المشروع أو الجهود التى بذلت لاخراجه إلى حيز التنفيذ لأن القصة مسجلة فى كتاب «مذكرات فى السياسة والثقافة» وإنما أريد فقط أن أشير إلى موقفين متعارضين من دولتين من دول الغرب إزاء مشروعات مصر الثقافية ، وهو تعارض له مغزاه ويستحق التأمل والتفكير العميق ، فبينما نجد أن فرنسا بخاصة أيام أندريه مالرو تسارع فى المشاركة فى تنفيذ تلك المشروعات إيمانا منها بأهمية الثقافة فى حياة الشعوب، وفى حياة المجتمع الانسانى نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية حين ترى آثار النوبة معرضة للغرق أيام بناء السد العالى تعرض (شراء) بعض المعابد بالمال بدلا من أن تسهم بهذا المال فى انقاذ تلك المعابد التى تعتبر فى آخر الأمر تراثا



لوحة من
معراج نامة
التي نشرها
د. ثروت
عكاشة في
كتابه
معراج نامه

الامبراطور جهانجير يستقبل عباس شاه الفرس - تصوير مغولي ١٦١٥م



د. ثروت عكاشة مع الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٣



د. ثروت عكاشة مع د. طه حسين عام ١٩٥٨ في المؤتمر العام للثقافة



ثقافيا ملكا للإنسانية جمعاء .

وقد اضطر ثروت عكاشة إلى أن يقول للسفير الأمريكي بأسلوب ساخر إنه لم يكن يعرف أن آثار مصر وتاريخها معروضة للبيع .

***

– وبعد

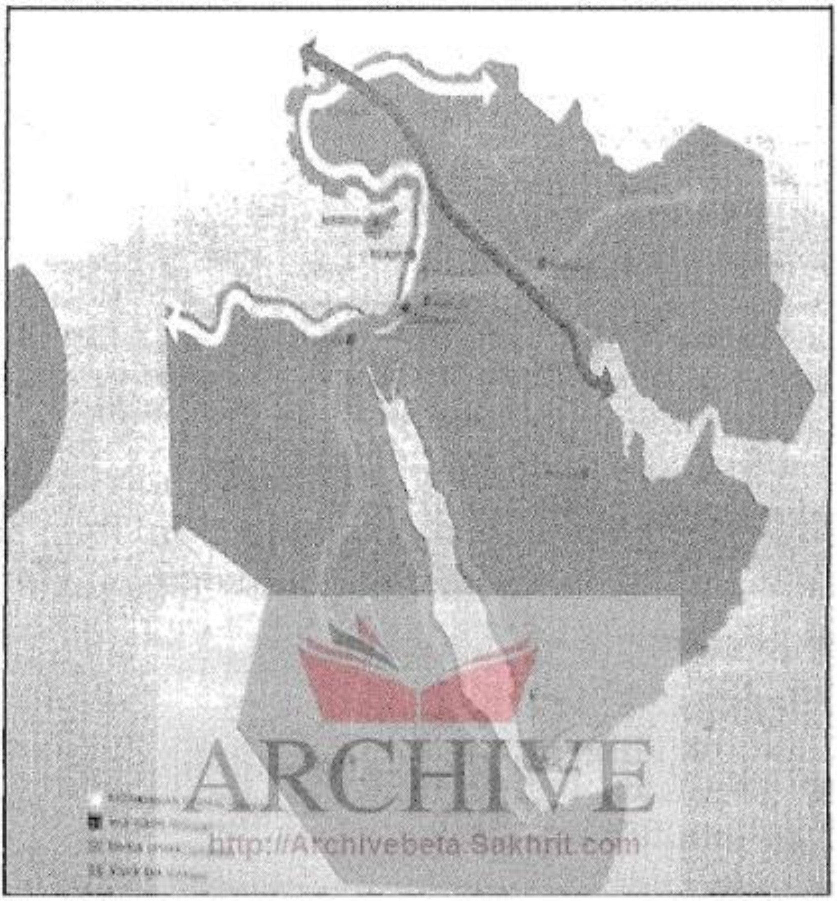
فلقد أتاح لي ثروت عكاشة وبعيدا عن كل الألقاب ، فرصة رائعة لأن أعرفه عن قرب أثناء اعدادي للدراسة التي تقدمت بها في الكتاب التذكاري أو الاحتفالي وعقد عدد من اللقاءات معه ، ولم يكن الهدف من هذه اللقاءات الحصول على المعلومات الخاصة بحياته ونشاطه ، فهذه أمور متوفرة في «المذكرات» وإنما كان الهدف أن أعرف «الانسان الذي يقف الانسان وراء هذه الأعمال الضخمة المتنوعة.

ولقد لمست فيه أثناء هذه اللقاءات الرقة والتواضع الممزوجين بالكبرياء والاعتداد بالنفس واحترام الذات في غير غرور ، مع الالتزام الشديد في السلوك والعمل والتفكير ، مع حب مصر بغير حدود ، وقد امتزجت كل هذه العناصر في وحدة متكاملة ومتجانسة رغم تنوعها ، واستطاع تطويع هذا كله لخدمة الثقافة والعمل الوطني بحيث كانت مصر دائما في ذهنه وفي خاطره ونصب عينيه وملء عقله ووجدانه ، وأدركت مدى عمق إيمانه بمصر وحضارتها ، وهو إيمان يقف بغير شك وراء نشاطه الكثير المتنوع الفريد .. كان حب مصر مثلا وراء حرصه الشديد على الاحتفال بألفية القاهرة عام ١٩٦٩ أي بعد عامين اثنين من هزيمة ١٩٦٧ المريرة ، لكي يبرهن على أن مصر قد تهزم في حرب ولكنها لا تنكسر أبدا كشعب ومجتمع ووطن وتاريخ وحضارة .

وعرفت أثناء هذه اللقاءات كيف أن احترامه لنفسه كان حجر الأساس الذي قام عليه احترام الآخرين له وتعاونهم معه من منطلق الثقة في تكامل شخصيته ، ويستوي في ذلك التعاون مع أندريه مالرو وزير ثقافة فرنسا في وقت لم تكن العلاقات السياسية بين مصر وفرنسا في أبهى صورها ، أو تعاونه مع اليونسكو في مشروع انقاذ آثار النوبة ، وكلها دروس خليقة بأن تعرفها الأجيال الجديدة التي تفتقد مثل هذه القدوة .

وفي عصر تغلب عليه السرعة وتعطي أهمية وأولوية للكم على الكيف كنوع من الدعاية المظهرية الخداعة ، كان ثروت عكاشة يقف دائما إلى جانب الإبداع الثقافي الرفيع ، وأعماله ذاتها وتكليفاته للآخرين تكشف عن هذه النظرة الراقية المتسامية إلى الثقافة في كل أشكالها ومجالاتها .

تحية إلى ثروت عكاشة ، وشكرا له على كل ما قدم وما سيقدم في مستقبل أيامه للثقافة الرفيعة ، وعسى أن تكون في حياته وثقافته وإبداعاته وإيمانه بمصر الثقافة والحضارة وبرسالة الثقافة في المحافظة على (انسانية) الإنسان عظة وعبرة للمثقفين .



سنة ٢٠٠٠ سوف تتخطى الاتصالات والمواصلات كافة الحدود فى الشرق الأوسط، وستقوم حركة مواصلات واسعة بالطيران، وبناء الطرق السريعة وتحقق أن الطريق الذى يقطع المسافة بين تركيا والمغرب ويتم إنشاؤه بجهود دولية

خريطة الشرق الأوسط كما رسمتها إسرائيل بعد يونيو ١٩٦٧

بقلم: الدكتور محمود عبد الفضيل (★)

تأرجح مفهوم «النظام الإقليمى» طوال التاريخ المعاصر منذ بداية القرن العشرين بين تصورين:

١ - تصور عربى يؤكد على «نظام إقليمى عربى» يربط هذا النظام بعملية النهوض القومى، وبأن تحقيق «الوحدة القومية» للأمة العربية هو عملية مكملة لعملية الاستقلال القطرى.

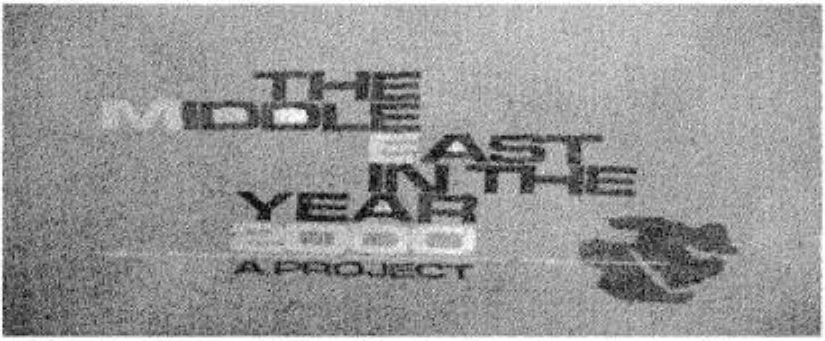
٢ - تصور نظام إقليمى يرتكز إلى مفهوم «الشرق أوسطية» وهو ليس مجرد مفهوم «جغرافى»، بل «سياسى»، أراد الاستعمار من خلاله ربط المنطقة المسماة «شرق أوسطية» بقيادة الغرب أثناء الحرب الباردة، لمواجهة الاتحاد السوفييتى.

وبمزيد من التأمل نجد أن «التاريخ المعاصر للمنطقة ما هو فى النهاية سوى تاريخ الصراع بين هذين المشروعين».

ولقد شهدنا خلال الآونة الأخيرة، إحياء متزايدا لمفهوم «الشرق أوسطية» فى العديد من الكتابات السياسية والاقتصادية حول المنطقة العربية؛ إذ يشير الكاتب الراحل «لطفى الخولى» إلى أن العروبة أو القومية العربية تسجن نفسها وتقيدها سياسيا واقتصاديا وأمنيا، إذا لم تنفتح بأسلوب واع محسوب الخطى مع كل ما فى إقليمها الشرق أوسطى من حضارات وثقافات وهويات وأسواق وتتبادل معها المصالح والمنافع.

ويخطئ من يعتقد أن النظام «الشرق أوسطى»، الذى تم طرحه فى التسعينيات، لكي يكون نافذ المفعول بعد «مرحلة بعد التسوية»، هو من بنات أفكار «**شمعون بيريز**» على نحو ما جاء فى كتاب «**الشرق الأوسط الجديد**» إذ إن مثل هذا التصور لمستقبل المنطقة يمثل جزءا لا

(★) أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة



ما وراء الزمن .. مشروع الشرق الأوسط سنة ٢٠٠٠، كتاب صدر بعد يونيو ١٩٦٧

يتجزأ من التصور الاستراتيجي الصهيوني، إذ تعود بدايات تلك الرؤية إلى «هرتزل» – مؤسس الدولة العبرية – الذى تحدث عن ضرورة إنشاء «كومنولث» يضم إسرائيل وبقية بلدان المنطقة العربية.

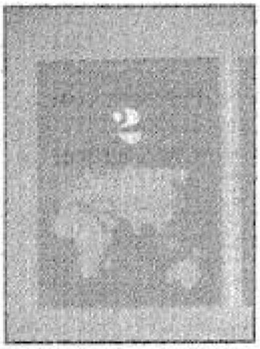
وفي الوقت الذي رأى البعض في هذا التصور نوعا من «اليوتوبيا» أنذاك، نجد أن الأمر قد انقلب إلى مشروع حقيقي، وضعت مخططاته التطبيقية الأولى غداة حرب ١٩٦٧، إذ صدرت وثيقة إسرائيلية عام ١٩٦٨ تحمل عنوان «**الشرق الأوسط في عام ٢٠٠٠**»، وهو بمثابة «**وثيقة مشروع**» حافلة بالتفاصيل حول الرؤية الإسرائيلية لمستقبل المنطقة عام ٢٠٠٠.

مشروع عملي

والعجيب في الأمر أنك إذا قرأت هذه الوثيقة الصادرة عام ١٩٦٨، عن ما سمي «جمعية السعي من أجل السلام»، ومقرها «تل أبيب»، فكأنك تقرأ من كتاب مفتوح لا لبس ولا غموض فيه. وقد جاء في التقديم لهذه الوثيقة، أن الهدف من وثيقة المشروع (وهو المشروع «الشرق أوسطي» الراهن بحذافيره) ما يلي: هو طرح تصور جرئ لمستقبل المنطقة، بعد تجاوز النزاعات خلال فترة السبعينات.

وتقوم فروض المشروع الذى تحتويه «الوثيقة» على أنه عام ٢٠٠٠، سوف يكون قد تم الوصول إلى تسوية للصراع العربي – الإسرائيلي، بما في ذلك احتمال قيام «دولة فلسطينية» وتؤكد «وثيقة المشروع» على أن هذا المشروع ليس مجرد «يوتوبيا» وإنما مشروع عملي قابل للتشغيل في المستقبل.

وعندما تنتقل الوثيقة للحديث عن الجوانب التطبيقية لتغيير خريطة ومعالم المنطقة، يتم التركيز على المحاور التالية:







لسياحة سنة ۲۰۰۰ كما تصورتها اسرائيل . وتوقع بأن شركة مصر للسياحة ستدعو لزيارة اسرائيل

١ - محور النقل والاتصالات: حيث تركز وثيقة المشروع على شبكة الطرق السريعة والساحلية الجديدة التي تربط بين بلدان «المنطقة الشرق أوسطية»، على نحو ما شاهدناه من مخططات طرحت في «لجنة التنمية والتعاون الإقليمي في إطار المفاوضات متعددة الأطراف».(★)

٢ - السوق الشرق أوسطية: حيث تؤكد الوثيقة على ضرورة قيام سوق شرق أوسطية على غرار السوق الأوروبية المشتركة.

٣ - التعاون الاقتصادي الإقليمي: وتطرح الوثيقة قيام مجموعة من المؤسسات الإقليمية الشرق أوسطية، وعلى رأسها: هيئة تنمية السياحة

(★) تغطي «المحادثات متعددة الأطراف» عددا من المجالات الحيوية: المياه، البيئة، التنمية، والتعاون الإقليمي، الأمن، والحد من التسلح. وفي إطار هذه المحادثات يتم وضع تصورات للنظم الوظيفية (Sub-Systems) الجديدة التي سوف يتشكل منها «نظام شرق أوسطي» جديد على حساب النظام العربي. وتعتبر «لجنة التنمية والتعاون الاقتصادي» من أهم اللجان التخطيطية للنظام الشرق أوسطي الجديد في إطار المحادثات متعددة الأطراف، إذ يتم من خلال هذه اللجنة وضع مشاريع مستقبلية للربط بين بلدان المنظومة «الشرق أوسطية» الجديدة في مجالات: شبكات الطرق والمواصلات، شبكات الكهرباء، التبادل التجاري، المشروعات السياحية المشتركة، المشروعات الإنمائية، والعلوم والثقافة. ويتم استبعاد إيران في الوقت الحالي من هذه المخططات التوجيهية «بينما يتم التركيز على الدور القيادي والمهيمن» لإسرائيل في كل هذه المخططات والترتيبات.

الإقليمية، هيئة المياه والرى، هيئة تنمية الصحراء، هيئة الشرق الأوسط لشئون النفط، هيئة التنمية الصناعية، هيئة الأتمتة (Automation). ويطرح واضعو الوثيقة تصورا للتقسيم المستقبلى لفروع النشاط الاقتصادى فيما بين بلدان المنطقة، على النحو التالى:

أ - تتخصص **مصر** فى الصناعات الهندسية وصناعة السيارات والحديد والصلب.

ب - تتخصص **إسرائيل** فى صناعة الإلكترونيات والكمبيوتر والصناعات الدوائية.

ج - تتخصص **سوريا** فى الصناعات الغذائية وصناعة النسيج.

د - تتخصص **العراق** وبلدان الخليج فى الصناعات البتروكيماوية.

هـ - تتخصص **لبنان** فى الأنشطة المصرفية والتجارة وخدمات الإعلام.

ولعلنا نسمع عن أصداء تلك **الهندسة الجديدة** فى الكتابات والأحاديث المتداولة هذ الأيام، حيث تستحوذ إسرائيل على فروع النشاط الحديثة «ذات القيمة المضافة العالية» مثل صناعة الإلكترونيات والحاسوب والأدوية، بينما تترك للبلدان العربية الأخرى فروع النشاط «ذات القيمة المضافة المنخفضة» مثل الصناعات الهندسية والتجميعية فى حالة **مصر**، وصناعة الغزل والنسيج والصناعات الغذائية كما فى حالة **سوريا**.

وحول **السياحة**، التى تعتبر أداة أساسية **للتطبيع** فى مرحلة «ما بعد التسوية،» تعطى المخططات دورا مهما للسياحة وانتقال الأفراد بين إسرائيل والبلدان العربية. ويصل الخيال إلى مداه، إذ تحتوى الوثيقة على «ملصق» افتراضى لشركة **مصر للسياحة** يحمل العنوان التالى:

> **اعرف إسرائيل:**
> - **زيارات شعبية.**
> - **في الأماكن المقدسة.**
> - **في الكيوبستات.**
> - **في مراكز العلم والطب.**

تصوروا أن هذا الملصق، الذى تم تصميمه بواسطة كاتبى الوثيقة عام ١٩٦٨، يكاد يصبح ملصقا حقيقيا يصدر عام ٢٠٠٠.

٤ - التعليم والبحث العلمي:

تحاول الوثيقة تسويق «الشرق أوسطية» من خلال إعطائها طابعا تحديثيا براقا، حيث يجرى الحديث عن أهمية التعليم والإنفاق على البحث العلمى والتطوير، بدلا من الإنفاق على الدفاع. وقد جاء هذا الكلام بالنص فى كتاب «**شمعون بيريز**، «**الشرق الأوسط الجديد**»، حيث تم التركيز على الأهمية المركزية لنظم التعليم والتبادل التكنولوجى ووصلات الكمبيوتر بين الجامعات العربية والاسرائيلية. وذلك للترويج للصفقة فى الدوائر الغربية والمحافل العالمية، تحت شعار «التحديث» و«الخروج من التخلف».

التقاء العلم والدين

ثم تتحدث الوثيقة فى النهاية، عن ضرورة **التقاء العلم والدين**، وأن القدس سوف تصبح نقطة اللقاء بين العلماء ورجال الدين لمناقشة القضايا التى تهم الإنسانية جمعاء! وذلك دون أدنى إشارة إلى وضع **القدس** السياسى المستقبلى.

إذ إن الوثيقة تفترض أن هذا الموضوع محسوم، وغير مطروح للتفاوض، المستقبلى، على النحو الذى نشهده هذه الأيام.

وجدير بالذكر أن تلك الرؤية «للشرق أوسطية» كانت تشمل **إيران**، فى الماضى، حيث كانت إيران آنذاك مازالت ترزح تحت «**نظام الشاه**». بينما نجد «المشروعات الشرق أوسطية» الجديدة تستبعد إيران من الترتيبات الراهنة، نظرا لطبيعة النظام السياسى المعادى لإسرائيل هناك ويجرى الآن استبدال تركيا بها.

كما يلاحظ أنه، عبر هذه الوثيقة، تم القفز على كل المشاكل السياسية والنفسية والتاريخية المرتبطة بالصراع العربى الإسرائيلى عبر مائة عام. ولعل هذا مقصود فى حد ذاته، فى إطار محاولات **محو الذاكرة التاريخية** للأمة العربية وخاصة شبابها، حتى يتم التعامل المستقبلى مع إسرائيل باعتبارها مجرد «**دولة جوار**»، مثل غيرها من الجيران مثل: تركيا أو قبرص، وكأنها لم تغتصب أرضا ولم تطرد شعبا، ولم تشن الحروب على البلدان العربية الناهضة.

كما تحوى الوثيقة إشارات واضحة إلى **عبث الصراعات**، التى تهدر الموارد وتؤخر التقدم الحقيقى (على نحو ما نرى فى بعض الوثائق الصادرة عن منظمات دولية، ويتم تداولها هذه الأيام) وكأنه ليس هناك «حقوق» وأراض يجب أن تسترد! وكأن العرب هم الشعب الوحيد فى العالم المطالب **بالتطبيع الفوري والقسري**، بعد تاريخ مرير من الصراعات، دون أن تكون هناك تسوية عادلة للصراع.

إنهم يعرفون ما يريدون!

أعرفتم الآن أين تم طبخ مشروع «الشرق الأوسط الجديد»، عند نهاية الستينات، وكيف تم «تسويقه» دوليا خلال التسعينات.

ولعل الفرق بيننا وبينهم، أنهم يعرفون جيدا ماذا يريدون، ولا يحيدون عنه قيد أنملة، بينما نحن «نائمون فى العسل» غارقون حتى آذاننا فى ثرثرة الندوات «حيث الضجيج بلا طحين».

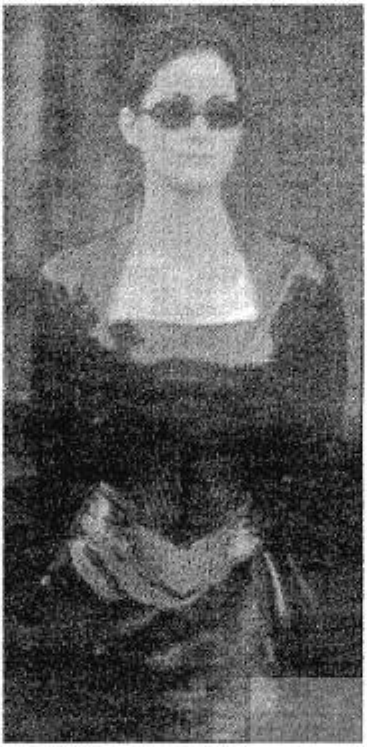
مطلوب إذن أن يتم تكثيف الجهود الفكرية والمؤسسية (الرسمية وغير الرسمية) لكى نشارك فى صنع مستقبلنا بأيدينا، بدلا أن يصبح «مقررا سلفا» لأجيال طويلة قادمة. مطلوب أن تتضافر الجهود لكى تضيق الفجوة المتزايدة بين «الوجدان العربى» الذى يرفض الكثير مما يجرى، وبين تلك «العقلانية الجديدة» التى تنظر إلى الأمور بواقعية مفرضة وأحيانا مفرطة. ذلك هو التحدى الذى يواجهنا اليوم حتى لا ندخل القرن الواحد والعشرين أسرى مخططات تعيد تركيب كيمياء البشر والموارد والعقل والوجدان فى وطننا العربى.

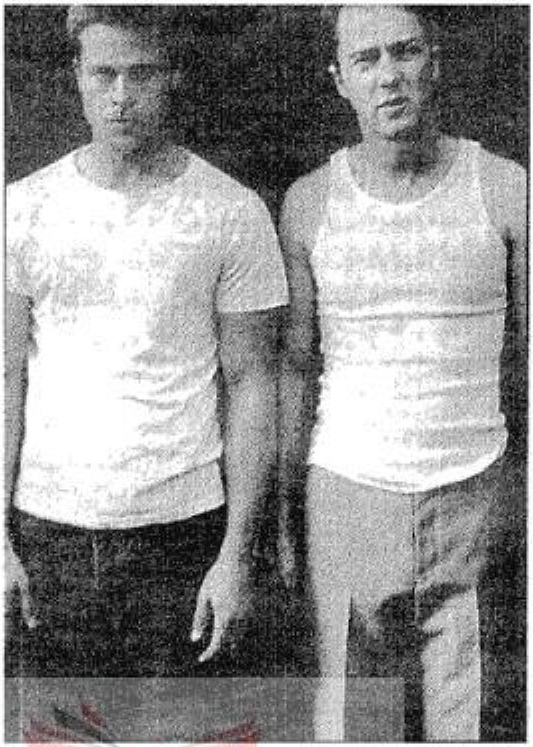


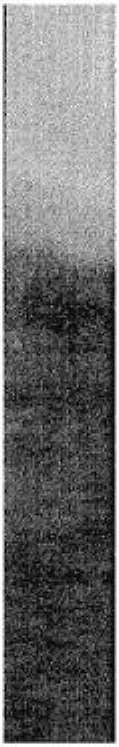
سليبى هولو - أو اسطورة الفارس الغامض

علم وإيمان وأمريكي عليل

بقلم : مصطفي درويش







انتصار المتمرد

ادوارد وبراد فى نادى المحاربين

نظرة طائرة على الأفلام التى جرى عرضها فى دور السينما بمصر، بدءاً من انتهاء أيام العيد، وحتى يومنا هذا، تكفى لرسم صورة قاتمة لوضع السينما المصرية، المتردى على نحو لابد وأن يثير القلق الشديد فخلال مدة قاربت ربع عام، لم يعرض سوى ثلاثة أفلام، هى «فل الفل» لمدحت السباعى «ورجل له ماضٍ» لأحمد يحيى و«جنون الحياة» لسعيد مرزوق.

ورغم أنه من بين ممثلى الأفلام الثلاثة، كوكبة من المشاهير، مثل ليلى علوى وإلهام شاهين وفاروق الفيشاوى وكمال الشناوى رغم ذلك لم يستمر عرضها العام سوى بضعة أيام.

ولا أحد ممن شاهدوها إلا ولعنها، ولعن الزمن الوغد الذى فتح الباب على مصراعيه، لانتاج مثل هذا النوع الهابط من الأفلام.

والغريب أن فيلمين من بين هذا البلاء من إنتاج التليفزيون المصرى الذى ولد عملاقا، ثم أخذ يتأقزم على مر الأعوام.

ومع هذا الانهيار، وغياب الفيلم المصرى عن الساحة، سدت الفراغ أفلام مصنع الأحلام.

هيمنة أوسكار

فلأول مرة، ربما منذ نصف قرن من عمر الزمان، ها هى ذى الأعمال السينمائية التى كانت مرشحة لأوسكار أفضل فيلم، وهى خمسة لا تزيد، معروضة على شاشات دور السينما فى القاهرة والاسكندرية، أو على وشك أن تعرض عليها، فى وقت جد قريب.

فمنذ أكثر من شهرين والجمال الأمريكى الفائز بخمس جوائز أوسكار معروض فى المدينتين دون انقطاع، وبنجاح قل أن يكون له نظير خاصة وأنه بجدة أسلوبه، خارج عن المألوف فيما ينتجه مصنع الأحلام من أفلام.

وكذلك الحال مع «الحاسة السادسة» فهو الآخر كان مرشحا لأكثر من جائزة بينها أوسكار أفضل فيلم ومنذ عدة أسابيع يجرى عرضه فى المدينتين بنجاح رغم أنه لم يفز بأية أوسكار.

وقبل أيام جرى عرض «المساحة الخضراء»، ذلك الفيلم الذى كان مرشحا بدوره لأوسكار أفضل فيلم، وكان أحد نجومه، الممثل الأسود مايكيل كلارك دانكان مرشحا لأوسكار أفضل ممثل مساعد.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن النجم «توم هانكس» الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى مرتين، يلعب فى الفيلم دورا محوريا.

وما هى إلا بضع ساعات، ويجرى عرض «المطلع» المسمى عندنا بالدخيل أحد الأفلام الخمسة التى كانت مرشحة للأوسكار.

وعلى شاشات دور السينما يجرى عرض مقدمة فيلم شروط عصارة التفاح الذى كان مرشحا لسبع جوائز أوسكار، بينها أوسكار أفضل فيلم.

وخرج من مضمار التنافس، متوجا بأوسكارى أفضل سيناريو مبتكر، وممثل مساعد «مايكيل كين».

القاعدة والاستثناء

أما الأفلام التى كانت مرشحة لجوائز أخرى غير جائزة أوسكار أفضل فيلم، فجميعها، فيما عدا «الأولاد لايبكون» أما جرى عرضها، أو جار عرضها حاليا، وأما فى طريقها إلى شاشاتنا فى أجل غير بعيد.

ومن بين تلك الأفلام أذكر على سبيل التمثيل «طرزان» «سليبى هولو» «نادى المحاربين»، «نهاية علاقة غرامية»، «السيد

ريبلي الموهوب» و«المتمرد» - الماتريكس والفيلم الأخير قد جرى تتويجه بأربع جوائز أوسكار، وهو ثاني أفلام الأخوين «داني» و«لاري تشوفسكي» ولأمر غير مفهوم، تخوفت إدارة الرقابة على المصنفات الفنية، في عهد بائد، من مخاطر الترخيص له بالعرض العام، فاستأنست برأي اللجنة العليا للرقابة، المشكلة من رجال فكر يشهد لأرائهم بالإتزان.

ورغم أن تلك اللجنة لم تر في الفيلم ما يشين على نحو يتهدد حسن الآداب والنظام العام، فإن إدارة الرقابة جنحت إلى إصدار قرار يحظر عرضه، الأمر الذي حدا بأصحابه إلى الطعن في قرارها أمام لجنة التظلمات.

ولحسن الحظ كانت تلك اللجنة أكثر فهما لطبيعة الفيلم، وتقبلا له، فألغت القرار الطعين.

وهنا، قد يكون من المناسب أن أذكر أن فيلم «سليبي هولو» - «أسطورة الفارس الغامض» الفائز بأوسكار أفضل تصميم للمناظر، كان أوفر حظا.

فلم يمر بمحنة المنع التي مر بها «المتمرد»

أما لماذا نجا من تلك المحنة، فذلك لأن الرقابة لم تر فيه من السيئات سوى سيئة واحدة، فاكتفت بحذف اللقطة المنطوية عليها.

وهكذا أراحت واستراحت..

وقبل الحديث عن هذا الفيلم المحظوظ، أرى من المفيد أن أتناول بالحديث فيلما آخر أشاد به النقاد في شبه اجماع، ورشحه البعض لأكثر من جائزة أوسكار، لاسيما ما كان منها متصلا بالاخراج والتمثيل، وأكبر الظن أنه مرشح لها مع بداية عام ٢٠٠١ ذلك الفيلم، ويعرض عندنا منذ عدة أسابيع، هو ايرين بروكوفيتش لصاحبه ستيفن سودربرج الفائز أول أفلامه «جنس، أكاذيب وشريط فيديو» بجائزة مهرجان كان الكبرى «السعفة الذهبية».

ولأنه هو والمطلع - الدخيل كلاهما فيلم ذو رسالة، وكلاهما مستوحى من قصة حقيقية تدور حول نضال امرأة «بروكوفيتش» في الفيلم الأول حيث تؤدي دورها النجمة جوليا روبرتس، وحول نضال رجل «جيفري وايجند» ويجند في الفيلم الثاني حيث يؤدي دوره النجم راسيل كراو.

وكلاهما مفخرة للسينما الأمريكية ما في ذلك شك، يضاف إلى رصيدها من الأفلام ذات المضمون الاجتماعي فلذلك الحديث عنهما يطول.

ونظرا إلى ضيق المجال، أرى من اللازم تأجيل ذلك الحديث إلى الهلال القادم مكتفيا هنا بالحديث عن أربعة أفلام ملأت الفراغ بجدارة لأن أصحابها مخرجون ذو منزلة كبيرة بين صانعي الأطياف.

وابدأ «بسليبى هولو» لأقول أنه مأخوذ عن قصة «اسطورة سليبى هولو» لصاحبها الأديب الأمريكى واشنطن ايرفنج ترجمها إلى لغة السينما تيم بيرتون ذلك المخرج المتميز برؤية خاصة، جعلته وحيد نوعه بين صانعي الأفلام.

ومن بين رصيده الفيلمي، أذكر رائعتيه، ادوارد صاحب الأيدى الفضية واد وود.

وفي كلتيهما لعب الدور الرئيسى نجمه المفضل جونى ديب، وسليبى هولو ثالث فيلم لهما معا وفيه يلعب ديب دور كونستابل ايكابود كرين، عاش فى نيويورك، والقرن الثامن عشر على وشك الرحيل.

ولأنه كان عقلانيا لا يؤمن بالخرافات والخزعبلات، أرسله قاضى نيويورك ويؤدى دوره النجم كريستوفر لى عقابا له إلى قرية سليبى هولو وذلك للتحقيق فى جرائم قتل، يقال أن مقترفها فارس بلا رأس، يقوم بفصل رءوس ضحاياه عن أجسامهم، ثم يعود فيلتقطها من الأرض حيث سقطت، بسيفه البتار، ويذهب بها إلى حيث يحتفظ بالرءوس المقطوعة فى مكان أمين.

ومع وصوله إلى سليبى هولو، نكتشف أنها قرية ظالمة، رجالاتها جشعون، يحبون المال حبا جما، لا يتورعون فى سبيله عن ارتكاب أمهات الكبائر.

وفى البداية لم يعر روايتهم الغريبة عن ذلك الفارس التفاتا، بل سخر منها، بوصفها اسطورة وليدة خيال متخلف، غير مساير لروح العصر.

غير أن ثقته بنفسه، وبعلمه، سرعان ما تبخرت، عندما رأى رأس قاضى القرية، تبتر أمام عينيه، بسيف ذلك الفارس، ثم تتدحرج حتى تصل إلى جواره، حيث يعود إليها الفارس القاتل، فيلتقطها بسيفه، ثم يختفى من حيث جاء.

وفى جو اسطورى يذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة، وغيرها من حكايات مدهشة، مشحونة بشطحات الخيال، ظل المحقق كرين، حائراً لا يدرى من أين جاء الفارس المقطوع الرأس، ولا إلى أين يمضى.

وتختلف عليه الأحداث إلى أن ينتهى به الأمر بعد كثير من الأهوال إلى أن يجد للغز الفارس الغامض حلا .

«ونادى المحاربين» و«نهاية علاقة غرامية» شأنهما شأن سليبى هولو من الأفلام القليلة التى تمنح النفوس خصبا وفطنة وذكاء.

ولا غرابة فى هذا، فالفيلم الأول من إخراج دافيد فنش الذى بهرنا بفيلمه «سبعة» قبل ثلاثة أعوام.

والفيلم الثانى صاحبة نيل جوردان ذلك المخرج الذى سبق له وأن سحرنا بفيلمه «اللعبة الباكية» حيث عرض لارهاب الجيش الجمهورى الايرلندى، برؤية

جديدة، وبأسلوب مبتكر، وبإيقاع لاهث، فيه من التشويق الشيء الكثير.

وفي استطلاع رأي دأبت مجلة استديو الفرنسية على إجرائه بين قرائها، قريبا من نهاية كل عام، وقع الاختيار على نادي المحاربين باعتباره أحسن فيلم جرى عرضه في فرنسا، خلال العام الأخير من القرن العشرين.

وفضلا عن ذلك، فقد كان من بين الأفلام المرشحة لأوسكار أفضل توليف للمؤثرات الصوتية.

و«نهاية علاقة غرامية» كان مرشحا هو الآخر لأكثر من أوسكار وبالتحديد أوسكار أفضل ممثلة رئيسية جوليان مور، وأفضل تصوير.

مقص غليظ!

وكلا الفيلمين جرى عرضهما عندنا، ولكن بعد حذف لقطات كثيرة بواسطة مقص الرقيب.

ومن بين ما يقال عن تلك اللقطات المحذوفة، أن مدتها تجاوزت التسع دقائق بالنسبة لفيلم نيل جوردان، وهي مدة طويلة، حتى وفقا لمعايير رقابتنا الساهرة على حمايتنا من أنفسنا.

ومع ذلك فمجرد الترخيص بعرضهما، وإن كان في صورة منقوصة، يعد عملا إيجابيا، من جانب رقابة تهاب أي فكر جديد.

والجمع بين الفيلمين في الحديث، لا يعني أن ثمة أشياء مشتركة بينهما، خلاف التقدير لهما سواء من جانب المتفرجين، أو جانب أصحاب الأمر والنهي في شأن جوائز أوسكار.

وخلاف تربص رقابتنا بهما، ووقوفها بالمرصاد لبعض اللقطات.

فنادي المحاربين مأخوذ عن قصة للكاتب الأمريكي شك بالانويك، لعلها قصته الوحيدة، فهو ليس كاتبا محترفا، ونهاية علاقة غرامية مأخوذ عن قصة للأديب الانجليزي الأشهر جراهام جرين لعلها أقرب قصصه إلى سيرته الذاتية.

فكلاهما مختلف، وكأنهما من عالمين متنافرين، وكل في سبيل، فالسرد في نادي المحاربين، كل ما فيه غريب عجيب.

فثمة بطلان، أو هكذا نتصور في البداية أحدهما، وهو الراوي، ويؤدي دوره النجم ادوارد نورتون، تستهل به أحداث الفيلم ساخطا على طريقة حياته، مغاليا في التمرد عليها، رغم الظروف الطيبة التي تحيط به.

فهو يشغل مركزا مرموقا في إحدى الشركات الكبرى، يقيم في شقة فاخرة، توافرت فيها كل أسباب الاستمتاع بحياة لذيذة، خالية من المنغصات.

وفجأة، وهو على هذا الحال يلتقي بتايلر دردن، ويؤدي دوره النجم براد بت، فإذا به ينجذب إليه، ويجد نفسه عضوا في نادي المحاربين.

جيفل وهاية

وشيئا فشيئا أخذ الراوي في التحول إلى شخص آخر أقرب في تصرفاته إلى الفتوات المشاغبين.

ولن أعرض شيئا من تفصيل ذلك التحول العجيب، لأنني لو عرضت تفصيله لتنقلت بالقارئ في تيه من الرموز والألغاز.

فالراوي، حتى نهاية الفيلم، لا نعرف له اسما والأغرب، أننا والأحداث تقترب من الختام، نأخذ في التساؤل أهو، أي الراوي، وتايلر شخص واحد، أم هما شخصان، كما أوهمنا سياق الأحداث.

ونظل نتساءل عما أراد إليه المخرج وكاتب السيناريو «جيم أولس» بفيلمهما هذا الرائع.

وأغلب الظن أنه إنما أراد أن يصور حالة الانفصام الحاد التي يعانيها الانسان المعاصر، والأمريكي بالذات.

فإذا ما انتقلنا إلى نهاية علاقة غرامية فسنجد أن السرد لقصة الحب بين سارة مايلز الزوجة الخائنة للرباط المقدس وتؤدي دورها النجمة جوليان مور، وبين الأديب موريس بندريكس الذي يعيش في جو مظلم من الشك والغيرة ويؤدي دوره رالف فينيس سنجده من نوع السرد الأقرب إلى التقليد منه إلى التجديد.

وهذا لا يقلل من قيمة الفيلم الفنية، وأن كان يجعله أقل منزلة من نادي المحاربين.

فالفيلم الأخير حدث يؤرخ به، وربما هو والمتمرد الماتريكس، الفيلمان الوحيدان من حصاد آخر عام في الألفية الثانية، اللذان سيتركان في فن السينما آثارا بعيدة.

الأمريكي العليل

و«توم ريبلي» هو الآخر شاب أمريكي ساخط على طريقة حياته، مغال في التمرد عليها.

وحول مأساته يدور فيلم «السيد ريبلي الموهوب» لصاحبه المخرج البريطاني المنحدر من أصل إيطالي انطوني مينجيلا مبدع الانجليزي العليل، الفيلم الفائز بتسع جوائز أوسكار قبل أربعة أعوام.

وفيلمه الأخير مأخوذ عن قصة بنفس الاسم للأديبة الراحلة باتريشيا هايسميث.

ولقد سبق للمخرج الفرنسي الراحل رينيه كليمه أن قام بترجمتها إلى لغة السينما في فيلم تحت اسم «شمس الظهيرة» (١٩٥٩).

والأكيد أنه واحد من أنجح أفلام السينما الفرنسية، وذلك بفضل اتقان إخراجه، وروعة أداء النجم آلان ديلون لدور ريبلي المخادع الوسيم، والآن، وبعد أربعين عاما، تعود شخصيات تلك القصة الشيقة إلى الشاشة الفضية، حيث نراها حية تسعى.

غير أنها في هذه المرة الثانية، نراها مرسومة بكاميرا جون سيل، مدير تصوير الانجليزي العليل.

ويالها من كاميرا أبدعت تصوير ربوع ايطاليا، خاصة الجزر المواجهة لنابلي ومدينة فينيسيا و«ريبلي» ويؤدي دوره مات دامون في الفيلم، ليس معتلا بداء جسدي قد يكون له دواء، مثل داء رالف فينس في دور الانجليزي العليل.

بئر الحرمان

انه معتل بداء من ذلك النوع الأكثر خطورة، وتعقيدا واستعصاء على الشفاء، داء نفسي سببه وضاعة المنبت، والتنكر للجذور.

فهو يعيش في نيويورك ضائعا، محروما، بينه وبين مجتمع الحياة اللذيذة حواجز من حديد.

هذا، ومن فرط هيامه بتلك الحياة، أخذ يأكل في نفسه، اتخذ موقفا معاديا من شخصيته، أخذ يتقمص شخصية أخرى زائفة بين الحين والحين، لعله بذلك يخرج من مغارة الفقراء.

والفيلم يبدأ به، وهو على هذا الحال، فمع اللقطات المواكبة للعناوين، يظهر لنا وقد نمّت حركات مفاصله عن خلل في اتزان الأعصاب، وعبر وجهه أحيانا كثيرة عن أبلغ ذل يعقب الإعياء النفسي، وأبشع غلظة وقسوة يسفر عنهما الغل المكتوم.

إنه عليل، وعلته تثير الاشمئزاز والعطف والرثاء في آن واحد.

وجاءته الفرصة سانحة في نيويورك، حيث التقى مصادفة بواحد من أقطاب صناعة السفن الواسع الثراء، اختلط عليه الأمر، فظنه زميل ابنه الوحيد ديك أيام الدراسة في الجامعة.

الكذبة الكبرى

ولأن ديك هذا ابن ضال، يعيش في إيطاليا حياة ماجنة، كلها لهو ولعب، فقد عرض الأب الثرى على ريبلى أن يسافر على حسابه إلى حيث يوجد ديك، كي يقنعه بالعودة إلى أمريكا، خاصة وأن أمه تعاني من مرض عضال، وعلى وشك الرحيل وفي ربوع إيطاليا جرى اللقاء بين ريبلى وديك، ويؤدي دوره الممثل البريطاني جودلو ،ولعله من المفيد هنا أن أذكر أنه قد جرى ترشيح «لو» عن أدائه لدور ديك لأوسكار أفضل ممثل مساعد.

وبحكم تركيبته النفسية المعقدة أشد تعقيد، انبهر ريبلى بحياة الفتى اللعوب ديك، وفتاته الحسناء مارج، وتؤدي دورها النجمة «جينيث بالترو»، الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية عن أدائها المتميز في فيلم «شكسبير عاشقا» (١٩٩٩).

ومع هذا الانبهار، يبدأ السقوط المروع، الذي يصل إلى حدّ قتل ديك، وتقمص شخصيته على نحو أتاح له فرصة العيش مستمتعا بالحياة، كما تحياها الطبقة الراقية، متجنبا بذلك طبقته الدنيا، تجنبه للجذام.

وبطبيعة الحال لم يكن دوام الحال على هذا المنوال أمرا ممكنا.

الجريمة لا تفيد

فبدءا من ارتكابه جريمة القتل تلك، ومن أجل إخفاء معالمها، قام بارتكاب جرائم قتل أخرى، يشيب من هولها الولدان.

وهكذا تحول إلى ما يشبه القاتل العشوائي، فأخذت تضيق به السبل، وأصبح حائرا بين شخصيتي ريبلى وديك، فهو تارة أحداهما، وتارة الأخرى.

وانتهى به الأمر، وقد ضاق من حوله الحصار شخصا مطاردا لا يذوق طعم الراحة والاستقرار.

ذكريات لا تنسى

خواطر عن الفن الشعبى

●● سيطرة أمريكية على تليفزيون إيطاليا وخوف شديد من سيطرة مطاعم الهامبورجر!.

●● د. صبرى السوربونى يصنع ألذ أكلة شعبية فى «طاجن ستة» !

بقلم: حسن سليمان

أهدت إلىّ زوجتى كتاباً عن الأطعمة فى العالم أجمع. تعجبت لهذا الاختيار. ذات ليلة لم أكن أريد أن أقرأ شيئا يرهقنى. أمسكت بالكتاب، ولدهشتى فوجئت بأنه ممتلىء بصور فوتوغرافية جيدة عن المطاعم والطرقات فى كل البقاع وكذلك أنواع الأطعمة المختلفة. الكلمات كانت قليلة مقتضبة: أسطر للمؤلفة أو أسطر أخذتها من كتابات بعض الشعراء والكتاب العالميين عبر التاريخ. ففى صفحة كتب «لكى تعرف شعبا لابد أن تعرف ماذا يأكل وكيف يأكل»، وفى صفحة كتب «من مستوى الأطعمة التى تأكل فى الطرقات نستطيع أن ندرك الموقف الحضارى والمادى لهذا المجتمع»، وفى صفحة أخرى نجد أسطرا مضمونها أن أهم فن شعبى عبر التاريخ هو الطعام، وهو يتطور حسب حالة المجتمع.

أغلقت الكتاب ورجعت إلى سنوات مضت، تذكرت أنه فى إحدى المرات وكان ذلك فى الخمسينات بمنزل خالى فى الهرم وقد دعا اثنين من أساتذة التاريخ - وكنت حاضراً - وهما الدكتور شفيق غربال والدكتور صبرى السربونى. تطرق الحديث إلى السياسة وأن بريطانيا تخلت عن المنطقة كلية لأمريكا وأن النظام الأمريكى مبنى على سيطرة الأنماط الأمريكية. وأكبر دليل أن اللغة الإنجليزية بدأت تحل فى الاقتصاد والثقافة بدلا من الفرنسية. وفى يوم من الأيام ستعم سلسلة المطاعم

الأمريكية، كما سيعم البنطلون (الجينز) الأمريكي الذي يرتديه (الكاوبوى) في إعلانات السجائر الأمريكية - سيعم بين طبقات الشعب . ضحك الجميع وقال أحدهما لخالي وكان قد عاد حديثاً من أمريكا : أخبرنا عن آخر التقاليع الأمريكية ، فقال لهما إسكتا سآتي لكما بها. ثم دخل وأتى بملابس داخلية من النايلون الشفاف وكان اكتشاف النايلون في ذلك الوقت حدثاً غريباً . الملابس الداخلية عبارة عن (شورت) شفاف مزخرف بداخله قطعة قماش تستر العورة فقط. ثم أتى لهما بحزام للوسط شفاف جداً من النايلون ، وأتى بقميص من القماش المطبوع بزخارف ومعه حبل - كرباط الحذاء (الكوتشي) الآن يوضع في رقبة القميص ويحكم الطرفين بقطعة معدنية ، وحذاء بلاستيك ضخم . قال لهما : تصوروا هذا الحذاء لا يدهن ويضعونه في الغسالة مع الملابس، ويرتديه أساتذة الجامعة . ضحك الثلاثة وقال الدكتور صبرى السربونى : «إنى على استعداد أن أدفع نصف عمرى كى أرى فخرى مرتدياً هذه الملابس - هل هذه الأشياء هي الفن الشعبي الأمريكي؟» . أما شفيق غربال فقال متهكما لم يبق لك من العمر بقية يا صبرى كى تتحداه . أما خالي فأجاب : هيهات !! إني أتيت بها فقط كنوع من البدع الأمريكية التى ربما ستسود يوماً من الأيام . وأجاب شفيق غربال : قطعاً أنها ستسود، فأمريكا هي الإمبراطورية الرومانية الحديثة، وأردف صبرى السربونى : لقد عمت الإمبراطورية الرومانية وسيطرت في سبعين عاماً ولكنها انهارت في ثلاث مائة سنة وكان الانهيار من داخلها لأنها كانت دون حضارة تذكر. هز خالي رأسه موافقاً ثم قال جملة لاتينية ترجمت بعد ذلك مؤداها : أن هناك مقولة في وقت حكم الرومان وهي أنهم كانوا حينما يجدون شخصاً أنيقاً ويتصرف بارستقراطية يقولون عنه إنه كآخر (الأوترسك) في روما ، والأوترسك هم السكان الذين كانوا يسيطرون على إيطاليا قبل الرومان، ولازال يحتار العالم إلى الآن في أصلهم . هل هم فينقيون أم هم من العالم القديم أتوا بمراكبهم واستوطنوا .

والجلسة كلها لم تخرج عن الثقافة أو التاريخ أو الفن الشعبي، إلى حد أنهم ضحكوا على أن أمريكا تريد أن تصنع اللحم من فول الصويا.

سألنى صبرى السربونى عن بعض أعمال الفنانين وأسمائهم، وحينما أجبته كان في كل مرة يقول لي معك حق، بالضبط كما كنت أتصور. لكنه فجأة قال لىّ : لابد أن تأتي إلىّ معهم لكى ترى مجموعتى الفنية. تهكم شفيق غربال قائلا : لقد اشتريتها بملاليم هى ومراجعك لأنك اشتريتها وقت انهيار العملة الفرنسية في العشرينات، اتفقوا على يوم نذهب فيه .

دعاية مطاعم أمريكا

مضت سنوات حتى ذهبت إلى إيطاليا سنة ١٩٦٦، وفي مترو الأنفاق وأنا على السلم المتحرك وجدت إعلانات

ضخمة لصبي وجهه منتفخ أحمر يعلوه النمش. يقضم «سندويتشا» به شيء يشبه اللحم. كتب تحته بخط كبير جداً كلمات بالإيطالية ولجهلي باللغة في ذلك الوقت سألت رفيقي قال ليّ : أن المكتوب «ليس مهما أن يكون اسمك ليفي وأمك راشيل حتى تتذوق سندويتش الهامبورجر»، وإنها دعاية عن سلسلة مطاعم أمريكية في روما. كنت أقيم عند عائلة الصحفي اليسارى الشهير في ذلك الوقت (كلانتى) وزوجته (ڤيڤيان كلانتى) كانت بالنسبة للموضة في ذلك الوقت في إيطاليا (كشانيل) في فرنسا، وعن طريقهما وصلت إلى (جاليرى چور جنيونا) حتى أصبحت أحد فنانيه. وفي منزلهم تعرفت على الشاعر الإيطالى الكبير (ألفونس جاتو) والشاعر (دانيل دولشى) و(فيتريو دى سيكا) وغيرهم من المشاهير .

وكانت المناقشات تطول حتى الفجر، وقصيدة (ألفونس جاتو) «الأشرعة الحمراء» أصبحت شعاراً لفئة من اليساريين المؤمنين بالعنف وقد سموا أنفسهم (بالرايات الحمر) وذات مرة طال النقاش واحتدم حول السيطرة الأمريكية وشرائهم خمسة وخمسين في المائة من أسهم التليفزيون الإيطالى حتى أصبحت صورة (جونسون) مقررة عليهم وكذلك شرائهم للفنانين والكتاب وترويجهم لموسيقاهم وأغانيهم التي يطلقون عليها شعبية، لكنهم انتقلوا إلى الخوف من السيطرة والتغلغل في الذوق الشعبى بالشارع الإيطالى من سلسلة المطاعم الأمريكية التي تبيع الهامبورجر. كان (دانيل دولشى) قد خرج حديثاً من تحقيق السلطات معه عن أن بعض كتاباته كانت سبباً في إثارة الشبان وتحطيمهم لبعض هذه المطاعم .

●●●●

ومضت سنوات . وذات مرة رأيت أحمد غنيم وقد كان المحامي العام للقاهرة . لكنه أصر على الاستقالة بعد أن أفرج عن (انتفاضة الحرامية)، وامتهن المحاماة بشكل حر. كنا في رمضان ولم يكن يأتى إليّ إلا حينما يكون مهموما. قال ليّ : تصور أنهم يريدون أن يلفقوا قضية إلى عامل مسكين في مطعم يبيع الهامبورجر. فقد أخذ مفتش الصحة سندويتشاً من الهامبورجر ليحلل اللحم فإذ بالتحليل يثبت أنه لا أكثر أو أقل من دهن خنزير مضافاً إليه فول الصويا، وإذا بهم يلصقون التهمة بالعامل الصائم لتتنصل الشركة المستوردة من التهمة . وقد رفض أحمد غنيم قضية الشركة وتبنى الدفاع عن العامل مجاناً.

وذات مرة أتى إلي (روبرت ترنر) وهو الآن مضيف ضمن أشهر مهندسي القرن الواحد والعشرين. كنا نعمل سوياً في مشروع حين كان على رأس مهندسي التجمع المعمارى (إسيكدمور آند ماير). قلت له ليس لدينا وقت، دعنا نذهب إلى (ماكدونالدز) لنأكل بسرعة ونتمم العمل. فجأة وجدته ساخطا وصاح : «هل تسبني؟ إننا نطلق على هذا الطعام في أمريكا (الزبالة). إن سندويتش فول

أحسن وأفيد بكثير».

●●●●

ولنرجع ثانية لموضوعنا . جاء يوم ذهابنا إلى الدكتور صبرى السربونى أنا وخالى والدكتور شفيق غربال ، ونحن فى العربة قال خالى : حتى لا تفاجأوا سأخبركم بما سيلى - ذات مرة رجع إلى زوجته الفرنسية مهللاً وهو يقول وجدتها . وجدت حلم حياتى . وجدت المنزل فى الزيتون واستأجرته وسننتقل إليه أخيرا . حينما رأت زوجته المنزل كاد يغمى عليها . فهو منزل تركى قديم . أشجاره جفت والحديقة ممتلئة بأوراق الشجر التى سقطت عبر سنوات متتالية، وهناك نافورة ضخمة رخامية فى وسط الحديقة . المنزل غطاه التراب. وزجاج النوافذ محطم . تصورت زوجته ما ستقوم به عبر أشهر وأشهر حتى تجده يليق بالسكن . أصر صبرى السربونى على ألا تزال أوراق الشجر الجافة من الحديقة، فصوتها تحت وطء قدميه يحمل إليه همس موسيقى الحياة! ولكى يكمل حلمه بنى فى ركن من الحديقة فرنا بلدياً، وأخذ ينقل مكتبته الضخمة جداً بمراجعها وصوره الفنية التى يدعى أنها أصلية لكن خالى كان يشك فى أنها نسخ متقنة عن الأصل . حينما ذهبنا إلى المنزل وجدناه كما وصفه خالى . وزوجته وأولاده كانوا غائبين فى فرنسا .

قال لىّ الدكتور صبرى وهو يحشو غليونه : «تعال يا جاهل أريك مجموعتى. أما هما فدعهما للتاريخ فهما لا يفهمان شيئا فى الفن». أخذنى من يدى لأرى صورة صورة. يقص علىّ ظروف شرائها . بعض الصور كان أصلياً. والبعض الآخر منقول عن الأصل باتقان وقلة كانت سيئة. تناقشنا . قال لى : «اسمع يا جاهل ، ولا تظن أن جاهل هنا صيغة ذم بل هى مديح، فالآخرون أميون بالنسبة لىّ. تعالى معى نطبخ حتى أريك كيف يكون الطبخ وندعهما مع الكتب . أولاً سنعد السلطة الأمر ليس سهلاً بل هى نسب دقيقة من أنواع خضار السلطة البلدى وكذلك الدقة بالنسبة للبقدونس والشبت المفروم والبصل ثم نقطع قطعا صغيرة جدا ويضاف إليها نصف قرن من الفلفل الأخضر الحامى . قال هذا وهو يعمل فى التقطيع ثم نضيف الخل ولابد أن ندقق فى اختيار الخل فالخل المغشوش يفسد السلطة ، ونعصر الليمون ونضيف زيت الزيتون ثم نقلب الكل مع قليل من الملح ثم ندعها تختمر قليلاً.

كانت قائمة الطعام التى سأساعده فيها هى صلصلة الطماطم بلحم الضأن والثوم التى تسمى (الدمعة)، ولدهشتى فعل شيئا لم أر أحدا من قبل يفعله .

أخذ قطعة من الخبز وقال لابد أن تكون خبزاً بلدياً وحمرها فى السمن ثم سحقها حتى أصبحت ناعمة وأضافها على الصلصة حتى يكون لها قوام . أما الطبق الرئيسى فكان أرز معمر فى الفرن البلدى بالكلاوى، وحينما وضع الطعام على المائدة قال خالى : من أين أتيت بهذا الطاجن إنه من العصر العثمانى. قال الدكتور صبرى : لقد أخذته من منزل جدتى . ضحك شفيق غربال وقال : «يعنى

إنت اللى شايل طاجن سته»، وسألا خالى كأنهما يمتحناه : كيف عرفت ؟ فأخبرهم أنه عرف من استدارته ومن موقع أذنيه ثم أردف لقد بنى (بترى) نظرياته عن التاريخ القديم من الفخار الشعبى المستخدم فى الحياة اليومية. فحفرياته فى (تل الهيسى) فى فلسطين ، والتى طبقت نتائجها على حفرياته في مصر. أخذ قطاعا من التل يزيل منه الأتربة إلى أسفل طبقة طبقة وفي كل طبقة كان يجد نوعا مختلفاً من الآنية الفخارية حتى وصل إلى وقت الفراعنة. بنى نظرياته عن الحياة الاجتماعية من فقر وغنى ونزوح وهجرة من بقايا هذه الآنية. وله مقولة شهيرة : أن الذهب والحلى لا تعطينا التاريخ الحقيقى للشعوب، ولكن الإناء الشعبى فقط هو الذى يعطينا الوضع الحقيقى لمستوى الشعب، من فقر وغنى وثقافة أو جهل. تطور الحديث وأخذت المناقشات تطول حول الفنون الشعبية وماهيتها وهل يمكن أن نستطيع إطلاق فن شعبى على أشكال أو أنماط خالى، حتى الزخارف بدأت بدلالة رمزية ثم استمرت وأحيانا ما كانت دلالة عن طقوس، ولا يمكن أن يكون بأى شكل من الأشكال شىء بلا معنى أو وظيفة.. حتى الرقص بدأ كنوع من الطقوس واستمر كتعبير عما به الناس من فرح ووجد، ومن الخطأ أن يؤخذ الرقص الشعبى ويجرد لكى يعرض على مسرح. فهو هنا شكل بلا مضمون، شىء بلا روح أو حس أو عاطفة . مثلاً ارتبطت كل مفردات الحضارة الفرعونية بالموت والبعث .

وانتقلوا إلى الأغانى وفوجئت أنهم يقولون أغانى لا أعلم عنها شيئاً .

قالوا : أحياناً كانت الأغانى الشعبية فى أواخر القرن التاسع عشر تحض على النظافة مثل :

ليه يا بن عمى تتجوز علىّ ليه
أجوز عليكى من وسخ رجليكى
قومى إغسليهم وأنا أرضى عليكى
ليه يا بن عمى تتجوز علىّ ليه
أجوز عليكى من عماص عينيك
قومى اغسليهم وأنا أرضى عليكى

أو تعبر كما قال أحدهم عن خفر المرأة وحيائها مثل:

لما قالوا لىّ عليه سقا وحيال القرية فضة
قلت أدل وأروح الملائة
وأقول الامرى عطش منى
ولما قالوا لىّ عليه تجار ويا سلام عليه نجار
قلت أدلى وأروح الدكان
وأقول درج البوريه إنكسر منى

وفجأة قال الدكتور صبري تصوروا كان كل شيء وقت عباس الأول بالقروش.كان المدرس يأخذ سبعين قرشاً. ثم غنى أغنية مطلعها:

حدش شاف حبيبى يا ناس
على قنطرة عباس
لابس الطربوش أحمر منقوش
بثلاثة قروش

تصوروا الطربوش المنقوش بالقصب وخيوط الذهب والفضة بثلاثة قروش!! لا أريد أن أطيل ولكن فجأة قال أحدهم: هل تعرفون هذه الأغنية ثم أكمل:

جوزينى يا أما
حـــــــاضـــــــر يا ولدى

دنك تقولي حاضر
لما خضر شنبي
بكرة سوق الاتنين
لما أبيعلك حلقي
خسارة يا أما حلقك
فيه بنت الرفضي

- انتهت الجلسة بأن الثلاثة أخذوا يغنون :

يا عم حمزة .. يا عم حمزة
إحنا التلامذة .. إحنا التلامذة
واخدين على العيش الحاف
والنوم من غير لحاف

احتدم النقاش حول أن هذا المطلع هل هو لأحد الطلبة ثم أكمل عليه سيد درويش أم أنها كلها لسيد درويش ارتجلها وهو وسط الطلبة. انهم جيل ولى ولن يعود ثانية . لم أسمع أحدهم فى هذه الجلسة يقول كلمة بلا معنى أو يخوض فى سيرة زملائه ، وكنت أنا كالاسفنجة الجافة المتطلعة والمنتظرة إلى قطرات من المعرفة حتى تتشبع من ماء الثقافة.

أما الآن فأنا لم أعد أفهم شيئاً خصوصاً فى الفنون الشعبية ولا أفهم معناها ، فأحيانا أرى شباناً وفتياناً يؤدون حركات بلا معنى. حتى وصل الأمر إلى أنه كتب فى الصحف تحت صورة : أنهم استقبلوا السياح بالفنون الشعبية، وتظهر الصورة الفتيان والفتيات وقد ارتدوا الملابس الفرعونية. لقد اختلط الحابل بالنابل. أذكر أنه منذ عشرين سنة مضت قص علىّ صاحب شركة سياحية (ر . غ) هذه القصة : أنه فوجىء بخطاب وشيك من قساوسة إنجيليين مضمونه : نرسل إليكم ثمن رحلتنا إلى مصر متضمنة حفلاً شعبياً للقرآن بما فيه الأكل.

احتار الرجل وخصوصا أنه قبطى وأخذ يسأل عن المرشد السياحى الذى رافقهم فى رحلة الأقصر، وأخيراً أتى به وسأله :

ما هى حفلة القرآن التى ذهب بالقساوسة إليها؟ فقال له كنت أمر معهم أمام سرادق عزاء لمأتم، فسألونى ما هذا وما هذا الشخص الذى يغنى ، فقلت لهم : إنه حفل لتلاوة القرآن . فأجابوا أنهم يريدون أن يحضروه فقلت لهم : أتريدونه ناقصاً أم كاملاً بالطعام . فقالوا: كاملاً. أخبرتهم ، اصبروا حتى أسأل ، ثم دخلت إلى أقارب الميت وأخبرتهم أن المرحوم كان واسع الصلات الخارجية حتى أن هؤلاء القساوسة أتوا من أمريكا وأوروبا خصيصاً ليقدموا واجب العزاء فيه وأنه يجب أن نكرمهم نحن المصريين، ويجب أن يتناولوا الطعام، فقام كل من بالمأتم يرحب بهم . أدخلوهم وأجلسوهم فى الصدارة وقاموا على خدمتهم وقت الطعام. ثار وماج صاحب الشركة قائلاً : تعلم أنى قبطى أحترم القرآن والطقوس الدينية. قال له المرشد : لماذا الغضب أنا سعيد بالنقود التى أخذتها منهم وأهل الميت مازلوا يتحاكون عن الأجانب الذين أتوا للعزاء فى الميت من الخارج ، والقساوسة أسعدتهم تلك الليلة بدليل أنهم طلبوا تكرارها ثانية . طرد المدير وصاحب الشركة المرشد من مكتبه وألغى الرحلة نهائياً .

لقد امتهن كل شىء باسم الفن الشعبى.

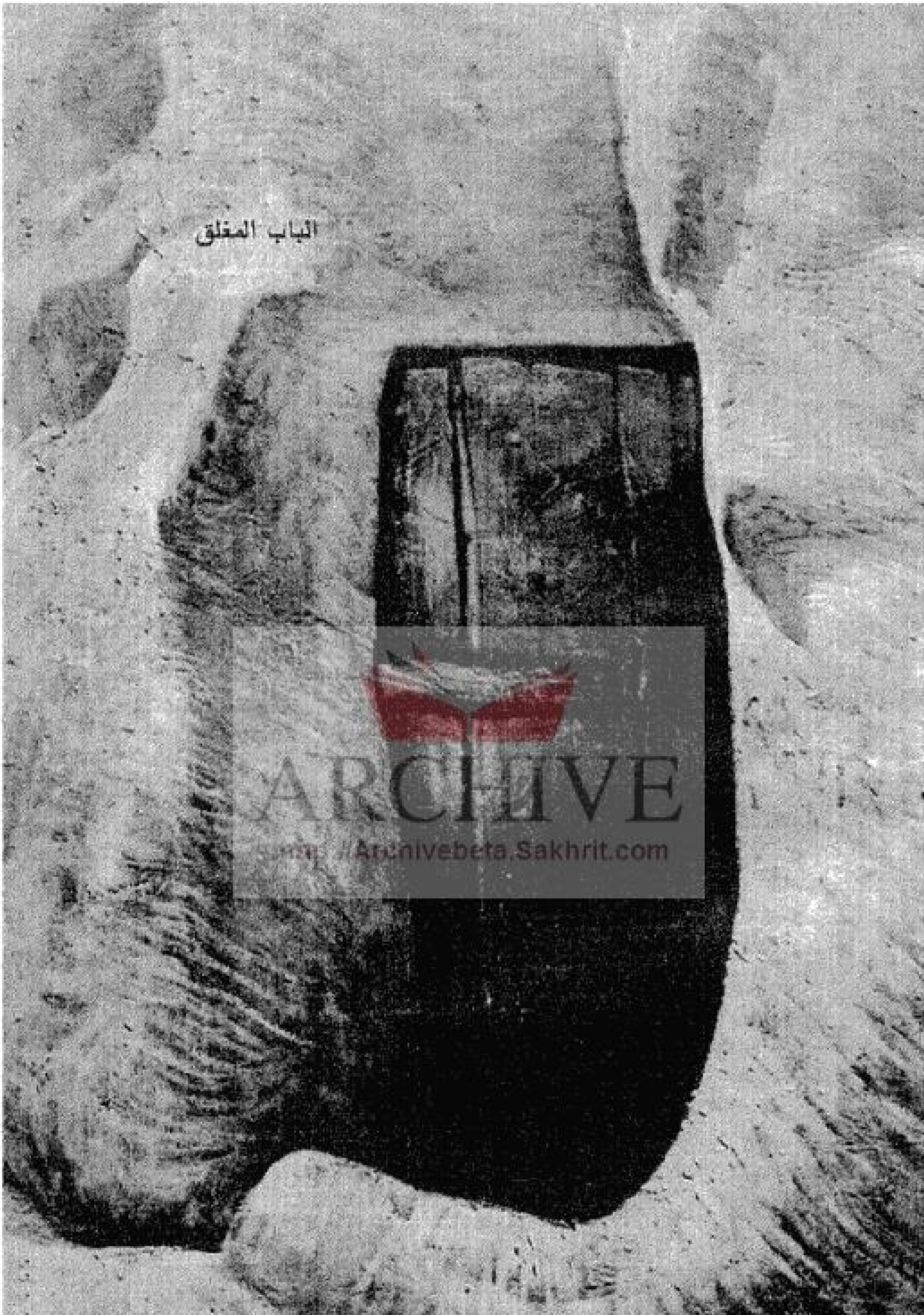


قضبان

محمود شاكر..

بين «الفن النافع» و«الفن الجميل»

بقلم : محمود بقشيش


الباب المغلق

في أعقاب كارثة ١٩٦٧ جاءت أول محاولة رسمية لتسويق الأعمال الفنيـة، كنوع من العزاء للفنانين المصريين الذين لم يتمكنوا حتى ذلك الوقت من تسويق أعمالهم الفنية بصورة تسمح لهم بأن يتعيشوا من عوائدها مثلما يفعل فنانو الدنيا الآن، حيث يُتاح لهم ذلك عبر قنوات الأسواق الدولية للفنون وعبر التعاقدات الشخصية مع الوسطاء الفنيين أصحاب قاعات العرض الخاصة. وتُعد «السوق الدولية للفن المعاصر» ومقرها «باريس» أشهر تلك الأسواق وهى قاصرة على قاعات العرض الخاصة ، المتعاقدة مع فنانيها المختارين. بادر المثال الكبير المرحوم «عبدالقادر رزق» - عندما كان رئيساً للهيئة العامة للفنون الجميلة بإقامة سوق سنوية بقاعة الفنون الجميلة بباب اللوق «أصبح مكانها الآن مشغولاً بمقر البنك الوطنى للتنمية» وبعد أن أتاحت الدولة المكان للسوق تركت الفنانين يقومون بدور مزدوج : دور الفنان المنتج ودور الوسيط المفاوض.

وكانت المساومات بين البائع والمشترى تدور وقتها فى حدود العشرات من الجنيهات، قبل أن يرفع صنّاع القرار الثقافى - من الفنانين - أسعار لوحاتهم إلى ما هى عليه من أرقام فلكية، لا علاقة لها - بالطبع - بالندُرة والتميز. ومع ذلك فليس كلُ فنانٍ يستطيع أن يقوم وحده بهذين الدورين المختلفين فى نفس الوقت، لهذا لم يفلح من بينهم إلا القليلون. ولم يستجب المقتنون - بدورهم - إلا إلى الأعمال ذات الطابع السياحى السطحى. وعلى الرغم من العائد الاقتصادى الضئيل فقد كان الفنانون ينتظرونه عاماً بعد عام، فهو - فى حدوده الدنيا - فرصة لتكوين علاقات مباشرة بين منتج الفن ومقتنيها. وقد نجح بالفعل بعضُ الفنانين فى تحقيق تلك الغاية، خصوصاً بعد أن حفز هذا السوق بعض الوسطاء إلى ترويج أعمال فنانين بعينهم، كانوا موضع اهتمام رجال المال، لما تتميز به أعمالهم من ميل صريح إلى الطابع السياحى. وكان لظهور الأثرياء الجدد دور فاعل فى انتقال بعض مبدعى «لوحة الحامل» إلى مجال إبداعى آخر هو مجال «الديكور» الذى سمح بتحالف المجالات الفنية المختلفة والصلح بين الأشكال المسطحة والمجسمة والساكنة والمتحركة، والتعايش بين الخامات المتخالفة والمتعارضة ، فبخيال المصمِم

البارع والمنفذ الماهر يُمكن للعمل الديكورى أن يجمع فى إحكام بين ما هو شديد الصلابة وشديد الهشاشة والعتامة والنعومة والخشونة في نسق واحد. ولم يكن الفنان «محمد شاكر» الذى نقدّمه إلى قارىء العربية هذا الشهر من نجوم «سوق الفنون» بل لمع اسمه فى أواخر السبعينيات كرسام متميز. وهو يعمل حالياً أستاذاً بقسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية، وقد أقام ثلاثة وعشرين معرضاً فى مجال الرسم والتصوير والفسيفساء و«الكولاج» عبر قنوات وزارة الثقافة وبعض المراكز الثقافية الأجنبية وغيرها من قاعات العرض الخاصة.

انطباع الوهلة الأولى

كان لقائي الأول بأعماله طيباً، لهذا ظلّت آثاره في الذاكرة زمناً غير قصير - أذكر أن قدمي قادتني ، بالمصادفة، إلى معرض جماعي كان هو أحد أفراده . وكان ممثلاً بعدد لا بأس به من اللوحات (خمس أو ست لوحات) وكانت كلها تدل على أن صاحبها ينتمي إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، ولم أكن في حاجة إلى قراءة بطاقة تعريفه بنفسه أو بانتمائه الشخصي إلى مدينة الإسكندرية فقد كانت اللوحات كفيلة بتجسيد هذا الانتماء، فالبحر يتجلّى فى لوحاته بصور مختلفة: تارة يشرق بزرقة تميل إلي اللون الفيروزى وتارة يستسلم لدُكنة بعيدة الغور. وفجأة يشق الظلال الكثيفُة شقاً بقذيفة ضوئية غير متوقعة ، نحسبها لحدتها أنها انتصرت على العتمة، غير أنها تغيب بالسرعة التي فاجأتنا بها عند الظهور. ولاشك أن هذا الحضور العاصف وتوقع الغياب السريع يترك فى النفس شعوراً بالقلق.

مكونات عالم لوحاته

يستلهم الفنان «محمد شاكر» مادة لوحاته من البحر ومن الأطلال الرومانية المتناثرة فى الاسكندرية. وهى مادة أولية تُلهم الرسامين والشعراء، على السواء، بما يحرك المشاعر والرغبة فى التأمل وإعادة النظر فى بحر الواقع وأطلاله. لهذا احتلت النوافذ ركيزة محورية في عالمه الرمزى. وهى نوافذ مفتوحة تطل على فضاءات سديمية.. تبدو أحياناً عميقة العتمه، أشبه بقاع محيط.

طريق مغلق

فى لوحة بعنوان «نافذة فى معبد قديم» تبدو النافذة المنحوتة فى الجدار أشبه بواحة تريح العين من رحلتها المتاهية مع تضاريس الجدار وتتعارض معه، غير أن الخدعة سرعان ما تكشف النقاب عن نفسها، فإذا بالواحة الموعودة محاصرة فى مستطيل صارم الحدود. ويبدو أن «محمد شاكر» يميل إلى هندسة الحواجز والنفور من الرحابة، ففى نافذة أخرى من نوافذ لوحاته يعترض فضاءها المخنوق بما يشبه القضبان. ويبدو أن الفنان قد أدرك أن نوافذه المحاصرة، والمعاقة كانت عبئاً ثقيلاً على النفس فأغلقها إغلاقاً صريحاً، وإن كان الغلق من نصيب باب ريفى هذه المرة! ويبدو أن التصميمات الصارمة التى صمم بها لوحاته قد أعلت من شأن القصدية الباردة على حساب دفء التلقائية وصدق المشاعر، وقد يكون هذا سبباً فى تركه فن التصوير إلى الفسيفساء، وقد شاهدت له معرضاً بالمركز الثقافى الفرنسى والمعرض أقرب إلى حالة شاء لها الفنان أن تكون تعبيراً



عن رغبة الفنان الشخصية في أن يمتع نفسه ومشاهديه بالمسرات الصغيرة. وكان المعرض قاصراً على اللعب الابتكاري بكل النفايات المتاحة في البيت وصناديق القمامة: هشيم الزجاج، بلي، أقلام من كل نوع، سلك الخ.. وحاول أن يهندس هذا الشتات. ولست أظن أن الدافع الوحيد هو مسايرة الحداثة والفن الحديث قد أتاح للفنانين التعبير بكل الخامات دون قيد. وفي ظني أن الصرامة المتجهمة التي تحكم تكويناته هي التي أفضت به - ولو لفترة قصيرة إلى تلك الواحة أو المنتجع - كما تحب - ليستعيد الفنان حيويته. وكان من الطبيعي أن يمتد ذلك اللعب المتمرد على «لوحة الحامل» إلى الحيز المكاني في الواقع، والواقع هنا: قصور الأثرياء الجدد الذين يحب أصحابها أن يحاطوا بكل أسباب الرفاهية، وقد نفذ «محمد شاكر» الكثير من واجهات تلك الدور الجديدة، كما نفذ مساحات ضخمة بالفسيفساء الزجاجية، ونفذ أيضاً جدارية بالحديقة الداخلية. ومن أهم أعماله جدارية ضخمة (حفر على الزجاج) مساحتها ٥٢ متراً مسطحاً. ونافس مثالي المطروقات النحاسية وقدم مطروقة نحاسية كبيرة مقاسها: (٢,٥٠م × ١٥,٠٠ م) ومعالجة بالأكاسيد والأحماض الملونة بقرية سياحية بالبحر الأحمر. وهو يفضل أن ينفذ مشروعاته داخل مدينته الإسكندرية. وإذا كان «محمد شاكر» يفضل أثرياء الاسكندرية فإن غيره من رسامي «البورتريه» المهرة يفضلون الأثرياء العرب الذين يسعدهم أن يجدوا الرسام الحاذق الذي يستطيع أن ينقل ملامحهم الشخصية وأن يحيطها بكل مظاهر



الفنان محمد شاكر



تكوين

الأبهة والعظمة والمجد، حتى لو لم يكن لها وجود في حياتهم !.. وقد تاهت مواهب كثيرة - للأسف - وهي تلهث وراء الذهب . أما تلك القصور والدور الفاخرة التي يمتلكها الأثرياء الجدد فلن تكون إلا سجناً للأعمال الفنية، ولن تكون مزاراً إلا للمقربين من الأصدقاء والأقارب، وللأسف فإن الأثرياء الجدد ليسوا مشغولين إلا بأنفسهم ، ولن يوصي أحدهم بمقتنياته الفنية للدولة لتكون متحفاً ومزاراً يؤمه الناس للمتعة والثقافة الرفيعة. نتمنى بالطبع أن يكون بين هؤلاء محمد محمود خليل وحرمه !! .

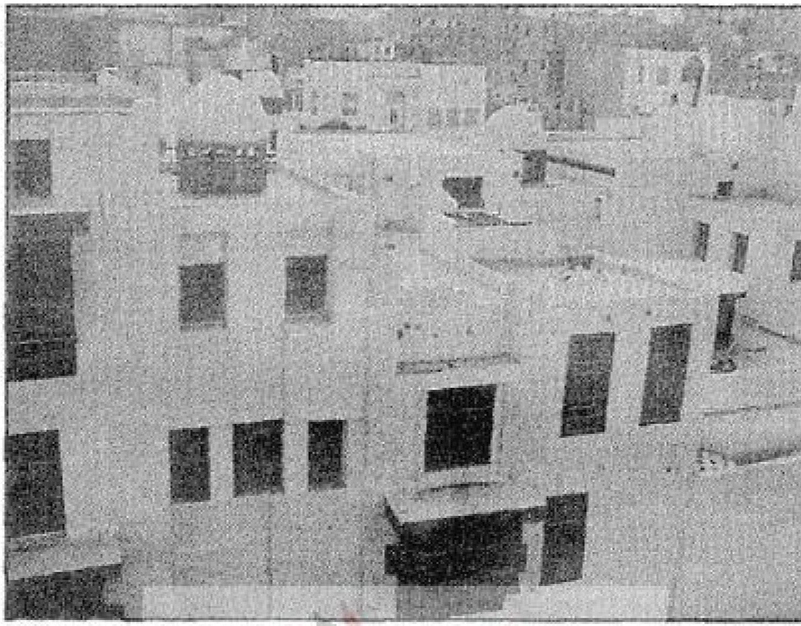
بيت السحيمى والدرب الأصفر

نموذج لما ستكون عليه القاهرة الفاطمية

أحمد أبو كف

●● بدأ تأسيس عاصمة جديدة للفاطميين حين جاءوا لمصر، والتى اتفق على تسميتها «المنصورية»..

أسسها جوهر الصقلى قائد جيوش الفاطميين.. وبدأ البناءون يحددون مساحة المدينة إلى الشمال الشرقى من الفسطاط والعسكر والقطائع، وحددوا أركانها ومدوا الحبال حولها ووضعوا فى تلك الحبال مجموعة من الأجراس، ثم طلبوا من الفلكيين أن يبحثوا فى النجوم والكواكب التى تكون فأل سعد، وإذا رأوها أشاروا للبنائين والصناع بتحريك الأحبال ودق الأجراس ليضعوا الأساسات فى الأركان لتكون إيذانا بإنشاء مدينة جديدة، ثم جاءت مجموعة غربان ووقفت على الحبال فدقت الأجراس، ووضع البناءون أساس المدينة الجديدة ●●



بيت السحيمي ولقطة من الدرج جزء من الدرب الأصفر بعد تجديده وتوثيقه وترميمه

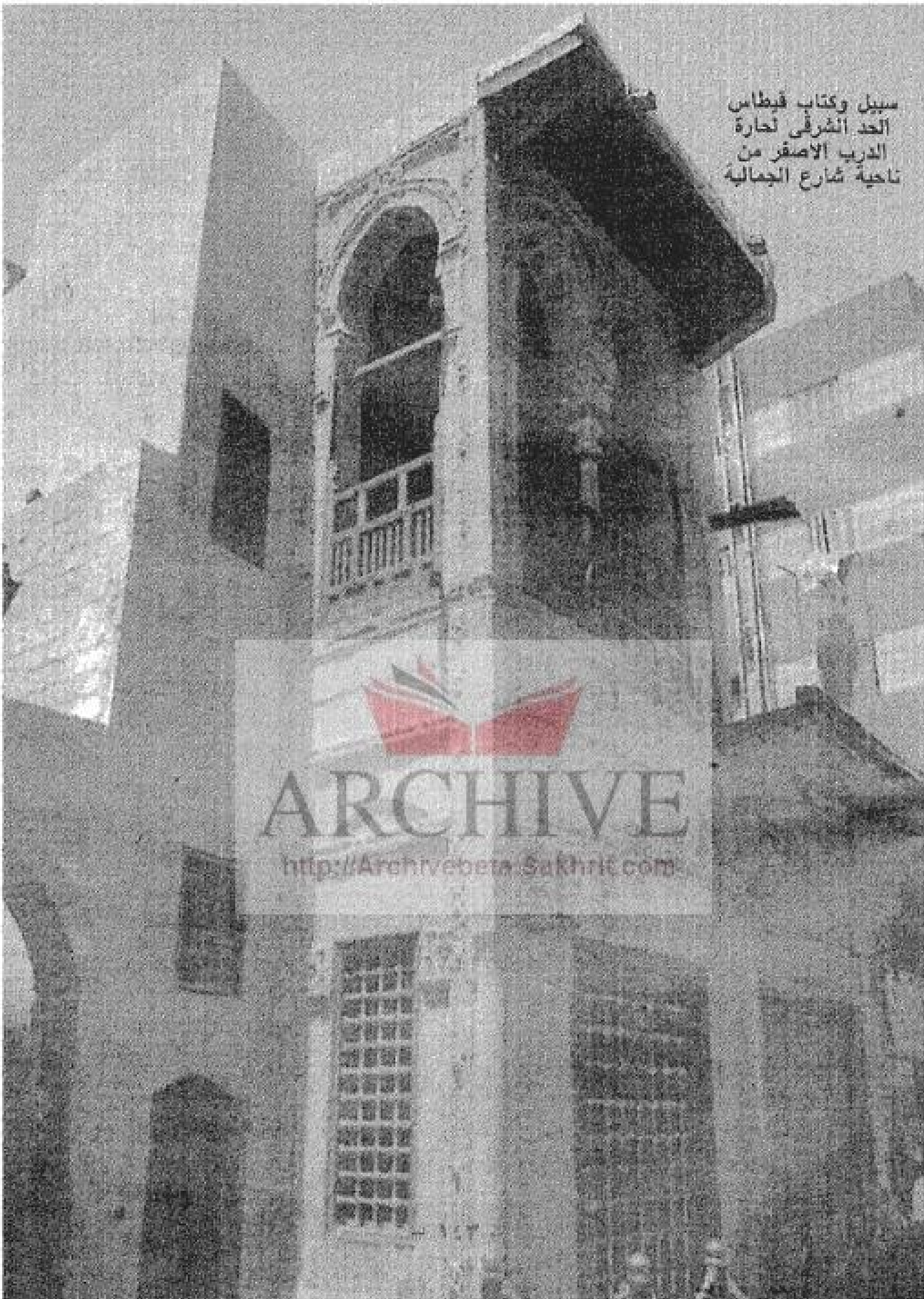
ولما استتب الأمر سأل الفلكيون عن النجم فقالوا هذا هو النجم القاهرة فسميت المدينة القاهرة.

وقد جعل الفاطميون من هذه المدينة ملكية لا يدخلها العامة ولا يسكنها إلا الأمراء، ومن أجل ذلك شيدوا قصرين في قصبة المدينة، أحدهما إلى الشرق من الشارع الرئيسي وهو شارع المعز الذى يمتد من باب الفتوح شمالا إلى باب زويلة أو المتولي جنوبا، هذا الشارع بنوا شرقه قصرا كبيرا للخليفة المعز - كما قلنا - والي الغرب بنوا قصرا آخر صغيرا عرف باسم القصر الغربي الصغير لحريم السلطان والمسافة بينهما عرفت باسم شارع بين القصرين.

كان للقاهرة ثمانية أبواب في كل من جوانبها الأربعة، في الجنوب باب زويلة وباب الفرج، وفي الشمال باب النصر وباب الفتوح، وفي الشرق باب البرقية وباب الفراخين، أما في الغرب «شارع بورسعيد» فكان باب سعادة وباب القنطرة، كما ضمت القاهرة الكثير من الحارات والأزقة والدروب، والعطوف، ومن أشهرها حارة الروم، وحارة الأمراء وحارة الباطنية، أما أشهر العطوف فهي عطفة الديلم، وقد تطورت هذه الحارات أيام الأيوبيين والمماليك، وأنشئت بها - خاصة شارع المعز - المدارس منذ



صحن المبنى الذى تطل عليه مشربيات الحرملك والسلاملك من خلال القاعات ، كما يطل عليه مستويات «طوابق» البيت الأربعه ووسطه الخضرة وبئر المياه



سبيل وكتاب قيطاس
الحد الشرقى لحارة
الدرب الاصفر من
ناحية شارع الجمالية

العصر الأيوبي لنشر المذهب السني، فبنى صلاح الدين الأيوبي المدرسة الشافعية بالقرب من المشهد الحسيني، فضلا عن بناء المدرسة القمحية، ودار الحديث الكاملية، كما بنيت الخانقاوات، أيضا وأنشأ الصالح نجم الدين أيوب أيضا المدارس.

وفي العصر المملوكي انتشرت المدارس في شارع المعز ولعل أشهرها مجموعة السلطان المنصور قلاوون والتي تجمع بين المسجد والمدرسة والقبة للدفن، والبيمارستان «أي المستشفى».، وتجاورها المدرسة الناصرية لابنه الناصر محمد بن قلاوون.

وهناك أيضا الكثير من المساجد، لعل أشهرها مجموعة السلطان الغوري «٩٠٦ ـ ٩٢٢» هـ، ثم المسجد عند باب زويلة، وهو مسجد المؤيد شيخ المحمودي والذي بني كبديل للسجن المعروف باسم «شمايل» أو خزانة شمايل وهو الوعد الذي وعد به المؤيد شيخ عندما كان محبوسا في السجن.

تلك هي ملامح القاهرة التي امتدت من جميع جهاتها واتسعت، وهي القاهرة التي عاشها وعاصرها في القرن الخامس عشر المؤرخ المقريزي وكتب عنها وعن تخطيطها.. ومن الواضح أن القاهرة امتدت من جهتها الشرقية، وتكونت ضاحية جديدة باسم الحسينية، وانتشرت بمنشآتها إلى الغرب حيث كانت تلك المساحة يحدها النيل، وسور القاهرة القاطمية، كما نشأت موانىء على النيل هي بولاق أبوالعلا وبولاق ليس كما سماها الفرنسيون «البحيرة الجميلة»، لكنها تعني الكثبان الرملية على النيل، ولازالت توجد في منطقة بولاق - وكالة البلح - الذي كان ينقل إليها البلح عبر النيل من أسوان والصعيد.

●●●

ليس المقصود بالحارة الطريق مثل ماهو معروف الآن، لكن الحارة منذ عهد الفاطميين هي قسم من مجموعة مباني المدينة تخترقها الشوارع والدروب والأزقة وبها المساجد والمدارس والأسواق والحمامات، وحتى زمن قريب كان لكل حارة شيخ يوكل إليه مباشرة أعمال الحارة، ومن أشهر حارات شارع المعز حارة البرقية، وحارة برجوان، وبرجوان كان يسكن فيها وكان أحد خدم القصر الكبير، في المنطقة التي نعرفها الآن بالجمالية.

أما ما يتعلق بحارة الدرب الأصفر، فكانت موجودة في العصر الفاطمي حارات تتفرع منها دروب صغيرة منها هذا الدرب الذي اشتمل على عديد من الآثار ومن أهمها مابني على أنقاضه عدة بيوت التي من أشهرها بيت مصطفى جعفر، وبيت الخرزاتي وبيت السحيمي في العصر العثماني.

وسميت الدرب الأصفر لأن المنشآت كانت تطل على جبل معروف بصفرته، وهناك تفسير آخر نذكره في حينه.

●●●

الذي حدث لمنطقة بيت السحيمي هو في الأصل تنمية وتطوير المنطقة وتجديد جميع مرافقها وترميم مبانيها الجديدة

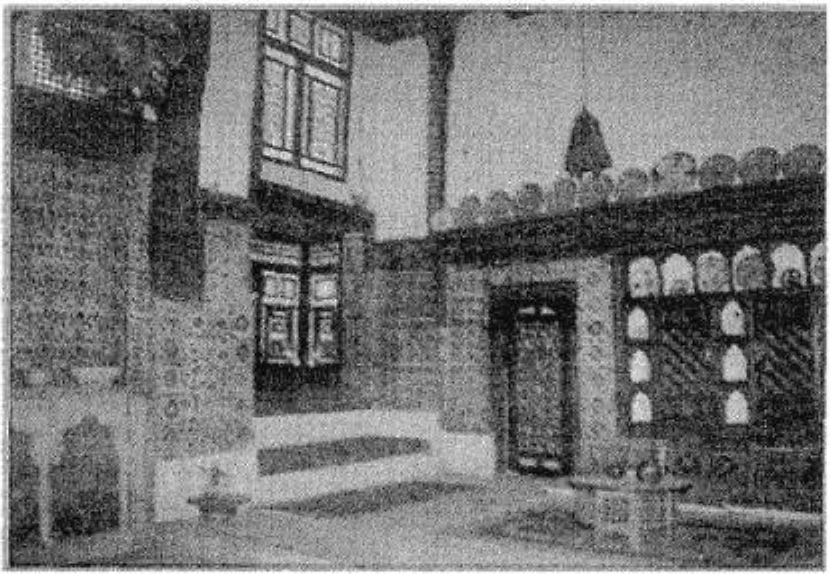
والقديمة، والحارة طولها حوالى ٢٥٠ مترا من بيت مصطفى جعفر المطل على شارع المعز إلى سبيل وكتاب قيطاس بشارع الجمالية، أمام مسجد السلطان برسباى.

والمنطقة أصلا تعود إلى القاهرة الفاطمية، يدل على ذلك تلك الآثار التى عثر عليها فى الجزء الجنوبي من بيت السحيمي أثناء ترميمه، وبجوار الساقية والطاحونة، كما يقول د. أسعد نديم، كانت حارة الدرب الأصفر انشئت على مساحة عليها مجزر القصر الكبير الفاطمي، ثم بنيت عليها البيوت الإسلامية الثلاثة، وهذه البيوت من طراز العمارة الإسلامية العريق والدقيق، والبيت الإسلامي يتكون من صحن مكشوف أو سماوي، المستوى الأرضي منه كان عبارة عن قاعات ومخازن وحواصل، تحتها أيضا سراديب كما حدث فى بيت السحيمي . أما الدور الأول أو المستوي الأول فكان يحوى قاعات مزخرفة، وحمام ساخن وبارد ودورة مياه وكان للرجال واسمه السلاملك وبه أيضا مقعد الهواء وواجهته تطل على البحرى الذى كان يجلس فيه الرجال في فصل الصيف، والقاعات ، وكلها تطل على الصحن. والمستوى الثالث كان اسمه الحرملك، وبه المشربيات التى تطل على الصحن كما أن به القاعات وكل قاعة بجوارها غرفة نوم، وبينها وبين القاعة باب مطعم بالزخارف المصنوعة من العاج.. وكانت كل قاعة تحتوي على وحدات معمارية من نوافذ ومشربيات بالخشب الخرط وإزارات خشبية أما تحوى آيات قرآنية أو أشعار أهمها أشعار قصيدة البوصيرى فى مدح النبى. كما كانت كل قاعة خاصة القاعة الكبيرة المتحف فى الدور الثاني وبها القيشاني الأزرق العثماني، كما أن بها الصفة وهى رف من الرخام على أعمدة رخامية توضع عليها الشمعدانات والأباريق وعدة القهوة وعليها الآن الأطباق الجميلة التى جيء بها من المتحف الاسلامي وايضا بعض المقاعد وبعض النافورات.

ومدخل البيت الإسلامي كما فى السحيمي كان مدخلا منكسرا على شكل زاوية قائمة، وكان لكل بيت بابان رئيسيان بحيث أن الذى يمر فى الحارة لايرى أحدا فى البيت، ولم يكن هناك شبابيك فى المستويات فوق باب الدخول والخروج، وأن وجدت فعليها مشربية ترى من في الخارج ولايراها.

وكان صحن البيت عادة ما تتوسطه نافورة وبئر، وكان المدخل والقاعات الأرضية من الحجر الجيرى الكبير والسميك، والذى يعتبر كأساس متين للبيت نفسه، وكان البناء بالقصرمل كمونة وبودرة الطوب الأحمر بخلطة يعرفها البناءون.

وكان فى كل بيت ساقية وطاحونة وآبار محفورة، وفي البيت مكان أو اسطبل حسب الحاجة وقد رممت الساقية، بعد أن نجحوا فى جعل الشجرة تنمو بعيدا عن الساقية وهذه الشجرة قديمة وعمرها من عمر بناء البيت، كما أزيحت شجرة نبق كانت مائلة على البيت فى مكان آخر مقابل ، والشجرتان أخذتا سنوات حتى استطاعوا أن يعدلوهما ولا



لقطتان من القاعة الكبيرة التى فرشت وتحولت إلى متحف بعد تزويدها بأطباق وأثاثات تعود إلى القرنين ١٧ و١٨ وفيها الخورنقات والصفات والبلاط الأزرق العثمانى



يتسببان فى كسر أو تدمير مبانى البيت أو تدمير الساقية التى رممت .

●●●

بيت السحيمى سكنه ثلاثة أشخاص، أولهم الشيخ عبدالوهاب الطبلاوى، وهو الجزء الأساسى من المنزل.. والثانى هو اسماعيل شلبى فى أواخر القرن العاشر الهجرى، وكان تاجرا، أما الثالث فهو الشيخ محمد أمين السحيمى، شيخ رواق الأتراك بالأزهر فى العصر العثمانى، وبيت الخرزاتى بين بيت السحيمى وبيت مصطفى جعفر، يبدو أن صاحبه كان متخصصا فى صناعة وبيع الخرز، ويقال أنه من نسل العائلات الفاطمية وكان تاجرا مشهورا.

وحارة الدرب الأصفر نفسها بما فيها من أزقة جرى تبليطها ببلاط معصرانى أى بعد أن جرى التعامل مع تجديد الكابلات الكهربائية وشبكات المياه وشبكات الصرف الصحى والتليفونات، كما جرى ترميم ودهان بيوت الدرب الاصفر كله وخاصة الأساسات وحجارة الأدوار الأرضية والمداخل وجرى عمل فوانيس إسلامية تضىء الحارة بالليل، وحتى مناشر الغسيل جري استبدالها بحديد مزخرف، وعمل مناشر إسلامية مثل القديمة ، كما تقول د. نوال المسيرى زوجة د. أسعد نديم، وهى أستاذة علم الاجتماع التى تعاملت مع السكان الذين رحلوا من المنطقة والموجودين فيها حتى الآن.

قال لى د. أسعد نديم بعد أن أوشك العمل على الانتهاء وفى أثناء زيارة وفد سياحى أجنبى للبيت : أن المشروع ليس ترميم وتوثيق بيت السحيمى فقط، لقد أصبح تنمية حارة الدرب الأصفر بكاملها، ولهذا جاء المشروع تنمية للمنطقة وبداية لاحياء القاهرة الإسلامية وفك مشكلاتها ومعضلاتها، والاهتمام بالبشر الذين يعيشون وسط الآثار بحيث يكون نموذجا يحتذى فى القاهرة الفاطمية.

●●●

تصل مساحة بيت السحيمى إلى حوالى ٢٠٠٠ متر، أى حوالى نصف فدان وهو فى جانبه الشرقى والبحرى محاط بسور جرى إقامته، والبيت يقع فى منطقة جذب سياحى وشيد على عدة مراحل إلى أن وصل إلى وضعه اليوم، ويتضح ذلك من الكتابات الموجودة فى مناطق مختلفة بحيث صار متحفا كبيرا.

وأقدم جزء فى البيت هو الجنوبي الشرقى الذى شيده الشيخ عبدالوهاب الطبلاوى عام ١٦٤٨م، أما الجزء الثانى فقد شيده الحاج اسماعيل شلبى عام ١٦٩٩م، ويتضمن القاعة الرئيسية فى الدور الأرضى التى تتوسطها نافورة، وهناك إضافات أخرى تمت عام ١٧٣٠م، وعام ١٧٩٦ .

والدرب الأصفر يقع بالقرب من بابى الفتوح والنصر، وهو على الضفة الشرقية من شارع المعز كما يقع فى مواجهته حارة برجوان على الضفة الغربية من شارع المعز وقد ولد وعاش فيها المؤرخ تقى الدين المقريزى عام ١٣٤١م، وبيت السحيمى تحفة فى العمارة الإسلامية والنقوش الإسلامية والقاعات، وفى الدرب

الأصفر ثلاثة بيوت إسلامية متلاصقة ، لكن بيت السحيمى هو النموذج المتكامل للبيوت الإسلامية فى القرنين ١٧ و١٨ الميلاديين، وهو تحفة هندسية إسلامية لبيوت القاهرة الفاطمية التى تحدت الزمن

●●●

ود. نوال المسيرى تولت مسئولية التنمية الاجتماعية فى المشروع واتضح أن حارة الدرب الأصفر فيها ١٠٤ أسرات، وبها ٦٢ ورشة منها ١٧ ورشة ألومنيوم وفيها معمل طرشى، وهذا المعمل قديم ربما من عصر المماليك.

ويضيف د. أسعد نديم :التراث المصرى الإسلامى ليس ملكا للتاريخ بل لذاكرة الإنسان المصرى لأنه يعيش بين أحضانه وبين حوائطه، والعمارة الإسلامية فى بيت السحيمى قدمت قبل القرن التاسع عشر مجموعة كبيرة من الحلول العبقرية التى توصل إليها البناءون والحرفيون التقليديون، وكان لبيت السحيمى خصوصية أثرية مهمة جاءت فى عدة مراحل من تاريخ العمارة مما تطلب التدقيق فى كشف العلاقة بينها ، فهو نموذج كامل لبيوت القرن ١٧ و١٨ م، يكفل الخصوصية حيث المدخل المنحرف ليحجب أهل الدار عن خارجها، والأجنحة المستقلة ذات المناور والقاعات والحجرات المزينة بالزخارف، والتختبوش، وهو الجزء الملحق بالفناء البحرى لجلوس الرجال صيفا، وكذلك المقعد فى الجزء الجنوبى وهو يستقبل الريح البحرية، وهو يعتبر ملقف هواء، ولذلك فالبناء سقفه مائل ومرتفع لاستقبال الرياح البحرية، ويدفع بها إلى الحجرات الجنوبية لتلطيف الحرارة، وتوجد المشربيات والأسقف الخشبية المزخرفة والملونة والدواليب والخورنقات المعشقة والنافورات وفنون الرخام والنحت على الحجر.

وقد تم إنشاء جمعية تنمية الدرب الأصفر لحل أى مشكلة وبالذات النظافة والقضاء على التلوث البيئى الذى يؤذى الأثر والناس، ولأنه لولا تكاتف الأهالى مع المسئولين لاحترق سبيل وكتاب قيطاس مثلما احترقت المسافرخانة، وكان لابد من تهجير ٣٠ أسرة تسكن فى تكدس بشع حجرات كبيرة مقسمة بقواطع خشبية فى بيت الخرزاتى الملاصق للسحيمى، وهجرة وتهجير هذه الأسر فى مساكن جديدة فى مدينة السلام، والأهالى رفضوا فى البداية، فاصطحبت د. نوال المسيرى شباب هذه الأسر إلى المنطقة الجديدة ثم عادوا بعد أن اقتنعوا بالنقل، وبعد أن وافقت وزارة الثقافة أن تدفع لهم ٦٠ ألف جنيه ثمنا لشققهم الجديدة وألف جنيه مساعدة أيضا لكل أسرة. وأيضا نقل حارس بيت السحيمى وأسرته.

●●●

شارع المعز هو الشارع الأعظم للقاهرة الفاطمية وأطلق عليه عام ١٩٣٧ اسم شارع المعز منشيء القاهرة. هذه التسمية ضمت أخطاطا وأسواقا منها ماهو قديم ومنها ماهو حديث وتمتد هذه التسمية مابين باب الفتوح إلى باب زويلة



الجزء القبلي من بيت السحيمي وفيه الساقية والطاحونة والبئر وأيضا شجرة الزيتون القديمة وشجرة النبق .. يمكن أن تتحول إلى قاعة كبيرة للاجتماعات والحفلات

وتشمل شارع باب الفتوح وشارع أمير الجيوش والنحاسين وبين القصرين والصاغة والاشرفية والعقادين والمناخلية والسكرية وغيرها، كما تشمل دروبا كبيرة منها الدرب الأصفر.

ولم تكن تلك المسميات كلها ولا الأسواق التى أنشئت بعد ذلك موجودة عند إنشاء القاهرة الفاطمية، لأن القاهرة الفاطمية كانت مخصصة لسكنى الخليفة وفيها القصران الكبير والصغير.

وقد وصف المقريزى مؤرخ مصر ومحتسبها الأسواق فى الشارع الأعظم للقاهرة حسب مشاهدته فى القرن الـ١٥ بقوله: وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت مملوءة بأنواع المآكل، والمشرب والأمتعة، تبهج العيون برؤيتها ويعجز العامة عما فيها من أشخاص وسمعت الكافة مما أدركت يفاخرون بمصر على سائر البلاد، ويقولون: يرمى عصر كل يوم ألف دينار على الكيمان والمذابل، يعنون بذلك مايلقى عليها من الشقاف الحمر التى يستعملها البناءون والجبانون والمتخلفة من حوانيت الطباخين، هذا عدا مايلقى من ورق البضائع وخيوطها، ومن كثرة عمران هذا الشارع والإقبال عليه أن الباعة كانوا يعرضون سلعهم فى الطريق حول الشارع، كما كان رجال الشرطة يطاردونهم بين آونة وأخرى، لتضييقهم الطريق ومزاحمتهم لأصحاب الحوانيت.

والمقريزى لم يكن وصفه لهذا الشارع فى القرن ١٥ الميلادى الذى عاش فيه وبالقرب منه فحسب بل هو وصفه لما كان عليه الشارع فى القرن ١٣ الميلادى أيضا «أى القرن السابع الهجرى» وهو صورة حية لما كان عليه الثراء فى مصر حول شارع المعز أو الشارع الكبير.

هل تعود الرومانسية من جديد

بعد أن كثر الكلام عن موت الشعر؟

بقلم: محمد إبراهيم أبو سنة

يتصور البعض أن التقدم العلمى وما يحمله من إنجازات تكنولوجية ووسائل للاتصال تغير معنى الزمن بسبب السرعة فى تحقيق رسالتها وتدفق المعلومات من خلالها، كل هذا سوف يقضى على الشعر ويوغل بالإنسان فى أعماق الآلية والبعد عن الأحاسيس المرهفة وتأمل الطبيعة والجمال، والذى لا شك فيه أن الإنسان وهو يصنع الأجهزة الاليكترونية يخضع على المدى البعيد لشروطها التى تفرضها على حياته.



إبراهيم ناجي



علي محمود طه

وكما صبغت الآلة البسيطة وجود الإنسان بالنمطية والآلية في بداية ومع تطور العصر الصناعي، فإن الإنسانية مقبلة على تطور نوعي هائل يصعب التنبؤ بعواقبه ومداه ، والذي يحدث بالنسبة للفنون والآداب أنها تدفع الإنسان لمواجهة مصيره ومقاومة الانهيار الروحي والأخلاقي. فقد ظهرت الرومانسية مع ظهور الطبقة الوسطى ونشوء عصر الصناعة وبعد أن جاءت مراحل زاد فيها الوعي بحقوق البشر والاهتمام بتكافؤ الفرص وظهرت صيحات الاستقلال والتنمية البشرية، فإن الفنون والآداب ومنها الشعر قد انعطفت نحو الواقعية، وحين هددت الحروب بويلاتها والانهيارات والتحولات المتلاحقة، القيم المستقرة فإن الفنون والآداب تحولت إلى لون من الصراخ العدمي السريالي في بعض الأحيان. والرمزي في أحيان أخرى وفي مواجهة الهيمنة للقوى الكبرى وعبودية المؤسسة ونمطية الآلة، والبطش العصري بوسائل من الصعب التغلب عليها. فإن الشاعر وجد أن القيمة الأساسية للوجود هي قيمة الحرية في مواجهة القهر والتسلط ، الذي تعددت أشكاله وأنماطه ولم يعد فقط قهر سلطة سياسية أو قوانين ظالمة. بل هناك قهر التيارات المنغلقة المتعصبة.. ورأينا في الآونة الأخيرة أن الشعر يسعى نحو الحرية بطريقة تنكرت لكل القيود والتقاليد، وانفرط النسيج الإيقاعي لينهمر النثر الهلامي، وإزاء التساؤلات حول مصير الشعر. فإن منطق التاريخ يطمئنا على أن الشعر جزء من الظاهرة الإنسانية ، فهو فطرة إيقاعية تخيلية تسعى للارتقاء بالمشاعر والوجدان .. وإذا كان التقدم العلمي سيقوم برسالته فعلا وهي حل المعضلات الأساسية التي تواجه البشرية، وتوفير الحاجات الضرورية والكمالية في زمن أقصر وبتكاليف منخفضة، والحيلولة دون التخلف والعودة إلى الوراء، والقضاء على الفقر والمرض والجهل. إذا قام العلم

برسالته الحقيقية فإن البشرية ستنعطف نحو عصر أكثر إنسانية يسود فيه العدل والسلام والتعاطف والتعاون. وهنا سيكون الوقت المكرس للاستمتاع بالفنون والآداب أكبر من الوقت الذى يتيحه زمان الأزمات.. وسيحاول الشعر أن يقوم بواجبه أيضا ضد تحول الإنسان إلى الفردية المطلقة والانعزال عن الطبيعة وعن أخيه الإنسان، وسيعود التوازن إلى العواطف الإنسانية إذا ما تمت تلبية الاحتياجات المادية الأساسية، قد تكون هذه رؤية متفائلة فهل تعود الرومانسية إلى الوجود ؟

الاقتراب من الفطرة

إن النظرة السائدة حول الرومانسية هى أنها تعبير عن الذاتية فى وعيها بواقعها، والدفاع عن هذه الذات فى مواجهة ما يهدد حريتها وحقها فى الحياة، كما أنها تمثل ضجر الإنسان من حياة المدنية بما فيها من آلية ونمطية وتعقيد واغتراب، فهى تخلق مناخا من التواصل مع قيم الحق والخير والعدل وتنشد الحب وتتعلق بالطبيعة سعيا إلى مزيد من الانطلاق، والبحث عن البراءة والاقتراب من الفطرة. وهى تتخذ من الحب شاغلا أساسيا فى مواجهة البغض والكراهية، وهى كلها عناصر تؤكد حنين الإنسان إلى التوازن الروحى والوجدانى والعقلى من خلال نفى الغربة والتعامل مع الآخرين ولا شك أننا فى عصر تتراءى فيه القيم المثالية وكأنها معرضة للتصدع والانهيار وهو ما يستدعى إطلاق نوع جديد من الرومانسية تختلف بكل تأكيد عن الرومانسية التى عرفتها أوربا فى مطلع القرن التاسع عشر وعرفها الأدب العربى فى الثلاثينيات من القرن العشرين .. ذلك أن رومانسية الثلاثينيات اتسمت بالتهويم والهرب من هجر الحبيب إلى العتاب بالأحلام والعذاب - يقول على محود طه :

أنا من ضيع في الأوهام عمره
نسي التاريخ أو أنسي ذكره
غير يوم لم يعد يذكره غيره
يوم أن قابلته أول مرة

ويقول إبراهيم ناجى فى قصيدة العائد :

أجر غربتي أيهـــا العائد
فقد ملني الداء والعائد
أجر غربتى فبلادى الهموم
وليل بطىء الخطى راكد
تقاسمنى فى نواك الديار
وأنت لى الوطن الواحد
محياك داري ومنك نهارى
إذا ضمك الصدر والساعد
أجز شفتى من عذاب الظما
أما أذن الله أن ترحما
أتمعن فى الهجر حتى تراتا
بكينا دما واحترقنا فما ؟
ولى رمق صنته كى أراك
فأشفق على رمقى ريثما
إذا طلب الحب برهـانه
من الموت لبيت كى تعلما
ليالى مرت هباء عقيما

فهل تتوالى البواقى سدى
أسائل جرحى عمن جناه
وأرنو فأستخبر العودا
فما طلعوا اليوم بالبشريات
ولا عللوا بالتلاقى غدا
فلما تنكر حتى المحب
تلفت أسأل عنك العدا
سلام على غائب عن عيونى
حملت حطامى إلى داره
وقلت لقلبى تمهل بنا
وخبىء شقاءك أو داره
تناسى الأسى ها هنا أو يقال
حملت الظلام لأنواره
أتغدو إلى عتبات النعيم
بلفح الجحيم وإعصاره

ولا شك أن هذه الرومانسية كانت انعكاسا لواقع رازح تحت ثقل العادات والتقاليد القديمة، قبل أن تهب روح الحداثة وتتحرر المرأة وتخرج إلى العمل، فيراها الرجل فى المكتب والشارع والمتجر ويتحدث إليها ويشاركها الرأى فى كثير من قضايا المجتمع، وتسقط عنها أقنعة العصور الوسطى والغموض الذى خلقه حجبها وراء الأستار الكثيفة، فتحولت بسبب ذلك كله إلى أسطورة وحلم إذا أحبه الشاعر أحاطه بالقداسة، وها هو إبراهيم ناجى ينظر إلى دار المحبوبة فيحولها إلى مكان مقدس حيث يقول :

هذه الكعبة كنا طائفيها
والمصلين صباحا ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها
كيف بالله رجعنا غرباء

وبعد سقوط الأقنعة عادت المرأة إلى هيئتها الإنسانية بدلا من هيئتها الأسطورية، وأصبح الشاعر يراها ويحبها ويهجرها وتهجره.. وترى رأيها فيه كما يرى رأيه فيها.. وهكذا تتداعى أول ملامح رومانسية التهويم.. وتبدأ رومانسية تتمسك بالحب ولكن على أساس جديد، أساس يقوم على المعرفة والمشاركة بدلا من الظن والوهم والتخمين، وهنا لن يكون مجال لصدمة تطيح بالعقل كما حدث مع الشعراء المجانين، بل حب يرتبط بالحياة ويعرف أبعادها، ويجعل من مشاركة الرجل والمرأة سلاحا فى معركة الحياة ضد الغربة والأنانية والعزلة. كما أن الرومانسية الجديدة إذا عادت ستحمل الطبيعة إلى المنزل بما تتيحه أجهزة الإرسال والاستقبال من إمكانيات تنقل بها صور الطبيعة فى البلاد المختلفة إلى كل إنسان، وبدلا من أن يقع الإنسان فى عشق طبيعة بلاده وحدها سيرى تجليات جديدة لطبيعة بلاد ربما لا يتاح له رؤيتها طوال عمره، إذا عادت الرومانسية ستعود بقيم جديدة تتأثر بتطور العلوم والفنون، وبدلا من الحماس لوطن واحد ربما ظهر الحماس للإنسانية بأسرها، وإذا كانت الأجهزة ستصنع إنسانا جديدا من الإنسان الذى صنعها، فقد يستخدمها الشاعر ليصنع منها أجهزة أكثر إنسانية تعيد إلى الإنسان حريته وعشقه للجمال والسلام والحق والخير والحرية .



دفاعا
عن الراحل
الكبير

أمل دنقل .. الإنسان والشاعر

شجر الكلام وكلام المشاجرة

«ابك عني يامن لم تعرف عينيه الدموع
ولم يعرف قلبه البكاء»
«جوتيه»

بقلم : د. فهمى عبدالسلام

في عدد الهلال مايو ٢٠٠٠ ، اتخذت الاستاذة صافي ناز كاظم فرصة الاحتفاء بديوان «شجر الكلام» للشاعر محمد إبراهيم أبو سنة ، تكأة لشن هجوم ضار علي الشاعر الراحل الكبير أمل دنقل ، الذي لا يملك الآن القدرة على الدفاع عن نفسه ، فقد رحل عن دنيانا الفانية منذ ١٧ عاما. ولن نقول إن العرف كان يحتم علي الاستاذة صافي ناز ، أن تشن هجومها الضاري وأمل على قيد الحياة ولن نقول إن الاستئساد على الموتي مسألة قد لا يراها البعض من شيم الكرام ، لأن الرد موجود وجاهز ، ألا وهو أن أمل دنقل شخصية عامة ، وأن تقييم الشخصيات العامة لا يمكن أن يندرج تحت بند اذكروا حسنات موتاكم ، فأمل دنقل شخصية عامة ، وتجربتاه الشعرية والحياتية ، أصبحتا الآن ملكا للجميع ، لكن المشكلة في كيفية التقييم ، وفي مدى الموضوعية التي ينبغي أن يتحلي بها الكاتب .



السؤال الآن ، هل تسلحت الاستاذة صافى ناز بالموضوعية الواجبة وهى تتناول تجربة أمل دنقل الشعرية ، الحقيقة أن الاستاذة صافى ناز أساءت الى نفسها كثيرا بمقالها العجيب ، والذى جاء مخيبا للآمال على كل الوجوه ، بابتعادها المدهش عن الموضوعية فى أحكامها . فهى على حد قولها وبنص كلماتها «فى كل شعر أمل دنقل لم أستسغ إلا قصيدتين البكاء بين يدى زرقاء اليمامة عام ٦٧ ولا تصالح ولو قلدوك الذهب عام ١٩٧٧» .

ولن نقول حكم جائر ظالم ، وبالمناسبة القصيدة الثانية هى «لا تصالح» وليست «لا تصالح ولو قلدوك الذهب» ، ويحق للأستاذة ألا يروق لها شعر أمل دنقل كله، وبلا حتى استثناءات ، لكن لا يحق لها أن تصدر هذه الأحكام القاطعة دون دليل أو برهان أو حيثيات من أى نوع . فهى لم

تأت بقصيدة واحدة من دواوين شاعرنا الراحل لتتيـر لنا نحن القراء موضع الضـعف أو الركاكـة في شـعـر أمل وشاعريته ، ولم تحدد لنا موضعا للعثمة الشعرية أو لاضطراب المعنى أو لسخافة الفكرة أو هشـاشـة البناء أو ترهل القـصـيـدة أو طيش المعنى . لم تفعل الاستاذة شيئا من هذا أو من ذاك ، فقد اكتفت برمي شاعرية أمل دنقل بحجارة من سجيل ، إلا القصيدتين اللتين استساغتهما ذائقة الاستاذة ، فأفلتتا والحمد لله من المذبحة .

سرعان ما تخبرنا هي بنفسها - بقصد أو بدون قصد - عن سبب هذا الحكم القاسي العنيف ، فإذا بنا أمام أسباب تنأى عن أبسط قواعد الموضوعية ، وهذه الأسباب تتلخص في أن أمل دنقل كان ينشر أشعارا حسية سمجة في مجلة الكواكب (!!!) ، وأنها هاجمت هذه الأشعار ، فكرهها أمل دنقل ، وبادلته الاستاذة كراهية بكراهية ، لدرجة أنها قذفت الشاعر أمل دنقل بكوب من الشاي الساخن (!!!) .. الحقيقة واضحة إذن ، فالحكم القاسي لم يأت إلا إثر خلافات شخصية بحتة ، لا علاقة لها بالشعر أو بشاعرية الشاعر ، السؤال الآن هل يستطيع المرء أن يثق في أحكام تحتوي على كل هذا القدر من الذاتية !! .

الحقيقة أن الاستاذة الناقدة الكبيرة صافي ناز كاظم ، لها سوابق في هذا المضمار ، ولا أقصد القذف بأكواب الشاي لا سمح الله ، لكنني أقصد إطلاقها أقسى الأحكام الذاتية ، والتي لا علاقة لها بأي تقييم موضوعي يناشد وجه الفن أو يتحلى بالأمانة الواجبة ، فحينما مات الروائي الكبير فتحي غانم ، كتبت الاستاذة وفي «الهلال» أيضا ، أنها ومنذ فترة طويلة وضعت كل إنتاج الروائي فتحي غانم في سلة الزبالة (!!!) ، لماذا ؟! هل لأن انتاج فتحي غانم لا يرقى إلى الدرجة التي تجعله ينال شرف الوجود في مكتبة الاستاذة ؟! الإجابة هي نعم ، وسرعان ما أخبرتنا الاستاذة بالأسباب كالعادة ، وكالعادة كان السبب لا علاقة له بقدرات فتحي غانم الروائية ، فقد دب خلاف شخصي بين الاستاذة وبين فتحي غانم ، حينما كان فتحي غانم رئيسا لتحرير مجلة روز اليوسف ، فأجرم فتحي غانم عندما رفض نشر مقال لها ، فغضبت الاستاذة ، وهرعت الى منزلها ، وألقت بكل أعمال فتحي غانم إلى مكانها اللائق ، إلى صفيحة زبالة الاستاذة ، والسؤال الآن هل المسألة أن يرفض رئيس تحرير إحدى المجلات ، نشر مقال لأي سبب من الأسباب ، فأقوم بإلقاء كل انتاجه في الزبالة ، حنانيك يا أستاذة ... كرهت الاستاذة أمل دنقل ، فلم تستسغ له سوى

القصيدتين وبالعافية ، أما الراحل المسكين فتحى غانم ، الذى كان أقل حظا من أمل دنقل ، كرهته الاستاذة ، فكان مكان كل إنتاجه هو صفيحة الزبالة . (....)

نزار والإعجاب بأشعار أمل

لا يسعنا حيال هذا ، سوى القول : لله الأمر من قبل ومن بعد ، لقد جاء حكمك يا أستاذة عنيفا وقاسيا ، وجاء مثل الكلام المرسل الذى لا يعتد به ولا يمكن أن نأخذه مأخذ الجد ، فشاعرية أمل دنقل لا ينقصها الاعتراف من سيادتك ، فقد نقدت أعمال أمل دنقل الشعرية الكاملة أكثر من مرة ، ومنذ فترة قصيرة ظهر كتاب ضخم (١٢٠٠ صفحة تقريبا) يضم جزءا مما كتب عن قدرات أمل دنقل الشعرية الهائلة واسم الكتاب هو سفر أمل دنقل ، وأحيل سيادتك الى الكلمة العظيمة التى كتبها الشاعر الكبير الاستاذ أحمد عبد المعطى حجازى ، فى جريدة الاهرام ، وكانت بمناسبة مرور ١٥ عاما على وفاة أمل دنقل ، كتب الشاعر الكبير حجازى أن حضور أمل دنقل الشعرى يزداد كثافة بغيابه ، ومنذ فترة وجيزة صرح د . جابر عصفور فى حديث صحفى ، بأنه مازال متوقفا عند شعر أمل دنقل . والشاعر الكبير نزار قبانى صرح فى حديث له قبل وفاته ، بإعجابه الشديد بإنتاج أمل دنقل الشعرى . والذى قدم أمل دنقل الى الحياة الأدبية ، لم يكن سوى الراحل الكبير لويس عوض حينما كان مشرفا على الصفحة الأدبية فى الأهرام ، والذى نظم أمسية لتأبين أمل دنقل فى أتيليه القاهرة فى ذكرى الأربعين لوفاة شاعرنا الراحل ، كان لويس عوض ، وحضر الأمسية حشد هائل ، وتحدث خلالها الدكتور عز الدين اسماعيل والأديبة الدكتورة رضوى عاشور والشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودى وألقى الشاعر فاروق شوشة مرثية لأمل دنقل واستمرت الأمسية أربع ساعات .

والاستاذة صافى ناز تشعر بالدهشة الشديدة كما تذكر فى المقال إياه «من الدعم المعنوى الذى يلقاه من صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى فى مواضع سلطوية (!!) فى النشر والثقافة وضبيرهما (!!)» . وبغض النظر عن التلميحات الواردة فالاستاذة صافى ناز تشعر بالدهشة الشديدة (والأدق هو الغيظ الشديد) إذ كيف يحظى أمل بدعم صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى؟، لأنهما من كبار الشعراء يا أستاذة ، وموهبة أمل كانت واضحة لهم ، وعرفنا قيمته كشاعر وكإنسان ، فشاعرية أمل دنقل تملأ عين الشمس ، وحضور أمل كشاعر ، يزداد بغيابه كما كتب الشاعر

الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ، ولا يزال الكثير من القراء وكبار النقاد، متوقفين عند أشعار أمل دنقل ، كما صرح د . جابر عصفور .

كنت أتمنى أن تحذو الكاتبة الاستاذة صافى ناز كاظم حذو الناقد الكبير الاستاذ رجاء النقاش ، الذى اعترف بخلافاته الشخصية مع أمل دنقل ، وتسامى على هذه الخلافات وأشاد بشاعرية أمل دنقل وبموهبته الكبيرة . فلم ينكر الاستاذ رجاء هذه الموهبة على الرغم من الخلاف الشخصى ، وعندما كان الاستاذ رجاء رئيسا للتحرير فى مجلة الدوحة ، نشر للشاعر حسن طلب قصيدة اسمها زبرجدة الى أمل دنقل ، لكن الاستاذة صافى ناز كما انهالت على قامة أمل دنقل الشاعر ، انهالت على أمل دنقل الإنسان بوابل من القذائف الجارحة الثقيلة ، فهو كما ذكرت نمام حقود ، يحقد على أبو سنة لوسامته (مع أنها صفة تليق بكاظم الساهر أو بحسين فهمى ولا علاقة لها بالشعر) ، وأمل دنقل (أسمته أمل قابيل) مشعل حرائق وينقل حطب النميمة ، له نفس إله الشر المزعوم ست (!!) يبدو على الرغم من صغر سنه عجوزا دائما ، أكثر المخالب تجريحا ، يسيل الدماء ، ينغرس فى كل اسم ويدميه ... وهكذا فيض مما لذ وطاب من الشتائم ، فصورت شاعرنا الكبير الراحل وكأنه شيطان رجيم يستحق أن نخرج عظامه من القبر حتى تهيم روحه معذبة فى ظلام الأبدية .

أمل .. إبن موت !

عرفت أمل دنقل عام ٧٣ ، وتوطدت بيننا صداقة حميمة ، امتدت حتى وفاته الفاجعة عام ٨٣ ، والحقيقة والأمانة تقتضيان منى أن أصحح للقارىء الكريم ، الصورة الرهيبة التى رسمتها الاستاذة لشاعرنا الراحل .

لم أر فى حياتى من يكافىء أمل دنقل رحمة الله عليه رقة وإنسانية وفروسية ونبلا، كان أمل دنقل نسيجا وحده ، كان «إبن موت» كما يقول شعبنا الطيب على الافذاذ والنوابغ الذين يموتون مبكرا ، تألق أمل دنقل بسرعة كالشهاب توهجا وألقا فى حياتنا الثقافية والأدبية ، وذوى سريعا كما يذوى الشهاب ، ومات أمل دنقل وهو على عتبات النضج فى الثانية والأربعين من عمره ، عشرة أعوام لم أر أمل دنقل خلالها يعتدى على فنان حقيقى أو على شخص ضعيف أو على إنسان مسالم، وبقدر ما كان موهوبا كشاعر ، كان على نفس القدر من الموهبة الفذة فى قراءة الناس والتعامل معهم بما يستحقون، فالفنانون الحقيقيون والطيبو القلب ، كان لهم الحب والتقدير والتعاطف مع ضعفهم الإنسانى والتسامح معهم، أما الأدعياء والمزيفون والمتنطعون ، كان أمل يجيد التعامل معهم ، وكان يتفنن فى الإيقاع بهم ثم جلدهم بلا رحمة .

أزعم أن كل ضحايا عدوانية أمل دنقل

المزعومة ، كانوا من تلك النوعية الرديئة من البشر ، وأزعم أننى لم أر مثل أمل دنقل تعففا فى النأى عن الدنايا وفى الكبرياء النبيلة وفي الاعتداد بالنفس . كان يجلس على مقهى ريش وهو الشاعر الكبير جائعا على الطوى ، وحوله من يتمنون أن يطلب أمل من أحدهم أى نقود أو دعوة للطعام أو للشراب ، فيظل جالسا يعبث بأصابعه الطويلة النحيلة كأصابع قاتل أو فنان ، فى خصلات شعره ، منتظرا مجيء صديق ، فإذا ما جاء الصديق يطلب منه أمل ثمن سندويتش فول بالبيض من محل فلفلة ليقيم الأود . كان عارا على مصر كلها ، أن هذه القامة الشعرية المديدة ، وهو إبن الأسرة الكريمة فى دشنا - محافظة قنا ، والذى هج منها بهياج شعرى طاغ ، كان عارا على مصر كلها أن يحاصر ، وأن يتم تهميشه ، فيقطن فى لوكاندة رثة بالقرب من ميدان العتبة ، وكان يخجل متى أن أراها ، فكنا نفترق فى الميدان .

كان أمل خشنا مثل شعره ، وكان رقيقا مثل شعره ، وأحبه أصحاب المواهب الكبيرة الذين يحملون بالضرورة ، نفوسا كبيرة ، فكان د . لويس عوض بجلالة قدره ، خريج كامبريدج ، والذى كان يقول عن نفسه المعلم العاشر (قائمة من معلمى الإنسانية كانت تبدأ بأرسطو وتضم السيد المسيح وتنتهى بالدكتور لويس عوض)، كان الدكتور لويس عوض يسعى إلى أمل دنقل ، وكان يبحث عنه ، ويجلس معه بالساعات ، يتحدثان فى ندية ، وكان لى شرف حضور عدة لقاءات من هذا النوع .

ذات مرة كنت فى زيارة لأمل فى معهد الأورام ، وكنا مساء يوم من أيام الجمعة ، وحضر د . يوسف إدريس الذى كان يحب أمل ويقدره ، فرأى يوسف إدريس أن أمل لم يكن مشرق المزاج كالعادة فشكا إليه أمل أن فاتورة علاجه بمعهد الأورام قد تضخمت ، وأن جهات كثيرة والعديد من المحبين والأصدقاء من العالم العربى ، عرضوا عليه خدماتهم بدفع نفقات العلاج، منهم منظمة التحرير الفلسطينية ، ومنهم الشاعر الكبير محمود درويش ، وأن أمل رفض كل هذه العروض الكريمة ، حتى لا يتم علاجه بنقود غير مصرية ، فتأثر الدكتور يوسف إدريس تأثرا شديدا ، وطلب من أمل أن يكتب قصيدة بشكل عاجل ، لأنه (د . يوسف إدريس) سيمر على أمل يوم السبت ليأخذها ، وفى يوم الاثنين فتحت جريدة الاهرام ، لأجد مفكرة يوسف إدريس (مقالات كانت تنشرها له الأهرام صباح كل اثنين) قد ازدانت بقصيدة «ضد من...؟» الرائعة ، ومع القصيدة الجميلة الشجية كتب يوسف إدريس خطابا

مفتوحا إلى د . فؤاد محيي الدين رئيس وزراء مصر ، خلال الرسالة يناشد د . يوسف إدريس في رئيس الوزراء الحالي ، ويخاطب فيه طالب الطب الثورى الذى قبض عليه مع د . يوسف إدريس فى مظاهرات الطلبة عام ٤٦ ، أن تتدخل الدولة لعلاج شاعر أقام من لونين (الأبيض والأسود) دراما شعرية عميقة مليئة بالشجن وبالذات المتوحدة على نفسها وعلى آلامها وعلى آلام الوطن ، دراما الحياة والموت والتطلع الى المجهول.

كان أمل دنقل رحمة الله عليه ، يتمتع بقوة باطنية فذة هائلة، قوة غير إنسانية فوق طاقة البشر ، وبصلابة لم أر مثلها ، وكما واجه أمل الحصار والتهميش والتجويع وإساءات العامة والأدعياء، تحمل كل هذا لاهدف له سوى الشعر ، محافظا على سلامة روحه وموهبته من أدنى تلوث، وحينما لاحت نذر الموت واجهها أمل دنقل في شجاعة نبيلة تستحق أن تكون مضربا للأمثال . وحتى نعرف الفارق ، سنقارن بين أشعار أمل دنقل خلال محنة الموت، وأشعار قامة شعرية كبيرة كقامة أمل . فحينما لاحت نذر الموت وتبدت لعيني الشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السياب، وكان السياب شاعرا كبيرا مثل أمل ، وكان السياب عاطلا عن الوسامة مثل أمل ، ولمع السياب سريعا مثل أمل، ومات السياب صغيرا مثل أمل، وحينما رأى السياب شبح الفناء ، انهار واضطرب وبكى نفسه شعرا وطلب النجاة وكتب سفر أيوب الحزين الرائع «لك الحمد مهما استبد البلاء» ، أما شاعرنا الكبير فازداد صلابة ونبلا في مواجهة الموت، فكتب أمل قصائد أوراق الغرفة ٨، كانت الغرفة ٨ هى مسرح أمل الأخير ، يتحلق حوله الأصدقاء المحبون من مصر والعالم العربى ، فيتوهج أمل شعرا وحديثا وحكايات تمتعنا وتضحكنا من قلوبنا ، وهو المريض الذى يتنفس بالكاد وهو نجم الجلسة الذى لا يبارى ، والحقيقة المرعبة ماثلة أمام عينيه ، كان أمل يراها فى عيون الاصدقاء ونظراتهم العميقة ، كان أمل يراها سوداء بلون تراب الوطن ، ولم ينخدع وهم «يوهمونه أن السرير سريره»، كان يعلم أن سرير معهد الأورام لم يكن إلا قبرا وطريقا إلى العدم، فكتب أجمل أشعاره وأرقها وأكثرها عمقا ونفاذ بصيرة، ومات الشاعر فى صيف ٨٣ ، أما أشعاره فستظل حية خالدة فى قلوب وفى وجدان محبى الشعر الجميل ومتذوقيه من أبناء أمتنا العربية .

كان لابد من تقديم صورة أمل دنقل لأجيال جديدة شابة ، قرأت شعر أمل وأحبته ، لتصحيح الصورة الأليمة التى رسمتها الاستاذة صافى ناز كاظم ، فلم يكن أمل دنقل بالشيطان الرجيم ، فقد عاش أمل دنقل شاعرا رقيقا نبيلا ومات شاعرا رقيقا نبيلا .

كتاب الهلال

يقدم

أفكار تافهة لرجل كسول

تأليف

جيروم ك. جيروم

ترجمة

د. أحمد مستجير

يصدر

٥ يونيو - ٢٠٠٠

روايات الهلال

تقدم

بوح الأسرار

بقلم

محمد جبريل

تصدر

١٥ يونيو - ٢٠٠٠

مرئيات دنانية

شعر :

عماد غزالى



نحلة

من كونك المصهور فى عينى
تولد نحلةُ الرُّؤيا،
وأنت نثرت هذا الضوء
فى كهف المرايا فاستبان،
وفى فضاءٍ من إبرْ

تتهيأ

للنُّور عاصفةٌ،
ولستُ مهيأً للورد،
أشهد،
ما الأكفُّ تشدُّ صارية المدى،
والطير ليس بصاحبى
ياريحُ
حتى يصطفينى بالنذرْ.

تغشى

ها أنت تعلم،
ما امتشاقُ الحلم،
ما ومض البراح،
إذا استشاطت بالجنى الأرواحُ
أماق البرايا بالصور.

الدُّخان

ها أنت تشهد ما تفيض من الدخان
ومايرينُ على ثريات الأفق
نسجٌ من الفوضى يفجر غابة،

فإذا يداك

تعيدُ تشكيل الوجود،

لتنجلي صورٌ أُخرْ

علي برزخ

ها أنت تقرئنا انكسارات المدى،

هل نحن في الأعراف تألفنا

وتوحشنا المدائن ثرةً باللون

والزَّهر المشاكس؟

أم توزعنا على جنبات هذا النهر،

قلنا :

تلك جنات بعادٌ

ذاك يمٌ لايلوحُ

وهذه روح شريدة

وتطير

ها أنت تبرى،

يفلتُ الخفقُ الجسور إلى هيولى

العطر،

يطرق واحداً بابا . فننصتُ،

نكتوى بالتوق،

يرجع راقصاً

فنشدُّ غيمتنا ونبحرُ

خلفنا رملٌ،

وتندفعُ خفقتنا ..

نارٌ

على الجزر البعيدة.



المكان فى الرواية

نهاية الصحراء
بداية الأرض

بقلم: يوسف أبو ريه

فى صيف عام ٧٩ ، كنت أعمل بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية ، وعندما اقترب يوم العمل من نهايته، وهيأت نفسى لترك المكان ، وانتشر العمال لغلق النوافذ، على لهيب الشمس المقتحم للمكان عبر الزجاج المطل على النيل ، دخل علينا رجال يسيل العرق من جباههم، يرتدون الجلابيب الإفرنجية ، ويلهثون بسبب صعود درجات السلم . كانوا ثلاثة شممت عرقهم حين دنوا من مكتبى الواقع فى زاويه من قاعة الاطلاع الرحيبة، نظرنا إليهم - أنا وزملاء العمل - بدهشة ، لم نعتد مثل هؤلاء، فالمترددون على المكان دارسون ، وبحاث، ومحققون متخصصون فى التراث القديم بينما القادمون الجدد لاينسبون لمثل هذه الطبقة، وحين تحدث أحدهم، التقطت أذنى لهجة ريفية ، تقارب لهجة البلدة التى نشأت بها.

قالوا إنهم جاءوا للبحث عن مخطوط، يتضمن تاريخ قريتهم وتاريخ الولى الذى تنسب إليه القرية، فقد أبدى فى الأيام الأخيرة كرامات جليلة ، استدعت الاهتمام الفائق به، والسؤال عن تاريخه، وإنهم يريدون الحصول على نسخة مصورة من هذا المخطوط يصدروا بها مقامه، حتى يلم شبان القرية بتاريخه المجيد، تعاطفت معهم ، وأمرت عدداً من زملاء العمل بالبحث عن هذا المخطوط.

وفى طريق عودتى إلى شقتى التى أقطنها وحيداً ، عاتبت نفسى:

- هؤلاء أناس بسطاء جاءوا للسؤال عن أصل قريتهم وتاريخها البعيد ، وأنت



يوسف أبو ريه في رحلة بين أبناء قرية تابعة لمدينته

الجالس بين هذه الكنوز لم تحاول البحث عن تاريخ بلدتك المجهول، ولم تحاول البحث عن أصل اسمها الغريب (ههيا)، لتتخلص من تهكم أهل البلاد المجاورة الذين يطلقون عليها بلد النصف ضحكة!

وأجابت نفسي على نفسي:

– لقد أهملت ذلك ظناً منك أنها بلدة بلا تاريخ، فمن المؤكد أنها لم تلفت نظر المؤرخ القديم ولا المؤرخ الحديث، فهي بلدة لا قيمة لها، لا تملك شيئاً يميزها، ولم يقع بها حدث كبير يسجل اسمها في صفحات التاريخ، ولم تمتلك أثراً عريقاً يؤكد أهميتها، ويلفت الانتباه إليها.

ووصلت في النهاية إلى قرار.

– حاول .. ولك شرف المحاولة.

وبدأت رحلة البحث المضني.

ها هي ببوسطة تقع إلى جنوبها على مسافة عشرة كيلومترات، وها هي صان الحجر تقع إلى شمالها الشرقي على مسافة تقارب الأربعين كيلومترا.

وعلى مسافة قريبة تقع هربيط التي تخفي أرضها عدداً من الآثار الفرعونية قليلة الشأن.

وإذا كانت كل من ببوسطة وصان لاتملكان أهمية حاسمة في التاريخ الفرعوني كما كان لطيبة (الأقصر) وكما كان – من قبلها – لمنف – البدرشين، والاسكندرية – راقودة في العصر البطلمي والروماني.

دعك من القاهرة فهي مدينة الطبقات الجيلولوجية للعصور التاريخية التي

تلخص التاريخ المصرى كله. فقد نشأت كلا المدينتين المنسوبتين لاقليمك الشرقى فى العصور الفرعونية الأخيرة ، بعد نهاية عصر الأسرات العظمى.

مونولوج شجى

فماذا يكون موقع بلدتك بينهما ؟ لاشيء.. مثلها مثل كثير من المدن الصغيرة المنتشرة على امتداد الوادى والدلتا.

وخرجت من الرحلة المعذبة بهذا المونولوج الشجى فى روايتى الأخيرة (الجزيرة البيضاء):

«من الذى منحك اسمك؟

السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أعطى اسمه للصالحية. والعباسة أخت أحمد بن طولون أعطت اسمها لبلدة العباسة. والمقاول إبراهيم زقزوق ترك اسم عائلته للزقازيق . (وهبه محمد على الكبير هذه العطية لدوره العظيم فى جلب العمال الذين رفعوا على أكتافهم حجارة القناطر التسعة التى كانت سبباً لنشأة هذه المدينة الحديثة).

المدينة الغلابة التى كانت على موعد مع العصر الجديد. فقضت على بلبيس العريقة ، سحبت منها الأوراق والأختام والموظفين والتجار والأعيان ، وكانت نشأتها فارقاً فى الزمان ، غلقت على بلبيس أبواب التاريخ ، وفتحت لنفسها نوافذ ، ومهدت طرقاً نحو عالم المدينة المعاصر ، قطعت جيوش الغزاة الطريق بعيداً عنك.

كنت قابعة على أرضك السوداء إلى جوار النهر كامنة فى سذاجتك ، كأن الأمر لايعنيك ، واكتفيت بإرسال الخراج لمن غلب ، وتطهرت أرضك من دنس أقدام الجند ، تدور المعارك فى ساحات بعيدة ، تنصتين إلى عجيجها ، ولا ينتفض لك عرق . فهل كنت عليمة بالنهايات؟

نوماً هناك فوق تلك الأرض قابضة على أذيال ثوبك البالى من ماء الفيضان، وترفعين أقدامك خشية السقوط فى مهوى البرك والمستنقعات التى يخلفها وراءه.

هؤلاء أول القادمين ، إنهم الرعاة الذين أسمتهم كتب التاريخ الهكسوس . هاهم يدقون أوتاد خيامهم من وبر على أطراف الصحراء ، بينك وبينهم مسافة كافية ، تكفل لك الحماية.

يمر قمبيز فلا يقف على أعتابك..

ويأتى الاسكندر من الغرب فتنأى عنك المسافات، فهذه المرة يأتى الأغراب من الجهة المعاكسة، وصارت أرضك طرفاً شرقياً لا تطاله اليد. فهل كنت بعيدة حقاً؟

ويجئ يوليوس قيصر. ثم أكتافيوس، وتبدل أسماء المدن، هل حقاً كنت موجودة؟ هل كان لك اسم؟ أولدت فى زمن الفراعين أم فى عصر البطالسة؟ هل كنت نواة قرية حين كانت أرضك تسمى جاشان؟ هل منحك يهوه إلههم الدموى اسمك؟

وجاء عمرو ليعيد للطريق الشرقى الحياة.

فأين كنت يوم عبر بجيشه؟

وانتهت الرحلة إلى العثور على سطور

قليلة في كتاب محمد رمزي القاموس الجغرافي، وسطور أخرى، خطها علماء الحملة الفرنسية حين عبروا هذه القرية للوصول إلى نهاية النهر عند بحيرة المنزلة.

★★★

يقول محمد رمزي (ههيا اسم قبطي قديم ذكرها جوتييه في قاموسه تحت اسم Heha وكانت تتبع مركز الصوالح، ثم نقل المركز إليها عام ١٨٩٦ نظرا لوقوعها على السكة الحديد).

انتهى عصر البلدان التي تقع على حافة الأرض السوداء وبداية الصحراء، البلدان التي تمثل مستقراً للقوافل العابرة من الشرق إلى العاصمة، وارتفع شأن المدن النهرية والتي تقع في عمق الأراضي الزراعية، وزاد في إحيائها وتوسعها السريع إنشاء السكك الحديدية.

تماما كما حدث للزقازيق التي سلبت دور بلبيس العريقة.

وقلت أنا في «الجزيرة البيضاء»، روايتي الأخيرة، وقد آثرت أن أطلق عليها الاسم الخرافي الذي ابتدعه العامة من أهل البلد، حيث تقول أسطورتهم – حين عجزوا عن تفسير الاسم عربياً– إن أحد الأعراب قدم من صحرائه القريبة ليسأل عن قرية بهذا الاسم، فأشار إليه أحدهم وقال: ها هي الجزيرة البيضاء، واختفى – بعدها – الاسم الأول ليتخذ من اسم الإشارة «ها هي» الاسم الحالي للبلد.

قلت في «الجزيرة البيضاء»:

«النهر وسكة القطار وأنت بينهما تعافرين لتقفي على قدميك، متوكئة على خطين، خط من ماء وآخر من حديد».

ليس في نشأتك غرابة، فأنت لم تولدي بمعجزة، ككثير من البلدان، فلا التفقت حول ضريح ولي ذي كرامات، ولا تخلفت عن ثكنة عسكرية في موقعة مشهورة، ولاقام على أرضك أثر، ينتهي إلى عصر من العصور، بداية عادية لقرية عادية، لايسكنها سادة، ولا منحها اسمه قائد من القواد.

لتاريخك سحنة نهرك، انسياب ساكن، لا يسمع له هدير، ولا خرير، لو ألقى الحجر على صفحة الماء لخرجت تستطلعين الخبر.

أضناني البحث عن أصل لك في الكتب القديمة.

مدينة محاطة بالنخيل

طالعت قوانين الدواوين لابن مماتي، وقرأت كتاب ياقوت «معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان» وقلبت صفحات البكري «معجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبدان» وكتاب ابن الجيعان «التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية» وجدتك في صفحة وحيدة في كتاب علماء الحملة حين قدموا مستطلعين رحلة «موويس» الذي يصب في المالح بأقصى الشمال، قال كتاب وصف مصر: على بعد ثلاثة فراسخ من بوباسطة، وعلى نفس الشاطئ توجد مدينة صغيرة حديثة محاطة بغابة كثيفة من النخيل، وعلى الرغم من أن اسمها كان مجهولاً من كل الجغرافيين، ومن أنها لم تكن معروفة في

ذلك الجزء من البلاد الذى يعد متحضراً، فإنها فيما يبدو كانت تضم سكاناً كثيرين كما كانت توجد حول أسوارها زراعة ممتازة ليست لدى البلدان المحيطة بها، والجزء من غابة النخيل القريب من السكان، يزرع على شكل تخميسة «أربع فى زوايا المربع وواحدة فى الوسط» وبعناية تشبه العناية التى تلقاها الحدائق الأوربية، وتحاط المدينة بسور به فتحات يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار وهو فى حالة جيدة تعلوه أبراج قوية مسلحة بصف مزدوج من متاريس الطوابى.

وتعلو أبوابها التى صفت بشكل أسطوانى جزءاً من السور، ويبدو سكان هذه المدينة أكثر تحضراً من جيرانهم.

ومنذ غادرنا النهر وجدنا الناس فى كل مكان يحملون السلاح، يسودهم روح من التمرد والضجر، وفى هذه المدينة. وعلى الرغم من أننا كنا - ربما - أول أوربيين يمثلون أمام ناظرهم، خرج الناس فى شكل جمهور ليقدموا لنا الأطعمة ولم نلمح من بينهم رجلاً مسلحاً.

وابتداء من ضواحى المدينة، وحتى الجزء الأدنى من الترعة لاحظنا على الشاطئين وجود عدد كبير من الأبراج المبنية بلا أبواب ولا نوافذ والتى يخترقها بعض الطوب، وهذه الأبراج تستخدم كمأوى للسكان عندما يفاجئهم أويلاحقهم عربان الصحراء فيصعدون إليها بسلالم من حبال.

البحث المضنى أوصلنى إلى نتيجة نهائية.

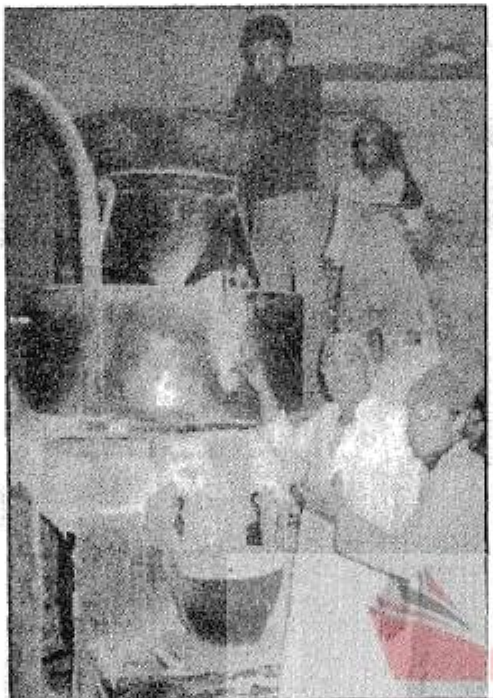
لا شئ مهما هناك، يتعلق بتاريخها وناسها، وهى مدينة مجهولة تماما حتى أن بطل قصة «حب الزعيم» تمنى أن يأتى العدو إليها يوما ليشتبك معها فى معركة يسجلها التاريخ ليكون لها شرف هبوط الزعيم إلى أرضها، لأن البطل يتحسرعند مرور الزعيم عليها، وهو ذاهب إلى مدينة المنصورة التى نشأت أثناء الصراع مع الصليبيين، ونجح أهلها فى أسر لويس التاسع فى دار ابن لقمان.

وكذلك حين يمر الزعيم ليحضر احتفالات بورسعيد بانتصارها على العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.

وقلت لنفسى لاسبيل أمامك غير إحالتها إلى عالم فنى يحمل خصوصية، فاقترب معه جوهرها لتضع يدك على سماتها الخاصة فى الزمان والمكان، ومهما تشابهت القرى والمدن فإننا نستطيع الوصول إلى جذورها الأولى.

حاولت الإنصات جيداً إلى لهجتها المميزة عن القرى والمدن المحيطة بها، لماذا هذه اللهجة بالذات؟ ما أصلها التاريخى؟ ولهذا سيلحظ القارئ سماتها فى حوار الشخصيات القصصية والروائية.

كذلك راقبت بل عايشت طقوسها وشعائرها، فى أفراحها وأتراحها، وإذا وفقت فى هذا أكون قد توصلت إلى صوتى الذى لا يشبه صوت الآخرين. خاصة أن تراث الكتابة الريفية هو الأوفر حظاً فى تاريخ الكتابة الإبداعية المصرية فى القصة والرواية، فقد تأخر كثيراً حتى ظهر فى القصائد الشعرية.



طاحونة العائلة .. كانت محوراً سياسياً في [illegible] وخاصة رواية (عطش الصبار)

وكانت «الضحى العالى» مجموعتى القصصية الأولى - ولاحظ اسم المجموعة - إنه يحمل تعبيراً أظن أنه يخص هذا المكان.

وظهر هذا أيضاً فى اسم المجموعة القصصية الثالثة «وش الفجر» كما ظهر فى عنوان روايتى الأولى: «عطش الصبار» حيث للموت حضور باذخ فى مكان النشأة الأولى.

ولم تبعد الكتابة للطفل كثيراً عن هذه الخصوصية، ولاحظ معى قصتى الأولى «خبز الصغار» التى ترصد لعب الأطفال بالطين كعالم طفلى موازٍ لعالم الكبار من حولهم، ثم تظهر أكثر فى روايتى الأولى للأطفال «الأيام الأخيرة للجمل» فى رصدها لتحولات الريف الذى راح يستغنى عن أدوات انتاجه التقليدية ليحل مكانها أدوات مستحدثة بديلة.

يتعذب الفلاح بها ما بين شجنه وحنينه لقديمه، ونزوعه للدخول إلى العالم الحديث.

وكان المكان يتبدى لى من حين لآخر ليكشف لى مزيداً من أسراره، وأقترب منه أكثر حتى تم التماهى بينى وبينه فيما يشبه الحلول الصوفى.

كل فرد من أبناء هذا المكان يعيش كالطريد إذا ضربته الرغبة فى الخروج منه، وجاءت روايتىَ الأخيرتين لتحمل اسمين للمكان فى تنوع يغنى التجربة الفنية ولايفقرها، رواية «تل الهوى» اسم لجزء صغير من نطاق المكان يظهر أكثر من خلال الرواية التى تحمل اسمه الخرافى «الجزيرة البيضاء» التى صدرت مع بدايات الألفية الجديدة، والرحلة فى هذا النص مبهظة فهى ممتدة فى تاريخه القديم، والحديث، إنها الرواية الشاملة التى تحتويه كلية.

فماذا سأفعل به فى الأعمال القادمة؟.

هذا سؤال القلق الأبدى، هل سأخرج منه أم سأظل فى فلكه، عاجز عن الانفلات من جاذبيته الغلابة؟



قصة قصيرة

السلعة

قصة : عصام الزهيرى ● بريشة: جوده خليفة

انتشر الخبر مثل البرق، السلعوة فى بلدنا فعلا. منذ أسابيع كنا نترقب وصولها بعد وصول أخبار دخولها النجوع القريبة من الجبل، ثم ظهورها فى عزبة بعيدة، وظهورها أخيرا فى أقرب القرى من بلدنا. خمّنا وقتها أن السلعوة ضلت طريقها نحو الجبل وأنها تتخذ طريقا عكسيا يمر بالاستقامة على بلدنا. وطبقا لحساباتنا كان لابد أن تظهر بين وقت وآخر قبل ثلاثة أسابيع على الأقل.

كانت لنا مخاوفنا بالطبع، لكن أخبارها ظلت غير مؤثرة. المحلات والمقاهي وعربات الفاكهة والصيدليات ظلت مفتوحة الأبواب حتى ساعة متأخرة قبل منتصف الليل. ورغم أننا تتبعنا أخبار مداهمتها للبلاد الأخرى وروينا حوادثها بتلذذ الخائف من خطر لا يتهدده إلا أن بلدنا ظل محتفظا فى عيوننا وعيون أهل البلاد التابعة له بأبهته كمركز، ليس فى حجم عاصمة، لكنه يتلألأ بالنور والعمار حتى بعد منتصف الليل.

ليس من شاف كمن سمع لكننا كنا نحفظ أوصافها عن ظهر قلب قبل أن يراها أحدنا، قالوا إنها من فصيلة الذئاب وأنها تشبه كلبا أجرب متساقط الشعر، سريعة الحركة لحد الدهشة، لا مثيل لنهمها بين الذئاب. كانت موصوفة لنا بدقة استرجعناها ونحن نتناقل خبر مداهمتها لرجب الصاوي وصراعه معها حتى الموت تحت أنظار جيرانه.

كان الوقت فجرا فى المزارع، رجب كان ساهرا فى موعد سقاية أرضه (على عادته رغم أنه موظف)، ولم يدر أحد ما الذى وسوس له بالابتعاد عن النار التى أوقدها وتدفأ بها منذ بداية الليل، سمع الجيران أصوات صراخ مختلط بزمجرة وحشية لذئب كما ظنوها فى البداية، هرعوا ناحية الصوت وبيد كل منهم سلاحه، بجوار النار رأوا رجب ممددا على بطنه فوق الأرض، ذراعه ترتعش ارتعاش النزع ولا تزال تحاول الوصول إلى سلاحه المخبأ تحت فرش كان ينام عليه، وعلى نور القمر ووهج النار الخابى رأوها تمتطى ظهره، كانت تضع اللمسات الأخيرة فى شغلها الدموى إلا أنها انتبهت لوجودهم فى اللحظة نفسها التى اقتربوا فيها، عندها لاذت بالفرار ولم تنفع أعيرة بنادقهم التى لاحقتها فى الظلام.

على مبعدة من النار وجدوا عصاه وأجزاء من ملابسه وأذنه المقطوعة المدممة فوق التراب، ولم يعرف أحد بعد ما الذى دفعه إلى الابتعاد عن النار كل هذه المسافة. وزاد هذا الغموض من رهبة الحادث ورعبنا.

يوم الجمعة تقابلنا على عتبات المساجد . فى الخطبة أعلن الشيخ ضرار أن ظهور السلعوة رغم أنه اختبار من الله فإنه خدم إسرائيل لأن الخوف من ظهورها منع الناس من التفكير فى تحرير القدس.

ورغم أنه لا وجه للشبه بين السلعوة وإسرائيل فإن كلام الشيخ ضرار كان منطقيا، فليس ثمة أمر آخر مهما كان له من أهمية قادر على أن يصرف تفكيرنا بعيدا عن خطورة الوحش. لم نبحث وقتها عن السر الذى

السلعوة

اكتشفناه فيما بعد وراء كل هذا الرعب المبالغ فيه والذى أشعرنا هذا الكائن به . فالخوف على حياتنا يمكن تجنبه ببساطة بالبقاء فى منازلنا. وكان هذا بالضبط ما فعلناه . بقينا فى منازلنا منذ الغروب وقبله، أصبحت شوارع مركزنا لا تختلف عن شوارع أى نجع أو قرية صغيرة لأن أكثر أصحاب التجارة مجازفة احتفظوا بمحلاتهم مفتوحة حتى العشاء.

وكانت الأيام الخمسة التالية كفيلة بوضع حد لمخاوفنا التى بدت لنا فجأة مبالغا فيها. لم تظهر السلعوة فى بلدنا مرة أخرى، والخفراء الساهرون كل ليلة بالقرب من مصالح الحكومة كنا نراهم كل صباح سالمين.

عاد مركزنا بعد الأيام الخمسة إلى كونه مركزا من جديد، عمرت المقاهى وأضاءت المحلات حتى منتصف الليل. وفى اليوم السادس فاجأتنا السلعوة بالظهور من جديد.

كان الوقت عصرا فى البوابة، والبوابة فسحة واسعة مكان بوابة أملاك عمدة البلد قبل أن تستقل بما حولها وتصبح مركزا، أدخل بلية ابن فتوح بهائمه إلى زريبة داره، لاحظ فجأة وجود كلب أجرب فى الزريبة، تفكر أنه لحقه خلف بهائمه فى الطريق ولم يعره التفاتا، هش بلية الكلب بعصاه، وبدلا من أن ينهش هجم على مؤخرة البقرة ونهش حافرها. انهال بلية بالعصا على الكلب وهو لا يزال يعتقد أنه كلب مسعور، عندئذ جمده الرعب من وثبة الحيوان

نحوه، افترسته السلعوة داخل زريبـتـه دون أن يشعر به أحد.

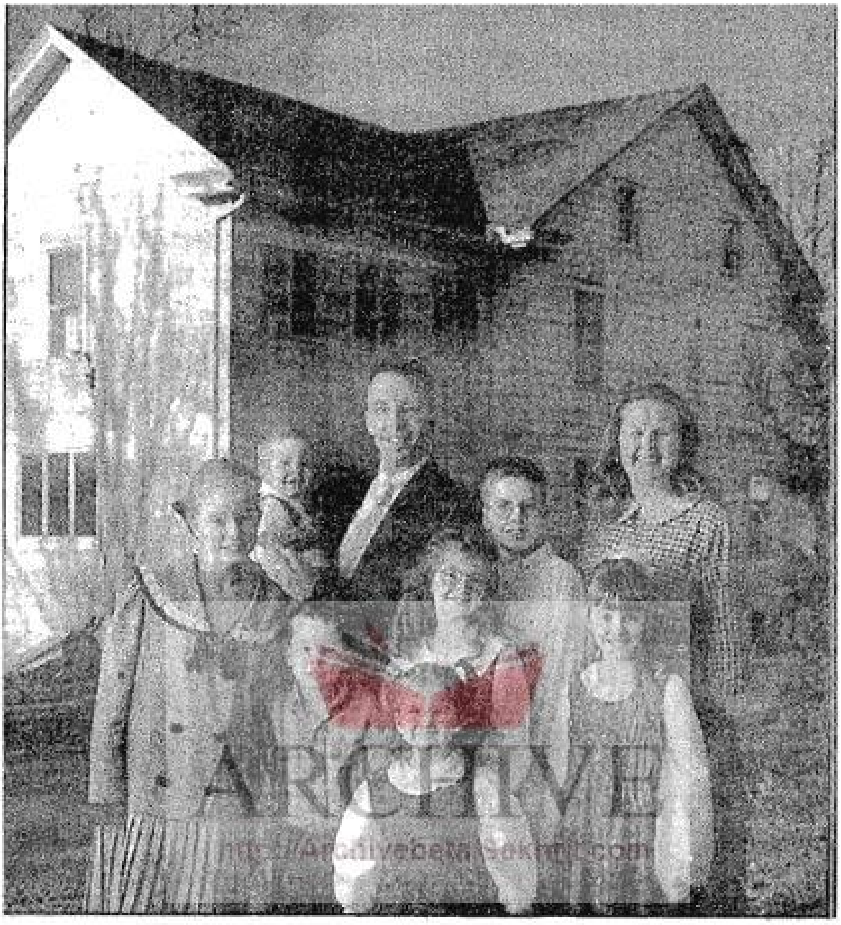
في الخـارج جلست أم فتوح (رحمهـا الله) على عتبة الدار، رقبتها تسقط على صدرها من النعاس وهي تهش على كتاكيتها بمنشة من الليف تحـفظهم في حـوزتهـا، عندمـا رأت الكلب يقترب منهم لوحت في وجـهـه، فـتـراجـع خطوات جعلتها تفكر في إسبال جفنيها، وخلال هذه اللحظة الخـاطفـة كـانت مـخـالب الذئب تنغرس في وجهها.

في نـفس اللحظة خطا ربيع حنفي أولى خطواته وآخـرها في فسحة البوابة، ففي وثبة واحدة أغمد القاتل فكيه في عنقه وتركه جثة بعد صراع بينهما لم يستمر طويلا . مذبحة.. لم ينج منها أحد رأى الحيوان البشع سوى طفل صغير هو الذي روى تفاصيل المشـهـد كله، ولم يفلح سؤال الناس للطفل: أين كنت؟! في تفسير نجاته، لأن الولد أشار ببساطة نحو ركن مكشوف من الساحة وقال: هنا.

كانت صدمتنا قوية ورعبنا أقوى . لكن الصدمة والرعب لم يمنعا الكثيرين من التلذذ بوضوح الحكاية (كنا أحيانا نتلذذ بالرعب مثل صغار يصغون من مكمنهم لحكايات السلعوة)، وضع أمام عيوننا فجاة سر ابتعاد الصاوى عن النار ليلة مقتله، مؤكدا لنا الآن أنه فارق النار كي يطارد الكلب الأجرب بعصاه، فارقها لنفس المسافة التي وجدت فيما بعد بين العصا والنار.

عقب الحادث بيوم واحد أغلقنا باب المسجد وجلسنا نستمع لخطبة الشيخ ضرار. نسي الشيخ حكاية إسرائيل وأخبرنا في موضع من الخطبة أن نتمهل بعد الجمعة لإقامة صلاة الخوف. وفي موضع آخر طالب مأمور المركز الذي كان يصلي معنا بأن يخلص بلدنا من هذا الشر. وفي موضع متأخر جسَّم لنا رعبه - أو رعبنا - وهو يدعو الله أن يرفع هذا المقت عنَّا ويصف الحيوان بأنه جبار في الأرض لا يقتل من أجل مطمع ولا مطعم بل من أجل عقاب سلطه الله علينا.

جعلنا الشيخ ضرار نكتشف جميعا في نفس اللحظة السر الأكيد للرعب الذي أدمن ملاحقتنا. فالقتل من أجل الطعام سبب كاف لتبرير القتل، سواء كان القاتل وحشا أو إنسانا. أما هذه البلوى التي داهمتنا دون أن نسمع مرة واحدة أنها افترست ضحيتها فلا يمكن أن تكون شيئا سوى عقاب، صرخ الشيخ ضرار: عقااب..



اسرة شيبنر امام المنزل

تغير وهجرة

99

تيار جديد بدأ يظهر بوضوح فى المجتمع الامريكى وهو أكثر ميلا للتشدد ويختلف عن الحياة العلمانية التى تسود الولايات المتحدة الأمريكية، ويطلقون على هذا التيار اسم «المسيحى المحافظ» ويفضل أنصاره إقامة مجتمع خاص بهم ويختلف عن المجتمع الأمريكى. العلماء يفسرون هذه الظاهرة بأنها نتيجة للانقسامات فى المجتمع الأمريكى والتى شجعت على ازدهار كل الأقليات بدءا من الشواذ وحتى المحافظين.

ويعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية نحو ٢٠ مليون مسيحى إنجيلى، هذا إلى جانب المتطرفين الذين يميلون للانسحاب من الحياة العامة، والمزيد من المحافظين دينيا ويشكلون نحو ٢٥٪ من المجتمع الأمريكى والعديد منهم يعيشون حياة أقل انعزالية وأكثر اعتدالا من الناحية الثقافية.

والمسيحيون المحافظون يتميزون بالثقة فى النفس عن أى مجموعة اجتماعية أخرى، وقد نجحوا فى تكوين ما يسمى «بالمجتمع المضاد» وأصبح أكثر تماسكا وأكثر نشاطا.

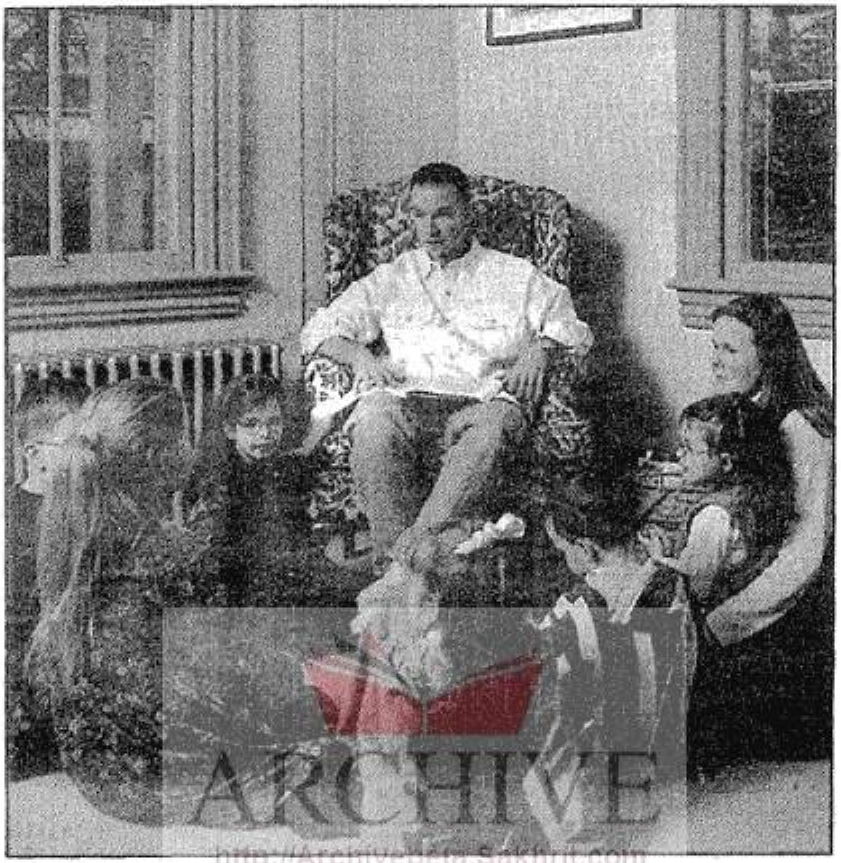
العبادة أولا

ويمارس الآباء فيها رقابة صارمة على أبنائهم فعلى سبيل المثال تخلو منازلهم من ألعاب الأطفال الشهيرة وتخلو من صور النجوم وحتى أغانى المشاهير، كما أنهم لا يشاهدون التليفزيون إنما يتابعون برامج مختارة فى أجهزة الفيديو. ولا توجد أدوات رياضية لديهم فمن وجهة نظرهم أن التنافس الرياضى لا يعتبر سلوكا دينيا والأفضل والأهم منه المشاركة فى التراتيل الدينية الأسبوعية والعبادة.

وأصبح من السهل الآن الانغماس فى

فى أمريكا

سناء حنفى



أسرة شيبنر في جلسة عائلية

الحياة الدينية وذلك بسبب ازدهار وسائل الإعلام الخاصة بهم كما أن لدى بعض الأتباع محلات خاصة ببيع السلع وتقديم الخدمات، يمكن لأعضاء هذا التيار اللجوء إليها، للاستمتاع بها دون ارتكاب ذنب أو خطيئة، والكتب الدينية والتليفزيون مازالت فى بدايتها . والموسيقى المسيحية المعاصرة بالاضافة للفرق التى تحمل أسماء غريبة، والكلاب التى يستخدمها فاقدو البصر وكلها تعتبر مشروعات تجارية تحقق نحو بليون دولار سنويا بل إن الكمبيوتر والانترنت تتوافر لديهم فرص شراء ألعاب الكمبيوتر لشخصيات شهيرة فى الكتاب المقدس كما توفر فى أسواق

الفيديو أفلام للأطفال عن حكايات من الإنجيل وهي تتمتع بشهرة واسعة . ولم يتوقف نشاط المحافظين عند هذا الحد ولكنهم أيضا وفروا الأفلام العاطفية التي تخلو من الإباحية كما أن لهم مجلات خاصة بجميع الأعمار ومنها مجلات للأطفال من سن ٦ إلى ١٣ سنة وهي خالية من العلاقات بين الأولاد والبنات أو التجميل أو الموضة أو العنف كما أنها تخلو من الإعلانات.

***

ويركز هذا التيار على ضرورة الفصل بين الجنسين ويعارضون العلاقة بين الشباب بدون زواج . لذلك اتجهوا للمدرسة المنزلية وترجع أهمية ذلك إلى أن الأطفال الأكبر سنا سيقومون بمساعدة الأصغر منهم، أما الصغار فإنهم سيقلدون الكبار بدلا من تقليد زملائهم. فوجود الأطفال في مدرسة خاصة حتى ولو كانت مسيحية يجعلهم يهتمون بما يفعله الزملاء وليس ما تفعله الأسرة.

وقد تزايدت المدارس المنزلية منذ عام ١٩٨٥ بنسبة تتراوح بين ١٥٪ إلى ٢٠٪ في العالم ويوجد الآن نحو ١.٢ مليون مدرسة منزلية في الوقت الذي ترتفع فيه نسبة المسجلين في الجامعات الانجيلية بنحو ٢٤٪ بين العامين ١٩٩٠ وعام ١٩٩٦ بالمقارنة بزيادة ٥٪ فقط في الجامعات الخاصة الأخرى.

ولم يقتصر الأمر على المدارس فقط وإنما امتد إلى الكنائس أيضا. ويعتبر ستيف شيبنر من زعماء هذا التيار . ونظرا لرفض الأسلوب الذي تبعد فيه الكنائس الأطفال عن الصلاة مع الكبار إلى مكان آخر يستمعون فيه إلى القصص الدينية لذلك يقوم شيبز بإلقاء المواعظ الدينية على أبنائه، خاصة وأنه يؤمن بقدرة الأطفال على متابعة المواعظ من سن الثالثة.

وهذه المواعظ لم تقتصر على أفراد عائلته لكنها امتدت إلى عائلات الأصدقاء. وتحيط عائلة شيبنر نفسها بمجتمع من صنعهم وبأصدقاء من اختيارهم يشاركونهم عقيدتهم. فهم يرون ان الحياة في مجتمع يشعر فيه الإنسان بالغربة ولا يثق بمساعدته في تدعيم مبادئه تعتبر حياة مملة تدعو للحذر منها وتجبره على تذكير الأبناء دائما بأنهم مختلفون .

شهادة إثبات الروحي

وتقول زوجة شيبنر أنها لا تعزل أسرتها ولكن يجب عليها حمايتها من الشرور حتى تكون لدى أفرادها القدرة على الوقوف بثبات روحي، وحمايتهم من الثقافة السائدة.

والمسيحيون المعتدلون أقل احتمالا للحياة في المناطق الريفية اكثر من أي اتجاه آخر والمراكز الجديدة لولايات وسط الغرب مثل كنساس وأوكلاهوما .

ويرى البعض أن هذا الاتجاه المنشق قد ساعد على قوته الاحباطات السياسية.. فقد ساهم الفضيحة التى كان بطلها الرئيس كلينتون لدرجة أثارت شعور بعضهم باليأس من السياسة. فكيف يمكن أن يأمل المتدينون فى التأثير على دولة تساند رئيسا فاسقا؟! وحتى هؤلاء الذين لا يشعرون بفجوة كبيرة تفصل بينهم وبين الناخب الأمريكى فمازالوا يجدون شيئا ذا معنى مستفز فى الدعوة للتركيز على الأمور الدينية فقط وليس على السياسة.

وفى مقال نشرته مجلة «المسيحية اليوم» كتب مساعد الرئيس الأسبق رونالد ريجان وهو «دون إيرلى» أن أعظم وهم ظهر فى السنوات الأخيرة هو توقع تولى الساسة الأقوياء والسلطات الدنية الزعامة فى خلق أمريكا مسيحية باستخدام نفوذهم.

ومن السابق لأوانه الآن إعلان نهاية اليمين السياسى المتدين فهناك العديد من القضايا مثل الاجهاض والشذوذ مازالت تحدث صدمات بين المتدينين ولكن لا يمكن إنكار انه كقوة سياسية فإن اليمين الدينى واهن وضعيف. والتحالف المسيحى يدعو الى إحداث تغييرات اجتماعية وسياسية جذرية، ربما كان ذلك السبب وراء خروج مرشحى المسيحيين المحافظين: جارى بور، وستيف فوربس من سباق الانتخابات . ولكن مع ذلك فحتى مع تخبط التحركات السياسية المسيحية فالاستراتيجيات التى يعتقد أنها «مجتمع مضاد» مثل المدارس المنزلية بدأت تنتعش

ويرى بعض المعتنقين للمسيحية المحافظة أنهم يجب ان يحرروا أنفسهم من عبودية السلطة السياسية ويركزوا على إقامة حياة جديدة. ويؤكد شيبز ان القضية الأساسية بالنسبة له هو تدريب الآخرين على ضبط النفس والطاعة الدينية. ويرى أن معظم الآباء اليوم يتركون لأطفالهم حرية شديدة وعند وصولهم سن الثالثة أو الرابعة عشرة يحكمون السيطرة عليهم فى حين أنه يرى أن العكس هو الأفضل فيجب البدء بالتشديد وعند بلوغ الأولاد لسن التمرد يمكن الثقة بهم.

وهم يرفضون الفكرة الحديثة عن المراهقة وأن انفصال المراهق عن والديه ضرورة حتمية حتى لو كانت ضرورية فى الطريق لتحقيق ذاته. وبالنسبة لميجان وزوجها ستيف شيبنر فالتمرد داخل الأسرة أمر ليس مطلوبا وهم فى حاجة إلى جبهة متحدة فى البيت للتمرد على المجتمع الأكبر على أى حال، فإذا كانت عودة ظهور تيار اليمين المسيحى قد أثارت دهشة الأكاديميين الليبرالية والصحفيين الذين دعوا للاستعداد له خاصة، وأنهم يعتبرونهم جماعة تأخرت عن العالم المتحضر اقتصاديا .وثقافيا ونفسيا إلا أن حركة المسيحيين المحافظين يمكن أن تكون لصالح المجتمع ككل إذا التزمت بمجرد إلقاء التعاليم الدينية.

النيويورك تايمز ماجازين

صفحات مجهولة من أوراق القرن العشرين !

كيف تتخلص السى آى إيه من أعدائها ؟ !

بقلم : مجدى نصيف

كنا نعرف أن «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية»، السى آى إيه CIA تقوم بعمليات كبيرة مثل تسليح وتدريب قوات «الكونترا» أى المعادية لثورة الساندينيستا بنيكاراجوا، وعملية «المجاهدين» فى أفغانستان من خلال المخابرات الباكستانية، وكنا نعلم أنها تقف وراء عمليات اغتيال كثيرين. لكن عندما أفرج عن الوثائق السرية الأمريكية لجواتيمالا خلال الحرب الأهلية التى دامت ثلاثة عقود، علمنا أن جيش جواتيمالا قتل خلال الحرب مائتى ألف شخص جواتيمالى، وعلمنا لأول مرة وبالتفصيل عن نشاط وكالة المخابرات الأمريكية وعن عمليات التعذيب والقتل والاغتيال التى تقوم بها. وقام صحفى فرنسى بدراسة هذه الوثائق لينشر سلسلة من المقالات بمجلة «لونوفيل أوبزيرسفاتير» أحدها صدر فى عدد ٢٩ أغسطس ١٩٩٩.

قتل جيش جواتيمالا مائتى ألف مواطن فى ثلاثة عقود حتى عام ١٩٩٦، بالأسلحة الأمريكية ومساعدة «وكالة المخابرات المركزية» خلال كل هذه السنوات . وساندت واشنطن سرا الحكام العسكريين الدكتاتوريين، الذين تتابعوا على حكم جواتيمالا ، وحكموا شعبها بالحديد والنار، وارتكبوا من الجرائم أكثر مما ارتكب حكام شيلى والأرجنتين وأوراجواى ، كلهم مجتمعين.

وتحت ستار الحرب المقدسة ضد الشيوعية، ساعدت السى آى إيه، ووزارة الخارجية الأمريكية، والبنتاجون، حكام جواتيمالا عسكريا واقتصاديا وسياسيا، وكانت الإدارة الأمريكية هى التى تسيِّر الدولة كأنها «عزبة»، وقتلت وكالة المخابرات

المركزية الأمريكية كما تظهر التقارير، مقاتلين من أجل التحرير، وسياسيين، ونقابيين، ومكافحين من أجل حقوق الإنسان، وفنانين، وصحفيين وكتّابا، وفلاحين وسيدات، بل وأطفالاً، والدليل على هذا التحالف غير المقدس مع حكام جواتيمالا موجود في «صندوق» ثقيل يحتوى على أكثر من ألف تقرير وخطاب وتلغراف سرى.

ففى ابريل عام ١٩٩٨، سلمت إدارة كلينتون هذا «الصندوق» بعد تردد شديد، إلى «لجنة الصدق» التى تشكلت فى جواتيمالا، ورأت أن أولى مهامها هى «تقصى حقائق الماضى» فكان أول ما فعلته أن طلبت هذه التقارير الموجودة سرا فى حوزة الإدارة الأمريكية، وعندما افتضحت المسألة، أعلنت «أرشيفات الأمن القومى الأمريكى» عن كل ما فى الحقيبة».

***

بدأت القصة فى نهاية عام ١٩٦٥، عندما كان على رأس حكومة جواتيمالا الكولونيل إنريك بيرالتا أزورديا الذى أراد أن ينهى تمردا يساريا يقوم بحرب عصابات ضارية. وأعلن «أنا على استعداد أن أحول البلاد كلها إلى قبر كبير، فى سبيل أن يسود السلام». لم يكن خادعا ولا يستخدم «التهويش». طلب من السفير الأمريكى خبيرا لينصحه بما يقوم به، وأرسلت له وزارة الخارجية جون لوجان الذى كان قد ساعد حكومة فنزويلا على سحق ثورة شعبية . وأرسل جون لوجان تحت غطاء العمل بوكالة للغوث أمريكية غير حكومية . أما فى الحقيقة فلم يكن غير عميل مغطى لـ «وكالة المخابرات الأمريكية» CIA، بل كان من أقسى ضباطها، وفى نهاية ديسمبر عام ١٩٦٥، كان جون لوجان قد درب جنود جواتيمالا فى الجيش، والبوليس، والبوليس السرى، ووضع مع قياداتهم خطة عمل لمكافحة الإرهاب تتكون من ثلاثة فروع:

الأول : تشكيل غرفة قيادة سرية، مقرها قصر الرئاسة، ووظيفتها التنسيق بين كل الجهات التى تقوم بمكافحة الشيوعية. وتصبح هذه الغرفة السوداء الغامضة ـ كاسا نيجرا ـ التى كان يخشاها كل سكان جواتيمالا ، ويرسل اسمها الرعب والفزع فى قلوبهم.

والثانى : أن تقوم الوحدات بهجوم فى الوقت نفسه، على جميع أماكن اختباء الشيوعيين ليخرجوا منها.

والثالث : أن تحكم الولايات المختلفة حكما مباشرا من مسئولين بالحكومة المركزية.

كتب جون لوجان فى تقرير مؤرخ فى ٤ يناير عام ١٩٦٦، إلى رئاسة «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية». أنه فى حاجة إلى معونة «عملاء» آخرين من الوكالة يرسلون إلى جواتيمالا للمشاركة فى العمليات التى يقوم بها بوليس جواتيمالا» وكتب فى التقرير نفسه عن اجتماع مع الرئيس الجواتيمالى بيرالتا : «قال لى الكولونيل بثقة زائدة، عن كل قائد شيوعى يقبض عليه أو يقتل». هكذا دارت عجلة القتل بأموال ومساعدات واشنطن.

بعد ثلاثة أشهر من ذلك التاريخ تكشف الوثائق عن أول مذبحة جماعية سرية بجواتيمالا . فقد كتب رئيس

العمليات السى آى إيه بجواتيمالا إلى مركز قيادة الوكالة بلانجلى بفيرجينيا ، فى مارس ١٩٦٦.

«ليلة السادس من مارس عام ١٩٦٦، أعدم سرا الشيوعيون والإرهابيون التالى أسماؤهم «قائمة بالأسماء»، ولن يعلن عند هذه الإعدامات ، وستنكر حكومة جواتيمالا علمها بها».

وكان من بين الذين أعدموا رئيس «الحزب الاشتراكى الشعبى» ورمز المقاومة الشعبية ضد النظام آنذاك، فيكتور جوتيريز جاربين، ولم تعلم زوجته ولا أقاربه ولا أصدقاؤه لعدة أشهر ما حدث له. أما فى لانجلى فجرت احتفالات لقتله، وكتب رئيس وكالة المخابرات المركزية الأوربية بجواتيمالا لرؤسائه بلانجلى دون خجل بعد يومين من عملية القتل ، «كان جوتيريز مثقفا، أمينا ، وشجاعا مما جعله أكثر الزعماء تأثيرا على العمال».

جنون القتل

وما إن حل عام ١٩٦٧ ، حتى كان الإرهاب الذى تقوم به «الغرفة السوداء» قد تحول إلى جنون قاتل، كتب رئيس قسم المخابرات بوزارة الخارجية الأمريكية.

«فى قلب قوة مكافحة الشيوعية، يجب ألا ننسى الوحدة الخاصة بالجيش التى أسسناها خصيصا . لتقوم بعمليات الاختطاف والقتل فى الشوارع، وتضع القنابل ، وتعدم الشيوعيين والمشتبه فيهم، وتعمل ضد أعداء جواتيمالا من كل نوع».

الغريب أن كاتب التقرير أعرب عن قلقه البالغ، لا عن انتهاك حقوق الإنسان التى تتشدق بها الإدارة الأمريكية، وتشن الحروب من أجلها الآن، ولكن لأن «الشيوعيين يمكن أن يستخدموا ذلك كله من أجل منفعتهم» وخاصة عمليات الإرهاب التى تقوم بها «الحجرة السوداء» وتنظمها.

لكن القلق كان يزداد فى العالم أجمع، لارتكاب هذه المذابح التى لم يكن من الممكن إخفاء أخبارها. وكان ينبغى تهدئة الرأى العام العالمى. وبناء على نصيحة السفير الأمريكى بجواتيمالا ، قام الكولونيل الرئيس بتعيين وزير دفاع جديد، كاتما «السابق» هو المسئول عن الجرائم والأهم من ذلك أنه أرسل عدة ضباط الى الخارج، وفى الوقت نفسه قام رجل «السى آى إيه» بتفسير ما حدث لرؤسائه فى أحد تقاريره إلى رئاسته:

«حكومة جواتيمالا لا تريد أن تبدو المسألة كما لو أن المتمردين قد قتلوا فى عمليات عسكرية، والمفروض أن يذهب قضاة إلى أماكن هذه العمليات ـ الوهمية ـ فى وقت تال».

واستمرت المذابح بعيدا عن الرأى العام ، لكن واشنطن وحدها هى التى كانت تعلم كل شىء، وبالتفصيل بطبيعة الحال. يقول أحد تقارير ـ السى آى إيه ـ عام ١٩٧١ .

«يقوم جيش جواتيمالا والبوليس: بتصفية عدد كبير من الإرهابيين سرا».

انتهاك حقوق الإنسان

بدأت فى ذلك العام أول معونة عسكرية أمريكية لجواتيمالا، وكانت هناك حاجة لتجديدها، وكانت السى آى إيه فى حاجة إلى إقناع لجنة المساعدات

بالكونجرس. فماذا تفعل الوكالة وكل الصحف الأمريكية تقريبا، تحمل تقارير عن انتهاك حقوق الإنسان، والجرائم التى ترتكب بجواتيمالا؟ قامت السفارة الأمريكية بالعاصمة الجواتيمالية - جواتيمالا سيتى - بإرسال خطاب ملىء بالأكاذيب إلى لجنة المساعدات بالكونجرس، حول ضرورة تقديم المساعدات العسكرية لحكومة جواتيمالا، جاء فيه أن «حكومة جواتيمالا تقوم بمكافحة الشيوعية بطرق بدائية، حتى لو كانت هناك انتهاكات فى بعض الأحيان، ولقد كانت مشاركتنا إيجابية. مكنت بوليس جواتيمالا بمهمته بطريقة مهنية صحيحة، وقانونية».

ثم تهدد السفارة حتى تصب أموالا أكثر فى آلة الإرهاب والقتل «إذا توقفنا عن تأييد حكومة جواتيمالا، فسيلجأون إلى عمليات غير قانونية.»

وقررت لجنة الكونجرس أن تستمر المساعدات الأمريكية العسكرية لجواتيمالا، فاستمرت مساندة الدكتاتورية العسكرية. معظم عقد السبعينات، ولما فاحت رائحة الجرائم ولم تستطع الأكاذيب تخبئتها، أنهى الرئيس الأمريكي جيمي كارتر المساعدات العسكرية لجواتيمالا عام ١٩٧٧ لأن حكومتها «تنتهك حقوق الإنسان». لكن الرئيس رونالد ريجان أعاد عام ١٩٨١ مراجعة السياسة الأمريكية فى دول أمريكا الوسطى، فأرسل إليها مبعوثا خاصا هو الجنرال فيرنون والترز، الذى كان رئيس السى آى أيه فى جواتيمالا سيتى عاصمة جواتيمالا. وفى العام التالى، استؤنفت المساعدات العسكرية لجواتيمالا، حتى بعد أن علمت الإدارة الأمريكية أن حكومة جواتيمالا شنت حملة قمع لم يسبق لها مثيل على المواطنين والديمقراطيين والشيوعيين. إذ جاء فى تقرير للسى آى إيه بجواتيمالا إلى الرئاسة «تهدف حكومة جواتيمالا إلى شن أكبر حملة لـ «تنظيف» «مثلث إكسيل» بريف جواتيمالا، حيث تجمع أكبر قدر من المقاتلين ولاشك أن العملية سيكون من نتيجتها انتهاكات صريحة على يد العسكر، إذ قد يكون من الضرورى هدم عدد من القرى وتسويتها بالأرض».

القتل بالطريقة المناسبة!

وفى تقرير آخر للسى آى إيه شرح كامل وتفصيلي للأوامر التى أصدرها رئيس جواتيمالا الجديد الجنرال إيفرين ريوس مونت لقسم البوليس السرى:

«أعطيكم أمرى بالقبض على أى مقاتل، أو سجنه، أو التحقيق معه، أو قتله، بأى طريقة ترونها مناسبة».

حولت قاعدة السلاح الجوى بريتالهولو إلى مركز تعذيب كبير، استجلبت له كل أدوات التعذيب الأمريكية الجديدة، واستحدثت أساليب تعذيب وحشية سادية، فكان يلقى بالمسجونين بعد تعذيبهم فى حفر عميقة مليئة بالمياه، وبعدها يلقى بهم فى قبور جماعية «تغلق» بالأسمنت.

وقتل فى الثمانينات، كما تقول الوثائق ٧٠ ألف جواتيمالي. قدمت الولايات المتحدة الأمريكية خلالها المساعدات العسكرية ولم تتوقف ليوم واحد، بل وصلت عام ١٩٨٣ مثلا إلى ٥٠ مليون دولار لهذا البلد الصغير، وفى هذا العام بالذات اتهمت الإدارة الأمريكية «منظمة

العفو الدولية» بأنها «تقدم معلومات غير صحيحة عن جواتيمالا، وتقوم بحملة لصالح الشيوعيين»، واستمرت المساعدات العسكرية لجواتيمالا حتى عام ١٩٩٠.

استمرت الأعمال الوحشية بنفس المستوى، في أوائل التسعينات، ورغم أن واشنطن أصدرت إدانة رسمية لما يحدث، إلا أن علاقاتها بجواتيمالا استمرت سرا، كانت السي آي إيه وعملياتها في جواتيمالا مكشوفة للعالم، لكنها كذبت على وزارة الخارجية الأمريكية، وعلى البرلمان الأمريكي. و في عام ١٩٩٢، وقع حادث، بالمصادفة، قلب الأمور رأسا على عقب، ولم تستطع حكومة جواتيمالا أن تستمر في أكاذيبها.

اختفى إيمرين باماسا فيلاسكويز، أحد قادة المقاومة ضد الحكومة. وقالت الحكومة إنه «قتل في صدام مسلح مع قواتها». لكن زوجته الأمريكية المحامية جنيفر هاربيري، لم تقبل هذا القول، وقابلت أحد رفاق زوجها، وهو جواتيمالي أيضا، الذي ادعى أنه رأى زوجها في غرفة تعذيب، وقالت له وزارة الخارجية الأمريكية التي اشتكت لها أنها «تصدق أكاذيب لا صحة لها» لكن القصة احتلت عناوين الصحف الأمريكية لمدة شهر، ولم تصرح حكومة جواتيمالا بأي شيء. لكن الوثائق الحالية عندما كشف عنها الستار، قالت إن «السي آي إيه» كانت تعلم ما حدث لزوج المحامية بالضبط، لقد «قبض عليه، وعذب، ثم قتل، عندما لم يعترف بأي شيء». هذا ما ذكره تلغراف للسي آي إيه من جواتيمالا للمركز بالولايات المتحدة، ولم تذع وكالة المخابرات الأمريكية الحقيقة حتى عندما طلب «البيت الأبيض» الذي اشتكت له المحامية الأمريكية.

الافراج عن الأرشيف السري

السبب أن الذي عذب باماسا وقتله وكذا الأمريكي مايكل ديفين، هو «خبير التعذيب الكولونيل جوليو روبرتوالبيريز» الذي كان يقبض مرتبه من السي آي إيه.

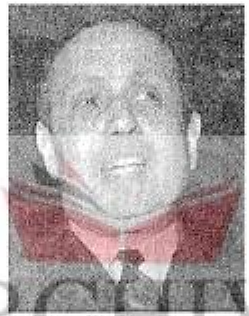
لكن حماية السي آي إيه للكولونيل ألبيريز أدت الى سقوط النظام العسكري في جواتيمالا. ذلك أن صحيفة «النيويورك تايمز» الأمريكية فجرت القصة عام ١٩٩٥، وأصاب «القرف» الرأي العام الأمريكي من أفعال السي آي إيه، ثم من إخفائها الحقيقة، فقرر الرئيس الأمريكي بيل كلينتون أن يوقف حماية الانقلابيين العسكريين في جواتيمالا، ويساعد على «إعادة السلام» إلى ربوعها، ويأمر بالإفراج عن الأرشيف السري ليساعد التحقيقات الجارية في جواتيمالا، كانت المرة الأولى في تاريخ أمريكا التي يفرج فيها «البيت الأبيض» عن مثل هذه الوثائق التي تدين الولايات المتحدة. وفي مثل هذه الفترة القصيرة على حدوث ما جاء بها.

وفي رحلة قام بها الرئيس الأمريكي بيل كلينتون لدول أمريكا الوسطى، اعترف بأن الولايات المتحدة كانت تؤيد الحكومة التي عذبت شعب جواتيمالا. لكن لم يقدم أحدا للمحاكمة لإقدامه على فعلته. ووعد الرئيس كلينتون أن «التأييد الأمريكي لأي نظام يقوم بالتعذيب والقمع لن يتكرر».

صفحات سقطت من سجل مؤرخى الأدب

بقلم : وديع فلسطين


ابراهيم بيومى مدكور


د. محمد صلاح الدين


محمد نجيب

عقاديات

حكايات عباس محمود العقاد كثيرة، ومعاركه الصحفية والأدبية اشتعلت على مدى العمر، فكان يتصدى لمن يواجهونه فى حلبة النزال بوجوه سافرة، أما الذين كانوا يطعنونه من الخلف أو يهاجمونه خارج الساحة، فقد كان يغفل أمرهم اعتدادا بنفسه وقلمه، وازدراء لمسلكهم الذى لايستقيم مع الأخلاقيات الأدبيه، وقد قال لى مرة انه كره الشاعر أحمد شوقى كراهة لا سبيل الى التراجع فيها لأنه كان يستأجر حثالة الأدباء فيهاجمونه فى الصحف، عوضا عن أن يخرج اليه الى مبارزة كما كان يفعل الفرسان فى زمن

تهيأ - لى بحكم التداول بين الصحافة والأدب - الوقوف على أشياء عزّ على مؤرخى الأدب أن يلموا بها فى ما دونوه عن الماضى القريب الذى يرتد الى الأربعينيات من القرن الماضى . وفى هذه السطور بعض من حكايات الصحافة والأدب التى انتهت الىّ أخبارها من واقع الاحتكاك الشخصى، وليس عن طريق المطالعة أو السماع .



طه حسين



عباس العقاد



عزيز اباظة

مضى.

وكنت ألاحظ أن بعض ناشئة الأدب، الذين طالت أيديهم فعرفوا الطريق الى الصحف التى تصدر خارج مصر، يهاجمون العقاد بشراسة ويسخرون من آرائه، وهم مطمئنون الي أنه لن يطلع علي ما ينشرونه بعيدا عن عينيه، فكنت من ناحيتى أجمع للعقاد هذه المقالات وأوافيه بها ليكون على اطلاع على ما يقال عنه فى صحف لا تصل الى يديه. وكان من عادته أن يكتفى بالسخرية من هؤلاء الناشئين، فيصفهم مرة بأنهم «عيال الأدب» ، ومرة أخرى بأنهم من «الشباب الناهد» ، ولم يحاول أبدا أن يدخل فى نقاش مع أى منهم حتى لا يكون ذلك سببا في ذيوع شهرتهم ورفع أقدارهم .

ومن حكايات العقاد أنه كان شديد الالتزام الصارم بالمواعيد، رافضا أى عذر

يساق لن يتخلف عن موعد معه. وعندما كان عضوا فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية مع زملائه طه حسين وعزيز أباظة وابراهيم بيومى مدكور ومن اليهم، توجه من بيته فى مصر الجديدة الى مقر المجلس فى الزمالك فى الموعد المحدد لحضور اجتماع يعقده المجلس برياسة الوزير كمال الدين حسين. ونظر العقاد فى ساعته وقال إن موعد افتتاح الجلسة أزف ولن ننتظر أحدا، فليتفضل الدكتور طه حسين برياسة الجلسة وافتتاحها. ولكن الدكتور طه قال : لا بأس من الانتظار قليلا ريثما يحضر الوزير . فما كان من العقاد الا أن قال : اذن أرأس أنا الجلسة ، وأعلن افتتاحها قائلا : لابد من احترام المواعيد واحترام الحاضرين وكلهم من أعلام الفكر. وشرع ينظر فى البنود المدرجة فى جدول الأعمال، فلما حضر الوزير متأخرا، أفسح له العقاد ليرأس الجلسة وأخطره بما تم أثناء غيابه.

ومنذ وفاة العقاد فى ١٢ مارس ١٩٦٤، درج عامر العقاد ابن شقيقه على الاحتفال فى كل عام بذكرى ميلاد العقاد التى تحل فى ٢٨ يونيو (وهو من مواليد ١٨٨٩) ، وكان يطلب منى المشاركة فى هذه المناسبة. وفى احدى المرات اعددت كلمة لالقائها فى هذا الحفل، وتوجهت الى بيت العقاد حيث استقبلنى عامر قائلا : إن الرئيس محمد نجيب والدكتور محمد صلاح الدين باشا يجلسان فى الصف الأول، فقم بتحيتهما. كان الرئيس أنور السادات قد أفرج عن الرئيس محمد نجيب، فصار يتردد على المنتديات الأدبية، ورأيته غير مرة فى مكتبة الانجلو المصرية يختار مجموعة من الكتب، فاذا همَّ بدفع ثمنها رفض صاحب المكتبة صبحى جريس ان يتقاضى منه شيئا قائلا : إن هذه هدية متواضعة من المكتبة التى شرفتها بزيارتك. ولم تكن لى سابقة معرفة بالرئيس محمد نجيب، ولا رغبت فى أن أتزلف إليه. أما الدكتور صلاح الدين باشا وزير الخارجية فى حكومة الوفد الأخيرة فكان صديقا قديما لى لم أره من سنوات طويلة، ومع ذلك آثرت أن أجلس فى آخر صف فى القاعة دون أن أحييه مادام يجلس الى جوار الرئيس محمد نجيب.

وعندما نودى باسمى لالقاء كلمتى المعدّة سلفا، توجهت الى ما وراء مكتب عامر الذى يفصلنى عن الجالسين فى الصف الأول، وشرعت فى القائها . وختمت كلمتى المكتوبة بعبارة استعرت جزءا منها من أستاذنا أحمد حسن الزيات حيث وصف عبدالناصر بأنه من «الطوال من ذوى السلطان»، وقلت : إن العقاد عرف كيف يحترم نفسه ويحترم قلمه ففرض احترامه على الطوال

والعراض والقصار من ذوى السلطان ! وهممت بالانصراف، فوقف الرئيس محمد نجيب وصافحني ، فقلت له : انما قصدتك بالعراض من ذوى السلطان ! .

وحل موعد صلاة الجمعة، فانصرف الرئيس محمد نجيب، وأنست بعد ذلك بصحبة صديقى الدكتور محمد صلاح الدين باشا فكان هذا آخر لقاء لى معه .

مؤرخ اليمن

فى عام ١٩٤٨ التقيت فى ندوة المجاهد الفلسطينى الكبير محمد على الطاهر، المعروف بأبى الحسن، بمؤرخ اليمن الشيخ عبدالواسع الواسعى ، وهو رجل قصير القامة، يرسل لحية تكاد تكون أطول من كل دماغه. ويتحدث بصوت هامس وبلهجة يمنية. فأخبرنى أنه يزور القاهرة لكى يطبع كتابا كبيرا يسجل فيه تاريخ اليمن من أقدم العصور والى العصر الحديث ، ووعد بأن يزورنى فى الجريدة التى أعمل بها لكى يقدم الى نسخة منه بمجرد صدوره. وبعيد ذلك، وفى الشيخ الواسعى بوعده، وزارنى لتقديم الكتاب الكبير بجزئيه عن تاريخ بلاده التى كان يحكمها اذ ذاك الامام يحيى حميد الدين . ولم يكد كتابه يظهر حتى تواردت أنباء من اليمن عن قيام عبدالله بن الوزير المستشار الشخصى للامام يحيى بانقلاب، وأعلن نفسه إماما خلفا للامام يحيى الذى أشيع أنه لقى حتفه، وشرع ابن الوزير فى اختيار وزرائه للقيام بحركة اصلاحية فى البلاد، وأنشأ مجلسا تشريعيا من ٦٠ عضوا .

ولما كان مؤرخ اليمن راغبا فى تسجيل تاريخ بلاده الى آخر لحظة ، فقد أصدر لكتابه ملحقا عن حركة ابن الوزير الاصلاحية التى رأى فيها الشيخ الواسعى انقاذا لليمن (السعيد!) من جهالات عهد الامام يحيى، وزارنى فى مكتبى وهو متهلل لكى يقدم الىَّ هذا الملحق قائلا إن ابن الوزير سيحقق لليمن عصرا زاهرا .

ولكن ثورة ابن الوزير أخمدت بأسرع مما يتصور، وتبين أن الإمام يحيى على قيد الحياة خلافا للشائعة الكاذبة، وخشى الشيخ عبدالواسع الواسعى أن يقع هذا الملحق فى أيدى حكومة الامام فتقطع عنقه، ولما توجهت فى الصباح الى مكتبى وجدت الشيخ عبدالواسع فى انتظارى منذ الفجر، وطلب استرداد هذا الملحق الذى أعمل فى جميع نسخه الإعدام متكتما أمره تماما، وعندما تسلم الملحق منى قال: لقد أنقذت حياتى . ومن حسن حظه أن آلات الاستنساخ والتصوير التى انتشرت اليوم لم تكن معروفة فى ذلك الوقت ، والا لخشى من أن أكون قد احتفظت بنسخة من الملحق تعرضه للمهالك .

ومن قبيل الاستطراد أذكر اننى

التقيت فى ندوة أبى الحسن بالأمير البدر ولى عهد الامام يحيى قبل زوال مملكته، كما التقيت فى جنازة بالمشير عبد الله السلال الذى قاد الثورة على عهود الائمة، وكان وقتها مجرد لاجىء سياسى عافته جميع مظاهر السلطة.

كما التقيت بالأمير على عبدالكريم ولى عهد سلطان لحج قبل ان تندمج جميع مشيخات الجنوب فى دولة اليمن.

الشاعر جورج صيدح وجارته الحسناء

عندما قرر الشاعر المهجرى جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) الهجرة من بلاده سورية، توجه أولا الى القاهرة حيث اشتغل بتجارة الدخان التى لم تمنعه من نظم الشعر، ولكنه سمع أن أمريكا الجنوبية هى القارة التى تحقق الثراء لمن يهاجرون اليها، فأزمع الرحيل الى هناك واختار فى عام ١٩٣٧ فنزويلا مستقرا يجرب فيه حظه، وبعد عشرين عاما من الاقامة فيها ارتحل الى الارجنتين وبقى فيها الى أن زهد فى الهجرة وعاد عام ١٩٥٢ الى لبنان أولا ثم الى باريس التى عاش فيها الى آخر العمر بعد هجرة امتدت ربع قرن.

وفى بداية عهد جورج صيدح بالهجرة، لم يكن يحسن اللغة الاسبانية المتداولة فى فنزويلا، ولكنه أجادها بعد ذلك بحكم اقامته فيها. ومن طريف ما حدثنى به أنه أقام فى بدء هجرته فى منزل لا يعرف أحدا من سكانه ولا من المقيمين بالقرب منه، كما أن حاجز اللغة كان من أسباب عدم التواصل بينه وبين ذوى الجيرة، وذات يوم اكتشف أن صبية حسناء تقيم فى منزل مجاور، ولكن كيف السبيل الى خطب ودها وهو لا يعرف لغتها، فاستنجد بشعره العربى عساه يستدر عطفها، ولكنها لم تفهم منه حرفا، ولا كان له أى تأثير فى الاقتراب منها. أما قصيدته التى ذهبت هباء بسبب معضلة اللغة فهى:

أنت لو كنت شعرت
بأسى الجار الغريب
ربما كنتِ مررت
تحت شباكي القريب
أنت لو كنت سمعت
أنّةً من جانبيّا
ربما كنتِ رفعت
نظرة منك إليّا
أنت لو كنت فهمت
سر قلبي من عيوني
ربما كنت ابتسمت
بسمة الأخت الحنون
أنت لو كنت عرفت
أنني في الدار وحدي
ربما كنت وقفت
عند بابي، دون قصد
أنت لو كنت علمت
بالذى يقضى صباك
ربما كنت دخلت
(أوصدى الباب وراك)!

ولئن انتشر شعراء المهجر الجنوبي في البرازيل والأرجنتين بصورة أكبر وفي المكسيك وشيلي والاكوادور والجمهوريات الأخرى بصورة أقل، فقد كان عدد الشعراء في فنزويلا صغيرا جدا، ولهذا سرني أن أتلقى مؤخرا ديوان الشاعر جورج يوسف شدياق المقيم في فنزويلا، والذي يحاول استعادة مجد الشعر المهجري الذي تقلص برحيل أعلامه الكبار في كل القارة الجنوبية مثل : الشعر القروي رشيد سليم الخوري، والياس فرحات، وشفيق وفوزي معلوف، وجورج صيدح، وزكي والياس قنصل، ونظير زيتون وغيرهم وغيرهم .

سكرتير طه حسين

أخبرني الأديب يوسف الشاروني، زميلي في المرحلة الثانوية، بعد اطلاعه على ما كتبته عن طه حسين وسكرتيره في عدد شهر مايو من مجلة «الهلال»، بأنه عرف من أسرة زوجة فريد شحاته بأنه توفي في كندا التي كان قد هاجر اليها بعد تركه العمل مع طه حسين. ولعل هذا يفسر فشلي في تسقط اخباره من واقع أدلة التليفون في الولايات الكندية المختلفة.

الزحف النسائي في قطر

في رسالة تلقيتها من الدوحة أن الديوان الأميري أصدر مؤخرا مرسوما بتعيين الأديبة الدكتورة هدى النعيمي عضوا في المجلس الوطني للثقافة والفنون في قطر . وهو مجلس يؤدي مهمة وزارة الثقافة في هذه البلاد، وكانت الأديبة الدكتورة كلثم جبر قد عينت عضوا في هذا المجلس بمرسوم سابق .

وهاتان الأديبتان ظفرتا بدرجة الدكتوراه من مصر ولكن في غير المجال الأدبي. فالدكتورة هدى النعيمي نالت درجتها في الفيزياء النووية، في حين نالت الدكتورة كلثم جبر درجتها في علوم الاجتماع، ولكنهما تهويان الأدب، إذ أصدرت الدكتورة هدى مجموعتين قصصيتين عنوانهما «المكحلة» و«أنثى»، وأصدرت الدكتورة كلثم مجموعة بعنوان «وجع امرأة عربية» كتب مقدمتها رجاء النقاش .

وهناك زميلة ثالثة لهما هي الدكتورة هيا محمد الدرهم التي نالت درجة الدكتوراه من القاهرة في موضوع الأدب المهجري، وهي تعمل أستاذة في كلية البنات بجامعة قطر، ولها كتاب كبير عن «صورة البحر في الشعر العربي الحديث بالخليج» .

ولهؤلاء الأديبات الثلاث مشاركات في عدد من المؤتمرات الأدبية التي عقدت في العواصم العربية المختلفة، فكنّ صورة مشرقة لقطر في هذه المجتمعات .

أمريكيتان تحملان اسم علي شلش

كان الأديب الدكتور علي شلش متزوجا من سيدة أمريكية أنجب منها

ابنتين، وكان فى سنواته الأخيرة قد قرر أن يقيم فى لندن التى توسع فيها النشاط الثقافى العربى بسبب هجرة عدد غير قليل من الأدباء العرب اليها ملتمسين مزيداً من الحرية فى التعبير عن آرائهم، وبسبب كثرة المطبوعات العربية التى باتت تصدر عن العاصمة البريطانية من صحف ومجلات وكتب، حتى قرر عدد من الناشرين العرب اعتبار لندن منطلقا لنشر كتبهم وتوزيعها فى ربوع العالم العربى.

وعندما توفى الدكتور على شلش فجأة فى القاهرة فى ٢٢ أكتوبر ١٩٩٣ ظلت أرملته تقيم مع طفلتيها فى لندن، وهى اقامة فقدت مبررها بعد ارتحال الزوج، فقررت أن تعود الى الولايات المتحدة مع طفلتيها اللتين اكتسبتا الجنسية الأمريكية وان بقيتا تحملان اسم على شلش وكان علي شلش يشرف على سلسلة «نقاد الأدب» الصادرة عن هيئة الكتاب، ولا أدري لم لا تخصص حلقة من هذه السلسلة لمنشئها، إذ كان علي شلش بدوره من نقاد الأدب .

عيسى خليل صباغ

توفى فى الولايات المتحدة مؤخرا عيسى خليل صباغ، وهو أمريكى من أصل عربى قابلته للمرة الأولى فى القاهرة فى عام ١٩٥٢ عندما زارها لحضور العرض الأول لرواية «مجد العرب» التى قام فيها بتمثيل دور الملك عبدالعزيز آل سعود فى فتح الرياض ودحر آل الرشيد وتوحيد بلاد الحجاز تحت إمرته . وقد اشترك فى تمثيل هذا الفيلم ممثلون أمريكيون وممثلون هواة من العرب وصورت مناظره فى أرض الجزيرة العربية وفى المواقع التى شهدت معارك ابن سعود.

وكان عيسى خليل صباغ يعمل الى جانب ذلك مديرا للقسم العربى لراديو صوت امريكا سنوات طويلة، كان من كبار أعوانه فى برامجه رائد أبولو الدكتور أحمد زكى أبو شادى .

وكان صباغ رشيق القوام جميل الصورة له لحية صغيرة (سكسوكة) يسميها المجمعيون «الثعنون»، وهى مؤهلات كانت ترشحه للظهور على شاشة التليفزيون ولكنه كان يختبيء دائما وراء ميكرفون الاذاعة .

ولعل أكبر شهادات ظفر بها عيسي خليل صباغ في حياته هي القصائد التي وجهها اليه أبو شادي فى دواوينه المهجرية الأربعة التى أشرفت بنفسى على تحقيق مخطوطاتها ونشرها وهى ديوان «الانسان الجديد» وديوان «النيروز الحر» وقد صدرا فى عامى ١٩٨٣ و ١٩٨٨ على التوالى عن دار ومطابع المستقبل فى القاهرة، وديوان «من أناشيد الحياة»، وديوان «ايزيس» وقد صدرا عام ١٩٩٩ فى مجلد واحد عن دار الجديد فى لبنان .

وقد أحصيت في هذه الدواوين الأربعة ٩ قصائد نظمها أبو شادى فى تحية صباغ فى مناسبات شتى، وهى قصائد لا تخلو من الدعابة مثل الابيات التى قالها ابو شادى عند حصول صباغ على الجنسية الامريكية وفيها يقول :

بُشراك! هذا العم عيسى صار فينا العم سام

انظر الي عثنونه فلقد تزايد واستقام

قد كان في حزم الشيوخ فصار في زهو الغلام

من ذا يطاوله، وهذي الناطحات له تقام

وختمها بقوله :

فاليوم عيسي كالرشيد وحقه حق الغرام !

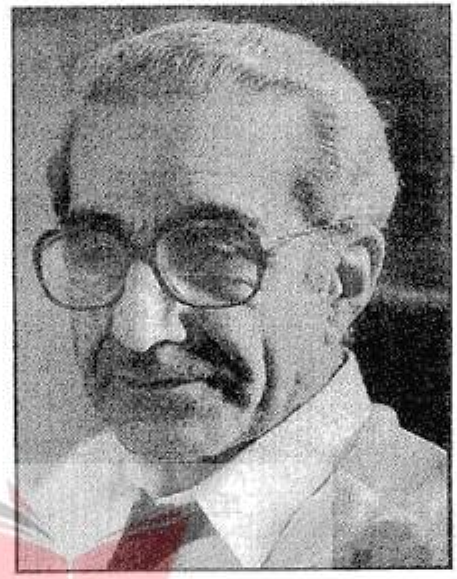
المكتبات الخاصة

مازالت المكتبات الخاصة التى يدأب الباحثون فى اقتنائها على مدى العمر تؤرق أصحابها بشأن مصيرها، ولا سيما اذا كان «الورثة» مبتوتى الصلة بالعوالم التى شغلت صاحب المكتبة، وقد أخبرنى الروائى السورى الدكتور عبدالسلام العجيلى أنه على استعداد للتنازل عن مكتبته الخاصة لمن يتعهد برعايتها والحفاظ عليها فلا يفرط فى أى من مفرداتها لأن نجليه الطبيبين لا يشاركانه فى اهتماماته الأدبية .

أما الأديب التونسى ابو القاسم محمد كرّو، وهو الذاكرة الحية للثقافة والوطنية فى تونس، فقد وهب مكتبته الخاصة التى تضم أكثر من ١٣ ألف مجلد الى كلية الآداب بمنوبة (وهى الجامعة التونسية الأولى) فأقيم بهذه المناسبة حفل أكاديمى كبير لافتتاح قاعة «أبو القاسم محمد كرو» التى تتصدرها صورة للمهدى بحضور ممثل لرئيس الدولة وبإشراف وزير التعليم العالى، وتبارى الخطباء فى الاشادة بهذه الهبة الثمينة التى يفيد منها الباحثون والعلماء.

وللأديب «أبو القاسم محمد كرو» أكثر من أربعين كتابا مؤلفا، وهو عضو فى مجامع اللغة العربية فى مصر وسورية والأردن والعراق، وعضو فى عشرات من الجمعيات العلمية العربية والتونسية، وشغل منصب المستشار الثقافى فى تونس سنوات طويلة ومنح وسامان للاستحقاق وكذلك وسام الجمهورية التونسية وجائزة الدولة التقديرية فى النقد

وقد قام ابو القاسم منذ يفاعته بدور السفير الأدبى التونسى ، فزار جميع البلدان العربية وعقد صلات وثيقة مع أعلام الأدب فيها، وبفضله أطللنا على الساحة الأدبية فى تونس وعرفنا إعلامها الكبار . وهو أول من عُنى بنشر آثار الشاعر الكبير «أبو القاسم الشابى» فصار ملء السمع والبصر فى العالم العربى كله .



حياتى نظام صارم حتى لا تتسرب الفوضى إلى الفكر

مصطفى سويف

شـهـادتى فى هذا المقـال تتناول النصف الثـانى من أربعينيات القرن العشرين ، كيف سرت . وسارت مصر ، وسار العالم من حولنا . فأما أنا فقد كنت حديث التخرج ، أقف عند مفرق الطريق الذى سوف أسلكه لأكمل من خلاله صياغة هويتى الفكرية . وأما مصر فكانت ممتلئة بالأمل فى قرب رحيل الجنود البريطانيين عن أرضها بما أن ذريعة الحرب قد انتهت ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه مشدودة بين واقع سياسى متهرئ يديره حفنة من السياسيين



زعماء المحاماة فى القاعة أثناء نظر قضية أحمد ماهر

المتهافتين ، ومشروعات مستقبلية متضاربة تروّج لها مجموعات من المواطنين يتناثر فكرها على اتساع الطيف السياسى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وكان العالم من حولنا جميعا يعى أنه خارج لتوه من أتون الحرب فى أوروبا ، وأنه لم يفرغ بعد من الحرب فى آسيا ، ومع ذلك فقد بدأ بالفعل يواجه مشكلات السلام ويعى أنها لا تقل خطرا عن مشكلات الحرب سواء من حيث مستوى تعقدها ، أو باعتبار فاعليتها فى تشكيل المستقبل .

حسم الغامض في مسيرتي

جبلت منذ صباى على الإلحاح فى استيضاح المواقف الغامضة من حولى فى الحاضر ، وتوظيف الناتج من التخطيط لما هو آت . ولأمر ما اعتدت أن أمارس هذا السلوك بجميع حلقاته بمثابرة أحسد عليها ، وفى إطار من التوتر النفسى بالغ الشدة وإن ظل محكوما دائما . هكذا جرت أمورى فى أواخر مرحلة الدراسة الجامعية ، فقد استقر قرارى بعد حوارات نفسية مضنية على أن أضحى بإرهاصات الكتابة الأدبية ، وأكرس مستقبل العمر للاشتغال بالفكر العلمى ، متمركزا فى العلوم النفسية وجوبيا ومتجولا فى مساحات الفكر العلمى العام جوازا حيثما شعرت بالحاجة والاقتدار . وأنا أذكر الآن كيف كنت أفكر عندئذ فى كل صغيرة وكبيرة لكى أحسن توظيف هذا القرار . ويبدو أن قاعدة انطلاقى كانت تنطوى على قدر كبير من الشعور بالحسرة على ما قررت التضحية به ، الانتاج فى الصناعتين ، النثر والشعر ، ومن ثم فقد أصبح لسان حالى : كيف أضمن للصفقة أن تكون رابحة فى نهاية المطاف ؟ وكان طريقى إلى الإجابة هو التخطيط لتوفير أفضل الشروط . وكنت أعى أننى أعيش فى واقع اجتماعى غير موات . وكانت هذه الحقيقة تعنى فى نظرى مزيداً من الإلحاح على قيمة التخطيط . وأرى الآن استرجاعا لذكرى تلك الفترة أن مفتاحى الرئيسى لكل ما صممت من تدابير كان يتمثل فى مفاهيم ثلاثة ملكت على عقلى ووجدانى : هى الجدية ، والاتساق ، والمثابرة لضمان التراكم . وجدير بالذكر أن الآليات النفسية التى قامت وراء هذه المفاهيم الثلاثة عاشت معى وتطورت فيما بعد لتصبح محكات أحتكم إليها فيما أرتضيه وما لا أرتضى الإقدام عليه من نشاطات ، فما ارتضيته دخل فى الحسبان ، وما لم أرتضه كان نصيبه الترك والنسيان . ومن ثم فقد اتخذت من فترة السنوات الخمس التى أعقبت التخرج فترة لتثبيت التوجه الرئيسى للمسيرة ، وكان ذلك باتخاذ القرارات التأسيسية التى لا غنى عنها ، وتنفيذ الخطوات التى لا رجعة فيها ؛ فكان من أهم قراراتى أن يكون لى عمل يضمن لى راتبا شهريا ثابتا كشرط ضرورى لاستقرار الحياة ، وألا تكون إقامتى الدائمة خارج القاهرة لأن ذلك قد ينطوى على أخطار تهدد مشروعى الفكرى ، وألا أتخذ من قلمى أداة رئيسية لكسب قوتى حتى لا أضطر إلى تعريضه للمهانة ، وأن أتزوج حتى أضمن حدا أدنى من الاستقرار العاطفى، وأن أضع لحياتى نظاما صارما حتى لا تتسرب فوضى السلوك إلى الفكر فتفسده. ولست أذكر الآن الكيفية التى صنعت بها هذه القرارات ، ولا التسلسل الذى ظهرت به ، ولكن ما أذكره أنها كانت فى جملتها ناصعة الوضوح ، شديدة التماسك حتى بدا لى أن التهاون فى الالتزام بأىٍّ منها كفيل بانهيار الهيكل الذى يضمها ، ويبقى فى الذاكرة كذلك أن المادة التى حفظت عليها تماسكها الداخلى كانت وجدانية بقدر ما كانت عقلانية .

أنظر الآن إلى الخلف بقدر معقول من الرضا ، فقد أظلتني بمظلة وقتني شر التوهان . وأسلست خطواتي بما أشاعته في نفسي من ثقة في الحاضر واطمئنان للمستقبل . كانت أولى خطواتي في هذه المرحلة بدء العمل في البحث الذي اخترته لأنال به درجة الماجستير ، «الأسس النفسية للإبداع الفنى : فى الشعر خاصة» . كان البدء في سنة التخرج نفسها ، سنة ١٩٤٥ . ثم جاءت آخر إنجازاتي في المرحلة نفسها عندما عينت معيدا بكلية الآداب وبدأت مهامي التعليمية فعلا في أول نوفمبر سنة ١٩٥٠ ، وبين هذين التاريخين امتلأت أيامي بوقائع كثيرة تحمل دلالة المخاض ..ففي تلك الفترة نعمت بنوعين جديدين من الصداقة كان لهما فيما بعد نصيب كبير في إثراء حياتي الفكرية والوجدانية ، صداقتي مع ثلاثة من الكتاب هم أحمد بهاء الدين ، وفتحي غانم ، وعبدالرحمن الشرقاوي ، وصداقتي مع ثلاثة من المصورين هم محمد نبيه عثمان ، ومحمد حامد عويس ، ويوسف سيده . وفي تلك الفترة بدأت أرتاد صالونات الفن التشكيلي ، وكانت إذ ذاك ظاهرة ثقافية محدودة . وبدأت أدرب قلمي على الكتابة الثقافية العامة ، وجرى ذلك على صفحات «الفصول» لمحمد زكي عبدالقادر . وفي الوقت نفسه بدأت أنشر المقالات المتخصصة على صفحات «مجلة علم النفس» . وبدأت الإعداد لبحث الدكتوراه بعد بضعة أسابيع من إنجازي بحث الماچستير ، وكانت الفصول الأخيرة من هذا البحث هي الرحم الذي تخلق بداخله جنين الدكتوراه . وفي يناير سنة ١٩٤٩ عقدت قراني على السيدة التي أنست إليها ، وأكبرت إمكاناتها الإنسانية عامة والفكرية خاصة وما كانت تنبئ عنه . وفي مارس سنة ١٩٥٠ أنجبنا كريمتنا «أهداف» ، وأضافت أهداف إلينا شيئا فريدا ، كأنما هو عطر خاص بهذه الأسرة. هكذا حملني المخاض في ختام الأربعينيات إلى حيث تخلقت هويتي الإنسانية بأركانها الأربعة ، الأبوة ، والصداقة ، وارتضاء أمانة الفكر الاجتماعي ، والعضوية العاملة في أسرة العلم والعلماء .

مصر فى مخاضها

كان اغتيال أحمد ماهر ، رئيس الوزراء في فبراير سنة ١٩٤٥ افتتاحية صاخبة لمخاض مصر في مرحلة النصف الثاني من الأربعينيات . وأذكر أن وقع الحادث علينا جاء مثيرا لمشاعر مختلطة من الدهشة والخوف والترقب . وقد تولى الوزارة بعد ذلك محمود فهمي النقراشي ، الرجل الثاني في حزب السعديين . وفي حدود ما تناثر من معلومات أثناء محاكمة القاتل لم نفهم شيئا عن حقيقة التوجهات التي دفعت به إلى الاغتيال . وقيل فيما بعد إنه كان ينتمي إلى الحزب الوطني . وانتشرت في ذلك الوقت شائعات بأن النقراشي كان يشرف بنفسه على التحقيق. ورأينا حينئذ أن هذا التدخل نذير سئ يضاف إلى نذير الاغتيال

فكلاهما يدفع بالصراع السياسى بين القوى الوطنية إلى مستوى من العنف واللاقانونية يصعب التراجع عنهما فيما بعد . وفى غضون شهور قليلة تراجعت سيرة حادث الاغتيال هذا ، وحلت محلها أنباء حادث اغتيال سياسى آخر ، فى هذه المرة كان القتيل أمين عثمان . أحد الأعضاء البارزين فى حزب الوفد (فى يناير سنة ١٩٤٦) . وأحاطت بهذا الحادث مجموعة ظواهر قبيحة ، فقد اتجهت بعض الكتابات الصحفية المعادية لحزب الوفد إلى أسلوب دس السم فى العسل ، وكان العسل هو متابعة جهود مبذولة لضبط الجناة ومتابعة إجراءات التحقيق ، أما السم فكان تحسين صورة الجناة إلى ما يقرب من ملامح البطولة ، على أساس أن القتيل كان من المقربين إلى الانجليز . وبدأنا نقرأ بين السطور ما يشير إلى تورط بعض رجال الملك إن لم يكن بالتشجيع قبل وقوع الجريمة فبالحماية بعد وقوعها . ثم كانت أسابيع قليلة تراجعت بعدها سيرة هذا الحادث أيضا ، ولكن لتحل محلها هذه المرة أنباء الحركة الوطنية . وكان خروج المظاهرات الطلابية إلى الشوارع مظهرا رئيسيا لهذا التحرك. وفى أوائل فبراير سنة ١٩٤٦ خرجت إحدى هذه المظاهرات من جامعة القاهرة (فؤاد الأول حينئذ) متجهة إلى ميدان الجيزة ومنه اتجه المتظاهرون إلى كوبرى عباس قاصدين عبوره إلى حى الوزارات (ولم يكن كوبرى الجامعة الذى نعرفه الآن قائما فى ذلك الزمان) ، وهناك وجدوا الكوبرى مفتوحا فتوقفت المسيرة ، وعندئذ أطبق جنود الشرطة عليهم من ناحية الجيزة ومن بعض الشوارع الجانبية وانهالوا عليهم ضربا بالعصى الغليظة . وشعر الطلبة والمواطنون أن المظاهرة وقعت فى كمين نصب لها ، وأثارت الواقعة استياء شديدا فى دوائر واسعة من الرأى العام ، وكنت أسمع التعليقات الساخطة عليها تتناثر من أفواه الناس العاديين فى الشوارع وفى المواصلات العامة . وأدرك الملك وحاشيته أن الأمور توشك أن تفلت من أيدى السلطة ، فأزيح النقراشى من الحكم بعد أسبوع من الواقعة ، ودعى لتشكيل الوزارة اسماعيل صدقى ، وتوقع الناس مزيدا من السوء مع إعلان التشكيل الوزارى الجديد ، اعتمادا على ما لرئيس الوزارة الجديدة من ماض سيئ فى إدارة شئون الحكم فى أوائل الثلاثينيات . وكان الرجل على وعى بأن ماضيه السياسى يطارده ، ومن ثم فقد انصرفت جهوده عند بدء تعيينه إلى تحسين صورته العامة ، واستعان على ذلك ببعض الحيل الرخيصة : منها احتواء وزارته على أسماء رجال لهم قدرهم فى الوجدان العام، وكان على رأس هؤلاء أحمد لطفى السيد كوزير للخارجية ، ومنها الإدلاء للصحف بأحاديث تقطر خديعة بمعسول الكلام ، ومنها كذلك أن رتب لنفسه تدابير المشاركة فى إحدى المظاهرات وشارك فعلا ، وفى هذه المظاهرة حمل على الأكتاف (أكتاف المخبرين السريين طبعا) وأخذ يهتف والمتظاهرون يرددون الهتاف ،



أثناء المرافعة في قضية اغتيال أمين عثمان

ولما كان دعاة التزلف للحكومة موجودين في كل زمان : فقد ظهر من أخذ يدعو إلى تصديق الرجل ومهادنته بدعوى إعطائه فرصة ليثبت حسن نواياه ، وجازت الخديعة فعلا على كثيرين ! وفجأة أسفر الرجل عن وجهه الحقيقي ، وإذا به يصدر قرارا بتحريم المظاهرات بحجة أن الدهماء يندسون فيها : وأصدر قرارات أخرى تقضي بتعطيل سبع صحف إلى أجل غير مسمى ، وكان على رأس هذه الصحف جريدة «الوفد المصرى» ، ومجلة شهرية يصدرها اتحاد خريجي الجامعة ، وأصدر كذلك قرارات بإغلاق عدد من مقار الجماعات اليسارية .

ولكن رغم هذه الإجراءات والقرارات استمرت أحداث المد الثورى : فقد وقعت صدامات كثيرة مع الشرطة . داخل الجامعة ، وداخل عدد من المدارس الثانوية، وبدا واضحا للجميع أن المشورة التى أتت بصدقى إلى الوزارة لم تكن من الحكمة فى شئ ، وبدا واضحا للجميع كذلك أن الرجل قد أدى المهمة الصعبة ، مهمة إغلاق بعض النوادى ومصادرة صحف بعينها ومن ثم فلا حاجة تدعو إلى استمراره وجها للسلطة والأفضل أن يضحى به كبش فداء وأزيح صدقي فعلا عن كرسى السلطة ، وأعيد النقراشى إلى رئاسة الوزارة مرة أخرى (فى ديسمبر سنة ١٩٤٦) ، وكشفت هذه الخطوة نفسها عن أن محركى خيوط التغيير

والتعديل يعانون من تخبط فى قراراتهم ، وربما كانوا يعانون كذلك من عجز عن فهم متغيرات جديدة تمس علاقات القوى الاجتماعية السياسية ببعضها البعض . على أية حال استمر الموقف السياسى يزداد تدهورا نحو اضطراب أكثر فأكثر ؛ فقد استمرت مظاهرات الطلبة وانطلقت فى بعضها هتافات ضد الملك (خاصة داخل الجامعة) ، ومما زاد الطين بلة سريان موجة من تفجير القنابل داخل دور السينما ، وكانت قد بدأت قبيل عهد صدقى ، واستمرت فى العهد الجديد أيضا . ولم تذكر الأنباء أن الحكومة عثرت على الجانى فى أى من هذه التفجيرات ، وكان السؤال الرئيسى الذى يشغلنا جميعا هو : من الذى يستفيد من هذه التفجيرات الموجهة إلى «المصريين العاديين» فى هذه الظروف ؟ وكانت الإجابة التى تفرض نفسها بطريق المنطق أن الإنجليز وعملاءهم هم المستفيد الأول . أم تكون هناك أصابع أخرى ؟ ثم زادت أمور البلد تفاقما بأن فوجئ المواطنون بتفشى وباء الكوليرا بينهم فى أواخر سنة ١٩٤٧ . وقرأنا فى تفشى الوباء إشارة بأصبع الاتهام إلى نظام الحكم كله ؛ فاللاعبون جميعا على المسرح المكشوف ، والمحركون من وراء الكواليس ، والمخرجون والملقنون مشغولون بتسخير كل شئ لأغراض اللحظة ، ولا أحد يهتم بخطط البناء طويلة الأجل .

وسط هذا الفيض من الأحداث المزعجة التى تزلزل الأرض من تحت أقدام الجميع ، وتشيع بينهم الخوف والترقب ، وتباعد بينهم وبين أقل القليل من الطمأنينة، كنت أواصل العمل فى رسالة الماجستير ، وكنت أطلب من عبدالرحمن الشرقاوى ومحمود العالم أن يعطيانى مسودات أحدث قصائدهم ، وكنت أجلس فى أى وقت من الليل أو النهار إلى أوراقى وكتبى لأواصل التفكير المدقق فى مشكلاتى البحثية ، ولينتهى بى التفكير إلى نوع الكتابة التى أرتضيها ؛ وكنت فى ذلك الوقت على وجه التحديد أجتاز أصعب مراحل البحث وأحوجها إلى أعلى مستوى من إحكام قبضة الذهن على جميع خيوط التفكير . وأنا الآن أتذكر هذا كله ، وأتذكر معه أننى كنت فى ذلك الوقت على درجة عالية من الوعى بما يجرى فى البلد ، وما يجرى فى ذات الوقت داخل رأسى من عمليات تناول وثائق البحث بالنظر ابتغاء الفهم والتحليل واستخلاص النتائج الكاشفة ، وفى خضم هذا كله كنت أسمع من حين لآخر بعض الأصوات التى تنتقد هذا الانشغال من جانبى بعمل أكاديمى لا يضر ولا ينفع بدلا من أن أخرج للمشاركة فى أحداث البلد السياسية . كنت أستمع إلى هذا النقد أو اللوم ، وكنت أتحاشى الرد على أصحابه ، وألوذ بالصمت والابتسام ، وكنت فى كل مرة انتهى إلى رفضه فى سريرة نفسى ولكن سياق شعور بالمشقة لا يفارقنى . كنت أشعر أنه نقد غير صائب ، وأنه وليد نظرة سطحية للأمور ، وكانت حجتى الرئيسية فى الرفض أن النشاطات الإنسانية الإيجابية

من قبيل العلوم والفنون والحب والزواج والإنجاب .. إلخ لا يجوز أن تتوقف تحت أي شعار وأمام أي تبرير . وأن المشكلة الحقيقية إنما تكمن في الكيفية التي نضمن بها لهذه النشاطات أن تستمر رغم كل ما يدور حولها من صراعات . وكثيرا ما كان ينتابني شعور بأن بلادنا معرضة لكثير من الصراعات السياسية أكثر من غيرها من الدول القوية ، فهل يعني ذلك أن نتوقف نهائيا عن الإسهام في نشاطات الفكر بدعوى أننا بلد صغير. هكذا كان الحوار يدور في سريرتي ، وبصورة أكثر تفصيلا في جميع الأحوال .

على أية حال فوجئنا في ديسمبر سنة ١٩٤٨ بأن أصدرت حكومة النقراشي قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين . وبعد عشرين يوما من صدور قرار الحل اغتيل النقراشي في بهو وزارة الداخلية إمعانا في تحدي سلطان الدولة . وبعد أقل من شهر ونصف الشهر اغتيل حسن البنا (فبراير ١٩٤٩) المرشد العام للإخوان المسلمين . وأشارت جميع أصابع الاتهام إلي ضلوع الحكومة في ارتكاب الجريمة . وبدا واضحا للجميع أن ابراهيم عبدالهادي ، خليفة النقراشي في رئاسة الوزارة بات مهددا بالقتل ثأرا لحسن البنا. وثاب محركو الخيوط إلى شئ من التعقل، أو جاءتهم النصيحة ممن يعرفون كيف تساس مثل هذه المواقف بحسابات متبصرة ، فأزيح ابراهيم عبدالهادي عن الحكم . ودعي حسين سري ليشكل وزارة تجري انتخابات تشريعية محايدة ، وأجريت الانتخابات فعلا ، وفاز الوفد بالأغلبية ، ودعي مصطفى النحاس إلى تشكيل الوزارة (في يناير سنة ١٩٥٠) . وبعد فترة وجيزة أعلن النحاس إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ من طرف واحد . وتوالت على إثر ذلك أحداث جسيمة ، كان أشدها جسامة انتقال الكفاح الوطني إلى مرحلة جديدة من العمل المسلح ضد معسكرات الإنجليز في منطقة القنال ، هكذا كان مخاض مصر في تلك الفترة ، بدأ بالعنف ، وانتهى بعنف أقسى . وكان كل ما فيه ينبئ بأن هوية جديدة لمصر في طريقها إلى التخلق . وكنت أرى أن أسوأ ما في المشهد هو أن كل طرف من المشاركين يريد أن ينفرد بتشكيل المستقبل.

نذر الحرب الباردة في مخاض العالم

انتهت الحرب العالمية الثانية بفاجعة التفجير الذري فوق اليابان (في أغسطس سنة١٩٤٥) . ومع نهاية الحرب بدأت عدة صراعات تأخذ مجراها مما أفقد السلام جزءا كبيرا من قيمته ، وكان يعني استمرار معاناة الشعوب من اتصال التهديد والافقار ، التهديد بحروب تالية ، والإفقار بمزيد من الإنفاق على أسلحة الدمار . هكذا بدأت نذر الحرب الباردة بين القوى الكبرى ، ولم يكن قد جف بعد مداد وثائق الاستسلام التي وقع عليها مندوبو الدول المغلوبة .

وفي ذلك الوقت أيضا بدأت تظهر في الأفق انتفاضات الشعوب التي عانت من

الاستعمار قبل الحرب وتلقت وعودا بالاستقلال بعد النصر . وفي توقيت مقارب أيضا بدأت خطوات التهجير المنظم لليهود إلى أرض فلسطين ، والتهجير المنظم أيضا لعرب فلسطين من وطنهم ، كذلك اندلع القتال في بعض بؤر الصراع في أنحاء العالم . كان هذا هو ما انطوى عليه مضمون المخاض العام مؤذنا بتشكيل عالم جديد .

بدأت نذر الحرب الباردة تكشف عن نفسها في قرارات اتخذت مبكرا . ففي نوفمبر سنة ١٩٤٥ أعلن الحلفاء الغربيون أنهم لا ينوون اطلاع الاتحاد السوفييتي على أسرار القنبلة الذرية . وفي سبتمبر سنة ١٩٤٦ أصدرت الولايات المتحدة قانونا يحرم إفشاء أية معلومات عن الطاقة الذرية . ثم إذا بالاتحاد السوفييتي يعلن في نوفمبر سنة ١٩٤٧ أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد وحدها التي تملك أسرار القنبلة الذرية . ثم إذا بوكالات الأنباء تتحدث في أغسطس سنة ١٩٤٩ عن أول تفجير ذرى يقوم به السوفييت . هكذا شهد العالم أول جولة في سباق التسلح الذرى للقوتين العظميين . وأترك لفطنة القارئ بعد ذلك أن يتخيل القدر الهائل من التهديدات الذرية التي تبادلها الطرفان في هذه الجولة ، وبدا بكل وضوح عندئذ أن العالم يدفع دفعا إلى شكل جديد من أشكال الصراع تعلو فيه أصوات الطواقم الحاكمة وتتأكد إراداتهم بينما تخفت أصوات الأفراد من سواد الشعب وتتوارى إراداتهم .

هنا أتوقف عن الاسترسال في سرد عشرات الأحداث والأسماء التي تجسدت من خلالها مفردات هذه الجولة ، لأن القارئ المستزيد يستطيع أن يجدها في العديد من كتب التاريخ . أما ما أرى أنه يستحق الوقوف والتأمل حتى ولو كان ذلك على حساب التنويه مؤقتا إلى أن يحين السياق المناسب للإفاضة في الحديث عنه فهو ما عساه أن يكون قد ترسب في نفوس شعوب الأرض من تغير في المزاج نتيجة للأجواء المكفهرة التي استولت على مناخ العالم حينئذ . يخيل إلى أن هذا الموضوع يستحق النظر لأنه ينطوى على دروس في الكيفية التي يلزمنا أن نفهم بها الكثير من اضطراباتنا النفسية والاجتماعية الراهنة . ولكننا نترك هذا الرافد الآن ونعود إلى المجرى الأصلي للحديث .

حركات الاستقلال

إلى جانب نذر الحرب الباردة كان هناك رافد آخر يزيد من سخونة المناخ العالمي ، وكان هذا الرافد يتمثل في بدء تحرك شعوب المستعمرات طلبا للاستقلال. شعوب كثيرة ، نذكر منها مصر والهند الصينية وإندونيسيا والجزائر وتونس ... إلخ كان هذا الرافد محملا بطبيعة الحال بمعاني الحق والآمال المشروعة بالإضافة إلى معاني التضحية والبطولة .. ولكن الوجه الآخر للعملة هو المعاناة التي كابدتها الملايين من أفراد تلك الشعوب ، لا لشئ إلا لأن المستعمر فرض عليها الصراع ثمنا للاستقلال . واتخذ هذا

الصراع أشكالا بالغة السوء في قسوتها ، ومما زاد من نصيب العنف والقسوة في هذا الرافد أنه اختلط في بعض مساحاته (في الهند الصينية مثلا) مع مساحات كانت تغطيها الحرب الباردة بين القوتين العظميين .

فلسطين وغرس إسرائيل

أما الرافد الثالث فكان إنشاء دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، وكان واضحا في هذا الرافد ، أنه يمثل نصيبا إضافيا تتحمله المجتمعات العربية بالإضافة إلى نصيبها الأصلي الذي تشارك به مع شعوب الأرض في المخاض العالمي العام ، وقد بدأنا في المعاناة منه منذ كنا تلاميذ صغارا في مرحلة تعليمنا الثانوي . وكان ذلك في أواخر الثلاثينيات. ولكن عندما أذنت الحرب العالمية بالانتهاء في سنة ١٩٤٥ تبلورت القضية وبدأت المعاناة المصاحبة تتخذ أبعادا جديدة . ففي يناير سنة ١٩٤٦ أعلنت الحكومة البريطانية قرارا بجعل الهجرة المنظمة ، هجرة اليهود الأوروبيين ، إلى فلسطين في حدود ١٠٥٠٠ عشرة آلاف وخمسمائة مهاجر شهريا . وفي منتصف نوفمبر سنة ١٩٤٧ بدأ انسحاب القوات البريطانية من أرض فلسطين ، كما أعلنت الولايات المتحدة أن الانتداب البريطاني على فلسطين ينتهي بنهاية مايو سنة ١٩٤٨م. وفي نوفمبر سنة ١٩٤٧ أيضا أعلنت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، على أن تظل القدس تحت إدارة الأمم المتحدة .

وفي التاسع من أبريل سنة ١٩٤٨ أعلنت وكالات الأنباء عن وقوع مذبحة دير ياسين . وفي هذا الشهر نفسه استولى اليهود على ميناء حيفا . وفي ١٤ مايو أعلن عن قيام دولة إسرائيل ، كما أعلن أن عصابات الهاجاناه تصبح هي النواة للقوات المسلحة الإسرائيلية . وفي الشهر نفسه أيضا أعلن عن نزوح مائة ألف عربي عن الأراضي التي احتلتها القوات الإسرائيلية . كما أعلنت جامعة الدول العربية الحرب على إسرائيل . وفي يونية سنة ١٩٤٨ تم عقد أول هدنة بين العرب واليهود . وفي ديسمبر من السنة نفسها احتل اليهود صحراء النجف . وفي مايو سنة ١٩٤٩ قُبلت إسرائيل عضوا في الأمم المتحدة ، وأعلنت بعد ذلك رفع أية قيود على هجرة اليهود إليها من جميع أنحاء العالم . وتوالت بعد ذلك فصول المأساة في فلسطين ، وتوالت بعد هذه الفصول توابعها في العالم العربي .

وبعد ..

هكذا سرت ، وسارت مصر . وسار العالم من حولنا في النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين ، وتشابهت المسارات الثلاثة في توجهاتها ، فقد كانت جميعا مخاضات في الطريق إلى تشكيل الهوية ، وعندما جاءت سنة ١٩٥٠ كانت الملامح المبكرة للهويات الثلاث قد بزغت ، أما معالم التشكيل الذي سوف تنتهي إليه كل هوية فكانت لا تزال تبحث عن مستقر لها .

أنت والهلال

تعليق حول المستبد العادل

قرأت بسرور زائد ما كتبه الكاتب بلال فضل فى عدد مايو الماضى حول ما كتبته عن محمد عبده والمستبد العادل فى العدد الذى قبله أى فى ابريل عام ٢٠٠٠م ، وأنا معه فى كل ما قال .

وليته يعلم أن هذا المقال فصل من كتاب مخطوط لدى عن مواقف الإمام ، وكانت مهمتى أن أشرح وجهة نظره هو ، وأن أحلل أبعادها وعواملها كما أتضحت فى فكره .

وقد فاتنى أن أعقب على مخالفتى إياه فى هذا الفصل ، مرجئا ذلك إلى نقد عام يأتى فى آخر الكتاب ، فشاء الله أن يكون التعقيب الرائع بقلم الأستاذ بلال فضل .

وإنى أعتب عليه فى شئ واحد ، هو عنوان المقال (لماذا المستبد العادل الآن ؟) فقد يوحى بأنى أؤيد إتجاها اندفع إليه بوحى خاص ، ولكن هذا يبعد كل البعد عن واقعى الملموس .

د. محمد رجب البيومى
المنصورة

أصبر

دع الأيام وأصبر للقضاء ... فما يغنى العويل ولا البكاء
فأنت اليوم فى حزن وهم ... غدا ستنال يسرك والرخاء

ولا تجزع وكن جلداً صبوراً ... ولا تحزن فيسر الله جاء
وكم طالت بأقوام هموم ... وكم سعدت بأقوام هناء

ولكن الإله إله عدل ... فلا دام الهناء ولا البلاء
وكم جاءت علينا من الشدائد ... تزلزل كل جدران البناء

فصبراً للبلاء بكل أرض ... وصبراً للإله على البلاء
وكم صبر النبيون قديماً ... وأيوب له قصص العناء

أحمد نادى بهلول - المندرة بحرى - ديروط - أسيوط

أنت والهلال

دفاعا عن د . عبدالرحمن بدوى

آلمنى مقال الأستاذ حسين أحمد أمين عن كتاب السيرة الذاتية للدكتور عبدالرحمن بدوى المنشور بعدد ابريل ٢٠٠٠ من مجلة الهلال ، فالمقال الذى يقع فى اثنتى عشرة صفحة كاملة هجوماً صارخا فى حق هذا الرجل من بدايته حتى نهايته .

وباعتبار أنى كنت تلميذا للدكتور بدوى لعدة سنوات ، فإنى أورد هنا ما له وما عليه من واقع إنطباعى ورؤيتى لهذه الشخصية .

فقد كان الرجل مختلفا عن أى أستاذ آخر بكلية الآداب ، والحديث عنه من قبلنا نحن طلبة الفلسفة يختلف أيضا عن أى حديث آخر ولا ينقطع ، فقد كان يضع نفسه فى هالة من الغموض أو نحن الذين وضعناه فى هذه الهالة .

ولم يكن يتحاور مع أي طالب إلا فيما ندر ، فإذا قام أحدنا وألقى سؤالا فإنه يقابل غالبا بأحد أمرين ، إما أن يرده كاسف البال برد مقتضب لاذع ، وإما أن يطلب منه الجلوس بإشارة خفيفة من يده ، ثم يمضي في محاضرته وكأنه لم يسمع شيئا .. ورغم ذلك فقد كنا نحب هذا الرجل ونكن له الاحترام والتقدير .

كان من بين ما درسناه على يديه فرع من علم المنطق يسمى القياس الأرسطى ، يتضمن مسائل رياضية ذات صيغة رمزية وهندسية بحته يحتاج حلها إلى خبير حسابات حذق كما قرر علينا دراسة نظرية النسبية لاينشتاين على يد أحد أساتذة الرياضيات فى كلية العلوم التى تتضمن أيضا معادلات رياضية مطولة غاية فى التعقيد لا قبل لنا بها، هذا بجانب دراستنا لأربع لغات أجنبية هى اليونانية واللاتينية والفرنسية والألمانية ، ولاشك أن هذا يعكس ولعه باللغات ورغبته فى أن تخرج له الكلية ولو طالبا واحدا يسير على منواله ، وهو ما لم يحدث فى اعتقادى .

كان لاذع اللسان ما من شىء يعجبه سوى الكتاب ، قد يهجو وقد يهاجم وقد ينتقم ولكنه أبدا لم يكن سيىء السريرة .

لقد رأى الرجل أن يتفرغ تماما للكتاب فضحى بحقوقه كإنسان ولم يتزوج أو يعاشر الناس ، وقد يكون ذلك خطأ من جانبه ، فالعلاقات الحميمة تثرى الأعمال الفكرية – وإن كانت تزاحمها – وبذلك يكون الدكتور بدوى قد أضر بنفسه وبأعماله الفكرية على حد سواء إذ خلع عنها رداءها الإنسانى .

إلا أن هذه التضحية لاينبغى أن تحسب عليه بل تحسب له ، كما لايجب أن نلوم الرجل لأنه كرس حياته لدراسة الفلسفة، أو نصف حياته بالكآبة والبؤس كما ذكر المقال.

وإذا كان كاتب المقال قد أطلق عليه هذه الصفات فهل له أن يطلق اللعنة أيضا على الفلسفة حين قال «فبعدا للفلسفة أى بعد ، ولعنة الله على من أولادها اهتماما أو نظر من اليوم فى كتاب فيها» .

فالذى نعرفه أن الفلسفة هى بداية الحضارات فى أى مكان من العالم منذ فجر التاريخ حتى الآن .

عادل شافعى الخطيب – عضو اتحاد الكتاب

طرائف فى الشعر والنثر

كان أحد الشعراء يعمل كحالا للعيون سأله أحدهم : ما حرفتك ومن أى شىء تكسب رزقك ؟ فقال له :

يا سائلى عن حرفتى فى الورى　　واضيعتى فيهم وافلاسى
مـا حـال من درهـم انفـاقـه　　يأخذه مـن أعين النـاس

كان الأديب الشـاعـر حفنى ناصف يجلس يومـا فى أحد الأندية فـاقبل عليه رجل وأعطاه ورقه مكتوب فيها :

جارت على الليالى فى تصرفها　　وأغرقتنى فى لجج من المحن
فيـا سـيدى أنت ومعتصمـى　　أقل عثارى وأنقذنى من الزمن

ولما قرأ حفنى ما فى الورقة أخرج من جيبه «شلنا» وأعطاه للرجل ثم أعطاه الورقة بعد أن كتب عليها :

كـاد شعرك يبكينى ويضحكنى　　ولم أزل ساخرا من ظنك الحسن
فاقبل عطائى بلا شكر ولا غضب　　فليس والله فى جيبى سوى شلن

كان رجل نحوى يوقد نارا للتدفئة فى إحدى ليالى الشتاء الباردة وهو يرتدى جبة من الصوف ومعه ابنه فقال له ناصحا : إذا أردت أن تتكلم بشىء فأعرضه على عقلك وفكر فيه بجهدك قبل أن تنطق به بلسانك فقال له ابنه :

- يا أبتى أنى أريد أن أقل لك شيئا فهل تأذن لى
- هل هو حق ؟
- نعم يا أبتى .
- إذن فتكلم ولكن لا تنسى ما نصحتك به قبل أن تقل شيئا .
- إنى لم أنس يا أبتى وهذا ما فعلته .
- قل ما تريد .
- إنى رأيت جمرة من النار تسقط على ذيل جبتك فانتفض الرجل واقفا ليرى النار قد أتت على نصف الجبة فصاح فى ابنه قائلا :
- وامصيبتى فيك فوالله لن تسمع منى نصيحة بعد اليوم فإن الحمار أعقل منك !

محمد أمين عيسوى
الإسماعيلية

تكلمي !

تكلمي !
وأمطري القلب بعذب النغم
واضحكي .. وابتسمي
وأشرقي كالصبح في سديم عمري المبهم !
تكلمي !
وخدري مسامعي ..
فصوتك الشهي يحبو في دمي !
وأقبلي ..
لا تخجلي ..
كي يقبل الربيع في مواسمي
صغيرتي ، تكلمي !
ورتلي أنشودة الفرح ..
وسكني جرحي ..
من قسوة الذبح !

محمد محمود الشناوى
بورسعيد

أمنيات للهلال

أتمنى أن أرى مجلة الهلال وهي تصدر مطبوعة بورق أكثر صقلا من الورق الذى تطبع عليه الآن حتى وإن كان ذلك على حساب إضافة بعض الإعلانات الشيقة فيها التى يمكن أن تقدم فائدة معينة للقراء ، على ألا يتجاوز عددها بضع صفحات فقط لكى لا تؤدى إلى تشويه صفتها الثقافية والفكرية .

أتمنى أن أرى مجلة الهلال مزدانة بصفحات ملونة تزيد عن الصفحات التى تحتويها الآن، وأن تركز ولو ببعض الصفحات على التحقيقات الصحفية عن مدن وقرى مصرنا الحبيبة ودولنا العربية الكثيرة أو دول العالم الواسعة على شاكلة التحقيق الصحفى الذى كتبه السيد مصطفى نبيل عن مدينة أصفهان على سبيل المثال .

أتمنى أن أرى مجلة الهلال وهي تفتح صفحاتها أكثر فأكثر إلى المفكرين والأدباء العرب ، فهى ليست حكرا على المفكرين والأدباء المصريين فقط ، بل إنها مطمح لجميع العرب وفي كل مكان سواء في الدول العربية الأخرى أو لكل قارىء للغتنا العربية الجميلة فى جميع أنحاء العالم .

أتمنى أن تهتم مجلة الهلال بالقضايا العلمية المعاصرة أكثر فأكثر وخاصة فيما يتعلق بشئون الكمبيوتر والاتصالات والأقمار الإصطناعية ، التى تمثل اليوم نواة تلتحم بحياتنا اليومية وتستكمل جميع جوانبها .

وأتمنى أخيرا وليس آخراً أن أرى مجلة الهلال وهي تصدر مرتين فى الشهر الواحد ، وهو أمل يصعب تحقيقه على المدى القصير إلا أن التفكير فيه ربما يؤدى إلى نتيجة على المدى البعيد حيث أن القارىء الشغوف قادر على التهام مواد مجلة الهلال خلال بضعة أيام ثم يبقى وهو يتشوق إلى صدورها فى مطلع الشهر القادم .

وفى النهاية أتمنى أن ترسل لى مجلة الهلال عدد شهر ابريل لهذه السنة الذى استلمته وهو بحالة مؤلة نتيجة تجعد صفحاته بشكل جعل من احتفاظى به في مكتبتى أمرا يصعب تحقيقه ، خاصة وأننى أحب مداعبة أوراق أعداد مجلة الهلال بأصابعى التى قد تجرحها تجعدات هذه الصفحات .

فخرى المهدى / باريس

● الهلال ●

ياصديقي ونحن معك أيضا فى هذه الأمنيات التى يصعب تحقيق البعض منها وعلى سبيل المثال ، هذا الورق المصقول وعدد الصفحات الملونة وغير ذلك من أمنياتك الجميلة والتى لايستطيع القارىء أن يتحمل تكلفتها ، عندما تزيد تلك الأسعار عالميا وبشكل متسارع ..

لكن بالنسبة للكتاب العرب فنحن نوجه الدعوة التى لاتتوقف عن مشاركة المبدعين العرب في الكتابة فى الهلال .

شكراً على هذه الأمنيات ، وقد أرسلنا لك العدد الذى طلبته لكى تستمتع بقراءته والأحتفاظ به بعد قراءته فى مكتبتك .

أمــــات الشعـــر أم مـــات الشعـــور
فـصـــرنـــــا لا نحس بمـــا يـــدور ؟!
وهـــل بـــات الــبــيــان عـــديـــم سـحـــر
فــلـم يــقـــدر يـثـيـــر ولا يـثـــور ؟!
وهـــذا الحـــرف أيـــن الـــروح منـــه ..
أفـــارقـــه فضمتـــه القـبـــور ؟!
أأمــــواج القـــوافـــى استـكـــانـت ..
فجـــاوزهــــا إلــى البحــر الـهـديــر ؟!

وهـل عجـزت عـن الـبـوح المعانـي ..
أأضحـى البـوح لايقـوى الظهـور ؟؟!

★★★

تهـاونـا فهنـا حـيـث كـنـا
فـأسـد الشـرق بارحهـا الزئيـر
نقـدس ظـالـمـاً ونهيـن عـدلاً
ولا نصـغى إذا صـرخ الضميـر
عجـزنـا أن ندافـع عـن حمـانـا
أيحمـى أرضـه جيـش أسيـر ؟!
نهـرول للعـدو عسـاه يـرضـى
ليغـدو عـبـده منـا الأميـر !!
ونـزعـم أنـنـا النصـر تمضـى
وفـى وهـم السـلام لنـا سـرور !!

درهم جبارى - سان فرانسيسكو

أسجل إعجابى الشديد بهذا التنوع فى الهلال ، وكل ما أتمناه أن أحظى بنشر هذا التعليق وخاصة حول مقال الدكتور عاصم الدسوقى «سعد زغلول والوفد فى المنفى» وهو نتاج قراءة ذكية ومتأنية لمذكرات سعد زغلول ..

لقد شعرت وأنا أقرأ هذا المقال بأننى أقرأ عن زعيم حزب الوفد لأول مرة ، فضلا عما اشتمل عليه من طرافة فى التناول ..

شكراً للهلال على ما تقدمه فى مجال عرض الكتب التى تصدرها المطابع تباعا ، وبأقلام كبار أساتذتنا المتخصصين .

محمود محمد أحمد

دراسات عليا - كلية الآداب

بنى سويف

إبداعات متميزة

عن الإبداع ليس دمي معـاقـاً ... ولا يخشى التنافس والسباقا
ولم أفقد من الأقدام جزءاً ... وجزني للعلا أضحى نطاقا
وتشهد لي المياه صفاء نفسي ... وما حملت شهادتها نفاقا
أمام ضياء إصراري تتالت ... ليالي اليأس تنفلق إنفلاقا
مددت إلى الفضائل كل حبل ... فأبرما بيننا النور اتفاقا
وما بين الهوامش صرت أرمي ... لجوع المهملات وأن أراقا
فلست بفحمة جزت لتبقى ... كبائعة إلى النار اشتياقا
فليس على الظلال الذنب حتى ... بسوط الشمس تحترق احتراقا
وما مثلي الأثاث وفي لحن ... جميل للبلابل أن يساقا
يقولون الإعاقة سوف تنمي ... لأغصان الندى فينا شقاقا
ومن قال المعاق فراق مجد ... وفيه يكره المجد الفراقا
ومن قال الإعاقة سوف تغدو ... أمام تفتح الدنيا إنغلاقا
رميت إلى الدنا أجزاء همي ... لأني في السما أحلى مذاقا

عبدالله علي الأقزم - السعودية - القطيف

جمعية تنويري

واحدة من الجمعيات التي تهدف إلى الحرص على المواطن المصري وخدمته في مجالات عديدة من بينها خدمة البيئة ، ومحاربة بعض القيم الخاطئة الدخيلة على شبابنا .

كما تهدف إلى تقديم رؤى عقلانية متكاملة تستند إلى مرجعية ذاتية مصرية ، حول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمشروع النهضة المصرية ، ولقضايا تهيئة الوطن ليتبوأ المكان اللائق به وبتاريخه في حضارة الألفية الثالثة .

يوسف إدريس .. المسرحي الثائر

قدم يوسف إدريس العديد من المسرحيات والتي تناولت المجتمع المصري وشرائحه وكتب النقاد عن مسرح يوسف إدريس خاصة د. محمد مندور ود. رشاد رشدي وغيرهما وتناولوا تأثره بكوميديا . ديلارتي الإيطالية في مسرحية الفرافير ، ثم كتب بعدها «المهزلة الأرضية» «المخططين» والتي تناولت موضوعا بالغ الحساسية فقد واجهت السلطة بعيوبها ومنع عرضها حتى عام ١٩٦٩ ،ثم عرضت في عام ١٩٧٣ .

ويوسف إدريس الذى احتفل بميلاده في الشهر الماضي كاتب مسرحى ثائر ، طرق الموضوعات الحساسة والجريئة ، والتي تعبر عن عقل مفكر مدقق ينبض ويشعر بالام شعبه ، ويضع إصبعه على مكان الداء ، كيف لا وهو طبيب !

وإننى فى هذه العجالة وفى ذكرى هذا العبقرى د. يوسف إدريس أسجل تقديرى له لما بذله من جهد وعصارة تفكيره ليقدمه لنا على شكل مسرحيات وروايات وقصص ومقالات أزددنا بها معرفة وثقافة ، وأستمتعنا بها قراءة ومشاهدة .. ولقد كان لى مساهمة فى كتابة بحث عنوانه (المسرح السياسى عند يوسف إدريس) تحت إشراف الدكتور أحمد زكى.

صخر مصطفى الشافعى
غزة - فلسطين
بيت لاهيا

• إلى الأصدقاء •

الصديق نافع خليل يوسف : عمان - الأردن

وصلتنا قصيدتان الاولى بعنوان «الصحف العربية» تقول فى بدايتها :

ليس فى الصحف إفادة   لا ابتكار ، أو إجادة
كـل مـا فيها قـديم   ورغـاء وإعـادة

وفى القصيدة الثانية بعنوان «المرأة» تقول :

المرأة لغز قد حير   حرمتنا الجنة والكوثر
بالفتنة غذت دنيانا   وسقتنا كأسا قد أسكر
أغوت فى يوم أقواماً   والشاهد إبليس الأحقر

... ما هذا يا سيد نافع ! .. هجوم حاد على الصحافة وهجوم حاد على المرأة أيضا ... لماذا كل هذه القسوة وقد تعودنا أن يكون الشعر هو أعذب الكلم ، وهو ما نستروح منه ومن جمالياته مايضفى الصفاء النفسى والروح الشاعرة .. نود أن نرى شعرك المتفائل !.

الصديقة : إيمان محمد العطيفى - الشيخ شبل - المراغة - سوهاج .

قصيدتك «مرهون الجفاء» أفضل من سابقاتها ، لكن تحتاج إلى إعادة نظر فى الوزن ، وهذا يحتاج منك إلى وقت لن يطول حتى تتمكنى من أدواتك الشعرية، وثقى تماما أننا نحرص على قراءة الإنتاج الذى يصل إلى «أنت والهلال» من كل الأصدقاء .

الكلمة الأخيرة:



علماء وأمراء ومواقف

بقلم: د. الطاهر أحمد مكى

نحن فى القرن الرابع الهجرى، فى مسجد متواضع بجوار قصر الخلافة، فى قرطبة، وقد نفقت ساحته بطلاب العلم، لحضور دروس الفقيه (دكتور) أبو ابراهيم، شيخ طاعن فى السن، تجاوز الخامسة والسبعين، يحاضر فى الحديث. وفجأة انشقت الصفوف عن رسول من الخليفة، وقف وسلّم وقال:

– يا فقيه، أجب أمير المؤمنين، فإن الأمر خرج فيك، وأُمرت بإعجالك!

فرد أبو إبراهيم: سمعا وطاعة، ولكن لا عجلة، فارجع إلى الخليفة، وعرِّفه عنى، أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله، أسمع طلاب العلم حديث رسول الله، وهم يقيدونه عنى، ولا يمكننى ترك ما أنا فيه، حتى يتم المجلس، فإذا انتهيت منه، مشيت إليه إن شاء الله تعالى، ثم أقبل على درسه.

انصرف الرسول ضجرا ومتعجبا، وعاد بعد قليل ليقول: جزاك الله خيرا عن الدين، وأمير المؤمنين، وجماعة المسلمين، فإذا أكملت درسك فامض إليه، وقد أُمرت أن أبقى معك حتى تنتهى، وأصحبك.

– حسن، ولكنى أضعف عن المشى إلى باب القصر الذى يدخل منه عامة الناس، ويصعب علىّ ركوب دابة لشيخوختى، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بفتح الباب الملاصق للمسجد، هوّن علىّ، وأراح جسمى، فعد إليه حتى تعرف رأيه.

لحظات وعاد الرسول: يافقيه، أجابك الخليفة إلى ما سألت، وأُمرت بملازمتك.

أكمل أبو ابراهيم درسه، غير منزعج ولا قلق ولا متسرع، ثم قام إلى داره فأصلح شأنه، ومضى إلى الخليفة من الباب الذى فُتح له خصيصا.

***

يروى أحد طلابه: لقد تعمدنا أن ننتظر لنرى ما يصنعون بهذا الباب المغلق عادة، فإذا الخدم والأعوان، ما بين كنّاس وفراش، وسجاد يمدّ، فى انتظار الفقيه أبو ابراهيم.

ويختم المؤرخ الذى أورد الحكاية كلامه: هكذا يكون العلماء مع الرؤساء، والرؤساء مع العلماء، قدّس الله تلك الأرواح العظيمة.

***

حين اختفى العالم المخلص الصادق الشجاع وافتقد الحاكم المستشار الأمين، الناصح تدهورت الدولة وأصبح الأندلس أثرا بعد عين.

والتاريخ ليس مجرد حكايات تروى، فإذا لم تدرك ما تومىء إليه الحكاية، فاقرأها من جديد!.


أهلا بك معنا
شبكة خطوط تمتد إلى
٧٢ مدينة عالمية
فى اوروبا و امريكا و اسيا
و افريقيا و استراليا
و ١٢ مدينة داخلية
بأحدث طرازات الطائرات
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.Egyptair.com.eg



الهلال

أحوال مصر في مطلع القرن العشرين

يوليه ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان



أصل الإنسان بين داروين وعبد الصبور

القصة الكاملة ليهود الجزائر

أزمة اليسار المصرى



إهداءات ٢٠٠٣
دار الهلال
القاهرة

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثامن بعد المائة

يوليه ٢٠٠٠م ● ربيع الأول ١٤٢١ هـ

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب. ٦١ - العتبة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس 92703 hilal un فاكس FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلساً، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا، أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويُرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا العـدد



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبوطالب

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنـــون

التكوين

شعر وقصة

عزيزى القارئ

المثلث الذهبى

عزيزى القارىء

المدخل الطبيعي للنهضة يبدأ بالمثلث الذهبى المتمثل فى الأضلاع الثلاثة التربية والتعليم وفى الثقافة وفى الاعلام..

والعالم من حولنا يشهد تغيرات واسعة تتناول كافة جوانب الحياة، وتتنافس دول العالم فى القدرة على تطوير هذه المجالات الثلاث، وهى المجالات التى لايجوز فيها أى تهاون أو تقصير..

وتبذل جهود كبيرة فى هذه المجالات، ولكنها غير كافية.

ونجد فى مجال التربية والتعليم بلداً مثل كندا تشهد ظاهرة أطفال الكمبيوتر، يقوم فيه أطفال وصبية بعمل برمجيات تتخاطفها الشركات العالمية، وقد حقق صبى لايتجاوز عمره ثمانية عشر ربيعاً من بيع البرمجيات ما قيمته عشرة ملايين دولار، وذلك أحد نتائج نظام التعليم الذى أدخل تعليم الكمبيوتر فى المراحل الأولى.

وأقيمت خمسة معاهد تكنولوجية فى الهند على غرار جامعة «إم.آى تى» الأمريكية، مما مكنها أن تصبح من أكبر المصدرين للبرمجيات فى العالم، وأصبحت الشركات العالمية الكبرى ترسل عبر البريد الالكترونى حساباتها لكى يتم عمل قوائم الحسابات فى الهند بأرخص وأسرع وأكفأ الأساليب.

وتتنافس الدول جميعا فى تطوير وتحديث برامج التربية والتعليم، والحديث عن التعليم اليوم يتناول التعليم الدائم والمستمر ، لتوسيع وتجديد المعرفة ، ومتابعة التغيرات العالمية والمحلية ، ومتابعة المعارف العلمية والانجازات التكنولوجية.

وهو مجال علينا أن نبذل فيه الجهود المتواصلة..

أما الثقافة فهى التى تصنع الوجدان العام، وهى التى توحد الأمة حول أهداف وبرامج محددة، وهى التى تحافظ على ذاكرة الوطن، وتساهم فى كشف المخاطر التى تهدده.. وهى التى لاتجعل المجتمع جالسا ينتظر ، ولكنها تضىء له الطريق، وتقدم له

البدائل التي تساعده على النهوض ، وهي أيضا التي ترتقي بالذوق العام، وتجعل حياة الناس أكثر جمالاً ، وهي التي تكسب المجتمع القدرة على التعامل مع التكنولوجيا الجديدة ، ولاتكتفي بمجرد الحديث عنها ، ولكن العمل على استيعاب المناسب منها. والثقافة هي التي تطلق طاقات الإبداع، فالابداع هو رؤية ما يجرى في مناطق التماس بين التخصصات المختلفة ، والرؤية عبر كل التخصصات لترى أفق المستقبل.

والشرط اللازم لتحقيق ذلك هو الحرية والتسامح.

ونصل إلى الإعلام وتأثيره المباشر على الرأى العام، وهو الغذاء اليومى للمتلقى والذى يضم الصحافة والإذاعة والتليفزيون، والحرية والمصداقية هما الركيزتان الأساسيتان لازدهار الاعلام ، والحرية لا تعنى العاملين فى الإعلام وحدهم ، بل هى حق المواطن فى المعرفة وحقه فى الاختيار.

والمشهد الإعلامى الراهن يحتاج إلى مزيد من الجهد ، فحجم قراء الصحف فى مصر ثابت رغم زيادة السكان وزيادة عدد الجامعات كما أن أسعار الصحف فى زيادة مستمرة، وكثيرا ما تغيب الصحف المصرية عن كثير من الأحداث العالمية المهمة، ولم تعد كما كانت منتشرة ومؤثرة فى البلدان العربية.

ويجرى تنافس بين الصحافة والتليفزيون ، رغم ذوبان الحدود الفاصلة بين الوسائل ، فيما يطلق عليه الوسائط المتعددة MELTI MEdia، وهى دمج الإذاعة والتليفزيون والصحافة، والتى تقدم المادة الإعلامية بشكل سمعى بصرى متحرك، مع تكنولوجيا البث الرقمى . مما يؤدى بالضرورة إلى تعاون هذه الوسائط بدلا من التضارب والمنافسة .

وكثيرا ما يخسر التليفزيون السباق مع الفضائيات العربية والدولية، فى ظل هذا التطور التكنولوجى الضخم ، ومع ثورة المعلومات والاتصالات خلال العقدين الأخيرين، خاصة ما أحدثته وسائل الإعلام المطبوعة والمسموعة والمرئية من تحولات.

وهذا كله يحتاج إلى كفاءات ومهارات عالية ورغم ذلك فما ينفق على العدد والآلات وشراء التكنولوجيا الحديثة لايقارن بتدني ما ينفق على إعداد وتدريب الإعلاميين.

وتحجب المعلومات - أحيانا - رغم فيض المعلومات التى تتدفق عبر الانترنت، والتى تحتاج إلى قدرة خاصة على قراءتها وتصنيفها والاستفادة منها .

ولايؤدى ذلك سوى إلى الانصراف عن الوسائط المصرية إلى غيرها، وقد ذكرت بعض الدراسات أنه فى فترة الأزمات تتراجع أهمية الصحف والإذاعة والتليفزيون ، ويتجه الكثيرون من المتلقين إلى الوسائط الأجنبية !.

إن معالجة القصور فى أضلاع المثلث الذهبى هو المدخل الطبيعى للقرن الحادى والعشرين.

المحــــــرر

القصة الكاملة

بقلم : مصطفى نبيل

دعا رئيس الوزراء الاسرائيلى ايهود باراك وفدا صحفيا يضم عدداً من رؤساء تحرير الصحف الجزائرية لزيارة إسرائيل، يوم ٢٥ يونيو الماضى.

وقامت سفارة إسرائيل فى باريس بترتيب هذه الدعوة.

وتأتى هذه الدعوة نتيجة لجهود طويلة، يمكن الإمساك بخيوطها بعد معرفة القصة الكاملة ليهود الجزائر.



أسرة يهودية عاشت فى الجزائر حيث جاء اليهود إلى الجزائر فى عصر البربر

ليهود الجزائر

لايوجد كتاب أو دراسة باللغة العربية تروي قصة يهود الجزائر ، عدا بعض الدراسات الأكاديمية القليلة وبعض الفقرات والجمل في كتابات المؤرخين المعاصرين، مما يعني فراغا كبيراً في المكتبة العربية ، وتستغل الصهيونية ذلك الفراغ لترويج مغالطاتها وإدعاءاتها.

وزادت أهمية المسألة بعد تدفق كتابات رموز الثقافة الصهيونية من يهود الجزائر الذين رحلوا إلي فرنسا، ونشر العديد من مقالاتهم في الصحافة الجزائرية، كأعمال الكاتب الصهيوني جاك ديريدا وحاييم الزعفراني والمؤرخ بنيامين ستورا الذي يكتب وكأنه الناطق باسم تاريخ الجزائر..

وغدا الجزائريون معرضين لكي يصبحوا من جديد ضحية تشويه الحقيقة واللعب بالتاريخ ..!

ومن هنا جاءت أهمية كتاب «يهود الجزائر» لصاحبه فوزي سعد الله الذي صدر أخيراً في الجزائر ويكفي أن ينبه هذا الكتاب القارىء عن الخطر المقبل.

فبعد أن برزت على السطح قصة «يهود الجزائر» وأخذ كل طرف يقدم رؤيته الخاصة وتدفق على الجزائر اليهود الذين سبق ورحلوا طوعاً من الجزائر إلى فرنسا ، عند حصول الجزائر على إستقلالها سنة ١٩٦٢، وزار الجزائر من رجال الفن وحدهم أربعون شخصية يهودية، بالاضافة إلى عشرات من رجال الأعمال اليهود، ولم تقتصر زيارتهم على المعالم السياحية، بل أظهروا مشاعر الحنين إلى أيام ومرتع طفولتهم وصباهم.

وظهرت نوعية جديدة من الكتابات في بعض الصحف الجزائرية ، تعالج مستقبل العلاقات بين الجزائر وإسرائيل ، وتطالب السياسة الجزائرية بالواقعية في ظل موازين القوى الجديدة، وجاء في إحدى هذه الصحف: «إن الظروف الراهنة لا تسمح بنبش الوجه السلبي

لليهود» ، وتسللت لهذه الصحف وجهة النظر الإسرائيلية، فهذا حديث للأمين العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية وحديث آخر مع السفير الإسرائيلي في باريس، وثالث مع شيمون بيريز، وآخرهم نشرته صحيفة الخبر- أكثر الصحف توزيعاً - وهو حديث مع باراك رئيس الوزراء الإسرائيلي يطالب فيه الجزائر بالتعامل مع إسرائيل مباشرة دون المرور على أمريكا «!» ، وأنكر ما يتردد من رغبة إسرائيل الهيمنة الثقافية على المنطقة العربية فكيف لها أن تسيطر في ظل العولمة!.

وأوفدت صحيفة الوطن الجزائرية لأول مرة صحفيا جزائريا لزيارة الأراضي المحتلة،،وطالب رجل الجزائر القوى خالد نزار بضرورة تهيئة الجو للتطبيع مع إسرائيل، وتوقع نزار أن تقيم الجزائر علاقات مع إسرائيل قريبا. وانتقد استمرار الجزائر الإلتزام بمبادىء جامدة ، وغير مواكبة للتطورات.

وقامت الدنيا ولم تقعد في الجزائر، عندما دعت مؤسسة «رياض الفتح» المغنى الفرنسي اليهودي، والجزائري الأصل أنديكو ما سياس لزيارة الجزائر، ونجحت لجنة مقاومة التطبيع في تأجيلها أو إلغائها، وهي اللجنة الوطنية التي تشكلت لمواجهة الصهيونية التي يرأسها أحد الشخصيات الوطنية المرموقة وهو عبدالعزيز بلخادم رئيس البرلمان الجزائري السابق، وتضم هذه اللجنة عدداً من الشخصيات التاريخية مثل عبدالحميد مهدي.

وتأتي - عادة - الطليعة المتقدمة من أجل التطبيع مع إسرائيل من يهود البلد المستهدف، وهذا ما تشهده كل من اليمن والمغرب وتونس ، وجاء الدور على الجزائر.

ويهود الجزائر مرشحون للعب دور بارز في تطبيع العلاقات مع إسرائيل !.

الرمال العربية !

ويحذر فوزي سعد الله من أن الخطر يتمثل في أن السلطة بدأت تفتح ذراعيها أمام الكتابات والرؤى الصهيونية الفرنسية المصدر ، فمثلا ينشر بن سسان الأستاذ بجامعة رينيه بعض ذكرياته في الجزائر ، وما حفظه عن أمه عائشة من أمثال .. «المسلم خونا من الطين، وعدونا من الدين»!، ولدى زيارته للجزائر عام ١٩٨٢ كتب يقول .. «رأيت بعد عشرين عاما ، الجزائر ميتة .. وحتى الموت يبدو لي ميتا، لقد انفصلت الجزائر ، واختفت بعيدا عن ضفاف البحر المتوسط الفرنكفوني، والتحقت وغاصت بالرمال العربية!» .

ويسعى فوزي سعد الله إلى رصد ما يجري ، فلأول مرة ، تكتشف الجزائر منذ الاستقلال ، بدهشة واستغراب موضوع يهود الجزائر، فيعرف يهود الجزائر كل شيء عن الجزائر ، ولاتعرف الجزائر أي شيء عن هؤلاء اليهود ، فثلاثة أرباع الشعب الجزائري ولد بعد الاستقلال ،

ولايعرفون تفاصيل وقائع الثورة، هذا رغم أن قصة يهود الجزائر تستحق أن تروى.

ونتوقف قليلا عن المشهد الكاشف الذى يلخص الحكاية كلها.. فعند إعلان الاستقلال سنة ١٩٦٢ ، عمت الفرحة «الشعب الجزائرى» أما اليهود الذين ربطوا مصيرهم بقوات الإحتلال الفرنسى وبالكولون وبالمستوطنين الفرنسيين. فأخذوا يجمعون حاجياتهم ويبيعون ممتلكاتهم لكى يرحلوا مع قوات الاحتلال.

ولايعرف الجيل الجديد أن أغلبية اليهود اختارت الرحيل إلى فرنسا، ولابد هنا لمن يقلب تاريخ الثورة الجزائرية أن يتوقف طويلاً عند البيان الذى أصدرته الثورة الجزائرية ، تطلب خلاله من اليهود عدم الرحيل والبقاء والمشاركة فى بناء الجزائر الجديدة . هذا رغم تورط عدد كبير من اليهود مع إرهابيّ المنظمة المسلحة السرية الأقدام السوداء «OAS» ، وعزمت الثورة رغم ذلك على فتح صفحة جديدة ، وطالبت اليهود بالبقاء باعتبارهم مواطنين جزائريين من أبنائها.

ولم يستجب لنداء الثورة سوى عدد قليل من العائلات لا يتعدى ألف نسمة معظمهم من الشيوخ مثل عائلات بلعيش وأبو الخير وطوبيانا وسلمون كوهين.

وقبلها وعند قيام الثورة دعت جبهة التحرير يهود الجزائر «إلى الالتحاق بالثورة فى رسالة مؤرخة يوم ٢ مايو ١٩٥٦، ووصفتهم الرسالة بالمواطنين الأعزاء، وذكرتهم بأن الجزائر التي لا ولم تعتبر اليهود «أقل من الحيوان» كما فعلت فرنسا ، بل كانت مأوى لجميع يهود العالم على طول التاريخ ، يفرون إليها من القمع والاضطهاد ، وناشدتهم اختيار الجنسية الجزائرية والتمسك بها».

ورغم هذا النداء تبنى اليهود المطالبة بإبقاء الجزائر تحت سيطرة فرنسا.

ويفسر المؤرخ الإسرائيلى صموئيل أتينجر هذا الموقف بقوله .«عندما نشبت المواجهة بين السكان والسلطة الإستعمارية- ويتجنب لفظ الثورة- عقد اليهود آمالهم على حماية فرنسا ، الأمر الذى أدى إلى تدهور علاقاتهم بالثورة..» ويضيف .. كان حصول يهود الجزائر على حقوق المواطنة الفرنسية ، عملا بما يطلق عليه «قانون كرمية» من بين أسباب إرتباط اليهود بالاستعمار الفرنسى وجوداً وعدماً. فحصول اليهود على حقوق المواطنة كان أحد أسباب ظهور التباعد والجفوة مع الاهالي، ولعل هجرة الغالبية العظمى من يهود الجزائر إلى فرنسا خير دليل على صحة هذا الحكم – والكلام هنا للمؤرخ الإسرائيلى.

فما هو هذا القانون ..؟ .. أعطى هذا القانون حق المواطنة الفرنسية ليهود الجزائر ، وقد صدر عام ١٨٧٠ ، بشرط أن يأخذ يهود الجزائر بالثقافة الفرنسية، وعندما أصدر أدولف كرمية هذا المرسوم ، حصل بمقتضاه ٤٠ الف يهودى على

الجنسية الفرنسية، يجندون في الجيش الفرنسي ، ويشاركون في الانتخابات ويتمتعون بكل إمتيازات المستعمر.

ورفع هذا المرسوم الكثير من يهود المغرب وتونس إلى الانتقال إلى الجزائر والحصول على حق المواطنة، وزاد عدد اليهود في الجزائر بين احتلال فرنسا للجزائر ونهاية الحرب العالمية الثانية زيادة كبيرة، وبلغت هذه الزيادة بين عامي ١٨٣٠ و١٩٤١ سبعة أضعاف ما كانت عليه، وتقول الأرقام أنه عند احتلال فرنسا، كان سكان العاصمة ٣٢ ألف نسمة، منهم ١٩ ألف جزائري، و٤ آلاف تركي و٥ آلاف يهودي.

ومنذ بداية الثورة ، انضم العشرات من يهود الجزائر إلى قوافل الرحيل ، سواء إلى إسرائيل أو إلى فرنسا..

ويروى الرئيس الجزائري السابق علي كافي وأحد قادة الثورة في الداخل.. الدور الذي لعبه اليهود ضد الثورة ، عندما «بدأ عدد من اليهود يغادرون قسنطينة، وطلب خمسون منهم من السلطات جوازات سفر للتوجه إلى إسرائيل ، وأخذت ٧٨ حالة تتنازل عن الحق في البنايات ذات الملكية المشتركة.....» «ص ١٩٦ مذكرات علي كافي».

الغزو الفرنسي

وربما يعود سبب الرحيل الكبير ليهود الجزائر إلي أيام الحملة العسكرية الفرنسية عام ١٨٣٠ ، فكما هو معروف جاء الاحتلال الفرنسي، بسبب ما عرف بقضية بكري وبوشناق ، وبكري هذا ، كان أحد اليهود الذي لديه ديون عند فرنسا . حينما كان وسيطا في تصدير القمح إليها، وعندما طالب «الداي» بهذه الديون لم يتلق إجابة مرضية ، لذا ضرب «الداي» القنصل الفرنسي بالمروحة وأدت هذه الحادثة إلى الحرب ، فلم يعد الشرق يشكل أي قوة من شأنها ردع الغرب.

وتبين بعد ذلك ، «أن جزءا كبيرا من الديون سبق دفعها ، دون إعلام بكري للداي بذلك بل وحصل اليهوديان على المبلغ المستحق لخزينة الجزائر، وهرب بوشناق إلى إيطاليا، بينما التحق بكري بفرنسا «تاريخ الجزائر د. عمار بوجوش» وساءت العلاقات بين البلدين بعد أن عجزت فرنسا عن الرد بعد التغيرات التي طرأت على تسديد الديون المتراكمة.

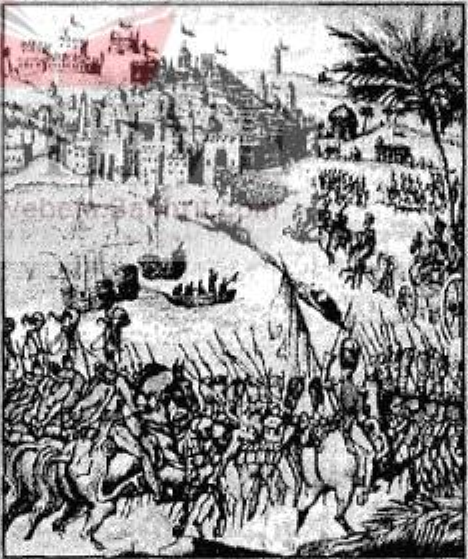
وكتب أحد رجال الحملة الفرنسية على الجزائر قائلا : «.. خرج اليهود يطوفون الشوارع فرحين، وكانت الآلاف تسير خلفهم ، وكان في مقدمة اليهود يعقوب بكري ومنافسه دوران اللذان قدما للقائد الأعلى هدايا فاخرة.. وأصبح يعقوب بكري ودوران من أقرب مستشاري القائد العام الفرنسي..»

ويورد المؤرخ الإسرائيلي صموئيل اتبنجر شهادات بعض القادة الفرنسيين التي تؤكد أن يهود الجزائر كانوا من أوائل الذين رحبوا بالجنود الفرنسيين ،



توزيع الأرض على المستوطنين





دخول الفرنسيين مدينة الجزائر

وتنفسوا الصعداء عن هزيمة القوات الجزائرية ، كما اعتبروا يوم الاحتلال الفرنسي للجزائر عيدا لهم.

اختار اليهود الانحياز الكامل إلى قوات الاحتلال ، رغم ما صرح به حاخام اليهود الأكبر موريس إيزينث ، والذى احتل منصب الحاخام الأكبر من الثلاثينيات حتى الخمسينيات والذى يقول «... لم يكن اليهود ضحايا لأى صورة من صور القمع أو أى معاملات لستثنائية، بل كانوا يتنفسون بحرية، وكان بإمكانهم التنقل بكل أمان، فعاشوا فى سلام، ينعمون بحياتهم الخاصة ويسيرون أعمالهم، ويقدسون الرب ، سواء فى حاراتهم أو مختلطين بالمسلمين ...»

وأصبح اليهود اليوم بعد كل هذه التجارب مكونا رئيسيا فى العلاقات الفرنسية الجزائرية ، ويقدر عدد يهود المغرب فى فرنسا بسبعمائة وخمسين ألف نسمة، ويكاد يكون قد تم نقل كل أبناء الطائفة اليهودية بالجزائر بكل مؤسساتها إلى فرنسا ، كما انتقل عدد قليل منهم إلى إسرائيل.

وتبنى يهود الجزائر منذ وصولهم إلى فرنسا سياسة ثابتة معارضة للنظام الفرنسي الذى منح الاستقلال للجزائر، ويدعون إلى عودة السيطرة الاستعمارية بأشكالها الجديدة، وترى فى الدعوة الفرانكفونية حلاً مقبولاً.

وطوال التاريخ ، أقام اليهود مثلثا ذهبيا بين ايطاليا «ليفورن» ومدينة الجزائر ومرسيليا فى فرنسا للتبادل بين شمال وجنوب البحر الأبيض.

فكان اليهود واسطة العقد بين الجنوب الأوروبى و الشمال الافريقى، وصلة الوصل ينتحلون أسماء أوربية فى أوروبا، وعربية فى شمال أفريقيا، وأحياناً يتظاهرون بالمسيحية فى الضفة الشمالية من المتوسط، ويتظاهرون بالإسلام فى ضفته الجنوبية.

ولدى زيارتى الأخيرة للجزائر ، سمعت أكثر من حكاية حول وجود عائلات يهودية ، تتكتم ديانتها، ويحملون أسماء عربية، مثل مليحة وخديجة وعيوشة وبكرى.

الكاهنة

أما الأفكار التى تقوم عليها الحملة الصهيونية الجديدة ، فهى السعى إلى خلق هوية جديدة، تمتزج فيها الديانة اليهودية مع البربر، وتقول إن البربر كانوا يعتنقون الديانة اليهودية قبل دخول الإسلام، وتدعى أن الصراع الذى قام بين الفاتحين العرب وبين قوات «الكاهنة» كان صراعاً بين الإسلام واليهودية، كل ذلك من أجل صنع صورة متخيلة يستحيل معها التمييز بين اليهودى والبربرى ! .

وترجح هذه الكتابات ذوبان البربر مع اليهود، رغم ما فى ذلك من نفي للنظرية

الصهيونية التى ترى أن اليهودية ليست ديانة فحسب بل هي قومية أيضا، وهذا ، ما تسلط عليه الأضواء في كافة المعاهد العبرية.

ويصل الأمر بريتشارد آيون وبرنارد كوهين إلى التأكيد أن أبا عبدالله المهدى الفاطمي، الذى انطلقت دعوته لإقامة الدولة الفاطمية له أصول يهودية.

ويعتمدون أيضا على حكاية الكاهنة وأن هناك علاقة تاريخية بين اليهود والبربر فى الفترة السابقة على دخول الاسلام، ويعتبرون «الكاهنة» هى الشخصية المحورية للتداخل والامتزاج بين البربر واليهود، ويجعلون «الكاهنة» رمزا لهوية مشتركة ، ويسعى المؤرخون اليهود إلى تضخيم عدد اليهود ، وأن أغلبية البربر كانت تدين باليهودية!.

ففى زمن الخليفة عبدالله بن مروان ، قام حسان بن النعمان بالدخول إلى تبسه وتوجه إلى الأوراس ، ووقعت معركة كبيرة بين جيشها المنهك وبين الملكة البربرية «الكاهنة» ، وتمكنت الكاهنة من هزيمة جيش حسان بن النعمان، وعاد حسان بن النعمان سنة ٧٠٠م ووقعت معركة فاصلة قتلت فيها «الكاهنة»، وتتحول الكاهنة فى الخطاب الصهيونى إلى أسطورة! .

معاداة السامية

ويبقى الترويج لفكرة أن اليهود تعرضوا للكثير من ألوان الاضطهاد طوال إقامتهم فى الجزائر، وهذه الدعوة علاوة على أنها تقيم أحداث القرون الوسطى بمعايير العصر الحديث، إلا أنها تتجاهل عصور ذهبية طويلة عاشها اليهود فى المغرب العربى بل لقد سيطر اليهود يوما على دروب الصحراء ، عندما كانوا التجار الوحيدين بين شمال الصحراء وجنوبها وتتجاهل هذه الفكرة الكثير من الحقائق ، فعندما سقطت الأندلس تدفق اليهود على شمال أفريقيا حيث يجدون الأمن والازدهار ، وعاش يهود الجزائر يتمتعون بكافة الحقوق بعد إضطهادهم على الجانب الآخر من البحر.

أما الجزائر العثمانية ، فلعل الخط «الهمايونى» الصادر عام ١٨٥٦ يؤكد حقوق الأديان والطوائف والأعراق ، يقول ..«إن جميع رعايا الدولة العلية ، بغض النظر عن إنتماءاتهم الدينية أو الطائفية أو العرقية ، يعملون فى إدارة الدولة حسب قدراتهم وكفاءتهم وحدها».

وأخيرا :

رأينا كيف تستغل إسرائيل عمليات الإرهاب الأسود الذى تشهده الجزائر، وتسعى لتوظيفه والإستفادة القصوى منه فهل تكشف قصة يهود الجزائر ، أحد أبعاد وخفايا ما تشهده الجزائر اليوم فهم يعرفون كل شيء عن الجزائر ولاتعرف الجزائر شيئا عنهم! .



طه حسين



عباس العقاد



المازنى

أين المقال

بقلم : د.محمد رجب البيومى

كثرت الصحف والمجلات كثرة مستفيضة، وقد حفلت بشتى أنواع القول، ولكنك لاتكاد تقرأ بها مقالة أدبية كالتى كنا نعهدها من قبل، وكان يحررها العقاد وطه حسين والمازنى والبشرى والزيات وزكى نجيب محمود .



زكى نجيب محمود



أحمد حسن الزيات



عبدالعزيز البشرى

ولن أتحدث للقارىء هنا عن معنى المقالة، بما يتحدث به أساتذة النقد، فلست من هؤلاء، ولكنى أتحدث كقارىء كان يجد فى صباه طعاما شهيا يستمرئه ويستحليه، ثم مضى الزمن فإذا الطعام ضائع مفقود، وإذا الشهوة إلى التهامه لاتزال قوية دافعة، ويزيد فى الأسف أن المقالات العلمية أو الأقرب إلى العلمية تنهمر انهمار السيل وليس فى أكثرها ما يفيد، لأن أصحاب الصحف قد حددوا أسماء وأياما، لكل اسم يوم لابد أن يظهر فيه المقال ممهورا باسم صاحبه وكثيرا ما يلجئه الموقف إلى الافتعال والاجترار، إذ المهم أن يكتب لا أن يفيد، والعمل هين ميسور، لأن المقال مجموعة معلومات تتراص، وتتزاحم، وقد ينكر بعضها بعضا ولكن ذلك لا يمنع النشر، فاليوم محدد والاسم معروف.

وكيلا نضل فى شعاب ملتوية، أحدد ما أعنيه بالمقالة الأدبية وقد نقل الأستاذ عباس محمود العقاد قول فرانسيس باكون «إن المقالة تكتب على نمط المناجاة والأسمار، وأن يكون فيها لون من ألوان الثرثرة، والإفضاء بالتجارب الخاصة والأنواق الشخصية» . وقال غير باكون «إنها تدور حول شيء مما أبصره الكاتب أو سمعه أو شمه أو تصوره، والعبرة دائما بأن يحس الكاتب إحساسا قويا بموضوعه وأن يعبر عنه بعبارة قوية رائعة» .

وخلاصة هذين القولين، أن المقالة الأدبية ذاتية، تعبر عن عواطف الانسان فى أسلوب جميل مؤثر فالكاتب يستمد عناصر مقاله من إحساسه الذاتى، سواء كان هذا الإحساس خاصا بهواتفه وآماله وآلامه، داخليا أو منتقلا إلى مشاهد الحياة وانطباعها فى نفسه خارجيا، فنفسه هى البئر التى تمتاح منها خواطره، وأنفاسه هى التى تتردد فى كل سطر، والأسلوب المشرق وعاء شفاف لهذه الخواطر الإنسانية! هذا ما أعنيه بالمقال الأدبى المفقود، لاننا لانجد فى السيل المتراكب بالصحف والمجلات بعض ما كنا نقرأ من هذا اللون الممتاز، وقد تحدثت فى ندوة أدبية عن ضياع هذا الفن، وأسفت لفقده، ففاجأنى أستاذ كبير بلقبه، ومنصبه فقط يقول فى تأفف: إنك تريد أن ترجع إلى عهد المنفلوطى فى زمن الاحتلال والاقطاع! والدنيا قد تغيرت، وأشد ما آلمنى أن يذكر المنفلوطى رحمه الله مقرونا بعهد الاقطاع، إذ لم يبك أحد على ضحايا الاقطاع كما بكى المنفلوطى حتى قال شوقى فى رثائه :

من شوه الدنيا إليك فلم تجد
في الملك غير معذبين جياع

واختلاط المسائل السياسية بالقضايا الأدبية مما يهرع إليه أدعياء النقد حين لايجدون ما يقولون، وقد رأيناهم فى مجال النقد القصصى يتحدثون عن كاتب ما بأنه ربيب عهد النكسة، وعن الثانى بأنه ربيب عهد الانفتاح، وعن الثالث بأنه من طلائع عهد العولة، أما فن الكاتب ومدى توفيقه، وموضع تعثره فلا شيء ومن ذكرياتى الحبيبة مع أخى الأديب الفنان الاستاذ كمال النجمى رحمه

الله أني أرسلت له مقالا عن (الحب الصامت) فحدثني تليفونيا أنه سيجازف بنشر هذا اللون، وقد تفضل فنشر المقال مشكورا، (في عدد الهلال أكتوبر ١٩٨٣ تحت عنوان من أوراق الورد - الحب الصامت). ولكنى امتنعت أن أسترسل في هذا المنحى كيلا تكون هناك مجازفة أخرى، وأكبر الظن أنه خاف عليّ إذ أتحدث عن الحب، وأنا عالم أزهري، ولكنه يدري أيضا أن كبار علماء الإسلام من أمثال ابن داود الظاهري وابن حزم وابن الجوزي وابن القيم قد وضعوا كتبا مستقلة في الحب وضعوا كتبا مستقلة لا مقالات طائرة، وهم خاضعون لإلحاح عنيف عبر عنه الشاعر أحمد محرم حين قال :

مايصنع القلب الطروب إذا الهوى
بلغ القرار وجال في الأعماق؟

وقد يقال - وقيل فعلا - إن ازدهار الرواية وانتشارها بين العامة والخاصة، قد صرف الناس عن المقال الأدبي فهي تتسع لما يتضمنه المقال الأدبي من تشريح للعواطف، وتفسير للخوالج، وترصد لأخفى الخوافي من همسات النفس وقيل هذا أيضا عن الشعر، وهو قول واهم، لأن جنسا أدبيا مهما ازدهر وانتشر لايغني عن جنس آخر، وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور من أكبر روائيي هذا العصر. وقد كتبا المقالة الأدبية جوار فنهما الذائع إذ أحسا ضرورة ملزمة تلجئهما للحديث في صورة المقال، وقد جمعت مقالاتهما في كتب خاصة، فصادفت ما صادفته القصة من رواج، ثم إن التحليل القصصي الذي قيل عنه أنه أصبح بديلا عن المقال، قد يكون من أسباب إخفاق الرواية إذا زاد عن حده، فهو يصيب الحركة المسرحية بالشلل، وهو يحول بعض القصص إلى خطب!! وأسرار النفوس أعظم وأكبر من أن تندرج تحت لواء واحد. وإذا كانت هذه الأسرار ترى في البسمة واللفتة والايماءة، كما تتضح في الفن التشكيلي في مختلف فروعه، فكيف يقال إن المقال قد ضاق بها، وضاقت به، إن استرسال كاتب المقال الأصيل في نفض خوالجه، والتفاته إلى الفتات المبعثر من زاد الحياة ليجمعه في طبق شهي، مما يقدم للقارىء متعة ترتفع به كثيرا عن واقعه المعيشي فينسى هموم الحياة الى مدى، وهي حالة يعرفها

القراء حين يطالعون نفثات ميّ والعقاد وجبران والريحاني ونعيمة والمازني والبشري والزيات مع انفراد كل منهم بطابع خاص، أما الرافعي بسبحاته الطائرة في كتاب وحي القلم فلن يلحق به لاحق وقد ظل مكانه خاليا! .

الشعر .. ترجمة العواطف

وقد قيل إن كاتب المقال الأدبي يعطي القارىء المثقف المستنير ما في نفسه وقلما يزيد، فهو يشرح معاني يحسها هذا المثقف المستنير في أعماقه، وأنا أقول وهل الشعر إلا ترجمة عن العواطف وكشف للخوالج، وبهذا الافصاح وجد قارىء الشعر صورة نفسه فيما يقرأ فاستجاد واستعاد، إن القارىء يشعر براحة نفسية حين يجد ما أكنه في أعماقه قد كشفه سواه، بل قد يستشعر خجلا لبعض مايعتاده من النوازع النفسية ويظن نفسه غريبا شاذا فيما يحس ويعاني، فإذا وجد من يشاطره شجونه على نحو كاشف محلل، شعر بما يشعر به المحرور اللاغب حين يهب عليه نسيم عاطر فينعشه شذاه، وفرق بين التحليل النفسي يقوم به كاتب أديب تارة، ويقوم به عالم نفسي تارة أخرى، فالأول طليق يرصد تيارات نفسه كما تجيء فيجلوها سافرة زاهية في مرأى نضير ، والثاني يجمع قواعد علمه ليدرج الجزئيات في كليات ثم يصدر الحكم وقد لا يصيب، فالمتعة التي يجدها قارىء المقال الأدبي حقيقة واقعة. وغياب هذا الفن الرفيع مصدر ألم كبير .

ولو بقي لنا المقال الأدبي كعهده السابق منذ برع فيه المنفلوطي فكان فجرا وضيئا لضحى مشرق، لو بقي لنا هذا اللون الأدبي الممتاز لما سمعنا اليوم بحديث (قصيدة النثر) وهو حديث يضحك ويبكي ، لأن قائليه والداعين إليه معا لا يحسنون شيئا من أمره. فالقائل ضعيف ساذج لا يدري شيئا عن تراث أدبه في القديم والحديث. والداعي المصفق يريد أن يجد له مكانا في دنيا النقد، وليس له زاد الناقد ولا موهبته فآثر التصفيق والهتاف. والتقى الصاحبان على ضعف مخجل، وضحالة هشة ، فتبادلا الثناء وعقدت لهما الندوات! وكم ذا بمصر من المضحكات !

تنوعت المقالة الأدبية فمنها

الزاجرة الناهية ، ومنها المعلمة المربية، ومنها الواصفة المحللة وليس هناك فاصل حاسم يمنع تداخل هذه الأنواع، وتلاحمها تلاحما عضويا لدى الكاتب الكبير ، ولكن أصدق هذه الأنواع هى المقالة الساخرة، الرحيمة معا، وأعنى بالساخرة، التى تنقد مظاهر الشذوذ فيما حولنا نقداً خفيفا يبتعد عن الضجيج الصاخب، وأعنى بالرحيمة تلك التى تتسع فيها نفس الكاتب حتى تشمل بالصفح بعض الذنوب، وتعد النقص فى الكائن البشرى أمرا لا حيلة له فيه، وقصارى أمر الكاتب أن يشذ به من نواحيه ، وأن يعين على تلافى أسبابه، وأن يمتد بالقارىء الى مدى أوسع مما ألف وعهد هنا يكون الكاتب صديق القارىء، لا أستاذه، لأن استعلاء الأستاذ مصدر نفور القارىء بل ربما جعله ناقدا للكاتب يهجنه ويستعلى عليه . مع أن المقصود الأول أن يكون معجبا بما قال ، عاملاً على الاستضاءة بهديه ، إن صاحب المقال الأدبى يحب قبل كل شىء أن يكون صديق القارىء وسميره، وأن يفكر فى الأسلوب الذى يدخل به إلى قلبه من أقرب طريق، وكتاب المقالات اليوم فى مجموعهم لا فى جميعهم (ففيهم قلة نابهة مرموقة) لا يفرقون بين كتابة مقال فى صحيفة وكتابة فصل فى كتاب ، فأنت تقرأ المقال الصحفى الطويل، فلا تشعر إطلاقا أنك تقرأ مقالا فى جريدة ولكن تشعر أنك تقرأ فى كتاب متعدد الفصول . وقد تفاجأ بمصطلحات أجنبية وبحروف لاتينية تتكاثر وفى ظن الكاتب أنه يمتع قارئه بتعالمه وما درى أنه يصرفه عنه إلى غير عودة ، وقد يترك القارىء بعض السطور إلى مابعدها فلا يحس أنه فقد شيئا، أو أن هناك سياقا قد انبتر لأن منهج الكاتب أن يحشد ويجمع لا أن يحلل ويستنبط ، وبعض الناس يفهمون المقال الثقافى فى أضيق حدوده فهم يحصرونه فى المقال العلمى الخاص بشئون السياسة والتربية والاجتماع، وكل مايتصل الى العلم بسبب، وقد نسوا أن المقال الأدبى الخاص بالعواطف الذاتية مقال ثقافى ، لأن الكاتب حين يتحدث عن تجربة شخصية مرت به ، أو عن إحساس خاص نحو شأن من شئون مجتمعه إنما يعطى للقارىء نموذجا

حيا من نماذج الحياة تقتدى به إذا كان مصدر خير، ويتحاشاه إذا كان مثار ضرر، كما أنه فى وصفه مظاهر الكون فى شتى مجالى الطبيعة إنما يفسح من آفاق قارئه، ويقفه على ما لا يعرف من مناحى الجمال والخير، فإذا تحدث عن نوازع البغض والحب، وعوامل الشقاق والخلاف، وهواتف الاحلام والآمال، ومخاوف الآلام والنزوات، فذلك فى صميمه نوع من التوجيه الجاد، لم يهتف به واعظ فى منبر إنما غرد به قلم كاتب فنان.

وبالمقارنة بين ازدهار المقال الأدبى بالامس وانحساره اليوم، أقدم من «مختارات الهلال» التى صدرت فى سنة ١٩٤٧ مجموعة مصطفاه مما نشرته مجلات دار الهلال لكبار الكتاب فى مصر والعالم العربى، فهذه المجموعة تجمع المقال الأدبى محاذيا للمقال العلمى، وإن شئت فقل تجمع المقال الذاتى محاذيا للمقال الموضوعى، فينتقل القارىء بين الاتجاهين كما ينتقل الطائر من فنن الى فنن فإذا أمتع عقله مايجده من ثمار الفكر فقد أشبع وجدانه بما ينعشه من أريج الوجدان، ولا صلة لى بما ضمته المختارات من المقالات الموضوعية، إنما أشير الى جانب من المقالات الذاتية التى نفتقدها الآن.

وأول مانشير إليه ما جاء عن عالم النفس، حيث اتسعت المختارات لمقالات جيدة منها مقالة جبران خليل جبران، التى تحدثت عن الوحدة الماثلة فى حياة الإنسان، مهما اتصل بالناس فهو يقضى بينهم بعض الوقت لينصرف إلى انفراد شامل يطول الحديث فيه بينه وبين نفسه لأن الحياة فى رأيه جزيرة منفصلة عن جميع الجزر والأقاليم، ومهما سارت الزوارق اليها على فترات، ومهما بلغتها الاساطيل المزدحمة فإنها بعد رحيل الزوارق والاساطيل تظل منفردة، فالانسان هو الجزيرة المنفردة بآلامها، المستوحدة بأفراحها المجهولة بأسرارها وخفاياها.

وللكاتب فى هذا التصوير هدف يرمى إليه هو أن يستغل الإنسان وحدته فلا يأسى عليها قدر مايحاول الانتفاع بها وقد أجاد التصوير المشخص حين قال:

«حياتك يا أخى منزل منفرد عن جميع المنازل والاحياء، حياتك

المعنوية نزل بعيد عن سبيل الظواهر والمظاهر التي يدعوها الناس باسمك، فإن كان هذا المنزل مظلما فأنت لاتقدر أن تنيره بسراج قريبك ، وإن كان خاليا فأنت لاتستطيع أن تملأ من خيرات جارك، وإن كان في صحراء فأنت لا تقدر أن تنقله إلى حديقة غرسها سواك ، وإن كان منتصبا على قمة جبل ، فأنت لا تستطيع أن تهبط به إلى واد وطئته أقدام غيرك » ..

عالم الشباب والمرأة

بعد هذا التصوير الخيالي المؤثر ننتقل إلى التحليل الواقعي الملموس في مقال للأستاذ عباس محمود العقاد كتبه عن الخمسين في عمر الانسان، وهي شباب الشيخوخة في رأيه. لأن ذا الخمسين شاب بين الذين نيفوا على السبعين أو الثمانين يشعر بهذا كما يشعرون به وإن لم يتعمدوه ، فإذا اجتمع مجلس من المجالس التي يختار لها الأعضاء ممن جاوزوا الأربعين، رأيتهم يتصرفون في التقديم والتأخير تصرف الآباء، مع الأبناء في الأدب والمعاملة ورأيت أبناء الخمسين ربما بدت منهم شيطنة التلاميذ في معاملة الاساتذة الذين يوقرونهم ويحيونهم ولايخلونهم من فلتات الشيطنة إذ ذاك .

وتخلص العقاد من مقاله التحليلي الطريف إلى قوله (ومهما يختلف المختلفون في جمال الشباب، وجمال كل عمر من الأعمار، فالحقيقة التي لاخلاف عليها أن تقدير الجمال لاينتهي بانتهاء عهد الشباب وأن القدرة على التعبير لا تنقص بنقصان الشباب بل لعلها تزيد .

وللمازني وأحمد أمين ، وأمير بقطر مقالات نفيسة رائعة أكتفي بالاشارة اليها هذا عن عالم النفس. أما عالم المرأة فقد حفل بمقالات رائعة مابين شرقية وغربية، فالكاتب الفرنسي ماكس رينال يقول عن المرأة (يكفي أن تسمع فقط رنين ضحك المرأة التي اجتذبتك لتحدث فيك جلجلة الضحك أو رخامة الصوت ، ذلك التأثير الشعري الذي يولد عاطفة الحب في نفسك وحيث أن العاطفة لاتعيش بدون تفكير فعقلنا هو الذي يخلق الحب، وخيالنا هو الذي يتعهده، وتصورنا هو الذي يغذيه لأن المحب يطلب ما يحب أن يكون لا ماهو كائن ، ويوازن الكاتب بين المرأة والرجل في الحب موازنة

نفسية يضيق المقام عن تلخيصها ، وهى جديرة بالتأمل لعمق النظرة، وبراعة التحليل

أما مصطفى صادق الرافعى فيتحدث عن صورة المرأة الحبيبة فى رسالة كتبها إليها فيقول : أرانى كالمصور غير أنى أنقل عن عالمى الداخلى، ورسمك يملأ عينى، فيضيف إلى عالمى المضطرب عالما من الجمال الصافى، هو كالسماء فوق الأرض تحييها بالشمس والقمر، وهو كالآخرة وراء الدنيا تطمعها بالجنة والخلد . وهل فى الحسن أحسن من هذا الوجه الذى يرف على القلب بأندائه . ويتلألأ بنضرته حتى لكأنه خلق من نور الفجر وكأن علامة الفجر فيه إنما هى هذا الروح الذى يحيط القلب بمعان من وجهك كنسمات الصبح عليلة، شديدة الرقة، ذابلة بين فرط الجمال.. مملوءة من روح الندى مما يجعلها حول النفس كأنها جو من الفرح لا من نسمات الجو. والمقال بديع ناضر كقطعة من زهور الروض ، والآنسة مى تكتب عن العيون فى ألوانها المختلفة . ثم تتحدث عن لغة العيون ، فتنقل عن التى تقول فى شموخ أنت عبدى، والتى تصرخ من الألم فتقول أعبدك ، والتى تتجاهل فتقول : ألا تعرفنى؟ والتى تجد فيها انجذاب الصلاة وروعة المصلى، والمتكبرة التى تقول : أنا مستبدة ، أريد أن أقتل، أين ضحيتى ، والتى تقول من أنت ؟ ثم لا تزيد ..

ومقالات المرأة كثيرة فكيف أحصرها ؟ .

أما ما أسميه بحديث الأسرة فقد احتل حيزا ممتازا ، حيث خاض فيه أعلام كبار من أمثال طه حسين، وعبد العزيز البشرى ومنصور فهمى وابراهيم المازنى ومحمد حسين هيكل فكيف أختار من هؤلاء جميعا أجتزىء إجتزاء مخلا ، فأنقل عن البشرى قوله:

«إذا ألمت بالولد وعكة استحالت فى قلب الوالد علة ، وإذا ضربته العلة مات أبوه كل يوم عشرين موتة ضارعا الى الله فى صدق وإخلاص أن يحول مابولده إليه إن لم يكن من الفدية مناص، ولقد أرى الصحيح معافى، ما به أثر من جهد أو وعك ، ولكن نفسى لا تستريح إلا إذا أكثرت

من جسده وعد نبضات عروقه، ولقد يخرج إلى الطريق لبعض شأنه فأحس قلبي يتمشى في صدري ويمثل لي الشيطان أن مكروها أصابه. أحب أولادي لأني أحب نفسي، وأتمنى لو يكتب لها الخلود في الدنيا، وإذا كان الموت حقيقة لا مناص منه أبدا، فأولادي هم واصلو حياتي ومطيلو أجلي واسمي من يوم أموت، لا يرد على خاطر أحدهم إلا بادر فسأل الله لي الرحمة وسكنى الجنان .

والمازني يطيل الحديث في مقال صادق مؤثر عن والدته وكيف قامت برعاية الأسرة بعد وفاة أبيه، وكيف قابلت الشدائد بحزم، كانت تكتفي بالنظرة الأولى إذا أمكن أن تستغني عن الكلمة، فكنا نتفاهم بالعيون، والذين حولنا غافلون لايفطنون إلى شيء . وكانت تتوخى أن تعفيني من المنغصات وتتجنب أن تحملني الهموم فتستقل بها دوني ، وكانت ذاكرتها قوية فإذا جلست للسمر تتدفق بأحاديث الأيام السوالف ، وكأنها تحياها من جديد، فلا يغيب عنها حرف، ولايفوتها لون فهي لقوة ذاكرتها سجل عام للأهل والصواحب».

وحديث طه حسين عن الأسرة ممتاز، وفي كتاب الأيام صور خالبة منه، وهو ذائع مشتهر، ولو جمع ماكتب عن الأسرة بأبنائها ورجالها وأمهاتها في مختارات الهلال وحدها تقدم سجلا بارعا للحياة الاجتماعية في الجيل الماضي ، سجل لم يكتب بالأرقام والإحصائيات ، ولكنه كتب بنبض العروق وخفق القلوب ! .

ولابد أن أشير إلى الذكريات البارعة التي كتبها سعد زغلول ، وعلي ابراهيم، ومحمد حسين هيكل، وأحمد نجيب الهلالي ومحمد كامل البنداري، وأم كلثوم وعبد الوهاب، وشريف صبري، وحسن نشأت فكلها نمط حي من المقال الأدبي الذي أعنيه.

ولعلي بما قدمت من النماذج الراقية مستشهدا بالقليل منها لينبيء عن الكثير، لعلي بذلك أدعو أصحاب العواطف الجياشة من حملة القلم ألا يهملوا هذا الجنس من البيان ، إذ أدى رسالته فيما قبل فلا غرابة في أن يؤديها الآن وفيما بعد ..

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

● «تراثنا يفتقر إلى نظرية نقدية متكاملة ، ويقتصر على إتجاه جمالى عام» .

المفكر الفلسطينى إحسان عباس

● «حان الوقت كى يتخلص المصريون من عقدة الامتياز».

الفنانة المغربية فاطمة خير

● «عالمنا العربى مقبرة تفخر بوأد مبدعيها» .

الروائى السعودى عبده خال

● «الممثلة ليست آلة جنس ، بل آلة موسيقية حقيقية ، يلعب عليها الفنان ، حتى تتعب أصابعه» .

النجمة ميريل ستريب
الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة مرتين

● «النخبة الفكرية عليها أن تعكف على إعادة ترتيب بيتها الذهنى ، حتى تعدل ساعتها الثقافية ، وفق التوقيت الإنسانى الجديد» .

المفكر التونسى عبدالسلام المسدى

● «ما نفعله فى الحياة ، نجد صداه فى الآخرة» .

المخرج الإيطالى ريدلى سكوت

● «العصر الذهبى لهوليوود ولى من زمان» .

المخرج الأمريكى بريان دى بالما

● «القضايا المصيرية الكبرى لم تعد فى دائرة اهتمام المواطن ، رغيف الخبز الذى قطره خمسة عشر سنتيمترا ، أصبح قطره عشرة آلاف كيلومتر» .

الفنان السورى دريد لحام

● «الفنان الحقيقى هو ذاك الذى يتمتع بأداء أى دور يقتنع به ، حتى لو لم يظهر فيه على الشاشة سوى بضع دقائق» .

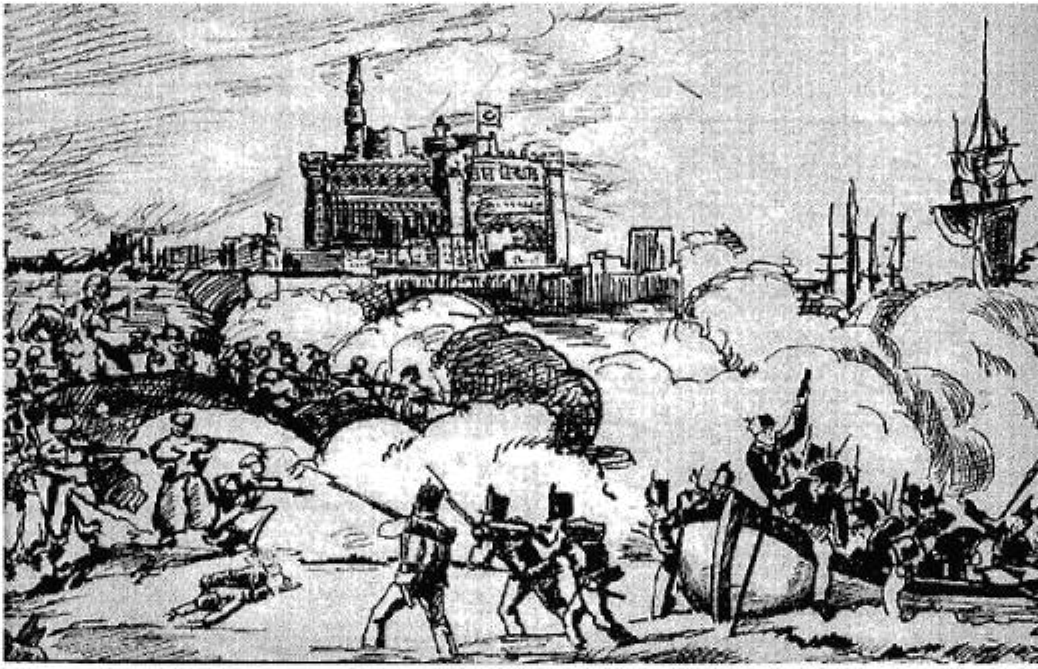
نجمة السينما الفرنسية كاترين دى نيف



كاترين دى نيف



دريد لحام



شهر «يوليو» فى أواخر القرن

بقلم : عبدالرحمن شاكر

●● هذا آخر شهور «يوليو» في القرن العشرين ، ومع حلوله تعودنا الذكريات ، ونعود لنسأل أنفسنا ماذا حدث ولماذا حدث، وكيف يكون المصير ؟ نعنى بذلك ثورة ٢٣ يوليو منذ ثمانية وأربعين عاما، وقبلها «يوليو» آخر وثيق الصلة بها ، وهو يوم ١١ يوليو عام ١٨٨٢ ، قبلها بسبعين عاما ، يوم قصف الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط ، الاسكندرية بدك طوابيها تمهيدا للاحتلال البريطانى لمصر ●●

أما الصلة فأهم جوانبها أن ثورة ١٩٥٢ قامت أساسا لطرد هذا الاحتلال من مصر ، وأن الثورة أزالت حكم أسرة محمد على التى وقع الاحتلال البريطانى بدعوى حماية «حقها» فى البقاء على عرش مصر ، فى مواجهة ثورة قامت بها القوات المسلحة أيضا ، مثل ثورة يوليو ١٩٥٢، وهى الثورة العرابية ، التى بدأت بالتمرد على تسلط «الجراكسة» على مقدرات الجيش المصرى ، ثم احتضنت مطالب الحزب الوطنى الأولى الموالى لها فى دعم الحياة النيابية وإنصاف الفلاحين وترقية التعليم والصناعة ، وراودتها أحلام أولى عن إعلان الجمهورية والتوحد مع طائفة من البلدان العربية المجاورة !

وفشلت الثورة العسكرية الأولى التى قمعها الاحتلال البريطانى ، ورغم ادعاء هذا الاحتلال أنه لم يأت إلا لدعم «الشرعية» المتمثلة فى الخديو توفيق المعين حاكما لمصر من قبل السلطان العثمانى ، إلا أن هذا الاحتلال دام سبعين عاما ، لم يتردد فى أواسطها ، وفى عام ١٩١٤ بالتحديد ، فى خلع الخديو عباس حلمى ، ابن توفيق ، وسلخ مصر من التبعية العثمانية ، وإعلان الحماية البريطانية عليها !

ونجحت ثورة ٥٢ فى طرد الاحتلال والعرش معا ، وسعت لتحرير كل بلاد العرب وتوحيدها أيضا ، بل وإفريقيا وسائر بلدان ما أصبح يسمى بالعالم الثالث ، ولكن واجهها عدو جديد ، بعد أن زالت الدولة العثمانية والامبراطورية البريطانية والفرنسية أيضا ، وذلك هو الكيان الصهيونى ، الذى زرعته على أرض الشقيقة فلسطين قوى الاستعمار العالمى ورسخت جذوره إبان الانتداب البريطانى عليها فى الفترة ما بين الحربين العالميتين، وبعد الحرب الثانية احتضنته الولايات المتحدة الأمريكية بكل أطماعها ومصالحها فى الأرض العربية الغنية بالبترول ، وألقت وراءه بكل ثقلها السياسى وجبروتها الاقتصادى والعسكرى والتكنولوجى ، ساعية جهدها لكى تجعل من هذا الكيان ، القوة الأولى ، أو الدولة المهيمنة ، فى المنطقة العربية، ليصبح مواطنوها من العرب إما اتباعا مطيعين ، أو ضحايا للبطش العنيف !

كان فى مقدمة الأسباب المعلنة

لثورة ٢٣ يوليو ، أن فساد الحكم قد تسبب في هزيمة الجيش المصرى في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، ولكن هذا الجيش كان عليه أن يواجه في عهد الثورة مشاركة الكيان الصهيوني في العدوان الثلاثي على مصر، مع كل من انجلترا وفرنسا ، لأن مصر الثورة قد أقدمت على تأميم قناة السويس المصرية ! ثم عدوانا آخر واسع النطاق في عام ١٩٦٧ ، احتل فيها الكيان الصهيوني أرض سيناء المصرية ، ورغم الأداء العسكرى الناجح للقوات المسلحة المصرية في حرب ١٩٧٣ ، إلا أن المساندة الأمريكية الهائلة للكيان الصهيوني لم تسمح بأن يتم الجلاء عن سيناء إلا عبر التفاوض مع العدو والتصالح معه على شروط ! ..

بالرغم من الأعباء التي فرضتها الحروب المتلاحقة على الاقتصاد المصرى ، إلا أن الثورة عملت على تنمية هذا الاقتصاد ، وجعل توزيع عائده أكثر عدلا من ذى قبل ، بل إن بعض الحروب التي فرضت عليها كانت بسبب جهودها الاقتصادية والعمرانية، فالعدوان الثلاثي جاء بعد تأميم قناة السويس بغرض استخدام عائداتها في بناء السد العالي ، بعد أن سحب البنك الدولي بضغط امريكى عرض تمويله ، وهذا السد هو الذى جنب مصر ويلات الجفاف الأفريقى الذى حدث بعد بنائه بسنوات ، وكان القصد منه توسيع الرقعة الزراعية التي ضاقت بسكان مصر ، وتوفير الكهرباء لإمداد المشروعات الصناعية الجديدة بالطاقة اللازمة ، وكانت للصناعة أهميتها الخاصة لتوفير احتياجات القوات المسلحة من ناحية وإيجاد فرص عمل جديدة للأجيال الشابة ، التي التزمت الثورة بتعليمها بالمجان وتوظيفها أيضا، وكان من أهداف الاصلاح الزراعي فضلا عن إنصاف الفلاحين توفير الاستثمارات الجديدة للصناعة وخلق سوق لاستهلاك المنتجات الصناعية وإمداد الصناعة ببعض متطلباتها ، ومن أجل التنمية الصناعية كان تمصير الشركات والبنوك الاجنبية، ثم التأميم في عام ١٩٦١ وإعلان الأخذ بالمبادئ الاشتراكية . ورغم كل ما رمى به القطاع العام من عيوب إلا أنه قد نجح في توفير كثير من متطلبات القوات المسلحة قبل حرب ١٩٧٣ ،

بما فى ذلك بناء قواعد الصواريخ ، وكانت سياسة العمالة الكاملة ، -رغم ما شابها من أخطاء - تحصينا للشباب دون الانحرافات الخطيرة بما فيها الوقوع فى قبضة منظمات الارهاب ! وتحت شعار «الكفاية والعدل» ، كان هناك صراع مع الزمن ، لأن زيادة الخدمات الصحية المجانية فى الريف ، قد عملت على تقليل وفيات الأطفال ، وزيادة الكثافة السكانية بما يعنى الحاجة إلى مزيد من توسيع الرقعة الزراعية وطاقات الانتاج الصناعى وزيادة الدخل القومى .

وإذا كان التفوق التكنولوجى الذى تحقق فى الغرب ، قد أملى على الاقتصاد المصرى أن يتحول إلى اقتصاد السوق ، كما حدث فى المعسكر الاشتراكى ذاته ، فإن الإحساس بالمسئولية الاجتماعية لايزال قائما ، ولا يزال مطلب العدل الاجتماعى يمثل هاجسا إنسانيا لا مفر من ملاقاته . (أنظر مقالنا «الثورة على الرأسمالية المتوحشة» فى «الهلال» عدد يونيو الفائت) .

بالرغم من أن «إقامة حياة نيابية سليمة» كان واحدا من شعارات ثورة ٢٣ يوليو ، إلا أن هذا المطلب قد تعطل كثيرا جدا ! وقد احتمل الشعب المصرى طويلا الطابع العسكرى للحكم لأن البلاد كانت تترقب حربا مع العدو الصهيونى من كل وقت . كما أن المناورات الرخيصة من جانب أحزاب ما قبل الثورة وسعى بعض عناصرها للتآمر مع العدو الخارجى على اسقاط الثورة كانت أهم أسباب تعطيل الحياة النيابية طويلا ، أو اتخاذها صورة شكلية لا تخفى براثن السلطة العسكرية وراءها .

قضية الديمقراطية

وكان فقدان الديمقراطية سببا لظهور ما سمى فى أكثر من مرحلة من مراحل الثورة باسم «مراكز القوى» ، التى اعتبرت مسئولة عن الهزيمة المنكرة فى عام ١٩٦٧ ، وتجريد شعار العدل الاجتماعى من مضمونه ، حيث سخرت اقتصاد البلاد لأغراضها الخاصة ولتكوين «طبقة جديدة» من أقربائها ومحاسيبها ، وتلك ظاهرة عرفتها بلدان المعسكر الاشتراكى العالمى ذاته، وأطلق على عناصرها اسم «القطط السمينة» وكانت من أهم أسباب

تقوض الاشتراكية على النطاق العالمي.

والآن تسترد الديمقراطية اعتبارها، وان لم يكن بشكل كامل لظروف من أهمها مواجهة الإرهاب كما يذهب المدافعون عن استمرار العمل بقانون الطوارئ ، فى وجه معارضة جديدة قد أصبح مسموحا بها ، وتستميت جميع فصائلها فى المطالبة بإلغاء العمل بهذا القانون ، وتعديل قانون الاحزاب ليصبح أكثر مرونة وأقل قيودا على حرية إنشاء الأحزاب ، لكى تستوعب كل التيارات السياسية الموجود بعضها بالفعل والتى قد تنشأ فى المستقبل .

ولا يقتصر الوعى الديمقراطى المتصاعد على مصر وحدها ، بل يمتد إلى سائر أرجاء الوطن العربى ، وقد شرعت بعض الأنظمة العربية من خلال خطوة هنا أو خطوات هناك فى إكساب حياتها السياسية مظهر الديمقراطية . بيد أن أهم ما فى الموضوع هو الربط بين الديمقراطية والوعى القومى العائد من جديد ، بعد الكارثة الجديدة التى حاقت بالمنطقة العربية ، منذ عشر سنوات ، حينما أقدم العراق على غزو الكويت ، وأتاح للقوات الأجنبية وخاصة الأمريكية أن تعود إلى المنطقة وتنشئ وجودا دائما لها فى الخليج ، وقواعد تضرب منها العراق بين حين وآخر فضلا عن الحصار والتجويع الذى تفرضه على شعبه ، وأصبح المشرق العربى محصورا ما بين القواعد الأمريكية فى شرقه والكيان الصهيونى فى غربه .

إن ثورة عارمة تعتمل الآن فى صدور الشارع العربى على هذا الوضع المذل المهين ، وإذا كانت تجربة جنوب لبنان مؤخرا قد أثبتت أن احتمال الآلام والتضحيات التى يتطلبها النضال الوطنى من أجل التحرر ، قادرة على أن تجبر العدو على التراجع ، فإن آمال الأمة العربية قد أصبحت معلقة على مطلب توحدها بطريقة ديمقراطية ، على نحو يكفل لها توحيد جهودها من أجل التحرر من كافة أشكال الهيمنة الأجنبية ، وبناء سوقها المشتركة ومحاولة اللحاق بما فاتها من ركب الحضارة والتقدم العلمى والتكنولوجى ، وفى مواجهة الكيان الدخيل الذى فرض على بلادنا أن تخوض معه صراع المصير .



تهويد العالم في الخيال الإسرائيلي

بقلم : جميل مطر

لسنا وحدنا المنشغلين بقضية ما بعد .. فالإسرائيليون يتحدثون عن «ما بعد السلام»، انطلاقاً من مفهوم للسلام يختلف بشكل جذري عن مفهوم السلام عند العرب. ولذلك يستحيل أن يلتقي الإسرائيليون والعرب في مستقبل واحد، إلا في إطار صراعي، بمعنى في إطار أشكال أخري من الصراع العربي الإسرائيلي، هنا يبدو منطقياً الافتراض أن إسرائيل تفضل، أن يبدأ العرب من الآن في مناقشة قضايا «ما بعد السلام»، لأنهم حتماً مجبرون، علي مناقشتها علي أساس مفهوم «ما بعد التسوية»، أي علي أساس الحاضر المستقبل، المنطقي أيضا أن يحاول الإسرائيليون استدراج العرب إلي الدخول الفوري في حلبة المستقبل، وعدم انتظار المستقبل، لأنهم في المستقبل سيكتشفون أن سلاماً قد تحقق، أي سيكتشفون وهم ما بعد السلام، وسيكون صعباً عليهم الاشتراك في صنع أو وضع أنماط تفاعلات وتحالفات لحالة سلام غير قائم.



تهويد العالم

تخيلات إسرائيلية .. مستقبل الصهيونية

انشغلنا كثيراً بالصراع العربى الإسرائيلى من ناحيتين، ناحيته العربية أى علاقات العرب بالعرب، والفلسطينيين بالعرب ومن حيث تأثير هذه العلاقات على مسار الصراع أو من حيث تأثيرها هى بهذا المسار، وانشغلنا كذلك بناحيته الثنائية، أى بالصراع ذاته، بحروبه، ومفاوضاته، وبتسويته، ولكنها، وهنا أتحدث عن كثيرين من المحللين السياسيين العرب وبشكل خاص عن نفسى، لم ننشغل كثيراً بناحيته الثالثة، أى بإسرائيل ذاتها، وعلاقاتها بيهود الشتات، أعتقد أنه سيكون مفيداً لو حاولنا تخيل ما يتخيله السياسيون الإسرائيليون. أى أن نغوص فى خيالهم وأحلامهم ولكن دون أن نبتعد كثيراً عن واقعهم، خاصة ولأننا - بعد خبرة طويلة من التعامل معهم - صرنا نعرف أنهم واقعيون، وهذا على غير ما كنا نردد، فقد تصورنا دائماً أن الأيديولوجية تهيمن ولا تسمح لمسئول إسرائيلى أن يتصرف القرن أحيانا ببراجماتية.

نعرف أيضا أن خلال القرن ونصف القرن الأخيرين فى التاريخ اليهودى، حدث تمايز واضح بين الوظائف داخل عالم اليهود، فقد ولدت الصهيونية ومعها وظيفة ولليهودية وظيفة مختلفة ثم نشأت إسرائيل ومعها وظيفة ثالثة. أما وظيفة الصهيونية فكانت - ومازالت إلى حد متناقص باستمرار المخلص والمحرر والمفكر السياسى قبل أن تصبح - الذراع أو الأداة. وكانت وظيفة اليهودية أن تفرخ أو تقدم يهوداً حتى صارت تعرف بالوعاء. أما إسرئيل، فنشأت لها مع نشأتها وظيفة العقل. ويعود الفضل فى استلاب هذه الوظيفة من الصهيونية إلى دافيد بن جوريون.

كانت اليهودية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الوعاء الزاخر الممتلئ دائماً ببشر غالباً مضطهد، سواء كان مصدر الاضطهاد الذات أم

الغير، وكان هذا البشر جاهزاً للتحرير أو جاهزاً للهجرة. أما التحرير فقد بدأ مسيرته مبكراً، في بدايات القرن التاسع عشر مع التطور الهائل الذى أحدثته الثورة الصناعية، وهى الثورة التى دمرت كثيراً من الأسوار المقامة حول مواقع سكن اليهود. أسوار أقامها اليهود بأنفسهم، أو أقامها السكان المحليين حول مجموعة من الناس تريد أن تؤكد أنها مختلفة، إذ تعهد اليهود على مدى تاريخهم أن يرتدوا ملابس مختلفة، ويتحدثوا بلغة مختلفة ويعملوا فى حرف ومهن مختلفة.

***

ومع تقدم القرن التاسع عشر ظهرت الصهيونية على أيدى البورجوازية اليهودية أحد أهم إفرازات الثورة الصناعية، والتى استطاعت بنجاح أن تحرر نفسها من سيطرة الزعامات الدينية والاضطهاد الذى يمارسونه داخل أحياء اليهود على اليهود بحجة حماية الفرد اليهودى من إغراء الاندماج فى المجتمع الأكبر خارج الأسوار.

لعبت الصهيونية أكبر الأدوار فى حياة اليهود خلال هذه المرحلة من تاريخهم. وفى الواقع ما كان يمكن بدونها أن يتبوأ اليهود المكانة التى يحتلونها اليوم، وما كان يمكن أن تكون لهم دولة فى فلسطين. كانت الصهيونية الأداة التى جعلت اليهودية تتحول من دين فحسب إلى دين وسياسة فى جميع مجتمعات أوروبا والشرق الأوسط وأمريكا الشمالية، وكانت بداية التحول فى أوروبا.

من ناحية أخرى نجحت الصهيونية فى نقل اليهود من عصر القبلية إلى عصر الأمة والقومية، ونقلتهم من الجاهلية إلى التنوير، كل هذا دون أن تخل بالوظائف الأساسية لرجال الدين اليهود وهى المحافظة على التراث والمحافظة على الدين والمحافظة على اللغة، ولكنها حلت محل رجال الدين فى أداء وظيفة صنع الآخر.. ولعلها الوظيفة الأهم فى كل التاريخ اليهودى، والتى يطلق عليها أحياناً عملية «صنع اليهود» أو «الصناعة اليهودية»، كان ضرورياً على امتداد التاريخ، اليهودى طبعاً، أن يبقى رجال الدين على الشعور بالاضطهاد حياً، إيمانا بقاعدة أنه لا تكاثر يهودى بدون اضطهاد، أو بقاعدة اشد بؤساً، وهى أنه لا يهود بالمرة بدون اضطهاد. وكانت وظيفة رجال الدين فى حال غياب الاضطهاد، أى عدم وجوده موضوعياً بمعنى خلو الساحة المحيطة من مشاعر لا سامية، ابقاء اليهودى فى حال توقع دائم لاضطهاد من نوع أو آخر، أى

العبودية بالاختيار. فبدون هذا الشعور بالاضطهاد - وبدون تمايزهم عن غيرهم من الشعوب - لذاب أو اندمج أغلب اليهود في المجتمعات المسالمة والمسامحة التي عاشوا في ظلها. لذلك أجد صعوبة شديدة في كل مرة أحاول فيها تصور اليهود وقد قبلوا فعلا وحقيقة التعايش مع «الآخر» العربي إلى حد المخاطرة بالاندماج أو الذوبان في الشرق الأوسط. ولكن أجد سهولة أيضاً شديدة في كل مرة أحاول فيها تصور زعماء اليهود وقد استمروا يثيرون الحقد والمشكلات لكي لا تنطفي جذوة الاضطهاد - الذاتي أو الموضوعي على حد سواء.

ويعود للصهيونية كثير من الفضل في تخليص اليهودية من براثن المهن التقليدية التي توارثها اليهود عبر الأجيال وساهمت في تكوين الشعور بالاستعباد أو الاضطهاد الذاتي، مثل المضاربة والرهونات والتجارة في المال، وأن أضيف إليها في مرحلة مبكرة مهنة الفكر والكتابة. لذلك كان شرطاً من شروط تحرير اليهودي فكرة تحقيق «خلاص» اليهود، أي خلاص أرواحهم المضطهدة وخلاص أجسادهم عن طريق دفعهم للعمل في الأرض بالزراعة. وكان التعبير الشائع بين الاشتراكيين في ذلك الوقت عن هذا النوع من تحرير الذات هو «نارودنيك»، وهكذا بدأت عملية تشجيع الاستيطان في فلسطين وفي مناطق أبعد ما تكون عن المدن حرصاً من القادة الصهاينة على منع المهاجرين اليهود من التسلل إلى المدن مثل يافا وحيفا فيعودوا إلى المضاربة وغيرها من أعمال المال والتجارة.

هذه الوظيفة من وظائف الصهيونية فقدت الآن الكثير من أهميتها مع التغيرات الحضرية الواسعة في المجتمع اليهودي في فلسطين وبعد إقامة الدولة، وبخاصة في أعقاب موجات الوافدين الجدد من يهود شرق أوروبا الذين خلصتهم الشيوعية - أكثر من الصهيونية - من عبودية الجيتو والمهن الاضطهادية، هؤلاء وغيرهم يستوطنون الآن مواقع هي في الواقع نتوءات مدن قائمة، يعملون صباحاً في المدن ويعودون إلى المستوطنات للنوم.

وظيفة أخرى من وظائف الصهيونية فقدت سبب وجودها، وهي وظيفة إقامة الدولة، فالدولة قامت وانتهت الوظيفة، وظلت الصهيونية تحاول أن تفرض على الدولة الاقتناع بأنها ضرورية لحشد الطاقات والدعم في الخارج. ولكن الدولة أرادت أن تكون الصهيونية ذراعاً ليس أكثر . بينما أرادت المنظمة الصهيونية أن تكون العقل ليس أقل. وانتصرت الدولة، وخاصة بعد أن وجدت

أنصارا لها فى يهود الشتات الذين خافوا على مصالحهم فى الدول التى يعيشون فيها من تدخل المنظمة الصهيونية فى شئونهم. ولم يكن ما حدث خلال الحملة التى شنتها المنظمة الصهيونية ووكالتها اليهودية على حكومة النمسا إلا دليلاً جديداً على الرفض المتزايد من جانب يهود الشتات لتدخل قادة الصهيونية فى شئونهم. إذ تعمد يهود النمسا إعلان غضبهم وضغطوا على إسرائيل لتتوقف الحملة الصهيونية وحشدوا اليهود فى سويسرا وألمانيا وغيرهما للاحتجاج على تصرفات المنظمة الصهيونية.

***

من هنا، أعتقد أن النخبة الحاكمة فى إسرائيل حين تحاول أن تتخيل المستقبل، فإن أول ما سيتراءى لها هو مستقبل تنحسر فيه الصهيونية كعقيدة سياسية لليهود وتنحسر فيه كهوية، أى كضلع من أضلاع مثلث الهويات اليهودية، ولكن انحسار الصهيونية لا يعنى أن مضمونها انتهى. صحيح أن وظائف متعددة للصهيونية لم تعد مطلوبة، كما ذكرت وصحيح أن وظائف أخرى آلت إلى الدولة باعتبارها الوريث الشرعى والثمرة التى أثمرتها شجرة الصهيونية، صحيح أن سلم الأولويات عند المواطنين فى الغرب، ومنهم يهود، ارتبكت أولوياته بسبب موقع الصدارة التى تحتله العولمة، وباعتبارها – أى العولمة – «الضد المنطقى» لأى هوية كبرى، مثل الدين والأيديولوجية «كالصهيونية» والوطنية، صحيح كل هذا، ولكن ستظل النخبة السياسية الإسرائيلية تبحث عن صيغة أخرى تحتوى مضمون العقيدة الصهيونية، وتنشئ مؤسسات خاضعة لها إلى جانب المنظمات الصهيونية تقوم بمهمة حشد طاقة يهود الشتات للدفاع عن إسرائيل سياسياً واقتصاديا وإعلامياً، بحيث يظل العقل السياسى موجوداً فى مكان واحد وهو إسرائيل.

ولكن أتصور أن النخبة الإسرائيلية لن تتوقف طويلاً فى خيالاتها عند قضية انحسار الصهيونية والاستعداد لذلك، إذ أنها تتخيل فى نفس الوقت وقوع انحسار مماثل فى الضلع الثانى من أضلاع مثلث الهويات الإسرائيلى، وهو اليهودية ذاتها. لقد بدأ فعلاً الحديث عن مستقبل يصعب فيه العثور على أعداد كافية من اليهود ضرورية لاستمرارية الدولة وأمنها.

***

مستقبل اليهودية .. تخيلات إسرائيلية

أحد أهم وظائف اليهودية فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى هو أنها



الوعاء الطبيعي الذي اعتمدت عليه الصهيونية عندما بدأت عملية اطلاق إمكانات اليهود في جميع المجالات بعد إخراجهم من الجيتو، أي إخراجهم باعداد غفيرة إلى مختلف مجالات الانتاج والتأثير. وكذلك اعتمدت على هذا الوعاء عندما قررت استيطان فلسطين، ثم في كل مرة تقرر توسيع رقعة الدولة، والمؤكد على كل حال أن يهود شرق ووسط أوروبا لعبوا الدور الحاسم في قيام إسرائيل ونهضتها مرتين، مرة قبل وعند النشأة، ومرة أخرى عندما لاحت نهاية الاتحاد السوفيتي وبلغ عددهم في هذه المرة المليون مهاجر، وصل آخر واحد فيهم منذ أيام قليلة ويجرى الاستعداد الآن لاستقبال مليون يهودي آخر من دول الانفراط السوفيتي، بعد أن تجاوزت إسرائيل بنجاح صعوبات استيعاب الموجة الأولى.

باستثناء هذا المليون القادم، ويبدو أن الإسرائيليين يستعدون لمستقبل يجف فيه الوعاء، أو على الأقل تجف نوعية معينة من اليهود، هي الأهم بالنسبة للذهنية الحاكمة في إسرائيل، وهي نوعية يهود شرق ووسط أوروبا. بمعنى آخر سيتعين على إسرائيل بعد ذلك البحث عن مصادر غير تقليدية للهجرة إلى إسرائيل. تماماً كما فعلت عندما توقف التدفق من شرق ووسط أوروبا في الخمسينيات بعد عودة السلام في ربوع أوروبا وبعد هزيمة النازيين وتحسن الأوضاع الاقتصادية، عندئذ لجأت إسرائيل إلى مصدر غير تقليدي وكان في ذلك الحين يهود الدول العربية. هؤلاء لم يكونوا ضروريين عند ارساء قواعد الدولة وقوانينها وأحزابها. ثم أصبحوا ضروريين لاستمرار الدولة والدفاع عنها. لذلك فهم يتحدثون في إسرائيل الآن عن الحاجة إلى «مرونة» أكثر في تعريف من هو اليهودي، خاصة بعد أن تأكد أن عدداً كبيراً جداً من المهاجرين القادمين من روسيا ودول الانفراط السوفيتي ليسوا من اليهود

حسب التعريف المتشدد، ولا حتى التعريف المعتدل لمن هو اليهودى، ويبدو أن أحد الاتجاهات ينادى بأن تصل المرونة إلى حد القبول بدون تردد كبير بادعاء المهاجر أنه من أصول يهودية وإن أعلن عجزه عن اثبات ذلك.

بمعنى آخر يكفى فى المستقبل أن يقول إنسان أنه يهودى أو يريد أن يكون يهودياً ليصبح فى نظر إسرائيل يهودياً، وينسجم هذا التطرف فى المرونة مع اتجاه آخر يطلق عليه «التهويد العلمانى»، ويعنى السماح للأغيار بالانتماء إلى الشعب اليهودى وليس إلى الديانة اليهودية، استناداً إلى قاعدة أن اليهودية دين «أو» قومية وليس إلى قاعدة أن اليهودية دين وقومية فى آن واحد.

يتحدثون أيضاً عن خمسين مليون يهودى مبعثرين فى أفريقيا وآسيا، وعن وجود جماعات فى هاتين القارتين تطالب بالسماح لها بالهجرة إلى إسرائيل باعتبار أصولها اليهودية التاريخية، وسواء كانت الأنباء عن هذه الجماعات صحيحة أم زائفة، فأغلب الظن أن مجرد طرحها للنقاش يعنى أن مؤسسة الحكم فى إسرائيل لن تتوقف عند حد أخلاقى أو دينى أو قومى إذا تأكد الاحتمال بأن الوعاء – الذى يضمن استمرار الدولة وأمنها – بدأ يجف. وإن أضفنا إلى هذا الاحتمال انحسار الصهيونية كعقيدة مقابل صعود اليهودية كشعب أو دين، وانحسار الصهيونية كوظائف ومؤسسات مقابل صعود دور المؤسسة الحاكمة فى إسرائيل يصبح جائزاً أن نتصور أن تتحول إسرائيل إلى مجتمع متعدد الأعراق على النمط الأمريكى، بهوية – جديدة قديمة – وهى اليهودية العلمانية. ويعتقد بعض المفكرين فى إسرائيل أن اليهودية العلمانية قد تساعد فى حل مشكلة تصاعد نفوذ المتدينين اليهود أى الهوية اليهودية ذات الطابع الدينى المتطرف. بمعنى آخر فإن اليهودية العلمانية – كما يتخيلها هذا البعض – تبنى مجتمعاً جديداً، يهودياً فى الاسم.. «عالمياً» فى الواقع.

يزيد من أهمية هذا الاحتمال الاتجاه المتزايد نحو «تهويد العالم». والمقصود بهذا التعبير هو المحاولات التى تجرى حالياً لاجبار الرأى العالم العالمى على التفكير «بذهنية يهودية» أو التمرد على «الهيمنة اليهودية». وكلاهما يصب فى خانة تهويد العالم. المهم أن يشعر العالم بوجود اليهود فى كل مكان، وبأكبر من حجمهم الحقيقى، وبأكثر من عددهم، وبأقوى من قوتهم. يدخل ضمن هذه المحاولات، قضايا وحملات التعويضات لضحايا المحرقة النازية، والعمل القسرى، وودائع البنوك ومنقولات البيوت والقصور اليهودية التى صودرت فى عهد النازى، يدخل أيضاً ضمن هذه المحاولات اصدار

التشريعات المتنوعة والمتعددة فى جميع دول أوروبا وأمريكا ضد حرية التفكير فى تاريخ اليهود وسلوكياتهم وسياساتهم وقوتهم وأعدادهم، ويدخل فيها أيضاً تضخيم مكانة اليهودية كدين بين الأديان الأخرى أو كشعب بين الشعوب الأخرى، وبالتدريج تتوسع التشريعات لتغطى جميع اتجاهات الفكر الناقد لتصرفات الدولة اليهودية مثل التجسس على دول أخرى، يحدث شئ من هذا أو سيحدث بشكل أكبر، فى منطقتنا العربية. إذ أنه حين نطالب أنفسنا بأن نفكر مثل اليهود، أو نعمل مثل اليهود، فإننا فى حقيقة الأمر نعمل على تهويد أنفسنا دون أن نشعر، أو ربما نشعر. ولكننا نستهين بخطورة ما نفعل وهول ما نستحسن. لا احد يطالب اليهود، ولا هم يطالبون أنفسهم بأن يفكروا مثلما نفكر أو يعملوا مثلما نعمل، البعض فى إسرائيل يطرح التفكير فى ضرورة أو احتمال أن تصبح إسرائيل دولة شرق أوسطية، ولكن لا أحد فيما أعلم باستثناء بعض القيادات العسكرية يؤمن بهذا الخيار، وحتى هذه فبشروط وتحفظات كثيرة.

وحين أتحدث عن تهويد العالم لا أتحدث عن ميول أمبراطورية، أو استراتيجية لفرض هيمنة سياسية يهودية.. وإن كنت لا أرفض قطعياً هذا الاحتمال باعتباره أمراً وارداً وجائزاً وحقاً مارسته شعوب كثيرة على مر التاريخ. ولكنى أتحدث عن «رغبة كامنة أو معلنة لدى حضارة معينة فى أن تصبح هى الرائدة، أن تصبح المرجع الحضارى الأول والأهم، وفى أن تصبح الاطار الحضارى العام بحيث يكون شاذاً أو خارجاً عن سياق التفكير خارج هذا الاطار بالتناقض معه أو بالتشكيك فيه».

أتصور مثلاً أن تهويد أمريكا قد حقق خطوات متقدمة جداً، وكذلك بريطانيا، وتجرى محاولات مكثفة فى ألمانيا بوسائل مختلفة جداً. ففى عديد من القضايا تتخذ الولايات المتحدة قراراتها فى إطار تحرص أن لا يكون متناقضاً مع الطروحات اليهودية، والنماذج كثيرة ابتداء من أفكار الكنائس المسيحية الأصولية الجديدة وممارساتها وانتهاء بتفاصيل السياسات الخارجية مع دول أفريقية وأسيوية وعربية. وتصدر الآن القوانين والتشريعات الأوروبية والأمريكية مراعية جميع حساسيات اليهود، ليس فقط يهود أمريكا، بل يهود العالم بأسره. وقد لاحظنا كيف تصرفت ولايات أمريكية، أى حكومات اقليمية أمريكية، مع دول اجنبية مثل سويسرا، واستخدمت ضدها سلاح المقاطعة الاقتصادية والتشهير الإعلامى لمجرد أنها لم تخضع لمطالب المنظمات اليهودية

العالمية في شأن التعويضات، وفي أحوال أخرى قام وزراء أمريكيون بالتفاوض مع دول أخرى نيابة عن «اليهود» مستخدمين نفوذ الدولة الأعظم فى العالم. هذا الموضوع كأى موضوع يتعلق باليهود، يظل موضوعاً شائكاً، يظل فوق مهمة التدقيق والبحث، ويظل خاضعاً لضغوط وعوامل ردع كثيرة تهدد من يقترب باسم الحقيقة أو العلم إلى أمور غير جائز النقاش فيها إلا إذا قرر اليهود أنفسهم رفع الحظر والسماح بالمناقشة، والأمثلة على قيام اليهود أنفسهم برفع الحظر غير كثيرة ولكنها بارزة، وهى على سبيل الحصر كتابات المؤرخين الجدد عن المذابح فى فلسطين قبل قيام الدولة، وبعض الكتابات الجديدة عن هنا آرندت الفيلسوفة اليهودية صاحبة الموقف الشهير من قضية محاكمة أيخمان.

***

خاطرت مرتين فى هذا المقال، مرة وأنا أحاول استخلاص اتجاهات جديدة فى الفكر اليهودى لم تزل خجولة، وغير صريحة. ومرة وأنا أتصور بعض جوانب المستقبل من خلال دينامية سباق أو صراع أضلاع مثلث الهويات فى المجتمع الإسرائيلي، حاولت قراءة ما يدور فى خيال المؤسسة الحاكمة فى إسرائيل عن المستقبل. وهنا فى هذه المخاطرة الثانية شعرت باقترابى من مناطق محظورة فى الفكر السياسى العربى - إن وجد شئ بهذا المعنى، وفى الفكر السياسى اليهودى، إذ أنه حين تقرأ فى سلوك الحاكمين اليهود ما يشير إلى رغبة فى تهويد العالم فأنت فى الواقع تلمح إلى أن هؤلاء الناس يفكرون ويعملون للتأثير على مستقبل الحضارة. وقد يتردد الكثيرون - حتى فى مجرد التفكير - فى هذا الاحتمال، أى احتمال أن يكون سعى اليهود فى المرحلة الراهنة بهدف فرض «الحضارة اليهودية» كحضارة اسمى أو المرجعية الحضارية للمستقبل فى وقت لن يزيد عدد اليهود فى العالم عن ١٦ مليوناً، أو حتى عن سبعين مليونا كما يقال، وستظل المقارنة قائمة بين شعب بهذا العدد، وشعب المليار وربع فى الصين أو المليار فى الهند، وبالتالي سيصر الكثيرون على استحالة أن تنجح اليهودية فى فرض نفسها مرجعية حضارية، أو حضارة أسمى، فى عالم فيه شعب صينى وشعب هندى وأمة إسلامية بأعداد غفيرة من البشر. ويبقى آخرون مصريين على أن العبر كانت دائماً ومازالت بالنوع ولم تكن اطلاقا، إلا فى صراعات البرابرة، بالعدد.

الحركة الصهيونية

خلال القرن العشرين

بقلم : د. عادل غنيم ★



★ أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

❝

مضى قرن على الحركة الصهيونية التى بدأت رسميا مع المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى أغسطس ١٨٩٧ فى مدينة بال بسويسرا، وقرر إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين يضمنه القانون العام .

ورغم أن النشاط الصهيونى الرسمى بدأ فعلا منذ هذا التاريخ، فإن جذور هذا النشاط تعود قبل ذلك إلى واقعتين محددتين :

الحدث الأول : الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ومحاولة نابليون إقامة إمبراطورية فرنسية فى الشرق، وتوجيهه بيانا ليهود آسيا وافريقيا أثناء محاصرته لمدينة عكا محاولا استمالتهم لمساعدته فى تحقيق أهدافه الاستعمارية، حيث وعدهم بأن يعيدهم الى القدس وأن يساعدهم فى بناء هيكل سليمان .

وقد كان لهذه الخطوة من جانب نابليون أثران : الأول لدى اليهود والآخر لدى بريطانيا. فبالنسبة لليهود يعتقد أن بيان نابليون الى اليهود هو الذى نبه ثيودور هرتسل منشىء الحركة الصهيونية الى إمكانية استفادة اليهود من القوى الاستعمارية لتحقيق احلامهم فى إنشاء دولة لهم فى فلسطين، وأما عن أثر نداء نابليون لدى بريطانيا، فقد أثار ذلك كوامنها الاستعمارية، ونبهها الى أهمية السيطرة على هذه المنطقة خاصة مصر ، وإنشاء دولة يهودية فى فلسطين تكون أداة فى يد بريطانيا لتحقيق أهدافها الاستعمارية .

أما الحدث الثاني : فهو توسع محمد على الى الشام فى محاولته إقامة دولة عربية كبرى خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر (من ١٨٣١ ـ ١٨٤٠) مما نبه بريطانيا للمرة الثانية الى ضرورة السيطرة على هذه المنطقة، والاستفادة من اليهود من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية .

ولذلك نرى أن بريطانيا منذ الثلاثينات من القرن الماضى تهتم بفلسطين وبالقدس بشكل خاص، ومن هذا الاهتمام أن بريطانيا أنشأت أول قنصلية أوربية فى القدس عام ١٨٣٨ م ، كما كتب رئيس الوزراء البريطاني الى سفيره فى القسطنطينية فى نفس اليوم الذى انسحبت فيه قوات محمد على من سوريا، ينبهه الى أهمية موافقة السلطان العثمانى على هجرة اليهود الى فلسطين،

وبدأت شخصيات بريطانية تعطى اهتماما لموضوع الاستفادة من اليهود لفرض السيطرة البريطانية على هذه المنطقة فى الوقت المناسب .

الحركة الصهيونية فى بريطانيا

وتلقف المفكرون الصهاينة هذا الاهتمام من جانب• بريطانيا لتهجير اليهود الى فلسطين وتوطينهم فيها، فبدأوا يطرحون فكرة الارتباط ببريطانيا من أجل تحقيق أحلام اليهود وآمالهم، ويعترفون صراحة بأهمية العلاقة التى تربط الفكرة الصهيونية بالمصالح البريطانية. وقدم المفكرون الصهاينة أفكارا مختلفة من أجل حل المشكلة اليهودية وإنقاذ اليهود - خاصة فى أوربا الشرقية - من ذلك الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه، لكن تيودور هرتسل هو المفكر الصهيوني الذى استطاع أن يبلور أحلام اليهود وآمالهم وأهدافهم الأساسية فى وثيقة محددة وواضحة هى كتاب «الدولة اليهودية» الذى نشره عام ١٨٩٦م ، والذى يعتبر دستور الحركة الصهيونية وميثاقها، ووجد اليهود أمامهم ولأول مرة دليل عمل للحركة الصهيونية يحدد لهم معالم الطرق، ويوضح لهم المشكلات، ويضع لهم الحلول، وينقل المسألة اليهودية من قضية محلية الى قضية عالمية. ويتحدث عن كيفية احتلال الأراضى وليس استعادتها كما يردد زعماء اليهود الآن، كما يعترف صراحة بأن الدولة اليهودية المنتظرة سوف تكون رأس حربة لأوربا نظير حماية أوربا لوجودها .

ولن أستطيع بطبيعة الحال متابعة الحركة الصهيونية بالتفصيل منذ نشر الكتاب «الدولة اليهودية» عام ١٨٩٦ م وانعقاد المؤتمر الأول عام ١٨٩٧ م ، لكننى سوف أركز حديثى فى إيجاز شديد بحثا عن الدروس والعبر التى يمكن أن تستخلص من متابعة الحركة الصهيونية على مدى قرن من الزمان .

أولا : أن جزءا من أسباب نجاح الحركة الصهيونية يرجع الى أنها حددت استراتيجيتها ، ووضعت دليل عملها ، واختارت الوسائل الكفيلة بتحقيق أهدافها، سواء بعقد المؤتمرات السياسية بانتظام لمتابعة ما تم والتخطيط لما هو قادم، أو بإنشاء الشركات والبنوك والمستوطنات، أو بتكوين القوات العسكرية المختلفة، أو بإنشاء الجامعات والمعاهد العلمية المتخصصة، حتى أنهم وضعوا أساس الجامعة العبرية فى القدس قبل أن تنتهى الحرب العالمية الأولى، إدراكا منهم لأهمية الجامعة فى بناء الدولة .

ثانيا : أن الحركة الصهيونية قد أحسنت - خاصة فى مراحلها الأولى - اختيار القيادات التى أخلصت للحركة، ووضعت كل إمكاناتها فى خدمتها . وهناك أربع شخصيات بالتحديد كان لها دورها الكبير فى تحقيق أهداف الحركة :

ثيودور هرتسل منشىء الحركة الصهيونية، وحاييم وايزمان الذى قاد الحركة منذ الحرب العالمية الأولى وكان أول رئيس لدولة اسرائيل، ثم بن جوريون صاحب مبدأ أن العرب لايفهمون إلا لغة القوة وأخيرا مناحم بيجين .

ومن يتابع تحركات هرتسل خلال السنوات الثمانى التى عاشها بعد تأليف كتابه «الدولة اليهودية» سوف يرى نموذجا للتحرك الواعى والقيادة المصممة على تحقيق أهدافها .

ثالثا : أن الاستعمار كان له دور أساسى فى تحقيق الأهداف الصهيونية، وأهمها إقامة دولة اسرائيل، فقد تحملت بريطانيا مسئولية إقامة الوطن القومى اليهودى منذ الحرب العالمية الأولى حتى الحرب العالمية الثانية، وتحملت الولايات المتحدة الأمريكية مسئولية إقامة دولة اسرائيل منذ الحرب العالمية الثانية ودعم دولة اسرائيل حتى الآن، ولم يكن بإمكان اسرائيل وحدها دون دعم من الاستعمار العالمى مهما أوتيت من أسباب التنظيم والقوة، لم يكن بإمكانها أن تصنع دولة دون سند من الاستعمار، ولذلك فإن أحد الدروس المستفادة هو أن عدونا الأساسى هو الاستعمار، وأن الصهيونية مهما كانت خطورتها فهى ليست سوى خطر ثانوى .

مصلحة أمريكا أولا

وقد يردد البعض أحيانا أن دولة إسرائيل هى التى تتحكم فى السياسة الأمريكية، أو أن اللوبى الصهيونى فى أمريكا هو الذى يوجه السياسة الأمريكية، وهذا فى رأيى كلام غير دقيق. فاللوبى الصهيونى فى أمريكا له أثر من غير شك، لكن ليس هو الذى يوجه السياسة الأمريكية فما أراه هو أن الولايات المتحدة تفعل ما تفعله من هذا الدعم المتناهى لاسرائيل، وهذه الحماية الكاملة لها، لأن الولايات المتحدة ترى فى ذلك مصلحة دائمة لها باعتبار أن اسرائيل هى أداتها فى المنطقة، وهى المدافعة عن مصالحها، أما بالنسبة لعلاقة البلدان العربية بالولايات المتحدة، فرغم أهميتها الكبيرة فهى تمثل بالنسبة للولايات المتحدة مصالح مؤقتة، قد تستمر سنين عديدة لكنها ليست ثابتة كما أنها غير مأمونة العواقب.

رابعا : أن القوتين الأساسيتين فى

اسرائيل وهما :

العمل والليكود ليسا سوى وجهين لعملة واحدة وأنهما يتفقان فى الخطوط الأساسية، لكنهما يختلفان فى الأساليب وطريقة التعامل مع العرب، وكل القيادات الاسرائيلية التى تولت الحكم منذ عام ١٩٤٨م تعتبر الأرض ملكا لاسرائيل كما تعتبر القدس عاصمة أبدية لها، ويتضح لنا ذلك من اتفاق حزبي الليكود والعمل على النقاط الأساسية بالنسبة للقضايا المؤجلة للمرحلة الأخيرة من التسوية مع العرب، وهى قضايا القدس والمستوطنات واللاجئين والحدود.

خامسا : أن يهود العالم ـ رغم أن نسبتهم الضئيلة لا تذكر بالنسبة للمسلمين الذين يتجاوز عددهم الآن المليار وربع المليار نسمة ـ قد قدموا للقضية الصهيونية أكثر مما قدم المسلمون لقضية فلسطين سواء بالدعم الأدبى أو الدعم المادى ؛ فجالياتهم خاصة فى أوربا وأمريكا تسخر كل امكاناتها من أجل خدمة القضية الصهيونية، كما أن المنظمة الصهيونية العالمية أو قيادات اسرائيل هى التى تحدد سنويا المبالغ أو الملايين التى ينبغى جمعها من يهود العالم، بينما لا يقدم مسلمو العالم لقضية فلسطين إلا كثيرا من التصريحات والقرارات المؤيدة، وقليلا من الدعم المادى الذى لا يمكن فى واقع الأمر من الصمود فى مواجهة تلك الغزوة الصهيونية ، وليس هذا بالأمر الجديد ، فاليهود منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن يجمعون سنويا مبالغ كبيرة يدعمون بها الكيان الصهيوني، وعلى سبيل المثال فبعد انتفاضة البراق التى حدثت عام ١٩٢٩ قدم مسلمو العالم لأهل فلسطين ١٣ ألف جنيه، بينما قدم يهود العالم ليهود فلسطين أكثر من مليون جنيه وقد تابعوا هذا السخاء فى كل المناسبات.

سادسا : أن الدولة الصهيونية لا تقصد فى الحقيقة تحقيق سلام حقيقى مع العرب. لأن إحدى الفلسفات الأساسية للدولة الصهيونية تقوم على العدوان والتوسع والعنف والسيطرة، والسلام الحقيقى لن يحقق لهم التوسع الذى يرغبون فيه، لكنهم أرادوا من السلام تحقيق الاعتراف بوجودهم وشرعيتهم، وجعل السلطة الفلسطينية تحت سلطانهم، والتلويح لها بين وقت وآخر بشيء من الحكم الذاتى، وتأجيل القضايا الكبرى وعلى رأسها القدس بحيث يمكن التباحث حولها لسنوات، سوف تمتد على الأغلب أكثر من الوقت المحدد لها على أن تتم خلال ذلك زيادة الحصار حول السلطة

الفلسطينية، وتحويل القدس الى مدينة صهيونية، بحيث يفرض الأمر الواقع على العرب، ويستسلمون في النهاية لما تطلبه اسرائيل .

سابعا : أن من أهم ما يساعد الدولة الصهيونية على الاستمرار في سياسة العدوان والتوسع والعنف والغطرسة. هذا الضعف العربي والاسلامي المهين، وهذا الاستسلام الذى بلغ أقصى درجاته، وعدم وجود استراتيجية للعرب للمستقبل، ومن يتابع الحروب التي حدثت بين الدولة العربية واسرائيل سوف يجد أن العرب - باستثناء حرب العاشر من رمضان - لم يحسنوا الاستعداد لتلك الحروب، واذا أخذنا حرب ١٩٤٨ كنموذج على أساس أن بعض وثائق تلك الحرب أصبح متاحا للباحثين ، فيكفى أن أقول في إيجاز إنه لم يكن هناك أى استعداد عسكرى جاد لخوض هذه الحرب، وأن عدد القوات اليهودية كان حوالى ثلاثة أضعاف القوات العربية، وان القائد الأعلى للقوات العربية المسلحة الملك عبدالله قد التقى سرا قبل الحرب بأيام مع جولدا مائير ممثلة الوكالة اليهودية وأن رئيس وزراء الأردن سلم الى الانجليز الخطة العسكرية السرية للجيوش العربية والتى يعتقد أنها قد وصلت بدورها الى اليهود، الى غير ذلك من الخيانات التى تكشفها لنا الوثائق الانجليزية والامريكية يوما بعد يوم، ويعنى ذلك كله أن البلاد العربية لم تستطع طوال المائة عام السابقة مواجهة الدولة الصهيونية مواجهة حقيقية .

ولعل ذلك يطرح سؤالا : هل تستطيع البلاد العربية والاسلامية فى ظروفها الراهنة أن تواجه الدولة الصهيونية فى المستقبل القريب .

قناعتي وفهمى لأوضاع أمتنا العربية والاسلامية واستقراء دروس التاريخ يوضح لنا، أن الأمة العربية والاسلامية غير قادرة فى ظروفها الراهنة على مواجهة تلك الغزوة الصهيونية الاستعمارية، وان الحلول الرسمية الحالية سوف تحقق بعض النتائج، لكنها لن تحقق للعرب والمسلمين ما يأملون، ولن تستطيع هذه السياسة انقاذ فلسطين والمسجد الأقصى، وأن الحل الناجح فيما أعتقد هو اعلان الجهاد فى الوقت المناسب، وأن يهيئ الله لهذه الأمة شخصية مثل صلاح الدين الأيوبى، يلم شمل الأمة ، ويجدد ايمانها، ويبعث فيها روح النضال، ويحسن التخطيط والتنظيم وتحديد الأهداف .

أزمة اليسار

وتسجيل تاريخ الحركة الشيوعية في مصر

فى أكثر من ألف صفحة من القطع الكبير (١١٤٨ صفحة) حاول أبو سيف يوسف الاحاطة بتاريخ منظمة طليعة العمال احاطة كاملة من خلال جهد جماعى لعناصر مختارة من المنظمة أنفقت سنوات من العمل الشاق لتجميع وثائق تصلح لتكون مادة أساسية لكتابة تاريخ المنظمة، وقام أبو سيف بدور المحرر للمادة الوثائقية، وصدر العمل في يناير من هذا العام.

وأبو سيف يوسف فى زمن نشاط المنظمة التى يؤرخ لها، كان ممن شاركوا فى العمل التمهيدى الذى سبق اعلانها، وتولى سكرتارية تحرير «الفجر الجديد» (١٩٤٥ - ١٩٤٦) إحدى إصدارات المنظمة، ثم كلفته المنظمة فى عام ١٩٤٨ بالعمل السرى الذى استمر فيه حتى اعتقاله عام ١٩٦٠، وفى ١٩٥٨ أسهم فى عملية انشاء الحزب الشيوعى المصرى بتوحيد المنظمات الرئيسية الشيوعية الثلاثة ممثلا لطليعة العمال التى كانت قد انتخبته فى ١٩٥٦ من خلال مؤتمرها العام مسئولا سياسيا، وأثناء عمله فى تحرير الفجر الجديد، أصدر كتابه «حول الفلسفة الماركسية: رد على العقاد» وكان فى الأصل مجموعة مقالات بالمجلة .



أما المنظمة نفسها فقد تأسست على مرحلتين: الأولى بين عامى ١٩٤١ - ١٩٤٥، وهى فترة استغرقت فى دراسة المجتمع المصرى عن قرب، ومن هنا نفهم دلالة اختيار عام ١٩٤١ للتوثيق، أما المرحلة الثانية فتبدأ بإعلان المنظمة فى سبتمبر ١٩٤٦ باسم «الطليعة الشعبية للتحرر»، وفى ١٩٤٩ اتحدت مع منظمة «حركة تحرير الشعب» (حتش)، وهى مجموعة لم تنضم إلى منظمة حدتو، واتخذت المنظمة الجديدة الموحدة اسم الديمقراطية الشعبية «د.ش» وفى مطلع الخمسينات أخذت اسم «طليعة العمال» وهو اسم كانت قيادات عمال نسيج شبرا الخيمة تستخدمه فى بياناتها، وفى ١٩٥٧ اختار المؤتمر العام للمنظمة اسما جديدا لها هو «حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى» (ع.ف) والمنظمة فى كل الأحوال أحد فصائل النشاط اليسارى فى مصر فى الفترة الوسيطة المتعارف عليها فى الأدبيات اليسارية التى تقع بين عامى ١٩٤٠ - ١٩٥٨.

شهادات الأحياء

وتضم فصول الكتاب وعددها سبعة وثلاثون فصلا كل مايتعلق بنشاط طليعة العمال فى مراحلها المختلفة من خلال ما أمكن جمعه من وثائق أصلية فى القليل جدا، ومن تقارير تتضمن بعض الوثائق الأصلية بما فى ذلك شهادات الأحياء من الأعضاء، وعلى هذا فإن فصول الكتاب تتضمن نشأة المنظمة، والاتجاهات الفكرية التي حكمت خطها السياسي، وتفاصيل النشاط السياسى طوال عشرة أعوام ابتداء من عام ١٩٤٧ إلى ١٩٥٧، كل عام فى فصل قائم بذاته

فيما عدا عاما ١٩٥٠/١٩٥١ اللذين جاءا في فصل واحد، وكذا القضايا السياسية والاقتصادية التي انشغلت بها المنظمة ومواقفها في هذا الخصوص. وقد استغرق هذا الجانب نصف الكتاب تقريبا (١٧ فصلا في ٥٠٠ صفحة) .

أما بقية فصول الكتاب فقد خصصها المحرر للجوانب التنظيمية التي تتعلق بأسس التنظيم الداخلي وهياكله، والخصوصية السرية التي اتصفت بها، والشئون المالية، ورؤية المنظمة لمسألة الوحدة بين المنظمات الشيوعية، والعمل الجماهيري على الصعيد السياسي من نوع الدور في الانتخابات البرلمانية ١٩٤٥ - ١٩٥٧، ولجنة العمال الطلبة ١٩٤٦، وأحداث مارس ١٩٥٤، وعلى الصعيد الاقتصادي، والعمل في صفوف الطلاب، وفي النقابات العمالية والاتحادات المهنية، والعمل في الأقاليم، والعمل في النشاط النسائي الجماهيري، والعمل من أجل السلام (جماعة أنصار السلام)، وأخيرا استعراض المجلات الفكرية التي أصدرتها المنظمة وعددها ثمانية أشهرها مجلة شبرا (١٩٤٢) والفجر الجديد (١٩٤٥ - ١٩٤٦) والضمير (١٩٤٥)، وكذلك دور النشر التي أسستها المنظمة وعددها ستة بين ١٩٤٣ - ١٩٥٧ مع استعراض بعض المواد المنشورة، وكذا الإصدارات السرية بين ١٩٤٧ -١٩٥٧ وأشهرها كفاح الشعب والهدف، ولم يفت المحرر أن يسجل الاسهامات الفكرية لعناصر المنظمة في المجلات العامة .

ولاشك في أن هذا العمل بكل المقاييس جهد ضخم لايقدر عليه إلا أولو العزم والقدرة من الرجال الذين نشأوا مناضلين، وتحملوا الكثير في سبيل ما أعتقدوا أنه الحق والعدل ولم يتنازلوا، وقد وقفوا على يسار الحكم القائم سواء قبل ١٩٥٢ حين كانت طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية وأصحاب الشركات الصناعية والتجارية يحكمون، أو بعد ١٩٥٢ حين كان الضباط الأحرار يمثلون تيارا وسطا في الأول والأخير لا يود الانحراف يمينا أو يسارا، بل ويعادي أصحاب كل من الاتجاهين بقوة ملحوظة. وهكذا نالوا تقدير أعدائهم قبل أصدقائهم، واكتسبوا احترام الطبقة الاجتماعية التي بذلوا الكثير من أجل النهوض بأحوالها .

الحياد والموضوعية

على أن هذا العمل بالشكل الذي

صدر به يثير جملة اشكالات منهجية تتعلق بالفرق بين التأريخ لأى حركة سياسية أى مجرد نشر وثائقها، وبين كتابة تاريخ الحركة أى البحث فى الدوافع وتفسير النتائج، كما يثير اشكالية من يكتب تاريخ المنظمة السياسية؟.. هل لأحد أعضائها الحق فى ذلك بصرف النظر عن قدرته، أم ينبغى أن يكتبه شخص آخر غير متورط فى حركة المنظمة بدرجة أو بأخرى، والإجابة على مثل هذه الأسئلة المنهجية تثير اشكالات أخرى تتعلق بالحياد والموضوعية فى كتابة التاريخ، ومتى يكون الحياد وهما، ومتى يكون أشد وهما وخرافة .. وهل حقيقة الموضوعية أن يكشف المرء عن ذاتيته أم أنها ممكنة بتوفير القدر الأكبر من المعلومات الموثقة والارتفاع فوق الذات قدر الامكان.

إن هذا العمل فى حقيقته يخلط منهجيا بين التوثيق وبين الذكريات وبين الرؤية الخاصة للمحرر فى نهاية الأمر بحيث يصعب على القارىء غير المتخصص أن يميز بين ماهو وثائقى، وبين ماهو مستخرج من قاع الذاكرة، وبين مجموعة الرؤى هنا وهناك.

ويبدو واضحا أن «أبو سيف يوسف» الذى كان عضوا أساسيا فى المنظمة أدرك صعوبة أن يكون مؤرخا وباحثا فى آن واحد دون أن يتهم بالتقصير فى كل من المهتمين حين تأتى إحداهما على حساب الأخرى، ودون أن يحاكم بتهمة جديدة وهى ارتكاب اثم الالتزام دون الموضوعية. فنراه يؤكد فى أول سطر من المقدمة على أن «غاية هذا الكتاب أن يقدم للقارىء مادة لكتابة تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر فهذا هو الهدف النهائى من إعداده» ذلك أن باحثين ومؤرخين للحركة الشيوعية «يبدأون كتاباتهم بالشكوى المريرة من نقص المادة التاريخية فى مصادرها الأصلية». ثم يقول - تحاشيا للنقد - أنه يكتب «للمعرفة والفهم والعبرة والمساعدة على تأصيل مالم يتم تأصيله وخدمة للحقيقة التى هى ضالة العلماء والباحثين»، ثم يضع أمام القارىء الصعوبات التى تحول دون توثيق الحركة الشيوعية فى مصر توثيقا كاملا، وفى باله الذين سوف يتابعونه من عناصر المنظمات الشيوعية الأخرى. ومن هذه الصعوبات طابع السرية الذى لازم النشاط اليسارى فى مصر، وتعرض الوثائق للضياع أو المصادرة، وتوزعها فى بلاد كثيرة متفرقة بالخارج حملها

من غادر مصر طوعا أو كرها، ومن ذلك أيضا تعدد النشاط اليسارى (عشرون منظمة فى مطلع الأربعينات)، والانقسامات الكثيرة التى تجعل من الصعوبة بمكان رسم خريطة تنظيمية لحركة المنظمات.

مفردات الخطاب السياسى

وبعد هذه الصعوبات التى يقدمها المحرر التى لاخلاف بشأنها، ينتقل إلى صعوبة أخرى محل جدل حين يقول أنه من الضرورى على الباحث فى تاريخ الحركة الشيوعية بشكل عام وطليعة العمال بشكل خاص أن يتعرف على «تجليات الفكر الماركسى فى مجتمع بعينه فى جوانبه النظرية والتنظيمية والعملية» قبل أن يكتب عن الحركة، بمعنى هل تكون الماركسية اللينينية فى حقبة ستالين هى الإطار المرجعى، أم الماركسية الماوية بعد ثورة الصين ١٩٤٩ .. وماهى حقيقة مفردات الخطاب السياسى للمنظمات الشيوعية فى ضوء الظروف الموضوعية، وما مدى انعكاس فكر التنظيم ومنهجه فى العمل الجماهيرى. وكلها صعوبات تقيد أبوسيف يوسف مثلما تقيد غيره من الذين يقدمون على مثل هذا العمل، ولايعنى ذكرها من جانبه أنه قد تجاوزها حقيقة .

على كل حال .. ففى طيات هذه الصعوبات يذكر المحرر أن هناك قدرا مهما من الوثائق السرية لطليعة العمال ضاعت خلال عام ١٩٥٩ بما فيها وثائق التأسيس. لكنه - كما يقول - استقى مادتها من خلال ست محاضرات أعدت خصيصا لتثقيف الأعضاء وهى الرسالة السياسية والنقابية والتنظيمية، ومن هنا اضطرار الباحثين فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية لكى يتعرفوا على تاريخ المنظمة الى اللجوء لترتيب لقاءات شخصية مع عناصر الحركة من الأحياء وتسجيلها ونشرها كوثائق، وهذه إشارة غير مباشرة من أبوسيف يوسف إلى رفعت السعيد وغيره ممن اعتمدوا هذا الأسلوب. غير أن أبو سيف ينتقد هذا الأسلوب فى التوثيق رغم اعترافه بأهميته وذلك بحجة أنه لايكفى من ناحية، ولأن غالبية اللقاءات تمت فى أواخر السبعينات والثمانينات مع أعضاء تجاوزوا الستين من العمر، وقد يوحي هذا بأن المحرر غير راض عن تلك الأعمال وفى مقدمتها كتابات رفعت السعيد، ورسالة الدكتوراه للباحثة الأمريكية سيلما بوتمان عن الحركة الشيوعية ١٩٣٨ - ١٩٥٤، وقد شغل نفسه بنقد هذه الأعمال فى

المقدمة حول ماهو تاريخي أي المعلومات والوقائع، وماهو منطقي أي المفاهيم المستخدمة في البحث، وينتهي إلى القول بأن هذه البحوث تورطت في خطر ما أسماه توطيد الخطأ أي تحويل خطأ في كتابة تاريخ ما إلى مسلمة يتداولها الباحثون.

وكنت أود حقيقة لأبوسيف ألا يشغل نفسه بنقد جهود الآخرين خاصة وأنه يقدم كما يقول مادة لكتابة تاريخ الحركة الشيوعية ويترك هذه المهمة لغيره، ذلك أنه وقع فيما حذر من الوقوع فيه في بعض الأحيان، إذ نراه في تأريخه لأجزاء غير قليلة يعتمد على شهادات ولقاءات وتقارير سبق تقديمها من عناصر في المنظمة ونشرت متفرقة، وهناك وثائق باعترافه أعيد ترجمتها من الفرنسية إلى العربية نظرا لضياع الأصل العربي، ولايخفى تأثير ذلك على الفهم الحقيقي للوثيقة في سياق لغتها الأصلية.

والحقيقة أن أبو سيف لم يقدم مادة مستقلة لكتابة تاريخ الحركة، بل قدم مادة مشوبة بالرأي، ويتضح هذا في تقديمه لكل فصل، وفي تبويبه المادة وفق خطة استهدفت فيما يبدو ابراز هوية المنظمة ونشاطها السياسي والتنظيمي والفكري، كما يتضح أيضا من العناوين التي اختارها لأبواب الكتاب وفصوله على حين أن الوثيقة كما هو معروف تصدرها أي منظمة سياسية بناء على حدث سياسي، دون أن تصنفها في جانب معين من النشاط. لكن استخدام الباحثين للوثيقة فيما بعد هو الذي يضفي عليها أهمية سياسية أو اقتصادية أو تنظيمية أو فكرية .. الخ، والمحرر يعترف في التقديم بأنه قام بتصنيف الوقائع وفقا لمضمونها السياسي والاقتصادي والانساني العام، ومن ثم فقد فرض قراءته للوثيقة على غيره، وفي هذا الخصوص وعلى سبيل المثال يذكر أنه في توثيقه لنشاط المنظمة عام ١٩٥٢ (الفصل السادس من الباب الثالث) استند إلى تقرير سياسي من عشر صفحات، وقال أنه يعرضه هنا باختصار بشأن المقاومة الشعبية، وأنه لم يعرض الفقرة الرابعة منه عن الكفاح المسلح لأنه سوف يعرضها في الباب الرابع الذي اختار له عنوان «قضايا ومواقف في السياسة والاقتصاد»، وهذا تصرف في الوثيقة من جانبه غير محمود .

وأكثر من هذا فإن أبوسيف لم ينشر الوثائق كما هي في أصلها، وإنما حرص على أن يضع عناوين

فرعية من عنده بين فقرة وأخرى للفت نظر القارىء مثلما يفعل المحرر فى المجلات الثقافية فى المقالات التى ترد إليه من أصحابها، وعلى سبيل المثال فقط أنه فى حديثه عن نشاط الحركة اليسارية عام ١٩٥٠/١٩٥١ (الفصل الرابع من الباب الثالث) وفيما يتعلق بالموقف السياسى فى ١٩٥١، يضع المحرر عنوانا جانبيا: عجز القيادة الوفدية وشبح الانقلاب القادم، والمقصود طبعا انقلاب يوليو ١٩٥٢، مما يوحى بأن المنظمة كانت تقرأ المستقبل وهذا غير صحيح فضلا عن أن التقرير يخلو من أى شىء فى هذا الاتجاه، وفى نشاط المنظمة عام ١٩٥٣ يكتب المحرر عنوانا: المواجهة تشتد بين نظام يوليو وقوى المعارضة، على حين أن نص التقرير السياسى المنشور يخلو من كلمة «نظام» ويستخدم «العصبة العسكرية والدكتاتورية العسكرية»، والمعروف أن كلمة نظام هذه شاع استخدامها منذ أواخر السبعينات بمعرفة مثقفى الطبقة الاجتماعية القديمة، والكتاب يحفل بنماذج كثيرة من هذا النوع تكشف كثيرا من المفارقات .

بريق الاسم !

وعلى هذا فإن أسلوب المحرر فى عرض وثائق منظمة طليعة العمال ومواقفها من شأنه أن يسيطر على ذهن القارىء ويوجهه إلى مايريده المحرر الذى لايعطى الحرية للقارىء لكى يكشف بنفسه قدرة المنظمة ورجاحة خطها السياسى، وقيمة أعمالها إذا شاء المقارنة. الأمر الذي يجعلنا نقول فى النهاية أن أبو سيف لم يقدم مادة لكتابة تاريخ المنظمة بقدر ما قدم تاريخها. ومن غير المفهوم أن يصدر هذا العمل الضخم باسم طليعة العمال مع أن هذه المنظمة اكتسبت أربعة أسماء منذ سبتمبير ١٩٤٦، وكانت الطليعة هى الاسم الثالث الذى خلع عليها فى مطلع الخمسينات .. هل لأن مرحلة الطليعة كانت أطول من مراحل الأسماء الثلاثة الأخرى؟.. أم لأن نسبة العمال فى المنظمة كانت أكثر؟.. أم لأنه اسم أكثر بريقا من الأسماء الأخرى. كما لم يذكر لنا المؤلف شيئا عن أساس تجمع العناصر التى كانت تحضر للمنظمة بين عامى ١٩٤١ - ١٩٤٦، وهل كانوا عناصر جديدة كلية ومنبتة الصلة عن سائر فصائل اليسار المصرى آنذاك، أم أنهم كانوا فى تنظيم معين أو أكثر من تنظيم وقرروا الخروج وتشكيل منظمة مستقلة .. الخ .

وليس من المفهوم أيضا لماذا تغيرت خطة هذا السفر الضخم من الإعداد الوثائقى الى حد ما بمعرفة أبوسيف يوسف لكل الأبواب فيما عدا البابين الخامس والسادس اللذين كتبهما نبيل صبحى .. فالباب الخامس يختص بجوانب التنظيم والنظرية والتطبيق وهو نموذج للتأليف وليس التوثيق اعتمد على مختلف المصادر. والباب السادس خاص بمسألة الوحدة بين المنظمات الشيوعية مع أن أبو سيف نفسه هو الذى كان يمثل طليعة العمال فى مباحثات الوحدة كما سبقت الإشارة. أما فى الباب السابع الخاص بالعمل الجماهيرى فيكتب نسيم يوسف الجزء الخاص بلجنة العمال والطلبة ١٩٤٦، وكذا جزء اتحاد عام الطلاب المصريين ١٩٥٣، ويكتب نبيل زكى باقى العمل الطلابى من واقع تقرير له سبق إعداده فى مناسبة معينة .

ورغم أن الأخطاء المطبعية فى أى كتاب منشور أمر وارد ويحدث فى كل المطبوعات وبالتالى لايصح التوقف عندها واعتبارها من المآخذ، إلا أن هناك خطأ مطبعيا لايجب إغفاله لأهميته وهو يتعلق «بالرسالة السياسية الجديدة للمنظمة» (الفصل الثالث من الباب الثانى) إذ يذكر الكتاب أنها من مطبوعات طليعة العمال فى يناير ١٩٥٢، على حين أن مضمونها يتعلق بالموقف السياسى بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ لأنها تستخدم عبارة «الحركة الثورية المصرية – وأن الطبقة العاملة هى القوة الأساسية الحالية للثورة فى مصر .. وأن ذهاب الملك فاروق ومجىء محمد نجيب لايحدد مجىء مرحلة جديدة» .. ولابد أن يكون العام ١٩٥٣ وليس ١٩٥٢ إذ لا يعقل أن تشير الرسالة إلى ذهاب فاروق فى يناير ١٩٥٢؟.

★★★

وأخيرا .. لو أن المحرر ابتعد عن أن يكون مؤلفا، واكتفى بنشر ما تم العثور عليه من وثائق المنظمة (بيانات وتقارير ومنشورات .. الخ) كما هى مرتبة وفق تاريخ صدورها مع تحقيق فى الهامش لبعض ما يرى أنه بحاجة إلى توضيح وشرح لقدم خدمة جليلة للباحثين. لكنه آثر أن يحيط بقارىء تاريخ منظمته من كل جانب ويحدد مساره ولايترك له فرصة الاستمتاع بتاريخ المنظمة حين يقرأ وثائقها فى سياق حركة التاريخ، وقد أثبت المحرر بهذا الأسلوب أنه من منظمة عاشت وراء ستار حديدى واشتهرت بين سائر المنظمات بالغموض والتكتم الشديدين! .

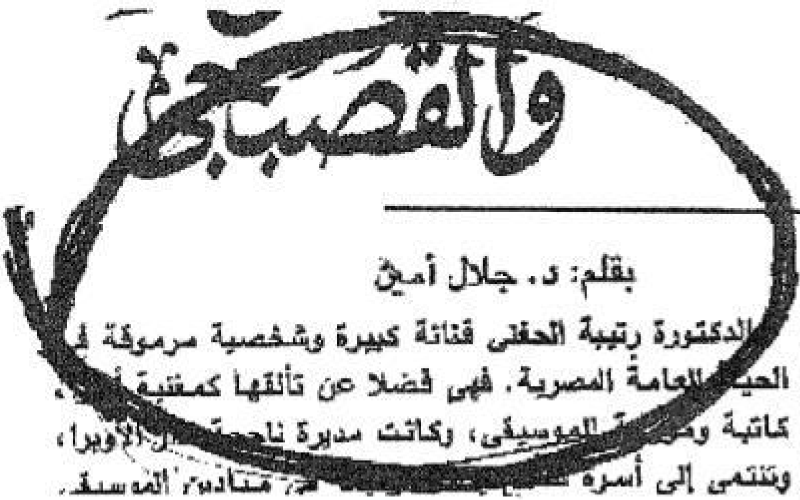
نقــــد الكبـــار

لقد أثار الاخ الدكتور جلال أمين قضية نقاشية مهمة جدا على صفحات مجلة الهلال العريقة ، العدد (٣) الصادر فى شهر مارس ٢٠٠٠ ضمن مقالته «بين أم كلثوم والقصبجى» ، والتى تمتعت بقراءتها كثيرا، وأثارتنى كى أكتب مقالتى هذه التى تتضمن بعض تعليقاتى التى أزعم انها مهمة وربما تستكمل الصورة التى رسمها صاحبنا العزيز، خصوصا وأنه كتب بعض «الافكار» المهمة التى لابد أن يعتنى بها تفكيرنا العربى المعاصر بعد أن إختتم العرب صفحاتهم التاريخية فى القرن العشرين ، ودخلوا سلسلة جديدة من تكوين تاريخى أعتقد أنه سيختلف اختلافا كبيرا عما عاشته الأجيال الثلاثة الماضية فى القرن العشرين .

أين نحن من نقد الكبار ؟

ثمة سلوك توارثناه نحن العرب عن آبائنا وأجدادنا الذين مضوا منذ القدم لم ينفكوا عنه برغم محاولات تربوية وعلمية ومعرفية وفلسفية جادة برزت فى القرن العشرين .. ذلك هو الإحجام عن النقد

بقلم : د. سيّار الجميل


والتعصب

بقلم: د. جلال أمين

الدكتورة رتيبة الحفنى فنانة كبيرة وشخصية مرموقة فى الحيـ[illegible] العامة المصرية. فهى فضلا عن تألقها كمغنية [illegible] كاتبة و[illegible] الموسيقى، وكانت مديرة ناجحة [illegible] الأوبرا، وتنتمى إلى أسرة [illegible] الموسيقى،

والتـوقف عن ممارسـة الحـوار وفـقـدان احـتـرام الرأى الآخـر ، خـصـوصـا عندمـا تصل درجة الاعجاب والانبهار باشخاص معينين الى مرتبة التقديس ، أو رسم هالة عريضة من المفاخرات والتمجيد والثناء .. بعيدا عن أية نزعة نقدية فى اعطاء كل ذى حق حقه!. ويعزو د . جـلال أمين ذلك إلى نزعة الخوف من النقد وخـصـوصـا نقد الكبار، متخذا من أم كلثوم فى حياتها أو حـتى بعـد قـرابة ربع قـرن على رحـيلهـا نموذجا ليس لما كتبته د . رتيبة الحـفنى عن تلك الشـخصية الاسطورية فى حياتنا الفنيـة العـربيـة ، بل مـا برز بشكل واضح فى المسلسل التليفزيونى عنها والذى نال شـهـرة واسـعـة أكـثـر من أى مـسلسل تليـفـزيونى آخـر .. ليس لأى سـبب الا بسـبب مكانة أم كلثوم وشـهـرتهـا فى المجتمع العربى المعاصر .

ويشير د . جلال أمين نقطة فى غاية الأهمـيـة - هنا - هى ظاهرة الخـوف من النقد . ويقـصـد به - كـمـا هـو قـصـدى أيضـا- : ظاهرة الخـوف من نقد الكبـار فى حيـاتنا الفنية والأدبية عندمـا يقول : «هو نفسـه الخـوف الذى يسـيطر على حيـاتنا الفنية والأدبية كلهـا من نقد أى فنان أو كاتب شـهير ، وهو نفسه الخوف الذى يسيطر على حياتنا السياسية » (ص ٥٥ - ٥٦) . نعم إنه الخوف الذى يتلبس

أغلب الكتاب والمفكرين العرب من نقد (الكبار) ، علما بأن النقد لا علاقة له بما نفتتن به أو نعشقه ، فليس هناك من لم يفتتن بصوت أم كلثوم الا الندرة من الناس، وليس هناك من لم يعترف بأعمال العمالقة العرب من المبدعين في القرن العشرين .

لماذا الخوف ؟

لم يكن العرب فى تاريخ نهضتهم الحديثة ملأى بالخوف .. أو أنهم كانوا أصحاب سايكلوجية للخوف، والتى أفرزت فى بعض مجتمعاتنا العربية المعاصرة حالات من الرعب الا فى الخمسين سنة الأخيرة أو فى حياتنا خلال النصف الثانى من القرن العشرين وعند جيلين عربيين ، وبالتحديد أثر قيام الانظمة السياسية الشمولية ، اذ تبلورت سايكلوجية الخوف السياسى أولا ، ثم أثرت تأثيرا مباشرا وبالغا فى التفكير العربى المعاصر .. مقارنة بما كان عليه الحال لدى جيلين عربيين سابقين كالذى كان عليه جيل الاستنارة الفكرية المخضرم بين قرنين التاسع عشر والعشرين.. وجيل الاستقلالية الوطنية الذى عاش بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ! وعليه ، فقد قامت معارك فكرية ونقدية وفي مصر بالذات أغنت جميعها التفكير العربى، وأثرت مضامينها المعرفة العربية، ورفدت نتائجها حياتنا النهوضية العربية الحديثة.

لقد نشرت نقدات صارخة وملاحظات رصينة وتحديات قوية عن معظم الاسماء القوية والكبيرة ، أمثال : طه حسين وأحمد أمين وعلى عبد الرازق واسماعيل مظهر ومصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد وغيرهم .. كما كانت أم كلثوم نفسها قد انتقدت عدة مرات وقت ذاك .. ولم يكن هناك أى خوف من اسمها ، علما بأن اسمها كان كبيرا وكانت بشدوها وغنائها قد وصلت ذروة العطاء عند الاربعينيات .. وهى مرحلة متميزة بالشجاعة الفكرية والسياسية والنقدية ، اذ كان قلم طه حسين يلهب التفكير ، وكان صوت العقاد يدوى فى قاعة البرلمان، وكانت آراء عبد الرازق تصطدم بالازهر ، وكان الرافعى يدافع بشراسة عن الموروث .. وهكذا كان شوقى وحافظ ومطران ومحمد فريد ومحمد حسين هيكل وزكى مبارك والمازنى والزيات .. وقافلة من المثقفين اللامعين ، الذين يتهمهم الجيل الحالى بتهمة رخيصة شائعة على الافواه منذ خمسين سنة .. ذلك انهم من المنبهرين بالحضارة أو الثقافة الاوربية ، دون التعمق قليلا فى قوة ما انتجوه وفعالية ما أبدعوا فيه .

لقد تغيرت الأدوات والوسائل بتغير أساليب التفكير .. ذلك لأن ممارسة النقد

مهما كان كاسحا لا تقلل من شأن العمالقة في شيء ، بل تزيدهم مكانة وقوة.. وكم كان الفكر المصري المعاصر بحاجة الى تطوير ما كانت عليه تلك الأدوات والوسائل من أجل الارتفاع بالاساليب في التفكير على امتداد الخمسين سنة الأخيرة من القرن العشرين؟، وكم كان حريا بالنقد أن يزدهر دون أي روادع سياسية أو أيديولوجية من أجل فسح المجال لولادة مبدعين آخرين وكم كانت الحاجة ماسة ألا يكتفي العرب بأسماء قليلة يقدسونها ، بل وينصبونها عليهم بمثابة زعماء وأوصياء على هذا الحقل أو ذاك المجال .

لا قدسية في الفكر والفن والسياسة !

لقد صنعت الحياة الفكرية والنقدية العربي في الخمسين سنة الأولى من القرن العشرين عددا كبيرا من المتميزين في حقول معرفية وفكرية وأدبية وفنية عديدة ، نظرا لتوافر التربة الخصبة التي نبتوا فيها ، وأطلقوا أنفسهم في خضمها.. دون أن تكون هناك أية قدسية لأحدهم، ولكن تبدلت تلك «الحياة» بحياة من نوع آخر ، إذ وجد الفكر والتفكير معا والفن والمعرفة معا أمام محددات سلطوية وخطوط أيديولوجية وموانع أمنية .. لكي تنقاد الملايين الى الأصوات الواحدة والزعماء الاحاديين والكتّاب الاحاديين .. وأصبح لكل مجال أو حقل عملاق مصنوع، ورمز معلوم ، واسم يطير لوحده على الافواه ! وكان للدعاية الحكومية واعلاميات الدولة في كل من صحافتها واذاعاتها ادوارها في بلورة نمطين من التفكير : سايكلوجية الخوف أولا وصناعة الرموز ثانيا .. وبرغم انني لا أقلل ابدا من شأن الرموز ، الا أن تلك الرموز من الخطأ الكبير ان تصبح مقدسة تحيطها هالة تعظيمية لا يمسسها النقد ولا يجرؤ أحد على الحوار النقدي معها ! وعليه ، فإن الحياة العربية كان لابد لها ان تزدهر أكثر بكثير مما آلت اليه لولا العقم والرتابة من جانب أو الدعاية وصناعة الابطال والقديسين من جانب آخر!.

أزمة المثقفين !

هذا عنوان كتاب نشره الاستاذ محمد حسنين هيكل عام ١٩٦١ ، وقد غدا هذا الرجل أحد الاقطاب أو الرموز من الصحفيين المصريين الكبار الذي يصفه البعض بالاسطورة .. وقد طبع هذا الكتاب طبعة يتيمة واحدة ببيروت وهو يعالج أزمة المثقفين المصريين التي ظهرت في الخمسينيات من القرن العشرين .. ولقد كتب غالي شكري في كتابه : النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث يصف كتاب «أزمة المثقفين» قائلا بأنه :

«الوثيقة الثانية - بعد كتاب فلسفة الثورة للرئيس الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٥٣ فى طبعته الأولى عام ١٩٥٣ وطبعته الاخرى عام ١٩٥٧ - كانت مقالات هيكل التى جمعها فى كتاب عنوانه «أزمة المثقفين» ، وهو يبرر موقفا يتصور انه (الوسط) بين اليمين واليسار، فهو يمهد ويؤيد الاجراءات الاقتصادية الجديدة، ولكنه ينظر ويؤصل لفكرة التنظيم السياسى الواحد ، الجامع المانع . وهو تأصيل يعتمد على الوقائع الجزئية ، ولا يعبأ كثيرا بالفكر المبدئى لمسألة الديمقراطية .. » (ص ٨٠) . ومن أبرز الأمثلة التى يضربها غالى شكرى ان المفكر المعروف خالد محمد خالد أنهى علاقته بالاهرام عام ١٩٥٧ لأن محمد حسنين هيكل نفسه لم ينشر رد خالد محمد خالد على مقالاته فى الأهرام !

لقد تبلورت الأزمة ليس فى مصر وحدها ، بل فى أغلب البلدان العربية التى انتفت فيها الديمقراطية .. فدخل المثقفون العرب وكان المصريون فى مقدمتهم أزمة صعبة جدا ، اذ انقطع النقد وتقوقع الجدل وسادت الاحادية .. علما بأن كلا من عقدى الخمسينيات والستينيات قد شهدا ولادة جملة رائعة من المثقفين والمبدعين سواء كانوا من اليمين أو من اليسار أو الوسط .. وتكرست ظاهرة الاحادية التى قتلت المواهب او غمرتها او همشتها ، فضلا عن ولادة سايكلوجية الخوف وتبلورها .. أنها الأزمة التى خلقها المأزق السياسى العربى الذى اعترف بأزمة المثقفين ، ولكنه تناسى العلل الحقيقية التى قادت اليها ! فالمثقف هو الذى ينبغى ان يقود السياسى ، لا أن يهيمن السياسى على أنفاس المثقف!.

من الذي يحرك الناس ويخلق أذواقهم ؟!

اننى أشارك الاخ د . جلال أمين ما قاله فى نقد كلمات الثناء والمديح التى كانت ولم تزل تزجى لهذا أو تمنح لذاك دون أى كلمة نقد تقال فى حقهما ! واذا كان الرجل قد ذكر أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ونجيب محفوظ ويوسف شاهين وفاتن حمامة وصولا إلى أحمد زويل.. فليس معنى ذلك ان هؤلاء كانوا معصومين عن الخطأ . وان الهالة التى يتمتعوا بها عن جدارة ومازالوا ضمن دائرتها هى من حقهم ، ولكن الانسان مهما كان مبدعا وعملاقا فهو فى حاجة لكلمة حق تقال فيه ، وهو بحاجة الى اشعاره بأن الزمن كفيل ان يبقيه حيا على امتداد التاريخ، أو يغمره أيضا .. ولكن من حق الآخرين عليه أن يجعلهم يتنفسوا قليلا فى جو خال من الخوف أولا (وبالاخص : خوف الكبار) .. فضلا عن

أرضية خصبة يتحرك عليها الجميع بكل عدالة ، وهذا ما يسمى بـ «تكافؤ الفرص» في كل ميادين الحياة .

ان منح الناس شهادة حسن سلوك في الذوق والاختيار لما يسمونه بـ «الافضل» عملية ذو غمائية بحتة في محيطنا العربي بشكل خاص ، ذلك ان التجربة والتجربة الاعلامية العربية بالذات قد اثبتت بما لا يقبل مجالا للشك ان للناس مذاهب في ما تعشق وتهوى، ولكنها تنقاد اعلاميا ودعائيا وخطابيا لتأليه من لا يجوز تأليهه .. ولا أعتقد انها ظاهرة «فرعونية» - كما وصفها الاخ جلال أمين - (ص٥٧) ، اذ انها موجودة في أمكنة عدة سواء في محيطنا العربي ام غيره .. وصحيح ان تسليط الاضواء ومنح البعض فرصا لم تمنح لغيرهم ولكن ضمن آليات وأسباب منها ما هو معروف ومنها ما هو خاف، وخصوصا في العالم الغربي الذي يزدحم بالمبدعين الذين يتنافسون جميعا من أجل الاحسن وفي عالم لا يغيب عنه النقد والحوار والجدل والديمقراطية! واذا كان الغرب متفوقا بذلك في القرن العشرين، فهو قابل لأن يستوعب الآلاف المؤلفة من المبدعين في شتى المجالات .

نموذج من عشرات النماذج :

برغم بروز ظاهرة عبد الحليم حافظ في غناء الستينيات .. مع شغفي كبقية اقراني العرب بأغنيات الراحل الجميلة ، الا أن صوته اعلاميا وإذاعيا .. دعائيا وصحافيا أسكت عن عمد وعن سبق اصرار وترصد أصوات مصرية رائعة نحس بقيمتها اليوم نحن الثلة القليلة من المثقفين العرب . نعم!. لقد ضاعت أصوات رائعة كان يصدح بها : كارم محمود وعبد الغني السيد وعبد العزيز محمود ومحمد رشدي ومحمد قنديل ومحرم فؤاد وغيرهم من قافلة المبدعين الذين لم تعرفهم اليوم الاجيال الجديدة مع الاسف ... لماذا؟.

ليس لأن هؤلاء ما كانوا بمبدعين؟ وليس لأن هؤلاء ما كانوا بوطنيين ؟ وليس لأن صوت عبد الحليم أفضل منهم ؟ وليس لأن عبد الحليم غنى لمصر وثورتها وهو لم يغنوا لمصر وثورتها ؟؟ بل لأن دعاية محددة في الصحافة والراديو والسينما قد نجحت في رسم هالة واسعة حول اسمه ، ثم تبعتها آيات تبجيل وتعظيم.. وما ينطبق على الفن والغناء، ينطبق على كل مجالات الابداع ليس في مصر وحدها .. بل على امتداد رقعتنا العربية! وقد يعجب القارىء الكريم انني اليوم اصغي مليا لاغنيات الفنانين الذي غبن حقهم .. اسمعهم أوقات الليل أو في اطراف النهار.

صناعة المبدعين :

ان صناعة المبدعين عملية ليست صعبة ابدا اذا ما توفرت الارضية التقنية

والفكرية الخصبة فى تقويم الاداء واعطاء كل ذى حق حقه من دون خوف من أولئك الكبار فى حياتهم ، ولكن الانكى من ذلك ان تبقى سايكلوجية الخوف تفعل فعلها حتى بعد رحيلهم .. وهذه الظاهرة التى عالجها الاخ جلال أمين لابد أن تثرى بالمزيد من الآراء والافكار بعيدا عن تفضيل عهد سياسى على آخر ، لأن المؤرخ فى المستقبل سوف يكون له شأن آخر غير هذا المألوف الذى عشناه على امتداد النصف الثانى من القرن العشرين.

ان الصورة الواضحة ستبرز أمامه لتقول بأن مصر كانت من أعرق البلدان الشرقية فى ولادة نهضتها الحديثة وفى وسائل الاعلام والصحافة فى مقدمتها على امتداد قرنين من الزمن .. وعندما سيقرأ مؤرخنا فى المستقبل تاريخ المبدعين النهضويين المصريين على امتداد القرن العشرين، سيقف مذهلا عما كانت عليه لدى نخبها المبدعة فى نصفه الأول، وما آلت إليه لدى بعض أسمائها فى نصفه الثانى ! وخصوصا بعد سيطرة الدولة على كل المرافق الاعلامية الحيوية ! فالمشكلة ليست فى أذواق الجمهور ، أو هكذا يريد الناس ، ولكن المشكلة فى من يسيطر على تحريك العواطف واحياء أو اماتة الاذواق لدى ابناء المجتمع، وهو عمل سياسى بالدرجة الاولى تتحمل مسئوليته الدولة على امتداد جيل كامل، وبطبيعة الحال عندما يأتى جيل جديد يكون الخواء قد حصل لا محالة ! .

القصبجى مثلا متألقا !

لولا مسلسل أم كلثوم الذى بث مؤخرا على القنوات الفضائية العربية ، ونال أيضا من الاعلام ما لم ينله أى مسلسل تليفزيونى آخر على الاطلاق !! لما كان الناس فى الاعم الاغلب يعارفين من هو محمد القصبجى ! ولماذا غاب اسمه طويلا على مدى خمسين سنة أو أكثر سواء فى حياته أو من بعد مماته .. وبرز اسمه فجأة من خلال هذا المسلسل التلفزيونى الذى لم يكن بطله ، بل كانت كوكب الشرق أم كلثوم بطلته ؟ ببساطة متناهية : كان القصبجى كفنان متميز قد غمط حقه وتاريخه وابداعه طويلا على امتداد خمسين سنة .. وأن فرصته التى وجد موهبته وابداعاته فيها قد اختفت عن المسرح الثقافى منذ اختفى ذلك العصر الليبرالى الخصب الذى ازدحمت فيه الطاقات والممارسات والمنتجات الرائعة ، ليس عند اسم معين أو اسماء محددة ، بل عند نخب عدة كانت لها خصالها المتميزة فى كل مجالات حياة النهضة والابداع .

إن قريحة القصبجى لم تنضب ابدا ، كما يريد البعض من المحللين أن يقول ،

ولكن الحياة التى كان القصبجي يعايشها قد نضبت ! لقد وجد الرجل نفسه فجأة على أرضية هى غير تلك التى كان يتحرك فوقها فى الخمسين سنة الاولى من القرن العشرين ! واذا قال قائل : إن غيره بقى مستمرا فى عطائه وابداعه أمثال : رياض السنباطى ومحمد عبد الوهاب وفريد الاطرش وغيرهم ، فاننا نقول : إن من يتوغل فى أعماق القصبجي ، سيجده مختلفا جدا عن أقرانه في التفكير الموسيقى، اذ لا يمكن للرجل البقاء ضمن حيز واحد فقط من مقامات السلم الموسيقى الشرقى على غرار ما فعله السنباطى الذى كان ينوع ألحانه ضمن حيز مقام واحد من ذلك السلم .. فضلا عن أن القصبجى لم يقتبس أى لوازم موسيقية عن غيره من المؤلفين الموسيقيين العالميين كما فعل الموسيقار عبد الوهاب والموسيقار فريد .. لم يفعل القصبجي ذلك ليسخرها عربيا ، فتذيع وتنتشر اعلامية وابداعيا .

ذروة في الأعماق :

كان القصبجى وأعماله شاهدة على مقدرته العليا على صياغة لوازم موسيقية أصيلة، وقوية، وصعبة .. فضلا عن ابداعه فى بناء جملة ألحان جديدة ومتماسكة مطورا فى الالحان العربية ومجددا فى الموسيقى الشرقية . واعتقد أنه الوحيد الذى طور الموسيقى العربية بأصالة واقتدار .. وكان من قبله الموسيقار سيد درويش الذى سبقه بجيل ! فالقصبجى فى موسيقاه من الصعوبة بمكان أن يجد الأصوات التى يمكنها أن تصدح بها ، واذا كان الرجل قد وصل ذروته مع أم كلثوم فى رائعة «رق الحبيب» فقد كان ذروته ايضا مع اسمهان فى رائعة «يا طيور» .. ولقد أبدعت كل منهما فى ترجمة التفكير الموسيقى الخصب للقصبجى .. ولما رحلت اسمهان ذات الصوت الاوبرالى الواسع الى السماء قبل أن يبدأ النصف الثانى من القرن العشرين صفحاته ، فإن القصبجى رحل بموهبته الخصبة فى أعماقه والتى لم تستطع أم كلثوم أن تنتشلها كى تترجمها بفعل تأقلمها مع الصفحات الجديدة التى سببت محنة نفسية وإبداعية حقيقية للقصبجى .. فماذا حدث؟.

لقد بقى جسمه شاخصا أمامنا مع كل معاناته ، ولكنه أبقى نفسه عن عمد وسبق اصرار عظيما ، ولم يهمه أبدا أن يجلس عازفا على عوده فى فرقة الست على امتداد السنوات المتبقية من حياته ! ولا ندرى كيف كان يفكر موسيقيا فى تلك المرحلة الأخيرة من حياته ، وهو يعزف بهدوء على أوتار عوده تلك الألحان الشجية التى كان يضعها زميله رياض

السنباطى أو تلك التى وضعها عبدالوهاب ؟؟ نعم ، كان يتقبلها ليس على مضض بل على استحياء كونه احتفظ لنفسه بموهبته وقريحته فى أعماقه وربما كان الرجل يبكى فى أعماقه ليس على ما يسمع من شدو الست الكبيرة أمامه ، بل على ما حدث من انقلاب فاضح فى مفاصل الحياة كاملة!، ولكن كان من السهل عليه أن يتقبل الجمل اللحنية والموسيقية التى كان ينسجها غير السنباطى ؟ وإذا كان يتقبل كلمات شوقى وبيرم ورامى وأخيرهم ناجى فى القصائد الرائعة التى شدت الست بها فهل كان يتقبل منها كلمات بقية أغانيها بكل تجرد؟.

الافتراق عند طريقين !

إننى اعتقد بأن الرجل كان يكظم آلامه فى أعماقه ليخزنها إلى جانب ما كان يخزنه من الاحزن ! وأقول : حسنا جاء رحيله قبل رحيل الست أم كلثوم بسنوات عدة ، لأنه لن يسمع أغنياتها الأخيرة التى غنتها بعد الاطلال !! كما واعتقد أن الرجل كان يتمنى فى محنته السايكلوچية لو توقفت الست واحتفظت بموهبتها فى أعماقها أيضا منذ سنوات على رحيله ؟ أو بالاحرى ، أنها رحلت فى أعماقها بعد رحيله هو نفسه فى أعماقه .. ولكن ليس فى اليد حيلة ، مادام الأمر يتوقف على رزقه الذى يقوم بسد متطلبات حياته وأسرته !

إن الفرق المدهش بين هذا الرجل وهذه المرأة أنهما مختلفان فى تفكيرهما حقا ! لقد كان يريد لنفسه من خلال موهبته أن تسمو متجلية فى الاعالى فيسبح من يسمع موسيقاه فى عالم ملكوتى صعب غير موجود .. فى حين أرادت الست لنفسها أن تنزل من عليائها التى كانت عليها فى الاربعينيات لتسيطر على عالم سهل موجود فعلا كالذى توفر عندها ببساطة وبين يديها فى الخمسينيات والستينيات ! لقد أراد القصبجى أن يبقى مجده معلقا فى السماء .. فى حين أن أم كلثوم أرادت أن تبقى مجدها على الأرض فتسيطر على الاخضر واليابس ! ولا اعتقد بأن القصبجى الموسيقار قد سبق عصره - كما ذكر ذلك الأخ جلال أمين نقلا عن فكتور سحاب نقلا عن توصيف الست للرجل ، بل اعتقد أن القصبجى كان ضحية تاريخ جديد فالعصر هو الذى سبقه ولم يكن هو الذى سبق عصره .. ذلك لأن ما استجد لاحقا فى الخمسين سنة الثانية من القرن العشرين كان متدنيا مقارنة بما كان عليه الإبداع الموسيقى المصرى فى النصف الأول منه !

أجمل ما فى التاريخ !

إن أجمل ما فى التاريخ أن يكشف لنا

عن حقائق جديدة ، بل ويزيل الغشاوة عن أدوار العمالقة الذين غيبهم العصر المنكود باعلامياته الكاذبة وآلياته التعيسة باسم التقدمية والتطلعات الثورية .. وأعود لأقول : بأنها ليست ظاهرة فرعونية يا عزيزي دكتور جلال.. فلقد كان جيل الاستنارة الحقيقية: مصطفى كامل وقاسم أمين وأحمد لطفي السيد وأحمد شوقي وولي الدين يكن وسيد درويش وسعد زغلول وجرجي زيدان ومحمد عبده وطلعت حرب.. وصولا الى طه حسين وأحمد أمين ومصطفى صادق الرافعي ومحمد فريد بك ومصطفى عبد الرازق واسماعيل مظهر وسلامه موسى وعباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات ومحمد القصبجي واسمهان وعبد الرازق السنهوري ومحمد شفيق غربال وزكي مبارك ومحمد علي مشرفه.. وقافلة نخبوية من غيرهم بمعيتهم .. يأخذون ويعطون ، ينقدون وينتقدون ، يسمعون ويتكلمون ، يكتبون ويخطبون ، يمتحنون ويمتحنون ، ويهاجمون ويدافعون ، يتعالون ويتواضعون ، يفكرون ويبدعون ... صحيح غدا للادب العربي عميده لكنه لم يكن فرعونا .. وصحيح كان للشعر العربي أميره ، لكنه لم يكن فرعونا ، وصحيح كان للاجيال استاذها ، لكنه لم يكن فرعونا .. وهكذا كان لمنشيء الهلال وشاعر الشباب وشاعر القطرين وعميد المسرح وصاحب العبقريات ... وغيرهم من الذين لم تصنعهم اعلاميات دولة أولا فيغدون فراعنة مجتمع ثانيا!.

التغيير

إن ظاهرة الخوف من نقد الكبار ليست فرعونية تاريخية - كما قال الاخ جلال أمين - بقدر ما هي سياسة مرحلية . صحيح أن وجودها آني على مستوى جيل ، وأن تأثيرها سوف يستمر على مدى جيل أو جيلين .. ولكن أي محاولات نقدية ومكاشفات صريحة على أعمال الكبار ، فثمة وعي جديد سيولد، وثمة تفكير جديد سيعمل ، وثمة فهم جديد سيرسخ في الحياة ليس المصرية حسب ، بل العربية كلها .. ولكن ضمن اشتراطات أساسية كالتي نادى بها وعمل بمضامينها رجالات الاستنارة من النهضويين العرب : احياء للتنوعات ، وممارسة للحريات ، واشاعة الشجاعة الادبية ، والحفاظ على الامانة العلمية والابداعية ، وخلق المعارك النظيفة بعيدا عن المهاترات والمحاكمات الشخصية ، واحترام للرأي الآخر والدفاع عنه.. والتخلص من التمجيدات والمفاخرات والتقريضات باحلال بدائل النقد وخصال الاختلافات والتعددية بمنتهى الشفافية .. بعيدا عن التخوين كما كان يجري في الأمس القريب ، أو التكفير كما هو جاري اليوم .. عند ذاك سيكون الخلاص من سايكلوجية الخوف التي لازمت الفكر العربي والثقافة العربية طوال عقود النصف الثاني من القرن العشرين .

الفسطاط

مدينة الفواخير والخزف

هل يستوعب مركز الفنون فنانى الخزف ؟ !

بقلم : نجوى صالح

تكتسب مدينة الفسطاط عراقة مميزة، لأنها المدينة التى أسسها عمرو بن العاص سنة ٦٤٠م (٤١ هـ) حيث بناها فى ذلك الفضاء المتسع الذى كان قائما بين النيل وتلال المقطم، بالقرب من حصن بابليون، وقد بنى فيها أول مسجد فى مصر، يعرف باسم «مسجد عمرو بن العاص» (فى منطقة مصر القديمة حاليا) وكانت منازل الفسطاط فى أول الأمر من طابق واحد، ثم ازداد ارتفاعها وتعددت طوابقها، وكان يوجد فى معظم البيوت آبار وصهاريج للماء العذب، وبركة أو نافورة، وقد بلغت مستوى عاليا من العمران، وعندما بنى الفاطميون القاهرة، فى نهاية القرن العاشر الميلادى، تدهور حال الفسطاط، وأخذ سلطانها في الانتقال إلى القاهرة وماحولها، ثم لم يلبث أن أمر الوزير «شكور» باحراقها سنة ١١٦٩م خوفا من أن تقع في يد الصليبيين، الذين كانوا يحاولون غزو مصر فى ذلك الوقت .



الأوانى الفخارية أمام اتيليه رمضان وعصام تستعد لرحلة وضع الجليز.. الفرن فى المبنى المقابل

هذه المدينة العريقة التى تضم أعظم المناطق الأثرية والدينية والتى تضم بين جنباتها: جامع عمرو بن العاص، المتحف القبطى، كنيسة أبو سرجة، والست بربارة، وكنيسة قصرية الريحان، والمعبد اليهودى حتى سميت بحق «مجمع الأديان» .

واستثمارا لهذا الموقع الأثرى الفريد فى هذه المدينة العريضة جاءت فكرة إنشاء مدينة للفنون بها، لتصبح من المجمعات الإشعاعية الجديدة للفن فى مصر، فقد استوطنها منذ الستينيات شيخ الخزافين «سعيد الصدر» وأقام بها «أتيليه صغير» وفرن لحرق الخزف، وذلك لتدريب الصبية الفقراء فى هذه المنطقة على فن الخزف، حتى تتواصل الأجيال، للحفاظ على هذا الفن النادر من الاندثار .

وقد انضم بعض طلبة الفنون الجميلة لهذا الإتيليه الصغير، وأصبحوا فنانين كبارا فى هذا المجال، منهم نبيل درويش، محمد مندور، محيى الدين حسين، وغيرهم كثير ممن أثروا فن الخزف فى مصر. وفى أواخر التسعينيات كانت فكرة إقامة مشروع لاعادة الحياة الفنية لهذه المنطقة، وذلك باقامة «مجمع للفنون» ليكون فى الوقت نفسه أحد المراكز الحرفية التى تتبناها وزارة الثقافة، مثل دار النسجيات بحلوان ومركز الفن والحياة بيت السنارى .

مركز إشعاع فنى

وكان الهدف من إنشاء هذا المركز أن يطور هذا المكان العتيق بالفسطاط، لانشاء مركز فنى للخزف أساسا، ويؤدى خدمات ثقافية وحرفية للخزافين بالمنطقة بجانب أماكن عرض متحفى وفنى، وفى الوقت نفسه إقامة منافذ لبيع المنتجات الخزفية التى يتم انتاجها .

وهناك مرحلة ثانية لتطوير هذا المركز وعمل توسعة وامتدادات له، حتى يستوعب «مراسم» للفنانين التشكيليين، والنحاتين، بالاضافة إلى متحف الخزاف «سعيد الصدر» صاحب هذه الفكرة ومؤسس هذا المعهد .

وقد صمم هذا المركز المهندس المعمارى «جمال عامر» أحد الأبناء الروحيين لشيخ المهندسين حسن فتحى، حيث استخدم الفنان الشاب فى تصميمه للمركز مجموعة مفردات معمارية مثل القبة المخطوسة، والعقود

المخمسة، والقباب المحمولة على خناصر، والقبوات المتقاطعة، وكلها عناصر معمارية، أثرت العمارة المصرية منذ الدولة البيزنطية والقبطية والإسلامية، وقد راعى فى تصميم هذا المبنى العربى الأصيل، وجود صحن أو أكثر حتى ينفتح عليه المبنى من الداخل مما يكون له تأثير كبير فى وجود تيار هوائى يلطف حرارة الجو فى الصيف الحار .

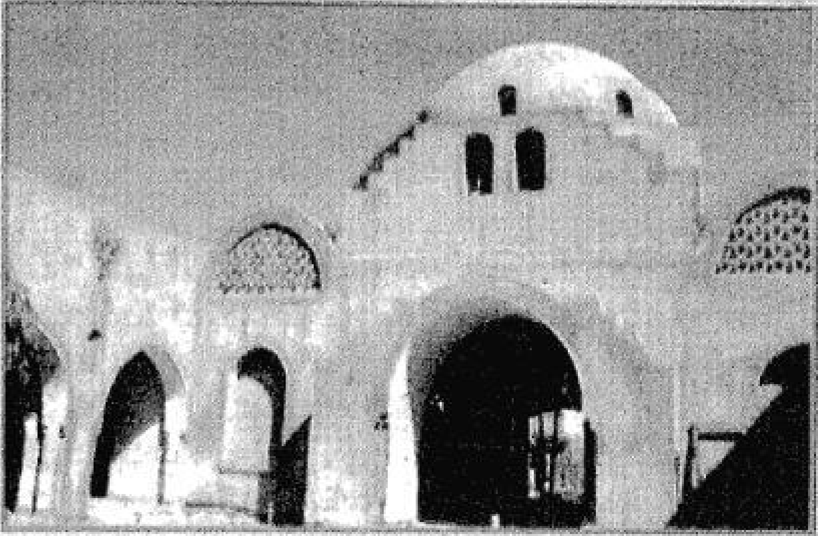
أما بالنسبة للخدمات المتاحة فى هذا المركز للفنانين المنتمين للمركز أو للزائرين ، فقد أقيمت أماكن لأعداد «الطينة» ودواليب الفخار وتسمى «الفاخورة» وأماكن تهوية وأفران لحرق «الجليز» ثم أماكن للعرض، وهى تتمثل فى قاعة كبيرة متعددة الأغراض، لعرض أعمال الفنانين الخاصة بجانب متحف صغير يضم المجموعات الفنية المتميزة، التى تم إنتاجها.

بجانب ذلك كله توجد قاعة للاحتفالات، والندوات الثقافية، وتشغل مساحة مغطاة بالقبة الرئيسية كما توجد أماكن لاستضافة الفنانين الأجانب فى حالة إقامة سومبوزيوم للخزف بالمكان يحتوى على سبع غرف، كما توجد حجرات للإدارة والكمبيوتر، ومكتبة خاصة بالخزف، بحيث يساعد ذلك فى إجراء البحوث العلمية للخزافين .

معنى العمارة الإسلامية

ويرى مصمم هذا المركز المهندس جمال عامر أنه يجب أن يطلق على مثل هذا المبنى تعبير عمارة المجتمعات الإسلامية، فلايوجد عمارة اسلامية وعمارة مسيحية وعمارة يهودية وإنما يوجد عمارة المجتمعات الاسلامية، فإذا ذهبنا إلى كازاخستان مثلا نجد عمارتها مختلفة عن العمارة فى تركيا أو الأندلس أو المغرب أو مصر وهكذا، وبالتالى فإن الفن الإسلامى هو أحد العناصر التى تشكل العمارة الإسلامية فى كل مجتمع، حيث تشكل البيئة، والمناخ، والتراث، والثقافة، والموروث عمارة كل مجتمع على حدة .

وعلى سبيل المثال، فكرة القبة المقطوسة التي ظهرت فى مصر منذ عصر الجريك رومان، وتلاه العصر البيزنطى، وبعد ذلك استخدمها المعمارى المسلم فى شكلها الحالى، وهى القبة المنتشرة الآن فى المساجد والمنازل، وهناك مثل آخر يتمثل فى «القبو النوبى» وهو الموجود منذ الأسرة المصرية القديمة، حيث توجد



القبة الرئيسية فى مجمع الفسطاط وهو أحد المفردات المعمارية.. التى صممها المهندس «جمال عامر»



الدولاب.. يدور بالآنية منذ مئات السنين.. يشكل عليه «الفخرانى» محمد الطوسى تشكيلاته الفنية.. والتى يوجه فيها الفنانون



جزء من أتيليه معتز نصرالدين وهو من أمهر الخزافين فى مدينة الفسطاط القديمة .. هل يذهب إلى شق الثعبان؟



الخـــزاف عبدالحكيم سيد .. بين ابداعاته الخزفية التى انتجها فى ذات المكان منذ خمسة عشر عاما

بعض هذه الأقبية المبنية بالطين، بجانب معبد الرامسيوم، وهو معبد رمسيس الثانى فى البر الغربى، وتطورت قليلا ولكنها بقيت تستعمل فى المساكن النوبية إلى يومنا هذا.

ويجد الفنان جمال أن هذه العناصر المعمارية قد تم تطويرها على مر التاريخ وفى مختلف الحقب التاريخية المختلفة حتى أصبحت عمارة عصرية خالصة ولذلك جاء تصميمه لمركز الفنون بمدينة الفسطاط من هذا المنطلق الفني.

مدينة الفواخير

وتزخر منطقة الفسطاط بالفواخير، وهى جمع «فاخورة» وهى عبارة عن فرن يدوى مصنوع من الطين لحرق الخزف، وتستخدم فيه المواد البسيطة للحرق مثل القمامة، والأعشاب، والورق وتوجد فواخير قديمة جدا من عمر المنطقة ذاتها، أى أكثر من ستمائة سنة، ويعاد ترميمها وتجديدها كلما أحرقت فيها الأعمال الخزفية.

وقد اكتسبت هذه المنطقة شهرة واسعة بأعمالها الخزفية حتى كانت مقصداً للسياح والمصريين، بل وصلت سمعة بعض العاملين فى هذا المجال للعالمية حتى أنهم يصدرون أعمالهم الفنية للخارج بكميات كبيرة!.

هل تؤثر الفواخير على البيئة ؟

إن هذا المكان المتفرد التاريخى، الأثرى، يوجد به كثير من الفنانين الخلاقين الذين يحتفظون بأماكنهم - الأتيليهات - القديمة كما هى .. بل ويتمسكون بها.

منهم الخزاف محمد مندور، وعبدالحكيم، وحمدى عطية الحائز على الجائزة الكبرى فى بينالى فينيسيا، ونبيل درويش الذى نال جائزة عن قطعة خزفية اقتنتها ملكة النرويج .. ومعتز نصر، وقاهان، وأرمنى وحازمنى .. خزافان أرمانيان، ومحمد شمس.

وحدث أن فكرت المحافظة بالتعاون مع وزارة البيئة، وقامت بإزالة أماكن هؤلاء الفنانين..!

بدلا من تطوير أوضاعهم .. رغم أنهم أنجزوا كمية من الأفران منفذة بطريقة لاتحدث أى تلوث، وصديقة للبيئة، ومع هذا أصرت محافظة القاهرة على إزالة أماكنهم، وإرسالهم إلى منطقة شق الثعبان، بالقطامية بالقرب من جبل طرة .. وتجاهلت الجهات المسئولة، الخسارة الفادحة، التى ستخسرها المنطقة ثقافيا، وفنيا

وسياحيا..؟! .

إذا كانت هذه المنطقة وحدة متكاملة من الترابط والتعاون الفنى للخزف فهناك من يجلس على الدولاب، والآخر يلون، ومنهم من يكمل لزميله بالحفر على الخزف ..

استرجاع .. البريق

ومن امنيات المعمارى جمال عامر، أن يستوعب هذا المركز في المستقبل القريب جميع هؤلاء الفنانين الذين قامت بتهجيرهم محافظة القاهرة .

ويتطلع لأن تنقلب كل هذه المنطقة .. وتصبح نواة ثقافية لمصر ..

طموحات فنية

ويقول المعمارى جمال عامر: «لقد كانت هذه المنطقة تشغل جزءاً من قلبى .. وتشاء الصدف أن أعود وابنى، وأعمر، فى نفس المكان الذى اخترته أيام دراستى فى كلية الهندسة .. وكان مشروعى الذى تقدمت به .. وهو نشأة العمارة العربية فى مصر، ومدى تأثر هذه النشأة بالعمارة البيزنطية، والمسيحية .

وبالنسبة لطموحات هذا المعمارى أن تتحول منطقة الفسطاط الى ملتقى ثقافى عالمى، مثل «افينيون» فى فرنسا، وأصيلة فى المغرب، وجارش فى الأردن، ويصبح المكان قبلة للمثقفين، والفنانين ، لأن هذه القطعة



المهندس ..جمال عامر الابن الروحى للمهندس الراحل حسن فتحى والمعمارى الذى صمم مبنى مجمع الفنانين بالفسطاط..

من أرض مصر أفرزت العديد من الفنانين المرتبطين بها عاطفيا، وثقافيا، لذلك، وضع تصميم لمسرح مكشوف، وضخم فى الساحة الرئيسية، أمام المبنى .. حتى يمكن إقامة المهرجانات الفنية المختلفة، وكان لتجمع الفنانين مثل المقهى الفنى والثقافى. هذه المدينة كان لها باعا ثقافيا عميق الجذور فى الماضى .. لماذا لا نسترجع هذا البريق، لما لها من اسم وإشعاع فنى وثقافى على مدى التاريخ ؟.

أحوال مصر في مطلع القرن العشرين

بقلم:
د. فتحي صالح



محطة مصر فى أوائل عام ١٩٠٠م وترى وسائل المواصلات السائدة .. الترام وعربات الكارو

قامت الحملة الفرنسية فى أوائل القرن التاسع عشر بنشر مؤلف ضخم ظهر فى عدة مجلدات تحت عنوان «وصف مصر» قدمت فيه ما يزيد عن ثمانمائة لوحة ليتوجرافية، مقسمة إلى ثلاث مجموعات تمثل أوجه الحياة المختلفة فى مصر: المجموعة الأولى تمثل مصر القديمة وتحتوى على لوحات للآثار الفرعونية على امتداد الوادى، والمجموعة الثانية تمثل مصر المعاصرة (لتلك الفترة) بما فيه تصوير للأماكن العامة والخاصة والحياة اليومية والحرف والمهن المختلفة، أما المجموعة الثالثة فتمثل الحياة الطبيعية فى مصر من حيوانات وطيور وزواحف ونباتات. ويعتبر هذا الكتاب بحق من اعظم الكتب التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ويعتبر عملا فريداً فى توصيف بلد كمصر لم يتم مثيل له فى أى دولة أخرى.

وجبة غداء فى أحد أزقة القاهرة



وفى خلال عمل كاتب هذه السطور فى باريس كسفير لمصر باليونسكو تم العثور على مجموعة من البطاقات البريدية (كروت بوستال) بقسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر - كانت تقتنيها سيدة فرنسية تعيش فى مصر فى أوائل القرن العشرين - يبلغ عددها حوالى ١٤٠٠ كارت، لها نفس خصوصية كتاب وصف مصر من حيث أنها تقدم توصيفا مصورا لجوانب الحياة المختلفة فى مصر فى تلك الفترة، كما تصور ما كانت عليه الأماكن العامة والمواقع الأثرية سواء الفرعونية أو الإسلامية أو القبطية، مما بعث فى خلده فكرة إنتاج أسطوانة ضوئية (سى - دى - روم) تقوم على هذه المجموعة، فتم عرض الموضوع على فيدريكو مايور مدير عام اليونسكو آنذاك الذى وافق على الفور بأن يقوم مشروع «ذاكرة العالم» باليونسكو بإنتاج هذه الأسطوانة وأن تضاف هذه الأسطوانة إلى «قائمة ذاكرة العالم» فكان إنتاج هذا العمل.

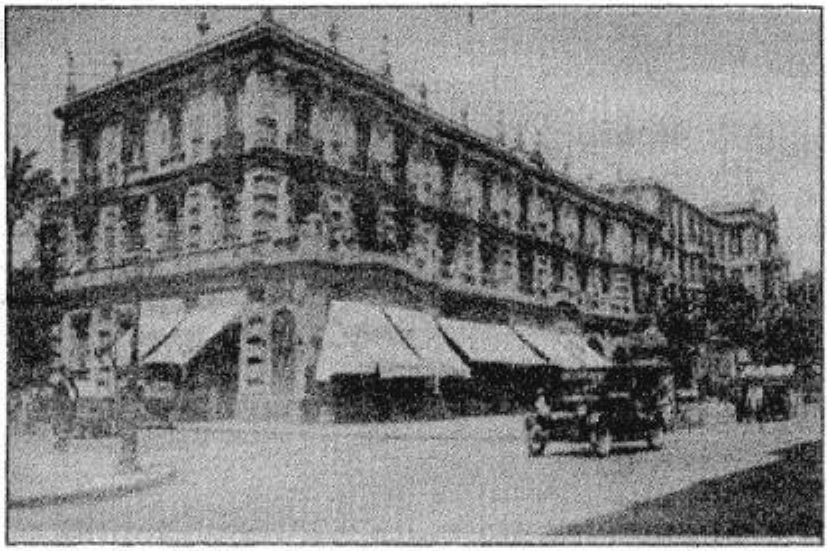
قصة العائلة ديراسى

أهدى السيد هنرى بونينى مجموعة الكروت المذكورة منذ بضع سنوات إلى قسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر إحياء لذكرى خالته مارى كرينى التى ولدت فى فرنسا فى ٢٧ إبريل ١٨٦٨م وتوفيت فى ٢٧ فبراير ١٩٤٠وكانت متزوجة من عالم المصريات الفرنسى الشهير جورج اميل ديراسى.

وقد عين زوجها عالم المصريات الشهير جورج اميل ديراسى Emile Daressy، نائبا لأمين متحف بولاق بالقاهرة عام ١٨٨٧م وآلت إليه مسئولية المحافظة على مجموعات آثار المتحف الفرعونية خلال تنقلاتها المختلفة، من متحف بولاق إلى قصر إسماعيل باشا فى الجيزة عام ١٨٩١م، ومن الجيزة إلى المتحف الذى أقيم فى ميدان التحرير عام ١٩٠٣م.

لم يقتصر عمل ديراسى على ضمان سلامة تلك القطع الأثرية، ولكنه تفرغ أيضا لاستكمال فك رموز ساحة معبد الأقصر التى بدأها ماسبيرو عام ١٨٨٥م، كما شارك فى الكشف عن مخبأ موميات كهنة آمون للأسرة الحادية والعشرين وذلك عام ١٨٩١م. وقد ساهم فى عام ١٨٩٢م فى حفريات شمال شرق معبد رمسيس الثالث فى مدينة هابو كما أعاد الحياة لتمثال أمنحتب الثالث وزوجته تى الذى تم ترميمه، وهى المجموعة التى مازالت حتى الآن تحتل بهو المتحف المصرى بالقاهرة.

نشر جورج اميل ديراسى اكثر من مائة وخمسين مقالة فى مجموعة مصنفات أعمال ماسبيرو، وفى نشرة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، وفى السجلات السنوية الصادرة عن مصلحة الآثار وفى نشرة المعهد المصرى، وكذلك خمس مطبوعات مفهرسة لمحتويات المتحف المصرى وغيرها. وقد عين ديراسى أمينا



كارت بوستال كان يرسله صاحبه إلى نفسه للذكرى هذا هو فندق شبرد الذى أحرق فى يناير ١٩٥٢

العمارة والأزياء فى أحد الاحتفالات فى مطلع القرن العشرين



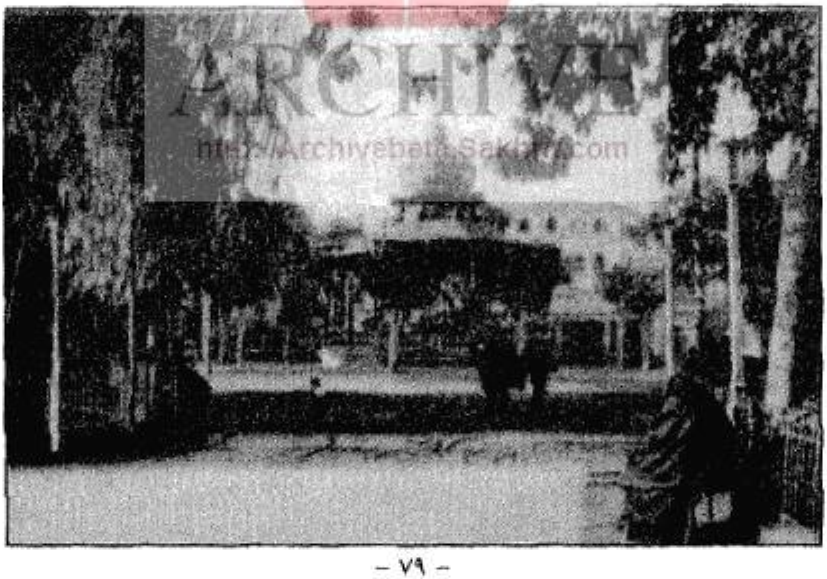


إحدى الفلاحات المصريات يوم كان الكارت بوستال الوسيلة الوحيدة للذكرى



جمع الكارت بوستال الأمهات والأطفال وتجمع فى واحد من أحياء القاهرة

كم كانت القاهرة جميلة يوم كانت تعزف الموسيقى فى حديقة الأزبكية



عاما لمصلحة الآثار المصرية عند نشوب الحرب العالمية الأولى وحتى إحالته إلى المعاش عام ١٩٢٣م، ثم غادرها إلى فرنسا حيث توفى عام ١٩٢٧م.

مجموعة الكروت البريدية

احتفظت ماري ديراسى بمجموعة من الكروت البريدية التى قامت باقتنائها هى وعائلتها أثناء إقامتها فى مصر وبقيت معها ثم آلت للعائلة بعد وفاتها، فقد كانت تلك المجموعة إلى جانب بعض أوراق الورد الجافة تمثل لها ذكرى جميلة للأيام السعيدة التى قضتها فى مصر.

وقد أثبتت الدراسة التى تمت على هذه المجموعة أن ماري ديراسى كانت شغوفة بجمع الكروت البريدية ويقدر سعادتها بتلقى تلك الكروت بقدر ما كانت تسر أيضا بإرسال الكروت البريدية لنفسها، فقد تم حصر عدد ستة وثلاثين كارتا بريديا كانت قد أرسلتهم باسمها من الإسكندرية فى ٢ ديسمبر عام ١٩٠٣. وكان بعضها يحمل توقيع ماري ديراسى، والبعض الآخر موقع عليه بأحرف اسمها الأولى (م. د.) والباقى مدون عليه فقط .مكان وتاريخ الإرسال. وتحمل معظم كروت تلك المجموعة الختم البريدى ويتراوح التاريخ المدون عليها ما بين عام ١٩٠٠م إلى ١٩١٤م، وتتضمن بعض الكروت رسومات منقوشة أو ملونة بالشف (ستنسيل)، وقد طبع واستنسخ معظمها بطريقة طبع النموذج وشفه باستعمال الأحبار الثقيلة، والبعض منها يمثل صورا فوتوغرافية.

كيف نشأت فكرة الكروت البريدية (الكارت بوستال) ؟!

بدأ فن التصوير الفوتوغرافى فى منتصف القرن التاسع عشر وبدأ تسويق الصور الفوتوغرافية وتطور مع انتعاش الحركة السياحية وخاصة إلى الشرق بسحره الخلاب.

ففى عام ١٨٦٢ على سبيل المثال عينت الملكة فيكتوريا المصور المشهور دى فرانسيس بدفورد ليلتقط اللحظات الهامة لرحلة أمير ويلز فى مصر، وفى عام ١٨٩٦ أمكن تخليد الرحلة السياحية التى قام بها إمبراطور النمسا إلى مصر بفضل التصوير الفوتوغرافى.

وقد اكتفى الأثرياء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بشراء صور فوتوغرافية، للمواقع التى يقومون بزيارتها ملتصقة على ورق مقوى قام بالتقاطها مصورون مشهورون ليقوموا بجمعها بعد ذلك فى البوم جميل مجلد بالجلد، يحمل الأحرف الأولى لأسمائهم، وتاريخ الرحلة ومطبوعة بحروف بارزة من الذهب الخالص.

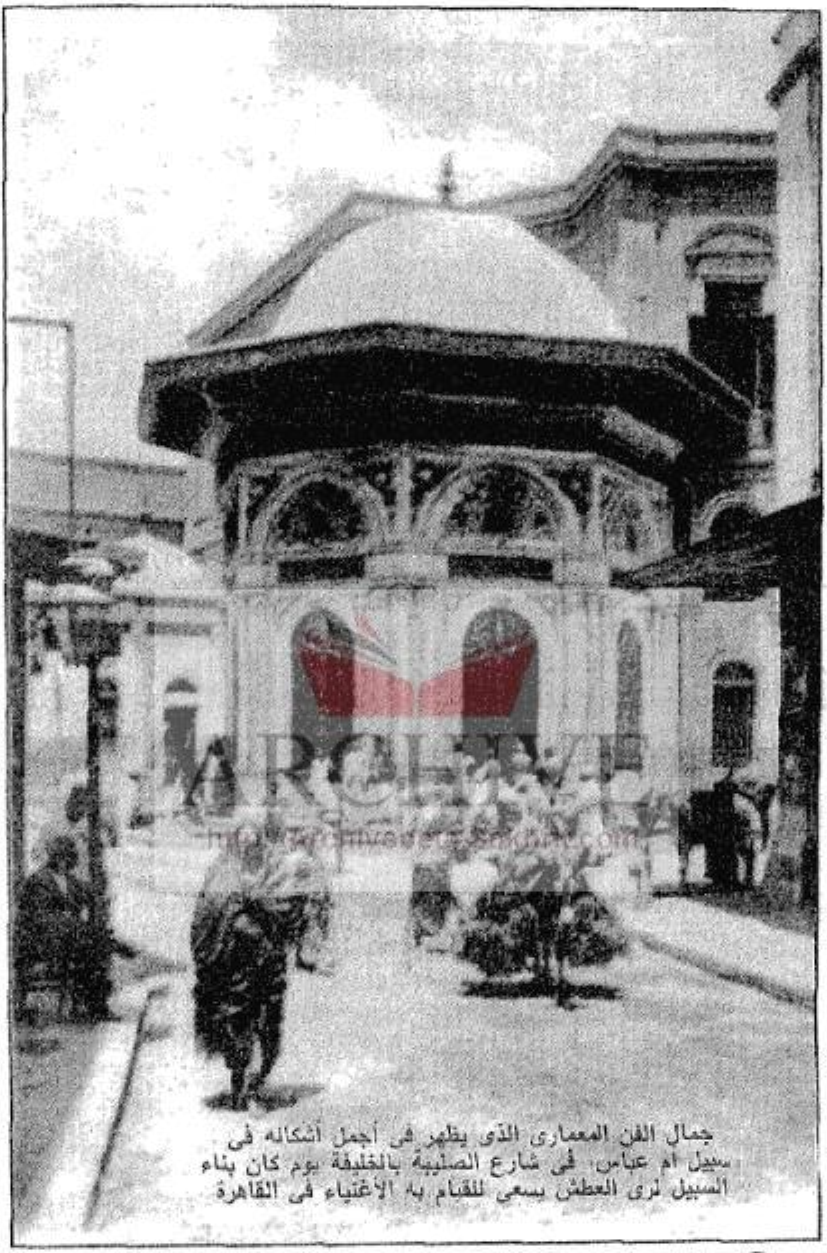
ثم بدأت الكروت البريدية فى الظهور فى نهاية القرن وبدأ معها الاستعانة بالتصوير الفوتوغرافى كمادة لإنتاج هذه الكروت، وفى واقع الأمر ليس الكارت البريدى نصا نكتبه ونحن نفكر فى



بائع العرقسوس الذى كان منتشرا فى شوارع القاهرة ايام الصيف الحارة

تشكيل فى فراغ للسقايين يملأون قربهم وزلعهم لارواء سكان القاهرة قبل دخول شبكة المياه





جمال الفن المعمارى الذى يظهر فى أجمل أشكاله فى سبيل أم عباس، فى شارع الصليبة بالخليفة يوم كان بناء السبيل لرى العطش يسعى للقيام به الأغنياء فى القاهرة

الآخرين، وإنما هو شئ يتم اختياره ويحتوى على أشياء مسجلة نحبها فيؤدى بذلك دور الرسول، وفى بعض الأحيان لا تكون تلك الكروت ذكرى لمكان أو لمشهد أو للحظة سعادة فقط: وإنما هى أيضا شاهدة بلا شك على العصر الذى صدرت فيه وهى ليست دعما لتزيين أو لرسم ولكنها تكاد تكون مرآة لأنفسنا، ولرغباتنا وخيالاتنا فتبدو وكأنها مراسلة ورسالة فى آن واحد.

فالكروت البريدية خلق لإبداع حر وشعبى متعدد الاستحضارات والإمكانيات ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فهى كالذياع والهاتف تصل الناس بعضهم ببعض كالإنترنت فى أيامنا هذه.

إن تاريخ أول الكروت البريدية غير معلوم بالتحديد، ولكنه يرجع إلى ما قبل عام ١٨٥٦م، حيث بدأ ظهور اتجاه عام لاستعمالها. وانتشرت ظاهرة استخدام الكروت، وبدأ استخدامها فى بريطانيا العظمى وفى الولايات المتحدة الأمريكية وفى ألمانيا فلم تكن المسألة مجرد إنتاج الصور الفوتوغرافية، وإنما كانت عملية تقوم على تزيين الرسالة بالرسوم واللجوء للطباعة الليتوجرافية وكذلك استعمال الألوان والأصباغ فى إنتاج هذه الكروت.

وفى عام ١٩٠٠م انتشر استعمال الكروت البريدية انتشارا واسعا وبدأ العصر الذهبى لها. ففى فرنسا وحدها بلغ عدد الرسائل بطريق الكروت حوالى مائة ألف كارت بريدى، وانتشرت الكروت البريدية المزينة بمشاهد ومناظر من مصر فى كل الأنحاء حتى فى فرنسا، كما يوضح ذلك الكارت الذى أرسلته السيدة/ باراز إلى مارى ديراسى يوم ٢ يونيو عام ١٩٠٤م ضمن مجموعة الكروت، الذى كتبت فيه: «عزيزتى مارى: هل تعرفت على هذا الكارت (عن مصر)؟ وهل تتصورين أنه يباع بمدينة روى بفرنسا.

مشروع إنتاج «وصف مصر فى أوائل القرن العشرين»

بدأت فكرة إنتاج اسطوانة ضوئية تحتوى على هذه الكروت بعد أن ألقت السيدة/ ديان صاروفيم هارليه، عالمة المصريات بقسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر، محاضرة عن مجموعة الكروت البريدية المذكورة والتى تتولى مسئولية حفظها بالمتحف، وقد ألقت هذه المحاضرة فى المركز الثقافى المصرى فى باريس ومن ثم فقد رأى كاتب هذا المقال مندوب جمهورية مصر العربية الدائم لدى منظمة اليونسكو آنذاك، أن تلك المجموعة تمثل قيمة تاريخية وتراثية كبيرة وذلك نظرا لما تحتويه من وصف مصور لمصر فى بدايات القرن العشرين، وتظهر بوضوح تشابها مع الوصف الذى جاء من قبل فى بداية القرن التاسع عشر تحت عنوان «وصف مصر» لحملة نابليون.. وهو ما يفسر إعادة استخدام العنوان ذاته للعمل

الجديد، وتخصيص باب خاص للوصف المقارن لمصر من خلال مجموعة من الكروت يرجع تاريخها إلى ما قبل قرن من الزمان، بينما يرجع الوصف الأصلي لما تتضمنه هذه الكروت إلى ما يقرب من مائتي عام فتم تنفيذ الفكرة في إطار برنامج «ذاكرة العالم».

ويهدف برنامج «ذاكرة العالم» بمنظمة اليونسكو إلى الحفاظ على التراث الوثائقي العالمي ليصبح في متناول يد الجميع وبلا تفرقة، ويهدف كذلك إلى إيقاظ الوعي بأهمية هذا التراث وضرورة المحافظة عليه هذا إلى جانب أهداف تكميلية لا تقل أهمية عن الأهداف السابقة وهي:

* تسهيل حفظ التراث الوثائقي العالمي بالتقنيات الملائمة.

* العمل على أن يكون الوصول إلى التراث الوثائقي مكفول للجميع بدون أي تفرقة أو تحيز لمستعمل، أيا كان على حساب الآخر.

* العمل على إيقاظ الوعي في جميع أنحاء العالم بوجود هذا التراث وبأهميته وبضرورة المحافظة عليه.

* تحسين الأنشطة والمنتجات التي يقدمها لأعرض قاعدة ممكنة والعمل على تطويرها.

ويحدد برنامج «ذاكرة العالم» عناصر التراث الوثائقي ذات الأهمية العالمية والإقليمية والقومية كما يحدد قائمة الوثائق والمستندات التي تحتوي على جزء من الذاكرة الجماعية للعالم ويحرص على تحديثها باستمرار وإيجاد علامة مميزة لذاكرة العالم يمكن استعمالها لتعريف تلك الوثائق، كما يقوم برنامج «ذاكرة العالم» بحملات قوية لتوعية الحكومات والجمهور العريض وتنبيههم إلى أهمية التراث العالمي وضرورة الحفاظ عليه.

محتويات مجموعة الكروت البريدية

عند بدأ فحص هذه المجموعة من الكروت كانت هناك صعوبة في كيفية التعامل معها وتصنيفها. ولكن كما ذكرنا سالفا فإنه نظرا لوجود تشابه في الفكرة بينها وبين ما جاء في كتاب «وصف مصر» لحملة نابليون فقد تم الاستعانة بصفة مبدئية بطريقة التبويب التي جاءت في هذا الكتاب، ومن ثم فقد تم تبويب هذه المجموعة من الكروت بتقسيمها إلى خمس مجموعات رئيسية.

المجموعة الأولى: المهن والحرف والأفراد:

ويدخل تحت هذا الباب مجموعات عن كل من الحرف المختلفة الواردة في هذه الكروت مثل البائعين والحلاقين والسقايين والسياس والحمارين والجمالين وخلافه، وكذلك صوراً مختلفة للرجال وصورا مختلفة للسيدات من حاملات البلاص، ولسيدات قبائل البشارية، ولسيدات بدويات إلى آخره.

المجموعة الثانية: صور الآثار الفرعونية:

فتاة بدوية يمتلئ وجهها بالتحدى



وهى مقسمة إلى ستة موضوعات. الأهرامات والمعابد والمقابر والأبراج والشواهد والتماثيل الفرعونية.

المجموعة الثالثة: صور الآثار الإسلامية والقبطية

وهى مقسمة إلى ثمانية موضوعات: المساجد والكنائس والاسبلة والبوابات والبيوت والمدارس والقلاع الإسلامية ومقياس النيل.

المجموعة الرابعة صور المبانى العامة

وهى مقسمة إلى تسعة موضوعات: المبانى العامة والمتاحف والثكنات العسكرية والقلاع والمدارس ومحطات السكك الحديدية والفنادق والقصور والتماثيل العامة.

والمجموعة الخامسة وهى الأماكن العامة :

وهى مقسمة إلى ثمانية موضوعات الميادين العامة والأسواق والقرى والكبارى والمقابر والحدائق العامة والأنهار والمناظر العامة البانورامية.

وفى الواقع فإن التجوال فى هذه المجموعة الفريدة يعود بالمشاهد على الفور إلى عصور قديمة جميلة وتثير العديد من الشجون وخاصة صور الميادين والأماكن العامة، فهذه صورة ميدان الأوبرا حيث يقف تمثال إبراهيم باشا وخلفه دار الأوبرا القديمة وهذا فندق شبرد القديم الذى عاصر العديد من الأحداث التاريخية ثم ذلك فندق سميراميس حيث قضينا شبابنا بين كافتيريا «نايت أند داى» وبين سطوحه الجميل الذى يطل على النيل، وهذا شارع الهرم خاليا من المبانى ومحاطا بالمزارع ويسير فيه الترام وعن بعد تظهر الأهرامات شامخة.

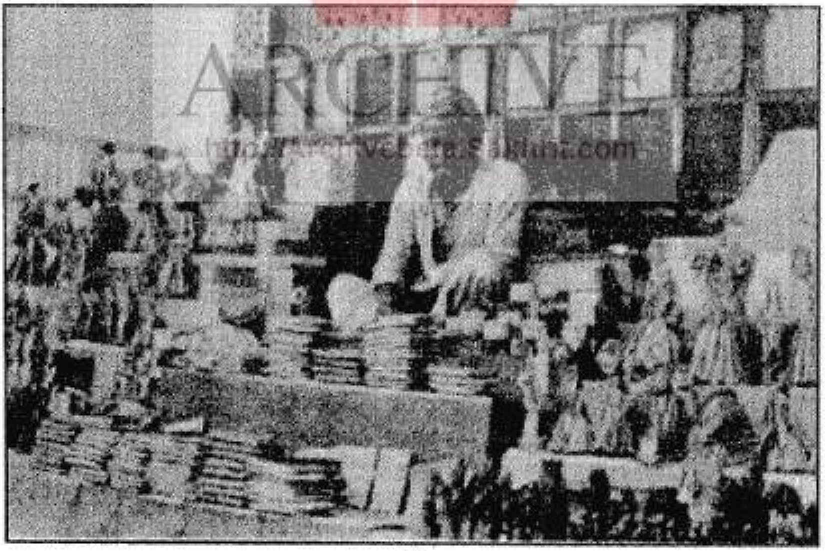
وهذه ثكنات قصر النيل آخر معقل للإنجليز فى القاهرة وهذا كوبرى قصر النيل القديم وعلى مدخله أيضا الأسدان الشهيران وهذا مسجد السلطان حسن وليس بجواره مسجد الرفاعى وهلم جرا.

وأما صور المبانى الأثرية الفرعونية فهى دراسة حقيقية لتطورها على مر العصور خصوصا ما جاء منها فى كتاب وصف مصر ثم ما ظهر من نفس المبانى فى هذه الكروت، وأخيرا صورة هذه المبانى اليوم وأكبر مثل عملى على ذلك هى صورة أبو الهول فى كتاب وصف مصر وهو مغطى تماما بالرمال ماعدا رأسه ثم يظهر فى هذه الكروت فى أوائل القرن الماضى وقد أزيلت الرمال من مقدمته حتى بدأت تظهر يديه ولكن بقيت الرمال حول جسمه، وصورته اليوم وهو خال من الرمال من جميع الجهات، وكذلك صورة معبد الأقصر فى كتاب وصف مصر وقد ظهرت على جانبيه المسلتين الشهيرتين لرمسيس الثانى ثم اختفت إحدى هاتين المسلتين فى كروت أول القرن الماضى بعد أن تم نقل المسلة اليمنى إلى



بائع الفوانيس التى تنتشر فى حوارى القاهرة بين أيدى الأطفال فى شهر رمضان المعظم

بائع الفخار أحد الأعمال الفنية الجميلة الذى يظهر فيه المصريون ميولهم الفنية





بعض الأعمال الفنية التى تمتعت بها المرأة المصرية فى ممارسة العزف والغناء





هل تصدق.. هكذا كانت أزياء بعض النساء المصريات فى مطلع القرن، وهى ذاتها اليوم الموضة فى بعض العواصم الأوربية؟

ميدان الكونكورد بباريس ثم صورة المعبد اليوم وقد تم ترميم أجزاء كثيرة منه.

وأما الوجوه المصرية فى مجموعة الكروت فهى بحق دراسة حقيقية للشخصية المصرية فى أوضاع مختلفة من بائعين إلى مدرسين كتّاب إلى أفراد مهن مختلفة من سقايين وحمارين ونجارين وخلافه إلى حتفالات الزواج والمحمل والموالد وخلافه، إنها بحق مجموعة ممتعة من الكروت البريدية تمثل وصفا لنواحى الحياة المختلفة فى مصر منذ قرن من الزمان، كما تعكس أيضا عشقا لصاحبى هذه المجموعة للبلد التى قضوا فيها حوالى عشرين سنة من حياتهم وولعوا بها شأنهم شأن أى زائر أجنبى عاش بها لفترة وشرب من نيلها وفتن بسحرها.

أحد المعجبين

شعر : فريد قرنى

أحد المعجبين.. قد تعجبينا ... وحده فى الهوى بهم أجمعينا
قد ترامت نحوى شباكك إيذانا ... بسيرى فى موكب العاشقينا
قلبه مفعم بحبك عطشان ... يلوك الأسى.. ويزجى الأنينا
لوعة الوجد ومعها يكتم الأنفاس ... يمضى فى أضلعى سكّينا
كله.. كله شغوف يعانى ... من سياط الجوى.. فيذوى حنينا
عينه دائما تحوم حواليك ... تذود الأنظار والناظرينا
راغب فى الوصال.. يدفعه الإعجاب ... تأبى شكواه أن تستكينا
متعة أن أراك يا تحفة تمشى ... فأجنى من خطوها الياسمينا
وأصيد المنى العذاب اصطيادا ... من شباك الدلال إذ تخطرينا
وألم السنا يبعثر عبقوا ... فى دروب الغادين والرائحينا
سكر.. بسمة الشفاه إذا ... افترت.. لتسبى بها نهى الوالهينا
روعة قالب الرشاقة إندمل ... ليذكى مشاعر العابرينا
فتنة لوحة الوسامة إذ تختال ... تروى روافد الوجد فينا
وأنا سارح شغوف لهوف ... إن يسارا لمحتها.. أو يمينا
بالجمال الفذ الذى يسكب النور ... فيهدى مسالك الحائرينا
بالحنان الريان يحتضن الروح ... ويثرى مشاعر الملهمينا
أنا صنف من المحبين وحدى ... أتحدى جميع من تعرفينا
صادق فى هواك جن جنونا ... وشأى السابقين واللاحقينا
فصلى واحدا من المعجبينا ... وحده فى الهوى بهم أجمعينا

حول أصل الإنسان كما جاء فى كتاب «أبى آدم»



بقلم : د. محمد بلتاجي *

فى بداية صيف ١٩٩٨ تفضل الصديق الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين - كعادته الكريمة منذ نحو أربعين عاماً - فأهدانى نسخة من كتابه الجديد (أبى آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة)، وقال : هذه أول نسخة أهديها إلى صديق، وقد أمضيت قرابة ربع قرن من الزمن أحقق فكرة الكتاب حتى انتهيت إلى ما تحتويه هذه النسخة المهداة، وأنه يرجو أن أقرأه بعناية ثم أكتب عنه.

وكان فى كلامه ما أشعرنى بأن مضمون الكتاب يحتوى (شيئاً خاصاً) أو (فكرة جديدة على نحو ما)، وأنه يستحق قراءة متفحصة مدققة. فوعدته بأن أحتشد لقراءته فى أقرب وقت ممكن.

بيد أن مشاغل الحياة المتتابعة التى تمسك بخناق الزمن لم تفسح لى مجالا لقراءته إلا بعد سبعة شهور كان الكتاب قد أحدث فيها فى الأوساط الثقافية دويا كبيراً معارضا فى مجموعه لمؤلفه - على مستويات مختلفة من المعارضة - فهناك من رأى أن الدكتور عبد الصبور (يُستتاب) بسبب كتابه هذا، وهناك من أعلن أنه سيرفع (دعوى تفريق) بينه وبين زوجه! وهناك من اقتصد شيئاً ما فى رد

* أستاذ بكلية دار العلوم (جامعة القاهرة).

فعله تجاه الكتاب فرأى أن مؤلفه (أخطأ) فى الاستنباط وأنه ينبغى أن يبصر ويقوم، وهناك من رأى أن المجال متسع للشماتة فى الدكتور عبد الصبور حيث (وقع) - فيما يرى الشامت - فيما سبق أن أخذه على الدكتور نصر أبو زيد في القصة المشهورة التى حدثت سنة ١٩٩٣ ، وبعض هؤلاء وجدوها فرصة مناسبة للكلام عن انقسام (جبهة التكفير) التى يزعمون أن الدكتور عبد الصبور كان من زعمائها!.

وكان لابد عندئذ من قراءة الكتاب وأثارت قراء ته عندى (مخالفات واضحة) بين بعض محتواه وبعض آيات القرآن الكريم وبعض أحاديث السنة الصحيحة، ورأيت عندئذ أن أعرض ملاحظاتى هذه على الدكتور عبد الصبور، ورحب بذلك، والتقينا فى مارس ١٩٩٩ بمدرج على باشا مبارك (أكبر مدرجات كليتنا دار العلوم) وحضر اللقاء عدة آلاف من الطلاب والمهتمين فى تزاحم نادر المثال أكد أهمية القضية بالنسبة للمثقفين ، وقد التزم الحاضرون بما فرضناه عليهم من عدم الاسهام (على أى نحو) فى الحوار الدائر بينى وبينه ، والاكتفاء بالمتابعة الصامتة.

وعرضت عليه ما رأيت أنه (مخالفات قطعية) بين بعض ما تضمنه كتابه وما نصت عليه آيات القرآن وأحاديث السنة فوعد بأن يفكر فيها بأناة ، وطلب إنهاء اللقاء لإحساسه بالتعب .. وانتهى اللقاء يومها عند هذا الحد.

وبعد عدة شهور عرضت علىَّ إحدى القنوات الفضائية العربية أن ألتقى مع الدكتور عبد الصبور شاهين فى أحد برامجها الشهيرة للمناظرة على الهواء حول الكتاب ، بيد أننى لم أتحمس للاستجابة لذلك لما تشتهر به هذه القناة من ميل كبير للإثارة على حساب الموضوعية، ولأنها ليست عادلة (على وجه العموم) فى عرض القضايا المتصلة بمصر خاصة.

ثم تلقيت الدعوة الكريمة من (الهلال) لتناول الموضوع.

السجود لآدم

تدور الفكرة الرئيسية فى الكتاب على الزعم بأن الله تعالى خلق أولاً بشراً من طين ، وهؤلاء البشر قوم همج كانوا غير مكلفين أو مخاطبين بالوحى ، ثم أجرى الله على هؤلاء البشر من التسوية والنفخ فيه من روح الله ما جعل نسلهم (إنساناً سوياً) هو الذى أمرت الملائكة بالسجود له، وهو الذى أبى إبليس أن يسجد له ، وهو الذى زوده الله ما يحتاج إليه من أدوات الكمال والتكليف التى بها تحول البشر إلي (إنسان سوى) وهى العقل ، واللغة ، والدين «فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشرى إنساناً .. بل

كان مشروع إنسان فى حيز القوة ، قبل أن يكون إنساناً فى حيز الفعل» ، ص٨٨.

ويزعم أن هذه التسوية التى انتهت بالبشر إلى إنسان والتى أشار إليها قوله تعالى (.. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) . (سورة ص آية٧٢) قد استغرقت ملايين السنين .. يقول «لقد خلق الله البشر أطفالاً أو كالأطفال .. بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول ، ثم جعل لهم هذه الأدوات فى مراحل التسوية المتطاولة ، حين شاء ت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشرى بما يحتاج إليه من أدوات الكمال» ، (ص٩١ - ٩٢).

ومن ثم يقول: «حقيقة لاريب لدينا فيها هى أن بين (البشر) و(الإنسان) عموماً وخصوصاً مطلقا ! فـ (البشر) لفظ عام فى كل مخلوق ظهر على سطح الأرض، يسير على قدمين ، منتصب القامة ، و(الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته ، فكل إنسان بشر، وليس كل بشر إنسانا، والمقصود هو طبعاً المعنى الأول الذى استعملت فيه الكلمة (بشر) فى آيات القرآن : وهو الظاهر أو المتحرك مع حسن وجماله .. (ص ٩٧).

ويتبنى على هذا التفريق عنده أن لفظ (إنسان) «لايطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لاغير، وهو الذى يبدأ بوجود آدم عليه السلام ، وآدم على هذا هو (أبو الإنسان) وليس (أبو البشر) ولا علاقة بين ادم والبشر الذين بادوا قبله تمهيدا لظهور ذلك النسل الآدمي الجديد ، اللهم إلا تلك العلاقة العامة أو التذكارية ، باعتباره من نسلهم » ، (ص ٩٨) .. «ومقتضى هذا أن النوع البشرى قد انقرض ليحل محله رتبة أرقى هى رتبة (الانسان) باعتباره الطور المحسن من أطوار البشر ، والجيل المختار للمسيرة الجديدة على طريق التوحيد ومعرفة الله ، ثم أطلق على أفراده هذه الرتبة : بنو آدم» .. (ص ١٠٩ - ١١٠).

وقد بنى الدكتور عبد الصبور على هذا التصور أمرين ..

الأول : أنه يتصور أن آدم « جاء مولودا لأبوين، وأن حواء جاءت كذلك على الرغم مما سوف يلقى هذا التصور من معارضة تلقائية ورفض عنيف !! وبلا تفكير.

أن هذا التصور لا يتصادم فى رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين ، ذلك ان المشروع الذى بدأ منذ ملايين السنين بالجسد الطينى - كان هدفه النهائى والوحيد خلق (آدم) وكل ما مضى من أحداث بين التاريخين - إن كان ثمة تاريخ - إنما هو وقائع بناء جسد آدم وعقله وروحه وملكاته وخصائصه.

وقد تم ذلك كله فى غيبوبة الزمان ، حيث استوى الصفر والمليون ، فما هى إلا سنة استمرت بضعة ملايين من السنين حتى استوى الإنسان .. (آدم) الذى نبت فى التراب وانبثق من الأرض .. (ص ١١٧).

هذا عن آدم ، أما حواء فيقول عنها : «غير ان خلق زوج آدم من نفسه مشكل فهل حواء من ضلع آدم كما وردت بذلك آثار؟ أو ان حواء خلقت خلقاً مستقلاً، كما هو شأن آدم؟».

رمز لطبيعة المرأة

الاحتمال الأخير هو الراجح فى نظرنا لأمرين : أولهما : أن كثيراً من العلماء اعتبروا مسألة الضلع مجرد رمز لطبيعة المرأة وفطرتها .

ثانيهما : ان خلق حواء من نفس آدم مؤول على أنها من نوعه وجنسه ، وقد جاء ذلك بالنسبة إلى كل زوج فى قوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) (الروم ٢١) (ص ٧٦ - ٧٧).

والثانى : أنه يزعم أن القرآن الكريم «لم يوجه خطابه مطلقا إلى البشر .. بل إلى الإنسان ، ويدعى أن نعرف أننا جميعاً منتمون لآدم ، كما قال رسول الله ﷺ (كلكم لآدم) (ص٧٦) ويقول «ولأمر ما وجدنا أن القرآن لايخاطب البشر .. بل يخاطب الإنسان ، والتكليف الدينى منوط بصفة (الإنسانية) ، لا بصفة (البشرية) (ص ٩٨) ، ثم يزعم «ولقد نجد فى القرآن دليلاً قاطعاً على صحة هذا المذهب ، حين نجده محتفياً بالإنسان ، متابعاً لوصف كل أحواله فى ثلاثة وثلاثين موضعاً ، على حين أنه لم يذكر (البشر) بوصف واحد» (ص ١١٠).

.. بقى أن نقول إن الدكتور عبدالصبور يزعم أن «المعنى الصحيح للسجود لآدم هو موالاة آدم وذريته إلى يوم القيامة» وقد أدركت ذلك الملائكة ، وغاب هذا المعنى عن إبليس لغبائه (ص ١٤٩).

.. وبعد فهذه هى (نظرية) الدكتور عبدالصبور شاهين الجديدة فى أصل الخليقة .

ونحن لن نحاكمه إلا إلى المعيار الذى قبله صراحة فى مفتتح كتابه هذا وهو : مراعاة قداسة النصوص المنزلة ، وعدم مخالفة معلوم من الدين بالضرورة (ص١٠) واستنطاق آيات القرآن الكريم «باعتبارها المصدر الأول والأوثق الذى ينبغى اعتماده فى هذا المجال» كذلك الاستعانة ببعض من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يساعد على جلاء المعنى القرآنى (ص ١٢).

ثم يؤكد ذلك (فى صفحة ٤٢) حينما يقارن بين معطيات العلم البشرى النسبية وبين عصمة القرآن الكريم « الكلمة

الإلهية النهائية فى الخطاب ما بين السماء والأرض ، أو ما بين الأعلى والأدنى - فإنه ولا شك يقدم للعقل الإنسانى الحقائق النهائية فى الموضوع».

وحين حاكمنا كتابه إلى هذا المعيار - المحكم تهاوت (نظريته) وسقطت مقولاتها واحدة بعد أخرى ، حسب التفصيل الآتى .

القرآن والسنة ينقضان نظرية الدكتور عبد الصبور

أولاً : يزعم الدكتور عبد الصبور أن القرآن الكريم لم يوجه خطابه (مطلقا) إلى البشر .. إلخ.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وجّه فيها الخطاب التكليفى إلى (البشر) ، ومنه قوله تعالى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس: كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) . (آل عمران: ٧٩).

وقوله للنبى صلى الله عليه وسلم (قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) (الكهف ١١٠).

وقوله (قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (إبراهيم ١١ وراجع أيضاً الآية السابقة).

وقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) (فصلت ٦ - ٧) وأليس هذا هو التكليف ؟

وقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىّ حكيم) (الشورى ٥١) .. وآيات أخرى عديدة قاطعة فى أن الله تعالى أوحى للبشر، وخاطبهم الخطاب التكليفى ، وأرسل منهم الرسل .

ثم ، ألم يكن البشر الذين عاشوا ملايين السنين (أمة من الأمم) ؟ فماذا يفعل الدكتور عبدالصبور فى قوله تعالى (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) (فاطر ٢٤)، لقد عاش البشر ملايين السنين - كما يقول الدكتور عبد الصبور - هملا لا نذير لهم ولا نبوة ، لكن القرآن الكريم ينقض ذلك وتنطق آياته فى غاية الوضوح بإرسال الأنبياء إلى البشر ، والوحى إليهم، وتكليفهم .

وأنكر أنه حين نطقت الآيات السابقة مكذبة مقولة الدكتور عبد الصبور (فى

الحوار الذى دار بيني وبينه) ، وضاقت عليه المسالك – لجأ إلى (حيلة سانجة) لاتغنى عنه شيئاً ، إذ قال عندئذ : الوحى فى هذه الآيات والنبوات والتكليف للبشر الذين تحولوا بعد خلق آدم إلى مرحلة (الإنسان) ، فهو وحى إلى الإنسان الذى كان بشراً من قبل من ملايين السنين ! ونسى الدكتور عبد الصبور أنه قال بالحرف الواحد : «ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله تمهيداً لظهور ذلك النسل الآدمى الجديد ، اللهم إلا تلك العلاقة العامة أو التذكارية باعتباره من نسلهم» (ص ٩٨) ، «ومقتضى هذا أن النوع البشرى قد انقرض ليحل محله رتبة أرقى هى رتبة (الإنسان) ، (ص١٠٩) .. فكيف يخاطب القرآن ، ويرسل الرسل، ويكلف من انقرض منذ ملايين السنين ؟! ولماذا إذن لم يكلف (الطين) الذى خلق منه البشر ، كما كلف (البشر) الذين انحدر منهم (الإنسان) الذى هو عند الدكتور عبد الصبور المنفرد بالتكليف والمستحق له؟!.

ولن ينفع الدكتور عبد الصبور هنا زعمه (الذى لا دليل عليه إطلاقاً ، بل تكذبه النصوص القرآنية المعصومة) الذى ادعى فيه أن بين البشر والإنسان عموماً وخصوصاً مطلقاً ، لأنه يقول فى النص السابق الذى قرر فيه ذلك (ص ٩٧) إن التكليف الشرعى مختص بلفظ (الإنسان) «الذى يطلق بمفهوم القرآن على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة .. لاغيره، وهو الذى يبدأ بوجود آدم عليه السلام (أبو الانسان) ، لا «أبو البشر» (ص ١٠٩).

وخلاصة هذا كله أن القرآن الكريم يكّذب قول الدكتور عبد الصبور : إن القرآن الكريم لم يوجه خطابه (مطلقا) إلى البشر ، وينقضه من أساسه على النحو السابق .

ثانياً : ومثل هذا يقال فى زعمه أن التكليف الدينى منوط بصفة (الإنسانية) لابصفة (البشرية) فلم يعد للبشر وجود منذ ظهر آدم عليه السلام) (ص٩٨) .

وفى القرآن الكريم عشرات النصوص المكذّبة لذلك بغاية الوضوح والبيان:

فإلى جانب النصوص التى أوردناها فيما سبق أطلق الله تعالى على اليهود والنصارى أنهم بشر ممن خلق ، قال تعالى (وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ..) (المائدة ١٨) والآية التى بعدها تخاطبهم بأن الله تعالى أرسل إليهم بعد فترة من الرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم .. وهم (بشر) ممن خلق ، فماذا يفعل

الدكتور فى هذا التناقض القطعى؟.

بل إن فى القرآن الكريم آيتين متتاليتين لو تأملهما الدكتور عبدالصبور جيدا حق تأملهما لانخلع سريعا من زعمه هذا لأنهما نص قاطع كأنه نزل أصلا فى دعواه ، وقد جعلها الله تعالى من دعاوى الكافرين ومزاعمهم) ورد عليها، وأعنى قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء) ، (أو لم يقل الدكتور عبدالصبور ذلك نصاً؟) فكيف رد القرآن على قائل ذلك (قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل: الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون» (الأنعام : ٩١ - ٩٢).

وأيضاً فمن مقولات الكافرين الجاحدين للنبوات (فيما يحكيه القرآن الكريم) ، ما ورد من قوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا . قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (الاسراء ٩٤ - ٩٥).

.. فهذه آيات قاطعة الدلالة فى أن الله تعالى بعث إلى البشر رسلا منهم .. ومثلها آيات أخرى كثيرة (راجع مثلا التغابن ٦، والمؤمنون ٤٧ وإبراهيم ١٠ .. وغيرها) ، (فهل يسع الدكتور عبدالصبور بعد هذا كله أن يردد (ولو فى سياق آخر لنظريته الباطلة) مقولة الكافرين : ما أنزل الله على بشر من شىء؟ وهل فعله هذا موافق للمعلوم من الدين بالضرورة؟

وبهذه الآيات القاطعة وأمثالها أيضاً يبطل زعم الدكتور عبدالصبور ان «القرآن الكريم لم يذكر (البشر) بوصف واحد (ص ١١٠) فماذا يفعل بالأوصاف التى ملئت بها الآيات السابقة وأشرفها الوحى والتكليف ونزول الكتب المقدسة بالبينات والميزان؟!

ثالثاً : ما يزعمه الدكتور عبد الصبور من أن الله تعالى حينما خلق البشر لم يأمر الملائكة وإبليس بالسجود لهم ، إنما اختص (الانسان) بهذا الأمر بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه وهيأه للتكليف - فهو كبقية مزاعمه دعوى باطلة تكذبها فى صراحة وقطع آيات القرآن الكريم .. ومنها قوله تعالى (قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون). (الحجر ٣٢ - ٣٣) لكن الدكتور عبد الصبور يدعى أنه يعرف وصف آدم

عليه السلام أفضل مما كان يعرفه إبليس!

لكن، ماذا يفعل في الآيات التي وصفت البشر بأنه (سوى) ثم سوت في التعبير تماماً بينه وبين (الإنسان)، (راجع الآيات (١٦ - ٢٦ من سورة مريم) وفيها (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً) وفيها «.فإما ترين من البشر أحدا فقولي : إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسياً).

وأين ظلالات الهمجية وانعدام العقل والتكليف في تمثل الملك بشرا سويا؟

وماذا يفعل الدكتور عبد الصبور في قوله تعالى : « .. إنما يعلمه بشر» (النحل ١٠٣) ولم يقل (إنسان) وهو المدعي عليه أنه يعلم النبي؟

وماذا يفعل في قوله (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشر تنتشرون) (الروم ٢٠) هل يرى في هذا كله أية ظلال لمعنى التفريق بين (البشر) و(الإنسان) مما يزعمه؟!

مجازفة خطيرة!

رابعاً : أما ما يقوله من أن آدم عليه السلام جاء مولودا لأبوين من البشر فهو مجازفة خطيرة وإبحار بغير هدى في عوالم الغيب، ويكفي في نقضه التأمل الواعي في قوله تعالى: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون) (آل عمران ٥٩) فلماذا ضرب الله تعالى: المثل بآدم لعيسى عليهما السلام؟ إن الخلاف الأساسي (الذي أدى إلي ضرب المثل، كما هو واضح من سياق الآية ومن سبب نزولها) هو الخلاف حول طبيعة عيسى عليه السلام، لأنه ولد من أم بدون أب، فزعم عابدوه أنه ابن الله - تعالى - وأنه ورث عنه صفات الالهية، فضرب القرآن لهم المثل بآدم عليه السلام في قياس بالأولى، لأن آدم ولد دون أب أو أم، فلو كان هذا الوصف مؤهلا لوصفه بأنه ابن الله تعالى وبالألوهية لكان المستحق له بالأولى آدم لأنه اشترك مع المسيح في كونهما ولدا دون أب، وزاد آدم أنه أيضاً دون أم، فهو مشترك في وصف المسيح وزائد عليه، ولم يقل أحد أنه بهذا إله أو ابن الله، ومن هنا صح ضرب المثل في قياس بالأولى.

وكما يقول ابن كثير في تفسيره : «ان مثل عيسى عند الله» في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب «كمثل آدم» فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بالطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى بكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها

فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا، ولكن الرب عز وجل أراد أن يظهر قدرته لخلقه : حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى فى سورة مريم (ولنجعله آية للناس) ، (مريم ٢١)، وقال ههنا (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) أى : هذا القول الحق فى عيسى الذى لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .. ثم يروى فى سبب نزولها أن وفد نصارى نجران حينما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم يحاجون فى عيسى ويزعمون بنوته وألوهيته ، ويستدلون بولادته من غير أب نزلت الآيات بقياسه على آدم .. (تفسير ابن كثير) ، (٢ / ٤٠).

تكذيب

فسياق الآية وسبب نزولها قاطعان بتكذيب دعوى أن آدم عليه السلام ولد لأبوين من البشر كما يقول الدكتور عبدالصبور ، ولولا ولادته دون أبوين لما صح ضرب المثل القرآنى المحكم ولما صحّ الاحتجاج على دعوى نصارى نجران فى عيسى عليه السلام .

خامساً : أما ما يذهب إليه الدكتور عبدالصبور من أن حواء أيضاً ولدت كذلك لأبوين من البشر فهو تكذيب أعمى لحديث نبوى صحيح رواه البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم (راجع مثلا : كتابنا (مكانة المرأة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ط ٢ ص ٣١٤ - ٣١٨) والحديث بجميع رواياته صريح ، والقاعدة المقررة فى التعامل مع النص العربى تقضى بحمل الكلام على حقيقته حتى يقوم الدليل على أن الحقيقة غير مراده ، وان المجاز هو المراد ، ولا دليل فى جميع روايات الحديث على شىء من ذلك إطلاقا .. والتفسير الذى قبلناه فى الحديث يجمع بين قبول ظاهره وحقيقته مع قبول الرمز فيه لطبيعة المرأة وفطرتها الخاصة (انظر : السابق) فلا تعارض إطلاقا بين الأمرين ، بل إن الحقيقة تتضمن الرمز بداخلها .. وهذا هو المتفق مع قوله تعالى فى مفتتح سورة النساء (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة (آدم) وخلق منها زوجها (حواء التى خلقها الله تعالى من ضلعه) وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء). وهو ما ورد أيضاً فى (الاصحاح) الثانى من (سفر التكوين) .. ومن الذى قال ان كافة ما عند اليهود والنصارى من نصوص قد حُرِّف؟ ومن هنا جاء القرآن الكريم بالحق (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) (المائدة : ٤٨) .. وجاءت على هذا النحو سنة النبى صلى الله عليه وسلم الصحيحة.

ومن العجب ان الدكتور عبد الصبور (بعد هذا التاريخ الطويل مع العلوم الاسلامية) يطلق على الحديث الصحيح «كما وردت بذلك آثاره (ص ٧٦) ولم يعرف العلم الصحيح بالحديث اطلاق كلمة (آثار) بهذا التنكير على الحديث الصحيح ، لكن كتابه هذا ينبىء فى وضوح بأنه قليل العلم جداً بعلوم السنة، حيث صَدّره بما ذكره كحديث قدسى هو (كنت كنزا مخفيا فأردت ان اعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى) ، (ص٥) وهو كلام يقول عنه ابن تيمية «ليس من كلام النبى صلى الله عليه وسلم ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، وتبعه الزركشى والحافظ ابن حجر فى (اللآلىء) والسيوطى .. وغيرهم) كشف الخفا للعجلونى ٢/١٩١).

ويبدو أن الدكتور عبدالصبور حفظ الحديث فى صغره (كما يقول فى ٥) فى حلقة قليلة العلم بالسنة الصحيحة،ثم لم يعد إليه بعد بتحقيق!.

حمل اللفظ على غير معناه

سادساً : أما ما يزعمه الدكتور عبدالصبور من أن المعنى الصحيح للسجود لآدم هو موالاة آدم وذريته إلى يوم القيامة ، وقد أدركت ذلك الملائكة فأطاعت، وغاب هذا المعنى عن إبليس لغبائه .. (ص ١٤٩) فهو حمل اللفظ على غير معناه الظاهر دون دليل ، مما يخالف القاعدة المقررة فى التعامل مع النص العربى .. وما المانع من أن يكون معنى السجود الذى وردت به الآيات هو المعنى الحقيقى ؟ ليس هناك مانع إطلاقا من ذلك ، بل إنه المتبادر إلى الذهن الذى فهمته العقول العربية حين نزلت الآيات ولو قبلنا نقل معانى الكلمات المنزلة عن حقيقتها لغير دليل (سوى أهواء العقول غير المعصومة) لهدم النص القرآنى شيئاً فشيئاً .. ولما كان هناك ضابط أو معيار صحيح للقول فى معناه، فالسجود إذن فى القصة هو حقيقة السجود ، وليس شيئاً آخر، هذا هو مقتضى البيان العربى الصحيح .

إن التأويل والاسراف فيه دون مقتضى صحيح مزلقة للفكر خطيرة وأى مزلقة!.

خاتمة:

وبعد فقد حاكمنا كتاب الدكتور عبدالصبور إلى المعيار الذى قبله، فتهاوت مقولاته واحدة بعد الأخرى حسب التفصيل السابق .

وصدق الله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً) (الكهف ٥١) فهل يعيد الدكتور عبد الصبور النظر فى مقولات كتابه على ضوء ما فصلناه؟ نرجو ونأمل..

الابتلاء بالكتابة

بقلم :صافى ناز كاظم

●● الكتابة : أصعب الأمور. الكتابة : أسهل الأمور . الكتابة : خلاص من المتراكم على الصدر. الكتابة : هم ثقيل على الكتفين. الكتابة : لابد أن تظل هواية، فالالتزام بضرورة الكتابة لأنها مهنة مرتبطة بمرتب أو مكافأة منتظرة لا يمكن الاستغناء عنها : إذلال رهيب يدفعك إلى التوقف. قوة الاستغناء : قدرة ذهبية هنيئا لمن يملكها. أعتقد أننى أملكها، لأننى أملك الصوم، والإفطار على بصلة ●●

هذه المقدمة تعكس حالتى الغاضبة الآن. غاضبة من ابنتى، ومن رئيس التحرير، ومن رئيس مجلس الادارة. لدى نزعة هائلة للاستقالة، وهى نزعة تولدت معى منذ بدأت العمل بالصحافة. ضحك منها رؤسائى كلهم، وسألنى الأستاذ على أمين مرة من المرات: صافى ناز لماذا لم تصلنى استقالة اليوم؟. أهتم بابنتى فتتهمنى بالسيطرة والتحكم. آخذ من قلبى لأعطى المجلة التى أحبها - الهلال - فيتهمنى، رئيس التحرير بأننى استسهل الكتابة من الأوراق القديمة. أبتعد عن الشحناء وأنتقل من موقع الى موقع يشفينى من التوتر، فيتهمنى رئيس مجلس الادارة بأننى أهرب لألهو وألعب. لولا أننى ملتزمة بقرارى الذى أخذته على نفسى عند بلوغى الستين بأن «أغتبط» مهما حدث، لكنت الآن فى غاية النكد. لكننى لا أحب أن أقع فى هذه البئر. إننى أجذب نفسى الى شاطىء البحر على الرمل الأصفر - الذى لم يعد موجودا فى الواقع المادى - ، وآخذ بيدى الى الإطلالة على النهر - الذى كان النيل من أطول أنهار الدنيا وأكثرها نفعا سابقا - ، وأفرد

خطوى على أبسطة الاخضرار أينما تخيلتها. مغتبطة جدا أنا. فرحانة. أعرف كيف أضحك، لأننى أعرف مكمن المثير للضحك فى كل الابتلاءات والمحن. الحمد لله. الحمد لله، الحمد لله. الذى لا أحمد سواه .

★★★

«محمد بركة» كاتب قصة شاب، يشبه بطل الفيلم الذى لم يعجبنى : «الجمال الأمريكى». لم يعجبنى الفيلم لأنه تنويعات رديئة ركيكة على أفلام ومسرحيات الأزمات العائلية الأمريكية التى أغرقتنا بها هوليوود فى الخمسينيات من تأليف تنيسى وليامز ووليام انج، لكن «محمد بركة» لا ذنب له فى هذا الشبه الخارجى لبطل الفيلم الشاب الذى أدى دور الإبن المقهور من أبيه. «محمد بركة» من قرية صغيرة فى محافظة دمياط، هادىء، مهذب، خفيض الصوت، يمارس عمله الصحفى كأنه كل شأنه فى الحياة، حتى تكتشف بمحض الصدفة أن شأنه الحقيقى هو «فن الكتابة». يكتب أصعب أشكال «فن الكتابة» ، لا .. ليس الشعر، ولا.. ليست الرواية ، بل هى نعم «القصة القصيرة» : اللقطة المكثفة البطيئة السريعة الجهمة التى تغرقك فى الضحك، وبعد الضحك تتأمل نفسك وتتساءل : ماذا يفعل الفن بالآلام؟.

★★★





محمد بركة

فى مجموعته «كوميديا الانسجام» التى تحتوى على ٢٢ قصة بين قصيرة جدا وبين أطول نسبيا ولا تتجاوز ٦٠ صفحة، والصادرة عن مركز الحضارة العربية ، يوليو ١٩٩٩ ، بلوحة غلاف للفنان «على فرزات» وصورة غلاف خلفى بعدسة «موسى محمود» لبروفيل وجه المؤلف محمد بركة، يقول محمد بركة فى صفحة الاهداء : «سأعبر حزن أمى ولهفة حبيبتى، وسأتوجه لذلك الرائق الجميل الذى أحرج رقابة المصنفات بأغنية : كداب ياخيشة.. كداب قوى.. أنا كنت فاكرك فهلوى، فلما قالت له الرقابة : لايمها حبتين، كانت أغنيته الجديدة : طيب ياخيشة وكلك طيابة.. زعلت منك حتى الرقابة!». فى سطور هذا الاهداء تلمح فورا عين محمد بركة اللاقطة للدعابة التى يحتمى بها الضعيف فى

مـواجـهـتـه للأقـوى، ويكون اصطيـاده المسـتـمـر لهذه «الدعابة» هو حـيـثـيـاته لتسجيل «بطولة» ذلك الضعيف، ودعمها بالانحـيـاز لهـا. في لقطة تحت عنوان «طارق» نقرأ فـيـمـا لا يتجاوز ثـمـانيـة أسطر: «أذكر أنه كان يوم الاحتفال بمولد النبي، أي يوم الحلاوة وبكر البط الشيني، والبهجة الموسمية التي تترقبها عزبة نائية لم يكن بطل الحرب والسلام يعرف عنها شيئا. كان الحر كالهم الثقيل والترعة تجرى بماء صاف، وحين تحلقوا حول الطبلية، لاحظوا غياب طارق. ودون أن أثقل عليكم - وعليّ - بالتفاصيل - طارق كان نائما على بطنه، والتيار الناعم يجرفه في هدوء حتى اعترضه أخيرا فرع كافور، ودفعته التيارات الصغرى برفق نحو الشاطىء وتكاثرت عيدان الحطب وأوراق الصفصاف الجافة وتجمع الزبد حول جثة أخي التي تبدو الآن منتفخة قليلا..» . تنتهي هذه اللقطة المفعمة بالبساطة وغور الألم الذي يشبه تحول الحديد الى اللون الأبيض حين تشتد فيه النار ويكون قد قارب السيولة والهشاشة ، لتأتي بعدها لقطة بعنوان (......) - أي عنوان محذوف في بطن الكاتب - كأنها ملحق تفسيري يدون ماذا حدث بعد ذلك الحادث المفجع في سطور قليلة مماثلة : «حين غرق أخي في الترعة، قضم الحزن قطعة من قلب أمي التي كانت آنذاك وردة جميلة تتفتح. ونخر السوس أعصاب أبي حين وصلته الرسالة المشئومة وهو في الغربة يعمر بلاد : روح يامصري، تعال يامصري. أمي كفت عن ارتداء الملون، ولم تعد تقف أمام المرآه. وأبي سخط على صديق عمره الذي تلاعب بأعصابه في المقدمة الطويلة المليئة بعبارات من نوع، نحسبك صبورا ونثق في إيمانك بالله، وتمنى أن لو كان قد ألقى اليه بالخبر في هدوء وبساطة. أمي قالت : ماعدلناش قعاد في البلد دي، وأبي عاد في نفس الأسبوع وقال : اللي تشوفيه. وانتقلنا نحن الثلاثة الى مدينة صغيرة يزحف فيها النيل على بطنه، وتجر عرباتها الكارو أحصنة عجوز، ويحب حريمها الجارة الجديدة أم طارق وينادين ابنها الوحيد حسب هذا الاسم دون أن يعرفن أن اسمي محمد، وأن طارق هو اسم أخي الكبير الذي رأيت جثته طافية وسط العيدان وأوراق الشجر» .

يقول محمد بركة كل شيء «في هدوء وبساطة»، من أرشيف الذاكرة، من لوحات حركة الناس : تعمل ، تجرى، تتكلم، صوابا أو خطأ، بمنطق أو بلا منطق، حقيقة أو وهما. هو جالس ساكت «شايل طاجن ستة» - يبدو وقورا جادا، وعينه اللاقطة لا تكف عن البحث عن زاوية

الهزل فى أركان وقواعد الجدية. هو شكل من أشكال الحزن الجديد لما أسماه جيل مابين «١٩٦٧ ـ ١٩٧٣» : «.. لكن من أين لنا بالانفعال، نحن الذين ولدوا فى السنوات القليلة الساخنة بين ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ، نظل نعيد قراءة بيانات كوبون الاشتراك، نتأمل شروط هذه المسابقة السنوية ، وأبدا لا يضطرب فينا الهدوء..» ـ من قصته عن الجرىء والجميلة، ص ٤١ – انه جيل حزين بالميراث النفسى الذى ورثه عن آباء اكتأبوا طويلا. تأخذ كتابته فى قطع قصيرة جدا، لا تتعدى أربعة أسطر، ايقاع البريد الاليكترونى : «بالأمس لم تكن القاهرة غولا يفح الصهد ويأكل الأسمنت. القاهرة بالأمس لم تكن غولا يفح ويأكل الأسمنت . يا أخواتي قاهرتكم لم تكن غولا يفح بالصهد ويأكل الأسمنت أمس.. ياماري أنا لست نبيا. ياوائل.. أنا لا تعنينى الحداثة فى شىء» .

هذا الشكل من التعبير، الذى قد يراه البعض، غير مفهوم أو هذرا لا معنى له، يعجبنى جدا وأجده أكثر احتشادا بالدلالات والمعانى من صفحات مكدسة بالكلام غير المخفوق جيدا . هذا هو الشكل الذى تطور اليه نجيب محفوظ فى انتاجه الأخير الذى ينشره بانتظام فى مجلة نصف الدنيا. لكن تهويمات شاب لم يبلغ الثلاثين مثل «محمد بركة» ، تختلف تماما فى مضمون بثها عن شيخ فى الثامنة والثمانين. يكتب محمد بركة «هكذا كالحلم»، ويغمس نجيب محفوظ من بئر أحلامه التى لم تعد تفارقه، لكن الحلم هنا ليس الحلم هنا. يشف «محمد بركة» فى قطع مثل «ثلاث غيمات»، و«حنان مدفوع الأجر»، و«اسمها مارى» ، و«هكذا كالحلم» وأجده محلقا كتماوج العطر المحسوس غير الملموس، لكنى فى قطع أخرى أتوقف متوجسة حتى لا أدخل فى أزقة أحسبها موحلة . لا أصادر عليه، لكننى لا أحب تلك الساحات الغامضة فى «هوامش بالرصاص» و«أبو بخيت»، التى أعجبنى فيها تعبير: «الجوع كافر لكن العطش ملحد».

★★★

لا أطالب «محمد بركة» بأى شىء سوى أن يظل كاتبا بفن، بعيدا عن التزامات لقمة العيش ، ذلك طالما أنه صار واحدا ممن تورطوا فى «ابتلاء الكتابة» .

★★★

وضعت قطعة اللحم لقطتى «فيفيان لى» بعيدا عن أوراقى التى أكتب الآن عليها، التقطت قطعة اللحم وجاءت محددة الاتجاه لتلتهمها فوق كتابتى تماما. هل يعنى هذا أن كتابتى قابلة للالتهام؟.

لمسة مشجعة من قطتى العزيزة، بعد أن تم التكاتف لصد نفسى عن الكتابة.

غداً سأبدأ

بقلم: حسن سليمان

كنت محتاجاً إلى أن أقابله فى هذا الغروب .... مصيبتى كانت أكبر من أن أحتملها .... كنت محتاجاً إلى إنسان . يتعاطف معى، ويحس بى. ولم يكن الصعود إلى المقهى فى «السيدة نفيسة» سهلا . حيث كنت أرتاده مع أستاذى «بيبى مارتان» لنرسم الحجارين وهم يلعبون «الدومينو» . الحجارون صامتون دائماً قليلو الكلام. وإن تحدثوا فهم دائما يتحدثون عن خبرة، أو عن مشاكل فى صنعتهم تضيف الكثير إلى أى غريب . كانوا يجدون واحدا منهم ذهب بصره، يقولون عنه إنه آخر الحفارين العظام فى الحجر . كان يحفر الرسوم الإسلامية باشتقاقاتها والخط العربى . ويتداولون دائماً أن «طلعت حرب باشا» كان يتخذه مستشارا له . لم يخبرنى الرجل أبدا أنه صوفى، كما أنه لم يخبرنى بالطريقة التى يتبعها .

لكن من ترديده اصطلاحات صوفية دون أن يدرى أدركت هذا.

قالوا «إن بصره ذهب عنه رويدا ... رويدا من انكفائه الدائم على الحجر ، والمطرقة فى يده» . اتخذته أستاذاً أكثر من صديق . أوى اليه كلما ألمت بى غمة . أجلس بجانبه . لا يرى الرسم فى يدى ، بل يتبع صرير القلم فى احتكاكه بالورق.

فجأة .. ذات مرة وأنا أرسم صرخ صديقى الحجار الأعمى، أو دعنى أقول عنه فخوراً أستاذى الصوفى الذى كشف الله عن بصيرته ، «لقد كنت ترسم جيدا. لماذا هربت منك الخطوط؟ إنك عصبى يضيع منك الانضباط ، ولافن دون

انضباط . إن الفن نوع من ذكر الله ولا يمكن أن تذكر الله دون استغراق فى الانضباط. دع كل شىء يابنى وركز فى فنك .... والباقى كله سيأتى إليك». فجأة.. تحسس بجانبه لفافة بها ملابس داخلية أحضرتها له ولم أخبره بها. قال لى : «أهذه الأشياء لى أنا؟».

قلت له : «أجل». أجابنى : «لست فى حاجة لها خاصة أنها بالتأكيد من شركاتهم الاستثمارية .... أين ذهبت أيام «طلعت حرب»، و«عبود باشا» . حينما كان يريد أن يجمع قمامة مصر كلها . ليصنع منها السماد . جمع رأسمال الشركة كلها بسندات فى أسبوع واحد . ظل المصنع الضخم جدا فى مدخل «بنها» شاغراً . تتراهن الصبية على قذف نوافذه الزجاجية بالحجارة ..... ولا ندرى ماذا حدث له الآن؟!».

نظر إلىّ بعينين خابيتين، ولكنهما ينفذان إلى داخلى. تطلع إلىّ قائلاً فى هدوء : «هل تظن يابنى أنها تفرق عند الله لو قابلته «بفانلة» جديدة أو ممزقة؟» . نظرت إلى صديريته الممزقة تحت جلبابه الذى لم يفارقه أبداً منذ سنوات . أحسست بسكينة نفسية ، وقلت : «أبداً لاتفرق، وأنا أتمنى أن أقابل ربى عاريا حتى فى سريرتى».

همس الرجل : «سيذهب الله غمتك قريباً».

***

انصرفت ... وفجأة وجدت نوبة من الضحك تنتابنى بصوت عال . لقد احترقت شقتى تماماً . ومع احتراق الشقة وجدتها هى التى كم المتنى تحترق بداخلى ، كما كانت العروس الورقية تحترق فى يد جدتى، وهى تدعو لى بالشفاء وأنا مريض.

***

حينما وصلت إلى قرب مرسمى . وجدت رجلا حافى القدمين ، رث الملابس، يحمل سيفا خشبياً أخضر . وفى مؤخرة «جاكتة بيجامته» علق بالدبابيس أعلاما أمريكية ورقية . تنسل فى الأرض خلفه كأن لا نهاية لها ..... أعجبتنى هذه الصورة جداً ولا أدرى لماذا . وجدت أن الرجل قد حل جميع مشاكله . لاشقة احترقت بكل مايملك ، ولا حبيبة نافرة، ولا مسئولية اجتماعية تؤرقه . ذهبت إليه ضاحكا وبودا . أعطيته لفافة الملابس الداخلية التى رفض صديقى الصوفى أخذها . قلت له : (أمريكا قد أرسلت لك هذه الهدية) أخذ الهدية وكان الأمر لايعنيه فى شئ . لكنه صاح ملوحا بسيفه فى الهواء . وقد جحظت عيناه صارخا : «انظر .... انظر .... انظر لولا هذا السيف ما أرسلت إلى أمريكا مثل هذه الهدية .. اسمع لابد أن يكون لك حلم كى ترتاح». همست له : «صدقت» . وأكملت لنفسى: على أن أرفع الحلم ليتحقق إلى فعل.

***

أتذكر ..... أنى كنت فى وفد لزيارة منازل النوبة، قبل أن تغرقها مياه السد العالى . قلقت ذات ليلة ، ومع نسمات الفجر وارتطام الموج الهادىء بجانب السفينة . وجدت رجلا هرما ... يصعد التل ويسعى وراءه طفل صغير . يحمل الرجل الهرم «شتلة» صغيرة لنخلة وفأسا . ويبدأ يعلم الصبى الصغير . كيف يحفر ليضع الشتلة فى الأرض . وتعجبت!!.

إذ إن المياه ستغمر هذه الجزيرة كلية بعد يوم أو اثنين.

هرولت بسرعة نازلا درجات السفينة . صعدت التل إلى الرجل .

قلت له : «ألا تعلم أن هذه الجزيرة ستغرق كلية».

أجابنى بهدوء : «أجل. لكن جدى فى مثل هذه الأيام من السنة، علمنى كيف أزرع نخلة . كذلك فعل أجدادى. نحن تعلمنا أن نبنى الحياة . وإن هدم، أو أغرق غيرنا الحياة فهذا ليس شأننا». وانصرف عنى كلية . دون أن يعيرنى التفاتا .

فانصرفت فى خجل .

***

احترقت شقتى تماماً ، ولم تعد سوى رماد أسود ارتفاعه نصف المتر : وجدران سوداء فاحمة .

أتذكر أنه منذ سنوات .... قرأت فى كتاب للكاتب النمساوى الشهير - «استيفان زفايج» عن حياته زمن هتلر ، قال فيها : إن الجستابو أخذه إلى السجن، دون أن يدرى لماذا ، اللهم أنه كان لايؤيد الكثير من التصرفات التى تحدث حوله، وحين أفرج عنه رجع إلى منزله. فلم يجد له أى معالم ...، بل حطام ... أنقاض فوق بعضها وحرائق مشتعلة . وجد نفسه بلا مأوى، ولا حتى صديق سوى قطة ضالة سارت بجانبه . اندفع يبكى ، ويصرخ ويضحك فى آن واحد . وسرعان ماتماسك . وقرر أن يبدأ، مهما كانت البداية صعبة . وكل بداية صعبة . ومضت السنوات. و«استيفان زفايج» يبنى من جديد حياته ومجده الأزلى ، ومنزله وكتبه، وأشياءه الثمينة .

***

قلت «لإحسان عبد القدوس» سأبدأ من جديد . أجابت :

«من الصعب على من كان فى عمرنا أن يبدأ من جديد» . صرخت فى حدة : «سأبدأ وإن مت قبل أن أنتهى مما أريد بناءه. فيكفى أننى بدأت . حتى لا أشعر بالهزيمة يوما ما فى أعماقى».

وبينما أنا أسرع إلى مرسمى، وجدت على الأرض أمامى قارورة مثقوبة ، بلا ظل يمتد أمامها . فجأة ... قذفتها بقدمى محطما إياها ، صارخا فى طفولة : «رفقا بالقوارير» . ثم قلت فى نفسى : «وإن كانت القوارير مثقوبة ، فالأفضل أن يلهو بها الأطفال ويتقاذفونها فى الطرقات».

لطيفة الزيات
شجرة العشق !

مها محمود صالح

يولد الإنسان ... ليموت !

وما بين الموت والحياة تتعدد التجارب الدالة الكاشفة .. يولد من خلالها الإنسان من جديد أو يموت وهو حى ! وتكتسب حياة الإنسان قيمتها من وعيه بلحظات التحول تلك ومواجهة ذاته بشجاعة لتخطى لحظات الهزيمة وتجاوزها ، بل تحويلها إلى بداية انتصار جديد.

وقد سجلت د. لطيفة الزيات تجربتها الفريدة فى كتابها (حملة تفتيش: أوراق شخصية) . وهو كتاب صغير الحجم عميق التأثير، قرأته عدة مرات وفى كل مرة تنتابنى نفس الدهشة ويستحوذ علىّ نفس الإعجاب !

تدهشنى قدرة د. لطيفة الزيات على النبش فى دهاليز ذاكرتها ، حتى تستخرج من ماضيها القريب والبعيد الأحداث والتفاصيل ذات الدلالة، وتعجبنى تلك البصيرة النفاذة التى تنظر بها إلى تفاصيل وأحداث حياتها، فتعبر من الظاهر إلى الباطن وتنفذ من الحدث الواضح إلى الدلالة الخفية، وهكذا تتحول عشرات التفاصيل المتناثرة على مدى العمر إلى خطوط واضحة ترصد تطور أفكارها ومشاعرها واختياراتها.

يأخذ الكتاب شكلاً متميزاً يجمع بين الرواية والسيرة الذاتية، وهو ينقسم إلى جزءين يبدأ كل منهما بحدث مهم فى حياة المؤلفة . الحدث الأول هو احتضار أخيها عبدالفتاح فى مارس ١٩٧٣ حتى وفاته فى مايو ١٩٧٣ ، أما الثانى فهو القبض على المؤلفة كواحدة من المتحفظ عليهم فى قائمة السادات الشهيرة فى سبتمبر ١٩٨١ .

ولدت لطيفة الزيات فى دمياط ١٩٢٣ وتوالت عليها التجارب الدالة الكاشفة، فتقلبت بين الانتصارات والانكسارات حتى رحلت عن عالمنا منذ أعوام قليلة .

كانت البداية فى مرحلة مبكرة من عمرها ! ففى الحادية عشرة من عمرها واجهت الطفلة لطيفة ، لأول مرة ، الشر مجسداً على مستوى الدولة . كان ذلك فى المنصورة عندما رأت من شرفة منزلها رصاص البوليس، يحصد بلا رحمة أربعة عشر قتيلاً من المتظاهرين تأييداً لمصطفى النحاس زعيم الأغلبية الذى كان يزور المنصورة آنذاك .

فى تلك اللحظة ولد حس الانتماء القومى فى نفس الطفلة ، ثم اتخذ شكلاً أكثر التزاماً عند التحاق الفتاة بالجامعة ، بعد ذلك بسنوات . لقد تحولت لطيفة من فتاة تقليدية تستشعر الخجل من جسدها الأنثوى إلى «فتاة منطلقة صلبة قوية الحجة» تناقش زملاءها الطلبة وتقنعهم بالانضمام إلى صفوف الحركة الوطنية ، وكان ذلك التحول نتيجة لذوبان ذاتها الفردية فى الذات الجماهيرية الواسعة . أى ذوبان «أنا» فى «نحن» .

وفى عام ١٩٤٦ يعذب لطيفة مرة أخرى إحساسها بالعجز عن الفعل



الإيجابى فى مواجهة شرور السلطة ، التى فتحت كوبرى عباس تحت أقدام المتظاهرين ليسقط العشرات منهم فى النيل ، لم يتح لها آنذاك إلا أن تجلس صامتة على ضفة النهر تنتظر خروج الجثث واحدة بعد الأخرى لتلف كلا منهم بعلم مصر الأخضر .

العمل السياسى

لكن العجز يتحول إلى محاولة للفعل ، إذ تنخرط لطيفة بعد التخرج فى العمل السياسى السرى . وبعدها ترتبط بالزواج، ليس بالرجل الذى أحبته ، وإنما برفيق الكفاح الذى اعتقدت أن زواجها منه سيخدم أهداف الكفاح . لم تدرك وقتها أن ذلك الزواج كان يحمل بذور انهياره ، لأنه كان تكريساً لما درجت عليه منذ بداية انخراطها فى العمل السياسى من تجاهل بل وأد للأنثى بداخلها . وفى أسلوب رومانسى تحدثنا المؤلفة عن منزلها فى

سيدى بشر الذى شهد حياتها مع زوجها الأول حيث : حوض الماء يستحيل فى الليالى المقمرة إلى سبيكة فضية ، تتراقص فيه الأسماك الملونة كألسنة قوس قزح . والقمر يتأرجح متوجاً على وسط البحيرة تحتضنه فى حنان فروع أشجار الحديقة ، وحيث توجد شجرة مشمش تنبثق زهورها ناصعة البياض بالغة النعومة من عيدان عارية خشنة مليئة بالعقد . (ص٢٩) .

وتنجح السلطة فى طى صفحة تلك المرحلة من حياة لطيفة ، فيلقى القبض عليها وعلى زوجها عام ١٩٤٩ حيث يحكم عليه بالسجن لعدة سنوات ، أما هى فتخرج بعد شهور من سجن الحضرة بالإسكندرية معتقدة أنها قد صمدت للتجربة وانتصرت عليها . لم تستطع عندئذ أن تلمح بوادر تحولها إلى النقيض والذى تمثل فى إقدامها على الزواج للمرة الثانية عام ١٩٥٢ . وفى الزواج الثانى انبعثت بداخلها الأنثى التى وأدتها طويلاً ، فباتت السعادة الشخصية حلماً أو على الأصح وهماً لاتنى تطارده وتتنازل فى سبيله عن الكثير من حريتها وقدرتها على الاختيار ، لكنها أبداً لا تصل إليه !

تدرك لطيفة بعد سنوات أنها تدور فى المدار الخطأ ، ويقتضى الأمر منها سنوات أخرى حتى تستطيع أن تستعيد قدرتها على الفعل الحر فتنفصل عن زوجها الثانى عام ١٩٦٥ . وقبل أن تبرأ تماماً من آثار زيجتها الثانية تداهمها هزيمة ٦٧ المروعة، ومعها إحساس مرير بالمسئولية : «كل واحد منا مسئول عن هذه الهزيمة ، لو قلنا لا للخطأ كلما وقع خطأ ما حلت بنا الهزيمة» . (ص٧٤) .

وتتداعى د. لطيفة تحت وطأة الموت الذى يبدو وكأنه يحاصرها : يموت عبدالناصر . وبعده يموت زوج أختها فجأة، ثم أخوها عبدالفتاح ، بعد صراع مع المرض . ولا تتخلص د. لطيفة من ذلك الحصار إلا أثناء حرب أكتوبر ٧٣ حين تستعيد رغبتها وقدرتها على الوجود مع الناس والاندماج معهم . لكن النصر العسكرى اتخذ منعطفاً جديداً كاد يحوله إلى ما اعتبرته د. لطيفة هزيمة سياسية ، وهكذا بدأ نشاطها فى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية بعد توقيع معاهدة السلام عام ١٩٧٩ .

وفى عام ١٩٨١ ، وهى فى الثامنة والخمسين من عمرها ، تعود د. لطيفة الزيات إلى السجن ضمن قائمة ضمت ١٥٠٠ من معارضى كامب دافيد .

تجربة السجن

وتركب د. لطيفة سيارة الشرطة فى طريقها إلى سجن القناطر مسترخية ومكتفية بذاتها «نشوى بإدراك أنى ألمح حريتى كاملة غير منقوصة فى آخر الطريق ... وما من أحد يملك أن يسجننى» . ص١١٦ .

نعم لم يعد أحد يملك أن يسجنها بعد تجربة حياتية خصبة ضلت خلالها الطريق شابة ، ثم استعادته بعد كفاح واستردت معه صوتها الذى كانت قد فقدته خلال سنوات انصرفت فيها إلى العمل الأكاديمى خوفاً من الصدام . لم يعد أحد يملك أن يسجنها وقد تحقق فى السجن امتزاجها بالكل .. بزميلاتها السجينات اللاتي لا تعرفهن فى الزنازين الأخرى ، وبرفيقات الزنزانة ومنهن من يقاسمنها توجهاتها الفكرية ومنهن من يختلفن معها. لقد تجاوزن جميعاً بدايات الصدام الأولى وتوحدن فى مواجهة إدارة السجن التى عولت على صدامهن المتوقع .

لم يعد أحد يملك أن يسجنها وقد توحدت ذاتها المنقسمة بعد طول تشتت . ها هى الطفلة التى عذبها عجزها عن الفعل فى مواجهة السلطة ، والمرأة التى هربت من الصدام فى منتصف العمر ، ها هى فى شيخوختها أمام مأمور السجن ، قوية بزميلاتها وبتوحدها الداخلى فتقول له: «بلها واشرب ميتها» مشيرة إلى الخطابات التى أسفر عنها التفتيش الذاتى لزميلتها فى الزنزانة د. أمينة رشيد . ص١٦٣ .

وفى السجن اكتمل للطيفة الزيات شعور التحقق الذى غاب عنها فى طفولتها فى البيت القديم ، شاهد التغير وقرين الموت ، والذى عرفته منقوصاً فى بيتها بسيدى بشر أثناء زواجها الأول .

فى السجن توحدت لطيفة مع الشجرة الضخمة التى تتوسط ساحة السجن الداخلية . الشجرة التى «ترتفع على كل الأسوار وجذورها تضرب ممتدة كلما لفظتها أعماق الأرض إلى أعماق الأرض». ص١١٧ .

هذه الشجرة هى رمز الخصوبة والديمومة فى مقابل شجرة الجوافة العاقر، التى شهدتها فى البيت القديم ، وشجرة المشمش ، التى ظلت تحلم بازدهارها حتى زالت مع زوال بيتها فى سيدى بشر .

وقد تأكدت حريتها بممارسة الكتابة رغم وطأة السجن ، إذ كانت الكتابة دائماً بلورة لحريتها وتعبيراً عنها فى آن .

●●●

وفى سبتمبر ١٩٩٦ تكتمل دورة تلك الحياة الخصبة . نقول تكتمل لأن الموت على حد تعبير د. لطيفة ليس وارداً فى قاموس العشاق والصوفيين : «فشجرة العشق هى العاشق والمعشوق معاً . وشجرة العشق لا تموت . والموت ليس بطرف فى معركة . العاشق يعيش فى جلد الناس ويعيشون فى جلده ، ومن ثم فهو لا ينتصر على الموت ولا ينهزم ، وهو يتناهى إلى لحظة التوحد ، لحظة تستحيل ورقة الشجرة إلى الشجرة» . ص١٠٩ .

ولقد كانت لطيفة الزيات عاشقة !

أحمد بخيت

صوت شعرى ..

يجمع بين التراث والرؤية الحداثية

بقلم : محمد إبراهيم أبو سنه ..

يجىء ديوان الشاعر أحمد بخيت «ليلى شهد العزلة» مبشرا بحداثة تنبثق من رحم الأصالة والتقاليد الشعرية التاريخية . وليس هذا الديوان باكورة كتاباته الشعرية فهو يكتب منذ منتصف الثمانينيات وقد فاز ببعض الجوائز الشعرية. والشاعر فى ديوانه الجديد يبرهن على أن الأصالة تعنى القدرة على السيطرة بواسطة الموهبة على أدوات التعبير الشعرية وتوجيهها نحو تجسيد تجربة أو رؤية تجمع بين الأصالة والمعاصرة، والديوان يضم مجموعة متناسقة من المقطوعات الشعرية هى أشبه بالعناقيد التى تشكل فى النهاية شكلا فنيا مركبا. فكل مقطوعة شعرية تكاد تكون قصيدة قصيرة تتمثل معنى أو إحساسا أو تأملا أو تجربة أو ذكرى، وهى تتآزر فى مجموعها لتقدم لنا سيرة شعرية متفجرة بالأحزان والحقائق الدامعة والأحلام المحبطة والطفولة المعذبة. وربما كان الإيقاع بتدفقه وتلقائيته معبرا عن جوهر هذه الشاعرية التى تبدع شعرها بنظرة واعية بذاتها مؤكدا أن الشاعر الحقيقى يولد مفطورا على نسق موسيقى.



ثمة جدل بين عالم الشاعر الذى يرتكز على إحساسه العميق بدور أسرته فى نشأته خاصة الأم والأب وبين العالم الخارجى المفعم بالبؤس والظلم والقهر. ورغم أن عناقيده الشعرية تكثف دلالتها حول ذاتية وجود الشاعر فى أسرة وبيئة ومناخ فإننا نلمح ملامح عالم مثقل بالواقعية والغنائية والدرامية أيضا، قد يبدو الشكل الذى اختاره الشاعر ليسكب فيه أحلامه الشعرية موحيا بالإحكام ولكن ما يثير المفارقة أن قدرة الشاعر على الصياغة تجعلنا نحس بالتلقائية الشعرية ويتوارى الإحكام الفنى الذى يشير إلى عمل العقل لا الوجدان، ثمة مزيج من الدهشة والبكارة تتدفق فى ثنايا عمله وهو ينطلق مثقلا وخفيفا حرا ومقيدا محكما وفطريا فى آن .. وتجربة الشاعر وجودية فى أساسها فهو معنى بتأمل هذا العالم الذى يعبره وكأنه لا يعنيه وإذا كانت الموسيقى بتدفقها تعد عصب الشكل الفنى فإن القافية التى تأتى حتمية وكأنها هى التى اختارت مواقعها فى نهايات الأبيات تمثل تجانسا مع هذا الشكل، الذى يعتدل بين تقاليد الشعر العريقة والطموح إلى رؤية حداثية بكل ما تمثله هذه الرؤية من إحساس حاد بالمفارقة ومن تنوع وجدل وتطور وعزلة واندماج . وتأتى المقطوعات الشعرية وكأنها مغالبة لهذا الوجود الذى يهدده العدو المتمثل فى الصمت والنسيان ولهذا يجىء هذا الشعر لتخليد بستان الحياة يقول فى مطلع ديوانه:

رأيت الصمت والنسيان
يجتهدان دون ضجيج
وأبوابا بلا معنى
دخول مرة وخروج
فقلت أخلد البستان بالبلي / بيعض أريج
وقلت أعلم الفخار شيئا من ذكاء الماء
وأوقظ غفلة الأشياء. كي تتكلم الأشياء
لعل زجاجة المصباح تحفظ حكمة الأضواء
أنا ضيف علي الدنيا وأوشك أن أودعها.
ولدت بحضن قافية وأختم رحلتي معها.
وغاية شهوة الكلمات أن تغتال

مبدعها .

أراوغ شهوتى للموت منذ صرخت فى الميلاد
وأعبر برزخى وأعود منتصرا على الأبعاد
لكى اصطاد خلد الروح قبل تحلل الأجساد

يوحى الشاعر من البداية أنه يحاول بشعره أن يمنح الخلود لهذا البستان الذى قد يكون بستان الحياة أو الحب أو الجمال أو الربيع وكأن الشعر ليس الا رائحة زكية والرائحة التى هى الشعر الذى يكتبه يبدو مستلهما من البستان نفسه ولكنه أعجز من أن يقوم بهذا الدور الهائل الذى يحاول الشاعر أن يكلفه به. إذا كانت الرائحة هى عطر البستان فكيف تطمح أن تخلده ولا بقاء لها بعده بل إنها تستمد وجودها من وجوده لنقل إن شعر الشاعر هو عطر البستان الذى يأمل الشاعر أن يبقى ويبقى على الحياة بداخله ويشير إلى عمله كشاعر فهو يوحى بقدرته على الخلق والتشكيل فهو يعلم الفخار بعض ذكاء الماء والفخار هو الطين المحترق وكان الأولى أن يعلم الطين بعض ذكاء الماء حتى يصير فخارا أى إناء له شكل وهيئة بل يطمح إلى أن ينطق الأشياء وأن يساعد المصباح على الحفاظ على نوره. إنها رسالة الشاعر. ويلتفت الشاعر إلي ذاته فإذا به يرى الحياة برهة قصيرة من الزمن ويعلن اختياره لشكل وجوده فإذا بالشعر هو المبتدأ والختام وهو يراوغ شهوته للموت منذ مجيئه إلى العالم، وكأنه يذكرنا بأبى العلاء المعرى الذى يرى النهاية فى البداية كما يذكر بالفيلسوف الألمانى هايدجر الذى يرى الميلاد بداية الاتجاه نحو الموت.

ولكن الشاعر بإيمانه العميق يحاول اصطياد خلود الروح قبل أن تتحلل الأجساد. إنه يطمح إلى الخلود عبر هذا الشعر الذي اختاره إطارا جامعا لحياته . وإذا كان الشعر ملاذا فهو في نظر أمه التى تفتقده بعد أن أخذه منها هاتف الشعر ليس إلا منفي :

وأمي في صلاة الفجر ترفع وجهها لله
ليرجع طفلها المخطوف يوماً واحداً لتراه.
فمنذ رأي عروس البحر أصبح شعره منفاه
لقد ندهته جنياته فانساح في الملكوت
ومسته الرؤى فاختار وعد النار للكبريت
إذا هجرته نار الشعر . مات وإن دعته يموت
أنا قنينة الفوضى. ولا ترتيب للصعلوك
ولا أحد سيجعلنى أقدم بيعة المملوك
حديثى نصف سوقى ولكن الجراح ملوك

يلتفت الشاعر إلي ذاته وقد أعطي لعلاقته بالشعر بعدا أسطوريا بعد أن ندهته جنيات الشعر .. لقد اختار الحرية التى يسميها الفوضى وهجر ترتيب الأشياء إنه يحلم بالعفوية والانطلاق ولن يقدر أحد أن يدفعه إلي الاذعان والعبودية .. هكذا تبرز القيم الأولى فى حياته الشعر والحرية.. يتحدث الشاعر عن ميلاده وعن أمه وعن أبيه والجنوب الذى انحدرت منه الأسرة وهى فى سعيها من أجل الخبز والحرية..

وأتينا من صعيد الشوق أفئدة جنوبية
تفتش تحت وجه الشمس عن خبز وحرية
وعن بيت نربي فيه لهجتنا الصعيدية
أتينا طيبة الغرباء من أبوابها السبعة
فراشا صاعدا للكشف في صوفية الشمعة
فكانت طيبة أنثي تلخص عمرها دمعة

جاءت أسرته من الصعيد إلى المدينة التى يسميها طيبة.. إنه يجسد رمزا تاريخيا باقيا فى وجدانه فهو والأسرة قد جاءوا إلى عاصمة مصر أشبه بالفراش الذى يسعى للكشف عن حقائق الروح فى صوفية الضوء، وإذا هو يجد العاصمة تلخص وجودها وحياتها وعمرها فى دمعة وهذه الدمعة مجرد رمز ضئيل للحزن والشقاء الذى تعيشه طيبة.. وربما طيبة الخاصة به أو المكان الذى أوى إليه من طيبة حيث الحوارى والبيوت البائسة غير البائسة:

بيوت لا تراها الشمس لا تنسى ولا تنسى
وأحزان معتقة وصبر يهزم البؤسا
وآمال مؤجلة ولم تتعلم اليأسا
«حوارى» مصر حانية علي الفقراء كالسكين
تدس خشونة الأيام في أبنائها الماشين
وتشبع جوع «توريتي» وتجعلهم حواريين

والشاعر يتلاعب بشكل فنى جميل بكلمة حواريين نسبة إلى الحوارى أو إلى المعنى الآخر وهم الأصفياء المتوادون..
ثم يلتفت إلى ذاته مرة أخرى:

أنا ذلك الولد المصاب بكبرياء الريح
كثيرا ما يُري خشنا وممتلئا أسيً وجموح
فإن أبحرتَ داخلَه تكشَّفَ عن حنان مسيح

ثم يلتفت إلى الفقراء وهم يخوضون حرب الخبز فيهتز:

رأيت إرادة الفقراء وهي تخوض حرب الخبز
وتنزف دون فلسفة ودون بلاغة أو عجزا
رأيت صلاة دمعتهم فكيف أري ولا أهتز

ويجسد الشاعر مأساوية هذا الوجود كله فى قوله:

رأيت زواج عصفور الصباح بطلقة الصياد
ونايا صادقا كالموت يعزف كذبة الميلاد
وحقلا بامتداد العمر يشكر منجل الصياد

ولكنه يصر علي الحياة

سنمشي سر معي في الدرب حسبك أننا سرنا
سنمشي ربما وصل الكلام لشاطيء المعني
سنلعب لعبة الدنيا لآخرها وآخرنا

إن أحمد بخيت ينطوى على صوت شعرى يضىء مساحة جديدة من الخارطة الشعرية لأبناء جيله تُميِّزه وتُميزها على السواء

تجديد الشعر

بقلم : أحمد حسين الطماوى

صدرت «المجلة المصرية» في مطالع القرن العشرين ، وناشدت الشعراء التجديد، في زمن تعالت فيه صيحات التغيير ، ونشط فيه العراك بين القديم والجديد ، وبالرغم من تعاظم فريق المحافظين ، فإن المجتمع كان يتحول تدريجيا ، ففي تلك الآونة كانت الدعوة إلي تحرير المرأة واصلاح الازهر ، وانتشار الكتب والروايات الأوروبية المترجمة ، ونهوض الفرق المسرحية ، وتعدد المدارس الأجنبية ، وشيوع الجرائد والمجلات وتنوع مشاربها ومخاطبتها الجمهور في حرية ، وغير ذلك مما استجد علي مصر وحفلت به الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، ودعوة «المجلة المصرية» الي تجديد الشعر ينسجم مع تيار التغيير الذي طرأ علي مصر في ذلك الوقت .



خليل مطران



محمود سامى



أحمد شوقى

على أن «المجلة المصرية» ليست المجلة الأولى السابقة فى الدعوة والتطبيق، فثمة إرهاصات سالفة، نذكر منها أرجوزة نشرتها مجلة «المنظوم» (ابريل ١٨٩٣)، توصى الشاعر بأن ينشد الحقيقة والصدق، ويكون شعره «فى غاية الرقة والسلاسة» مع سلامة الذوق «واسع الى الذوق السليم واجتهد» والاقتصاد فى النظم مع عدم الاخلال أو الاطالة دون إملال، وتتحدث عن «تناسب الأعضاء» فى البيت، وتحث الشاعر على عدم الخروج عن موضوعه.

وشاعر يخرج عن موضوعه
يجبره الفن على رجوعه

وتشير الى ترتيب الأبيات فى القصيدة «ويحسن الأبيات فى الترتيب» وتتوالى التنبيهات والوصايا ليكثر الشاعر من التفنن والوصف. وهذه الأرجوزة النقدية لا تخلو من جديد فالقول بتناسب الأعضاء، وترتيب الأبيات فى القصيدة يعد ارهاصا بما قيل فيما بعد على نحو ما سنذكر، وتنبيه الأرجوزة الى مراعاة عدم خروج الشاعر عن موضوعه يعد إرهاصا آخر بوحدة الموضوع فى القصيدة كما أن حديث الراجز عن الاقتصار فى القول مع عدم الإخلال أو الإطالة دون إملال يعنى الصدق النفسى والجمال الفنى جميعا، فلا يكلف الشاعر نفسه مشقة الإطالة دون أن يلبى طبعه ذلك، وهى دعوة صريحة للإتقان الفنى، والصدق النفسى مبدأ نقدى ردده المجددون كثيرا، ويزداد إلحاح الراجز على الإتقان الفنى بحديثه عن سلامة الذوق وورود المعنى فى رقة وسلاسة أى فى تعبير جميل. وهو مبدأ نقدى، وقد عرف العقاد الشعر بقوله: «التعبير الجميل عن الشعور الصادق». ونظرات الأرجوزة النقدية تعمل على تعديل

القصيدة وتثقيف ذوق الشاعر .

وفى سنة ١٨٩٧ نشر نجيب الحداد مقالا فى مجلة «البيان» وازن فيه بين الشعر العربى والشعر الأوربى يعنينا منه أن الإفرنج أولوا الروايات الشعرية اهتمامهم . وفى مجلة «أنيس الجليس» (١٨٩٨ - ١٩٠٧) نجد فيها قصصا شعرية قبل صدور «المجلة المصرية» لأمثال خليل مطران وأحمد الكاشف وغيرهما ، إضافة إلى أن «الأنيس» ترجمت عن مجلة أمريكية وصفها للشعر بأنه «مفاتيح لمغالق الطبيعة تبدو به محاسن التصورات وتلوح منه خفايا الكون المحجبات ، وأن الدنيا مملوءة بمحاسن الصور والتصور وكثير منها يبدو فى الظاهر قبيحا ولكن ليس غير الشعر كفيلا بالغوص فيما وراء ذلك القبح واستخراج الحسن منه أو تحويله» (أنيس الجليس يونيه ١٨٩٩) وهو تعريف جديد للشعر فى ذلك الوقت يوافق المذهب الرومانسى .

ولا يعنى كل هذا أن الشعر العربى تجدد ، أو تكون حزب كبير من الشعراء المجددين ، فما ذكرناه وغيره ليس إلا ومضات تبرق وتنطفىء ، فقد كان الشعر التقليدى بكل أبعاده وأعلامه مسيطرا على الساحة ، وله نفوذه القوى فى الدوريات وفى نفوس القراء . ومن هنا لم يكن فى وسع «المجلة المصرية» أن تمثل الشعر الجديد فقط وتقود حملة نقدية على التيار الكلاسيكى ، وتتعاجب بشعرها وتتخايل على شعراء زمنها ، كما أن مطران الهادىء الوديع ليس من سجاياه أن ينازل ويعارك من أجل تثبيت مبدأ ارتآه ، وانما حسبه أن يقول رأيه ويمثل له ، ويترك الأمور تجرى فى أعنتها .

صدرت المجلة المصرية نصف شهرية فى أول يونيه عام ١٩٠٠ فى أربعين صفحة لصاحبها خليل مطران ، ومدير تحريرها محمد مسعود ، واستمرت فى الصدور حتى آخر مايو ١٩٠٢ ، ثم توقفت لانشغال مطران فى اصدار «الجوائب المصرية» ثم عادت للظهور مرة أخرى عام ١٩٠٩ واحتجبت نهائيا عام ١٩١٠ .

والمجلة مزيج من الأدب والتاريخ والعادیات والقضاء والزراعة والاقتصاد والفلسفة والعلوم ، مع تعريب بعض الفصول التى كتبها علماء الغرب عن الشرق مما لم يسبق نشره ، وتلخيص كتب مهمة صدرت فى الشرق أو فى الغرب.. ولكن بالرغم من هذا التنويع فإن المادة الأدبية أوفر وبخاصة فى السنة الثانية عندما زاد عدد صفحاتها وادمجت أبواب فى أبواب .

أما نهجها ، فقد أعرب عنه مطران فى العدد الأول بقوله : «أما الخطة التى آثرناها فإنها غير داخلة فى حكم شرعة معلومة ، ولا منتهجة مذهبا من المذاهب المرسومة ، ومن قواعدها الأساسية اجتناب البحث فى الدين والسياسة





أحمد محرم



حافظ ابراهيم

واطراح مبتذل القول ومطروق المعاني .. »

وقد سارت المجلة على هذا النهج ، فلم يكن لها اتجاه معلوم ، ولا مذهب أدبي محدد، لذلك نجد على صفحاتها شعر البارودي ، واسماعيل صبرى ، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم ، وغيرهم من زعماء الشعر التقليدي الى جانب أحمد الكاشف وأحمد رمزي والكاظمي ومحمد ابراهيم هلال وجميعهم من الشعراء التقليديين ، ويقف بين هؤلاء الشاعر الناقد خليل مطران ، وكان أحمد شوقي أكثر الشعراء حضورا في المجلة ، إذ حفلت معظم الاعداد بشعره ونثره.

انتقاد الشعر القديم

ويبدو أن خليل مطران كان مستعدا لبدء دعوته للتجديد ، فمنذ العدد الثاني أخذ ينتقد أغراض القصيدة العربية القديمة ، ويرميها بالتفكك ، وتعدد الموضوعات ، وتدابر الأجزاء يقول «أخنى على الشعر تحوله عن الغاية الشريفة التي خلق لها إلى أمور خاصة كالمدح والتشبيب والفخر والهجو وأمثال هذه الأغراض في قصائد لا ارتباط بين معانيها ، ولا تلاحم بين أجزائها ، ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها ، وتوطد أركانها ، وربما اجتمع في الواحدة منها ما يجتمع في أحد المتاحف من النفائس ، ولكن بلا صلة ولا تسلسل، وناهيك عما في الغزل والثناء وشكوى الدهر ووصف الجواد والناقة ، وميادين الحرب وضرب الأمثال وإرسال الحكم من المواضيع التى لا يضمها موضع الا تتشاتم وتتلاكم وتتناهب ذهن القارىء ذاهبة به كل مذهب بين السماء والأرض» (١٦/٦/١٩٠٠) .

ودلل على ما يقول بأبيات للمتنبى لا تناسق بينها ، ولا تواصل بين

معانيها ، فمطلع القصيدة فى شكوى الغرام، ومقاطعها فى وصف الحبيبة والتطلع الى النجوم، والفخر بالشجاعة والشاعرية ثم أخيرا مدح ابن عبد الله وهو الموضوع الرئيسى الذى نظمت القصيدة من أجله . وقد أصاب سهم مطران القصيدة العربية ، والخروج من موضوع الى موضوع كان تقليدا فى الشعر القديم واستمر الى العصر الحديث ، فكان أحمد شوقي يستهل بعض قصائده بالتشبيب أو النسيب ثم يتخلص الى المديح ، وعندما هنأ الخديو عباس بنشان آل خندان ، كان مطلع قصيدة : «علموه كيف يجفو فجفا ...» واستمر على هذا النحو تسعة أبيات ثم تناول النشان ، ولم يجرؤ مطران على انتقاد شوقى، ورجع القهقرى إلى القرن الرابع الهجرى واختار المتنبى ، ولكن «الكلام اليك يا جارة» . وغاية ما يريده مطران من حديثه النقدى أن تتماسك القصيدة وتتلاءم معانيها ، ووضح مراده فى مقدمة ديوانه الصادر عام ١٩٠٨ عندما قال إنه «ينظر إلى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصور، وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشخوفه عن الشعور الحر ، وتحرى دقة الوصف، واستيفائه فيه على قدر» . وقد انشغل مطران بترتيب الأبيات ، لأن العرب كانوا ينظرون الى وحدة البيت، أى أن كل بيت يستقل بمعنى، وترتيب الأبيات يعنى تسلسل المشاعر والخواطر ، وهذا من شأنه يجعل القصيدة أوفر فنا وأكثر إفصاحا عن الشاعر ، فضلا عن تآلف المعانى وهو الاتجاه الحديث فى الشعر.

وهناك شق آخر فى نص مطران السابق وهو اشارته الى تحول الشعر إلى «أمور خاصة» كالمدح والتشبيب والرثاء، ويقصد بذلك «الشعر الغنائى» أو الذاتى الذى يظهر فيه الشاعر أحاسيسه الشخصية ، ويترجم عن ذاته ، ويرمى مطران من وراء هذا الانتقاد إلى الموضوعية أو تحول الشعر فى الموضوعات الحكائية لتتماسك القصيدة ، وتكون أعم فائدة . وقد ساير حافظ إبراهيم دعوة مطران ونظم قصيدة ينتقد فيها الشعر التقليدى ويتحسر على ضياعه وإهانته بين شعراء النسيب والمدح والهجاء ، قال : (المجلة المصرية ١٥/١٢/١٩٠٠) .

ضعت بين النهى وبين الخيال
يا حكيم النفوس يا ابن المعالي
قد أذالوك بين أنس وكأس
وغرام بظبية أو غزال
ونسيب ومدحة وهجاء
ورثاء وفتنة وضلال

آن يا شعر أن تفك قيودا
قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا
ودعونا نشم ريح الشمال

ولعل ريح الشمال كناية عن أوربا وآدابها التى تنتهج نهجا غير نهجنا ، وبالرغم من قول حافظ هذا ، فإنه كان من زعماء الشعر التقليدى، وقد نظم الشعر بين النهى والخيال وقاله فى المدح والهجاء والرثاء . ولكن لا نعدم جديدا فى شعره مثل قصيدته فى ضرب الطليان لبيروت سنة ١٩١٢ لأنها تشبه الدراما الشعرية .

وقد كانت معظم القصائد التي نشرها مطران في مجلته رومانسية الطابع، إذ استرسلت فيها عواطفه ونشطت مخيلته ، وران الحزن على بعضها مثل «المنديل» «المرآة الناظرة» «بدري وبدر السماء» وهذه القصائد تظهر رهف العواطف ، وزخم المشاعر ، واستفاضة الوجدان ، مع التمهر فى الوصف الفنى والتصوير ، وترابط أبيات القصيدة ووحدة موضوعها . والاتجاه الوجداني ، كان خطوة واسعة فى سبيل تجديد الشعر ، لأن الشاعر يستظهر فيه باطنه، ويستملى من داخله ، وينقل مشاعر فياضة . ومن مظاهر رومانسية مطران قصيدة «الوردة والزنبقة» (فبراير ١٩٠١) وهى كتاب من ليلى إلى عزيز ، وقد كانا جارين متحابين ، فلما وقع النوى احتجب الحب ، وتصور ليلى برح الهوى وشقاءها ، بعد أن ذوى أهلها وهبط بها اليأس إلى الهاوية ، وانعكاس ذلك على كل شىء، حتى الأزهار ، فعندما تفقدت روضة ألفت وردة مستكينة حزينة ، وبجانبها زنبق له قامة كالرمح كلما استمالته إليها نفر واستكبر وتحول عنها وكانا من قبل حبيبين .

فكان إذا مرت به نسم الصبا
يميل إليها عاشقا يتغزل
يداعبها جهد الصبابة والهوي
ويعرض عنها لاعبا ثم يقبل
ويرشف كل من جبين حبيبه
دموع الندي خمرا رحيقا فيثمل
ولكنه لم يلبث العود أن قسا
فلم تثن عطفيه جنوب وشمأل

فشق عليها بينه وهو جارها

وباتت لفرط الحزن تذوي وتنحل

ولما جفا الزنبق ذوى جمال الوردة ، وعما قريب يموت العاشقان من الجوى، ثم يبين الشاعر على لسان ليلى أن العاشقة وحبيبها النافر مآلهما كالوردة والزنبقة الى الذبول والفناء. والقصيدة زاخرة بالصور والأحاسيس ، ومشاهد الطبيعة التى استقراها الشاعر وعبر عنها فى إطار فنى ، وأسبغ عليها ما يناسب روح المحبوبة الحزين الأسيان ، أو اسقط عليها حالتها .

ومن هنا أدركت ليلى سر الوردة الذابلة ، والقصيدة فى هذا الاطار الفنى تعد من الأعمال الرومانسية المبكرة .

وأخذ مطران يعمق الاتجاه الرومانسي بما أبدعه ، وما قاله ، وما ترجمه ، فقد ترجم قصيدة عن الفرنسية للشاعر الايطالى «مارتينى» لا تخلو من الرمز، وبترجمته لفكتور هوجو أحد رموز الرومانسية «والذى أحدث المذهب الكتابى المعروف بالمذهب الروائى ابكول رومانتيك فأطلق فيه الكلم من عقاله القديم، ووسع نطاق التصور .. بحيث انحلت القيود التى كان يرسف فيها الفكر وسقط الحجاب الذى كان حائلا دون الابتكار ، وانفتح الباب رحيبا فى وجه كل مبتدع ومتفنن على حسب ما توحي اليه غريزته الخاصة به » (١٩٠٢/٢/١) .

وهذه الكلمات دعاية للرومانسية ، وتعريف بها ، ودعوة لاعتناق مبادئها ، والتفنن على طرائقها ، من حيث الاستجابة للطبع فى العملية الابداعية ، واطلاق الخيال لابداع صور جديدة .

وأكثر ما أقدم عليه مطران فى هذا الطور ومارسه هو القص الشعرى، والقص الشعرى قديم فى العربية، ونظم فيه الشعراء المحدثون مثل محمد عثمان جلال الذى ترجم حكم ايشوب فى «العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ» وابراهيم العرب وأحمد شوقي وغيرهم . ولكن الشعر الذاتى غلب علي الشعر الموضوعى فى جميع عصور الأدب العربى. والشعر الموضوعى يغلب عليه القص والحكى . ويتغير مضمونه وأخيلته عن مضمون وأخيلة الشعر الغنائى ، ففى الشعر الغنائي يترجم الشاعر عن ذاته ، ويردد هواتف نفسه ، ويذكر مراثيه، أما الشاعر الموضوعى فيعنى بالحياة الانسانية ، ويسرد أحداثا تتنامى ، ويحلل عواطف وسجايا ، ويتناول واقعات تاريخية وبطولات ، وحكايات شعبية وخرافات، ويحكى على لسان الزهر والحيوان، مما يبين أن الشعر الموضوعى

مستقل عن الأدب الغنائى حتى وإن كان الأديب يستند فى بعض ما يحكيه الى تجاربه الخاصة .

وقد فطن مطران إلى القص الشعرى وأدرك مزاياه فقال : «قلما عنى العرب بايراد القصص فى الشعر لكراهتهم أن يتقيدوا فيه بمعنى متصل، ولتجنبهم ما فى ذلك من صعوبة إجادة النظم ، وإحكام الروى بخلاف الافرنج فإنهم جعلوا القصة أساس شعرهم ثم توسعوا فيه فتناولوا ما شاء الله من الأغراض، ولم يفتهم أن يربطوا أول الكلام بآخره » (١٩٠٢/٣/١٥) .

وانطلاقا من هذه الرؤية، إضافة الى ما تمتع به مطران من دقة الملاحظة ، وقدرة على التصور والتصوير ، أبدع عددا من القصص الشعرية ونشرها فى المجلة المصرية مثل «فنجان قهوة» «الحمامتان» «سور الصين» «برتقال يوسف» «العصفور»... ، وفى قصته «وفاء» يحدثنا عن فتى ثرى راقته فتاة فقيرة جميلة عليلة تتسول بالموسيقى، وحاول شراء عفافها بالمال فتمسكت بالفضيلة ، مما زاد من عشقه لها ، وعرضه عليها الاقتران بها فقالت :

وقالت له إني فتاة عليلة
قريبة ميعاد الردي المتوقع

وأني كما تدري فتاة وضيعة
ومثلك أن يقرن بمثلي يوضع

فقال لها بل يشهد الله بيننا
وأسقام قلبي الواله المتوجع

بأني لا أبغي سواك حليلة
ومهما تسلي صبوتي فيك أخضع

لعينيك أرضي بالحياة بغيضة
علي فإن عوجلت بالبين أتبع

وفى البيت الأخير هنا يعاهدها على أن يتبعها إذا هى ماتت، ويعيش الزوجان نحو عام ينال المرض فيه من الزوجة المسلولة ، حتى إذا كانت على فراش الموت ذكرته بعهده ، وبرأته منه ، أى لا يلحق بها ، وتضرعت إليه ليذكرها بعد رحيلها ، واشتد تأثير كلامها عليه حتى إذا فارقت الحياة ، أصاب سهم الموت قلب الزوج فقضى (١٩٠٠/١١/١٥) . والقصة اجتماعية غرامية فاجعة ، وقد قال مطران إنه سمعها فصاغها ، ولكنها تساير مزاجه النفسى وأحداثها فيها ملامح من قصة حب مطران التى انتهت بموت حبيبته المريضة ،

وظل هو عزيا طيلة حياته، والقصة تماشى طابعه الفنى الرومانسى ، ذلك أن الرومانسيين يربطون فى أدبهم بين الحب والفضيلة ، ويسمون بالعواطف، ويميلون إلى الحكايات المأسوية ويسعون إلى المثال والكمال .

والقصة الشعرية أفعل فى النفوس وأبقى من شعر تهنئة وفخر ومديح يعتمد على المغالطة والمبالغة ، فالقارىء يشعر أن أحداث القصة متصلة بحياته أو بطرف منها ، وقد يجد تفسير البعض واقعات جرت له فى مواقفها ، والقصة الشعرية تعالج موضوعات مختلفة غرامية وتاريخية ونفسية واجتماعية ، أى أنها معرض للحياة وألوان النفوس، ومن هنا يأتى وجه أهميتها ، هذا الى جانب أن القصة حفيلة بالغرائب والمفاجآت والمفارقات مما يشوق إلى المتابعة والقراءة .

لذلك تبنت المجلة المصرية هذا الاتجاه ، واعتبرته تجديدا فى الشعر ، ونشرت عددا من القصائد القصصية مثل «سيرة يوسف الصديق» وهى سيرة طويلة وردت فى مقاطع كثيرة ، متنوعة القوافى وضعها ابراهيم رمزى (الفيومى) و «عرس فى معركة» لنقولا رزق الله ، وقسم من الياذة هوميروس التى ترجمها سليمان البستاني، وغيرها ، وقد قدم مطران لهذه القصص وزكاها وحث على قراءتها والنسج على غرارها .

ولأحمد شوقى عدة حكايات تجمع بين الخرافة والرمز والواقع، منها المترجم ، ومنها المؤلف، مثل «خلق المرأة فى الهند» وهى خرافية يظهر فيها أن المرأة شر ولكن لا غنى عنها ، و«الهمشري» وتبين أن الناس لا يحترمون إلا الغالب، و«أذن الظالم» وتظهر أن تقبيل أقدام الطاغية هو الطريق الى أذنه ليستجيب الى شكوى المظلوم، أما أقصوصة «دولة السوء» فيعرض فيها الرجل يملك كلبا وقردا وحمارا ، ويبذل جهدا فى سبيل تعليمها ، وبينما هو يغط فى نومه ، جاءته وايقظته ، فقال لها : ما طلب الجماعة ؟

قال له القرد طلبت المملكة	تكون لي وحدي بغير شركه
قال الحمار وأنا الوزير	والصدر في الدولة والمشير
والكلب قال قد سألت الباريا	يجعلني في ملك هذا قاضيا

فأنكر الرجل مطالبها وقال : «الموت ولا ذى الدولة» (٣١/٧/: ١٩٠٠) .

والأقصوصة خفيفة طريفة ترمز إلى هؤلاء الذين أوتوا من العلم قليلا ، وأطماعهم واسعة ، وطموحهم أبعد من امكاناتهم ، وقصد شوقى أن الجهال إذا قبضوا على نواصي الأمور فإن الدولة تصير «دولة سوء» .

●●●

تلك هي الخطوط الرئيسية فى مجال تجديد الشعر التي وقفت عندها «المجلة المصرية» وهي خطوط كان بعضها معروفا من قبل على نحو ما أشرنا في مستهل المقال ، ولكن هذه الخطوط لم تكن واضحة بالشكل الذى قدمته المجلة ، فقد أظهرتها وعمقتها ، وأضافت اليها . وقد انفردت المجلة المصرية بنشر نماذج من الألياذة وهي عمل ملحمى خارق وتعد من الأعمال الأدبية الكبرى، وقدمت نماذج وصفية خالصة تعد بمنزلة موضوعات قائمة بذاتها ، ومزجت الشعر بالنقد أو التنظير بالتطبيق . وكل هذا يحسب لها ، ولمطران جملة آراء فى شعراء عصره من أمثال اسماعيل صبري وشوقي وحافظ واليازجي والياس فياض والبارودى وأحمد محرم وأحمد الكاشف نشرها فى مجلته فى الفترة من مارس الى يونيه ١٩٠٩ تظهر كيف يقرضون الشعر ، وتكشف عن مواهبهم الفنية ، وتتضمن أحكاما نقدية ، وتبين قدرة مطران على التمييز بين قرائح الشعراء .

ولكن ما قاله مطران في النقد لا يكفى لايضاح مذهب جديد فى الشعر، فقد أعوزه المصطلح النقدى ، والذين جاءوا بعده كانوا أدل على كلامهم بابتداع مصطلحات ، والمصطلح تتجمع فيه رؤية ، ويتبلور فيه اتجاه ، ويعد إدراك مغزاه يغنى عن تكرير الكلام . فمطران تحدث عن تنقل الشاعر من موضوع إلى آخر في القصيدة ، وتشاتم معانيها ، وقد عبر عبد الرحمن شكرى عن ذلك بمصطلح «وحدة القصيدة» (مقدمة ديوان الخطرات ١٩١٦) وتكلم مطران اكثر من مرة عن ترتيب الأبيات وربط أول الكلام بآخره ، وعبر العقاد عن ذلك بمصطلح «الوحدة العضوية» (الديوان فى الأدب والنقد ١٩٢١) .

ولا نجد عنده كلاما شافيا وافيا عن الخيال والجمال والمعاني الشعرية والطبيعة الفنية ، وما الى ذلك مما يجب على صاحب دعوة جديدة أن يوضحه ويلح عليه ويمثل له ، وإذا كان الخليل قد هاجم الشعر القديم لتحوله عن «الغاية الشريفة التى خلق لها إلى أمور خاصة» كالمدح والهجاء والفخر وبقية الأغراض فإنه سلك نفس المسلك ، وديوانه الضخم بأجزائه الأربعة مفعم بقصائد الرثاء والتعزية والتحيات والتهنئات بجميع أنواعها والمدائح وغير ذلك من شعر المناسبات وكان عليه أن يستمر فى تجديده ويعزف عن الأغراض التقليدية .

ومهما يكن من أمر فإن لمطران ريادة فى الشعر غير منكورة ، وللمجلة المصرية دورها فى التثقيف والتوجيه والتجديد فضلا عما تركته من آثار باقية فى الشعر الجديد والنثر البليغ ، فمطران الشاعر مثل مطران الناثر كما قيل .

أمام البحر

شعر : سليم الرافعى



ظمئي إليك يفيض لا يترفق ... بالبحر أسكر لا بكأس تدهق
وإذا مددت يدى إلى دن غفا ... أحسسته من كرمة يترقرق
وإذا غمست فمي أفقت من الكرى ... وصحوت بالملح الذى أتنشق
نادمت موجك وهو مما ينتشي ... ثمل .. كأن إرادة تتمزق
جهل الندامى أنهم من كأسهم ... كذبوا .. وإن يسقوا بكاسك يصدقوا
في حانة أزلية أبدية ... كم ربع منها المدمن المتعمق
جسدي على الماء الموسوس قصة ... أبطالها البشر الذين تخلقوا
عقلي إلى المجهول في جبروته ... لكن قلبى للشواطئ يخفق
ألقيت بينهما الزمام فعقلى ... ورثيت للحكماء حين تفرقوا
إن يبحروا فى الموج فهو قصيدة ... أبدا تغنى بالكنوز وتبرق
تتضاحك الحيتان بين كهوفها ... والسرمدية تستفيض وتطبق
أعزز على بأن أعابث ماردا ... قاعاته الآفاق لا تتحرق
من يحتوى البحر المؤجج باللظى ... كم موقدا فى لجه يتحرق ؟
النار فيه تحطمت .. وتناثرت ... ومن العواطف جمرة لا تغرق
هل ماج فى دمنا وحدث أننا ... نرغى ونزبد .. أو .. نحن ونشفق ؟
يا بحر لا تسخر فلست مؤرخا ... يا بحر لا تشمت فلست أعلق
لكننى الطفل الذى رضع الهوى ... ويكى وغنى حين شاب المفرق
لم أنس أنك فى دمي أو فى فمي ... لم أنس أني الموت حين أحلق
بعضى يموج ببعض ما أضمرته ... أعلنت أم أسررت .. كيف أحقق ؟
ألفيتني جسدا أمامك زاخرا ... بالعطف أو بالخسوف باسمك أنطق
دعنى أقبل موجة معشوقة ... دعنى أعانقها .. أليست تعشق ؟
شفتاى من ماء وطين شاعتا ... في البحر أو في الكون حين أحدق
لى قبلة بيضاء فى أحشائه ... طهرت وعزت فهى منه تورق
من عبقريته استجارت عندما ... مر الجمال الفظ وهو يصفق
هل آمن البحر الفظيع بقبلة ... مجبولة بدمائنا تتألق ؟
ملنا إليه .. وماج فى غلوائه ... متكبرا بصفو .. ولا يتملق
عش فى الهوى يا بحر عش فى ساحة ... تحمى جوار من استجار وترزق
من موجك الرجراج نبين مؤمن ... ومن الجنون سكينة تتدفق
إنى سرقت الموج منك قصيدة ... ما أبخل البحر الذى لا يسرق

لوحات مصطفى أحمد

وعوالمها الجوّانيّة

بقلم : محمود بقشيش

حَصَدَ الموت فى أسابيع متقاربة - من نهايات القرن العشرين إلى بدايات القرن الواحد والعشرين - مجموعةً من أبرز المواهب المصرية فى مجال الفنون التشكيلية : «منير كنعان» ، «عبد الرحمن النشار» و«مصطفى أحمد مصطفى» الذى نقدّمه لقارىء الهلال هذا الشهر. وهم على ما بينهم من اختلافات عميقة فى الأسلوب الفنى وفى الألَق الإعلامى فإنّ كلّ موهبةٍ من تلك المواهب تستحق أن تُقَدَّم للتاريخ بالتقدير اللائق بها ، قبل أن تتكاثف عليها طبقات الإهمال ، وما أقساه!.. ولا نريد أن يحدث لهم ما حدث لأحد عباقرة القرن السابع عشر وهو «چورچ دى لاتور» عندما تاه فى سراديب النسيان ولم يذكره أحد من مؤرخى الفن ونقاده قرابة ثلاثة قرون ، إلى أن استيقظ ضمير ناقد ومؤرخ كبير فى العقد الثانى من القرن العشرين وتوالت الكشوف عن تلك الجوهرة إلى أن أصبح صاحبها مفخرة التصوير الفرنسى ووصل سعر إحدى لوحاته إلى ما يوازى مليار فرنك! .



الحصاد للفنان مصطفى أحمد

ولد بالقاهرة سنة ١٩٣٠ وتوفى بها سنة ١٩٩٩، تخرج فى كلية الفنون الجميلة «قسم التصوير» سنة ١٩٥٤، عمل فى مجالات التربية الفنية، منذ تخرجه، مدرساً وموجهاً ثم مستشاراً بالمعاهد الأزهرية وأستاذاً للتصوير بكليات التربية النوعية، حصل على منحة التفرغ من وزارة الثقافة سنة ١٩٦٤ لمدة ثلاث سنوات متصلة، نال عدداً من الجوائز المحلية. وكان لى شرف الإشتراك فى لجنة تحكيم مسابقة «الأعمال المنمنمة» التى منحته الجائزة الأولى سنة ١٩٩٧.

التمسك بالجوّانيات

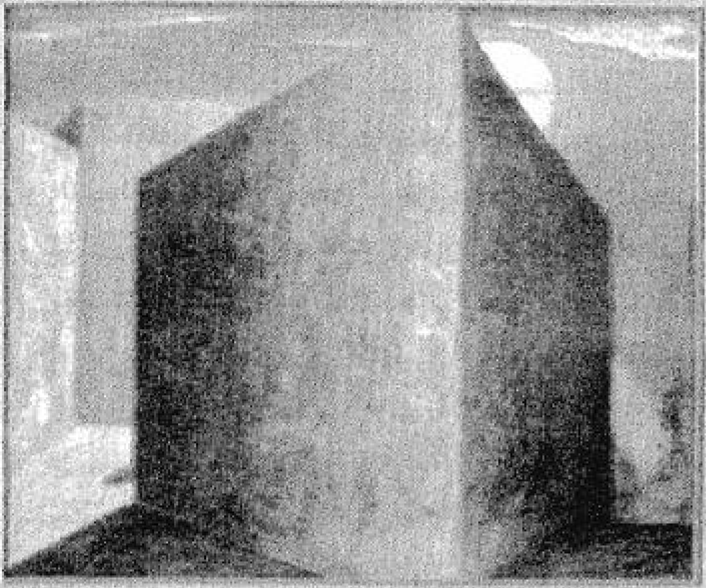
تمثّل رحلة «مصطفى أحمد» الإبداعية تمسكاً بثوابت ظاهرة على السطح وأخرى فى الفكر والتوجه، تحتفظ لنفسها بشخصية لا تحتاج معها إلى توقيع الفنان لنعرف أنه مبدعها. وليس هذا الأمر بمستغرب لدى كبار فنانى عصرنا - على الأقل - فلسنا فى حاجة إلى مطالعة توقيع «بيكاسو» أو «ماتيس» أو «محمود سعيد» (إلخ) على لوحاتهم لنعرف أنها تنتسب إليهم. السطح عند «مصطفى أحمد» مفعم بالعجائن الكثيفة، بلون الطمى، يشبه فى هذا ابن جيله الفنان الكبير «حسن سليمان». ويبدو أنّ كلّ خرّيج موهوب فى كلية الفنون الجميلة تكون مهمته الإبداعية الأولى هى العمل على التخلص من آثار المحاكاة المحايدة التى كان يتلقاها (ومايزال) طالب الفنون. وعلى الرغم من أن «مصطفى أحمد» كان يتقن تلك المحاكاة وكان أول دفعته فقد اعترف للناقد «نعيم عطية» (فى كتابه العين العاشقة) بقوله: مرّت بى فترة طويلة من القلق والتمرد مع الاسلوب الاكاديمى الذى عشت فيه طوال فترة الدراسة بالكلية. وقد انطوى مشروعى للدبلوم سنة ١٩٥٤ على البذرة الأولى لوجهة نظرى الفنية التى مضت تتطور بعد تخرجى، متحرّرة من الجمود الأكاديمى، أسير الواقع البصرى» نَبَذ «مصطفى أحمد» ذلك الحياد البارد الذى لايعترف بالدغل الوجدانى

المشتعل داخله. لهذا كان الملاذ الأقرب الذى لاذ به هو «التعبيرية الألمانية» وفنانها البارز «مونش» - على وجه الخصوص (١٨٦٣ - ١٩٤٤)، ولم تكن لوحته الشهيرة المسماة (الصرخة) ملهمةً لجيل «مصطفى أحمد» وحافزةً له على التمرد على الجمود الأكاديمى وعلى الأوضاع الاجتماعية على السواء بل كانت ملهمةً للجيل الذى أنتمى إليه وقد تخرجتُ فى نفس الكلية ونفس القسم، بعده بتسع سنوات. ولا أستبعد أن تكون لوحة «الحصاد» التى رسمها سنة ١٩٧٢ بتأثير من صرخة «مونش» ففى لوحة «مصطفى أحمد» تظهر مداخل أكواخه الريفية فى صورة أشبه بالأفواه العاوية.

الملاذ الثانى

وكان ملاذه الثانى عند الاسلوب «الميتافيزيقى» مُمَثّلاً فى لوحات رائده المصور الإيطالى «دى كريكو» De chirico بعد أن نَبَذه السيرياليون وكان «دى كريكو» نفسه قد تمسك بآثار «الكلاسيكية الجديدة». وظهرت تلك الآثار فى مدائنه الصحراوية الموحشة التى تبدو رغم وحشتها وكآبتها نظيفة وأنيقة، أضواؤها ساطعةً وصريحة وظلالها قاتمةً، ثقيلةً، لها وقع الصفعة فى النفس. وإذا كانت مدن «دى كريكو» المهجورة أو بالأحرى مسرح لوحاته قد استلهمه من أبنية مدينة «فيرارا» - كما لاحظ ذلك الناقد داود عزيز - فإن مبانى «مصطفى أحمد» قد تناسلت من العمارة الفطرية فى الريف المصرى (قبل الثورة). وإذا كان «الإنسان» عند «دى كريكو» له أصل فى الآثار الرومانية فإنسان «مصطفى أحمد» إنسانٌ مُتَخيل، لا نظير له، وإن رَمَز إليهم وعَبَّر عن ضياعهم، وهو يشارك «دى كريكو» اكتئابه وإن اختلف عنه فى درجة القتامة فـ «دى كريكو» لم يفتقد تماماً روح الدعابة، حيث نلتقى أحياناً وسط فضاءاته الموحشة بما يؤنسنا ويجدّد فينا الأمل، بمفاجآتٍ مدهشة، مثل ظهور طفلة تلهو بطوقٍ غير عابئةٍ بما يحيط بها من جهامة، كما فى لوحته

صعود
القمر



انسكاب النور





المسماة (سِرٌ وكآبةٌ في شارع) أمّا الكآبة في لوحات «مصطفى أحمد» فوطأتها أشد لأنها تتناسل من طبائع المصريين مع حالة الحزن. قد يفاجئنا أحيانا ببصيص من الأمل سرعان ما نكتشف استحالته، كما في لوحة (صعود القمر) التي رسمها سنة ١٩٨١. وهي متاهة معمارية لا سبيل إلى اقتحام حواجزها المنيعة أو الإفلات منها. وعلى غير توقع يفاجئنا بمقدمات دائرةٍ قمرية مضيئةٍ نعلم مقدماً استحالة الوصول إليها. وإذا جاز لنا أن نحلم بالقمر وبرحلته الكونية فلم يُتح لنا الفنان خلاءً واسعاً مثلما فعل «دي كريكو» بل خنقنا بمتاهته بالغة الضيق. إن الإنسان المتُخيل الذي يبدعه «مصطفى أحمد» كيانٌ ملغز، يصفه الفنان الناقد «بيكار» بقوله: «إنسان بلا ملامح، شبح مرمرى، ينساب في عوالم شاعرية حالمة، مرتدياً إزاراً تتناغم فوقه الثنايا كما تتناغم فوق أسطح قطعة نحت بارز.» في لوحته المسماة «سيدات» تتجلى شخوصٌ ذات هياكل أقرب إلى الصروح المعمارية النحتية، أكّدها ملمسٌ حجريٌ، بلونه المفضّل: لون الطمي.

الرحيل

كان من الطبيعي أن تنتقل تلك الحجارة البشرية وأجوائها الجنائزية لتتجلىّ في موضوعها المناسب وهو: «الرحيل عن النوبة». رسم حول هذا الموضوع أربعاً وعشرين لوحة، شارك بها في معرض المتفرغين الأول سنة ١٩٦٦. ويرى الناقد «نعيم عطية» أنّ في رسوخ كتل شخوصه وثقلها ما يتسق مع طابع الجهامة التي تميزها. واللافت للنظر أن الفنانة «تحية حليم» قد كانت ضمن وفد الفنانين الذين دعاهم الدكتور ثروت عكاشة لزيارة النوبة القديمة قبل الغرق. واستلهمت من البيئة النوبية واحدة من أهم لوحاتها وهي «الخبز الحجرى» وإن اختلفت دلالة رمز الحجارة عند الفنانين، فهي عند «تحية حليم» ذات بعدٍ اجتماعي كاشف عما يعانيه

إنسان النوبة من عَوَز فيما تُدخلنا لوحات «مصطفى أحمد» إلى دغل من المجاهيل والألغاز التى لا تنتظر إجابة. ولا أستبعد أن يكون للمؤسسة الدينية التى عمل بها طويلاً تأثيرٌ فى رؤيته الفنية وفى اختياره الأردية الكَفَنيّة التى يُدثّر بها نساءه، حتى يختفين عن العيون اختفاءً كلياً وينصرف بأشكاله عن المشابهة بالواقع. لهذا كان من الطبيعى أن يلجأ إلى السيريالى «رينيه ماجريت» يستلهم منه آخر لوحاته التى قُدِّر لها أن تفوز فى معرض «القطعة الصغيرة». ولوحة «ماجريت» تصور العلاقة بين الوهم والحقيقة - أو بدقة - وحدة الوهم والحقيقة. والوهم الذى أراده «ماجريت» وتبنّاه «مصطفى أحمد» هو «لوحة تمثل منظراً خلوياً لا يفصلها عن المنظر الحقيقى إلا إطار اللوحة تأكيداً للوحدة بين الوهم والحقيقة - الجديد فى تلك الإستعارة أنها أغوت «مصطفى» أحمد - ولو بصورة مؤقتة - بالتخفف من العجائن الكثيفة والألوان القاتمة إلى ألوان مشرقة وصريحة. وفى ظنى أن لوحته الأخيرة كانت بداية طريق جديد نحو الشفافية والصفاء اللونى.. أم أن الشفافية والصفاء قد ظهرا عند الشعور بدنو الأجل ولقاء الله؟! .

انسكاب النور

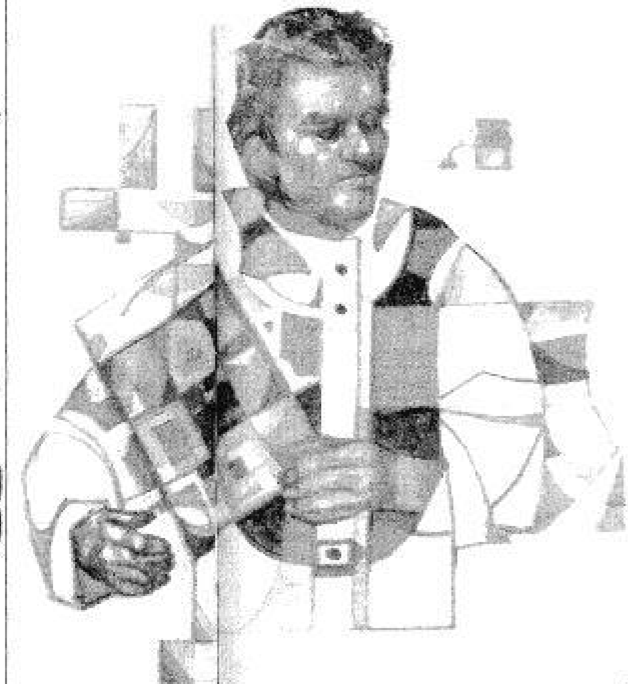
هو عنوان اللوحة التى رسمها «مصطفى أحمد» سنة ١٩٦٢ تعبيراً عن حالة صوفية، يرى فيها الفنان أن طريق الراحة الروحية للإنسان هو طريق الإيمان. وربما يكون «مصطفى أحمد» قد رسمها ليواجه بها «صرخة مونش». ومثلما ارتجّ الجو المحيط بعابر الكوبرى الهلوع نرى فى لوحة «انسكاب النور» حالة تعبيرية مناقضة، فقد ارتجّ الكون كله لتهبط شلالات النور من كل صوب إستجابةً لتوسلات اثنين من البشر الأتقياء، حَرِصَ الفنان أن يُظهرهما بهيئتهما الإنسانية المألوفة وإن بديا أشبه بذرّتين فى فضاءٍ لاحدّ له. إنّ هذه اللوحة - فى تقديرى - هى مفتاح شخصية «مصطفى أحمد» (الإنسان والمبدع) وفى اللوحة إجابة شخصية من الفنان على نقاده - وأنا واحد منهم - الذين اتهموه بالجهامة والدعوة إلى اليأس!.

قصة قصيرة

الملف الأزرق

بقلم :
مصطفى نصر

بريشة
الفنانة :
سميحة حسنين



عاد رئيسي في العمل حاملا ملفا أزرق اللون، وضعه فوق مكتبي وجلس أمامي، بدا متعبا ومتوعكا، قلت:

- ماذا بك ؟

- عملت كثيرا، كنت أتحاور ببعض

الموضوعات مع رئيس الشركة، ولم يتبق سوى موضوع أوراقه موجودة في هذا الملف.

وأشار إلى الملف الأزرق، ثم أكمل:

- قال سيادته أن أبقيه إلى بعد الغد.

- أراك متعبا ، هل أطلب لك قهوة ؟

لكنه وقف قائلا :

- لا . سأعود إلى البيت الآن ، وأرجو أن تحتفظ بهذا الملف إلى حين يطلبه رئيس الشركة.

وقفت لأودعه . فسار إلى الباب ثم التفت إليّ وقال:

- اهتم به، فرئيس الشركة سيطلبه بعد الغد فور وصوله.

أومأت برأسي، وأمسكت الملف الصغير وشردت.

بعد تخرجي من الجامعة مباشرة عينت في الشركة، موظفا في مكتب سكرتارية رئيس القطاع المالي، وبعد أقل من عام أوكل إليّ - الرجل - إدارة مكتبه، فأصبحت سكرتيره الخاص، أقوم بكل أعماله.

تحدث الكثير معه بشأني :

- كيف تضع ثقتك ومكتبك في يد شاب صغير مثل هذا، ليست له تجربة كبيرة في العمل ؟!

وكان يجيبهم مبتسما :

- إنه شاب نابه ونشيط .

حذرني البعض من أن أخل بواجباتي أو أظهر في صورة أقل مما يظنها رئيسي فيّ.

لم أنتبه إلا والموظفون يخرجون من مكاتبهم إلى بيوتهم ، فقد انقضى الوقت دون أن أحس به من كثرة الأعمال التي قمت بها .

ليس مهما. فاليوم الخميس، والغد جمعة أجازة. سأستريح وسأنام معظم الوقت لأعوض ذلك التعب.

سرت في الشارع والموظفون يحيونني من بعيد. يحسدنني البعض لمكانتي في الشركة رغم صغر سني ومدتي القصيرة بها.

في الغد وأنا مستلق في الفراش، متلذذا بالاسترخاء الذي لا أستطيعه إلا يوم الجمعة، تذكرت الملف الأزرق. إنني لا أذكر مكانه. كل ما أذكره أن رئيسي قد نبهني لأهميته، وأبلغني بأن رئيس الشركة سيطلبه فور وصوله يوم السبت. بعدها لا أذكر شيئا .

قد أكون قد تركته فوق المكتب كما هو فور اكتشافي بحلول موعد الانصراف فجأة ، وقد يعبث به السعاة الذين ينظفون المكتب بعد الظهر. أو أن يقع على الأرض ويضيع وسط الأوراق المهملة .

وقفت فزعا . . أرتديت ملابسي مسرعا وذهبت إلى الشركة (فأحيانا أذهب إليها أيام الجمعة لانهاء بعض الأعمال المستعجلة).

فتحت باب الحجرة وأسرعت إلى المكتب. لم أجد الملف فوقه. جلست على مقعدي وفتحت الأدراج بمفتاحي، وأخذت

أبحث دون فائدة .
شعرت بأن جسدي قد تراخى، وأنني لم أعد أستطيع حتى القيام من مكاني. فذلك الملف مرتبط بمستقبلي. فلو ضاع ضعت معه . وضاعت معه مكانتي في الشركة.
نعم، فرئيس الشركة سيعلم، والملف به أوراق مهمة ستكلف الشركة الكثير لو ضاعت.
أعدت البحث ثانية وثالثة، أخرجت الملفات كلها فوق المكتب، لاشك أن السعاة رموه مع الأوراق المهملة وهم ينظفون الحجرة.
عدت إلى البيت وأنا في حالة غير التي جئت بها إلى الشركة. فقد كنت أسير مسرعا وقت حضوري متلهفا إلى وجود الملف في المكتب، وممنيا نفسي بذلك. لكن الآن الأمل ضاع. ورئيسي سيحولني إلى التحقيق لاشك. ولن يثق بي كما كان يفعل دائما. لا ، لن أجعلها تصل إلى هذا أبدا، سأقدم استقالتي بدلا من أن استمع إلى التقريع واللوم. كما أن النتيجة واحدة . فهي الفصل في الحالتين.
أغلقت باب حجرتي خلفي. ونمت فوق الفراش بملابسي التي جئت بها . لابد أن أتصرف بحكمة.
سأذهب في الغد إلى رئيسي فور وصوله أحكي له عما حدث. والرجل سيقدر موقفي. وقد ينصحني بالطريقة السليمة التي أتخذها لأنجو بها.
نعم ، هذا هو الحل.

●●●

لم أشعر إلاّ والليل قد حل - فنمت وصحوت فجأة بعد منتصف الليل بقليل. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. نظرت في ساعتي ، ساعات قليلة جدا ويجيء الصباح. من شدة تفكيري في ذلك الموضوع حلمت به رأيت أبي - رحمة الله عليه - يجلس فوق مكتبه - كما كان يفعل قبل أن يموت - وطلبني عن طريق أخي الصغير. فجئت إليه حزينا مهموما ، قال:
- أعلم أنك متحير لضياع الملف الأزرق منك.
- نعم .
- لا تقلق . عندما تذهب إلى عملك في الصباح ستجده. افتح الدرج الأوسط على اليمين ستجده داخل ملف المقاولات الكبير.
أيمكن أن يحدث هذا . لكنه حلم لا أكثر . لو كان أبي موجودا - حقا - لحكيت له عما حدث. وكان سيدلني عن الرأي الصواب للخروج من هذه الأزمة.
لم أنم. ظللت مستيقظا حتى الصباح.
أسرعت إلى مكتبي. ورغم عدم ثقتي الكاملة في جدية الحلم. الاّ أني فتحت الدرج الأوسط على اليمين وأخرجت ملف المقاولات الكبير والممتلىء بالأوراق. وعندما فتحته وجدت الملف الأزرق أمامي يطل برأسه لي. فأمسكته فرحا وقلت: الله يرحمك يا أبي. قلق من أجلي حتى بعد موتك.



جوليا روبرتس في دور العمر

بقلم : مصطفي درويش

«الدخيل» و«تحدى امرأة» فيلمان يعيدان الثقة فى فن السينما، ويردّان بعض الاعتبار إلى منهج مصنع الأحلام فى انتاج الأفلام.

والحق، أننى لم أفاجأ بالقدر الكبير من الجدّية والجرأة اللذين انطوى عليهما الدخيل.

فما أكثر ما كتب عنه بمناسبة ترشيحه لسبع جوائز أوسكار، أذكر من بينها أوسكار أفضل فيلم وإخراج «مايكيل مان»، ممثل رئيسى «رأسيل كرو»، تأليف وتصوير. ما أفجأنى حقا، هو «تحدى امرأة»، واسمه بالانجليزية «ايرين بروكوفيتش».

أما لماذا كان مفاجئا، فذلك لأن «ايرين بروكوفيتش» بداية لا يصلح أن يكون اسما لفيلم، يجذب برنينه الجماهير. هذا إلى أنه لم تسبقه، عندنا على الأقل، دعاية تصم الآذان، مثل الدعاية التي سبقت ثم صاحبت «الجمال الامريكي» و«أسطورة الفارس الغامض»، وتصاحب حالياً «المصارع» رائعة «ريدلي سكوت» المخرج البريطاني الذائع الصيت.

العجب العجاب

والأغرب بالنسبة لي أن أفاجأ به، ونجمته التي تدور حولها الأحداث وجودا وعدما، ليست إلا «جوليا روبرتس» أكثر ممثلات هوليوود شهرة، وأعلاهن أجرا.

ومن الغرائب الأخرى أن يتصدى لاخراجه «ستيفن سودربرج».

ووجه الغرابة، أنه وحيد نوعه بين صانعي أفلام مصنع الأحلام، فبدءا من فيلمه الأول «جنس، أكاذيب وشريط تسجيل»، المتوج عام ١٩٨٩ بجائزة مهرجان «كان» الكبرى «السعفة الذهبية»، وهو أبدا لا يحيد عن طريق إبداع أفلام، خارجة عن المألوف في إنتاج ذلك المصنع المهيمن على السينما عالميا.

ولعل ذلك أحد أسباب عدم نجاح أي من أفلامه نجاحا جماهيريا.

وأعود إلى فيلمه الأخير «ايرين بروكوفيتش» لأقول: إن الاسم المختار له ليس اسما لكائن من صنع الخيال.

إنه اسم لامرأة أمريكية حقيقية، من لحم ودم، عاشت، ولاتزال تعيش في ولاية كاليفورنيا، وهي الآن من مشاهير النساء، ولعلها قاب قوسين أو أدنى من الفوز بلقب امرأة العام في الولايات المتحدة، ذلك اللقب العزيز، الذي تنفرد بالفوز به امرأة واحدة في كل عام.

وشخصية تلك المرأة، تقمصتها بجدارة سينمانيا «جوليا روبرتس».

ومن الأكيد أنها تفوقت في تقمصها هذا، وعلى نحو لا يستبعد معه ترشيحها، بعد بضعة شهور، لأوسكار أفضل ممثلة رئيسية، وربما فوزها بها في نهاية المطاف.

صمود وتحد

والسؤال ما الذي فعلته «بروكوفيتش»، حتى يجري ترشيحها للقب امرأة العام، وقد تكون قد فازت به فعلا، وحتى تهرع هوليوود إلى صنع فيلم باسمها، يعرض إلى سيرتها بالتمجيد، وإلى ما خاصمت وجاهدت من أجله بالتقدير الشديد.

«بروكوفيتش» امرأة عادية من عامة الناس، عاطلة عن العمل، مطلقة أكثر من مرة، وتعول ثلاثة أولاد صغار، أحدهم طفل رضيع.

ليس عندها من متاع الحياة الدنيا، رغم أنها كانت ملكة جمال سابقة، سوى لباسها اللافت للأنظار، ولسانها السليط.

والفيلم، حسب رسم سيناريو «سوزانا

جرانت» لشخصيتها، يبدأ بها مهمومة، تبحث عن عمل، دون جدوى.

وما هى إلا بضع لقطات، حتى يقع لها حادث تصادم مع سيارة فارهة، كلفها علاج آثاره الكثير.

ورغم أنها الضحية، فإنها خسرت القضية بسبب عبارات استفزازية، فاهت بها، أثناء إدلائها بأقوالها أمام القاضى والمحلفين.

عناد وإصرار

وكعادتها لم ترجع فشلها في الحصول على حكم عادل بالتعويض، إلى خطأ ارتكبته فى حق نفسها، وإنما أرجعته إلى تقاعس محاميها «ادماسرى»، يؤدى دوره «ألبرت فينى» - فى القيام بواجبه، أثناء نظر دعواها أمام القضاء.

ولأنها كانت على شفا هاوية الافلاس، ليس لديها رصيد فى المصرف سوى بضعة دولارات، ألحت على «اد» فى طلب الحاقها بإحدى الوظائف بمكتبه القانونى، ولو بأجر زهيد.

وبعد تردد شديد، استجاب إلى إلحاحها.

وبدءاً من لحظة التحاقها بالمكتب، انعطف مسار حياتها، على نحو لم يكن فى الحسبان.

فمصادفة، وبينما هى تطلع على أوراق ملف إحدى قضايا المكتب، استرعى انتباهها أن شركة الباسيفيك للجاز والكهرباء، تسعى إلى شراء مسكن عائلة فى مدينة «هنكلى» الصحراوية بولاية كاليفورنيا.

ثم تبين لها أن هذا السعى قد تكرر بالنسبة لمساكن أخرى تقع فى دائرة تلك المدينة الصغيرة.

جريمة العصر

أما لماذا تسعى الشركة العملاقة إلى الشراء، فذلك لإخفاء معالم جريمة، حاصلها استعمال عنصر الكروميوم السام، على نحو أدى إلى تلويث تربة المنطقة المحيطة بتلك المدينة، الأمر الذى ترتب عليه تلويث المياه، وإصابة الكثير من السكان بمرض السرطان، أو بأمراض أخرى، بعضها أشدّ هولا ومع هذا الاكتشاف، نشب صراع مرير بين «بروكوفيتش» والشركة التى حاولت طمس الحقيقة، بالوعد والوعيد.

ومرة أخرى، تكررت أسطورة داود وجولبات، انتصرت «بروكوفيتش»، على الشركة القوية، الغنية صدر حكم بتعويض ضحايا تلك الشركة بمبلغ قدر بثلاثمائة وثلاثة وثلاثين مليون دولار، وهو أكبر مبلغ تعويض، حكم به فى تاريخ بلاد العم سام.

وكان نصيب «بروكوفيتش» من ذلك التعويض مليونين من عزيز الدولارات.

وبفضل هذا الانتصار المؤزر، أصبحت من المشاهير، يجرى اسمها الصعب على كل لسان، بطول وعرض البلاد، ويصير عنوانا لفيلم من أصدق الأفلام.

تميز الأداء

وهنا لا يفوتني، أن أشير مرة أخرى إلى أداء «جوليا روبرتس»، كيف أقنعتنا، وهى تحمل طفلتها الرضيع، بأنها أم عطوف.

وكيف هزت قلوبنا، ونحن نرى عيونها تدمع فرحا تارة، وتأثرا تارة أخرى، عندما سمعت على الهاتف من عشيقها «جورج» (آرون ايكهارت) أن صغيرتها نطقت في غيابها، ولأول مرة، ببضع كلمات.

وكيف جنحت بنا إلى الوقوف معها مؤيدين لنضالها ضد الشركة الملوثة للبيئة، حتى لحظة النصر المبين.

حقا إنها ممثلة متعددة المواهب.

وليس من شك فى أنها تستحق الأجر الذى حصلت عليه مقابل قيامها بتقمص شخصية «بروكوفيتش»، وهو عشرون مليون دولار بالتمام.

المواطن ويجاند

وأعود إلى مبلغ التعويض الذى صدر به حكم لصالح الضحايا من سكان «هنكلى»، وذلك بفضل نضال «بروكوفيتش»، لأقول: إنه رغم ضخامته غير المسبوقة، إلا أنه، فى حقيقة الأمر، يعتبر مبلغا تافها، فيما لو جرت مقارنة بينه وبين تعويضات تقدر بآلاف ملايين الدولارات، قد يحكم بها القضاء الأمريكى لصالح ضحايا التدخين، نتيجة شهادة أدلى بها مواطن عادى آخر، كان يشغل مركز مدير إدارة البحث والتطوير فى «ويليمسون وبراون» إحدى شركات التبغ الكبرى، بل لعلها واحدة من أضخم الاحتكارات، المتلاعبة، دون رحمة، بأرواح ملايين البشر.

هذا المواطن، واسمه «جيفرى ويجاند» - يؤدى دوره النجم «راسيل كرو»، لا يختلف عن «بروكوفيتش» فى شىء، سوى أنه عالم فى الكيمياء، هادىء الطبع، شديد الحياء.

وقصة نضاله، وكيف أذيعت شهادته ضد تلك الشركة الجبارة على الملأ، بواسطة برنامج تليفزيونى أخبارى مدته وعنوانه «ستون دقيقة»، تبثه، فى ساعة الذروة، شبكة «سى.بى.إس»، وهى من هى فى عالم وسائط الاعلام، تلك القصة شارك فى حكايتها المخرج «مايكيل مان» مع الكاتب «اريك روث» فى سيناريو استوحيا وقائعه من مقال «مارى برينر»، جرى نشره فى مجلة «ڤانيتى فير»، تحت عنوان «الرجل الذى عرف الكثير».

أرض الأحلام

والحق أن السيناريو جاء محكم البناء، يحكى من بين ما يحكى، كيف تورط «ويجاند» فى الشهادة، وأقول تورط، لأنه رب أسرة، يعيش مع زوجته وذريته، مثلما يعيش ملايين الأمريكيين، حياة توافرت لها كل أسباب السعادة، ولو شكلا فمسكنه فسيح، تحيط به حديقة غناء،

ورياضته المفضلة لعبة الجولف، وأقساط التأمين الصحي تدفع بانتظام.

وطبعا يملك أكثر من سيارة فارهة.

ولكن ما أن شرع في الشهادة، حتى أخذ كل ما بناه على مرّ الأعوام، ينهار شيئاً فشيئاً.

ومع اقتراب يوم الإدلاء بالشهادة، وما صاحب ذلك من تهديد ووعيد، إذا بالأرض تزلزل زلزالها، وإذا بكل شيء ينهار، وينتهي به الأمر وحيدا، وقد تخلّت عنه شريكة حياته، ومعها الأولاد.

ونحن لا نعرف عن تفاصيل حياته، قبل عام ١٩٩٥، شيئاً.

من هنا تبدأ

فأحداث «الدخيل»، وصحة اسمه لو أحسن ترجمته «المطلع»، لا تبدأ إلا من ذلك العام، غير البعيد، وبالتحديد من لحظة اخطاره بالفصل من قبل إدارة شركة «ويليمسون وبراون»، لا لسبب سوى انه أبدى اعتراضا على إضافة مادة ضارة إلى التبغ، وبنى اعتراضه على أساس أن إضافتها يزيد من احتمالات وقوع المدخنين في براثن الإدمان، ومن احتمالات اصابتهم بالسرطان.

وفي هذه الأثناء جاءت «لويل برجمان» (آل باشينو) صاحب البرنامج المسمى «ستون دقيقة»، وثائق من مصدر مجهول، خاصة بأبحاث متصلة بالتبغ.

ومن أجل حل طلاسم تلك الأبحاث اتصل «بويجاند».

هذا إلى أنه أدرك، بحسه الصحفي، أنه لديه حكاية تغذي برنامجه بما يثير ويفيد.

وفعلا كان «ويجاند» عند حسن ظن «برجمان».

أسرار وأكاذيب

كان مستودعا لأسرار قلب إفشاؤها كل الموازين.

وفي البداية لم يكن افشاؤها أمرا يسيرا فثمة تعهد منه، يلزمه بعدم افشاء أسرار العمل، وإلا كان الحساب عسيرا.

وبطبيعة الحال، لجأت الشركة إلى كل الوسائل المشروعة، وغير المشروعة، للحيلولة بينه وبين الإدلاء بشهادته أولا أمام القضاء، وثانيا أمام الملا على الشاشات فكان أن هددته بالقتل وشوهت سمعته على نحو دفعه إلى التفكير في الانتحار.

وفوق هذا عملت على تهديد شبكة «سي.بي.اس» برفع دعوى ضدها، مطالبة فيها بتعويض قدره ألف مليون دولار.

ولأن الشبكة كانت تعاني من ضائقة مالية، وتسعى إلى الإندماج مع شركة «وستنجهاوس» فقد أذعنت للتهديد.

النصر لماذا؟

ومع ذلك، انتهت أحداث الفيلم، كما انتهت في الواقع، بويجاند مدليا بشهادته المنتصرة للحقيقة، المكذبة لشهادة رؤساء مجلس إدارة أكبر سبع شركات تعمل في



آل باشينو صاحب برنامج تليفزيونى فى المطلع

صناعة التبغ، بينها شهادة «توماس ساندفور» وأين؟

أمام إحدى لجان الكونجرس، حيث قالوا، بعد القسم: إنهم لا يعتقدون أن النيكوتين يحتوى مادة تؤدى إلى الإدمان، وذلك رغم أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنهم غير صادقين.

وكم كان صاحب الفيلم موفقا عندما اظهرهم أكثر من مرة، لعلها خمس مرات، فى لقطة تسجيلية لهم وهم يدلون، بعد القسم، بشهادتهم كذبا.

أما لماذا انتصر الحق، وزهق الباطل، فى قصتى «بروكوفيتش» و«ويجانده»، فذلك لحضور الشفافية الكاشفة للاستبداد، الفاضحة للفساد.

من أين ؟!



عمل مجهول لـ فتحى غانم
تراجيديا الهزيمة والانكسار

بقلم : د. فهمي عبدالسلام

«إن كل ماله معنى أو مغزى أعمق فى هذه الحياة، إنما هو وثيق الصلة بالنصر أو بالهزيمة».

تدهور الغرب - إشبنجلر

(١)

عمل مجهول رائع للروائى الراحل فتحى غانم، صدر عام ٥٩ عن سلسلة الكتاب الذهبى بعنوان «من أين ؟» ، وأغلب الظن أن هذه الرواية الرائعة كانت العمل الثانى للراحل الكبير بعد رائعته الأولى «الجبل» . فى هذه المغامرة الإبداعية المبكرة يطرح فتحى غانم الهموم نفسها التى ستظل تلح عليه طيلة مسيرته الإبداعية الرائعة. فكل إنتاج الفنان كما يقول جوتيه ، ماهو إلا اعتراف عظيم واحد . فى رواية «من أين؟» ، سنجد شغف فتحى غانم المبكر بعالم الصحافة، وسنجد انحيازه للمهزومين ورثاءه لمن سحقتهم الأيام وغلبتهم على أمرهم . كذلك سنجد فكرة «المصير» الذى يحيق بالإنسان ، تلك الفكرة التى تأثر بها كاتبنا من فلسفة المصير عند أوزوالد إشبنجلر، وسنجد كذلك تأثر كاتبنا بنبى الرواية ديستويفسكى العظيم ، تلك التأثرات الصحية العذبة ، التى صعدت بها موهبة فتحى غانم الكبيرة، وحلقت بها عاليا عاليا ، فوصلت بها إلى ذرى رفيعة من ذرى الفن الجميل ، سنجد إرهاصاتها العذبة المبكرة فى رواية «من أين ؟» .

زمن الرواية هو عـــام ١٩٥٩ ، وهذا التاريخ له أهمية في قراءة هذا العمل الجميل، ففي عام ٥٩ كانت الأمور قد استتبت لثوار يوليو، وكانت هزيمة العالم القديم قد ترسخت بشكل نهائي، فالعالم القديم، عالم الملكية وملحقاته من الاقطاع والاحزاب والطرابيش والألقاب والباشوات ووزارات بولكلي، كان في عام ٥٩ قد تمت هزيمته هزيمة نكراء ، سلطة قديمة قد هوت ، وسلطة جديدة حلت مكانها ، نصر هنا وهزيمة هناك ، والصـراع ملمح هام في إبداع فتحي غانم . فالحياة هي الصراع ، وفي أي صراع هناك منتصر وهناك المهزوم ، وما من شئ في هذه الحياة . له معنى أعمق أو مغزى ، إلا وكان وثيق الصلة بالنصر أو بالهزيمة، فالهزيمة انكسار وإذعان وتسليم، ومنطقة الهزيمة ورصدها عند المهزوم، كانت ومازالت منطقة أثيرة للفن الجميل، وواحدة من أهم الأهداف الكبرى للفن الراقي ، وفي رواية «من أين؟» ، يرصد فتحي غانم بعين الفنان القدير ، قدر المهزومين وعالمهم الباطن ، فبطل الرواية المحوري هو الإقطاعي السابق يوسف مكي، الذي هزمته الثورة وغلبته الأيام على أمره .

الصورة التي يقدم بها فتحي غانم بطله يوسف مكي ، ليست في صالحه كثيرا ، فقبل الثورة عاش يوسف مكي الاقطاعي الكبير نجما من نجوم المجتمع ، سياسيا محترفا ينتمي إلى حزب السعديين ، وعضوا دائما في البرلمان ، له دائرته الانتخابية المغلقة والتي لا يتجاسر الناخبون فيها على انتخاب أحد غيره ، مقامرا محترفا تنشر عنه الأخبار في صفحات المجتمع أنه خسر ألف جنيه أو أنه ربح ثلاثة آلاف جنيه ، وفي أحيان أخرى تظهر له صورة وهو يربت بيده على رقبة جواد يملكه فاز في السباق، أو خبر صغير عن ترشيحه للوزارة . وقامت ثورة يوليو ٥٢ ، وفي عام ٥٢ صدرت قوانين الإصلاح الزراعي ، فصادرت السلطة الثورية عشرة آلاف فدان من أملاكه ، تاركة له مائتي فدان ، فراح يوسف يهاجم الثورة في السر وفي العلن ، منددا بالحكم الذي يتجه إلى الشيوعية . ويسافر يوسف مكي إلى لندن فيقضي هناك عدة شهور، يعود بعدها إلى مصر ، فيتم اعتقاله بتهمة الاتصال بالانجليز وتدبير مؤامرة لعودة الملكية إلى مصر، وبعد عدة شهور يطلق سراحه دون أن تثبت عليه تهمة محددة .

في عام ٥٩، تبدو صورة يوسف مكي منفرة لا تدعو للاحترام أو التعاطف، عجوزا متصابيا تجاوز الخمسين ، سكيرا مدمنا ويطارد الفتيات الصغيرات بلا احتشام تفرضه برودة الدم وحكمة السنين، وفضائحه النسائية لا تثير إلا الازدراء ، والأسوأ أن زوجته عايدة التي تخطت الأربعين والتي لم تنجب ، ترتبط بعلاقة جنسية فاضحة هي الأخرى ، مع منير الشاب التافه الراضي عن نفسه كل الرضا ، والذي يصغرها بخمسة عشر عاما أو أكثر، الأدهى والأمر ، أن يوسف مكي يعلم بعلاقة منير وعايدة . بل

ويستقبله يوسف في ود، ويظهر ثلاثتهم معا ، صورة منفرة لرجل متحلل لا يغضب ولا يثور لشرفه ، وزوجة خائنة في العلن ، وعلى عينك يا تاجر، هكذا يقدم لنا فتحي غانم صورة بطله يوسف مكي .

الشخصية المحورية الثانية في العمل، تنتمي إلى الطبقة المنتصرة الصاعدة ، الصحفي الشاب مصطفى حمدي، شخصية ساقطة أخرى ، وغد بلا خلاق ، انتهازي وكاذب ومنافق أصيل ، لا يشغله شئ سوى الصعود والصعود ولو على جثث الضحايا وأشلائهم، وفي قصة تعارف مصطفى حمدي على الاقطاعي السابق، يكشف فتحي غانم عن مدى الانحطاط الذي هبط إليه مصطفى حمدي. كان اللقاء الأول بينهما بعد خروج يوسف من المعتقل بفترة وجيزة، وكان مصطفى يجلس مع مجموعة في نادي الجزيرة ، للحصول على معلومات ما سيقوم بنشرها، وهبط يوسف على المجموعة التي استقبلته في برود ، وبعد قليل تنصرف المجموعة كلها إلا يوسف مكي والصحفي الشاب اللذين لا يعرفان بعضهما البعض، فيدعوه يوسف على الشاي ، فيقبل مصطفى الدعوة ، ويتحدث يوسف ويثرثر عن نفسه ، ويخفي مصطفى احتقاره ليوسف وشماتته فيه ، فيتظاهر بالانبهار الشديد به وبحديثه ، يبتسم مصطفى إذا ما ابتسم يوسف ، ويضع دهشة الدنيا كلها على وجهه إذا ما حاول يوسف أن يدهشه ، ويصيح برافو مستحيل مش معقول ، ويتظاهر مصطفى بأنه ذاهب إلى دورة المياه ، ليذهب إلى التليفون ليتصل بالجريدة ويملي الأخبار والشائعات والأسرار التي سمعها من يوسف ، ومن نادي الجزيرة يذهبان معا إلى السينما ، وبعد السينما يدعوه يوسف إلى قضاء السهرة في بيته ، حيث يقدم له يوسف الويسكي ، يقضيان السهرة ، ويحدثه يوسف عن زوجته عايدة الغاضبة عند أهلها وتريد الطلاق، وفي الثالثة صباحا يتلقى يوسف مكالمة نسائية ، ويحدد موعدا غراميا في الخامسة عصر اليوم التالي في جرسونيرة يوسف ، وينتبه يوسف أنه لم يعرف مهنة مصطفى، وفيما يعلم أن مصطفى صحفي ، يتماسك يوسف ولا يفقد رباطة الجأش ، ويطلب من مصطفى أن ما سمعه منه اليوم ليس للنشر ، فيؤكد له مصطفى أن يعتمد عليه كصديق وأن يأتمنه .

مدن لا تعرف الصداقة

الصداقة الحقيقية تنتمي كما يقول اشبنجلر إلى أزمنة أخرى ، أزمنة الدين والفن والشعر ، أما شتاء المدينة ، في مرحلة الكوزموبوليتان ، مرحلة المدن العالمية الكبرى مثل القاهرة وبيروت ولندن وباريس ، فهي مدن لا تعرف الصداقة ، مدن يسكنها جمهور مائع من الأذكياء المرتابين الواقعيين العمليين اللادينيين، وابن الكوزموبوليتان في حاجة إلى نديم ، ومصطفى حمدي كونه صحفيا فهو ابن أصيل للكوزموبوليتانية ، يذهب في الخامسة عصر اليوم التالي أمام جرسونيرة يوسف مكي ليعرف من هي



العشيقة ، التي لم تكن سوى سعاد وهبى، «الأرملة الطروب» الشهيرة بفضائحها ، وفى اليوم التالى يفاجأ يوسف مكى ، بتحقيق مثير عن الاقطاعى المنحل وفضائحه وعلاقته بالأرملة الطروب، كتبه مصطفى حمدى ، وتحامل فيه على يوسف مكى ، ونشر كل الأسرار التى إئتمنه عليها منذ ساعات قليلة ، فمصطفى حمدى النديم النموذجى، هو خائن نموذجى كذلك. ويطلب يوسف فى التليفون بصوت مؤدب مقابلة مصطفى ، الذى يرتاب فى أدب يوسف. فمصطفى (ابن الكوزموبوليتان) شكاك مرتاب بطبيعته ، يظن أن أدب يوسف يغطى به مكيدة يدبرها للانتقام منه ، ويتغلب مصطفى على هواجسه وشكوكه ويذهب إلى يوسف فى بيته ، ويحتسيان الويسكى والساعات تمر ويوسف يثرثر ، والموضوع المعلق بينهما لا يتطرق إليه يوسف . وفى الثالثة صباحا يقول يوسف فى أدب وحزن : «أنا عاتب عليك علشان اللى كتبته عنى وأنت واعدنى أن الكلام مش للنشر»

فيضحك مصطفى ضحكة بلا معنى ويقول : « الصحافة كده (!!) » بدلا من أن يتلقى مصطفى اللوم والتقريع والتوبيخ، حتى العتاب الرقيق الذى وجهه له يوسف ، إذا به يتراجع ويعتذر عنه بسرعة فيقول لمصطفى : «عموما أنا مش زعلان منك، أنت شاب لطيف.. وأنا بأحب أقعد معاك .. أنا لى أصحاب كتيره».. نكتشف أن يوسف بالرغم من كل شئ إنسان مسكين وحيد، يخجل من الاعتراف بوحدته ، وأن يوسف ابتلع الإهانة وتجاهل الإساءة ، كى يتخلص من وحدته .

(٢)

.. يقدم لنا فتحى غانم مصطفى حمدى الصحفى الوغد الصغير، الساقط أخلاقيا ، ولكن بمرور الأحداث نتعرف على الصورة أكثر فأكثر ، الوجه الآخر لسقوط مصطفى حمدى ، ذلك السقوط الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بالصحافة ، لم يكن أمام مصطفى مخرج آخر، مات والده وهو مازال طالبا ، لم يكن لديه الوقت الكافى كى يلتحق بالجامعة ويحصل على الوظيفة والمرتب ، كان عليه أن يجازف بكل شئ ، أن ينجح بسرعة وأن يحصل على النقود بسرعة، فالمال كما يقول اشبنجلر ، شيطان المدينة وربها الأعلى، كان الفقر يحاصر مصطفى ، وكان يرى ابتسامة أمه الحزينة تعلو شفتيها كالطفح الجلدى ، وهى تبيع آخر قطة ذهب تملكها، كان يرى هذه الابتسامة وهو يعلم أنها عقدت العزم على أن تستسلم، وكان يسأل نفسه متى ستستسلم، وكيف ستستسلم، كان يسأل نفسه هذا السؤال ويفكر فى اللحظة التى سيقتل أمه فيها ثم ينتحر، وكانت الصحافة ، وكان الخبر المثير بنصف ريال ، نصف الريال كان يؤجل سقوط الأم ، دخل مصطفى غابة الصحافة ولا تعنيه كلمات من نوع شرف المهنة أو تقاليد الصحافة أو الخير أو الأخلاق ، فالمسألة حياة أو موت ، فلابد من الحصول على الخبر المثير، ولابد أن يصعد وأن يلمع ، خاض المعارك بالأنياب والمخالب ونهش وعقر، كذب ونافق وافترس الخصوم بلا رحمة وصعد على جثث الضحايا وفوق أشلائهم ، لم يكن أمامه بديل عن الصعود والصعود ، قطار وضع فوق القضبان فلابد أن يطوى المسافات طيا ، كى يحمى امرأة مسنة لتحتفظ بشرفها ، وتصلى على سجادة الصلاة وتدعو له بالفلاح والنجاح ، وكان السقوط الأخلاقى هو ثمن الصعود فى عالم الصحافة، التى هى إحدى تجليات المدن الكبرى ، تلك المدن العملاقة الجميلة ، ذلك الجمال الذى يصفه أوزوالد اشبنجلر ، بالجمال الغارق فى الإثم ، إذ ليس مصطفى حمدى الصحفى الوغد، لكنها الحياة المعدومة الضمير .

هكذا يظهر تأثر فتحى غانم باشبنجلر ذلك التأثر الذى يتبدى فى رؤى اشبنجلر الشجية لمأساة الإنسان المنسحق فى متاهة الكوزموبوليتان، لكنها ليست التأثيرات الوحيدة التى شكلت وجدان كاتبنا الكبير ، فكما تأثر فتحى غانم



باشبنجلر ورؤاه التى تفيض شعرا وشجنا خالصا ، تأثر كذلك بنبى الرواية المعاصرة فيدور ديستويفسكى العظيم ، وهل أفلت روائى كبير من ديستويفسكى العظيم ؟!

يظهر تأثر فتحى غانم فى « رواية «من أين ؟» فى شخصية علياء منصور، ففى رواية الاخوة كرامازوف ، يتخيل ايفان كرامازوف فى مسرحية من تأليفه ، هبوط السيد المسيح بهيئته البشرية إلى الأرض، فى اسبانيا إبان محاكم التفتيش ، هبط لهداية الجمهور المزعزع العقيدة ، وديستويفسكى يهدف بهذا المسرحية ، إلى طرح هذا السؤال الميتافيزيقى العميق (لم تكن ابداعات ديستويفسكى سوى ابداعات دينية) ، هل يحتمل عالمنا الأرضى الوداعة والمحبة والتسامح والغفران؟ وكيف سيكون اللقاء بين عالمنا الوحشى الضارى، والوداعة المجسدة فى شخص المسيح ، ويجيب ديستويفسكى على السؤال إجابة عملية حاسمة ، باعتقال السيد المسيح نفسه ، وبإلقائه فى زنزانة موحشة تمهيدا لحرقه كهرطيق جاء ليضلل الناس ويهدف إلى انتزاع السلطة من الكاردينال الأكبر (!!) فالحياة على الأرض لابد وأن تغتال البراءة فلا مكان للودعاء على هذه الأرض.

فى رواية «من أين؟» يعمد فتحى غانم إلى الحيلة الخيالية نفسها (ولن نقول فانتازيا لأنها كلمة ابتذلت بشكل غير معقول)، التى لجأ إليها ديستويفسكى العظيم، فإذا كان ديستويفسكى جعل المسيح يهبط على الأرض ، يبعث فتحى غانم بأنثى فاتنة فى عمر الورود لها نفس طفل برئ لا يعرف شرورنا ومكرنا وشهواتنا ، علياء منصور الجميلة ابنة القمر الموفدة من كوكب آخر ، كى تتعرف عن قرب على حياة أهل الأرض ، وتعرفت علياء على عالمنا ، عالم هرم ومريض ، ورأت قبحا ووحشية أبكتها على شقاء أهل الأرض، شقائهم بحياتهم وبنقودهم وطبقاتهم اللا إنسانية ، وكما تم إيداع مسيح ديستويفسكى فى السجن ، لم تمر أربعة أيام على وجود علياء بالاسكندرية حتى أصبحت مطاردة من الشرطة ، فتهرب ثانية إلى القمر قبل القبض عليها ، ومحاكمتها بتهم كانت ستؤدى بعنقها الجميل إلى حبل المشنقة .

تهبط علياء منصـ ـ إلى الاسكندرية فى صباح مبكر من صباحات أغسطس ، فتسوقها المصادفة أن تلتقى بالصحافى

الشاب مصطفى حمدي والارستقراطي المهزوم يوسف مكي، وتختلف نظرة كل منهما إلى علياء منصور الجميلة الغامضة، فمصطفى الصحفي الشكاك المرتاب الانتهازي، لا يشغله شئ سوى أن يعرف اجابة ذلك السؤال: من أين؟ (اسم الرواية) فكل أحوالها تثير شكوكه ومخاوفه، إذ يكتشف أنها تحمل في حقيبة يدها عملات تقدر بالملايين ومن كل نوع، دولارات وفرنكات واسترليني ومصري، وتتحدث بالفصحى، وعندما يتلصص على غرفتها في غيابها ليكشف سرها، يزداد هلعا عندما يرى جوازات السفر العديدة، والتي كلها تحمل تأشيرات دخول سليمة، جوازات سويسرية وايطالية وفرنسية .. ويظل هم مصطفى الأوحد وشغله الشاغل أن ينالها وأن ينال سرها.

(٣)

إذا كان هم مصطفى حمدي هو اكتشاف سر علياء، فإن هذه المسألة لا تشغل يوسف مكي من قريب أو من بعيد، وخلال علاقة يوسف مكي بعلياء منصور، يقدم لنا فتحي غانم الجانب المأساوي لهذا العجوز الثقيل المتحلل، فيقدم لنا صورة حزينة تدعو إلى الشفقة والرثاء، حينما اتصلت به علياء في التليفون، وكانت قد عرفت الرقم بطريقة ما، وكان يوسف قد رآها تقف مع مصطفى في الصباح على رصيف الونسور، وقالت علياء ليوسف عبر التليفون «أريد أن أعرفك» غمر يوسف شعور غريب أن هذه الفتاة الجميلة سيكون لها شأن كبير في حياته (فكرة أن مصير ما يحيق بالإنسان).

كان يوسف خلال السنوات الأخيرة يعيش والناس تتهرب منه، وكان يتصل بمصطفى كي يحظى بلقائه، ويغريه يوسف بما لديه من أخبار وشائعات وفضائح، ليتخلص من وحدته، كان يوسف لسنوات طويلة يعيش منبوذا مشبوها بلا قيمة، الجميع يهربون منه، والنساء اللاتي عرفهن يوسف كان يلهث خلفهن، لكنه فوجئ بهذه الفاتنة التي لم تره، تتصل به وتقول له «أريد أن أعرفك» وشعر أن السنوات المملة الكئيبة التي تنوب فيها أيامه بدأت تتغير، ومنذ أن خرج من المعتقل ويوسف يحلم بفتاة صغيرة تحبه وتموت في حبه، رغبة جامحة سيطرت عليه أن يجد الحب الكبير الأخير ينهي به أيامه، بعد المكالمة قفزت إلى خيال يوسف صورة الحب الكبير الذي ينتظره مع علياء، هذا الحلم هو آخر ما تبقى له بعد أن فقد مجده السياسي، انتهت أيامه وأصبح مشبوها، يشعر بالوحدة تخيم على حياته، لا يجد معنى لشئ ولا طعم لشئ يجلس الساعات على مقهى ميرامار على شاطئ البحر، يتلفت يمينا وشمالا دون أن يحدثه أحد، وبين وقت وآخر، يدخل أحد ممن كان يعرفهم، فيهم يوسف بتحيته، لكنه يفاجأ به يدير رأسه ويبتعد عنه، فيقف أمامه الحاوي الذي يتنبأ بالحظ عن طريق فار مدرب، فيقف الفار أمام يوسف في ثبات، يأخذ النقود بأسنانه ولا يفر، ويقدم له الفار

قرطاس الحظ فى ثبات ، لم يهرب الفأر منه ، فشعر يوسف بحنان غامر حيال هذا الفأر الذى لم يهرب منه، فاشتراه بعشرة جنيهات من الحاوى .

(٤)

كان الاقطاعى السابق ونجم المجتمع المتألق يجتر الأيام المملة، لا معنى لشئ ولا طعم لشئ ، يعلم أن عايدة لها عشيق فلا يهتم ، ويسأل نفسه لماذا لا يكون لها عشيق ولماذا لا يكون له عشيقة، هل يحبس نفسه معها ويختنق بها، هل يقضى كل لياليه فى البيت يلوكان نفس الكلام ويتعفنان على مهل ، إنه يعرف كيف ينتقم من هذه الدنيا التى غلبته على أمره ، سيخرج على قوانينها وسيتمرد على عرفها وتقاليدها ، سيتحرر من كل القيود، ماذا يريدون منه ؟ أمواله؟ .. أخذوها ، أصدقاءه؟ أين هم ، لم يبق له إلا نفسه، والخراب يحيط به من كل جانب ، وكل ما فى الدنيا خراب ، والناس ليسوا ناسا ، إنهم وحوش مفترسة، وهو وحده، وحده يعيش فى هذه الأرض الخراب، له أن يفعل ما يشاء فى أى وقت يشاء ، إذ ليس للخراب تقاليد أو قوانين .

هكذا يسترسل يوسف فى أوهامه بحب علياء له ، لكن صوتا باطنيا يقول له إنها تريده لشئ آخر غير الحب، فهى فى البداية وهو فى النهاية، ولكن ها هى الأحلام تتحقق ، إذ تهرب علياء من الوندسور ومن صحبة مصطفى لتذهب إلى يوسف مكى، وحينما يراها يوسف لا يملك نفسه ، وعندما تؤكد له أنها تحبه ولن تتركه، يبكى يوسف ، ويقدم لها سره وروحه ، من خلف مدفئة قديمة يخرج يوسف أوراقا لو اطلع عليها أحد لتم تعليقه فى حبل المشنقة، إنها الأوراق التى تثبت اتصالاته بالانجليز والتى ذهب من أجلها إلى لندن . يقدمها يوسف إلى علياء ليبرهن لها على حبه الكبير لها ، لأنه الآن لا يخاف من حبل المشنقة لا يخاف سوى من أن تتركه علياء ليعود إلى حياته الخاوية المملة ، فإذا ما تركته فالموت أهون، ولم تمر عدة ساعات حتى كان الصوت الباطنى الذى يتردد فى أعماق يوسف يتحقق، فحينما أدركت علياء أن يوسف يبحث عن حب جسدى وعشق نارى ملتاث ومجنون ، هربت منه وقد اشمئزت من مقاصده ، وحينما تأكد يوسف أن علياء لن تعود إليه، وأن حياة الخراب ستحاصره مرة أخرى ، ألهب المسكين رأسه بالرصاص .

ومع فتحى غانم نكتشف أن عايدة الزوجة الخائنة ، ليست أقل شقاء من يوسف ، فبعد الجراحة الاجتماعية التى قامت بها السلطة الثورية ، وبعد اعتقال يوسف وتدهوره ، سرى على عايدة قانون الخراب هى الأخرى وطالها ، فحينما تم اعتقال يوسف، كلفت عايدة أربعة من أكبر المحامين للدفاع عنه ، وأظهرت الشجاعة والاخلاص ، ورفضت أن تتزين أو أن تضع الروج أو البودرة على وجهها ، هجرت عايدة المجتمع والحفلات والأندية، ولم تذهب إلى السينما أو إلى الكوافير مرة واحدة ، وكانت مثل المجنونة تهذى لا

تأكل ولا تنام، وحينما خرج يوسف من المعتقل لم تذكر أمامه شيئا مما عانته وتظاهرت بالمرح والسعادة ، وكانت تشعر بالفعل بالمرح وبالسعادة .

وفوجئت عايدة بتدهور حالة زوجها الذي تحبه، الذي كان قد يأس من عودة أمجاده ، فأصبح أي شيء عنده يساوي أي شيء ، كانت عايدة تصبر نفسها وفضائح يوسف تترامى إليها ، وتقول لنفسها ماذا سيقدم يوسف لهذه أو تلك، هل سيحبها كما أحب عايدة ، هل سيعطيها أجمل أيامه كما أعطى لعايدة ، هل سينالها كما نال عايدة ، وسرى قانون الخراب على عايدة كما سرى على يوسف قبلها ، قانون دبرته الأقدار حينما قامت الثورة فقلبتهما على أمرهما، فكان العشيق التافه الذي يصغرها بخمسة عشر عاما ، ولم يطلقها يوسف لأنه يعلم أنها تحبه وهي لم تصر على الطلاق لأنها تحب زوجها .

بعد انتحار يوسف وصعود علياء إلى القمر ، تترك علياء إلى مصطفى رسالة ، في هذه الرسالة تظهر تأثيرات اشبنجلر العذبة ورؤاه الشجية على كاتبنا الكبير. الرسالة في مجملها انتقاد قاس حاد ، ورؤية نافذة شجية إلى تشوهات حياتنا المعاصرة التي بلغت درجة هائلة من التشويه فالأوراق الملونة (وهي ألفاظ اشبنجلر نفسها) يأكل الإنسان بها ويتمتع بالحياة بها ، وإذا ما فقدها فهو مستعد لأن يفقد حياته ولا يفقدها وتتعجب علياء أن تجد إنسانا دوره هو القيام بدور الخادم عند إنسان آخر. (هذا الشغف ظهر فيما بعد في شخصية مبروكة في الرجل الذي فقد ظله) . وحينما حاولت علياء أن تجعل الخادم محمود يعيش مثل السادة وأعطته الأوراق الملونة، شقي الخادم بحياته الجديدة ، وارتاب هو وزوجته في الوضع الجديد، وتوسل إلى مصطفى وعلياء أن يتوسطا لديه كي يعود خادما عند يوسف مكي مرة أخرى !!

أوضاع ترفضها الفطرة السليمة ولا يفهمها الأبرياء والأنقياء ، أوضاع مدينة شائهة كالحة شهباء اللون ، يخلقها الإنسان عندما يخلق المدينة ، وبعد أن يخلقها اختلاقا ، يقع أخيرا في قبضتها، في قبضة إنجازه الخاص الجميل ، ذلك الجمال الغارق في الإثم .

«من أين؟» عمل جميل رائع ، يحلق بنا خلاله فتحي غانم ، مهتديا برؤى اشبنجلر وديستويفسكي ، ويحلق بتلك الرؤى الشعرية عاليا عاليا، فيلتمس الأعذار للأوغاد وللساقطين والمهزومين ، ويجعلنا نحن القراء ، أكثر رقة وأكثر إنسانية ، عبر رؤاه المليئة بالشجن .

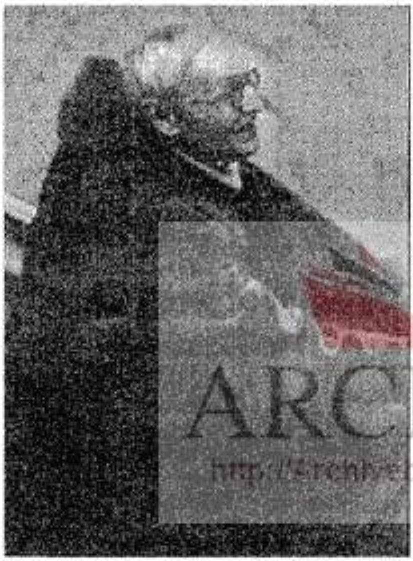
«هرمان هسه»
ونماذج من فكره

بقلم : د. السيد أمين شلبى

هرمـان هسـه (١٨٧٧ - ١٩٦٢) هو الكاتب الألمانى الشهير صاحب الأعمال الروائيـة «سـتـة مـجلدات» والعـديد من الدواوين الشـعـرية والكتابات والتـأمـلات الذاتيـة والفلسـفيـة ، والحائز على جائزة نوبل للأدب وجائزة جوته . وقد نال جائزة نوبل عن روايته :

Magister Lud, The Glass brerd Game «والتى ترجـمـهـا إلى العـربيـة فى ترجـمـة رصـينة الدكتـور مـصطفى مـاهر تحت عنوان «لعـبـة الكرات الزجـاجـيـة» وأودع فيها هسة خلاصة فكره وفلسفته ورؤيتـه للعـالم ، ووصـفـهـا «تومـاس مـان» بأنها عمل جليل ومهيب ، وبلورت صورته التى أثرت فى أجـيـال مـعـاصـريه كـقـوة روحية تتصل بالشرق وصوفيته وما تمثله من إيمان بالحيـاة الفـردية التى يجب أن ندافع عنها ضد أساليب العالم الحديث .

وقد تركت نشأة هسة وتربيته وبيئته المنزلية وبيئته الطبيعية التى نشأ فيها أثرا كبيرا على اتجاهاته الفكرية والفلسفية ، كما شهدت فترات حياته وشبابه المبكرة أزمته الدينية التى أدت به أن يهجر المعهد



الكاتب : هرمان هسه

الدينى الذى كـان يدرس فـيـه عـام ١٩٨٢ ومـحـاولتـه الانتـحـار . وقد انعكست هذه الفترة المبكرة بتوتراتها وحساسيتها فى عـدد من أعـمـاله الأولى مـثل : Beneath the wheel, Beter Comenzind «والتى ترجـمـهـا المرحـوم الأسـتـاذ فـؤاد كـامل لروايات الهلال فى ترجمة ناصعة تحت

عنوان «الطفل الموهوب» .

السيرة الذاتية

غير أن ما يوازى أعمال هسة الروائية هو إنتاجه الشعري وكتاباته النثرية التي قدمت أساسا لسيرته الذاتية كما بدت في مجموعاته : Auto biogreaphicul writings, Reflections, Apictorial Biogvaphy, My Belief . ومن هذه السيرة الذاتية نستطيع أن ندرك أن عددا من أعماله الروائية واتجاهاته الفكرية والفلسفية قد تأثرت إلى حد كبير بنشأته العائلية والدينية وبأفراد أسرته خاصة جده لأبيه وأمه وما تفتحت عليه عيناه في منزل جده وأسرته من رموز شرقية وآسيوية وأجواء وأشباح اسطورية جعلت السحر والقوى الغامضة تستولي عليه ، بل ولكي يستعيدها في المستقبل في رغبته الملحة لتغيير الواقع وتحويله والارتقاء به ، ولكي يجعله يرى كل شئ مملوءا بالواقع ومملوءا بالسحر . وفي روايته لسيرته الذاتية يستعيد هسة بشكل عاطفي أيام طفولته ونشأته وانجذابه في أيامه الأولى إلى الإله «بان» الذي يطل عليه من الدولاب الزجاجي في مكتبة جده متخفيا في شكل وثن وهي المشاهد «التي سلبت لبي في سنوات طفولتي» وقبل أن يقرأ ويكتب امتلأت نفسه «بالصور الشرقية القديمة والأفكار التي تدور حولها ، وحين تقابلك ملحمة هندية أو صينية ، يبدو الأمر وكأن شملي قد التم على من يعرفه وأكون كمن يعود إلى وطنه» . هذا التأثر بالعالم الشرقي ورموزه وما يحيط به من أسرار وغموض هو الذي جعله يود أن يصبح ساحرا ، وهي الرغبة التي انبثقت من عدم اقتناعه بالواقع الذي رآه كمؤامرة شخصية من الكبار وشعر نحوه بالازدراء والفزع وانتابته رغبة ملحة لتغييره والارتقاء به عن طريق السحر ، هذه الأجواء والرموز الشرقية التي رآها في مكتبة جده وترسبت في وجدانه هي التي سوف تجذبه إلى عالم الشرق والتي سوف يراها حية وواقعية عندما قام برحلته إلى الهند عام ١٩١١ وهي الرحلة التي اعتبرها «الزيارة الحلم إلى الأسلاف البعيدين وتجربة الرجوع إلى الطفولة الأسطورية للبشرية والشعور بالرهبة العميقة لروح الشرق وكانت منبعا للإلهام» وفي خلال هذه الرحلة اكتشف أن تصوره للبشر من خلال الرموز ، التي كانت «مكتبة جده مماثلا لما رآه في الواقع خلال هذه الزيارة للشرق» فهي نفس الطريقة الحالمة التي يمشي بها الهندوس ، ونظرة السنهالي بدمثه الدقيقة التي شعر بها للنظرة الغزال ، وبياض مقلتي العينين الذي يخطف الأبصار في وجوه الحمالين التاميليين السوداء البرونزية ، وابتسامة الصيني المميزة» .

رباط الشرق والغرب

غير أنه مع هذه الخصائص الشرقية المميزة لما حلم به وتصوره عن أبناء

الشرق وما رآه في زيارته له إلا أنه وجد ثمة رباط يربط الشرق والغرب أبعد واسمي وهو الإنسانية ، وهو الرباط الذي جعله يرى في تلك العيون الملتهفة الغامضة اللوزية الشكل «موضوعا للفضول وإنسانية متماثلة وواحة جديرة بالحب» ، ورغم أنه لا يمكن الحديث مع هؤلاء البشر، إلا أنه وجد «أن أرواحهم تشبه أرواحنا تماما ، وهم يتعلقون بأحلام ورغبات خلال صلواتهم لا تختلف عن أحلامنا ورغباتنا بأكثر مما تختلف أوراق الشجر عن بعضها البعض» ، لذلك لم يكن غريبا مع هذا التأثر بل والافتتان منذ الطفولة بالشرق ورموزه وأجوائه أن تنعكس في كتابات هسة وإنتاجه الروائي منذ أن أصدر «ذئب البراري» Nareissus and Goldmul التي اعتبرت واحدة من الأعمال السحرية التي نشرت في عصرنا وتعالج الصداقة بين قسين من العصور الوسطى قنع أحدهما بعقيدته وتجول الآخر بلا نهاية بحثا عن السلام والتحرر ، ومثل هذا الصراع بين الروح والجسد ، بين الإنسان العاطفي والإنسان المتأمل والمفكر هو ما سوف يظل يشغل هسة طوال حياته . كذلك سوف تبدو خبرته الشرقية وانجذابه نحو الشرق بوضوح في روايته «سيدهارتا» (ترجمها إلى العربية كذلك الأستاذ «فؤاد كامل») والتي تجرى في أجواء الهند وتصور قصة بطلها ورحلته الروحية التي يمر بها وانتقاله من حياة التأمل فيما حوله وعدم رضاه عما يحيط به إلا أنه لا يلبث أن يتخلى عن هذه الحياة ويستجيب لرغبات الجسد والإغراءات الدنيوية غير أن الملل يصيبه من هذه الحياة لكي يتحول من جديد إلى حياة المعاناة التي تقوده في النهاية إلى السلام والحكمة .

وكما سبق وأشرنا فإن مكانة هسة لا ترتبط فحسب بأعماله الروائية وإنما كذلك بمجموعاته الشعرية في الحياة والكون والإنسان والتي تخللت سيرته الذاتية وكذلك في مجموعة مقالاته عن الفن والحياة والتي ظهرت تحت عنوان · My Belief والتي نختار منها هذه النماذج المعبرة عن فكره :

عن العمر المتقدم

إن العمر المتقدم هو رحلة في حياتنا ، وشأن كل المراحل الأخرى لها وجه خاص بها ، وكذلك مناخها ، ودرجة حرارتها وأفراحها وأحزانها ، ونحن متقدمي السن لدينا ما نؤديه مما يعطي معنى لحياتنا ، بل حتى من هو مشرف على الموت له هدفه وشئ مهم وضروري لكي يحققه ، وأن يكون المرء متقدما في السن لهو شئ جميل ومقدس ، مثلما يكون شابا ، والإنسان الذي يكره أن يكون متقدما في السن ويخشى الاقتراب من الموت لم يعد يستحق أن يكون ممثلا لمرحلته في الحياة تماما مثل الشاب القوي الذي يكره ويحاول أن يتهرب من أعماله اليومية ، وباختصار فلكي نحقق معنى العمر وأن نقوم بواجبنا فإن المرء يجب أن يتصالح مع العمر المتقدم ، وأن يقول نعم ويتقبل كل شئ يأتي به ، وبدون نعم هذه ، وبدون

الخضوع لما تتطلبه الطبيعة منا فإن قيمة ومعنى أيامنا سواء كنا شيوخا أو شبابا سوف تفقد وسوف نخون حياتنا . ومع العمر المتقدم على الإنسان العاقل أن يدرك ويتقبل عدة حقائق : أن العمر المتقدم يحمل معه العجز والوهن وأنه فى النهاية يطل الموت ، وأنه عاما بعد عام فإن الإنسان عليه أن يقدم التضحيات ، ويتحمل ضروبا من المنكرات ، وعليه أن يتعلم أن لا يثق فى حواسه وقواه وأن الطريق الذى كان منذ وقت قصير ونزهة قصيرة يصبح طويلا مرهقا ويوما ما لن نستطيع أن نسيره ، وعلينا أن ننسى بعضا من الطعام الذى اعتدنا أن نستمتع به فى مراحل حياتنا السابقة ، وتصبح المسرات الجسدية نادرة ويدفع فيها ثمنا أغلى . إنه واقع مرير ، غير أنه سيكون من الحزن ومن وضاعة الروح أن نستسلم لهذا التدهور ، وأن لا نرى أن العمر المتقدم له جانبه الطيب وبهجته الخاصة . فحين يلتقى اثنان متقدما العمر فإنهما يجب أن لا يتحدثا عن آلامهما الجسدية ومعاناتهما وإنما يجب أن يتحدثا أكثر عن أكثر تجاربهما بهجة وراحة وعن مغامراتهما ولابد أن هناك الكثير منها ، وفى تذكر الجانب الايجابي والجميل من العمر المتقدم فإننا يجب أن نتذكر أننا نملك مصادر القوة والصبر والبهجة التى قد تلعب دورا فى حياة الشاب . من هذه المصادر كنز الصور التى يحملها الإنسان فى ذاكرته بعد عمر طويل ، إن شخصيات ووجوها بشرية لم تعد تعيش بيننا ، إنما نستمد فى وجودها معنا أنها تنتمى إلينا ، وتمدنا بالرفقة وتتطلع إلينا من عيون حية ومن خلال هذه الصور نرى البيوت والحدائق والمدن التى اختفت أو تغيرت تماما كما كانت من قبل ، كما نجد الجبال البعيدة وسواحل البحر التى زرناها فى رحلات من حقب مضت ، نجدها صحوة وملونة فى كتاب صورنا ، وحين نقلب اليوم بشكل حذر هذه الصفحات من كتاب حياتنا حيث كنا نندفع كالعاصفة مدفوعين بالرغبات والأحلام والعواطف وفقدان الصبر والتوتر والتوقع ويستثيرنا بشكل كبير الإنجاز والإحباط ، فإننا نشعر بالدهشة كم هو جميل وطيب أن هربنا من هذا التعب والمطاردة ، ووصلنا إلى حياة التأمل ، وحيث فى حديقة العمر المتقدم تزدهر العديد من الأزهار التى لا نعطيها إلا القليل من التفكير والتأمل ولم نتعهدها بالفلاحة والعناية . هنا تزدهر زهرة الصبر وهو ازدهار نبيل، وحيث نصبح أكثر استرخاء ومراعاة لمشاعر الآخرين ، وكلما قلت مطالبنا للمشاركة والاندراج فى العمل تحطم نمو قدرتنا على التأمل والاستمتاع بحياة الطبيعة وزملائنا من البشر وأن ندع تيار الحياة يعبر بنا دون نقد وبدهشة متجددة بتنوعها أحيانا بالقلق والرثاء الهادئ وأحيانا بالضحك والبهجة والفرح الخالص والدعابة .

عن المسرات الصغيرة

أعداد ضخمة من الناس تعيش حياتها هذه الأيام فى سبات وغيبوبة كئيبة لا حب فيها ، ويجد الناس ذوو الحساسية

خلو حياتنا من الفن الحقيقي مؤلمة وشديدة الوطأة ولذلك ينسحبون . ويقول رجال الدين والمؤسسات الدينية إن ما نفتقده اليوم هو الدين ، ويقول آخرون إنه الفن . وقد يكونون على حق ، ولكن أعتقد أن ما نفتقده هو الفرح والبهجة .

إن القيمة العليا التي نعطيها لكل دقيقة وقت ، وفكرة السرعة والهرولة كأكثر وأهم أهداف الحياة هي من غير شك أكثر أعداء الفرح والبهجة خطورة . حين كنت أقرأ مرثية فردريك عن الكسل لم أستطع إلا أن أتساءل : كم كان يستحب إذا ما كان عليه أن يعمل بشكل شاق كما نفعل اليوم . ومن سوء الحظ أن السرعة المتزايدة للحياة الحديثة قد أضاعت ما كنا نتملكه من الفراغ القليل . إن طريقة امتاع أنفسنا ليست أقل إثارة للسخط وللأعصاب من ضغوط عملنا فالشعار قد أصبح «بأكثر وأكثر ما تستطيع وبأسرع ما يمكن» الأمر الذي جعل هناك الكثير جدا من التسلية ولكن القليل من البهجة والفرح . وكل من شاهد احتفالا كبيرا في مدينة أو في مواقع التسلية في العواصم الحديثة سوف يحتفظ بانطباع مؤلم وغير سار لهذه الوجوه المحمومة المشوهة بعيونها الجشعة وهذا البحث المريض عن المتعة وهو ما نجده أيضا في المسارح ودور الأوبرا وقاعات الموسيقى ومعارض الفن ، فإن تزور معرضا حديثا للفن لم يعد أبدا شيئا سارا ومشبعا أو يبعث على الابتهاج والمتعة . ولا أملك وصفة كاملة ومؤكدة النجاح ضد هذه المساوئ ولكن بكل بساطة أريد أن أستعيد صيغة قديمة، ولكن لسوء الحظ غير عصرية، إن المتعة المعتدلة هي متعة مضاعفة ، فلا تستخف بالمسرات الصغيرة . إنه الاعتدال، ففي بعض الأوساط يتطلب الأمر شجاعة أن يفوت المرء حفل افتتاح ، وفي دوائر أوسع تحتاج شجاعة أن لا تقرأ اصدارا جديدا بعد عدة أسابيع من صدوره ، كي يصبح الأمر موضعا للسخرية إن لم يكن المرء قد قرأ الجريدة اليومية ، ولكني أعرف أناسا لا يشعرون بأي أسف إذ ما فاتهم كل هذا. فلنجعل الشخص الذي يحرص على الاشتراك في مسلسل أسبوعي لا يشعر أنه يفقد شيئا إذا ما تابعه كل أسبوعين وأضمن له أنه سيكون هو الفائز ، ولتجعل أي شخص تعود على النظر إلى عدد كبير من الصور في معرض أن يحاول أن يمضي ساعة أو أكثر أمام رائعة واحدة ويقتنع بذلك في هذا اليوم . ودع أي إنسان أن يحاول الذهاب إلى النوم الساعة العاشرة على الأقل مرة في الأسبوع وسوف يندهش كيف ستفاجئه هذه التضحية الصغيرة بالوقت . إن القدرة على التعلق بالمسرات الصغيرة والاستمتاع بها إنما يرتبط بشكل حميم بعادة الاعتدال ، إن مثل هذه القدرة إنما تفترض ابتداء عدة أشياء فقدت أو بهتت في الحياة الحديثة ولكنها أساسا مقياس للبهجة والحب والشعر . هذه المسرات الصغيرة التي وهبت خاصة للفقراء تبدو غير واضحة ومشتتة في حياتنا اليومية

بحيث أن العقول المتبلدة والغبية لا تلاحظها . إنها مسرات غير بارزة ولا يعلن عنها وهى لا تكلف مالا . من بين هذه المسرات تلك التى يمنحها لنا اتصالنا بالطبيعة، إن عيوننا والتى يساء استخدامها يمكن أن تكون إذا كنا فقط مستعدين مصدرا لا ينفد من المتعة ، عود نفسك كل صباح أن تنظر لحظة إلى الشمس وفجأة سوف تشعر بالهواء حولك ورائحة بكارة الصباح ، وسوف تكتشف كل يوم أن الجانب الأعلى من كل منزل له طابعه الخاص وضوؤه . اعط ذلك بعض الاهتمام وسوف تحصل بقية اليوم على الرضا ولسة من التعايش مع الطبيعة ، وبالتدريج سوف تدرب العين نفسها على أن تستجيب للمباهج الصغيرة وعلى أن تتأمل الطبيعة وأن تقدر المرح الذى لا ينفد للحياة اليومية . المهم هو البداية وتفتح العينين . إن السماء الممتدة ، والحدائق الغاصة بالخضرة ، والحصان القوى ، والكلب الجميل ، ومجموعة الأطفال ، والوجه الجميل ، لماذا نسمح لأنفسنا أن نحرم من كل هذه المتع الصغيرة ؟ إن الإنسان الذى التقط وردة صغيرة لكى تكون قريبة منه وهو يعمل قد قام بخطوة نحو الفرح فى الحياة . كان هناك حديقة فتيات مقابلة للمنزل الذى أعمل فيه ، وكان هناك فصل للبنات الصغيرات لهن ملعبهن فى جانب المبنى الذى أعمل فيه ، وفى بعض الأحيان كنت أعانى من ضجة البنات وهن يلعبن ، ولكن كمية الفرح وشهوة الحياة التى منحتها لى نظرة واحدة على الملعب كانت أعظم ما أستطيع أن أعبر عنه . هذه الملابس الزاهية ، هذه العيون المليئة بالحيوية والبهجة ، هذه الحركات المرنة الطيعة والقوية ، فى الوقت نفسه ضاعفت من بهجتى بالحياة . وقد يذكر القراء عددا آخر من الأفراح الصغيرة وربما أكثر بهجة : شم الإنسان لوردة أو حبة فاكهة أو استمتاع الإنسان بصوته أو صوت الآخرين أو الإصغاء لثرثرة وهذر الأطفال أو نغمة يدندن بها طفل ، وآلاف الأشياء الصغيرة التى يستطيع الإنسان أن ينسج بها عقدا من المسرات الصغيرة فى حياته . ونصيحتى للإنسان الذى يعانى من فتور فى الشعور هى : ابحث كل يوم عن أكبر قدر من المسرات الصغيرة ، إنها المسرات الصغيرة قبل كل شئ ، وليست المسرات الكبيرة التى تمنح لنا الاستجمام والراحة اليومية والتخلص من الأعباء .

فن السعادة

إن الإنسان بالطريقة التى صاغه بها الله قد خلق لديه قدرة الاستمتاع بأشياء حتى ولو لم تكن مفيدة له وبإحساس بالجمال . وطالما كان الناس قادرين وسط ضغوط وأخطار حياتهم على الابتهاج بأشياء كثيرة : الألوان فى الطبيعة والرسوم ، نداء الأصوات الصادرة عن البحر والعاصفة ، الموسيقى التى صاغها الإنسان ، العيون المؤثرة لكلب تراجيديا المشاعر وتأملاتها التى يستمد المستمع من لغتها الخالدة المتدفقة البهجة والحكمة ،

طالما كان الإنسان قادرا على هذا فإنه سوف يصبح قادرا على أن يضفى المعنى على وجوده . فالمعنى - تحديدا - هو وحدة التصور الوافر فى العناصر الظاهرة ، أو هو قدرة الروح على أن ترى وتتصور الاضطراب والفوضى فى العالم كوحدة وتناسق ، بالنسبة للإنسان الحقيقى الذى لم يفسد ويضعف فإن العالم يتبدى له ، ويعبر الله عن نفسه عبر هذه البدائع : برودة المساء ، انتهاء يوم العمل ، احمرار سماء المساء ، الانتقال المتدرج من الوردى إلى البنفسجى ، وتحولات وجه الانسان ، وأشياء مثل مساحات ونوافذ الكاتدرائيات وآلة الفيولين المصنوعة من ألواح خشبية صغيرة . وثمة شئ غير مفهوم ورقيق يولد من العقل والطبيعة ، عقلانى ولكنه فى الوقت نفسه طفولى ويفوق العقل مثل الكلام والقدرة عليه .

من هذا الجانب الطبيعى والحسى ، واتجاهى نحو كلمة سعادة لم يتغير فحتى عبورات منتصف العمر كانت عندما تذكر هذه الكلمات وأفكر فيها كما يفكر الآخرون يتجه التفكير إلى المولد الطيب ، والتعليم الجيد ، والحياة العملية الناجحة ، والإخاء فى الأسرة ، واحترام الآخرين ، ووفرة المال ، والآن أحاول أن أصيغ ماذا تعنى كلمة سعادة بالنسبة لى ؟ ، فاليوم أعنى بالسعادة شيئا موضوعيا تماما : أن تحقل وتدرك الوحدة الكاملة والوجود الخالد والتناسق الأبدى للعالم ذلك الذى أسماه ووصفه آخرون فى وقت ما بموسيقى العالم أو ابتسامة الله . هذه الصورة المصغرة ، هذا المثال ، هذه الموسيقى التى لا تتوقف ، هذه الأبدية الذهبية الباهرة هى وقع نقى ومطلق وهى لا تعرف زمنا ولا تاريخا ، إن محيا وجه العالم يضئ ويتألق ويضحك ، والبشر والأجيال والأمم والامبراطوريات تصعد وتزدهر ثم تغيب عن البصر . وبشكل أبدى تعزف الحياة موسيقاها وترقص أغانيها وقصائدها ، هذه هى الأهمية شاملة العالمية والمقدس التى حملتها كلمة سعادة بالنسبة لى وفى مجرى حياتى ، وربما كان ضروريا أن أقول للشباب من قرائى أنى هنا لا أتحدث كعالم لغة ، ولكنى أذكر جزءا صغيرا من تاريخ روحى ، وأنه أبعد عن قصدى أن أحثهم على أن يعطوا هذا المعنى المقدس لكلمة سعادة فى أحاديثهم اليومية وكتاباتهم ، ولكن ما أردت تأكيده هو أنه حول هذه الكلمة الذهبية المحببة القصيرة المتوهجة يتجمع كل شئ شعرت به حول معناها من أيام طفولتى ، عندئذ كان الشعور أقوى ، وكانت استجابة كل الحواس الحسية ونداء وجاذبية الكلمة أكثر حدة رغم أن الكلمة لم تكن وقتها بهذا العمق وهذا الاحتضان للعالم ، وهكذا تبدو السعادة وقد اختبرت فقط فى الطفولة وفى لحظات أصبح من الصعب جدا أن تتحقق مرة أخرى ، وإن كان هذا لا يعنى أن خبراتى مع السعادة كانت قليلة وحتى أيامى المتأخرة وعمرى المتقدم .

نكروما مات مسموما



نكروما

بقلم :عايدة العزب موسى

●● كتاب مثير صدر حديثا عن «كوامى نكروما» الزعيم الأفريقى العظيم ، أول من دعا للجامعة الأفريقية وإنشاء حكومة موحدة لأفريقيا ، منذ مطلع الأربعينات قبل استقلال القارة الأفريقية بسنوات عديدة، وهذه الأفكار التى آمن بها منذ الصغر وعمل على تحقيقها بعد أن أصبح أول رئيس لغانا هى التى جعلت الغرب يكرهه ، وجعلت رفاقه الزعماء الأفارقة يخشونه ، وهى أيضا التى عجلت بنهايته ، فلم يقبلها المستعمر الأجنبى ولم يرحب بها الرؤساء المحليون ●●

الكتاب يحمل عنوان «كوامي نكروما سيرة جديدة» ، كتبته «جان ميلن» الباحثة الأسترالية المولد البريطانية الجنسية التى صاحبت نكروما على مدى خمسة وعشرين عاما منذ أن قابلته عام ١٩٥٧ حتى وفاته عام ١٩٧٢ ، وظلت تعمل قريبة جدا منه باعتبارها مساعد باحث له ثم ناشرا لكتبه .

تبدأ «جان ميلن» الكتاب فور وصول الرئيس الغانى إلى بكين عاصمة الصين فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٦ ، بعد رحلة طيران طويلة من بانجون (فى بورما) ، حيث استقبله فى المطار السفير الصينى فى اكرا وقال له : «سيدى الرئيس لدى أخبار سيئة لقد حدث انقلاب فى غانا» . وكان نكروما حينذاك يقوم ببعثة سلام لهانوى بدعوة من الرئيس الفيتنامى «هوشى منه» الذى كان ينشد طريقا للسلام يخرجه من الحرب مع أمريكا ، فى البداية ظن نكروما أنه أخطأ السمع ثم تأكدت له الحقيقة .

كان هذا أول انقلاب وأكثر دموية يحدث فى تاريخ غانا . ولا أحد يعرف عدد من قتل من الجانبين ، ولكن يقدر العدد بنحو ١٦٠٠ قتيل ، فضلا عن بضع مئات من الجرحى . ورغم أن الانقلاب كان مفاجأة لنكروما فإن سحبه ظلت تتجمع لمدة طويلة قبل أن يترك أكرا . ولعل اقتناع نكروما بالاشتراكية وراديكاليته فى الدعوة للجامعة الأفريقية كانا من أهم الأسباب التى عجلت بالإطاحة به .

والحقيقة أن نكروما لم يكن وحده من الزعماء الأفارقة من آمن بالاشتراكية وقتها ، خاصة قبل أن تتكشف أخطاؤها بعد سقوط برلين وتفكك الاتحاد السوفييتى ، إن الآباء المؤسسين لأفريقيا تصوروا أن الخلاص يكمن فى الاشتراكية بالنظر إلى ما شاهدوه أيامها من أن الاتحاد السوفييتى قد انتقل بالاشتراكية إلى أن يصير قوة عظمى بعد ٤٠ سنة فقط من الثورة الروسية منذ عام ١٩١٧ .. كان للأفارقة العذر فى هذا الاعتقاد فى ذلك الوقت .

وكانت الجريرة الأخرى لنكروما هى اتجاهه نحو حكومة موحدة لأفريقيا، وإتاحته فرصا لتدريب الثوار داخل بلده وانشاءه قواعد لإعداد المقاتلين الأفريقيين من أجل الحرية واستضافته اللاجئين السياسيين من جنوب أفريقيا وموزمبيق وروديسيا وانجولا وغينيا بيساو .. الخ وهى الجهود التى أفرزت القادة الوطنيين أمثال سام نجوما فى ناميبيا وروبرت موجابى فى زيمبابوى وكنيث كوندا فى زامبيا وكاموزو باندا فى مالاوى وفرانس فانون فى الجزائر .

وقد كتب نكروما بنفسه بعد الإطاحة به «إنهم يريدون أن يحطموني أنا وغانا ، لأننا نقف في مقدمة الصراع الأفريقي من أجل التحرر» . ولكن آخر ما كشفت عنه «جان ميلن» هو أن نشر نكروما عام ١٩٦٥ كتابه «الاستعمار الجديد آخر مراحل الاستعمار» الذي كشف فيه عن أعمال المؤسسات الدولية المالية الاحتكار أغضب حكومة الولايات المتحدة ورأت في هذا الكتاب خطرا ، وتسبب في قطع المعونة عن غانا التي كانت تبلغ ٢٥ مليون دولار ، وتعلق «جان ميلن» قائلة : منذ هذا التاريخ صارت أيام نكروما معدودة في الحكم .

وطبقا للشهادات التي وردت في كتب حررها مسئولون في وكالة المخابرات الامريكية فإن ميزانية المخابرات الامريكية بالنسبة لأكرا زادت وذلك من أجل الاطاحة السريعة بنكروما . بدأوا بتغيير السفير الأمريكي الأبيض في أكرا وأتوا بدلا منه بسفير أمريكي أفريقي هو فرانكلين ليامز الذي كان رفيقا لنكروما في جامعة لنكولن سنة ١٩٤١ ، وبعد الانقلاب كتب نكروما في كتابه «الأيام السوداء في غانا» عن خيانة رفيق دراسته له وهو اتهام ازعج السفير ليامز ازعاجا شديدا .

وقد حاول د . مارفين ووتسن الذي كان رئيسا لجامعة لنكولن أن يبرىء هذا السفير الأمريكي وهو على أبواب الخروج من عمله .

وقد ذكرت «جان ميلن» في كتابها أنه بات مقبولا الآن بشكل عام أن وكالة المخابرات الامريكية هي التي خططت للانقلاب ، وتأكد هذا الاشتراك في كتاب «البحث عن اعداء» الذي كتبه عضو سابق في المخابرات الأمريكية هو جون ستوكويل ونشر عام ١٩٧٨ ، كشف أن مقر وكالة المخابرات الامريكية في أكرا أعطى ميزانية كبيرة ، واستبقى علاقات وطيدة مع المتآمرين في الانقلاب ، وفي داخل رئاسة وكالة المخابرات في أمريكا فإن مقر أكرا أعطى صلاحيات كاملة ، وإن رئيس هذا المقر «هواردبن» كوفيء على نجاح الانقلاب بأن رقى إلى منصب رئاسي في الوكالة .

كيف حدث الانقلاب ؟

اعتمد نجاح الانقلاب على وجود نكروما بعيدا عن غانا ، وكانت بعثة السلام لهانوي فرصة ممتازة ، أيد البعثة في البداية مؤتمر رؤساء وزارات الكومنولث عام ١٩٦٥ ولكنها أجلت بسبب أن هارولد ولسون رئيس الوزراء البريطاني كان يريد أن يرأس البعثة في حين أن هانوي لم تقبل إلا نكروما .

وقد أرسل الرئيس «هوشي منة» دعوة شخصية لنكروما ليرأس وفدا آخرا ، وكان نكروما حينذاك يخطط لموضوعات تتعلق بالتفرقة العنصرية لجنوب افريقيا ولطرد جنوب افريقيا من الكومنولث ، كان رصيده العالمي كبيرا جدا في هذا الوقت .

وبينما كان نكروما يستعد للذهاب إلى فيتنام في يوليو ١٩٦٥ أبلغه «هوشي منة»

أن تأمينه في هانوى لا يمكن ضمانه إلا إذا أوقف الامريكيون قصفهم لفيتنام . فأرسل نكروما وزير خارجيته إلى واشنطن ليطلب من الرئيس الأمريكى لندون جونسون أن توقف أمريكا قصفها لهانوى ليستطيع الذهاب إليها ، (وهذا يشبه طلب صدام حسين الإذن الامريكى لغزو الكويت) ، وقد وجدت المخابرات الامريكية في هذا الطلب فرصة ذهبية لاخراج نكروما من أكرا فأكد له الرئيس جونسون أنه سيكون مؤمنا تماما فى هانوى وأن «هوشى منة» إنما يخلق الأعذار ، وقبل ثلاثة أسابيع من مغادرة نكروما لأكرا طبقا لما تذكره «جان ميلن» فإن الرئيس جونسون أرسل ميعوثا هو «مينون وليام» إلى أكرا ليشجع نكروما على الذهاب ، حتى تحقق وكالة المخابرات الامريكية خططها التى كانت تعتمد على وجود نكروما خارج غانا .

وهكذا ذهب نكروما فى ٢١ فبراير سنة ١٩٦٦ وبعدها حدث الانقلاب ، وبعد أشهر قليلة نشرت صحيفة إيجبشان جازيت القاهرية أن واحدا من قبيلة نكروما «قبيلة انزيما» الذى كان همزة الوصل بين المخابرات الامريكية وبين رجال الانقلاب المحليين قد قتل لأنه يعرف كثيرا من وقائع الانقلاب ، وكان اسم هذا القتيل «أمهيا» .

وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٨ كتب نكروما إلى شيرلى دى بوا زوجة دى بوا التى كانت أرسلت له قصاصة الصحيفة المصرية (ايجبشان جازيت) والتى ذكرت أن «أمهيا» قتل حتى لا يتكلم ، كتب لها نكروما إن لديه معلومات من مصادر موثوق بها أن «أمهيا» قتل لهذا السبب .

وبعد ذلك بعام عندما ذهب رئيس توجو «أيا ديما» ليزور حكومة الانقلاب فى غانا كتبت «جون ميلن» تقول إنه زار سد فولتا والمصانع فى أكرا وتساءل «من فعل كل ذلك ؟ .. فذكر له الموجودون أنه نكروما فرد عليهم رئيس «توجو ولماذا قمتم بالانقلاب عليه فلم تكن هناك حاجة للانقلاب ؟!» ، وبسبب هذا التعليق ساءت العلاقات وألغى حفل العشاء الذى كان سيقام على شرفه .

نكروما يذهب إلى غينيا

من بكين تلقى نكروما دعوة من الرئيس سيكوتورى - زعيم حركة الاستقلال فى غينيا ورئيسها - ليأتى ويعيش فى كوناكرى ، كما تلقى دعوات مماثلة من رئيس تانزانيا جوليوس نيريرى ورئيس مالى موبيبوكيتا والرئيس عبد الناصر . واختار نكروما كوناكرى لقربها من غانا لأنه كان يأمل فى أن يعود سريعا إلى السلطة فى بلده .

كتبت «جان ميلن» تقول : «ذهب نكروما إلى كوناكرى بأرصدة قدمها له الروس عندما ذهب إلى موسكو فى طريقه من هانوى إلى كوناكرى ، كما قدم له الصينيون بعض المعونات ، وأرسل له رئيس أوغندا ملتون أوبوتى والرئيس نيريرى مبعوثين يحملون حقائب

دبلوماسية تحتوى على نقود فقد كان كل منهم يريد أن يعود نكروما إلى أكرا ، وكانوا واقعيين إلى حد إدراكهم أن أمرا كهذا لن ينجز بغير المال .

لم تكن لنكروما أرصدة فى بنوك أجنبية وحسابه فى بنك باركليز فى أكرا الذى كان يدفع فيه راتبه عندما كان رئيسا للدولة ، هذا الحساب جمدته حكومة الانقلاب ، لذلك كان فى حالة اعتماد مطلق على كرم أصدقائه السياسيين .

ويصرف النظر عن هؤلاء الذين يطلبون المال لينفذوا مخطط العودة إلى الحكم فقد واجه نكروما نفقات تتعلق باحتياجات انصاره الذين كانوا معه ، فكان نكروما يؤدى لهؤلاء الغانيين راتبا أسبوعيا يمثل نصف ما كانوا يحصلون عليه فى غانا ، على أساس أنهم سيحصلون على النصف الآخر عندما يعود نكروما إلى غانا .

ولكن لم يحدث هذا ، فعندما ذهب نكروما إلى كوناكرى جذب انتباه وكالات الانباء الغربية إلى مكانه ، وكانت رسائله يطلع عليها الجواسيس واقتحم مقر اقامته فى كوناكرى بغزاة من البرتغال واخترقوا الأشخاص المحيطين به، ولكن نكروما عاش فى أمان حتى مات الطاهى الخاص الوفى له «أموه» فى ٢٠ يوليو ١٩٦٧ .

عندما مات «أموه» صار من الواضح أن نكروما سيتعرض لخطر شخصى كبير، حتى أن مدام سيكوتورى طلبت أن يحل طاه معين محل «أموه» ولكن حل محله طهاة آخرون ، تقول «چان ميلن» : «عندما ذهبت إلى المطبخ تحقق لى أنه لا أمل من التأكد مائة فى المائة أن طعام نكروما مأمون ، وبصرف النظر عن الطاهى فقد كان هناك أشخاص كثيرون موجودون فى المطبخ وآخرون يذهبون ويجيئون ، وعندما بدأ نكروما يشكو فى مشاكل فى المعدة بدأت أخشى على صحته» .

وكتبت أيضا «فى نهاية واحدة من زياراتى لكوناكرى ، وعندما كنت أشارك نكروما فى وجباته عانيت من آلام حادة فى المعدة مع ارتفاع فى الحرارة لمدة ستة أسابيع بعد عودتى إلى لندن . كنت مريضة بشكل خطير وتنتابنى أعراض تشبه أعراض مرض التيفويد ، وخضعت لفحوص مكثفة فى مدرسة لندن لطب الأمراض الاستوائية ، وفشلت هذه الفحوص فى بيان حقيقة المسألة أو تفسيرها ، حتى الأطباء الذين زاروا منزلى وفحصوا الأشياء التى استعملها فشلوا فى معرفة السبب» .

ثم انهارت صحة نكروما بالتدريج ، فى البداية عالجه طبيب روسى ذكر أن نكروما يشكو من اللومباجو وهو مرض يسبب آلاما فى أسفل الظهر ، وقد حاول سيكوتورى وعدد من الأصدقاء اقناع نكروما بأن يسافر للعلاج فى الخارج ولكنه لم يكن متحمسا حتى لا يسبب سفره تكاسل الغانيين واسترخاءهم فى العمل للعودة إلى السلطة .

ولكن بعد ذلك في عامي ٦٩/١٩٧٠ عندما ساءت صحته طلب نكروما من السوفييت مرتين أن يذهب لتلقي العلاج عندهم فلم يسمحوا له بذلك، وبدلا من استضافته أرسلوا إليه اثنين من الاخصائيين في كوناكري ليفحصاه، ونصحاه بأنه لا يوجد سبب يستدعي السفر، وأنه من الناحية السياسية فالوقت غير مناسب لأن يترك غينيا.

وتذكر «جان ميلن»: «لم أكن في كوناكري عندما وصل الطبيبان الاخصائيان، ولكن نكروما كتب يوم سفرها يذكر لي نتيجة زيارتهما، سواء نصح الاخصائيان أم لم ينصحا فأنا لا أدري، ولكنهما اتبعا العلاج الذي أوصى به الطبيب البلغاري الذي فحصني قبلهم».

إن طبيعة العلاج لم تكن واضحة ولكن في عام ١٩٧١ عندما كان نكروما في بوخارست في رومانيا، فإن الطبيب الاستشاري «مادرجاك» ذكر «لجان ميلن» أن نكروما عولج بالضبط بعكس ما كانت تتطلبه حاجته، لم يذكر اسم المرض ولكنه قال إنه انتشر في جسمه. وقالت «جان ميلن» إن ابن نكروما الأول فرانسيس، وهو طبيب على تأهل عال، ذكر لها عندما زارته زيارة قصيرة عام ١٩٧٢ أنه كان هناك اهمال في علاج والده في غينيا.

وتضيف «جان ميلن» أنه من غير المقنع أو المتصور ألا يعرف الاخصائيان الروسيان بمرضه الخطير بعد أن فحصاه عام ١٩٧٠، وأشك في ذلك، أنهم كانوا لا يريدون أن يعاونوا النظام الانقلابي في غانا، كما كانوا لا يوافقون على خطط نكروما الثورية ولا على أفكاره بالنسبة للكفاح المسلح حتى قبل عام ١٩٦٦ إذ كان نكروما يتجه أكثر فأكثر للاعتماد على الصينيين والفيتناميين، وكان ثمة توتر بين الاتحاد السوفييتي والصين في ذلك الوقت.

وفاته

أخيرا استمع نكروما لنصيحة اصدقائه القريبين، أن يترك كوناكري – التي أقام بها منذ أن أطيح به في ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٦ – يتركها، لينشد العلاج الطبي في الخارج. كان يتوقع أن يذهب إلى موسكو ولكن اصدقاءه في الحكومة السوفييتية نصحوه بعدم الحضور إليهم.

وأخيرا في منتصف أغسطس سنة ١٩٧١ هبطت طائرة تحمل نكروما لبوخارست في رومانيا. وتقول «جان ميلن» إنها اتصلت بطبيب انجليزي عندما عادت إلى انجلترا، وعندما سمع الطبيب بوصف حالة نكروما توقع أنه يعاني من سرطان في العمود الفقري الذي انتشر في البروستاتا والدم، وأخبرها بأنه إذا كان هذا التشخيص صحيحا فإنه يتوقع له حياة لا تزيد على ستة أشهر.

تقول «جان ميلن» إنها وصلت إلى بوخارست في ١٢ أكتوبر سنة ١٩٧١،

كان منظر نكروما في المستشفى يبعث على الحزن ، كان يجلس على كرسى كبير وظهره إلى الضوء ينظر بأسى ، لم يكن يستطيع الحركة ليترك الكرسى ، ويبقى جالسا عليه ستة أسابيع ، كان شعره رماديا وكل شىء فيه رمادى ، قدماه وساقاه نحيفة من طول الجلوس وكان بياض عينيه ناصعا ويداه وجلد بشرته شاحبا ، وتذكر لها أنه مر عبر الجحيم فى الأشهر القليلة الماضية .. كان كل هذا يعطى انطباعا بأنه ذاهب بعيدا .

وأتت النهاية فى الساعة ٨,٤٥ صباح ٢٧ أبريل سنة ١٩٧٢ ، الرجل الذى كان فى صحة جيدة ويزيد على ٧٥ كيلو جراما ، تناقص وزنه حتى صار ٥٧ كيلو وتوفى .. وهكذا مات نكروما فى أرض غريبة وعاش فى أرض غريبة أيضا ست سنوات قبل وفاته .

نكروما المتمرد

رغم أن نكروما يرقد فى قبره منذ ٢٨ عاما ، فإنه اليوم صار أكبر فى تقدير المواطنين فى غانا وأفريقيا ، كما صار أكبر فى أعين العالم الغربى الذى كان يخاصم كل مشروعاته ويعمل على إفسادها .

كانت لنكروما آمال كبيرة لغانا ولكل افريقيا ، كان يبغى أن يبنى بلدا نموذجيا تستهدى به أفريقيا والأفريقيون ويثير الإلهام لديهم . كان لديه المال وكانت غانا بلدا غنيا ، وكانت بريطانيا تكسب من ورائها قبل الاستقلال ، وإذا عدنا إلى الوراء سنة ١٩٤٦ طبقا للسجلات البريطانية فإن غانا التى كانت تسمى ساحل الذهب كانت لديها أرصدة فى بريطانيا تبلغ ١٠٠ مليون دولار .

وبين عامى ٤٧ - ١٩٤٨ تظهر البيانات أن بريطانيا حصلت على ٧٢ مليون دولار من تصدير كاكاو غانا إلى الولايات المتحدة ، وكان الكاكاو واحدا من المنتجات الكثيرة التى كانت تصدرها بريطانيا ومن هذه المنتجات البوكسيد والنحاس والذهب والماس ، وإذا كانت بريطانيا قد كسبت ٧٢ مليون دولار من تصدير الكاكاو وحده ، فكم كانت تحصل لندن من تصدير المنتجات الأخرى وخاصة الذهب (ولم يكن اسم ساحل الذهب قد اطلق على غانا بغير سبب) .

ونفس السؤال يمكن أن يوجه إلى فرنسا والبرتغال وايطاليا . كم كانت تحصل عليه من مستعمراتها ، وهذا مما نعلم منه لماذا لم يكن نكروما محبوبا من الغرب ، إن كفاحه من أجل استقلال غانا وافريقيا أفقد السادة الاستعماريين فجأة مكاسب مالية ضخمة كانت تذهب من المستعمرات الافريقية إلى أوربا مباشرة .

وإن خططه الماركسية جلبت له الأسوأ من ناحية الغرب ، فكانت بريطانيا وأمريكا تشكان دائما فى أنه ماركسى ، وفى خضم الحرب الباردة بين الغرب والسوفييت رأى الغرب أنه لابد من كسر أجنحة نكروما وأن تكسر أجنحته بسرعة قبل أن يحلق فى أجواء افريقيا .

وعمل الغرب ترتيبه لإفشال خطط نكروما السياسية والاقتصادية ، وكان

يعلم أن غانا هي نجم افريقيا في ذلك الوقت فإذا سمح لنكروما بأن يحقق طموحاته في خطط التنمية التي كان من شأنها أن تحول غانا في بداية السبعينات إلى بلد مصنع أو نمر اقتصادي ، ساعتها ستتبعه افريقيا كلها في طريقه ، وهذا مما كان سيهدد مصالح الغرب السياسية والاقتصادية في القارة الأفريقية وسيصبح صندوق النقد الدولي والبنك الدولي بغير مصداقية وقتها .

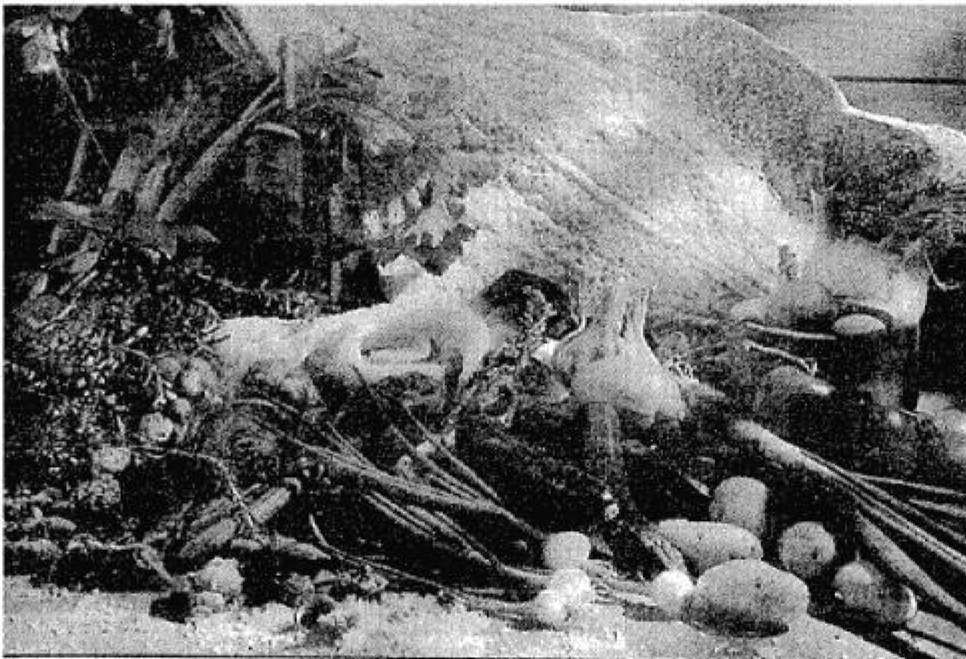
النهاية

مع اشتداد المعارضة لنكروما داخل بلاده والعداء الغربي له ، أصبحت الأمور صعبة بالنسبة له فشدد أكثر من قبضته واستخدم قانون الاشتباه ضد خصومه ومؤيديه على السواء . خاف الشعب من قائده وأتت الإطاحة به في ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٦ بمثابة انفراجة للغانين الذين لم يكونوا يدركون الضغوط العالمية التي كان يواجهها نكروما ، ومن ثم بدأت عملية الهدم لذكراه فحل حزبه وأبيدت كتبه وكل شيء ينتمي إليه .

ورغم ما قيل عنه وعن فترة حكمه التي لم تستمر سوى تسع سنوات ، فإن نكروما سقط وغانا من أكبر الدول الصناعية في غرب افريقيا . رغم أنه تجاورها نيجيريا ، وساحل العاج، كوت ديفوار الآن ، وهما نموذج للمنظ الرأسمالي في التنمية . كما كانت غانا تتمتع بأكبر مستوى لدخل الفرد وأولى الدول المنتجة للكاكاو في افريقيا ، وصاحبه مشروعه سد الفولتا .

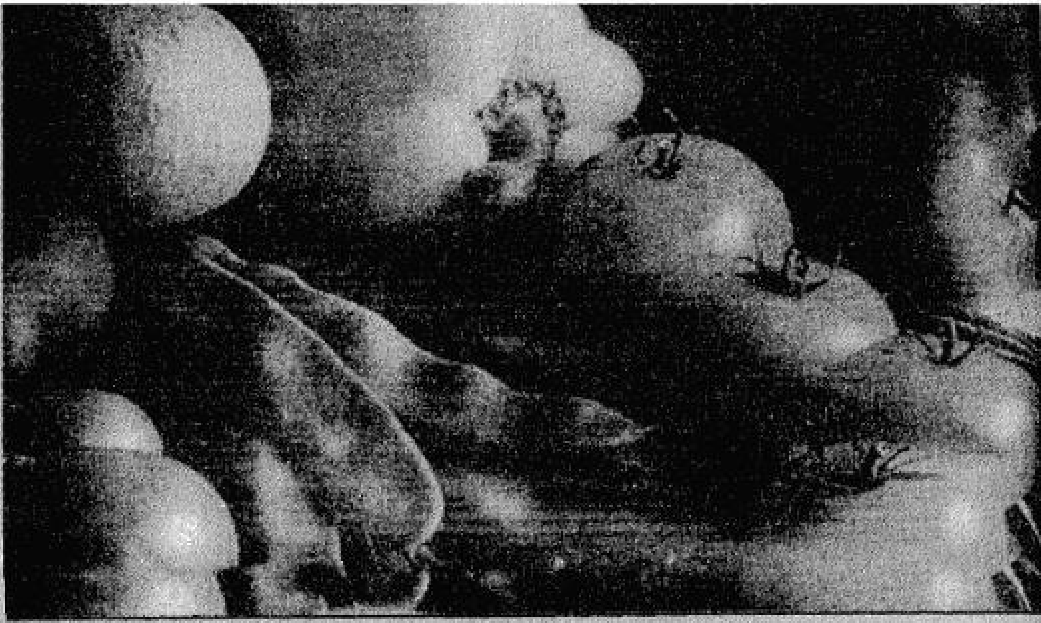
كذلك لم يكن سقوط نكروما مخلصا لغانا ، فرغم تعدد الحكومات العسكرية ومحاولات الحكم المدني على النمط الغربي، فإن النتائج الاقتصادية كانت عكسية تماما فقد بلغ ارتفاع الأسعار في غانا حدا لم تشهده كل دول العالم ، وصل التضخم إلى ٣٠٠٪ وبلغت ديون غانا للدول الرأسمالية ملايين الدولارات ، وعقد الدائنون حلقات خاصة لمعالجة الموقف في لندن وباريس دون جدوى ، وترك الأمر لصندوق النقد الدولي ليفرض شروطه على الحكومة .

ظل نكروما يردد - وهو في منفاه بكوناكري بغينيا - أن المخابرات الامريكية والبريطانية والألمانية والاسرائيلية هي التي خططت للانقلاب ، ولم يصدقه أحد حتى تكشفت الشواهد من وكلاء المخابرات الامريكية أنفسهم الذين اعترفوا بأن نكروما أطيح به بموجب خطة رسمها الامريكيون وساهم فيها بنو عمومتهم في أوربا ، وأن أهم أسباب الاطاحة به أن الغرب كان يعارض توجه نكروما إلى توحيد افريقيا ، فهم يدركون أن هذه الوحدة تهدد سيطرة الغرب الاقتصادية والسياسية على افريقيا، لذلك كان لابد أن يذهب نكروما المدافع الرئيسي عن وحدة افريقيا .



ترقص الأغذية
المهندسة وراثيا !

بقلم : مجدى شرشر



□ **معارضة قوية ضد هيمنة الثقافة الأمريكية حتي في الغذاء.**

□ **الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا ينضم لحملة الأغذية المهندسة وراثيا.**

□ **مطاعم الوجبات السريعة في أوروبا تتعهد بعدم استخدام هذه الأجهزة كلما أمكن.**

على مدى عشرة آلاف عام لم تثر المعالجة الجينية للنبات والحيوان من خلال التدجين والتربية المسيطر عليها سوى القليل من الجدل ، لكن ومنذ عام ١٩٧٣ بات هذا النوع من الهندسة الوراثية أو عبر الجينات طريقة اكثر قوة ودقة فى تغيير وجه الحياة. فالجينات التى تحمل سمات محددة يمكن نقلها باستخدام «قاذفات جينية» بين الأنواع التى لا يمكن بطبيعتها أن تتبادل المواد الجينية فيما بينها.

وبعد أن كفلت المحكمة العليا الأمريكية الحماية لهذا النوع الجديد من الملكية الفكرية عام ١٩٨٠ بدأت الشركات الاستثمارية الكبرى فى ضخ استثمارات قوية لتطوير تطبيقات تجارية للمحاصيل المهندسة وراثيا مثل البذور وزراعة الأنسجة والجينات. وبعد هذا التطور توالى إنفاق تلك الشركات وقدمت الاستثمار الجوهرى لتطوير المحاصيل عبر الجينية لأغراض تجارية.

واستهدفت المحاصيل المهندسة وراثيا فى بادىء الأمر حل مشكلات مهمة مثل السيطرة على الآفات والأعشاب وحماية التربة من استخدام المبيدات والأسمدة. وأخيرا بدأ المزارعون الأمريكيون عام ١٩٩٦ زراعة المحاصيل الحقلية المهندسة وراثيا على نطاق تجارى بعد سنوات من البحوث المعملية والتجارب الحقلية لرصد المخاطر التى قد تنجم بالنسبة للمحاصيل الأخرى وعلى الحيوانات والبيئة وعلى صحة الإنسان . وبمجرد أن وافقت وكالة حماية البيئة وهيئة الأغذية والعقاقير ووزارة الزراعة على البذور المهندسة وراثيا شرع المزارعون الأمريكيون فى التجارب على زراعتها وأعجبتهم النتائج وراقت لهم على الفور، وبحلول عام ١٩٩٩ كان نحو نصف إنتاج فول الصويا وثلث إنتاج الذرة فى الولايات المتحدة مهندسا وراثيا.

وجنت شركات البذور الأمريكية اموالا طائلة وكان المزارعون الأمريكيون من اكبر الفائزين وحققت لهم التكنولوجيا الجديدة نصف الأرباح الاقتصادية الاجمالية تقريبا.

ولا يستعصى فهم التحمس الكبير للأغذية المهندسة وراثيا بين المزارعين الأمريكيين فى ضوء تراجع الحاجة الى المبيدات الكيماوية وتغير أسلوب التعامل مع التربة، فمعظم المزارعين الذين يزرعون فول الصويا استغنوا عن رش المبيدات إلا لمرة واحدة مما ادى الى تخفيض التكلفة بنسبة تتراوح ما بين عشرة إلى أربعين فى المائة. وأصبح القطن عبر الجينى لا يحتاج إلى رش المبيدات على الاطلاق بينما كان يحتاج فى الماضى لما يتراوح بين أربع الى ست رشات الأمر الذى قلل تكلفة الهكتار الواحد بنسبة ستين إلى ١٢٠ فى المائة.

ومع هذا فإن ثلاث دول فقط تستأثر بالازدهار الذى تحقق فى مجال البذور المهندسة وراثيا .

ففى عام ١٩٩٩ استأثرت الولايات المتحدة بنسبة «٧٢» فى المائة من كافة الأراضى المزروعة بمحاصيل عبر جينية فى جميع انحاء العالم تلتها الأرجنتين بنسبة «١٧» فى المائة ثم كندا بنسبة «١٠» فى المائة.

وتقاسمت نسبة الواحد فى المائة الباقية تسع دول تقوم على الأقل بزراعة

نوع ما من المحاصيل المهندسة وراثيا وهي الصين واستراليا وجنوب افريقيا والمكسيك واسبانيا وفرنسا والبرتغال ورومانيا واوكرانيا.

أوروبا ضد أمريكا

إذا كان التركيز قد انصب في البداية على المحاصيل المتأقلمة مناخيا كفول الصويا و الذرة يفسر الي حد ما عزوف وضعف مشاركة الدول الدارية في زراعة المحاصيل المهندسة وراثيا فكيف يمكن تفسير ضعف حماس مزارعي أوروبا الغربية، فليس هناك ما يحول دون زراعتهم لمثل تلك المحاصيل؟ فقد حاولت شركات البذور الأمريكية تسويق البذور عبر الجينية في أوروبا كما أن بعض الشركات التي تتخذ من أوربا مقرا لها قد طورت ووفرت الحماية للملكية الفكرية لبعض المحاصيل المهندسة وراثيا. لكن تلك التكنولوجيا الجديدة ليس لها باع طويل في أوروبا الأمر الذي يتضح من قلة عدد المزارع التي تزرع المحاصيل عبر الجينية في أسبانيا وفرنسا والبرتغال في عام ١٩٩٩.

معارضة من المستهلكين

ويفسر روبرت بار لبيرج في مجلة فورين أفيرز بابتعاد الأوروبيين عن المحاصيل عبر الجينية بقدر كبير بخوف الأوروبيين من تناول تلك المحاصيل. فالمستهلكون الأوروبيون يتصدرون الآن صفوف المعارضين للأغذية المهندسة وراثيا رغم عدم تسجيل أي أخطار موثقة في السوق في أوروبا أو غيرها. فقد نشر مجلس نوفيلد للبيوتكنولوجيا ومقره بريطانيا النتيجة التالية في مايو ١٩٩٩.

لم نتوصل إلى أي أدلة عن حدوث أضرار - إننا نشهد بقيام السلطات المعنية بمراجعة قوية للمنتجات المعروضة بالأسواق حاليا وسيستمر خضوعها للمراقبة ولم يتم رصد أي أدلة على وجود أضرار. ونخلص إلى أن الأغذية المهندسة وراثيا والمطروحة حتى الآن في السوق البريطاني أغذية آمنة للاستهلاك.

لكن المستهلكين الأوروبيين لا يثقون بمثل تلك التطمينات بعد أن رسخت في أذهانهم أزمة «جنون البقر» التي هزت ثقة المستهلك في آراء الخبراء بعد ثبوت عدم صحة التطمينات التي قدمها مسئولو الصحة في المملكة المتحدة بعدم وجود مخاطر في تناول لحوم الأبقار المصابة بمرض جنون البقر، ورغم عدم وجود علاقة بين هذا المرض والأغذية المعالجة وراثيا إلا أن موجة جديدة من القلق تولدت لدى المستهلكين الأوروبيين في اللحظة التي رخص فيها باستيراد فول الصويا المهندس وراثيا في أمريكا عام ١٩٩٦ الى الاتحاد الأوروبي.

وثم بعد آخر هو رفض نمط الحياة

الأمريكي وكل مؤشرات هيمنة الثقافة الأمريكية حتى فى الغذاء كما يتبدى فى بعض الدول الأوروبية كفرنسا على سبيل المثال.

وفى هذه الأجواء القلقة سارعت أطراف ثالثة منها منظمات غير حكومية إلى تصعيد هذا الخوف وتكريسه، وأججت منظمة جرنيبيس ومنظمات نشطة أخرى كافحت من قبل ضد الطاقة النووية واستخدام الكيماويات حفيظة ومشاعر المستهلكين الأوروبيين.

وانضم إلى الحملة ولى العهد البريطانى الأمير تشارلز.

وفى فرنسا تشكل تحالف موسع ضم المزارعين والنقابات وأنصار البيئة والشيوعيين وبادروا بشن هجمات عنيفة ليس فقط ضد الأغذية المهندسة وراثيا بل أيضا ضد مشروب الكوكاكولا وأغذية ماكدونالدز ولحوم البيف التى استخدمت الهرمونات فى إنتاجها. وفى ألمانيا ذهبت حملة مناهضة تلك الأغذية إلى حد عقد مقارنة بين التلاعب فى الجينات البشرية وما عانته البلاد من ويلات بسبب الإعتقاد بالسمو العرقى.

وأتت تلك الحملات ثمارها وانتزعت تنازلات مهمة من شركات وحكومات كبرى.

فقد وافق الاتحاد الأوروبى فى أبريل ١٩٩٨ على وقف الموافقة على أى أغذية جديدة مهندسة وراثيا سواء للاستهلاك أو الاستيراد لدول الاتحاد الأوروبى - دون أى دليل علمى كما يرى البعض.

ويعنى هذا حظراً فعليا بحكم الأمر الواقع على جميع واردات الذرة من الولايات المتحدة التى تبلغ نحو مائتى مليون دولار سنويا تقريبا . كما سن الاتحاد الأوروبى عام ١٩٩٨ شرطا بقيام دولة الخمس عشرة بتوسيم الأغذية المغلفة التى تحتوى على الذرة أو فول الصويا المهندس وراثيا

وذهبت المملكة المتحدة مدى أبعد بإلزام المتاجر والمطاعم بإعلان قوائم بالأغذية المهندسة وراثيا وإلا تعرضت لغرامة تصل إلى ٨٤٠٠ دولار أمريكى، وفى محاولة لتفادى مقاطعة المستهلكين والقضايا التى اقامتها بالفعل المنظمات النشطة المدافعة عن البيئة والمستهلكين تعهدت مطاعم الوجبات السريعة فى أوروبا بعدم استخدام الأغذية المهندسة وراثيا كلما أمكن.

وامتد هذا عام ١٩٩٩ إلى دول تستورد الغذاء من خارج أوروبا حيث وضعت دول مثل اليابان وكوريا الجنوبية واستراليا ونيوزيلندا خططا للبدء بتوسيم «أى وضع علامات مميزة» ملزم لبعض الأغذية عبر الجينية.

بما فى ذلك فول الصويا والذرة إذا كانت مخصصة للاستهلاك الآدمى.

وتشكل اليابان وكوريا الجنوبية سوقا تستوعب ما قيمته ١١,٣ مليار دولار سنويا من منتجات الزراعة الأمريكية.

ويخشى المسئولون الأمريكيون وقطاع الزراعة الأمريكي من أن تكون هناك مصالح زراعية حمائية وراء تحركات توسيم الواردات . لكن العنصر الأهم في القضية هو قلق وخوف المستهلك.

وإن كانت موجات المعارضة الأولى للأغذية المهندسة وراثيا تستهدف الشركات العابرة للقوميات مثل مونسانتو إلا أن موجة المقاومة الجديدة تخلق مشكلات جديدة لمصدري الأغذية المهندسة وراثيا في الولايات المتحدة وللباحثين الذين انفقوا ملايين الدولارات للتوصل إلى علاج للأمراض وقضايا الإنتاج.

ونتيجة لهذه المقاومة الأوربية وجد المسئولون الأمريكيون أنفسهم في موقف حرج. فالولايات المتحدة تحث أوروبا واليابان لتبني توجهات السوق في سياساتها الغذائية والزراعية، والآن فقد أجبرت قوى السوق التي يحكمها الاستهلاك الولايات المتحدة على التكيف .

وقد عارضت الولايات المتحدة التوسيم الاجباري للأغذية المهندسة وراثيا لكن ولأن القطاع الزراعي الأمريكي قطاع تصديري في الاساس فقد أدى الضغط الخارجي الى ظهور تحرك غير رسمي في الإتجاه الآخر.

ملاحظة : يصدر قطاع الزراعة الامريكي ٢٥ في المائة من انتاج الذرة وفول الصويا والقطن واكثر من ٥٠ في المائة من القمح والأرز، وفي هذا الاتجاه أعلنت شركة «أرشر دانيلز ميدلاند» الأمريكية الكبرى عام ١٩٩٩ أنها منذ ذلك التاريخ وصاعدا ستطلب من مزارعيها تسليم إنتاجها المهندس وراثيا من فول الصويا وغير المهندس منه بشكل منفصل حتى يتسنى للشركة تقديم منتجات خالية من الأغذية المهندسة وراثيا للمستهلكين في أوروبا واليابان.

وصدر إعلان مماثل من شركة هاينز عن تحولها إلى المنتجات غير المهندسة وراثيا.

وسيكون توسيم الأغذية المهندسة وراثيا عنصرا مكلفا للمزارعين الأمريكيين والمستهلكين وسيتطلب فصلا تاما بين النوعين المهندس وراثيا وغير المهندس من المزرعة حتى المستهلك .

وتشير التقديرات الى أن تكلفة المنتج قد تزيد في هذه الحالة بما يتراوح بين ١٠» الى ٣٠» في المائة.

وقد تتسبب المقاومة الاوروبية للأغذية المهندسة وراثيا في حدوث صراعات بين أوروبا والولايات المتحدة في عدد من المنظمات الدولية مثل منظمة التجارة العالمية وفي معاهدة التنوع البيولوجي .

وفي اطار منظمة التجارة العالمية تسمح اتفاقية صحة وسلامة النبات «اس . بى اس» للدول برفض الواردات بدعوى الحماية الصحية او الحماية البيئية لكن هناك سؤالا فى حاجة لاجابة هل تستطيع الحكومات ان ترفض الواردات بدعوى عدم اليقين العلمى ؟ على اساس تحوطى؟

وهذه الاتفاقية تتيح فرض قيود على الواردات على أساس مؤقت بينما تسعى الحكومات الى الحصول على مزيد من المعلومات.

ويسعى الاتحاد الأوروبى إلى اضعاف هذا المطلب من جانب منظمة التجارة العالمية فقد تمكن فى يناير ٢٠٠٠ من ادراج نص يؤيد مبدأه التحوطى فى البروتوكول الجديد حول السلامة البيولوجية لمعاهدة التنوع البيولوجى. وينص البرتوكول الذى أعده البيئيون لا التجاريون على أن قصور اليقين العلمى نتيجة المعلومات والمعرفة غير الكافية يجب ألا يمنع الدول من اتخاذ إجراءات تحوطية بشأن الاستيراد.

وقد سعت الولايات المتحدة إلى صياغة تحيل هذا الأمر لسلطة المنظمة وقواعدها لكن محاولتها اجهضت بسبب تحركات الاتحاد الاوروبى والدول النامية وقبل مسئولو الخارجية الامريكية صياغة البروتوكول فى شكله النهائى ربما من منطلق الحرص على تبديد مخاوف المستهلكين والمستوردين اذا ما ظهرت امريكا مع الاتحاد الأوروبى فى صورة المتفقين حول القضية.

وربما تستمر مثل تلك الخلافات بين الولايات المتحدة وأوروبا حول الأغذية المهندسة وراثيا في التصاعد خلال الاشهر بل والسنوات القادمة المهندسة وراثيا حتى تقضى على جوع العالم الثالث؟

رغم أن الخلاف بين الولايات المتحدة وأوروبا حول الأغذية المهندسة وراثيا يبدو فى ظاهره صراعا بين الأغنياء إلا أن الطرف الغائب الحاضر بقوة فى المعركة هو دول العالم الثالث. ويعتقد بار لبيرج أن الأغذية المهندسة وراثيا لو أستغلت الاستغلال المناسب فسوف تنتج اثارا تغير وجه الحياة بل وتنقذ أرواح البشر فى العالم الثالث. ويرى أن الحاجة للغذاء تتزايد بسرعة رهيبة فى دول أسيا وأفريقيا الفقيرة بسبب ارتفاع معدل النمو السكانى كما أن الزراعة تتخلف، وانتاجها يتدنى، بسبب ضعف التربة والحرارة والجفاف والحشرات وامراض النبات ويقدر أن هؤلاء المزارعين الفقراء يفقدون نحو «٣٠» فى المائة من محصولهم لصالح الحشرات وأمراض النبات ويؤيد هذا الرأى أيضا فورد رونجى وبنيامين سيناور فى مقال لهما بمجلة فورين افيرز

ويشيران الى انه رغم الفائض الحالى وتراجع اسعار السلع فقد يواجه العالم أزمة فى القرن الحادى والعشرين وقد يصبح اقل قدرة على إطعام نفسه. وتوضح تقديرات معهد ابحاث السياسة الغذائية الدولى أن العالم سيشهد مولد «٧٣» مليون نسمة، كل عام فى الفترة من «١٩٩٥» الى عام «٢٠٢٠» بزيادة بواقع ٣٢ فى المائة ليصل سكان العالم الى «٧.٥» مليار نسمة وستكون النسبة الاكبر للنمو السكاني من نصيب دول العالم الثالث الذى سيشهد ايضا زيادة فى نصيب الفرد من الناتج القومى، ولمواجهة هذه الزيادة السكانية وفى الدخل سيتعين على العالم زيادة انتاجه من الحبوب بنسبة ٤٠ فى المائه عام ٢٠٢٠ ومن رأيهما فإن التغلب على هذه الفجوة التى تعانيها دول العالم الثالث يقتضى تحرير التجارة حتى تستطيع اطعام نفسها ناهيك عما يمكن ان تساهم به التكنولوجيا عبر الجينية فى زيادة الناتج الزراعى بتعزيز مقاومة النبات والحيوان للامراض والحشرات. فعلى سبيل المثال تخسر كينيا الآن نحو ١٥ الى ٤٥ فى المائة من محصول الذرة بسبب الحشرات والآفات، ولو استخدمت بذور مهندسة وراثيا لاستطاعت زيادة الانتاج من دون تلك الخسارة والشيء نفسه ينطبق على مزارعي البطاطس فى المكسيك، وتشير توقعات البنك الدولى إلى أنه يمكن زيادة انتاج الأرز فى اسيا بنسبة تتراوح بين «١٠» الى «٢٥» فى المائة خلال العقد القادم وبدون هذه الزيادة فقد تصل اسعار الارز الى مستويات تفوق متناول الفقراء.

والاسهام الآخر الذى تستطيع الأغذية المهندسة وراثيا ان تقدمه - ومن وجهة نظر المتفائلين - هو القضاء على سوء التغذية فى دول العالم الثالث فمنظمة الامم المتحدة للاغذية والزراعة «الفاو» أوضحت أخيرا ان شخصا من بين كل خمسة اشخاص من سكان العالم النامى يبلغ عددهم ٨٢٨ مليون نسمة اجمالا لايزالون يعانون من سوء التغذية المزمنة، وأحد اسباب سوء التغذية هو قصور الانتاج الزراعى فى بعض المناطق الفقيرة رغم الابتكارات السابقة فيما سمى بالثورة الخضراء. فقد تجاوزت المكاسب الجذرية التى أحدثتها الطفرات الهائلة للتربية التقليدية للنبات فى الستينات والسبعينات تجاوزت مزارعي افريقيا بكثير. وفى الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٨٣ انتشرت انواع جديدة للأرز لنحو ٥٠ فى المائة من أراضى زراعة الأرز فى آسيا وبينما لم تنتشر إلا لنحو ١٥٪ من أراضى أفريقيا جنوب الصحراء، وحدث شيء مماثل بالنسبة للقمح الذى انتقل ليزرع في

٩٠ في المائه من أراضى آسيا وأمريكا اللاتينية التى تزرع بالقمح مقابل ٥٩ فى المائة فى افريقيا لتصبح نسبة المصابين بسوء التغذية فى افريقيا جنوب الصحراء نحو ٣٩ فى المائة. والسبب صعوبة حصول الأفارقة على تكنولوجيا الثورة الخضراء

لكن ستيفن نوتنجهام فى كتابه EAT Yourgenes يشير الى انه من المؤكد ان الشركات عابرة القوميات تعتقد بصحة هذه المقولة. وتروج بها لمحاصيلها عبر الجينية موضحا ان بعض المنتقدين يردون بان هذه المقولات تغفل الاسباب الحقيقية للجوع ويرون ان زيادة الطعام ليست هي بالضرورة الحل الامثل للجوع وسوء التغذية. فسوء التغذية يعود اساسا الى الفقر الناجم بدوره عن مزيد معقد من الاسباب السياسية والاجتماعية وفى هذا الاطار تصبح المحاصيل عبر الجينية هى جزء من مشكلة الفقر فى العالم النامى وليست الحل. فالسياسات الزراعية غالبا هى السبب الرئيسى للجوع خاصة فى أفريقيا .

ويضيف إلى هذا ان الشركات عابرة القوميات تسعى لزراعة مساحات واسعة بالمحاصيل عبر الجينية فى العالم الثالث مثل الطماطم والبطاطس التى تلبى احتياجات سلسلة المطاعم السريعة ونادرا ما تهتم بمحاصيل الغذاء المحلى فى الدول النامية.

ناهيك حتى فى حالة إفادة الدول النامية بالهندسة الوراثية فمن الصعب نقلها دون النيل من بعض جوانب استقلالية الدول النامية.

ويخشى المنتقدون ايضا من الاضرار بالبيئة نتيجة الزراعة عبر الجينية التى قد تصبح حشائش متوطنة او تنتقل الجينات منها الى اقاربها البرية.،

وهكذا لم تشارك دول العالم الثالث فى ازدهار الاغذية المهندسة وراثيا لأسباب عدة من بينها سعى شركات البذور للاستثمار الاكبر فى التكنولوجيا الجديدة تحركها دواعى الكسب اكثر من اى شىء آخر. فتلك الشركات تتجاهل مزارعى الدول المداوية الفقيرة لعدم امتلاكهم القدرة الشرائية لشراء منتجاتها ويشار أيضا الى ضعف حماية الملكية الفكرية لبراءات الاختراع لتلك المنتجات فى الدول النامية الامر الذى يثير قلق وتحفظ تلك الشركات.

ما العمل. هل تقدم الهند النموذج؟

وفق رؤية فورد رونجى وبنيامين سيناور فإن تصور الحكومة للمصلحة الوطنية غالبا ما يدفعها الى تكديس

المخزون الغذائي وتشجيع الانتاج بشكل مصطنع بدعوى حماية المستهلك من نقص الغذاء وزيادة الاسعار. وحتى رغم ان السوق العالمية قد تقدم مصدرا للسلعة بسعر ارخص الا ان الاعتماد على مصدر خارجي يعتبر لعنة ورجزا من الشيطان لدى الكثير من السياسيين وشعوبهم في الشمال وفي الجنوب. وهنا يصير الاعتماد على الذات في توفير الغذاء من وجهة نظر الكاتبين حتى بأسعار مرتفعة شكلا ومظهرا قويا من مظاهر القومية. وليس من المستغرب وجود برامج حمائية لعدد من السلع حتى وان كانت الدولة مصدرا بارزا لعدد اخر من السلع كما في الولايات المتحدة التي تحمي السكر والصوف.

ومن بين الدول النامية تمثل الهند حالة خاصة للاعتماد على النفس فقد سيطرت زيادة انتاج الغذاء وتقليل الاعتماد على الخارج في الواردات على برامج كل الحكومات الهندية منذ الاستقلال عام ١٩٤٧. ونتيجة الدعم الكبير الذي قدمته الحكومة للقمح والأرز بلغ انتاج الهند الآن عشرة اضعاف ما كانت تنتجه عام ١٩٤٧ . واصبحت الهند الآن ثاني اكبر منتج للأرز وثاني اكبر منتج للقمح وخفضت وارداتها من الغذاء من «٥ . ١٠» في المائة عام ١٩٦٥ الى لا شيء عام تقريبا الآن بل أصبحت مصدرا لبعض السلع مثل الارز. ولكن الكاتبين يرصدان توجهات تدعو للانزعاج خلف تلك الانجازات فقد انخفض انتاج واستهلاك الاغذية المهمة الغنية بالبروتينات مثل الدجاج والحمام والبقوليات وفي الحقيقة فانه في الفترة من ١٩٦٠ حتى ١٩٩٥ ارتفع نصيب الفرد في الهند من البروتين النباتي بنسبة طفيفة من ٤٧٫٨ الى ٤٨٫٧ جرام يوميا بينما انخفضت حصته من البروتين الذي يحتوي على الاحماض الامينية وهو البروتين الاكثر اهمية من ٩٫٣٨٤ ملليجرام الى ٨٫٧٩٠ ملليجرام.

ونتيجة لهذا فان اكثر من نصف سكان الهند لا يحصلون على احتياجاتهم الضرورية من الطاقة فيما لايحصل ثلاثة ارباع سكان الهند على الحد الادنى اللازم من البروتين فلايزال ٦٢٤ مليون هندي يعانون من سوء التغذية.

وانطلاقا من رؤيتهما ينصحان الهند بأنها لو كانت تريد حقيقة ان توفر الغذاء لمواطنيها على الوجه الاكمل فعليها ان تقبل واردات الغذاء من الخارج باختصار فإن تحرير التجارة هو الحل وهو السبيل لاستقرار الامن الغذائي والاعتماد على الذات وهو طريق زعزعة هذا الأمن.

من سراديب الذاكرة

بقلم : وديع فلسطين

● الروضة يوم كانت جزيرة
● ديوان الزهاوى المفقود ...
● لقاء مع ويل ديورانت صاحب قصة الحضارة

للذاكرة سراديب تختزن فيها مرائى من الماضى القريب والماضى البعيد، فتنسحب ذيول النسيان على بعض تلك المرائى، ويظل البعض الآخر حيا، وكأنه حدث أول من أمس، وفى هذه السطور مرويات من سراديب الذاكرة طفت على السطح، ولم أشأ أن أكتمها .

جزيرة الروضة

لم يعد يشار إلى حى الروضة بوصفه «جزيرة»، ربما لأنه أصبح فى واقع الأمر الجغرافى «شبه جزيرة» بل صار يعتبر امتدادا لحى منيل الروضة الذى صار يشار إليه بدوره باسم «المنيل» مع تجريده من صفة «الروضة».

ولأننى كنت على مدى أكثر من ثلاثين عاما أقيم فى حى الجيزة وطريق الأهرام، فقد كانت «جزيرة الروضة» تمثل طريقى اليومى إلى مدرستى ثم إلى جامعتى ثم إلى عملى، وكان الترام رقم ١٥ وسيلة



سلامة موسى



عبد الرزاق السنهوري



شوقى ضيف

مواصلات كريمة يقطع الجزيرة من نهاية كوبرى عباس إلى بداية كوبرى الملك الصالح فألتقى فيه بوجوه أعرف بعضها وأسمع عن بعضها الآخر. وقد احتشدت جزيرة الروضة عندما كانت جزيرة غناء بعدد غير قليل من الأدباء ورجال الفكر، يقيم أغلبهم فى بيوت مستقلة «فيلات» أو «دارات» بتعبير صاحب «الرسالة» أحمد حسن الزيات، وقد عرفت معظم هؤلاء «الروضويين» على الرغم من أننى لم أكن «شيخ حارة» فى هذه الجزيرة الوارفة الظلال.

ومن هؤلاء «الروضويين» الشاعر على الجارم بك والعلامة أحمد الشايب والعلامة خير الدين الزركلى صاحب معجم «الأعلام» وأستاذنا الدكتور شوقى ضيف (قبل أن ينتقل إلى حى الدقى) وأستاذنا الدكتور محمد مندور، والمجاهد محب الدين الخطيب (صاحب دار الفتح) والشاعر عبدالرحمن صدقى (قبل أن ينتقل إلى مصر الجديدة) ودرينى خشبة المتخصص فى الأدب المسرحى، والدكتور محمد كامل حسين المتخصص فى الأدب الفاطمى، وخالد محمد خالد (قبل أن ينتقل إلى جبل المقطم) وعالم الروح أحمد فهمى أبو الخير والقاص محمد عبدالحليم عبدالله، وموسى حقى شقيق يحيى حقى وكان مديرا لاستوديو مصر، والأديب السورى الدكتور زكى المحاسنى وزوجته الأديبة وداد سكاكينى وقد سكنا جزيرة الروضة عندما كان المحاسنى يعد رسالتى الماجستير والدكتوراه ثم عندما عاد إلى القاهرة ملحقا ثقافيا فى السفارة السورية، وزعيم حزب مصر الفتاة

أحمد حسين والصحفيان مصطفى وعلى أمين (قبل أن ينتقلا إلى الزمالك) .

أما حى المنيل فكان يقيم فيه أحمد حسن الزيات والأديب على أحمد باكثير والشاعر الزجال محمود رمزى نظيم (المكنى بأبى الوفاء) والدكتور حسن باشا والأديب التونسى محمد العيساوى الجمنى الذى اختير وزيرا للتعليم فى أول وزارة لثورة الفاتح فى ليبيا ظنا بأنه ليبى، وبدل اسمه إلى محمد العيساوى الشتوى.

سقت هذه المقدمة الطويلة كتوطئة إلى زيارة صحفية قمت بها إلى بيت من بيوتها سرى عليه بعد ذلك ناموس الهدم لتنتصب فى مكانه بناية شامخة تنظر إلى التاريخ نظرة زراية.

أما البيت فهو بيت محمد أمين يوسف بك والد الصحفيين مصطفى وعلى أمين، وكان يحتل زاوية بين شارع الإخشيد وشارع الروضة، وقد شممت فيه عبق التاريخ وأنا أحتل مقعدا فى غرفة الاستقبال الرحيبة فيه.

ومحمد أمين يوسف بك محام من دمياط عمل فى وظائف حكومية مختلفة وشارك فى إنشاء الجمعيات التعاونية، وعين خبيرا مصريا فى السودان أيام الحكم الثنائى المصرى البريطانى، واختير وزيرا مفوضا لمصر فى واشنطن قبل رفع درجة التمثيل الدبلوماسى إلى مرتبة سفارة، وله كتاب كبير باللغة الإنجليزية طبعه فى لندن فى عام ١٩٤٠ بعنوان «مصر المستقلة» وكتب مقدمته الصحفى البريطانى الشهير ويكهام ستيد.

كنت فى مكتبى فى الجريدة التى أعمل بها عندما زارنى محمد أمين يوسف بك على غير معرفة سابقة، وإن كنت عرفت ابنه مصطفى أمين من قبل وعرفت على أمين فى مرحلة تالية. وقال إنه يريد أن يفضى إلى بحديث عن الشئون العامة فى مصر لكى أنشره فى الجريدة، ولكنه رغب فى أن أزوره فى بيته لكى يملى علىّ نص الحديث دون أن يقطع حبل تفكيره شىء، واستأذنت رئيس التحرير الذى رحب بما طلبه أمين يوسف بك وفى الساعة المتفق عليها دققت جرس الباب فاستقبلنى رب البيت واقتادنى إلى غرفة الصالون الفسيحة وقد رصت على جانبيها الأرائك المريحة،

وقبل أن يشرع في إملاء الحديث، واضعا بنفسه الأسئلة، عنّ له أن يعرفني بالقيمة التاريخية للقاعة التي أجلس فيها، فأشار إلى مقعد وقال إن الزعيم سعد زغلول باشا كان يجلس فيه، ثم أشار إلى مقعد آخر قائلا إن الزعيم مصطفى النحاس باشا كان يجلس فيه، وأشار إلى ثالث قائلا إن مكرم عبيد باشا كان يؤثر الجلوس فيه، وسرد أسماء جميع رجالات مصر الذين أمّوا هذه القاعة، وكم أسعدني أن أجد نفسي جالسا في غرفة جمعت كل هذه الزعامات، وأن أحتل واحدا من مقاعدها كان مخصصا لكبير من كبراء الأمة. ثم أخذ أمين يوسف بك يذرع الغرفة جيئة وذهابا، وهو يملي عليّ تفاصيل الحديث الذي أجراه معي، وقد نشرته في الجريدة في حينه ونسيت معظمه، ولكن استوقفني من حديثه قوله إنه أنقذ مصر من مجاعة مروعة أصابتها في عام ١٩٣١ أيام الأزمة الاقتصادية العالمية، فارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا مفاجئا شاهقا تجاوز طاقة سواد الشعب، واستحكمت الأزمة بسبب تلاعب التجار مستغلين النقص في غلة الأرض التي كانت المصدر الأساسي لقوت الشعب، ورغب اسماعيل صدقي باشا، رئيس الوزراء في ذلك الوقت في مواجهة هذه الأزمة، فاستعان بمحمد أمين يوسف بك على الرغم من أنه لم يكن من أصدقائه، وكلفه بمواجهة هذا الطارئ مسندا إليه منصب «مدير مكافحة ارتفاع أسعار المعيشة»، وانحصرت مهمته في السيطرة على أسعار الحاجيات الضرورية، فاستطاع في أقل من ثلاثة أشهر أن يخفض الأسعار بنسب تتفاوت بين عشرين وأربعين في المائة .

وأضاف محمد أمين يوسف بك أن الشاعر أحمد شوقي أبدى إعجابه الشديد بنجاحه في اتقاء المجاعة، ونظم بضعة أبيات قارن فيها بين يوسف الصديق الذي أنقذ مصر الفرعونية من السنوات العجاف، وبين يوسف بك الذي أنقذها من المخاطر المنذرة بالمجاعة، وأملى على هذه الأبيات التي سجلتها في الحديث وإن كنت نسيتها، وعندما بحثت عنها في ديوان «الشوقيات» بأجزائه الأربعة، وفي كتاب «الشوقيات المجهولة» بجزئيه الذي وضعه الدكتور محمد صبري

السوربونى، لم أعثر لهذه الأبيات على أثر، ولعل شوقى ارتجلها ولم يسجلها.

حكاية الديوان المفقود للزهاوى

جميل صدقى الزهاوى (١٨٦٣ - ١٩٣٦) من أكبر شعراء العراق، وقد تفرّد عن غيره من معاصريه باهتماماته الفلسفية والعلمية والفيزيائية، وتأليفه كتبا عن الجاذبية وعن الخيل وسباقها، وعن لعبة الدامة، وعن الكائنات الحيوانية والنباتية، وعن علم الفلك، كما خاض فى جدل واسع مع أعلام عصره فى العراق وفى مصر كالعقاد.

ومن دواوينه المنشورة «الكلم المنظوم» و«ديوان الزهاوى» و«الرباعيات» و«اللباب» و«الأوشال»، و«الثمالة» و«ثورة فى الجحيم» عدا أنه ترجم رباعيات عن الخيام ونشر تمثيلية عنوانها «ليلى وسميره».

وقد عرف الزهاوى بشطحاته التى تجلت بصورة خاصة فى ديوان صغير له أطلق عليه عنوان «النزغات» لم يستطع نشره فى العراق، فانتهز فرصة إحدى زياراته للقاهرة واستأمن عليه صديقه سلامة موسى عساه يتمكن من نشره، وكان سلامة موسى مستهدفا بصورة دورية من إغارات رجال الشرطة على بيته ومكتبه، وفى كل إغارة تصادر الحملة ما تصادفه من كتبه وأوراقه، فخشى على ديوان «النزغات» من أن يفقد فى هذه الحملات البوليسية، وأودعه لدى صديقه الشاعر الدكتور أحمد زكى أبى شادى رائد جماعة أبوللو .وفى عام ١٩٤٦ قرر أبو شادى الهجرة إلى الولايات المتحدة بعدما توافرت للمدنييّن أماكن فى السفن نتيجة لانتهاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥، وكان سبب هجرته هو أنه ضاق بكثير من الدسائس التى تحاك حوله، فعبأ كتبه الشخصية - وهى آلاف - فى صناديق بغية نقلها معه على نفس الباخرة المتجهة إلى أمريكا بصحبة أبنائه صفية ورمزى وهدى. ولكن سلطات الجمارك اعترضت على شحن هذه الكتب ظنا منها بأنها عملية تجارية، واستكثرت أن يكون لدى شاعر أديب باحث كتب شخصية بهذا المقدار، فاضطر أبو شادى إلى تخزين هذه الصناديق فى مخازن «البوندد» فى ميناء الإسكندرية، وكلف صديقا له بمتابعة إجراءات الشحن مع السلطات المختصة.

وانقضت سنة بعد أخرى وثالثة دون أن تتحرك هذه الصناديق من مكانها، وتعرضت لكل أنواء البحر وأمطار الإسكندرية وعوامل التعرية التي أتلفت كثيرا من محتوياتها. فكتب إليّ أبو شادي - وهو يائس تماما - راجيا أن أثير هذه القضية في الصحف، ولكنني استصويت أن أخاطب في هذا الشأن صديقي الدكتور محمد توفيق يونس وكيل وزارة المالية - ولم يكن لكل الوزارات في ذلك الوقت إلا وكيل واحد، ثم اختير وكيل ثان ليكون وكيلا برلمانيا ينوب عن الوزير في حضور جلسات مجلسي النواب والشيوخ. فبعثت برسالة شخصية بالبريد العادي دون طابع دمغة أو أختام رسمية، بل دون أن أحمل توكيلا رسميا من أبي شادي، إلى الدكتور يونس ناشدت فيها أريحته لكي يذلل العقبات التي تعترض شحن هذه المكتبة الشخصية إلى صاحبها، ولا سيما لأن أبا شادي كان يكتب في الصحف ويذيع في الإذاعات الأمريكية دفاعا عن قضايا مصر والعروبة وعن التراث العربي، وبمجرد وصول هذه الرسالة الشخصية إلى يونس بك (الذي أصبح فيما بعد رئيسا لديوان المحاسبة، وهو شقيق عبدالحميد يونس أول مدير للتليفزيون المصري ونبيه يونس عضو مجلس إدارة هيئة قناة السويس بعد تأميمها) هاتفني قائلا إنه أشّر على الطلب المقدم مني بالموافقة على شحن هذه الكتب فورا، ولكن بعد عرضها على الرقيب، وقال إنه يملك سلطة الموافقة على الشحن، أما الرقابة فلها سلطتها المستقلة. فكتبت إلى وكيل أبي شادي في الإسكندرية منبها إياه إلى صدور الموافقة على الشحن. ولكن عليه أن يحصل على موافقة الرقيب. وقلت له إن الصناديق تضم أكثر من عشرة آلاف كتاب، وإن قراءتها جميعا من قبل الرقيب تحتاج إلى سنوات، ورجوته استعجال الرقيب في قراءة هذا الكم الضخم من الكتب! ولكن لما كان الرقيب مجرد موظف لا جلد له على قراءة عشرة آلاف كتاب، فطلب الأوراق، ووقع عليها دون أن يفحص صندوقا واحدا .

وشحنت الكتب إلى أبي شادي على عنوانه في نيويورك، ولم يكن قد انتقل بعد إلى واشنطن، فلما بلغته تنفس الصعداء، ولكنه حزن شديد الحزن على التلف الذي أصاب غير

قليل من الكتب، كما أبدى لى أسفه الشديد على ضياع ديوان «النزغات» للزهاوى الذى كان فى عهدته. وإلى وفاة أبى شادى فى عام ١٩٥٥ كان يعتقد أن هذا الديوان قد فقد لتعذر الاهتداء إليه بين كتبه.

وفى عام ١٩٦٢ زارنى الشاعر العراقى هلال ناجى، وكان لاجئا سياسيا فى مصر، وقال إنه يعد دراسة كبيرة عن الزهاوى وإنه لاحظ أن سلامة موسى أشار فى كتابه «تربية سلامة موسى» إلى أنه تسلم ديوان «النزغات» من الزهاوى وأعطاه إلى أبى شادى، ورجانى أن أسعى لدى أسرة أبى شادى فى أمريكا فى سبيل الحصول على هذا الديوان، وعندما كتبت إلى صفية أبى شادى - وهى الحارسة لتراث أبيها - جاوبتنى بأنها إذ كانت تقلب فى كتب أبيها عثرت على مخطوطة هذا الديوان الصغير مندسة بين صفحات واحد من الكتب، فقامت باستنساخها وإرسالها إلى طالبة ألا أتصرف فيها أو أعمل على نشرها لأن أسرة أبى شادى لاتملك أى حق فيها، وتكتمت الأمر بعدما تسلمت صورة المخطوطة، ولم أبح بها إلى الشاعر العراقى نزولا على الوعد الذي قطعته بعدم التصرف فيها، ولكن زيارات الشاعر تواترت وإلحاحه اشتد، فقلت له إن صورة المخطوطة عندى، ولكننى وعدت بعدم إطلاع أحد عليها أو التصرف فيها، فأقسم بأنه إنما يريد الاسترشاد بها فى دراسته وأنه سيعيدها إلىّ سالمة.

فوافقت إزاء إلحاحه المزعج على إعطائه المخطوطة مادام قد وعد بالاكتفاء بالاطلاع عليها.

وبعد أيام أعاد إلىّ المخطوطة. وبعد أسابيع زارنى ومعه نسختان من كتاب «الزهاوى وديوانه المفقود» وكتب على إحداهما إهداء لى وعلى الثانية إهداء لصفية أبى شادى، وقال إنه إنما نشر نص ديوان «النزغات» لأن من الظلم للشاعر الزهاوى أن يضيع ديوانه!، وساق لى ولابنة أبى شادى فى مقدمة الديوان ثناء عطرا لأننا هيأنا له فرصة الحصول على هذه المخطوطة. وتحملت وحدى عتابا شديدا بل لوما قارسا لأننى أخلفت الوعد وتصرفت هذا التصرف المعيب .

ثم رغبت فى معرفة حقيقة نسبة هذا الديوان إلى الزهاوى، كما أردت


أحمد حسن الزيات


عبد الرحمن صدقي


على الجارم

- برغم تصرفات هلال ناجي - أن أجامله لأنه لاجيء سياسى ثم لأنه صديق ، فرجوت أستاذنا العقاد أن يتناول هذا الكتاب في مقال قمت بنشره في مجلة «قافلة الزيت» السعودية التى كنت أمثلها فى مصر فى عدد مايو/يونيو ١٩٦٣ قال فيه «إن الشواهد والقرائن التى تدل على صحة هذه النسبة كلها مقنعة بل قاطعة فى إثبات نظم الشاعر لجملة القصائد والمقطوعات التي احتواها ديوان «النزغات» بغير زيادة فيه». وقال «إننا نستطيع أن نصحح نسبة النظم فى هذا الديوان إلى الزهاوى من الدليل الداخلى فى أسلوب الشاعر النظمي كما يقول النقاد، وأظهر مافى هذا الدليل الداخلى أن أبيات القصائد والمقطوعات تشتمل علي كثير من ذلك الشدّ والفتل الذى يطوّع به الشاعر كلماته لأوزان العروض».

صاحب كتاب «قصة الحضارة»

زار القاهرة فى عام ١٩٤٨ العالم البريطانى ألدوس هكسلى (١٨٩٤ - ١٩٦٤) موفدا من منظمة اليونسكو، وألقى محاضرة فى الجمعية الجغرافية الملكية كنت من شهودها، وارتأى وزير المعارف الدكتور عبدالرزاق أحمد السنهورى باشا أن يحتفى بهذا العالم، فأقام حفل استقبال كبير له فى فندق شبرد القديم الذى راح طعمة للنيران فى حرائق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ . وحضرت هذا الحفل مندوبا عن الجريدة التي كنت أعمل فيها، وهناك التقيت بأستاذى فؤاد صروف محرر مجلة «المقتطف» وكان يتحدث مع صديقى الأديب على أدهم، فانضممت إليهما فى هذا الحديث الجانبى، وفجأة التفت صروف خلفه ورأى رجلا أجنبيا قصير القامة ضئيل

الجسم أشيب الشعر، فهمس فى أذن على أدهم قائلا: مؤكد أنه المؤرخ الأمريكى ويل ديورانت (١٨٨٥ - ١٩٨١)، وهو ما وافقه عليه على أدهم من واقع صوره المنشورة على أغلفة كتبه .

وأشار على صروف أن أحاول مقابلته وإجراء حديث معه، فاقتربت من ديورانت وقلت له: أظنك المؤرخ الكبير ويل ديورانت؟ فأجاب نعم: فقلت له إننى صحفى ويسعدنى أن أجرى معك حديثا للجريدة التى أعمل فيها، فرحب بذلك ثم قال: الأفضل أن نصعد إلى غرفتى فى الفندق نفسه .

وعندما جلسنا فى الغرفة، فتح حقيبته وأخرج منها مخطوطة جزء من أجزاء كتابه الضخم «قصة الحضارة» وهو الكتاب الذى احتفت به الإدارة الثقافية للجامعة العربية فكلفت المترجم محمد بدران بأن يتوفر على ترجمة أجزائه، وبعد وفاته استكمل الترجمة الدكتور زكى نجيب محمود .

وطلبت من ويل ديورانت أن يشرح لى منهاجه فى كتابة تاريخ الحضارة من أقدم العصور فقال: من الخلال البارزة فى عصرنا الحالى أننا نعنى عناية قصوى بدراسة ماحدث البارحة، ولنا من وسائل تحقيق هذا البحث أساليب باهرة. غير أن ماحدث من ستة آلاف عام يفتقر أشد الافتقار إلى عناية منا، حتى ليصح لنا القول بأننا متخمون بالأنباء اليومية متضورون جوعا الى التاريخ، وبعبارة أخرى، أننا لانملك أساسا نستطيع به أن نحكم على الأخبار الجارية وندرك كنهها حق إدراك، وهذا يفسر لنا الموجات الفكرية التى تجتاح بلادا مدة من الزمن ثم تنجاب عنها، كموجة «السلوكية» التى ظهرت فى الولايات المتحدة أشهرا ثم اختفت.

وقال ديورانت إن دراسة التاريخ هى فى جلية الأمر خير فلسفة يتزود بها الباحث، ومن التاريخ نروم أن نعرف لاكيف كان يتعين على المرء أن يتصرف، بل كيف تصرف فعلا، وفى وسعى القول أن الرجل ذا الإلمام بالتاريخ يستطيع أن يتكهن بأحداث الغد قبل أن تقع ، لأن بوادر الثورة الروسية كان يمكن التكهن بها قبل حدوثها بسنين وسنين لكل من درس التاريخ دراسة إمعان وتدبر. وآية ذلك أن شبنجلر تكهن فى كتابه « ردة الغرب» الذى أصدره عام ١٩٢١ بالموقف العالمى الحالى (أى فى عام ١٩٤٨) .

وقال المؤرخ الكبير إن السبب فى

إغفال دراسة التاريخ هو أن المؤرخين يعرضون أحداثه بكيفية تدل بداهة على مجافاة الواقع مجافاة تامة، فهم يتخيرون مناحي معينة من النشاط الإنساني - كنشاط الحكومة أو الاقتصاد أو الدين أو العلم أو الفن أو الموسيقى أو الفلسفة أو الأخلاق - ثم يكتبون تاريخ أمر واحد مجرد من هذه الأمور، ويسوقونه مستقلا عن العوامل الأخرى، والواقع أن المرء يحيا بجميع هذه العوامل في وقت واحد، وكل عنصر من هذه العناصر يؤثر تأثيرا أساسيا في العناصر الأخرى في كل جيل من الأجيال .

والمؤرخ ويل ديورانت معنى بكتابة التاريخ طبقا للكيفية التي بها عاش الأفراد الذين يصنع منهم هذا التاريخ، وهو مايحتم عليه أن يلم إلماما شاملا بجميع نواحي النشاط الإنساني لتصبح للرواية التاريخية وحدتها وسلسالها .

ومما قال ديورانت : ربما كانت حضارة الغرب عاجزة عن حل معضلة «العقل» فإذا ثبت ذلك ، صدقت تنبؤات شبنجلر عن ردة الغرب واندحاره، وأصبحت الحقب القادمة مدينة بنهضتها للشرق، كما كان الحال من ألف عام .

وقال إن مصر تجد في إيران مزاحما قويا في الشؤون الثقافية الإسلامية، وإنه يرجو أن تستمر هذه المزاحمة لمصلحة النهضة الفكرية العربية .

واستعرض ويل ديورانت موضوعات الأجزاء الستة من موسوعته عن تاريخ الحضارة وكان وقتها قد أنجز ثلاثة أجزاء منها وقال إنه سيخصص الجزء الرابع لدراسة «عصر الإيمان» الذي خصص ثلثه تقريبا للحديث عن الحضارة الإسلامية التي تحتاج وحدها إلى مجلدات، وقال إنه لايجاملني إذ يعتقد أن القراء المسيحيين لهذا السفر ستدهشهم إفاضته في الحديث عن الحضارة الإسلامية، بينما طلاب الدراسات الإسلامية ستصدمهم وجازته، وقال إن موعد صدور السفر الخاص بالحضارة الإسلامية هو عام ١٩٥٠ .

ومن تصاريف القدر أن ويل ديورانت عاش حتى عام ١٩٨١ بالغا من العمر ستة وتسعين عاما فاستطاع أن ينجز مشروع «قصة الحضارة» وفقا لمنهاجه المرسوم، وهو وجورج سارطون من أكبر المنصفين للعرب وإسهامهم في حضارة العالم .

الإرادة والـــواقــع

رأيت في حريق القاهرة إجهاضاً للحركة الوطنية

مصطفى سويف

طرد خمسين أستاذا جامعيا عدوان

صارخ على القيم ..

للحياة الإنسانية واجهات متعددة ، ومن هذه الواجهات أنها صراع متجدد بين الإرادة والواقع ، يحدث هذا بالنسبة لنا كأفراد ، ويحدث للعالم من حولنا جملة وتفصيلا .. كانت سنة ١٩٥٠ فيصلاً بين عهدين بالنسبة لى ، ولمصر ، وللعالم من حولنا . أما أنا فقد جاء تعيينى معيدا بكلية الآداب (جامعة القاهرة) فى نوفمبر سنة ١٩٥٠ تبلوراً حاداً للدور الذى أردته لنفسى قبل ذلك بخمس سنوات، وهو أن أصير مفكرا وباحثا ، ولكنى لم أخطط للتعيين فى الجامعة ؛ فلما جاء التبلور على هذا النمو أدركت ما فيه من جدة وبدأت أستعد للتعامل مع معطياته .

وأما فى حالة مصر فقد جاء وصول حـزب الوفـد إلى الحكم فى يناير سنة ١٩٥٠ وإعلانه بعد قليل إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا ممثلا لمستوى جديد فى الجهاد الوطنى لاستكمال الاستقلال ، وبدا عندئذ أن معظم القوى الفاعلة فى الميدان أدركت أن ما حدث يعتبر دفعة حادة لتفاعلات المخاض التى جرت فى البلاد أواخر الأربعينيات ، وأخذت كل قوة تعد عدتها للتعامل مع هذه الدفعة



حسب دلالتها كما قرأتها هذه القوة . وأما فيما يتعلق بالعالم فقد بدا إندلاع الحرب الكورية فى منتصف سنة ١٩٥٠ أخطر إنذار بتصعيد الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى إلى مستوى حافة الهاوية ، وبدأ الكلام فعلا عن احتمال قيام حرب عالمية ثالثة .

انطلاقا من الجامعة :

أثار تعيينى معيدا فى الجامعة انقساما حادا فى وعيى بذاتى ؛ فأنا لم أشعر بأنه أضاف مكونا جوهريا جديدا إلى كيانى ؛ كانت مكوناتى الرئيسية مستقرة الجوهر والمعالم عند مجىء التعيين ؛ كانت ثلاثة مكونات : المفكر ، والباحث ، والإنسان الملتزم . ولم يضف التعيين شيئا إلى هذا الثالوث . ومع ذلك فقد كنت واثقاً من أن جديداً ما حل بى . وشيئا فشيئا بدأت تتكشف الحقيقة أمامى ، إذ بدأ القديم يستوعب الجديد ؛ فإذا هذا الجديد شحنة طاقة جديدة تتلبس بكيان الثالوث كما أحمله . وقرأت هذه الشحنة على أنه اعتراف اجتماعى يخول لى صلاحية أن أن أوظف حياتى كاملة فى خدمة القراءة والكتابة والعمل البحثى وهو ما كنت أحاول أن أقترب منه من قبل ولكن على استحياء . ذلك لما كنت ألمسه من معظم المحيطين بى (من أقارب وزملاء فى وظيفتى الحكومية السابقة) . إذ كانوا يعبرون عن ضيقهم الشديد بانصرافى عن

أشكال الحياة الاجتماعية اليومية كما يحيونها ، وكنت ألقى منهم فى هذا الصدد عنتا شديداً . وكنت أبادلهم ضيقا بضيق وازوراراً بازورار ، لكن هذا السخف كله كان يضيف إلى أعبائى عبئاً لا قيمة له ويرهقنى رغم ذلك أيما إرهاق . جاء التعيين فى الجامعة فأضفى دعما معنويا على توجهاتى لا سبيل إلى إغفاله ، وبالمكيال نفسه أصاب معنوياتهم حتى خيّل إلىّ أنه قضى عليها أو كاد .

ومضيت فى طريقى ؛ وكانت تقتسم الطريق روافد أربعة : أحدها يخص العمل الأكاديمى ، ويضم التدريس والعمل البحثى فى الدكتوراه والكتابة المتخصصة فى دورية علم النفس . والرافد الثانى يخص الكتابة العامة (فى مجلة الفصول) والاهتمام العام ، وكان هذا الاهتمام العام يمتد إلى رصد ما يجرى فى مصر وحول مصر من أحداث طلبا للفهم أساسا ، وللتنبؤ أحيانا ، وربما شاركت بحديث هنا أو حوار هناك . أما الرافد الثالث فكانت تشغله اهتماماتى بأسرتى الصغيرة ، أنا والزوجة والكريمة . وأخيراً يأتى دور الرافد الرابع ويضم عالم الصداقة مع الأدباء الحقوقيين الثلاثة عبد الرحمن الشرقاوى ، وفتحى غانم ، وأحمد بهاء الدين ؛ والأدباء المتفلسفين الثلاثة محمود العالم ، ويوسف الشارونى ، وعباس أحمد؛ والفنانين التشكيليين وفى مقدمتهم محمد عويس ، ونبيه عثمان . وكانت الروافد الأربعة واضحة المعالم لكل منها هويته المميزة ، وكانت مع ذلك متناغمة ومتجاذبة ، وكان هذا التجاذب يصل أحيانا إلى حد التلاقى والتداخل ؛ وكان من أمتع مظاهر التداخل ما كنا نعيشه أحيانا لنقرأ ونناقش فى إطار الصداقة بعض كتاباتنا العامة ، وعلى هذا النحو نعمنا بفاتحة قصائد عبد الرحمن الشرقاوى فى طريق شعر التفعيلة «رسالة من أب مصرى إلى الرئيس ترومان» ، وكان قد كتبها متأثرا بأنباء الحرب الكورية . واستمتعنا برواية «الجبل» عندما فاجأنا بها فتحى غانم وكان قد كتبها تحت وطأة خبراته كمفتش تحقيقات فى وزارة المعارف العمومية حيث امتد عمله ليشمل ما يجرى فى مصلحة الآثار . ولكنى أعترف بأن هذا الإمتاع لم يكن يدانى فى الوزن ولا فى الدلالة ما كان يغمرنى من مشاعر تقع عند بعض مواطن التداخل بين اهتماماتى الأكاديمية وحياتى الأسرية ؛ يحدث ذلك عندما كنت أتوجه إلى طفلتى بعين الباحث العلمى لأرصد بعض وقائع سلوكها فى مواقف معينة لأضيف نتائج هذا الرصد والتحليل كمادة علمية فى فصول رسالتى للدكتوراه . وكان هذا الإجراء البحثى أمراً معترفا به من أساتذة التخصص حينئذ . وقد استخدمه فعلا عدد من أئمة الميدان مّن أمثال جان بياجيه ، وهنرى فالون ، وشارلوت بوهلر . وكانت أوجه المتعة عندى فى هذا الشأن متعددة ؛ منها هذا التوحد الذى كان يتلبّس بى بين الأب والعالم ، ومنها حدسى بأن هذا الطريق يضمن لى الأصالة لكونى أجرى البحث على مادة جديدة هى هذه الطفلة التى لم يقترب منها باحث قبلى ، ومنها يقينى بأن ملاحظاتى على سلوكيات

الطفلة سوف تقدم عنصرا حضارياً مصريا يضاف إلى العناصر الغربية التي يزخر بها تراث دراسات الارتقاء النفسي الاجتماعي للطفل . ومنها كذلك تنبهي إلى أنني كنت بهذا المنحى البحثي أكرر ما أقدمت عليه من قبل ووفقت فيه أثناء دراستي لدرجة الماجستير ، فقد أجريت عددا من مشاهداتي عندئذ على مسودات الشعر عند عدد محدود من الشعراء المصريين ، وعلى بعض السير لعدد محدود من الشعراء العرب ، واستطعت أن أخرج منها بنتائج التقت فيما بعد مع نتائج باحثين أجانب متميزين في مقدمتهم كاترين باتريك .

كنت أعيش في ذلك الوقت هذه الأنواع من المتعة الراقية ، وكنت أعايش من خلالها أدواري كما تمثلت في الروافد الأربعة التي تقاسمت طريقي فيما بينها وكنت أعي من خلال ذلك كله أن أولويات الأدوار أضحت بالنسبة لي محددة كما لو كانت مثبتة برسمها في اللوح المحفوظ ، وكنت أعي بوجه خاص مقتضيات دوري كمواطن ، متمثلا في الاهتمام العام إذ كان يشدني بقوة إلى الاهتمام بالواقع (أو الخارج) السياسي ، بينما أنا مشدود بقوة أيضا إلى الداخل الفكري / البحثي . وكنت أتقبل وطأة ما ينجم عن هذين الشدين لأنني أنا الذي أردت ذلك . وكنت رغم معاناتي التي كانت تزداد بزيادة الاضطراب في أي من الجبهتين وخاصة في الجبهة الخارجية (حيث مخاض مصر) كنت رغم ذلك لا أحمل أي تشاؤم نحو ما كان يجري في مصر حينئذ من أحداث تتضح بالعنف كالمظاهرات الطلابية وما تخللها من صدامات . صحيح أنني انزعجت بعض الشيء مما دب فيها من انشقاق بين زعامتين إحداهما وفدية (زعامة مصطفى موسى) والأخرى إخوانية (زعامة مصطفى مؤمن) ، لكن بقي انزعاجي محدودا لأنني لم أر في ذلك ما يهدد مستقبل المخاض الوطني ، وصحيح كذلك أنني توجست خيفة من عواقب الإعلان المفاجيء عن إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ من جانبنا واعتبرته قراراً أملته على الوفد ضرورات المزايدة السياسية على الأحزاب الأخرى وقرأت فيه مغامرة غير محسوبة ، ومع ذلك لم أر فيه تهديدا خطيرا لمستقبل المخاض .

حريق القاهرة

أما حريق القاهرة (في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢) فقد رأيت فيه ما يدعو إلى التشاؤم فعلا ، لأنني قرأت في معالمه بداية محسوبة لإجهاض المخاض . في ذلك اليوم خرجت أتجول في أنحاء القاهرة : ميدان الاسماعيلية (التحرير الآن) . وشارع قصر النيل ، وميدان الأوبرا ، وشارع ابراهيم باشا (الجمهورية الآن) .. تجولت لأشهد الحرائق بنفسي وما صحبها من نهب وسلب وتدمير لكثير من المحال التجارية ، ومحاولات للاعتداء على بعض البنوك . وفي ذلك اليوم نفسه قلت لأحد الأصدقاء إني أتوقع أن يعلن النحاس باشا الأحكام العرفية ، وأتوقع أن ينتهز الملك الفرصة ويعلن إقالة النحاس . وقلت إني لأقرأ في الأحداث ما يشير إلى أن البلد يوشك أن يقع في

قبضة حكم دكتاتوري سافر . كنت أقول ما أقول على أساس حدسي ، كانت عندى مفردات محدودة ، ولكني كنت شبه واثق من صدق تنبؤاتي . وحدث فعلا ما توقعت. وعلى امتداد الشهور الستة من ٢٦ يناير إلى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ توالت على مصر عدة وزارات ، وبدا المشهد السياسي وكأنه فصول فى مسرحية كوميدية تجنح إلى الإسفاف . وكان أسخف ما في هذه المسرحية الأسلوب الذى جرى به التحقيق فى أحداث الحريق، فقد قبض على أفراد من حزب مصر الفتاة ، وعلى كثيرين من الصبية أولاد الشوارع ، وانتهى الأمر إلى تعتيم إعلامى تام على المحركين الحقيقيين لأحداث الجريمة .

٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢

فى الصباح أذاع الراديو بيانا غامضا ، يلوم الفساد الذى شاب حكم البلاد . وظل البيان يذاع من حين لآخر . ومع سماعنا البيان بدأنا نرى الدبابات والسيارات المصفحة تجوب الشوارع محملة بجنود القوات المسلحة المصرية ، وهلل الناس وصفقوا فى الشوارع كعادتهم عندما يصفقون للمواكب الرسمية، وشعرت حينئذ أننا نبدأ مرحلة جديدة فى إدارة شئون البلاد . وقرأت فى مجموع الإشارات التى توالت أمامى فى اليوم الأول نفسه أنها ستكون مرحلة حكم عسكرى مباشر . ولكننى لم أدرك فى ذلك الوقت المبكر إلى أين يصل مداها ، كمًا أو كيفا . وتوالت أحداث كثيرة بسرعات تفوق ما اعتدناه من قبل . وكان أبرز هذه الأحداث خلع الملك فاروق يوم ٢٦ يوليه ، وبروز اسم على ماهر ليتولى رئاسة الحكومة ، وظهور اسم اللواء محمد نجيب قائداً لمجموعة الضباط القائمين بهذه الحركة ، وإعلان الجمهورية فى ١٨ يونيه سنة ١٩٥٣ . واسترعى انتباهى إلى جانب مفردات الوقائع ما أخذ يطرأ من تغير مفاجىء على طبيعة الإعلام وما خلقته هذه الطبيعة من مناخ نفسى اجتماعى شمل الناس وما بينهم ؛ امتلأت الإذاعة بالبيانات الصادرة عما سمّى مجلس قيادة الثورة ، وكانت هذه تذاع مثنى وثلاث ورباع ، وكانت لغة هذه البيانات مليئة بالتهديد والوعيد ، وفيما بين البيانات كانت تذاع الأناشيد الحماسية ، وكانت تذاع كذلك برقيات تأييد تلقاها الضباط من مواطنين مختلفين ، وكانت تذاع أيضا خطابات أرسلها مرسلوها يشكون ظلما حاق بهم على أيدى الحكام السابقين ويطلبون القصاص لهم ، وراح المذيعون يتنافسون فيما بينهم فى التجويد عند قراءة هذه الخطابات : من يستطيع أن يحوز قصب السبق فى القراءة الميلودرامية الصارخة الباكية ... وكانت حصيلة ذلك كله مناخا نفسيا / اجتماعيا / سياسيا أمكن الاحتفاظ به على درجة عالية من الالتهاب على مر الأيام والأسابيع والشهور . وبدا بمرور الوقت أن المناخ الملتهب أريد له أن يبقى على مستوى التهابه بينما كانت المضامين تتغير . وكان الالتهاب يتركز فى المعانى المبثوثة فيما يذاع ، وهى معانٍ يراد بها استثارة انفعالات بعينها . كالغضب ، أو


حريق القاهرة - يناير ١٩٥٢

السخط ، أو النفور ، أو التحقير ... الخ . وإلى جانب ذلك تخلقت للمناخ خواص أخرى ، منها الجلبة أو الضوضاء ، ومنها كذلك تسارع الرسائل ذات المعاني المتباينة أو المتعارضة . ووسط هذه الأحداث والأصوات الصاخبة ، ومثيرات الخواطر الملتهبة كانت تترامى إلى المواطنين شائعات لا أول لها ولا آخر ، ولما لم تكن مرجعية يمكن الرجوع إليها لمعرفة الحقيقة فقد أصبحت الشائعات تعامل كأنها حقائق ، وأضحى الخوف من المجهول سمة تضاف إلى سمات المناخ العام وتغلف النفوس والعلاقات جميعا .

وفيما كنت أرصد هذه السمات الرئيسية لرسائل الحكام الجدد أذكر أنني كنت أشاهد وأسجل خصالاً كانت تظهر في مقابلها على سلوكيات المواطنين ، كان بعض هذه الخصال تحقيقا مباشرا لما حملته رسائل الحكام (التخويف يثير الخوف مثلا) . وكان البعض الآخر ناتجا غير مباشر لرسائل الحكام ؛ وقد سجلت من بين ما سجلت الدهشة والحيرة المبطنة بالقلق . وأفاق الناس العابرون الأبرياء على أن الأيام المبكرة التي صفقوا فيها لظهور الدبابات والسيارات المصفحة في الشوارع قد انتهت ، وكان لسان حالهم يردد المثل الشعبي .

عندئذ راحت السكرة وجاءت الفكرة .

وعندما وصلنا إلى منتصف الخمسينيات كان الناس قد تم ترويضهم

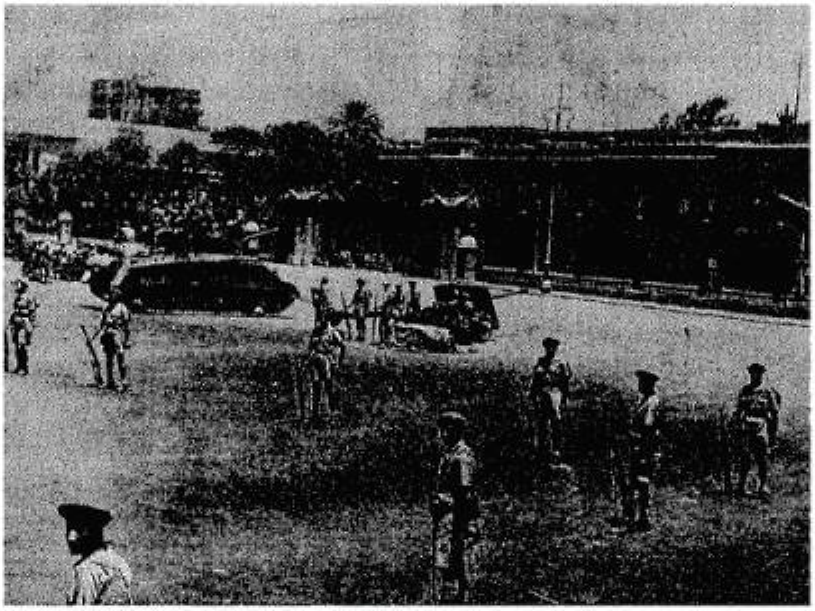
لسلامة النظام الجديد ؛ فقد عاشروه ثلاث سنوات، وتعرضوا لأحداث جسام جرت في ظله، واعتبروا هذه الأحداث عينة فيها الكفاية تهديهم إلى تكوين صيغة نفسية للتعايش من خلالها مع هذا النظام . وكان من أهم ما توصلوا إليه في شأن هذه الصيغة مسألة كيفية ممالأته كلٌ حسب موقعه واجتهاده . وكانت هذه الممالأة تأخذ أحيانا شكل الطاعة العمياء بغض النظر عن الإيمان بأي شيء وراء كل ما يقال من أسماء وما يطلق من شعارات . وأحيانا أخرى كانت الممالأة تأخذ شكل استجداء الرضا ، وأحيانا ثالثة تتجه لى المزايدة على الغير فتقدم الوشاية والافتراء والغدر .. الخ . وفي هذا السياق بدا إليّ أن هذه الصيغة التوافقية جاءت كنتيجة طبيعية للإعلام بخصائصه المرصودة مضافا إليه سير وقائع الحكم وخاصة ما كان منها يصنف تحت فئة الأحداث الجسام ، وقد عرفنا على امتداد الفترة الزمنية التي أتحدث عنها أحداثا كثيرة ، بدءاً بمحاكمة عمال المصانع في كفر الدوار . وقد وقع الاختيار في هذه المحاكمة على العاملين خميس والبقرى وصدر الحكم بإعدامهما ليؤديا دور رأس الذئب الطائر . ثم جاءت بعد ذلك وقائع الإطاحة باللواء محمد نجيب من منصب رئاسة الدولة ، وضرب رئيس مجلس الدولة داخل مجلس الدولة ، ووقائع محاكمات الاخوان المسلمين ، وطرد خمسين (أو أربعين كما قيل بعد ذلك) من أساتذة الجامعات بقرار من وزير التربية والتعليم (باسم مجلس قيادة الثورة) . في هذا المقام أرجو أن يدرك القارىء المعنى الذي قصدت إليه وأنا أخص بالذكر هذه الأحداث باعتبارها ممثلة لفئة الأحداث الجسام ، فأنا لا يعنيني في هذا المقام هوية الأشخاص الذين شاركوا في هذه الأحداث كجناة أو كضحايا رغم أن معظم الأسماء حاضرة في ذاكرتي ، لكن ما يعنيني هو ما انطوت عليه هذه الأحداث من عدوان صارخ على منظومات قيمية معينة ، تحتل مواقع بالغة الخطر في المنظومة القيمية الكبرى التي نستظل بها في مجتمعنا المصرى (فنتعامل من خلالها ، ونترابط ونتكامل بفضلها) ، وما يترتب على هذا العدوان من تداعيات فكرية ووجدانية تهون على نفوس أصحابها الانزلاق إلى الاستخفاف (ولو على مستوى التصور أولا) بكل ما يربط الفرد بالآخر في المنظومة الاجتماعية ، ثم من الاستخفاف المتصور إلى الاستهانة المنطوقة ، ومن هذه إلى مستوى الفعل في الخفاء ، ومنه إلى الفعل المصحوب بالتحدى ، ثم إلى مستوى التحريض ، ومن حصيلة ذلك كله تحدث الشقوق في بنيان المجتمع ، وإذا نحن نتكلم عن درجات من التخلخل أو التفكك الاجتماعي لا سبيل إلى درء أخطارها بأى علاج مباشر ؛ وهو ما وصلنا إليه في الوقت الحاضر . ولا يعني حديثي هذا أن كل ما نعاني منه الآن من مظاهر التخلخل الاجتماعي إنما يرجع إلى أحداث تلك الأيام التي أتناولها بشهادتي هذه . ولكن

يعنى أن تلك الأحداث أسهمت إسهامات خطيرة فى هذا الاتجاه . يوما من الأيام ينبغى لأهل الاختصاص من مواطنينا أن يكتبوا عن الإطار العلمى الذى يوضح ويفسر الصلة الوثيقة بين نظم الحكم المختلفة وأنماط الأخلاق العملية التى تسود بين المواطنين فى ظل كل منها ، ثم عما يترتب على ذلك من آثار بعيدة المدى فى منظومات القيم التى تحفظ على المجتمع تماسكه من خلال تكامله .

العالم الكبير فى أوائل الخمسينيات

كانت هناك أوجه شبه لا يمكن تجاهلها بين الخصائص العامة للمناخ السياسى الذى ساد فى مصر . وفى العالم من حولها على امتداد الخمسينيات المبكرة ، وكانت هذه التشابهات تثير تساؤلاتى : كان الالتهاب فى الداخل وفى الخارج ، وكانت الضوضاء هنا وهناك . وكان كذلك تسارع الأحداث مع أقدار من التعارض فيما بينها ، وتعالى النغمة العدوانية ، ومعاناة سواد الناس مما يمكن وصفه بأنه بطانة من الخوف الغامض نحو ما قد يتكشف عنه الغد . وكانت تساؤلاتى تدور حول مصدر هذا التشابه ، هل جرت عملية تعلم وتدريب ، فتعلّم أحد الطرفين (وهو الداخل غالبا) على يد الطرف الآخر؟ أم تعلّم الكل من المدرسة النازية وما كانت تفعله أيام الحرب ، وقد سمعت بنفسى محمد نجيب وهو يخطب ذات مرة فى ميدان الاسماعيلية (التحرير) فيضرب المثل بهتلر ونظامه . ويقول كان هتلر إذا وقف ليخطب فى الناس ساد صمت تسمع فيه رنة الإبرة . سمعت ذلك بنفسى وهو قول يوحى بالاستعداد للتعلم من النموذج المذكور ، أم أن المسألة كانت أعقد من ذلك ، فالكل كان يسهم بما تجود به قريحته والكل كان يتعلم من الكل ؟ على أية حال لم أجد بدا من إثبات هذا التشابه اللافت للنظر !.

كان العالم لا يزال يعيد ترتيب أولوياته بعد الخروج من الحرب ، وكان ترتيب الأولويات يتم فى إطار من تزايد الاستقطاب بين غرب تقوده أمريكا ، وشرق يقوده الاتحاد السوفييتى ، ولأسباب مفهومة ولا محل لمناقشتها هنا كانت أنباء القرارات والأحداث تنهمر علينا من الغرب أكثر مما تنهمر من الشرق . وبدا بوضوح أن معظم الزعامات فى العالم فى عجلة من أمرها ؛ وكنت أتساءل حينئذ : وهل الشعوب كذلك كانت فى عجلة من أمرها ؟ أم أن هذا التعجل كان مزاجا خاصا بالزعماء المتعجلين ؟ وكنت أقرب إلى الإجابة بأن التعجل كان وقفاً على الزعامات ومن لاذ بها ؛ ولماذا ؟ هل لأن هذه الزعامات كانت ترى نفسها فى حالة سباق مع معارضيها (أو أعدائها الحقيقيين أو الوهميين) ؟ أم أن المسألة تتم بصورة مغايرة لما نرى ، وأن الأتباع هم الذين يغرون الزعامات ويدفعونها دفعاً إلى هذه العجلة لأن لهم فى ذلك مآرب أخرى ؟ كانت هذه الأسئلة جميعا تدور فى ذهنى وتمتد فى مجال تطبيقاتها لتشمل الداخل والخارج .



الدبابات تحاصر قصر عابدين

وعندما كنت أولّى وجهى شطر الخارج كنت أرى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تحاول الهيمنة على كل صغيرة وكبيرة فى حياة الشعب الأمريكى وشعوب المنطقة التى يمكن أن تمتد إليها ذراعها . وقد أشاعت مفهومين محوريين للتعامل على أساسهما مع الجميع : «الأمن القومى الأمريكى» ، و«طراز الحياة الأمريكية» ؛ الأخير لضبط إيقاع الشعب الأمريكى أولا ثم شعوب العالم من بعده ، والأول لضبط الإيقاع فى دائرة النفوذ الخارجى أولا . ثم فى الدائرة الداخلية بعد ذلك . وكانت أعلى صيحة للضبط فى الداخل هى ما عرف بالصيحة المكارثية ، (نسبة إلى چون مكارثى عضو مجلس الشيوخ الأمريكى والمتزعم لحركة التحقق من صدق الولاء لطراز الحياة الأمريكية» .

أما الضبط فى الخارج فكانت له أدوات متعددة : منها ما هو خشن عنيف ، وما هو ناعم رقيق . كان فى مقدمة أدواتها الخشنة نموذج الحرب الكورية الذى ساقت إليه معظم أعضاء الأمم المتحدة ومعهم علم المنظمة ولكن تحت القيادة الأمريكية ، ومنها الأحلاف العسكرية ، وفى ذلك الوقت كانت تسوق بكل المغريات حلف بغداد (ليربط بين بغداد ، وإيران ، وباكستان، وكانت تدفع مصر دفعاً للانضمام إليه) ، ومنها الاشتراك فيما سمى بعد ذلك بالأعمال القذرة ، والمثال النموذجى لهذه الأعمال نزول الأمريكيين

أنفسهم (بقيادة كيم روزفلت) إلى الشارع الإيراني لضرب محاولة مصدق لتأميم البترول الإيراني .. الخ أما الأدوات الناعمة الرقيقة ، فمنها تصدير السلع الترفيهية التي يقرها الذوق الأمريكي الحائز للرضا ، وفي مقدمة هذه السلع مارلين مونرو للمتعة المشوبة بالجنس ، وألفيس بريزلي للمتعة المشوبة بالمخدرات وجيمس دين للمتعة المشوبة بالعنف . ولا بأس من تصدير سلع تثقيفية كذلك مثل مؤسسة الفرانكلين للطبع والنشر لأنها في نهاية الأمر سوف تمسك بمفاتيح كثيرة .

ولم تكن الرسائل الواردة من المعسكر الشرقي حينئذ تفضل رسائل الغرب كثيرا من حيث خصائص الالتهاب ، والضوضاء والعدوانية ، والتناقض ... الخ . فقد تفجرت الخلافات بين الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا واتهم تيتو بالمروق إلى اليمين عندما اختلف مع فكر ستالين ، وتمزق التحالف بين الاتحاد السوفييتي والصين ولكن دون أن تتعرض الصين للإهانات التي تعرضت لها يوغوسلافيا (وذلك عملا بمبدأ الانتهازية في العلاقات الدولية الذي لا يزال سائدا حتى يومنا هذا) ، وفي تشيكوسلوفاكيا أعلن عن اكتشاف مؤامرة سميت مؤامرة سلانسكي وصدرت أحكام بالإعدام على من اعتبروا متآمرين ، وفي الاتحاد السوفييتي أعلن عن اكتشاف مؤامرة شارك فيها أكثر من عشرة من الأطباء اليهود ، وبعد أربعة شهور أعلنت براءتهم ، وفي هذه الأثناء كان ستالين قد توفي وتولى بعده نيكيتا خروشتشيف السكرتارية العامة للحزب . وبعد بضعة شهور أعلن عن تجريم بيريا رئيس المخابرات السوفيتية وتم إعدامه في ديسمبر سنة ١٩٥٣ . ثم بعد قليل أعلن عن زيارة خروشتشيف ليوغوسلافيا ورد الاعتبار إلى زعيمها تيتو .

أما بعد

فهكذا كانت الرسائل الواردة من الغرب والشرق ، في تلك الفترة ، تنطق كلها بخصائص المناخ السياسي الذي ساد العالم : الالتهاب ، والضوضاء ، والتناقض ، والعدوانية وبث الخوف المبهم في نفوس الناس البسطاء ، الذين يشعرون بما يجري حولهم ، ولكن لا يفهمون لماذا . وكذلك كانت الأمور تجري في مصر في الفترة نفسها ، والبسطاء بسطاء في كل مكان ، يشعرون ولكن لا يفهمون .

ومع الاقتراب من منتصف الخمسينيات بدأت الدعوة إلى «الحياد الإيجابي» في السياسة العالمية ، بدأت بصوت خفيض ، لكنه ينطوي على قدر معقول من الحكمة ، وبدأت أصداء هذا الصوت تتردد عندنا في مصر . وفي ذلك الوقت كنت قد أنجزت رسالة الدكتوراه ، ورأيت رغم جنون العالم من حولي ، ووقوفا في وجه هذا الجنون ، أن أدبر للسفر إلى أحد مراكز العلم المتقدم في الخارج لأرقى بعلمي وأؤدي رسالتي .

أنت والهلال

خطابات كثيرة تلقيناها من أصدقاء الهلال... تتناول بالتعقيب مقالات نشرت فى أعداد إبريل ومايو ويونيه من هذا العام، وكل يتناول موضوعا أعجبه، أو معلقا على ماجاء به.. وهذا التفاعل من جانب قراء الهلال يجعلنا نبذل المزيد من الجهد لنحقق الهدف المنشود.

اكتشاف الموسيقى فى العصر الفرعونى

يقول عادل شافعي الخطيب: بعد قراءتي للموضوع الذى كتبه د. فتحى صالح فى عدد يونيه الماضى..

إذا كانت التجربة التى تحدث عنها د. فتحى صالح قد أثبتت أن الموسيقى الفرعونية قد استخدمت الربع تون، فمن باب أولى أن تكون قد عرفت أيضا النصف تون.

وإذا كانت بعض الرسومات والنقوش على الآثار المصرية توضح أن المغنين الفراعنة كانوا يضعون أيديهم على آذانهم أثناء الغناء، فإن هذا قد يعطى مؤشرا بأن الموسيقى الفرعونية قد عرفت الموال أيضا، وبهذا تسقط المقولة التى تنكر أن البرامكة هم أول من تغنوا بالموال.

وإن وجود حضارة متقدمة فى عصر من العصور، يعد دليلا على وجود موسيقى راقية.

وتأكلون التراث أكلا لما

يعلق نبيل عبدالرحمن دربك على مقال الدكتور محمد رجب البيومى المنشور فى عدد مايو، وأرسل رسالتين فى هذا الصدد بقوله: إذا كان الهدف من اتخاذ هذا العنوان «وتأكلون التراث أكلا لما» هو الاستعارة أو الاقتباس من الأسلوب القرآنى، فيجب ألا توضع الآية كاملة، وإنما يحذف منها كلمة أو حرف لتكون مثلا «تأكلون التراث أكلا لما» فحذف حرف الواو وحده يخرج العبارة عن كونها قرآنا، ذلك لأن التأويل الصحيح يقع عندما يظهر فى كلام الله تعالى معنى، يستحيل أن يكون مرادا لله عز وجل، مثل قوله تعالى: «أمرنا مترفيها ففسقوا فيها» ولأن الله تعالى لا يأمر بالفسق، لذا يجب صرف المعنى فى (أمرْنا) إلى أحد مجازات الكلمة وهو «أكثرنا عددهم».

عدد رائع

ويتناول فيصل حجاج عدد مايو ٢٠٠٠ مشيرا إلى إعجابه بموضوع التغريب في الجزائر، وأنه حقق لديه متعة وإضافة إلى معارفه ، كما أشاد بالجزء الخاص عن العالم د. رشدي سعيد، ولأن فيصل يعمل مذيعا بإذاعة الإسكندرية، فقد قال إنه سوف يتناول شخصية د. رشدي سعيد من خلال برنامجه الإذاعي «لمسة وفاء» وفي حلقة خاصة.

ولم ينس أن يتحدث عن مقال الزميلة الأستاذة صافي ناز كاظم ، وماكتبته عن الشاعر الرقيق محمد إبراهيم أبو سنة ، ومقال د. رجب البيومي «من واقعنا الثقافي» ، وأيضا مقال د. عبداللطيف عبدالحليم ، والشاعر اليمني درهم الجباري، واختتم رسالته بقوله: أتمنى للهلال، منبع الثقافة الأصيلة في العالم العربي أن تزداد نجاحا على نجاحها، وأن تظل تمتعنا على الدوام بما تقدمه من ثقافة رفيعة.

وليمة لأعشاب البحر

ومن المنشأة ـ سوهاج ـ قال الصديق قدري صابر توفيق: أين الهلال من هذه المعركة الثقافية حول «رواية حيدر حيدر :وليمة لأعشاب البحر»..

وردا على هذا التساؤل نرجو من الصديق أن يقرأ افتتاحية الهلال عدد يونيو الماضي، وفي كلمات محددة جاء رأي الهلال التي ترفض أن نعود إلى «تفكيك ثقافتنا الوطنية والنيل منها، فلا يمكن لأحد أن يتخيل أن مجموعة شديدة التعصب تعتنق مناطق التفتيش، وتتصور أنها وحدها تملك الحقيقة، وتجعل من نفسها حكما على الإنتاج الأدبي والفني، وتستبدل الإرهاب الفكري بالحوار الهادئ، وكأننا نعود سريعا إلى عصر الدجالين والجهلاء، ونفتش في تلافيف العقل والضمير».

ونؤكد للصديق أننا نكن الحب والتقدير لكل الكتاب الذين يرشحهم للكتابة في الهلال، وفي مقدمتهم الصديق الكبير الدكتور حسن فتح الباب.

●● إلى عبدالحميد الصراف ـ أحد مشتركي مجلة الهلال والذي يعيش في كاردف ـ ويلز ـ المملكة المتحدة.

ملاحظتك مهمة للغاية، ولكننا في «الهلال» نشير أحيانا إلى بعض التجاوزات التي تطلقها بعض الشخصيات، لكي نتوقف عندها ونحترس مما يحاك ضدنا في الظلام، أو في العلن، ومن هذا المنطلق نشرنا رأي مادلين أولبرايت، والتي تزعم أن العالم في حاجة إلى زعامة الاستعمار الجديد!.

نشيد مصر

نخيل جنب شطآن ونيل يروى ظمآن
وورد فاتح اللون ونرجس حلو وسنان
وبستان كما الجنة وعصفور وكروان
وأمواج لنا تهتف فلا عيش لكسلان
فأبنائى لهم مجد لهم فضل وإحسان
وأهرام حضارات لها الأديان بنيان
وعلم ذاخر يجرى يسرى بين وديان
فأزهرنا لنا يشهد لنا ينطق بعرفان
فكم ضاء من الدنيا وكم جاهدت طغيان
لك الأخلاق باقية ومجدك عالى الشان
فما يسبقه أمجاد وماينساه إنسان

أحمد نادى بهلول
ديروط - نادى الأدب

هل يمكن إنتاج العباقرة ؟

العباقرة لايصنعون، بل يبرزون بإرادتهم الذاتية ، والمجتمع قد يحميهم ويشجعهم وقد يهدمهم أيضا .. وبذلك يكون المستفيد الأول من وجودهم كما يكون الخاسر الأكبر عند فشل ظهورهم، فليس العبرة باختيار مجموعات من البشر على أمل اكتشاف وتنمية العباقرة، فذلك تبذير كبير ورعاية زائدة في غير فائدة، وقد يدخلها تحيز فى غير موضعه.

كما وأن هؤلاء المختارين حتما يصيبهم الغرور، والعبرة تكون برعاية التعليم ككل وليس رعاية مجموعات بعينها، والأهم هو الاتجاه إلى إصلاح ردود أفعال المجتمع بجميع عناصره وطوائفه الإدارية والتعليمية والإعلامية والمجتمعية.

وعندما يقل صراع العباقرة مع مجتمعهم، تتاح الفرصة لأكبر عدد منهم فى

النجاح بإنتاجهم، وبدلا من ظهور عدد محدود لا يجدون الفرصة أمامهم وحولهم ويفزعون عدوا إلى مجتمعات أخرى خارجية ، تكون صالحة لنمو أفكارهم ولتحقيق طموحاتهم، تكون أعداد النوابغ فى ازدياد وتكون أسرع ظهورا فى مجتمعنا.

فإنهم فى الواقع عدة المستقبل، ونتاجهم الفكرى والتطبيقى يثرى المجتمع ويعود على أفراده بالخير والرفاهية..

مهندس/ رستم غالب عباس
صديق الهلال

وحدة الأرض

زغردى واسعدى بكل الأماسى ... واملئى الأرض بهجة ياحواسى
فأنا اليوم أحتفى ببلادى ... وبلادى جديرة بحماسى
قد يكون البعاد عنها مريرا ... وعذابا، وإنما لست آسى
فهى فى خلد مهجتى حيث كنت ... وهواها يدوم عزى وبأسى
تلك أرضى حملتها فى جنانى ... رسخت فيه كالجبال الرواسى

★★★

هيه ياناظر العيون لكم ذا ... ذبت من هجرك وكم كان قاسى
ولكم زقزقت عصافير قلبى ... حينما التم شمل أهلى وناسى
موطن العرب كان يحلم فيها ... فى للجمع والوئام الأساسى

درهم جبارى
سان فرانسيسكو - كاليفورنيا

الرواية البوليسية .. والأدب الرفيع

لكل من الرواية البوليسية والرواية الأدبية صفاتها وخصائصها الخاصة التى تحدد قيمتها، فنجد أن القيمة الأدبية بينهما مختلفة اختلافا كبيرا.. فبينما للرواية البوليسية قيمتها الأدبية المتواضعة، نجد أن الرواية الأدبية على العكس من ذلك، فهى ذات قيمة

أدبية وفنية عالية، وقد تصل إلى مستوى «الأدب الرفيع» فى بعض الأحيان، وهناك مفارقة غريبة، فمن بين مؤلفى الروايات البوليسية من حقق شهرة ومجدا وصيتا ومالا لم يحققه أى كاتب روائى عالمى، ويتجلى هذا فى أعمال «سير آرثر كونان دويل» مبتكر شخصية مفتش المباحث «شرلوك هولمز» الذى كتب مئات الروايات البوليسية التى ترجمت إلى كل لغات العالم تقريبا، ومايطبق عليه وعلى أعماله ينطبق على الروائية البوليسية البريطانية «أجاثا كريستى» وعلى أعمالها أيضا، ثم المؤلف والمخرج السينمائى والتليفزيونى الأمريكى الجنسية البريطانى الأصل «ألفريد هيتشكوك».. ومن الملاحظ أن هناك من بين كتاب الرواية الأدبية كتاب اتسمت بعض رواياتهم بطابع بوليسى، أذكر منهم: الجريمة والعقاب لديستويفسكى، والقاضى وجلاده للكاتب السويسرى فريدريش دورنمات ..

والرواية الأدبية دائما ماتكون موضع المحافظة عليها ممن يقرؤنها، ويرجع الفرق فى القيمة الأدبية والتراثية بين الرواية البوليسية والرواية الأدبية إلى عاملين:

١ ـ تعتمد الرواية الأدبية على عرض فكرة أو أفكار إنسانية بين طياتها، بينما لايتوافر هذا الركن فى الرواية البوليسية؛ حيث يقتصر السرد والوصف والحوار على مايخدم فنية العرض والحبكة الروائية فقط من حيث إبراز العقدة أو اللغز أو التوصل إلى كشفه.

٢ – ويستتبع هذا بالضرورة أن يكون هناك فرق فى كيفية استخدام الألفاظ.

يحيى محمود حسين

القاهرة ـ مصرالجديدة

عندما يفوح الكبرياء

يازهرة المروج كم سقاك نهر من ضياء
خلناك فى الربا خمائلا تفوح بالنماء
عشنا على ذكراك نهفو بالأمانى والغناء
نذوب شوقا فى المدى بين النسيم والرجاء
راح الندى يغشى غصونا آلمته بازدراء
ثم ارتوى أطياف عشق بالمنى وبالحياء
ماذا أقول، إن طيوفى عاتبتنى فى جفاء؟!

عن الرؤى، عن الصبا، عن الحنين والصفاء
ماذا أقص للفراش حين يدنو للمساء؟!
عن أغنيات احتوتنا بالجوى عند اللقاء
إن اللحون عاودتنى باللهيب والنداء
مهما أشحت العطر عني ـ مهجتى ـ فى كبرياء
دوما سأسخو فى الظماء أنهار فيض بالبهاء
دوما سأرقب الصدى ـ صبابة ـ بلا انتهاء.

عبدالناصر أحمد الجوهرى
نادى أدب المنصورة

قصة قصيرة

عبور

أسرع يمد الخطى.. يخترق الصفوف.. يتفحص أوجه المارة.. يبحث عنها.. لقد اعتادت المرور من هنا..

الساعة تقترب من الثانية ظهرا.. حان موعد عودتها.. تسارع خفقان قلبه.. بدا عليه الارتباك.. تأهب لمقابلتها.. بدأ يحادث نفسه:

ـ هذه المرة سأكون شجاعا.. سأتحدث إليها أو أخبرها بمقدار حبى لها وإعجابى بها.. لا.. لا.. لن أقول هذا من المرة الأولى.. نظرة.. فابتسامة.. سأكتفى اليوم بلفت نظرها.. لكن.. أين هى؟!.. لم لم تظهر بعد؟!.. لقد تأخرت.. أأكون وصلت بعد فوات الأوان؟!.. كلا.. مايزال الوقت مبكرا.. قد تكون مريضة..!

أيقظه مما هو فيه صوت بائع الصحف.. الناس ملتفون حوله.. يرمقونه بنظرات غريبة كما لو أصابه مس من الجنون.

سمع كلمات متطايرة لم يتبين صاحبها:

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله.. يامثبت العقل والدين.

اشترى صحيفة.. شرع فى تقليب صفحاتها متظاهرا بالانشغال بها.. وعيناه مركزتان على الطريق.. اشتدت الحرارة.. العرق يتصبب على وجهه.. أحس مشاعره تسيح فى هذا القيظ وتنساب أمامه..

ـ ماذا حدث لها؟!..

تعب من الوقوف .. مل الانتظار.. شعر أن قدميه قد تصلبتا.. افترش الصحيفة.. وجلس يرقب المارة موزعا نظراته بين الطريق وعقارب الساعة.

ـ لماذا لم تأت بعد؟!.. هل حلت عليها اللعنة؟!..

تنبه فجأة إلى طفل يمد يده إليه.. حدق فيه بدهشة.. قال الصغير:

ـ لو كنت أملك غيرها لأعطيتك أكثر.

صرخ فى وجه الصبى صرخة أفزعته:

ـ ما هذا اليوم الملىء بالحمقى والمجانين؟!..

نهض.. نثر الغبار عن ملابسه ، اندفع نحو الشارع على غير هدى.. فتح عينيه.. الدم يسيل من رأسه.. أحدهم يقول:

ـ أنا آسف.. لم أنتبه أثناء عبورك الشارع.

تبادر إلى سمعه فى تلك اللحظة.. صوت أنثوى رقيق:

ـ دعنا نذهب به إلى المستشفى ياحبيبى..

نظر باتجاه الصوت.. وفى السيارة كانت المفاجأة!!

عادل فرج عبدالعال
كفرشكر

أحبك حبا يفوق احتمالى ... أحبك حبا بعيد المدى
ومهما أخضب ليلى خشوعا ... تضيع ابتهالات ليلى سدى
ومهما قطفت النجوم السهارى ... وسحب الأمانى وغيث الندى
وسقت حنينى إلى منتهاكا ... وسقت أنينى إلى المبتدا
وأترعت كأسى بلحن هواك ... وأبدلت نفسى ضلالا هدى

إيمان محمد العطيفى
الشيخ شبل ـ المراغة ـ سوهاج

توصيات مهمة لمجمع اللغة العربية

جاء من بين توصيات مؤتمر المجمع اللغوى فى دورته الأخيرة ، العناية بتعليم اللغة العربية واللغات الأجنبية فى التعليم الجامعى والعالى وفى جميع مراحل التعليم.

كما رحب المؤتمر بالمنهجية التى أعدها اتحاد المجامع اللغوية، لصوغ المصطلحات العلمية بالفصحى.

وأن تضبط كتب التعليم جميعا بالشكل الدقيق، حتى ترسخ الفصحى ونطقها السليم فى نفوس الطلاب.

وأن يستحدث المجمع لجنة للغة والإعلام، تكون مهمتها الأساسية متابعة ما يذاع من البرامج والمسلسلات والنشرات، وتسجيل أخطائها وتصحيحها والتعليق اللغوى عليها، حفاظا على الفصحى فى ألسنة الإذاعتين «التليفزيون والإذاعة» وحماية لها من التحريفات.

اشتعال قلب

وردتى قلبى أسيـر فى جـواه
كم تلظى فى بواكيـر صبـاه
كـان عصفـورا يغنى فى ضلوعى
ثم أمسى نائحـا خـارت قـواه
لم يدع فى الأرض شبـرا دون شجـو
تائهـا يرنو إلى شط النجـاة
قـد تناسى كل حب لايبـالى
أن جـرح القلب يغتـال الحيـاة
هكذا الإنسـان فى الدنيـا ضليـلا
لايرى إلا سـرابا فى فـلاه

حاتم عبدالمحسن غيث
طلخا

الكلمة الأخيرة



النساء يغزلن السلام

فـــوزية مـــهـــران

أعظم تجمع للنساء فى التاريخ وقع فى المؤتمر الرابع للمرأة فى بيجين ١٩٩٥.
قالت «جيرترود مونجيلا» سكرتير عام المؤتمر «ها نحن أخيرا.معا»
– جئنا من كل بقاع العالم – ركبنا البحر والطائرة والقطار لنكون معا – ربما نتكلم لغات شتى – نعيش فى نظم اجتماعية وسياسية وثقافية مختلفة ومع ذلك – لسنا هنا لنفسح مجال الخلاف – ولكن لنتبادل التجارب والخبرات ولننظر فيما لدينا والمشترك بيننا – نحاول أن نزيح المعوقات – نسمع صوتنا للعالم .. ونعمل من أجل تحقيق «المساواة – التطور – السلام» وهو شعار المؤتمر .

– كانت رسالة المؤتمر حقا ضرورة أن يعيش الإنسان بكرامة وتوافق وسلام. معناه عزم النساء على التضامن والمساندة وتوحيد الجهود والعمل لإنقاذ العالم – والقضاء على كل أشكال التمييز ضد المرأة .. وضرورة مشاركتها فى تقرير مصير الحياة .

قضية المرأة هى قضية شعوب وحرية وحقوق الإنسان. قضية الأغلبية الصامتة التى تساق إلى مآسى الحروب والقتال والعذاب والفقر والاستغلال .

نعرف أن الطريق طويل وعسير لكن أشواق الحرية والعدل والتقدم لاتخبو أبدا – والمؤتمر فرصة لتوحيد الجهود، ولدفع قوى جديدة ورؤية حديثة وخلق أسباب أفضل للحوار والتفاهم وصياغة العالم .

أسفر المؤتمر عن قوة جديدة فى العالم – قوة النساء.
(ليست قوة ضاغطة بل فاعلة ودافعة) قوة دفع إلى الأمام.. تنطلق من أجل عالم أفضل للجميع .

كان مشهدا فريدا والنساء يحملن شريطا من قطع السجاد – أحكمت خياطتها معا – لوحات حية ومن التراث صنعت على أعين النساء ومن خلال هدهدة الصغار – نسيج حب وإتقان وجمال وإيمان – النساء يغزلن حنايا العالم معا .

مسيرة طويلة جديدة تعلن أن بإمكاننا تدفئة العالم ولف الأرض بدعائم الاستقرار والأمان .

يرتفع الغناء للسلام – موثق النظر بقوة إلى أمام – تصاعد الترتيل والنشيد مع موسيقى بتهوفن وحلقت الآمال .

وجاءت دورة الجمعية العامة الاستثنائية – نيويورك ٢٠٠٠ لمتابعة تنفيذ مؤتمر بيجين.
يعلن كوفى عنان أن قضية المرأة ترتبط بكل قضايا الأمم المتحدة وتتداخل فيها – وأن للمرأة دورا أساسيا لتحقيق السلام والأمن وحقوق الإنسان.

هيا نساء العالم – توجهن إلى منطقة القلب – إلى الشرق الأوسط – من هنا نبدأ – لنقيم السلام «الحقيقى» وكرامة الإنسان .

مصر للطيران

بمناسبة موسم الصيف

تعلن عن رحلاتها المنتظمة

من الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط

إلى الدول العربية واليونان



- الإسكندرية / جدة
  يومياً عدا السبت
- الإسكندرية / الرياض
  الخميس
- الإسكندرية / الظهران
  الخميس
- الإسكندرية / الكويت
  الاثنين - الثلاثاء - الأربعاء - الخميس
- الإسكندرية / أبوظبي
  الثلاثاء
- الإسكندرية / العين
  الثلاثاء
- الإسكندرية / دبي
  الاربعاء
- الإسكندرية / البحرين
  الخميس
- الإسكندرية / الدوحة
  الخميس و الاثنين
- الإسكندرية / مسقط
  الاربعاء
- الإسكندرية / دمشق
  الثلاثاء
- الإسكندرية / بيروت
  الاربعاء
- الإسكندرية / أثينا
  الأربعاء و السبت

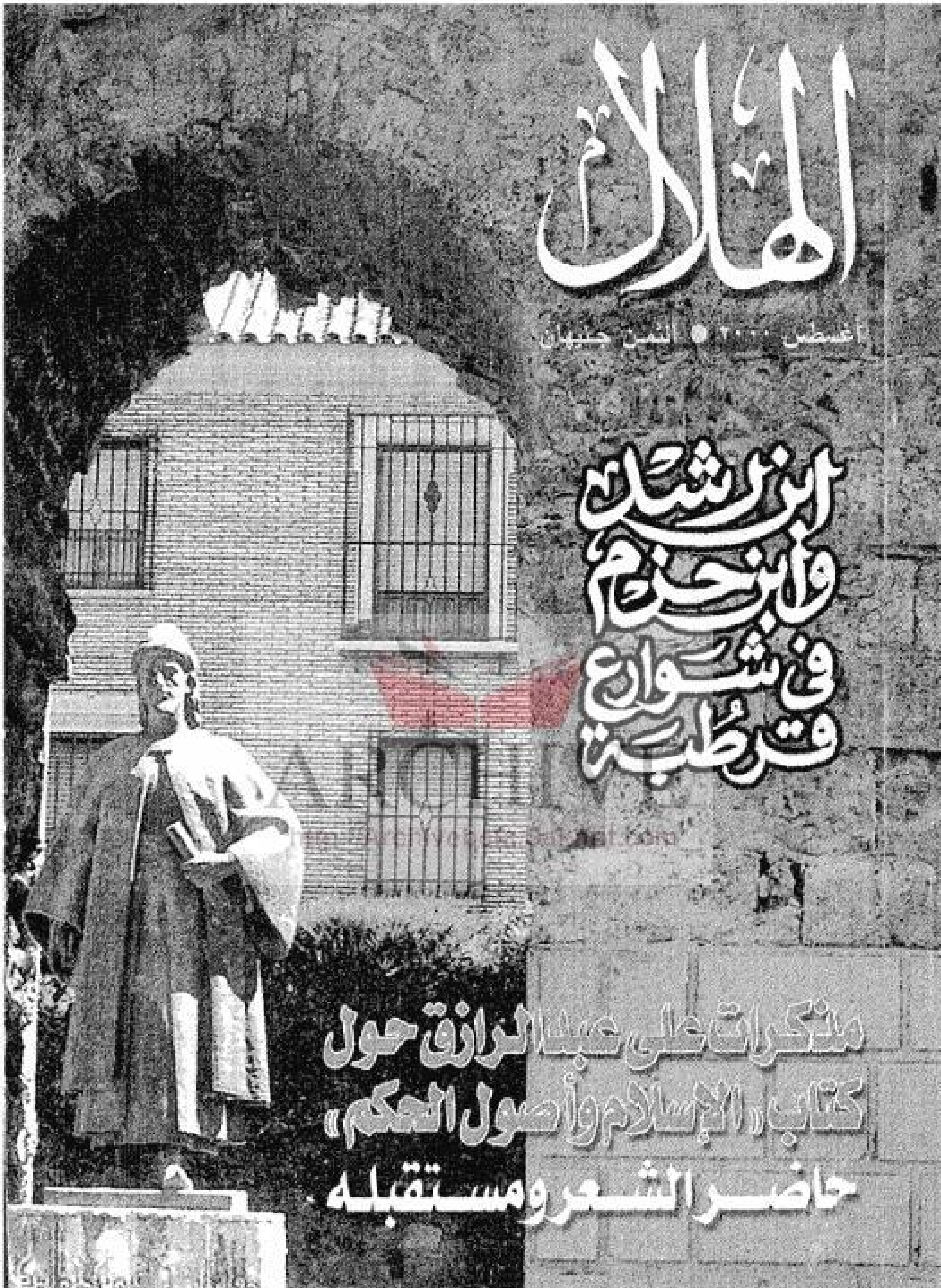
مصر للطيران

ترحب بكم

للحجز والاستعلام مكاتب مصر للطيران بالاسكندرية
- مكتب جليم ت : ٥٨٢٥٤٢٤ - ٥٨٢٥٤٦١
- مكتب الرمل ت : ٨/٤٨٢٥٩٣٧ - ٤٨٢٠٧٧٨
- مكتب النزهة ت : ٤٢٥٠٩٨٤/٨٥/٨٦



روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة


الهلال
أغسطس ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان
ابن رشد وابن حزم في شوارع قرطبة
مذكرات علي عبد الرازق حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم»
حاضر الشعر ومستقبله


باقتنائك شهادات إدخار بنك مصر الدولارية
والتى تبدأ من ٥٠٠ دولار أمريكى
قد تكون سعيد الحظ وتفوز بجائزة السحب وقيمتها
٦٠٠٠٠ دولار أمريكى
مرتان فى العام (شهرى فبراير - أغسطس)
و ١٠٠٠٠ دولار أمريكى
باقى الشهور من كل عام
بالإضافة إلى المزايا التالية
■ العائد المجزى الذى يحدده البنك طبقا للأسعار العالمية
■ إمكانية شراء الشهادات من أى فرع لبنك مصر دون أى عمولات أو مصروفات
■ إمكانية الإقتراض بضمانها بشروط ميسرة
■ إمكانية استرداد قيمتها فى أى وقت دون أى خصم
الدولارية ... شهادة جمعت كل المزايا
بنك مصر
هكذا يكون البنك

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢
العام الثامن بعد المائة

أغسطس ٢٠٠٠م ● جماد أول ١٤٢١ هـ

هذا العدد



تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب

فكر وثقافة

حاضر الشعر ومستقبله

جوائز الدولة

فنون

القصة

دائرة حوار

التكوين

الأبــواب الثــابتة

مازالوا يحجبون الجوائز!

عزيزي القارئ ...

فى كل عام تثور مشكلات كثيرة حول جوائز الدولة، وتكثر الشائعات والأقاويل قبل اعلان أسماء الفائزين بالجوائز، وكأنها مباراة محتدمة بين مثقفى مصر وفنانيها ومفكريها، والذين يتوقف ابداعهم فى هذه الفترة من كل عام، وربما قبلها بعدة شهور فى انتظار الحصول على الجائزة، وكأنها جواز المرور، أو شهادة ميلاد تثبت فعلا أنهم أدباء أو فنانون يشار اليهم بالبنان .

ففى الوقت الذى تعمل فيه اللجان بالمجلس الأعلى للثقافة كانت التصريحات تملأ الأسماع، حول من يستحق أو لا يستحق الجائزة، وتبدأ حيثيات الجدارة بها تنطلق من هنا وهناك تشايع هذا الأديب أو الناقد أو الفنان، وتخرج التكهنات التى توضح الصراع بين هذا الأديب، أو ذاك الكاتب، ومن الذى ينبغى أن يفوز؟!

فبعض الناس يجرون وراء الجوائز، وبعضهم الآخر تجرى الجوائز خلفه، وهو الذى يستحق منا التقدير والاحترام، لأن العبرة بالعطاء.

ولا ندرى الى متى يحدث ذلك؟!.. فمنذ بدايات الجائزة فى عام ١٩٥٩ وحتى الآن، لا يمر عام بدون أن تحدث هذه الضجة الكبرى! بدءا من ترشيحات الوزراء والحصول على الجائزة ومرورا باعتصام الأدباء داخل المجلس الأعلى للثقافة، احتجاجا على عدم حصولهم على الجائزة، بعد أن تسربت أقاويل من هنا وهناك حول التصويت، والانتصار لأديب دون آخر!

ونتوقف هنا طويلا لنتساءل : كيف لا يحصل الدكتور شوقى ضيف بكل انتاجه الضخم الأدبى والفكرى واللغوى على الجائزة، وكيف لا يعاد الاقتراع مرة ومرات، اذا كان هناك تعادل فى الأصوات مع منافسيه؟!

وعلى الرغم من أن الدكتور ضيف لم يعلق على ماحدث، لأنه لا ينتظر هذه الجوائز ،

الا أن هناك علامة استفهام أمام هذا الموقف الجائر والغريب لواحد من أكبر مفكرى هذه الأمة فى الأدب واللغة، وراجعوا انتاجه الأدبى ان كنتم لا تعلمون!

صحيح أن من فاز بالجائزة يستحقها ونبارك له، ومن فاته الدور، فلينتظر، ولكن يثور سؤال محير بحجب عدد كبير من الجوائز لم ينل عنها أحد الجائزة ولا ندرى سببا لذلك فقد حجبت جائزة مبارك للآداب، وكان مرشحا لها ثلاثة، وحجبت جائزة مبارك فى العلوم الاجتماعية، وكان مرشحا لها ١١ شخصا، وفى جوائز الدولة التقديرية حجبت جائزتان كما تم حجب ١٩ جائزة من جوائز الدولة التشجيعية.

فلماذا تحجب جوائز الدولة فى عام عن متسابق، وتعطى له فى عام آخر؟!

لاشك أن جهودا كثيرة تبذل من خلال اللجان، لكن لا ينبغى أن ننتظر كل عام هذا الكم الكبير من الغموض حول حجب الجوائز، أو ابتعاد من يستحقها بحجج غير موضوعية، ولابد من لجنة عليا تُشكّل للاشراف على أعمال هذه اللجان، لتقوم بالتحكيم فيما يصادف اللجان من معوقات، بحيث يحصل كل أديب أو فنان أو كاتب مبدع على حقه .

لقد كانت مصر تعانى من ضعف قيمة الجائزة المادية وانصرف أدباء مصر الى جوائز أغنياء العرب، وانتظرنا طويلا الى الوقت الذى يجد فيه الأديب المصرى التكريم من بلده أولا، وبالفعل وصلت قيمة الجائزة الى المستوى المعقول، وبدأنا نسترد ما ضاع منا لسنوات طويلة، وعادت الثقة من جديد فى تقدير المبدعين.

والآن بقى أن نعيد النظر فى اعطاء كل ذى حق حقه، حتى لا يشعر مبدع أو أديب خلاق أضاع عمره فى البحث والابداع.. وفى النهاية لم ينصفه الآخرون!!

وفى هذا العدد نقدم بعض الشخصيات التى كرمت بالحصول على الجائزة، كما نعتذر عن عدم تقديم كل الفائزين، مع كل الأمنيات والتهنئة لأدبائنا وفنانينا الكبار .

المحـــــرر

الإسلام وأصول الحكم

ومذكرات الشيخ على عبدالرازق

بقلم : السفير/ ممدوح عبد الرازق

لأول مرة تظهر مذكرات الشيخ على عبد الرازق حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ، وتكشف الظروف والملابسات التي كتب فيها الكتاب ، يقدمها ابن أخيه السفير ممدوح عبد الرازق .

إن موقعى من المؤلف على عبد الرازق يجمع بين موقع الابن من أبيه وموقع الطالب من أستاذه ومربيه فى الوقت نفسه، وتأصيل ذلك أن أبى مصطفى عبد الرازق رحمه الله توفى ولم أجاوز من العمر خمسة عشر ربيعا، فكفلنى وأخوتى شقيقه على عبدالرازق فنشأنا فى كنفه لا يفرق بيننا وبين أولاده وبناته شىء فى المعاملة أو القرب منه أشد الاقتراب، حتى أننا لا يمر بخاطرنا إلى اليوم ذكر الوالدين طيب الله ثراهما ، وما أكثر ما يمر، إلا وترحمنا على مصطفى وعلى معا، فكلاهما ، وقد كانا أشقاء بالروح فوق رابطة الأخوة، له فى تنشئتنا ، وفى أدق مراحل التكوين ، أثر ونصيب وفضل غير منكور.

ولا أدعى أن فى ذلك وحده ما يرفعنى دون غيرى درجات إلى مرتبة الأهلية لتقديم كتاب لا أحسبنى مبالغا إذا عددته من بين العلامات البارزة على طريق تطور الفكر العربى والإسلامى، إلا وأن يكون لدى جديد، فى المنهج والمضمون جميعا يمكن أن يضيف إلى مغزى إعادة طبع الكتاب فى شكل وإخراج يتناسب ومرور خمسة وسبعين عاما كاملة على صدور طبعته الأولى.

ولا أعد نفسى فى موقف الدفاع عن أحد ولا المواجهة مع أحد، فلم تكن هناك فى الحقيقة معركة أصلا بين على عبد الرازق وكتابه «الاسلام وأصول الحكم» وبين أحد إلاّ الذين كان يهمهم لاعتبارات سياسية ودنيوية خالصة - كما سنبين فيما بعد - أن يدعموا عروشهم بسلطان الدين تحسبا لتداعيات حركة التحرر الوطنى والتى كانت نذرها قد بدأت وبدايات القرن العشرين، ولجأوا فى سبيل ذلك، وبالتحديد من أيام الخديو عباس حلمى الثانى إلى تشديد قبضتهم على الأزهر وخنق أية حركة للإصلاح والتجديد داخله مثل تلك التى قادها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأبناء مدرسته من بعده، ومن بينهم الشقيقان مصطفى وعلى عبدالرازق.

وقد كان المؤلف ذاته واعيا منذ صدور كتابه إلى هذه النوعية من القراء التى سوف يستشكل عليها فهم حقيقة أن هذا


الشيخ على عبدالرازق

الكتاب المحدود فى عدد صفحاته مثل السهم النافذ الموجه إلى هدف معين فى توقيت معين، ولهذا نجده يكتب فى مقدمة الكتاب «بل قد أكون اكتفيت أحيانا بإشارات ربما خفيت على صنف من القارئين جهتها، وبتلويحات قد تفوتهم دلالاتها، وبكنايات توشك أن تسير عليهم ألغازا، وبمجاز ربما حسبوه حقيقة وحقيقة ربما حسبوها مجازا».

ولا أريد أن أوحي للقارىء منذ الآن بما أريده أن يستخلصه بنفسه ولنفسه عن مرامى الحملة التى واجهت كتاب «الإسلام وأصول الحكم» والمؤلف وقت صدوره، وعما إذا كانت بتدبير سياسي ومن عساه كان وراء هذا التدبير والذى ربما يتضح بشكل أكبر مما خطه المؤلف رحمه الله بيده بعد مرور السنين فى وريقات لم تكتمل ولم تنشر ومن السهل حساب تاريخها من مقدمتها ذاتها فيقول:

«ظهر هذا الكتاب منذ نيف وثلاثين عاما، وكان الجزء الذى صدر منه مختصا بالبحث فى الخلافة والحكومة فى الإسلام.

وذلك بحث يبدو لأكثر الناس أنه متصل بالإسلام من قرب فى عقيدته وشريعته ، وهو مع ذلك يتصل اتصالا وثيقا بالسياسة ونظام الحكم.

وكثير من الناس فى كل عصر وكل دولة قد نصبوا أنفسهم خداما لسلطان السياسة وسلطان الدين، وقد ظن أولئك وأشباههم أنهم قد وقعوا من هذا الكتاب على مكان دعوة تهدد كلا من الدين والسياسة بخطر كبير وشر مستطير فهبوا يستصرخون المسلمين إلى محاذر هذا الكتاب وما به من دعوة ضد الدين ترمى إلى نسف بنانه وتضليل أبنائه.

ولتفصيل ما أورده المؤلف مجملا فى الفقرة السابقة لجأت إلى بعض ما قيده من مذكرات عن هذه الفترة وبتاريخ السبت ١٩٢٥/٦/١٠ حيث يكتب «كان الهجوم قويا لم يترك مدبروه ثغرة يمكن مدافعتهم منها بل أحكموه إحكاما ونشطوا فى إمداده بكل أنواع الحيلة ووسائل الرغبة والرهبة حتى خشى معارفنا أن يزورونا فى البيت وصاروا يحسبون الاقتراب منا أو من البيت عصيانا للملك وخروجا عليه».

ثم هو يضيف بتفصيل ووضوح أكثر «وما كان الهيجون ليفعلوا بعض الذى فعلوا لولا أن الملك فؤاد أراد ذلك فأمرهم عن طريق حسن نشأت باشا ففعلوا».

وكذلك أراد الملك أن تتحرك العامة ضدى فاندس من العلماء بينهم من يحرضهم على كتابة التلغرافات للجرائد فظهرت المطالبات بمصادرة الكتاب ومحاكمتى .

وسوف نحاول أن نوضح الصورة أكثر أمام القارىء المعاصر وسوف نلجأ فى سبيل ذلك إلى ما لم ينشر من قبل من مذكرات شخصية لا نعتمد على ما جاء بها لولا أننا مطمئنون إلى ثقة هؤلاء الذين مازالوا يعرفون أقدار الرجال، فى صدق ومصداقية من تركوها وراءهم ، شاهدا

على العصر بوقائعه وأشخاصه.

وبما أن شخصية الأمير أحمد فؤاد ، سلطان مصر منذ ١٩١٧، ثم أول ملوكها في العصر الحديث وبعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي استردت به مصر أهليتها الدولية واستقلالها وإن كان منقوصا يومئذ، تبدو الشخصية المحورية فيما جرى حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم» سواء فيما خطه قلم المؤلف نفسه تسجيلا لوقائع هذه الفترة أو ما كتبه عنها غيره في مراحل لاحقة وهو مازال متصلا وكثيرا، فسنحاول أن نتلمس ملامح هذه الشخصية ودوافعها وطموحاتها حتى قبل أن تعتلي مقعد الإمارة أو السلطنة، وسنلجأ في سبيل ذلك إلى المذكرات الشخصية لشقيق علي، مصطفى عبدالرازق والذي كانت تجمعه بالأمير علاقة طيبة منذ عام ١٩١٥ حيث ورد بالمذكرات تسجيل لأول لقاء بين الاثنين بتاريخ ١٦ أبريل ١٩١٥ فيقول: «لقينا الأمير بحفاوة وأخذ يحدثنا عن وجوه الإصلاح العلمي الذي تحتاجه البلاد حديثا طويلا، ويظهر أنه ميال إلى بعث نهضة علمية وبخاصة في الأدبيات وأنه من أنصار تحرير المرأة».

تكلم معنا أخو السلطان ساعة بلسان عربي تشوب لهجته عجمة لا تكاد تخلو منها لهجة أمير من أمرائنا، وقد لا يكون الحكم علي الأمير فؤاد ميسورا في أول زيارة لأن الزائر مضطر بحكم التقاليد أن يتجنب المناقشات ولأن المضيف يتحرى أحاديث مختارة موضوعاتها.

لكن الذي وقع في نفسي من أثر هذه الزيارة هو أنه رجل بسيط صريح فيه نشاط وعزيمة وإن كان ذا ذكاء متوسط إلاّ أنه يفهم على وجه صحيح كثيرا من حاجاتنا الاجتماعية».

أما الفقرتان التاليتان من المذكرات فهما اللتان تستحقان التوقف عندهما والتأمل في مدلولهما، بعد أن مهدنا لهما بالفقرة السابقة التي تبين نشأة العلاقة بين مصطفى عبدالرازق والأمير أحمد فؤاد.

وأولهما بتاريخ السبت ١٧ فبراير ١٩١٧، أي بعد مرور ما يقرب من عامين من نشوء هذه العلاقة، ويرد بها «رجاني الأمير فؤاد من مدة أن أعينه على جمع ملخص لما كان يدعى به للملوك والسلاطين في خطبة الجمعة في أدوار التاريخ الإسلامي وقد بحثت الموضوع وجمعت خلاصة منه، ووددت لو أني وفيت البحث بعد ذلك خدمة للتاريخ والعلم.

ثم لا تمضي سوى أيام ثم نجد بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩١٧ ما نصه «سلمت الأمير فؤاد ما جمعت من موضوع الدعاء للملوك في خطبة الجمعة وقد فهمت من حديثه معي أنه يأخذ أهبته بمثل هذا البحث للمفاوضة المنتظرة في أمر الخلافة وكأنه يأمل أن تنال مصر استقلالها فيكون واليها خليفة وأن إنجلترا سوف

تساعدها على الاستقلال فتصبح لها الخلافة ثم تنتفع (إنجلترا) باستقلالها وخلافتها».

ويعلق صاحب المذكرات «قد لا يهمنا أمر الخلافة بالقدر الذى يهم الأمير، ولكن استقلال مصر أمنية يهمنا أن نسلك إليها كل سبيل».

صاحب المذكرات صادق فيما يقول

هذا الحديث جرى قبل شهور معدودات من وفاة السلطان حسين كامل يوم ٩ أكتوبر ١٩١٧، وتولى أخيه أحمد فؤاد خلفا له فى مقعد السلطنة، ولا أحسب إلا أن صاحب المذكرات كان صادقا فيما يقوله ورغم إيجازه إلا أنه يكفى لتوضيح أن فكرة انتقال الخلافة من الأستانة إلى القاهرة كانت مختمرة فى ذهن أحمد فؤاد حتى قبل أن يتولى العرش، والجديد فى ذلك أيضا أنه كانت ثمة مفاوضات منتظرة أو تجرى فى الخفاء مع بريطانيا حول هذا الموضوع، الذى لم يعد إليه صاحب المذكرات مرة أخرى، وهى تتوقف على كل حال عند عام ١٩٢٢، أى قبل أن يأخذ التحرك حول موضع الخلافة شكلا حاسما.

ورغم أن الأحداث فى دولة الخلافة العثمانية وقت كتابة هذه الفقرات من المذكرات، عام ١٩١٧، لم تكن قد بلغت ذروتها، إلاّ أنه كان قد بات من الواضح تخلخل قبضة الحكومة العثمانية على زمام الأمور، وخاصة خلال السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ (وقد انحازت تركيا فى هذه الحرب إلى جانب ألمانيا كما هو معروف) وقد توالت خلال تلك السنة هزائم الجيوش العثمانية، مما دفع الإنجليز إلى التفكير فى البحث عن بديل، بعد انتهاء الحرب، للنظام الإقليمى السائد فى منطقة الشرق الأوسط والتى كانت الخلافة العثمانية حتى ذلك الوقت قطبه ومركزه».

وأعود مرة أخرى إلى مذكرات الشيخ مصطفى عبدالرازق لاستعين ببعض ما ورد فيها على تصوير سياسة أحمد فؤاد الأول بعد أن صار ملكا لمصر والأساليب التى كان يلجأ إليها لتشديد قبضته على الأزهر من جانب ، ولإجهاض أية محاولة لتقييد حقوقه وسلطاته المطلقة فى الدستور الجديد، من جانب آخر.

فنجد فى المذكرات بتاريخ مايو ١٩٢١ فقرة تصور تدخلات القصر فى شئون الأزهر على النحو التالى «زارنى شيخ الجامع (الأزهر) الليلة فسألته عما يجرى على الألسن من تغيير فى بعض رجال المعاهد، وظهر لى أنه يجهل حتى أن هناك شائعات فى هذا المعنى وأخذ يفضى إلى بآلامه لأن الأمور تصرف بهوى باشا (ناظر الخاصة الملكية) على يد إمام الملك ومدير المعاهد حتى أن مذكرات المسائل التى تعرض على المجلس الأعلى للأزهر لا تحرر إلا باشراف رجال القصر وأذنابه.

واشتكى إلى الأستاذ الأكبر أن الملك دعا إليه مدير المعاهد لمقابلة لا يدرى ما

الذى دار فيها، إعلانا عن عدم رضائه عن شيخ الأزهر... هذا وشيوخ الأزهر لا ينصرونه إلا لمزا بألسنتهم فى المجالس.

وختم الشيخ حديثه بترقب الحياة الدستورية لتضع حدا لهذا الاضطراب الاستبدادى.

هذا ما كان من أمر الملك مع الأزهر، أما أمره مع اللجنة التى شرعت منذ صدور تصريح ٢٢ فبراير ١٩٢٢ فى إعداد أول دستور لمصر المستقلة، فنجد فقرة فى المذكرات بتاريخ ٤ أكتوبر ١٩٢٢، نصها «نشرت الجرائد الليلة تعديلا لبعض المواد فى قانون العقوبات المصرى كلها خاصة بعقاب من يعتدى على الملك أو يتعرض له بنقد أو لوم، وقبل هذا صدر قانون الوراثة وقانون مجلس البلاط ويظهر أن الملك كان مهتما بإصدار هذه القوانين توطيدا لمركزه ومركز ذريته واحتفاظا لنفسه بكل ما يستطيع الاحتفاظ به من الجلال والسلطان مخافة أن يحيف الدستور على حقوقه.

وقد حاول القصر أن يحتفظ فى الدستور الجديد بحقوق للعرش لا يحتملها النظام الدستورى، فلم يجد عونا من الوزارة، وعجز أعوانه فى لجنة الدستور عن تحقيق ما سخروا له، ويقال أن القصر يعمل بكلتا يديه على تعويق مداولات اللجنة وإحباط عملها.

ومن الغريب أن حجة دعاة جعل السيطرة على شئون الحكم للعرش هى أن الأمة ضعيفة عن فهم مصالحها وحسن النظر فيها، فى حين أن انصراف همة القصر إلى استصدار مثل هذه القوانين لا يؤيد حجتهم ولكنه على العكس يدل على أن القصر يفهم كل الفهم مصلحته ولا ينظر إلا إليها.

وأتمنى أن أكون قد نجحت بهذا القدر أن أوضح للقارىء طموحات الجالس على عرش مصر يومئذ وأساليبه لتحقيق هذه الطموحات، ولم تبق لى إلا إضافة من مذكرات مصطفى عبد الرازق تكمل الصورة من جانب المؤلف فى مرحلة إعداد بحثه، إذ يرد بها ذكر البحث الذى كان على عبدالرازق عاكفا على إعداده منذ سنوات سابقة، فنجد فى المذكرات بتاريخ الأحد ٦ نوفمبر ١٩٢١ ما نصه «قرأ لى أخى على الذى عاد مساء اليوم إلى المنصورة فصولا من البحث الذى يدونه فى الحكومة الإسلامية تمهيدا لدرس تاريخ القضاء فى الإسلام».

فوجدت موضوعات طريفة تدل على حسن التفكير وحسن الدرس وتدل على الجد العلمى من رجل له مشاغل منصبه ما يجعل وقت فراغه خلسا.

وقد أحيا مثل أخى الصغير فى نفسى حسرة على ما يضيع من زمنى ومن قوتى هدرا.

وكم بين يدى من موضوعات أريد درسها ثم تصرفنى عنها صوارف لا تبرر لامرىء مثلى أن تكون حياته مجدبة».

ولعله قد اتضح للقارئ الآن أنه لم يكن شيء مما يجرى مصادفة فقد استمر الملك في محاولاته لوضع العراقيل في وجه الحكم الدستورى طبقا للدستور الذى صدر عام ١٩٢٣، ولا كانت مصادفة أن تبدأ الترتيبات لعقد مؤتمر للخلافة بالقاهرة عام ١٩٢٥، أي بعد أقل من عام من إلغاء منصب الخليفة العثمانى فى تركيا ١٩٢٤، ولا مصادفة إذن فى أن يصدر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فى العام نفسه وترتيبات عقد هذا المؤتمر قد بلغت مراحلها النهائية .

وإذا كانت الأمور تقاس بنتائجها وتقاس فى الوقت نفسه بمعايير المجال الذى جرت داخله، فإن كتاب «الإسلام وأصول الحكم» يعد «ضربة حاذق» من حيث التوقيت والمضمون والأثر السياسي، فقد أدى صدوره والتداعيات السياسية التى ترتبت عليه إلى تبديد حلم الملك فؤاد الذى أمضى سنوات طويلة يخطط لتحقيقه ويعد الواقع السياسي الداخلي والخارجي لتقبله، وإلى حرق الورقة الرئيسية التى كان يعول عليها فى التخلص من قيود الحياة الدستورية بالاحتماء بجلال منصب الخليفة وقدسيته .

فقد نشبت أزمة وزارية أدت إلى سقوط الوزارة القائمة ونقض الائتلاف الذى كان قائما داخلها بين حزب الاتحاد (حزب القصر) وبين حزب الأحرار الدستوريين، ولسنا بحاجة هنا للخوض فى مزيد من تفصيلات الأزمة السياسية التى أدى إليها صدور الكتاب ..فما كتب عنها تضيق به مجلدات لمن شاء أن يرجع إليها، ولكنه يبقى من المفيد الإشارة إلى أن بعض التداعيات المعاكسة لمخططات الملك وحزبه، سببها الاندفاع والنزعة الاستبدادية التى صاحبت ردود فعل السلطة ، وأولها الطريقة التى جرت بها محاكمة المؤلف الأزهرى الشاب الذى لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره فى ذلك الوقت، والطريقة التى صدر بها الحكم والأسباب التى بنى عليها ، ثم الحملة الصاخبة ضد المؤلف والتى كانت يد السلطة فى التدبير والتنفيذ من ورائها واضحة لكل ذى عينين.

يكتب على عبدالرازق فى مذكراته وصفا مختصرا لمحاكمته بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٢٥ «ذهبت يوم ١٢ أغسطس أمام هيئة كبار العلماء فتلا على شيخ الجامع بيان التهم السبع وبعد مناقشة وجيزة فى أن هيئة كبار العلماء تملك محاكمتى أم لا تليت عليهم مذكرة بالرد على التهم ثم انصرفت أنا وأصدروا هم قرارهم يومئذ بإخراجي من هيئة كبار العلماء.

كثرة الطلب على الكتاب

كان لهذا الحكم دوى شديد فى مصر وفي الخارج وكان له تأثير كبير فى تحول الرأى العام المتنور إلى العطف علىّ وتشجيعى كما أنه جعل اسمى معروفا تتداوله الجرائد فى جميع جوانب العالم وتواردت علىّ رسائل العطف من شتى

البلاد وكثر الطلب على الكتاب حتى نفدت نسخه في الأسابيع الأولى فأعيد طبعه ثانية في أغسطس، طبعت ألفي نسخة فنفدت في أيام ثم طبع ثالث مرة بعد ذلك في أوائل سبتمبر ثلاثة آلاف نسخة نفدت هي الأخرى.

بل ومما يحسب لهذا الكتاب وتوقيت صدوره أنه نبه الحزبين السياسيين الرئيسيين على الساحة السياسية المصرية يومئذ من غفلتهما النابعة من الاستغراق في جو المناورات السياسية والحزبية الضيقة في مناخ الديمقراطية الوليدة التي جاء بها الدستور الجديد.

فمن جانب الأحرار الدستوريين أدت الأزمة إلى تنبههم إلى حقيقة الدور الذي كان الملك قد استدرجهم إليه ليؤدوه بائتلافهم مع حزب الاتحاد (حزب القصر) في الوزارة القائمة التي كانت إجراءات عقد مؤتمر الخلافة تجري في عهدها.

ويشيد علي عبدالرازق بدور جريدة السياسة، لسان حال الأحرار الدستوريين، في مناصرته بعد أن استقال الوزراء الدستوريون من الوزارة وانفض الائتلاف.

وأما حزب الوفد ، أو السعديون كما كان يطلق عليهم أيضا، فقد انطلقوا أول الأمر في انتقاد الكتاب والمؤلف باعتبار أن ذلك يحرج الأحرار الدستوريين خصومهم السياسيين المشاركين في الحكومة القائمة، ثم لم تلبث استقالة الأحرار الدستوريين من الوزارة، وارتفاع الأصوات المدافعة عن المؤلف وعن حرية الفكر والتعبير وعن الدستور ، أن فتحت عيون الوفديين على حقيقة ما يجري وخطورته فبدلوا من مواقفهم وظهر ذلك واضحا بداية من عام ١٩٢٦ وانطلقت صحافتهم تدعو إلى توحيد المواقف في وجه نزعات الملك الاستبدادية، ولعل فيما كتبه أحمد حافظ عوض في جريدة «كوكب الشرق» الوفدية عام ١٩٢٦ أبلغ تعبير عن هذه الروح الجديدة إذ يقول «كنا نستطيع أن نستغل ذلك الحادث كسعديين مخالفين لهم (الأحرار الدستوريين) عدا ما في هذا الاستغلال من الضرب على وتر الدين الحساس وتنفير الأزهر وعلمائه من الأحرار الدستوريين».

فعلي عبد الرازق لم يؤلف كتابه وينشره في ذلك الوقت بوصفه رجل سياسة أو منتميا إلى حزب سياسي، وإن كان تكوينه وظروف نشأته جعلته لا يخلو بالضرورة من حاسة سياسية مرهفة ، وإنما كأزهري من المنتمين بالروح والفعل إلى مدرسة الشيخ محمد عبده والمتأثرين بمناهجه الإصلاحية.

ولعلي عبدالرازق تعريف بمدرسة الأستاذ الإمام أورده في مقدمته لكتاب «من آثار مصطفى عبدالرازق» يقول فيه «فدعوة الأستاذ الإمام كما ترى دعوة عامة ومدرسته كما ترى ليست مدرسة يحدها مكان ولا زمان ولا أشخاص،

ولكنها مدرسة تتلاقى فيها الأرواح جنودا مجندة، فما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف».

فالشيخ على عبد الرازق قد نشأ ولا شك فى بيئة عائلية وسياسية وثقافية واجتماعية مميزة تركت آثارها واضحة فى فكره وشخصيته ونزعاته السياسية إلى آخر أيام حياته ، بل وتركت آثارها فى أشقائه الآخرين بدرجات متفاوتة وفى مناحى متفرقة فلا تجد واحدا منهم إلا وله أثر وذكر فى جانب من جوانب الحياة العامة فى مصر والقرن العشرين.

وقد لمست بنفسى تأصل مقومات التميز فى هذه الشخصية دون تكلف أو اصطناع بطول معاشرتى لصاحبها طيب الله ثراه، واحتفظت إلى اليوم بخطاب بعثه إلىّ وأنا غائب بحكم أقدار المهنة فى اليابان كتبه بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٩٦٣، ربما يلقى الضوء على جوانب كثيرة من منطلقاته الدينية والفكرية والسياسية فيقول «وما أظن أن فى هذه الحياة الدنيا عروة أوثق ولا أبقى على طول الدهر من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله كما فى القرآن الكريم بنص صريح، ثم من التشبث بموروث الدين والأدب والفضيلة الذى تلقته البشرية منذ أقدم تاريخ عرفناه لها جيلا عن جيل وأمة عن أمة وآباء عن أجداد.

سلامة الحكم

ثم يمضى فى خطابه ليفصل القول فيكتب «ذلك هو منهجنا السياسى منذ أيام عباس وفؤاد وفاروق وهو منهجنا إلى اليوم لا نتأثر باعتبارات شخصية ولا نبنى عليها منهجنا السياسى وإنما نريد سلامة الحكم من شرور الاستبداد ومفاسد الطغيان.

ولقد تعرضنا لغضب عباس (الخديو عباس حلمى الثانى) يوم قمنا ندافع عن الأزهر الذى أراد أن يعبث بمصالحه ويوجهه توجيها سياسيا لا خير فيه ويوم سلط علينا وزراءه ومستخدميه يضربون الأزهريين بالسياط ويوعدون ويتهددون.

وكان فؤاد أشد بأسا وأشد تنكيلا من عباس وقد سلط علينا وزاراته وكثيرا من أشياعه فما منعنا ذلك من أن نرفع صوتنا بمعارضة أساليبه فى الحكم. والغريب أن هذا الموقف السياسى الذى سلكناه فى عصرنا الحاضر هو بعينه الموقف السياسى الذى سلكه آباؤنا وأجدادنا من قبل فى أيام إسماعيل ومن قبله أيام محمد على.

وإذا أذنت لمخيلتى مرة أخرى أن تجرفنى بعيدا عن السياق الأصلى إلى قضية فرعية أثارها خصوم على عبدالرازق كنوع من التجريح الشخصى، ألا وهى أنه لا يعرف له نتاج فكرى آخر على مستوى كتاب «الإسلام وأصول الحكم».

وصدق الأستاذ الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة والمفكر المعروف رحمه الله إذ عرف كتاب على عبدالرازق وما أثاره بانه «ثورة فكرية .. وكفى»..

وإذا كانت الأمم لا تحتمل الا ثورة فكرية واحدة كل مائة عام من عمرها، فهل يحتمل بشر إلا عبء ثورة فكرية واحدة على مدى العمر؟!

وأرجو أن أكون قد بينت للقارىء، فيما أسلفت، وبما فيه الكفاية كيف كانت الحملة مدبرة والنية منعقدة من البداية على رمى المؤلف بالإلحاد حتى يتسنى اتخاذ الاجراءات السياسية والدعائية التى لجأ إليها أصحاب السلطان والنفوذ لإسكات صوت هذا العالم الأزهرى الشاب وإرهاب من تسول له نفسه الوقوف إلى جانبه.

وجوهر القضية فى تقديرى إذا عريناها من كل ماهو ثانوى ومن كل التراكمات التى تجمعت حولها بفعل أزمان أخرى وأغراض أخرى وعقليات أخرى، يبقى صحيحا اليوم مثلما كان صحيحا بالأمس، واضحا كالشمس فى كلمات تلك الخلاصة التى ختم بها على عبد الرازق كتابه بأسلوبه الواضح المباشر والذى يتميز بصراحة لاتشوبها مماراة، يتمشى فى نفس الوقت مع فهمه لمنهج أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده والذى يصفه بأنه . وهو فى مذاهبه الإصلاحية لا يفعل شيئا أكثر من أن يتجه وجهة الإصلاح كما يجب أن يكون الإصلاح، فهو يدعو إلى الإصلاح بالعمل أولا ثم بالقول الصريح يصدع به أنى كان، فى المحافل العامة وفى مجالسه الخاصة، وفيما يؤلف من كتب وأبحاث وفيما ينشر فى المجلات والجرائد، وفى رسائله العامة والخاصة.

محنة اليسار المصرى

بقلم :عبدالرحمن شاكر

السفر الضخم الذين أصدره «الرفيق» أبو سيف يوسف بعنوان «وثائق ومواقف من تاريخ اليسار المصرى» هو بالفعل مرجع شديد الأهمية لجانب من التاريخ السياسى المصرى. وإذا كان الهدف منه هو بيان الدور الذى اضطلعت به منظمة «طليعة العمال» ، وتسجيل ما أغفلته مراجع أخرى عن تاريخ الحركة اليسارية المصرية ، فى مقدمتها كتاب الدكتور رفعت السعيد عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ، أو الرد على بعض ما ارتآه أبو سيف يوسف ورفاقه من أعضاء المنظمة المذكورة إجحافا بها ، فإن صدور الكتاب على هذا النحو إنما يعكس جانبا من المحنة الأساسية التى ابتليت بها الحركة الشيوعية المصرية فى معظم أطوارها، وهى ظاهرة التشرذم ، أو التعددية كما يسميها محرر الكتاب فى مقدمته ، حتى بلغ عدد المنظمات الشيوعية فى حقبة الأربعينات عشرين منظمة !

ويعود السبب فى تلك الظاهرة إلى العقيدة السياسية التى أخذت بها كل تلك المنظمات، المتضاربة حتى اليوم وهى تسجل تاريخها الذى طواه الزمن. تلك العقيدة كما حددها أبو سيف يوسف فى كتابه بأنها «الماركسية اللينينية الستالينية»! وهذه الصيغة تتضمن الأطوار التى مرت بها تلك العقيدة. فقد بدأت بكارل ماركس ورفيقه فردريك إنجلز في القرن التاسع عشر.

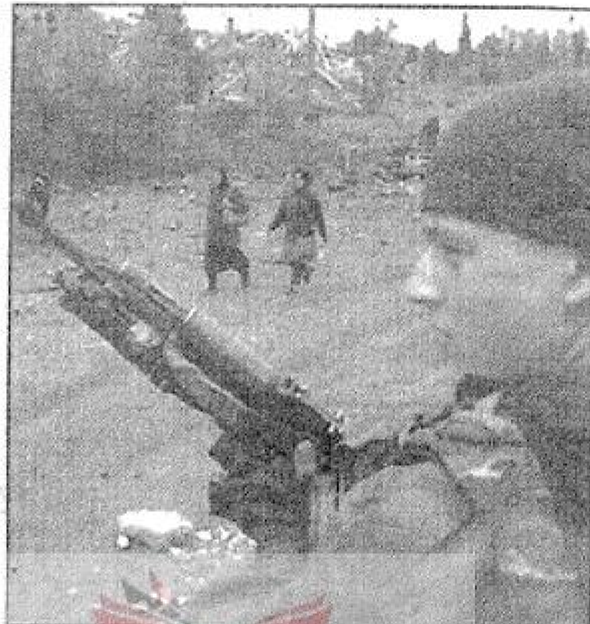
ولقد كان ماركس يؤمن بالديمقراطية الحزبية، وفى الدولية الاشتراكية الأولى احتشد كل من يؤمن



كارل ماركس



لينين



لقطة من حرب الشيشان

بالعدل الاجتماعى على أية صورة من الصور، سواء كان يؤيد كارل ماركس فى فلسفته التى سماها الاشتراكية العلمية أو يعارضها، بمن فيهم فوضويون من أتباع برودون وباكونين وغيرهما. وسمى الحزب الذى أسسه ماركس بالحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى، وكان الحزب الماركسى فى روسيا كما فى سواها من أحزاب الدولية الثانية يحمل نفس الاسم «الاشتراكى الديمقراطى»، إلى أن انتصرت الثورة الاشتراكية فى روسيا عام ١٩١٧، بقيادة الجناح البلشفى الذى كان يتزعمه لينين من الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى. فلما أقدم لينين على حل الجمعية التأسيسية التى انتخبت بعد الثورة على القيصرية، ودعا إلى أن تكون «كل السلطة للسوفيتات» أى مجالس العمال والجنود الثورية، أدانت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى الدولية الثانية هذا التصرف المجافى للديمقراطية، التى كانت تراها هى الأساس فى عقيدتها السياسية، وأن

الاشتراكية هي التوسع في الديمقراطية لتشمل الجانب الاقتصادي في حياة المجتمع إلى جوار الجانب السياسي وقد رد لينين على هذا الموقف بدعوة الثوريين الحقيقيين في الأحزاب الاشتراكية إلى الانشقاق عن الانتهازيين من زعماء الدولية الثانية الذين خانوا قضية الاشتراكية حينما أيدوا اشتراك بلادهم في الحرب العالمية الأولى وسمحوا بأن يذبح العمال بعضهم بعضا دفاعا عن المصالح الامبريالية في بلادهم . وطالب هؤلاء الثوريون بتشكيل أحزاب جديدة عرفت باسم الأحزاب الشيوعية، وضمها تنظيم عالمي جديدة عرف باسم «الدولية الثالثة» أو «الكومنترن».

وقد مارس الحزب الشيوعي الروسي أو السوفييتي السلطة المطلقة من خلال مجالس السوفييت، وألغى كل الأحزاب الأخرى بما في ذلك أقربهم إليه وهو حزب «الاشتراكيين الثوريين»!

ورغم أن لينين قد دعا إلى الأخذ بالديمقراطية المركزية داخل الحزب، بمعنى خضوع الأقلية للأغلبية، والمستوى الأدنى للمستوى الأعلى، فإن الاستبداد الذي شمل المجتمع السوفييتي باسم ديكتاتورية البروليتاريا، قد امتد إلى الحياة الحزبية ذاتها في عهد ستالين، فأصبح كل من يعارض ستالين أو يختلف معه بدءا من تروتسكي الذي كان ثالث ثلاثة قادوا الثورة البلشفية إلى جوار لينين وستالين، يعتبر خائنا للثورة يستحق الطرد من الحزب، بل الاعدام، تروتسكي ذاته سمح له بالخروج من البلاد حيا في عام ١٩٢٤ بعد وفاة لينين مباشرة، ولكن ستالين أرسل إليه من يقتله في منفاه عام ١٩٤٠ !

على هذا المبدأ - نفي المختلفين في الرأي مع زعماء المنظمات الشيوعية أو قتلهم إن أمكن - تأسست عشرات المنظمات الشيوعية في مصر في الحقبة المذكورة - زعيم كل منظمة كان يتصور نفسه «ستالينا» آخر، ولكونها لم تكن في السلطة بل كانت مجرد منظمات سرية تتعرض جميعها للبطش من جانب السلطة، إلا أن الخصومة فيما بينها كانت تفوق أحيانا خصومتها مع القوى السياسية المعادية للشيوعية! واستهلكت جانبا من طاقاتها في هذا الصراع. إحدى هذه المنظمات وهي «المنظمة الشيوعية المصرية» أو م. ش.م. كانت تحرم على أعضائها مجرد التكلم مع أحد من منظمة أخرى حتى ولو ضمهما سجن واحد !

ولكن ذروة محنة الخضوع للستالينية فى المنظمات الشيوعية المصرية، كان فى موقفها من قضية فلسطين. فمن يطالع كتاب أبو سيف يوسف عن منظمته طليعة العمال، يعرف أن هذه المنظمة قد أسسها ثلاثة من اليهود المصريين أو المتمصرين، هم يوسف درويش وريمون دويك، وأحمد صادق سعد (الذى أضاف اسم «أحمد» الاسلامى إلى اسمه!) وأن هؤلاء الثلاثة كانوا يدينون الصهيونية ويعتبرونها حركة عنصرية استعمارية، ويدينون هجرة اليهود إلى فلسطين، ويطالبون بأن تقوم فى فلسطين دولة علمانية ديمقراطية تضم سكانها من العرب واليهود على قدم المساواة. وكان ذلك هو مبدأ جميع الاشتراكيين فى العالم إلا الذين فى قلوبهم مرض من دعاة الصهيونية أدعياء الاشتراكية، ومنهم من حاربهم هؤلاء الثلاثة! ولكن بعد أن وافق الاتحاد السوفييتى على مشروع تقسيم فلسطين الصادر عن الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧، واعترف فى العام التالى بدولة «اسرائيل» عند إعلانها لم يجد الشيوعيون المصريون بدا من تأييد هذا الموقف» لأن الخواجه ستالين عايز كده..!! على حد تعبير أحد «رفاقنا» الظرفاء الحزانى فى ذلك الحين!

بالطبع لم يكن فى مقدور منظمات شيوعية يقود معظمها عناصر يهودية أن تتخذ موقفا مبدئيا صلبا كالذى اتخذه الحزب الشيوعى العراقى، الذى أعدم زعماؤه على يد نورى السعيد. رفض هذا الحزب الموافقة على قرار التقسيم الذى اتخذ تحت تأثير العناصر الصهيونية فى الأحزاب الشيوعية الحاكمة فى شرق أوربا، وهى التى كان يتدفق منها اليهود الخزر إلى فلسطين! فهذا القرار كان خيانة عظمى للمبادىء الاشتراكية التى تقدم على العلمانية وفصل الدين عن الدولة، وكان من غير المعقول أن يوافق الشيوعيون الذين فرحوا عام ١٩٢٤ بإلغاء الخلافة العثمانية رغم تسامحها مع المخالفين فى العقيدة، على قيام دولة جديدة فى المنطقة على أساس من الدين تعلنها أقلية معظمها من المهاجرين اليهود، وتتخذ اسم أحد الأنبياء علما عليها !

وقد كلف خضوع المنظمات الشيوعية للقرار الستالينى فى قضية فلسطين الكثير من سمعتها، واضطر أحمد رشدى صالح، الذى يورد الكتاب الذى بين أيدينا كثيرا من

أعماله حينما كان مسئولا عن تحرير مجلة «الفجر الجديد» أحد المعالم الكبرى في سجل أعمال المنظمة والفكر اليسارى عموما، اضطر رشدى صالح إلى تأليف كتاب يعلن فيه تبرأه من الشيوعية التى صارت تحمل وصمة الولاء للصهيونية !! وذلك بعد أن كانت المنظمات الشيوعية قد نجحت فى فرض فكرة الاشتراكية والعدل الاجتماعى على الحياة السياسية المصرية، وخاصة من خلال نشاطها فى صفوف لجان حزب الأغلبية، وهو حزب الوفد الذى آلت إليه قيادة الحركة الوطنية، حتى أصبح فى داخل هذا الحزب تيار يسارى واضح يحمل اسم «الطليعة الوفدية»، وقد تغلغل هذا التيار فى الوفد حتى ضم إليه عناصر قريبة جدا من قيادة الوفد على رأسهم كان «عزيز فهمى» ابن أحد أقطاب الوفد وهو عبدالسلام فهمى جمعة رئيس مجلس النواب الأسبق. وقد أتاحت هذه الصلة مع الوفد غطاء مشروعا لنشر الأفكار اليسارية ، وأذكر أن أول ما قرأته عن الاشتراكية، كان كتيبا صغيرا بعنوان «تطور المجتمع» موسوم صدره بعبارة «الوفد المصرى» باعتباره الجهة الصادر عنها هذا الكتيب واسم مؤلفه هو «مصطفى عبدالرحمن» وهو اسم ملفق من اسم شخصين كانا ينتميان إلى منظمة صغيرة، كانت تعرف باسم «منظمة القلعة» نسبة إلى الحى الشعبى المعروف !

الحريق العالمى

لم يورد أبو سيف يوسف فى كتابه إلا أقل القليل عن الحريق الهائل الذى شرع يشب في بيت اليسار العالمى بدءا من المؤتمر العشرين للحزب البلشفى عام ١٩٥٦، الذى أدان فيه خروشوف سكرتير الحزب آنذاك سياسة عبادة الفرد التى كانت متَبعة فى عهد ستالين، وكشف الكثير من مظالمه ومخازيه! واكتفي محرر الكتاب بذكر أن القرار الذى اتخذته منظمته فى ذلك الحين، هو أن كل حزب شيوعى مسئول بمفرده عن وضع الاستراتيجية الخاصة بالوصول ببلاده إلى الاشتراكية ، وقد ترتب على سقوط الستالينية على هذا النحو المدوى أن كفكف كل «ستالين» صغير من زعماء المنظمات الشيوعية المصرية من غلوائه وتعجرفه، وقبلوا أن يجلسوا مع بعضهم البعض على مائدة واحدة يتم فيها توحيد المنظمات المتشرذمة فى حزب شيوعى واحد! ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، حيث كان جمال

عبدالناصر يستعد لسحب البساط من تحت أقدامهم. كما جاء في التعبير الذي نقل عنه، وأعلن من جانبه تطبيق الاشتراكية على طريقته الخاصة في عام ١٩٦١، واشترط على من كان يسميهم «جنرالات بلا جيوش» من زعماء المنظمات الشيوعية أن يحلوا منظماتهم وينضموا إلى تنظيمه السياسي الواحد كأفراد، وذلك إذا أرادوا أن يخرجوا من السجن وأن يكون لهم دور في الحياة السياسية الجديدة لمصر «الاشتراكية»، وذلك ما تم في عام ١٩٦٤.

والآن، وقد تبدلت الدنيا، وأصبح الحال غير الحال، وأتى الحريق العالمي الذي أشرنا إليه على كبرى قلاع الاشتراكية في العالم، فانهار الاتحاد السوفييتي وانحل وانهارت معه وقبله الأنظمة الاشتراكية في شرق أوربا، وأصبحنا في عصر الرأسمالية المتوحشة، التي شرعت تتشكل ضدها ثورة عالمية جديدة، لليسار أو لبقاياه دور مؤكد فيها، وأصبح القابع في الكرملين، ليس زعيما شيوعيا مثل لينين أو حتى ستالين، بل ضابط سابق في المخابرات السوفييتية، يقول الآن بعد أن دوخ المقاتلون الشيشان جيشه وحكومته ودولته بأسرها «إن الارهابيين الاسلاميين يحملون أفكارا شيوعية ! وأن السبب في ذلك سوء الأحوال الاقتصادية في البلدان التي يمارسون فيها نشاطهم من أول الفلبين إلى كوسوفا، ويحلمون بإقامة اتحاد اسلامي فيها، وأن العلاج هو رفع مستوى الشعوب الاسلامية، وفي مقابله يقول «زيوجانوف» زعيم الحزب الشيوعي الروسي» إن أحدا لن يفهم الشيشانيين، إلا إذا كان قد قرأ القرآن الكريم، وأنه هو نفسه قد قرأه، وأن معظم أهل الشيشان المسلمين يصوتون في الانتخابات العامة إلى جانب حزبه الشيوعي، الذي لم يعد يعادي الدين، بل يضم في صفوفه كثيرا من المتدينين بديانات مختلفة، يتفقون على الايمان بحق البشر جميعا في الحرية والمساواة والحياة الكريمة.

أقول في هذا الوقت، على بقايا اليسار المصري على مختلف صوره أن تطرح ترهاتها ومهاتراتها القديمة، وتنظر من جديد إلى مواقع أقدامها على خريطة سياسية جديدة في بلادنا وفي العالم بأسره .

المرأة فى مؤتمر نيويورك

بقلم : د.محمد رجب البيومى

«ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين»
«قرآن كريم»

لو أرادت مجموعة من القرى المتجاورة فى مركز من مراكز الجمهورية أن تتعاون فى سبيل العمل المثمر، فاجتمع ذوو الرأى فيها، يقدم كل واحد منهم أنفع ماتم فى قريته من تجربة زراعية أو صناعية أو تجارية أو تعليمية، فماذا ينتظر من نتيجة هذا الاجتماع ؟!

إن المتوقع المنتظر، أن يعرض على بساط البحث كل جليل مثمر صدقت تجربته، حين أدت إلى نفع مشهود وأن تتكون من ذلك خلاصة لما يتفق عليه من التجاريب الناجحة فتصبح موضع التنفيذ!

ولكن ماذا يكون الوضع إذا عرضت بعض القرى تجربة فاشلة أدت إلى ضياع مادى وأدبى معا، وحاولت أن تكون نمطا يحتذى، وكان لهذه القرية وجاهة مادية أو معنوية نظرا لسطوة من يمثلها فى هذا الاجتماع! أفيمكن لهذه التجربة الفاشلة - وقد تكون مخزية فاضحة يندى لها الجبين - أن تكون موضع ترحيب واحتفاء؟

إن المجتمعين من ممثلى القرى المجاورة، سيفغرون أفواههم دهشة، لما يرون ويسمعون، وأقل مايأتونه من الأعمال أن يعلنوا انسحابهم من الاجتماع، فينفض إلى غير رجعة، وهم بعد قرويون مسالمون، لايهديهم إلى الخير سوى الفطرة الطيبة والخلق القويم.

ثم ماذا سيكون من أمر القرية ذات التوجيه المنحرف، أبصر عقلاؤها على ماالديهم من الانحراف، فيتحمسوا له، ويحاولوا تثبيته فى اجتماع ثان وثالث ورابع إلى غير ماحد: هذا غير معقول، ولكنه الذى كان!

لقد جاء الغرب فى مؤتمر المرأة ليعالج أمراضا تخصه وحده، وليس للشرق بحمد الله أدنى صلة بجراثيمها البغيضة فهو منها بمنجاة أية منجاة، وبدلا من أن يبحث فى حيدة عن السبب فى نجاة الشرق من هذه الأمراض القاتلة ليحذو حذوه، وينهج نهجه، أخذ يصر فى استماتة على أن ينقل هذه الجراثيم الى الشرق، ليكون البلاء مشتركا مابين مشرق ومغرب! وذلك معنى من معانى العولمة التى يجب أن تشمل الكون بشرها الماحق وخطرها المبيد!

الشرق لايعرف الأسرة التي تتكون من رجل ورجل أو من امرأة وامرأة ويرى ذلك مدعاة سقوط شائن تتجنبه الحيوانات فضلا عن الأناسي! وبدلا من أن يستحيى المروجون لهذا الوضع البغيض وبدلا من أن يتساءلوا كيف نجا الشرق من هذا الخزى الفاضح؟ فإنهم يحاولون أن يكون شيئا طبيعيا يجب أن يلتزم به الشرق لتكون الفضيحة عالمية لاتقتصر على مكان دون مكان!

الشرق لايعرف التلاحم الجنسى بين الفتى والفتاة قبل الزفاف، وقد حفظ بذلك كيان المجتمع أفرادا وأسرا وانتظمت به العلائق على نحو طاهر لايريب ولكن الغرب قد أباح التعارف الجنسى قبل الزواج بين الفتاة والفتى، وترتب على ذلك ماترتب من الاجهاض والشذوذ والانتحار، وبدلا من أن يستحيى المروجون لهذه المخزيات المدمرة، وبدلا من أن يتساءلوا كيف نجا الشرق من هذا الخزى الفاضح، فإنهم يحاولون أن يصبح الأمر طبيعيا، يجب أن يلتزم به الشرق، لتكون الفضائح عالمية لايختص بها مكان دون مكان!

الشرق يحتقر الشذوذ الجنسى ويزدريه، وإذا وجد لدى أفراد معدودين أعدت له وسائل العلاج، وقام الأطباء البشريون والنفسيون بمحاصرته، ووضعت الحقائق الاجتماعية والخلقية والنفسية لتقف بقواعدها الرصينة حائلا دون انتشاره، وبدلا من أن يتساءل الغرب عن نجاة الشرق من هذا الخزى الفاضح فإنه يحاول أن

المرأة

فى مؤتمر نيويورك

يجعله أمرا مشروعا لاضرر منه، كما يجب أن ينقل إلى الشرق ذلك، ليكون الخزى عالميا لايقتصر على مكان دون مكان!

الإباحية المدمرة!

كان الغرب فيما قبل هذه المؤتمرات يصف المرأة الشرقية بالتخلف وبأنها سجينة المنزل، وبأن الحجاب قد عاقها عن التعليم فهى جاهلة أمية، لذلك أخذ ينادي بحرية المرأة وسفورها، ومشاركة الرجل فى الأعمال، وتسنمها أرقى الوظائف، وتقدم الزمن فجعل للمرأة أن تتمتع بكل حقوقها، وأن تشارك فى شتى الميادين وأن تبلغ منصة الوزارة، وأن تكون مبرزة كل التبريز فى شئون الطب والتعليم والهندسة والتجارة والزراعة والمحاماة! وبذلك أصبحت المرأة الشرقية عضوا عاملا فى محيطها الاجتماعى! وكان من المنتظر بعد أن تحقق ذلك أن ينظر الغرب فى مؤتمراته إلى مالايزال يعوق تقدم المرأة، ومكمنه هو الوضع الاقتصادى للدول الفقيرة المبتلاة بالبطالة وكثرة الديون ذات الأرباح الربوية المكتسحة وتفاقم عمليات الابتزاز المادى من بيع للسلاح، وتشجيع على انتشار المخدرات، واحتياج المطلقات والأرامل إلى تكافل اجتماعى مجز، ورعاية اليتامى من الأطفال، وتحريم اشتغالهم فى سن الطفولة، وتنظيم أوقات العمل الخاصة بالمرأة، وتحديد الإجازات القهرية التى تتطلبها طبيعة المرأة بقانون يضمن لها الراحة المعنوية والحسية معا. كان المنتظر من المؤتمرات النسوية أن تبحث هذه المعاضل القاتلة، وأن تصدر الاقتراحات العملية ذات الجد الملزم، وإذ ذاك فلن تجد تيارا يخالف منهج الإصلاح! ولكن مؤتمرات المرأة المتعاقبة تركت المسائل الاقتصادية جانبا ، وهى حجر الزاوية فى الإصلاح النسوى، واتجهت إلى المسائل الأسرية فجعلتها فى بؤرة النقاش، حتى كادت تكون كل شىء! وماهى المسائل الأسرية التي اتجهت إليها؟ إنها المصائب التي ارتطمت فيها دول الغرب وحدها، إنها الإباحية المدمرة القاتلة! تلك التي أزعجت الشرفاء والشريفات من المؤتمرين والمؤتمرات، ومع أن هذا الأمر قد فرغ منه فى مؤتمر بكين، فكان من الواجب ألا يثار إطلاقا فى مؤتمر نيويورك وتسأل عن الإصرار على إثارته مرة ثانية فلا تجد جوابا يريح!

إن الفكرة التى تسيطر على الغربيين بعامة، أنهم بارتقائهم الصناعى، وتقدمهم العلمى قد أصبحوا ذوى التوجيه لن لم يبلغ مبلغهم فى

هذا المجال، ولكنهم نسوا شيئا مهما أنهم لم يتقدموا فى السلوك الخلقى، والتعامل الإنسانى كما يتوهمون، فالمساواة والإخاء والحرية وغيرها مما يتباهون به، لاتجد تطبيقها إلا فى دولهم الغربية وحدها، والأوربى المتحضر الذى يذوب رقة أمام مواطنه كان يسير فى جيش مدجج ليقتل آلاف الزنوج العزل فى ساعة واحدة بما يسلطه من القاذفات المبيدة، ثم هو يستعمر الأرض ليحمل ذخائرها الكثيرة إلى مواطنيه، ولايترك للكادحين غير الفتات! وله تغطرس شامخ فى معاملة من يخدمونه من أبناء الشعوب التى لاتحمل السلاح! فأين هى مبادىء الحرية والإخاء والمساواة؟! إن ذلك يذكرنى بإحدى سيدات المجتمع منذ ربع قرن ممن ملأن الأندية والصحف والمجلات بأحاديثها عن تقدم المرأة ونضالها، وقد تبنت كلبا مدللا جعلت تلاطفه وتعد ذلك مظهرا من مظاهر شفقتها على الحيوان فهو يأكل أطيب المآكل، ويذهب إلى الطبيب لأى عارض متوهم، وينام فى مكان دافىء مريح، وإنها الشفقة الحانية التى جعلتها تبذل فى سبيله ما تبذل، ثم رأت ذات مرة قطة هزيلة تسربت إلى مطبخها، فحملت الماء الساخن الملتهب، وصبته عليها ليشوى جسمها شيا رهيبا، وحين أنكرت إحدى زميلاتها ما صنعت وكانت تزورها حينئذ قالت تبرر جريمتها أنها ليست قطتى إنها قطة الشارع الملوث، ولم تخجل لحظة من قسوتها الآثيمة! وهى بعد من سيدات المجتمع ذات الشفقة المفرطة على الكلب الضعيف! ولايفترق موقف هذه السيدة عن موقف الأوربى الذى يتشدق بمبادىء الحرية والإخاء، ثم يبيد المئات من العزل الأبرياء بمدفع غدار! أهذا ارتفاع أم انحطاط؟

الشرق شرق .. والغرب غرب!

وإذن فالظن بأن الارتقاء العلمى يسير مع الارتقاء الخلقى ظن يكذبه الواقع، ولو كان ذلك صحيحا لما قامت حربان عالميتان مدمرتان فى أقل من ربع قرن! حربان حصدتا ملايين الأرواح، ودكتا دولا، وأبادتا شعوبا وجيوشا مابين شرق وغرب! والقائمون على هذه الزلازل الناسفة قوم متحضرون يباهون الأمم الشرقية بتقدمهم المادى، وينظرون إليهم من الأوج الشاهق نظرة الغرور والكبرياء! ونحن نعرف ماقاله الشاعر الانجليزى الكبير «كبلنج» «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» قال ذلك مفتونا بسيطرة الدولة التى كانت الشمس لاتغيب عن ممتلكاتها حينا من الدهر، وفى ظنه أن الغرب شامخ برقيه، وعلى الشرق أن يستجيب لنفوذه، وقد نسى أن الشرق هو الذى أهدى للبشرية موسى وعيسى ومحمدا وأن تعاليم

هؤلاء العظام حقا هي التي أخرجت البشرية من الظلمات إلى النور، وأن أكبر عبقري أنجبه الغرب لن يبلغ في تأثيره مبلغ واحد من هؤلاء ، ولأضرب المثل بأرسطو سيد المنطق والمناطقة أليس هو الذي جعل الناس قسمين سادة وعبيدا ، فوضع بذور التكبر والاستعلاء!

ونعود إلى موضوع المرأة فنقول :

إن الذين يحاولون نقل تقاليدهم الى المرأة الشرقية - والمسلمة بنوع خاص - ينسون تجاريب كثيرة مرت بهم في هذا المجال، وكان أقربها الى الخيبة ما ظنوه موضع النجاح، إذ جعلوا حقل تجاريبهم هو الأسر المسلمة التي قدر لها ان تعيش في أوربا وأمريكا، فقد توقعوا بدءا أنها ستسارع إلى اعتناق المبادىء الغربية، وستكون داعية لها في كل مكان حين تشهد من مظاهر تحرر زميلتها الأوربية أو الأمريكية ما يخلب لبها ويسرع بها إلى المحاكاة، توقعوا ذلك بل اعتقدوه، وعملوا على سرعة تنفيذه، فكتبوا الكتب التي تشيد بالمرأة الغربية وتذكر من مظاهر رقيها الشيء الكثير، ووزعوا هذه الكتب على الاندية الشرقية في الغرب التي تجمع عائلات الدول الإسلامية ليكون ما يقرأ هؤلاء السيدات والآنسات منبها يقظا إلى سرعة الاندماج في الوسط الأوربي، والى ضرورة المناداة بمحاكاة الأوربية فيما تأخذ وتدع من أساليب الحياة، ولكن الأيام تمر والسنين تتعاقب، ولا يجد هؤلاء المتشوقون إلى سرعة الاندماج بارقة أمل توحي بتحقيق الرجاء، بل وجدوا في الأكثر من المرأة المسلمة عزوفا عن التبذل الأوربي او شدة معارضة لمن يحاول أن يفسح امامها طريق التمدن الموهوم. ولا ينكر ان القليل منهن قد انجذبن الى التقليد حينا قصر أو طال، ولكن الكثرة قد احتفظت بتقاليدها في إصرار.

ولم يسكت رجال الاجتماع هناك عن تشخيص هذه الظاهرة، فذهب اكثرهم الى عامل الدين وحده اذ هو مدعاة التأخر كما جاهر نظراؤهم من قبل بأن الدين أيضا هو عامل التأخر في كافة فروع الحياة بالمجتمع الإسلامي. فلم يأتوا بجديد، وللدين الإسلامي مناعة في نفوس معتنقيه، وهذا ما جهله الباحثون هناك أمدا طويلا فتنادلوا الضرب الدائب على هذا الوتر، ثم اتضح لهم أنهم يضربون في حديد بارد، فاتجهوا الى ما حسبوه مساوئ تلصق بالدين في محيط المرأة، وأظهر ما تحدثوا عنه في محيط المرأة من شئون الدين هو الطلاق، وتعدد الزوجات، والميراث، وهي موضوعات

يجيد الحديث عنها محترفو التبشير، ويكررونها ملحين، ولكنها كانت تصطدم بمعارضات يقوم بها نفر من صفوة مفكرى الغرب أنفسهم اذ يؤيدون حق المرأة فى الانفصال، وحق الرجل فى تعدد الزوجات، وتتوالى الردود جذبا ودفعا، واذا كان الإسلام هو دين الفطرة، فطرة أى كائن حى إذا أخلص التفكير المستقيم بينه وبين نفسه، فإن بواعث الطلاق والتعدد فى ظروفها الخاصة تجد الموافقة التلقائية من كل مفكر يتخذ الموضوعية مرتكزا لبحثه، ولعل الشاعر الانجليزى الكبير جون ملتون كان طليعة هؤلاء الذين نادوا بإباحة الطلاق فى مجتمع انجليزى شديد المحافظة، ولم يكن ذلك نزوة عابرة، بل كان تصميما اكيدا، جعله يصدر عدة طبعات من كتابه، وفى كل طبعة يفند ما دار حول الطبعة السابقة من نقاش، حتى لتوشك ان تكون كتابا مستقلا ومن انفس ما قال:

«كيف يتسنى الاختلاط الجسدى الوثيق بين زوجين يكره احدهما الآخر كرها شديدا فعالا، ويود ان يعتزله أبد الدهر، وهل فتح الله باب الزواج ليغلقه نهائيا كما يغلق باب المقبرة على الميت الدفين، وهل يأمن عاقل أن يزل فى الخطيئة حين يجد متنفسا آخر مع حليلة تشاركه هذه العاطفة عن محبة وانجذاب، وقد تكون هذه الحليلة زوجة بغيضة الى قرين تعيس يكن لها ما تكن من العداوة والشحناء وماصورة مجتمع تتعدد فيه هذه الفظائع الدامية دون ان يستطيع رجاله حلا لما يوثق، أعناقهم من الاغلال ان الشاب قبل الزواج لا يعلم ما بداخل الباب الحديدى، فاذا ولج الحاجز اليه فقد يجد ما يريحه ويرضيه، وهنا تكون السعادة ذات جناحين يرفرفان فوق المضجع، واذا كانت الثانية رأى الزوجان ثعبانا يلدغ، وافعى تطل برأسها فوق الوسادة فكيف يصبران على سم قاتل سيسرى فى العروق سريان الموت عن قريب!».

هذا نمط رائع مما جاء في كتاب ملتون ولا يقرؤه منصف دون ان يفكر فيه طويلا، اما تعدد الزوجات فلن أزيده بماكتبه علماء الاسلام من براهين، فذلك كله متعارف متعالم. ولكني انقل كلاما طريفا للمستشرق الفرنسى «أتيين دينيه» وقد أقام بالجزائر امدا طويلا، وادرك عهدين، عهد اباحة التعدد، وعهد تحريمه فقال: «حينما منع التعدد، وجدت ظواهر لم تكن موجودة من قبل هذه الظواهر هى

١ ـ كثرة العوانس
٢ ـ كثرة اللقطاء
٣ ـ كثرة الأمراض السرية.

ولم يكن «أتيين دينيه» داعية واعظا، ولكنه شاهد فاقر!

والميراث ، ميراث المرأة، يرد على من يعترض بنوالها النصف، بأنها حين

المرأة في مؤتمر نيويورك

تكون زوجة ستجد من ينفق عليها ملزما ،وهو الزوج الذى أخذ الضعف ليكفيهما معا، فاذا كان الرجل يقوم بعبئين ملزما، وليست زوجته ملزمة بعبء واحد! الا تكون هو الغانمة ؟! أجل والله.

الأسرة الجديدة!

وأعود مرة ثانية إلى الحديث عن تكرار المؤتمرات الخاصة بالمرأة ، دون اهتمام بما يتمخض عنه النقاش، ودون استماع ما الى الرأى المخالف، ففى اللجنة التمهيدية للمؤتمر الذى انعقد فى ١٥ مارس الى ١٤ ابريل سنة ١٩٩٥ بنيويورك كانت مسألة الأسرة الجديدة المكونة من رجلين، او امرأتين مجال نقاش قوبل بالرفض، وكان الموضوع قد عرض من قبل فى مؤتمر القاهرة الذى عقد فى سبتمبر ١٩٩٤، وأحدث دويا صارخا نتج عنه الرفض الحاسم من الدول الملتزمة بشرعة الطهارة والعفاف! لقد كان فى هذا الاحتجاج المؤيد بالشواهد ما يوجب حذف الموضوع نهائيا دون محاولة للإثارة والاستفزاز، ولكن الإصرار المستميت على تحقيق هذا الفساد الموبق قد عاد بالموضوع مرة ثالثة الى مؤتمر بكين «سبتمبر ١٩٩٥ الذى انعقد بعد خمسة اشهر من انعقاد اللجنة التاسعة والثلاثين فى مؤتمر نيويورك ، وقد أشرت اليه من قبل، ليدفع انصاره بقوة مستميتة مواده الى الاقرار بها وها نحن أولاء فى سنة ٢٠٠٠ نرى مؤتمر نيويورك يناقش الموضوع، وكأنه امر جديد يعرض لأول مرة . واني لأتساءل ما جدوى هذه المؤتمرات اذا كانت تبدى وتعيد فى مسائل منكرة ثم ينتهى الأمر بالفشل المحقق. لا لتدرج المسألة فى أكفانها. بل لابد ان تدور الساقية ليبحث الأمر من جديد! فأى إصرار هذا الذى تتجمع خلفه القوى المريضة لتهد دعائم الاستقرار، وكأنها تجاهد فى ميدان شريف!

وكما هو متوقع دائما بدا للعيان ان بعض القائمات على الدعوة الى انهيار الاسرة بمفهومها المتعارف من اللاتى تورطن في زواج الأنثيين . فهن حين يبذلن هذا الجهد المستميت فى الدفاع عن وضع شاذ مريض يحاولن ان يجدن لسلوكهن الشائن مبررا قانونيا أمام الجمهور الملتزم. وقد نسين ان يعرضن لشيء مهم فى هذا المجال، فقد أثبتت الاحصائيات الرسمية ان المنتحرات منهن قد جاوزن كل حد معقول، كما أثبتت هذه الاحصائيات ان الذين عقدوا الصلات الأثمة قبل

الزواج كانوا السبب في دمار محقق، حيث فقدت الفتاة سمعتها وطاردتها الأقاويل، ورأت فيما سمته خيانة «الحبيب» أو الزوج المرتقب، ما سود عيشها فاندفعت الى نهاية لا تحسد عليها! فإذا كان هذا التدمير المريع قد لحق بالمجتمع الاباحي قبل أن يفرض له قانون يجيزه، وقبل ان يصبح شيئا طبيعيا لا نشاز فيه . فكيف إذا تم الأمر على ما يريدون، واتسعت شقة الإباحة فشملت جمهرة الشباب .. ترى كم يكون عدد المنتحرين والمنتحرات اذ ذاك؟! ومن اللافت للنظر ان يعد هؤلاء سيطرة الدين على التربية الاسرية حجرا مفروضا يجب التحلل منه، ولا يعدون فرض آرائهم الشاذة حجرا على الناس، وترويجا لفاحشة تأنف منها الكثرة الكاثرة، أفتكون الحرية حقا مشروعا للآثم يفرض رأيه المشبوه دون إنكار ، ولا يكون للدين حرمته في إقرار التشريع الواقي، وقد مرت القرون خلف القرون فأثبتت صلاحية هذا التشريع. فحقق للمجتمع سعادة شاملة نحاول الآن أن نعمل فيها معاول الهدم، ليشيع الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدى الناس، ثم لماذا لا يتحدث هؤلاء الا عن حقوق المرأة ولا يشيرون اشارة ما الى واجباتها ! نعم نعرف أن للمرأة حقوقا أشرنا اليها من قبل، وندعو جاهدين الى تحقيقها.

ولانفصل في هذا الموضوع بين المرأة والطفل، فالطفل لا راحة له في غير رعاية أمه، والأمومة كالطفولة في حاجة إلى اعتناء تام تسانده القوانين الملزمة! وأكثر الأسر في الشعوب النامية في حاجة إلى العون المادى الذى يجب أن تفرض له القوانين. وكم يكون حسنا من المؤتمر أن يولي ذلك عنايتـــه الحريصة، بدل أن يحصر الأمر، في تمثيل المرأة بالمجالس النيابية، واللجان الشعبية، والمناصب القضائية! لقد اغتصبت النساء كرها في يوغسلافيا والشيشان وأفريقيا، ولم نسمع صوتا واحدا بالمؤتمر يندد بهذا الهول المريع ! ثم أن ارتقاء المجتمع لا يتم الا بارتقاء الرجل والمرأة معا، وأول عوامل الارتقاء تحسين الوضع الاقتصادى للأسرة ! فليكن نشاط المؤتمرات النسائية موجها إلى هذه الضرورات المعاشية ولتنفرج العقول المفكرة عن حلول اقتصادية تفرض معونات الدول الثرية للدول الفقيرة وهنا يستحق المؤتمر أن يعقد، وان تتطلع إليه الأنظار أما أن يعيش القائمون على المؤتمر في أوهام «العالم الواحد» فهذا ما لا يمكن أن يكون، تصديقا لقول الله عز وجل «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين».

شرق وغرب

بقلم : د. محمد عمارة

الإسلام

وصياغة النموذج الثقافى

●● على المستوى الإنسانى، وفى مختلف الميادين، ينهض «النموذج» بدور محورى فى تحديد «الأسوة .. والقدوة» التى تنهض بدور «البوصلة» المحددة والمرشحة لتوجهات الإنسان فى مختلف ميادين الحياة.

ففى الأسرة «نموذج الأب» .. وفى الأمة «نموذج البطل» .. وفى التاريخ «نماذج الانتصارات» .. وفى العلاقات الدولية والإقليمية «نموذج الوطن» .. وفى العقائد والأيديولوجيات «نموذج الدين» .. إلى آخر «النماذج» التى تأسر الإنسان على توجّه بعينه وطريق بذاته عند مفترق الطرق، وتعدد الخيارات .. وفى اللحظة التى يتم فيها اختيار «النموذج»، يحدث الإفصاح والإعلان عن انتماء «الذات»، ومن ثم تميزها عن «الآخر»، الذى عدلت عن اختياره «نموذجا» فى هذا الميدان من ميادين الاختيار. ●●

رفاعة رافع الطهطاوى	محمد على	الخديو عباس







والميدان الثقافي ليس فقط مجرد واحد من هذه الميادين التى يتم فيها اختيار الإنسان «نموذجا» دون الآخر.. بل إن «النموذج الثقافي» يكاد أن يكون، بعد اختياره، والانتماء إليه، والولاء له، المعيار الذى يحدد ويرجح «النماذج» التى يختارها الإنسان فى العديد من المجالات والكثير من الميادين.. فالثقافة التى صنعت هوية الإنسان، هى الموجِّه لاختياراته لنماذج الأسوة ومناهج القدوة والمثل والمعالم التى تجعله يوالى هذا ويعادى ذاك، وينشط لهذا المقصد ويعدل عن سواه، ويضحى فى هذا السبيل ولا يلتفت إلى ما عداه.. و«النموذج الثقافي» هو المحدد «لنموذج المستقبل» الذى يسعى الإنسان لصنعه، وتحقيقه فى الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه.

الذات .. والآخر .. ثقافيا

وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد خلق الناس جميعا من نفس واحدة، فقد اقتضت حكمته، وحتى يتم استباق الناس على طرق الاستعمار للأرض، وتنافسهم فى تحصيل المنافع، وتدافعهم لحيازة الخيرات المادية والمعنوية.. شاء، سبحانه، أن تتوزع البشرية إلى تعددية فى الشعوب والقبائل والأمم والألسن والألوان والمناهج والشرائع، ومن ثم فى القوميات والثقافات..

وإذا كانت «الذات» إنما تعرف بالسمات الثوابت التى تميزها عن «الآخر»، وليس بالمشترك الذى يجمعها بهذا «الآخر»..

وبما أن واقع أمتنا العربية الإسلامية، الحديث والمعاصر، هو واقع الاحتكاك والتدافع الثقافى والحضارى مع النموذج الغربى تحديدا، ودون أى «آخر» سواه.. فإن الحديث عن «الذات» و«الآخر» ثقافيا، لابد أن يقود إلى تحديد المعالم المميزة للنموذج الثقافى الإسلامى - عن النموذج الغربى - دون أن يعنى ذلك إنكار ميادين المشترك الإنسانى العام فى العديد من العلوم والمعارف التى لا تدخل حقائقها وقوانينها وثمرات معارفها وتجاربها فى «المميز للذات الثقافية»، وإنما تدخل فى «الجامع» الذى تتفاعل فيه وتتشارك «الذوات الثقافية» للإنسانية جمعاء ..

فالإسلام هو المكون لذاتيتنا الثقافية، والمحدد لمعالم نموذجنا الثقافى، وتميزنا عن «الآخر» الغربى قائم فقط حيث يكون التميز والافتراق.. الأمر الذى يجعل علاقة نموذجنا الثقافى - الذات الثقافية - بالآخر هى علاقة «التميز .. والتفاعل»، التى هى وسط عدل متوازن بين غلوّين: غلو الإفراط، الذى يرى هذه العلاقة علاقة «قطيعة.. وتضاد».. وغلو التفريط، الذى يراها علاقة «مماثلة .. ومحاكاة» !

فكما تميز «البصمة» الإنسان عن بنى جنسه، مع اشتراكه معهم فى جنس الإنسان، كذلك تتميز الذات الثقافية للأمة عن الذوات الثقافية الأخرى، بتميز النماذج التى يجمع كل منها معالم المغايرة والسمات الفارقة لنموذج ثقافى عن سواه، وذلك دون إنكار أو إغفال لميادين الاشتراك الإنسانى فى كثير من حقائق وقوانين الكثير من التجارب والخبرات والعلم والفنون ..

★★★

وهذه الحقيقة من حقائق علاقة «الذات الثقافية» بـ «الآخر الثقافى» - علاقة «التميز .. والتفاعل» - لا «القطيعة .. والتضاد» .. ولا «المماثلة.. والمحاكاة» - قد غدت، عبر التاريخ، قانونا حكم التقاء واحتكاك وتدافع الثقافات فى سياق تدافع الحضارات.

فالإغريق انفتحوا على المصريين القدماء، لكن تأثرهم وقف عند ثمرات «العقل» دون أن يتجاوزها إلى عالم «الروح» و«الوجدان» ..

والمسلمون انفتحوا على الحضارة الهندية، لكنهم أخذوا عن الهنود الفلك والحساب، دون الفلسفات والثقافات.. وكذلك صنعوا فى انفتاحهم على الفرس، عندما أخذوا عنهم التراتيب الإدارية، ورفضوا مذاهبهم الفلسفية وعقائدهم الدينية.. وعن الرومان البيزنطيين أخذوا تدوين الدواوين، ولم يأخذوا القانون

الرومانى.. وكذلك الحال فى الانفتاح على تراث الإغريق، فلقد أخذ المسلمون العلوم التجريبية التطبيقية المحايدة، وأهملوا النظر فى إلهيات اليونان، بل وأهملوا النظر فى الآداب الإغريقية لما حملت من أساطير وثنيتهم ولما جسدت من روح الوثنية فى ذلك التراث.

وذات القانون نراه فاعلا إبان انفتاح النهضة الأوربية على تراثنا الإسلامى، فلقد أخذوا العلوم التجريبية، التى طورها المسلمون، وأخذوا إبداع أسلافنا فى المنهج التجريبى والملاحظة والاستقراء - وهو الذى فتح به المسلمون باب التجاوز للقياس الأرسطى - .. لكنهم - الأوربيين - لم يأخذوا نموذجنا الثقافى الإسلامى، بل لقد أحيوا النموذج الإغريقى مع استلهامهم من تراثنا العلوم الطبيعية والمنهج التجريبى، فنهضوا كامتداد متطور للإغريق والرومان، ولم يقفوا من نموذجنا الثقافى الإسلامى موقف المحاكاة.. بل لقد كان تعامل النهضة الأوربية مع فيلسوفنا أبى الوليد ابن رشد - الحفيد - (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) نموذجا لإعمال هذا القانون الذى حكم العلاقة الصحية والطبيعية بين النماذج الثقافية المتميزة للأمم المختلفة.. فأخذوا «ابن رشد: الشارح لأرسطو» - لأن هذه بضاعتهم ردت إليهم - ورفضوا - بل وأصدروا مراسيم التحريم - على «ابن رشد: الموفق بين الحكمة الإنسانية وبين الشريعة الإسلامية» .. و«المتكلم، الذى أقام العقيدة الدينية على العقلانية المؤمنة» و«الفقيه الذى كان يقضى بين الناس بشريعة الإسلام وفقهها» .. لأن هذا النموذج الثقافى الإسلامى - أو «الرشدية الإسلامية» - كان مغايرا للنموذج الثقافى «الرشدية اللاتينية» ، تلك التى استبدلت العلمانية باللاهوت، وألهت العقل،عندما أصبحت عبارة: «لا سلطان على العقل إلا العقل» هى شعار فلسفة وفلاسفة التنوير!..

بل إن بواكير نهضتنا الحديثة - وخاصة تجربة مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى - تحت حكم محمد على باشا الكبير (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) - قد جسدت إعمال هذا القانون فى علاقة الذات الثقافية ونموذجها بالآخر الثقافى ونموذجه.

فرفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) هو الذى دعا إلى التتلمذ على أوربا فى «العلوم الحِكْمية العملية.. والمعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقدم الوطنية، لأنها - وإن ظهر

الآن أنها أجنبية - هي علوم إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة»! .. فدعا الطهطاوى إلى التفاعل مع معارف وحقائق هذه العلوم مع إحياء النموذج الثقافى الإسلامي، «بنشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة».

بل لقد أكد الطهطاوى تميز النموذج الثقافى الإسلامى عن النموذج الأوربى، عندما قال إن لهم فى «الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.. وهم من الفرق المحسِّنة والمقبِّحة بالعقل والنواميس الطبيعية وحدهما.. أما نحن المسلمين فليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يُقَبِّحهُ إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع»(١)

فعندما تكون العلاقة صحية، وقائمة على الاختيار الحر، وعلى التكافؤ، بين الحضارات، ينهض النموذج الثقافى بدور المعيار الذى يحدد نطاق «التفاعل.. والاستلهام» وحدود «التمايز.. والخصوصية». فتكون العلاقة الصحية والطبيعية بين «الذات» وبين «الآخر» فى الميدان الثقافى .

ولهذاالوضوح ، فى تميز النموذج الثقافى الإسلامى عن النموذج الأوربى، عند الطهطاوى، وفى تجربة مصر على عهد محمد على باشا الكبير، رأينا الطهطاوى عقب عودته من باريس سنة ١٨٣١ م يقدم إلى المطبعة مشروعين لقائمتين من الكتب: مشروع لإحياء أمهات كتب التراث الإسلامي.. ومشروع لترجمة معارف وعلوم التمدن المدنى الأوربى الحديث..

ووجدنا ، كذلك ، جميع المبعوثين الذين ابتعثتهم الدولة إلى أوربا - فى عهود محمد على وعباس وسعيد - يذهبون للتخصص فى العلوم الطبيعية التى تغير الواقع، ولم يذهب منهم مبعوث واحد ليدرس الإلهيات أو الآداب والفنون أو الإنسانيات التى تصوغ وجدان الإنسان وتشكل عمران النفس الإنسانية، لأن هذه المهمة هى اختصاص النموذج الثقافى الإسلامى دون سواه ! (٢).

فلما انتكست التجربة، وهيمن الاستعمار، انعكست الآية.. فحرمنا من العلم الأوربى الذى نحتاج، وأمطرنا بألوان النموذج الثقافى «الآخر» بدلا من نموذج «الذات» !..

● «النموذج» : هو «التصور» و«المثال» الذى يتحول إلى «معيار» فارق

ومميز – فى النسق الفكرى – لمنظومة فكرية أو عقدية أو حضارية أو ثقافية عن غيرها من المنظومات المتميزة فى «النموذج» و«التصور» و«المثال».

● و«الثقافى» هو جماع ما يعمر النفس الإنسانية ويصوغها ويهذبها، من سائر ألوان الإبداع والعطاء.. إبداع الإنسان وعطاء المحيط.. وهو – «الثقافى» – مع «المدنى» – الذى هو جماع ما يتمدن ويعمر به الواقع المادى، ويرتقى ويتهذب يمثلان جماع «الحضارة.. والعمران» .. فالثقافة عمران النفس الانسانية، والتمدن عمران الواقع المادى.. ولذلك كان «الاشتراك الإنسانى» فى «التمدن» – عمران الواقع المادى – أكثر مما هو فى «الثقافة»، التى هى عمران النفس الإنسانية، إذ فيها تتجلى الخصوصيات بين الأمم والحضارات، لاستعصاء النفس، ومن ثم مقومات تهذيبها وعمرانها على النمطية والقولبة والتكرار الوارد فى عمران الواقع المادى..

● ولأن الإسلام – كمنظومة عقدية، تكون من حولها نسق فكرى – قد مثل «الرحم» الذى ولدت منه الأمة الواحدة.. والدولة الواحدة.. والدار الواحدة.. والصبغة التى صبغت حضارة الأمة وميزتها، عبر الزمان والمكان.. وذلك فضلا عن الوحدة فى العقيدة والشريعة، حتى لكأنما قد خرجت أمته من بين دفتى قرآنه الكريم .. لأن هذه هى المكانة المحورية للإسلام فى حياة الأمة ، فلقد صاغ إنسانها، وحدد له معالم الطريق لبناء العمران الدنيوى، ولضمان النجاة الأخروية.. صاغ الإسلام لإنسانه وأمته المعايير التى لونت الثقافة التى نهضت بمهام العمران والتهذيب للإنسان المسلم، إن فى لحظات التزامه بالنموذج والمعيار والمثال والتصور، أو حتى فى لحظات انحرافه عنه، لأن «الضمير» الذى صاغه النموذج الإسلامى يظل واعيا بأن الانحراف عن هذا النموذج هو الاستثناء الشاذ، والحرام الذى ينتقص من تهذيب النفس وعمرانها، أى من ثقافتها، التى لابد وأن تلتزم التصور وتتغيا المثال.. تلك هى مكانة الإسلام فى صياغة النموذج الثقافى للأمة ..

ولعل الإسلام قد بلغ على هذا الدرب – صياغة النموذج الثقافى .. وصبغه بصبغته – أكثر من المنظومات العقدية والفكرية الأخرى، دينية كانت أو وضعية، لأن الدينى من تلك المنظومات قد وقف فى الغالب عند مهام «خلاص الروح.. ومملكة السماء» ، بينما توجه الوضعى من هذه المنظومات الفكرية إلى «شئون الدنيا» دون سواها.. أما الإسلام، الذى مثل منهاجا

شاملا وجامعا للروح والجسد، للفكر والمادة، للدين والدولة، لعالم الغيب وعالم الشهادة، للدنيا والآخرة، للذات والآخر، للفرد والطبقة والأمة، للتكاليف الفردية والكفائية «الاجتماعية»، حتى لقد جعل الاستمتاع الحلال بزينة الدنيا وطيبات الحياة عبادة لله، وصنف إماطة الأذى عن الطريق فى شعب الإيمان!.. إن الإسلام، الذى مثل بمنهاجه الشامل هذا: الروح السارية فى الحياة الإنسانية، وفى محيطها الطبيعى، وفيما وراء الحياة والطبيعة، قد بلغ فى صبغ الثقافة الإسلامية بصبغته المتميزة الدرجات التى لم تبلغها المنظومات العقدية الأخرى.. لقد صاغ النموذج والمثال والتصور والمعيار، الذى كان التزامه من قبل الإنسان المسلم السبيل لأسلمة الثقافة، التى صاغت النفس المسلمة..

وحتى الأعراف - التى لم يصنعها الإسلام - رأيناه يضبطها، ثم يجعلها مصدرا من مصادر التشريع.. وحتى «الحكمة»، التى هى الصواب البشرى، الذى يصل إليه العقل الإنسانى، رأينا الإسلام يجعلها مناطا للتكليف الشرعى، ويحدثنا عن أنها - كالكتاب - كلاهما تنزيل إلهى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)(٣).

لقد كانت الصناعة الثقيلة للإسلام هى تغيير النفس الانسانية وصياغتها صياغة إسلامية، وذلك لتصوغ واقعها صياغة إسلامية كذلك، أى ليقوم العمران الإسلامى، فى النفس والواقع، فتحقق المقاصد الإلهية من وراء خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض لاستعمارها (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) (٤) .. (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..) (٥).

تلك هى مكانة الإسلام فى صياغة النموذج الثقافى للأمة الإسلامية.

الهوامش

١ - أنظر فى ذلك (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ ١ ص ٥٣٣، ٥٣٤، ١١٤، ١١٥. وجـ ٢ ص ١٥٩، ٧٩. دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

٢ - أنظر: عمر طوسون (البعثات العلمية فى عهد محمد على وعباس وسعيد) ص٢٣، ٢٤، ٢١٩، ١١، ١٦٢، ١٦٣، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤م.

٣ - البقرة: ١٥١.

٤ - البقرة: ٣٠.

٥ - هود: ٦١.

أقوال معاصرة


ادوارد سعيد


د. محمد غنيم


المخرج توفيق صالح

«العالم العربي هو البقعة الوحيدة على الكرة الأرضية التى تبدو وكأنها خارج الزمان والمكان»

المفكر الفلسطينى ادوارد سعيد

«النقاش العقيم الذى يجرى فى مصر الآن حول قضية نقل الأعضاء هو الهزل بعينه، حيث لا مكان للهزل»

العالم والجراح د. محمد غنيم
رئيس المركز الطبى بالمنصورة

«حياتى صنعت كى أطلق النكتة أضحك بها الآخرين»

نجم الكوميديا الإيطالى البرتو سوردى

«حين يتحول الفنان إلى صنم يكرّم، نادرا ما يتمكن من أن يتابع مسيرته الفنية»

المخرج المصرى توفيق صالح

«اكتشفت بالتجربة ان ما اكتبه لنفسى يعنى الآخرين أيضا»

الأديب السعودى عبد الرحمن منيف

«ليتنى تعلمت صنعة مفيدة، واشتغلت نجارا، ولم تصبنى لعنة الأدب والكتابة»

الأديب السودانى الطيب صالح

«شعرى لا يناهض السلطة، الااذا كانت تناهض الشعب!!»

الشاعر أحمد فؤاد نجم

«كلما نقص شعور المرء بالأمان والاطمئنان زاد تحامله وظلمه»

الممثل والمخرج الامريكى كلنت ايستوود

«لا يغلق فى وجهى باب، الا وكان وراءه الشيطان»

المفكر الإسلامي د. عبد الصبور شاهين

«يمكنكم نزع السلاح من يدى عندما تصبح ميتة»

شارلتون هستون
الممثل ورئيس الاتحاد
الوطنى للسلاح
دفاعا عن حرية حمل السلاح فى الولايات المتحدة

في الذكرى الأولى لرحيله

شكري عياد والتحرر من السياسة

بقلم : د. عاصم الدسوقى

فى الرابع والعشرين من يوليو ١٩٩٩ رحل عن عالمنا شيخ المفكرين والنقاد الأستاذ الدكتور شكرى عياد، والذى أثرى حياتنا بآرائه وفكره المستنير.

لقد افتقدناه على صفحات «الهلال» التى أحبها وأعطاها كل ما جادت به قريحته فى السنوات العشرين الأخيرة من عمره.. وننشر هذا الموضوع فى ذكرى رحيله.



لم يكن شكرى عياد سياسيا، ولم يتمن أن يكون كذلك يوما ما. ولم يكن محبا للسياسة، فقد نأى بنفسه عنها اختيارا واحتراما لذاته. وظل ناقدا أديبا أكثر منه أديبا مجازفا يبحر بأفكاره الخاصة وسط أنواء الابداع، تتلقى شراعه سهام النقد من كل حدب وصوب. وآثر أن يكون ناقدا للآخرين لا منتقدا منهم. ولم يكن مؤمنا بالتاريخ كما يكتب، وهو حجر الزاوية فى الوعى بالسياسة، ولكن كانت له رؤاه الخاصة فيما عاصر من أحداث حينما كان تلميذا بالمرحلة الثانوية، ثم طالبا بالجامعة يدرس الأدب ويرى السياسة من خلال شخصيات ما يقرأ من روايات تقوم على وقائع فى التاريخ.

والقارىء لبعض ذكرياته فى «العيش على الحافة» (نشرها عام ١٩٩٨)، يخرج بهذا الانطباع العام بعد جهد مضنى فى اكتشاف ماوراء السطور، حيث الغموض يكتنف ما يتعلق بالتاريخ السياسى، فى مقابل الوضوح التام والصراحة الصارخة فى موضوعات الحياة العامة والشخصية على وجه الخصوص، وحتى لا يفتح عليه باب النقد فيما يتعلق برؤاه السياسية، فانه يكرر عبارة «انه يتناول تاريخ ما أهمله التاريخ أو أن التاريخ ليس صناعته..» وقد كان قلقا وحائراً بين أن يتمثل بالشعراء والأدباء الذين يقرأ عنهم ولهم ليكون واحدا منهم، وبين أن يتمثل بالزعامات السياسية التى قلبت أوضاع بلادها وأسمعت الدنيا، حائرا بين «فردينه الفظيعة» وأحلامها، وبين الحلم الجماعى الذى مثلته حركات كبيرة فى التاريخ مثل ثورة كرومويل فى انجلترا، والثورة الفرنسية، ومبادئ الاشتراكية كما بشر بها الرعيل الأول من الماركسيين فى مصر، ثم أحمد عرابى فى مصر، وموسولينى فى ايطاليا، وهتلر فى المانيا.

غير أن قراءاته لأعمال محمد حسين هيكل حولته فى النهاية من البحث وراء قادة الجيوش ومؤسسى الدول الى قراءة تراجم الأدباء من الشعراء والمفكرين. وبعد أن كان يتمثل كروموبل، أصبح يحلم بأن يكون شاعرا مثل شلى. أما أفكار الثورة الاجتماعية والسياسية فقد اكتفى بأن يعيشها «فى الأحلام» لتداعب خياله الخصب اليقظ .

كانت الثلاثينيات هى فترة تكوينه الفكرى واستقراره الوجدانى حيث مرحلة الدراسة الثانوية والجامعية. وكانت الثلاثينيات فى مصر هى فترة المفاوضات السياسية بين الحكومات المصرية المتعاقبة والحكومة البريطانية حول المسائل المعلقة من تصريح فبراير ١٩٢٢ الخاص باستقلال مصر، وهى مفاوضات كانت تنتهى مع كل حكومة بالاخفاق، ومن ثم بالاستقالة لتدور الدائرة على الوزارة التالية وهكذا.. وهى الفترة التى شهدت قيام اسماعيل صدقى بالغاء دستور ١٩٢٣ وفرض دستور ١٩٣٠ يعطى للملك سلطات مطلقة أكثر مما كانت له فى



دستور ١٩٢٣، وهى الفترة ايضا التى شهدت نشاط جماعة الاخوان المسلمين، وجمعية مصر الفتاة، واحياء النشاط الشيوعى بعد فترة كمون قصيرة فى أعقاب ضرب وزارة سعد زغلول للحرب الشيوعى فى عام ١٩٢٤.

وعلى هذا كانت ساحة العمل السياسى الوطنى آنذاك تشهد أمواجا متلاطمة دون استقرار على يقين، وتشهد صراعا حادا بين قوى سياسية مختلفة بعضها أصيل وبعضها واجهة لقوى أخرى. وتشهد ملاحقة السلطات لعناصر المعارضة من كل نوع ومطاردتها حيثما تكون. ومثل هذه التنويعات بتناقضاتها تزيد من حيرة الانسان فى تبين الصواب لاختيار الانتماء، فما بالنا بصبية المدرسة وشباب الجامعة.

ولقد أدى تدافع أحداث الفترة وزخمها واختلال المعايير التى تقاس بها الحركة، الى أن يعتقد شكرى عياد ونفر من زملائه ان مستقبلهم يتحدد بين اختيارين لا ثالث لهما .. اما ان يصبح الواحد منهم ضابطا، واما ان يكون معتقلا. ولعل «الضابط» هنا اشارة إلى السلطة السياسية، و«المعتقل» كناية عن المعارضة السياسية التى تفضى إلى السجون.

التوجه إلى النازية

وآنذاك كان هتلر وموسولينى فى أوج مجدهما كما يقول شكرى عياد، ولم يكن يرى فيهما شأن كثيرين من أقرانه «الا أنهما زعيمان وطنيان يتحديان دولتى الاستعمار (فرنسا وانجلترا)، وعلى حين كان موسولينى غير محبوب «لتاريخه الأسود فى ليبيا والحبشة» كان هتلر محترما لأنه «صافح خضر التونى فى أوليمبياد برلين والتقى به أحمد حسين». وقد رأى شكرى عياد أن التوجه الى النازية يعبر عن طموح الجيل الجديد لتحقيق الاستقلال التام ومع ان جمعية مصر الفتاة، ومؤسسها أحمد حسين، الممثلة للتوجه النازى، اكتسبت شعبية بفضل مشروع القرش الذى جمع حوالى

ثمانية عشر ألف جنيه رغم الازمة الاقتصادية، الا ان شكرى عياد رأى فى بداية المشروع بمصنع الطرابيش طفولة فى التفكير»، لأن الطربوش «أثرا من الاحتلال التركى.. رغم انه كان يلقب بتاج الوطنية».

هل مثل هذه الملاحظات والاختيارات عند شكرى عياد تعود إلى تأثير مدرسى التاريخ والجغرافيا فى المدرسة؟.. لم يكن الأمر كذلك كلية، فإنه يؤكد فى أكثر من موضع بأن هؤلاء الأساتذة لم يكونوا «يتكلمون فى السياسة» ، ولكنهم من خلال الدروس كانوا يملأون التلاميذ «اعتزازا بتاريخ مصر وكفاح الشعب، وثروة مصر الطبيعية التى يسرقها الأجانب»، وهو يبرىء أساتذة المدرسة اولئك من الميول النازية حتى ولو بطريق غير مباشر من خلال الدروس، ذلك أنهم فى رأيه كانوا من الجيل الذى شهد ثورة ١٩١٩ والمعركة حول الدستور، وإن كان هذا فى تقديرى ليس شرطا، لأن الجيل العمرى الواحد لا يكون بنمط فكرى واحد ، فالجيل الذى شهد ثورة ١٩١٩ انشطر بين أفكار وتوجهات سياسية متناثرة بين يمين ويسار .. الخ.

هل تعود هذه الملاحظات الى مادة التربية الوطنية التى كان يدرسها فى الثالثة ثانوى.. ربما.. ولكن هذه المادة كما قدمها شكرى عياد فى ذكرياته عمادها دستور ١٩٢٣ مذيلا بدستور ١٩٣٠ باعتباره تعديلات على الدستور الأصلى، وهو نفسه قد رأى فى هذا التذييل ايهاماً بأن قيود دستور ١٩٣٠ مجرد تعديلات لدستور ١٩٢٣ ولست الغاء له. مع ان نصوص دستور ١٩٢٣ جملة وتفصيلا وضعت فى صالح الصفوة الاجتماعية الحاكمة آنذاك من جماعة كبار ملاك الأراضى الزراعية والعقارات، وأصحاب رؤس الأموال التجارية والصناعية.

على أن فضيلة الاعتزاز بالوطن الذى امتلأ به شكرى عياد مع أقرانه من دروس التاريخ والجغرافيا، يعود الى مؤثر اخر كما نلمسه من ذكرياته، ويتمثل فى بعض أساتذة المدرسة فى سنة خامسة ثانوى من الانجليز ذوى الأصول الاسكتلندية والايرلندية الذين كانوا يكرهون الانجليز



بل ويحـــاربونهم، ولـم يـكـن الـدرس يــخـلــو مــن اسقاطات سياسية هـنـا وهـنـاك علـى الوجود الانجليزى فى مصر .

واذا كانت مشروعات مصر الفتاة عند شكرى عـيـاد تمثل «طفـولة فى التفكير» على نحو ما سبقت الاشارة، فـان العنف عنده أيضـا أمـر «يصاحب تحولات المراهقة»، وأكثر من هذا فانه مع المراهقـة «يصـبح الدافع الوطنى أو مـا يشبهه مجرد مبرر لظهور نزعة العنف»، حتى أن شكرى عياد الذى لم يقـتل فى حياته دجاجة (اعترف بأنه قتل فأرين)، كان يضع تحت مخدته خنجرا، وكان ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية عندما تكونت «عصابات» لاغتيال الجنود الانجليز هل يريد أن يقــول لنا ان العــمـل الوطنى المصحوب بالعنف نوع من المراهقة؟!.

وتكشف الذكـريات ان الوعى بعـدم جدوى العنف أو عدم بصيرته، نشأ عند شكرى عياد مبكرا، اذ أنه لم يشـترك طوال حياته الا فى مظاهرة واحدة عندما كان تلميذا فى مدرسة أشمون الابتدائية ضد وزارة محمد محمود عام ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ، المعروفة فى تاريخ مصر بحكومة اليد الحديدية حين تعطل البرلمان، وعاد الى منزله بعد المظاهرة وقد انحـبس صوته لا يستطيع ان يخرج حرفا سليما. وعندما كان فى التوجيهية كان زملاؤه فى فصل خامسة أدبى يتزعمون المظاهرات ليس فى مدرسة شبين الكوم فقط، وانما فى مدينة شبين كلها. ولكنه حتى لا يبدو شاذا بين اقرانه فى الفصل حدد لنفسه دوراً محدوداً بحيث يبدو مشاركا أصيلا أمام الغير، وغير متورط فعليا امام نفسه. اذ كان يلتقى عصر كل يوم مع زملائه عند مكتب البريد قرب السـوق لترتيب مـا سيفعلونه فى الصباح، وبعد أن يقوم بدوره المحدود وتنطلق المظاهرة يذهب عائدا الى بيته .

هكذا كان موقف شكرى عياد مبكرا من السياسة والعمل السياسى، فهو لا يمكنه كما يقول أن يفخر بأنه جرح فى مظاهرة، أو حجز يوما فى قسم البوليس، أو استدعى لتحقيق سياسى أو سجن أو

اعتقل .

اعجاب بقصة مدينتين

ومنذ البداية نراه غير مقتنع بدور للفرد البطل فى التاريخ وأنه محور حركة الحوادث . ففى المدرسة كان يردد درس التاريخ وراء المدرس، ويحفظه عن ظهر قلب، ويعيده على نفسه فى الليل وقت المذاكرة. ولكن دون اقتناع حقيقى ببطولة رمسيس فى موقعة مجدو، ويعلق على ترديده للدرس قائلا «ولا يخطر ببالي ان الحكاية كلها نخع (اى مبالغات شديدة)، وأن أبطال هذه المعركة الحقيقيين كانوا أناسا بسطاء من شعب مصر». وكان يضجره تقديم وقائع التاريخ بوجهة نظر راويها.. فالثورة الفرنسية فى رواية انجليزية مقررة للروائية الانجليزية «البارونس أوركزى»، وكانت شخصية معادية للثورة الفرنسية «قصة جميلة لم تتعقد الا حين تعقدت الأمور بين مارا وروبسبيير (عهد الارهاب)، ودخل فيها الزنبقة الحمراء» وهو نبيل انجليزى يمثل دور الأبله أدخلته الكاتبة فى الرواية لكى ينقذ الأرستقراطية الفرنسية المعذبة». ثم تعقدت المشكلة أكثر أمام التلميذ شكرى عياد على يد كاربليو استاذ اللغة الانجليزية الذى يشرح الرواية، لأنه من اصل ايطالى ويحقد على الارستقراطية الانجليزية الفرنسية، ويبغض تلك الروائية أشد البغض ويسخر من خيالها السقيم الذى يجعل نبيل انجليزى ينقذ الارستقراطية الفرنسية. ولكن هذه الرواية ذاتها أعجبت جمال عبدالناصر (لم يذكره شكرى عياد صراحة ولست أدرى لماذا!!)، وهو طالب بمدرسة العباسية الثانوية بالأسكندرية، واستوحى منها رواية عن معركة رشيد أسماها «فى سبيل الحرية»، مع أن الرواية الانجليزية كما يلفت نظرنا شكرى عياد ضد الثورة الفرنسية. ولكن التلميذ شكرى عياد يستحسن رواية «قصة مدينتين» لتشارلز دكنز، وهى رواية كانت مقررة أيضا عليه فى التوجيهية.. لماذا؟ لأن الروائى لم يتحيز لفريق دون آخر، فقد كان فيها شىء من وصف الباستيل (اشارة لفرنسا قبل الثورة)، وكثير من وصف حفلات الجيلوتين (اشارة الى فرنسا الثورة).



أما بالنسبة لتاريخ مصر المعاصرة فقد توقف شكرى عياد كثيرا أمام الفترة بين عامى ١٩٣٥ ـ ١٩٤٢، وهى سنوات الجبهة الوطنية وعقد معاهدة ١٩٣٦، وإقصاء الوفد عن الحكم وتربع حكومات القصر، واندلاع الحرب العالمية الثانية. وهى ايضا سنوات دراسته بالجامعة شابا يافعا. لكننا نراه وقد امتنع عن المشاركة السياسية،. وأخذ دور المراقب ربما ليتثبت من فروضه فى شأن التاريخ وتفسيره. وعنده ان معاهدة ١٩٣٦ التى كانت وراءها الجبهة الوطنية التى صنعها الطلاب بمظاهرات نوفمبر ١٩٣٥ قد «تحمس لها محبو الانجليز، وسخرت منها براعم النازية التى أخذت تلتف حول القصر، ولكن الرأى العام رأى فيها انتصارا للحركة الوطنية وخصوصا حين تبعها الغاء الامتيازات الأجنبية ١٩٣٧». ورغم أن الوفد كان القوة الكبرى فى عقد المعاهدة، الا أن رجال القصر كما استشف شكرى عياد، كانوا «يريدون تنحيته عن الحكم بعد أن خرج الانجليز من اللعبة» (بعقد المعاهدة)، وان الطلاب الذين اشعلوا شرارة الحركة الوطنية وقاموا بدور مهم فى جمع الاحزاب «أصبحوا مجرد أبواق مستأجرة، للايهام بان هناك حركة شعبية ضد الوفد، بينما كانت هناك قوى أخرى تحرك الأحداث».

الأزهر حنيف للقصر!

وفى هذا يقول شكرى عياد أن قوة الأحزاب كانت تتراجع بدليل «إن إقالة حكومة الوفد فى ١٩٣٧ وحل البرلمان، لم يحدث هزة فى البلاد، وأن البرلمان الجديد الذى تخلفه أقلية وفدية لم يكن له صوت مخالف لصوت الوزارة التى كان القصر يؤلفها ويقيلها كما يشاء»، وهو أمر جعله على يقين مبكر من أن القصر كان هو الذى يحكم، وتساءل بينه وبين نفسه قائلا: اذا لم يكن الملك الذى يلتف حوله رجاله قويا، يختل نظام الحكم ذلك أن الأوتوقراطية الملكية أيضا لها نظامها وشروطها. ومن هنا كان لابد من اعتماد القصر ورجاله على قوى جديدة تساعد على استقرار النظام. وكان الجيش فى مقدمة هذه القوى حتى لقد «اخترع عيدا قوميا سمى يوم الجيش، وتحول شعار

الجيش من : «الله ـ الوطن ـ الملك الى : «الله ـ الملك ـ الوطن» . وكان الأزهر ـ كما رأى شكرى ـ يمثل حليفا تقليديا للقصر فى صراعه مع الوفد ، لكن جماعة الاخوان المسلمين كانت قد بدأت تستقطب الجماهير، فحاول القصر احتواءها . وكانت القوة الثالثة هى قوة الدعاية التى أظهرت النازية أهميتها فى صورة جوبلز وزير الدعاية خصوصا ان الاذاعة فى مصر اصبحت تحت سيطرة الدولة.

وقد [illegible] شكرى عياد الى ان الفترة من ٧ [illegible] ـ ١٩٤٢ من تاريخ مصر اثبت فيها رجال الأحزاب عدم ايمانهم بالديمقراطية ، وسيطرت فيها الدعاية على أذهان الناس، وأصبحت القوة الغاشمة وحدها هى وسيلة الحفاظ على الحكم وفى الوصول اليه. وفى صيف ١٩٣٩ قال شكرى عياد لزميله محمود الشنيطى تعليقا على الموقف السياسى «انه لم يعد للملك الا بنادق الجيش كى تحميه وسيكتشف الجيش يوما ما انه يمكنه ان يحول فوهات هذه البنادق إليه». وكانت تلك نبوءة مستقبلية من انسان مراقب للحوادث، غير متورط فى السياسة، وغير مهموم الا بالحرية التى عشقها وظل يحلم بها. ويراها منيعة حتى «صار أقرب الناس اليه كما لو كانوا هم ألد أعدائه».

لماذا لم يتورط شكرى عياد فى السياسة شأن أغلب شباب جيله، وينتمى الى أى تيار سياسى يمينا أو يسارا؟!. هل هذا يعود الى توبيخ والده له أمام ناظر المدرسة وهو فى التوجيهية وصفعه بشدة على وجهه بسبب الفوضى التى عمت المدرسة واحراق معمل الطبيعة والكيمياء ومسئولية فصل خامس أدبى عن هذا العمل وهو أحد طلابه واستدعاء الناظر لأولياء أمور الطلاب؟!. أم أنه يعود الى كراهية شكرى عياد للنمطية فى أى صورة من صورها، وعدم حبه لأن يكون نسخة من آلاف نسخه أو مئاتها أو حتى عشراتها . ومن هنا كان لا يهتف اذا هتف الناس، ولا يصفق إذا صفقوا الا رعاية للمظهر، ولا يقول آمين وراء الامام فى الجامع الا لتصح صلاته !

غير أن هذه الفردية أو هذا التفرد لم يكن يرمى من ورائه الى حب الظهور على طريقة خالف تعرف، ولكنه «الحياء الشديد حتى لقد كان يشعر بتفاهة شخصه». وكان شكرى عياد فى هذا غاية فى القسوة على نفسه والشدة معها. مع انه فعل الكثير الذى يجعله فى موضع الفخر بنفسه، ومحل التقدير من الآخرين.

حاضر الشعر ومستقبله فى مصر

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

دون مواربة ولا مجاملة، خفت صوت الشعر فى مصر، وكاد الناس ينسون هذا الفن الجميل، ولم تعد له تلك النشوة التى كانت، حين يعبر عن ذات قائله، أو يترجم عن معاناة قومه، وما أكثر ما نعانى فى شتى مجالات الحياة الآن، داخليا وخارجيا، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، على مستوى الفرد ومستوى الجماعة ، وطنيا وقوميا، ونفتش عن بيت شعر معاصر نترنم به لحظات الضيق، عله يخفف مما نعانى، ويهدهد من قسوة الاحساس بالألم والمأساة، فلا نجد غير ما قال المتنبى أو شوقى وحافظ، أو الجواهرى أو عبدالله البردونى.



أحمد شوقى



محمود سامى البارودى



حافظ ابراهيم

تصحر وادى الشعر، وخلا من الأشجار الباسقة المظلة، تتفيؤها ساعات القيلولة ، إلا من شجيرات مبعثرة هنا وهناك، تعانى لفح الإهمال، وجفاف الحصار، ومن نبيتات واعدة، تحاول أن تشق طريقها وسط الصخور، رهينة الحظ والصدفة، قد يواتيها الغيث فتشتد وتقوى وتثمر ، وربما وأدتها عوادى الإهمال والغيرة فجفت ولما تعط من ثمارها إلا أقل القليل.

اختلطت الأمور

ما الذى انتهى بنا إلى هذه الحال؟

يقول علماء الاقتصاد، العملة الزائفة تطرد العملة الصحيحة من السوق، ولا تحتاج إلى جهد كبير لتدرك أن الساحة خلت من الشعراء الكبار، الذين ينشدون ويمتعون ويخلد قولهم، ويبقى فيها أناس بلا تاريخ ولا حاضر وأشك فى أن لهم مستقبلا ، يرفعون شعارات عريضة لا يعرف أحد غيرهم ماذا تعنى ، واختلطت الأمور على المبدع والمتلقى والناقد فيما أحسب، فلم يعد لها مفهوم واضح .. ما الشعر وما النثر، ما الرواية وما التاريخ، ما القصة وما الحكاية. وكلها فنون تستخدم الكلمة، وأى إنسان يجيد القراءة يخط كلاما كيف ما اتفق، ويختار له العنوان الذى يحب، ويصنفه فى النوع الأدبى الذى يعجبه. فإن لم يجد فلا بأس أن يخترع لنفسه نوعا أدبيا جديدا، وهكذا أصبح النثر شعرا، والزجل شعرا، والتاريخ رواية، والحدوتة قصة. وفى زحمة الإدعاء وغلبة المغالطة، غابت تماما حقيقة هامة، كانت وراء تعلق كثيرين بأذيال

الشعر، حتى ولو كان الكلام الذى ينظمونه سخيفا سمجا، يفتقد الموسيقا والتصوير والمعنى، وهى: أن النثر ليس بأقل قدرا ولا قيمة ولا فنا، وأن الناثر المتميز كالشاعر المتميز ، وأن النثر الممتاز يغرى بالقراءة أيضا، ويفرض نفسه على ذاكرة الزمن، وكل ما فى الأمر أنه يحتاج إلى عقل أمضى، وفكر أوسع، وتمكنا لغويا أثرى، وليس فيه وسط يصبح أدبا، على حين أن ساقط الشعر وغثه وأرذله لا يكلفك إلا بعض جمل تكتبها رأسيا، ولا بأس أن تشغل النقاط وعلامات التعجب والاستفهام أوسع مساحة فيها، وأنت محصن وراء التجديد والغموض والرمز، ومن لا يفهمك، ويؤمن بك، فهو جاهل متخلف، أو تراثى متأخر، ومثل هذا لا يتاح فى النثر، لأنه أداتنا جميعا فى التعبير.

إن أبا العلاء المعرى ناثرا ليس بأقل منه شاعرا، والمتنبى ليس بأخلد من أبى حيان التوحيدى أو الجاحظ ، وشوقى أمير شعراء العصر الحديث ليس بأوسع شهرة من معاصره لطفى المنفلوطى، فى حياتيهما وبعدها، وديوان شوقى، على كثرة ما يطبع منه الآن، ليس بأكثر رواجا وتداولا من «العبرات» «والنظرات» للمنفلوطى، وجائزة نوبل العالمية لم ينلها شاعر عربى، وإنما نالها ناثر روائى، أعنى بالطبع نجيب محفوظ.

البارودى وشوقى

إن مبدعى هذا الزمان، فى جملتهم يريدون أن يكتبوا قبل أن يقرأوا، وأن ينظروا قبل أن يدعوا وهذه مهمة الناقد، وقصارى ما يقرأون صحيفة يومية، أو مجلة أسبوعية، أو كتابا من هذه السلاسل التى تصدرها الثقافة الجماهيرية، أو هيئة الكتاب، وفيها القليل المفيد، وأغلبها يورث البلادة والتسطيح. كان محمود سامى البارودى شاعر الاحياء يحفظ من الذاكرة، وينسخ بخط يده فى عصر لم تكن فيه المطبوعات شاعت، دواوين معظم كبار شعراء العربية فى أزهى عصورها ، وترك لنا مجموعة ما قرأ وحفظ ونسخ فى كتاب من ثلاثة أجزاء، يحمل اسم «مختارات البارودى» ، وكان أمير الشعراء شوقى متمثلا لروائع الشعر العربى فى مختلف عصوره، متمكنا من دقائق اللغة وغريبها ، مميزا بين طرائق تعبيرها، وهو أمر لا يتأتى إلا لإنسان حفظ ووعى خير ما فى لغة أمته فى أشد عصورها ازدهارا وشموخا.

وهناك رافدان ثقافيان آخران مهمان إلى جانب التراث، يصقلان التجربة ، ويعمقان الإبداع ، ويضفيان على الفكرة بعدا إنسانيا شاملا، وهما: كتاب الحياة، والثقافة الأجنبية. وأحدهما إذا عظم قد يعوض الآخر ، والجمع بينهما يبلغ

بصاحبه القمة، ولكن افتقادهما يجعل تجربته مسطحة بعيدة الغور.

أعني بكتاب الحياة الغوص فيها بكل أبعادها وجهاتها، والمشاركة في أحداثها والاحساس بهموم الآخرين حوله، وأن يعد نفسه واحدا من كل، وهو ما يعبر عنه الشاعر العظيم عبدالله البردوني في شفافية باللغة الجمال:

وأنا يا قلب أبكي إن بكت
مقلة، كانت بقربي أو ببعدي
وأنا أكدي الورى عيشا على
أني أبكي لبلوى كل مكد
حين يشقي الناس أشقى معهم
وأنا أشقى كما يشقون وحدي
وأنا أخلو بنفسي والورى
كلهم عندي، ومالي اي عندي

الروافد الثقافية

والرافد الآخر: الثقافة الأجنبية، ومفتاحها التمكن من إحدى لغاتها، وأي واحدة منها تكفي، وإن تعددت أفضل، وهو أمر خاص بكل إبداع، وليس بالشعر وحده، والترجمات في هذه الحالة تعين ولا تكفي، ولا تغني عن قراءة الأصل، وليس صدفة أن شعراءنا العظام كانوا على صلة بأكثر من رافد ثقافي، كان البارودي يجيد الفارسية والتركية ويشعر فيهما، وكان شوقي يجيد الفرنسية والانجليزية ويلم بالتركية، وهذا القول نفسه يصدق على إبراهيم ناجي وحافظ إبراهيم وعلى محمود طه وأحمد زكي أبو شادي وخليل مطران ونزار قباني وعمر أبو ريشة وعبدالرحمن شكري، وآخرين كثيرين.

والأمر ليس وقفا على الشعر وحده، وانما يتجاوزه الى الرواية والقصة والمسرح والنقد، وهو ما يفسر لك سبب تفوق الحكيم، وإحسان عبدالقدوس ويوسف إدريس و غادة السمان ومحمود تيمور، وغيرهم، على حين ظل آخرون ممن لا يحسنون كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني يجترون جملا إنشائية بليغة، ويرددون حكايات تاريخية مملة، وبعد مرور نصف قرن على ابداعهم الأول، لايزالون عند النقطة التي انطلقوا منها، وأحسب إنهم لن يتجاوزوها مستقبلا.

والأمر في ساحة النقد ليس بأفضل منه في ساحة الإبداع، فنحن نفتقد الناقد الصلب الذي نعرفه في شخصية العقاد، صاحب مذهب وموقف، في الفن وفي السياسة، لا يداهن ولا يداجي ولا يجامل، يدافع عما يؤمن به، ويقرر ما يراه حقا، لا يهن ولا يضعف ولا يساوم، مهما كانت المغريات والضغوط، والسبب فيما أرى أن العقاد كان مثقفا حقيقيا، يرتكز في حركته على دعائم قوية من استيعاب التراث في شتى فنونه، وتمثل الجديد في مختلف روافده، وعنده جواب لكل سؤال،

وليس طامعا في جاه كاذب، أو شهرة خادعة، الطريق إليهما مفروش بالمجاملة والنفاق. لقد جعل، كما يقول هو نفسه، الثقافة شيئا مستقلا، قائما بنفسه لا حاجة لصاحبها بلقب أو شهادة او منصب، يكفيه أن يكون مثقفا.

أديب يصنعه الإعلام!

ودور الإعلام بالغ الخطورة في تلميع الواقع الثقافي، وإظهاره في صورة لا تنطبق على الواقع، حين يزكي الخامل، ويجلو الصدىء، ويركز الأضواء على من لا مواهب لهم . فيملأ الأفق بإبداع نتاج لحظة خادعة، ما أن تتخلى عنه ابواق الدعاية حتى يجد نفسه في زوايا المهملين، وكان العالم الجليل الدكتور زكي نجيب محمود يقول عن أمثال هؤلاء: «هذا أديب صنعته وسائل الإعلام»، يعني دعك منه، لا تعطه من الأهمية إلا ما تعطيه لإعلان مأجور تقرؤه أو تسمعه، وأدى ذلك الى تلاشي الحدود الفاصلة بين طبقات المبدعين والنقاد فأصبحوا كلهم سواء: الشاعر العظيم والناقد الموضوعي والروائي العالمي، والشعرور والثرثار والدعي ، والراقص على كل الانغام، وحين يستوي الخبيث والطيب، في مجتمع ما ، تخمد جذوة الاجادة، وتموت روح المنافسة، ويصبح الامر كما يقول مثلنا العامي «كله عند العرب صابون»!.

الخروج من ظلمة النفق!

هل معنى هذا أنه : «مفيش فايدة»؟

أعوذ بالله ان أكون من المتشائمين ، ولكن معناه ان الأمر جد لا هزل فيه ، وأن الخروج من ظلمة هذا النفق يتطلب جهدا جادا مضنيا، لا تخرجنا منه عشرات المؤتمرات ذات الصبغة العالمية، يرتادها عادة مجموعة من المحترفين في اقتناص هذه الفرص، وتنفق عليها عشرات الملايين من الجنيهات، ثم ينفض السامر عن لا شيء ، ولا مئات الندوات تقام كل ساعة على امتداد أيام الأسبوع لا يقبل عليها أحد، لأن الناس فقدوا الثقة في أي تجمع رسمي، وإنما الطريق اليها ان ندرك بوعي ان الفن لا يسير في خط مستقيم صعودا او هبوطا، وإنما يعرف ما يسمى بمراحل التحول، وطريقنا إلى النهضة أن نعي تخلفنا جيدا، أسبابه وظواهره وللنهضات قوانينها التي لا تتخلف . ويعرفها العالم أجمع ، رغم اختلاف البيئات وتطور وسائل المعرفة، وتقدم أدواتها ووسائلها، ولكن القاعدة تظل ثابتة دواما. ورغم ما حققناه من إنجازات ومن تقدم هائل في حياتنا ، لا يمكن القول بأن الذكاء قد زاد عما كان عليه منذ خمسة آلاف عام، وبأننا أذكى مما كان عليه المهندسون في مصر الفرعونية، او فلاسفة اليونان، او الشعراء

العرب فى عصر الجاهلية، وانما يعود الى تقدم العلوم نفسها، فقد حلت مسائل كثيرة، واكتشفت مبادىء جديدة، واتضحت المناهج، وازدادت سهولة، وهي تسمح بالبدء من نقطة متقدمة والسير على طريق اكثر امنا، لان كثيرا من النظريات والفروض أصبحت حقائق.

تتميز عصور الصحوة، او النهضة اذا شئت بالفضول البالغ لمعرفة كل الأشياء المتصلة بالإنسان والكون، والرغبة العارمة فى بعث التراث، بالعودة الى ما كان منه مخطوطا ونخله وتحقيقه، ونشره ودرسه، وتيسيره للناس كافة، واستيعابه وتمثله، ونسخ الرائع من آثار الماضى وحفظها، وتصبح دراسة القديم مظهرا للرقي، وهدفا لمثقفي المجتمع، ومعها تنتشر المكتبات والمتاحف.

والجانب الثانى المهم الى معرفة ما عند الآخرين، فتنشط الترجمة الى لغتنا «وليس منها» من كل اللغات، وفى كل الفنون ويهما معا تشعر الامة بذاتها، ويتنازعها عاملان فاعلان كلاهما مفيد: القومية ممثلة فى التراث والعالمية ممثلة فى الترجمة، ومن تفاعل القوتين تولد النهضة. حدث هذا فى النهضة العربية الإسلامية التى بلغت أوجها فى القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، وفى النهضة الاوربية التى ظهرت طلائعها فى ايطاليا فى القرن الخامس عشر الميلادى، وفى نهضتنا الحديثة، التى شغلت القرن التاسع عشر الميلادى.

أين نحن من الماضي الجميل؟!

فى مطلع القرن العشرين كانت المدارس الالزامية تحفظ تلاميذها اجزاء من القرآن الكريم «لا صلة لذلك بالكتّاب» وتصرف للفرق المتأخرة كتابا يحمل عنوان «مجموعة النظم والنثر» يضم قصائد لشعراء من مختلف عصور العربية، اذكر من بينهم : لامية الطغرائى، وقصيدة لعبد الله باشا فكرى، ووصية ابن سعيد المغربي لابنه حين اعتزم الرحلة، ورسالة عمر بن الخطاب لابى موسى الاشعرى فى القضاء، ونصوصا اخرى شعرية ونثرية.

وكان تلاميذ المدارس الثانوية ، ولا احدثك عن طلاب المعاهد العليا والكليات، يدرسون فضلا عن الكتب المقررة: كتاب المكافأة لابن الداية ، والبخلاء للجاحظ ، ومهذب رحلة ابن بطوطة، ومقدمة ابن خلدون، ومهذب الأغاني وعدد لا بأس به من قصائد شوقي تحمل عنوان : «الشوقيات للمدارس الثانوية» و«المنتخب من أشعار العرب» فى جزءين كبيرين وهو موسوعة تضم روائع ما أبدعه شعراء العربية في عصورها المختلفة وكان يصرف لكل تلاميذ المرحلة الثانوية وما فى


علي محمود طه


ابراهيم ناجي


خليل مطران

مستواها، وقد توقف منذ زمن بعيد صرف الكتاب للتلاميذ، وتوقف طبعه في مصر، وتنوسى الكتاب تماما، ولكن الوراقين في الخارج يعاودون طبعة وتوزيعه ويجنون من وراء ذلك ارباحا طائلة.

بداهة لم تكن هذه الكتب مقررة كلها، ولكنها تربى فى الناشئة روح الفضول، وتعودهم على ان يكونوا لانفسهم ذوقا خاصا بهم، واختيارا وليد رغباتهم، فالغاية من المنهج والكتاب ان يضعهم على اول الطريق.

وماذا بعد؟

هناك حقائق اجتماعية وبيئية طارئة، علينا ان نكيف حاضرنا معها، وان نأخذها فى الحسبان، وهو ان العاصمة، مركز الثقل فى حياتنا الثقافية، تعانى من فساد فى الهواء والغذاء والفطرة، وازدحام خانق للروح والعقل والفكر، وتدهور ملحوظ فى الذكاء والموهبة، ومع الاخذ بكل اسباب الصحوة التى أومأنا اليها. يبقى الامل معلقا بالقرية، والريف، هناك الطبيعة البشرية على فطرتها وفى نقائها، إذا هيأنا لها الاسباب أينعت وأزهرت. واذا راعينا الله والوطن فيهم. وقبلنا ابداعهم كما تصوغه قرائحهم، فى فطرتهم السليمة، فلم نحملهم على غير ما يحبون، ولم نغلق فى وجوههم ابواب الامل، كان لنا منهم كوكبة خبرة، من شعراء واعدين، وقد نصحوا معهم على غير موعد على عبقرية فى قامة شوقى، تعيد لنا عصره وامجاده، وتدفعنا فى غد غير بعيد الى عصر مجيد.

قبل ذلك لا، إن العدم المنفوخ والصخب لا يبنيان نهضة، ولا يبعثان امة، وقصارى ما يحققان : دوار تفقد معه الرأس اتزانها، وغشاوة تضل معها البصيرة طريقها!.

أرملة

شعر : عزت الطيرى



ولا مست قميصها الوردى
لحظة
واسترجعت
مواسم الأمطار!!
تنفست بكفها
بقية من عطره
وعطرها..
تحسست آثار قُبلتيه
فوق ثغرها
ونحرها..!!
وابتسمت لخبثه
ورقة احتياله
وداعبت بوجدها
صورته التى تموء
فوق دهشة الجدار
وقد نمت على اطارها
طحالب الغبار
واسترسلت فى خوفها
تنهدت
وسافرت
فى حزنها الثرثار
وانتبهت
وهرولت
وعلقت قميصها
على المسمار!!

من هو خليفة شوقى أمير شعراء العصر الحالى ؟!

ومن يستحق أن يحمل لقب الشاعر ؟!

بقلم د : أحمد درويش

السؤال المثير الذى يحمله عنوان هذا المقال ليس مطروحاً منى وإنما هو مطروح علىّ ، طرحه المسئولون عن تنظيم ملف عن الشعر، والذى يتضمنه هذا العدد الخاص من مجلة «الهلال» . وأعترف بأن السؤال فاجأنى ، وهممت بالاعتذار عن الإجابة عنه خاصة أمام الوقت القصير المتاح ، والسؤال الوحيد المطروح ، وكدت أسلم ورقة الإجابة «بيضاء» !.

غير أننى فهمت أن محاولة تقليب جوانب السؤال ، وإعادة إثارة أسئلة مشابهة طرحتها الأجيال السابقة ، والانتهاء بإثارة أسئلة أخرى ، يعد جزءا من الإجابة المتوقعة. وكان رد الفعل المباشر الأول لدى هو التأمل فى قضية البحث عن «خليفة لشوقى» منذ نحو سبعين عاما ، وكنا قبل هذه السنوات بنحو عقد من الزمان قد بدأ طريقنا فى



البحث عن «خليفة» آخر ، يملأ الفراغ الذى تركه «الخليفة» العثماني الذى حلت محله الدولة الحديثة في تركيا ، ومن اللافت للنظر أن البحث لم يتوقف في الميدانين ، وأن «اللواء» يعقد بين الحين والحين «لأمير المؤمنين هناك» أو «أمير الشعراء هنا» ، لكن دون أن يحظى بالإجماع الذى كان يحظى به السلطان عبدالحميد ، أو الأمير «أحمد شوقى» فهل يرجع السبب في ذلك إلى تصدع هيكل الإمارة ، أم إلى عدم توافر الشروط الملائمة في المرشحين لمنصب «الأمير» ؟.

وقد يكون ملاحظة تصدع الهيكل في الإمارات الحسية أيسر ، فهنالك جيوش تهزم ، أو مناطق تنفصل ، أو جنود يتمردون ، فتغدوا الإمارة التى كانت متماسكة بالأمس ، متداعية أو متهاوية ، ويختفي الأمير ، دون أن يمنع ذلك نفرا من المطالبين بالعرش ، أو الساعين إلى إعادة البناء من بذل المحاولات التى قد تطول أو تقصر وتنجح أو تخفق تبعا لصلابة العزم وتوفر ماء الحياة في الأجزاء الباقية المتناثرة . لكن الحديث عن قدر التماسك المتاح في الأجزاء الباقية بعد تصدع إمارة الشعر ، ربما يكون في حاجة إلى تأمل أدق وأصعب لمعرفة الفروق بين المساحات التى كانت تفصل بين الوحدات المختلفة التى كانت تدعى الانتماء إلى مملكة الشعر في عام ١٩٣٢

والمساحات التي تفصل بين الوحدات المتباعدة والمتباينة والمتنافرة أحيانا ، والتي لا يدعي كل منها اليوم أحقية الانتماء إلى مملكة الشعر فحسب ، وانما يدعى أنه وحده صاحب الحق فى الانتماء ، وأن على الآخرين الذهاب إلى ممالك «النظم» أو ممالك «النثر» فى حالة الرأفة بهم ، أو البعد عن كل ممالك الأدب عندما يشتد النزاع .

وإذا تركنا مسألة تصدع هيكل الإمارة إلى البحث عن الشروط الملائمة للأمير فقد نجد الصعوبة والسهولة تتبادلان مواقعهما ، فليس من الضرورى أن يكون أمير المملكة الحسية أكثر أبنائها كفاءة أو أوسعهم مدارك ، وليس من الضرورى لكى ينعقد له اللواء أن تكون مبايعة الرعية له تامة ، وانما يتحكم فى ذلك شروط تمليها ظروف خارجية تتحدث عنها كتب التاريخ والسياسة ويصبح معها التنصيب الشكلى أو العزل الشكلى هما محور الفصل ، على عكس ما يتاح فى إمارة الشعر التى يصعب أن يتم الاستيلاء عليها بالانقلاب أو تزييف الأصوات أو حتى مساندة الأحزاب والهيئات وأجهزة الإعلام التى قد تنجح فى الاحتفاء أو الإعلاء أو الترويج لفكرة ما أو لشخص ما بعض الوقت ولكن الإحساس الجماعى الأدبى تكفل بطى كثير من الصفحات التى بدت فى حينها وقد سلط عليها الضوء الباهر ، وهو كفيل أيضا أن يفعل ذلك مع بعض الصفحات التى تخايل أعيننا اليوم ، وتثبت بالصوت العالي والضوء الباهر أن لها مساحة أكثر مما تستحق .

غير أن لقب أمير الشعراء قد يختلف عن الألقاب المماثلة التى يدور حولها الحوار فى أنه من حيث التسمية على الأقل لم يكتسب بعدا تاريخيا يتردد من خلاله جيلا بعد جيل حتى يحدث انقطاعه فراغا ينبغى أن يملأ فالشعراء السابقون لم يتفقوا على «أمير» والنقاد الأقدمون لم يمنحوا هذا اللقب لكبار الشعراء ، واكتفوا بإطلاق «أفعل» التفضيل من مادة الشعر مضافة إلى الشاعر فقيل : «أشعر العرب» و«أشعر الناس» وكان يتم توزيع هذه الصفة على أكثر من شاعر متعاقبين أو متعاصرين تبعا للمجال الذى أجاد فيه الشاعر ، فيقال «هذا أشعر الناس إذا غضب ، وذلك أشعر الناس إذا رغب ، وآخر أشعر الناس إذا شرب» ... الخ .

وعندما تجاوز النقد القديم مراحل الألقاب الانطباعية إلى مرحلة الأحكام التحليلية ، لم تتجه ألقاب «الإمارة» أو التفرد على القمة لشاعر بعينه ، بل كان ابن المعتز مثلا يعد صفات المحدثين ليدرج فيهم بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبا نواس وليجعل أبا تمام أكثرهم إيغالا فى الاتجاه والآمدى يوازن بين الطائيين أبى تمام والبحترى والقاضى الجرجانى يتوسط بين المتنبى وخصومه ، دون أن تؤدى الموازنة أو الوساطة إلى الإمارة

، وحتى الشعراء أنفسهم ماكانوا يسعون إلى إمارة الشعر بقدر ما كانوا يسعون إلى إمارة الحكم ، ولقد مات المتنبى بحسرة الإمارة المفقودة على أى إقليم أو مدينة ، وقتل أبوفراس وهو يحاول خلافة سيف الدولة على إمارة الحمدانيين بالشام . ولكن أدباء العصر الحديث تبادلوا منح الألقاب الأدبية ، فأصبح لكل واحد من البارزين


حافظ إبراهيم


خليل مطران

لقب يميزه ، فالبارودى «رب السيف والقلم» وخليل مطران يبايع فى مرحلة مبكرة «شاعر القطرين» وحافظ إبراهيم يذهب بلقب «شاعر النيل» وسوف يصبح أحمد رامى فيما بعد «شاعر الشباب» أما شكيب ارسلان فهو «أمير البيان» وقد وجدوا لطه حسين أثناء عمادته لكلية الآداب بجامعة القاهرة لقبا مناسبا وصار «عميد الأدب العربى» وجرت محاولات للبحث لتوفيق الحكيم عن لقب ، وفى هذا المناخ جاء لقب شوقى الذى كان قد شاع عنه فى البدء أنه «شاعر الأمير» ولكنه بعد معاناة النفى ، والاتجاه إلى القضايا القومية والدينية فى شعره ، ونضوج التألق البيانى فى فنه ، التقت الآراء على أن يحمل لقب «أمير الشعراء» وتنادى الشعراء من أرجاء الوطن العربى وتحدث النقاد والخطباء ووجد اللقب فيما يبدو هوى من الناس فظلت ألسنتهم تردده حتى اليوم بالرغم من الحملات القوية ضد شوقى والتى كان أشهرها حملة العقاد فى «الديوان» وقد نالت بعض قصائد شوقى ، ومنها قصيدته التى ألقاها فى حفلة تنصيبه أميرا :

مرحبا بالربيع فى ريعانه
وبأنواره وطيب زمانه
رفت الأرض فى مواكب آذا
ر، وشب الزمان فى مهرجانه
نزل السهل ضاحك البشر يمشى
فيه مشى الأمير فى بستانه

نالت القصيدة حظها من نقد العقاد الحاد وتهكم على صورة الأمير الذى يمشى فى بستانه ، وعلى كل الأمراء بمن فيهم أمير الشعراء .

●●●

غير أنه لم يكد يرحل أمير الشعراء أحمد شوقى عام ١٩٣٢ حتى بدأ كبار شعراء العصر يتطلعون إلى كرسى «الإمارة» الشاغر، كان فى العصر شعراء بارزون مثل خليل

مطران ثالث الثلاثة (حافظ وشوقى) ومصطفى صادق الرافعى ، وعباس محمود العقاد وأحمد محرم وأحمد زكى أبوشادى الذى خلف شوقى فى رئاسته تحرير مجلة «أبوللو» وغيرهم ، وكان كل واحد يتحين الفرصة الملائمة أو يستميل الأصوات اللازمة . وجاءت فرصة الإعلان عن مسابقة لتأليف النشيد القومى لمصر عام ١٩٤٣ واشترك فيها كثير من الشعراء ، وفازت قصيدة العقاد التى كان مطلعها :

قد رفعنا العلم　　للعلى والفدى

فى ضمان السماء

حى أرض الهرم　　حى مهد الهدى

حى أم البقاء

وقد وجد حزب الوفد فوز العقاد فرصة مواتية لتنظيم حفل يكرم فيه ويعقد له لواء الشعر فيبايع أميرا للشعراء ، وكان أن عقد الحفل فى مسرح الازبكية فى ربيع عام ١٩٤٣ (٢٧ أبريل) وانشد مئات الشباب نشيد العقاد ملحنا وتكلم كثير من الخطباء ، وكان أبرزهم الدكتور طه حسين الذى أشاد بعطاء العقاد عامة وبشعره خاصة قائلا : «إننى لا أؤمن فى هذا العصر الحديث بشاعر عربى كما أؤمن بالعقاد ، لانى أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء .. وهو يصور لى هذا المثل الأعلى فى الشعر الذى أحببته وتمنيت وجاهدت فى أن يحبه الشباب . هذا المثل الأعلى الذى يجمع بين جمال العربى القديم وأمل المصرى الحديث .. ثم إننى إذا قرأت شعر العقاد لم استطع أن أقول لنفسى : قد قرأت هذا الكلام من قبل .. فى شعر البحترى أو عند أبى تمام أو أبى نواس .. إنما تقرءون العقاد فتقرءونه وحده لأن العقاد ليس مقلدا ولا يستطيع أن يقلد .. ولأن المثل الأعلى له فى الأدب يرفعه عن الأغراض التقليدية ويجعل شعره لا أقول واسعا فسيحا ولكنى أقول كما يقول العقاد نفسه - يجعل شعره مطابقا للحياة ليس غيرُ - ويشير طه حسين إلى خاصية التمرد فى شعر العقاد التى لفتت نظر ناقد فرنسى فكتب يقول : «إن شعر العقاد أشبه بالهواء الطلق ويعقب عليه بقوله : «هذا التمرد .. هذه الريح العاصفة هى التى تعجبنى لأنها صورة من الحرية ، من حرية الفن التى لا تعرف حدا ولا أحدا ولا غاية» ثم يتناول بالتحليل والإشادة قصيدة «ترجمة شيطان» التى يعلن أنه يقرؤها عشرين أو ثلاثين مرة دون أن ينقضى إعجابه بها وأنها «لا شبيه لها فى الشعر القديم» . وينتهى من ذلك إلى أن العقاد «خلق لنفسه قوة شاعرة لا تجد لها نظيرا إلا فى أوربا ، حيث يلتمس الشعراء الفن لا فى الأدب وحده بل فى العلم وفى كل شىء آخر .


عباس محمود العقاد


بشارة الخوري

ويصل الدكتور طه إلى الهدف الرئيسى الذى أعد من أجله الاحتفال والقيت الكلمات وهو إعلان أن الأوان قد آن لسد الفراغ الذى أحدثه رحيل شوقى وحافظ : «كنا نشفق على الشعر العربى وكنا نخاف عليه أن يرتحل سلطانه عن مصر؛ وكنا نتحدث حين مات الشاعران العظيمان شوقى وحافظ ، كنا نتحدث عن علم الشعر العربى المصرى أين يكون ؟ ومن يرفعه للشعراء والأدباء يستظلون به ؟.. هل آن للشعر القديم المحافظ المسرف فى المحافظة أن يستقر وأن يحتفظ بمجده ؟ وهل آن للشعر الجديد أن ينشط ويقوى ؟ انتظرت فلم أجد للمقلدين حركة أو نشاطا فإذا المدرسة القديمة قد ماتت بموت حافظ وشوقى وإذا المدرسة الجديدة قد أخذت تؤدى حقها وتنهض بواجبها فترضى المصريين والعرب جميعا .

ثم يكون نداء الختام عند طه حسين «ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء» .

كانت تلك البيعة هى أبرز دعوات المبايعة لإمارة الشعر فى النصف الأول من القرن العشرين بعد مبايعة شوقى ، وقد اكتسبت ثقلها السياسى من حزب الوفد ، وثقلها الأدبى من مساندة طه حسين على نحو خاص ، وألقى العقاد فى نهاية الحفل قصيدة لاتعد من روائع شعره ، وفى شعره دون شك روائع ، وقد جاء فى مطلعها :

بالنظم أحمد مكرمى نظمى
ومن السلاف تحية الكرم
هذا النشيد ، ففيم يشكرنى
قومى وقد غنى به قومى
إن تقبلوه فتلك مكرمة
عظمى فقد وفيتم سهمى

ولقد يلاحظ على هذه المبايعة غياب البعد القومى العربى ، وكثرة المعارضين لها فقد سارع مصطفى صادق الرافعى بإثارة المسألة فى جريدة الأسبوع فى شهر مايو عام ١٩٣٤ عقب البيعة مفندا رأى طه حسين فى ترشيح العقاد لإمارة الشعر وبعد ذلك احتج خليل مطران فى جريدة الفصول فى شهر يوليو عام ١٩٣٦ على هذه المبايعة ،

وتساءل آخرون عن مكانة أحمد محرم ، وتناقص دوى المبايعة شيئا فشيئا وطغت عليها شهرة العقاد نفسه فى مجالات الفكر والبحث العلمي والنشاط السياسى ، حتى أصبحت قصة إمارته للشعر تحتاج دائما إلى تذكير بوقائعها التى جرت فى ربيع عام ١٩٢٤ .

●●●

بعد مضى ثلاثة عقود على مبايعة العقاد وأثناء حياة العقاد نفسه ، انعقد مهرجان آخر فى صيف عام ١٩٦١ لكي يبايع فى لبنان الشاعر بشارة الخورى الأخطل الصغير أميرا للشعراء وتداعى إلى هذا المهرجان كثير من الشعراء والنقاد المرموقين فى العالم كان من بينهم الشاعر السورى عمر أبوريشة ، الذى كان بعض الصحفيين النقاد قد دعوا قبل ذلك بسنوات إلى مبايعته أميرا للشعراء لكن الدعوة لم تبلغ مداها . كما كان من بينهم الجواهرى وأمين نخلة وصالح جودت وأدونيس وانسى الحاج وجبران خورى وأنور المعداوى واحسان عباس والقيت الدراسات وانشدت القصائد وكان منها من يرفع لواء الامارة دون مواربة . كما قال صالح جودت فى مستهل قصيدته :

همسة فى حديث جار وجارة
رنـــة حـلوة عـــلي قيـــثارة
قطـــرة عـــذبة عـــلى نوارة
زهـــرة كلها شذى ونضـــارة
كـل هذه المـــعادن المختارة
صـــاغ منـــها حبيبنا أوتـــاره
وجلا من خـــيوطها أشـــعاره
فعقدنا لـــه لـــواء الامـــارة

أو من يبارك ما صنعه الآخرون من وضع إكليل من الزهر فى عنق الشاعر كما قال عمر أبو ريشة :

لبنان مـا خبأت عنك نوازعـــى
أتراك فيها عـــاذلى أم عـــاذرى
يغنيك عـــنى أخـــوة ما غـــردوا
إلا ومـــلء رباك ذوب حناجرى
جمعتهم شيم الـــوفـــاء لمـــارد
فى الشعر جواب الأعـــالي قاهر
ضفروا له من روح ارزك غارة
أكـرم بمضفـور له وبضـــافـــر

ومنهم من تكاد تمر قصيدته دون إشارة إلى مناسبة المبايعة كالشأن فى قصيدة الجواهرى التي حومت في كثير من الآفاق واشارت إشارة عارضة إلى «غار القلوب» الذى يحمله الشاعر المكرم :


ادونيس


جبران خليل جبران

أبشارة أنذا لديك
محملا غار القلوب

ومنهم من ينفى عن نفسه تهمة أن يكون حاسدا له على المبايعة أو أن يظن أنه كان يرى نفسه أولى منه كما جاء في قصيدة أمين نخلة :

ياخي الابلج الكريم على الود
زهانى بما زهاك السرور
فكاني الذي هتفوا باسمى
وعج المنظوم والمنثور
لا وحبيك ما أنا الحاسد الشانيء
أو طامع حداه الغرور

والى جانب ذلك أشارت كثير من الكلمات التى دارت حول الاخطل الصغير سواء تلك التي قيلت فى المناسبة أو قبلها أو بعدها إلى أن معين الشعر عنده كان قد نضب منذ زمن طويل وكان كما يقول إلياس أبوشبكة «قد ورم كيسه فلم يعد يحفل بالشعر إلى جانب انك لا تقع علي قصيدة من قصائده برئت من قصائد الفرنجة كموسيه ولا مرتين وبول فرلين ، فهو من الناحية أكبر مقتبس عرفته العرب» كما يقول أنسي الحاج «بعد عهد طويل من الدفق جف الينبوع ولم يفتعل الاخطل العطاء» بل إن الاخطل نفسه عندما شكر مكرميه فى هذا المهرجان اشار إلى أن عوده قد أصبح بلا أوتار :

أيوم أصبحت لا شمسى ولا قمرى
من ذا يغنى على عود بلا وتر
ما للقوافى إذا جاذبتها نفرت
رعت شبابى وخانتنى على كبرى
كأنها ما ارتوت من مدمعي ودمى
ولا غذتها ليالي الوجد والسهر

ولقد كان من مزايا مهرجان الخورى أن صاحبته كثير من الدراسات والآراء النقدية المتصلة بشعر الاخطل الصغير ، وقد جاء بعض هذه الآراء فى شكل انطباعات سريعة كما جاء فى كلمة أدونيس الذى يرى أن «الأخطل يمثل طليعة الانتقال من الشعر الذى يرتبط بكتب الأدب وقواميس اللغة والذى عممه رجال عهد سميناه خطأ عهد النهضة .. إلى الشعر الذى يرتبط بالحياة اليومية وأشياء القلب» .

لكن هناك دراسات أخرى وقفت بالتفصيل أمام شعر الاخطل الصغير ووجهت له نقدا غير هين ، ومنها دراسة الدكتور احسان عباس حول «دور الاخطل الصغير فى الشعر العربى المعاصر» التى تأخذ على الشاعر انه يقع ضحية مبالغات المجاز فتنفلت منه الغايات الفنية والخلقية لبناء القصيدة ويندفع إلى المبالغة التى تجعل الشاعر كلما تغزل ولو غير صادق زعم انه أصبح على حافة القبر ، وقد تغلغلت هذه اللغة فى شعر الاخطل الصغير كثيرا حتى أفقدته عذوبة الغناء الجديد فى بعض الأحيان وجعلته وكأنه شاعر من شعراء العصور السالفة، ويلاحظ الناقد أن شعر الاخطل - وهو الذى يجذبنا بحلاوته العامة ورونقه الجميل لا يمكن أن يخضع لمبدأ «وحدة القصيدة» لأن هذا الشعر «لا يستند إلى الوحدة بل لعله فى محاولته لابراز الألق الخالب يسهو أحيانا فيتورط فى ضروب من التناقض» حتى أن أكثر مراثيه انحياز عن طبيعة الموضوع عن الرثاء نفسه إلى أمور جانبية وهى طريقة يعتمدها فى قصصه إذ يترك القصص إلى التأمل والحكمة ويطيل فى ذلك حتى يخيل إلينا أنه نسى القصة الأصلية وينتهى الدكتور احسان عباس إلى القول بأن انعدام الوحدة والنظرة الشاملة إلى العمل الفنى ، جعل شعر الاخطل يتحول إلى دفقات وومضات : «ولكن عيب هذا الاتجاه فى شعر الاخطل أن يكون خطرات تقتضيها المناسبات ، وأن يظل منبعه راكدا حتى يثيره حادث هنا وحادث هناك

ويبدو أن النظرة الجمالية المجردة ، تجنى أو جنت على هذا النبع حتى غدا شعر الاخطل الصغير إذا أنت مثلته لنفسك كالكأس البلورية المكسورة فى أكثر من موضع ، وأصبح القدم إحدى خصائصها وإن لم يفقد فى بعض جوانبها شيئا من البريق والتلاميع» .

أما أنور المعداوى فتركز دراسته على مقولة رئيسية : «أن بشارة الخورى هو شاعر اللوحة وليس شاعر التجربة» وأنه من خلال رسم اللوحة ومع عذوبة الصور وجمال



أحمد زكي أبو شادي



أحمد محرم

الألفاظ - يفتقد أحيانا ذلك النضج التكنيكي الذي يتيح لمراحل التجربة أن تكون خيوطا حية لنسيج عضوى موحد فبدل أن يهيىء الشاعر للمراحل أن تتابع فى خط سير نموها الاطرادى دون حركة انفصال معوقة نراه يقطع خط السير فى بعض الموضوعات ليفسر موقفا أو يعلق على حدث ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا التدخل المتكرر أن تظهر الفجوات فى البناء العضوى للتجربة لتحول بين خيوطها الناسجة وبين وحدة التماسك .

وهذا النشاط النقدى المكثف لم يصاحب مهرجانات عقد لواء الإمارة فى المرات السابقة عند شوقى والعقاد - ولعله فى ذاته يشكل دليلا على اتساع حركة تعدد الآراء وتفاوتها وتنوعها مما يزيد من صعوبة الانطواء تحت لواء أمير واحد ، ومما يفسر هدوء الدعوات إلى عقد مهرجانات أخرى للإمارة رغم أن الأمير المبايع فى المهرجان الأخير قد رحل عام ١٩٦٩ ، ورغم مضى أربعة عقود على البيعة الأخيرة .

●●●

ويبقى السؤال مثارا :

هل لابد من بحث عن خليفة لشوقى وتعيين أبنائه وتعميد أحفاده ؟

إن شوقى يمثل دون شك قيمة تاريخية فى حركة الشعر العربى ، وهى قيمة لا تلغيها القيم التالية لها حتى وإن تجاوزتها أو خالفتها ، ولكن ميراث هذه القيمة ليس من الضرورى أن يكون فى يد وارث واحد بل قد يتوزع بين كثير من الأبناء والأحفاد ، وقد يمتد إلى أبناء الأعمام ، ولا اعتقد أن الاتجاه الشعرى فى الأعمال الروائية والقصصية بعد شوقى ، قد حرم نصيبه من الميراث ، لكن مملكة الشعر بالمعنى الذى عرفه شوقى قد اتسعت أحياؤها ، وانضمت إليها مدن منظمة فى بعض الأحيان ومدن عشوائية كثيرة ، يصاحبها نمو سرطانى فى أحايين أخرى ، وفى وسط هذا الزحام الكبير لم يعد السؤال المثار : من الذى يستحق أن يحمل لقب أمير الشعراء ؟ ولكن : من الذى يستحق أن يحمل لقب الشاعر ؟.

حاضر الشعر ومستقبله

جزء خاص

نزار قبانى

الشاعر الذى تزوج الحرية



بقلم :
محمد إبراهيم
أبو سنة

66

مرت الذكرى الثانية لرحيل الشاعر نزار قبانى وصوته الشعرى يملأ الآفاق ويحتفظ بالدوى الذى ظل مقترنا به طوال حياته، نذر نزار قبانى حياته للشعر والحرية وهو تكريس يؤكد روح المخاطرة التى عشقها وكانت منهجا لحياته العاصفة ، والذى يخاطر من أجل الشعر يعرف أن الشعر فن مراوغ قد يأخذ كل شىء ولا يهب أى شىء ، ولكن نزار قبانى كان منذ تفتحت بواكيره الشعرية والتى بدأت بديوان «قالت لى السمراء» فى سبتمبر من عام ١٩٤٤ يعرف أن الشعر لن يخذله كما يعرف أن الحرية تتطلب ثمنا قد يكون فادحا ممن يعتنقها .

خاطر نزار وكسب الشعر وربما خسر الاستقرار فى الوطن بسبب هذه الحرية التى أعلن أنه تزوجها فى ديوانه الذى صدر فى عام ١٩٩٣ تحت عنوان.. «تزوجتك أيتها الحرية» ونلحظ فى هذا الديوان تفجر شاعريته وكأنها فى عنفوانها الأول فاللغة طيعة والخواطر الجامحة تسقى أوردة القصيدة بالغضب والحزن والثورة. أصدر نزار قبانى عشرات الدواوين الشعرية وربما ظلت ديباجته محتفظة بخصائصها الفنية على مدار خمسين عاما ، فهو قد اختار لغة ترتوى من التجربة اليومية وتومىء فى الوقت نفسه إلى تراث شعرى طويل يمتد خلف مفرداتها وخلف تكويناتها كما استطاع أن يبتكر صورة من أدوات الفعل اليومى عبر مساحة متنوعة من الاهتمامات العاطفية والسياسية والقومية والذاتية وربما النرجسية بمعنى أعمق، تزوج نزار الحرية لأنه يعرف أن لا حياة بدونها وأن الشعر الذى يتخلى عن الحرية مثل الحديقة التى لايرويها الماء ، ونزار يوقع أنغامه الشعرية داخل البحور البسيطة ولكنه يدهشنا بقدرته على العزف إلا أن تفجر روح الشاعر بالمخاطرة تجعل من كل قصيدة جديدة له وكأنها بداية لم تتكرر .

يقول نزار متحدثا عن اختياره للحرية التى جعلها امرأة على طريقته فى تجسيد دلالات تجاربه ورموزه الشعرية فى قصيدة بعنوان «تزوجتك أيتها الحرية» حاسما قراره النهائى بهذا الاختيار .

(كان لديَّ بلاط نساء، فيه جميلات الدنيا، فالعربية، والرومية،

والتـركـيـة ، والكردية ، كـان بقصري لعب صنعت في باريس وجيش من قطط شامية ، كان هنالك ألف امـرأة في تاريخي ، إلا أني لم أتزوج من بين نساء العالم إلا الحرية) .



نزار قباني

هذا الإيهــام الفنى هو عـصب أساسى فى هيكل الرؤية النزارية للعالم إنه بهـذا الإيهام يفـرض رؤيتـه على العالم ويفترض أننا معه فى قناعته المفترضة والتى تدور حول الحرية المرأة، إن ذات الشاعر التى تكمن وراء مبالغاته تغرقنا فى حالة من الإيهام الشعرى الذى يجرنا تحت وقع صواعقه الشعرية من استعادة الوعى العقلانى بالتجربة إلا بعد معاودة مستمرة للقراءة . هذه الذات المهيمنة الممتلئة ثقة بنفسها تتقنع بجرأتها وتجابهنا بلون من التحدى فنقع نحن فى أسر وهم الاقتناع غير أن الصاعقة الشعرية التى يحدثها التعبير تكون قد أخذت دهشتنا وطرحتها فوق أرضه الشعرية ، ولانكاد نفيق حتى يبغتنا مطر جديد وعاصفة أشد ولا يمل نزار قبانى من الحديث عن نفسه وبصيغة المتكلم «أنا» ولكننا دائما صرعى الإيهام الشعرى مع نزار يقول فى قصيدة سلالات :

من سلالات العصافير أنا . لاسلالات الشجر
وشراييني امتداد لشرايين القمر
إنني أخزن كالأسماك في عيني ألوان الصواري
ومواقيت السفر/ أنا لا أشبه إلا صورتي / فلماذا شبهوني بعمر

وهو يقصد الشاعر الأموي عمر بن أبى ربيعة ويتحدث عن تفرده فيقول :

ما تتلمذت علي شعر المعري
ولم أقرأ تعاليم سليمان الحكيم
إنني في الشعر لا آباء لي
فلقد ألقيت آبائي جميعا في الجحيم
من هو الشاعر ياسيدتي ؟
إن مشى فوق الطريق المستقيم

إن التمرد على آبائه الشعريين ليس نوعا من العقوق بل هو ولع بالمناطحة والتجاوز وامتلاء الذات بحضورها الكثيف على مستوى الوسائل الحديثة للاتصال ، والتى لم تتح من قبل لعمر بن أبى ربيعة أو المتنبى أو أبى العلاء المعرى .

وقضية الشاعر العربى عند نزار هى جزء من قضية الحرية ولكنها تبدو حرية وجودية أكثر منها حرية ثورية حيث يقول فى مقارنة بين الشاعر الغربى والشاعر

العربي مطلقا مقولاته بعيدا عن المنطق: «في بلاد الغرب سيدتي/ يولد الشاعر حرا/ مثلما الأسماك في عرض البحار/ ويغني بين أحضان البحيرات وأجراس المراعي وحقول الجلنار» ، ثم يتحدث عن الشاعر العربي.

ولدينا يولد الشاعر في كيس غبار/ ويغني لملوك من غبار/ وخيول من غبار/ وسيوف من غبار
إنها معجزة لأن يصنع الشعر من الليل نهار
إنها معجزة أن نزرع الأزهار مابين حصار وحصار

ويتجلى صوته مشبعا برسالته الرائعة التى نذر نفسه لها حين يتشبث بموقفه وبتاريخه وبذاتيته فى هذه القصيدة «تشبث»

ليس في وسعك ياسيدتي أن تصلحيني ، فلقد فات القطار
إنني قررت أن أدخل في حرب مع القبح. ولارجعة عن هذا القرار
فإذا لم أستطع إيقاف جيش الردم أو زحف التتار، وإذا لم أستطع أن أقتل الوحش فحسبي أنني أحدثت ثقبا في الجدار

وتلهمه الحرية التى تزوجها معنى يتخطى الكينونة الساكنة الهائجة بل يتخطى الوجود الانساني إلى وجود كوني حين يقول فى قصيدته «حزب المطر» :

أنا لا أسكن في أي مكان
إن عنواني هو اللا منتظر
مبحرا كالسمك الوحشي في هذا المدي
في دمي نار وفي عيني شرر
ذاهبا أبحث عن حرية الريح
التي يتقيها كل الغجر
راكضا خلف غمام أخضر/ شاربا بالعين آلاف الصور
ذاهباً حتى نهايات السفر

وتبرق فى سماء شعره رغم اعتكار الليل حول فكرة القومية العربية التى أحالها البعض إلى متاحف التاريخ لكى تتحول إلى ذكرى تبرق الأحلام المضيئة بعودة الوحدة والتضامن والحب بين العرب وهو حلم لاينجو من عنكبوتية الإيهام الشعرى عنده.

يقول نزار محولا الفكرية القومية إلى شىء حميم

مازلت برغم صراع الإخوة .. أخترع الأحلام
وأقول بأن الله سيجمع يوما بين الأرحام
جسدى يشتاق إلى بغداد
وقلبى عند نساء الشام

وفى الشتات أو المنفى الذي لجأ إليه نزار فى سنواته الأخيرة تطويه الحسرة وتنشره ، وهو يتحرق شوقا إلى وطنه الذى وصله مدرجا فى الأكفان فى الثلاثين



نزار قبانى

من شهر أبريل من عام ١٩٩٨ يقول الشاعر نزار قبانى :

ياسيدتى ، إن النملة تملك وطنا
إن الدودة تملك وطنا
إن الضفدع يملك وطنا
إن الفأرة تملك وطنا
إن الأرنب يملك وطنا
والسحلية والصرصار
وأنا ما ملكنى أحد وطنا
ولذا أسكن ياسيدتى وطنا بالإيجار

ثم يتحدث عن المشكلة الحقيقية فى حياته إنها الحرية .

ياسائلى عن حاجتى
الحمد لله على الصحة والرغيف
وما تقول الصحف اليومية
عندى صغار يملأون البيت
وزوجة وفية
وفى الخوابى حنطة وزيت
لكنما مشكلتى
ليست مع الخبز الذى آكله
ولا مع الماء الذى أشربه
مشكلتى الأولى هى الحرية

إن هدف الشاعر هو بناء دولة الإنسان وهو هدف الشعراء على امتداد القرون. يقول نزار قبانى :

لاتسألينى من أنا ؟
وما الذى أفعله / كى أتحدى الموت والزمان
أنا الذى أسقطت ألف دولة ودولة
لكى أقيم دولة الانسان

مرة أخرى نواجه الإيهام الشعرى الذى يلف خمسين عاما من القصائد التى كتبها نزار قبانى ولكنها تقرعنا بزلازلها الشعرية الغاضبة، ذهب نزار وجاءت ذكراه وتقدمت قصيدته إلى محكمة التاريخ تعلن من جديد أن القيم التى نذر الشاعر نفسه لها لن تموت وفى مقدمة هذه القيم الحرية التى مات الشاعر وهى زوجته الوحيدة! .

قف على الشط

شعر: سليم الرافعى – لبنان

لا تغب فى الخباء خلف الغيوم يا حبيبى.. أعد ضياء النجوم
فى السماوات أنت تحجب قلبى خيمة مستثارة من نسيم
لم ينم قلب عاشق فى سماء سر على الأرض فى دمى وصميمى
واسمع الناى من شرايين ورد غمس الورد شوكه بالكلوم
كلا هذا الوجود همسة وعد شهقت فى عناقها المكتوم
من صحارى ومن بحار تغنى أنت لى – أنت لى – بصوت رخيم
يتثنى غصن ويبغم ظبى ويناجيك بلبل من تظيم

•••

يا حبيبى.. من عرى فجرك ثوب ومن الليل كسوة لليتيم
ليس لى غير وردتيك وساد حمرة الورد من حطام جحيم
هذه القبلة الأبية تشكو كبرياء الشفاة شكوى غريم
تتندى من دمع نهر سجين بين شطين غارق فى وجوم
قف على الشط أيها الحب واسمع جمرة فى انهيار شوق كظيم
يسكب النهر وجده فى زجاج سرمدى التكسير والتحطيم
هدر الموج من صدود حبيب واحتسى الشط لوعة من كريم
عانق العاشق القديم ترابا قبلة العاشق اخضرار كروم
آية الزهر آية النهر.. تحيا فى شكول من الشجا ورسوم
من عتاب يرتاع من خطرات حين ينهار فى هواه القديم

جزء خاص:

شعر المناسبات ليس كله ارتزاقاً ونفاقا!

بقلم: د. حسن فتح الباب

فى سنوات الأربعينات من القرن الميلادى المنصرم، دارت رحى حرب أدبية ضروس بين كاتبين كبيرين حول قضية شعر المناسبات. وقد دارت هذه الحرب على صفحات مجلتى الثقافة والرسالة اللتين كانتا أبرز المجلات الثقافية فى تلك الحقبة. واشتعلت هذه المعركة حين كتب الباحث والناقد العالم الأستاذ أحمد أمين سِلسلة مقالات بالمجلة الأولى بعنوان (الأدب العربى أدب معدة)، مسددا سهامه إلى شعر المناسبات ومن يقرضونه من الشعراء، باعتبارهم من وجهة نظره مرتزقة كل همهم هو الثراء من طريق غير مشروع، وهو مديح الخلفاء والولاة والأمراء بما ليس فيهم حتى يحصلوا على رضاهم ويثابوا عن مدائحهم بأكياس الذهب والفضة والجوارى والإماء والخيل والإبل، مما يزيدهم إيغالا فى استعمال موهبتهم فى النظم أداة لتحقيق مطامعهم بغض النظر عما ينبغى أن يكون عليه فن العربية الأول من صدق مع النفس ومع الآخرين.

وتصدى الدكتور زكي مبارك للأستاذ أحمد أمين بعدة مقالات نشرها على حلقات بمجلة الرسالة، وكان عنوانها (جناية أحمد أمين على الأدب العربي)، وعلى الرغم من أن تلك الملاحاة قد ذكّرت القراء بهجائيات الفرزدق وجرير التي سميت بالنقائض، وما أثارته من غبار تحت سنابك فرسان المعركة، فإنها استقطبت اهتمام الأدباء والنقاد والباحثين فأدلى كثير منهم بدلوه فيها. وأسفر السجال عن جلاء قيم نقدية جديدة أثرت عالم الأدب، في حين سقط كثير من غبار الحرب التي أشعلها القطبان المتنافسان.

ولم يكن العلامة الأديب أحمد أمين هو أول من انتقد شعراء المناسبات، بل سبقته إلى ذلك جماعة الديوان التي أسسها عبدالرحمن شكري وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبدالقادر المازني في العشرينات من القرن العشرين. وقد شنوا حملة شعواء على أمير الشعراء أحمد شوقي وسائر شعراء المدرسة الكلاسيكية الجديدة الذين اتبعوا شاعر السيف والقلم محمود سامي البارودي في إحياء التراث الشعري القديم بالنسج على منواله.

وكان نقد الديوانيين لشوقي حادا وقاسيا بلغ درجة التجريح الشخصي أحيانا، ولكن الذي بقي منه هو صحة بعض ما ذهبوا إليه وهو ضرورة تعبير الشاعر عما يخالج نفسه من أحاسيس، فالشعر عندهم هو الذي ينبع من الوجدان. وكان شعارهم بيت العقاد:

والشعر من نفس الرحمن مقتبس

والشاعر الفذّ بعد الله رحمن

وقد تأثروا في ذلك بالشعر الانجليزي إذ كانوا يتقنون لغته ويستوعبون تقنياته، وكانوا بذلك روادا للأدب الرومانسي في مصر وسائر البلدان العربية، ومن ثم أخذوا على شوقي مدائحه للخديو وللسلطان العثماني وانتهازه المناسبات الوطنية والقومية والدينية ليصوغ أبياتا تعبر عن الموضوع لا عن الذات، وتتسم بالاصطناع والتكلف وتكرار المعاني والصيغ المألوفة. ولم يلتفتوا إلى ما أبدعه شوقي من شعر غزلي رقيق ومن صور وتعبيرات جديدة في الأغراض الأخرى. كما غضوا النظر عن ريادته للشعر المسرحي الذي فتح به بابا جديدا في الإبداع الشعري العربي.

فيصل التفرقة بين جيد المديح ورديئه

إن النظرة المتأنية والعميقة لمسيرة تراثنا الشعري التي بلغت أكثر من ألف وخمسمائة عام والأغراض التي تناولها الشعراء وأثر إبداعهم في النفس العربية، تبين لنا أن نقد فن المديح في كل تجلياته يتسم بالمبالغة وتعتوره آفة التعميم. فهذا الفن يشغل مساحة كبيرة في خريطة الشعر، ومن ثم فإن اعتباره فنا رديئا يعني إسقاط جزء عزيز من تراث الأمة العربية. فإذا عددنا الهجاء والرثاء من شعر المناسبات أيضا فماذا يبقى

لنا من هذا التراث العريق الذى يفخر به العرب ويعد ديوانهم؟

إن قصائد المدح ليست كلها من قبيل الصنعة الشكلية الخالية من صدق التعبير، بل إن كثيرا منها يرقى إلى مستوى رفيع من الإبداع الذى تتوافر فيه شروط الصدق الواقعي والصدق الفني، والمديح والفخر والرثاء والهجاء هى نَضْح للأوضاع الاجتماعية والمرحلة الحضارية التى عاش فى ظلها الشاعر القديم، فكان من الطبيعى أن تنعكس على إنتاجه وتفرض نفسها عليه.

فليست المدائح فى مجملها وصمة تشين أصحابها إذا نظرنا إليها فى ضوء الأعراف الاجتماعية والتقاليد الأدبية السائدة . بل إن من هذه المدائح ما يدرج فى دائرة الشعر بمضمونه الإنسانى الذى يبقى على الأعمال الأدبية القيمة التى تخلد فى ذاكرة التاريخ وتستعصى على النسيان، وذلك حين يكون المدح تمجيدا لبطل قومى مثل قصائد أبي الطيب المتنبى فى مديح سيف الدولة قاهر البيزنطيين الذين كانوا يغيرون على الأراضى العربية الإسلامية ، وقبل المتنبى مدح زهير بن أبى سلمى في عصر الجاهلية هرم بن سنان الذبيانى، لحسن سعيه هو والحارث بن عوف فى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء بتحملهما ديات القتلى.

ومن عيون شعر المديح ما جادت به قرائح شعراء الرسول فى التغنى بفضائله ومآثره وعلى رأسهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير.. وتحفل صفحات ديوان العرب بالمدائح التى استلهمها الشعراء من القادة والحكام الذين كانوا أبطالا فى زمانهم. ومن ذا الذى ينسى قصائد البحترى فى الخليفة المعتصم الذى شن حربا على الروم تلبية لاستغاثة امرأة عربية عبث جندى منهم بردائها ، وبعض قصائد ابن هانىء الأندلسى فى مدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى. فليس من شعر المناسبات ما يفصح فيه قائله عما يؤمن به من قيم الحق والعدل التى رآها تتمثل فى ممدوحه، فجعله نموذجا للمثل العليا واتخذ من أفعاله وأقواله الحميدة صورة فنية تجسدها . ولكن الذى يؤخذ على الشاعر هو المبالغة والخروج على الدين والآداب الاجتماعية مثل قول أحدهم:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار !!

أما المدح فلا يعد بذاته غرضا ممجوجا ما دام يعبر عن اقتناع الشاعر بما يخلعه على ممدوحه من صفات ، وعن تمثله بذلك للوعى الجمعى بالإضافة إلى اكتسابه للوعى الجمالى. ومن ثم قال أبو تمام عن دور الشعر فى نشر المثل العليا والتوعية بها :

ولولا خلال سنَّها الشعر ما درى

بناة العلا من أين تُؤتى المكارمُ

وما يقال عن المديح في هذا المقام يصدق إلى حد ما على نقيضه وهو الهجاء في نماذجه التي تنأى عن الابتذال والفحش، وإنما يقصد بها التنفير من القبح والشر والخسة والجبن وغيرها من الآفات الخلقية، وذلك من خلال صيغ جمالية فنية من حيث الدلالات والدوال. وسواء أكان المهجو يستحق الذم الذي ناله من الشاعر أم كان بريئا من بعض النقائص التي وصمه بها، فإن الجيل الذي قرأ الهجاء والأجيال اللاحقة لا تعنيها هذه القضية، وإنما يؤثر فيها تعبير الشاعر عن قبح الصفات التي نعت بها من يهجوه، وما ينطوي عليه هذا التعبير - بمفهوم المخالفة - من إعلاء النعوت المناقضة . فإذا ذم البخل فإنه يمتدح الكرم في الوقت ذاته، وإذا أدان الجبن فهو يثني على الشجاعة. وقد كان الرسول عليه السلام يحث حسان بن ثابت على هجاء المشركين الذين تطاولوا عليه ، ويقول له: اهجهم . كما يقول عن شعر حسان: إنه لأشد وقعا عليهم من السهام.

وإذا كان تاريخنا الأدبي قد حفظ كثيرا من قصائد المديح وبعض قصائد الهجاء، وأسقط أخرى لصدورها عن شعراء أسفُّوا بفن القريض إلى مهاوي الارتزاق، فلقد أبقى على أكثر شعر الرثاء، ولم يُسقط منه إلا ما جرى مجرى التزلف إلى الأمراء وأهل السراوة والنعمة استدرارا لعطفهم واستجداء لنوالهم. فمثل هذا الرثاء لا يختلف عن المديح الزائف في جوهره ودواقعه ولا عن الهجاء المقذع الذي يحيل الحق باطلا والباطل حقا. بل إنه لا فارق كبيرا بين المدح الكاذب والرثاء المغرض حتى في أساليب الصياغة والأشكال الفنية، إذ لا يعدو الرثاء المصطنع أن يكون خلعا لصفات مبالغ فيها أو غير صادقة على الأموات . ولكن ثمة فارقا بين المدح والرثاء، وهو غلبة الصدق على الثاني ، لأنه لم يكن ضريبة يؤديها الشاعر لأمير أو سري فقد واحدا من أهله برثاء الفقيد كما كان يطالب بأداء واجب المديح. ولم يكن الرثاء في الأعم الأغلب سببا من أسباب الكسب، فالدنانير والدراهم والجواري والدواب مكافأة من نصيب المادحين لا الراثين. فكان الشاعر العفّ يربأ بنفسه عن اتخاذ الرثاء «الرسمي» وسيلة للترخص والتزلف في سبيل نيل الحظوة ، وحسبه أن ما أنشده من مدائح الأحياء قد وقاه شر التضوّر جوعا وأعفاه بذلك من مدح الأموات.

ومجمل القول أن قصائد المدح والرثاء ليست كلها ضربا من الارتزاق أو النفاق، بل إن كثيرا منها يصدر عن صدق واقعي وصدق فني. وهي بذلك لا تعد من شعر المناسبات. والقول بغير ذلك إهدار لكنز ثمين من تراثنا العربي شهد بقيمته الإنسانية والفنية كثير من المستشرقين والمستعربين.

إن كنت في عجلة من أمرك فعليك بسمسار!

بقلم : حسن سليمان

انطلقت بنا العربة فى طريقها إلى الاسكندرية. فجأة سمعت سيدتين تتحدثان بالفرنسية خلفى. تطلعت إليهما. إنهما فى منتصف العمر. كل شىء يدل على أنهما من الطبقة المتوسطة العليا. عليهما مسحة من جمال. قالت إحداهما للأخرى: «سميحة، وقعت أخيراً على رجل يعوضها عن الرجل الأول، لامثيل له فى كل شىء».

أطرقت السمع جيداً لأسمع مميزات الرجل الذى لامثيل له، ولا يقارن به رجل آخر. فإذا بها تتم الحديث قائلة: «إنه كالخاتم فى إصبعها» !!.

اندهشت فقد كنت أظن أنه رجل مرموق، أو على خصالٍ حميدة. فإذا كل ما يمتاز به. أنه كالخاتم في إصبعها.

علمت إذن .. لماذا أنا فاشل مع نساء وقتنا الزاهر؟!

فأنا لا أستطيع ولا أملك القدرة على أن أكون خاتماً في إصبع امرأة.

المرأة مع الضغط العصبي في هذا المجتمع محتاجة إلى الرجل المريح!

الحديث يذهب بعيداً بي إلى أشياء أخرى ارتبطت بتكوين المجتمعات واقتصادها في القرن التاسع عشر.

حينما نظر «فلوبير» إلى السيدات اللاتي حضرن محاكمته على قصته «مدام دي بوفاري» أشار بيده بحِدة إليهن صائحاً: «كلكن مدام دي بوفاري» ، وقال شاعر، أظنه الشاعر الفرنسي «سابرول»: عامل السيدة على أنها عاهرة فهذا ماتفتقده، وعامل الخادمة على أنها سيدة. أظن أن هذا كان رأي «دي.إتش. لورانس» أيضاً. كذلك كانت خيبة أمل «شاتو بريان» حينما خدع في سيدة يحبّها. فخبأته الخادمة التي أحبته - لأنه يحترمها - في صوان ضخم ليسمع ما تقوله السيدة عنه لعشيقها الحقيقي: «كم أشعرنا «شاتو بريان» في الجزء الأول من مذكراته بالملل»، ونحن نقرأ في نهاية كل صفحة جملته التي يكررها دائماً: لقد اكتشفت أني في حب. وأخيراً مع اختفائه في الصوان، سمع رأيها الصحيح فيه لعشيقها. رأى وسمع كيف تعامل عشيقها. فإذا به وهو منصرف على ظهر حصانه تنتابه نوبة من الضحك. لشعوره بالخديعة طيلة هذا الوقت.

«شاتو بريان» العظيم لعبة في يد امرأة لعوب تحب رجلاً دون مميزات. وإذا بمذكراته بعد ذلك خالية تماماً من ذكرها.

الويل للفنان إن ركع أمام المرأة. إنها تريده دائماً راكعاً أمامها. إنها لذتها الكبرى. أن يشله جفاؤها. أن يشلة غضبها منه.. أن ينكمش كلية بدونها.

وقعت في يدي خطابات. أظنها بأسماء مستعارة. في الهامش أسفل الصفحة كتب (إنها الخطابات المتبادلة بين «فلوبير» و«جورج صاند»). هذه الخطابات أتمنى أن يسمح لي العمر أن أترجمها. فهي على مستوى عال من الثقافة والفهم العميق، والأدب القديم، والميثولوجيا. إن المرء لا يملها.

المضمون ينحصر في شيء واحد. هو يتحدث في شيء، وهي تتحدث في شيء آخر. هو يتحدث في أنها جعلته يتكامل مع نفسه. يكتب حتى وهو بعيد.. يفكر وهو يتذكرها.. يقرأ متذكراً إياها.. مستشهداً في كل ذلك بكلمات من الفكر القديم والأدب القديم. هي ترد عليه بنفس المستوى لكنها مصرة على أنها تريده هو، تريده أن يلمسها، أن تكون بين أحضانه،

أن ترى عينيه، أن يتجاذبا الحديث، أن يتنزها معا، ولا وقت ولا حاجة عنده لهذا. لأنه صاحب مقولة « لا يوم بدون سطر». لم تكن رغبة «چورچ صاند» غير شيء واحد. هو السيطرة على «فلوبير»، وأن تنجح في أن يكون خاتماً في إصبعها. لكن «فلوبير» اختار هو و «ديلاكروا» طريقاً غير الذى اختاره كل من «ألفونس دوديه» و«شوبان». كلهم عظماء. لكننى مع «فلوبير» و«ديلاكروا».

الحقيقة تنحصر فى أبيات لاتينية ضمن أبيات «كرمينا بورانا» الأصلية. التى يقال فيها: «إن فارسك سيرجع لك بالتأكيد» الفارس يفى بوعده دائماً، وستركعان أمام المذبح، ويضع خاتمه فى إصبعك. لكن إن كنت فى عجلة من أمرك فعليك بسمسار أو تاجر نبيذ غشاش. ربما شعرت بطمأنينة بجانبه، لكنك ستفتقدين دوماً معنى الفارس فى حياتك.

***

اعتدت طيلة السنوات الماضية أن أطلب أصدقائى تليفونياً كل عيد. فى هذه السنة جاء العيد الصغير. طلبتهم واحداً.. واحداً لم أجد أحداً. فكلهم ذهبوا إلى القرى والمنتجعات السياحية فى البحر الأحمر والساحل الشمالى. تعجبت!! وصحت: أين بهجة العيد؟! أين ما اعتدنا عليه فى منزلنا.. أين الستائر التى تخرج خصيصاً فى ليلة العيد، المفارش، الآنية المخصصة للحلوى والكعك. التى كانت توضع وتغطى على المائدة، أين فرحة الأولاد بالملابس الجديدة، والعيدية، والزيارات المتبادلة، وجاء العيد الكبير، وأخذ التليفون يرن فى منازلهم، ولا أحد يجيب، وتساءلت: «أين فرحة العيد الكبير، وخروف العيد، والصباح الباكر، والشواء الساخن، ودعوة الأصدقاء والعائلة أيام العيد الأربعة، وارتباط العائلة».. هل ضاع ارتباطنا العائلى؟ الذى قد يكون ضياعه سبباً فى تحلل المجتمع كله.

أتى شم النسيم كذلك وإذا بالتجربة تتكرر، وتذكرت شم النسيم والزينة التى كنا نعلقها من الورق المقوى التى تمثل دجاجاً، وبيضاً. يتحرك فى الهواء «بسوستة» رفيعة جداً. تذكرت البيض الذى كنا نلونه مساء شم النسيم، ونتفنن فى تلوينه. ثم يوضع فى وعاء على شكل حمامة ضخمة مجوفة بيضاء. مَرَحْنا، وتكسير قشر البيض على جباهنا، قرش الصاغ المخبأ فى الرغيف المضفر، والمحلى بالسكر.

ليلة شم النسيم كانت لها طقوس. فلابد أن نستحم كلنا أطفال العائلة «حمام الشمامة». نضع على وسائدنا الورود، وطيلة الليل نستمع إلى الشباب وهم يغنون: «يا نايم ياخمّ النوم.. يا نايم.. يا نايم قوم صحّ النوم». الاحتفال بيوم شم النسيم بطهو الملوخية وورق العنب وأكل الفسيخ.

وأخيراً تجرأت وسألت كلاً من

أصدقائى عن هذا التقليد الجديد. الإجابة كانت واحدة. ضغط من الزوجة لكى تستريح من القاهرة، وتستنشق هواءً نقياً، ويلهو الأطفال فى جو صحى. سألت: هل ارتحتم.. هل استفاد أطفالكم؟.

– فى معظم الأوقات الرحلة تنهكنا، والحجرة إن لم تكن متسعة وعلى البحر تسجنا، والرطوبة والذباب تتلف أعصابنا، غالباً ما نرجع مجهدين، وكأننا نريد إجازة أخرى من الإجازة. قلت: ولماذا وافقتم؟ قيل لى: نريد أن نريح أعصابنا المجهدة من إصرار الزوجات، وإزعاجهن المستمر لتحقيق هذه الرغبة. هذا الإصرار يفقد الأعصاب.

هل تعلم أن هذه الرحلات رغم قولهم عن التخفيضات، ترهقنا مادياً إلى درجة الدين. أقول: أليس هذا استهلاكا دون معنى، وتحطيما لترابط المجتمع. ما الدافع لإصرارهن على هذا؟!.

الإجابة أنهن يقلن: إن كل من حولنا من العائلة يفعل هذا فهل نحن أقل منهم؟!

إن الأمر قد يبدو بسيطاً. لكن بتفكير بسيط نستطيع أن نصل إلى أنه المجتمع الاستهلاكى الخاضع للإعلانات فى التليفزيون والصحف . وبسؤال ذوى العلم. نستطيع أن نصل إلى أن هذه القرى والمنتجعات كلها فى أيدى عائلات قليلة. تسيطر على اقتصاد البلد. ومعظم المجالات الأخرى مما قد يخرب اقتصاد البلد كلية.

مع نهاية الحرب وسيطرة حكومة «ديجول» على الحكم، وجد «ديجول» أن من يسيطر على اقتصاد فرنسا بضع عائلات. يملكون معظم أدوات الإنتاج. ثار «ديجول» واخترع لفظاً أدخل فى الفرنسية بعد ذلك. إذ قال لهم: «أنتم تتبرزون على أنفسكم». ولن أسمح لكم بهذا. سوف أحاربكم بأقصى ما أملك من قوة. فلابد أن يكون التنافس حراً بين رؤوس الأموال الصغيرة والكبيرة. سأحارب أى تلاعب يمس الاقتصاد. لن أدع للسمسرة القذرة سيطرة على اقتصادنا. كان «ديجول فى قوته فارساً». فهو حفيد الفارس الذى كان ممسكاً بلجام «جان دارك» وهى تحاول تحرير فرنسا وتوحيدها.

***

فى السنوات الأخيرة وجدت إعلاناً يتكرر يومياً « انسفى حمامك القديم». رجع وكيل وزارة إحدى الوزارات إلى منزله. رأى عمالاً . رأى قيشانى حمامه قد تحطم كلية. سأل زوجته: ما هذا؟!

قالت له: لقد أعجبنى الحمام الذى فى إعلان التليفزيون. رأيته بالتقسيط المريح. بعد أن قالوا: «انسفى حمامك الآن». قال لها: «ولكن لن يتبقى معنا من المرتب شئ لندفعه للأقساط. إن كل شىء محسوب». قالت: «عليك أن تتدبر الأمر».

كثير من نساء اليوم يفضلن الرجل السمسار. فنحن في وقت الصدارة فيه للسمسار، والسماسرة أنواع. حدث أن الدولة أعطت ذات مرة جائزة الدولة التقديرية لسمسار. على أنه أعظم كاتب، وهو لم يكتب سطراً واحداً في حياته. بعد أشهر أعلنت في جرائدها الرسمية أنه قوّاد. نحن في عصر تتحقق فيه المقولة اليونانية: «الذهب ليست له رائحة». إن السمسرة أنواع . تبدأ من مكاتب الاستثمار، وأوراق البورصة، وتنتهي إلى سمسرة الشقق المفروشة والدعارة. لكن السمسرة هي السمرة . مع سيطرة السمسرة على السوق وجرى الشباب إليها . فالشاب الذي يعمل في مثل هذه المكاتب حتى - ولو كانت وهمية - هو الذي تجري وراءه المرأة ليكون خاتما في إصبعها - إن أكثر نساء اليوم يجرين وراء السمسار، بطبيعته الخانعة الخادعة، سعياً لمستوى معيشي أفضل، وهكذا ذهبت تقاليدنا وأعرافنا وقيمنا مع الرياح.

كان هناك فيلسوف يوناني من المدرسة الكلبية . نسيت اسمه. لكني أظنه كان «ديمتريدس». وقف في ميدان السوق. خلع ملابسه. رفع يديه. صاح: «ديمتريدس يبيع نفسه» وإذا «بأبيبرخيا» ذات الحسب والنسب والجمال. تلتقط أسماله البالية وتحضنها. «أبيبرخيا» تطلق على الفتاة بنت قائد الفرسان، وكان أخوها كذلك قائداً للفرسان. احتضنت ملابسه طائعة مؤمنة به وتبعته إلى كهفه، ولم يصبح أبداً خاتماً في إصبعها.

أذكر أن في جيلي كثيرا من الشعراء الكبار والصحفيين والفنانين. أحبتهم وتزوجتهم فتيات ذوات حسب ونسب، كن يفخرن حتى بذهابهم إلى السجن. أما فتيات الآن فهن يسعين وراء مغنٍ رقيع، أو لاعب كرة. لأن الصدارة لم تعد لشرف الموقف، أو لشرف الكلمة.

في وحدتي الآن أردد دائماً كلمات «بول ڤاليري»: «أعط المرأة أي شيء تريده.. إلا وقتك وروحك».

ذات مرّة.. أحبتني امرأة. فتحت إحدى أعداد «مجلة الكاتب». قرأت في مقال ليّ جملة: «ما يضير الإله إن ركع طالما هو يملك القدرة على النهوض ثانية». فإذا بوجهها يتغير كلية، وملامحها تتقلص، وتقول: «لو قرأت هذه الجملة لك من قبل ما سعيت لمعرفتك». نظرت إليها متعجباً. فما علاقة موقف الفنان بالنسبة للفن والمجتمع وعلاقته بالمرأة؟!

لم يكن في الإمكان أن يقال عن خال أمي إنه رجل صوفي، ولكنه أقرب إلى تلك الفئة التي يطلق عليها «المجاذيب». إذ كان يردد كلمات لا معنى لها. أقرب إلى الترجمات السيئة بالعربية للشعر الأوربي الحديث أو السريالي. كان عندنا في اليوم السابق لعيد الأضحى، وهو يترنم بأوراده، وفجأة صرخ في وجوهنا: «ضحكوا عليكم وأرسلوا لكم نعجة». اندهشت أمي قائلة

له: وكيف عرفت؟ . أجاب: إصرارها على ارتطام قرنيها بمكان ثابت من سطح الباب. أما الكبش فهو أهوج، يندفع مرة ذات اليمين ومرة ذات اليسار بعكس النعجة. فهي تصر بهدوء وتركيز على مكان ثابت. فتحت أمي باب الحمام فوجدته يكاد يثقب، وبعد التحرى اكتشفنا أنها نعجة، وصحنا جميعاً في وقت واحد: ماذا سنفعل بالنعجة؟

أخذ خال أمي يضرب كفاً بكف قائلاً: أهل مصر المثقفون لايدرون ماذا يفعلون بالنعجة ويكررها متعجباً!!، وأخيراً هتف: «النعجة يُقصّر لها الحبل». في ذلك الحين كنت في السابعة عشرة، وأعجبتني تلك الكلمات كثيرا، ووضعتها حلقة في أذني حاولت أن أطبقها مع المرأة في مراحل حياتي لكني فشلت. لو قصرت لها الحبل ثارت وهاجت وماجت. بكت وشدت شعرها، أو حاولت ضربي، ولو تركت لها الحبل. طلبت المزيد من السيطرة والتحكم وفرض الرأي وفعل ما تريد دون أن يكون ليّ الحق في فعل شيء. قال الدكتور سعيد دراز الجراح المشهور لابد أن يكون قد حدث تغير ما. ففي شبابي كانت الكتب كلها عن كيف تعاملين زوجك، وكيف تجعلينه يحبك وكلها تخاطب المرأة، وكان عليها أن تخطب ود الرجل. أما الآن فالوضع اختلف. حولي عدة كتب كذلك معظم واجهات المكتبات التي زرتها. كتب كلها عن كيف يعامل الرجل المرأة، وكيف يفهمها، وكيف يجعلها ترضى عنه، وكأنها كائن غريب من المريخ على الرغم من أن الإثنين كائن بيولوجي، ولا فرق بينهما ككائن بشري. لقد فشلت حتى كدت أجزم أن العيب هو عيب الرجل.

ذات مرة رأى عندي الدكتور فاروق فريد أستاذ الكلاسيكيات بجامعة القاهرة ثم بجامعة أثينا - رأى فتاة جميلة. فقال ليّ: اقفل بابك جيداً ستمزقك فتيات «أرت ميس» إرباً إربا. لأنهن قد اعتدن على اصطياد الأرانب البرية. لم أسمع كلامه. ليتني سمعت كلامه، والان أنا راقد على رماد شقتي المحترقة، وحولي فتيات «أرت ميس» يرقصن طرباً وقد عقصن شعورهن بزهور الغابات البرية.

سأظل راقداً وسط الرماد حتى يفقدن الشهية كلية في تمزيقي، ويبعدن عني، أنهض متثاقلاً، ألملم شتات نفسي، ويكون لي غد وبداية.

★★★

ما قلته عن النساء لا ينطبق على السواد الأعظم من النساء الواقفات مع أزواجهن، لكنه يمس شريحة من النساء تعرفها جيداً باقي النساء.



المكان فى الرواية والقصة

بقلم : أبو المعاطى أبو النجا

الهلال.. وليالى الصيف الجميلة

بريشة الفنان : جودة خليفة

المكان هو مادة الوجود الأولى، وحركته هى صانعة الزمان وفى اطار من المكان والزمان وجدت التجربة الانسانية ولا توجد تجربة انسانية بعيدة عن التأثر بهذا الإطار. ولكن درجات التأثر هى التى تختلف من انسان لآخر ومن تجربة لأخرى، فأحيانا يكون المكان أو الزمان عنصرا فاعلا فى التجربة الانسانية، وذلك بقدر ما يترك من أثر فى الفكر أو الشعور أو الخيال أو الاتجاه أو الموقف الانسانى، وأحيانا يكون الزمان أو المكان مجرد خلفية تترك بالضرورة أثرا ما لكن ليس بهذه الفاعلية.



والتجربة الانسانية هى مادة الأدب الأولى، أيا كان جنسه أو نوعه، قصة أو رواية أو شعراً أو مسرحية وفى الأدب القصصى كما فى الحياة، تختلف أيضا أهمية المكان باختلاف دور المكان فى الرواية أو فى القصة فكلما تجاوز المكان دوره كمجرد خلفية وكلما كان له تاثير فى الفكر أو الشعور أو الخيال أو الاتجاه أو الموقف، كان عنصرا فاعلا فى القصة أو الرواية على أننا ينبغى أن نفرق بين دور المكان فى الواقع الخارجى وبين دوره فى العمل الروائى، فقد يكون للمكان فى الواقع الخارجى وظيفة معروفة اجتماعيا وعمليا مثل المقهى أو الحقل أو المصنع، أو محطة السكة الحديد أو المطار أو المدرسة أو المؤسسة، وقد يستخدمه الروائى ليقوم بهذا الدور فى العمل الروائى، ولكن ذلك قد يكون مجرد بداية ، ففى العمل الروائى يمكن للكاتب أن ينطلق من هذه الوظائف المعروفة لهذه الأماكن لينيط بها أدوارا ووظائف أخرى فى عمله الروائى، لم تكن لها فى الواقع الخارجى، وربما تتجلى هذه الأماكن من خلال رؤى أبطال القصة أو الرواية بصور مختلفة ومبتكرة نتعرف من خلالها على شخصيات الأبطال، ونوعية التاثير الذى تركته فيهم هذه الأماكن، كما نتعرف على شخصيات الأماكن كما يراها هؤلاء الأبطال.

صمود عنصر المكان

خصيصة أخرى للمكان سواء فى التجربة الانسانية أو فى العمل الروائى هى أنه الملمح الذى يبقى فى الذاكرة الانسانية حين تبهت بقية ملامح التجربة فى الأدب أو فى الحياة وكلاهما تجربة انسانية!

فالزمن يمكن أن يمسح بأذياله على الأفكار والمشاعر والاتجاهات التى ترتبط بالتجارب فى الحياة أو فى الأدب ولكن عنصر المكان فى هذه التجارب يبقى وحده صامدا لفعل الزمن تحتمى به العناصر الباقية لترسل من بعيد وهجا خافتا أو نبضا واهنا من الأفكار والمشاعر التى ترتبط بالمكان فى هذه التجارب ، ففى رواية «جسر على نهر درينا» للكاتب

اليوغسلافي «ايفو اندرتش» الحائز على جائزة نوبل، في هذه الرواية العظيمة وفي غيرها، قد ينسى القارىء الكثير من تفصيلات هذه الرواية الضخمة والشائقة ولكن صورة الجسد كما أبدعها الكاتب، والأحداث التى وقعت من حوله، أو الشخصيات التى بحوزته أو تلاقت عنده، أو تحددت مصائرها بسببه أو على حافته هى وحدها التى تبقى فى ذاكرة القارىء حين يبدو أن كل شىء يمكن أن يصير إلى زوال .

ربما كانت هذه المقدمة العامة لها ما يبررها قبل أن أتحدث عن عنصر «المكان» كما تعاملت معه فى بعض ما كتبت من قصص أو روايات، ومن الطبيعى فى اطار هذا المقال أن أكتفى بايراد مثالين أو اكثر من هذا التعامل وحديثى هنا عما كنت أفكر فيه وأشعر به وأنا أتعامل مع هذا العنصر لا يعنى بالضرورة اننى نجحت فى توصيل ما كنت أنتويه الى القارىء فهذا الأمر متروك له، إنه فقط مجرد اعتراف!.

الهدّار

القارىء الذى عاش فى القرية المصرية، يعرف الترع الصغيرة المنبثقة من فرعى النيل الكبير من «فرع رشيد» وفرع دمياط، ويعرف ان هذه الترع تنتشر فى دلتا النيل كما تنتشر الشرايين والأوردة فى الجسم، تبدأ فى مجارى واسعة نوعا ثم تتدرج فى الضيق كلما تفرعت يمينا أو يسارا من المجرى الواسع. وعند نقطة التفرع هذه يوجد ذلك الجسر الذى يسمى «بالهدار» انه الجسر الذى يتحكم فى المياه من خلال سدود خشبية أو حديدية يتم فتحها واغلاقها لتسمح بتقسيم عادل ومنتظم لحصص المياه، المهم فى هذا كله انه فوق هذا الجسر، وعلى الطريق الزراعى المؤدى إليه من قريتنا التى استوحيت جوانب من حياتها فى روايتى «ضد مجهول»، كان بعض شباب القرية الذين أتيحت لهم فرص التعليم، والذين يعودون إلى قريتهم فى الاجازة الصيفية يلتقون فى ليالى الصيف الجميلة عند هذا «الهدار» حيث لا تتسع بيوتهم للقائهم بحرية، يجتذبهم سحر المياه المحتدمة خلف السد، فى دوامات لا تنقطع، تستمر مياه الترعة فى تدفقها، وتتابع أجيال من الشباب، ودائما يكون لقاؤهم حول «الهدار» شباب فى سن المراهقة أو بعدها بقليل، يتحاورون



بروح الشباب المرح أو المهموم تختلف آراؤهم ورؤاهم وظروفهم، ولكن احتدام الشباب وقلقه وتطلعه ورغبته فى تجاوز كل العوائق والمحبطات هو ما يجمعهم ثم يتفرقون بعد هذه المرحلة، وقد لا يلتقون أبدا . كما تتفرق المياه المحتجزة خلف السدود، بعد اجتيازها.

لقد استخدمت هذا المكان فى روايتى «ضد مجهول» وكنت اشعر بقوة بذلك التشابه العميق بين الدور الذى يقوم به «الهدار» فى حياة المجرى المائى الدائم، وبين الدور الذى صنعه التجمع الشبابى حول «الهدار» فى حياة القرية فى ذلك الصيف، وقبل ان تتفرق بهم سبل الحياة، لم يكن المكان هنا مجرد خلفية بل كان مثلث المرآة التى تعكس الصورة، وفى هذه المرآة يتجلى تياران، تيار الزمن فى حياة هؤلاء الشباب وتيار المياه فى حياة هذا المكان فى هذه الأرض الطيبة، أظن أننى حاولت فى كتابة هذه الرواية أن أصور بكل الوسائل الفنية الممكنة، وبطريقة ناعمة وغير مباشرة هذا التقابل بين تيار الزمن فى حياة الشباب وتيار الماء فى حياة المكان، الى أى مدى وفقت فى ذلك؟ إلى اى مدى شعر به القارىء؟ لا أزعم أننى هنا أحاول الاجابة عن هذا السؤال، انما فقط أعبر عما كنت أفكر به وأنتويه!.

وقت الزوال

فى قصة قصيرة لى بهذا العنوان «وقت الزوال» كنت استخدم ذات المكان المجرى المائى خلف الهدار كان بطل القصة صبى فى مرحلة ما قبل المراهقة، وحيد ابويه، يذهب الى المدرسة، وحين يتبارى الأولاد فى مثل سنه فى عبور الترعة سباحة من خلف الهدار، من أوسع مكان فى الترعة، حيث يتجسد خطر الدوامات المهلكة، كان هو يكتفى بحراسة ملابسهم على الشاطىء، تقيده تحذيرات ابويه من الموت غرقا فى الترعة، مفتونا بالسطح الساكن للمياه، وبصورة الأولاد وشجاعتهم وهم يشقون بحركاتهم

الرشيقة. ذلك السطح الساكن عابرين الى الشاطىء الآخر، محتملا معايرة الأولاد له بالخوف والجبن، ولا يحتمل الصبى طويلا هذه المعايرة، فينزل إلى الماء ويواجه الموت غرقا، وتكشف له تجربة الغرق هذه عن العلاقة الغامضة بين الموت والحياة، فالهدار الذى يهب الحياة إلى الأرض والناس والحيوان هو الذى يهب الموت أيضا، ولكنه من خلال هذه التجربة فى مواجهة الموت غرقا يفتح الباب السرى لمواجهة الحياة الحقة حين يبدأ فى التخلص من مخاوفه الكامنة بتعلم السباحة. وفى هذه القصة استخدام آخر للمكان ذاته لاكتشاف دلالات جديدة لنفس المكان!

قرية أم محمد

فى قصة قصيرة لى بهذا العنوان، تبدأ القصة وتنتهى عند مكان بعينه موجود فى كل القرى على حافة الترع الصغيرة المتفرقة من الهدار. هذا المكان يسمى «الموردة» تتجمع عنده نساء القرية، يغسلن الملابس المتسخة والأوانى، ويملأن الجرار، وأهم من هذا كله، يجتمعن، ويثرثرن، ويتبادلن الحكايات والأسرار، ويرجعن إلى بيوتهن، الملابس والأوانى التى كانت متسخة يعدن بها نظيفة لامعة، وصدورهن التى كانت تضيق بأفراحها أو أحزانها أو أسرارها أو فضولها، تعود هى الأخرى مغسولة بما باحت به، بما سمعته، من خلال هذه الوظيفة التى تقوم بها «الموردة» فى حياة القرية، استخدمت هذا المكان لأروى قصة قرية «أم محمد» من الموردة، ومن خلال أحاديث النساء قدمت قصة حياة «أحمد أبو المكاوى» ابن الليل الذى دوخ الحكومة كما دوخ بعض العائلات الكبيرة فى القرية فى فترة من حياتها، حين عاد إلى القرية بعد غيبة طويلة.

من الموردة بدأت اسئلة النساء عن سر عودته وحملت اجاباتهن توقعات كثيرة، وحين لقى احمد ابو المكاوى مصيره الفاجع فى القصة انهيت القصة فى المكان نفسه الذى بدأت منه عند الموردة حيث كانت اسئلة النساء أيضا عن السر الغامض لهذا المصير.

ومن البداية والنهاية يضح جليا ان «للموردة» دور أخطر من مجرد غسل الملابس والصحون.

كوبرى أبو العلا وهل بناه إيفيل ؟ !

مشروع الحفاظ على ذاكرة مصر الهندسية

بقلم : د. فتحى صالح

مدير المركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والطبيعى

فى مغامرة لامثيل لها فى البحث عن أصل كوبرى أبوالعلا والوصول إلى حقيقة من الذى قام بتصميمه وبنائه، وما إذا كانت هناك علاقة بالمهندس جوستاف إيفيل الذى بنى برج إيفيل، يتوصل كاتب هذا المقال بالاشتراك مع آخرين إلى العثور على كنز هندسى بدار الارشيفات الهندسية بمدينة ليون بفرنسا به حوالى ٦٠٠ لوحة هندسية أصلية لستة كبارى بمصر أنشئت فى أوائل القرن منها كوبرى أبوالعلا ويجيب هذا الاكتشاف بشكل قاطع على كل هذه التساؤلات.



كوبرى أبو العلا يوم افتتاحه

البحث عن كوبرى أبوالعلا (الحقيقة والخيال) :

منذ كنت طالبا فى الستينات أعد رسالة الدكتوراه فى باريس وأنا شغوف باستكشاف المعالم المختلفة بباريس، وكان أحد هذه المعالم التى تعتبر رمزا لباريس هو هذا البرج العالى الذى بناه المهندس الفرنسى المشهور جوستاف إيفيل فى أواخر القرن الماضى، وذلك بمناسبة احتفالات مرور مائة سنة على الثورة الفرنسية وكذلك بمناسبة المعرض الدولى المقام بباريس فى حدائق مارس أمام المدرسة الحربية، وعند زيارة هذا البرج من أى مواطن مصرى فإنه يتبادر إلى ذهنه علاقة هذا البرج بكوبرى أبوالعلا فى مصر والأسطورة التى تقول: إن الذى بنى أو صمم هذا الكوبرى هو المهندس إيفيل وأنه عندما فشل فى فتح الكوبرى أقدم على الانتحار، ولكن أول ما يسترعى النظر عند زيارة برج إيفيل بباريس هو وجود هذا التمثال النصفى للمهندس إيفيل بجوار البرج، وكعادة الفرنسيين عندما يضعون تمثالا كهذا يضعون تحته بعض المعلومات والتى تفصح فى هذه الحالة عن اسم صاحب التمثال وتاريخ ميلاده وتاريخ ووفاته، ويا للمفاجأة بالنسبة لى عندما شاهدت هذا التمثال، تقول المعلومات المصاحبة له : إن إيفيل ولد عام ١٨٣٢ وتوفى عام ١٩٢٣ أى أنه عاش ٩١ عاما، السؤال الذى تبادر فى ذهنى فى ذلك الوقت هل يمكن لمهندس عمره ٩١ عاما أن تطلب منه دولة أن يقوم بتصميم كوبرى وأن يفشل وأن ينتحر؟؟ علما بأن هذا الكوبرى تم إنشاؤه فى الفترة من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٣ .

وظل هذا السؤال فى ذهنى منذ ذلك الوقت إلى أن عدت إلى باريس بعد ثلاثين عاما فى التسعينات كمستشار ثقافى وجاءت الفرصة عندما اتصل بى صديقى المهندس إبراهيم محلب نائب رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب والتى كلفت بإنشاء كوبرى جديد ليحل محل كوبرى أبوالعلا وكذلك القيام بفك كوبرى أبوالعلا، وصارت تساؤلات كثيرة مرة ثانية.

- هل هذا الكوبرى بناه حقا جوستاف إيفيل؟.

- هل هذا الكوبرى له قيمة تاريخية خاصة؟.

اتصل المهندس إبراهيم محلب ليطلب منى مساعدتهم فى الرد على هذا التساؤل ومن هنا بدأت القصة.

قصة ثلاث مدن (باريس - ليل - ليون) :

عندما اتصل بى المهندس إبراهيم محلب نائب رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب وكان ذلك فى شهر أكتوبر ١٩٩٦ لمساعدتهم فى الرد على هذه التساؤلات بخصوص كوبرى أبوالعلا طلبت منه أن يمدنى بأية معلومات أو خيوط أبدأ منها البحث فى هذا المجال، فأفادنى بأنه أثناء تفتيش أعمدة الكوبرى

المذكور، وجد على أحد الأعمدة علامة مكتوب عليها «فيف ليل - Fives - Lille»، وكان أول احتمال تعطيه هذه الكلمة أنها ربما لها علاقة بمدينة «ليل Lille» التى تقع فى شمال باريس بحوالي ٢٠٠ كيلومتر وهى منطقة صناعية اشتهرت في أوائل القرن الحالى بصناعة المنشآت المعدنية وخاصة الحديدية، ولما كنت على اتصال بالسيدة دمينيك فالبيل Dominiquee Valbelle أستاذة المصريات في جامعة (ليل - ٣) فقد انتهزت فرصة دعوتي لحضور معرض ومؤتمر عن حفريات شمال سيناء بجامعتها لأطلب منها مساعدتي فى موضوع كوبرى أبوالعلا فكلفت مساعدتها السيدة/ بريجيت جراتيان Bregitte GRATIEN بإجراء الاتصالات اللازمة فى هذا الموضوع فقامت السيدة بريجيت بإجراء لبعض الاتصالات لتصل إلى الشخص المسئول عن مثل هذه المعلومات وهى مدام Debove وأنها عندها معلومات عن بيانات كوبرى أبوالعلا المنشود وقامت بتوجيه خطاب لى بهذا المعنى بتاريخ ٢٥ نوفمبر ٩٦ والذى يفيد بالتالي:

- أن هناك شركة كانت قائمة فى هذه المنطقة فى أوائل القرن باسم فيف ليل Fives - Lille

- أن هذه الشركة انتهت أعمالها منذ وقت وتم تصفيتها لتصبح جزءا من شركة أخرى تحت اسم - Fives - Cail Babcock فيف - كاى - بابكوك.

- أن الأرشيفات الهندسية للشركة التى تم تصفيتها آلت إلى أرشيفين، عامين الأول - (Centre d,Archives du Monde de Travail CRoubaix) مركز أرشيفات أماكن العمل بروبية.

والثانى - Archives departementales du Rhone - Lyon الأرشيف المحلى لمنطقة الرون/ ليون.

وروبية هذه مدينة قريبة من «ليل» بينما ليون Lyon مدينة فى الجنوب الشرقى من باريس على بعد حوالى ٥٠٠ كيلومتر.

إن الأرشيف يحتوى ليس فقط على لوحات كوبرى أبوالعلا وإنما على كبارى أخرى بالقاهرة.

فقمنا بمراسلة السيدة Debove والتى ردت علينا بخطاب ومرفق معه بعض المستندات والتى مؤداها:

- أن هناك دراسة تمت حديثا فى عام ١٩٨٩ قامت بها الآنسة Catherine LONGET وذلك كجزء من تدريبها على تصنيف الأرشيفات الهندسية وأرفقت جزءا من الدراسة والتى تخص كبارى القاهرة والتى تبين منها أن الأرشيف يحتوى على رسومات الهندسية الخاصة بكل من:

- كوبرى أبوالعلا.
- كوبرى الزمالك (امتداد أبوالعلا).
- مشروع كوبرى قصرالنيل.
- مشروع كوبرى الجلاء (الكوبرى

الأعمى) Pont prov BAHR AAMA.

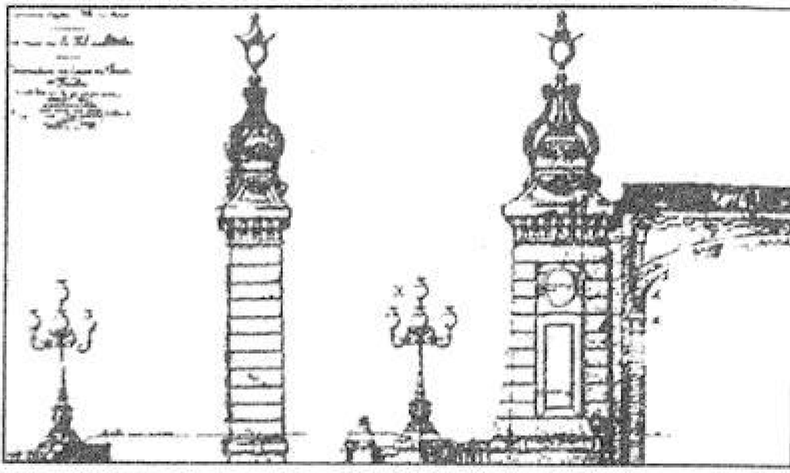
- تعلية كوبرى السكة الحديد بإمبابة EMBABEH.

- كوبرى المنصورة.

بناء على هذه المعلومات، قمنا بمراسلة الهيئتين المذكورتين فكان الرد من الهيئة الأولى بأنه ما يوجد عندهم هو سجلات فقط للرسومات الهندسية لهذه الكبارى وأرسلوا لنا صورة ضوئية لهذه السجلات وكان رد الهيئة الثانية بمدينة ليون بأن عندهم الرسومات الهندسية الأصلية وإنه يمكن الإطلاع عليها طرفهم.

الزيارة: (الكنز المفقود):

مدينة ليون تعتبر إحدى المدن الكبرى فى فرنسا بعد باريس وهى تعتبر عاصمة المنطقة الشرقية، وتوجد فيها جامعة عريقة وهى جامعة ليون وبها قسم مشهور للدراسات الشرقية والإسلامية وكذلك بها قسم لعلوم المصريات برأسه العالم الأثرى الكبير جويون GOYON، وتصادف أن دعانى البروفيسور جويون لحضور مناقشة رسالة عنده بالجامعة فالتقيت به وبإحدى الدارسات المصريات المتوعدات فى علم الآثار، وتدعى جيهان زكى وهى تقوم بإعداد رسالة الدكتوراه تحت إشرافه وإشراف الأستاذ الأثرى العظيم الدكتور/ جمال مختار وهى أم لطفلتين وتقوم بمساعدة كل زملائها من الدارسين المصريين بمدينة ليون فى حل مشكلاتهم نظرا لتمكنها من اللغة الفرنسية واتصالاتها العديدة، استأذنت السيدة جيهان للحضور معى للأرشيف المحلى لمدينة ليون نظرا لمعرفتها الطرق بمدينة ليون ولعلاقتها بالأشخاص هناك، وذهبنا إلى مبنى الأرشيف معا وهو يقع فى حوارى ضيقة فى منطقة جبلية فى ضواحى ليون تكاد تمر بها السيارة بصعوبة كبيرة، ووصلنا إلي الأرشيف وطلبنا من المسئولين الإطلاع على الأرشيف الخاص بشركة Fives - Lille والخاص بكبارى القاهرة فأعطونا اهتماما خاصا وقاموا بتجهيز صالة بمنضدة كبيرة وضعوا عليها الألبومات التى تحتوى الرسومات الهندسية، ولا يستطيع أحد أن يصف شعورنا عندما وجدنا هذا الكنز الكبير - مئات من اللوحات الهندسية فى حجم يتراوح بين (٥٠ سم × ٧٠ سم) حتى (١,٠٠م × ١,٥٠م) داخل ألبومات قديمة مربوطة بشرائط من ثلاثة جوانب، وتقول جيهان: إن إحساسها وهى تقوم بفك هذه الشرائط يشبه جدا إحساسها وهى تتعامل مع أربطة المومياوات، نفس الإحساس الأثرى، بدأنا نطلع على الرسومات، إنها حقا مقبرة توت عنخ آمون الهندسية، لوحات عليها كلها ختم شركة Fives - Lille وموقع عليها من المسئولين بمصر فى هذا الوقت، وكل لوحة مؤرخة بتاريخ رسمها وهى تقع كلها فى العقدين الأولين من القرن العشرين، والرسومات غاية من الدقة وغاية من



تفاصيل لأعمدة مدخل كوبرى أبو العلا

التفصيل، منها حوالى ٣٠٠ لوحة لكوبرى أبوالعلا وحده.

وقد نتج من فحص هذه اللوحات مفاجآت عديدة، فالمفاجأة الأولى أن الذى صمم كوبرى أبوالعلا هى شركة «فيف ليل» وليس المهندس جوستاف ايفيل ولكن أكثر من ذلك وهو أن الجزء المتحرك من هذا الكوبرى والذى تدور الشائعات بأن المهندس إيفيل عندما فشل فى إدارته أقدم على الانتحار فإن هذه الشائعات غير صحيحة حيث أنه ثبت من خلال فحص اللوحات المذكورة أن شركة فيف ليل لم تقم بتصميم هذا الجزء، وإنما أوكلت التصميم إلى شركة أخرى وهى شركة «شيرزر» الأمريكية ومقرها مدينة شيكاغو.

كما كانت المفاجأة الثالثة أن العديد من هذه اللوحات يحمل إمضاءات من الجانب المصرى لشخصيات مصرية مرموقة على رأسها إسماعيل باشا سرى الذى ظهر إمضاءه على لوحات كوبرى الزمالك وكذلك توقيعات رئيس هيئة الطرق والكبارى على لوحات كوبرى إمبابة.

وبعد قضاء حوالى ثلاث ساعات مع هذا الكنز قمنا بتسجيل ملاحظاتنا العامة على هذا الكنز الهندسى.

وعدت إلى باريس لأقوم بالاتصال بصديقى المهندس إبراهيم محلب لإخباره بما وجدناه والذى قام بدوره بالاتصال بالمهندس إسماعيل عثمان رئيس مجلس إدارة الشركة لإخباره بالنتائج والذى بدون تردد طلب منا الحصول على هذا



صورة من إمضاء اسماعيل باشا سرى وزير الأشغال فى ذلك الوقت

الكنز أو هذه الذاكرة الهندسية لمصر بأى ثمن.

فعاودنا الاتصال بالأرشيف المحلى بمدينة ليون لدراسة إمكانية تصوير هذا الأرشيف، ولكن الأرشيف اعتذر عن تنفيذ هذه الرغبة نظرا لأن اللوحات فى حالة واهية وأن حجمها أكبر بكثير من أن تستعمل بماكينات التصوير الفوتوكوبى، ولكنهم اقترحوا علينا بدلا من ذلك اسم شركتين عندهم إمكانيات تصويرية خاصة يمكن استخدامها فى تصوير مثل هذه المستندات الهندسية.

عصر - التكنولوجيا :

وقد قمت بالاتصال بهاتين الشركتين وقمنا بمباحثات فنية معهم وهى شركات تستعمل وسائل تصوير فوتوغرافية خاصة يمكن عن طريقها تصوير الخرائط الكبيرة بأجهزة تصوير دقيقة خاصة على نيجاتيف كبير فى حجم الفولسكاب بحيث يحافظ على دقة المعلومات كما يمكن أيضا ترميم اللوح فوتوغرافيا بإزالة التغييرات التى طرأت عليها نتيجة الأتربة والتهالك مع الوقت.

وقد طلبنا من الشركات عمل عينات من الصور للإطلاع على النتائج وبعد بحث هذه النتائج تبين أن إحدى هاتين الشركتين تفوق تكنولوجيا على الأخرى.

وبعد مباحثات مالية وفنية مع الشركة المتفوقة تم الاتفاق على أن يتم التصوير والطبع على ورق رسم بالحجم الطبيعى وكذلك على ورق كالك (بوليستر) وكذلك على ميكروفيش مفهرس وكذلك على اسطوانة ضوئية CD- ROM وهذه الأخيرة تعنى أن توضع جميع هذه

الرسومات الهندسية (٦٢٥ لوحة) على اسطوانة واحدة يمكن مشاهدتها على الحاسب الآلى والطباعة منها أيضا.

وسبب اختيار هذه الأوسطة المتعددة هو الآتى:

ورق الرسم العادى يسمح بالرؤية المباشرة لهذه اللوحات.

ولكن عمرها الافتراضى قصير (عشرات السنين).

- الكالك (بوليستر) يسمح بإعادة الطبع بالحجم الطبيعى على ورق مرة ثانية وعمرها الافتراضى أطول من الورق العادى بكثير.

- الميكروفيش يسمح بتخزين كل هذا الأرشيف فى حيز ضيق جدا ولكن ميزته الكبرى هى العمر الافتراضى الطويل جدا (حوالى مائة سنة).

وأما الأسطوانة الضوئية - CD ROM فهى أحدث الوسائل والتى تسمح بالتعامل بسهولة ويسر مع كل اللوحات فى آن واحد باستخدام الحاسب الآلى وهى تعتبر معجزة العقد الأخير من القرن العشرين، ولكن هناك تساؤلا عن عمر هذا الوسيط حيث أن قراءته غير مباشرة وإنما عن طريق جهاز الحاسب الآلى وأجهزة الحاسب الآلى تتغير مواصفاتها بسرعة كبيرة (فمثلا الأقراص المغناطيسية قطر ٥ بوصات التى كانت تستعمل منذ عشر سنوات اختفت الآن).

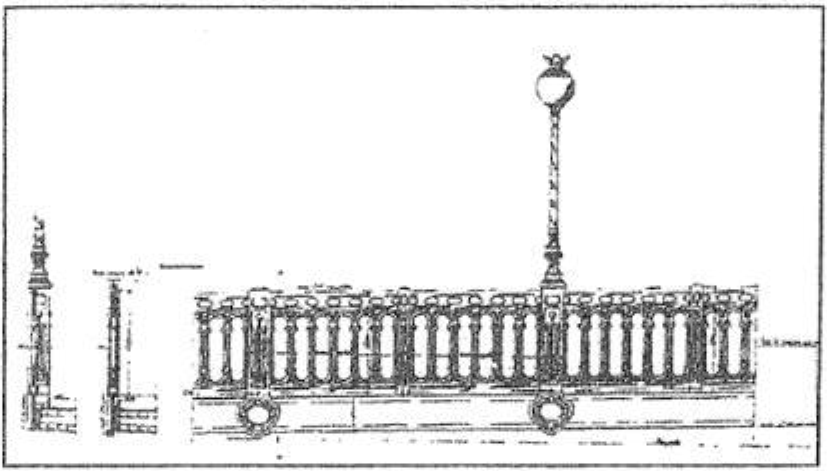
وقد أصبح هذا المشروع بتوصيفه بهذه الطريقة أول مشروع من نوعه فى فرنسا يستخدم كل هذه الوسائل لتسجيل أرشيف من هذه النوعية من الرسومات الهندسية وبهذا الحجم.

وبناء على هذا التوصيف قمنا بالاتصال بشركة المقاولون العرب لأخذ موافقتها على تنفيذ المشروع بالتكاليف وبالطريقة المقترحة والتى لم تتردد لحظة فى قبولها:

وفى تاريخ ١٢ أغسطس ١٩٩٧ تم إعطاء الأمر لشركة سيجريم لتنفيذ العمل بالصورة المطلوبة على أن يتم تسليمه فى خلال شهرين، والتى قامت بالفعل بتنفيذ العمل المطلوب على أكمل وجه.

دور الإعلام فى هذا المشروع:

وقد كان للدور الذى لعبه الدكتور أحمد يوسف الصحفى بمكتب الأهرام بباريس كبير العون فى تشجيع هذا المشروع والتعريف به أثناء فترة تنفيذه فقد قام بنشر خبر عنه فى الصفحة الأخيرة من الأهرام بتاريخ ٩٧/٨/٣، وكان لهذا النشر الجيد أن لفت نظر الكاتب الصحفى الكبير أنيس منصور الذى كان بباريس فطلب مقابلتى وعندما قابلته وسردت له القصة وعرضت عليه بعض العينات من الرسومات الهندسية لهذا الأرشيف قام بنشر الموضوع فى

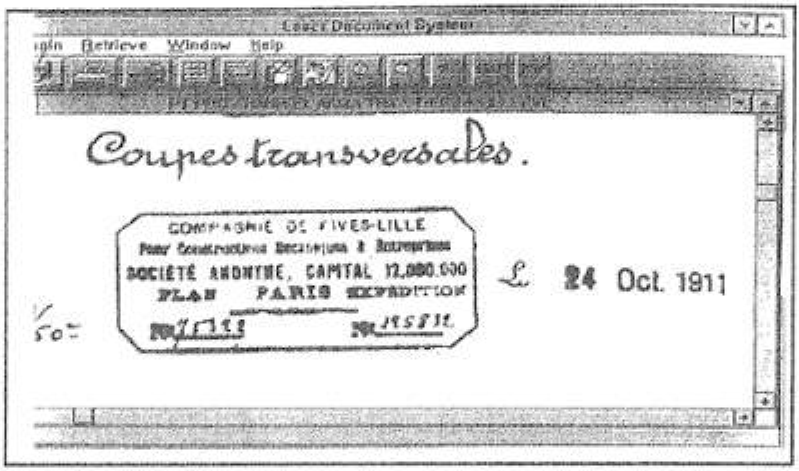


تفاصيل لسور كوبرى الجزيرة

عموده اليومى بتاريخ ٩٨/٨/١٨ كما قام بحث وتشجيع شركة المقاولون على اقتناء الأرشيف بأى ثمن، كما أنه قام فى الوقت نفسه من ناحيته باستكمال البحث فى الموضوع عن طريق اقتناء كتب عن حياة جوستاف إيفيل والتى استدل منها على أنه توفى على سريره ولم ينتحر وأنه لم تكن له أى صلة بمصر مع العلم بأن أعماله الهندسية مذكورة بالتفاصيل فى هذه الكتب، والأستاذ/ أنيس منصور يرى أن الخلط جاء من التشابه الكبير بين اسم الشركة فيف ـ ليل واسم المهندس ايفيل.

ثم قام مرة أخرى بنشر خطابى الموجه له بتاريخ ٩٧/١٢/٢٦ بعد انتهاء المشروع وتسليمه إلى شركة المقاولون العرب.

وأثناء وجودى بمصر لمرافقة السيد فيدريكو مايور مدير عام اليونسكو فى افتتاح متحف النوبة بصفتى مندوب مصر الدائم لدى منظمة اليونسكو انتهزت هذه الفرصة وقمت بتاريخ ٩٧/١١/٢٩ بلقاء السيد المهندس عادل أيوب النائب الأول لرئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب والمهندس إبراهيم محلب نائب رئيس مجلس الإدارة وعدد من أعضاء الشركة حيث قمت بتسليمهم الأرشيف بالكامل مع عرض لقتطفات منه على الحاسب الآلى وتم ذلك فى احتفال متواضع وتكلمنا أثناء اللقاء عن حلمنا بأن يصبح ذلك الأرشيف نواة لذاكرة مصر الهندسية وأن يقام على جانبه



صورة من ختم شركة فيف - ليل - المنفذة لكوبرى أبو العلا

مؤتمرات وندوات للتوعية بمحتوياته.

الدروس المستفادة:

الدرس المستفاد من ذلك أن يثار يوم ما سؤال فى مصر على كل المستويات (هل الذى بنى كوبرى أبوالعلا المهندس إيفيل أم لا) ولانجد فى البلد صاحب هذا الكوبرى أى مستند يجيب عن هذا السؤال ثم نجد فى البلد الصانعة وفى شركة انتهت وقفلت أبوابها منذ خمسين عاما ولكن أرشيفها الهندسى يتم الاحتفاظ به فى الأرشيفات العامة للدولة حتى يأتى فريق عمل من مصر بعد حوالى ٨٠ سنة ليطلع على هذا الأرشيف ويتحقق عن طريقه من معلومة، ويستطيع أن يجيب عن السؤال الحائر (هل قام المهندس إيفيل ببناء الكوبرى أم لا وهل انتحر عندما فشل فى تشغيله) والإجابة:

أولا: لا - ليس هناك علاقة بين إيفيل وهذا الكوبرى.

ثانيا: إن الذى صمم هذا الكوبرى شركة تدعى فيف - ليل.

ثالثا: إن الذى صمم الجزء المتحرك من الكوبرى (بتكليف من شركة فيف - ليل) هى شركة شرزر الأمريكية ومقرها فى شيكاغو.

وربما يكون فى هذا الحدث مغزى لايقاظ ضميرنا فى اتجاه الحفاظ على ذاكرتنا بصفة عامة وذاكرتنا الهندسية بصفة خاصة.

قرطبة

وحلم الأندلس !

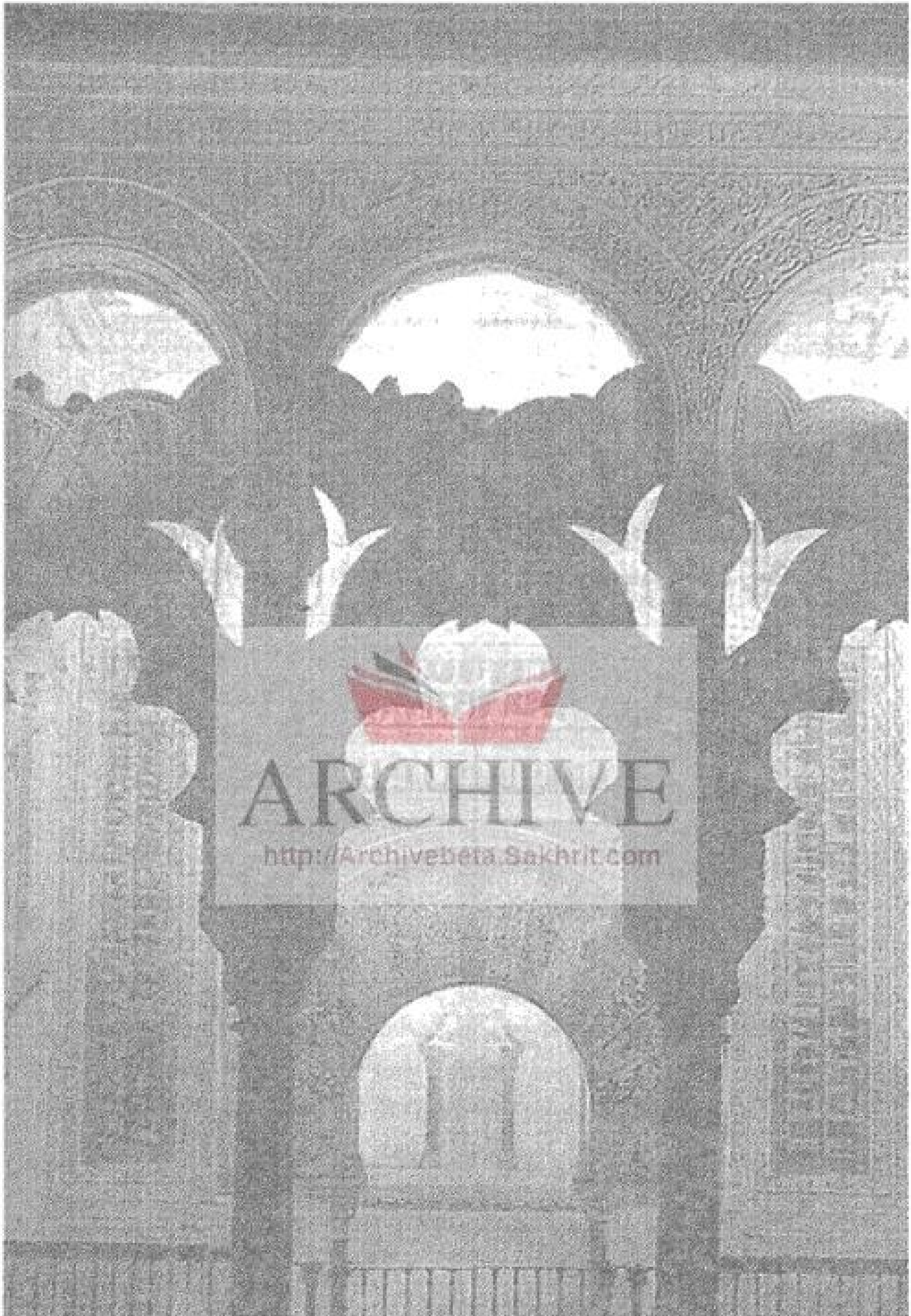
بقلم : محمود أحمد

تختلف اسبانيا عن كل دول أوروبا الأخرى، على نحو يدركه المرء ويكاد يراه متجسدا أمامه. وهو اختلاف يعرفه جيدا أبناء البلدان الأوروبية الأخرى، المولعون باسبانيا إلى حد الافتتان والذين تنقل الطائرات عشرات الملايين منهم سنويا من شتى أنحاء أوروبا الباردة إلى المنتجعات الاسبانية الدافئة والمنتشرة شمالا وجنوبا وعلى امتداد شواطىء شبه الجزيرة الأيبيرية وفوق الجزر القريبة منها.

أما نحن، أبناء المشرق العربي، فإننا نتعرف على هذا الاختلاف بصورة أخرى.. هى بالتأكيد أكثر عمقا وحميمية. فرغم كل المظاهر «الإفرنجية» التى تصادف الزائر العربى فى إسبانيا، فإنه لن يخطىء أبدا ذلك الجوهر الكامن فى الأعماق الإسبانية والذى ترسب وبقى فى تراث هذه البلاد الجميلة التى استقبلت - ولا نقول خضعت - العرب الذين تركوا فيها قبساً لا يخبو .. رغم مرور ما يزيد على خمسة قرون.

وربما تكون «قرطبة» هى خير تجسيد لهذا المعنى، وأفضل تعبير عنه.

روعة العمارة الإسلامية داخل جامع قرطبة.. والمحراب الذى يعد آية معمارية ◀



ولا تبعد قرطبة عن العاصمة الاسبانية مدريد بأكثر من أربعمائة كيلو متر، يقطعها القطار الحديث السريع (AVE) في أقل من ساعتين والقطار صناعة اسبانية بحتة، ويعمل على خط مكهرب، بتكنولوجيا ابتكرتها اسبانيا وحققت فيها شهرة جذبت «زبائن» حتى في الولايات المتحدة ذاتها (تجرى حاليا دراسة مع مصر لإنشاء خط سريع يستخدم هذا النوع من القطارات ويربط الاسكندرية والقاهرة وأسوان).

أيضا، ليست هناك «فجوة حضارية» بين قرطبة وسائر المدن الاسبانية الكبيرة.. بما في ذلك مدريد نفسها. ليس فقط لأن قرطبة الصغيرة الوادعة، التي يقطنها اليوم ثلاثمائة ألف نسمة، تعتبر من أهم مراكز الجذب السياحي وترتادها - بالتالي - أفواج لا تنقطع من الزوار، وانما أيضا لأن الزائر يجد فيها المستوى ذاته من العناية بالنظافة والنظام والأناقة التي تميز المدن الكبيرة.. بل إن محلاتها تسجل أسعار السلع بالعملة الأوربية الموحدة (اليورو) إلى جانب البيزيتا الاسبانية.. كما هو متبع في كل مدن اسبانيا الكبيرة.

لكن الزائر «العربي» لن يملك إلا أن يتجاوز هذه المظاهر، السطحية نوعا ما، وأن يمد البصر والوجدان عميقا عبر القرون، استجابة لنداء أو دافع غامض، محاولا أن يصل إلى صورة - ولو متخيلة - لقرطبة التي كانت عاصمة مزدهرة للدولة الأندلسية التي يطلق عليها الاسبان اليوم «الامبراطورية الإسلامية الغربية». قرطبة تلك، كانت تضم نصف مليون من البشر، وكانت تعد «أهم عاصمة في أوروبا على الاطلاق» كما تؤكد المعلومات التي توزع على الزوار والسائحين وخلال ذلك العصر الزاهي، كان هناك إجماع على الاعتراف بأهمية قرطبة، وبما بلغته في مدارج الرقي الاجتماعي والعلمي والثقافي، وما حققته من مستوى في «التحضّر»، حتى أن ملوك أوروبا كانوا يرسلون أبناءهم وبناتهم للإقامة في بلاط أمراء قرطبة لكي يدرسوا ويتقنوا قواعد السلوك و«الاتيكيت» الذي كانت تفتقده قصور الملوك والأباطرة الأوروبيين.

اضافة إلى ذلك، فإن هناك نغمة لن تخطئها الأذن «العربية» في الخطاب الاسباني المعاصر تجاه الماضي الأندلسي العريق وهي نغمة دالة، تحمل في طياتها ما يشبه الاعتذار عن الطريقة التي استخدمت في طرد العرب المسلمين (واليهود) من الأندلس، وما رافق حملات الطرد من قسوة ووحشية. وربما استمع الزائر العربي، في هذا السياق، إلى مسئول إسباني وهو يردد أن «أجدادنا لم يكونوا على درجة معقولة من التسامح» ..

إلى جانب اعترافات أخرى ربما تكون لها - اليوم - دوافع براجماتية نظرا للمصالح الواسعة لإسبانيا مع العالم العربى، كما يرى بعض الدبلوماسيين العرب في مدريد، خاصة وأن ما فات قد انتهى وأصبح تاريخا لن يعيد نفسه !.

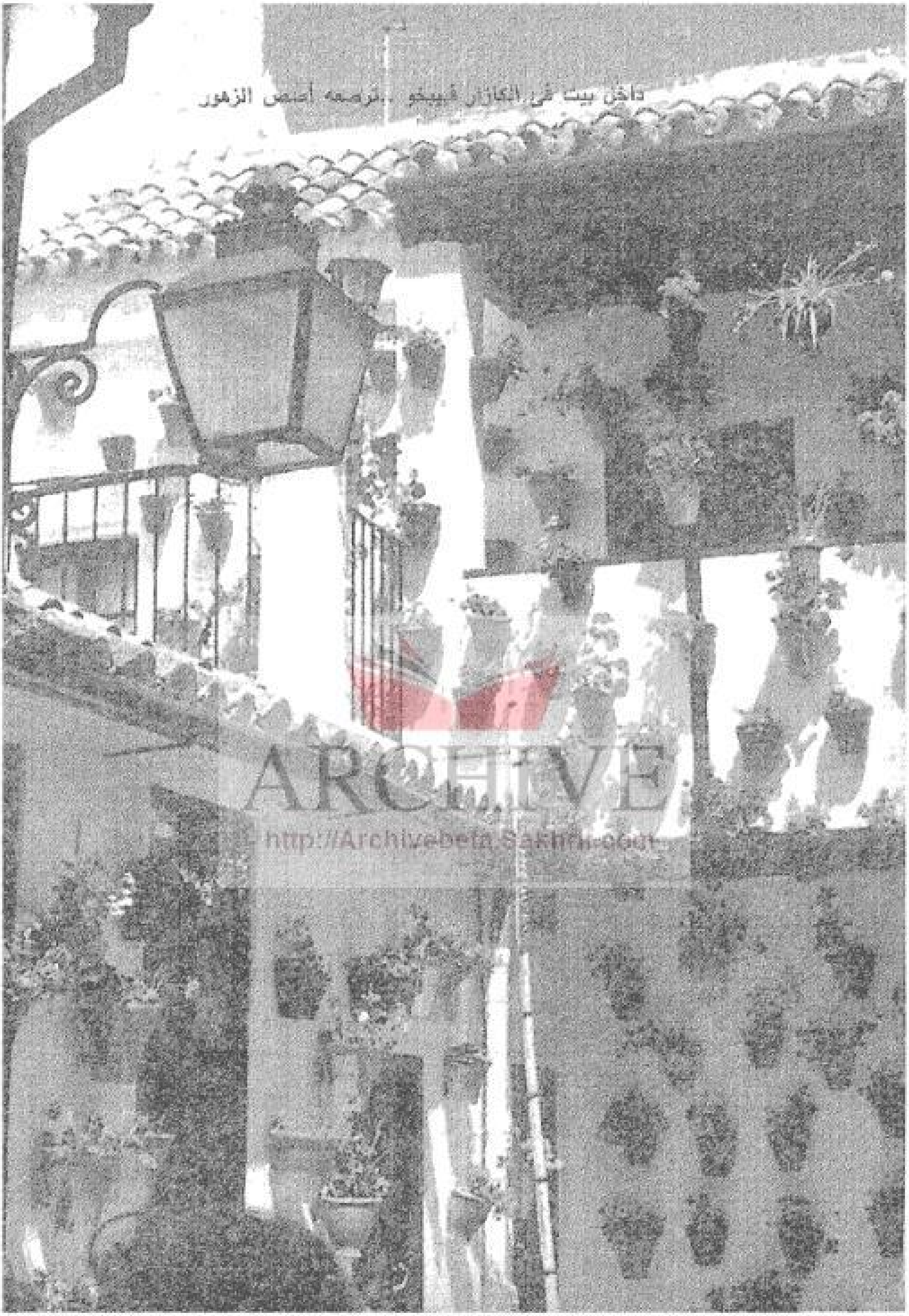
أعلام قرطبة .. وعلماؤها

غير أنه قد يكون الأهم من ذلك أن هناك حرصا واضحا، فى الخطاب الاسبانى على تأكيد الاعتزاز بالعلماء والفلاسفة والمفكرين الذين أنجبتهم الأندلس فى تلك الحقبة.. وبالأخص أبناء قرطبة الذين تزين تماثيلهم الأماكن العامة فى المدينة وينتشر الحديث عنهم وعن انتاجهم وانجازاتهم فى الأدبيات الاسبانية باعتبارها تراثا اسبانيا جليلا.. تماما كما ينظر العرب إلى هؤلاء كأعلام فى تراثهم الثقافى أيضا :

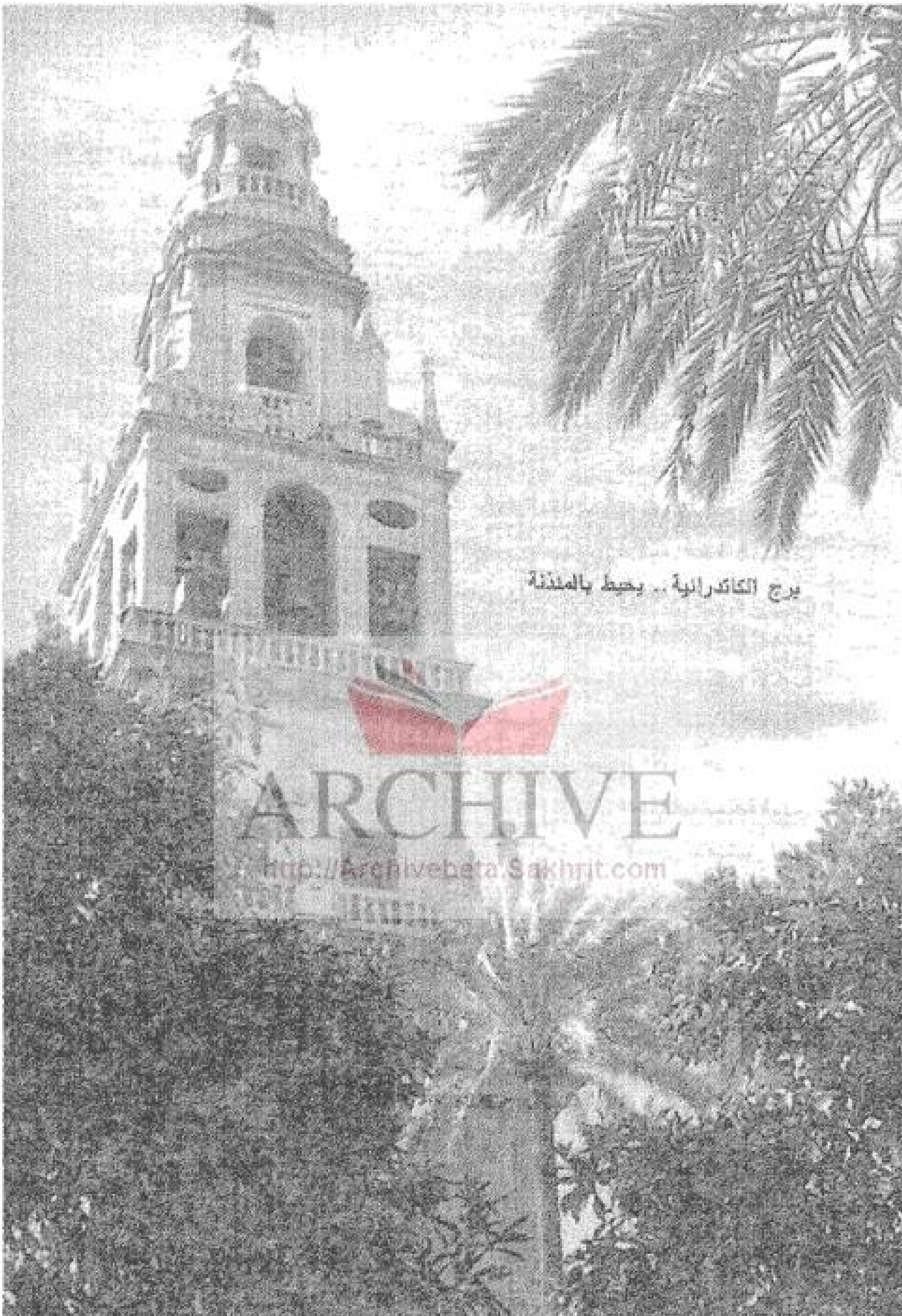
ابن مسرة القرطبى (٨٨٣ - ٩٣١م)، وابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤م) صاحب المؤلفات الشهيرة: «طوق الحمامة» فى الحب ، و«الابطال» و«المحلى» عن الحق فى الإسلام وكتاب «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» ويركز بحثه فيه على تاريخ الأديان المقارن، وابن جبيرول (١٠٢٠ - - ١٠٧٠) صاحب «ينبوع الحياة» وهو من أعلام شعراء الأندلس، وابن باجة (١٠٩٠ - -١١٣٩) الذى أصل الفلسفة الإسلامية وحدد منهجها وتركت دراساته أثرا باقيا فى علم الاجتماع والأخلاق، وابن طفيل القادشى (١١٠٠ - ١١٨٥) صاحب الرواية الفلسفية المعروفة «حى بن يقظان» وبعد كل هؤلاء يأتى ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) الذى أطلق عليه الاسبان اسم Averroés والذى كان كبير القضاة فى قرطبة ولايزال تاريخه وانجازاته العلمية والفكرية موضع تقدير العرب والاسبان جميعا.

ولعله من المهم أن ننبه هنا إلى نقطة مهمة وهى أن هؤلاء الأعلام الأندلسيين لم يقصروا اهتمامهم على البحث الفلسفى والفقهى، ولم يتوقفوا عند دراسة الاجتماع والمذاهب الدينية والانشغال بأعمال التدريس والقضاء فقط، وإنما امتد نشاطهم العلمى والفكرى إلى «العلوم التجريبية» أيضا.. مع العناية بالبعد الأخلاقى و«الإيمانى» بالعلوم وتطبيقاتها.

يقول المؤرخ والمفكر الإسلامى المعاصر «روجيه جارودى» إنه عندما كانت قرطبة عاصمة الأندلس «أكبر مدينة فى العالم»، فيما بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر الميلادى، وكانت بمثابة قلب العالم النابض، نشأت نظرة إلى العالم والإنسان والله مبنية على تطور شامل للعقل.. وهو ما انبثق عنه «العلم التجريبى» الذى نشر إشعاعه على أوروبا بأكملها فيما بعد



داخل بيت في الكازار قيبخو ..ترصعه أصص الزهور



برج الكاتدرائية .. يحيط بالمئذنة

باعتراف روجيه بيكون. ويؤكد جارودى أن هذا العلم لم يكن منفصلا عن «الحكمة» - أى التفكير فى غايات البحث - ولا عن «الإيمان».. فقد كان هؤلاء على قناعة كاملة بأن الإيمان الذى ينطوى على الاعتراف بحدود العلم وبمسلماته، هو صنو العقل الذى لا تحده حدود. وينبه جارودى فى هذا الصدد، إلى أن العلم المنفصل عن الحكمة وعن الإيمان تحول ليصبح غاية فى حد ذاته، لأنه سيعتمد فى تطوره فقط على النزعة الموضعية Positi-vism .. وهى التى يصفها بأنها «رؤية مبتورة من العقل» مما يهدد بانزلاق العلم إلى مخاطر - كما حدث عند إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما - تقود الانسانية جمعاء إلى الانتحار !.

ويؤكد جارودى أن هذا المنحى الذى اتخذته المدارس الفكرية المتصل بعضها ببعض، والنابع من ذلك «الفهم» للإسلام فى الأندلس هو الذى أنتج ثمارا حملت قرطبة أفضلها وأروعها. ولذلك ، فإنه عندما أنجبت قرطبة والأندلس علماء تجريبيين، فإن هؤلاء جاءوا من طراز يختلف: الزرقالى Azerquil فى الفلك الذى سبق كبلر Kepler فى وصف الكواكب ومهد له ، وأبو القاسم الزهراوى Abulcasis فى الطب والذى عرفه الغرب بإنجازاته فى الجراحة والصيدلة، وغيرهما .

الجامع الكبير

يهيمن وجود «الجامع الكبير» فى قرطبة على الطابع العام للمدينة حتى اليوم. ولا تكتمل لأى زائر للمدينة متعة الزيارة، إلا بارتياد جامع قرطبة الذى يربو عمره اليوم على الألف ومائة عام، والذى يعد من أندر تحف العمارة الإسلامية فى العالم.

وطوال تاريخه، ظل جامع قرطبة الكبير يقوم بدوره، ليس فقط كمجمع دينى، وإنما كجامعة يقصدها طلاب العلم وكمنارة ثقافية يصل إشعاعها إلى جميع أرجاء العالم القديم. وتذكّرنا كتب التاريخ بأن القسم الأساسى من البناء اكتمل على أيدى عبدالرحمن الأول «الداخل»، فى حوالى عام ٧٨٥م، فجاء استجابة لحنين دفين إلى المسجد الأموى بدمشق الذى خلفه وراءه آخر أمراء الأمويين عندما نجح فى الوصول إلى الأندلس ناجيا بنفسه من المذبحة التى أوقعها العباسيون بآخر جيل أموى. وظل هذا الحنين أو الحلم يشغل بال الحاكم الأموى إلى أن استطاع أن يجسده ببناء جامع قرطبة - أو القسم الأول منه - ثم قام خليفته عبدالرحمن الثانى بتوسيعه فيما بين عامى ٨٣٢ و٨٤٨، إلى أن جاءت التوسعة الرئيسية فى عام ٩٦١ على يد الحكم الثانى الذى ضاعف مساحة المسجد

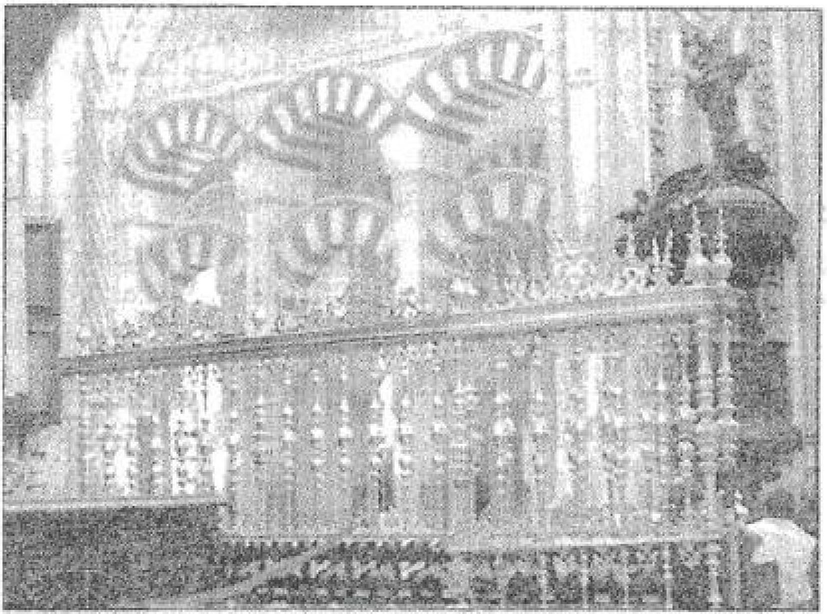
بإضافة قسم جديد تميز بصورة خاصة ببناء قبة المسجد ومحرابه العجيب الذى يعتبر آية فى العمارة الإسلامية. أما التوسعة المهمة الأخيرة، فقد أتمها الوزير المنصور الذى تولى مقاليد الحكم فى قرطبة عندما آلت الخلافة إلى صبى تحت وصاية والدته .. وأنجزت هذه المرحلة فى عام ٩٨٧م واشتملت على اضافة ما يقرب من ستمائة عمود لرفع البناء.

تذكر كتب التاريخ أيضا أن مجموع أعمدة المسجد فى الأقسام الأساسية والاضافية بلغ عند اكتمال البناء ١٠١٣ عمودا، أخذ معظمها من معابد وآثار رومانية قديمة وأجريت عليها عمليات صقل وركبت لها التيجان لتناسب وظيفتها الجديدة في رفع الأسقف ذات المساحة الهائلة. ويبدو أن رفع هذه الأسقف كان بمثابة مشكلة هندسية واجهت المهندس الأول الذى نفذ البناء وزملاءه الذين أضافوا إليه بعد ذلك. فلم يكن من اليسير رفع السقف إلى علو متناسب مع سعة البناء وتجنب الإحساس بالضغط أو «الانسحاق» لدى من يرتاد المبنى . وقد لجأ المهندسون إلى ذات الطريقة التى اتبعت فى بناء المسجد الأموى فى دمشق: الاعتماد على أعمدة رخامية لا يتجاوز ارتفاع كل منها الأربعة أمتار، ثم اللجوء إلى طريقة «الكمرات» المتراكبة.. ولكن مع تجاوز هندسة جامع دمشق بوضع دعامات قائمة الزوايا فوق الأعمدة ثم وصلها - على الطريقة الدمشقية - بالأقواس كاملة العقد، ويؤكد المعماريون أن هذه الطريقة لم تتكرر قط بعد جامع قرطبة.

ولكن جامع قرطبة تعرض لتشويه معمارى مازال قائما حتى الآن . ذلك أنه بعد رحيل آخر الأمراء المسلمين عن المدينة، ودخول فرديناند القشتالى إليها عام ١٢٣٦ م ظهرت الدعوات المعادية لوجود هذا الأثر الإسلامى الكبير والتى تصاعدت حتى انتهت بقرار مجلس الكهنة في عام ١٥٢٣ ببناء «كاتدرائية» فى قلب الجامع نفسه .. وهكذا كان !

ولم يقتصر التشويه المعمارى الذى لحق جامع قرطبة على البناء الرئيسى وحده، وانما امتد أيضا إلى المئذنة التى تركت على حالها ولكن بنى حولها «برج» يماثل أبراج الكنائس بطرازها المعمارى الذى كان سائدا في ذلك العصر.. ولايزال البرج قائما ، والمئذنة داخل تجويفه، حتى الآن .

ومع ذلك ، بقى الجامع قائما وصامدا إلى اليوم. ولكن أعمدته تناقصت إلى ٨٦٥ عمودا، بينما ظلت الكاتدرائية تحتل موقعها فى قلبه، وواجهت منظمة اليونسكو معارضة متكررة ورفضا عنيدا لمشروع



الكاتدرائية وأعمدة المسجد من ورائها



تمثال ابن رشد فى قرطبة



٨٦٥ عمودا بقيت تجسد الابداع المعماري الاسلامى



المسجد والكنيسة فى قرطبة

أعدته لنقل هذه الكاتدرائية دون المساس بأى من تفاصيلها أو الإضرار بالبناء ليعود إليه شكله التاريخي دون تشويه. وكان هذا المشروع قد ظهر إلى الوجود، اعتمادا على الاستفادة من التجربة التى اكتسبت فى نقل آثار النوبة فى مصر عند بناء السد العالي، ولكنه بقى مجمدا حتى الآن. وربما يستمع بعض الزوار ما يشبه الاعتذار عن هذا التشويه على ألسنة بعض المسئولين الأسبان الحاليين فى قرطبة.. ومضمونه أنه ربما كان هناك جانب إيجابى فى إقحام الكاتدرائية والبرج على مبنى جامع قرطبة، حيث ظل «بفضل» هذا التشويه قائما لا تمتد إليه أيدى التعصب بالهدم كما جرى لغيره من مساجد قرطبة التى كان عددها يربو على الثلاثمائة مسجد.. هدمت جميعها خلال فترة وجيزة بعد انحسار الحكم الإسلامي.

الكازار .. فييخو

من الطبيعى أن جامع قرطبة يقع فى الشطر القديم من قرطبة فى صورتها الراهنة، والتى امتد العمران فيها عبر نهر «جوادا لكويفر» فضاعف من مساحتها وإن انخفض عدد سكانها اليوم إلى نصف ما كان عليه فى أوج عزها ومجدها. ورغم التبدل الذى طرأ على المدينة فإن هذا الشطر القديم الذى يهيمن عليه وجود الجامع الكبير قائما فى قلبه، لايزال يمثل منطقة الجذب السياحى الكبير الذى تحظى به قرطبة حيث لا تنقطع أفواج السياح ليلا ونهارا، خاصة فى موسم الصيف الذى تتجاوز فيه الحرارة ٣٥ درجة مئوية فى معظم الأيام ولكن الزائر يرتاح إلى الهدوء الذى تتميز به المدينة التاريخية، والنظافة البادية حتى فى حواريها القديمة الضيقة، والتجانس المعمارى والحضرى الذى يتناغم فيه القديم والحديث فى غير تنافر أو نشاز.

ولا تزال بقايا سور قرطبة القديم قائمة تمتد فى بعض شوارع المدينة وتنال العناية الواجبة. ويمر السور ، فى أجزاء ظاهرة منه، بتمثالين أقيما حديثا.. أحدهما لابن رشد، والآخر لابن حزم ، باعتبارهما من أبناء قرطبة الأعلام الذين تعتز المدينة بهم .

ولكن جولاتنا فى قرطبة - والتى نظمت هذا الصيف أثناء حضور مؤتمر لوكالات أنباء البحر الأبيض استضافته المدينة - أخذتنا إلى واحد من المعالم القديمة التى حرص المسئولون هناك على إدراجه فى برنامج الزيارة. اجتزنا السور القديم، مارّين بتمثال ابن حزم، إلى حى كان يقع خارج المدينة بحدودها الأصلية التى يطوقها السور. ويحتفظ هذا الحى، حتى اليوم، باسمه القديم «الكازار فييخو» - أى القصر القديم - وهو يعود إلى عام



الكازار فيخو

١٣٩٩ م حيث كان قد صدر أمر ببنائه من الملك القشتيلي جون الثاني ضمن خطة لتعزيز الدفاعات العسكرية عن قرطبة بإحاطتها بأحياء سكنية خارج سورها وأبوابها القديمة . ويعتبر حي الكازار فييخو أول حي سكني مسيحي كامل يقام بعد انحسار الحكم الإسلامي عن قرطبة .. ولايزال حتى اليوم يحتفظ بتخطيطه وملامحه القديمة، فتتقاطع عبره الحوارى الحجرية القصيرة والضيقة والتى تتميز بيوتها البيضاء الناصعة والتى يلفها هدوء شديد ويخيم عليها الصمت حتى ليخيل للزائر أن الحي قد هجر بأكمله.

ولاتزال سلالات الأسر القديمة من أبناء هذا الحي تقطن البيوت ذاتها حتى اليوم وتتوارثها جيلا بعد جيل . ولأنها لم تكن عائلات موسرة فى يوم من الأيام، فقد ظلت البيوت على حالها دون تطوير: فناء داخلي مكشوف تتوسطه بئر ماء، ويصعد من منتصفه درج إلى طابق علوى واحد.. وتحيط بالفناء بطابقيه غرف منفصلة متجاورة يقطن صاحب البيت فى إحداها ويشغل بقيتها أبناؤه وأحفاده .. لكل ابن منهم غرفة له ولأسرته. والبيت مطلى باللون الأبيض من الخارج والداخل، بينما طليت الأبواب والأفاريز باللون البنى الغامق. وفى الداخل، تعلق إصص الورود والزهور على كل الجدران فتكون لوحة بديعة .. تزداد جمالا فى فصل الربيع عندما تتفتح كل الأزهار وتفوح روائحها .


جوائز الدولة

حسين بيكار

فنان القيم النبيلة

بقلم : د. صبري منصور



بيكار فى مرسمه

ظل بيكار يمثل للحركة الفنية التشكيلية فى مصر نموذجا فريدا قل أن يتكرر له مثيل، وقد أهلته الجوانب الفنية المتعددة التى يتمتع بها لأن يكون ظاهرة فنية وثقافية جديرة بالاحترام والتقدير، فهو لم يكتف بدوره كفنان حباه الله بالإحساس الفنى المرهف، بل امتد عطاؤه ليشمل جوانب ثقافية وفنية أخرى كان له فيها فضل السبق والريادة.

بيكار المصور الموهوب

وقد تتلمذ بيكار حين التحق بالفنون الجميلة عام ١٩٢٨ على يد الفنان الرائد أحمد صبري، ذلك الأستاذ الأكاديمي البارع، وظل مخلصا لأسلوب أستاذه فترة طويلة، ووظف هذا الأسلوب في معالجة الصور الشخصية التي أصبح أحد نجومها الكبار، وقد عكست هذه الصور بعضا من ملامح شخصية الفنان حين كان يميل إلى اختيار أوضاع بسيطة وغير مفتعلة لشخصياته، مع انتقالات هادئة للظلال والأضواء، وخلفيات لا تصرف النظر عن ملامح الوجه، أما نظرات العينين وقسمات الوجه المرسوم فكانت في معظمها محملة بالوداعة والسلام، وتشى ببعض الشجن والحزن الرهيف الذى ربما انتقل إليها من خلال روح بيكار نفسه.

ولم يمنع الإخلاص للأسلوب الأكاديمي واتباعه بدقة فناننا بيكار من الطواف ببعض الأساليب الفنية الأخرى، فقد مكنه اتساع أفقه وثقافته التي لا ترفض مبدأ التجريب من أن يكون أول من يخوض غمار المذهب التجريدى في بداية معرفته في مصر، ومع أنه لم ينفذ لوحات تجريدية كثيرة إلا أنه قد استفاد من التجريد في تخليق أسلوب فني متميز ظل بعد ذلك عنوانا عليه، واعتمد فيه على مبدأ الاختزال والتبسيط في الأشكال، وتحوير النسب الطبيعية ليضفي مزيدا من الرقة والرشاقة على العناصر المرسومة، وتجد كل ذلك واضحا في مجموعة لوحاته الشهيرة عن النوبة، ومناظر القرية المصرية المتنوعة وكذلك في التكوينات الفنية التي تتناول موضوعات مختلفة، وقد بدأ بيكار في أعماله الأخيرة ينحو منحى رمزيا معبرا، ولعل أشهرها صورته الشخصية التي جمع فيها بمهارة بين براعته في الأداء الأكاديمي في رسم ملامح الوجه وبين الحلول التشكيلية التي تقترب من التجريد الرمزي في تحليل الخلفية.

رائد فن الرسوم التوضيحية

ومن خلال رسومه التي نفذها بيكار لمجلات وكتب الأطفال وللصحافة بشكل عام فإنه قد أضفى قيمة فنية على تلك النوعية من الرسوم التي كان ينظر إليها باعتبارها تحتل درجة أدنى في القيمة الفنية، مما أدى إلى أن يعزف عنها كبار الفنانين الذين لا يريدون أن يأتي رسمهم شارحا وموضحا لأى نص مما يفقده قيمته الجمالية الذاتية، ولكن بيكار الذى كان يشغله دائما العمل على تضييق الفجوة بين الفنان والجمهور اتخذ من إبداعه لتلك الرسوم معبرا لفنه إلى الجمهور العريض، ووسيلة لتقريب الفن التشكيلي وقيمه الرفيعة لأذهان الناس البسطاء.

أما عالم الطفل الذى ولجه بيكار بحب وإيمان باعتباره رسالة ثقافية ووطنية فلقد كان فيه صاحب مدرسة فنية انضم إليها فيما بعد أجيال عديدة من الفنانين، ولقد كانت رسومه في مجلات وكتب الأطفال

ولاسيما مجلة «سندباد» سببا عند العديد من أجيال الفنانين اللاحقة للانجذاب نحو حب الفن إبداعا وتذوقا، فخطوطه المميزة التى تتمتع بالرقة والبساطة كانت تجسد لهؤلاء عالما سحريا أخاذا يثير الخيال.

ألوان وظلال

وذلك كان عنوان الركن الشهير بجريدة الأخبار والذى واظب بيكار على تحريره يوم الجمعة من كل أسبوع، واتخذ منه منبرا يمارس من خلاله عدة أدوار، أولها دور المعلم الناصح والمرشد الأمين والناقد النزيه، وثانيها لكى يتواصل من خلاله مع الإنسان العادى أو الجمهور البسيط وقارئ الجريدة اليومية، فيمنحه جرعة ثقافية مبسطة فى مجال مبهم، وغامض، ويستغلق فهمه على العديدين، وتلك رسالة نبيلة تبناها بيكار مؤمنا بأنها من أهم الوسائل لتربية ذوق الانسان العادى وجذبه نحو عالم الفن التشكيلى فيزداد تبعا لذلك جمهور هذا الفن الذى يعانى من انصراف الناس عنه، وثالث الأدوار هو دور الأديب الذى يملك ناصية اللغة والتعبير الأدبى البليغ، فلغة بيكار لغة شاعرية وكلماته ذات إيقاع وجرس موسيقيين، وقد أحسن بيكار اختيارها وتوظيفها فى التعبير عن فن يصعب شرحه بالكلمات.

ولقد ظل بيكار حريصا على تحرير هذا الركن لسنوات طويلة، مواكبا لأحداث الحركة الفنية التشكيلية فى مصر والعالم، متناولا بالنقد والتحليل المعارض التى تقام أسبوعيا، مقدما لأصحابها شارحا لأساليبهم الفنية للجمهور العادى، وكان الفنانون حريصين على متابعة مقالات بيكار الأسبوعية، ويندر أن تجد فنانا ظهر خلال العشرين سنة الماضية دون أن يكون قلم بيكار قد تناول أعماله . وقد تميز نقده وتحليله بالعمق والموضوعية والنزاهة، فلم تكن له يوما مجموعة بعينها يتعصب لها، أو أسلوب فنى معين يتبنى الدعوة له وحده متجاهلا بقية الأساليب والاتجاهات، فقد كان حماسه للقيمة الرفيعة حين تتحقق من خلال أى اتجاه، كما كان أسلوبه المشجع وكلماته الحانية تأتى بلسما للعديد من الفنانين الذين كانوا يشعرون بالمرارة من تجاهل الوسط الثقافى المصرى لإنتاجهم، كما كان عاملا من عوامل التشجيع على استمرار التجربة والعطاء الفنى.

لقد جاء بيكار إبنا لجيل أحب بلاده وأخلص لها، كما كان نتاجا طبيعيا لفترة خصبة من تاريخ مصر الفنى والثقافى، تلك الفترة التى سادتها الرغبة فى تحديث البلاد وتطويرها وإلحاقها بركب العالم المتحضر كى تواكب أمما أخرى سبقتنا على طريق التقدم، ولقد أبلى الإبن البلاء الحسن، وقدم النموذج الرائع للفنان المثقف الذى يجب أن يكون قدوة تحتذى ، ومنارة تنير الطريق لمن يريد أن يضع لبنة فى بناء التقدم والنهضة لبلدنا.

جوائز الدولة



د. رءوف عباس أسس مدرسة تشهد له بالكفاءة والفضل

بقلم : د. سعيد عبد الفتاح عاشور

من بين الذين حصلوا على جوائز الدولة التقديرية هذا العام، برز اسم الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة القاهرة، ورئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

والدكتور رءوف من مواليد مدينة بورسعيد سنة تسع وثلاثين. شق طريقه في الحياة الدراسية حتى حصل على درجة الليسانس في الآداب بجامعة عين شمس سنة إحدى وستين، ثم على درجة الماجستير سنة ستة وستين، ثم على درجة الدكتوراه سنة واحد وسبعين. والملاحظ في دراسته العليا أنه اختار جوانب من الحياة الاجتماعية في تاريخ مصر الحديث لتكون موضوعات لدراسته، فكان موضوع الرسالة التي حصل بها على درجة الماجستير: الحركة العمالية في مصر بين سنتي ١٨٩٩، ١٩٥٢، في حين كان موضوع الرسالة التي حصل بها على درجة الدكتوراه (النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الزراعية الكبيرة

بين سنتى ١٨٣٨، ١٩١٤).

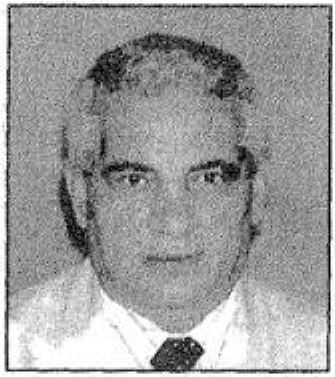
وقد استرعى الدكتور رءوف الانتباه عقب حصوله على درجة الماجستير فعين معيداً فى فرع التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ٦٧، وأخذ يرتقى فى سلك أعضاء هيئة التدريس حتى وصل إلى درجة الاستاذية سنة ١٩٨١. وطوال هذه السنوات كان موضع تقدير أساتذته وزملائه وتلاميذه، مما مكنه من الوصول إلى منصب رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٨٢، وظل فى هذا المنصب خمس سنوات قدم فيها الكثير من العطاء وكان نموذجا فى الاستقامة وحسن الخلق، بالإضافة إلى الجدية والأمانة مما جعله يختار لمنصب وكيل الكلية - كلية الآداب بجامعة القاهرة - حتى بلوغه سن المعاش، وعندئذ عين أستاذاً متفرغا فى فرع التاريخ الحديث.

وطوال هذه السنوات لم يتوقف الدكتور رءوف عباس عن الدراسة والبحث والتأليف والعطاء، فوضع أكثر من ثلاثة عشر مؤلفا فى تاريخ إفريقيا الحديثة، ومذكرات محمد فريد، والحركة القومية فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ومكانة مصر فى عالم حوض البحر المتوسط، وخرج إلى العالم الخارجى ليؤلف ويكتب فى تاريخ اليابان وبعض التيارات الفكرية. كذلك قام بترجمة أكثر من خمسة كتب فى تطور الرأسمالية، وفى يوميات هيروشيما وفى مسيرة الحركة الوطنية فى مصر.. وغير ذلك. أما فى ميدان البحوث العلمية. والمقالات فله العديد من البحوث التى اسهم بها فى المؤتمرات والندوات العالمية والمحلية، ومنها ما تم نشره فعلا باللغات الأوربية فى الحوليات ونحوها.

وهكذا لم يصرف العمل الإدارى الدكتور رءوف عباس عن النشاط العلمى، ففى الجانب الأول أصلح وقوم وعدل وأضاف الجديد، وفى الجانب الثانى ابتكر وكشف النقاب عن حقائق غير معروفة، وألبس القديم ثوبا جديداً يشد الانتباه، وأقام صرح مدرسة من تلاميذه تشهد له بالكفاءة والعلم والفضل، وتدين له بحمل الرسالة، رسالة العلم لخير الحاضر والمستقبل وإعطاء السلف حقهم فى بناء مسيرة الحضارة الإنسانية.

وللزميل الكريم خالص التهنئة بما هو أهل له من تقدير، ليس على المستوى المحلى الضيق، وإنما على مستوى الدولة. إنها (جائزة الدولة التقديرية).

جوائز الدولة



مصر تكافئ البحث الحقيقى

دكتور قاسم والجائزة

د. حاتم الطحاوى (★)

تثبت مصر يوما بعد يوم مقدرتها على إنجاب الباحثين والعلماء والمبدعين الحقيقيين، كما تثبت أيضا أنها لا تنسى أبناءها الباحثين الذين يعملون فى صمت مهيب، ويحملون على أكتافهم هموم هذا الوطن النبيل.

وفارسنا اليوم هو الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم، الذى قامت مصر بتكريمه عبر منحه جائزة الدولة للتفوق عام ٢٠٠٠م، وهو أحد أهم أعمدة المدرسة التاريخية المصرية فى الربع الأخير من القرن العشرين، وأحد الرواد الذين خرجوا بدراسة التاريخ ومناهج دراسته من قبو الكلاسيكية والتقليدية، والاحتفاء بتواريخ وأفعال الحكام، إلى آفاق أكثر رحابة، حيث التاريخ الاجتماعى والثقافى والحضرى، والتركيز على الشعوب بوصفها صانعة التاريخ الحقيقى. ولابد أن مصر قد عرفت قدره مبكرا، إذ منحته جائزتها التشجيعية فى عام ١٩٨٣ فضلا عن وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى فى عام ١٩٨٤م.

(★) الأستاذ بكلية الآداب - جامعة الزقازيق

بدأ الدكتور قاسم حياته العلمية بالغوص في تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، فكتب عن النيل والمجتمع المصري في عصر المماليك، مبرزا للعلاقة (الحميمة) بين النيل والزراعة، وفضل النيل على مصر عبر فيضانه، وكذلك أهميته كطريق للمواصلات والتجارة والحملات العسكرية. كما عرج على دراسة أهل الذمة في مصر في الفترة الأيوبية والمملوكية موضحا عبر دراسة وثائقية فريدة مكانتهم المهمة في نسيج المجتمع المصري، ودورهم في الحياة الثقافية، والتأثيرات اليهودية والمسيحية في العادات والتقاليد المصرية، وطبيعة العلاقات مداً وجزرا بين الدولة وبينهم، علاوة على دورهم المهم في الجهاز المالي والإداري وأثرهم في الحياة الاجتماعية بمصر.

وجذب التاريخ الحقيقي للمصريين في العصور الوسطى انتباه الدكتور قاسم، فاستغرق في مجموعة من الأبحاث اتصفت بالأهمية البالغة حول الحياة اليومية في مصر، كذلك دور الأسواق بوصفها ظاهرة اقتصادية - اجتماعية وأثرها على الحياة الاجتماعية للمصريين، ومبينا التقسيم النوعي للأسواق وكيفية تنظيمها ، ومفردا اهتماما خاصا للباعة الجائلين، وعلاقة الدولة بالأسواق ، وأسباب تقلص دورها فضلا عن تدهور النقد وانهيار الأمن في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، كذلك وجه اهتمامه صوب التاريخ الحرفي والحرفيين المصريين، مبينا التقسيم النوعي للحرف ، وموقع أصحابها في السلم الاجتماعي المصري في عصر المماليك.

وفي الطور التالي من حياته العلمية، ازدادت شخصية الباحث نضجا لدى الدكتور قاسم، فاتجه ببصره، وبصيرته نحو أهم ظاهرة تاريخية شهدتها المنطقة العربية في العصور الوسطى، وهي ما اصطلح على تسميتها لاحقا باسم «الحروب الصليبية» التي قامت البابوية الكاثوليكية والغرب الأوروبي بشنها على المسلمين في الشام ومصر، في محاولة من البابا لتصدير النزاعات وعمليات الاقتتال اليومية إلى خارج القارة الأوروبية، مستغلا حالة «الجوع إلى الأرض» التي تلبست كافة القوى الأوروبية العلمانية والدينية آنذاك. واعدا إياهم برغد العيش والاستقرار في «أرض اللبن والعسل» وممنيا نفسه بتوحيد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية تحت لوائه، وهو الأمر الذي أسفر عن العديد من الحملات الصليبية التي اتجهت نحو الأراضي العربية، كان وقودها كافة القوى

الاجتماعية الأوروبية (الفرسان - رجال الدين - الفلاحين والأقنان). وأطلقوا على أنفسهم اسم حجاج الرب أو جنود الرب الذين جاءوا لتحرير قبر المسيح المخلّص، والاستقرار فى تلك المنطقة إلى الأبد.

كتاب وحيد بالعربية

ونحت أبحاث الدكتور قاسم فى هذا الجانب منحى غير مسبوق، فأصدر كتابه الذى يعد الوحيد بالعربية فيما أعلم - عن الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، متناولا فيه بالتشريح العلمى الدقيق الطبيعة العدوانية لمجتمع الغرب الأوروبى الذى انبثقت منه الدعوة للحروب الصليبية، ومحلّلا طبقاته الاجتماعية، وعارضا لفشل الكنيسة الغربية فى إنهاء الحروب الإقطاعية الدائرة هناك وتورطها فى النظام الإقطاعى نفسه، ثم ذهاب محاولاتها أدراج الرياح فى وقف نزيف الدم المسيحى عبر إقرارها لصيغتى «هدنة الرب» «وسلام الرب».

ولم يكتف بذلك بل أصدر العديد من الكتب والأبحاث التى تناولت الحركة الصليبية بوصفها مشروعا استعماريا من قبل الغرب الأوروبى يهدف إلى كسر شوكة العرب والمسلمين، الذين وجدوا أنفسهم لأول مرة فى موقف دفاعى عن أرضهم، وذلك منذ انتهاء حركة الفتوح الإسلامية، وقامت تلك الأبحاث بالتركيز على حركة الجهاد العربى الإسلامى ضد الصليبين. والتذكير بأن تلك الجهود لم تؤت ثمارها إلا بعد نجاح صلاح الدين الأيوبى فى تفعيل محور القاهرة - دمشق. واستعادته لمدينة القدس ١١٨٧م، وهو الأمر الذى أدركه السلاطين المماليك بعد ذلك فقاموا بتوحيد مصر والشام إلى أن تمكنوا من طرد الصليبين نهائيا من عكا ١٢٩١م.

وإدراكا من الدكتور قاسم لضرورة معرفة العرب والمسلمين للأفكار والمبادئ الصليبية من منابعها الأصلية أصدر كتابا يحتوى على نصوص ووثائق الحركة الصليبية، وخاصة ما تعلق منها بالحملة الصليبية الأولى، والقراءة الأولى لهذا الكتاب تفضح كم كان الغرب الأوروبى دمويا ووحشيا فى أفكاره وممارساته تجاه المسلمين، كما أن النصوص الصليبية فى هذا الكتاب تنطق بقساوتها، وتفخر ببربريتها تجاه العرب والمسلمين، وعلاوة على ذلك قام بترجمة أحد أهم المصادر الصليبية التى واكبت سقوط القدس لدى انتهاء الحملة الصليبية الأولى، وهو المؤرخ الصليبيى الشهير «فوشيه الشارترى» .

ولم يكتف الدكتور قاسم بالوصول إلى ينابيع الفكر الصليبي ، ومتابعة تداعياته المتناقضة في القارة الأوروبية، وفي الأراضي العربية الإسلامية بل اتجه بثاقب فكره إلى عقد مقارنة تاريخية بين الحركة الصليبية في العصور الوسطى والحركة الصهيونية في العصر الحديث، متتبعا الرؤية الإسرائيلية للحركة الصليبية، ومفندا دعاوى المؤرخين الصهاينة. وداحضا محاولاتهم التي تهدف إلى تضخيم الدور آنذاك ،وراصدا محاولاتهم التي ترمي إلى التعلم من أخطاء الصليبيين حتى يمكنهم تلافي ذلك مستقبلا، وهو ما قاموا بتنفيذه بالفعل عبر سياسة الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين، التي استفادت من أسباب فشل الاستيطان الصليبي في فلسطين في العصور الوسطى.

ويستطيع القارئ المتابع لكتابات الدكتور قاسم في هذا المجال ملاحظة أنه يصف الصليبين والصهاينة بأنهم أصحاب مشروع استعماري واستيطاني واحد، وأن الصراع العربي الإسلامي معهم هو صراع وجود لا صراع حدود، وأنه يجب استنهاض كافة الهمم من أجل القيام بطردهم خارج الأراضي العربية.

وفي مجال بحثه عن الدور الحقيقي لليهود في التاريخ الإسلامي ، أصدر كتابه عن اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، الذي قام فيه بتفنيد آراء المؤرخين اليهود، الذين حاولوا إثبات أن اليهود كان لهم كيان قائم بذاته، ومنجزات قائمة بذاتها، وتأتي نتائج أبحاث الدكتور قاسم لتضع اليهود في حجمهم ودورهم الحقيقي ضمن نسيج مصر الاسلامية. وتثبت أنه لم يكن هناك ما يحاول المؤرخون اليهود ترويجه من وجود قومية يهودية، وشخصية يهودية، وغير ذلك من الأكاذيب.

فهم آليات الصراع العلماني

وفي محاولة جادة من الدكتور قاسم لمعرفة كنه الآخر (الأوروبي) وموقفه المعادي للعرب والمسلمين في العصور الوسطى، قام بتأليف وترجمة بعض الكتب التي تناولت تاريخ وحضارة أوروبا في العصور الوسطى، الأمر الذي مكنه من فهم آليات الصراع العلماني/ الديني في أوروبا آنذاك، ومتابعة انعكاساته وتجلياته في المنطقة العربية الإسلامية، والتي كان من أبرز مظاهره على الصعيد السياسي والعسكري ما عرف بالحركة الصليبية وعلى الصعيد الاقتصادي ما عرف بحركة النمو التجاري الضخم بين العرب والمسلمين من جهة وبين التجار الأوروبيين

من جهة أخرى، عبر استخدام مدن وموانى البحر المتوسط.

وتحتل مسألة التأثير العربى الإسلامى على أوروبا فى العصور الوسطى فى كافة المجالات، وخاصة الثقافية والعلمية منها مكانة خاصة لدى الدكتور قاسم، جعلته يقدم على ترجمة أحد أهم الكتب الأوروبية التى تنسب الفضل لأهله والتقدم للعرب والمسلمين. فضلا عن ذلك كانت له إسهاماته فى بيان تقدم التنظيم البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط على حساب التنظيم البحرى الأوروبى حتى نهاية القرن العاشر الميلادى، والمردود الإيجابى لذلك من تفوق المسلمين فى السفن والمعارك البحرية بالإضافة إلى احتكار التجارة وعمليات نقل السلع والبضائع من موانى الشام ومصر إلى الموانى الأوروبية.

ولم يقنع الدكتور قاسم بالتجديد فى موضوعات أبحاثه التاريخية بل اتجه نحو قضايا المنهج فى الدراسات التاريخية، فكتب عن الرؤية الحضارية للتاريخ لدى العرب والمسلمين مستعرضا الفهم العربى للتاريخ والمؤثرات الإسلامية على التاريخ وتجلياتها عبر الاستخدام القرآنى لها، وتوظيفها لخدمة المسلمين والدعوة الإسلامية، كما أفرد أبحاثا مطولة عن ماهية التاريخ وعن تطور مناهج البحث التاريخى منذ أن بدأ التاريخ يحبو فى حجر الأسطورة حتى صار علما له مناهجه وفروعه المختلفة . كما لفتت أبحاثه الانتباه إلى أن تطور علم التاريخ جاء استجابة لتطور المجتمع نفسه، كما أن تطور مناهج البحث فى التاريخ لم يكن ليتم بمعزل عن تطور العلم المعرفى نفسه، وأن هناك ثمة علاقة جدلية بين تطور مناهج البحث فى التاريخ والتطور المعرفى لعلم التاريخ. وبالإضافة إلى ذلك قد توصل إلى أن المناهج القديمة ظلت موجودة إلى جانب المناهج الحديثة فى بعض الأحيان طالما أنها كانت تخدم نمطا من أنماط الكتابة التاريخية التى تلبى حاجة ثقافية - اجتماعية.

استلهام روح الشعب العربى

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد اتجهت أبحاث الدكتور اتجاها آخر من نوع فريد، حيث كتب فى العلاقة بين الأدب والتاريخ، والفن والتاريخ، معتمدا على نصوص من الأدب الشعبى من أجل استلهام الروح الحقيقية للشعب العربى فى مصر والشام. ومن ذلك اتكاؤه على العديد من قصص ألف ليلة وليلة وسيرة الظاهر بيبرس لتبيان موقف العامة والمسلمين من الحروب الصليبية ومعرفة رد الفعل فى الشارع

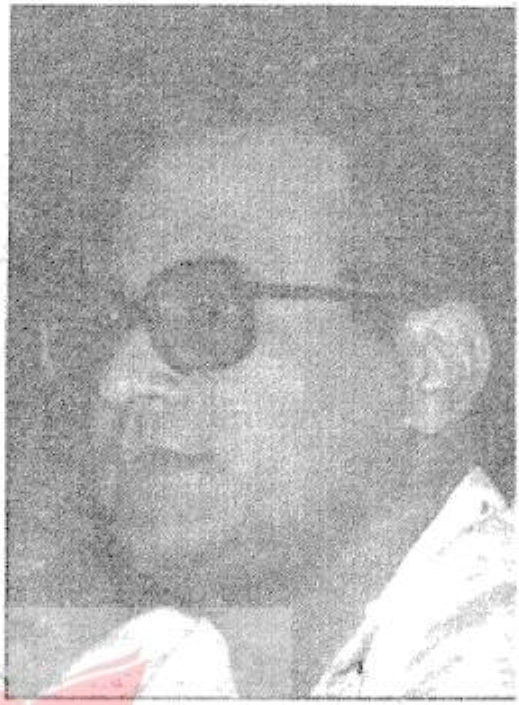
العربى على الغزو الصليبيى وعلى تخاذل الحكام المسلمين وهو ما دعاه إلى تلمس انتقام «المخيلة الشعبية» «والشعور الجمعى» للعامة من الغزاة الصليبيين والحكام المتقاعسين عن «نجدة الأوطان ونصرة الإسلام».

كذلك قام بتوظيف «سيرة الظاهر بيبرس» بعد تنحية عناصرها التى لا تتفق والواقع التاريخى، والتشبث بالإشارات التى تدل على الدور التاريخى الذى قام به هذا البطل المسلم ومكانته فى قلوب شعبه لاتباعه سياسة الجهاد ضد الصليبيين.

كما استطاع الدكتور قاسم أن يسير - بمهارة فائقة - على الخط الفاصل بين الأدب والتاريخ مستخرجا المادة التاريخية الحقيقية من بين ثنايا القصص والملاحم الشعبية (ألف ليلة وليلة - سيرة الظاهر بيبرس - قصة شجر الدر) مستخلصا رد الفعل الشعبى حول الأحداث التاريخية الجسام التى حلت بالمنطقة العربية. وهو إذ يفعل هذا فإنه يفعله من أجل الحصول على مادة تاريخية أصيلة من مصادر غير تاريخية، تمت كتابتها بقصد ألا تكون تاريخا، لكنه وعبر استخدامه للمناهج الحديثة فى البحث التاريخى يصل فى النهاية إلى مبتغاه، وهو: الحقيقة التاريخية.

وهكذا يبدو المشروع العلمى الرصين للدكتور قاسم بلا ضفاف، فقد اختار طريق البحث العلمى قدرا ومصيرا ، والرجل فى هذا كله متسق مع نفسه مسكون بهاجس رفعة وطنه وأمته العربية والإسلامية، والوقوف فى وجه كافة المشاريع« الأخرى» التى تهدف إلى بسط هيمنتها الثقافية والفكرية على أقدار أمتنا كما أنه آلى على نفسه - بالإضافة إلى آخرين مخلصين - ضرورة العمل جاهدا من أجل بناء مستقبل أكثر إشراقا يتسع لمصر وهى إذ تتبوأ مكانتها التى يجب أن تكون.

.. وفى النهاية فإذا كان الدكتور عبده قاسم قد قام بتصدير أحد كتبه منذ ما يقارب العشرين عاما بإهداء يقول فيه «إلى مصر.. الحب الذى نسيناه» فعسى أن تكون دعوته قد أفلحت نحو المزيد من حب مصر، وها هى مصر- مرة أخرى - تقوم بتكريم ابنها البار، وتمنحه جائزة التفوق لعام ٢٠٠٠ م.



جوائز الدولة

أحمد مرسى : شيخ الطريقة

بقلم: د. أحمد شمس الدين الحجاجي

كان أحد همومى فى عام ١٩٨٠ هو تحقيق حلم الدكتور عبد الحميد يونس فى إدخال الراوى الشعبى إلى جامعة القاهرة لتبدأ مرحلة جديدة تفتح فيها أبواب الأكاديمية على مصراعيها على فنون الشعب، كانت المتاعب كثيرة لم يخففها إلا إيمان أحمد مرسى بدور الجامعة فى حياة الناس فاستطعنا إقامة احتفال بمناسبة بلوغ الدكتور عبد الحميد يونس عامه السبعين. وكان يوما مشهودا تحلق عشاق الأدب الشعبى وتلامذة الدكتور عبد الحميد يونس حوله، وهم



يستمعون إلى الراوى الشعبى يغنى «السيرة الهلالية» فى قلب جامعة القاهرة، وفى أعمق عمقها مدرج «طه حسين» بكلية الآداب. وتكلم عبد الحميد يونس كثيرا واستمعنا، وقد أعلن يومها أنه لا يؤمن أنه خلف من بعده من يحمل رسالته سوى أحمد مرسى فهو تلميذه الوحيد الذى يعترف به. وكرر هذه الكلمة أكثر من مرة. وابتسمت: يا شيخنا إحنا هنا.. ذكر بعد ذلك أسماء كثيرة وبالطبع منها اسمى ولكنه عاد ليكرر أن أحمد مرسى هو الذى سيحمل الشعلة من بعده، وأنه تلميذه الوحيد.

كان علينا جميعا أن ندرك أن الشيخ قد اختار خليفته وأنه لا حيلة لنا من بعده فشيخ طريق الأدب الشعبى هو أحمد مرسى من يختلف على هذا عليه أن يخالف عبد الحميد يونس حيا ثم يخالفه بعد ذلك ميتا، ونحن جميعا لا نستطيع مخالفته فأحمد مرسى هو شيخ شيوخ الطريق الآن بلا منازع.

كانت بداية معرفتى به خريف ١٩٦٣ وكان حديث التخرج، اختاره الدكتور عبد الحميد يونس ليكون معيدا للأدب الشعبى وليشرف على رسالته عن «الأغنية الشعبية فى البرلس». كانت هذه البداية لطريق علم الأدب الشعبى المرتبط بحياة الناس المباشرة. الآباء الأوائل لدراسة الأدب الشعبى - كامل حسين، وسهير القلماوى، وعبد اللطيف حمزة، وعبد العزيز الأهوانى وفؤاد حسنين ومحمد فهمى عبد اللطيف، وعبد الحميد يونس - اقتحموا ميدان الأدب الشعبى فى مدوناته وكانت خبرتهم بالجمع الميدانى لم تبدأ إلا بشكل محدود، ومن هنا كانت أهمية الدراسة العامة التى قدمها رشدى صالح عن الأدب الشعبى، وجاء أحمد مرسى ليقتحم حياة الناس ويطور الدراسة الأكاديمية فى الأدب الشعبى خطوات. فقد كانت هذه الدراسة أول دراسة أكاديمية محددة بمكان معين وليصبح لقاؤه بالناس وجمعه للنصوص الشفاهية من أفواههم هو العمل الأساسى. كان أحمد مرسى يغيب فى براري الدلتا ويعود ليحكى لنا عما يحدث له، عاش بين أهله الفلاحين، فقاوم كل مشقة ونجح فى عمله، وانتقل بعد حصوله على الماجستير إلى العمل فى رسالة الدكتوراه واختار موضوعها «الأغنية الشعبية فى الفيوم».

مقدمة فى علم الفولكلور

اقتحم أحمد مرسى الصعيد بكل قسوته ومشقته وقبل أن تنتهى الدراسة، كان أحمد مرسى قد أصبح صعيديا حقيقيا ومن أبناء الفيوم، جمع بالحب مادته وأرهق نفسه كثيرا ليتعلم، ولم يتوقف عند الجمع الميدانى والدراسة النظرية وإنما ساهم مساهمة فعالة فى حركة الفولكلور مع أستاذه الدكتور عبد الحميد يونس فى إنشاء مجلة الفنون الشعبية وأصبح سكرتيرا لها ورفض الشيخ أن يكتب اسمه على المجلة. كان يريده أن يتعلم أن يعمل بلا ضوضاء، إنكار الذات شىء مهم فى العلم وقبل التلميذ رأى أستاذه وعندما حصل على الدكتوراه كان أحمد مرسى أصغر دكتور فى الجامعة، وكان عليه أن يقوم بدور فى تعريف الجمهور المثقف بعلم الفولكلور ونشر كتابا بعنوان «مقدمة فى علم الفولكلور» اهتم فيه بتحديد المصطلح الذى كثر التخبط فيه. بداية العلم تأخذ طريقها مع تحديد المصطلح وانتقل منه إلى تحديد ميدان هذا العلم ووقف عند قضية مهمة وهى تصنيف الأدب الشعبى وجمعه وقدم

الاهتمام الكبير بمؤدي الأدب الشعبي الذين اهملوا طويلا. ولم يمض وقت على هذا الكتاب حتى قدم كتيبا في المكتبة الثقافية بعنوان «الأغنية الشعبية» كان محاولة لتبسيط العلم. وعاد بعد ذلك ليقدم مرجعا أساسيا في العلم بنفس العنوان، دعم به ريادته لعلم الفولكلور في العالم العربي، في الوقت الذي كان فيه أصغر أستاذ من أساتذة الجامعات المصرية. استخرج قانون الأغنية الشعبية من غنائيات العامة والفلاحين.

دراسة الموسيقى

علم الفولكلور علم عالمي لا تستقل به أمة دون أمة فهو يحاول أن يدرس ابداع الانسان في تلقائيته، والأدب الشعبي جزء من هذا الإبداع ارتبط بشفاهية المنطوق القولي العفوي المرتبط بجمهور المستمعين فالراوي مبدع والمتلقي مبدع، وعندما تلقى ثقافته في علم الفولكلور ذي الاتساع الشامل لم يقف عند حد الأخذ من الدارسين وإنما أضاف إليه رؤيته لواقع الجماعة الشعبية ورصد حركة الإبداع الشفاهي للأغنية الشعبية في قوانينها المرتبطة بإبداعها وانتقالها الشفاهي وأسباب التغيرات التي تظهر عليها ثم توقف عند نشأة الأغنية ونموها. عملية الانتخاب والاختيار للأغنية الذي يجعل أجزاء منها تضيع لتبقى أجزاء أخرى منها تعيش مع الزمن، ثم تناول بعد ذلك الأغنية القصصية وقوانينها العامة قانون البداية والنهاية وقانون التناقض والجوانب الغنائية المتداخلة مع الجوانب القصصية فيها، تناول الشكل الموسيقي فقد أدته دراسته للأغنية الشعبية إلى أن يدرس الموسيقى دراسة علمية تساعده على معرفة قانونها وإبداعها، ثم تناول بعد ذلك الحب والزواج في الأغنية وانتهى إلى الحديث عن الموت واختصره اختصارا بينا. ثم أنهى الكتاب بمجموعة من الأغنيات الشعبية التي جمعها ليسجل تراثا للأجيال. كان تناول أحمد مرسي السريع لأغنيات الموت أو المراثي أو العديد له أسبابه والباحث الجاد الذي حقق ريادة وقيادة في عمله في التراث الشعبي له حياته الإنسانية التي يضرب بها المثل نموذجا إنسانيا من أروع النماذج.

قبل أن يختم أحمد مرسي عقده الثاني كان أبا لخمسة أخوة، فقد مات أبوه قبل أن تتكامل مراهقته فلم يعشها وتحول إلى رجل كبير يقود أسرته المكونة من أمه وأختين وثلاثة أخوة، ولم تمنعه دراسته من أن يؤدي واجب الأبوة لهم بحب، حتى إن من عرف أحمد في هذه الفترة لا يمكن أن يعرفه بمفرده وانما يعرفه من خلال هذه الروح القوية المحبة. طاعة الأم فرض وواجب ومطالب الأخوة الأبناء أهم شغل له فأحسن الرعاية. وحدث في هذه الفترة أن مرض أخوه النجومي مرضا طويلا وكان أحمد يعيش مأساة عمره. أخوه الحبيب مصاب بمرض

عضال لن يشفى منه وحاول، ولم يتوقف عن الأمل فى أن يصنع ما يمكن لإنسان نبيل أن يصنع. ومات النجومى ولم يكن الموت هو المأساة ولكن المأساة كانت إحساسه بعذاب أخيه وعجزه عن صنع شيء له. رضاء الوالدين فرض وصلة الرحم ورعايتها فرض. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين وهو يرفع يده وقد ضم السبابة إلى الوسطى». ولم يكن إخوة أحمد بالنسبة له يتامى فقد كانوا أولاده ولكن هكذا قال رسولنا العظيم صلوات الله وسلامه عليه. العمل فى الأدب الشعبى كما بدا من أحمد مرسى هو عمل فى أخلاق تراثنا وفى تدعيم قيمنا فكان المثل كباحث والمثل كإنسان. لم تتركه أزمة النجومى وكان يهرب من أغنية الموت حتى وضع كتابه «كل يبكى على حاله». قرأت هذا الكتاب مسودة منذ أكثر من ثمانى سنوات فى إسبانيا وقد دعانى وهو مستشار مصر الثقافى هناك. وجدت الكتاب يمثل خبرته بالعلم وخبرته بالتراث فتحمست لطبعه وهو متردد حتى أقدم أخيرا على طبعه ليضيف إلى التراث الشعبى قيمة جديدة.

السياسة بلا أصدقاء!

اقتحم أحمد مرسى عالم السياسة بتلقائية فريدة، فلم يكن ذلك مقصودا ولكن عمله مع الناس وهو يجمع التراث الشعبى يلتقى بالعامة من الشعب ومثقفيه ورجال السياسة إلى أن يصبح عضوا فى الاتحاد الاشتراكى. الامر الخطير فى السياسة المصرية قاله لى أحد الصعايدة، من أراد أن يخدم الناس فلا مفر له من العمل مع الحكومة، والناس لها احتياجات يومية ولا يمر يوم عليه دون أن يأتيه فلاح أو صعيدى يطلب حاجة، وهو لا يتوقف عن المساعدة وقضاء الحاجات لكل من طلب منه.

هذه الحركة التى يتحركها من أجل الناس جعلت منه عضوا بارزا فى الاتحاد الاشتراكى وواحدا من مسئولى الشباب، وعندما جاء أحمد إلى العمل لمدة عام أستاذا زائرا فى جامعة هاربر استقبلته وكنت يومها أستاذا فى جامعة بنسلفانيا قلت له «إنك ستضرب من الكثير من زملائك فلا تتعجب حين تجد ذلك عندما تعود. فالسياسة بلا أصدقاء والساسة لا أصدقاء لهم». فلم يصدقنى. وعاد أحمد مرسى فوجد ما قلته قد حدث فى غيبته.

واستمر أحمد يعمل بلا توقف مؤمنا بدوره مع الناس متجاهلا أخطاء من أخطأوا حتى التقى بالرئيس السادات. كانت علاقته به علاقة فريدة. لقد فقد والده فى صغره فرآه فى مقتبل العمر ورأى فيه أباه، وأحبه الرئيس السادات ورأى فيه ابنا له، وامتدت علاقة الحب حتى اغتيل الرئيس السادات فكانت مأساة أحمد مرسى. لقد مات أخوه الحبيب النجومى والآن يموت الأب الحبيب والقائد. بكاه أحمد مرسى بكاء الابن لأبيه، بكاء الوفاء والاخلاص ولم يخف حبه وإخلاصه له، وجدت بعض القوى المتنكرة الفرصة

لتستخدم هذا الحب ضده ولم يكن أحمد مرسي طاقة الحب المشعة ليتنكر للسادات الاب الذى حقق - مهما تكلمنا عن الأخطاء - شيئين ستفخر بهما مصر انتصار أكتوبر المجيد، والمنابر التى فتحت أبواب الديمقراطية فى مصر والتى لن تغلق أبدا. لقد أقنعت أحمد أن يرشح نفسه عضوا لاتحاد كتاب مصر فنحن فى حاجة إليه ولم أدهش وأنا أرى الرسائل ترسل لأعضاء الاتحاد ومكالمات تليفونية لهم تنال من أحمد مرسي وتضع عليه كل المسالب السياسية لتوقف من انتخابه عضوا فى الاتحاد ولم أهتم، ولم يهتم أحمد. كنت أعرف أن هذه الانتخابات ستقول كلمتها فى صف أحمد مرسى فكان أن وقف الأدباء معه واختير عضوا فى اتحاد كتاب مصر ولم توقف كلمات العداء حب الناس له.

مناجم حب

الباحث لا ينفصل عن الإنسان والرجل فى علاقته بحبه لأسرته لا يمكن أن يكون متفوقا فى دائرة الحب. لقد كانت فى أعماق أحمد مرسى مناجم حب وزعها بلا تردد على كل من اقترب منه فكانت عالم اشعاع لاينقطع. ولأعترف الآن أنى عملت فى ميدان الأدب الشعبى هاويا من خلال احساسي بصدقه فهو بالنسبة لى رائد متميز دفعنى للعمل فى السيرة الشعبية ولم يتوقف عن الحديث عن عملى، وعندما أهديته كتابى «النبوءة بالبطل فى السيرة الشعبية» لم أهده إلا للفلاح الذى تعلمت منه.

وكنت أقول له أنا هاو للأدب الشعبى ولا علاقة لى به، فكان يبتسم فى سخرية: «إنت بتضحك علينا». يعرف أحمد مرسى أني ابتعد عن عالم الادب الشعبي فلقد رأيته يعانى الأمرين منه. كان حلم أحمد مرسى أن ينشىء معهد الفنون الشعبية واستطاع أن ينشئ هذا المعهد الذى يمثل ركيزة لحلمه فى تكوين جيل من الشبان الذين يحملون مشعل العمل الشعبى والجمع الميداني. والغريب أن هذا المعهد الآن بلا عميد. وشيخ الطريقة موجود. ما أكثر ما يمكن أن يقال عن أحمد مرسي وما أكثر ما يمكن أن أقول أنا شخصيا عنه حتى عند الحديث عن الاختلاف. اختلفنا كثيرا، فهو من برارى الدلتا المطلة على البحر الأبيض المتوسط وأنا من مجادل الصعيد فى عمق الصحراء قرب الجبال بكل حدتها وقسوتها، اختلفنا فى السياسة ولكنه أعطانى الحرية فى الاختلاف، وأعطيته أنا أيضا الحرية فى هذا الاختلاف حتى رأيي أن الأدب الشعبى يجب أن يوضع فى عالمنا الحديث جزءا من شفاهية «الأدب العربي الحديث». هذا الاختلاف الذى يجعل للحب قيمة. وهذه الكلمة ليست تهنئة بجائزة التفوق، ولقد رأيته متفوقا منذ زمن بعيد، الجائزة متأخرة ولكنها جاءت. إنها تحية لصديق، لفلاح يعرف معنى الإخلاص للوطن وللناس والعلم، تحية لشيخ شيوخ الطريق طريق الأدب الشعبى.

ظاهرة ثقافية

بين الحقيقة والواقع

محمود قاسم - سويسرا

الفريد نوبل ...

ماذا كان يبقى منه لو قرر أن يوزع أمواله على الورثة ... ؟

يمكن أن يطرح نفس السؤال على العديد من المؤسسات الثقافية والعلمية ، التى وهبها أصحابها من أجل المشاريع الإنسانية العامة ، التى تتسم بصفة الدوام .

الاسم الجديد الآن هو ليدج - روفولت ..

قد يبدو غريبا ... لكن لو راجعنا ماذا يمكن أن يقدمه للعالم الأدبى فى عدد من السنوات فسوف نكتشف أنه الوجه المقابل لنوبل .. يؤدى خدمة مشابهة ... مع الفارق فى وجه العمل ...

ملیسا مرقص ، ومیلینا کنیازیفا ، ولیسلی میللر ود. هـ ملحم ، وأنابورجوا مع الكاتب



الفريد نوبل قرر أن تمنح جوائزه للمتفوقين في مجالات إبداعية انسانية متعددة ، وليدج - روفولت ، قرر أن تتحول ثرواته ، وقصره الضخم المقام فوق ربوة سويسرية ، تبدو كأنها الفردوس ، إلى خدمة الابداع الجديد ...

ففي هذا القصر ، تتاح الفرصة لميلاد ثلاثين عملا أدبيا جديدا ، لادباء من مختلف الأجيال ، قادمين من كل انحاء العالم ، بصرف النظر عن هويتهم ، أو انتماءاتهم السياسية ، أو مدارسهم الفكرية...

المشروع طموح .. وجديد ... واثمر نتاجا أدبيا ملحوظا خلال السنوات الاربع الاخيرة ، لكن ما الحكاية بالضبط ... ؟

الحكاية أن ليدج - روفولت ناشر ألماني (١٩٠٧ - ١٩٩٢) قدم للمكتبة عشرات الألوف من العناوين المهمة ، من تأليف إلى ترجمة ، وكان صديقا لأبرز ادباء العالم من كل الانحاء ، وكان له قصر ضخم في قرية سويسرية صغيرة ،

يطل على بحيرة ليمان ، القرية اسمها «لافينى» ، والقصر قديم ، يعد بمثابة مفخرة معمارية ، وكان الناشر يتردد على القصر مع زوجته «چين» بين وقت وأخر..

وعقب وفاة الناشر ، قررت زوجته التى رحلت بعد فترة قصيرة من موته ، أن تحول القصر إلى مشروع ثقافى ، فلماذا لا تتحول ثروة زوجها من أجل خدمة الثقافة ، هى ترى أنها بذلك ترد للكتاب فضلهم الجليل على زوجها ، فقد كسب الناشر دوما ، على حساب ما ألفه الكتاب ، والأموال الطائلة التى يحققها أى ناشر فى العالم ، ليست سوى حصيلة ايرادات ضخمة من كتب جلبت الشهرة والثراء ..

ومن هذه القناعات ، تحول القصر إلى مؤسسة ثقافية ، تديرها مجموعة من الكاتبات السويسريات ، فيما يعرف باسم «مؤسسة ليدج - روڤولت السويسرية» ... ومهمة هذه اللجنة ، هى استضافة ادباء من كل انحاء العالم ، للإقامة فى القصر ، كى يتمكن كل منهم من تنفيذ مشروع ثقافى يتمنى أن يحققه فى أفضل ظروف التأليف ، والابداع .

حوار ساخن

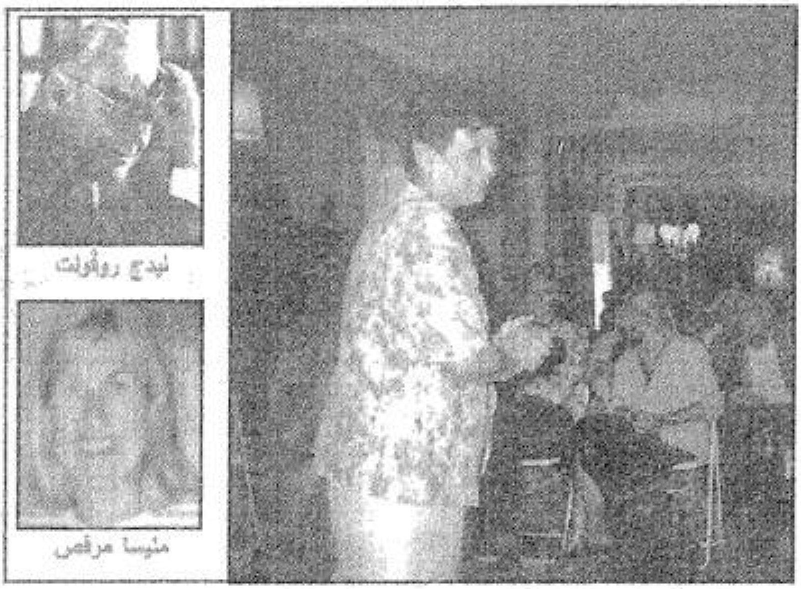
تقوم الفكرة اذن على أن الكاتب يجب أن توفر له كافة الأجواء التى يحتاجها من أجل الكتابة : الاقامة المناسبة ، والوقت الكافى ، وكل ما يتطلبه الاديب من استقرار كى يبدع ...

ومن أجل أن تصبح التجربة عالمية اسوة بما تقيمه مؤسسة نوبل ، فإن مهمة اللجنة هى نشر اعلان فى العديد من الصحف العالمية ، ولدى المؤسسات المختلفة ، تطالب الادباء للتقدم بأفكارهم الجديدة ، والتى يودون كتابتها فى أجواء مناسبة ، وتفحص اللجنة أعمال الكتاب السابقة ، مما يتطلب مجهوداً لاختيار الكاتب الحقيقى ، حيث يشترط فى المقام الأول أن يكون متقنا لاحدى اللغتين الانجليزية ، أو الفرنسية ، ويفضل أن يكون مقروءاً بهاتين اللغتين بدرجات مختلفة .

وبعد الفحص الدقيق ، يتم اختيار ثلاثين كاتبا ، لدى كل منهم مشروعه الذى يمكنه أن يكتبه ، أو أن يبدأ فيه خلال فترة الاقامة .. يتم تقسيم هؤلاء الادباء إلى خمس مجموعات ، تفد إلى «لافينى» السويسرية . كل مجموعة منها تمثل ستة أدباء ، عليهم الاقامة فى غرف سبق لادباء كبار أن اقاموا فيها بنفس القصر يوما ما ، ومنهم البيركامى ، وارنست هيمنجواى ، ووليام فوكنر ، وفلادمير نابوكوف ، وروڤولت نفسه .

ومن اللحظة الأولى لوصول الكتاب ، يبدأ العمل بشكل مكثف ، فأمام كل واحد منهم فترة من الزمن ، عليه أن يقدم فى نهايتها ، تقريبا ، نموذجا من مشروعه ، فى ندوة ثقافية ، تحضرها مجموعة كبيرة من المثقفين ، ورجال الصحافة ، والاعلام، الذين يأتون من المدن السويسرية المجاورة ، ويقطعون مسافات طويلة ، من أجل هذا الملتقى الفكرى .

اذن ، فالقصر المسمى «بيت الأدباء» ليس منتجعا يذهب إليه الكاتب للنزهة ، أو السياحة ، بعيداً عن أهواء بعض



الكاتبة المصرية فوزية أسعد تدير الندوة الختامية

الكتاب الذين يرددون أحيانا : الكتابة حالة مزاجية ....

فالغريب أنه منذ الساعات المبكرة من الصباح ، وبعد تناول المشروبات الساخنة ، يختفى الكتاب ، كل فى غرفته ، ولساعات طويلة ، من أجل انجاز عمله أو مشروعه الذى يحلم به ، ومن وقت لآخر ، قد يلتقون هنا أو هناك ، يتبادلون التحيات ، وعندما يسأل أحدهم زميله عن أحواله ، فإن جملة واحدة فقط تتردد : «إنى أعمل».

وبالفعل فإن احساسا بالمسئولية ، والمنافسة يبدو سائداً فى المكان ، قد يلتقى الادباء ساعة الغداء السريع ، لكن الفرصة الوحيدة المتاحة يوميا للنقاش ، والثرثرة ، والجدل هى عند العشاء ، حيث تقوم كرستين مديرة القصر يوميا بإعداد وجبة العشاء ، وتبدو هذه الساعات التى يلتف فيها الكتاب حول المائدة بمثابة عمل مقدس ، يجب عليهم أن يوجدوا هناك مهما كانت الظروف ، ويجدون أنفسهم لمدة ساعتين يتناقشون ، ويتبادلون الحوار فيما يخص ثقافاتهم ، واوطانهم والعالم .

دعونى أعمل .. فى هدوء

فى نهاية الدورة الثانية ، التى عقدت بين ٢٢ يونيه و ١٢ يوليو ٢٠٠٠ ، أثير نقاش سريع حول ترتيب المتحدثين فى الندوة الكبرى التى تقام فى الصالة الرئيسية للقصر ، واقترحت احدى الكاتبات أن يتم ترتيب إلقاء الكلمات وفقا

للحروف الهجائية أو حسب الجنسيات ، لكن كاتبا قال :

- نحن هنا مجتمعون باسم الكلمة ، وليس بصفة كل منا يحمل هوية «مدونة» فى بطاقته أو جواز سفره ...

هنا صارت «كلمة الابداع» هى التى ينادى بها الشخص قبل هويته ، وعقيدته ووطنه ، فقد جاء كل منهم باعتباره «كاتبا» وما يجمع هؤلاء جميعا هو الكتابة، والكلمة بشكلها الصادق الجميل..

فى هذه الدورة ، الثانية لصيف عام ٢٠٠٠ ، جاء ستة كتاب من أنحاء متفرقة من العالم ، منهم ثلاث امريكيات ، وروسية ، وهندى ، ومصرى ...

وقد بدا الشعر متسيداً فى هذه الدورة ، ولعل ذلك كان نوعا من المصادفة، وتجىء أهمية هذا الأمر فى أن الشعر العالمى يعانى من انحسار ملحوظ ، ويواجه الشعراء فى كل الاوطان حالة من الاهمال ، والتجاهل ، والمشكلة التى يعانى منها الشاعر فى كل انحاء العالم ، لا تختلف فى حدتها ، فالناشرون لايتحمسون كثيراً لنشر الشعر والسبب ببساطة أن اقبال القراء عليه قد أصبح بمثابة الموضات القديمة ، لا يقترب منها الناس الا كنوع من الترفيه غير المطلوب .

وبالنسبة للشعراء الذين جاءوا من الولايات المتحدة ، وروسيا ، والهند ، فإن أعمالهم المنشورة قليلة للغاية ، وكل منهم يعتمد فى حياته على وظائف أخرى ، أو انشطة كتابية مختلفة ، فالناشر الامريكى مثلا لا يتحمس لطبع اكثر من ألفى نسخة من أى ديوان جديد ، خاصة أنه يعرف أن الديوان سيظل موجوداً فى الارفف لمدة طويلة .

هؤلاء الشعراء هم هارى هار فايشفاف (الهند) ، وهو كاتب شعبى شفاهى وتحريرى ، يسكن على مسافة سفر ٣٦ ساعة بالقطار من نيودلهى ، ولشعره مذاق خاص ، وله مكانته لدى البسطاء الناطقين بلغة الهند ، كما أنه كاتب سيناريو لافلام تسجيلية عن عادات أهل منطقته .

أما د . هـ. ملحم ، فهى شاعرة امريكية ، امها لبنانية ، وقد أصدرت العديد من الاعمال عن حياة امها بين سوريا ، ولبنان ، واليونان ، والولايات المتحدة ، وقد ورثت عن هذه الام الكثير من العادات الشرقية ، وطعمت شعرها بالكثير من المفردات اللغوية العربية ، وقد بدت فى قصائدها التى ألقتها فى الحفل الختامى للملتقى شديدة القوة بتعبيراتها ، واصرارها على مداومة الحياة ، ومن أعمالها «البقاء حيا» و «أشعار لك» .

الشاعرة الامريكية ليسلى ميلر (٤٥ سنة) تعمل استاذة الادب الانجليزى فى جامعة مينسوتا ورغم أنها حصلت على أكثر من عشر جوائز فى الشعر ، إلا أنها تعانى من نشر اشعارها البالغة العقلانية مع هذا العالم المجنون . ومن أعمالها «كان لها رجل بالأمس» و «قف للحب» .

ومن احضان شعر ليرمنتوف ، وبوشكين تولد شعر الروسية مارينا كنيازيفا وهى تردد :

انتم ، أيها الصيادون ذوى الأعين

الرقيقة
أنتم ، ايهـا الوحـوش ذوى القلوب الطيبة
أنتم ، ايهـا الذئاب ذوى الاهداف السـاذجة
انتم ، يا مراسى الروح
لن تسرقوا منى الزمن
ولا الأفكار

وقد بدت احتفالية الشعر فى بيت الادباء هذه المرة ، كنوع من الاحياء لفن أنجب عباقرة العصور فى كل اللغات ، فصار غريبا فى عصر الانترنت ، والاليكترونيات ، لكنه لا يزال يجد فرسانه والمتحمسين له ، ويؤمنون ببقائه إلى الابد، مادام الانسان قادراً على النطق ، والاحساس بالمشاعر الصادقة .

أما الامريكية مليسا مرقص ، فهى استاذة الادب الفرنسى فى الجامعات الامريكية وقد اهتمت فى السنوات الاخيرة بترجمة الابداع الروائى الجزائرى، والعربى المنشور باللغة الفرنسية ، فترجمت أعمال كل من نيرا نبراوى ، ومليكة مقدام ، وتعكف الآن على ترجمة رواية «مصرية» ، لفوزية أسعد ، التى ترجمتها روايات الهلال منذ ثلاث سنوات.

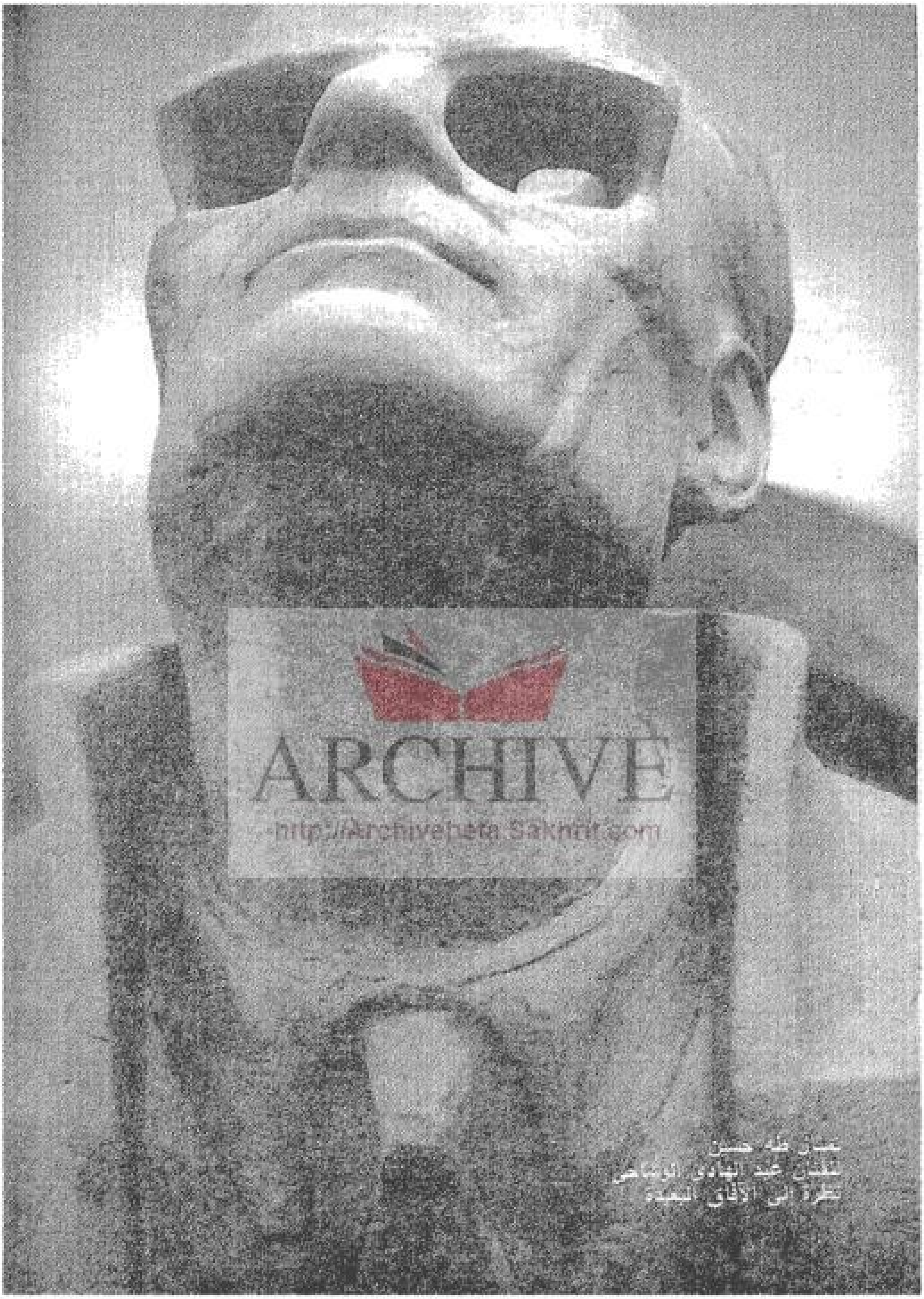
وحسب البومات القصر ، فإن أدباء عديدين قاموا بزيارته ، والابداع فى اروقته طوال السنوات الخمس الماضية ، ابتداء من عام ١٩٩٦ . أى أن اكثر من ١٥٠ عملا جديدا ، بين دواوين ومسرحيات، وروايات ، قد خرجت من جدران هذا القصر ، فى انحاء مختلفة من العالم . وبلغات عديدة ، وأن الكثير من هذا الابداع قد ظهر فى بلاده ، والكثير ايضا سيقرؤه الناس فى الفترة القادمة .

أى أن تفرغاً خاصاً قد منحه القصر، من أجل الخلق الجديد »، وكما أشرنا فى البداية ، فإذا كانت مؤسسة نوبل تمنح جوائزها لمن انجزوا ، فإن مؤسسة ليدج تتيح فرصة الانجاز . وهناك بيتان للكتاب يحملان نفس الاسم والهدف، الأول فى سويسرا ، والثانى فى الولايات المتحدة ، وإن كان هذا الاخير يعطى نفس الفرصة لمن يكتبون باللغة الانجليزية .

وخلال السنوات الخمس ، لم يذهب إلى بيت الادباء سوى أربعة كتاب عرب من أجيال مختلفة . وعلى رأسهم الناقد والمترجم ابراهيم فتحى ، والروائيتان نعمات البحيرى ، ونورا أمين ..

ولعل ما رأيناه فى هذه التجربة ، يتيح لنا المقارنة بتجارب مصرية ، فلا شك أن نظم التفرغ للكتابة فى مصر ، أقرب فى هدفها العام إلى هدف هذه المؤسسة . لكن السؤال هو : ماذا لو تحولت بيوت الأدباء الكبار المطلة على النيل إلى تجربة مماثلة ، عالمياً ، وعربياً . طوال ايام العام بدلا من أن تتكدس بالموظفين ، واشباههم ، ومنها قصر «عائشة فهمى» ، وبيوت طه حسين «رامتان» ، واحمد شوقى (كرمة ابن هانىء) .

اعتقد أن الاجابة ستسفر عن حصاد رائع ومختلف تمام .


تمثال طه حسين
للفنان عبد الهادي الوشاحي
نظرة إلى الآفاق البعيدة

طه حسين ينتظر!!

بقلم : محمود بقشيش

الفنان «عبدالهادى الوشاحى» من أبرز نحّاتى مصر الآن - بإجماع آراء النقاد المصريين - وقد جمعتنى به صداقة عميقة امتدت من أيام الدراسة، كان زميلى فى الدفعة التى التحقت بكلية الفنون الجميلة سنة ١٩٥٨ وتخرجت فيها سنة ١٩٦٣، وكشفت بداياته عن موهبة تعرف طريقها إلى النضوج والتميز، وأذكر أنه حصل على الجائزة الأولى فى النحت سنة ١٩٦٠ وكان وقتها طالبا فى السنة الثانية، فى صالون القاهرة الذى كانت تنظمه جمعية محبى الفنون الجميلة فى مجالىْ: النحت والتصوير، وكان من بين الذين تفوّق عليهم «الوشاحى» فى ذلك العام عددٌ من أعضاء هيئة التدريس فى كلية الفنون الجميلة، كانت قيمة الجائزة خمسين جنيها، وكان ذلك المبلغ الزهيد الآن ضخما بمقاييس الماضى، فلكيا بالقياس إلى الظروف الاقتصادية العسيرة التى كنا نعانيها ونحن طلبة، والأهم من ذلك كله هو الأثر النفسى والفنى الذى تركته الجائزة على أعماله اللاحقة حتى اليوم.

كان تمثاله الفائز وعنوانه «البرد» تعبيرا دقيقا، ليس عن حياته الشخصية فقط، بل كان تعبيرا عن حالة أصدقائه وزملائه (وكان أكثرهم قد قدموا من قرى ونجوع مصر)، كان تمثاله تجسيدا لمعنى الاغتراب والعوز، يتجلى فى هيئة إنسان شديد النحول، يكاد ، شدة نحوله أن يشعرنا بأنه يحاول الاختباء تحت جلده، ولا تزال تماثيله - حتى اليوم - تنفر من مظاهر الترهل، وكان على إدراك مبكر بأن وظيفة الأعضاء الإنسانية فى الواقع غير وظيفتها فى العمل الفنى، لهذا كان يأخذ منها ما يعينه على تكثيف الحالة التعبيرية والجمالية التى يهدف إليها. وهى عندما تنتقل من الواقع إلى مجال منحوتاته تنقطع - نسبيا - عن أصلها الواقعى وتهجن - وهى فى طور التخليق - باستعارات تنتسب إلى أصول حيوانية أو حشرية : فعمله المسمى «العجلة» وهو مطروقة نحاسية ثلاثية الأبعاد، أنجزها سنة ١٩٦٩، تبدو أعضاء اللاعب وكأنها تنتسب إلى أعضاء الجراد. ألغى عامدا المشابهة مع الواقع للتركيز على «ديناميّة» تتسم بالنقاء والحيوية، فما تكاد العين تقع على هذا العمل إلا وتجد نفسها قد انجذبت إلى دوامة حركة ديمومية دائرية تجمع اللاعب والعجلة فى وحدة لاسبيل إلى قطعها أو فصل «العضوى» عن «الهندسى» أو «المشخّص» عن المجرد، وترددت نفس الاستعارات فى تمثاله الشهير «استشراف» أو «زرقاء اليمامة» عندما استعار إلى بنيتها شكل الكائن الأسطورى المسمى «الستير» Satyer الذى يجمع بين هيئة الإنسان والماعز، وترددت أصداء تمثال «البرد» بنحوله وعريه من اللحم فى تمثاله الذى اشترك به فى «صالون النحت الحديث فى الهواء الطلق» الذى أقيم بحدائق الشانزليزيه سنة ١٩٧٨ بناء على دعوة شخصية، وكان التمثال بعنوان «الخطوة الأولى» وهو من النحاس المطروق (إرتفاعه ٢٫٢٥ متر) .

الثابت والمتغير

لكل فنان كبير ثوابت تمثل فيما بينها قسماته الأسلوبية الخاصة، ويبقى من بين أعماله عمل (وقد لايكون أشهرها) غير أنه يظل علامة مهمة فى تاريخه الفنى، وأزعم أن تمثاله «البرد» هو «التمثال المفتاح» لتلك القسمات، فقد امتد تأثيره إلى غيره من أعمال «الوشاحى» التى احتفظت بحالتين تعبيريتين مختلفتين : استمرار حالة عَرامة الانفعال وماتشترطه من تلقائية وحرية فى التعبير وتدفق فى العواطف وحرص على التأثير فى المُشاهد، أما الحالة الثانية فتتمثل فى حرصه على دقة البناء المعمارى وأناقته، صاحبت تلك العَرامة الانفعالية إدمان فى تخليق وتوليد الأشكال بعضها من بعض ، دون أن يسقط فى عيوب الثرثرة.

يتزايد ولعه في التخليق والتوليد البركاني للأشكال في موضوع «التماثيل الشخصية» – دون أن يسقط من حسابه الملامح الحقيقية التي تميز كل شخصية عن الأخرى – فهو يتوغل داخل كتل الوجوه، في تجاويف متعددة الأبعاد، ولايكتفي بهذا التوغل الذى يجعل من الوجوه مغاور متصلة، يخترق بعضها بعضا وصولا إلى ضوء الفضاء الطبيعي المحيط بالكتلة، وعلى الرغم من استلهامه وجوه أشخاص حقيقيين، فإن ثراء التخليق المتجدد في الأشكال يجذبنا جذبا إليه، فلا نفكر في إحالة مانراه إلى مصدره الواقعي بل نتوقف لا إراديا، مستسلمين لسحره .

زيارة إلى طه حسين

زرت «الوشاحي» في مشغله لمشاهدة تمثال عميد الأدب العربي الدكتور «طه حسين»، وكان قد تعاقد على إنجازه في سبتمبر سنة ١٩٩٥ بناء على تكليف شخصي من وزير الثقافة، وبعد أن أنجزه لم يتمكن من صبه في البرونز وحوصر التمثال بمشاكل مكتبية لايتسع السياق لذكرها بعد أن أفاضت الصحف المصرية في الحديث عنها، مايعنيني الآن هو إبراز أهمية هذا العمل الفني وجدارته في أن يوضع في المكان اللائق بتاريخ «طه حسين» بدلا من سجنه الحالي داخل كتل الطين والحديد في مشغل الفنان، مثلما فعل الفرنسيون مع تمثال «بلزاك» و «فيكتور هيجو» للمثال «أوجست رودان» وكان التمثالان – خصوصا تمثال بلزاك – قد حوصر بصعوبات محورها الرئيسي الصراع بين رؤية الفنان ورأى المسئولين. وانتهى الصراع بانتصار الموهبة وانتصار حق الشعب في أن تستمتع أجياله بهذين الأثرين الرائعين .

انطباع الوهلة الأولى

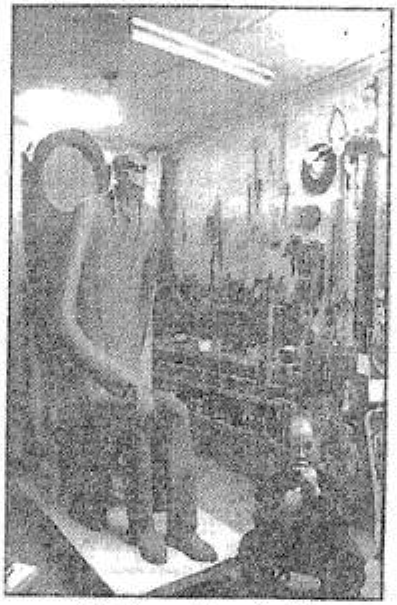
تساءلت وأنا في الطريق إلى التمثال : ماذا سيصنع فناننا الكبير مع شخصية فذة مثل «طه حسين» وماذا سيصنع مع غياب بصره وحضور بصيرته، ما الذى يمكن أن يضيفه أو يحذفه لكي يصبح التمثال رسالة تنويرية لكل زواره عبر هذا القرن على الأقل إن أتيح له أن يصب في معدن البرونز.

ما إن وصلت إلى محترف الفنان حتى أمهلني بضع دقائق لضبط الإضاءة الكشافية على التمثال، وحين التقيت به لقاء الوهلة الأولى شعرت بأنني في رحاب قديس، تحيط رأسه هالة ضوئية، جاءت من دائرة قمرية، ذات أبعاد مختلفة تعلو كرسيه وتسمح بانعكاسات ضوئية: شمسية أثناء النهار وقمرية أثناء الليل حتى يبقى وجه «طه حسين» محاطا بالنور دوما.

بدا لي التمثال عملاقا، نابضا بالحياة، رغم جلوسه (ارتفاعه ثلاثة أمتار بدون القاعدة) وخطوة خطوة تبينت تفاصيل الزواج الروحي بين المثال ونموذجه الذى احتل ولايزال



الفنان عبد الهادى الوشاحى



الفنان فى مشغله مع التمثال

إحدى الركائز المحورية فى الذاكرة الثقافية العربية، لهذا فإن تجسيده فى شكل تمثال ميدان أو تمثال حديقة هو واجب قومى قبل أن يكون ضرورة فنية، لقد بث «الوشاحى» فى تمثاله كل أشواقه الشخصية وأشواق جيله من المثقفين نحو مستقبل أفضل، كما بثه شحنات التوتر الباطنة والظاهرة التى يعيشها الفنان.

تجلىّ كل هذا بأسلوب شخصى، غير مقطوع الصلة بالطبع بإنجازات الجمالية المصرية القديمة، وإنجازات الفن المعاصر الأوربى وموصول أيضا بإنجازات الفنان السابقة من حيث الجمع، فى توازن دقيق، بين حدة الانفعال وجمال البناء، ظهر ذلك واضحا فى تنسيق العلاقات بين الكتل الرئيسية والكتل المساعدة والتجويفات الفراغية وماتعكسه من درجات ظلية وضوئية ذات إيحاءات رمزية، وضبط الإيقاع بين موحيات الحركة وموحيات السكون، بين موحيات التأمل العميق فى وجه طه حسين. تأكد ذلك التقابل الحيوى بين مايمكن وصفه بـ «الفعل» ورد الفعل»: (العلاقة بين ساقى التمثال وأرجل المقعد، بين اليدين اليمنى واليسرى) ففى حين تتشبث أصابع اليد اليسرى بحافة المقعد تبدو أصابع اليد اليمنى وهى فى طريقها إلى التحرر من كتلة التمثال وكأنما يهمّ طه حسين بالنهوض لمواجهة أمر جلل.

وانتبه الفنان إلى ضرورة ألا يكون «طه حسين» مسترخيا شأن تمثال «لينكولن» – على سبيل المثال – فما يزال الطريق طويلا وشاقا لبلوغ تلك الرفاهية .



طه حسين من الظهر



تفصيل لتمثال طه حسين

البصر والبصيرة

عالج «الوشاحي» موضع نظارته السوداء وعينيه علاجا فنيا بليغا، استبدل بمكانيهما مغارتين عميقتي الظلمة واخترقهما بما يسمح بتسلل ومضتين شاحبتين جعلتنا نشعر بأننا أمام مبصريتن لاترانا فقط بل ترى ماهو أبعد من وجودنا المادى، وتبدو الرأس فى عليائها شامخة، ولأنه لم يكن مطروحا فى فكر الفنان أن يكون عمله الفنى صورة مستنسخة من الواقع المباشر - شأن الأكاديميين - بل ترك نفسه لغواية المراوغات الذكية والمبالغات المحسوبة، وقد أتاحت له تلك المبالغات أن يقيم فضاء رمزيا، يقع بين الذراع الأيمن والجسد، يشبه بوابة معبد عريق، وإذا كانت مبالغات الإطالة قد أعدت المشاهد نفسيا إلى حالة التروى والتأمل وهو فى طريقه إلى الذروة (رأس المفكر) فإن المبالغة فى تقصير النصف السفلى قد مهدت إلى استقبال حالة مغايرة هى حالة الحركة، وبإنجاز تمثال «طه حسين» يكون «الوشاحى» قد وصل إلى محطة الوصول عبر طريق فنى واحد حرص عليه الفنان منذ بداياته التى تجلت فى تمثاله «البرد» ..



محمود حميدة في جنة الشياطين الفيلم الفائز بسبع جوائز

مهرجان وأكاذيب وملائكة وشياطين

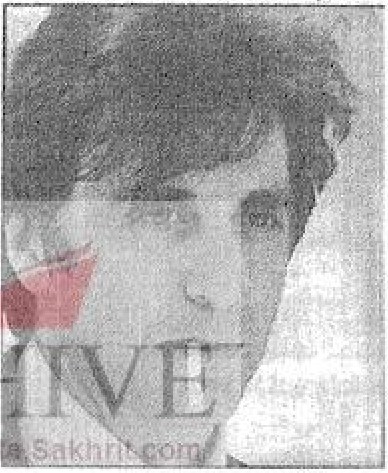
بقلم : مصطفى درويش

لو كان لى أن أختار ما أتحدث عنه لفضلت الحديث عن أمرين لا ثالث لهما، أحدهما عروض الملتقى السينمائى بالمجلس الأعلى للثقافة ، كيف بدأت متوجة بالنجاح ، ولماذا انتهت ، وشبح الفشل واقف لها بالمرصاد.

والأمر الآخر «الشرق شرق» ، ذلك الفيلم الإنجليزى الذى أتيحت لى فرصة مشاهدته، وأنا على سفر ، خارج ديار مصر، فهو عندى واحد من أحسن الأفلام التى أنتجتها



إلهام شاهين وأحاديث صحفية ثلاثة



آل باشينو .. شيطان رجيم



ميج رايان فى «مدينة الملائكة»

السينما البريطانية، مشاركة مع تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية (بى. بى. سى)، خلال العقد الأخير من القرن العشرين.

ومع ذلك فلا أتوقع، فى ضوء ما حدث لعروض ذلك الملتقى السينمائى، أن تتاح لنا فرصة مشاهدته هنا فى ربوع مصر، لا فى مستقبل قريب أو بعيد.

أما لماذا غلبة التشاؤم على توقعي، فذلك لأن «الشرق شرق» فيلم يعرض بصدق وجرأة لحياة المهاجرين الباكستانيين في بريطانيا، من خلال معاناة أسرة كبيرة، مكونة من أب باكستاني متمسك بأهداب دينه الحنيف، وأم إنجليزية، وسبعة أولاد (ستة ذكور وانثى).

والصدق والجرأة، كلاهما أمر غير مستحب في زماننا.

وعلى كل، فما حال بيني وبين الحديث عما أفضله، ثلاثة أمور:

أولها : الفوضى التي صاحبت المهرجان القومي السادس للسينما المصرية.

وثانيها : التخبط في موقف الرقابة إزاء الأفلام المنعقدة بطولتها لملائكة أو شياطين.

أما آخر الأمور الثلاثة، فهو الأحاديث الصحفية التي أدلت بها النجمة إلهام شاهين.

وأستهل الحديث بذلك المهرجان، لأقول إنه بدأ فعالياته قبل ستة أعوام، على نحو مبشر بكل خير، غير أن بدايته هذه كانت، لسوء الحظ، خادعة إلى حد كبير.

فسرعان ما أخذ يتدهور، حتى أصبح في نهاية الأمر، مجرد تهريج رخيص يصرف صندوق التنمية الثقافية على عبثه العابث مئات الألوف من عزيز الجنيهات.

ولأن الضرب في الميت حرام، عاهدت نفسي ألا أعرض بالنقد لما يحدث في أيامه ولياليه من مآخذ جسام.

وظللت على العهد مبقيا، لا أحيد عنه إلا نادرا، إلى أن حدث أمر، لا يتصور حدوثه، حتى في أكثر المهرجانات بؤسا، وليكن على سبيل المثال، مهرجان «أواجادوجو» عاصمة «بوركينا فاسو»، إحدى أفقر جمهوريات افريقيا السوداء!

فما هو ذلك الأمر الذي جنح بي إلى عدم الحفاظ على العهد؟

مساء يوم الخميس الموافق الثاني والعشرين من يونيه لعام ألفين، توجهت في تمام الساعة التاسعة إلا ربعا، إلى دار سينما شيراتون النيل، حيث سيجرى عرض فيلم «المدينة» لصاحبه المخرج «يسري نصر الله»، وهو واحد من الأفلام الروائية الطويلة، المتنافسة على جوائز المهرجان.

والحق، أنني لم أتوجه إلى تلك الدار، إلا بعد دعوة من احدى المشاركات في إبداع الفيلم، أعقبها وعد منها بأن ثمة بضعة مقاعد، جرى تخصيصها لجلوس نفر من النقاد والمفكرين، وذلك بالاتفاق مع مدير الدار.

ولأمر ما، جنحت إلى تصديق وعدها، ولعل ما حدا بي إلى التصديق، رغبة جامحة في مشاهدة «المدينة»، ألهبتها قراءة مقال بقلم المفكر الفلسطيني الأمريكي «إدوارد سعيد»، أشاد فيه بالفيلم، على نحو غير مسبوق، بالنسبة لأي عمل سينمائي مصري، فيما عدا «مومياء» المخرج الراحل «شادي عبدالسلام».

وكم كنت ساذجا عندما لم أتسلح بالشك، فسارعت بتصديق الوعد.

فعلى سلم دار السينما شاهدت حشدا منتظرا السماح له بالدخول .

وما هى إلا ثوان ، حتى أسرت لى صاحبة الوعد، أن جمهور حفل السادسة مساء ، حيث يجرى عرض فيلم «كلام الليل»، سيمتنع، بعد انتهائه ، عن مغادرة دار السينما، حتى يحتفظ بمقاعده، فتتاح له بذلك فرصة مشاهدة «المدينة» فيلم التاسعة مساء.

القاعدة والاستثناء

وان الأمل فى العثور على مقعد أو حتى مكان للوقوف خال، مثل أمل إبليس فى الجنة .

ولا غرابة فى هذا الذى يحدث، فهو أمر معتاد يوميا فى جميع عروض المهرجان، حيث تسود الفوضى ، ولا يلتزم أحد بالنظام إلا استثناء.

وهكذا، وجدتنى فى مأزق بعد سماع هذا الكلام تسر به صاحبة الوعد.

ولم تطل حيرتى كثيرا ، وهأنذا أشق طريقى بصعوبة، وسط زحام غوغائى، حتى كتب لى أن أنجو، وأعود إلى بيتى سالما .

وما أن أفقت من هول صدمة معاناة الاحباط، حتى تساءلت: أيرجى أى خير من مهرجان له من العمر ستة أعوام، ومع ذلك تدار عروضه على هذا النحو البربرى، المفلوت العيار؟

وأليس هذا الانفلات بمثابة سجل ناطق ، صارخ بجميع عيوبنا التافهة والجسيمة معا، الأصيلة والدخيلة معا ، وإلى متى الاستمرار فى هذا السقوط من شاهق .. من شاهق جدا؟

هذا، وليس أدل على استمرار السقوط من انفراد فيلمين بثلاث عشرة جائزة من مجموع جوائز مسابقة المهرجان وعددها خمس عشرة، أحدهما «جنة الشياطين» ذلك الفيلم الذى حاول صاحبه المخرج «أسامة فوزى» أن يقول شيئا جادا ، فخانه التوفيق.

وكان أن أحجم الجمهور عن مشاهدته، ولا أدل على ذلك من أن إيراداته فى إحدى دور السينما لم تتجاوز أربعة وعشرين جنيها.

والآن إلى قصة الرقابة مع الملائكة والشياطين.

قبل عامين أو يزيد، ثار جدل مفتعل حول فيلمين أمريكيين من إنتاج هوليوود، أحدهما «مدينة الملائكة» من إخراج «براد سيلبرلنج»، وتمثيل «نيكولاس كيج» و«ميج رايان».

والآخر «قابل جو بلاك» من إخراج «مارتين برست»، وتمثيل «براد بيت» و«انطونى هوبكنز» الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن أدائه فى «صمت الحملان».

أما لماذا ثار الجدل حولهما، فذلك لأن كليهما بطله ملاك من الأطهار.

وكانت قد ثارت ضجة كبرى، قبل شهور من مجىء نسختيهما إلى بر مصر، حول ترخيص من الرقابة بالعرض العام لفيلم «حليف الشيطان»، وبطله «آل باشينو» فى دور شيطان رجيم.

ولأن تلك الضجة لم تثر إلا لأن البطل شيطان ، فما بالك إذا كان البطل ملاكا طاهرا.

وتهربا من تحمل مسئولياتها، عرضت الرقابة أمر الفيلمين على لجنة الرقابة العليا، المشكلة من خمسة عشر عضوا.

وفيما أتذكر، خلص أعضاء تلك اللجنة الموقرة بالإجماع إلى أن كلا الفيلمين لا مأخذ رقابي عليهما يحول دون عرضهما عرضا عاما.

ومع ذلك، جنح مدير الرقابة وقتذاك، إلى منع الفيلمين، غير عابئ برأى أعضاء تلك اللجنة، وجميعهم من صفوة المثقفين.

وتمر الأيام، وها هو ذا أحد الفيلمين الممنوعين «مدينة الملائكة» يعرض على شاشات دور السينما فى القاهرة والإسكندرية، دون أن تُثير رؤية الملائكة غضب أحد من المتفرجين.

والسؤال لماذا كان الذعر؟ ولماذا افتعلت الرقابة معارك دون كيشوتية مع طواحين الهواء؟

فإذا ما انتقلنا إلى أحاديث إلهام شاهين، وهى ثلاثة أحدها مع جريدة الحياة الغراء، والآخران مع مجلتى «الإذاعة والتليفزيون» و«السينما والناس» فسنكتشف، لدهشتنا، أنها لم تدل بها إلا من أجل الدفاع عن «جنون الحياة»، ذلك الفيلم الذى أثار بما انطوى عليه من مجون فاضح، ثائرة كل من شاهده، متزمتا كان أم متحرراً.

حق الخيانة

ومن بين ما جاء فى أحاديثها الثلاثة، وهى فى مجال الدفاع عن الفيلم أن المرأة إذا ما خانها زوجها، فمن حقها أن تخونه هى الأخرى.

وأن جنون الحياة يدق ناقوس الخطر، منذرا وداعيا إلى العودة لعاداتنا وتقاليدنا الشرقية.

وغنى عن البيان أن القول بمنح المرأة حق الانتقام من زوجها، بخيانتها له، ردا على خيانته لها، أمر لا يتفق مع الدعوة إلى العودة لعاداتنا وتقاليدنا الشرقية.

فتلك العادات والتقاليد لا ترضى بأى حال من الأحوال عن ذلك النوع من الانتقام.

وأيا ما كان الأمر فى هذا، فالسؤال المطروح هل «جنون الحياة» يدق حقا ناقوس الخطر، حسب قول إلهام شاهين.

من عجائب الوضع السينمائى المعاصر فى مصر أن أول فيلمين من إنتاج التليفزيون يجرى طرحهما للعرض العام، فى أثناء العام الأول من القرن الواحد والعشرين، كلاهما موضوعه مأخوذ من قصة للأديب إسماعيل ولى الدين!!

وأقصد بالفيلمين «رجل له ماض»، و«جنون الحياة» وكلاهما من نوع الميلودراما الزاعقة.

عودة الابن الضال

فأحداث الفيلم الأول تدور حول ثرى مسن «كمال الشناوى»، عاد إلى أرض الوطن، بعد غياب دام ربع قرن من عمر الزمان.

ولأنه لم يبق له من العمر إلا القليل، وحاسته السادسة أوحت له أن لديه إبنة، غدر بها إثر ولادتها، إذ تركها وهى فى المهد صبية، ولا يعرف من أمرها شيئا.

فقد آل على نفسه أن يكفر عن خطيئته فى حقها، بالبحث عنها، والاعتراف بها، حال العثور عليها، إبنة شرعية، حتى تؤول إليها ثروته الطائلة، التي جمعها، وهو فى الغربة، بعيدا عن الأحباب.

وفى أثناء قيامه بالبحث عن الإبنة الغالية، تعرف على الشقى «فاروق الفيشاوى»، الذي سرعان ما نعرف أنه متزوج من أربع، إحداهن الإبنة المفقودة، المنشودة «ليلى علوى».

ولغرض فى نفس كاتبى القصة والسيناريو تمكنت الإبنة، قبل الالتقاء بالأب، من التحرر من أسر الزوج الشقى، والعمل فى أحد الكباريهات.

فواجع بالجملة

ومع اقتراب الأحداث من النهاية الفاجعة، يكتشف الزوج أين تعمل «ليلى»، ويطعنها فى مقتل.

ويكتشف الأب الملتاع أن ابنته العزيزة امرأة سوء، أضاعها الإدمان ورصيد كبير من قضايا الآداب.

أما «جنون الحياة» فأحداثه تبدأ باكتشاف المهندسة المعمارية «إلهام شاهين» عن طريق المحمول أن زوجها «محمود قابيل» يخونها مع امرأة أخرى، أقل منها فتنة وجمالا.

ومن هنا جاء عزمها على الانتقام منه، بخيانتها له مع سائقها الخاص «كريم عبدالعزيز».

ولكن فاتها، وهى تخون، أن علاقة آثمة أخرى بين السائق الوسيم وامرأة بنت بلد شهوانية، كلما ارتوت بفحولته أجزلت له العطاء.

وتتعقد الأمور أكثر عندما يلتقى السائق الفحل بابنة أخ أو أخت «إلهام» – ياسمين عبدالعزيز – القادمة لتوها من بلاد العام سام لاستكمال الدراسة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

فإذا بنا نكتشف أنها هى والسائق، صديقا طفولة.

وما أن يتبادلا النظرات، حتى يشتعل قلباهما بنار الحب، وحتى يعقدا العزم على أن يرتبطا برباط الزوجية، لأنهما أرادا لحبهما أن يستمر طاهرا، عفيفا.

الغيرة القاتلة

ولكن فاتهما أن غيرة بنت البلد الشهوانية غيرة من النوع القاتل، ولابد أن تنتهى بحبهما شهيدا.

وختاما، ألا يحق لنا أن نتساءل ما صلة كل هذه العلاقات الآثمة بخطاب العودة إلى عاداتنا وتقاليدنا الشرقية؟!!

وأليس من المخجل أن ينتج التليفزيون مثل هذا النوع من الأفلام، فى وقت ينتج فيه التليفزيون البريطانى أفلاما ذات رسالة مثل «الشرق شرق».

وفى وقت تجيئنا فيه من مصنع الأحلام فى هوليوود أفلام مناهضة لفساد الشركات الاحتكارية مثل «إيرين بروكوفيتش» و«الدخيل»، وأفلام أخرى فاضحة لألوان العنصرية فى المجتمع الأمريكى مثل «العاصفة» و«التاريخ الأمريكى الممنوع» الفيلم الذى اختتمت به عروض الملتقى السينمائى بالمجلس الأعلى للثقافة، وكانت به خير ختام.



مع.. (الشاطر حسن)

قصة:
أحمد السيد عوضين

لا تدرى مـــا الذى أيقظهـا . رغم أنهـا لم تكن قد نامت إلا ساعتين حاولت أن تستأنف النوم، إلا أنهـــا لم تفلح ، اضـجـعت فى سريرها لتتفرج على التليفزيون، فلم تجـد فى جـمـيـع البـرامج مـا يجـذبهـا. فـاسـتـبـدلت به الراديو، وراحت تدير المؤشر يميناً ويساراً، دون أن تتوقف عند أى مـحطة.. أغلقت الراديو، وأحكمت الغطاء، وراحت تســتــرخى فى محاولة للعودة إلى النوم، غير أن المحاولة لم تفلح .. ضـاقت بسـريرها، فنهـضت جـالسـة ، وأوقـدت نور الغـرفـة، واجـهـتهـا صـورتها فى المرآة : ملفوفة الرأس ، حـبـيـسـة المشابك ، ضـايـقـهـا مـا وشت به نظراتهـــا من إرهاق واكتئاب.. انتزعت نفسها من السرير، لتجلس أمام مـرآتهـا تفك إسـار شعرها، تعيد تصفيفه، تتركه مرسلاً دون لفه أو تقييده ، ثم تمضى تعالج وجهها، فى محاولة لإزالة آثار الإرهاق، وتغـيـيـر مـلامح الضـيق ، واسـتـعـادة شيء من النضارة والشباب حتى تتبدَّى لهـا صـورتهـا مرضية تشيع فى نفسها غـيـر قليل من الرضـا ، وتعاود الاضطجـاع، ولا يخذلها التليفزيون هذه المرة، إذ كـان يقـدم برنامجاً حافلاً، غير أنها – مع ذلك – لم تصـبـر طويلاً، فـمـا لبـثت أن ضـاقت بالأغانى لتكرار فقراتها إلي حد الإملال. وفـيـمـا هى تهم بإغلاق التليـفـزيون إذا برنين التليفون يفاجئها على غير توقع، فما تعودت أن تتلقى مكالمات فى مـثل هذا الوقت.. وجـاءها صـوت مـحـمـود – من أمـريكا – يسـألهـا عن الصحة والأخبار منطلقاً دون توقف ليخـبرها أنه سوف يصل مساء بعد غد، ومعه زوجته، ضمن فـوج سـيـاحى لمدة أسبوع.. وطبقاً للبرنامج فلن يمكث بالقاهرة سوى

ليلة واحدة..! وقبل أن تتاح لها الفرصة لتسأل أو تستفسر تأتى «أوريفوار» لتصنع نهاية غير منتظرة لهذا الاتصال الذى انتهى مثلما ابتدأ مفاجئاً .

ياه ..! محمود سيأتى إليها! بعد هذا العمر الطويل، ومعه زوجته ، ثم يقول إنه لن يمكث سوى ليلة واحدة! منذ متى كان سفره؟ منذ سنوات لا تُعد، حتى موت أبيه لم يدفعه إلى العودة ليرى أمه ، وسائر الأهل ..!

ما الذى جاء به أخيراً ؟ لقد كانت أمه قد نسيته - أو تناسته - تماماً، وكان هو نفسه قد ساعد - بعدم مداومة اتصاله - على هذا النسيان. فلم تكن رسائله تزيد عن «كروت» يبعث بها فى بعض المناسبات وكانت اتصالاته التليفونية أمراً نادر الحدوث .. كما كانت أخباره - وأوضاعه - شبه مجهلة بالنسبة لأسرته .. فهل ستغير هذه الزيارة - المفاجئة - شيئًا من هذه الأوضاع ؟ إنها لا تدرى وإن كانت قد ابتدأت تحس بصداع تتزايد حدته ، ويضطرها إلي البحث عن المسكنات التى تحرص - ما أمكنها - على تجنب استعمالها .

وتمثل لها محمود بجرأته وشقاوته وحبه للمغامرة ، وتتذكر إصراره على السفر - ولم يكن قد اكمل العشرين من عمره - وعدم استجابته لأى رجاء من أبويه، وقد غاظها - وقتها - ومازال يسبب لها نفس الغيظ - كلما عاودتها الذكرى - موقف أبيه الذى يكتفى بالنصح الهادئ، معقباً فى كل مرة بقوله: (وبعد ذلك.. فأنت رجل، لك حرية التصرف).. رحمه الله، كان فى غاية الطيبة والرقة - قلبه يفيض حباً ونظراته تأسر القلب.. ولكنه مضى عنها مبكراً، وتركها للوحدة والحيرة .. فالابن الآخر تزوج وتركها لوحدتها .. ويالها من وحدة طويلة عريضة..!! ورغم أن العمل يستغرق الشطر الكبير من نهارها ، كما أن صديقاتها لا يتركنها فى فراغ سوى لفترات قصيرة - إلا أن الشعور بالوحدة كان ملء وجدانها ، يغلف أحاسيسها ، ويحكم نظرتها للأمور ، وعلاقاتها مع الآخرين، حتى لتحس أنها - حتى وهى مع هذا الحشد - فى عزلة تامة ، لا تجد من تحدثه أو تتحدث إليه. فليس بين كل من تلاقى من تستطيع أن تجلس إليها - أو إليه - وتفتح قلبها ، وتنطلق فى حديثها وتتصرف فى كامل حريتها ..!

وحيدة .. وحيدة .. رغم حرصها على أناقتها، ورغم شعورها بأنها مازال محتفظة بجمالها ورشاقتها ، وأنها مثار إعجاب الكثيرين الذين يسعون إليها، ويحاولون الاقتراب

منها، واستضافتها، والالتقاء بها حتى لتدرك مدى ما يفتعله البعض منهم من مناسبات أو دواع لتتاح لهم فرصة اللقاء والحديث.. وهي ليست من الغفلة بحيث لا تدرك ماذا تعنيه نظرات العيون، ورقة الكلمات، والمبالغة في عبارات الثناء والتقدير..!

وحيدة .. وحيدة.. حتى لو كان أصدقاؤها - وصديقاتها - عشرات وعشرات، طالما أنها لا تميز أحدهم بالذات، تشغل به في وحدتها، ويشغل فكرها، وتتمثل لها - وفي نظرها - يختلفون فيما بينهم حسب خفة الدم أو ثقله، لكنهم يظلون جميعاً - في نظرها - أفراداً تتكون منهم المجموعة المحيطة بها، القريبة منها دون أن يكون لأي منهم مكان خاص في نظرها..!!

وحيدة .. وحيدة.. بما فرضته من قيود على نفسها، وما غلفت به عالمها من خصوصية لا تسمح لأحد أن يطلبها في بيتها بعد أن تأوي إليه، ولا تتيح لأي من صديقاتها دخول بيتها حتى ولو لزيارة عابرة، إذ تضيق بمن يقتحم عليها خلوتها التي تستريح إليها متى عادت إلى البيت وانتزعت ثياب الخروج واستبدلتها بالثياب المنزلية، متخلية عن حليها وسائر ما تتزين به.. بل ومتخلية كذلك عن شعورها بالوحدة الذي لم يكن ليلازمها إلا وهي خارج البيت، فمتى عادت إليه ملأها شعور بأنها لم يتغير في حياتها شيء، حتى المرحوم زوجها تحس كأنه قد خرج في «مشوار» وهو - بعد قليل - سيهل عليها .. بعد أن يفرغ من العمل في مكتبه .. وما أسرع ما يواتيها النوم وهي على ثقة من عودته إليها..!!

★ ★ ★

من المطار أتاها صوته يخبرها أن الفوج في طريقه إلى الأقصر مباشرة، وأنه لا يدري متى ستكون عودته إلى القاهرة، وأن أحد الرفاق سيتخلف في القاهرة، وقد عرفه برقم تليفونها، وسوف يتصل بها لمعاونته في بعض الأمور، وانتهت المكالمة كما بدأت خطفاً دون أن تتاح لها فرصة الحديث.. أي حديث، ولو بضع كلمات. نظرت أمامها طويلاً، غامت الرؤى في عينيها، ملأها إحساس بأن الدنيا لا تساوي شيئاً، أو ربما هي التي أصبحت لا تساوي شيئاً. فهل صارت هي والعدم سواء وهي تشعر بأنها لم يعد لها مكان لدى فلذات قلبها: محمود في الأقصر، وسمير في الخليج، وسميرة مع زوجها في بولندا..!

ولم تجد أمامها سوى دفتر أشعارها، فيه متنفسها، ومستودع أشجانها، وانسابت عبراتها - أو كلماتها - تعبر عن الشجن،

تتحدث عن الذكريات، تستعيد ما مضى ..!

وتوقف القلم .. أحست بخدر يشمل جسدها، وعندما أفاقت - لا تدرى متى - كان ثمة رنين التليفون يقطع الصمت المطبق.

- من ؟ تقول مستر بسام ؟ أهلاً .. شرفت القاهرة . تريد أن تلقاني؟ محمود بعث معك رسالة لي .. حاضر . سوف أدبّر الأمر . تقول أنك تريد أن تسمع أشعاري؟ وكيف عرفت أنني أقول شعراً؟ تقول إنك أنت أيضا شاعر؟.. عربي مقيم في أمريكا؟ لم تنس هويتك ؟ معك حق. لابد أن نلتقي.. لابد أن نلتقي.

★ ★ ★

في حديقة الفندق، وفي ركن منعزل ، وفي ضحى مشرق، ضمت المائدة اثنين، ضمت السيدة علية : إنسانة بسيطة في ثيابها وزينتها، وإن كانت ذات جاذبية ، تحيط بها هالة من الفتنة الهادئة التي لا يدرك جليسها من أين تأتي، وإن كان يقع في أسرها. والضيف : الشاعر بسام، عربي متأمرك ، ربما كان في الخمسين من عمره - أو يجاوزها بقليل - بدأ في جلسته قلقاً لا تستقر عيناه تتحركان في كل اتجاه ، يتحدث بيديه ، وبجسمه ، بل وبعضلات وجهه، جريء، مقتحم، لا يتردد ، لم يكد يلتقى بها حتى انطلق في حديث لا ينقطع ، وكأنما يواصل حديثاً كان بينهما منذ زمن لأنه فعلاً يعرفها، قرأ رسائلها إلى محمود.. كل رسائلها، بل إنه ليحفظ مقاطع من بعضها، لأنه اختارها لتنشر في جريدته بعد أن قام بترجمتها.. وهل ينسى قصيدتها التي تتحدث فيها عما تشعر به من وحدة تصل إلى بها حد الغربة رغم أنها تعيش في وطنها وبين أهلها وما أجمل مناجاتها لمحمود؛ صغيرها محمود ، وهو طفل يحبو ، ثم وهو يردد كلماتها الأولى التي تصافح أذنيها .. تصافحها الآن مختلطة بضحكاته البريئة - وكأن الزمن قد عاد إلى عهده الأول : (ولكن .. هل لماض أن يعود؟ هل لماض أن يعود..؟).

ويروح يردد هذه الشطرة ، ثم يتساءل : ولكن لم تريد للماضي أن يعود؟ لم تريد لحياتنا أن تتوقف عند حدث أو واقع معين ؟ لا .. لا.. أنا لا أوافقك على ذلك. وأريد لك أن تسايريني، أن تقفزي بفكرك - وخيالك - إلى الأمام ، فكرى دائماً في المستقبل ، لا تقبلي الأمر الواقع، بل اعملي على تغييره .. ولتكن أشعارك حلماً بمستقبل باسم جميل، مشرق دائماً.

ويتوقف قليلاً، وعيناه عليها، في جرأة عجيبة، ثم يمضى في حديثه : (في الحقيقة، لم أكن أتوقع أن تكوني على هذا

القدر من الجمال والشباب.. بل والفتنة الآسرة .. أرجو أن تعذريني إن كنت قد جاوزت حدى..).

فاجاتها كلماته، أثارت في نفسها مشاعر- وانفعالات- عديدة، ولم تدر بم تجيبه، هل تطلب إليه أن يتوقف فقد جاوز بالفعل حده؟ ولكنه ضيف.. وعليها اكرامه - ولو من أجل خاطر محمود على الأقل- ومع ذلك، فقد وجدت الشجاعة لتخرج عن صمتها مرددة:

أشكرك.. ولكن أرجو أن تدع الحديث عني لتحدثني عن محمود.. وأين رسالته التي بعث بها معك؟

وما أسرع ما أتاها جوابه الذى كان بداية حوار طال على غير ما كنت تقدر:

- يا سيدتي: دعك من محمود، فرسالته لم تزد عن أنه قد طلب إليّ أن أحدثك عنه، وعن نجاحه في عمله، وتوفيقه مع زوجه، وأنه يعيش حياته، ولذلك فهو يرجو منك أن تعيشي أنت الأخرى حياتك، وأن تودعي أيام الوحدة، لتكون أشعارك أناشيد للحياة، وأغنيات للجمال، ودعوة للحب بأشواقه وأحلامه ومسراته ولذاته..

- ولم تنس الامه ومتاعبه..؟

- لا.. لم أنس ذلك، ولكن لم نتوقف عند هذا الجانب، بينما الحياة تدعونا إليها، لنقطف الزهر، ونسعد بالحب، ونتغلب على الألم بالعيش في رحاب الجمال؟ أقول الحق: إنني لا أجد سبباً واحداً يدعوك لاعتزال الحياة.

وقد أثارتها هذه العبارة الأخيرة.. فاندفعت تقول:

- ومن قال لك ذلك؟ إنني أعيش حياتي.. وأنا راضية عنها وعن نفسي، كل ما هنالك أن الشوق للأولاد يغلبني في بعض الأحيان.

وفي استطراد مضى يقول دون أن تفارق حديثه نبرة الهدوء.. ودون أن يرفع عينيه عن جليسته:

- لماذا لا تسلمين بأن الأولاد قد انفصلوا عنك، صارت لكل منهم حياته.. وأنا.. أنا لا أرضى لك - كما لا أرضى لنفسي - الوحدة.. لا أرضاها لكلينا..

وقد أدهشتها كلماته، وقدرت أن الوقت قد حان لإنهاء هذا الحديث، فبادرت تنظر إلى ساعتها، ثم تسأله عن برنامجه في القاهرة، ومتى يحضر محمود من الأقصر..

وكأنما أدرك غرضها.. فسارع يفتح حقيبته ليقدم إليها «ألبوماً» بعث به محمود إليها، وهو على ثقة من أن هذا الألبوم هو خير رسالة تحكي لأمه كل شئ، وربما كانت قراءة الألبوم أمراً ضرورياً يسبق لقاءهما بعد أربعة أيام بالتمام والكمال.. ووقف ومدّ يده مصافحاً

وكلماته تسبقه:

- وعلى كل لنا لقاء..

وآمل أن تكوني قد وصلت إلى قرار.. وإلى لقاء.. أوريفوار.. ولم يفتها أن تلاحظ- وهي تصافحه- ما كانت تشي به نظراته من معان، وما كان يتردد على شفتيه من كلمات لم ينطق بها وإن وصلت إلى سمعها صريحة وواضحة!

★ ★ ★

ماذا أصابها، ومن يكون هذا الطارق المجهول؟ وهل يعدو لقاؤها به أن يكون لقاءً عابراً جرى مصادفة؟ ومن ثم فإن عليها أن تنسى حديثه.. كلماته.. بل كل ما جرى في لقائها معه.

وامتدت يدها إلى الدفتر الملقى أمامها إلى المنضدة، والتقطته، ومضت تقلب في صفحاته: إنه دفتر أشعارها.. وأخذت عيناها تطالعان العناوين والكلمات.. ما هذا؟ «ليلة محمومة».. «القمر المظلم».. «يوم كالح».. «النفس، وما تكره..».. ياه..! حقاً.. إن بسام لحق.. فلم كل هذا السواد واليأس؟ ولم الحياة مع كل هذه الأحزان؟ بل ولم الاستسلام لها وفي الحياة الكثير مما يدعو إلى الابتسام..؟

وانتشلها رنين التليفون مما هي فيه.. وجاءها صوت محمود هذه المرة رقيقاً منعشاً يفيض رقة وحناناً، ليطلب إليها أن تحادث زوجته: اميلي.. وهيأت نفسها لسماع حديثها بلهجتها «الأمريكية» التي يصعب فهمها لمن لم يعش في أمريكا.. فإذا بها تستمع إلى كلمات عربية مفهومة إلى حد كبير، وتتبادلان التحية لتستكمل الأم حديثها مع محمود الذي يحدد لها يوم عودته، وأنه سيعود يوم الخميس مساءً، وسينزل مع الفوج في الفندق، وأنه سوف يحضر إليها هو وزوجته للغداء في اليوم التالي.. ويتوقف قليلاً قبل أن يسألها عما إذا كان في الإمكان أن يصطحب معه ضيفاً، ولا يسع الأم إلا أن ترحب به وبزوجه وبضيفه.

★ ★ ★

حل المساء.. تخافت الضوء.. ساد الغرفة هدوء عميق لا يقطعه سوى صوت «بندول» ساعة الحائط، لا راديو، ولا تليفزيون، وأمامها دفتر أشعارها مفتوح على صفحاته البيضاء ولم تجد حاجة للاضاءة فما وفقت بعد إلى مطلع القصيدة الجديدة وأن تمثلت لها معانيها متتابعة وتردد في خيالها صورها ورموزها، بل وتدور على لسانها ألفاظها وتراكيبها.. وكلما تراءى لها أنها وفقت إلى المطلع المنشود، فما إن تهم بتسجيله حتى تفتر همتها، إذ تراه غير معبر عما تريد.. بل تراه بعيداً تماماً عن تلك المعاني الجميلة التي تتراقص أمامها.. ورغم ذلك فإنها تظل مستسلمة لما هي فيه من حالة شعرية - أو شعورية - لم تعرفها ربما منذ كانت محاولاتها الشعرية الأولى عندما التقت برفيق العمر الذي غادرها قبل أن تكمل

قصيدتها عنها.. هل تذكر تلك القصيدة؟. طبعاً تذكرها.. بل إنها ما تزال تذكر مطلعها ذاك ترسم فيه صورة لطفلة غريرة تحدث أمها حديثاً بريئاً فتسألها: «أين عريسي؟» فتنهرها الأم «عيب يا بنت» فتندهش البنت، وتعاود السؤال، فيتكرر نهر الأم لها، فتضحك البنت وهي تقول لأمها إنها تعرفه: فهو «الشاطر حسن» الذي يقبل عندما تميل الشمس إلى المغيب، ممتطياً صهوة جواده، مطوحاً في الهواء بسيفه، شاقا فضاء الكون، لا يستطيع أحد أن يعترض طريقه، ويلقاها في طريقه، ترقبه في شوق ولهفه، فينحنى عليها، يختطفها، ويجلسها أمامه، وتضمها إليه، ماضياً بها إلى المجهول، إلى ماوراء الأفق.. بعيداً .بعيدا عن الآخرين.. وقد جاء الشاطر حسن بالفعل، لكن بعد أن نمت الشجرة، وآتت ثمارها شوقاً وحناناً وضياءً وفتنة وجمالاً.

ترى كيف مضت القصيدة بعد ذلك؟ وماذا تقول اليوم إن أرادت أن تكمل القصيدة وتضع خاتمة لها؟

ولم يطل بها التفكير.. فقد تراءى «الشاطر حسن» أمامها.. جالساً في الكرسي المقابل، يرتدي ثيابه المنزلية، والصحيفة بين يديه، وفنجان القهوة إلى يمينه، وسيجارته بين يديه، وهو يسألها:

«إلى متى تشغلين نفسك بهذا الدفتر؟ وهل مازلت ترين أنني الشاطر حسن، أم أن الصورة قد تغيرت مع مرور الأيام، وتعقد الحياة، ومجئ الأولاد؟».

وتنظر إليه طويلاً – تتأمله بنظرات متعمقة، فلا ترى إلا وجهاً أسراً وحباً خالصاً لا تزيده الأيام –بمشاكلها– إلا تماسكاً، وتأصلاً..

فلتمض تكمل القصيدة بعد أن وفقت إلى مطلعها: «مازلت تأسرني بحبك.. مازلت تؤنسني بقربك..» وتنثال المعاني متتابعة في مناجاة للغائب الحاضر، تساقيه الحب، وتبادله الغرام، وتتحدث إليه عن المستقبل، في صحبته دائماً، فهو وحده الذي ملك نفسها، وقلبها بل وحياتها كلها.. وما كانت ولن تكون – ما طال بها العمر – إلا أسيرة الشاطر حسن.

وقد ظلت مع قصيدتها تكمل أبياتها، وترسم صورها، وترددها ثم ترددها حتى تطمئن إلى حسن وقعها على سمعها وفي قلبها، ولم تفرغ منها إلا مع مطلع الفجر.

★ ★ ★

مرة أخرى يوقظها رنين التليفون مع الضحى.. محمود يعتذر عن الحضور، فثمة تغير طارئ في البرنامج، ولكن «مستر بسام» سوف يحضر.. وجاءت إجابتها وهي بين اليقظة والنوم:

– لا .. لا داعي لحضور بسام.. اعتذر له.. سأكون مشغولة.. بل أنا دائماً مشغولة.. مع الشاطر حسن..!

طه حسين واليهود والكاتب المصرى

بقلم : ربيع شتا

يرى الدكتور فؤاد حسنين على أنه «يحلو للدكتور طه حسين التحدث عن اليهود واليهودية» «كتاب شمس الله تشرق على الغرب» ، ويقول د. على شلش : «كان طه حسين من أكثر أدباء مصر المحدثين ، إن لم يكن أكثرهم تسامحا مع اليهود وعطفا عليهم لا فى كتاباته فحسب وإنما فى مواقفه أيضا» «اليهود والماسون فى مصر» وهناك غيرهما قال نفس الشىء ولا أريد أن أطيل.

وربما ترجع العلاقات الودية بين طه حسين واليهود منذ أعوام دراسته فى السربون فهو يذكر أنه درس «ديكارت» على ليفى برول «كتاب سامى الكيالى عن طه حسين وجريدة الجمهورية فى ١٤/١١/١٩٧٤» وليفى برول هذا يهودى أشرف على رسالة «المرأة المسلمة» التى حصل بمقتضاها د. منصور فهمى على درجة الدكتوراه، وكانت سببا فى فصله من الجامعة لما تضمنته من طعن شديد فى النبى والاسلام، وقد انتقدتها الصحف «المؤيد ٢٨/١/١٩١٤».

وكان من بين تلاميذه فى الجامعة المصرية طالب يهودى هو اسرائيل ولفنسون، وقد عطف عليه طه حسين واحتضنه وأشرف على رسالته للدكتوراه وهى «تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام» التى طبعت عام ١٩٢٧ والرسالة تظهر أثر اليهود فى الأدب العربى، وقد وصف د. فؤاد حسنين على رسالة ولفنسون بأنها عمل من أعمال الدعاية الصهيونية، ويعد أن عمل ولفنسون بالتدريس فى دار العلوم، ظهرت صهيونيته فهاجر إلى إسرائيل،

وأخذ يبعث برسائله من هناك إلى بعض المجلات اليهودية فى مصر.

وفى أواخر عام ١٩٤٣ وجهت الطائفة الإسرائيلية بالاسكندرية دعوة لطه حسين ليزور مدارسها، فلبى الدعوة، واستقبله الحاخام الأكبر فنتورا وكبار رجاله، وبالغوا فى الترحيب به، وفى هذا اليوم «١٩٤٣/١٢/٢٤» ألقى طه حسين محاضرة ذكر فيها «العلاقات بين اليهود والعرب منذ الجاهلية، ثم تكلم عن انتشارهم فى أفريقيا الشمالية وأسبانيا حيث كانت لهم خدمات فى الثقافة حيث نافسوا العرب أنفسهم على أكبر مناصب فى الدولة»وأين هذا الكلام مما قاله العقاد فى كتابه «الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين». نعود إلى محاضرة طه حسين التى ختمها بدعوته «ليهود مصر الى توثيق صلاتهم بالمصريين من أهل الثقافة العربية»، وقد «قوبل كلام



طه حسين واليهود

في انباء القاهرة ان الدكتور طه حسين مراقب الثقافة في وزارة التربية الوطنية التي في المدرسة الاسرائيلية بالاسكندرية، يوم ٢٤ كانون الاول، محاضرة عن اليهود والادب العربي . فذكر العلاقات بين اليهود والعرب منذ الجاهلية واي اثر كان لليهود في تهذيب سكان الجزيرة ثم تكلم على انتشارهم في افريقيا الشمالية، واسبانيا حيث كانت لهم خدمات في سبيل الثقافة وحيث نافسوا العرب انفسهم على اكبر المناصب في الدولة الى ان قال ان المسيحيين واليهود كانوا خير عون للعرب في نقلهم العلوم والفنون والآداب عن اليونان والهنود والفرس .

وختم الدكتور حديثه داعياً يهود مصر الى توثيق صلاتهم بالمصريين من اهل الثقافة العربية، والاندماج في سوادهم اندماجاً روحياً، وتدارس ادبهم نثراً وشعراً . قالت الجريدة التي اشارت الى هذا «الحادث الادبي» : فقوبل كلام المحاضر بعاصفة من التصفيق، وقرر المجلس الملي الاسرائيلي انشاء «جائزة» باسم طه حسين تمنح لانبغ طالبين في المدرسة الملية .

المكشوف
٢ يناير ١٩٤٤

المحاضر بعاصفة من التصفيق، وقرر المجلس الملى الاسرائيلى إنشاء جائزتين باسم طه حسين تمنحان لألمع طالبين فى المدرسة الإسرائيلية» (مجلة المكشوف ٢ يناير ١٩٤٤) وكتاب «الصحافة الصهيونية فى مصر . د. عواطف عبدالرحمن».

والمفيد بالنسبة لطه حسين استجابة اليهود لدعوته بتوثيق روابطهم بالمثقفين، ودار بينهم حوار أسفر عن إصدار مجلة «الكاتب المصرى» فى أكتوبر ١٩٤٥.

عطف على اليهود !

كانت الفترة التى صدرت فيها «الكاتب المصرى» «اكتوبر ٤٥ - مايو ١٩٤٨» هى اكثر سنوات القضية الفلسطينية التهابا، إذ تفاقمت المشكلة وأخذ اليهود يعدون لإعلان قيام الدولة، وبعد صدور العدد الأول من «الكاتب المصرى» تظاهر الأزهريون فى ذكرى وعد بلفور، وحملت الصحف المصرية على الصهيونية، وازدادت الهجرة إلى إسرائيل، وفى سنة ١٩٤٦ سافر طه حسين بحرا من مصر إلى بيروت، وشهد أعدادا من المهاجرين اليهود ينزلون ميناء حيفا، فأظهر عطفه عليهم وصورهم فى «الكاتب المصرى» قائلا : «كانت السفينة تحمل الفا أو نحو الف من ضعاف اليهود المهاجرين: من الأطفال والصبية الذين لم يبلغوا الحلم. ومن النساء الأيامى، منهن من فقدت كل شىء ولم تحتفظ حتى بهذا الأمل الضئيل الذى يرسم على الثغور هذه الابتسامة الحزينة، ومنهن من فقدت كل شىء ولكن بين أحشائها حياة تثير فى قلبها الحزين المكلوم أملا ويأسا..» وطه حسين يثير فينا عاطفة الشفقة على هؤلاء ويخدر مشاعرنا القومية بهذا الكلام المؤثر الحزين. فى كل دولة فى العالم يتامى وايامى ومساكين متمسكون بأوطانهم، إن هؤلاء الايامى والصبية ذهبوا إلى فلسطين ليكونوا دولة وليس تخلصا من الفقر والفاقة. ولكى يخفف من عطفه درجة ويجعل كلامه متوازنا بعض الشىء قال: «ولكن أهل فلسطين لم يستشاروا ولم يستأمروا فى إيواء هؤلاء البائسين ، ولكن فى الارض أوطانا كثيرة أقدر على إيوائهم من فلسطين» ، ثم يعود الى الحديث عن هؤلاء البائسين الذين «ترتفع اصواتهم البائسة المتهالكة بغناء لست أدرى أكان يصور الفرح والمرح وانتصار الفاتحين أم كان يصور الحزن والبؤس وانكسار المطرودين» (الكاتب المصرى يونيه ١٩٤٦) انهم يتصايحون بغناء الفرح عند رؤيتهم لأرض المعاد. أرض العسل واللبن. ثم ما كل هذا العطف على هؤلاء البائسين. ألا يعلم الدكتور سلفا أن الفقراء البائسين هم الذين يهاجرون ، وأن الأغنياء المستقرين يبقون فى بلادهم، حاول طه حسين ما امكن ان يوازن عباراته. عين هنا وعين هناك، ولكن غلبت على حديثه الشفقة والعطف على اليهود البائسين. وقد مد الله فى عمره ليرى هولاء البائسين وهم يذبحون العرب فى دير ياسين وكفر قاسم وغيرهما، وهم ينتصرون فى عامى ٤٨ ، ٥٦ وهم يحتلون الضفة وغزة وسيناء والجولان عام ٦٧ ، وهم يدمرون مدن القناة فى عامى ٦٩، ١٩٧٠ فلعله غير رأيه بعد كل ذلك فى البائسين، كذلك لم تخل «الكاتب المصرى» من الكلام عن تأثير اليهود فى أدب العرب.

على أنه أهم من كل هذا. الشكل المحايد أو شبه المحايد الذى واجهت به

الكاتب المصرى «العدد التاسع» يونية ١٩٤٩

... السفينة فإنها لم تضطرب ولم ...
... ولم يترددوا ، وإنما مضوا بسفينتهم إلى حيث أمر...
... بأحد ولا يحفلون بشئ إلا بالواجب الذى ينبغى أن يؤدوه . ...
... السفينة وحيفا ، من الغد كان المنظر الذى يبعث فى النفس ألماً أى ألم وغض...
أى غضب ورثاء أى رثاء وبغضاً أى بغض وحباً أى حب أيضاً . فقد كانت السفينة تحمل ألفاً أو نحو ألف من ضعاف اليهود المهاجرين : من الأطفال والصبية الذين لم يبلغوا الحلم ، ومن النساء الأيامى ، منهن من فقدت كل شئ ولم تحتفظ حتى بهذا الأمل الضئيل الذى يرسم على الثغور هذه الابتسامة الحزينة ، ومنهن من فقدت كل شئ ، ولكن بين أحشائها حياة تثير فى قلبها الحزين المكلوم أملا ويأساً ، ورضا وسخطاً ، ولذة وألماً . وقد أقبل هؤلاء المهاجرون جميعاً يقودهم رسل من الحلفاء إلى فلسطين ليجدوا فيها أمناً بعد خوف وراحة بعد عناء . ولكن أهل فلسطين لم يستخيروا ولم يستأمروا فى إيواء هؤلاء البائسين ، ولكن فى الأرض أوطاناً كثيرة أقدر على إيوائهم من فلسطين . وهؤلاء الجنود البريطانيون قد ملئوا ثغر حيفا بالعدد والعُدّة والبأس والقوة ، ليحموا هـ... البائسين إلى هذه الأرض التى تكره على إيوائهم إكراهاً . ...
...طون من السفينة فى نظام ، ترتفع أصواتهم البائسة ...
... الفرح والمرح وانتصار ...

المجلة جمهورها فى فترة غليان الشارع العربى واهتمامه بقضيته . ففى الوقت الذى كانت فيه الجرائد والمجلات العربية تثير الحماسة والحمية، وتزكى النعرة القومية، وتندد بالهجرة، وتتابع النشاط الصهيونى وترد على الدعاية اليهودية، وتبرز اعتداءات العصابات الارهابية، وتظهر غايات الصهيونية فى فلسطين ، كانت مجلة «الكاتب المصرى» تنشر قصيدة عن عودة الربيع، وأخرى عن أحزان المساء، وبحثا عن المرأة والخمر عند الاعشى، وحديثا عن فيلم السابحات الفاتنات وما إلى ذلك من موضوعات ثقافية، ألا يعد هذا صرفا لجمهور القراء عن متابعة قضية قومية فى غاية الأهمية؟ ألا يعد هذا صرفا لكتاب المجلة عن القضية الرئيسة وشغل اذهانهم بموضوعات ليس هذا وقتها؟ وماذا يريد اليهود أكثر من صرف الاذهان عن اعمالهم الشائنة حتى ينتهوا من اتمام جريمتهم؟.

لم تخل المجلة من عدة موضوعات قصيرة جدا عن فلسطين ، كان يعرض فيها كاتبها اطوار القضية بحياد شديد، وهب أن مجلة أصدرت ٣٢ عددا وفلتت منها عدة عبارات لصالح فلسطين ذرا للرماد فى العيون فى بعض الاعداد، فهل هذا يخرجها عن طابعها الحيادى، لقد نهض اليهود المصريون بمهامهم فى خدمة قضيتهم فى حين تقاعس كتاب المجلة من أمثال طه حسين وسلامة موسى وسليمان حزين ومحمود عزمى وسهير القلماوى وعبدالله عنان وغيرهم عن مهمتهم مقابل مال دفعه أولاد هرارى أليس كذلك؟.

بين المربع والمثلث بون شاسع..

وأنبياء مصر لم يشيدوا الأهرامات!!

بقلم: د. التهامي محمد الوكيلي★

نشرت مجلة «الهلال» «عدد يونيو ٢٠٠٠ ص ٦٠ - ٦٩» بحثا علميا للدكتور محمد عمارة، بعنوان «أنبياء مصر عبر التاريخ» تناول الباحث فيه مجموعة من الأنبياء «سلام الله عليهم» ممن بعثهم الله سبحانه وتعالى فى أرض الكنانة، بدءا بالنبى إدريس عليه السلام، ومرورا بإبراهيم الخليل ولوط ويوسف ويعقوب «إسرائيل» وانتهاء بموسى وأخيه هارون عليهم جميعا أزكى السلام.

★ مدير دار الأعماق - الرباط

أنبياء مصر

بقلم :د. محمد عمارة

كل الناس يرددون: «مصر أم الدنيا» لكن يبدو - من حقائق [illegible] الدراسة - «أن مصر هى أم الدنيا والدين أيضا».

[illegible] ـه السلام ، بدأت مسيرة الإنسان على الأرض [illegible] خلقه الله وسواه ونفخ فيه [illegible]

وقد جاء هذا البحث بمعلومات فى غاية الأهمية منها على سبيل المثال أن هذه البعثة الأولى من الأنبياء كانت بالتأكيد من وراء استنثار الحضارة المصرية القديمة بمرتبة الطليعة مقارنة مع باقى الحضارات، فالأنبياء فضلا عن وصفهم هداة ودعاة إلى التوحيد وإلى الخير والصلاح، كانوا حاملين لمبادىء وبدايات العلوم الأولى كالحساب والكتابة والفلك والطب العتيق والفيزياء والهندسة.. فكانوا بالتالى بمثابة معلمين أوائل فى مختلف شعب العلم والمعرفة، والتى تطورت إلى العلوم والمعارف الحديثة التى نتغنى بامتلاكها اليوم.

هكذا إذن، وضع هذا البحث ثلة الأنبياء والرسل فى موضعهم الصحيح والسليم من حيث نقلهم الحقائق العلمية الأولى ومبادىء الصناعات المختلفة بواسطة الوحى إلى الناس كافة، وبذلك لم يعد هؤلاء المرسلون، كما كان يعتقد لدى أنفار كثيرين، مجرد دعاة إلى العبادات والأخلاق الكريمة، ومجرد أدباء ذوى فصاحة فى اللسان وحكماء حصيفى الرأى وعباقرة بعيدى النظر، ومجرد مستبصرين وأهل معجزات وخوارق.. بل صاروا حاملين لفواتح العلوم

والتكنولوجيات الأساسية التي لولاها لما عرف الإنسان اليوم ما عرفه ولما اكتسب ما اكتسبه من مدارك وحذاقات نظرية وتطبيقية فائقة التطور والحداثة.

فهم جديد / قديم حول وظيفة النبي

ها نحن إذن، بإزاء فهم جديد / قديم، حول وظيفة النبي والرسول، ونقول - جديدا /قديما لأن العلوم العتيقة، وخصوصا منها ما له علاقة بالفلسفة والمنطق وبالعلوم الباطنية، كانت دائما تنظر إلى الأنبياء ، نظرة مختلفة، وتقر بالتالي بوظائفهم العلمية والمعرفية التي خصهم الحق عز وجل بها لتكون سببا في نقلات نوعية يتبدل بها شأن الإنسانية وتتطور بها أساليب عيشهم وبحثهم وفهمهم وتتطور مع ذلك أنماط علاقاتهم بالكون والطبيعة وبأنفسهم وبالساكنات الأخرى الكبرى والصغرى والدقيقة والمجهرية واللامرئية.

إلى هنا ، والبحث الذى نحن بصدده سائر فى الطريق العلمى الصحيح، ومستوف لشروط البحث المتناغم والمتكامل، لأنه أتى بمعلومات ومعطيات متكاملة يتضافر فيها النظرى بالعملى، والفلسفى المجرد بالمادى الوجودى ، والفكرى الخالص بالتجريبى الملموس ، وتتآزر فيه الرؤية العقدية بالحقيقة العلمية. وهذه كلها لا تنتمى إلى عالم الخيال أو إلى التخمين المبنى على فرضيات أو على تقليعات عقلية أو وجدانية ليس إلا، بل قد تم تمحيصها على صعيد مخابر الآثار والأنثربولوجيا الحديثة، ومعامل البحث الكيماوى والفيزيائى المتطورة، وأجمع العلماء فيها من مختلف المشارب والتخصصات على ما سبق ذكره من الحقائق حول وظائف الأنبياء والرسل بدءا بآدم وانتهاء بمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

لكن، تأتى فى سياق البحث المذكور ذاته فقرة لا علاقة لها بكل هذه المباهج العقلية، ولا صلة لها من قرب ولا من بعد بالعمل العلمى المجرد عن الذات وعن الهوى وعن الحكم المسبق.. تقول هذه الفقرة بالحرف : «وحتى يخلّد «النبى إدريس» هذه العلوم ويحفظها من عاديات الدهر وآفات النار والطوفان، بنى الأهرام والبرابى. وصور فيها جميع الصناعات والآلات، ورسم فيها صفات العلوم، حرصا منه على تخليدها لمن بعده، خيفة أن يذهب رسمها من العالم..» ! فكيف يكون هذا الكلام غير علمى، وكيف نراه

نحن، بكل تواضع، مفرغا من أى محتوى وقائما على غير أساس متين؟!

إن الدراسين والمختصين فى تاريخ الحضارات، وهذا عين مجال هذا البحث الذى نعلق عليه، يعرفون من بين ما يعرفونه أن للأشكال الهندسية قيمة رمزية ومعنى يختلف باختلاف الرمز ذاته، وأيضا، بحسب وضعه بين باقى الرموز، ثم بحسب علاقته مع غيره من الرموز إن كانت علاقة مصاحبة، أو تلاق، أو تقاطع أو تمازج وتداخل وتكامل.

إن المربع يرمز فى كل الحضارات السابقة كما فى الحضارات المتأخرة إلى السكون، وإلى الثبات فى العالم الأرضى الفيزيقى، كما أن الدائرة ترمز إلى الحركة، وإلى دائرية ودوران الفضاء الكونى وتكويره. وكذلك الشأن بالنسبة للظواهر الناشئة عن هذه الاستدارة وذلك التكوير، كالليل والنهار، والضوء والظل، وحركة الكون صوب التوسع.. الخ.

والذين يعرفون ذلك يعرفون أيضا أن للمثلث رمزية مخالفة:

فهو ليس رمزا أساسيا فى الخلق، كالمربع والدائرة «السكون والحركة» وبالتالى فهو «أى المثلث» رمز تفاعلى، يتغير ويتبدل مدلوله بحسب وضعه، وبحسب تبدل رؤوسه، فتارة يكون رمزا إلى النور كالمربع، كوضعه عندما يرمز إلى الثلاثية الأساسية «موجب + سالب + محايد» كما فى تكوين الذرة «بروتون + الكترون + نيوترون»، ولكنه يتحول إلى رمز للظلمات، والكفر والإلحاد، ولكل القوى السالبة والخبيثة والشريرة كتدليله على الأقانيم الثلاثة «الأب + الابن + روح القدس» والتى يقوم عليها شرك المشركين من أهل العقائد الهندية والفرعونية والهرمسية القديمة وأيضا من أهل الكتاب، أو كاستعماله كرمز للعلاقة الثلاثية المصنوعة صنعا من كهنة «القبالة» اليهودية لأغراض يقولون إنها «سحرية سامية» (نسبة إلى «السحر السامى» الذى جعلوه بديلا لتعاليم اليهودية الأصلية ولشرائع التوراة الضائعة والتى أمعنوا فيها تحريفا وقلبا وتغييرا)، وهو الرمز الدال برؤوسه الثلاثة على الإنسان والجان والملائكة ، فى محاولة لجعل علاقة بين هذه المخلوقات الثلاثة تهدف إلى اكتساب القوة والغلبة والبقاء!..

يعرف العارفون بهذه العلوم وبهذه المعطيات العلمية العتيقة «نسبة إلى ما كان فى القديم من قبيل العلم» وهى نفس العلوم والمعطيات التى قام عليها بناء الهياكل والمعابد القديمة والأهرامات، بأن المثلث نظرا لتبدله وتغيره، بخلاف المربع

والدائرة، فإنه يكون رمزا ظلماتيا كلما كان استعماله فى غير محله، وكلما كان الأساس العقدى الذى يشكل مرجعيته أساسا إلحاديا، وهذا بطبيعة الحال، لا يمكن ولا يتيسر تطبيقه بأى حال من الأحوال على المربع والدائرة.

من هنا جاء استعمال الشكل المثلث كرمز، وكرسم لاستمداد قوى طبيعة أو كونية خفية، متداولا على الخصوص فى أوساط كهنة الهياكل والمعابد القديمة فى مختلف الحضارات التى كانت تعتمد الرموز، والرسوم للاتصال بالقوى الباطنية أو بقوى الطبيعة أو بما كانت تعتقده قوى إلهية قابلة للتسخير، وبالتالى، ومن هنا، يسعنا أن نتساءل : «فما سر وجود المربع والمثلث معا فى بناء الهرم الفرعونى؟» وإنه لسؤال وجيه وفى غاية الأهمية، خصوصا فيما نحن بصدده من مناقشته من خلال هذا المقال:

لقد سبق القول: إن المربع، باعتراف الحضارات المعروفة كلها، يرمز إلى الوجود الفيزيقى، وإلى السكون والثبات، وهذا المدلول الرمزى ليس اعتباطيا، ولا هو من اختصاص نفر دون آخر، بل لقد أثبت الدين ذلك، وكـــذلك نمط الخلق الإلهى، ويمكن الإشارة بعجالة إلى هذه الإثباتات كالآتى:

١ ـ لقد جعل الحق عز وجل للعدد ٤ «أربعة» سرا عظيما، حيث بدأ هذا الأمر ببنية العدد نفسه، فهذه البنية المكونة من أربعة أعداد هى «١ و ٢ و ٣ و ٤» يساوى مجموعها عشرة «١٠»، وهذا يجعل العدد «٤» عددا كاملا، لأنه يضم فى بنيته العددية كمال الآحاد، بل يشكل رمزا إلى عودة «الواحد» ، الذى هو العدد الأساس، إلى الظهور من جديد بعد أن يحول الآحاد كلها إلى «صفر» «٠» ، وهذه هى رمزية العدد «١٠» «واحد، وصفر» وقد رأى علماء الباطن والفلاسفة أن العدد «واحد» إذا كان يرمز فى البداية إلى اسم الله عز وجل «المبدئ» فإنه فى العدد «عشرة» يرمز إلى اسمه تعالى «المعيد» ، لأنه يدل على تجل جديد فى نهاية الآحاد، وهو تجل ضمنى وليس بالذات، ذلك أن «العشرة» ليست هى «الواحد» بأى حال من الأحوال، ولكنها تتضمن وجودا واجبا ومستترا للواحد.

إذن فالعدد «أربعة» له فى حد ذاته سر عظيم يتأكد من خلال استعمال الحق عز وجل إياه فى بعض شئون خلقه ليدل على كمال هذا الخلق، فكيف ذلك؟

٢ ـ لقد جعل الله سبحانه وتعالى خلقه، حتى يكون خلقا كاملا لا

يمكن مطلقا الإتيان بأفضل منه. على أربعة أوجه، ولو كان على ثلاثة لاتّصف بالنقص، كما أن وروده على خمسة أوجه غير ممكن مهما اجتهد العقل فى تضمين ذلك:

- **الوجه الأول** : «الخلق من لا شيء» ، كخلقة النور، أو خلقة العدم ثم الوجود ...

- **الوجه الثاني** : «الخلق من شيء»، كخلقة آدم عليه السلام من تراب، وخلقة الكون من المادة الأولى «مهما اختلفت أسماؤها»..

- **الوجه الثالث** : «الخلق بالجعل»، أى بالتطور والنشوء والارتقاء، كخلقة الكائن الحي من الأميبا أو الكائنات متعددة الخلايا من وحيدة الخلية ...

- **الوجه الرابع** : «الخلق بالتقنين» أى بوضع القوانين أولا فى يد الصانع، وهذه أدنى مستويات الخلق، كصناعة المراكب المائية استمدادا من قانون الطفو، والمركبات الطائرة استمدادا من قانون الجاذبية . الخ.

٣ - استخدام نفس العدد «أربعة» فى إظهار كمال الخلق الإلهي للإنسان: آدم بغير أب وبغير أم وحواء بأب وبغير أم، وعيسى عليه السلام بأم وبغير أب، ثم باقى بنى آدم بالأب والأم معا. ولو أفنى العقل طاقته كى يجد احتمالا خامسا لما استطاع إلى ذلك سبيلا.

٤ - قيام كمال الدين وتمام النعمة الإلهية على أربع رسالات: الزبور، والتوراة، والإنجيل، والقرآن.

وهناك ظواهر وبواطن أخرى يعز عدها وإحصاؤها، تزيد فى تأكيد نفس هذه الحقيقة المرتبطة بكمال العدد «أربعة»، وهو عين الكمال الذى جاء المربع ليرمز إليه، وليكون أثبت وأرسخ بنيان، ويكون بالتالي، أساس البيت الذى جعله الله سبحانه للناس كافة وسيلة تقرب واستمداد لنوره وهدايته ورحمته «الكعبة المشرفة»، ولو كان هناك أرسخ وأثبت من المربع فى الوجود الأرضي الفيزيقي، لاختاره الله سبحانه ليكون أساس هذا البيت الشريف لا محالة.

ولو قال قائل ، وما شأن الدائرة؟ لكان الجواب: إن شأنها كونى فضائى، ولذلك سارت عليها الأفلاك وحركات النجوم والكواكب والأقمار، وقام عليها مبدأ التكوير الذى توجد فوقنا ومن حولنا شواهد للدلالة عليه يستحيل أن يحيط بها الإنسان عدا وإحصاء

ها قد بدا لنا المربع كرمز نورانى

يدل على كمال خلق الله عز وجل فى الوجود عامة والوجود الأرضى الفيزيقى خاصة.

ولو أن الدارس للحضارات القديمة تتبع ظهور المربع فى الأنماط الهندسية وفى الدلالات الرمزية العتيقة، لوجده دائما وأبدا شديد الظهور فى عصور الأنبياء والرسل وكلما كانت نبوءاتهم وشرائعهم ورسالاتهم سارية المفعول بين الناس، وكذلك الدوائر والأقواس وباقى الأشكال المشتقة عن المربع والدائرة والمتفرعة عنهما.

وأما وجود المثلث مع المربع فى رسم الأهرامات فتبريره عند كهنة الحضارة الفرعونية، وهم الذين كانوا، كما فى باقى الحضارات القديمة، يفتون بالرسوم والأشكال والرموز التى يجب استعمالها فى الأبنية ذات الطابع العقدى كالهياكل والمعابد والمقابر، كما كانوا يفتون بالتوجهات التى ينبغى أن يأخذها كل بناء من هذه الأبنية وكل صرح أو محراب، ولا غرو فى ذلك إذ هم الذين كانت تتركز لديهم العلوم السائدة فى تلك الأزمنة، والتى كانت فى معظمها، بل كلها، علوما قائمة على الروحانيات، وعلى الاعتقادات والطقوس والتطبيقات الباطنية الصرف.

الكهنة وعلومهم الباطنية

نقول : كان الكهنة عارفين بالعلوم الباطنية وبالتالى مدركين لتقلب القوى وتفاعلها وتضاربها فيما بينها، وكانوا على علم بخطى النور والظلمات ، ودليل على هذه المعرفة وقوع سحرة فرعون وكهنته ساجدين لرب موسى عليه السلام، بعد أن فطنوا إلى الفرق البّين بين ما جاؤوا به من السحر وما جاء على يد هذا النبى المرسل من العمل النورانى الإعجازى ، وعرفوا بما لديهم من العلم عن القوتين، أن ما جاء به النبى هو النور، وأن ما جاؤوا به ليس إلا من ظلمات السحر والغواية، وهذا العلم هو الذى جعل الكهنة يضعون المربع أرضا، كأساس للهرم، ثم يضعون عليه من الجهات الأربع «أضلاعه» أربعة مثلثات ترمز إلى العناصر الأساسية للطبيعة «الماء والنار والهواء والتراب»، اعتقادا منهم بأنهم بذلك يسجنون قوة المربع النورانية، بقوة المثلثات الأربعة ، الظلماتية لأنها مستمدة من قوى الطبيعة، مع ما كان يصاحب بناء الأهرامات خاصة والمعابد والهياكل القديمة عامة، من القرابين والذبائح الحيوانية أحيانا، والبشرية المستترة أحيانا أخرى، ومن قراءات وتعازيم وطقوس أخرى تختلف باختلاف نوع الكهانة المعتمدة.

لقد أثبت علماء الآثار، والأنثربولوجيون، وعلى امتداد الحقب المتأخرة بأن بناء الأهرامات وما تزخر به من المعالم والغرف والدهاليز والصناديق والتوابيت. كل ذلك، كان موضوعا بطريقة مدروسة، ومختارا في حد ذاته بأسلوب مقصود ومدقق، وكذلك مكوناتها من المعادن النفيسة ومن الصوان «الكوارتز» مما يجعل لذلك كله مجالا كهرومغناطيسيا يدعمه الشكل الهرمي نفسه والذي اكتشف العلم الحديث له أسرارا فيزيائية في غاية الأهمية.

علمنا إذن بأن بناء الأهرامات الفرعونية تم على يد كهنة الفراعنة وسدنة معابدهم من علماء الباطن، وكان موضوعا على أساس مدروس ومقصود قوامه السحر والاستمداد من قوى الطبيعة، مع علمنا بما كان أولئك الكهنة ينظرون له من العقائد والمذاهب ويفرضونه على الناس وعلى حكامهم من الطقوس والتطبيقات الظلماتية، تارة تحت راية الشمس، الإله، أو الفرعون الإله، وتارة أخرى تحت رايات آلهة متعددة ومتنوعة كما كان سائدا بعد ذلك لدى تلامذتهم اليونانيين والفرس والرومان الأوائل.

نعم ها قد عرفنا ذلك، فما موضع القول: إن النبي إدريس بنى الأهرام الأولى حتى يحتفظ بداخلها بالعلوم والكنوز التي جاءت على يديه؟! مع العلم بأن نبي الله لا يمكن أبدا أن يأتي بمثل ما يأتي به كهنة تلك الحقب، ولا بمثل ما جاء به أمراؤهم وملوكهم المؤلهين، وبأن أكمل بناء يمكن أن يقوم على يد نبي مرسل لا يمكن أن يكون إلا على النسق الكامل الذي اختاره الحق عز وجل لبيته العتيق، وأن أي نبي أو رسول لا يسعه إلا أن يفعل ذلك ولو على سبيل الاقتداء والتبرك فحسب.. وها قد أدركنا بالتالي، بأن ذلك القول الذي جاء به صاحب البحث المنوه عنه حول علاقة نبي الله إدريس عليه السلام ببناء الأهرامات إنما هو قول لا أساس له ولا سند ولا أصل ولا فضل.. وإنما هو كلام صادر على عواهنه بدليل عدم وجود أي إشارة اليه في الكتاب أو في السنة أو الأخبار أو الآثار ، وبدليل تموقع ذلك تاريخيا قبل زمن الطوفان الذي محا كل أثر من الآثار التي قامت قبله وعفى على كل الحضارات التي سبقت ذلك الحدث المهول «الطوفان» ، والتي لاشك أنها كانت متطاولة في الأرض، متقدمة في العلوم غير النافعة ، قائمة على الضلالة.. مما استوجب أن يحق عليها القول فيدمرها العلى القدير تدميرا.. وللحديث صلة.

احتفالى بعيد ميلادى الـ ٦٣ فى ١٧ أغسطس :

تنويعات من أوراقى القديمة

بقلم : صافى ناز كاظم

أوراقى القديمة توجع قلبى، أحرقت الكثير منها، ومزقت ونثرتها هباء، لكن فى كل «تنفيضة» أرفف خزانة من مكتبتى تنب وتشرئب قصاقيص من الواضح أننى، لحظة التمزيق، لم يهن علىّ إعدامها. الأوراق أوراقى، كتابتى بقلمى لنفسى وأنا حرّة ألغيها أو أسجلها. أتأمل فى بعض القصاصات الباقية لأعرف لماذا أبقيتها، غالبا إحساسى بقيمة فنية ما تشوبها، رغم كونها صفحة من مذكرات أو خواطر أو صورة من خطاب لصديق أو صديقة.

● وجدتها تلك الورقة التى كنت أضعها تحت زجاج مكتبى الإيديال الصاج الرمادى فى صالة تحرير مجلة الجيل بأخبار اليوم، بتاريخ ٢ يونيو ١٩٦٠ أقول:

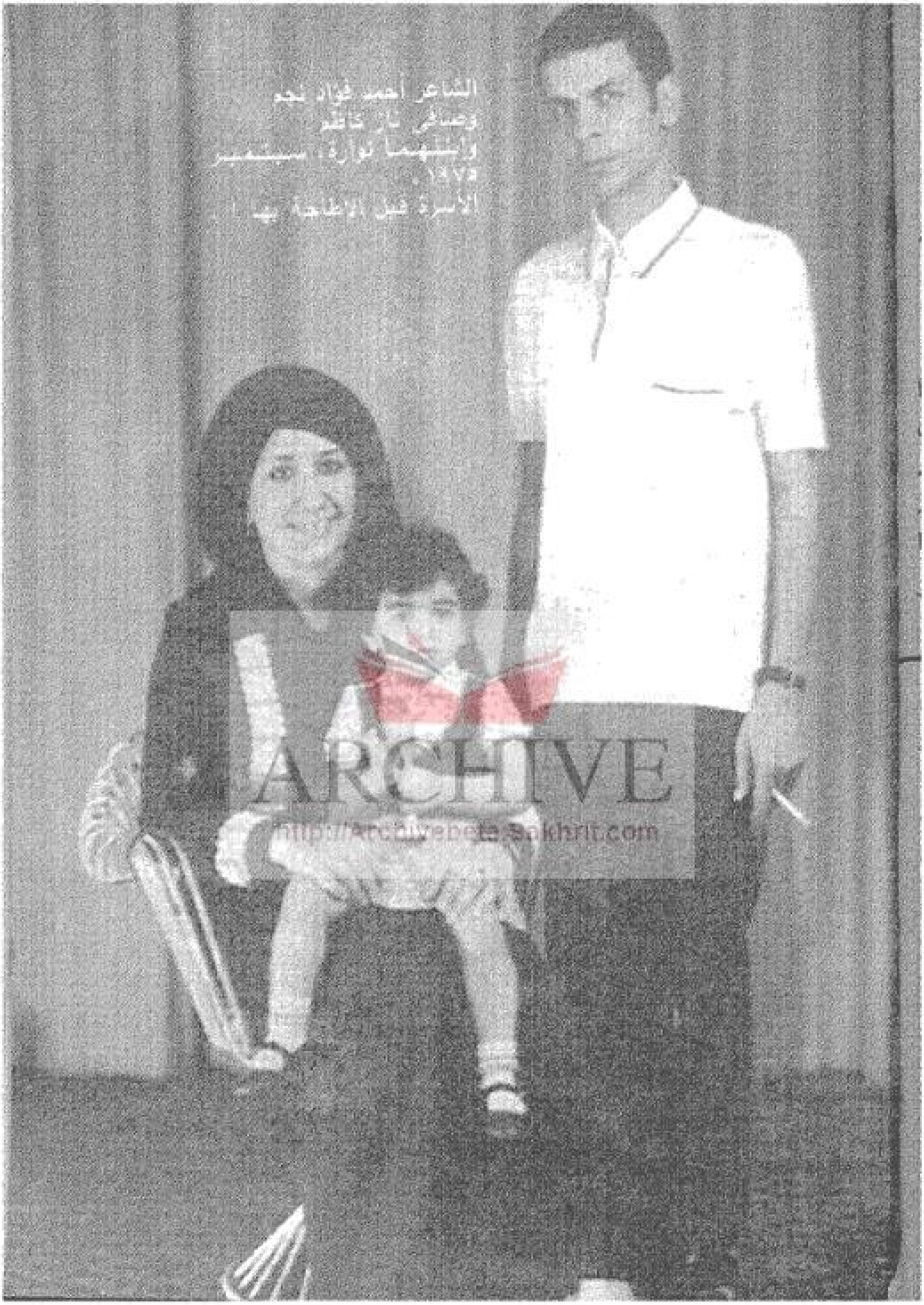
- «أصدقائى ...

تصوروا ...

شىء غريب حدث لى أمس . أمس وأنا فى الأوتوبيس كنت أنظر من النافذة. الساعة كانت السابعة، ولكن ضوء النهار كان واضحاً. إلى اليمين نظرت. لفت نظرى شىء فى السماء أبيض مستدير كحدقة العين. لأول وهلة تصورت أنه أحد مصابيح الطريق ولكنى اكتشفت أنه يسير معى، واكتشفت أنه القمر، مستدير، بدر. وأعجبنى لونه الفضى وهو تائه فى ضوء النهار. ودخلت المؤسسة وخرجت منها فى الحادية عشرة مساء. الليل مكتمل فأحببت أن أرى مرة أخرى البدر الأبيض على المساحة السوداء، لكنى حين نظرت إلى أعلى، إلى اليمين، فوجئت بالبدر هلالاً، هلالاً صغيراً. تصوروا أننى لم أعرف الشمس؟. تصوروا حتى الشمس لم تعد واضحة؟. أنا أضحك ».

●●●

● تزوجت الشاعر أحمد فؤاد نجم فى ١٩٧٢/٨/٢٤، بعد عام من صدور



الشاعر أحمد فؤاد نجم
وصافي ناز كاظم
وابنتهما نوارة، سبتمبر
١٩٧٣
الأسرة قبل الإطاحة بها!

قرار منعي من النشر ١٩٧١/٨/١ الذى استمر ١٢ سنة. قال نجم تزوجينى، فلم أملك سوى أن أجيب: وهو كذلك. بين لقائي الأول ١٩٧٢/٨/١ وعقد القران إلتقيت به ما لا يزيد على أربع مرات. الذى شدّ من أزر قرارى بالموافقة على الزواج منه هو المعارضة الشديدة التى واجهت ذلك القرار، ليس فقط من جانب أمي رحمها الله، ولكن من أصدقائى وصديقاتى، الذين تعجبت من اندهاشهم ورفضهم هذا الزواج رغم حماسهم الشديد للشاعر المناضل ولفنه المذهل مع صاحبه الموسيقى الملحن المغنى الشيخ إمام عيسى. كنت كلما لاقيت نصحا بالرجـــوع عن زواجى من نجم، يزداد احساسى بضرورة وواجب الإسراع نحو هذا الزواج. لم تكن الحكاية قصة غرام بينى وبينه؛ لكنها حكاية لا يصدقنى فيها أحد لأنها كانت منى موقفا شعريا يفوق فى جماله حكايات الحب المعتادة بين الرجال والنساء. كنت قد انتهيت من قراءة سيرة حياة الشاعر البطل عبد الله النديم، «العودة إلى المنفى»، التى كتبها الأديب الأستاذ أبو المعاطى أبو النجا. بين كل سطر وآخر أجد فيه عبدالله النديم واقعاً فى مأزق أو أزمة أو إفلاس أو جوع، مخذولاً، مطارداً، محاصراً، أبكى وأقول: لو كنت أعيش زمنك لنهضت أفديك يا عبد الله النديم. وحين وجدت أحمد فؤاد نجم يسير إلى جانبى يطلبنى للزواج قلت: ها هو الشاعر الشجاع، خارج لتوه من المعتقل، منفى داخل الوطن، مطارد، مرصود، وغالى شكرى أمام باب الأتيليه يقول لى ولنجيب سرور بصوت مقتضب: «المباحث لغت ندوة إمام ونجم»، فيئز الغضب فى صدرى وأقول لنجيب: لابد أن نذهب إليهما لنعلن تضامننا معهما، فيوافقنى نجيب ويصحبنى إلى الغورية، ومنها نخترق الحارة والعطفة إلى حوش قدم، ونصعد السلم المعتم لأجد نفسى فى غرفة مكدسة باللوحات والألوان ومعها الخرق وعلى الأسمال البالية يجلس الشاعر النحيل وأمامه على الأريكة الخشبية المتهالكة يحتضن المغنى الملحن الضرير عوده. يتم الترحيب المتبادل، وأجتهد لكى أعبر لهما باختصار عن عمق احترامى واجلالى لهما ولفنهما العظيم من دون أن أنزلق إلى المستهلك والرخيص. كنت حزينة مثقلة وجادة - (وعائدة منذ شهور من أداء فريضة الحج وأخذ العهد برجم الشياطين أينما أطلوا برءوسهم بأشكالها المختلفة) - وكانا ضاحكين لا مباليين كأنهما لم يكابدا أى لسعة من لسعات الشقاء. لم ألبث طويلا، وحين تهيأت للذهاب أصر نجم على توصيلى إلى شارع الأزهر، وكان قوله المفاجىء التلقائى: «ما تتجوزينى!». حين داهمنى الإحساس بالورطة آذيت نفسى باللوم: كنت تبحثين عن عبدالله النديم لتفتديه، وها هو أمامك بلحمه وشحمه، الشاعر الذى يعطى ولا يأخذ، الذى كلما إشتد

ساعده فى العمل كان أجره السجن والاعتقال والتجويع، الشاعر الذى صرخ فى زمن الكبت والخرس بعد هزيمة ١٩٦٧/٦/٥: «قول الكلمة عالى، بالصوت البلالى، قول إن العدالة دين الإنسانية» ، وتنفيذا لذلك قال قصيدته فى عصر البطش الأعظم، التى كلفته سجنا كان مفترضا أن يكون مدى الحياة، فشاء الله أن يكون مدى حياة الآمر به: «كفاية، أسيادنا البعدا ، عايشين سعدا، بفضل ناس تملا المعدة وتقول أشعار، أشعار تمجّد وتماين حتى الخاين، وإن شاء الله يخربها مداين عبد الجباره» الشاعر الذى لم يبع شبراً ولم يخضع لضيم، واستمر لومى لنفسى على هذا المنوال حتى وصلت إلى: هذا شاعر يحتاج لمن يعتنى به ويحافظ عليه، ويرممه: يقص أظافره - (عانى نجم من ذلك بالذات كثيرا!) - ويأخذه لطبيب العيون لأنه يحتاج نظارة قراءة، ويحضر له كمية هائلة من الصابون والفنيك وفرشاة بلاط لمسح وتنظيف غرفته، يحتاج لسرير ومرتبة ووسادة، وطعام وفق نظام غذائى متوازن. هذا شاعر النبض الشعبى وضعه الله أمانة فى عنقك ياست صافى ناز، إذا كنت حقا مستعدة للفداء كما تدّعين. بعد الزواج مباشرة صدر أول ديوان شعر لنجم فى بيروت كتبت فريدة النقاش فى مقدمته تقول : « ... ولقد تزوج أحمد فؤاد نجم أخيراً من الصحفية صافى ناز كاظم وهو يحاول ألا يؤثر ذلك فى علاقته بالغورية وبالشيخ إمام...» بما يفيد طبعا أننى بالتزامى الإسلامى - أو برجزتى - مؤثر ضار على المسيرة التقدمية للشاعر من وجهة نظرها . ضحكت وقلت: هكذا يا ست فريدة؟، ما كان قصادكم، رايحين جايين تسمعوا وتسجلوا له وكله يروح ينام فى بيته الدافىء الوجيه على سريره والشاعر فى إطاره «الفولكلورى»!.

لم تلبث الأحداث أن تطورت ودخل نجم السجن بعد زواجنا بشهور فى ١٩٧٢/١٢/٢٩، وشاركت فى اعتصام طلبة جامعة عين شمس احتجاجاً على ضرب شعارات الديمقراطية المرفوعة. كانوا طلبة وكنت صحفية وكاتبة ممنوعة من النشر، ذهبت إلى اعتصامهم أقول أننى لا أملك أن أساندهم بقلمى ولذلك فإننى بانضمامى إلى اعتصامهم السلمى الذى هو من حقوقنا الدستورية، أكون قد قمت بواجبى الصحفى الشريف. واستمر الاعتصام بقصر الزعفران فى قلب الجامعة من أول يناير ١٩٧٣ حتى التاسع منه عندما تم اقتحامه بقوات الأمن المركزى تحت قيادة اللواء أحمد رشدى، وتم القبض علىّ مع الطلبة والطالبات بصفتى مندسة متسللة إلى صفوف الطلبة لإثارتهم وتحريضهم على قلب نظام الحكم - (فى المعتقل كنت أصيح فى البنات: يا بنات فيه تفتيش إللى قالبة نظام الحكم تعدله فوراً!.)

فى المعتقل تبين لى أننى أنتظر حادثا سعيداً وجاء الإفراج عنى ، فى شهور

الحمل الأخيرة، بعد الإفراج عن نجم الذى سبق إفراجه الإفراج عنى بشهر. نجم هايص ومنطلق مع دوائر الطلبة والطالبات المناضلين الذين قرروا أن لا حق لى فى نجم لأنه ملكيتهم الخاصة. حاضر. يعنى إنت يا نجم مش محتاجنى ولا حاجة؟. أغضب ثم أكظم غيظى: إنت قلت فدائية وراعية. كان من حق نجم أن ينطلق كلما جاءته فرصة للإنطلاق بعد الحبس والضيق. كان مونولوجى الداخلى مدافعاً عنه دائماً إلا حين كان يذهب إلى بيوت من وصفهم «بالثورى النورى الكلامنجى» أو «القواد الفصيح» أو «اليويو» و«الحلاويللا». كنت صارمة فى عدائى لهؤلاء ومقاطعتى لهم، ولم أفهم أبداً، وقتها، «جدلية» نجم فى زيارة من يرفضهم، وأظن أننى أفهم الآن أنه كان من حقه أن يتفرج ويتجول ليعرف ويصور. وفى يوم غضب شديد أخذت نفسى لأفسحها فى مقهى بفندق شبرد، طلبت الشاى والجاتوه وجلست أدون خواطرى:

● «شبرد، ١٩٧٣/٨/٧. مرور عام على معرفتى بأحمد فؤاد نجم. إلتقيت ١٩٧٢/٨/١ بنجيب سرور هنا فى شبرد ليقابلنى لأول مرة بنجم. عندما عرفت نجم أردت أن أهرب إليه من شبرد ومن مجلسى مع العالم الذى لا أتوائم معه، ومن الذين قهرتنى نذالتهم، وأغسل عنى أدران خيبة الأمل والحوار مع الذات - (حيث لم يكن ممكنا الحوار مع الصم والبكم) -.

أنا الآن جالسة فى شبرد بعد شهور غيبة قسرية لم أقضها مع نجم. ليس حاضرا معى من نجم الآن غير خاتمى الذهبى وجنينى الثمانية أشهر. حلمى فى نجم يخذلنى تماماً: هو مع العالم الذى أخاصمه، رغم أنه خارجه. هو لا يأخذنى معه لنكون عزوة ضد العالم المجذوم. ضاعت منى حتى فرصة: الذهاب لنجم، التى كنت أملكها قبل زواجى منه. هو يترجم أخذى إلى عالمه ترجمة سطحية مبسطة خليقة بإثارة المشاحنة بيننا. النتيجة أننى أعود بشكل أثقل وطأة إلى الحوار مع الذات حيث لا يمكن أن أتهادن مع عالم مجذوم يريد نجم أن يعيدنى إليه فى تزاور بغيض نتبادل فيه أقداح الكذب والمودة الزائفة. والوضع أن نجم يتزاور وحده ولا يدرك كيف يمكن أن يمثل هذا طعنات متوالية للتحدى الذى أعلنته «به» عليهم.

الفرق بين مشاعرى العام الماضى والآن، هو أننى لم أكن أحتوي هذا الكم الهائل من الشعور بالهزيمة والخذلان.

بدأ البيانو، وعدت كما كنت: مع الموسيقى، والكتاب، ونفسى.

●●●

● «١٩٧٣/٨/١٥ : أشهر ممنوعة بالقسر من الورقة والقلم. فى يدى ورقة وقلم واشتياقى للكتابة عارم، ولكن هذا الاحساس بالحصار، وأنك أرض مباحة لكلاب يأتون لينهشوا قلبك ودماغك فى

أي لحظة. كيف يمكن نكتب ونحن نعرف أن ما نكتبه لن يكون صوتا يذهب لن نريد ونختار؟. هل يمكن أن تكون تربيتي لوليدي بديلاً للكتابة؟، أقول من خلاله كل أشيائي الخبيئة، وكل تحقيقي لما أراه فاضلاً؟. ألا يمكن أن يكون أطفالنا هم حبرنا السري في مرحلة يسودها القهر؟.....».

● ● ●

● «مايو ١٩٧٥ : عدت إلى منزلي في وقت متأخر، أحمل نوارة على كتفي ونجم إلى جواري، صامتان. مقبوضة. فالأشياء بغيضة، وإن كان تنفس نوارة المتقلقل يلفح رقبتي فأتذكر أن هذه نعمة كبرى: أنا ونوارة وزوجي معاً: هذه حقيقة يمكن أن يطاح بها في أي لحظة، ربما الآن أو بعد ساعة أو هذا الفجر أو الفجر الذي بعده. مقابلتي معك منذ ساعات وضعتني مرة أخرى إلى قابلية الورقة والقلم. ممنوعة من النشر منذ أربعة أعوام، نعم، لكن الأكثر إيلاماً هو أنني أفقد تدريجيا قابليتي للكتابة. مُهانة . لا أستطيع أن أتلف مع القهر ولو أخذ شكلا مبسطا. القهر : قهر. ليس هناك حد أدنى أو أقصى للقهر. كل أشكال القهر امتهان للإنسان ومهانة الإنسان سقوط لكل شيء».

حين حشدونا - خليطا من مثقفي وفناني مصر العزيزة - في صندوق اللوري المظلم نقلا من سجن القلعة إلى النيابة، ارتفع صوت من بيننا يقرر أن الأشياء أفضل على أية حال: فنحن على الأقل ننقل إلى النيابة للتحقيق، ونحن على الأقل نسجن فقط بلا ممارسات التعذيب البدنية، ونحن على الأقل يمكننا الاحتجاج إلى النيابة إذا حدث تعذيب، ونحن على الأقل يمكننا الشكوى إلى المحامي إذا أصمت النيابة أذنيها... وجزعت نفسي: ما حاجتهم للتعذيب بعد؟. لقد نفذ سهمهم إلى مداه وتأصل الامتهان في الروح وها هو العبد يحمد لسيده أنه صار يسجنه فقط. يسجنه : كيف يمكن أن يصبح السجن : (فقط) ؟.

وتفاجئني بمن يسأل : هل كانت المعاملة داخل السجن طيبة؟. كيف يمكن أن يطيب أي شيء داخل سجن؟.

إحساسي أنني عريانة وأن بيتي نهبا مباحاً لكلاب يدهسونه في أي لحظة تعن لهم: يقلبون في الكتب والأوراق، وأدمغتهم السميكة تتحرك كالدّوم الفارغ بين حجرة النوم والمكتب ومخدع الطفلة، تبحث عن مستودع الشعر أو الفكر، احساسي بكل هذا يصد قابليتي عن الحياة نفسها. نكتب عن المسرح، عن الشعر ، عن الاستعمار والاحتلال والمعاملة السيئة التي يلقاها العربي داخل الأرض المحتلة، وهذا الدّوم الفارغ يطل فوق أوراقنا لا يفقه شيئا لكنه يملك أن يزور قضية وهمية، لا يعتني حتى بمداراة بطلانها الواضح، فالوقاحة سمة لصيقة بالدوم الفارغ أسوة بالسماجة، يملك أن يضعنا في صندوق مظلم نتن في لوري ينقلنا كالبهائم من

سجن لسجن ولا يعدم أن يجد بداخله أو خارجه من يشكر الاجراءات الرحيمة، التى شملت مع ذلك نوارة وعمرها أربعة عشر شهراً محجوزة ست ساعات معى ووالدها فى مرحاض مليء بالجرب والقمل بقسم بوليس الوايلى.

***

أثناء هذا كله :

مهرجان للأدب،

مهرجان للشعر،

مهرجان للمسرح،

والحاضرون :

١ - قتلة الأدب والشعر والمسرح.

٢ - المواسون للقتلة.

٣ - أصوات قليلة مغتربة تشاغب أحيانا فى الندوات وتنخدع بأكذوبة : إمكانية الحوار مع السفاحين.

***

تعود لحظيا الآن قابليتى للكتابة وحين أمسك القلم يتأكد لدى أننى أريد فرشاة تلطيخ الجدران: أريد أن أكتب كلمات قليلة بخط كبير: هل نحن بحاجة الى المسرح؟ لماذا هذا الإصرار على إقامة مسرح مع الإصرار الكامل على إقامته بدون مسرحيين؟.

مع الإصرار الكامل على استئصال أصل وجوده: الصراع؟.

هذه التساؤلات لا توجّه إلى قتلة المسرح، إننى أوجهها لمن هم ، إفتراضا، يحملون واجهة الأصوات المشاغبة المغتربة فى ندوات القتلة - (المدهش أن المسرحيين لا يدخلون فى معترك الحرب الدائرة لطحنهم، إنهم على العكس يبدون طواعيتهم الكاملة للإنسحاق التام ويشكرون كذلك الاجراءات الرحيمة التى، على الأقل، مازالت تعطيهم فرصة الانسحاق).

***

إننى أرفض هذا وذاك، وحين أقول ذلك على وجه العموم، أقوله وأنا أقصد رفضى لتهرئهم الفكرى واتساخه، ولكن حين أحدد رفضى لهم فى المسرح، فأنا أرفضهم لأنهم غير مسرحيين من الأساس، وهذا يعنى أننى قد أقبل غيرهم فكرياً وإنسانياً، ولكن من المحتمل أن أرفضهم كذلك فى المسرح لذات السبب لأنهم: غير مسرحيين. الذى يحدث أن الذين يشاغبون بالرفض والقبول فى ندوات القتلة، لا يأبهون لنقطة المسرحى وغير المسرحى. إن التقبل الفكرى عندهم هو كل شىء وهم يسمحون به جوازا للولوج إلى كيان المسرح تأليفا وتنظيراً ونقدا وإخراجا وتمثيلا حتى وإن كان حامل الجواز عاطلاً تماماً من الإمكانية والعلم المسرحى. وسوف تجدين فى عدد الفكر المعاصر الذى يعد عن المسرح رهطا من الطيبين الفاضلين غير المسرحيين الذين سوف يسارعون إلى الافتاء فى المسرح قبل أن يفتح مسرحى واحد فمه بمقولة واحدة.

المشكلة يا صديقتى أن المسرحيين صاروا يتبنون مغالطات وخلط غير

المسرحيين حتى صار من النادر أن نجد مقالة واحدة مفيدة تكتب عن المسرح، وياويل من يكتب مصححاً للمغالطات والخلط: سوف يبدو هو الجاهل المغالط بالحتم!».

●●●

● «مسودة لفكرة عن الفن والفنانين، نيويورك ١٩٦٤: المبالغة في تقديس الفن أمر مضحك للغاية. المعاشرة الإنسانية مع الفنان مملة ومعنتة. الفكرة هى اعترافى بأنى أرى الفنان ميتا يتسلى بالخلق، فلقد وصلت إلى ملاحظة أن معظم الفنانين أناس فشلوا فى تحقيق الحياة فهربوا إلى الإبداع، ولذلك فإن الإنسان الكامل السعيد لا يمكنه الخلق الفنى لأنه مشبع. وتصل أنانية الفنان وإنغماسه فى عالمه إلى عجزه عن الإحساس باللحم والدم، فعطفه على بطله الذهنى أكبر من عطفه على جاره مثلا، وهذه هى وحشية الفنان حقا. وأتصور أن الناس التى باع لها الفنان الترام منذ عصور تاريخية قديمة لن توافقنى على فكرتى هذه عن الفنان، لأن الناس لا تحب أن تعترف أنها ساذجة إلى حد الحماقة. ومع ذلك فأنا متأكدة أن الجميع يعرف: معاشرة الفنان شىء ممل ومرهق، وهذا تفسير لحالة خيبة الأمل التى تصادفنا كلما قابلنا فنانا يعجبنا فنه».

● قطوف من رسالة طويلة إلى الأستاذ أحمد بهاء الدين أرسلتها إليه من نيويورك ١٨ إبريل ١٩٦٦ مكتوبة على مفارش ورق مطعم «شرافتس» وعليها توقيت: «الساعة العاشرة مساء، اتفضل العشاء، الحساب دولار و ٨٩ سنتا + ٢٥ سنتا بقشيش: عزيزى الصديق؟، الزميل؟، الأستاذ؟، أستاذى؟، بهاء: نعم، نزعة التلمذة عندى هى الغالبة... وبما أنك قد عينتنى بمجلة المصور بمرتب ٦٠ جنيها فى الشهر، فعلى عاتقك أن تهذب الفانتزى المسيطر علىّ وتأخذ منه التكوينات الملائمة للعالم الذى لا أعرفه. تعرفه؟، أنا أحاول ....

... ...

... ...

إبريل ٢٧ / العام نفسه:

مازلت أكتب لك فى الخطاب. اليوم ستسافر... إلى القاهرة وقد أرسلت معها صورة من المقالتين الضائعتين:

١- نشوة، ٢ - الفنان ميت يتسلى بالخلق.

أرسلتهما لأنى أحبهما جداً ولم أصدق ما قاله لى صباح قبانى بأن قولك بضياعهما ما هو إلا تعبير مهذب عن رفضك، فأنا لدى ثقة بقيمتهما، وإذا كانت طريقة كتابتى أخيراً غريبة إلى حد ما، فهذا تماماً هو التطور الطبيعى لى. ومازلت لا أعرف لماذا ترفض إلى الآن مجموعة: يا شجرة ... يا سحابة... يا

حصاه. قرأت أخيراً في مجلة حوار قصة قصيرة - مجموعة أشياء - لكاتب سوداني ، وهي غريبة غرابة أضعف كثيراً من غرابتي. همّي ليس أن أكون غريبة ، وأنا لا أفتعل الغرابة، ولكن هكذا أصبح تعبيري كلما أردت أن أكون صادقة مع عذابي. غضبانة من كل البشر وأشعر بيتم شديد، ولا أريد أن أصدق أن مشكلتي ليست سوى أنني شديدة المثالية. رغم فرحتي بنقلي إلى دار الهلال، إلا أنني لا أريد أن أقبض مرتبي الآن. فرحت أولاً لأنني صرت أعمل معك، ولكني توقفت عندما ذابت الفرحة داخل المسئولية: مسئولية رغبتي في ألا أسوّد وجهك أمام الغرباء بإنتاجي القليل، فأصدقائي أغلى عندي من أن أحملهم عبء القلق عليّ أو مني، ولا أريد مالاً لا أستحقه ، إلا تذكرة العودة من نيويورك إلى القاهرة، فأعتقد أن اقتراضها من الدار لن يظلم أحداً.

***

أمس كان ربيعا ولكني كنت ألبس المعطف، واليوم شتاء ولبست المعطف أيضا وقلت : خير لي أن ألبس معطفا في الربيع من أن أسير بلا معطف في الشتاء، وخطر لي برهة، برهة فقط، أنني أقول شيئا جديداً!.

حادثت أكرم ميداني تليفونيا، أول أمس على ما أذكر وكان عمره سبع سنوات، فقد كان بشخصيته الرائعة لأنه أحيانا يصبح عمره ٣٨ سنة ويخيفني بشيخوخته. وطفاء تحضر لمعرض قريب أنتظره بفروغ صبر.

***

قررت العودة نهاية أغسطس إن شاء الله، لذلك أريد الحجز لي على الباخرة في الأسبوع الأول من سبتمبر. أفضل طريق المحيط الهادي، لأني أريد أن أبحث عن أصول ثلاث بطاقات من آسيا في هونج كونج! - (أمزح . أحبكم جميعا للأسف ، ويبدو أن تعبيري الوحيد لهذا الحب لن يأخذ سوى صورة واحدة هي تأليف الكتب عنكم، ويذهني حاليا مشروع لعدة دراسات أولها عن: العقاد بدون ضرب... ولي رغبة أخرى في دراسة عن مي زيادة - قرأت أخيراً محاضرات منصور فهمي عنها ... أعتقد أن مي زيادة هي المثقفة الفنانة بين كل النساء اللاتي شاركن في الأدب العربي المكتوب في أونة القرن العشرين، بعدها لا أتذكر واحدة . الملائكة وفدوى تنقصهما الهيومر والطفولة والإنغمار الحقيقي في التعبير. قرأت أخيرا غادة السمان: لا بحر في بيروت، وزهقت مع كل سطر، كيف يحدث أن تروّج مجموعة حالات الشفقة على النفس غير المبررة، ملخصها: آه ياني يا مثقفة يا أمه، يا خرابي عندي ٣٠ سنة ولا قليتش أدبي لسه ، وكله من ملتون وكيتس وعقدة

إلكترا إللى راكباني يانى !. فتفوتة فن لم أجد، فتفوتة فكر أو حنان أو إنسانية أو هيومر، لم أجد سوى جبن قريش منزوع الدسم. المهم أعود إلى حبى وأنتم، هل اقتنعت الآن بفكرتى أن الفنان ميت يتسلى بالخلق؟. فى اليوم الذى أتزوج فيه رجلاً أحبه وأنجب أطفالا لن أكتب مطلقا وعندها يكون النجاح الحقيقى: نجاحى كإنسانة على قيد الحياة، وماذا أكثر، إلى جانب رضا الله ورسوله؟. يا إلهى امنحنى قدرة عدم الكتابة!.)

●●●

فى المصعد اليوم كنت أهبط إلى الشارع . توقف المصعد عند الطابق السادس ودخل رجل وضغط على الزرار السادس ثم تنبه بعد برهة أنه قادم من الطابق الذى يريد الذهاب إليه. الرجل عادى جداً مثل الملايين العادية ولكنه قال كلمة انتبهت لها: أوه ياولد، مش عارف إن كنت رايح والا جاى!. أليس هذا ملخص كلام صمويل بيكيت؟.

●●●

لا أريد أن أترك الكتابة إليك لأنى ملتاذة بك من حفل عيد ميلاد فى الغرفة المجاورة. لم أحضرها لأنى جالسة مؤقتا عاملة تليفون فى المكتب الذى أعمل به، ولأنى لا أطيق صاحب عيد الميلاد وحيوان آخر جالس معهم. وطاقتى تتبدد عندما يمتزج ثقل الدم مع تكرار نكات حفلات عيد الميلاد التقليدية، خاصة إذا كان صاحب الميلاد يحتفل بعيده الـ ٢٨ وأعزبا ومتصوراً أنه عريس لقطة : يا نكد الزمان - (رسمت صورة كاريكاتيرية لصاحب عيد الميلاد أصلع ومغرور ويدخن البايب ويلبس البابيون أى الفيونكة!).

●●●

هل تعرف ممن أخاف الآن ؟. رهبة نظرات صديقاتى وهن قادمات لاستقبالى. كل واحدة عينها مخراز يطلب الشيء الذىّ تغير فىّ ، وعندما يصدمن لأنى لم أتغير ساكون مسئولة عن خيبة أملهن. الناس لا تغفر لمن لا يترك لها فرصة مهاجمته!. هل يمكن إخفاء موعد وصولى؟. أريد أن أصل أسبوعاً قبل أن أصل إلى علمهن، ساقابلك فى ذلك الأسبوع خلسة متنكرة فى نفسى التى لم تتغير .

●●●

أكلمك طويلاً فى هذا الخطاب لأنى أذكر أنك رحبت مرة بدردشتى، ولأنى استرحت بعد طلب اعفائى من المرتب الشهرى فأتلافى قولك: بدل اللت ده ما تكتبى مقالة. ساكتب إن شاء الله ولكن ليس اليوم. مع السلامة.

●●●

ملحوظة : عظيم لو أرسلت هذا الخطاب ولو وصلك. فلقد كتبت عدة مرات ولم أرسلها لك حين كنت أحس عند مراجعة الرسالة بحالة شفقة على النفس مقرفة. هذه المرة ليس هناك شفقة!.»

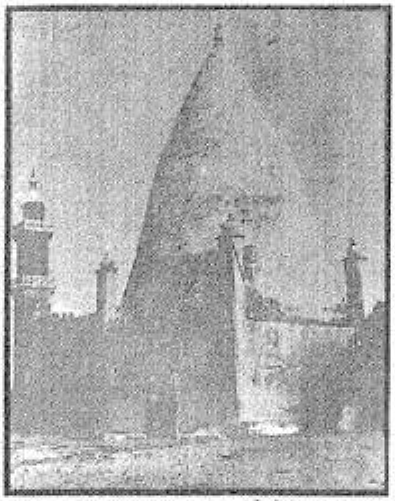
عرض كتاب

الطرق الصوفية وأثرها فى السودان

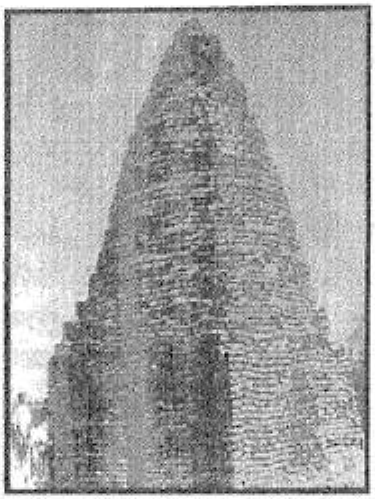
بقلم: د.صلاح عبداللطيف

تتعدد الطرق الصوفية فى السودان مثل الطريقة الشاذلية والسمانية والجيلانية والقادرية والسنوسية وغيرها. ويعتبر طبقات «ود ضيف الله» الذى يحمل اسم «كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء الصالحين والعلماء والشعراء فى السودان» لمؤلفه محمد النور بن ضيف الله المولود فى القرن الثامن عشر مرجعا لأوضاع الطرق الصوفية فى السودان، ويحتوى على نوادر وحكايات عن كرامات الأولياء والصالحين، وهو يمثل تراثا هاما فى التاريخ السودانى ويعبر عن الجذور الحقيقية للشخصية السودانية.

يضم الكتاب ٢٧٠ شخصية من الأولياء والصالحين.. وقد أصدر الدكتور يوسف فضل حسن الأستاذ بجامعة الخرطوم نسخة من الطبقات صادرة من الجامعة بعد أن حققها وعلق عليها. وقدم لها، وهى النسخة الحديثة للطبقات. وهناك نسخة الشيخ حسب الرسول ونسخة سليمان داود منديل التى أصدرها فى



قبة الشيخ ادريس



قبة الشيخ التجمي

أوائل القرن العشرين كما سبقتها أيضا نسخة الشيخ ابراهيم صديق.

يقول المؤلف الأصلي «ود ضيف الله» «إن الحافز لهذا الكتاب هو دعوة من بعض زملائه الذين طلبوا منه أن يؤرخ لهم ملك السودان وأن يذكر مناقب أوليائها الأعيان فاقتدى في تأليفه بمن تأثر بهم من المحدثين والفقهاء والمؤرخين ممن ألفوا في التاريخ والمناقب مثل عبد القافر النيسابوري والسيوطي وابن حجر العسقلاني والشيخ أحمد المعزي».

ويقول د. يوسف فضل حسن إن المؤلف قد تأثر بكتاب الطبقات الكبرى للشعراني الذي روى عنه الكثير من الأخبار وكذلك طبقات الشافعية للسبكي، ويستند في ذلك على قول المؤلف «أردت أن أجمع هؤلاء الأعيان (الأولياء) في معجم، وأذكر العلماء على حدة وعلماء التوحيد على حدة وقراء القرآن على حدة والنجباء والشعراء على حدة، وأذكر الملوك والشيوخ المعنيين بأمر الدين والأعيان المذكورين بينهم بحروف الهجاء» وقد جاء ذكر الشعراء والملوك عرضا أو في ثنايا التراجم.

وقسم المؤلف الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسية الأولى منها تمثل خطبة الكتاب وتشتمل على البسملة والصلاة على النبى (صلى الله عليه وسلم) ونبذة عن غرض الكتاب، ثم يذكر شيئا من مدح الله سبحانه وتعالى لأنبيائه.. متوسلا بجاههم

إلى الله ليكلل سعيه بالنجاح.. وفى القسم الثانى يؤرخ فى إيجاز شديد لنشأة مملكة القونج فى السودان ذاكرا أسماء الأوائل من ملوكها وملوك العبدلاب وكذلك أسماء العلماء والصوفيين الذين وصفوا أسس التعاليم الإسلامية فى عهد تلك المملكة إلا أن ود ضيف الله لم يذكر شيئا كثيرا عن تاريخ تلك المملكة كما نوه فى مقدمة الكتاب بل ركز جهده على مناقب الأولياء وكراماتهم.

الطرق الصوفية في السودان

ويتناول الكتاب بالحديث عن الطرق الصوفية فى السودان، ويركز على أن الطريقة القادرية تعتبر أكثر الطرق الصوفية انتشارا فى السودان، واقترن دخولها السودان باسم تاج الدين البهارى البغدادى الذى قدم السودان عام ٩٨٥هـ – ١٥٧٧م من بغداد عن طريق الحجاز إثر دعوة بين «داود بن عبد الجليل» التاجر السودانى ومكث بالسودان سبع سنين تبعه عدد من المريدين منهم «خليفة محمد الهميم بن عبد الصادق» ونمت الطريقة القادرية على يد هؤلاء المريدين وتلاميذهم حتى صار معظم السكان من مريديها.

أما الطريقة الشاذلية فيروى «ود ضيف الله» أنها دخلت السودان قبل قيام مملكة القونج، ومن الذين اهتدوا بتعاليمها الشيخ «خوجلى بن عبد



الرحمن»، و«الشيخ محمد بن المجذوب» الذى سلك هذه الطريقة فى الحجاز، وكتب لها الازدهار على يد حفدته والمجانيب فى منطقة الدامر بالسودان حتى اشتهرت الطريقة باسم المجذوبية.

أما الطريقة «السمانية» فقد نشر تعاليمها الشيخ «أحمد الطيب البشير» فى القرن الثامن عشر، وهو الذى درس فى المدينة المنورة على مؤسس الطريقة «الشيخ محمد عبد الكريم السمانى وكانت هى والختمية امتدادا لحركة الاصلاح الدينى التى اجتاحت الولايات الجنوبية من الامبراطورية العثمانية، وقد دخلت الختمية السودان عام ١٨١٨ على يد مؤسسها السيد «محمد عثمان الميرغنى» وقد وجدت الطريقة السمانية قبولا فى بعض المناطق على حساب الطرق الأخرى.

قــوة روحيـــة لها سلطان على النفوس

سعى طلائع المتصوفة الذين قدموا إلى السودان إلى نشر وتعميق مبادئ العقيدة الإسلامية بطريقة مبسطة أساسها الزام المريدين اتباع نهج أخلاقي وتعبدى خاص مع المداومة على قراءة أذكار وأوراد معلومة. وكانت درجة نجاحهم فى هذا المسعى تعتمد اعتمادا مطردا على ما يتمتعون به من علم وخلق دينى وورع وزهد وسلطان روحى وكرامات. وفى هذه العصور كان الشيوخ يمتلكون قوة روحية ذات سلطان عظيم على النفوس أحياء كانوا أم أمواتا.. وكانوا مصدر خير للضعفاء والفقراء يحمونهم من غدر الحكام وظلم السلاطين.

ويقول د. يوسف فضل حسن إن المتصوفة وأغلبهم من غير العلماء قربهم من نفوس الناس فى نشر التعاليم الاسلامية، ولكن دون تمحيص أو مراقبة دقيقة لما علق بتعاليمهم الصوفية من شعوذة وخرافة. فالتف الاتباع والمريدون حول هؤلاء المشايخ يلهجون بحمدهم ويسبغون عليهم الكرامات وخوارق العادات.. بل بالغ بعض الاتباع حتى ظنوا أن مشايخهم قادرون على إبراء المرضى بالتعاويذ واحياء الموتى والإخبار عن الغيب، وأن لهم قدرات فوق طاقات البشر.. إلى آخر سلسلة الكرامات التى تمتلئ بها طبقات ود ضيف الله، فهو يتحدث عن كرامات الشيخ القدال والشيخ حسن ود حسونة الذى أحيا بنت الخشاب بعد موتها، وأحيا عفيشة ولد أبكر بعد أن غرق لمدة ٣ أيام.. وكان للنيل أثر فى حياة هؤلاء فيحكى أن الشيخ خوجلى وضع عصا فى النيل فهاج النيل وامتلأت السواقى بالماء.. وأن الشيخ أبا عمرو توضأ بأبريق كان معه فزاد النيل فى ذلك اليوم.

الملوك والسلاطين

لم يكن الاعتقاد فى الأولياء وقفا على عامة الناس بل اعتقد الملوك والسلاطين فيهم، وكانوا لا يشرعون فى عمل هام إلا بعد مشورتهم كما فعل الشيخ عجيب عندما عزم على حرب الفونج، وأن الشيخ «ادريس ود الأرباب» تنبأ له بأنهم سينتصرون وأن نوبته ستسود إلى يوم القيامة، وازاء هذا الاحترام والتأييد من السلطات الحاكمة لقى المتصوفة كالعلماء كثيرا من أسباب العون المادى إذ أوقف الحكام عليهم الاقطاعيات وأعفوهم من الضرائب بينما أغدق عليهم المريدون والاتباع من عامة الناس النذور والهدايا. واستغل المتصوفة هذا الدخل بالقيام بمتطلبات وظيفتهم التى تجمع بين الارشاد الدينى والهداية الروحية وعلاج المرضى بالاضافة إلى الإنفاق على المحتاجين وأبناء السبيل والفارين من

بطش السلاطين. ومنذ ذلك الوقت انخرط السودانيون في الطرق الصوفية.

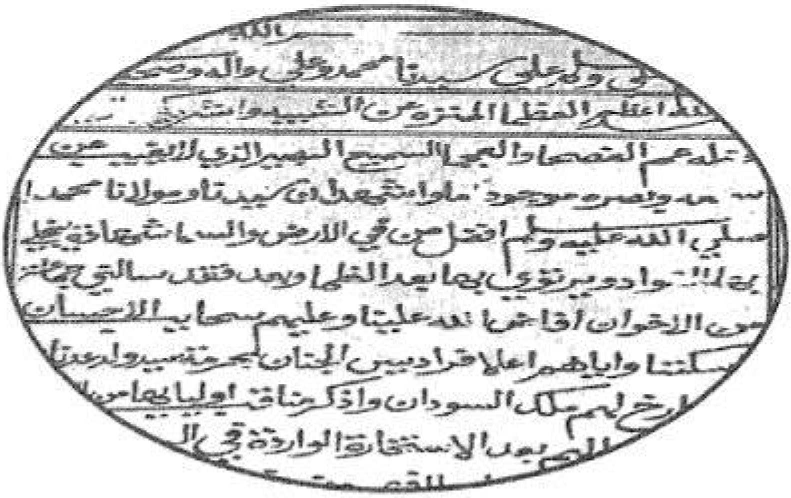
العلماء والمتصوفة.. والخلوة

ويذكر د. حسن فضل في تحقيقه عن كتاب طبقات ود ضيف الله أن العلماء لم يحسنوا الظن بالمتصوفة وتشابهت وظيفتيهما وخاصة في نظام الخلوة وكان المسجد مكانا ملائما لعقد حلقات الذكر واهتم العلماء بإنشاء المساجد لنشر تعاليم الدين الاسلامي فاهتم بعضهم بتدريس القرآن وركز آخرون على تعاليم الفقه بينما جمعت بعض المساجد بين المنهجين.

ويخلط ود ضيف الله بين المسجد والخلوة، وهو يستعمل كلمتي مسجد ومسيد وخلوة للدلالة على معهد التعليم.. بينما اشتهرت الخلوة بأنها مكان للتعبد في عزلة عن الناس فلما انتشر التصوف في السودان انتقلت فكرة الخلوة بمفهومها التعبدي إلى المسجد وصار دخول الخلوات أمرا شائعا بين الأولياء والفقهاء، وصارت الخلوة مرادفة لمعهد التعليم وأصبحت



نسخة الشيخ أحمد الامين خليفة الشيخ خوجلي



نسخة الشيخ حسب الرسول

بمثابة مركز الاشعاع الروحي والثقافي والاجتماعي في كل قرية، ومن ثم جمعت الخلوة تحت رعاية الشيخ أو الفقيه الصوفي بين وظائف تدريس مبادئ القرآن الكريم والفقه وتنشئة المريدين على العبادة والصلاة والتأمل.

انتشار كتب التصوف

وانتشرت على ضوء ذلك في السودان كتب التصوف وحظيت بالاهتمام وأقبل المريدون عليها مثل الطبقات الكبرى المسماة لواقح الأنوار في طبقات الأخيار لـ«عبد الوهاب الشعراني» المتوفى في ٩٧٣هـ والذي تناول فيه جماعة من الصحابة والتابعين والزهاد والأولياء حتى أواسط القرن العاشر الهجري.. ومن مؤلفات الشعراني الشائعة في السودان والتي شاعت أيضا في مصر «لطائف المنن والأخلاق في بيان التحدث بنعمة الله على الإطلاق»، وكتاب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار لأبي عبد الله محمد عبد الرحمن بن أبي بكر الجزولي منشئ الطريقة الجزولية.. ويعتبر هذا الكتاب أكثر كتب الأوراد ذيوعا في السودان وكذلك كتاب «حزب البحر» المعروف بالحرز اليماني للشيخ عبد القادر الجيلاني، وكذلك مؤلفات ابن عطا الله السكندري والامام أبي الحسن الشاذلي ومازالت الطرق الصوفية تمثل غالبية المجتمع السوداني وخاصة في الشرق والغرب والشمال، فهذه الطرق هي الجذور الحقيقية في المجتمع السوداني ومن خلالها انتشر الاسلام في السودان.

تاريخ ما أهمله التاريخ

بقلم: وديع فلسطين

أستعير هذا العنوان من صديقى الصحفى الأديب الكبير الراحل حبيب جاماتى (١٨٨٧ - ١٩٦٨) دون أن أزعم مجاراته فى هذا الميدان، فقد كان يصول فيه ويجول دون منافس. وفى «الهلال» عشرات من فصوله الممتعة التى استخلص مادتها مما أهمله المؤرخون وهم يهتمون بكبريات الأحداث وبأخبار الزعماء والمتزعمين، وفى هذه السطور نماذج من مهملات التاريخ وقفت عليها بحكم الاقتراب من أصحابها.

مصطفى كامل



محمد فريد



على الغاياتي
المُبتلى بالنكبات

على الغاياتي (١٨٨٥ ـ ١٩٥٦) شيخ أزهري، كان مُقدرا له أن يسلك مثل أقرانه، فيعمل في الحقل الديني أو الحقل التعليمي، ولكنه اختار العمل في الصحافة، ولا سيما لأن هواه كان مع الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل باشا (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨) ومحمد فريد بك (١٨٦٧ ـ ١٩١٩) من بعده فعمل الغاياتي محررا في صحف الحزب الوطني، ولكن «شيطان» الشعر استولى عليه، فأصدر في عام ١٩١٠ ديوانا عنوانه «وطنيتي»، استكتب محمد فريد بك وعبدالعزيز جاويش (١٨٧٦ ـ ١٩٢٩) مقدمتين له . ولم يكد الديوان يصدر حتى نشط البوليس السياسي

عبدالعزيز جاويش — الخديو عباس حلمي



لملاحقة «المجرمين» الثلاثة المسئولين عنه، وهم الغاياتي بشعره الثوري، ومحمد فريد بك وعبدالعزيز جاويش بمقدمتيهما اللتين زينتا الجرائم التي تورط فيها الديوان. ولم يضيع الغاياتي وقتا، فسافر خفية الى استنبول ومنها إلى جنيف وهناك استقر بعيدا عن المحاكمات التي جرت في القاهرة. وكان الاتهام الموجه إلى ثلاثتهم هو «العيب في ذات ولي الأمر (الخديو عباس حلمي الثاني) والتحريض على كراهية الحكومة والازدراء بها وتحبيذ الجرائم السياسية» . وصدر الحكم غيابيا على الغاياتي بالحبس سنة وعلى عبدالعزيز جاويش حضوريا بالحبس ثلاثة أشهر، أما محمد فريد بك فكان مسافرا في الخارج، فلما عاد صدر عليه الحكم بالحبس ستة أشهر مع النفاذ.

وعندما وصل الغاياتي إلى تركيا أولا ثم إلى جنيف لم يكن يعرف أي لغة أجنبية، فتعذر عليه الاهتداء الى عمل، ولكنه شغل نفسه بتدريس اللغة العربية لابناء المغتربين من العرب هنا وهناك، وعندما استطاع إتقان اللغة الفرنسية بعد دراستها دراسة منهجية، قرر أن

يصدر فى جنيف جريدة أسبوعية باللغتين العربية والفرنسية، اختار لها اسم «منبر الشرق» واتخذ لها شعارا هو:

باسم الكنانة واسم شعب ناهض
لا باسم أحزاب ولا زعماء
كل يزول وينقضى، إلا الحمى
فوديعة الآباء للأبناء

واعتبارا من عام ١٩٢٢ بدأت جريدة منبر الشرق» تصدر اسبوعيا فى جنيف، ونظرا لأن سويسرا خلت من المطابع العربية، فكان الغاياتى يكتب بخط يده الجميل الصفحة العربية كلها، ثم يستخرج لها لوحة زنكوغرافية تتم الطباعة من واقعها. وعاش الغاياتى فى جنيف، وأصبح هناك شبه عمدة للمصريين والعرب الذين كانوا يؤمون هذه المدينة لعرض قضاياهم الوطنية أمام عصبة الأمم، وكانوا يستعينون بالغاياتى بسبب اتصالاته الواسعة بالصحافة السويسرية. وأصبح «منبر الشرق» منبرا للدفاع عن قضايا العالمين العربى والاسلامى، وكانت تنشر مقالا مدوية للمجاهدين العرب المقيمين فى الوطن أو النازحين الى اوربا، وفى طليعتهم الأمير الضخم شكيب أرسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦).

وتزوج الغاياتى من سيدة سويسرية، وظل يواصل إصدار جريدته فى جنيف إلى عام ١٩٣٧ عندما قرر العودة النهائية الى مصر بناء على إلحاح الزعماء المصريين الذين كان يلتقى بهم فى جنيف، ثم لأن الحكم بحبسه سقط بمضى المدة، ولأن بناته الأربع أصبحن مرشحات للزواج، والزوج المصرى مفضل على الأجنبى، وكان الغاياتى موعودا من الزعماء الذين أقنعوه بالعودة بأن تسند اليه مناصب دبلوماسية فى مصر، ولكن هذه الوعود تبخرت بعد عودته. ومن هنا قرر إعادة إصدار جريدة «منبر الشرق» من القاهرة، وبقى يصدرها بانتظام صارم الى وفاته فى ٢٤ اغسطس ١٩٥٦. وحرصا منه على إتقان الطباعة وخلو الجريدة من الأغاليط، أنشأ لنفسه مطبعة خاصة الى جوار بيته فى عمارة بحرى بميدان الاسماعيلية (التحرير) وكان له فى المطبعة مكتب يستقبل فيه أصدقاءه الكثيرين، وكنت من جملتهم، بل كنت من الذين يواصلون «المنبر» بمقالاتهم، فكان الغاياتى ينشرها دون ان يعمل فيها قلمه الأحمر، أما ان كان له تحفظ على بعض كتاباتى ، فقد كان

يذيلها بتعليق من عنده.

لم تكن الحياة هينة لينة فى مصر بالنسبة لعلى الغاياتى، فقد ابتلى بسلسلة من النكبات لم ترحم شيخوخته، تمثلت النكبة الأولى فى حادث يتعلق بكبرى كريماته، إذ كانت عائدة إلى بيتها فى عمارة بحرى، فلمحها زنجى متوحش فتن بجمالها الأخاذ، فسار خلفها ودخل المصعد وراءها على زعم بأنه صاعد الى الادوار العليا. واكتشف والمصعد منطلق إلى اعلى الشقة التى تقيم فيها، فهبط لتوه، ودق جرس الباب، ففتحته هذه الشابة، وعندئذ هجم عليها وقضم أنفها وفر هاربا. وانشغلت الاسرة بمحاولة إنقاذ الفتاة من انهار الدم التى سالت من أنفها مما أتاح للوحش أن يهبط الدرج مسرعا ويذوب فى الزحام.

أما النكبة الثانية فقد تمثلت فى فقد ابنه الوحيد الذى سماه على اسم «على الغاياتى» وكان يعمل أستاذا فى كليات الفنون ويعشق صيد الحيوان فى البرارى، وذات يوم خرج مع بعض أصحابه إلى صحراء سيناء (وكانت وقتها جرداء مقفرة) ومعهم بندقياتهم للصيد هناك، فانطلقت رصاصة طائشة من بندقيته أصابته فى صدره، وعندئذ نقله أصحابه إلى مستشفى شركة قناة السويس الفرنسية فى الاسماعيلية، ولكن المسئولين فى المستشفى فاجأوهم بأنهم لا يستطيعون قبول المصاب لأن المستشفى مخصص لموظفى الشركة وحدهم، ونصحوهم بنقله إلى المستشفى الاميرى فى السويس، فلفظ أنفاسه قبل أن يدركه.

أما الكارثة الثالثة فقد تعلقت بحفيده زياد، نجل الدكتور مصطفى الحفناوى المحامى وعضو مجلس إدارة هيئة قناة السويس بعد تأميمها كانت أسرة الدكتور الحفناوى تقيم وقتها فى بيت فى طريق الأهرام بالجيزة، ولم يكن العمران قد استبحر فى هذه المنطقة فغطى جميع مساحاتها الخضراء وخرج الصبى زياد ليتريض على دراجته فى هذه المنطقة الهادئة. ولكن شاء حظه التعس أن تصدمه سيارة مسرعة فقتلته على الفور، وقد أقام والده مسجدا تخليدا لذكراه فى العمارة التى تحتلها الآن وزارة التعليم العالى فى حى جاردن سيتى.

وأما النكبة الرابعة فتعلقت بحفيدة الغاياتى، وهى ابنة زميلنا الصحفى

محمد على ناصف، كانت الشابة تهم بركوب المصعد فى العمارة التى تقيم فيها الاسرة فى شارع فهمى بباب اللوق، وبسبب خلل ميكانيكى فى المصعد أغلق بابه عليها فانفصل رأسها عن جسدها وماتت فى التو واللحظة.

كنت فى جنيف فى صيف عام ١٩٥٦ أستهل يومى بمطالعة الصحف السويسرية، فقرأت فيها جميعا مقالات مطولة تنعى على الغاياتى، اذ كان معروفا على نطاق واسع فى أوساط الصحافة السويسرية . وزاد من حزنى على هذا الصديق اننى لم أشارك فى تشييع جنازته.

أوائل المبشرين بالاشتراكية

يروى سلامة موسى فى كتابه «تربية سلامة موسى» أنه ألف فى عام ١٩٢٠ عقب ثورة ١٩١٩ هو والدكتور على العنانى ومحمد عبدالله عنان ومحمود حسنى العرابى الحزب الاشتراكى، «وأرخى لنا المستعمرون الحبل كى يعرفوا مدى نشاطنا والاستجابة التى نلقاها من الشعب. والحق أنها كانت استجابة حسنة ويبدو اننا كنا نسير فى اعتدال ونتقى المصادمات.. ولكن حدث فجأة أن أحدنا، وهو حسنى العرابى، وجد فينا بطئا لم يطق له صبرا، فقصد الى الاسكندرية وأعلن قيام الحزب الإباحى - أى الشيوعى - وانشق عنا» .

وقد أتيح لى أن أعرف ثلاثة من الأربعة المبشرين الأوائل بالاشتراكية، وهم سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان ومحمود حسنى العرابى. أما الدكتور على العنانى فلم أعرفه شخصيا، وان كنت لاحظت زياراته المتكررة للعرابى فى مكتبه بجريدة «المقطم» وكانت تجمعنى معه غرفة واحدة هى غرفة المترجمين .

وقد اعترف لى هؤلاء الثلاثة بأنهم تبرأوا من الماركسية بكل أسمائها المختلفة. زرت سلامة موسى فى فراش مرضه بالمستشفى القبطى قبل وفاته بأيام، فسألنى عن أخبار السياسة. فقلت له ان صحته أهم، وإن حياته أهم من كل مجريات السياسة. وانتهزت الفرصة لأسأله : هل أنت راض عن التطبيق العملى للاشتراكية فى مصر؟

فقال : بل إن هذا التطبيق أثبت فساد هذه النظرية التى كنت فى الماضى متحمسا لها أما الآن فلم أعد كذلك .

وسألته : هل أفهم من هذا أنك كفرت

بالنظرية التى كنت من أوائل الداعين لها؟ فقال : اذا كان تطبيقها هو مارأيت، فقد كفرت بها .

أما محمد عبدالله عنان فقد كان أول الكافرين بالنظرية الماركسية حتى قبل أن يرى تطبيقاتها العملية. فانصرف من وقت مبكر إلى مباحثه التى تدور حول مصرية مصر وإسلاميتها. وحول الاندلس وتاريخه حتى باتت كتبه الضخام عن الاندلس أوثق مرجع وأنقه بحكم أسفاره المتعددة إلى إسبانيا والمغرب وإطلاعه على المخطوطات المودعة فى مكتباتهما، وهى مخطوطات مازال المغاربة يضنون بها ويرفضون اطلاع غيرهم عليها .

ولأن عنان برىء من جريرة الماركسية، فقد اختير فى وقت من الأوقات مديرا لإدارة المطبوعات التابعة لوزارة الداخلية، وهى التى كانت تقوم بالمهام الموكولة اليوم إلى وزارة الإعلام . وعندما سألت محمد عبدالله عنان عن سبب نفوره من دعوة القومية العربية التى راجت أسواقها فى ذلك الوقت وكان من أكبر منظريها العلامة ساطع الحصرى، قال إنها دعوة ماركسية تتستر تحت اسم العروبة، ولا شأن لى بهذه أو بتلك .

وأما محمود حسنى العرابى، فقد كان تطرفه فى اعتناق الماركسية وسفره إلى أوربا للاتصال بمنظماتها سببا فى تجريده من الجنسية المصرية وفى تشرده ٨٩ شهرا فى المنفى - وهو عنوان الكتاب الذى أصدره بعد ذلك. وعندما هم العرابى بالعودة إلى مصر وجد أمن الموانئ يمنعه من النزول من الباخرة، فإذا عادت الباخرة إلى الموانىء الأوربية حيل بينه وبين النزول لأنه لا يحمل جواز سفر. وهكذا قضى شهورا فى السفينة تتقاذفه الموانىء المختلفة، بما فيها الموانىء المصرية، حتى وصفته الصحف العالمية بأنه «ذارع البحار» . ولكن وزيرا حصيفا للداخلية (لا أذكر من هو) ارتأى أن قضية ذارع البحار أصبحت فضيحة عالية، فأصدر أوامره لأمن الموانئ بتركه يتسلل إلى داخل البلاد وكأن العيون غفلت عنه، وهكذا عاد إلى مصر ولكن بلا جنسية، عمل بعد ذلك فى بعض الصحف مترجما، أو محررا فى مجلة اسمها «الكفاح» وأصدر جريدة اسبوعية، ولم يستطع استرداد جنسيته المصرية إلا بعد أن كتب سلسلة من المقالات بعنوان «آه لو كنت مصريا» تحرك بعدها وزير الداخلية فؤاد سراج الدين باشا وردّ الجنسية إليه. وكان

في أواخر أيامه يعمل مترجما في جريدة «السياسة» في المساء ومترجما في جريدة «المقطم» في النهار، وعندما قامت الثورة وعين صديقه رشاد مهنا عضوا في مجلس الوصاية، صار العرابي يكثر من زياراته له في قصر عابدين، وهنا تلقفته جريدة «الأهرام» للعمل فيها مادام مقربا من أبرز أعضاء مجلس الوصاية. ولكن سرعان ما تم البطش بهذا المجلس وان كان العرابي احتفظ بعمله في «الاهرام» الى أن توفي بعيد ذلك في صيف عام ١٩٥٥.

وكنت سألت العرابي وهو يزاملني في نفس الغرفة في جريدة «المقطم» نحو ثمانية أعوام عما إذا كان لم يزل يؤمن «بالإباحية» ، أعني الشيوعية، فكان رده الحاسم: وماذا كسبت من هذا الطريق الا التشريد بل الجوع؟ إن واجبي الأول الآن هو أن أرعى أسرتي - وكان قد تزوج في سن متأخرة وأنجب طفلة - وآمل أن يمتد بي العمر حتى أرى طفلتي وقد نالت شهادتها الجامعية. وهي أمنية لم تتحقق لأن طفلته عاشت يتيمة منذ طفولتها الأولى.

استدراكات واضافات

في حديثي عن مؤرخ اليمن الشيخ عبدالواسع الواسعي (المنشور في هلال يونيو ٢٠٠٠) قلت إن الامام يحيى حميد الدين هو الذي كان يحكم اليمن عندما قامت ثورة ابن الوزير، وأنه أشيع وقتها ان الامام قتل ولكن تبين أن الاشاعة كاذبة. وواقع الامر ان الامام يحيى اغتيل في هذا الانقلاب مع اثنين من ابنائه ورئيس وزرائه. ولكن ولي عهده وأكبر أبنائه أحمد تولى الامامة واستطاع اخماد ثورة ابن الوزير وأعدمه هو وكل أعوانه.

وفي حديثي في نفس العدد من «الهلال» عن عيسى خليل صباغ فاتني ان أشير الى أن له كتابا باللغة الانجليزية عنوانه «كذا تكلم العرب» ولعله تأثر في



سلامة موسى



بديعة مصابني

هذا العنوان بالفيلسوف نيتشه صاحب كتاب «كذا تكلم زرادشت».

وفي حديثي عن جاك تاجر أمين المكتبة الخاصة لجلالة الملك (المنشور في عدد يناير ٢٠٠٠) ذكرت انه اصدر كتابا عنوانه «مسلمون وأقباط» كان سببا في ضياع وظيفته ووفاته تحت عجلات مترو مصر الجديدة. وقد أخبرني صديقي الامريكي/ المصري الدكتور جيمي بشاي الطبيب النفسي في الجامعات الأمريكية ـ وهو شقيق الرسام جورج البهجوري ـ ان الدكتور رجائي مقار من أساتذة جامعة يوطا UTAH الأمريكية ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزية ، وأنه يقوم حاليا بترجمة كتاب «أيقونة فلتس» للبهجوري لتشره في الولايات المتحدة.

وفي عدد مايو ٢٠٠٠ من «الهلال»

نجيب الريحاني



رشاد مهنا



ذكرت نقلا عن الدكتور أنور لوقا الاستاذ بالجامعات الفرنسية والسويسرية أن روبير سوليه محرر جريدة «الموند» الفرنسية هو من شوام مصر، وأنه ابن شقيقة الدكتور جاك تاجر . وقد نبهني بعض الأصدقاء الى أن الاسم الذي عرفت به هذه الأسرة في مصر هو «صولي» وقد حور إلى «سوليه» باللغة الفرنسية.

وأشرت في حديثي بعدد يوليو ٢٠٠٠ إلى زيارة العلامة الانجليزي ألدوس هكسلي لمصر في عام ١٩٤٨ موفدا من هيئة اليونسكو حيث ألقى محاضرة عامة في القاهرة وكان موضوع تكريم من وزير المعارف. وقد خانتني الذاكرة لأن الزائر هو جوليان هكسلي المدير العام لهيئة اليونسكو الذي قال لي وقتها إن المنظمة تعتزم تنفيذ مشروع لترجمة الروائع الأدبية العربية القديمة إلى جميع اللغات الحية، وكذلك ترجمة روائع آداب الغرب الى اللغات الحية، ومنها العربية .

شاعر لبناني يتزوج من الراقصة بديعة مصابني

إلياس خليل زخريا (١٩١١ ـ ١٩٨٦) أديب وشاعر وصحفي لبناني درس في المعاهد اللبنانية والسورية وفي كلية الآداب

بجامعة فؤاد الأول وفي الجامعات الفرنسية، وعمل في عدد من الصحف اللبنانية. وكان ذا اسلوب عربي شديد النصاعة. وكانت مقالاته وقصائده تحتل الصفحات الأولى من الصحف والمجلات الأدبية. ولكن الصحافة جنت عليه لأنه مات دون أن ينشر له كتاب واحد من كتبه الكثيرة التي اختار عناوينها وهي «ثمالات» و«أصابع اليقين» و«عيون الورد» و«الورق المقطف» وغيرها، عدا حرصه على تسجيل المعارك الأدبية التي دارت في لبنان في كتاب مخطوط يضم آلافا من الصفحات.

في عام ١٩٥٠ كنت في مكتبي في الجريدة التي أعمل فيها عندما تلقيت هاتفا من إلياس خليل زخريا يقول فيه إنه يزور القاهرة الآن ويود التعرف بي شخصيا. فقلت له إنني سأغادر مكتبي بعد نصف ساعة، فإن أمكنه اللحاق بي فأهلا وسهلا، والا أرجأنا اللقاء إلى يوم تال. فقال إن لديه سيارة بسائقها، وأنه سيصل حالا. فرحبت به في الدقائق الباقية قب انصرافي، ولكنه عرض عليّ أن يوصلني بسيارته إلى منزلي في الجيزة ليستزيد خلال الرحلة من صحبتي، وخرجنا من المكتب فوجدت سيارة ملاكي فارهة تقف عند الباب وسائقها واقف إلى جوارها. وقال : هذه هي سيارتي، فتفضل بالركوب إلى جواري. وانطلقت بنا السيارة. وهنا سألته : هل استأجرت هذه السيارة أثناء إقامتك في القاهرة؟ فقال : بل هي سيارة زوجتي. وعدت أسأله : وهل تقيم زوجتك في مصر؟ فقال : نعم، فزوجتي هي بديعة مصابني! فقلت له والدهشة تعقد لساني: يبدو ان اسمها يتطابق مع اسم الفنانة المعروفة؟ (وتعمدت أن اصفها بالفنانة لا بالراقصة من قبيل التأدب). فقال : بل هي نفسها الفنانة المعروفة، فقد تزوجنا، ووضعت سيارتها الخاصة بسائقها تحت تصرفي!.

كانت بديعة مصابني متزوجة قبل ذلك من الممثل الكوميدي نجيب الريحاني (١٨٩١ - ١٩٤٩) وهو زواج كاثوليكي لا طلاق فيه، ولكن بوفاة الريحاني في عام ١٩٤٩ أصبحت الراقصة المشهورة حرة، تتزوج من تشاء حتى وإن كان يصغرها في العمر مثل الياس خليل زخريا .

ويبدو أن هذا الزواج كان قصير العمر، إذ عاش ألياس خليل زخريا عزبا حتى بعد عودة بديعة مصابني إلى بيروت حيث أقامت مفرخة للدجاج وتركت فن الرقص بعدما تقدمت بها السن .

تجربتى

نصف قرن من حُبّ الاستطلاع

مجدى يوسف

عادة ما لا يعنينى الماضى إلا بقدر ما يمكننى من التعلم من أخطائه.

ولكنى بعد أن وجدت أن السنين تجرى بهذه السرعة، سألت نفسى فيما كانت جدوى تلك التجارب التى عشتها لمن يعنينى أن أعيش من أجلهم: أبسط بسطاء هذا العالم فى وطنى، وكل الأوطان. قررت إذن أن أضع بين أيديهم هذه المحاولات التى تجلى فيها الخطأ، والتى لا تستحق أن تنشر عليهم إلا لسبب ذاتى واحد:

هو أنى كنت ولازلت أحاول مخلصا أن أفهم وأعي بصورة أفضل ما يدور حولى فى هذه الحياة، وأن أضع ما وصلت إليه - على قلته - بين أيدى من يعنينى أن أتواصل معهم: بسطاء هذه الدنيا ومنتجيها الحقيقيين، منتجي كل ما فيها من قيم مادية وفكرية ومعنوية، أى منتجيها المباشرين. ولهم أن يقيموا محاولاتى هذه كيفما شاءوا.

أعترف بداية أنى عندما بدأت مشوار حياتى الواعية كانت فى نفسى دهشة عارمة وحب استطلاع متدفق، لا أكثر. كنت فى الثانية عشرة من عمرى، أقطن ضاحية الزيتون، وعلى مقربة من دارنا، بل على بعد خطوات قليلة منها، فى شارع دار السعادة، ڤيلا بحديقة جميلة يحوطها سور دون عليه: مكتبة الزيتون. وكانت تابعة لدار الكتب العامة. كنت أراها من شرفة منزلنا، كما أرى من الناحية المقابلة لها - خلف دارنا مباشرة - ڤيلا أخرى أنيقة لها أسوار عالية، علمت أنها كانت لصدقى «باشا».

وعلمت بعدها بنيف وثلاثين عاما - فى الثمانينات من القرن الماضى - أن أمينة رشيد، أستاذة الأدب الفرنسى فى يومنا هذا - كانت وراء تلك الأسوار العالية مع مربيتها الألمانية.

لم تكن تعنينى تلك الڤيلا بأسوارها العالية فى شىء. أما الڤيلا ذات الباب المفتوح التى كتب عليها يافطة «مكتبة الزيتون» فكنت أعشقها، ولا أكاد أستيقظ فى أجازات المدرسة إلا لأسرع إليها، وأظل أقرأ فيها حتى يطلب منى السعاة مغادرتها لانتهاء الوقت.

عندما زرتها للمرة الأولى كنت فى الثانية عشرة من عمرى.



كان ذلك فى عام ١٩٤٨. وكان رحيل والدتى قبل ذلك بعام قد ترك فى نفسى فراغا كبيرا أردت أن أملأه بالقراءة ومحاولة الفهم. وربما كان هذا هو السبب الذى حدا بى عندما طفت للمرة الأولى بأرفف تلك المكتبة إلى التوقف أمام عنوان: علم النفس والفلسفة. تسمرت فى مكانى أمام هذا الرف من الكتب ولم أبرحه. كنت أسارع إليه كل صباح لا أذهب فيه إلى

المدرسة، لأستكمل قراءة كتاب منه بدأت مطالعته في الأيام السابقة. وكانت أولى قراءاتي فيه لمؤلفات «سيجموند فرويد». كنت أقرأه مترجما إلى العربية بطبيعة الحال، فما كانت محصلتي من اللغات الأجنبية، التي تعلمتها في مدرسة الزيتون الابتدائية، تسمح لي بأن أقرأه بها، ولكني ما لبثت أن تطلعت لقراءته بالانجليزية، فقد أحسست قصورا ما في ترجماته العربية آنذاك. ولكن كيف يتحقق لي قراءته بالانجليزية دون قاموس؟

فليكن بالقاموس. هكذا بدأت. وكانت طبعة دار نشر «مكميلان» لأوراق «فرويد» المجمعة Collected papers، والمنشورة في الأربعينات هي التي قصدتها، ولعلها كانت الوحيدة المتاحة في المكتبة آنذاك بطبيعة الحال لم تكن القراءة بالقاموس رحلة شيقة على الاطلاق. فمن بين العشر كلمات في السطر الواحد كنت مضطرا لأن أبحث عن معنى ثمان أو تسع منها. ولكن بعد فترة قل عددها إلى سبع فست فخمس، وهلم جرا. ولكنها لم تبلغ أبدا درجة الصفر، أو واحد أو اثنين. ومع ذلك فقد كانت بهجتي كبيرة للتغلب على صعوبة اللغة، والتواصل مع أفكار المؤلف، خاصة مع نظريته في اللاوعي، أو ما كان يطلق عليه «العقل الباطن». وقد بلغ تأثري بهذه النظرية أن بدأت أعرضها في مشروع كتاب لي، وأنا في الرابعة عشرة من عمري، دعوته «رياض علم النفس». ولكني ما كدت أفرغ من كتابة الفصل الأول منه حتى اختفت المخطوطة. وقد علمت بعد ذلك أن والدي قد استولى عليها، وراح يعرضها على أصدقائه وذويه، متباهيا بذكاء ابنه وسعة اطلاعه! ولو كنت أنا والده، لما كنت أسمح لنفسي أن أفعل شيئا كهذا دون استئذانه، بل ولما قرأت ما يكتب - طالما أنه لم ينشر - إلا إذا طلب مني ذلك، أو لم يكن معترضا على الأقل. ولحاولت أن أناقشه في أفكاره، وأشجعه على المضي في تدوينها، حاثا إياه على أن يكون أول ناقد لما يكتب.

وفي تلك الفترة كان أمين مكتبة الزيتون يقيم نشاطا ثقافيا، على نحو محض تطوعي، لجمعية أصدقاء المكتبة.

ويبدو أنه كان قد لاحظ كثرة ترددي على تلك الدار، وطول الساعات التي كنت أمضيها فيها مع الكتب، فاستدعاني إلى مكتبه، وطلب مني بصفتي أصغر المترددين على المكتبة سنا - إذ لم يكن بها قسم خاص بالأطفال - أن ألقي محاضرة في إطار النشاط الثقافي الذي يشرف عليه، على أن أدونها أولا في الموضوع الذي أختاره، وأعرضها عليه. فقبلت عرضه، وما لبث أن وجدت نفسي أكتب في موضوع: «المشكلة الجنسية سيكلوجيا». فقد كانت هذه هي المشكلة التي كانت تشغلني في تلك السن: مطلع المراهقة. وسلمته النص. ثم فوجئت به على باب المكتبة بعد ذلك بأيام يبادرني بقوله: «إنت عارف إن بسببك اتقفل النشاط الثقافي للمكتبة؟». وأخرج لي من درج مكتبه نصي، وقد خط تحت بعض من سطوره باللون الأحمر. كنت أتساءل في تلك السطور: «لماذا نشعر بالخزي والعار من أعضائنا التناسلية، ولانفعل ذلك بإزاء أيدينا أو أقدامنا؟!».

فقد عثر أحد مفتشي المكتبة، بينما



عام ١٩٥٣ في السنة الأولى قسم علم نفس آداب عين شمس



عام ١٩٦٨ في ألمانيا

كان جالسا فى مكتب الأمين يعبث فى أدراجه دون استئذانه، على نص محاضرتى، واعتبر هذه الجملة تحريضا للشباب على الفسق والفجور(!!) وأغلق النشاط الثقافى للمكتبة.

كان يحاضرنا فى إطار هذا النشاط، الذى افتقدناه من بعد، أساتذة أفاضل، أذكر من بينهم الدكتور محمود الحفنى، والد السوبرانو رتيبة الحفنى، وكان مسئولا عن الموسيقى فى وزارة المعارف آنذاك، كما أن القاعة الرئيسية للمكتبة كانت دائما مكتظة بالحضور فى كل من أنشطتها الثقافية ذات الموضوعات المتباينة.

كنت قد قطعت شوطا فى قراءتى لأعمال «فرويد» باللغة الانجليزية. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير على أية حال، ولكنه صار ممكنا وممتعا فى آن. إلى أن حدثت لى حادثة هزتنى بشدة. فقد استشهد الكاتب فى المتن الانجليزى ببيتين بالألمانية عن رواية «فاوست» لجوته دون أن يورد أية ترجمة انجليزية لهما فى الهامش. فراعنى ذلك كثيرا. إذ أنى كنت عاجزا عن فهم هذا الاستشهاد . وقد علمت فيما بعد أن السبب فى عدم إيراد ترجمة انجليزية للمقتطف الألمانى فى طبعة الأربعينات لأعمال «فرويد» أن القارىء المثقف البريطانى لا حاجة به إلى مثل تلك الترجمة، فهو يفهم الألمانية حتى وإن لم يتحدثها. ومن ثم فلا مشكلة لديه فى قراءة واستيعاب نص مقتطف بالألمانية . ولم يكن الناشر البريطانى «مكميلان» يدرى أن شابا مصريا فى مقتبل العمر سيطلع على كتابه بعد أن أصابه لأى لفك شفرات لغته الانجليزية، فما بالك بمقتطفاته الألمانية؟!

كانت هذه «الصدمة» الثقافية حافزا لى على فك أسرار الألمانية فى أقرب فرصة ممكنة. فانتظرت حتى اجتزت امتحان الثانوية العامة. وانطلقت لتوى لدروس الألمانية التى كانت تقام آنذاك (فى عام ١٩٥٢) فى الجامعة الشعبية بالقرب من ميدان التحرير. وكان يلقيها الأستاذ محمود الدسوقى، الذى كان صديقا لتوفيق الحكيم. وكان الأستاذ الوحيد الذى تفرش له منضدته بالجوخ الأخضر. ولكنه كان شديد البطء فى التدريس، فاكتفيت بحضور صوتيات اللغة الألمانية عنده، وانصرفت فى الإجازة الصيفية لدرس تلك اللغة وحدى مستعينا بكتاب انجليزى يشرح قواعدها ومفرداتها. وكنت قد

ترددت فى ذات الوقت على دروس اللغة الإيطالية بالجامعة الشعبية، ولكنى وجدت تلك اللغة أسهل من أن أتابعها بالتردد على فصولها. وقررت أن أتفرغ لها بمفردى بعد أن أفرغ من الألمانية التى كانت تستغرق منى ثمان إلى عشر ساعات شبه متصلة كل يوم وأنا وحدى مع الكتاب فى غرفتى.

كان من الطبيعى، بادىء ذى بدء، أن أفك شفرة البيتين الألمانيين اللذين استثارا فىّ كل تلك الرغبة العارمة لاقتحام ألغاز تلك اللغة.

وكانا على لسان «مفيستو» معارضا «فاوست»:

(لا جدوى من أن تحوم حول العلوم فلن يتعلم المرء إلا ما يستطيع).

وليتصور القارىء الذى لايعرف الألمانية كيف سيكون حاله لو أنى لم آت له بالترجمة العربية للنص الألمانى!! فلعل ذلك يقرب إليه الحالة التى اجتاحتنى قبل أن أتعلم تلك اللغة.

لقاء مع الفلسفة الألمانية

بعد الإجازة الصيفية، وكنت قد اجتزت امتحان الثانوية العامة، التحقت بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية بكلية الآداب، جامعة عين شمس، وكان مقرها - فى عام ١٩٥٣ - حدائق شبرا، حيث توجد الآن كلية الهندسة فرع جامعة الزقازيق وقد اخترت أن أتخصص فى «علم النفس»، على الرغم من معارضة شديدة من جانب أسرتى. وما أن رآنى الدكتور عبد الرحمن بدوى فى فناء الكلية، وكنت طالبا فى السنة الأولى بها، حتى بادرنى: «ياه، إنت لسه متخرجتش؟!» أما سبب تعجبه هذا، فمرجعه أنى كنت وأنا تلميذ فى المدرسة التوفيقية الثانوية أتردد على محاضرات الدكتور بدوى التى كان يلقيها على طلبة السنة الثالثة بقسم الفلسفة وكنت أناقشه، بينما كان يزعجنى أنه كان يملى على الطلبة كلامه، فيكتبونه وراءه وعندما راجعته فى طريقته التلقينية هذه بعد المحاضرة، قال لى: «ماهو أساتذتنا فى السربون كانوا بيملونا..»!! ولم أقتنع بحجته، بل مضيت فى مناقشة ما يقول بينما كان الطلاب يدونون وراءه دون مناقشة!!

وسمعت بعضهم يهمس فى الصف الذى ورائى: «أصله جاى من سنة رابعة». ولم يعلموا أنى كنت آنذاك لا أزال تلميذا بمدرسة التوفيقية الثانوية، وأنى كنت مولعا بقراءة مؤلفات «ديكارت»، وأستعد لدخول مسابقة حول أعماله، ألغيت للأسف.

* * *

كنا فى السنة الأولى بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية ندرس من بين ما ندرس «المدخل إلى الفلسفة». وكان يحاضرنا فى هذه المادة معيد شاب اسمه الأستاذ أنيس منصور. وقد طلب إلينا أن يعد كل منا بحثا لأعمال السنة فى هذه المادة، فاخترت نصا ألمانيا من كتاب الفيلسوف «إيمانويل كانط»: «نقد العقل المجرد»، لأترجمه إلى العربية وأعلق عليه. ولكنى ما أن بدأت فى مطالعة نص «كانط» بلغته حتى تبين لى أن ما تعلمته من الألمانية لا يكاد يكون له علاقة بلغة ذلك الفيلسوف!!، ولم ينقذنى من هذه الورطة التى اخترتها لنفسى سوى أستاذ زائر



مجدى يوسف مترجما للألمان فى استقبال جمال عبدالناصر واقفا على يمينه عام ١٩٥٧



مع المهندس حسن فتحى فى منزله بدرب اللبانة ١٩٨٧

فرنسي عجوز، كان يقوم بالتدريس في قسم الفلسفة، قيل لنا أنه جاء إلى مصر ليستمتع بشتائها الدافيء بعد أن زهد تدريس الفلسفة في شتاء ألمانيا، وما أن كاد ذلك الأستاذ العجوز ضئيل الحجم ينظر إلى المقولة الكانطية بالألمانية حتى ينطلق يترجمها لي فورا إلى الفرنسية، وكأنه يطالع صحيفة يومية، ومع ذلك فنطقه للألمانية كان فرنسيا خالصا! إذ عندما كنت أذكر له - مثلا - اسم الفيلسوف هوسرل كان يحتج على «مصححا» لي: لا، لا، بل «أوسرل»!!

وعندما قصصت ذلك على أصدقائي الألمان، بعد أن صرت عضوا في اتحاد كتابهم منذ عام ١٩٧٨، لم يضحكوا لنطق الرجل للألمانية بالفرنسية، وإنما لاختياري لواحد من أصعب كتب الفلسفة الألمانية، لأستهل به مطالعاتي في تلك اللغة.

* * *

ذهبت إلى الاسكندرية للاستجمام في صيف ١٩٥٣ حيث نزلت ضيفا على خالي «صالح» كالسنوات التي قبلها. ولكني في هذه المرة كنت أرتجف بصورة خاصة، ليس فقط للقاء البحر الذي كنت مشوقا اليه، وإنما للقاء «نادية»، ابنة خالي «مراد»، التي كانت تنزل بالمثل ضيفة على خالي «صالح» . كانت تكبرني بعام، ذات جمال طاغ يلفت إليها الأنظار كلما مرت على الكورنيش ، أو انسالت في البحر بالمايوه. وكان والدها قد أخرجها من المدرسة ولازالت طفلة لكثرة شقاوتها. فقد حبست مدرستها في الفصل ذات مرة . وذهبت إلى الدار غير عابئة بصراخ المدرسة.

كانت شيطانة . وهكذا رسمها صبرى راغب، ابن خالتي وخالتها في آن، وكان آنذاك رساما مصورا للبورتريه ، يسعى للاعتراف بموهبته، وقد اتخذ من الجراج التابع لمسكن خالي عدلي مرسما له، بعد أن ضاقت بألوانه ولوحاته غرف الدار على براحتها. وفي ذات مرة، وكنت طفلا في الحادية عشرة من عمري، تسللت الي الغرفة التي كان يرسم فيها صبرى قبل أن ينتقل إلى الجراج ، وأمسكت بالفرشاة، ورحت «أصلح» له بعض ملامح البورتريه الذي كان قد تركه على الحامل. وعندما شاهد ما أتيت به هاج وماج وسرعان ما ألصق التهمة بنادية. ولكني لم أقل شيئا، فهو لم يكن ليستطيع أن يعاقبها لأنها «بنت» وعفريته ايضا. أما أنا فكان يحملني على جسدي النحيل الضعيف ولازلت في تلك السن الغضة «براويز» لوحاته ليأتي بها من النجار. بينما كان يكبرني بأكثر من خمس عشرة عاما، ولا يخجل من نفسه وهو يسير إلى جوار طفل في عمرى ينوء تحت هذا الحمل الثقيل. كان الاستثناء في تلك الفترة، «الأربعينات» هو احترام حقوق الطفل.

لم تعد نادية طفلة عفريتة ، بل أصبحت شابة طاغية الجمال، قوية الشخصية . وكانت تقضي معظم النهار في تلك السن - الثامنة عشرة - تصدح بالأغاني العاطفية، ولاسيما لفريد الأطرش الذي كانت تعشقه . أما أنا فكنت مولعا بالموسيقى الغربية، الخفيفة، منها والكلاسيكية. وكانت تسخر مني ومنها. كانت نموذجا للفتاة المتسقة مع تراث

أثناء مناقشة كتاب للدكتور شكري عياد في معرض القاهرة الدولي للكتاب



مع وزير الثقافة فاروق حسني في قصر الغوري



مجتمعها، وكنت ممثلا للتيار المتجه بخياله وعقله نحو الغرب وثقافاته . فلم نجتمع على رأى، بل كنا فى خلاف شبه دائم. وتحولت أحلام المراهقة التى سبقت قدومى إلى الاسكندرية إلى سراب. ولكنى حين أتأمل اليوم ما كان آنذاك أجد أن تمردها على المدرسة فى صباها قد جعلها تتشرب ثراء الثقافة الاجتماعية التى نشأت فيها وترعرعت بينما كنت أنا الذى مضيت فى الدراسة أسير حلم الغرب الذى كان طاغيا فى النظام القيمى المضمر لدروس المدرسة حتى فى درس العربية نفسها، التى كان أساتذتها يستشهدون ويضربون الأمثال فيها بتقدم الأوروبيين على العرب.

فأن أحرص وأنا فى السابعة عشرة من عمرى على قراءة «كانط» فى لغته الألمانية، وأن أقبل وأنا فى الثانية عشرة على مطالعة «فرويد» بدلا من ابن خلدون أو المقريزى أو الجبرتى، أليس ذلك مما يدعو إلى العجب من اغتراب التوجه السائد فى ثقافتنا «التعليمية» - بالمعنى الشامل - آنذاك ؟ ومع ذلك فهنالك عامل إضافى إلى هذا التوجه، هو صعوبة وجفاف معظم نصوصنا العربية الوسيطة، ناهيك عن القديمة. فقد حاولت أن أقرأ مقدمة ابن خلدون ، التى كانت «تزين» مكتبة خالى وأنا طفل ، ولكنى ما لبثت أن ضجرت منها، بينما كان أسلوب «فرويد» أكثر إمتاعا ، وأقل «خشونة» بالنسبة لى آنذاك. لا بأس ، بل يجب على المرء فى رأيى أن يتعلم من العالم أجمع بشماله

وجنوبه على حد سواء، ولكن بعد أن يتمكن أولا من مكوناته الثقافية برسوخ، متمثلا إياها بوعى نقدى يثريه مقارنتها بأرضيات سواها، وإدراكه لنسبية «مطلقات» الأحكام القيمية لكل منها.. ولكن نظامنا التعليمى الذى يلهث فى اتجاه واحد، نحو الشمال الأوربى، لا يحقق شيئا من ذلك ، وإنما يكرس التبعية للمعايير الغربية. ولا يعنى ذلك أن نقف وقوفا مستحيلا عند ابن النفيس، وابن الهيثم، أو عند المقريزى وابن خلدون، ولكن أن نحاول استكشاف تراثنا مستفيدين بآخر ما بلغته معارف البشرية من كشوف

ومن ثم أن نذكى فى وعى أطفالنا وشبابنا الرغبة فى استكمال منجزات أسلافنا ، بدلا من تهميشها والركون الى اجترار منجزات الغربيين باسم «العصرنة» و«مجاراة العصر» التى لا أجد لها ترجمة افضل من «الانصياع للثقافة المهيمنة حاليا ومن يدرى الى متى على أرجاء هذا العالم».

حول الاشتراكية

كان خالى «صالح» يجاور فى مصيفه بالاسكندرية لواء فى الجيش له شقيق أصغر عاد حديثا - من انجلترا، ومعه دكتوراه فى الاقتصاد. عرفنى عليه خالى، وقال له : «الأستاذ (يقصدنى) - مهتم بالفلسفة شوف رأيك فيه ايه».. وتحاورت مع الدكتور عبدالرازق حسن، الذى لم أكن أعرف هويته السياسية آنذاك، ونحن نتمشى على كورنيش البحر. كان فى منتصف الثلاثينيات من عمره أو يزيد على ذلك بقليل، قصير القامة فى شرخ الرجولة، يرتدى «الشورت» ، وعلى وجهه قسمات جادة. كان ينصت باهتمام الى ما أقول، إلى أن وجدته على غير عادته قد انفعل عندما ذكرت له مساوىء الاشتراكية العشرة التى كان الأستاذ أنيس منصور قد حاضرنا فيها وهو معيد فى شتاء ذلك العام، قبل أن يغادر الجامعة ليستقر فى الصحافة . وأذكر أن من بين تلك الانتقادات التى وجهها أنيس منصور إلى النظم الاشتراكية انخفاض متوسط أجور العاملين بالنسبة لارتفاعها فى الولايات المتحدة الامريكية - معقل الرأسمالية.

هنا رد الدكتور عبدالرازق : «ولكن أين ضمان استقرار ذلك الدخل المرتفع لدى العامل الأمريكى؟ ، ألا يمكن أن يفقد عمله بين يوم وليلة، ويصبح فجأة مع أسرته بلا مورد؟! كان هذا التباين فى وجهات النظر منشطا لتساؤلات جديدة فى ذهنى.

عندما عدت للدراسة فى السنة التالية «١٩٥٤» ، وكنت قد قررت أن أتخصص فى فرع علم النفس بعد العام التمهيدى المشترك الذى قضيناه فى ١٩٥٣، كان الدكتور مصطفى زيور أستاذ ورئيس قسم علم النفس ، ومنشئه بجامعة عين شمس، كما كان يرأس قسم الفلسفة الدكتور عبدالرحمن بدوى الذى أتى بمعيده أنيس منصور . وكان هنالك معيد آخر منطو بعض الشىء على نفسه يدعى الأستاذ فؤاد زكريا. ولم أكن أتصور آنذاك أنه سيصبح ذلك المفكر اللامع الذى عرفناه منذ الستينات والسبعينات . فعندما علم أنور عبدالملك برغبتى أثناء نهايات

الستينات وأنا في ألمانيا، أعمل بجامعة كولونيا، في تقديم «هيجل» الى قراء العربية، أشار علي بالكتابة الى فؤاد زكريا في القاهرة، والاتصال بمصطفى صفوان في ستراسبورج. وما لبثت ان وصلتني رسالة متحمسة من الدكتور فؤاد يذكر لي فيها أنه طلب إلى أحد طلبته للدكتوراة (إمام عبدالفتاح إمام) أن يبعث الى رسالته للماجستير عن هيجل. وعندما حضرت من ألمانيا في زيارة الى القاهرة في عام ١٩٧٠ احتفى بي الدكتور فؤاد بشدة، ولم أكن أدرى أنه كان يعرفني جيدا منذ أن كنت طالبا في كلية الآداب، وكان هو معيدا فيها. فقد ذكرني بعد ذلك انه كان يكاد ألا يرى وجهي وأنا في فناء الكلية من كومة الكتب التي تعلو عليه حتى تغطيه. وأن ملامحي آنذاك كانت مشدودة تنم عن نهم بالمعرفة.

والحق أني كنت منذ أن التحقت بكلية الاداب انتقل الى المحاضرات في كل الاقسام وكل السنوات من قسم انجليزي الى فرنسي الى فلسفة، فتاريخ، وآثار الخ، بينما كنت طالبا مسجلا في قسم «الدراسات النفسية والاجتماعية». وقد استشارني أحد أساتذتي آنذاك في علم النفس، لم يكن مصطفى زيور على أية حال، عندما بادرني بقوله: «خلي بالك من الامتحان يا مجدي» فقد أجبته منفعلا: هو احنا اتعلمنا حاجة علشان نمتحن فيها؟ أنا ميهمنيش الامتحان، يهمني اتعلم حاجة أولاً». ويبدو أن ذلك الاستاذ قد اغتاظ من اجابتي هذه اذ وجدت نفسي «راسبا» في مادته في نهاية العام الدراسي، ومع ذلك فلم أعبأ.. بل أني فضلت مرة أن أذهب للقاء أحد الشعراء، أظنه الاستاذ عبدالرحمن الخميسي على أن أؤدي امتحان اللغة الفرنسية في الكلية فقد كان يمكن تأديته في موعد ثان لاحق. وكنت أعجب كل العجب لمنظر زملائي وزميلاتي الطالبات وهم يرتجفون في ذعر لاستقبال الامتحان، بينما كنت أذهب اليه كمن يذهب الى مقهى. ويذكرني ذلك الآن بقصة رواها لنا في درس علم النفس الاكلينيكي الدكتور وجدي، وكيل وزارة الصحة لشئون الصحة العقلية، ومدير مستشفى الامراض العصبية والعقلية بالعباسية انذاك في الخمسينات، حيث كنا نقوم بتدريباتنا العملية، قال لنا الدكتور وجدي أنه حين كان طبيبا شابا في الثلاثينات كان نزلاء المستشفى يضبسون في عنابرهم، ولا يسمح لهم بمغادرتها الا تحت رقابة مشددة شأنهم في ذلك شأن المساجين، باستثناء مريض واحد، كان شيخا وقورا يعتقد أنه صاحب كل مستشفيات الأمراض العقلية في العالم. وكان يجمع «مستندات ملكيته» في شكل قصاصات من الصحف القديمة في «مخلة» يحملها معه أينما تنقل. وكان مسموحا له أن يتحرك بكل حرية في كافة أرجاء المستشفى وأفنيته، اذ انه لا يمكنه أن يغادر ممتلكاته أو يفكر في الهرب منها! ولعلي انا كنت ذلك «المريض» بالنسبة للجامعة، لا اشعر فيها بما يخيفني أو يقيد حريتي بما في ذلك الامتحان سوى ما يمكن أن يعوق نهمي بازاء الفهم والاستكشاف.

أنت والهلال

عبد الرحمن بدوى واتهامات للمصريين !

رداً على مقال السفير شكرى فؤاد ، أقول .. صحيح ، محمود لكاتب السيرة الذاتية، أن يحكى كل شيء بصراحة ، وصحيح أننا لم نتعود على ذلك ، ولكن ليست هذه هى المسألة .

المسألة هو ما وجهه عبد الرحمن بدوى من اتهامات إلى المصريين ، فالفلاح المصرى مراوغ ، واتسمت هذه الاتهامات بالعمومية التى لا ينبغى أن تصدر من أستاذ للفلسفة .. وهذه بعض النماذج .. يقول فى صفحة ١٤٨ من كتابه .. «زار بعض المصريين باريس . ولأنهم فى غاية الجهل والصفاقة والادعاء ، فإنهم لما سمعوا الناس يتحدثون عن الوجودية ، ورأوا فتيات وفتيانا متحررين فى العلاقات الجنسية ، توهموا أن هذه هى الوجودية .. إنها التفاهة والجهل والادعاء الكاذب . وقد حملت هؤلاء على أن يربطوا بين ما هو قائم من مئات السنين وبين «الموضة» السائدة .. ثم يقول : «والمصرى بطبعه لا يتمعن أى شيء يقرآه أو يسمعه ، بل يصدق أى شيء ، حتى أكذب الأكاذيب ، ولا يتخلى عنه مهما أتيت له على عكسه بألف دليل .. وهذا أعضل داء أصيبت به عقول المصريين !»

إذا كان الأمر كذلك ، فإلى أى جنسية ينتمى ، ولماذا هذه الحدة التى يكتب بها عن أبناء وطنه ، ويتصور أنه عملاق وسط أقزام !.

سعيد أحمد - دمياط

●● الهلال :

ننشر هذه الرسالة بلا تعليق ، لكن كل من كتب نقدا لكتاب عبد الرحمن بدوى يدينه ويتعجب من هذه اللغة فضلا عن صدمة المثقفين ودهشتهم من كل ما جاء على لسانه فى سيرته الذاتية ..

من الوثائق البريطانية

بعد إخراج مكرم عبيد من الوزارة فى ٦ يوليو ١٩٤٢ وبعد نشرة الكتاب الأسود (٣٢٠ ص) .

بعث وزير الخارجية البريطانى أنطونى ايدن إلى سفيره بالقاهرة التوجيهات التالية التى أبلغها لرئيس الوزراء مصطفى النحاس :

(أ) أن الأسس التى قام عليها حزب الوفد أصبحت غير ذات موضوع بعد عقد المعاهدة وأن المصلحة تقضى بإعادة تكوين الحزب على مبادىء سياسية تقوم على دعامتين! الأولى الحفاظ على التحالف بين مصر وانجلترا ، والثانية رفع مستوى المعيشة بمجهود مكثف على غرار المجهود الحربى .

(ب) أن من الخير أن تعود الصلة بين بيت الأمة (حرم سعد زغلول باشا) وبين النحاس باشا .. ففى ذلك تقوية أدبية وشعبية للحزب فى تكوينه الجديد .

(جـ) «إذا ما تقرر إجراء انتخابات جديدة فإنه (أى مستر ايدن) لا يرى ضرورة العهد بها إلى وزارة محايدة ، وإنما تجريها وزارة النحاس باشا مع التوصية بتعديل الوزارة !.

(د) وأخيرا اقترح وزير الخارجية البريطانية بدعة انتخابية جديدة وهى أن يعهد إلى شخصية أو عدة شخصيات مستقلة بالإشراف على الانتخابات لضمان حيادها فى إطار وزارة الداخلية ، تكون لها مرتبة الوزير دون الاشتراك فى الوزارة .

محمد البشير ﷺ

قد جاءنا البشير ... الهادي النذير
الماحى للظلام ... المبصر البصير
قد جاء بالقرآن ... لا يلبس الحرير
سماته الإيمان ... يقرب الفقير
محطم الأوثان ... محمد البشير
عظيم للإسلام ... الهادى النذير

رسولنا قد قال ... وقوله جمال
تصدقوا فى خفية ... لا تعلم الشمال
وقربوا بينكم ... واطلبوا الحلال
وارحموا ضعفكم ... وصلوا بالليال
وسبحوا إلهكم ... لتبلغوا المنال

أجدادنا الكرام ... ما يعرفوا الحرام
ما دبروا مكيدة ... يوما سوى الوئام
ونشروا إيمانهم ... بالفعل والكلام
قد جاهدوا أعداءهم ... ليبتغوا السلام

والعلم فى الحياة ... يجلب لنا الصفاء
فنعرف الكواكب ... ونعرف السماء
ونستطيع بعلمنا ... أن نغزوا الفضاء
والعلم فى حياتنا ... كالماء والهواء

أحمد نادى بهلول

أنبياء مصر

كتب د . محمد عمارة - هلال يونيو ٢٠٠٠ - عن أنبياء مصر وبدأهم بإدريس عليه السلام - رغم أن الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي - هلال فبراير ٩٥ ص ٩٢ - يقول .. أترك هذين النبيين الكريمين - إدريس وابراهيم .. لأن القرآن لم يتحدث عن وجودهما بمصر .

لكن الدكتور عمارة استند إلى مصادر أخرى حدثته أن إدريس عليه السلام :

١ - عاش في مصر وبعث في حياة آدم عليهما الصلاة والسلام ولنا أن نستنتج من مقال الدكتور أن إدريس النبي عليه السلام ولد متأخرا عن بدء خلق البشر - آدم هو أبو البشر - بألف عام . وللاحتياط نزيد الألف فنجعله خمسة آلاف .

٢ - والنويري في نهاية الأرب ذكر أن «الأهرام بأرض مصر كثيرة وأعظمها الهرمان اللذان بالجيزة غربي مصر وقد اختلف في بانيهما ... وقال قوم بانيهما سوريد بن سلهوق بن سرناق ... ويقال أن إدريس عليه السلام أمر ببناء الأهرام» وحسم د . عمارة الأمر فأكد أن إدريس عليه السلام هو الذي بنى الأهرامات .

والعلمانيون الماديون - تقول مصادرهم - إن خوفو هو باني الهرم الأكبر - وقد يكون - واستغفر الله من الخطأ والنسيان - خوفو هو اسم من أسماء النبي إدريس فالدكتور عمارة يقول إن إدريس اسمه في التوراه .. خنوخ وفي ترجمتها العربية أخنوخ أما في اليونانية فإن اسمه أرميس وعرب اسمه إلى هرمس واشتهر بهرمس الهرامسة .

٣ - ولنحسب فنقول : ولد إدريس عليه السلام بعد بدء خلق الإنسان بخمسة آلاف عام ثم بنى الأهرام منذ قرابة خمسة آلاف عام ، وعليه يكون عمر الإنسان على الأرض أقل كثيرا من عشرة آلاف عام .

٤ - وأرجو من الدكتور محمد عمارة أن يدحض وينقض وينسف حسابات الماديين العلمانيين والتي تدعي أن الإنسان عاش على الأرض منذ مئات الآلاف من السنين .

سليم سالم المصري
عزبة البريه - مطوبس

الحصان الأبيض

اكتشفت أخيراً أحد الأسباب التي تؤدي إلى فتور العلاقة العاطفية بين الزوجة وزوجها إن مرض البوفاريزم Bovarisme نسبة إلى مدام بوفاري القصة الفرنسية الخالدة .

ما هي أحداث هذه القصة ؟ وكيف اكتشف ذلك المرض من خلال أحداث القصة ؟ وما هي علاقة هذا المرض بالمرأة في الشرق وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين

هذا ما سوف نتحدث بشأنه ونصل للنتائج معاً ..

قضت إمما Emma طفولتها في ملجأ للأيتام ملحق بدير الراهبات .

الراهبات كما تعلم ، تركن الحياة بملذاتها ولذن بالدير ، يستبدلن لذات الجسد بلذات الروح الصلاة - اشغال الأبرة - الرسم - الموسيقى كل ما يسمو بالروح .

كان يوجد في الملجأ خادمة تقوم بالطهي والنظافة لا تنتمي للمكان إلا بحكم عملها لذا كانت تسرب للفتيات الصغيرات القصص الرومانسية والعاطفية والصور ليروا من خلالها عالم ما وراء الأسوار - حيث الرجل شجاع كالأسد وديع كالحمل .

يأتي على حصان أبيض ليطبع قبلة على شفتي الأميرة النائمة فتصحو بعد مائة عام من النوم .

بعد ذلك عندما كبرت إمما وتزوجت رجلا عادياً حدثت لها فجوة بين الخيال الذي درجت عليه والواقع فاختارت الخيال ونبذت الواقع وظلت في داخلها نائمة تنتظر الفارس .

وهذا ما يحدث للكثير من الزوجات في كل زمان ومكان يعقدن المقارنة بين الخيال والواقع وتكون النتيجة رفض الواقع ويقف الخيال في اللاشعور كحاجز غير مرئي بين الزوجين .

أفيقي سيدتي فعصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة .

لا تنتظري الحصان الأبيض فلن يأتي أبداً لسبب بسيط لأنه غير موجود سوى في خيالك وفي قصص الأطفال فقط .

* في العصر الحالي تقوم وسائل الإعلام بدور القصص الخيالية .

فترى الفتاة الشاب الجميل الصغير يمتلك قصراً على البحر ويشترى شقة في منتجع وسيارة فارهة فمن الطبيعي أن تشعر بخيبة أمل من الحياة الواقعية وتعقد المقارنة بين ما تراه على الشاشة وما تعيشه في الواقع .

منير وديع ميلاد

متاهات النوى

يا أيها الطير الذي ضل السفر

تشكو وتجفو ، تزدري هدى القمر

تنداح - عمداً - في متاهات العرا

تأبى السهول والنسيم والشجر

فكلما الليل بدا بين الربا

ترتاب خوفاً من أسارير السحر

وبالبـــــراح قــــد قـــســــوت والـندى
وصـــرت تهـــذى تقـــتــــفى وحى العــبــــر
بأى ذنب تقــــتلون برعـــــمــا ،
بين الحـنـين قـــــــد نما على المطر
هل للـشكالى دمـــعـــة بين النهى ؟
تنســاب جـمــراً يكتـوى منه الحـجــر !!
مــــــا بال أيك بان يذرف الرؤى ،
هل ضـــاق يومـــا من ينابيع السـهــر ؟!
الشـوق بالأطيــاف يحـيــا ، يهــتـدى
ســيـلا تـــســقى مع الربيع المنتظر
من يغــتــرب بين الفــيـافى والرَّدى ،
دومـــا يظل فى ســـراديب الخطر
أحـــبَّــتى أنا الصـــريع بالنوى
هذا فــــؤادى هدنى : حــتى انفطر

عبد الناصر أحمد الجوهرى
نادى أدب المنصورة

وتاكلون التراث .. مرة أخرى

حاولت أن أفهم ما كتبه الاستاذ نبيل عبد الرحمن دربك فى هلال يوليو ٢٠٠٠ ردا على مقال الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى «وتاكلون التراث...» فلم أصل إلى شىء ؛ لأن د . رجب البيومى أعلن فى مقدمة مقاله أنه يستأنس بكتاب الله ولا يقتبس ، فجاء صاحب التعليق ليقول : ربما كان الهدف هو الاستعارة أو الاقتباس وليس فى الكلام استعارة أو اقتباس إطلاقا ، ثم يقفز إلى آية كريمة لاصلة لها بالموضوع وهى قوله تعالى: (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ..) وقد اتصلت بالدكتور فقال لى أنه لم يفهم شيئا مما قاله الأستاذ المعلق ، وعهدى بالدكتور أنه مهذب فى رده لذلك فهمت من قوله ما يعنيه ورأيت أن أكتب هذا التعقيب ليعلم الأخ الفاضل أن كلامه خارج عن الموضوع تماما .

فرج مجاهد عبد الوهاب - شربين

الهلال : نحن نحترم كل رسالة تصل إلينا وننشر ما تتضمنه ، وكان لابد من نشر رسالة نبيل عبد الرحمن دربك .

سقط المبوح

هذا أنا خاضعُ ..
أم أنت ذا .. العبدُ ؟
صاحبتنى فرقاً ..
أن يفلت الصيدُ
والدرب ممتدُ ..؟
رويتَ من ضرع آمالى التى سلبوا
فى نومة الحرس
والصحو إذ يحب
والليل مربدٌ !
هاك دمى سائغاً
والعظمُ واللحمُ
أهديكها بدلاً ..
مما جنى الضيمُ
واستمرأ الوجدُ !
املأ كئوس المدى .. ليلاً وما وزرا
ما عاد بى كلفٌ ..
أن أتبع القمرا ..
إن راح أو يغدوُ .. !
آهْ ..
ياسيدى القيدُ !

محمد محمود الشناوى - بور سعيد

حسين السيد / فارس الأغنية المصرية

على مدى حوالي نصف قرن أثرى الشاعر الغنائى حسين السيد حياتنا الغنائية بأغان أوصلته إلى مصاف كبار فرسان الكلمة فى الاغنية المصرية ، وقد وصل بها إلى الرقى بالاشتراك مع الشاعر الغنائي الكبير مأمون الشناوى . وحسين السيد هو الشاعر الغنائي الوحيد الذى ألف - بين ما ألف - أغانى فيلمية لأفلام غنائية أو استعراضية بأكملها دون أن يشاركه شاعر آخر فى هذه الافلام ومنها : عنبر وغزل البنات وخاتم سليمان لليلى مراد ، دايما معاك لمحمد فوزى ، أيام وليالى ، وبنات اليوم لعبد الحليم حافظ ، ليلة من عمرى لشادية .

وقد أثبت فى وقت مبكر من عمره الفنى قدرته الفائقة على تطوير نفسه وتوسيع دائرة تأليفه فقد كان فى أول عهده يكتب للموسيقار محمد عبد الوهاب فقط ، ثم انفتح على كثير من المطربين والمطربات فغنى له فريد الاطرش ومحمد فوزى وليلى مراد وفايزة أحمد وعبد الحليم حافظ وشادية وغيرهم .

يحيى محمود حسين
القاهرة - مصر الجديدة

الرحيل المر

انقشعت الغيوم .. ابتلعت الأرض ماءها .. توسط قرص الشمس الأفق .. تعالت الأصوات .. نفير السيارات .. صراخ الباعة عند الإشارات ..

وضعت الكتاب جانباً .. نظرت إليه .. لقد استغرق فى النوم .. اتجهت نحو النافذة .. رمقت الطبيعة بنظرة حزينة .. هزت جزع المسافة .. عادت إلى رحم الماضى .. تذكرت أمها .. المرأة التى تفسخ لها قلبه كثمرة مهترئة .. قسوتها .. حبها للمال .. كرهها له لإنسانيته وتواضعه سبب خلافهما .. عاش معها كالمتلفع من البرد بالثلج .. تركتها ابنة خمسة أعوام .. ترنح أمام ذلك اليوم :

- من سيعتنى بابنتك ؟!

- لما لا تعتنى بها أنت .. إنها ابنتك أيضاً ؟!

- لا أحد يستطيع تعويض الصغيرة عن أمها .. أنت تشتتين أوردة طفولتها ..

- هراء .. إذا كنت تريد منى أن أعود .. فعليك أن ترضخ لشروطى شقت الدموع طريقها على وجنتيها .. إن لها قلباً من طين يابس ..

- لايأس ..

إنه الآن يمثل الأب والأم بالنسبة لها ..

تنبهت فجأة .. الساعة تعلن تمام الخامسة .. بعد نصف ساعة سيستيقظ كما تعرف .. منذ اعتلت صحته ، وأمر بملازمة الفراش .. طلب منها أن تقرأ له .. وفى كل مرة يغفو حتى الخامسة والنصف ..

بدأت الشمس بالشحوب خلف غيوم تتجمع فى السماء .. هبت نسمة باردة .. حزمة من ضياء القمر تنتشر هنا وهناك .. حاولت إيقاظه دون فائدة ..

عادل فرج عبد العال
عضو اتحاد كتاب مصر – كفر شكر

إلى الأصدقاء

* محمود محمد أحمد – دراسات عليا – آداب بني سويف :

وصلت رسالتك ونشكرك على ذكرته عن الهلال وإعجابك بما تضمنه عدد يونيه ٢٠٠٠ خاصة مقال الأستاذ طارق البشرى ومقال الدكتور عاصم الدسوقى. وفيما يختص باستخدام بعض الكلمات «جيولوجيا – كمبيوتر» ومطالبتك باستخدام مفردات عربية لها، فقد أجاز المجمع اللغوى بعضا من هذه الكلمات ، ونحرص دائما فى الهلال على اللغة العربية الفصحى .

* محمد عبد الخالق – نادى أدب المنصورة

نرجو أن تواصل كتابة الشعر ، فلديك موهبة لكنها تحتاج إلى الصقل .

* حسن على محمد جابر – الاسكندرية

وصلتنا قصيدة «عروس البحر» ونود أن نرى نماذج أخرى لا تشير فيها لأشخاص ، فكيف تقول فى بيت شعرى

وكم كان الخديوى زريا كئيب الروح فى ثوب حقير
مسجى فى تراب وهو حى ويرضى فى البلايا بالكثير

فهل هذا شعر .. وهل هذا معقول ؟!!!

* وفاء حسن محمد – مغاغة – المنيا

نشكرك على ما جاء فى رسالتك من أن «الهلال» هى القدوة الحسنة وأنك سوف تواصلين قراءتها حبا فى كل ما تتضمنه من ثقافة وفكر .. وأهلا بك صديقة دائمة على صفحات مجلتك المحبوبة .

الكلمة الأخيرة



مغزى أن تكون مصريا

بقلم : محمد عودة

أحمل في قرارة نفسي شعورا بالذنب والتقصير نحو صديق راحل وهو المرحوم الدكتور وليام سليمان قلادة.

كنت أسعى إليه وأحرص على لقائه كلما سنحت الفرص . وكان مجرد اللقاء والاستماع إليه يبعث ثقة وسكينة وطمأنينة نفتقدها في طوفان القلق الذى نعيشه، وكنت أعتز بإهدائه مؤلفاته. ولكن ما أن أفرغ من قراءة الفصل الأول ، حتى أقرر أن هذا كتاب من نوع متميز ولابد من التفرغ واعداد النفس لقراءته.

وذات يوم قررت أن أزيح كل شئ جانبا وأن أتفرغ لقراءة وليام سليمان قلادة .. وأدركت أن لا أحد يمكن أن يستكمل مصريته .. أو يدرك مغزى أن يكون مصريا إذا لم يحط بتراث وفكر وليام سليمان قلادة .

وفوجئت ذات صباح وأنا أتصفح الجرائد بخبر وفاته ، وأخرجت الكراسات التى سجلت فيها المقتطفات والنصوص من كتاباته والتى كنت أعدها لدراسة عنه ... وكانت مثلما كان صاحبها بلسما :

● «حين يحل العام ٦٤ يصل عمرو بن العاص ويدخل الاسلام إلى مصر ويبدأ شعبها منذ ذلك التاريخ يمارس حياة التعدد الدينى بين المسيحية والإسلام .

بدأ المجتمع التعددى الوئامي في اللقاء التاريخي بين عمرو وبنيامين بابا الكنيسة القبطية الثامن والثلاثين» .

● «أمكن للشعب المصري أن يبدع أسلوب حياة لا يستبعد فيه مطلق مطلقا آخر وأتيحت فرصة لهذا التعايش أن يستمر وأن تتأصل جذوره بل وأن يواصل تطوره إلى مزيد من الامتزاج والوحدة بين مكونات الشعب» .

● عبر الفنانون والصناع المعاصرون للحروب الصليبية عن وحدة مكونات الجماعة وهي تجاهد للدفاع عن وطنها بإبداع تحفظ المتاحف المصرية نماذجه، وفي متحف مطار القاهرة الدولي مقبض سراج من البرونز به صليب يحوطه هلال يرجع إلى القرن الثاني عشر، وثمة نموذج آخر مشابه محفوظ في المتحف القبطي ويرجع إلى القرن الثالث عشر. وفي لحظة مشابهة من التاريخ المصري وبعد ستة قرون بعثت النفس المصرية من اعماقها بإبداع جماعي تلقائي هو نفس الرمز ليكون علم ثورة ١٩١٩ » .

ولعله ليس هناك رد مفحم على النفايه القبطية «الخسيسة» في الولايات المتحدة سوى ترجمة مؤلفات وليام سليمان قلادة ، وحبذا لو ترجم إلى الانجليزية ليقرأه سادتهم والمسكين بخيوطهم هناك .



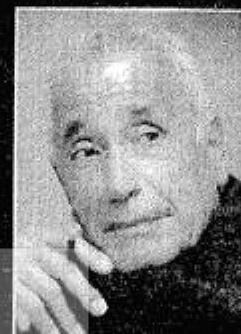
مصر للطيران
تدعيماً لأواصر الاخوة
تعلن عن
استئناف رحلاتها الى ليبيا
القاهرة / طرابلس / القاهرة
حالياً
الاثنين و الخميس
وقريباً رحلة ثالثة
الى بنى غازى
مصر للطيران
EGYPTAIR
للمزيد من التفاصيل برجاء الاتصال بمكاتب
مصر للطيران او بوكيلك السياحي
www.EgyptAir.com.eg


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة الدائمة في ربوع الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

الهلال

سبتمبر ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

من يستطيع التخلي عن القدس ؟!



هيكل كل سنة وانت طيب

إنقاذ الكنيسة المعلقة.. كيف؟!




مزايا كبيرة ينفرد بتقديمها بنك مصر
من خلال دفتر التوفير
العادى وذو الجوائز بالجنيه المصرى
يمكن فتح الدفتر بأى مبلغ ودون حد أقصى
للعميل حرية السحب والإيداع من أى فرع لبنك مصر
دفتر توفير ذو الجوائز
يفتح الدفتر بمبلغ ١٠ جنيهات
يحتسب عائد سنوى بالإضافة إلى الاشتراك فى السحوبات الشهرية
جائزة أولى ٥٠٠٠ جنيه ترتفع إلى ١٠٠٠٠ جنيه فى شهرى مايو وأكتوبر
سحب إضافى لفروع المحافظات بعدد ٦ جوائز
يمكن فتح دفتر توفير باسم القاصر والصبى المميز
يمكن فتح دفتر توفير مشترك للزوج والزوجة والأبناء
يمكن فتح دفتر توفير للقاصر بإيداعات من الأم أو الغير الذى له الحق فى السحب والإيداع حتى بلوغ القاصر سن الرشد
بنك مصر
هكذا يكون البنك

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام التاسع بعد المائة

سبتمبر ٢٠٠٠ ● جماد ثانى ١٤٢١ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) ، المكاتبات : ص.ب : ٦١ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفنى

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٢٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلساً، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا . أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هــذا العــدد



تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب
تصوير:
شوقي مصطفى

فكر وثقافة

محمد حسنين هيكل

جزء خاص

فنون

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة

هيكل.. كل سنة وأنت طيب

عزيزى القارىء

تفرد مجلة «الهلال» عدداً من صفحاتها للحديث عن الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل، تحية له واحتفالاً بعيد ميلاده، يكتبها أصدقاؤه ومحبوه، فهيكل له وضع خاص وفريد فى الحياة السياسية، وفى الفكر السياسى العربى، فقد ظل طويلاً منارة مضيئة فى حياتنا السياسية والفكرية، ولا أظن أن كاتبا صحفيا فى مصر الحديثة، منذ ظهور الصحف، يطاول الأستاذ فى دوره الصحفى وتأثيره فى الحياة العامة.

ويمكن بلا أدنى مبالغة اعتبار الأستاذ جبرتى العصر الذى سجل أحداثه ونبضه ونقل تجربة مصر السياسية فى أعماله العديدة المؤيدة بالوثائق والمستندات. ورغم كل ما كتب وحلل وساهم فى الحياة السياسية، يصف نفسه بأنه صحفى اعتزازا بأن أى بناء فكرى صحيح يقوم على المعلومات الصحيحة، فلابد أن يقوم الفكر السياسى على معرفة عميقة بالواقع.

وأصبحت له مكانة عالية، كتبه أكثر الكتب توزيعاً، ويكاد يصدر له كتاب سنوى تتجاوز صفحاته أربعمائة صفحة لأكثر من عشرين عاماً، فلا أحد يجبر أحدا على قراءة كاتب أو كتاب، وقيل قديماً إن سبب الاهتمام بما يكتب يعود إلى دوره فى صنع القرار، وتمضى السنوات بعد رحيل الرئيس جمال عبد الناصر، ويبقى له موقع فريد عند القارىء.

وهو صاحب الرأى الحر والكلمة المسموعة، ومن القلائل الذين إذا تحدث أنصت الجميع، وهو ليس مجرد كاتب كبير، ولكن بالنسبة إلى أجيال متتابعة هو «تاريخ»، أحد صفاته البارزة أنه يواكب العصر، وهو متابع دءوب لما يدور فى

عزيزى القارىء

العالم، فهو يوصل القارىء بسلاسة بتغيرات العالم وأحداثه.

كتاباته عن الماضى ليست فقط من أجل الحفاظ على الذاكرة الوطنية وليست مجرد حنين إلى الماضى، ولكنها من أجل الحاضر والمستقبل، فالمجتمع فاقد الذاكرة محكوم عليه بالانهيار.

يقرأ الشعر قديمه وحديثه قراءة فنان معاصر، ويحفظ الكثير منه، ولعل ذلك هو سبب أسلوبه المميز، وأن كتابته مزيج من كتابة المؤرخ والفنان.

ورغم أنه مؤسسة فى ذاته إلا أنه يدرك أن الأشخاص إلى زوال، وأن المؤسسة هى الدائمة، لذلك بنى مؤسسة الأهرام، وحان الوقت لكى يكتب سيرته الذاتية الموزعة فى روايته لكثير من الأحداث. تستقدم أحلام وطموحات عصر بأكمله، وتقدم تاريخ أمة حكمت يوماً أن تكون سيدة نفسها، وأن تحقق على الأرض العدل والحرية.

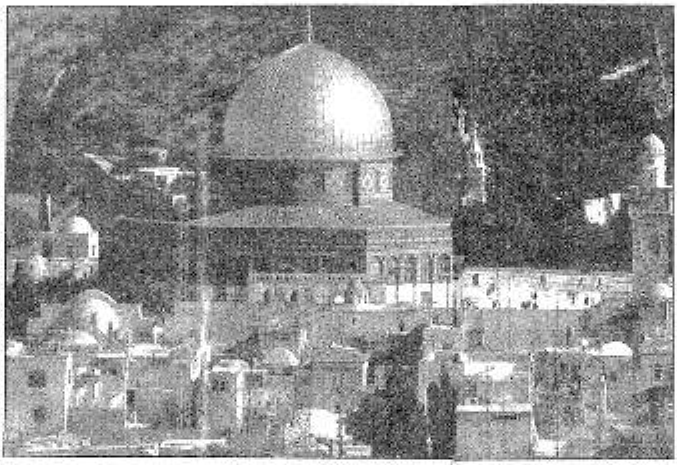
وهاأناذا أضم صوتى إلى الكاتب الكبير طارق البشرى الذى دعا - على صفحات الهلال - إلى تنظيم ندوة علمية لدراسة أعمال محمد حسنين هيكل ومناقشتها وبيان ملامحها، فالواجب علينا لأنفسنا وفكرنا السياسى العربى أن ندرس أعماله ونتبين خصائصها، ونضع أعماله فى موضعها من الفكر المعاصر.

وكلمة أخيرة..

لدى الأستاذ هيكل مايزيد على مليون ونصف وثيقة، فمعروف عنه الحرص الشديد على الجمع والاحتفاظ بكل وثيقة أو مستند، وأتصور أنه حان الوقت لكى تودع هذه الأوراق المهمة فى إحدى الجامعات أو دار الوثائق التابعة لدار الكتب المصرية، وإن لم تكن الوثائق الأصلية فلتكن صورة ضوئية منها، لكى تتاح أمام الدارسين والباحثين، ومن أجل تاريخ حقيقى لثورة يوليو.

وأتفهم تخوفه من إهمالها أو عدم الحفاظ عليها، فلماذا إذن لا يقيم مؤسسة أهلية قادرة على الحفاظ على تلك الوثائق وإتاحتها لكل من يريد الاستفادة منها ؟!.

المحـــرر



من يستطيع التخلي عن القدس ؟!

الرجعية الدولية تهدد القدس

بقلم : عبد الرحمن شاكر

في برنامج أذاعته قناة الجزيرة عن القدس، تحدث متحدثا إسرائيليا، لم التقط اسمه ولا صفته، يقول: إن بلاده على استعداد لنقل قبة الصخرة ومسجدها من القدس إلى مكة ! وأن لديهم من المهندسين البارعين من يستطيع القيام بتفتيت القبة حجرا حجرا بكل احترام (!!) ونقلها ليعاد تركيبها هناك! وهذا - كما هو ظاهر - اقتراح لا تنقصه الوجاهة.. وجاهة الصفاقة وسوء الأدب والجهل الفاضح والاستخفاف بعقول الناس!.

إن الإسرائيلي الذي تحدث على هذا النحو عبر قناة عربية يتصور أو يحاول أن يصور للناس أن قداسة المسجد الأقصى عند المسلمين هي الحجارة التي بنيت منها القبة، والتي هو أو هم على استعداد لنقلها بكل احترامه إلى مكة، ناسيا أو متناسيا، جاهلا أو متجاهلا أن القداسة إنما تعود إلى المكان الذي بنيت فيه القبة من قبل أن تبنى في عهود متأخرة، من زمن نبي الإسلام الذي نزل عليه الوحي بقوله: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله» (سورة الإسراء: ١) وأنه في الأثر في قصة الإسراء والمعراج أن معراج النبي (ﷺ) إلى السماء كان من فوق الصخرة التي

بنيت عليها تلك القبة فيما بعد! .

ولقد كان هذا المكان هو قبلة المسلمين في صلواتهم قبل أن ينزل الوحي بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام في مكة، ولكن لم يكن معنى ذلك أن قداسة المكان، المسجد الأقصى أو بيت المقدس قد زالت من عند المسلمين بهذا التحول، بل زادتها قصة الإسراء والمعراج، التي جاء فيها أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أمّ جميع الأنبياء بصلاة في هذا المسجد الذي صلى جميعهم فيه من قبل ، من أيام أبيهم إبراهيم عليه السلام.

ما الذي يريده «اليهود» من أمثال صاحب الاقتراح المذكور، ومن يواليهم من أتباع الأصولية اليهودية في الغرب وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية الحليف الأكبر للدولة الصهيونية، والتي كشفت عن تواطئها معها في رفض تسليم القدس الشرقية ، والتي تضم المسجد الأقصى إلى أصحابها من العرب الفلسطينيين رغم كونها أرضا محتلة من وجهة نظر الشرعية الدولية التي قامت الدولة الصهيونية بقرار منها في عام ١٩٤٧ ، ذلك الرفض قد تجلى في المفاوضات الأخيرة حول الحل النهائي في كامب ديفيد! .

إنهم يريدون تحقيق الهدف الذي لم يتورعوا في أحيان كثيرة عن التصريح به، وهو هدم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وإقامة «هيكل سليمان» مكانه، ذلك الهيكل الذي تم تدميره من ألوف السنين، ولم يكن المسلمون هم الذين فعلوا ذلك، بل الفرس والرومان وسائر من احتلوا فلسطين قبل أن يفتحها العرب في صدر الاسلام ويعيدوا بناء المسجد الأقصى.

أقول «يعيدوا» وأنا أعنيها، فالمسلمون يعتقدون أن كل بناء قام في هذا المكان، بما في ذلك ما يسميه اليهود هيكل سليمان إنما هو مسجد قد أقيم ليعبد فيه «الإله الواحد القهار»، أم يريد اليهود الذين يريدون إعادة بناء الهيكل أن يعبدوا شيئا آخر خلاف ذلك الإله الواحد القهار؟ فإذا كان الجواب بالنفي وأنهم لا ينوون سوى عبادة الإله الواحد القهار فكيف يجرأون على التفكير في هدم بناء لا يعبد فيه إلا ذلك الاله؟! .

إن المسألة شائكة كما هو واضح، وسبب كونها شائكة أن العقل الأوروبي المتحجر، وليس المتحضر كما يزعمون، عند الأصوليين من المسيحيين واليهود في الغرب لا يعرفون، أو هم يعرفون ويتجاهلون تاريخ هذه المنطقة وتاريخ العقائد فيها، وهم الذين يؤمنون ببعض منها ويكفرون ببعض! لا يعرفون أو يتجاهلون أن العرب المسلمين لم يهدموا معبدا ولا كنيسة لأي من الأديان السماوية من قبل ظهور الاسلام في جزيرة العرب، ويشهد ذلك المسيحيون الشرقيون الذين بقيت كنائسهم على حالها، واليهود الشرقيون أيضا إذا كانوا منصفين.

لقد رفض عمر بن الخطاب حينما زار بيت المقدس أن يصلي في كنيسة القيامة رغم أن الراهب الذي كان يرعاها دعاه إلى ذلك، وذلك على حد قول عمر لكي لا يتخذها من بعده المسلمون مسجدا لهم، وبدلا من ذلك بني مسجدا على أنقاض المسجد الأقصى الذي كان مهدما هو المعروف باسم مسجد عمر، وإذا كان

اليهود يعتبرون الحائط الغربي للمسجد الأقصى هو الأثر القائم من هيكل سليمان، ويسمونه حائط المبكى، فلم يمنعهم أحد من الصلاة عنده، فلماذا لا يستمرون فى ذلك، بدلا من إثارة الفتنة على أوسع نطاق ممكن بالدعوة إلى الهدم وإعادة البناء؟! .

دعوى الديمقراطية

إن الرئيس كلينتون، الديمقراطى فى دعواه حسب اسم حزبه فحسب، يقول: إنه سوف يكافئ إسرائيل التى هى الدولة الديمقراطية الحقيقية الوحيدة فى المنطقة - على حسب زعمه - بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، وعلى حسب ما ذكرته قناة الجزيرة، فإن المكان المقترح لإقامة مبنى السفارة الجديدة سوف يكون على مبعدة ميل واحد فحسب من المسجد الأقصى! ، أية ديمقراطية هذه التى يتحدثون عنها؟ هل استفتوا سكان الأرض المحتلة فيما إذا كانوا يقبلون أن تقوم سفارة لدى دولة الاحتلال على أرضهم هذه؟ ، أم أن المسألة كلها هى غطرسة القوة، قوة الدولة العظمى الوحيدة فى العالم، والقوة التى أمدوا بها الكيان الصهيونى الدخيل المغتصب لأراضى الغير، وحقوقهم فى أوطانهم، ويهدد الدم أشنع تهديد بإزالة مقدساتهم فى تلك الأوطان على نحو فاجر لم يشهد له التاريخ مثيلا من قبل؟ .

إنهم رجعيون ممعنون فى الرجعية هؤلاء الذين يريدون إعادة التاريخ إلى الوراء ألوف السنين، حيث لا سبيل إلى هذه الاعادة، وإنما هو تلويث الحضارة الانسانية والسخرية البذيئة من معالمها الراسخة وليس أدل على رجعية هؤلاء القوم من التصريحات التى أدلى بها أخيرا، فى غمار معركة القدس الدائرة حاليا بالكلمات فحسب، زعيم حزب شاس المدعو عبديه (أو عوفاديه كما ينطقونه) بن يوسف، ووصفه الفلسطينيين المعاصرين بأنهم أفاعى! .

إن هذا المتعصب الأحمق يقرأ فى كتابهم المقدس وعد الرب باعطاء أرض الفلسطينيين لبنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى من مصر، فيتصور أن الفلسطينيين المعاصرين هم هؤلاء المذكورين فى الكتاب المقدس، وينسى أن الوعد الربانى قد تم وانقضى منذ ألوف السنين، وأن الفلسطينيين المعاصرين هم من بقايا السلالات الاسرائيلية الحقيقية، حينما قامت دولة الموحدين الأولى فى تلك المنطقة، ثم ظهرت المسيحية فى بنى اسرائيل فأصبح كثير منهم مسيحيين ولا يزال بعضهم كذلك، ثم جاء المسلمون من جزيرة العرب فدخل معظمهم فى الاسلام، وهكذا! .

إن الجريمة الكبرى التى أقدم عليها الرجعيون من الأصوليين اليهود والمسيحيون فى الغرب، هو تصورهم أن قيام ملك اسرائيل فى فلسطين، المذكور فى الكتب المقدسة، إنما هو رواية مسرحية يمكن أن يعاد تمثيلها على ذات الأرض المقدسة، وأن يكون أبطال هذه المسرحية هم من سلالة الخزر، الذين اعتنق آباؤهم اليهودية فى القرن الثامن الميلادى، بعد ظهور المسيحية والاسلام، وهم الذين يشكلون الآن تسعين فى المائة من يهود العالم، ومنهم الجالية اليهودية الكبرى فى

الولايات المتحدة الأمريكية، وبينهم ظهرت الحركة الصهيونية حينما بدأ القياصرة الروس في اضطهادهم بعد أن أزالوا ملكهم في جنوب روسيا.

إن خروج بني اسرائيل من مصر وإقامة ملكهم في فلسطين طبقا لما ترويه الكتب المقدسة هو أمر قد تم وانقضى، أما نزوح سلالات المتهودين الحاليين من روسيا وشرق أوربا إلى الأرض المقدسة، وإقدامهم على ارتكاب أشنع جرائم القتل وطرد المواطنين واغتصاب أوطانهم ومساكنهم، واليوم محاولة اغتصاب مقدساتهم فذلك ليس إلا حلقة من سلسلة جرائم الاستعمار الأوربي، والعدوان الذي مارسه الرجل الأبيض ضد الانسان وحقوقه في سائر أنحاء الأرض، بما في ذلك إبادة الهنود الحمر في أمريكا واختطاف ملايين السود من أفريقيا وترحيلهم بالقوة إلى أمريكا وبيعهم هناك عبيدا لخدمة الرجل الأبيض وبسط سلطانه وتنمية ثروته، إلى إبادة السكان الأصليين في استراليا واضطهادهم إلى عهد قريب في جنوب أفريقيا.. إلخ مآسي تلك السلسلة الاجرامية التي تعتبر وصمة عار في تاريخ البشرية.

معركة فاصلة

إن الدفاع عن حرية القدس وعروبتها وحرمة مقدساتها الاسلامية والمسيحية، قد أصبح قضية فاصلة، ينبغي أن يقف إلى جانبها كل من يؤمن بالحرية والديمقراطية والتقدم واستقرار الحضارة الانسانية، من كل جنس أو ملة أو دين، وذلك في مواجهة الرجعية الدولية، المستندة إلى الأصولية اليهودية المسيحية، الصليبية المتعصبة، والتي يمثلها أمثال بيل كلينتون وزوجته هيلاري، والمتنافسان على مقعده الذي يوشك أن يخلو في البيت الأبيض، نائبه آل جور بمرشحه في النيابة السيناتور ليبرمان، وجورج بوش الابن، وهما من يتنافسان على تملق الجالية اليهودية في أمريكا عن طريق تأييد النوايا الاجرامية للدولة الصهيونية ومطامعها في المنطقة، ويزيدان عليها الإصرار على تجويع شعب العراق وإبادة أطفاله من خلال الحصار والعقوبات الدولية التي لا نهاية لها.

إن الرجعية الدولية المتمثلة في الصهيونية وأنصارها في الغرب، تهون إلى جانبها، وإلى جانب أهدافها ووسائلها التكنولوجية المتطورة، ما قد أصبح يشار إليه في بلادنا بأنه اتجاهات أصولية وسلفية، أهدافها من نوع تطبيق الشريعة الإسلامية أو إعادة الخلافة.. إلخ وحتى وسائلها أو وسائل بعض فرقها من نوع ما يسمى بالعمليات الارهابية، إنما هو لعب عيال تافه، إلى جانب ما لدى الأصولية الرجعية اليهودية المسيحية من أهداف ووسائل، بل إن من أهم أسباب انبعاث التيارات المتطرفة في بلادنا على هذا النحو، هو الإثارة المتعمدة كل يوم، للمشاعر الاسلامية، من جانب الصهيونية وممارستها الهمجية المتوحشة، وسكوت حلفائها عليها، بل ممالأتهم الواضحة والمفضوحة لها.

بقي أن نقول: إن أول معول للهدم يهوى على قبة الصخرة أو المسجد الأقصى سوف يفتح على الجميع أبواب الجحيم، وما أظن أن مليار مسلم في هذا العالم سوف يتركون ثأرا هكذا عند خمسة عشر مليون يهودي، مهما تكن من قوة الرجعية الدولية المساندة لهم!.

أقوال معاصرة

● «يجب ألا ننتظر من الناس أن يفعلوا كما نريد منهم، ونهدد بقمعهم إذا لم يفعلوا».

الرئيس الإيراني محمد خاتمي

● «القدس مشكلة فريدة تتطلب حلا فريدا».

الرئيس الأمريكي بيل كلينتون

● «حقوق الإنسان والحقوق السياسية والمدنية هي كل لا يتجزأ».

د. ادوارد سعيد

● «علمانية تركيا الفوقية أطلقت إسلاما شعبيا والعكس شهدته إيران».

الصحافي اللبناني بول الاشقر

● «قيمة الإنسان المتحضر لا تقاس بما يملك، ولكن في كيف يتصرف».

د. ليلى تكلا

● «القارة التي أنتمي اليها نذرت جسدها لعمل واحد هو أن يقاتل بعضه بعضا».

الشاعر السوري أدونيس

● «الديمقراطية ليست محض صندوق للاقتراع، وإنما هي أيضا منظومة من القيم والرقي النوعي للإنسان في وجوده العام».

د. جورج طرابيشي

● «ليس بيننا من هو أكثر عبقرية من مجموعنا».

وارين بينيس مؤلف كتاب «تنظيم العبقرية»

● «الأديب هو المخلوق الذي يحترف لعبة الاعتراف بالذنوب».

الأديبة اللبنانية غادة السمان

● «ربما تكون رئاسة حكومة مسئولية صعبة، ولكن رئاسة عائلة قد تكون أصعب».

توني بلير
رئيس الحكومة البريطانية



بيل كلينتون



محمد خاتمي

ينالون ٩٩ ٪ فى الثانوية... ثم ينحدرون

بقلم د. محمد رجب البيومى

فى هذه السنوات العجيبة نرى كليات القمة كما يسمونها، وهى فى مضمونها لا تفترق عن كليات السفح المظلومة، نرى هذه الكليات من طب وهندسة وصيدلة لا تأخذ من الطلاب غير الحائزين على ٩٩ ٪ إلى مالا يقل عن ٩٥ ٪ ، فإذا انخفض المجموع إلى ما دون ذلك، ترفعت هذه الكليات عن أن تنحدر إلى مستوى لا يليق بمركزها العلمى، ويدخل النابغون من هؤلاء الأفذاذ إلى كلياتهم، فإذا نتيجة الامتحان فى العام الأول تعصف بأكثر من النصف فى كل كلية!! فهل يكون من ارتفع إلى مستوى المائة فى المائة أحيانا أو ما دونها بقليل عاجزا عن اجتياز السنة الأولى إلى ما فوقها ! أين إذن النبوغ العبقرى الذى جعله يأخذ أعلى الدرجات فى الشهادة الثانوية ! ثم يتخلف عنه فجأة، وكأنه ،ذاء قد بلى فى قدمه بعد عام واحد، ليجد نفسه مضطرا للإعادة ، وقد يكون قد أرهق والده فى دروس خصوصية ذات أرقام فلكية ، كما أرهقه من قبل فى دروس خاصة فى سنته الأخيرة بالمدرسة الثانوية وما قبلها ، حتى باع مفروشات منزله، وكاد ينام على الحصير ! أين ذاك النبوغ وكيف توارى؟

ثم ارجع البصر كرتين إلى ما قبل ذلك بأربعين عاما أو أقل، فإنك ستجد من أخذ ٧٠٪ أو ما دونها بقليل ، قد وجد مكانه فى كليات القمة المزعومة، وانتقل من نجاح إلى نجاح فلم يتعثر فى عام واحد، ولم يكن وباء الدروس الخصوصية الجانبية قد مسه بسوء ، فانتقل سليما معافى، لم يرهق والده فى قليل أو كثير، حتى إذا بلغ منتهاه في الدراسة، وجد المكان المهيأ، بل وجد السلاح العلمي الذى ظفر به باجتهاده ، فهو طبيب حقيقى ! أو مهندس حقيقى، وليس ممن حفظ كلاما ثم ردده شفويا وتحريريا فاقتحم العقبة بعد أهوال!

لماذا تعثر صاحب التسع والتسعين وفاز صاحب السبعين ! ولماذا لم يحدث أحد نفسه بدراسة ميدانية ترصد المقدمات، وتتعرف النتائج وتنتهى إلى التشخيص الناجع؟ ألفقر في الباحثين؟ ألعجز فى الدارسين؟ معاذ الله !

فالمؤتمرات العلمية تعقد كل حين، وتلقى فيها المحاضرات ، وتقدم بها الاقتراحات؟ والمجالس المتخصصة ذات مواعيد محددة تجتمع فيها الرؤوس ، وتتبادل الآراء وتملأ استمارات المكافآت عقب كل مجلس! ولا نرى من ذلك ومما فوق ذلك مما أعلمه وأكتمه خشية اللجاج ما يدل على نظر فى مستقبل التعليم بالمدارس والجامعة! وكل عام تتكرر النسب المرتفعة في النتائج وتمتلئ كليات القمة بمن نالوا هذه الدرجات، ليكبوا بعد قليل فى أول امتحان، ويسير الأمر فى طريقه المعبد! ولا يفتح أحد من هؤلاء فمه بصيحة انتباه! فلكل امرئ منهم شأن يغنيه!

بين عهدين

وللموازنة بن عهد مزدهر من قبل، وعهد منتكس من بعد، علينا أن نعرف حال المدرسة فى العهدين لتعلم كيف



أثمرت في عهد، وكيف أجدبت في عهد، ففي العهد المزدهر، كان التلميذ يتهيأ للمدرسة الثانوية في أول عهده بالمراهقة فيجد التنفس المريح في مدرسته، إذ في أول أسبوع يبدأ النشاط المدرسي على وجه لا عهد له به من قبل في مستواه الإعدادي . فالنشاط الرياضي يجد الملعب المريح في فناء المدرسة المتسع، وإذا كانت المدرسة في إحدى العواصم الكبرى فلها ساحتها الرياضية التي تتسع للمدارس المختلفة، كما يجد هذا النشاط من المدرسين مهرة مجربين يزاولون النشاط في متعة نفسية قبل أن يكون واجبا مفروضا، والنشاط الأدبي تتعدد فروعه إلى أسر مختلفة . أسرة الخطابة وأسرة الشعر وأسرة القصة . ولكل أسرة أستاذ يقوم على أمرها ممتعا بثقة طلابه، وهم ممتعون برعايته وتوجيهه ، وهم معه في كل أسبوع يتناولون ما بمكتبة المدرسة من صحف ومؤلفات ، ويسألون عما غمض فيجدون الإجابة ثم يتهيئون لكتابة النماذج البدائية للشعر والقصة فيجدون العطف، ويملئون أوقاتهم قراءة وكتابة متى سنحت لحظات الفراغ، وجماعة الأشغال اليدوية ، وجماعة الموسيقى وجماعة الرحلات وجماعة التمثيل، تقوم بنشاطها في تنافس برئ دافع، وحفلات المدرسة في المناسبات المتكررة تفسح لهؤلاء أن يبدوا على المسرح في فترات سعيدة ، يدعى فيها أولياء الأمور فيصفقون للمجيد وتتسع آمالهم في الغد إذ دلت البراعم الناشئة على الزهر المتأرج، في هذا الجو يشعر الطالب أنه أصبح ذا كيان، وأن المدرسة كانت ترويحا له من قيود يجدها في منزله، وتتعدد صداقاته، فيعمر منزله بالصفوة المختارة من زملائه ، وكلهم حريص على أن يكون نابها بين إخوانه، نابها في الدرس ، نابها في النشاط ، نابها في التعامل الشخصي، وللنباهة أعباء تتطلب الجد في العمل، واليقظة في الاستماع عند تلقي الدروس، والحرص على مراجعتها ، هذا هو الواقع الذي شهدناه من قبل وألفناه، فهل له من مثيل يقرب منه الآن ؟!

والأستاذ كان قبل كل شئ مهيئا للتدريس عن كفاءة واقتدار ، إذ لم تكن كليات الأقاليم قد باضت وأفرخت لتهيئ من يوقوق في الفصول دون جدوى، كان ذا راتب شهري يكفيه على ضآلته، فهو آمن السرب مرتاح الخاطر من جهة معاشه، لذلك يقبل على عمله، وفي اعتقاده أن كل تقصير سيحاسب عليه من ضميره، قبل أن يحاسبه الموجهون والمفتشون، لم يكن يفكر في درس خصوصي إلا إذا أتاه برجاء مكرر، وقد عرف تلاميذه معرفة الوالد لأبنائه في الأسرة الواحدة، وكل منهم يحاول أن يكون لديه بالمنزل الأثير، كما درس المقرر وقسّمه تقسيما على مدى الشهور، بحيث لا ينتهي العام إلا وقد استوفاه على أحسن ما يستطيع ، هذه هي المدرسة وهؤلاء هم الطلاب ، وهذا هو المدرس، فلا غرابة أن يطرد السير إلى

العاقبة المحمودة ، دون إرهاق ، ولا غرابة أن ينتقل الطالب من المدرسة إلى الجامعة وقد قام بناؤه الفكرى ونموه النفسى على أساس وطيد ، فإذا أخذ سبعين فى المائة من المجموع فقد نال ذلك عن جهد حقيقي، وهو به سعيد! وقد عرف المسئولون فى الجامعة له قيمة هذا الرقم غير المصنوع، ففتحت أمامه الأبواب ، وخرجت أمثال أحمد زويل ومجدى يعقوب!

أما المدرسة الآن فهى موجودة ببنائها الحجرى فقط ، ولكنها غير موجودة تماما بالنظر إلى مجهودها العلمي، لقد وقر فى نفس التلميذ ولدى الأستاذ وعند ولى الأمر أن الأداء التعليمى فى المدرسة لا جدوى منه ، وأن الدرس الخصوصى هو وحده سبيل النجاح! بمعنى أن التلميذ يستغنى استغناء تاما عن المدرسة، إذ لا جدوى من دروس تلقى بطرف اللسان لقضاء الوقت فحسب، وأولياء الأمور يصرخون من هول الدروس الخصوصية فى كل مادة ، لا فى مادة أو مادتين، والطلاب يقضون أوقات المدرسة فى فراغ شاحب إذ لا يسمعون ما يفيد، فإذا انصرفوا إلى منازلهم تلقتهم منازل المدرسين تباعا . وقد انقسم الوقت منذ العصر إلى بعد العشاء بين عدة دروس فى عدة منازل! والضعفاء من المساكين يسألون أين المجانية المزعومة؟ إنهم مستعدون إلى أن يدفعوا النفقات مضاعفة فوق الذى كان بالأمس على أن يستريحوا من كابوس الدروس فلا يجدون من يسمع !! المدرس يدخل إلى الطلاب ليقرأ عدة صفحات، أو يحل بعض المسائل دون اكتراث بمن فهم أو من لم يفهم، والموجه يأتى فيدرك الواقع على طبيعته ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا . والناظر همه أن ينتظم الطلاب فى الفصول فحسب، ولا عليه إذا وجدوا الدرس النافع أو فقدوه، ودعك من الفصول التى امتلأت حتى التخمة، فأصبح الفصل يجمع الستين من التلاميذ وكأنهم دجاج فى الأقفاص، ودعك من الفناء الفسيح الذى لا وجود له فى تسعين فى المائة من المدارس بعد أن شغل الفراغ بفصول جديدة لتتسع للأفواج المتزايدة كل عام، ودعك من ألوان النشاط المدرسى التى لا يسمع بها أحد ولا ينتظر أن يكون لها صوت خافت ! ثم نفاجأ بعد ذلك بأن من الطلاب من حاز ٩٩٪ فى المائة! كيف أتى هذا؟ إنها طريقة البرشام فى الدروس الخصوصية ، لأن صاحب الدرس الخصوصى من المدرسين لا يثقف عقلا ، ولا يبنى نفسا ، ولا يعلل فكرة، إنما يضع السؤال ، وجواره جواب يجب أن يحفظ حفظا دون نظر إلى محتواه ، والمصحح فى أوراق الامتحان لا يعنيه أن يبحث عن فكر الطالب ، بل عن الإجابة التى وضعت فى البرشام المكتنز، فعليها المعول فى تقدير الدرجات ! ونتيجة لذلك لا يأخذ أعلى الدرجات إلا من ساعدته الدروس الخصوصية على التلقين دون فهم، ليس كل أولياء الأمور ذوى

استطاعة مالية تسمح لأولادهم بأخذ الدروس ، وفيهم من يقترض ليعطى ابنه درسا أو درسين فى مادة أو مادتين ، وتكون النتيجة الأليمة هى عدم تكافؤ الفرص بين طالب فقير لا يجد المعين ، وطالب غنى أمده والده بما رفع رقمه النهائى ، رفعا متوهما لأنه مع التحاقه بكليات القمة ، ولم يعرف غير الحفظ والتسميع ! ولذلك تتعثر خطواته تعثرا أليما فى ميدانه الجديد !

فقدان الثقة !

وأدهى ما يصدم التلميذ فى دراسته الثانوية ، أنه يفقد الثقة في كثير مما يقرأ ، إذ تطالعه مقررات المطالعة والتاريخ والتربية الوطنية بما يكذبه الواقع كل التكذيب ، فهو مثلا يقرأ فى كتب المطالعة أن الأحزاب قبل الثورة قد زيفت الانتخابات ، وصادرت رأى الشعب ، ومكنت الأثرياء من التحكم فى الناس بشراء الأصوات ، ثم جاءت الثورة فصححت هذه الأخطاء ، وأعطت للشعب حريته فى اختيار من يمثله دون إجبار ، يقرأ ذلك فيسأل أستاذه هل تم هذا فعلا ؟ ويسكت المدرس فلا يجيب ، فيقول الطالب إن ما نشهده منذ قامت الثورة فى أمور الانتخاب من تزييف إرادة الشعب ، شبيه بما يقولونه عن الأحزاب ، فلماذا يكذب المؤلفون ، ويقرر كذبهم على الطلاب ؟ فيوافق الأستاذ آنا بالسكوت دون تعليق وآنا بالحق الصريح .

وهو يقرأ فى كتاب التربية الوطنية أن الإدارة المحلية تحقق العدالة المطلقة فى توزيع الخدمات على كل أنحاء البلاد ، بدلا من تركيزها فى المدن الكبيرة دون الريف. فيتساءل ، هل تم ذلك فعلا ؟ يتساءل مستنكرا لأنه يرى مظاهر الجور والمحسوبية والابتزاز فى كثير من الإدارات ، ويشهد بعينيه إقصاء صاحب الحق ، وتقريبا ذوى الزلفى من أصحاب الوساطات ، ويجاهر المدرس بما يراه ، فيوافقه ويقول إن الكتاب المدرسى لا يصور الواقع كما هو كائن ! .

ثم يقرأ فى كتاب التربية أيضا أن الجو الديمقراطى يتمثل فى اتحاد الطلاب بكل جامعة ، وكل طالب يشارك فى انتخاب من يمثله دون ضغط ، وكل طالب يستطيع أن يرشح نفسه دون قيد ، واتحاد الطلاب هو المهيمن على النشاط الطلابى ، مع أنه يعلم أن هذا كله زيف ، وأن الديمقراطية بمنأى عن اتحاد الطلاب! يعلم ذلك مما يشاهده ويسمعه فيسأل الأستاذ عن مدى صحة ما قرر عليه فى درس التربية وكتابها فيجد السكوت تارة ، أو الإقرار بالواقع الأليم طورا آخر .

ويقرأ أن العقوبة شخصية ، ولا عقوبة إلا بقانون ، وأن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ، ثم يرى فى الواقع المشاهد ما يخالف ذلك ، فقد يجد أخاه معتقلا دون تحقيق ، ويحال بينه وبين زيارته فى المعتقل ، ويرى من أصحاب الجرائم من

يتحايلون على القضاء بشهداء الزور ، ثم يكون لهم بعد ذلك وجاهتهم فى الدولة ، وتصدرهم فى المجتمعات ، وكأنهم لم يزاولوا منكرا يعرفه العامة جميعاً ! يرى ذلك فيسأل أستاذ التربية ما معنى أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ، وهو يرى عشرات المعتقلين يساقون إلى الحبس دون محاكمة ! فيسكت المدرس حينا ، وينفجر حينا آخر .

إن هذه المقررات الباطلة بشهادة العيان تفقد الطالب ثقته فى المقررات الصحيحة كثيرا ، لأنه فى عمره العقلى لا يستطيع أن يضع فاصلا بين الحق والبهتان ، وإذا فقد التلميذ ثقته فى كثير مما يقرر عليه من المعارف ، فقد أصبحت المدرسة فى رأيه أداة إعلامية لترويج وجهة معينة ، وليست مكان استنارة عقلية تهدى إلى الحق ، وترشد إلى الصواب ! وقد كانت المدرسة فى عهود سالفة محرابا للحقائق ، وقد تبتعد عن أمور السياسة ولكنها لا تتورط فى الزيف والتمويه ! وهذه الأسئلة لا تدور إلا فى مدارس عريقة لها شهرتها البعيدة فى حقل التربية ، وهى تعد على أصابع اليدين ! أما مدارس الصعيد الأقصى ، والريف البعيد ، فقد أهملت السؤال والجواب معاً ، فى أكثر ما يلاك من الدروس ، فلا طالب يسأل ، ولا مدرس يجيب !

وتبعد عن المدرسة الثانوية لتصل إلى الجامعة ، وهى التى تتلقف الأفواج الزاخرة كل عام ، فتقف وقفة مستأنية بين الطالب القديم الذى أخذ أقل من السبعين . والطالب الحديث الذى نال ٩٩٪ أو ما يقاربها ، فماذا نجد ؟ .

الأستاذ المتمكن

إن الطالب القديم لم يكن أمامه غير جامعتين جديرتين باسمهما الشريف . هما جامعة القاهرة (جامعة فؤاد) وجامعة الإسكندرية (جامعة فاروق) فإذا التحق بكلية من كلياتهما ، فإنه يجد من أول يوم الأستاذ الجامعى المتمكن ، يجده من أول درس يصافح طلابه ليقول لهم ، إن الدراسة فى الكلية غير الدراسة فى المدرسة الثانوية ، الدراسة فى الكلية يشترك فيها الطالب اشتراكا مباشرا ، فلابد أن يبحث ويسترشد بالمصادر ويرجع إلى أستاذه مستفهما عما غمض عليه ، أما الدراسة فى المدارس فالطالب جهاز استقبال فحسب ، ويعد أن يؤكد ذلك يتحدث عن المادة التى يدور حولها البحث ، فيعطى تصورا مقاربا لما سيكون، ثم يأتى الدرس الثانى ، فيقدم للطالب كشفاً بأسماء المراجع التى يجب أن يستشيرها فى مكتبة الكلية أو فى دور الكتب الخارجية ، ويطلب من النابهين أن يوافوه بملخص لما يقرءونه بعد أن سمعوا الدرس موجزاً يحتاج إلى تفصيل ، وهنا ينشط الطلاب فيقرءون ويأتون بالجديد للأستاذ ، فيجدون التشجيع ، وتكون فرصة طيبة لاحتضان النبهاء ، وحث

الكسالى ! وعلى هذا المنوال تتوالى الدروس ، ولا تنتهى السنة الأولى إلا وقد عرف الطالب كتبا شتى ، وآراء مختلفة ، ووضع قدمه على الطريق الصحيح !

وقد يكون للأستاذ كتاب ، ولكنه لا يفرضه ، ولا يكتفى بما قيل فيه ، وحسبه أن يشير إلى مكانه فى دار النشر النائية ، وقد يرجع إليه الطالب أو يلتقى بكتاب زميله إذا لم تتيسر وسائل شرائه ، فما عليه من بأس ، ثم تكون الندوات العلمية ، والرحلات الاكتشافية ، والسهرات الترفيهية فى مواسم تتكرر ، وكلها تحمل طابع التثقيف ، ولا ينتهى أمر الجامعة حتى يكون حامل الليسانس أو البكالوريوس جديرا بما حاز من درجة ، فيفخر بانتسابه للجامعة ، ويعد من أساتذته من يذكرهم مباهيا ، وفيهم من يصر على مراسلته مشوقا فيتلقى الرد العاطف والجواب المريح!

هذا بعض ما يقال عن الطالب القديم، أما طالب هذه الأيام فماذا يجد؟

أنا لا أنكر الفضل على أهله ، فلا يزال فى هيئة التدريس نفر يخلصون للمعرفة ويقدرون رسالة الجامعة ، ولكنهم - علم الله - لا يبلغون عشرين فى المائة على أكثر تقدير ! وإذن فثمانون فى المائة هم الذين ينحدرون بالتعليم الجامعى إلى أسفل سافلين !

يأتى الدرس الأول فى مطلع العام ، فإذا المدرس الناشىء (وغير الناشىء) يسارع فى الأسابيع الأولى ، ليتحدث عن كتابه الذى يجب أن يشتريه الطالب ، وينتخب طالبا يتفرس فيه النشاط الحيوى ليكون المختار فى رواج الكتاب ! وفى الدروس التى يقوم بإلقائها نجده يقرأ من صفحات الكتاب ، وكأن القراءة هى كل شىء ، فيهمل فصولا ذات بال . لأن شرحها يصيبه بالإرهاق ، وقد كتبها ليتضخم الكتاب ، فيتضخم الثمن ، ولا يستحى المدرس الناشىء (وغير الناشىء) أن يثير فى كل محاضرة ، تهديده لمن يحاول تصوير الكتاب ، وأن هذه الجريمة النكراء تدفع بصاحبها إلى السجن ، فالطرد من الكلية ، وأنه يعرف أن فى الطلاب من لا ضمير لديهم فيقترفون هذا الجرم الفاحش، الذى تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ، ثم إن له عيونا ستبحث عن الجانى الأثيم!! لقد يعدنى القارىء مبالغا مفرطا لا سيما وقد استشهدت بالنص القرآنى الشريف ، ولكنى أقرر أن هذا بعض ما يحدث . لأن الحمى قد تلبست بعنف مجنون بعض «الوراقين» ولا أقول المؤلفين ، فهم من التأليف الحقيقى بمكان بعيد ، فأخذوا يهذون بمسألة التصوير هذه ! وإذا كان التصوير جرما ، فإن أشد منه وأخطر فى ميدان الجريمة أن يغفل المدرس الشرح ، وأن يكتفى بالقشور عن اللباب ، وألا يحاول أن يفسر بعض ما سطره فى الكتاب إلا بتثاقل كريه ! فإذا

سئل عن مسألة به ، قال إن الكتاب يحوى كل شيء !! لقد قرأت منذ أيام حديثا بديعا للأستاذ الكبير طارق البشرى بجريدة (صوت الأزهر) يقول فيه إن الأستاذ العلامة عبد الوهاب خلاف أستاذ الشريعة بكلية الحقوق ، كان يدرس له ولزملائه مادة «أصول الفقه» فيفيض فى حديث مسترسل شافٍ ، كأنه ماء يترقرق فى نهر صاف ، ولا يبلغ ما فى كتابه معشار ما يلقيه . والطلاب منجذبون مستمتعون . وكأنهم يستمعون إلى قصة بارعة ، والمادة هى مادة الأصول أعقد المواد ، وأشدها غموضا ، ولكنها استحالت على يده نغما مطربا ! هذا ما أذكره من كلام الأستاذ طارق بمعناه العام لا بلفظه فالجريدة ليست تحت يدى الآن ! ومن هنا استطاع أمثال عبد الوهاب خلاف ومحمد أبى زهرة وعبد الرازق السنهورى أن يكونوا المثل الأعلى للأستاذ الجامعى فى كلية الحقوق ! ولكن مدرس اليوم فى أكثر أحواله . لا يقيم العربية ، ويتحدث فى درس الأدب بالعامية! لأنه تعلم على من لا يعلو عنه إلا فى السن فحسب ، وتشبه به إلقاء وتأليفا وخواء فجلت المأساة !

أما الدروس الخصوصية . فقد أصبحت كأنها حق مشروع بكثير من الكليات ، تؤلف لها المجموعات جهارا ، يؤلفها الأستاذ بنفسه ، أو من ينوب عنه من تلاميذه، ومن أندر ما سمعت فى هذا الباب ، أن معيدا فى كلية من ذوات الأعداد الضخمة فى السنة الواحدة ، جعل يترصد كل طالب أو طالبة يأتى الكلية بعربة خاصة ، فيتصل به طالباً أن يلتحق بمجموعة تعد ، ويباهى بأن الأستاذ هو صاحب الأمر فى النجاح والرسوب والتعيين بعد التخرج وقد تصادف أن أتى طالب فى عربة أجرة لا عربة خاصة ، وتركها فى مستقرها ليعود بها ، فجاءه المعيد النشيط يطلب منه ما اعتاد عليه ، فقال الطالب ، إن العربة ليست له ، وإنه يعمل سائقا عليها بعد الظهيرة ، كى يعول أسرته ، فقال المعيد إذن أنت تكسب ، وتجرى النقود فى يدك ! وكرر الطلب ! فيالله ، يقوم طالب مثقل مسكين بمجهود شاق ليعول الأم الأيم . والأخوات اليتيمات، مكسورات الجناح ، ثم يطلب منه هذا الوصولى الوغد أن ينضم إلى مجموعة الدرس الخصوصى ! لأنه يكسب نقودا تجرى فى يده ! يكسبها لمن ؟ لأستاذ مرموق كبير يجلس فى المدّرج منتفخا ، ولا كمجلس كسرى فى الإيوان ! أليست هذه كوارث !

لقد بلغت القدر الذى أنتهى إليه فى تحرير مقالى ، وفى النفس أشياء أخر قد أفصح عنها فى مناسبة تطرأ إذا شاء الله أن أكتب !

مضى بها ما مضى من عقل شاربها
وفى الزجاجة باق يطلب الباقى.

العولمة

بعض معالم الفوضى وغياب المعايير

بقلم : جميل مطر

فى أواخر كل حرب عالمية كبرى أو صغرى أو فى أعقابها وأعقاب الكوارث الانسانية العظمى تتجدد دعوة المفكرين ورجال السياسة لإقامة حكومة عالمية. فالعالم - حسب رأى هؤلاء - نظام من الفوضى. يختلف عن الدولة من حيث أن الدولة «الحكومة» تضبط حركة المجتمع وأفراده وتضع المعايير الأخلاقية وتضمنها تشريعات وقوانين وتشهد على تنفيذها بما لها من حق فى احتكار القوة داخل حدود الدولة. وإذا فقدت الدولة أو المجتمع أحد هذه الشروط سادت الفوضى بشكل أو بآخر وبدرجة أو أخرى، حتى تقوم حكومة جديدة تستعيد الشرط المفقود وتعيد المجتمع الى حالة الانضباط. أما العالم فرغم وجود عدد من التشريعات العرفية أو التى تتضمنها الاتفاقات والمعاهدات الدولية، ورغم وجود مجلس الأمن وحقه فى التدخل لاقرار الأمن والسلام الدوليين، أنه - أى العالم - مازال يفتقر الى شروط متعددة، أهمها عدم وجود سلطة مركزية كتلك التى توجد فى الدولة ولذلك توجد فوضى، وأحيانا تتفاقم .

ومن الشروط المفقودة، العدالة والمساواة والمشاركة. ففى النظام الدولى تتفاوت المستويات الى درجة خطيرة. إذ بينما توجد دول تشكل ما يسمى بالنادى النووى، أى دول بترسانة كبرت أو صغرت تحتفظ فيها بأسلحة نووية وصواريخ عابرة للقارات أو عابرة للحدود، توجد دول لا تملك من القوة المسلحة ما يحمى حدود قصور حكامها ومباني الدولة. هذه الفجوة في حد ذاتها كافية لأن تتسبب في الفوضى. فالدول الصغيرة، أو الضعيفة، ستشعر دائما بعدم الاطمئنان والخوف من عدوان، أو حتى من مجرد التهديد بعدوان، تشنه دولة نووية. بل أن مجرد تجاور دولتين، إحداهما نووية والأخرى مزودة بأسلحة تقليدية قليلة أو كثيرة كفيل بأن يتسبب فى حالة توتر دائم. هنا تلجأ بعض الدول الأضعف الى «السلاح الموازى» أو «الحرب السوداء» كما فى الاقتصاد، بهدف تضييق الفجوة. هكذا نشأت حركات التحرير، وهكذا مارست قوى التحرير نضالها العسكرى ضد القوى الاستعمارية والتدخل العسكرى الأجنبى والاحتلال. وهكذا أيضا انتشرت منظمات العنف، التي اتفقت معظم الدول الأقوى عسكريا على تسميتها منظمات الارهاب. وبعيدا عن الحكم عليها سلبا أو ايجابا وبعيدا عن تبرير وجودها، تبقى هذه المنظمات تمثل نوعا من محاولات سد الفجوات بين الأقوى والأضعف. وكل ما يمكن قوله في هذا الشأن، أنه بينما يبالغ الأقوى فى ممارسة قوته والاستفادة من رجحان كفة التوازن لصالحه، يبالغ الضعيف فى استخدام القوة بصورتها البدائية أو شديدة العنف أو المتسللة سرا بدون انذار أو إعلان حرب مسبق. فى الحالتين لا يعتمد الأمر للأسف على معيار أخلاقى واحد منظم للعلاقة بين الأقوى عسكريا والأضعف .

الفقر يزداد !.

ويفتقر النظام الدولي الى العدالة الاجتماعية. وحين أقول عدالة اجتماعية لا أقصد المساواة بين الأغنياء والفقراء وإعادة توزيع الثروة بالتساوى بين شعوب تنتج وشعوب لا تنتج، أو بين دول تحكمها القوانين ودول يحكمها الفساد والعلاقات الشخصية. وإنما أقصد الفرص المتساوية بدون ظلم من جانب الأغنى والأقوى، وأقصد وجود حد أدنى من المسئولية الاجتماعية لدى الأغنياء. إذ لا يجوز أن يدعي الأغنياء.. وهم المستفيدون من العولمة مثلا، أن العالم قرية صغيرة، وأن المسافات قد اختصرت بين الدول، وفى نفس الوقت يتجاهلون أن فى هذا العالم الذى أصبح فى حجم القرية بسبب تقدم وسائل الاتصالات والمواصلات، شعوبا أو جماعات تموت بأعداد كبيرة بسبب الفقر والمرض، وتموت أيضا بسبب ثالث لا يقل

أهمية، وهو حروب الفقراء. ففى ظل تقدم مسيرة العولمة واحتلالها مكان الصدارة بين الأيديولوجيات «غير الأيديولوجية» كما يصفها مبشرو العولمة، اتسعت رقعة الفقر فى العالم الى حدود غير مسبوقة فى التاريخ الانسانى. وهنا يتعاظم التناقض المدمر. فقد ضاقت المسافات الجغرافية التى تفصل الأغنياء عن الفقراء، وفى نفس الوقت اتسعت المسافات بين المكنوز والمستهلك من الثروة عند الأغنياء من ناحية والعدم أو مايشبه العدم عند الفقراء من ناحية أخرى. بمعنى آخر أصبحوا ، أى الفقراء والأغنياء، على مرمى بصر الطرف للآخر. هذا يرى النعم والطيبات التى يتمتع بها الآخر، والآخر يرى العدم والجدب والأمراض التى يعيش أو يموت فيها الفقراء. والمؤكد فى هذه المرحلة التى نعيشها فى ظل العولمة أن المعلومات عن الثروة والغنى والرفاهة متوفرة للجميع، وكذلك المعلومات عن العدم والجدب والفقر. يستطيع الأغنياء دولا وجماعات وأفرادا، لو مدوا أيديهم أن يلمسوا الفقراء ولو أمعنوا النظر أن يكتشفوا تفاصيل أحوالهم، ولو ركزوا على الفهم أن يتنبأوا بحجم الخطر الذى يهدد استمرار العولمة وينذر بفوضى مدمرة.

★ ★ ★

والأمثلة كثيرة على خطورة المسافة التى تبدو قصيرة للغاية بينما هى أيضا بعيدة للغاية. اذ يخلق هذا النوع من التناقض حالة شكوك وشعور بالخداع لدى أكثر من ثلاثة مليارات من سكان العالم الذين يعانون الجوع كليا أو جزئيا ويوما أو متقطعا. خذ الدواء نموذجا على ما تفعله أيديولوجية العولمة وممارساتها فى صنع هذه الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى القرية الكونية.. ففى أفريقيا يستعملون منذ سبعين عاما عقارا يعالج مرض النوم، وهو مرض قاتل يتسبب فيه الذباب الناقل لجرثومة هذا المرض من إنسان أو حيوان الى آخر. يتعاطون هذا العقار عن طريق الحقن فى الوريد. وهو ليس العقار الأمثل ولكنه الوحيد رغم أنه يقتل حوالى خمسة بالمائة من المرضى، ويجعل الوريد الذى ينساب فيه غير صالح لأنه يتسبب فى تآكل جدرانه الداخلية. وكان الظن خلال السنوات الأخيرة أن هذا المرض قد قضى عليه، مثله مثل السل والملاريا والكوليرا والجدرى، واذ به عائد مع كل تلك الأمراض متفشيا بشكل رهيب.

أدوية لمنع انتشار الأمراض !

لم تنته القصة . كان المتوقع أن العالم الذى صار فى حجم القرية الكونية المتقدمة تكنولوجيا وبالذات فى مجال الحيويات سينتفض وبسرعة لانتاج أدوية

تمنع انتشار هذه الأمراض على نطاق واسع. وقد تحمس بالفعل باحثون في شركات عملاقة تنتج الأدوية وتوصلوا الى عقار جديد أقل خطورة من العقار القديم نزل الى الأسواق في شهر يوليو الماضي، وقبل مرور شهر سحب من الأسواق لأن الشركة العملاقة اكتشفت أنه غير مربح اقتصاديا. بمعنى آخر توقفت الشركة العظمى عن انتاج دواء ينقذ الملايين من البشر لأن هذه الملايين فقيرة ولا تستطيع أن تدفع ثمناً مرتفعا لدواء يعود بالربح على الشركة. ثم تبين أن الشركات كانت قد توقفت أيضا عن انتاج عشرات بل مئات من الأدوية الضرورية لعلاج الأمراض الأخرى التي بعثت من جديد، ولايقوى الفقراء على شرائها. إن الدواء الوحيد الناجح في علاج السل الذي يقضي على ملونين كل عام، دواء عمره ثلاثين عاما. ورغم قدمه ورغم التقدم الهائل في التكنولوجيا الحيوية والكيمائية لم تحاول حتى الآن شركات الأدوية انتاج دواء أفضل.

صحيح أن أفريقيا تمثل واحدا بالمائة فقط من سوق الدواء في العالم، ولكن يعيش فيها أكثر من خمسة عشر بالمائة من سكان القرية الكونية. الأفارقة لا يشترون لأنهم فقراء فيموتون، والأمريكيون والأوربيون واليابانيون يشترون لأنهم أغنياء فيعيشون لذلك يقول جيمس أوبرنيسكي رئيس منظمة أطباء بلا حدود وهي المنظمة الحائزة على جائزة نوبل .. «لقد تعبت من منطق يقول.. من لا يقدر على الدفع يموت».. وهو منطق تكاد تصرخ به جهارا وبدون خجل أو حرج شركات الأدوية التي تتنافس فيما بينها على اختراع أدوية لعلاج سقوط الشعر وأدوية لازالته. هذه الشركات تستثمر ماقيمته ٢٧ مليار دولار سنويا في البحث العلمي لتنتج أدوية لعلاج العجز الجنسي والاكتئاب والكولسترول والحساسية ولا تخطط لانتاج أدوية رخيصة لعلاج أمراض مثل البلهارسيا والملاريا والنوم والسل والكوليرا والايدز.

وقد لا يعرف الكثيرون أنه من بين ١٢٣٣ عقارا جديدا صدر ترخيص بانتاجه في الفترة من ١٩٧٥ الى ١٩٩٧، انتج ثلاثة عشر دواء فقط صالح لأمراض المناطق الحارة. حتى هذه الأدوية الثلاثة عشر، أربعة منها انتجتها شركات بغرض المساعدة في علاج الفقراء، أما التسعة الأخرى فقد أنتجت بتكليف من وزارة الدفاع الأمريكية لخدمة أهداف الحرب في فيتام سواء لقتل الأعداء أو علاج الجنود الأمريكيين. وأدوية انتجت لعلاج الكلاب والقطط. والمذهل أن شركة من هذه الشركات العظمى رفضت انتاج أدوية لأمراض الفقر ولكنها انتجت دواء لعلاج «قلق الفراق» عند الكلاب. ولكن هذه

ليست أسوأ مصائب صناعة الدواء فى عصر العولمة، المصيبة ليست ألا تنتج دواء الا اذا كان انتاجه مربحا، ولكن المصيبة أن تعود المسئولية الوحيدة فى اتخاذ قرار فى هذا الشأن الى جماعة هلامية أو حقيقية تدعى «حملة الأسهم». هؤلاء، يقال عنهم أنهم، لن يستثمروا فى مشروع تجارى الا إذا كان رابحا. هؤلاء، يقال أنه لا يجمع بينهم ضمير اجتماعى أو وازع أخلاقى، قد يكون لكل واحد فيهم منفردا التزاماته الأخلاقية والاجتماعية، ولكنه كصاحب سهم له حسابات مختلفة. هؤلاء هم الطاقة المحركة للعولمة. بدونهم لا عولمة. وبالتالى لا تقدم تكنولوجى ولا ثورة فى الاتصالات والمعلومات ولا قرية كونية.

ضبط سلوك العولمة !

هذه هى الفوضى، كما أراها، أو كما أتصورها قبل أن تتفاقم أكثر فأكثر. والسبب أنه لا يوجد «نظام» يضبط سلوك العولمة. ولذلك كان اعجابى كبيرا بتوماس فريدمان الكاتب والصحفى الأمريكى، وهو الرجل الذى كنت انتقدت كتابه ذائع الصيت عن العولمة انتقادا شديدًا. فوجئت به يكتب مقالا ينبه لخطورة بعض الأوضاع الناجمة عن العولمة. ويحدد خمسة أوضاع تتعلق بالتطورات المتسارعة فى موضوعات بعينها هى :

أولا : فيروسات الكومبيوتر وبخاصة بعد الهجمة الأخيرة من فيروس الحب الذى قضى فى ساعات قليلة على ملفات تساوى ملايين الدولارات فى عشرة ملايين جهاز كومبيوتر.

ثانيا : الايفرنت، أى مرحلة ما بعد الانترنت، وهى الشبكة التى سترتبط بين كافة الأجهزة المنزلية والمكتبية .. بمعنى وجود شبكة واحدة تسيطر على كل شىء يعمل بالطاقة الكهربية فى المنزل والمكتب معا بما يحقق تناسقا كاملا وانضباطا فى المواعيد. صحيح أن هذه الشبكة تجعل الانسان أشد قدرة على إدارة الأشياء ومراقبتها عن بعد، ولكنه صحيح أيضا، وهو الأخطر، أن الشبكة ستجعل هذه الأجهزة قادرة على تسيير الانسان والتحكم فى إرادته وأمزجته وهواياته وحياته الشخصية، هنا تشبه هذه الشبكة، ولكن بطريقة مختلفة، الهيمنة التى تمارسها على الانسان شركات بطاقات الائتمان، والاختراق الذى حققه الانترنت لحياة الفرد الشخصية، بل وتعريته بعد خلع ثم نزع ثم نشر كل خصوصياته على الملأ. وفى الواقع، ويصدق فريدمان حين يقول أن «الأخ الكبير» الذى تصوره جورج أورويل فى شخص الحاكم المستبد الذى يعرف كل صغيرة وكبيرة فى حياة وتصرفات المواطن، يتجسد الآن فى هذا الكومبيوتر الراقد هادئا ساكنا فوق المكتب، بينما هو

فى الحقيقة يرصد ويسجل كل حركة وكل انفعال وكل رغبة عند صاحبه .

ثالثا : بدء مرحلة جديدة فى السباق القديم بين المستهلك وشركات الانتاج على حيازة المنتج دون دفع مايستحق باسم حقوق الملكية الفكرية. فالمستهلك الآن أشد قدرة من أى وقت مضى على الاستمتاع بمنتج دون استئذان الطرف الذى أنتجه .

خريطة الحياة

رابعا : يقول فريدمان أن موعدين حاسمين فى مفكرة العولمة يقتربان، وكلاهما متصل بقضية حاسمة، فقد اقترب موعد إقامة سوق مالية موحدة تعمل على مدى ٢٤ ساعة وتغطى العالم بأسره. ولا يعرف خطورة هذا التطور الا من اختبر الثورة المالية ومكانة الأسهم والسندات والتجارة فيها فى الاقتصاد العالمى الراهن. وأعلن عن الانتهاء من الخطوات الأساسية فى مشروع فك رموز خريطة الحياة، وسيكون بين يدى العلم الخريطة التى تشرح وتتبع التفاعلات بين جميع أعضاء الجسم البشرى مما يعنى قدرة أعظم على علاج الأمراض، ولكنه يعنى فى نفس الوقت الاقتراب بشكل مخيف من عملية «تكوين» كائنات حية أو على الأقل تغيير طبائع وأشكال المخلوقات.

بكل المعايير لا نستطيع أن نتجاهل خطورة هذه التطورات. إنها أخطر من حرب عالمية. وقد تكون أشد فتكا بالبشرية من أبشع الكوارث فى تاريخ الانسانية. أو قد تكون الأكثر فائدة والأنفع لهذه البشرية من كل الانجازات التى حققتها عبر التاريخ. وقد تجمع مثل معظم التحولات العلمية العظمى الشر والخير معا. فى كل الأحوال نحن - أى الانسانية - على مقربة من مفترق طرق - عند هذا المفترق سنجد أنفسنا مجبرين على اتخاذ قرارات حيوية تتعلق بمستقبل هذا الانسان، وهذه الحياة، وهذه الأرض التى نعيش عليها. ولكن لا قرار من هذه القرارات التى سيتعين علينا اتخاذها نحن مستعدون له. فالأمر عند ذاك لن يكون أمر قرار نتخذه أو لا نتخذه.. وإنما وفق أى معيار أو معايير سنتخذه .

والحديث عن المعايير حديث طويل، يبدأ عند ضرورة اختراع «حاسب أخلاقى» يستخدمه انسان عصر العولمة ليخصم ويجمع ويضرب ما عاد اليه من فائدة مادية وما عاد عليه من خسائر معنوية واخلاقية فيعرف فى غده أى قرار سيتخذ فى شأن هذا الأمر او ذاك، ولعلنا الآن، وأقصد كلنا، كمتعاملين مع العولمة، نواجه هذه المعضلة مرة كل يوم ان لم تكن مرات عديدة .

الشرق والغرب .. فى النموذج الثقافى

ثقافة التوحيد لله .. والاستخلاف للإنسان

بقلم : د. محمد عمارة

إذا كانت هذه هى خصوصية الإسلام، التى عظمت من دوره فى صياغة النموذج الثقافى لأمته وحضارته.. فإنه فى بناء هذا النموذج العديد والعديد من «اللبنات» .. والتى تقف هذه الصفحات -مراعاة للحيز والمقام- عند تقديم نماذج منها تعين على تصور دور الإسلام - مقارنا بالتصور الغربى خاصة - فى صياغة النموذج الثقافى المتميز للأمة العربية والإسلامية.. فهى «لبنات» قد مثلت «خصوصيات» ميزت هذا النموذج الإسلامى فى الثقافة عن غيره من النماذج الثقافية الأخرى..

التوحيد

لقد بلغ الإسلام، على درب عقيدة التوحيد، الذروة فى تنزيه الذات الإلهية عن أى تعددية أو تركيب أو مماثلة أو شبه لأى من المخلوقات والمحدثات، وصاغ للخالق تصورا تجريديا بلغ فى التجريد اقصى ما يطيقه عقل الإنسان..

(قل هو الله أحد .. الله الصمد.. لم يلد ولم يولد.. ولم يكن له كفوا أحد..)[1] وهو سبحانه وتعالى، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[2] .. حتى لقد اجتهد علماء اصول الاعتقاد الاسلامى، كى يعبروا .. باللغة البشرية .. عن هذا التصور التنزيهى التجريدى الذى جاء به الاسلام للذات الإلهية، فلم يجدوا إلا طريق الوصف بالسلب. فقالوا عبارتهم الشهيرة : «كل ما خطر على بالك . فالله ليس كذلك»!.

فهو سبحانه مفارق ، ليس فقط

للمخلوقات وإنما ايضا، لكل التصورات الإنسانية عن هذه المخلوقات .

قدم الإسلام هذا النموذج للتوحيد، فى مقابل اليهودية التى تحولت، بالتحريف إلى وثنية صورت الإله مصارعا؟! وجعلته إلها لبنى اسرائيل وحدهم.. وللشعوب الأخرى آلهتها الأخرى ؟!.

وفى مقابل نصرانية اغتالت الغنوصية توحيدها فسقطت فى الحلول والتجسد وتعددية التثليث ؟!

ولم يقف الاسلام بهذا التصور التنزيهى والتجريدى للتوحيد عند نطاق الاعتقاد الدينى فى ذات المعبود، وإنما اشاعه روحاً سارية فى ثقافة الانسان المسلم، وذلك عندما جعل من عقيدة التوحيد ثورة لتحرير الإنسان الموحد من العبودية لسائر الطواغيت .. ففى العبودية للمعبود الواحد قمة التحرر من أسر واستعباد كل ماعدا الله.. ومن هنا تحول التوحيد ، ويتحول الى حياة يحياها الإنسان دائما وأبدا وليس فقط إلى تصور عند الشعائر والعبادات ..

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين.. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا اول المسلمين)[٣] ..

وهذا التصور الإسلامى الذى يخلص العبودية لله الواحد فى كل الميادين الدينية والدنيوية والأخروية (صلاتى ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له) هو الذى ميز النموذج الثقافى الاسلامى بتصور متميز لنطاق عمل الذات الالهية انفردت به الثقافة الاسلامية عن غيرها من الثقافات .

- ففى الارسطية اليونانية كان التصور للذات الالهية باعتباره مجرد خالق للعالم .. خلقه وانتهت علاقته به .. وتدبيره موكول الى الاسباب الطبيعية والمادية المودعة فى ظواهره وقواه .

- وفى الوثنية الجاهلية كان التصور لنطاق عمل الذات الالهية قريبا من هذا التصور الارسطى.. فالوثنيون فى الجاهلية لم يكونوا ينكرون الله خالقا للمخلوقات (.ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)[٤]..

لكنهم كانوا يشركون معه الطواغيت والأوثان في تدبير العمران الدنيوى فيلجأون الى هذه الأوثان إذا أرادوا الحرب أو السلم ، السفر أو الحل، الإقدام أو الاحجام .. الخ.. الخ.. فجعلوا الله خالقا ..

ووقفوا بنطاق عمله عند الخلق ..

وجعلوا تدبير العمران للشركاء والطواغيت (.. فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا)[٥] ..

- وقريبا من هذا التصور الذى يعزل الذات الإلهية عن تدبير العمران الإنسانى ويحرر سياسة هذا العمران من شريعة السماء قريبا من هذا التصور جاء التصور اللاهوتى النصرانى .. عندما قال : «دع مالقيصر لقيصر وما لله لله »، فحرر «قيصر» أى الدولة والمجتمع والعمران.. من قانون الله وشريعة السماء، جاعلا تدبير العمران إلى المرجعية الإنسانية وحدها ..

- ولذلك كان التصور العلمانى الغربى - الوضعى .. والمادى طبيعيا فى ذلك الإطار.. فهو عندما رأى العالم مكتفيا بذاته، والطبيعة تديرها الأسباب المادية المركبة فى ظواهرها وقواها ، والدولة والاجتماع البشرى يديرهما ويسوسهما الإنسان بالعقل والتجربة .. إنما كان إحياء حديثا للتصور الارسطى لنطاق عمل الذات الإلهية.. الخلق دون الرعاية والتدبير.. كما كان تصحيحا رد الكنيسة .. التى تجاوزت رسالة النصرانية ، عندما جمعت السلطة الزمنية الى السلطة الروحية.. ردها إلى نطاق التصور اللاهوتى لرسالة نصرانيتها ولنطاق عمل إلهها.. «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ..

- أما التصور الاسلامى فقد جاء متميزا عن جميع تلك التصورات.. فالتوحيد فيه يفرد الذات الالهية ، لا كمجرد خالق وفقط، وإنما هو الخالق والراعى والمدبر لجميع المخلوقات.. فالأمر والتدبير له ، سبحانه وليس الخلق فحسب.. (ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين..)[٦] (قال فمن ربكما يا موسى. قال ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى)[٧] (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[٨] .

وبهذا التصور الإسلامى للتوحيد.. ولنطاق عمل الإله الواحد.. تميز النموذج الإسلامى، وسرى هذا التميز فى الثقافة الإسلامية عندما صاغ هذا التصور المتميز النفس التى تصورت الذات الالهية على هذا النحو من التنزيه والتجريد والتى رأته المدبر لكل المخلوقات ، والحاكم فى مختلف ميادين العمران ..

الاستخلاف .. والخلافة :

وإذا كان هذا التصور التوحيدى، قد جعل الحكم والتدبير .. مع الخلق -

لله سبحانه وتعالى.. فإن نظرية الاستخلاف الإسلامية قد حددت مكانة الإنسان ونطاق عمله وآفاق حريته وقدرته واستطاعته في العمران البشري، الذي اختار عمل امانته عندما استخلفه الله فيه فالتثوير الإسلامي عن أن الحكم لله، واضح أشد الوضوح (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه.. ذلك الدين القيم)[٩]..

لكن الله استخلف الإنسان لإقامة العمران في الأرض (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)[١٠].. (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)[١١] .. وحتى ينهض الإنسان بتكاليف إقامة العمران وأمانات الاستخلاف ميزه خالقه بالاختيار والحرية والقدرة والاستطاعة .. إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)[١٢] .. فكانت مكانته هي مكانة الخليفة المتمتع بالحريات، والمالك للقدرات لكنها حريات وقدرات الخليفة المكلف بأن يضبطها ببنود عقد وعهد الاستخلاف .. فهو ليس المجبر المهمش الذي لا شأن له.. وليس سيد الكون الذي لايسأل عما يفعل والفعال لما يريد ، والذي لا سقف لحرياته وقدراته.. وإنما هو خليفة لسيد هذا الوجود ، استخلفه وأراد له استعمار الارض عمرانا يهتدي فيه ويلتزم عند تدبيره ببنود عقد وعهد الاستخلاف التي تمثلت في شريعة الله .

ولقد قدم الاسلام هذا التصور لمكانة الانسان في الوجود .. تصور الخلافة والاستخلاف فتميز به النموذج الاسلامي عن التصورات المادية التي رأت الإنسان سيدا لهذا الوجود ، مكتفيا بذاته، قاهراً للطبيعة، لا سقف لحريته وإرادته إلا اطار النفع العام ولا قيود على أشواقه من وراء هذه الطبيعة من الحلال والحرام الديني ..

كما تميز هذا النموذج الإسلامي، في مكانة الانسان بالوجود عن التصورات الفلسفية الغنوصية والباطنية والإشراقية التي رأته.. حقيراً مجبرا مهمشا لا سبيل الى خلاصه الا بالفناء في المطلق ..

ولقد عبر الإمام ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ ٩٩٤-١٠٤٦م) بعبارة بالغة عن هذا الاستخلاف الذي جعل الله فيه الانسان حاكما كمستخلف «عن الله الذي له الحكم والأمر والتدبير .. فقال : «إن من حكم الله أن يجعل الحكم لغير الله» ؟! فحكم الانسان

وخلافته هما حكم من الله الذى حكم وقضى باستخلاف الإنسان فى إقامة العمران ..

وكما تجاوز التصور التوحيدى الاسلامى نطاق الاعتقاد فى علاقة الإنسان بخالقه ليشيع فى ثقافة الإنسان المسلم.. كذلك كان الحال مع نظرية الاستخلاف ..

- فحقوق الإنسان .. التى ارتفع الاسلام بدرجاتها الى مراتب الفرائض والواجبات والضرورات - هى حقوق الإنسان الخليفة.. ولذلك فهى محكومة بحقوق الله .. وليست كالحال فى التصورات الأخرى، محكومة فقط بالمصلحة الدنيوية والمنفعة المادية.. بل إن المصلحة ذاتها فى التصور الاسلامى لابد وأن تكون شرعية.. معتبرة ..!

فبنود عقد وعهد الاستخلاف المتمثلة فى حدود الله من الحلال والحرام الدينى .. هى الضابط والسقف لهذه الحقوق.. لأن صاحبها خليفة ونائب ووكيل .. وليس سيد هذا الوجود ..

- وحظ الإنسان من الثروات والأموال وعلاقته بها، وموقعه منها، هو موقع الخليفة المستخلف فيها.. وحريته فى الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف .. ذلك أن المالك الحقيقى .. مالك الرقبة .. فى هذه الأموال، هو خالقها سبحانه وتعالى وللإنسان فيها مكانة الخليفة والنائب والوكيل.. له فيها ملكية المنفعة - المجازية - وحرية الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة بحدود الله فى الحيازة .. وفى الانفاق .. وفى التكافل الذى يحقق وحدة الجسد الإسلامى .. الخ..

«آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير»(١٣) ..

- وإذا كانت الأمة والجماعة هى المستخلفة لله، سبحانه وتعالى، فإن الدولة فى النموذج الاسلامى هى دولة الخلافة، أى المستخلفة عن الأمة للنهوض بالمهام التى استخلصتها الأمة فيها.. فتميز التصور الإسلامى للدولة ايضا، تبعا لتميز هذا النموذج بنظرية الاستخلاف .. ولذلك لم تكن صدفة أن يطلق المسلمون على نظام الدولة منذ العصر الراشد دولة الخلافة .. بل إن الحديث النبوى قد شهد بهذا التميز لهذا النظام عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى، وإنه لا نبى بعدى، إنه

سيكون خلفاء[١٤] .. وبدولة الخلافة تكون حراسة الدين ، وسياسة الدنيا بهذا الدين .

– وكما استخلف الله الإنسان لعمارة الدنيا، فإنه قد كلفه بإقامة الدين «.. شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[١٥] .. فكان مستخلفا فى إقامة الدين وفى بناء العمران ، على النحو الذى يكون فيه الدين سائسا للعمران، ويصير فيه العمران اساسا لإقامة الدين .. وعن هذه الحقيقة من حقائق التصور الاسلامى لعلاقة العمران بالدين يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ) (١٠٥٨ – ١١١١م): (إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا).

فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة لا يتوصل اليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن، والأقوات والأمن فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية وإلا ، فمن كان جميع اوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة؟! فإذن بان ان نظام الدنيا، اعنى مقادير الحاجة شرط لنظام الدين[١٦] ..

وهكذا يتميز التصور الاسلامى فى علاقة الدين بالعمران الدنيوى على النحو الذى يقيم علاقات «الجدل» و«الارتفاق» بينهما ، كما لم يوجد فى تصور آخر من التصورات التى سقطت فى الثنائيات المتقابلة والمتناقضة كما غدا هذا التصور الاسلامى المتميز سمة شائعة فى النموذج الثقافى الاسلامى ، ميز النظرة للدين والعمران كليهما عن نظيرتها فى الانساق الثقافية الاخرى ..

الهوامش

١– الإخلاص : ١ –٤ . ٢– الشورى : ١١ . ٣– الانعام : ١٦٢ – ١٦٣ ٤– العنكبوت : ٦٣ ٥ – الانعام : ١٣٦ ٦– الاعراف : ٥٤ . ٧– طه : ٤٩ – ٥٠ . ٨ – الانعام : ١٦٢ – ١٦٣ . ٩– يوسف : ٤٠ . ١٠– البقرة : ٣٠ . ١١– هود : ٦١ ١٢ – الاحزاب : ٧٢ . ١٣– الحديد : ٧ . ١٤– رواه البخارى وابن ماجة والإمام احمد . ١٥– الشورى : ١٣ . ١٦– الاقتصاد في الاعتقاد .. ص١٣٥ .. طبعة القاهرة .. مكتبة صبيح بدون تاريخ ..

ملحمة بارتسيفال بين شرق وغرب

بقلم : د. مصطفى ماهر

عندما سئلت عن كتاب شغلنى سنوات طوال فى الماضى ومازال يشغلنى فى الحاضر، وأغلب الظن أنه سيشغلنى ماحييت، لم أتردد فى الإجابة: ملحمة بارتسيفالPARZIVAL التى كتبها الشاعر الألمانى الوسيطى فولفرام الإيشنباخى Wolfram von Eschenbach بين عامى١٢٠٠و ١٢١٠ مستندا إلى صياغة فرنسية سابقة (قبل ١١٩٠) لم تكتمل، كتبها الشاعر الفرنسى كرتيان دى تروا Chretien de troyes «قصة الجرال Li Contes del Graal»، وهاهو ذا السؤال يعود بى نيفا وأربعين سنة إلى الوراء، إلى أيام الدراسة الجامعية وما فتحت أمامى من آفاق. أحببت أدب العصر الوسيط على اختلاف بيئاته ولغاته، وتهيأت له بكل ماستطعت من وسائل التذوق والدرس، وشدتنى بصفة خاصة الأعمال الأدبية التى تلاقى فيها الشرق والغرب، سواء فى الأندلس وما حولها أو فى صقلية أو فى تلك الربوع من العالم العربى الإسلامى التى كانت مسرحا للحروب الصليبية، وقد أتيح للأدب الفرنسى فى سياق التفاعل بين الشرق والغرب مالم يتح لغيره من الآداب الأخرى، فتراه يسعى إلى الحفاظ على قديمه، ويدافع عن توجهاته، كما تراه يجتذب إليه كل جديد ويمتزج بكل ما يستحسنه من إبداع وارد، وهو فى هذا كله لاينغلق على نفسه، بل يمد البيئات المجاورة بما يحققه لترى فيه رأيها وتسيغه أو تلفظه،وهكذا نشأت قصص الفرسان الذين صورتهم الأسطورة يجلسون إلى مائدة مستديرة، ويقصون قصص مغامراتهم، وهكذا نشأ شعر الغزل الذى كان الشعراء المنشدون فى الجنوب خاصة - التروبادور - يتغنون به ، وهكذا نشأت قصص الحيوان وما ارتبطت بها من مواعظ.



وإذا كانت قصص الفرسان تضرب بجذورها فى ممارسات الدفاع عن الأرض والإغارة على القريب ثم البعيد، فإنها امتزجت بما ورد إليها من الأندلس من مفاهيم الشهامة العربية التى تقوم عليها حياة الفرسان العرب بين التصوف والحب والأدب والفن والحكمة والشجاعة، وإذا لم يكن لهذه البلاد الأوروبية الغربية فى بدايات تاريخها تراث من شعر الغزل، فقد جاءها شعر الغزل متطورا منوعا على لسان العرب فى الأندلس، وعندما اغترف العرب من معين ثقافات الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة، وعرفوا من قصص الحيوان ما وسعوا به ديوانهم، انتقل هذا النوع أيضا إلى الفرنسيين المجاورين وعن طريقهم إلى الأمم الأوروبية الأخرى.

ومن يدرس الأدب الألمانى فى العصر الوسيط، يدهشه ما انتقل من التراث العربى الإسلامى إلى ديار الألمان عن طريق فرنسا، وكانت أجزاء كبيرة من أوروبا الغربية تستظل بمظلة سياسية ودينية تتيح لها قدرا من التواصل والتقارب، وانظر إلى شعراء ألمانيا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر تراهم يتبارون صراحة مع الفرنسيين ويعيدون صياغة أعمالهم مترجمين أو موسعين أو مقتبسين أو مبدعين من جديد، وكانوا يذكرون ذلك فى أدبهم ولا يخفونه. وهكذا تجد لأنشودة رولان الفرنسية مقابلا

بالألمانية، بل تجد قصص كرتيان دى طروا الشعرية قد أعيدت صياغتها بالألمانية، وقام بهذا الإبداع الاقتباسى كبار الشعراء، فهذا جوتفريد الاشتراسبورجي يبدع «تريستان وإيزولدة» وهارتمان الأوى يبدع قصة «إيريك» وقصة «إيفاين» وفولفرام الإيشنباخي يبدع «بارتسيفال»، كان هؤلاء الشعراء جميعا يخافون من تهمة التخريف، فيبحثون عن كتاب يسترشدون به، لاينقلونه بحرفه، بل يتناولونه بالدرس والبحث ، ويصححونه ويغيرون فيه بالتعديل والحذف والإضافة أو يبدعونه من جديد .

وهكذا تناول الألمانى فولفرام القصة الناقصة التى كتبها كرتيان دى طروا، وصاغها من جديد، وجعل منها أعظم قصة شعرية فى العصر الوسيط، لاتدانيها إلا الكوميديا الإلهية لدانتى التى نشأت بعدها بوقت طويل .

هذه القصة الشعرية أو الملحمة عمل ضخم فى نحو خمسة وعشرين ألف بيت من الشعر (٢٤٨١٢)! مقسمة إلى كتب عدتها ستة عشر كتابا، وكنت دائما أتمنى أن أتفرغ لهذا العمل لنقله إلى العربية، ولكن من أين لى هذه السنوات الطوال التى يتطلبها. فترجمت منه صفحات. وكتبت عنه دراسات ومقالات، ثم ترجمت النص الأوبرالى الذى ألفه فاجنر ونسج حوله موسيقاه.

عرف فولفرام فون إيشينباخ القصة الفرنسية التي لم تكتمل، التى كتبها كرتيان دى طروا، ولكنه ذكر أنه اعتمد على مصدر عربى أعانه على الإفادة منه شاعر متمكن من العربية، وقد فتحت هذه المعلومات الباب أمام جدل كثير بين العلماء، فمنهم من ذهب إلى أن فولفرام اخترعها ليؤكد مصداقيته وتبحره فى علوم زمانه، ومنهم من يرى أن نص فولفرام ملىء بالشواهد التى تؤكد صلته الوثيقة بالثقافة العربية الإسلامية، وما أظن إلا أن فولفرام عبر بعبارة واضحة جديرة بأن تؤخذ مأخذ الجد، والذين يأخذونها مأخذ الجد هم أصحاب مايسمى بالنظرية العربية، ولهم مؤلفاتهم المهمة التى تكون مكتبة تحظى باهتمام متزايد، وقد كتبت عدة دراسات أشدت فيها بما عرفنا به الباحثون من إشارات إلى ما زخرت به القصة من أسماء عربية إسلامية وموضوعات عربية إسلامية أيضا، وأضفت إليها اجتهاداتى، ففى تقديرى مثلا أن اسم «بارتسيفال» تحوير للكلمة العربية «فارس»، وأن كلمة «جرال» هى تحوير لكلمة «حجر» أو كلمة «جرة» أو كليهما، وأن الاقتباس شمل أمورا كثيرة، ليس من السهل استشفافها لكثرة مادخل عليها من التحوير، منها: الحجر الأسود وجبل عرفات وسدنة الكعبة .. ناهيك عن

مفاهيم الفرسانية والفتوة والشهامة، ومفاهيم المنة والرحمة ومفاهيم الجمع بين التصوف والجهاد، وليس من شك في أن الشاعر الألماني وضع في ملحمته خلاصة ثقافته المسيحية الأوروبية الجرمانية أيضا.

والموضوع المحوري هو على أية حال سيرة إنسان اختاره القدر لمهمة بعينها، فنشأ ميسرا لما خلق له، وخرج من أصلاب آباء كرام، فهو كريم أبا عن جد، بطل الملحمة بارستيفال ابن ملك كريم مناضل شديد الاعتداد بنفسه هو جاهموريت، لم يجد جاهموريت في ديار المسيحية ملكا عظيما يشرفه أن يعمل تحت إمرته، فيمم شطر ديار الإسلام وعمل تحت إمرة الخليفة عمر الذي يسميه الفاروق والذي خضعت له أكثر بلاد الدنيا، أثر جاهموريت تحقيق ذاته في البطولة على حب الزوجة هيرتسلويدة وتركها كسيرة الفؤاد مع وليدها فمقتت الفرسان وحياتهم، ولم يعد جاهموريت إلى الوطن بعد ذلك، بل تحكي القصة أنه تزوج في الشرق امرأة شرقية سمراء مسلمة ولدت له ابنا مسلما هو فايرفيس، كانت بشرته بيضاء سمراء كرقعة الشطرنج، وهكذا كان جاهموريت أبا لابنين أحدهما مسيحي والآخر مسلم، أو نقول بعبارة أخرى إن ابنيه كانا يمثلان نوعا من الإخاء المسيحي الإسلامي، كان فولفرام حريصا على التعبير عنه في أكثر من موضع .

* * *

ونستأنف متابعة الأحداث فنرى أم بارتسيفال تستجيب لعاطفة الأم، وتقرر أن تباعد بين ابنها وبين كل مايمكن أن يغريه بحياة من لون حياة أبيه، فنشأته على الفطرة في جهالة أو أمية، في غابة سلطانة في أحضان الطبيعة، ولم تحدثه بشيء عن أبيه وحسبه ونسبه وقدره، ولكن هذا الذي كانت تدبره، كان شيئا، وكان القدر يدبر شيئا آخر، فقد اختار بارتسيفال ليكون الفارس الكامل وملك الجرال، وكان بارتسيفال سليل فرسان الجرال، وهم أسمى طائفة من الفرسان، لهم مثلهم العليا التي تجمع بين القوة العضلية الفائقة، والشجاعة التي لاتقهر ، وبين الرحمة والمسارعة إلى العون، في إطار من الحكمة والتقوى. والجرال الذي يتحدثون عنه إناء – جرّة – تحكي بعض الأساطير أن يوسف اريماتيا جمع فيه دم المسيح فإذا به يكتسب قوة خارقة تمنح الشفاء وتمنع المرض، تهب الحياة وتصد الموت، وتعطي الخير وتدرأ الشر، والجرال في الوقت نفسه حجر يفضل كل حجر كريم، له نور من السماء، وله قوة، وهو يحقق صلة بالسماء، وله سدنة من صفوة البشر، كبيرهم ملك من صلب ملوك الجرال،

تعلم وجمع ما ينبغى أن يكون لملك الجرال من خلال.

وتحكى الملحمة أن جهود الأم التى تجاوزت المألوف لم تبلغ الهدف، وأن الابن وعى قوته العضلية، وساورته هواجس عن هدف بعيد عظيم، فسار بدافع من القدر. وارتقى مدارج الخبرة من الفطرة إلى العلم، ونال الحكم والحكمة بعد عناء أى عناء، حيث طال تقلبه بين الخطأ والصواب، والشك واليقين، كان يحس بدافع قوى يدفعه إلى البحث عن الله، ويشوق إلى حياة الفرسان، وعندما رأى بالمصادفة رجالا يركبون الخيل ويغامرون على طريقة الفرسان ،صمم على أن يسلك سبيلهم، وحاولت الأم محاولتها الأخيرة لإفساد خطته، فألبسته ثياب المهابيل، وأركبته حصانا هزيلا حتى يفشل ويعود، وأعطته نصائح مختلطة مهوشة، حتى لايدرك حقائق الأشياء ، وتستبد به الحيرة، فيعود إليها. وتفرقت به الأحزان، وشتته التجارب الفجة، وظن أن الكمال فى القوة ، فبطش، وظن أن العلم هو إدراك الظاهر وفهم الشكليات والقشور، فما جنى إلا الشر والضر، وما أنزل بالآخرين إلا البلاء، ألم تر كيف قبّل الحسناء «يشوته» إجلالا، وأخذ حليتها عنوة، فأشقاها أشد الشقاء؟ لقد شهد زوجها ماحدث فشك فى سلوكها، وفرض عليها من العقاب والتفكير مايفوق الاحتمال، والتقى بارتسيفال بابنة عمه «زيجونة» التى وصلت فى إخلاصها للحبيب إلى أعلى الدرجات، حتى بعد أن مات، حنطته ووضعته فى نعش كانت تحمله معها فى حلها وترحالها، وقد بينت زيجونة هذه لابن عمها بارتسيفال بعض علامات على الطريق، فعرفته أصله وشرحت له حسبه ونسبه والصفوة التى ينتمى إليها والخلق التى ينبغى أن يتحلى بها، ولكنه لم يفهم كلامها الفهم الصحيح واشتد به الشوق إلى العظمة، والظهور بمظهر يناسب حسبه ونسبه، فارتكب المزيد من الأخطاء، وهكذا ضرب الفارس الأحمر «إيتر» فقتله، وماكان له أن يضربه، فالفارس لايضرب بل ينازل، ولايحمل السيف إلا لقضية عادلة وهدف سام، ولم يكن قتل الفارس الأحمر شيئا هينا، فقد كان واحدا من أهله، وإذا كان كل فارس ممتاز يطمح إلى الدخول أولا فى زمرة فرسان المائدة المستديرة، فرسان الملك أرتوس (بالفرنسية أرتور. وبالإنجليزية آرثر)، فقد وقفت هذه القتلة عقبة فى طريقه .

كان بحاجة إلى من يفتح عينيه ويعلمه الحقيقة، وهنا نجده يلتقى بعمه «جورنيمانس» الذى قام منه مقام المعلم، فشرح له ماتيسر له من مفاهيم الفرسانية، وحدثه عن الاعتدال، وضبط النفس والأدب، والسلوك اللائق، وحضه بصفة خاصة على ألا يسأل كثيرا.

فكثرة الأسئلة ترهق الآخرين، وتعطيه صورة متدنية عن السائل، وكلما ارتفع قدر الإنسان وزاد علمه، قلّت أسئلته، ولم يتصور العم أن عليه أن يبين لابن أخيه أن الكف عن السؤال لايعني الصمت في المواضع التي يكون فيها السؤال واجبا .

سمع إذن أن الأدب يفرض على الإنسان ألا يسأل، لم يفهم أن المقصود هو السؤال الفاضح، وسكت عن كل سؤال حتى عن السؤال الذي يفتح أبواب الرحمة والنجاة، وعرف بارتسيفال الحب عندما التقى بكونڤيرامور، وكان في محنة فأنقذها من الأعداء ، وتزوجها. ثم انصرف عنها إلى حين على عادة الفرسان، وخرج ليثبت جدارته، وفكر في أمه التي تركها ، والتي اعتقد أنها لاتزال على قيد الحياة، وأن عليه أن يبحث عنها.

***

ومازال ينتقل من مكان إلى مكان حتى وصل إلى مكان مقدس فيه جبل يحمل اسما غريبا، وفيه بناء منيف فيه حجر الجرال، وسمح له السدنة بأن يحضر الشعائر التي وصفها الشاعر فأبدع، ورأى الجرال رأي العين، وأدرك أنه يحمل من الأسرار والقوى ما يجعله شيئا فريدا، ولكن انظر إليه عندما دخل إلى ساحة الجرال فرأى الملك أنفورتاس يعاني من جرح لايبرأ، وقد تمدد على فراش ينتظر النجاة، ولم تكن نجاة أنفورتاس ترهن إلا بشيء واحد، هو أن يسأل بارتسيفال عنه بدافع الرحمة، لم يفهم إذن أن الرحمة تفرض عليه أن يسأل، فتبدد الأمل، وتردى من مرتبة صفوة فرسان المائدة المستديرة، وغشيته لعنة رسولة الجرال، الكاهنة كوندري، فعاودته هواجس الشك والريبة التي وصلت إلى الكفر العابر، سبته كوندرى رسولة الجرال، ولقى زيجونة فسبته هي الأخرى، ووبخته على سوء فعلته، وبينت له أنه كان قاب قوسين أو أدنى من الجلوس على عرش الجرال، فضيع كل شيء .

وكان عليه أن يستأنف مسيرة السعي إلى الحقيقة، تلك الحقيقة الكامنة في سر الجرال، فخرج على عادة الفرسان إلى مغامرات منها مايقوم بها هو ومنها مايقوم به قريبه جافان الذي يمثل الفرسانية الأرتورية لا الجرالية، والفصول الطوال التي خص بها الشاعر الفارس الآخر، جافان - تحير الشراح ، فقد ترك الشاعر بارتسيفال إلى حين وأفاض في الحديث عن الآخر، ثم يعود خط الأحداث إلى بارتسيفال الذي نراه يقترب من الهدف، فيلتقي بعمه الناسك تريفريسنت الذي يعلمه أساسيات الإيمان والمنة والرحمة والندم، بين له الناسك أن هذا الذي حدث له لم يكن

من الله، بل كان من نفسه، كان نتيجة ذنوبه وأخطائه، بقي أن ينال المغفرة التي تمحو كل ذنب، وتلك منة من الله ينالها الإنسان الذي يكدح إلى ربه .

ويسترسل الشاعر على مدى فصلين آخرين في قصة الفارس جافان ومغامراته من أجل الحسناء أورجيلوزه، وهي مغامرات تذكرنا بعالم ألف ليلة وليلة، بما زخر به من عجائب تفوق الوصف، وبخاصة ماجرى منها في القصر المسحور، ويلتقي بارتسيفال مصادفة بالفارس جافان وينازله دون أن يعرفه، وتطول المنازلة، ولا تنتهي، لأن الفارسين متساويان في القوة، وتتيح هذه المنازلة لبارتسيفال على أية حال التقدم خطوة إلى الأمام، حيث ينضم إلى صفوة المائدة المستديرة. ثم يخرج بارتسيفال باحثا عن أخيه من أبيه، الفارس المسلم «فايرفيس» فيجده ويذهبان معا إلى ساحة المائدة المستديرة، ويقبلهما الملك أرتوس فارسين من الصفوة، لا يفرق بين مسلم ومسيحي، بل إن الشاعر يحدثنا أن فايرفيس المسلم كانت له من الخصال فوق ماكان لأخيه، وهذه الناحية المتسامحة إلى أبعد الحدود في أدب فولفرام جديرة باهتمام خاص ودرس خاص.

وتأتي الكاهنة كوندري، رسولة الجرال، بالبشرى، لقد انفتح الطريق إلى عرش الجرال أمام بارتسيفال، بلغ بارتسيفال إذن ما بلغ من الحكمة، فأصبح جديرا بسعادة الدين والدنيا وذهب بارتسيفال ومعه أخوه فايرفيس إلى ساحة الجرال، ورأى أمفورتاس يعاني، فسأله عن حاله، ولم يصمت كما فعل من قبل، فزال ما بالعم من ألم، ونال بارتسيفال الجرال، وتربع على كرسيه، ولبس تاجه، وتولى شعائره، ونعم في الوقت نفسه بالسعادة الزوجية، مع زوجته الحبيبة كوندفيرامور التي أتت ومعها ابناه التوأمان: لوهنجرين الذي سيتولى بعد أبيه مملكة الجرال، وكارديس الذي يتولى المملكة الدنيوية، وهكذا فإن هذه الفرسانية الجرالية الرفيعة التي حققها لم تكن تقوم على الرهبانية فحسب، بل كانت تجمع الدين والدنيا معا.

مابعد فولفرام

لم تكف مادة ملحمة بارتسيفال عن إلهام الشعراء، والمفكرين والفنانين، فظهرت ملاحم قلدتها، بل ظهرت أفلام سينمائية صورت فرسان المائدة المستديرة، ومنها فيلم بارتسيفال، ومن أهم النصوص التي حفظت بارتسيفال لجمهور الفن الرفيع النص الأوبرالي الذي كتبه فاجنر ونسج من حوله ألحانه «بارسيفال» Parsifal.

النص الفاجنري

كتب فاجنر نصه الشعري الأوبرالي

(فى عام ١٨٧٧) على هيئة ثلاثة فصول فى جو عام يعبر عن السعى لتحقيق العنصرين الأساسيين اللذين يرمز إليهما الجرال وهما الحب والإيمان، واتخذ للأحداث بانوراما واسعة ذات طابع إسبانى قوطى أندلسى تشمل: ساحة الجرال، والجبل المقدس إلى الشمال، وقصر الساحر كلينجسور إلى الجنوب.

الفصل الأول :

يعلن فارسان قرب وصول الملك أمفورتاس المريض الذى ينوى الاستحمام فى بحيرة الغابة حتى تخف آلامه، تدخل كوندرى وتعطى جورنيمانتس بلسما للملك الذى يدخل به حملة الهودج محمولا، فيذكر وهو يتأوه تلك النبوءة التى تقول إن شفاءه المأمول يأتى من فتى أمى على الفطرة تأخذه به الرحمة، ويتناول الملك بلسم كوندرى ويشكرها، فتأبى، وما يوبخها الفتيان حتى يمنعهما جورنيمانتس، فهى لم تخطىء فى حق الجرال، ويحكى جورنيمانتس للفتيين قصة الجرال ، فيحدثهما عن تيتوريل الذى قام ببناء صرح ليحفظ فيه الإناء الذى شرب منه المسيح شربته الأخيرة والرمح المقدس الذى أسال دمه، ويذكر أن تيتوريل جمع صفوة من الفرسان حول صرح الجرال، ينالون من نور الجرال فيما يطعمون قوة خارقة، ونعرف عن كلينجسور أنه أراد فيما مضى من الزمان أن يدخل فى شرعة فرسان الجرال ولكنه عجز عن التحكم فى شهواته، فنبذه تيتوريل، وإذا كلينجسور ينقلب من الضد إلى الضد، ويجعل من الانتقام ديدنه، وهو قد عمد إلى فلاة قرب صرح الجرال وحولها بالسحر إلى حديقة غناء خلابة، وتربص هناك بفرسان الجرال يغويهم ليردهم عن النذر الذى نذروه، ويستعين فى ذلك بنسوة حسان لهن ألاعيب شيطانية لا يقاومها البشر ، وعندما تلقى أمفورتاس عن أبيه تيتوريل تاج الجرال، عزم على التصدى لكلينجسور الشرير فنزل ساحته حاملا الرمح المقدس، ولكنه تعرض للفتنة هو نفسه، واستطاع كلينجسور أن ينتزع منه الرمح وأن يصيبه به بجرح لا يلتئم.

وتتناهى إلى السمع صرخات استنكار، وترى الأبصار ذكر بجع أصيب بسهم، وأخذ يترنح متهاويا وقد أشرف على الموت. ثم يدخل الفرسان والفتيان ومعهم الآثم الذى أصاب ذكر البجع، وما هذا الآثم إلا بارتسيفال الذى كان يجهل أن الصيد محرم فى ساحة الجرال، فرمى الطائر رمية قدير متمكن ، فلما بيّن له جورنيمانتس سوء عمله، حزن وكسر القوس والرمح، وأخذوا يسألونه عن نفسه، من هو وماذا يريد، فلم يعرف عن الأسئلة جوابا، إلا السؤال عن أمه، قال إن

اسمها هيرتسلويده، وهذه هي كوندري تعرفه فهو ابن جاهموريت ربته أمه على الفطرة، وحرصت على أن يجهل أصله ونسبه حتى لا يسلك سبيل أبيه ويتركها إلى ساحة البطولة، فلا يعود، ولكن حرصها لم يجد نفعا، فقد رأى الصبى ذات يوم رجالا مسربلين يمتطون متون الخيول فقرر أن يكون مثلهم، وصنع لنفسه قوسا ورمحا، وترك أمه وخرج لهذه الحياة التى اختارته لها المقادير، وترك أمه تقطع الأحزان نياط قلبها، ولم يعلم أنها قضت نحبها حزنا عليه .

فلما سمع بارتسيفال حديث كوندرى، انقض عليها يوشك أن يخنقها، فأنقذها جورنيمانتس، ولكنها ردت على السوء بالإحسان وقدمت إلى العطشى ماء قراحا، وراحت إلى حال سبيلها وصحب جورنيمانتس بارتسيفال إلى القاعة التى التقى فيها أمفورتاس بالفرسان وقد تجمعوا يلتمسون نفحة من ذلك الطعام المقدس الذى يعطى قوة خارقة. ويصافح الأذن صوت تيتوريل تناهى من قبره الذى كان يتوسده حياً بعد موته، وتلك معجزة منّ بها عليه المسيح: كان تيتوريل يوجه كلامه إلى ابنه أمفورتاس يأمره بأن يقيم شعائر الجرال، ولكن أمفورتاس أصبح يتردد عن هذا العمل الجليل، فقد اشتد شعوره بالذنب، واسترسل فى الشكوى من جرحه الأليم، ولكن أباه حضه على الصبر حتى النجاة، وكشف أمفورتاس الغطاء عن الجرال، فأضاء بنور قرمزى، وهلل تيتوريل للمعجزة التى تحمل المنة إلى المشوقين إليها، حتى إذا انطفأ الجرال بدأ الفرسان فى تناول الطعام ثم تعانقوا وافترقوا بعد قبلة الأخوة، أما بارتسيفال فقد أخذته الدهشة وهو ينظر إلى شعائر الجرال، وانقبض قلبه وهو يسمع شكوى الملك ولكنه لم ينطق بشىء، ولم يلق السؤال الذى لو ألقاه بفطرته لكانت فيه الرحمة ولنجا الملك، ولهذا أخرجه جورنيمانتس من القاعة وهو يلومه على جهله الذى سيطيل عذاب الملك.

الفصل الثانى :

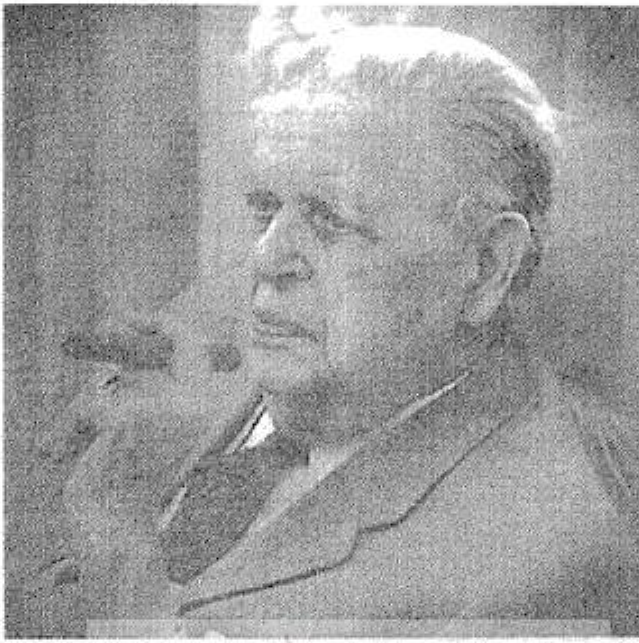
يتتبع كلينجسور فى مرآة سحرية حركة بارتسيفال ويراه يقترب وهو يعرف الغاية التى اختاره لها القدر، فيدبر لغوايته، ويطلب إلى كوندرى أن تغويه كما غوت أمفورتاس من قبل، وكما سخرت من المسيح منذ أمد بعيد، ولقد كرهت هذا الشر الذى اضطرت إليه، والذي حمّلها بالنقمة، وظلت تسعى للخلاص ما استطاعت، تريد الحب الطاهر فلا تعرف إلا الحب الدنىء. والعالمون بأسرار القدر يعرفون أنها يمكن أن تنجو إذا تصدى لغوايتها فتى نقى السريرة فصمد لغيها وامتنع إلى النهاية، كانت كوندرى تطيع كلنجسور، طاعة

السجين للسجان، ولكنها كانت تجاهد من أجل الخلاص فلا تفلح، وها هوذا بارتسيفال على شرفة حديقة لفتنة يرى حسناوات لم تر عين أجمل منهن، جمعن فى خلقتهن المختلط ، طلاوة الغواني إلى حسن الزهور ، ويرى الفرسان يلهون معهن لهو الدعارة، ويوشك بارتسيفال أن يقع فى الفتنة، فقد أقبلت عليه كوندرى تدعوه إلى أن يبقى، وتفترش معه فراشا من الأزاهير، وتقص عليه أخبار أهله، ويرهقه خبر موت أمه بألم بالغ، وتقبله مدعية أن تلك بركة من أمه، ولكن بارتسيفال ينجو فى النهاية من غوايتها، إذ تراود خياله صورة أمفورتاس، ويدرك بفطرته محنة الملك، ويصور له الأمل سبيلا إلى إنقاذه منها، ويحاول كلينجسور أن يصيب بارتسيفال بالرمح كما أصاب به أمفورتاس من قبل، ولكن الرمح يمتنع ويظل معلقا فى الهواء، فيمسكه بارتسيفال بإيمان ويلعن الحديقة فتعود صحراء كما كانت .

الفصل الثالث :

وهذا هو بارتسيفال يضرب فى الأرض ،فى سعى رسمته الأقدار، فيرى فى الطريق صومعة جورنيدانتس التى يخلص فيها إلى نفسه متعبد ، ويرى جورنيمانتس ببابها، يرهف السمع فيكتشف كوندرى فى خميلة كالميتة تتأوه، فيدعوها ويردها إلى الحياة، فتنذر نفسها للعبادة، وبينما هى تجول ببصرها فى الرحب ترى فارسا قادما وقد تدجج بسلاحه، فى هذا اليوم، يوم الجمعة الحزينة، الذى لايجوز فيه حمل سلاح، فتبلغ جورنيمانتس الذى يحض الفارس على إلقاء السلاح، فيستجيب، إنه بارتسيفال، جال جولاته، ووصل إلى مايوشك أن يكون غايته،وعرف من جورنيمانتس أن تاج الجرال فى انتظاره، فقد تخلى أمفورتاس عن ممارسة الشعائر القدسية، ولم يعد يمنح الفرسان من الجرال ما يرجونه من قوة، وعلم أن تيتوريل ظمىء إلى مشرب من الجرال فلم يرتو، وتقطعت ما بينه وبين الحياة من أسباب ، وعرف قبل هذا وذاك حقيقة ما ارتكبه فى حق أمفورتاس عندما تقاعس عن السؤال، فلما علم ما لم يكن يعلم صحبه جورنيمانتس وكوندرى إلى النبع المقدس، أما وكوندرى فغسلت رجليه، وأما جورنيمانتس، فعطره وألبسه التاج ليكون ملك الجرال. وذهب ثلاثتهم إلى أمفورتاس، فوجدوه قد امتنع رغم الإلحاح عن ممارسة شعائر الجرال، ورأوا الحزن استبد به لموت تيتوريل الذى حملوا جثمانه للجنازة. وكان أمفورتاس يطلب أن يضربوه قصاصا حتى يرتاح، فلما أقبل بارتسيفال وضع الرمح على جرح أمفورتاس فالتأم، وتولى هو شعائر الجرال الذى أضاء بنور لم يعهده أحد من قبل، ونجت كوندرى، وحلقت حمامة الجرال فوق هام بارتسيفال .

□□□



فؤاد سراج الدين باشا في ذمة التاريخ !!

بقلم: د. عاصم الدسوقى

محمد فؤاد سراج الدين أحد الشخصيات التى صنعتها الحياة الحزبية فى تاريخ مصر منذ عرفت مصر الحياة الحزبية بشكل أكثر تنظيما وانتظاما مع دستور ١٩٢٣ ، واجراء أول انتخابات برلمانية جاءت بحزب الوفد رغم أنف القصر الملكى ليكون سعد زغلول أول رئيس منتخب للوزراء، ومن هنا عرفت وزارته بحكومة الشعب (١٩٢٤) .

وآنذاك كانت القسمات الطبقية قد أخذت تتبلور في مصر، ففي أواخر القرن التاسع عشر استقرت الملكية الفردية للأرض الزراعية في مصر، وأصبحنا أمام طبقة من كبار ملاك الأراضي الزراعية أخذت تستثمر فائض عائد الأرض في اقتناء مزيد من الأرض، وفي تكوين الشركات التجارية والصناعية. وجاء بنك مصر (١٩٢٠) ليوظف مدخرات هذه الطبقة في كافة مجالات الاستثمار. كما أخذت هذه الطبقة في تكوين التنظيمات التي تحمي مصالحها، فتأسست خلال المدة من ١٩٢١ - ١٩٢٧ النقابة الزراعية المصرية العامة، واتحاد الصناعات المصرية، والغرفة التجارية

وقد تطلعت هذه الصفوة الاجتماعية للمشاركة السياسية فى الهيئة التشريعية (البرلمان بمجلسيه: النواب والشيوخ) حتى لاتصدر قوانين في غير صالحها، وفى السلطة التنفيذية للسهر على حماية المصالح بتنفيذ القوانين . وكان الطريق الى تلك المشاركة لا يأتى إلا عبر عضوية الأحزاب السياسية، ومن هنا انخرطت فى كل الأحزاب السياسية التى شهدتها الفترة من ١٩٢٣ - ١٩٥٣ . ولم يكن يوجد بين هذه الأحزاب أية تمايزات طبقية حادة فعضويتها مفتوحة أمام أبناء هذه الصفوة الاجتماعية حسب اختيار كل منهم، ولهذا لم يكن غريبا أن يتقلب أبناء هذه الصفوة بين حزب وآخر دون حساسية، فقد يبدأ الواحد منهم وفديا ثم ينتقل إلى حزب الأحرار الدستوريين أو الاتحاد، والعكس صحيح وذلك سعيا وراء الفرصة المناسبة.

غير أن حزب الوفد كان يمتاز بشعبية كاسحة دون الأحزاب الأخرى استمدها من معارضة سعد زغلول للملك فؤاد، ومن إثارة الجماهير ضد الانجليز، ومن عدم تقديم تنازلات فى المفاوضات التى دخلتها حكوماته مع الانجليز قبل معاهدة ١٩٣٦ حول المسائل المعلقة من تصريح فبراير ١٩٢٢ باستقلال مصر (مفاوضات سعد زغلول مع رامزى مكدونالد ١٩٢٤ ومفاوضات النحاس مع هندرسون ١٩٣٠). ومن هنا تمتع الوفد بقاعدة عريضة من العضوية من مختلف الطبقات وفى الصدارة أبناء الصفوة الاجتماعية اعتقادا بأن شعبية الوفد لابد وأن تفرضه فى الهيئات النيابية ومن هنا تتحقق كل الآمال.

على هذا الأساس انضم فؤاد سراج الدين للوفد وفاز بعضوية مجلس النواب فى انتخابات ١٩٣٦ (الهيئة النيابية السادسة ٢٣مايو ١٩٣٦ - ٢ فبراير ١٩٣٨) مع أنه كان من قبل عضوا باللجنة التنفيذية للشبان بحزب الأحرار الدستوريين . ولم يكن فى هذا غرابة طبقا لما كان شائعا آنذاك، فوالد فؤاد سراج الدين نفسه دخل مجلس نواب ١٩٢٥ على قائمة الوفد ثم انتقل إلى حزب الاتحاد ثم صار مستقلا عام ١٩٢٦ .

وزيرا للداخلية

وفي حزب الوفد منذ عام ١٩٣٦ تفرغ فؤاد سراج الدين للعمل السياسى وأخذ نجمه يصعد رويدا رويدا فى دوائره السياسية ونشاطاته المختلفة . وفى مارس ١٩٤٢ دخل مجلس النواب للمرة الثانية (الهيئة النيابية الثامنة ٣٠ مارس ١٩٤٢ - ٩ أغسطس ١٩٤٤) . ونظرا لنشاطه واقترابه السريع من زعامة الوفد اختاره مصطفى النحاس باشا وزيرا للزراعة فى وزارة ٤ فبراير الشهيرة مكان عبد السلام فهمى جمعة الذى انتخب لرئاسة مجلس النواب. ثم ترك وزارة الزراعة فى يونية ١٩٤٣ ليصبح وزيرا الداخلية مع قيامه بأعمال وزارة الشئون الاجتماعية مكان عبد الحميد عبد الحق الذى عين وزيرا للأوقاف .

ولما اختلف النحاس باشا فى مايو ١٩٤٢ مع مكرم عبيد وزير المالية وسكرتير عام الوفد بسبب رفض مكرم استثناء بعض الموظفين الوفديين للترقية بناء على رغبة النحاس نفسه، ورفضه تمييز بعض أصهار النحاس فى طلبات تصدير، ثار النحاس وطلب من مكرم عبيد أن يستقيل فلما رفض الاستقالة رفع النحاس استقالة الوزارة كلها الى الملك وأعاد تشكيلها دون مكرم عبيد، وسرعان ما فصل مكرم من الوفد ومن مجلس النواب فى يولية ١٩٤٢ باعتباره «أسوأ مثل للنائب منذ بدأت الحياة النيابية فى مصر». ويرى بعض المراقبين أن مكرم عبيد فجر مشكلة الاستثناءات لإحراج الزعيم مصطفى النحاس بسبب تقريبه فؤاد سراج الدين الذى لم يكن وفديا قديما شأن مكرم عبيد.

اعتقال مكرم عبيد

ويبدو من سياق الحوادث أن فؤاد سراج الدين أدرك فى تلك اللحظة خطورة معارضة الزعيم أو الوقوف ضد رغباته، وأن مسايرة الأمور هو أفضل الطرق وأقصرها لتحقيق الطموح . ومن هنا نراه يزداد التصاقا بمصطفى النحاس وبأسرته. وفى هذا الخصوص باع سراج الدين فى يونية ١٩٤٢ لحرم النحاس باشا زينب الوكيل ثمانين فدانا وبضعة قراريط بمركز شربين بسعر الفدان ٥٣ جنيها وهو سعر أقل من سعر السوق، ثم أعادت بيعها له فى يونية ١٩٤٤ بمبلغ ١٢٠ جنيها للفدان (راجع محاكمات الثورة ١ - ١٩٥٤/٣/٢) . وفى مدة وزارته للداخلية تم اعتقال مكرم عبيد وبعض أنصاره فى ١٩٤٤ بعد فضيحة الكتاب الأسود وأزمة نزاهة الحكم على حد قول جلال الدين الحمامصى . ومنعت الصحف بأمر الداخلية من نشر آراء المعارضة لموقف الوفد من مكرم عبيد، بل لقد اعتقل بعض الضباط وبعض المدنيين المشكوك فى ولائهم . وأكثر من هذا أحيل الدكتور عبد الرزاق السنهورى وكيل وزارة المعارف الى المعاش لا لشئ سوى انه لم يكن وفديا، وأشيع وقتها من باب التغطية أن السنهورى سوف يعين مستشاراً ملكيا لوزارة العدل وهو أمر لم يحدث.

ولعل سراج الدين قد تيقن من صحة إدراكه حين استعاد ما حدث في وزارة النحاس عام ١٩٣٧ (الوزارة الرابعة) عندما أخرج منها محمود فهمي النقراشي لمعارضته تنفيذ مشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان دون دراسة كافية، ثم فصل من الوفد في سبتمبر ١٩٣٧ على أثر بيانه عن سلامة موقفه من معارضة المشروع . وما لبث أن لحق به أحمد ماهر في يناير ١٩٣٨ لتضامنه مع النقراشي وألف الاثنان الهيئة السعدية وخاضا بها انتخابات ١٩٣٨ .

وبعد إقالة وزارة النحاس في أكتوبر ١٩٤٤ وخروج فؤاد سراج الدين من الحياة السياسية مع باقي وزراء الوفد نراه ينتهز فرصة انتخابات التجديد النصفي لمجلس الشيوخ في عام ١٩٤٦ فيرشح نفسه عن الوفد ويفوز بالعضوية. وسرعان ما تم تصعيده داخل الحزب حيث أصبح السكرتير العام في عام ١٩٤٨. وما أن عاد الوفد للحكم في يناير ١٩٥٠ (وزارته الأخيرة) عين فؤاد سراج الدين وزيراً للداخلية، وفي نوفمبر من العام نفسه أضيفت له وزارة المالية بعد إقالة محمد زكي عبد المتعال.

تجاوزات

وفي الوزارة الأخيرة التي استقالت بحريق القاهرة الشهير في ٢٦ يناير ١٩٥٢ كثرت الاستثناءات والتجاوزات، ومن ذلك مطالبة الدكتور عبد الرزاق السنهوري الذي كان قد أصبح رئيساً لمجلس الدولة تقديم استقالته بحجة أنه قبل رئاسته للمجلس كان وزيراً حزبياً (تولى وزارة المعارف في وزارة إبراهيم عبد الهادي السعدية ديسمبر ١٩٤٨ - يوليو ١٩٤٩).

ومن ذلك أيضا التلاعب في سعر القطن حيث أصبح ثمن القطن الأشموني قصير التيلة ضعف ثمن قطن الكرنك طويل التيلة، وهو ما لم يحدث من قبل وذلك لصالح مزارعين معينين . ومن ذلك ثالثا: اغلاق دوائر مجلس الشيوخ عند التجديد النصفي في عام ١٩٥١ لصالح عناصر الوفد . ومن ذلك رابعا: أن أحد أفراد عائلة سراج الدين وضع يده على ٤٧٠ فدانا بناحية أبيس بالبحيرة غير أن وزارة الداخلية رفعت يده عن الأرض بالقوة عام ١٩٤٨، ولكنه عاد في عام ١٩٥٠ ووضع يده من جديد عليها وعلى غيرها في حماية وزارة الداخلية (راجع المحاكمات).

والحقيقة أنه لم ينقذ سمعة وزارة الوفد الأخيرة ويغطي على تجاوزاتها سوى قرار مجانية التعليم الذي أعلنه طه حسين وزير المعارف وإن كان فؤاد سراج الدين صاحب الاقتراح، وقرار النحاس باشا بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ في ٨ أكتوبر ١٩٥١ الذي سجل له التاريخ قولته الشهيرة أمام البرلمان : «من أجل مصر وقعت المعاهدة ومن أجل مصر أطالبكم بالموافقة على إلغائها» . وكذلك قرار وزير الداخلية فؤاد سراج الدين لبوليس

الاسماعيلية فجر ٢٥ يناير ١٩٥٢ بالصمود وعدم الاستسلام للقوات البريطانية، وهو أمر لم يصدره لليوزباشي مصطفى رفعت إلا بعد أن طمأنه اليوزباشي بأنه سوف يمتثل للأمر الى آخر رجل، وحينذاك قال له الوزير : اذن توكلوا على الله (راجع خطاب سراج الدين فى ٢٣ أغسطس ١٩٧٧ فى نقابة المحامين) .

على كل حال .. خرج سراج الدين والوفد من الحكم عقب حريق القاهرة وتطورت الحوادث مسرعات حيث قام الضباط الأحرار بالثورة فى٢٣ يولية ١٩٥٢، وخضع وأسرته مع صفوة كبار ملاك الأراضى الزراعية لقانون الاصلاح الزراعى (بلغ عدد أفراد الأسرة الذين خضعوا للقانون ٢٦ شخصا - راجع كشوف الخاضعين) وكان قد أعلن فى جريدة المصرى فى أغسطس ١٩٥٢ عن موافقته على الإصلاح الزراعى . ثم ألغيت الأحزاب السياسية فى يناير ١٩٥٣ وأعتقل فؤاد سراج الدين مع آخرين، وقُدم للمحاكمة حيث حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما أفرج عنه بعد ثلاث سنوات، وانحسرت عنه الأضواء بعد أن طويت صفحة الوفد من الحياة السياسية فى مصر، وانشغل بأعماله شأن الكثيرين من أركان العصر الملكى، وان ظل يراقب الموقف السياسى عن بعد.

الحيوية من جديد

وفى عام ١٩٧٤ وبعد انتصارات أكتوبر بدأت انفراجة نحو تحرير العمل السياسى من قيود التنظيم السياسى الواحد وبما يتواكب مع سياسة الانفتاح الاقتصادى، حيث أعلن الرئيس السادات نيته فى تكوين منابر سياسية كخطوة تمهيدية لإعادة الحياة الحزبية، فكانت منابر ثلاثة لكل من اليسار والوسط واليمين تحولت الى أحزاب فى أكتوبر ١٩٧٦ . وهنا عادت الحيوية لفؤاد سراج الدين وتدفقت دماء الحزبية فى شرايينه بعد ربع قرن من التجلط وبدأ يعد العدة لاعادة حزب الوفد من جديد . ومنذ البداية كان حريصا على ألا يغضب السلطة السياسية، ففى حديث له فى المصور ٣ يونية ١٩٧٧ قال إن تأييده للسادات «تأييد صادق لا يشوبه الغرض ولا التماس المنفعة». ثم أشار إلى بعض أفكاره فى حديث لمجلة الحوادث اللبنانية (١٩٧٧/٧/١) عن تعارض قانون الأحزاب مع فكرة القومية العربية» . ثم دفع الاتهامات الموجهة له بمهادنة الانجليز والسراى، وأعلن أن حزبه القادم ليس خارج ثورة يولية لأن الثورة قامت على «أساس المبادىء الستة التى أعلنها الرئيس السادات وقد وافقنا وقتها عليها أما السلبيات التي وقعت فهي لا تجعلنا نكفر بمبادئها السليمة».

وفى ٢٣ أغسطس ١٩٧٧ وفى خطاب ألقاه على مدى ثلاث ساعات ونصف

الساعة بنقابة المحامين احتفالا بذكرى الزعيمين سعد زغلول ومصطفى النحاس، دشن فؤاد سراج الدين إنشاء حزب الوفد الجديد بعد أن استعرض تاريخ الوفد، ونفى عنه الانتهازية وسعيه للمصالح الخاصة على حساب المصلحة العامة، ثم نقد بمرارة واضحة ثورة يولية وذلك فى حماية مناخ السبعينات الذى أعطى إشارة خضراء للهجوم على الناصرية .

وهكذا تأسس حزب الوفد الجديد برئاسته فى فبراير ١٩٧٨ ومعه قيادات الوفد القديم وأعضاء جدد من العناصر المضادة لثورة يولية بدرجة أو بأخرى سواء على مستوى المصالح أو مستوى الفكر السياسى أو مستوى الانتهازية، ولكن سرعان ما أعلن الوفد تجميد نشاطه فى يونية ١٩٧٨ احتجاجا على قانون صدر فى مايو يحرم كل من تولى الوزارة قبل ١٩٥٢ من العمل السياسى، وكان هذا يعنى ذبح الحزب الجديد على الكرسى قبل أن تقوم له قائمة. ولا شك أن السادات كان يستهدف رجال الوفد بهذا القانون لأن أعضاء الأحزاب الأخرى لم يكونوا قد تولوا الوزارة قبل ١٩٥٢ . وقد نسى الباشا فى احتجاجه ان الوفد - كما رأينا - كان يمنع غير الوفديين من تولى الوظائف العامة بل ويعزلهم، وكذلك كانت تفعل الأحزاب الأخرى.

وما لبث أن عاد الوفد الجديد لنشاطه ودخل انتخابات ١٩٨٤ ودخل فى قالب الحياة الحزبية الجديدة . وبدأ لعبة التوازنات السياسية التى أجادها سراج الدين من قبل، ودخل فى تحالف مع الإخوان المسلمين لتحقيق نسبة النجاح المطلوبة لعضوية مجلس الشعب مما أغضب كثيرا من أعضائه الذين رأوا فى هذا التحالف خروجاً عن مبادىء الوفد الأساسية. وتميز خطابه السياسى بشكل عام بإثارة قضية الحريات العامة شأن باقى الأحزاب والمناداة بحرية إطلاق تكوين الأحزاب .. الخ . وقد استشعر السادات الخطر من شعبية الوفد الجديد ولم يشفع لفؤاد سراج الدين أحاديثه الطلية عنه وعن ديمقراطيته وعن أبوته للأسرة المصرية فكان ضمن المعتقلين فى حملة سبتمبر ١٩٨١. وفى المعتقل اختلط بمختلف التيارات السياسية التى كان لها تأثيرها ولا شك على تعديل خطابه السياسى وخاصة بعد استقبال الرئيس مبارك له بعد الافراج .

لقد كان فؤاد سراج الدين سياسيا صنعته الحياة الحزبية بكل مناوراتها، وكان مخلصا شديداً لطبقته الاجتماعية وليس فى هذا ما يعيب فالقاعدة أن الإنسان يتحرك مع مصالح طبقته والاستثناء أن يخرج على طبقته. وفى تاريخ مصر وغيرها من بلاد العالم ما يؤكد هذه الحقيقة. ودراسة التاريخ فى النهاية لا تقوم على الحكم الأخلاقى على السياسيين، ولكنها تعنى بتفسير خطواتهم فى السياسة بالبحث فى الأصول وفى الظروف، وليس بالبكاء على الماضى أو الاحتفاء بالحاضر .

إبراهيم أصلان
كتابة توائم بين الجمالى والوطنى

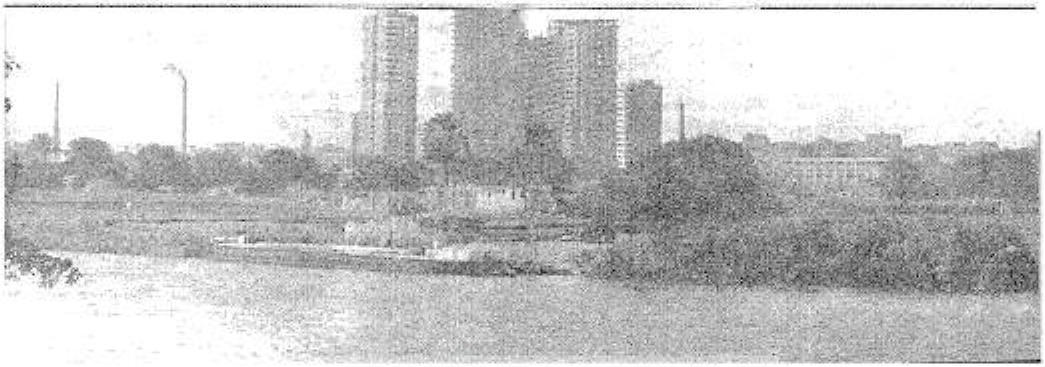

إبراهيم أصلان

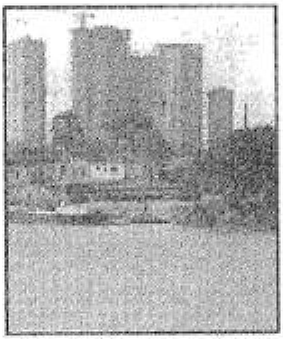
بقلم : د. عبدالمنعم تليمة

""

لا وطن للفن ، بيد أن للفنان وطنا .

الفن لغة البشرية وسبيلها إلى تجاوز القهر والظلم ، وأداتها للمح المطلق فى النسبى والكلى فى الجزئى والخالد فى العارض، والدائم فى العابر والجوهرى فى السطحى والحقيقى فى الزائف . والفنان يعيش واقعا بعينه وعلاقات بعينها ، وهو يرى فى هذا الواقع وفى هذه العلاقات مالا يراه غيره ، فعينه - قدراته المتخيلة واقتداره التشكيلى - تقع على مالا تقع عليه أى عين . وما يراه الفنان وتقع عين خياله عليه ، ليس هو التفصيلات والمناسبات العارضة والحادثات الطارئة ، إنما هو أرفع تقنيات وصلت إليها جماعته فى تطورها التاريخى ، وأرفع أشواق رنت إليها جماعته إلى مستقبلها الآتى .





يعكس الفنان ما عليه جماعته من خبرة تقنية وآفاق روحية وقيمية وعلاقات اجتماعية وسياسية .. الخ. هو يعكس (جوهر) مرحلة تاريخية كاملة من حياة جماعته ، ليثبت هذا الجوهر ، وليدفع به إلى تطوره المستقبلي الحق، وليصل هذا الواقعي المحلي بما وصلت إليه الجماعات البشرية الأخرى وما ترنو إلى الوصول إليه ، فيتخذ هذا المحلي - عبر المشترك الإنساني - طوابعه الإنسانية .

لهذا كان الفن ولا يزال إلى حد : أكثر الظواهر تعقيدا وتركيبا ، لأنه الظاهرة الوحيدة التي تتوسل بأرفع طاقات الإنسان ، الخيال الخالق ، وتنهض على أرفع مواد في تكوينات الآحاد والجماعات، الأبعاد النفسية والروحية والوجدانية والعاطفية في الذات الفردية وذوات الآحاد والصلات والعلاقات والتناقضات والمصالح في المجموعة وبين المجموعة الواحدة وسواها من المجموعات البشرية الأخرى .

هذا التعقيد جعل الظاهرة الفنية تتبدى للبشر في أثواب فضفاضة من الغموض و(السحرية) وجعل الفن مادة لتأويلات ليست من عناصر تكوينه الجمالي ولا من مقاصد وجوده القيمية ، وأغرى الغموض السحري أي أحد أن يطلب في الفن أي شيء ، ولكل هواه ولكل مصلحته ، حتى لقد صار الفن حمالا لأي تأويل وتوجيه ، فهو يعطي نائله لمن يطلب حسب وجهته وأغراضه . صار الفن سلاحا وساحة لكافة الصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحزبية والعرقية والمذهبية والأيديولوجية. يرى كل طرف من أطراف هذه الصراعات أن وجهته في تأويل الأعمال الفنية هي الحق ، وأن وجهة غيره من الأطراف باطل . ومع عسر ظاهرة الفن ، وسوء التعامل مع الأعمال الإبداعية، والتراوح الشديد بين التقديس والتنجيس ، وموازاة كل الأغراض والمصالح والصراعات والتناقضات وراء الفن ، نقول مع كل ذلك إن البشرية قد شهدت عبر تاريخها الطويل خوالد إبداعية ادخرتها في واعيتها وضميرها ، ومبدعين باقين معظمين في سجلاتها ، ومتلقين أسوياء بالفطر والذائقات السليمة . ثم بدأت البشرية عصرها هذا الحديث فارتفع في بواكيره لواء العقل ، ثم تصدر العلم وصار (مرجعية) لكل أمر : فانضبطت

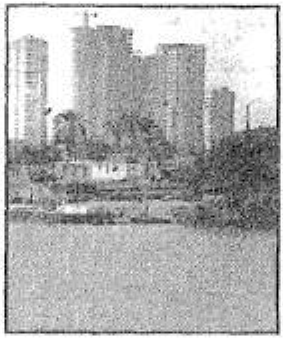
العلوم الطبيعية والتجريبية بالتقدم الهائل المعملى والآلى والرياضى ، ونشأت العلوم الإنسانية والاجتماعية فنشأ لكل ظاهرة فردية أو اجتماعية أو بشرية عامة علم يقوم بدرسها ، فكانت علوم النفس والاجتماع واللغة والسياسة والتاريخ والاقتصاد .. الخ . وفي العقود الأخيرة نرى نشوء آخر العلوم ، (علم الفن) ، وهو آخرها لأنه إنما ينهض بدرس أكثر الظواهر تعقيدا أو تركيبا - كما سلف القول - ولأن قيامه كان يحتاج إلى نضج علوم الظواهر الأخرى واستقرارها . ثمة اليوم نتائج علمية منضبطة فى حقل درس الفن ، وتنهض بهذا الدرس دوائر علمية ذات هيبة وأكاديميات ومراكز بحث ومعاهد عالية ، وصار لهذا الدرس أهله من العلماء والدارسين والباحثين ، ويتوسل هذا الدرس بإجراءات منضبطة وتقنيات صارمة .

عرفت ثقافتنا الحالية شيئا من هذا الأفق العلمى الرحيب ، وغابت عنها أشياء، فظل مشكل الفن فى بلادنا قائما ، بل إن ثقافتنا الحالية هذه تعانى ما لاتعانيه ثقافة أخرى على ظهر هذا الكوكب فى زماننا هذا : نرى قوى التخلف لا تصطنع الفن سلاحا توارى وراءه غاياتها المذهبية والحزبية الضيقة وساحة لمعاركها السوداء فحسب ، بل نراها تحرم الفن تحريما وتفتى بتدمير الإبداعات وتحريف الكتابات وإهدار دماء منشئيها من المبدعين والفنانين والمفكرين والكتاب ، لكن قوى الاستنارة حية ، ترد بأصيل الإبداع وبالفكر المسئول .

إبداعات أصيلة

ولقد قدم إبراهيم أصلان ، ولا يزال يقدم ، إبداعات أصيلة : أصل كل الحقائق التاريخية المستقرة أن وجود مصر فى التاريخ البشرى وجود إبداعى ، الإبداع الفنى والثقافى ، وأن المصريين متعددو الأعراق والملل ، غير أن عيشهم المشترك على مصدر (وحيد) للحياة ، هو النيل ، جعل التعددية - بالتفاعل السمح - وحدة، فكانت وحدة المصريين إبداعهم الأول - تواترت هذه الحقائق واطرد فعلها ، من البداية العتيقة ، منذ آلاف السنين ، إلى يوم الناس هذا ، وصارت لدى المبدعين المصريين ، فى وعاء حافظ ، يؤسسون جديدهم - فى كل زمن من أزمنة الوجود المصرى - على ما انتهى إليهم من خوالد آبائهم وأجدادهم الباقية ، ويحمون وحدة جماعتهم بطرائق الفن وبالاقتدار الجمالى التشكيلى .

يتبدى هذا الأمر فى رواية إبراهيم أصلان الأخيرة (عصافير النيل) . وتضع القراءة الأولى للرواية أيدينا - من جهتى التشكيل الجمالى والموقف الفكرى - على



ثلاثة أمور :

النيل : والنيل لدى المصريين ليس قناة ضئيلة ، إنما هو (البحر) مطلقا وعلى الحقيقة ، له الهيبة ، فهو مصدر الحياة ومستودع كل معرفة وسر ، وإليه اللجوء فى هين الأمر وعظيمه، من أول شأن فردى قريب إلى الشأن الجماعى المهيب : فهذه مصرية تلجأ إليه لما ألم بها طارئ صحى بسيط ، وهذه مصرية ترنو إليه فى لحظة نشوة جنسية متوهجة ، وهذا مصرى يسعى إلى (طريق النيل) يطلب على حافة شاطئه الإلهام ، وهذا مصرى يتطلع بعينيه إلى سطح مائه طلبا لحاجة نفسية روحية ، وها هم المصريون يلوذون بالنيل ، أبيهم ، إذا ما اشتدت غارات الحرب. ويقدس المصريون النيل ، يجعلون بيوت عبادتهم على شاطئه - ويتسع النهر الفضى الجليل ليكون رمزا لكل أرض مصر الطيبة ، حتى إذا طلب امرؤ إلى أخيه أمرا يتصل بالأرض ، وكان فى الطلب التباس ينتهى بسؤال ، كانت مياه النهر ملهما وشاهدا « ... وقبل أن يخرج إلى طريق النيل جاءه صوت سلامة من بعيد :

– لا تنسَ موضوع الأرض

جلس على حافة الشاطئ

كان النهر ساكنا وبدت أضواء المصابيح التى انعكست فيه عكرة وذاوية .

فكر عبدالله بن عثمان أن الماء نائم.

الأرض ؟

تلك التى يحلم بها إخوته .. » . ص ١٤٦.

الوحدة البشرية : المصريون هم عصافير النيل (عنوان الرواية : عصافير النيل) تحلق أسرابهم ما تحلق وتعانى ما تعانى ، ثم تجرى على آحادها شأن كل حى، النواميس ، فيدركهم الموت . بيد أن الموت حياة فى العقيدة المصرية العتيقة ، عقيدة الخلود . هذه العصافير، المصريون، باقون، يحمل الوليد الجديد منهم اسم سلفه ، والجميع - من رحل ومن ولد - أحياء يرزقون عند الجدة هانم التى تجاوزت التسعين، بل قيل إنها تجاوزت المائة والأربعين. كلهم حى باق ما ظلت الجدة حية باقية ، وهى لا تزال حية ، تفتش عن (المداس) تلبسه وتسعى إلى هؤلاء الموتى الأحياء فى دورهم وحيث يكونون ، تتحدث إليهم وتعطى لهم وتأخذ

منهم ، وثمة ما يوازى – رمزيا – حياة هؤلاء العصافير البشر والموازى هنا هو العصافير الحقيقة ، الطير ، وإنما تأتى هذه الموازاة – أو المعادلة – الرمزية فى مواقف بعينها من شدة ومعاناة وإحباط .. الخ : «......

بين حين وآخر وهو واقف
كان يرى فخا أو أكثر وهو ينطبق
يثير رذاذا من القش والغفار .
وقد أمسك بواحدة من تلك العصافير الصغيرة ، التى كانت تنتقل بين أغصان الأشجار المائلة ، وشاطئ النهر المنحدر .
حصل لنفسه على فخ
ولكنه لم يفلح أبدا فى اصطيـــاد عصفور. ص ١٥١ لكن العصافير البشر ، المصريين ، أصل ، وموتاهم أحياء ، فلا تزال الجدة – رمز البقاء والخلود – على عقيدتها بأن من رحل من أسرابها حى يدرج على الأرض ، ولا تزال تطلب موتاها الأحياء ، وهى تطلبهم من النيل ، إذ إنه – لا جرم – مستودع الحياة: « ....
والجدة هانم مازالت تمشى
تبحث عن بيت ابنتها نرجس
تدور مع الأزقة ، وتغيب فى الحارات .
تفتش فى وجوه الناس
تلج البيوت المفتوحة وتغادرها
وتدخل الدكاكين على أصحابها.
إذا داهمها الليل تحتمى بالماء ، جالسة بجرمها الصغير تحت شجيرات الخروع بأوراقها العريضة المائلة على حافة النهر الساكن.

الوحدة الرمزية : تتأسس الأبنية الرمزية فى هذه الرواية على رموز النيل والجدة والأرض ، فى فضاء رمز دافئ عميق، هو كلمة (البلد) الرامزة الدالة بذاتها . البلد حقيقة هذه العصافير البشرية المصرية ، والذى يعرف هذه الحقيقة حق المعرفة هو أكثر هذه العصافير المصرية رهافة وثقافة ومسئولية، عبدالله . وقد تطير آحاد وجماعات من هذه العصافير إلى بلاد أخرى ، فهذا إلى بلد عربى وذاك إلى بلد أوروبى ، لكن يظل (البلد) الطيب مستقر الجميع وحقيقتهم فالبهى عثمان (يشم) رائحة البلد ، ولا يصح زواج لعبد الرحيم إلا من (بنت البلد) . ثم تجتمع كل الرموز – النيل والجدة والبلد – فى منظومة دقيقة عندما تقف الجدة على النيل تطلب إلى سائق عربة أن ينقلها إلى (البلد) ، فتكون هذه الكلمة – البلد – آخر كلمات الرواية وتكون نهاية بارعة ساطعة .

لقـــد أهدانا إبراهيم أصـــلان فى (عصافير النيل) صورة حياتنا ووحدة جماعتنا ، وتألقت بقلمه موروثاتنا اللغوية والجمالية والقيمية ، فالتحم ماهو جمالى بما هو وطنى فى بناء روائى محكم .

أنا واللامعقول !!

بقلم : حسن سليمان

وسط المدينة لايطاق من الزحــام : الرصيف غير مرصوف فتتزاحم المشاة على الجزء المرصوف منه ، عبور شارع سليمان باشا إلى ممر المستترال شاق جداً . فعربات التاكسي لا يحلو لها الوقوف فجأة دون مبرر إلا عند عبور المشاة ، والعربات تندفع بشدة مع منعطف الطريق ، ولا فرق إن كانت الإشارة حمراء أو خضراء . إنه نوع من فوضى لا تفهم لها مبرراً ، ولكن الكل يتسابق دون مبرر معقول ، وفي ممر المستترال يعلق الباعة ملابس رجالي كي تباع لا تدري إن كانت جديدة أو نصف عمر ، وعند ناصية شارع شريف باشا يقف رجل ذو جلباب قصير أبيض ، ضخم الجثة غليظها ، وتحت الجلباب سروال أبيض ، في قدميه «كوتشي» خلع الصوم ، والعمامة التي على رأسه تكشف منها «عصبة» على قفاه ، في يده بوق ينادي فيه «تبرعوا لبناء مسجد» . فإذا بالرجل الذي يبيع الملابس المعلقة يصرخ في وجهه : «إنت رجل حرامي ، والمسجد بني منذ سنين في ميدان رمسيس والإيصالات التي في يدك قديمة لا قيمة لها .. ألا تكف عن السرقة يا أيها اللص» . الرجل الملتحي ينادي بأعلى صوت «بالميكروفون» الذي في يده : «أسكت يارجل ياحمار» . صوته يدوي إلى آخر الشارع ، فيدير المارة كلهم رؤوسهم ناحية الصوت . لم يسمع أحد صوت بائع الملابس الذي اتهمه بالسرقة والكذب . لكن الناس كلها سمعت الرجل يسبه في «الميكروفون» . والنتيجة أن الرجل الذي يبيع الملابس أخذ يلتقم أظافره في غيظ وعقد صامت . أما أنا فصرت أردد : «من يملك بوق الإعلان فهو يسيطر على الآخرين» .

***

منذ سنوات طويلة وجد نفسه وقد صلب على باب الزنزانة . كان تعباً مرهقاً من التحقيق والضرب . تجولت عيناه على جدران الزنزانة ، وجد خطوطاً قصيرة خشنة بآلة حادة أو بمسمار على الجدران لا حصر لها ، ولكن آخر هذه الخطوط التي لا نهاية لها : «خمس سنوات ومازلت مستمراً» . سحبت تلك الكلمات عينيه . نظر إلى الأرض ، فإذا به يجد غطاء زجاجة سجائر «هوليوود» فرح بها . لقد وجد شيئاً . أخذ يقرأ الكلمة ، ويعيد قراءتها دون ملل ، المهم أن يأخذ رف التفكير إلى شيء بعيد عما هو فيه . رويداً رويداً .. اعتادت عيناه على ظلمة المكان ، وأصبحت الطاقة الصغيرة ذات القضبان هي محور الكون لديه . فمن الأصوات القادمة إليه مع غروب الشمس أو شروقه يستطيع إدراك الوقت قبل الوضع سابقاً .



كان يريد أن يصل إلى نوع من السلام الداخلي يعينه على ما هو فيه . تقبل الوضع . تعامل معه في اقتناع واستسلام. قائلاً لنفسه : «سأغلق رأسي».

ذات صباح فتح الباب ، ونودي عليه بأن المأمور يطلبه . تعثرت خطاه سائراً خلف حارسه . وقف ذليلاً صامتاً أمام المأمور . لكنه تماسك . قابله المأمور مبتسماً ، وبادره بأن هناك توصية كبيرة عليه ، فهل من شكوى عنده ؟ أجابه في شموخ : «لقد اعتدت أن أغلق باب شقتي عليّ وأعتكف دون رؤية أحد . اعتدت على الوحدة . الوحدة أحد مقومات شخصيتي. أحبها . كنت أصك الباب عليّ لكنكم جنبتموني هذه المشقة . فأنتم تغلقون الباب خلفي . أما عن النوم فأنا أتبع «فلسفة الزن» وأحلم طيلة الوقت أن يكون لدى السرير الياباني بدون الحشايا والوسائد . ذلك السرير القاسي من البامبو ، وإذا بحلمي يتحقق . «فالبرش» يقوم بنفس الشيء الذي تمنيته» لكن الاكتشاف الأعظم كان في الملابس . كنت أبحث دائماً عن نوع من القماش ملمسه مثل بدلة السجن ولونه كذلك ، وإذا بذلك الحلم يتحقق . اندهش المأمور قائلاً : لم أر سجيناً مثلك . أليست لك شكوى من أي نوع .» قال له : «وما قيمة الشكوى». الأفضل لي كترويض لروحي أن أتحمل أقسى شيء من العذاب. إنه انصهار للروح سيجعل مني إنساناً آخر». لم يفهم المأمور كلماته الأخيرة وأمر السجان أن يأخذه إلى الزنزانة . لكنه توقف عند الباب، وهمس للمأمور : «الحرية شيء آخر. إنها بداخلي . فمن الممكن أن يكون هناك مسجون حر أكثر من رئيس وزارة، ومن الممكن يكون الرجل الذي يمارس ضده التعذيب أقوى من جلاديه». رجع لزنزانته. صك الباب خلفه. شعر بسعادة تغمره.

مع كل شهر كان عليه أن يأخذوه مع غيره إلى دار القضاء العالي ، وفي كل مرة كان يتطلع إلى الأقدام المتجهة إلى بناية مرسمه . كان يقف أمام القاضي . يصرخ منادياً عليه . يصيح القاضي : «أين ملف القضية». فتكون الإجابة : «لم يصل الملف بعد من مديرية الأمن». فيكتب القاضي «تؤجل إلى الشهر القادم»، وهكذا تكررت المهزلة ، وفي مرة صاح بسرعة : «إن المسافة بيننا وبين باب الخلق لا تعدو بضع دقائق . فلم لا تأمرون بإحضار الملف». فيقف القاضي في وجهه : «حينما ينطق القاضي بالحكم ، عليك ألا تنطق» . قال له «ولكنك لم تنطق بعد بالحكم» . لم يعره القاضي التفاتاً وكتب : «تؤجل إلى الشهر القادم».

حينما رجع إلى زنزانته فتح عليه الباب وصاح أحدهم : «سعادة الباشا يريد أن يراك». تبعه ، وإذا به أمام أحد الضباط في حجرة . قال له الضابط: «هل تظن أن لك قضية . إننا فقط نريد أن نرفه عنك كل شهر ونريك الدنيا . أفهمت إذن». لم يحر جواباً. لقد علمته التجربة أنه في مواقف مثل هذه عليه أن يصمت وأن

يسترخي كلية . فهو عرضة لصفعة أو لكمة . مرت أشهر، وتم استدعاؤه ثانية إلى سعادة الباشا الضابط. فقال : «لقد أمروا بالإفراج عنك». وأعطاه متعلقاته القليلة . فقال له : «أنا الآن منصرف لكني أريد أن أعرف لماذا سجنت؟». قال له الضابط : «أتريد أن تعرف . ادخل ثانية». فأجابه : «أشكرك» شاعراً بمرارة .

في الطريق لم يشعر بسعادة . فحينما صعد إلى مرسمه . وجد كل شيء منظما في مكانه لكنه افتقد خادمته . خلع ملابسه . لا يدري لماذا، وبقي بملابسه الداخلية ، وفجأة وقف على سور شرفته التي تطل على دار القضاء العالي . صعد إلى سور شرفته وأخذ يتبول . شاعراً بسعادة : إنه يتبول في وجه العالم أجمع . رآه جنديان ينشران ملابسهما على سطح دار القضاء العالي . أشارا إليه يتهامسان ويتضاحكان . لوح لهما بيده شاعراً بسعادة دون أن يكف عن التبول.

***

مر الزمن ... وأنا الآن أعاني من مرض «الروماتيد» وخصوصاً في ركبتي اليسرى ، وأحياناً يعن عليّ الألم بقسوة. في ذلك اليوم كنت أتألم ، ولكن عليّ أن أمضي إلى البنك . اقترحت السيدة المشرفة على مرسمي أن يصحبني زوجها. زوجها رجل عملاق . أمين شرطة في المباحث ، ويعتمدون عليه في المهام الصعبة . تحت منزلي وجدت عربات كثيرة مصفحة مثل تلك العربات التي نقلتني إلى المحكمة، ووجدت على الرصيف بعض الضباط يأكلون ويشربون الشاي ويتسامرون. ولم يتركوا لي مكاناً أمر منه. لا أعرف كيف يتعرفون على بعضهم، لكن مرافقي حياهم وحيوه، وحينما وجدوني أتكيء على عصا، ووضعت على عيني نظارة سوداء. أفسحوا لي مكاناً بينهم بل وقف بعضهم. شجعتني بشاشتهم على أن أسألهم . لماذا كل هذا ؟ أجابوا : إن اليوم صدور الأحكام ضد نواب القروض ، وإن متوسط الأحكام ستكون حوالي ثماني سنوات . فأجبت : أيسرق فرد ملايين الملايين ثم يحكم عليه بثماني سنوات؟! كم رجل في الصعيد على استعداد أن يأخذ حكماً مؤبداً طيلة حياته نظير عشرين ألف جنيه مثلاً . ضحك أحدهم . وقالوا : «كلهم ، وقد حدث فعلاً كثير من مثل هذه الحوادث». لكن أكبرهم رتبة صاح في حزم: «نحن هنا مكلفون بمهمة معينة ولا أريد كلاماً في السياسة». فانصرفت ، وتذكرت جماعات من عامة الشعب تنتظر كي تبيع أعضاءً من أجسامهم مقابل بضعة آلاف قليلة من الجنيهات . فجأة تذكرت حادثة وأخذت أضحك بصوت عال. حادثة المسئول المهم جداً الذي ذهب إلى أمريكا ليزرع صلعته . فكلفته كل شعرة ثمن قيراط من القصب ، والنتيجة كانت بضعة شعيرات ضعيفة شكلها مضحك . فرجع ثانية إلى الباروكة . سرت مع صابر وشعرت بجانبه أنني في حماية الدولة كلها. إذ باستطاعته أن يوقف السيارات كي أمر ، وفي استطاعته أن يفتح لي

الاشـارة مـتى أراد . فكل رجـال المرور يعرفونه ، وصلنا إلى شارع عدلى . حيث يوجد بنك القاهرة. وبنك القـاهرة دائمـاً يحيرنى إذ تقف أمامه سيارات المرسيدس والكاديلاك الفارهة . ذات ستائر سوداء ، وينزل منها أشخاص منتفخون كباذنجانة بيضاء محشية قد تفحمت فى قاع الحلة . أقدامهم تكاد تفتك بأحذيتهم الضيقة التى يصعب إحكام رباطها. وملابسهم وحللهم لامعة ضيقة وقمصانهم ذاهية الألوان وأزرارها لا تكاد تغلق على كـروشـهـم. وربطات عنق زاهيـة الألوان كـرسـوم الأطفال أو المجانين . ويحملون المحمول صارخين بصوت عالٍ.

فى ذلك اليـوم وقـفت عـربة من تلك العربات ، نزل منها أحد تلك النماذج . شكله بالضبط كإعلان «ميشلان» عن الإطارات . لكن المثير أنه كـان يحمل مسبحة ، وإذا بى أقول بسرعة لصابر . أريد منك خدمة . أجاب «أأمر» قلت أريد مـسـبـحـة هذا الرجل». هجم عليه صابر ووقف حائلاً بينه وبين الباب وصاح آمـراً : سـعـادة البـاشـا يريد أن يرى المسبحة. ارتاع الرجل ناظراً إلى مسدس صـابر الذى يطل من حـزامـه . وطوله وحـجـمـه الضـخم. اعطاه المسبحة مستسلماً. أمسكت المسبحة بيدى وأخذت أحرك الحبات مردداً «صرفت كم أمس .. كم سأودع اليوم .. سأصرف كم غداً!!» . حرك الرجل عـينيـه بينى وبين صـابر فى دهشـة . وفجـأة قلت له : «هل قال لك الله أن تذكـره وأنت داخل للبنك لتـدع نقـوداً مسروقة». ارتاع واصفر وجهه. أعطيته المسبحة . فأخذها بذلة . قلت له «الويل لك لو رأيتك داخـلاً البنك مـرة أخـرى وانت ممسك بها . إبعد عن طريقي». وضـعـهـا الرجل فى جيبه ، وطيلة دخوله البنك كان يتلفت خلفه ناظراً إلينا .

فى مـصـر دائمـاً تتناسب الثـروات تناسباً طردياً مع الغباء ودمامة الروح . كلمـا ازداد غبـاء الرجل وضيق تفكيـره ازداد ثروة . فلأنه غبى . لا يعطى أهمية لحجم مغـامـرة ضد القانون والأعراف والأخـــلاق ويجلس دائمـــاً فى المطاعم الفخمة جداً ليصل حساب مائدته إلى آلاف الجنيهات نافثاً أكاذيبه مع دخان سيجاره «الهافانا» الذى لن يتعلم أبداً كيف يدخنه. ينفث أكاذيبه عن علاقاته الحميمة برجال السلطة . وكيف أنه باستطاعته أشياء كثيرة ، وكلها أوهام رجل مريض.

***

أنا الآن فى وحـدتـى التـى فرضتها على نفسى ولا فرق بينها وبين السجن . أتساءل : لماذا لم يولد لدينا «كـافكـا» آخر أو «بيكت» . إننا نعيش فى مناخ خـصـب . أخـصـب بكثير من مناخ الذين كتبوا فى مذهب اللامعقول !

نهاية الرواية الشعبية ؟!

الديناميت .. شراب لذيذ

بقلم: محمود قاسم

تم اعلان وفاة الرواية الشعبية برحيل الكاتب سان انطونيو (فيليب دار)، والرواية الشعبية هى الروايات الاكثر مبيعا تستطيع أن تقرأها فى إحدى وسائل المواصلات، كأنها شطيرة سهلة الهضم، أو زجاجة مياه غازية، أو كيس لذيذ به حبات الفيشار.

وأهمية هذا الحدث أن الرواية الشعبية مولود أوروبى، ازدهر فى القرن التاسع عشر مع انتشار الصحافة المكتوبة، وقد شهدت فرسانها، من أدباء الرواية البوليسية، والقصص العاطفية، والميلودرامية، ثم رواية الخيال العلمى.

وأشهر فرسان هذه الرواية فى اوروبا هم موريس ليبلان، وارثر كونان دويل، وادجار رايس بوروز، ثم اجاثا كريستى، وجورج سيمنون، وبربارا كارتلاند، وسان انطونيو، والأخيران رحلا عن عالمنا فى الشهرين الماضيين.

الغريب، انه بعد فترة الحداد الادبية، التى اقامها الاوربيون لكل من كارتلاند، وسان انطونيو، فان احتفالية ملحوظة بالرواية الشعبية الامريكية قد تمت بمناسبة موسم الصيف، وبدا ذلك واضحا فى الملف الذى خصصته مجلة لوبوان

الفرنسية فى ٤ أغسطس المنصرم تحت عنوان «قصص الصيف البوليسية» حيث تم الحديث فى صفحات مطولة عن جميع فرسان الرواية الشعبية الجديدة، لم يكن من بينهم اوروبى واحد.. وبدت اوروبا كأنها تتخلى عن نوع ادبى صنعته، وتفوقت فيه طوال قرن ونصف من الزمان، واختارت طوعا ان تقدمه هدية الى الامريكيين .

اوروبا لم تعوض حتى الآن كل من أجاثا كريستي، وسيمنون، وان كانت أوروبا هى التى اكتشفت موهبة باترشيا هايسميث (انظر روايات الهلال فى عددها الأخير، فسرعان ماترجمت رواياتها الامريكية، وحولتها الى افلام فى كل من فرنسا، والمانيا، بينما بدت الافلام الامريكية المأخوذة عن ابداعها اقل بكثير من الافلام الاوربية .

كما أن أوروبا لن تعوض كاتبة طويلة العمر، وغزيرة الانتاج، ومقروءة بشكل شعبى على كل المستويات مثل بربارا كارتلاند (١٩٠٣ - ٢٠٠٠) . فى الوقت الذى يولد فيه كل عام بالولايات المتحدة اسم جديد يغزو الاسواق بقوة بالاضافة الى بقية الاسماء الموجودة الآن فى ساحة الرواية الشعبية مثل جون جريشام ، وستيفن كنج، ومارى هيجنز كلارك، وروث راندل، وب. وجيمس، وغيرها من الاسماء.

* * *

من المهم ان نتعرف على الرجل الذى شكل آخر جيل الرواية الشعبية فى اوروبا، خاصة فى فرنسا ، وخاصة انه الكاتب الاقل حظا فى اللغة العربية، فبينما ترجمت اعمال اغلب كتاب الرواية الشعبية فى مصر، فان رواية واحدة لم تر النور، لا باسم فيليب دار، ولا الاسم المستعار سان انطونيو.. وذلك رغم غزارة انتاجه .

تحدث عن طفولته قائلا: كان ابى احد البسطاء. أما أمى فكانت ابنة لمزارع. ولقد قضيت أغلب سنوات شبابى فى هذا الجو الريفى مع جدتى التى كانت ارملة. وكانت تصحبنى لرؤية المزارع، فعرفت هذا البلد جيدا المعروف باسم «ألب الرون».

وقد عمل فيليب دار المولود عام ١٩٢١ صحفيا فى جريدتى «لوفيجارو» و«باريس سوار».. وفى عام ١٩٤٩ نشر اول قصة باسمه المستعار «سان انطونيو» ويرى انه اتجه الى التأليف القصصى لأن الصحافة لم تعد بعد الحرب بنفس أهميتها قبل ذلك.. ورغم ان الرواية الاولى لم يطبع منها سوى ثلاثة آلاف نسخة، فانه قد انتهى من تأليف الرواية الثانية، واختار الرواية البوليسية لأنها تقوم على تتبع الاثر ، وغريزة الفضول .



سان انطونيو — ب . د . جيمس — روث راندل — مارى هيجنز كلارك

ظل ينشر باسمين ، الحقيقى والمستعار، لكن القراء كانوا اكثر ميلا الى الروايات الموقعة باسم «سان انطونيو» قدم فى رواياته شخصية رجل بملامح اسمه «بويوبيه» وهى شخصية اشبه بفالستاف عند شكسبير، لا يهتم بلحيته، ويمكن ان تقابله ، وتجد صفار البيض على رابطة عنقه : عندما ابتدعت بويوبيه .. فكرت فى شخص بعينه له نفس الاسم، انه رجل عاش الحرب العالمية الاولى، بدين، له ساق واحدة، ويعيش فى بيت صغير.. اذكر يوما قادتنى قدماى الى داره، وفوجئت به يأخذ حماما، كانت قدمه الصناعية الى جواره. وظل هذا المنظر محفورا فى ذهنى .

ومن بين الروايات الكثيرة التى حملت اسم «سان انطونيو» كمؤلف، هناك : «صفر على الشمال» «كل واسكت» ، «الاصابع فى الافق» «الحياة الخاصة لولتر كولتز» ، «خداع فيل» «برافو يادكتور بيرو» «لحظة ياجميلة» ، «نساء من قصور يتس» وهى من ضمن رواياته الاخيرة .

أما من بين الروايات الكثيرة التى حملت توقيع «فيليب دار» فهناك : «جسدى الأبيض القذر» «زرع الليل» «هذا الموت الذى تكلمت عنه» و«الديناميت شراب لذيذ» ، «البلوزة» ، «ثانية مليئة بالجمال» وفى السنوات الأخيرة راح يكتب بكلا الاسمين معا، مثلما فى كتابه «سان انطونيو» وهى مسرحية من فصل واحد، عبارة عن مونولوج واحد تقوم به شخصية على خشبة المسرح، ويتكلم فى هذا الحوار عن الحياة والموت والحب والرجال والنساء .

عشت هوس الحياة

ومن بين روايات الكاتب «سان

انطونيو» هناك : «العجوز التى سارت فوق البحر»، وهو اسم غريب لرواية تتحدث عن شاب فى العشرين من العمر . يقضى حياته فى سفر ورحيل، وتحوم روحه فى الفراغ والملل. وفى احدى سفرياته يتعرف على امرأة عجوز ثرية، تغطيها المجوهرات الثمينة، ويراها فى كل روحاته وغدواته تلمع فى يديها، وهى تستحم فى البحر، فى آخر الرحلة يفاجأ بها تضع له البقشيش فى ملابسه الداخلية، ويبدأ فى رسم خطته من اجل العزف على حالة الحنين التى تتملكها، ويخطط كى يتخلص منها، فهو ليس من الشباب الذين يبيعون اجسادهم للحسناوات . لكنه يريد الاستفادة من هذه الثروة. ويستغل قدرته فى الكذب ، وينسج لها القصص . حتى ينجح فى تدبير خطته، ويهرب دون ان يقدر احد على معرفة مكانه.

الجريمة مفيدة اذن فى بعض روايات سان انطونيو، مثلما هى مفيدة دوما فى روايات باترشيا هايسميث. لذا مثّل الكاتب ظاهرة خاصة فى الرواية، البوليسية، وحسب مجلة بارى ماتش - ١٢ فبراير ١٩٩٢ - فقد ذكرت موسوعة الارقام القياسية ان فيليب دار حقق اعلى المبيعات فى كتبه حيث انه باع حتى ذلك الوقت ١١٢ مليون نسخة من رواياته،

وتشير المجلة نفسها فى عدد آخر أن الكاتب وزع ٢٠٠ مليون نسخة، ويعلق دار على هذا :

اكتب خمس صفحات يوميا، ولم اكن واعيا لهذا الكم. وطوال اربعين عاما شكلت كل هذه الصفحات جبالا من اوراق المسودات. لقد عشت الهوس الحياتى. وعندما يحدثوننى عن منجزات سان انطونيو، فإننى احس كم انا فى حاجة الى الكتابة، وانا اكتب لا اهتم الا بما أنا عليه، وانا فى حالة عمل . وما سأفعله غدا .

وقال الكاتب فى البرنامج التليفزيونى «ابستروف» .. قلت كل ما اوده من خلال سان انطونيو . لكننى كنت فى حاجة الى غربة مناسبة اكثر. لقد تعلم احد الفلاسفة كيف يعزف وهو فى الثمانين من العمر. اما انا فأريد تعلم العزف قبل أن أموت .

هذا عن سان انطونيو.. آخر كتاب الرواية الشعبية الاوروبية ، والجدير بالذكر ان السينما قد تجاهلت دائما أعماله، ومع ذلك ظل محتفظا بشعبيته، نفس الأمر حدث مع باربرا كارتلاند، وغيرهما من ادباء الرواية الشعبية باستثناء سيمنون ، وكريستى.. لكن الامر يختلف تماما بالنسبة لأدباء الرواية الشعبية الامريكية، فأغلب اعمالهم يتم انتاجها فى افلام

سينمائية تحقق انتشارا للروايات، وتوضع الصورة الرئيسية للفيلم على أغلفة الروايات فى طبعتها التالية، بل ان الكثيرين منهم عملوا فى السينما منهم مايكل كرايتون، وستيفن كنج .

وحسب مجلة «لوبوان» المشار اليها، فان كاتبا جديدا فى الرواية الشعبية الامريكية، وهو سكوت تورو قد حقق من خلال روايته الاولى مبيعات ضخمة، لأن المخرج آلان باكولا حول الرواية الى فيلم بنفس العنوان «البرئ المحتضر» وقام بالبطولة هاريسون فورد، ويتم تصوير روايته الثانية «خسارة شخصية» من بطولة داستن هوفمان .

اذن فالسينما الآن تساعد بقوة على اكساب الروايات البوليسية شعبية كبرى، ويرى النقاد ان تورو قد يسير فى نفس طريق جون جريشام، فهو محام مثله، واعماله عن عالم المحاكم، حيث يختلط الابرياء بالمذنبين والمجرمين .

العرب والرواية الشعبية

وحسب قوائم المبيعات خلال هذا الصيف، فان الروايات الامريكية تباع رواياتها الآن فى اوروبا بشكل يؤكد أن الأوروبيين تركوا الساحة تماما للامريكيين، فها هى ذى رواية «قبل ان نقول وداعا» لمارى هيجنز كلارك تتصدر كل المبيعات طوال الأشهر الأخيرة والغريب أنه عندما ترجمت إحدي روايات الكاتبة فى روايات الهلال منذ عامين، فانها لم تلق نفس القبول.. بما يشير الدهشة، علما بأن الرواية الشعبية لاقت الاقبال الدائم لدى القراء العرب، مما يترك تساؤلا بلا اجابة حول منذ شعبية هذه الاسماء الآن فى الوطن العربى .

والى جانب الأسماء البارزة، التى تترجم بشكل فورى الى كل اللغات، فان الساحة تستقبل الجدد دوما. وتتنافس الاطراف جميعها فى الميدان، فمن الجيل القديم، قدمت ب. و جيمس روايتها «حان وقت الجد» ورواية «حكيم مثل الصورة» لروث راندل، فان الكتاب الجدد يدخلون الساحة بقوة مثل رواية «صيانو الروس» ليشيل كرسبى، ورواية «قتلى تيتانيك» لماكس آلان كولينز وهى اسماء من المنتظر ان تلمع كثيرا فى السنوات القادمة .

لكن ماذا عن مصر ؟... لاشك ان الرواية الشعبية لا تلقى قبولا لدى الكبار، وان كانت روايات «عبير» واغلبها من تأليف بربارا كارتلاند، تجد هوى لدى الشباب، اما الروايات البوليسية، وروايات التجسس التى يكتبها كل من نبيل فاروق، ومجدى صابر، فان اغلب قرائها من الشباب، وهى روايات مصرية، وظاهرة حديثة غير مسبوقة بنفس القوة فى العالم العربى. ❑

حتى لا تكون

الكنيسة المعلقة

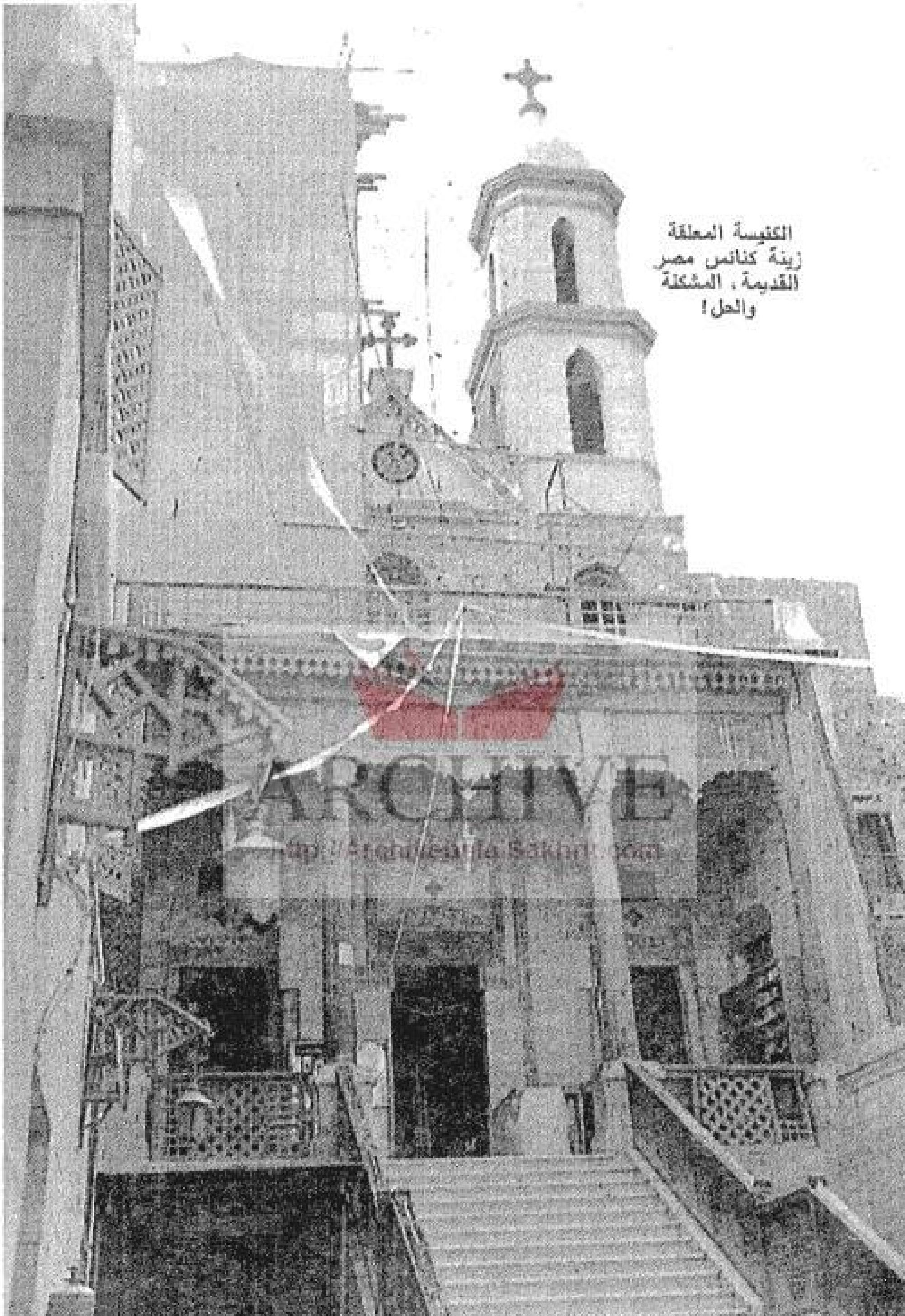
ضحية تراشق الاتهامات !

بقلم : أحمد أبو كف

●● الكنيسة المعلقة درة الكنائس فى حى مصر القديمة تراشقت حولها الاتهامات بين كاهن الكنيسة المعلقة ورجال الآثار المنوط بهم ترميمها. كاهن الكنيسة يتهم المجموعات التى بدأت فى ترميمها، بأنه كان تزويقا وليس ترميما جذريا .. ورجال الآثار والترميم يتهمون الكاهن بأنه يدس أنفه فى كل شىء، ويتهمهم بالجهل وعدم الامانة. وكاهن الكنيسة يتهمهم بالتآمر على الكنيسة كما يتهمهم أيضا بأنهم قبضوا أموالاً كثيرة كانت مخصصة للترميم .. ورجال الآثار يقولون أنه لم تأت أموال خاصة بترميم الكنيسة من الخارج، وإنما الرئيس مبارك تفضل بتخصيص ١٠٠ مليون جنيه لترميم الآثار، ومنها الكنيسة المعلقة ٣٠ مليون جنيه. وكاهن الكنيسة المعلقة يتهم الخبراء بأنهم أزالوا لوحة دينية من على أحد جدران الكنيسة، مع أنها لوحة وثنية تاريخية، ويتهمهم أيضا بأنهم هدموا كنيسة فى الدور الثالث .. ولم يسمع دفاع الآثار الخبراء عن ذلك .

وكاهن الكنيسة مرقص عزيز يتهم الخبراء بالتآمر على الكنيسة والخبراء يقولون فليتركنا فى عملنا الذى نجيده ونتخصص فيه دون التشهير بالأعمال التى انجزت.

والحملات مستمرة ومتبادلة .. والكنيسة هى الضحية ●●



الكنيسة المعلقة
زينة كنائس مصر
القديمة ، المشكلة
والحل !

هل نحن نريد الحفاظ على التراث القبطى الفريد ، أم أن نساعد الزمن فى إهداره؟.

هذا هو السؤال المطروح والمتاح الآن قبل أن نندم ولات ساعة مندم .

فالكنيسة أثر ثمين يعود إلى نهاية القرن الثالث الميلادى وبداية القرن الرابع، وهو من المبانى الأثرية الفريدة المعلقة ، مثل المساجد المعلقة كجامع الغورى وغيره من المساجد . والكنيسة المعلقة أنشئت فى مصر قبل الاعتراف الرومانى بالمسيحية وانتشارها ، وقبل عصر الشهداء . يقال أن الكنيسة قديمة وكانت معبداً وثنياً ، ثم اختارها المسيحيون لتكون علامة على انتصار المسيحية على الوثنية، والذين عانوا من اضطهاد الرومان ، قبل أن يعلن أولا الامبراطور قسطنطين مرسومه الامبراطورى بالاعتراف بالمسيحية كأحد الأديان فى الدولة الرومانية ، وبعد أن أكد ذلك الامبراطور تراجان وزوجته هيلانه أن المسيحية هى الدين الرسمى للامبراطورية.

الكنيسة المعلقة تعتبر معجزة لأنها شيدت على برج من أبراج حصن بابيلون الرومانى ، لكن الزمن له حدود ، وكذلك تأثير المياه الجوفية فى حى مصر القديمة التى تنخر فى أساسات البرج الرومانى المقامة عليه الكنيسة المعلقة . ويظهر فعل الزمن واضحا لكل من يزور الكنيسة ويتفحص فى أركانها وجدرانها وأرضياتها وسقفها، فالشقوق مازالت غائرة، والرسوم والايقونات التى رسمت على جدران الكنيسة بدأت تتلاشى ، والتصدعات فى كل الاتجاهات ، والأساسات غارق معظمها فى المياه الجوفية الراكدة . والوضع العام للكنيسة أخطر . والمطلوب قرار حاسم ببدء مشروع متكامل ومرسوم يحفظ لمصر كنيستها المعلقة، على أن تغلق الكنيسة أمام السائحين حتى يتم ترميمها بالكامل .. ولكن كاهن الكنيسة لا يحب سماع حكاية غلقها ويتحدى ..

تتميز الكنيسة المعلقة بأنها مبنية فوق برجين من أبراج حصن بابليون . وتضم روائع الفن القبطى النادرة فى الهياكل والرسوم الجدارية وللكنيسة سقف معلق خشبى على شكل سفينة نوح ، رمز الانتصار والنجاة . كانت فى بداية الأمر معبدا فرعونيا ، ثم معبدا وثنيا للرومان ، ثم كنيسة رومانية ، وتحولت فى نهاية القرن الثالث الميلادى وبداية الرابع إلى كنيسة قبطية، بل تحولت فى بعض السنوات إلى أن تكون مقرا للكرازة المرقصية . والدليل على ذلك ما ذكره فانسليب عام ١٦٧١م. الذى بعثه لويس الرابع عشر من فرنسا لدراسة حالة كنائس وأديرة مصر ، أنه رأى بالكنيسة المعلقة كتابة بخط يد عمرو بن العاص،

عندما كان واليا على مصر، يوصى المسلمين بألا يتعرضوا لهذه الكنيسة بأذى، فما الذى حدث بعد هذه الوصية من عمرو بن العاص الذى فتح مصر وأسس الفسطاط أول عاصمة لمصر الاسلامية فى افريقيا، وبنى جامع عمرو .. رابع المساجد فى عالم الاسلام وأول المساجد فى افريقيا المجاور للكنيسة المعلقة .

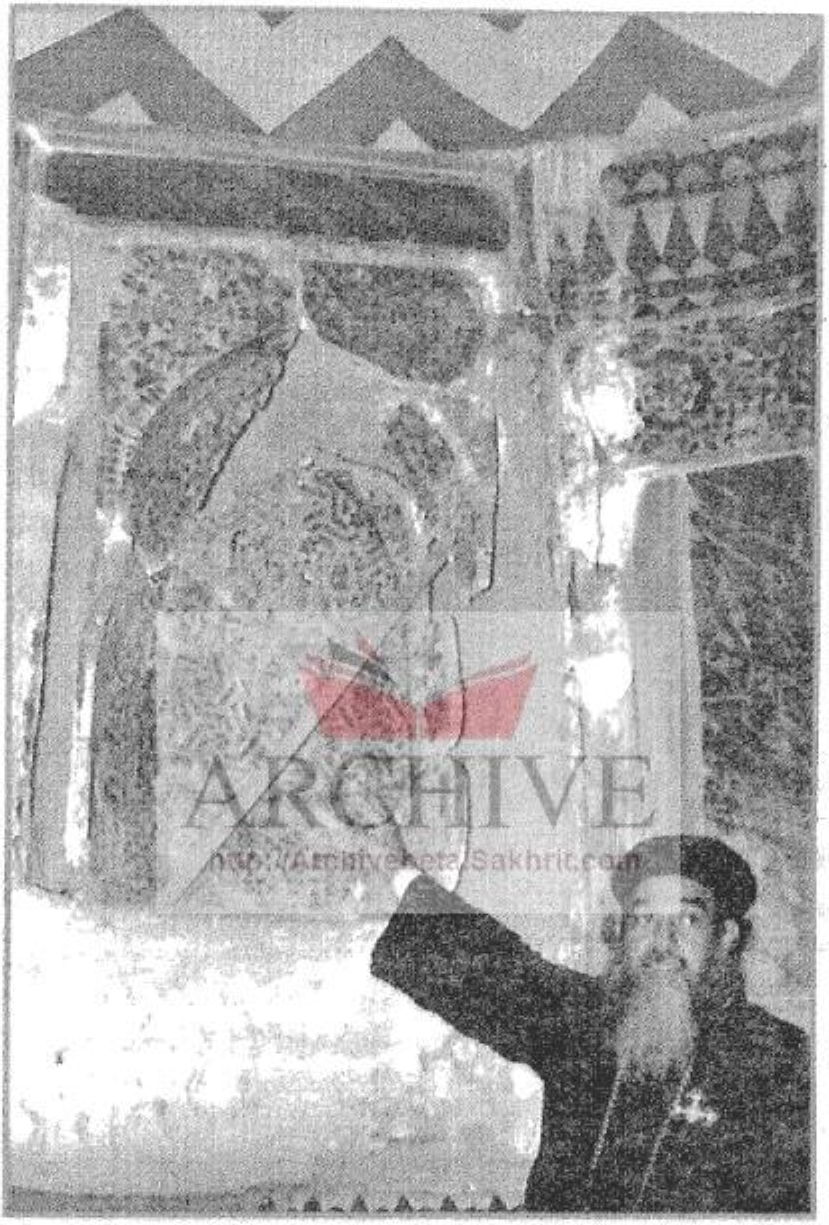
●●●

مأساة الكنيسة المعلقة تكمن فى موقف الآثار كما يقول الكاهن مرقص عزيز، الذى يتجاهل صيحات التحذير من خطورة الوضع الحالى للكنيسة المعلقة . والاستثناء فى قرارات الترميم . ففى عام ١٩٨١ - كما يقول كاهن الكنيسة فى بلاغه الذى بعثه لجميع الصحف - حاولت هيئة الآثار ترميم الكنيسة المتهالكة بعد انهيار حوائطها . والسبب أن وفدا أمريكيا جاء لزيارة الكنيسة «٤٠٠ فرد»

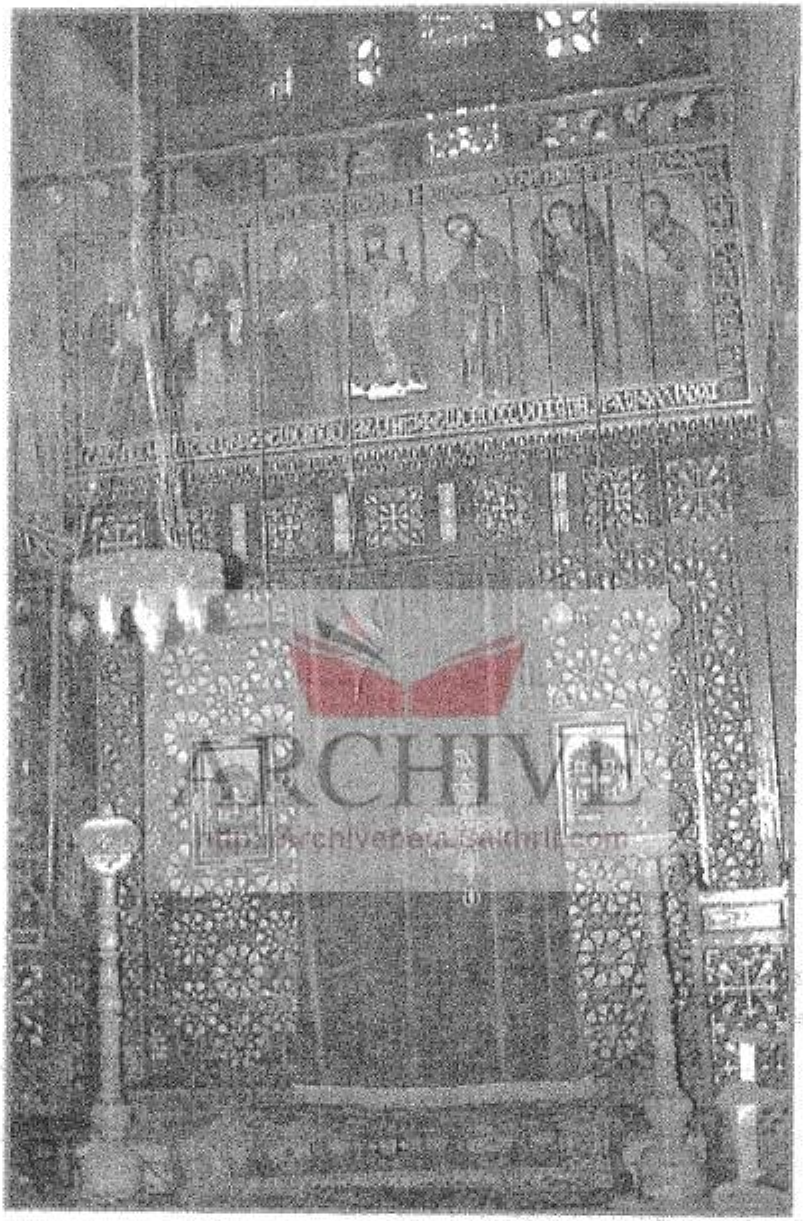
وفى عام ١٩٨٤ صدرت قرارات بترميم عاجل قبل زيارة الرئيس مبارك لها .. بعد انهيار حوائطها . وبالفعل - كما يقول الكاهن مرقص عزيز - الكنيسة المعلقة لها طريقة فريدة فى بنائها وانشائها، وتحتاج إلى شركات متخصصة فى الترميم وليس شركات مقاولات عامة . وقال إنه فى عام ١٩٨١ أيام المرحوم د. أحمد قدرى رئيس هيئة الآثار الاسبق، كانت الترميمات صورية بشهادة الجميع، ومن بينهم وزير الثقافة نفسه، والذى تولى الوزارة وأقال د . أحمد قدرى فى هذا الوقت .

وقد تفضل الرئيس مبارك بزيارة الكنيسة المعلقة فى مارس عام ١٩٨٤ .. وشاهد أعمال الترميم وقالوا له فى الكنيسة إنها غير كافية، وطلب من رجال الآثار استكمالها . لكن بعد ذلك وقع زلزال أكتوبر ١٩٩٢، الذى كان له تأثيره الضار على الكنيسة . واستؤنف العمل فى الكنيسة بعد صلبها عقب الزلزال عام ١٩٩٧ . لكن - وكما يقول الكاهن مرقص عزيز - أتت الرياح بما لا تشتهى السفن. والسبب أن المسئولين عن الترميم بدأوا العمل من أعلى إلى أسفل، قبل البدء فى ترميم الأساسات، وقبل البدء فى مشروع تقليل مستوى سطح المياه الجوفية . وهذا التصرف غير مناسب لا هندسيا ولا منطقيا . وكان هناك مسئول عن ذلك ووضع مشروع تقليل المياه الجوفية لمنطقة كنائس مصر القديمة، دون وضع الكنيسة المعلقة فى الحسبان وضمن هذا المشروع . وتعللوا بأنهم سيضعون مشروعا خاصا بالكنيسة المعلقة، ووضعوا بالفعل مشروعا فاشلا .. ثم بعد ذلك قام محافظ القاهرة بضم الكنيسة المعلقة للمشروع الكلى .

المهندس رمزى نجيب الذى أشرف على ترميم الكنيسة المعلقة، ومعه المهندس جوزيف زكى مدير الادارة الهندسية بهيئة



كاهن الكنيسة يشير إلى إحدى اللوحات التى تحتاج إلى ترميم



مذبح الكنيسة والستارة وصور القديسين

الآثار ، واللذان قاما بالعمل فى عهد د . أحمد قدرى خلال بداية الثمانينيات ، يقول المهندس رمزى نجيب انه كشف عن لوحة حائطية ترجع لما قبل انتشار المسيحية وتنتمى للعصر الوثنى ، وهى تصور الرومان يتعبدون للآلهة الوثنية ، وقام بحسن نية وانطلاقا من مسيحيته الغيورة بوضع طبقة من الجير على اللوحة ، وبالطبع دون تدخل كاهن الكنيسة ، ودون أخذ رأى المسئولين فى الكنيسة ظنا منه أنه لا يليق أن يوجد فى الكنيسة صورة تمثل العبادات الوثنية داخل الكنيسة . وحدث له مشكلة كبرى بخصوص هذه الصورة وطاردوه ، وقال له كاهن الكنيسة أن هذه اللوحة تمثل فترة من تاريخ مصر ، ومن تاريخ الكنيسة ولابد من وجودها . وهرب من الكنيسة ولم يدخلها بعد ذلك رغم أنه فى ترميم أديرة وادى النطرون.

وقد توقفت الضجة التى حدثت بسبب هذه اللوحة الجدارية . وحين استؤنفت أعمال الترميم مرة أخرى من جهة متخصصة اتفق على ازالة طبقة الجير عن اللوحة . وهجم القمص مرقص عزيز على المهندس شريف منير مدير مشروع الترميم من قبل المقاولون العرب ، الذى تعهد بانتداب متخصصين لذلك . ويضيف كاهن الكنيسة المعلقة .. أنه أثناء مروره لمتابعة أعمال الترميم فوجىء بازالة اللوحة ، فقام بإبلاغ هيئة الآثار ، وإبلاغ رئيس مجلس ادارة المقاولون العرب المهندس ابراهيم محلب ، ثم قام بإبلاغ الشرطة وتم عمل محضر بالواقعة ، والمحضر فى نيابة مصر القديمة .. ولا يعرف بعد ذلك ماذا حدث.

●●●

والسؤال الآن .. ماذا يفعل المهندسون والمرممون فى الكنيسة المعلقة؟

الكنيسة المعلقة فوق برجين من أبراج حصن بابيلون الروماني ، تضم روائع الفن القبطى فى الهيكل والنقوش والرسوم الجدارية والايقونات. ومأساة هذه الكنيسة تكمن فى موقف المجلس الأعلى للآثار .. وموقف كاهن الكنيسة.

فى عام ١٩٩٤ حينما قررت الآثار عمل مشروع متكامل لترميم الكنيسة حدثت مهزلة كما يصفها الكاهن فقد تراوحت العطاءات المقدمة للمناقصة بين ٧ ملايين جنيه و ١٨٥ مليون جنيه . وهذا التراوح جاء بفضل الكاهن الذى ادعى أن أمريكا ساهمت في ترميم الكنيسة المعلقة بمبلغ كبير . وانتهت المناقصة باختيار عرض شركة ايطالية بقيمة مالية ٢٥ مليون جنيه . ثم - كما يقول الكاهن - فاحت روائح كريهة ، وأحيلت هذه المناقصة للنيابة الإدارية ، ثم مجلس الدولة، الذى ألغى المناقصة بالكامل .

ومن يومها لم يتحدث أحد من المسئولين عن مشروع متكامل لترميم أهم

كنيسة فى العالم كما يقول الكاهن.

والحكايات عن الترميم فى الكنيسة المعلقة لا تنتهى.. يقول القس مرقص عزيز: إن مهندسة من هيئة الآثار قامت في عام ١٩٩١ بهدم جدار كبير بدعوى اعاقته لعملية الترميم ، وأسفر الهدم عن سقوط كنيسة كانت تحتل الدور الثالث من الكنيسة المعلقة . وحتى الآن مازالت بقايا الخشب المزخرف مهملة دون أن تمتد إليها يد الترميم . ورسوم رائعة على جدران الكنيسة تآكلت بفعل الاهمال واختفت . ويقول إن عمالا اعتدوا على اجزاء كبيرة من لوحة فسيفساء رائعة فى هيكل كنيسة يوحنا المعمدان .

ويضيف: إنه فى عام ١٩٨٥ تم تنفيذ مشروع لاطفاء الحرائق قيمته نصف مليون جنيه ، وحتى الآن لا يعمل دون أسباب واضحة ، بل فى عام ١٩٨٦ قام خبراء آثار ببناء سور خراسانى أعلى الكنيسة ، ليضيف الاحمال على مبنى أثرى معلق . وقبله فى عام ١٩٩٢ تم صلب بعض المواقع بأسلوب بدائى ، واختفى بعده المهندسون ولم نشاهد وجوههم بعد ذلك . وتفاصيل الكارثة التى تتعرض لها المعلقة تبدو فى تقرير مهم لمركز هندسة الآثار بكلية الهندسة جامعة القاهرة كتبه د . على رضا استاذ خواص التربة ومقاومة المواد ، و د . أحمد محمود ماهر استاذ الهندسة الانشائية ..

ماذا فى التقرير؟

● أن اسفل الكنيسة المعلقة على برجى حصن بابيلون تبدو الأبراج غارقة فى مياه جوفية معفنة لعلو الحصن بمسافة تصل إلى متر ونصف المتر فى المتوسط . وجدران الحصن صارت فى حالة سيئة ومتآكلة ومتصدعة فى عدة مواضع وتبدو الشروخ الرأسية بين الحوائط الملاصقة للحصن .

● أما أرضية الكنيسة من أسفل فهى محمولة على عروق خشبية ينخرها السوس وتتآكل بفعل الزمن ، ولم تعد قادرة على تحمل الضغوط الواقعة عليها من أعلى ، ولذلك هبطت أرضية صحن الكنيسة فى مسطحات كبيرة .

● وحتى أعمال الصلب والترميم اسفل الحصن الرومانى جرت باستخدام العروق الخشبية وبطريقة غير سليمة أدت فى مواقع كثيرة إلى عدم ملامسة هذه القواعد لأرضية الكنيسة .

ويتابع تقرير مركز هندسة الآثار قائلا :

● إن الشروخ والتصدعات تمتد فى أرجاء الكنيسة ، وفى الحائط المشترك بينها وبين المتحف القبطى وارضية صحن الكنيسة ومدخل إحدى الكنائس الفرعية وهى «كنيسة الهروب» ومثلث الصالة المكشوف، ويصل ارتفاعه إلى خمسة أمتار دون دعامات كافية من الخلف

تضـــمن ترابطه واتزانه . وبسطة السلم المؤدي للـدور الأول ، وهـيـكـل يـوحـنـا المعمدان، وأجزاء المنبر الرخامي وحوائط الواجـهـة الغـربيـة .. وباخـتـصـار مـعظم قطاعـات الكنيـســة تعـاني الشـــروخ والتصدعات، ومنارات الكنيسة والأقبية الثـلاثة أعلى الكنيـســة كلهـا مملوءة بالتشققات والتصدعات .

كـمـا يوجـد مـيل في صف الأعـمـدة الرخامية الثمانية لصحن الكنيسة ، إلى جانب استمرار تحرك أجزاء القبو السفلي ومواضع الارتكاز أسفله ، والبقع الجصية العشوائية التي عملتها يد غير خبيرة في معظم الشروخ تتآكل باستمرار مما يدل على أن الشروخ مازالت حية . وفي أعلى الكنيسة ترى عروقا خشبية متآكلة . وأرضـيات الدور الأول والثـاني تهـتـز عند السير عليها، لأن أعمال الترميم المنفذة بدائية وغير مكتملة .

الكنيسة تتعرض لأعمال جسيم أسفر عن شروخ وتصدعات وتلفيات توجب البدء في مشروع متكامل من أسفل إلى أعلى . وتدل على أن أعمال الترميم السابقة دون المسـتـوى وتفـتـقـر إلى الأسس الفنيـة السليـمـة . وتهـدد القيـمـة الأثرية للمكان وتعرضه لخطر الانهيار .

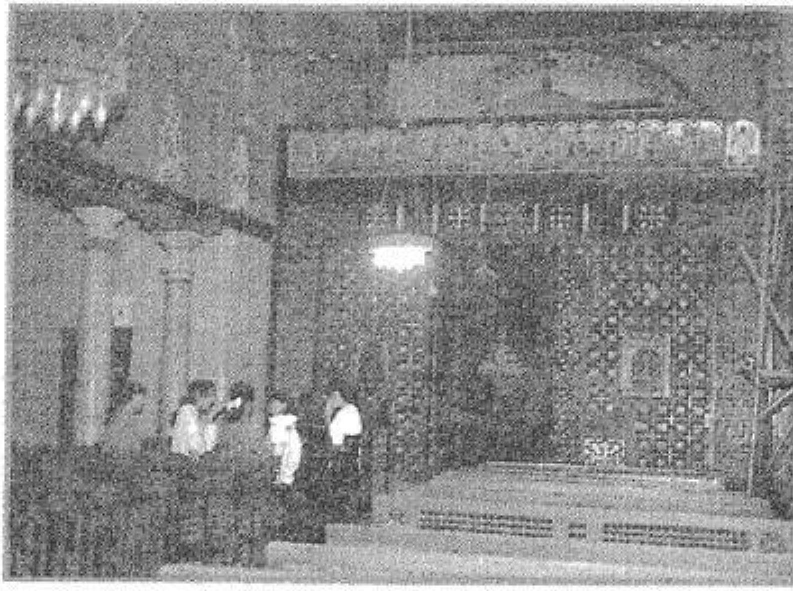
●●●

هذه هي الحكاية.. كما يرويها الكاهن مرقص عزيز .. فماذا تقول الآثار؟

إن هدف المجلس الأعلى للآثار إعـادة الكنيسة المعلقة وحصن بابليون إلى الحالة المعـمـارية التي سـجلت في كـتب التـاريخ لتتكامل مع جامع عمرو بن العاص ومعبد بن عـزرا . ويـأمل المسـئـولون في وزارة الثقافة في أن تشكل كلها متحفا مفتوحا يؤكد سماحة الأديان على أرض الحضارة والوحدة الوطنية .

ويقول وزير الثقافة فاروق حسني إن المشروع بدأ العمل فيه في منتصف فبراير عـام ١٩٩٨ ويخلص الكنيـســة والمتـحـف القبطي من المياه الجوفية . وقد تم خفض منسوبها بالفعل . وفي عمليات الترمـيم هناك أربعة أنظمة للمـراقـبة بالكمـبـيـوتر حيث ١٠٠ منطقة متصلة بالمجسات على الشروخ تتصل بوحدة تجـمـيع البـيـانات التي يتم رصدها كل ساعة بنظام شبيه بالعمل في برج بيزا بإيطاليـا . ويطبق أيضـا النظام اليدوي بوضـع مـسـمـاري تثـبـيت من مـادة غـيـر قـابلة للتـمـدد والانكمـاش حـول الشـرخ، ويتم قـيـاس المسافة بين المسمارين والحرارة بجهاز خـاص . ويبلغ عـدد نقـاط النظام اليـدوي خمسين نقطة. ويتكامل نظام الرصد خلال المحطة المتكاملة ذات الحركة الآلية مرة كل يوم وثلاثية الابعاد ، بالإضافة إلى عملية المراقبة من خلال رصد المناسيب.

أمـا د . جـاب الله علي جـاب الله فـيقـول: إن الكنيسـة بنيت أواخر القرن



لقطة أخرى لمذبح الكنيسة فى حاجة دائما إلى اهتمام



إحدى اللوحات النادرة تحتاج إلى إنقاذ

الثالث الميلادى وأوائل القرن الرابع . ومساحتها ٢٣,٥ × ١٨,٥ متر. وبارتفاع ٩,٧ متر وسميت معلقة لأنها شيدت فوق الحصن الروماني المعروف باسم حصن بابيلون . وضعت أشجار النخيل مع طبقة من الأحجار فوق اسطوانات الحصن لتكون هى أرضية الكنيسة .

وعرفت المعلقة بكنيسة السيدة العذراء ، ثم القديسة دميانه . كما أن الدرج والفناء وملحقاتهما مبنية على البرج الرومانى وحالتين أخرين مبنية جزء من الجناح القديم بالمتحف القبطى . والكنيسة دون قباب وسقفها خشبى على شكل سفينة نوح . وبها كنيسة أخرى يصعد إليها بدرج خشبى هى كنيسة «مرقص» بالإضافة إلى هيكل تكلا هيمانوت الحبشى ، ثم كنيسة الهروب .

وتحتوى الكنيسة المعلقة على مائة وعشرة أيقونات، يرجع أقدمها إلى القرن الثامن الميلادى . وأغلبها يعود إلى عام ١٧٧٧ . وبعضها رسم فى زمن الباراتى بك عام ١٨٩٨ الذى كان ناظرا فى ذلك الوقت ، وقد أجرى ترميما معماريا ودقيقا لجميع الايقونات . وجاءت فترة من الزمن كانت فيها منطقة الكنيسة المعلقة هى قلب الكنيسة القبطية مما دعا البابا خريستو دولوس البطريرك رقم ٦٦ أن يجلس على الكرسى المرقصى أواخر عام ١٠٤٦ الميلادى ، ويتخذ من الكنيسة المعلقة مقرا للكرسى البابوى بدلا من كنيسة الاسكندرية، واستمر هذا إلى عهد البابا يؤانس الثامن البطريرك رقم ٨٠ والذى جلس على الكرسى المرقصى عام ١٣٠٠ ميلادية ، وهو الذى نقل الكرسى البابوى إلى كنيسة العذراء فى باب زويلة .. ربما لأن الكنيسة المعلقة وقتها لم تكن تصلح للإقامة فيها بسبب تدهور مبانيها ، وبسبب أنها يمكن أن تنهار .

●●●

وماذا عن الحصن الرومانى الذى شيدت فوقه الكنيسة المعلقة؟

كما يقول عبد الله العطار رئيس قطاع الآثار الاسلامية والقبطية : إن الكنيسة المعلقة هى التحدى ، وسنصل بإذن الله إلى تحد صارم لترميمها بحلول ليست تقليدية ، وانما باستخدام كل الجديد والترميم المعمارى والدقيق. وهناك صعوبة أمام الخبراء والمؤرخين للتعرف على الأصول الأولى للبناء . ثم أنه ليس هناك من المساقط إلا ما ورد فى الكتب التاريخية . ولذا فهى تحتاج لدراسة مقارنة مع حصون أوربا وشمال افريقيا ، حتى يمكن عمل مساقط وقطاعات توضح الأصول الأولى للحصن ، وما أدخل عليه من تغييرات بعد ذلك سواء فى عهد الامبراطور الرومانى «تراجان» أو فى عهد خلفه الامبراطور «أركاديوس». فالمراجع تذكر أن أركاديوس أحدث تعديلات على

الحصن الذى كان يشغل بداخله عمائر وكنائس وغير ذلك من المنشآت الميدانية والوكالات والأسواق .

وتدل بقايا الحصن من أسوار وأبراج على أن هذا الصرح كان ضخم البناء ، وكانت توجد البوابة البحرية التى تقع قرب جامع عمرو بن العاص، بجوارها البوابة الجنوبية ببرجيها الضخمين اللذين يحتويان المدخل البازيليكى ، بالإضافة للبوابة الشرقية خلف كنيسة السيدة «بربارة» ، وأهم ما يميز تلك البوابة البرج الواقع بجوار القديسة بربارة . أما البوابة الغربية فتميزها برجان أحدهما على اليمين وهى بداية المتحف القبطى . والأخرى أسفل كنيسة «سان چورچ» . وكانت هذه البوابة مطلة على النيل مباشرة بامتداد السور الشمالى . ويبلغ ارتفاع البرج الجنوبى من البوابة الجنوبية ٣١ مترا ، بينما استغل البرج الثانى كمكان للطاحونة والفرن . ويقع بين البرجين الدرج الخاص بمرسى الميناء الرومانى الذى كانت ترسو عليه السفن التجارية والحربية . وينسب الحصن إلى منطقة بابليون التى اشتق اسمها من «برجابى أمون» أى بيت النيل ، وهى المنسوبة إلى «أون» المقدسة ، وهى هليوبوليس .

أما المتحف القبطى فهو ملاصق الكنيسة المعلقة و خمس كنائس أثرية . وقد أنشىء المتحف على يد مرقص سميكة باشا ليجمع فيه القطع الأثرية القبطية عام ١٩٠٨ ولدراسة تاريخ وآثار مصر القبطية . ولم يجد سميكة باشا أفضل وسيلة لذلك من موقع مجاور للكنائس الست ذات الأهمية وهى الكنيسة المعلقة ، وكنيسة ابو سرجة وكنيسة السيدة بربارة ، وكنيسة مارجرجس وقصرية الريحان ودير السيدة العذراء .

ويتميز المتحف القبطى بأن المشربيات والأسقف المستعملة قد جلبت من قصور قديمة للأقباط ، وكذلك قطع الفسيفساء والأعمدة الرخامية ، واللوحات الجصية . وينقسم المتحف القبطى إلى قسمين : العلوى والسفلى . وكليهما يتكون من ١٤ قاعة أسقفها من الارابيسك . والجزء الجنوبى مقام على حصن بابليون ملاصق للكنيسة المعلقة . ويطل هذا الجناح على حديقة صغيرة مزينة بتيجان اعمدة ، ويوجد فى جدارها الجنوبى سلم يتكون من ٢٥ درجة يؤدى إلى البوابة الجنوبية لحصن بابليون . والمعروف أن المتحف القبطى أغلق من أجل ترميمه عام ١٩٦٦ واعيد افتتاحه مرة أخرى عام ١٩٨٤ دون مشاكل .. مثل التى يثيرها كاهن الكنيسة المعلقة مما يزعج الخبراء .

●●●

هناك رأى يقول إن الكنيسة المعلقة بنيت على برجى حصن بابليون قبل القرن الثالث الميلادى ، وأنها قبل ذلك كانت معبدا رومانيا ، ثم تحولت إلى كنيسة



الشروخ واضحة ومحاولات انقاذ الشروخ التى تتسع مع مرور الوقت

قبطية . والدليل على ذلك تحليل الأخشاب بكربون ١٤ لأرضية الكنيسة ، والذى أثبت أن عمرها يعود إلى عام ١٥٠ ق . م لكن تظل هذه الكنيسة من المزارات السياحية وتدر دخلا سياحيا كبيرا . وسميت معلقة لأنها بنيت على الحصن الرومانى ، وهى اسطوانة كبيرة من الحجر ارتفاعها ١٣ مترا عن الأرض ، وتم وضع أخشاب النخيل فوق الاسطوانة لتكون هى أرضية الكنيسة . لكن تحللت معظم هذه الأخشاب ، وصارت الكنيسة آيلة للسقوط .

وعقب أحداث زلزال عام ١٩٩٢ أكدت التقارير الهندسية أن الكنيسة المعلقة فى خطر نتيجة للزلزال والمياه الجوفية ولتركها للإهمال ، وأثبتت التقارير سقوط أجزاء كبيرة منها ، وحدوث هبوط بالأرضية .. نتيجة لترك الكنيسة بلا ترميم أو تدعيم ، ووجود شروخ عميقة فى «الأمبل» وميل فى أعمدته وتحركها ، بالإضافة إلى شروخ أخرى بالهيكل الأوسط ، وهيكل يوحنا المعمدان ، والحائط المشترك للكنيسة مع المتحف القبطى ، بجانب تصدعات فى الصالة المكشوفة ، وسقف الكنيسة من الداخل والخارج ، وفى المنارة . والمياه الجوفية ارتفعت حوالى ثلاثة أمتار أسفل الكنيسة .

وقد توقع الجميع أن تزال هذه المشاكل من خلال الخبراء ..

●●●

المعروف أن المجلس الأعلى للآثار هو المسئول حسب القانون عن الحفاظ والصيانة والترميم والحماية لآثار مصر ومنها الكنيسة المعلقة ، وليس المسئول عنها كاهن الكنيسة . والتأنى فى الترميم مطلوب بعد أن خصص الرئيس مبارك ١٠٠ مليون جنيه للترميم . وكانت الكنيسة المعلقة المقصودة بهذا الترميم. وليس كما يشيعون هناك أى أموال اجنبية جرى التبرع بها لترميم الكنيسة المعلقة بالذات لكن بينما الترميم يدور .. كان يصفه الكاهن بأن مجرد تزويق فقط ، بل أنه من قبل هاجم المهندس رمزى ميخائيل والمهندس جوزيف زكى اللذين اتهمهما أنهما لم يرمما .. وإنما قاما بالتزويق فقط.

المسألة المهمة أن كاهن الكنيسة يقف ضد هيئة الآثار التى تطلب اغلاق الكنيسة أثناء الترميم وهو دائم الشكوى والاتهامات ، لأنهم لا يتبعون تعليماته وإنما يتبعون تعليمات المتخصصين وكاهن الكنيسة المعلقة لا يقتنع بآية الانجيل اعط ما لقيصر لقيصر .. وما لله لله وتعالى اتبعنى.

وأخيرا أعلن فاروق حسنى وزير الثقافة أنه تم تشكيل لجنة علمية من أساتذة الجامعات لمراجعة الاعمال التى قام بها المجلس الأعلى للآثار ، وسيتم العمل فور انتهاء أعمال هذه اللجنة .. ولكن بشروط ودون تدخلات فى عمل المتخصصين حتى لا تظل الكنيسة .. كما كانت على حافة الهاوية.

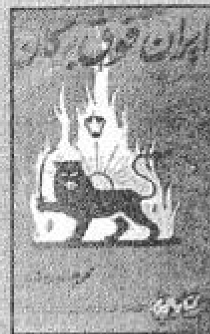
محمد حسنين هيكل



حول فكره السياسي

بقلم : طارق البشرى





مرة ثانية أحوم حول كتابات الاستاذ محمد حسنين هيكل . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . أى من اقترب من الأمر أوشك أن يقوم به .

فمن أكثر من عام عرضت فى مجلة «الهلال» كتاب العروش والجيوش ، فلم أكتب عن الكتاب بقدر ما كتبت عن مؤلفه «هيكل» . وغلبتنى نفسى فاقترحت أن يعقد مؤتمر علمى يليق بدراسة أعمال «هيكل» لمناقشتها وتحليلها . والآن غلبتنى «الهلال» فطلبت منى الحديث عن الفكر السياسى لمحمد حسنين هيكل فيما خصصته من محور لأعماله .

وأنا لدىَّ الحد الأدنى من امكانية التقدير التى أدرك بها استحالة تغطية جوانب الفكر السياسى لهيكل فى بضع صفحات ، وهو فكر يشيع فى عشرات الكتب وفى مئات المقالات كتبت كلها فى مدى يزيد على خمسين سنة ، وكلها فكر سياسى ، وهو فكر متحرك ومتفاعل مع ظروف تاريخية متغيرة . فيلزم متابعته فى إطار سياقه التاريخى السياسى ، وتبين مراحله فى ملامحها العامة ، وأوضاع تعامله مع ظروف الزمان والمكان فما من فكر سياسى إلا وجبت دراسته فى إطار تعامله مع تلك الظروف .

ودراسة أي مجال فكري ، وبخاصة مجال الفكر السياسي ، يقتضي دراسة المكونات الأولى للمفكر وتشكله الفكري الأول وروافد ثقافته ورؤاه ، ثم تفاعله مع غيره من التيارات الفكرية التي شغلت الساحة في عهده . ويشمل ذلك ما كان يصنعه القدماء عندما يقولون في الأول «من شيوخه» الذي تلقى عنهم ، وفي الآخر «من تلاميذه» الذين تلقوا عنه . ويرسمون بذلك شجرة الفكر جذورا وفروعا في أي تخصص ، ويشمل ما اعتاده المحدثون الآن من ذكر معاركه الفكرية .

ثم إن هيكل لم يكن ابدا ممن يتعاملون مع المعارف الفكرية تلقيا وشرحا وتدريسا للطلبة. ولكنه كان يتعامل مع المواد التطبيقية ويمارس الفكر السياسي بنظرياته ومناهجه ، وهو بصدد التعامل مع هذه المادة بالتحليل واستخلاص النتائج . ولم يكن جمهوره طلبة علم في جامعة، ولكنهم كانوا من جمهور القراء سواء المتخصصين منهم أو الساسة أو القراء العاديين للصحف السيارة . ولج إلى الفكر السياسي من باب الصحافة السياسية الباحثة عن الأحداث والمذيعة لأخبارها وتحاليلها، والصحافة لا تتابع الأحداث فقط ولكنها تشارك في صنعها على نحو ما ، لأنها بالمتابعة اللحظية تتعامل مع أحداث غير تامة الصنع وتكون لا تزال في مجال التشكل .

إن أي دارس مثلي عندما يقترب من رجل سياسة أو باحث سياسي ، يتعين عليه أن يميز بين الاثنين من حيث أدوات التحليل التي تستخدم مع أقوال كل منهما وأفعاله .ذلك أن رجل السياسة ينشيء أحداثا لم تكن موجودة ، ويصرف أحداثا عما كانت وقعت من أجل تحقيقه ، وقد يصوغ نهايات لأحداث تتنافى مع بداياتها، وقد يحول دون تحقق آثار لها كان من المقدر أن تحدث . بينما الباحث السياسي يحلل أحداثا دون أن يساهم في إحداثها أو في تشكل آثارها ، فهو يحلل ويستخلص العبر ، ومن هنا تختلف دلالات الالفاظ والعبارات والمواقف وتتغير مفاهيم المصطلحات . والصعوبة أن هيكل يقف بين الرجلين ، رجل السياسة والباحث السياسي ، ويقف بين الفكر السياسي كما نتبينه من كتب الدارسين وبين العمل السياسي كما نستخلصه من أعمال الساسة . وهذا يحتاج في تحليله إلى مزيد يقظة وتنبه والى فضل مراجعة للقول في اطاره الفعلي ، ونحن هنا أمام فعل قوال وأمام قول فعال .

وهيكل صحفي ، بمعنى أنه معني بالأحداث وبالإخبار عنها ، يكتشفها ويتحقق منها ويذيعها . والعلاقة بين الخبر والفكر لا يمكن فصلها وبخاصة في مجال السياسة . ذلك أن الخبر هو ما يتحدث عنه ، هو عن حدث ، والحدث فعل وقع ،

والإخبار عن الحدث هو صياغة له على صورة من الصور وهو اظهار له بشكل من الاشكال، أي هو وصف لما حدث وتكييف له وهذا التوصيف للحدث يتضمن تصورا ويتحدد وفقا لفكر ما . فالحدث الخاص بخروج جماعة بالسلاح على آخرين ، يرد فى الخبر بأنه ثورة أو تمرد أو ارهاب أو عصيان ، هذا الوصف الذى صيغ به الحدث يتضمن فكرا سياسيا ويتضمن موقفا سياسيا . والفكر السياسي تنظير لحركة سياسية تتشكل من مجموع أحداث ترد فى صيرورة وتتابع .

فإذا كان الكاتب صحفياً محترفاً وجامع أخبار عن أحداث سياسية تشكل حركة ، فهو بالضرورة يعبر فى صياغته لذلك عن فكر سياسى ، لأن وصف الحدث لا يرد إلا من مفاهيم سياسية وقناعات وتصورات عامة . يضاف إلى ذلك بالمقابل ، أن ثمة أسلوبا فى الكتابة عن الفكر السياسى يعبر عن الأفكار العامة المجردة من خلال العرض المسلسل للأحداث ، فلا يصاغ الفكر مجردا ولكن يعرض من خلال صور تطبيقية ، ويقدم من خلال ربط الاحداث بروابط العلة والمعلول ، ومن كان صاحب أسلوب تطبيقى تجريبى فى التعبير عن أفكاره العامة ، ومن كان متأثرا بمناهج المدرسة الانجليزية فى التعبير العلمى فى مجال العلوم الانسانية ، من كان هذا ديدنه فهو عادة ما يصوغ أفكاره بتتابع الاحداث ، والاقناع بذلك أساس الافتراض النظرى



يرد مصحوبا بدليله التطبيقى .

من منتصف السبعينات ، عندما ترك «هيكل» ادارة العمل الصحفى ، والذى كان يجعل له ارتباطا وثيقا مباشرا بالسياسات الجارية ، ظهر العمق التاريخي بارزا في كتاباته السياسية . أقول «العمق التاريخى» لأنه دائما وحتى الآن كاتب فى السياسة ، وهو دائما يخاطب الحاضر ، وإن كان يزود قارئه بمادة اخبارية عن جذور الماضى الممتدة فى أحداث الحاضر ، وساعد على ذلك أن كتابة الكتب رجحت كتابة المقالات ، مما زاد نصيب المعالجة التاريخية للموضوعات . وهنا تبدو لدارس فكره صعوبة أخرى ، تتعلق بالتقاط الفكر السياسى وتكثيفه من خلال المعالجات التاريخية .

***

كل هذه الصعوبات المنهجية ، تقتضى التأنى وإمعان النظر للتميز بين الفكر المستخلص وبين الاخبار والأحداث التى عرض فى سياقها ، وما يقتضيه ذلك من مقارنات ومن متابعات للموضوعات محل الاهتمام ، وتبين ما غُرِزَتْ فيه مادة الانتاج وما قلت وادراك الفروق بين المتشابهات ، ومعرفة التوافق بين

المتغيرات . ولتبين ذلك يتعين إعادة المطالعة الكاملة ، فلا يكتفى بالأمثلة ولا يكتفى بالمخزون المعرفى المودع بالذاكرة ولا ما ترسب من انطباعات القراءات الأولى .

لذلك قلت أننى «أحوم» حول المادة المبحوثة وإن كنت أوشك أن أقع فيها .

وبنظرة سريعة إلى الملامح العامة ، يمكن القول بأن «هيكل» كان صحفيا سياسيا فى الاساس حتي قامت ثورة ٢٣ يولية ، فلما ارتبط بها وتولى رئاسة تحرير صحفية الأهرام صار سياسيا حركيا يستخدم الصحافة في التعبير عن موقف ثورة ٢٣ يولية أو عن موقفه السياسي فى هذا الاطار . ومع تركه صحيفة الأهرام فى ١٩٧٤ صار مفكرا سياسيا فى الاساس . وأن ايراد هذه الملامح العامة لا يقتضى فصلا صارما بين المراحل ، ولا يخل بالتداخل بين هذه المراحل .

وهيكل صاحب تعبير متبلور عن الحركة الوطنية المصرية فى المرحلة المتميزة التى عاشتها هذه الحركة فى الربع الثالث من القرن العشرين . وقد تميزت هذه المرحلة بأنها المرحلة التى تحقق فيها الجلاء العسكرى الأجنبى عن مصر وتحرر الإرادة السياسية المصرية ، وأنها مرحلة الاشتباك مع «الاستعمار الاجنبى» ووجوده العسكرى فى معارك خارج حدود مصر عن طريق اشاعة رفض الأحلاف العسكرية واشاعة روح عدم الانحياز للقوى العالمية الكبرى . وأنها مرحلة تعميق الاستقلال الوطنى أفقيا فى اطار الجماعة العربية ، وتعميقه رأسيا فى اطار التنمية الاقتصادية المستقلة ، وأنها مرحلة الصراع مع الوجود الاسرائيلى فى فلسطين .

وهذه المرحلة تشابكت فيها أوضاع الحركة الوطنية بالسياسة الدولية والسياسة العربية . وهى فى ظنى أول مرحلة اجتهدت فيها «مصر» بوصفها جماعة سياسية متميزة ودولة مستقلة ، اجتهدت فى أن ترسى ثوابت وأسسا لسياسة خارجية وسياسة دولية تعكس منظوراً مصرياً عربياً مستقلاً ، وتهدف إلى تحقيق صالح وطنى يصاحبه ادراك لضوابط الأمن القومى ونظر استراتيجى للمصالح بعيدة المدى ، وفى هذه الفترة عينها بدأ الفكر الاجتماعى المصرى يبلور نظرات حول الخصائص التى تميز الوضع المصرى ودوائر انتمائه . وشغلت هذه القضايا أذهان المصريين وباحثيهم سواء فى كلياتها أو فى فروعها . وكان هيكل من أهم المساهمين فى هذا المضمار ، لا بكتاباته فقط ، ولكن بادارته لوجوه من هذا النشاط .

ولهيكل قدرة على إدارة حوار فكرى ايجابى أى حوار من هذا النوع من الحوارات التى تتغذى بعضها من بعض ولا تتنافى مع بعضها البعض . إن حسن ادارة الحوار هى ما عليه المعول فى أن يكون ايجابياً ينتهى إلى نتائج تستوعب ايجابيات المتحاورين ، أو سلبيا يهدم

بعضه بعضا وينتهي حصاد هشيم وقبض ريح . فهو مفكر يدرك كفاءات الرجال ويدرك وجوه هذه الكفاءة وكيف تستخدم فيما تيسر لها ، وهو يدرك وجوه الاخصاب بين الافكار، أقول ذلك لأن هذه الصفة افتقدناها للأسف الشديد . على مدى العقدين الماضيين ، افتقدنا أن يوجد فى حياتنا الثقافية على قمة منبر ذى نفوذ وفاعلية من يستطيع أن يوجه الحوار القومى فى مجالات حياتنا الثقافية المختلفة ، يوجهه إلى ما تتلاقح به الافكار وتخصب، لا إلى ما تتقاتل فيه وتذوى ان افتقادنا لواحد لديه هذه الملكة وهذا العزم، كبدنا خسائر ضخمة فى الجهد الفكرى وبدد طاقات ثقافية كنا أحوج ما نكون إليها ، وأوقع شبابنا الآن فى لا أدرية عقيم.

***

وهيكل لا يمكن فصله عن ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ . له تاريخ فكرى سابق لها ولاحق عليها ، ولكنه فى الفترة عن ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ ، امتزج بها لا ينفك عن تيارها العام . وقد يلقى عليه ذلك عبئا جسيما من اشتراكه فى حمل ما يوجه إلى نظام الثورة وممارستها من ايجابيات وسلبيات . ولكن الحصيلة النهائية فى ظنى بالنسبة للثورة وبالنسبة له سترجح الايجابيات فيها السلبيات . أقول ذلك لأننى من هذا الفريق من الناس الذى يجعل المعيار الأول فى الحكم على السياسات المتبعة والنظم القائمة على



مدى القرنين الاخيرين ، المقياس الأول هو مدى جدية المواجهة للمخاطر الخارجية ومدى الكفاءة فى هذه المواجهة ، وهذا ما يعبر عنه بعدد من العناصر منها الاستقلال الوطنى ، مراعاة اعتبارات الأمن القومى ، تحرير الارادة السياسية للجماعة الوطنية ، اتباع خطط التنمية الاجتماعية المستقلة ، وإن كل الأحداث الأخرى إنما تتحقق فى ظنى من خلال هذا الهدف الأول وهى مشمولة به ومحكومة ومشروطة به . وقد أكد هيكل هذا الارتباط فى كتبه التى أصدرها بعد انتهاء المرحلة الناصرية وابتعاده عن الممارسة السياسية المباشرة من خلال الدولة منذ منتصف السبعينيات .

أقول باستحالة الفصل بين الفكر السياسى لهيكل وبين فكر ثورة ٢٣ يوليه مع علمى بالفروق الكثيرة والمهمة التى تميز بين قيادة ثورة ورئاسة نظام سياسى وصدور قرارات ، وبين صاحب رأى ونظر . صلة عبد الناصر مثلا بالثورة ونظامها هو صلة اندماج . كما يعبر رجال القانون بعبارة «اندماج الحق فى الصك» . وليست هكذا صلة هيكل بها ، الأول يركب الدبابة ويطلق القذائف والثانى يركب السيارة

المصاحبة فى أرض المعركة ويتابع تحت خط النار ، وهو كما يقول الماوردى: «يؤدى للسلطان ويؤدى عن السلطان ويشارك بالرأى» يؤدى له بالخبرة والمعلومة ويؤدى عنه بالتوجه ويشارك بالرأى فى وزن المواقف .

وهيكل ذو مرجعية فى التعبير عن ثورة ٢٣ يوليه ، لا يكاد يماثله فى ذلك اكثر من عايش الثورة وعبر عنها حال نشاطها ودافع عنها حال فواتها بعد منتصف السبعينات . لكننى لاحظت بالنظرة العجلى أنه فى دفاعه عن ثورة ٢٣ يوليه وعهدها وفي تأريخه لها وذكر وقائعها ، في ذلك كله قد أولى موضوع «الاشتراكية» أقل اهتماماته النسبية، رغم تعرضه للقطاع العام وضرورته ومدى النفع منه فى قضايا الأمن القومى والتنمية . وأنه كذلك أولى أقل اهتماماته النسبية موضوع التنظيم السياسى والادارة السياسية لأجهزة الحكم وما شاكل ذلك وكان أهم ما احتشد له فى ربع القرن الأخير واستوعب جل كتاباته ، ثلاثة جوانب ، قضايا السياسة الخارجية والصراع حول تحرير الارادة السياسية فى مواجهة ضغوط الخارج ومساعى الهيمنة من الدول الكبرى ، وكذلك قضايا الصراع العربى الاسرائيلى الذى شغل حياتنا السياسية كلها فى نصف القرن الأخير ، وقضايا العلاقات العربية العربية

وقد لاحظت عندما كنت أجمع مادة كتاب لى عن «الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليه» الذى نشرته طبعته الأولى فى ١٩٨٧ ، وهو دراسة خصصتها لموضوع الأبنية التنظيمية للثورة ، لاحظت أننى لم أجد لهيكل فى هذا الشأن كتابات تعكس وجهة نظره وتؤثر فيما كنت بصدد بحثه .. لذلك قد يلحظ من يقرأ لى هذا الكتاب ، أننى لم أثبت «هيكل» فى أى من هوامش المراجع . احترمت سكوتا وجدته مقصودا وهو من حقه ، وأن حرية الصمت المقصودة هى جزء من حرية الكلمة من باب أولى . وبدا لى من تجربته ونوع نشاطه أنه يشارك فى السياسات والتوجهات وليس فى التشكيلات والتنظيمات، وهى لا تعنى الرفض ولا الموافقة، فلا ينسب إلى ساكت قول وأن مساهماته ترد فى المضامين السياسية وليس فى الهياكل السياسية وبدت لى فيه فردية المثقف وامتناعه عن الانضواء التنظيمى ، ولم اقتنع بحجية أقوال له ترد عفوا فى هذا المجال .

وأن هذا الذى عبر بشروحه السياسية والتاريخية عن جوهر ما يعرف الآن بالناصرية ، لاقى هجوما وإزورارا من فئتين أولاهما كثير من الماركسيين الذين اعتبروه من معوقات تحول النظام الناصرى إلى الاشتراكية الماركسية ، وثانيتهما بعض ذوى النفوذ السياسى من رجال دولة عبد الناصر وتنظيماته السياسية ، وفى بعضهم رشحات من الفكر الماركسى تسربت إليهم فى الستينات ، وهؤلاء لم يكونوا على وفاق

سياسي معه وخاض بعضهم معارك سياسية ضده اتسمت أحيانا بالحدة ، وخمدت هذه الحدة كثيراً من منتصف السبعينات بعد عدول الدولة عن الناصرية ووقوف هيكل مدافعا ذكيا عن الناصرية، وأن بقى البعض مستصحبا مواقف الخصام السابقة .



***

بمراعاة الملاحظات السابق ذكرها جميعا ، لا يصلح في تبين الفكر إلا أن تجرى المتابعة التطبيقية ، وهنا لا يصح البدء إلا بالبداية ، ثم يلتزم بقدر الإمكان بالترتيب الزمني . وفي هذا الصددأكتفي الآن بمطالعة كتاب للمؤلف هو من البواكير الأولى له في التأليف ، وقد أعده بوصفه عملا صحفيا تابع به ذروة من ذرى الازمات السياسية التي استفتح بها النصف الثاني من القرن العشرين. وكان ذلك عن بلد مثيل لمصر من النواحي التاريخية والسياسية والجغرافية والثقافية، وكانت أزماته مواكبة لأزماتها وإن سبق مصر بقليل وغاير هذا السبق من سياق الاحداث ، وكان سبقه من أسباب تعثره ، ثم سبقته مصر وكان سبقها من اسباب تعثرها من بعد ، وتلك الأيام تتداول بين الناس.

هذا البلد هو ايران في بدايات ١٩٥١ ، عندما ثار شعبه وأمم البترول وآلت أحداثه إلى ثورة عارمة ثم اخفقت وعاد الامبراطور وعاد الانجليز ومعهم الامريكيون وسيطروا على ايران وعلى بتروله وأدخلوه حلف بغداد . وفي بدايات ١٩٥١ كانت مصر لا تزال تفور مراجلها ضد الاحتلال العسكري متمثلا في الانجليز وألغت معاهدة ١٩٣٦ في نهايات ١٩٥١ فلما انتكست الاوضاع الشعبية بحريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ ، قامت ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، ثم خرج الانجليز من مصر وعندما كانت ايران بعد نكسة الثورة تدخل في حلف بغداد ، كانت مصر تقود حركة الصراع العربي والشرق أوسطي ضد الاحلاف في ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، وأممت قناة السويس في يوليه ١٩٥٦ بحركة شبيهة لتأميم بترول ايران في ١٩٥١ ولكنها صارت حركة ناجحة لأن فوات خمس سنوات في فترات التحول التاريخية كان قد قلب موازين القوى العالمية . ثم مضت عشرون سنه أو يزيد تهيأت فيها ايران لثورة جديدة ناجحة قامت في ١٩٧٩ . وهي ذات السنة التي انتكست فيها حركة التحرير المصرية والعربية بتوقيع معاهدة الصلح مع اسرائيل.

ومن هنا تبدو أهمية كتاب «ايران فوق بركان» الذي نشر في سلسلة كتاب أخبار اليوم العدد الثالث في مايو ١٩٥١ لمحمد حسنين هيكل ، وهو أول كتاب قرأته للمؤلف ولا يزال عندي في طبعته الأولى



الشعبية بغلافه الورقى الاحمر الرقيق ، وعليه رسم الاسد الفارسى حاملا سيفا ورافعا ذيله ، وخلفه لهب رمادى وشمس تشرق ويصف المؤلف فى كتابه رحلة شهر عاشه فى إيران فى مارس ١٩٥١ بعد مقتل رئيس الوزراء .

فى مايو ١٩٥١ لم تكن قصة تأميم البترول فى إيران قد تمت فصولها، كانت الازمة فى أوج تصاعدها . والكتاب يصف الاوضاع هناك فى ثمانية فصول قصيرة ، عرض للإنجليز وسيطرتهم على إيران وعلى بترولها ، وعرض للأمريكيين وخوفهم من سيطرة الاتحاد السوفيتى على إيران منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية . وأشار إلى نوايا الامريكيين فى الحلول محل الانجليز أو مشاركتهم ، وترددهم لعدم فهمهم لأوضاع منطقة جديدة عليهم . وعرض لروسيا وطمعها فى ايران أرضاً وبترولاً ، وسيطرتها على اذربيجان فى شمال ايران عن طريق حركة شيوعية قامت هناك ، ثم تخليهم عن هذه الحركة طمعا فى البترول الايرانى . وعرض للملك (الامبراطور) وأزمة حكمه ومقتل رئيس وزرائه وخروج الحركة السياسية الثورية عليه .

وعرض الكتاب للقوى الشعبية العاملة وقتها ، للمؤسسة الدينية وعلى رأسها آية الله كاشانى وتحديه سلطة الملك وقيادته الثورة لاخراج الانجليز من ايران سواء بتأميم البترول أو بغيره ، وجماعة فدائيان اسلام والتى مارست العنف وعمليات الاغتيال السياسي وقتلت رئيس الوزراء وتحميها القوى الثورية جهارا ، ثم للكتلة الوطنية وزعيمها محمد مصدق وتحالفها مع القوى الدينية مؤسسيا وشعبيا ، وتولى مصدق رئاسه الوزارة من بعد . ثم عرض لحزب توده الشيوعى ، واستغلاله أوضاع الثورة لتنمية شعبيته ، وخطورة أن ينمو الحزب سريعا ويقترب من السلطة فى لحظة يستدعى فيها النفوذ الشيوعى من الاتحاد السوفييتى المتاخم لايران على امتداد الحدود الشمالية .

الكتاب سريع فى عرضه الصحافى الشيق ، ويعبر بالخبر عن الفكرة وعن الموقف ، وينتقل بسرعة من لقطة سياسية إلى لقطة أخرى . وفيه من أسلوب المؤلف الذى تبلور بعد ذلك بخصائص محددة، تظهر بداياتها فى هذا الكتاب ومنها المزج بين عرض الفكرة وبين التصوير المشوق واشعار القارىء «بالمكان» الذى يجرى فيه اللقاء وتبادل الحديث . وعرض كلا من القوى النشيطة بقدر الامكان حسبما عبر ممثلوها عن أنفسهم للمؤلف وذلك فى اطار من أمكن له الالتقاء بهم .

لم أشعر فى قراءتى الاخيرة للكتاب ، أن المؤلف كان متعاطفا وقتها مع التيار الدينى ممثلا فى آية الله كاشانى أو أنه كان مقتنعا به ، وشعرت أنه يستشعر الخطر الشديد من نمو رآه نموا انتهازياً غير مبرر لحزب توده الشيوعى وفهمت ذلك

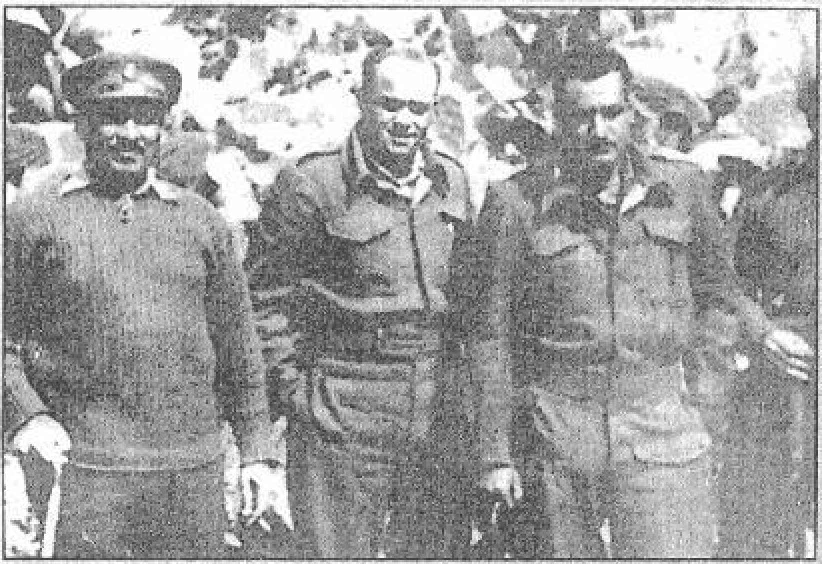
، فإن نمو الشيوعية في إيران بحدودها المتاخمة للاتحاد السوفييتي على مئات الأميال ، وبما جبل عليه الاتحاد السوفيتي وروسيا القيصرية من قبله من حرص على ابتلاع دول الجنوب وشعوبها وصولا بالدب الروسي إلى البحار الدافئة وإلى وسط آسيا وجنوبها ، كل ذلك لابد أن يكون داعيا للقلق من هيمنة الدولة الكبرى على البلد الذي يريد أن يستقل وأن تتحرر ارادته السياسية من سيطرة القوى العالمية العظمى . وكان هذا ما أقلق المؤسسة السياسية الاسلامية التي كانت تقود الثورة مع رديفها الكتلة الوطنية برئاسة محمد مصدق وما أقلق هذه الكتلة ذاتها وما تشعر أن المؤلف كان يستجيب له ويتفهمه من بواعث هذا القلق.

أما الكتلة الوطنية فلا يشعر القارىء أن الكتاب يوليها اهتماما كبيرا ، ولعل ذلك يرجع إلى تقديره بأنها كانت أضعف من أن تقف باستقلال بين التيار الديني الذي لا يتحمس له والتيار الشيوعي الذي يشعر بالخطر منه .

في عام ١٩٥١ ، ومع الاستقطاب الدولي الحاد ، ومع بداية ظهور الأحلاف العسكرية بعد أن انقسمت القوى العظمى إلى كتلتين دوليتين تتصارعان على الدول الصغرى ، وبخاصة الدول حديثة العهد بالاستقلال . وفي ظروف لم تكن حركات التحرر الوطني قد تنادت لتتماسك ولتشكل مجموعة دولية قادرة على الامتناع عن الانحياز لأي من الكتلتين الدوليتين في هذه الظروف كانت الحركات الوطنية في لحظات حيرة واضطراب وقلق حول الامكانات الدولية التي يمكن أن تتوفر لحماية الاستقلال الوليد .

ولم تمض أربع سنوات على أحداث ايران التي سجلها الكتاب ، حتى ظهرت حركة باندونج في ١٩٥٥ واستطاعت مجموعة الدول الأفرو اسيوية أن تشكل قوة تماسك دولي تعصمها من نفوذ الكتلتين العالميتين .

ورغم فروق الموقع بين ايران ومصر ، وهي الفروق الجغرافية التي تجعل ايران أشد خوفا من مصر من خطر الشيوعية واستيعاب الاتحاد السوفييتي لها ، ورغم الفروق التاريخية التي تجعل لايران نوعا من الحذر التقليدي من الوجود الروسي في شمالها وهو الوجود الذي اقتطع مع التاريخ أجزاء من امتداداتها السياسية وكان دائما مهددا لها ولترابها ومجتزئا من أراضيها ، مما لم تجربه مصر ، ورغم أن الحركة الاسلامية في ايران كانت دائما ولا تزال مستوعبة للحركة الوطنية ، بما يغاير الوضع في مصر التي عرفت منذ العشرينات تميزا لحركتين وطنيتين إحداهما تصدر عن المرجعية الاسلامية والأخرى قومية وضعية تعترف بالإسلام دينا دون أن يكون أساسا لمرجعية سياسية اجتماعية . رغم كل هذه الفروق التي أتصورها قائمة فإن كتاب «ايران فوق بركان» يمثل خبرة سياسية مهمة للسياسات المصرية بعد ٢٣ يولية ولتطور الرؤى الخاصة بالسياسات الدولية للدول المستقلة وستظل كتابات هيكل مما تسهر فيه العيون ، ويحتاج إلى مزيد من الدراسات المتأنية.


عبدالناصر فى الفالوجا

السكون الذي ترقد تحته عاصفة

أول مقال كتبه هيكل عن عبد الناصر

بقلم : عادل حمودة

قبل أن يتحرك «الضباط الأحرار» للانقضاض على النظام الملكي في ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن يبقوا جميعا في الخفاء .. وراء الستار .. وعلى أن يترفعوا عن المظاهر الدعائية فلا يعرف الناس أسماءهم ولا أدوارهم .. ولا تنشر الصحف أخبارهم ولا صورهم .. قرروا برومانسية «ثورية» - كانت تناسب أعمارهم وأحلامهم وأفكارهم وتصوراتهم - أن يبقوا في الظل والخفاء على أن ينفرد اللواء «محمد نجيب» - الذي ظهر على الناس بوجه الأب الطيب - بكل الضوء والشهرة.

لكن بعض الصحفيين الذين قفزوا إلى مقر قيادة الجيش بعد نجاح «الحركة» - وأولهم محمد حسنين هيكل - كان يعرف أن اللواء «محمد نجيب» ليس سوى «فاترينة» أو «واجهة» وأن الرجل القوي والمؤثر والمحرك للأحداث هو «جمال عبد الناصر».

ولا جدال أن مثل هذا «السر» قد أصاب الصحفيين - خاصة اللامعين منهم - بالتململ والترقب وسيطرت عليهم ضغوط المهنة في كشف الأسرار وهتكها .. فراحوا يسعون بكل الطرق التي يحترفونها لكشف ماعرفوه .. ولم يكن من الصعب عليهم أن ينجحوا في ذلك .. في أقل من ثلاثة شهور.

في صباح يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٥٢ نشر «مصطفى أمين» على الصفحة الأولى والصفحة الثالثة مقالا في صحيفة «الأخبار» لم يوقعه بعنوان «سر التسعة» وقد ألمح فيه إلى أن «جمال عبد الناصر» هو القائد الفعلي للثورة وأن الذين ساعدوه هم ضباط مجلس القيادة «جمال سالم، وأنور السادات وعبد الحكيم عامر، وعبد اللطيف البغدادي .. وحسن ابراهيم، وصلاح سالم، وكمال الدين حسين، وخالد محيي الدين» ونشر مصطفى أمين صورة فوتوغرافية كبيرة لـ «جمال عبد الناصر» في الصفحة الأولى .. ونشر صور الثمانية الآخرين بحجم أصغر في الصفحة الثالثة .. ولم ينشر صورة «محمد نجيب» .. ولم يشر إليه .. ولم يشر إلى باقي الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة وهو ما أغضبهم .. وقد تحول غضبهم إلى استياء .. وتحول الاستياء إلى صراع بينهم وبين مجلس القيادة .. وهكذا بدأ التمرد بين ضباط المدفعية .. ثم انتقل إلى ضباط الفرسان .. ولم ينته الصراع إلا بالقبض على ضباط المدفعية والفرسان الغاضبين ومحاكمتهم .. وكاد بعضهم يعدم .. وهو ما جعل البعض يؤكد أن الثورة انتهت في تلك الأيام عندما تحولت إلى دولة تحاكم وتحاسب وتعاقب حتى أقرب الناس إليها.

وقد قال لي «مصطفى أمين» - فيما بعد - إنه كتب المقال بإيحاء من «جمال عبد الناصر» ولا نملك دليلا على ذلك .. لكن المؤكد أن «مصطفى أمين» أفرط في الدعاية المبكرة لجمال عبد الناصر .. وقال عنه «إنه يتحدث بأعصاب حديدية صارمة

وبوجه جامد».. «وشعره الأشيب يروى قصة كفاح سرى عجيب لم يتصوره أحد ولم يعلم به أحد» .

المرحلة الرومانسية

وفى الحقيقة لم يكن «مصطفى أمين» أول من كتب عن «جمال عبد الناصر» وضباط القيادة لقد سبقه الى ذلك محمد حسنين هيكل بأكثر من ٤٧ يوما ففى عدد «آخر ساعة» رقم «٩٣١» بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٥٢ وعلى صفحتين كاملتين كتب «هيكل» تحقيقا موسعا بعنوان «من هم ضباط قيادة محمد نجيب؟ الستار الحديدى الذى وضعوه حول أنفسهم».. وقد حظى «جمال عبد الناصر» بالقطع بنصيب الأسد .. وكان ذلك هو أول ما كتبه عنه .. وإن لم يذكر «هيكل» اسمه صراحة .. فقد كان الضباط الأحرار مازالوا فى المرحلة الرومانسية التى كان نشر اسمائهم فيها جريمة .. وفى المرحلة التى كانوا يشبهون فيها أنفسهم «بظواهر الطبيعة الخارقة الغامضة .. فهى موجودة .. تفعل فعلها .. وتؤدى عملها .. وتؤثر فيما حولها .. ولكن لا أحد يعلم على وجه التحديد من أين جاءت ولا أين تروح».

كان عنوان أول مقال كتبه «هيكل» عن جمال عبد الناصر : «السكون الذى ترقد تحته عاصفة» أما المقال نفسه فهو وثيقة مهمة فى تاريخ «هيكل» فلسنا فى حاجة للقول بأهمية علاقته بجمال عبد الناصر .. وهذه الأهمية هى التى تفرض علينا قراءة هذا المقال من أوله إلى آخره .. كما أن هذا المقال يحدد بدقة متى بدأت علاقة هيكل بجمال عبد الناصر .. وبالحرف يقول هيكل فى المقال:

«سمعت عنه قبل أن ألقاه .. كانوا يتحدثون عنه فى الفالوجا المحصورة كما يتحدثون عن الخرافات والجن العمالقة .. كان جريئا إلى أبعد حدود الجرأة وفى الوقت نفسه كان هادئا إلى أبعد حدود الهدوء .. وكان هذا المزيج من الجرأة والهدوء شيئا عجيبا مثيرا .. وكان كل زملائه يحبونه .. واشتهر بينهم باسم تدليل «كان يقصد تدليل جمال عبد الناصر باسم جيمى» يطلقونه عليه وينطقونه بأنفة وإعزاز حينما يتكلمون عنه وهم جالسون فى الخنادق فى خط النار.

وكان كثيرون فى الفالوجا يحبون الاستماع إليه فقد كان يتكلم لغة جديدة ويثير فيمن حوله مشاعر جديدة قوية .. وعندما كانت المعارك تهدأ يهرع إليه نفر من الضباط حيث يكون ثم تدور أحاديث تتجه كلها إلى الوطن البعيد حيث يفصل بينه وبينهم عدو يحاصر مواقعهم من كل ناحية وكان تخليص وطنهم أهم عندهم من تخليص أنفسهم من الحصار الذى كانوا فيه .

أنا من الإخوان المسلمين

وعاد من الفالوجا هادئا ساكنا وفى نفس الوقت هائجا ثائرا .. وكتب البوليس السياسى عنه تقارير وصفته بأنه من الإخوان المسلمين واستدعاه رئيس الوزراء القائم بالحكم وقتئذ لمقابلته وسأله: هل

أنت من الإخوان ؟ وكانت تهمة الالتصاق بالإخوان المسلمين فى ذلك الوقت تهمة مخيفة وكانت مفاجأة لرئيس الوزراء حين قال الضابط: نعم أنا منهم .. ودهش رئيس الوزراء وصمت لحظة ثم قال : لقد أعجبتني شجاعتك ولست أطلب منك تعهدا لي بألا تشترك في أعمال عنيفة .

وحين خرج بعد انتهاء اللقاء وعرف بعض زملائه ماحدث أقبلوا عليه يسألونه: ولكنك لست منتميا الى جماعة الإخوان المسلمين فلماذا قلت إنك منهم؟ وقال بهدوء: لقد كان سيتصور أني أتهرب وأجبن إذ قلت إني لست منهم .

والذين اتصلوا بعمله يقولون إنه جندى محترف .. الجندية في دمه وفي أعصابه وفي عقله .. ويستشهدون على ذلك بفترة قضاها في كلية أركان الحرب وكان العقل المدبر للكلية .. ومن خريجي هذه الكلية جاء معظم ضباط حركة القوات المسلحة ..

ثم التقيت به لأول مرة .. وكان اللقاء في بيت اللواء محمد نجيب قبل أربعة أيام من حركة القوات المسلحة .. وكان يبدو أبعد بكثير مما سمعت عنه .. كان يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رمادى اللون .. وبدا وكأنه شاب عادى لولا الشيب الكثير الذى ملأ شعر رأسه .. وكنت قبل أن يدخل هو إلى بيت اللواء محمد نجيب جالسا مع اللواء نتحدث عن موضوع الساعة في ذلك الوقت وهو حل مجلس إدارة نادى الضباط .. وحين دخل هو واصلنا الحديث في نفس الموضوع وكان



هو ساكتا لايتكلم.

وقلت له : ماذا .. هل ستتركون المسألة هذه المرة تمضي؟ وقال في هدوء: ماذا نفعل؟ قلت : افعلوا أى شيء .. ولكن لايمكن أن تمضى المسألة هكذا .. وقال ببساطة: أهذا رأيك؟.. قلت في عصبية : وهل لك أنت رأى آخر؟

ثم التقيت به للمرة الثانية في الساعة الرابعة من فجر ٢٣ يوليو.. كانت الحركة قد فرغت منذ أقل من دقائق .. وكانت رئاسة الجيش تعيش في جو غريب .. حركات القوات حولها من كل ناحية .. والدبابات والسيارات المدرعة ومدافع الميدان والمدافع الرشاشة .. واقترب مني في صوت رقيق متزن يقول : ما رأيك .. هل يكفى هذا؟

ثم رأيته كثيرا بعد ذلك .. رأيته يلزم مكتبه سبعة أيام متواصلة .. وإذا غادره فإلى المكتب المجاور .. حيث يشهد مؤتمرا .. ورأيته في كل الموضوعات يقترح حلولا لكل المشاكل . وبعضها بعيد عن العسكرية بعد السماء عن الأرض .. ورأيته يجلس على ركائز القوة دون أن يحس بها فإن رأسه لم يدر ولم يركبه الغرور .. لقد كان في هذا كله كما وصفوه أيام الفالوجا مزيجا من الجرأة المتناهية والهدوء الوديع»

انتهى المقال .. وانتهى مقالي عن المقال.

محمد حسنين هيكل :

صداقة حميمة .. رغم تباين المواقع

بقلم : محمد سيد أحمد



أذكر أول لقاء لى مع محمد حسنين هيكل ..ربما لا يتذكره هو .. كان ذلك في أحد شرفات دار النيابة بباب الخلق عام ١٩٥٧ .. كان هو ومعه جمال العطيفي ، وكنت أنا ومعى نبيل الهلالى .. كنت قد صاحبت «نبيل» إلى النيابة لمشكلة متعلقة بنشر أحد كتب «دار الديمقراطية الجديدة» .. وهى دار نشر كنت مديرها ومالكها وقتذاك .. ولم أكن أعرف هيكل شخصياً .. ولكن كان يعرفه نبيل بحكم علاقة هيكل بوالده ، نجيب

باشا الهلالى ، رئيس وزراء مصر فى مناسبتين قبل الثورة .. وكان يعرفنا جمال العطيفى .. نبيل كمحام ، وأنا بوصفه كان وكيل النيابة فى أول قضية حكم علىّ فيها بالسجن لمدة عامين عام ١٩٥٠.

وقد تصافحنا ، وتبادلنا كلمتين ، وافترقنا ..

وكانت المناسبة الثانية لقاء فى مكتب هيكل بمبنى «الأهرام» القديم عام ١٩٦٤ .. لقد حرص هيكل على أن يتعرف بى وببعض زملائى وقتذاك بعد خروجنا من السجن .. وأقصد بالسجن هنا السنوات الخمس ونصف السنة التى قضينا أغلبها بسجن الواحات ، ابتداء من أول يناير ١٩٥٩ ، وحتى قدوم خروشوف إلى مصر ليفتتح مع عبد الناصر السد العالى .

بمجرد دخولى مكتب هيكل بمبنى «الأهرام» فاجأنى بقوله «قرأت المقال الذى أرسلته إلى «الأهرام الاقتصادى» وهو مقال جيد .. ولكن قررت أن أنزعه من المجلة بعد الطبع ولا أنشره..! وربما بدت الدهشة على وجهى ، ذلك أنه أضاف «لك صحف ودوريات بوسعك النشر فيها ولكن ليس لك أن تنشر فى «الأهرام الاقتصادى» وهذه عبارة لم أفهمها وقتذاك .. ولكن ، تعددت المناسبات لأفهمها فيما بعد .. لقد كانت هناك مجلات ودوريات لليسار ، ومجلات ودوريات لليمين ، ولم يكن مقبولا خلط الأوراق !..

وكنت قبل ذلك قد خصصت الأشهر التى تلت خروجى من السجن - عام ١٩٦٤ ، لأركز جهدى كله على دراسة .. كان هذا متاحا لى وقتذاك ، ذلك أن الإفراج عنا كان بادئ الأمر «إفراجا صحيا» فقط .. ومن شروط «الإفراج الصحى» الوجود فى مكان الإقامة ابتداء من غروب الشمس .. فرحت أستثمر هذه الإقامة الجبرية كى أنصرف إلى هذه الدراسة.

معاملة شديدة القسوة

والحقيقة أن الدراسة كانت تعبيراً عما ساورنى من مشاعر ومشاغل حول معنى خروجنا «المفاجئ» من السجن ، قبل انقضاء مدة العقوبة بالكامل ، وبعد أن ظللنا طوال سنوات نعامل فى السجن معاملة شديدة القسوة .. بلغت فى ظروف كثيرة حد التعذيب البدنى المنتظم.. وحد قتل بعض زملائنا .. لماذا هذا التحول؟.. وكما هو حال أى مهموم يريد أن يؤصل أسباب همه ، أسقطت فكرا منبعه وضعى «الذاتى» على الواقع «الموضوعى» كما تصورته وقتذاك..

لقد عرفت «الواقع الموضوعى» ، وقتذاك ، على أن العالم بصدد أن ينتقل من

مرحلة حاصرت فيه الرأسمالية الاشتراكية ، إلى مرحلة أصبحت تظهر البوادر الأولى لمحاصرة الاشتراكية للرأسمالية .. فحركات التحرر الوطنى قد تعاظم شأنها فى العالم الثالث .. وأصبح هذا الأخير يتحول من رقعة من العالم تتبع الاستعمار العالمى وتشكل «قوة احتياطية» للرأسمالية العالمية إلى أرض محررة مترامية الأطراف بسبيلها أن تشكل «قوة احتياطيةً» للاشتراكية العالمية .. وبهذا المعنى ، فكان على القوى الاشتراكية أن تسند القوى التحررية فى بلدان العالم الثالث ، والعكس بالعكس .. وكان هذا، على حد استنتاجى ، تفسير خروجنا المفاجىء من السجن ، رغم كل العقبات التى اعترضت هذا التوجه.

وكانت الدولة، وقتذاك، تبحث عن مستند تستطيع الاستعانة به لتبرير قرارها بالإفراج عن الشيوعيين، فى نفس الوقت الذى كانت تستقبل فيه خروشوف ، زعيم الشيوعية العالمية.. هل كان هناك فعلا مايدعو إلى مصالحة بين الشيوعيين المحليين وبين عبد الناصر؟.. وهل قرار الشيوعيين بـ «حل الحزب» ، وهو قرار اتخذ بعد أشهر من الإفراج ، كان تعبيراً صادقاً عن توجه الشيوعيين فى اتجاه مساندة عبد الناصر ، أم مجرد مناورة تخرجهم من مأزق السجن الأبدى؟..

وقد جاءت الدراسة التى كتبتها لترد - دون أن أقصد - على هذا السؤال .. وهكذا أصبحت من الشيوعيين الجديرين بأن تلتفت إليهم الدولة !.. كان هيكل قد طرح السؤال على شخصيات يسارية بارزة ومنهم د. إبراهيم سعد الدين .. وكان ابراهيم سعد الدين قد قرأ الدراسة ، فاتصل بى فوراً وطلب منى نسخة ليقدمها لهيكل .. فى الوقت نفسه، كانت نسخة أخرى قد وصلت إلى كمال رفعت ، أمين الدعوة بالاتحاد الاشتراكى ، وكان هو قد استند إليها ليطالبنى بكتابة مقالات لمجلة «الكاتب» .. وهكذا جاءتنى دعوة من لطفى الخولى لكتابة مقال لمجلة «الطليعة» ، نشر فى عددها الثالث .. وقد حرصت على أن أكتب عن موضوع بعيد .. كتبت عن حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، محاولا تفسير لماذا أعادت بريطانيا العظمى ، الدولة الاستعمارية ، الوفد إلى الحكم ،وحاصرت قصر عابدين بالدبابات لإجبار الملك على الرضوخ..

وكان مقالى هذا ، على مايبدو ، قد عجب هيكل .. وعرض علىّ أن التحق بالأهرام فوراً .. ولكن كان خالد محيى الدين قد عينه عبد الناصر وقتذاك رئيساً لمجلس إدارة «أخبار اليوم» .. وكانت تعليمات عبد الناصر له ألا يستعين بيساريين إلا فى حدود ضيقة فاغتنم فرصة عرض هيكل لى، وقال لى إن لطفى الخولى موجود بـ «الأهرام» ويتولى فيه مسئولية صفحة الرأى .. واقترح خالد أن أتولى المسئولية

ذاتها فى «الأخبار» .. مضيفا أن تعييني فى «الأخبار» سوف يكون مناسبة لضم عدد من الزملاء معى إلى الصحيفة ، بينما ليس هذا متاحاً فى «الأهرام» حيث سوف أعين وحدي .. فقررت تلبية دعوة خالد ..

واعتقد أن هيكل دهش لتصرفى هذا .. ذلك أنه لم يكن متصوراً في ذلك الوقت رفض مثل هذا العرض من جانبه .. ومرت السنوات وأنا أجمع بين إسهاماتى فى «الطليعة» وعملى فى «الأخبار» ، مسئولا عن مقالات صفحة الرأى التى كانت تنشر فى الركن الأيسر من الصفحة الثالثة ..

هيكل فى الأخبار

وفى يوم فوجئنا باستقالة خالد محيي الدين من رئاسة مجلس إدارة «أخبار اليوم» وجاء هيكل ليتولى مؤقتا رئاسة مجلس إدارة مؤسسة «الأخبار» بجانب رئاسته لمجلس إدارة «الأهرام» .. وحرص هيكل على أن يترك إدارة الأخبار اليومية للعاملين الأصليين في المؤسسة .. وظللت أعمل فى «الأخبار» فى ظل رئاسة هيكل للصحيفتين معا ، حتى تقرر فى يوم ما تعيين محمود أمين العالم لرئاسة مجلس إدارة «أخبار اليوم» .. وقتئذ أصر هيكل على أن ألبى دعوته للالتحاق بالأهرام ، ولبيت الدعوة.

وأذكر أن هيكل قد قال لى ذات يوم وهو يستبقينى فى «الأخبار» بعد أن أبعد كثيرين ممن ألحقوا بالصحيفة فى ظل رئاسة خالد ، أن كل مايطلبه منى هو ألا أكون منضما إلى تنظيم سرى .. وهنا لم أجب إجابة كاملة .. ذلك أن الحزب الشيوعى كان قد حل نفسه ، ولم أعد بالتالى منضما إليه .. ولكن ألحقت فى «الأخبار» بتنظيم سرى آخر هو «التنظيم الطليعى» الذى أنشأه عبد الناصر فى قلب الاتحاد الاشتراكى .. وكانت التعليمات الصادرة إلىّ ألا أفاتح أحدا فى شأن هذا التنظيم .. وكنت فى ذلك الوقت مازلت متشبعا بعقلية الانضباط الشيوعى الصارم .. وعذبنى ألا أفاتح هيكل في موضوع أصبح يخصه بعد انضمامى إلى «الأهرام» .. غير أن التعليمات قد صدرت إلىّ من موقع «أعلى» من هيكل .. وتحديداً من مكتب سامى شرف .. وكنت أعلم أن هناك خلافات فى الدوائر المحيطة بعبد الناصر «القريبة اليه .. ولكن كان هيكل دون سواه من هؤلاء» القريب إلىّ..

وأذكر أن نهج بناء «التنظيم الطليعى» قد أرشدنى إلى شعار ابتدعته وقتذاك ، ولكن غيرى ومنهم هيكل قد كتبوا عنه قبل أن أتيح لى أن أكتب عنه ، وهو ما أسميته «تأميم الصراع الطبقى» .. كنت أرى فى التنظيم «الطليعى» تعبيرا ناطقا عن عملية «تأميم» لم تقتصر على المصانع والمصارف والأرض الزراعية ، وإنما امتدت للصراع

الاجتماعي ذاته .. كان التنظيم منقسما إلى فرع للاشتراكيين العلميين، وقصد بهؤلاء أنصار الاشتراكية الماركسية ، وإلى فرع لأنصار الاشتراكية العربية، وقصد بهؤلاء الاتجاه القومي ، وإلى فرع لأنصار الاشتراكية الإسلامية وقصد بهؤلاء الإخوان المسلمين الذين تابوا والتحقوا بركب عبد الناصر .. لقد أراد عبد الناصر أن يجعل من الصراع الطبقي بكل روافده قوى تتصارع وتتفاعل تحت مظلة سيطرته، وهذا ما قصدته بـ «تأميم الصراع الطبقي».

صحيح أن التنظيم الطليعي لم يطلب مني إطلاقا أن أنشط لحسابه داخل مؤسسة «الأهرام» .. وظللت منضما إلى الخلية التي كانت تجمعني مع عدد من صحفيي مؤسسة «أخبار اليوم» .. ولم تكن الجلسات منتظمة ، بل كادت تنعدم بعد تولي محمود العالم رئاسة مجلس إدارة «الأخبار» .. وأخذ هذا التنظيم يغيب عن اهتماماتي تدريجيا حتى جاء صراع السادات مع مراكز القوى ، وقد تعرضت مراكز القوى التي كانت تتولى أمر التنظيم الطليعي لأزمة حادة .. كان هيكل ممن اصطفوا إلى جانب السادات ضد قيادات مراكز القوى .. وطبعاً كنت ، بحكم موقعي ، من أنصار عدم تصعيد المواجهة بين الجانبين .. وأذكر أنني فاتحت هيكل في هذا الموضوع ذات يوم .. قلت إنه لا مفر من مصالحة بدلا من التصعيد .. واستمع هيكل إليّ .. ولكنه لم يجب ..

ثم جاءت إقالة علي صبري .. وما وصف بـ «الثورة التصحيحية» في ١٥ مايو ١٩٧١ .. وهنا وجدت نفسي، والضمير يؤنبني ، أذهب إلى مكتب هيكل لأقول له إنني قد ارتكبت خطأ جسيماً في حقه . فأنا عضو بالتنظيم الطليعي ، ولم أكن قد أبلغته هذا من قبل .. وفوجيء هو وذهل .وفاجأه بالذات أن للتنظيم الطليعي وجودا داخل «الأهرام» دون علمه .. واعتقد أنه حرص على معرفة من من صحفيي «الأهرام» كان عضوا بالتنظيم غيري .. والحقيقة أن اعترافي لم يكن خالصا لوجه الله .. فإنني كنت أدرك أن هيكل سوف يحاط علما بأعضاء التنظيم إن آجلا أو عاجلا .. وأردت أن أبلغه قبل أن يعلم هو من غيري .. وقدر هو هذه الخطوة من جانبي ، حتى لو لم تكن خالصة مائة بالمائة .. ولكن أشعرته أيضاً على ما أتصور بخيبة أمل، لأني قد خفيت عنه الموضوع طوال سنوات ..

وأذكر ذات يوم وكنت مازلت المسئول عن افتتاحية «الأهرام» التي تكتب تحت عنوان «كلمة الأهرام» .. أن طلب مني هيكل أن أكتب أن كل أعضاء التنظيم الطليعي لم يكونوا متورطين في مؤامرات مراكز القوى .. وكتبت افتتاحية بهذا المعنى .. واعتقد كثيرون أن الفضل في كتابتها قد عاد إليّ، وأنني قد تحديت هيكل بكتابتها ..

ولكن الحقيقة هي أن هيكل كان هو الذي كلفني .. وأذكر أن أحد كبار الشيوعيين هو مبارك عبده فضل قد هنأني على الافتتاحية ..

★★★

كان أهم حدث ينسجم مع اتجاهاتي بعد التحاقي بالصحافة ، هو مؤتمر انعقد عام ١٩٦٦ في فندق البرج بالزمالك .. مؤتمر جمع مجلة «الطليعة» التي كنت قد أصبحت عضوا بلجنة المستشارين بها ، وبين مجلة «السلم والاشتراكية» التي كانت تصدر في براج والتي كانت تعتبر لسان حال الأحزاب الشيوعية المشايعة لموسكو في مختلف بلدان العالم .. كان هذا المؤتمر تكريساً للمصالحة بين الشيوعيين وبين نظام عبدالناصر .. وقد تمت المصالحة في إطار مجلة «الطليعة» التي كانت تتبع «الأهرام»، وهيكل شخصيا .. ويرأس تحريرها لطفي الخولي.

تلا هذا الحدث حدث كبير مماثل في العام التالي ، هو مؤتمر ضم في الجزائر القوى الاشتراكية من مختلف أرجاء الوطن العربي ، وقد دعيت للمشاركة في إعداده .. سافرت مع زملاء غيري من الصحافة المصرية إلى الجزائر يوم ١٤ مايو ١٩٦٧ لأكون ضمن المنظمين لهذا المؤتمر .وقد التقيت فيه لأول مرة بوجوه كثيرة أصبحت من الوجوه المألوفة في الساحات العربية بعد حرب ١٩٦٧ ..

غير أن الأحداث كانت تجرى بسرعة .. وقد اختتم المؤتمر في يوم ٢٤ مايو، وصدر إلى عدد منا قرار بألا نعود إلى مصر ، وإنما أن نذهب إلى أوروبا ، وأن نبدأ بفرنسا لننتشر في عدد من العواصم الأوروبية ، والتصدى للدعاية الصهيونية في الأيام التي سبقت ٥ يونيو ١٩٦٧ مباشرة .وذهبنا إلى باريس .. ولم يكن هناك مايستدعي مبارحتها .. كما وجدنا أنه من غير الممكن العودة إلى مصر، لأن مطار القاهرة كان مغلقاً .. فمكثنا شهرا كاملا في باريس نفعل مابوسعنا للذود عن القضية العربية في مناخ معادٍ مذل .. وهكذا أسفر مؤتمر الجزائر عن نقيض ما رمز له اجتماع «الطليعة» مع مجلة «السلم والاشتراكية» بفندق البرج بالقاهرة .. رمز الاجتماع الأول لانتصار التلاحم بين القوى الاشتراكية .. وجاء الثاني قبيل الهزيمة التي نالت من الحلم في الصميم.

★★★

كان هيكل يتسم في نظرى بقدر كبير من الاعتداد بالنفس .. ولم يعد بعد هزيمة ٦٧ يستطيع أن يجمع بين حرصه على كبريائه وتحمل آثار الهزيمة النكراء التي ألمت بنا جميعاً .. كنت مع لطفي الخولي وأحمد بهاء الدين وغيرنا محبوسين في باريس

عقب الهزيمة ، ولم يكن بوسعنا العودة إلى مصر بسبب إغلاق المطار .. اتصلنا بهيكل تليفونيا ، لطفى وأنا ، من السفارة المصرية بباريس .وكنت أسمع صوت هيكل فى المكالمة القصيرة التى جرت بيننا ، وكنت أحاول أن استشف من صوته حجم الكارثة التى أصابتنا .. أراد هو أن يعطى الانطباع بأنه ليس هناك شيء تغير .. ومع ذلك ، وكما علمت فيما بعد ، كان لهيكل دور كبير فى إقناع عبد الناصر بضرورة أن يتنحى ، وأن يتحمل بصفته القائد المسئولية بالكامل .. ومع كل حبه لعبد الناصر ، كان مقتنعا بأنه لم يكن أمام الرئيس والزعيم خيار آخر .

ومع ذلك كان هيكل هو الذى ابتدع كلمة «النكسة» ، لتحاشى كلمة «الهزيمة» المحبطة للهمم .. لقد طرح الوضع القائم وكأنما هو شيء مؤقت .ولكن .. كما ثبت فيما بعد .. إننا مازلنا نعانى من آثار النكسة والقرن قد انقضى.

★★★

لقد ألحقنى هيكل بـ «الأهرام» فى عام ١٩٦٨ .. وأذكر بعد التحاقى بالأهرام، وقبل أن تتحدد لى مسئوليات فيه ، أننى قد كتبت مقالا عن أزمة تشيكوسلوفاكيا التى بلغت الذروة وقتذاك فى أواخر أيام زعامة دوبشيك .. قلت فى المقال أن السوفيت لن يتدخلوا .. وثبت أننى أخطأت .. فلقد تدخلوا وعلى نطاق شامل .وصبيحة يوم تدخلهم ، دعانى هيكل إلى مكتبه وقال لى : «أخطأت التقدير» .. قلت «نعم» .. قال : «إنى حريص على أن تذهب لكى ترى بنفسك» .. وقد رتب لى لطفى الخولى السفر .. وأرسلت إلى برلين الشرقية أولا .وتقرر فى برلين أن أذهب إلى موسكو قبل أن أذهب إلى براج ، علما بأن الحدث الصحفى الخطير كان فى براج ولم يكن فى موسكو !!. وكنت قبل ذلك قد زرت براج سنة ١٩٦٦ .. بل وتزوجت فى براج، ذلك أن والد زوجتى كان دائم الإقامة بها وقتذاك بحكم عمله .وقررنا أن نتزوج بعيداً عن صخب القاهرة ، وعن النوعيات المختلفة من الناس التى كان علىّ أن أدعوها لزواجي .. ذهبت إلى كل من موسكو وبراج ومزقنى ما رأيته .. الصمت التام عن الحدث فى موسكو .. والفوضى والتمرد على المكشوف فى براج .. كانت أول زيارة لى لموسكو ورأيت بنفسى عدم استعداد أحد ممن التقيت بهم أن يتفوه بكلمة .. تقرر بعد وصولى اعتبارى مدعوا من قبل وكالة «نوفوستى» السوفيتية ، مجاملة لمصر و«الطليعة» .. ولكن «أغلقت» كل الأبواب فى وجهي، ولم تتح لى فرصة التحدث إلى أى من المسئولين ..

ولأول مرة أدرك ما هو معنى أن تتمرد عاصمة اشتراكية على الاتحاد السوفيتى واستمعت إلى حجج هؤلاء وأولئك .وكتبت أربعة مقالات ، رفض هيكل أن ينشرها

بالأهرام، لأنه كان قد كتب هو مقالا عن غزو السوفيت لتشيكوسلوفاكيا ، واعتبر هذا المقال كافيا ، ولا حاجة لتحميل «الأهرام» المزيد فى وقت كنا فى أحوج الحاجة إلى السلاح السوفيتى .. ووافق لطفى الخولى على نشر مقالاتى بـ «الطليعة» .. وكان مجمل ما قلته هو أن العملية من الوجهة الفنية كانت ناجحة مائة فى المائة .. فلقد تم احتلال تشيكوسلوفاكيا دون إراقة نقطة دم واحدة .. ولكن إذا ما تحدثنا عن مبرر هذا الاحتلال ، فقد اكتفيت بسرد الحجج التى سمعتها فى موسكو ، وتلك التى سمعتها فى براج ، ولم أبت برأى .. وتركت للقارىء ليقرر أية من وجهتى النظر هى الأصوب !.. ولم تكن مقالاتى موضع رضا أى من الجانبين!..

★★★

التحقت بالأهرام عام ١٩٦٨ ، ولكن لم أباشر مسئولية الإشراف على صفحة الرأى إلا فى العام التالى، بعد انتقالنا إلى مبنى «الأهرام» الجديد .. لقد عيننى هيكل وقتذاك مسئولا عن صفحة الرأى ، وعن افتتاحية «الأهرام» غير الموقعة التى تنشر كل يوم ..

إلا أن الذى أصبح يشغلنى بشكل متزايد فى هذه المرحلة ، ربما أكثر من مجلة «الطليعة» التى كنت أكرس لها جهدا كبيراً فى المرحلة السابقة، هو أن أسهم فى أعمال مركز الدراسات الاستراتيجية بـ «الأهرام» الذى أنشىء بمجرد استقرارنا بالمبنى الجديد .. فمن الواضح أن عبد الناصر قد أدرك أن أجهزة المخابرات لم تكن قد قامت قبل الحرب بدورها على النحو المطلوب .. وقد أعطت صورة مغلوطة عن إسرائيل .. وكان لابد من وسيلة أخرى لمعرفة إسرائيل ، ولتحاشى سقوطنا أسرى تصورات عن إسرائيل تخالف الواقع كل المخالفة .. ومن هنا كانت أهمية انتقاء أمخاخ بمقربة من عبد الناصر تفكر وتحلل وتمعن النظر فى الأمور دون أن تعلم أن اجتهاداتها تحت بصر رئيس الدولة مباشرة .. وكنت بفضل هيكل من هؤلاء المنتقين .. كنا نقوم بمناقشات واسعة وراء الأبواب المغلقة .. ولم يكن واردا أن ننشر فى «الأهرام» مانتبادله من أراء فى هذه الغرف المغلقة.

والحقيقة أن «الأهرام» فى الأيام الأخيرة لحكم عبدالناصر قد اتسم بجو شديد التكهرب .. فبعد انتقالنا إلى المبنى الجديد .. كانت تبدو الأمور هادئة ومستقرة، وكان المبنى كيانا شامخا موضع اعتزازنا جميعاً .. كانت تلتقى فيه كل نخب مصر .. ولكن كنا نباشر وظائفنا ونحن لا نكاد نعلم شيئاً عن الأسرار التى كان مكتب رئيس التحرير وحده ملما بها .. كان مجلس التحرير يلتقى كل يوم .. الجلسة الأولى فى الساعة التاسعة صباحاً بحضور هيكل ، وأذكر أن حمدى فؤاد كان يأتى بأخبار

يلتقطها بالذات من حفلات الكوكتيل والعشاء لدى السفارات .. وكان يتقدم بما لديه، وهيكل ينشر مايطمئن إلى أنه صحيح .. ذلك أن نبأ يعلمه حمدى فؤاد هو نبأ لايعلمه هو وحده .. ومن هنا فلا خطر من النشر وإفشاء أسرار!..

وكان غريباً أن تكون أهم صحيفة فى مصر قليلة المناقشات العامة على هذا النحو .. كنت أصف «الأهرام» مازحاً بأنه «خط الدفاع الثانى» .. كان «خط الدفاع الأول» هو خط الدعاية بالطريقة المألوفة .. وهو الدفاع الفج عن النظام حتى لو افتقر إلى مصداقية .. أما «خط الدفاع الثانى» ، فهو الخط الذى كان يحرص على مصداقية الخبر وجديته ، حتى لو تطلب ذلك التعرض لموضوعات شائكة .. وكان هيكل يملك وحده النهوض بهذا الدور .

وأذكر أن هيكل كثيراً ما استدعانى إلى مكتبه ليقول لى إننى أثرثر أكثر من اللازم فى أحاديثى مع الصحفيين الأجانب .. وأن التقارير عنى كثيرة ، وأنه علىَّ أن ألم نفسى!.. هكذا كان يقول، ولكن أعتقد أنه لم يكن متضايقا حقاً مما أفعله .. ذلك إننى لم أكن أعلم شيئاً .. وأن كل ماكنت أقوله استنتاج ذاتى وبالتالى ليس بخبر وكان يبدو للصحفى الأجنبى أننى أحلل انطلاقا من معلومات أعلمها .ولا مانع من انتشار الأنباء على هذا النحو!..

مناطحة أمريكا

ومما لم أكن أدركه ، على الأقل بشكل كاف، هو تعاظم الصراع بين الاتحاد الاشتراكى من جانب ومؤسسة الأهرام وعلى رأسها هيكل من الجانب الآخر .. وأذكر ذات مرة وقوع خلاف كبير ما بين «الأهرام» و«الجمهورية» حول موضوع كان وقتذاك حساساً .. كان هيكل قد أعلن فى مقال شهير أنه لا ينبغى مناطحة أمريكا فوق حد معين ، وقد تصدى له بعض كتاب «الجمهورية» ليقولوا إن هذا موقف ممالىء لأمريكا، فى ظرف تسند فيه أمريكا إسرائيل على طول الخط .. وهذا موقف يسىء إلى حليفنا السوفيتى الذى ينهض بدور كبير فى إعادة بناء الجيش المصرى .. والحقيقة أن الخطين كانا متكاملين أكثر من أن يكونا متعارضين .. كنا بحاجة إلى مخاطبة أمريكا للتمييز ما بين أمريكا وإسرائيل قدر المستطاع، حتى مع التسليم بأن هذا لم يكن سهلا .. وكان هذا تمهيداً لمبادرة روجرز فيما بعد .. كانت «الجمهورية» وقتذاك لسان حال الاتحاد الاشتراكى ، وكان يكتب فيها مسئولون بالتنظيم الطليعى ، بينما كان للأهرام وظيفة أخرى.. هى التى وصفناها بـ «خط الدفاع الثانى»..

كنت أجد نفسى فى مأزق إزاء مثل هذه الزوابع .. لم أكن أعلم إلى أى حد كان

هيكل يرحب باختيار فلان أو علان كاتبا بصفحة الرأى فى «الأهرام» .. لم أكن أعلم ولاءهم لمن فى النظام .. لم أكن أحاط علماً بهذه «التفاصيل» البالغة الأهمية .. وحدث ذات مرة بعد وفاة عبدالناصر ، فى الأيام الأربعين التي خصصت فيها مقالات الرأى كلها لرثاء الزعيم الراحل .. حدث ذات مرة أن تلقيت من مكتب رئيس التحرير مقالا من سامي شرف .. وأعطى هيكل تعليمات بنشر المقال كما هو .. ولم أكن قد تلقيت شخصياً هذه التعليمات .. وقد أنهى سامي شرف المقال بكلمة وجدت نشرها كما صاغها مذلة ، فحذفتها .. وفي اليوم التالي استدعاني هيكل لمكتبه وهو في حالة غضب شديد .. رأيته في صورة لم أكن أعرفها عنه أبداً .. كان ذلك ربما المرة الوحيدة التي رأيته يثور في وجهي، وقال «إنني أعطيت تعليمات واضحة أن المقال ينبغي نشره كما هو دون مساس ، والمسألة في وجهي» .. قلت: «حملني أنا المسئولية» .. قال : «الموضوع بيني وبينه .. ولست أنت طرفا في الموضوع على وجه الإطلاق»..

في ظل هذا الجو المكهرب، جاء القبض على لطفي الخولي وزوجته ، وكذلك على سكرتيرة هيكل نوال المحلاوى وزوجها .. لقد اتهم الأربعة بالتلسين على عبد الناصر .وكان عبد الناصر وقتذاك قد عين هيكل وزيراً للإعلام .. وبدا ذلك لنوال المحلاوى وكأنما هو تحجيم لهيكل ، وانتصار لفريق قيادات الاتحاد الاشتراكى عليه..

وارد أن يكون ذلك هو سبب التلسين .. لم يكونوا يعلمون أن شقة لطفي موضع مراقبة دقيقة ..فلقد وضعت أجهزة تنصت في كل الحجرات ..وقد أحيط سامي شرف فعبد الناصر علما بما قيل ، وصدر أمر باعتقال الأربعة والتحقيق معهم .. كان من المفروض في ذلك اليوم أن نتواجد ، زوجتي وأنا ، مع الأربعة في شقة لطفي .ولكن زوجتي أصيبت بوعكة صحية حالت في آخر لحظة دون ذهابنا .. وقد أفرج عن ليليان الخولي وعن نوال، ولكن طال حبس لطفي وزوج نوال .. مما أعجز لطفي عن حضور جنازة عبد الناصر ، ذلك أنه كان محبوساً ولم يفرج عنه إلا بعد بضعة أشهر من تولي السادات الحكم .

لقد ساد في هذه المرحلة الأخيرة من حكم عبد الناصر إحساس بالرعب منقطع النظير .. أذكر بعد القبض على لطفي أننا ، كلما تناولنا موضوعا حساساً ، فضلنا الخروج من المنزل إلى الشارع تحاشيا لأجهزة التنصت .. وفعلا وقع ذات يوم في عهد السادات حريق بشقتنا ، كادت تودى بها تماماً ، وكادت تقضي على حياة والدتي .. وقد أبلغنا فيما بعد من جهات تعلم أن سبب الحريق هو وجود جهاز

تنصت في حجرة النوم!..

★★★

ربما حجم عبد الناصر هيكل بتعيينه وزيراً .. ولكن بدا لهيكل أنه قد استرد مكانته بوقوفه إلى جانب السادات ضد مراكز القوى بمجرد تولى السادات الحكم..

لم أكن أنا شخصياً أعلم أن هيكل إلى جانب السادات ضد ماسمى بمراكز القوى .. كنت أنا شخصياً ، بحكم ميولى، أقرب إلى منطق الاتحاد الاشتراكى منه إلى أى منطق يعاديه ذلك بغض النظر عن صداقتى لهيكل .. تصورت ذات يوم أننى فى استطاعتى أن أحول دون انفجار الخلاف بين الطرفين .وجلست أصارح هيكل مراراً بأنه لاينبغى أن تصل الأمور إلى حد الصدام .. ولكن هيكل لم يكن يرد .. ووقع الصدام .. واستبعد على صبرى ومن معه..

ولم يستبعد الماركسيون .. فلقد عين السادات إسماعيل صبرى عبد الله وفؤاد مرسى وزيرين بالحكومة .. وأصبح للطفى دور مهم فى أمانة الاتحاد الاشتراكى بعد إطلاق سراحه .. ووقع السادات معاهدة مع السوفييت .ولكنه كان قد أقدم على هذه الخطوات وفى ذهنه أساساً مخاطبة واشنطن ، واستثمار قبول عبد الناصر لمبادرة روجرز..

وأذكر فى هذه المرحلة زيارات معمر القذافى «للأهرام» .. كان قد تولى السلطة منذ وقت قصير .وكان يأتى إلينا ليتحدث معنا فى جلسات مغلقة ، مطولة .. أذكر فى أول مرة التقينا به قال له هيكل : «معنا هنا محمد سيد أحمد وله ميول قريبة إلى السوفييت» .. كنت قد علقت على كلمة تحدث هو فيها عن المعسكر الاشتراكى بطريقة فيها قدر من الاستخفاف .. قلت إنه من الصعب الانطلاق من تصور لخريطة العالم كما قد تبدو من الصحراء ، ووضع الكتلتين الدوليتين على قدم المساواة دون إدراك الاختلافات بينهما .وقد عنفنى القذافى على هذه الإجابة .. وأذكر أن الأهرام قد نشر حديثه دون نشر ردى عليه، مما أوجدنى فى مركز حرج .. وقد تصالحت مع القذافى فى لقاءات لاحقة .. وكتبت أدافع عنه مرة ضد مقال هاجمه بـ «البرافدا» . ونقل إلىّ أنه قد دافع هو عني ذات مرة لدى الرئيس السادات ، ولكن كان رد السادات أن فلانا هو من اتباع هيكل الذين يحرضونه ضدي!..

ثم وقع حدث مثير .. فلقد نشر «الأهرام» في باب ابتدعه وقتذاك تحت عنوان «دائرة الحوار» مناقشة مع إسماعيل فهمى ، وكيل الخارجية وقتذاك ، أدان فيه موقف الروس إدانة حازمة .وبدأت أشعر بأن هناك جوا يتعلق بالسوفييت ..

وأحسست بأن ثمة شواهد تنم عن رغبة في تحميلهم مسئولية الهزيمة التى تكبدناها .. وبدلا من أن نرى أن العيب إنما يكمن أساساً فينا ، حملناه لأسلحتهم .. وقد أثارت «دائرة الحوار» هذه ضجة كبرى بين الدبلوماسيين الأجانب .. بلغت حد أن الصين تصورت أن «الأهرام» قد قاد الحملة للاطاحة بالخبراء السوفييت .. فتلقى هيكل دعوة لزيارة الصين .. وقرر أن تكون الدعوة لعدة بلدان آسيوية بدأت بالصين وشملت عدة دول فى آسيا .. وقد قاد هيكل فريق «الأهرام» الذى قام بهذه الرحلة وكنت ضمن المشاركين فيها مع حمدى فؤاد وجميل مطر وسميح صادق وعبد الله عبد البارى ومحمد يوسف المصور ..

وأذكر اللقاء مع شواين لاى .. وأنكر أن هيكل قد قال له أيضاً أن لدينا في مجموعتنا شخصا موالياً للسوفيت .. وتركزت الأضواء علىّ ، وشعرت بحرج شديد أمام القادة الصينيين الذين كانوا ينظرون وقتذاك إلى القيادة السوفيتية على أنها ألد أعدائهم .وطلب منى أن أطرح سؤالا .. وسألت عن الثورة الثقافية .. وحرص شو على أن يرد علىّ بإسهاب .. غير أن شو قد أدرك من حديث هيكل أنه لم يكن صحيحاً أن «الأهرام» يعادى السوفييت .. وهكذا التقينا بشواين لاى ، ولكننا لم نلتق بماو تسى تونج..

وبعد عودتنا من رحلة آسيا ، فوجئنا بأن عدداً من الصحفيين قد اعتقل .. غير أن السادات كان يعد وقتذاك لحرب اكتوبر .. ووقعت الحرب .وكان العبور .. وقبيل الحرب بيوم واحد ، أعاد السادات الصحفيين المبعدين إلى صحفهم ، تحقيقا للوحدة الوطنية .. ووقعت الحرب .

ولم أكن أدرك أن متانة علاقة هيكل بالسادات كانت رهنا بحاجة السادات إلى هيكل فى وجه مراكز القوى .. وكان معنى ذلك أن انتصار أكتوبر ، والمجد الذى تحقق للسادات فى أعقاب العبور ، قد أغناه عن حاجته إلى هيكل .. فنشبت خلافات بينهما .ونشر هيكل مقالات أبرزت وجهت نظر مخالفة لرؤى السادات ..

ثم كانت دعوة هيكل لميتران آخر عمل قام به قبل تنحيته من «الأهرام» .. كان هيكل قد دعاه بصفته وقتذاك زعيم المعارضة فى فرنسا .. وقد كلفنى بأن أرافق الضيف إلى الأقصر وأسوان ، ومعه بعض كبار معاونيه .وأتيحت لى، هكذا فرصة التعرف على الزعيم الفرنسى عن قرب .. كما كانت زيارته الأولى هذه لمصر مناسبة ليجمعه هيكل لأول مرة مع عرفات على مائدة غداء في الأهرام .وكلفت أنا بالترجمة بينهما .. وقد واظب ميتران على زيارة مصر بانتظام بعد ذلك .. وفى آخر يوم غادر فيه ميتران مصر ، لم يحضر هيكل لوداعه والذهاب معه إلى المطار إلا فى آخر

لحظة .. وبعد ٣ ساعات من مغادرة ميتران مصر، أذاعت نشرة الأخبار أن هيكل قد أبعد من «الأهرام».

★★★

وقدمت استقالتي .. شعرت بأنني مدين لهيكل بوجودي في «الأهرام» ، وأنه يتعين عليّ أن اتضامن معه .. والغريب أن استقالتي فاجأت الجميع ، ثم قيل لي إنه ينبغي عليّ أن اسحب الاستقالة .. فلا معنى لها وفي أي الأحوال ، فلست محسوبا على هيكل .. وجاء هيكل بنفسه إلى منزلي وطلب مني سحب الاستقالة وفي النهاية سلمت بأنه كان عليّ أن أسحبها .وقد عين «علي أمين» رئيساً لتحرير «الأهرام» .ولم أكن أريد أن أتعاون مع «علي أمين» .. وأبدى هو إحساساً طيباً إزائي .. وذات مرة أصر على نشر مقال له وفي مواجهته مقال لي ، تحت عنوان «مواجهة بين اليمين واليسار في الأهرام» حول قضية حرية الصحافة .. وأدركت أن علي أمين كان صديقاً لهيكل ، ولكن مصطفى أمين كان يعاديه على طول الخط .وبعد خروج مصطفى أمين من السجن ، أوقف علي أمين كل تعامل له مع هيكل ..

وينبغي لي أن أقول أن هيكل في هذه المرحلة التي سبقت إبعاده من «الأهرام» قد وقف بجانبي بشدة في ظروف بلغت ذات مرة حد المخاطرة .. أذكر هذه المناسبة التي اتصل فيها هيكل بي في منتصف الليل ليقول لي أن أذهب إلى منزله فوراً .. وكان لي زوار في البيت .. قلت : «إن لي هنا ناس» .. قال «اتركهم وتعال فوراً» .. ذهبت .. قال لي : «سأمر عليك صبيحة الغد الساعة السابعة والنصف صباحاً لأرافقك إلى «الأهرام» وأتركك هناك، ولا تترك المبنى إلا عندما أسمح لك بهذا!!!». واندهشت .. وكان الأمر هو أنني قد اتهمت بأنني أسرب أسراراً للسفارة الفرنسية .. كانت القصة ، باختصار ، أن أحد أعضاء السفارة السوفيتية قد زار أحد معاوني بالأهرام وأبلغه عرضاً بأن بودجورني، رئيس الاتحاد السوفيتي وقتذاك ، سيزور مصر .. جاءني الخبر ولم التفت إليه .. ولكن دخل مكتبي بعد ذلك بدقائق مندوب وكالة الأنباء الفرنسية .. ودار حديث عفوي ، بيننا عرج فيه على موضوع السوفييت .وقلت له إنني أعلم أن بودجورني سيأتي إلى مصر . وانتهى الأمر عند هذا الحد ..

والذي حدث هو أن السادات قرر ألا يستقبل بودجورني .. ولم يكن يريد أن ينتشر خبر مجيئه .. وفوجيء بأن الخبر معروف .. وأحرجه ذلك وأمر بالبحث فوراً عن المسئول عن تسريب الخبر .. وتوصلت الأجهزة إلى أن الخبر قد وصل إلى مندوب وكالة الأنباء الفرنسية عن طريقي ومن الوكالة إلى السفارة .. غير أن

هيكل قد تدخـل شخصيا ، وقابل السادات خصيصا لهذا الموضوع ، وانهى المشكلة .. قال للسادات إنني قد أبلغته هو شخصياً الخبـر ، ولم أخفـه قط .. وسـويت المسألة .. والحقيقة أن الحدث كان تعبيراً عن مدى إخلاص هيكل لأصدقائه المقربين إليه..

وأعلم عن قصص كثيرة مماثلة مع آخرين في «الأهرام» ، ولكن هذه هي قصته معي .. وأذكر بعد تصفية المشكلة أنه قال لي : «لا مانع في أن تمكث في السجن سنوات طويلة بسبب تهمة سياسية ، ولكن الذي لا أقبله أن تعاد إلي السجن بصفتك جاسوساً!»..

والحقيقة أن مشكلة أمني كانت دائماً مشكلة تشغله .. أذكر ذات يوم أنني كتبت مقالاً في الأهرام ،ورغم أنني كنت المسئول عن صفحة الرأي، فلقد تدخل علي حمدي الجمال، مدير التحرير وقتذاك ، ومعه د. عبدالملك عودة، معاون رئيس التحرير في الشئون الإدارية، ليطلبا من هيكل حذف المقال من الصفحة. لأنه يعرض أمني الشخصي للخطر.. ولبى هيكل طلبهما أول الأمر.. ثم أتيت إلى «الاهرام» واكتشفت أن مقالي قد سحب.. طلبت مقابلة هيكل وحاولت إقناعه بعدم سحب المقال.. ووافق.. ثم تدخلا مرة ثانية.. وانتهى الأمر بأن قرر هيكل إبعادنا جميعا.. وبت هو وحده في مصير المقال بتعديل عدد من الفقرات فيه.. كان المقال تعبيرا عن بعض ما أبديته من آراء في الجلسات المغلقة بمركز الدراسات.. كان واردا الحديث عن مثل هذه الأمور في جلسات مغلقة.. وتجربة المقال أثبتت أن طرحها علنا لم يكن واردا دون إخضاعها لتدقيق شديد..

***

إخراج هيكل من الأهرام قد أشعره بادئ الأمر بفراغ كبير.. كان هو الذي جعل من «الأهرام» هرما شامخا.. مبنى يشار إليه بالبنان.. وظل هيكل يحلم طويلا بعد خروجه من «الأهرام» في إصدار جريدة، واكتشاف وسيلة لإصدار جريدة، حتى لو تطلب الأمر أن تصدر من خارج مصر.. ثم توجه نشاطه في الأساس إلى تأليف كتب.. والواقع أن العالم كله كان حريصا على أن يسمع رواية هيكل عن كثير مما دار طوال سنوات حكم عبدالناصر، ومن هنا كانت لكتبه مصداقية فريدة.. وأصبحت لها سوقا رائجة في عدد كبير من اللغات..

وهكذا أصبح هيكل بشخصه مؤسسة.. لم يعد بحاجة إلى «الاهرام» كقاعدة ينطلق منها .. وأخذ يحول مسكنه إلى هذه المؤسسة، واستمر هو على صلة بكل من له صفة في الحياة السياسية المصرية، بل ظل على صلة ما بالسادات، وإن ساءت

العلاقة مع السادات بالتدريج، حتى اعتقل فى نهاية أيام السادات مع غيره ممن اعتقلوا، فيما اشتهر «بمذبحة سبتمبر»..

وبعد أن غادر هيكل «الاهرام» فكرت أنا أيضا أن أؤلف كتبا.. أو على الأقل أن أرصد فى صيغة كتاب ما أحسست بأنه توجهات السياسة المصرية فى أعقاب حرب أكتوبر.واستشففت هذه التوجهات من المناقشات وراء أبواب مغلقة التى دارت طوال سنوات بمركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام .. وفى مائة يوم ، ألفت كتابا طلبت من هيكل أن يساعدنى فى وضع عنوان له .. وأذكر كيف صاغ هيكل العنوان بعد التفكير برهة، على صفحة بيضاء : «بعد أن تسكت المدافع» .. كان له هو الفضل فى صياغة العنوان بالعربية ، كما كان لزوجتى الفضل فى صياغة العنوان بالإنجليزية .. وكان للعنوان فضل كبير فى بلورة دلالة الكتاب ومحتوياته ربما أكثر من أى شىء آخر ..

قدر من الإلتباس

وقد تقلص دورى بالتدريج فى «الأهرام» بعد خروج هيكل منه .. كان كتابى قد أشهرنى عالميا فى وقت كان «الأهرام» يهمشنى تدريجيا .. وفى ذاك الوقت أسست المنابر فالأحزاب .. وكان وضعى الشخصى يحيطه قدر غير قليل من الإلتباس .. فبسبب كتابى ، لم أكن من مؤسسى حزب التجمع رغم أننى قد صعدت ، فيما بعد ، إلى الأمانة العامة، ثم إلى موقع عضو الأمانة المركزية المسئول عن خط التجمع السياسى بعد رحيل د. فؤاد مرسى .. وأصبح ما أكتبه فى «الأهالى» وللحزب، أكثر أهمية لى مما أتيحت لى فرصة كتابته «للأهرام» .. وبوجه عام ، أخذت الأوضاع تزدادترديا فى صفوف المعارضة بمختلف تشكيلاتها حتى جاءت أزمة سبتمبر ١٩٨٠ .. وقد شملت الاعتقالات هيكل .. وأذكر عندما اعتقل كم كان موضع مساندة كثيرين خارج مصر على الصعيد العالمى ..

لقد تواجدت أنا ولطفى الخولى خارج مصر فى ذاك الوقت .. وأذكر إحساسى بالغربة فى باريس وقد استطعت بمعجزة أن أغادر مصر إليها قبل أن يشملنى الاعتقال ، وأقول لنفسى فى برنامج تليفزيونى سئلت فيه ، أن كل من أعرفه فى مصر رهن الاعتقال حاليا .. إن نخب مصر كلها فى المعتقل .. والغريب هو من لا يشمله الاعتقال ، لا العكس ..

وأذكر ذات يوم أن محطة ABC الأمريكية خصصت بقرار من بيير سالنجر ، مدير برامجها فى أوروبا ، والسكرتير الصحفى لجون كنيدى فيما قبل ، برنامجا كاملا عن المعتقلين فى مصر ، وعن شخص هيكل .. لقد أراد سالنجر البرنامج

مساندة لهيكل بالذات .. وكان من المفروض أن أتولى دوراً مهما فى هذا البرنامج ، ولكن شاءت الظروف أنه كان علىّ أن انتقل إلى لندن ثم تعذر ذلك ، وتولى لطفى البرنامج .. ووقع صدام حاد بينه وبين المسئول وقتذاك عن الاستعلامات فى مصر ، شافعي عبد الحميد .. ولم يفرج عن هيكل إلا عقب اغتيال السادات ، ضمن الدفعة الأولى ممن أطلق سراحهم بعد وقت وجيز من تولى مبارك الحكم ..

وقد ظلت علاقتي وطيدة مع هيكل، ربما بالذات فى السنوات التى لم تعد تربطنا علاقة عمل . ومع ذلك فثمة بذرة التباس قد لاحقتنا عبر السنوات .. إذ أن أعظم أيام هيكل هي الأيام التى بلغ فيها مجد عبد الناصر الذروة .. ومرجعيته فى تقدير أى حدث ، أن ينظر إليه من منظور الوقوف إلى جانب عبد الناصر .. ذلك بينما كنت أنا صاحب تجربة مختلفة ، وصاحب كتاب «بعد أن تسكت المدافع» الذى كان ينطوى على رؤية مختلفة عن تلك التى كان يدعو لها هيكل ..

وقد مرت السنوات ، بدأت أشعر بأن كثيرا مما أفعله لا يمكن أن يكون موضع رضا هيكل .. كنت أجد نفسى ، مثلا ، ألتقى باسرائيليين فى مناسبات مختلفة خارج مصر .. وبصفتى صاحب كتاب «بعد أن تسكت المدافع» ، لم يكن يستقيم أن أرفض هذه اللقاءات ابتداء .. وهكذا نمت ظاهرة كوبنهاجن .. وأظهر هيكل ضيقا شديدا لتوجهى هذا .. وربما وجدت نفسى ، حيال قضية كوبنهاجن، فى موقع مماثل لما جرى بشأن التنظيم الطليعى .. أحسست بأننى أتجه اتجاها تباعدت فيه عن هيكل .. ولم يكن بوسعى أن أفاتحه فى كل ما أفعله .. ولم يكن فى اختلافى مع من واصلوا هذا الخط ما أشعره بأنى قد صححت موقفى وتخليت عن الطريق الذى سبق وسلكته .. وأذكر مناسبة جرت لى فيها شبه محاكمة من قبل أصدقاء له ولى حول دعوتى إلى ما أسميته «ترحيل التناقضات إلى داخل إسرائيل ، والمراهنة على أوجه التمييز فى صفوف الخصم» .. وقال هيكل : «هل يعقل أن يكون موقفك سليما وأعز أصدقائك كلهم ضدك؟» .. وكانت إجابتى «أن مثل هذا الكلام يقال بعد نهاية المناقشة وليس قبل بدئها !» .. وفى النهاية ، لم أذهب فيما يتعلق كوبنهاجن إلى نهاية المطاف .. وإن كان هناك درس يتعين استخلاصه . وإن كان هناك شيء أنا مدين لهيكل به ، هو أن أحرص دائما على المصارحة والمكاشفة معه .. فلقد نشأت بيننا عبر سنوات العمر صداقة حميمة هى عرضة لطعنات غير محتملة لو غابت عنها الاستقامة والشفافية ..



كل الصحافة تفخر

شعر : عبد السلام شهاب

فى عام ١٩٦٢ ، رأى محررو «الأهرام» أن يحتفلوا بمناسبة مرور عشرين عاما على اشتغال رئيس تحريرهم المرموق محمد حسنين هيكل بالصحافة . وكان الاحتفال تعبيرا فى حد ذاته عن تقدير أسرة التحرير لـ «الأستاذ هيكل» واعتزازها برئاسته .

أقيم الاحتفال فى «شقة» تقع بالقرب من ميدان التحرير ، فى أول شارع شمبليون ، كان هيكل قد استأجرها باسم «الأهرام» لتكون ناديا لأسرة التحرير التى كانت محدودة العدد - نسبيا - فى ذلك الوقت .

وفى الاحتفال ، ألقى المرحوم الأستاذ عبد السلام شهاب الشاعر المعروف ، والذى كان يعمل مراجعا بـ «الأهرام» ، قصيدة من الشعر «الحلمنتيشى» - الذى أبرز فيه - تحية لرئيس التحرير المحتفى به .. وجعل عنوانها «هيكل .. زميلاً» :

هيكل .. زميلا

عشرون عاماً ، وأكثر   وليس عقلي دفترْ
لكنني ... مع هذا   لمّا أزل .. أتذكَّر
أيام روزا .. وروزا   مجلة .. تتعثر
بقدرة الله .. تظهر   في وقتها .. وتُحرَّر
ولا محرر فيها   على التحارير يؤجر
وأول الشهر يبدو   من آخر الشهر .. أوخر
لا تارك الصوم أفطر   ولا اللى صام تسحَّر
وللمجلة .... دار   كأنما هى أزهر
لها سلالم عاشت   عصور كسرى وقيصر
وفي الدهاليز منها ..   للجمع والطبع .. عنْبر
لها مدير كبير   لكنه ليس يظهر
وكلها .... حجرات   بها المكاتب تنثر
وكلّ من هم عليها   شخصان ... بس ، تصوَّر !
رخا .. الذي يتكرْتر   أمام عيني .. مُقَنْبَرْ
وفي يديه .. رسوم   تجرى وتلهو وتسخر
وكلما .. بان رسم   غنّى انسجاما وصفر
وصِحْت ، من فرط غُلْبي   الله .. الله أكبر
وبين حين وحين   صوت التليفون يجعر
وتُصدر .. الست روزا   أمراً بما سوف يُنشر
لكاتبين ... كرام   لهم مكان ومظهر
من صنف بيك . وباشا   وطالع فى المقدَّر
وأصدقاء .. قدامى   أولاد فنّ تنكَّر
يسطرون .. فنونا   من الكلام المُبَسْتَر

كأنما .. أنشأوه ... على طريقة «شرشر»
ومخبرين .. لديهم ... علمٌ بما الغيب أضمر
يخبَرون ... بما .. لا ... يكون .. أو .. يُتصوّر
أرسين لوبين .. طظ ... فيه لديهم .. وكارتر
وتصدر الست أمرا ... للباشمهندس يَحْضَر
والباشمهندس يعدو ... مهرولاً قد تشمّر
زئيره .. يتعالى ... كأى سبع غضنفر
فلا تقل لى : عنتر ... ولا تقل لى : هتلر
والماكينات تدور ... ونحن نشقى ونسهر
وللرقابة عين ... ترى الأمور بمجهر
حتى إذا الصبح أسفرْ ... والليل ولّى وأدبر
وقيل : قد طبعوها ... طبٌ البوليس الموّقر
وقيل : قد صادروها ... فأصبحت وهى «محضر»
ولم يطل حدّ مِنّا ... حتى ولا .. ما تيسّر
وضاع أسبوع شَغْلٍ ... وضاع أقلام باركر
وفجأة .. جدّ شيء ... والشيء بالشيء يذكر
وحل بالدار .. عهد ... غير الذى هو أغبر
وكل شيء .. تطوّر ... بحكمة .. وتحوّر
وللمجلة .. أضحى ... قدر عظيم ومنظر
وبالمكاسب فاضت ... حتى قبضنا المؤخر
وأصبح الشغل يمشى ... قدّامنا يتبختر
وكان هذا .. لسر ... كالسحر ، يُروَى ، ويُؤثر
قد حلّ فيها زميل ... من خير أبناء عَبْقَر
فتى ، طروب المحيا ... كالنيل ، أسمر أحمر
يطل من ناظريه ... فكرٌ ذكى .. مصوّر

بمثله .. صحفيًا | كل الصحافة تفخر
أسلوبه ، وهو نثر | من أعذب الشعر أشعر
يحلو إذا ما تكرر | ككلّ شهد مكرّر
وفيه صدق ، وعمق | وبالحقائق يجهر
يفيض علماً ، وفنا | ونكتة لا تقدر
فالكاتبون .. جميعا | يصغون إن هو حرر
والمخبرون .. عيال | عليه .. أن هو أخبر
وفى السياسة .. أدهى | من أي نمس ، وأمكر
وفى السياحة .. أمضى | من جاجرين .. وأمهر
تراه فى مصر لَيْلاً | والصبح فى مدغشقر
والظهر فى نيويورك | والعصر فى مانشستر
وفى المعارك أعلى | رأياً ، وأقوى وأقدر
له يراع عجيب | يهز أقوى معسكر
وكم له .. حملات | منها عروش تدمر
فذاك صاحب عرش | بذقنه قام زمّر
وذاك أهيف منه | فى عرشه قد تسمّر
ولا أحاول وصفا | قد كان غيرى أشطر
وكلنا .. قد عرفنا | هذا الزميل الموقر
مازال «هيكل» يبدو | أبهي كثيرا وأبهر
وها هو اليوم فينا | ما بيننا قد تصدّر
شبابه ليس يبلى | بالدهر لا يتأثر
وكلما زاد عمرا | نراه فى العمر اصغر
وكل عام وأنتم | كما اشتهيتم وأكثر



هيكل رئيساً لـ«الأهرام»

بقلم : محمود أحمد

ذات يوم، فى مطلع الستينات، سمعت هذه الملاحظة من الأستاذ محمد حسنين هيكل وأعتبرتها ذات دلالة، ربما لأنها تلقى ضوءا على جانب من شخصيته المسيطرة . قال إنه لا يحب الشخص الذى لا يضر ولاينفع.. فالذى «يضر» قد يكون - فى رأيه - أفضل، لأن التعامل معه يكون أيسر وأوضح .

ولكنى لا أذكر المناسبة التى استمعت فيها إلى هذه الملاحظة وسط جمع من الزملاء الذين يتحدث إليهم رئيس تحرير «الأهرام» بين وقت وآخر. ولكن كلماته ظلت باقية فى أعماق الذاكرة.. كغيرها من ملاحظات و«دروس» كنا - نحن مجموعة المحررين الشباب فى ذلك الوقت - نتلقفها من رئيس التحرير الذى كان شابا هو أيضا، والذى كان يحظى بقدر كبير من احترامنا وتقديرنا. فلم يكن محمد حسنين هيكل مجرد رئيس تحرير عادى، وإنما كان صحفيا متميزا بكل المقاييس، ومهنيا من الطراز الأول، فضلا عما كان يتمتع به من شخصية قوية وآسرة .

لم يكن «الأستاذ هيكل» يكبرنا فى السن كثيرا، وربما لم تفصله عن معظمنا سوى عشرة أو خمسة عشر عاما، ولكنه ظل مع ذلك يحتل منا موقع الأستاذ من تلاميذه الذين ينتظرون منه «الدروس» مع ما يصدر عنه من توجيهات وما يعهد إليهم به من مهام. وهكذا، فإننى على مدى عشر سنوات عملت خلالها فى «الأهرام» - من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٨ - تعلمت الكثير من هيكل، وتحققت لى فوائد مهنية من الاحتكاك به ربما لم أقدرها حق قدرها إلا فيما بعد .



هيكل وسط محررى الأهرام

أول وأهم الدروس المهنيـــة التى تعلمتها من هيكل، هو الحرص على أهمية وقدسية المعلومة الصادقة، وكانت «توجيهاته» فى هذا الشأن واضحة ومباشرة بمناسبة لقاء علنى مع ستة من زملائى فى قسم الأخبار . قال هيكل :

أنا لن أهتم إذا أهمل أحـــدكم فلم يجلب للصحيفة الأخبار التى يعهد إليه بمتابعتها. فهو فى هذه الحالة، يخسر نفسه فقط، لأنه سيدمغ بالخمول المهنى. أما إذا جاء بخبر واحد فيجب أن يكون صادقا تماما .. لأنه اذا جاء بخبر كاذب، فإنه يسبب ضررا لـ «الأهرام»، وهذا ما لن أسمح به .

كان هيكل يعبر بذلك عن اتجاه أو «مدرسة» فى الصحـافة، تتناقض مع اتجاهات ومدارس كانت شائعة وقتها تعتمد على الإثارة فى نشر الأخبار حتى لو تبين فيما بعد عدم صدقها .

أيضا، لم يكن هيكل يرضى بالتغطية السطحية أو المنقوصة. وكثيرا ما كان يعيد خبرا أو تحقيقا أو موضوعا صحفيا إلى صاحبه، لأنه وجده غير مستكمل العناصر. ولم يكن يكتفى فى ذلك بالتوجيهات التى يصدرها من مكتبه، وإنما كان يقود بنفسه فريق العمل إذا كان هناك حدث يستحق التغطية الشاملة. رأيت ذلك منه فى أحداث لا أنساها، منها حادث غرق الباخرة النيلية «دندرة» حيث

وجدت هيكل يجلس على وحل شاطىء النيل، يراقب عملية انتشال جثث الغرقى ويشرف بنفسه على «تكليفات» المحررين ليضمن أفضل تغطية للحدث. وفى النهاية عبر عن رضاه بمنح كل من تميز فى العمل هدية كانت عبارة عن قلم حبر «شيفرز» أسود ومعه بطاقة منه شخصيا تحمل توقيعه «مع خالص تقديرى ومودتى». وأظن أن كل من حصل على هذا «التذكار» الثمين لا يزال يحتفظ به .

وفى مناسبة أخرى، رأيت كيف قاد هيكل - باقتدار - فريق «الأهرام» الذى كُلف بمتابعة حادث اغتيال الرئيس الأمريكى الأسبق جون كنيدى، وكيف حققت قيادته للفريق تميزا فى التغطية لمسه كل قراء «الأهرام».

تجربتى مع هيكل والسادات

والأمثلة كثيرة، أستطيع أن أسوق العديد منها، كما أن من بين زملائى وأبناء جيلى من يمكنه أن يتذكر ماهو أكثر دلالة. ولكنى أستطيع أن أتوقف عند تجربة «شخصية» مع هيكل، كانت بالغة الأهمية فى حياتى المهنية، وهى تتعلق بموقف لا ينسى.. خاصة وأنه اتصل بطرف ثالث . كان هو الرئيس الراحل أنور السادات .

ففى أوائل عام ١٩٦٧، وكنت قد تخصصت فى العمل البرلمانى، وقعت «مصادمة» بسبب العمل بينى وبين السادات الذى كان وقتها رئيسا لـ «مجلس الأمة». كان هيكل قد وافق - بعد طول إلحاح - على أن يخصص لى صفحة أسبوعية أسجل فيها تعليقات وملاحظات على العمل البرلمانى من واقع متابعتى له. وبالطبع ، كان لابد وأن يحمل ماأكتب، من حين لآخر، انتقادات لأداء مجلس الأمة حرصت على أن تظل فى إطار الموضوعية اتساقا مع طابع وروح المادة التحريرية للأهرام. ولكن السادات اعتبر بعض ما كتب تجاوزا لا يمكن السكوت عنه وهكذا أصدر قرارا بمنعى من دخول المجلس وحضور الجلسات أو متابعة أعمال اللجان .

كانت تربطنى علاقة صداقة أعتز بها بالأستاذ محمد عبدالسلام الزيات الذى كان أمينا عاما لمجلس الأمة فى ذلك الوقت (وقد عينه السادات نائبا لرئيس الوزراء عندما أصبح رئيسا للجمهورية ثم عزله بعد وقت قصير). ووجدت الزيات يتصل بى ليطلب إلى فى رفق ومودة، ألا أبالغ فى رد الفعل وأن أترك له فرصة ليعالج الموضوع بهدوء. ثم أتبع ذلك بأن مر على فى «الأهرام» واصطحبنى إلى محل «لاباس» فى شارع قصر النيل

القريب من مبنى الأهرام القديم فى شارع مظلوم. وكرر الأستاذ الزيات طلبه، ملحا على أنه من الأفضل عدم إبلاغ الأستاذ هيكل بالموضوع حتى لا نصعد المشكلة. ولكننى اعتذرت، مشيرا إلى أن قرار السادات يعطل قدرتى على العمل، الأمر الذى يحتم علىّ أن أفسره لرئيس التحرير. وفى صباح اليوم التالى - وكنت قد علمت بصورة ما أن السادات لم يتراجع عن قراره - توجهت إلى مكتب رئيس التحرير لكى أبلغه بما جرى .

ارتسمت على وجه هيكل أمارات الدهشة المشوبة بالاستنكار. قال : نعم؟! منعك من دخول المجلس؟ طيب! اترك لى هذا الأمر.

ولكن مشاغله حالت بينه وبين متابعة الموضوع. وبقيت أنا أنتظر إلى أن حل موعد انعقاد الجلسة التالية للمجلس، فذهبت من جديد إلى مكتب رئيس التحرير لأعرف مايتعين على أن أفعله . قال هيكل: نسيت! ثم طلب من سكرتيرته الزميلة المرحومة نوال المحلاوى أن تطلب له أنور السادات. وبقيت أنا واقفا أستمع إلى الحوار التليفونى بين الشخصيتين اللتين ظلت تربطهما إلى النهاية علاقة شائكة وملتبسة .

قال هيكل إنه مندهش كيف يُمنع محرر «الأهرام» من دخول مجلس الأمة وهو مكلف بمتابعة العمل البرلمانى وتغطيته. ورد السادات بشيء ما.. فعاد هيكل يقول بشيء من نفاد الصبر : قل لى .. إننى أرسلت محررا لكى يقوم بعمل معين، وهو يتعرض لضرر يقع عليه بسبب قيامه بهذا العمل. فماذا تتوقع منى أن أفعل إزاء ذلك؟ وتوقف برهة ليستمع إلى رد السادات، ثم عاد يقول : لا .. أنا لا أهددك! ولكن ضع نفسك مكانى.. كيف تتوقع منى أن أتصرف؟ وأخيرا سمعته يتمتم بما يعنى أن اتفاقا قد تم التوصل إليه بتراجع السادات عن قراره بمنعى من دخول المجلس . وقد كانت لهذا الموقف تداعيات. بينى وبين الرئيس السادات، ولكنها بعيدة عن هذا السياق .

وفى مناسبة أخرى ، ربما تكون سابقة على هذه الواقعة، سمعت من هيكل ملاحظة اعتبرت أنها تشى - على نحو ما - بنظرته إلى أنور السادات. لا أذكر المناسبة. ولكنى أذكر أننى التقيت به وهو فى طريقه إلى الاجتماع المسائى اليومى الذى يتقرر فيه الشكل النهائى للمادة التحريرية.. فاستوقفنى ليسألنى عن بعض الأعمال العادية فى مجلس الأمة. ثم فوجئت به يعلق فيما يشبه السخرية قائلا: «عاوز إيه السادات والمجلس بتاعه..

ياشيخ! روحوا اقفلوه!».

صعوبة العمل مع «هيكل»

ولم تكن هذه - بالطبع - هى التجربة الوحيدة لى مع «الأستاذ هيكل» ولكنى اخترتها لدلالتها وأهميتها بالنسبة لى على الأقل. ومع ذلك، فإن التعامل مع هيكل كرئيس للتحرير لم يكن سهلا على المحررين الذين عملوا تحت رئاسته. بل إن العكس هو الصحيح.. فقد كان هيكل، فضلا عن قدراته المهنية العالية التى تجعله نموذجا يصعب إدراكه، من أبرز الصحفيين فى مصر على مدى حقب متتابعة، كانت «اتصالاته» رفيعة المستوى تمكنه من الحصول على المعلومات والأخبار، من مصادر صنع القرار التى يستحيل على الصحفى العادى الوصول إليها. وكثيرا ما كنت أحصل على أخبار عالية المستوى، وأقدمها معتزا بحصولى عليها، ولكنى أفاجأ بأن هناك «تفصيلة ما» قد طرأت بعد حصولى على الخبر.. وأن «الأستاذ هيكل» - الذى يعرف هذا كله بحذافيره - قد أضاف إلى ما كتبت أو حذف منه ما يجعله أكثر دقة ومطابقة للواقع.

أذكر أننى حصلت، أثناء إعداد مسودة الدستور الدائم فى الستينات، على خبر مؤداه أن هناك اتجاها لتعيين عدد من أعضاء مجلس الأمة، إلى جانب المنتخبين، لتعويض الكفاءات فى بعض المجالات وضمان تمثيل فئات بعينها، وكان الاتجاه، حسب ما علمته من مصادرى، هو أن يكون التعيين فى حدود عشرة فى المائة من مجموع النواب وفرحت بالخبر، وسارعت إلى تقديمه، ولكننى علمت - بحسرة - أن الأستاذ هيكل قرأ ما كتبت بفتور ثم علق قائلا: مادام الخبر قد عرف، فلنكتبه بشكله الصحيح. وعلمت فيما بعد أنه عندما عرض الأمر على الرئيس الراحل جمال عبدالناصر فإنه رأى، رغم إعجابه بالمبدأ وموافقته عليه، أن عشرة فى المائة ستكون نسبة كبيرة.. ولذلك فإنه عمد إلى شطب عبارة «فى المائة» فاقتصر المبدأ على تعيين «عشرة» أعضاء فقط. وبقيت عدة أيام أتلفت إلى زملائى متسائلا فى حيرة «.. وكيف كان لى أن أعرف أو أن أطلع على هذا التغيير؟» وحده كان هيكل القادر على ذلك، وهذا ما أقصده من القول إن العمل معه لم يكن سهلا، بل إنه كان - فى الحقيقة - مرهقا!

الحفر فى الصخر

كذلك، لم يكن «الأستاذ هيكل» - رغم رعايته وحمايته لمن يعملون معه - يميل إلى الاستجابة لمن يطلب إليه منهم أن

يساعده مهنيا أو يمهد له الطريق .

وكان يقول فى ذلك إنه ليس «مرضعة أو حاضنة أطفال»، كما كان يحلو له أن يكرر أمام مستمعيه الصعاب التى واجهها فى بداية حياته منذ أن عمل محرر أخبار فنية فى «روز اليوسف» ، وحتى أصبح نائبا لرئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» وهو لا يزال فى السادسة والعشرين من عمره، مرورا بالتجارب الصحفية التى مر بها والتغطيات المتميزة له فى حرب فلسطين وفى الحرب الكورية وثورة مصدق فى إيران.. وغيرها وعادة ما كان يختم حديثه بالقول إن على من اختار العمل الصحفى أن يشق طريقه بنفسه ولو اقتضى ذلك أن يحفره فى الصخر .

اجتمعت انا واثنان من أبناء جيلى فى «الأهرام» ذات يوم فى مطلع الستينات - الزميلين مكرم محمد أحمد وإحسان بكر - واستقر رأينا على أن نطلب مقابلة مع الأستاذ هيكل من أجل هدف محدد : أن يطلب منه توفير «فرص» لنا تتيح لنا أن نظهر قدراتنا - التى كان يسلم بها الجميع فى «الأهرام» وتساعدنا على التقدم مهنيا بوتيرة أسرع. ولكن الاجتماع جاء على عكس ما توقعنا، فقد شن هيكل علينا هجوما كاسحا، مركزا على «نقاط ضعف» وهمية فى عملنا .. وطالبنا، كالمعتاد، بأن نشرع أظافرنا لكى تظهر «خدوشنا» على صفحات «الأهرام»،



فهذا هو السبيل الوحيد للتقدم الذى ننشده. وخرجنا من اجتماعنا معه كاسفى البال، خاصة ونحن نعلم أن هناك من زملائنا من حصل على فرص مهنية ثمينة.. حتى دون أن يطلبها، ولكن الإنصاف يتطلب أن أذكر أن تلك كانت استثناءات، بعضها مفهوم ومبرر، وبعضها غير مفهوم. غير أن القاعدة الأساسية ظلت كما أرادها هيكل باستمرار : أن العمل هو طريق التقدم، وكان يحرص على أن يضع لذلك المعايير ويطبقها .

وهكذا، فقد ظل محمد حسنين هيكل قائد فريق يندر أن تجود بمثله الصحافة المصرية، واستطاع أن يعزز مكانة «الأهرام» على مدى السنوات التى رأس فيها تحرير الصحيفة العريقة وأن يجعل لها سمعة عالمية لاتنكر .

أما بالنسبة لمن عملوا معه ، فقد ظل دائما رئيسا يحظى بالاحترام والتقدير، وأستاذا يتقدم الجميع وقدوة فرضت على جيل بأكمله نموذجا جديرا بأن يتطلع إليه ويحاول الوصول إلى الذروة التى بلغها .

وهو اليوم لا يزال كذلك .

أحوال مصر فى أوائل القرن العشرين

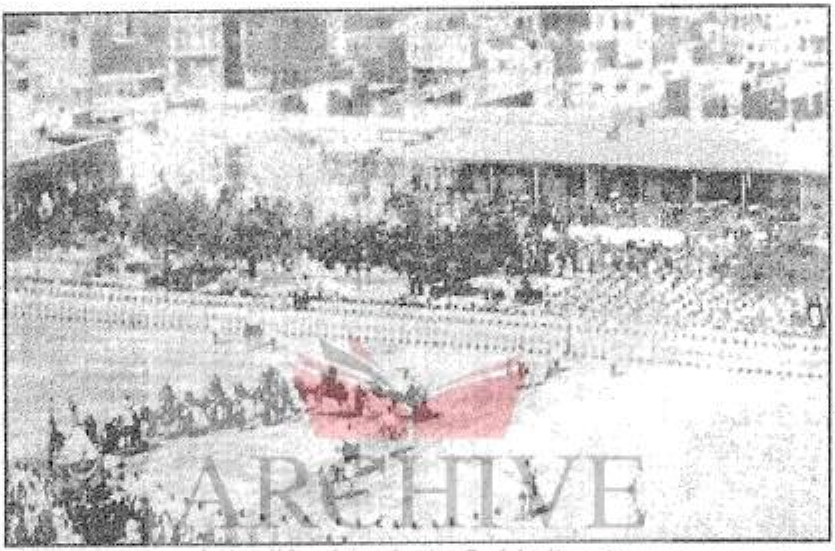
مظاهر الحياة الإجتماعية

بقلم : د . فتحى صالح*

شهدت بداية القرن العشرين تغييرات جذرية فى استحداث العديد من التكنولوجيات الجديدة على البشرية ، مثل اكتشاف التيار الكهربائى واكتشاف التليفون والتلغراف وبداية صناعة السيارات والطائرات وكذلك صناعة السينما ، ولكن كل هذه التكنولوجيات الجديدة لم تتبلور فى الاستخدام إلا بعد مرور عدة عقود ، ولذا كان مظهر الحياة الإجتماعية فى أوائل القرن مختلفة كثيرا عن منتصفه . فى حين لم تختلف هذه المظاهر من منتصف القرن إلى نهايته . ففى أوائل القرن لم تكن هناك سيارات تجرى فى الشوارع فى حين فى منتصف القرن كانت الشوارع ممتلئة بالسيارات وفى نهاية القرن كان بها سيارات أحدث وأقوى ، وفى بداية القرن لم تكن هناك دور عرض سينمائية فى حين فى منتصف القرن كانت دور السينما منتشرة فى كل مكان ولم يتغير الحال كثيرا فى نهاية القرن . وفى هذا المقال نقوم باستعراض بعض مظاهر الحياة اليومية فى مصر فى أوائل القرن العشرين من خلال بعض صور الكارت بوستال التى تم نشرها عن هذه الفترة والتى تم الحديث

* مدير مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي

عنها فى مقال سابق تحت عنوان «أحوال مصر فى أوائل القرن العشرين» - (الهلال عدد يونيو ٢٠٠٠) حيث نجوب معا فى مظاهر الحياة اليومية المختلفة من الاحتفالات الشعبية إلي عناصر المجتمع من بائعين ووسائل نقل إلى الحياة الإجتماعية بما فيها الاحتفالات والمقاهى والتعليم وخلافه .



الاحتفالات الشعبية

هناك العديد من الاحتفالات الشعبية التي كان لها وجود قوى فى أوائل القرن العشرين ثم اختفت أو تضاءلت مع الوقت . من هذه الاحتفالات ، احتفال «المحمل» أو «الكسوة الشريفة» حيث كانت تقوم مصر فى كل عام بتصنيع كسوة جديدة للكعبة الشريفة وتقوم باهدائها للمملكة العربية السعودية . وعند الانتهاء من تصنيع هذه الكسوة يتم إقامة احتفال كبير فى القاهرة يتقدمه عرض عسكرى ويطوف الأحياء المختلفة ويحتوى على عدد من الجمال تحمل الكسوة الشريفة وهدايا أخرى . وبعد الانتهاء من احتفالات القاهرة تبدأ رحلة قافلة الجمال فى حراسة كتيبة من قوات الجيش عبر الصحراء الشرقية لتعبر قناة السويس ومنها إلى سيناء ثم إلى فلسطين ومنها إلى أراضى المملكة العربية السعودية حيث تقطعها

من الشمال إلى وسط الحجاز لتصل إلى مكة المكرمة في بداية موسم الحج فيقام لها احتفال خاص ويتم تركيبها بالكعبة المشرفة . وتزخر مجموعتنا من الكروت بوستال بالعديد من الصور لهذه الاحتفالات ابتداء من العروض العسكرية فى الميادين المختلفة إلى قافلة الجمال المحملة بالهودج المزوق إلى مناظر عبور القافلة لقناة السويس . وهكذا . والصورة التى تم اختيارها هنا هى للعرض العسكرى المصاحب للمحمل .



سحر الشرق

ظل الشرق يمثل للمجتمع الغربى خيالا ساحرا خاصة بعد أن زاره وعاش فيه مجموعة من الفنانين التشكيليين وصوروا مجتمعه بطريقة سحرية خلابة وخاصة الرسام الكبير دى لاكروا الذى عاش فترة فى شمال افريقيا، وأبدع فى رسم مجتمع السيدات فى هذه المنطقة أعطت إنطباعا راسخا عن سحر الشرق فى ذهن المجتمع الغربى . وها هى ذى مجموعة الكروت بوستال التى تم نشرها فى أوائل القرن تعطى مجموعة من الصور للسيدات المصريات فى ذلك العصر تعكس مرة ثانية هذا السحر بالشرق. وقد اخترنا هنا هذه الصورة لمجموعة من السيدات فى ملابس شرقية وفى تجمع يعطى نفس ايحاء لوحات دى لاكروا .



بائع العرقسوس

أصبح بائع العرقسوس ذكرى تكاد لا نجدها إلا قليلا خاصة بعد انتشار الثقافة الغربية وما تحمله من زجاجات الكوكاكولا والسفن أب والعصائر المعلبة . ولنا أن نتخيل أنه منذ حوالى ستين عاما لم تكن هذه المشروبات موجودة وعلى ذلك فلنا أن نتخيل على الفور البديل القائم في هذه الفترة من أوائل القرن العشرين وهو بائع العرقسوس أو المنتجات الأخرى المثلجة ، والتى كان انتشارها في كل الأحياء حيث كان يحمل الصاجات في يديه ليصدر أصواتا تدل على وجوده في الحى حتى تهرع الناس إليه لتروى عطشها . وبائعو العرقسوس الموجودون فى الصورة المنشورة يحملون دورقين أحدهما يحمل العرقسوس ويعلوه لوح من الثلج وربما يحمل الآخر أحد المشروبات الساخنة مثل الشاى أو القهوة .

الكتاب أو التعليم الأساسى

ظاهرة الكتاتيب كان لها وجود قوى فى بداية القرن العشرين حيث كان هناك تعليم متواز بين هذا النظام وبين مدارس رياض الأطفال للطبقات العليا من المجتمع، ونظام الكتاب هو نظام تعليمي بسيط ومنتشر ويشبه لما يسمى في عصرنا الحالى بنظام الفصل الواحد . ويعتمد الكتاب أساسا على العلاقة الوثيقة بين الشيخ والتلاميذ حيث يلتف التلاميذ فى أغلب الأحيان على شكل حلقة (تشبه حلقة الذكر) ويكون الشيخ أو الأستاذ في طرف منها ويعتمد

التدريس فيها على قوة التلقين حيث يقوم الشيخ بتلقين تلاميذه أسس العلوم المختلفة وخاصة علوم الدين . وهى طريقة فى التدريس ، عندما فقدناها ، فإننا فقدنا القدرة على الحفظ والقدرة على نشر التعليم الأساسى فى القرى والنجوع والقدرة على إيجاد العلاقة الوثيقة بين الملقى والمتلقى والصورة المنشورة هنا تعكس صورة حقيقية لكُتّاب فى أوائل القرن .



المزارات السياحية

فى الأونة القديمة لم تكن الطرق ممهدة بالقدر الكافى لزيارة الأماكن السياحية النائية مثل وادى الملوك ومعبد حتشبسوت وخلافه فلم تكن السيارات قد انتشرت بعد . وكذلك لم تكن بعض الطرق معبدة بالقدر الكافى لمرور المركبات التى تجرها الخيل لذا كان البديل لهذه المركبات هو صنع محفات خشبية على شكل مقعد يحملها أربعة رجال، ويجلس عليها الزوار من الأجانب حيث تحملهم إلى المزارات المختلفة . والصورة المرفقة والمطبوعة على كارت بوستال من ذلك العصر تبين مجموعة من السياح يحملهم مجموعة من الرجال على محفات خشبية لزيارة بعض المواقع الأثرية بمنطقة الكرنك .





«السقايين»

فى حين تنعم المناطق الحضرية بصفة عامة فى مصر فى الوقت الحاضر بشبكة المياه الحلوة التى تصل إلى جميع المنازل وإلى جميع الأدوار ، فإن الوضع كان مختلفا فى أوائل

القرن العشرين حيث كانت مناطق عديدة تفتقر إلى مياه الشرب الجارية . لذا كانت وسيلة الحصول على المياه إما عن طريق الحنفيات العمومية المنتشرة فى الأحياء المختلفة أو عن طريق «السقايين» الذين يجوبون الأحياء «بقرب» مصنوعة عادة من جلد الحيوانات، ويقوم «السقا» بتوزيع مياه الشرب على المنازل نظير مبلغ من المال . وهو ربما ما يقابل ما يتم الآن من بيع المياه المعدنية والطبيعية معبأة فى زجاجات بلاستيك . والكارت بوستال المختار هنا يمثل مجموعة من السقايين بعد أن قاموا بملء قربهم من النيل لتوصيل المياه إلى المنازل .

الرقص الشرقى

ربما كان الرقص الشرقى هو الفن الذى عاش تقريبا بنفس النهج على مر العصور . فنجد أن بعض الحركات التى تمارس فى الرقص الشرقى حتى اليوم موجودة تقريبا كما هى على رسومات بعض الجدران ببعض المقابر التى بها مشاهد الحياة اليومية عند قدماء المصريين . ولذا فإننا نجد أن مشهد الرقص الشرقى فى كتاب وصف مصر الذى أنتجته الحملة الفرنسية منذ مائتين عام هو تقريبا نفس المشهد التى نجده فى صور بداية القرن العشرين ولا نجد فيه اختلافا كثيرا عما نشاهده فى مشاهد الرقص الشرقى اليوم . وواضح من الصور والكروت بوستال التى تم العصور عليها فى أوائل القرن العشرين، أنه كان هناك ملهى شهير تقدم به الرقصات الشرقية بكثرة وهو «ملهى الدورادو» . وأما الصورة التى اخترناها من هذه الفترة ، فإنها لراقصة شابة رشيقة ترتدى ملابس رقص يحتار المرء فيها إن كانت هذه لراقصة من أوائل القرن أم لفتاة عادية تسهر فى شوارع باريس اليوم . وذلك سواء من حيث الموديل أو من حيث نوع القماش أو من حيث الألوان المستخدمة .

السايس

تطلق كلمة «السايس» اليوم على بعض العاملين الذين يقومون بحراسة السيارات والمعاونة فى ركن هذه السيارات سواء بالطريق العام أو بالجراجات . ولكن أصل هذه الصنعة يرجع للقرون الماضية قبل اختراع السيارات عندما كانت هناك العربات أو الكارتات التى تجرها الخيول وخاصة التى تتبع البلاط الملكى ، حيث كانت هذه الكارتات تقوم بجرها خيول مسومة ومزينة بطرق متعددة وكان يجرى أمام هذه المركبة والخيول إثنان أو أكثر من الرجال يرتدون زيا خاصا مكونا من سروال وصديرية مزركشة وعلى رأسه ما يشبه الطربوش المستعمل فى قبائل الصحراء الغربية حاليا . ويحمل فى يده عصا طويلة . وكل ذلك يمثل جزءا من الموكب الملكى أو الأميرى . وقد وجدنا صورة هؤلاء السياس مسجلة على العديد من الكروت بوستال التى تم الحصول عليها من ذلك العصر والصورة المختارة لاثنين هؤلاء السياس يسيرون أمام إحدى المركبات التى تجرها الخيل .





العربات الكارو

ربما كانت العربات الكارو هي الوسيلة الرئيسية لنقل المواطنين داخل البلاد إلى أن حلت محلها قبل منتصف القرن وسائل المواصلات العامة مثل الأوتوبيسات والتاكسيات وخلافه، ولذا كان كثرة وجود هذه العربات الكارو العامة بجانب الكاريتات الخاصة هي الوسائل السائدة المنتشرة في ذلك الوقت ، وبالرغم من تقدم وسائل المواصلات في أواخر القرن العشرين حتى وصل إلى العديد من السيارات بجميع أنواعها والتراموايات ومترو الأنفاق وخلافه إلا أن العربات الكارو مازال لها وجود ، وإن كان بسيطا ، في مجتمع اليوم . ولذا فإننا لا نستغرب صورة العربة الكارو الموجودة في الكارت بوستال المطبوع من أول القرن نظرا لوجود هذه الظاهرة ولو بصورة أندر حتى اليوم ويمكن ملاحظة أيضا أن تاريخ هذا الكارت بوستال يحمل ٣ سبمتبر ١٩٠٠ .

المقاهي

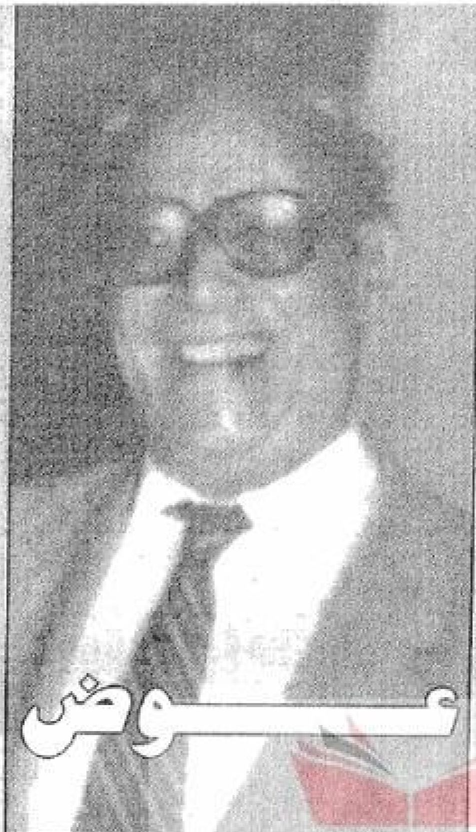
تمثل المقاهي في مصر خصوصا في هذه الفترة من أوائل القرن العشرين متنفسا لعامة الشعب . وفي حين وجدت المقاهي على مستوى عال في الفنادق الحديثة مثل الكونتننتال وشبرد وسميراميس وذلك لعلية القوم ، إلا أنه انتشرت في نفس الوقت المقاهي الشعبية حيث يجتمع بصفة عامة الرجال . وقد تميزت هذه المقاهي الشعبية بالكراسي الخشبية ذات



القاعدة والمسند المصنوعة من القش . ويكفى أن نذكر أنه فى هذه الفترة عندما ظهرت صناعة السينما وكانت فى البداية على شكل أفلام تسجيلية ، ولم يكن هناك بالطبع دور عرض بعد ، فكان المكان الطبيعى الذى تعرض فيه هذه الأفلام هى المقاهى المنتشرة، وبدأ هذا النشاط في الاسكندرية ثم إنتقل بعد ذلك إلى القاهرة إلى أن بدأ ظهور دور العرض المتخصصة . وها نحن نرى اليوم بعض المقاهى بدأت تعود ثانية لهذا النهج بوضع شاشة كبيرة يتم عرض أفلام فيديو عليها .

وصورة المقهى المعروضة فى الكارت بوستال المرفق تتميز بأنها مقهى شعبى من أوائل القرن نجد فيها تشابها مع المقاهى الشعبية الموجودة اليوم مع ملاحظة التناغم فى الكراسى الخشبية وملابس المترددين على هذا المقهى من الجلابيب والطواقى .

وأخيرا فإن هذه الجولة السريعة فى هذه المجموعة من الكروت بوستال والتى يرجع تاريخها إلى أوائل القرن العشرين تحملنا فى جولة من المظاهر المختلفة للمجتمع، وتعطى صورة مقارنة بمجتمع اليوم بعد أن دهمته تكنولوجيات القرن العشرين من صناعات كهربية والكترونية ووسائل اتصالات وعمران وخلافه. فيا ترى أى المجتمعين كان أكثر هناء وسكونا وسلاما .



بقلم :

محمد ابراهيم أبو سنة

فى ذكراه العاشرة

لويس عوض

تنوع الريادة

عاش المفكر والناقد الكبير الدكتور لويس عوض قلقا مقلقا مغامرا تواقا إلى التجديد والتغيير. راد كثيرا من الحقول المعرفية وترك آثارا لها انطباعاتها العميقة فى ميدان الشعر والنقد والفكر، وانحاز طوال حياته للجديد ولكنه كان يعرف المناطق الحية فى القديم. لعب دورا لاينكر فى ترسيخ حركة الشعر الحديث فى أدبنا العربى المعاصر، كما خاض بشجاعة منقطعة النظير معارك ضد التخلف والجمود والتطوير فى مجال الثقافة، أثار الكثير من الغبار وحرك الساكن وتلقى الإعجاب والعداء دون أن يحيد عن منهجه الثورى الذى جعله رائدا متنوع الريادة، فقد بشر بالشعر الحديث فى ديوانه «بلوتولاند» الذى صدرت طبعته الأولى في عام ١٩٤٧ وكتب له مقدمة عاصفة، طالب فيها بكسر عنق البلاغة والخروج من عمود الشعر كما كتب الرواية «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» كما ترجم القصيدة الطويلة «بروميثيوس طليقا» للشاعر الإنجليزى بيرس بيش شيلي وقصيدة شيلي فى رثاء جون كيتس، وكتب الكثير عن حركات التجديد والمذاهب الأدبية ورواد الفكر العالمى .

وفي سلسلة نقاد الأدب التي تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب صدر كتاب «لويس عوض» للدكتور عبدالناصر هلال المدرس بجامعة حلوان، وقد شمل الفصل الأول الجذور والتكوين ومعالم حياة لويس وثقافته ومؤلفاته. كما تناول الفصل الثاني التراث بين الرفض والقبول. ولويس عوض بين الشعر التقليدي والجديد ولويس عوض وثورة الشعر العربي الحديث ولويس عوض والمذاهب الأدبية والفنية والنقدية. كما تناول الفصل الثالث منهج لويس عوض في نقد الشعر بين النظرية والتطبيق.

يقول الدكتور عبدالناصر هلال: «ولويس عوض واحد من هؤلاء النقاد العرب الذين اسهموا في تأسيس الحركة النقدية العربية المعاصرة إذ يعد نتاجا لتلاقح ثقافات متعددة ومنظومة فكرية من طراز خاص. كما أنه يمثل في حياتنا الثقافية والفكرية منذ الأربعينيات مجموعة من القيم والمعاني والأفكار التي أثرت الإبدا ع في بلادنا. فكانت حيويته في أكثر من مجال ووسعت آفاقه في أكثر من مرحلة. فقد حرك مفاهيم كانت تتسم بالثبات والاستقرار والاطمئنان جعلها عرضة للحوار والمناقشة .

٥٠ كتابا في شتى المجالات

استطا ع لويس عوض أن يثرى حياتنا الفكرية والثقافية إذ أضاف للمكتبة العربية خمسين كتابا تمثل انجازه في شتى المجالات.

ولد لويس عوض في ٢١ ديسمبر ١٩١٤ في قرية شارونه التي تقع على الجانب الشرقي للنيل في محافظة المنيا. شب في أسرة متوسطة تتكون من عشرة أبناء كان هو أوسطهم، عاش خمس سنوات من عمره وهي أولى سنوات حياته في الخرطوم بالسودان حيث كان والده يعمل كاتبا في إحدى الدوائر الحكومية، ثم عادت الأسرة إلى المنيا في عام ١٩٢٠ حيث التحق بمدرسة المنيا الابتدائية ثم التحق بعد حصوله على الشهادة الابتدائية بالمدرسة الثانوية. ثم انتقل إلى القاهرة بعد هذه المرحلة ليدخل كلية الآداب جامعة فؤاد الأول «القاهرة حاليا» وكان طالبا متفوقا لفت أنظار اساتذته وعلى رأسهم عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين الذي رشحه للسفر في بعثة إلى انجلترا للحصول على الدكتوراه وعمل بعد عودته بنفس القسم بالكلية . تعرف في عام ١٩٤٧ على الفتاة الفرنسية فرانس وتزوجها ولكنه لم ينجب طوال حياته سوى كتبه الخصبة، وقد عمل بعد فصله من الجامعة بالأمم المتحدة وجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ثم عمل مسئولا ثقافيا بجريدة الجمهورية في الفترة من عامي ١٩٥٢، ١٩٥٤، ووضع على رأس الصفحة الثقافية التي يشرف عليها شعار «الأدب في سبيل الحياة » وخلال فترة الوحدة بين مصر وسوريا فيما عرف بالجمهورية العربية المتحدة عمل في جامعة دمشق.

ويقول لويس عوض إنه مازال يحتفظ بذكرى طيبة لهذه الفترة التى أمضاها فى دمشق. واعتقل لويس عوض فى ٢٨ مارس ١٩٥٩ حيث كتب مسرحية «الراهب» خلال فترة اعتقاله، وبعد خروجه من المعتقل عمل مديرا لمكتب وزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة ثم انتقل فى عام ١٩٦٣ ليعمل مستشارا ثقافيا لصحيفة الأهرام حيث أشرف على الملحق الثقافى الأسبوعى لجريدة الأهرام، والذى حمل إلى القراء نتاج كبار الشعراء والروائيين والنقاد وأهم الأحداث الثقافية فى مصر والوطن العربى .

وتعد هذه المرحلة أزهى مراحل لويس عوض الثقافية حيث كان يتمتع بشهرة كاسحة وتأثير عميق فى الرأى العام الأدبى، ولعت بفضل شجاعته مجموعة كبيرة من أسماء الشعراء وكتاب القصة والروائيين وكرس جهدا كبيرا للدفاع عن حركة الشعر الحديث خاصة عندما أوصت لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب بمنع الشعر الحديث من النشر والإذاعة، حيث بادر لويس عوض بالاتصال بزملائه من النقاد واتصل بالدكتور طه حسين الذى وقف كعادته وبمصداقيته وقوة تأثيره إلى جانب حرية الإبداع والتجديد، ونجا الشعر الحديث فى مصر من الحظر بفضل شجاعة هذا الرائد الكبير ومعه كوكبة من زملائه النقاد من أمثال الدكتور عبدالقادر القط والدكتور شكرى عياد والدكتور عز الدين اسماعيل وغالى شكرى وغيرهم.

مر لويس عوض بفترة مختلفة من حياته خلال السبعينيات والثمانينيات حيث اهتزت مكانته فى الأهرام وسافر للعمل فى كاليفورنيا، وتنقل بين الأهرام والمصور إلى أن انقطع للكتابة والنشاط الثقافى ثم هاجمه المرض العضال الذى أودى بحياته فى فجر التاسع من سبتمبر سنة ١٩٩٠. حصل لويس عوض على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى من الرئيس جمال عبدالناصر فى عيد العلم فى عام ١٩٦٤ كما حصل على جائزة الدولة التقديرية فى عام ١٩٨٩ . يتحدث لويس عوض عن المؤثرات الأساسية فى تكوينه الفكرى والثقافى خلال فترة بعثته فى انجلترا فيقول «فى كمبريدج رأيت الشعراء الكبار: أودن وستيفن سبندر وسيسل دى لويس وهم يأتون إلينا ويحاضروننا وأذكر مناظرة فى اتحاد الجامعة عنوانها: الامبراطورية البريطانية تهديد مستمر لسلام العالم.

وكان المشاركون فى المناظرة من كبار المفكرين والاساتذة بالاضافة إلى الطلاب. هذا الجو من الحرية الفكرية كان له أثره فى ترسيخ بعض المعانى التى يصعب اقتلاعها وكنت ما إن وصلت إلى لندن فى عام ١٩٢٧ حتى أخذت اتردد على المتحف البريطانى إذ بقيت فى العاصمة شهرا قبل التوجه إلى كمبريدج، وقد تكرست فى داخلى طيلة الفترة التى أمضيتها فكرتان

وقيمتان هما: الاشتراكية والديمقراطية» أعجب لويس عوض منذ كان طالبا في المرحلة الثانوية بشخصية وفكر عباس محمود العقاد ولكنه بعد أن انتقل الى القاهرة تعرف إلى سلامة موسى وطه حسين.

رومانسيا وعقلانيا

وظلت هذه الشخصيات محور التأثير في تكوينه الفكري يقول لويس عوض:

كنت أعاني من البلبلة بطريقة أخرى هي التناقض - داخليا - بين العقاد وسلامة موسى وطه حسين، فقد تواجد الثلاثة معا وقد أحطتهم بدرجة عالية من التقدير، وهكذا وجدتني رومانسيا يترجم شيلي، وحينا عقلانيا ديكارتيا، وحينا ثالثا يساريا أوروبيا من القرن الماضي» ويقول عن صلته المبكرة بالعقاد:

- كان أول كتاب قرأته للعقاد هو كتاب الفصول وكنت يومئذ في الثانية عشرة من عمري وفهمت أكثر ماجاء فيه» ويقول:

«كنت أحسب زمنا أن الذي عرف جيلي بفكرة الاشتراكية هو سلامة موسى فإذا بي أجد أن العقاد هو أسبق الذين وضعوا أسسها النظرية في بلادنا، ولولا أنني أحب الاحتياط في القول لقلت إن العقاد هو أبو الاشتراكية المصرية. ففي كتابه الفصول الذي نشر عام ١٩٢٢ بحث مستفيض عن سر تطور الأمم يدافع فيه عن المذهب الاشتراكي»، وهو يتحدث عن التزامه في الأدب فيقول: «أنا من المؤمنين بضرورة الالتزام في الأدب والفن بل أومن أن لكل أدب وفن راق رسالة يحملها الى الكافة من بني الانسان، وأومن بأن الالتزام ينبغي أن يقوم على المعرفة بمعنى الحكمة والاختيار فإذا خلا من الاختيار الحر تحول الى الزام. وعندي أن الالتزام بالانسان وقضاياه مقدم على كل نوع من الالتزام، وتحرير الانسان عندي مقدم على تحرير أي طبقة من طبقات المجتمع، ولاتناقض بين هذا وبين الدعوة الى تحرير الطبقات الشعبية لأن تحرير الطبقات الشعبية هو المقدمة اللازمة لتحرير الانسان» لقد أبدع لويس عوض في معظم المجالات التي تناولها يتحدث عن علاقة الواقع بالتراث فيقول:

«إن الانسان لايستطيع أن يكون معاصرا ولا حتى أن يكون شاعرا أو فنانا إلا إذا استوعب التراث استيعابا كافيا. ولايخفى أن الاستيعاب شيء والقبول شيء آخر فمن الممكن أن يستوعب الانسان التراث ويثور عليه. إذن فعلينا أن نقرأ القدامى وعلينا أن نستوعبهم ولكن ليس علينا بالضرورة أن نتقبلهم».

لقد بذل الدكتور عبدالناصر هلال جهدا طيبا في الإحاطة بالعالم المترامي الأطراف لابداع لويس عوض واعتمد على أهم المصادر والمراجع وتأمل سيرة حياته وكتاباته، ولكن لويس عوض يظل في حاجة إلى مزيد من الجهد للكشف عن الاضافة الحقيقية التي قدمها للتراث الأدبي والفكري ولكن الكتاب يضيء كثيرا من الجوانب في هذه الشخصية الكبيرة.



بقلم :
محمود بقشيش

استجابة الى التيار النقدى الذى يدعو أصحابه إلى التمسك بالجذور الثقافية فى مواجهة العولمة، نظم المركز القومى للفنون معرضا لفن عربى خالص هو فن «الخط العربى»، وقرر صناع القرار - لسبب ما - أن يقام هذا المعرض كل ثلاث سنوات لفنانى الخط من المصريين، ومن ناحيتنا فإننا نتوقع له أن يصبح فى المستقبل القريب «ترينالى» أو «بينالى» عربى.

عرس الخط العربي

في قصر الفنون



عميد الخط العربي سيد إبراهيم



لقد تجاوز بعض مبدعي هذا الفن حدود العالم العربي والإسلامي إلى آفاق الغرب الأوربي مثل شيخ الخطاطين «سيد إبراهيم» (١٨٩٧ ـ ١٩٩٤) ولم يكن خطاطا بالغ المهارة، فائق الرهافة فقط، بل كان واسع الثقافة أيضا. عرفت باسمه لأول مرة من أستاذي المرحوم «محمد نجم» سنة ١٩٥٠. وكان أستاذا للخط، يتميز بالأناقة والدقة والتعفف وطيبة القلب، لهذا أحببناه وتعلّقنا بفن الخط. وبالنسبة لي كنت مفتونا بلوحات فنان الخط الكبير «محمد وجدي». وكان مشغله قريبا من مدرستنا عندما كنت طالبا بالمدرسة الإعدادية بمدينتي «بورسعيد».

وكنت أختلس إليه النظر وهو منكب على لوحاته دون أن أتجاسر على اقتحام خلوته، على النقيض من الفنان «طه شحاتة» (أكثر خطاطي ورسامي بورسعيد شعبية)، كنت أختار المكان المناسب الذي يسمح لي بتأمل حركة ريشته ساعات طوالا. مبهورا بقدرته على التركيز وسط زحام الأحياء الشعبية. وظهر بعدهما فنان الخط «خضير» الذي أتيح له أن يتمتع بألق إعلامي أكبر من سابقيه وها هو نفسه يقوم الآن بدور قوميسير المعرض باعتباره رئيسا لجمعية الخط التي أسهم أعضاؤها بنصيب الأسد.

المكرّمون

أختير «سيد إبراهيم» ضمن خمسة عشر فنانا من أفذاذ هذا الفن وهم: ابراهيم المصري وحسين أمين عجاج وسيد عبدالقادر عبدالله وعبدالرحمن عبوش وعبدالمنعم شرقاوي وكامل إبراهيم الاسكندراني ومحمد إبراهيم الاسكندراني ومحمد إبراهيم محمود ومحمد العيسوي هنداوي ومحمد رضوان علي ومحمد سعد حداد ومحمد عبدالقادر عبدالله ومحمود إبراهيم سلامة ومصطفى لطفي محمود. بالإضافة إلى هؤلاء الكبار فقد ضم المعرض واحدا وسبعين فنانا من أجيال مختلفة، يقدمون بانوراما للخط العربي تستحق التأمل وتغري بالدراسة وبإثارة الأسئلة.

خبيئة وكالة الغوري

احتلت خبيئة وكالة الغوري موقع الصدارة وهي تضم ثمانين لوحة أنجزها خطاطون أفذاذ عربا وأتراكا خلال الفترة من ١٥٥٨م إلى ١٩١٦م وقد اكتشف هذا الكنز الذي لا يجد له مستقرا في متحف يليق به حتى الآن الفنان والناقد المعروف «عز الدين نجيب»!

تلاحظ العين الناقدة في انتقالها من لوحات جيل إلى جيل تخفّف الأجيال اللاحقة ـ تدريجيا ـ من تلك الأسس

المرجعية وتنامي الاختيارات الفردية، فالخط العربي مثله مثل أي فن : كيان حي، يؤثر ويتأثر. ينمو بالحوار ويتحلل بالعزلة. ولحسن حظ الخط العربي فإنه يتمتع بمرونة لا نظير لها في خطوط اللغات الأخرى ويستطيع أن يعبر عن كل الحالات الظاهرة والباطنة: يستطيع عازف الخط العربي البارع أن يجسد ممكنات الغناء والرشاقة من طراوته الأنثوية ويرسم الجلال والوقار باستقامات الخط الكوفي. كل حرف في العربية له شكله ومعناه، حتى النقطة لها حضورها الفعال في جدلية «المبني والمعنى» وقد ساعد ذلك الثراء في بنية اللغة العربية فناني الخط على إنجاز تحف رائعة على مسطحات غير مستوية وعلى خامات جد مختلفة مثل النسيج والمعادن والخزف والزجاج والجص إضافة إلى الورق بكل أنواعه. وكان من الممكن أن يظل هذا الفن محتلا لإحدى ذرى الإبداع المرئي لولا الطباعة الحديثة وشراهتها إلى الإنتاج الواسع وتكدس المال مما دفع الكثيرين إلى الغياب في ظلال اليأس الكثيفة وأوقف تسابقنا اليومي إلى الصفحات الأولى من جرائد الصباح لنستمتع بجمال الخطوط. تأمل الحروف الجميلة التي صممها فنان الخط العظيم «محمد جعفر» في النسخة الأولى من القرآن الكريم التي طبعتها المطبعة الأميرية في عهد الملك فؤاد والكتب التي بين أيدينا الآن، لتدرك الفارق الشاسع بين الجمال والدمامة .

محاولات التخطي

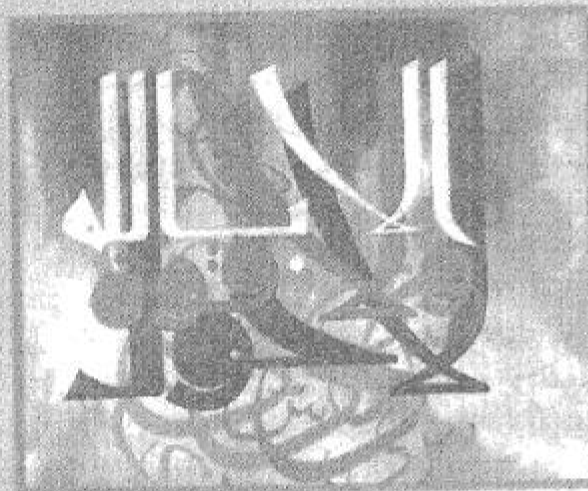
ليس معنى هذا أنني أدعو إلى نبذ أي محاولة للتغيير، ذلك أن التغيير أمر لا مفر من حدوثه وأي جديد يصيبنا بصدمة إلى أن نعتاده ونتمسك به بحكم الألفة. هناك من الفنانين المصريين من درس قواعد الخط، غير أن دراسته في مجال فن آخر هو فن «الجرافيك» قد أغوته بتقديم أشكال خطية تستجيب لشره ماكينات الطباعة، وتعبر المسافات بين أشكال الحروف العربية والحروف اللاتينية. وتخلى بإرادته عما تمنحه الحروف العربية من إمكانات في الاستدارة والتداخل والتزوية، واكتفى بالتصفيف الأفقي مثلما فعل الفنان المعروف «فتحي جودة» وقد انشغل طويلا بتصميم وتنفيذ علامات إرشادية، وقد قام بتوريد حروف طباعية عربية وإفرنجية مطابقة للمواصفات ، خاصة بالطرق، وهو يكتفي من الحرف العربي بحدوده الدنيا المجردة للدرجة التي تشعرك بميله إلى قطع الصلة بجذر الحرف العربي طموحا إلى تأسيس مرجعية خاصة به. وتتارجح لوحاته بين مؤثرين مختلفين هما : أسلوب التكعيبية التحليلية وأسلوب «الفن البصري» واختار



للفنان
إبراهيم
المصرى



للفنان حامد العريضى



للفنان
أحمد حسن
الأبحر



للفنان محمد العيسوي

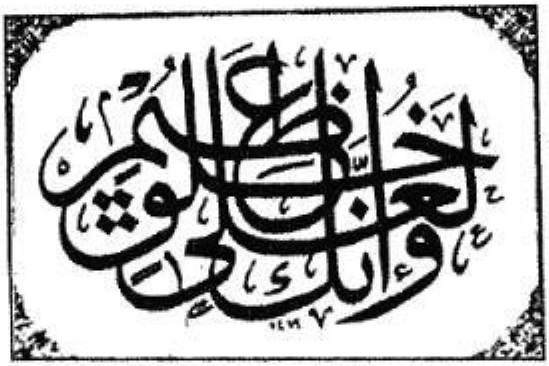
الفنان «منير الشعراني» طريقا آخر للحداثة. وهو لا ينسى أن الحرف العربي قد ارتبط بلغة القرآن الكريم وبكتابات المتصوفة وأشعارهم. في لوحاته تجلت روحانية الحروف، خصوصا حرف الألف الذي ظهر جليلا، شامخا، متسقا مع روح النصوص الصوفية التي استلهمها وللحق فقد كان «منير الشعراني» «دينامو» هذا المعرض وهو الذي كتب نص الدعوة وصمم الميدالية التي وزعت على الأحياء من المكرمين، وقد دعي «الشعراني» من بين فناني الخط ليكون الفنان العربي الوحيد الذي شارك في مهرجان «الهضاب السبعة» الذي أقيم في «برلين» منذ ١٤/٥ وسيستمر حتى نهاية أكتوبر ٢٠٠٠ وقد أقيم هذا المهرجان بمناسبة استقبال القرن الحادي والعشرين. وكانت غاية هذا المهرجان الإجابة عن سؤال: «ماذا قدمت الإنسانية في مجالاتها الإبداعية السبعة». وقد اشترك «الشعراني» في «هضبة الفنون» وكانت تحمل عنوان «الحلم» وعرضت لوحاته الخطية في قسم «فنتازيا». ودار موضوع لوحاته حول ملحمة جلجامش .

دروب الحداثة

إذا كان الفنان «فتحي جودة» قد ضحى بالأسس المرجعية للخط العربي بدعوى ابتكار منتج جديد، متفرد، يدين بالولاء لصاحبه أولا ثم «لمطالب المطبعة والشارع ثانيا فإن الفنان «أحمد الأبحر» يتخذ طريقا مغايرا ، فلا يزال متمسكا بالقواعد وبالعطر الروحاني للحروف ويموسقها بأن يمنح حرفا أو نقطة من عناصر الكلمة موضع البطولة ونقطة الارتكاز والجذب ، وتقوم الألوان بدورها الساحر في جذب العين إلى مسطح اللوحة العامرة بالصراحة اللونية والتقابل الذي يبدو محتدما بين الأزرق والأحمر ، ويظهر الضوء عند الحواف أشبه بالنصال النافذة. وعلى الرغم من الحالات المحتدمة التي يجذب بها الفنان متلقيه فإنه يبدو حريصا على بناء أشكاله أو نحتها، ولاشك أن تخرجه في كلية الفنون الجميلة (قسم التصوير) قد ترك آثاره على لوحاته الخطية.

أين المرأة؟!

السؤال الذي يطرح نفسه بشدة بعد جولة بين عشرات اللوحات الخطية التي أبدعها رجال: لماذا توارت المرأة وأحجمت عن المشاركة: ألا توجد فنانات للخط العربي؟!. والحقيقة أنه توجد. وكان يتعين على مستشاري الوزارة أن يبحثوا وكان على المركز القومي أن يقدم (كتالوج) موثقايرقى إلى مستوى هذا الحدث التاريخي. من المعروف تاريخيا أنه في



للفنان
محمود إبراهيم
سلامة



للفنان
سيد
إبراهيم

العصر العباسي قد ظهرت فنانة للخط العربي واسم شهرتها «شُهدة» واسمها الحقيقي (زينب بنت أحمد بن أبي الفرج البغدادي) وإذا كان هذا قد حدث في العصر العباسي فقد ظهرت في القرن العشرين فنانتان عراقيتان، الأولى اسمها: (جنة) والثانية اسمها: (فرح). واللافت للنظر أنهما تتلمذتا على أستاذ أساتذة الخط الفنان المصرى الفذ «سيد إبراهيم».

ملاحظة ختامية

كان الإقبال على هذا المعرض كثيفا وازادت كثافته عند فشل قمة «كامب ديفيد» ألا يعني هذا إعلانا عفويا من الناس على مؤازرة الحق الفلسطيني والدفاع عن الوجود العربي؟



استعراض الألفية في قبة الذن

رسالة اسكتلندا

مشاهد من نزهة في بلاد القلب الشجاع



أبناكس مجسما فى لندن

بقلم : مصطفى درويش

هى نقطة فى محيط، كان يطلق عليه فى كتبنا اسم بحر الظلمات.. وذلك وقت رحلة كريستوفر كولمبس، قبل أربعمائة عام.

وتلك النقطة عبارة عن جزيرة صغيرة، نكاد لا نراها بالعين المجردة، حتى لو استعنا فى البحث عنها بخريطة مكبرة لاسكتلندا، وجزر الهبريد، الواقعة إلى الغرب من ساحلها المطل على المحيط الأطلسى، بأمواجه المتلاطمة، والمفترسة فى بعض الأحيان.

وحتى وقت قريب ، لم أكن على علم بوجود تلك الجزيرة الأصغر، على الخريطة، من رأس الدبوس.

ولولا افتتاحية أبدعها خيال الموسيقار الألماني «فيلكس مندلسون»، قبل مائة وسبع وستين عاما وعند سماعها عبّر الموسيقار يوهان براهمز ـ وهو من هو في دنيا الموسيقى ـ عن استعداده للتضحية بجميع أعماله، مقابل أن يكون في إمكانه إبداع افتتاحية بنفس المستوى .

لولاها لاستمر عدم علمي بتلك الجزيرة إلى يومنا هذا ومن باب أولى لما عرفت اسمها، ولما عملت على أن تكون قبلتي، أرنو إلى شطآنها، حتى إذا ما مستها قدماي، كان ذلك خير ختام لأول، وربما آخر رحلة تتيح لي زيارة أرض القلب الشجاع.

احتلال وأبطال

وكما هو معروف فصاحب القلب الشجاع هو «ويليم والاس» بطل المقاومة الأسكتلندية لقوات الاحتلال الانجليزي لبلاده، بأمر من الملك الطاغية «ادوارد الأول» وذلك قبل سبعة قرون من عمر الزمان (١٢٩٨ - ١٣٠٣).

هذا ولم يذع صيت ذلك البطل عندنا، إلا بفضل فيلم «القلب الشجاع» (١٩٩٥)، الفائز بخمس جوائز أوسكار، بينها جائزتا أفضل فيلم ومخرج «ميل جيبسون».

وقد تقمص الأخير بجدارة شخصية «ويليم والاس» .

وأعود بعد هذا الاستطراد الشارح إلى الجزيرة والافتتاحية لأقول إن «مندلسون» قام بزيارة «جزر الهبريد» ، قبل انتهائه من إبداع افتتاحيته المعروفة تحت اسم تلك الجزر، مقرونا باسم «كهف فنجال» ، وهو كهف موجود.. بواحدة من تلك الجزر، اسمها «اصطفا».

والسؤال لماذا لا يرد ذكر تلك الافتتاحية إلا مقرونا بجزر «الهبريد»، وبالذات «كهف فنجال»؟

والحق، أنني لم أجد إجابة شافية على هذا السؤال إلا بعد أن أصبحت جزيرة «اصطفا» على مرأى البصر، ليس بيني وبين شطآنها سوى بضع خطوات.

وفي زمن «مندلسون» لم يكن الوصول إلى تلك الجزيرة أمرا سهلا، وذلك بسبب ما كانت تفرضه سطوة الطبيعة من حوائل وعقبات.

ثورة الاتصالات

فمثلا كان على الملكة فيكتوريا ، صاحبة الأمر والنهي في شئون إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس، أن تركب هي وزوجها الأمير ألبرت وأولادهما مخاطر السفر برا وبحرا، حتى يصلوا ، في أمان ، إلى كهف فنجال «١٨٤٧».

أما في زماننا ، فكل من ينشد الاستمتاع بدهشة ذلك الكهف، ما عليه إلا أن يستقل الطائرة إلى لندن، ومنها إلى جلاسجو، فميناء اوبان، حيث يستقل عبارة إلى جزيرة «مول»، ومنها بزورق بخاري إلى جزيرة «اصطفا»، حيث الكهف المنشود، كل ذلك في بضع ساعات.

وعندما عقدت العزم على إلقاء نظرة على «كهف فنجال» ، ربما لن تزيد مدتها

على دقائق معدودات، عندئذ، استبعدت . بطبيعة الحال ، شد الرحال إليه بوسائل الانتقال السائدة أيام «متدلسون» والملكة فيكتوريا، وذلك بحكم أنها وسائل عفا عليها الزمان.

وكذلك، استبعدت السفر بالطائرة إلى لندن، ومنها إلى اسكتلندا، مفضلا السفر جوا إلى ألمانيا ، ومنها السفر بالسيارة عبر هولندا، فبلجيكا، إلى ميناء «كاليه» في فرنسا، حيث نستقل نحن الأربعة ، أنا وشقيقتي الوحيدة، وابنها الوحيد وزوجته وسيارته القوية، العفية، عبارة، تجتاز بنا المانش إلى ميناء دوفر .

وبتلك السيارة نتوجه إلى اسكتلندا ، عبر انجلترا حتى نصل في نهاية المطاف إلى كهف فنجال.

ومنه نعود أدراجنا، مرورا بجلاسجو، فبرمنجهام، ثم دوفر، حيث نجتاز البحر، عبر نفق المانش، بواسطة قطار من طابقين، يحملنا، ونحن داخل السيارة، حتى بر الأمان في فرنسا، وكأننا في فيلم من أفلام الخيال العلمي، تدور أحداثه في زمن غير زماننا ، وعلى سطح كوكب غير كوكبنا .

ألفية لندن

وكانت لندن أول محطة نتوقف عندها، ونحن في الطريق إلى الشمال.

وأول ما لفت نظري في العاصمة البريطانية هو أعمدة النور في شوارعها، وقد ازدانت بزهور جرى تنسيقها على نحو يسر الناظرين.

كما لفت نظري الاحتفال بالملكة الأم «اليزابث» وقد بلغت المائة من عمرها، والصواريخ النارية، تنطلق في سماء ميدان الطرف الأغر، تكريما لها، وفرحا بحياتها كما عاشتها أخذا وعطاء.

ومما لفت نظري في مجال الثقافة.

أولا وجود دار سينما، قريبا من جسر ووترلو، مخصصة لعرض الأفلام المنتجة بطريقة «أيماكس».

وفي تلك الدار شاهدت فيلما مجسما «لقاء في البعد الثالث»، وياله من لقاء مع سينما مستقبل، علينا أن نستعد له ، بدءا من الآن.

وثانيا قبة «جرينويش» التي جرى تشييدها احتفالا بالألفية.

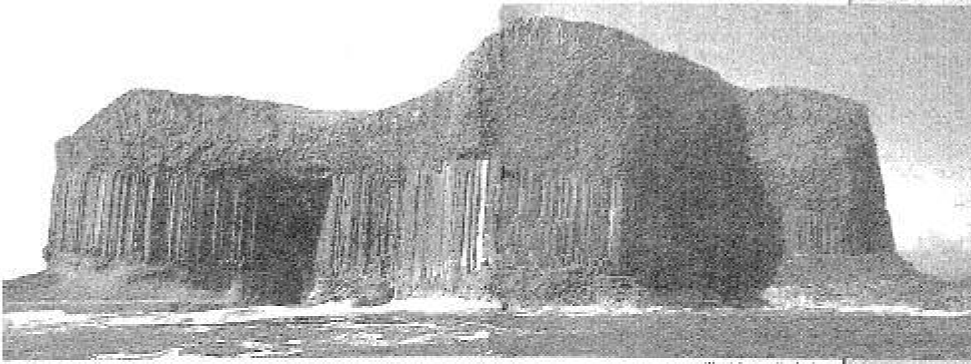
ومن بين عروضها أخص بالذكر «استعراض الألفية»، حيث تدور أحداث قصة حب من ثلاثة فصول، ذات رسالة إنسانية، في حماية البيئة من عبث الجشعين، والفاسدين وحيث يؤدي الأدوار مائة واثنان وستون لاعبا ما بين ممثل وراقص، وأكروبات . كل ذلك مع خلفية موسيقية، ومؤثرات صوتية، وبصرية، تحمل من الإبهار الشيء الكثير.

وثالثا غلبة ملصق فيلم «المناضل»، نراه حيثما ولينا وجوهنا.

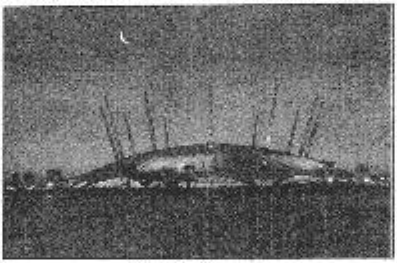
وبطولته منعقدة لـ «ميل جيبسون» نجم القلب الشجاع.

اتهام وتسامح

وكما جرى اتهام الفيلم الأخير من قبل نفر من النقاد الانجليز بأنه عمل معاد



كهف فنجال بجزيرة استفا



قبة الألفية في لندن

قمة الأرض في احتفالات الألفية



للشعب الانجليزى، لم يسلم «المناضل» من الاتهام نفسه.

ولا غرابة فى أن يتعرض لمثل ذلك الاتهام، فموضوعه يدور وجودا وعدما حول وقائع الحرب التى نشبت بين قوات الإمبراطورية البريطانية وسكان مستعمراتها فى امريكا الشمالية، قبل مائتى وثلاثين عاما.

وبفضل هزيمة تلك القوات، تحررت المستعمرات الأمريكية، بإعلانها الانسلاخ عن ممتلكات التاج البريطانى ، وهو ما يعرف تاريخيا بإعلان الاستقلال.

ويهمنى هنا، أن أقول إنه ، ورغم امتعاض بعض النقاد الانجليز من تشويهه للتاريخ فى رأيهم . وتحامله على الانجليز، بشكل ينطوى على شبهة العداء، فأحد منهم لم يطالب بمنع عرضه، بمقولة، إنه مسىء إلى سمعة البلاد!!

وكانت المحطة التالية للعاصمة البريطانية، مدينة كامبريدج ، بعطر تاريخها العلمي، تتحدث بمآثره مبانى كليات جامعتها المطلة على نهر كام، وهو نهر صغير مزدحم بقوارب شبيهة بالجندول .. تتهادى على سطحه ، تحت رذاذ المطر، على نحو يذكرنا بسحر قنوات «فينيسيا».

وفيما بين «كامبريدج» وحدود اسكتلندا ، مررنا أولا بمنتجع صيفى، مطل على بحر الشمال، وثانيا بمدينة يورك، حيث توجد أكبر كاتدرائية فى انجلترا.

وتاريخ البدء فى تشييدها يرجع إلى القرن الثالث بعد الميلاد.

الحدود

وما ان اجتزنا الحدود، عند صخرة فاصلة، مكتوب عليها بحروف ظاهرة، اسكتلندا ، حتى أخذت السيارة تنهب بنا الأرض نهبا نحو العاصمة، «أدنبرة» .

فى الطريق إليها كانت العين لا ترى سوى جبال ووديان مكسوة بالغابات، ومروج خضراء يرعى فيها بسلام البقر أحيانا، والحملان فى أكثر الأحيان.

ولن أقف عند العاصمة الاسكتلندية إلا لأقول إننى بفضل معمار قصورها المشيدة على التلال، وهى والحق يقال، آية من آيات الجمال، بفضله أرى أوجه شبه كثيرة بينها وبين مدينة براغ عاصمة التشيك.

ولقد حدا هذا الجمال بالبعض إلى تسميتها بأثينا الشمال.

ألفية أدنبرة

ومن بين نشاطاتها الثقافية، وما أكثرها على مدار العام، مبنى حديث جرى تشييده فوق سفح أحد تلالها، احتفالا بالألفية، كى يعيش الزائر فيه، خلال يوم واحد، تاريخ الأرض وما حولها من أجرام سماوية، على امتداد أعوام تعد بالآلاف الملايين.

هذا، وتعد أدنبرة واحدة من المدن

القليلة التي يغادرها المرء، وهو مشتاق، وعنده لوعة من الفراق.

ولكن ما احتوتني الغابات الشاسعة التي اكتست بها الجبال على جانبي الطريق، حتى أنستني روعة الجمال المخيم فيها وفوقها «أدنبرة» ولو إلى حين.

الجنة والوحش

وهاهي ذي السيارة مسرعة بنا في طريق الويسكي، حيث تكثر مصانع تقطير ذلك المشروب، بشتى أنواعه المعبأة في مختلف الأحجام.

وهي بعد ذلك منطلقة بنا في طريق البحيرات الفاصلة بين أقصى شمال اسكتلندا وبين جنوبها، بمياهه الشادية، وظلاله الناعمة الوارفة، وأعشابه المتنوعة، المزهرة، ولكل منها لونه الخاص، وشذاه الذي ينفرد.

وفي هذا الطريق بجناته التي تجري من تحتها الأنهار توجد بحيرة «نس»، ولعلها أكبر بحيرات الطريق، وأكثرها شهرة، وذلك بحكم وجود وحش أسطوري يقال عنه من بين ما يقال إنه مختبيء فيها. ومن حين لآخر يظهر مثيرا الرعب والأقاويل.

ومهما يكن من أمر ذلك الوحش، فقد اجتزنا طريق البحيرات بسلام، حتى الساحل الغربي لاسكتلندا، حيث ميناء «أوبان». ومنه إلى جزيرة «مول».

وبعد أكثر من ساعة، وسط طبيعة عذراء، وفي طريق معبد، لا يسع المرور فيه سوى سيارة واحدة وصلنا إلى ميناء «فيون بورت».

وفي صباح اليوم التالي، انطلق زورق بخاري بنا إلى جزيرة «اصطفاء»، حيث توجد خمسة كهوف، أكبرها كهف «فنجال».

ولحسن الحظ، كان المحيط هادئا، خاليا من أمواج تحول بين الزورق، وبين الرسو على رصيف الجزيرة دون عناء.

الجزيرة والكهف

وما كنت أدري يوم ساقني قدري إلى تلك الجزيرة الصغيرة، بفضل افتتاحية موسيقية مستوحاة من ذلك الكهف، أنني سأرى تكوينات رائعة من البازلت، لو قورن بها أروع ما أبدعه خيال الإنسان من قصور وكاتدرائيات، لبدت تقليدا باهتا، من صنع أقزام متحملقين.

ولم أمكث على أرض الجزيرة سوى ساعة وبضع دقائق، ولم أر سوى بضعة أجزاء من كهف لايزيد طوله على مائتين وثلاثين قدما، وارتفاعه على ستين قدما، وعرضه على خمسين قدما.

ومع ذلك. فبفضل هذه الزيارة القصيرة، وبفضل ما تيسر لي أن أراه من جدران الكهف، ومن مياهه المتعددة الألوان، عرفت لماذا حرص «مندلسون» على زيارة الجزيرة ولماذا انفعل برؤية كهفها الغريب، المهيب فأبدع افتتاحية ،، تعد بحق، أكثر أعماله بقاء وتأثيرا.

حقول الأشواك تحاصر المدينة الحزينة

بقلم : فخري المهدي

باريس

بريشة : سميحة حسنين



كانت ليلة موحشة، عاصفة، طويلة انتابتها تشنجات الرياح القوية وأصواتها المخيفة التي ما برحت تصطدم بأوراق الأشجار مولدة بذلك نوعا من الزئير الحاد الذي ترتطم أصداؤه على واجهات المنازل فترتد وهي مشبعة برنين الأعاصير، الذي يضطرب وينتشر في دوامة يزيد تعدد ارتدادها من تنوع أصواتها ومصادرها مؤدية بذلك إلى خلق سمفونية جهنمية لا يمكن أن تطيقها أقوى الأعصاب البشرية .

استمر هذا الهدير المخيف طيلة الليل صاحبته فترات قليلة ساد خلالها صمت موحش كأنه دليل يشير إلى التناقض الموجود في الطبيعة، التي قد تفور بغضبها فتحيل هدوءها إلى هياج لا يلبث أن تخمد أنفاسه وتجعل منه سباتا لا يلتفت حتى إلى الحطام الذي ينتشر بعد هدوء عواصفه الراعدة ..

لم يستطع عبدالتواب خلال هذه الليلة من الخلود إلى النوم إلا لفترات متقطعة مثله مثل زوجته التي تشبثت بكتفيه، وهي تدفن رأسها في أعماق صدره غير قادرة حتى على النطق بكلمات لم تتجاوز التعبير عن شعورها بالخوف، وهي تحتضن طفليها عامر وجنان، اللذين كان الرعب قد دب في أوصالهما وجعلهما يرتجفان في ارتعاشات متواترة مماثلة إلى سعير مرضى أصابتهم حمى خبيثة فتحولت غمغمتهم إلى أنين متواصل، لا تقطعه إلا غيبوبة لا يلبث أن يعيد هذيانهم اللاشعوري هؤلاء المرضى إلى عالم الألم والمعاناة الطويل .

استحمد عبدالتواب ربه عندما بدت اشعاعات الشمس ظاهرة وهي تخترق نوافذ منزله لتنتشر في أرجائه ولتدب في أركانه تلك الحيوية التي أحالتها وحشة الليلة المخيفة إلى كابوس لم يستفق منه إلا عندما أبصر هو وزوجته وطفليهما بريق اشعاعات الشمس الحنونة . وأدى هو وزوجته صلاة الفجر بسرعة وأعدوا أنفسهم وطفليهم وتناولوا جميعا فطورهم بعجل نظرا إلى تأخر الوقت المتاح، لكي يصل عبدالتواب إلى عمله ولكي يتمكن من إيصال زوجته بالسيارة في طريقه إلى مدرستها إضافة إلى إيداع طفليهما لدى المربية التي اعتادت على العناية بهما ورعايتهما منذ أكثر من شهر .

كان عبدالتواب يسكن في ضاحية تبعد قليلا عن المدينة أو هي تشكل جزءا منها يقع مع ذلك على أبوابها وكان عليه أن يمر عبر حدودها قبل أن يصل إلى عمله وأن يوصل زوجته إلى مقر مدرستها وأطفاله إلى المربية المعهودة . وكان أرق الليلة السابقة قد أدى مفعوله عليه وعلى زوجته وطفليه بحيث لم ينطق أي منهم إلا ببعض الكلمات العادية، وهم

يستعيدون صور هذه الليلة كل بالشكل الذى أثرت فيه عليه وهم بين اليقظة والحلم أو بين مشاهد الواقع الذى يسيرون الآن بين أجوائه وصور الكابوس الذي عاشوا داخل إطاره الواسع خلال الليلة السابقة ، هذه المشاهد والصور المتداخلة التى لم ينهيها إلا مشهد آخر برز أمامهم فجأة وهم فى طريقهم وأثناء صمتهم المتواصل ، لم يكن هذا المشهد غير المألوف عاديا، فقد كان الحشد الذى ظهر أمام عبدالتواب وزوجته وطفليهما وهم يقتربون من باب المدينة الرئيسى كبيرا إلى درجة أنه أدى إلى زحام فى السير كان من نتيجته أن توقف العديد من سائقى السيارات لكى يقوموا بمناورة على شكل نصف دورة تعيدهم من حيث أتوا ، وهو ما فكر أن يقوم به عبدالتواب قبل أن يطلب من زوجته النزول من السيارة لإيصال طفليهما إلى دار المربية على الأقدام والتوجه إلى مدرستها سيرا على الأقدام هي الأخرى قبل أن يجد مخرجا يساعده على الوصول إلى عمله بطريقة أو بأخرى ، إلا أن فضوله وحبه للاستطلاع دفعاه بالقوة إلى أن يهبط من سيارته بعد أن تمكن بصعوبة من رصفها فى مكان لا يبعد إلا قليلا عن مكان الحشد البشرى الذى استوقفه .

كانت دهشة عبدالتواب كبيرة وهو يرى محافظ المدينة محاطا بأعوانه وموظفيه وحرسه الكبار والصغار على حد السواء الذين كان وجودهم بمثابة دعوة للمزيد من سكان المدينة الذين تجمهروا معهم وهم يراقبون ما تمخضت عنه هذه الليلة اللعينة بعواصفها ورعودها وزئير رياحها ووحشة أحداثها العنيفة . لم يكن هذا التمخض عاديا مثله مثل هذا الحدث النادر بل والوحيد من نوعه ، فقد تمثل بظهور حقل غريب برز فجأة على أحد أهم منافذ المدينة وأبوابها الرئيسية ، حقل باهت اللون ، قبيح المظهر ، تتجاوز سعته حجم أى حقل من حقول المزارع المألوفة ، نعم لم يكن هذا الحقل الممتد سوى حقل من الأشواك الحادة ، أشواك طويلة متناثرة بدون أى انتظام ، أشواك برزت أبرها وكأنها تتحدى أكثر الموجودين شجاعة لكى يتجرأ ويحاول أن يقتلعها أو أن يمسكها على الأقل. كان محافظ المدينة يتطلع إلى هذا الحقل الغريب تعلو وجهه دهشة ارتسمت على كامل تفاصيله وهو يتصنع سلوكا يريد بواسطته أن يضفى عليه نوعا من الثقة بالنفس، لكى يواجه به أسئلة الصحفيين وعدسات الكاميرات التليفزيونية والسينمائية الذين تجمهروا هم أيضا كمحاولة لتغطية هذا الحدث من جهة ومعرفة أسبابه ونتائجه على المدينة وعلى سكان هذه المدينة من جهة أخرى .

كانت شفتا المحافظ ترتجفان وهو ينطق ببضع كلمات مطمئنة تقطعها غصات بدت واضحة على حدبات عنقه جعلته يلجأ إلى مسح فمه بمنديل أبيض يحاول بواسطته منح تصرف طبيعي لسكوته المتواتر .

«إنه حقل غريب فعلا، هذا الحقل الذي نشاهده جميعا» اكتفى المحافظ بهذه العبارة وهو يرد على سؤال لصحفي لم تترك عيناه التحديق في وجهه وكأنه يريد بذلك استكشاف بعض من جوانب يخفيها هذا الرجل الغامض عنه ويتمكن من خلال نظراته العميقة من سبر أغوار حقيقتها .

استمر المحافظ في كلامه وهو يؤكد قدرات المدينة على اقتلاع هذا الحقل والتخلص من أشواكه قائلا بعصبية لم يستطع منديله من اخفائها : «لا لن يطول بقاء هذا الحقل ، وهو حتى وإن بقي فإننا قادرون على الالتفاف حوله وتفادي أشواكه بل وجعلها تتساقط شيئا فشيئا حتى تستحيل ابرها إلى العدم والزمن كفيل بذلك» .

لم يجد عبدالتواب مفرا بعد أن اطمأن ولو قليلا عند سماعه لكلام المحافظ من الانسحاب والتوجه إلى عمله متأخرا بعد أن رصف سيارته في مكان آمن ، حيث وجد هناك أيضا أن حقل الأشواك قد أصبح محور الأحاديث لدى الجميع ، هذا الحقل الذي أخذ يثير المخاوف خاصة وأنه قد ظهر بشكل مفاجيء وبطريقة لا تدعو إلى عدم الارتياح فقط وإنما إلى قلق شديد بعد أن ترددت إلى المسامع أخبار تشير إلى إصابة العديد من سكان المدينة بجروح عميقة عندما حاولوا اجتياز مقاطع من هذا الحقل أو الالتفاف حولها ، ولم تكن عودة عبدالتواب إلى منزله مساء وزوجته وطفليهما بأفضل عندما أخذت الجميع حالة من الرهبة تزايدت عند مشاهدتهم للأخبار على شاشة التليفزيون وسماعهم للتعليقات في مختلف الإذاعات الداخلية منها والخارجية، وهي تنقل أخبار حقل الأشواك وتعلق عليها بتداخلات لا يمكن إلا أن تثير القلق بالرغم من تفاوت حدتها بين وسيلة وأخرى ، فكان الصمت الذي اكتنفهم جميعا علامة على ولادة حزن حاول عبدالتواب كسره بطمأنة أفراد عائلته بطريقة لم يقتنع بها هو شخصيا ، فكيف يمكن أن يخفف من قلق الآخرين الذين شعروا بذلك ورسموا على شفاههم ابتسامة لا يمكن أن يعبر مظهرها المصطنع إلا عن مخاوف جعلتهم يأوون إلى أسرتهم للنوم لكي يتركوا جانبا ولو إلى حين كابوس هذا الحقل وأشواكه المخيفة؟.

لم يكن هذا الحقل في الواقع إلا بداية للحزن الذي ما لبث أن نشر سواده في كافة

أرجاء المدينة الجميلة التي لم تكن تعرف معنى الحزن فى السابق بقدر ما تعرفه جميع المدن الأخرى من أحداث لا تتجاوز فى حدتها بعض الوفيات أو مآس صغيرة، ناتجة عن حوادث سيارات أو عن جرائم قتل يمكن عدها بعدد أصابع اليدين . انتشر الحزن في المدينة الجميلة منذ أن ظهر هذا الحقل القبيح وزاد من انتشاره ظهور حقول أخرى كانت أحجامها متنوعة منها ما كان كبيرا ومنها ماكان صغيرا وبأشكال ومظاهر لا تقل قبحا ولا تزيد عن الحقل الأول . وكان أن زاد حزن سكان المدينة عندما اكتشفوا بأن ظهور حقول الأشواك هذه يتوافق مع ظهور سحابة أو غيمة أو قل غمامة بل وغمامات تعتلى الحقول وكأنها نذير شر لكل من يقترب منها أو يحاول اعتراضها أو الالتفاف حولها . حينها أدرك عبدالتواب كما أدرك جميع سكان المدينة الجميلة أنهم وقعوا ضحية أمام حقول الأشواك وأنها تحاصرهم جميعا وأن لا مفر من العيش تحت طائل هذه الحقول إلا عمل شيء ما للتخلص منها ، ولكن ماهو العمل أمام قوة تتزايد أمامهم وهم لا يملكون شيئا إلا إيمانهم بكونهم ضحايا لا حول لهم ولا قوة؟. حاول العديد من سكان المدينة الجميلة أن يكسروا طوق حقول الأشواك ، فمنهم من جرب مهاجمتها باستعمال أية وسائل يمتلكونها حتى وإن كانت بسيطة استطاعوا مهاجمتها بها ، فخرجوا من صراعهم هذا بين صرعى قتلى أمام أشواك دامية كانوا يعتقدون أن من الممكن مشاكستها وجرحى زادت جروحهم من أحزانهم وزاد حزن الآخرين بتضميدهم لجراح لم يكن من السهولة تضميدها ، ومنهم من جرب الإلتفاف حول هذه الحقول للإفلات من حصارها ، فكان عدد الذين استطاعوا أن ينجوا بجلدهم بعد أن أثخنتهم الجراح قليلا وغادروا المدينة الحزينة وهم يندبون جمالها الزائل بعد أن تركوها تئن بسكانها الذين لم يعد لهم من خلاص إلا الانتظار ، انتظار شيء ما ، انتظار المجهول الذى يمنحهم خلاصهم بعد أن ضاقت بهم الحيل للتخلص من حقول أدركوا جميعا بأنها تحاصرهم من جميع الجوانب ولا تترك لهم أى سبيل للتخلص منها .

ما لبث هذا الإدراك أن تحول إلى كارثة بل وكوارث أصابت سكان المدينة الجميلة بالشلل حيث شحت المواد الاستهلاكية لديهم خاصة وأنهم يعيشون فى مدينة مثلها مثل جميع مدن العالم تعتمد على التصدير والاستيراد ، وهما العاملان اللذان تعرضا إلى المنع نتيجة لوجود حقول الأشواك التى وقفت وتقف أمامهم بالمرصاد تمنعهم من

الحركة وتمنع المعونة عنهم إلا من قبل بعض من أسعفته الحيلة لكي ينفذ من خلال حقول الأشواك بشكل أو بآخر ، وازدادت آلام سكان هذه المدينة الذين فقدوا أعز ما لديهم من أفراد عوائلهم أطفالا ونساء وشيوخا نتيجة الشحة في المواد أو بسبب تعرضهم لأمراض كان من الصعب علاجها والمدينة محاصرة لا تدخل إليهم الأدوية ولا يمكن إخراج مرضاها لعلاجهم في المدن الأخرى المحيطة بها .

ومرت الأيام وانقضت الأشهر وتوالت السنوات والمدينة الحزينة ترزح تحت وطأة الأشواك وقسوة حقولها الكريهة ، وحاول الكثيرون من سكانها تحليل وجود هذه الحقول وسبب ظهورها ، فمنهم من قال بأن محافظ المدينة كان يعلم تمام العلم بمصير المدينة قبل أن تظهر الحقول فيها ، إلا أنه لم يفعل شيئا لتدارك سقوطها ضحية أمام حقول الأشواك ، بل أنه كان العامل الذي ساعد على ظهورها ، فهو وحرسه وموظفيه ومستخدميه لم يعان ولا يعاني إلى اليوم من أشواك الحقول الكريهة ، بل أنه يحيا كما كان يحيا سابقا في بحبوحة لم تؤثر عليها الأشواك ولم تمنعها من الازدياد والتكاثر حتى تحت ظل الأشواك التي قيل أنها متواطئة معه ومع من حوله . ومنهم من قال أنها غضب السماء الذي جاء نتيجة لسلوك بعض سكان هذه المدينة الذين تجاوزوا حقوقهم ، فعبثوا بالصغيرة والكبيرة حتى أنهم نسوا غضب السماء الذي انصب عليهم فجأة بحقول لا نفع فيها إلا بأشواك تذكرهم بماض كانوا يعتقدون فيه أنهم أسياد الأرض وليس ولاتها . وادعى آخرون بأن حقول الأشواك هذه ماهي إلا امتحان تخضع له المدينة الحزينة مثل أي امتحان آخر تمر فيه أية مدينة من مدن كرتنا الأرضية لابد وأن ينتهي بزوال الحزن مع الأيام وبمرور الزمن وما الزمن إلا نسبي حتى وإن تجاوز سنوات بل وعقود من السنوات . ازدادت التحليلات وكثرت التبريرات ومازالت المدينة الحزينة تئن من آلام الأشواك وحقولها القاتلة ومازال سكانها يحيون الأمرين حتى وإن امتلكوا الإيمان الذي يعزي بعضا من آلامهم .

ومع مرور الأيام وانقضاء الأشهر وتوالي السنوات ، ظهر بصيص من النور أمام سكان المدينة الحزينة ، بصيص طالما استوعب عبدالتواب وزملاء له أبعاده وأدركوا متانته منذ البداية تجاه حقول الأشواك هذه ، ألا وهو دعوة لجميع سكان المدينة الذين بقوا فيها أو الذين تمكنوا من مغادرتها أو كانوا قد غادروها سابقا ، دعوة لتضامن متين وتعبئة فعالة على مستوى الداخل والخارج لكي لا ينحصر مجهود مقاومة حقول الأشواك

على من هم أمامها بل على جميع من يحب هذه المدينة الحزينة . تضامن يشرح لسكان المدن الأخرى المحيطة بمدينتهم وحتى البعيدة عنها بضرورة إزالة حقول الأشواك عن المدينة الحزينة التى إن كانت تؤلم سكانها اليوم، فإنها قد تمتد يوما لكى تتعرض مدن أخرى لقسوتها . لم يكن نشر هذا البصيص سهلا فى بداية الأمر ، حيث أن سكان المدن الأخرى المحيطة بالمدينة الحزينة أو البعيدة عنها كانوا غير مبالين بهذه الحقول التى شوهت وسائل الإعلام صورتها وجعلتها حقولا لا يمكن أن تمسهم بأذى لا على المدى القريب ولا على المدى البعيد . وكان من الصعوبة سابقا على هذه النخبة أن تتوصل إلى قلوب سكان المدن الأخرى وتشرح لهم مدى خطورة حقول الأشواك عليهم وعلى الجميع . ولم يكن سهلا لهم أن يمدوا أياديهم نحو أيادى سكان المدن الأخرى لكى تطلب منها العمل سوية لحاصرة حقول الأشواك من الداخل ومن الخارج على حد السواء بالتضامن وبالتضامن فقط . وكانت فرحة عبدالتواب كبيرة عندما رأي بأن تيار التضامن مع سكان المدينة الحزينة يزداد اليوم شيئا، فشيئا وإن إدراك سكان المدينة الأخرى يزداد هو الآخر مبشرا بموعد الخلاص من أشواك الشر وحقولها الزائلة .

اليوم ، يعمل عبدالتواب مع زملائه الذين يتزايد عددهم يوما بعد يوم سواء في داخل المدينة الحزينة أو خارجها باللجوء إلى أبسط الوسائل أو أعقدها، على جعل بصيص النور هذا شعلة تتلاقفها الأيادى ، جميع الأيادى وتتطلع لها الأعين جميع الأعين ، شعلة بمقدورها إن تضامنت كافة المدن مع المدينة الحزينة ، وإن تكاتفت أيادى جميع سكان المدينة الأخرى مع سكان المدينة الحزينة أن تحرق حقول الأشواك وتحيلها إلى رماد يعيد الابتسامة إلى سكان المدينة الحزينة. ويستمر عبدالتواب وهو يحتضن زوجته ويقبل طفليه بالعمل الدائم والدؤوب مع جميع زملائه ورفاقه على تحقيق حلمه المتمثل فى أمله بعودة الفرح إلى المدينة الحزينة، التى يزداد اقتناعه أكثر فأكثر بأنها لابد وأن تحمل فى أقرب فرصة ممكنة تسمية «المدينة السعيدة» وهى تنفض عن أثوابها رماد الحزن ، حزن حقول الأشواك التى يرى منذ الآن فى آفاق سمائها الواسعة زوال غمامتها السوداء وهى تتبخر تحت اشعاعات شمس الأمل ، الأمل الذى طالما ردد المثل الشعبى معانيه فى عبارة واحدة هى وببساطة «لولا الأمل لبطل العمل» .

كتاب جديد

قصة حياة عادية



عرض :
د. أحمد السيد عوضين

«قصة حياة» عادية» - عنوان الكتاب الذى أصدره الدكتور / يحيى الجمل (١) : رجل السياسة ، وأستاذ القانون ، والذى يمارس - فى نفس الوقت - مهنة المحاماة ، وقد كان مبرزا فى تلك المجالات جميعها ... وها هوذا يكشف عن مجال آخر يرتاده بأصالة ويبدع فيه على نحو لافت للنظر ، مثير للإعجاب ، إذ يطرق باب السيرة الذاتية ، ليخرج إلينا هذه القصة التى بين أيدينا يروى فيها سيرته صبيا ، ففتى ، فشابا، ثم رجلا مكتملا .. ولكنه يتوقف عند أولى مراحل الرجولة المبكرة ، لايتجاوزها إلى دهاليز السياسة ، ومعترك الحياة ، والتى خاضها أستاذا جامعيا ونائبا برلمانيا ووزيرا يشارك فى المسئولية الوزارية ، وكذلك فإنه لم يتجاوزها إلى حياته الزوجية والمسئولية الأبوية .

فقصته لم تكتمل فصولها بعد ، فقد توقفت عند مرحلة التكوين منذ أن خطا خطواته الأولى فى سبيل العلم والمعرفة إلى أن حصل على درجة الدكتوراه .

١- عدد يوليو من «كتاب الهلال»

وعلى مدار هذه الفترة يحكي المؤلف قصة «صاحبنا» - أو قصة الفتى - منذ أن عبر النيل من البر الشرقي إلى البر الغربي - في طفولته الباكرة - ليعيش في أحضان جدته لأمه ، ينعم بدفء الحب ، وفيض الحنان ، بما ينسيه أن له أما غير الجدة ، وأبا واخوة - ولم يلبث طويلا في كنف هذه الرعاية والتدليل ، فما أسرع ما رحلت الجدة عن دنيانا ، فكان حتما أن يعود إلى المنزل الذي يضم أسرته ، في قريته في البر الشرقي من النيل ، فينشأ في كنف أسرة متوسطة الحال - لكنها تنعم بالستر والقناعة - وتمضي بأبنائها إلى حيث يتلقون العلم ، ويتابعون الدراسة في المدارس الأميرية . وكان من حظ «صاحبنا» أن ينتقل إلى طنطا ليتلقى تعليمه الابتدائي ، ولكنه ما يلبث أن ينتقل إلى القاهرة ليحصل من مدارسها على شهادة الابتدائية ، فالثقافة ثم التوجيهية ، ليلتحق بعد ذلك بكلية الحقوق ، ويتخرج منها ليعمل فترة وجيزة في المحاماة ، يتم تعيينه بعدها في «النيابة العامة» ، ليعمل فترة في محافظة سوهاج ، ثم ينقل إلى القاهرة، وبعدها يعار إلى المملكة الليبية ، ولكنه لم يمكث بها طويلاً ، ولم يلبث أن عاد إلى وطنه ..

وكان منذ أن تخرج وشاغله هو الحصول على درجة الدكتوراه ، وقد بذل في سبيلها الكثير من الجهد والمال حتى لقد سعى للعمل بالسعودية فترة لغاية محددة حتى يتسنى له ادخار قدر من المال يعينه على السفر إلى أوربا ليتحقق أمل حياته في الاطلاع والتزود بالمعارف حتى يتسنى له أن يعد «أطروحته» للدكتوراه مكتملة المراجع ، موفية بالغرض، أقرب ما تكون إلى الكمال .

وإذ حظيت تلك «الأطروحة» - أو «الرسالة» بالتقدير المشرف ، ونال بها درجة الدكتوراه في الحقوق ، وكان موضوعها «الاعتراف في القانون الدولي الخاص» - فقد شعر أنه حقق أمل حياته وأنه بذلك قد فتح له - وأمامه - باب الأستاذية في الجامعة ، ولكن طموحه لم يقف به عند ذاك الحد .. فما لبث أن تجاوز أسوار الجامعة إلى مجالات السياسة وسواها من مجالات الحياة العامة - وهي مجالات لم يحدثنا بعد عن تجربته - أوتجاربه - فيها ، مرجئا ذلك - ربما - إلى كتاب تال - لن يكون عنوانه - فيما أتوقع - ذات العنوان ، بعد أن أصبح علما مبرزا ، وخاض ما خاض من مجالات ترك فيها جميعا بصمات سوف تنكر له على مر الأيام .

★ ★ ★

والكتاب - في الواقع لايقف عند سرد تلك الفترة من حياة «صاحبنا» بل هو

يحرص على أن يتعمق كل ما مر به من أحداث ، وكل من لقي من شخصيات ، وكل ما اجتاز من تجارب ، وما شغل به من أفكار ليقدم لنا ثمرة ذلك كله من خلال صفحات كتابه ، وفي ثنايا روايته لفصول قصة حياته .. التي وإن أخذت اسم القصة، إلا أنها لم تنتهج أسلوب القصة الفني في رواية الأحداث ، بل أخذ بأسلوب السرد المباشر وهو أسلوب ذائع في رواية السيرة الذاتية في كثير من الأحيان .

ولعل حديثه عن «كتاب الشيخ عبدالحميد قشطة» الذي انخرط «صاحبنا» فيه بحفظ القرآن الكريم - كان من أمتع الأحاديث ، فقد كان يتزايد قدر ما يحفظ من القرآن يوما بعد يوم حتى لقد عرف عنه بين لداته سرعة الحفظ ، وحسن الإلقاء، وكان الشيخ فخورا به .. إلا أن ذلك لم يعفه من أن يضعه في «الفلكة» وما أدراك ما «الفلكة» التي اقتيد إليها مرتين حيث كان الشيخ يأمر فتوضع رجلاه فيها، ويضربه الشيخ ضربا موجعا .. وفي المرة الثانية كان الفراق بينه وبين الكتاب حيث أعلن عصيانا لا عدول عنه .. وكان ذلك أول السبيل لتحوله إلى التعليم المدني بعد أن قد اختط طريقه للتعليم الأزهري .

الحب والحنان والقوة والإصرار

وتحدث «صاحبنا» عن جده ، وأنه «مازال يذكره ، وكيف كان فارعا يكاد الدم ينفر من وجهه من شدة احمراره ، وكان حاد المزاج لايكاد يتكلم بهدوء في أمر من الأمور .. وعلى العكس من ذلك فلم يكن أبوه - وهو ذلك الوالد الحنون - من الشخصيات الآمرة الناهية المستبدة بأبنائها .. كان مسالما لايحب المشاكل وينأى بنفسه ويود لو نأى بأولاده جميعا عنها ، وكان متدينا في غير تطرف ، محبا للحياة في غير تكالب . يسره من دنياه رؤية أولاده ناجحين ، ويسعده أن يأكل من الطعام ما يشتهيه ويستطيبه ، أما أمه فقد كانت - في الحقيقة - شخصية مختلفة عن أبيه كل الاختلاف .. كانت حادة الذكاء ، قوية الشكيمة ، متميزة الشخصية، وكانت أقرب إلى القسوة على نفسها وعلى أولادها . لاتكاد تترك خطأ صغيرا دون أن تعنف مرتكبه من الأولاد أو من الغير أشد التعنيف ...

وعلى ذلك - فقد كانت الصورة مقلوبة: كان الأب هو مصدر الحب والحنان ، وكانت الأم هي مصدر القوة والجسم والإصرار .. ولكن الشيء الذي لاشك فيه أن الفتى وإخوته جميعا رغم أنهم كانوا يحسون إحساسا قويا بحرص كل من والديهما عليهم ، وعلى مستقبلهم ، إلا انهم لم يتمتعوا بذلك الدفء العائلي الذي تهيئه الحياة المستقرة التي يسودها التفاهم بين الزوجين ، ولعل ذلك قد ألقى كثيرا من الظلال على نفس الفتى وعلى

نظرته لكثير من الأمور ..

والفتى أو «صاحبنا» محب منذ صباه الباكر للقراءة مغرم بالاطلاع - كان وهو فى قريته يحرص على قراءة ما يصل إليه من كتب ومجلات أدبية يلتهمها التهاما حتى إذا ما استقرت إقامته في القاهرة اتسع المجال أمامه ، فاستغله أحسن استغلال وأعانته «دار الكتب» على تحقيق غايته ، بما كانت تتيح له من «استعارة» كل مالا يقدر على شرائه ، إما لأنه غالي الثمن أو لأنه من كتب التراث التي لايسهل العثور عليها .

وإذا كان «صاحبنا» قد شارك إلى حد ما فى النشاط السياسي بتردده على «نادى الحزب الوطني» ليصبح بعد ذلك واحدا من شباب ذلك الحزب ، كما كان على مقربة من نشاط الاخوان المسلمين يتابعه ، ورغم أنه بذلك قد تفتح للحياة السياسية إلا أنه - كما يذكر - : «فإن اتجاهاته الأدبية ورغبته في تثقيف نفسه كانت غالبة على كل شئ ، وعرف بين أقرانه في المدرسة بحبه للقراءة الأدبية وشغفه بها أكثر مما عرف باعتباره من هواة السياسة» .

غير أن ذلك لم يحل بينه وبين الاشتراك في المظاهرات ، وكان ذلك أيام ١٩٤٦ إبان حكومة إسماعيل صدقى ، حتى أنه لم يتخلف عن أغلب تلك للظاهرات ، بل إنه قاد بعضها أحيانا ، ولكنه - كما يقرر - ينفر نفورا طبيعيا من أى عمل تخريبي يقوم به بعض الشباب .

كما أنه خلال تلك الفترة من الشباب الباكر توثقت صلته بالدكتور / نظمى لوقا - الذى اهتم به ، بل وشجعه على أن يحضر صالون الجمعة عند «العقاد» ويصف أول زيارة له فيقول : «وذهب صاحبنا وهو خائف يترقب .. ذهب هيابا وجلا .. ودلف إلى الصالون وسلم على العملاق ، ثم جلس حيث وجد مكانا ، وأخذ ينصت إلى الحوار الدائر ، وهو لايكاد يصدق نفسه أنه فى مجلس العقاد. وسمع العقاد وهو يضحك ضحكته المجلجلة وسمعه يلقى بألفاظ ما كان يتصور أن هذا العملاق يخرج مثلها من فمه ، ورأى فى صالون العقاد كثيرا من أصحاب الأسماء الكبيرة التى كان يقرأ لها ويحس نحوها بغير قليل من التوقير والإجلال .. وقد استمر مواظبا على صالون العقاد بقية مرحلة الدراسة الثانوية وطوال المرحلة الجامعية ولم ينقطع عنه الا عندما تخرج وعين فى النيابة العامة فى صعيد مصر» ويختم حديثه عن هذه الفترة بقوله : «وقد كان صالون العقاد مدرسة حقيقية ، وكان فرصة رائعة للتعرف والقرب من عدد من القيادات الفكرية ...» .

★ ★ ★

ويتحدث طويلا عن مرحلة دراسته الجامعية .. فيذكر أنه كان أمامه خياران

لا ثالث لهما : قسم الفلسفة بكلية الآداب أو كلية الحقوق ، فهو يحب القراءات الفلسفية والأدبية ، وقد قضى سنواته الفائتة من حياته معها ، غير أن أباه كان قاطعا في رفضه لقسم الفلسفة لما كان يراه من أن تلك الفلسفة قريبة من الكفر أو مؤدية له .. «ومن هنا فإذا كان قد اختار دراسة الحقوق ، فقد كان ذلك نزولا على ما انتهى إليه بينه وبين نفسه من قرار : لتكن الفلسفة هوايتي وليكن القانون حرفتي ومهنتي - ولعل كتابه الذي بين أيدينا هو خير دليل على ذلك ، فهو في تصنيفه كتاب أدبي ، فلسفي ، نفسي ، تحليلي .. وهو في ذات الوقت بقلم أستاذ في القانون ومحام من كبار المحامين .

وإذ كان التحاقه بالجامعة في أواخر عقد الأربعينيات ، فإنه يصف الحياة العامة في مصر كلها بأنها كانت تفور فوراناً عجيباً يوحي بأن إعصاراً يوشك أن يهب ليقتلع كل شيء ، وإنه لم يعد لشيء ولا لأحد وقار ، حتى إن الملك نفسه فقد اعتباره بين الناس ، وأصبح الحديث عن مباذله وفساده على كل لسان .

وقد ظل «صاحبنا» طوال مرحلة دراسته الجامعية مشاركاً في النشاط السياسي ، قريباً منه القرب كله ، وبصفه خاصة من الحركة الوطنية وكتائب الفدائيين - إلا أن ذلك لم يكن ليجعل دراسته تتأثر بذلك النشاط ، وإنه ليذكر بعض أساتذته بكثير من التقدير - يذكر الشيخ عبدالوهاب خلاف فيقول إنه كان من العلماء الأزهريين المتميزين تميزاً ظاهرا كان صاحب صوت جهوري واضح، وذا منطق قوي ، وكان متفتح العقل مستنيراً إلى أبعد حدود الاستنارة ففي الحقيقة أن الرجل كان عظيماً وكان مهيباً .

وكذلك يذكر أنه كان من أساتذته الذين مازال يذكرهم الدكتور / أمين بدر الذي كان لايزال شابا عائدا من البعثة منذ أمد قصير ولكنه كان شابا ممتلئا حماسا واعتزازا بالنفس ، وكان جادا يأخذ أموره كلها مأخذ الجد ، وكانت محاضراته علما خالصا .. على أن أمين بدر خارج المحاضرة كان حريصا على أن يقيم علاقات مع الطلاب المتفوقين والطلاب المشاركين في الأنشطة العامة في الكلية وكان أمين بدر إلى جوار تمكنه من مادته القانونية - متمكنا أيضا من اللغة العربية وكان صاحب ذهن قوي منطقي حاد ..

★ ★ ★

ولا نقف طويلا عند حديث صاحبنا عن حريق القاهرة وما تلاه من اضطرابات سياسية ، ولكننا نقف معه عند هذه المصادفات ، فقد أعلنت نتيجة الليسانس يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وفي نفس اليوم توفي عميد الكلية ، وكان الجيش قد تحرك منذ ما قبل فجر ذلك اليوم نفسه ليحدث في حياتنا ما أحدث من ثورة بدأت بها مصر

كلها ، فصلا جديدا خطيرا من تاريخها الطويل..

★ ★ ★

على أن كاتبنا حرص على أن يجعل لحديث القلب أكثر من موضع من سيرته .. لعل بداية ذلك كانت وقد جاوز الثانية عشرة من العمر عندما خفق قلبه بالحب لأول مرة وهو مازال في قريته ، وكان بينه وبين حبيبته حب متبادل ، يلتقيان خلسة في أمسيات الصيف . وكان حبهما بريئا ساذجا غرا أيضا .. ولكن أخاها رآهما وهما واقفان في جنح الليل يتهامسان ويتناجيان . فما أسرع ما لقيت جزاءها من أخيها ضربا مبرحا أصيبت على أثره بالحمى التي ما لبثت أن أودت بحياتها ... وكانت تلك من أشد صدمات حياته .

ولكن الحياة ما لبثت أن أخذته مع تياراتها ، إلا أن انصرافه إلى العمل لم ينسه نبض القلب ، حتى انه لينكر أنه كان من دواعي حرصه على الاشتراك في المظاهرات أنه وهو في طريقه اليومي إلى المدرسة .. كان يرى تلميذة صغيرة وكان يعرف موعدها .. ولم تزد العلاقة على أنه كان يتبادل معها النظرات ، وكان يحاول بحياء أن يبتسم لها ، وقد ظن يوما أنها بادلته ابتسامة ، وكان يأمل أن تراه وهو على رأس إحدى تلك المظاهرات – ولا يدري ما إذا كان قد تحقق شيء من ذلك أم لا، غير أنه لم يقدر لهذا الحب الصامت أن يستمر طويلا .

ويحكي صاحبنا أنه وهو في «الترام» كان يرى من بين من يرى كل يوم فتاة رقيقة خمرية اللون لها عينان عسليتان أشبه بعيون القطط وكان يجد فيها ملاحة لفتت نظره ، وكان تكرار المقابلة هو الذي أوحى له بذلك على أي حال فقد تجاسر في يوم من الأيام وقال لها صباح الخير، فردت تحيته بمثلها .. ثم اتصلت حبال الود بينهما ، ولكنها ما لبثت أن تقطعت .. فقد كانت الفتاة على ما يبدو من أسرة محافظة ، واضطرتها الظروف إلى الإعراض عنه . ولكن تلك الفتاة لم تكن هي الوحيدة التي لفتت نظره ، فقد ظل طوال دراسته «يستملح من بعيد» – دون أن يقيم علاقة متصلة مع أي من رفيقات الدرس .. ولعل حرصهن – لقلة عددهن – على الجلوس في الصف الأول من المدرج كان يجعل المسافة بينه وبينهن بعيدة ..!!

على أن تجربته الحقيقية التي خاضها حتى الثمالة – فأشعلت الحب في قلبه ، وقلبت كيانه كله – كانت في طرابلس– في غضون تلك الفترة القصيرة التي قضاها في ليبيا – حين اتصلت أسبابه بأسباب تلك الأمريكية الشعنونة التي التقى بها في فندق «المهاري» .. ولكن تلك الأسباب ما لبثت أن تقطعت وهو يودع ليبيا كلها عائدا إلى مصر .

★ ★ ★

وهكذا طوف بنا صاحب تلك الحياة عبر السنوات الثلاثين الأولى من حياته –

وهي سنوات التكوين - ليطلعنا على صورة دقيقة لأيامه ولياليه، لجهاده وجهوده، وعمله الجاد، كما لم ينس أن يطلعنا - في نفس الوقت - على ما شغل قلبه من عواطف، وما كان يثور في نفسه من انفعالات، بل ولم يتردد في أن يكاشفنا بما وقع منه من زلل - وكأني به أراد أن يقول ... هاكم حياتي على حقيقتها، بكل مافيها من نقص في تكويني، والمنابع التي ارتويت منها - عقليا وعاطفيا - ولعلني بذلك أكون قد كشفت عن الحقيقة، وقدمت صورة أقرب ما تكون إلى الواقع.

وإذا كان لنا من كلمة نوردها في نهاية عرضنا لهذه القصة فإننا نوجزها فيما يلي:

لايمكن لمنصف أن ينكر على الكاتب نزعته الأدبية، وتصويره الفني، بل ولغته الشاعرة، حتى إنني لأزعم أنه لو كان قد اتجه إلى مجال الفن القصصي لقدم إبداعات تحتل مكانها في عالم الرواية - أو القصة القصيرة -

كما أننا نشير إلى هذا المزج - في الرواية - بين ماهو شخصي وما هو عام، في نسيج واحد، حتى ليكاد يرسم صورة للمجتمع المصرى في القطاعات التي تحدث عنها طوال تلك الحقيقة من خلال روايته لسيرته الذاتية.

كما نذكر أننا أحسسنا بالصدق طوال صفحات القصة، وهو صدق مقترن بالصراحة دائماً حتى لتكاد تلك الصراحة تجاوز الحد المعقول في بعض الأحيان.

كما نذكر له حديثه عن القرية وعما تعانيه الأسر متوسطة الحال فيها من متاعب، حيث تعجز إمكانياتها القليلة عن الوفاء بتطلعاتها الكبيرة، ولكنها - مع الإصرار والدأب - تفلح في آخر الأمر في الوصول بأبنائها إلى ما تتمناه لهم بعد أن تكون قد لقيت من المشاق ألواناً وألواناً ... وهذا هو الفلاح المصرى بما تميز به عبر العصور من جلد وصبر يشق بهما الصخور.

وإذا كنا نأخذ عليه شيئاً فهو إيراده للكثير من التفاصيل التي شغلت الحيز الأكبر من القصة واضطرته إلى أن يقتضبها في النهاية اقتضاباً حتى ليوجز رحلته في سبيل الحصول على الدكتوراه في صفحات محدودة لم تشف غليلنا للوقوف على ما بذل من جهد علمي متصل حتى كللت خطاه بالنجاح.

★ ★ ★

وإذا كنا قد تلقينا هذه الصفحات بتقدير واعتزاز فإننا سوف ننتظر الجزء الثاني من هذه القصة على شوق وفي ترقب حيث يروى لنا الجانب الثرى من حياته الفكرية والجامعية والاجتماعية والسياسية .. فضلاً عن تجربته في الإدارة المصرية .. فهل يطول بنا الانتظار؟؟

عاملة نظافة

شعر

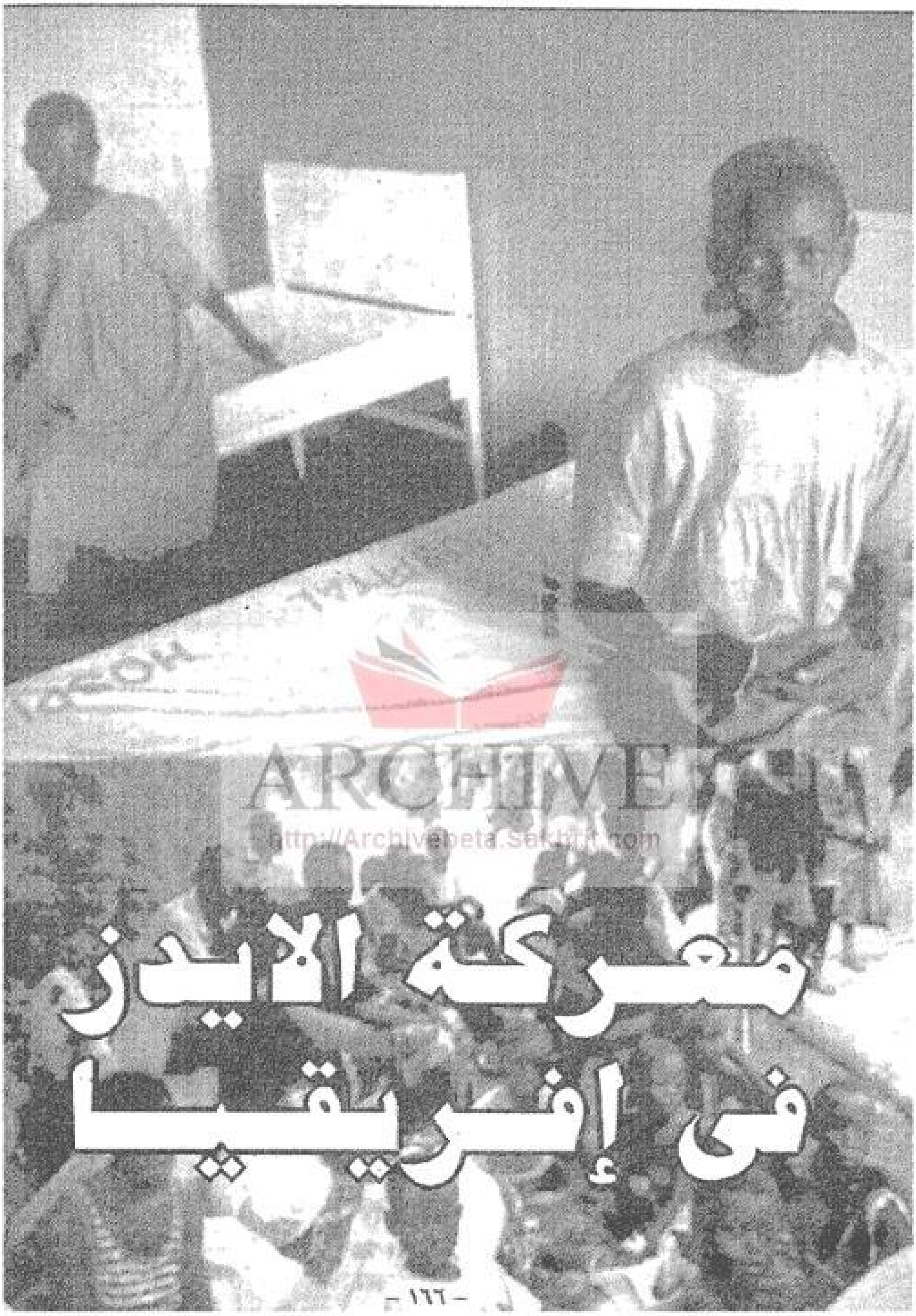
عبده بدوى



لست أنسى مقلتيها تحت أهداب ثمينه
وخيوطا من غناء تتداعى فى ليونه
وابتساما فيه شىء من هناءات ضنيله
.. لم تكن تلبس عقدا يتدلى فى رعونه
أو سوارا عبقريا يحضن الكف الأمينه
أو تمدّ «الزوج» مدا للشفاه المستكينه
أو يرى الفستان يعلو فوق عرش الياسمينه
فهى تمشى فى نظام وفق لحن يعزفونه !

★★★

كل من يسأل عنها كيف تبدو فى خشونه ؟
كيف لا تنساب فجرا أو شراعا فى سفينه ؟
تضحك العينان حتى يملأ الضحك السكينه
ثم تمضى فى حديث دون أن تُلْقَى حزينه
«.. زينتى تزداد نورا عند تنظيف المدينه
فإذا رقّت ، وشفت صرت فى أجمل زينه !


معركة الإيدز
فى إفريقيا

سامى راتب *

من الصعوبة بمكان استيعاب الحقيقة الكاملة لوباء الايدز الذى أصبح ،،عالميا، .. والذى يعتقد أنه أودى حتى الآن بحياة ١٩ مليون شخص، وهو عدد يمثل تقريبا ضعف عدد الاشخاص الذين قتلوا فى الحرب العالمية الاولى.. لقد أصاب هذا المرض اللعين ٣٤ مليونا آخرين، وعندما يموت هؤلاء وهو الامر الذى سيحدث خلال السنوات القليلة القادمة فإن ضحايا مرض الايدز يكون قد وصل تقريبا الى ذات العدد الذى قتل فى الحرب العالمية الثانية .. ولم يبد هذا المرض الوبائى أى علامات على أن الاصابة به أخذت طريقها نحو الانخفاض. وحسبما تقول منظمة الأمم المتحدة لمكافحة الإيدز / يونيدز / وهى المنظمة التى تتولى التنسيق بين جهود منظمات ووكالات الامم المتحدة لمكافحة الإيدز فإن خمسة ملايين شخص يصابون سنويا بفيروس فقدان المناعة المكتسبة /اتش آى فى / المسبب لمرض الايدز. ولو أن هؤلاء الاشخاص قد ماتوا بطلقات الرصاص والقنابل لما كانت العناوين الرئيسية للصحف والمجلات قد تركتهم هكذا دون اهتمام مثلما يحدث مع ضحايا الايدز.

إن تأثير مرض الايدز على أعداد السكان مماثل تماما لما تنزله الحروب من ضحايا بين هؤلاء السكان، فمعظم الامراض الاخرى تقتل الاطفال والمسنين غير ان الايدز مثل الحروب فهو يقتل الافراد وهم فى مقتبل العمر فعندما تتقاتل الجيوش فإننا نجد غالبية الضحايا من الشباب ولا يتوقف الامر عند هذا الحد فالايدز يقتل الفتيات والسيدات الشابات ايضا.

ولم يأت من فراغ الشعار الذى رفعه المؤتمر الدولى لمكافحة الايدز الذى عقد فى ديربان بجنوب افريقيا يوم التاسع من يوليو الجارى وهو «لنكسر دائرة الصمت».

*وكالة أنباء الشرق الأوسط

ويشير انعقاد هذا المؤتمر في افريقيا وهو المؤتمر الدولي الثالث عشر لمكافحة الإيدز إلى أنه قد يجرى حاليا إحراز بعض التقدم في الجهود الأفريقية للسيطرة على هذا المرض. وربما يكون هذا المؤتمر قد نجح في تحقيق شعاره وهو «كسر دائرة الصمت» حول الايدز . والامر الذي تعين اعلانه من فوق منصة هذا المؤتمر هو ان الايدز على عكس الافكار الشائعة ليس في المقام الاول مرض الرجال الشواذ الغربيين أو الذين يتعاطون العقاقير المخدرة عن طريق الحقن في الاوردة. فقد تم الاعلان عن ان الايدز هو مرض الناس العاديين الذين يعيشون حياة عادية فيما عدا انهم يعيشون في قارة هي «افريقيا» التي تتجاهلها ببساطة دول العالم الغنية.

وفي بعض المناطق فإن المشكلة معقدة لدرجة تجعل من الصعب معها معرفة من أين يتم البدء في العلاج. وتشير إحصاءات الأمم المتحدة الى أن ٢٥ مليون شخص من إجمالي عدد المصابين بالإيدز في العالم حاليا وهو ٣٤ مليونا يعيشون في افريقيا.

قضية الايدز تتوارى عن الانظار في العالم الغربي :

والآن وبعد أن أصبح بامكان الادوية والعقاقير وقف آثار الاصابة بمرض الايدز عند المصابين بهذا المرض ، والذين يمكنهم تحمل تلك الأدوية فإن هذه القضية قد توارت وابتعدت عن الانظار في العالم الغني بصورة ما ، حيث بات الايدز مرضا مثل سائر الامراض الاخرى مثل الملاريا والحصبة والتهاب الغدة النكفية بوسع ابناء العالم الغربي تجاهله ، باعتبار انه من غير المرجح ان يصابوا به ولن يموتوا منه في حالة الاصابة به.

لذلك فإن الايدز ليس مجرد مرض معد آخر وان مقارنة ضحاياه بأعداد ضحايا الحرب ليس مجرد عبارات رنانة.. فمعظم الامراض تختطف الاطفال الصغار والاشخاص المسنين الا ان مرض الايدز يصيب هؤلاء الذين هم في مقتبل العمر وفي سن الشباب. وتتحول المحنة الانسانية لضحايا الايدز واسرهم الى محنة اجتماعية واقتصادية في الدول التي تتأثر بهذا المرض . وباستثناءات قليلة فإن هذه الدول توجد في افريقيا وهي القارة التي تعاني بالفعل وبقدر كاف من مشكلات اقتصادية واجتماعية.

المبادرات الجديدة لمكافحة الايدز تمثل قطرة في محيط :

وبدأت الاتجاهات في التغيير الآن، ففي شهر يناير الماضي رفعت الولايات المتحدة من درجة خطورة مرض الايدز، وأعلنت الحكومة الأمريكية أن الايدز ليس فقط من الامراض التي تؤثر على صحة الإنسان بل هو مرض يؤثر على أمن الدول. وقد أعلن رئيس البنك الدولي جيمس ولفنسون انه ليس هناك حد للمبالغ التي سينفقها البنك الدولي على مكافحة الايدز وأنه تم الآن رصد خمسمائة مليون دولار لهذا الغرض.

وقد اتفقت خمس من شركات الادوية الكبرى مع منظمة الامم المتحدة لمكافحة الايدز يونيدز ، ليس فقط على ضرورة القيام بعمل ما ولكن ايضا على حتمية قيام هذه الشركات بالمعاونة فى مكافحة هذا المرض. وخصصت إحدى الشركات وهي شركة ميرك مبلغ ٥٠ مليون دولار من أموالها لهذا الغرض، واتفقت الشركة مع مؤسسة جيتس الخيرية الامريكية على تنفيذ برنامج شامل لمكافحة الايدز فى بوتسوانا الدولة الاكثر تضررا فى العالم فى مرض الإيدز.

ومثل هذه المبادرات امر طيب حتى وإن كانت جميعها قطرة فى المحيط. فالبنك الدولى يقدر احتياجات افريقيا وحدها لمكافحة هذا المرض بحوالى ٣ر٢ مليار دولار، غير انه نادرا ما تتمكن الاطراف الخارجية من حل مشكلات منطقة لا ينتمون إليها، فمرض الايدز فى الدول الفقيرة حسبما تقول مجلة الايكونوميست البريطانية فى عددها الاخير لن يختفى طالما لم يعط زعماء هذه الدول القدوة فى مكافحة هذا المرض ولم يحدث ذلك في افريقيا باستثناء حالة أو حالتين . وتشير المجلة إلى أن بعض الزعماء الافارقة تجاهلوا المشكلة وجنوب افريقيا الدولة المضيفة للمؤتمر الدولى لمكافحة الايدز الذى عقد فى ديربان هى أسوأ مثال على تجاهل مرض الايدز. فقد شنت حملات غاضبة على شركات الادوية بينما هى فى الوقت نفسه لم تفعل شيئا على المستوى الداخلى لتشجيع استخدام عقار «ايه زد تى» أو «نيفرابين» وهو الدواء المعروف بأنه يمنع انتقال المرض من الام الى الطفل عند الميلاد.

الطابع الخاص للقارة الافريقية :

وبالتأكيد فإن لافريقيا بعض الملامح والصفات الخاصة وجميعها تعمل على اضعاف السكان، وجعلهم معرضين للإصابة بالأمراض بصورة تفوق الاشخاص الاخرين فى مناطق العالم الاخرى.

ويؤدى الفقر إلى تفاقم المشكلة ونفس الشيء تفعله الحروب التى لا تنقطع فى هذه القارة ، وإذا ما كانت أفريقيا قارة غنية يعم ربوعها السلام مثل أوروبا وأمريكا فربما كان الإيدز نادراً الحدوث مثلما هو الحال فى مناطق أخرى من العالم.

غير ان نقص الاموال ليس في نهاية الامر هو الذى يسبب الايدز.. انه فيروس ووقف هذا الفيروس او الحد من سرعة انتشاره ليس بالامر المستحيل ، مثلما هو الحال فى اوغندا التى نجحت في تخفيض مستوى الاصابة بفيروس اتش اى فى المسبب لمرض الايدز من ١٤ فى المائة الى ٨ فى المائة خلال السنوات العشر الماضية.

وتوضح مجلة الايكونوميست فى مقالها حول الايدز ان هناك القليل من الاجراءات البسيطة ولكنها مهمة يتعين

اتخاذها لمكافحة هذا المرض.. واول هذه الاجــراءات هو الكف عن الشـــعـــور بالاشمئزاز تجاه الجنس والحديث عنه.. فالايدز مرض ينتقل عن طريق الممارسات الجنسية اى ان الناس هم الذين ينقلونه بعضــهم لبعض ، والحـديث عن الايدز يعتبر مسألة محظورة ومحرمة فى الكثير من الثقافات الافريقية غير أنه امكن التغلب على هذا الحظر فى مناطق مثل اوغندا.

وتقول المجلة ان جميع حملات الوقاية الناجحة من هذا المرض قد جرت عن طريق التوعية بوسائل الوقاية المختلفة، خاصة؛استخدام العازل الطبى الذى يقلل قليلا فقط من الاستمتاع الجنسى، امـا التوعية التى حضت على الامتناع عن الممارسات الجنسية فقد فشلت تماما.

وتتمثل الفكرة الثانية فى اجراء الاختبارات على السيدات الحوامل للكشف عن فيروس اتش اى فى المسبب للايدز واعطائهن العقار ايه زد تى او نيفرابين اذا ما أسفر الفحص عن اثبات اصابتهن بفيروس الإيدز، ويعتبر ذلك أرخص استخدام للعقاقير المضادة للايدز وأكثرها فاعلية والتى يتعين ان تكون احد أولويات الميزانية الصحية لأفقر الدول. وهذه الاجراءات يمكنها ان تنقذ حياة حوالى خمسمائه الف طفل سنويا.

وهناك وسيلة أخرى لمنع انتشار الايدز حسبما تقول الايكونوميست وتتمثل هذه الوسيلة فى تقوية سلطة المرأة حتى تتمكن من ان ترفض الممارسة الجنسية وهذا امر يعتبر صعبا للغاية فى الثقافات الافريقية. غير ان السيدات المتعلمات لديهن فرصة افضل لرفض ممارسة الجنس غير الآمن وغير المحصن بصورة تفوق غير المتعلمات . والرفض هنا لا يعنى رفض ممارسة الجنس برمته ولكن رفض ممارسة الجنس غير الآمنة مع اى شخص معروفة حالته بالنسبة لفيروس اتش آى فى .

ومن الامور التى تدعو الى الدهشة تلك التصرفات التى يسلكها الاشخاص الاصحاء تجاه مرضى الايدز . فعادة ما يؤدى اصابة شخص بالمرض الى شعور الاخرين بالشفقة والتعاطف تجاه ذلك الشخص المريض ، غير ان الامر مختلف مع مرضى الايدز ففى الكثير من مناطق العالم تتم معاملة هؤلاء الاشخاص الذين يحملون فيروس اتش اى فى، مثل المعاملة التى كان يلقاها المصاب بالجذام فى العصور القديمة. فقد تعرضت سيدة من اقليم كوازولو ناتال بجنوب افريقيا الى الرجم بالحجارة حتى الموت من جانب جيرانها عندما كشفت لهم عن انها مصابة بفيروس اتش اى فى.

الدول الاكثر تضررا من الايدز

والوضع فى بوتسوانا بالغ الخطورة بسبب تفشى المرض ووفاة اعداد كبيرة بسبب الاصابة به. فبعد عشر سنوات من

الان فإن متوسط عمر الفرد المولود فى بوتسوانا سينخفض الى ٢٩ عاما وفى غضون عشرين عاما فان عدد الاشخاص المسنين سوف يتفوق على عدد الافراد الذين هم فى سن الشباب.

وليست الاحوال فى الدول الاخرى المجاورة لبوتسوانا فى الجنوب الافريقى افضل كثيرا. ففى زيمبابوى وناميبيا سيصل متوسط عمر الافراد فى عام ٢٠١٠ الى ٣٣ عاما وفى جنوب افريقيا الى ٣٥ عاما.

ويعنى تدمير الايدز للشباب ان المرض يخلق فى المجتمع اعدادا كبيرة من اليتامى على نطاق لم يحدث من قبل. فيوجد فى العالم حوالى ٢ر١١ مليون من هؤلاء اليتامى الذين فقدوا من يعولهم نتيجة الاصابة بمرض الايدز ويوجد فى افريقيا وحدها حوالى ٧ر١٠ مليون طفل من هؤلاء اليتامى.

تحرك لمواجهة الايدز :

ورغم تلك الصورة القاتمة لانتشار المرض وتأثيره فى القارة الافريقية فإن الأمل مازال باقيا فى امكانية محاصرة هذا المرض والحد من انتشاره.

وتعتبر اوغندا والسنغال من الدول الافريقية التى بدأت فى تنفيذ برنامج للتعامل مع هذا المرض . فخبرة الدولتين وتحركهما يمكن ان يمثل تحذيرا ودرسا للدول الاخرى فى العالم خاصة تلك الواقعة فى اسيا ، والتى توجد بها حاليا نسبة اصابة منخفضة وتشعر هذه الدول بالرضاء ازاء هذه المعدلات المسجلة لديها.

والتحذير الذى يمكن الخروج به من خبرة اوغندا والسنغال هو «تحرك سريعا قبل شعور بالاسف والندم» ، اما الدرس فيتمثل فى ان «الوقت لم يمض بعد للتحرك وعمل شىء».

وقد بدأت السنغال برنامجها لمكافحة مرض الايدز فى عام ١٩٨٦ قبل ان يتمكن الفيروس من احكام قبضته على البلاد ونجحت السنغال فى الحفاظ على معدلات الاصابة بالمرض عند ادنى مستوياتها وهو ما دون نسبة ٢ فى المائة.

اما اوغندا فقد بدأت برنامجها فى أوائل التسعينات وكانت نسبة الاصابة بفيروس المرض بين الشباب ١٤ فى المائة. والآن انخفضت هذه النسبة الى ٨ فى المائة وهى آخذة فى الانخفاض بصورة اكبر ويبدو انه قد امكن وقف الوباء عند معدلاته المنخفضة.

وأوضح دكتور روى اندرسون استاذ طب الأمراض الوبائية بجامعة اوكسفورد فى المؤتمر الدولى لمكافحة الايدز الذى عقد فى ديربان بجنوب افريقيا . ان الحد من اى مرض وبائى ووقف انتشاره يتطلب شيئا واحدا يتمثل فى ان ينخفض متوسط عدد الاشخاص الذين يصابون بالعدوى من شخص مصاب الى اقل من شخص واحد.

ومن الدروس المستفادة مما قاله دكتور اندرسون فى المؤتمر هو انه يتعين

عدم الاستسلام اذا لم تفلح سياسة ما لمكافحة الايدز فى اظهار نتائج مؤثرة.

ويشير اندرسون إلى ان تطبيق جهود كبيرة لمكافحة وباء معين سيكون لها اثر طفيف في البداية غير ان سرعان ما تبدأ معدلات الاصابة فى الانخفاض بصورة مفاجئة وسريعة.

ويمكن القول بأن وسائل علمية وطبية جيدة وسياسة عامة معقولة يمكن ان تتغلب على هذا الوباء.. فهناك بصيص من الامل فى نهاية النفق المظلم.

تحذيرات من خطر الايدز

وكان الرئيس التوجولي جناسنجي اياديما قد اعلن فى كلمته امام المؤتمر السادس والثلاثين لرؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الافريقية ، الذى عقد فى لومى عاصمة توجو خلال الفترة من العاشر الى الثانى عشر من شهر يوليو الجارى ان مرض الايدز منذ ظهوره وانتشاره اصبح السبب الرئيسى وراء الوفاة المبكرة فى القارة الافريقية . وهذا هو السبب فى ضرورة إعطاء اولوية قصوى لمكافحة هذا المرض فى افريقيا وتوجيه جهود دولها من اجل السيطرة على المرض.

واكد الرئيس اياديما على اهمية التعليم والتوعية والمعرفة ان الوقاية هى العلاج الرئيسى والوحيد لمقاومة هذا المرض.

واوضح اياديما كذلك اهمية تنسيق جهود الخبراء الافارقة مع جهود الباحثين الآخرين فى مختلف ارجاء العالم حتى يمكن الوصول الى علاج ناجح لهذا المرض.

واقترح اياديما قيام الدول الافريقية بالتخطيط لاقامة مصنع للادوية فى افريقيا لانتاج العقاقير الطبية والادوية تكون اسعارها فى متناول ابناء الشعوب الافريقية.

اما البيان الختامى لهذا المؤتمر فقد تضمن اعراب دول وحكومات منظمة الوحدة الافريقية عن بالغ القلق ازاء تعاظم انتشار مرض الايدز ووفاة الملايين من جراء الاصابة به.

وأوضح اعلان لومى ان الرؤساء خصصوا جلسة كاملة من الاجتماعات لبحث مشكلة مرض الايدز فى القارة الافريقية مع الاخذ فى الاعتبار التحديات الطبية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السلبية الناجمة عن هذا الوباء فى القارة الافريقية.

واوضح البيان ان الاستجابة للتحديات السابقة تتطلب رفع الوعى السياسى، واظهار قدر اكبر من الارادة السياسية ذات الطابع الاستثنائى على أعلى مستوى فى جميع بلدان القارة.

واعرب رؤساء الدول والحكومات ايضا عن تصميمهم على استبقاء موضوع الايدز فى مقدمة البرامج الوطنية للانشطة الصحية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وجعله من مسائل التنمية.

وتعهد رؤساء الدول والحكومات بضمان قيام الحكومات وخاصة وزارات الصحة بوضع استراتيجيات وطنية لمعالجة موضوع فيروس الايدز كأولوية في اطار خطط التنمية الوطنية وطالبوا السكرتير العام لمنظمة الوحدة الافريقية بوضع خطة عمل للتعجيل بالإصلاح قطاع الصحة مع التركيز على الأوبئة مثل الايدز.



شاعر البؤس

عبد الحميد الديب

المهاجر الأبدى بين أقطار الأسى!..

«مات اليوم شاعر تعرى واكتست جدران الأضرحة وجاع وشبعت كلاب الطريق»
من رثاء كامل الشناوى لعبد الحميد الديب

بقلم: د.فهمي عبدالسلام

أذلة الدهر لا مــــال ولا سكن ∴ فتى تـزيد علي أنفاسه المحــن
إذا سعي فجميـع الأرض قبلتـه ∴ وإذا أقـام فـلا أهـل ولا وطـن
مـهاجر بين أقطار الأسـى أبـدا ∴ كـأنه بين الأرزاء مـرتهـــن

هذه الأبيات الحكمة الجميلة ، لشاعرنا عبدالحميد الديب (١٨٩٨ - ١٩٤٣) ، تصور حالة الديب الفقير المشرد كأنه المهاجر الأبدى بين أقطار الأسى، والذى يكابد من المحن ما يزيد عددها عن عدد أنفاسه ، فالشاعر آنذاك ١٩٢٠ مجاور فقير فى الأزهر ، جاء من أسرة معدمة من آسر كمشيش فى المنوفية ، لكى يحقق أمنية الأب الفقير أن يرى أحد الأبناء عالما أزهريا .

وفى حى الحسين يستأجر شاعرنا غرفة متهالكة ، يتهكم الشاعر عليها وعلى نفسه بالمرة ، فيكتب :

أفى غرفتى يارب أم أنا فى لحـدى
ألا أشد ما ألقى من الزمـن الوغـد
فـأهدأ أنفاسى يكـاد يهـدها
وأيسـر لمس فى بنايتـهـا يردى
أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها
فـأرجله أمضى من الصـارم الهنـدى
تسـاكنت فيها الأفـاعـى جريئـة
وفى جوها الأمـراض تفتك أو تعـدى
ترانى بهـا كل الأثـاث فمعطفى
فـراش لنومى أو وقـاء من برد
أمـا وسـادتى بـها فجـرائد
تجـدد إلا تبلى على حـجـر

الساكن فى الغرفة المتداعية هو المستأجر وهو الأثاث والرياش كذلك ، ويعرى الديب فقره المدقع ويسخر منه ، فقد حبا الله غرفة الديب بنمل مقدام دونا عن بقية النمل، والرياش هى معطف الشاعر فهو الغطاء من برد الشتاء وهو الفراش إذا ما جاء الصيف ، ثم يهتف الديب ساخطا على هذا الفقر الذكر ، طالبا الموت حتى لو كانت جهنم هى المصير فيقول :

تعلمت فيها صبر أيوب فى الضنى ∴ وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى
جـوارك يـارب لمثـلى رحمـة ∴ فخذنى إلى النار لا إلى جنة الخلد

عاش الديب هذه الفترة - كمعظم حياته - جائعا مفلسا ، مثل غالبية شعبنا الطيب لا يملك سوى التحايل على الحياة ، والعيش وفقا للشعار الشعبى الحكيم الجميل ، «إن أكل العيش يحب الخفية » ، فعلى سبيل المثال .

مزيد من المديح

كان هناك بالقرب من مقهى الفيشاوى دكان الحاج محمد شعبان الحلاق، لقد ادخره الديب للزمن ، على حد تعبير الديب، كى يقص الديب شعره مجانا ، ومن أجل قروض

الديب الصغيرة التي يأخذها من الحلاق ، وكي يستبقي الديب أريحية الحلاق، راح الديب يمتدح تلك الأريحية هنا وهناك ، والحلاق كلما ترامي له إطراء الديب، يأخذه قسرا كي يقص للديب شعره ، بالمجان بالطبع ، بالإضافة إلى قرشين أو ثلاثة قروش ، يمنحها الحلاق للديب بغرض المزيد من المديح والدعاية الرخيصة ، فيكتب الديب:

أخي وجاري وحلاقي ودياني ∴ وممسكي إن أمال الدهر ميزاني

مقصه حالق للشيب يمحقه ∴ وحالق بالحديث الغث أحزاني

مرآته زينة للعين ساحرة ∴ وموساه أفضل من «موسى ابن عمران»

من أجل قروش قليلة وحلقة مجانية يرى الديب الفكه اللاذع أن موسى الحاج محمد شعبان أفضل من موسى ابن عمران، فموسى ابن عمران لن يحلق للديب ولن يقرضه ، فيعترض أحد الأصدقاء ، على تفضيل مقارنة موسى ابن عمران نبي الله بموسى الحاج شعبان، فيدافع الديب عن نفسه ويختلق شخصية وهمية اسمها موسى ابن عمران ويزعم الديب أنه كان نقيبا للحلاقين في زمن الحملة الفرنسية ، وأنه قطع بموساه رقبة ألف جندي من جنود الحملة الفرنسية، وأن هذا كله مذكور في كتاب الجبرتي ، والحكاية كلها تأليف فوري من الديب، فلا جبرتي ولا غيره ، والمسألة كلها أن القروش الصغيرة والحلاقة المجانية تندرج كلها تحت بند التحايل على الحياة ، وأكل العيش الذي لا يحب إلا الخفية .

شريك في الغرفة !

تشرد الديب طويلا ، وتصعلك في المقاهي والمواخير ونام عند الأصدقاء وفي الخرابات وفي المساجد التي كان يطلق عليها اسم «لوكاندات ربنا» ، يعمل بالتدريس في المدارس الأهلية بعض الوقت، عاطلا مشردا متصعلكا معظم الوقت في «الحي اللاتيني» كما كان يطلق على حي الحسين متمردا متبرما بالزمن الوغد الذي يضن عليه وهو صاحب الموهبة الكبيرة بالكفاف ، ويحكي الديب كيف استأجر غرفة بائسة دفع لصاحبها الشيخ جمعة ريالا كمقدم ايجار ، أما بقية الايجار سيدفعه الديب حين ميسرة ، وتمر الشهور ولا تتأتى للديب الميسرة المنشودة ، فإذا ما طرق الشيخ جمعة باب غرفة الديب ، الذي لم يرفع سوى الريال إياه ، تظاهر الديب بأنه في الخارج ، وعندما يترصده الشيخ جمعة ويقبض على الديب ، عاجله الديب بأعذار «تطلع الروح» على حد قول الديب، وبعد شهور من المراوغات والمطاردات قرر الشيخ جمعة طرد الديب، فعاد شاعرنا إلى الغرفة البائسة ليجد من يشاركه ، ولم يكن ذلك الشريك سوى «جدي» ، وملأ الشريك الغرفة مأماة وعاث ببوله بها فسادا ، فذهب الديب إلى زوجة الشيخ جمعة ، التي قالت له أن الجدي سيشاركه الغرفة حتى عيد الأضحى بعد عدة شهور ، وانتظر الديب حضور الشيخ جمعة ، وعندما حضر حاول الديب الاعتراض على وجود الشريك ، لكن الشيخ جمعة الذي كانت مماطلات الديب قد أزهقت روحه ، انفجر في الديب قائلا :

هو أنت اشتريت الأوضة بالريال بتاعك

إذا كان مش عاجبك ورينا عرض أكتافك

ويكتب الديب الساخر معترفا بأنه لم يشتر «الأوضة» بالريال ، وصحيح أن وجود الشريك لا يعجب الديب، لكنه لا يستطيع أن يترك الغرفة. مكث الديب في الغرفة مقهوراً



مفلساً جائعاً، وقد تحولت الغرفة إلى حظيرة، واكتشف الديب أن هناك شريكا ثالثا ، الذى لم يكن سوى صرصور جميل رشيق ، فقرر الديب أن يتخلص من الشريك الأول «الجدى» ، بالشريك الثانى «الصرصور» ، فأمسك الديب بالصرصور بين عودين ، وحمله ووضعه فى أذن الجدى ، وخلال ثوان راح الجندى المسكين يرقص الشارلستون ، وازداد رقص الجدى عنفا ، وبعد دقائق قليلة رقد الجدى على الأرض متشنجا وظل يتمرغ ، وخرج الديب ينادى على الشيخ جمعة يصرخ فيه أن الجدى يحتضر ، فجاء الشيخ جمعة وذبح الجدى وطرد الديب شر طردة .

وتمضى الأيام بالديب عاطلا عن العمل مشردا ، ثم يقبل أن يعمل مصححا لدى فريد الرفاعي الذى كان يعد كتاب عصر المأمون، وصبر الديب وهو الشاعر الموهوب على شروط العمل القاسية التى وضعها فريد الرفاعي ، الذى كان يحبس شاعرنا طيلة الليل والنهار للعمل فى الكتاب ، فلا يخرج الديب إلا نصف يوم فى آخر الأسبوع ، بأجر بائس لايزيد عن جنيهات ثلاثة ، ومأوى بائس ملحق بمنزل فريد الرفاعي ، ويتمرد الديب ، ويترك العمل عند فريد الرفاعي ، ليعمل الديب بوظيفة صبي نصاب عند دجال قرارى يسمي نفسه طوالع الملوك .

كان طوالع الملوك دجالا يفك الأعمال ويسخر الجن لحل المشاكل النفسية والزوجية والعكوسات ويقرأ الطالع ويفك المندل ، ووعد طوالع الملوك شاعرنا بغرفة يسكن بها بالإضافة إلى راتب شهرى هزيل والديب وشطارته فى «تقليب» الزبائن على حد تعبير طوالع الملوك، أما مهام الوظيفة فهما مهمتان ، الأولى غير شعرية وهى تحضير الزبائن، فيجلس الديب بين الزبائن يقول لهم «أنه يقوم بخدمة طوالع الملوك ، لقد رآه الديب يذبح غرابا وألقى طوالع الملوك برأس الغراب بعيدا ، وامتلأت الغرفة بدم الغراب القانى ، وبعد أن همد الجسد ، قرأ طوالع الملوك آيات من القرآن ، ثم بصوت عظيم آمر ، نادى على خادمه الجنى شمهورش الأكبر ، الذى دخل الغرفة فى زوبعة عظيمة من الدخان والنيران..

.. يصمت الديب ، تاركا الزبائن فى لهفة لمعرفة ماذا سيفعل طوالع الملوك مع شمهورش الأكبر والغراب المذبوح ، فى هذه الوقفة يقوم الديب فى تقليب الزبائن، سيتظاهر الديب بالبحث عن علبة السجائر التى يؤكد للحضور أنه اشتراها منذ قليل ، يظل شاعرنا المفلس الحرمان يبحث هنا وهناك، فيهب الزبائن يقدم أحدهم علبة سجائر ، والآخر علبة دخان والثالث ثمن علبة دخان ، كى لا يتعطلوا عن سماع بقية القصة ، فيأخذ الديب السجائر والنقود متظاهرا بالأسف ، ويكمل بصوت مؤثر ، إن طوالع الملوك وقد أشرق وجهه بنور الإيمان (..) يشير بإصبعه الصغير وبصوت مهيب آمر ، يأمر طوالع الملوك المبارك خادمه شمهورش الأكبر ، أن يعيد الرأس إلى الجسد بإذن الله ، وأن يعود الغراب من حيث أتى .

يرين صمت كثيف على غرفة انتظار طوالع الملوك ، من هذا الهراء الفارغ ، ويكمل

الديب أنه رأى بأم عينيه رأس الغراب . تزحف من آخر الغرفة حتى تصل إلى الجسد الهامد ، وإذا بالرأس تلتئم بالجسد، وإذا بالغراب الذبيح يطير مثل السهم، ويغادر الغرفة من النافذة ، بأمر رب العباد وببركات طوالع الملوك الصالح المبارك !!.

أما مهمة الديب الثانية كانت شعرية ، فقد اعتاد طوالع الملوك فى مطلع كل عام إعداد كتيب يحمل تنبؤات طوالع الملوك خلال العام المقبل ، ومهمة الديب هى صياغة تلك التنبؤات شعراً ، فيكتب الديب الواسع الحيلة :

«وميم» يواتيه الهنا بوزارة ∴ ويأفل نجم «العين» من فلك العلا
ويغلب «ثور عقربا» بقرونه ∴ وفى أسد تعلو الحروب على الملا

شاعرنا خفيف الظل ، وما من موهبة كبيرة إلا وتمتعت بخفة الظل، فالديب يرى أن المسألة عبث فى عبث ، فيهزل مستمتعا بقدراته على السخرية من الناس ومن الدنيا التى ظلمته وآذته طويلا ، ومن هذا المورستان الكبير المسمى بالحياة ، فيم سيواتيه الهنا بوزارة ، ولابد أن نلاحظ الفكاهة بين الوزارة ولفظ الهنا ، من هو ميم ؟ ، وما هى تلك الوزارة ؟ ، ليس هذا بالمهم ، فلابد أن يهنأ «ميم» من الميمات بوزارة من الوزارات ، ولابد أن يهلك «عين» من العينات، والثور سيبقر بطن العقرب والمسألة كلها آى كلام وأكل العيش يحب الخفية ، وهذا هو الموضوع ، ويجلس الديب فى مأتم ملئ بأصحاب العمائم ويعن له أن يعبث بالمعزين ، ويهب الديب واقفا وبصوت وقور وهيب ، يصيح فى الآلاف من فوق دكة خشبية قائلا .

– يا أيها الناس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مات عزيز لديكم فحلوا عمائمكم .

ويخيم الصمت على السرادق ، ويحل جميع الموجودين عمائمهم فى صمت ، ثم يرتفع صوت الديب مرة أخرى قائلا :

– أعيدوها كما كانت .

ويكتشف عالم أزهرى كان فى السرادق – وكان قد حل عمامته هو الآخر – أنه ليس هناك حديث نبوى فى هذا الشأن ، فتثور الجماهير على الديب الذى غرر بها ، وقبل أن يتمكن الشاعر العابث اللاهى من الفرار ، ينال علقة ساخنة يرقد إثرها شهراً بلا حراك.

وبينما كان الديب يحضر مولد السيد البدوى فى طنطا ، وجد آلاف القرويين السذج يتضرعون إلى «صاحب الفرح» كما كانوا يقولون على السيد البدوى ، عنّ للديب أن يعابث هؤلاء السذج ، فأخذ يصيح بهم أن ينتبهوا ، فما أن انتبهوا إذا به ينشدهم قائلا:

الحرب بالأبواب أين بنوك
يا مصر ناديهم لكى يحموك
يا مصر ما الطليان كفؤك فاهجمى
إن لم تكونى مرة .. أكلوك ..

ولم يعجب هذا التصرف أحد الطلاب بالمعهد الدينى ، فجرى هذا الطالب فى ثورة ، وانتزع الورقة التى كتب الديب بها القصيدة ومزقها ، فانقض الديب على الطالب وخطف

غطاء رأس الطالب وفرق شاله الأبيض ، وقال للطالب:

– أنا لم أخسر شيئا لأنى أحفظ القصيدة .. أما أنت فقد خسرت لأنك لاتحفظ غطاء رأسك .

فتدخل الجمهور ، ورفض الديب التصالح إلا إذا كتب الطالب القصيدة بخط نسخ جميل، فأذعن الطالب وكتب القصيدة وانتهت المشكلة واعتنق الطالب رأى الديب، فصفق الجمهور.

وتستمر حياة الديب صاخبة ، فقر وتشرد وتسكع وصعلكة فى أقسام البوليس وفى غياهب السجون للتحرى وللاشتباه أو للشجار مع أحد الثقلاء أو لديون عجز عن تسديدها ، وفى السجن يتألق الديب الذكى الموهوب بقدرته الفذة على اكتساب قلوب عتاة المجرمين ، فالديب شاعر وفنان ، والفنان هو نفس كبيرة ، وأصحاب النفوس الكبيرة يشعرون بالضعفاء والمساكين ، فاستطاع الديب بذكائه أن يصل إلى قلب «سعادة مأمور السجن» ، ويتحلق السجناء حول الديب ليمسح بحديثه الممتع وفكاهاته اللاذعة أحزانهم فيضحكون طويلا ، وبالرغم من القضبان ، لا ينسى الديب ألحانه وأناشيده ، فإذا ما انفض السامر ونام الجميع ، جلس الديب على البرش وحده ، يتأمل رفاقه الجدد ، ويكتب.

وإخوان سجن قبحت من وجوههم ∴ هموم توالى دائما وخطوب
فمنظرهم أضحوكة للباسهم ∴ ومخبرهم فى الحادثات رهيب
لقد كنت فيهم «يوسف» السجن صالحا ∴ أفسر أحلاما لهم وأصيب

مدرس ألعاب !

يخرج الديب من السجن إلى التشرد ، يبحث عن عمل فيعابثه الشاعر الكبير كامل الشناوى أنه وجد له وظيفة مدرس، يسعد الديب ويحلق فى آفاق الأحلام الحلوة ، ويسقط من حالق حينما يذهب إلى المدرسة ويعلم أن الوظيفة هى وظيفة مدرس ألعاب ، وهو الأزهرى بالعمة والكاكولة، ويقوم كامل الشناوى بتقديم العشرة قروش إلى الديب، معرفا كل منهما للآخر:

– حضرتها عشرة صاغ .. وحضرته الشاعر الكبير عبدالحميد الديب

باعتبار أن هذا هو تعارفهما الأول، وتمضى الحياة بالديب مريرة كالعلقم ، ويقرر أن يلتحق بكلية دار العلوم، لأنها تمنح الطالب بها وجبة مجانية بالإضافة إلى راتب شهرى بائس «أحسن من لاشئ» ، وفى دار العلوم ينهل الديب من عيون الشعر العربى ، وتتبدى موهبة الديب الكبيرة واضحة للعيان ، حتى أن أحد الأساتذة قال «يقولون بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد لكننى أقول بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بعبد الحميد» .

يتألق الديب محدثا وشاعرا فى منتديات القاهرة الثقافية ومقاهيها ، وعلى الرغم من الفقر والحرمان والمهانة ، إلا أن الديب يستظل بموهبته الكبيرة ، يتحقق من خلالها ، يعتقد كما يعتقد الجميع ، أن هذه البدايات القوية لابد أن تنتهى إلى مستقبل أدبى لامع، لكن الأقدار كان لها رأى آخر .

إذا ما أمعن المرء منا تأملا فى حياته ، سيجد أن حياة الفرد منا ، لم تكن سوى بضع مصادفات تافهة ، وعلى الرغم من تفاهتها تلك ، فإنها فى النهاية ، تتشكل منها حياتنا ، مصادفة جعلت الديب يتطاوس على أحد الأساتذة ، فيقرر الأستاذ قرص أذن

التلميذ المغرور بحرمانه من الدراسة عدة أيام ، يهيم الديب على وجهه ، فيقوده القدر إلى مقهى عجيب الاسم يسمى مقهى البرابرة الوحيد ، هل هناك مصادفة أكثر تفاهة من هذه المصادفة ؟!

يجلس الديب فى المقهى فيجد شابا متين البنيان يغنى مطلع أغنية «والله تستاهل يا قلبى» ولا يتمكن المغنى من اكمال المطلع ، وتتكرر المحاولات من المغنى دون جدوى ، من ركن المقهى يجيز الديب بقية المطلع للمغنى الشاب، ويكمل الديب له :

والله تستاهل يا قلبي ليه تميل ماكنت خالى
أنت أسباب كل كربى أنت أسباب ماجرالى
والله تستاهل يا قلبى

أبيات شجية جميلة تثبت موهبة الديب الفياضة التى تغرف من بحر فى سهولة ويسر، يفاجئ الديب بالمغنى الشاب يعانقه ويقبله ، ولم يكن المغنى الشاب سوى الشيخ سيد درويش عبقرى الموسيقى العربية ، ومنذ هذه لم يترك الشيخ سيد صاحبنا ، فقد وجد الشيخ سيد فى هذا الفتى الزرى الهيئة القادر على كتابة أرق المعانى ضالته المنشودة ، وأصبح شاعرنا في معية الشيخ سيد ، ويصحبه فى كل مكان يتوجه إليه ، إلى المسارح والكباريهات والملاهى ويسكن شاعرنا مع سيد درويش فى قصره الجميل ، ويعيش الديب الفقير البائس مع الشيخ سيد عيشة الملوك ، فترة ذهبية حافلة بالترف والعز والمباهج والمسرات قضاها الديب مع الشيخ سيد، هذا يكتب أجمل الأشعار ، وذاك يضع لها الألحان العبقرية ، وشاعرنا بعد الضنى لابس حرير فى حرير ، لكن السعادة أقدار مقدرة ، لم يكتب لها أن تستمر طويلا ، فإذا الدنيا كما نعرفها ، وإذا بالأحباب كل فى طريق ، كانت الدار الآخرة هى طريق الشيخ سيد ، الذى مات عام ٢٣ فى عنفوان الشباب وليترك الديب إلى الطريق الذى أتى منه ، إلى الشارع مرة أخرى ، إلى التشرد والفقر الذكر والحرمان ، وبخلاف كل هذه البلايا ، أضيفت إلى الديب بلوى جديدة ، بلوى تفوق كل مصائب الديب ومحنه التى تزيد على عدد أنفاسه كما قال ، إنها بلوى إدمان شم الكوكايين الذى كان رائجا بشكل وبائى آنذاك ، ولم يكن الديب أول ضحايا الشيخ سيد ، ففى مذكرات فاطمة رشدى تقول ، إن المخرج المسرحى «عزيز عيد» والذى يعتبره البعض الأب الحقيقى ، اتفق عزيز عيد مع الشيخ سيد لوضع الألحان اللازمة لمسرحية غنائية كان عزيز سيقوم باخراجها ، فاصطحب الشيخ سيد الفنان النهم للحياة المخرج عزيز عيد إلى بدروم ما ، ولم يغادرا ذلك البدروم لمدة أسبوع ، وخرجا بعدها وقد تم تلحين المسرحية وقد أدمن عزيز عيد الأفيون والمخدرات حتى وفاته . مات الشيخ سيد من جرعة زائدة ليترك الديب المسكين يواجه الادمان ، وكانت علامة فارقة فى حياة شاعرنا الذى تحدد مصيره المشئوم بالادمان ، الادمان والعوز والتلطيم فى المواخير ورثاء النفس والسخط عليها وعلى الناس وعلى الدنيا ، فهو إما مذهول من شمة أو مذهول من الحرمان هيئة زرية ووجه مكفهر وتلطيم حزين فى الخرابات وأقسام البوليس ولوكاندات ربنا وقصة حب أليمة لمومس بائسة اسمها فاطمة ، شمامة مثل الديب، رق قلبه لها ورق قلبها له ، ويحاول أن يخفى عار الإدمان عن الجميع فيقول:



أفاطم أن الناس فرقوا عرضي ∴ صرت لعينا في السماء وفي الأرض

يقولون شمام وما شم معطس ∴ سوى الروضة الهيفاء والنرجس الغض

(٢)

يحدثنا الجاحظ العظيم النافذ البصر في إحدى رسائله «فساد أخلاق الكتّاب» عن ضراوة العداوة بين الكتاب ، وأن الكتاب بخلاف أهل الحرف الأخرى جميعا، الذين يتراحمون مع من يسقط منهم ويتكافلون معه حتى يقيموه من عثرته ، إلا أهل الكتابة الذين يكرهون بعضهم البعض كراهية حقوده أشبه بكراهية الضرائر كما يقول الجاحظ، ولأنهم يعرفون مواطن الألم ، فهم يصيبون في مقتل ، ويحدثنا ديستويفسكي العظيم عن اللذة الخبيثة التي يجدها عموم الناس عندما «يشاهدون رجلا فاضلا يتلطخ شرفه في الوحل» . والديب الموهوب ينتظره الأصدقاء والمحبون كي يمتعهم بالنوادر والأحاديث والأشعار ، والموهبة الكبيرة عادة ما تثير الحسد، فهذا الشمام الزرى الهيئة يثير الإعجاب أينما حل ، والحاسدون بثرائهم لا يحظون بمثل حظوة هذا البائس. وكابد الديب المبتلي بالفقر والادمان حسد الحاسدين وشماتتهم ، وشن شيخ معمم حملة شعواء على الديب في جريدة كبرى، عن هذا البشع الهيئة المتسول الشحاذ الشمام الذي لا يعجبه أحد ، وتستمر الحملة القاسية حتى تصل إلى كمشيش ، وأمام بار اللواء يجد الديب نفسه يتضارب مع صاحب الحملة بالأرجل والأقدام ، فيكتب الديب متوهجا في هجاء حار فاحش بحجم المذلة والمهانة التي يشعر بهما الديب فيقول :

عمة تحتها ضلال ولؤم ∴ وهي عش الخنا وبيت الداء

نسجت من سفاهة وفسوق ∴ وعلى الخسة انطوت والرياء

أطعمت ربها دجاجا حنيذا ∴ وسقته الكونياك بعد الماء

ثم يهجو بار اللواء فيقول:

ببار اللواء جمعت بعض كتائب ∴ والحقد فيهم مستبد متلف

وقفوا كما وقف الزمان بمحنتي ∴ لدمي البرىء جميعهم مستنزف

ثم يكابد شماتة العامة الذين يلذ لهم أن يروا رجلا فاضلا يتلطخ شرفه في الوحل فيقول:

أعود اليوم إلى الربع المحيل ∴ ولؤم الناس من قال وقيل

بقهوة عسكر ينبوع بؤسي ∴ فياله من بؤس طويل

نزيلا بالخانكة !

ويعطف كامل بك وكيل الطب الشرعي على الديب ، فيجعل الديب يعطي دروسا خصوصية لنجله مأمون ، ويصف لنا الديب في مذكراته كيف قضى الادمان على عقله ، فيعطي مأمون مسألة حسابية كالآتي : اشترى تاجر ٧٠ دقيقة ! وباعها بألف أرنب من البقر (!!) فبكم اشتراها إذا كان مكسبه ألف خروف ، الأجمل أن مأمون نجح في

الامتحان ، فذهب الديب محاولا استئناف الدروس في الصيف ، فإذا بكامل بك يمنحه زوجا من الجنيهات وفوقها مفاجأة سعيدة سيجدها الديب في انتظاره لو جاء إلى مكان معلوم ، ويسأل الديب عن كنه المفاجأة فيخبره كامل بك أنها كيس من الهيروين الفاخر ماركة أبو قراعة الأصلي ، وكان الموعد على باب مستشفى المجانين بالخانكة ، وبدلا من أن يجد الديب خادم كامل بك يحمل كيس أبو قراعة ، فوجئ بتشكيل جهنمي من الممرضين يهجم عليه، وإذا به نزيلا بالخانكة للعلاج من الادمان ، وتحت عنوان مذكرات نزيل بالخانكة ، يروى الديب الساخر العظيم حياته وعلاجه من الادمان في الخانكة ، وبعد فترة فوجئ الديب الذى استسلم لقدره ، بمن ينادى عليه باسمه مصحوبا بلقب أفندى ، ونظر الديب ، ولم يكن صاحب النداء سوى تلميذه السابق مأمون الذى جاء لزيارته ، والحكاية أن مأمون كان قد شاهد مسرحية مع والده ، يموت خلالها بطل المسرحية من ادمان الهيروين ، فاعتقد مأمون أن أستاذه قد مات هو الآخر ، وأسرف مأمون في البكاء حزنا على معلمه ، فلم يجد كامل بك مفرا من اصطحاب مأمون ليرى بعينيه أن معلمه لازال حيا ويشغل سريرا بالخانكة .

هذه العلاقة الجميلة ، تثبت أن الديب بالرغم من كل المحن كان داخله قلبا رقيقا جميلا ، والدليل على ذلك هو حب مأمون الطيب لمعلمه ، فالأطفال لهم سجية لا تخطئ في تمييز الخبيث من الطيب ، وخلال تلك المذكرات الممتعة ، التى يثبت خلالها الديب أنه ناثر ساخر عظيم ، يحكي لنا عن رفاقه في المستشفى ، منهم القارئ الشاب الذى جن بالتلاوة ، وهو ابن الشيخ إسماعيل سكر القارئ المعروف آنذاك ، فكان القارئ الشاب يجلس في العنبر خاشعا ، فيجلس بقية نزلاء العنبر في هدوء وسكينة ، ويقرأ الشاب السورة التى فقد عقله خلالها ، بصوت جميل مرتل ، فإذا ما وصل من قوله تعالى «وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » راح الشاب يكرر أقلعى «وهى الكلمة التى أفقدته عقله لسبب ما » عشرات المرات يقول ابلعى ابلعى ، فيقف عشرة من المرضى على أسرتهم يرددون خلفه أقلعى أقلعى أقلعى بصوت لا حكم الله بسماعه على العقلاء .

ويحكى لنا الديب عن المجنون الذى هام حبا بفتاة ، فلما تحقق له أن يقبلها ذات مرة، فقد الشاب عقله من كل تلك الروعة ، فراح يقبل كل من يقابله ، وعندما أبلغوا عنه قام الشاب بتقبيل الشرطي والمخبرين ثم الضابط ثم قبل المأمور ثم قبل وكيل النيابة ثم قبل وكيل مستشفى المجانين نفسه ، وهناك راح المسكين يوزع قبلاته على الجميع ، أما عن علاج المرضى ، يحكى لنا الديب نوادر غاية في اللطف ، كيف دهنوا وجه أحد المرضين بالشطة الحارة ، وطلبوا من مجنون القبلات الشاب أن يقبل المرض ، فما كاد يفعل حتى تراجع باكيا في ذعر عظيم .. وتم شفاء الديب من بلوى الادمان ، بعد أن حطمه الداء الوبيل طيلة عشرة أعوام ، تركت شاعرنا حطاما يثير الشفقة .

(٣)

خرج الديب من الخانكة يطلب الرزق وقد شفى من الادمان ، وهو الكاتب والشاعر الموهوب الذى يملك من القدرات ما يكفل له الستر على الأقل ، وحفيت قدماه كى يعمل في جريدة الأهرام ، وسمع من صاحبها ومن المحررين معسول الوعود والآمال التى لن

تتحقق ، وأفاض الديب باقتراحات وبأفكار ، وكان الحنق يأكله وهو يرى أفكاره وقد تم السطو عليها ، كانت مصر آنذاك تشغي بحياة سياسية بعثتها ثورة ١٩ ، أحزاب تألفت وجرائد ومجلات بالعشرات ، وعشرات من الأذناب والمحاسيب والاتباع من معدومي الموهبة ، يتحولون إلى كتاب وصحفيين يقبضون الرواتب المحترمة ويعيشون في رغد ، والديب يتضور جوعا ، فيتحول إلى وحش عقور هجاء سليط اللسان، وراح يقتحم الأهرام وهو مخمور ثائر ، فيطيبون خاطره من جديد بوعد ، فيذهب إلى بار اللواء يشاكس هذا ويهجو ذاك ويعابث ثالثا ، وكتب هذه الأبيات يهجو الأهرام وصاحبه بأبيات نرى فيها سخرية شاعرنا العميقة الحلوة:

أموت بحسرة إن ضاع عمـــري ∴ ولم أظفـــر بجبرائيل تكلا
بداخـــل ملك فـاروق أقامــوا ∴ لهم ملكا عــلا ثم استقلا

راح الديب يجمع قصائده من الجرائد والمجلات والصحف، فقد علم الديب أن الصحفي الكبير محمد أحمد الصاوي ينوي طبع ديوان لأشعار الديب ، وكان الأديب اللامع حفني محمود، وهو أحد ظرفاء ذلك الزمان، قد اصطحب الديب إلى بار اللواء ، واستدرجه الصاوي أن يهجو كامل الشناوي مقابل كأس كونياك وريال ، وكان بين الديب والشناوي مساجلات ونوادر ، فلم يتوان الديب فقال :

بار اللواء لعنت بالشناوي ..

ثم تلفت الديب حوله فوجد محمد أحمد الصاوي يجلس غير بعيد عنهما، فأكمل الديب

بار اللواء لعنت بالشناوي ∴ ورزئت قبلا بالثقيل الصاوي

غضب الصاوي قائلا : بتشتمني ليه يا ديب

فقال الديب المسكين في تسليم .. القافية حكمت يا أستاذ وعلينا العوض في الديوان.

كان الديب قد تلقى عشرة جنيهات من إبراهيم الدسوقي أباظة ، الذي كان يحب الديب ويعطف عليه ، فامتدحه الديب قائلا :

ومالي لا أزور كريم ∴ تكنف حافظا وراع حمام

والديب يقصد رعاية إبراهيم الدسوقي أباظة للشاعرين حافظ إبراهيم ومحمد مصطفى حمام ، وبعد ساعات قابل الديب صديقه كامل الشناوي ، فقال له الديب عن الجنيهات العشرة ، فتظاهر كامل الشناوي بالأسى والاشفاق ، وأخبر الديب أن أباظة ربح اليوم ٢٠ ألف جنيه في البورصة وأنت أيها الشاعر العظيم العبقري لا يعطيك سوى عشرة جنيهات .. «شوف الناس» ، فأربد وجه الديب، وقال هاجيا أباظة في نفس اليوم الذي امتدحه به وقال :

أبلغ أباظـــة عني أنهـــم ∴ ورثوا مالا ولم يرثوا دينا ولا خلقا

كان الديب يحب الشناوي ويخشاه ، وكان الشناوي يعطف على الديب ، ويدبر مقالب تكلف الديب العلق الساخنة ممن يهجوهم الديب بتحريض من الشناوي .

(٤)

.. السنوات تمر ، والاخفاق تلو الاخفاق ، ومرارة الديب تزداد ، ويشعر بدنو الأجل ،

ويتمنى الموت ، فقد فشل في الزواج ، واضطر لتطليق زوجته إحسان لعجزه عن الانفاق عليها وعلى طفليها اللذين كانا يحبهما الديب. وحينما كان يرزق بنقود كان يسعد سعادة هائلة وهو يشترى لأسرته ما يجلب لهم السرور ، فيقول لها يرثى حظه العاثر ورزقه القليل .

ياربة الدار لا ترثي لأرزاقى ∴ قد قرر الله اسعادى واملاقى

ويطلق احسان ويعود الديب مشردا كما كان ، حزينا ممرورا ، ويطلب الموت فيكتب:

يارب أين الرزق ؟ أين السماء ∴ وأيـن أنـت يـا إله الجميـــع
أليس لى فى طيب عيشى رجاء ∴ أليس فى عطـف ربى شـفيع
خذنى إذا ما المال أمسى عسيرا ∴ فالموت خير من حيـاة الفقير
الشـاعر الموهوب يحيا فقيـرا ∴ ومـاله فى شعبه من نصيـر

ثم يعمل الديب بعد طول كفاح ، فى وظيفة حكومية ، ويحلق الديب فى خيالات جميلة عن الوظيفة والأبهة التى سيتمتع بها بعد طول تشرد، ويذهب إلى المصلحة فيفاجأ بأن لا مكان له من الأساس ، ولا مكتب ولا حتى مقعد فيسألوه فيجيب فى سخرية مريرة:

بالأمس كنت مشردا أهليا ∴ واليوم صرت مشردا رسميا

ويحضر شقيق له عند صلاة الفجر ، فيجد الديب يسكر ، فينهاه الشقيق ، ويطلب من الديب أن يبادر بالنزول لأن الله يوزع الأرزاق فى هذه الساعة المبكرة ، فيخفف الديب عن شقيقه قائلا أنه يعلم أنه خارج التقسيم ومنذ زمان طويل ، فإذا خرج أو لم يخرج فالأمر سيان ، لأنه خارج أى توزيع من أى نوع فيم يخص الأرزاق ، فدعنى أكمل ما أنا به لأنها هى هى ..

يشعر الديب بدنو الأجل ، وأن الرحلة التعسة قاربت على الانتهاء ، ويموت صديقه الشاعر الهمشرى ، فكتب الديب قصيدة يرثى نفسه ويرثى صديقه وهى بعنوان «من شاعر يموت إلى شاعر مات» .

نم صديقى وارتقبنى فى غـد ∴ وغد أقـرب من مـحـو الحسـاب
لم نمتـــع بحيـاة أو غنـى ∴ فلنمتـع من تضـاعيف التـراب
لم نثب فيه بجهدنا فى عمرنا ∴ فلنصبه اليـوم فى دار الثـواب

وفى ٢٠ أبريل عام ٤٣ فاضت روح الديب القلقة المتوثبة إلى بارئها ، منهية الرحلة الشاقة الحزينة ، وشاءت الأقدار أن يموت الديب فى اليوم الذى جاءته الوظيفة بوزارة الشئون الاجتماعية، جادت حينما لا ينفع الوصل ، مات بائسا وعاش بائسا ، ولم تنصفه الدنيا التى لا تعرف عدلا ولا انصافا ، وكتب صديقه الشاعر الكبير كامل الشناوى يرثى الديب قائلا :

«تعرى الديب واكتنست حوائط الأضرحة ، وطمعت كلاب الأرض وجاع عبدالحميد الديب ومر به تاريخ الشعر مرور الكرام، وهذا لا يثير من الدهشة بقدر ما يثير من الأسى، ألم يتساءل اشبنجلر العظيم حينما كتب «أليس قدرا أن يتبوأ أوكتافيوس التافه حقبة تاريخية بأكملها ، بينما يمر التاريخ على تيبوريوس العظيم مرور الكرام !.

بعض مما وعته الذاكرة

صور كثيرة من الماضى البعيد والقريب تستعرض الذاكرة شريطها السينمائى ، ويحار المرء فى انتقاء بعض منها مما وعته الذاكرة ، ومما قد يكون بعيداً عن منال القارئ . وفى هذه الأسطر المقتضبة أطراف من هذه الصور ، وطرائف من حكاياتها لعل فيها ما ينفع الناس :

الشاعر المهجرى إلياس فرحات

فى عام ١٩٥٩ وفى عهد الوحدة المصرية السورية زار القاهرة الشاعر المهجرى إلياس فرحات (١٨٩٣ - ١٩٧٦) ضيفاً على الحكومة ، ولم تكن لى به أى صلة مباشرة حتى ذلك الوقت ، على الرغم من كثرة صداقاتى مع الشعراء المهجريين فى شمال القارة الأمريكية وجنوبها . ولم تكن لى فى ذلك الوقت - ولا إلى هذا اليوم - أى صفة فى الحياة الأدبية تضع إسمى على قائمة المدعوين إلى المناسبات الاجتماعية التى تقام احتفاء بالضيوف من الأدباء ، ولم تطاوعنى نفسى أن أحاول الاتصال بهذا الشاعر الكبير القادم من مشيقات البرازيل ، إذ كان يقيم فى مدينة اسمها «بيلوأوريزونتى» وترجمتها «الأفق الجميل» .

ولكن أستاذنا مصطفى عبد اللطيف السحرتى رئيس رابطة الأدب الحديث والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى وكيلها ارتأيا دعوة إلياس فرحات إلى مقر الرابطة للحفاوة به ، وطلب منى أن ألقى كلمة بهذه المناسبة . ويبدو أن الشاعر لم يلتقط اسمى عند تقديمى ، وهو ما تبينته فيما بعد . وكان مما قلته فى كلمتى بعنوان «عبقرية فرحات» «إن إلياس فرحات ولد فى كفر شيما فى لبنان (وهى المدينة التى أنجبت آل تقلا ، أصحاب جريدة «الأهرام» ، وآل الشميل أصحاب

بقلم : وديع فلسطين



الشاعر إلياس فرحات



أحمد شوقي

جريدة «البصير» بالاسكندرية وآل اليازجي وهم من كبار علماء اللغة).

واختلف إلى المدارس فلم يكن حظه منها إلا لقف معلومات لا تغني رجلاً في حياة كفاح، وبالتالي لا تبشر لصاحبها بأية منزلة في دنيا الأدب. وكان إلى يوم هجرته (في عام ١٩١٠) لا يحسن علماً ولا لغة ولا يتقن فناً من فنون الأدب، ولا ينظم شعراً ولا يعرف من النحو والصرف ما يقوم عبارته. ولو طبقت عليه نظريات قياس الذكاء في الفترة الأولى من حياته، لأجمع العلماء النفسيون على أنه رجل ميئوس من نجاحه في ميادين الفكر والقلم والرأي لأن يومه لا يومئ إلى غد مضيء، ولأن ذكاءه دون المتوسط. ولكن إلياس فرحات الخامل في لبنان استوى بعد الهجرة على عرش من العبقرية المصنوعة والمطبوعة، وجاء مكذباً نظريات علم النفس. فهذا الشاب الساذج الغرير صار في بضع سنين شاعراً عربي الديباجة عربي الأداء عربي البيان عربي الفصاحة عربي النفس والروح وأين؟ في بلاد كل من فيها حوله يرطن ويعجم وينطق الضاد «داداً» كما قال في وصفهم أستاذنا العقاد».

وكنت استلهمت كل هذه المعاني من قصيدة فرحات التي يقول فيها:

يقولون : عمن أخذت القريض
ومن تعلمت نظم الدرر
وأين درست العروض وكيف
تلقنت هذا البيان الأغر
وما كنت يوماً بطالب علم
فإنا عرفناك منذ الصغر ؟
فقلت : أخذت القريض صبياً
عن الطير وهي تغني السحر
وعن خطرات عليل النسيم
يمر فيشفي عليل البشر
وعن ضحكات مياه الجداول
فوق الجلامد تحت الشجر
وعن زفرات المحب الأديب
يزاحمه الموسر المحتقر

وعن نظرات الحسان اللواتي
يكدن يغلغلنها في الحجر
إلي أن قال :
لئن كنت لم أدخل المدرسات
صغيراً ، ولا بعد هذا الكبر
فذا الكون جامعة الجامعات
وذا الدهر أستاذها المعتبر

وفي هذا اعتراف صريح من الشاعر بأنه لا كان طالب علم ولم يدخل المدارس ، وأنه تعلم فنون الشعر من الطبيعة ومن نظرات الحسان وزفرات المحب ! وكنت أثناء إلقاء كلمتي أرى عيني إلياس فرحات تقدحان شرراً ، دون أن أعرف سبب ذلك ، ولا سيما لأنني أقررت له بالعبقرية وباستوائه على عرش الشعر .

ولم أكد أفرغ من إلقاء كلمتي ، حتى طلب إلياس فرحات أن يعلق عليها . وهنا أنقل ما رواه عن هذه الواقعة في كتابه «ذكرياتي بين صباح الحياة ومسائها» المنشور في البرازيل عام ١٩٧٥ حيث يقول : «يوم الثلثاء الواقع في الثامن من آذار لبيت الدعوة إلي حفلة تقيمها على شرفي رابطة الأدب الحديث ، فكانت أول حفلة تقام لي في القاهرة . ذهبت إلي هذه الحفلة حزيناً (بسبب مرض زوجته خلال فترة زيارته لمصر ، وزوجته من أسرة جبران خليل جبران) فاستقبلني الإخوان المجتمعون هناك بالتصفيق ، وكان عدد الحضور كبيراً وأنا لا أعرف منهم أحداً . تكلم فريق من الأدباء والشعراء ، ثم تكلم فتي فزعم أنني لم أكن في صغري ذكياً ، أو أن ذكائي لم يظهر إلا بعد أن أصبحت رجلاً في الثلاثين من عمري . فلما جاء دوري وقفت وشكرت ثم قلت موجهاً كلامي إلى الفتى : لو قلت في كفر شيما ما قلته هنا لرد عليك أهلها رجالاً ونساء ، ولردت عليك أرضها وسماؤها ، منكرين عاتبين ، وربما غاضبين . إنهم هناك ، أي في كفر شيما لا يزالون يرددون أزجالي اللبنانية ويعجبون كيف يمكن لطفل في مثل سني أن يأتي بهذه المعاني .

قلت هذا الكلام ضاحكا ، ولكني قلته جاداً صادقاً ! فلم يحر هو جواباً . ثم أنشدت شيئاً من شعري . وعندما انتهت الحفلة جلست إلي جانب هذا الفتى الأسمر الذي زعم ما زعم ، ورحت أتجاذب وإياه أطراف الحديث ، فأعجبني تفكيره واطلاعه الواسع (إلا على زجل طفولتي) . فقلت له : من أنت ، وما اسمك؟ فأجاب بوداعة ولطف : اسمي وديع فلسطين . فبهت لهذا الاسم الذي أعرفه جيداً وأعجب بصاحبه دون أن أرى له وجهاً . فقلت : يا سبحان الله ! إني منذ وصلت إلي القاهرة أسأل عنك وأعجب لاختفائك ، وأنت اليوم تخطب في حفلتي دون أن أنتبه لاسمك ، فعفواً ومعذرة . وقمنا مجدداً نتصافح ونتعانق كأننا أخوان التقينا بعد فراق طويل » .

وعندما عاد فرحات إلي البرازيل بدأ يراسلني بكثافة ، وكانت له في كل رسالة مشاغبة من نوع ما . ومن مشاغباته أنه اتهم جميع النقاد والباحثين بأنهم يزيفون

الحقائق الأدبية ويقولون الأدباء والشعراء السابقين ما لم يقولوه بصريح اللفظ مجاراة منهم أو تملقاً للتيارات العقائدية أو السياسية السائدة . وقال في التدليل على صحة كلامه إن الباحثين يزعمون أن الشاعرين أحمد شوقي وحافظ ابراهيم كانا من دعاة العروبة والقومية العربية ، ولكن دواوينهما تشهد على خلاف ذلك ، فالشاعران لا يعرفان العرب ولا العروبة مع أنهما يقيمان في الوطن ، في حين أننا في المهاجر السحيقة لا نتغنى إلا بالعرب والعروبة . لقد انحصر شعر شوقي وحافظ في «الشرق» ، فأي شرق يقصدانه ؟ هل هو الهند والسند والبنغال وأفغانستان والملايو ؟ وما شأننا نحن العرب بهذه البلاد الشرقية إلا من حيث التعامل معها على الصعيدين السياسي والدبلوماسي ؟ وقال فرحات : خذ شوقي مثلاً . إنه يقول في قصيدته عن نكبة دمشق :

نصحت ونحن مختلفون داراً
ولكن كلنا في الهم شرق

ويقول في قصيدة عن إمارة الشعر :

كان شعري الغناء في فرح الشرق
وكان العزاء في أحزانه

ويقول في رثاء الزعيم مصطفى كامل باشا :

المشرقان عليك ينتحبان
قاصيهما في مأتم والداني

ويقول عن المويلحي :

قلدوا الشرق من جمال وخير
ما يؤود المفندين انتزاعه

وعلى هذه الشاكلة عينها درج الشاعر حافظ ابراهيم في التغني بالشرق حيث يقول في قصيدة عنوانها «الإخفاق بعد الكد» :

فإن تكن نسبتي للشرق مانعتي
حظاً ، فواهاً لمجد الترك والعرب

وفي قصيدة عن عمر بن الخطاب يقول :

واهاً على دولة بالأمس قد ملأت
جوانب الشرق رغداً من أياديها

ويقول في قصيدته المعنونة «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها» :

وفاخرت أهل الغرب ، والشرق مطرق
حياء بتلك الأعظم النخرات

وفي رثاء الإمام محمد عبده يقول :

تباركت ، هذا عالم الشرق قد قضي
ولانت قناة الدين للغمزات

ويقول في رثاء العلامة يعقوب صروف صاحب «المقتطف» :

أبكي وعين الشرق تبكي معي
على الأريب الكاتب الألمعي

ويوجه تحية إلى الشاعر شوقي يقول فيها :

أهلا بشمس المشرقين ومرحبا
بالأبلج المرجو من إخوانه

وفي محاورات مع الشاعر خليل مطران يقول :

قعدت شعوب الشرق عن كسب
المحامد والمفاخر

وأخذ الشاعر إلياس فرحات يستشهد بعشرات من الأبيات من شعر شوقي

وحافظ ابراهيم لتأكيد دعواه القائلة إنهما لم يعرفا العرب والعروبة ، ولم يصل إليهما الوعي بهما كما وصل إلى سحيقات المهاجر في الأمريكتين الشمالية والجنوبية.

فقلت لفرحات : لا تظلم الشاعرين الكبيرين ، لأنهما توفيا في عام ١٩٣٢ قبل قيام جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥ ، وإلى الجامعة يعزى الفضل في إذكاء الوعي بالعروبة والقومية العربية ولكنه لم يقتنع وقال إن الدعوة إلى العروبة ترجع إلى أوائل القرن العشرين ، وهذا ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) القائل:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمي الخطب حتي غاصت الركب

ولم يتوقف إلياس فرحات عن مشاغباته ، حتى قلت له مرة إنني لست مثلك حيث تقول :

ونشرب مما تشرب الخيل تارة
وطوراً تعاف الخيل ما نحن نشرب

فقال إن الذي نشربه وتعاف الخيل شربه هو «الويسكي» !

الشابى ورائعته

دعيت من بضع سنين إلى المشاركة في مناسبة أدبية في تونس ، ولاحظت أن النشيد الوطني هناك يضم مقطعين ، مقطعاً من رائعة الشابي :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر

أما المقطع الثاني فللشاعر المصرى مصطفى صادق الرافعي ..

وعندما دعيت لإلقاء كلمة في هذه المناسبة قلت للحاضرين : أرجو أن تغفروا لي تطفلي - ولست بشاعر - على رائعة الشابي ، شاعركم الأكبر .

فقد نظرت في مطلع القصيدة ، ورأيت الشاعر يستخدم لفظة «إذا» ، وهي لفظة تعني الاحتمال ، بمعنى أن إرادة الحياة لا تتحقق إلا إذا رغب الشعب فيها ، فإذا لم يرغب ، لم تتحقق هذه الإرادة . ثم قلت إن الشاعر استخدم لفظة «يوماً» وهي لفظة ضعيفة لأن معناها أن إرادته تتحقق في يوم من الأيام ، وهو يوم قد لا يجيء أبداً . وفي ضوء هاتين الملاحظتين قلت : لعل الشاعر كان يبلغ غاية مراده ، لو أنه قال :

أنا الشعب ، دوماً أريد الحياة
ولابد أن يستجيب القدر

وبهذا تصبح الإرادة فعلاً مستديماً لا يتوقف على عنصر الاحتمال ولا يرتبط بيوم في كنه الغيب .

صاحبة منتدى سكينة

توفيت في دمشق مؤخراً السيدة ثريا الحافظ التي اقترن اسمها «بمنتدى سكينة» سنوات طويلة ، وهو منتدى كانت تقيمه في بيتها فيغشاه كثيرون من كرام السيدات وأعلام الفكر والرأي في سوريا .

وثريا الحافظ هي ابنة أمين الحافظ الذي أعدمه السفاح جمال باشا ، كما أنها زوجة المناضل السوري منير الريس .

وقد تزوج الأمير مصطفى الشهابى الوزير السورى ورئيس مجمع دمشق من والدة ثريا الحافظ بعد إعدام زوجها ورباها مع كريمتيه لميس ونهلة .

وفى أيام الوحدة المصرية السورية ، استقرت ثريا الحافظ وزوجها وابنها الشاب (الذى لقى مصرعه بعد ذلك فى حادث فى الخليج فأدمى قلب والديه على الابن الوحيد) فى القاهرة وصارحتنى بأنها ترغب فى إحياء «منتدى سكينة» حتى يصبح من المظاهر الفكرية الملحوظة فى القاهرة ، فنصحتها بأن تقصر المنتدى على الجانب الأدبى ، وتجتنب السياسة لأنها كثيرة المزالق ، وسألتنى عمن أرشحه ليكون المتحدث فى الجلسة الأولى للمنتدى، فقلت لها إن الدكتورة سهير القلماوى هى خير من «يدشن» هذا المنتدى . كما قامت من ناحيتها بدعوة المستشار محمد فتحى بك رائد علم النفس الجنائى ووالد الشاعرة شريفة فتحى والأديبة حنيفة فتحى لكى يعزف على آلة موسيقية تعرف باسم البزق . ورجتنى أن أفتتح المنتدى بكلمة ، فقبلت بعد تردد لاعتقادى بأنها هى الأحق بافتتاح منتداها .

وكانت الجلسة الافتتاحية الأولى موضوع ارتياح جميع الذين حضروها من المصريين والسوريين وحياها الصحافى السورى نشأت التغلبى الذى كان يقيم وقتها فى مصر بكلمة رقيقة فى يومياته فى جريدة «الأخبار» .

وظلت جلسات المنتدى تنتظم مادام الطابع الأدبى غالباً عليها . ولكنها لم تلبث أن جنحت إلى السياسة ، وبدأ الرواد يبتعدون عنها . وحدث فى آخر جلسة حضرتها لهذا المنتدى أن اشتبك فريقان من الشباب السورى المقيم فى مصر فى معركة كلامية عقائدية ، ثم أخذا يتضاربان بالكراسى فهرولت خارجاً حتى لا أعود إلى بيتى «مخرشماً» ! وعندئذ قررت ثريا الحافظ إنهاء أنشطة المنتدى ، وبعيد ذلك سافرت مع أسرتها إلى دمشق .

ولثريا كتاب يتيم ، كما أن لزوجها المناضل ذكريات عن دوره فى الحياة السياسية فى سوريا . هذا وقد توفيت ثريا الحافظ بعد مرض طويل فى الثانى من يونيو ٢٠٠٠ عن ٨٩ عاماً .

العقاد لم يترجم هذا الكتاب

عرفت المستشرق الكبير الدكتور تشارلس آدامز الذى كان أبرع جميع المستشرقين فى نطق اللغة العربية بحروفها الصعبة مثل الضاد والظاء والعين والحاء والذال ، وذلك بسبب طول إقامته فى مصر وقيامه بتدريس اللغة العربية وآدابها سواء فى أمريكا أو من خلال معهد الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، الذى تولى منصب العميد فيه فى عام ١٩٢٩ بعدما تقاعد عميده الأول المستشرق الدكتور روبرت مكلانهن بسبب ضعف صحته . وظل الدكتور آدامز يضطلع بأعباء العمادة إلى

أن توفي فجأة في عام ١٩٤٨ عن ٦٥ عاماً ، فهو من مواليد عام ١٨٨٣ .

والدكتور أدامز كتاب مهم باللغة الانجليزية ، هو أصلا رسالته لنيل درجة الدكتوراه . أصدره عام ١٩٢٨ بعنوان «الإسلام والتجديد في مصر» وتناول فيه حركات التجديد منذ الإمام محمد عبده وحتى الأخوين على ومصطفى عبد الرازق .

وقد تصدى لترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية في عام ١٩٣٦ أديب كان يعمل موظفاً في وزارة الأوقاف اسمه عباس محمود . وقد قيل إنه مات منتحراً في ظروف لا علم لي بها .

والغريب أن معظم الباحثين الذين رجعوا إلى هذه الترجمة ، نسبوها إلى عباس محمود العقاد ، مع أن العقاد لم يخط حرفاً فيها ، وإن كان اطلع عليها في حينها . والغريب أيضا أنني كلما هممت بتخطئة القائلين بهذه النسبة قاموا بتخطئتي !

ماذا يقول الأدباء عن أنفسهم ؟

ظهر في بيروت كتاب ضخم من جزءين عنوانه «أعلام الأدب العربي المعاصر» صنفه المستشرق روبرت كامبل وتضمن سيراً لعشرات من الأدباء المعاصرين حرروها بأنفسهم استجابة لاستبيان وجه إليهم في البلدان العربية المختلفة .

وبغض النظر عن أن هذا الكتاب الحافل أغفل سير أعلام كبار مثل أحمد حسن الزيات وأحمد زكي أبي شادي وابراهيم ناجي ومارون عبود وإسماعيل مظهر وغيرهم وغيرهم ، فقد وردت فيه اعترافات طريفة بأقلام أصحابها حيث قالت الأديبة العراقية ديزي الأمير : «أحمل جواز سفر دبلوماسي وسيارة دبلوماسية (لم تذكر رقمها أو ماركتها !) وأسكن بيتاً مستقلاً خاصاً بي كان حلماً رائعاً .. وفي كل ما مر علي لا أغفر لنفسي خطأ ارتكبته ، فقد تزوجت شخصاً ظننته طيباً وكنت في أشد الحاجة إلى بيت حنون يخلصني من زوجة أبي .. سنتان كانت حصيلتهما البيت العربي السعيد ، واكتشفت تعدد الشخصية العربية التقدمية واستغلالها وتآمرها» .

أما الأديب العراقي ذو النون أيوب فقد جاء في اعترافه قوله «عاشرت كهلة في سن أمي مدة ست سنين وكانت السبب في اضطراب أحوالي الاجتماعية في المعاشرة والزواج المتعدد ، وكانت هي المرشدة المعينة فيه ، إذ كان من المستحيل الزواج بها جمالاً وكمالاً وسناً» .

والسؤال هو : هل هذه الاعترافات تضيف إلى القيمة الأدبية لصاحبها ؟ وماذا يهم القارىء من معرفة هذه البيانات سواء أريد بها التفاخر أو التصارح ؟

وهو سؤال أثيره عسى أن يجد من يتطوع للإجابة عنه من نقاد الأدب اللوذعيين !

التكوين

انتهزت فرصة أن الحرس الوطنى الذى كنت قد انضممت إليه وشاركت فى معسكرين اقامهما لشباب الجامعات احدهما فى زينهم وكان مقصورا على طلبة الجامعات المصرية ، والآخر فى سرس الليان، وكان دوليا بالتعاون مع شعبة معسكرات عمل الشباب بهيئة اليونسكو (باريس) ، انتهزت الفرصة أن الحرس الوطنى قد أعلن فى صيف عام ١٩٥٥ أنه ينوى ارسال عدد من شباب الجامعات المصرية ليشتركوا فى معسكرات العمل الشبابية فى أوروبا. وتقدمت للحصول على إحدى هذه المنح التى كانت تقتصر على تغطية نفقات السفر ذهابا وعودة بالباخرة على السطح، بدون وجبات أو مكان مخصص للنوم وتذكرة القطار فى البلد الذى يقام فيه المعسكر .



وهكذا وقعت عليّ القرعة لأذهب الي معسكر عمل شبابي في «متز Metz» بفرنسا. كانت فرحتي غامرة بهذه الفرصة التي كنت انتظرها بغاية الشغف، ورحت أجمع من أسرتي ما استطعت من النقود التي لم يتبق منها بعد استخراج جواز السفر – علي الرغم من التقشف في الانفاق – سوي سبعة جنيهات مصرية أولا عن آخر.

وذهبت الى الإسكندرية لأستقل السفينة اليونانية التى كانت ستغادرها متوجهة بنا الى مرسيليا، وهناك تعرفت على زملائى السكندريين من شباب الحرس الوطنى المسافرين على نفس الباخرة الى فرنسا ليلتحقوا بمعسكرات العمل الشبابية فيها. وكان من بين مودعيهم شاب غير جامعى عرفت أنه اشترك فى إحدى الدورات الأوليمبية للعدو ممثلا لمصر، وعندما علم انى كنت ابحث قبل سفرى عن مكتب الصرافة، أحول فيه جنيهاتى السبعة الى فرنكات فرنسية عرض عليّ أن يقوم بهذه المهمة نيابة عني، وأن يحضر لى المبلغ المحول عدوا حتى لا اتأخر عن موعد مغادرة السفينة للميناء، ولا أدرى كيف استأمنته على آخر ما أملك وزملاؤه شهود أمامنا، ولكنه فر بالمبلغ ولم يعد. وكان أمامى إما أن أذهب للبحث عنه أو أن ألحق بالسفينة بعد أن صفرت مؤذنة بالإبحار، وقررت أن ألحق بها ومعى خمسة قروش مصرية لم تكف سوى لشراء كوب واحد من الشاى على سطح الباخرة.

كنت ارتدى فى رحلتى افرول الحرس الوطنى، واصطحب «جربندية» بها بدلة واحدة وقميص وكيسان من الأرز والعدس غير المطهى، إذ كنت أتصور أن الفرنسيين لا يعرفون هذين النوعين من الطعام، وعدد من الكتب التى حرصت على حملها معى فى الرحلة. تنكر لى على سطح السفينة أغلب الزملاء السكندريين الذين كان فى وداعهم صديقهم العداء الذى فر

اضطهدوني في باريس بسبب مناصرة مصر لثورة الجزائر

[illegible]

التكوين

بجنيهاتي السبعة كل ما كنت أملك من نقود. وعندما بلغنا بالقطار باريس قادمين من مارسيليا افتعلوا خلافا معي ليتركوني وحدي بلا أي مورد . هكذا وجدت نفسي للمرة الأولى في تلك المدينة التي كنت أحلم بها، خرجت وحدي من محطة القطار الى طريق مهول الاتساع ، كان يقوم برصفه عامل فرنسي ، وكنت لم أتناول الطعام منذ بضعة أيام إذ كانت تذكرة الباخرة بلا طعام أو مكان مخصص للمبيت، وقفت استند والجرابندية على ظهري الى حائط سور وأنا أتهيأ لالتقاط كتابين وقعا مني على الأرض وفجأة ظهر أمامي عامل رصف الطريق ، والتقط الكتابين بدلا مني ليسلمني إياهما . سألني الى أين أنت ذاهب ؟ فلابد أن منظري كان ينم عن إعياء شديد قلت له الى مبنى اليونسكو حيث كان عليّ أن أتوجه الى مكتب الشباب ومعسكرات العمل به . قال لي ولكنه بعيد جدا . أنت بحاجة الى أن تذهب اليه بالتاكسي . قلت له إني لا احمل مجرد ثمن تذكرة المترو ، وسرعان ما صفر لسيارة تاكسي . وقال لي اركب. وركب معي حيث أوصلني الى مبنى اليونسكو وعاد بالسيارة نفسها ليواصل عمله على نفقته الخاصة .

كان هذا هو الدرس الأول الذى تعلمته من أول رحلة لي خارج أرض الوطن .

قلت لعامل رصف الطريق النبيل الذي ترك عمله ليصحبني في تاكسي على حسابه إلى مبنى اليونسكو : إنتظرني حتى أحاول أن آتيك من اليونسكو بأجرة التاكسي . وتوجهت إلى المشرف السويسرى على مكتب معسكرات الشباب في هيئة اليونسكو ، وكنت أعرفه من معسكر دولي للشباب في سرس الليان ، حيث قال لي آنذاك : إذا حضرت إلى باريس يمكنك أن تنزل ضيفا عليّ ، ولكنه - على العكس من توقعي تماما - بادرني باستقبال غاية في الفتور ، وكأنه رآني لتوه من خمس دقائق فقط ، وليس في مصر منذ شهور ، وما أن حاولت أن أسرد له ما حدث من فقدان آخر ما كان معي من نقود حتى انفجر في قائلا أنه لا يصدقني ، ولن يفعل شيئا من أجلي .

وعندما عدت إلى الطريق لأبحث عن العامل النبيل لأعتذر له لم أجده ، فقد عاد إلى عمله حتى لا يفقده . كل ما أعطاني إياه «بيتر» السويسري ، هو تذكرة لسفرة واحدة أو سفرتين بمترو الأنفاق الباريسي وعنوان نزل الشباب في حي «كليشي» ، حيث كان يتعين على أن أقضي ليلتي قبل أن أتوجه في اليوم التالي بالأوتوستوب

إلى معسكر العمل الدولي للشباب في مدينة «متز» البعيدة عن باريس ببضعة مئات من الكيلومترات . ولكني بعد أن ظللت في نصف يومي الأول أهيم على وجهي في طرقات باريس وبعد ذلك الاستقبال «الحافل» من السيد «بيتر»، قضيت النصف الثاني من ذلك اليوم تحت الأرض تتلقفني قطارات المترو الباريسي في شتى الاتجاهات ، وكلما سألت أحدا من أهل المدينة أشار إليّ بعصبية إلى اتجاه خاطىء . وهكذا لم تسعفني فرنسيتي في الوصول إلى غايتي: المحطة القريبة من نزل الشباب. حتى فقدت الأمل في العثور عليها . وبعد أن توقفت قطارات المترو بعد منتصف الليل عن العدو في كل صوب واتجاه ، خرجت من المحطة التي انتهيت إليها وقد أخذ مني العناء كل مأخذ . فما أن رأيت أريكة خشبية في الطريق حتى جلست عليها متكئا على جربنديتي ، ولم أدر إلا بروس من فوقي تهزني وتفيقني من سبات عميق، تبينت أنها لرجال الشرطة . سألوني : إلى أين ؟ قلت لهم العنوان ، وأني تهت في أدغال مترو باريس . فحملوا جربنديتي وأحضروني في سيارتهم - سيارة الشرطة - إلى نزل الشباب ، حيث قرعوا الباب طويلا لتفتحه بعد فترة سيدة في لباس النوم ، وعندما رأتني ابتسمت قائلة: لابد أنه كان يجوس في «بيجال» - حي الملذات - حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل !!. وأشارت لي إلى سرير شاغر ضمن عدد كبير من المخادع فيما يشبه القاعة الكبيرة . فما أن رأيته حتى استلقيت عليه ولم أدر بنفسي إلا في صباح اليوم التالي ، وقد رحل كل الشاغلين لمخادعهم ماعدا رأس واحد لشاب مصري عرفت أنه من مصر الجديدة، وأنه أتى إلى باريس ليشاهدها بعد أن سمع عنها ، وهاهو ذا بعد أن قضى فيها أسبوعين قد اكتفى منها وأصبح على أهبة الاستعداد للعودة إلى مصر . وعندما عرف بقصة فقدي لآخر ماكان معي من نقود وقبل إبحار السفينة من الإسكندرية أعطاني مائتي فرنك قائلا إنه سوف لا يحتاج إليها لأنه سيعود إلى مصر في اليوم نفسه. شكرته وتقبلت هديته .

تعلمت الفرنسية

كان ذلك عام ١٩٥٥ حين كان الجنيه المصري يساوي جنيها استرلينيا وزيادة عليه بشلن . وكان ميسرا للكثيرين من المترددين على مدارس الإرساليات الأجنبية ، ولا سيما الفرنسية ، أن يذهبوا إلى فرنسا بالباخرة من الإسكندرية فلا يزيد إنفاقهم على قضاء الصيف في الثغر السكندري إلا بقدر معقول . أما

التكوين

أنا فقد تعلمت الفرنسية بمجهودى الخـاص ، ولم أكن أملك من المال لا كثيرا ولا قليلا. وكانت المرة الأولى التى أتوجه فيها من دار أهلى ، ورغما عن معارضة عمى الذى كان ولى أمرى (بعد وفاة والدى) فى سفرى ، إلى حلمى : مدينة «النور» باريس.. ولكنى لم ألق فيها إلا كل ما أطاح بهذا الحلم.

وعندما كنت أسير فى بوليفاراتها العريضة كنت أنفجر ضاحكا كالمجنون إذ يخطر لى شارع فؤاد (٢٦ يوليو) فى القاهرة الذى لا يكاد يبلغ بكامل عرضه رصيف الشانزليزيه. أما استقبال الغريب فى باريس فالغالب فيه من جانب أهل تلك المدينة هو المعاملة السيئة وعدم الإرشاد إلى أي عنوان يسأل عنه ، أو تعمد تتويه الغريب وكأنهم يتشفون فيه ضائعا في أدغال مدينتهم . ومع ذلك فقد كان أول من قابلني في تلك العاصمة المهولة هو استثناء كبير : ذلك العامل النبيل راصف الطريق العام . أما القاعدة فهى العكس تماما ، ولا أحسب أن ذلك يختلف كثيرا عن الآن بعد مضى خمسة وأربعين عاما ، وإن كان رفض الأجانب آنذاك، ولاسيما العرب أشد عنفا وتعنتاً بسبب حرب تحرير الجزائر التى كانت البرجوازية الفرنسية لاسيما المتوسطة تعتبرها ملكية خاصة لفرنسا ، كملكية صاحب العبيد لتابعيه . وإذا كان «ديجول» قد «خان» فرنسا - فيما بعد ، من وجهة نظر الطبقة الوسطى الفرنسية ، بتصديقه على استقلال الجزائر ، إلا أن ذلك قد تم لحساب مصالح رأس المال الفرنسى الكبير مضحيا برأس المال الفرنسي المتوسط والصغير الذى كان أصحابه شديدى العنصرية والعداء للعرب عامة وأهل شمال أفريقيا بخاصة . وكانت معاملة المصريين في تلك الآونة سيئة بالمثل على مستوى السلطات الفرنسية ، إذ كان جمال عبدالناصر يعلن مناصرته لثورة الجزائر مما استشاط غضب الحكومة الفرنسية ضده وضد كل ماهو مصرى . وقد بلغ حنق السلطة الفرنسية على مصر وعبدالناصر مداه باشتراكها فى العدوان الثلاثي على بورسعيد فى ١٩٥٦ .

بعد أن اشتركت فى معسكر العمل الدولي الذى كانت اليونسكو تشرف على تنظيمه فى مدينة «متز» الواقعة شمالى شرق باريس وإن بعدت عنها كثيرا ، تصادف أن تحدثت إلى موظف فرنسى فى تعاونية البناء بتلك المدينة التى كنا نحن الشباب القادم من جميع أنحاء العالم نساهم فيها بأعمال الحفر، حفر الأساسات - خاصة - نظير مأكلنا ومشربنا ومبيتنا لا أكثر .



قلت للموظف الفرنسي الذى حضر في اليوم الختامى لمعسكرنا الشبابى حتى يتسلم العهدة من مندوب اليونسكو ، إنى أود أن أستمر فى «متز» لمدة أطول حتى أتعرف على الفرنسيين بشكل أفضل ، فليتنى وجدت عملا يمكننى من ذلك . تحمس مسيو «پول فاڤيير» لفكرتى هذه ، وكان فى منتصف الثلاثينات من عمره ، وتحدث بشأنها مع مدير تعاونية إسكان أهالى

بعد عودتى من فرنسا مباشرة عام ١٩٥٦ فى صحبة صديق زاملنى فى مدرسة التوفيقية الثانوية حتى عام ١٩٥٣

«متز» ، ثم عاد إلىّ وقال لى مبشرا : لقد وافق بعد لأى . ويمكنك أن تسكن عندى فى دارى على أية حال . وسوف أرشدك غدا إلى عمل تقوم به .

فرنسى يحب المصريين

كان مسيو «فاڤيير» إنسانا صريحا تقيا محبا للمصريين والعرب بعكس أغلب الفرنسيين . كما لاحظت أنهم كانوا ينظرون إليه بغير قليل من الضجر والاستنكار على الرغم من استقامته ونقائه . صرح لى عندما انتقلت إلى داره لأقيم معه وأسرته الصغيرة أسبوعين كاملين ، بأنه قد ولد وعاش صباه وشبابه الأول فى الهند الصينية ، وخبر عن قرب وحشية الاستعمار ، استعمار بلاده هناك . لذلك كان متعاطفا مع الشعب الجزائرى فى حربه لتحرير بلاده من الاستعمار الفرنسى . كما كان شديد الحب والإعجاب بجمال عبدالناصر ، الذى أهديته صورة له عند مغادرتى لـ«متز» فاعتز بها كثيرا . لم أعجب إذن لكره الفرنسيين الآخرين له وتغامزهم عليه وشدة تحفظهم بإزائه .

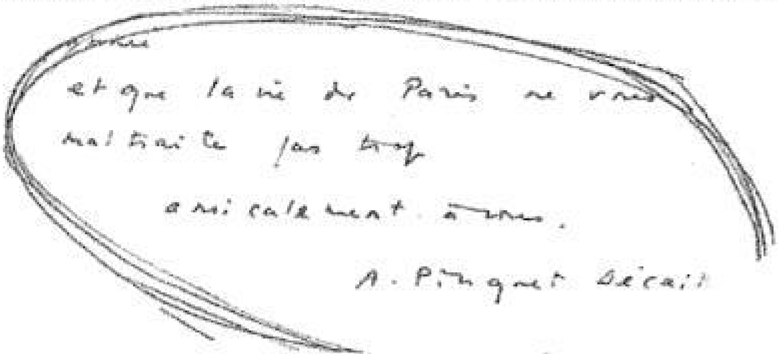
غادرت «متز» فى طريقى إلى باريس أستوقف السيارات الخاصة فى أول الطريق السريع على طريقة «الأوتوستوب» ، وعندما وصلت إلى بلدة

التكوين

«فروان» كان قد خيم المساء ، ولم تعد السيارات تتوقف لتصحب أحدا معها فى طريقها لأسباب معروفة ، فتوجهت إلى بيت الشباب فى تلك البلدة لأقضى فيه ليلتى حتى الصباح التالى . وطرقت الباب برفق ، ولكن أحدا لم يجب . عندئذ خرج رجل من عربة سكنى مرابطة أمام دار مبيت الشباب وقال لى إنهم جميعا قد ناموا الآن ، ولن يسمعوا طرقك الخفيف هذا . وراح يطرق الباب نيابة عنى بشدة إلى أن استيقظ المشرف على الدار ، وكان يغط فى نوم عميق ، وأشار لى وهو مغمض العينين إلى السرير الذى سأنام عليه ومضى لتوه إلى مخدعه . ولكن ما كدت أن أغط فى السبات حتى جاءت الشرطة تبحث عن «جزائرى» أحدث إزعاجا للأهالى بقرعه الشديد على باب بيت الشباب فى تلك الساعة من المساء . ولم أشأ أن أفشى حقيقة أنى لم أكن ذلك الذى قرع الباب بشدة حتى لا يضار الإنسان الذى حاول أن يساعدنى فى المبيت بالدار . وفى صباح اليوم التالى ، بينما كنت أرفع سبابتى مشيرا السيارات العابرة على أول الطريق السريع فى اتجاه باريس ، توقفت أمامى سيارة مرسيدس ملاكى ، لم يلفت نظرى فيها سوى أن راكبيها كانوا بزى الشرطة . سألت سائقها : إلى باريس ؟ أجابنى بعجلة ! بلا ، اركب . ركبت ثم إذ بى أفاجأ بالسيارة تدور فى عجلة لتتجه إلى مخفر البوليس بدلا من باريس !. وهناك مثلت أمام شرطى فى زى مدنى. ونهرنى أمامه الشرطى بالملبس الرسمى قائلا فى لهجة عسكرية : أخرج كل مافى جيوبك وضعه هنا . فعلت . أخذوها جميعا ووضعونى فى حبس تحفظى بالقسم لمدة ليلتين ، اتصلوا خلالها بكل العناوين وأرقام التليفونات المدونة فى مفكرتى . وعندما تأكدوا أنى لست «إرهابيا» فى جيش التحرير الجزائرى أطلقوا سراحى لأواصل رحلتى الى باريس بالأوتوستوب .

وفى باريس كانت المرة الأولى التى أشهد فيها حلمى - حلم مراهقتى - مليا ، بعد المرور السابق السريع فلا أعثر، على ما يقارب ذلك الحلم.. تعرفت على معظم شوارعها على قدمى لأنى لم أكن أملك ثمن تذكرة أوتوبيس أو مترو . وعندما كان يخيم المساء كنت أنام على مخدع عامل فرنسى يعمل فى أحد المصانع طوال الليل ثم يجىء ليوقظنى فى السادسة من الصباح لينام .

كنت قد تعرفت على هؤلاء الفرنسيين الشباب فى معسكر «متز» فاستضافونى فى باريس بكل كرم على



كتبت باريسية كانت تتعلم العربية على مجدى يوسف عام ١٩٥٥
تقول له: «أرجو ألا تكون حياة باريس أساءت إليك كثيرا»

قلة ما بأيديهم . كان الواحد منهم يعطيني كل ما معه من النقود ، ولم يكن كثيرا ، ولكنه كان كل ما يملكه ، وعندما كنا نستقل الأوتوبيس كان يطلب مني أن أعيره ثمن التذكرة من نقوده التي أعطاها لي . صرت أقارن هذا الكرم الفرنسي الذي لا حدود له بعنصرية من لديهم بعض المال أو الاستقرار النسبي من «مواطنيهم» ، بإزاء الأجانب العرب الذي كنت واحدا منهم على أية حال.

نموذج للشاب المكافح

تمكنت من أن أمكث شهور الصيف بأكملها في تلك المدينة ، أقوم أحيانا ببعض الأعمال التي يكلف بها الطلبة مقابل أجر يكفيهم يوما أو اثنين، كتوزيع المنشورات للتوعية بمساوىء استهلاك الكحول ، أو جمع الصحف والمجلات القديمة من المنازل وتسليمها لوكالة فى الحى اللاتينى ، وهكذا . وكنت قد تعرفت أثناء ذلك على شاب من حي الظاهر بالقاهرة يدعى أنور الساكت أنعم الله عليه بوظيفة لم أحلم بها : حاجب على باب علبة ليل في الحي اللاتيني تدعى «ليالي لبنان» . وقد كتب عنه المرحوم موسى صبري في مجلة «الجيل» التي كان يرأسها آنذاك «كنموذج» للشاب المصري «المكافح» في باريس !. وقد علمت بعد عودتي إلى مصر بعام ، أو ما يزيد على ذلك بقليل ، أن أنور قد رحل من باريس إلى برلين الشرقية وتوفى هناك على إثر إصابته بورم خبيث فى الدماغ . وقد أجاد الأستاذ أحمد بهجت فى تصوير عودته الجنائزية فى تابوت إلى مصر على ظهر سفينة رست فى الإسكندرية . وكان الأستاذ أحمد بهجت يعمل آنذاك محررا للتحقيقات الصحفية فى صحيفة الأهرام.

التكوين

انقضت شهور الصيف والخريف، وأقبل الشتاء الفرنسي بزمهريره، وانتهى آخر تجديد لتصريح إقامتى فى فرنسا، وكنت كلما توجهت إلى محافظة باريس ومعى خطاب موجه إليها من قنصليتنا المصرية لتجديد إقامتى رفض الطلب. فلم يتبق أمامى سوى أن أرحل إلى ألمانيا، خاصة أني كنت أعرف الألمانية التى تعلمتها بمفردى منذ عام ١٩٥٣. وقد شجعنى على السفر إلى ألمانيا «تلميذ» لى كان يدرس على اللغة العربية فى باريس. وقد تعرفت عليه عن طريق إعلان مجاني نشرته لى جريدة «الإكسبريس» الباريسية وكانت تصدر يومية آنذاك. كنت قد ذكرت فى الإعلان أنى طالب علم نفس مستعد لرعاية الأطفال المشكلين أو تدريس اللغة العربية. فكتب إلى فرنسى من أصل ألمانى يدعى «مسيو بنتان»، بعد أن كان يدعى بالألمانية «الهر بنتهايم»، كتب إلى يقول إنه يعمل مترجما، ولكنه لا يريدنى أن أعلمه العربية لأي أمر يتعلق بعمله، وإنما لأنه أحب العرب عندما جند فى الجيش الفرنسى فى الجزائر، كشرط لحصوله على الجنسية الفرنسية، بعد الحرب العالمية الأخيرة. ولهذا فقد حرص على تعلم لغة أولئك الذين أحبهم بينما كان مجندا رغما عنه فى القوات التى تحتل بلادهم.

كان «الهر بنتهايم»، أو «مسيو بنتان» كريما معى غاية الكرم. يدعونى بعد كل درس ألقيه عليه أسبوعيا إلى الغداء معه فى مطعم باريسى. وعندما علم برفض السلطات الفرنسية تجديد إقامتى، أعطانى بعض الماركات التى كانت فى حوزته (ثمانين ماركا) وثمن تذكرة السفر بالقطار إلى بون عبر كولونيا.

وصل بي القطار فى الخامسة من صباح ذلك اليوم إلى كولونيا، وبينما كان يهدىء من سرعته ليدلف إلى المحطة كنت فى غاية السعادة لأنى صرت استنشق ذلك الهواء الذى امتلأت به رئات عباقرة الأدب والفلسفة والموسيقى الألمانية، من جوته وشيلر إلى كانط وهيجل، عبورا بـ«بيتهوفن» الذى ولد فى «بون» القريبة من كولونيا. وعندما غادرت القطار فى المحطة لم أجد أحدا من الناس. المحلات جميعها مقفلة ماعدا كافيتريا المحطة. إليها توجهت. وطلبت إفطارا فقد كانت معى ماركات «الهر بنتهايم»، وطلب منى النادل الحساب فورا: سبعة ماركات ونصف المارك نقدته إياها ثم اختفى للتو. ولكنى ارتبت فى الأمر، وعندما راجعت قائمة الأطعمة والمشروبات، التى كان علىّ أن أبحث عنها إذ لم يحضرها معه، وجدت أن

أغلى إفطار كان لا يتجاوز ثمنه ماركين ونصف المارك!! مكثت شهور الشتاء في ألمانيا أعمل أحيانا لأسد رمقي، وأتردد على الجامعة والمتاحف والمكتبات فيما يتبقى لي من الوقت. وعندما حل الصيف التالي شددت الرحيل إلى باريس، حيث مكثت لبعض الوقت كشأني قبل مغادرتي لها في العام الذي قبله. كنت أتردد على السربون كثيرا، أستمع إلى مناقشات رسائل الدكتوراة في الآداب، وأحضر المحاضرات العامة التي كان من بينها عام ١٩٥٥ محاضرة ألقاها «سلفادور دالي» عن مشوار حياته الفنية في مدرج كلية العلوم بالسربون القديمة، وقد صارت - فيما بعد - من المحاضرات القليلة الشهيرة المدرجة في كتب تاريخ الفن الحديث.

انتهت مدة صلاحية جواز سفري بعد مضي عام كامل من الإقامة في فرنسا وألمانيا، وكانت هناك تأشيرة على الجواز تنص على عدم تجديده إلا بعد تقديم شهادة المعاملة العسكرية (التجنيد). ومن ثم تعين عليّ أن أعود إلى الوطن في صيف عام ١٩٥٦. ولكن تذكرة العودة بالسفينة لم تعد صالحة. هنا هب بعض الأصدقاء من الجزائريين البسطاء العاملين في باريس لمساعدتي على شراء تذكرة جديدة للعودة بأن جمعوا ثمنها فيما بينهم. فقد كانت كلمة «مصري» تعني آنذاك بالنسبة لهم كل العزة والكرامة التي نادى بها جمال عبدالناصر.

غمرني نبلهم، كما سبق أن غمرني نبل عامل رصف الطريق الفرنسي الذي كان أول من استقبلني في باريس. وهكذا قررت أن أكرس حياتي لرفع الغبن عن هؤلاء البسطاء العظماء حقا. وأرجو أن يكون إنتاجي البحثي في مجال نظرية الأدب والحضارات المقارنة، والمنشور حتى الآن بلغات أوربية ست هي (الانجليزية، والفرنسية، والألمانية، والايطالية، والبرتغالية، والأيرلندية) فضلا عن العربية، قد أسهم بشكل دقيق في تفنيد وكشف الأوهام التي تتخفى بها العنصرية بازاء هؤلاء المنتجين المباشرين البسطاء سواء كان في أوطانهم الغربية، أو في بلاد ما صار يدعى «العالم الثالث». وفي هذا الجانب الأخير كان إسهامي النظري من خلال المدخل البديل للنظريات التي تبرر وتسعى لتعميق التوغل الغربي الاستعماري في بلادنا تحت اسم «التثقيف من الخارج» تارة و«الاتصال الثقافي» أخرى، وذلك باقتراح مدخل منهجي بديل يبدأ برصد وتحليل واقعنا المهيمن عليه، وهو مدخل «التداخل الحضاري».

أنت والهلال

تحية للدكتور البيومى وكـل كتّـاب الهـلال

حيا الله كل كاتب يطلب الحق ، ويقول السداد ، ويتحرى الصواب ، ولكن للنفس هواها ، وللقلب ميله ، ولا بأس بالهوى إذا كان غير متبوع ، ولا جناح فى الميل إذا كان غير مملوك .

وإنى لتروقنى أيما روق مقالات الأستاذ الكبير الدكتور محمد رجب البيومى فى الهلال ، وأخص بالذكر مقاله فى ذكرى المولد النبوى (٦/ ٢٠٠٠) ، وماقيه من الصفاء العجيب ، والتدفق الآسر ، والبيان الساحر ، والتفكر السامى .

هنيئا للهلال كاتبها الكبير ، وكتّابها : الباحث المفكر الدكتور محمد عمارة ، والأديبة الليبية الأستاذة صافى نازكاظم ، والمؤرخ المنصف طارق البشرى ، أكتب هذا الكلام وعلى خدى دمعة على أستاذنا المحقق الضليع الدكتور محمود الطناحى ، رحمه الله رحمة واسعة .

محمد خليل الزروق
بنغازى - ليبيا

لا طلاق بعد الإنجاب

طلقهـا والحزن فى عينيه   متجـرة للكبريا تنتمى
أى طلاق بعـد طفلين   لم يفهما طبيعة العالم
ما أظلم الدنيا ، لقد أقسمت   أن تلدغ الجميع كالأرقم«١»
أين الهوى القديم أين الشذا؟   أين ليالى القمر الهائم؟
يحاول الوالد طعن التى   طلقها بنجله الساهم
والأم أيضاً ليس فى رأسها   سوى قتال الرجل الظالم
كأنما الأطفال فى شرعهم   قنابل فى خندق مظلم
الانسجام مستحيل وكم   تعاركا فى الأرض والأنجم
صار الصراخ غيمة أمطرت   حزناً على بيتهما الغائم

إن أنجب الزوجـان لن ينجـحـا بالانفـصـال فـالضـحى يرتمى
بينهـمـا كـمـغنطيس له قطبـان يأمـران كـالحـاكم
سـيـجـمع الأولاد رأسـيـهـمـا رغم الطلاق واحـتـراق الدم
لا ينجح الطلاق يا صـاحـبى بعـد قـدوم الوالد البـاسم

١٠ شعبان

د.هيثم الحويج العمر
دمشق

تنويه حول تاريخ ميلاد الشيخ على عبدالرازق

جاء في كلمة هذا الكتاب ، والتى تنوه عن «كتاب الإسلام وأصول الحكم» الصادر عن سلسلة كتاب الهلال فى ٥ أغسطس عام ٢٠٠٠م ، أن الشيخ على عبدالرازق ولد عام ١٩٠٨ ، بينما ذكر فى نفس الكتاب أنه قد تولى القضاء الشرعى عام ١٩١٥ ، ومعنى ذلك أنه تولى القضاء فى السابعة من عمره ، وهذا غير معقول .

والأرجح أنه قد وقع إبدال فى الأرقام الخاصة بتاريخ مولده وصحتها عام ١٨٩٠م .

عبدالرحمن شاكر

مصر الجديدة

الهلال :

نشكر الكاتب الكبير عبدالرحمن شاكر على ملاحظته القيمة ، ودقته ، والتى أردنا فى نفس الوقت أن ننوه عنها ليستفيد قارىء كتاب الهلال العزيز .

تعليق على موضوع الشاعر الذى تزوج الحرية !

لى تعليق على مقال الشاعر الرقيق الأستاذ/ محمد إبراهيم أبوسنة والذى يدور حول نزار قبانى والحرية ..

فى البداية : عندما قرأت هذا المقال عنه وجدت خطأين فادحين .

الأول : هو عندما يقول نزار فى قصيدته والتى على (البحر المتدارك) «وأقول بأن الله سيجمع يوماً بين الأرحام» والصواب هو إضافة (ما) بعد (يوماً) حتى يستقيم الوزن فنقول (وأقول بأن الله سيجمع يوماً ما بين الأرحام) .

والثانى :

عندما يقول نزار بأسلوبه الشعرى وهذا يتمثل فى هذا الموضع عندما يقول :

ياسيدتى : إن النملة تملك وطنا

إن الدودة تملك وطنا

إن الضفدع يملك وطنا

إن الفأرة تملك وطنا .... إلخ

وأقول ، وأين باقى الحيوانات فى القصيدة يانزار ؟!

فيصل حجاج
الإسكندرية

ينابيع الإيمان

أنا مسلم ، أنا مسلم
نبذت الشرك من دربى
فقيض الله يغشانى
ويحمينى من الجـدب
جذورى غرس أجدادى
ينابيعى نـدى العشب

ربوع الأرض محرابى
ومشكـاتى هـدى ربـى
وأبغى العيش فى سلم
بـلا هول ، بـلا خطـب
ولـو يوماً هنـا داسـوا
على عرضى ، على شعبى
أنـا بـرق ، أنـا رعـد
أنـا القنـاص للـدب
أنا مسلـم ، أنا مسلـم
نبـذت الإفك مـن دربـى
ومختـالاً بآيـاتـــى
وبستانـى فمـا ذنبـى ؟!

عبدالناصر أحمد الجوهرى
المنصورة

إشـــارة

قصة قصيرة

توقفت سيارتى فى الشارع المزدحم بسبب إشارة المرور ، إنها ثالث مرة أتوقف فيها اليوم . الوقت يمر ببطء توقفت بجانبى سيارة تحوى مجموعة من الشباب ، ويصدر منها ضجيج شديد ، حاولت التركيز فى أى شىء آخر غير هذه الموسيقى ، كان هناك شىء يجذب الانتباه ، ذلك الشاب الذى يحمل فى يده عقود الفل ، ويتنقل بين السيارات فى سرعة ، شاب أسمر يحمل ملامح مصرية أصيلة ، أخذت ألاحقه بنظراتى ، يتوقف بجانب كل سيارة فترة لا تزيد عن الدقيقة ، ثم ينتقل إلى سيارة أخرى فى سرعة ، كان يبيع عقوده فى بعض السيارات ويترك سيارات أخرى وقد احمر وجهه نتيجة معاملة أصحابها له معاملة جافة ، أو إغلاقهم لزجاج السيارة فى وجهه .

لهذا الفتى قدرة غريبة فى التحمل ، تخيلت نفسى مكانه وتخيلت ردود أفعالى مع الناس . هذه السيدة التى فى العقد الرابع والتى نهرت الفتى لو فعلت هذا معى لصرخت فى وجهها أو رميتها بما أحمله ، أنا عصبى ولا أتحمل مثل هذه التصرفات بل لا أتحمل الوجود فى الأماكن المزدحمة . انتظرت أن يأتينى بائع الفل ليعرض بضاعته علىّ لكن الإشارة الخضراء انطلقت ولم يقترب من سيارتى ، انطلقت بالسيارة وأنا ألقى نظرة أخيرة على وجهه واندهشت جداً وأنا أراه مبتسماً ويلوح للسيارات الذاهبة فى سعادة!

محمد شعبان- حدائق حلوان

مناجاة

ياشعر أنت رفيقي	وأنت سر وجودي
أنست فيك وفاء	في سابقي وجديدي
إن هددتني البلايا	وفارقتني سعودي
وكان يومي عبثا	مما تعاني جهودي
أنت الذي فيك ألقى	لحنا لأوتار عودي
السحر فيك جميل	ما القصد سحر قصيدي
وإنما نفحات	تشمها من بعيد
كالورد يحلو شذاه	عند الصباح الوليد

خير الدين عبدالسلام
بسكرة - الجزائر

الهلال : الصديق خير الدين ...

نحن نعتز بك قارئا للهلال وصديقا دائما ، ودائما في انتظار مساهماتك .

طرائف من النثر والشعر

ذهب يوما الظريف محمد البابلي لتقديم واجب العزاء في صديق له بإحدى قرى مديرية المنوفية فوجد المعزين في المأتم يجلسون على الحصير كعادة أهل الريف فجلس القرفصاء معهم، وطال الوقت وتعب من هذه الجلسة التي لم يتعودها فقال لواحد من أهل الفقيد : هو المرحوم فاتكم ع الحصيرة ولا ايه .. وحدث مرة أخرى أن كان يسير في جنازة احد الباشوات مع صديقه الشيخ عبدالعزيز البشري ولاحظا أن نعش الفقيد ملفوف بالحرير فسأله البشري : هو النعش ده يسوى كام فقال له البابلي : ده بالميت يسوى عشرين جنيه .

كان أحد الولاة بالعراق ويدعى أبي حسن بن المدبر إذا مدحه أحد الشعراء بشعر لم يعجبه أمر غلامه أن يأخذه الى المسجد ولا يتركه الا بعد أن يصلى مئة ركعة لذا كان يتجنبه الشعراء الا أن واحدا منهم ويدعى الحسين المصرى عرض عليه أن ينشده بعضا من شعره فقال له الوالي : وهل علمت ما سوف افعله بك إذا لم يعجبني شعرك قال : نعم ثم أنشد :

أردنا فى أبى حـسن مـديحـا | كـمـا بالمدح ينتـجع الولاه
فـقلت أكـرم الثـقلين طرا | ومن كـفـاه دجلة والفـرات
فـقـالوا يقـبل المدحـات لكن | جـوائزه عليـهن الصـلاة
فـقلت لهم ومـا تغنى صـلاتى | عـيـالى انما الشـأن الذكـاه
فـيـأمـر لى بكسـر الصـاد منها | فـتـصـبح للصـلاة هى الصـلات

فضحك الوالى وقال للشاعر : من أين أتيت بهذا: قال : من قول أبى تمام :

هن الحـمام فإن كسـرت عـيافـه | من حـائهن فـإنهن حـمـام

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

إبحـــار

علمنى حبك ساحرتى
أن أكتب فيك الأشعار
أن ألثم فى كل صباح آلاف الأزهار
أن أعرف كيف إذا رقص الأطفال ستنهمر الأمطار
علمنى حبك معرفتى
أن أبحر فى عينيك بكل مساء
علمنى أن أرفع أشرعة حمراء
علمنى كيف أغير لون الشفتين وكما اشاء
علمنى كيف يكون القلب طريق نجاة
علمنى حبك فاتنتى
كيف يكون النهد رسول حياة

رمضان سالم الأسيود
صبراتة - ليبيا

الهلال :

هذه القصيدة من قصائد الشاعر الكبير نزار قبانى ويبدو أنك قد تأثرت بشعره حتى أنك تكاد تنقل أبيات القصيدة باستثناء بعض التغييرات الطفيفة .. وفى انتظار شعرك وابداعك الحقيقى .

يوسف وهبى فى ذكرى ميلاده المائة

تحل ذكرى مولد عميد المسرح المصرى والعربى يوسف وهبى فى هذا العام، ولعل تسليط الأضواء على حياة الرواد فى كافة المجالات أمر يفيد الدارسون لما فيه من فائدة تتمثل فى كيفية تمسك هؤلاء الرواد بالعزيمة والإصرار على شق طريق الكفاح من البداية حتى وصلوا إلى ما حققوه من أمجاد فى هذه المجالات، رغم العثرات والمصاعب الجمة التى لاقوها فى عصر لم يكن احتراف الفن فيه أمراً مستحباً.

وفى هذه الذكرى أجد أن أبرز مايمكن الحديث عنه حول مذكراته التى سبق أن أصدرتها دار المعارف فى جزءين منها عام ٧٣، ١٩٧٤ تحت عنوان «عشت ألف عام».

ويمكن تقسيم حياته من خلالها إلى مراحل ثلاث:

١ - مرحلة ميلاد الهواية فى فترة صباه وشبابه البكر ومزاملته لصديقيه الحميمين محمد كريم «المخرج السينمائى»، مختار عثمان ومغامراته الشبابية والعاطفية خلال هذه الفترة وحبه الجارف لهواية التمثيل رغم محاربة والده لها.

٢ - مرحلة سفره إلى إيطاليا والتحاقه بالمعهد العالى للتمثيل والموسيقى بميلانو.

٣ - المرحلة التى بدأت بعودته إلى مصر وتأسيسه فرقة رمسيس المسرحية عام ١٩٢٣ وإرسائه قواعد «اتيكيت المسرح» التى تمثلت فى احترام مواعيد رفع الستار والعناية بإطار المسرحية ومستلزماتها.

يحيى محمود حسين

القاهرة - مصر الجديدة

الهلال:

ونحن بدورنا نؤكد على هؤلاء الرواد الذين أثروا حياتنا فى مجالات الأدب والفن، ويوسف وهبى يستحق كل التقدير لما قدمه للمسرح من إبداع لم يصل إليه أحد حتى الآن، بل إننا نتذكره الآن وقد بدأ المسرح المصرى ينهار ويتراجع الى الوراء كثيرا.

إلى الأصدقاء

●● عرنوس البراشي – شربين – دقهلية :

وصلتنا قصيدتك اشتياق ، وفيها حس شاعرى جميل ، انتظرها فى اعداد قادمة من الهلال .

●● الصديق فهيد مطلق الفهيد رئيس مجلس إدارة نادى الريان حائل – مدينة الروضة السعودية نحن نرحب باشتراككم فى مجلة الهلال ، وكتاب الهلال ، ورواية الهلال ، وذلك من خلال إرسال طلب إلى إدارة الاشتراكات بدار الهلال ، وهى التى تتولى ذلك . مع تمنياتنا بالنجاح الدائم .

●● عادل فرج عبدالعال – كفر شكر:

وصلت مساهمتكم ، وهى عبارة عن قصة بعنوان «للأيام دهاليز قديمة» ، ونتمنى أن تأخذ دورها فى النشر قريبا.

●● الصديق : عاصم فريد البرقوقى – الإسكندرية – جليم:

شكراً لك على رأيك حول ماجاء فى التعليق على مقالة «أنبياء مصر» . كما نرجو أن تكتب باستمرار مساهماتك التى يمكن أن نقدمها لمجلات الأطفال فى دار الهلال ، ومنها مجلة ستمرار ، وقد ينشر البعض من هذه المساهمات .

●● الصديق : عرفة رمضان أنسى – باسوس – القناطر الخيرية:

قصيدتك «رسالة قصيرة جداً» ، أو محاولتك الأولى كما تذكر فى رسالتك ، لا بأس بها ، لكن الشعر مكسور ، وتحتاج إلى محاولات وقراءات متصلة ، والشعر ياصديقى فن جميل لكنك لابد أن تتسلح بالموهبة والقراءة ومعرفة علم العروض، حتى يتسنى لك أن تنشىء قصيدة يشار إليها بالبنان فواصل المشوار ولا تتوقف من أول مرة !.



الكلمة الأخيرة : مذكرات ، ذكريات ، شهادات ، مداخلات ، رسائل ، خطابات ولكن الثعلب له لفَّات !

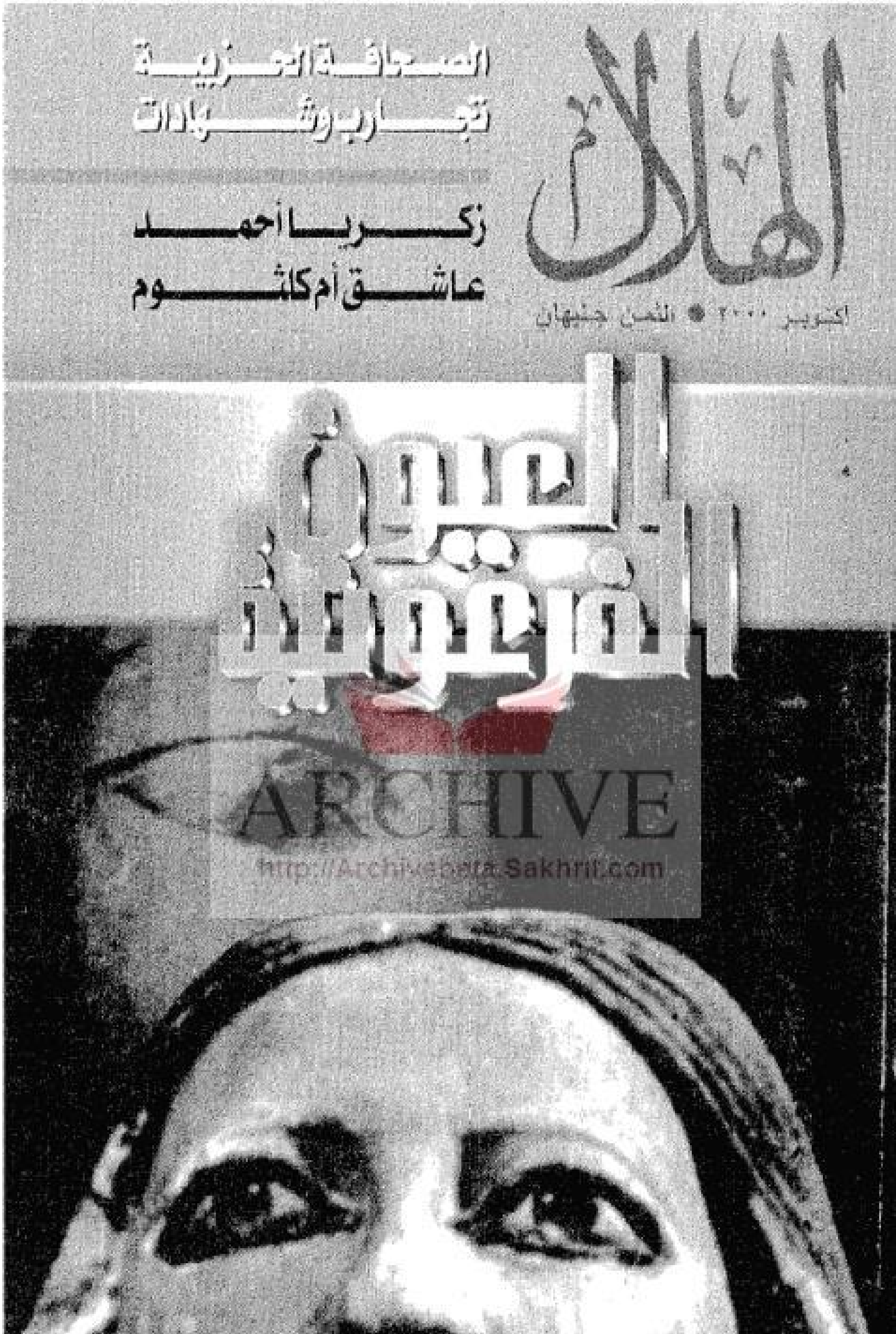
بقلم :صافى ناز كاظم

ذهبت مرّة إلى الأستاذ أحمد بهاء الدين، وكانت تربطني به صداقة محترمة، أقول: أريد رأيك في كذا وكذا. هزّ رأسه: حاضر، لكن ما أن بدأ في إبداء رأيه حتى صرت أقاطعه معارضة كل كلمة يقولها بـ «لكن»، حتى انفجر: «إنت جاية تاخدى منى رأيى أم رأيك؟». لم أنس حتى الآن هذا التأنيب الساخر الذي يلتقط بذكاء، وتلخيص النزوع المستمر لدينا لكى نسمع من الآخرين ما نحب ونراه لا ما يحبونه ويرونه، ومنذ أن صدرت مذكرات عبد الرحمن بدوى وسيل الغضب منها وعليه لم ينقطع : لماذا قال ، وكيف يقول وهذا لا يصح وكان يجب عليه أن .. إلخ . والحقيقة إننى لم تربطنى بالدكتور عبدالرحمن بدوى أى وشيجة، ثقافية أو غيرها، على طول مشوارى الحياتى، وكل ما أعرفه عنه اسمه فقط الذى ظل الأستاذ أنيس منصور يردده فى كتاباته، التى لولاها لما كان لاسم عبد الرحمن بدوى أى رنة فى أذنى، فأنا لم أقرأ له شيئاً ولم أحتج أن أقرأ له أى شىء فى سياق دراسة أو بحث أو معرفة أو متعة، وحين هاج من هاج فى حملة إعلامية مكثفة ليعدد مناقب د. بدوى وضرورة مكافأة مشواره العلمى والثقافى بأعلى جائزة تمنحها الدولة، قلت: إن رجلاً مثل «بابا شارو» محمد محمود شعبان، عبقرى الفن الإذاعى ومخاطبة الطفل، الذى بذر على مدى أكثر من نصف قرن فى وجدان هذه الأمة منبهات الثقافة والفن ، وحرك بالخيال، وفطرة التأمل ، أمانا من الجمال والحكمة لهو أجدر بالتكريم والجائزة من عبد الرحمن بدوى الذى لم نر له فى قلوبنا خفقة ولا فى عقولنا ظل بصمة. وعلى الرغم من موقفى هذا من د. بدوى، ظللت أردد إزاء مذكراته: ماذا يريدون من الرجل: مذكراته أم مذكراتهم؟.

رجل يقول: أكره فلان وشهادتى عليه كيت، واحتكاكى به كشف لى كذا ، فنرى من يحاسبه ويقول: لا يصح أن تقول ما رأيت أو تصرح بما شعرت.

لماذا الإصرار على أن نظل عميانا لا نرى حقائق الأمور من كل زواياها، سواء كانت حقائق «الراوى» أو «المروى عنه»؟ .

لماذا إذن يضجون بالطلب: اكتبوا مذكراتكم، ذكرياتكم، شهاداتكم، وانشروا الرسائل والخطابات؟ هذا التناقض - أو لعله الكذب - مستمر فى إصرار يثير الاشمئزاز، مثل تلك اللافتات التى تحرص بعض الصحف على رفعها: «مساحة حرية»، «الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى.. إلخ»، « الإبداع .. الإبداع من دون رقابة أو وصاية.. »وما أن تسير خطوتين وراء الصارخين بتلك الحرية حتى تجد يد بطشهم الغبى - التى لا هى تعليمات أمن أو توجيهات عليا - تلطشك على أهون زغرة وأبسط شهيق وأنفه حق وتمنعك حتى من تصحيح وقائع ملتبسة، ويتبين لك أن اللافتات وصرخات «الحرية» ماهى إلا عدة النصب الجديدة على خلق الله، مزوقة، مثل محال الفسيخ، بالزهور الصناعية التى قد توحى بشذى الهواء الطلق لكنها فى واقعها تكتم الأنفاس.


الهلال
الصحافة الحزبية
تجارب وشهادات
زكريا أحمد
عاشق أم كلثوم
اكتوبر ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام التاسع بعد المائة

أكتوبر ٢٠٠٠م ● رجب ١٤٢١ هـ

ثمن النسخة سوريا ١٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 4741116413079

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـــذا
العـــدد



تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب

فكر وثقافة

الصحافة الحزبية في مصر

جزء خاص

فنــــون

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

تذويب الفوارق بين الدول

أطفئت الأنوار، في المبنى الأنيق الواقع على شاطئ نهر «الهدسون» مقر الأمم المتحدة في نيويورك، وانفض الجمهور الذى احتشد وراء ١٥٠ من زعماء العالم ليحتفل بهذا الحدث الفريد المتمثل بحلول الألفية الثالثة، انتهت «قمة الألفية»، وعاد المحتفلون إلى ما كان يشغلهم قبل هذا المهرجان الباهر، ولكن الآمال التى فجرتها المناسبة وخطب «الكبار» الرنانة لاتزال تعتمل فى الصدور.. خاصة صدور هؤلاء الذين وصفهم الخطباء بأنهم الأكثر فقرا والأقل حظا فيما تنتجه الأرض أو ينجزه الإنسان.

كانت «العولمة» هى المحور الذى دارت حوله «قمة الألفية» التى عقدت فى مقر الأمم المتحدة فى أوائل سبتمبر الماضى، ولأن الموضوع، بطبيعته، جديد وواسع ومثير لكثير من الخلط والالتباس، فإنه كان لابد وأن يطول حوله الجدل ويتشعب. وهكذا تناولت خطب الزعماء - وأيضا تقرير كوفى عنان الأمين العام للمنظمة الدولية - الآفاق التى ينبغى للعولمة أن تغطيها، والمحاذير التى يجب أن تتجنبها، مع الأخذ فى الاعتبار أن الأمم المتحدة ينبغى أن تأخذ فى يدها زمام المبادرة فيما يتعلق بـ «مراقبة» تطبيق العولمة فيما هو آت من سنين وحقب، وعلى نحو أكثر إيجابية وفاعلية مما كان عليه دورها طوال نصف القرن الذى انقضى من عمرها والذى تعرضت خلاله إما للشلل الكامل فى أحيان كثيرة بسبب الحرب الباردة.. أو لتعطيل دورها وتجاهلها بفعل هيمنة القوة الأعظم الباقية - أمريكا - منذ انهيار الاتحاد السوفيتى.

ولكن أيا كانت الآمال التى حفزتها «قمة الألفية» وخاصة لدى الفقراء من سكان العالم، وهم الغالبية، فإن هناك سؤالا جوهريا يفرض نفسه فوق كل تلك الآمال - أو ربما بالرغم منها - وهو: كيف يمكن أن تتحول «العولمة»، من خلال نظام دولى متطور، إلى قوة إيجابية يستفيد منها الجميع.. والفقراء على وجه أخص؟.

عزيزي القارئ

ومع أن هذا سؤال مهم، لأنه يمس صميم ما ينبغي أن يتوجه إليه المجتمع الدولي مع مطلع الألفية الثالثة، والتحول العميق الذى يجب أن يطرأ على العلاقات الدولية.. إلا أنه يثير، بالنسبة إلينا فى هذا الركن من العالم الذى يطلق عليه «العالم العربى»، ما هو أكثر من التساؤل وما هو أبعد من الآمال.

فإذا كان كوفى عنان قد أكد فى تقريره إلى «قمة الألفية» أن الأمم المتحدة أصبحت ضرورية اليوم أكثر مما كانت فى أى وقت مضى، وأنها يجب أن تعمل على تذويب الفروق بين الدول فى النفوذ، والثقافة والمصالح، فإن ذلك من شأنه أن يبعث إلى العقل العربى، على الفور، ذكريات مؤلمة عن موقف العجز الذى وقفته الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٨ وحتى اليوم... وهو عجز ذو أثر مزدوج، حيث لم يتمكن المجتمع الدولى من فرض إرادته كلما كان الأمر متعلقا بإسرائيل، فى حين استطاع أن يتحول إلى «قوة بطش» فى حالات أخرى على نحو ما حدث إبان حرب الخليج وانعكس فى قرارات لمجلس الأمن لاتزال تفرض بمقتضاها حالة الحصار القاسية على العراق.

لقد تحولت «الأمم المتحدة» فى أنظار الكثيرين، خاصة طوال العقد الأخير من القرن العشرين، إلى مجرد أداة فى يد الدولة الأعظم المهيمنة على العالم اليوم وهى الولايات المتحدة الأمريكية فهل يكون انعقاد «قمة الألفية» علامة ومؤشرا لتحول «حقيقى» فى دور المنظمة الدولية أكثر إيجابية وأكثر عدلا وإنصافا لفقراء العالم؟ وهل يصبح المجتمع الدولى قادرا بالفعل على إدارة أموره بصورة أكثر عقلانية بحيث تقبل الدول القوية والغنية التعاون من أجل محاربة الفقر وتلوث البيئة والتخلف لما فيه مصلحة جميع سكان كوكب الأرض؟.

وهل تنجح المنظمة الدولية فى تحقيق هذا الهدف الجميل الذى عبر عنه أمينها العام بتذويب الفوارق بين بلدان العالم.. حتى فى حده الأدنى؟.

إن التساؤلات كثيرة، ولكن الآمال – أيضا – كبيرة.. لأنه لا سبيل أمام بنى البشر المنتشرين على سطح هذه المعمورة سوى التسليم بضرورات العيش المشترك.

المحـــرر

حرية التعبير عن الرأى

بقلم : حسين أحمد أمين

غدت حرية التعبير عن الرأى اليوم مقبولة ومسلماً بها فى معظم البلدان المتحضرة . غير أنها حرية لم تكتسب إلا فى العصر الحديث ، وبعد إراقة بحور من الدماء . وكان لابد من مرور قرون طويلة حتى تقتنع الشعوب المتمدينة بأنها فى صالح الإنسان لا العكس. بل كان لابد من انقضاء أمد طويل قبل أن تخطر فكرة حرية الرأى نفسها فى أذهان الناس .. فثمة من المجتمعات ماعرف حرية التعبير عن الرأى قبل أن يطرأ بباله أنه يتمتع بها (كالإغريق والرومان فى بداية دولتيهما ، والعرب فى الشطر الأعظم من جاهليتهم) ، وقبل أن يعى أن هذه الحرية حق من حقوق الإنسان ليس من حق سلطة أن تمسه.

فمرور الزمن الطويل كان لازما إذن حتى تنبت فى الأذهان فكرة هذا الحق. وهى فكرة تستلزم توافر أمور ثلاثة، الأول : إرساء دعائم مجتمعات ذات أنظمة سياسية واقتصادية ، والثانى : شيوع آراء وأفكار ومعتقدات بين أفراد هذه المجتمعات تحظى من غالبيتهم العظمى بالقبول ، والثالث : نشوء مصالح لدى طبقات معينة فى المجتمع تكون مرتبطة بآراء ومعتقدات معينة .

وبالتالى يصبح فى مقدورنا أن نحكم بأن المجتمعات التى كانت – أو لاتزال – تعارض حرية الفكر ، وتناهض الآراء الجديدة ، إنما تعارض هذه وتناهض تلك للأسباب الثلاثة التالية :

أولها : أن عقل الإنسان العادى هو بطبيعته كسول ، وأفكاره يقبلها عادة من البيئة المحيطة به دون مناقشة . فهو يعارض غريزيا كل ما من شأنه أن يخلخل النظام الثابت فى عالمه المألوف . والفكرة الجديدة تحتم ضرورة قيامه بإعادة ترتيب أفكاره ، وهو أمر شاق . ومن ثم فإن الفكرة الجديدة تبدو له شريرة خبيثة لمجرد أنها مرهقة، ويفضل عليها اعتناق الآراء والمعتقدات المستندة إلى سلطان كنيسة أو كتاب مقدس أو رأى عام، حتى إن كان من المستحيل البرهنة على صحتها، لمجرد إيمانه المطلق بسلطة أو بفرد.

وثانيها : ذلك الخوف من أن تؤدى الأفكار الجديدة إلى تهديد المجتمع وأسسه، بالنظر إلى ماتعنيه من ضرورة إدخال التغيير والتعديل على النظم السائدة فيه، وقد ظل الناس حتى عصرنا هذا يخالون صلاح الدولة فى الاستقرار الثابت الجامد، وفى المحافظة على التقاليد والأنظمة دون أدنى مساس بها. ولذا صاروا يرون الشخص خطرا متى شرع فى التساؤل عن حكمة المبادىء الشائعة ، أو التشكيك فى التقاليد .

وثالثها : أن الأفكار الجديدة تهدد مصالح شرائح قوية فى المجتمع ، كتهديد مبادىء الثورة الفرنسية للطبقة الأرستقراطية، والماركسية للطبقة البورجوازية، والعلمانية لرجال الدين ، وهى طبقات ترتبط مصالحها بالنظام القائم ، وبالأفكار التى يستند إليها هذا النظام . ولذا صار من المؤكد أن تلقى هذه الأفكار معارضة قوية من تلك الشرائح. والواقع أن معظم المعتقدات الخاصة بالطبيعة والإنسان مما لايقوم على أساس علميٍّ، كان يخدم بصورة مباشرة أو غير مباشرة مصالح طبقة اجتماعية أو سلطة دينية . وبالتالى فقد كانت القوة تحميه دائماً من هجمات وانتقادات أفراد يصرون فى عناد على الاحتكام إلى العقل . والملاحظ بوجه عام أنه مامن شخص يغضب إذا أنكر جاره حقيقة قابلة

للتمحيص والإثبات ، غير أنه يثور ويهيج متى أنكر هذا الجار معتقدات لا يمكن بأي حال إثباتها علميا . فإن أصرّ الجار على أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن له وجود، أو أنكر أن الملح يذوب في الماء، فإنه يثير سخريتنا أو شفقتنا . أما إن شك في وجود الملائكة وعذاب القبر أو في خلود الروح ، فإنه يثير غضب الناس وكراهيتهم، وقد يحكم عليه في بعض المجتمعات بالموت بسبب شكه هذا .

العقلانية

وقد شهدت العصور الوسطى بالأخص ميدانا شاسعا من المعتقدات التي فرضت السلطات على الناس واجب قبولها. وحذرتهم من الخوض في الكلام عنها أو تحكيم العقل فيها . غير أن العقل إنما يخون طبيعته أو وظيفته إن هو قبل الحدود التحكمية أو القيود المفروضة على حريته . وتأكيد العقل لحقه المطلق في النظر في كل الأمور هو مايعرف بالعقلانية . وما إدانة البعض لهذه العقلانية إلا من آثار الصراع المرير بين العقل والقوى المعادية له ، لاسيما في مجال الثيولوجيا التي احتدم فيها الصراع بصفة خاصة .

والحقيقة أن أولئك الذين يهمهم حقاً تأكيد سلطان العقل ، كانوا دوماً أقلية صغيرة من البشر، ومن المثقفين الذين بوسعهم استخدام السلاح الوحيد المتاح للعقلانيين، وأعني به الجدل . أما السلطات فقد لجأت في حربها ضد هؤلاء إلى العنف المادي، والقهر المعنوي، والضغط القانوني، وإثارة الاستنكار الاجتماعي . وقد لجأت أحياناً إلى استخدام سلاح أعدائها وهو الجدل وتحكيم العقل . غير أنها كانت دائماً في تلك الأحيان تخرج من الصراع جريحة منهزمة ، كما هي الحال حين حاربت الكنيسة أفكار جاليليو في أوائل القرن السابع عشر ، ثم اعترفت بخطئها في أواخر القرن العشرين . والواقع أن أضعف نقطة في المركز الاستراتيجي للسلطة هو أن حُماتها - وهم بشر - لم يستطيعوا أن يحولوا بين أنفسهم وبين استخدام الجدل والحجج العقلية ، مما أدى إلى حدوث الانقسامات في صفوفهم هم ، وإلى إتاحة فرصة النصر للعقلانيين.

قبول الفكرة وتصديقها

قد يعترف البعض بخطأ السلطة في محاكمة جاليليو، ولكنه يرى لها الحق مع ذلك في أن تتحكم في مجال العقائد التي تخرج عن نطاق الخبرات البشرية ، والتي لايمكن إثباتها أو التأكد من صحتها، كما لايمكن إثبات خطئها . وفي الرد على ذلك نقول : إنه بوسع أي مخلوق أن يخترع أي عدد من الافتراضات التي لا يمكن إثبات خطئها ، والتي يمكن لأي شخص أبله ، أو مندفع ، أو سهل الانخداع ، أن يقبلها ويعتنقها . غير أنه ما من أحد يملك أن يدعي أن كل هذه الافتراضات جديرة

بالتصديق مالم يثبت كذبها . فإن كان بعضها فقط أهلاً لأن يصدق ، فأى سلطان سوى سلطان العقل له أن يميز بين ماهو أهل للتصديق وما هو أهل للتكذيب ؟ فإن ادعوا للسلطة هذا الحق ، أجبنا بأن الكثير من المعتقدات التى أزرتها السلطة فى الماضى ثبت على مر الأيام بطلانها وهجرت .. والخلاصة أن عبء الإثبات لا يقع على عاتق الكذب بل على عاتق المصدق . فلو أنه قيل لك إن بالفضاء الخارجى كوكبا يسكنه جنس من الحمير ، يتحدث بلسان عربى مبين ، ويقضى يومه فى مناقشة آراء ابن سينا وابن رشد ، لما كان بوسعك أن تثبت كذب مايقال لك. غير أنك لست مطالباً بالتصديق لمجرد عجزك عن إثبات بطلان الزعم . ومع ذلك فإن البعض قد يقبل الفكرة ويصدقها متى كررتها السلطات بما فيه الكفاية ، وأذاعتها الإذاعة والتليفزيون صباحاً ومساء، ونادى بها قوم من أسطح المنازل ، وغرسها الآباء والمعلمون في ذهنه منذ طفولته ، وأكدها له بقوة أناس يوقرهم ويحترمهم . ونحن نعلم عن يقين قوة تأثير التكرار فى ثقة (كما فى الإعلانات) ، وقدرة هذا التكرار على تثبيت الآراء فى النفوس .

ولاشك فى أن قمع الآراء الجديدة كثيراً ماتسبب فى الماضى فى عرقلة التقدم أو الحيلولة دونه فى المجتمعات البشرية . وقد كان هذا القمع يستند دائماً إلى حجة أن الآراء الفاسدة ليست أخف ضرراً من الأعمال الإجرامية ، وأنه من مسئولية القائمين بالحكم مكافحة هذه كما أن من مسئوليتهم مقاومة تلك . والرد الواضح على ذلك هو بالتساؤل عن الحكم بصدد تقييم الآراء ، ومن صاحب الحق فى الفصل بين الصحيح والباطل، والتمييز بين الإجرامي والبطولي، وبيان ماهو خليق بالمكافحة وما هو خليق بالتشجيع والرعاية، وكثيراً ما حدث في التاريخ أن أدان حكام رأياً ثم اعتنقه حكام تالون ، كمكافحة حكومة القيصر نيقولا الثانى للشيوعية فى روسيا، ومكافحة حكومة لينين بعدها للآراء المناهضة للشيوعية ، كل بدعوى أن آراء خصمه آراء فاسدة ، غير أن المثال الأقرب على هذا هو تغيير الفرد نفسه لآرائه بمرور الوقت. فالرأى الذى أؤمن اليوم بكل قوة وثقة بأنه صحيح وفوق مستوى الشبهات ، قد أغيره بعد عام أو عامين وأرى خطله وفساده . ثم قد انتقل من هذا الرأى الثانى فى مستقبل أيامى إلى ثالث فرابع .. ففى أية مرحلة إذن من تلك المراحل من العمر يمكننى أن أقول فى ثقة بأنى على حق ؟ وقد سبق لفرويد أن عرف الآراء بأنها اعتقاد المرء بصحة شيء ما لمجرد رغبته فى أن يكون ذلك الشيء صحيحاً ، وعرف الشاعر روبرت جريفز الأساطير بأنها ديانات الآخرين . فمن إذن بمقدوره أن يصف

عقيدته بأنها العقيدة الحقة ، وغيرها بأنها أساطير ، وهو يعلم أنه لو كان قد ولد فى بلد غير بلده ، وبين قوم غير قومه ، لوصف العقيدة التى يؤمن الآن بها بأنها من الأساطير؟

كذلك فإن الاحتجاج بأن عقيدة الأغلبية العظمى فى مجتمع معين هى الحكم فى مضمار صحة الرأى ، هو الآخر احتجاج مردود عليه . فقد تخطىء الأغلبية فى اعتقادها وقد يصيب إنسان فرد. ولو أن البشرية بأسرها أجمعت على رأى وخالفها فيه شخص واحد ، لما حق للبشرية أن تخمد صوته ، تماما كما أنه ليس من حق هذا الفرد أن يخمد صوت البشرية ، فإخماد الصوت فى حد ذاته - وعلى حد تعبير جون ستيورات ميل يضر بالجنس البشرى ، بحاضره ومستقبله ، كما يضر بقامعى الرأى أكثر من إضراره بصاحب الرأى . ذلك أنه لو كان رأى ذلك الفرد سليماً ، لحرم الناس بقمعه من فرصة تصحيح خطئهم ، ولو كان رأيه باطلا ، لحرموا من فضل يفوق فضل تصحيح الخطأ ، ألا وهو الرؤية الأوضح للحق الناجمة عن صراعه مع الباطل. ذلك أنه حتى لو كانت عقيدة الأغلبية هى الحق المطلق ، فإن حرمانها من فرصة إثبات نفسها على حساب الباطل يجردها من أسسها العقلانية ، ويحجب الأسباب التى أحالتها من رأى إلى معرفة قطعية.

★★★

وختاما فإن تأكيد حق كل إنسان فى حرية التعبير عن رأيه ، لا يستهدف استمرار اختلاف الآراء بين الناس إلى ما لا نهاية ، ولا إبقاء الآراء دوما محلا للشك والجدل . بالعكس ، لقد كان من أفضال حرية التعبير عن الرأى على البشرية أن زادت (ولاتزال تزيد) من عدد الآراء والمعارف التى لم تعد موضعا للشك والخلاف ، أو هى على الأقل ضيقت من حدود الشك واحتمال الخلاف . إذ من ذا بمقدوره اليوم، غير قلة يدينها الضمير البشرى، أن يدافع عن نظام الرق أو تجارة العبيد ، أو عن نظرية تفوق جنس على جنس، أو عن حرمان المرأة من الحقوق، أو أن ينكر أنه لا إكراه فى الدين، أو حقوق الأقليات ، إلى آخره؟ فالواقع أن تقدم البشرية يمكن أن يقاس بعدد وأهمية الحقائق التى لم تعد تثار الشكوك حولها .. وهو أمر ما كان ليحدث لولا أن أتيحت للناس فرصة الطعن فى المعتقدات السائدة ، والحق فى التعبير عن آرائهم المخالفة لفكر الغالبية فى مجتمعهم، ولولا انتصار دعوى أنه خير امتحان للحقيقة هو قدرة الفكرة على أن تلقى القبول فى ظل التنافس فى السوق، وأنه ما من شخصية أو جماعة قد بلغت من الحكمة مبلغا يبيت من حقها معه أن تستقل بالحكم على هذا الرأى أو ذاك بالصحة أو البطلان.

أقوال معاصرة :

● «أتمنى» ألا يكون السلام مجرد معدن صدىء أو مجرد خردة»

الشاعر الفلسطيني .سميح القاسم

● «حريق القاهرة كان بداية محسوبة لإجهاض المخاض الوطني»

د . مصطفى سويف

● «الثقافة الحاكمة للناس فى المجتمع المصرى ثقافة لم تكد تتغير منذ أمد أبعد من حكم محمد على الكبير!!»

الكاتب احمد عباس صالح

● «محاولات قمع الفكر والحجر على الرأى لن تجدى شيئا فى آخر الأمر، بل قد تأتى بنتائج عكسية تماما»

د. أحمد أبوزيد استاذ الانثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية

● «الانفتاح لا يلغى هويتنا، فهى تغتنى على الدوام بروافد متعددة من الثقافة والتراث والتاريخ»

الناقدة اللبنانية د. يمنى العيد

● «أحب أفلامى الفاشلة، وأعشق التحديات»

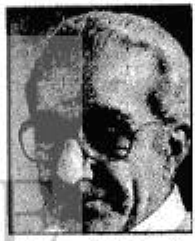
المخرج المصرى حسين كمال

● «الطباعة جعلت منا جميعا قراء، وآلات زيروكس للتصوير الفورى جعلت منا جميعا ناشرين، والتليفزيون جعل منا جميعا مشاهدين، والرقميات جعلت منا جميعا مذيعين!!»

لورانس جروسمان الرئيس الأسبق لشركة ان . بى . سى N.B.C الاخبارية

● «عالم الأزرار المهول يفتح نوافذ نطل منها على كل شىء بالصوت وبالصورة إذا شئنا»

أديب الخيال العلمي حسين قدرى



د. مصطفى سويف



د. أحمد أبوزيد

المظاهرات الطلابية في الرواية المصرية

بقلم : إبراهيم فتحى

للحركة الطلابية تاريخ طويل فى النضال الوطنى الديمقراطى منذ ثورة ١٩١٩ حتى الآن . ولكننا سنقتصر فى حديثنا على الحركة التى أعقبت هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧ وبلغت ذروتها فى السبعينات من القرن العشرين كما صورتها روايات متعددة . وقد لعب الروائيون من أجيال مختلفة دور المؤرخ غير الرسمى الذى يصور الأحداث باعتبارها طرائق حياة عاناها البشر وتفاعلوا معها بأعمق أعماقهم .

ونرى فى «حب تحت المطر» لنجيب محفوظ صورة لبعض جوانب السلبية واللامبالاة عند بعض الطلبة والطالبات أثناء حرب الاستنزاف ، والانفصام بين الجبهة العسكرية والجبهة الداخلية . المجندون يضحون ويقاسون ووراءهم جو



لاه عاكف على المتع الحسية والاستهلاكية وأحلام الثراء . فخطيبات وشقيقات بعض المجندين من الطلبة المتخرجين ، وهن طالبات أيضا يقايضن الجنس بالمال لشراء لوازم الزينة والترف . ومن الناحية العكسية نرى في «الكرنك» ما يحيق ببعض الطلبة «الإيجابيين» الذين يتجاسرون على رفع أصواتهم من بطش وتعذيب على أيدي زبانية الأجهزة البوليسية . وتومىء رواية «خرائط للمرح» لسهام بيومي إلى أن جيل السبعينات من الطلبة والمثقفين مر بمرحلة طويلة من المعاناة ، من الهزيمة إلى الاستنزاف إلى خوض غمار التحضير للحرب والاشتراك فيها اشتراكا فعليا . وقد حتم ذلك الرغبة في واقع آخر يخفف المعاناة ويتيح قدرا أكبر من المشاركة الشعبية ومن محاصرة الامتيازات . لقد عرف هذا الجيل الحلم الملح بتحقيق واقع آخر ، وإعادة تشكيل المجتمع الذي يتسم بتراتب صارخ وبيروقراطية ومنطق بوليسي تشكيلا سياسيا وديمقراطيا ، والحلم بمعمار مختلف للواقع وهندسة جديدة للمجتمع . إن تضحيات هذا الجيل بالكثير جعلهم يطالبون بحقهم في التعبير والفاعلية وفي بداية جديدة .

لقد كان الطلبة المتظاهرون في رواية «تحريك القلب» لعبده جبير يشكلون الوجه الآخر المضاد لليأس الأسود والشلل المؤقت الذي أحدثته الهزيمة وغياب الوعي في مباريات كرة القدم أو في الدخان الأزرق وأبخرة الكحول حتى الفتاة «سمراء» الخارجة إلى عالم الرقص في الملاهي تتمنى لو استطاعت الاندساس وسط المتظاهرين الذين يبدون لها قوة تحطيم . وحتى شقيقها غائب الوعي يسمع الطلبة يتناقشون في السياسة في كل الأوقات وهم يتفرجون على المباريات أو يغازلون الفتيات ، وعندما يتظاهرون أو يحتشون «الشغب» يترك لحنه الخاص ويزاحم الناس على الأرصفة ويتغنى معهم باللحن العام ..

لقد كانت حركة الطلبة رفضا لانهيار البيت ، واستعادة للإرادة الوطنية ونفضا لغبار الهزيمة .

ويصور إبراهيم أصلان في «مالك الحزين» مشاهد دالة من الحركة الطلابية مشهد احتلال الطلبة ميدان التحرير بعد



اقتحام الأمن المركزى جامعة القاهرة والقبض على الطلبة والطالبات المعتصمين فيها مطالبين باقتصاد حرب وموقف حاسم من احتلال سيناء وحريات ديمقراطية وإلغاء للامتيازات الجائرة . وتشير الرواية إلى تضامن الأدباء مع حركة الطلبة وتوزيعهم منشورات التأييد الرافضة لصلح منفرد مع العدو وتصفية القضية الفلسطينية .

انتفاضة ١٩٧٧

ويعد هذا المشهد المبكر فى أوائل السبعينات ، تشير الرواية إلى قيادة الطلبة للانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧، التى رفضت «الانفتاح» وعواقبه المدمرة ، والهوة الواسعة بين قمة الهرم الاجتماعى وقاعدته . وتومىء الرواية إلى اشتراك الطالبات مع الطلبة فى الهتاف وقيادة المظاهرات . وهنا تتفتح حركة الطلبة على أوسع الجماهير الشعبية وعلى مطالبها الحيوية اليومية فى هذه الهبة التلقائية التى لم يدبرها أحد . وإلى ذلك تشير رواية «بيت الياسمين» لإبراهيم عبدالمجيد . وهى تصور التقابل بين المظاهرات المصنوعة مدفوعة الثمن من جانب السلطة ، ومظاهرات الانتفاضة الشعبية العارمة . إن أصداء هذا الحدث الكبير الذى شاركت الحركة الطلابية فى قيادته تتردد فى الكثير من الروايات ، ونصغى إليها هادرة فى رواية «اهبطوا مصر» لعبدالسلام العمرى حيث يعود البطل فى أجازة من الخليج ليلتقى بهذا الرفض الجماهيرى الواسع للكثير من السلبيات، فالحركة الطلابية فى هذه الروايات جميعا ، حركة شعبية ليست سجينة أسوار الجامعة ، وليست حركة مثقفين منعزلين ، بل كانت تجسيداً لضمير الأمة وتعبيرا عن مطامحها وأحلامها ومطالبها الحيوية .

وفى رواية «ليلة رأس السنة» لرمضان الصباغ ، نجد عرضا يقترب من التسجيل لوقائع حركة الطلبة فى جامعة الاسكندرية . ويبدأ التسجيل بالمعركة الشرسة من أجل حق الطلبة فى إصدار مجلات الحائط دون وصاية ، وكان الطلبة يريدون تحطيم القانون الذى استنه الاتحاد الرسمى للطلاب بالاتفاق مع الأجهزة المختلفة . وهذا القانون يقضى بضرورة توقيع رئيس الاتحاد وأمين اللجنة الثقافية والدكتور رائد الأسرة على مجلات الحائط والموافقة عليها بعد قراءتها . ونرى فى التسجيل الروائى أن حلقات النقاش بدأت تتسع فتنزل عدد كبير من الموظفين والطلاب المنتمين إلى الاتحاد الاشتراكى وعملاء السلطة إلى ساحة الحوار لضرب الحركة الطلابية . وبدأت المشادات . وقرر الطلبة دفع المعركة إلى الأمام وتعليق المجلات بدون توقيعات رسمية . وقام أصحاب العضلات بنزع المجلات ودلفع عنها الطلبة فكانت تتمزق . إنها معركة دائمة غير متكافئة بين عدد محدود من

الطلاب والطالبات ضد جيش جرار من الفتوات والبلطجية، وكانت إصابة الطلبة والطالبات بالغة . وفى السبعينات أيضا عندما اشتد عود اليسار والناصريين وكادوا يسيطرون على الجامعة وتغلغلوا فى الحركة العمالية وفى النقابات المهنية، قام النظام بصناعة الجامعات الإسلامية لكى تقاوم المد اليسارى . وظلت هذه الجماعات بجنازيرها وأسلحتها البيضاء مطيعة للنظام إلى حين قبل أن تتفرع منها جماعات أخرى منشقة معادية للنظام ذاته.

مؤتمرات طلابية بالجامعة

وقام الحكوميون والجماعات المتشحة بالإسلام بإحراق المجلات وهم يهللون ويكبرون ويهتفون ضد اليسار والإلحاد . ولكن المجلات لم تتوقف رغم التضحيات كما تسجل الرواية ، وكانت تقدم المطالب الديمقراطية المرفوضة رسميا من الحزب الواحد . فالأحزاب ضرورة وضمان للحرية وطالبت مجلات الحائط كذلك بحق التنظيم السياسى والنقابى وبحرية الإضراب والاعتصام . فكانت السباقة إلى تلك المطالبة الديمقراطية وقوة ضغط فعالة من أجل اكتساب الوعى بضرورة تلك المطالب والعمل على تحقيقها . وواصلت المجلات فى التسجيل الروائى توجيه الانتقادات إلى ممارسات الانفتاح الاستهلاكى وحفلات البذخ التى يقيمها المسئولون والأثرياء على حين يعانى الشعب المصرى من الأزمة الاقتصادية .

كما شددت على رفض التبعية للولايات المتحدة ودعت إلى التضامن مع الثورة الفلسطينية . وفى جامعة القاهرة تعددت مؤتمرات هذا التضامن فى مواجهة خطوات تصفية الصراع مع الصهيونية . وتوضح الرواية أن الحركة الطلابية كانت مدرسة سياسية لممارسة أشكال شتى من المعارضة فى المنشورات والمسيرات والهتاف بالشعارات . وتتتبع الرواية الالتقاء بين الحركة الطلابية والحركة الجماهيرية العارمة فى يناير ١٩٧٧ . لقد كان رفع الأسعار هو القشة التى قصمت ظهر البعير . فالواقع يغلى والأوضاع الاقتصادية تتدهور . فاحتشد عدد كبير من الطلاب ، وظهرت اقتراحات بالخروج فى مسيرة إحتجاج . ولكن المظاهرات الغاضبة كانت قد اندلعت فى كل مكان . ونزل جمهور ضخم من المواطنين إلى الشارع يهتفون فالتحم الطلبة بهم . مظاهرات تلتقى بمظاهرات . كان الجو صاخبا والهتافات حادة فى مواجهة السلطة ورموزها . وكان الناس يتسابقون إلى حمل الطلبة الهاتفين وتردد الجماهير الهتاف حتى يبح صوت قائد المظاهرة ، وكانت الفتيات أيضا يقدن الهتاف . لم يكن أحد يستطيع إقناع مصر كلها بالتوقف عن التظاهر فالأمر أكبر مما تصور الطلبة الذين كان قصارى همهم عقد مؤتمر فى ميدان عام ففوجئوا بانتفاضة شعبية حقيقية . وسرعان ماحدث التحام آخر بين الجمهور الذى

على رأسه قيادات طلابية والأمن المركزى ولعلع الرصاص وسقط شهداء وأصيب بعض الجنود من طوب وأحجار الجمهور . وتعددت معارك الأيدى والهراوات . وتشعبت المظاهرات إلى الشوارع الجانبية وتم القبض على كثير من الطلبة . وأعلن منع التجول . بعد ذلك أغلقت الجامعة والمدينة الجامعية أبوابها وسافر الطلاب والطالبات إلى أهلهم وأقاربهم .

اختراق التنظيمات الطلابية

ولكن الرواية لاتقف عند كيل المديح للحمة طلابية بلا نقاط ضعف . فالتنظيمات اليسارية التى ينتمى إليها قياديون من الطلبة تعانى من خلافات حادة فيما بينها ومن خلافات داخلية فى كل تنظيم على حدة ، كما أن أجهزة الأمن عمدت إلى اختراق التنظيمات والحلقات الطلابية وبدأ جو من الشك المتبادل ينتشر بين الطلاب ، وبدأت الاتهامات تلقى جزافا ويختلط فيها الصواب بالخطأ . وتعددت المشاحنات بين الزملاء بسبب الرغبة فى الزعامة أو بسبب المنافسة على الفتيات.. فلقد كان دخول البعض إلى حلبة السياسة نتيجة لأزمة خاصة أو العوز للحب أو الانبهار باليوتوبيا . وقد طال عرضنا لرواية «ليلة رأس السنة» لأن جزءا منها هو بمثابة ملاحظات شاهد عيان مفصلة لهذه الحركة الطلابية متعددة الأوجه .

ومن الناحية الأخرى كان انكسار هذه الحركة على الروايات بعيدا عن الطابع الملحمى قريبا من الانتقاد الحاد ، ربما لأنها انحسرت مقسمة الطريق أمام الحركة المتشحة بالإسلام . ولنأخذ «بشائر اليوسفى» لرضا البهات . والرواية تتعقب بالنقد انعزال المثقف الطلابى عن الحياة . الفتاة «خلود» تسأل حبيبها لماذا كنتم تهتفون فى المظاهرة بكلام يصعب فهمه ، كان قد تعرف عليها فى مظاهرات الطلبة ، وهى تتعجب لماذا يتحدث الطلبة بحدة ويتشاجرون دائما ، لماذا ينقسمون بسبب كلمة لا تهم جموع الطلبة ، لماذا تنشطر المظاهرة مظاهرتين فتساند هى المظاهرة التى يؤيدها حبيبها ثم تجد تلك المظاهرة تنقسم بدورها إلى مظاهرتين وبطبيعة الحال لم تكن الانقسامية مستفحلة فى واقع الأمر إلى تلك الدرجة الخانقة التى تصورها الرواية وإلا ما كان للحركة الطلابية فاعليتها المؤثرة التى استمرت عقدا من الزمان على أساس من الحد الأدنى المشترك بين الاتجاهات المعارضة المتعددة . إن الرواية تجسد الحركة الطلابية فى شخصية المثقف الحافلة بالسلبيات . وأبرز تلك السلبيات فى شخصية هذا الثورى عبادته للنظرية التى تتحول إلى القوة المسيطرة على عقله ووجدانه وسلوكه . فيصبح بالونا ممتلئا بالكلمات المنمقة والأفكار المجردة . وكان يقول لحبيبته إن من الكلام مايسقط ممالك . كانت النظرية عنده قد تحولت إلى عقيدة جامدة تسرى فى دمه ولم تعد مرشدا

للعمل . وبدلا من أن تضيء الواقع أصبحت بديلا للواقع وعصابة على عينيه وأصبح يفضل كلام الكتب على ممارسة الحياة . ويقيم السرد تناقضا لايقبل الحل بين تجريد النظرية وواقعية السلوك . ويقدم صورة مثالية للإنسانية البسيط التلقائي الذى يحيا دون أن يحتاج إلى أى مفاهيم نظرية . ويتمثل ذلك فى الحبيبة الطيبة المعطاء ، فهى تكره السلطة لأن كل سلطة ظالمة ليس لأنها تظلم فعلا بل لأنها تضع نفسها فوق الناس ، (وهذا مفهوم نظرى) وهى لاتحب الأغنياء لأن قلوبهم خلت من الرحمة ، واستطاعوا لذلك أن يكدسوا المال ، وتكره الصهاينة لأنهم قتلوا أخاها الشهيد .. وتنحاز الرواية إلى تجربة البسطاء الذين يكتشفون الحقائق الكبرى فيما يشبه التجلى الفورى فى مواجهة السفسطة التجريدية . ولا يصلح هذا المثقف الورقى الذى يجرى فى عروقه مداد الكتب بدلا من الدم نموذجا لتجسيد الحركة الطلابية . فكتب اليسار تكرر كثيرا انتقاد المثقف المنعزل عن حياة الجماعة ، وتعتبر أن النظرية لن تكون قوة فاعلة إلا إذا ارتبطت بحياة أوسع الجماهير واعتنقتها الجماهير . وربما كان هذا النقد ملائما لأن يوجه لا إلى مثقف الحركة الطلابية بل إلى نوع من العقائدية اليسارية التى تقدس بعض المقولات النظرية فى جمود وانعزال عن الواقع .

وترسم بهيجة حسين فى «رائحة اللحظات» صورة أخرى للحركة الطلابية . فالبطلة تسترجع يوم تصاعدت دقات قلبها والتحمت بقلوب الطلاب المتظاهرين فى الجامعة المصرية . اهتدوا جميعا للحقيقة وحفروا طريق الخلاص ، غطوا جدران الجامعة بمجلات الحائط ووزعوا بيانا على الطلبة ووقفوا يحمون أوراقهم المعلقة بأجسادهم . زادت أعدادهم وتشابكت أيديهم وغنوا معا للوطن (عرض الدكتور على الراعى) . وحين نصل إلى ميرال الطحاوى فى «الباذنجانة الزرقاء» نرى تقييما سلبيا لبعض المشتركين فى الحركة الطلابية من زاوية العاهات النفسية . فالرواية فيما يبدو تدعى رفض كل الأيديولوجيات وتحتفى بالتجربة الذاتية الصميمة . ومن البداية يقدم السرد صورة كاريكاتيرية مضخمة للطالب المناضل . فهو يلهث بين الأروقة ويستبدل مجلة حائط بأخرى ، و«يدقدق» مع الطلبة على «البنش» ويردد مقاطع من أغانى يصعب حفظها تتحدث دائما عن سجون وحمائم ونسائم وبشائر والغلابة الشقيانين .. إنهم يتحدثون عن الثورة وعمال كفر الدوار وانتفاضة الجياع ويتبادلون نكات جديدة عن الكافيار وفراخ الجمعية . ويسخر السرد من المقالات الطويلة عن العدالة والثورة وتوزيع الأرزاق وعن ماركس وعلى بن أبى طالب ، وإحدى الشخصيات تتحدث عن أنها دونت كل اللافتات اللازمة لمجلة حائط مجيدة ثم نامت مرتاحة

الضـمـيـر . وأين تضع الرواية مناضلى الحركة الطلابية ؟ فى بار الشيخ على ، ورواد البار يهتفون ضد ارتفاع الأسعار والبطالة فى مظاهرات تنتهى بعربات أمن مركـزى ومجندين يطاردون المتظاهرين بعصى كهربائية وقنابل مسيلة للدموع . وعلى الرغم من أن المشـاكل حـقـيـقـيـة والمظاهرات شجاعة وجدية فقد جعلهم السرد من رواد بار ، وصورهم على أنهم يعلقون لافتـات كبيرة على أفواههم عن العدالة والثورية .. والعـمـالة لأمـريكا ويقاطعون الكنتاكى والهامبورجر والفراخ المجمدة ، ويلتفون فى جلسـات عبثـية تتحدث عن ماركس وتروتسكى والإحباط ، ولكهم يكتبون قصائد متشابهة ويطلقون شـعـارات الالتـزام الأيديولوجى وأدبيات النص الثورى . إن قعيد بار الشيخ على يستمد نشوته الوحيدة حين يحملونه على ظهورهم فيرتجل كل الشعـارات اللازمة لإشعال مظاهرة :

مش كـفـاية لبسنا الخيش جـايين ياخدوا رغيف العيش، يشـربوا ويسكى وياكلوا فـراخ والشـعب من الجـوع أهو داخ.

يا أمـريكا لمى فلوسك ، بكره الشعب العربى يدوسك.

والعرق على جبهـتـه يتوهـج ، وبعد الركض وقـذف الأحـجـار يتـوارى المتظاهرون مكدودين يعدون أسماء الذين تم اعتقـالهم وأسمـاء المختبئين . وتبدو المظاهرات إفرازا لحالات خاصة لا علاقة لها بالواقع الكبير ولا بمطالب الجماهير ولا بمشاركة هذه الجماهير ، ولكنها لعبة عبثية شديدة الانعزال لا تلقى صدى ، أو اسـتـجـابة من أحـد . وهذا المناضل المصنوع من خرق الخيال البالية حينما لايكون ثملا يفتح حقيبة حبيبته ويشترى لهـا بنقـودهـا عـقـدا من الفل ويقـبلهـا فيضحك أصدقاؤه ويصفقون ويزغردون ويظل يشـرب (!!) ثم يمشى مـعـهـا فى الشوارع المعتمة وقد يكون ثملا لدرجة أن يفتح بنطاله ويبول وهو ممسك بذراعـهـا على عـربة أمن مـركـزى مـرابطة أمـام الجامعة الأمريكية (من يجرؤ على ذلك ؟) وهو يكثر من التبول أمام قسم شرطة باب الشعرية والصول مغرم بالتقاطه متحوطا فى الشـوارع ليبيت ليـالى كـثـيـرة فى التـخـشـيـبة وتكتمل الصـورة الذهنيـة الأيديولوجـيـة فى فكر المؤلفة عن بشاعة «المناضل» اليسارى لنعرف أن السـيـدة والدته شبه عاهرة يتبادل معها الاتهامات بكونها عاهرة فترد له الاتهام بأنه ليس رجـلا . وبار الشيخ على فى هذه الرواية الأيديولوجية ذات التصميم الفكرى المسبق هو المستنبت الذى تخـرج منه منجـلات الحائط ، وتخطط فيه المظاهرات العارمة !! . وكان الإسلاميون من ناحيتهم يرفعون بين المدرجات لافتات تتحدث عن الجهاد والمجـاهدين الأفـغـان ، وكـان «المناضل» اليـسـارى يقـول عنهم إنهم مـرتزقـة وحشاشون وعملاء للهمبورجر الأمريكانى وإنهم يتاجرون باسم الدين لهدم الثورة العمالية (من المعروف أن يساريى البلاد التابعة والمستقلة حديثا لايطالبون بثورات

عمالية بل بثورات وطنية شعبية) . وكان يحدث اشتباك بين الجانبين، هناك من يهتفون : إسلامية إسلامية لا شرقية ولا غربية وهناك من يهتفون : عبدالناصر إصحى وشوف نهبوا الثورة على المكشوف وكانت الثرثرة اليسارية تتحدث عن الآلام الرومانتيكية والاغتراب واليأس والإحباط ووعى النخبة والسلفية التى ابتلعت السخط الجماهيرى صانع الثورة . وتواصل الرواية تشويه اليسارى فى الفراش ، فعادة يكون ثملا وجسد فوق حبيبته حمل من الهذيان ، يختبر ما تقوله أمه عن افتقاد رجولته «بجولات يحرص على أن تكون كثيرة ويتوحش يصلح لمناضل ويفجاجة تصلح لثورى» . وكل صفات اليسارى الحسنى تأتى على لسان الطالبة حبيبته التى تشارك فى نضاله . ويبدو اليسار شبيها بالسلفية ، فالرفاق يرفضون أن يعترض أحد أو يناقش سياسة التنظيم العليا ، والأخوة يؤكدون أن التنظيم أساسه السمع والطاعة وليس المراء والجدل .

ويفتقد تصوير الحركة الطلابية فى تلك الرواية حرارة التجربة وعمقها ولا نجد بين أيدينا إلا قوالب ذهنية سطحية لرفض العمل السياسى تبتعد كل الابتعاد عن التناقضات الفعلية فى المجتمع وعن القوى الدافعة للحركة الطلابية ، وعنفوانها وصورها ، وآثارها .

وبعد انحسار الحركة وتحول مسارها وتصدى وجوه أخرى للقيادة بشعارات مختلفة ترصد رواية «ليال أخرى» لمحمد البساطى وميضا بين جمرتها تحت الرماد الكثير . لقد اعتقلت أجهزة الأمن فى سبتمبر ١٩٨١ بتوجيه من السلطات العليا ما يقترب من ألفين من المفكرين ورجال الدين والسياسيين القدامى العجائز فى السبعين ، ومن الشباب ، أى كل من نطقوا أو كتبوا ضد النظام على الرغم من أنهم خليط لايجمعهم فكر واحد . وتصور الرواية خمسة أولاد «يدرسون فى أفضل الكليات» جلسوا على كراسى المقهى ومعهم لافتة من القماش فردوها على منضدة ، وواحد منهم يكتب عليها بفرشاه وآخر بجواره يمسك بعلبة اللون . رآهم صاحب المقهى واقترب منهم، وألقى نظرة على اللافتة وصرخ : بتشتموا الحكومة ! وراح يدفعهم بعيدا عن المناضد .الأولاد وقفوا عند الجدار المقابل وفردوا اللافتة عليه وأخذوا يستكملون كتابتهم . وصاحب المقهى جرى إلى الداخل وتناول سماعة التليفون . والأولاد بعد أن انتهوا رفعوا اللافتة واندفعوا بها إلى الشارع . تركوا وراءهم الفرشاة وعلبة اللون مفتوحة . الزبائن منهم من غادر المقهى والباقون سحبوا مقاعدهم مبتعدين عن المنضدة التى كان يستخدمها الأولاد . ولكن المباحث تهجم وتقبض على بعض الزبائن الذين ينكرون أنهم شاهدوا شيئا . ويعرف هؤلاء أن المباحث قبضت على الطلبة المحتجين بعد فترة قصيرة .

إن الروايات المصرية التى احتفت بالحركة الطلابية وحاولت التأريخ الفنى لها من زوايا مختلفة ظلت تقوم بدور المؤرخ غير الرسمى الحر للشخصية الإنسانية فى مصر ذات الأبعاد المتعددة .

كتاب جديد

إسرائيل
والقرن الحادى والعشرون

بقلم : مصطفى نبيل

هل يكسب يهودا باراك السباق ، وينتصر للعلمانية ويحقق التسوية السياسية ؟! خاصة بعد الخطوات التى اتخذها ، فألغى وزارة الأديان، وأعلن عزمه على إعداد دستور دائم.

فهل هو جاد وقادر على السير فى هذا الطريق ؟.. أم أن الحكاية مجرد فصل فى الصراع بين الأصوليين والعلمانيين ؟.. وهل يمكن أن تتداخل معركة علمانية الدولة مع التسوية السياسية فى المنطقة ؟

أم أن مايجرى هو رسالة للفلسطينيين تحثهم على الاتفاق حتى لا تسقط إسرائيل فى أيدى المتشددين ؟!

وربما نجد فى الكتاب الذى صدر أخيراً جانباً من الإجابات..

شغل مستقبل إسرائيل العديد من الباحثين ، الذين لم يكتفوا برصد الواقع الراهن فقط ، بل إمتد بصرهم إلى المستقبل ، ومن الدراسات الحديثة والزاخرة بالمعلومات ، كتاب «الدولة اليهودية .. قرن مقبل» ، كتبه آلان دوتى «Alen Douty»، الذى انقسمت حياته بين إسرائيل والولايات المتحدة..

وأهمية الكتاب تلك الصورة التى يقدمها لإسرائيل من الداخل، والضوء الذى يلقيه على الانقسام الحاد الذى يصل إلى الانغلاق الكامل داخل المجتمع اليهودى ، بين التيار الأصولى من جانب والتيار العلمانى من جانب آخر، والصراع المرير الذى يجرى بين الداعين إلى الإندماج فى العالم المعاصر وأولئك المتمسكين بالحفاظ على الخصوصية اليهودية. ويقدم رصداً دقيقاً للأزمة المجتمعية التى تعيشها إسرائيل ، وتشكلت الدراسة فى قالب البحث عن مستقبل الديمقراطية، وما تواجهه الديمقراطية من عقبات ، وما أحوجنا حقاً إلى معرفة إسرائيل من الداخل، معرفة متجددة وواقعية وبلا أوهام.

ومنذ قيام إسرائيل ويدور الصراع حول إمكانية فصل الدين عن الدولة ، فبعد أن هاجر اليهود المتدينون إلى فلسطين ، أرض الميعاد ، يسعون من أجل حياة يهودية خالصة ، وجدوا أنفسهم وسط دولة



يجاهر حكامها بالإلحاد ..

ويتساءل الكاتب .. هل يمكن أن تكون إسرائيل يهودية وديمقراطية معاً..؟ فاليهودية عند البعض منافية للديمقراطية، وأنه بقدر يهودية الدولة بقدر عجزها على أن تكون ديمقراطية، وأنه لا يجوز أن تستند إلى قانون علمانى بل ينبغى أن تعلو الشريعة الإلهية على القواعد والقوانين والمؤسسات البشرية ، كما نصت عليه التوراة (٢٣) سفر الخروج..

«لاتتبع الكثيرين إلى فعل الشر، ولا تجب فى دعوى مائلا وراء الكثيرين

للتحريف».. ويؤخذ هذا النص حجه فاصلة ضد حكم الأغلبية.

ويبلغ التعصب والانقسام ذروته فى نوفمبر ١٩٩٥ ، عندما أطلق أحد المتشددين اليهود النار على رئيس الوزراء اسحق رابين ، احتجاجاً على التفريط فى «أرض إسرائيل»!.

ويمكن رصد تنامى قوة الأصوليين من خلال مؤشرات إنتخابات الكنيست الإسرائيلى ، ففى إنتخابات ١٩٩٢ و١٩٩٦ حدث تصدع واضح فى التيار الرئيسى فى إسرائيل، وحقق حزب العمل والأحزاب اليسارية أغلبية ضئيلة وهى التى كانت تهيمن على الحياة السياسية فى إسرائيل منذ قيامها وحصلا معاً على ٦١ مقعداً . وفى أول انتخابات مباشرة لرئيس الوزراء سنة ١٩٩٦ حصل نتانياهو على ١٪ من الأصوات المرجحة ووقفت إسرائيل المدنية وراء بيريز واحتشدت إسرائيل الأصولية خلف نتانياهو، وهى الأكثر فطرية وخصوصية وطائفية وتدينا ومحافظة وتشدداً ، وتراجعت إسرائيل المدنية وهى الأكثر عصرية وليبرالية وميلا إلى السلام(!).

كما أن إسرائيل التقليدية الأصولية عاطفية ، وإسرائيل المدنية عقلانية . وهوية إسرائيل الأصولية هى العرقية اليهودية ، أما إسرائيل المدنية فالمواطن إسرائيلى أولاً ثم يهودى بعد ذلك ، ويستدرك الكاتب قائلا .. «وليست هذه الحالة مطلقة، فالحياة الواقعية تمتلىء بالتناقضات فهناك فى إسرائيل حمائم متدينون وصقور علمانيون، وتقليديون من أصول أوربية ، وأناس لهم نزعات غربية من أصول شرقية».

ويعود الاستقطاب للظهور فى انتخابات الكنيست عام ١٩٩٦، وخسرت الأحزاب اليسارية الأغلبية الطفيفة التى حصلت عليها من ٦١ مقعداً إلى ٥٢ مقعدا ، وخسرت فى ذات الوقت أحزاب اليمين تسعة مقاعد من ٤٣ مقعداً إلى ٣٤ مقعداً . وظهر فريق جديد بزعامة المنشق السوفيتى ناثان شارانسكى والذى يميل إلى التشدد.

وهنا يثور السؤال التالى .. أيهما أكثر صعوبة ، الاتفاق بين الفرقاء داخل إسرائيل ، أى بين الأصولى والعلمانى ، هل ذلك أسهل ، أم أن الاتفاق بين العرب وإسرائيل أسهل؟!.

ويرى العديد من الباحثين الإسرائيليين أن الاتفاق الداخلى أكثر صعوبة(!). وترسم الأبحاث صورة قاتمة للصراع الداخلى الحاد ، الكارثة الوشيكة الوقوع والتى تهدد وحدة إسرائيل ، فمطالب الأحزاب الدينية قد تكون خطيرة بنفس القدر لخطورة المطالب العربية ، فالجماعات العربية أكثر استعداداً للتفاهم بشأن مطالبها من الأحزاب الدينية التى لم

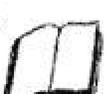
تظهر يوماً أي استعداد للتفاهم!.

فقد بدأ الرد الأصولي على الحداثة في الرفض الكامل للعالم المعاصر والدعوة إلى العودة إلى الماضي والتمسك بالجذور، وبدلا من أن يصبح الإسرائيليون «أمة كغيرهم من الأمم»، أخذوا ينظرون إلى ذواتهم على أنهم «هو ذا شعب يسكن وحده»، كما جاء في التوراة في سفر العدد (آية ٢٣)، وأخذت إسرائيل تنتقل من العلمانية العقلانية المدنية إلى إتجاه صوفي غيبي وأخذت بالتالي تتقهقر، وشهدت إعادة تأكيد للديانة اليهودية بعد فاصل زمني يغلب عليه موجة أيدلوجية علمانية أخذت بعد ذلك في الانحسار.

ومن مظاهر ذلك، تدعيم الدراسات الدينية اليهودية في جميع المدارس، وتقليص دور المرأة في الحياة العامة واقتصارها على الشئون الخاصة، فإسرائيل مازالت متخلفة عن الكثير من الدول فيما يتعلق بالمساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة - مازال الحديث للكاتب اليهودي - وانخفض تمثيل المرأة من الكنيست بصورة متتابعة، حصلت على إثنى عشر مقعداً عام ١٩٤٨ وثلاثة عشر مقعداً عام ١٩٥٥ ثم هبط إلى سبعة مقاعد عام ١٩٨٨ وثمانية عام ١٩٩٦ (أعد الكتاب قبل ظهور نتائج الانتخابات الأخيرة).

وانتعشت ثقافة يهودية من شبكة مدارس دينية، هي التي أمدت التنظيمات المتطرفة بعناصرها، مثل جوش إيمونيم (وهو التنظيم الإرهابي الذي أقامه الحاخام كاهانا القادم من بروكلين، والتي تأسست عام ١٩٧٤، يهدف استيلاء إسرائيل على كامل أرض فلسطين من خلال التوسع في الاستيطان، والذي يعود لأحد عناصرها المذبحة التي شهدها المسجد الإبراهيمي عند الفجر)، والمساواة بين البشر لدى هؤلاء غير ممكنة والديمقراطية لديهم مستحيلة، وعلى العرب أن يختاروا بين العيش دون حقوق أو الرحيل!.

ويمضي الكاتب قائلاً .. «يلاحظ مايرون أرنوف.. أن الانقسام في إسرائيل يقوم حول تفسيرات متعارضة، بشأن ما يجب أن يكون عليه الطابع اليهودي لإسرائيل والاستقطاب الذي يضم عند أحد طرفيه الذين يؤكدون ضم واستيعاب الضفة الغربية، قلب اليابسة التوراتي القديم، وبين من يرون أن ذلك سيهدد الطابع اليهودي والديمقراطي للدولة، ويجعل الصراع والحرب في الشرق الأوسط أمراً حتمياً، ويؤكد المنهج الأول على تفرد الشعب اليهودي وعزلة



إسرائيل بينما يدعو التوجه الثانى إلى تطبيع ودمج الدولة اليهودية فى العالم المعاصر كمنارة وسط الظلام!.

ويرتبط هذا الانقسام بانقسام طائفى آخر بين الاشكيناز والسفارديم، أى بين اليهود ذوى الخلفية الأوربية واليهود القادمين من الشرق ، كما يرتبط أيضاً بانقسام بين اليهود المتدينين وغير المتدينين ، ومن انقسام عرقى ثالث بين اليهود والعرب.

تآكل الصهيونية

ويزعم الكاتب تآكل الصهيونية بعد أن حولت اليهود من مجرد دين إلى دين وسياسة ، ويغفل الكاتب هنا البعد الدينى العميق ، فإن كان الآباء المؤسسون ذوو الأصول الأوربية تأثروا بالمفاهيم الليبرالية، إلا أنهم سعوا لاستخدامها من أجل الوصول إلى أهداف دينية بعيدة عن الليبرالية ..

ونعود إلى ما قاله الكاتب .. يؤكد أن الجيل الجديد من الشباب فى إسرائيل أكثر ميلاً للسلام من آبائهم ، وأخذت تتناقص الفجوة التى كانت قائمة بين نخبة اشتراكية علمانية تنتمى إلى أوربا ، وجمهور أكثر تقليدية جاء من الشرق . أى الاشكناز والسفارديم، ويقف الشرقيون مع الدولة الدينية والاشكناز مع العلمانية. ومن المفارقات أن حرب ١٩٦٧ ساهمت فى تقويض حزب العمل العلمانى(!) الذى كان يهيمن بلا منازع على الحياة السياسية فى إسرائيل ، عندما تراجع التهديد الخارجى وأدى إلى عدم الحاجة للوقوف خلف الحكومة ، وجاء رحيل الرئيس المصرى جمال عبدالناصر فى سبتمبر عام ١٩٧٠ ، لكى يزيد الشعور بالأمن وانحسار التهديد داخل إسرائيل. كما شكل أبناء اليهود القادمين من البلدان العربية وهم قرابة نصف الناخبين ، الذين لايرون أى إجحاف أو ظلم فى استمرار خضوع الفلسطينيين فى الضفة الغربية للسيطرة الإسرائيلية ، وظل الكثيرون متمسكين بادعاء حق اليهود فى كل أرض فلسطين.

وعندما وقعت حرب أكتوبر وجهت ضربة قاسمة للثقة القائمة فى قدرة حزب العمل على القيادة ، وأصبح التوصل إلى حل وسط سياسى بين طرفى المعادلة داخل إسرائيل أكثر صعوبة ، وأدى الاستقطاب بين الفريقين إلى جعل الطريق مغلقاً ، وظلت إسرائيل منقسمة بين نصف علمانى تحديثى أميل للسلام ، ونصف أصولى تقليدى محافظ أكثر تشدداً!.

ويعبر إفنير بانيف عن بعد آخر حيث اقتحم الصورة بالقول .. «أنقذت حرب ١٩٦٧، الشبحين التوأم ، التطرف اليهودى والشخصية الفلسطينية»، ثم تأتى اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل وتزيد الشعور بالأمن وتضعف تماسك الطرفين المتصارعين .

وتتغير الخريطة السياسية تغيراً جوهرياً مع قيام الانتفاضة الفلسطينية سنة ١٩٨٧ ، وتصاعدت المطالبة بتسوية سياسية ، انتهت هذه الحاجة أو كادت بعد وقف الانتفاضة.

الدين والدولة

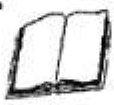
وبقيت العلاقات بين الأصوليين والعلمانيين ذات حساسية خاصة، لافتقار العلمانيين إلى دعم فكرة فصل الدين عن الدولة فليس في التقاليد اليهودية فصل الدين عن الدولة فترتكز اليهودية على مجموعة من القوانين مأخوذة من الوصايا العشر.

وهناك ١٤ ديانة تعترف بها الدولة ، فإلى جانب الإسلام والمسيحية يوجد البهائية وطوائف دينية مسيحية وإسلامية مختلفة.

ودأبت الحركة الصهيونية منذ بدايتها على إقامة مؤسسات ثقافية ثنائية، بعضها دينية وبعضها غير ذلك ، ومنذ البداية وبعد قيام إسرائيل عارض الحزب الديني أجودات إسرائيل صياغة دستور لإسرائيل ، (وأيد ذلك السياسيون الليبراليون لكي تبقى احتمالات التوسع الإسرائيلي قائمة) ، كما عارض قيام دولة يقوم الحكم فيها على الأغلبية لأن معنى ذلك التنكر لحكم التوراة. كما عارض هذا التيار استخدام الرموز الوطنية مثل العلم الإسرائيلي ، وعارض التحاق شبابهم بالخدمة العسكرية ، وانسحب الحزب الديني من الحكومة بسبب التجنيد الاجباري للنساء.

واستمر الخلاف مع التعايش بين التيارين. فتحمي الدولة تماماً منع العمل يوم السبت، ويقوم الحاخامات بزواج وطلاق اليهود ، وتجاهلت الحكومة في ذات الوقت تطبيق القوانين التي من المرجح أن يؤدي تطبيقها إلى رد فعل عنيف ، فلم يحدث فرض حظر على لحم الخنزير، وتركت أماكن الترفيه تعمل يوم السبت ، رغم مخالفة ذلك نصوص القانون.

وأخذت الأحزاب الدينية تقايض على مواقفها السياسية في الحصول على دعم الحكومة لأهدافها ، مثل زيادة الانفاق على المدارس الدينية رغم انفصالها عن الحكومة فإذا كانت الأهداف بعيدة المدى بين الأصوليين والعلمانيين متعارضة إلا أن مستوى الشعور المتبادل بعدم الرضا متعادلاً . ويدور الصراع بينهما حتى فترة قريبة ، وكأنه مجرد مناوشات على الحدود وليست حرباً شاملة . ونجح العقل الجمعي في توظيف كافة ألوان الطيف من أجل مستقبل إسرائيل . وما هي المحكمة



العليا فى إسرائيل ، وها هى ذى تحدد مدى أهلية الأحزاب الإسرائيلية وحقها فى دخول الانتخابات ، بأنها الأحزاب التى تقبل إسرائيل كدولة يهودية ، وأن تحتفظ بأغلبية يهودية ، وتؤيد قانون العودة الذى يعطى الحق لأى يهودى من أى مكان فى العالم فى الحصول على الجنسية الإسرائيلية عندما تطأ قدماه أرض فلسطين ، كما يجب عليه أن يؤيد وجود علاقات مع اليهود خارج إسرائيل.

ويظل تعريف من هو اليهودى ، مسألة خلافية كبرى ، وقضية بالغة الأهمية ، وهى أكثر القضايا التى يحتمل انفجارها بين الطرفين، والغريب ما أعلنه زعماء اليهود المدنيين أن السلام وانقاذ الأرواح يأتيان قبل الاستيلاء على الأرض والاحتفاظ بها.

ومن جانب آخر فرغم عدم شرعية الاستيطان فى الأراضى المحتلة ، نجد أولئك الذين يدعون الليبرالية يغضون الطرف عن التوسع السرطانى للمستوطنات، وهنا يظهر واضحا القدرة على توزيع الأدوار والتناغم بين المتناقضات لتحقيق الأهداف الإسرائيلية، وهو مالم ينجح فيه العرب.

وينقل الكاتب عن جو ناثان فرانكل قوله .. أعاد الاحتلال سياج الاستيطان المزعج الذى كان قائماً فى القرن الماضى فى روسيا القيصرية ، عندما كان اليهود يعيشون غير آمنين ، وسط سكان معادين، مما يحول الحلم الصهيونى إلى كابوس».

ديمقراطية إسرائيل

والعلاقة وثيقة بين ديمقراطية إسرائيل وعلمانيتها ..

ويردد الجميع أن إسرائيل هى الدولة الديمقراطية الوحيدة المحاطة بدول استبدادية عشائرية وطائفية ، فماذا يقول الكاتب عن الديمقراطية فى إسرائيل..

يقول .. «أحد أسباب الديمقراطية الناقصة ما تواجهه إسرائيل من تهديدات أدت إلى تماسكها الداخلى وليس فقط لوجود أقلية كبيرة منتمية عرقيا إلى عدو خارجى(!) فحسب ، بل ووجود انشقاقات طائفية ودينية وأيدلوجية عميقة داخل اليهود أنفسهم ، والوحدة الشكلية التى ظهرت بعد قيام الدولة ، يفرضها الصراع العربى الإسرائيلى» الذى لولاه «لمزقت إسرائيل ذاتها بالنزاعات الداخلية»..

وإذا كانت ركائز الديمقراطية تقوم على الحريات العامة ، فبالنسبة لحرية النشر تقيد وسائل الإعلام عند تعرض مصالح الدولة للخطر ، أو عندما تسوء صورة الدولة لدى الأغيار، وهو جزء من الانغلاق التقليدى للمجتمع اليهودى واهتمامه بصورته ، مع الحساسية الخاصة لنشر المعلومات الأمنية.

ولا يمكن لأحد أن يصدق ديمقراطية إسرائيل ، إذا عرف أنه منذ قيام إسرائيل

وحتى اليوم وهى تعيش فى ظل قانون الطوارىء الذى صدر بعد أربعة أيام فقط من قيامها فى ١٩ مايو سنة ١٩٤٨ ، وأكثر أحكام قانون الطوارىء تطبيقا هى الرقابة على كل أجهزة الإعلام ، وتنص قوانين الرقابة على ضرورة الحصول على ترخيص إصدار من وزارة الداخلية ، ولا يلزم القانون وزارة الداخلية بتبرير رفضها، كما أنه من حق وزير الداخلية وقف إصدار الصحف لأى فترة زمنية ، وتراقب قبل النشر أى مادة مطبوعة تمس الأمن أو النظام العام(!).

ومن غرائب الرقابة أنه أحياناً لايسمح للصحف العربية التى تصدر فى إسرائيل بإعادة نشر مواد مترجمة عن الصحف العبرية.

ويورد الكاتب توصيف أموس إليون لهذه الحالة . بأنها .. «تصميم ساذج على عدم الكشف عن الخفايا والفضائح ، وهو المأخوذ عن الوصية التوراتية .. «لاتبح بها فى حشد ، ولا تنشرها فى شوارع عسقلان..» وهو القول الذى يطابق ما صرح به رفائيل إيتان أحد رؤساء أركان حرب الجيش الإسرائيلى .. «ينبغى عدم نشر وسائل الإعلام أى شىء يؤدى إلى شعور أى عربى فى أى مكان بالارتياح.!»

عرب ١٩٤٨

وأحد ركائز الديمقراطية المساواة المطلقة بين المواطنين ، وهو ما لم يتحقق يوماً داخل إسرائيل ، فلم يتمتع عرب ١٩٤٨ بالمساواة ، رغم أن هذه المسألة تعتبر بمثابة الاختبار الحاسم لقيام مجتمع علمانى، ومع أن اليهود شكلوا أقليات فى كثير من بلدان العالم، وها هم يتحولون إلى الأغلبية، ويمارسون العسف، ويصبحون طغاة «ويتناول إسرائيل شاحاك ذلك فى كتابه «موقف اليهود من الأغيار» ويقول .. «التاريخ المعروف تعرض لحذف الحقائق اليهودية الموجعة، فالخصوصية العرقية اليهودية تنطوى على الشك والعداء لغير اليهود، وهى تجنح بطبيعتها للعزلة ، لذا كانت الكيبوتزات وبعدها المستوطنات مؤسسات عنصرية مغلقة .. وفى التراث التلمودى علاج غير اليهودى حرام حتى مقابل أجر ، ويجب عدم دفع الأغيار إلى البئر وأيضاً عدم إخراجهم منه إذا سقطوا فيه .. لذلك يعلن أتباع غوش إيمونيم .. «إن طريقة معاملة الفلسطينيين تتعلق بمقدار قوتهم ، إذا كانت لديهم قوة كافية فإن الواجب الدينى يقضى بطردهم»..!

ويضيف فى كتابه «التاريخ اليهودى» .. «إن القوانين الإسرائيلية تتسم بالتفرقة العنصرية ضد غير اليهود ، فى مجالات

ثلاثة ، حقوق الإقامة ، وحق العمل وحقوق المواطنة ، ويقف عل قمة الهرم فى المجتمع اليهودى ، اليهود الغربيون (الاشكناز) يليهم اليهود الشرقيون (السفارديم) ويأتى عرب إسرائيل فى قاعدة الهرم».

ونعود إلى كتاب آلان دوتى الذى يقول .. «رغم أن إعلان الدولة تضمن وعداً بالمساواة لكل المقيمين بصرف النظر عن الديانة أو العرق أو الجنس» إلا أن ذلك لم يتحقق ، ويبدو أن من أصدره لم يدرك احتمال وقوع تضارب بين هذا الوعد وبين رسالة إسرائيل نحو الشعب اليهودى».

واعتبر غائباً كل فلسطينى غادر بيته قبل أغسطس ١٩٤٨، وصودرت ثلثا الأراضى الفلسطينية ، وحرم القانون سكن مدن بكاملها لغير اليهود ، وغدا عرب ١٩٤٨ لدى اليهود «الطابور الخامس» و«حصان طروادة» ، وأغلقت المؤسسة العسكرية فى وجوههم ، وتولى الإشراف الادارى عليهم مستعربون من أجهزة الأمن أو المخابرات ، وتم طردهم من بعض أراضيهم بحجة أنها مناطق استراتيجية، وتم ترحيل العرب من مدينة عسقلان عام ١٩٥٠ ، ورفض الهستدروت قبول العرب كأعضاء كاملى العضوية حتى عام ١٩٥٩، ومازالت أغلبية اليهود لايستقبلون زائرا عربيا فى بيوتهم ولا يرغبون فى السكن جوارهم.

ورفضت السلطات الإسرائيلية الاعتراف بالأقلية العربية كجماعة، وعارضت قيام أجهزة إعلام أو جامعات أو اتحادات أو أحزاب عربية مستقلة. ووظفت إسرائيل ماتدعيه من تهديدات خارجية من أجل الحفاظ على تماسكها الداخلى ، وجاء وجود أقلية عربية منتمية إلى العدو لكى يقلل من أثر الانشقاقات الطائفية والدينية والأيدلوجية ، والا لمزقت إسرائيل نفسها نتيجة عنف الصراعات الداخلية.

وشهدت أوضاع العرب تغيرات واسعة مع عدم الاستعداد لاقتسام السلطة بين اليهود والعرب، إلا أن وصل أعضاء عرب إلى الكنيست فى انتخابات عام ١٩٩٦، وصل عددهم إلى أحد عشر نائباً عربياً.

ويستدرك الكاتب قائلاً ..«لم تقم القوى السياسية العربية بدور اللاعب فى الحياة السياسية ، رغم أن العلاقات بين اليهود والعرب داخل إسرائيل هى الاختبار الحاسم لديمقراطية إسرائيل.

وطالب الروائى أنطون شماس بوضع تعريف جديد لكلمة إسرائيل حتى تشملنى، ورد عليه الكاتب اليهودى أ. ب. يهو شوا قائلا : فى فترة المعبد الأول ، لم تكن الهوية الدينية عنصراً ضرورياً للهوية الإسرائيلية»!

المؤسسة العسكرية

ولنتوقف فيما يورده الكاتب حول سيطرة المؤسسة العسكرية على الحياة السياسية فى إسرائيل ، ويؤكد غلبة

«الأمن» على الديمقراطية ، وينطبق هنا المثل القائل «وشهد شاهد من أهلها» ويكشف الكاتب انحسار المجتمع المدنى وتزايد التأثير العسكرى على القرارات السياسية . وشهد هذا التأثير منتهاه مع انتهاء سيطرة حزب العمل على الحياة السياسية سنة ١٩٧٧ ، وأصبح للإتجاه السياسى لرئيس الأركان أهمية بالغة ، وقفزت ميزانية الجيش قفزة كبيرة بعد حرب ١٩٧٣.

وجاهر مناحم بيجين رئيس الوزراء فى أغسطس ١٩٨١ بعد تولى شارون وزارة الدفاع بأن أول عمل سيقوم به هو تطويق الكنيست بالصفحات «وظهرت هيمنة العسكرية الإسرائيلية فى العدوان الإسرائيلى على لبنان سنة ١٩٨٢ ، حينما نفذ شارون سياسته التى لم تكن سياسة مجلس الوزراء.

ويعنى الأمن عادة المزيد من الضغط على الديمقراطية ، وتشجيع مركزية السلطة والمزيد من التعصب فى العلاقات مع العالم الخارجى.

مما طبع سياسة اليهود التقليدية على سياسة الدولة العبرية، التى تجنح بطبعها وتجربتها التاريخية إلى العزلة والانغلاق تجاه العالم الخارجى.

ويختتم الكاتب هذا الفصل بقوله .. «بلغ التضاد بين الأمن والديمقراطية ذروته فى عدم الإقرار بالحقوق الجماعية للأقليات غير اليهودية ، ومن ناحية أخرى معروف بوجه عام أن التعبئة ضد عدو خارجى لا تتوافق مع الديمقراطية واستمرت إسرائيل مجتمع تحت الحصار ، وبقيت إسرائيل داخل الأسوار وتجنبت أن تكون بلا أسوار(!) الجيش هو المؤسسة المهيمنة على كل جوانب الحياة.

فأى مستقبل ينتظر الدولة العبرية.؟!

فلا يوجد سوى وسيلة واحدة لاستمرار إحتلال إسرائيل للأراضى العربية ، هى أن تسلك ذات الدور الذى كان يقوم به النازى فى الأراضى المحتلة ، وأن تلجأ للترحيل الجماعى أو التطهير العرقى، وهو ما لايمكن القيام به فى هذا العصر الذى تحول إلى قرية صغيرة..

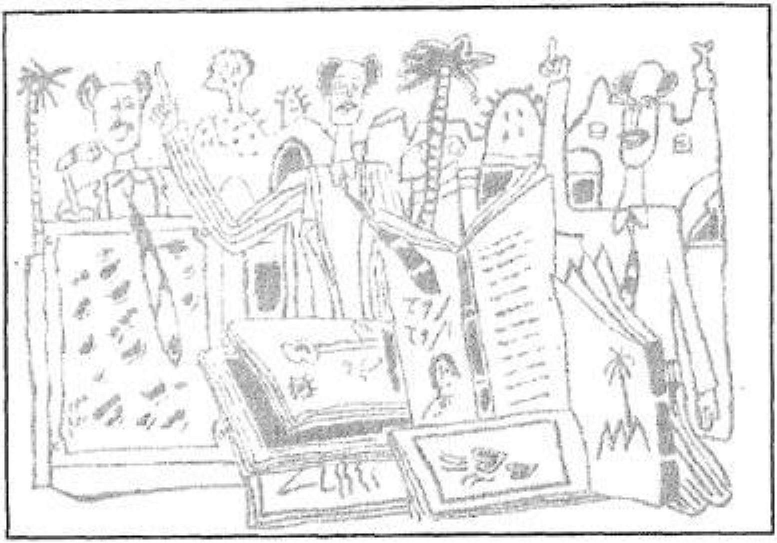
وليس أمام إسرائيل سوى أن تستوعب دروس الحروب التى خاضتها ، والتى تكشف حدود القوة، وخطر غطرسة القوة . ولن تكون ترسانتها النووية ولا قنابلها الانشطارية ، قادرة على فرض احتلالها..

العولمة

انبهار بالابداع وخوف منه

بقلم : جميل مطر

يعيش العالم حالة انبهار مختلط بالخوف. وكلاهما ، الانبهار والخوف - وقد وصلا الى حدود قصوى - لهما ما يبررهما. فما حققه العقل الانسانى من ابداعات تكنولوجية فى كل المجالات بدون استثناء، وبخاصة مجال تكنولوجيا الجينات والكشف عن أحد أهم أسرار الانسان واعلانه عن طريق ما أطلق عليه كتاب أو خريطة الحياة، لم يحقق مثله من قبل . أظن أن أبناء هذا الجيل الذى عاش الاعلان عن هذه الابداعات الفائقة سيكون الأكثر شعورا بالفخر فى كل أجيال البشرية. ففى حياته وليس فى حياة أجداده وأجداد أجداده توصل الانسان الى هذا الانجاز وغيره. ولكن هذا الجيل نفسه خائف، ولعله الأكثر شعورا بالخوف بين كل أجيال البشرية. إذ أنه الجيل «الأول» الذى أبدع فى غياب كثير من الروادع والقيود والسقوف. ولعلنى أفضل كلمة السقوف عن غيرها من الكلمات التى تحاول التعبير عن مجموعة العوامل المادية والمعنوية والاخلاقية والدينية؛ وربما السياسية والاجتماعية، التى وقفت على مدى التاريخ وبدرجات متفاوتة حائلا دون انطلاق الانسان فى الابداع المطلق .



ففى كل، أو معظم، مراحل تطور الانسانية، لا أظن أن الانسان كان حرا ليبدع كيفما وأينما ومتى أراد كما هو الآن. ولا أظن أنه كان حرا ليبدع فى كل المجالات حتى إن استطاع وليس فقط إن أراد، كما هو الآن. كان الابداع، فى معظم الحالات والصور، يصطدم إن آجلاً أو عاجلا، وفى درجة أو أخرى من درجاته بسقف أو سقوف لم تكن عالية بالقدر الكافى الذى يسمح بالانطلاق. اليوم يقال أن السماء تكاد تكون السقف الوحيد للابداع. أى أن المبدع حر فيما يريد أن يفعله. لن يمنعه أو يحد من انطلاقه سقف واطىء. وعلى العكس من عصر «اللاسقوف» أو عصر السقوف العالية جدا الذى نعيشه، كان الماضى زمن السقوف الكثيرة والمنخفضة. وفى أحيان، أو حالات، كان السقف يكاد لا يسمح بأن ينهض الإنسان، ناهيك عن أن يطلق لأفكاره العنان ويبدع. وفى أحيان أو حالات أخرى كان السقف أعلى، أى كان الابداع ممكنا.. وبالفعل أبدع شعراء وفلاسفة وأبدع مهندسون ومحاربون وسياسيون. لا يختلف الكثيرون على أن العلاقة بين الابداع والسقوف العالية علاقة طردية.

أحد أهم السقوف المقيدة لانطلاقات المبدعين: سقف التقاليد والأعراف ومنظومة القيم السائدة

ومعايير الأخلاق. ولكل منها معاييره وروادعه. ولكنها في كل الأحوال ظلت على مدى الزمن أهم السقوف. كان المجتمع - أو النخبة القائدة فيه - يضع القواعد التى تمنع انفلات المبدعين خشية وقوع اختلال فى التوازن الذى بفضله تعيش القبيلة أو الأمة متماسكة. يسمح بالابداع، وقد يشجع عليه، ولكن من خلال خطوات وانجازات متدرجة، أى بدون قفزات واسعة، بل أن مجتمعات كثيرة فى مرحلة أو أخرى من مراحل تطورها مولت أو جندت من يبرر الابداعات الفكرية والمادية، أو ادخلت التطوير على انسان التقاليد والقيم إما للتمهيد لابداع معين أو لتسهيل استيعابه مجتمعيا. وفى معظم الحالات لم تأت هذه الابداعات الانسانية، حتى التكنولوجية منها، من فراغ أو جاءت من خارج السياق أو قفزا فوقه. أما فى الحالات حيث جاء الانجاز مفاجئا أو نتيجة قفزة عبر الزمان أو المكان أو كليهما، لم تتردد القوى القائدة فى المجتمع فى قمع من تسول له نفسه تبرير هذا الانجاز المبدع، وفى وأد الانجاز ذاته أو التعتيم عليه. والتاريخ فى مراحل كثيرة، قديمة ومعاصرة، شاهد على اغتيال فلاسفة وعلماء أو اختفائهم أو انتحارهم.

ولكننا عندما نتحدث عن السقوف كقيود على الحرية المطلقة فى الابداع، يجب أن نتحدث عن السقوف كروادع لتجاوزات هذه الحرية المطلقة فى الابداع. هنا تتشابه التقاليد ومنظومة الاخلاق والدين. وفى موضوع الدين تحديدا مازال الجدل قويا بين من يعتبرون الدين قيدا على الابداع، ومن يعتبرون الدين محايدا فى هذا الموضوع. وفى التاريخ ما يعزز الرأيين. اذ انه عندما يهبط مستوى العلم والتعليم عند المتخصصين والمتفرغين للجانب الدينى أو عندما يتحجر الفكر الدينى يهبط مستوى الفكر عامة فى كل المجتمع ويتخلف، وبخاصة اذا استخدم رجال المؤسسة الدينية وسائل عنف وتهديد لمحاربة أى تجديد فى فروع العلم المختلفة، ناهيك عن أى تجديد فى تفسير وتطوير الدين وتطبيقاته. كذلك حدث العكس تماما عندما كان رجال الدين، أو رجال السياسة فى الدولة الدينية، متحررين فكرا وحريصين على تطوير مجتمعاتهم خدمة للدين أو للمجتمع أو لكليهما معا، ففى ظل بعض عصور الديانات القديمة أبدع المبدعون وخلفوا انجازات ما برحت تشد الاهتمام. وفى ظل عصور «دينية» أخرى قديمة ووسطى ومعاصرة انحسر الابداع أو اختفى مخلفا بانحساره أو اختفائه تدهور جميع

أركان المجتمع. في الحالة الأولى قامت حضارات مازال تراثها قائما وشاهدا على بصيرة نافذة لعلماء الدين أو الحكومة الدينية، وفي الحالة الثانية اندثرت حضارات وسادت الأوبئة وعم التخلف بسبب استخدام البطش باسم الدين والحرص الشديد على مصالح ضيقة لطبقة رجال الدين وحاشيتهم الحاكمة، أو بسبب ضعف الطبقة السياسية الحاكمة وخضوعها لغير المتنورين من النافذين في الطبقة الدينية .

وعلى شاكلة التقاليد، وإن أكثر وأقوى، لعب الدين الدورين معا. لعب دور السقف المقيد لانطلاقة الابداع ولعب دور الروادع المهدئة أو الكابحة للابداع وخاصة إن تجاوز حدود التدرج أو هدد استمرارية المجتمع أو سبق زمانه. ولكن الدين لعب دورا ثالثا. ففي حالات وعصور معينة لعب الدين دور المحفز للابداع. عندئذ لم يكن سقفا بل كان البوابة التي انطلق منها الابداع نحو آفاق لم يجرؤ المبدعون على اقتحامها لولا وجود الحافز الديني المناسب .

☆☆☆

توجد سقوف أخرى للابداع، ولكنها ليست مزدوجة أو مثلثة الادوار - المتناقضة أحيانا - كسقف التقاليد وسقف الدين ، خذ مثلا الامكانات المادية والمعنوية للمجتمع. فالمجتمعات التي تعاني من شح مادي أو بشري مجتمعات لا تنتج مبدعين لأنها لا تهيئ الظروف المناسبة من بشر مدرب تدريبا متميزا، ومن امكانات مادية ضروري توافرها لتحويل أفكار المبدعين الى انجازات ملموسة تتراكم فتشجع على ابداع جديد وهكذا. فالمبدعون لا يبدعون ان لم يكن المجتمع غنيا بالبشر والطيبات والخبرات السابقة يبنون عليها ويستفيدون منها. ولا يبدعون ان لم تتوافر بحبوحة مادية فلا تتشتت اهتماماتهم في اتجاهات اخرى مثل السعي اليومي والدائب نحو تلبية مطالب الحياة. ثم إن ابداعا ما ان لم يجد الامكانات اللازمة لتعميمه لصالح المجتمع الانساني المحدود أو العالمي سيبقى حبيس الادراج والرفوف. وبالتالي سيكون مصير المبدع مع غيره من المبدعين المحتملي التحول الى اهتمامات أخرى.

ويرتبط بالامكانات حال الاتصالات والمواصلات. فالقيمة العظمى لأي ابداع تتضاعف ان استطاع تجاوز الحدود المحلية أو الاقليمية الى العالم بأسره أي الى الانسانية جمعاء. القيمة العظمى للابداع أن ينتقل في المكان كما ينتقل في الزمان. وهنا تكمن أهمية التقدم في وسائل وتكنولوجيا

الاتصال والمعلومات والمواصلات. فنقص هذه الوسائل أو تخلفها يصنع سقفا منخفضا للغاية قد يؤدى الى وأد الابداع بالتعتيم عليه. ولا تقل القدرة الاستهلاكية فى مجتمع ما أهمية عن امكاناته المادية والبشرية فكما أن المجتمع المنغلق بالجهل لن ينشىء أو ينعش مجتمعا ثقافيا وان كان صغير العدد والنفوذ. كذلك فإن المجتمع الثقافى المنغلق بالسياسة أو المؤمم اجتماعيا واقتصاديا، لن يفرز مبدعا. وان تفلت بالصدفة من اسار تخلفه مبدع سارع «المجتمع الثقافى السياسى» لافساده أو طمس ابداعه. واذا قاوم المبدع حورب وطورد حتى يهجر أو يهاجر.

كذلك الحال بالنسبة لمخترع آلة أو أداة جديدة أو مكتشف فيروس أو جرثومة جديدة. هذا المبدع لن يتمكن من تحويل اكتشافه أو اختراعه الى انجاز واسع الانتشار فى مجتمع لا يقوى أفراده على شرائه، سيتوقف عن تطوير ما أبدع اذا لم يكن المجتمع مؤهلا ماديا أو علميا أو دينيا أو بالتقاليد لاستهلاك هذا المنتج. لذلك سمعنا وقرأنا عن مبدعين لم تستفد البشرية من اكتشافاتهم وأفكارهم واختراعاتهم لأن الظروف المادية أو غيرها من الظروف لم تشجع وقت الاكتشاف على استهلاكها، وسمعنا وقرأنا عن ابداعات أخذت سنوات بل عقودا قبل أن نتمكن من أن تجد السوق الاستهلاكى المناسب.

☆☆☆

كانت السنوات الأخيرة حافلة بالجديد فى الفكر السياسى والاجتماعى والتحولات الاقتصادية. كانت مرحلة ثرية، بالجيد والسيىء على حد سواء، فى مجالات تسجيل التطورات المذهلة والابداعات الهائلة التى شهدها نصف القرن الأخير وبخاصة الربع الثانى منه، لن يكون هنا مجال استرجاع خلاصة النقاش الساخن جدا فى مجتمعات ثقافية متعددة فى أعقاب اسقاط القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما. وقتها طالب معظم مثقفى الغرب بوضع روادع لهذا النوع من الابداع. وبرز تيار بينهم يعتبر أن القنبلة اطلقت الى الوجود عصرا جديدا من الظلام والتخلف» ولن يكون هنا مجال استرجاع خلاصة الحوار الذى دار على مستوى العالم حول حوار الحضارات وصداماتها، أو الجدل حول اقتراح اعلان نهاية التاريخ، أو الهزة الشديدة التى تسببت فيها «دوللى» والهزات المتناقضة الشدة التى تسببت فيها استنساخات أخرى بعد دوللى. كثيرة كانت التطورات التى دفعت مفكرين فى جميع أنحاء العالم -

خلال هذا العقد الأخير - الى المطالبة بالتريث - ولو لبرهة - لنخرج خلالها الزفير المحبوس بعد شهيق المفاجأة او الانبهار. وبشيء من المبالغة، وبالقدر الضروري، لم يخف بعض المفكرين خوفهم الناتج عن ان هذه «البرهة» لم تعد متاحة لهم ليتأملوا فيما وقع واستجد، أو فيما تم ابداعه وانجازه. وهذا خطر، لأن المجتمع الثقافي فى أى مجتمع ان لم تتح له «برهة» أو فرصة التأمل ثم برهة أو فرصة ربط الجديد بمسيرة الانسانية والتاريخ والمجتمع، يكون قد تخلف عن المشاركة وابداء الرأى والنصح وترك المجتمع فريسة سهلة لمبدع لا يقدر بالضرورة كل العواقب الناتجة عن ابداعه، وانعزل هو نفسه عن تطورات متلاحقة ومتصلة تحبس الانفاس وتبقيه فى حال انبهار حاد لايسمح ببرهة ولا فرصة يستفيد منها فيستعيد قدرته على صنع معايير أخلاقية جديدة أو استنهاض همم لمواجهة هذا الغزو الابداعى، أو التأقلم معه.

نفترض أن النخبة المثقفة فى عالم اليوم، وبخاصة فى العالم المتقدم ماديا وتكنولوجيا، فشلت فى الفكاك من أسر دائرة الانبهار بالابداع، واستمر اختلاط الحابل بالنابل فى مجال الثورات المترابطة أو المتلاحقة، وهى الثورة المالية والثورة فى المعلومات والاتصالات والثورة فى المواصلات والثورة فى تكنولوجيا التخليق و«المنتجات البشرية والحيوانية والنباتية»، فالى من ستعهد البشرية بمسئولية اعادة الانضباط الى العلم وتوجيه الابداع او على الأقل وضع المعايير الاخلاقية الضرورية لتفادى كارثة أخطر من كل الكوارث التى مرت بها الانسانية حتى الآن؟.

ثم كيف تتوصل البشرية الى أن تكون المعايير الأخلاقية الجديدة محل اجماع كافة الحضارات فنتفادى صداما مدمرا بينها ؟

وهل تستأنف الديانات دورها فى تحقيق التوازن بين الابداع والنظام العام حفاظا على مسيرة الانسانية؟ واذا استأنفت الديانات دورها كيف تضمن المجتمعات أن لا يهيمن على التفسير والتأويل كهنة ورجال دين ومتخصصون فى ركوب الموجات الدينية رافضون للابداع من اساسه، وقد حدث شيء من هذا فى مراحل متعددة من مراحل التقدم الانسانى.

أسئلة تدعو للتأمل، وتنتظر اجتهادات، حتى وان كانت صعبة وحرجة.

أنثروبولوجيا السفر

بقلم :د. جلال أمين

أعترف للقارىء بأنى لازلت حتى الآن، رغم ظنى بأن مرور الزمن يقلل من درجة حماقتى، أشعر بالسرور، بل وبنوع من الفخر أيضا، كلما تلقيت دعوة للسفر إلى الخارج ، لحضور مؤتمر أو ندوة أو اجتماع من أى نوع .

أعترف بهذا وأنا أشعر بشىء من الخجل، إذ أنى مهما فكرت فى الأمر، لا أجد أى مبرر معقول لهذا السرور أو هذا الفخر.

فموضوع المؤتمر الذى أدعى إليه قد يكون تافها للغاية، ولا مبرر له بالمرة، والاجتماع الذى قد يطلب منى السفر لحضوره قد تكون دوافعه مظهرية بحتة، ولا يحقق أى نفع إلا للهيئة الداعية إليه، ومع هذا، فهأنذا أشعر بالسرور والفخر لمجرد «السفر إلى الخارج».

قلبت الأمر على وجوهه فى محاولة لفهم سر هذا الشعور، هل السبب هو مجرد التحليق فى الطائرة على ارتفاع عشرات الآلاف من الأقدام؟ فما وجه الجاذبية فى هذا، والأمر مملوء بالمشقة، من تجديد جواز السفر، إلى استخراج تأشيرات الدخول، إلى الاستيقاظ فى مواعيد غير ملائمة، إلى الجلوس ساعات طويلة مقيدا فى كرسى بالسلاسل المسماة «أحزمة المقاعد»، إلى اضطراب النوم بسبب الفوارق الزمنية .. إلخ؟ ماهو وجه الفرح إذن، وأين هى دواعى الغبطة؟

ربما كان الأمر مفهوما منذ أربعين أو خمسين عاما، عندما كان السفر بالطائرة شيئا نادرا فعلا، وكان ركاب الطائرة يعاملون وكأنهم أشخاص متميزون، وكان منظر الشخص الخارج من قاعة الجمرك إلى الصالة التى يصطف فيها المستقبلون المتلهفون على رؤيته، منظرا يدعو إلى الإعجاب حقا، بحقائبه الموضوعة على عربة (ترولى) أنيقة تسير بسهولة ويسر رغم ما تحمله من أثقال، ناهيك عن ذلك الكيس

المصنوع من البلاستيك وكتب عليه بألوان زاهية (السوق الحرة)، والذى يحتوى على مختلف السلع غير الموجودة داخل الوطن أو عالية الثمن، كان هذا مفهوما منذ أربعين أو خمسين عاما، ولكن كيف يمكن أن يكون أى شيء من هذا جذابا أو مبهرا الآن، وقد أصبح ممكنا لكل عامل بسيط يسافر إلى دولة من دول النفط لبضعة أشهر أو حتى لبضعة أسابيع، أن يعود حاملا البضائع نفسها وأن يضعها على الترولى نفسه .

أسباب الفرح

أعترف بأنى لازلت أبحث عن السبب الحقيقى لهذا الفرح بالسفر إلى الخارج، وأميل إلى رده إلى أسباب غير عقلانية بالمرة، قد ترجع فى نهاية الأمر إلى أن السفر بالطائرة، على الرغم من شيوعه وانتشاره بين مختلف طبقات المجتمع، لازال قاصرا على نسبة ضئيلة من الناس، ولازال أكثر من ثلاثة أرباع السكان، أو نسبة قريبة من هذه النسبة، حتى فى البلاد المتقدمة والثرية، لم تطأ أقدامهم مطارا أو طائرة .. ومن ثم يكتسب المسافر بالطائرة قيمة وتميزا اجتماعيا لمجرد أنه يفعل شيئا لايفعله معظم الناس .

إذا كان هذا هو التفسير الحقيقى أو قريبا منه، فالأمر إذن له صلة بنزعات وميول طبيعية ودفينة لدى الانسان، بوصفه انسانا يتعلق فى هذه الحالة بالميل إلى التميز والتفوق على الغير، ولكن كلما أمعنت التكامل فى مشاعر وسلوك الناس إزاء ظاهرة السفر بالطائرة، تبين لى، أكثر فأكثر، أن الانسان العصرى، مهما بدا من تحضره، وتمدنه لازال محكوما فى الأساس بهذه النوازع الطبيعية والغريزية التى كثيرا ماتكون بعيدة جدا عن العقلانية، من الممكن إذن للمرء فيما يبدو، أن يتكلم عن شيء اسمه «انثروبولوجيا السفر» .

★★★

إن الأمر يبدأ منذ أشرع فى تحضير حقيبتى للسفر.

شركات الطيران لاتسمح إلا بحقيبة لايزيد وزنها على ٢٠ كيلوجراما، مع التجاوز عن حقيبة صغيرة اليد، دون تحديد دقيق للوزن المسموح به لهذه الحقيبة الصغيرة . ولكن الأشياء التى أريد أن آخذها معى تزيد دائما عن المسموح به، أيا كان البلد الذى أنوى السفر إليه ، بعيدا أو قريبا، وأيا كانت مدة الغياب، قصيرة أو طويلة، بل إن الحقيبة نفسها لايمكن أن تتسع لكل ما أريد وضعه فيها، أيا كان حجمها، الأمر فيما يبدو شبيه بما قيل فى وصف شهوة الانسان إلى الطعام «عيناه أكثر اتساعا من بطنه»، أى أن مايرغب فى التهامه من طعام أكثر دائما من قدرة معدته على الاستيعاب.

هكذا اكتشف المرة بعد المرة (والأرجح أن أمثالى فى هذا كثيرون) كلما شرعت فى الاستعداد للسفر، أن ما أرغب فى حمله هو أكبر دائما من طاقتى، وأكثر بكثير مما أحتاج إليه فى الحقيقة، ربما احتجت إلى عشرة أعوام

أخرى من السفر قبل أن أتعلم أن تكون حقيبتي عند السفر نصف ملآنة، خفيفة الوزن سهلة الحمل، وألا أحمل معي من الكتب إلا كتيبا واحدا صغيرا في حقيبة يدي، وأن أواجه أهلي عند العودة بلا هدايا، اللهم إلا ما أعرف أنهم بحاجة حقيقية إليه، على أساس أن المهم هو ما أحمل لهم من حب وشوق وليس ما أحمله من سلع .

من المؤكد أن الإنسان لم يتعلم بعد أن السفر بالطائرة ليس كالسفر بامتطاء ظهر جمل أو حصان، ولا حتى كالسفر بالقطار، حيث يظل الانسان ملامسا للأرض أو قريبا جدا منها، فالانسان لايزال يريد أن يقلد الطائر فى الطيران مع إصراره فى الوقت نفسه على حمل أثقاله معه، دون أن يدرك أن من المستحيل على طائر أن يحلق فى الهواء وهو يحمل حقيبة كبيرة وحقيبة أخرى صغيرة لليد.

***

منذ أن بدأ استخدام الطائرة كوسيلة من وسائل الانتقال، عمدت شركات الطيران إلى مراعاة الدقة الشديدة فى اختيار من اسمتهن «بالمضيفات»، وهن نساء مهمتهن الوحيدة تلبية رغبات المسافرين وتوفير أكبر قدر من الراحة والاطمئنان لهم، ذلك أن شركات الطيران تفترض افتراضا أساسيا (ولعلها فى هذا على الحق) هو أن المسافر بالطائرة شخص يعانى من أمرين: الأول هو الخوف من أن تتعرض الطائرة لكارثة، والثانى هو ضآلة الحرية المتاحة له للحركة، أما عن الخوف من وقوع كارثة فمهما قيل للمسافر من أن الطيران هو اليوم أكثر وسائل السفر أمانا ، طبقا للاحصاءات المؤكدة عن نسبة التعرض للكوارث فى مختلف وسائل الانتقال، فإن المسافر بالطائرة لايزال ينتابه شعور بخطورة ماهو مقبل عليه بدرجة لاتنتابه وهو يصعد سلم القطار أو الباخرة، فالإنسان ليس مخلوقا عقلانيا تتحدد مشاعره بما تقوله الاحصاءات بل تتحدد هذه المشاعر بدرجة أكبر بكثير وفقا لما يدور بخياله من صور ، ولاشك أن فكرة السقوط ، لاقدر الله، من ارتفاع ٢٠ ألف قدم هى أصعب على النفس بكثير من فكرة ارتطام قطار بآخر أو تسرب المياه داخل الباخرة. وأما فقدان حرية الحركة داخل الطائرة فلاشك فى صحته، ومع ذلك فراكب القطار ليس أفضل حالا فى ذلك بكثير من راكب الطائرة، ومن ثم فالأرجح أن يكون الفارق الأهم يعود إلى حاجة الانسان الدفينة إلى أن تظل قدماه ملامستين للأرض، أو على الأقرب قريبتين منها، وهو مايتحقق لراكب القطار أكثر مما يتحقق لراكب الطائرة.

لعل هذا إذن هو تفسير تلك الابتسامات الدائمة التى ترتسم على وجوه المضيفات، أو التى تطلب شركات الطيران من مضيفاتها أن يرسمنها باستمرار على وجوههن، ولعله هو

أيضا تفسير الميل إلى استخدام النساء كمضيفات بدلا من الرجال الذين قد لايبعثون في المسافرين ومعظمهم من الرجال، الدرجة المطلوبة من الحنان.

إن صوت الكابتن الواثق من نفسه (وهو دائما من الذكور)، والذى يجب دائما أن يتسم بالحسم وعدم التردد، أمر مهم بدوره في هذه الظروف ومن المستحسن أيضا أن يتطرق الكابتن في كلامه عبر الميكروفون إلى بعض الأمور التافهة، كحالة الطقس في البلد الذى تقصده الطائرة، أو كأسماء زملائه العاملين بالطائرة مما لايهم المسافرين قيد أنملة إذ أن لهذا الكلام فائدة لاشك فيها في بث الثقة في نفوس المسافرين بأن الكابتن، وهو الذى تتوقف عليه سلامتهم أكثر من أى شخص آخر، مطمئن، تماما إلى أن الرحلة سوف تتم بسلام.

من المهم أيضا شغل المسافرين طول الرحلة بأى شيء على الإطلاق، مهما كان تافها، ودون توقف، بغرض بث الشعور في المسافر بأنه ليس وحيدا، ومنعه من الاسترسال في أى تخيلات تتعلق بخطورة التحليق في الهواء ، أما التعليمات التى تصر كل الشركات على ذكرها في بداية الرحلة، فيما يتعلق بما يجب على المسافر عمله في حالة تعرض الطائرة لأى خطر، فالأرجح أن فائدتها الوحيدة، ليست هي بالضبط تقليل الخطر الفعلى الذى يتعرض له المسافر بل إيهام المسافر بأنه ، حتى في حالة تعرض الطائرة للخطر فإن هناك وسائل لمواجهة هذا الخطر.

لا أخفي على القارىء إذن أنى قد سئمت تكرار هذه التعليمات لدرجة جعلتنى أصرف النظر عنها ولا أتابعها بالمرة، وذلك باستثناء مرة واحدة لفت فيها نظرى بشدة ماتقوم به المضيفة ووجدته طريفا للغاية مما قد يستحق أن أرويه للقارىء.

كانت الطائرة مصرية، ومن ثم كانت المضيفتان اللتان وقفتا لتمثيل مايجب على المسافرين اتخاذه من إجراءات الأمان، مصريتين أيضا، كانت المهمة تتطلب من المضيفة أن تمد ذراعيها مرة إلى أعلى ومرة إلى أسفل ومرة تشير إلى باب الخروج ومرة ترتدى قناع الأوكسجين .. الخ . وكنت قد رأيت مثل هذا المنظر عدة مرات من قبل يقمن به مضيفات أوربيات ، فكن يقمن بهذا العمل بجدية تامة ودون أن ترتسم على وجوههن أى ابتسامة حتى ينتهين من هذه المهمة المملة، ولكن لم يكن هذا حال المضيفتين المصريتين، فقد لاحظت أن كلا منهما تجد صعوبة بالغة في منع نفسها من الاستغراق في الضحك بمجرد شروعها في القيام بهذه الحركات، وتختلس كل منهما النظر إلى زميلتها التى تقوم بالعمل نفسه، وتحاول أن ترسم على وجهها ملامح الجدية والصرامة دون جدوى، كان المنظر مسليا وغريبا للغاية، خاصة إذا قارنته بما ألفته من المضيفات الأوربيات، ورحت أفتش عن السبب: هل هو حياء دفين في الفتاة المصرية نفسها، يجعلها

تكاد تموت خجلا من الوقوف أمام الناس الغرباء والتمثيل على هذا النحو، أم هو سخرية واستهانة بهذا التمرين الذى يشعر الجميع بقلة فائدته؟ على أى حال، قلت لنفسى إنه سواء كان السبب هو هذا أو ذاك، فها هو ذا مثال صغير ولكنه يعبر بدقة عن فارق مهم بيننا وبينهم، أى بين المصريين أو الشرقيين عموما وبين الأوربيين أو الغربيين بصفة عامة، ولعله لايخلو من دلالة على سبب نجاحهم فى تحقيق ما حققوه وفشلنا نحن فى ذلك، قد نكون فى كثير من الأحيان أكثر ظرفا وأخف دما، بل وكثيرا ما نبدو أكثر حكمة، ولكننا لانملك مايملكونه من رباطة الجأش وأخذ كل الأمور، كبيرها وصغيرها، بالجدية الواجبة، بل إنهم كثيرا مايبدون درجة أكبر من الصبر حين يسرع إلى نفوسنا السأم، على الرغم من أننا لانكف عن التغنى بالصبر ومزاياه، يبدو أن الصبر الذى نعنيه شىء مختلف تماما عن صبرهم

***

اكتشفت شركات الطيران أيضا أنه إذا كان راكب الطائرة يعانى فى الأساس من أمرين : الخوف والملل، فإن العلاج الناجع لهذين الشعورين هو الطعام، إملأ فم المسافر باستمرار تصرف عنه، ولو لفترة، مايشعر به من خوف من التحليق على هذا الارتفاع الشاهق، ومايشعر به من ملل بسبب اضطراره للجلوس فى المكان نفسه الضيق لعدة ساعات. إن الأكل هو أحد الوسائل الفعالة التى نلجأ إليها حتى ونحن على الأرض، لصرف القلق أو السأم عن نفوسنا، وهكذا تفعل شركات الطيران فلا تكف عن تدليل المسافر بما تقدمه له من أصناف المشروبات والطعام وقطع الحلوى، أيا كان طول الرحلة أو قصرها، وسواء كان الوقت ملائما لتناول الطعام أو غير ملائم .

فى كل هذه الأمور لاتكاد تختلف معاملة شركات الطيران لركاب الدرجة الأولى عن بقية الركاب، إذ أن من الصعب أن يتفتق الذهن عن طريق للتمييز بين طائفة من الركاب وغيرهم دون حرمان بعض الركاب من بعض اللوازم الضرورية لرحلة الطائرة، ومن التدليل المستمر للركاب هناك بالطبع حدود واضحة لما يمكن أن تميز به مايقدم من طعام لركاب الدرجة الأولى عما يقدم لغيرهم، مادامت معدة الانسان، كما قال آدم سميث منذ زمن بعيد، لها حدود لايمكن تجاوزها، نعم، من الممكن وضع أربعة أو خمسة أزرار على يد كل مقعد من مقاعد الدرجة الأولى تسمح بتحريك أجزاء المقعد فى اتجاهات متعددة حتى يحصل كل راكب على الوضع الذى يتناسب تماما مع حجمه وثنيات جسمه، ولكن الناس لايختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا فى هذا الأمر أيضا.

تفتق ذهن شركات الطيران عن طريقة أخرى لتمييز ركاب الدرجة الأولى عن غيرهم، وهى إعطاء كل

راكب في الدرجة الأولى هدية، هي في العادة كيس صغير قد يبدو جذابا في البداية ولكن الراكب يصاب بحيرة شديدة بمجرد أن يحاول أن يعرف ما الذي يمكن أن يفعله به. فهو قد يحتوي مثلا على مشط صغير أو معجون وفرشاة، للأسنان، مما يملك الشخص مثله ولا حاجة له به، أو زجاجة صغيرة بها سائل لغسيل الشعر وزيادة درجة لمعانه، مما يندر أن يحتاج المرء لمثله .. إلى آخر هذه الأشياء التي لايحتاج إليها في الحقيقة أي شخص ومن ثم ينطبق عليها وصف «الهدايا»، أي الأشياء التي لايحتاج إليها أحد في الحقيقة ومن ثم لايمكن أن يشتريها الشخص لنفسه وإنما يمكن أن يحاول بها خداع غيره . ومع كل هذا فشركات الطيران مستمرة في استغلال هذا الميل الدفين فينا جميعا، وهو الفرح بالحصول على أي شيء، مهما كانت قلة حاجتنا إليه، مادام يقدم إلينا دون مقابل، واللهفة التي نشعر بها إلى فتح أي شيء مغلق معلقين آمالا كبيرة على العثور في داخله على شيء ثمين غير متوقع .

★★★

إذا فرغت شركة الطيران من إلهاء الركاب بالطعام أو الشراب، وبعرض بعض الأفلام، وبتوزيع بطاقات الدخول، وفرغت جعبة قائد الطائرة من أي تعليقات أو تعليمات يمكن توجيهها للركاب، لايبقى إلا إغراء الركاب بما يسمى «بالسوق الحرّة» وهو اسم غريب لظاهرة أكثر غرابة.

فالمفروض أن هذه السوق الحرة تتكون من سلع تعرض على الركاب بسعر أقل كثيرا من الأسعار التي تباع بها داخل الدولة التي خرج منها المسافر أو الدولة التي سوف يدخلها. بسبب عدم خضوعها للرسوم الجمركية في هذه الدولة أو تلك، وحيث أن هذه الرسوم قد تكون مرتفعة للغاية على سلعة مثل السجائر والخمور والعطور فإن الشراء من السوق الحرة لابد أن يكون شديد الإغراء للمدخنين وشاربي الخمر، ولكن الانسان هو عادة من الضعف بدرجة تجعل من السهل جدا أن يسقط فريسة لخدعة بسيطة، إذ بمجرد أن يجد فرصة لشراء سلعة بثمن أقل مما تباع به عادة سال لعابه لها بصرف النظر عما إذا كان يشتري هذه السلعة عادة أو لا يشتريها يحتاج إليها أو لايحتاج فإذا به يقبل بحماس على شراء أي شيء من هذه السوق «الحرة» ولو لم تكن لديه أدنى حاجة إليها، خوفا من أن تضيع هذه الفرصة الذهبية وهي دفع ثمن أقل مما يمكن أن يدفعه في ظروف أخرى!. وهكذا تتحول هذه الفرصة الاستثنائية لشراء هذه السلع الترفيهية إلا بدونها، ويصرّ الراكب على الحصول عليها إن لم تعرض عليه، وقد يتحمل من أجلها أعباء شديدة أقلها زيادة أحماله، وهي الثقيلة أصلا، ومزيد من انحناء ظهره، وتقليل حريته في الحركة بسبب ما يحمله من سلع هذه السوق «الحرة» .

وقد استغلت شركات الطيران هذا الجانب أيضا من جوانب الضعف

الانسـانى، فـاخـتـارت من أنواع السجائر والمشروبات. العطور أغلاها ثمنا، ولم تعرض غيرها من الأنواع على الركاب، فإن الراكب يدفع أثمانا أعلى مما يدفعه عادة لمجرد أنه يشترى الآن أصنافا أعلى مستوى .

فى مقابل هذا كله يوجه الراكب كلمة شكر رقيقة للمضيفة الجميلة الواقفة لتوديعه على باب الطائرة، وهى تبتسم له ابتسامة واسعة تعبر بها عن امتنان شركة الطيران لما أبداه من خضوع تام لكل تعليماتها وإغراءاتها، ولقبوله بصدر رحب كل ماجرى عليه من عمليات الترويض .

فإذا وضع الراكب قدمه فى مطار البلد الذى يقصده، وفرغ من إجراءات الجوازات، ذهب مسرعا إلى «السير» المتحرك متلهفا على رؤية حقائبه الأساسية التى سلمها لشركات الطيران قبل بداية الرحلة، وهو يدعو الله بمنتهى الخشوع ألا يكون قد حدث خلال عمليات السفر المعقدة أى خطأ أدى إلى ضياع حقيبة من حقائبه أو إلى ذهابها إلى بلد آخر أو قارة أخرى، إن من الشيق حقا تأمل وجوه الركاب أثناء وقوفهم أمام هذا السير المتحرك فى انتظار ظهور حقائبهم، وكأن كلا منهم ينتظر ظهور وجه حبيبته من بين عشرات النساء الغريبات، فإذا ظهرت، بعلاماتها المميزة، سواء كانت حقيبة جميلة أو قبيحة، مستوية أم منبعجة، مادامت حقيبته هو دون غيره، تنفس الصعداء وشعر لأول مرة بأن السفر قد بلغ نهايته، وهنأ نفسه على السلامة، ولكن الأكثر استحقاقا للتأمل والأكثر مدعاة للتأثر هو منظر الركاب من جنسيات بعينها وهم واقفون الموقف نفسه، فى انتظار حقائبهم، بالمقارنة بمنظر ركاب آخرين من جنسيات أخرى، فلنتأمل مثلا لهفة المصرى وهو فى انتظار حقائبه ومتاعه، خاصة إذا كان عائدا بعد رحلة عمل فى إحدى دول الخليج، فهنا تكون اللهفة مضاعفة والشوق أشد ذلك أن الحقائب والأمتعة لاتحتوى فقط، فى هذه الحالة، على أشياء تحمل ذكريات شخصية أو على سلع عالية الثمن ضحى الرجل فى سبيلها بالعمل الشاق والاغتراب عن الوطن والأهل، بل إنها أيضا تمثل رموزا لصعوده الاجتماعى وارتقائه إلى طبقة أعلى من الطبقة التى كان ينتمى إليها قبل سفره، فالمروحة اليابانية مثلا أو جهاز الكاسيت أو التليفزيون الملون تمثل كلها خطوات مهمة فى رحلة طويلة طالما حلم بها، وهى رحلة الارتقاء على السلم الاجتماعى، لا حاجة بى إذن لوصف البهجة التى يشعر بها هذا المسافر لدى رؤيته لحقائبه وأمتعته وهى تظهر الواحدة بعد الأخرى على هذا «السير» السحرى المتحرك. إن رؤية هذه الحقائب كافية لأن تنسى هذا المسافر كل ماقد يكون قد صادفه فى رحلته من مشاق، ولاتعادل بهجتها إلا بهجة فتح هذه الحقائب أمام عيون زوجته وأولاده المتطلعة إليه بإعجاب واحترام لم يكن يحظى بمثلهما قبل السفر .

من واقعنا الثقافى

الخيانات العلمية

رأيت ... وقرأت ... وسمعت

بقلم : د. محمد رجب البيومى

كان القدماء من النقاد يقيمون الدنيا ويقعدونها ، إذا أخذ شاعر معنى من شاعر آخر فى بيت واحد من الأبيات ، ويعقدون لذلك فصلا تحت عنوان «السرقات الأدبية»، وفيهم من ألف كتبا مستقلة خاصة بأخذ معنى، أو استلاب لفظ، وجعلوا هذه السرقات أقساما تتدرج تحت عناوين النسخ، أو السلخ أو المسخ ، ولكل عنوان أمثلة واعتراضات ! ولم يدر بخلدهم فى مجال السرقات ما نراه من الآن. حين يسطو سارق على كتاب فيأخذه بأكمله، لا لينسب إليه فقط ، بل ليحوز به درجة علمية كالدكتوراه، أو يرقى به إلى مرتبة أعلى فيكون أستاذا مساعدا بعد أن كان مدرسا. أو أستاذا بعد أن كان أستاذا مساعدا، وإذا كان هذا مشهودا ملموسا بيننا الآن، فلنا أن نتخيل اندهاش هؤلاء السابقين ممن يقيمون المعارك حول سرقة بيت واحد! حين يعرفون ما اتسع فيه الخلف من السرقات الفاضحة ، أكبر الظن أنهم سيتركون الحديث عن النقد، ويولون أقلامهم حول انتكاس الأخلاق.

لقد فسحت الأهرام صدرها فى الشهور الأخيرة ، لذكر أنواع من هذه الجرائم ، وجعلت تقدم أنماطا مخزية لما ارتكبه أهل العلم من «مصاب شنيع ، وأقول أهل العلم لأضحك القارئ» فإن الذين يرتكبون هذه الجهالات المندية لا يعرفون قيمة العلم والعلماء ، وأعجب ما فى الموضوع أنك ترى من يدافع عن هذه الخيانات، فقد ذكرت الأهرام أخيرا، أن لجنة كونت للبحث عن بعض هذه الجرائم، فلم تلزم جانب الحق مع وضوحه، ولكنها تعللت بذرائع مضحكة يعرف أعضاؤها قبل غيرهم أنها كذب واحتيال ، وتستغرب ذلك فتسأل عن هذا السلوك المريب، فيقال : إنها كرامة الجامعة ! ولا أدرى أيهما أكرم للجامعة وأشرف ، أن تأخذ المذنب بذنبه فيرتدع سواه ، أم أن تتستر عليه لتشجع سواه ! لقد أصبحت المسألة (مؤامرة) ولم تعد قضية سرقة وانتهاب بل جريمة اشترك فيها الرءوس والأذناب ؟.

رصد الانحرافات

ولكى نوازن بين اليوم والأمس ، أذكر أن المؤرخ الكبير الشيخ محمد الخضرى فى العقد الأول من القرن العشرين نقل صفحة واحدة من كتاب الشفاء ، للقاضى عياض، ونسى أن يذكر المؤلف، نسى ساهيا إذ تعود أن يذكر اسمه واسم غيره حين ينقل مستشهدا، فقامت القيامة عليه فى الصحف، واعتذر الرجل بأنه سها عن ذكر المرجع، حتى هدأت العاصفة شيئا ، وأرد الشاعر الفكه حفنى ناصف أن يعيد الحرب جذعة، فكتب يقول ، إن الشيخ الخضرى لم يَسْه. ولم يأخذ عن الشفاء . ولكن القاضى عياض هو الذى أخذ منه هذه الورقة ، لأنه ولىّ من أولياء الله، وقد اطلع على اللوح المحفوظ الذى يجمع ما كان ويكون من المؤلفات قبل ستة قرون ، فقرأ كلام الشيخ وأخذه بحسن نية ! وهكذا شاء حفنى أن يعيد الحديث مرة ثانية بهذه النادرة الضاحكة !. أأقول مرة أخرى ماذا كان يصنع أجدادنا فى أول القرن الماضى! لو امتد بهم الأجل إلى عصر الأحفاد ! وفيه تسرق المؤلفات ، وتمنح عليها الدرجات! .على أننى أرى، أن مواصلة الطرق الملح تنديدا بهذه الجرائم، لابد أن يكون لها صداها ، فعلى أصحاب الأقلام ، أن يرصدوا كل انحراف ليتحدثوا عنه بإشباع ، وأن يجدوا من أصحاب الصحف المعين الناصر لا الشفيع المخذل ، فإذا انتشر الودّى الرنان بصوته الصارخ ، أحدث أثره الزاجر ، ودعا من يهم بالخطيئة ، أن يرتكس دونها ، حذرا من الفضائح المجلجلة! وقد أتيح لى أن أرى وأن أقرأ ، وأن أسمع فى مدى نصف قرن أو يزيد ، ما ينتمى إلى هذه الجرائر المندية ، وسأكشف هنا عن بعضها تنبيها لا ترديحا ، ليكون فى ذلك عظة باهرة لمن

ألقى السمع .

مما رأيت

كنت من مشتركي مجلة الأزهر، وأنا طالب بالقسم الابتدائي، إذ كان اشتراكها السنوي للطلاب عشرة قروش فقط وكانت مقالات الأستاذ الكبير العلامة محمد فريد وجدي رئيس التحرير، تأخذ بلبي، فكنت ألخص عناصرها في هوامش الصفحات بالقلم الرصاص لأظل على ذكر منها، وقد كتب الأستاذ سلسلة من المقالات جاوزت الثلاثين تحت عنوان (السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة) كنت أحصلها عن وعي. كأني سأمتحن فيها آخر العام كان ذلك في سنوات ١٩٣٩، ١٩٤٠، ١٩٤١ من الميلاد، ثم مضت الأيام قرابة خمسين عاما أو أكثر، وشاءت الأقدار أن أحضر بكلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٢ م مناقشة لإحدى الرسائل، تقدم بها طالب سوري، وجلست في الصف الأول، وكان عن يميني رجل معمم من أبناء القطر الشقيق، وفي يده كتاب يحمل اسم «السيرة المحمدية»، وأنا مغرم بكل ما يتعلق بسيرة رسول الله، فاستأذنت منه أن أطلع على عنوانه وفهرسه، فقدمه مباهيا، وقال إنه المؤلف، ومن الصفحة الأولى فغرت فمي دهشا ، لأن الكتاب كتاب الأستاذ محمد فريد وجدي جمعه بعد نصف قرن، ظانا أن الناس لم يعودوا يتذكرون ما كان في غابر السنوات ، فندت مني صرخة سمعها من حولي : يا مجرم ، هذا كتاب فريد وجدي ! وسرعان ما قفز المؤلف المزعوم قفزة سريعة ، ومعه الكتاب، وخرجت من خلفه، فلم أدركه، فكأنما انشقت الأرض وابتلعته !.

لم أنم ليلتي، وأنا أحب الأستاذ فريد وجدي لدرجة العشق ، وأخذت أفكر في رد هذا الكيد ! فاهتديت إلى أن أقوم بجمع المقالات الثلاثين، وأن أنشرها باسم صاحبها ، وساعدني أخي الأديب المحقق الأستاذ محمد محمود حمدان ، فتقدم بها إلى الدار اللبنانية المصرية، وهو صاحب شأن فيها ، فأسرع صاحبها الأستاذ محمد رشاد بطبعها في مجلد فاخر، وأتم الله نعمته فرأت مكتبة الأسرة أخيرا أن تعيد طبعها على نحو متسع فياح، فانتشر الكتاب انتشارا لم أكن أتوقعه، ثم دعاني الأستاذ محمد رشاد إلى أن أتابع نشر آثار محمد فريد وجدي المتفرقة في أنهار الصحف والمجلات ، فأصدرت عدة أجزاء ، وقد استرحت كثيرا لما صنعت، لأن الشيخ المزور قد افتضح بذلك افتضاحا شنيعا ، وما عليه إلا أن يجمع ما طبع ثم يحرقه خزيان غضبان !.

هذه واحدة !.

أما الثانية ففي سنة ١٩٤٥ تقريبا، كنت أمر بسور الأزبكية، وهو يومئذ مورد القراء من محبي الإطلاع، فرأيت

مجموعة من مجلة (مكارم الأخلاق) تبلغ خمسين عددا، وقد ربطها البائع فى حبل متين، وكتب عليها ثمنها وهو خمسة عشر قرشا، أى أن ثمن العدد الواحد ثلاثة مليمات، وحاولت أن أساومه كى ينتهى المبلغ إلى عشرة قروش، فرفض مستنكرا، وكان الثمن معى، فحملت المزمة بما ضمنتْ، ورجعت إلى منزلى أقرؤها عدداً عدداً، فوجدت كل عدد يفتتح بتفسير آيات من كتاب الله، بقلم رئيس التحرير الأستاذ محمود محمود وكيل جمعية مكارم الأخلاق والمدرس بالمعلمين العليا، وجاء التفسير سلسا سهلا ينأى عن مشكلات النحو والبلاغة، ويكتفى باللباب الخالص من المعانى، ولم تمض خمسة أعوام، حتى زارنى بالمدرسة التى أعمل بها ولى أمر أحد الطلاب ممن يتزيون بأزياء العلماء، ومعه كتاب يحمل عنوان (تفسير آيات من الكتاب) وعليه اسم مؤلفه (محمود محمود) مجردا من وظيفته، ومنصبه فى الجمعية، فظننت أن رئيس التحرير قد جمع بعض آثاره فى هذا المصنف، ولكن الزائر قال مستطردا بعد حديث عن سلاسة الكتاب، إن مؤلفه واعظ المركز المجاور الأستاذ محمود محمود، وقد حمل نسخا من كتابه إلى القرى المجاورة ليوزعها الأئمة والعمد بثمن محدد! وهنا تملكتنى الدهشة، إذ ليس من المعقول أن ينقلب أستاذ المعلمين العليا فى العشرينيات، واعظا فى الخمسينيات، كما أن مثله لا يسمح لنفسه أن يحمل آثاره لتوزع على القرويين بوساطة الأئمة والعمد، وفى غمرة حيرتى، قلت للزائر، هل رأيت الواعظ المؤلف، فقال نعم إنه من نمط خاص، حيث لا يتقدم للخطبة يوم الجمعة إلا بين جماعة تتقدمه إلى المنبر ومن خلفه جماعة أخرى، وإذا جلس للوعظ فى غير يوم الجمعة، تحلق حوله السامعون فى وضع رسمه لعمال المسجد كى يرشدوا الناس إليه، فإذا انتهى جاء السامعون صفوفا صفوفا يقبلون يده فى انحناء! وقد قال إنه ألف كتابه فى التفسير محتجا على زملائه الذين يخطبون ولا يؤلفون، فضرب لهم المثل بما صنع!! كل ذلك قد دفعنى إلى زيارته بعد أن عرفت مكانه، وتوجهت إليه بعد يومين، فلاحظت من مظاهر الأبهة فى الملبس، وطريقة الاستقبال ما ذكرنى بحديث صاحبى عنه، وابتدرته قائلا: أأنت مؤلف كتاب التفسير، فابتسم ملاطفا، وقال: كم نسخة تود شراءها، إذ للجملة ثمن، وللكتاب المفرد ثمن، فقلت يا أخى أنا أسألك أأنت مؤلف الكتاب، فتقول لى كم نسخة تريد! عجبا! وهنا اختفت الابتسامة سريعا، وتبدلت بتجهم غاضب، ثم قال: أظنك تشك فى شىء؟ قلت إن الكتاب مقالات نشرت بمجلة مكارم الأخلاق للأستاذ محمود محمود! فغشى وجهه مثل سواد الليل، وقال فى انكسار، وأنا حفظت له حقه، فوضعت

اسمه ، وتحاشيت أن أذكر وظيفتي ليظل هو صاحبه، فقلت ولكنك أعلنت للناس أن الكتاب كتابك، وأن الوعاظ يخطبون ولا يؤلفون فضربت لهم المثل! ووزعت النسخ وقبضت الثمن ، فسكت الشيخ متحيرا، وقال : وتعرف كل هذا؟ وران الصمت بيننا، وقد شعرت أن الرجل عند مشاهدتي إياه بدءًا كان كدوحة ممتدة الأغصان ناضرة زاهية، ثم انقلب فجأة إلى قصبة جوفاء ! فرحمته، وأحسست أني أسأت إليه ، ومن طبيعتي أن أنخذل أمام مواقف الهوان ، فينقلب غضبي الثائر رحمة حانية، ولا أستأسد على جزع، فقلت لا ضير، فلن أذيع شيئا ، على ألا تعاود الكرة، إذ إن للرجل ما يملأ عدة أسفار، وهممت بالخروج ، فسبقني إلى الشارع، وظل صامتا ، حتى دنت (المحطة) فسبقني إلى الشباك، واشترى لي تذكرة بعد أن عرف وجهتي، وثمنها ثلاثة قروش، وحين ركبت ظل واقفا يرفع يده بالتحية ، وعلمت أنه طلب سريعا الانتقال إلى مكان آخر، وأجيب إلى طلبه ، فهل كنت سببا في ذلك؟ لا أدرى .

مما قرأت

هذا بعض ما شاهدت عن عيان ، أما ما قرأت فأكثر من أن يحصر، لأن مجلة الرسالة ذات المجلدات الأربعين قد حفلت بما لو جمع لألف كتابا! فكيف بغيرها من المجلات المماثلة ! لذلك سأختار منها ما يغنى عن شبيهه المماثل، وإنه لكثير .

يقول الدكتور جمال الدين الشيال متحدثا عن أستاذ بالجامعة - لم أشأ أن أذكر اسمه لأنه انتقل إلى رحمة الله فلا يُزعج فى قبره - نقلا عن العدد (٨٤٩) من مجلة الرسالة الصادرة فى ١٩٤٩/١٠/١٠م «فى صيف سنة ١٩٤٧ زارنى فى منزلى الأستاذ الدكتور (وذكر اسمه) أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب، وطلب منى أن أعيره رسالتى (تاريخ الترجمة فى مصر) ليطلع عليها، فبينت له أنى لا أملك غير نسختى المخطوطة وقدمتها إليه بكل ترحاب، فأبقاها لديه عشرة أيام، ثم أعادها إلىّ وقد كتب بالحرف الواحد «أهنئك على هذا المجهود الصادق، وأرجو أن تتاح لك الفرصة لنشر هذه البحوث القيمة وأشكرك لإعطائى هذا البحث الرصين لقراءته والإفادة منه.

وفى صيف سنة ١٩٤٨ ظهر كتاب جديد فى ٨٤٠ صفحة عنوانه (بناء دولة - محمد على).. وقرأت فإذا بى أجد فصلا فى ٢٠ صفحة كبيرة ، سطا فيه الأستاذ على رسالتى سطوا تاما فلخصها تلخيصا كاملا، حتى منهجى فى البحث قد التزمه عند التلخيص وتتبع أبوابه وفصوله بابا بابا وفصلا فصلا لم يحد عنه قيد أنملة، وترك ذلك إلى الفصل الذى يليه فى رسالتى وموضوعه التحدث عن المحررين والمصححين ، فإذا فرغ منه انتقل إلى الحديث عن القواميس والمعاجم

كما انتقلت أنا ، ثم إلى حركة الطباعة والنشر تحدث عنها كما تحدثت، حتى الملاحق ، ملاحق الرسالة لم يتركها لى فقد أخذها جميعا كما أثبتها فى رسالتى.

ومن هنا نرى أن الدكتور (... ...) قد سطا على الرسالة منهجا وموضوعا، وعند المقارنة يتبين فى وضوح تام أنه لم يسط على المنهج والأفكار فقط، وإنما سطا على العبارات والألفاظ فنحو ٨٠٪ من عباراته هى عباراتى بألفاظها وحروفها ، ومع هذا لم يشر حضرته بحرف واحد لا فى الهوامش ولا فى قوائم المراجع على كثرتها البالغة فى نهاية الكتاب إلىّ أو إلى رسالتى لا بشكر، ولا بما يفيد رجوعه إليها، واعتماده عليها وحدها اعتمادا كليا تاما عند كتابة هذا الفصل» .

هذا بعض ما قاله الدكتور الشيال فى فصل شمل أربعة أعمدة من صفحات الرسالة يضيق المقام عن تلخيصها وما قلته يكفى، ولم يعقب الدكتور الغاصب بشىء فى الأعداد القادمة، وكأن الأمر لا يعنيه، إنما جاء التعقيب فى العدد التالى (٨٥٠) الصادر فى ١٩٤٩/١٠/١٧ من زميل آخر يستعرض من المآسى العلمية ما هو أفدح فيقول بعد مقدمة:

«قد عادت بى الذكريات إلى أيام تلمذتى بالجامعة، فتذكرت ذلك الأستاذ المعمم، وقد جاءنا يرفل فى جبته وقفطانه، ثم طلب منا أبحاثا علمية ليقرأها ويصححها ويعيدها إلينا ، وكنا حريصين أشد الحرص على أن نرضى الأساتذة بهذه البحوث، حتى نفوز بالتقدير ، ولكن الأستاذ حفظه الله بخل علينا بأبحاثنا ولم يشأ أن يردها إلينا ، ولم تلبث أن رأينا هذه الأبحاث قد ضمت بعضها إلى بعض، وقسمت إلى أبواب وفصول، وأصبحت كتابا يحمل اسم الأستاذ، وان كنا نحمد له أنه غير الأسلوب المختلف ليكون فى نسق واحد، أما الآراء فقد بقيت كما هى ، والنصوص كما هى لم يتغير منها شىء.

ولم ننس بحثا كتبه أستاذنا فى مجلة، وقام أحد الطلاب يصيح فى وجهه، إنى أعطيتك هذا البحث منذ شهر، فلم يسع الأستاذ إلا أن يعترف أنه استفاد من البحث الذى قدم له، ولكنه أصر الأمر فى نفسه، وانتقم من الطالب فرسب آخر العام فى الامتحان.

وهذه زميلة تتقدم برسالة ماجستير، وتعطيها لأستاذها المشرف، فمكثت عنده زهاء ستة أشهر، ثم يفاجئنا بأن آراءها فى الرسالة قد اتفقت تماما مع آرائه فقالت الزميلة: وأين نشرت هذه الآراء، فقال باسما فى كتاب سيظهر بعد أسبوع وفيه هذه الآراء، فقالت ساخرة: الحمد لله أنك اطلعت على آرائى ولم أطلع على آرائك!.

وأذكر أن أستاذا أعطى رسالة لطالب يعطف عليه، كان قد كتبها زميل بإشرافه، فنقلها نقلا، وحضر الطالب المسروق منه

جلسة المناقشة، فلم يملك أن صاح مستنكراً، فقاطعه الأستاذ مغتاظا، وقال في حدة: أنت تعمل على فشل الامتحان! ولم يقل الزميلان المناقشان شيئاً، وكأن الأمر لا يعنيهما.

وأذكر أن أستاذا سافر إلى أحد الأقطار، فدعى إلى إلقاء محاضرات بالإذاعة هناك، فأرسل برقية إلى أحد المعيدين بالكلية ليكتب عاجلا سلسلة من المحاضرات ويرسلها إليه تباعا بالبريد الجوي وفعل، وألقى الأستاذ المحاضرات، وقبض مكافآتها المالية، وقد عاد ليضطهد المعيد، وكأنه أسلف له جرما.

هذا إلى أحداث أخرى ذكرها الكاتب، وقد أشرت إلى المصدر فليرجع إليه من يريد الاستقصاء!

أما النادرة الثالثة فلا تتعلق بأساتذة الجامعة، ولكن بسفير دبلوماسي، قرأ ترجمة إنجليزية لكتاب تحت عنوان «رسالة الحج» كتبه بالأردية عالم هندي كبير، فأعطى الرسالة لمن يترجمها إلى العربية، ثم نشرها باسمه باعتباره مؤلفا: وقرأ الأستاذ الهندي، وهو يجيد العربية ما صنع السفير الكبير فهاج وكتب في صحف البلاد العربية ما يدل على استنكاره وتناقلت مجلتا الرسالة والثقافة حديث هذا السطو المنكر، فكررت القول فيه بدءا وتعقيبا، وأذكر أن الاستاذ محمد سعيد العريان، كتب بمجلة الثقافة فصلا بديعاً عن السرقات الأدبية، تحت عنوان «الأدب المنحول» أي المنسوب إلى غير قائله، جاء فيه «العدد ٢٢٢ (١٩٤٢/٣/٣٠) من الثقافة:

«وهذا قاض كان يشغل منصباً دبلوماسيا كبيراً، تهيأت له في بعض غربته فرصة، فحصل على ترجمة إنجليزية لرسالة بالأردية في أسرار الحج، فحملها إلى مصر، وأخرجها كتابا باسمه بعد ما أعانه على أدائها بالعربية أديب كبير من أبنائنا، ولا يزال هذا الكتاب إلى اليوم منشوراً ومنسوبا إلى ناشره وليس له فيه الفكرة ولا الترجمة ولا الأداء، وليس إلا أن حمله من جدّة إلى القاهرة أو حملته معه الباخرة».

والطريف أن الأستاذ الكبير عبدالحميد العبادي أعجب بالكتاب إعجابا شديداً، وعدّه في طليعة الكتب المهمة التي تتحدث عن أسرار الحج ونشر ذلك بمقال ضاف بمجلة الرسالة، ولم يكن يدري أن الكتاب هندي بقلم عالم إسلامي جهبذ، فيكيل له وحده الثناء! ومن يدريه، والأصل في المؤلف - وبخاصة إذا كان منصب مرموق - أن يكون أمينا مأموناً!

مما سمعت

وما سمعته كثير كثير، واقتصر على هذه النادرة.

كنت في أوائل الستينيات أقضي شهري الصيف بالإسكندرية، ولي بها صديقان أثيران، هما الأستاذ صديق شيبوب والأستاذ نقولا يوسف، وكلاهما

من ذوى الكفاية المشهودة فى الأدب والنقد والتاريخ، رحمهما الله.

وذات يوم زرت الأستاذ شيبوب فى مكتبه بإدارة جريدة البصير، فوجدت الأستاذ نقولا معه، وأمامهما كتابان، يضمان مجموعة من القصص، وقد أهدى المؤلف لهما هذين الكتابين، ولكن انقباضهما النفسى كان ملحوظا لا يخفى على مثلى فتساءلت، فقال الأستاذ شيبوب قد يكون السكوت أفضل، ولكن نقولا قال، وماذا لو علم رجب بما نأسف له، ثم توجه بالحديث إلىّ قائلا:

كنا منذ عامين ثلاثة من المحكمين فى مسابقة قصصية أقامها نادى الثقافة بالإسكندرية، أنا والأستاذ شيبوب وصاحب هذه المجموعة القصصية التى ترى منها نسختين أمامنا، وقد قرأنا أكثر من ثلاثين قصة واخترنا ثلاثا للجوائز المقررة، ووكلنا إلى الزميل تقديم الأصول إلى النادى، ولكنه لم يفعل، وقد تسلمت بالأمس مجموعته التى لم يخجل من إهدائها إلينا معا! فماذا رأينا؟ رأينا عشرا من القصص المرفوضة قد بدلت عناوينها وبعض العبارات التى لا تقدم ولا تؤخر، ثم جمعت فى هذا السفر البائس، وليس لصاحبها منها غير اسمه فقط! وهى كل ما فى الكتاب!.

قلت، ولماذا لا تواجهانه؟ فصاح نقولا: نحن لم نسلم من شره، دون أن نجاهره بسوء! فما ظنك لو جابهناه بما اقترف!

إنه بطل الشكاوى الكيدية للمباحث وصاحب الدعايات المسمومة، ولخطره البالغ تقبله المجتمع الأدبى بيننا فى مرارة إنه يعيش بين الناس كما يعيش الثعبان فى برج الحمام، يعيش ليلدغ، قال عنى: إنى بهائى، وأنا لا أعرف شيئاً عن البهائية، وقال عن صديق شيبوب إنه ينشر إعلانات المرابين فى البصير بأجر مضاعف يأخذ نصفه، وصديق ليس له غير الصفحة الأدبية التى تصدر يوم السبت، فما له وللإعلان.. أهو صاحب الجريدة؟!.

فتوجهت إلى صديق سائلا، وهل توافق أنت على الصمت أيضاً؟ قال أرجو أن ينكشف الأمر على غير أيدينا، فقد يقرأ المتسابقون المجموعة ثم يصرخون!.

وبعد، فهذه أمثلة مما رأيت وقرأت وسمعت، وكلها حق واقع، وحين أقرأ نظرائها اليوم فى الصحف يغلى الدم فى عروقى، ولا أهدأ إلا بعد أمد قد يطول، وقد حاولت أن أتجاهلها، ولكنها كانت أقوى من كل محاولة للتجاهل، فرأيت أن أخفف لواعجها المحتدمة، حين أنقلها إلى القراء مكرها غير مختار، لأن الإناء قد امتلأ، ولابد أن يفيض.

سقونى، وقالوا لا تغن، ولو سقوا
جبال حنين ما سقونى لغنت!

التعددية فى الفكر

بقلم: د. محمد عمارة

إن جماع هذا الوجود - فى النظرة الإسلامية، والتصور الثقافى الإسلامى- هو الحق.. والخلق الخالق ، سبحانه وتعالى، والكون وعوالم المخلوقات، الموجد والموجودات، المحدث والمحدثات.. هذا هو جماع الوجود فى نموذج التصور الثقافى الإسلامى..

وإذا كان هذا التصور قد بلغ قمة التنزيه والتجريد فى وحدانية الحق.. فإنه قد آمن بأن التعددية هى السنة والقانون فى سائر عوالم الخلق، التى فطرها خالقها على الثنائية والازدواج والاشتراك والارتفاق، فطرة وسنة لا تبديل لها ولا تحويل.. فالإيمان بالتعددية فى ظواهر وعناصر الكون المادى، وفى مكونات الاجتماع الإنسانى قسمة أصيلة وسمة بارزة فى النموذج الثقافى الإسلامى، والوعى بهذه الحقيقة إنما يمثل حجر زاوية - أو هكذا يجب أن يكون - فى ثقافة إنساننا العربى والإسلامى .

فتعددية الازدواج سنة إلهية حكمت خلق الله لجميع المخلوقات (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)

وتعددية الذكر والأنثى سنة إلهية قد حكمت خلق الله للأنفس والبشر «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» .

وفى بقية هذه الآية القرآنية التى تحدثت عن سنة التعددية فى خلق الإنسان من ذكر وأنثى، اشارة إلى سنة أخرى هى تعددية الإنسانية والبشرية إلى شعوب وقبائل، أى تعددية فى الأمم والجماعات.. «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» .

وكما اقتضت السنة الإلهية تعدد البشر إلى شعوب وقبائل وأمم وجماعات، كذلك اقتضت تعدديتها فى القوميات - التى تحددها تعددية الألسن واللغات - وفى الأجناس - التى تشير إليها الألوان .. سنة حاكمة وقانونا عاملا وآية من آيات الله فى الخلق «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين» .

وإذا كانت سفينة نوح ، عليه السلام، قد مثلت «الحياة» الناجية من الطوفان، فلقد حكمت التعددية والازدواج عناصر ومكونات هذه الحياة «حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن» .. «فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك» .

وكما قام الخلق على التعددية ، كذلك حكمت سنتها وساد قانونها فى «عالم الأفكار» .. فالاختلاف فى الشرائع والمناهج، والتعددية فى المذاهب والتيارات الفكرية ، هى الأخرى سنة إلهية، لا تبديل لها ولا تحويل، فى «عالم الأفكار» - «كعالم الخلق» سواء بسواء «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك. ولذلك خلقهم» «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» .

فالتعددية بين الأمم فى الشرائع والمناهج سنة إلهية، تثمر الابتلاء الحافز على الاستباق على طريق الخيرات.. بل إن هذه التعددية ، وهذا الاختلاف قد بلغ، برأى العلماء من مفسرى هذه الآيات القرآنية، الى درجة اعتباره «حكمة الخلق».. فقالوا : «وللاختلاف خلقهم» الله، سبحانه وتعالى!..

وإذا كانت التعددية هى منطلق التدافع الفكرى والاجتماعى والحضارى، فإن هذا التدافع - الذى لا وجود له بدونها - هو سبب الصلاح والإصلاح لما يحدث فى الاجتماع الانسانى من فساد وإفساد «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين» «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا» .

وحتى فى إطار الأمة الواحدة - ووحدتها فريضة إلهية «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» .. فإن هذه الوحدة إنما تكون فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، أى ما تتفق فيه الفطر السوية ولايتأتى فيه الاختلاف - من الوحدة فى العقيدة والشريعة والأمة والدار - وفى ثوابت الوضع الإلهى القطعى الثبوت والدلالة - أما فيما عدا هذه الجوامع للوحدة ، فإن التعددية هى السنة التى تحكم تنوع الأمة إلى اجتهادات فى الفروع والمذاهب ومدارس الفكر وتيارات

الاجتماع.. ففي الفكر تنوع في إطار وحدة الأصول.. وفي الاجتماع : طبقات وشرائح اجتماعية في إطار الأمة والجماعة .. وكون الإسلام : دين «الجماعة» ، لايلغي تميز «الفرد» ولا تمايز «الطبقات» ، وإنما تتميز التعددية في التصور الإسلامي - بالجامع الذي يجمع فرقاءها، والأصول التي توحد جماعاتها وتياراتها ومذاهبها وطبقاتها.. فلا هي «الوحدة» التي لا تعدد فيها .. ولا هي «التعددية» التي لا جامع لأجزائها.. وإذا كانت التعددية الفكرية إنما هي تنوع في الاجتهاد، بإطار وحدة التصديق بالبلاغ القرآني والبيان النبوي لهذا البلاغ، فإن معايير الاختلاف في هذا الاجتهاد هي «الصواب» و«الخطأ» و«النفع» و«الضرر» وليس «الايمان» و«الكفر» لأن «الايمان» و«الكفر» هما معايير الاختلاف فيما هو معلوم من الدين بالضرورة - وهو مالا يجوز فيه الاختلاف لأنه الجامع لوحدة الأمة ، التي هي فريضة إلهية، وبدونها لا يكون معنى للتعددية والاختلاف!

وكذلك الحال في «الحياة الاجتماعية» للأمة: تنوع في الأفراد والطبقات بإطار الوحدة القائمة على ارتفاق الأفراد والطبقات - كتنوع أعضاء الجسد في الحجم والدور والاحتياجات والقدرات بإطار وحدة الجسد، التي تجعل سائر الأعضاء تتداعى بالسهر والحمى لأي عضو إذا هو اشتكى؟!

ولعل في «الصورة» التي رسمها الإمام علي بن أبي طالب، لهذه التعددية الاجتماعية - في العهد الذي كتبه لعامله على مصر - الاشتر النخعي (٣٧ هـ ٦٥٧ م) .. لعل فيها التجسيد لعلاقة التنوع بالوحدة، والتعددية بالجامع ، والارتفاق الذي يمثل العلاقة بينهما.. لقد قال الإمام علي وهو يوصي عامله : «واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها : جنود الله.. ومنها : كتّاب العامة والخاصة.. ومنها : قضاة العدل.. ومنها : عمال الانصاف والرفق.. ومنها : أهل الجزية والخراج.. ومنها : التجار وأهل الصناعات.. ومنها : الطبقة السفلى، من ذوي الحاجة والمسكنة.. فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن.. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج لهم من الخراج.. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب.. ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات» .

وهكذا، تبلغ التعددية - التي هي تنوع في إطار الوحدة - في الثقافة الإسلامية، مبلغ السنة الإلهية التي لا تبديل لها ولا تحويل في سائر ميادين وعوالم المخلوقات، المادية.. والحيوانية.. والانسانية .. وفي عوالم الأفكار.. كما بلغت الوحدانية في تصور الذات الإلهية قمة التنزيه والتجريد.

ولاشك أن الوعي بهذه الحقيقة، وبأبعادها وتجلياتها في الثقافة الإسلامية، سيثمر العديد والجليل من الثمرات .

ودوائر الانتماء

وعلى عكس الثقافات التي أقامت التناقضات بين دوائر الانتماء : «الوطنية» و«القومية» و«الحضارية» ، لأنها اعتمدت «الأرض» وحدها مميزا ومحددا للوطنية والوطن، والعرق والجنس مميزا ومحددا للقوم والقومية، على عكس هذه الثقافات، يأتي النموذج الثقافي الإسلامي - انطلاقا من الفطرة - ليسلك هذه الدوائر كدرجات مترابطة ومتكاملة في سلم الانتماء الأكبر،

الذى يضم دوائر فرعية ليس بينها وبين جامع الانتماء الأكبر تناقض أو تضاد .

فالفطرة الإنسانية السوية، التى فطر الله الناس عليها، قاضية بوجود ولاءات وانتماءات متعددة للإنسان، لا تناقض بينها إذا خلت مضامينها ومفاهيمها مما يؤدى إلى تناقض أو تضاد.. فللإنسان ولاء وانتماء إلى أهله وعشيرته لا يتناقض مع ولائه وانتمائه الى الوطن والإقليم الذى ولد وتربى ونشأ فيه، كما أنه لا تناقض بين الانتماء للأهل والوطن وبين الانتماء والولاء للقوم الذين تحدد اللغة دائرتهم.. وكذلك الحال مع الانتماء إلى الدائرة الحضارية التى قد تجمع العديد من الأوطان والعديد من اللغات والقوميات.. فإذا خلت مفاهيم مصطلحات «الوطن» و«القومية» من عصبيات العرق والجنس، وإذا اتخذت مكان الإنتماءات الفرعية فى إطار الانتماء الجامع ـ الإنتماء الحضارى ـ الذى يحدد الإسلام دائرته ، فى حال أمتنا العربية والاسلامية ـ فإن التناقض والتضاد سينتفيان فى النموذج الثقافى الإسلامى، بين دوائر الانتماء والولاء .

إن الاسلام ـ وهو الصبغة التى صبغت ثقافة الأمة ـ يجعل الانتماء إليه والولاء له الجامع الأكبر والأشمل والأول للإنسان المسلم (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا، كان ذلك فى الكتاب مسطورا» .

فالنبى، صلى الله عليه وسلم ـ أى الرسالة والإسلام ـ أولى بالمؤمنين من أى ولاء فرعى آخر.. وفى ذات الآية بيان لولاء فرعى بين أولى الأرحام ، طالما لم يحل الولاء لأولى الأرحام بين الإنسان وبين الانتماء والولاء للجامع الأول والأكبر وهو الإسلام ودائرته الحضارية.

ولذلك ، تجاورت وتقاطعت وتساندت فى التاريخ الحضارى الإسلامى :

وحدة دار الإسلام، ومعها ـ وفى إطارها ـ تمايزت الأوطان والأقاليم .. دونما تناقض أو تضاد.. ووحدة الحضارة ـ التى حددت العقيدة والشريعة والأمة دائرتها ـ وفى إطارها تنوعت القوميات، التى رسمت اللغات حدودها .

ووحدة الأمة الإسلامية، ومعها ـ وفى إطارها ـ تمايزت الشعوب والقبائل ..

كل ذلك ، دونما تعارض أو تناقض أو تضاد بين الانتماء الإسلامى الأكبر والأول وبين ما ضم واحتضن من دوائر فرعية للولاء والانتماء .

فالرسول ، صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى جسد بالرسالة معالم الانتماء للإسلام والولاء له ، حتى كانت طاعته طاعة لله، ومحبته محبة لله ـ هو الذى عبر عن حبه وولائه لمكة ـ وطن النشأة .. ووعاء الذكريات ـ حتى وهى على الشرك الذى بلغ فى عدائه له حد إخراجه منها ـ فقال، صلى الله عليه وسلم مناجيا اياها فى لحظات الهجرة منها : «والله إنى أعلم انك أحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إلى نفسى، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت!» .. ولقد كان يدعو ربه ، فى المدينة أن يحبب إليه المدينة حبه لوطن المولد والنشأة ووعاء الذكريات ! ..

وهكذا تجاورت وتزاملت وتساندت وتفاعلت ، في النموذج الثقافي الإسلامي، دوائر الانتماء للأهل والوطن، والقوم ، ولجامعة الإسلام.. فتجاورت الوطنية مع الجامعة الإسلامية، عندما برىء الانتماء الإسلامي من «عصبية الجاهلية» ومن «جنسيات» القوميات العنصرية التي سادت في حضارات أخرى ، ووجدنا الامام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) يفتي ، بأن وطن المسلم في البلاد الاسلامية هو المحل الذي ينوى الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه، ويقر فيه مع أهله - ان كان له أهل - ولا ينظر إلى مولده، ولا إلى البلد الذي نشأ فيه، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما يتعارفون عليه من الأحكام والمعاملات، وإنما بلده ووطنه الذي يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذي انتقل إليه واستقر فيه، فهو رعية الحاكم الذي يقيم تحت ولايته، دون سواه من سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم ما لهم وعليه ما عليهم، لا يميزه عنهم شيء، لا خاص ولا عام.

أما الجنسية - المعبر عنها عند غير المسلمين «بالكبيتولاسيون Capitula-tions» - فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجرى عليهم، لا في خاصتهم ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوربية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها عن سواهم

جاء الاسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها ، وسوى بين الناس في الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر في الحقوق ولا في الأحكام. فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «إن الله أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية» (أي عظمتها) - وفخرها بالآباء، وإنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب » وروى كذلك عنه «ليس منا من دعا إلى عصبية» .

وبالجملة، فالاختلاف في الأصناف البشرية، كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي، مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه. ومن كان مصريا وسكن في بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصري بوجه من الوجوه .

وأما حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكابيتولاسيون» ، فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الاسلامية قاطبة، هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها ، لا جنسية في الإسلام، ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره .

وبهذا جمع الإسلام، في نموذجه الثقافي، بين وحدة دار الإسلام وبين تمايز الأوطان فيها، وتجاورت فيه الوطنية اللاعنصرية والأممية الحضارية - لا الأممية الطبقية التي ناصبت الوطنية والقومية العداء؟!

وبهذا يقدم الإسلام نموذجا ثقافيا متميزا في دوائر الانتماء، انطلاقا من الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها.


الشعب
حزب العمل
العربي
الأحرار
AL-WAFD
الوفد
الأهالي
عام ١٩٨٤ برئاسة تحرير مصطفى شردي

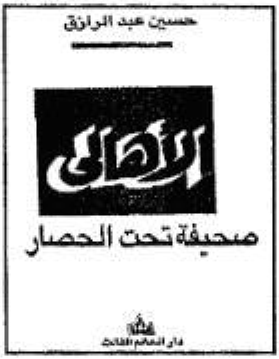
الحزبية فى مصر

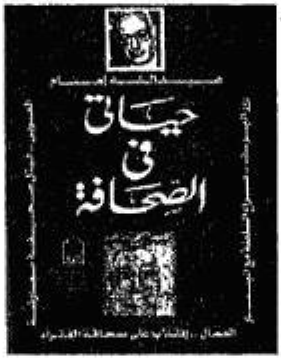
ملامح التطور
وسمات الدور و رهانات المستقبل

بقلـــم: د/ محمـــود خليـــل★

تواجه الصحافة الحزبية العديد من المشكلات التى تعـرقل قـدرتهـا على أداء دورها على المستويين السياسى والمهنى من ناحية، كما تضع حدودا على شروط نموها وتضاعف دورها فى المستقبل من ناحية أخرى فى ظل التحولات الإعلاميـة والمهنيـة، التى تجتـاح السـاحـة الصحفية فى مصر فى الوقت الحاضر نتيجة تغلغل رأس المال فى العـمل الإعـلامى على مستويات عديدة، وانخراطه على مستوى التملك والإنتـاج تراجع الأدوار التثقيفية والتعليمية والتعبوية للرسالة الإعلامية ككل وبروز الأدوار الخدمية والترفيهية بصورة كبيرة .

★ أستاذ الصحافة المساعد – كلية الإعلام – جامعة القاهرة





وتتمثل أبرز هذه المشكلات في:

١- الضغوط الخارجية:

وتتمثل في الضغوط الناتجة عن منظومة الظروف السياسية والقانونية التي تعمل في إطارها الصحف الحزبية، وتتبلور الظروف السياسية بشكل أساسي في موقف النظام السياسي ممثلا في شخصية رئيس الجمهورية من فكرة التعددية ولاحق في الاختلاف، وإذا طورنا المسألة أكثر أمكننا إضافة الموقف من فكرة تداول السلطة. أما الظروف القانونية فتتمثل في التشريعات المنظمة لإنشاء الأحزاب وإصدار صحف ناطقة باسمها والقيود القانونية المختلفة التي توضع من أجل تحديد نوع حركتها ومستوى ممارستها للنشاط السياسي.

وقد عانت الصحف الحزبية من نشأتها من مشكلات عديدة أبرزها مجموعة القيود التي يضعها القانون على إنشاء الأحزاب وبعض الشروط المتعسفة التي يضعها في هذا الصدد، بالإضافة إلى عدم نص قوانين الصحافة في مصر سواء قانون سلطة الصحافة ١٩٨٠ أو قانون تنظيم الصحافة ١٩٩٦ على حق الأفراد في إصدار صحف إلا بعد تكتلهم في شركات خاصة بشروط شديدة التعسف مما يمنع نشأة صحف «متحزبة» بمعنى صحف غير مملوكة لأحزاب ومع ذلك تتبنى وجهة ورؤية حزب معين وتدافع عنها.

ومن الناحية السياسية فإن درجة انطلاق الصحيفة الحزبية في القيام بدورها يتحدد بموقف القيادة السياسية. فهي يمكن أن تسمح أو لا تسمح بذلك، وقد صودرت صحيفة الأهالي منذ صدورها وطيلة فترة حكم الرئيس السادات عدة مرات، وصودرت في عصر الرئيس مبارك مرة واحدة. كما انتهى أمر جريدة الشعب إلى الإيقاف بعد الدور الذي لعبته في أزمة رواية «وليمة لأعشاب البحر» وبالتالي فإن الضغوط التي تمارس من خارج الصحيفة الحزبية سواء كانت سياسية أو قانونية يمكن أن تؤثر على حجم الدور الذي تلعبه، وقد يشتد الأمر أحيانا ليصل إلى حد عرقلة قدرتها على الاستمرار.

٢- الصراعات الداخلية :

من خلال الشهادات التي يقدمها العديد من رؤساء تحرير الصحف الحزبية حول تجارب عملهم في هذه الصحف ، مثل شهادة عبد الله إمام حول تجربته في صحيفة العربي وصلاح قبضايا حول تجربته في الأحرار وحسين عبد الرازق في الأهالي، يتضح أن الصراعات التي تقع داخل الأحزاب تؤثر تأثيرا بالغا على قدرة الصحيفة الحزبية على أداء دورها. فقد نشأت الأحزاب في مصر - كما يقول حسين عبد الرازق - في شكل جبهات تجمع أحيانا قوى سياسية متنافرة أو متصارعة ، ويضاف إلى ذلك التباين في تركيبة الأجيال التي تعمل في الأحزاب الآن والاختلاف في حجم ونوع تجاربها السياسية وعدم ديمقراطية الفعل السياسي داخل الأحزاب في بعض الأحيان، وبروز الصحيفة كأداة أساسية للعمل السياسي الحزبي . كل هذه الأمور تلعب دورا في عرقلة أداء الصحيفة الحزبية. وتتجلى هذه العرقلة في عدد من الأمور أبرزها (من تجربة صحيفة العربي):

- التضارب عند تحديد الخطوط العامة والأساسية للسياسة التحريرية للصحيفة.

- التغيرات المستمرة في شخصية القيادات العاملة داخل الصحيفة.

- إقحام أفراد لا صلة لهم بالعمل الصحفي على جهاز الصحيفة لمجرد الانتماء إلى الحزب.

- سيادة أسلوب المؤامرات وضرب قيم الزمالة والرغبة في تجويد العمل.

٣- المشكلات المهنية :

وتتمثل أولى هذه المشكلات في ضعف التمويل والذي يعرقل قدرة بعض الصحف الحزبية على الصدور بشكل منظم ويعرقل الآخر عن التحول من الإصدار الأسبوعي إلى الإصدار اليومي، وهو أمر منطقي لابد أن تسعى إليه الأحزاب في ظل عدم قدرتها على التعبير الإعلامي من خلال جهازي الإذاعة والتليفزيون، كما سبق وذكرنا، وينتج ضعف التمويل عن انخفاض الضخ الإعلاني وضعف التوزيع.

وتتمثل ثاني هذه المشكلات في ضعف الأجهزة التنفيذية القائمة على إصدار هذه الصحف مثل جهازي التوزيع والإعلان ومن فوقهما الجهاز الإداري، ونجاح الصحيفة الحزبية لا يعتمد فقط على وجود جهاز تحريري متمكن وكفء بل يعتمد - بالإضافة إلى ذلك - على جهاز إداري ناجح.

وإذا جئنا إلى الأجهزة التحريرية بالصحف الحزبية فسنجد أنها تعاني العديد من المشكلات أبرزها:

عدم الاعتماد على كوادر تحريرية محترفة والاعتماد على كوادر من شباب المحررين محدودي الخبرة، وعدم وجود شبكة من المندوبين الإخباريين وكذلك المراسلين الصحفيين مما يعرقل الأداء الإخباري ويجعل هذه الصحف تعتمد بصورة أكبر على المواد التفسيرية ومواد الرأي وغيرها من مواد صحفية صالحة للمجلة أكثر من صلاحيتها للجريدة.

بعد الثورة :

بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وتحديدا فى عام ١٩٥٤ انتهى الوجود الرسمى للتجربة الحزبية التى تبلورت بعد ثورة ١٩١٩ وما يعبر عنها من صحف، وسادت الحياة الصحفية فى مصر مجموعة من الصحف المملوكة لعائلات، بالإضافة إلى الصحف التى أصدرتها الثورة من خلال مؤسسة دار التحرير والتى قامت بإنشائها.

وقد سارعت الصحف المملوكة لعائلات فى مصر إلى تأييد الثورة منذ قيامها وقامت بدور الناقل والمفسر والمبرر لتوجهاتها ولم تحاول الخروج عن الخطوط العامة والأسس التى يستند إليها التنظيم السياسى الأوحد.

وفى عام ١٩٦٠ - وقبل صدور قوانين التأميم بنحو عام - صدر القانون رقم ١٥٦ المسمى بقانون تنظيم الصحافة والذى نص على أيلولة الصحف المملوكة لعائلات إلى التنظيم السياسى الأوحد (الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى) وتمثلت فى الصحف الصادرة عن دار الأهرام ودار أخبار اليوم ودار روز اليوسف ودار الهلال، وأضيف إليها الصحف الصادرة عن دار التحرير التى أنشأتها الثورة ثم دار المعارف عام ١٩٦٣ ثم دار التعاون ١٩٦٩.

وإذا كانت الصحافة العائلية قد تميزت خلال الفترة من ١٩٥٤ - ١٩٦٠ بنوع من التعددية المهنية - نتيجة لتنوع المدارس الصحفية التى تنتمى إليها، والتى تعكس فكرا صحفيا مختلفا لكل صاحب مدرسة فى التعبير، فقد بدأ هذا الأمر فى التراجع بعد توحد مالك هذه الصحف جميعها فى الاتحاد القومى.

وقد ظل هذا الوضع قائما حتى وفاة الرئيس عبد الناصر وفترة تولى حكم الرئيس السادات حتى عام ١٩٧٦. وكان السادات قد بدأ منذ تحقق نصر أكتوبر عام ١٩٧٣ فى إعادة صياغة أسس نظام حكمه بشكل مخالف إلى حد كبير للأسس التى كان يستند إليها الحكم خلال العهد الناصرى، وصدرت ورقة أكتوبر وقوانين الاستثمار وانتعش الاتجاه نحو تفعيل دور القطاع الخاص وسياسات الانفتاح الاقتصادى ، وفيما يبدو أن الرئيس السادات فى ظل شغفه بالصياغات الجديدة أحس أن التحولات التى تقع فى الإطار الاقتصادى فى اتجاه التعددية لابد أن يصحبها تعددية موازية على المستوى السياسى، وبالتالى ضرب فكرة التنظيم السياسى الواحد.

وفى سياق ذلك دعا الرئيس السادات إلى إنشاء منابر سياسية داخل الاتحاد الاشتراكى، وحددها لتمثيل اليمين والوسط واليسار، وأعلن فى افتتاح دورة مجلس الشعب فى نوفمبر ١٩٧٦ قرار تحويل المنابر إلى أحزاب ثم صدر قانون الأحزاب رقم ٤٠ لسنة ١٩٧٧، لينص فى المادة رقم ١٥ على حق كل حزب فى إصدار صحيفة أو أكثر للتعبير عن آرائه دون التقيد بالحصول على ترخيص. وفى هذا الإطار ظهرت الصحف الحزبية ممثلة فى جريدة الأحرار فى ١٤ نوفمبر ١٩٧٧ عن حزب الأحرار الاشتراكيين وتلتها باقى الصحف

مثل جريدة الأهالي في ١ فبراير ١٩٧٨ عن حزب التجمع، وتلتها صحيفة الشعب عن حزب العمل في ١ مايو ١٩٧٩.

ومن الجدير بالتسجيل أن الأحزاب التي نشأت خلال هذه الفترة وما صدر عنها من صحف خرجت بقرار من السلطة وبالتالي فقد خضعت لشروطها. وقد لجأت السلطة إلى تحديد معايير وحدود لعبة المعارضة من جانب الأحزاب التي أوجدتها وتوقعت منها الالتزام بها كأحزاب صورية، ولكن الذي حدث أن الأحزاب التي نشأت حاولت التحرك انطلاقا من كونها أحزابا معارضة لها أيديولوجيتها الخاصة ولها حقها في الطموح إلى السلطة، وبالتالي فقد خرجت عن الدور المرسوم لها من جانب السلطة السياسية. وترتب على ذلك وقوع صدام بين الطرفين تجلت أبرز مظاهره في مصادرة أعداد من صحيفة الأهالي، وأخذ الأمر في الالتهاب بشكل متزايد إلى أن انتهى بمصادرة السادات لتجربة التعددية ككل في أيامه الأخيرة ووقف كافة الصحف الحزبية عن الصدور فيما عدا جريدة الأحرار، التي التزمت بشروط اللعبة كما حددتها السلطة السياسية فضمن لها ذلك البقاء على الساحة.

وقد حاول الرئيس مبارك بعد توليه الحكم إحداث نوع من التصالح بين السلطة السياسية والمعارضة، وفي لقاء له مع الأمين العام لحزب التجمع أثيرت مسألة عودة الصحف الحزبية التي أوقفها الرئيس السادات إلى الظهور، وأعلن الرئيس مبارك موافقته على عودتها إلى الظهور بعد ٢٥ أبريل ١٩٨٢، وهو الموعد المحدد لانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء وحلول القوات متعددة الجنسيات محلها في بعض المواقع. ووافق الرئيس أيضا على تمتع الصحفيين الذين يعملون في صحف المعارضة بنفس المميزات التي يتمتع بها الصحفيون العاملون في صحيفة مايو الناطقة بلسان الحزب الوطني الحاكم.

ومنذ ذلك التاريخ شهدت الصحافة الحزبية في مصر نموا متزايدا على المستوى الكمي. فرغم انتهاء الثمانينات بوجود ثلاث صحف حزبية فقط فقد شهدت الفترة التي تقع ما بين عام ١٩٨٢ وعام ١٩٩٥ ظهور (٢٧) صحيفة صدرت عن أحزاب جديدة نشأت خلالها، أو أحزاب استمرت في الوجود منذ نشأة النظام الحزبي في مصر ما بعد الثورة (١٩٧٧). وقد شكلت الصحف الحزبية الصادرة خلال هذه الفترة نسبة ١١٪ من إجمالي عدد الصحف التي صدرت في مصر، وشملت صحفا تنتمي إلى عدة أحزاب مثل حزب الأحرار والتجمع والوفد الجديد والوطني والأمة والاتحادي الديمقراطي والعمل ومصر العربي الاشتراكي والعدالة الاجتماعية والعربي الناصري والتكافل. كما شهدت هذه الفترة أيضا تحول عدد من صحف الأحزاب من الإصدار الأسبوعي إلى الإصدار اليومي مثل صحف الوفد والأحرار والعربي.

يمكن تسجيل ثلاث سمات أولية تجمع بين الصحف الحزبية في مصر:

١- **تفاوت الإمكانيات**: فالصحف الحزبية تتفاوت فيما بينها من حيث حجم

الإمكانيات المتوافرة لها، فهي تبدأ من أقصى اليمين عند صحيفة الوفد التي صدرت كجريدة يومية بعد فترة قصيرة من صدورها الأسبوعي واستطاعت أن تكون لنفسها مساحة خاصة في السوق الصحفية بمصر، وتنتهي عند أقصى اليسار عند صحيفة الأمة التي تصدر كلما توافر لدى حزب الأمة مبلغ يسمح بإصدار عدد.

٢- التنوع علي مستوي الخطاب المقدم:

فإذا كان التنوع ظاهرة ذات صفة مهنية بالنسبة للصحافة القومية، فإن التنوع في الصحف الحزبية يتبلور بشكل أساسي على مستوى الخطاب الصحفي المقدم والذي يعكس غطاء أيديولوجيا يختلف من حزب إلى حزب كما يختلف في درجة قربه أو بعده عن الخطاب الحكومي كما ينعكس في الصحافة القومية.

٣- الانغلاق علي فكرة الجريدة في العمل الصحفي:

وهي مسألة ترتبط بضعف الإمكانيات المادية والبشرية بالمؤسسات الصحفية الحزبية، الأمر الذي يدفعها إلى الاكتفاء بإصدار جريدة أسبوعية أو جريدة يومية في أفضل التقديرات، وإذا زادت إمكانيات الحزب فإنه يسعى في اتجاه إصدار عدد من الصحف الإقليمية الضعيفة، وفي مقابل ذلك لا تتجه الأحزاب المصرية، بما فيها الحزب الوطني، إلى إصدار مجلات عامة أو متخصصة. وهناك استثناءات محدودة على هذه القاعدة مثل بعض الإصدارات المتخصصة التي تخرج عن حزب التجمع.

٤- تفوق دور الصحيفة الحزبية علي دور الحزب ذاته: ففي ظل وضع مجموعة من القيود على الممارسة السياسية والحزبية في مصر، مثل التضييق على الأحزاب في الاجتماعات وإقامة الندوات والمؤتمرات، وكذلك حرمانها من التعبير الإعلامي في الراديو والتليفزيون، في ظل هذه العوامل تفوق دور الصحيفة كأداة مبلورة للحزب السياسي. وتعد هذه الظاهرة قديمة في الحياة الحزبية في مصر، والتي تتمثل في بلورة الحزب حول صحيفة تعبر عنه وتخلق جسور صلة بينه وبين الجمهور، حيث تعود بجذورها إلى التجربة الحزبية الأولى (١٩٠٧ - ١٩١٤) في مصر. ولا خلاف على أن هذا الأمر يعكس ضعف الدور الذي تقوم به الأحزاب في مجال التربية السياسية ودعم المشاركة الجماهيرية في العمل السياسي. فالجمهور يعرف الصحيفة الحزبية أكثر مما يعرف الحزب ذاته، وكثيرا ما يسمى البسطاء من الناس الأحزاب بأسماء الصحف التي تصدر عنها (في حالة اختلاف الاسمين). فالحزب يكتسب وجوده في الشارع السياسي من مجرد صدور صحيفة معبرة عنه، ولكن هذا الأمر لايعني قدرة الصحيفة الحزبية على اتخاذ مواقف مفارقة أو مخالفة لتوجهات الحزب، فالتدخل من جانب رئيس الحزب وارد بصورة كبيرة (ورئيس الحزب غالبا ما يشغل منصب رئيس مجلس إدارة الصحيفة) على أساس النص القانوني على المسئولية المشتركة لرئيس الحزب ورئيس التحرير عما ينشر في صحيفة

الحزب، وعند الاختلاف كثيرا ما يتم ترجيح وجهة نظر رئيس الحزب.

ويمثل المضمون الصحفي الذي تتناوله الصحف الحزبية نوعا من الاستجابة للخطاب السياسي الحكومي . كما يعبر عنه في الخطاب الصحفي، وإن اختلفت تلك الصحف في درجة اقترابها أو ابتعادها عن معطيات هذا الخطاب، وبالتالي فإن الخطاب الذي يحمله المضمون الصحفي الحزبي يمكن أن يفسر في إطار علاقات «التناص» فيما بينه وبين الخطاب الذي يحمله المضمون الصحفي الحكومي. ويتحقق هذا الأمر بصورة واضحة وجلية داخل الصحف الحزبية التي تمتلك رؤية واضحة في العمل الحزبي أو تحديدا واضح المعالم للسياسة التحريرية، مثل صحف الوفد والأهالي والعربي والشعب، حيث يدخل الخطاب في علاقات تشابك أو اشتباك مع الخطاب الحكومي.

كما أنه من الواجب ألا نغفل أيضا الدور الذي يلعبه رئيس تحرير الصحيفة الحزبية في الصياغة التنفيذية لرؤية الحزب لفعاليات الحركة في المجالات المختلفة داخل المجتمع . فرئيس التحرير يبلور الرؤية عمليا بنوع من الاجتهاد الذاتي الأمر الذي قد يدخله في نوع من الصراع مع أمانة الحزب أو مجلس إدارة الصحيفة. وتحدد مساحة الاجتهاد المسموح به في هذه الحالة طبقا للوزن والثقل السياسي والدور الذي يلعبه رئيس التحرير داخل الحزب .

في هذا الإطار نجد أن المضامين والمعالجات التي تقدمها صحيفة الوفد – على سبيل المثال – تتقارب مع مقولات وأطروحات الخطاب الحكومي فيما يتعلق بقضايا السياسة الخارجية ، كما أن اتجاه الدولة نحو الخصخصة وتشجيع الاستثمارات الخاصة في كافة المجالات يخلق نوعا من «التناص» بين ما تقدمه الوفد وما يقدمه الخطاب الحكومي فيما يتعلق بعدد من القضايا الداخلية . وتبدأ خطوط المعالجة في المفارقة بشكل أساسي فيما يتعلق بقضية الأداء الحكومي حيث تتبنى الصحيفة في هذا الصدد رؤية تعتمد على انتقاد هذا الأداء والتشكيك في درجة كفاءة الأجهزة المسئولة عنه، سواء تمثلت في وزارات أو أجهزة حكم محلي أو بنوك أو بصفة عامة ما يتعلق بأداء حكومة الحزب الوطني تحديدا . وفي هذا الإطار نجد أن خطاب الوفد يعلي بشكل مستمر من قيمة «التحقيقات الصحفية» كأحد الأدوات الصحفية التي تعتمد على معالجة وتحليل المشكلات اليومية التي تتسبب فيها أجهزة الدولة.

وبالنظر إلى طبيعة المضامين والمعالجات التي تقدمها صحيفة «الشعب» والتي أصبحت في السنوات الأخيرة معبرة عن تيار إسلامي معين تحالف حزب العمل معه، نجد حالة تناص لا تعتمد على الاتفاق مع الخطاب الحكومي بل تعتمد بشكل أساسي على المفارقة سواء فيما يتعلق بالعديد من القضايا الداخلية أو الخارجية. والمعالجة هنا لا تعتمد في حالة المفارقة كما هو الحال في صحيفة الوفد على انتقاد أداء حكومة الحزب الوطني، بل على رد الحالة المصرية ككل إلى المقولات والأطروحات التي يقدمها النص الديني في

إطار فقه جماعة معينة، وهو يحكم على هذه الحالة - ولا نريد أن نقول يحاكمها - في إطار معطيات هذا النص ويقيس درجة اقترابه أو ابتعاده عنها، ولأن هذا الخطاب يعتمد على إعلاء قيمة عنصر الصراع بدرجة كبيرة، فإنه يدفع باستمرار إلى بناء حملات صحفية من حين إلى آخر (حملة يوسف والي - حملة رواية «وليمة لأعشاب البحر» لحيدر حيدر على سبيل المثال) . كما يعتمد على صياغات لغوية فاعلة على المستوى الانفعالي والوجداني لدى القراء لأنه باستمرار يهدف إلى حشد وتعبئة الجمهور لتفعيل دوره كطرف مشارك في الصراع مع الدولة.

ويختلف الأمر داخل صحيفة «العربي» وبشكل أكثر حدة داخل صحيفة «الأهالي» فالمعالجات والمضامين التي تقدم من خلال هاتين الصحيفتين تعتمد على «التناص» القائم على المفارقة (المادة أحيانا) لمقولات وأطروحات الخطاب السياسي الحكومي على المستويين الداخلي والخارجي. ويستند هذا الخطاب دائما إلى تفنيد ودحض مفردات ومقولات خطاب الحكومة، انطلاقا من الرؤية الخاصة والمتبلورة للحزب والتي تختلف عن معطيات الرؤية التي تقدمها الحكومة سواء فيما يتعلق بإدارة الشئون الداخلية أو الشئون الخارجية. فالمعالجات والمضامين الصحفية التي تقدمها كل من صحيفتي العربي والأهالي على «عقائدية» حزبية معينة تحكم النظر والتقييم والتحليل للأحداث. لذا نجد الخطاب هنا يعتمد على التفنيد المحكوم برؤية مستندا في ذلك إلى آليات الانتقاء الخبري والمقالات التحليلية والنقدية والتقارير الصحفية. ويؤثر فهم رئيس التحرير للمعطيات الأيديولوجية التي يقوم عليها الخطاب الحزبي في تحديد درجة حدة أو شدة الاتجاه النقدي والتفنيدي داخل الخطاب الصحفي (حالة حسين عبد الرازق على سبيل المثال أثناء رئاسته لتحرير صحيفة الأهالي).

مستقبل الصحافة الحزبية

استطاعت الصحافة الحزبية أن تشكل وثيقة عملية لحالة التعددية التي سمحت بها السلطة السياسية على المستوى الصحفي في مقابل حالة الأحادية التي تميز التعبير الإعلامي الإذاعي بشقيه. وربما كان المنطق الذي حكم وجهة نظر الدولة في إعطاء مساحة حركة أعلى للصحافة هو رهانها على أن الصحيفة لم تعد تتمتع بذات الأرضية الجماهيرية التي يتمتع بها الراديو والتليفزيون وبالتالي فتأثيرها مقارنة بهذه الوسائل يعد محدودا . فالضرر الذي يمكن أن يلحق بالنظام السياسي من جراء الانتقادات التي تحملها وجهات النظر المعارضة التي تنشر في الصحف الحزبية أو الصحف المملوكة لشركات مساهمة هو ضرر محدود للغاية ، بل إن درجة النفع هنا تفوق درجة الضرر على أساس أن هامش الحرية الممنوح للصحافة يعد أحد المبررات التي تساق بشكل مستمر على ديمقراطية النظام السياسي.

وفي حالة قبول فرض أن ذلك هو التصور الذي يحكم رؤية الدولة لموقع الصحف الحزبية على خريطة التأثير الإعلامي، فإنه يمكننا القول بخطأ هذا الفرض. فالصحف الحزبية تلعب دورا مهما في توجيه الرأي العام، ومن المتوقع

أن يزداد هذا الدور مستقبلا، خصوصا فى ظل المنافسة التى تأتيها من البرامج الحوارية فى القنوات التليفزيونية الأرضية والفضائية والتى تعتمد على معادلة التعددية. وقد أثبتت الأزمة الأخيرة التى نشبت بسبب رواية «وليمة لأعشاب البحر» الدور الذى مازالت بعض الصحف الحزبية تلعبه فى توجيه وتحريك بعض فئات الجمهور فى حدود شديدة التطرف.

ومن المؤكد أن رهانات المستقبل بالنسبة للصحف الحزبية ترتبط بقدرتها على حل العديد من المشكلات التى تواجهها سواء جاء الحل متمثلا فى تغير منظومة الظروف الخارجية الضاغطة عليها أو فى قدرتها الخاصة على مواجهة مشاكلها الذاتية. وفى هذا الإطار يرتبط مستقبل الصحافة الحزبية بمقابلة العديد من التحديات أبرزها ما يلى:

١- الاعتماد على تكنولوجيا الإنتاج الرخيصة ممثلة فى الحاسبات الآلية وبرامجها مع تفعيل أساليب استخدام هذه التكنولوجيا، وتوظيفها بشكل يفوق استخدام الصحف القومية لها. ولعل أحد المؤشرات المهمة الدالة على ذلك هو اتجاه العديد من الصحف الحزبية منذ فترة مبكرة إلى إنشاء صفحات ويب على شبكة الانترنت قبل إقدام العديد من الصحف القومية على ذلك والمثال الواضح على ذلك يتمثل فى جريدة «الشعب» الناطقة بلسان حزب العمل.

٢- تطوير أجندة موضوعات وأساليب المعالجة الصحفية داخل الصحف الحزبية بما يساعدها على الوقوف فى وجه المنافسة التى تأتيها من روافد عديدة، أبرزها الصحف الخاصة والتى استطاعت تطوير معادلات صحفية جديدة تعتمد على نمط معالجات وأجندة موضوعات تراهن على الغائب فى النصين الصحفى القومى والحزبى، وبالتالى فقد استطاعت أن تجتذب قطاعا من القراء فى السوق الصحفية المصرية على حساب الصحف القومية والحزبية.

٣- الاتجاه نحو درجة أكبر من التعددية فى عرض وجهات النظر المختلفة عند معالجة الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة، وزيادة مساحة الاختلاف مع الخط العام للدولة من خلال تجديد المبادئ الأساسية لبرامج الأحزاب كما تعكسها المواد الصحفية الناطقة باسمها.

٤- إذا كان الاتجاه نحو إنشاء المزيد من الصحف المتخصصة يعد ظاهرة حالية ومستقبلية بالنسبة الصحف القومية، فإن الاتجاه نحو إنشاء المزيد من الصحف المحلية يعد اتجاها سائدا لدى الأحزاب خلال الفترة ٨٢ - ٩٥، وسيتزايد هذا الاتجاه خلال العقدين القادمين، ولاشك أن هذا الاتجاه يؤكد سعى الأحزاب السياسية - المعارضة - فى مصر إلى التأثير فى قطاعات الجماهير بمناطق الجمهورية المختلفة بشكل مكثف ومركز، لتعويض عدم قدرتها على مخاطبة هذه الجماهير من خلال جهازى الإذاعة والتليفزيون، المملوكين للدولة بالإضافة إلى عدم قدرتها على طباعة صحفها بالعدد وكذلك توزيعها بالشكل الذى يغطى كافة أنحاء الجمهورية.

صحافة الفرص الضائعة

محمود المراغى

محمود المراغى





ضياء الدين داوود

هل كانت الصحف الحزبية فى مصر، والتى مضى على تجربتها أكثر من عشرين عاما هى تجربة الفرص الضائعة ؟. كثيرا ما راودنى هذا السؤال بعد أن عشت تجربتين فى رئاسة تحرير «الأهالى» .. صحيفة حزب التجمع، و«العربى» صحيفة الحزب الناصرى.

لقد شغلتنى قضية الصحافة منذ فترة بعيدة وكان الهاجس دائما : أى قدر من الحرية يمكن أن تحققها الصحافة المصرية ؟ .. هل تحققها الصحافة المملوكة ملكية عامة بعد أن تتحرر من سلطة الدولة وتصبح - كما أشار الدستور -سلطة مستقلة ؟ .. هل يحققها كما يقول البعض : خصخصة الصحافة والإعلام ؟ .. هل يحققها حل وسط يجمع بين الحلين .. عام وخاص ؟.

وأقول صراحة إنني لم أكن متحمسا لفكرة التراجع عن الملكية العامة للصحف، وكنت أحس من خلال موقع نقابي شغلته عدة مرات أن عموم الصحفيين لايتحمسون لفكرة الخصخصة في الصحافة القومية .. البعض منهم بسبب مصالح ذاتية فهذه الصحف أكثر أمنا من الناحية الاقتصادية، والبعض منهم إيمانا بفكرة أن الصحافة القومية رغم أي سلبيات فيها سوف تعبر في لحظة ما عن الصالح العام وعن عموم المجتمع وأنها غير خاضعة لسلطة رأس المال.

وكنت من الفريق الأخير، لكني كنت أؤمن بفكرة أخرى وهي تغيير التوازن بين العام والخاص .. فإذا كانت الصحف القومية تضم الصحف الأوسع انتشارا كالأهرام والأخبار فإن نمو القطاع الخاص حزبيا ومستقلا، يمكن أن يحتل مع الزمن نسبة مئوية أعلى في القراءة.

كانت نسبة القراءة في السبعينات تقترب من المائة في المائة لصالح الصحف القومية، وقلت : إذا تغيرت النسبة لتصبح «٧٠٪» لصالح الصحف القومية «بحكم تاريخها وإمكاناتها الواسعة» و«٣٠٪» لصالح الصحف الأخرى فإن درجة أعلى من حرية الصحافة تكون قد تحققت .

الآن ، أجدني محبطا، فالهدف لم يتحقق رغم زيادة عدد الصحف وامتلاء


مكرم محمد أحمد


كامل زهيري

الأرصفة بالغث والثمين.. الحزبي والمستقل .. المصري والقبرصي واللندني، ولنبدأ القصة من أولها .

ميلاد صحيفة

كنت عضوا مؤسسا في حزب التجمع منذ نشأته عام ١٩٧٦، وكنت أحد ممثلي الجناح الناصري، وكانت الصحيفة هدفا غاليا فهي وسيلة الاتصال بالرأي العام.. في وقت اشتد فيه الحصار حول الأحزاب، ومنذ نشأتها تقريبا .

كانت نقطة البحث الأولى هي إسم المولود الجديد، وجاءتنا اقتراحات كثيرة «الانتفاضة ـ المقاومة ـ اليسار ـ الاشتراكي ـ النضال ـ الرأي الآخر » ثم استقر الرأي على اقتراح تقدم به الكاتب الكبير الأستاذ محمد عودة وهو «الأهالي» كان الاسم بسيطا وموحيا ولايحمل نبرة تشنج، وكان اسما قادرا على أن يستمر مع القارىء بصرف النظر عن تغير طبيعة المرحلة فلم يكن متصورا أن يصل حزب التجمع للحكم «على سبيل الافتراض» وصحيفته تبدو

كنغمة معارضة بشكل حاد .. وكان الاسم مستعارا من صحيفة صدرت في العشرينات ثم توقفت.

وكانت نقطة البحث الثانية : اقتصاديات الصحيفة، وقال لنا أحد خبراء إدارة الصحف: «يلزمكم مليون جنيه» ولم يكن لدينا مليون قرش ... ورحت بخبرتي الاقتصادية المتواضعة أعد دراسة صغيرة للايرادات والمصروفات المتوقعة وعدت للأمانة العامة للحزب باقتراح يقول: نستطيع البدء بمبلغ متواضع هو «١٤ ألف جنيه» وهو مايكفي لإصدار جريدة أسبوعية لمدة خمسة أو ستة أعداد .. وحينذاك تبدأ الايرادات في التدفق.

وأخذت الأمانة العامة بما اقترحته وصدرت الصحيفة بهذه الامكانات المتواضعة، والتي اكتشفت ثغرتها فيما بعد فالمبلغ المتاح لم يكن يوفر شراء مطابع .. والمطابع الكبرى التي تنتج حجم الصحيفة حكرا على الصحف القومية، والصحيفة التي تعاقدنا معها حينذاك كانت ترسل الأعداد للمباحث العامة قبل الطبع مما أدى لمصادرة الأهالي قبل الصدور عدة مرات .. وعندما أعيتنا الحيلة طبعنا عددا وثائقيا لايحمل كلمة من جانبنا لكنها مضبطة مجلس الشعب في الجلسة التي ناقشت معاهدة الصلح مع إسرائيل.. و.. على ما أذكر ، تمت مصادرة العدد أيضاء وكانت المحكمة جاهزة في كل الأحوال وعند الفجر .

أعود للبداية كان الحلم : تجربة صحفية سياسية جيدة .. ومن ثم فقد رفعت ومنذ اليوم الأول شعار «المعارضة بالمعلومات» فالصوت العالي وحده لايكفي، وأثره مؤقت في كل الأحوال .. وكنت أقول إن الصوت العالي عند البعض «ديماجوجية» ومن ثم فإن النغمة الصحيحة هي النغمة الهادئة التي تدحض الرأي بالرأي، وتكشف سلبيات الواقع الذي نعارضه .. وكنت أردد أن الصوت العالي يفقد أثره إذا كان إيقاعا مستمرا فهو يتحول حينذاك إلى ضوضاء.. ولكن عندما نستخدم الصوت العالي عندما يكون هناك حدث نريد استثارة الرأي العام بشأنه فإنه يؤتي أثره أي أن الصوت العالي استثناء على قاعدة، وإن كان ذلك لايخل بآرائنا المعارضة لما يجرى وانحيازنا لفكر ثورة يوليو في الاستقلال والعدل الاجتماعي، والفقراء والعروبة ، مضافا له ماصنعته التجربة من أهمية تداول السلطة وإثراء الحياة الديمقراطية .

من هذا المنطلق كنت معنيا بالمعلومات وتدقيقها حتى أنني أذكر أن اعتذارات قد نشرت لخطأ في معلومة تاريخية وردت بالصحيفة .. وكان القصد هو اعطاء مصداقية للصحيفة .

ولكن .. مابين الأهداف والنتائج تكون دائما المسافة التي يجب أن نقطعها .

في هذه المسافة كانت هناك شئون

البيت وشئون الحكم، وهما علاقتان أساسيتان فى الصحيفة الحزبية .. وفى الجانب الأول، شئون البيت، كثيرا ماتوقفنا عند تقنين العلاقة بين الحزب والصحيفة .. وكيف تعبر الصحيفة عن الحزب دون أن تغرق فى دهاليزه ودون أن تكون تابعة تبعية كاملة.

لكن القضية لم تكن لائحية، فالحزب بعد ضربة ١٨ و١٩ يناير واعتقال الكثير من عناصره وانحسار عضويته لم تكن لديه غير الصحيفة أداة اتصال رائجة بالرأى العام .. لذا كان هم كل اعضائه وشاغل اجتماعاتهم صحيفة الأهالى، يناقشونها فى أسوان والاسكندرية والدقهلية وكل حى وكل حارة.

ولم يكن النقاش دائما لوجه الله فالحزب كان منقسما «دون أن نقول» لماركسيين وناصريين وكان للفريق الأول الغلبة فى المواقع القيادية ومن ثم كان يرى أن من حقه السيطرة على قيادة الصحيفة، ولم يكن مرتاحا لوجود شخصية ناصرية على رأس الجريدة رغم علاقاتى الطيبة بمعظم أفراد هذا التيار .

كنت قد تسلمت الصحيفة من صديق عزيز هو الأستاذ حسين عبد الرازق، وكان قد أنجز مهمة صعبة وحقق أرقاما فى التوزيع بلغت أو ربما تخطت المائة وخمسين ألف نسخة، وهى أرقام جيدة بكل مقياس .. وكانت نغمة الصحيفة حينذاك أكثر حدة، فلما حدث



محمد فائق



حامد محمود

التغيير باتت أقل حدة، وإن كنت أظن أنها ليست أقل معارضة .

.. وحدث التكتل ضدى داخل الحزب، وباتت لهجة الصحيفة هى موضوع حديث الأمانة العامة واللجنة المركزية، ولم يكن يقنع القاعة غير الصوت العالى فى كل الأحوال كان لنا موقف ثابت فى قضايا التعذيب، وجاءتنا واقعة تعذيب لكاتب وصحفى مشهور هو د. محمد السيد سعيد، ونصحنى نقيب الصحفيين حينذاك الأستاذ مكرم محمد أحمد بأن أرجىء النشر عددا واحدا لأن النشر سوف يفوت عليه فرصة التدخل لانقاذ الرجل وأخذت بنصيحته من أجل الرجل،

ونجحت مساعيه ولكن بقى الحساب الحزبى عسيرا: لماذا لم تنشر فورا؟ وأحسست حينذاك أن مافى الصدور من غضب قد لاتعبر عنه بالفعل غير صحافة ذات لهجة حادة .

وهكذا كانت تتعدد المواقف ويضيع معظم الوقت فى سجال حزبى امتد لداخل الصحيفة حيث أن معظم المحررين والمراسلين أعضاء حزبيون.

وانتهت التجربة بعد عامين ٨٧ - ٨٩ باستقالتى على أثر تدخل حزبى فج قام به رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير المشارك الذى أقال أحد المحررين بالتليفون فتركت استقالتى على المكتب مع مفتاح الأدراج وحدثت الصحيفة تليفونيا: «لقد انتهت مهمتى».

تجربة رقم ٢

كانت التجربة الثانية فى رئاسة تحرير أو بالأحرى تأسيس جريدة العربى الناطقة بلسان الحزب الناصرى الذى جاء ميلاده بحكم قضائى .

كان مقررا أن يرأس التحرير الكاتب الكبير الأستاذ كامل زهيرى، وكنت أضع خبرتى تحت أمره لمجرد العون وحماسا لتجربة صحفية وناصرية جديدة .. ولكن، بسبب أو لآخر، اعتذر كامل زهيرى عن المهمة ووجدتنى تاركا منصبى فى جريدة «العالم اليوم» وفى «روز اليوسف» لأتفرغ لتأسيس جريدة .

كنت أتصور حينذاك أن التجربة أكثر يسرا فبينها وبين الأهالى نقطتا تميز، الأولى أنها تعبير عن تيار واحد متجانس هو التيار الناصرى .. والثانية أنها تبدأ من الصفر، ومن ثم فإن تشكيلها وفق مانريد أمر سهل.

ولم يكن ظنى صائبا فى الحالتين، وكانت المهمة صعبة تبدأ بالبحث عن تمويل، البحث عن مقر، البحث عن هيئة تحرير .. والأهم هو البحث عن قارىء فهذه صحيفة أصر أصحابها أن يطلقوا عليها اسما مكررا هو «العربى» تميزا لهويتها وانتمائها ، وكان الحماس حينئذ شديدا فاستطاعت التبرعات أن توفر مقرا «فيلا مستقلة فى حى السيدة زينب» واستطاعت أن توفر تجهيزا آليا «وحدة كمبيوتر» وحين وصلنا لهيئة التحرير فتحنا الباب على مصراعيه لكل من يريد بصرف النظر عن هويته الحزبية، ثم أحكمنا الدخول باختيار عناصر بلغت نحو الأربعين محررا وبأجور مميزة فقد كنت أقول: نريد أن نعامل الصحفيين معاملة كريمة تغنيهم عن سؤال الصحف العربية ومكاتبها فى القاهرة فلندفع أجرا أفضل «وفقا للخبرة وسنة التخرج» ونأخذ كل الجهد .. وكانت هذه سابقة بالنسبة لصحف المعارضة التى دائما مادفعت القليل .

جرى إصدار العدد الأول «٥ يوليو ٩٢» على استعجال فقد كان الحزب مصرا على أن تصدر الصحيفة فى

يوليو، وقمت بتقديم العدد الأول على النحو التالى «المانشيت : الحزب الناصرى يعترض على مبايعة مبارك» وفى التفاصيل والتى جرى ذكرها بشكل تقرير «الناصرى : ندعو إلى انتخاب رئيس الجمهورية بين أكثر من مرشح» وهكذا كانت المعارضة واضحة وتنصب على المبدأ وليست على الشخص .

فى العدد نفسه قمت بكتابة مايمكن تسميته «دستور الصحيفة» مقال افتتاحى تحت عنوان «لهذا نعارض» .

وكان من كلماته :

«لانخترع جديدا حين نقول : نعم .. نحن نعارض مايجرى فالغالبية العظمى على أرض مصر تضيق بما يحدث وتستنكر مايتم وضعه من سياسات، لكن تلك الأغلبية تلوذ بالصمت بعد أن بات تداول السلطة نكتة وإبداء الرأى لعبة تلهو بها الأحزاب والصحف .. نعارض وأمامنا تقرير من البنك الدولى يقول إن ربع سكان مصر يعيشون تحت خط الفقر وأن ٧ ملايين فرد لايزيد دخل كل منهم على مايساوى دولارا فى اليوم» .. واستطردت الافتتاحية تذكر مبررات المعارضة لسياسات أدت للتضخم «حينذاك» والبطالة وسوء توزيع الدخل والخدمات .. وانتهت بقولها «هذه صحيفة للمستقبل وليست للماضى .. جريدة للعصر وليست لكل عصر .. نأخذ من الماضى قيمه الوطنية


حسين عبدالرازق


عبدالله السناوى

والإنسانية العالية : العدل والحرية والكرامة والوطنية والقومية .. ونمد للمستقبل خيوطا تضع نسيجا جديدا لحياة أفضل .. تخيرتنا «أن نعرف» وخطتنا «أن نقتحم» من أعدائنا الفساد والمفسدين ومن أهدافنا مكان لكل مواطن فى دائرة اتخاذ القرار .. الحكم للجميع وليس لمن يظنون أنهم وحدهم الأكثر علما وإخلاصا ونفعا» .

كانت نصيحة شركة التوزيع أن نطبع مائة ألف نسخة «وهو بمقياس صحف المعارضة فى التسعينات رقم مرتفع للغاية» ونفذنا النصيحة وجاءت أرقام توزيع الأهرام لتقول إننا اقتربنا من «٩٥» ألف .

ثم مضت التجربة وأنا قابض على الهدف، صحيفة حوارية وليست جامدة .. صحيفة لكل القوى الوطنية وليست للناصريين وحدهم .. صحيفة تؤمن بالتوثيق والخبر الصحيح والرقم الشافى والمعبر .. إنها المعارضة بالمعلومات والتى جعلتنى أنشىء بابا أو سلسلة تحمل اسم «حديث الوثائق» قمت فيها بتقديم ما أتيح لى من وثائق سرية عن مصر وإن كانت صادرة عن جهات أجنبية .

وكما وصف الزميل حسين عبد الرازق فى كتابه الموسوعى عن الأهالى أنها جريدة تحت الحصار، فقد جاءت «العربى» بالوصف نفسه .

كنت اسعى للمعارضة بالمعلومات، لكن قنوات المعلومات مغلقة ورئاسة الوزراء ووزارة الخارجية لم تسمح بوجود مندوب للصحيفة لديها إلا بعد إلحاح دام عدة سنوات، أما المصادر فهى خائفة .. كيف تتحدث لصحيفة تعارض الحكومة؟

حصار فى الداخل والخارج

وامتد الحصار من المصادر والمعلومات لاقتصاديات الصحيفة، فالمعروف أن الجزء الأكبر من تمويل الصحيفة يعتمد على الإعلان لكن حظ العربى فى الإعلان كان عثرا .. فالقطاع الخاص يرى أننا نرفضه «وهو أمر غير صحيح» والقطاع العام لديه توجيه بألا يعطى .. ومن ثم بات المعلنون لدينا هم المغامرون والمخاطرون والراغبون فى المساندة .. ولم يكن ذلك كافيا لتمويل الصحيفة التى اعتمدت على الحزب ثم عجز الحزب عن مواصلة ذلك فبات ضروريا البحث عن حل «فى عام ٢٠٠٠ عدل الحزب عن الإصدار اليومى وعاد للإصدار الأسبوعى فقط وهو ما كنا قد بدأنا به» .

ومن حصار الخارج إلى حصار الداخل ، فسرعان ماتشكل داخل الحزب تكتلات باتت تطالب بالسلطة .. ليس فى الحزب «فهى موجودة فى القيادة» ولكن فى الصحيفة .

وامتد الصراع من داخل الحزب إلى داخل الصحيفة وترددت دعوى فى المحافظات بين أبناء الحزب بمقاطعة الصحيفة .. وكانت الحجة أيضا أن الصحيفة ليست كما نريد فلما تسألهم وماذا تريدون ولماذا لاتكتبون» يصمتون.

كان المناخ الحزبى غير صحى، وكنت أكثر وعيا بفكرة استقلال الصحيفة عن الحزب وأيدنى فى ذلك رؤساء مجالس الإدارة على التوالى الأستاذ ضياء الدين داود والذى تولى رئاسة المجلس فى بدايته وفى نهايته «حاليا» والأستاذان : محمد فائق وحامد محمود .

ولم تكن القضية هنا أيضا لائحية فهناك لائحة تنظم العلاقة وتجعل الرابطة سياسية أكثر منها تنظيمية ووظيفية، ولم أكن فى الواقع أعود

للحزب إلا فى المسائل الكبرى والتى تتعلق بعلاقته بالنظام بشكل أساسى ولم يكن رؤساء المؤسسة الثلاثة على التوالى يتدخلون فى العمل اليومى وكانت المنازعات الحزبية حول قيام أو تقصير الجريدة عن ذكر النشاط الحزبى، وأفراده وأدوارهم .. ولم يكن النزاع حول خطوط سياسية أساسية .

عارضت الصحيفة قانون العلاقة بين المالك الزراعي والمستأجر، وعارضت بيع القطاع العام «وكان الحزب مع آخرين قد أقام دعوى قضائية ببطلان البيع» وعارضت الصحيفة العلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية وصندوق النقد والبنك الدولي ودافعت عن فكرة العدل الاجتماعي ومجتمع الفقراء والمنتجين وانحازت للصناعة الوطنية، وللمصريين ضد الأجانب .. وباتت الصحيفة خلال أقل من عام محل احترام عند المثقفين والمشتغلين بالسياسة .

تراجع التوزيع

ثم بدأت الضربات ، مرة من داخل الحزب كما اسلفت ومرة من خارجه وعبر ظرف عام هو زيادة أسعار الصحف، كان التوزيع مرتفعا حين كان سعر الصحيفة خمسة وعشرين قرشا .. لكنه ومعه كل الأسبوعيات تراجع حين أصبح السعر أربعين ثم خمسين قرشا .. فقد أحس القارئ مع ارتفاع سعر الصحيفة أنه لايستطيع الاستغناء عن الوجبة اليومية فصحيفة الصباح هي رغيف الخبز فى مجال القراءة ومجال الصحافة، أما الصحافة الأسبوعية فهى قابلة للاستغناء.

وأظن أن هناك سببا آخر لتراجع توزيع الصحف الحزبية فى مصر فالأرقام الكبيرة التى حققتها الأهالى والوفد فى بداية إصدارهما ثم الرقم الكبير الذى حققته صحيفة العربى فى العام الأول .. كل ذلك كان مرتبطا بأمل سياسي عند القارئ، فالصحافة ليست للتنفيس لكنها أداة تغيير، وعندما يصبح حديث الصحف «كمن يؤذن فى مالطا» بلا ردود فعل، وبلا تفاعل في المجتمع وعند اطراف السلطة.. عندما يحدث ذلك يتراجع الاهتمام بهذه الصحف .

لقد تحولت الأحزاب فى مصر وإلى حد كبير الى صحف، والصحف الى أداة تنفيس لا أداة تغيير .. ومن ثم تراجعت أهميتها عند القارئ رغم أثر محدود هنا أو هناك .

هل يعني ذلك أن التجربة كلها سالبة؟

الجواب بالنفي.

الحصاد

لقد قضيت عامين في جريدة الأهالي ونحو أربعة أعوام أو أقل قليلا في جريدة «العربى» حتى عام ٩٧ وكنت على اتصال بالقضية من خلال مشاركتى فى المجلس الأعلى للصحافة واللجنة التى وضعت قانون الصحافة الأول ١٩٨١ وقانون الصحافة الأخير



عبدالحليم قنديل



عبدالله إمام

فى منتصف التسعينات وخلال كل ذلك يمكن القول :

١ - إن الصحافة الحزبية .. رغم كل الصعوبات التى صادفتها قد حركت الماء الساكن فباتت لها بدرجة أو أخرى كلمة مسموعة تؤثر عند متخذى القرار فى بعض الأحيان .. فالمسئول الكبير «وزيرا أو مديرا أو رئيسا للوزراء» تهمه صورته أمام الرأى العام وبصرف النظر عن معادلة «السلطة - الأحزاب» فهو يريد أن يكون بمنجاة عن النقد الشديد.

وقد عكست الحرية المتاحة لدى الصحف الحزبية نفسها على أداء الصحف القومية فباتت تتسابق فى بعض الأحيان على نقد المسئولين وإن كانت معارضة الصحف القومية غير جذرية فى معظم الأحيان.

أى أنه بات هناك مناخ صحفى مختلف بقدر ما .

٢ - لم يتحقق كثيرا توازن جديد بين الصحف القومية والحزبية .. احتلت الصحافة الحزبية مساحة ما، لكن السيادة مازالت للصحف القومية الأكثر قدرة اقتصاديا ومهنيا وبعلاقتها مع الدولة.

٣ - لم تتحقق معادلة استقلال الصحفى وهو ركن أساسى فى حرية الصحافة التي هى الآن: حرية المعلومات - وحرية الرأى. وحرية النشر.

لا يتحقق الاستقلال في الصحف القومية بحكم تبعيتها للدولة .. ولايتحقق الاستقلال للصحف الخاصة بحكم تبعيتها للأحزاب أو لرأس المال الخاص.

معادلة «من يملك يحكم» معادلة صحيحة واستقلال الصحفى بات نوعا من «فن الممكن» وليس آلية سائدة .

٣ - لعب المناخ التشريعي وهجمة «٩٥ - ٩٦» بتشديد العقوبات على الصحفيين دورا سالبا وكان انتباه الجميع أن الصحفى ليس فوق المساءلة وأن قاضى ابتدائى يمكن أن يسجنه .. كانت لهذه اليقظة التى أحدثها القانون أثرها على الصحفيين دون شك وإن كان هناك تسليم بأن جرائم النشر

واحترام الجمهور وحق المواطن والخصوصية مسائل لايمكن التجاوز عنها .

٤ ـ استطاعت جريدة «الأهالي» أن تحقق لفترات طويلة التوازن الاقتصادي، وحاولنا في «العربي» تحقيق بناء مؤسسي حقيقي .. لكنني لا أظن وفي الظروف الضاغطة على جميع الصحف الحزبية أن فكرة «المؤسسة» قد تحققت دائما في هذه الصحف .. لافي العلاقات الداخلية ولا في التنظيم الإداري، ولا في التخطيط للمستقبل .

كل الصحف الحزبية تحت الحصار، والسبب اقتصادي وسياسي .. والسياسة في بلادنا تصنع الاقتصاد والجودة المهنية تحققها امكانات مادية ، والحل في صحافة مصر التي سبقت كل الصحافة العربية وزاد عمرها عن قرن ونصف القرن.. الحل سياسي واقتصادي ومهني .. لا أعفي من ذلك الحكومة أو المعارضة .. المناخ العام الذي تعمل فيه الأحزاب أو العلاقة الخاصة المتصلة بالصحف.

إنني أتصور أن تكون الأحزاب وصحفها بيوت خبرة سياسية واقتصادية ومراكز فكر تقدم البدائل لمسيرة المجتمع .. ولم يحدث، وأتصور أن تتطور الصحف الحزبية لتكون أكثر تقدما من الناحية المهنية وأكثر كفاءة في تدقيق الأخبار والمعلومات، فالمعارضة وحدها، وبعد نحو ربع قرن من من التعددية، لم تعد بضاعة كافية لترويج الصحيفة .. فالصحيفة لابد أن تكون أولا «صحيفة»، وهو ماحدث لـ «العربي» بعد نكسة إصابتها فعادت أرقام التوزيع للارتفاع بعد تحسينات مهنية وسياسية، وتولى اثنان من الزملاء الشباب هما: عبد الله السناري وعبد الحليم قنديل رئاسة التحرير.

وأتصور أن يتسع صدر الحكومات المتعاقبة، وأن تترجم ـ مثلا ـ ماجاء في قانون الصحافة عن حرية المعلومات الى واقع .

وأتصور أن يأتي الوقت الذي يؤمن فيه الجميع، أحزابا وحكومات بالديمقراطية وأن تتسع الصدور للرأي والرأي الآخر .. وألا يكون الرأي الآخر «رجسا من عمل الشيطان فاجتنبوه» .

أحوال الوطن تحتاج فكر المثقفين، وليس أفضل من الإعلام وسيلة لتداول الآراء والمعلومات والتفاعل بينها .

في صحافتنا قومية وحزبية كثيرا مايغيب التفاعل، وتغيب فكرة المؤسسة «حتى في الصحف القومية» ويضيع المستقبل الأفضل، فيبيت الأمر صباحا ويبيت الرأي ثرثرة، ويبيت توزيع الصحف بحكم العادة .

ألم أقل إننا أمام صحف الفرص الضائعة ؟

أظن ذلك.

جزء خاص
الصحافة الحزبية

هذه تجربتي كاملة

فى صحيفة «الأهالى»

بقلم : عبد العال الباقوري


عبد العال الباقورى


رفعت السيد

دخلت و«الأهالى» فى ١٥ يونيو ١٩٩٣، وخرجت أو أخرجت منها ، سيان، فى ١٩ سبتمبر ١٩٩٨ ، أى قضيت فيها خمس سنوات، وثلاثة شهور وأربعة أيام، مجموعها بالأيام ١٨٩٤ يوماً.

وعندما عرضت على صفحاتها كتاب الزميل الصديق حسين عبد الرازق عن تجربته فى رئاسة تحريرها وعنوانه «الأهالى : جريدة تحت الحصار»، قلت مامعناه : لو أنى عرفت مقدماً أن هذه هى الصورة من الداخل لما دخلتها.. ولكنى دخلتها. وقضى الأمر. وقضيت فيها فترة لم أكن أتصور أنها ستمتد كل هذه السنوات ، التى تمثل بالنسبة لى تجربة خصبة وغنية بالدروس والعبر .. وطالما راودتنى نفسى عن كتابتها. ولكنى أجلت انتظاراً لوقت آخر .. ربما يكون أفضل.

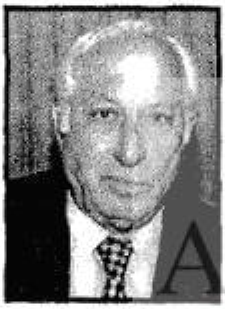
وهنا مشاهد من رواية، وشواهد من وعلى أحداث..

بداية

في أحد أيام أواخر شهر ابريل أو أوائل مايو ١٩٩٣، اتصل بي الصديق حسين عبد الرازق تليفونيا . وقال لي: الدكتور رفعت السعيد (الأمين العام لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي) «طلب مني أبلغك إنه عايز يشوفك» . قلت : خيراً. وأبلغني ، بعد تردد، أنه – فيما يبدو – سيعرض عليّ «حاجة» بشأن الأهالي. قلت: زي إيه؟. قال: يبدو أنه عايز مدير تحرير. ودعاني حسين عبد الرازق إلى عدم ذكر شيء من ذلك لأحد ، إلى أن يتم اللقاء.



حسين عبد الرازق



لطفي واكد

في الموعد الذي ذكره حسين عبد الرازق، توجهت ظهراً إلى مكتب الدكتور رفعت السعيد في مقر حزب التجمع الذي أعرفه جيداً. بعد حوار غير طويل عرض على منصب مدير تحرير الأهالي .

قلت له : بعد ربع قرن في الصحافة، وفي هذه السن مدير تحرير، أسف . ولكن أشكركم أن تذكرتموني بعد غياب طويل عن الحزب وعن البلد . (قضيت الفترة من يونيو ١٩٧٩ إلى أكتوبر ١٩٩٠ في دولة الإمارات العربية المتحدة، في صحيفة «الاتحاد»).

تفرعت المناقشة ولم تطل . وانتهت باقتراح، غالباً طرحه الدكتور رفعت السعيد ، بأن أتولى الإشراف على التحرير لمدة ٣ شهور «وبعدها إما أن أقبل أو أرفض مايعرض عليّ ، كما يكون من حق حزب التجمع أن يوافق على استمراري أو يقول لي شكراً .

قلت : يعني «تحت الاختبار» – قال (وأنا هنا أعصر ذهني لأتذكر الألفاظ التي تبادلناها) موش بالضبط . قلت : رغم أني لا أقبل من أحد أن يضعني تحت الاختبار، لكن سأقبل، وأعتبر هذا نوعاً من التكليف الحزبي.

وكان هذا أول خطأ ارتكبته . فقد وضعت نفسي في

«وضع مربك»، حيث دخلت صحيفة لا أعرف العاملين فيها ، إلا أربعة منهم فقط، ولا أملك فيها «سلطات»، وإن كانت «الأمانة العامة» للتجمع قد وافقت بالإجماع . «امتنع عضوان عن التصويت» على تعييني رئيساً للتحرير، قبل مضى الشهور الثلاثة، ولقد انعكست تجربة هذه الشهور على أيامى فى «الأهالى».

بعد أيام من ذلك اللقاء مع الدكتور رفعت السعيد ، حضرت اجتماعاً مع الأساتذة خالد محيى الدين رئيس حزب التجمع و«راية» اليسار المصرى عندئذ، ولطفى واكد رحمه الله نائب رئيس الحزب ورئيس مجلس إدارة «الأهالى» ورئيس التحرير، وحلمى ياسين المدير المالى والإدارى، والدكتور رفعت ، ولم يكن صعباً علىّ فى هذا اللقاء وما جرى فيه أن أتأكد أنه «الكل فى الكل» فى التجمع والأهالى ..


خالد محيى الدين

كانت الجلسة ودية . شرح فيها الدكتور رفعت السعيد وضع الأهالى وظروفها ،وظروف محرريها. وأدلى الحاضرون بتعليقات متفرقة، وكان لطفى واكد أكثر الحاضرين اعتزازاً بمحررى الأهالى، وقال فى أثناء الحديث «متخفش معاك عيال رجالة». ولم أدرك لحظتئذ فارق الموقفين بين لطفى ورفعت فى الحديث عن محررى الأهالى.

وحين ظن الآخرون أن الجلسة انتهت ، سألت الأستاذ خالد محيى الدين بشكل مباشر: «ماخطوطك الحمر؟»، تبادل نظرة سريعة حادة مع جميع الحاضرين . وتمتم بكلمات لم أفهم منها شيئاً . كررت السؤال .. وتلقيت جواباً وضعت له - ونحن جلوس - النقاط على الحروف ، وقلت إذن هناك «ممنوعات» و«خصوصيات» و«حساسيات»، تبدأ من «فلسطين» وتمتد إلى «طرابلس» عبر القاهرة وبلاد أخرى ، حسب التعليق الذى استخدمته وأثار الضحك المستهجن!.

ثم تساءلت عن الكتاب الذين يمكن الاستعانة بكتاباتهم . فقال الأستاذ خالد: أنت حر ، فلا أحد ممنوع من الكتابة «المحترمة».

قلت : لا أحد بشكل مطلق .

قال : أيوه .

ألححت فى السؤال «قال : تقصد

فلانا (وذكر اسماً محدداً) . قلت : ليس بالتحديد ، ولكن على سبيل المثال . قال : شوف ، مفيش حد ممنوع من الكتابة التى توافقنا، بس بلاش إضافة أعمدة ثابتة جديدة ويكفى ماهو موجود.

وعلق الدكتور رفعت السعيد بأنه ضاق ذرعاً بعمودين ثابتين فى الأهالى، وليتنى أتخلص منهما .

لم أفهم مغزى ومخيلة ماقيل بهذا الشأن، عندئذ . ولم أتبين الأمر إلا وأنا على مقربة من الخروج من «الأهالى».

وفى النهاية ، اتفقنا على أن أتسلم المسئولية ابتداء من ١٥ يونيو، فقد كانت ورائى ترتيبات خاصة.

نهاية

فى يوم السبت ١٩ سبتمبر ١٩٩٨، وعند الظهر ، خرجت كعادتى أتجول على قدمى فى المنطقة المحيطة بميدان طلعت حرب . وأشرب – كعادتى – قهوة فى «البن البرازيلى»، و«أتسكع» عند باعة الصحف، وأزور بعض المكتبات لعلى أجد فيها جديداً أقتنيه . وفى هذا اليوم ، وجدت فى فروع الهيئة العامة للكتاب نسخاً من كتابى الجديد : «إسرائيل والعرب وفلسطين : قرن من الصراع» الذى نشر فى «مكتبة الأسرة». وحملت معى حوالى عشرين نسخة، تصببت عرقاً وأنا أصعد بها سلالم مبنى التجمع، الذى



محمد حسنين هيكل

كنا قد انتقلنا إليه قبل شهور من ٢٣ عبد الخالق ثروت.

لم أكد أدخل مكتبى ، ولم أجلس بعد على الكرسى ، حتى دق جرس التليفون . كان رفعت السعيد على الخط – دعانى إلى مكتبه، ورجانى أن أسرع – ذهبت إليه، ولما يجف عرقى بعد . كان معه حسين عبد الرازق ، رحب بى : «أهلا بأستاذ عبد العال». كان من المعتاد أن يناديني باسمى مجرداً . وفتح الحديث مباشرة ، قال : أنت عارف إن الأمانة العامة ستجتمع يوم الأربعاء، وفيه كلام كثير عن الأهالى، والمؤتمر العام ، وأخذ يقول كلاماً غير مترابط . ولكنى فهمت الرسالة . نهضت واقفاً، وقلت له : دكتور رفعت أرجوك تكلم «دوغرى» .. وأشرت بيدى إلى الأمام، وبلاش لف ودوران وأشرت بيدى يميناً ويساراً .

وأضفت أن استقالتى .. عندكم .. من شهور.

قال : أنا مقلتش كده بالضبط .

قلت : يادكتور الحكاية معروفة من شهور ، و«عيالك» فى المقر يتحدثون فيها ليل نهار من سنة ، قبل المؤتمر وبعده، ويرددون علناً مين اللى رايح ومين اللى جاى .. وهذه - كما تعلم - مسألة لاتهمنى، كل اللى يهمنى أننا كنا متفقين على إعطائى مهلة لترتيب أمورى. ومادامت الأمور وصلت إلى هذا الحد، فأنا لا أستطيع الاستمرار.

وفى هذه اللحظة بالضبط ، وكأن الأمر مرتب ، دخل الأستاذ خالد محيى الدين. ودون سلام أو كلام قال له رفعت السعيد : عبد العال بيقول استقالتى عندكم.

قال خالد : لأ، موش كده . إحنا حندخل الأمانة العامة ، إذا كان الهجوم تقيل نقول إنك استقلت ، إن مشى الحال..

عندئذ ضحكت ضحكة أظنها تجاوزت حيطان مبنى التجمع . وقلت دون أن أتركه يكمل كلامه : يا أستاذ خالد ده اللى اسمه العيب .. حكاية الهجوم الخفيف والتقيل ما أنت عارف وأنا عارف كيف يتم . هذا اللى حصل فى يونيو ١٩٩٧ بعيد عني.

(فى ذلك التاريخ عقدت الأمانة العامة اجتماعاً صاخباً تحولت فيه إيجابيات الأهالى إلى سلبيات ، ووصل الأمر فيه إلى أن قال أحد الزملاء للطفى واكد : أنت قاعد ليه، هى بتاعة أبوك!! وبالطبع كانت المحاكمة لى وليست للطفى واكد ، وقد انفضت الجلسة دون أن أرد، فقد كان الفلاحون يتأهبون لاجتماع صاخب!!

واختتمت كلامى قائلاً : استقالتى عندكم ، ولم أكن أتصور أن الأمور فى هذا الحزب وصلت إلى هذا الحد ..

وهممت بالانصراف . ووقف الدكتور رفعت السعيد يودعنى ، ومد يده لمصافحتى وهو يقول احنا co grateful (ممنونون) للفترة اللى .. وعندها كنت قد فتحت الباب، وهرولت مبتعداً .

ولم يكن حسين عبد الرازق قد فتح فمه بكلمة واحدة أثناء هذا الحوار وجاء فى أعقابى إلى مكتبى وقال لى : وحياة أولادى ، أنا لا أعرف حاجة عن الموضوع ده .. وأنا مفاجأ زيك!!

تمتمت بكلمات لا يتبين منها أحد - ولا أنا - شيئاً. وحين انصرف ، طلبت من السيدة كوثر حسن أن تصلنى تليفونيا بالأستاذ مصطفى بكري، ووجدته، ورجوته أن ينشر خبراً عن استقالتى من «الأهالى» واتفقنا على الصيغة . وقد كان كريماً معي، وكان أميناً ، ونشر الخبر بشكل بارز فى عدد يوم الاثنين مع تعليق منه فى الصفحة الرابعة . وبعد النشر ، لم يكف تليفون المنزل عن الرنين . وفى صبيحة

اجتماع الأمانة العامة ، نشر الزميل الأستاذ مجدى الدقاق خبراً فى «المصور»، حدد فيه اسمى رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير، وأشارت إلى ذلك السيدة شاهنده مقلد ، فى اجتماع الأمانة. وتعاملت مع الأمر على أنه استقالة، إلى أن صككت تعبير «استقالونى» وإن كانت «الأهرام العربى» (عدد ١٠ أكتوبر ١٩٩٨، ص ٢٦) قد استخدمت تعبير «عزل رئيس تحرير الأهالى».

محطة

بكل الصدق والأمانة ، أقول اليوم إن قيادة حزب التجمع كانت صبورة معي .. لأن الخلافات بيننا ظهرت منذ أول عدد «أشرفت» على إصداره ، حين قيل لى تليفونياً مساء يوم الثلاثاء ، وقبل أن يطرح العدد فى السوق: «بلاش تعبير الكيان الصهيونى» ، لماذا؟، لأنه «تعبير بعثى»، قلت : بل هو تعبير علمى – دقيق . ثم تفجر الخلاف عاصفاً بعد نشر خبر عن كلام قاله البابا شنودة وذلك فى أكتوبر ١٩٩٣ . كان الخبر صحيحاً مائة فى المائة. ولا يزال مصدره حياً يرزق ، وهو واحد من أهم وأنبل المطلعين على دخائل الكنيسة. ولكن الخبر كان كاشفاً لعورات كثيرة . وكان بالنسبى لى بداية لأزمات، ولعلاقات ، ولمعلومات تدفقت علىّ من مصادر عديدة، من الداخل والخارج ، وكانت موثقة . ولست فى حل الآن من البوح بها. وبعض ردود أفعال الخبر منشورة فى «الأهالى» ، العدد ٦٢٧ فى ١٣ أكتوبر ١٩٩٣.

أما الخلاف الذى كان تحت السطح ، فبرز حول الموقف من اتفاق أوسلو، الذى أبرم بعد شهور من دخولى «الأهالى» ، ووافقت عليه الأمانة العامة بتحفظ، وكان المعارضون كثيرين من أعضاء اللجنة . ووصل أمر هذا الخلاف المستتر إلى أن قال الدكتور رفعت السعيد فى اجتماع حزبى فى أواخر ١٩٩٤ ، وكتبت محضره بنفسى «إن رئيس التحرير يكتب ضد خط الحزب» وكان يعنى تحديداً نقدى لسياسة ياسر عرفات.

وبعدئذ ، أوقفت كتاباتى فى «الأهالى». وظلت رئيس تحرير لا يكتب ، لفترة غير قصيرة . وكان هذا من خطاياى، وليس من أخطائى فقط فى «الأهالى» .. وكان الخلاف حول «أوسلو» قد حرمنى وحرم قراء الأهالى من ريشة الفنان الكبير بهجت عثمان الذى قدم لوحة عميقة السخرية عن توقيع الاتفاق . ولما وصلت إليه أصداء ما قيل، توقف عن الرسم «للأهالى»!

استشهادات

فى ٢٤ أغسطس ١٩٩٤ ، كتبت مقالاً

فى صفحة «الحوار القومى» فى «الأهرام» تعليقاً على مقال للدكتور صلاح قبضايا فى الصفحة نفسها ، عن تجربته السابقة - وليست الراهنة بالطبع - فى رئاسة تحرير «الأحرار» . كان عنوان مقالى هو : «فى الصحافة الحزبية: «الأهالى» تجربة أخرى»، واقتبس منه مايلى.

- «تعتبر كل صحيفة حزبية «حالة خاصة» بالمعنى القانونى الدقيق لهذا التعبير، والخصوصية هنا لها مصادر ومنابع عديدة ، على رأسها أن كل حزب هو أيضاً حالة خاصة : فى فكره وسياسته ، وفى تنظيمه ، وفى قيادته ، وفى مدى انتشاره وجماهيريته ، وفى مدى تأثيره فى الشارع وعلى صاحب القرار. «ولذلك فإن تعميم تجربة صحيفة حزبية على صحف أخرى أو على الصحافة الحزبية عامة ، أمر لايسلم من الخطأ ، بل قد يجانبه الصواب. أكثر من هذا إن تجربة الصحيفة الحزبية نفسها تختلف من مرحلة لأخرى ، لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، واختلاف الظروف الحزبية ، وعلاقات الحزب الخارجية والداخلية. وعلى سبيل المثال ، فإن تجربة «الأهالى» فى ظل حكم الرئيس الراحل أنورالسادات تختلف بشكل أو آخر عن تجربتها فى ظل حكم الرئيس حسنى مبارك . كما أن تجربة «الأهالى» برئاسة تحرير (س) من الزملاء تختلف بدرجة أو أخرى عن التجربة برئاسة زميل آخر .. وهكذا».

....

....

- أود أن أقف عند أمرين جديرين بالاهتمام والتسجيل :

- **أولاً** : إن الحزب فى جوهره هو «تنظيم» يجمع أفراداً متفقين حول وسائل معينة للوصول إلى الحكم . إنى أميل إلى الرأى الذى يغلب الجانب التنظيمى فى الحزب السياسى على جانب الفكر والأيديولوجية ، فالحزب هو - باختصار - تنظيم له أيديولوجية .

- **ثانياً** : لكل حزب نخبته القيادية التى يصل الأمر عند بعض علماء السياسة إلى اعتبارها «الدائرة الحديدية» التى تقود الحزب وتوجهه. وحيث توجد سلطة ونخبة وقرار، فإن بجانبها توجد أيضاً قوى ضغط ودوائر نفوذ ، يحتدم بينها صراع داخلى ، يبحث له عن وسائل تعبير . وحتى أكون واضحاً، فإنى أتحدث عن «الحزب» بمعناه العلمى، ومعناه السياسى، فهل لدينا فى مصر ، وفى ظل التجربة القائمة، تجربة التعددية المقيدة ، أحزاب بهذا المعنى.

«إن لدينا أكثر من دراسة علمية وأكاديمية تكاد تقطع بأن «التجمع» هو

الأقرب إلى كونه حزبا بالمعنى الصحيح، إذ يقوم على «تنظيم» معروف ومحدد، وعلى هيئات يتم انتخابها ، وتجتمع دوريا لتناقش ، وتتفق على وسائل تنفيذ قراراتها .. دون أن يخل هذا - في تقديري - بقانون «الدائرة الحديدية».

....

....

- «لكل صحيفة حزبية «أزمتها» الخاصة ، ومن داخلها ، ومن داخل الأحزاب التى تصدرها ... ثم هناك أزمة صحفية حزبية من خارجها ، ومن خارج الأحزاب التى تصدرها ، وعلاج الأزمة من الداخل يتطلب ويفرض بنية مؤسسية محددة المعالم ، والوظائف والاختصاصات والمسئوليات وبنية مهنية قوية عمادها مهنيون أكفاء صحفياً وسياسياً وخلقياً، ومن الخارج ، لابد من إصلاح سياسي وديمقراطي يتيح قيام أحزاب قوية ويوفر الجو لحياة حزبية قوية أيضاً».

قبل بدء العمل فى الأهالى تسلمت ملفين : أحدهما عن الميزانية ، والتوزيع ، والعاملين، والقرارات التنظيمية الداخلية . والثانى عن اقتراحات تطوير «الأهالى».

ولم يكن النهوض بالصحيفة يتطلب أكثر مما ورد فى هذه الاقتراحات ، خاصة الورقة التى أعدها الأستاذ حسين شعلان رئيس التحرير الذى استقال، فعلاً.



جلال السيد

ومن أسف أنى لم أسأل نفسى ولم أسأل شعلان نفسه لماذا لم يطبق عملياً ماكتبه نظرياً؟. بالمناسبة ، نسيت أن أذكر أنه بعد اللقاء الأول مع الدكتور رفعت السعيد، استشرت عدداً من الأصدقاء الذين أثق بهم ، منهم الصديق الصدوق جلال السيد رحمه الله ، والدكتور إيمان يحيى ، وكنت قد تعرفت عليه قبل وقت قصير من خلال العمل معاً فى «اللجنة السياسية» لحزب التجمع ، والدكتور محمد رضا محرم الذى ترجع معرفتى به إلى سنة ١٩٧٥ ، وآخرون . كانوا جميعهم متحمسين ومتحفظين. وكان خطأ من جانبى أنى لم أتحدث مع حسين شعلان ، الذى اتخذ مبكراً أذكى قرار اتخذه رئيس تحرير مر على «الأهالى»، إذ فر بجلده سالماً ، غانماً.

بعد وقت قصير جداً ، من تخولى

«الأهالى» جاءنى (ش . هـ) الذى عرفته من خلال العمل السياسي منذ بداية السبعينيات، وهو شيوعى قديم، وجرى بيننا حوار طويل ، تركز أساساً على القضية الفلسطينية . وأحسست أن الرجل يجرى لى عملية اختبار . ومع ذلك ، قلت له كل ماتصورت أنه جاءنى كى ينقله إلى «آخرين» ، مما جعله يفصح عن مهمته حين قال لى : «أنت ناصرى». قلت فوراً العبارة المشهورة: «شرف لا أدعيه، وتهمة لا أنكرها» . ولكنى أضفت فوراً «كى نكون دقيقين، يجب أن تقول إنى ناصرى ماركسى ، وأظن أن هذا هو التجمع وأن هذه هى صحيفته ، وأنا هنا «تجمعى» وكفى.

وبالمناسبة ، كان الأستاذ : الدكتور محمد أنيس والأستاذ جلال السيد - رحمهما الله - ومعنا آخرون، مصريون وغير مصريين ، نتحدث كثيراً ونتحاور طويلاً فى سهرات كانت تمتد إلى الفجر، حول الدعوة إلى «الناصريين الماركسيين»، وذلك فى منتصف الثمانينات.

ذات يوم ، قال لى الأستاذ خالد محيى الدين إن الأستاذ محمد حسنين هيكل «عنده انطباعات موش كويسة عن الأهالى» . لم أكن قد التقيت من قبل لقاء مباشراً مع الأستاذ هيكل . وقام الزميل الأستاذ مدحت الزاهد عضو مجلس تحرير «الأهالى» بترتيب موعد معه. وذهبنا معاً . وتحدث الأستاذ هيكل طويلاً عن الصحافة المصرية ، والصحافة الحزبية ، والصحيفة الأسبوعية . وكانت له ملاحظات دقيقة وصائبة تماماً بالنسبة للأهالى . وكنت مستمعاً فقط، ولم أقاطعه إلا إذا طرح سؤالاً وطلب رداً عليه . وكنت أرد باقتضاب . فقد كان لدى شوق للوقوف على رأى الأستاذ هيكل، لأسباب عديدة.

وحين أحسست أنه فرغ من حديثه ، قلت له : أستاذ هيكل، هل تتصور أن «الأهالى» ليس بها اشتراك وكالة أنباء؟!

انتفض الرجل وهو يردد : بتقول إيه ياأستاذ؟

قلت : اللى سمعته سيادتك .

قال ، وقد أحسست أنه بدأ يدرك أزمتى : وازاى راضى بكده .. وهل خالد (بيقصد الأستاذ خالد محيى الدين) يعرف؟.

وتوقفت المناقشة عند هذا الحد ، إذ دخل عليه جهاد الخازن رئيس تحرير صحيفة «الحياة» عندئذ ، ويبدو أنه كان على موعد معه .

أزمة الصحافة الحزبية أزمة حزبية أساساً ، وفى المرتبة الأولى ، وبعد هذا وفى المرتبة الثانية تأتى أزمتها الذاتية .

مرة سئلت : لماذا نجحت «الدستور» وهى صحيفة ليس وراءها حزب ؟. أجبت:

بالضبط، لأنها غير حزبية . فمدى نجاح الصحيفة الحزبية يرتبط ، في جانب منه ، بقدر من الفصل النسبي بين الصحيفة والحزب ، كل الحزب: قيادته وكوادره وأعضائه وهيئاته . وهذا أمر صعب في أكثر الأحيان ، خاصة في حالات الانحسار الحزبي ، حين تجد قيادة الحزب في صحيفته أهم أسلحتها ، فترفض إلا أن تسيطر عليها، من الداخل ومن الخارج ، وتملك في يدها من الأدوات ماتستطيع أن تحقق به ذلك ، إنها «تكوّش» عليها ، وتقبض على عنقها ، حتى لو خنقتها!.

شهادة حق يجب أن تقال ، إن «الأهالي» تضم - في الفترة التي عشتها فيها - مجموعة قد تكون - في عمومها وليس بالضرورة في كل فرد فيها - من أفضل ومن أشرف الصحفيين المصريين . ولا تنقص كثيرين منهم الكفاءة. ولكنهم - مع الأسف - يتآكلون ذاتيا ، في معارك جانبية، وفي تصفية حسابات تدفع الصحيفة ثمنها . وأستطيع أن أزعم أن نفراً من من محرري «الأهالي» لا يوجد نظراء لهم في صحف قومية أو حزبية أخرى . ولكنهم مستنزفون . وهناك آخرون بالطبع ليسوا على مستوى صحيفة حزبية، ويسارية خاصة . وهناك قلة ظلمت نفسها أو «ظلموها» حين اتخذت الصحافة مهنة ، فصارت في الأحزاب مهنة من لا مهنة له.

وقد سجلت هذا كتابة في أول تقرير كتبته، وتم رفعه إلى اللجنة المركزية ، وأشاد به «الجميع».

من أسوأ الظواهر في الصحافة عامة، وفي الصحافة الحزبية خاصة، أن يحارب بعض الصحفيين صحيفتهم ، من وراء ستار .. وندع التفاصيل الآن .

من أخطائي الشخصية في «الأهالي» أني كنت كثير الاستقالات .. وربما يرجع هذا إلى أني أدركت ، بالذات منذ أواخر ١٩٩٥ ، أن الأفق مسدود ، وأني أنحت في صخر.

على المستوى الشخصي ، أستطيع أن أقرر وبضمير مستريح ، أن كرسي رئيس التحرير لم يغيرني ، بل علمني المزيد من التواضع والتواؤم مع من حولي، والائتناس بهم حتى لو اختلفت معهم في العمل أو الرأي . وقد تعلمت هذا الدرس من أستاذي العزيز محمد عودة . ويكفيني جزاء عما عملته في «الأهالي» أن هذه شهادة الغالبية العظمى ممن عملوا معي أو اقتربوا مني على مدى ١٨٩٤ يوما.

رسالة

لا أريد أن أكتب الآن عن تجربتي في «الأهالي» حتى لا يتقول أحد إني أكتب بعد أن تركتها . لذلك ، سأكتفي هنا بإيراد نص رسالة مؤرخة في ٤ - ٨ -

١٩٩٧ ، وموجهة منى إلى الدكتور رفعت السعيد ، الذى أعتقد أنه يحتفظ بها ، فهو - كمؤرخ - وراق ، ولا يلقى بورقة إلى سلة المهملات . وأظن أن «المستمسكات» - كما كان يسميها مصطفى شردى رحمه الله - جزء من العمل الصحفى والحزبى . ولن أحذف من هذه الرسالة سوى الأسماء وسوى جملة شخصية جداً .. وفيما عدا ذلك، ففيما يلى النص الحرفى الذى أعتقد أنه كاشف عن دخائل كثيرة ، ونواقص عديدة ، وثغرات عميقة فى جسد التجربة.

الدكتور رفعت السعيد...

أشعر ، فى هذه المرحلة ، أنه من الضرورى ومن المفيد أن أضع أمامكم تصوراتى عما آلت إليه الحال ، فى هذه الظروف ، خاصة وأنى أحس أننا جميعاً ، سواء لدواعى الانشغال أو لطبيعة الظروف

مصطفى بكرى



أو دقتها ، نظلم «الأهالى»، وأحياناً يصل الظلم إلى حد التجنى . ولا أخفى عليك أن شعورى هذا ليس وليد ماحدث أمس أو أمس الأول ، بل يرجع إلى شهور مضت ، رصدت خلالها شواهد جعلتنى أستنتج أن هناك «حالة تربص» تحيط بالأهالى ، ولعل هذا كان أوضح ما يكون فى المناقشة التى شهدتها الأمانة العامة ... ولكن الإيماءات ترجع إلى شهور قبل ذلك . ولا أريد هنا أن أخلط العام بالخاص ، ولا أتحدث بلغة أن هناك «مؤامرة» ضدى ، فأنا - والحمد لله - لا أتوجس خيفة من فرد أو محور أو تكتل ، لسبب بسيط أعتقد أنك تدركه وهو أنى - منذ البداية - وضعت نفسى خارج دائرة المحاور والتكتلات ، وحرصت بقدر ما أستطيع - ولا أزال - أن أجعل «الأهالى» ناطقة باسم حزبها وقيادته . ولا يخفى على أحد أنى تلقيت بعض السهام ، ولأزال ، نتيجة لذلك ..ولا أستطيع - صادقاً - أن أقول إنى لم أعبأ بها ، بل حرصت على أن أبدو وكأنى لا أتلقى ضربات ولا أشهد مناورات ، من هذه الجهة أو تلك . وركزت جهدى - بكل ماأستطيع - على أن أصنع صحيفة يسارية ومتطورة .. ولا يخفى عليك - ولا على أحد - أن الظروف لم تكن مواتية ، ولأسباب كثيرة لا أريد الخوض فى تفصيلها الآن ، حيث وصلت إلى مرحلة

أتمنى فيها أن أغادر «الأهالي» الآن ، قبل الغد ، كما أتمنى - في الوقت نفسه - أن تمتد تجربتي ، حتى لا يقال عني إني تركت «الأهالي» وهي توشك على الغرق..

وهذه ، بالضبط ، هي مشكلتي وأزمتي الخاصة . وكنت أظن أنك شخصياً ، وقيادة الحزب ، تدركون طبيعة هذا الموقف .. ولكني مع الأسف فوجئت بك كثير المشاغل والشواغل ، في الفترة الأخيرة ، بينما تحول مجلس الإدارة إلى هيكل شكلي .. وفي وقت يتزايد فيه الهجوم على الأهالي ، في حين تشتد المنافسة الصحفية إلى أبعد الحدود ، بينما القائمون على الأهالي لا يدركون هذا، ولا يرون في الأمر سوى جانب الميزانية ، والخوف من الإنفاق ، ومن العجز. ووضح هذا ، بشكل خاص في قرارات العام الماضي ، بشأن تخفيض كمية المطبوع ، وتخفيض عدد الصفحات، وتخفيض المكافآت ، كان هذا - كما قلت لكم في مذكرة سابقة - صحيحاً مالياً ، وخاطئاً صحفياً ... وقد جاءت نتيجته في كارثة ... حيث تدني التوزيع بشكل غير لائق، ووصل إلى مستوى خطير . ولا أعتقد أن هناك أحداً يهتم - أسبوعياً - برصد أرقام التوزيع كما أفعل ، وليس هناك أحد يجوب الشوارع يوم الأربعاء ويسأل ويتقصى كما أفعل .



بهجت عثمان

وقد بح صوتي وأنا أطالب بدور من الحزب في متابعة التوزيع وأنا هنا أقصر الحديث على علاقة الحزب بالأهالي ، وأضع جانباً الحديث عن العاملين في الأهالي ، دون أن أنسى أن المسئولية مشتركة بين الجانبين.

وبعد المناقشات التي جرت، والاقتراحات التي قدمت ، أرسلت لكم مذكرة عنوانها «خطة عاجلة لتنشيط «الأهالي» ، ووعدتني بأن أنتظر حتى تنقل مقر الأهالي إلى ١ كريم الدولة .. وتضمنت الخطة عدة جوانب من أهمها : شراء أجهزة فنية - تنشيط الرياضة - الإخراج - خطة للاستكتاب من الخارج .

وبناء على ذلك ، تم إعداد مكافآت شهر يونيو .. ومنها مكافآت لكتاب (أنكر منهم - اسم محذوف) ومكافأة

إخـراج لـ .... (بجـانب ....)
ومكافآت للقسم الرياضي.

وبالمناسبـة ، فإن المكافـآت الجـديدة كتبت كل مكافأة في مذكرتين منفصلتين ، إحداهما موجهة إلى رئيس مجلس الإدارة تطلب مـوافـقـتـه على أن تصـرف مكافـأة شهرية لفلان مقدارها كذا ، والثانية مذكرة بصرف المكافأة عن شهر يونيو .. ولم أتلق أية ملاحظة على ذلك .. كما أننا عدنا إلى الصـدور في ١٤ صـفـحـة .. خـاصـة وأن جميع الصحف الأسبوعية تصدر في ١٦ أو ٢٠ أو ٢٤ صـفـحـة، ثم فـوجئت بضـجـة حـول مكافـآت شـهـر يوليـو .. تركـزت أسـاسـاً على مكافـآت قـسـم الجـمـع ، وأعـيـدت من جـديد أمور كنت أظن أننا حـسـمناها منذ فـتـرة ... ثم تبين لي أن المشكلة كلها تكمن في ٦٠٠ جنيه!!

وبعد حديث طويل مع الأستاذ لطفي واكد والأستاذ عمر عبد الواحد (محاسب في الإدارة) ، فوجئت بأن هناك قراراً بألا تزيد المكافـآت ، إجـمـالي المكافـآت ، على خمسة آلاف جنيه !!. ولم يقل لي أحد ذلك، ولكني اكـتـشـفـتـه بالمصـادفـة .. هل هذا يليق؟.

ألا تشعر أن هذا يتضمن تشكيكاً أو شكاً في ذمتي أو ائتمـاني على مـيـزانيـة «الأهالي» .. لست في حاجة لأن أقسم لك إني أحياناً أتجادل مع بعض الزملاء على خمسة جنيهات .. هم يقولون المقال بـ ٣٥ جنيـهـا ، وأنا أقـول : لا ، يكفي ثلاثون جنيها.. ولكني أحياناً أضيف عشرين أو ثلاثين جنيها على مكافأة بعض العاملين المجدين.

على أية حال ، وحتى لا أطيل عليك ، إن هذا التعامل لم يعد يناسب الصحافة حـالياً .. ولكي ندرك جلية الأمر ، أشير إلى أني ذكـرت لك في المذكـرة السـابقـة مايلي:

«كي ندرك الارتفـاع في أسـعـار الكتابة، زميلة كانت تكتب في الأهالي منذ سنوات مقابل ١٥٠ جنيهاً شهرياً ، طلبت في الحلقة الواحدة ١٥٠ جنيها .

وأضيف اليوم : «.......» تدفع لأحد كـتـاب الأعـمـدة ٢٠٠ جنيـه في العـمـود الواحد ، وهي تستكتب في العدد مالا يقل عن عشرة كتاب ... أنا أتحدث عن الكتاب فقط ، وليس عن الصحفيين تحت التمرين .. وللعلم ، فإن عدد المعينين في «.........» الآن أكبر من المعينين في الأهالي ، وللعلم فـإن توزيع «............» يكاد يتـوازى مع توزيع الأهالي.

الزميل العزيز :

أرجـو أن تراجع الموقف بدقـة وبموضـوعية . لقد سبق أن وعدتك أني لن أتحدث مـرة أخـرى عن الاسـتـقـالة من الأهالي ، ولكم أن تتخذوا هذا القرار في

أى وقت تشـاءون .وإلى أن تأتى هذه اللحظة ، فـإنى سـأدافع عن الأهالى ، وسـأطلب منكم المزيد والمزيد ، وأرجـو ان تستعدوا من الآن للصدور فى ١٦ صفحة، بل فى عشرين صفحة ، ابتداءً من أكتوبر القادم . هذا مطلب لا يجب التخلى عنه . أرجـو – منذ الآن – ألا يكون التـمـويل مشكلة أو عائقاً . أما مشكلتى الآن التى أحـاسب عليـهـا فـهى التـحرير والعمل الصحفى والتفوق فيه ، فى إطار الالتزام بخط الحـزب . ولن أسـمح لنفـسى بالانشغال بأى أمر آخر .

وصحيفة عمرها ٢٠ سنة، ويملكها حزب محترم وتعبر عن اتجاه سياسى فى البلد لا أعتقد أن التمويل يمثل لها مشكلة، إذا تم التخطيط لمدة طويلة نسبياً، دون أن نقف عند طارئ فى هذا الشـهـر أو تلك السنة . وأرجـو – صادقـاً – أن يتـغـير أسلوب التعامل مع الأزمة المالية، فبدلاً من التفكير فى الحد من الإنفاق ، نفكر ونجهد أنفـسنا فى التـفكيـر فى زيادة الموارد . وهذه هى مسئولية مجلس الإدارة التى لم يقم بها . ولولا جهودك الشخصية لأغلقت الأهالى أبوابها، دون أن نغفل دور الأهالى فى التخديم على هذه الجهود، وحين نصل إلى «حـد الأزمـة» يجب أن نراجع ، ولا نتراجع .. ولكن مايحدث – بكل أسف – هو العكس .. ونبـدأ – مع كل طارئ – ونعيـد فى حكاية العـمـالة ، والذين لا يعلمون ناسين أو متناسين أن هذه إحدى مشاكل الصحافة المصرية ككل .. وأرجو أن نأخـذ «........» كـمـثـال . إن عـدد المنتجين فيها لايتجاوز ١٠٪ من المعينين واعـتـمـادها الأسـاسي على «اللى تحت التمرين» .. بينما تبلغ نسبة المنتجين فى «الأهالى» حـوالى ٦٠٪ .. يمكن ببـعض الأساليب أن نصل بها إلى ٨٠٪ . كـما يمكن ببـعض الحوافـز أن تـحـصل على عطاء أكبر من نسبة الـ ٦٠٪ . ولكن الذى يحدث هو العكس على طول الخط.

وأرجـو أن تضع نفسك أمـامى أمس (هكذا فى الأصل وأظنهـا مكانى وليست أمامى) – الأحد ٣ أغسطس – مشكلة مثارة اسمـها .... مشكلة جديدة هى الذين يعملون فى الصحف العربية – (.......) يشكو أمـامى مر الشكوى من (........) – ضجة حول المكافآت والجمع الخ .

بذمتك – أيها الزميل الصديق – هل هذا جو عمل وإنتاج، وأية رئاسة تحرير هذه؟. وكيف أخطط وأتابع وأعرف الذين لم يقوموا بواجباتهم .. وأسد النقص – كتابة وتحريراً بنفسى – بسبب اجازات الصيف أرجـو أن تثق – كل الثقة – أن الأهالى تصـدر بأدنى حـد ممكن من الإنفاق، أقصد «الإنفاق الجارى» ، أما

الأجور الثابتة (= أجور الزملاء المعينين فهي مشكلة أخرى، وإلا قل لي : أين العربية التي وعدت منذ شهور بعودتها للتحرير ؟ أين وكالة الأنباء؟....أين.... أين. لقد وصل الانخفاض في الإنفاق إلى حد تكاد معه الأهالي أن تختنق . ومتي؟ في وقت نشهد فيه منافسة صحفية لم تشهدها مصر منذ سنين طويلة . ومع ذلك، يتساءل الجميع : لماذا تتراجع الأهالي؟ لماذا تتخلف الأهالي من كذا وكذا؟ أين فلان وعلان؟

لقد كتبت لك أكثر من مرة أقول : إن الصحافة مهنة كلما أعطيتها أعطتك ، كلما أنفقت عليها منحتك ، وكلما قبضت يدك عنها حرمتك . صدقني إنها امرأة لعوب تحتاج إلى شاب في كامل لياقته ووسامته ، مملوء الجيب مبسوط اليد..

وسط هذا كله ، هناك هم شخصي كنت أريد ألا أحدثك فيه .. وهو أنني معروض عليّ العودة للعمل في الإمارات بمبلغ يصل إلى حوالي ١٨ ألف جنيه شهرياً ، بجانب مجموعة من الامتيازات يسيل لها لعاب أمثالي. ومع ذلك رفضت (جملة محذوفة) .. ونظراً لعلاقة الاحترام المتبادل بيني وبين هؤلاء الناس بعثوا لي برسول كان عندي في الأهالي منذ أيام.

وأرجو أن تثق أني لا أقول هذا منا على الأهالي .. إنها عندي أكبر من أن أمن عليها . ولكن حين أخلص لها ، على الأقل ألقى بعض الهدوء، ولا أظل أقضي نصف يومي في الحديث عن مشاكل (..........) و(.........) و(.........) و(.........) وغيرهم وغيرهم .. فضلا عن أمور أخرى من الدس وغيره ، لا ألتفت إليه ولا أهتم به، ولا أشكو منه ، فمن طبيعتي ألا ألتفت خلفي ، وألا «أشبك» شيئاً على شيء .. وهذه بالطبع «هبالة» وليست سياسة . ولكن هكذا أنا . هكذا خلقت . ولن أتغير وأنا في هذه السن . أليس كذلك يادكتور.

لقد تحدثت معك كأصدقاء .. وليس كزملاء حزبيين . وأسمح لنفسي أن أقول لك ، وأنا واثق أنك ستتقبل هذا القول مني، لأنك تدرك نبل دوافعه : ادفعوا للأهالي تندفع ، ولن أرضى بأن أستغل نفسي بعد الآن بالحديث عن دراهم معدودة . ومن جانبي ، لا أملك إلا الدفاع عن صحيفتي وصحيفة حزبي . وفي سبيل ذلك فإني مستعد لتحمل أي هجوم أو أذى شخصي لأنه لا يقلقني بل يزيدني قدرة على العمل والإنتاج . وأنا - والحمد لله - أعرف قدراتي الشخصية ولن أضن بها . وبجانب ذلك فإني مستعد لأي حساب أو مساءلة ، كما أني لن أكف عن مطالبتكم

بالإنفاق أكثر وأكثر من أجل النهوض بالأهالى.

ولك خالص مودتى وتقديرى،،

التوقيع ٤-٨-١٩٩٧

وأخيرا .. «استقالونى»

بعد هذه الرسالة ، وفى حديث مع الدكتور رفعت السعيد ، حضره الأستاذ خالد محيى الدين فى جزئه الأخير، اتفقنا على أن أعرف قبل إقالتى أو قبول استقالتى بثلاثة شهور على الأقل ، كى أستطيع ترتيب أمورى . وبالفعل ، سلمت استقالة غير مؤرخة إلى الدكتور رفعت السعيد ، فقال : «بلاش كلام فارغ» وقام بوضعها فى «مفرمة الورق» التى كان قد أحضرها لمكتبه قبل فترة قصيرة.

وفى هذا الوقت كان البحث على قدم وساق عن رئيس تحرير جديد ، وتعددت الأسماء التى طرحت ، بعضها كان قد طرح من قبل فى ١٩٩٣ . وطرح عندئذ اسم تم فى ١٩٩٣ عرضه على الأمانة المركزية ليكون عضواً فى مجلس الإدارة. واحتج على ذلك بشدة الزميلان حسين عبد الرازق وعبد الغفار شكر. وقال حسين إنه «فلانا» هذا عضو فى الحزب الوطنى، وإن ..... وإنه!

وفى أوائل ١٩٩٨ تجدد عرض العمل فى صحيفة «الاتحاد» وذهبت فى مارس إلى أبو ظبى . وكان مطلوباً منى أن أوافق فوراً ، وأتسلم العمل . ولكنى طلبت مهلة كى أرتب شئونى مع «الأهالى»، وكى لا أترك ابنتى وهى تستعد لدخول امتحان البكالوريوس بعد شهرين. والخير فيما اختاره الله . فقد وقع الاختيار على زميل لبنانى ، تقاضى حوالى ٣٥ ألف جنيه شهرياً عن شغل المنصب الذى كان معروضاً علىّ ... وكان خطأ منى أننى لم أقبل ، ولم أضرب عرض الحائط بالتزامات أخرى ، إذ تأكد بعد شهور وفى أثناء المؤتمر الرابع لحزب التجمع فى ٢٢ يوليو ١٩٩٨ أنى حاولت أن أكون ملتزماً بأخلاقيات أصبح دمها مسفوحا على قارعة الحياة الحزبية التى لا يجوز فى ظلها لأى صحفى أن يتولى أية مسئولية فى أية صحيفة حزبية إلا بناءً على عقد محدد المدة، وينص على عقوبات جزائية .. فلم يعد يكفى أن يكون المرء منتمياً للحزب ، أو عضواً بالانتخاب فى مستوياته القيادية ، مادامت «الدائرة الحديدية» - التى سلفت الإشارة إليها - قد أغلقت دونه!!. وعندئذ يستوى أن يقال أو يستقيل أو «يستقال» .. وهذا ماحدث . والله على ماكتبت شهيد.

جــزء خـــاص

الصحافة الحزبيـة

شهادتى

عن ١٥ عاما فى جريدة الـوفد


جمال بدوى

انعـدام الـهـيكـل المالى والإدارى أكبر مشكلة تواجه رئيس التحرير

بقلم : جمال بدوى


فؤاد سراج الدين

لم تكن الأحزاب السياسية في العصر الليبرالى (١٩٠٧ - ١٩٥٢) تملك صحفا، وإنما كـانت ملكيـة الصـحف لأفـراد أو لشركات يقيمها أثرياء ينتمون إلى الحزب، فجريدة «المؤيد» كان يملكها الشيخ على يوسف قبل سبعة عشر عاما من قيام حزب الإصلاح ، و«الجريدة» كانت ملك شركة تضم كبار الملاك فى حزب الأمة، وقبل ثورة ١٩٥٢ لم يكن حزب الوفد يملك صحفا ، «فالبلاغ» ملكية عبد القادر حمزة باشا، و«كوكب الشـرق» ملكيـة أحـمـد حـافظ عـوض، و«روزاليوسف» ملكية السيدة فاطمة اليوسف، و«المصرى» آلت ملكيتها إلى أسرة أبو الفتح، وجريدة «الوفد المصرى» كان يملكها حامد طلبة صقر.

ولم تبدأ ظاهرة ملكية الأحزاب للصحف إلا بعد صدور قانون الأحزاب الذى أصدره الرئيس الراحل أنور السادات، وأباح للأحزاب أن تصدر ما تشاء من صحف ومجلات دون حد أقصى. فأصدر حزب الأحرار صحيفته، وصدرت «الأهالى» عن حزب التجمع، وفى عام ١٩٨٤ أصدر حزب الوفد صحيفته الأسبوعية التى تحولت إلى يومية فى ١٩٨٧ . وكان لى شرف المساهمة فى إعدادها مع الزميل الراحل مصطفى شردى، وإذا كانت الأحزاب قد أفادت من حرية الإصدار ، فإن بعضها أساء استخدام هذا الحق بالمتاجرة فى الرخص الصحفية، أما حزب الوفد فقد برىء من هذا المسلك المشين مع الإفادة من حرية الاصدار فأصدر العديد من الصحف المحلية فى المحافظات والتى تحمل اسم «الوفد» وساهمت مساهمة جيدة فى ازدهار الصحافة الإقليمية.

ولا شك أن صدور جريدة «الوفد» المملوكة للحزب أتاح له فرصة التعبير عن توجهاته السياسية فى حرية خالية من هيمنة أصحاب الصحف، كما كان الحال قبل ثورة يوليه، مما أدى إلى انشقاق بعض أصحاب هذه الصحف عندما اختلفوا مع زعامة الحزب وهو ما حدث للبلاغ وروز اليوسف، وإن كان بعض هذه الصحف ظل على ولائه للحزب رغم اختلافه فى بعض سياساته العامة. وأبرز مثل على ذلك موقف جريدة «المصرى» من مشروع فرض الرقابة على أبناء القصر ، الذى تبناه الحزب، وعارضه أحمد أبوالفتح معارضة عنيفة أدت إلى وأد المشروع قبل أن يولد .

علاقة الجريدة بالحزب

طوال خمسة عشر عاماً عشتها فى جريدة الوفد، مديرا ثم رئيسا للتحرير ، كانت العلاقة بين الجريدة وبين رئيس الحزب - المرحوم فؤاد باشا سراج الدين - يغلب عليها الانسجام والتفهم والثقة التامة، ولم يكن رئيس الحزب يتدخل فى شئون التحرير إلا فيما ندر، وكان هذا التفهم يتم عبر لقاءات منتظمة فى مكتبه أو فى بيته أو عن طريق التليفون، وكان سراج الدين يعطى رئيس التحرير حرية شبه مطلقة فى الاشراف على شئون التحرير، وكان يقرأ المقال الافتتاحى - شأن أى قارىء - فيرى فيه تعبيرا صحيحا عن سياسة الحزب . وعلى هذا المنهج خاضت الجريدة كل معاركها السياسية والحزبية والعربية.

أما تدخل سراج الدين فى شئون التحرير، فلم يكن يحدث إلا نتيجة ضغوط هائلة من جانب عناصر شديدة التأثير عليه، ولعل أبرز مثل على ذلك أنه منع نشر مقال كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل - بموافقة مسبقة من سراج الدين - تصدى فيه لمشروع عقد مؤتمر يبحث فى شئون الأقليات المصرية (الأقباط والنوبة) فاضطر هيكل إلى نشره فى «الأهرام». وكان من نتيجته إلغاء المؤتمر المشبوه ، وخسر الوفد معركة كان يجب أن تضاف إلى رصيده التاريخى فى

الحفاظ على الوحدة الوطنية .

مشكلة الشئون المالية

أما المشكلة الرئيسية التى كانت تنغص على رئيس التحرير، فهى سلطة الاشراف على النواحى المالية والإدارية ، ورغم أن اسم (فؤاد سراج الدين) كان مقرونا بوصفه رئيسا لمجلس الإدارة، إلا أن هذه الصفة كانت صورية، ولم يوجد لمجلس الإدارة كيان على الإطلاق، وبقيت جميع هذه السلطات مركزة فى يد رئيس الحزب، فهو المهيمن على كل كبيرة وصغيرة ويراجع بنفسه كل تصرف مالى مهما قل شأنه، فيحذفه أو يعدله ، وكان من شأن التركيز أن يؤدى إلى تقييد حرية رئيس التحرير فى إدارة شئون الجريدة بدءا من تعيين المحررين وترقياتهم وعلاواتهم وانتهاء بصرف بدلات السفر المقررة لهم وفق نظام العمل، أو الاشراف الطبى عليهم خارج نظام التأمين الصحى الذى كان يتحرج منه المحررون . أضف إلى هذا حرمان المحررين من الميزات التى يتمتع بها زملاؤهم فى الصحف الأخرى مثل الأرباح، أو حقهم فى تشكيل لجنة نقابية كما يقضى بذلك القانون . أو إرغامهم على دفع إتاوات باهظة - بالدولار - بدون إيصال ، مقابل حصولهم على إجازات بدون مرتب للعمل فى البلاد العربية .

عمال وشغيلة

ولم تكن سنوات عملى فى الوفد تخلو من مناوشات مع بعض أعضاء الحزب، صحيح أن الشعور العام داخل الحزب كان يقوم على التأييد والمساندة للجريدة باعتبارها الصوت القوى المعبر عن الحزب ، إلا أن بعض الأعضاء كانوا يضمرون الكراهية للجريدة للسبب نفسه، ثم تزداد حدة الكراهية مع ترديد مقولة «إن الوفد صحيفة وليس حزباً»، وكانت هذه المقولة تأتى بنتائج عكسية تتمثل فى الإساءة إلى جهاز التحرير، واعتبار المحررين - بدءا من رئيس التحرير - ليسوا أكثر من شغيلة أو عمال يتقاضون أجورهم وما عليهم إلا السمع والطاعة ، أو أنهم مستوفدون .. وليسوا وفديين أصلاء، والحق أن فؤاد سراج الدين كان يتصدى لهذه النغمات الشاذة ، ويحسمها بما لديه من قوة التأثير على الحزب والجريدة .

محرمات ..

وفى ختام شهادتى أقول إن أعوص مشكلة كانت تواجه رئيس التحرير هى : إنعدام الهيكل المالى والإدارى للجريدة ، وتركيزها فى يد رئيس مجلس الإدارة بدون مجلس إدارة، مما أدى إلى انفراده بإدارة الشئون المالية بطريقة مغلقة عن طريق عدد محدود جدا من العناصر التى تحتفظ بكل أسرار الشئون المالية وكأنها كهنوت يحرم على غيرهم الاطلاع عليها بمن فيهم رئيس التحرير، أو أية قيادة فى الحزب مهما علا مقامها، ولم يكن أحد يعرف - أو يجرؤ على السؤال - عن ميزانية الجريدة ومكاسبها .. أو يطلع على وجوه الانفاق على أشياء لا علاقة لها بالجريدة من قريب أو من بعيد.

صالون الشباب ٢٠٠٠

بين لغة الواقع وافتعال الحداثة

بقلم: د. صبرى منصور

أكتسب معرض صالون الشباب السنوى للفنون التشكيلية خلال السنوات السابقة أهمية واضحة، فمن خلاله نستطيع أن نرى بعض ملامح مستقبل الفن التشكيلى فى مصر، والى أين يتجه.

ويعطى صالون الشباب فى دورته الثانية عشرة انطباعا للمشاهد بالتوازن بين الاتجاهات والأساليب، سواء تلك التى تعتمد على لغة الواقع ومفرداته فى صياغة فنية جديدة، أو تلك الاتجاهات التى تستهدف التجريب والتغريب والخروج على المألوف، والأعمال المعروضة فى كلا الاتجاهين تعكس فى مجملها محاولات جادة فى البحث عن ملامح ذاتية لم تتضح معالمها بعد، فهى إما تجاهد فى التخلص من جذور أكاديمية، أو تحاول الفكاك من أسر التيارات الغربية التى تسير على منوالها.

◄ مصريتان (٢) للفنان إبراهيم الدسوقى
جائزة أولى تصوير



انقطاع الصلة بالماضي

ولعل أهم ما يلفت الانتباه فى صالون الشباب هذا العام وما سبقه من دورات، ظاهرة تدعونا إلى التنبيه لها، وهى أن ابداع الشباب جاء منقطع الصلة بابداع أجيال سابقة مهدت الطريق لتحقيق ذاتية الفن المصرى المعاصر، ووضعت فى بنائه لبنات يجب أن تستكملها الأجيال اللاحقة، إذ أنه بدون وجود هذا التواصل لن نحلم أبدا بفن مصرى له ايقاعه الخاص المختلف عن فنون العالم، ويبدو أن الشباب لا يدرك أن الابداع الفنى فى وطن ما يجب أن يأتى متماسك الحلقات ليربط بين ماضيه وحاضره فى وحدة متجانسة، فليس هناك فن ينشأ من فراغ، أو يقوم مستقلا مكتفيا بذاته، فكل عمل ابداعى له أصوله التى يعتمد عليها، وربما كانت تلك اشكالية لم يكابدها جيل شباب الصالون الذين نضجوا خلال سنوات توارت فيها قيم أصيلة، وسادها نوع من البلبلة الثقافية والتشتت الفكرى، كما ساهم غياب التقييم النقدى السليم والموضوعى للابداع التشكيلى فى اختلاط المزيف بالأصيل، والجاد بالسطحى التافه. وذلك بالاضافة الى مفهوم خاطىء روجت له بعض الدوائر التى يهمها زيادة اللبس فى حياتنا الثقافية، ذلك المفهوم الذى يدعو الشباب الى التمرد والثورة على التقاليد، وتكريس مبدأ الحرية المطلقة فى التعبير بأى شكل وعن طريق أية خامة، ومع التقدير الخاطىء لأعمال اعتمدت على البدع والطرائف التى وصلت فى بعض الدورات الى أن يتقدم أحد الفنانين الشبان بعمل فنى باستخدام عظام ميت، كل ذلك ساهم فى توجيه الشباب نحو الاتجاه الخاطىء بالانسلاخ من تاريخهم وتراثهم والدوران فى فلك لا يؤدى الى نتيجة أو قيمة فنية عالية، كما صرف انتباههم عن دورهم الحقيقى فى استخدام ملكاتهم ومواهبهم الفنية من أجل استكمال حلقات الفن المصرى المرتبط بالوطن والمعبر عن قضاياه وعن تجسيد روح البلاد ووجدانها.

التقنية الفنية

ومن الظواهر الملفتة فى صالون الشباب تلك القدرة الحرفية العالية والمهارة المتميزة فى الاداء الفنى والسيطرة على الأدوات الفنية التى تتضح فى المعالجات الفنية المتميزة والحساسية المرهفة ، وتلك كلها أسس مهمة فى بناء العمل الفنى، وقد جاء ذلك على حساب مضمون الأعمال ومحتواها الثقافى، فأصبحت تبدو وكأنها استعراض للحرفية الفنية التى تخلو من المعنى وتفتقد الرسالة التى يجب أن يحملها العمل الفنى للمشاهد كى يتم التواصل معه

ويؤدى الأثر المنشـود، وربما كـانت تلك الظاهرة طبيـعيـة فى فترة سنية مـازالت تحتاج الى بلورة الرؤى واستكمال عناصر الشخصية، ومع ذلك فانه يحسن التأكيد على ضـرورة اهتـمـام الشبـاب بالبـعد الثقافى فى ابداعهم بتقديم رؤى يتكامل فيها الشكل الجيد بالمضمون العميق.

نماذج جادة

وعـديدة هـى الأعـمـال التى تنبىء عن موهبة حقيقية كما تعكس فى الوقت نفسه جدية فى تناول العمل الفنى، وجهـادا من أجل تحقيق مستوى فنى رفيع. ومن بين تلك الأعـمـال لوحـات الفنان **ابراهيم الدسوقى** الذى يعتمد أسلوبه على الشكل الواقـعى الذى يستـخـرج منه امكانيات تعبيرية قوية من خلال معالجة فنية خاصة تنمـو وتتطور فى خط صـاعـد، وهو فى أعـمـاله يقـدم المثل على قـدرة الصـورة الواقعية التى لا تنضب على التعبير الفنى، وهو فى هذا ينازل اتجاها يعتبر الأسلوب الواقعى قد انتهى زمنه، وهى نظرية خاطئة يروج لها أولئك الذين لا يعرفون حتى كيف يمسكون القلم .

ويقـدم الخزاف **منصـور فـرج** عـالما سحريا مكونا من أشكال خزفية عديدة تبدو كحفائر أثرية، أو صخور متآكلة بفعل مرور الزمن، واستطاع أن يجسد من خلال فن الخـزف عـالما اسطورى الطابع، وإن عابته رغبة فى مسايرة التغريب وذلك من خلال أشكال مدلاة قللت من جمال العمل وتكامله وأفسدت وحدته وشتت العين عن الاسـتـغـراق فى ذلك العـالم الخـيـالى الجميل.

ويعرض **المثال عصام درويش** شكلا نحتيا طوليا أجاد فيه الانتقال الهادىء للظلال والاضواء فى حوار فنى بليغ، وقـد اسـتطاع التـعـامل مع الكتل النحتية المتشابهة باحساس فنى دقيق .

وتمتلك الرسـامـة **فـاطـمـة عبدالرحمن** فى أعمالها المعروضة حساسية فنية مرهفة فى فن الرسم، وتجيد السيطرة على ريشتها التى تتنقل بها فى أجواء غامـضـة خـالقـة أشكالا تتسم بالغرابة والخيال، ولعلها تستفيد من أدائها المتمكن فى صياغة رؤى أكثر تركيبا وثراء.

وتعكس لوحـة مي **رفـقي** إمكانيـة مـخـتلفـة فى مـعـالجـة الشكل الواقـعى باحساس فنى مرهف، وفى صياغة فنية حديثة تعتمد على معالجة الفراغ المحيط بالأشكال بأسلوب غير تقليدى.

فى لوحته الثلاثية يقدم **يوسف نبيل راغب** اشكالا تعـبـيـرية لم تسلم من المؤثرات الغربية، وإن كانت تنم فى الوقت نفسه عن موهبة الفنان ورقة حسه الفنى



الجائزة التشجيعية في التصوير - مي مصطفى رفقي

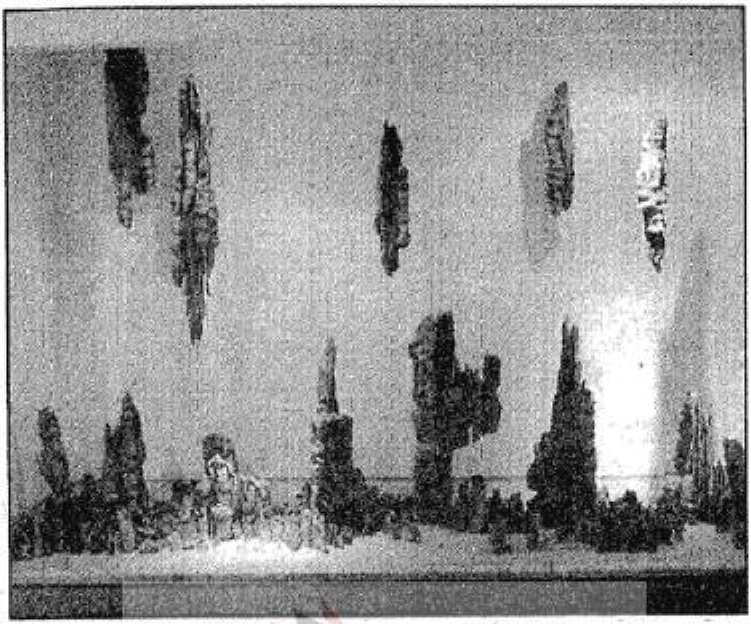
وشحنته العاطفية الصادقة التي تنطق بها أشكاله الدرامية .

الشباب ودائرة الاهتمام

سيظل الفن التشكيلي في مصر معزولا عن المجتمع والجماهير لفترة طويلة من الزمن لأسباب عديدة وعوامل متشابكة ساهمت في انصراف المصريين عن تذوق الفن التشكيلي وتقديره حق قدره بين باقي الفنون، لذلك فإن دائرة الاهتمام بابداع الشباب هي دائرة محدودة لا تتعدى الدارسين والمتخصصين، ومن هنا فانه يجب الحرص على تقديم الرعاية الكاملة لهؤلاء المبدعين وتشجيعهم على مواصلة الانتاج الفني ، وأن نعوضهم عن انصراف

الجائزة الثانية نحت - الفنان عصام درويش





الجائزة الثانية . خزف . منصور فراج

المجتمع عن ابداعهم وعدم تقديره بالشكل الملائم، الذى يكفل استمرارية تجربتهم الفنية وانضاجها والوصول بها الى المستوى الذى نرجوه جميعا للفن المصرى المعاصر، الذى سيظل - رغم كل شىء - دليلا على قدرة المصريين الابداعية فى مجال فنى دقيق لم يكد يبدأونه إلا منذ حوالى مائة عام فقط .

دعوة للتقييم

وعلى قدر الهدف النبيل الذى نرجو أن يحققه صالون الشباب فاننا ندعو المركز القومى للفنون التشكيلية لطرح القضايا التى تثير الجدل من حوله، ودراسة بعض السلبيات التى تفقده بعضا من بريقه، ومن بينها مشكلة تكوين لجان التحكيم ومنح الجوائز، وتلك مشكلة فى مصر عموما حيث يفتقد معظم الناس الموضوعية، ويتأثرون بالعوامل الشخصية والعاطفية مما يخل بميزان العدالة.

ونظرة واحدة الى العديد من الجوائز التى تمنح فى مجالات عديدة بما فيها جوائز الدولة سوف توضح اننا لازلنا بعيدين عن التجرد والموضوعية ، وصحيح أن منح الجوائز للبعض وحجبها عن البعض الآخر سوف يظل مثيرا للجدل واختلاف الآراء، ولكن تلك عملية نسبية يجب أن تتم محاصرتها بقدر الامكان



تصوير للفنان يوسف نبيل راغب

وذلك عن طريق الانتقاء الدقيق لأعضاء لجان التحكيم الذين يمتلكون الخبرة الكافية للتقييم ويتمتعون فى الوقت نفسه بالحيدة والموضوعية.

كما يمكن النظر في تعديل دورات اقامة الصالون ليكون موعده كل سنتين بدلا من الصالون السنوى حتى يمكن اتاحة الوقت الكافي للشباب من اجل الانتاج الفنى المتمهل بدلا من اللهاث والعجلة التى تفرز اعمالا متسرعة غير ناضجة للحاق بالموعد السنوى .

أما الجوائز العديدة التي يتوه فيها المشاهد ويتحير بين مسمياتها المتنوعة فهى فى حاجة الى اعادة نظر كى تحقق الهدف المرجو منها .

وكذلك فإن أعمال الفنانين المشاركين كان يجب تضمينها دليل المعرض فهو الوثيقة الباقية التى ستكون ذات فائدة محققة بعد انتهاء المعرض ومرور السنين.

كل تلك عوامل يمكن أن تجد الحل المناسب لكى نوفر لصالون الشباب السنوى نجاحا أكبر ونهيىء له امكانية أفضل للقيام بدور اكثر ايجابية فى الحركة الفنية التشكيلية المعاصرة .



الاسرة الخامسة تمثال (كا اير) شيخ البلد - خشب عيون كريستال.

العيون الفرعونية

● اذا فتحت عينيها يعود الي جسدي شبابه

● نظرات أبدية انتظمت بها حبات مسبحة الفنون المصرية

بقلم : د. محمد المهدى



عيون خفرع - حجر ديوريت (الاسرة الرابعة)

حينما تصيب الانسان الدهشة، تتعلق العيون فى خط مستقيم.. خط لا نهائى.. أبدى، أزلى.. هكذا كانت العيون المصرية، تأمل فى عيون تماثيل الفراعنة، ستعرف لماذا حنط المصرى الجثة؟ لماذا أحاطها بمظاهر الحياة اليومية؟ لماذا أبدع فنونه وأساطيره فى مقابره ومعابده؟ لماذا أيضا أمتع يومه،، وأحب غده، وأبدع شعرا حسيا عذريا فى آن؟ يقول شاعر مصرى قديم :

فإذا فتحت عينيها يعود الي جسدي شبابه

ولكن لماذا التحنيط والأدوات البسيطة فقط؟ لماذا لا يجعل الحضور كاملا لشخص المتوفى؟ لماذا لا يرسمه على جدران مقبرته بملامح ثابتة غير معرضة لانفعال مؤقت؟

امتدت الأيدى الى جدران المقابر تضع الخطوط الأولى للفن المصرى ولأن الزمن عند المصرى القديم أبدى ومستمر. فالماضى والحاضر والمستقبل حاضر مادام البعث سيستمر بالحياة، لذلك جاءت ملامح الرسوم تجريدية أبدية.

وتأمل تمثالا يونانيا الى جوار تمثال مصرى، الأولى يجسب الزمن وبالتالى عند التسجيل يوقفه. يوقف الملامح بانفعال مؤقت.. غضب، حزن، فرح ولكن التمثال المصرى يجعل فروق انفعاله طفيفة. تأمل تمثال «ميلو» اليونانى المبتور الذراعين، وقارنه بتمثال «نفرتارى» المصرى، تلحظ الفارق بسهولة بين اللمسة الفنية لدى كل من الفنان اليونانى

والمصرى القديم. الأول يعمد الى تقليد الطبيعة فى مثالية النسب والأبعاد، والمصرى القديم يعمد الى تحدى الطبيعة ليصور فى خطوط بسيطة عالما خاصا به، وبتصوراته الخارجة عن الطبيعة .

وليست هذه مفاضلة حضارية، ولكن مقارنة ندرك منها أبعاد الخطوط الأنثوية البسيطة على (جسد) التمثال المصرى القديم .

رسم العين

الفنان المصرى كان يوقف خطوط الطبيعة بطريقته ومن خلال فكره، وأفضل طريقة اكتشفها لذلك هو رسم جانبى للوجه فى لحظة ثبات (بروفيل)، ثم صدر مفتوح باتساعه كاملا مع اظهار اليدين وما تحملان، ووضع شبه جانبى للوسط، ثم يعود عند الساقين الى الوضع الجانبى الكامل. وتبقى أهم مرحلة للحضور واكتمال الهيئة وهى رسم العين. فاذا كان الوجه جانبيا فالعين ـ غافلا المنظور ـ تبدو كاملة من الامام. متسعة. محدقة. تمتد فى هدوء المتصوف وتحديه الى الأبدية. تستعد أيضا اكتمالا لفكر الفنان لالتقاط الروح الباحثة عن صاحبها . لا تضيع فى البحث عنه بين انفعالات مؤقتة آنية . زائلة .

وتأمل لوحة الفنان (جوجان) المعروفة باسم (السوق) ستجد هذه المعالجة الخاصة، ولكن من خلال دراسة وخبرة فنان فرد، فنان قرأ القديم والحديث وزاوج بينهما.. وتأمل بعض أعمال (بيكاسو). ستجد التحضير الجانبى للوجه (البروفيل) بطريقة متعمدة، ستجد العين المتسعة الكاملة الحضور تتحدى المنظور الجانبى .

وتأمل فى عيون تماثيل المصرى القديم فى الأسرات الأولى، ستلحظ هذه النظرة المحدقة «المحايدة». عيون تمثال (خفرع)، ذات الهدوء والسيادة فى نظرات مستقيمة، أو فى تمثال (نفرت ورع حتب) المصنوعة من أحجار الكريستال النادرة، أو عينى تمثال (شيخ البلد) المطعمتين، حافتهما من النحاس، وبياضهما من الكوارتز الشفاف، وقرنيتاهما من البلور الطبيعى، وانسان العين يتألف من ثقب صغير أسطوانى مجوف خلف القرنية، وقد حشى بمادة سوداء يرجح أنها من الراتنج .

ويعد هذا الجهد فى تكوين العين والعناية بها ، تأتى النظرة محدقة أبدية، نظرة مقصودة. كل الجهد موجه لها ، كل الخبرة كانت من أجلها. خبرة التاريخ، وخبرة الفرد .

واذا أدار رأسك مخزن الفنون أو ما يعرف بالمتحف المصرى فى تأمل نظرات المصريين القدماء، فيمكنك أن

تكتفى بنظرة لتمثال ضخم قيل انك تستطيع ان تتمشى على شفتيه، تأمل عيني تمثال (أبو الهول) فانها أيضا عينا (خفرع). وعينا الفن المصرى القديم .

عيون السماء

الفلاح المصرى البسيط جاء عليه يوم احتاج لمعونة جاره. واحتاج اليه جاره، التقى الرفيقان بغيرهما، وتكونت الجماعة فى الجنوب، عرفت الزعامة وخرجت تبسط فى الأرض سلطانها. وفى الشمال كانت هناك جماعة أخرى كونتها أيضا ضرورة التعاون. تحركت الجماعتان. اقتربتا. اشتبكتا. قام الصراع. وانزوى فى ركن بعيد رجال صلع الرؤوس عرفوا بالكهنة، يفكرون فى أفضل الحلول لايقاف القتال بهدف خبيث. هب أحدهم قائلا : إن الملك اله. إنه فوق البشر. فوق الصراع.. وتوقف القتال .

فى حالة السلم بحث الكهنة للملك عن طقوس، وأسرار، وأساطير يتحاشون بها تمرد البشر. تطلعوا الى السماء. بحثوا عن عينيها. انتهوا الى ان الإله (حور) رب السماء عيناه الشمس والقمر، وحاول كهنة عين شمس الاحتفاظ بمكانة الههم (رع) فوزعوا الأعين. اختص (حور) بعيني (قمر) ، و(رع) بعيني (شمس) .

وعندما انتقل اوزيريس الى العالم السفلى بعد صراعه مع أخيه (ست) بكته (ايزيس) بدموع غزيرة، تساقطت فى النيل.. فاضت.. أغرقت الأرض.. وكان الفيضان. واحتفل المصرى بعيد (ليلة الدموع) فى شهر يونيو. أما (حور) ابنها فقد جدد الصراع مع عمه، تمكن (ست) الغاضب من نزع عينه، ولكنه استرجعها وقدمها لأبيه ليسترجع بصره، أصبحت العين عند المصرى القديم رمزا لكل قربان جميل، وهدية غالية تقدم للمتوفى .

عيون العفة

عيون ايزيس وأوزيريس. عيون الالهة. عيون الأخوة أيضا. هكذا اقتضت عقائد القدماء، زواج الأخوة الالهة، وزواج الأخوة الملوك حتى تصفو الدماء من ملوثات البيئة البشرية. ويقول خبراء الفرعونيات : انه لم يثبت لدينا الى الآن ان عادة زواج الأخوة كانت شائعة بين عامة الناس، ولكن ذلك لم يمنع عبارات الأخوة متبادلة فى حوار أو بيت شعر موجه من الزوجة للزوج أو العكس .

علاقات الأخوة بمعناها الانسانى بين الزوج والزوجة اعطت فرصة للفنان لرسم عيون (العفة) . عيون الوقار. الزوجة فى بيتها تسمى (بنت/ بر) أى سيدة البيت. وفى قبور العامة كانت الزوجة ترسم بنفس حجم زوجها. تلون بلون فاتح ضارب الى الصفرة، بينما



نفرت ورع حتب ـ اول الاسرة الرابعة

رأس النسر رمز الإله حورس من الذهب القرن ٢٣ ق . م





لوحة السوق (جوجان) ۔ ١٨٩٢)



اخناتون ١٤ ق. م

يصور الرجل بلون ضارب الى الحمرة وكان للفنان فلتاته حتى في رسم الوقار الملكي، تأمل نظرات (توت عنخ آمون) فى الصورة المرسومة خلف مقعده. تأمل نظرات زوجته وهى تقترب من الملك الجالس بلا تكلف، فى احدى يديها اناء عطر، تأخذ منه باليد الأخرى لتلمس به كتف زوجها برقة. ومن اشهر الصور ايضا صورة اخناتون الملك الحالم.. الزوج، والزوجة والأولاد تجمعهم نظرات دافئة تحت أشعة قرص الشمس (اتون) .

وغريبة هذه الصلة التى ماتزال تربط بين العيون ، والقطة، والمرأة، الفنان المصرى القديم اهتم بعيون القطة خاصة فى منحوتاته الشهيرة. عيون القطة تتدرج بشروق الشمس الوانا الى أن يظهر القمر. لقد انزلوا عيون السماء ووضعوها فى عيون المعبودة القطة (باستت) .

مقدمات اخناتونية

ومنذ أكثر من ثلاثة آلاف عام خرج (اخناتون) الى الخلاء بحثا عن (ماعت) الحقيقة . تعارك مع والديه . اقام الدنيا، واقعدها. ترك طيبة واقام مدينته الجديدة فى (تل العمارنة) .

وحينما تتأمل عيون اخناتون ستلحظ شيئا جديدا . لقد انسحبت الخطوط الى اعلى مع الحواجب، وضاقت فى غموض اشبه باللوز وبالتالى صاحب ضرورة التكوين الجمالى للوجه انسحاب الخطوط لاسفل فى ضمور. خدود غائرة. ذقن بارز. غلظ بالشفتين .

واذا كان اخناتون قد أتى بجديد فى طرح فكرة التوحيد، فإنه لم يكن من العبقرية ليحدث انقلابا فى الابداع الفنى. مقدمات التغيير الفنى كانت قد اعدت على يد الفنان من قبل . ونرجع فى ذلك الى والدى اخناتون نفسه. تستطيع ان تلتقى بهما فى مدخل المتحف المصرى فى تمثالين ضخمين يجلسان حقيقة فى وقار، ولكن فى عيونهما لمحة (لوزية) اخناتونية قبل الأوان. وأوضح من هذين التمثالين، هناك رأس (امنحوتب) الثالث والد اخناتون و (تى) والدته. فى عيونهما مقدمات انسحاب الخطوط الى اعلى ، وبقية خطوط وجه الوالد من أنف وشفتين، وذقن تحمل ملامح الابن، ولكن بغير المبالغة الاخناتونية.

العيون الحرة

ويقال ان عصر الدولة الحديثة كان أيضا عصر عيون المرأة الحرة. يحدثنا موظف اسمه (خنوم ردى) أنه كان أمينا لمكتبة سيدة عظيمة تدعى (نفرو كابيت) .. يقول (هذه السيدة عينتنى فى دندرة مشرفا على خزائن الكتب الخاصة بأمها. كانت مولعة بالعلوم والفنون. وقد زدت فى عدد ما

تحويه المكتبة من كتب. وجلبت لها كثيرا من المؤلفات القيمة حتى لم تعد تتسع لأكثر من ذلك. وقمت بترتيبها أحسن ترتيب، وربطت ما كان منها مفككا).

فى هذه الفترة نلحظ حرية الفنان فى تصوير رشاقة قد المرأة.. خفة حركتها، تارة تسبح بين زهور اللوتس، ونبات البردى، كما يصور لنا منظرا لإحدى السيدات وهى تستحم على أحد جدران مقابر طيبة. وتارة تلعب الكرة كما فى مناظر بنى حسن من الدولة الوسطى، وهناك لوحة شهيرة تجدها دائما فى العاب الاولمبياد تصور مجموعة من الفتيات وهن ينثنين بأجسامهن الى الخلف حتى يكون نصف دائرة على الارض، ويلمسنها باطراف اصابع اليدين والقدمين.

المرأة الحرة صارت عيونها جريئة فى التصوير وفى الواقع. صار من حقها طلب الطلاق. تمتعت بحق الامتلاك. والبيع والشراء وأداء الشهادة.. وميراث العرش .

عيون هذه المرحلة واثقة قوية. لقد اتسعت رقعة الدولة. تمتعت بالثراء. أرخى الثراء أحيانا يد الفنان يصور الترف فى خطوط لينة. كان طبيعيا أن تستمر خطوط الفنان المصرى بعد اخناتون فى سيرها الطبيعى. تأمل نظرات (توت عنخ آمون). تأمل الحواجب والجفون المرصعة باللازورد تراها تخدم الاتجاه القديم. وكان النصر الذى حصل عليه الفنان باختراق السياج الملكى والدخول الى جلساته العائلية ليسجلها، يخدم الاتجاه الجديد.

فى عصر العظمة الحربية. فى عصر الرعامسة (جمع رمسيس) كان الاهتمام بالضخامة يماثل ضخامة الاحداث. فى معابد الرمسيوم، والكرنك ، والاقصر، ومنف ، وصان الحجر. ومعبدى ابو سنبل. تأمل نظرات رمسيس الثانى، ونفرتارى عند مدخل معبدى ابو سنبل. لا يمكن ادراك ثابتها الا من بعد يخفف من ضخامة التمثال ويظهر ملامحه .

وتنحدر مع عصور متأخرة العيون. تحمل الهم، كفاح الغزو، غزو يونانى يليه رومانى . تصيب الحواجب التقطيب. تحيط بالعين هالة سوداء.

ويسجل الفنان المصرى القديم لأول مرة لحظة الانفعال المؤقت. لحظة المرارة. ضاعت نظرات الأبدية. نظرات تصل الأولى بالآخرة . لقد امتلأت النفوس بالشك، والعيون بأدران الواقع. كان عليها أن تنتظر فسحة جديدة من الأمل ستأتى مع الزمن .



محمد هنيدى فى بلية ودماغه العالية



هنيدى فى ثانى أفلام الثلاثية



علاء ولى الدين فى أكثر من دور



علاء يغنى فى «الناظر صلاح الدين»

السينما
بين أزمة النقد ونوم العقل

بقلم : مصطفى درويش

لكل أزمة سبب، أما أزمة السينما عندنا، فلها أسباب، أذكر من بينها على سبيل التمثيل، فقر الفكر فى السيناريوهات، ورسوخ الرقابة رسوخ الجبال، فضلا عن داء الاستسهال.

والأهم اختلاط الحابل بالنابل فى مجال النقد، على نحو أصبح معه الجيد من الأفلام رديئاً، والردىء منها جيدا. وليس أدل على استفحال خطر السبب الأخير، ذلك الغلو فى الاشادة بـ «الناظر صلاح الدين»، بواسطة أقلام نفر من النقاد.

قلم طائش

ولعل خير مثل على ذلك، ما خطّه قلم ناقد مرموق إشادة بأداء «علاء ولى الدين» لدور الأم فى الفيلم. فماذا خط قلمه، تعبيرا عما أشاد به؟.

من بين ما خطّه أنه، أى علاء، قد لعب دورها، أى الأم، باتقان يصل إلى حدّ الإعجاز. فقدم من خلالها برهانا ناصعا على قوة أدائه، ونقاء فنه.

وما علينا إلا أن نتذكر مشهد الأم الراقصة مع فتيات الباليه الروسيات، الذى وصل فيه إلى المستوى الذى وصل إليه «چاك ليمون» فى رقصة التانجو فى فيلمه الشهير أمام مارلين مونرو (يقصد «البعض يحبونها ساخنة»).

وهكذا، بسحر ساحر، ارتفعت منزلة

علاء، دون حياء، إلى منزلة نجم متعدد المواهب، تخرج فى جامعة هارفارد، وجرى ترشيحه لأوسكار أفضل ممثل ثماني مرات، وفاز بجائزتها مرتين.

وليس من شك أن الارتفاع بمنزلة علاء على هذا النحو، لما يدخل فى باب العجب العجاب.

سرّ علاء

فلا أحد إلا ويعلم أن أداء «علاء» فى جميع أفلامه السابقة على «الناظر صلاح الدين» لم ينهض على أساس أنه ممثل يؤدى الأدوار المكلف بها، بقوة ونقاء.

وإنما نهض على أساس أن الطبيعة حبته، وربما ابتلته، بصفة غير متوافرة فى غيرة من الممثلين، وتلك الصفة تنحصر فى أنه بدين.

ولأن بدانته مفرطة، استغلها المخرج «شريف عرفة»، فأسند له الدور الرئيسى فى «عبود على الحدود».

ولأمر ما، لعله بدانة «علاء»، حقق «عبود» نجاحا كبيرا، رغم هبوط مستواه فنيا.

وبفضل ذلك النجاح عاد «شريف» فاستغل بدانة «علاء» فى فيلم ثان، عنوانه «الناظر» فى بعض النسخ، و«الناظر صلاح الدين» فى بعضها الآخر.

النسخة التى شاهدتها فى سينما مترو كانت بعنوان «الناظر صلاح الدين».

وبدلا من استغلال بدانته فى دور واحد، عمل «شريف» على استغلالها فى ستة أدوار، مقلدا بذلك «إيدى ميرفى» فى الفيلم الأمريكى «الأستاذ المجنون»، حيث لعب «ميرفى»، فيما أتذكر سبعة أدوار.

وعلى كل، فمن بين الأدوار التى لعبها «علاء» دور زوجة الناظر الأب وأرملته وأم الناظر الابن.

غياب الذوق

وقام «علاء» بأداء الأدوار الثلاثة، على نحو كان لابدّ وأن يثير اشمئزاز أى صاحب ذوق سليم.

ولا غرابة فى ألا يثير سوى الاشمئزاز، فأداؤه لم يكن انطلاقا من الفهم للشخصيات الثلاث - الزوجة والأرملة والأم - وأبعادها.

كما أنه لم يكن بذوق وليد الحياء، وإنما كان وليد فهم خاطئ، انحدر بالأداء إلى التشويح بالذراعين، والتلعيب للحاجبين، والتحريك للرأس على الجهتين، بغير قصد سوى التهريج، والكاريكاتور الرخيص.

أما الذوق المهذب، ففى ستين داهية!

مقارنة ظالمة

ولو أجرينا مقارنة بين أداء «علاء» لدور امرأة بأداء كل من السير «اليك جينيس» و«جاك ليمون» و«داستن هوفمان» لأدوار نسائية فى «قلوب طيبة وتيجان صغيرة» و«البعض يحبونها ساخنة» و«توتسى» لجاءت المقارنة فى غير صالح «علاء» ما فى ذلك شك فما أبعد الثرى عن الثريا.

ولم يكن فى نيتى أن أجرى مقارنة بين أداء «علاء» وأداء غيره من نجوم السينما الانجليزية والأمريكية، فمثل هذه المقارنة تنطوى على ظلم بيّن لنجم مصرى، لم يزعم فى يوم من الأيام، أنه صاحب موهبة فذة فى التمثيل.

ولم يحاول أبدا أن يضع نفسه فى مصاف «چينيس»، «ليمون»، «هوفمان»، ولا حتى «ميرفى» النجم الأسود المتعدد المواهب.

وإزاء هذه المقارنة الظالمة، ما عليه إلا أن يردد قولة حكيم المعرة، مع بعض التعديل، هذا ما جناه علىّ النفاق، وما جنيت على أحد!!.

القاعدة والاستثناء

وأيا ما كان الأمر، فالناظر بدون «علاء» لا يساوى شيئا.

فقصته إن كان له قصة لا تعدو أن تكون تكرارا لمدرسة المشاغبين، تلك المسرحية التى جرى ترجمتها إلى لغة السينما، فى فيلم أخرجه حسام الدين مصطفى، فأفسد به أجيالا ورموزه فجة وغليظة فى آن معاً.

أما فن التمثيل، فقد انخفض إلى مستوى، ليس له ما تحته.

فباستثناء «حسن حسنى» الذى لم يكن فى أحسن أحواله، لم يتخلص تمثيل الجميع من داء الزعيق والتشويح.

غرائب الأفلام

ومع ذلك، فالناظر كان أنجح أفلامنا المصرية فى الصيف الأول من الألفية الثالثة، متفوقا بإيراداته على «بلية ودماغه العالية»، آخر أفلام «محمد هنيدى» الذى تزامن صعوده مع صعود «علاء».

ويوحى عنوان فيلم «هنيدى» بأن موضوعه يدور حول الكيف وقعداته.

ولكن العنوانْ مضلل، فالموضوع على العكس من ذلك تماما.

ففيما عدا إغراء أحد أصدقاء «بلية» – محمد هنيدى – من حين لآخر، بشدّ بضعة أنفاس مع شلّة أنس فى قارب شراعى بالنيل، وخضوعه للإغراء، والفيلم يقترب من ختامه السعيد، حيث نراه فى القارب، وقد انطلقت حنجرته، دون أن يشدّ أى نفس، تشدو، ربما تحت تأثير النسيم العليل أو دخان أنفاس الشلّة، بكلمات أغنية الفيلم الوحيدة، ومن أهم مقاطعها «انسى وخليك ريلاكس (أى على راحتك) وابعت للدنيا فاكس».

عودة الروح

فيما عدا ذلك، جاء الفيلم، رغم ايحاءات عنوانه، خاليا من قعدات المزاج التى عانى منها جمهور السينما، زهاء ثلاثين عاما، بدءا من «ثرثرة فوق النيل» للمخرج «حسين كمال».

وأغلب الظن، أن مجيئه خاليا من مشاهد التعاطى بجميع ألوانه، وذلك فيما عدا مشهد شلة الأنس فى القارب الشراعى، إنما يرجع إلى مراعاة أصحابه تجنب المساس بشعور جمهور «هنيدى»، المكون أساسا من أسر محافظة، فقدت تحت تأثير التليفزيون، عادة مشاهدة الأفلام فى دور السينما، ولم تسترد تلك العادة إلا بفضل تعلق قلوب الصغار «بهنيدى»، منذ «اسماعيلية رايح.. جاى»، وبالتحديد أغنية «كامننا».

ثلاثية آل العدل

ويعد «بلية» الفيلم الأخير فى ثلاثية «هنيدى» مع كاتب السيناريو «مدحت العدل»، تلك الثلاثية التى بدأت، عقب نجاح «اسماعيلية رايح .. جاى» غير المتوقع، بفيلم «صعيدى فى الجامعة

الأمريكية» فـ «همام فى أمستردام».

والقدر المتيقن أنه أضعف أفلام تلك الثلاثية، وأقلها نجاحا.

وفى اعتقادى أن هبوط مستواه، وما صاحب ذلك من انخفاض الاقبال على مشاهدته، وهو بكل المعايير انخفاض حاد، كلاهما يؤذن بأوخم العواقب بالنسبة لهنيدي، وذلك إذا لم يتدارك الأمر، فيعمل على مراجعة مسيرته السينمائية، صعودا وهبوطا، بأن يسائل نفسه متى وأين أخطأ، وهو أمر من الصعوبة بمكان!!.

الفشل .. لماذا؟

وفشل «بلية» يرجع فى رأيى إلى تفكك سيناريو «العدل»، فهو عبارة عن قصاقيص أو للمات، بعضها مأخوذ من أفلام مصرية قديمة، لاقت نجاحا في زمانها، وبعضها الآخر مفتعل أشد افتعال.

وهنا، أذكر على سبيل المثال مشهدين أولهما مشهد انفجار سيارة أحد زبائن الميكانيكى «بلية»، وتعرض الأخير بسبب ذلك لضرب مبرح، انتهى به مثخنا بالجراح.

ثم ذهابه، وهو على هذه الحال، إلى إحدى دور السينما، حيث كانت تنتظره محبوبته، بنت الأكابر (غادة عادل)، وخلفها شابان، يغازلانها دون حياء.

وزيادة في جرعة الاستغراب، ولا أقول الاستظراف، تطلب إلى «بلية»، دون أن تلحظ آلامه وأوجاعه الظاهرة بوضوح، أن يوسع الشابين ضربا.

أما المشهد الثانى، وهو أكثر غرابة، فيبدأ بامرأة تأمر «بلية» أن يستقل سيارتها، وهى معه، إلى حيث شقتها، فحجرة نومها، كل ذلك، وهو فى حيرة من أمره، لا يعرف سببا لتصرفها معه على هذا النحو.

وماهى إلا بضع لقطات، بعد وجوده فى غرفة النوم حتى يكتشف أنها لم تصطحبه إلى غرفة النوم، إلا لإثارة غيرة زوجها، أو ربما عشيقها.

وها هو ذا، يطارده، وقد استبد به الغضب لشرفه المهان، حتى ينتهى به الأمر مضروبا، مرة أخرى، ضربا موجعا.

أين العقل؟

ومن مظاهر تفكك السيناريو على نحو غير مسبوق بالنسبة لكاتب سيناريو مرموق مثل «العدل»، ذهاب بلية إلى حبيبة قلبه، ومعه وثائق دامغة لسلوك خطيبها ابن الذوات (أحمد زاهر)، لو ألقت نظرة عليها لفسخت خطبتها فى ثوان.

غير أنها ما أن صدته، حتى تركها محبطا، مكتئبا، دون أن يطلعها على تلك الوثائق.

ولقد اتخذ «العدل»، ومعه المخرج المخضرم «نادر جلال» من إصابة «بلية» بالاحباط والاكتئاب ذريعة للذهاب به إلى غرزة المركب الشراعى، حيث غنى، متسائلا «هل الدنيا من الدناوة، ولا من الضنى» ورداً على تساؤل العدل نقول إنه، ورغم فيلمه، فالدنيا ليست من الدناوة، ولا من الضنى، الدنيا بخير!!.

التجريبى بعد اثنتى عشرة دورة



لقطة من تجريبى هذا العام

المسرح التقريبى

بقلم :مهدى الحسينى

تقريبا .. هى اللفظة التى تدور فى ذهن كثير من المتحدثين - حتى ولو كانوا من المتخصصين جدا - فى هذا الموضوع . وتقرب إلى ذهنى ما يدور فى تلك الندوات التنظيرية التى عقدها المهرجان فى كل دوراته ، صورة تلك المجامع العلمية بعد انهيار مدرسة الاسكندرية ، خاصة فى العصور الوسطى ، لدراسة السيمياء والبحث عن حجر الفلاسفة ومحاولة تحويل الحديد إلى ذهب .. والرصاص أو الفحم إلى ماس ، وسبل استخراج الشياطين من أجساد المخابيل !!.

ويدهشنى اليقين والحماس الذى يتحدث به البعض فى هذا الموضوع، وكأن هذا المسرح (التجريبى) هو الاقتراح الفذ الأوحد الذى يقترحونه على البشرية لتجد فيه متعة لا مثيل لها، ولتصبح عروضه هى عروض القرن الجديد .. بل والقرون التى تليه.

ومنذ الدورة الأولى يأتى إلى القاهرة عديد من المنظرين والأكاديميين والفنانين والنقاد وأبناء السبيل ليدلوا بدلوهم فى محاولة للعثور على تعريف لهذا المسرح .. تعريفا محددا .. دون جدوى، مع ملاحظة أننا الآن فى الدورة الثانية عشرة، وفى العام الثالث عشر !! فمتى ؟!

غياب الهدف !

وترجع المسألة - إذا كان الأمر جادا والمتحدثون جادين والضيوف ليسوا سائحين مجانين والمهتمون مبالين إلى غياب الهدف أو عدم تحديده أصلا من هذا النشاط - فهل نحن كمصريين مسئولون عن تطوير المسرح فى العالم وتحريك مياهه الآسنة ؟، هل نحن فى وضع القيادة الثقافية من العالم فى هذا المجال حتى نسعى لتحقيق هذا الهدف على مستوى مسارح العالم ؟، هل يسمح تاريخنا المسرحى وخبراتنا منذ صنوع سنة ١٨٧٠ وحتى اليوم .. أن نقود حركة تجديدية مسرحية عالمية ؟، هل استغرقنا هذا التاريخ وتلك الخبرات ودرسناها وخرجنا منها بمنهج إبداعى مصرى يصلح أن نساهم به فى الحوار مع الشعوب الأخرى فى هذا الفن ؟، هل أتيحت فرص كافية للمبدعين المصريين مع إبداعاتهم وجماهيرهم كى ينتجوا وينضجوا .. فنخرج بهم إلى مثل هذا المهرجان فيشكلون بؤرة من أهم بؤره؟ هل أتيحت لهم فرص التعرف على الذات القومية : التاريخ والتراث الثقافى والفولكلور والجغرافيا والبشر .. حتى التشبع، وبالعلم، حتى إذا صدروا بمنتج فنى يكون منتجا مصريا خالصا ؟.

إذن لننظر إلى أنفسنا ولو قليلا : لقد كان قيام مسرح يعقوب صنوع بحديقة الأزبكية بمثابة التجربة المسرحية الأولى بالنسبة لنا، وفى كل جوانب العمل المسرحى ومناصرة، بصفته العرض المسرحى المصرى الأول. ثم كانت أعمال المسرحيين المصريين وحدهم أو بالتعاون مع المتمصرين الشوام ابتداء من فرقة سلامة حجازى .. ثم أعمال عزيز عيد وجورج أبيض والريحانى ومحمد تيمور وسيد درويش وأولاد عكاشة والكسار .. وحتى قيام فرقة يوسف وهبى فى مسرح رمسيس، وكلها تجارب رائدة هى فى

جملتها محاولات لبلورة صيغة لمسرح مصرى مستقل عن الدولة وفى مواجهة الرقابة وفى علاقة قوية مع الجمهور الممول ومعيار النجاح . ثم كان تقديم «أهل الكهف» من خلال أول فرقة حكومية منظمة سنة ١٩٣٥ ، وكانت تجربة تتعلق بمعالجة عصرية للتراث وأختبار اللادارة الذاتية فى فرقة حكومية ناشئة . وإذا ما مضينا إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فإننا نجد فى المسرح المصرى أصداء لمراحله السابقة ، مع بعض التطور فى أساليب مخاطبة الجمهور ، وكان فرسان هذا المسرح هم الريحانى والكسار ويوسف وهبى إلى جانب الفرقة القومية الحكومية .. ثم فرقة المسرح المصرى الحديث شبه الحكومية والتى قدمت طعما مغايرا بفضل العائدين من البعثات .

وفى أثناء الحرب وبعدها نجحت الحركة الوطنية فى الضغط على الحكومات من أجل إنشاء «معهد التمثيل المسائى» ، بلا مقر ثابت وبتمويل ضعيف ، وكذا دعم الفرقتين الرسمية والمدعومة ، وبعض الجمعيات الأهلية ، خاصة جمعية أنصار التمثيل ، بينما ظهرت أنشطة فنية وثقافية فى الجامعات مواكبة للحركات الوطنية الطلابية ، فأسفر هذا المناخ عن مثقفين مسرحيين من هنا وهناك ، كان من بينهم محمد مندور وعلى الراعى ومجموعة الإذاعة المصرية (سعد لبيب وعباس أحمد وعبدالوهاب يوسف وديمترى لوقا وتماضر توفيق .. وغيرهم) فى مقابل المجموعة التى آثرت التعاون مع إذاعة الشرق الأدنى ومكتب الدعاية من أجل الحلفاء التابعتين للمخابرات البريطانية بقيادة مستر سكيف رئيسها فى المنطقة والمتخفى فى صورة رئيس قسم الأدب الانجليزى بجامعة القاهرة ، والذى قام بتجنيد عناصر أصبحت فيما بعد شخصيات ذات شهرة ونفوذ ، وقد تعاون معهم فى مجال المسرح والإذاعة عدد من المسرحيين والكتاب المصريين تحت مظلة محاربة الفاشية والنازية والدفاع عن الديمقراطية والعالم الحر! ومن المسرحيات التى قدموها فى مصر وفلسطين والعراق ، مسرحية «ثم غاب القمر» للأمريكى «جون شتاينبك» بتفسير انجليزى ضد الألمان ومن إخراج مستر» سكيف» .

المسرح الحر

وفى مقابل ذلك تكونت فى معهد التمثيل المسائى مجموعة من تلامذة محمد مندور ، أصدرت مجلة (الميزان الجديد) أذكر من أسمائهم أنور فتح الله ، دعت إلى مسرح مصرى خالص شكلا ومضمونا ، ولقد آتت هذه الدعوة ثمارها

عند مجموعة من الشباب ، فكونوا جمعية أهلية تحت اسم «المسرح الحر» قدمت بعض الأعمال التى لم تجد صدى كبيرا ، حتى التقت بالمثقف الشاب «نعمان عاشور» خريج قسم اللغة الانجليزية ، والذى دفع به على الراعى ، أيام كان يعمل بالإذاعة ، إلى الكتابة الإذاعية ، وهكذا كتب مسرحيته الأولى «المغناطيس» فلاقت نجاحا نسبيا خاصة على المستوى النقدى ، فوصفها مندور بـ «الأوتشرك» وهى لفظة روسية تعنى تحقيق مسرحى للواقع الاجتماعى بالأدوات والأساليب والتقنيات المسرحية ، ثم ألحقها نعمان بمسرحية «الناس اللى تحت» فنجحت نجاحا كبيرا على المستويين الجماهيرى والنقدى ، حتى أن سعت الأجهزة الرسمية لاستقطابه فكتب لها «الناس اللى فوق» كهجائية للمجتمع الذى سبق ٢٣ يوليو !! كانت أعمال نعمان عاشور تجربة مسرحية جديدة فى التعامل مع بنية النص المسرحى من جهة وفى التعامل مع الواقع الاجتماعى والشخصية المصرية خاصة على المستوى الشعبى والطبقة الوسطى من جهة أخرى .

وهكذا اندفع كتاب آخرون من نفس جيله الذى تفتح وعيه أثناء الحرب الثانية وفى أعقابها ، وهم محملون بوعى وطنى ليبرالى ديمقراطى ، وحس فنى إنسانى يميل إلى الطبقات الشعبية والفكرة الاشتراكية ، فكان هؤلاء الذين عرفناهم وهم : باكثير والفريد فرج ويوسف ادريس وألفريد وأنور قزمان وميخائيل رومان وعبدالرحمن الشرقاوى ونجيب سرور وصلاح عبدالصبور وشوقى عبدالحكيم ومحمود دياب ومصطفى بهجت ، يواكبهم من المخرجين : فتوح نشاطى وعبدالرحيم الزرقانى ، وحمدى غيث ونبيل الألفى وكرم مطاوع وسعد أردش وسمير العصفورى وعبدالرحمن الشافعى ، وقبل كل هؤلاء ومن بعدهم الكاتب والمفكر القومى المصرى توفيق الحكيم .

ورغم الرقابة التى شددت قبضتها ابتداء من سنة ١٩٥٩ ، فإن المسرحيين المصريين قد نجحوا فى تقديم أعمال لا بأس بها منها : دخان ميخائيل رومان وفرافير يوسف ادريس وسليمان الحلبى لألفريد فرج وليلى والمجنون لصلاح عبدالصبور وشمس النهار لتوفيق الحكيم وعيلة الدوغرى لنعمان عاشور والفتى مهران للشرقاوى وياسين وبهية لنجيب سرور ، وليالى الحصاد لمحمود دياب ، فضلا عن أعمال أخرى مترجمة لاسخيلوس وتشيكوف وبريشت وبيترفايس وآرثر ميللر ، فأثبتوا أن قبضة السلطان

ليست محكمة .. وليست حاكمة إلى الأبد .

ولكن «التجريبي» يقفز على كل هؤلاء ، وكأن الكفاح الطويل لم يكن !! ، ليس فيه من درس يستقى ولا إنجاز ذى جدوى ، ولا تجارب ذات قيمة أو معنى ، فهؤلاء الرواد مجهولون بالنسبة للأجيال الجديدة وهناك حرص غريب على التعتيم عليهم ، وهم متهمون من وجهة نظر هذا الجيل (الراقص) بالجمود والتخلف والرجعية ، وبالطبع لا نستطيع إقناع هؤلاء المستجدين بالعودة إلى صنوع والحكيم .. وإلى الزرقانى وغيث والألفى وكرم وسرور ، ولكننا فقط نرجوهم أن يتعرفوا نقديا على هذا التراث ، أن يستخلصوا درسه وخلاصته كى يواصلوا بعده ، لا أن ينقطعوا انقطاعا تاما ومطلقا عنه ، ليستعيروا ثقافات وفنونا أخرى بديلا عنه، تعبر عن شعوب وثقافات أخرى . بل لعل هذه البدائل والاستعارات (عولمية) أى متعددة الجنسيات .. أى لا هوية لها ولا تعبر عن أحد .

صورة مصرية

والسؤال هنا : هل كان الجيل القديم ضد التجريب ؟ أو ضد التحديث ؟ أو يجهله ؟ لعل مقالات يوسف ادريس (نحو مسرح مصرى) ومسرحية الفرافير .. تدحض هذا الزعم . أليست مسرحيات الحكيم : يا طالع الشجرة ورحلة قطار ورحلة صيد وشاهر على القمر .. وغيرها تثبت أن توفيق الحكيم كان على رأس ايقاع العصر ولكن من زاوية مصرية .. وفى صورة مصرية ؟! ألم يكتب نجيب سرور توصيفا دقيقا فى كتاباته النقدية - لماهية التجريب ؟ ألا تعتبر مسرحيته «يا بهية وخبرينى» نصا تجريبيا ؟ وكذا كل أو أغلب نصوص شوقى عبدالحكيم، ألم يصدر على الراعى دراسة ضخمة من ثلاثة أجزاء عن المسرح الشعبى المصرى وتاريخه وأشكاله وأسبابه ومعانيه ؟ ألم يقدم حمدى غيث ونبيل الألفى وكرم مطاوع وأحمد عبدالحليم وأحمد زكى ونجيب سرور أشكالا مسرحية جديدة وأصيلة على المسرح المصرى ؟ إذن لماذا نبدأ من الصفر وكأننا بلا تاريخ؟ لماذا نبدأ من الخواجة .. وأى خواجة ؟ لماذا نستعير حركة من هنا .. واشارة من هناك ؟ وإيماءة من ذاك والتفاتة من ذلك ؟ لماذا لا نستطيع التعرف على أنفسنا وعلى ذاتيتنا القومية ومصريتنا فى عروض هؤلاء الشباب ؟ إنهم لا ينقلون مناهج فقط ، وإنما يقلدون صورا ونتائج !! إنهم فقط لا يقلدون - برداءة - فنون مارتا جراهام وبيجار وموسييف ، بل ينقلون بركاكة ومسخ عن تلاميذهم .. وتلاميذ تلاميذهم . هل عجزت القريحة المصرية عن وضع مناهج إبداعية ننفرد بها وتميزنا

عن غيرنا؟ هل نضبت الموهبة المصرية إلى حد السقوط فى وهدة التقليد الرخيص ؟

إهمال فنوننا

حقا لا توجد لدينا مدرسة للرقص المسرحى المصرى ، لكن رقص الباليه ليس فننا ، وكذا الرقص الغربى الحديث ليس من فننا ، وكذا فن الأوبرا والغناء والموسيقى الغربية ليست فنوننا، ولا يصح أن نهمل فنوننا ومصادرها وتطوير مناهجها ونهب فنون الآخرين أبناء نا وأموالنا واهتمامنا ، لماذا لا ننشئ مدرسة للرقص المسرحى المصرى شريطة أن تكون مصرية صميمة . ولدينا المصادر فى التاريخ والآثار والفولكلور وفى الحركة اليومية للإنسان المصرى ، وفى الصور التشكيلية التى سجلها رسامونا خلال قرن أو يزيد ، وفى الصور الفوتوغرافية ، وأيضا فى ثنايا التراث الثقافى المصرى كألف ليلة وليلة وغيرها من كتب التراث ، وكذا فى فرضيات الخيال حين يتصور الماضى والمستقبل .. مستقبلنا لا مستقبل الآخرين .

وحقا لدينا بعض التعثر أو التشوش فى تعبيرنا عن أنفسنا بواسطة الحركة والصورة الحية والموسيقى ، ولكن هذا النقص لا يبرر لنا تقليد الأجانب ، بل علينا أن نسعى - بأساليب تميزنا نحن وتعبر عن شخصيتنا القومية نحن وعن حياتنا ونظرتنا وفكرنا وقضايانا ومشاكلنا وأحلامنا - للحصول على إيقاعنا المسرحى الخاص بنا ، وذلك من خلال العمل على تكوين مدارس مصرية فى مختلف الفنون التعبيرية والتشكيلية . كيف لا يمكننا هذا وحضارتنا المصرية هى الأولى فى كل شئ ؟ بل هى مازالت ماثلة للعيان كأنما تنادينا أن نفيد منها وأن نحييها وإن نستلهمها بدلا من أن ينتحلها وينهبها خصومنا . لقد أهدانى الاستاذ الفريد فرج شريطا أذاعه التليفزيون البريطانى تم تصويره فى «مروى» تلك البلدة النوبية فى شمال شرق السودان تلك البلدة المليئة بالأهرامات والآثار الفرعونية ، والشريط يبين أن الرقص المصرى القديم مازال حيا هناك ، وأن الرقصات التى يقدمها النوبيون فى مروى حتى اليوم ، يمكن مزج صورتها على صور آثار القرنة بالأقصر وبنى حسن بالمنيا فنجدها مطابقة . وكأنها ليست صورة للماضى وحسب . بل صورة للحاضر .

تقليد أعمى

إذن ماذا تفعل أكاديمية الفنون اليوم؟ ماذا تفعل مراكز البحث العلمى - فى مجالات الفنون والآداب - عندنا ؟ ماذا تفعل دراسات المسرح والانثربولوچى والفنون فى جامعاتنا ؟ ماذا تفعل لجان

المجلس الأعلى للثقافة ؟ ماذا تفعل منح التفرغ ؟ في أي ميدان تعمل وفي أي اتجاه وفي أية موضوعات ؟ هل في نيتها أن تمضى مصر في طريق الإمساك بالمبادرة أو حتى المشاركة مرة أخرى ؟ أم نبقى في الذيل أو مجرد رد فعل أو مقلدين شائهين ؟ إن جذورنا الفرعونية والإفريقية مهملة ، وأصداءنا الاغريقية والرومانية والمتوسطية تركناها نهبا لانتحال الآخرين ومزاعمهم الكاذبة ، وأثرنا في المشرق والمغرب العربي عند البعض مفقود ومنكور. إن مهمة هذه الجهات المسئولة - ولنا أمل باق في مشروع مكتبة الاسكندرية - هي البحث في الأغوار عن روحنا وصورتنا والتنقيب في الجغرافيا اكتشافا للأصول ، وهذه مهام لا ينجزها أفراد وحدهم ، وإنما جماعات مدربة منظمة ممولة وهيئات علمية واعية مدركة لواجبها القومي ، ومعاهد تلقن الدارسين فيها أثمن الدروس وأعمقها في الانتماء إلى الوطن .

لقد لقي العرضان المسرحيان الياباني «حكاية برج القلعة» واليوناني «الأورستيا» احتراما وإعجابا عميقين من جمهرة المشاهدين ، وذلك لعنايتهما الخاصة - كل بطريقته - بثقافة بلديهما التاريخية ، بينما مضت عروض أخرى كثيرة دون أن يتوقف أمامها أحد ، اللهم إلا بعض المتسكعين بحثا عن انتماء آخر .. أو نزوة .. أو لذة أخرى .

إن «التيمة » المصرية غائبة في هذا المهرجان شكلا ومضمونا ، بينما نمتلك تيمة فريدة من نوعها لا يملكها أحد ، تيمة عبقرية من صنع المصريين وحدهم ، تيمة انسانية عميقة ومرنة وشاملة ، إنها تيمة «الزمن» ذلك الاكتشاف العبقرى الذى أهدته مصر للإنسانية في الفجر الباكر للتاريخ ، فمصر هي التي عرفت البشرية بالسنين والشهور والأيام والساعات والفصول والتحولات والشموس والكواكب والأقمار والنجوم والأفلاك والأزل والأبد والمصير والخلود ، لم تغب هذه الحقيقة الجبارة عن العالم المصرى «زويل» وهو يقيم في بلاد اللاهوية ، بل صاغها صورة بعد صورة (فيمتو ثانية) وكأنه يقرأ خطوط المعابد بسرعة جبارة . إن سر عبقريته أنه لم يتخل عن فرعونيته . وكذا كان عبقرى مصرى آخر هو توفيق الحكيم الذى اختار (الزمن) تيمته المسرحية والروائية بل والفكرية ، وأيضا هي سر عبقرية اختيار المبدع الشعبي - ذلك المجهول - لنفس التيمة فأبدع منها سيره وأشعاره ، كلهم آمنوا بالزمن قانونا إبداعيا إلا هؤلاء المحدثين المقلدين للأجانب اللاهين عن مسئولياتهم تجاه ضرورة لحاق مصر بالزمن (العصر) ، منتظمة في أول الصفوف دون أن تكون هويتها هي الثمن .

دائرة حوار







الإسلام وأصول الحكم

بين الوسيلة والمقصد

بقلم : د.ابراهيم عوضين

ماكان يدور بخلدى أن أعود للكتابة فى هذا الموضوع ، بعد ماقدمته من مقالات أفند فيها ماقدمه الدكتور محمد أحمد خلف الله منذ أكثر من عشر سنوات ، وبعد ماقدمه أساتذتنا ومشايخنا الذين عاصروا ظهور كتاب الشيخ على عبد الرازق فى عشرينيات القرن العشرين ، ثم الذين تصدوا لما ضمنه الأستاذ خالد محمد خالد كتابه (من هنا نبدأ) فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين.!

ولكن يبدو أن هناك من يحرص على أن يفرض هذا الموضوع على الساحة حينا بعد حين لغرض مكنون فى النفوس ، لا نستطيع أن نقطع به .

ولئن وقفنا على هذا الغرض ، فإن حاجتنا اليوم إلى لم الشمل أوضح من حاجتنا إلى مايثير الخلاف والنزاع.

ففى صدر مجلتنا الغراء (هلال أغسطس سنة ٢٠٠٠) طالعنا الأستاذ السفير ممدوح عبد الرازق بمقالة (الإسلام وأصول الحكم ومذكرات الشيخ على عبد الرازق) أدى فيه دور الابن الوفى بما قدمه من مذكرات عمه الشيخ ، يدعم به ما قيل من قبل عن ملابسات وظروف كانت وراء الضجة الصاخبة التى ووجه بها الشيخ وكتابه ، منذ صدر فى طبعته الأولى،

ولأن تلك الملابسات تقوم على افتراضات عقلية ، وتصورات ذهنية ، ورؤى ذهنية ، وتفسيرات احتمالية ... كانت ميدانا للكتابات تجمع بين النقيضين، ومجالا فسيحا لتبارى الأقلام والعقول فى رفض الثابت المقرر ، أو تقرير المرفوض .

ولا غرابة فى ذلك ، فهذه سمة كل ما يقوم على تفسير النوايا المطوية ، وتأويل المقاصد الخفية! .

ولذلك رأيت أن الخوض فى مثل ذلك إنما هو لجاج يضيع الوقت ، ويهلك الجهد، دون طائل وراءه ، ولا ثمرة ترجى منه، اللهم إلا توسيع شقة الخلاف ؛ فكل يصر على رؤيته ، ويخيل إليه أنها وحدها الحق الصائب ، وأن ماعداها باطل

زائف .

فلم يكن إلا أن نتجاوز ذلك، موقنين أن خلف الأكمة حقيقة غيبها ما أثير من غبار الجدل المحتدم، والأصوات المتبارية في الوصول إلى الدرجة الأعلى.

الغاية والوسيلة

ولو أننا سلمنا - جدلا - بما نسب إلى الشيخ من مذكرات، وما أبديتموه من عوامل وأسباب دفعته إلى تأليف كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ، وأنه إنما قدم كتابه هذا ليقضى على حلم الملك أحمد فؤاد ومناصريه فى الخلافة الإسلامية ، اهتبالا منهم لفرصة سنحت بالقضاء على الخلافة الإسلامية في تركيا .. فبم توسل الشيخ فى كتابه هذا لتحقيق تلك الغاية؟

إن من يردد النظر فى كتاب الشيخ بحثا عن الوسيلة التى امتطاها ليقضى على حلم الملك أحمد فؤاد يجده ينطلق فيها من تقرير أحكام عدة تتناول الإسلام وشريعته، ورسوله، لايتسع المقام لتناولها مجتمعة؛ فلا يملك الباحث إلا أن يستعرض بعضها لماما ليضعه فى ميزان العدل ، بحثا عما تقوم عليه من حق أو باطل ؛ موقنا أن ميزان العدل هذا إنما يجب أن يقوم - مع مثل الشيخ على عبد الرازق - على القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وما انبثق عنهما من منطق إسلامى ؛ فالشيخ - كما نعرف جميعاً ، وكما أعلنتم فى مقالكم - مسلم المعتقد والدين ، أزهرى المنشأ والثقافة ، يعتز بإسلامه وبأزهريته ، وليس رجل سياسة، ولا ينتمى إلى أى حزب سياسى فإذا كان (ميكيافيللى) الداهية السياسى ، غير المسلم ، قد قرر أن الغاية تبرر الوسيلة ، فإن القرآن الكريم الذى نؤمن به - نحن والشيخ على عبد الرازق - يقرر أن الباطل لا يدفع بالباطل ، ولكن يدفع بالحق وحده . «بل نقذف بالحق على الباطل فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون». (الأنبياء : ١٨) ، كما يقرر أن الحق أحق أن يتبع ؛ فما على المسلم المؤمن بالقرآن الكريم إذا تصدى للدعوة، وأخلص نفسه لذلك إلا أن يضئ الحقائق، ويبسط القول، ليبصر الآخرين بما فتح الله به عليه، ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة والمثل؛ حيث وجهه ربه إلى دوره بين الناس، وحدد له خطواته، ونهجه، فقال: «إن أنت إلا نذير» «فاطر:٢٣» وقال: «فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر» «الغاشية:٢١-٢٢».

وحين تجاوز الرسول صلى الله عليه

وسلم ذلك المبدأ، فانصرف عن ابن أم مكتوم، وتصدى لاستقبال العلية من قريش، ظنا منه أنه بذلك يكسب إسلامهم.. حينئذ نزل عليه الوحي بآيات القرآن الكريم، تلفته إلى خطأ تقديره، وتعاتبه على سلوكه، مؤكدة له ولنا أن الغاية مهما كانت لا يصح أن تبرر الوسيلة. وذلك قوله تعالى: «عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى. كلا إنها تذكرة» «عبس: ١-١١».

والشيخ على واحد من أولئك الذين تصدوا للفساد بالتقويم – من منطلق إسلامه وأزهريته – على ما قرره هو فى مذكراته تلك، وما بسطه تلاميذه ومناصروه، من ظروف واكبت تأليف كتابه..

بين دعوى الشيخ والقرآن

ولكنه – فى مناهضته هذا الانحراف الفاسد، المتوقع من أحمد فؤاد وأعوانه – لم يواجه خصمه مباشرة، ولا تصدى لموضوع الخصومة – وهو نقل الخلافة إلى مصر – صراحة، ولكنه رأى أن يتجه إلى مبدأ الخلافة ذاتها، فيحاول قطع صلتها –



على وجه العموم – بالإسلام، بغية أن يحرم فؤادا – إذا نجح فى مسعاه – من الانتماء الإسلامى، أو يحرمه من عون المسلمين فى الوصول إلى مأربه.

والشيخ – فى سبيله إلى تلك الغاية – قرر فيما قرر: أن الإسلام دين روحى محض، عنى بالروح وحدها، وترك أمور الدنيا للنظم المدنية – فى أشكالها المختلفة، ومناهجها المتباينة – هى وحدها التى تقننها، وتقوم على تنفيذها وإدارتها.

نعم! قرر الشيخ ذلك؛ ليصل منه إلى تجريد الخلافة أو الحكم من صفة الإسلام، وقطعه عن الانتماء إليه، متجاهلا – أو منكرا – آيات الأحكام التى لا تكاد تخلو منها سورة من سور القرآن الكريم، والتى تقدم للمسلم نظم المعاملات الدقيقة، فى علاقة الإنسان بنفسه، وبأسرته، وبمجتمعه، وفى علاقة الدولة الإسلامية

بغيرها من الدول.

فالقرآن الكريم - فضلا عن دعوته الأمة إلى الحكم بما أنزل في أكثر من موطن - قدم أحكام الأسرة في بدء تكوينها، وفيما تتعرض له من هزات واختلاف، وفيما تقوم عليه من أسس مادية وروحية، وما يلتزم به كل واحد من عناصرها قبل الآخرين. وقدم أحكام البيع والشراء على اختلاف أشكاله، وأحكام الرهن، والقرض، والربا، والميراث، والقصاص، والديات، ونظم التقاضي، ونظم الحرب والمعاهدات، وعلاقة المسلمين بغير المسلمين في الحرب والسلم.. وإلى غير ذلك، مما يعلمه كل من حفظ القرآن الكريم، ودرسه ودرس السنة النبوية، ووقف على ما تضمنته من شروح لتلك الأحكام، وتفصيل لجملها، والنهوض بتطبيقها، وتنفيذها.

ويبدو أن الشيخ حين قرر ذلك، كان يستشعر ما في كلامه من تجاوز، فبحث عن كلام يدعم به وجهته فلم يجد إلا تلك العبارات الخطابية الخيالية الخادعة، حيث يقول: «والدنيا من أولها إلى آخرها أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول، وما حبانا من عواطف وشهوات، وما علمنا من أسماء ومسميات، «هي أهون عند الله من أن يبعث لها رسولا». «الإسلام وأصول الحكم:١١٩».

بهذا الكلام الشعرى الأجوف يعزز الشيخ دعواه القائمة على رفض - أو إلغاء - جميع آيات الأحكام التي أنزلها خالق الإنسان والكون، وباعث الرسل، ومنظم الكون في شتى أبعاده، على زعم أن الدنيا أهون من أن تحوج الله تعالى إلى بعث رسول يحكمها، ولكنها ليست أهون عند الله من أن يركب فينا عقولا تنهض هي بعبء تنظيم الدولة، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان..

ولكنه لم يشر إلى ما يناط به تدبير الحياة من تلك العقول:

أيناط بها جميعها، فينطلق كل إنسان بعقله يحكم، وينظم، وليكن ما يكون من نزاع واختلاف؟

أم يناط ذلك بعقل بعينه من بين تلك العقول؟!

وإذا كان كذلك، فما مواصفات صاحب ذلك العقل الحاكم؟ ومن يقوم باختياره؟ وهل الأفضل أن يقوم باختياره الخالق جل وعلا - على الرغم من أن الحياة الدنيا أهون عند الله من أن يشغل نفسه بأمورها - أم يختاره المخلوقون على

تباين مشاربهم، ومقاصدهم، واختلاف أحوالهم حينا بعد حين، فما يقبلونه اليوم قد يرفضونه غدا؟!

رسول الإسلام بين دعوى الشيخ وصريح القرآن

ويبدو أن الشيخ قدر مواجهته بهذا السؤال الأخير، فلم يقف - في دعم مقصده - عند حدود إبطال آيات الأحكام أو تجاهلها، ولكنه ذهب يعزز حجته بحجة أخرى، أدارها حول من يناط به إدارة شئون البلاد الإسلامية، والقيام على تنظيمها، وواصل السير في طريقه الذي بدأ الخطو فيه - وهو تجريد الإسلام من أسباب ذلك - فكما سلب آيات الأحكام قيمتها في تنظيم الدولة، رأى أن يسلب الخالق سلطانه في اختيار من يقوم بالحكم، ومن يتحمل مسئولية إنفاذ أحكامه، فعمل على سلب الرسول دوره في ذلك، موقنا أن هذه الخطوة سوف تثمر إلغاء الخلافة - بالضرورة - فلا يكون هناك مجال أمام فؤاد وأعوانه لطلب الخلافة، ولا إحيائها، بعد ما قبرت في استانبول.

واعتمد الشيخ في تقرير ذلك على ما اعتمد عليه من قبل، فأضاف يقول - موازنا بين ولاية الرسول وولاية الحاكم:



«ولاية الرسول على قومه ولاية روحية، منشؤها إيمان القلب، وخضوعه خضوعا تاما يتبعه الجسم، وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد على إخضاع الجسم، من غير أن يكون له بالقلوب اتصال. تلك ولاية هداية إلى الله، وإرشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لصالح الحياة، وعمار الأرض، تلك الدين، وهذه للدنيا، تلك لله، وهذه للناس، تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية، ويا بعد ما بين السياسة والدين». «الإسلام وأصول الحكم ٩٠،٦٩».

بهذا الكلام العجيب، الخيالي الموغل في الخيالية، الشاعري المحلق في سماوات الشاعرية وفضائها الفارغ.. وزع الكيان البشري بين قلب يخضع لولاية الرسول خضوعاً تاما يتبعه الجسم، وبين جسم تسلط عليه ولاية الحاكم الولاية المادية لتخضع هذا الجسم، فجعل الجسم محور صراع بين ولاية الرسول وولاية الحاكم.

ووزع الإنســان بين الدين والدنيــا، ووزع الأعـمـال بين الله والناس، دون أن يترك فرصـة للنظر العقلى البصير، الذى يدرك للوهلة الأولى أن شــتى أنشطة الإنسان يمتـزج فـيـهـا الروحى بالمادى امتزاج روح الإنسان بجسـمه، فلا يمكن فصل أحدهما من الآخر إلا عند الموت..

ودون أن يترك فرصـة للنظر العقلى البـصـيـر الذى يدرك للوهلة الأولى أن مقاصد أنشطة الإنسان كلها موجهة إلى خيره هو، لا فرق بين الأفعال الروحية – من صــلاة، وصـيـام، وحج..إلخ – وبين الأفـعـال المادية – من زراعـة، وتجـارة، وصناعـة...إلخ – إذ المقصد فى الإسلام من هذه وتلك هو خـيـر الإنسـان نفسـه، فـالصلاة تعصم عن الوقوع فى الخطايا المادية والروحـيـة، من الفحشاء والمنكر – وليـست لإضـافـة شئ إلى ملك الله – والصيام يزود الإنسان بأسباب الوقاية من كل أوضـار الحـيـاة..إلخ، كـمـا أن الزراعـة تحقق لزارع العائد المادى إلى جانب العائد الروحى، فقد جعل الإسلام للزارع فى كل من ينتفع بزرعه صدقة.

فـالقـول بأن هذا للإنسـان وذاك لله، إنما هو من التـهـويمات الشـعرية التى قد تثير بما فـيـها من خيال، ولكنها لا تقف أمام النظر العاقل الفاحص، الذى لا يجد مفرا من التسليم بأن الله الخالق لابد من أن يملك كل شئ فى مخلوقاته، حتى ما ينشأ عنهم.

ولقـد صـرح القـرآن الكريم بذلك فى غير موطن، وجعل تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم فى شتى شئون الحـيـاة، دون تردد من مظاهر الإيمـان، لما يوفـره للإنسـان من أمن وأمـان، وسـلامــة من الصـراع، فـقـال جل شـأنه: «فـلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما». «النساء:٦٥».

واجب الوفاء الحق

أفلا ترى معي يا أخي السفير – بعد هذه الجولة المحدودة – أن عمك الشيخ – فى زحمة البحث عن وسيلة يحارب بها فؤاد وأنصاره – لم يجد بدا من أن يبطل نصوص القرآن الكريم، أو أن يتجاهلها.. وهذا بدوره أسلمـه إلى أن يقـيـم إدارة شئون البلاد على الهوى، ويربطها بالرؤى الشخصية، والتوجهات النسبية، أو أن نسلم أمرنا لواحد بذاته نجمعُ على تميزه وتفوقه، يقيم أمر البلاد والعباد وفق ما يهديه إليه عقله.!

وأنه – بذلك – قد استبدت به الغاية، فلم يجد لها إلا تلك الوسيلة، على الرغم

مما فيها من خطايا وأخطاء، أو أنه – في تلك الزحمة – أغفله المقصد الشخصي عن خصوصية الإسلام، فأسقط عليه ما في الديانات الأخرى من سمات، وقاسه بغيره.

أو أنه أدخل على بحثه هذا الكلام الذي تعارض مع إسلامه وأزهريته، ونسب إليه زورا.؟!

وقد يرجح هذا الاحتمال الأخير ما كتبه هو – بعد نحو خمسة وعشرين عاما من صدور كتابه هذا – في مجلة «رسالة الإسلام» التي كانت تصدرها جماعة التقريب، العدد الثالث، الصادر في رمضان ١٣٨٠ يوليو ١٩٥١ تحت عنوان: «الاجتهاد في نظر الإسلام»، «قرأت بحثا قيما لحضرة صاحب العزة، الكاتب الكبير، الاستاذ الدكتور أحمد أمين، جاء في صدره أنه كان يتجادل معي، فقلت: إن دواء ذلك أن ترجع إلى ما نشرته قديما من أن رسالة الإسلام روحية فقط، وأنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل، وقد وقفت أمام كلمة: «رسالة روحانية» ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرى قصة قديمة لهذه الكلمة معي، فقد زعم الطاعنون أنني في هذا البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أما أنا فقد رددت عليهم أنني لم أقل ذلك مطلقا، لا في هذا



الكتاب ولا في غيره، ولا قلت شيئاً يشبه ذلك الرأي أو يدانيه، أسوق هذا الحديث ليذكر الأستاذ الكبير أن فكرة «روحانية الإسلام» لم تكن لي رأيا يوم نشرت البحث المشار إليه، وأني رفضت يومئذ رفضا باتا أن يكون ذلك رأيي».

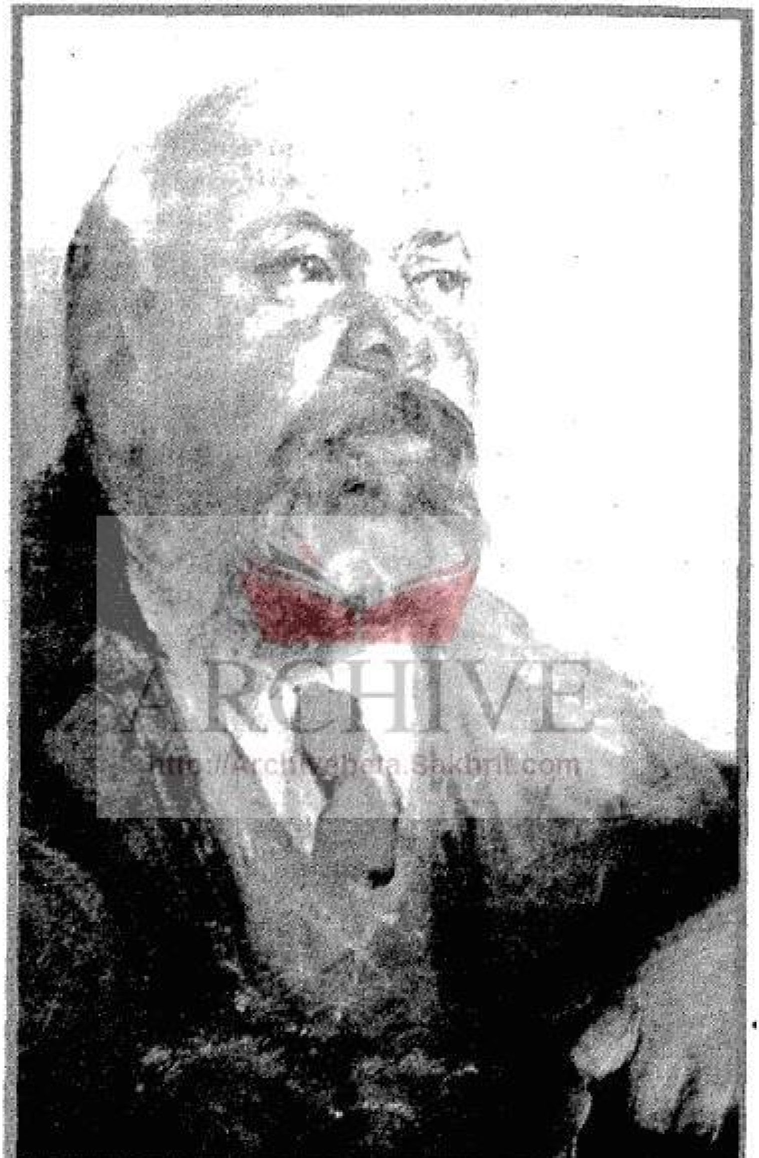
فالوفاء الحق يا أخي السفير أن تعمل على أن تضيف إلى ما قدمته من مذكرات عمك، ما يدعم هذا الإنكار الرافض في صراحة ما تضمنه الكتاب المنسوب إليه، متوسلا إلى ذلك بما قد تستطيع – من موقعك من الشيخ – أن تقف عليه في أوراقه، حتى تبرئ ساحته من تلك الزلة أمام الناس، بعد أن صار في عالم البرزخ بين يدي رب غفور رحيم، يعلم السر وأخفى. وقانا الله الزلل، وهدانا وهدى بنا، وجعلنا ممن يسن السنة الحسنة ليكون لنا أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولا نكون ممن يسن السنة السيئة، حتى لا نحمل وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة.

البورتريه في مواجهة التجريد!

بقلم: محمود بقشيش

بمناسبتين متعارضتين أقيم معرض متحفى لفن «البورتريه» بمركز الجزيرة للفنون المرئية: المناسبة الأولى هى فوز الفنان الكبير «حسين بيكار» بأكبر الجوائز الرسمية وهى جائزة مبارك، أما المناسبة الثانية فهى رحيل فنان «البورتريه» اللامع «صبرى راغب» كمدا بفعل الإهمال المستمر من وزارة الثقافة لموهبته. جاء المعرض كنوع من التكريم للفنان الفائز وإحياء ذكرى الفنان الراحل وإنعاش فن جميل أسيئ تقديره خلال العقد الأخير من صناع القرار الثقافى، وكان ينظر إلى هذا الفن بازدراء وتعسف بدعوى ملاحقة الغرب، لهذا اقتصر التشجيع على النقل الحرفى لما تجود به الدوريات العالمية من أخبار وأحداث فنية أوجدتها ظروف ثقافية مغايرة.

بورتريه المثال مصطفى متولى.. للفنان حسنى البنانى



البداية

تعد أول لوحة لفن «البورتريه» بعيدا عن شعائرية وجوه الفيوم ووجوه الملوك والملكات في الموروث الفني المصرى.. هي اللوحة التي رسمت لملك فرنسا «جان لوبون» سنة ١٣٤٩ (موجودة حاليا باللوفر) وقد فتحت تلك اللوحة الباب أمام هذا النوع الفني المثير والصعب، وانتشر من فرنسا إلى غيرها من الدول ويحتاج هذا الفن من ممارسه إلى موهبة إستثنائية للنفاذ إلى جوانيات الشخصية المراد رسمها بالإضافة إلى وصف ملامحها الخارجية، لهذا لم يتألق في هذا الفن، عبر العصور المختلفة إلا القليلون وفي مصر يعد الفنان «أحمد صبرى» أول فنان مصرى يتقن هذا الفن . وقد فازت رائعته «الراهبة» بالميدالية الذهبية في صالون باريس وكان مجرد قبول لوحة لأى فنان للعرض يعد مفخرة له. وبدلا من أن تحتفظ مصر بموناليزا التصوير المصرى تركت لمصيرها الذى لا نعرفه خارج مصر. ولم تحرك وزارة الثقافة ساكنا من أجل استعادة هذا الأثر الفني الرائع ولحسن الحظ فقد أتاح المعرض لزواره اللقاء بثلاث لوحات من روائعه هي: لوحة عازف العود التي رسمها لتلميذه المفضل «حسين بيكار» ، ولوحة أخرى بعنوان «بعد القراءة» ولوحة ثالثة بعنوان «السيدة ذات العقد» وهى عجالة بالألوان الزيتية، تكشف عن مهارة أستاذية في العزف باللمسات. تتسم لوحة «ما بعد القراءة» بالدراسة المتأنية، سواء في رسم ملامح الوجه والأصابع أو صنع ذلك الملمس الوردى، الأنثوى، المسامى الذى يكسو به وجه المرأة الغارقة في تأملاتها بعد القراءة. وقد أحاطها الفنان بجو مخملى، استرخائي لذيذ وينقلب الاسترخاء إلى نشاط واشتباك هي بين فواتح اللون وغوامقه في لوحة «عازف العود» وكان الموديل بيكار شابا صغيرا، وسيما في ذلك الوقت وكان ومايزال عازفا على آلة البزق. ونكاد نسمع وقع لمسات الفنان الرشيقة التي تعرف مواقعها الصحيحة ودرجاتها الظلية والضوئية ، ويخلق ذلك العزف اللونى البارع نوعا من السلطنة لا تملك معها إلا أن تهتف إعجابا (الله!) ولم يكتف «صبرى» بتلك البراعة الشكلية الضرورية بل كان حريصا على الغوص داخل الشخصية نفسها وإطلاعنا على حالة فنان مستغرق في العزف على آلته ومنصت لصوت الموسيقى في آن واحد.

وعلى الرغم من إدراك «صبرى» بأن هناك مساحة فارقة بين المثير الجمالى والتعبيرى الموجود في الواقع واللوحة الفنية فقد اختار في لوحاته الثلاث وجوها جذابة في أصلها الواقعى وانتقل هذا الميل إلى الأصل الواقعى الجميل إلى تلامذته: بيكار وصبرى راغب . ففى لوحة بيكار المسماة : «فتى مغربى» يبدو الأصل الواقعى الموديل وسيما ويبدو وجه الفتاة في لوحة صبرى راغب حالما رقيقا ويعد صبرى راغب امتدادا طبيعيا لأسلوب

أحمد صبرى فى حين يبدو «بيكار» مختلفا مع أستاذه حريصا على أن يكون مؤلفا لا ناقلا، مبسطا للون والمساحة، نزاعا لهندسة المرئيات وهندسة الظلال وفى حين تبدو وجوه صبرى فى المعرض غارقة فى ذواتها يبدو على وجه الفتى المغربى وقد انتبه لشئ عابر، يلوح على شفتيه شبح إبتسامة. وتزداد درجة التأليف وحرية التعبير عند الفنان «محمود سعيد» مع نماذجه المفضلة: «الخادمات النوبيات» حيث يتخفف من قيود طبقته التى يستشعرها عندما يضطر إلى رسم شخصية منها وتجبره تلك القيود إلى أن يرسم شخصياتها فى حياد فيما ينطلق فى إظهار ما تكتمه النفس من رغبات، فيجعل الوجوه الأنثوية تصرخ بأنوثتها والصدور العارية تهتف بالعطايا الربانية! بينما تواجهنا فتاة «حسن سليمان» بألوانها الزيتية على السيلوتكس فى صلابة تذكرنا بصلابة أوانيه وقواريره وإن لاح شبح إبتسامة على وجه الفتاة.

الوجه الحزين

اتسمت اللوحتان اللتان ضمهما المعرض للفنان الكبير «صبرى راغب» - وهما للأسف من أقل أعماله شأنا - بشاعرية حزينة نلقاها فى كثير من أعماله، تؤكدها لمسات تتسم بالهشاشة والرقة، تبدو لى أقرب إلى مهامسة السطح وملاطفته ويترك لخيال المشاهد أن يكمل رحلة اللمسات أما ألوانه الزيتية فتبدو شفافة قريبة من رقة الألوان المائية . وهو لا يحفل بما يحفل به أحمد صبرى بالبناء والصلابة ولا يحرص على التأليف الذاتى بل اكتفى بوجوه البشر، خصوصا النساء منهن، الجميلات طبعا . واستطاع أن يكون واحدا من القليلين جدا الذين استطاعوا أن يعيشوا من عوائد فنهم وأن يسافر كل عام إلى عاصمة من عواصم الفن الكبرى ليتعرف على الجديد فى فنونها ، وإن ظل متمسكا بوجه الإنسان الفرد بأسلوب أقرب إلى التأثرية، فهو لم يلتزم بقواعدها المحفوظة بل أخذ منها ما يتسق مع طبيعته، وظل نافرا من أساليب ما بعد الدادية . ولهذا لم يدع من صناع القرار الثقافى لتكريمه فى أى مناسبة من المناسبات ولم ترشحه الوزارة فى أى معرض من المعارض الخارجية ولم يمنح أى جائزة من جوائزها ولم تقتن منه إلا النزر اليسير.

المهرج الباكى

من الشخصيات التى أثارت إهتمام كثير من رسامى العالم الكبار شخصية المهرج لأن ظاهرها الضحك غير باطنها الحزين وربما كانت لوحة الفنان عبد العزيز التى رسمها للمهرج من أفضل لوحات الوجوه الشخصية لما تعكسه من تعبير عميق لوجه بالغ الحساسية هو فى الأصل لسيدة إسبانية عجوز تدعى لولا كانت تقوم على خدمة الطلبة المصريين أثناء فترة بعثة الفنان إلى إسبانيا ، ولأن «درويش» كان مبهورا بأسلوب «سيزان» كان يحرص على البناء والتحليل مستعينا



بيكار يعزف للفنان أحمد صبرى



المهرج الحزين للفنان عبد العزيز درويش



هدى شعراوى لعز الدين حمودة



حاملة المصباح لتحية حليم



فتـى مغربى
للفنان حسين بيكار

فى ذات الوقت بالحيوية اللونية التى تتجلى فى الأسلوب التأثرى . لم يستدرجه الصخب اللوني للأسلوب التأثرى إلى التضحية بوصف الحالة التعبيرية التى يريد لنا الفنان أن نلتقي بها فى وجه المهرج الذى بدأ أشبه بوجه مفكر يتأملنا بعمق لا يخلو من سخرية وكأن لسان حاله يسألنا: ترى من منا المهرج؟!.. وإذا كان وجه مهرج الفنان درويش يواجهنا بتأملاته العميقة فإن وجه المثال مصطفى متولى الذى رسمه الفنان «حسنى البنانى» يهرب من مواجهة المشاهد وقد انشغل البنانى بالاستعراض اللوني والملمس الجرئ.

ثلاثة مواقف من وجه الإنسان

تعكس لوحات المعرض ثلاثة مواقف فنية من الوجه الإنساني وتلك المواقف ليست قاصرة – فى حقيقة الأمر – على لوحات هذا المعرض بل تمتد خارجه إلى فناني العصور المختلفة، وتضم تلك المواقف كل أساليب الفن التي تناولت الوجوه الشخصية: الموقف الأول يرى أن الصورة الشخصية صورة نادرة لأن اللقاء الاختيارى بين الفنان والموديل لا يحدث كل يوم بل هو لقاء استثنائي حساس، لا يسمح إلا بحدود محسوبة من حرية التعبير ومن ثم يختار فنانو الموقف الأول طريق السلامة وهو طريق التجميل المراوغ. ويعد الفنان بيكار أستاذا كبيرا فى هذا الطريق والأمثلة على ذلك كثيرة منها أنه رسم رجلا أحدب وأعور واستطاع بمهارته المعتادة أن يستبدل الجمال بالقبح فأخفى عيني «الموديل» تحت منظار كثيف، تتألق فوقه انعكاسات ضوء وهمي، وعدل من الزاوية المنظورية التى تكشف عيب الظهر وجعل الرجل يبدو وكأنه ينظر من علٍ فيما يبدو للمشاهد فى الوضع الأدنى، ورسم سيدة ذات أسنان بارزة وقامت براعته بدورها الساحر، الإنقلابي وجعلها تبدو مبتسمة، فاتنة، أما الموقف الثانى فإنه يتعاكس مع موقف التجميل المراوغ، غاية فنانيه أن يعبروا عن الحقيقة الجوانية للموديل، مهما كانت التضحيات التى لابد أن تلحق بالوقار المتكلف والفخامة الكاذبة . ولا شك أن الفنان «محمود سعيد» استطاع أن يحقق تلك الحرية التعبيرية، غير أنه كان يحققها فى المنطقة الآمنة: أعنى شريحة الخادمات النوبيات، كان يستطيع معهن أن يكون صريحا دون خوف من لوم طبقته . بطبيعة الحال لم تكن هذه مشكلة بالنسبة للفنانين الأوربيين والأمريكيين، خصوصا بعد ثبوت مشروعية تحريف أو تشويه الواقع المرئى (Deformation) فى الفن الحديث والانصراف عن المشابهة السطحية مع المرئيات . وأصبحت غاية فناني الموقف الثاني هي التعبير عن الحقيقة . أما الموقف الثالث فيتمثل فى الانصراف الكلي عن نقل الواقع والاحتفاء بالتأليف الذهنى ويمثل هذا الموقف فى المعرض الفنان كمال خليفة الذى أبدع وجها منحوتا لا مثيل له فى واقع الحياة



بورتريه
لفتـــاة
للفنان صبرى راغب

وإن استلهم قيم النحت المصرى القديم، خصوصا قيمة النقاء، فالوجه هنا لا يصور شخصا بعينه بل يجسد قيما جمالية أصيلة. ويمضى المثال السكندرى المدهش «محمود موسى» فى نفس الطريق: طريق التأليف الذهنى المتكئ على جماليات النحت المصرى القديم ويضم المعرض منحوتة له، رائعة الجمال تمثل وجها بيضاويا استولده من الجرانيت ويدهش المرء لهذه القدرة الفذة التى استخرجت من أصلب الأحجار تلك الكتلة الناعمة، الساحرة ولحسن الحظ فقد اشترك عبد البديع عبد الحى العاشق الثانى لذلك الحجر الصوان وإن اختلف معه فى الأسلوب ففى الوقت الذى انصرف فيه «موسى» عن النقل توقف عبد البديع عنده وقدم منحوتة بالبازلت لوجه شاب سودانى جميل.

أين المرأة؟!

إن فن البورتريه لم يحتل فى إبداع الفنانة المصرية إلا هامشا نحيلا، لهذا لم تمثل المرأة إلا بلوحتين لوحة للفنانة تحية حليم بعنوان: «الفتاة والمصباح» ولوحة للفنانة مارجريت نخله بعنوان: «المقهى فى باريس»، يبدو على لوحة تحية تأثرها بالفن القبطى وعلى لوحة «مارجريت» تأثرها بالفن القطرى.



أغنية لزفاف جديد

قصة قصيرة

مهداة لجنود وضباط أكتوبر

بقلم : محمد جابر غريب

١

أنزع ورقة النتيجة .. العاشر من رمضان.. السادس من أكتوبر.. الساعة دقت الثانية والنصف ظهراً.

كف الراديو عن إذاعة موسيقاه.. المذيع يقول كلاماً.. في البداية لم أستوعبه.. ولأن زوجي سافر بالأمس.. خفق قلبي.. اضطربت.

ماذا حدث ويحدث.. مفاجأة.

أصابتني الدهشة.

اقتحمتني الكلمات..

اقتحمت آذان أمي وأولادي سامح وسوسن وسهير.

منحت أذني للراديو.

حاولت أن أفهم .. أفهم شيئاً مما قيل أو يقال.

ثم بدأ يتسلل إليّ بعض الفهم.

ثم بدأت أعي وأدرك، وفهمت أن قواتنا الآن .. بالضبط الآن .. تداهم قوات العدو.

الطائرات اندفعت، عبرت سماواتهم، صعدت صعدت، فأصابت مدرعاتهم .. نقطهم الحصينة.



دشمهم.. أشعلت ملاجيء ضباطهم.. فتيات الترفيه الشقراوات «جنودهم».

جنودنا الآن تتحرك متجهة نحو ذلك الخط.

خط ماذا ..؟

نسيت .. إنه عبارة عن سواتر ترابية، أطلق عليها اسم واحد من قوادهم.

٢

كنت أترنم بأغنية، الابتسام مفروش على وجهي .. المنفضة في يدي.. أزيل بها الأتربة من فوق ستارة النافذة .. البلكونة .. مقاعد الصالة .. مكتب زوجي «حسام».

اجتهدت أن أطاول لوحاته.. طلعت فوق أحد المقاعد الصغيرة.. صورتنا، حسام وأنا، في ثياب زفافنا، تجاور عشقه الخاص، لأشهر الرسامين.

٣

النسمة تداعب أوراق الشجرة قبالة بلكونتي.. تداعب ستارة النافذة.. تداعب ياقة جلبابي البمبي.. حسام يحب البمبي .. قدام المرآة اكتشفت جمال عيني.. شفتاي حبتا فراولة .. صغر أنفي.. طزاجة صدري.. لا طويلة ولا قصيرة .. ملفوفة.. خرطني خراط البنات.. كل جزء في جسدي يقطر أنوثة.

٤

قطة سامح بين أقدام أمي، جفناها منطبقان.. مستمتعة.. تطعم أرز مع الملائكة.. على المكتب، لمحت كتاباً، طويت منه

صفحتان .. حسام
قرأهما أكثر من مرة..
يحدث ذلك أحيانا كلما
عاد فى اجازة قصيرة .

٥

تقتحم أذنى أغنية
جميلة.. بسم الله الله
أكبر.. بسم الله أذن
وكبر.. بسم الله .

تداخلت مع أغنية
أسمعها لأول مرة، وأنا
على الربابة باغنى .. ما
ملكش غير انى أغنى
وأقول.. تعيشى يا مصر.

٦

سألنى سامح : أنت
بتعيطى يا ماما..؟

- أبداً .. أبداً يا
حبيبى.

بأطراف أناملى ..
أخفيت دمعة انحدرت.

فاجأنى بالسؤال
ثانية: هو يا ماما بابا
عدى الكنال..؟

- أيوه يا حبيبى.

أضمه إلى صدرى
.. أستدفىء به .. تنهمر
قبلاتى .. بريق الفرحة
فى عينيه .. فى
شفتيه.. فى نبض يديه
.. يمتزج الفرح بالدموع
فوق خديه .

٧

حسام لم يعد.

أنزع ورقة النتيجة.

الحجرة تيه..
الحجرات بحار ومحيطات
من الفراغ.. تتوتر
أعصابى .. مع رنين
جرس الباب أو الطرق
عليه.. فى انتظار رسالة
من زميل دفعة .. أو خبر
فى خطاب يحمله
البوسطجى.

لا أثر لنجم، السماء
مغلقة بالضباب.. أتساءل
عن القمر، متى ينفلت من
تحت سحابة تخنقه.

حضنتنى أمى على
الصبر الجميل .. المكتوب
ما منه مهروب.

- أنا باقول يمكن
يكون مع المحاصرين.

- ازاى بس يا ماما
حسام بطل.

- معلوم يا بنتى
بطل.

قبيل، هو من
الصابرين.. الساهرين
على أمن الأهل..
الأقارب.. الأحباب.

- كل واحد يتمنى
يكون له ابن معاه.. يقف
جنبه، يؤازره.. ده شرف
كبير ياست سعاد.

كلام جميل يقطر
عذوبة.. يسعد الفؤاد ..
ويطمئن القلب.

لكنى كنت ألمح أمى
يعلو قلبها ويهبط،
تستدير بسرعة،
تعطينى ظهرها..
محاولة أن تخفى دموعاً
تتدافع ، لا تستطيع
وقفها.

٨

أول ديسمبر.

ارتديت السواد،
قميص نومى تعمدت أن



يكون بلون الثياب، حتى ستارة النافذة، والبلكونة رأيتهما مغلفتان بالسواد.

الشجرة القائمة قبالتنا زحفت فوق فروعها الشيخوخة، خارت قواها.. بدت كالباحث عن عكاز.. أو عن أى أحد يساعدها على المقاومة.. أوراق الورد فى القصارى اصفرت، أصابها الذبول.

- يعنى ماكنش ممكن يسلم نفسه ويبعنا كلنا.

- مستحيل.

- طب إنت عارفاه أكثر مننا.

- هو بطل ولا بأس من الانتظار.

«الصدمة فى إسرائيل كانت أكبر من احتمالهم، جعلتهم يتصرفون بجنون، دفعتهم لصياغة تصاريح وبيانات.. أكبر كتير من الحقيقة.. المدنيين فى السويس اتصدوا لدباباتهم، لم تفلت منهم واحدة.

هربت العساكر قدام جدار اتبنى من قلوب البشر.

انفتحت طاقة القدر، السما زغردت.

حصل برجسه.. الدبابات اتفرقت.. شارون أمر بتفريق قواته فى مناطق، الوادى ومفارق العجرود.. مداخل عين السخنة.. الأتكة.. جنيفة.. أنا دارس الأماكن دى كويس إن كنت بتشقى فى أخوكى .. صدقينى يا سعاد.

٩

أمى تمسح شعر القطة بوسى وهى فى حجرها ناعسة، وأنا على الرغم من إحاطتى بالدفء والحنان أشعر بفقدانى دعاباته.. ابتساماته.. ضحكاته.. غضبه.. حلمه.. رضاه.

كنت أغلبه إذا لاعبنى كوتشينة أو ضمنه، ويغلبنى إذا لاعبته شطرنج، أضحك، يضحك، نتشاكس، نتقافز كعصفورين، أتعثر، أسقط، فيسقط إلى جوارى، يطوقنى، أستسلم له، تتناغم داخلنا الأشياء.

١٠

تقلبت أمى إلى جوارى.. سألتنى.

- إنت مانمتيش يا سعاد.

- قلقانة يا أمى.

- استعيذى بالله واقرأى المعوذتين.. تنعسى على طول.

«حقيقة لو أن السويس حوصرت، لأبيدت عن آخرها وأبيدت معها القوات التى عبرت إلى الشرق».



غيرت ماء الزهرية.. الهواء يتدفق من النوافذ.. السماء أشرقت.. سوسن وسهير بدتا عاقلتين، لا أثر للحبر على ثيابهما.. المرايل نظيفة.. لا شقاوة.. لا مشاجرات.. أنزع ورق النتيجة ٢ يناير ١٩٧٤.

١١

قبل آخر إجازة له.. الأضواء كانت خافتة.. ارتديت غلالتي الشفيفة.. تيقنت من نوم أمي والأولاد.. تسللت إليه حافية.

كان عطري يسبقني.. وكان عطره يسبقه.

وتسابقت الشفاة.. لا شيء يعلو على صوت قلبينا.. هو وأنا، ذاب، ذبت.. ذاب كل منا في الآخر.

١٢

حين يتناول الأفرول ويتهيأ للعودة إلى السويس.. يظل عالقاً بخيالي لا يبرحه.. حتى يعود ثانية.. هذه المرة طال غيابه.. انتابني القلق.



١٣

٤ فبراير ١٩٧٤.

على رصيف محطة كوبري الليمون.

زحام.. الخلق كالنمل.. لا مكان لقدم.. الأكتاف متلاصقة.. متلاطمة.. متصادمة.. السماء في حالة فرح وإشراق كبيرين.. الكل في حالة انتظار ممزوج باللهفة والقلق، والخوف.. اللهفة على زوج .. أخ.. إبن .. صديق.

القلق من طول الانتظار أو من وساوس الفقد، الخوف من ألا يحدث اللقاء والعناق، أو امتزاج دموع الفرح.

بين العيون المتطلعة أشق طريقي.. بين مواكب الهدير.. بابا يا سامح.. بابا يا سوسن.. حسام يا أمي.

المزيكا.. الطبول.. الأكف تصفق، كباراً وصغاراً، النساء، الرجال، الأطفال، الآباء، الأخوة الأخوات.

أدفع المناكب، أخوض الضجيج.. الصخب.

والقطار يقترب يقترب.

وقلبي يدق يدق.

التهليل .. التصفيق.. الصفير.

والقطار يقترب أكثر.. في طريقه لدخول المحطة.

أشق طريقي بين الجميع، الصغار، صبياناً وبنات، شباباً وشابات.

ولعجلات القطار نغم.. نغم حقيقي.. أحس دبيبه في روحي.. في دمي.. كأنه يعزف لنا، حسام وأنا، أغنية جديدة لزفاف جديد.



متى تعود عزيمة أكتوبر ؟

بقلم : عبدالرحمن شاكر

الأيام المتألقة في حياة الشعوب لاتمضى عبثا، ولا تمر ذكراها هباء، ولكنها مناسبات للتأمل والاعتبار، واستخلاص الدروس المستفادة من الماضى لخدمة الحاضر، والمستقبل، وبعد أيام من صدور هذا العدد من «الهلال» تمر علينا ذكرى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣، ورغم كون ما مضى من الزمن وهو سبعة وعشرون عاما ليس بالقليل ولكنه ليس ايضا بالكثير، انه سن شاب يافع فى عنفوان شبابه.

وغنى عن القول ان ذلك اليوم هو أمجد يوم عربى فى تاريخ ما يسمى الصراع العربى الاسرائيلى، وفى تراثنا العربى أن «أيام» العرب. هى الأيام التى تستحق الذكر وكانت عادة ما تمثل يوم وقوف صلب فى وجه عدو معتد والاستبسال فى قتاله مثل يوم ذى قار وخلافه.

وثمة عناصر ثلاثة رئيسية صنعت ذلك «اليوم» وميزته. وهى تمثل خلاصة عبرته ودروسه.

اولها كان أجتماع الارادة العربية، بالتنسيق ما بين مصر وسوريا فيما يتعلق بالأداء العسكرى، والتنسيق السياسى ما بين دول المواجهة المقاتلة ودول الخليج مالكة موارد البترول، وخاصة المملكة العربية السعودية لتوظيف سلاح النفط، فى خدمة المعركة القومية.

الثانى : التخطيط الدقيق للمعركة، والاعداد الجيد لها بما فى ذلك التدريب الشاق، الدءوب الصبور، وكتمان اسرار المعركة المرتقبة، والبعد عن الطنطنة والخيلاء الكاذبة.

الثالث : سد الثغرة التى كان يمثلها التفوق التكنولوجى لدى العدو، بالارادة الانسانية الصلبة من ناحية، وبإعمال الخيال والابتكار فى مواجهة عناصر التفوق المذكور من ناحية أخرى فبالرغم مما كان معروفا من تفوق الطائرات الامريكية لدى العدو الصهيونى، على الطائرات الروسية التى كانت هى عماد سلاحنا الجوى، فإن عقدة تدمير الطائرات المصرية على الأرض كما حدث فى حربى عام ١٩٥٦ و ١٩٦٧، لم تكن حائلا ، بل ربما كانت حافزا للخطة التى وضعها رئيسنا محمد حسنى مبارك أيام كان قائدا لسلاح الطيران، لاستخدام أقصى طاقات هذا السلاح فى الهجوم، بالضربة الجوية المكثفة التى إحسن إعدادها وتخطيطها ، ونجح بها فى شل ارادة العدو ومراكزه العصبية فى أول الحرب، ريثما تمكنت المشاة من عبور قناة السويس بالقوارب المطاطية . لتفتح ثغرات فى الساتر الترابى، باستخدام التكنولوجيا المصرية التى ابتكرها سلاح المهندسين، وهى تجريف التراب بالمياه المتدفقة من الخراطيم، تمهيدا لاقامة الجسور التى عبرتها الدبابات والسيارات المصفحة ونجحت فى الاستيلاء على خط بارليف وتدمير مواقعه الحصينة ورفع العلم المصرى على الضفة الشرقية للقناة، بينما تولى حائط الصواريخ المضاد للطائرات حماية مسرح العمليات من تدخل الطيران الاسرائيلى المتفوق!

تلك باختصار هى عناصر الملحمة التى صنعت يوم العبور، يوم ٦ اكتوبر.

مما لاشك فيه أن حرب أكتوبر، بالرغم من مضاعفاتها . ما أعقبها من

مفاوضات، كانت العامل الحاسم فى استرداد مصر ارضها المحتلة فى سيناء، كما ان المقاومة اللبنانية كانت هى الاخرى العامل الحاسم فى تحقيق جلاء القوت الاسرائيلية عن كل الاراضى اللبنانية، بعد احتلال دام اثنين وعشرين عاما.

جوهر الصراع

والآن تمر القضية بمنعطف خطير، يسمىٰ فى الاروقة الدبلوماسية تحقيق السلام على المسار الفلسطينى، وربما المسار السورى ايضا! ولكن من حيث كون القضية الفلسطينية هى جوهر هذا الصراع، فان المباحثات المسماة مباحثات الوضع النهائى، قد وصلت الى عظام القضية: مسألة القدس واللاجئين الفلسطينيين ممن شردوا من ديارهم عند قيام الكيان الصهيونى وحروبه المتوالية مع العرب فى أعوام ١٩٤٨ و ١٩٦٧ مرورا بالعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦.

ويختلف الموقف باختلاف الأطراف، فمن وجهة النظر الفلسطينية والعربية القدس واقعة تحت الاحتلال الصهيونى من عام ١٩٦٧ وليست مماحكات الطرف الآخر الا محاولة لاضفاء الشرعية على هذا الوضع غير المشروع، و«المرونة» المطلوبة من الطرف الفلسطينى هى فى نهاية المطاف توقيع صك بالتنازل عن الحق فى استرداد ماسلب!

ويقول الفلسطينيون - وهم على حق فى ذلك - ان القدس لاتخصهم وحدهم، وانما يهم امرها سائر العرب والمسلمين والمسيحيين ايضا. أما عن المسيحيين الشرقيين فهم جزء منا وموقفهم هو موقفنا. ولكن السؤال هو عن سائر مسيحيى العالم، وفى ظنى انهم ينقسمون الى ثلاث فرق:

- الارثوذكس من مسيحيي روسيا واليونان وشرق اوروبا، وموقفهم اقرب ما يكون الينا، ولا ادرى اذ ما كانت المصالح السياسية، وخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتى، وتدهور الاوضاع الاقتصادية سوف يجعل تأييدهم للحق العربى على نفس حرارته فى السابق، ولن تنال منه الرغبة في إرضاء القوة الوحيدة الكبرى فى عالم اليوم وهى الولايات المتحدة الأمريكية؟

- الفرقة الثانية من مسيحيى العالم هم الكاثوليك، بزعامة الفاتيكان، وهؤلاء هم أصحاب دعوة تدويل القدس

من قديم، وقد أصبح بين ظهرانينا الآن من يؤيد هذه الدعوة التى تتضمن دون مراء التخلى عن السيادة العربية التى دامت أربعة عشر قرنا على الأماكن المقدسة، باعتبار أن التدويل أهون الشرين، حيث الثانى هو السيادة الاسرائيلية المستندة إلى واقع الاحتلال واعلانها عاصمة موحدة أبدية لاسرائيل.

– وهذا الأخير هو الموقف الغالب للفرقة الثالثة من المسيحيين وهم البروتستانت، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وفى بريطانيا العظمى، الذين ينطلقون من وهم دينى بأن المسيح لن يعود حتى يعود شعب إسرائيل إلى أرضه! يشاركون فى ذلك اليهود الذين عندهم أن المسيح لم يأت بعد، وأنه سيأتى حينما تتحقق العودة المزعومة لشعب إسرائيل!

وعند هذه النقطة تبدأ مسئولية غالبية المعنيين بالقدس من جانبنا، أعنى العرب والمسلمين!

مسئولية المواجهة:

بالطبع واضح لكل ذى عينين من العرب أننا فى حال لايرقى إلى ما كنا عليه أيام حرب أكتوبر من تماسك قومى، ويكفى أن انعقاد القمة العربية قد غدا أمرا شبه متعذر، ما لم توافق عليه الولايات المتحدة الأمريكية – النصير الأكبر للعدو الصهيونى – وهى التى أصبحت تمارس احتلالا آخر فى المشرق العربى، بأساطيلها وجيوشها وقواعدها فى الخليج، بعد الكارثة التى صنعها الاجتياح العراقى للكويت منذ حوالى عشر سنوات، والتى جعلت من العراق أمثولة لم تنل مثلها الفاشية أو النازية بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية، وما يزال شعبه يعانى ويلات الحصار ويموت أبناؤه من نقص الغذاء والدواء والتعرض للقصف الجوى الأمريكى البريطانى بين حين وآخر!

نقول إنه رغم الفارق ما بين الوضع العربى الآن وما كان عليه أيام أكتوبر فإن أحدا لم يعد يطالب الحكومات العربية بشن حرب جديدة مثل حرب أكتوبر من أجل تحرير القدس، ولا حتى قطع البترول عن الغرب، ولكن احتياطيات النضال لدى الشعوب، لاتزال قائمة تشركنا فيها المجتمعات الاسلامية من حولنا بمقدار ما يهمهم من أمر القدس مثل ما يهمنا، والشعوب هى التى نريد لها أن تستعيد

عزيمة أكتوبر.

بالنسبة للعرب لدينا دعوة للتوحد من خلال برلمان عربى منتخب، يكون هو السلطة العليا فى بلاد العرب، ولكن حتى يتحقق هذا وهو الذى لابد وأن تقبله الحكومات إذا ما اشتد الضغط الشعبى من أجله، فإن فى أيدى الشعوب أن تصنع الكثير.

هناك الجانب الاعلامى الذى تقع مسئوليته أساسا على المثقفين من أبناء العرب، والمسلمين أيضا فى شتى أنحاء العالم، وهو فضح الادعاء الصهيونى بأن تهجير يهود روسيا وشرق أوروبا إلى فلسطين هو إعادة لشعب اسرائيل إلى أرضه، وقد أشرنا فى كتابات عدة على صفحات «الهلال» وغيرها، إلى أن هذه دعوى باطلة تماما، وأن هؤلاء المجلوبين من البلدان المشار إليها، إنما هم من سلالة الخزر الذين تهودوا فى بداية القرن الثامن الميلاد بعد ظهور المسيحية والاسلام، وأن هؤلاء المعروفين باسم اليهود الاشكناز إنما هم من مجرد الاسم الذى يحملونه هم عند اليهود أنفسهم من سلالة أشكناز بن جومر بن يافث ابن نوح، وليس لهم علاقة من الناحية العرقية ببنى اسرائيل التوراتية، الذين هم من سلالة عابر بن سام بن نوح، ونقول لهؤلاء ولمن يؤيدونهم من البرتستانت: إن الأدعياء لن يعيدوا أبدا ملك الأنبياء!.

وفى هذا الموضع فإن قضية اللاجئين من الفلسطينيين ينبغى أن يتخذ تناولها منحنى جديدا، وحيث أن الهجوم هو أقوى وسيلة للدفاع، فليكن شعارنا الاعلامى هو: ليعد الخزر من حيث جاءوا، لكى يعود شعب فلسطين إلى أرضه!

وإذا كنا لا نطالب الحكومات العربية بأن تشن حربا أو تقطع نفطا، فلا أقل من أن نطالبها، بأن تغض الطرف عن محاولة أى فلسطينى مبعد عن أرضه فى أن يعود إليها بأية طريقة، ولو متسللا، ولو مدعيا غير هويته الحقيقية، وذلك ما فعله اليهود فى بداية تسللهم إلى فلسطين وغيرها من بلاد العرب والمسلمين، وعسى أن يقدر على ذلك منهم، من يمكن أن يكون فى يوم من الأيام حرسا للقدس الشريف مما يحاك له!.



أيام أكتوبر

بقلم : صافى ناز كاظم

قبل انتصار أكتوبر ١٩٧٣ ، كان لشهر أكتوبر وجوده المهم فى حياتنا ، فهو شهر بداية العام الدراسى الذى يشغل التلاميذ والطلاب وأولياء الأمور. وهو شهر يشعرنى دائما بالحر، ذلك لأنه رسميا يدخل فى فصل الخريف وعلى مشارف فصل الشتاء، وكان أهلى يشترون لنا ملابس شتوية نبدأ فى لبسها مع بداية العام الدراسى من دون أن نكون واقعيا فى احتياج لتلك التدفئة القسرية، لأن الطقس يكون فعليا فى مصر لايزال مائلا إلى الحرارة بتشبث الصيف على عدم الرحيل فتخيلوا ، طقسا بهذا الشكل مع إجبار على إرتداء ملابس شتوية، لابد أن ينتج عنه بالطبع الإحساس المضاعف بالحر، حتى أننى كنت أقول أشد شهور الصيف حرارة هو شهر أكتوبر.

ويظل شهر أكتوبر شهرا تصاحبه عندى الحيثية قبل وبعد انتصار ٦ أكتوبر ١٩٧٣، لأسباب تحتفظ بها ذاكرتى: فهو الشهر الذى انتقلت فيه باحثة البادية ملك حنفى ناصف إلى رحمة الله ليلة الخميس ١٧ أكتوبر ١٩١٨ إثر مرضها بالحمى الإسپانيولية، وهو كذلك الشهر الذى رحلت فيه الآنسة مىّ فى ذمة الله ١٩ أكتوبر ١٩٤١، وولد وتوفى فيه رائد أدب الأطفال الأديب الجميل كامل كيلانى، الذى ولد فى ٢٠ أكتوبر ١٨٩٨ ولقى ربه فى ٩ أكتوبر ١٩٥٩، كذلك غاب عنا فيه صديقى العبقرى المعذب الشاعر وفنان المسرح نجيب سرور ٢٤ أكتوبر ١٩٧٨، وفقدت فيه صديقى واستاذى القدوة العظيم، السياسى، والأديب والفنان فتحى رضوان فى ٢ أكتوبر ١٩٨٨، وهو شهر جاء فيه ميلاد الاستاذ توفيق الحكيم ٨ أكتوبر ١٩٠٢، وهذا اليوم هو نفس يوم مولد ابنتى الوحيدة نوارة الانتصار نجم التى أنجبتها فى ٨ أكتوبر ١٩٧٣. وفى شهر أكتوبر مولد مجموعة من أصدقائى على رأسهم أديبنا الرائع الاستاذ وديع فلسطين فى أول أكتوبر ١٩٢٣، والأستاذة وداد مترى فى ٩ أكتوبر ١٩٢٧ والموسيقى كمال بكير فى ٥ أكتوبر ١٩٣٧ والفنانة الباهرة سميحة حسنين، ملكة فن لوحة الغلاف على مدى نصف قرن، فى ١٣ أكتوبر ١٩٢٤، وصديقتى السيدة آمال زكى



الشيخ إمام



كامل كيلانى

طليمات ابنة الاستاذة فاطمة روزاليوسف فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٤. ولايمكن أن يعود شهر أكتوبر من دون أن أتصل هاتفيا بصديقتى التى أتشاحن معها دائما منى أنيس، الناقدة والكاتبة ومساعد رئيس تحرير جريدة الأهرام ويكلى، لنسرد سويا، بتكرار لا نمله، وقائع ذلك اليوم المشهود: السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣، العاشر من شهر رمضان ١٣٩٣، أحكى وتحكى، وتصر أن تذكرنى بإحساسها الهائل بالحرج منى فى ذلك اليوم لأننى كنت ألبس السارى الهندى الحرير الفيروزى اللون، الذى تقول أنه كان يضخم من حجمى وأنا فى أيام حملى، بل ساعات حملى الأخيرة، وأزعق، ونحن نسير، فى سائقى السيارات الذين لايحترمون إشارات المرور.

★★★

فى ذلك التاريخ كنت أتوقع ميلاد مولودى فى أى لحظة بعد أن تأخر عن موعده أسبوعين كاملين، كنت خارجة للتو من المعتقل الذى دخلته فى ١٩٧٣/١/٩ حاملا فى الشهر الأول، وكان كل من يسألنى: «ألم تلدى بعد؟» أرد عليه مازحة: «الجنين معتصم ولايريد الخروج إلى الدنيا إلا بعد أن تتحقق مطالبه كلها بعد إلغاء قرار فصلى ، وأولها تحرير سيناء» كنت قد فصلت من عملى بدار الهلال مع مجموعة الصحفيين الذين تم فصلهم فى فبراير ١٩٧٣ بقرار من لجنة اسمها «لجنة النظام» وهى اللجنة التى لم أفهم معنى اسمها أبدا حتى الآن.

وعندما صدر القرار بعودة الجميع إلى مؤسساتهم بعد ذلك بشهور لم يكن اسمى فى قائمة هؤلاء العائدين، فاستبد بى الغضب وعقب خروجى من المعتقل أرسلت برقية لرئيس الجمهورية أفيده أن هذا الظلم البين الواقع على حرام فى حرام. بعدها إتصل بى الأستاذ صالح جودت من مكتبه بدار الهلال وأخبرنى بأنه قد تحدد لى موعد لمقابلة الدكتور عبدالقادر حاتم فى مكتبه بمبنى التليفزيون . ما أن دخلت على الدكتور حاتم حتى قال: «هوب .. إوعى تولدى هنا .. نحتاس!» كان يضحك، وتعجبت: سبحان الله أحسن استقبالى ويتودد شديد قال لى : «مين ياصافى ناز اللى رفدك؟، عبدالواحد؟ قلت: «أفندم؟، حضرتك بتسألنى؟» قال بتأفف من لايحتمل الظلم : «الريس وصله تلغرافك وهو مندهش .. وقال مش إحنا اللى نقطع عيش حد، صحيح ياصافى ناز إنت ماتعرفيش مين اللى عمل ده؟» قلت: «والله ما أعرف يافندم..»، أثناء الحوار الممتع دخل علينا الفنان يوسف وهبى، وقبل أن يقترب من مكتب الدكتور حاتم نظر إلىّ الدكتور حاتم هامسا همس الصديق لصديقه القديم الذى لايكتمه سرا : «.. ماشاء الله .. ربنا مديله عُمُر ..» ولولا أننى كنت مقززة أن أتخذ سمت الجدية والجهامة لانفجرت بالضحك. جلس يوسف وهبى جلسته وقال مقالته التى لا أذكر منها شيئا ثم غادر، بعدها وفى ابتسامة عذبة قال لى الدكتور حاتم : «روحى على طول دلوقت دار الهلال وقولى لهم عيب .. الريس مايرضاش كده .. وأى مشكلة كلمينى». خرجت من عنده مباشرة إلى مكتب الأستاذ عبدالواحد الوكيل – رحمة الله عليه – العضو المنتدب بدار الهلال- ونقلت له بالحرف لقائى مع د.حاتم، قام الرجل وقعد: «أنا .. أنا .. أرفدك؟ .. ليه . هاتوا الدوسيه ..» وفتح ملفى وقال مشيرا إلى خطابات من الاتحاد الاشتراكى والنقابة ولجنة النظام: «إقرئى ماذا يقول هذا .. وهذا .. وهذا ...؟» قلت : «يقولون إذبحها واسلقها وكلوها . هَمْ .. هَمْ..» وضحكت. وقال الأستاذ عبدالواحد الوكيل – رحمة الله عليه – : «أنا أنفذ

تعليمات، فلانة مفصولة، فلانة تعود لعملها .. خلاص! » سألته: «هل هذا يعني أن أعود للكتابة والنشر؟» هزّ كتفيه: مش اختصاصي .. ده اختصاص فكري باشا أباظة».

صرفوا لي المتجمد من راتبي، وكان يقرب من أربعمائة جنيه، سألني صديقي فنان الكاريكاتير بهجت عثمان: «ياه .. ح تعملي إيه بالمبلغ ده كله؟» نزلت محل «هانو» واشتريت أشياء المولود، اشتريت من وسع براحتي حتى بلغت قائمة مشترواتي ٣٦ جنيها، قلت للبائع: أرسلها إلى عنوان بيتي وأعطني إيصالا، قال: نحن لانعطي إيصالات، قلت: «لا .. المبلغ مش بسيط ده ٣٦ جنيه بحالهم» قال: «ولو حتى مائة جنيه نحن لانعطي إيصالات والبضاعة ستصلك كاملة إن شاء الله!» أعطيت والدتي مائتي جنيه كانت قد دفعتها للاستاذ عبده مراد أتعابا للدفاع عني لم يتم بسبب حفظ القضية الوهمية، واشتريت لها بثمانية جنيهات حلية ذهب محفور عليه آية الكرسي وعلى وجهها الآخر «ماما حفظها الله» - (آلت إليّ هذه الحلية بعد وفاتها رحمها الله ومازلت أحتفظ بها) - حاولت أن أسترد الجنيهات المائتين من الاستاذ عبده مراد فصرخ في أذني: «في محامي يرد أتعابه؟، أنا راجل عندي ضغط ابعدي عني!» لم أر أي وجه حق لإصراره على الاحتفاظ بهذا المبلغ، الذي كان في وقتها مهولا ومقتطع من احتياجاتي والتكاليف المنتظرة للولادة.

★★★

كانت قصيدة الشاعر أحمد فؤاد نجم «لاصوت يعلو فوق صوت المعركة» التي يقول في بعض مقاطعها «وأكلنا عيش أسود بلون المعركة .. ياهمبكة .. لاصوت يعلو .. لاعوت يصلو ..» .. الخ، يسخر فيها من المزايدة بوعود التحرير ومشاعر الناس التواقة إلى إزالة آثار العدوان وجراحه منذ هزيمة ١٩٦٧/٦/٥، بعد أن ضاقت الصدور بالوعود التي لاتتحقق عن: «ما أخذ بالقوة، لايسترد إلا بالقوة». وكان الذي يعبر عن ضيق صدره بالأعوام المكرورة من دون الرد المنتظر على هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ المهينة، يقصف قلمه ويلاحقه الاعتقال، وأصبحت صيحة: «إن بات التار ياولادي، حيبات الذل شريكي»، التي أطلقها نجم عاليا بصوت الشيخ إمام مخترقة جدران السجون والمحظور، أصبحت الشهيق والزفير، وبالذات الزفير، لكل الغاضبين. كنت أمزح وأنا أؤكد اعتصام وليدي ورفضه الخروج إلى الدنيا قبل تحرير سيناء، ولم أدر أنني كنت أنطق بنبوءة. رغم مزاحي كنت قلقة لتأخر المخاض ودخولي في الشهر العاشر من الحمل، فأخذتني مني أنيس لنسير مشوارا لعل السير يحدث أمرا - (كان عمرها ٢٢ سنة وكنا قد تزاملنا في زنزانة واحدة بسجن

القناطر للنساء، قسم سجناء الرأي، مع الدكتورة انتصار جمال الدين التي كانت طالبة من طب عين شمس، وفي ١٥ أكتوبر هذا العام تأتي ذكرى العام الأول على رحيلها رحمة الله عليها) - وهكذا في عصر العاشر من رمضان ١٣٩٣ هجرية و٦ أكتوبر ١٩٧٣ ميلادية بدأنا أنا ومنى أنيس رحلتنا من فندق شبرد إلى مقهى ريش عند ميدان طلعت حرب حتى قادتنا خطانا السائرة إلى حي الحسين الذي كان ينتظر مدفع الإفطار حين أرهقنا السير فاقترحت أن نستريح في محل صائغ أعرفه، اشتهيت خاتما به فص فيروز بسيطا جميلا، لبست الخاتم واشتريته على الفور رغم ثمنه الباهظ الذي بلغ سبعة جنيهات ونصف.

وواصلنا أنا ومنى أنيس رحلة السير في خان الخليلي وأنا مستبشرة بخاتمي الجديد الذي قال الصائغ أن فيروزته من جبل الطور بسيناء. فجأة وجدنا هرجا والناس تتدافع نحو أجهزة التليفزيون في المقاهي وبعض المحال قال الناس: «بدأنا المعركة لتحرير سيناء» «المعركة حقا؟».

سمعنا آخرين: «لقد عبرنا القناة بالفعل والجنود منتصرة تهتف الله أكبر!» نظرت إلى منى أنيس: «معقول يامنى خلاص تحقق المطلب؟» نظرت إلى خاتمي الفيروز وقلت: «خلاص يبقى ح أولد إن شاء الله!» دفعتني منى أنيس لنجري سريعا نبحث عن تاكسي يحملنا إلى بيتي في العباسية وأنوار شارع الصاغة تنطفيء والناس حذرة متوجسة من الفرح المتعجل.

★★★

في اليوم التالي، الأحد ١١ رمضان - ٧ أكتوبر، كانت الانتصارات تتوضح وتتوالى في تصاعد، ونحن الخارجين من المعتقلات، نشعر أن إلحاحنا للخطو نحو المعركة كان في محله وأن ضغوط التذمر الشعبي قد آتت أكلها، تتصل بي الدكتورة نجلاء مصطفى، طبيبتي لتخبرني أن مكاني في مستشفى دار الشفاء قد تم إلغاؤه لأن المستشفى بأكمله قد حجزوه لطوارىء المعارك، تفاعل الفرح والمفاجأة والتوتر، ومشوار السير من ميدان طلعت حرب حتى الحسين يحقق المرغوب وتبدأ طرقات الجنين تدق تعلن عن رغبته في الميلاد، وفي الساعة الرابعة فجر الإثنين ١٢ رمضان - ٨ أكتوبر ١٩٧٣ ثالث فجر معارك التحرير تعلو صرخات وليدتي كأنها الهتاف وأسميها: «نوارة الانتصار» - (الاسم من اختراعي واقتراحي ولكن الناس تقول الآن عندما تسمعه: طبعا مش أبوها شاعر!) - ليلة واحدة في المستشفى الخاص على طاولة العمليات لتأخذ من بعدي مكاني في أزمة طوارىء النصر، ما أن أتمالك نفسي، ومازال بي أوجاع مابعد الوضع، حتى أمسك بالقلم لأكتب «غنائية» تحت إلحاح مشاعري وفرحي، وبتصوري أن النصر قد غسل من قلوب المصريين كل غل وكل حقد أرسل غنائيتي إلى رئيس

تحرير مجلة المصور الأستاذ فكرى أباظة، معتقدة بيقين أن عينيه ستدمعان وهو يؤشر عليها بالنشر حتما وفورا، ولم لا؟، أليس هذا الفرح حقنا نحن الذين لم ننس وجع الهزيمة لحظة؟. غير أن تفاؤلى بطيبة هؤلاء الناس ينهار وأذنى على الهاتف يصفعها صوت «فكرى أباظة»: «متأسف يابنتى إنت عارفة التعليمات، وبعدين يوسف السباعى يفتكرنى بتحداه ...». لا أصدق فأجهش: «يوسف السباعى إيه .. إنت فكري أباظة . إنت فكرى إباظه بحاله .. هو ماله يوسف السباعى ومال دار الهلال ماخلاص خرج منها ...»، يكرر فكرى أباظة طاويا تاريخه المجيد: «معلهش والله ما أقدر أنشر لك شيء....!».

تأخذ منى أنيس «الغنائية» إلى نقابة الصحفيين لتنشرها فى نشرة تصدرها النقابة يتسلمها حسين عبدالرازق، بشهامة لا أنساها، يراجعها ويتابعها لتظهر مع رسم جميل وإبراز صحفى تملأ الصفحة الأخيرة من النشرة، أمسح دموعى وأشعر بانشراح حين أكتشف أن قراء نشرة نقابة الصحفيين كانوا أكثر من قراء مجلة المصور المكبلة بتعليمات الحقد والغل والبغضاء والإنحياز الظالم .

★★★

كان عنوان الغنائية هكذا : «غنائية أم لرضيعة ولدت فى ثالث فجر معارك التحرير ٨ أكتوبر ١٩٧٣»، أعيد هنا نشرها ليستشعر جيل ابنتى كيف استقبلنا النصر وصدقناه واحتضنته مشاعرنا باعتباره «نوار نصر»، أى بداية لثمار طيبة نجنيها، ذلك قبل أن يخذلنا قرار وقف إطلاق النار الذى أدركنا لحظته إنه وقف إرغامى تنفيذا لتعليمات قهرية بقوة قهر اكبر جدا جدا من قوة قهر تعليمات يوسف السباعى .

أقول غنائيتى التى كتبتها ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ – المخلصة، بريئة كانت أو سانجة، فاسمعونى :

★★★

● حين تأخر المخاض والميلاد لم أفزع.

آمنت أن الخروج من عنق الرحم لابد آت – وسيكون رائعا – طالما أن الحمل غير كاذب وطالما أن هناك إنساناً يريد أن يولد.

★★★

● وفى شهر أكتوبر يختار فلاحو مصر أن يطلقوا «نوارة» أسما لكل أنثى تولد تيمنا ببشائر المحاصيل – كدّ الأيدى – غذاء الحياة لمصر. وحين قررت نفسى أن أتبع التقليد، لم أكن أعرف أن حصادا غاليا مباركا طال توقنا إليه سوف يهدينا كذلك نوارته، وفوق الألم ارتفع صوتى! «انصر مصر يا الله» وأنجبت ابنتى «نوارة الانتصار» فى فجر اليوم الثالث لمعارك التحرير فى أجمل ربيع عرفته مصر وهلّت بشائره فى فصل الخريف.

★★★

● ولقد كان اليقين هناك بأن مصر حبلى .. وكان اليقين أن مانراه ليس تضخما أو ورما أو انبعاجا كاذبا: ليس في حوزة مصر سوى أن تحمل صدقا وشرفا وغضبا طيبا وحنقا أخضر، فمن هي «مصر» قبل كل شيء؟

أليست هي : الخصب الذى أعطى إنسان العالم بشارته منذ فجر التاريخ : نوارة مجد وحضارة البشر؟.

أليست مصر هي: كنانة الله التي حفظ فيها أنبياؤه: يوسف وموسى، وعيسى، ودعوة الإسلام العزيز الذى جاء به «محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين» ولتظل «الكنانة» هي مستودع «الإسلام» دائما، منذ البداية وإلى الأبد إن شاء الله.

وحين تنحنى رقاب الأسرى الشعث ضخام الجثة لمصر، تحس مصر بأن الأمر غير جديد: فهكذا كان الحال دائما، وهكذا يعتدل الميزان وتكون «مصر» هي : «مصر».

★★★

● يقف الجندى المصرى الفلاح النحيل الأسمر، يحارب حرب جندى شريف في معركة بينما القتلة في انقضاضات اللصوص وقطاع الطريق يحرزون الانتصار على البيوت والمدارس والأطفال والنساء، وحين تستبد النقمة وتسوقنا إلى رغبة الثأر بالمثل: تزجرنا آيات القرآن وتوقظنا آلاف المآذن ومسئولية «مصر» في أن تظل «مصر».

★★★

● وكان لمصر أن تصبر،
وكان لمصر أن تقلق،
وكان لمصر أن تتململ وتغضب،
وكان لمصر أن تحنق،
ولم يكن لمصر أن تصمت أو أن يغشاها اليأس أبدا.

ثم ....

ترهف الفرحة: وترق وتعذب والقطرة عند المقلة تتردد في التعبير عن نفسها .

هي «مصر» أيضا تستعيذ برب الفلق وتقرأ آية الكرسي وتهمس في ترقب :

ربى يسر ولاتعسر،
ربى تمم بالخير،
ربى تمم بالخير ..
والحمد لله.

١٩٧٣/١٠/١٠»

★★★

كل عام وأنتم بخير، وتعيشون وتفتكرون، وأرجو أن يكون لدىّ في أكتوبر القادم حكايات أخرى مختلفة في احتفاليتي بشهر أكتوبر التي لايمكنني الفكاك منها .

والهلال يستدير

شعر

حسن فتح الباب

تقول لى :
فى غبش المساء تولد النجوم
لكى تضئ فى قلوب الشعراء
وفى خدود الياسمين
والأمهات والطيور والشجر
فى دورة الشروق والغروب
تطلع يانع الثمر
عبير أنفاس السحر
ووردة القمر
فلننشد فى عرس الربيع
أغرودة النوارس البيضاء
ونملأ العيون بالضياء
دع الشجى
أطفىء مجامر الضجر
ولتغمر القلبين أمواج السرور
فأجمل الأيام ما لم يأت بعد
وفى غد وبعد غد
موعدنا مع الحياة والهلال يستدير

●●●

أقول : ياشمس الضحى
يانجمة تلألأت على الغروب
أفدى ربيعك الندى
وطيرك الطروب
بقلبى الشجى
لكننى هذا المساء
مسافر غريب
يقول لك :
ما أجمل الحياه
لولا يد تمتد فى الظلام
لتسرق الأحلام
ما أطيب الأريج

لولا فحيح أفعوان
على ربى (الخليل)
وفى (مدينة الصلاة) يشعل الحريق
لولا شراك القهر والشقاء
ظل لذئب فى المروج
أشباح قطاع الطريق
وطفل (كوسوفا) الشريد
بين دموع الأمهات
والليل والإعصار والجليد
طفل شهيد
لا تفزعى
لن يستباح الشهداء
سيرجعون
سيرجعون أغنيات للوطن
أجنحة للعاشقين
وردا على ضفائر البنات
سيرجعون
سنابلا على حقول الكادحين
مناهلا تروى الظماء المتعبين
مشاعلا تهدى السراة الحائرين
حبيبتى
لا تهنى .. لا تجزعى
سيشرق الصباح بعد حين
ونلتقى
على حفافى جدول صغير
موعدنا مع الحياة والهلال يستدير
ويل لصناع الظلام
وسارقى الأحلام
ويل لقاطعى الطريق
ويل لأعداء الحياه



شيخ الملحنين وهواه الغلاب

بقلم : هشام فاروق

كان أول لقاء بين لحن من ألحان الشيخ زكريا أحمد وصوت أم كلثوم فى طقطوقة «اللى حبك ياهناه» (١٩٣١).
وكان لقاء سعيدا لصاحبى اللحن والصوت ، أتاح لكليهما ان يجوب آفاقا باهرة ، ما كانت لتخطر لأحد على بال.
وفيما بين ذلك اللقاء السعيد ، وخاتم لقاءاتهما فى «هوه صحيح الهوى غلاب» (١٩٦٠) ؛ تلك الأغنية الرائعة التى قام بتلحينها لصوتها ، بعد خصام دام أعواما.
فيما بينهما ، مرت الأيام أعواما بعد أعوام ، فى أثنائها قام زكريا بتلحين العديد من الأغانى بصوت أم كلثوم ، فشدا بها على أسطوانات ، وفى حفلات وأفلام.
وقد يجنح البعض إلى الاعتقاد بأن العلاقة بينهما يرجع تاريخها إلى ذلك اللقاء السعيد.

وإذن، فليس لها من العمر سوى تسعة وعشرين عاما، هى المدة بين ذلك اللقاء ولقاء «هوه صحيح الهوى غلاب».

غير أن عمرها ، فى حقيقة الأمر، أطول باثنى عشر عاما، إذ يرجع أول لقاء بين الاثنين إلى الثانى من يونية لعام ١٩١٩، وفى مدينة السنبلاوين ، بالقرب من قرية طماى الزهايرة، حيث غنت له ، مع أخيها خالد.

وبعد ذلك ، بثمانية أيام ، قام بزيارتها فى بيت أبيها ، بتلك القرية ، حيث أهداها موشحا وطقطوقة، ودعاها إلى القاهرة ، حيث جمعتهما سهرة ضمت محمد القصبجى ، أحمد صبرى النجريدى والشيخ أبوالعلا.

وانطلاقا من تلك السهرة ، جرى اتفاق، تعهدت بموجبه أم كلثوم بالغناء بين الفصول على خشبة مسرح على الكسار.

شيخ الملحنين وهواه الغلاب

حب من أول نظرة

ومما أحدثته أم كلثوم من تأثير عليه، كتب الشيخ زكريا في سجل يومياته أنه بدءا من تلك السهرة..

«وأنا أصم لا أسمع إلا صوتها ، أبكم لا أتحدث إلا باسمها فقد أصبحت مفتوناً بها، لأنني أحببتها حب الفنان للحن الخالد ، تمنى العثور عليه دهرا طويلا».

وذلك الاعتراف بافتتانه بها ، ربما يفسر التحالف الوثيق بين الاثنين ، هو بما أودعه من روحه الحية في ألحانه لها.

وهي بما أضافته من روح تشعر وتفهم وتترجم عن حياتها ووجدانها.

ومما يعرف عن ذلك التحالف أنه دام نحو سبعة عشر عاما دون انقطاع ، حتى دب خصام بين قطبيه ، دام نحو اثنى عشر عاما ، وانتهى بعودة الوئام ، متوجا بأغنية «هوه صحيح الهوى غلاب»، التي تعتبر بحق، تعبيرا عن افتتان زكريا بشاديتها ، وبصوتها ، على نحو، لم يعد يملك معه القدرة على الفكاك ، حتى وان طال أمد الخصام .

ولكن الوئام لم يعد ليمكث طويلا ، لا لسبب سوى أن عودته جاءت بعد فوات الأوان.

فقبل ساعات من شدو الصوت الذي قل ان يجود بمثله الزمان لتلك الأغنية ، وهي من مقام الحزن والشجن ، وأعني به مقام الصبا ، كان ناظم كلماتها الشاعر «بيرم التونسي» ، قد أسلم الروح (٥ يناير ١٩٦١).

وعندما عاد الصوت الساحر يشدو بها، بعد رحيل «بيرم» عن دنيانا بنحو أربعين يوما كانت روح زكريا قد آثرت ، هي الأخرى ، اللحاق بروح «بيرم» ، في دنيا غير دنيانا.

تغريدة البجع

وليس أدل على افتتان «زكريا» بالصوت الذي لم يعد يسمع سواه ، من اختياره أغنيته الأخيرة له من ذلك المقام، وبكلمات تدور معانيها حول ما وراء الحب من أشجان وألم وندم لايفيد ، وتحول نهار العاشق العاجز إلى ليل وليله الي نهار والحق أن أغنيته الأخيرة بمقامها وكلماتها أقرب إلى إبداع الختام المسمى بتغريدة البجع.

أما لماذا تلك التسمية : فذلك لأنه مما يقال عن البجعة انها إذا ما دنت من ختام حياتها سمعت لها أنات منغومة، تطرب لها الآذان، ولا يمنع طربها أن تكون تلك الأنات صادرة عن ألم يكويها.

ومن هذه التغريدة الجميلة ، قبيل

موتها، جاء التشبيه عند أدباء الغرب الذى يصفون به عملا جيدا أنجزه صاحبه ليختم به حياته ، إذ يقولون عنه إنه تغريدة البجعة .

الصوت الذهبى

وعلى كل، فالسؤال هل افتتان زكريا بأم كلثوم ، فلا يسمع إلا صوتها ، ولا يتحدث إلا باسمها ، أضر أم أفاد؟

فى ليلة من صيف عام ١٩٦٩ ، غنى المطرب السورى «صباح فخرى» وهو من تلك الفئة القليلة التى لاتزال على العهد رافعة لواء الأداء العربى الصميم : غنى ذلك الدور المشهور الذى لحنه «سيد درويش» من مقام الزنجران «فى شرع مين قاضى الهوى .. يذل خصمه ويحكمه».

وبعد الانتهاء من الغناء قال من بين ما قال إن سيد درويش لم يخترع ذلك المقام ، لأنه كان موجودا معروفا ولكنه لم يكن رائجا.

وقبل «سيد درويش» ، طرقه «داوود حسنى» فى بعض الألحان.

فلما سئل أى الرجلين كان اقدر على إحيائه، أجاب كلاهما كان قديرا، غير أن الشيخ زكريا كان أقدر منهما معا ، فضم الزنجران من أطرافه فى تلحين الدور الذى غنته أم كلثوم فى مطلع الثلاثينات «هو دا يخلص من الله القوى يذل الضعيف».

وفى كلا الدورين جاءت كلمة الذل

ومع ذلك ، فكلاهما كان للغناء العربى عزا ومجدا.

ومضى يتحدث عن مواطن الجمال الفائق ، والصنعة الدقيقة ، والتصرف اللبق فى لحن الشيخ زكريا.

ثم صاح :

والله .. والله ، لقد تفوق زكريا فى دوره هو دا يخلص من الله ، على الشيخ سيد فى دوره «فى شرع مين».

فقد استطاع تصوير مقام الزنجران على أدق صورة وأجملها وأعجبها .

وكان صوت أم كلثوم هو الإطار الذهبى ، لهذه الصورة الدقيقة ، الجميلة ، العجيبة».

ولاجدال فى أن صوتها قد صاغته الاقدار السعيدة، فى لحظة لا تتكرر الا نادرا ، صاغته من ذهب خالص، لا يصدأ أبداً، وكان بفضل روعة صياغته من معدن نفيس ، من أبرز عوامل النجاح لأغنية «هو دا يخلص من الله».

ولعلى لست بعيداً عن الصواب، إذا ما جنحت إلى القول بأنه لولا افتتان «زكريا» بصوت أم كلثوم الذهبى ، لربما ظل اسير تلحين أغان مثل «ارخى الستارة اللى فى ريحنا، لاحسن جيرانك تجرحنا».

وهى أغنية لحنها فى أثناء عقد العشرينات ، وتزاحم على غنائها كل من عبد اللطيف البنا ونعيمة المصرية ومنيرة المهدية ، والثلاثة كانوا من أقطاب الطرب فى ذلك الزمان.

الصعود والارتقاء

ولما كان فى وسعه القفز بألحانه ، مع مطلع عقد الثلاثينات، صعودا وارتقاء، إلى أغان مثل «اللى حبك ياهناه» ، «إمتى

شيخ الملحنين
وهواه الغلاب

الهوى بيجي سوا» و«آه ياسلام زاد وجدى آه.»

ولما كانت تجربته العريضة مع صوتها الذهبى فى الألحان التى صاغ بها كلمات الشاعر «بيرم التونسى» إبان عقد الأربعينات ، ومن بينها اذكر على سبيل التمثيل «كل الأحبة اتنين اتنين»، «أهل الهوى» ، «الآهات» و«الأولة فى الغرام».

ولما لحن أغانى «سلامة» ذلك الفيلم الذى أبدع جميع أغانيه ، عدا أغنية يتيمة لحنها «رياض السنباطى».

وفيها بلغت بداوتهما معا - زكريا وأم كلثوم - قمة من قمم الجمال.

ولما ابدع على امتداد عشرين عاما، هى أعوام مجد الصوت الذهبى ، أغانى لأفلام أخرى وحفلات ، ملأت صاحبة ذلك الصوت بأدائها الصحيح ، المتع لها ، على نحو كان ينتزع دوما الآهات من أعماق الصدور ، ملأت به الدنيا ،وشغلت الناس من الخليج إلى المحيط .

[illegible]

وأكثر أغانى تلك الأعوام مرحا، وتعبيرا عن شعور «زكريا» نحو الصوت الذهبى وصاحبته هى «غنى لى شوى .. شوى».

وليس صدفة ، ولا غريبا ، أن تختارها أم كلثوم، رغم الخصام ، لتغنى كلماتها فى السهرة التى أقامها المعجبون والزملاء بمنزل المطربة «فتحية أحمد» احتفالا بمقدمها من الولايات المتحدة ، حيث شفيت من مرض هدد أوتار صوتها السماوية .

فإذا هم يسمعون منها القديم المكتوب لأداء فى فيلم «سلامة» لم يدم سوى دقائق معدودات ، يسمعونه جديدا لما يقرب من الساعة ، كأنما وضعت أغنية زكريا لهذا المقام.

لأغنى وأغنى وأغنى
وأزرى الخلايق فنى
المغنى حياة الروح
يسمعها العليل تشفيه
وتداوى كبد مجروح
تحتار الأطبا فيه

وافتتان «زكريا» بالصوت الذهبى وصاحبته أمر شائع بين الفنانين.

ويحضرنى هنا افتتان «جوزيف فون سترنبرج» المخرج الألمانى الذائع الصيت بمارلين ديترش نجمة فيلمه «الملاك الأزرق».

وكيف أنه اصطحبها فى مطلع الثلاثينات إلى هوليوود، حيث عبر عن شعوره نحو سحر جمالها الأخاذ فى سنة

أفلام.

فلما تحررت من فلكه، مستقلة بفلكها، بعد آخر فيلم لها معه «الشيطان امرأة» (١٩٣٥)، فقد الإلهام، ومعه القدرة على الابداع.

ولقد تعرض زكريا لمحنة مماثلة، عندما لم يعد بينه وبين الصوت الذهبى عمار.

حسن الختام

فلما عاد الوصال ابدع تغريدته الأخيرة «هوه صحيح الهوى غلاب».

وفى اعتقادى أنه لو وضعت تلك التغريدة فى كفة، ووضعت جميع الأغانى التى قام بتلحينها فى أثناء فترة الخصام بينه وبين صاحبة الصوت الذهبى، لرجحت كفة التغريدة الأخيرة، التى تعتبر بحق حسن الختام.

وختاما، يظل لى أن أقول إنه حتى فى أعوام نزاعه مع صاحبة الصوت الذهبى أمام القضاء، بقى مفتونا بها وبصوتها، آية ذلك ما يروى عنه من أنه استمع إلى حديث بين ساقيين لم يكونا يعرفان بأمر وجوده فى المقهى.

هل سمعت الست أمس؟

لا والله، لأننى نمت بعد الوصلة الأولى.

وهل ينام الناس، والست تغنى؟

أقول الجد ياإبراهيم، أنا أموت فى الست، وهى تغنى للشيخ.

وسمع زكريا الحوار، وقال لرفيق كان معه، إن هذه الكلمة تساوى له أكثر من مليون جنيه.

والأكيد أنه كان محظوظا، فصوت الست الذهبى شدا بأغان من تلحينه أكثر من أغانى أى موسيقار آخر.

وفى حديث له نشرته مجلة الإذاعة اللبنانية فى ديسمبر ١٩٥٠ قال «ان هذا الذى يسمونه تجديدا فى الموسيقى هو فى الواقع قضاء على روحنا الشرقية الأصيلة.

ان الموسيقى لم تعد فى هذه الأيام الا متاجرة بعواطف المستمعين.

والألحان التى يقال إنها مجددة هى التى تهدم الذوق الفنى فى الشرق.

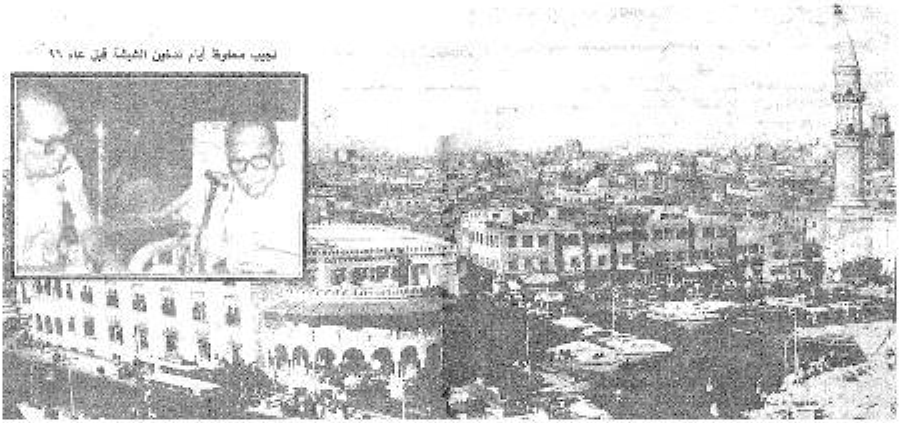
أما أنا فلن أهبط بفنى إلى مستوى المتاجرة، سأظل على ما أنا عليه، اعطى لحنا قويا فى العام، واصبه فى حنجرة صافية، تحسن تأديته، ثم آوى إلى نفسى، وأنا فى اطمئنان إلى اننى اديت واجبى، وليس اكره عندى من أن يمر الناس على لحن لى مرورا عابرا، فلا يحسون به».

واعود، فاقول إنه حقا كان محظوظا عندما التقى، قبل ثمانين عاما أو يزيد، بحنجرة صافية، فسمع صوتا ذهبيا، يحسن الاداء.

والاكيد .. الاكيد أنه آوى إلى نفسه آمنا، مطمئنا حين سمع الصوت الذهبى يشدو بتغريدته الأخيرة «هوه صحيح الهوى غلاب»، وحين سمع بافتتان المستمعين بها.

واغرب ما اعجب له ان ذلك الافتتان لايزال قائما، حتى يومنا هذا!!

نجيب محفوظ أيام تدخين الشيشة قبل عام ٩٦



شروق الكائن

بقلم جمال الغيطاني

كم شروق توالى على الدنيا منذ اكتمال استدارة الكوكب الأرضي وانتظامه في مداره حول الشمس؟!

كم شروق توالى على تلك الأرض التي كانت أول ما رأيت؟! أقدم ما تحتفظ به ذكرتي، ذلك الأفق القاهري. كم شروق توالى عليه منذ أن كانت أرضا وعرة، موحشة، حتى سريان نهر النيل إليها، وتكون الأحراش ودبيب الحيوان وسعي المخلوقات كافة وجهاد الإنسان؟.

كم شروق توالى منذ بدأ تحديد مسار الضوء عبر إقامة الجدران والنوافذ، مستطيلة، مستديرة، مربعة، الأسقف سواء كانت لمعابد تواجه مسارات النجوم والكواكب، أو مقابر تحفظ الموجود في اللاموجود، منذ أن شكلت ملامح أول مدينة فعرف اسمها «منف» في الزمن العتيق، موقع توارثته عدة مدن اسهم في ظهوره عوامل شتى منها الجغرافي، والسياسي والاجتماعي، والديني والانساني بكل مستوياته، ماتزال اطلال «منف» إلى الجنوب من أهرام الجيزة، انه الموقع الرمز، القريب من انشطار نهر النيل الى فرعين يتجهان إلى البحر، يسافر فيه الماء القادم من الجنوب إلى الشمال، اما مصدر الضوء الأقوى، الذي لا تقدر العيون على التطلع إليه والتحديق فيه فيرحل من الشرق إلى الغرب، عابرا الارض، والنهر الممتد بالعرض. هكذا حدد الإنسان الجهات، وكان ذلك منطلقه إلى رصد سمات الكون وعلاماته، وعندما شرع في البناء، راعى المرجعيات الكبرى للوجود. فأضلاع الاهرام تواجه الجهات الاربع، والمدخل اليها دائما الى الشرق. كذلك يتجه تمثال «ابو الهول» مواجها الابدية والحركة الكونية بابتسامته الغامضة، والتى يمكن أن نرى فيها المعاني المتناقضة، من سخرية إلى شجن إلى أسى على ما يمضي ويندثر. انها نفس النظرة التي نراها عبر تحديق التماثيل المصرية القديمة فينا. المتجهة الى اللامكان. الى ما يصعب تحديده.

متى بدأ شروق الشروق ؟

لا أدرى.

تماما كما لا أقدر على تحديد أول شروق بعد وفادتي إلى العالم. بعد لقاء عيني بالضوء المسافر من الأبد إلى الأبد، من المصدر الكوني إلى موضع التلقي الإنساني: عيناي، لا يمكنني التذكر لأن الوعي لا يحتفظ باللحيظات الأولى، ربما يتردد صداها داخلنا، لكن أنى لنا أن نعي؟

طلوع الشمس في ذاكرتي

كم شروق توالى عليّ؟

يصعب ذلك رغم سهولة الإجابة الظاهرية، ذلك أنني قادم من أمد يصعب تحديده الى أبد يعسر تعيينه. وما بينهما أيامي تلك التي يمكنني الاشارة إليها. أن أسميها . رغم أنها تنقضي دائما، لكن ما يسهل الأمر عليّ أن مكانها متعلق بها، بل إن زماني لا معنى له بدون هذا المكان، كل لحظة تستدعي موضعا بعينه، وكل موقع تحتويه لحظة، وقديما قيل إن الزمن مكان متجمد، والمكان زمن متجمد، مكاني المرتكز، منطلقي ذلك المسمى بالقاهرة، القاهرة القديمة تحديدا. القاهرة التي تعتقت فيها الأزمنة المتعاقبة، التي لا أدري ولا ألم بعدد المرات التي توالى عليها الشروق، لكنني أعي أول طلوع للشمس في ذاكرتي، يمت أفق المدينة، ومنه منطلقي وأول وثبي ورحيلي، فكما ترحل الشمس، يرحل الضوء، ونرحل معه.

كنا نسكن الطابق الأخير. الخامس، وكان يعد مرتفعا بمقاييس الاربعينات والخمسينات من القرن الماضى، من هذه النقطة بدأت صلتى بالزمن القاهرى. الى الشرق هضبة المقطم الصخرية التى كانت مغمورة بمياه البحر فى زمن عتيق، قبل أن تنحسر المياه شمالا مخلفة فى الصخور أسماكا وأصدافا، وكائنات بحرية توحدت بالحجر.

إلى الغرب أهرام الجيزة. ومع متانة التحديق يمكن رؤية سلسلة الأهرام الأقدم، تتوالى عند خط الغرب، جهة مغيب الشمس: سقارة، دهشور، أبو صير. فى زمن طفولتى كان الأفق القاهرى مفتوحا، لم تزحمه الأبراج المرتفعة التى تقوم الآن.

صعب علىّ تذكر السبب الذى جعلنى أخرج بصحبة الوالد - رحمه الله - إلى السطح فجرا، غير أننى أعى تماما وقوفى متطلعا إلى ذلك اللون الأحمر الذى يجيء من عتمة الليل مزيحا النجوم الأقاصى، احمرار خفيف لكنه قوى. يمهد لدرجة أقوى من الأحمر الغامق، حمرة متدفقة، مستمرة، تنبيء بمصدر خفى. تتعاقب درجاتها بحيث يصعب رصدها. او حصرها. او تعداد درجاتها، عند لحظة معينة يتدفق الضوء، كأنه ينفجر، ومن هنا سمى الفجر فجرا فى اللغة العربية.

من خلف صخور المقطم يبدأ البزوغ، مجرد خط نحيل يميل إلى استدارة، يتضح شيئا فشيئا، وبمجرد اكتمال ظهور القرص يصعد بسرعة. تلك لحظة لا تغيب عنى ولاتولى. إليها أنسب أى شروق أراه. استعدتها فى اوضاع شتى، وفى اماكن نائية، استرجع تطلعى المبهور ودهشتى الطفولية التى ربما تشبه دهشة الإنسان القديم وهو لايجد تفسيرا أو تبريرا، فيتخيل عبور السماء بقارب خفى، وتمتد الأذرع من قرص الشمس. خيوط الأشعة تنتهى بأيدى، ذلك التطلع العميق، المبهور أفتقده الآن. ليس لأنى أغيب عن شروق الشمس لكثافة البنيان، واختلاف الموقع، لكن لتوالى المظاهر وتوالى الوقائع، واتضاح أمور شتى من خلال المعرفة، المعرفة التى تحد أحيانا من انطلاقة الخيال. لكن يظل الشروق الأول الذى احتفظت به ذاكرتى مهيمنا، مرجعيا، يؤطر المآذن، القباب، البيوت، ابراج الحمام، المدينة العتيقة وأهلها. اولئك الذين يعبرهم الزمن، ويعبرونه أيضا.

الفول المدمس

مع الشروق يبدأ السعى. منذ الفجر تسرى الحركة، تخرج العربات التى تدفع باليد أو التى تجرها الحيوانات من مراقدها، اول ما يظهر منها العربات التى يقدم عليها الطعام. خاصة الفول المدمس، يوضع فى «قدرة» مستديرة كانت فى الماضى القريب من الفخار او النحاس قبل أن يسود الالومنيوم، يتم النفاذ الى داخلها بواسطة المغرفة، طويلة اليد، تخرج محملة بحبات الفول الذى استوى على نار هادئة، أصبحت لينة، ناعمة مثل الزبد، تدفس

«القدرة» طوال الليل فى المستوقد، حيث الوقود الذى يشعل النار البطيئة التى يتم بها تسخين ماء الحمامات العامة والذى يصلها عبر انابيب من فخار، تصب فى المغطس المليء بالماء الساخن ومنه يتصاعد البخار فى فراغ محدود يجلس به الرجال ليلا عرايا تماما والنساء نهارا، مع اندثار الحمامات العامة التى بلغ عددها اول القرن التاسع عشر ثلاثة آلاف، لم يتبق منها الآن إلا حوالى عشرين. بدأ باعة الفول يستخدمون وسائل مباشرة، لكن فى كل الاحوال لابد أن تكون النيران هادئة تسوى الفول على مهل. حتى تنضج الحبات الصلبة ، الجافة وتلين بحيث تستحق الوصف الذى كان ينادى به الباعة على الفول «يالوز» . وللباعة القاهريين تراث طويل فى المناداة على بضاعاتهم فى أصوات منغمة، ويصل الأمر إلى تدليل البضاعة، فالطماطم لونها أحمر كخد العروس، والتين لا يشبهه شيء، أذكر فى طفولتى أربعة رجال ضخام الأجسام، كانوا يدفعون امامهم عربة صغيرة، فوقها أنواع مختلفة من الكعك، بعضه مستدير، والآخر مربع، من أشكال شتى، كانوا يجيئون الى الحارة مرتين، الأولى عند شروق الشمس، والثانية عند الغروب، وما كان يثيرنى، أصواتهم القوية التى ترتفع بالغناء.

ستن كحكة بقرش أبيض

أصواتهم قوية وأحجامهم ضخمة، والعربة صغيرة جدا، أين هم الآن؟ كان الباعة القاهريون، ومازال بعضهم ينغمون نداءاتهم، يدللون بضاعاتهم، كان العرض منذ نصف قرن أكثر من الطلب، وجودة البضاعة، ضرورية لبيعها، الآن عدد السكان فى تزايد، وما يهم الكم وليس الكيف، اول صوت يسمع فى المدينة.

حليب يا قشدة..

باعة اللبن، يجيئون من المناطق الريفية القريبة، مثل امبابة والقناطر ودار السلام، يتجولون فى الحوارى والأزقة والدروب، يحمل كل منهم «قسط اللبن» المصنوع من الالمونيوم، المحكم الغطاء جيدا، «القسط» بيد، والمكيال المختوم من مصلحة الدمغة والموازين بيد، الرطل واجزاؤه، ومنذ الستينات اعتمد الكيلو كوحدة للوزن، ربما ابتعادا عن كل ما يمت الى الانجليز الذين احتلوا مصر لمدة سبعين عاما.

باعة اللبن يرتدون جلابيب بيضاء، لابد أن تكون بيضاء نظيفة . حتى منتصف القرن التاسع عشر كان المحتسب يفتش على نظافة الباعة، وجودة البضاعة، ويحدد شروط البيع، ثم حلت البلدية مكانه، كذلك ادارات وزارة الصحة، غير ان الانضباط القديم ولى الآن. فغش الأكل لم يعد من اختصاص صغار الباعة الفقراء المتجولين، إنما أصبح من مهام التجار الكبار جدا، الأثرياء الجدد، أصحاب النفوذ ، الذين يستوردون الطعام الذى نفدت صلاحيته بأسعار بخسة ويطرحونه للبيع لتحقيق الارباح الطائلة، مع تواطؤ الموظفين، صغارهم وكبارهم. يتوزع الباعة على

تواصي الطرقات، عند مداخل الحارات، لكل منهم ركنه المعتاد، بالتحديد باعة الفول، الإفطار الشعبي في مصر كلها. حتى الفنادق الحديثة، ذات الخمسة نجوم تحرص على تقديمه .

الفول يقدم فوق العربات اليدوية، العربة منمنمة ، مزوقة، ألوان متضادة ، الأحمر يقابل الأخضر، الازرق يقابل الأصفر، عبارات مطمئنة تؤمن البائع والمشترى معا.

الأرزاق على الله

توكلت على الله

أو آية قرآنية

«كلوا من طيبات ما رزقناكم..».

لكل عربة فول بروزان، الاول يوضع فوقه الخبز القاهرى المعروف بالبلدى، ولكل منطقة فى مصر خبزها، لكن القاهرى الأشهر. ومنه انواع الطرى، الملدن «الوسط» والمقمع «الناشف» والناس فى مصر يطلقون على الخبز اسم «العيش» أى الحياة . انهم الوحيدون فى العالم الذين يسمونه العيش، انه مقدس لديهم. فإذا رأى الواحد منا قطعة فى الطريق ينحنى ليقبلها ويضعها الى جوار الجدار بعيدا عن مسار المارة، واذا أردنا أن نضرب المثل على متانة العلاقة وحسن الصلة. نقول:

«دانا واكل معاه عيش وملح..»

واذا أتى الصديق فعلا سيئا.

«دا خان العيش والملح..».

لا يمكن للمصرى، أن يسرق رغيفا من الخبز. فى الصباح يقف الرجال حول عربة الفول يأكلون إفطارهم، بعد ان ينتهى كل منهم يخبر البائع بعدد الأرغفة التى اكلها، مستحيل أن يخطىء، فاللقمة الحرام تصيب الانسان بالأذى، كله إلا العيش.

البروز الثانى يحمل أوانى السلطة، خضراء او طحينة، وزجاجات الزيت بأنواعه، الزيتون والحار والفرنساوى «زيت مستخرج من بذرة القطن» وحديثا زيت الذرة.

معظم الزبائن الذين يتناولون افطارهم وقوفا من الموظفين الصغار أو الحرفيين، الأكل فى الشارع، ثم تناول الشاى او القهوة، وتدخين المعسل صباحا بمثابة اجتياز مراحل فاصلة بين البيت والعمل، نوع من التدرج، والضرورة ايضا. إذ يستيقظ معظم الرجال والاطفال يغطون فى نوم عميق، فلا يرغبون فى إزعاجهم، مهمة بائع الفول أن يغرف الحبات والمرق فى الاطباق الصغيرة، وأن يجهز الوجبة بإضافة الملح والكمون والشطة اذا رغب الزبون، ثم يقوم مساعده بغسل الاطباق فى جردل ملىء بالماء.

حركات البائع سريعة، بارعة، يقف فوق صندوق خشبى، يجعله فى مستوى اعلى من العربة، لا يسأل اى زبون كم رغيفا أكل، أو كم بصلة التهم؟ الوجبة لها سعر. فإذا تناول الزبون اكثر من رغيف أخبر به، لا يمكن المغالطة فى العيش،

ربما كان احترام الخبز قادما من الزمن المصرى العتيق، ألم يصور جثمان «اوزير» على جدران المعابد والمقابر مدفونا تحت الأرض وسنابل القمح تنبت منه؟

الفول ليس طعام الإفطار القاهرى الوحيد، سترى عند مداخل بعض الحارات عربات أخرى، لكنها تقدم «الكسكسى» طعاما للإفطار. القاهريون يعرفونه محلى بالسكر الناعم الأبيض ويضاف اليه اللبن، لكنهم لا يأكلونه مضافا اليه الخضراوات واللحم مثل شمال افريقيا.

عربات أخرى تقدم الفطائر المقلية فى الزيت أو السمن، فطائر صغيرة شهية، وترى عددا منها معروضا فوق بعضه البعض، يتناول البائع إحداها. وعلى طرف السكين المثلث يقلبها فى الهواء ليتلقاها بمهارة، ثم يضعها فى الإناء الذى يحتفظ بحرارته موقد صغير، ضعيف اللهب موضوع أسفله.

المهارة فى حركات البائعين قاسم مشترك، الخفة، المهارة، القدرة على تلبية طلبات الجميع، فى وقت واحد، ولكنها لا تهدف إلى ذلك فقط، انما تعنى ايضا مهارة البائع وشطارته.

السرعة والمهارة، الخفة والاتقان، شرطان متلازمان لأداء القاهرى الصميم أو كما يعرف بين المصريين بابن البلد، ابن البلد الذى تمكن دنى لو من خلال عدسته المرهفة، الحساسة، التى تتقن الإمساك باللحظة ان يسجل ملامحه، ظاهرة وباطنة.

ابن البلد

بسعيه فى القاهرة، قديمة او حديثة، يضفى عليها خصوصية، أهم ما فى المدن ناسها، أهلها، خاصة المقيمين، الذين يجمعون داخلهم الزمان المنقضى والمكان المقيم.

مثل ابن البلد لا نجد فى أى مدينة أخرى، إنه يسعى فى القاهرة، ابن البلد هو القاهرى الصميم، الذى لم يفد اليها من منطقة أخرى، المستقر، المحتوى ملامحها.

نراه فى الشوارع الحوارى، الدروب، الأزقة. طبعا فى الأسواق، والوكالات والمقاهى، حاضر دائما فى الافلام والمسرحيات المصرية، يطالعنا من خلال لوحات دنى لو التى يحتويها هذا الكتاب.

نراه يرتدى زيه التقليدى. الجلباب الواسع الاكمام، المفتوح عند الصدر، يبرز من تحته الصديرى المصنوع من القطن، وأزراره العديدة، المنتظمة. المتعاقبة، حول عنقه شال من الصوف شتاء، او القطن المنسوج يدويا صيفا، اما غطاء الرأس فهو «الطاقية» والتى يلف حولها شالا من الحرير او القطن، قوامه فاره. صدره بارز، يعلن فى كل خطوة او اشارة منه عن تمكنه. وقدرته، خاصة اذا كان صاحب تجارة او مكانة فى السوق، ممن يطلق عليهم لقب «معلم»، لقب يمنحه الناس لمن امضى قدرا معقولا يبيع ويشترى ويصدق فى العهود، ويبدى آيات الشهامة، وينجد الضعيف، ويتحدى

السلطة احيانا، «المعلم» مطلقة . غير مقصورة على فرع معين من النشاط، تشمل كل الانشطة، انها تعنى معرفة صاحبها بأسرار مهنته والعلاقات بين الناس، ومعرفته بالأصول. والأصول فى لغة الحياة اليومية للمصريين تعنى منظومة القيم والعادات المتوارثة داخل هذا المجتمع القديم، وربما كانت كلمة «الاصول» تعنى أو تقابل اللفظ المصرى الفرعونى «ماعت» ابن البلد الذى يعرف الأصول، يقيم الحق، ينتصر له، يقف الى جانب الضعيف، مثهم، عنده مروءة . جدع، والجدع هو الناصح، الذكى، الشجاع، الكريم، ابن البلد هو القاهرى الصميم. تعرف المدينة فئات عديدة . تجارا، علماء دين، افندية «اى مثقفين»، أثرياء، لكن ابن البلد هو القاهرى الصميم الذى يعيش فى المناطق العتيقة، ويرتبط بالمكان وعادات الناس، عرفت بعضهم لم يغادر الشارع أو الحارة التى يعيش فيها معظم سنوات عمره.

منهم معلم ابن بلد. كان صاحب فرن شهير فى الجمالية، مقره فى حارة درب الطبلاوى، كان بيته على بعد امتار من الفرن، ثم حدث شرخ فى المنزل القديم، اضطر إلى الانتقال بالتحديد الى المغربلين . أى على بعد أقل من كيلو متر، كان يقطع المسافة يوميا مشيا، بدأ يظهر عليه الحزن، والاكتئاب، كان يحدثنى بأسى عن غربته التى يعانيها هناك.

«لكن يا معلم انت لم تذهب بعيدا، والناس هناك طيبون».

يهز رأسه: هذا صحيح ، لكنه طوال مراحل عمره اعتاد أن يستيقظ فجرا، أن يخرج من الحارة مع جيرانه للصلاة فى مسجد الحسين، ثم يعود إلى الفرن، يتبادل الصباح مع هذا، والحوار مع ذاك، يعرف أهل الحارة فردا، فردا، رأى بعينيه الفتيات وهن صغيرات، ثم نموهن مع الزمن، وزواجهن . ثم مجيئهن مع اطفالهن، لم يهدأ الا عندما عثر على مسكن ملائم فعاد الى الحارة، وكان يردد دائما أن روحه ردت اليه يوم رجوعه.

الوطن كله

كان المصريون كأبناء أقدم مجتمع زراعى فى التاريخ لا يتصورون أنفسهم فى أرض غريبة، وعندما نفى الفرعون موظفه الكبير «سنوحى» إلى أحد بلاد البحر، راح يرسل إليه الكلمات المؤثرة ليعفو عنه، ليعود فيدفن فى أرض مصر المقدسة. لقد تغير هذا الحال لأول مرة فى التاريخ منذ حوالى ثلاثين عاما . عندما اضطر إلى الهجرة الى بلاد النفط حيث الثروة الطارئة، ومع ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية تزايدت الهجرة الى سائر الاتجاهات. لكن مازال معظم ابناء البلد فى القاهرة القديمة يسعون، ولا يتصورون أنفسهم فى بلد آخر.

«البلد» تعنى الوطن كله، تماما كما يطلق اسم «مصر» على «القاهرة» فى الريف ، بحرى أو قبلى، إذا قصد أحدهم السفر إلى العاصمة يقول: انا رايح مصر.

ابن البلد تعنى إذن أنه ابن مصر.
ابن البلد يؤمن بالعمل، يردد «الايد البطالة نجسة» أو «الشغل عبادة» ، يؤمن بالعلم، ربما نلتقى بأحدهم لا يجيد القراءة او الكتابة لكنه مرجع فى اصول العلاقات الإنسانية ، والتقاليد، ودقائق الحياة، يردد من ذخيرة الأمثال الشعبية، «العلم بالشيء ولا الجهل به» من صفاته الذكاء، والشطارة «يفهمها وهى طايرة» وقوة الذاكرة، كنت اعرف معلما صاحب مقهى، كان يحفظ فى ذاكرته كافة تفاصيل الحسابات التى تخص زبائنه يوميا، وآخر النهار، إذا أبدى زبون شكا فى شرب فنجان قهوة أو كوب شاى، عندئذ يميل المعلم قليلا ويذكره بالمناسبة التى طلب فيها الشاى «لما جالك الافندى الرفيع ده»..

يفضل الاعتماد على نفسه «حمارتك العرجاء ولا سؤال اللئيم» فإذا ضاقت الحال، وصعب الامر فإن الجار للجار. ميال الى اصلاح المتخاصمين والتوفيق بينهما. «اسعى فى الخير ولا تسعى فى الشر» من الافضل حل المشاكل كلها بعيدا عن البوليس، وكل اشكال السلطة، العلاقة مع السلطة حافلة بتعقيدات عديدة، من الافضل تجنبها بقدر الامكان، من هنا الكلمة عند ابن البلد قانون أهم بكثير من المواد الرسمية، يقول مؤكدا موقفه.

«انا اديت كلمة.. والرجل يتمسك من كلمته».

فى حواره اليومى تورية، ومستويات متعددة، كل جملة لها ظاهر وباطن، نتيجة لميراث القهر التاريخى، منذ ان فقدت مصر استقلالها منذ حوالى ثلاثة وعشرين قرنا. تعاقب عليها الحكام القساة من بطالمة ورومان وعرب وأتراك واجانب اصبح لكل طائفة لغتها، وللتعاملات اليومية اشارات موحية.

لنتأمل طريقة ابن البلد فى الصباح، يقول «صباح الخير» لكنه لا يكتفى بذلك؛ بل لديه تنويع على معنى الصباح، صباح الورد. صباح الفل، صباح القشطة، نهارنا لبن ، نهارنا نادى. يا مساء الجمال، يا مساء العندليب، يا مساء الهناء.

إذا اراد ان يغلق باب النقاش فى صفقة يقول :

«يفتح الله».

أى. السعر الذى تعرضه لا يناسب، اذا غضب يصيح

«توكل على الله».

اذا كان يأكل ، أيا كان حجم ونوعية الطعام، فلابد ان يوجه الدعوة إلى أى مار به.

«تفضل معانا»

ومعناها الحقيقى : ما أمامى يكفينى فقط.

ينادى على بضاعته ملحنا صوته، رافعا من شأنه.

«كهرمان يا عدس».

«الملاح.. الملاح».

يعنى الكتاكيت الصغار

«يا لوز يا حلو..»

أى الفول المدمس.

للطعام عنده شأن ، اذا أكل مع شخص ما يعتبر ذلك مثل الميثاق أو المعاهدة يردد دائما : «دا كان بيننا عيش وملح» وبالتالي لا يمكن ان يغدر بمن شاركه المائدة يوما .

يراعى الجار . لا يغازل امرأة جاره، نتذكر القسم الذى كان يدلى به المصرى القديم امام محكمة الاله اوزيريس فى العصر الفرعونى.

«لم الوث ماء النيل».

«لم اغازل امرأة جارى».

انه يغار على أى أنثى تمت الى المنطقة التى يعيش فيها. وقد يتشاجر مع أى غريب يحاول مضايقتها، هى عنده «بنت الحتة» اى ابنة المنطقة وبالتالى يجب حمايتها من اى مضايقة، واذا ابدى الغزل فانه يختار ألفاظه بعناية، وحتى سنوات قريبة كان الغزل القاهرى يشبه الشعر.

«ياغزال .. ياجميل..»

«يا أرض احفظى ما عليك».

«يا أرض اتهدى ما عليك قدى..»

بقدر الامكان يحاول تجنب العراك، او العنف، لكن اذا مس شرفه ، أو تعرض للاهانة فإن شعاره هنا «يا روح ما بعدك روح».

يعتز جدا بالمنطقة التى ينتمى اليها مباشرة احترامه للجيران مقدس، يقول،

«دا ابن حتتنا».

يتعصب لمنطقة فى مواجهة المناطق الاخرى، الانتماء الى المكان والارتباط به أساسى، ابن البلد يمكن ان يكون مسلما او مسيحيا او يهوديا ، تدينه معتدل، يتمسك من خلال الدين بالقيم. «امشى عدل يحتار عدوك فيك».

ساخر، مرح، محب للحياة ، يحترم الموت مثل كل المصريين، يرقص فى الموالد واحتفالات الزواج بالعصا. واتقان اللعب ، يثير الاعجاب، فى الافراح يقوم بالخدمة ، وفى المأتم يقف لتقبل العزاء الى جانب أهل الفقيد. يؤدى ما يعرف عنده بالواجب. واجبه هو تجاه الاخر.

ابن البلد فى الأزمنة القديمة، كان التركى او البدوى واثرياء المصريين المتفرنجين اذا ارادوا ذم شىء ما ، يقولون باحتقار «دا بلدى» أى «دا مصرى»! لكن عند المصريين الذين يعون ذواتهم اذا ارادوا اضفاء الصفات الحسنة على شخص ما وصفوه بانه «دا ابن بلد».

اولاد البلد، هم الذين سعى دنى لو إليهم. وسجل ملامحهم فى لحظات استثنائية ورصد العيون القاهرية الفسيحة التى تشبه عيون أقنعة الفيوم عيون أولاد البلد.

كرامة الفنان

بقلم : حسن سليمان

جاءت متشحة بالسواد فى ثوب فضفاض، وكأنها «ميديا» تسعى لانتقام، لا أدرى لماذا؟ فليس بيننا خصام. قالت لى «لا أريد أحدا أن يتدخل فى شئونى»، لم أجبها. فأنا لا أتدخل فى شئونها، ولم أسع لأعرف عنها شيئا. هى التى تأتى وهى التى تذهب. ألقت بسنوات حياتنا معا من بين أصابعها المعقوصة فى حجرها، لتتدحرج تحت قدمى. لم أطأها بقدمىّ. لأنى أدرك أنها ستنحنى فى يوم ما لتجمعها. لم أرد، نظرت إلى زرقة غابرة فى السماء وسحابة عابرة، ثم صنعت من اللامبالاة قبة زجاجية حولى، وظللت داخل القبة أرقب ثورة غضب وحزن مرتسمة على وجهها فى صمت. فليس لدى القوة على المجادلة والعتاب والخصام أو الإنفصال. لقد نسيت هى شيئا واحدا. لم أذكرها بأن المرأة حينما تضع الفنان فى حيرة تكون هى والعالم الخارجى شيئا واحدا. إنصرفت، وأنا لازلت صامتا فى قبتى الزجاجية من اللامبالاة. فالأفضل أن أحتفظ بكرامتى وكرامتها فى آن واحد.

تذكرت حادثة «أولجا» مع بيكاسو. فى يوم مطير وجد فى «مزراب» ماء بمدخل مرسمه المتواضع ورقة تعبث بها المياه المندفعة، انحنى بيكاسو والتقطها. وجد فى الورقة المبتلة والخطوط المتعثرة خطابا «غراميا» من أحد جيرانه «لأولجا» ثار بيكاسو وهاج فدماؤه عربية من الأندلس. صعد مسرعا إليها طالبا الانفصال. بكت وأصرت أنها ليس لها علاقة بهذا الشاب المجنون، وأنها لم تحبه مرة واحدة، ولم تكلمه ولم تنبس معه ببنت شفة. بيكاسو أصر على أنها أخفت عنه موضوع الخطاب. قال لها: إن المرأة حينما تضع الفنان فى حيرة وبلبلة وشك، فالأفضل له

أن يقطع علاقته تواً بها ، وينصرف إلى عمله حتى لا تعطله غيرة ما.

إن كرامة الفنان تنحصر فى مستوى عمله وفى مستوى موقفه الإجتماعى فقط.. وإلى الجحيم لأى امرأة مهما كانت. إن أصبحت مادة معوقة للفنان. إن موقف الفنان الحاد هو الذى يحدد قوة بناء عمله.

أذكر أن فنانا جاء لى فى حالة ثورة جامحة. وضع يديه فى خصره بعد أن أبعد سترته خلفه، وصاح : «تصور أنى فى سنى هذا وقد تعديت السبعين، ومن الممكن أن أكون أستاذا للوزير. ذهبت إليه فى مكتبه فأجابنى سكرتيره بأنه ليس لدى موعد سابق معه. وأنه سيحدد لى موعدا. سألته بعد فترة هل أدخل اسمى. قال: نعم والوزير سيطلبك : جلست ساعات طويلة والوزير لم يطلبنى. ذهبت إليه مرة ثانية. تكررت نفس المأساة. فقلت للسكرتير أخبره باسمى، قال لى: والله قد أخبرته ، وتكرر نفس الحادث إلى الساعة السادسة. فجئت إليك منفعلا. قلت له ولما ذهبت، أليست لك كرامة؟! . قال لى : «إنه حقى، وإنها نقود الضرائب. وأنه يجب عليه أن يستقبلنى، وأنا لم أعد صغيرا، وقد كنت. وقد كنت». قلت له : «نحن فى حكم ديمقراطى .. رئيس الجمهورية اختار رئيس الوزراء، ورئيس الوزراء اختار أهل الثقة، إذن هم أحرار فى تصرفاتهم تجاه شئون الدولة» . هاج وماج وصب غضبه علىّ قائلا: «فلأدعك أنت فى برجك العاجى. متى تفيق وتضع يدك فى يدنا لاصلاح هذا الفساد؟» . قلت له: «إن كرامتى لا تسمح لى الآن فى سنى إلا بالحذر والتمعن فى وضع إمضائى على ورقة». أين كرامة الفنان هنا؟ هل هى فى التسكع على الأبواب المغلقة؟.

★★★

حينما جاء إلى مصر «مالرو» وزير الثقافة الفرنسية. الذى اختاره «ديجول» بعد إلحاح وإصرار على أن يكون الكاتب الخالد العظيم وزيرا للثقافة فى فرنسا ، وكان معه «جان توما» سكرتير عام الوزارة والذى كان قبل ذلك سكرتيرا عاما لليونسكو . قص على «جان توما» هذه الحادثة: أن «مالرو» كان خارجا من مكتبه وجد كاتبا شابا ينتظره وقد قالت له السكرتيرة بأن الوزير مشغول. ثار «مالرو» على السكرتيرة. أدخل الشاب وأخبرها بأنها لا يمكن أن تجعل فنانا شابا ينتظر، فالباب مفتوح على مصراعيه، وأدخله «مالرو» واستمع إلى شكواه جيدا. أخبره أنه قرأ كتابه جيدا. ثم ودعه الى خارج حجرته.

أذكر أن هناك حادثة مشابهة لهذه حدثت عندنا، كان يحيى حقى مديرا لمصلحة الفنون الجميلة . يقص محمود شعبان الكاتب المسرحي: أنه كان موجودا حينما ذهب نجيب محفوظ إلى مكتب يحيى حقى. وقف يحيى حقى إحتراما لنجيب محفوظ المشهود له بالحياء والخجل. ظل يحيى حقى واقفا بدوره كذلك . طالت مدة وقوف الاثنين حتى أصبح يحيى حقى برما. قال لنجيب محفوظ : «اجلس يا نجيب ولا تحرجنى أكثر من هذا. أنت. هنا نجيب محفوظ الكاتب الكبير، ولست الشخص الذى فى حاجة إلى مدير مصلحة الفنون».

حادثة أخرى. فقد أخبرنى فنان أنه كانت له حاجة ضرورية لدى مسئول كبير. فقالت له السكرتيرة بأن المسئول عنده إجتماع مهم ولا تستطيع أن تزعجه الآن. انتظر صاحب الحاجة طويلا دون جدوى. وفجأة دخلت القاعة امرأة مصبوغة الشعر ملطخة الوجه، تفوح منها رائحة العطر الرخيص ، مكتنزة الجسد تتعثر فى حذائها العالي. ترتدى سروالا ضيقا من ذلك النوع الذى يسمى «إسترتش» يبرز دمامة خطوط جسدها المشوه. وإذ بالسكرتيرة تقف لها صائحة: إن المسئول ينتظرها منذ ساعات . أين كرامة الفنان هنا؟!

★★★

أظن أنه في أوائل السبعينات . حدث فى باريس تظاهر للطلبة، وسمح لهم «جان لوى بارو» مدير مسرح «أوديون» فى ذلك الوقت باحتلال مسرح «أوديون». صنع الطلبة من المقاعد متاريس وسدودا. أتى البوليس والمطافى لاقتحامه. فزاد تخريب المسرح كلية. حقق مع «جان لوى بارو»، فرد عليهم بأسطر قليلة حادة قائلا: «هل نسيتم أيها السادة أننى «جان لوى بارو» الممثل، ولم أكن أصفح لنفسى بتاتا. إن لم أناصر الطلبة ومطالبهم وحريتهم، إن كرامتهم هى كرامتى» أين نحن من هذا فى مصر؟.

فى يوم من الأيام أتى لى أمل دنقل فى حالة حزن عميق وألم ممض. ألقى إلى بديوانه على مكتبى . حتى إن أعجبنى أرسمه له، وفجأة قلب فى القصائد وأخرج بعضها قائلا: «لن أدعها تخلد. كرامتى لا تسمح لى بأن تخلد فى قصائدى» . أظن لا داعى لأن أذكر من هى هذه الفتاة . لكنى بعد رحيله لملمت القصاصات وأخذت أجمعها بجانب بعضها. وجدت أنها من أروع قصائد أمل دنقل لأن بها وجداً وشجناً يدغدغ حواسك بقسوة أكثر من قصائده الأخرى. أخذت تنازعنى فكرتين

. فكرة ان من الجرم عدم نشر هذه القصائد، وفي الوقت نفسه يجب أن أحترم رغبة الفنان خصوصا في مشاعره وفي كرامته المجروحة . فقررت الاحتفاظ بها، ومن حين لآخر كنت أقرأها بشجن عميق، وأخيرا قررت أن أعلنها لكن الحريق أتى وأضاع كل شيء حتى قصائد أمل دنقل. لست نادما. فكرامة أمل دنقل المجروحة ولياليه التي قضاها وقد تجمدت الدموع في عينيه أهم بكثير.

★★★

كان من أحب الشخصيات اليّ نجيب سرور . آخر مرة رأيته فيها كانت في مقهى ريش. كان يرتدى «بيجامة» أزرارها مفتوحة، وقدماه منتفختين من المرض. أشار إليّ بيده أن أجلس بجانبه. جلست، وبشموخ وكبرياء قال لي أستدفع لي ثمن زجاجة البيرة؟» قلت له «نجيب أنت تعلم أني لا أرفض لك طلبا مهما كان هذا الطلب» نظر إليّ بعينيه الضيقتين الثاقبتين يحملان لي الجميل والامتنان. كان نجيب حتى في فقره في آخر ايام حياته يحمل كبرياء وشموخ الفنان العظيم. كانت عيناه تذكراني بعيني بيرم التونسي. لكن بيرم كان عنده شيء آخر لازلت أتذكره وأتعجب. كنا نخرج من جريدة المصري، وفي ميدان التحرير نقف، وفجأة يبحث في الميدان عن شرطي ويقول لي دعنا نقف هنا قليلا. يخرج من جيبه قطعة الحشيش. يلفها في سيجارة ويدخنها نافثا رائحتها في أنف الشرطي متحديا السلطة، وهكذا يكرر العملية اكثر من مرة في ميدان التحرير.

في مظاهرات باريس الشهيرة التي رسمها «ديلا كروا» . كان «بودلير» ينزل وسط المتظاهرين خلف المتاريس هاتفا ضد زوج أمه. فقيل له «لماذا تهتف ضد زوج امك» قال: «إنه رمز السلطة فهو يعمل في وظيفة كبيرة بالبلدية. ويمارس كذلك سلطته عليه في المنزل. فهو كلب للسلطة» ، ولذلك استخدم تعبير كلاب السلطة بعد «بودلير».

في آخر أيام «موديلياني» وقد طحنه الأفيون والخمر والسل يحكي «أندريه سلامون» هذه الحادثة، أنه كان يحمل رسومه في يده صائحا : «موديلياني بخمسة فرنك» وفجأة لمح في مطعم غال ناقدا مشهورا لا يحترمه الفنانون الحداث بتاتا، ويحتقرونه كأنه سبب لتأخر الفن ، وإذ «بموديلياني» يدخل المطعم. يقف على الكرسي الذي بجوار الناقد ويتبول لقد كان هذا رده علي حقارة الفن المسيطر في عصره، والنقد السيىء.

★★★

فى مرة وصل «ديلاكروا» أن «ألفونس دوديه» الشاعر الفرنسى كان ينتظر فى البرد وهو يفترسه مرض السل. ينتظر هو وصديق له «جورج صاند» وقد أعطته موعدا، وإذ بهما يريان «جورج صاند» ومعها شاب تدخل منزلها. وإذا «بالفونس دوديه» يهمس بوهن المسلول : «إلهى اصفح عنها . سوء حظى العاثر هو الذى ألقانى فى طريقها» ثار «ديلاكرورا» ثورة كبيرة لكبرياء «الفونس دوديه» المجروحة عند معرفته بالحادثة، وحينما ذهبت إليه «جورج صاند» صفعها وطردها من مرسمه.

ذات مرة وجد «ديلاكروا» نفسه فى مواجهة «أنجر» على المائدة بوليمة و«أنجر» أكبر منه لكن «ديلاكروا» كان متحدثا لبقا. أثر الجميع بطلاوة حديثه وهو يشرح وجهة نظره. فجأة دون مبرر ضرب «أنجر» المنضدة بكفه صائحا : «الرسم يا سيدى.. الرسم». لم يعره «ديلاكروا» إلتفاتا مزهوا بطلاوة حديثة، فصرخ «أنجر» ثانية : «الرسم يا سيدى.. الرسم» . وحينما لم يلتفت اليه أحد. ألقى «بفوطة المائدة» ومضى صافعا الباب خلفه. كان هناك الكثير كى يهاجم ديلاكروا اتهام أبخر باتهامات اقسى. لكن ديلاكروا فضل الصمت. احتراما لكرامة فنان اكبر منه سنا. أين نحن فى مصر من هذا؟

★★★

عندما ذهبت «مدام ريكلاميه» إلى «ديفيد» كى يرسمها. رسم لها رسما صغيرا على انها ستأتى ثانية ليرسمها الصورة الكبيرة، وقد كانت «مدام ريكلاميه» أجمل نساء باريس قاطبة. انتظرها «ديفيد» خمس دقائق فقط لكنها لم تأت، فانصرف الى عمل آخر، وحينما أتت بعد الدقائق الخمس. قال لها «ديفيد» دون أن ينظر إليها: «مدام ريكلاميه» تنتظر لكن ديفيد لا ينتظر. ومع اهماله لها انصرفت وذهبت الى فنان أقل من «ديفيد» مقدرة وهو «جيرار». لكن صورة «جيرار» رغم خلودها لم ترتفع الى مستوى مقدرة ديفيد فى «الاسكتش» الصغير.

★★★

تحكى عشيقة «جوته» الروسية فى كتابها الممتع عنه أن فى زيارة لبيتهوفن لبلدة فايمر كان يسير هو وجوته على قنطرة هناك. واذا بهما يبصران مركبة الاميرة التى يعمل جوته عند زوجها وزيرا. وإذ بجوته يقف ويخلع قبعته منحنيا فتتوقف العربة ليتحدث معها وهو منحنى نصف انحناءة ، أما بيتهوفن فى ملابسه الرثة التى لا تضاهى ملابس جوته. شد قبعته بقسوة حتى غطت اذنيه. ثم عقد

ذراعيه خلف ظهره ومضى شامخا. ناظرا إلى السماء وعندما لحق به جوته انهال بيتهوفن غاضبا عليه. اذ كيف يتهاون فى كرامة الفنان. فلا يوجد امير ترتفع هامته لهامة فنان أبدا. خاصم بيتهوفن جوته بعد ذلك مدة طويلة.

جوته عظيم لكننا نجد ان معظم المثقفين الالمان منذ زمن طويل ينحازون لشيلر المتمرد اكثر من جوته. فقد كانت كرامته فوق كل شيء حتى أنه كان يقرأ شعر روايته «اللصوص» على ضوء شمعة فى الغابة فهو محكوم عليه بالسجن، والى الآن توجد محطة للمترو فى بداية الغابة فى شتوتجارت تسمى هنا حيث يوجد ركن شيلر. وترتفع هامته عالية جدا جدا فى ميدان صغير لا يتناسب حجمه مع التمثال. حوله باعة الزهور والفاكهة، وكأنهم يقصدون أن هامته اعلى من كل من حوله.

نحن الفنانين لا نفكر فى الكرامة ولا نتحدث عنها. فهى فى حد ذاتها داخل أنفسنا. نبتهج لكرامة لا ندرى ما هى. البهجة ممكن أن يحملها إلينا صوت ناء بعيد. ومن الممكن أن تحملها لنا سحابة مضيئة. البهجة التى تحمل إلينا الأمل لا يمكن أن تأتينا مع انتظار مسئول. إنها تحمل الى كل صدى الألوان التى تضيئها كرامة الفنان. ما كل هذا الوهم الذى يجعلنى أحلم بالسعادة. رغم ان معظم المسئولين فى الدولة قد اختيروا من حلة واحدة تسمى الحرمان والعقد. لكن هذا الوهم فى مقدوره ان يحملنى الى أرض الواقع.. إلى الحقيقة التى هى واقع مظلم.

★★★

أدرت ظهرى يا سيدتى وأنصت إلى رياح تدفع بالنافذة لتفتحها. لم أعد أرغب فى همهمة عذاب بعد. ما الذى تريدين ان تقوليه لى ؟ أليس صوت الريح أجمل لنسمعه، سويا ، يالك من طفلة صغيرة ليست بعيدة عن دارها الحقيقية. لكنك تفضلين العناد والوحشة. أما أنا فسأرجع الى لوحة لم أكملها بعد. إن المرأة قلما عرفت أبعاد الفنان الحقيقية. كذلك المجتمع لم يعرفها بعد. لايهم الفنان أن يقول المجتمع كله رأيه فيه. فالتاريخ فقط هو الذى فى مقدوره ان يقول، ولا يهم الفنان كذلك رأى المرآة فيه. إن إخلاصها المتناهى له غير المشروط هو الذى يجعله يستسلم لها كطفل صغير.

إننا نتاجر بألفاظ وكلمات لا ندرى حتى معناها «القاموسى» مثل الإخلاص والولاء ونجحت الدولة فى ادخال كل المثقفين حظيرة وزارة الثقافة من هم المثقفون؟؟؟ زكى نجب محمود حتى وهو على فراش الموت لم يعرهم حتى التفاته وأطبق فمه. إنهم أقل حتى من أن يحييهم أو يرد.

صدى الذكريات

السنين الخالي

بقلم : وديع فلسطين

ليس من ملتى أن أسجل ذكرياتى أو مذكراتى، لأننى عشت دائما على هامش الهامش من الحياة الثقافية والأدبية، وكان دورى - ومازال - هو المتابعة عن قرب أحياناً وعن بعد فى أكثر الأحايين، ولكن لا بأس من اجترار بعض ما وعته الذاكرة مما عرفته أو سمعته أو كنت من المعاينين له.

طه حسين وكتاب النظرات

الشيخ محمود أبورية (١٨٨٩ - ١٩٧٠) عُرف بأنه التلميذ الوفىّ للأديب مصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠ - ١٩٣٧) وهو ناشر رسائله فى كتاب كان من أوائل كتب الرسائل الأدبية فى زمننا المعاصر. وقد عرفت الشيخ أبا رية رجلاً متين الخلق، صادق النية، شريف المقصد، لا ينال أحداً بسوء ولا يقول إلا ما يعرفه عن ثقة، وعندما أصدر كتابه «أضواء على السنة» الذى أثار جدلاً طويلاً، ألف الشيخ مصطفى السباعى السورى (١٩١٥ - ١٩٧٤) كتاباً فى ألف صفحة فى الرد على الشيخ أبى رية طالب فيه

بالتفريق بينه وبين زوجته. وعندما أصيب الشيخ السباعي بفالج، وجاء إلى القاهرة للعلاج في مركز خاص بالعلاج الطبيعي، كان أبو رية يتفقده بانتظام ويزوره أسبوعياً متناسياً ما تعرض له من إساءات من جانبه. وإنما رويت هذه الواقعة للدلالة على خلق هذا الرجل النبيل الذي عرفته عن قرب وصافيته الود إلى وفاته.

وكان من عادة الشيخ أبي رية أن يزورني في مكتبي كل سبت . وفي إحدى هذه الزيارات قلت له إنني متواعد مع صديق عراقي على زيارة الدكتور طه حسين في فيلا رامتان في الليلة نفسها. فأشار عليّ أن أسأل طه حسين عن سر تجاهله لسلسلة المقالات التي نشرها في فجر حياته الأدبية بعنوان «نظرات في النظرات» وفيها انتقد «نظرات» الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ - ١٩٢٤) انتقاداً مراً انصب على أغاليط اللغة والنحو والصرف، ولما استفسرت من الشيخ أبي رية عما يعرفه عن هذا الموضوع ، قال إن هذه المقالات منسوبة ظلماً إلى طه حسين على الرغم من أنها حملت توقيعه الصريح، إذ إن كاتبها الحقيقي هو الأديب محمد صادق عنبر (ت ١٩٣٨) وهو أديب قد سقط من اهتمام الباحثين في سنوات طويلة، وليت محمود أمين العالم يعنى بدراسة أدبه بحكم كونه والد زوجة شقيقه المجمعي الراحل محمد شوقي أمين (١٩١٠ - ١٩٩٢). وأضاف الشيخ أبورية أن هناك اعتبارات سياسية جعلت صادق عنبر يقوم بدور الكاتب الشبح الذي يختفي



طه حسين

وراء طه حسين، وأن طه حسين لم يُمانع في وضع اسمه على هذه المقالات ، فهو أديب ناشيء ولا حرج في الخروج على الناس بمقالات تجرح عملاً أدبياً كبيراً لأديب كان وقتها ملء السمع والبصر، وكان مقربا من الزعيم سعد زغلول باشا (١٨٦٠ - ١٩٢٧).

وتلقيت ما قاله الشيخ أبورية بشيء من التحفظ ، مع أنني عرفته متابعاً دؤوباً للحياة الأدبية المعاصرة، وعندما اجتمعت بطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) في منزله قلت له: هل لي أن أسألك يا معالي الباشا - وكان يحب أن يخاطب بهذا اللقب حتى بعد إلغاء الألقاب - عن السبب في تجاهلك لمقالاتك القديمة المعنونة «نظرات في النظرات»، إذ إنك وإن كنت جمعت معظم فصولك الأدبية المنشورة في الصحف، بما في ذلك أحاديث الأربعاء، إلا أنك أهملت هذه الفصول. «أما مقالاته السياسية، فقد قام بجمعها في وقت لاحق الأديب محمد سيد كيلاني (١٩١٢ - ١٩٩٨) في عدة كتب». فابتسم الدكتور طه حسين وقال ما معناه : لك أن تعتبر هذه المقالات عبث أطفال ،

فقد كنا وقتها نتعجل الشهرة ، وأوسع الأبواب لبلوغ الشهرة هو مهاجمة المشهورين من الكتاب، ولو كانت للمقالات قيمة لجمعتها في كتبي.

ومصداقاً لنفور طه حسين من هذه الفصول أنقل ما رواه بنفسه في كتاب «مذكرات طه حسين» المطبوع في بيروت عام ١٩٦٧ والذى جعله بعد ذلك جزءاً ثالثاً لكتاب «الأيام»، حيث قال : «وعلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله يقع نصيب غير قليل من تلك الفصول الطوال السمجة التي كتبها الفتي ، فشغل بها الأدباء والمثقفين حيناً، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكرت له، وكان موضوعها نقد «نظرات» المنفلوطي، رحمه الله، وكان عنوانها «نظرات في النظرات»، قرأ الفتى الفصول الأولى من نظرات المنفلوطي راضيا عنها، معجبا بها، ثم لم يلبث أن سئمها وانصرف عنها. ولكنه لم يكد يراها مجموعة في كتاب حتى ضاق بها أشد الضيق، وكتب يعيبها ويغض منها. وفرح الشيخ عبدالعزيز جاويش (١٨٧٦ - ١٩٢٩) بما كتبه الفتى أشد الفرح ، واستزاده من الكتابة، وحرضه عليها، وألح في التحريض، حتى ألقي في روعه ألا يدع فصلاً من فصول المنفلوطي إلا اختصه بفصل من النقد، وكان الفتى قديم المذهب في الأدب، لا ينظر منه إلا إلى اللفظ، ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة، فكان عيب المنفلوطي عنده أنه يخطيء في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها، ويصطنع ألفاظاً لم تثبت في «لسان العرب» ولا في «القاموس المحيط». وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة، ولم ينس الفتى مقالاً دفعه ذات مساء إلى الشيخ عبد العزيز جاويش، فلم يكد يقرأ أوله حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك. وابتهج الفتى حين سمع الثناء، وأحس الاعجاب، واستيقن أنه أصبح كاتباً ممتازاً، ثم لم يذكر بعد ذلك أول هذا المقال حتى طأطأ من رأسه ومن نفسه وسأل الله أن يُتيح له التكفير عن ذنبه ذاك العظيم. وكان أول المقال: «عم صباحاً أو مساء ، واشرب هواء أو ماء، واستأجر من تشاء لما تشاء، فقد وضح الحق وبرح الخفاء».

ويقول طه حسين : كان بعض تبعة هذا السخف يقع على الشيخ عبدالعزيز جاويش، وفهم الفتي ، ولكن متأخراً، أن لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) لم يرض قط عن هذه الفصول.

وإذا كان طه حسين اعترف بتحريض عبدالعزيز جاويش على كتابة هذه الفصول، فهو لم يعترف بأن كاتبها شخص آخر هو محمد صادق عنبر كما حدثني بذلك الشيخ محمود أبورية.

حفاوة تونسية بطه حسين

أخبرني العلامة الكبير أبو القاسم محمد كرو المستشار الثقافي العتيد في تونس في عهود معظم وزراء الثقافة أن تونس تولى طه حسين عناية خاصة وأنها قد أصدرت فعلاً كتابين كبيرين عنه، عنوان أولهما «مائوية طه حسين» الصادر عن دار الحكمة - وهي المجمع العلمي في

تونس – وعنوان الثاني «طه حسين : قضايا ومواقف» لحسن أحمد جنام ، وقد أنشئت لجنة بإشراف الأستاذ كرّو لنشر سلسلة من الكتب عن طه حسين، منها كتاب «طه حسين والمغرب العربي» وهو يتدارك التقصير الذى وقع فى الببليوغرافيا التى نشرها الدكتوران مارسون جونز وحمدى السكوت حيث أغفلت صلات طه حسين الوثيقة بالمغرب العربى وعناية المغاربة بآثار طه حسين. وتضم السلسلة مؤلفات طه حسين المغاربية ومنها «الأيام» بأجزائها الثلاثة و«فى الشعر الجاهلى» و«فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» وهى الرسالة الجامعية التى أعدها طه حسين باللغة الفرنسية وترجمها محمد عبد الله عنان و«ألوان» و«نفوس للبيع».

وليت هذه اللجنة تُعنى بترجمة الدراسة الجامعية التى أعدها زميلى الجامعى الدكتور بيير كاكيا الأستاذ بجامعة إدنبرة وجامعة كولمبيا عن طه حسين، وهى من أوائل الدراسات الأجنبية التى كتبت عن طه حسين وفلسفته .

شاعر تنبأ بموته

دخلت إحدى مكتبات القاهرة طالباً شراء ديوان عزيز أباظة باشا (١٨٩٨ – ١٩٧٣) فقدم لى موظف المكتبة «ديوان عزيز» وهو للشاعر الدكتور عزيز فهمى (١٩٠٩ – ١٩٥٢) فاقتنيته، لأننى كنت أبحث عنه، ولأن صاحبه شاعر مجيد حتى إن الدكتور طه حسين كتب مقدمة له أثنى فيها على الشاعر ثناءً مستطابا يستحقه .

وعزيز فهمى هو نجل القطب الوفدى عبد السلام فهمى جمعة باشا الذى كان



مى زيادة

رئيسا للبرلمان المصرى. وقد تخصص نجله عزيز فى القانون، وتابع دراساته العليا فى جامعة السوربون فى فرنسا وظفر منها بدرجة الدكتوراه .

وعند عودته عمل بالمحاماة، واشتغل كذلك بالسياسة فانتخب عضواً فى مجلس النواب ، وكانت له مواقف جادة فى الدفاع عن وجهة نظره وإن خالفت وجهة نظر الحزب الذى ينتمى إليه، بل وجهة نظر والده رئيس مجلس النواب الذى هو عضو فيه .

وكان معروفاً عن عزيز فهمى «ولابد من التفرقة بينه وبين شاعر آخر اسمه عزيز أحمد فهمى كان يعمل محرراً بجريدة (المصرى) » أنه يحب السهر ومجالس أهل الفن، وعندما طلبت منه الراقصة المعروفة ببا عز الدين استعارة سيارته الأمريكية الفارهة الجديدة للسفر بها إلى الإسكندرية، تنازل لها عنها طواعية، ولكن الراقصة المتمكنة من اهتزازات جسمها فى صالة الرقص، لم تستطع أن تتحكم فى اهتزازات السيارة ، فاصطدمت بشجرة ولقيت مصرعها فى الحال، وأصبحت السيارة حطاماً،

واضطر المحامي عزيز فهمي بعد ذلك إلى استخدام سيارات الأجرة في تنقلاته بين المحاكم المختلفة.

وكانت لعزيز فهمي قضية منظورة أمام محكمة بنى سويف ، وبسبب اعتياده على السهر استيقظ متأخرا فلم يلحق بقطار الصعيد الذى غادر محطة القاهرة قبيل وصوله إليها بسيارة أجرة، فأمر سائق السيارة بأن يحاول اللحاق بالقطار فى محطة الجيزة، ولكن القطار كان أسرع من السيارة فلم يتمكن من اللحاق به، وعاد عزيز فهمى يأمر السائق بالإسراع عساه يدرك القطار فى المحطة التالية، وكانت إلى يمين الطريق ترعة «ردمت الآن» ، ولما حاول السائق تفادى الاصطدام بسيارة آتية من الاتجاه الآخر، أفلتت منه عجلة القيادة ، فهوى بالسيارة في الترعة . واستطاع السائق أن ينجو بنفسه، أما عزيز فهمي فقد مات بالصورة التي تخيلها بنفسه فى إحدى قصائده.

ويرجع الفضل الأول فى التنبيه إلى توافق النهاية الأسيفة للشاعر مع وحيه وإلهامه إلى الأديب الشاعر الفنان عبدالرحمن الخميسى (١٩٣٠ - ١٩٨٧).

أما القصيدة التي تنبأ فيها الشاعر بموته، والتى نبَّه إليها الخميسي فعنوانها «قارىء الكف» ، ومطلعها :

يا قارىء الكف، ماذا خبَّأ القدر؟
وما عليك إذا لم يصدق الخبر

ثم ذهب الشاعر في تعداد أسباب المنايا المختلفة . إلى أن قال :

أم أن فى مسبح الحيتان منقلبى
يوم الرحيل إذا نادانى القدر!

وكانت وفاة عزيز فهمى فاجعة بالنسبة لأبيه الشيخ عبدالسلام فهمى جمعة باشا الذى قرر اعتزال الحياة نهائيا واستولت عليه حالة من «الدروشة» وقام ببناء مسجد فى مدينة طنطا دفن فيه ابنه ودفن هو فيه من بعده .

لبنان يرد الاعتبار للآنسة مى زيادة

فى بادرة كريمة للاعتذار للأديبة مى زيادة عن «أيام العصفورية» التى قضتها فى لبنان بدعوى اختلال قواها العقلية ، أقام لبنان مهرجاناً كبيراً فى سياق الاحتفال ببيروت عاصمة ثقافية للعالم العربى لتمجيد ذكرى مى برعاية العماد إميل لحود رئيس الجمهورية، وأقيم المهرجان فى قصر الأونسكو وكان من كبار المشاركين فيه الأستاذ محمد يوسف بيضون وزير الثقافة فى لبنان والأستاذ عادل الخضرى سفير مصر في بيروت الذى ألقى كلمة السيد فاروق حسنى وزير الثقافة، والوزيرة السورية السابقة الدكتورة نجاح العطار التى بعثت بكلمة بليغة ألقيت باسمها . والمؤرخ الكبير الدكتور نقولا زيادة والمؤرخ الكبير الذى توفى مؤخراً الدكتور قسطنطين زريق والأديبة سلمى الحفار الكزبرى وممثل عائلة مى الأستاذ جان زيادة.

وفى الحفل الافتتاحى للمهرجان أزاح وزير الثقافة اللبنانى الستار عن تمثال نصفى جميل للآنسة مى صنعه النحات بيار كرم وتكفلت بنفقاته السيدة بهية الحريرى نائبة الجنوب فى البرلمان اللبنانى، وقد تم نصب التمثال فى شارع يحمل اسم مى فى بيروت يتقاطع مع

شارع جبران خليل جبران.

واضطلعت بتنظيم المهرجان لجنة تكريم مي زيادة برياسة عاشقة مي الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبري ولجنة الأوديسيه اللبنانية برياسة الشاعر هنري زغيب . وكان للسيدات دور ملحوظ في إضفاء جو روحي جميل يكسر رتابة البرنامج واضطلعت به السيدات منى غزال وألكسا برجي ورشا نجار.

واقترن المهرجان بمعرض ضم مقتنيات مي التي استطاعت سلمى الحفار الكزبري الحصول عليها مع صور وأوراق لمي كجواز سفرها ورسائلها وبعض كتاباتها.

أما الندوات التي أقيمت للحديث عن مي وأدبها ومآثرها وشخصيتها وصالونها الأدبي فقد شارك فيها من الخارج الدكتور سهيل بديع بشروئي من جامعة ماريلند الأمريكية والمستشرقة الألمانية أنتي زيغلر والمستشرقة الاسبانية كارمن رويث براڤو والأديب السوري الدكتور عبد السلام العجيلي والشاعرة العربية هيفاء الباقي وكاتب هذه السطور. وأما المشاركون من لبنان فمنهم الأديبة إملي نصر الله والسيدة أنجال الزعني والدكتور جميل جبر والدكتور ميشال جحا والدكتور وجيه فانوس والدكتور أمين الريحاني .

ومن وقائع المهرجان التي أريد بها استعادة عصر مي حفلتان أقيمتا في أوديتوريوم حسانة فتح الله داعوق لقراءة درامية لمختارات من آثار مي وجبران قام بها رفعت طربية وجوليا قصار مع عزف موسيقى لناصر نحول، ولإنشاد أغنيات من عصر مي ولا سيما أغنية «يا حنينة»



مصطفى صادق الرافعي

التي كانت مي تغنيها في صالونها، وأغنية «آمنت بالله» للمطربة لورد كاش، وقد أدت هذه الأغنيات بإتقان كبير المطربة الشابة جاهدة وهبي مع فرقتها بقيادة محيي الدين المغالي، وأهدى الضيوف لوحة جميلة نقشت عليها عبارة «تكريم ذكرى مي زيادة» .

ودعي أعضاء المهرجان وضيوفه لزيارة مدينة شحتول من قضاء كسروان في جبل لبنان وهي مدينة أسرة مي حيث احتفى بهم عميد الأسرة اسكندر جان زيادة . كما دعتهم نائبة الجنوب السيدة بهية الحريري لتفقد مشروعاتها لتعمير الجنوب اللبناني، وأمضوا في ضيافتها يوماً جميلاً.

والمعنى الذي أريد استخلاصه من هذا المهرجان هو رد الاعتبار للأديبة مي زيادة التي رموها ظلماً بالجنون، والتأكيد على أن ذكراها باقية كأديبة موهوبة كانت تمثل في عصرها ظاهرة لا تتكرر.

أما لولب المهرجان السيدة سلمى الحفار الكزبري فهي عاشقة لمي، ولهذا أصدرت عنها مجموعة من الكتب الموثقة هي «مي أو مأساة النبوغ» و«مي وأعلام



الشيخ عبدالعزيز جاويش

عصرها» والمجموعة الكاملة لمؤلفات مى، وكتاب «كلمات وإشارات» وكتاب «الشعلة الزرقاء» وفيه الرسائل المتبادلة بين مى وجبران واشترك فى إعداده الدكتور سهيل بشروئى. وقد ترجم بعض هذه الكتب إلى اللغات المختلفة .

ولأن الصحافة المصرية أغفلت الإشارة إلى هذا المهرجان إغفالاً تاماً، فقد ارتأيت أن أطيل الحديث عنه لأننى كنت من شهوده، والمفروض أن يصدر كتاب تذكارى يضم جميع البحوث التى ألقيت فى هذا المهرجان الجميل .

لا العرب ولا الفراعنة عرفوا علة البروستاتة

كنت أتحدث مع صديقى الطبيب الاستشارى الدكتور شريف الكردانى زميل كلية الجراحين البريطانية عن المصطلحات التى تسكها مجامع اللغة العربية للعلل المرضية. فقلت له إن مجمع دمشق أجاز مصطلح «المؤثة» مقابلا للبروستاتة. فسألنى عن مصدر هذه التسمية فقلت له إننى لا أعرف على وجه اليقين، وإن كنت أعتقد أن الطب العربى القديم قد يكون صاحب هذه التسمية، ولكن الطبيب العالم رد على رداً قاطعاً بأنه لا العرب ولا الفراعنة عرفوا مرض تضخم البروستاتة ولا أشاروا إليه فى كتب الطب التى وضعوها أو فى الآثار التى تركوها.

وقد حدا بى ذلك إلى الرجوع إلى كتابين باللغة الإنجليزية يعالج أولهما موضوع «الأطباء فى مصر الفرعونية» للدكتور بول غليونجى، ويحمل الثانى عنوان «دائرة معارف الطب الإسلامى» للدكتور حسن كمال، فلم أجد فى أى منهما إشارة إلى مرض تضخم البروستاتة .

ثم رجعت إلى المعجم الضخم الذى ألفه الدكتور حسنى سَبَح الرئيس السابق لمجمع دمشق وجعل عنوانه «نظرة فى معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات» فألفيته يذكر تحت مادة البروستاتة تعبير «التهاب المؤثة» ثم أضاف تعليقاً جاء فيه «أن مجمع اللغة العربية فى القاهرة أقر تعريب اللفظة بالبروستات، ولم أعثر على منشأ لفظة المؤثة» .

ومعروف أن متوسط الأعمار فى الماضى ، أيام الفراعنة والعرب القدامى ، كان متوسطاً منخفضاً نسبياً وأن معدل الوفيات كان كبيراً نظراً لعدم اتساع أسباب الرعاية الصحية، وفى ترجيحى أن علة عدم اكتشاف هذا المرض الذى تتعاظم متاعبه مع علوّ السن هو أن القدامى كانوا يموتون قبل أن يصابوا بالمرض أو والمرض فى بداياته بحيث لم يلحظه أطباء تلك العهود بوسائلهم البدائية . والله أعلم .

نصف قرن من الظمأ إلى المعرفة

د. محمد درويش







عندما يكون الإنسان داخل الدائرة، ويحاول أن يرصد خمسة عقود متتالية من الوعى، وعيه بذاته، ووعيه بالآخر ذاتا أو زمانا أو مكانا، فلابد أن يكون الأمر صعبا، إن العين التى تعودت أن تكون أداة لرؤية الأشياء التى تقع خارجها على بعد معقول، مطالبة هذه المرة أن ترى ذاتها أن ترى العين العين. ولابد لها أن تتخذ موقعا خلال الرؤية يفصلها عن المرئى لكى تراه.

فى كتاب اندريه موروا عن «فن التراجم والسير الذاتية» الذى قمت بترجمته إلى العربية يشير إلى تفاوت الناس فى إدراك أبعد مراحل الطفولة المبكرة فى التذكر، ويشير إلى حالات بعض الأدباء الذين تساعدهم الذاكرة على الوصول إلى شهور الطفولة الأولى، مثل تولستوى الذى يتذكر رائحة الصابون المتسربة إلى أنفه وعينيه وأقدامه الملساء تتزلق على جدار الوعاء الخشبى الذى كانت أمه تغسل جسده فيه، ولا تسعفنى ذاكرتى على استعادة شيء ذى بال فى السنوات الأربع الأولى من عمرى، لكن السنة الخامسة تحتفظ بحدث مازلت احتفظ بصورة زمانه ومكانه ووقع كلماته ورائحة الأشياء المحيطة بى وقت سماعها، فضلا عن وقعها المروع فى قلب الطفل الصغير آنذاك.

كان الزمان أصيل يوم ربيعى مشمس، وكان المكان بجوار حائط المسجد المجاور لبيتنا وهو مكان تجمع مفضل لأهل القرية فى مثل هذه اللحظة، وكان الشارع الذى نقف فيه يشق القرية الصغيرة عرضا وينتهى من الشرق بساحة واسعة تزدحم بالنخيل الطويل وتؤدى إلى الطريق الزراعى الذى يستقبل ويودع القادمين من القاهرة أو المسافرين إليها وعددهم لا يتجاوز أصابع اليدين على امتداد الأسبوع ومعظمهم من المجندين أو الطلاب، فى هذه اللحظة ظهر من بين النخيل البعيدة عبد الله أبو ماضى قادما من حرب فلسطين بعد أن كانت قد انتشرت شائعات عن هزيمة الجيوش وذبح الجنود، وما أن ظهر حتى انفتحت أبواب البيوت المجاورة وخرج من فيها يصافحون ويهنئون ويزغردون ويبكون ويتساءلون، وهم يتابعون السير والانضمام إلى الدائرة التى تتسع شيئا فشيئا ويغالبون

زحمة الدروب النسبية التى تضيق فى هذه اللحظات بعودة الفلاحين مع دوابهم من الحقول، وعندما وصل الموكب إلى المكان الذى كنا نقف فيه، زاحمت وصافحت وسمعت عبد الله مستمرا فى حكاياته: «نعم.. من يقع فى أيديهم يذبحـــونه كالخروف.. وتساءلت من؟ وأجاب أكثر من صوت: اليهود، وظلت عودة عبد الله أبو ماضى تشغل القرية أياما، والأطفال يتساءلون فى رعب عن الذبح وهل يتم من الأمــام كـذبح الخــراف أم من الخلف، وتتعدد الإجابات، لكن الرعب والكراهية تظل كـامنة فى القلوب وتحـفـر فى هذه اللحظات المبكرة من الطفولة مسارها إلى الأبد.

الحاج الصغير!

كان أبى من تجار الريف «المستورين» تساعده حركته الكثيرة إلى القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد وبنى سويف وغيرها من المدن الصغيرة، على توسيع أفقه واطلاعه على كثير من النماذج البشرية التى يتمنى لأبنائه أن يسلكوا طريقها، ومن هنا كان حرصه على أن يكمل الصبيان على الأقل تعليمهم، مع انه لا يوجد فى القرية إلا الكتاب والمدرسة الابتدائية، وعليهم أن يشدوا الرحال بعد ذلك إلى «مصر» حيث الجامع الأزهر والأمنيـة الكبـرى أن يكون الأولاد من العلماء الذين يجمعون خير الدنيا والدين، وكنت أصغر الأخوين اللذين قدر لهما أن يخوضا هذه التجربة، وقد سبقنى أخى محمود إلى الأزهر بعام، وكنت فيما يبدو مدللا من قبل الأب، فقد وعدنى وأنا على مشارف السادسة أن يصحبنى معه إلى «الحجاز» فى حجته الثالثة التى كان يخطط لها، وكذلك وعد الحاج محمد الصعيدى ابنه الذى كان فى عمرى، وغمرتنا الفرحة أصبحنا ندعى بين الأطفال «بالحجاج» وكانت فترة التمهيد للحاج الصغير لذيذة، نتصنع فيها الوقار ونتمتع بضم النساء وقبلاتهن وهن يلتمسن البركة مقدما، ونحرص على الذهاب إلى المسجد فى آخر الصفوف، وأحيانا حضور حلقات الذكر التى كانت تهفهف فيها «أكمام» الجلابيب الطويلة للرجال الذاكرين فوق رؤوسنا وهم يتمايلون فى هدوء أول الأمر، فإذا ما اشتدت الحميا ازدادت السرعة وكثر الهواء المنبعث وتداخلت الأصوات وأصبحنا نستمتع بلذة الدوران والدوار مع الذاكرين، ثم نسعد معهم بالجلوس للاستراحة وتناول شراب القرفة اللذيذة، واستمرت الاستعدادات لرحلة الحج وذهبنا إلى «مدينة الصف» للجلوس أمام آلة التصوير، للحصول على صور لجواز السفر، ثم ذهبنا إلى «التطعيم» مع الحجاج الكبار، لكن الفرحة لم تكتمل، فقد انتشر وباء «التيفود» أو «الكوليرا» فى ذلك العام، ووضعت القيود على السفر ومنع الأطفال منه، وضاع حلم «الحاج الصغير» بعد أن ظل يفعل فعله فى النفس قرابة العام.

وكان التعويض عن الذهاب إلى الحج بالذهاب إلى «الكتاب» لبدء حفظ القرآن الكريم وعندما ودعت أبى مع المودعين إلى «الرفاص» الذى ركبه الحجاج فى النيل

من قريتنا إلى القاهرة على بعد مسافة ثمانين كيلو مترا شمالا والذى كان يحمل من الحجاج أمتعتهم و«زوادتهم» التى توفر كل ما يحتاجون إليه من طعام طوال فترة الحج وخلال رحلات الذهاب والعودة على السفن من السويس إلى جدة، كان الاتفاق مع سيدنا على أن يستقبلنى فى الكتاب لأبدأ الدرس الأول فى القراءة والكتابة وحفظ القرآن، واكتفينا من رائحة الحجاج بالتلهف على الرسائل «الملونة» التى تصل من مكة أو المدينة خلال رحلتهم الطويلة وقد رسم على المظاريف وصفحات الرسائل صور الكعبة والبيت الحرام، وكنا نتقاسم أنا والحاج الصغير الآخر، صفحات الرسائل والمظاريف ونحتفظ بها كجزء من خيوط الحلم اللذيذ المتلاشى، وهكذا حفر الشعور الروحى لنفسه طريقا فى النفس منذ الصبا المبكر.

فى الكتاب ضمنى سيدنا إلى خلية النحل التى تهدر فى صحن بيته المستطيل وكان «سيدنا» الشيخ أحمد الحجر مختلفا بعض الشىء عن الصورة الشائعة لشيخ الكتاب فلم يكن أعمى يضع الحصى الصغير فى شحمة الأذن ويضغط عليها بطرف أصابعه حتى يصرخ الصبى من الألم، ولم يكن يقرأ القرآن على المقابر أو البيوت، ولم يكن حسن الصوت كى يرتله فى المآتم، ولم يكن بدينا مترهل الجسم وانما كان رجلا فلاحا يزرع أرضه بنفسه، فى الصباح ويجلس فى الكتاب بعد الظهر ويحرص على أن يشترى جريدة «الجمهورية» كل يوم بقرش ونصف ثم يعيدها للبائع فى اليوم التالى بنصف قرش مع «المرتجع» وهو يدع التلاميذ النابهين يقلبون بعض صفحات الجريدة، وقد ضمنى إلى هؤلاء بعد فترة قصيرة، ثم هو ينضم إلى المجلس الذى يلتف حول المذياع الوحيد فى القرية، وكان والدى قد اشتراه، ومعه البطارية السائلة التى كانت تشحن من ماكينة الطاحين، قبل أن تتحول إلى البطارية الجافة الأخف وزنا والأطول عمرا، وحول المذياع تدور المناقشات حول استحسان صوت الشيخ مصطفى اسماعيل مقرىء الملك فاروق والشيخ محمد رفعت أو المقرىء الجديد عبد الباسط عبد الصمد، وحول نجوم الغناء أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد المطلب وليلى مراد، وحول أطراف السياسة، والأحاديث الدينية، وكنت أتابع الحوار بشغف وأتفاصح فأشارك فيه فى بعض الأحايين، وأحرص على اقتناء مجلة الإذاعة، وأكاد أحفظ صفحاتها، وأجد فى مؤشر المذياع أداة سحرية تحملنى إلى آفاق بعيدة وتزيدنى ظمأ، وكلما حمل المؤشر إلىّ أصواتا ممزوجة بالخرخشة وتموج الصوت وغيابه وظهوره أدركت أنى عبرت البحر إلى أماكن نائية على موجات بعيدة، وازداد إحساسى برى الظمأ وذهبت بى الأحلام بعيدا.

فى العام الثانى لدخولى: الكُتّاب «التحقت بمدرسة القرية وتابعت شأن كثير من أبناء القرية، المدرسة صباحا والكتاب بعد الظهر، وفى المدرسة التقيت بنماذج أخرى من المعلمين، قليلون منهم يلبسون العمامة أو الجبة أو الطربوش الطويل وغالبا ما يكونون من أبناء القرية أو القرى

المجاورة وكثير منهم يرتدى البنطلون والقميص وبعضهم حتى لايذهب إلى المسجد عند سماع الأذان، وشكل هذا فى البداية خروجا على نسق المعلم الشيخ لكن ما لبثنا أن تعودنا عليه وتابعنا أهل القرية فى إجلالهم وحبهم، وكانت العصا فى أيديهم أخف منها فى أيدى الشيوخ فازدادوا حبا فى أنفسنا.

حكايات القرية

وكانت جلسة المصطبة فى القرية موردا آخر للتكوين فى هذه السن المبكرة كانت المصطبة الموجودة أمام بيتنا ملتقى يأوى إليه بعض الناس لقربها من المسجد ممن ينتظرون الصلاة أو يستريحون قليلا بعدها، وكانت تمتد عليها السهرة فى بعض الأحيان ممن يفضلون قضاء الوقت فى الكلام والحكايات، وكنت أحب كثيرا الاستماع إلى الحكايات وخاصة تلك المتصلة بالمغامرات، وشيئا فشيئا أصبحت القرية الصغيرة من خلال الحكايات نموذجا مصغرا للعالم الكبير، وتجسدت الخصال الكبرى فى ذوات بأعينهم الطيب والشهم والشجاع والقوى والجبان و«الدلدول» والمنافق والجميلة واللعوب واللص والساحر وأبو عين صفره والذكى والغبى وأبو قرون والمفترى والغلبان والفهلوى والجدع ولم يكد يند نموذج من النماذج الإنسانية التى عرفتها فى المدينة الصغيرة أو الكبيرة أو الكبرى فيما بعد، عن التجسد فى حكايات القرية وشخصياتها وما أضافه إليها الخيال المتوهج عند سماعها.

الدراسة في الأزهر

لكن فترة الطفولة سوف تنقضى سريعا مع دخول الأزهر ولبس العمامة على الرأس وسوف يتحول الطفل إلى «شيخ صغير» يطالب بالوقار الدائم واعطاء النموذج فى السلوك القويم، رغم حمى المراهقة التى تتأجج فى العروق وتبحث عن اشباع من لون آخر، وتضطر إلى محاولة الحصول على بعض حاجاتها بطرقها الخاصة مع المحافظة على الوقار الخارجى فتصيب مرة وتخفق مرات، ولايختفى شبح ذلك الوقار حتى فى المدينة الكبيرة حيث الخوف من الفشل فى الدراسة عند التلاعب أو الجلوس على المقاهى أو الاقتراب من المعاصى، وكنا قد حفظنا فى كُتّاب «سيدنا» أبياتا تنسب إلى الإمام الشافعى فى مخاطبة أستاذه «وكيع».

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لايهدى لعاصي

وأمضيت تسع سنوات من الدراسة الأزهرية فى القاهرة ومع معايشة المناخ الذى أشار طه حسين إلى بعضه فى «الأيام» وعندما ينظر الإنسان إلى هذه الفترة يجدها مليئة بخليط من الإيجابيات والسلبيات، كانت العلوم الأساسية التى تطرح للدراسة متصلة بعلوم اللغة والدين وقد شكلت دون شك البنية الأساسية لما أعتز به الآن من سلامة النطق اللغوى وطواعيته والوقوف على أسرار قرون كاملة

من العطاء العظيم فى مجال الدراسات الإنسانية العربية والإسلامية، مما ساعد على تماسك الشخصية فى مواجهة الثقافات الأجنبية والإفادة منها دون الذوبان فيها، ولم تكن هذه الفائدة لتتم من خلال الكتب وحدها وانما من خلال أساتذة إجلاء سعدت بالتتلمذ عليهم فى الأزهر مثل الشيخ أحمد الشرباصى، والمثقف الكبير السيد أحمد صقر والعالم الضرير الدكتور محمد فتحى عبد المنعم والمؤرخ الشيخ عبد المقصود نصار والدكتور محمد الطيب النجار وكلهم ساعدوا فى غرس الثقافة العربية والإسلامية واستشراف الثقافة المعاصرة الحية.

في زيارة للعقاد وشاكر

ومن خلال هؤلاء الأساتذة والمستنيرين فى الأزهر خطوت الخطوات الأولى فى التعرف على الحياة الثقافية العامة خارج أسوار الأزهر، كان فتحى عبد المنعم «الكفيف» يحرضني على الذهاب إلى دار الكتب وإجراء أبحاث فى التاريخ والأدب (مع انه كان يدرس لنا الأحاديث النبوية) وكنت أعكف على البحث أسابيع طوالا ويراجعه معى ثم اكتفى بقراءتي له في حجرة المدرسين فيمنحنى كلمة ثناء ورضاء كانت عندي أفضل من كل الجوائز، وكان السيد صقر ينتقل بالطلاب النابهين من «فصل» إلى «آخر» لكى يغيظ بهم الكسالى وهم يقرأون أبحاثهم التى كتبوها بقراءاتهم الخارجية فيمتازون على «أهل الكتاب» الذين يكتفون بمذاكرة الكتاب المقرر، وقد كافأنا أنا وزميلي حامد طاهر (نائب رئيس جامعة القاهرة الآن) وحماسة عبد اللطيف (الأستاذ بدار العلوم) كافأنا على أبحاث وقراءات جادة فزار بنا مجلس العقاد ومحمود شاكر فى مصر الجديدة في يوم واحد وقدمنا للأديبين الكبيرين.

وفى الأزهر أيضا دخلت الحياة السياسية العامة فى عهد عبد الناصر للمرة الأولى والوحيدة، ففى أعقاب فشل تجربة الوحدة بين مصر وسوريا تم وضع الميثاق الوطني، وتقرر انتخاب المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية لمناقشة الميثاق واتسع نطاق التمثيل حتى مستوى تلاميذ المرحلة الثانوية التي تقرر أن تختار كل منطقة تعليمية طالبا واحدا يمثلها، ولما كانت معاهد الأزهر الثانوية متناثرة فى كل مدن الدولة فقد تقرر أن ينضم كل معهد إلى المنطقة التعليمية التى يوجد فيها وقلل هذا من فرص اختيار أحد الأزهريين من قبل طلاب المدارس الذين كان لديهم إحساس بأن هؤلاء «الشيوخ الصغار» من نوع «مختلف» ومع ذلك تمكنت من الفوز بمقعد منطقة وسط القاهرة التعليمية آنذاك، مع وجود مدارس ثانوية عريقة بها مثل «الخديوية» و«الابراهيمية» و«التوفيقية» ولم يفز من كل معاهد الأزهر الأخرى فى هذه الجولة معى سوى أحمد عمر هاشم (رئيس جامعة الأزهر حاليا) عن منطقة الزقازيق.

وحضرت جلسات البرلمان المؤقت وأنا فى السابعة عشرة وقدمت مشروعا نشر

فى مضابط الجلسات حول قانون تطوير الأزهر آنذاك، والتقينا على مقاعد المؤتمر بخالد محمد خالد الذى كان قد خاض لتوه معركة ضد محاولة مسخ التاريخ السياسى لمصر قبل عام ١٩٥٢، والشيخ محمد الغزالى الذى قاد معركة من منصة المؤتمر ضد صلاح جاهين الذى كان قد سخر منه فى رسم كاريكاتيرى فى صحيفة الأهرام، وارتجت القاهرة فى اليوم التالى وآلاف من الناس تزحف نحو مبنى الأهرام لترجمه بالحجارة.

كتب جامدة!

لكن الكتب التى كانت تدرس فى الأزهر والتى مازال الكثير منها باقيا حتى اليوم تمثل التزيد وعدم الملاءمة حتى لتعليم الثقافة العربية الإسلامية، لأنها ببساطة لا تلائم عقل التلميذ المعاصر، ولا هى حتى أفضل ما كتب فى التراث، فكثير منها ينتسب إلى عصر المتون والشروح والحواشى فى فترات ضعف التأليف والإبداع عند العرب والمسلمين، وما بالك فى تلميذ صغير يريد أن يتعلم أصول العبادات وأحكام الفقه لكى يعمل بها ويعلمها الناس فيما بعد، فيدفع إليه بكتاب «الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع» فيقضى عاما كاملا فى دراسة أنواع الأحجار التى يجوز التيمم بها وهو يعيش على شاطىء النيل، أو يطلب معرفة شىء عن تفسير القرآن فيدفع إليه بكتاب «تفسير النسفى» الذى يعرب له كل آية ويأتى بعشرات الآراء الخلافية حول إعراب كل كلمة دون أن يقترب من تفسير النص، أو يطلب تعلم المنطق ومناهج التفكير فيدفعون إليه بكتاب «الخبيصى» فى المنطق فيحفظ أشكال الكليات والجزئيات دون أن يستطيع فى النهاية أن يناقش قضية واحدة حتى فى مجال تخصصه، ومع أن الأزهر رفع شعار «التطوير» منذ عصر الدكتور محمد البهى والشيخ محمود شلتوت فى أواخر الخمسينات، فإن هذه المناهج العقيمة والتى تزداد عقماً بتحويلها إلى مذكرات ضحلة، تعوق معظم طلابه عند الانطلاق حتى فى آفاق الثقافة العربية الإسلامية إلا من عصم ربك وهم قليل، ولم يخف من وقع هذه الكتب إلا قرار الأزهر بأن تضاف إلينا كل كتب المدارس الثانوية لكى نحصل على «الثانويتين» فى سنة واحدة، وكانت دفعتنا أول من طبق عليها هذا النظام. ومن أجل هذا كان القرار بالخروج من الأزهر بعد المرحلة الثانوية، والاكتفاء من هذه المرحلة الثقافية بهذه الايجابيات والتوقف عن التوغل قبل أن يصبح المرء واحدا من صناع النمط والمدافعين عنه، وساعتها لن يكون تغيير المسار سهلا. وكانت «دار العلوم» هى الحل الطبيعى، والمنعطف الذى اختار كثير من نوابغ الطلاب فى الأزهر فى الأجيال الماضية، الوقوف عنده وتعديل المسار من خلاله وكان الحلم بدار العلوم قد بدأ ينمو فى نفسى منذ بدايات المرحلة الثانوية فى الأزهر، كانت الخطابة التى عرفت خطواتها الأولى فى مسجد القرية وأنا فى مرحلة المراهقة، قد قويت فى فصول الدراسة وحصص الإنشاء مما أغرى مدرس المادة أن ينيبنى عنه يوما فى

إلقاء خطبة الجمعة فى مسجد الفكهانى بالغورية وهو من مساجد المماليك العريقة الضخمة ذات المنابر الشاهقة وكنت يومها صبيا فى نحو السادسة عشرة، ولم أستعن بالأوراق وأنا أؤدى الخطبة التى كنت متأثرا فيها بخطب الشيخ محمد الغزالى فى الجامع الأزهر فى معالجة المسائل الفكرية المعاصرة، وأذكر أننى عندما وصلت إلى مقطع علا فيه تحمسى واستنكارى، هتف رجل من قاع المسجد بصوت جهورى «الله أكبر» فكدت أن أقع على المنبر هلعا.. لكننى تماسكت غير أن ملكة الخطابة وزلاقة اللسان» ما لبثت أن نافستها وكادت تغطى عليها ملكة الشعر الذى بدأ يزحف شيئا فشيئا من أواسط المرحلة الثانوية حتى أصبح الملكة المسيطرة، والموجهة لغيرها من الأنشطة الثقافية وتركزت القراءة فى هذه الفترة حول الدراسات الأدبية المؤلفة أو المترجمة وحول دواوين الشعراء وإنتاج المجلات الأدبية كالرسالة والثقافة، وكانت مكتبات الأحياء الشعبية التى كنا نسكن فيها خلال العام الدراسى تمدنا بحاجتنا وكانت كتب أبناء القرية من الطلاب الجامعيين تسد حاجة الإجازة الصيفية، وكان من بينهم طالب فى دار العلوم، استعرت منه معظم كتب أساتذة دار العلوم: غنيمى هلال وابراهيم سلامة وأحمد بدوى وابراهيم أنيس وأحمد الحوفى وأحمد هيكل وعبد الحكيم بلبع وغيرهم وقرأتها وأنا طالب فى المرحلة الثانوية، إلى جانب متابعتى للأحاديث الثقافية فى الإذاعة المصرية التى كانت تشكل رافدا ثقافيا هاما.

تحقق حلمي

لم أجد غربة فى دار العلوم التى التقيت فيها بالأسماء التى حلمت بها وقرأت لها وبأوائل الطلاب فى الثانوية الأزهرية فى كل محافظات مصر، وبطلاب وطالبات من الثانوية العامة، ندرس معهم لأول مرة تحت سقف واحد، وكل هذا يتم فى «الجامعة» حيث الأبواب مفتوحة، والمحاضرات لا يدون فيها «الغياب» والكتب ليست قديمة مؤلفة فى العصور الوسطى وانما هى من تأليف أناس نراهم ونعرفهم وليسوا مثل: «أبى شجاع» و«الخبيصى» ممن كان يصعب تصور شخصياتهم فى أذهاننا، والمكتبة مفتوحة يمكن أن يكتب الإنسان من خلالها «بحثا» والكافتيريا أيضا مفتوحة يلتقى عليها الأولاد والبنات أحيانا والشعر الذى لم يكن يجد متنفسا له يستطيع الآن أن يتنفس، وبدا وكأننى وجدت ما كنت أحلم به علميا وثقافيا واجتماعيا.

ومع الجامعة تتسع مطالب الحياة، وتضيق موارد الأسرة «المستورة» ويصبح البحث عن مورد للرزق أمرا ضروريا، ويعتريني الخوف فى البداية، أخاف أن يفلت منى هذا الحلم الجميل وقد أمسكت بخيوطه بين يدى، وأخاف أن أصبح واحدا من حملة «الشهادات المتوسطة» الذين ينغمسون فى وظائف ويحاول الطموحون منهم اكمال تعليمهم «الجامعى» فى وقت الفراغ، وكنت ارتاع لمجرد عبور الصورة فى خاطرى فلقد كنت

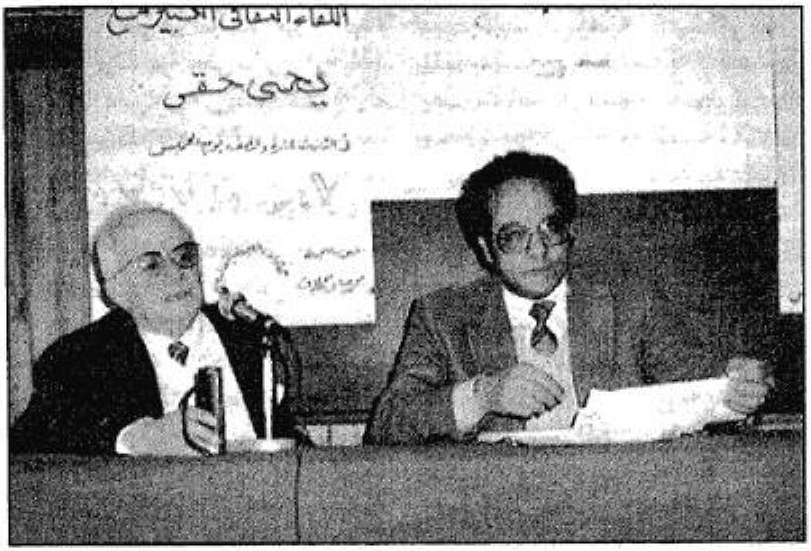
مصمما على أن أنغمس في الحياة الجامعية والثقافية حتى أذني، وأن أبحث عن مورد اضافي في وقت الفراغ، ولم تطل لحسن الحظ حيرتي، فقد وجدت وظيفة مناسبة في صحيفة كبرى، في قسم المراجعة اللغوية، وكانت طبيعتها تقتضي أن اذهب اليها في وقت متأخر من المساء ساعتين أو ثلاثاً أقرأ خلالها الصحيفة التي سوف تصدر في الغد قبل أن يقرأها الناس، وكان هذا ملائما جدا لطبيعتي، فقد عشت حياتي الطلابية، ولم أمنح لنفسي أي عذر في التقصير في مجال منافسة الآخرين وظللت بين أوائل الدفعة أحصل على تقديرات جيد جدا وامتياز وأتمتع بمكافأة التفوق فتساعدني على تكوين مكتبتي وتوفير الاستقرار في حياتي، حتى كانت سنة التخرج (١٩٦٧) فحصلت على المركز الأول على الدفعة بتقدير الامتياز مع مرتبة الشرف وعينت معيدا في قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن، وبدأت طريقا أكاديميا طويلا صعدت خلاله من أدنى درجات السلم حتى أعلاها من درجة المعيد الى درجة العميد .

ومع ذلك فقد كانت فترة العمل المسائية فترة مفيدة، وجدتني في مطبخ الصحافة، التقي كل يوم بأعلام الكتاب والأدباء والسياسيين، وأتعامل مع كلمات تولد لساعتها قبل أن تتجمد في حروف الرصاص، وأجدني في موقع مقابل تماما لما كنت عليه من سنوات قليلة حين كنت أتعامل مع كلمات «الخبيصي» و«أبي شجاع» ويترسخ في يقيني أن الكتابة ليست شيئا مستحيلا، لكنها لكي تكون باقية تتطلب جهدا خاصا فقد كنت أرى أيضا كتابات تولد بسهولة وتموت بسهولة وساعد هذا في اتساع مساحة الأفق المحيط .

التكوين الثقافي

وكانت سنوات الجامعة فترة تكوين ثقافي وأكاديمي رائع، كان النهم للقراءة يزداد ويلتهم كل ما تصل اليه اليد من مؤلفات أو مترجمات، وتقتني المكتبة الصغيرة كل ما تسمح به الميزانية المتواضعة من المطبوعات الجديدة أو القديمة على سور الازبكية، وكانت المشاركة في الحياة الثقافية من خلال حضور الندوات التي لا تكاد تخلو القاهرة منها في دار الأدباء أو المجلس الأعلى للفنون والآداب، أو اتحاد الكتاب، أو دار القصة أو الغرفة التجارية أو جمعية الشبان المسلمين أو الأندية المتناثرة في الأحياء.

ولم تكن قاعات الجامعة بعيدة عن تلك الندوات والمهرجانات، خاصة أنه اسند اليّ إدارة النشاط الثقافي عندما كنت طالبا ومعيدا في دار العلوم، فكنت رئيسا لجماعة الشعر وللجنة الثقافية التي أشرفت من خلالها على تنسيق نشاط جماعة القصة وجماعة الندوات، ومن خلال هذه الندوات استضفت في دار العلوم اللامعين في الستينات والسبعينات مثل يحيى حقي ونزار قباني ومحمود حسن اسماعيل وصلاح عبدالصبور ومحمد الفيتوري وأحمد حجازي وملك عبدالعزيز وعلى الجندي وصالح جودت ويوسف



أحمد درويش مع الأديب يحيى حقى

ادريس وفاروق شوشة ومحمد ابراهيم ابو سنة وأمل دنقل وابو المعاطى أبو النجا وغيرهم من كبار الكتاب والنقاد والشعراء، وكانت المتعة والفائدة من الاستماع اليهم والحوار معهم لا تقدر.

وفي الوقت ذاته كنت قد بدأت بنشر قصائدى في مجلة الشعر التى كان يديرها الدكتور عبدالقادر القط، ولفتت القصائد التى كنت انشرها أو ألقيها أنا وزميلاى حامد طاهر ومحمد حماسة عبداللطيف انظار أدباء الفترة ونقادها ومنهم صلاح عبدالصبور الذى شجعنا على تجميع ديوان مشترك نشرته الهيئة المصرية للكتاب عندما كان رئيسا لها تحت عنوان «ثلاثة ألحان مصرية» وكتب مقدمته الدكتور أحمد هيكل، ثم نشرنا بعد ذلك بنحو خمس سنوات فى منتصف السبعينات ديوانا مشتركا ثانيا تحت عنوان «نافذة فى جدار الصمت» كتب مقدمته الدكتور محمود الربيعى ثم واصل كل منا بعد ذلك طريقه فى الشعر منفردا، وراودتنا فى أواخر التسعينات فكرة العودة الى اصدار ديوان مشترك، ولم يقدر للفكرة حتى الآن أن ترى النور.

المرحلة الأكاديمية

أما الحياة الأكاديمية فقد كانت مكتظة بكثير من الرواد الذين تركوا بصمات واضحة على مسيرة التكوين المعرفى لدى، قادنا محمود قاسم استاذ الفلسفة وعميد الكلية على طريق «المنطق الحديث ومناهج البحث» فهز فى نفوسنا كثيرا من ثوابت القياس الارسطى لصالح الاستقراء

المنهجي الحديث، وقادنا مرة أخرى على طريق تأثير الفكر الاسلامي في أوربا العصور الوسطى من خلال بحثه حول تأثير ابن رشد على توماس الاكويني، وكان غنيمي هلال يمثل نموذجا للمثقف الحديث في الدراسات الأدبية والنقدية، كان قد عاد من جامعة السربون ومعه أول دكتوراه في العالم العربي في تخصص الأدب المقارن وكان على معرفة جيدة بالانجليزية والفرنسية والفارسية واليونانية والأسبانية، وكان قد أصدر كتابيه عن الأدب المقارن والنقد الحديث، وكان يحاضرنا والمعلومات تتزاحم على لسانه فلا نكاد نتابعه، لكننا ننبهر بنموذج المعرفة المتفجرة ونقبل على كتبه ومقالاته في شغف، لكننا رأينا هذا النجم المتوهج وهو يحترق ويسحق رغم غزارة معرفته وربما بسبب غزارة معرفته، كان قد تقدم لكرسي الأستاذية في النقد الأدبي والأدب المقارن والبلاغة، ونافسه على المقعد الدكتور بدوى طبانة الذى كان غزير الانتاج في البلاغة العربية القديمة دون اضافة حقيقية من قبله، وكان يكتب بعض الأشياء عن النقد الحديث وحتى عن النقد عند اليونان دون أن يكون له أدنى اتصال بأي لغة أجنبية ولم تكن كتبه تتجاوز دائرة الطلاب الذين تقرر عليهم هذه الكتب من قبله أو من قبل تلاميذه، ومع ذلك فعندما نافس غنيمي هلال على كرسي الأستاذية وجاءت التقارير العلمية في صالح غنيمي هلال بالطبع، فوجئت الأوساط العلمية بقرار يصدر لصالح طبانه، لأن أحد المقربين من طه حسين وكان رئيساً للجنة، همس في أذنه - والعهدة على الراوي: «غنيمي ده بتاع العقاد يا باشا»!.

وتتلمذت على مجموعة كبرى لا أستطيع ان أنسى فضلهم ولا أن أعدد مزاياهم بالتفصيل في هذا العرض الموجز: محمد عبدالهادي أبو ريدة، عبدالرحمن أيوب، كمال بشر، ضياء الدين الريس، أحمد هيكل، عبدالحكيم بلبع، حمدى السكوت، طاهر مكي، محمود الربيعي، عبدالحكيم حسان، السعيد بدوى، تمام حسان، محمد سالم الجرح، محمد عيد، محمد بلتاجي، على أبو المكارم، وغيرهم ممن قد يضيق المكان عن مجرد ذكر اسمائهم جميعا.

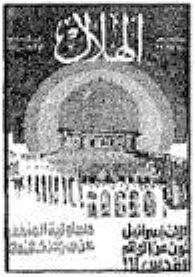
ثم توجت مرحلة دار العلوم الأولى بالزواج منها، كنت بعد أن عينت معيدا كلفت بالقاء بعض الدروس على طلاب السنة الأولى خلال اعدادى لرسالة الماجستير وارتبطت باحدى طالباتي، ليلى صقر، وتزوجنا خلال اعداد رسالة الماجستير وساعدني ذلك كثيرا على الاستقرار، وعندما ناقشت رسالة الماجستير سنة ١٩٧٢ كنا نتأهب لاستقبال طفلتنا الأولى رشا، وعندما كنت أحزم حقائبي في أواخر عام ١٩٧٤ للسفر لفرنسا لاعداد الدكتوراه، كنا نتوقع وصول طفلنا الثاني هشام بعد أسابيع قليلة، وقد فاجأتنا «غادة» بوصولها بعد ذلك بنحو ستة أعوام في باريس.

لقد كانت «فرنسا» بداية مرحلة جديدة في حياتي مع الاتصال بالفكر وبالثقافة الأجنبية مما سيكون له أثره في الاستيعاب وتلون النظرة للحياة، والتأليف والترجمة، ومواجهة النصوص ومواجهة المواقف في المرحلة التى بدأ معها حصاد التجربة.







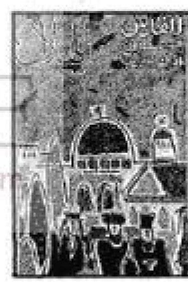


القدس .. والهلال



القدس قضية العرب والمسلمين والتى تشغل وجدان الفلسطينيين، فلا يمكن التفريط فى المسجد الأقصى، وفى الحرم الإبراهيمى، حتى كنيسة القيامة التى ينتظر مسيحيو مصر تحريرها من براثن اليهود لكى يزوروها!.

هذه القضية تحتاج منكم إلى دعم إعلامى مكثف بالإضافة إلى الدبلوماسية التى تدعمها مصر وتقوم بالتنسيق مع الدول العربية لدعم المفاوض الفلسطينى.



ونحن نعلم أن «الهلال» من خلال عراقته ودوره فى الحياة الفكرية والثقافية العربية يهتم دائما بهذه القضايا القومية والحيوية.

محمد عثمان محمد مصطفى

كلية الهندسة ـ المنصورة



الهلال: نحرص منذ أمد طويل، وخاصة بعد الاجتياح الإسرائيلى لفلسطين على إبراز أهمية القدس والتى طالما حاول المغتصب أن ينال منها على مر العصور. وقد نشرنا العديد من البحوث والدراسات التى تبرز أهمية القدس عاصمة فلسطين، وكان آخرها عدد الهلال الماضى سبتمبر ٢٠٠٠م، وننشر بعض الأغلفة والتى تضم المقالات والصور التاريخية للقدس العربية.

مصر الحضارة والرخاء

منذ الأزل.. والنيل يجرى بالنماء　　متـرامى الشطآن مـوفـور الرواء
قطراته تعطى القـفـار نضـارة　　وكـأنه من جنة الفـردوس جـاء
من يقـرأ التـاريخ يدرك أنه　　هبـة من المولى وفـيض عطاء
يُسقى ويُطعم كل نفس حـيـة　　فى الأرض تحيا.. أو تغرد فى السماء
واليـوم فى توشكا يمد ذراعـه　　فيـحيلها خصـبـا ويفـعمـها ثراء
أبنـاؤه من كل فج أقـبـلوا　　يتـوافـدون بكل عـزم للعطاء
ليـبـدلوا تبـر التـراب بعـسـجـد　　بالجـد بالإيمان كى يعلو البناء
بالروح جـادوا فى سـبـيل بلادهم　　فـالروح للأوطان بعض من فـداء
صنعوا الحضارة كابرا عن كابر　　لهم التـفـوق والتـفـرد والعـلاء
فـمـعـابد الآباء مـازالت على　　مر العصور لها على الدنيا البقاء
يأتى إليـهـا العـارفـون بفـضـلهـا　　ليطـأطئـوا هامـاتهم عند اللقـاء
دانت لهم قـمـم الجـبـال ليـخـرجـوا　　منها الكنوز وينشروا عـهـد الرخـاء
أعطاهم المولى شـتـاء دافـئـا　　ومـصـائـفـا ريانة عند الصـفـاء
إن شـاءت الدنيـا وشـاءوا غـيـرها　　فـالقـول مـا قالوا وماشاء القضـاء
فـاحـفظ إلهى أرضنا وسـمـاءنا　　واغفر لنا.. ياخير من يجب الدعاء

دكتورة/ إيمان محمد أبوخشبة
دسوق

العصافير

غـــرام بقلبى.. كـــعـــشق الملاح لشدو العصافير عند الصباح
ترفُ.. أرفُّ.. لهـا فى ابتـهـاج تطير.. أطير.. بهـا فى البراح
وأصحو لها فى البكور اشتياقا وأهفو لهـا فى هوى وارتياح
أطارحـهـا الحب فى صبوة أبادلهـا.. قـفـزات المراح
تجىء لشرفـتينا من بعيد وبين الأصائل.. لهـو مـتـاح
وتنقـر شـبَّـاكنا فى حنوٍ كـلانا ترقـرق حبـا.. وباح

● ● ●

بنافـذتى ملتقى رقصـهـا وعند الغـدو وعند الرواحْ
تشـاغلنا بانعطاف.. فـلا أقـاوم هذا الهـيام الصراح
كعاشقة فضفضت واستراحت وفضفض عاشقها واستراح
وعشت تباريح عشق جميل وما فاح عطر.. وما الفجر لاح

● ● ●

أقـمت بقلبى لهـا ملعـبـا وعشنا دفينا لها مستباح
نسجنا وصالا رقيق المعانى ثرى الأمانى.. بخفض الجناح
....
فـيـاليت ليلاى عصفورة فـتنقـر نافذتى فى الصباح
فـيشفى فؤادى من صدها ومن دلهـا.. بين سرب الملاح

محمد محمد عبدالرحمن

المقال الأدبى طوق النجاة

وصلتنا رسالة من القارئة نيفين الجمل وجهتها إلى الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى تقول فيها: «قرأت مقالكم فى الهلال عدد أغسطس «أين المقال الأدبى الذاتى» والذى هو بمثابة طوق النجاة بالنسبة لى، حيث لم أكن أدرى كيف أضيف ما أكتبه، وبعد قراءتى لمقالكم الممتع بالهلال فإننى أعتقد أن معظم كتاباتى تنتمى إلى المقال الذاتى.

إلى لاأزال فى بداية الطريق، وأود أن أعرض عليكم بعض مقالاتى لكى ترشدنى للطريقة الصحيحة، فهل أجد وسيلة للاتصال بكم.

الهـلال: فور تلقينا هذه الرسالة من القارئة العزيزة قمنا بالاتصال بأستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى بمدينة المنصورة التى يطيب له الإقامة بها وهى مقره الدائم، وقرأت عليه محتواها فرحب على الفور، وطلب من القارئة نيفين الجمل أن يتم مراسلته بالبريد على العنوان التالى:

كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر ـ المنصورة.

الرياضة وأهميتها فى حياتنا

علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل، حكمة قالها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأثبتها العلم حديثا بإقراره أن العقل السليم فى الجسم السليم، وجاءت التجربة العلمية لتثبت أن الرياضة شىء أساسى فى حياة الإنسان والرياضة لها أهمية فى حياة شبابنا، فهى تغرس الأخلاق الحميدة فى قلوبهم، واحترام المواعيد، وتعلمهم الشجاعة والإقدام.

ولقد قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: «روحوا عن قلوبكم ساعة ساعة، فإن القلوب إذا تعبت كلت، وإذا كلت ملت، وإذا ملت ماتت».. فالرياضة هى راحة للعقل والوجدان، وتتعدد مجالاتها، حيث يستفيد منها الجسم والعقل.

ندى نصرالدين أحمد
قسم إعلام

ربيع شتا وأنور الجندى وهجوم على طه حسين!

ليست هذه هى المرة الأولى التى يوضع فيها طه حسين فى قفص الاتهام، ففى أخريات عام ١٩٧٦ ظهر كتاب لأنور الجندى تحت عنوان «طه حسين فى ميزان الإسلام» نال فيه طه حسين نصيبا وافرا من الاتهامات.

ولعل أنور الجندى لم يبعدنا كثيرا عن الرد على افتراءات الأستاذ/ ربيع شتا فى عدد سبتمبر من الهلال وأنهما وجهان لعملة واحدة، وأوجه الخلاف بينهما تنحصر فقط فى زمان كل منهما، فإن أنور الجندى شن حملته الشعواء فى السبعينيات من القرن العشرين، على حين أن «شتا» جاءت اتهاماته فى مطلع القرن الحالى الحادى والعشرين، ومن ثم فإن كلا الاتهامين متطابقان تمام التطابق، حيث اتهم الكاتبان طه حسين بالعمالة للصهيونية عندما أشرف على تحرير مجلة «الكاتب المصرى» بتمويل من آل هرارى، وهم يهود مصريون، وأود أن أقول للكاتبين أن يهود مصر عاشوا بين ظهرانينا زمانا طويلا، يعيشون فى طمأنينة، يمارسون نشاطاتهم بحرية تامة، دون أدنى قيود، بل وصار لبعضهم اليد الطولى فى توجيه الاقتصاد المصرى وآخرون منهم كانوا فى البرلمان المصرى فى منتصف الأربعينيات..!! كما أنهم امتلكوا الأراضى واحتكروا بعض الصناعات آنذاك..؟؟!!

وحول الفكرة ذاتها، لم نستطع السكوت بأية حال، على اتهام الدكتور طه حسين بالعمالة للصهيونية بمجرد أنه وجه الدعوة ليهود مصر إلى توثيق صلاتهم بالمصريين من أهل الثقافة العربية، وهى دعوة لا غبار عليها خاصة إبان الظروف الموضوعية التى عاشها اليهود آنذاك كما سبق الإشارة، وإن كان قد تعاطف مع أولئك اليهود، فإنه لم يرتكب جرما فى حق مصر والعروبة، إذن موقف طه حسين كان محددا وهو توجه ثقافى محض، لم تكن وراءه أية شبهة خيانة أو عمالة كما يزعم الأستاذ/ شتا فى مقاله المشار إليه..!!

وتأسيسا على ذلك كان لابد من أن يوجه النقد المرير لا لطه حسين وزملائه المثقفين فحسب، وإنما يوجه إلى صانعى القرار آنذاك فهم المسئولون أولا وأخيرا عن نكبة فلسطين ١٩٤٨ والتى كان من نتائجها المريرة تأسيس الدولة الصهيونية فى فلسطين، وحرمان الشعب الفلسطينى من حقوقه المشروعة، ناهيك عما حدث

فى عام ١٩٦٧، من حدوث نكسة العرب الكبرى، وهى أشبه بكارثة حاقت بالأمة العربية كلها..!! وأصابتها فى مقتل، وانتهت باحتلال سيناء المصرية والجولان السورية والضفة الغربية لنهر الأردن، ومنها اغتصاب القدس وجعلها عاصمة لإسرائيل، ولاتزال الأراضى محتلة حتى الآن باستثناء سيناء التى استردتها مصر إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. لذا يجب علينا أن نتناول النقد بحيث يكون موضوعيا بنّاء هادفا، ولانكيل التهم جزافا لمثقفينا ودعاة التنوير فى مصر والدول العربية بل نصوب سهام النقد لمن تسبب فى نكبة العرب ونكستهم من أولئك الحكام الذين باعوا القضية الفلسطينية، وتاجروا بها على حساب الفلسطينيين وحقوقهم المشروعة، وإقامة دولتهم على ترابهم الوطنى وهو مايحاول الفلسطينيون تحقيقه الآن.

د. صموئيل لبيب سيحة ـ المنيا

تعقيب حول مقال ربيع شتا

ردا على مقال ربيع شتا فى هلال الشهر الماضى أقول إن طه حسين الذى كانت له مواقف مشهودة دافع فيها عن العروبة والقومية العربية لم يظهر فى سطر واحد من كتاباته على أنه متعصب لدينه أو لجنسه، وكان يدعو للسماحة والتسامح حتى تجاه اليهود المدنيين، وهو لم يؤيد إطلاقا قيام دولة إسرائيل ولم يكتب تقريظا عن المذابح التى قام بها اليهود فى فلسطين، وأكد عميد الأدب العربى أنه كان لليهود دور فى الأدب العربى وهذا صحيح، وقال أنهم نافسوا العرب على أكبر المناصب فى دول شمال افريقيا الإسلامية ويمكن لمن أراد التأكد من صحة هذه الحقيقة أن يعود إلى مصادر تاريخ الدولة الفاطمية خاصة عهد الخليفة المستنصر، وكما أظهر الكاتب الكبير العطف على نساء وأطفال اليهود المهاجرين ـ وله الحق فى ذلك ـ أظهر العطف عينه على اللاجئين الفلسطينيين، وهذا نابع عن فكر إنسانى راق تميز به الدكتور طه حسين.

وأخيرا فإن ربيع شتا ذكر فى نهاية مقاله أسماء كبيرة مثل سهير القلماوى وسلامة موسى وغيرهما من أعلام الفكر والأدب العربى والمصرى وتناولهم بالتجريح قائلا أنهم باعوا أقلامهم مقابل المال.

هل هذا يليق أيها الأستاذ الجليل؟

محمود محمد أحمد
دراسات عليا ـ قسم التاريخ ـ آداب بني سويف

العالم اليوم

العين تبكى والدموع تسيل | والجرح ينزف والفؤاد عليل
والكل يجرى فى ظلام حالك | والسيف فى هذا الزمان سليل
والقتل أمسى شرعة وتحالفا | والعنف أصبح عادة فى الجيل
والطفل فى هذى الحياة ضحية | للظلم، للطغيان، للتهويل
وكأنه أمسى فريسة عالم | فتراه من ألم السياط عليل
كم من مذابح أنشئت وتهيئت | .الناس تذبح والدماء تسيل
أخلاقنا تمحى بدعوى حضارة | ولساننا يعجز عن التعليل
الناس تشكوا من فساد بنيهم | والعدل فى هذا الزمان هزيل
والعالم المادى أصبح غابة | بالنار بالبارود بالتقتيل

أحمد نادى بهلول
المندرة بحرى ـ ديروط ـ أسيوط

الفكاهة فى شعر شوقى

عرف عن أمير الشعراء أحمد شوقى جديته فى التعامل مع الناس وعدم ميله إلى الهزل واللهو اللهم إلا فى مواقف قليلة من حياته وهو ما انعكس على أشعاره التى كتبها بالفصحى، لكن عباس العقاد حاول التركيز على الجانب الفكه الظريف فى شخصية أحمد شوقى فكتب سنة ١٩٥٧ فى مجلة الهلال بعض ما كتبه شوقى فى وصف سيارة صديقه الدكتور محجوب ثابت التى تسير يوما وتركن أياما:

إذا حركتها مالت | على الجنبين منهارة
وقد تحرن أحيانا | وتمشى وحدها تارة
ترى الناس فى ذعر | إذا لاحت من الحارة
وصبيانا يفرون | كما يلقون طيارة

كما قال شوقى فى براغيث محجوب التى كان يمتلىء بها بيته:

بواكير تطلع قبل الشتاء | وترفع ألوية الموسم
وتبصرها حول بيته وداخله | وفى شاربيه وحول الفم

محمد أمين عيسوى ـ الاسماعيلية

فريدمان والعولمة

من خلال قراءاتي ومتابعاتي لكل مايدور على الساحة الثقافية فوجئت بالهجوم الشديد على الكاتب الأمريكي توماس فريدمان وكان قبل عدة أشهر قد أتي إلي مصر، ونال من الاهتمام الكثير، وفجأة كتب كلاما في الصحافة الأمريكية، يناقض تماما ما أعطيناه له من أهمية واحتفاء شديد وبدأت الصحف المصرية تهاجمه، فمن هو هذا الرجل الذي يتغير بين عشية وضحاها؟.

محمد وجيه قنديل ـ الجيزة

الهلال: لقد بادرنا بنشر دراسة كتبها الدكتور صلاح قنصوة عن كتابه «السيارة ليكساس تقتلع شجرة الزيتون»، كما كتب الدكتور محمود عبدالفضيل دراسة مهمة بعنوان «تسويق وتزويق» العولمة مراجعة نقدية لكتاب «توماس فريدمان» السيارة ليكساس وشجرة الزيتون.

ونشرت الدراستان في عدد فبراير ٢٠٠٠م مع إشارة على غلاف المجلة بعنوان: فريدمان: العولمة ديانة جديدة.. وبينت الدراستان فكر هذا الرجل وانتصاره للأفكار الأمريكية وتوقفه عند قضايا كثيرة مباغتة كأن يقول «إن مطاعم ماكدونالدز لن تنجح بدون «ماكدونيل دوجلاس» مصمم طائرة السلاح الجوي الأمريكي ف ١٥»، فالعولمة أو الأمركة في تصوره هي السلام وهي الحرب معا، وليحفظ الله أمريكا!.

وشجرة الزيتون التي تعني فريدمان هي أشجار زيتون الولايات المتحدة، أما الأمم أو الدول الأخرى فعليها أن تنصرف عن شجرة الزيتون لتنضم إلى مايسميه «بالقطيع الإلكتروني» الذي لايسمح بعضويته إلا لمن يرتدي السترة الضيقة الذهبية، وهي السوق الحرة، لأنها البديل الأيديولوجي الوحيد، فليس هناك سوى طريق واحد وسرعات مختلفة.. والاعتراف بقواعد السوق الحرة والالتزام بها هو القميص أو السترة التي تعرف بها حقبة العولمة سياسيا واقتصاديا، وليس لدى العولمة إلا قميص القيد الذهبي.

وفريدمان صحفي يحرر عمودا في «النيويورك تايمز» منذ ١٩٩٤ للشئون الخارجية، وكان مراسلا أجنبيا في بيروت والقدس لعشر سنوات حتى ١٩٨٨، ومراسلا دبلوماسيا، ومندوبا في البيت الأبيض، كما عمل من قبل محررا في القسم الاقتصادي والبيزنس في الصحيفة نفسها، ومندوبا في وزارتي الخزانة والتجارة، كما حصل على درجتي البكالوريوس والماجستير في الدراسات العربية والشرق أوسطية.

وهو في الوقت نفسه يهودي يشيد بالفضل الذي يدين به لمعلم الدين الحاخام «ترقي ماركس» الذي ألهمه بأول مسيرة كتابه، وخاتمته في قصتي هابيل وقابيل أولا، ثم برج بابل أخيرا بوصفهما تفسيرا عميقا، وموجزا لتاريخ العالم ومستقبله.. وتقوم معظم أدلته على مايسميه بنظام العولمة.



الكلمة الأخيرة :

شيخوخة مجتمع شاب

بقلم : مصطفى الحسينى

من ملامح المجتمع المصرى، والتى يبدو أنها غير ملحوظة، أنه مجتمع شاب، فالتقدير أن أكثر من نصف تعداده لا تزيد أعمارهم عن الخامسة والعشرين، وهذا، على أى حال، من الملامح المشتركة بين مجتمعات البلدان النامية، أو إذا فضلنا الصراحة فهى مجتمعات البلدان المتخلفة .

والمفترض أن شباب المجتمعات يعتبر ميزة لها، حيث من شأنه أن يدفع فى شرايين المجتمع دماء جديدة، وفى أوصاله طاقات متجددة، وفى عقله الجمعى أفكارا طازجة ومتدفقة، وفى وجدانه جرأة تعينه على مواجهة التحديات والتغلب عليها وعبورها .

لكن الحال عندنا، كما هو عند سوانا من المجتمعات المتخلفة على خلاف هذا، بل على نقيضه، ولأسباب عديدة .

ولعل من بين أبرز هذه الأسباب أن حكوماتنا، أو أن أولى الأمر فينا يتميزون بنظرة «معدية» الى المجتمع، أى نظرة تعتبر الأجيال الجديدة عبئا يتلخص فى أفواه تطلب الطعام، وليس فى طاقات تجدد حيوية المجتمع وتضيف اليه .

وربما يجد أصحاب هذه النظرة «المعدية» مبررا لها فى نظرات اقتصادية - احصائية شائعة فى الكتابات الاقتصادية فى البلدان المتقدمة، نظرات تتحدث عن معدل الاعالة فى المجتمع، وهو ما يعنى النسبة بين من هم فى سن العمل والانتاج، وبين من هم دون هذه السن ومن هم فوقها .

لكن تلك النظرات الاقتصادية - الاحصائية الشائعة هناك تتحدث فى الحقيقة عن مجتمع فعال وشغال، يقع فى المركز منه، عديد من العاملين المنتجين.

اما عندنا، فالأخطر من نظرية «الأفواه» والنظرة «المعدية» الى المجتمع، هو ما يكاد يكون نقيض نظرية معدل الاعالة .

مجتمعنا الشاب لا يكاد يكون فيه مكان إلا للشيوخ ، حتى انه ينظر الى من تجاوز عمرهم نصف قرن من الزمان على انهم «شباب»، أما من هم دون هذا العمر المتوسط، أو بالأحرى العمر المتقدم، فهم مجرد «عيال».

انظر حولك : قيادات الاحزاب - اعضاء مجالس إدارات الشركات والمؤسسات ، رؤساء تحرير الصحف. مخرجو المسرح والسينما.. ممثلات الاغراء.

وليست نادرة الاشارة - مثلا - الى مخرجين من مستوى داود عبدالسيد، وخيرى بشارة ورأفت الميهى وحسن الجريتلى.. على أنهم شباب السينمائيين المسرحيين .

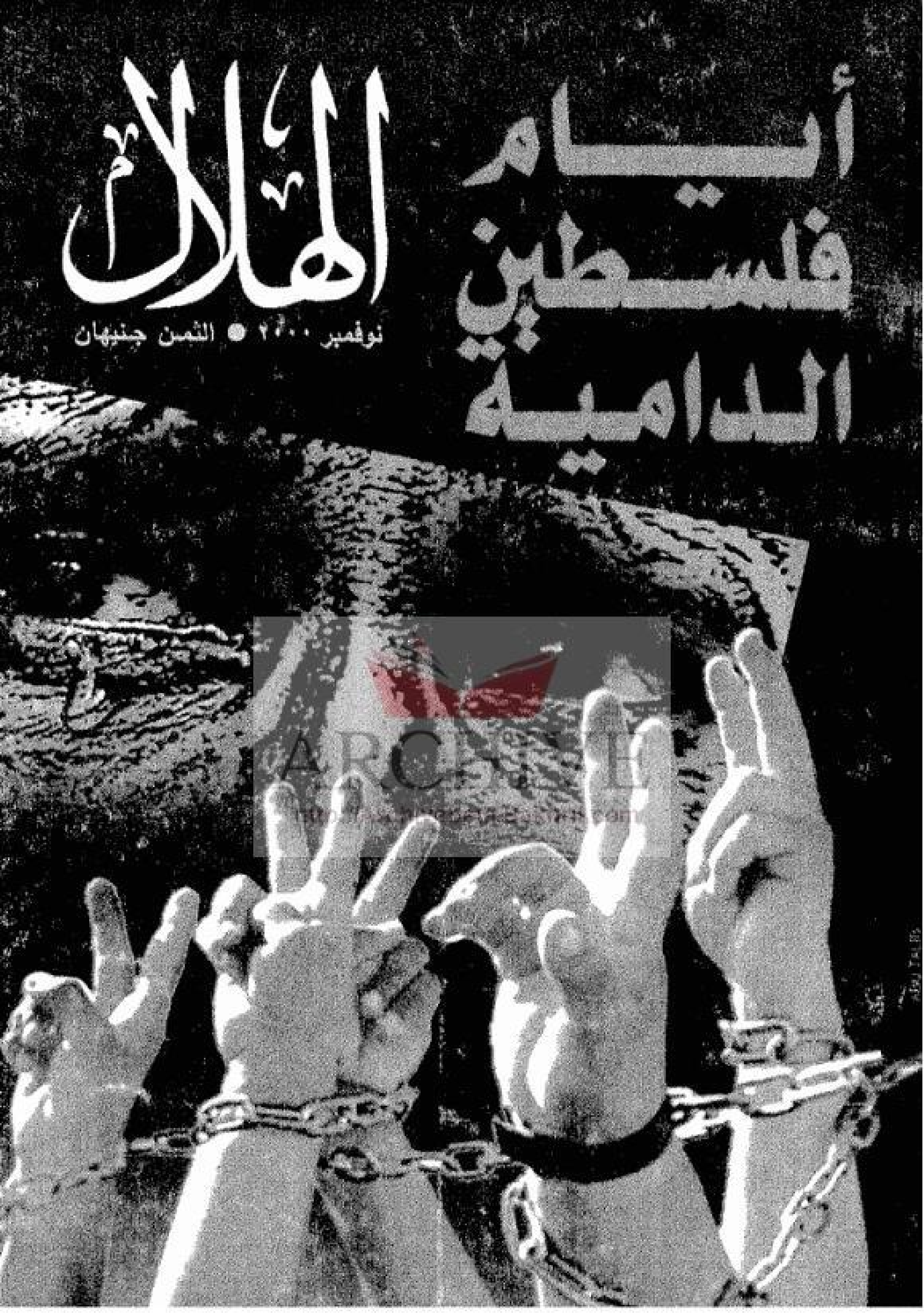
فهل بوسع مجتمع هذه مقاييسه أن يتجرأ على التجريب، وأن تكون له شجاعة اقتحام مجالات جديدة؟

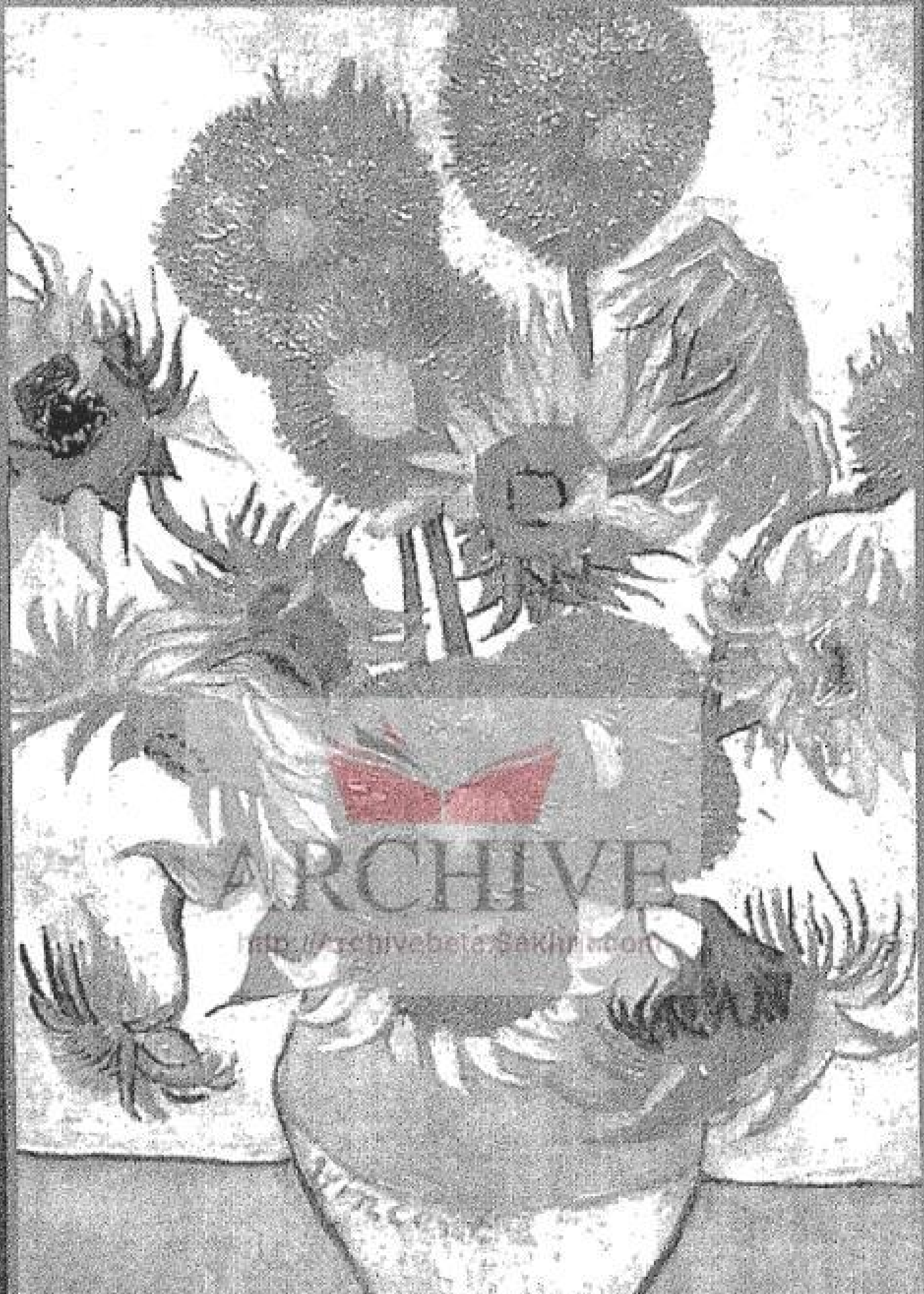
هل يمكن أن يكون إلا مجتمعا ينظر الى الوراء، يستمد إلهامه من الماضى، و«يتقدم» نحوه؟

* ملحوظة : كاتب هذه السطور تجاوز عمره الخامسة والستين .


مصر للطيران
اللؤلؤة المتألقة بالجديد دائما
تجعل العالم بين يديك
بأحدث طرازات الطائرات
EGYPTAIR
مصر للطيران
WWW.EgyptAir.com.eg


روايات مصرية للجيب
التسلية الجميلة الهادفة في ربوع الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع


الهلال
نوفمبر ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان
أيام فلسطين الدامية



أزهار عباد الشمس
للفنان العالمى : ڤان جوخ

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام التاسع بعد المائة

نوفمبر ٢٠٠٠م ● شعبان ١٤٢١ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات ص ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدى . ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس Hilal un 92703 فاكس FAX ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفنى

ثمن النسخة سوريا ٩٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٠,٩٠ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج م ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويُرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا العدد



تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب

أيام فلسطين الدامية
جزء خاص

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنون

قصة

الأبواب الثابتة

ثقافة المقاومة

نكتب الآن فى خضم أحداث المسجد الأقصى، وانتفاضة الاحتجاج على الاستفزازات المخططة من قبل الكيان الصهيونى التى بدأت بزيارة السفاح إيريل شارون، ومعه آلاف العسكر المدججين بالسلاح لساحة المسجد الشريف ، زاعما أنه لم يكن يعرف أن الساحة هى ساحة المسجد الأقصى إذ أنه لايعرفها إلا بصفتها العبرية، ورغم الإدانة الشكلية لزيارة سفاح صابرا وشاتيلا، إلا أننا نعرف أن الزيارة ليست تلقائية ولا فجائية ولا هى مبادرة شخصية من المجرم المتأصل فى الإجرام ، وفقا لفلسفة الاحتلال الاستيطانى السرطانى العنصرى التى تطرحها الأطماع الصهيونية ومن يساندها ولأننا من الجيل الذى يحمل وعيا عمره ٥٣ عاما بخسة الإرهاب الصهيونى منذ عام ١٩٤٧ لذلك فنحن لم نندهش كثيرا من صور الوحشية المنقولة للسمع والبصر عبر أجهزة الإعلام من كل صوب ومكان . لقد ترعرع جيلنا على تفاصيل المجازر والذبح وبقر البطون وعصابات الهجاناه «التى كان من مجرميها الإرهابيون الرواد : بن جوريون، وبيجين، وموشى ديان، ورابين، وجولدا مائير .. الخ ، الذين تركوا وراءهم تعاليم تربى عليها شارون ونتانياهو وبيريز، وإيهود باراك، وخفافيش المستوطنات من مصاصى الدماء العطشى دائما إلى تجرع دمائنا فى انتشاء لايكتفى بأى ارتواء لقد تحدث البعض بسلامة نية عما أسموه «ثقافة السلام» و«كسر الحاجز النفسى» بيننا وبين عدونا الأبدى، وتلك الأبدية فى العداوة لم نكن نحن المسئولين عن اختيارها، فالعداء هو اختيار يضعه المغتصب للحقوق ويأبى علينا أن ننساه وهو المحتل السارق للأرض والوطن وهوية الشعب الفلسطينى العربى. و«السلام» الذى هو «تحيتنا» له فى تعريفنا دلالة لاتنفصل عن «الحق»، لاتنفصل عن «العدل»، لاتنفصل عن «الأمن» و«الطمأنينة» لأصحاب «البيت» و«الحقل» و«المسجد» و«الأرض المباركة» . وكل ثقافة تؤدى إلى تأكيد هذه الدلالة التى نفهم بها كلمة «السلام» هى فقط «ثقافة السلام» التى نعرفها. وحين نرى العدو الصهيونى «يشقلب» لنا معانى «السلام» لتصبح – وفقا لأهوائه الشريرة – خضوعا بشروط اللصوص تحت تهديد الطائرات والدبابات والمدافع، والقلوب التى هى أشد قسوة من الحجارة، فلابد لنا أن نقذف بالحق على الباطل ليزهقه، بحول الله وقوته ـ فى مواجهة كل هؤلاء الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق . ولايكون أمامنا إلا «ثقافة المقاومة» لتتحقق دلالة «السلام» الأصيلة والأصلية .

عزيزى القارىء

لقد منيت منطقتنا بالاحتلال الانجليزى لمصر عام ١٨٨٢ وصارت العسكرية الإنجليزية فى شوارعنا ومرافقنا ومدارسنا ووسائل مواصلاتنا، ومع ذلك لم يخطر ببال شعبنا لحظة أن «يطبع» علاقته مع المحتل، وظل المحتل بين ظهرانينا أكثر من ٧٠ عاما وكنا نعلم أنه لابد أن يرحل ولو طال الزمن . ونشب الاحتلال الفرنسى مخالبه فى الجسد الجزائرى والمغرب العربى، احتلالا استيطانيا سرق اللسان والثقافة وعزل الناس عن هويتهم فصارعوه وقاوموه حتى ثابوا إلى أنفسهم وإن أنهكم التعب (والتعب والإرهاق جراحه وأمراضه) لكنهم تحرروا بالمقاومة ولاتزال أمامهم معركة - مقاومة - «الثقافة الدخيلة» ليستعيد البجع المسحور إنسانيته الحقة.

★★★

لم تكن بيننا وبين العدو الصهيونى المحتل الاستيطانى - «أبشع وجوه الاحتلال قاطبة» - أى «حرب» لقد أعلنوا علينا الحرب العدوانية وأسموها كذبا «حرب التحرير» وكان علينا أن نواجه العدوان بالصد ودفع الأذى فيما يجب أن نعرف كونه «معارك المقاومة» منذ ١٩٤٨ ونحن نقاوم ، ومعنا «ثقافة المقاومة» منذ مطلع القرن. فالحقيقة أننا لانقترح بداية لثقافة المقاومة، لأنها عميقة الغرس فى تاريخنا وحضارتنا ونهضتنا العربية والإيمانية والإسلامية . إن مقولة «قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار» تعنى أن لقب «الشهيد» لايطلق سوى على من مات فى سبيل الله لتحقيق أوامره بالنهى عن البغى والبطش والقهر والظلم وجبروت الطغاة. لايمكن أن يكون شهيدا من مات فى سبيل تكريس ظلم الاحتلال ووحشية المغتصب وفساد اللصوص والقتلة ومن مات «فى سبيل التاج» ! «أى سلطة الظالمين».

★★★

الناس تسقط ميتة وشهداء المقاومة يرتفعون شهداء فى سبيل طاعة الله وتقديم حقه فوق كل حسابات الربح والخسارة عند عشاق فتنة هذه الدنيا، يقول من يقول فى سفاهة «لابد أن تتخلى المقاومة عن حجارتها» حتى يتوقف القصف الحيوانى الأعمى الذى تصبه دولة الاحتلال الصهيونى على الشعب المدافع عن حق أطفاله فى عبور الشارع سالمين. دولة الاحتلال المعتدية تجمع السلاح من كل مكان، وتسلح ثعابينها من سكان المستوطنات مصاصى الدماء ويكون معها العذر والمنطق، وعلى المقاومة بالأحجار أن تلقى سلاحها البتار : ماشاء الله !.

مذلون مهانون : هكذا يريدوننا فهل نرضى دائما؟.

المحـــرر

الأثريون الإسرائيليون يكشفون زيف الادعاءات الدينية والتاريخية لليهود فى فلسطين



بقلم :
د . رشاد الشامى

- أستاذ الدراسات العبرية ورئيس قسم اللغة العبرية بكلية الآداب جامعة عين شمس .
- هذا المقال جزء من مقدمة كتاب سيصدر قريبا لكاتبه تحت عنوان «العبرانيون وبنو اسرائيل في العصور القديمة ، بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية» .

سعت الصهيونية منذ قيامها فى القرن التاسع عشر إلى توظيف الروايات التوراتية لخدمة أهدافها ، بحيث أن إقحام السياسة فى ميدان كتابة تاريخ اسرائيل القديمة ، لم يثر فى حينه جدلا واسعا ، لأن معظم دارسى التوراة كانوا متفقين على المبادىء الأساسية لمشروعهم ، وكانت ثقتهم بالمصادر التوراتية وإيمانهم بها ، وبصحتها التاريخية ثقة كبيرة ، وكذلك الأمر بالنسبة لموضوعية الباحث التوراتى الحديث الذى كان بدوره موضع ثقة كبيرة .

وهكذا فإن الصهيونية لم تتوقف عن الاغتراف من الأحداث التاريخية الواردة فى أسفار العهد القديم بما تعزز به مطالبها وأهدافها فى الاستيطان فى أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها ، مرددة مقولات مثل : «الحق الدينى والتاريخى لليهود فى فلسطين» و«الاستمرارية التاريخية» . وقد كان هذا التوجه الذى خاطبت به الصهيونية العقلية الغربية المسيحية : يسعى إلى أن يثبت فى الوجدان الغربى أن تاريخ المنطقة لا يمكن فهمه إلا من خلال «التاريخ التوراتى» ، وأن هذه الإدعاءات الدينية تحدد هذا التاريخ وتسيطر عليه ، بحيث لا يصبح تاريخ هذه البلاد هو تاريخ وجغرافية فلسطين ، بل تاريخ وجغرافية «اسرائيل التوراتية » ، ويصبح اسم «فلسطين» على هذا النحو ، لا يزيد على كونه تعبيرا مختصرا عن «أرض التوراة» .

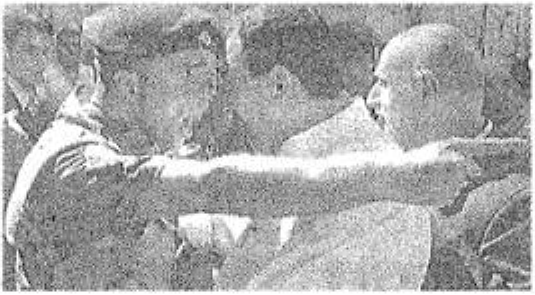
وتصبح الاعتبارات الدينية والتعريفات التوراتية هى مفتاح فهم تاريخ المنطقة وتصبح أسماء المناطق فيها نابعة من الأسماء التوراتية مثل «يهودا والسامرة» بدلاً من «الضفة الغربية» وتصبح سائر المناطق هى مناطق زبولون وإفرايم وبنيامين ومنسى .. الخ .

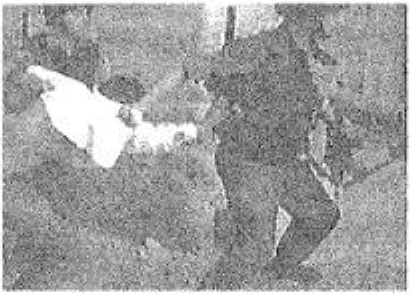
وفى سياق هذا الاختزال الذى يجعل من تاريخ فلسطين تاريخا لبنى إسرائيل ولليهود دون سواهم من الشعوب التى قطنتها وعاشت فيها وأسست دولا وممالك ، تصبح الأوضاع التى أدت إلى إنشاء دولة إسرائيل فى القرن العشرين شبيهة بالأوضاع فى العصور القديمة .

فإذا كانت الصهيونية قد رفعت شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» ، فإن الدراسات التوراتية ، التى عكست المفاهيم الصهيونية الخاصة بفلسطين ، قد صورت فلسطين دون سكان ، أو على أكثر تقدير ، كسكان مؤقتين سريعى الزوال ينتظرون قدوم ذلك الشعب الذى لا يملك الأرض .

وهنا نجد أن جذور الدولة الحديثة قد سيطرت على الدراسات العلمية فى مجال الدراسات التوراتية ، بما فى ذلك تطويع المكتشفات الأثرية ، لدرجة أن هذا الإسقاط على الماضى للدولة اليهودية فى العصور القديمة ، قد أدى إلى استمرارية حتمية ساعدت على تبرير وإضفاء شرعية على كلتا الدولتين القوميتين قديماً وحديثاً .

وهكذا فإن الافتراض الصهيونى السائد بوجود صلة مباشرة بين إسرائيل القديمة والدولة الاسرائيلية الحديثة ، والذى يتلخص فى الاعتقاد بعودة «الشعب اليهودى» إلى «وطنه» فى «أرض إسرائيل القديمة» ، هو الذى يحدد مسبقاً نتيجة البحث التوراتى بحثا عن جذور «إسرائيل





القديمة، لإضفاء الشرعية على الدولة الحديثة : إسكاتاً للبحث عن تاريخ أعم للمنطقة .

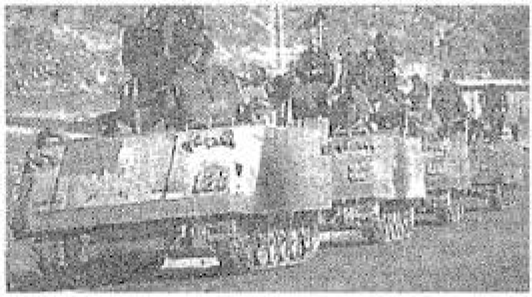
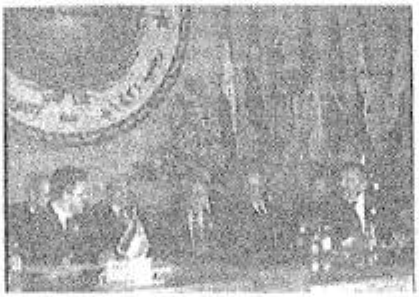
وأخيرا ، إضافة إلى الجهود التي بذلها أصحاب مدرسة نقد المصادر التوراتية ، وما كشفوا عنه في دراساتهم عن تضارب الروايات التوراتية ، وعدم وجود أية مصداقية لها على المستوى التاريخي أو الأثري يثبت صحتها أو وقوعها ، فاجأنا الأثريون في اسرائيل ، وعلى رأسهم الأثري الاسرائيلي المعروف جيم هرتسوج أستاذ الآثار بجامعة تل أبيب ، وبعد جهود مضنية ومكثفة قاموا بها على إمتداد الفترة من ١٩٦٧ بعد احتلال القدس والضفة الغربية وحتى عام ١٩٩٩ ، بإعلان أذهل الجميع في اسرائيل وخارجها ، أكد فيه عدم صحة الرواية التوراتية حول نشأة وتكون بني إسرائيل في العصور القديمة ، وحول كل ما يتعلق بإقامتهم في مصر والتيه في صحراء سيناء وغزو أرض كنعان بالقوة المسلحة وقيام مملكة إسرائيلية موحدة في فلسطين بين الحضارات الكبرى في المنطقة ، بما يثبت زيف كل الإدعاءات الصهيونية حول الحق الديني والتاريخي في فلسطين وحول مملكة داود والقدس وغيرها .

وفيما يلي سنقدم نص ما نشر حول هذا الموضوع في صحيفة هاأرتس بتاريخ ٢٨/١٠/١٩٩٩ (الصفحة الأولى) :

الأثريون يتفقون : الفترة التوراتية لم تحدث على الاطلاق

بعد سبعين عاما من الحفائر المكثفة في فلسطين ، لم يتم العثور على أدلة تؤكد روايات العهد القديم .

بعد سبعين عاما من الحفائر المكثفة توصل معظم رجال الآثار الاسرائيليين إلى استنتاج قاطع ، وهو أن الفترة التوراتية لم تحدث على الإطلاق . ففي مقال نشر اليوم في «ملحق هاأرتس» أكد رجل الآثار البروفيسور زئيف هرتسوج ، الاستاذ بجامعة تل أبيب ، أنه خلال العشرين عاما الماضية حدثت ثورة في

موقف الباحثين من التوراة باعتبارها مصدراً تاريخياً .

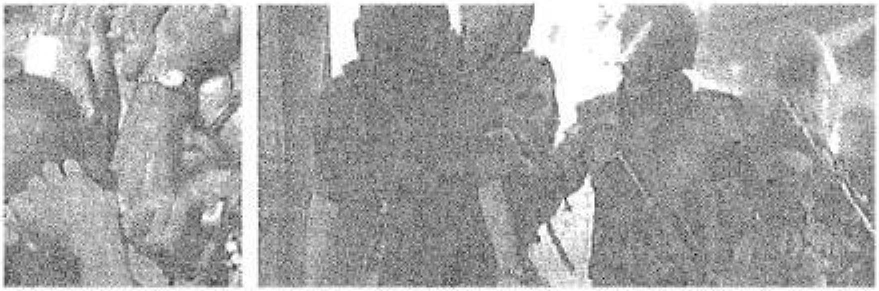
ووفقاً لأقواله ، فإن معظم المعنيين بالأبحاث العلمية فى مجال التوراة ، والآثار وتاريخ شعب اسرائيل ، والذين قاموا حتى الآن بالبحث والتنقيب عن أدلة لتأكيد صحة قصص العهد القديم ، قد اتفقوا حاليا على أن مراحل تكوين شعب إسرائيل كانت مختلفة تماماً عن تلك الواردة فى التوراة ، ولكن المجتمع الاسرائيلى غير مستعد لتدارس هذا الأمر ويفضل إبعاد هذا الموضوع المهدد ..

وقد كتب هرتسوج قائلاً : «من **الصعوبة بمكان قبول هذا ولكن من الواضح بالنسبة للباحثين اليوم أن شعب إسرائيل لم يعش في مصر . ولم يته فى الصحراء ، ولم يحتل فلسطين فى حملة عسكرية ولم يورثها لاثنى عشر سبطا من أسباط إسرائيل . والأكثر صعوبة هو قبول الحقيقة الواضحة ، وهى أن مملكة داود وسليمان الموحدة ، والموصوفة فى العهد القديم باعتبارها قوة عظمى إقليمية ، كانت مجرد مملكة سبطية صغيرة فى أحسن الأحوال** » .

قبر يوسف فى نابلس

ومن الأمثلة التى نسوقها للتدليل على توجه أصحاب الروايات التوراتية فى صياغة الروايات القديمة لتخدم الواقع الحديث ، وخاصة فيما يتصل بمحاولات الإدعاء بأن لهم حقا دينيا وتاريخيا فى كل بقعة فى أرض فلسطين لهم فيها ذكريات أو آثار لشخصياتهم الدينية ، تلك القصة المرتبطة بقبر يوسف بالقرب من مدينة نابلس ، والتى كانت محورا من محاور أحداث إنتفاضة الأقصى خلال اكتوبر ٢٠٠٠ .

إن القصة المقرائية (الخاصة بالتوراة) عن سيدنا يوسف تروى فى سفر التكوين وهو السفر الأول من أسفار التوراة ، إعتبارا من الاصحاح السابع والثلاثين وحتى نهاية سفر التكوين (الاصحاح الخمسون) ، مع إستثناء



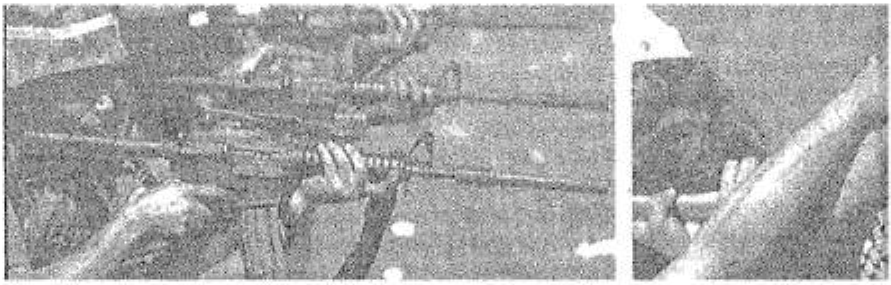
الاصحاح الثامن والثلاثين ، وبعض من الاصحاح التاسع والأربعين ، وتتضمن هذه القصة سرداً مفصلا لحياة يوسف من صباه حتى وافته المنية ، وهى قصة مليئة بالأحداث والشخصيات وتغير الزمان والمكان وتحكمها حبكة روائية ، تجعلها نموذجا مثاليا لدراسة أسلوب القص فى التوراة .

ولن نخوض بطبيعة الحال فى تفاصيل قصة يوسف المعروفة ، ولكن ما يعنينا فى هذا المقام هو قصة موته ودفنه ومدى صحتها من عدمه .

إن نهايات قصة يوسف تشير إلى إنتقاله لدفن أبيه فى حشد غفير من الأعيان المصريين ليشاركوا يوسف وإخوته وجميع أهل بيته ، فيما عدا الصغار من أبنائهم الذين بقوا فى أرض حاسان بمصر ، وصاحبته بالاضافة إلى هذا قوة حربية وجيش من الفرسان ، بما يشير إلى مكانة يوسف التى تعاظمت داخل بلاط فرعون مصر ، الذى استأذنه يوسف قبل خروجه فى هذا الحشد ، دون الاشارة ، كعادة السرد القصصى المقرائى (التوراتى) إلى هوية هذا الفرعون ومن هو تحديدا (التكوين الاصحاحات ٤٨ - ٤٩ - ٥٠) .

أما بالنسبة لمشهد موت يوسف فإنه يرد فى هذه الاسفار فى روايتين ، الرواية الأولى هى الرواية «اليهودية» (المنسوبة إلى المصدر اليهودى) والرواية «الايلوهيمية» (المنسوبة إلى المصدر الايلوهيمى) ، وهما المصدران اللذان رأى أصحاب مدرسة الاتجاه النقدى فى دراسة العهد القديم أنهما دونا بعد فترة طويلة من الأحداث ، واختلف أصحاب كل مصدر فى رواية الأحداث ، ولكنهما جمعا معا فى النص التوراتى ، رغم ما بهما من تناقض أو تعارض فى سرد الاحداث .

والرواية الأولى تقول : «وسكن يوسف فى مصر هو وبيت أبيه وعاش مائة وعشر سنين . واستحلف يوسف بنى إسرائيل قائلا : الرب سيفتقدكم فتصعدون عظامى من هنا . ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين»



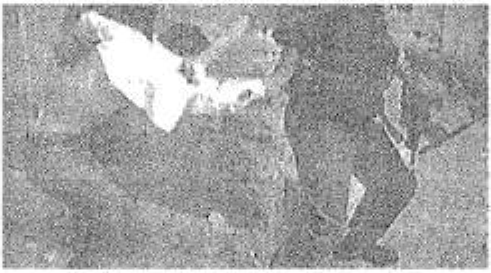
(التكوين ٥٠ : ٢٢ - ٢٥ - ٢٦أ)

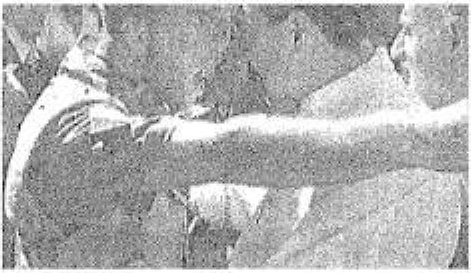
أما الرواية الايلوهيمية فتقول :

«وقال يوسف لأخوته أنا أموت ولكن الرب سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم واسحق ويعقوب ، فحنطوه ووضع فى تابوت فى مصر» (التكوين ٥٠ : ٢٤ - ٢٦ ب) .

والرواية سواء اليهودية أو الايلوهيمية تتفقان على أن يوسف أوصى بنقل عظامه من هنا ، أى من مصر (الرواية اليهودية)، بينما الرواية «الايلوهيمية» ، تشير إلى «من هذه الأرض» أى من أرض مصر ، إلى «الأرض التى حلف لابراهيم واسحق ويعقوب» أى إلى أرض كنعان تحديدا ، ودون الإشارة المبهمة الواردة فى النص الأول ، وهو ما يؤكد أن أصحاب الرواية الثانية من المدونين كانوا حريصين على التحديد الدقيق .

وقد حنط يوسف ووضع فى تابوت فى مصر . والقصة التوراتية تتوقف عند سرد أحوال بنى إسرائيل فى مصر ، إلى أن يعود السرد مرة أخرى مع بدايات قصة الفرعون الذى استعبد بنى اسرائيل ، وظهور سيدنا موسى ليقودهم فى رحلة الخروج من مصر والتيه فى سيناء ثم دخول أرض كنعان ، سواء بالتسلل السلمى أو عن طريق الغزو المسلح ، ولكن القصة لا تشير فى ثناياها بعد ذلك إلى أنهم حملوا معهم رفات يوسف ، وخاصة أنهم خرجوا خفية عن أعين فرعون وجنوده ، ولم يكن يخطر ببالهم أنهم سيجدون البلاد (أرض كنعان) التى كانوا قد غادروها منذ أربعة قرون من الزمان مأهولة بسكان وممالك وحضارات لا قبل لهم بها . وإذا كانت القصة (قصة الخروج) لا تشير إلى هذا النقل لرفات يوسف ، بالإضافة إلى أنهم إستغرقوا وقتا طويلا حتى إستولوا على «شكيم» (نابلس الحالية) ، فكيف يمكن أن نتصور أنهم دفنوه هناك ، وأن قبره مازال قائماً حتى الآن فى نفس المكان . إنها الحيلة اليهودية المعهودة فى ادعاء المزاعم التى يتصورون أنها تعطيهم الحق فى الامتلاك، بالأثر الرجعى التاريخى .







كتاب جديد
«الجدار الحديدى»

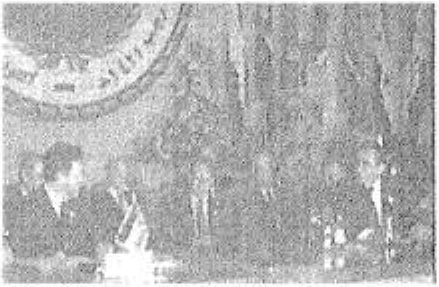
مؤرخ اسرائيلى يعترف :

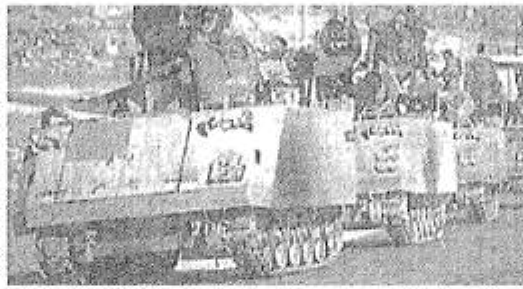
اسرائيل لا تريد السلام !

•لم تكن اسرائيل يوما ضحية !!

بقلم : لبنى الريدى

اعتمدت الحركة الصهيونية فى تأسيس دولتها على مجموعة من الأساطير والمغالطات التاريخية . وأنصاف الحقائق وتلفيق الاحداث ، واستطاعت آلتها الدعائية أن ترسخ هذه المفاهيم المغلوطة فى كثير من الأذهان . خاصة بين الرأى العام الاوروبى والأمريكى، أما فى داخل إسرائيل فلقد شكلت تلك المفاهيم وجدان الإسرائيليين جيلا بعد جيل. ونجحت إسرائيل فى أن تخدع الناس لبعض الوقت لكن لا يستطيع أحد أن يخدع كل الناس كل الوقت. وبدأ بالفعل بعض كبار المفكرين فى العالم الغربى فى فضح أساطير الصهيونية ، وقد يكون المفكر الفرنسى الكبير جارودى من أبرع من قام بذلك.





ومن ناحية أخرى بدأ يتشكل مؤخرا فى إسرائيل اتجاه لمراجعة كتابة تاريخ الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل فيما يعرف بـ «المؤرخين الإسرائيليين الجدد»، وساعد على ذلك أنه منذ عشر سنوات أتيح للباحثين الإسرائيليين الإطلاع على الارشيف الرسمى لإسرائيل واكتشاف حقائق ووقائع كثيرة مخالفة للرواية الرسمية. ومن أهم هؤلاء **المؤرخين الإسرائيليون الجدد المؤرخ آفي شلايم، الذي** أصدر هذا العام كتابا **بعنوان «الجدار الحديدي»** يؤرخ فيه للصراع العربى الإسرائيلى على امتداد نصف قرن. ويحاول شلايم الذى ولد فى بغداد عام ١٩٤٥ وشب فى إسرائيل أن يكون موضوعيا، لقد أعاد قراءة تاريخ إسرائيل بعيون مدققة وغير متواطئة فى ضوء الحقائق التى اظهرتها الوثائق التى لم تكن متاحة من قبل.

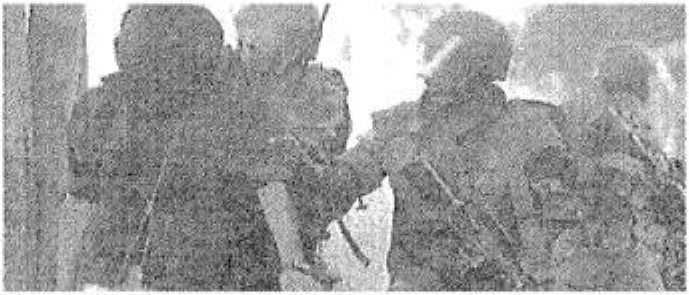
ويقدم كتاب «الجدار الحديدى» مادة تاريخية جديدة على كتابة التاريخ الصهيونى يفند اكاذيب وادعاءات كثيرة ظل الكثيرون يصدقونها، قد تكون تلك المادة التاريخية معروفة لنا كعرب . إلا أن أهمية الكتاب ان من يكشف تلك الحقائق هو مؤرخ إسرائيلى عاصر اغلب حروبها وشارك فى الخدمة العسكرية فى الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦، وهو يعمل حاليا أستاذا للعلاقات الدولية بجامعة اوكسفورد.

لكن قبل ان نستعرض معا أهم تلك الحقائق التى كشفها الكتاب أو الأكاذيب والادعاءات التى دحضها سوف نتحدث عن عنوان الكتاب ، ألا وهو «الجدار الحديدى».

إن الجدار الحديدى هو استراتيجية التزمت بها إسرائيل حتى قبل قيامها كدولة، ففى عام ١٩٢٣ كتب جابوتنسكى أحد كبار المنظرين للإرهاب الصهيونى ضد الفلسطينيين مقالا بنفس العنوان يعد التعبير المنهجى لما أصبح فى الحقيقة الأساس المنطقى السائد بالنسبة للحركة الصهيونية وسياسات إسرائيل ومواقفها تجاه الفلسطينيين .وتتلخص هذه الاستراتيجية فى بناء جدار حديدى من القوة العسكرية اليهودية يكون العرب عاجزين عن تحطيمه.

كان جابوتنسكى أول زعيم صهيونى كبير يعترف بأن الفلسطينيين أمة وأنه من غير المتوقع أن يتخلوا طواعية عن حقوقهم، وأوضح أنه «طالما بقى للعرب بارقة أمل واحدة فى أنهم سينجحون فى التخلص منا فلا شىء فى العالم يمكن أن يجعلهم يتخلون عن هذا الأمل لأنهم ليسوا غوغاء وإنما شعب حى». إلا أنه كان يعتقد أن العرب بعد أن يضربوا رؤوسهم سدى قبالة ذلك الجدار الحديدى قد يدركون ويعترفون بأنهم فى وضع من الضعف الدائم، عندئذ فقط تفقد المجموعات «المتطرفة» تأثيرها وينتقل هذا التأثير الى





مجموعات أكثر اعتدالا تقدم مقترحات للحلول الوسط، وحينئذ قد يكون الوقت مناسبا للدخول في مفاوضات معهم حول الأمور العملية مثل وضعهم وحقوقهم المدنية والقومية في فلسطين.

غير أن الجدار الحديدي ليس غاية في حد ذاته وإنما وسيلة لغاية هي كسر المقاومة العربية لمسيرة الصهيونية وعندما يتحقق ذلك فإن عملية تغيير ستحدث داخل الحركة القومية الفلسطينية مع قدوم المعتدلين إلى المقدمة، وعندئذ فقط سيكون الوقت ملائما للبدء في مفاوضات جدية مع الفلسطينيين والعرب. وللأسف فإن ذلك هو ماحدث بالفعل بشكل ما.

ويرى الكاتب أن الخطر الحقيقي لاستراتيجية الجدار الحديدي أن قادة إسرائيل يميلون إلى تبنيها كطريقة دائمة للحياة.

طرد العرب من فلسطين

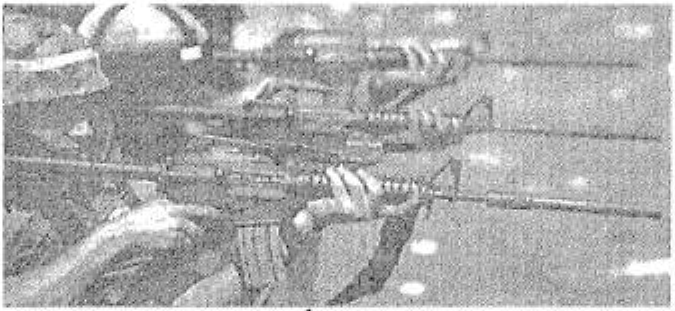
في كتاب «الجدار الحديدي» يشعر القارئ العربي أن جزءا من الحقيقة يخرج إلى النور لأول مرة، وعلى لسان الإسرائيليين أنفسهم، فهي شهادة شاهد من أهلها، وبحقائق جديدة مغايرة لما تضخه آلة الدعاية الصهيونية.

يصف آفي شلايم كيف أجبر العرب أصحاب الأرض على ترك أراضيهم بالقوة، ففي اجتماع عقد يومي ١ - ٢ يناير ١٩٤٨ لخص قادة الحركة الصهيونية الاستراتيجية اليهودية للصراع في ذلك الوقت، وهي تصعيد الصراع الفكري بدلا من احتوائه، وبالتالي انطلقت عصابات الهاجاناه تستولي على القرى والمدن العربية. وتحت حجة تطهير داخل البلاد من العناصر العربية المعادية أو المحتمل أن تكون معادية تم تبرير طرد المدنيين.

لقد ساهمت هذه الخطة التي نفذت في ابريل ومايو من عام ١٩٤٨ بشكل مباشر وحاسم في خلق مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، وبدأت الهجرة الجماعية الفلسطينية. وعلى نقيض الرواية الصهيونية الرسمية التي تدعي أن العرب خرجوا وتركوا أراضيهم لأن زعماءهم طلبوا منهم إخلاء الأرض، يوضح شلايم أن الحركة الصهيونية بإصدارها الأوامر بالاستيلاء على المدن العربية وتدمير القرى قد سمحت وبررت الطرد الإكراهي للمدنيين العرب.

القلة ضد الكثرة

كما يفند شلايم وبالأرقام الرواية الصهيونية لحرب ١٩٤٨ التي تصورها على أنها «صراع القلة ضد الكثرة، صراع غير متكافيء بين داود اليهودي وجالوت العربي» لقد استخدمت إسرائيل هذه الرواية بشكل واسع في الدعاية الصهيونية ولازالت تدرس في المدارس، ويعتبرها شلايم مثالا ممتازا لاستخدام الرواية القومية للتاريخ في عملية بناء الأمة، ويكشف عن أنه بعد الافراج عن

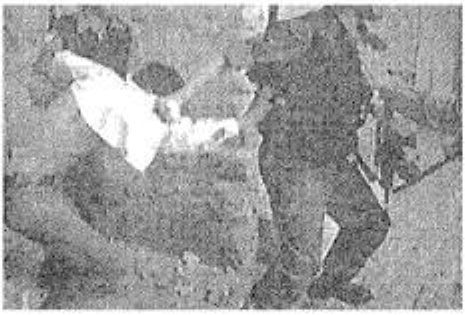
الوثائق الرسمية اتضح زيف هذه الادعاءات خاصة فيما يتعلق بالتوازن العسكرى العربى - الإسرائيلى . ففى منتصف مايو ١٩٤٨ كان إجمالى عدد القوات العربية، النظامية وغير النظامية، العاملة فى مسرح العمليات فى فلسطين أقل من ٢٥ الفا فى حين كان عدد القوات الإسرائيلية ٣٥ ألفا . وفى منتصف يوليو تم تعبئة ٦٥ ألف رجل تحت السلاح وبحلول ديسمبر بلغ عدد القوات الإسرائيلية ٩٦ ألف و٤٤١ مقاتلا. ويتضح من هذه الأرقام أن القوات الإسرائيلية كانت تفوق القوات العربية عددا فى كل مراحل الحرب ، وكانت نسبة تفوقها فى المرحلة النهائية تقارب اثنين إلى واحد. ومن ثم لم تكن النتيجة النهائية للحرب معجزة ولكن مجرد انعكاس للتوازن العسكرى العربى - الإسرائيلى.

كما يكشف كتاب «الجدار الحديدى» أن العلاقة الخاصة بين إسرائيل والملك عبدالله كانت عاملا رئيسيا فى تحديد مسار حرب ٤٨ ومحصلتها . ويؤكد شلايم أنه لولا هذه العلاقة لما تمكنت إسرائيل من تحقيق الانتصار الشامل والحاسم فى تلك الحرب، لكن المؤرخين الصهاينة يتجاهلون - حسب تعبيره - هذا العامل لأنه لا يتفق بسهولة مع الرواية البطولية للحرب التى تدعى ان اسرائيل الصغيرة وقفت وحدها فى مواجهة العالم العربى كله.

مصر وأمن إسرائيل

ويكشف شلايم عن الخلفيات الحقيقية لحرب ١٩٥٦ والتى بدأت مقدماتها لدى إسرائيل منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو وتولى جمال عبد الناصر مقاليد السلطة فى مصر. فقد كان بن جوريون يرى «أن ناصر هو صلاح الدين آخر الزمان وأنه زعيم عسكرى قادر على توحيد العالم العربى وأن يقوده إلى معركة ضد أعدائه» كما كان يعتقد أن «ناصر قائد قادر على تحريك شعبه ونقله من التخلف إلى وضع شديد القوة، مما قد يعرض مستقبل إسرائيل للخطر» .كان ناصر يمثل هاجسا بالنسبة له وخلص رأيه إلى أن هيمنة مصر داخل العالم العربى تحت القيادة الديناميكية لناصر تمثل تهديدا خطيرا لأمن إسرائيل، ومن ثم أصبحت إزاحته تمثل مصلحة وطنية حيوية. وقال بن جوريون فى اجتماع لقادة الدولة اليهودية عقد فى بداية عام ١٩٥٥: «يتعين تلقين ناصر درسا.. من الممكن تماما إسقاطه ، بل ان القيام بذلك يمثل واجبا مقدسا».

وفى ٢٨ فبراير ١٩٥٥. بعد عودة بن جوريون الى الحكم وتوليه وزارة الدفاع بأسبوع واحد شنت إسرائيل غارة مدمرة على غزة ، «وكان يأمل أن تؤدى الغارة إلى التقليل من شأن ناصر بكشف العجز العسكرى لنظامه» . ويرى شلايم أن الإغارة على غزة كانت نقطة تحول بالنسبة





للنظام المصرى، فقد فرضت تغييرا فى قائمة الأولويات الوطنية حيث تصدر الدفاع القائمة بدلا من التحول الاجتماعي والاقتصادي، ووصل هذا التغيير الي ذروته في صفقة السلاح مع تشيكوسلوفاكيا في سبتمبر ١٩٥٥.

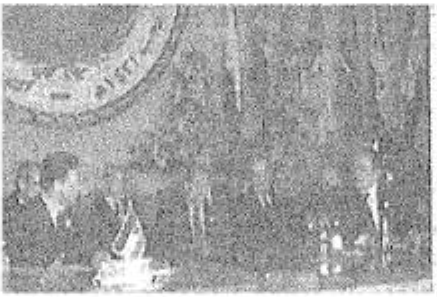
وتزايد ضغط بن جوريون والمؤسسة العسكرية من أجل شن حرب وقائية ضد مصر. وينتقد شلايم اصطلاح «حرب وقائية» ويعتبره خطأ فى التسمية، لأنه لم يكن هناك دليل واحد على أن مصر تخطط لمهاجمة إسرائيل. وكان دعاة الحرب يفترضون أن هزيمة عسكرية قد تؤدى إلى سقوط نظام ناصر. ويشير شلايم إلى محاضرة لديان حدد فيها لقيادة القوات الإسرائيلية الخطوط العامة لعمل القوات فى تلك الفترة قائلا: «ان الحل الأساسى لمشكلة الأمن التى تزداد سوءا هى اسقاط نظام ناصر فى مصر. إن الازاحة التامة لناصر من السلطة ستزيل السبب الجذرى للخطر الذى يهدد إسرائيل».

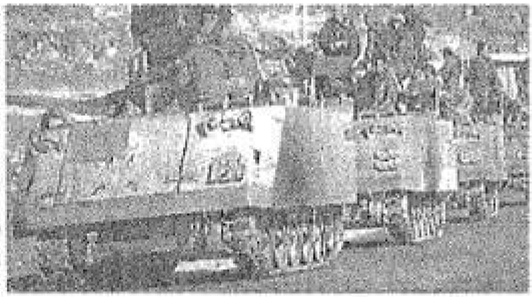
وكان ديان يرى ان من الضرورى الدخول فى مواجهة حاسمة مع المصريين فى أقرب موعد ممكن قبل أن يتم استيعاب الأسلحة السوفيتية، وإلا فإن العملية قد تصبح شديدة الصعوبة بل ومستحيلة، وكان هدفه هو إجبار الجيش المصرى على خوض الحرب قبل ان يتحول ميزان القوة لصالح مصر، وكانت استراتيجيته هى القيام بعمليات انتقامية كبيرة على الحدود بين البلدين من أجل دفع مصر إلى دخول الحرب قبل ان تكون مستعدة لها.

ويكشف شلايم أنه فى اجتماع عقد يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٥٥ إذن بن جوريون لديان بالإعداد لمواجهة كاملة مع مصر والتخلص من ناصر. وفى ١٠ يونيو ١٩٥٦ أذن له ان يمضى قدما فى المفاوضات السرية التى يجريها مع فرنسا من أجل التوصل إلى أقصى تعاون بما فى ذلك القيام بعمليات حربية مشتركة ضد مصر.

ويؤكد شلايم أن إسرائيل لم تكن تواجه أي خطر جاد من جانب مصر في عام ١٩٥٦ ومع ذلك تحالفت مع فرنسا وبريطانيا لمهاجمة مصر. وهو يناقض الرواية الرسمية التى تدعى أن إسرائيل لم تذهب للحرب إلا لأنها كانت تواجه خطر هجوم داهم من جانب مصر.

ويعتقد شلايم أن معركة سيناء حققت عددا من الاهداف المباشرة أهمها هزيمة الجيش المصرى، وإن كان يوضح «أن الجيش هزم لكنه لم يدمر ويرجع الفضل فى ذلك إلى توقيت انسحابه من سيناء» لقد قلل ناصر من خسائر جيشه بإعطاء الامر بالانسحاب كما ان الضرر الذى لحق بالجيش المصرى كان بسيطا وتم اصلاحه سريعا. أما على المستوى السياسى فلم يتحقق أى هدف من اهداف حملة سيناء، إذ لم يسقط نظام ناصر





وانما على العكس تدعم وانتشر تأثيره فى كل العالم العربى والعالم الثالث «لقد انتزع ناصر نصرا سياسيا باهرا من بين فكى هزيمة عسكرية» ، فى حين دفعت اسرائيل ثمنا باهظا نتيجة لتآمرها مع قوى الاستعمار القديم، «لقد قدمت الدليل الدامغ على الطابع التوسعى والرجعى للحركة الصهيونية» .

ويشير شلايم إلى أنه بالرغم من كل الحسابات السياسية الخاطئة واخفاقات الذين خططوا لهذه الحرب فإن روايتهم عنها هى التى رسخت فى أذهان اغلبية الإسرائيليين، وأنها كانت حربا دفاعية وعادلة تم انجازها بنجاح باهر وانها حققت تقريبا كل أهدافها. لكن هذه الرواية لم تصمد فى ضوء الحقائق المتاحة. ويعتقد شلايم انها تعد مثالا واضحا للطريقة التى يتم بها التلاعب بالتاريخ لخدمة أهداف قومية.

أمريكا والصراع

ويستمر الصراع بين الصهيونية والقومية العربية ويبلغ ذروته فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، ويكشف شلايم كيف اختلف موقف الولايات المتحدة من الصراع العربى الاسرائيلى ما بين حرب السويس وحرب يونيو ، فيذكر أن القيادة الإسرائيلية عندما قررت شن حرب على مصر قررت إرسال مدير جهاز الموساد آنذاك «مائير آميت» إلى الولايات المتحدة فى مهمة سرية تتلخص فى التعرف على الموقف الأمريكى لو أن إسرائيل لجأت إلى الخيار العسكرى .

ويقول شلايم إن مدير الموساد أخبر «روبرت مكنمارا» وزير الدفاع الأمريكى فى عهد جونسون ، إن إسرائيل تدرس خيار الحرب وطلب ثلاثة ضمانات هى : الدعم الدبلوماسى الأمريكى فى الأمم المتحدة ، والمساندة الأمريكية فى حالة التدخل السوفيتى ، **وأن تسد الولايات المتحدة أي نقص يحدث في الترسانة العسكرية الإسرائيلية** . وأعطى مكنمارا إسرائيل الضوء الأخضر للقيام بعمل عسكرى ضد مصر ، كان الموقف الأمريكى يؤيد إطلاق إسرائيل ضد ناصر .

ويشير شلايم إلى أن العلاقة بين البلدين تطورت تدريجيا أثناء رئاسة نيكسون إلى شراكة استراتيجية .

إن تجربة الولايات المتحدة المريرة فى فيتنام أدت إلى صياغة مايسمى بنظرية نيكسون . وتتلخص هذه النظرية فى أنه يتعين على الولايات المتحدة تفادى أى تدخل مباشر فى العالم الثالث وأن تعتمد بدلا من ذلك على وكلاء لها مثل شاه إيران فى منطقة الخليج وإسرائيل فى الشرق الأوسط ، ووفقا لهذه النظرية أصبحت إسرائيل مسئولة عن أن يكون توازن القوى الاقليمى فى صالح المصالح الأمريكية . كما أصبحت الولايات المتحدة تعتبر إسرائيل « حصنا منيعا للنظام




الإقليمى » ومصدر قوة استراتيجية فى الشرق الأوسط ، وكان مهندس هذه السياسة هو هنرى كيسنجر .

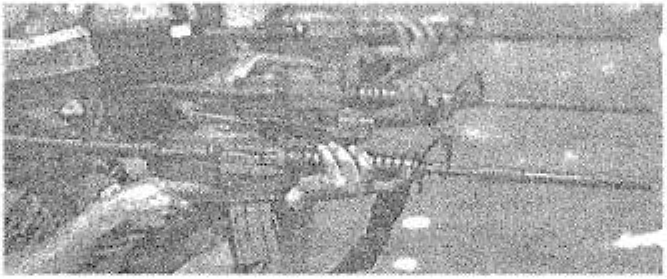
حرب الاستنزاف

وقد أولى شلايم اهتماما خاصا بحرب الاستنزاف موضحا أن فشل الوسائل الدبلوماسية فى دفع إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضى التى احتلتها فى حرب ١٩٦٧ جعل عبد الناصر يرفع شعار « ما أخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة » . وبالرغم من أن المعارك العسكرية بين مصر وإسرائيل لم تتوقف منذ نهاية الحرب وحتى ربيع عام ١٩٦٩ فإن شلايم يعتبر مارس ١٩٦٩ بداية حرب الاستنزاف ، ففى ذلك التاريخ قام الجيش المصرى بعملية هجومية كبيرة تزامنت مع تخلى عبد الناصر عن قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار ، ويشير شلايم إلى أن الهدف المباشر لناصر من تلك الحرب هى الحيلولة دون تحول قناة السويس إلى حدود أمر واقع ، فى حين كان الهدف النهائى هو إجبار إسرائيل على الانسحاب إلى حدود ما قبل الحرب وذلك من خلال إنهاكها عسكريا واقتصاديا ونفسيا ، مما يمهد الطريق لعبور مصرى يلقى بالقوات الإسرائيلية خارج سيناء .

وفى الأسبوع الأخير من ديسمبر اتخذ مجلس الوزراء الإسرائيلى قرارا مصيريا ألا وهو البدء فى قصف العمق المصرى ، وفى ٧ يناير ١٩٧٠ بدأ تنفيذ هذا القرار . ويذكر شلايم أن الأهداف العسكرية لهذه السياسة كانت :

- أولا : تقليل الضغط العسكرى المصرى فى منطقة القناة .
- ثانيا : ردع المصريين من التخطيط لحرب واسعة النطاق .
- ثالثا : وضع نهاية لحرب الاستنزاف وإرغام مصر على الالتزام بوقف إطلاق النار . وكان المستهدف هو إثبات قدرة الجيش الإسرائيلى على المبادرة وإرغام الجيش المصرى على أن يسلك الطريق المحدد له .

وبالإضافة إلى الأهداف العسكرية كان القادة الإسرائيليون يأملون فى تحقيق مجموعة من الأهداف النفسية والسياسية فى مقدمتها « تحطيم الروح المعنوية للمصريين وخلق فجوة ثقة بين ناصر وشعبه وإسقاط نظامه واستبداله بنظام موال للغرب » . ولكن شلايم يعترف أن الأحداث أثبتت أن إرادة المقاومة لدى الشعب المصرى قد تعززت بدلا من أن تنهار ، وأدى القصف الإسرائيلى للعمق المصرى إلى وقوف الشعب وراء ناصر فى ارتفاع مفاجىء للتضامن القومى . كما أسهمت أسلحة الدفاع الجوى المتطورة التى قدمها السوفييت لمصر فى تقليص التفوق الجوى الإسرائيلى ، مما اضطر إسرائيل إلى تخفيض هجومها الجوى حتى توقف تماما قصف العمق المصرى فى منتصف أبريل بعد أن تزايد سقوط





الطائرات الإسرائيلية والجنود الإسرائيليين فى تلك الفترة بمعدل مخيف.

واستمرت حرب الاستنزاف عبر قناة السويس بعد توقف قصف العمق المصرى، ويشهد شلايم أن هذه الحرب التى يصفها بأنها الحرب الأطول فى تاريخ إسرائيل قد كلفتها ثمنا اقتصاديا باهظا وخسائر جسيمة فى الأرواح .

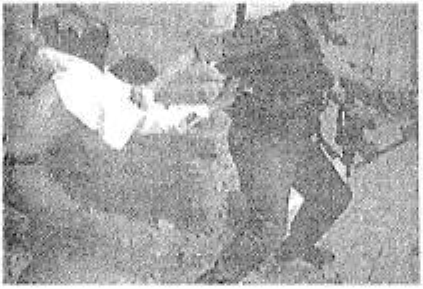
وقد دفع خطر التصعيد وزير خارجية الولايات المتحدة إلى طرح مبادرته الثانية التى كانت تدعو إلى وقف إطلاق النار على الجبهة المصرية لمدة ثلاثة شهور ، لكن جولدا مائير رفضت المبادرة الأمريكية مما اضطر نيكسون فى ٢٤ يوليو إلى أن يبعث إلى مائير رسالة يتعهد فيها بأن تضمن الولايات المتحدة ألا تتعرض إسرائيل لأى ضغوط من بلاده لكى تقبل حلا لمشكلة اللاجئين قد يضر بالطابع اليهودى للدولة ويعرض أمنها للخطر ، وأن يتم الاتفاق على الحدود النهائية من خلال التفاوض بين الأطراف المعنية ، وعدم انسحاب جندى إسرائيلي واحد من خطوط وقف إطلاق النار قبل التوصل إلى اتفاقية سلام مرضية لإسرائيل . ويصف شلايم هذه الرسالة بأنها « وعد بلفور ثان» . ويقول إن ما احتوت عليه الرسالة من ضمانات وتعهدات جعل جولدا مائير توافق على مبادرة روجرز .

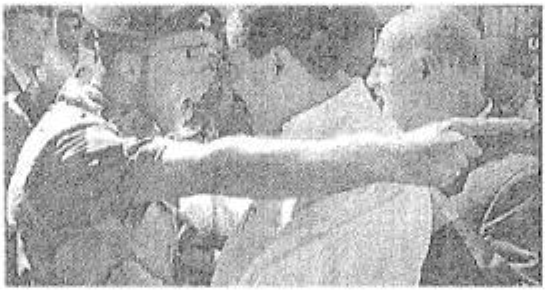
ويضيف شلايم أن التقييم غير المنحاز لمواقف ومواقع الجانبين قبل وبعد حرب الاستنزاف قاد أبا إيبان إلى القول بأن الميزان النفسي والدولى قد تغير لصالح مصر .

أما عيزرا وايزمان الذى يهتم بالميزان العسكرى فإنه يعتبر أن حرب الاستنزاف انتهت وقد فقدت إسرائيل تفوقها الجوى السابق بعد أن أصبح نظام الصواريخ المصرى على حافة القناة . ويوضح وايزمان أن هذه النتيجة منحت المصريين على امتداد السنوات الثلاث التالية الحرية اللازمة للإعداد لحرب أكتوبر ١٩٧٣ .

أما بالنسبة لمعركة السلام فقد أوضح شلايم أن الفلسطينيين اختاروا السلام ، وأن الكرة الآن فى ملعب إسرائيل بلا جدال ، وقال : « على إسرائيل أن تختار ، أن تحتفظ بالأرض أو أن تحقق السلام ولكن لايمكنها أن تحتفظ بالاثنين معا » .

ويختتم شلايم كتاب « الجدار الحديدى » مؤكدا أنه « لايمكن إنكار أن إقامة دولة إسرائيل تضمن ظلما شديدا للفلسطينيين ، وأنه بعد مرور نصف قرن لازال على إسرائيل أن تقيم الآثام التى اقترفتها ضد الفلسطينيين.والاعتراف بأنها تدين لهم بدين يتعين دفعه » .





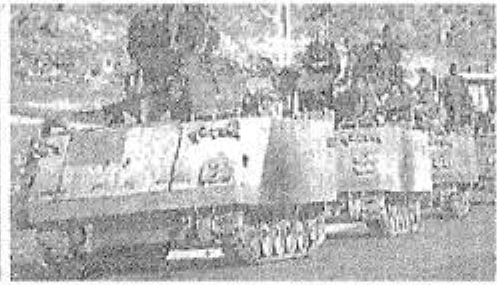


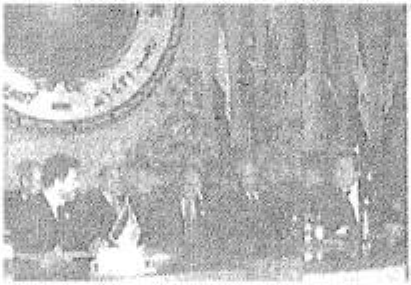
على هامش انتفاضة الأقصى:

.. وجاء الخزر إلى بلادنا بالخراب!

بقلم: عبد الرحمن شاكر

كنت أدير مفاتيح «الصحن اللاقط» ذات مساء متتبعا لأخبار انتفاضة الأقصي. والصحن اللاقط هو التعبير الذي اختاره الأستاذ فهمي هويدي علي صفحات الأهرام تعريبا لكلمة «الدش» وهو اجتهاد منه مشكور، وإن كنت لا أري بأسا في استخدام كلمة «الدش» علي حالها، فهي موجزة خفيفة علي السمع، وأسلافنا العرب لم يكونوا يستنكفون في استدخال كلمات أعجمية الأصل إلي لغتنا مثل كلمات «البهار» و«الجوز» و«الديباج» وغيرها، مما يضمه كتاب «المعرب من الكلام الأعجمي علي حروف المعجم» لأبي منصور الجواليقي «٤٦٥ - ٥٤٠هـ» والذي أشرف علي شرحه وتحقيقه عمي الأكبر المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر، وطبعته دار الكتب المصرية في عام ١٣٦١ هـ.



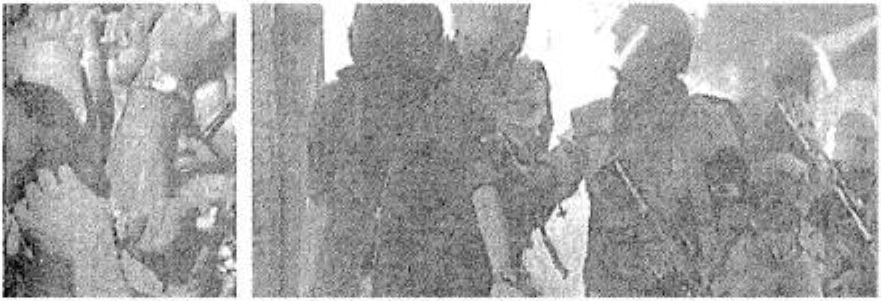


ووقفت بى المفاتيح عند قناة فضائية، إسرائيلية، وكانت تعرض فيلما يدور حول شابين ، فتى وفتاة، التقيا فى طريقهما إلى أستاذ مشهور في العلوم الجنسية، توجها إليه معا ليغترفا من علمه الغزير !

وعادت بى الذاكرة الى تمثال صغير الحجم رأيته منذ سنوات فى متحف بمدينة «ليدن» الهولندية، ويصور رجلا له قضيب ضخم منتشر، ويحمل هذا القضيب من جانبيه أفراد عدة كما تحمل الهوادج أو النعوش، وقلت ربما يكون هذا التمثال تعبيرا عن عبادة «فالوس» أو عضو التذكير، والتى تماثل عبادة «لانج» فى الهند ومازالت موجودة بها حتى الآن، وكان من أتباعها واحد من رؤساء الجمهورية الذين تعاقبوا على حكمها منذ استقلالها فى عام ١٩٤٨.

وتذكرت أنه كان من أتباع عقيدة «فالوس» هذه قبائل الخزر الذين كانوا يسكنون القوقاز، فى المنطقة مابين بحر قزوين، والبحر الأسود، وكانت الأطالس الجغرافية القديمة تطلق على أحد هذين البحرين اسم بحر الخزر، ومايزال الايرانيون يطلقون هذا الاسم على بحر قزوين الذى تقع بلادهم عليه.

كانت لهؤلاء الخزر عاصمة تقع على بحر قزوين تسمى «إتل» يصب عندها نهر إتل الذى يعرف باسم الفولجا حاليا، وكانت مدينة تجارية يقصدها التجار من سائر الأنحاء، وكانت من التجارات الرائجة بها تجارة الرقيق، حيث كان الخزر يبيعون فى سوقها بعض أبنائهم وبناتهم! بعض هؤلاء التجار كانوا من الشرق الإسلامى، وآخرون منهم كانوا من الغرب المسيحى، وشرع بعض الخزر فى اعتناق المسيحية أو الإسلام تأثرا بمن يفد عليهم من التجار، وتفشى هذا الوضع حتى اضطر «خاقان» الخزر أو ملكهم إلى تعيين نائبين له، أحدهما مسلم والآخر مسيحى، وخشى الخاقان «بولان» أن يتمزق ملكه إذا استمر هذا الوضع بانقسام الولاء فى شعبه إما إلى الدولة العباسية فى الشرق أو الجنوب من بلاده، أو إلى دولة بيزنطة المسيحية فى الغرب منها. وقرر أن يعطى شعبه ديانة سماوية محترمة، مثل الإسلام والمسيحية، ومستقلة عنهما فى الوقت ذاته، فقرر اعتناق اليهودية، ثم جاء من بعده خاقان آخر



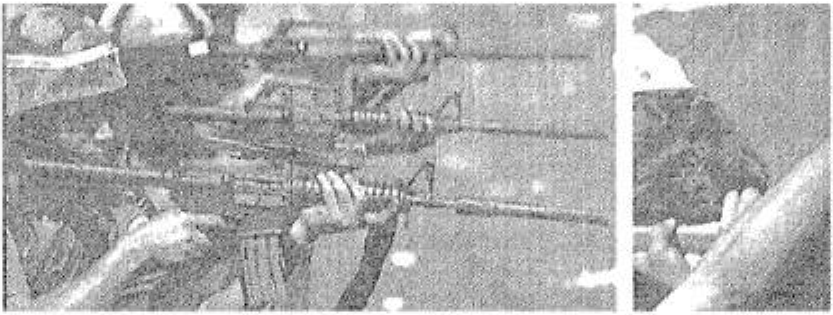
تسمى باسم عبرانى، وهو «عبديه» وقرر ألا يتولى ملك الخزر إلا من يعتنق اليهودية، فتهود البلاط الملكى كله، ثم تبعه معظم شعب الخزر، لأن الناس على دين ملوكهم، كما كان يقال قديما.

أرض اشكناز

شرع هؤلاء الناس ينسون أصولهم أو يتناسونها شيئا فشيئا، من خلال اعتناقهم اليهودية، وتلاوتهم للتوراة، التى تدور أسفارها حول نشأة بنى إسرائيل، ومجيئهم إلى مصر فى عهد يوسف عليه السلام، ثم استعبادهم فى مصر بعد أن تكاثروا فيها، حتى جاء موسى عليه السلام فأخرجهم منها وقادهم إلى فلسطين، حيث قامت لهم مملكة هناك كان من أشهر ملوكها داوود وسليمان عليهما السلام. ثم بادت هذه المملكة بالغزو الفارسى، الذى ساق كل اليهود إلى بابل، وبعد فترة أطلقوا من أسرهم ليعودوا إلى فلسطين حيث لم يلبثوا أن جاء الرومان ليقضوا على ملكهم من جديد.

ظل ملك الخزر قائما كدولة يهودية كبرى فى القوقاز وتوسع ملكهم حتى وصل الى نهر الراين فى ألمانيا، وأطلق عليهم اليهود السفارديم، الذين كانوا يعيشون مع العرب المسلمين فى الأندلس اسم اليهود الأشكنازيم، نسبة إلى أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح، حيث فى اعتقادهم أن هذه السلالة قد سكنت القوقاز التى يسمونها فى كتبهم «أرض أشكناز» .

وكانت هناك «خاقانية» أو ولاية تتبع ملك الخزر فى مدينة كييف ، عاصمة جمهورية أوكرانيا حاليا، وحضر إليها أمراء من فرغانة فى آسيا الوسطى، وشرعوا يجمعون حولهم قبائل «الرس» السلافية، أو الصقلبية، ثم اعتنق الأمراء المسيحية الأرثوذكسية وحملوا أتباعهم من الروس عليها، وتحالفوا مع بيزنطة فى القضاء على ملك الخزر، وأطلقوا اسم روسيا على تلك المناطق الشاسعة، ونجح أمير موسكو فى القضاء على دولة «القبيل الذهبى» التترية المسلمة فى قازان، عاصمة جمهورية تتارستان التى هى إحدى الجمهوريات ذات الحكم الذاتى فى الاتحاد الروسى حاليا، وتقع عند حوض الفولجا الأوسط. وأعلن أمير موسكو نفسه «قيصرا» وهو من عرفه التاريخ باسم



إيفان الرهيب . وأصبحت روسيا «المقدسة» هي حامية الأرثوذكسية بعد سقوط بيزنطة في يد العثمانيين، واضطهد القياصرة الروس أتباعهم من الخزر اليهود، لأنهم بدورهم قد نسوا أن هؤلاء لا ذنب لهم فيما نسب إلى اليهود الأصليين في فلسطين من كونهم أسلموا المسيح عليه السلام للرومان لكي يصلبوه. كانوا يقولون لأتباعهم الهمج «اقتلوا اليهود أعداء الرب»! فيزداد يهود الخزر تشبثا بديانتهم ويداخلهم الاعتقاد بأنهم حقا من بني إسرائيل، من الشعب المختار المضطهد. أحدهم زعم لي أنهم من بني إسرائيل لأن داوود عليه السلام قد زنى بجارية خزرية ولدت كل شعب الخزر! وهذا كلام لا أصل له، فبين عهد داوود ، وتعرف الخزر الى اليهودية ألوف السنين!.

هجرة اليهود إلي فلسطين

سلالة هؤلاء الخزر هم الذين شكلوا الحركة الصهيونية التي تنادت بالهجرة إلى فلسطين بعد أن اشتد اضطهاد القياصرة الروس لهم خلال القرن التاسع عشر، وهم يمثلون تسعة أعشار يهود العالم، وقد استغلت الدوائر الاستعمارية في الغرب محنتهم في بلادهم للسيطرة على بلاد العرب والمسلمين، وخاصة بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية ووقوع معظم الأقطار العربية في قبضة الاحتلال الأوربي البريطاني والفرنسي والإيطالي والأسباني، وكانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، التي سهلت هجرة اليهود الاشكناز إلى فلسطين وسلحتهم ودربتهم تمهيدا لإعلان الدولة اليهودية في فلسطين في عام ١٩٤٨.

الخزر الأشكناز اغتصبوا اسم إسرائيل الذي يقدسه اليهود والمسيحيون والمسلمون وجعلوه علما على دولتهم، وجروا وراءهم اليهود الشرقيين من البلدان العربية، بدعوى أنهم كلهم من بني إسرائيل، والحقيقة أن بني إسرائيل قد بادوا من قديم، حتى اليهود العرب معظمهم من قبائل عربية اعتنقت اليهودية ومنهم يهود اليمن المزراحيون، الذين أجبروا على الدخول في تلك الديانة على أيدي أصحاب الأخدود الوارد ذكرهم في القرآن الكريم!.

واليوم يريدون اغتصاب المسجد




الأقصى، يطلقون على موقعه المقدس اسم «جبل الهيكل» تردد ذلك مع مفاوضهم وزيرة الخارجية الأمريكية أولبرايت! يذودون المسلمين عن الصلاة فيه، حتى فى يوم الجمعة كما حدث بتاريخ ١٣ من شهر أكتوبر المنصرم، حيث أغلقوا أبواب القدس ليعزلوها عن سائر الضفة الغربية المحتلة، ولايسمحون بدخول المسجد إلا لمن جاوز عمره الخامسة والأربعين بحيث تناقص عدد المصلين فى تلك «الجمعة الحزينة» إلى ألفين فقط بعد أن كان يؤمه مئات الألوف من المسلمين !.

الله وحده يعلم ماذا يدبرون هناك، ولكن حتى ولو هدموا كل الأبنية القائمة، مثل قبة الصخرة والمسجدين الآخرين هناك، وأقاموا مايسمونه هيكل سليمان، فسوف يبقى أو تبقى تلك البقعة من الأرض المقدسة هى «المسجد الأقصى» عند المسلمين الذين قال نبيهم إن الأرض قد جعلت لى مسجدا !.

من أكاذيبهم خلال الانتفاضة الحالية، التى يدافع فيها الفلسطينيون بأرواحهم عن المسجد الأقصى، أن بعض الشبان فى مدينة رام الله قد هدموا قبر النبى يوسف عليه السلام! ومن المعروف أن يوسف النبى هو الذى جاء ببنى إسرائيل إلى مصر ولبثوا فيها وتكاثروا حتى أصبحوا شعبا كاملا قاده موسى إلى فلسطين، ومعنى ذلك أن يوسف قد مات قبل ذلك بمئات السنين، وغير معقول أن يكون بنو إسرائيل قد حملوا رفاته معهم وهم من لبثوا فى التيه أربعين سنة قبل الدخول إلى فلسطين . والقبر القائم فى رام الله هو لشيخ مسلم فى العهد العثمانى كان اسمه يوسف ! ومع ذلك فقد قام العمال الفلسطينيون بإعادة بناء الضريح، وأعادوه أحسن وأجمل مما كان، فى الوقت الذى ينطلق فيه الهمج من الأدعياء الخزر فى هدم المساجد وإحراقها فى كل فلسطين، فى يافا وعكا وحيفا وسواها من الأرض المحتلة من قديم، من عام ١٩٤٨، وقبلها أو بعدها، ولماذا لايفعلون وهم من تساندهم وتسلحهم دولة همجية كبرى اسمها الولايات المتحدة الأمريكية !.

أقوال معاصرة


الملك محمد الخامس


نادين جورديمر

● «زمن اعتداد الدول بنفسها ، والقول بأنها هي المسئولة عن مصيرها قد ولى».

الملك محمد الخامس

● «البشر أسوأ من الحيوان، لأنهم يدركون مايفعلون من شر».

المخرج الاسبانى كارلوس ساورا

● «يمكن للمرأة العربية أن تتحرر دون خلع ملابسها ، والمرأة الغربية أن تخلع ملابسها وتظل مقهورة».

الكاتب د. جلال أمين

● «الاذعان بانبطاح لسياسة شرق أوسطية يتحكم فيها الصهاينة لن يحقق الاستقرار».

د. ادوارد سعيد

● «جريمتى الوحيدة هى إننى تزوجت أول رئيسة وزراء فى الاسلام».

زردارى زوج بنظير بوتو
رئيسة وزراء باكستان الاسبق

● «التكنولوجيا الجديدة والتشريعات المصاحبة لها قد تؤذن بنهاية الكتابة اليدوية، ومعها الامضاء».

المفكر الانجليزى جيمس ميك

● «نسير إلى المستقبل وكأنه لا ماضٍ لنا، ونقفز فوق المتغيرات هرباً من أخطائنا».

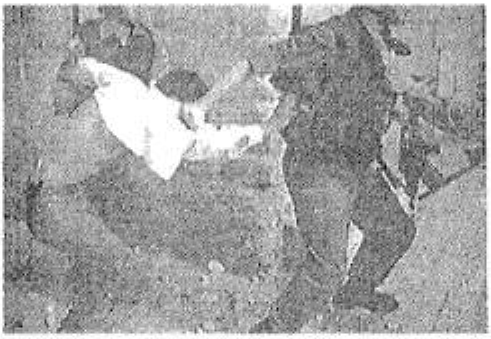
المخرج السورى محمد ملص

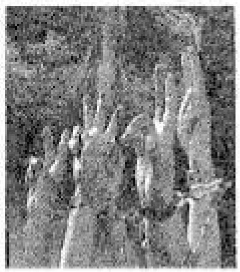
● «إذا كان لى أن أقدم النصح، فاننى أوصى بألا يعيش المرء أكثر من مائة عام».

الصحفى البرازيلى باربوز اليما
مات قبل أسابيع عن عمر ناهز المائة وثلاثة أعوام

● «الرؤية الابداعية بحر لاينضب، لا أول له، ولا آخر، بالنسبة إلى أولئك الذين يعرفون كيف يسبحون على أمواجه الغامضة» .

الأديبة نادين جورديمر
الفائزة بجائزة نوبل ١٩٩١

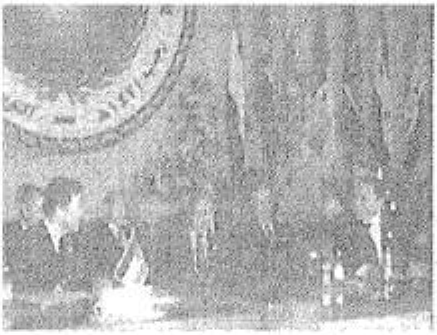
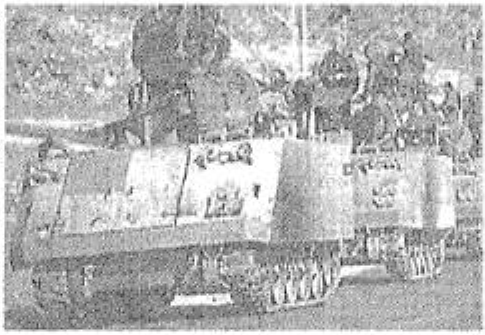




موسوعة اليهود والصهيونية

بقلم : د.أحمد ثابت

لاتكفى صفحات قليلة لتقدير الجهد الدءوب والمثابر والإبداعى الذى بذله الدكتور عبدالوهاب المسيرى عبر مايقترب من ثلاثين عاما أنفقها من عمره ومن عصارة فكره ووجدانه حتى يخرج لنا، ولمكتبتنا العربية هذا العمل الموسوعى الإبداعى والفكرى الضافى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ولاتتمكن الكلمات مهما بلغت بلاغتها وثراؤها أن تفى الرجل وفريق بحثه المكون من كوكبة مبدعة من شباب باحثى الأمة العربية، فقط يمكن أن نرد له بعض التقدير .

إذا قلنا إنه نجح فيما لم تتمكن مراكز البحوث العامة والخاصة عندنا، على كثرتها وعلى ضخامة امكانياتها المالية والبشرية واللوجستية من إنجازه، فقد قام بالفكر والتحليل والتمحيص بكتابة هذه الموسوعة الضخمة المكونة من سبعة مجلدات تناولت مختلف قضايا واشكاليات الظواهر اليهودية والصهيونية، ومجلد ثامن يتضمن من الفهارس والمفاتيح كل ما يشمل موضوعات الموسوعة، وقد نستطيع أيضا أن نبرز العرفان لأهله إذا ما قلنا إن عبدالوهاب المسيرى كرس نفسه كمركز معلومات وكقاعدة للفكر وللمنهج، وإذا كان سهلا أن نطلق عليه أنه موسوعة متنقلة لكن الأكثر فعالية هو أن نقول إن المسيرى كان ولايزال، بفريق بحث أعطاه الخبرة وصقل المعرفة، مركز بل أهم مركز بحوث مصرى وعربى، وقد نكمل أجزاء التقدير لنقول إن المسيرى المتخصص فى الشئون الصهيونية واليهودية دحض مقولة ضعيفة لكن لها أصحابها من أنصار التطبيع والحوار مع العدو الصهيونى، وما يسمى بثقافة السلام ومؤداها أن معرفة إسرائيل من الداخل لن تتم إلا بزيارة إسرائيل أو بالحوار مع الإسرائيليين، فقد أبدع عبدالوهاب المسيرى فى الموسوعة بالقدر الخلاق الذى ينفى صحة هذه المقولة بل ويثبت مرارا أن الكتاب والمؤرخين الإسرائيليين عجزوا عن الرد على ما ورد فى الموسوعة .

رؤية ذات قدرة تفسيرية

ومن جانب آخر فإن عبدالوهاب المسيرى لم يقدم لنا المعلومات والوقائع والتواريخ فقط فهى موجودة بصورة أو بأخرى، ولكنه وهذا مايُحسب له يقدم رؤية منهجية صلبة مفتوحة وذات قدرة تفسيرية خلاقة للظواهر اليهودية والصهيونية وعلاقتها بالتشكيل الاستعمارى والإمبريالى الغربى فى تجلياته الحديثة مع انطلاق الرأسمالية الأوروبية بمشروعها للهيمنة على المعمورة، وتبدو روح الاستنارة والتنوير واضحة فى فكر عبدالوهاب المسيرى وفى اقترابه المنهجى والنظرى والتحليلى من المشروع الصهيونى ومن

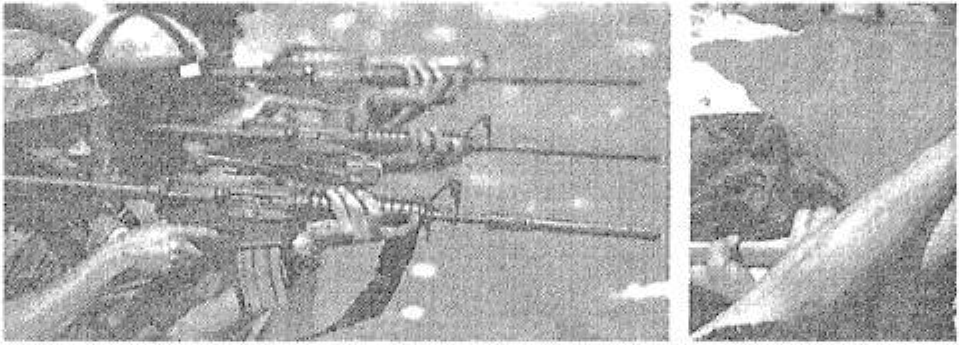


الجماعات اليهودية فى تفصيلاتها وتفاعلاتها مع المجتمعات البشرية التى عاشوا فيها عبر أزمنة التاريخ وعصوره».

ومثلما ينطلق فكرنا وفقهنا العربى الإسلامى فى تجلياته الإبداعية النقدية والمتنورة من قاعدة أثيرة ورصينة هى «ضرورة تحرير المسائل» منذ البداية، فإن أكثر ابداعات عبدالوهاب المسيرى قدرة على التفسير والتحليل هى الدأب على تحرير أو بالأحرى تفكيك المقولات والفروض الصهيونية والقائمة على المزاعم والأساطير وإخضاعها للمساءلة التاريخية والنقدية ووضعها فى إطارها الذى ينبغى أن تحكمه قوانين وفلسفة التاريخ والتطور الاجتماعى كى يخرج بها من «الأقانيم المقدسة» و«الجيتوات المنكفئة على الذات» و «السرمدية المنغلقة المغلقة» إلى فضاء التحليل النقدى حتى ينطبق على هذه المزاعم والأساطير ما ينطبق على وقائع وتحولات التاريخ وحتى لايعود «اليهود» يمثلون «شيئا مقدسا» يسمو على التاريخ ويخرج عنه ويخترع له «تاريخا خاصاً».

عاطفة فاسدة للمشروع الصهيونى

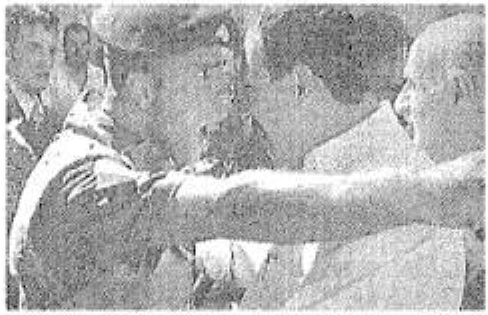
وينقلنا عبدالوهاب المسيرى فى الواقع نقلة منهجية صعبة وشاقة على الأذهان العربية التى تعودت على البساطة والتبسيط والدعة والاطمئنان لكى نمتلك رؤية منهاجية تحررنا من حالة الضعف والاستكانة التى يصورها العديد من مؤسسات الحكم والثقافة والصحافة، ومن بعض التيارات السلفية الدينية التى تروج لقولة أن «اليهود» ملعونون ومصيرهم الذوبان مثلاً أو أنهم يسيطرون على آلة المال والإعلام والسلاح والمصارف الضخمة فى العالم الغربى وعلى رأسه الولايات المتحدة، ومن ثم فلا طائل لنا من وراء المواجهة معهم!. ولأن المشروع الصهيونى يتأسس على العاطفة الفاسدة الكاذبة فمن مصلحته أن يكون العداء له عاطفيا ودينيا حتى يتهمنا بالعنصرية ومعاداة السامية، فى حين أن امتلاك رؤية معرفية جدلية للمشروع الصهيونى تضعه

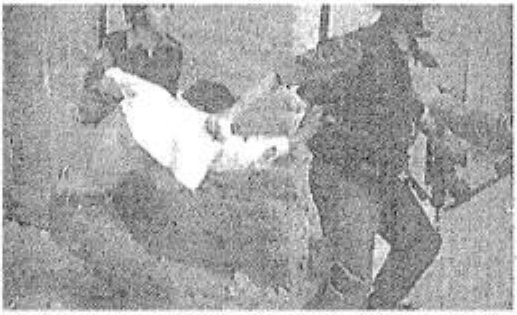


فى إطاره التاريخى كجزء من التشكيل الاستعمارى الإمبريالى الغربى بوجهه الممعن فى المادية والعنصرية والتمركز حول الذات، تمكننا من امتلاك قدرة تفسيرية عالية للكيان الصهيونى بأنه كيان استيطانى إحلالى واستعلائى ينفى تماما الآخر الذى هو العربى ليقوم على أنقاضه .

ويقدر ما أبدع رواد مدرسة فرانكفورت الألمانية فى ثلاثينات القرن العشرين وحيث توج «هابرماس» الجهود الفكرية لهذه المدرسة، وأبدعت البنيوية والحداثة النقدية فى كشف الوجه الآخر للرأسمالية والفلسفة النفعية الوضعية خلال تحليل البنية والفعل الاجتماعى والفاعلين الاجتماعيين، فإن عبدالوهاب المسيرى اتبع منطلقات منهجية منشئة وكاشفة فى الوقت نفسه، فهى منشئة أو مؤسسة لعقلية نقدية تنتهى إلى أن المشروع الصهيونى سيظل أداة التشكيل الإمبريالى الغربى ولاسبيل إلى القضاء عليه سوى إما بأن ينفى هذا المشروع نفسه وهذا مستحيل بالطبع أو بأن تكون المواجهة صراعا ممتدا صراع وجود لا حدود ، وهى منطلقات منهاجية كاشفة لعدة أساطير روجها الرواد الصهاينة وقادة الكيان الصهيونى وللأسف عششت فى أذهان الكثيرين منا من قبيل إما التهوين المبالغ فيه للظاهرة الصهيونية أو التهويل المبالغ فيه، أو بالاقتصار فى مسار الصراع الطويل على إسرائيل فقط سواء كانت ١٩٤٨ أو ١٩٦٧، مع عدم القدرة على تحليل مايحدث من ظواهر وحوادث يومية مرتبطة بالصهيونية وبإسرائيل وكأنها لاتهمنا فى شىء مع أنها تدخل فى عمق صراعنا مع إسرائيل، مثل قضايا التعويضات السويسرية والألمانية والمحرقة أو الهولوكست أو الإبادة.

وهى كاشفة أيضا من زاوية إبراز ما وصلت إليه حال حكام عرب ومثقفين وكتاب يناصرونهم من ترداد مقولات صهيونية خالصة من قبيل أن الفلسطينيين هم الذين باعوا أرضهم للعصابات الصهيونية قبل ١٩٤٨، أو «عملية السلام» أو «اجراءات

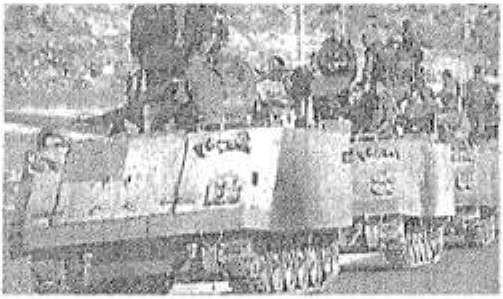


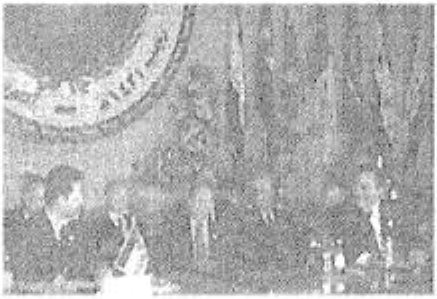


بناء الثـقـة» أو «الأمن المطلق» الذى تحتاجه إسرائيل لكى «تغامر» بالدخول فى السلام ومعركته، أو «التطبيع» أو «ثقافة السلام».

ووصلت الحالة إلى قمة المأساة عندما حدثنى صديق فاضل يعمل أستاذا للغة العبرية بجامعة عين شمس عن أن إحدى طالباته ذكرت له أن مضمون ما درسته طوال السنوات الأربع فى كلية الألسن قسم اللغة العبرية أوصلها إلى الاعتقاد بأن اليهود تاريخهم متواصل متصل فى فلسطين وأن «نضال اليهود» فى التاريخ لم ينقطع حول فلسطين أو فيها!!. وشرح لى الصديق الفاضل مايحدث وهو أن معظم الأساتذة يقومون بتدريس أو ترجمة كتابات لمفكرين صهاينة حول فلسطين تاريخا وأرضا وشعبا دون أن يكلفوا أنفسهم عبء كتابة تعليق أو دراسة متعمقة نقدية لهذه الكتابات الصهيونية أو اليهودية المتعاطفة مع المشروع الصهيونى .

فى المجلد الأول الذى يتضمن المدخل المنهاجى النظرى ينطلق المسيرى من ثلاث ركائز نظرية قوية لتقديم رؤيته التفسيرية ولإثبات قدرتها على الإحاطة بالظواهر الصهيونية واليهودية: العلمنة الشاملة، الحلولية الكمونية، الجماعة الوظيفية. تشير العلمنة الشاملة إلى تبنى تصور للإنسان المادى الباحث عن المنفعة بالمنطق الدارويني وحيث تتحكم المؤسسة القوية فى الإنسان حتى تحوله إلى أداة وتغرقه فى «التشيؤ» ويتحول الإنسان إلى أداة مستهلكة ومنتجة وقدرة شرائية، ولا يجوز له التفكير فى فضاء رحب بل لا يجوز له أن يتعدى حدودا معينة ينبغى أن يفكر فيها وفيها فقط كما يقول شومسكى وهابرماس وماركيوزه، وحيث تُقاس قدرة المجتمع المهيمن على أفراده بكيفية توظيف الطاقة البشرية بأقل التكاليف لتحقيق أعلى عائد، والمشروع الصهيونى والحركة الصهيونية قاما على أساس تحويل اليهودية فى شرق أوروبا بالذات إلى مادة نافعة للترانسفير أى نقلها إلى





الوطن المزعوم الموعود فى فلسطين. بل إن المشروع الصهيونى بخلفيته الفكرية والأيديولوجية استفاد من العلمنة الغربية المادية بنموذجها النفعى الذرائعي حينما حول الإنسان المتكامل المركب إلى إنسان طبيعى وظيفى اقتصادى على غرار النموذج السنغافورى.

اختزال الإنسان فى لحظة تشيؤ

أما مصطلح «الحلولية الكمونية» فإنه يشير إلى أنه بعد أن اختزل الإنسان فى لحظة تشيؤ كامل وواحدية مادية، فإنه من الضرورى لنجاح الفكرة الصهيونية أن تحل إرادة صهيون أو « الشعب اليهودى» أو الرواد كل «مشيئة الرب» وأن يعترف«الرب» بهزيمته أمام المصارع يعقوب أو يوشع بن نون ويعطى بنى صهيون فلسطين تكفيراً عن «خطيئته» فى حق بنى إسرائيل، وأن تنقل القداسة من الرب إلى الشعب اليهودى وجيشه الذى هو جيش الدفاع «تسهال»، وإذن فإن الميتافيزيقا الخاصة بالرب وبالتوراة والتلمود لابد من اضفاء الطابع الصهيونى عليها بحيث تصير ميتافيزيقا خاصة وبنضال متواصل للشعب اليهودى فى رحلته الدراميه والمأساوية من«التيه» إلى «الاستقرار» على أرض فلسطين. ويصير« اليهودى الجيد» هو اليهودى المهاجر إلى فلسطين والمؤمن بأنه مقدس اكتسب قداسته من ايمانه بالمشروع الصهيونى فى فلسطين، وحيث إن من يؤمن من اليهود بأن الخلاص ليس فى فلسطين فهو معاد للفكرة الصهيونية ومعاد لتجسد وحلول إرادة شعب إسرائيل كل «إرادة ومشيئة الرب»! فقد صار الصهيونى المهاجر الرائد هو مركز الكون لا الرب عند الرواد الصهاينة وتلامذتهم الإسرائيليين!

وفيما يتعلق بمفهوم «الجماعة الوظيفية» الذى ستخدمه المسيرى لتفسير الوجود«اليهودى» فى المجتمعات والحضارات المختلفة ليصل إلى أن الإدراك الأكثر فعالية ودقة هو أن هناك «جماعات يهودية» مختلفة وليس يهوداً عاشت فى المجتمعات والحضارات البشرية عبر



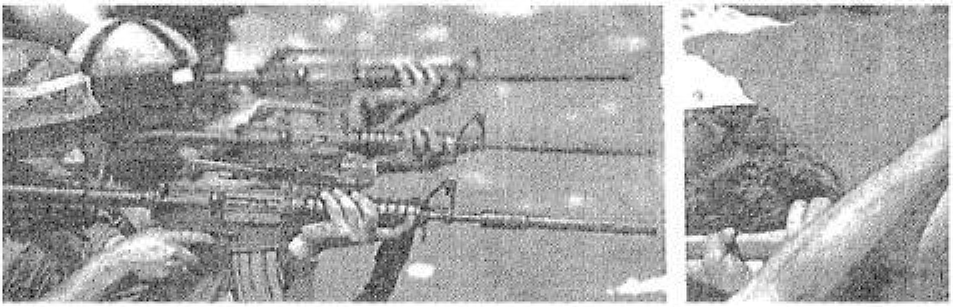


العصور بمنطق وبأسلوب أداء مهمة «الجماعة الوظيفية»، التى هى مجموعات بشرية تستجلبها المجتمعات من خارجها، فى غالب الأحيان، أو تجندها من بين أعضاء المجتمع أنفسهم من بين الأقليات الدينية أو الاثنية، ثم يوكل لأعضاء هذه المجموعات وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع القيام بها لأسباب مختلفة من بينها رغبة المجتمع فى الحفاظ على تراحمه وقداسته، ولذا يوكل لأعضاء الجماعة الوظيفية بعض الوظائف المشينة(الربا- البغاء) أو المتميزة(القضاء - الترجمة - الطب) التى تتطلب الحياد إزاء المجتمع والصفة التعاقدية المرهونة بشروط معينة لأداء العمل. وقد يوكل لأعضاء الجماعة الوظيفية أيضا الذهاب إلى أماكن نائية للاستيطان فيها، كما قد توكل إليهم الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الأمنى(حرس الملك، طبيبه، السفراء، الجواسيس) الى جانب القيام بالوظائف الأمنية .

الأمر هنا يتعلق بكيفية تفسير وجود الجماعات اليهودية فى مختلف التجمعات والحضارات البشرية، ففى بولندا فى القرن الثالث عشر استعانت الطبقة الاقطاعية الحاكمة بالجماعة اليهودية لديها ومن المقاطعات الجرمانية لزراعة أراضيها الواسعة فى أوكرانيا التى احتلتها بولندا آنذاك، ولقمع الفلاحين وجباية الضرائب منهم لحساب الطبقة الاقطاعية الحاكمة، والجماعات اليهودية فى البلاد العربية والإسلامية اشتغلت بحرف صناعة الذهب والحلى والاقراض بالفوائد الباهظة وكان منهم الأطباء، وهذا المفهوم تتبع قدرته التفسيرية العالية من كونه يصلح للانطباق على جماعات بشرية من الأقلية مستجلبة من الخارج أو عاشت فى المجتمع غير الجماعات اليهودية، مثل الانكشارية والمماليك فى الامبراطورية العثمانية، والأرمن واليونانيين فى بلاد عربية وإسلامية وفى روسيا القيصرية.

سمات الجماعة الوظيفية

ومن أهم سمات الجماعة الوظيفة كما يذكر المسيرى: التعاقدية العزلة والغربة



والعجز، الانفصال عن المكان والزمان والهوية الوهمية، الحركية أو القدرة على النشاط، ازدواجية المعايير والنسبية الأخلاقية.

وفي كثير من الاحيان ترفض الجماعة الوظيفية الاندماج الشامل في المجتمع حتى لا تفقد وظائفها التي تميزها أو حتى تشينها، كما ترفض أن تظهر بمظهر المنتمي الى روح وهوية المجتمع، بل تحرص على التميز وعلى إبراز أنها مصدر نفع وحسب بالنسبة لمجتمع الأغلبية، وتفضل، فوق ذلك، أن تعيش على هامش فعاليات وديناميات المجتمع وتبدو أنها قوة من خارجه، قد يكون «الجيتو» أو «حارة اليهود» أبرز تعبير عن وضعية الجماعات اليهودية، ومع طغيان موجات الحداثة والتحديث والاندماج في إطار بوتقة صهر للجميع في أوربا الغربية اختفت إلى حد كبير سمات الجماعة الوظيفية للجماعات اليهودية وقبلت بالعصرنة والعلمنة وان كان توازى مع ذلك نشوء الحركة الصهيونية بقوة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فلم تجد من هم على استعداد للإيمان بالفكرة الصهيونية والمشروع الصهيوني بإنشاء وطن قومي في فلسطين إلا في مجتمعات شرق أوربا وروسيا القيصرية من يهود الاشكناز، حيث إن هذه المجتمعات لم تصب من التحديث والحداثة الكثير وظلت أبنيتها الاجتماعية والسياسية وهياكلها الاقتصادية وأنساقها الثقافية في المرحلة ما قبل الرأسمالية . ومن هنا كان الأمر سهلاً على منظمات الحركة الصهيونية أن تستجلب أعضاء الجماعات اليهودية من شرق أوربا وروسيا القصيرية لتهجيرها ترغيباً أو ترهيباً إلى فلسطين، لانشاء الوطن الموعود في أرض الميعاد المزعومة وحسب المقولة الصهيونية الشهيرة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» أو شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب! وقد تمكنت قيادة الحركة الصهيونية أنذاك: هرتزل، موسى هيس، نوردو، زانجفيل من اقناع قادة الاستعمار الغربي: بالمرستون جلادستون، نابليون، وصولاً إلى هتلر وقبله بلفور، بأن وجود كيان صهيوني في

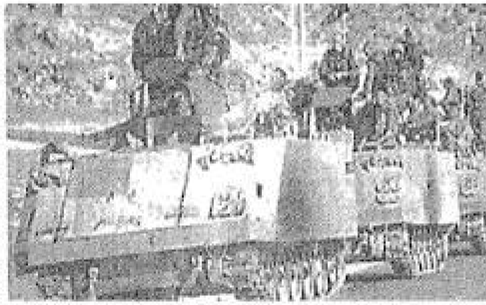
 

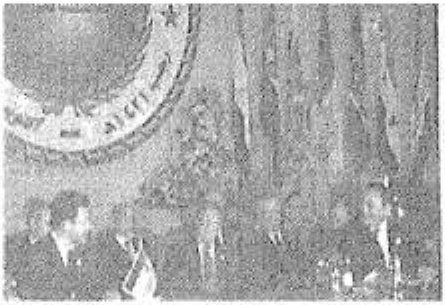
فلسطين العربية يمكن أن يتحول إلى «دولة وظيفية»، من الرصيد البشرى اليهودى فى شرق أوربا وروسيا من خلال عملية ترانسفير واستيطان وقمع وإبادة للشعب الأصلى. ولعبت قيادة الحركة الصهيونية على وجدان التاريخ المفعم بالأساطير والحروب الدينية لدى القادة الإمبريالية الغربيين بالرغم من أن إنشاء «دولة وظيفية»، بدلا من الجماعة الوظيفية، فى فلسطين يسهم فى استعادة المجد الصليبى الغابر أو الإمارات الصليبية إبان حروب الفرنجة ضد العرب والمسلمين !.

زيف الفكر الصهيونى

وفى مواضع أخرى من الموسوعة يكشف عبد الوهاب المسيرى عن زيف مقولات عديدة روجها الفكر الصهيونى ولا يزال ومن أهمها مقولة «الاستمرار اليهودى» و«التاريخ اليهودى» حيث يذهب الصهاينة إلى أن اليهود الآن هم ورثة العبرانيين القدامى وأن حكومة إسرائيل ما هى إلا الكومنولث اليهودى الثالث قبل الخروج من فلسطين عام ٧٠ قبل الميلاد، وأن الدعوة إلى العودة شىء متصل منذ بداية التاريخ اليهودى إلى الآن، من الأنبياء إلى هرتزل. ومما يلفت النظر أن الحركة الصهيونية كرست فى الوجدان الغربى النظر إلى اليهود باعتبارهم تاريخا متصلاً، ورغم أن هذا الوجدان فى غالبيته مادى علمانى فإنه ينظر إلى الجماعات اليهودية من خلال الكتب المقدسة والتأويلات والتحريفات العديدة التى أدخلت عليها، ومؤدى ذلك أن اليهود منذ النفى قابعون داخل تاريخهم المقدس الذى حل فيه الإله، وتستأنف الحلقة بعودة اليهود مرة أخرى إلى فلسطين، وبالتالى فإن الاستيطان الصهيونى تعبير عن نمط متكرر ومستمر ومتوقع، كما أن دخول المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين، وقيامهم بإبادة الشعب الفلسطينى، ليس سوى استمرار وتكرار لدخول العبرانيين إلى أرض كنعان وإبادتهم لأهلها .

وعلى هذا المنوال الأسطورى نجد أن مفهوم الاستمرار اليهودى يعطى الصهيونى حقوقا مطلقة مستمرة لا تنقطع ويسقط الحقوق القائمة للآخرين،





فباسم هذا الاستمرار يدعي الصهاينة لأنفسهم شرعية احتلال فلسطين وطرد أهلها، فالدولة اليهودية، حسب هذا الزعم، هي وريثة الدويلات اليهودية التي قامت منذ آلاف السنين.

وفي المجلد الخاص بإسرائيل تتحدث الموسوعة عن النظام السياسي الإسرائيلي وتفند فكرة أنه نظام ديمقراطي ومن الأدق أن نسميه «نظام سياسي استيطاني» تشكلت خصائصه في بيئة معادية وتحت ضغط متطلبات الاستيطان مثل الأمن وتأمين الهجرة والاستيطان والاستيعاب، ومن أهم خصائص هذا النظام الاستيطاني الازدواجية في علاقة النظام بالسكان حيث الانفصال الداخلي بين العلاقة مع المستوطنين والعلاقة مع الشعب الأصلي الفلسطينيين)، وإذا كانت العنصرية تمارس بشكل غير قانوني في كل المجتمعات البشرية، فالمجتمعات الاستيطانية مثل الكيان الصهيوني تقنن للعنصرية وتجعلها إطاراً مرجعياً، لأن المساواة تهدد وجود النظام الاستيطاني ولذا نجد أن مقولة «يهودي» مقولة قانونية في النظام السياسي والاجتماعي الإسرائيلي، والأرض ملكية خالصة للشعب «اليهودي» وقانون العودة يسمح لـ «اليهود» وحدهم بالعودة، وهذا ما يفسر القرارين اللذين أصدرهما الكنيست الإسرائيلي أخيرا في مايو ٢٠٠٠ بإلزام أية حكومة إسرائيلية بإخراج موضوعي القدس وعودة اللاجئين الفلسطينيين من مفاوضات الوضع النهائي!.

ومن أهم الأمثلة على التناقض الجوهري بين ادعاءات الديمقراطية والممارسات العنصرية الاستيطانية ما يحدث في الكيبوتسات، فلكي ينتمي المواطن الإسرائيلي لأي كيبوتس لابد أن يكون يهوديا لأن الكيبوتسات توجد على أرض مملوكة للدولة اليهودية، ومن أهم سمات هذا النظام السياسي أيضا أنه يتجه ومنذ منتصف السبعينات إلى اليمين المتطرف علمانياً كان أو دينيا أصولياً، أي تسيطر آليات التمييز والعنصرية ضد الشعب الفلسطيني ودعوات الفصل التام والحائط الأمني.

القرية المصرية

بين عهدين !

بقلم : د. محمد رجب البيومى

حين أزور قريتى أجد كلّ شىء فيها تغير عما كنت أعهد، ولا أرانى أحسّ براحة ما لهذا الانقلاب فالنور والكهرباء، والمنازل العصرية، والمدارس المتنوعة كلٌ ذلك قد طرأ على القرية بعد رحيلى المتقطع، ولكن هل أدّى إلى راحة نفسية، وإلى إنتاج زراعى، وإلى سلام هادىء بين القرويين كما كان الأمر قبل هذا التجديد؟ لقد كادت القرية تقترب من المدينة فى مظاهر كثيرة، ولكن؟ هل انتفعت القرية اجتماعياً بهذا الاقتراب سنرى!! .

لست عالم اجتماع، فأحشر نفسى بين الفضلاء المتخصصين، وفيهم من ينكر أن يتحدث غيرهم فيما يزاولون من بحوث! ولكنهم مع ذلك يطبعون استمارات (الاستبيان) ولا أدرى من أين جاءت هذه الكلمة الغريبة الصياغة!! يطبعون هذه الاستمارات ويوزعونها على العالم والجاهل ليجيب عما يريدون من الأسئلة، فليعدوا مقالتى إجابة متصلة عن بعض هذه الاستمارات وحينئذ لاينكرون على مثلى أن يجيب بما يراه، فهو مشاهد لا باحث.

كان الطابع الدينى هو السمة الأصيلة لأهل القرية ، فالدين هو المسيطر الأول على السلوك، من تبع نوره سار فى طريق مستقيم، وأجمع الرأى العام على تقديره، ومن شذ عنه عد مجرما وتباعد عنه أقرباؤه كما يتباعد الصحيح عن الأجرب، ورجل الدين وإن كان متواضع المعرفة هو صاحب المشورة والرأى، يختلف الناس،

ويتنازعون، فلا ينحسم الخلاف إلا برأيه، ويأتي موسم الانتخاب، فيكون من هم المرشح أن يحظى برضاه فيزور منزله، أول مايزور، ويخف إلى المسجد عند الأذان ليصلي خلفه، ثم ينتظر ختام الصلاة، ليسرع إليه فيحتضنه ! وإذا كان المصلون كثيري العدد أطال معه الوقوف في هيبته! وفيهم من يقبل يده، كان هذا بالأمس فإذا شك قارئ اليوم فيما أقول، فليسمع هذه النادرة.



مدير الدقهلية

كان مدير الدقهلية (محافظ اليوم) صاحب الكلمة الأولى في إقليمه، وكان الناس لايتحدثون عنه إلا بقولهم (الباشا المدير) وفي أوائل الثلاثينيات كان المدير هو (محمد نيازي باشا) ، وفيه شموخ وتكبّر، فتقدم إليه إنسان نظيف البزة حسن المظهر يرتدى حلة جميلة، وطربوشا منسجما، تقدم بشكوى في بعض الأمور، فقابله عند رؤيته باحتفاء، وحين قرأ التوقيع (مدرس بمدرسة .. الإلزامية) هاج هائجه، وتملكه الغضب وصاح منفعلا! مدرس إلزامي يظهر في هذه الأبهة! وراتبه ثلاثة جنيهات! ثم أصدر أمرا بأن يلبس جميع مدرسي المرحلة الأولى العمامة والكاكولة، وأصر على معاقبة من لايذعن (١)، فالبدلة أرقى من مستواهم في رأيه ! وقد ثارت الصحف - وكانت الوزارة وزارة اسماعيل صدقي - وكتب الدكتور طه حسين مقالا ناقدا، ولكن المدير أصر، ورأى الرجوع مما يمس كرامته، وأخذ يأمر المفتشين بالمؤاخذة الصارمة لمن لايلبس العمامة.

وفي يوم ما عزم الباشا على زيارة إحدى قرى المديرية في وقت حدده باليوم

---

(١) في المجلة الرسالة -العدد (٤٢٣) ١٩٤١/٨/١١ تفصيل لهذه المهزلة .



والساعة والدقيقة، وحان الموعد، فخف العمدة وشيخ القرية وبعض الخفراء لاستقباله: كانوا سبعة لايزيدون، ونزل المدير فرأى على البعد ازدحاما شديدا يموج به أهل القرية، فظن القوم قد خرجوا لاستقباله، ولكنهم تهيبوه فلم يقربوا منه، فقال المدير متسائلا: لماذا يبتعد القوم ولايقربون ! وقال أحد أصحابه ممن قدموا معه، ولماذا لايهتفون مرحبين! وهم يستقبلون الباشا.

فقال العمدة، وكان مفطورا على الصدق : ياباشا أهل القرية يودعون فضيلة الواعظ، حيث ألقى الدرس بالمسجد عقب صلاة الظهر، واتجه إلى الطريق الزراعى مسافرا، فخرجوا لوداعه، هو صاحب العمامة البيضاء الذى يحتفون به! صاحب العمامة ياباشا:

قال رفيق الباشا فى غضب: ولماذا لم يحضروا لاستقبال سعادة الباشا؟ فسكت العمدة ولم يجب؟ ، ولكن خفيرا لايفهم أسلوب المجاملة قال فى براءة : هم لايعرفون الباشا، ولكنهم يحبون أهل العلم، وجميعهم يقبلون يد الشيخ!!

وهنا ركب المدير عربته غاضبا، وسارع بالعودة ! وهو لايدرى كيف يعاقب هؤلاء !

رجع الباشا منهزما، فقد ظن العمامة موضع الامتهان، فرآها موضع التقدير ! تقدير لم يتهيأ له أن يناله .

منبعان مختلفان

إذا بحثنا عن التغيير الطارىء إلى حد التناقض فى سلوك القرويين بين عهد وعهد فإننا نجده يرجع إلى اختلاف المنبع فى العهدين المتعاقبين، ففى العهد الماضى كان المسجد هو المنبع الوحيد لما يشمل القرية من عادات وتقاليد، وهو منبع عريق يضرب بجذوره إلى السنوات البعيدة، فتوارث تقاليده الآباء عن الأجداد والأحفاد عن الآباء، فنشأت أجيال تؤمن بتعاليم المسجد، وتعدها باب النجاة والأمل ففى المسجد يقرأ القرآن ويشرح الحديث، وتستمع مجالس الوعظ، فيكون من كل ذلك سنن متبع يرتفع إلى مصدره الأعلى فى السماء، فمن حاد عنه خالف الله، ومن اهتدى به نعم براحة البال فى الحياة، وبجنة الخلد بعد الممات، أما فى العهد الحاضر فالمنبع لكل جديد طارىء هو شاشة التليفزيون ومسلسلاتها على الخصوص، لقد أصبحت الشاشة مدرسة

تلقي الدروس المتكررة لتنحرف بالتقاليد من وضع إلى وضع، كان المسجد يأمر بانسجام الأسرة وطاعة الوالدين، فجاءت الشاشة لترى القروية الساذجة كيف ينشز الولد عن طاعة أبيه، وكيف تتهكم الفتاة بأمها وتعدها ميراثا بائدا يجب أن يزول، كان المسجد يدعو إلى القناعة والرضا باليسير، ويأخذ في مواعظه بقول الله عز وجل «ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولاتبسطها كل البسط»، فجاءت الشاشة لتعرض مباذل الترف الصارخ في المآكل والمشرب، وأثاث المنزل وإعلانات السفه والمجون، وتعد الكماليات ضروريات لامحيد عنها، كان المسجد يدعو إلى حفظ الوقت وتجنب السهر الطويل واليقظة عند صلاة الفجر لاستقبال اليوم في أنشط مظاهر القوة، فجاءت الشاشة لتجمع السامرين والساهرات في الليل الأطول أمامها، وقد تبتعد الشاشة ليأتي مكانها (الفيديو) وقد جاء به من أشتروه من بلاد البترول ليعرض مانهى الله عنه من فنون الخلاعات، وليحدث مُثُلاً جديدة في العلاقات ويكشف عن أساليب طائشة في الإغراء والخداع، لقد تناقض المنبعان إلى حد التضارب، ولا من مغيث .

الأسرة الواحدة

يقال الآن إن العالم كله قد أصبح قرية صغيرة لأن وسائل الاتصال قد



طه حسين



إسماعيل صدقي

سهلت كل معرفة، وقربت كل بعيد، أفلا أقول الآن أن القرية في عهدها الماضي كانت أسرة واحدة، لأن جميع أبنائها يشعرون برباط قوي متماسك يدفعهم إلى التآزر في الشدائد، وإلى اعتبار التكافل الاجتماعي فرضا محتوما لا فكاك منه، وإن جهلوا مسماه.

قد تدور الماشية في الساقية، فتسقط في بئر، وهي عماد صاحبها في أرضه، فإذا فقدها فقد خسر مقومات كسبه الضروري، فهنا يرتفع الصراخ حتى ينهض القرويون من كل صوب، ليعملوا على إنقاذ الهاوية المسكينة بما يعرفون من وسائل الإنقاذ، فإذا خرجت سليمة معافاة، فقد تم المراد، وإذا خرجت جريحة تكاد تلفظ أنفاسها، قام الجزار سريعا بذبحها، وحضر من وجوه القرية من يقسم اللحم في لفائف خاصة، ويبعث في كل منزل بلفافة كبيرة، ويقدر الثمن زائدا عن حده الطبيعي، ليجمع من كل المنازل

مايكفى لشراء بقرة مماثلة، ويتم ذلك فى العاجل السريع، فإذا تكاملت القيمة، ذهب اثنان أو ثلاثة فاشتروا البديل وأخذ المرزوء يحمد الله أن عوضه كل خير، يتم ذلك وكأنه شيء طبيعى لابد أن يكون .

قد يشرع قروى فى بناء منزل لحاجته الضرورية فيخف أبناء القرية لمعاونته، فإذا احتاج البناء إلى عشرة أيام، وجد من العائلات من يقوم ذووها وفق اتفاق متبع بإطعام العمال، لكل عائلة يوم يختص بذلك، فلا يتحمل صاحب المنزل أعباء تضاف إلى ثمن الطوب والخشب ويكون التسابق فى هذا المجال موضع اهتمام الجميع وقد تجرى القرعة كيلا يفوز رجل بالسبق، وهذا ما شهدته عن عيان .

قد يشب حريق، وليس فى القرية شيء من أدوات الإطفاء فما يرتفع الصراخ، حتى تنهض عشرات النساء بالصفائح لملئها من النهر على وجه سريع ، ويقف الرجال فى مهب الحريق يوالون عملية الإطفاء، وفيهم من يجازف فيتسلق الجدران ليحاصر اللهب المشتعل، وفيهم من يخوض النار ليرمى إلى الأرض بكتلة كبيرة مشتعلة من الحطب المتراكم فوق السطح، وتنظر فتجد الشارع الذى يضم المنزل المصاب زاخرا بالناس صغارا وكبارا ، لايكاد يوجد به مكان خال حتى تنفرج القمة، ويخمد اللهب .

ويأتى رمضان، فلا نتحدث عن زينة المسجد وبهائه واحتفاله بالدرس بعد المغرب وبالتراويح بعد العشاء، وخروج الناس عقب الإفطار بالمصابيح الزيتية، قبل أن تعم الكهرباء مساهمة فى تألق المسجد وبهائه، لانتحدث عن ذلك، بل نتحدث عن الموائد التى توضع أمام المنازل قبل الغروب لتستقبل كل وافد، وعن السهرات بعد العشاء الحافلة بمقرئى الكتّاب، طيلة الليل، حتى إذا قرب ميعاد السحور قدم الطعام لمن ينتظر من ذوى الحاجة، وقد يحمل منه إلى أهله استجابة لرغبة صاحب المنزل دون أن يسأل وهنا يكون رمضان كما سنه الله شهر البر والإحسان، لا شهر الفوازير والمسلسلات.

والمرأة فى القرية، حياتها الواقعية تعصف بكل مايقوّل المتحدثات فى الصالونات عن سجن المرأة وعبوديتها، إن المرأة الشابة زميلة زوجها المناضل فى حقله، تخرج معه إلى عمله صباحاً فتشاركه فى نظافة الحقل وإطعام الماشية وتعود فى الظهيرة لتعد الطعام وتحمله إليه، والأم الكبيرة فى المنزل تظل به، لا تنام، بل لتنظف الأثاث، وتطعم الدواجن، وترعى الأطفال الصغار، وتنهض الفتاة إلى أبيها فى حقله القريب أو البعيد، فتسير هادئة مطمئنة، لايجرؤ أحد على أن يقرئها السلام، ولو شذ شاب ففاه بأدنى كلمة، قامت القيامة، وأصبح مضغة الأفواه، ولا أسترسل فى بسط هذا المنحى إذ كفانى الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم وصف الواقع الصريح، حين تحدث

عن ريفية هم أحد المتسرعين من الشباب بالنظر إليها فقط، فزلزلت الأرض زلزالها، قال أحمد محرم رحمه الله :

كم نظرة هوجاء من متوسم
عصفت بأحلام هناك رجاح
دلف الشيوخ إلى الشيوخ حمية
وتدافعت أبطالهم بالراح
ها إن قومك كاد يهلك جمعهم
لولا الهوادة من ذوى الإصلاح
ما أنت من بكر ولا من تغلب
لكنه الشرف المنيع الساح
ياموردا تثب المنية دونه
ماذا صنعت بمهجة الملتاح
ماكان خطبك فى ذويك براشح
لو كنت ذات غلالة ووشاح الله ! الله !

والبيت الأخير جدير بالتأمل إذ يوازن بين فتاة الحضر وفتاة القرية موازنة ذات عبرة والتفات، وحقوق الجيران – ولا أقول الجار – لأن أهل القرية يعتبرون أنفسهم جميعا جيرانا متشابكين، حقوق الجيران على أكملها. فالتزاور قائم لاينقطع، والعون فى الشدة، والبهجة فى الفرحة مما نراه مثلا فى المآتم والأفراح، ويتجلى هذا التزاور فى المواسم العامة، وبخاصة فى يومى العيد، فالشارع – كل شارع – يزدحم بالزائرين ما بين غادٍ ورائح، ومن ينتظر فى الصباح لاستقبال الزائرين يخرج بعد العصر ليرد التحية بمثلها، فلا ينقضى اليوم حتى تتصافح الأكف، وتتعارف الوجوه وقد يحدث من قبل ما



يبعث على الخصام فيكون العيد موسما للصفاء وميعادا للمصالحة، وتروى الأحاديث الخاصة بهذا المنحى فتتصافى القلوب، وتتعانق الصدور، وكم من قضايا رفعت إلى المحاكم وجاء موسم العيد فكان باعثا على التراضى، واستراح المحامون والقضاة. وبمناسبة الإشارة إلى الأفراح فى القرية أعلن فى أسف :

أن أدهى ما ارتطمت به القرية هو غلاء المهور، لقد كنت من قبل لاتكاد تجد عانسا فى القرية لأن ولى الأمر كان يبحث عن الزوج الصالح لا الزوج الغنىّ الذى يقدم من المال ما يملأ أربع حجرات؟! فانتقلت العدوى من المدينة، وأصبح ارتفاع المهور فيهما أمرا مشتركا، كان الأب يذهب إلى عاصمة المركز القريب فيهيىء

جهازا يحتل حجرتين ولايزيد، أما الآن فمن العيب أن يشترى الجهاز من عاصمة المركز لابد من الذهاب إلى عاصمة المحافظة، أو ما اشتهرت من المحافظات بفخامة الأثاث كالقاهرة والاسكندرية ودمياط وأن يشترى مايبهر ويرفع مكانة العروس، ونتيجة ذلك توقف الحال، وكثرة العوانس ، وضياع الشباب!

واقعنا الآن

ولأنظر إلى واقعنا اليوم فأقول :

أصبحت القرية تستورد من المدينة ماتريد من الخبز والبيض واللبن والدجاج والسمك، ماهذا؟ لقد كانت القرية مصدر هذا كله وكان ساكن المدينة يزور أقاربه وفى همه أن يعود مثقلا بخيرات القرية، كما كان ساكن المدينة ينتظر زيارة أقربائه بفارغ الصبر ليجد معهم مايحملون من غرائر القمح والأرز وأقفاص الدجاج، حتى الخضراوات أصبحت تأتى من المدينة إلى القرية؟ كيف حدث هذا؟.

إن كثرة الاستهلاك مقارنة بضعف الإنتاج قد أدت إلى هذا العجز الأليم وضعف الإنتاج نتيجة «للتخلف الزراعى» فقد وجدت الآلات الحديثة الخاصة بزراعة الأرض، ولكن لم نعرف كيف نستخدمها على الوجه الصحيح، قامت الجمعيات الزراعية وبنوك القرية والوحدة الصحية، ولكنها تضم موظفين، وليست مجال تنوير لإرشاد الفلاح كيف يستغل أرضه على وجه يتيح كثافة المحصول، تخرجت أفواج من كليات الزراعة، ولم تجد عملا، ونفر الكثيرون من البقاء فى القرية، ومن مكث فيها لعدم طاقته على الهروب أصبح عاطلا لايشارك فى تنمية زراعته، أو إنشاء مزرعة حيوانية فيفيد الناس بما حصل فى كليته حين يجدونه قدوة ذات خبرة متميزة، ولكنه ترفع عن العمل فى الحقل، وعاش عالة على أخيه الكادح فى حقله بالطريقة البدائية، وكانت الكارثة أن موظفى هذه الإدارات الجديدة فى القرية، قد أرهقوا الفلاح بما يخترعون من زيادات فى الأسعار، أو يختلقون من ضرائب وهمية يزعمون أن المسئولين قد فرضوها، وينظر الفلاح المسكين فيجد ما ينتج لا يكفى حاصله بعد الكدح الطويل فى الزرع والرى لسداد ما عليه من التزامات، فيرى هذه المنشآت بابا من اللهيب قد أرسل شواظه عليه ، فيجتنب أن يلم به مهما أرهقه العوز، وعضته البأساء!

وقد هاجر إلى البلاد العربية قوم من هؤلاء المساكين ، وحين رجعوا بعد خمسة أعوام أو ما فوق، لم يحملوا غير أدوات الترف، وأخذ الواحد منهم يقلد الآخر فى شراء الفيديو والتليفزيون، ويعد ذلك مصدر مباهاة! على حين يتلهف الجيران على مشاهدة ما يودون من مناظر الإغراء! وكثيراً ما ترى فى الشارع الضيق جموعا تتراص على الأرض فى غسق الليل أمام أحد الأجهزة البراقة، ليقضوا الوقت حتى مطلع الفجر أمام مُغريات سخيفة، فإذا طلع النهار ولم يذهب الفلاح إلى أرضه،

بل ظل نائما هامدا لأنه قضى الليل فى عبث لا يفيد! وأكاد أتوارى من الخجل حين أذكر أن الفتاة الطاهرة بالأمس، قد وجدت فى اجتماع الفيديو ما شجعها على الصداقات المريبة وقد تنقلب هذه الصداقة إلى شر مستطير، إذ يكون الزوج غائبا لدى سنوات في بلاد الهجرة، والزوجة فارغة لا تجد غير مناظر الشهوات، ورفقاء الآثام! أما المسجد - رحمة الله على المسجد - فلم يعد يؤمه غير الشيوخ ممن فرغت منهم الحياة، كما لم يُعد خطيبه شيخاً جليلاً مهيبا يرسل الخشية بمظهره وسلوكه قبل أن يبعث الموعظة بألفاظه وكلماته بل صار شابا تخرج منذ شهور أو بضعة أعوام، لا يلبس العمامة إلا يوم الجمعة حين يؤدى الخطبة ويتركها بعد ذلك فى حجرته بالمسجد، وكأنه تخلص من عبء ثقيل! ماذا يستطيع مثل هذا الساذج أن يقول فى خطبته حتى يجذب الناس؟ وإذا قال فمن الذى يستمع إليه بعد أن تسمم بالمغريات الهابطات!.

نحن نعلم أن القرية قد نهضت فى اليابان والهند والصين، وأصبحت مصدر تنمية وافية وثروة جيدة، ولكن دول العالم الثالث قد اعتمدت على القروض الاستهلاكية التى لا تفيد القرية فى شىء، بل إن مانحى هذه القروض لا يجعلون النفع القروى من أدوات تنفيذها، لتظل القرية فقيرة محتاجة، وليظل الاعتماد على القروض تيارا لا ينقطع له مد، وقد سمعنا عن الصناعات الصغيرة، وضرورة تشجيعها بالريف، وسمعنا عن القروض التى تبذل للشباب كى يلجوا باب الرزق عن هذه الصناعات! سمعنا ذلك، ونرجو أن يتحقق الخير عن طريقه! ولكن الذى نرجوه ألا تكون الجمعيات الحكومية فى القرى حلقة اتصال بين الآخذ والمأخوذ منه! فقد كفى ما علمناه من احتيال فى القرض والسداد.

أذكر أن الشيخ متولى الشعراوى رحمه الله، قد تعرض فى بعض أحاديثه لحفلات السهر الريفي أمام الفيديو والتليفزيون، فذكر ما جرته من الانحدار الخلقي، والانهيار الزراعى معا، وتمنى غاضبا ألا تكون الكهرباء قد دخلت الريف على هذا الوجه المستقبح!! وهنا ثار الثائرون فى الصحف على هذا المتخلف الذى يحارب امتداد النور فى أزقة القرى!! والرجل فى ذلك مثله كمثل الأب الحزين الذى يرى ابنه فاشلا فى مدرسته، منحدرا فى سلوكه! فيقول فى ساعة قهر: ليت الله يأخذه فأستريح! أفكان الأب يكره ولده؟ أفكان يتمنى له الموت! إن شجونه قد ارتفعت من هيجان مشاعره إلى لهاة لسانه، فأنطقته بما لا يريد ..

وأخيرا

ماذا نريد للقرية ؟ وماذا نريد منها؟

نريد للقرية أن تأخذ من كل عهد أحسن ما فيه، فتأخذ من عهدها الأول تأصل الروح الديني، وبعث التكافل الاجتماعى، وإيقاظ مشاعر الأخوة الصادقة وتأخذ من العهد الثانى توظيف الآلات الحديثة فى مسائل الزراعة والصناعة، والاستفادة من مرافق التوجيه



الثقافى وإصلاح الجمعيات الريفية حتى تؤدى المنشود باختبار الأكفاء من العاملين ومحاسبة الوصوليين من المرتزقة ونشر الوعى الزراعى والصناعى بإنشاء المدارس الخاصة بهذين النوعين على نحو ريفى متواضع، فقد تكفى خمس حجرات لإقامة مدرسة من هذا النوع تكون للصغير معهد تعليم وللكبير مصدر إشعاع. هذا ما نريد لها أما ما نريد منها فأن تكون أكثر حيوية من المدينة نفسها! لأن سكان القرى أوفر عدداً من سكان المدن كما ينطق بذلك آخر احصاء !، ونريد منها أن تحارب أدوات الترف البغيضة التى منحت الكسل وحرمت العمل، ونريد منها أن تجذب أبناءها الراحلين إلى المدينة بما يتهيأ لها من توفر وسائل الرزق، ورواج الصناعات الصغيرة، وأن توجد بكل قرية مدرسة ريفية ترعى حاجات الريف، قبل أن تمهد للالتحاق بالمدارس الثانوية، وإذا كان العامل الأمى اليوم يكسب فى الأسبوع ما يكسبه الموظف الحكومى فى شهور، فلماذا لا نثقفه فى مهده الأصيل ، نفقهه بالثقافة الضرورية التى تعينه على الكسب الشريف بالعمل الجاد، لا بكماليات الترف العلمى الذى يخزن المعلومات دون جدوى، ولابد أن ننظر إلى الواقع الملموس فلا نكتفى فى الاصلاح الريفى بإضاءة المنازل، ومجلس القرية، وجمعية التعاون، ومركز الشباب، دون أن نفهم القائمين على هذه الأجهزة أنهم أصحاب رسالة بين أهليهم وذوى قرباهم، لا موظفون أنانيون يتلمسون الصيد من وجوهه المنحرفة، كما نعمل على إعادة الروح العائلية الصحيحة التى كانت تجعل القرية جسدا واحدا، إذا اشتكى منه عضو تداعى له جميع الأعضاء بالسهر، وعلى الذين ينكرون مباهج الماضى ويعدونها أخلاقا بدائية لا تناسب التمدن أن يجيبوا عن هذه الأسئلة ، هل دام التكافل الأخوى كسابق عهده ؟ هل نشطت الحقول فى استثمار كل شبر من الأرض؟ هل عادت أفران الخبز كعهدها فى كل منزل ؟ هل نشطت مواسم البر فى المناسبات الدينية وأهمها شهر رمضان ؟ هل عرف الابن حق أبيه، والفتاة حق والدتها والتزما معهما الأدب والامتثال، إنى لأبحث الآن عن ذلك أو بعضه فيثب إلى خاطرى قول أبى تمام :

إن المنازل ساورتها فرقة
أخلت من الآرام كل كناس

الجامعة والسياسة

بقلم : د. سعيد إسماعيل على

تتكون الجامعة عادة من فئتين من المقومات ، أولهما المقومات البشرية ، والتى نصطلح على تسميتها بالمجتمع الجامعى، وثانيهما ، المقومات المادية، بكل عناصرها من قاعات دروس ومعامل ومكاتب وكتب وملاعب وأفنية وحدائق وأجهزة ومعدات ، ووفقا لطبيعة موضوعنا فإننا نقف هنا فى نطاق الفئة الأولى، ونعنى بها المجتمع الجامعى.

ثم إننا داخل هذا المجتمع الجامعى أيضاً، يمكن أن نميز فيه بين عناصر أربع : أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم، الطلاب، الإداريون، الفنيون، وحتى يكون حديثنا أكثر تحديدا فسوف نقتصر على الطلاب ، باعتبارهم العصب الرئيسى فى المجتمع الجامعى، وهم «زبائنه» إن صح هذا التشبيه ، ولو نظرنا فى كل المقومات والفئات والعناصر التى يضمها التنظيم الجامعى ، فسوف نجد أنها جميعا قد وجدت من أجل تنشئة وتكوين وتربية هذه الفئة بصفة خاصة وفقا لما يتسق مع التوجهات المجتمعية العامة.

فإذا انتقلنا بعد هذا إلى «المشاركة السياسية»، فسوف نجد أنها - كما نتصورها - مظهر من مظاهر النهج الديمقراطى ، وآية من آيات فلسفته ، وبالتالى فإن اكتمال صورة الحديث عن المشاركة السياسية إنما يكون من خلال إطلالة على الوضع الديمقراطى العام . ورغم وعينا بهذا فإننا مضطرون إلى تكثيف الحديث على المشاركة السياسية نفسها، حتى لاتتشعب بنا

الدروب وتتفرع ، «ويضيع من قدمنا الطريق»!.

فإذا ما حاولنا أن نتصور كيفية المشاركة السياسية لطلاب الجامعة ، فسوف نجد أنها يمكن أن تكون من خلال القنوات التالية:

-الاطلاع والمتابعة لما يحدث بالنسبة للشأن العام الوطنى المصرى ، والإقليمى العربى، والعالمى، اطلاعا ومتابعة تتفاوت وتتدرج فى مستوياتها وتختلف كما ونوعا، ضيقا واتساعا ، عمقا وسطحا.

- الانضمام إلى حزب من الأحزاب السياسية القائمة ، وهو المظهر الأكثر وضوحا وصراحة عادة فى قضية المشاركة السياسية ، أو الانتماء إلى تيار فكرى عام قد لا يكون له حزب سياسى ينتظمه بحكم ظروف وعوامل متعددة .

- الحرص على امتلاك بطاقة انتخابية، والمشاركة فى عملية التصويت فى الانتخابات العامة ، سواء لاختيار أعضاء لمجلس الشعب أو الشورى أو الاستفتاء على رئاسة الجمهورية ، أو غير هذا وذاك مما يقع فى نطاق التصويت العام .

- إبداء الرأى دائماً أو غالباً فيما يحدث من أحداث ، أو يثور من قضايا ومشكلات ، أو ما يسمع أو يشاهد أو يقرأ من آراء وأفكار تتصل بالشأن السياسى أو المجتمعى العام، محليا وخارجيا.

- المساهمة العملية فى بعض مشروعات خدمة البيئة المحلية أو المجتمع العام ، سواء من خلال حملات محو أمية ، مثلا، أو تلوث البيئة ، أو توعية سياسية عامة، أو غير هذا وذاك من قضايا ومشكلات.

طابع الدعاية

فاذا حاولنا استقراء واقع المشاركة السياسية لطلاب الجامعة، وفقا لهذا التصور فسوف نجد مايلى:

١ - فمن حيث الاطلاع والمتابعة ، فهى مسألة لايمكن استقراء الوضع فيها إلا بناء على دراسة ميدانية ، لا يتيسر لنا القيام بها، وربما يكون هناك من أجراها ، لكن لم تتيسر لنا، وبالتالى فإن رأينا فيها إنما هو بناء على «انطباعات» مع ما هو معروف عن المعرفة القائمة على الانطباعات من محاذير تتصل بالدقة ، والإحاطة ، والشمول ، وإمكان التعميم.

وعلى هذا يمكننا القول بأن المسألة هنا تتصل إلى حد كبير بقضية القراءة على وجه العموم ، ومتابعة القضايا العامة ، مما يشير إلى قلة الاتصال بمصادر المعرفة السياسية، خاصة وأن المصادر المتاحة أكثر من غيرها مصادر حكومية يغلب عليها طابع الدعاية والإعلان والتلقين، وهو مما يباعد بين شبابنا وبين الاطلاع والمتابعة.

وفضلا عن ذلك فهناك الكثير من المحاذير والتخوفات من مصادر المعرفة السياسية التي توفرها مصادر المعارضة، مما سنشير إليه بشكل أكثر تفصيلا في جزء تال.

يضاف إلى هذا وذاك ماهو ملموس من الخبرة التاريخية أن افتقاد المشروع القومي العام، ربما يكون باعثا على تشتت الاهتمامات وتوزع الميول والأهواء نحو الشأن الخاص، وكذلك مانسميه بالمجالات الشبابية من موسيقى وأغاني وسينما ورياضة وترفيه.

لكن الأمر يتغير إلى حد كبير، عندما تكون هناك قضايا كبرى «ساخنة» تفرض نفسها على مجرى الأحداث، كما هو الشأن في أيامنا هذه بالنسبة لقضية الصراع العربي الصهيوني، وكما سبق أن رأينا في عام ١٩٩٠ عند غزو العراق لدولة الكويت، إذ غالبا ماينجذب قطاع غير قليل من الشباب إلى الاطلاع والمتابعة.

ب - وبالنسبة للانخراط في سلك الأحزاب السياسية، فإن المسألة تتأثر إلى حد كبير بوضعية هذه الأحزاب في مصر، من حيث هشاشة الوجود الحزبي الحقيقي، اعتمادا على تسيد مقولة أننا أمام ظاهرة: حزب الحكومة لا حكومة الحزب، مع ماهو معروف في التراث الثقافي المصري، عن الدور الذي تلعبه السلطة في حياتنا، بحيث تتحول إلى نقطة جذب شديدة، ومن هنا يلمس الشباب أن عددا غير قليل من طلاب المواقع التنفيذية هم من «الكبار» في غالب الأحيان فتقل الفرص أمام فئة الصغار «طلاب الجامعات» للالتحاق بهذا الحزب صاحب السلطة، وفي الوقت نفسه لا يفكر كثيرون في الانضمام إلى أحزاب أخرى مما يسمى بأحزاب المعارضة، خاصة وأن وجودها مهمش في الحياة السياسية على وجه الخصوص والحياة المجتمعية على وجه العموم بفعل ظروف وعوامل متعددة أشهرها قانون الأحزاب، وقانون الطوارىء المطبق منذ تسعة عشر عاما، فضلا عن الضغوط التي يمارسها الآباء والأمهات كي لا ينخرطوا في أي عمل سياسي بدافع الخوف عليهم، وبإبعادهم عن المخاطر التي يتعرض لها المشارك في ملعب السياسة، ولسان حالهم يردد مع الشيخ محمد عبده مقولته الشهيرة التي أثرت عنه عندما قال: لعن الله ساس ويسوس سياسة! وإذا كان هناك طلاب ممن يؤمنون بتيار فكري ما غير مسموح له بتنظيم حزبي، فإنهم بالتالي يقعون في محظور التجريم القانوني.

سلبية صارخة

جـ - وبالنسبة للقضية الخاصة بالمشاركة في التصويت في العمليات

الانتخابية العامة، فقد كنا نود لو توافرت إحصائية رسمية بأعداد طلاب الجامعات ممن لهم بطاقة انتخابية ، مقارنة بالفئة العمرية لهم في التعداد السكاني ، لكن الاتصال المباشر بأعداد غير قليلة من هؤلاء أتيح لناالتعامل معهم تدريسا وبحثا عبر سنوات طويلة يظهر لنا أن قلة منهم هي التي حرصت على ذلك ، فالسلبية هنا صارخة ، وردهم على انتقادنا لهم مشهور ومعروف لا داعي للتفصيل فيه، من حيث تكرار قناعة مؤسفة لديهم بأن صوتهم عادة لايغير من المراد شيئاً. والغريب أن ابني الذي تحمس للغاية لأن تكون له بطاقة انتخابية قد «داخ» كثيرا، ولعدة أيام كي يحصل عليها ، مما يشير إلى ضرورة التفكير في كيفية تيسير هذا الأمر، حتى ولو انتقلت وحدة متخصصة من الداخلية إلى الجامعات لإنجاز الحصول على البطاقة الانتخابية.

د - وتتعلق مسألة إبداء الرأي في القضايا والمشكلات المثارة بالقنوات المتاحة لذلك ، ولا نريد أن نتعرض هنا للقنوات الخارجية ، وإنما لما هو متاح داخل الجامعة ، فاللجنة السياسية في الاتحادات للطلاب ألغيت منذ سنوات ، وهناك حظر واضح لاستضافة سياسيين أو مفكرين أو كتاب من أصحاب الرأي المخالف على أساس أن هذا مكانه خارج الجامعة ، ومع ذلك فالسلطات المسئولة تسمح بمثل هذه الندوات السياسية واستضافة من يتحدثون ، إذا كان الاتجاه يصب في الخانة الرسمية ، ولا نستطيع أن ننسى المقولة الشهيرة بألا سياسة في التعليم ، وإن كنا نحاول أن نفهم منها أن المقصود هو النشاط الحزبي ، حتى لا ينمزق الطلاب بين التيارات الحزبية ويتكرر ما كان يحدث بفعل الاختلافات الحزبية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢. وصحف الحائط انحسرت إلى حد كبير من الحياة الطلابية الجامعية نظرا لتعدد السلطات الرقابية عليها، وكثرة إجراءات إصدارها.

هـ - فإذا ما جئنا إلى البعد الخاص بالمساهمة في مشروعات خدمة المجتمع ، فسوف نجد أن النظام الدراسي القائم على الفصلين ، وخاصة عندما يرافقه نفس النظام التقليدي للامتحانات ، فإن كثرة من الطلاب يجدون أن مثل هذه المساهمة يمكن أن تعطلهم عن الانتظام في المحاضرات ، والمذاكرة ، باستثناء بعض المساهمات التي يمكن أن تكون جزءا من الدراسة نفسها ، كما نجد في بعض التخصصات في الخدمة الاجتماعية مثلا ، لكن هناك فرصا واضحة لذلك في العطلة الصيفية وفي عطلة منتصف العام، وإن كان عدد الأنشطة التي تقع زمنيا في هذه الفترات قد يغلب عليها الطابع الترفيهي.

لكن، كيف يمكن للجامعة أن تعين على تنمية المشاركة السياسية للطلاب؟

هنا نجد أن وسائل الجامعة في هذا السبيل تتعدد وتتنوع وفقا لما يلي:

– فهناك القناة الرئيسية لذلك وهى اتحاد الطلاب ، فهو «برلمان» – إذا صح التشبيه – متخصص ، وخاصة أنه يقوم على عمليات ترشيح وتصويت وأنشطة ومناقشات ، ولعل عمليتى الترشيح والتصويت هما أكثر جوانب الاتحاد حساسية ، فهما «نموذج» أمام الطلاب لمدى الجدية والفعالية لمثل هذه التنظيمات القائمة على مبدأ التمثيل النسبى . لكن من المعروف أن الترشيح تتدخل فيه جهات أمنية بحيث تستبعد البعض على أساس ما تراه من خطورتهم على «الأمن» ، مما يرسم علامات استفهام أمام العديد من الطلاب وتشكك، ولعل هذا يستدعى إلى ذاكرتى على الفور منظر طالب تم استبعاده ووقف أمام عميد الكلية، وكنت حاضرا المناقشة ، وسأل الطالب : أريد أن أعرف : لماذا استبعد، وأنا لم أتهم مرة فى قضية غش، ولم أذهب إلى قسم شرطة، ولم أتشاجر مع أحد لا داخل الكلية ولا خارجها ، وتقديراتى دائماً مرتفعة؟ ولم يجبه العميد إلا بأنه لا يعرف لماذا استبعد ، حيث أنه ليس هو الذى قام بذلك!.

التدخل الأمنى

وبنفس الروح السلبية التى تجدها فى التصويت العام، نجد هنا انصرافا لكثيرين عن الإدلاء بأصواتهم ، مع أن المسألة لا تتطلب منهم جهدا لاستخراج بطاقة انتخابية كما هو الأمر فى الانتخابات العامة، وليست هناك صراعات حزبية يخشى الدخول فى معمعتها ، والمرشحون زملاء وأصدقاء، والقضايا التى ينشغل بها الاتحاد هى قضايا تخص الطلاب أنفسهم، لكن ربما كان التدخل الأمنى عاملاً أساسياً فى هذه السلبية.

ونكرر هنا ما سبق أن أشرنا إليه بالنسبة لأنشطة الاتحاد ، من أن النشاط السياسى إذا كان محظورا خوفا مما يقال عن التفرق الحزبى، إلا أن هناك مشكلات وقضايا عامة لا يكون هناك اختلاف كبير فى الرأى إزاءها يمكن أن ينظم الاتحاد ندوات فيها ، ولابد أن تتاح الفرصة للرأى الآخر أن يعبر عن نفسه بغير خوف من إيذاء أو تهديد به مادامت المسألة محصورة فى التعبير عن الرأى بالكلمة والفكرة والحوار المنظم.

– لكن هناك أعراض مرض بدأت تزحف على الجسم الطلابى قد لا تبدو هناك ثمة علاقة بينها وبين المشاركة السياسية، لكن النظر الدقيق، يؤكد أن هذه العلاقة قائمة، هذه الأعراض تتعلق بالكتاب الجامعى، الذى بدأ يعرف، ومنذ سنوات مايسمى بالكتاب المقرر، والذى بدأ المجلس الأعلى يقنن له ويكسبه الشرعية ، بل ويتحدث عن عدد الصفحات والسعر، والتأليف الجامعى، وما إلى هذا وذاك من جوانب متصلة. إن وجه الخطورة فى تمحور التعليم الجامعى الآن

حول كتاب واحد مقرر ، هو المساعدة على تنميط العقول الطلابية، والتزامهم برأى واحد بعينه، مما يقلل فرص الطلاب لأن يلمسوا تعدد زوايا الرؤية للقضية الواحدة، وتنوع الاجتهادات ، ويحتكون بعقول متعددة ، فمثل هذا يكون له أثره على صناعة التفكير وتكوين العقول ، وبالتالي لا يؤثر في القدرة على المشاركة السياسية فقط بل تكون له اثاره السلبية في مجالات أخرى كثيرة تقوم على «الاختيار» ، إذ المعروف أن القدرة على الاختيار إنما يعززها التنوع والتعدد وممارسة حق الاختلاف.

السلبية في التفكير

- ويرتبط بالكتاب الجامعي كذلك «طريقة التعليم»، إذ مما لاشك فيه أن الطريقة المسيطرة هي تلك التي تقوم على التلقين ، والتعليم اللفظى، والتلقين يعزز السلبية في التفكير ، لأنه يقوم على واحدية مصدر المعرفة ألا وهو الأستاذ ، بينما التعليم عن طريق المناقشة والمحاورة يفعل العكس، ويشرك الطالب في الحصول على المعرفة ، والمشاركة هي قضية مركزية ، عندما تتدعم عن طريق المشاركة في التعلم ، وفي مجالات أخرى ، تصبح أمراً نهجا حياتيا وسلوكا أساسيا . وهناك ظروف متعددة مع الأسف الشديد تقف عائقا أمام الخروج من أسر التلقين ، لعل أكثرها بروزا ما أصبح التعليم عليه منذ سنوات تعليما لأعداد ضخمة تتزايد عاما بعد عام، ونظام الامتحان التقليدى الذى يقوم على استظهار الطلاب لما تلقوه في المحاضرات أو قرأوه في الكتاب المقرر، ومن هنا تبرز ضرورة الاستجابة لآراء اقتراحات بأن تتحول فروع الجامعات إلى جامعات مستقلة ، وتنشأ أخرى جديدة حتى تختفى هذه الظاهرة التي لا مثيل لها عندما تضم جامعة واحدة مايزيد على المائة وخمسين ألف طالب، وتضم كلية مثل تجارة عين شمس في العام ٩٨/٩٧ أربعة وخمسين ألف طالب!.

- وهناك أيضاً أعضاء هيئة التدريس والذين هم النماذج السلوكية العامة أمام الطلاب ، إذ مما لاشك فيه أن وجود الأستاذ الذى يتوافر لديه وعي سياسى جيد، ويشارك سياسيا من عدد من الوجوه سوف يسعى في تربيته لطلابه ، حتى ولو لم يقصد ذلك مباشرة، إلى المساهمة في تربيتهم تربية سياسية واعية، والتى أحد أركانها مشاركة سياسية واعية ، وكم منا من تأثروا في توجهاتهم السياسية وسلوكهم السياسى بما رأوه ولمسوه لدى معلم لهم سواء في الجامعة أو في مراحل التعليم قبل الجامعي، وأحياناً نجد الطالب الواعي سياسياً، لكنه إذا حاول مناقشة أستاذه نهره أو سفهه ، أو دعاه إلى أن «يلتفت إلى دروسه» والزعم بأن الأمور السياسية مضيعة لوقت الطالب ، وربما قام الأستاذ بدور تحريضى معاكس للتوجه العام للنظام السياسى ، وهناك

نوع من أعضاء هيئة التدريس قد ينتهزون أية فرصة أثناء تدريسهم ، إذا وجدوا ثمة علاقة بين جانب أو أمر فيما يدرسون فيربطونه بشأن سياسي، ومثل هذا الوعي مقدمة أساسية للمشاركة السياسية.

- ثم هناك المناخ العام السائد داخل الجامعة ، فالطلاب على سبيل المثال قد لايجدون في أى فرد من القيادات الجامعية ، سواء على مستوى الكلية أو مستوى الجامعة أحدا عضوا في حزب معارض ، فهذا ربما يرسخ لديه مفهوما للمشاركة ينحصر في المسايرة للاتجاه القائم، ويكون هذا مدعاة للشك في جدوى المشاركة السياسية .

كذلك ما سبق أن أشرنا إليه من حيث نظام الفصلين الدراسيين ، فهناك اعتقاد عام شائع بأن تقريره كان لأسباب سياسية تعني عكس ما ندعو إليه من حيث الحث على المشاركة السياسية ، خاصة وأنه قد سبق تقرير مثل هذا النظام أواسط الخمسينيات حيث جاء كذلك عقب أحداث سياسية لم تكن الدولة راضية عنها ، ولما مضت الظروف التي أدت إليها عاد العمل بنظام السنة الكاملة .

والمتأمل في نظامنا الجامعي يستطيع أن يلمس أنه نظام تقليدي لايوفر الكثير من مظاهر الحرية الأكاديمية للطلاب كما هو الشأن في بعض النظم الجامعية الأخرى، وعلى سبيل المثال فإن نظام الساعات المعتمدة يتيح للطالب حرية اختيار وقت المحاضرة، والمادة المقررة ، والأستاذ الذي يدرسها عندما يطرح عددا من المجموعات مختلفة الأوقات ومتعددة المعلمين ، وكما سبق أن أشرنا فإن المناخ القائم على حرية الاختيار، يشجع على المشاركة، أيا كان مجالها في أغلب الأحوال.

وفي نهاية دراستنا لايسعنا إلا أن نؤكد أنه من الخطأ تصور أن المجتمع الجامعي «صوبة» تربوية منقطع الصلة بما يجري في المجتمع الأصل ، بل لنقل ما هو أكثر من ذلك أن المجتمع الجامعي إن هو إلا مرآة، بصورة ما ، من المجتمع الأصل ، إن خيرا فخير وإن شراً فشر فإذا كانت المشاركة السياسية تعد أحد مظاهر الديمقراطية ، فلابد من الاعتراف بوجود عدد من السلبيات التي لا تجعل من المناخ العام مهيأ كي يعين على تربية سياسية تتسم بالإيجابية والمشاركة، ويمكن الإشارة فقط إلى عناوين هذه السلبيات ، مثل مايحدث من حراسات على بعض النقابات، وعدم تداول السلطة ، واحتكار الدولة للإذاعة والتليفزيون، وسيطرتها على دور الصحف الكبرى، وقانون الأحزاب الذي ينتهي إلى أن تقرر الدولة نفسها ما يسمح به أو لا يسمح من الأحزاب ، وندرة الشفافية فيما يتصل بكثير من الأحداث المتعلقة بممارسات السلطة السياسية..

عالم السوبر ماركت العجيب !

بقلم : د. جلال أمين

عندما أخرج شارلى شابلن فى أوائل الثلاثينات، فيلمه الشهير «العصور الحديثة»، لم يكن السوبر ماركت قد ظهر بعد. لم يكن متاحاً لشارلى شابلن إذن، للتعبير عما فعلته العصور الحديثة بالانسان من سلبه صفات الآدمية، وتحويله إلى آلة أو ما يشبه الآلة ، إلا تصوير العامل المسكين فى داخل المصنع الحديث. صوّر هذا الفيلم العامل وهو واقف كالأبله أمام خط التجميع (assembly line).



وهو شريط متحرك يحمل جزءا بعد آخر من أجزاء السلعة المطلوب تصنيعها أو تجميعها، فيسير هذا الشريط أمام العمال الثابتين في أماكنهم طوال اليوم، وقد عهدت إلى كل منهم مهمة محددة بسيطة للغاية، كتثبيت مسمار أو تحريك مقبض، وذلك قبل أن تصل السلع إلى العامل الذي يليه فيثبت فيها مسمارا آخر أو يحرك مقبضا آخر .. إلخ. وعلى كل عامل أن يقوم بمهمته بالسرعة التي تتفق مع سرعة سير الشريط وإلا اختل النظام وانتقلت السلعة إلى العامل التالي ناقصة أو معيبة. وهكذا تصبح سرعة العامل وحركته تابعة لسرعة الآلة وحركتها وليس العكس. كان دور شارلي شابلن في الفيلم هو دور هذا العامل المسكين الذي يكرر مثل هذه العملية البسيطة آلاف المرات كل يوم، فلم يمض عليه وقت طويل حتى أصابته لوثة أودع بسببها مستشفى الأمراض العقلية..

لم يكن شارلي شابلن قد رأى بعد السوبر ماركت الحديث، إذ لو كان قد رآه لأضاف بلاشك مثالا آخر لا يقل قوة، لسلب آدمية الانسان في المجتمع التكنولوجي الحديث. بل إن اسم «خط التجميع» يبدو أكثر ملاءمة بكثير لما يحدث في السوبر ماركت منه لما يحدث في المصنع، مع فارق واحد بسيط، وهو أن العامل في المصنع ثابت في مكانه لايتحرك بينما يتحرك أمامه الشريط الحامل للسلعة التي يجرى تصنيعها، بينما الذي يتحرك في السوبر ماركت هو الانسان نفسه، والسلع ثابتة في مكانها. في المصنع تعرض السلعة نفسها على العامل ليجرى عليها التعديلات اللازمة حتى تخرج السلعة من المصنع تامة الصنع وجاهزة للاستعمال، أما في السوبر ماركت فإن المستهلك هو الذي يعرض نفسه على السلع الثابتة والمعروضة على الرفوف، فتجرى هذه السلع على نفسية المستهلك التعديلات اللازمة حتى يخرج المستهلك من السوبر ماركت «تام الصنع» وجاهزا للاستهلاك. لتوضيح ذلك فلنتتبع ما يحدث للمستهلك منذ دخوله من باب السوبر ماركت وحتى يخرج منه، فستجد العجب العجاب.

التروللي المدهش :

عند باب السوبر ماركت يجد الواحد منا سلة معدنية هي أقرب إلى المركبة منها إلى السلة، إذ أنها وعاء كبير يقوم على أربع عجلات، وأحيانا تكون من الفخامة بحيث تتسع لركوب طفل صغير في جانب منها، تسير به أمه أو أبوه في شوارع السوبر ماركت التي يطلق عليها بالفعل اسم الحارات أو الشوارع (lanes)، ريثما يتم جمع السلع من الرفوف المختلفة.

لم تكن هذه السلة (التي تسمى الآن بالترولي) ، عندما بدأ ظهور السوبر ماركت أكثر من وعاء صغير من البلاستيك يحمله المرء بيده، ثم اكتشف أصحاب

السوبر ماركت نقطة ضعف خطيرة في زبائنهم، لم يترددوا في استغلالها، وتتمثل في النزوع الطبيعي لدى الانسان إلى ملء ما كان فارغاً. إذا كان الأمر كذلك فإن اعطاء الزبون سلة عظيمة الحجم سوف يدفعه دفعا إلى ملئها بمختلف السلع المعروضة عليه، أو على الأقل ملء الجزء الأكبر منها. إذ لابد أن يبدو منظر السلة الضخمة وهي لا تحتوي إلا على علبة صغيرة أو رغيف خبز واحد مثلا، منظرا غير طبيعي بل وقد يثير بعض السخرية. لقد انقلب الأمر إذن عما كان في الماضي، فبعد أن كان الحال في الماضي أن يشتري المرء ما يحتاجه ثم يبحث عن الوعاء اللازم لحمله، أصبح الحال في السوبر ماركت الحديث، أن يحدد حجم الوعاء في البداية ثم تتحدد كمية السلع المشتراة طبقا لذلك.

* * *

خرافة «حرية الاختيار»

منذ أن يتسلم زائر السوبر ماركت هذا الترولى المدهش ذا الأربع عجلات، يكون قد وضع نفسه تحت رحمة البائع ليفعل به ما يشاء. فهو إذ يتنقل من قسم لآخر من أقسام السوبر ماركت ؟ من قسم منتجات الألبان، إلي قسم اللحوم، إلي قسم النشويات إلي قسم المربات، إلي قسم المشروبات الغازية.. إلخ يجد نفسه وجها لوجه مع عدد لا نهائي من أصناف السلع الواحدة يقف أمامها كالمشدوه لا يعرف كيف يتصرف. إن الاقتصادي يقول لنا إن زيادة عدد السلع والأصناف على هذا النحو يوسّع من دائرة حرية الاختيار المتاحة للمستهلك، ولكن يبدو أن الأقرب إلي الصحة أن حرية الاختيار يشترط لممارستها ألا يتجاوز عدد الأشياء المعروضة حدا معينا، فإذا تجاوز عددها هذا الحد يصاب المستهلك بحيرة بالغة قد تعطّل تماما قدرته على الاختيار، ويصبح فريسة سهلة لأي إغراء أو إلحاح من جانب المنتج أو البائع.

أنظر مثلا إلي قسم الجبن، تجد أمامك عددا من أصناف الجبن قد يتجاوز المائة، فتجد الجبن الأبيض والأصفر والأحمر، شديد الملوحة وقليل الملوحة القديم والجديد، كامل الدسم وعديم الدسم وما بينهما، الصلب واللين، ما يمكن أن يعيش مدة طويلة دون أن يفسد وما يجب استهلاكه فورا، ما يصلح للأكل مباشرة وما هو أصلح للطهي، ومن كل هذه الأصناف هناك المحلي والمستورد، والحجم الذي يلائم الفرد الذي يعيش بمفرده والحجم العائلي.. إلخ المطلوب منك - طبقا للنظرية الاقتصادية التي تفترض فيك أنك مستهلك عاقل رشيد، لا تلقي بالمال دون حساب أن تقارن بين كل هذه الأصناف المعروضة عليك، فتوازن بين مزاياها ونقائصها، ثم تقارن هذه المزايا والنقائص بأثمان الأصناف المختلفة بل المفروض أيضا، إذا كنت مستهلكا رشيداً مائة بالمائة، أن تقارن كل هذا، في هذا السوبر

ماركت بالذات، بما تجده في السوبر ماركت المجاور، وذلك قبل أن تتخذ قرارك النهائي. وهو جهد يفوق في الواقع طاقة البشر. بل إن صاحب السوبر ماركت لا يتركك لإجراء هذه المقارنات في هدوء بفرض إمكانها أصلا إذ يواجهك إعلان كبير وضع فوق أحد الرفوف، يخبرك بأنك إذا اشتريت هذا الصنف دون غيره تكون قد «ادخرت» جنيها أو جنيهين، مع أنك كنت تظن أن شراءك لهذا الصنف أو غيره يتضمن انفاقا وليس إدخارا. كما أن صاحب السوبر ماركت حريص علي اتباع طريقة معينة وخبيثة في كتابة الأسعار على كل صنف، فبدلا من أن يكتب «خمسة جنيهات» مثلا على أحد الأصناف يكتب ٤٩٩ قرشا، مستغلاً نقطة ضعف أخرى مدهشة فينا جميعا، وهي أننا إذا رأينا هذا الرقم (٤٩٩) نتصرف تلقائيا إلى الظن فإن الرقم أقرب إلى أربعة منه إلى خمسة، ويظل المستهلك يرتكب هذا الخطأ المرة تلو الأخرى دون أن يتعلم الدرس قط.

يبدو أيضا أن المرء منا إذا رأى صنفا معينا من سلعة ما، وليكن الجبن مثلا، وقد وضع علي الرف وسط عشرات الأصناف الأخرى المتعددة الأشكال والألوان، يرى فيه جاذبية لا يتمتع بها إذا رؤى منفردا، إذ يضفي المنظر العام وتعدد الأشكال والألوان جمالا وبهاء علي كل صنف من الأصناف، لا يتمتع بها أيها على حدة، فإذا قرر أحدنا شراء أحد هذه الأصناف ووضعه في سلته، فإنه يفعل ذلك وهو يتخيَّل أنه يحصل بهذا الشراء على المنظر بأكمله أو على الرفّ برمّته، فإذا عاد إلى بيته وأخرج ما اشتراه ونظر إليه اعترته الدهشة وخيبة الأمل إذ يرى أن ما اشتراه لم يكن الا قطعة يتيمة من الجبن لم يكن لها في الحقيقة كل هذا البهاء الذى ظنّه فيها.

طعام بلا غذاء:

منذ نحو ثلاثين عاما، أى فى بداية السبعينات، بدأ يشيع في دول الغرب اهتمام متزايد، كاد يبلغ درجة الهوس، بما يجب على المرء عمله للمحافظة على صحته وإطالة عمره والاحتفاظ بلياقته البدنية ورشاقته. ويصعب تحديد منشأ هذه الظاهرة والباعث عليها. هل هو ما أسفرت عنه البحوث الطبية من اكتشاف لأخطار ارتفاع نسبة الكولسترول في الدم مثلا، أو ارتفاع نسبة السكر، أو انتشار ضغط الدم المرتفع، أو أخطار السمنة المفرطة ومزايا النحافة.. إلخ ؟، أم أن السبب هو أن الناس إذا بلغوا حدا معينا من الرخاء والرفاهة وتضاءلت لديهم مشكلة العوز والحاجة، لابّد أن يجدوا لأنفسهم شاغلا آخر ينصرفون إليه ويحملون همه؟ . أيا كان السبب فإن من المؤكد أن المنتجين والبائعين قد استغلوا لصالحهم انتشار هذا الهوس بالصحة واللياقة البدنية والرشاقة، وقد يكونون قد

عملوا على زيادة انتشاره وتقويته. قد يبدو وهذا القول غريبا لأول وهلة، إذ المفروض أن يؤدى تزايد الشعور بخطر ارتفاع نسبة الكولسترول أو السكر أو البروتين أو بأهمية الرشاقة والنحافة إلى تخفيض الاستهلاك بوجه عام، ومن ثم أن ينعكس هذا فى انخفاض الطلب على مختلف السلع الغذائية. ولكن يبدو أن العكس بالضبط هو الصحيح. ألا نرى حالنا فى شهر رمضان مثلا، والمفروض أن يكون شهر الجوع والزهد، فإذا به يتحول إلى شهر يرتفع فيه حجم الانفاق ارتفاعا ملحوظا، بما فى ذلك الانفاق على السلع الغذائية نفسها. كذلك ما حدث فى الغرب، إذ قلب المنتجون والبائعون هذا الهوس بالصحة والرشاقة رأسا على عقب، فبدلا من أن يصبح خطرا يهدد البيع والتسويق، خلقوا منه مناسبات جديدة للبيع والشراء.

إنى لا أقصد فقط الأجهزة الرياضية التى شاع استخدامها فى النوادى وفى داخل البيوت للمحافظة على الرشاقة واللياقة البدنية، أو أجهزة قياس الضغط أو السكر السهلة الاستخدام والخفيفة الوزن والتى يمكن لأى فرد أن يحملها معه إلى أى مكان ، ولا أقصد فقط تلك الملابس الجديدة التى تستخدم أثناء رياضة الجرى أو المشي السريع، أو أجهزة الراديو المحمول وما يصاحبها من سماعات صنعت خصيصا لهؤلاء الممارسين اليوميين لهذه الرياضة، بل أقصد أيضا الترويج للسلع الغذائية نفسها.

صحيح أن هذا الخوف الجديد من المواد الدهنية أو السكرية أو البروتينية يمكن أن يصرف الناس عن أصناف معينة من السلع، ولكن ما رأيك فى ابتداع أصناف بديلة يروّج لها، لا بالكلام عما تحتويه من صفات رائعة ، بل بالكلام عما تخلو منه من صفات! فهذه الأصناف الجديدة يروّج لها، ليس بالقول فإنها مغذية أو لذيذة الطعم أو حلوة المذاق، بل على العكس بالضبط يروج لها بالقول بأنها ذات سعرات حرارية منخفضة للغاية، أو بأنها تخلو من أى حلاوة، أو بإنها قليلة الدسم أو حتى عديمة الدسم، أو فإنها لا تحتوى على أى دهون على الاطلاق، أو أى بروتينات، أو أى سكر، حتى ليكاد المرء أن يسأل نفسه: «إذا كانت هذه الأصناف كما يقولون خالية حقا من كل هذه الأشياء، فأى نفع يمكن أن نجني من ورائها؟».

الكاميرا الخفية :

أثناء سيرك فى ممرات السوبر ماركت ، تصل إلى أذنيك بعض الأنغام الرقيقة التى تتسم بخفوت الصوت حتى لا تصرف انتباهك عما يجب التركيز عليه من سلع، ولكنها تضفى مع ذلك جواً من الرومانسية والشاعرية يساعد على خلق شعور بالتفاؤل والرضا على الحياة، ومن ثم يساعد أيضا على أن تتخذ قرارات

إيجابية إذا حدث وترددت بين الشراء وعدمه.

إن صاحب السوبر ماركت حريص إذن على زيادة ثقتك بنفسك واطمئنانك إلى المستقبل، إذ أن هذا الشعور كفيل بالتشجيع على الانفاق، ولكن صاحب المتجر نفسه لا يشعر بثقة كبيرة فيك ولا يطمئن إليك بدرجة كبيرة. الدليل على ذلك، ذلك العدد الكبير من الكاميرات الخفية التى بثها صاحب المتجر فى أماكن متعددة، لكي تنقل إليه صور الزبائن من الأمام ومن الخلف أثناء تجولهم فى السوبر ماركت ، وذلك تجنبا لأى خطر يتمثل فى قيام أحد الزبائن، استسلاما لكل ما يعرض عليه من إغراءات، بسرقة بعض ما يجده على الرفوف، فيدسّه فى جيبه ويخرج به دون أن يدفع ثمنه.

هذه الحقيقة المتعلقة بالكاميرات الخفية ليست فى الواقع سراً يحجبه البائع عن زبائنه، بل إنه يجاهر به ويعلنه بصراحة أملا فى أن تؤدى هذه المصارحة إلى تقليل حجم السرقات. وإنما المدهش حقا أن هذه الحقيقة، حقيقة خضوع الزبائن للمراقبة الدقيقة والتصعيد المستمر، لا يبدو أنها تسبب أي ازعاج لزبائن السوبر ماركت، أو تثير غضبهم ، لما ينطوى عليه هذا الإجراء من اتهام صريح لهم بقلة الذمّة . قد يكون سبب هذا أن الإهانة فى هذه الحالة ليست موجهة لشخص معين دون غيره بل هى موجّهة للجميع، ومادام الجميع يعاملون هذه المعاملة ويقادون كقطعان الماشية دون تمييز بين زبون وآخر، فليس هناك مبرر لأن يغضب أحد لكرامته أو يمتنع عن الشراء لمجرد أن البائع يشك فى ذمته.

وقت الحساب :

يتابع زائر السوبر ماركت سيره، مضيفا سلعة بعد أخرى إلى سلّته، دون أن يكون لديه إلا فكرة تقريبية جدا عن إجمالى المبلغ الذى عليه أن يدفعه، حتى يصل إلى وقت الحساب. وأمام الآلة الحاسبة يقف بضع لحظات ريثما تجمع العاملة قيمة ما اشتراه. لايريد صاحب المتجر أن يضيّع هذه الفرصة الذهبية التى يقف فيها المستهلك بضع لحظات لا يفعل خلالها شيئا ريثما تنتهى العاملة من حساباتها. ذلك أن هذا المكان هو فى الواقع مكان رائع لوضع بضع سلع صغيرة تحت نظر المستهلك مباشرة، وهى سلع اختيرت بعناية وتتسم كلها بالضآلة النسبية فى السعر وفى الأهمية على السواء، مثل قطع الشوكلاته أو اللبان، مما يمكن أن يقول المستهلك لنفسه إذا رآها: «إذا كنت قد اشتريت كل هذه الاشياء، وسأنفق كل هذا الانفاق فما الضرر من قطعة صغيرة من الشوكلاته أو اللبان ، لها فائدتها بلا شك ، ولن تضيف شيئا يذكر إلى إجمالى الحساب».

عندما يتم اضافة هذا القطعة من الشوكلاته أو اللبان إلى الترولى، يكون

السوبر ماركت قد امتص آخر قطرة من دم المستهلك، ويكون قد تم تطويع المستهلك وترويضه وأصبح من الممكن السماح له بالخروج - بعد أن يدفع ما عليه بالطبع فقد أصبح هو نفسه «سلعة تامة الصنع».

السوبر ماركت ومحل البقالة القديم:

قبل أن أنهي هذا الوصف لما يفعله السوبر ماركت بالمستهلك أودّ أن أذكّر القارئ الكريم بشيء قد يكون قد نسيه، وهو ذلك البقّال القديم الذي كنا نشتري منه حاجاتنا عندما كنا صغاراً. وأريد على الأخص أن ألفت نظر القارئ إلى فارقين مهمين بين محل البقالة القديم والسوبر ماركت الحديث.

الفارق الأول: هو أننا عندما كنا نقصد محل البقالة القديم، القائم على ناصية الشارع، لم تكن لنفعل ذلك إلا إذا نشأت لدينا حاجة إلى سلعة بعينها، نعرفها بكل أوصافها. فإذا ذهبنا إليه طلبنا ما نحن بحاجة إليه وعدنا به. أما في السوبر ماركت الحديث فأنت كثيرا ما تقرر الذهاب إليه لا لأنك تشعر بحاجة إلى شيء معين تعرفه جيدا، وإنما لأنك تريد أن تتسوّق. إنك لا تذهب لشراء «مايجب» شراؤه، ولكن لترى ما الذي «يمكن» لك شراؤه، فإذا بك تنتهي من زيارتك بشراء ما لم يخطر ببالك شراؤه قط قبل أن تدخل من الباب.

الفارق الثاني: هو أنك كنت إذا ذهبت إلى محل البقالة القديم تجد بمجرد دخولك من تكلمه ويكلمك، بل كنت في معظم الأحيان تعرف اسم البائع وكثيرا ما كان يخاطبك باسمك. كثيرا ما كنا نبدأ البائع بالسؤال: عندك جبنه رومي؟» أو «عندك زيتون أسود»؟ فإذا كان لديه هذا أو ذاك قد تطلب منه أن يناولنا قطعة صغيرة من الجبن أو حبّة من حبّات الزيتون لتذوّقها قبل أن نتورط في الشراء. ذلك أن ما لديه من جبن قد يكون أكثر ملوحة مما نحب والزيتون قد يكون أكثر أو أقل مرارة مما نريد. كانت هذه السلعة أو تلك تأتي إلى البقال بكميات كبيرة يقوم هو بتجزئتها وتغليفها، ومن ثم فلم يكن ثمة ضرر كبير من أن يتذوق الزبون قطعة من السلعة قبل أن يقرر شراءها. بل كان من المألوف والشائع أن يعرض عليك البائع أن تتأكد بنفسك من أن السلعة طازجة أو كاملة النضج، فإذا بدا منك مثلا أي شك في حالة البطيخة التي يقدمها لك أصرّ على أن يكون شراؤك لها «على السكّين»، فيكسرها أمامك فإن لم تعجبك تركتها وأخذت غيرها. لم يعد شيء من هذا ممكنا بالطبع في السوبر ماركت. إذ فلتحاول إذا شئت أن تشتري بطيخة «على السكين»، في أحد هذه المحلات العظيمة، أذ فلتحاول أن تطلب

تذوّق هذا الصنف أو ذاك، هذا بفرض أنك وجدت أحداً تكلّمه ويكلّمك . نحن الآن في عصر المعلّبات والمحفوظات والمثلجات ، مما يستحيل تذوقه إلا بعد أن تتم واقعة الشراء.

قد تقول: وما العيب في ذلك؟ ألا تجد الآن على كل سلعة وكل صنف مربعاً صغيرا كتب فيه بدقة بالغة وبتفصيل يدعو للاعجاب: عدد السعرات الحرارية التي يحتويها كل ١٠٠ جرام من السلعة، وكمية ما تحتويه بالضبط من دهون ومواد سكرية أو بروتينية.. إلخ؟ ما الذي يمكن أن تريد معرفته أكثر من هذا ؟.

أما عن طزاجة السلعة أو فسادها، ألا تجد الآن على كل سلعة تاريخين مكتوبين بكل وضوح، أحدهما هو تاريخ الانتاج والآخر تاريخ انتهاء الصلاحية؟ هل تطمع في تطبيق أكثر صرامة من ذلك لقواعد العلم الصحيحة ، أو حرصا أكبر من هذا على سلامة المستهلك وصحته ؟»

كل هذا صحيح بلاشك ، ولكني مع ذلك ألفت نظر القارىء إلى أمرين، الأول أنك، في ظل كل هذه المعلومات المكتوبة على كل سلعة، والمطلوب منك قراءتها، واستيعابها ، لا تشترى الآن في الحقيقة جبنا أو زيتونا ، بل تشترى سعرات حرارية أو بروتينات أو مواد سكرية ، وفي هذا العصر المدهش للمعلومات، يتوارى شيئا فشيئا الذوق الشخصي للمستهلك ، هذا الذوق الذي يختلف من شخص لآخر، ليحل محله التحليل الكيميائي الذي يتساوى ازاءه الناس جميعا ..

والأمر الثاني : هو أنه في نفس الوقت الذي بدأ فيه المنتج في ذكر تاريخ الانتاج وتاريخ انتهاء الصلاحية، بدأ أيضا في ابتداع مختلف الوسائل لإطالة عمر السلعة لأقصى حد ممكن، إما بتعديل صفات السلعة نفسها، منذ اختيار البذور إلى تعليبها أو تغليفها، أو بإضافة مختلف المواد الكيماوية «الحافظة» التي تزداد الشكوك يوما بعد يوم حول مدى الضرر الذي تسببه لصحة المستهلك.

وإذا بنا نجد أعدادا متزايدة من المستهلكين يفضلون العودة إلى نظام البقالة القديم حيث تباع السلعة بحالتها الطبيعية. وقد أطلقت هذه المحلات الجديدة على ما تبيعه من سلع غذائية اسما مدهشا هو «مواد غذائية ملائمة للصحة» (Health Food) ، وهو وصف مدهش لأنه إذا كان صحيحا ، فإن من شأنه أن يثير الكثير من الشكوك حول كثير مما يعرضه السوبر ماركت من سلع غذائية، وكأنه قد أصبح من المناسب أن تعلّق يافطة فوق هذه السلع تحمل تحذيرا لزائر السوبر ماركت بأن ما يراه أمامه هو «سلع مضرة بالصحة» .

أدب الرحلات

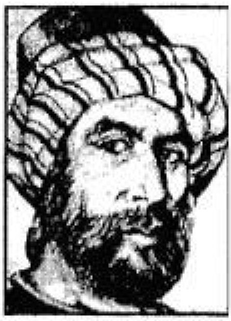
خواطـــــر مســــافر

بقلم : مصطفى نبيل

تتسابق اليوم الأسفار مع الفضائيات..

ولم يعد السفر مثلما كان، متعبا أو كثير النفقات، فتستطيع اليوم أن تسافر إلى أقصى الأرض، وأنت جالس على مقعدك أمام التليفزيون أو الفيديو أو الإنترنت. تشاهد بالكلمة والصورة أى مكان فى العالم.

وها هى الرحلات تصبح أسهل وأيسر ، واختفت منها المعاناة وحس المغامرة، بعد أن استبدل الإنسان بقطع المسافات على قدميه أو راكبا الجمال والخيول ركوب السيارات والقاطرات والبواخر العملاقة والطائرات المجهزة بكل وسائل الراحة. وأصبح المسافر وكأنه يمر خلال أنبوب ينتهى به إلى مطار البلد الذى يقصده، فما يكاد يستقر داخل الطائرة حتى يجد نفسه قد وصل إلى هدفه ، وما كان فى الماضى يستغرق شهوراً أصبح اليوم يستغرق ساعات، ولم تعد الأسفار تعلم الصبر على الشدائد واحتمال الصعاب، فأغلب المسافرين اليوم من العجائز الذين وصلوا إلى سن التقاعد، ولم يعد ينقصهم سوى الطواف حول العالم.



ابن بطوطة



كريستوفر كولمبس

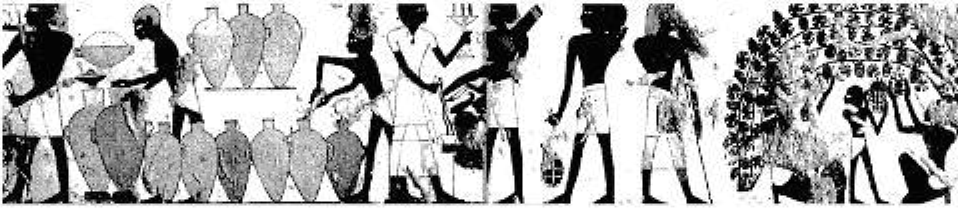
ووضعت الفضائيات العالم بين يديك، تستدعيه بلمسة من أناملك، وأصبح العالم كتابا مفتوحاً ، أمام نظر كل الشعوب، فإذا كان العالم في الماضي قرية صغيرة مبعثرة، فهو اليوم قرية واحدة صغيرة ، فهل ستبقى «الرحلة» بمعناها التقليدي أم ستندثر؟! أم هل دخلت الرحلة مرحلة تاريخية جديدة؟ .. وهل مازال «القلم والعدسة» يلعبان الدور الجوهري في أدب الرحلات أم انتقلت إلى التليفزيون الذي ينقل بالصوت والصورة حياة وعادات الشعوب، وألسنتهم المختلفة وطرق حياتهم، ترى على شاشاته المناظر الحية والفنون والعمارة والمتاحف والأسواق، والغابات والجزر والواحات.

وأصبح الرحالة سائحين يسلمون أمرهم إلي غيرهم ، واختفي المكتشف المغامر، وأصبح المسافر شخصا سلبيا، مما يؤثر بالضرورة على أدب الرحلات في ظل التطورات التكنولوجية الحديثة ، وينقل الرحلة من الكلمة المكتوبة إلى الإنترنت والتليفزيون.

كان حلمي منذ الصغر هو التجول في البلاد المختلفة، وزادت رغبتي في السفر والتطلع بشوق إليه، عندما تبينت أن اسمي في قائمة الممنوعين من السفر ولم يتجاوز عمري خمسة عشر عاما عندما كنت طالبا في المدرسة السعيدية، وطلبت الانضمام إلي رحلة مدرسية إلى السودان – لاحظ أن المدارس الثانوية كانت تتيح الفرصة لطلابها للتجول في البلدان العربية – ، وبعدها وعندما رغبت في السفر مع أسرتي إلى كل من سوريا ولبنان لم أحصل على تأشيرة خروج!، ولم يبق لي سوى التجول في هذه الأصقاع من خلال ما قرأته، وأترك بقية الرحلة لخيالي، ثم مكنتني ظروف عملي أن أحقق بعض ما حلمت به، وزرت بالفعل معظم بلاد العالم.

حقا .. لقد ولد الإنسان راحلاً، إن أعجزته الرحلة أسعفه الخيال. وتعلمت من خلال هذه الرحلات أنه لابد أن ترى الغير بمنطقه لا بمنطقك، وتتعرف على أفكاره بصرف النظر عن أفكارك .

ويلاحظ أن أكثر الأعمال الأدبية تشويقا في التراث هي : «ألف ليلة وليلة» التي اتخذت من الرحلة قالباً أساسياً لها، فالرحلة أكثر القوالب تشويقاً وإثارة، كما يلاحظ أيضا أن أدب الرحلات هو جماع الأجناس الأدبية المختلفة، ففيه من



الدراما والقصة والشعر والخيال، ويصبح بجاذبيته أداة تشويق القراء إلى جوانب المعرفة المتعددة.

●

والسفر تعبير عميق عن رغبة الإنسان في كشف المجهول واختراق الآفاق، واكتساب المعارف الجديدة، كما أن في السفر رغبة دفينة في الفكاك من أسر المكان، والتخلص من قيود الإقامة في مساحة محددة، لذلك كلما حاصرت المرء المشاكل والمصاعب داهمته الرغبة العميقة في الرحيل، ويعبر عن ذلك الرحالة العربي المسعودي بقوله: «ليس من لزم وطنه، وقنع بما إليه من الخبر، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه..».

فمع السفر تشعر برعشة الدهشة مع كل جديد، والرغبة الجامحة في الاكتشاف، وتحس أنك في حالة تجدد مستمر، وكما قال أبو تمام:

وطول مقام المرء في الحي مخلق
لديباجتيه، فاغترب تتجدد

والسفر رياضة النفس وتهذيب الطبع، وتثقيف الفكر، والرحلة اكتشاف الإنسان للعالم من حوله، وتقول .. إن كانت عين المسافر ثاقبة، فإنها تمتع المسافر بقوة الملاحظة، وشهوة التطلع، ويقظة الحواس، والرغبة في التفاعل والحوار مع الثقافات المختلفة، والحرص على التسجيل، وتعمل أيضا الرحلة على التعرف على أسلوب الحياة والتقاليد والعادات والقيم والأزياء والفنون والمأثورات الشعبية لدى الشعوب التي يزورها. ولا يفوتني هنا قول الشاعر البريطاني «ت. س. إليوت»: «ارتحلوا، انطلقوا، فلستم نفس الأشخاص عند بدء الرحلة..».

ومن يدرك حقيقة التنوع بين البشر من العسير أن يقبل التعصب أو يسمح بالعزلة، فالسفر كشف للذات وانفتاح على الآخر.

ورغم أن ملوك مصر الفرعونية سجلوا جانبا من رحلاتهم على جدران المعابد، خاصة ما سجلته على جدران معبد الدير البحري الملكة حتشبسوت عن الرحلة إلى الجنوب، إلا أنه استوقفني عدم معرفة المصريين بمنابع النيل حتى العصر الحديث، وتصور المصريون أن نهر النيل ينبع من الجنة، أو تتدفق مياهه من السماء، حتى قام الرحالة الأوربيون باكتشاف منابع النيل في القرن الماضي، وأدهشني عدم قيام أحد الرحالة، بتتبع مجرى النيل حتى منابعه، رغم الشلالات والصحراء والغابات التي سيقطعها، ولم ينقل لنا التاريخ قيام أحد بهذه المحاولة.

هذا رغم أن ابن فضلان وحده هو الذي أمد العالم بالمعرفة عن شمال أوروبا وعن الفايكنج سكان الشمال في العصور الوسطى من خلال رحلته التي سجلها في كتاب، كما أن العالم الحسن بن الوزان أو ليون الأفريقي أمد العالم بالمعرفة عن بعض المناطق الأفريقية قبل العصر الحديث، ويعتبر كتاب «وصف أفريقيا» الكتاب الوحيد الذي يتناول الحياة في عدد من البلاد الأفريقية.

●

أتخيل دائما مدى شغف وفضول الرحالة المغربي ابن بطوطة أو الإيطالي ماركو بولو في التعرف على العالم الذي يعيش فيه، ومدى ما تمتع كل منهم من الإقدام والشجاعة، وكذلك مدى شجاعة ابن ماجد أو كولمبس وهو يبحر في بحر الظلمات، من أجل الوصول إلى عوالم جديدة.

واهتم الإدريسي بهذه المسألة التي تؤدي إلى تطور الأمم، وهي التي تؤدي إلى التقدم، يقول في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» تحت عنوان: قصة «رحلة فتية ركبوا البحر المظلم، وظلوا فيه أشهراً، بعد أن خرجوا لرؤية عجائبه وغرائبه وأسراره وحتى يقفوا على نهايته..».

وتؤكد هذه القصة أن المجازفة وراء المعرفة، ولم يكن غريبا أن تشارلز داروين أحد كبار العلماء في القرن التاسع عشر وصاحب نظرية النشوء والارتقاء، قيامه برحلة حول العالم على ظهر إحدى السفن، وجاءت نظريته إحدى نتائج هذه الرحلة، ونشر داروين تفاصيل رحلته حول العالم عام ١٨٤٢، واعتبرها البعض أمتع ما كتب داروين، لما تميزت به من عذوبة أدبية، وسجل خلالها الحقائق والمشاهدات مع تقديم تفسير علمي لها.

ولا يسعني أخيراً سوى أن أنشد مع ناظم حكمت قوله:

لا تحيا على الأرض كمستأجر بيت
أو زائر ريف يتأمل الخرائط
بل عش في العالم
وكأن العالم بيت أبيك
امنح ثقتك للحب وللأرض وللبحر.

بين الحياة والموت

بقلم : حسن سليمان

لا أدرى ماذا أكتب كأنى أصرخ فى الفراغ، الذى أبعد الآخرين عنى، أسمع صوتهم أعلى من صوتى تجاه فراغ آخر، إنهم هم الذين قطعوا ذلك الفراغ إلى اثنين كأنهم كانوا الوحيدين الذين قدر لهم ألا نلتقى رغم وهم بأنهم وأنا نلتقى. لذلك فالكلمات أعجز عن التحدث عن إسرائيل ومذابحها وتاريخها الطويل من الوحشية وتقاعس الامة الإسلامية .

صبرى راغب وأنا

فجأة حين وصلت إلي ميدان التحرير ذات ظهيرة وجدته يكاد يكون مرتبكا، فهناك جنازة شبه رسمية مع أكاليل الزهور التي لا تعد ولا تحصى، أما عن المشيعين فلا تتحدث. لم أر في حياتي جنازة بهذه الضخامة.

سألت من الراحل قالوا أحد الأساتذة بالجامعة . قلت إن أساتذة الجامعة يموتون كل حين ولا أحد يشعر بهم.

وحينما انتظرت حتى سارت الجنازة كلها، عبرت الشارع إلى ميدان الشيخ بركات متنفسا الصعداء .وفى اليوم التالى وبصفتي مولعا بقراءة البخت والوفيات فى جريدة «الأهرام»، ودائما تستفزنى الصور التى تنشر للمتوفين - فأحيانا ما تتصدر صفحة «الأهرام» كاملة وجه المتوفى . ويتساوى عدد الذين ينعونه مع عدد الذين ينعون رئيس الوزراء، أو وزير أو حرم رئيس مجلس إدارة المهم أن يتسابق الكل، وأن تتسابق الشركات والمصانع لمجاملة الرجل الذى ترتبط مصالحهم بمصالحه . وفى هذا اليوم الذى مات فيه الأستاذ وجدت نعي الوزراء والشركات ورجال الأعمال والشركات له. وكثيرا ما تستمر مثل هذه الحملات الغريبة من التعازى لمدة قد تصل إلى ثلاثة أيام.

فى صبيحة الجنازة وجدت أكثر من



صورة شخصية للفنان صبرى راغب بريشته

أربع صفحات لنعي أستاذ الجامعة .بعد ذلك نسى الأستاذ كلية ولم يتحدث عنه أحد. وظلت صفحة الوفيات تستثيرني.

ومنذ أكثر من شهرين توفى الفنان صبرى راغب ، وعلاقتي بصبرى راغب ترجع الى سنوات مضت فقد ترك الكلية غير آسف وذهب الى إبطاليا وظل هناك واستطاع أن يشق طريقه بمهارة يده ثم رجع ثانية بعد سنوات تربو على عشر فقبل فى نفس السنة التى ترك فيها الكلية.

أذكر أول لقاء معه ، كنا فى كلية الفنون، كان عميد الكلية فى ذلك الحين هو عبدالمنعم هيكل وفجأة رغم اعتراض الأساتذة والطلبة على أن الجرس لن يشكل أى شيء فى مسار الدراسة بكلية الفنون فالمشروع قد يستغرق أسبوعا أو أكثر فى يدى الطالب. فما قيمة الجرس؟ والدروس وهى قليلة، مثل التشريح وتاريخ الفن واللغة الايطالية يخصص لها يوم الخميس فقط فما قيمة الجرس نهائيا؟ فى ذلك الوقت كان صبرى راغب فى كلية الفنون هو أنبغ طالب فى الكلية فهو مدلل من الأساتذة ومن الإدارة ومن الموديلات وهذا تقليد أخذناه من كلية الفنون الفرنسية اذ معناه ميلاد فنان جديد. كنت أنا فى البكالوريوس ملقى على الأرض تحت أقدام ضابط الكلية لطيف نسيم ، وهو فنان لايقل عن الأساتذة كفاءة لكن لأنه «ابن ذوات» ذهب الى روما وعمل فى الأكاديميات الحرة فهو ليس فى حاجة إلى شهادات، كنت ملقى تحت أقدامه نائما، وبجوارى إبراهيم شهده المتصدر السنة الثالثة . كان طويلا جدا وكنت قصيرا جدا، كانت الشمس شديدة حتى إننا شبكنا ساعدينا على عيوننا، لكننا رأينا عبدالمنعم هيكل يقبل نحونا ، صاح عبدالمنعم هيكل بصوته الرفيع «ألم تسمعا الجرس؟اذهبا إلى مرسمكما» .

كان صبرى راغب يجلس بعيدا على كرسى يدخن غليونه فى صمت كما يفعل لطيف نسيم، وقد وضع ساقا على ساق لم يحرك ساكنا ولم يقف حتى للعميد احتراما. ظللنا أنا وشهده نائمين فى مكاننا ، نظر إلىّ شهده وقال: «الرجل ده بيقول إذهبا الى مرسمكما». فقلت «دعك منه إنه رجل عبيط» فقال شهده لعبد المنعم هيكل «إنه يقول إنك رجل عبيط» . تجاهل عبدالمنعم هيكل الإهانة.

فصاح عبد المنعم هيكل فى وجه لطيف نسيم بغيظ وهزيمة وهو لا يدرى ما علاقة الصداقة بين أسرتى وبين لطيف نسيم إذ إن لطيف نسيم أول من حملنى بعد ولادتى. صاح فى وجهه : «قومهم» ضحك لطيف نسيم ضحكته العالية الخشنة إذ لم يكن هو كذلك راضيا أن يكون فى كلية الفنون جرس، صاح فى وجهه : «قومهم أنت».

كان عبدالمنعم هيكل يحمل جميلا كبيرا للطيف نسيم فقد حدث إضراب منذ سنوات وهجم الطلاب على عبدالمنعم هيكل يريدون ضربه ، لطيف نسيم بصفته بطلا سابقا لمصر فى الملاكمة طاح فى الطلبة كلهم ضربا حتى أنزلهم أسفل السلالم «كومهم». وهكذا بهدوء انصرف عبدالمنعم

هيكل تاركا إيانا. مللنا الشمس وصاح لطيف نسيم «برافو يا ولد» وفجأة تبعني صبري راغب وعرفني بنفسه بأنه طالب بالسنة الثالثة وكان يجب أن يتخرج قبل سبع سنوات. وكانت هذه بداية صداقة عميقة بيني وبين صبري راغب. كان صبري راغب يملك مهارة فائقة وسرعة مذهلة تحير الأستاذ أحمد صبري، حتى إنه ذات مرة قال: كيف استطعت ان تنتهي من صورة مقرر لها أربعة أيام في أقل من يوم واحد؟.

وكانت الصورة «لبورتريه» وجه امرأة فقال صبري راغب «اجلس أنت أرني أين الأخطاء؟» وإذا بأحمد صبري يلقي بالفرشاة قائلا لا أدري لا أفهم، بعد جلوسه إذ أنه لم يجد خطأ واحدا، وترك المرسم غاضبا. كانت هذه بداية لعداوة رغم احترام صبري راغب لأحمد صبري إذ دائما لم ترتفع درجات صبري راغب عن فوق المتوسط، كانت زياراتنا لبعض أنا وصبري راغب تمتد إلى آخر الليل ونحن نتسكع في الشوارع والمطاعم. كان في الامكان أن يطلق دائما على صبري راغب أنه رجل شيك في تصرفاته وفي معاملاته. لم يدن نفسه مطلقا في تصرف ولم يثر مرة على أستاذ لأنه وضع له درجة صغيرة. ولم يناقش مرة أستاذا في درجة وضعها له. فالكلية لا تعني له شيئا سوى مرحلة لابد أن ينهيها، وتكسبه خارج الكلية. كان دائما يضمن له مستوى عال من المعيشة من خلال رسم الصور الشخصية.

أذكر في أيام مجد سيد مرعي وكان معجبا بصبري راغب أن أوصى له بوظيفة شرفية مهمة، تنحصر في رسم ضيوفنا من رؤساء الدول الزائرين: مثل سوكارنو وأنديرا غاندي ونهرو وغيرهم. فهو فقط القادر على رسمهم في جلسة واحدة. وكانت أسهم صبري راغب في ذلك الوقت قد وصلت إلى قمتها ورشاقة لسانه على سطح اللوحة لا تبارى.

ولما مرض صبري راغب لم يسأل عنه سوى النذر القليل من الأصدقاء، وفي آخر مرة تحدثت إليه بالتليفون قال لي إنه يريد أن يراني وحين نحدثت إليه ثانية قال لي: «أجلها فأنا لا أستطيع».

مات صبري راغب ولم يذهب إلى جنازته سوى أفراد يعدون على الأصابع ولم يكتب عنه أحد ولم ينع في صفحة الوفيات مثل التجار والسماسرة أو القوادين أو تجار المخدرات لهذا تعجبت. إذ أن صبري راغب لو كان قد توفي في أيامه الأولى لاختلف الأمر تماما!

الويل لمن يبعد عن السلطة. أنا الآن لا أعلم متى سأموت لكني مصر على أن أدفن في مقابر الصدقة. ولا يعلن عن وفاتي فهل أنا أكبر من باخ أو شكسبير أو بيتهوفن أو موتسارت. كلهم دفنوا في مقابر الصدقة ولم يسر وراءهم أحد لكن العمل الفني - إن كانت له قيمة - فسيفرض نفسه على التاريخ وعلى الأجيال وعلى الحياة وعلى الزمن. فمازالت الحضارة تقاس بمقياس الفن.

خضراء الدمن

عند منعطف الطريق إلي أوسترلي من الشارع الرئيسي وأنا في لندن في زيارة لأخي وجدت عربة تفاح، عندما رآني البائع وحياني وجدني مبتسما لأنه يضع قرطا في أذنه وهو في سن الشيخوخة وقد ولي عنه الشباب، كان يظن أنني سأشتري كالإنجليز واحدة أو اثنتين ولكنه حينما عرف إنني سأشتري «كيلو» ابتسم أكثر وحياني باللهجة العامية اللندنية «الكوكني» ، وازدادت بشاشته وترحيبه عندما قلت له إنني معجب به وإنني تركت له حرية اختيار الثمار الجيدة لأنه يعرفها جيدا.

أخذ يستعرض لى كيف يختار التفاح وكيف يقذفه فى الهواء وكيف يختبر ثقل كل ثمرة وكيف يطرقها بأصبعه . فجأة وجدت ثمرة كبيرة لونها قاتم وجميل وقد وضعها بعيدا عن التفاح . سألته لماذا استبعدها فقال لى إنها فاسدة. تعجبت وقلت له فاسدة هى وبهذا الحجم وجلدها مشدود؟ وإذا به يشطرها بسكينة ولدهشتى وجدت قلبها قاتما «بنى قاتم» سألته كيف عرفتها؟ فأخذ يستعرض لى معلوماته شارحا كيف أعرف التفاحة الجيدة ، كيف اكتشف ثقل الثمرة وكيف أعرف الثمرة من رنينها، ومن رائحتها ويرينى ثمرة ثمرة، قائلا لى هذه أفضل من تلك . ثم بدأ يشرح لى كيف أعرف من عنق الثمرة وهل هى جذبت بقوة وهذا معناه انها لم تنضج بعد. سألته «وإن لم تستبعد الفاسدة؟» قال ستتلف باقى التفاح. قال لى انظر هل تريد أن تعرف. وإذا به يأتى لى بتفاحة كانت ملتصقة بالتفاحة الفاسدة ويشطرها. فإذا بالنصف الذى كان ملتصقا بالتفاحة الفاسدة قد فسد . قلت له وهل معنى هذا أنه لو تزوجت امرأة من رجل فاسد ستفسد . قال لى «أجل سوف تفسد بالتأكيد ولكن هذا يتوقف على معدنها أليست تشاركه فى الفساد؟ ألم تستقبل معه ضيوفه ؟ ألم تعد لهم الولائم؟ ألم تسمع أكاذيبه وهو يوقع بهم فى حبائله؟ حذارى فقد تكون فتاة طريق أفضل منها».

تلقيت من هذا الرجل درسا لا ينسى وأنا إلى الآن لا يمكن أن يخدعنى فكهانى فى ثمرة واحدة وتذكرت وأنا سائر فى طريقى ألم يقل «محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم». «إياكم وخضراء الدمن» و(هى الزرع الزاهى الاخضر الذى ينمو فى مياه عفنة) .

وتساءلت وأنا سائر كيف يستطيع المرء فى مدينة كالقاهرة قوامها يربو على

الثلاثين مليونا وقد يصل قريبا الى ستين مليونا إذ هى تشارف وتقترب من السويس كيف للمرء أن يختار إمرأته وكلهن يقلدن بعضهن فى أزيائهن، وفى طريقة كلامهن وفى سلوكهن وفى ترديد اكاذيبهن التى لا تنتهى . خصوصا فى مجتمع أصبحت فيه الصدارة للصوص وسيئى السمعة والسماسرة. قالت لى الدكتورة هبه حسين استاذة التجميل فى جامعة عين شمس إن هناك رجلا فى نادى الجزيرة سجن لانه اختلس ملايين الجنيهات وحصل على قروض دون ضمانات وحكم عليه بالسجن فنفذ حكم السجن كاملا. وفى اليوم التالى لخروجه من السجن جلس على مائدة فى نادى الجزيرة فإذا بشبان لا حصر لهم مع آبائهم يتقدمون لخطبة بناته - طمعا فى الملايين التى اختلسها.

لم يعد أحد الآن يبحث عن فتاة ذات أصل، هذا يذكرنى بقصة ستاندال عن الفتاة الجميلة ذات الاصل التى كانت تشوه وجهها بأصباغ لأنها كانت تريد الرجل الحق الذى يستطيع أن يكشف حقيقتها! .

زمن النقد

كنت طفلا صغيرا اجلس بجوار جدى في الترام. وفي ميدان العتبة الخضراء وجدنا بائعى الجرائد يندفعون فجأة صائحين «قصيدة شوقى الجديدة» ويبدأ كل من فى الترام، حتى جدى، يتهافتون على شراء الجريدة أو القصيدة فلا أدرى إن كانت قد نشرت فى جريدة ما، أم كانت منفردة . كل ما أذكره أن أبى وجدى وخالى وأمى اشتركوا فى نقد القصيدة الجديدة ، ولا أظن أن مثل هذا الزمن الجميل يتكرر ثانية.

وفى اليوم التالى أخذنى جدى إلى قهوة «ركسي» كان النقاش محتدا بين رواد المقهى كلهم عن هذه القصيدة. ولم أكن فى سن يسمح لى بأن أفهم شيئا ، إذ إن همى كله كان منصرفا إلى قطعة الملبن التى طلبها لى جدى، وصاح الجرسون اليونانى «واحد لوكومادس» أتت لى فى طبق أبيض صغير، أذكر جيدا أنها كانت مغلفة فى ورق ذى شمع «ورق القصدير» ولكنى لا أنسى طعمها مدى حياتى إذ كانت بطعم المستكة ومحشوة باللوز واحتفظت بالورقة الخارجية ، التى كتب عليها «لوتس» حتى كبرت . فجأة سألت «مارى» التى مازالت تعمل فى

أجزخانة «كالسكا» قلت لها إننى ذقت «ملبن» لا يمكن أن أنساه يسمى «لوتس» أجابتنى أنها تعرف صاحب المصنع وأنه أرمنى مثلها وطلبت منه أن يحضر لى علبة من علب التصدير الخشبية المستديرة.

***

لم نكن نشترى الجرائد اليومية كثيرا اللهم إلا إذا كانت توجد مقالة لكاتب كبير فى «البلاغ» أو «الجامعة» أو «الصرخة» أو «الأنصار» أو «أمحتب» أو «كل شىء» و«الدنيا» أو «الصباح» أو «المقتطف» أو «مجلة مجلتى» لكن الكتب كثيرة، وأذكر أننى انتهيت كلية من معظم كتب طه حسين وباقى الكتاب المصريين المعروفين وأنا فى الثالثة عشرة. وأعترف - ربما لجهلى - أننى لم أفهم العقاد كلية.

كان جودة السحار صديقا لوالدى وكانا يتقابلان فى الفجالة وهو الذى أعطى أبى قصة لنجيب محفوظ الأولى أذكر أنها كانت عن الفراعنة. ولا أذكر اسمها الآن وقال أبى إن جودة السحار يدفع نجيب محفوظ ليكتب قصصا عن الطبقة المتوسطة فى القاهرة القديمة الفاطمية. سينشرها له تباعا لكن أمى كانت متحمسة لاثنين المازنى وآخر يسمى ذهنى ذهنى كان يقطن فى آخر شارع النزهة بغمرة وكان يعمل مترجما أيضا كالمازنى. أظن أن السيدة آمال فهمى تذكر اسمه الأول لأن ابنته كانت من أوائل من عملوا بإذاعة الشرق الأوسط. مات ذهنى فى سن مبكرة، أما المازنى فلم يكن جميلا وكنت من حماسى له أذهب لأراه يستقل الترام من أمام مدرسة خليل أغا. كانت أمى متحمسة جدا للمازنى لدرجة أنها فى لحظة من لحظات الهزل قال لها أخى لقد تزوجت أبى، لكن من كنت تودين أن تتزوجينه؟ قالت: عبدالقادر المازنى. أقر وأعترف أن كتاب خيوط العنكبوت وقصة عبدالله الكاتب للمازنى قد كان لهما أثر كبير فى تكوين شخصيتى الفكرية والأدبية، كما أذكر ولازلت أصر أن المازنى لم يأخذ حقه كاملا. لقد كان أكثر عمقا وثقافة من جيله وأذكر أنه قد زارنا مرة كاتب قصة لا أذكر اسمه محمد أو محمود كامل المحامى، كان كث الحاجبين هذا كل ما أذكره عنه. كان يكتب قصصا عن الطبقة المتوسطة وخاصة القاطنين فى شارع خيرت، ويصف بدقة انعطاف الترام والشرفات المطلة عليه فى ذلك الوقت كان شغل الأسرة الشاغل هو الثقافة والكتاب فلا صدارة للمذياع ولم تكن له عمق الكلمة المكتوبة.

***

وبعد وفاة أمى وجدت فى أوراقها مجلات الصباح والجامعة وكل المجلات التى ذكرتها من قبل، ووجدت عددا من «السياسة الأسبوعية» خاصا بتكريم أحمد شوقى. صادر فى السبت ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٧ معنى هذا صدوره قبل أن أولد. وجدت به نقدا لقصيدة طويلة لشوقى قد كتب بعمق يعجز عنه كتاب ونقاد هذا الزمن منهم أحمد شفيق باشا، وشبل بك

ملاط، وخليل بك مطران، والسيدة إحسان أحمد، والأستاذ المازني، وأحمد محرم، والأستاذ أحمد زكي أبو شادي، والأستاذ أحمد حسن الزيات، والأستاذ إسماعيل مظهر بك، وأنطون بك الجميل، والشيخ عباس الجمل، والأستاذ علي محمود طه ، لكن المفاجأة الكبيرة جدا هي لناقد معمم اسمه محمد الأسمر، إذ كانت مكتوبة بموضوعية وتحليل عميق جدا ، وكذلك كلمة الأستاذ محمد الهيهاوي والدكتور محمد صبري، ومحمد بك كامل الحمامصي والأستاذ كروي علي. والأستاذ الزهاوي والأستاذ معروف الرصافي، وأحمد أفندي الكاشف، ومحمد أمين بك، لكن أضحل هذه المجموعة كانت نقدا لشاب اسمه عباس العقاد. كانت موتورة وكان يهمه فقط الهجوم. لا أكثر ولا أقل للشهرة . كان بعيدا عن الموضوعية كان يرمي كاتبها فقط الشهرة من الهجوم على شوقي.

أظن أن هذا العدد في حد ذاته ثروة أدبية تستحق أن تنشر كاملة في عدد من أعداد الهلال أو في كتاب يحذو حذوه النقاد الشبان. كم واحد من هؤلاء يذكره الشبان الآن الذين لا يحدوهم سوى حقد دفين وكراهية لبعضهم البعض حتى صار النقد الآن ضحلا وغير موضوعي؟ . وربما كان هذا لجهلهم باللغات الاجنبية فلم يتقدم النقد خطوة واحدة، منذ مندور ولويس عوض . وكم من هؤلاء الأسماء لايزالون معروفين وبينهم احسن من كتبوا نقدا؟ هل صار الآن زمن النقد القزم؟ هل نحن في زمن النقد الضحل؟ .

لكن الأفضل أن أغلق على بابي وأكتفي بارتجافة زهرة تحت بقعة من الضوء . فبقعة الضوء الشارفة للظلمة هي فقط الوحيدة الباقية للفنان. وارتجافة الزهرة للضوء أفضل بكثير من ارتجافة امرأة كاذبة خادعة بين ذراعي الفنان.

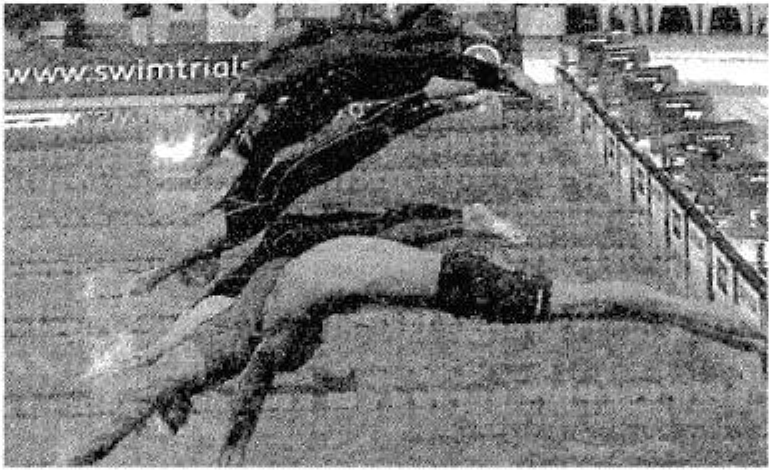
واخيرا

عطشي الذي لا ارتواء له دائما يطاردني يتبعني ومع كل خطوة واثق من مداها. وحسبتها جيدا اجد عالما مفقودا محترقا. ومع كل خطوة عمياء من الآخرين اجدهم يصرحون بأنهم سيعيدون بناء البلد بها. ومع كل طلقة مصوبة لطفل فلسطيني أشعر بالعجز يطاردني.

لم تبق سوى دموعي التي تحجرت من مقلتي. والهواء الذي تمزق حولي . لكن ارجو ان تصيب رصاصة طائشة من الزوايا التي لا وجود لها بعد أن أكون قد اختفيت من هذا الوجود؟ .

ان مع الحب دائما يخطيء المحبون في تناول كئوسهم وكثيرا ما يأخذ المرء الكأس الخطأ. لذلك لم تعد هناك كأس ترويني وأسأل الجدران عن الحقائق.. أين اختفت، أين ضاعت ، مع أعين متحجرة كتلك الأحجار التي توضع في تجاويف اعين اقنعة البطالسة . لكني كنت ارى حماسي للحياة والحقيقة ودفاعي عنها دائما معها وتدفعني عيناها كي اصرخ في وجه الظلم عيناها التي أفتقدها.


العلم والرياضة فى
الألعاب الأولمبية



بقلم : هشام فاروق

كما هو معروف للقاصى والدانى ، ثمة وثبة علمية قوية جبارة ، عادت إلى الإنسان ، وهو يقهر الطبيعة بضرب من التقدم لم يكن معهودا ، ولا مألوفا .

وبدءا من الدورة الأوليمبية بلوس أنجلوس بالتحديد جعل ذلك التقدم ، خاصة فى مجال التكنولوچيا ، كل شىء من أمر الألعاب الأوليمبية غريبا حقا .

فالشىء المحقق أنها أصبحت واجهة للتقدم التقنى الجبار.

ولقد انعكس أثر ذلك على دورة ألعاب سيدنى التى انتهت أيامها الستة عشر فى الأول من أكتوبر لعام ٢٠٠٠ ، بحفل ختام رائع ، غطت فيه الألعاب النارية سماء الميناء، حيث دار الأوبرا ، وكأنها بأشرعتها فلك علي وشك الرحيل، وكوبرى ميناء سيدنى ، وقد ازدانت بأضواء مصابيحه السماء .

والألعاب الأوليمبية الصيفية حدث رياضي عالمي ، لا تقام دوراته إلا كل أربعة أعوام، يعيشها عشاق الرياضة ، بعد انتظاره بفارغ الصبر .

فإذا ما مرت الأيام أعواما بعد أعوام، وعادت تلك الألعاب في دورة جديدة ، عاش عشاق الرياضة ساعات ملؤها السعادة ، لعلها خير تعويض لهم عما عانوه ، أثناء الانتظار الطويل .

وعندما أقول عشاق الرياضة ، أقصد بهم مئات بل آلاف الملايين من البشر ، فى مشارق الأرض ومغاربها .

وهم إذا كانوا موسرين تحملوا مشاق واتعاب السفر إلى حيث تقام مباريات تلك الألعاب ، حتى وان كان المكان المختار لها فى الجنوب الأقصى الموغل فى البعد جغرافيا عن القارات المأهولة بالسكان ، مثلما حدث قبل بضعة أسابيع ، عندما استقل مئات الألوف الطائرات ، الى حيث مدينة سيدنى فى استراليا ، أصغر القارات، حيث اقيمت الدورة الأوليمبية السابعة والعشرين .

من بين تلك الدورات لم تنعقد دورتان، وذلك بسبب الحربين العالميتين الأولى والثانية .

أما إذا كانوا ناسا عاديين ، اكتفوا بمشاهدة ما تيسر لهم من مباريات الألعاب على الشاشات الصغيرة التى انتشرت انتشار عش الغراب ، بحيث قدر عدد مشاهدى المباريات عليها بآلاف الملايين.

ولن أعرض بالتفصيل لتاريخ الالعاب الأوليمبية ، كيف بدأت فى اثينا ، قبل الميلاد بحوالى سبعمائة وستة وسبعين عاما .

ولا كيف أخذ زمن مباريات تلك الألعاب ، يمتد شيئا فشيئا ، وبدلا من يوم واحد أصبح سبعة أيام .

ولا كيف تم الغاؤها بموجب أمر من الامبراطور الرومانى «ثيودسيوس الأول» ، وذلك بعد الميلاد بحوالى ثلاثمائة وثلاثة وتسعين عاما .

ولا كيف عادت ، بعد ألف وخمسمائة عاما بفضل البارون الفرنسي بيير كوبيرتان .

الممنوع والمشروع

فذلك شيء يطول ، وانما اكتفى بان اقول أن نساء اثينا كن محرومات من المشاركة فى الألعاب سواء بالمنافسة فيها أو بمشاهدتها اسوة بالرجال . والأكثر مدعاة للدهشة أن العدائين كانوا يتبارون، وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم .

غير أنه عندما عادت الألعاب الأوليمبية، والقرن التاسع عشر على وشك الرحيل ، كان العرى وحرمان النساء من المشاركة قد أصبح كلاهما فى خبر كان.

ومع ذلك ، فما أن اقترب القرن العشرون من نهايته ، حتى كان اللباس الخاص ببعض الألعاب ، قد تقلص بحيث كاد يصبح فى حجم ورقة التوت ، لاسيما إذا كان الأمر متصلا بلباس السباحين .

وحتى كانت نسبة النساء قد ارتفعت الى أربعة وثلاثين فى المائة من مجموع المتنافسين فى الدورة الأوليمبية بمدينة أتلانتا عام (١٩٩٦) .

(ارتفعت تلك النسبة المئوية فى دورة سيدنى الى ثمانية وثلاثين) .

ولاننى مولع بالسباحة ، فقد أخذت

أتابع ، قدر الامكان السباحين ، خاصة الاستراليين منهم الذين جرى اختيارهم لدورة سيدني ، أتابعهم على شاشة التليفزيون ، وهم يتدربون ، باذلين الجهد الجهيد ، من أجل ضرب أرقام قياسية ، تؤهلهم للفوز فى مباريات تلك الدورة بأكبر عدد من الميداليات .

انحسار العري

وكان أول ما لفت نظرى ، وأثار دهشتى فى آن معا ، أن أجسامهم لم تكن، وعلى غير المتوقع ، عارية الا من ورقة توت تخفى عوراتهم بالكاد .

بل كانت ، بالعكس ، مخفاة بلباس لصيق بها أشبه بلباس رواد الفضاء فى أفلام الخيال العلمى ، لا يكشف منها سوى الوجوه والايدى والأقدام .

وما هى إلا أيام وبعد مفاجأة لباس السباحين ، حتى كانت دورة سيدنى قد بدأت ، وإذا بى أشاهد على شاشة التليفزيون عدائين وعداءات وقد ارتدوا لباسا أكثر اخفاء لاجسامهم من لباس السباحين وهكذا ، فبدلا من استمرار انحسار اللباس عن أجسام اللاعبين رويدا رويدا ، كما كان يحدث له طوال القرن العشرين ، إذا به ، بدلا من ذلك ، يكاد يغطى بالكامل تلك الأجسام .

أما لماذا حدث هذا التحول من النقيض الى النقيض ، من أيام الأغريق القدامى ، حيث كان العداء يعدو عاريا ، الى أيامنا هذه ، حيث نراه مرتديا لباسا، يكاد لا يظهر من جسمه شيئا ما . فذلك لأن العلم أراد للرياضة أن تخضع لحكمه فى جميع المجالات .

هذا ، وقد انعكس أثر التقدم التقنى على كل شيء متصل من قريب أو بعيد بممارسة جميع الألعاب الأوليمبية ، دون استثناء .

وبداية ، فالشركات المنتجة للأشياء الوثيقة الصلة بالرياضة ، لاسيما ما كان منها متصلا بلباس الرياضيين ، تلك الشركات ، كان لها دور كبير فى التحام الألعاب الأوليمبية بذلك التقدم التقنى ، المنقطع النظير .

فلقد وجدت ، ولاشك ، فى دورة سيدنى فرصة ذهبية ، تتيح لها عرض وتسويق منتجاتها الجديدة أمام عدد لا يقل عن خمسة ملايين ونصف من مشاهدى المباريات ، وهى تجرى ، وليس بينها وبينهم سوى خطوات .

وعدد آخر لا يقل عن ثلاثة بلايين ونصف من مشاهديها على الشاشة الصغيرة .

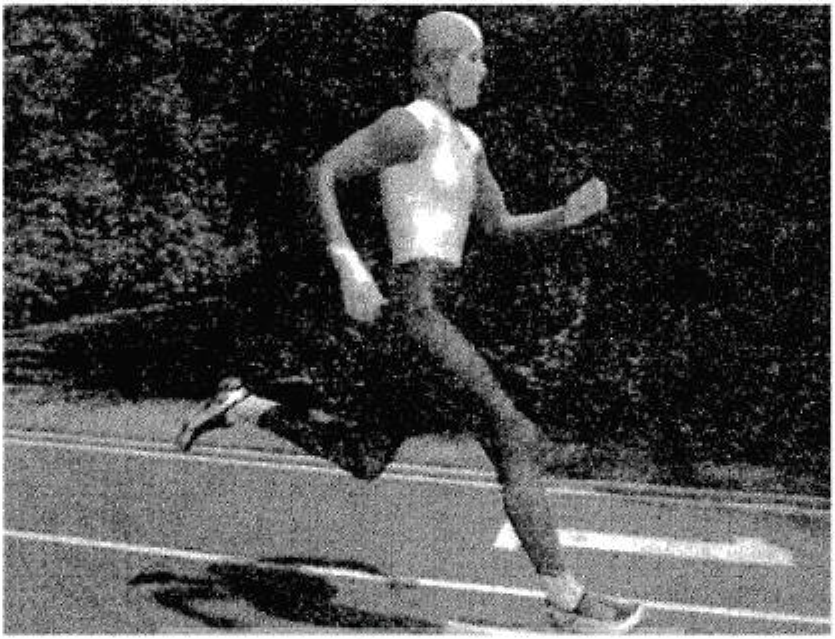
ولأن السباحة وألعاب القوى هى الأكثر شعبية فى الدورات الأوليمبية ، تركز التجديد على لباس السباحين والعدائين والوثابين .

وجرى تسليط أضواء الدعاية المكثفة على اللباس الجديد .

الفك المفترس

فلباس البحر ، على سبيل المثال ، قيل عنه فى مجال الإشادة به أنه مصنوع من قماش بوليستر – ليكرا ، ومصمم بحيث تكون له فوائد عديدة ، من بينها تخفيض نسبة الاحتكاك والسباح يشق بجسمه الماء ، فضلا عن حسن توظيف عضلاته ودورة دمائه ، على نحو يضمن الاقتصاد فى الاستعمال ، مع تجنب الاجهاد .

ومن أجل تصميم لباس البحر على



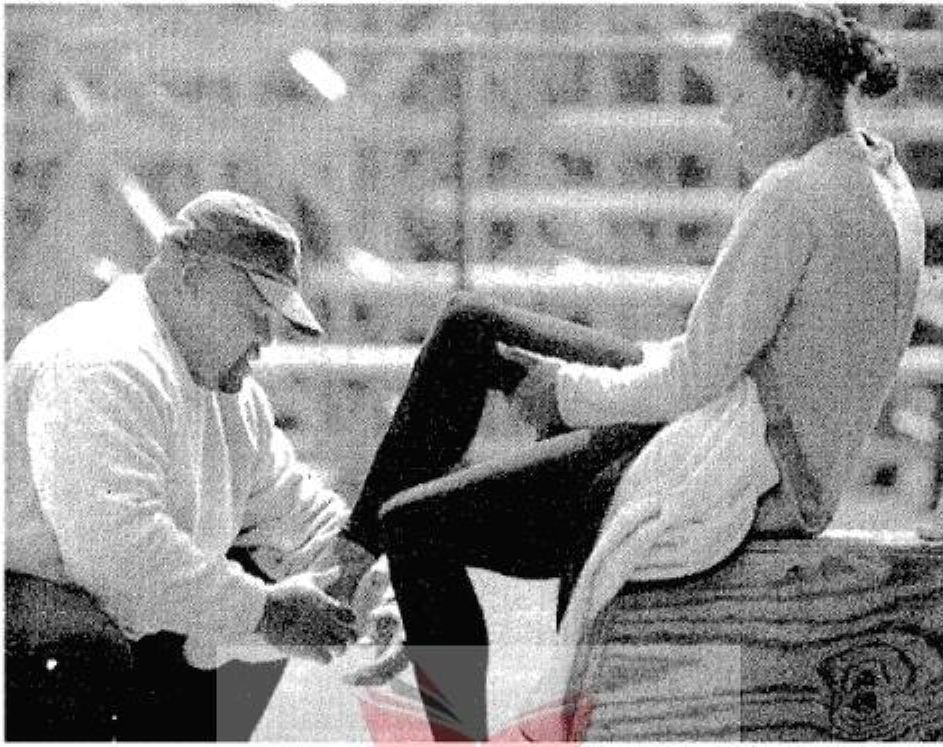




هذا النحو الجديد المفيد ، استشارت شركة سبيدو «أوليفر كريمن» بمتحف التاريخ الطبيعي بلندن ، وذلك بوصفه واحدا من القلائل المتخصصين في نوع من الكائنات البحرية شديدة الافتراس ، اسمها باختصار سمكة القرش .

ومما يعرف عن تلك السمكة أن جلدها يتكون من أسنان ميكروسكوبية ، تشق مجرى، لا تتدفق مياه البحر الا من خلاله، وفوق رأس السمكة بالتحديد .

وذلك التدفق المحصور في الرأس دون غيره من اجزاء جسم السمكة ، مؤداه انخفاض كل من درجة



الاحتكاك والاستعمال للطاقة ، وازدياد سرعة تحرك سمكة القرش ، بطبيعة الحال

طوربيد بشرى

والحق ، أن السباحين الذين ارتدوا لباس البحر الجديد حققوا انجازات كبيرة، من بينها ضرب أرقام قياسية فى السباحة ، والفوز بميداليات ذهبية فى دورة الألعاب الأوليمبية الأخيرة .

ولعل خير مثل على ذلك السباح الاسترالى ايان ثورب الذى ليس له من العمر إلا سبعة عشر ربيعا .

فلقد شاهدناه على الشاشة الصغيرة، وهو يفوز بأكثر من ميدالية ذهبية فى دورة سيدنى مرتديا لباس البحر الجديد .

ونظرا الى سرعته الفائقة فى المسبح اطلقوا عليه اسم الطوربيد !!.

وبفضله ، وبفضل فريق بلده ، فازت استراليا ، وعدد سكانها لا يزيد عن ثمانية عشر مليون ، فازت بالمركز الرابع ، بعدد من الميداليات (٥٨ بينها ١٦ ذهبية) فاق العدد الذى فازت به بلاد كبيرة مثل ألمانيا وفرنسا وايطاليا وبريطانيا واليابان.

وذلك الانجاز الكبير انما يرجع الفضل فيه ، ولاشك ، الى العلم والتدريب.





عائد من كردستان ..

بلاد لا صديق لها

وقائع وتحولات زيارة بين توجيه النصح وتقديم الاعتذار!!

بقلم : صنع الله إبراهيم

كان الهدف المعلن للرحلة المثيرة التى اشتركت فيها مع عدد من المثقفين العرب إلى إقليم كردستان العراق هو التحضير لمهرجان العيد المئوى لشاعر العراق العظيم «مهدى الجواهرى» فى الأسبوع الأخير من أكتوبر، والهدف المبطن هو مد بعض الجسور مع الشعب الكردى الشقيق استجابة لمبادرة من قياداته.

وفى الحالتين بدت الزيارة فى البدء مثل غيرها من الزيارات والرحلات الترويحية أو السياحية التى تحمل غطاء ثقافيا رصينا.

بدأت الرحلة من حلب فى ميكروباص أنيق مكيف ضمنا جميعا : «الناشط» السياسى والثقافى العراقى المعروف «فخرى كريم» الذى أقام صرحا ثقافيا فريدا فى دمشق، ثلاث شخصيات لبنانية: المفكر المعروف «كريم مروة» ، الكاتب والأكاديمى «فواز طرابلسى»، الصحافية «ليلى غانم»، الروائية الكويتية الشقراء «ليلى العثمان»، «نبيل زكى» رئيس تحرير جريدة «الأهالى» القاهرية، «مصطفى

الحسينى» صديق صباى القادم من بيروت، المصور الفوتوغرافى العراقى «انتشال التميمى» القادم من هولندا ثم انضم إلينا فى الطريق «كامل شياع» مدير تحرير مجلة «الثقافة الجديدة» العراقية قادما من أوروبا حيث تصدر الآن المجلة العريقة.

وربما كنت أنا وليلى العثمان» الوحيدين اللذين يزوران هذه المنطقة من شمال العراق لأول مرة. فالآخرون زاروها فى أوقات مختلفة أولها فى السبعينيات (مثل «مصطفى الحسينى») وآخرها قام بها «انتشال التميمى» المقيم فى هولندا قبل أسبوعين وحسب، ليلتقى لأول مرة منذ عشرين عاما بأسرته التى قدمت خصيصا من بغداد لهذا الغرض. ذلك أن «انتشال»، مثل آلاف غيره من العراقيين المنتشرين فى بقاع الأرض، لا يستطيع دخول بغداد وإلا استقر فى قصر النهاية. وهو الوضع نفسه بالنسبة لـ «كامل شياع» الذى جاء من أوروبا خصيصا ليرى على أرض كردستان المحررة أمه التى لم يرها هو الآخر منذ عشرين سنة والتى ستأتى من بغداد فى يوم معين.

إلى هنا ومازالت الرحلة فى إطار الاعتيادى والمألوف إلى أن وصلنا مدينة «القامشلى» ثم عبرنا نقطة الحدود السورية العراقية على نهر «دجلة» فى قارب بخارى. وصرنا خلال دقائق فوق الأرض العراقية الخارجة على سلطة حكومة بغداد.

قصيدة بدلا من الخريطة!

كان من الطبيعى أن نبحث عن خريطة لكردستان نرى فيها خط سيرنا الذى سيمتد شرقا أكثر من ستمائة كيلو متر بموازاة الحدود الفاصلة مع المنطقة الخاضعة لحكومة بغداد حتى قرب الحدود الإيرانية ، كما نرى فيها بقية الأراضى الكردية الموزعة بين إيران وتركيا . ولم نلبث أن تبينا أن مثل هذه الخريطة غير موجودة وإنما هناك فقط قصيدة نظمها شاعر كردى فى ثلاثينيات القرن الماضى يعين فيها الحدود الجغرافية لكردستان.

والواقع أن الشعب الكردى هو أحد الشعوب سيئة الحظ فى العالم فلم يتح أبدا للأكراد كقومية مستقلة أن تبسط نفوذها على جميع الأراضى التى تعيش بها منذ قبل الميلاد بقرون عديدة. ولم تتمكن من تحديد حدودها الجغرافية السياسية وإقامة دولة مستقلة باسم كردستان. ومن ناحية أخرى فإن الخريطة الموحدة لكردستان ممنوعة فى البلاد التى تقتسم أراضيها وهى تركيا (حوالى ١٥ إلى عشرين مليون كردى) العراق (حوالى خمسة ملايين) إيران (ثمانية ملايين)

وبدلا من ذلك ألصقت الخارطة الجغرافية لكردستان العراقية بالدولة العراقية وفي إيران بالدولة الإيرانية وفي تركيا بالدولة التركية ومن نتائج هذا الوضع على سبيل المثال أن التلميذ الكردي يدرس جميع الأمور المتعلقة بكردستان من مناخ ونفط ومعادن وتوزيع اللهجات وجغرافية المدن والزراعة إلخ.. ضمن الحدود السياسية للدولة التي وجد نفسه داخلها.

أكبرنا سنا ومكانة

كان في استقبالنا على الأرض العراقية حشد كبير من المواطنين الرسميين وممثلي الهيئات والأحزاب. وأقلتنا السيارات إلى قاعة نقطة الحدود المسماة «فيش خابور» حيث وضعت أمام كل واحد منا صينية حافلة بكافة أنواع المشروبات الغازية العالمية من «السفن» إلى «الكولا». وتحدث أحد مستقبلينا ولعله محافظ المنطقة مرحبا بزيارتنا. وتطلعنا جميعا إلى «كامل مروة» ليتولى الرد فهو أكبرنا سنا ومكانة وأكثرنا خبرة بالخطاب السياسي الملائم للزمان والمكان، والذي يستجيب للمشترك العام في قناعاتنا. وتحدث «مروة» منوها بحقوق الأكراد ومعاناتهم. لكنه حرص على أن يؤكد تأييده لهذه الحقوق في إطار عراق موحد كما لم يفته أن يدعو بشكل غير مباشر إلى رفع الحصار المفروض على الشعب العراقي بوصفه مسئولا أيضا عن معاناة الأكراد. وبدا لي أن كلمته تشتمل على النقطتين الأساسيتين اللتين ستحكمان خطابنا خلال الأيام القادمة. وأن لباس الحكمة التي ارتديناها سترافقنا طوال الرحلة، تحمينا من شرور التورط والانفعال. وكم كنت واهما.

لكن كلمة «كامل مروة» كانت أيضا مؤشرا على طقس مهم في الأيام التالية وهو «المكلمات». ففيما بعد تناوبنا الحديث بطريقة تلقائية: إذا كنا في منتدى له علاقة بقضايا المرأة تحدثت «ليلى العثمان»، وإذا كنا في ملتقى سياسي أو حزبي تحدث «مروة» أو «فخري كريم» أو «نبيل زكي» أو «مصطفى الحسيني»، وإذا زرنا جامعة تحدث «فواز طرابلسي» (الأستاذ بجامعة بيروت الأمريكية)، وإذا وقعنا في مصيدة أدبية أو ثقافية جاء دوري أنا أو «ليلى العثمان». وهكذا.

والمثير في الأمر أننا جميعا رغم اختلاف خلفياتنا الجغرافية والسياسية والثقافية لم نختلف على المواقف العامة وربما يرجع هذا إلى أن أغلبنا في العقد السادس من العمر «فيما عدا السيدتين بالطبع) وبالتالي في سن الحكمة التي تجلت أكثر من مرة.

الخلاف الوحيد الذي نشب بيننا كان بسبب التدخين. فـ «نبيل زكي» و«مصطفى

الحسينى» معديان للتدخين حتى الموت، بينما كان «فواز طرابلسى» و«ليلى العثمان» يدخنان بشكل متواصل. واتضحت أبعاد المشكلة عندما خرجنا من قاعة الاستقبال فى «فيش خابور» واتخذنا طريقنا إلى مدينة «دهوك» على مبعدة مائة كيلو متر . فقد وجدنا فى انتظارنا طابورا من سيارات «تويوتا فورويلز» جديدة ومكيفة ووزعونا كل اثنين أو ثلاثة فى سيارة، ولما كنت مدخنا صرت مرشحا لتحمل إفراط «فواز» و«ليلى»، وجاءت «ليلى» من نصيبى بينما وقع «فواز» من نصيب «فخرى كريم» (الذى تحمل الأمر من أجل نجاح الزيارة رغم أنه لا يدخن ويمنع التدخين فى دار «المدى» التى يديرها) . واكتمل حظى بـ «انتشال التميمى» الذى قام بدور المرشد السياحى.

على الطريقة المصرية

أخذتنا السيارات إلى أفخم فنادق «دهوك». مدخل مهيب وخادع، فهو مزخرف على الطريقة «المصرية»، أى بزخارف قبيحة وديكور مودرن يخفى عملية نهب واضحة تتجلى فى رهافة الجدران ورداءة المواد والأدوات المستخدمة وخاصة فى شبكات المياه والصرف والتى صنعت أغلبها فى تركيا. وذلك بالرغم من تقدم الصناعة التركية . وهو انطباع أكدته قنوات التليفزيون التركية العديدة التى تسيطر على شاشة التليفزيون فى المنطقة الكردية، والزيارة التى قمنا بها فى اليوم التالى لمفخرة المدينة: سوبر ماركت «ميزى». المكان أنيق والبضاعة كلها أجنبية آتية عن طريق تركيا. المدير يشارك الحكومة فى الملكية. والجميع من عامليه ومرافقينا سعداء بتنوع السلع الأجنبية المطروحة وهى سعادة لم أشاركهم إياها.

لكن سوبر ماركت «ميزى» - لحسن الحظ - ليس المفخرة الوحيدة للمدينة. فهى تفخر أيضا بمكتبة عامة عصرية يديرها مثقف بارز هو «أنور محمد» وتحمل اسما مألوفا للمصريين هو الأمير «بدرخان»، والألفة ليس لها علاقة بالإمارة وإنما بالسينما!! فالأسرة المصرية الحالية التى تستمد شهرتها من الفن السابع، هى سليلة للأمير الكردى الذى أعلن استقلال إمارة كردستان فى منتصف القرن قبل الماضى فى ظل الحكم العثمانى. وأحد أفراد الأسرة، «مقداد مدحت بدرخان» ، هو الذى أصدر فى القاهرة أول جريدة باللغة الكردية سنة ١٨٩٨. وليس البدرخانيون المصريون هم وحدهم الذين ينعمون بالأصل الأميرى، فهناك العديد من المصريين الذين يشاركونهم النعمة من أول أمير الشعراء



كاك مسعود كما يدعى مسعود البرزانى



السيدة هيرو ابراهيم



وفد الحكماء العرب على شاطيء دجله

«أحمد شوقى» و«عباس العقاد» و«الشيخ عبد الباسط عبدالصمد» إلى كاتب هذه السطور الذى اكتشف جذوره الكردية فى اللحظة نفسها التى اكتشفت فيها «ليلى العثمان» أن احدى جداتها جاءت من مدينة «السليمانية».

الإنسان

تضم المكتبة مجموعة ممتازة من المؤلفات التى تحفظ التاريخ الكردى العريق الذى ولج طريق التدوين قبل الميلاد بألف سنة عندما ظهر اسم أجدادهم الميديين فى الكتابات الأشورية، وتتابعت بعد ذلك الأسماء والمفاصل التاريخية التى تلاقى فيها الشعب الكردى مع أشخاص وأحداث وامبراطوريات شكلت مأساته: معركة الاسكندر الأكبر مع «داريوس» الفارسى ثم سقوط الامبراطورية الساسانية وانتشار الحضارة العربية الإسلامية، «إبراهيم» و«إسحق الموصلى» و«زرياب» مؤسسو أول مدرسة موسيقية فى الإسلام، الإمارة الحمدانية فى سوريا ثم الأيوبية فى مصر والشام، ومعارك الصليبيين، الامبراطورية العثمانية، الغزو الفرنسى الإنجليزى، موجة الاستقلال الوطنى العربية التى رافقتها أكثر المراحل دموية فى تاريخ الشعب الكردى.

فما عاناه الشعب الكردى من جانب أنظمة الحكم المتعاقبة فى البلدان التى تقتسم كردستان منذ الحرب العالمية الأولى لم يتعرض له من قبل لا فى ظل الامبراطورية العثمانية ولا حتى فى مرحلة الانتداب الفرنسى والإنجليزى فى سوريا والعراق. ففى تلك العهود المظلمة لم يجر تهجير الأكراد بهدف تغيير الطابع الديموغرافى السكانى فى مناطقهم ولم يمنعوا من التكلم بلغتهم أو التعلم والكتابة بها. كما لم تمارس بحقهم سياسة التمييز العنصرى باقصائهم عن الحياة العامة وحرمانهم من المشاركة فى الحكم وإدارة البلاد... إلى رفض كرديتهم وانتمائهم القومى وتغيير أسماء القرى والمدن بل والمواليد الجدد فيطلق على طفل كردى اسم «جاسم» بدلا من «أزاد». ولم تستخدم ضدهم أسلحة الإبادة الجماعية، كما حدث فى حملة الأنفال .

فى الطابق الثانى من المكتبة قاعة خصصت لعرض وثائق «عملية الانفال» . وقد أطلق «صدام حسين» اسم الآية القرآنية (التى حضت على قتال الكفار وإبادتهم) على المذبحة التى باشرها فى منطقة «الحكم الذاتى» ، الاسم الذى أطلق على الأراضى الكردية فى أعقاب اتفاق توصل إليه الأكراد مع «صدام» سنة ١٩٧٠ ونقضه الأخير بعد أربع سنوات ، أكثر من مرة .

وعندما تتصفح هذه الوثائق تشعر كأنما انتقلت إلى عالم معسكرات الاعتقال النازية وحملات «الحل النهائي» التى تفنن فيها هتلر لإزالة قوميات بأسرها من أوكرانيين وغجر وبولنديين . فضلا عن معتنقى الدين اليهودى . وعندما تنتهى من فحصها يتكشف أمامك سيناريو كامل لأكثر الصفحات وحشية فى التاريخ المعاصر .

يبدأ السيناريو بتقرير «سرى وشخصى» تتصدره البسملة (التى تتصدر أغلب الوثائق) موجه من مديرية الاستخبارات العسكرية العامة ، منظومة استخبارات المنطقة الشرقية بتاريخ ١٤-٨-١٩٨٦ والموضوع هو «الحصار الاقتصادى» ! ويأمر باستمرار الحصار وتشديده على القرى والمناطق «المحظورة أمنيا» وهو التعبير الذى أطلق على المناطق الكردية .. ويمنع كليا «وصول المواد الغذائية وغيرها اليهم..» .

ويأتى الفصل الثانى من السيناريو بعد سنة ونصف فى محضر اجتماع اللجنة الأمنية فى قضاء «شقلاوة» فى ١-٤-١٩٨٧ موقعا من الرائد مدير أمن شقلاوة، والمقدم مدير شرطة شقلاوة ، والسيد أمين سر فرقة شقلاوة ، والسيد قائمقام شقلاوة والعقيد رئيس اللجنة الأمنية لقضاء شقلاوة ، يقترح «ازالة كافة القرى المحظورة أمنيا وبشكل نهائى ..» .

بعد شهر واحد كان العمل يجرى على قدم وساق فى تنفيذ المهمة كما يتضح من خطاب إلى مدير أمن «السليمانية» بتاريخ ١٤-٥-١٩٨٧ يفيد العلم بـ «أمر السيد قائد الفيلق الأول بايعاز من الرفيق على حسن المجيد (ابن عم صدام والذى تولى ملف تصفية الأكراد) باعدام .. المدنيين بعد التاكد من المنظمة الحزبية ودائرة الأمن والشرطة ومركز الاستخبارات مناوئتهم للسلطة والاستفادة من ال........ والبلدوزرات بقلع محلة كاتى عشقان «...

ثم برقية «سرية فورية» بعد أسبوع بتاريخ ٢٢-٥-١٩٨٧ تفيد بأن «عدد العوائل المرحلة من تاريخ ١٢-٥ وحتى الآن (١٥٠٠) عائلة ... » .

الطاقة الاستيعابية للثلاجات الحافظة !

ويبدو أن كل هذه الاجراءات لم تكن فعالة بما فيه الكفاية . فهناك ورقة باسم حزب البعث العربى الاشتراكى ، قيادة مكتب تنظيم الشمال ، بتاريخ ٢٠-٦-١٩٨٧ ، موجهة إلى قيادة الفيلق الأول والثانى والخامس، والموضوع هو (التعامل مع القرى المحظورة أمنيا) توصى «بتنفيذ حكم الاعدام بمن يتجاوز عمره (١٥) سنة داخل صعودا إلى عمر (٧٠) سنة ..» .

تمخضت هذه الاجراءات بطبيعة الحال عن أزمة يعرضها خطاب بتاريخ ٣٠-١٢-١٩٨٧ من مدير أمن «شقلاوة» إلى ضباط أمن المناطق تتصدره بعد عبارة البسملة !! كلمة «سرى» المعهودة وتحتها العنوان «جثث المدنيين» !

يقول الخطاب بالنص أعلمتنا مديرية الأمن العامة الجنائية .. بأنه بينت لها وزارة العمل والشئون الاجتماعية ... بأنه من بين الأسباب الرئيسية لحفظ جثث المدنيين أكثر من الطاقة الاستيعابية للثلاجات الحافظة هو تأخير الأجهزة الأمنية المختصة بتبليغ ذوى المدنيين مما يولد مشكلة أخرى وهى تأخير تنفيذ حكم الاعدام بالمدنيين الآخرين» ... !!

هل تكفى أزمة التخزين لوقف العملية أو تخفيفها ؟ كلا . فبعد أكثر من ثلاثة شهور وجه العميد الركن «بارق عبد الله الحاج» قائد قوات حماية النفط ، خطابا «سرى للغاية» بتاريخ ١١-٤-١٩٨٨ تتصدره البسملة والى يمينها شعار مطبوع «لسنا دعاة حرب وانما دعاة حق» . والموضوع هو «ارسال عوائل» !!

«نرسل لكم العوائل المدرجة أسماؤهم فى القائمة المرفقة والذين سلموا أنفسهم ..

المرفقات : قائمة تتضمن ٣٠٧ اسماء ، » .

رجاء عدم التلكؤ !!

أما الهدف من هذا الارسال فيتضح من التقرير التالى الذى كتب بخط اليد بتاريخ ٢٦-٤-١٩٨٨ .

«كتاب رئاسة الجمهورية - سكرتير السيد رئيس الجمهورية للشئون الحزبية فى .. المبلغ بكتاب رئاسة أركان الجيش ١٠٦ فى .. المبلغ الينا بكتاب قيادة قوات جحفل الدفاع الوطنى الأول .. المثبت على أصل كتاب ديوان وزارة الدفاع سرى للغاية فى ... المتضمن حصول موافقة الرئيس القائد المناضل أمين سر القطر أمين سر المكتب العسكرى (حفظه الله) بتنفيذ الأمر الصادر من المكاتب والفروع الحزبية بتنفيذ أمر إعدام المدانين وعدم التلكؤ ..» .

عدم التلكؤ فى ماذا ؟ هذا ما أوضحه خطاب «سرى وشخصى» من العقيد «فهمى السيد عادل رشيد» ، آمر قاطع قره داغ ، بتاريخ ٣١-٥-١٩٨٨ . والموضوع ، بعد البسملة طبعا ، هو «إزالة القرى» و «الاسراع بعملية تهديم وازالة كافة القرى والدور المتفرقة أعلاه بأسرع ما يمكن واعطاء الموضوع أسبقية أولى ضمن سقف زمنى لا يتجاوز ١٠ يونيو ١٩٨٨» .

ويكشف التقرير التالى عن الاسلوب الذى كان يتم به تنفيذ أوامر «الرئيس



مام جلال كما يدعى
جلال الطلبانى



نموذج المرأة الكردية الجديدة

القائد المناضل حفظه الله» .

التقرير بتاريخ ٢٦-٦-١٩٨٨ وتتصدره البسملة وتحتها شعار مديرية الاستخبارات العسكرية العامة وهو عبارة عن دائرة حول رأس طائر الهدهد وعبارة: «وجئتك من سبأ بالنبأ اليقين» وفى الناحية اليمنى عبارة عن مأثورات «صدام» فيما يبدو «سيظل الشهداء أكرمنا جميعا» . وفى اليسار عبارة رئاسة الجمهورية وتحتها السكرتير ثم مديرية الاستخبارات العسكرية العامة ثم رقم يشير إلى «قادسية صدام» ثم المعلومات : «خلال شهر آذار ١٩٨٨ قامت طائراتنا بقصف مقرات رمز التخريب فى قريتى سيوان (٩٤٥٩٦ و بلكجار (٤٢٩٤) وتوجيه ضربة كيماوية نتج عنها قتل (٥٠) مخربا وجرح (٢٠) مخربا آخر ..» .

ذراع التعصب القومى الطويلة

وتتجلى الدرجة التى وصلت إليها روح التعصب الأعمى لدى دعاة الرسالة الخالدة من برقية «سرية وفورية» بتاريخ ٣١-٨-١٩٨٨ إلى مديريات أمن الأقسام من مدير أمن محافظة «أربيل» .

جاء بها :

١ - «هناك عناصر التحقت بأفواج الدفاع الوطنى من « الشبك» الذين غيروا قوميتهم من العربية إلى الكردية والساكنين فى محافظة نينوى .

٢ - نسب الرفيق المناضل «على حسن المجيد» مسئول مكتب تنظيم

الشمال بهدم دورهم جميعا ويرحلون إلى المجمعات السكنية فى محافظتنا ولا يعوضون نهائيا ..» .

وبالطبع فإن مصيرهم يمكن التنبؤ به من خطاب «سرى وشخصى» بتاريخ ١٩-٢-١٩٨٩ موجه من حزب البعث ، قيادة مكتب تنظيم الشمال ، إلى منظومة استخبارات المنطقة الشمالية ، بتوقيع «عبد الرحمن عزيز حسن» سكرتير لجنة شئون الشمال : يأمر «بتنفيذ حكم الاعدام بحق جميع المجرمين الواردة أسماؤهم بكتابكم ولا داعى لاحالتهم إلى محكمة تحقيق مديرية الاستخبارات العسكرية العامة» .

أما المحصلة النهائية لكل عمليات التدمير والقتل والتهجير (التى شملت فرار مائة ألف كردى إلى تركيا وإيران) فتفضحها وثيقة بتاريخ ٢٤-٨-١٩٩٨ تحمل قرارا بتوقيع «صدام حسين» رئيس مجلس قيادة الثورة ، يعطى للعراقيين العرب الحق فى تملك قطع أرض سكنية فى المناطق الكردية بالإضافة إلى ما يملكونه فى مسقط رأسهم .

والظاهر أن هذا «النضال» الذى حرص حكام العراق على منع وصول تفاصيله إلى مواطنى البلدان العربية . قد تسرب بشكل ما إلى الخارج ولهذا نجد بين الوثائق هذا الخطاب بتاريخ ١٨-١٠-١٩٩٠ ونصه :

«بتاريخ ٢٥-٩-١٩٩٠ أمر السيد المدير المحترم بالتوجيه التالى : تكون عبارة (لم تتوفر لدينا معلومات عن مصيرهم) بدلا من عبارة (وقبض عليهم فى عمليات الانفال البطولية ولازالوا محجوزين حاليا) ، لغرض أن نكون دقيقين فى التعامل مع هكذا حالة» !! .

التعددية

ولعل هذا التاريخ الدموى هو الذى جعل الأكراد حريصين على ممارسة أقصى درجة ممكنة من الديموقراطية وحرية التعبير واحترام التعددية . وقد تجلى ذلك بشكل خاص فى انتشار المراكز الثقافية العديدة للجماعات العرقية والاثنية والدينية المختلفة مثل الكلدانيين والآشوريين الذين يدينون بالمسيحية ومنها مركز خاص بالطائفة اليزيدية التى تتبع مرشدا أو نبيا يسمونه (الطاووس الأكبر) .

ويتدفق كل هؤلاء وبالذات الشباب منهم كل مساء وخصوصا مساء الأحد إلى حى «عنكاو» بمدينة «أربيل» (وهو حى ذو أصل مسيحى) ليتمشوا فى شارعه الرئيسى ، اثنين اثنين أو جماعة متآلفة ، يقطعون الشارع الخافت الاضاءة (بسبب نقص الكهرباء) جيئة وذهابا حتى ساعة متأخرة فى وداعة

ومرح ليتوقفوا لحظات أمام الحانوت الوحيد بالشارع وهو للعصائر أو أمام عربات اليد التى تبيع اللوز والبندق وغيرهما من المسليات .

ولا أغالى إذا قلت أنى قضيت فى هذا الشارع ساعة من أجمل ساعات عمرى ، متمشيا فى استرخاء ، مستمتعا بوجوه الفتيات الجذابة وعيونهن الواسعة، سعيدا بجو السلام والطمأنينة والأمن وبالأخوة السائدة وغياب التوتر والعنف والجريمة والمخدرات والضجة والبذاءة ، فرحا بتفتح البراعم وبقصص الحب التى تنمو وتتشكل وبالمودة السائدة بين الجنسين اللذين يتعارفان ويترافقان دون خوف أو عقد . أليس هذا هو جوهر الأمر كله ؟ أليس هذا هو ما تسعى إليه الانسانية منذ الأزل .

لحظة واحدة فقط عكرت صفو الأمسية عندما قررنا أنا و«ليلى العثمان» أن نتحدث مع إحدى المارات فاخترنا فتاة جميلة منهمكة فى حديث جاد مع رفيقة لها . وعندما اقتربنا منها وخاطبناها فوجئنا بها تبتعد فى خوف وتتوارى خلف صديقتها . وتبين أنها قادمة من بغداد لتزور أقارب لها فى «أربيل» وأنها ظنت أننا بعثة تليفزيونية وتخشى أن تظهر صورتها على الشاشة فيعلم أهلها أنها تسير بلا غطاء للرأس وفى هذا الشارع بالذات !.

أعادتنا هذه المقابلة إلى أرض الواقع وأوشكت أن تتلف الأمسية لولا أننا وجدنا أنفسنا مدعوين لحفل خطوبة فى حديقة أحد الأندية . رقصنا الدبكة مع المحتفلين ثم ختمنا الليلة بالاستماع إلى «فريد الاطرش» من شاب كردى يشبهه تماما ويغنى أغانيه على العود .

للتسامح حدود

لكن التسامح والتعددية وحرية الرأى والصحافة والنقد التى يزهو بها قادة الحزب الديموقراطى الكردستانى لها حدود . فإذا كانت صحف «صدام حسين» توزع بحرية هى والصحف التركية فإن صحف الحزب الكردى الآخر (الاتحاد الوطنى الذى يتزعمه الطلبانى) والاسلاميين الأكراد وحزب العمال التركى ممنوعة . وقد عبرنا هذه الحدود الصارمة فى اليوم الخامس من رحلتنا .

أقلتنا سيارات التويوتا فوق طريق مرصوف جيدا تحيط به الجبال الشاهقة من الجانبين إلى النقطة الفاصلة بين المنطقتين الكرديتين · المنطقة التى يحكمها «البرزانى» وعاصمتها «أربيل» والأخرى التى يحكمها «الطلبانى» وعاصمتها «السليمانية» . والفريقان خرجا من عباءة الزعيم الأكبر للأكراد الملا «مصطفى البرزانى» الذى قاد نضال الأكراد منذ

١٩٤٣ حتى وفاته بالسرطان فى عام ١٩٧٨ . وأيا كانت أوجه الخلاف (الذى بدا فى لحظة ايديولوجيا حسب التوجهات الماركسية التى تبناها «الطلبانى» وقتها) فإن الحزبين سعيا إلى هدف واحد هو الحكم الذاتى فى إطار العراق . لكن المواقف تباينت حول السبيل إلى تحقيق هذا الهدف واستغل الحكم البعثى الأمر لصالحه ، ملتجئا إلى مختلف الوسائل لتفتيت الحركة الكردية والقضاء عليها من ترغيب وترهيب إلى الابادة فى حملة «الأنفال» المشئومة .

الهيصة

وليت الأمر اقتصر على هذا . ففى تركيا التف الاكراد حول حزب ثالث هو «حزب العمال» الذى حكم بالاعدام أخيرا على زعيمه «عبد الله أوجلان» وأقام هذا الحزب قواعده فى كردستان العراق فشنت الحكومة التركية حملات وحشية ضد هذه القواعد ووقع أكراد العراق (وخصوصا فى منطقة البرزانى) بين نيران بغداد وأنقرة ، واضطر حزب البرزانى إلى معارضة وجود الحزب التركى فوق أراضيه ونشبت المعارك بين الجانبين . وفى الوقت نفسه قام تحالف بين الطلبانى وحزب العمال . ولما كانت أراضى الطلبانى ملاصقة للحدود الايرانية فقد تعين عليه أن يحافظ على علاقات طيبة بايران التى شاركت قواتها «الهيصة» بحملات عديدة ضد قواعد البرزانى .

الفرصة التى ضاعت

وكانت فرصة الأكراد الذهبية عندما هزم صدام فى «أم المعارك» فقام الأكراد بانتفاضتهم الكبرى من أجل الحكم الذاتى وتمكن صدام من قمعهم بوحشية فهربوا إلى الجبال لكن الضجة العالمية التى رافقت ثورتهم أسفرت عن اعتبار الشمال العراقى فوق خط عرض ٣٦ منطقة آمنة لهم تحت حماية الأمم المتحدة بقرار من مجلس الأمن فى أبريل ١٩٩١ . (لم تقدهم ضجة مماثلة أيام مذبحة الانفال لأن الغرب وقتها كان ما يزال يعتبر صدام حليفا مهما ضد ايران الأصولية) .

وفى العام التالى أجريت انتخابات برلمانية فى المنطقة تشكلت على قاعدتها حكومة موحدة لاقليم كردستان تقاسم فيها الفريقان المناصب والمسئوليات ، وبدا المستقبل واعدا .. عاد إلى المنطقة الأكراد الذين شتتتهم المذابح البعثية وتوافدت الكوادر المدربة من جميع أرجاء الدنيا وافتتحت عدة جامعات فى الاقليم . لكن الاعداء كانوا بالمرصاد فقد بذل النظام التركى كل جهوده لاحباط التجربة التى اعتبرها تهديدا لكيانه حيث تضم

تركيا أكبر عدد من الأكراد فى منطقة غنية بكل الخيرات والموارد الطبيعية (النفط والمعادن ومنابع المياه) . وبالمثل سعى النظام العراقى إلى الهدف نفسه كما أن ايران لم تكن بعيدة تماما عن الصورة . ولم تمض سنتان حتى نشب صراع دموى بين الفريقين راح ضحيته أكثر من عشرة آلاف قتيل كردى ارتكبت خلاله فظاعات من النوع البعثى .

ويتهم الطلبانية جماعة البرزانى بأنها أشعلت فتيل الحرب فى مايو ١٩٩٤ باغتصاب واردات جمرك «ابراهيم الخليل» التى تبلغ مليون دولار يوميا . ويقول البرزانية : إن الجماعة الأخرى كانت تسعى لبسط سيطرتها على كل الأقليم وأنها استعانت بالحرس الثورى الايرانى لدعم سيطرتها .

استمر القتال بين الجانبين حتى ٣١ أغسطس ٩٦ عندما اتفق البرزانية مع «صدام» على احتلال «أربيل» بواسطة دبابات الحرس الجمهورى . ولم يتدخل المجتمع الدولى أو مجلس الأمن أو الولايات المتحدة . وتركت دبابات «صدام» تعبر الخط المحظور وتتقدم إلى «أربيل» لتحررها من جماعة «الطلبانى» وفى نفس الوقت تدخلت الطائرات التركية ضدهم بدعوى مهاجمة قوات حزب العمال الكردستانى التركى (القوة الثالثة فى الساحة الكردية) وهى دعوى كاذبة لأن قوات الحزب المذكور تنتشر فى مناطق الحدود التى تبعد اكثر من ١٢٠ كيلو مترا عن المنطقة المقصوفة . واضطرت قوات «الطلبانى» إلى الانسحاب من عاصمة الكيان الموحد «أربيل» .. ومنذ تلك اللحظة تكرس الانقسام إلى إقليمين وبسطت الولايات المتحدة شباكها بدعوى التوسط والتحكيم وتردد الجانبان على واشنطن إلى أن وقعا فى ١٩٩٨ اتفاقا نهائيا لم يطبق حتى اليوم .

العلم الأخضر

سألنا «مهدى» سائق «التويوتا» عندما رأينا العلم الأخضر يرتفع على الجانب الآخر من نقطة الحدود عما إذا كان سيظل معنا عندما ننتقل إلى المنطقة الأخرى فأجاب بالنفى وأنه سيكون فى انتظارنا عندما نعود من زيارتها . وأضاف باستخفاف أننا سنركب هناك سيارات قديمة لا ترتفع إلى مستوى السيارات التى تنقلنا فيها فى المنطقة البرزانية .

غادرنا السيارات وتقدمنا من الحشد الذى انتظرنا على الناحية الأخرى وهمس لى «ريبوار يلدا» أحد كبار المسئولين فى حزب البرزانى ، الذى رافقنا فى كل جولاتنا بمنطقته مع «كريم فندى» و«ابراهيم مصطفى» ، همس لى قبل أن

يسلمنا إلى الجانب الآخر : قولوا لهم أن يعطونا كفايتنا من الكهرباء . وقال إن منطقته عانت من أزمة تلج فى الشهر الماضى بسبب تقليل وحجب الحصة المتفق عليها من التيار الكهربائى الذى تقع محطة توليده فى منطقة الطلبانية .

لم يكذبنا سائقنا السابق الخبر فبعد استقبال حافل شارك فيه الشاعر الشهير «شيركوه بيك» والملا «بختيار» انتقلنا إلى سيارات «مرسيدس» تبدو عليها آثار الخدمة الشاقة . وخلف الزجاج الأمامى المشروخ جلس سائق ضخم الجسم قاد السيارة كأنه فى معركة . وعلى مشارف مدينة «السليمانية» حظينا باستقبال حافل آخر ثم صعدنا إلى مصيف «سرجنار» حيث استقبلنا «مام جلال» بالملابس الأوروبية فى الفندق الذى خصص لاقامتنا .

العم جلال

«مام جلال» ، أى العم «جلال الطلبانى» ، كما يناديه أنصاره ، رجل ضاحك فى السبعين ، ضخم الجسم خفيف الظل يتمتع بروح مرحة ، ويمتلىء حديثه دائما بالنوادر والنكات ، لكنه شديد اليقظة حاد الذكاء. وهو فضلا عن ذلك عاشق للطعام الجيد. قال لنا عندما استأذناه فى أن ندخن : «أنا لا أدخن وزوجتى لا تأكل . أنا آكل بالنيابة عنها وهى تدخن بالنيابة عنى» . ولم نفهم ما يقصده إلا عندما انضمت الينا زوجته «هيرو ابراهيم أحمد» بعد قليل فوجدناها نحيلة ضئيلة الحجم فى منتصف العمر ترتدى بلوزة سوداء وجينزا أسود ذات وجه شاحب ونظرة شاردة وابتسامة رقيقة . وعندما انتقلنا لتناول طعام الغداء حول مائدة حفلت بكل ما يمكن تخيله من أصناف اللحم والسمك مع نوع واحد من الخضراوات هو البامية المطهية على الطريقة المصرية تحققنا من صدق قوله ، فبينما كان مام جلال يتناول أصابع الكفتة باهتمام كانت زوجته تشعل السيجارة من غيرها .

نصير المرأة

صحبتنا السيدة «هيرو» التى لا تخلع السواد منذ وفاة أبيها قبل شهرين (ابراهيم أحمد رفيق الملا «البرزانى» فى الكفاح وشريك «الطلبانى» فى تأسيس حزب الاتحاد الوطنى) إلى مقر التليفزيون الذى تشرف عليه وتنطلق منه قناتان أرضيتان وواحدة فضائية باسم «كردسات» . (يملك الجانب البرزانى أيضا قناتين أرضيتين وواحدة فضائية باسم كردستان تى فى) واستطاعت أن تأسرنا جميعا برقتها وتواضعها . فرغم أنها فى وضع «السيدة الأولى» فإنها لا تسمح لأحد أن يخدمها وتصر على أن تحضر بنفسها منفضة السجائر أو المقعد الذى ستجلس عليه ولهذا لا عجب أن

الجميع يعشقونها . وفى دائبة الحركة شديدة النشاط تشرف على عدد من النشاطات وترعى مركزا كبيرا للشباب يتميز مبناه بحس جمالي رفيع جعلني أتساءل عما إذا كان قد أقيم بتمويل أجنبي فنفت ذلك وقالت : «دبرنا أمورنا ثم أخذنا الباقي من «مام جلال» . وسمعت تعليقا مشابها من رئيسة تحرير الجريدة النسائية فعندما سألتها عمن يمول الصحيفة نظرت إليّ بتعجب وقالت : لا أحد . مام جلال هو الذي يعطينا النقود.

وفى إحدى الجلسات جاء مكاني إلى جوار شابة جميلة تغطي رأسها بايشارب عرفتني بنفسها : إسمها شيرين متزوجة وعندها أطفال وأجبرها الاقتتال هي وزوجها على الالتجاء إلى ايران بعض الوقت . تقوم بمسئوليات رئيسية في النشاط الحزبي النسوي وتتعلم الانجليزية وتدرس القانون بجامعة السليمانية لتصير محامية وعندما أبديت دهشتي من كل هذا الجهد قالت بافتخار : الفضل لمام جلال الذي يشجع المرأة .

وفى جلسة أخرى وجدت مام جلال ينصت إلى حديث هامس من فتاة شقراء جميلة ثم قال: إنها شاعرة ونشرت بضع قصائد متهورة اعتبرتها الحركات الاسلامية كفرا فعين لها حراسة خاصة لحمايتها .

والواقع أن الحزبين يشتركان فى الموقف المتقدم من قضية المرأة ومن مشاركتها فى الحياة العامة. لكن طبيعة كل منطقة هى التى فرضت نفسها . ف «السليمانية» أقرب إلى المراكز الحضرية فى العراق وايران بينما «أربيل» معزولة فى الشمال وبالتالي أكثر محافظة .

لباس الحكمة الذى ارتديناه

مساء يوم وصولنا إلى «السليمانية» أقلتنا سيارات المرسيدس إلى مقر «مام جلال» الخاص فى «قلاجوالان» – ومقر المكتب السياسى لحزبه فى الوقت نفسه – فوق أعلى قمة جبلية بالمنطقة بلغناها بعد أكثر من نصف ساعة من الدوران بالطريق الجبلى الصاعد . كنا نتحرق شوقا لممارسة دور الحكماء الذى تلبسنا بعد يومين من حلولنا بالأرض الكردية . فمن فرط اعجابنا بالطبيعة والناس وتأثرنا بكرمهم وعواطفهم واشفاقنا على مستقبلهم وتقديرنا للتضحيات التى بذلوها شرعنا نوجه إليهم النصح بالمحافظة على الديموقراطية وتجاوز الخلافات وتحقيق الوحدة . كانوا يستمعون الينا فى هدوء ويؤمنون على أقوالنا فى صمت . وفى احدى اللحظات تخيلت أنهم ربما يسخرون منا فى أعماقهم . بالنظر إلى ما حققناه نحن العرب من انجازات خطيرة فى هذه الميادين .

وأتاح لنا «مام جلال» الفرصة فى

حديقة مقره الخاص وأمام مائدة طويلة صفت فوقها صوانى الموز والبطيخ والعنب ، بينما دارت علينا أسياخ المشويات من دجاج ولحم . وأمدنى «انتشال التميمى» بخبرته فنصحنى بتجنب بعض الأنواع غير المطهية جيدا والتركيز على الأكباد والقلوب، كما نصحنى بألا أفرط فى الأكل لأن العشاء الحقيقى لم يبدأ بعد . وخلال ذلك استمع «مام جلال» إلى نصائحنا الحكيمة ورد عليها باستعراض المبادرات التى قامت بها جماعته من أجل رأب الصدع وتجنب الاقتتال وتحقيق الوحدة. وهو تقريبا نفس الحديث الذى سمعناه عندما التقينا بزعيم الحزب الآخر، «مسعود البرزانى» ، فى مقره ومقر مكتبه السياسى فى مدينة «صلاح الدين» .

كاك مسعود

إن «كاك مسعود» أى «الأخ مسعود» كما يدعوه أنصاره رجل قصير القامة فى الرابعة والخمسين من عمره ، له عدد من الأحفاد ، رصين ، شديد الذكاء والتركيز، قليل الكلام، كان دائما محل تقدير أبيه «الملا مصطفى» فخلفه فى قيادة الحزب الديموقراطى .

فى اليوم الذى تحدد لنا للقاء القيادة البرزانية ظهر «نبيل زكى» عند باب الفندق فى قميص أخضر زاه، وسارع إليه «فخرى كريم» محذرا بأن هذا اللون هو لون علم الجانب الآخر وأن إرتداءه سيعتبر استفزازا . آمن «نبيل الطيب» بالتحذير وصعد إلى غرفته واستبدل قميصه بينما كنا نخفى ابتساماتنا . أما «ليلى العثمان» فقد اختارت بالصدفة من أطقم ملابسها العديدة طقما باللون الأصفر . هكذا ذهبنا مهندمين إلى لقاء الزعيم الكردى الذى استقبلنا فى الملابس التقليدية تحت علم الحزب الأصفر اللون .

وكالعادة ، أبدى حكماؤنا قلقهم على وحدة التراب العراقى والوحدة الكردية ذاتها وتخوفهم من تداعيات الدور الأمريكى ودعوا إلى أن ينضم الأكراد للمطالبة برفع الحصار عن العراق . ومن جانبه أكد الأخ «مسعود» أن حزبه لا يفكر اطلاقا فى أى دعوة انفصالية وأنه متمسك بوحدة التراب العراقى ولكن على أساس الفيدرالية وأنه يؤيد الدعوة لرفع الحصار عن العراق بشرط ألا يؤدى ذلك إلى اطلاق يد «صدام» فى التنكيل بهم . وإنه يدرك طبيعة الدور الأمريكى فقد سبق أن تخلت الولايات المتحدة عنهم سنة ١٩٧٤ بعد أن دعمتهم لبعض الوقت كما أن نصف المعونات التى يتلقونها من الغرب حسب برنامج الغذاء تذهب للخبراء الأجانب وموظفى الأمم المتحدة. وتواصل الحديث على مائدة الطعام الحافلة بكل أنواع اللحوم والأسماك

الشهية وطبق البامية التقليدى وتحت النظرات اليقظة من شاب مسلح فى الملابس الكردية التقليدية هو الأخ الأصغر ل «كاك مسعود» ومعاونه الذى لم يشاركنا الطعام وإنما ظل واقفا عند باب القاعة وعينه على أخيه فى انتظار أى اشارة منه .

وبعد حديث طويل عن العلاقات بين الحزبين الكرديين وجمرك «ابراهيم الخليل» والفيدرالية والديموقراطية والانتفاضة والقرار ٩٨٦ واتفاقية واشنطن وحكم المناصفة «فيفتى فيفتى» .. وجهت إلى الأخ «مسعود» السؤال التالي: من حديثك أفهم أنه لا يوجد أى خلاف بينكم وبين الحزب الآخر بشأن المواقف السياسية فما هى المشكلة إذن؟ أجابنى على الفور دون مواربة : الخلاف فى حقيقته هو صراع على السلطة .

أعجبتنى صراحته ولم أشأ أن أسأله عن الكيفية التى سيحسم بها الصراع فلاشك أنه سيجيب بأنها الانتخابات التى يشترط كل جانب لاجرائها شروطا لا يقبلها الجانب الآخر . وخطر لى خاطر بسيط ومجنون فى الوقت نفسه من فرط بداهته : ماذا لو أعلن أحد الطرفين انسحابه من الصراع وترك الميدان حرا للطرف الآخر فى سبيل المصلحة العليا للشعب الكردى؟.

ياويلى !

لم تكن رحلتنا كلها مكلمات فقد كانت هناك فرص كثيرة للاستمتاع بمشاهدة جبال شاهقة، وأودية سحيقة ، ومقاه معلقة فى قمم الجبال بين شلالات المياه، ومناظر ساحرة دفعت «انتشال التميمى» لأن يصرخ أكثر من مرة «يا ويلى !» ، تعبيرا عن انبهاره بجمال الطبيعة ورهبتها ولم تخل الرحلة أيضا من أخطار متعددة، عندما وقعت بسبب الظلام فى قناة صرف أمام مقر المكتب السياسى للحزب الشيوعى العراقى فى مدينة «شقلاوة» ، وعندما اعترضنا حاجز عسكرى فى طريق العودة أنبأنا بوجود تحركات المتسللين من أعضاء حزب العمال التركى . وعندما قصفت الطائرات التركية منطقة الحدود فى اليوم التالى لعبورنا إياها وقتلت ١٨ كرديا . كما كانت هناك لحظات الأسى أمام قبور ضحايا القصف الكيماوى البعثى فى «حلابجة» على بعد نصف ساعة بالسيارة من الحدود الايرانية شرقا وساعة كاملة من الحدود البعثية جنوبا .

هيروشيما العراقية

فى ١٦ مارس ١٩٨٨ ظهرت الطائرات العراقية فجأة دون انذار فى سماء البلدة التي يقطنها خمسة وأربعون ألف كردي وقصفتها هى والقرى المحيطة بمزيج خاص من غاز الخردل والسيانيد

وغازات الأعصاب الأخرى . وبدلا من أن يهرع السكان إلى الهواء الطلق لمقاومة تأثير الغازات التجأوا إلى الأقبية والمخابىء فتعرضوا لمصير بشع. وكانت المواد الكيماوية المقصوفة تلتصق بالملابس والجلود والعيون والرئات . وظلت سحابات الغاز تخيم فى سماء البلدة عدة أيام . وتجاوز عدد الضحايا الخمسة الاف .

فى تلك الآونة كان «صدام» يحظى بتأييد الغرب كحليف ضد ايران الاسلامية ولهذا تم اسكات حملات الاحتجاج الدولية على المأساة، أما البلاد العربية فقد كانت مشغولة بقضية فلسطين وواقعة فى فخ العداء لايران، كما أن النظام العراقى نجح فى تضليل مثقفيها بشعار «وحدة التراب» من ناحية وبالاغراءات العديدة من ناحية أخرى والنتيجة أن أحدا لم يتحرك لمساعدة الضحايا. وبعد عشر سنوات أجرى عالم إنجليزى من جامعة ليفربول الكشف على ٧٠٠ شخص من ضحايا القصف فاكتشف أن أغلبهم مصاب بسرطانات عديدة فى الجلد والرأس والرقبة والجهاز التنفسى والهضمى وأن الاصابات امتدت إلى الأطفال الذين ولدوا بعد القصف . كما شكى كثيرون من عجزهم عن استخدام عضلاتهم ومن تكرار حالات الاجهاض والولادات المشوهة . وتبين أن الذين لقوا حتفهم فى القصف ودفنوا فى مقابر جماعية تسللت السموم من أجسادهم المتحللة إلى التربة ولوثت المياه والزرع مما أدى إلى ذبول الأشجار ونفوق الحيوانات . وتوصل العالم الانجليزى فى النهاية إلى أن نتائج القصف تماثل تلك التى ظهرت لدى من كانوا على مبعدة كيلو متر واحد أو اثنين من مركز انفجار هيروشيما .

المكلمة الكبرى

لكن ذروة الرحلة كانت بلاشك «المكلمة الكبرى» التى عقدناها فى مدينة «السليمانية» عشية مغادرتنا لها وأدارها «الملا بختيار» ، أحد قادة الحزب الشبان ذو الأصل العمالى والتاريخ العسكرى والمشرف على اصدار مجلة «مدنى» التى تروج لأفكار المجتمع المدنى .

استهل اللقاء الذى شهده عدة مئات من المواطنين فى القاعة الرئيسية لمركز الشباب بداية غير موفقة . فبعد أن وقفنا حدادا على شهداء الشعب الكردى بناء علي إقتراح من «الملا بختيار» اقترح «مصطفى الحسينى» ، بدافع من حرصه على التنويه بوحدة شعبى العراق، العربى والكردى، واخلاصا منه لرسالة وفد الحكماء ، أن يقف الجميع حدادا على شهداء الشعب العراقى . لكن صوته المنفعل بدا محملا بنبرة بها شىء من اللوم .

ولعله بدا هكذا لبعض الحاضرين مما دفع رئيسة تحرير الجريدة النسوية لأن تطلب الكلمة لتستنكر فى انفعال احتجاز الدكتور «سعد الدين ابراهيم» رهن التحقيق فى مصر واصفة إياه بالصديق العزيز للشعب الكردى .

انبرى «نبيل زكى» للرد وتتابعت الأسئلة وكان أغلبها موجها إلى «ليلى العثمان» وإلى ظروف المحاكمة التى تعرضت لها فى الكويت بضغط التيارات الأصولية . وتحدثت ليلى عدة مرات بطلاقة وبساطة نالتا اعجاب الجميع .

وجاء دورى لأجيب على سؤال عن الحداثة وسقوط نظرية المؤامرة وعما إذا كان الأفضل أن ننسى الماضى . ولم أملك إلا أن أبدأ بالتعبير عن أسفى لما تفضلت به الأخت الصحافية من وصف الدكتور الذى يفخر بجنسيته الأمريكية بأنه صديق للشعب الكردى . وتساءلت : كيف يمكن أن تكون الولايات المتحدة صديقة للشعب الكردى أو لأى شعب فى العالم غير يهود اسرائيل ؟ ثم تحدثت عن بعض مظاهر ارتباط المصالح بين القوى المهيمنة والمصطلحات التى يروجون لها بخبث من أول «قبول الآخر» و «ثقافة السلام» إلى «المجتمع المدنى» .

ولأنى لا أجيد الارتجال فقد عدت إلى مقعدى سريعا ورحت أستعيد ما قلته نادما على ما فاتنى ذكره . ثم شردت أفكر فى حظ هذا الشعب الجميل الذى قسمته «المؤامرة» عدة أجزاء هيمنت عليها حكومات شرسة وخاصة فى العراق حيث يتقصد النظام ابادة أبنائه بشكل كامل متدثرا بعباءة وحدة التراب – التى تستخدمها جميع الأنظمة الرجعية لتبرير وحشيتها وشوفينيتها – ليرفض حقه المشروع فى كيان مستقل . ويخفى هدفه الحقيقى وهو الاستحواذ على موارد النفط الهائلة التى تحظى بها الأرض الكردية . أدركت معنى بيت من قصيدة شاعر كردى يقول فيه أن الشعب الكردى ليس له أصدقاء .

تطلعت حولى فى القاعة الواسعة والوجوه المصفوفة بين أربعة جدران . وأمكننى أن أدرك ما يدفع الانسان عندما يجد نفسه محاصرا من كل جهة كى يبحث عن منقذ ويقبل الحلفاء أيا كانت نواياهم الحقيقية ..

انتهت المكلمة أخيرا وغادرنا القاعة لنسمع الأنباء . فقد قامت سلطات بغداد بترحيل ما تبقى من أكراد فى منطقة «كركوك» من أجل تعريب المنطقة بالكامل .. وشعرت بأننا – وفد الحكماء – أنفقنا جهدا زائدا فى توجيه النصح بينما كان يتعين علينا أن نقدم – بدلا عنه – الاعتذار !!.



صحيفة تحت الحصار

بقلم : حسين عبدالرازق

احتلت تجربة «الأهالى» المساحة الأكبر فى الملف الذى نشر فى «الهلال» فى العدد الماضى تحت عنوان «الصحافة الحزبية : تجارب وشهادات» ، وهو أمر طبيعى ، حتى ولو تم بالمصادفة نتيجة لأن اثنين من الزملاء الذين أدلوا بشهاداتهم رأسا تحرير «الأهالى» فى فترة من الفترات ، وهما الصديقان «محمود المراغى» و«عبد العال الباقورى» .

دائرة حوار


حسين عبدالرازق


محمود المراغي


عبدالعال الباقوري

فالأهالي منذ صدورها تثير جدلا واسعا في الساحتين السياسية والصحفية، وربما أكثر من أي صحيفة حزبية أخري. وقد تعرضت في عامها الأول (١٩٧٨) للمصادرة ٨ مرات منها ٧ مصادرات علي يد المستشار «أنور أبوسحلي» (الأعداد ١٦، ١٧، و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٣٠) والتعطيل مرتين (العددين ٢٨ و ٢٩) بقرار من غرفة المشورة بمحكمة جنوب القاهرة برئاسة المستشار «أحمد سلطان»، وللمصادرة بقرار من رئيس مجلس إدارة دار التعاون التي كانت «الأهالي» تطبع في مطابعها (العدد ٣١) وبالتالي منعها من الصدور. كل ذلك في فترة لا تتجاوز تسعة أشهر (من أول فبراير ١٩٧٨ إلي ٢٥ أكتوبر من العام نفسه).

وتمهيدا للمصادرة وإغلاق الأهالي، تعرض حزب التجمع «جريدة الأهالى» لهجوم غير مسبوق من رئيس الجمهورية الراحل (أنور السادات) الذى قال فى عيد العمال (أول مايو ١٩٧٨) بشبرا الخيمة .. «لن أسمح أبدا بأن يعبث بمصير هذا الشعب نفر من أصحاب المذاهب والعملاء»، ووصف صحيفة الأهالى بالغباء وقال إنه لا يعترض على قيام تنظيم يسارى مصرى «لكننا نعترض على وجود عملاء داخل تنظيم اليسار.. الولاء لا يكون لاثنين.. الولاء لمصر فقط»!

وعندما عادت الأهالى للصدور فى ١٩ مايو ١٩٨٢ بعد تولي الرئيس حسني مبارك للسلطة، تعرضت «الأهالى» – خاصة فى الثمانينات – لعديد من الحملات الحكومية والصحفية وللمساءلة أمام نيابة أمن الدولة وللمثول أمام

المحاكم بمختلف درجاتها ، من القاهرة إلى الإسكندرية مرورا بشبين الكوم ، وصولا إلى أسوان، فى أكثر من ٩٢ قضية.

ولازلت أذكر كيف خصص مجلس الشعب جلسته يوم ٢٣ يناير ١٩٨٣ لمحاكمة جريدة الأهالى لنشرها تحقيقا صحفيا للزميل عاصم حنفى (٢٩ ديسمبر ١٩٨٢) حول طرد «د. محمد على صالح» الأستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة، ودور رئيس جامعة القاهرة فى عملية الطرد، والذى كان عند نشر هذا التحقيق رئيسا لمجلس الشعب، وقرار مجلس الشعب إحالة مضبطة الجلسة إلى المجلس الأعلى للصحافة للتصرف.

ومن إبريل ١٩٨٣ هددت الحكومة الأهالى بالمصادرة إذا لم توقف نشر فصول كتاب «خريف الغضب» للأستاذ محمد حسنين هيكل، وتعرضت الأهالى لحملة صحفية قادها الزميل الراحل «موسى صبرى» ولحملة أشد داخل المجلس الأعلى للصحافة.

وتعددت المعارك والصراعات والتى يمكن لو عددت بعضها أن أشغل كل صفحات مجلة الهلال وأكتفى - خاصة والتفاصيل كاملة منشورة وموثقة فى كتاب «الأهالى صحيفة تحت الحصار» الصادر فى يونيو ١٩٩٤ والذى أشار إليه د. محمود خليل فى مقاله بالهلال - اكتفى بما سجله «التقرير الاستراتيجى العربى» عن عام ١٩٨٥، الصادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.. ومن الموضوعات التى اهتمت بها الأهالى وأثار بعضها زوبعة سياسية أو دينية موضوع دور المؤسسة العسكرية فى المجتمع المصرى، وموضوع التسهيلات العسكرية الأمريكية فى مصر، وموضوع حجاب المرأة فى الإسلام. كما تابعت الأهالى محاولات الحكومة لرفع الأسعار، مثلما تناولت قضايا أخرى كالضرائب والتهرب الضريبى وتزوير الانتخابات، وأيضا دافعت عن مشروع السد العالى .

وانفردت «الأهالى» بعدائها لنظام نميرى فى السودان، وأجرت أول لقاء صحفى مصرى مع القيادات السياسية السودانية بعد سقوط النميرى. كذلك انتصرت الأهالى لحقوق المرأة وحذرت من تضررها من تغيير قانون الأحوال الشخصية.

على أن أهم حملات الأهالى قد ارتبطت بموضوعين : الأول هو موضوع التعذيب الذى تعرض له المعتقلون من أعضاء تنظيم الجهاد، والذى جعلته «الأهالى» فاتحة لمناقشة موضوع تعذيب السياسيين فى مصر على وجه العموم ، وكانت حملة ناجحة انخرطت فيها بقية صحف المعارضة وأدت لفتح ملف

الموضــوع بواسطة النيــابة العــامــة. والموضوع الثانى هو القرارات الاقتصادية (عام ١٩٨٥) والتى أيدتها الأهالى ونبهت فى الوقت نفسه إلى ما بها من ثغرات كما توقعت الحملة المضادة لهذه القرارات.

لقد كانت تجربتى التى استمرت منذ الصدور الأول للأهالى (١ فبراير ١٩٧٨ - ٢٥ أكتوبر ١٩٧٨) وعملت خلالها سكرتيرا للتحرير، وخلال الصدور الثانى وتحملى مسئولية رئيس التحرير (١٩ مايو ١٩٨٢ - ١٨ مايو ١٩٨٨)، تجربة مهمة متخمة بالدروس. وقد لخصت فى نهاية كتابى «الأهالى صحيفة تحت الحصار» مشاكل الصحافة الحزبية قائلا:

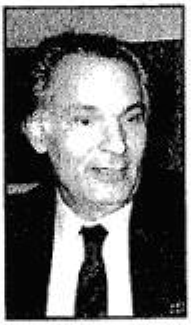
«.. نستطيع حصر هذه المشاكل والأخطار فى أربعة مجالات أساسية :

١ - مشاكل عامة .. ويأتى فى مقدمتها افتقار الصحف الحزبية - أغلبها إن لم تكن جميعها - إلى استكمال المقومات الضرورية للمؤسسة الصحفية، وبصفة خاصة، افتقارها للمطبعة وجهاز التوزيع، وبالتالى اعتماد الصحافة الحزبية فى الطبع والتوزيع على الغير.. واعتماد الصحافة الحزبية على مطابع المؤسسات المملوكة لمجلس الشورى أساسا يجعلها رهينة لقرارات السلطة.. كذلك فالطبع والتوزيع لدى الغير يحرم الصحف الحزبية من جزء كبير من الدخل، يذهب إلى المؤسسات الصحفية، كما يحرمها من عائد الاستخدام التجارى للمطابع فى حالة ملكيتها لها.

ويقودنا ذلك إلى أهم وأخطر مشاكل الصحافة الحزبية، وهى المشكلة المالية



خالد محيى الدين



د. اسماعيل صبرى عبدالله

والاقتصادية. فالصحف الحزبية جميعا تعانى من غياب أو ضعف مواردها المالية فهى تكاد تكون بلا رأس مال باستثناء الموارد التى خصصتها لها أحزابها عند الصدور. وتعتمد كلياً على عائد البيع، وهو أقل من أن يغطى التكلفة الحقيقية لهذه الصحف. والمصدر الثانى المتاح هو الإعلانات .. ويلاحظ أن توزيع إعلانات القطاع العام لا يتم على أساس توزيع هذه الصحف وانتشارها، وإنما تدخل فيه عوامل أخرى عديدة.. ولا يمكن إغفال أن الحكومة هى التى تتحكم فى هذه الإعلانات .. وبالتالى تستطيع الضغط على الصحف الحزبية إذا أرادت .. ومن الغريب أن الحكم - يمنع بالقانون - على الأحزاب القيام بأى نشاطات تجارية لزيادة موارد الحزب.. بينما يسمح للمؤسسات الصحفية المملوكة للدولة بمزاولة «التصدير والاستيراد والقيام بأنشطة الوكالات التجارية».

ونتيجة لهذه العوامل فإن جميع الصحف الحزبية تعانى من اختلال فى

أوضاعها المالية والاقتصادية، وتعتمد على الحزب في تقديم الدعم.. ويزيد من خطورة المشكلة المالية والاقتصادية غياب أو ضعف البناء المؤسسي للصحف الحزبية والضعف البالغ للجهاز الإداري وافتقاره إلى الخبرة في إدارة المؤسسات الصحفية.. والمشكلة الرابعة والمهمة هي مشكلة الجهاز التحريري.. واضطرار الصحف الحزبية للبحث عن كفاءات صحفية من غير المنتمين إليها أو إلى الأفكار التي تدعوها.

٢ - العلاقة مع سلطات الدولة.. هناك قيود وانتهاكات عديدة ، والأهم من ذلك أن هناك قوانين وسلطات تعطي للسلطة التنفيذية امكانات واسعة للعصف بالصحافة الحزبية.

- فهناك القيود الواسعة المفروضة على حق الصحف الحزبية في الحصول على المعلومات.

- وهناك تعرض بعض الصحف الحزبية للمصادرة والغلق.

- وهناك التوسع من جانب النيابة العامة في استخدام حقها في حظر النشر حول تحقيقات مفتوحة أمامها.

- توسع المسئولين في المواقع المختلفة في رفع قضايا قذف وسب ضد صحف المعارضة في محاولة لتضييق الهامش المتاح للنقد «المباح» .

- لجوء أجهزة الدولة إلى تكذيب كثير من الأخبار التي تنشرها الصحف الحزبية رغم صحتها . وتستمد أجهزة الدولة جرأتها على التكذيب استنادا إلى أن القانون المصري الذي يجعل المسئولية على الصحيفة (أو الصحفي) في إثبات صحة الخبر.

- وهناك التدخل الفظ لأجهزة الأمن في العمل الصحفي.. بما في ذلك مراقبة بعض صحف أحزاب المعارضة، والتصنت على دور الصحف الحزبية وزرع عملاء في داخلها .

- وهناك التدخل الحكومي داخل بعض الأحزاب مستفيدة من ضعف هذه الأحزاب والذي أدى إلى فرض رؤساء تحرير بعينهم أو إقصاء آخرين ، أو على الأقل محاولة ذلك بوسائل غير ديمقراطية.

٣ - المشاكل المهنية والنقابية .. تفتقر أغلب الصحف الحزبية إلى أي نظام مؤسسي أو لوائح للأجور والمرتبات بما أثار العديد من المشاكل بين إدارات هذه الصحف والعاملين بها.. والصحف الحزبية أساسا هي ملكية خالصة للأحزاب السياسية، ومهما وضعت لوائح وأنظمة فالحزب - حتى الآن - هو المالك ، وبالتالي تنعكس على الصحيفة كل الأوضاع الحزبية سلبا وايجابا ويتعثر قيام مؤسسة صحفية مستقرة.

٤ - مشاكل الأحزاب .. برزت خلال

الفترة الماضية مجموعة من الظواهر أثرت على الصحف الحزبية من أبرزها ثلاث ظواهر.

– واجهت كل الصحف الحزبية التناقض بين الضرورات الحزبية والضرورات الصحفية. وقد نجح بعضها في إقامة توازن صحيح بين الضرورتين . بينما غلب البعض الآخر الاحتياجات الحزبية المباشرة . مما أثر بالسلب على هذه الصحف . وفي تجارب أخرى تحقق نجاح صحفي، ولكن على حساب الصفة الحزبية، ففقدت بذلك تميزها النوعي.

– أغلب الأحزاب القائمة ، نتيجة لقانون الأحزاب وممارسات الحكم، هي في الواقع جبهات .. ومن الطبيعي أن تواجه هذه الأحزاب خلافات – بل وصراعات – داخلية تحلها بطرق مختلفة، بعضها ديمقراطي صحي وبعضها يقوم على الانشقاقات أو التصفيات. ولا شك أن هذه الأوضاع تضر ضررا بالغا بالصحافة الحزبية التي تخضع مباشرة - في أغلب الأحزاب – للقيادة الحزبية . وقد عانت أغلب الصحف الحزبية من عدم استقرار في قياداتها (وهو أمر غير تجديد القيادات)، فالتغيير في هذه الصحف ارتبط بحسم صراعات داخلية وأحيانا بتغيير مفاجيء في توجه الحزب واختياراته. ووصل الأمر في بعض الأحزاب إلى إصدار صحف مماثلة لكي تجد حلا لصراعاتها الداخلية، مما أضعف من هذه الصحف وتأثيرها في المجتمع، وانعكس على العاملين فيها، سواء أصحاب المواقف أو الذين عملوا كمهنيين فقط..»

لقد ركز الزملاء محمود المراغي وعبد العال الباقوري وجمال بدوي بدرجات متفاوتة على المشاكل الناتجة عن العلاقة بين الأحزاب وصحفها، وأثر الخلافات والصراعات الحزبية السلبي على الصحافة الحزبية، ولهم الحق كل الحق في ذلك .

ولكن وعندما تناول المراغي والباقوري انعكاس الأوضاع الحزبية على الأهالي من خلال التجربة الخاصة ، وردت بعض المقولات التي تحتاج إلى مراجعة.

يقول محمود المراغي.. «رفعت ومنذ اليوم الأول شعار «المعارضة بالمعلومات» فالصوت العالي وحده لا يكفي وأثره مؤقت في كل الأحوال.. وكنت أقول إن الصوت العالي عند البعض «ديماجوجية»، ومن ثم فإن النغمة الصحيحة هي النغمة الهادئة التي تدحض الرأي بالرأي».

وقد سبق عندما تولى الزميل العزيز محمود المراغي رئاسة تحرير الأهالي بعد تركي لها إثر خلاف واضح مع قيادة الحزب ،أن أدلي بحديث للأهرام الاقتصادي ركز فيه على قضية «المعارضة بالمعلومات» ورفضه للإثارة والصوت العالي والصراخ، وان هذا هو الفارق بين الأهالي في ظل رئاسته للتحرير والأهالي قبلها، وقد رددت على هذه المقولة وقتها. فالأهالي خلال السنوات الست التي رأست تحريرها كانت تعارض معارضة جذرية وفي الصميم معتمدة أساسا على الحقائق والمعلومات.

مثلا عندما خاضت الأهالي قضية

تعذيب المعتقلين فى السجون والمعتقلات وأماكن الحجز اعتمدت على معلومات وحقائق ثابتة فى ملفات التحقيق والبلاغات المقدمة وتقارير الطب الشرعى، أى على المعلومات ، وقدمتها للرأى العام بطريقة صحفية سليمة.. فكانت العناوين فى الصفحة الأولى «الأهالى تطالب بإيقاف ٣ من كبار ضباط مصلحة السجون» ونشر الموضوع على الصفحة الثالثة تحت عناوين تقول «الأهالى تفتح ملفات التعذيب - أيها المواطن هذا هو مصيرك إذا استمرت حالة الطوارئ» - الضرب بالكرابيج وصدمات الكهرباء والحرق». المنهج نفسه اتبعناه فى الأهالى عند تناولنا القضايا الاقتصادية وقضايا القطاع العام مثل قضية جنرال موتورز والتى نشرنا أحد التحقيقات حولها تحت عناوين تقول :

«لأول مرة الوثائق الرسمية لصفقة جنرال موتورز».

«قبل البحث فى هيئة الاستثمار صدر خطاب سرى من مجلس الوزراء بالموافقة على المشروع».

«الاتصالات السياسية أولا وشركة النصر آخر من يعلم».

«كل ما تقدمه جنرال موتورز (١٢) مليون جنيه وأرباحها (٨٧) مليونا فى ٩ سنوات».

وأتحدى أن تكون الأهالى خلال ٦ سنوات توليت رئاسة تحريرها قد اعتمدت فى أى موضوع - كبير أو صغير - على الإثارة والصوت العالى ، دون أن تكون مستندة إلى معلومات ووثائق مؤكدة، وهو ما أدى إلى أن كل القضايا التى رفعت ضدها كسبتها الأهالى، وأنه لم يحكم عليها أبداً بجريمة نشر خبر كاذب.

الخلاف أننى رفضت وجود خطوط حمراء مفروضة من هنا أو هناك ، وإضفاء قدسية على مؤسسة من المؤسسات ، وهو ما ساد بعد ذلك فى الأهالى فى مختلف العهود.

أما التفسير الذى قدمه الزميل محمود المراغى لاستقالته من الأهالى، وقوله إن الماركسيين سيطروا على قيادة الحزب، وإن هذا الفريق «الماركسيين» .. «كان يرى أن من حقه السيطرة على قيادة الصحيفة، ولم يكن مرتاحا لوجود شخصية ناصرية على رأس الجريدة..» فأرجو أن يتقبل منى القول بأن هذا التفسير غير صحيح . فقد وافقت اللجنة المركزية على ترشيح الأمانة العامة لمحمود المراغى لرئاسة تحرير الأهالى بالاجماع. ولم تكن هناك أى قوة فرضت عليهم هذا الاختيار. وقبل طرح اسم المراغى كانت هناك ترشيحات أخرى لاسماء ماركسية تم رفضها ، ومن قيادات ماركسية معروفة فى التجمع،

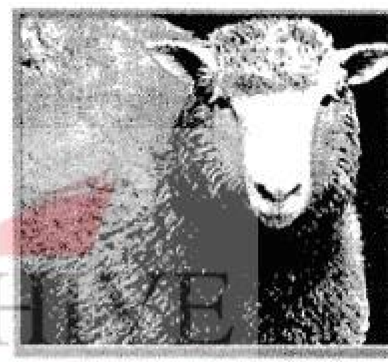
أذكر منهم د. رفعت السعيد ود. فؤاد مرسى. كذلك فخلال الصراع حول الأهالى والمطالبة بتركى وصلاح عيسى لرئاسة التحرير فقد قاد هذه الحملة ضدى - أصدقاء وأساتذة لى - من الماركسيين أذكر منهم لطفى الخولى وإسماعيل صبرى عبد الله وإبراهيم سعد الدين وأبو سيف يوسف وحلمى ياسين.

ملاحظة أخيرة حول ماكتبه الصديق عبد العال الباقورى. فلا أظن أن سبب تركه للأهالى هو الخلاف حول أوسلو أو الموقف من الصراع العربى الصهيونى. فهذا الخلاف قائم ومستمر مع عبد العال وعدد من قيادات الحزب منذ البداية واستمر قائما وقيادة الحزب تساند عبدالعال وتتصدى لأى نقد للأهالى فى عهده وتستصدر قرارات التقدير للأهالى من الأمانة العامة أو الأمانة المركزية. ولكن المشكلة أن الأهالى شهدت تراجعا غير مسبوق فى التوزيع فى العام السابق للمؤتمر العام، وتخلق رأى عام فى الحزب ناقد للأهالى وللزميلين لطفى واكد وعبد العال الباقورى. ومن خبرتى الطويلة فى الحزب لم يكن هذا الموقف مصنوعا أو موصى به من القيادة، بل العكس هو الصحيح فقد دافع خالد محيى الدين ورفعت السعيد عن الأهالى وعبد العال طويلا، إلى حد الوقوع فى خطأ تنظيمى عندما تجاهلا ضرورة تقديم تقرير للمؤتمر العام (يوليو ١٩٩٨) عن صحافة الحزب. وضرورة وجود لجنة للصحافة الحزبية فى المؤتمر كما حدث فى المؤتمرات الثلاثة السابقة. وهو ما أثار انتقادات حادة من أعضاء اللجنة المركزية وأعضاء الحزب ولجان المحافظات. واضطر مجلس الإدارة - بعد طبع وثائق المؤتمر - لإعداد تقرير عن صحافة الحزب (الأهالى خاصة)، واقترح د. رفعت السعيد أن تناقشه اللجنة السياسية بدل تشكيل لجنة خاصة، وطلب منى أن أبذل ما أستطيع من جهد فى اللجنة التى توليت رئاستها لتجنب أى هجوم غير موضوعى أو قرارات ضد الأهالى تغضب رئيس تحريرها الزميل عبدالعال الباقورى. وقد حضر عبدالعال مناقشات اللجنة، وأظنه يستطيع أن يشهد بما بذلته - أنا وآخرون - من جهد لتصدر القرارات الخاصة بالأهالى وصحافة الحزب على الصورة الموضوعية التى صدرت بها من المؤتمر. ومن بين القرارات التى صوت الزميل عبدالعال إلى جانبها .. «تراجع التوزيع بصورة شبه مستمرة» و«عدم وضوح الهوية الصحفية والسياسية للأهالى وفقدانها للمذاق الخاص الذى يميز أى جريدة فى السوق الصحفى، وتركيزها على قضية مهمة - ولكنها ليست قضية الوطن الوحيدة - «وهى قضية الإرهاب المتستر بالدين» . ويبدو أن الفترة التى تلت انعقاد المؤتمر (٢٣ يوليو ١٩٩٨) وانعقاد أول اجتماع للأمانة العامة فى سبتمبر ١٩٩٨، كانت حاسمة فى اتجاه تغيير رئاسة تحرير الأهالى.

وبالطبع فمازالت الأهالى مفتوحة وستشهد فصولا أخرى لها، أتمنى من قلبى أن تكون تسجيلا لنجاح الأهالى وخروجا من أزماتها المتتالية.

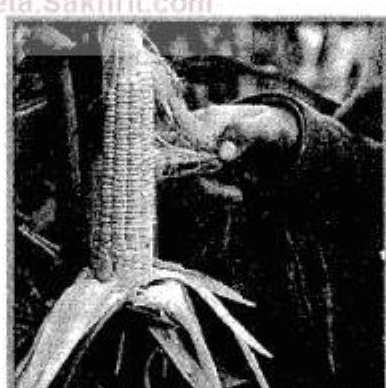
بذور شيطانية

عندما تضل الهندسة الوراثية السبيل



هذا الموضوع فى غاية الخطورة ، ولابد من النظر إليه وقراءته بكل العناية ، بحيث تتحول نظرتنا من نظرة عاطفية إلى نظرة عقلانية ، تقوم على أساس من العلم

الهلال



بقلم :
د. أحمد مستجير

فى كل صباح يطلع علينا العلم والتكنولوجيا بتطورات جديدة مذهلة ، البعض منها يثير فينا البهجة والأمل، والبعض الآخر يصيبنا بالدوار. ولقد كانت ذروة الحيرة يوم أعلن عن استنساخ النعجة دوللى فى فبراير ١٩٩٧ ، ولعلنا نذكر تلك الضجة الهائلة التى ذاعت فى مصر والبلاد العربية بعد أن اكتشف الناس أن ما جرى على الأغنام يمكن أن يجرى على البشر. وفى مارس ١٩٩٨ ، بعد مرور عام على الإعلان عن دوللى، صدرت براءة تقنية جديدة لشركة بذور أمريكية، لم تأخذ من اهتمام الجماهير عشر معشار ما أخذته دوللى - لكنها فى حقيقة الأمر كانت أخطر بمراحل على المجتمع الإنسانى وعلى البيئة . كانت تقنية شيطانية لاستخدام الهندسة الوراثية.

ولقد ترددت كثيراً قبل أن أبدأ فى كتابة هذا المقال لأثير قضية هذه البراءة. لقد خلت كل كتاباتى فى الهندسة الوراثية حتى الآن من مجرد ذكر لها، وكان لدى لذلك سبب. فالهندسة الوراثية يمكن بالتأكيد إذا وجهت التوجيه الصحيح أن تسهم كثيراً فى رفع الإنتاج الزراعى فى مصر وفى العالم كله، ونحن لا نملك فى بلادنا ترف أن نهملها أو أن نتجنبها لمجرد كتابات صغيرة هى فى معظمها غير صحيحة، تخيف المواطن العادى وتجعله يرفضها ويتحمس ضدها لأسباب واهية روج لها المتشددون البيئيون كثيراً.

والكتابة في موضوع «البذور الشيطانية» سيقدم مادة خطيرة ومثيرة يمكن أن تستغل في بث مزيد من الذعر في قلوب الناس من عواقب الهندسة الوراثية. أما وقد تراجعت الشركات عن وعودها بإغلاق ملف هذه البذور، فقد وجدت أن من واجبي أن أعرض القضية بالصورة الواقعية التي أرى أنها تستحقها.

عندما بدأت الزراعة

بدأت حضارة الإنسان كما نعلم في الهلال الخصيب مع اكتشافه الزراعة منذ نحو عشرة آلاف أو اثني عشر ألف سنة، فارتبط بالأرض، واستقر، ونشأت المجتمعات. كان يبذر الحب وينتظر حتى يأتي المحصول، فينتخب التقاوي من أفضل نباتات حقله، ويحفظها ليبذرها في الموسم التالي. ظل الأمر هكذا آلاف السنين، اختار فيها الفلاحون المحاصيل، وانتخبوا فيها ورفعوا غلتها وحسنوا من صفاتها لتلائم بيئاتهم المحلية. كانت الأصناف المتباينة من المحاصيل التي قام باختيارها وانتخابها صغار الفلاحين هؤلاء (والنساء منهم بصفة خاصة) هي المصدر الثري للتنوع الوراثي الذي يستخدمه اليوم مربو النبات في العالم كله. وعندما نشأ علم الوراثة في بداية القرن العشرين، أخذ المتخصصون من العلماء يطوعونه «لتربية النبات»، أي الانتخاب الوراثي لتحسين الإنتاجية. بدأت هذه المحاولات في الثلاثينات من القرن العشرين وقامت بها أساساً الجامعات ومراكز البحوث الزراعية، ثم وفي مراحل لاحقة، مع عصر تصنيع الزراعة وتكثيفها، دخلت في المجال شركات مهمتها التحسين وبيع البذور. طبيعي أن يكون هدف الشركات الأول هو الربح. لكن، ماذا تستفيد الشركة إذا هي أنفقت من مواردها واستنبطت «سلالة» جديدة ممتازة من محصول ما، ثم باعت بذورها للفلاحين مرة؟ سيحتفظ الفلاح كعادته ببذور مما أنتجه هو ليعيد زراعتها في الموسم التالي وما بعده - ولن يعود للشركة ليشتري بذوراً إلا إذا كان ثمة تطوير جديد في المحصول قد حصل. ثم جاء هنري والاس - أبو الذرة الهجين - فرفع بهذه الذرة إنتاج الفدان من ٢٥ بوشلا في ثلاثينات القرن الماضي، إلى ما يزيد الآن على ٣٠٠ بوشل. كانت الذرة الهجين مجالاً رائعاً مربحاً للمزارع، وأيضاً لشركات البذور لأنها تجبر المزارع على العودة في كل عام لشراء بذور هجينة جديدة.

عن الذرة الهجين

في أبسط مشاريع الذرة الهجين يقوم المربي بإجراء التلقيح الذاتي للنباتات لإنتاج عدد من «الخطوط النقية» بحيث تنتخب النباتات داخل كل خط - بجانب صفات أخرى - بناءً على متوسط غلة هجنها مع خط آخر أو أكثر. يستبقي المربي خطوطه النقية، التي ستتباعد وراثيا عن بعضها بعضا مع مرور أجيال

الانتخاب، ليقوم في كل موسم بالتهجينات اللازمة بين الخطوط المتوافقة منها، ويبيع للمزارع بذور الجيل الأول الهجينة الناتجة، لتعطيه عند زراعتها نباتات خليطة متماثلة تتميز بمحصول فائق يتمتع «بقوة الهجين»، ويحمل صفات ممتازة. لا توجد في أي من الأبوين من الخطوط النقية. فإذا حاول الفلاح أن يزرع بذوراً من غلة بذور الجيل الأول هذه، فلن يحتفظ الجيل الثاني بالصفات الممتازة للجيل الأول، لأنه سيكون متبايناً في صفاته غاية التباين بسبب الانعزالات الوراثية التي تحدث مع التكاثر الجنسي والتي تقول بها النظرية الوراثية. سيُنتج الجيل الثاني محصولاً، نعم، لكنه سيكون أقل قدراً وأكثر تبايناً، والزراعة الحديثة تتطلب التماثل بين النباتات لتسهيل عمليات الميكنة. على المزارع إذن أن يعود في كل عام ويشترى بذوراً هجينة جديدة. الذرة الهجين تحمل نوعاً من الحماية الذاتية ضد «السرقة»، هذا بالضبط هو ما تريده شركات البذور لتحمى «ملكيتها الفكرية» لما تنتجه من «سلالات». (ينطبق هذا المخطط نفسه على ما تقوم به شركات إنتاج كتاكيت اللحم الهجينة).

الثورة الخضراء الثانية

وفي أوائل سبعينات القرن العشرين اكتشفت الهندسة الوراثية، وفتحت مجالاً واسعاً جديداً أمام شركات البذور (ومعها شركات المخصبات الزراعية ومبيدات الآفات ومبيدات الأعشاب)، وبدأت ثورة ثانية «خضراء» هي ثورة الهندسة الوراثية أو الثورة البيوتكنولوجية. تختلف هذه الثورة الجديدة عن الثورة الخضراء الأولى، ثورة الستينات، في طبيعة العلم المستخدم. جاءت الثورة الأولى عن علم «القطاع العام» التقليدي، عن الجامعات ومعاهد البحوث الزراعية، فاهتمت بمحاصيل الغذاء الرئيسية في العالم - القمح والأرز أساساً - وطورت على منتصف ستينات القرن العشرين سلالات من القمح والأرز تعطى أضعاف أضعاف متوسط السلالات التقليدية القديمة. باستخدام هذه السلالات الجديدة، تضاعف إنتاج الهند مثلاً من القمح ثلاث مرات فيما بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٩. أما الثورة البيوتكنولوجية الجديدة فقد جاءت عن علم احتضنه القطاع الخاص. كان علم القطاع الخاص سائداً في مجال الدواء والكيماويات، لكنه تحول لأول مرة ليدخل مجال الزراعة، مجال إنتاج الغذاء، وأصبح على العالم، إذا لم ينتبه، أن يعتمد في غذائه على شركات خاصة. لن يكون الأمن الغذائي لأي شعب مجرد قضية أسمدة ومبيدات ومياه، وإنما أيضاً قضية بذور تمتلكها حفنة من الشركات.

جولة قصيرة داخل خلايا النبات

يبدأ النبات حياته كخلية واحدة جاءت عن إخصاب بويضة زهرة بحبة لقاح. تنقسم هذه الخلية وتنقسم لتشكل الأنسجة والأعضاء في عملية تسمى

«التنامى» تتمايز فيها الخلايا ويختلف بعضها عن بعض، فخلايا الأوراق ليست كخلايا الجذور. تأتى هذه الاختلافات عن تغيرات فى نوع وكمية البروتينات التى تصنعها الخلايا، فمعظم ما بالخلايا بروتينات ، ومعظم ما يجرى بها من عمليات حيوية يحتاج إنزيمات، والإنزيمات بروتينات. بالخلية آلاف من البروتينات المختلفة، البعض منها نادر للغاية، ويضع مئات منها يوجد بوفرة معقولة، وقلة منها وفيرة جداً. هناك بروتينات توجد بكل أنواع الخلايا فى كل أوقات التنامى، وهناك أخرى لا توجد إلا فى أنسجة بذاتها وفى وقت من عمر النبات معين. فالإنزيمات التى تعمل لتزود الخلية بالطاقة توجد بكل الخلايا ، وبروتينات الجلوتين (المسئول عن «عرق» عجين القمح) مثلا لا توجد إلا فى البذور ، وبكميات وفيرة، وهناك بروتينات لا تصنعها الخلايا إلا استجابة لمنبهات خارجية ، كارتفاع الحرارة.

يأتى التباين فى أنواع وكميات البروتين فى الخلية عن التحكم فى «أى الجينات بها يعمل وأيها لا يعمل». والبروتينات سلاسل من أحماض أمينية، ولكل بروتين تسلسل متفرد من الأحماض الأمينية، وطول معين، يحددهما جين على كروموزوم بنواة الخلية. والجين هو قطعة من الدنا DNA على موقع محدد من كروموزوم معين تُشفَّر لتصنيع بروتين بذاته.

تحمل كل خلية طاقمين كاملين من الكروموزومات (تصطف على أطوالها كل الجينات)، واحداً من حبة اللقاح وواحدا من البويضة. لكن الخلية لا تشغل إلا الجينات التى تشفر للبروتينات التى تهمها، فتنشطها. أما بقية الجينات فتبقى على الكروموزومات بالخلية صامتة خاملة - لكنها نشطة بغيرها من خلايا النبات نفسه.

يسبق دنا الجين المشفر لأى بروتين تتابع قصير من الدنا يسمى «المعزِّز» Promotor هو الذى يحدد وقت تنشيط الجين ومكان نشاطه بالنبات . عندما يعمل المعزز فإنه يوجه الجين لتصنيع البروتين الخاص به.

الهندسة الوراثية

الهندسة الوراثية هى إضافة جينات جديدة من الخارج إلى المادة الوراثية للكائن الحى، أو تغيير تركيب بعض الجينات بحيث تنتج بروتينات جديدة فى أوقات مختلفة أو بكميات مختلفة. ولأن المادة الوراثية «الدنا» واحدة فى كل الكائنات الحية (من البكتريا حتى الإنسان) فإن الجين المأخوذ من الفأر مثلاً يمكن أن يعمل فى نباتات الذرة إذا ما نقل إليها وأولج فى مادتها الوراثية. كما يمكن أيضا أن ينقل معزز جين ويوضع أمام جين آخر، فيتغير وقت ومكان نشاط هذا الجين الأخير إلى وقت ومكان نشاط الجين صاحب المعزز المنقول.

عندما اكتشفت الهندسة الوراثية،

أحس رأس المال بما تعد به من إمكانيات لا تحد، فاندفع يحتضنها ويطورها وينشيء لها المعامل المتخصصة ويشترى «العلماء» من الجامعات والمعاهد ويكوّن مجاميع بحثية مهمتها تطعيم المادة الوراثية للنباتات الاقتصادية بجينات من خارجها تضفى عليها صفات تسويقية مفيدة لم تكن أصلا بها - صفات كمقاومة حشرة أو فطر أو تحمل مبيد للحشائش تصنعه الشركة. وفى عالم يفيض بسكانه ويتزايد فيه الطلب على الطعام، فى عالم وصل تعداده الآن ستة بلايين نسمة ويتوقع أن يصل عام ٢٠٢٠ إلى ثمانية بلايين، أملت هذه الشركات أن تبيع قدراً هائلاً من البذور المهندسة وراثيا المسجلة باسمها، ثم إنها كانت ترمى أيضا إلى أن يظل المزارع فى حاجة دائمة إليها فيعود فى كل موسم ليدفع ثمن بذور جديدة، بل وأيضاً ثمن ما تحتاجه هذه البذور من أسمدة ومبيدات خاصة. لكن الشركات واجهت عند تسويق منتجاتها من البذور المحورة وراثيا المشكلة نفسها: ماذا تفعل إذا ما اشترى منها الفلاح البذور، ثم أعاد زراعة ما نتج عنها فى العام التالى حتى لا يشترى ثانية؟

الشركات وحقوق الملكية

ولقد أصبحت النباتات المحورة وراثيا بالفعل واقعاً تجارياً فى الزراعة، وارتفعت المساحة المزروعة بها من ٤.٢ مليون فدان عام ١٩٩٧ إلى ٢٧.٢ مليون فدان عام ١٩٩٨، ووصلت عام ١٩٩٩ إلى ٦٨.٧ مليون فدان. وتقول وزارة الزراعة الأمريكية إن ٦٥٪ من القطن الذى زرع فى أمريكا عام ١٩٩٩ كان مهندسا وراثيا، فى مقابل ٥٦٪ عام ١٩٩٨ و٢٥٪ عام ١٩٩٧. أما فول الصويا المهندس وراثيا فكان يشكل ٥٧٪ من اجمالى المزروع من هذا المحصول بأمريكا عام ١٩٩٩ بينما كانت نسبته عام ١٩٩٨ هى ٤٢٪. لقد استثمرت الشركات بثقل فى البيوتكنولوجيا خلال العقدين الماضيين، وها هى قد بدأت تجنى أخيراً بعض الأرباح ، وأصبحت شرسة حقا فى حماية منتوجاتها. فى عام ١٩٩٧ نشرت شركة مونسانتو إعلانا يطلب من المزارعين أن يحترموا حقوق ملكية الشركة. يقول الإعلان:

«لقد تطلب الأمر ملايين الدولارات وسنين طويلة من البحوث لتطوير محاصيل البيوتكنولوجيا الممتازة.. والاستثمار فى هذه البحوث فى المستقبل يعتمد على قدرة الشركة على استرجاع بعض من القيمة المضافة التى تقدمها هذه المحاصيل. تصوروا ما يحدث لو أن المزارعين احتفظوا بالبذور المسجلة باسم الشركة ليعيدوا زراعتها فى الموسم التالى.. سيغيب الحافز الذى يدفع أى شركة للاستثمار فى البيوتكنولوجيا لتطوير بذور أوفر إنتاجا وأعلى قيمة.. إن هذه القلة من المزارعين الذين يحتفظون بالبذور المسجلة براءتها باسم الشركة ويعيدون زراعتها يهددون ما يمكن أن يُتاح فى المستقبل

لكل المزارعين من إبداعات تكنولوجية، وهذا ليس عدلاً».

وشركات البذور يهمها بالطبع أن تستعيد تكاليف تطوير بذورها الجديدة، تماماً مثل شركات الأدوية وشركات برامج الكمبيوتر، إذا ما طورت عقاراً جديداً أو برنامجا جديداً. تتراوح تكاليف تطوير واختبار الدواء ، مثلا ، ما بين مائة مليون وخمسمائة مليون دولار، أما تكاليف تصنيع الدواء فتقل كثيراً عن سعره بالسوق، ولدينا المثال في عقار رانيتيدين Ranitidine الذى انخفض سعره إلى العشر خلال ستة أشهر من تاريخ انتهاء حماية البراءة له، مما يعنى أنه كان يباع بعشرة أضعاف سعره الحقيقي. وتشير الحقائق إلى أن تكاليف التطوير تسترد عادة خلال ستة أشهر من وصول العقار إلى السوق. أما عن برامج الكمبيوتر فيكفى أن نذكر أن برنامج «ويندوز ٩٥» قد غطى تكاليف إنتاجه من مبيعات الشهور الثلاثة الأولى لظهوره بالسوق. والمعروف أن تطوير صنف من البذور مهندس وراثيا يتطلب ما بين ثلاثين ومائة مليون دولار وأن النظام الحالى للاحتفاظ بالبذور (لدى الفلاح) والذى يسود معظم الدول النامية يجعل من العسير على الشركة أن تكسب عائداً كافياً من استثماراتها، بل إن الخسائر قد دفعت بعض الشركات إلى أن توقف برامج تحسين المحاصيل لديها.

قررت شركة مونسانتو إذن أن يوقع المزارع معها عقداً بألا يستعمل بذورها دون ترخيص منها، ولقد جرت العادة على أن يوقع المزارع العقد حتى دون أن يقرأه أو أن يفهمه!. يدفع المزارع بجانب ثمن البذور «علاوة تكنولوجيا» على كل جوال، ففى ذرة بى تى مثلا (المحورة وراثيا لإضفاء الحماية ضد بعض الحشرات) يكون ثمن الشيكارة ٦٠ دولاراً، وفوقه علاوة تكنولوجيا قدرها ٢٥ دولاراً . يسلب عقد مونسانتو المزارع حقه فى أن يحتفظ بأى كمية من محصوله الناتج عن البذور التى «اشتراها» (فالشركة فى الحق «ترخص» باستعمال بذورها، لا تبيعها)، ويمنعه من ان يزود بها أى شخص آخر - مما يعنى ، ضمنا، عدم السماح لأى عالم بأن يجرى على هذه البذور أبحاثاً دون موافقة الشركة. فإذا أخل المزارع بشروط العقد وحفظ البذور لإعادة زراعتها فعليه أن يدفع غرامة قدرها ١٢٠ ضعف رسوم التكنولوجيا (أى ٣٠٠٠ دولار عن كل شيكارة فى حالة ذرة بى تى) بجانب أتعاب المحاماة والتنفيذ. على المزارع أيضاً، كما ينص العقد أن يخطر الشركة بموقع الحقل أو الحقول التى سيزرع بها البذور، وأن يتعاون «تعاونا كاملاً» مع مفتشى الشركة فيسمح لهم بالمرور فى الحقول للتأكد من أنه قد زرع كل ما حصل عليه من بذور .

قامت مشاكل عديدة عند تطبيق هذا العقد، على الرغم من المخبرين الخصوصيين الذين استأجرتهم الشركة

للبحث عن المزارعين الذين يخرقون الاتفاق ، فلقد اتخذت الشركة بالفعل الاجراءات القانونية لمقاضاة مائة مزارع أمريكي لم يلتزموا بشروط العقد. ثم أن الشركة تطمع في توسيع أسواق بذورها ونشرها في بلدان العالم الثالث، وكم من فلاحي مثل هذه البلدان سيلتزم ببنود العقد؟ كان على العلماء أن يبحثوا عن حل يرفع عن كاهل الشركات تكاليف مراقبة المزارعين وحقولهم، ومشاكل مقاضاة غير الملتزمين منهم. ثم، هناك محاصيل اقتصادية مهمة وعديدة لا تزرع (كالذرة الهجين) ببذور هجينة، ولم يكن لدى الشركات - تاريخياً - اهتمام خاص بها، محاصيل مثل القمح والأرز، اللذين يمثلان وحدهما الغذاء الأساسي لثلاثة أرباع فقراء العالم، ومثل القطن وفول الصويا. جرت عادة المزارعين على أن يحتفظوا ببذور هذه المحاصيل كتقاو، فلا يعودون إلى شركة البذور ربما لبضع سنين لشراء بذور جديدة. ستحقق الشركات أرباحاً لا تخطر على بال لو أنها ابتكرت طريقة تجبر بها من يزرع محاصيلها المهندسة وراثيا على أن يشترى منها البذور كل عام.

وجاء الحل «العلمي» ذكياً جداً، لكنه حل شيطاني. هناك كما نعلم خط دقيق يفصل ما بين العبقرية والجنون، ولقد تعدى العلماء هنا هذا الحد الفاصل إلى مرحلة الجنون، وحققوا حلم الشركات البعيد، فوضعوا خطة هندسية وراثية جهنمية يقتل بها النبات بذوره فلا تنبت إذا زرعت، ولا يستطيع الفلاح أبداً أن يستخدمها لإنتاج محصول جديد، وعليه أن يعود صاغرا إلى الشركة فى كل موسم، تماماً كمن يزرع الذرة الهجين. لكن الأمر هنا ليس تماماً كالذرة الهجين، كما رأينا. فكل جينات الجيل الأول من هذه الذرة ستكون موجودة فى الجيل الثاني لو حدث وزرعه الفلاح، ولكن فى تنويعات لا يمكن التنبؤ بها، ويستطيع المربى إذا أراد أن يستخدم المادة الوراثية لهذه الهجن فى برنامج تربية جديد.

لا، لم يعد العلم جميلاً وبريئاً مثلما كان يوماً ومثلما نود أن يكون، لم تعد تغلفه تلك الغلالة الرومانسية العذبة، فهو يستخدم فى قتل بذور الحياة! لقد لوث المال والجشع العلم، ولوثته التجارة والسياسة فى عصر العولمة، عصر حكم الشركات، العصر الذى ينتقل فيه صولجان الحكم من الساسة إلى رجال التجارة والاقتصاد.

الحل الشيطاني

الهدف أمام العلماء هو إنتاج صنف من النبات الاقتصادي الذي يهم الشركة - القطن مثلاً - ينمو طبيعياً تماماً حتى يكتمل نضج بذوره، وهنا، وهنا فقط، ينشط جين طعم فى مادته الوراثية فينتج سما (توكسينا) يقضى على الأجنة. الأمر يحتاج إلى جين من نبات آخر يشفر للتوكسين، وإلى معزز لجين من نبات القطن معروف أنه لا يعمل إلا فى آخر مراحل نمو البذور، يلحق ببداية جين

التوكسين، بحيث لا يعمل هذا الجين الأخير إلا عند اكتمال نضج البذور، ثم إلى طريقة تسمح للشركة بأن تنمى نباتات القطن المزودة بجين التوكسين وفى مقدمته المعزز لتنتج بذوراً حية تباع للمزارعين.

اختار العلماء جيناً من نبات «صابوناريا» اسمه ريب RIB يشفر لإنزيم يوقف تصنيع كل البروتينات فى خلايا النبات. ولما كانت الخلايا تحتاج إلى البروتينات فى كل شىء تقريباً، فإنها تموت بسرعة. ثم أخذوا معززا لجين بالقطن اسمه ليا LEA، وهذا جين من آخر ما ينشط فى نبات القطن من جينات - فالبروتين الذى يشفر هذا الجين له لا يتكون إلا بعد أن تكتمل البذور فى الحجم، وبعد أن تكون قد خزنت معظم ما تحمله من الزيت والبروتين. لو وضع معزز ليا هذا فى بداية جين ريب، ثم أولجا سويا بالهندسة الوراثية فى دنا خلايا القطن، فإن النباتات الناتجة عن هذه الخلايا ستنمو : تورق وتزهر وتثمر وتمتلئ بذورها، وعندئذ ينشط جين ريب، ويفرز التوكسين فتموت الأجنة. ولكن .. ستنتهى أيضا التجربة لأن الشركة لن تجد بذوراً تبيعها للمزارعين.

هنا فكَّر العلماء فى إيلاج قطعة طويلة من الدنا - تسمى الدنا المعوق - ما بين بداية جين ريب وبين معزز ليا، لتمنع الجين (مؤقتا) من العمل. ينتهى كل من طرفى هذا المعوق - الطرف الملتصق بريب والطرف الملتصق بمعزز ليا - بتتابع دناوى قصير يمكن أن يتعرف عليه إنزيم معين، فيبتره - من الطرفين - ليلتصق الجين ثانية بالمعزز ويقوم بإنتاج التوكسين فى الموعد والمكان الذى يمليه معزز ليا.

الأمر إذن يتطلب أيضاً إضافة جين لإنتاج هذا الإنزيم الباتر فى كل الخلايا، يسبقه معزز مكبوح لا يعمل إلا إذا نشط بمعالجة كيماوية من الخارج، بحيث يمكن للشركة قبل بيع البذور (التى هندست وراثيا بإيلاج جين ريب، ومعزز ليا، وجين إنزيم البتر، ومعززه المكبوح) أن تعالجها بهذه المادة الكيماوية، فتفك قيد المعزز المكبوح لينتج إنزيم البتر، فيقطع المعوق من طرفيه، ليتصق جين ريب بمعزز ليا، فينتج التوكسين بعد اكتمال نضج النبات وبذوره، ويقتل الأجنة. كانت المادة الكيماوية الخارجية هى التتراسيكلين، المضاد الحيوى المعروف.

تنقع البذور إذن قبل بيعها مباشرة فى محلول التتراسيكلين، فتتم سلسلة العمليات السابقة الواحدة بعد الأخرى لتنتهى بإنتاج التوكسين إنما بعد أن تتنامى البذور وتورق النبات وتزهر وتنضج بذورها، ليقتل التوكسين الأجنة ويحمى حقوق الملكية الفكرية للشركة صاحبة صنف القطن. يقوم التتراسيكلين بعمل المخبرين، وتنتهى أهمية العقود التى يوقع عليها المزارع عند شراء البذور، ويعود الفلاح مجبراً فى كل موسم ليشترى بذوراً جديدة.

هذه هى التقنية الشيطانية التى بها

حصلت شركة دلتاو باين لاند بالاشتراك مع وزارة الزراعة الأمريكية على البراءة رقم ٥٧٢٣٧٦٥ بتاريخ ٣ مارس ١٩٩٨، للمؤلفين م. ج. أوليفر، ج. إ. كويزنبيرى، ن. ج. تروليندر و د. ل. كايم تحت عنوان «التحكم فى تعبير جينات النبات». عنوان برىء لبراءة تقطر سماً. التقنية كما قال أوليفر فى ٢٨ مارس ١٩٩٨ «هى طريقة للمراقبة الذاتية ضد الاستخدام غير القانونى للتكنولوجيا الأمريكية، إنها تشبه حقوق النشر». ولقد قالت شركة دلتا نفسها عن هذه البراءة :

«تغطى هذه البراءة تغطية عريضة النباتات والبذور العادية وعبر الجينية (أى المهندسة وراثيا) من كل الأنواع النباتية، تحت نظام صمم بحيث يسمح بالتحكم فى حيوية نسل البذور دون أن يضر بالمحصول نفسه. والتطبيق الرئيسى لهذه التكنولوجيا هو التحكم فى الزراعات غير المرخص بها لبذور الأصناف المملوكة للشركة بحيث تجعل هذه الممارسة غير اقتصادية، لأن البذور الناتجة عن النباتات لا تصلح للزراعة إذا احتفظ بها المزارع. لهذه البراءة امكانيات أن تنجح فى فتح أسواق على نطاق واسع بالعالم بأسره، لمحاصيل جرت عادة المزارع أن يحتفظ ببذورها للزراعة فى المواسم التالية».

وتنوى الشركة (دلتا) أن تتيح ترخيص «نظام حماية التكنولوجيا» هذا لشركات البذور الأخرى. والحق أنه ليس ثمة سبب فى ألا ترخص لغيرها باستخدام التقنية، إذ تصبح بذور الشركة بغير ذلك أقل منافسة فى الأسواق. كما تقدمت الشركة بطلبات لتسجيل البراءة إلى ٨٧ دولة.

كلمة عن تقنيات التحكم فى تعبير الجينات

غير أن «رافى» تقول: «إن تقنية البذور الشيطانية قد خطفت الأضواء ، لكننا تلقون أيضاً من تقنيات قريبة جداً منها، هى تقنيات التحكم فى الصفات النباتية بالرش بالكيماويات». والحق أن تقنية البذور الشيطانية - كما يشير عنوان براءتها - هى أحد تطبيقات «الاستعمال الوراثى لتكنولوجيا التحديد (جيرت GURT)» الموجه نحو التأثير فى تنويعة من الصفات الوراثية للنبات، بفتحها أو غلقها باستخدام مواد كيماوية خارجية منظمة تنتجها الشركة ، تُخلط مثلا بمبيد حشائش تملكه شركة البذور أو بسماد أو بمبيد آفة - صفات مثل الإنبات والتبرعم والإزهار وإنضاج الثمار.

تقول الشركات إن تكنولوجيا التحكم فى النبات من بُعد، أى من خارجه، ستفيدها كثيراً فى تسهيل عمليات تحسين إنتاجية محاصيلها. تقوم شركة زينيكا مثلاً بتطوير طريقة تمكنها من التحكم فى إنتاج حبوب لقاح نباتات الذرة من سلالاتها، بدلاً من قطع الشواشى، وهذا أمر تلجأ إليه شركات إنتاج الذرة الهجين لتوجيه عملية التلقيح حسب الخطة المرسومة، وهو يحتاج إلى دقة بالغة ومجهود ووقت طويل فى الحقل. سيكون

من الأفضل أن تهندس النباتات وراثيا بجين لإنتاج إنزيم يمنع تكوين حبوب اللقاح، ثم ترش النباتات المختارة كذكور في الوقت المناسب بمادة كيماوية تحث نشاط جين آخر مطعوم أيضاً في النبات يوقف نشاط الإنزيم ويسمح لهذه النباتات وحدها بتكوين حبوب اللقاح بل ولقد تمكنت شركات زينيكا بالفعل من فتح وإغلاق جين بى تى الذى يُضفى على الذرة المقاومة ضد حشرات معينة، وذلك باستخدام حاث كيماوى معين. تهدف الشركة من ذلك إلى التغلب على المخاوف من أن الإنتاج المستمر للتوكسين بى تى يشجع الحشرات على تطوير المقاومة ضده، بل إن الشركة تطمح إلى تطوير نباتات تتسبب إصابتها بالحشرات أو تعرضها للجفاف مثلا فى فتح جينات للمقاومة مهندسة داخل المادة الوراثية لهذه النباتات.

تقنيات التحكم فى تعبير الصفات النباتية، كما يتضح، تقنيات مفيدة جداً للشركات، حتى لتتوقع «رافى» أن تُعالج الشركات بها كل محاصيلها المهندسة وراثيا على عام ٢٠١٠ أو حتى قبله. لكن هذه التقنيات فى الوقت نفسه قد تستخدم ضد المزارعين، ذلك أنه إذا ما نجحت شركة فى هندسة بذور المحاصيل بحيث لا تعبر النباتات إلا عن الصفات التى تسمح الشركات ببيع كيماويات تنشيطها، فسيصبح المزارع أكثر اعتماداً على المدخلات الكيماوية التى تصنعها شركات البذور، سيصبح رهينة لدى الشركة عبداً لها، وسيقع الإنتاج الزراعى بالكامل تحت رحمتها، ويتعرض الأمن الغذائى فى الدولة لأخطار لا حد لها. وتقنية البذور العقيمة كما ذكرنا هى أيضاً احدى تقنيات «جيرت».

القرصنة الوراثية

كانت شركات البذور تدعى حتى الآن أنها تبحث عن رفع الإنتاج وزيادة عائد الفلاح، وحتى عندما تنتج بالهندسة الوراثية أصنافاً تقاوم مبيدات الأعشاب، كانت هناك فكرة غير صريحة بأن المقاومة الفعالة للحشائش ترفع المحصول وتزيد دخل الفلاح. أما الآن فإن الهندسة الوراثية تستغل صراحة من أجل التحكم فى السوق، فهى لا تضيف شيئا ذا قيمة للإنتاج، هى لا تستخدم من أجل رفع الإنتاج أو تحسين نوعيته أو مقاومة آفة أو مرض أو غير ذلك مما تروج له الشركات، وإنما لحفظ «حقوق» شركات البذور ليس إلا، حقوق الشركات التى سطت على الأصناف النباتية التى طورها فلاحو العالم الثالث - العالم الذى يسهم بنسبة ٩٥,٧٪ من الموارد الوراثية بالعالم - والتى أصبحت «بقدرة قادر» الأصناف المملوكة للشركات.

تأخذ الشركة سلالات نباتاتنا التى طورها فلاحونا بجهد آلاف السنين، لتضيف إليها جينا أو بضعة جينات، وتحصل على براءة «قانونية» من الجهة الرسمية فى بلادها، لتصبح السلالات

وجينوماتها بأكملها ملكا خاصاً لها، تحميها قوانين منظمة التجارة العالمية، ويحتاج أصحابها الحقيقيون إلى إذن خاص ورسوم لزراعتها! لم تعد السلالات سلالاتهم، فقد طعمت بجينات من خارجها باستخدام تقنيات غريبة متطورة لا يملكون هم سبيلا للوصول إليها. سلبت الشركات حق الفلاح الأزلى فى الاحتفاظ ببذوره وسلبته دوره التاريخى كمربى نبات .

إنه لأمر يثير الغضب حقاً أن يصبح على الفلاحين فى بلادنا أن يشتروا بثمن باهظ بذوراً جاءت أصلاً من مواردهم البيولوجية، لا لسبب إلا أن هذه الشركات قد منحت نفسها الحقوق الكاملة على البذور.

تتسابق الشركات متعددة الجنسية ، لاتزال، فى تصنيع منتجات صيدلية وزراعية جديدة، جاءت معظم مكوناتها من المادة الوراثية للنباتات الطبية ومحاصيل الغذاء الخاصة بالمجتمعات المحلية للعالم الثالث. لقد سجلت براءات دولية للخصائص الطبية لما لا يقل عن ٢٢ نباتاً هندياً كانت تستخدم فى علاج أمراض تتراوح ما بين ارتفاع ضغط الدم وبين الحمى الروماتيزمية، ولقد ربح «مالك» براءة مستخلص مصنوع من قلف شجرة بيجيام الأفريقية الملايين، بينما أصبحت الشجرة على وشك الانقراض. تقوم الشركات أيضا بتجميع كائنات حية أخرى – ما بين الكائنات الدقيقة التى تحيا بالتربة إلى الحيوانات، بل ولم تنس أيضا أن تسطو حتى على التراكيب الوراثية لأهالى هذه المناطق، فلقد جمعت – من بين ما جمعت – عينات من الأنسجة الحية لأهالى المجتمعات الإثنية بمنطقة لازون لأنهم معروفون بمناعتهم المتفردة ضد السرطان ومرض السكر، كما أخذت عينات من دم هنود كايابو وسجلت براءات لبعض خصائصهم الوراثية .

تؤكد شركة، كشركة مونسانتو ، أن زيادة أرباح الشركات من البذور الشيطانية ستشجعها على تكثيف البحوث والتطوير فى محصولى القمح والأرز مما سيعود بالخير على فقراء الفلاحين، ونحن نعلم أن شركات البذور هذه عمرها ما طورت بذوراً تلائم حاجات صغار المزارعين وفلاحى الكفاف، ولا هى أنتجت بذوراً ربيت خصيصاً لتصلح لبيئاتهم . بل الحقيقة هى أن معظم البذور المحورة وراثيا لا ترفع المحصول (فصويا راوند آپ لمونسانتو مثلا تعطى محصولاً أقل من نظيراتها التقليدية) ذاك أن معظم المحاصيل المهندسة وراثيا لدى الشركات تقع فى فئتين: إما مقاومة مبيدات أعشاب أو مقاومة حشرات. ستكون نتيجة هذه التقنية هى استبدال محاصيل «متفوقة» يقال إنها ذات إنتاجية عالية، بالمحاصيل التقليدية. متفوقة، نعم، اللهم إلا أنها لا تستطيع أن تكاثر نفسها، الأمر الذى سيضع الفلاحين فى العالم كله رهينة فى يد حفنة من الشركات (فهناك عشر شركات عملاقة تتحكم وحدها فى ٤٠٪

من بذور العالم). هذه هى ذروة الرأسمالية ستدمر قدرة الحياة على إكثار نفسها، وعلينا نحن أن ندفع ثمن بذورها «الممتازة» - فإذا ما سقطت شركة البذور فلن يكون بيننا وبين المجاعة سوى موسم واحد لا أكثر! .

بهذه التقنية ستصبح سنبلة القمح وكوز الذرة وقرن الفول ولوزة القطن وحبة الطماطم وثمرة البطيخ نعوشاً تحمل بذوراً ميتة.

لأول مرة نرى النباتات وقد برمجت وراثيا لتنتحر. بخبطة واحدة كسر الإنسان دورة: النبات، البذور، النبات، البذور.... الدورة التى تدعم الحياة على وجه الأرض، الدورة التى تسللت أصداؤها إلى قلم شاعرنا العظيم محمود درويش عندما كتب (وكلما صادفت أو أحنيت سنبلة تعلمت البقاء من الفناء وهذه: أنا حبة القمح التى ماتت لكى تخضر ثانية، وفى موتى حياة ما). لن تخضر «ثانية» هذه البذور الشيطانية، بلا بذور لن يكون هناك طعام، إلا إذا اشتريت بذوراً جديدة. الإنجاز العلمى العبقرى الذى حققته شركة دلتا ينهى الحق الطبيعى الذى منحه الله للإنسان فى كل مكان: أن يزرع لإطعام نفسه والآخرين. لم يسبق أن ابتكر الإنسان خطة كهذه محكمة بعيدة المدى خطرة للتحكم فى الحياة، فى الغذاء، بل وحتى فى بقاء البشر على وجه البسيطة .

المواجهة

ووجهت هذه التقنية الشيطانية إذن على الفور باعتراضات عالمية واسعة قادتها الهند. ففى ٢٥ مايو ١٩٩٨ أصدر مجلس البحوث الزراعية الهندى قراراً بحظر استيراد مثل هذه البذور، وأعلن أن «لكل دولة الحق فى رفض تسجيل براءة للبذور الشيطانية»، تماماً كما تنص المادة ٢٧ من اتفاقية التربس (حقوق الملكية الفكرية) لمنظمة التجارة العالمية التى تقول: «يمكن لأى حكومة أن ترفض دعاوى الملكية الفكرية لصنف نباتى إذا كان يهدد البيئة أو يعارض المبادىء الأخلاقية العامة فى بلادها». وقامت فى ديسمبر ١٩٩٨ أعمال شغب مهولة فى ولايتى كارناتاكا وأندرا براديش ضد حقول تجارب مونسانتو بعدما أذيع أنها ستشترى شركة دلتا صاحبة البراءة. ثم شنت المؤسسة الدولية لتقدم الريف (رافى) - ومقرها كندا - حملة عالمية هائلة هى الأخرى ضد هذه البذور .

فى حديث طويل بتاريخ ١٤ أغسطس ١٩٩٨ مع الدكتورة فاندانا شيفا عالمة الفيزياء الهندية قالت: «إن البراءات ليست سوى تكرار للاستعمار الذى بدأ منذ خمسمائة عام، إنما بطرق أخرى. عندما أبحر كولومبوس وغيره من المغامرين كانوا يحملون (خطابات براءة) تعطيهم الحق فى ادعاء ملكية الأراضى التى يعثرون عليها فى أى مكان بالعالم لا يحكمه الأمراء المسيحيون البيض. والشىء نفسه يحدث الآن مع براءات الكائنات الحية. قصاصات من ورق تصدرها مكاتب

البراءات تقول للشركة في واقع الأمر: إذا توصلت إلى معارف لم يعرفها الرجل الأبيض عن المادة الحية أو النباتات أو البذور أو الأدوية، فلتدعيها لنفسك، ولتحصلي على أرباحك منها. إنها القرصنة البيولوجية، فيها تدعي شركة «ابتكارها» لأرز باسماتي الهندى ذى الرائحة الجميلة، الذى رباه الفلاحون الهنود من قرون طويلة، وتدعي «ابتكارها» لشجرة النيم التي وثقها الهنود في كل المراجع ويستخدمونها من آلاف السنين... وباء القرصنة الجديد لا يشبه إلا القرصنة القديمة التى أطلق عليها اسم الاستعمار منذ خمسمائة عام. إنها دعوة الاستعمار ... كان الاستعمار القديم يستولى على الأرض ، أما الاستعمار الجديد فيستولى على الحياة نفسها.

العالم الثالث هو الجزء من العالم الذى أصبح مستعمرات، هو لم يكن قبل الاستعمار فقيراً. فلقد استعمر لأنه يمتلك ثروات تستحق... لم تكن هذه الدول فقيرة، لكن الاستعمار استنزفها.. لم نَمُتْ بعد على الرغم من أن ثرواتنا قد نهبت فمازال لدينا التنوع البيولوجي. بقيت لدينا لا تزال بذور، ونباتات طبية، ونباتات أعلاف، ننميها ونحيا عليها. ولقد جاء الدور على آخر موارد الفقراء لتستنزفه البراءات. أصبحت البذور التى حفظها الفقراء تعامل على أنها ممتلكات الشركات. صدرت قوانين جديدة كاتفاقية حقوق الملكية الفكرية.. تحاول أن تحرم فقراء الفلاحين في العالم الثالث من الوصول إلى بذورهم.. لن يبقى (في العالم الثالث) سوى الحرمان والبطالة والمرض والجوع والأوبئة وسوء التغذية والمجاعات والحروب الأهلية.. إن ما بذره (المستعمرون الجدد) هو جشع الشركات تسرق آخر ما تبقى لدى الفقراء من موارد».

إن ما تطلق عليه الشركات اسم «ابتكارات» ليس فى الحقيقة سوى قرصنة تستهدف الموارد المحلية الوراثية بالعالم الثالث، والمعارف المحلية المتجمعة على مدى القرون عن كيفية استخدامها. ستدمر شركات البذور نظم الزراعة القديمة التى اتقنها فلاحو العالم الثالث الذين ينتجون نحو ٢٠٪ من غذاء العالم، ويطعمون به مباشرة ما لا يقل عن ١٤٠٠ مليون إنسان: مائة مليون في أمريكا اللاتينية، وثلاثمائة مليون فى أفريقيا، وألف مليون فى آسيا - ستسلبهم حقهم فى الاحتفاظ بالبذور كتقاوى وتحسينها بالطرق التى اعتمدها الزمن. ستدمر الأساس الاقتصادى لحياة أفقر الفلاحين في ريف العالم الثالث إذ تقيم نظاما جديداً للغذاء هدفه الأوحد هو التحكم الاحتكارى، تسيطر فيه على كل ما يزرع ويؤكل، بينما هى تقدم نفسها على أنها صانعة الحياة ومالكتها! ومن يتحكم فى البذور يتحكم فى مصير الشعوب وحياتها.

يقول مؤيدو التكنولوجيا الشيطانية إن هذه البذور ستعطى المزارع مجالاً أوسع فى الاختيار: ما بين البذور الشيطانية

والبذور التقليدية، وإن زيادة احتمالات الربح ستدفع الشركات إلى زيادة استثماراتها فى محاصيل الغذاء الرئيسية: الأرز والقمح وفول الصويا، ومن ثم إلى تحسين إنتاجيتها وزيادة التنوع الوراثى بها، فهذه المحاصيل الثلاثة لم تحظ بما حظيت به الذرة من اهتمام. ستكون البذور أعلى سعراً لكن المزارع يمكنه بالطبع ألا يشتريها ، وعلى ذلك فإنهم يتوقعون أن تتدفق استثمارات ضخمة جديدة إلى مجال تحسين هذه المحاصيل الثلاثة بعد أن توقفت الزيادة فى غلتها، بل وحتى تراجعت فى التسعينات.

لكن هناك سؤالاً يفرض نفسه : ألن تُسبب هذه البذور أية أضرار لمن لا يزرعها من المزارعين؟ عندما يزرع الفلاح البذور الشيطانية فإنها ستكون بالطبع قد عوملت بالتتراسيكلين، وسيكون إنزيم البتر قد نشط والتصق جين التوكسين بمعزز ليا وأصبح جاهزاً للعمل عندما يكتمل نضج البذور، أى أن النباتات ستنمو وتزهر وتنتج حبوب لقاح تحمل جينات توكسين جاهزة للعمل. فإذا كان الحقل المجاور مزروعاً بصنف طبيعى من النوع نفسه، فستنقل الرياح والحشرات حبوب اللقاح حاملة جين السم إلى أزهار هذا الحقل لتخصب البويضات وتقتل الأجنة فى البذور الناتجة، ولن يعرف صاحب الحقل المجاور ما حدث إلا عند زراعة بذوره فى الجيل التالى عندما يفاجأ بفشل محصوله، مما قد يدفع فقراء الفلاحين إلى هجر الزراعة أو شراء البذور الشيطانية فى كل عام، وهو أمر قد لا يتحملونه طويلاً.

تنتمى كل المحاصيل إلى أجناس نباتية يوجد منها فى البرية أعضاء أخر. يحدث فى الطبيعة نقل وراثى عن طريق حبوب اللقاح بين المستأنس والبرى، ولمثل هذا التلقيح الخلطى الطبيعى دور مهم فى تطوير الزراعة، فلقد أسهم فى نقل جينات من البرى إلى المحاصيل الزراعية تحسن نوعيتها. كان التفاعل بين المحاصيل الزراعية وأقاربها البرية جزءاً من العملية التى تطور من خلالها الطعام الذى نأكله - ولازالت هذه العملية تجرى حتى الآن. فإذا ما انتقلت حبوب اللقاح حاملة جين السم من المستأنس إلى البرى فسينتهى الأمر بابتعاد البرى (إلى مسافة تزيد على كيلو مترين) بحيث يتعذر حدوث هذا التبادل الوراثى ويضيع ذلك المصدر المهم من مصادر التنوع الوراثى.

ثمة أمور أخرى يلزم أن تؤخذ فى الاعتبار لم تتطرق إليها تلك البراءة المشئومة. فالجين الشيطانى يقتل الجنين فى وقت متأخر جداً من التنامى. فهل ستكون البذور النعوش حاملة الأجنة الميتة أصعب فى التخزين من البذور الطبيعية؟ ألا نتوقع أن تكون عرضة للتلف بالرطوبة والبكتريا والفطريات؟ هل ستكون مأمونة لها نفس الجودة ونفس القيمة الغذائية؟ ألا نتوقع أن تكون أسرع فى التحلل؟ هل أجريت التجارب للإجابة على كل هذه الأسئلة الخطيرة، أم أن الأمر لا يهم طالما كانت تضمن للشركات أرباحها؟ ستنقع

البذور فى التراسيكلين ، المضاد الحيوى، قبل بيعها للفلاحين لزراعتها، والبراءة تقول : «ولما كان التراسيكلين غير ضار بالنبات والحيوان ، فإن ما يتبقى منه على البذور أو النباتات بعد معالجتها به لن يكون له أثر بيئي جوهرى»، قد لا تكون للتراسيكلين حقا آثار ضارة مباشرة، ولكن آثاره غير المباشرة قد تكون بالفعل خطيرة على الكائنات الدقيقة بالتربة، بل وعلى الإنسان والحيوان .

الشركات تتراجع

بعد التصاعد الخطير للحملة ضد البذور الشيطانية أعلنت شركة زينيكا فى ٢٤ فبراير ١٩٩٩ «إننا لن نطور أى نظام يمنع الفلاح من زراعة بذور الجيل التالى، وليس لدينا أية نية لفعل ذلك». كما قامت شركة مونسانتو بإجراء استشارات عديدة مع الخبراء ومع زبائنها، ثم قررت فى ٥ أكتوبر ١٩٩٩ ألا تسوق هذه التقنية، كما جاء على لسان روبرت شابيرو رئيس مجلس الإدارة، إذ قال «على الرغم من أننا لا نمتلك فى الوقت الحالى أى تكنولوجيا للبذور العقيمة، فقد وجدنا من الأهمية بمكان أن نستجيب للقلق الذى ذا ع الآن، وأن نعلن بوضوح أننا لن نسوق (نظم حماية الجينات) التى تعقم البذور». أكدت الشركة أنها ستستخدم التقنية فقط فى الأبحاث الداخلية للشركة، وأن الجينات يمكن أن تساعد فى إنتاج نباتات تحمل صفات خاصة يمكن فتحها أو غلقها ، أى يمكن أن تعبر عن نفسها، أو لا تعبر ، حسب الطلب». تعهد شابيرو فى لقاء له من جمهور من حملة أسهم شركته بأن يدخل فى حوار مع المجتمع للوصول إلى حلول لما يشغل الناس من قضايا الأمان ، التلوث الوراثى، الأخلاقيات، سلطة الشركات. قال: «ليس بين هذه الهموم ما هو تافه، كلها صحيح ويحتاج أن نفحصه.. علينا أن نستمع جيداً». ثم أكد أن الشركة مستعدة عند تطوير أى منتج جديد لأن تستمع إلى الناس مبكراً.

هدأت العاصفة. تصورت المنظمات المدنية والاجتماعية والحكومات أن الأزمة قد انتهت. هللت جماعة «أصدقاء الأرض» لهذا القرار ، وقالت إن الشركة قد دفعت إليه دفعاً «استجابة للمعارضة العالمية». وفى فبراير ٢٠٠٠ أعلن جاك ضيوف المدير العام لمنظمة الأغذية والزراعة (الفاو) معارضته لتكنولوجيا البذور العقيمة فى دفاع عن ١٤٠٠ مليون فلاح فقير. وفى مارس ٢٠٠٠ أعلنت حكومات عديدة معارضتها لهذه التكنولوجيا منها بنما والهند وغانا وأوغندا، وفى نفس هذا الشهر قدمت ولاية ماريلاند مشروع قانون يحظر بذور العقم. لكن البعض ظل يتوجس خيفة. اتهمت منظمة «جرينبيس» فى إنجلترا شابيرو بأنه مستأسد، وبأن شركته فشلت فى تفهم التغيرات التى تحدث بالمجتمع. لم يكن خطاب شابيرو إلا محاولة لكسب ود الصحافة... وما الذى يمنع الشركات من نقض وعودها فى أى وقت. تقول مونسانتو إنها لا تملك الآن تكنولوجيا تعقيم البذور، لكن قد يصبح لديها قريباً هذه التكنولوجيا إذا ما ضمت

إليها شركة دلتا حاملة البراءة! .

ونقضت الشركات وعودها!

وفجأة ، في يناير ٢٠٠٠، قال هاري كولينز عن شركة دلتا وباين لاند للبذور - التي تتحكم في أكثر من ٧٠٪ من سوق البذور بأمريكا الشمالية: «إننا نواصل عملنا في تكنولوجيا نظم (حماية الملكية الفكرية)، أبداً لم نبطىء في موالاة العمل، لقد حددنا هدفنا ، ونحن نتحرك لتتجيره، أبداً لم نتراجع» ! ثم اتضح أن نفس هذه الشركة قد استصدرت براءتين في ٢٠ يوليو و ٢ نوفمبر من عام ١٩٩٩ تحملان نفس العنوان ونفس المبتكرين والملخصات كسابقتهما التي صدرت في مارس ١٩٩٨، الأمر الذي أكد أن الشركة، ومعها وزارة الزراعة الأمريكية، مازالتا تعملان في تطوير وتحسين تكنولوجيا البذور العقيمة. قامت شركة زينيكا الإنجليزية أيضاً في عام ١٩٩٩ بإجراء تجارب حقلية على تكنولوجيا «جيرت» بالمملكة المتحدة. وفي ٢ ديسمبر ١٩٩٩ أعلنت زينيكا ونوفارتيس أنهما سيدمجان أقسام الكيماويات والبذور بهما في أكبر شركة عالمية للأعمال الزراعية (سينجينتا). وفي ١٩ ديسمبر ١٩٩٩ أعلنت مونسانتو أنها ستندمج مع شركة «فارماشيا وأبجون» عملاق صناعة الدواء في شركة جديدة اسمها فارماشيا. كتبت «رافي» إذن في أوائل عام ٢٠٠٠ لعدد من عمالیق الشركات التي تمتلك براءات لتقنية البذور العقيمة تطلب إعادة التأكيد على هجر التقنية بعد دمج الشركات. استجاب البعض، لكن الردود لم تؤكد شيئاً. أكدت شركة زينيكا مثلا في خطابها بتاريخ ٢١ فبراير ٢٠٠٠ أن سياستها باقية كما هي، لكنها لا تستطيع التنبؤ بما قد يحدث في ضوء ما تم من اندماج مع شركة نوفارتيس! .

تصاعدت الدلائل على قرب تسويق تكنولوجيا البذور العقيمة عندما عقد في نيروبي في الفترة من ١٥ - ٢٦ مايو ٢٠٠٠ المؤتمر الخامس للفرقاء المنبثق عن مؤتمر التنوع البيولوجي. فشل المؤتمر في تعضيد تحذيرات معظم أمم العالم من خطر هذه التكنولوجيا. فعلى الرغم من المعلومات التي توفرت عن إصدار ثلاثين براءة جديدة على الأقل لتقنيات يمكن أن تستخدم في تعقيم النبات وعن تجارب حقلية جديدة، وعلى الرغم من معارضة معظم دول العالم، فقد وافق المؤتمرون على اقتراح ضعيف للجنة الاستشارية العلمية بألا يصدق على إجراء الاختبارات الحقلية أو التتجير إلى أن تتجمع بيانات علمية عن الآثار المحتملة لهذه التكنولوجيا - وكأن مثل هذه الدراسات قد تثبت أن الجينات الانتحارية أقل انتحارية! فشل المؤتمرون في استصدار اعتراف دولي قوي يدفع تقنية البذور العقيمة بأنها تهديد مباشر للتنوع البيولوجي وللسيادة القومية على الموارد الغذائية، بعد أن تخلى عدد من ممثلي الغرب عن مسئولياتهم تجاه الأمن الغذائي العالمي. طالب ممثلو عدد من الدول، من بينها كينيا والفلبين والهند وتانزانيا ومالاوي، باستصدار حظر كامل

على التقنية، ولم ينجحوا . ثم صدر بيان من كل مجموعة الدول الأفريقية بهذا المؤتمر يدعو كل الحكومات وكل المنظمات الدولية إلى أن تحظر على الفور هذه التكنولوجيا فى أراضيها وفى أفريقيا كلها، فهى مرفوضة سياسياً واقتصادياً.

الإرهاب الزراعى

يقول إعلان ريو لعام ١٩٩٢: «لحماية البيئة لابد أن تأخذ الحكومات على قدر طاقتها بمنهج الحذر، فإذا وجدت تهديدات بتدمير خطير يتعذر إصلاحه، فلا يجوز أن تعتبر الافتقار إلى الإثبات العلمى عذراً لتأجيل اتخاذ كافة الإجراءات لمنع التدهور البيئى». وهذا يعنى أنه لا يجوز للشركات أن تتعلل لتسويق منتجاتها أو تقنياتها بعدم وجود بيانات علمية كافية عن تكنولوجيا البذور العقيمة تثبت أنها بالفعل تؤذى البيئة .

والواقع أن مثل هذه التكنولوجيا يمكن أن تستخدم كسلاح بيولوجى للإرهاب الزراعى! صحيح أن الحكومات لا تجرى بحوثاً على هذه التكنولوجيا لتستخدمها سلاحاً بيولوجياً، لكن إمكانيات استعمال تقنيات «جيرت» فى هذا المجال لا يمكن إنكارها - الأمر الذى يشكل سبباً وجيهاً للدعوى إلى خطرها. والمفروض أن تدرس معاهدة «حظر الأسلحة البيولوجية والتوكسينات» قضية اعتبار استخدام تقنيات «الجارت» خرقاً للمعاهدة. فى عام ٢٠٠١ سيُعقد مؤتمر عالمى لمراجعة هذه المعاهدة (التى أُبرمت عام ١٩٧٢) ومن الممكن للجنة المشكلة للمراجعة أن تعتبر تقنيات «جارت» والبذور الشيطانية انتهاكاً للمادة الأولى من المعاهدة التى تقول . «إن كل من يوقع على هذه المعاهدة لن يطور أبداً وتحت أية ظروف، أو ينتج أو يخزن أو يمتلك أو يحفظ بشكل أو بآخر (١) أية وسائل ميكروبية أو بيولوجية، أو توكسينات أيا كان مصدرها، أو طُرقا لإنتاجها بصورة أو بكميات ليس لها ما يبررها من أغراض وقائية أو حمائية أو أهداف سلمية، (٢) أية أسلحة أو معدات أو طرق للنشر صممت لاستخدام هذه الوسائل أو التوكسينات لأهداف عدوانية، أو فى الصراع المسلح».

وتطوير هذه التكنولوجيات هو حرب على الفلاحين وعلى الجوعى، وهو على الأقل يناقض روح المعاهدة.

وبعد

إن القضية الحقيقية هى مواجهة الدول الكبرى وشركاتها بشأن قضايا الملكية الفكرية والموارد البيولوجية، حتى لا نزلق إلى نظام استعمارى جديد أعتى. لقد أصبح الجنس البشرى، كما يقول ميشيل سيجل، فى وضع لا يُحسد عليه، وإذا كان له أن يبقى فلابد أن يكون للعلم والتكنولوجيا إسهامهما الواضح. للعلم أن يقول لنا «كيف» نصنع هذا أو ذاك، لكنه لا يستطيع أن يقول لنا «ماذا» نفعل. من الموجه إذن؟ السؤال المطروح فى الحق هو: هل يمكن لقوى السوق وحوافز الربح أن توجه العلم والتكنولوجيا إلى ما فيه خير البشرية؟.. مسألة فيها نظر ! .



الكاتب الصينى جاو كسينج جيان

نوبل ٢٠٠٠

مفاجآت المجهولين.. والمنشقين

بقلم: محمود قاسم

ما أغرب جائزة نوبل. وما أكثر مفاجآتها..!!

صحيح أنها قد توقفت عن إثارة هذه المفاجآت في السنوات الأخيرة، وهي تمنح اسمها لكتاب من دول حرمت دوما من نيل شرف اسمها، مثلما حدث للبرتغال عام ١٩٩٨. وأيضا حين منحت في العام الماضي لجونتر جراس الذي كان عليه أن ينالها منذ سنوات طويلة.

قد يتصور البعض أن الاسم الغريب، المجهول للكاتب الصيني «جاو كسينج چيان» هو سبب هذه الدهشة، لكن السبب الحقيقي أن الجائزة قد تجاهلت الصين طوال قرن بأكمله، ووضعت اسم أشهر أدبائها في قائمة الانتظار منذ عام ١٩٨٠، أنه با - كين (مولود عام ١٩٠٣ والمرجح أنه مات)، وظل الصينيون ينتظرون طويلا أن يتم الانتباه إلى أن آدابهم تستحق الكريم في صورة با - كين، لكن الرجل انتظر، وأبناء وطنه انتظروا أيضا، دون فائدة..

ومن قبل با - كين، كان هناك اسم مدو في الأدب الصيني، إنها الكاتبة المعروفة هان سوين إحدى أبرز نساء عدم الانحياز، والكاتبة الصينية الوحيدة التي ترجمت كل أعمالها إلى لغات الغرب، وقدمت أعمالها في أفلام شهيرة مثل «الحب شيء رائع» الذي قام ببطولته ويليام هولدن مع چينفر جونز، وكانت كاتبة أوروآسيوية، أي أنها كانت تمتلك كافة المقومات للحصول على الجائزة، لكن أكاديمية ستكهولم لم تشأ أن تكرم النظام السياسي الذي تناصره، وفضلت أن تقدم الجائزة في نهاية القرن العشرين لكاتب مجهول انشق على هذا النظام، وطلب اللجوء السياسي للغرب..

نعم، جائزة نوبل عادت لتقدم جائزتها للمنشقين على الأنظمة السياسية التي ليست على هوى الغرب ومنحتها بقوة لكاتب مغمور، تذكر له رواية واحدة، ضمن ابداع قليل للغاية، يجمع بين المسرحية

والرواية. بعد أن منحت جوائزها دوما لمنشقين أقل أهمية، تاهت أسماؤهم مع الزمن، مثل شيزلاف ميلوش (بولندا عام ١٩٨٠)، وإلياس كانيتي (تشيكي ١٩٨٣)، وياروسلاف سيفيرت (تشيكي ١٩٨٤)، ويوسف برودسكي (روسيا عام ١٩٨٧)، وكلهم، عدا سيفيرت عاشوا في المنفى، لاجئين يناصرهم الغرب.

كانت الجائزة دوما سياسية، تناصر ايدولوجية الغرب، حتى إذا إنحل الاتحاد السوفييتي تفكك معه عقد المنشقين، ولم يعد أحد منهم يذكر في الغرب، باعتبارهم قد أدوا دوراً محدداً لهم، وإذا بأكاديمية استكهولم بعد عشر سنوات من تفكك الاتحاد السوفييتي، تتذكر أن هناك أدبا صينياً منشقاً، يقف ضد السياسة الصينية، وسرعان ما تم منحه الجائزة رغم أن الكاتب كسينج جيان ليس أول المنشقين، ولا أكثرهم أهمية.

والحديث عن انشقاق الأدب الصيني ليس موضوعاً جديداً، إلا أنه كان مختلفاً، فالصين لا تود تصدير ثورتها إلى العالم مثلما حاول السوفييت أن يفعلوا، كما لم يدخلوا في صراع اقتصادي، وبارد مثلما حدث بين الشرق والغرب، والكاتب الصيني المنشق، لم يكن يميل إلى الذهاب للغرب، قدر رغبته في الرحيل، إذا فعل ذلك فعلا، إلى جزيرة هونج كونج، ليكتب بنفس اللغة، وكي تتسرب أعماله إلى القراء في وطنه، لكن الأسماء التي رحلت



ماوتسى تونج

إلى أوروبا، خاصة فرنسا، كانت قليلة، ولم يتم الاحتفاء بها بنفس القوة التي حدثت لأقرانهم المنشقين من الكتلة الشرقية سابقا.

حلم الراية الحمراء

ولعل أبرز حالات الانشقاق الأدبي الصيني، تمثلت في عام ١٩٥٤ برواية من طراز «حلم الراية الحمراء» للكاتب كاوكسوكن، والتي لم تترجم إلى اللغة الفرنسية سوى عام ١٩٨١. وعرفت هذه الظاهرة باسم «العلم الأحمر»، حيث عرف أن الزعيم ماوتسى تونج كان يؤمن بقوة الكتابات وتأثيرها على الناس. وقد عرف أن أنشطة أغلب الأدباء إبان الثورة الثقافية قد مارسوا السياسة وكان لهم دور اجتماعي بارز.



يا - كين



شين جو - هسى

وعلى مستوى آخر، فإن هناك كتاباً آخرين، عاشوا في فرنسا، لم يعلنوا الانشقاق، ولم يطالبوا باللجوء السياسي، لكنهم لم يودوا إعلان الحرب على أوطانهم، أو فقد النظام السياسي. ولعل أبرز هذه الأسماء هو الكاتب لوسيان بودار (١٩١١ - ١٩٩٦) الذي جاءت به أمه الصينية للحياة في فرنسا، لكن الاسم الذي يمكن الوقوف عنده بكل احترام هو الشاب يا - دنج، الذي فاز بجائزة أحسن رواية مترجمة، وجاء إلى باريس ليعيش عدة أشهر، وقرر الاقامة هناك، وكتب أول رواية له باللغة الفرنسية نشرت عام ١٩٨٧ باسم «الذرة الحمراء» حول الثورة الثقافية، وهي الرواية التي تحولت في الصين عام ١٩٩٢ إلى فيلم حصل على العديد من الجوائز العالمية وعرض عام ١٩٩٣ في نادي سينما القاهرة.

في مقاله عن جاو كسينج جيان، في مجلة الاكسبريس الفرنسية (٢٣ نوفمبر ١٩٩٥) كتب الناقد أندريه كلافيل معرفاً بالكاتب بأنه «اللاجيء» إلى باريس. ومثل هذا المصطلح مثلاً لم يصف به أحد الروائي « يا - دنج» على سبيل المثال، كما أن هذا الأخير قد لاقى من حفاوة النقاد، لمتابعة روايته الأولى أضعاف ما كتب عن الفائز بنوبل عام ٢٠٠٠.

ولد جاو كسينج جيان في الرابع من يناير عام ١٩٤٠، في مقاطعة جانز هو بشرق الصين. لأب يعمل موظفاً في أحد البنوك، وأم تعمل ممثلة مسرح، وقد لقنته المرأة حب هذا الفن، فقرأ العديد من

المسرحيات الصينية ، والعالمية، وتاق دوماً إن تكون له بصماته في هذا الفن الجماهيري، وتمنى أن يكون كاتباً مسرحياً يشاهد الناس أعماله.

تلقي جاو تعليمه في المدارس الشعبية بالصين، واتجه إلى الكتابة في سن مبكرة. درس اللغة الفرنسية وأتقنها، وقرأ المسرح الفرنسي وتأثر بكتابه، وسعى إلى أن يقدم مسرحاً مختلفاً، فضمت مسرحياته الكثير من الآراء الانتقادية، وواجه بعض المتاعب مع حكومة دنج تسياو بنج، وفي عام ١٩٨٦ صدر قرار بمنع عرض مسرحيته «الشاطيء الآخر»، فقرر أن يتصرف بسرعة وسافر إلى فرنسا، وطلب اللجوء السياسي إلى هناك. في تلك الفترة كان الغرب يشن حرباً باردة من نوع خاص على الصين، فيما يتعلق بثورة الطلاب، وما لاقاه المتظاهرون من عنف من قبل السلطات العليا.

لذا، تلقفت فرنسا الكاتب الذي طلب اللجوء، في عام ١٩٨٧، وكانت نفس البلد قد فتح ذراعيه لزميله يا - دنج الذي تحدثنا عنه سابقاً. وتقول المراجع إن الكاتب لم يقدم استقالته من الحزب إلا بعد أن استقر به المقام، أي عام ١٩٨٩، احتجاجا على اضطرابات جديدة بين الطلاب والسلطات، وكتب يندد بماحدث، فما كان من الحزب سوى أن شطب اسمه، وكان ذلك لصالحه، فصار يحمل اسم «منشق» أسوة بكل من سبقوه من الروس، أمثال الكسندر زينوفيف.

ولعل روايته «جبل النفس» هي التي أعطت لاسمه أهمية في الأوساط الأدبية، فتمت ترجمتها إلى اللغة الفرنسية عام ١٩٩٥، وتم الاحتفال به في أكثر من ملتقى أدبي، ومعرض كتاب عقدت في مارسيليا، وستراسبورج، لدرجة أن مجلة الاكسبريس أشارت إلى أن الرواية التي تقع في ٧٠٠ صفحة تعد بمثابة حصان طروادة وصل إلى فرنسا قادما من الصين. فالعنوان لا يكذب: «جبل النفس»، فهو لرواية تسبب الدوار، بقامتها، والأشواك التي تبرز منها، والأنفاس التي تعبرها. فالكاتب كسينج چيان هو واحد من الأدباء الذين جاءوا من أدب احتضن كثيراً من الثورة الثقافية. فهذا الكاتب، والمسرحي قد عاني من تمزيق مسودات أعماله، ومن شرب أكبر قدر من مياه الدعاية الشيوعية، وفي نهاية أعوام السبعينيات سمح له بنشر أول كتبه. وكان مسرح بكين هو أول من تعرف على اسمه، لكن احدى مسرحياته، «موقف الأوتوبيس»، منعت من العرض عام ١٩٨٣، وكان هدفا لنظام أرسل به إلى دائرة النسيان والرقابة. فترك مسقط رأسه وسافر في رحلة أوديسية عبر المدن الصينية، وانشغل بترجمة مسرحيات يوچين أونسكو، وصموئيل بيكيت، صار منفياً في باريس، حيث انتهى من تأليف روايته الأولى «جبل النفس» التي سرعان

ما ارتفعت إلى سماء الأدب المقروء بعد فوز مؤلفها بالجائزة.

نحن فى طرف العالم، فوق ممرات مظلمة تمر من التبت حيث يعيش بطل الرواية يانج - تسو كيانج. وهو مؤلف يعيش فى عصر ماوتسى تونج، يردد أنه لاجىء منذ طفولته. قرر أن يهرب من ضجيج المدينة، حاملا حقيبته فوق ظهره، متجها إلى الجبال والمدن الصينية الصغيرة، والقرى. يتصرف كأنه يعيش فى زمن الحكيم كونفوشيوس. هدفه الرئيسى أن يهجر الحضارة، والوصول إلى بلد لم يسبق لأحد أن بلغه. أو كما يسميه «جبل النفس». تقع عليه بلاد فريدة ليس لها مثيل. يدوس فوق الدروب المتربة، وأهمية الرواية أن الكاتب يصف كل تفاصيل هذه الرحلة، يبدو أشبه بروبنسون كروزو فوق أرض يسكنها مليار شخص، يحاول أن يجد حلمه الخاص، وشعائره المختلفة وأساطيره.

إنه رجل وجد نفسه بين السماء والأرض، بين النهر الأسود، والصخور الأبدية ومملكة الأفاعى، والقرى المختبئة فى الغابات، يستمع إلى الأغنيات الشعبية، ويلتقى بالنساء القدريات. يتعلم فن المسخ. لقد أنهك شبابه فى ممارسة العمل السياسى. إنه سندباد صينى معارض، يصف نفسه بأنه أحسن نموذج للغباء البشرى.

ورغم طول الرحلة فانه لا يستطيع أن يبلغ جبل النفس، أو الروح كما يمكن للتعبير أن يكون أكثر تحديداً. لكنه يشعر بانتصار داخلى، حيث يكتشف طريق السماء.

من أشهر أعمال الكاتب الأخرى «الشاطىء الآخر»، و«هجرة نحو الغرب».

الجدير بالذكر أن مجلة الاكسبريس، أيضاً، قد فتحت ملفا قصيراً عن أبرز أدباء الصين المعاصرين فى عددها الصادر فى ٤ مايو الماضى، بمناسبة نشر روايات جديدة لأربعة من الأدباء المقروئين فى فرنسا، كان جاو كسينج جيان على رأسهم من حيث الحفاوة، أما الثلاثة الآخرون فهم جيا بنجاوا مؤلف رواية «القرية المنزلقة»، ومويان مؤلف «بلد الكحول» ولاو شى مؤلف «أربعة أجيال تحت نفس السقف».

كانت قد صدرت للكاتب جاو ترجمة لروايته الجديدة تحمل اسم «كتاب رجل وحيد» تقع فى خمسمائة صفحة تقريبا، والغريب أن المجلة قدمت الكاتب باعتباره «منشق سابق» دون أى تفسير لهذه التسمية. لكن المجلة، أشارت أن رواية الكاتب الجديدة تدور أيضا فى عصر ماوتسى تونج ولكن فى إطار فانتازى، وأن الكاتب حاول فى هذه الرواية أن يفتح نوافذ أحلامه وآماله، وكأنه أحس بسعادة الحب المختلس، وبهجة السلطة المكتسبة لدى إنسان استطاع أن يفلت من الشرطة. إنها سلطة الإنسان فى مواجهة سلطة الغباء.

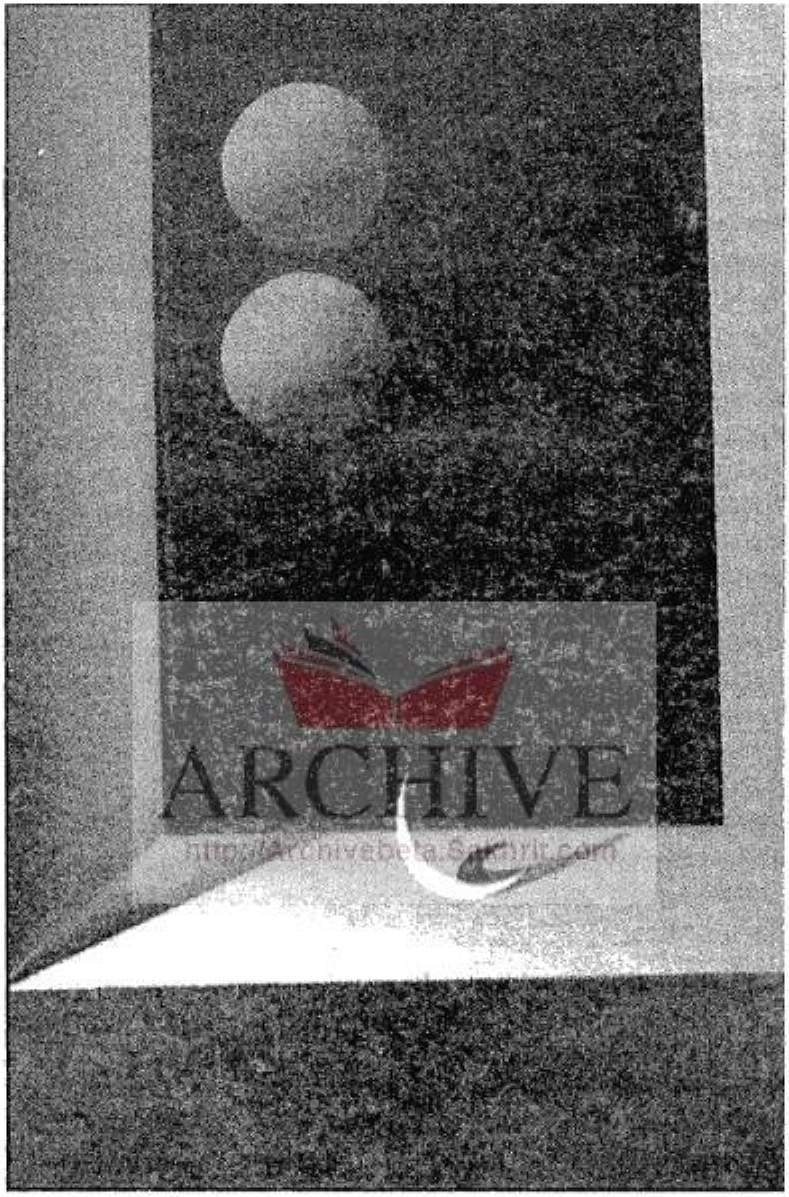


جولة المعارض

أجواء تصويرية للفنان حامد صقر

بقلم : محمود بقشيش

اختار الفنان «حامد صقر» تعبير «أجواء تصويرية» ليكون عنوانا لمعرضه الذى أقامه بقاعة كلية الفنون الجميلة بالزمالك الشهر الماضي.. والعنوان - قبل المشاهدة - يوجهنا إلي الكيفية التي نستقبل بها لوحاته والنهج الذى اختاره لها.. والعنوان يعني فيما يعنيه التركيز علي فن التصوير باعتباره فناً له خصوصيته ويمتلك استقلالاً نسبيا يميزه عن بقية الأنشطة الذهنية المختلفة.. ويشهد معرضه علي دقة العنوان المختار، فلم تستدرجنا لوحاته إلي إيحاءات روائية، مسرحية، مثلما كانت تفعل لوحة عصر النهضة الأوروبية أو تقتفى أثر نص أدبي تحاول تفسيره مثلما يحدث عادة مع الرسوم الصحفية بل دعانا الفنان، مباشرة، إلي تأمل جوهر فن التصوير.. وهو جوهر ثابت، لم يزلزله تعدد المدارس، والأساليب والتيارات الفنية عبر التاريخ، ينهض على دعامتين أصيلتين، يشكلان معاً حواراً مرئيا، يقودان به تفاصيل اللوحة: أعنى حوار الدرجات الضوئية والدرجات الظلية.



الهلال للفنان حامد صقر عام ١٩٨٠ ـ جائزة التصوير الأولى فى الإبداع الفنى

ولا يستطيع فنان - مهما كانت عبقريته - أن يتخلى عنه إلا إذا شاء أن يضحى بعمله الفنى ذاته.. قد ترجح كفة إحدى الدعامتين على الأخرى فيعطى الفنان أهمية عظمى لعنصر الضوء ويبالغ فى تهيئة فضاء اللوحة أو مسرحها بالعتامة ليعطى للمسة الضوء تميزها، مثلما فعل «كارافاجيو» و«رمبرانت» - على سبيل المثال.. وبحدوث ثورة التأثريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحرر فن التصوير من التبعية المباشرة للأدب والفلسفة إلى درجة من درجات الاستقلال النسبى التى تسمح باستيعاب الأحداث العلمية للعصر وتبادل التأثير والتأثر بإنجازات المبدعين فى مجالاتهم المختلفة.. كان من نتائج إزاحة عوائق الحكى - تلك الازاحة التى أسهمت فيها «التأثرية» بنصيب كبير - أن اصبحت اللوحة الحديثة حالة تتواصل فيها روحان: روح الفنان وروح المتلقى عبر جسر الأشكال والألوان والخطوط والخامات المختلفة.

إنطباع الوهلة الأولى

ضم المعرض ثلاثين لوحة بألوان الجواش على ورق «فبريانو» وكانت أداتا التنفيذ هما: الفرشاة ومسدس الرش الذى تعامل معه بمهارة لا نظير لها بين الفنانين المصريين . واختار عنصر «النور» ليكون ركيزته المحورية الأولى فى اللوحات.

وجهّز لكليهما: (النور والعتمة) فضاء سماويا لا شبيه له، بعيداً عن وحدة المكان الأرضى، تلك الوحدة التى كانت تفرض على لوحات عصر النهضة طابعها المسرحى.. وهو فضاء مهندس صاف، لا تشويه شائبة من خشونة الواقع وفوضاه.

وعلى الرغم من كونه فضاء متخيلاً فإنه لا يقطع خطوط الاتصال بالمألوف من الاشكال الطبيعية، غير أنه لا يستضيفها إلا فى أضيق الحدود.. وعندما يفعل ذلك فإنه يعقّمها أولاً.

ففى لوحة (الاستحمام فى النور) التى أنجزها سنة ١٩٨٧ (٤٤×٥٢ سم) اصطفى من كل ثمار التفاح واحدة ورسمها ببراعته الفذة فى نقل الواقع، وإن أزال عنها كل شوائب المناخ الطبيعى وجعلها تبدو أقرب الى كتلة من «الكريستال» وأحاط ثمرته المنورة بأصداء لها، إتخذت هيئة كتلتها المستديرة وإن ابتعدت عن المشابهة الكاملة معها.

هنا يقيم «حامد صقر» الاتصال بين الموجود الطبيعى الذى ابدعته القوة الإلهية والاشتقاق الذى صنعه الإنسان، وهو فى هذا يبدو متأثرا بأسلوب المذهب «النقائى» فى التصوير الأوروبى الحديث.. ولأن فنه ذهنى فى أساسه فهو يجنح الى التجريد دون أن ينغمس فيه إنغماساً



نغمات خطية
عام ١٩٧١

كليا وإن بدا للوهلة الأولى تأثره بهندسية أسلوب «موندريان» الصارمة، غير أن تلك الصرامة «الموندريانية» ترق فى لوحات «حامد صقر» وتميل الى الاسطوانيات العضوية، كما فى لوحة (نغمات) التى أنجزها سنة ١٩٨٥ (٦٧X٦٢ سم).

وهى من مقتنيات متحف الفن الحديث، وتتجلى ثمرة التفاحة فى شكل كوكب كامل الاستدارة يبزغ من جوف فضاء اسود ، كما فى لوحة (تكوين كونى) التى انجزها فى نفس العام (٦٢ × ٦٨ سم).

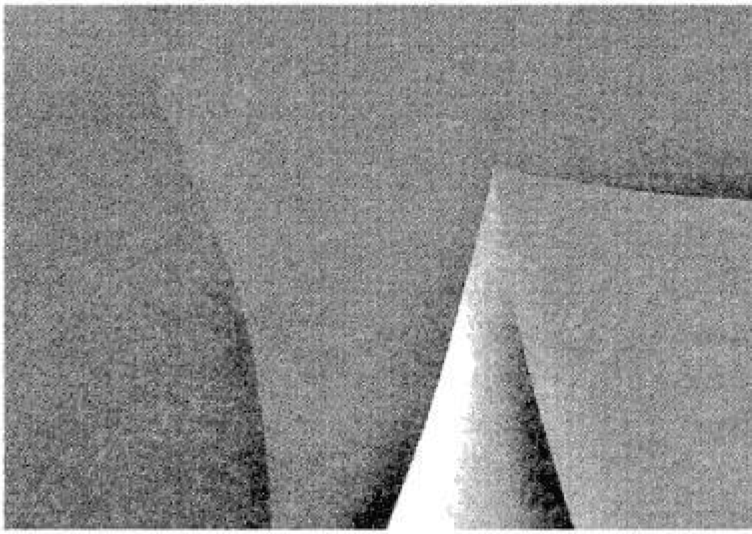
ويواصل هوايته فى ترتيب كون من صنعه، يحدث به المفاجآت ويثير الدهشة ففى لوحة (الهلال) لا نرى الهلال جليلاً مثلما نراه فى فضائنا السماوى بل نراه فى اللوحة وقد سقط أرضا وصار شبيهاً بالطبيعة الصامتة، شكل ساكن يلقى ظله على الأرض فيما ظهر كوكبان فى الذروة يسبحان.

فى اللوحة تأثر واضح بالمصورين الميتافيزيقيين، غير أن حرصه على المبالغة فى الأناقة وميله إلى تنسيق العلاقات بين العناصر المجسمة والعناصر

توازن للفنان حامد صقر- ١٩٨٧



١٩٨٧ ـ موسيقى الازرق





١٩٨٥ ـ تكوين كونى

المسطحة تقنعنا بأن ميله الى المباريات الذهنية/ «الشطرنجية» الحرة أكثر من حرصه على الانتماء الكامل إلى اسلوب فني بعينه يتجمد عنده.

استلهام النفايات!

إن كل الموجودات الواقعية، سواء منها «العظيم» أو «التافه»، الحي أو «الجامد» يتقاسمه النور والظل.. وعندما تدخل تلك الموجودات عبر بوابة الفن السحرية تصبح موجودات أخرى، أبدعها خيال الفنان.

قد يصبح الموضوع الواقعي التافه درة نفيسة عندما يعبر تلك البوابة السحرية. لقد استلهم الفنان الكبير المرحوم «زكريا الزيني» نفايات القاهرة المكدسة في شوارع المدينة وأحيائها الشعبية والثرية على السواء في سلسلة من اللوحات تعد من أهم لوحاته واستلهمها بدوره الفنان «حامد صقر»، غير ان حامد بحكم وداعته الطبيعية لم يستلهم تلك النفايات في بيئتها الطبيعية بل استحضرها إلى لوحاته بعد ان نقاها من خشونتها الواقعية وعطرها واكتفى بالنفايات الورقية النظيفة . أحيانا يصطنع فوضاها اصطناعا واحيانا يمسك بالمصادفات التي احدثتها.. ولأنه رسام فذ فإنه يستطيع ان يرسم اى شيء.. وكان دافعه الي البحث في فوضى العشوائيات تلك هو التحليق حول الجوهر الثابت لفن التصوير - أو بالأحرى - كل الفنون المرئية. حوار النور والظل..

ونجح في أن يصنع من موضوع لا يثير الانتباه لوحات تستحق أن توضع في المتاحف . وتذكرنا لوحاته بشوامخ فناني الضوء ، أمثال « رمبرانت » بإضاءاته الليلية المباغتة وإضاءات «فيرمير » الناعمه ، الحانية وإضاءات «لاتور » الحزينة وإن كان « حامد صقر » قد تحرر من طابع السرد الأدبي وحرر المتلقى ، بدوره ، من الحلم المستحيل فى تطابق الإدراك بين « الفنان المرسل » و « المشاهد المستقبل » .

والحقيقة أن المساحة الفارقة بينهما هى التى تمنح العمل الفنى فرصته فى إعادة قراءته وتجدده بتجدد رؤى الأجيال الناقدة . والمتذوقة . ولقد لمست السيدة «مادلين أور » وكانت عندما ألفت كتابها المهم « أسرار الأعمال الفنية العظيمة » تعمل أمينة لمتحف اللوفر .

وقد عرضت فى كتابها الوثائقى صوراً للطبقات التحتية للوحات كبار الفنانين : أمثال « دافنشى » و « رمبرانت » و «كوربيه» . ومن يشاهد تلك الصور التحتية وصور اللوحات المعروفة يصيبه الذهول ، فالصور المأخوذة بالأشعة كانت تتناقض تناقضاً كلياً أو شبه كلى مع اللوحات

المعروفة . لوحة «رمبرانت» المسماة «عارية في الحمام» - على سبيل المثال - فأنت تجد أن الفارق هائل بين الأصل والصور الإشعاعية . وقد شاهدت تلك اللوحة باللوفر وأدهشتني دقة لمساتها ، على النقيض من اللمسات التلقائية التي ظهرت في صور الأشعة والأوضاع غير المستقرة للموديل . وقد أرادت « مادلين أور » ببحثها القيم أن تبلغنا ببساطة أن مبدأ « كن فيكون » لا يستطيعه إلا الله وحده ، أما « العبقرية » فليست أكثر من درجة من درجات الصحو الإنساني .

نقل أم إستلهام

إن « حامد صقر » لم ينقل فوضى القصاصات الورقية نقلاً حرفياً مع أنه يستطيع ذلك غير أنه يترك لتداعيات النور والظل المتناثرة في فوضى المادة الواقعية ، فيلتقط ضوءاً مباغتاً هنا ، وظلالاً تتكسر على ظلال هناك وهو يقوم بدور صائد المصادفات الجميلة ، يقوم بتأكيدها أو هندستها . وينتهي من لوحته عندما تصيبه الدهشة!..

إن فن « حامد صقر » - كما قلت من قبل - فن ذهني ، تأملي ، مسالم .

الرسم بالحبر الصيني

تزداد تصميماته إحكاماً في لوحات الرسم بالحبر الصيني بالريشة وبالسنون المعدنية . وعلى الرغم من أنها كانت الأسبق في تاريخه الفني فقد التزمت الطابع الذهني والميل الصريح إلى التجريد . من تلك اللوحات التي يدل عنوانها عليها لوحة « نغمات خطية » أنجزها سنة ١٩٧١ (السنة التي تخرج فيها في كلية الفنون الجميلة بتقدير إمتياز مرتبة الشرف) .

واللوحة تصور ، بالفعل ، تنغيمات خطية ، يستعرض الفنان مهارته في التلاعب بكثافة الخط وطراوته وخلق إيهام بصري بالحركة والعمق . ويبدو تأثره بأسلوب الفن البصري ، في ذلك الوقت ، واضحاً . ويتأكد نفس النهج في لوحة بعنوان « سيمفونية » أنجزها في نفس العام . الفارق بينهما هو إنقلاب الخطوط اللينة في لوحة « نغمات » إلى حزم من الخطوط المستقيمة ، الحادة ، المنفذة بالمسطرة . وقد عمل « حامد صقر » رساماً بالهلال في مجال رسوم كتب الأطفال وأذكر أنني عندما كنت عضواً بمجلس تحرير مجلة «سنابل» مع الشاعر الكبير « محمد عفيفي مطر » إخترنا لحامد رسماً نشر على غلاف العدد الأول الذي صدر في ديسمبر ١٩٦٩ وكان وقتها لايزال طالباً في كلية الفنون الجميلة وأصبح الآن أستاذاً مساعداً بها .



جودة خليفة
وانطفأ عود الحطب المشتعل بالفن والحيــــاة..!!

صلاح بيصار

جودة خليفة فنان جادت به قرية «البلاشون».. قرية صغيرة خضراء من قرى الشرقية.. مثلما جادت قرانا بطول الوادي بالمفكرين والأدباء والكتاب والفنانين من طه حسين ومحمود مختار ويوسف ادريس وصلاح عبد الصبور وعبد الرحمن الشرقاوي إلى كثيرين غيرهم.

كان نحيفا كعود الحطب.. يشتعل بالفن والحياة.. يحمل سحنة الفلاح الفصيح مع ملامح من إخناتون.. عاش الحياة بكل جوارحه من الشوشة إلى القدم واشتهر بضحكته الرائعة المجلجلة والتى كانت صورة لصفاء النفس والعذوبة والسخرية من عبث الأقدار مع تلك الروح المرحة الطليقة.

يحكى الناقد الفنان محمود بقشيش وكانوا ثلاثة يعيشون معا فى حجرة واحدة أثناء الدراسة بالفنون الجميلة بداية الستينات.. هو وهو ومعهم المثال عبد الهادى الوشاحى.

يحكى أن الوشاحى كان يشكل تماثيل من البطاطا التى كانت أرخص من الصلصال وفى كل مرة يأكلها جودة خليفة!! .

من هنا كانت حياته أنشودة للبساطة فى السلوك والتصرفات وأيضا فى المأكل والملبس وهى تمثل معادلا لعالمه التشكيلى

من أعمال الفنان جوده خليفة

الذى اتسم بالعمق والغموض يموج بالحزن والشفافية ويضج بالصمت وهذا الحس الميتافيزيقى الذى يعكس حالات درامية عديدة.. كل ايقاع حالة وكل حالة تأخذنا من أعماق الأعماق إلى آفاق الآفاق فى رسوم تبتعد عن الثرثرات والدندشات ولا تشتمل إلا على عنصرين أو ثلاثة من تلك الرموز التى تشكل عالمه والتى لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.. هذا العالم الذى شكل من خلاله مساحة أصيلة تضاف إلى كشكول الفن الصحفى مع مساحات عبد السلام الشريف وجمال كامل وحسن فؤاد ومنير كنعان وصلاح جاهين.

أعمال أكثر شعبية

ورغم أنه لم يهتم طوال حياته بإقامة معرض واحد لأعماله فإن معظم تلك الرسوم الصحفية التى امتدت من الموتيفة الصغيرة إلى الرسوم التعبيرية المتسعة وفن البورتريه تعد لوحات مكتملة تألقت على صفحات روز اليوسف وصباح الخير وأكتوبر والهلال وأخبار الأدب مع الأغلفة والرسوم الداخلية لعشرات الكتب.. لكن جودة خليفة اكتفى أن تكون أعماله أكثر شعبية كشخصيته يطالعها آلاف القراء.

ومساحة التشكيل عنده ليست مجرد مساحة تزينية تصاحب الكلمة المكتوبة وليست أيضا مجرد عامل جذب للقارئ بقدر ما تتوازى تلك المساحة مع النص المكتوب فى القيمة مع اختلاف زاوية الإبداع.

ورموز الفنان الراحل تتكرر من الطائر

إلى الرجل والمرأة والهلال والبدر والديك مع الأغصان التى تقترب فى شكلها من غصن الزيتون ، لكنها تتغير من حالة إلى حالة فطائر جودة خليفة يمثل حالة خاصة وهو نسق وحده فى كل لوحة ينساب فى تعبير جديد.. تارة نطالع فيه غراب قابيل وهابيل وتارة يمامة الغار وربما حمامة الأيك التى تغنى بها شوقى وأحيانا بهيئة عصفور الحقل وفى أوقات أخرى يمثل طائر الليل الحزين الذى يتشبث برأس رجل أو فتاة.

أما الديك فهو يطل بعرف كالهلال وساقين رشيقتين يبدو مشدودا من فرط الصياح فى شموخ وكبرياء! .

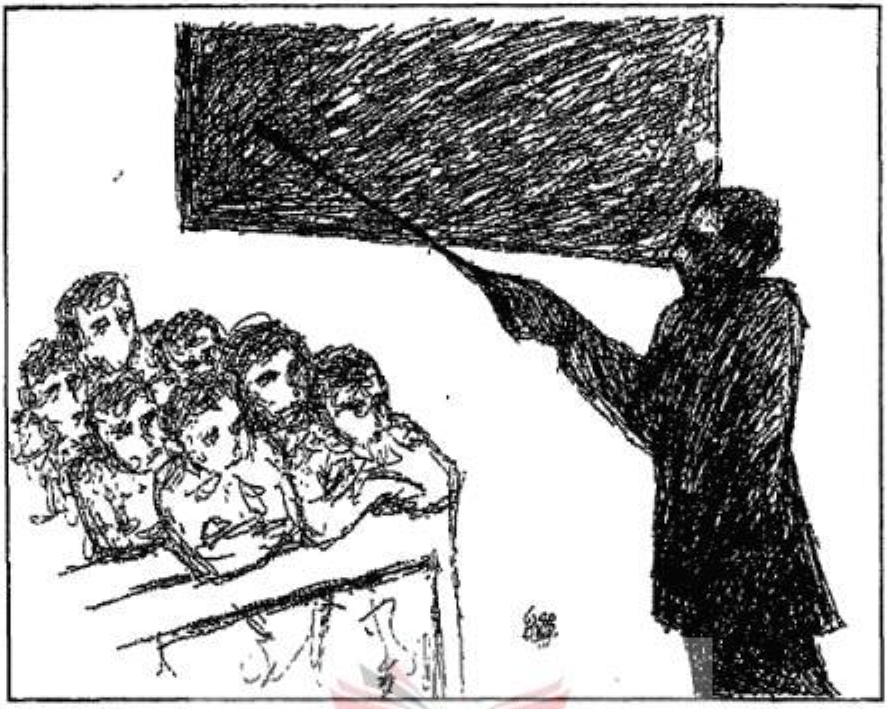
وأعمال الفنان على المستوى البصرى بعضها ينتمى إلى الليل والبعض الآخر إلى النهار وقد تزيد مساحة الأسود وتمتد وقد تتسع مساحة الأبيض.. فيأخذ البعض منها ملامح الليل والنهار معا فيخرج النهار من الليل أو يدخل الليل فى النهار ما بين شبورة الفجر وغبش المساء.. نعيش من خلالها وضوح النور والظلام كما عايشه فى قريته الصغيرة وهى مسكونة بتلك المسحة الميتافيزيقية التى عكستها معايشته الشديدة لتراث الأجداد من الابهاء والدهايز وممرات المعابد والجداريات أثناء وجوده بالأقصر بعد تخرجه.

ورسوم الأبيض والأسود تفوق فى مستواها أعماله الملونة وما اشبهه بعازف الناى الذى اختار أن ينفخ فى عود من البوص فيطربنا ويشجينا ويحتوى العالم بأنغامه.

والشخوص الآدمية فى كل أعماله مسكونة بالصمت والغموض حيث تضيق العيون أو تتلاشى من فرط الظلال وهى عيون لوزية مسحوبة.

وتتنوع أعماله من الرسم بسن القلم إلى الابداع بالريشة واتساع الفرشاة.. وهى تمتد من الإيقاع الهندسى الذى يشتمل على مسطحات سوداء وبيضاء من بينها الدائرة بمثابة البدر مع الهرم الذى غالبا ما يحوى بداخله شكلا عضويا.. إلى ايقاع يتنوع فى تعبيريته يموج بالمشاعر والأحاسيس يتشكل من الخطوط الرفيعة التى تتداخل وتتعانق وتتكاثف تصنع حوارا من الأضواء والظلال إلى المسطحات الشفافة بالفرشاة.

وقد بلغت أعمال خليفة ذروتها فى رواية «حكاية تو» التى نشرت مسلسلة بروز اليوسف للروائى الكبير فتحى غانم وأيضا رواية «سفر البنيان» للروائى جمال الغيطانى والتى نشرت فى سلسلة روايات الهلال حيث رسم غلافها مع الرسوم الداخلية التى تنوعت فيها أساليبه فى الشكل تنقلنا من تعبير إلى تعبير.



كما جاءت الرسوم الداخلية لأناشيد الإثم والبراءة للدكتور مصطفى محمود.. صورة تعبيرية عالية القيمة امتدت بالبساطة والايجاز.. وهى عبارة عن رسمة واحدة للفظ الجلالة تكررت عشر مرات بحجم طابع البريد لكنها محملة بالمعانى والدلالات.

وجودة خليفة كان فى أحيان كثيرة يعمد إلى ترك تكويناته مفتوحة وغير مكتملة كأن يرسم اطارا ينقصه ضلع أو يصور رأسا بلا جسم أو وجها بلا تفاصيل محاولا إشراك المشاهد فى إكمال الصورة النهائية للعمل من خلال تلك الخطوط الوهمية التى تحددها العين.

والصورة الشخصية فى أعماله تنبض بالمشاعر والأحاسيس وهو يصبغ البورتريه بعالمه الدفين الذى يمور بداخله.. وكان آخر ما أبدع صورة شخصية لرائد التعليم الدكتور حامد عمار وقد أشاد بها صديقه الفنان نبيل تاج وقال له إنها من أجمل أعماله كان ذلك وهو بالمستشفى فما كان منه إلا أن أجهش بالبكاء فقد شعر أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان.

سلام على جودة خليفة الإنسان والفنان وخالص العزاء لأسرته الصغيرة.. السيدة زوجته وابنته رحاب الصحفية بالأهرام.

كيف تخاف الأزهار؟

قصة قصيرة

بقلم : أيمن الجندى

رسوم : سميحة حسنين



□

لم أعد أبكى ..

فقدت - فجأة - القدرة على البكاء دون سبب مفهوم .. الفظيع أننى كنت أبكى مرارا فى داخلى دون دمع، صارت عيناى مثل مجرى نهر قديم انقطعت عنه الأمطار واجتاحه الجفاف منذ آلاف السنين .. منذ مئات الآلاف من السنين .. منذ ملايين السنين.

كانت الأعشاب كثيفة والغابات تحفل بالأشجار السامقة والكائنات الحية المتنوعة، وكانت السماء تمطر بغير انقطاع، ورائحة المطر الرطيبة تفوح فى جميع الأوقات ولكن الجفاف قد أنشب مخالبه فجأة، أقفرت السماء من الغيوم دون مبرر مفهوم وامتد اللون الأصفر بالرمال القاسية التى تراكمت على كل شيء .. طمرت جميع مظاهر الحياة فيها .

مكثت وحدى فى الشرفة اتطلع إلى البعيد المجهول، لم أكن وحدى تماما، كان هناك قفص صغير لعصفورين من عصافير الزينة بألوانهما البديعة .. آية من جميل صنع الله فى خلقه، تتسكب الألوان الصافية فى انسجام مذهل كما لم تبدعه ريشة فنان، ولكنهما خلف طلاء الزينة كانا تعيسين تماما، العيون - مثلى - جافة، لبثا ينقران الحب فى جمود دون أن يفطنا أننى أتطلع إليهما.

....

مضيت إلى طبيب العيون أسأله المعونة وضع المنظار أمام عينى فى الظلام الدامس محركا نور منظاره الفاحص يمينا ويسارا، ثم رفع رأسه نحوى :

- ماذا تشتكى :

قلت فى اقتضاب .

- لم أعد أبكى .

قال فى ثقة :

- لا شيء البتة، أنت لا تعانى من مرض عضوى .

قلت له فى هدوء .

- معذرة، ولكنكم تجهلون الكثير، هل تستطيع بآلاتك تلك أن تدرك الفارق بين العيون السعيدة والتعيسة؟

قال فى حيرة:

- كلا ، كلاهما يتشابهان.

قلت مؤكدا :

- وكذلك يتشابه السكر والملح، كلاهما أبيض !

....

فطنت أن عصفورى الزينة لايتطلعان البتة لأعلى، أتراه اليأس المريح أم هو الجهل السعيد.

لست أدرى .

كان عصفورا الزينة هدية فى يوم ميلادى ابنتى، وقد استشعرت المقت صوب هذه الهدية منذ اللحظة الأولى ولكنى لم أقدر على ردها، ألقيت فى جفاء بكثير من الماء والطعام ثم أشحت ببصرى بعيدا، كانا يزقزقان نادرا ويأكلان

بشراهة غير مفهومة وكانت عيونهم مستديرة، وقاسية ويتملكنى الاشمئزاز كلما تطلعت إليهما.

....

أصغى الطبيب النفسى إلى شكواى الخاصة بعدم المقدرة على البكاء ثم ضاقت عيناه وهتف فى انفعال :

ـ هذا مثير جدا ، إنه يرمز لشىء ما .

قلت فى عتاب :

ـ أعلم ذلك ولكن ماهو ؟

اعتدل فى مجلسه وقال فى صوت واثق:

ـ ليت الأمر بهذه البساطة لست ساحرا ولا أملك ـ للأسف ـ كرة بللورية ! ولذلك فإن جلسات التحليل النفسى ستغدو حتمية، سوف افتش فى كهوف عقلك الباطن عن حادثة ما مرت بك وظلت مطمورة فى أعماق لا وعيك ثم بدأت تعبر عن كيانها بهذه الكيفية .

همست فى حزن :

ـ وحتى هذا الحين أكابد العذاب الأليم !

ـ قلت لك أننى لا أمتلك ترياقا سحريا للسعادة !

ـ ولكننى أتألم ألما نادرا .

ـ لا ريب، طالما أثبتت الدراسات الحديثة أن البكاء يطيل العمر .

هززت كتفى فى استخفاف :

ـ ياسيدى الطبيب لست أعبأ بطول العمر ولكنى اشتقت الى ملمس الوجه الرطيب المبلل بالدموع .

قال الطبيب وهو يبتسم :

ـ يمكنك أن تضع دموعا صناعية تبتاعها من الصيدلية بسهولة ثمة وسيلة أخرى .. ضع عصير البصل فى عينيك وسترى!

قلت فى جد :

ـ اسمع يادكتور .. أحيانا أخال أننى نواة حبيسة فى ذرة تحرسها إلكترونات تطوف من حولها كسجان يقظ، أترى الطاقة الهائلة التى تنبعث من تحطيمها فرحة هائلة تعربد بالخلاص من الأسر الطويل ؟

لم ينبس الطبيب وتشاغل بكتابة الوصفة الطبية، استطردت قائلا :

ـ وأحيانا أخال أننى روح حبيسة فى جسد ولكن موعد اطلاقها لم يأت بعد .

أشعر بالأسر ولا أدرى لم؟

كف الطبيب عن الكتابة ورفع عينين متشككتين، قال ووجهه يفيض حبورا :

ـ أنت تفكر فى الانتحار يبدو هذا بجلاء.

ـ كلا .. كلا .

ـ لاتقاطعنى ، هتف فى انفعال، إنهم جميعا ينتحرون يوما ما.

ـ الانتحار هو آخر ما جال بذهنى.

تكدر وجه الطبيب نوعا وقال فى دهشة :

ـ ولم ؟

لقد تعذبت مرارا ولن أضيف الجحيم لأعبائى .

قال وقد فترت

حماسته :

ـ منطق معقول، والآن هاهي الوصفة الطبية .

....

طمرت الرمال مجرى النهر القديم تماما .

....

هرعت الى شيخي الروحي ابثه شكواي .

ـ لم أعد أبكي يامولاي .. رغم ذلك تصرخ الندابات في جنون خلف قناع جلدي السميك، يخمشن وجوههن بأظافرهن ويمزقن شعورهن .

أحيانا أخال أن الدموع مأسورة في أعماقي خلف لوح زجاج غير مرئي، إنها موجودة ياسيدي، الدمع نقي وأمواجه متلاطمة وتسبح فيه عشرات الأسماك التعيسة، ولكن كيف أهشم اللوح الزجاجي وأطلق الدمع الحبيس؟ إنه في صلابة الماس وقسوته أيضا، أخبرني يامولاي هل ثمة ماهو أشد صلابة من الماس؟

قال الشيخ ووجهه يتهلل بشرا .

ـ الإيمان ياولدي .

ـ حقا ياسيدي ولكن النهر قد جف تماما، انقطعت عنه الأمطار، وأوشكت على الهلاك من الظمأ .

قال الشيخ في جد :

ـ «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا» صدق الله العظيم .

....

استغفر الله العظيم، عبدك وابن عبدك وابن أمتك، سائلك وفقيرك ومسكينك.

....

فهمت كل شيء فجأة.

كان الظلام يرخي ستائر دياجيره وكنت أتخبط في الظلام البهيم، ومضى البرق لثوان معدودة لكنها كانت كافية لأجتلي الحقيقة أبصرت سجني وسجاني وأدركت خلاصي .

مضيت إلى الشرفة وأمسكت بباب القفص فتحته وتراجعت خطوات إلى الوراء ولبثت أرتقب .

لم يبرح العصفوران القفص وتساءلت في أسف أتراهما لايحسنان الطيران؟ هل تحولت الأجنحة الى أقدام من طول الأسر؟

لم يطل تساؤلي .

انطلق عصفور كالسهم الملون خارج القفص، أوشك أن يصطدم بسقف الشرفة ومضى يرفرف في السماء كعاشق مجنون.

ومكث العصفور الآخر لحظات ثم رفع رأسه لأول مرة، ومالبث أن شق طريقه الى السماء حيث رقص رقصة الحرية الأولى.

مضيت إلى داخل المنزل وأنا أترنح، كان الموج يتدافع بصوت صاخب صوت مجرى النهر القديم الذى لم يعد قديما .

السينما
بين التكرار والتحريف والتجديد

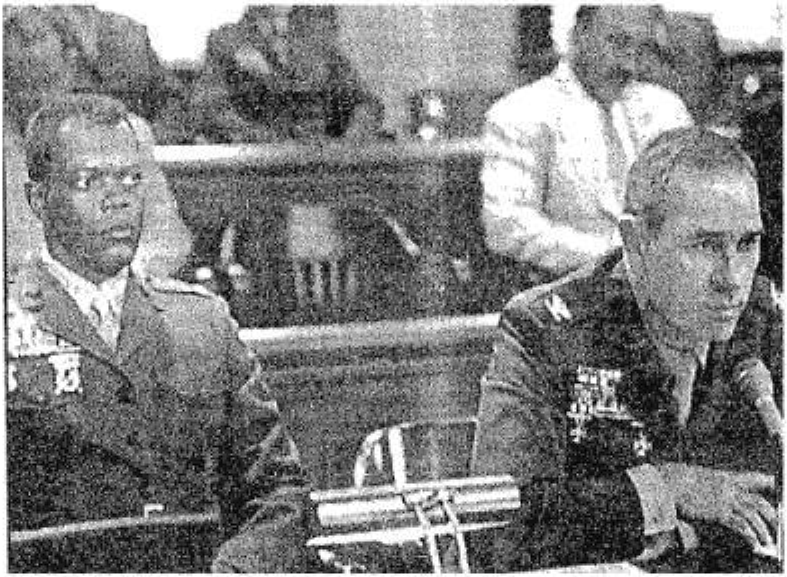
بقلم : مصطفي درويش

توقعت ، وأنا مقبل على مشاهدة «امرأة تحت المراقبة» ، وهو فيلم من إخراج «أشرف فهمى» وتمثيل نجمة مصر الأولى «نبيلة عبيد» ، توقعت أن أشاهد عملا سينمائيا ارتقى إلى مستوى فيلمهما معا «اغتيال مدرسة» ١٩٨٨ ، إن لم يكن قد تجاوزه إلى مستوى ارفع ، وذلك بحكم الخبرات التى اكتسبها الاثنان «المخرج» و «النجمة» على امتداد السنوات اللاحقة لهذا الفيلم ، وهى اثنتا عشرة سنة بالتمام .

ومما زاد من اطمئنانى، حتى كدت اصبح من الواثقين فى صعود فيلمهما الجديد إلى منزلة قد تجعل منه علامة فى تاريخ سينما لها من العمر الآن ثلاثة وسبعون عاما أمران.

أولهما : أن التليفزيون المصرى الذى ولد عملاقا هو ممول الفيلم ، ولايعقل ان تشوب اسهامه بالتمويل شبهة التفريط أو الاهمال ، على نحو يسيء إلى صورته فى نظر ملايين المشاهدين من الخليج إلى المحيط ، اذن فلابد أنه قد احسن الاختيار.

وثانيهما : ان الفيلم قد شاركت فى صنعه كوكبة من مبدعى السينما والتليفزيون ، اذكر من بينهم على سبيل التمثيل ماجدة زكى، وسميرة عبدالعزيز وكاتب السيناريو فايز غالى والمصور سعيد الشيمى والموسيقار عمر خيرت.



قواعد الاشتباك والضابط المتهم ومحاميه



جائزة أحسن ممثلة عن فيلم «امرأة تحت المراقبة»

فضلا عن عبدالمنعم مدبولي الفنان القدير

ثورة الشك

ولكن ما أن بدأ الفيلم ، وتتابعت مشاهده الاولى أمام عيني، حتى أخذ الشك في قيمة ما أرى يتسلل إلى اعماق نفسي ، وشيئا فشيئا اخذ الاطمئنان في التبخر ، حتى صار مع اقتراب الفيلم من نهايته ، في خبر كان.

أما لماذا ثار الشك ، وتبخر الاطمئنان، فذلك لأنني ، وأنا حبيس بقايا دار سينما من دور القطاع العام. لم اشاهد على شاشتها الصفراء سوى أحداث قصة مكررة ، مملة تدور وجودا وعدوا حول فساد النظام المصرفي في مصر المحروسة.

وكان إن تساءلت ، وأنا اغادر دار السينما محبطا ، ولا اقول مهموما ، ألم يسبق لنا ، نحن المشاهدين التعساء ، أن رأينا فسادا من ذلك النوع في أفلام تعد بالعشرات ، ومن بينها افلام شاركت فيها بالبطولة نجمة مصر الاولى ، لعل اقربها «هدى ومعالي الوزير» واذن لماذا هذا التكرار ، ومؤداه حتما ضياع المال العام مع الاساءة إلى السينما المصرية ، في وقت هي في امس الحاجة إلى روح التجديد؟

وعلى كل ، فلن أعرض شيئا من تفصيل قصة الفيلم ، لأنني لو عرضت تفصيلها لتنقلت من شيء سخيف إلى شيء سخيف ، حتى اصل إلى ختام سعيد، اكثر سخفا وافتعالا.

واخيرا ، فليس عندي ما اقوله عن «امرأة تحت المراقبة» سوى انه سقطة ، ودليل مابعده دليل على استفحال داء الاستسهال .

واكتفي بذلك ، لأنتقل إلى حدثين سينمائيين وثلاثة افلام.

والحدث الاول يرجع إلى أيام أن كنت غائبا عن ارض الآباء.

سر النهوض

وقتذاك طيرت وكالات الانباء خبر خروج الفيلم الايراني «الحلقة» لصاحبه «جعفر باناهي» مخرج البالونة البيضاء ، خروجه من مضمار التنافس في مهرجان فينيسيا الاخير متوجا بجائزته الكبرى «الاسد الذهبي» ، وهي جائزة لاتضارعها في المنزلة سوى «السعفة الذهبية» ، الجائزة التي تمنح لأفضل فيلم في مهرجان كان.

وفيلم «باناهي» تدور وقائعه حول محنة سبع نساء ، خرجن من السجن لا إلى الحرية ، وانما إلى سجن اكبر تتحكم فيه ممنوعات ، جعلت من حياتهن جحيما.

وفكرة الفيلم جاءت المخرج من خبر قرأه ، مفاده أن امرأة انتحرت وقتلت صغيرتيها ، قبل ان تتخلص من حياتها بالانتحار.

والمرأة في فيلمه لاتستطيع ان تسافر بمفردها أو بدون اذن من قريب ذكر ، ولا تستطيع ان تدخن سيجارة في مكان عام.

وقد صور «باناهي» احداث الفيلم ، بدون نجوم ومؤثرات خاصة، وبدون اللجوء إلى اى شكل من اشكال الجنس والعنف.

كما عمل على تصويرها في شوارع طهران ، وخاصة في الاسواق المزدحمة ، ومحطات الحافلات.

وما ان عدت إلى ارض الوطن ، حتى كان الحدث الثاني، ألا وهو مهرجان الاسكندرية بأيامه ولياليه ، على وشك الانتهاء .

القردة والبرقع

وكما عهدنا به ، كان لابد ان يبدأ بفضيحة ، وينتهي بفضيحة ، يتحدث بها القاصي والداني.

وفضيحة البداية تمثلت في عجز منظمي المهرجان عن عرض فيلم الافتتاح «الشاي مع موسوليني» ، لصاحبه المخرج الايطالي «فرانكو زيفريللي». واضطرارهم إلى استبدال فيلم تركي به، سدا للفراغ المهين . أما فضيحة النهاية، فقد تمثلت في اعلان فوز مخرج فيلم «العاشقان» ، هو وزوجته بجائزتي افضل ممثل وممثلة .

وأغلب الظن ان ذلك الفوز امر غير مسبوق في تاريخ جوائز فن السينما ، ذلك الفن الذي له من العمر مائة عام وازدادت خمسة .

وهنا يحضرني مثل مصري رائع . اراه مناسبا للمقام «قالوا للقردة اتبرقعي، قالت وشي واخد على الفضيحة» والآن إلى الأفلام الثلاثة .

وابدأ بـ «قواعد الاشتباك» لصاحبه «وليم فريدكين» ، وهو فيلم شاهدته في احدى دور السينما ، وانا خارج البلاد.

ومما يعرف عن مخرجه ان افلامه تثير من الجدل الشيء الكثير.

ومن بينها اكتفي بذكر فيلمين «الوصلة الفرنسية» ١٩٧٠ و«طارد الارواح» ١٩٧٣.

ولقد فاز «الوصلة الفرنسية» و«فريدكين» بالاوسكار ١٩٧١ ويعتبر «طارد الارواح» واحدا من انجح افلام الرعب.

وحتى يومنا هذا ، لايزال عرضه ممنوعا عندنا، حفاظا على سلامة اعصابنا !!

عنصرية مقيتة

وفي اعتقادي ان «قواعد الاشتباك» ، فيلمه الاخير، لن يختلف حظه عندنا ، عن حظ «طارد الارواح» فالكثير من احداثه تدور على ارض اليمن، وبالذات العاصمة صنعاء ، حيث يحاصر متظاهرون يهتفون بشعارات معادية لسياسة الولايات المتحدة مبنى السفارة الامريكية، المهدد بالسقوط في ايديهم بين لحظة وأخرى.

ومن أجل انقاذ أسرة السفير ، ويلعب دوره «بن كنجسلي» الفائز بأوسكار افضل ممثل رئيسي عن ادائه لدور «المهاتما غاندي» في فيلم «غاندي» ١٩٨٢ من أجل ذلك تحركت حاملة طائرات أمريكية إلى باب المندب، وعلى متنها طائرات محورية، انطلق بعضها إلى سماء صنعاء حيث حط على ارض السفارة.

وفي أثناء عملية الانقاذ التي تمت بنجاح ، اصدر الكولونيل «تيري شيلدرز» ، ويؤدي دوره النجم الاسود «صامويل جاكسون» ، امره إلى جنود البحرية بإطلاق النار ، لا على القناصة اليمنيين ، وانما على المتظاهرين العزل من السلاح ، وبعضهم من الاطفال والنساء.

وكان ان وقعت مذبحة ، راح ضحيتها ثلاثة وستون قتيلا ومئات من الجرحى اليمنيين.

ومما يعاب على الفيلم انحيازه إلى العسكرية الامريكية دون لف ولا دوران.

فالتحقيق الذي أجري حول المذبحة ، والادلة التي جمعها الجنرال الموكل بالدفاع عن الكولونيل القاتل ، ويؤدي دوره «تومي لي جونز» كل ذلك انتهى إلى القطع بان المتظاهرين كانوا مدججين بالسلاح ، وان الكولونيل بريء من دم الاطفال والنساء براءة الذئب من دم يوسف.

والحق ، ان الفيلم يقطر عنصرية بغيضة ، قل ان نجد لها مثيلا ، حتى في الافلام ذات الطابع الدعائي التي تنتجها استديوهات هوليوود ، من حين لآخر .

تحريف التاريخ

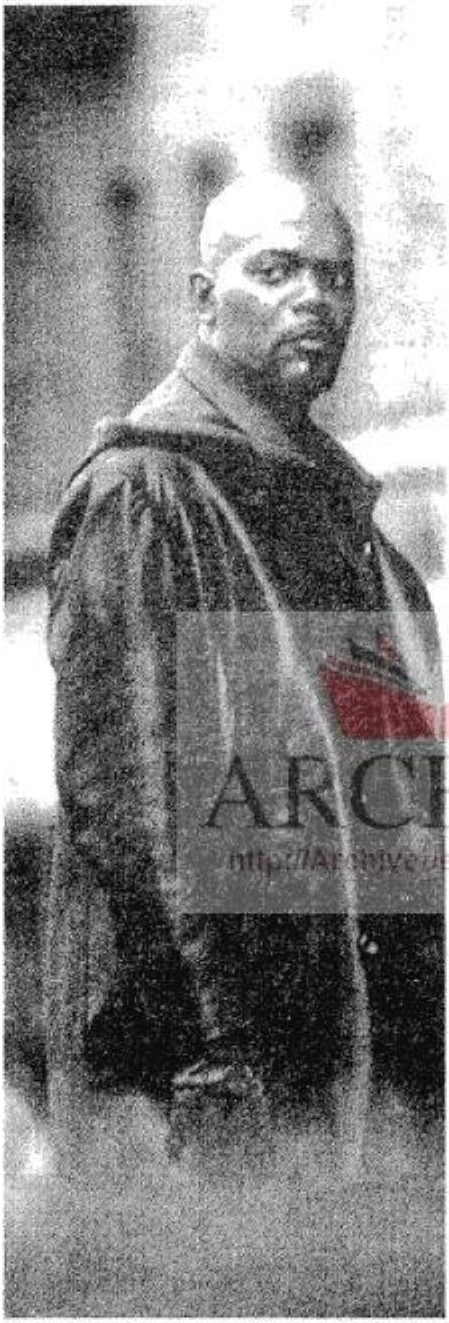
فاذا ما انتقلنا إلى الفيلم الثاني «الغواصة ٥٧١» لصاحبه المخرج «جوناثان موستو» ، فسنجد انفسنا امام عمل سينمائي يعيد كتابة تاريخ الحرب العالمية الثانية ، بالتحريف له .

هذا ، واحداث الفيلم تدور تحت سطح الماء ، في اعماق المحيط ، داخل غواصة امريكية ، في مهمة سرية للغاية ، ارتهن بنجاحها مصير معركة الأطلسي التي كانت دائرة ابان الحرب ، بين اسطول الحلفاء ، واسطول المانيا الهتلرية ، المكون اساسا من الغواصات، اشد وحداته فتكا.

وتلك المهمة كانت تنحصر في الاستيلاء على جهاز الشفرة المستعملة كافة تخاطب سرية ، فيما بين القوات الالمانية.

فلقد شاءت الصدف ان تجنح غواصة المانية في قاع المحيط ، وبها ذلك الجهاز ، وان تعلم البحرية الامريكية بجنوحها ومكانها على وجه التحديد.

وكان ان صدرت الاوامر إلى قائد الغواصة ٥٧١ - يؤدي دوره النجم «ماثيو ماكنوجي» بالتسلل إلى الغواصة الجانحة، والاستيلاء على جهاز الشفرة ، مع اسر جميع بحارتها الاحياء ، ثم تدميرها ، حتى لايعرف العدو بواقعة الاستيلاء ،



صامويل جاكسون ضابط امريكى يقتل ويجرح المئات ويحكم ببراءته



جورج كلونى نجم صاعد



المخرج أشرف فهمى

فيعمل على تغيير الشفرة، ومن ثم تصبح المهمة ، ورغم مخاطرها، هباء .

أصدقاء أعداء

والمعروف تاريخيا أن الاستيلاء على ذلك الجهاز ، وما ترتب عليه من آثار خطيرة ، بعضها تدمير الكثير من قطع أسطول الغواصات الالماني، انما يرجع الفضل فيه إلى البحرية البريطانية، لا البحرية الامريكية ، خلافا لمزاعم الفيلم.

ونفس التحريف للتاريخ - ظهر واضحا ، جليا ، في «انقاذ النفر رايان» حيث ارجع صاحبه المخرج «ستيفن سبيلبرج» الفضل في انتصار الحلفاء في معركة النزول على شاطىء نورماندي ، ارجعه إلى الجيش الامريكي وحده، منكرا بذلك الدور الكبير الذى لعبه الجيش البريطاني في ذلك الانتصار.

ولاغرابة في أن يحدث التحريف للتاريخ صارخا بهذا الشكل ، فهوليوود أدمنت تشويه التاريخ منذ البدايات.

ويحضرني هنا ، من باب المقارنة ، الدور الذى لعبه المخرج الامريكي «سيسيل دي ميل» في تحريف التاريخ عندما اخرج «الوصايا العشر» مرتين ، الاولى في فيلم صامت «١٩٢٣» والثانية في فيلم متكلم «١٩٥٦» جرى تصوير بعض مشاهده في الصحراء الغربية بالقرب من الاهرام ، وجرى عرضه ، لاول مرة ، عقب العدوان الثلاثي بأيام .

ففي كلا الفيلمين تناول قصة النبي موسى وبني اسرائيل ، أثناء وجودهم على ارض مصر ، ثم اثناء الخروج منها فرارا من الاستبداد ، تناولها بشكل مشوه، يراد به باطل، هو تصوير المصريين، وكأنهم أبناء شعب منبوذ ، كتب عليه ذل العيش ، في اغلال العبودية ، تحت حكم فرعون ، وقومه الظالمين.

وهذه الطريقة التى سلكها «دي ميل» في فيلميه لاتثير الدهشة فالتاريخ ليس من الامور التى تهتم بتحقيق وقائعه وصحتها استوديوهات مصنع الاحلام.

والآن ، إلى الفيلم الثالث «العاصفة المدمرة» لصاحبه المخرج الالماني «وولفجانج بيترسون» ومما يعرف عنه انه يعمل حاليا لحساب استديوهات هوليوود.

نقطة انطلاق

وقبل رحيله إلى عاصمة السينما ، كان قد ذاع صيته ، بفضل فيلمه الرائع «الغواصة» ، الذى اخرجه عندما كان في ألمانيا ، لم يغادرها بعد ، إلى العالم الجديد ، وذلك قبل تسعة عشر عاما.

وفيلمه هذا الذى جعل منه مخرجا عالميا لم يعرض عندنا هنا في مصر ، حتى الآن.

ولم تتح لي فرصة مشاهدته إلا قبل بضعة اسابيع، وانا في المانيا، أمكث فيها بضعة ايام، قبل العودة إلى ارض الآباء.

وبطبيعة الحال، لم اشاهده على شاشة

عريضة في احدى دور السينما، وانما شاهدته على شاشة صغيرة، بفضل أسطوانة بحجم الكف «دى . في . دى» مسجلا عليها الفيلم بعدة لغات، من بينها اللغة الكرواتية، ومعه أحاديث مع مخرجه ومبدعيه الأخرين .

وأحداثه تدور في معظمها ، وعلى مدى حوالي ثلاث ساعات، داخل غواصة المانية في اثناء الحرب العالمية الثانية.

و«بيترسون» في عرضه لحياة البحارة تحت سطح البحر، في مكان مغلق ، تحيط به مخاطر الحرب، مع عدو لايرحم ، لم يحاول تزيين تلك الحياة ببطولة مفتعلة ، كما هو الحال في فيلم «الغواصة ٥٧١». بالعكس عرض لها بصدق وصراحة ، من النادر توافرهما في الافلام الحربية، القائمة في معظمها على تمجيد الروح العسكرية ، مع التحقير من شأن العدو.

ومن هنا صعود فيلمه إلي مصاف الاعمال السينمائية المعتبرة علامات في تاريخ فن السينما.

ورغم انه ليس له من العمر سوى عشرين عاما إلا قليلا، فقد اصبح من كلاسيكيات السينما العالمية.

وأى فيلم تدور احداثه في مكان مغلق وسط امواج البحر ، لابد ان يقاس عليه، أوصل إلي مستواه ، أم انحدر عنه ، ام تجاوزه ان قليلا أو كثيرا.

وفيلمه الاخير «العاصفة المدمرة» تدور احداثه هو الآخر وسط امواج البحر المتلاطمة ، وبالتحديد امواج المحيط الأطلسى ، قريبا من شمال الساحل الشرقي للولايات المتحدة.

العاصفة المميتة

وسيناريو الفيلم لصاحبه «بيل وتيليف» مأخوذ عن قصة لسبستيان يونجر ، استوحى أحداثها من مأساة حدثت بالفعل لنفر من صائدى السمك في اكتوبر ١٩٩١ ، وهم على ظهر مركب صيد في المحيط، حيث هبت ريح صرصر عاتية ، سرعتها في الساعة مائة وعشرون ميلا.

وبطريقته المتميزة ، صور «بيترسون» مأساة الصائدين في مواجهة العاصفة المميتة ، بأسلوب يجمع بين التشويق والاعتناء الفائق بأدق التفاصيل.

وكم كان موفقا أولا في اختياره ممثلى الفيلم، خاصة «جورج كلونى» ، الذى شق اخيرا طريقه إلي النجومية بفضل أفلام ثلاثة اذكرها حسب ترتيب عرضها «ثلاثة ملوك» ١٩٩٩ و«العاصفة المدمرة» ثم «اخي اين انت؟» «٢٠٠٠»

وثانيا في توظيفه للمؤثرات الخاصة ، على نحو اشعرنا بالعاصفة ، وبأمواج البحر المرتفعة ارتفاع الجبال، بحيث كدنا نحس بالبلل ، وكأننا في مركب الصيد ، نواجه مع رجالها أهوال موت اكيد.

ميخائيل رومان



سمير العصفورى





نهى العمروسى



سلوى خطاب



خالد الصاوى.. مصير ديكتاتور

العصفورى.. والديكتاتور و «حبيبتي يا..»

مهدي الحسيني

والآن.. هل يصدق قول قائل: «سوف أترك هذا المسرح كى يسقط وينهار، ويكشف عن جروحه وقروحه، ويشف عن ضعفه وهزاله، ويفضح خرابه وخواءه، فهو لا يستحق الانقاذ ولا يستأهل المساندة.. ولا حتى مجرد النظر!!!

هل هذه الأقوال صحيحة؟ أم أن البعض منا يتيح الفرصة بل والفرص كى تصبح واقعا محققا لا مراء فيه؟

وهل الأزمة أزمة فن وتقنية وابداع؟ أم أزمة مال وادارة؟ أم أزمة تهيؤ دور العرض؟ أم أزمة جمهور؟ هنا لن نستطيع الاجابة على كل هذه الأسئلة وانما سنعرض إليها كلما واتتنا الفرصة، فنومىء إليها من قريب أو بعيد.

إيزيس حبيبتي

قبل «التجريبي» بأسبوعين تم افتتاح عرض مسرحي جديد على مسرح السلام للمخرج البارز سمير العصفوري من اعداده وتأليف الراحل ميخائيل رومان التي كان قد كتبها منذ ما يزيد عن ٣٥ عاما قبل رحيله في أكتوبر ١٩٧٣ ببضعة أشهر.. تحت عنوان «إيزيس حبيبتي» والذي أصبح لدى العصفوري «حبيبتي يا..» بضغوط رقابية غير مفهومة في وقت المفروض فيه أنه قد زالت قيود وضبابات وأيديولوجيات الدولة الشمولية التي وضعت قناع الاشتراكية المزيفة ! لتمنع كل شيء وأي شيء الا الشعارات الجوفاء.

وميخائيل رومان كاتب موعود بالرقابة والمنع والمصادرة، رحل ولم يتمكن من التمتع بمرأى أعماله المسرحية على الخشبة إلا قليلا وناما، أما هذا النص بالذات، فقد تقدم به العصفوري الى الرقابة عدة مرات، إلا أن مصيره كان المنع بأسباب واهية وغير مقنعة.

حسن النوايا

ولكي لا نخفي أدمغتنا في التغافل، فنقول إن النص يدين - إدانة عميقة وصادقة - الدكتاتور والدكتاتورية. وعند هذه النقطة المهمة بالذات يلتقي العصفوري برومان ونقاد كثيرين، فضلا عن أغلبية ساحقة من المواطنين الشرفاء.

ولكننا في الفن لا نكتفي بحسن النوايا، إن العرض يضم نجوما وممثلين لامعين مثل : سلوى خطاب، وخالد الصاوي، ونهى العمروسي، وفتحي عبدالوهاب، وناهد رشدي، وزايد فؤاد، وعادل خلف، ونخبة من الصاعدين هم : أكرم مصطفى، وأحمد عبدالحميد، وأيمن الجندي، وموسى النحراوي، وجماعة من المخضرمين والقدامى هم : أنور الخوام، وجلال رجب، وجدي محجوب.. وآخرين.. ورغم جهود المخرج الكبير التي بذلها لتجميع واستقرار هذا (الكاست) وترتيب المناظر والأزياء مع الفنانة المصممة البارزة نعيمة عجمي.. والمؤثرات الموسيقية مع سمير زين، والسهر المرهق ليال طويلة لمدة خمسة اشهر في البروفات والاعداد لافتتاح العرض المسرحي، إلا أن الثمار التي جنيناها كانت أقل بكثير من هذا الكفاح! .

نعم . كسبنا حضورا براقا للنجمة سلوى خطاب واحساسا رفيعا في أهم وأكبر أدوارها المسرحية، وكذا الأمر بالنسبة لنهى العمروسي التي عشقت التمثيل المسرحي هنا في هذا العرض

ـ على حد قولها ـ رغم وقوفها على خشبة المسرح عدة مرات قبل ذلك، والتى لو اجتهدت وحافظت على حبها للمسرح لعوضتنا عن العملاقة سهير البابلى، أما خالد الصاوى فقد وقف بجدارة الى جوار يحيى الفخرانى ونور الشريف من كبار نجومنا المسرحيين، وكذا فتحى عبدالوهاب لو تعمق دوره وحافظ على النمو اليومى لأدائه بلا تعاريج أو تردد، كما قدم العصفورى ثلاث مفاجآت هى : أكرم وأيمن وعبدالحميد، أما زايد وناهد وعادل فكانوا ألمع ـ مع العصفورى أيضا ـ فى عروض سابقة. كل هذه مكاسب فنية أخرى، أعنى تلك الثنائيات والثلاثيات المستعارة من فن «الريفيو» ولكنه يقدمها ـ فى دهاء ومراوغة وبساطة تخفى أغوارا ـ وكأنما يقدم لوحات استعراضية للتسلية، رغم كل ماسبق لم يحقق العرض النجاح الجماهيرى والفنى الذى كنا نرجوه ونتمناه ونحلم به .

بناء المشهد

لماذا؟ إن المراجع لنص ميخائيل رومان سوف يكتشف حقيقة مؤكدة، وهى أنه نص يستعصى على فن العرض المسرحى، وليس كما طالب أحد النقاد بضرورة (الالتزام) بالنص ولو كان هذا قد حدث لكانت الخسائر أفدح.. وأفدح، إن ميخائيل لم يستفد هنا فى صياغته للمشهد المسرحى من قراءاته المسرحية الواسعة، كوحدة درامية من وليم شكسبير أو يوجين أونيل أو تنيسى وليامز أو آرثر ميللر الذى ترجم له الكاتب «وفاة بائع متجول» الى العربية. فالكاتب المسرحى المتمكن يمضى فى بناء المشهد من خلال جمل حوارية تُرى أكثر ما تُسمع، ولا تنوء بحملها الفكرى والمعلوماتى كما هى عند رومان، إنما كلمات وجمل موحية ذات أصل سابق وصدى لاحق، وذات معنى ظاهر قريب على السطح وآخر كامن غائر فى الاعماق، لها مغزى غير مستغلق ويمكن ادراكه فلا يضطر المشاهد أن يسأل من بجواره، تتبادل ـ بواسطتها ـ الشخصيات المواقع ويتغير توازن القوى كل لحظة درامية، تتقارع وتتجاذب وتتقارب وتتباعد، ولكن ايقاعها يسير دوما الى الامام فى خط نام متصاعد، حيث لكل شخصية مسار، ولكل حاضر دور، ولكل غائب حضور، والجميع يتضافرون كى ينجزوا جزءاً أو مرحلة من الصراع، نقطة واحدة فقط، نقطة رئيسية لو تم انجازها فى المشهد الواحد فان هذا يعد كافيا.

إن هذا الأمر فى ظنى راجع الى

ازدحام الافكار فى رأسه، احتشاد نوايا التعبير عن واقعنا المؤلم فى روحه، الحاح الوقائع اليومية الموجعة على ضميره الادبى والوطنى، وقائع لا يعرفها هو وحده أو قلة قليلة معه، يستطرد فى سردها على نحو أضر بالبناء المسرحى، حتى أن أفكاره وشخوصه الدرامية ناءت بما يحمل فسقط متاعه وبضائعه بين قدميه، ذلك أنه أراد أن ينجز أكثر من ٥٠٠ نقطة - وهذا من قبيل المبالغة - وهذا أمر مستحيل، لذا نجده يتشعب ويدور فى دوائر بلا نهاية.

مشاكسة الحكومة!

هناك - فى النص - ركائز درامية كان على المخرج التركيز عليها، بلا زوائد أو حواشى او شوشرة، وهى أن حمدى كان له ماض سياسى ثم أطبق الصمت، وهذه قام المخرج بإلغائها!!، وأنه تبنى طفلة ما (لماذا؟ من أين؟ من؟ أين هى؟) ثم تزوج جمالات التى توافقه أفكاره ومزاجه، لم ينجب منها ولكنهما عاشا معا بهدوء حتى زهدا الصمت والسكون اللذين احاطا بحياتهما لدرجة أنهما ارتابا فى الصمت ذاته فاعتبراه أمانا زائفا ومخيفا. فانفجرا،. وقررا أن يحركا هذا الماء الآسن بمشاكسة الحكومة، وأن حمدى يرفض التوقيع على ورقة - ضمن عمله الحكومى - تساند أحد الظالمين ضد مصالح المواطنين فى أمر خاص وعام فى ذات الوقت، وهذه مسألة فى غاية الأهمية، لم يعطها المخرج المعد عناية كافية فلم ينتبه اليها المشاهدون.

ولما علم (على) أكبر جلادى النظام بما يفعله حمدى كنموذج يوحى بالخطورة، فانه يستدعيه ويستدرجه للتحقيق بعد مراقبة، كى يتأكد من ريبه وشكوكه فيه التى هى ريب (عادية) عند (النظام) تجاه كل المواطنين، هذا بينما يكون على مشتبكا فى علاقة غرامية مع فريدة راقصة الستينات التى كان يهوى مثلها رجال النظام، من طرف واحد بالطبع، لها زوج لا نراه (لماذا؟) ولا نعرف له وظيفة مهمة من الناحية الدرامية، إلا اثارة ريبة وغيرة على، فيراقبها ويضع لها أجهزة ومخبرى التجسس، هذا بينما هو مُراقب ايضا من قبل الاجهزة التى تستغل فضائحه واستغلاله الجهاز لصالحه الخاص فتصفيه، وبالطبع يكون للفتاة (×) التى استخلصها المخرج من جماعة مندوبى الامن (الضباط المدنيين) دور فى الحكاية، إذ تغار من فريدة هى الاخرى، واكس هذه ضحية سقوط اجتماعى جسيم لطبقتها القديمة فى قصة ولاء للطبقة الجديدة لعلها تأخذ مكانها فى سياق النظام الجديد.

لذا كان من الممكن فقط ترتيب الجمل الحوارية المهمة والدالة وأجزاء من المونولوجات الكثيرة والطويلة والتى يخلط فيها رومان بين الشخصى والخاص والعام، وبين المجهول والمعلوم وبين الجزئى وبين الكلى، فهذه كانت الطريقة المثلى لمعالجة ترهل النص المسرحى الأصلى. كان المطلوب تكثيفه وإضاءته: الأفراد الصغار ينسحقون ويشوهون نفسيا، والافراد الكبار ينسفون أنفسهم بأيديهم أو بأيدى أشباههم اما بالجنون أو بالعزل أو بالانتحار أو بالقتل، وتلك هى مأساة حمدى وجمالات وفريدة من جهة، وعلى والنظام من جهة أخرى. وللمخرج أن يستخدم ما شاء من الأدوات والوسائل الفنية غير المباشرة لطرح هذه الأحوال والقضايا المؤلة الملتبسة الشائكة.

إن الكتابة المسرحية فى الستينيات كانت (مكتبية) يغلب عليها الكلام والحوار المطول والخطابة والمباشرة والمونولوجات، أما عند رومان (خاصة فى هذا النص) فان الأمر قد زاد عن حده، الى درجة جعل العصفورى يتدخل كل هذا التدخل النازف.

والمفارقة هنا أن العصفورى كان يبحث فى النص عن عناصر لاقامة عرض جميل وممتع يدين الدكتاتور، الأمر الذى لو تحقق لكان نجاحا كبيرا، بينما كان رومان يدبج الأفكار والوقائع الصغيرة والكبيرة والذكريات والشروح والايضاحات والاستطرادات ويسردها كى يثبت نفس المقولة، بغض النظر عن احتياجات خشبة المسرح والجمهور، هذا هو جوهر مشكلة هذا العرض .

ولنا أن نعتب على الناقدين د. فاروق عبدالوهاب وحازم شحاته على الاكتفاء بطباعة ونشر أعمال رومان دون التحقيق الدقيق، اللهم الا ملحوظات عابرة، بينما يحتاج النص الى شروح وايضاحات ونقد فى الهوامش أولا بأول، فهذه بعض المهمة النظرية للدراماتورج وليس كلها .

كان على المخرج أن يحتفظ لنا بماضى حمدى السياسى ويفسره، ويفسر صمته عنه كى يفسر عناده فى سياق العمل بعد ذلك.. بل خروجه عن هذا الصمت، وأن يفسر لنا سبب تبنيه لطفلة بدلا من أن ينجب من زوجته ، إن المخرج لم يقل ولم يوح لنا أن نقول، وكان عليه أيضا أن يفسر لنا سبب اخفاء زوج الراقصة (معروف ان الزوج فى حياة اى راقصة هو شخصية هامشية ولكننا هنا أمام

مسببات وضرورات (درامية) كذلك لم يفسر لنا أسباب وحدة ونوحش وضعف على، وكذا دوافع السلطة لتصفيته، وكان على المخرج أن يهتم بتصوير عالم الموظفين بدقة ودرامية وجاذبية (ويوجد في ثنايا النص ما يتيح ذلك) وان يهتم ايضا بتصوير اسرة حمدي وجمالات (ويوجد ايضا في ثنايا النص ما يتيح ذلك) وأن يهتم بتصوير عالم الشارع بدقة ودلالة بدلا من منظر ذلك المخبر الساذج، أو بمشاهد أضافها تتعلق باعتقال د. لويس عوض (وقد اعتقل في مارس ١٩٥٩ وليس في غضون عام ٧٠، ثم اعتقل عام ٨١) أو ترديد غير مبرر لأغنية (مصر يابهية) .. وفي حين يلتزم المخرج بالوقائع التاريخية اليومية، نجده يخرج عنها، وحين يخرج فانه يلتزم بها!!

لقد أصابنا بخلط لم نكن بحاجة اليه، ففي حين نعتقد أن المسرحية (تاريخية) نجد انها أصبحت (حالة من الجنون والرعب والرغبة في التحرر) وكنت أتمنى أن تكون الثانية .

وبهذه المناسبة أذكر للعصفوري تفسيره الصحيح لمسرحية (الجرّة) للايطالي بيرانديللو : إن الصانع الماهر - لفرط مهارته - قد حبس نفسه داخل الجرة رغم نجاحه في لأم صدعها، ولكننا هنا امام جرار وتصدعات وأحيانا ما نشهد العصفوري حبيسا بها، وأحيانا ما نشهده بعيدا عنها تماما .

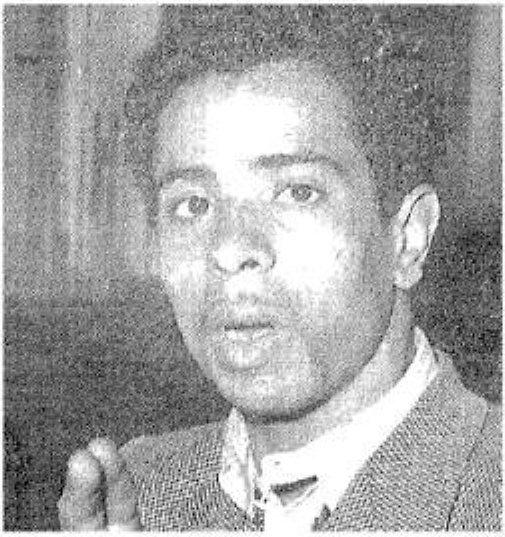
ولعل السبب في ذلك أن العصفوري كان دكتاتورا هو الآخر، وذلك إبان كفاحه للدكتاتورية، فلم يستشر أحدا، بل أخذ يحلم وحده بالمسرحية، ويعدها وحده، ويضع موسيقاها وحده، ويتخيل أثاثها ومناظرها وملابسها وحده، ويختار ممثليها وحده، ويدير بروفاتها وحده وعلى الجميع الاستجابة والتنفيذ، حتى ناله الارهاق والضجر.. بل والألم. ولكن عليه ان يتذكر قول قائل أيضا : ماخاب من استشار .

سيبقى من عمل العصفوري هذا لحاته الجميلة اللامعة وحسه الفني الرفيع وغرضه النبيل ، رغم تقول الذين لا يعلمون بأن هذا عمل فاته الوقت!!

وسوف تذهب الفجاجة والمباشرة والتبريرات والحسابات والمظاهرات، واضطراب التساوق، والتزيدات، والمناورات، سيبقى هذا العرض كمسيرته الفنية المثمرة الطويلة منذ ١٩٦٣ عملا يضاف الى رصيده الناصع من كفاحه بالفن من أجل الحرية.

بين دراما الحياة

بين سعيد مهران



«الحب.. إنه الفطنة وقد قتلتها الحماقة»

شكسبير

«وما الدنيا إلا مسرح كبير» عبارة شكسبير الخالد والتى انتحلها راحلنا الكبير يوسف بك وهبى استخلاصا رائعا سديدا، فالحياة بمحنها وبأهوالها تتجاوز فى كثير من الأحيان أى خيال أو تأليف، والدراما كما يقولون على قارعة الطريق، لا تنتظر سوى عين الفنان القدير، لتنفذ إلى أعماق أعماقها، ويشحنها الفنان بالضرورة الباطنية العميقة، اللازمة لكل عمل فنى أصيل، لذا كانت الحياة ولاتزال، بمثابة المعين الذى لا ينضب للأعمال الأدبية والفنية. ورائعة أديبنا الكبير نجيب محفوظ اللص والكلاب، مادتها الخام مأخوذة من حياة الشاب المصرى الصعيدى محمود أمين سليمان (١٩٢٨ - ١٩٦٠)، ذلك الشاب الذى ألهبت رصاصاته الطائشة وحياته المثيرة ومصرعه الدامى فى صحراء حلوان، خيال أديبنا الكبير فأبدع اللص والكلاب، ومن يطلع على حياة محمود أمين سليمان، سيجد أن حياته ومصرعه أكثر إثارة وشحنا وثراء من حياة سعيد مهران، فإذا كان نجيب محفوظ هو مبدع اللص والكلاب، فالحياة بكل ثرائها وصخبها وعفويتها، هى مبدعة تراجيديا محمود أمين سليمان.

الزمان مطلع القرن العشرين، المكان بر الشام، البطل أمين سليمان العامل المصرى الفقير، لا بطولة ولا تراجيديا ولا اثارة، صعيدى فقير لفظته أرض الصعيد القاسية إلى بر الشام، بحثا عن لقمة عيش مغموسة فى الهوان والشقاء، تلطيم وغربة من مدينة إلى أخرى، حتى استقر به مطاف التلطيم فى بيروت والمهنة عربجى حنطور، وفى عام ٢٨ يرزق عربجى الحنطور بمحمود أكبر الأبناء، لا شىء خارج عن المألوف، الأب الفقير الكثير العيال، الذى يضطر لإخراج



ودراما
...جيب محفوظ

ومحمود أمين سليمان

بقلم :

د. فهمي عبدالسلام

الصبى من المدرسة، ليعمل بدوره للمساهمة في الانفاق على الأسرة، فقير ابن فقير ابن فقرا،، وكادح ابن كادحين، ومن عمل بائس إلى عمل بائس، حتى بلغ محمود الثامنة عشرة من عمره.

فى عام ٤٦ كان محمود قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت العصابات الصهيونية قد أشعلت المنطقة حقدا وقتلا، وشاء القدر أن تقتحم تلك الأحداث السياسية العاصفة حياة الأسرة الصعيدية، كان خال محمود يعمل فى معرض سيارات فى حيفا، وذات صباح استولت العصابات الصهيونية على حيفا، وبوحشيتهم المعروفة قاموا بطرد العرب وترويعهم، ومنهم خال محمود، وكان ذلك الخال قد تزوج من يهودية عربية تدعى «وداد» ، ولم تكتف العصابات الصهيونية بطرد الخال، لكنها قامت بوضع وداد فى السجن، باعتبارها خائنة، فلم يجد الخال أمامه سوى الذهاب الى بيروت، وقد فقد بيته وعمله وزوجته وداد التى كان يحبها ، الجميل أن محمود تأثر لأحزان خاله المطرود المهان، فعقد العزم على أن يعيد وداد إلى خاله ، مغامرة كبيرة قام بها، تسلل إلى فلسطين ثم إلى حيفا، واستطاع أن يعلم أن وداد مسجونة فى سجن حيفا، وخطط حتى تمكن من دخول سجن النساء وأن يأخذ وداد ويعود بها إلى فلسطين. هذه المغامرة الهائلة كانت نقطة تحول فى حياة محمود، فقد لفتت أنظار فوزى القاووجى قائد جيش الإنقاذ العربى فى لبنان، وقرر القاووجى أن يضم

محمود إلى الميليشيات المسلحة بعد تدريبه على السلاح، وتؤكد المصادر أن هذا الفتى الباسل قام بالعديد من العمليات الجريئة الناجحة ضد العدو الصهيوني في فلسطين، السؤال الآن هو عن كيفية التحول من البطولة إلى الجريمة، الإجابة هي أن الحرب كانت قد وضعت أوزارها عام ٤٨ بالكارثة المعروفة ، وتم حل الميليشيات المسلحة، ذهبت الحرب مبدعة الأمجاد والبطولات، وجاء السلم برخاوته وبلزوجته وبقبضته القاسية على الفقراء والقليلي الحيلة، وجد بطل الحرب نفسه يعود إلى قاع السلم الاجتماعي من جديد، إلى الفقر والعوز، وأضطر للعمل كحارس خاص لعدد من الشخصيات اللبنانية البارزة، مثل رشيد كرامي وعبدالله اليافي.

الوجه الآخر

أغلب الظن أن الوظيفة الجديدة أتاحت لمحمود أن يرى بعينيه ثراء الكبار الفاحش، وأن يطلع على قصورهم ونسائهم ومجوهراتهم وبذخهم . وأن يكتشف أن هذا الثراء هو الوجه الآخر لفقره وفقر ذويه، وكانت الحياة قد لقنته درسها الخالد، أن الحقوق لا يتم الحصول عليها إلا عنوة وأن الحياة لن تمنحه حقه في الحياة الكريمة إلا بإنتزاع هذا الحق من الدولة والمجتمع والطبقية الظالمة له ولأهله بلا ذنب وبلا جريرة، فكان قرار الجريمة ، والسطو على قصور الأثرياء . يخفف بها عنهم ما يثقلهم من مجوهرات ونقود وأوزار، ولم يكن محمود لصا عاديا جاهلا، فلم يحمل في سرقاته سلاحا ولم يطلق طلقة واحدة، فلم تكن أدوات الإنتاج بلغة الماركسية عنده، سوى عدد من المفكات وبطارية، وكان جسده الرياضي الضئيل خير عون له في مهنته الجديدة الخطرة، فالدخول من النوافذ والشرفات، ولديه من المرونة وخفة الحركة، ما يجعله قادرا على تسلق المواسير والجدران والقفز من سطح إلى آخر، حتى الحوائط الملساء لم تكن لتقف في طريقه، وأتقن محمود مهنته الجديدة إتقانا مدهشا، والإتقان هو الإتقان، حتى ولو في السرقة، وقام محمود بالعديد من السرقات المتقنة التي تشبه الجراحات الدقيقة التي يجريها جراح ماهر بدون قطرة دم واحدة، والزبائن من وزن رشيد كرامي وكميل شمعون.. لكن ولأن لكل جواد كبوة، سقط محمود في قبضة الشرطة اللبنانية، وحكم عليه بالسجن ٤ سنوات، خرج بعدها من بوابة السجن إلى المطار، ليهبط أرض مصر لأول مرة في حياته عام ٥٨.

ولم يضيع لص القصور وقته، كما سرق قصور الأثرياء في لبنان، قرر أن يواصل مهنته الخطرة في مصر، وكانت الأسرة قد سبقته واستقرت بالاسكندرية، وبدأ نشاطه بالسطو على القصور ، وحيدا بلا شريك حتى لا يطلع أحد على أسراره، أدواته البطارية والمفكات، سرقات هائلة لنجوم وأثرياء المجتمع إرتكبها، قصور رجال الثورة وقصور رجال قضت عليهم الثورة، قصر النحاس باشا وفيللا المقدم عبدالقادر عيد مدير مكتب الرجل الثاني في مصر عبدالحكيم عامر، وكرمة ابن هانيء لأمير الشعراء، سلسلة طويلة من

السرقات البارعة لقصور المليونير بولفارا والمليونير سباهي وعبدالحميد عزام أمين عام الجامعة العربية وفيلا كوكب الشرق.. وغيرهم.

وجرت النقود بين يدي صاحبنا، وراح ينتقم من الفقر الذكر الذي أذله وأذل أهله فعاش عيشة الملوك، لاينزل إلا في أفخر الفنادق ولا يستأجر إلا الأجنحة، عاش محمود حياة أشبه بالقصة المعروفة دكتور جيكل ومستر هايد، فهو نهارا أحد وجهاء المجتمع السكندري، محمود بك رجل المال والأعمال، صاحب دار الدعاية والنشر والإعلان وصاحب معرض الموبيليا وسكرتارية وإدارة حسابات وإدارة قانونية، فإذا ما جاء المساء، تحول محمود بك إلى لص القصور، يرتدي الحذاء الكاوتشوك ويحمل بطاريته ومفكاته، ويقفز الأسوار ويتسلق المواسير، منفذا جراحاته الاجتماعية الدقيقة.

قديما قال شيشرون «فتش عن المرأة»، كان من الممكن أن تستمر حياة صاحبنا على هذا النحو المدهش، لولا امرأة طلعت له في حياته فقلبتها رأسا على عقب، لقد عرف محمود عشرات النساء ولم يتزوج سوى ثلاث مرات، تزوج الأولى والثانية، وفي الثالثة كانت نهايته، كانت الثالثة هي نعيمة بنت بحري، الفتاة السكندرية الشعبية الأميل إلى القصر والبدانة، العاملة الفقيرة في مشغل ما لمساعدة أهلها الفقراء، رآها محمود فراقت له وخطبها وتزوجها والأهم من ذلك أنه أحبها. وكما يقول شكسبير العظيم أن الحب هو الفطنة، وقد قتلتها الحماقة. في الحقيقة أن المرء تصيبه الدهشة حينما يتأمل أن هذا الذكاء الفذ وذلك القلب الجسور الذي لم تقف الأسوار أو الشرطة دون تحقيق إرادته، يقع في حب مشئوم لفتاة بدينة جاحظة العينين، لعبت به بنت بحري وجعلته يحترق بالغيرة عليها، وحتى ندرك مدى هوس اللص العاشق بنعيمة، أنه وجد نفسه يختبيء تحت سرير الزوجية، كي يتأكد بنفسه كما أقنعته نعيمة، أن والده يراودها عن نفسها.

كان دخول نعيمة إلى حياة لص القصور وغيرته الهائلة عليها تحولا حاسما في حياته، فالذي حدث أن لص القصور كان قد تم القبض عليه بتهمة سرقة فيلا أم كلثوم، واستطاع بذكائه الحاد وبقدرته الخارقة على قراءة البشر، تمكن من الهروب من السجن، وبدأ يتردد على مكاتب المحامين ليتولى أحدهم الدفاع عنه، وكان وكيل النيابة الذي حقق معه هو طلعت حماد الوزير الشهير في حكومة الجنزوري، واستطاع المحامي السكندري الشاب الحصول على البراءة، وتوطدت بين المحامي واللص صداقة عائلية، وانضم إليهما مهندس كيميائي شاب صديق المحامي وراح لص القصور ينفق ببذخ على صديقيه ويجزل لهما العطاء في أريحية وسخاء.

ضد مجهول

فجأة وجد محمود نفسه مقبوضا عليه بتهمة السطو على قصر من القصور، وخلال فترة التحقيق فوجيء صاحبنا بالعديد من البلاغات تنهال على النيابة، عن سرقات كانت كلها قد تم تقييدها ضد

مجهول، وتحتوى على أدلة دافعة، وبها تفاصيل لم يطلع عليها أحد سوى نعيمة والمحامي، وامتنعت نعيمة عن زيارته، وأشتعلت النيران في قلب اللص العاشق المخدوع، ولم يكن بالصعب أن يستنتج أن نعيمة خانته، فمن له مصلحة في دخوله السجن في جرائم سيدان بها، وستحكم عليه المحكمة بعشرات السنين، وترامت إليه الأخبار عن علاقة آثمة بين الزوجة الخائنة والصديق النذل، لقد خططا أن يودعاه في السجن، أن يزيحاه عن المسرح، وأن يخلو لهما الجو، سيتزوجان وسوف يتمتعان بثروته الطائلة التي تركها عند نعيمة، أحبهما محمود وأخلص لهما وأغدق عليهما، ولم يكن الجزاء سوى الخيانة بوجهها الكالح، ولأن الخيانة حتى بين اللصوص هي الخيانة، لا يملك المرء إلا التعاطف مع اللص العاشق الذي ضاع في العشق والخيانة. كان الحقد الأسود يأكله وهو قابع داخل الزنزانة، وراح يتخيلهما ينعمان بنقوده، ويشيدان سعادتهما الآثمة على أشلائه، ويرقصان فوق جثته المثخنة بجراح الخيانة، ولم يكن هناك شيء قادر على إطفاء النيران التي تنهش روحه وعقله وقلبه، سوى دماء الخونة.

وفي السجن تظاهر اللص العاشق المخدوع بأنه رضي بحكم القدر، وكف عن إطلاق التهديدات بقتل نعيمة والمحامي، وراح يدبر في هدوء للانتقام، لابد من الهروب أولا، وذات صباح فوجيء الحراس باللص يبتلع عددا من أمواس الحلاقة والمسامير معلنا أنه ينتحر يأسا، قامر محمود بحياته كي يتم نقله الى المستشفى، وقد كان، فتم نقله إلى القصر العيني، وأجريت له عملية جراحية وتم إنقاذه، وراح يقضي فترة النقاهة، وأثناء تلك الفترة أخرج محمود حافظة نقوده وهو جالس على فراشه، وهو يعلم أن الحراس يراقبونه وتظاهر محمود بأنه غير منتبه إليهم، وراح يعد النقود التي تحويها المحفظة بصوت مسموع للحراس، عشرة عشرون ثلاثون.. حتى وصل العد إلى عدة مئات من الجنيهات، ثم وضع المحفظة بهدوء تحت الوسادة، وكان قد تأكد أن الحراس يراقبونه بكل دقة، وبعد عدة دقائق طلب منهم الذهاب إلى دورة المياه ليقضي حاجته، ولم ينس أن ينبه الحراس إلى الانتباه للمحفظة لأنه وضعها تحت الوسادة. هذا ما كان يتمناه الحراس، وذهب اللص إلى دورة المياه، واندفع الحراس إلى المحفظة، والمدهش أن المساكين لم يجدوا بها سوى عدة جنيهات أما بقية الرزمة فلم تكن سوى أوراق عادية، وحينما اندفع الحراس الى دورة المياه، كان اللص قد لاذ بالفرار.

في سفر أوزوالد اشبنجلر الضخم يفرق المؤلف العظيم بين البطل والقديس، فالبطولة هي احتقار الموت والاستهانة به. أما القداسة فهي احتقار الحياة والاستخفاف بها وبمتعها. وهذه الواقعة تؤكد بطولة صاحبنا، فقد جازف بالحياة حينما ابتلع الأمواس. فإذا ما انتهى دور الشجاعة والبطولة، جاء دور الذكاء الحاد والقدرة الخارقة على قراءة الناس. لقد خدع اللص الحراس بذكاء حاد، مدركا أن جنيهات المحفظة لابد أن تسيل لعاب جنود فقراء، الحقيقة أن حياة محمود أمين سليمان المثيرة والغريبة تدل على موهبة كبيرة، موهبة هي خليط من الدهاء الشديد

والذكاء الحاد الخارق والقدرة الهائلة على قراءة البشر ورباطة الجأش والقلب الجسور الذى لا يجفل ولا يتردد والقدرة الهائلة على الكتمان بالاضافة الى مروءة ما وشهامة اثبتها كثير من الوقائع، كل تلك المواهب والمؤهلات كانت تؤهل لص القصور لدور أكبر على مسرح الحياة، هذه التركيبة الثرية المتعددة المواهب وما أكثرها فى بلادنا، لو تم توجيهها التوجه المناسب لقدراتها، لكسبت بلادنا رأفت هجان جديد .

... مسيرة دامية مشاها اللص العاشق المخدوع ، بدأها بعد الخروج من القصر العينى مباشرة فتوجه على الفور الى مواسير شقة بالدقى، ومن المواسير الى قلب الشقة، وأخذ اللص بغيته. فلم تكن سوى طبنجة صبرى وبدلة شرطة رسمية ، وكتب اللص إلى الضابط صاحب الشقة اعتذارا رقيقا بأنه فى سبيله الى تنفيذ مهمة ولهذا فقد استعار البدلة والطبنجة، ويعد بإعادتهما إليه بعد انتهاء المهمة ومعهما هدية من ثلاث بدل فاخرة وطاقم أقلام ذهبى. واستنتجت الشرطة أن اللص فى طريقه إلى نعيمة بالاسكندرية ، وتم اخطار نعيمة والمحامى بأن غريمهما مطلق السراح، فغادرت نعيمة مسكنها واختبأت فى شقة أحد أقاربها فى منطقة بحرى، واستطاع اللص العاشق أن يعرف مخبأ نعيمة، وتم تشديد الحراسة عليها، وانتظر اللص حتى دخل شهر رمضان، واستغل تراخى الحراسة ساعة الإفطار، وأثناء وقوف نعيمة بالمطبخ، فوجئت به يدخل إليها من نافذة المطبخ شاهرا المسدس، كان من المفترض أن يقتلها حتى يريح ويستريح، لكن بدلا من قتلها اذا به يكتم انفاسها كى لا تصرخ، فلاذت بالصمت، وجلست كما أمر، وطلب منها أن تحضر طفليه وراح يدعبهما ويعانقهما ، وبعد ربع ساعة دخل صاحب الشقة، فاضطر اللص أن يلوذ بالفرار ، السؤال الآن لماذا لم يقتلها والاجابة هى إنه الحب، هل هناك مانع سوى الحب وما يورثه من ضعف مخز حيال الحبيب الخائن، إنه العاشق، والعاشق هو ذلك المتآمر الأبدى ضد ذاته كما يقول داريل، لاذ محمود بالفرار دون أن يشفى غليله .. والدليل على ذلك أنه انتظر عدة أيام حتى تهدأ الأحوال، وعاد ساعة السحور بعد عدة أيام، ولم يدخل من الشباك فقد طرق الباب، ودخل وراح يبحث عن نعيمة فلم يجدها لانها كانت قد غادرت المكان بعد الحادث الاول وحاول صاحب الشقة أن يمسك به. فلم يجد اللص العاشق أمامه سوى أن يطلق عليه الرصاصات فى سيقانه. كى يتمكن من الهرب.

الخائن الثانى

لم يكن أمامه سوى الفرار، الفرار الذى يتجدد فى كل لحظة، ومن الأسكندرية إلى القاهرة متنكرا فى هيئة شيخ معمم أو خواجة أجنبى أو بائع بن أو حتى على هيئة امرأة بلدية بالملاية اللف والبرقع، إذا كانت نعيمة أفلتت هذه المرة ، هناك الخائن الثانى. الصديق النذل، وخلال ٤٨ ساعة ارتكب محمود ثلاث جرائم جديدة، أولها تثبت أن العبث هو أصل هذه الحياة، كان لص القصور قد ارتدى بدلة ضابط شرطة، وكان يعلم أن

المحامي الخائن له صديق بحي المنيل يختبيء عنده، ولتأمين نفسه راح محمود يلف حول البيت حتى يتأكد أنه غير مراقب، وتصادف أن مر أمام نقطة شرطة المنيل، فأسرع الخطى وهو يلاحظ أن رجلين يرتديان الثياب البلدية يسرعان كي يلحقا به، أسرع محمود فوجدهما يسرعان خلفه، واستنتج صاحبنا أنهما مخبران سيقبضان عليه، فالتفت اليهما وقد عزم أمره، أن يشغلهما بأن يأمرهما بإخراج البطاقات الشخصية، وما أن شرعا في إخراج الأوراق وانشغلا بهذا ، حتى عاجلهما برصاصتين في ساقيهما ولاذ بالفرار، العبث أن هذين المسكينين لم يكونا من الشرطة السرية أو العلنية ، كان احدهما طباخاً والآخر سفرجياً، وكانا مثل محمود متهمين بالسرقة، وكانا مظلومين في الاتهام. لقد اتهمتهما السيدة التي كانا يعملان لديها من باب التأديب ليس أكثر ، وكانا مقبوضاً عليهما في النقطة، وعندما تأخر الليل راحا يستعطفان الضابط بالقسم أن يخلي سبيلهما حتى الصباح، وسيعودان من تلقاء نفسيهما ، فوافق الضابط ، وخرجا من باب النقطة وظن أحدهما أن هذا الضابط الذي يسير من ضباط النقطة، فقال أحدهما للآخر أن هذا الضابط الذي يحث الخطى هو فلان بك صديق مخدومهما السابق، وعقدا عزمهما على أن يلحقا به كي يطلبا منه أن يتوسط لهما في مسألة تبرئتهما من التهمة الظالمة!! وشعرا بالدهشة الشديدة عندما أطلق عليهما فلان بك الرصاص. الجريمة الثالثة وقعت في المنيل بعد ٢٤ ساعة من الأولى، ذهب اللص العاشق السيء الحظ إلى شقة صديق المحامي، وطرق على الشباك ساعة الإفطار، فاستنجد صاحب الشقة بالبواب مهدي ، الذي كانت رأسه ألف سيف أو حذاء أن يمسك باللص، وراح محمود يحذر البواب الأحمق قائلا سيبني يا مهدي سيبني يا مهدي مالكش دعوة أنت، إلا أن المهدي البواب زاد تشبثه بمحمود، فأطلق الرصاص كي يتخلص منه، فأتت الرصاصة في بطن المهدي. والغريب أن صاحب الشقة لم ينجد البواب الذي راح ضحية حماقته وسوء حظه.

... أربع جرائم خلال أسبوع، قتل خلالها البواب المهدي، وأصيب الطباخ والسفرجي بالرصاص في سيقانهما، أما الرابع فكان الكيميائي ، الذي فوجيء بالصديق القديم يقتحم الشقة ساعة الإفطار، وامعانا في التعذيب جلس محمود على المائدة والطبنجة في يده وراح يتناول طعام الافطار باليد الاخرى، وأكل في هدوء ، وبعد أن انتهى قال له محمود «لن اقتلك.. لكنني سأتركك لا تصلح للنساء بقية عمرك» ، وأطلق لص القصور رصاصة ما بين فخذي الكيميائي ولاذ بالفرار.

السفاح

انقلبت مصر رأسا على عقب، وهاجت الصحافة على اللص المجنون الذي يضرب الناس بالرصاص بلا سبب. واطلقت عليه لقب السفاح، واعتبرت الدولة الناصرية أن السفاح قد سدد لها طعنة نجلاء أصابت هيبتها، واصبح اسم السفاح على كل لسان، وفي كل جريدة وفي الاذاعة وفي كل مكان ليلا ونهارا ، وتم استنفار قوات الشرطة استنفارا اقصى. كمائن ودوريات وتحريات ومرشدين وعقداء ولواءات واجتماعات ، وأعلنت الدولة عن ألف جنيه (رقم فلكي بحسابات ذلك الزمان) ثمنا

لرقبة اللص، حيا أو ميتا، وانطلقت الكلاب.

خلال تلك التراجيديا العبثية الحزينة كانت مطاردة السفاح الشغل الشاغل لمصر آنذاك، وقعت حوادث فكاهية ومنها على سبيل المثال اثناء رقص احدى الفرق الشعبية بالاسكندرية على مسرح ما، بدأت همسات تتم بين المشاهدين وبين الراقصين ان السفاح فى صفوف الجمهور، ولم يمر وقت طويل حتى انهالت الجماهير بالضرب فى السفاح، وبعد فوات الاوان وبينما السفاح المزعوم كان قد اصبح «سطيحة» من الضرب اكتشفوا أن المضروب مواطن صالح جدا جدا، وأنه جاء مثلهم ليشاهد الرقص لا اكثر.. وفى مجلس تحرير جريدة الاخبار،

والاجمل ان مصطفى امين طلب من المحررين القيام بتمثيل جنازة حية، تدور وتلف فى مقابر الامام الشافعى حيث يختبىء السفاح، وقام مصطفى امين بتوزيع الادوار، أن المحررة خديجة بمقالاتها النكدية ستقوم بدور الندابة، وأن المحرر الفلانى سيقوم بسحب الصحف الاستاذ محمود عوض الذى سيقوم بدور مقرىء كفيف ، فإذا ما سارت الجنازة فى مقابر الامام سينضم اليها السفاح للاختباء ، فيقوم مجلس التحرير بالقبض عليه، الاجمل ان الجنازة الوهمية تم القيام بها، وراحت تلف مقابر الامام الشافعى، ولم ينضم لها السفاح، لانه كان فى منطقة الجيزة ، وابلغت تحية كاريوكا الشرطة والصحافة، ان السفاح اتصل بها فى الواحدة بعد منتصف الليل يطلب تجهيز مبلغا ماليا، وانه سوف يحضر ليأخذه فى الثالثة صباحا، واعلنت تحية كاريوكا انها تجلس فى انتظار السفاح كى تقبض عليه بنفسها .

داخل المغارة

خلال تلك الشهور ، انطلق الكثير من الرصاصات ، أصابت الأبرياء ، وظل الخونة ينعمون بالحياة والكلاب المسعورة تنبح اللص العاثر الحظ ، ولم يكن من الممكن أن يستمر هذا الوضع طويلا ، أن تطارد أجهزة دولة شخصاً مهما كان ذكاؤه وألا يتم العثور عليه ، إنها عجلة المصير تتدحرج كى تصل إلى الخاتمة ، الأجمل أن خلال هذه المطاردات كلها ، لم يتوقف اللص عن مهنته الخطرة والسطو على قصور الأغنياء . لقد تم كشف أعوان اللص ، أبناء عمومته من أبو طشت محافظة قنا ، وضيقت الشرطة عليه الخناق ، ووصل إلى صحراء حلوان ، وتعرف عليه أحد الجيران فأبلغ الشرطة طمعاً فى المكافأة ، ووجد محمود نفسه مضطراً للإختفاء داخل مغارة ، ولم يمر وقت طويل حتى ظهرت قوات الشرطة . كانت المغارة تبيح لمن بداخلها أن يطلق الرصاص ، وإذا ما أطلقت عليه الشرطة الرصاص من الخارج فلن يصل إليه ، ولم يكن أمام القوات سوى الاقتحام .

لم يكن أمام محمود سوى حل من اثنين ، أحدهما مر ، الأول أن يسلم نفسه لينتظر حبل المشنقة ، الثانى أن يواجه الشرطة ، واختار المواجهة . ولم تلجأ الشرطة إلى الاقتحام الخطر الذى سيكلفها الأرواح ، فلجأوا إلى الحيلة ، إقناعه بأن يسلم نفسه . وكان الصاغ (رائد) فاروق عبد الوهاب من أفراد القوة، وكان قد حقق يوماً مع السفاح البائس ، وكان الصاغ قد عامله معاملة طيبة ، طلب منه الصاغ أن يسلم نفسه ، ودار الحوار

التالى :

- سلم نفسك يا محمود

رد محمود من داخل المغارة :

- أنا لى طلب لو حققتوهولى حاسلم نفسى

- عايز إيه يا محمود

- أشوف مراتى ..

- سلم نفسك وحانجيبهالك ..

- هاتوها الأول وبعدين أسلم نفسى ..

كان يريد أن يظفر بها قبل أن يموت ، وعندما علم أن لا فائدة ، سمع القريبون من فتحة المغارة صوت اللص العاشق ينادى على الصاغ فاروق ، وتجدد النداء ، وقبل أن يجيب الصاغ ، صاح اللص بآخر كلماته فى الدنيا ، فقد سمع القريبون محمود يصيح - الوداع يا فاروق .. وبعدها إنطلقت رصاصة ظنت القوات أن الأمر خدعة ، وفوراً قامت القوات بإقتحام المغارة فى تشكيل جهنمى من كلاب متوحشة وجنود بالرشاشات وبالقنابل المسيلة للدموع وبضابطين ، واندفعت الكلاب وامتلأت المغارة بالغازات ، ودخل الضابطان وسمع من الخارج رخات الرصاص وأزيزه فى الصخور ، وبعد دقيقتين خرج الضابط عاطف ممسكاً بالرشاش وهو يهلل قتلته .. قتلته ، وأخذت له الأحاديث الصحفية عن استهانته بالموت، والرصاصة التى عاجله بها السفاح وكيف زاغ منها ، وكيف تحرك اللص هارباً ، وكيف ناوله أربع رصاصات وكيف وكيف وأثبت التقرير الشرعي أن محمود مات برصاصة أطلقها على رأسه ..

فى اليوم التالى نشرت جريدة الأخبار (١٠ ابريل ١٩٦٠) المانشيت كالآتى :

مصرع السفاح . وفى السطر التالى عبد الناصر فى باكستان . كان من يقرأ الخبر يقرأه كالتالى «مصرع السفاح عبد الناصر فى باكستان» ، لدرجة أن شقيق عبد الناصر إتصل ملهوفاً ليتأكد من صحة الخبر . هذا المانشيت أوغر صدر عبد الناصر على مصطفى أمين ، وفوجىء مصطفى أمين بالأستاذ محمد حسنين هيكل الذى كان مرافقاً لعبد الناصر فى باكستان ، برسالة يحملها هيكل من عبد الناصر إلى مصطفى أمين ، وهى أن عبد الناصر يقول لك أن مصرع السفاح لن يكون في باكستان لكنه سيحدث فى القاهرة ، هذا ما حدث ١٠ ابرايل ١٩٦٠، وفى ٢٤ ابريل (بعد اسبوعين) صدرت القرارات التى عرفت آنذاك بتنظيم الصحافة ، التى هى تأميم للصحف ، وتم نقل ملكية الأخبار إلى الاتحاد الاشتراكى ، بسبب مصرع السفاح كما يذكر مصطفى أمين .

فن البناء

هذه المادة الهائلة المثيرة كانت أمام مبدعنا الكبير نجيب محفوظ ، فماذا أخذ منها وماذا ترك ولأى غرض . بداية الرواية هى فن البناء كما عبر أستاذنا الجليل يحيى حقى ، والبناء هو أولاً وأخيراً إطار ، فلا بناء بلا أطر ، وكان على الفنان أن يبقى على جوهر المأساة وأن يتنازل عن الإثارة كى يوغل فى العمق ، العمق فى هذه الفاجعة هو الأقدار وظلمها ، الظلم الطبقى المهين أولاً ثم ظلم الخونة ، ثم الحظ العاثر فى إصابة الأبرياء ونجاة الخونة ، والمنولوج الداخلى هو شكوى الأنا المتوحدة بآلامها ، وقوة هاملت العبقرية فى منولوجاته ، فلجأ أديبنا الكبير إلى المنولوج ، وأثبت أستاذية

حقيقية بقدرته الهائلة على استبطان الشخصية الدرامية وتقمص أحزانها ، والمقياس فى قدرة الروائى الذى يلجأ إلى المنولوج ، فى نجاح الكاتب أن يجعل القارىء يتوحد مع أحزان البطل ، وأن يراها القارىء معاناة شجية وأحزاناً نبيلة ، وأن يجعلنا نحن القراء نتمنى أن نكابد هذه الأحزان النبيلة نسعد بهذا السمو الروحى الأخاذ ، إذا ما طبقنا هذا على مونولوجات سعيد مهران ، لوجدنا أن الأستاذ وصل إلى ذرى الاكتمال ، فى وضوح الفكرة وعمقها والقدرة الفذة على الصياغة الجزلة الشجية كأنها الشعر المصفى . الموهبة الفذة التى ضاعت فى الجريمة والخيانة .

«من وراء الظهر تبادلت الأعين نظرات مريبة قلقة مضطربة كتيار الشهوة التى يحملها ، كالقطة الزاحفة على بطنها فى هيئة الموت نحو عصفورة سادرة ، وغلبت الإنتهازية ثمالة الحياء والتردد ، فقال عليش سدرة فى ركن عطفة أو ربما فى بيتى «سأدل البوليس عليه لنتخلص منه» ، فسكتت أم البنت ، سكت اللسان الذى طالما قال لى أحبك يا سيد الرجال هكذا وجدت نفسى محصوراً فى عطفة الصيرفى ولم يكن الجن نفسه يستطيع محاصرتى» .

ولا تنقطع مونولوجات سعيد مهران الرائعة ، فيقول وهو فى إنتظاره للمومس نور «وأعجب شىء أننى خدعت به ، وأنا الذكى الذى يخافه الجن الأحمر كنت البطل وكان عابد البطل يحبنى ويتملقنى ويتجنب غضبى ويلتقط فتات العيش من كدى وشطارتى، وآمنت بأننى لو أرسلته مع نبوية إلى الصحراء التى تاه فيها سيدنا موسى لظل يرانى قائماً بينه وبين نبوية فلا يحيد عن الأدب ، وهى كيف تميل إلى الكلب وتعرض عن الأسد ولكن القذارة المركبة فى طبعها قذارة تستحق القتل فى الدنيا والآخرة على شرط ألا يطيش الرصاص الأعمى فيصيب الأبرياء ويعمى عن الأوغاد والسفلة، ويترك قلوباً يمزقها الألم ويحرقها الغضب ويعبث بها الجنون فتنسى كل شىء طيب فى الحياة حتى ليلة الدخلة ولعب الصبيان فى الحارة والحب قبل الفساد ومولد سناء ورؤية وجه سناء لأول مرة وإبتساماتها التى لم أحصها ، وليتنى أحصيتها وسماع بكائها لأول مرة وحملها على الساعدين لأول مرة» .

أبقى نجيب محفوظ على صلب الدراما، وقام برصد خيانات الزوجة والصديق ، ومعهما الخيانة الفكرية للصحفى رؤوف علوان ، الذى تحول من طالب ثورى فقير إلى صاحب «قصر البللور والمرايا» متنكراً لكل ثوريته السابقة. فاللص والكلاب عمل جميل لأستاذ الرواية يعتمد فيه على فن المونولوج الداخلى الهاملتى الرائع ، ولم ير النقد اليسارى فى هذه التحفة سوى أن التمرد الفردى عند البروليتاريا مهما أوتى من قدرات فهو محكوم عليه بالفشل ، هذا التنديد الطبقى يصلح فى الشعارات الثورية ، أما الأدب فهو تجربة روحية وجدانية معقدة مثقلة بحزن الإنسان الكثيف على مظالم الحياة ، أما محمود أمين سليمان صاحب الواقعة ، فهو موهبة فذة من المواهب التى ينبتها شعبنا الطيب ، هذه الموهبة شاء القدر أن يتم إهدارها فى الجريمة والخيانة ، ولو قدر لها أن توظف التوظيف المناسب ، لكان لها شأن آخر .



سعدى الشيرازى وغزلياته

أغانى شيراز

بقلم: محمد ابراهيم أبو سنة

١٧٤

الهلال نوفمبر ٢٠٠٠

يحتل الشعر الفارسي مكانة خاصة في الأدب العالمي حيث أقبل عدد من كبار الشعراء الغربيين علي ترجمة نماذج من هذا الشعر كان لها دوى عميق وأصداء باهرة في الوجدان الغربى خاصة ترجمة فيتزجرالد لمختارات من شعر عمر الخيام.. وقد ترجم الأستاذ الدكتور إبرهيم الشواربي أستاذ الفارسية مختارات من غزليات حافظ الشيرازى وتمثل الجزء الأول من أغانى شيراز وقدم لهذه الترجمة الدكتور طه حسين.

وقد جمع المترجم بين الشكلين المنظوم والمنثور فى ترجمته لهذه الغزليات فى عبارة مشرقة تتوخى الرصانة والبعد عن التكلف يقول الدكتور طه حسين :

– أقدم الآن هذه الترجمة الجميلة لزهرة الشعر الفارسى .. ديوان حافظ وفى نفسى كثير جدا من الغبطة وكثير جدا من الرضا وكثير جدا من الأمل بل كثير جدا من الثقة، ولكن، ما هى الغزليات بالمفهوم الفنى التى ترجمها الدكتور الشواربى– يقول المترجم :

– والغزل أو الغزلية فى الشعر الفارسى عبارة عن منظومة قصيرة تتراوح بين سبعة أبيات وخمسة عشر غالبا ، وموضوعها الغزل فى أكثر الأحيان ويكون احيانا غرضا آخر من أغراض الشعر ويلتزم الشاعر لقبه الشعرى أو تخلصه كما يقول الفرس والترك فى آخر بيت من الغزل .. إذن فالغزلية بهذا المعنى فى الشعر الفارسي لا تقتصر على شعر الحب أو الغزل في اللغة العربية .. هو محادثة النساء بهدف التقرب والتودد إليهن .. وهناك فى اللغة العربية التشبيب والنسيب.. فالتشبيب هو غزل يصور أحوال الشاعر مع معشوقته وما وقع بينهما من أمور كاشعار كثير عزة ومجنون ليلى وعمر بن أبى ربيعة وسواهم والنسيب هو غزل يجعله الشاعر مقدمة لما يريد أن يقول من أغراض ، وكأنما يقصد بهذه المقدمة ان يستميل السامع إليه بذكر أحوال المحبوب مع محبه ومغازلة العاشق للمعشوق حتى اذا تنبهت الحواس واستيقظت الأذهان والمدارك دخل الشاعر فى موضوعه مطمئن النفس إلى أنهم يدركون ما يقول . أما حافظ الشيرازى فهو من أشهر شعراء الفرس فى القرن الثامن الهجرى.. واسمه شمس الدين محمد الملقب بلسان الغيب وترجمان

الأسرار. كان أبوه بهاء الدين تاجرا من تجار شيراز وكان الشاعر أصغر ابنائه ولم يلبث والده أن توفي فكفلتـه أمـه بالتربية والرعاية الى أن ضاقت بها ذات اليد بعد أن تفرق أبناؤها الآخرون فدفعت بولدها حافظ الى واحد من أهل بلدتها ليتولاه برعايته ، ولكن الرجل ضاق به فهرب الشاعر واشتغل خبازا فكان يستيقظ في منتصف الليل ليقوم بعمله الى مطلع الفجر ثم يشتغل بالعبادة بعد ذلك الى أن تطلع الشمس فيتوجه الى مدرسة بالقرب منه يتلقى فيها العلم وتحصيل المعارف، وكان يدخر بعض نقوده التي يتقاضاها عن عمله كخباز ليقدمها الى معلمه ، وظل على حاله تلك الى أن حفظ القرآن الكريم حتى لقب بالحافظ وهو اللقب الذي أبقاه لنفسه كشاعر. وحين شب حافظ عن الطوق وبلغ مبلغ الشباب فتنته فتاة اسمها «شاخ نبات» فتعلق بها قلبه ولكنها لم تبادله هذا الحب وأعرضت عنه فاشتد ألمه وتوهجت قصائده ، واختار ضريحا في شمالي شيراز يعرف بضريح بابا كوهي واختار أن يعتزل الناس في هذا الضريح ويعكف على العبادة طلبا للسلوى والشفاء من العشق . ويقال: إنه رأى الامام علي في المنام يطعمه ويسقيه ويلهمه قصيدة تقول أبياتها « ليلة أمس في وقت السحر، أعطوني النجاة من الألم والويل، وناولوني ماء الحياة وسط هذه الظلمات من الليل، فأخرجوني عن نفسي بما انبعث من ضياء ذاته.، وناولوني خمرا في جام يتجلى فيها بصفاته فيا له من السحر مبارك وبالها من ليلة سعيدة ليلة القدر هذه التي منحوني فيها البراءة الجديدة» وبعد الرؤيا تدفق شعره ولانت له معشوقته شاخ نبات ولكنه تذكر قسمه في الخلوة بأن يكون زاهدا معرضا عن متع الحياة الدنيا.. وبدأ شعر حافظ يجذب إليه أنظار الناس فاعجبوا بهذا الشعر الذي يدور في جوهره حول التصوف والخمر ووصف الأحبة.. وقد اختلف الأدباء حول تأويل أشعاره. فبعضهم رآها غزلا حسيا خالية من الرموز فالحب هو الحب المألوف والخمر هي الخمر العادية والمعشوقة إمرأة من دم ولحم . والبعض الآخر رأى في هذا الشعر توجها الى الذات الالهية وعند وفاته تردد بعض الرجال في حضور جنازته الى ان قرأوا بيته الذي يقول فيه :

« لا تؤخر قدمك أو تتردد عند جنازة حافظ.. فهو غريق في الإثم ولكنه ذاهب الى الجنة»

وعند ذلك آمنوا بأن حافظ مسلم حسن الاسلام فدفن في «روضة المصلى» وأصبح قبره في شيراز يعرف باسم الحافظية، وقد توالى الملوك على العناية بضريحه حتى أصبح مزارا . على قبر

حافظ كتبت هذه الغزلية التى يقول فيها الشاعر :

– أين بشرى وصالك حتى أهب من رقادى للقائك.. فأنا طائر القدس أفلت من شباك الدنيا على ندائك. وبحبى لك . لولا إنك دعوتنى الخادم الأمين لصحوت وأنا سيد الأكوان على دعائك/ فيارب ادركنى بغيث من سحب البداية قبلما إذ هبّ حفنة من التراب محرومة من آلائك. وأجلس على قبرى ومعك المطرب والشراب حتى أهب من لحدى طمعا فيك./ راقصا على نغماتك/ ثم قم أيها الصنم الجميل وأرنى قدك وحقة حركاتك فإننى عند ذلك أهب راغبا فى الحياة مصفقا لبهائك/ فان كنت عجوزا فضمنى إلى صدرك وضيق على العناق فاننى في وقت السحر أهب غصن الاهاب من ضمائك/ ثم امنحنى مهلة أراك فيها يوم الممات والرحيل فقد أستطيع كحافظ أن أهب راغبا فى الحياة للقائك . ويقول حافظ الشيرازى فى إحدى غزلياته البديعة:

– الآن يتجدد الشباب مرة أخرى فى البستان فتصل بشرى الورد إلى البلابل الشادية بأعذب الألحان. فيا نسيم الصبا. إذا مررت على شباب الخميلة مرة أخرى فاعرض خدماتنا على السرو والورد والريحان ، وإذا تجلى هذا الطفل المجوسى – ابن بائع الخمر – مثل هذا التجلى جعلت أهدابى من أجله مكنسة الباب ألحان.

فيا من تسحب على القمر صولجانا من العنبر الخالص. لا تجعلنى مضطرب الحال. فإننى دائر الرأس حيران/ ولشد ما أخشى أن يتكلف هؤلاء الذين يسخرون ممن يشرب الثمالة سيتلفون فى نهاية الأمر ما عندهم من إيمان فكن صديقا لرجال الله. فقد كانت فى سفينة نوح حفنة من تراب لم تهتم بأمر الطوفان. واذهب عن هذا المنزل الدائر ولا تجهد نفسك بطلب الخبز فهذه الدنيا البخيلة ذات الكأس السوداء تقتل ضيفها فى نهاية الأمر.

وقل لمن مضجعه فى النهاية قبضتان من تراب

ما حاجتك إلى رفع الايوان إلى الافلاك

وفى الختام يخاطب الشاعر نفسه قائلا:

– أما أنت يا حافظ فاشرب الخمر وعربد

واهنأ بالا. ولكن لا تجعل القرآن مثل الآخرين

شبكة للتزوير والتمويه.

ويمثل هذا الشعر الجميل احتل حافظ الشيرازى مكانته المرموقة فى الأدب العالمي كله.

مستخرجات من الجعبة

بقلم : وديع فلسطين

أنبش فى جعبة الذكريات والأوراق القديمة عن صور لم تمحها الذاكرة الخؤون، عساى أستخرج مما حوته مادة تسدّ بعض الثغرات فى الحياة الأدبية المعاصرة، أو تلقى شيئاً من الضوء على وقائع تستحق إماطة اللثام عنها.

الشيخ مصطفى عبدالرازق والجمعية الفلسفية المصرية

فى أوائل عام ١٩٤٥ تلقت الجريدة التى كنت أعمل بها دعوة لحضور حفل يقام فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول - وهى الجامعة الوحيدة القائمة فى ذلك الحين- بمناسبة الإعلان عن إنشاء «الجمعية الفلسفية المصرية» بالرياسة الفخرية لسعادة الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا «١٨٨٥-١٩٤٧» والرياسة الفعلية للدكتور على عبدالواحد وافى «١٩٠١ - ١٩٩١» وسكرتارية الدكتور عثمان أمين «١٩٠٨ - ١٩٧٨»، وانتدبتنى الجريدة لحضور هذا الحفل. فتوجهت إلى هناك فى الموعد المحدد، وبى هيبة شديدة من الاقتراب من هؤلاء الفلاسفة الكبار الذين ضمتهم جمعية تقتصر على النهوض بالفلسفة والترويج لها على النطاقين الأكاديمى والشعبى. واستشعرت غربة عنيفة وأنا ألج القاعة لأننى لا أعرف أحداً من أساطين الفلسفة الذين احتلوا مقاعدهم حول رئيسهم الفخرى أستاذ الفلسفة الكبير الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا، ولكن الذى خفف من وحشتى أننى صادفت بين الحضور محيى الدين رضا، ابن شقيق الشيخ محمد رشيد رضا «١٨٦٥ - ١٩٣٥» صاحب مجلة «المنار» وكان يزاملنا فى «المقطم» فى قسم المراجعة والتصحيح وبعد تناول المرطبات أعلن الدكتور على عبدالواحد وافى قيام الجمعية، وقال إن غايتها تبرير الهيبة التى تنفّر الناس من بحوث الفلسفة، وقال إن من مهام الجمعية تحبيب الناس فى الفلسفة وإشاعة التفكير الفلسفى من خلال نشر مجموعة شهرية من



مصطفى عبد الرازق



د.محمد حسين هيكل باشا



محمد رشيد رضا

كتب الفلسفة المبسطة، ووجّه تحية إلى مصطفى عبدالرازق باشا لقبوله الرياسة الشرفية للجنة. وتحدث بعده الدكتور عثمان أمين سكرتير الجمعية الذى أكد أن الجمعية ولدت قوية وستبقى قوية بفضل همة أعضائها من أساتذة الفلسفة في الجامعة. ثم تحدث الرئيس الفخرى للجمعية الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا فشكر زملاءه على جميل ثقتهم به وتمنى للجمعية النجاح فى أداء رسالتها.

وبعد انتهاء هذه الكلمات انفض الحفل، وهممت بالانصراف لأنني لا أعرف أحدا من الحاضرين، ولكن زميلي محيى الدين رضا رغب فى أن يقدمنى إلى الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا لأنه يعرفه ويتردد على بيته في حى الحلمية الجديدة، فتهيبت الموقف لأننى صحفى ناشئ، وقدرت أن هذا الشيخ الكبير لن يهتم كثيراً بأمرى، وإزاء إصرار محيي الدين، توجهنا إلى رأس المائدة وقدمنى إلى الشيخ الذين رحب بى ترحيباً أبوياً حانياً، وشد على يدى بحرارة، فأدهشتنى هذه الروح التى تنم على تواضع جم، وقلت فى نفسى: لعله أراد أى يحيى فى شخصى الجريدة التى أعمل بها، فالترحاب موجه إليها لا إليّ.

وبعد فترة قصيرة من هذا اللقاء انتدبتنى الجريدة لحضور اجتماع دعا إليه حزب الأحرار الدستوريين بزعامة الدكتور محمد حسين هيكل باشا «١٨٨٨-١٩٥٦» فى مقره بشارع متفرع من شارع القصر العينى. وعندما دخلت القاعة الصغيرة جلست فى الصيف الثاني من الصفوف المخصصة للصحفيين وأعضاء الحزب، أما زعماء الحزب فجلسوا فى صفين فى مواجهتنا، لمحت من بينهم الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا. وكنت أظن أن الشيخ نسينى بعد اللقاء العارض في الجمعية الفلسفة، ولكننى فوجئت به

يبتسم لى ثم يقف بقامته الفارعة المهيبة ويميل على الجالسين أمامه لكى يصافحنى بحرارة. وفى هذه المرة لم أعْزُ تحيته إلى الجريدة التى أعمل بها، وإنما عزوتها إلى رغبته الأبوية فى التشجيع والحدب عليّ.

وفى نفس هذا العام «١٩٤٥» اختير الشيخ مصطفى عبدالرازق إماماً أكبر وشيخاً للجامع الأزهر، فتنازل عن رتبة الباشوية - وكان الوحيد فى كل التاريخ الذين تنازل عن رتبته بمحض إرادته - وأطلق لحية رمزية وتخلى عن رياسة شرف الجمعية الفلسفية للدكتور منصور فهمى باشا «١٨٨٦ - ١٩٥٩»، وعندما التقيت به فى مناسبة عامة، تهيبت مصافحة الإمام الأكبر، ولكنه اتجه صوبى وصافحنى بنفسى الحرارة، فشكرته على عنايته وعطفه، وكنت فى جميع المرات التى التقيت فيها بالشيخ مصطفى عبدالرازق أخاطبه بلقب «حضرتك»، فعندما كان باشا لم أخطابه حسب العرف المعهود «بسعادتك» أو «معاليك»، وعندما أصبح شيخاً للأزهر لم أخاطبه بلقب «فضيلتك». وخشية أن يسيئ فهمى قلت له: إننى صعيدى مثلك، وقد عودتنى أمى منذ نعومة أظفارى بأن أخاطب الناس بعبارة «حضرتك» وأرجو ألا تحسب أننى أحاول الانتقاص من أقدارك. فربت على ظهرى، وقال: أهلاً يا ابنى.

رويت هذه الواقعة بهذا التفصيل المل لأصور كيف كان واحد من باشوات العهد الذى يسمونه بالعهد البائد البغيض، يتعامل مع الناس بروح إنسانية رفيعة وبأريحية فطرية تنم على شرف محتده، لقد كان رجلاً من أعظم شرفاء مصر، وكان على خلق سام وفضل عظيم.

أما الجمعية الفلسفية المصرية، فقد أصدرت للشيخ مصطفى عبدالرازق كتابين هما «فيلسوف العرب والمعلم الثانى» و«الدين والوحى والإسلام» ونشرت نحو ٢٠ كتاباً لأعضائها فى تبسيط الفلسفة ومذاهبها، وكان لولبها المحرك هو الدكتور عثمان أمين صاحب نظرية «الجوانية».

تسجيل الأدب العربي في المحاكم المختلطة!

من الأوراق التى استخرجتها من جعبتى صفحة واحدة عنوانها «المعين فى تاريخ آداب اللغة العربية» أعدها الخورى يوسف مارون البشعلانى، وقام بتسجيلها فى المحكمة المختلطة بالاسكندرية فى أول مايو ١٩٣١ تحت رقم ٩ ونشرها فى جريدة «البصير» السكندرية وفى جريدة المحاكم المختلطة كيما يحتفظ بجميع حقوق التأليف، وسجل

البشعلانى فى هذه الصفحة الوحيدة كل تاريخ الأدب العربى على هيئة جداول، قدم لها بعبارة: «إذا جاز لنا التشبيه يمكننا أن نشبه آداب اللغة العربية فى عصورها الخالية بروضة غناء، أضاءها قمر الجاهلية، وطلع عليها فجر الإسلام، وسطعت فيها شمس العصور العباسية، وغابت عنها عند سقوط بغداد فساد عليها الظلام ليل عصر الانحطاط، إلى أن بزغ فجر النهضة الحديثة مبشراً بالشمس الساطعة، أو بشجرة غرست فى تربة جيدة، فنمت فى العصور التى تقدمت زمن التاريخ، وأورقت فى العصر الجاهلى، وأزهرت فى العصر الإسلامى، وأثمرت ونضجت فى العصور العباسية إلى أن جاء المغول فقطعوها ورموا بأكثر ثمارها فى نهر الفرات، ولكن الحياة مازالت تدب فى جذورها طيلة عصر الانحطاط، فأخذت تنبت فروعا كثيرة طافحة بالحياة والقوة، فأورقت وأزهرت فى عصر النهضة الحديثة، ونحن الآن بانتظار ثمارها اليانعة».

والجداول الواردة فى هذه الصفحة بعضها مستعرض وبعضها طولى، فالجداول الطولية تتناول عصور الأدب، وهى العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصر العباسى الأول والعصر العباسى الثانى وعصر الانحطاط والعصر الحديث. أما الجداول المستعرضة فتتناول الأمم المختلفة، وقد قسمها إلى قبائل العرب، ثم ظهور الإسلام، والدولة الأموية فى الأندلس، والدولة الفاطمية والشرقية والأيوبية، ثم دولة المماليك والحكم العثمانى والعصر الحديث فى مصر ولبنان والعراق. تلا ذلك الفنون المختلفة، وهى فن الشعر وفن النثر والعلوم، ثم قسم فن الشعر إلى أغراضه وهى الفخر والمدح والوصف والهجاء والرثاء والزهد والغزل والخمر والحكمة، كما قسم النثر إلى الخطابة والنثر الفنى والصحافة. أما العلوم فتنقسم إلى علوم اللغة والأدب والفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا والطبيعيات والرياضيات.

وإذا رغب باحث فى حصر شعراء الغزل فى جميع العصور مثلاً، وقع فى العصر الجاهلى على المهلهل وأصحاب المعلقات، وفى صدر الإسلام على عمر بن أبى ربيعة وجميل بن معمر، وفى العصر العباسى الأول على بشار بن برد وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن عبدربه، وفى العصر العباسى الثانى على أبى فراس وابن هانىء والبهاء زهير، وفى عصر الانحطاط على الشاعر الظريف والبوصيرى وابن نباتة، وفى العصر الحديث على الخشاب والعطار وفكرى والجبرتى وأبى النصر والبارودى وصبرى.

فإذا عنّ لباحث أن يستقصى مسيرة أعلام التاريخ صادف فى العصر العباسى الأول

الواقدى والطبرى وابن البطريق، وفى العصر العباسى الثانى المسعودى والعتبى وابن النديم وابن مسكويه والبغدادى وفخر الدين بن الأثير وياقوت، وفى عصر الانحطاط ابن العبرى وابن خلقان وأبا الفدا وابن بطوطة وابن خلدون والمقريزى والبيرونى والمقرى، وفى العصر الحديث رفاعة وجرجى زيدان والمطران الدبس.

ويستطيع الباحث من هذه الجداول الكاشفة أن يعرف الأغراض الشعرية التى استأثرت باهتمام الشعراء فى جميع العصور، فإن تميز شاعر بغرضين أو أكثر، ورد اسمه فيها جميعاً.وهكذا يستطيع الباحث أن يقف على ضالته فى ثوان معدودات، فيحدد العصر الذى ينتمى إليه شاعر ما أو الفترة الزمنية التى عاش فيها مؤرخ أو عالم فى الرياضيات وهلم جرا. وأشار البشعلانى إلى أن لديه كتاباً يحمل نفس هذا العنوان، وهو «المعين» وفيه تفصيل لكل ما ورد مركزا أو مضغوطاً فى هذه الصفحة الواحدة.

شاعر ينشر شعره كإعلان مأجور!

أثناء عملى محرراً فى جريدة «المقطم» كنت ألاحظ شيخاً أزهرياً وقوراً يؤم المطبعة فى الحين بعد الحين ويطلب «سلخة» من المطبعة لمراجعة نصها، دون أن يعتمد على المراجعين الدائمين فى الجريدة، فاستفسرت من زميلى الواقف فى المطبعة عمن يكون هذا الشيخ، وماذا يفعل هنا، فقال إن هذا الشيخ هو عم أحمد نجيب الهلالى باشا الذى تولى وزارة المعارف ثم أصبح رئيساً للوزراء، وإن له هواية نظم الشعر، وقد جرب إرسال شعره إلى الصحف فأهملته، ومن هنا قرر أن ينشره كإعلان مأجور فى جريدتنا.. وها هو يراجع قصيدته ليطمئن إلى خلوها من أغاليط الطباعة.

حكايات عن شواهد القبور والأضرحة

كانت لصديقنا الأديب الراحل رضوان إبراهيم «١٩١٩ - ١٩٧٥» عناية خاصة بابن خلدون، إذ عمل على تيسير مقدمته ثم ترجم كتابين عنه من اللغة الروسية التى كان يجيدها.

وقد أخبرنى أن قدميه ساقتاه ذات يوم إلى إحدى مناطق المقابر فى القاهرة، فاكتشف أن من بينها مقبرة الفيلسوف ابن خلدون، وقال إنه كتب مقالاً ينبه فيه إلى عثوره على هذه المقبرة، فلم يحفل به أحد.

وروى صديقنا العلامة التونسى أبو القاسم محمد كرو، أطال الله بقاءه، نقلاً عن سامى الكيالى «١٨٩٨ - ١٩٧٣» صاحب مجلة «الحديث» الحلبية أن المسئول الفرنسى

عن الآثار في سورية في زمن الاستعمار الفرنسي باع بفرنك واحد إلى بعض المسئولين في باريس لوحة منقوشة على ضريح أبي العلاء المعري المدفون في حلب تحمل بيته الشهير:

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

وقد اختفت هذه اللوحة ولا يعرف مصيرها في الوقت الحالي.

ويروي الأديب اللبناني مارون عبود «١٨٨٦ - ١٩٦٢» أنه كان يمر بسيارته يومياً بمقبرة مجهولة تقع في أول طريق الشام في بيروت، وذات يوم، أمر سائق السيارة بأن يتوقف عند المقبرة، وترجل من السيارة لكي يكتشف أن هذا الضريح هو للأديب اللبناني أحمد فارس الشدياق «١٨٠٤ - ١٨٨٨» وأن سكان المنطقة كانوا يحسبونه واحداً من أولياء الله الصالحين، ومع ذلك كانوا يعلقون ثيابهم المغسولة على الضريح! ثم قامت دار الصياد في حياة منشئها سعيد فريحة بإنشاء مؤسسة صحفية ضخمة بالقرب من الضريح الذي أصبح مهددا بسبب الضجيج والعجيج الناشئ عن حركة المطابع والسيارات في المنطقة، فطالب مارون عبود بإنقاذ الضريح ونقله إلى مكان آخر. واستجابت السلطات له ونقلته إلى منطقة الحازمية في بيروت دون أن تضع عليه أي شاهد يدل على صاحبه، فكتب عبود مناشداً المسئولين أن يضعوا لوحة عليه تحمل اسمه.

وأخبرني صديقي العلامة الأمير مصطفى الشهابي «١٨٩٣ - ١٩٦٨» صاحب المعجم الزراعي الكبير والرئيس الأسبق لمجمع اللغة العربية بدمشق أنه أوصى بأن ينقش على ضريحه بيت من تأليفه هو:

أم اللغات، قضيت العمر أخدمها فهي الشفيعة في غفران زلاتي

وكنت مرة في زيارة صديقي الشاعر محمود أبي الوفا «١٩٠١ - ١٩٧٩» فرأيت في غرفته لوحة نقش عليها بيت من شعره هو:

حسبي إذا الحب أضناني فمت هوى إذ يذكروني قالوا. كان إنسانا

ولما سألته عن قصده من هذه اللوحة، قال إنه إنما أراد أن يطمئن من الآن على وضعها على ضريحه في قريته «الديرس» بمركز أجا.

وكان ضريح الأديبة مي زيادة «١٨٨٦ - ١٩٤١» في مقابر الموارنة في مصر القديمة عندما زارته وصورته الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبري، أطال الله بقاءها، يحمل

عبارة «هنا ترقد نابغة الشرق، زعيمة أديبات العرب، المثل الأعلى للأدب والاجتماع، المرحومة مي زيادة، صلوا لأجلها - دفنت في ٢٠ أكتوبر ١٩٤١». فلما هدم هذا الضريح ونقلت رفاتها إلى فجوة في جدار في نفس المقابر، اقتصرت اللوحة المثبتة عليها على عبارة موجزة هي «الأديبة مي زيادة نابغة الشرق ١٩٤١».

وكان صديقنا الأديب العراقي جعفر الخليلي «١٩٠٤ - ١٩٨٥» قد أوصى بأن توضع على قبره لوحة نصها: «هنا يرقد جعفر الخليلي الذي لا يعرف لم جاء إلى هذه الدنيا ولم غادرها» ولما توفي فجأة في دبي أثناء زيارته لكريمته هناك، أعدت الأسرة اللوحة الموصى بها، ولكن السلطات هناك منعت وضعها على المقبرة.

أما أغرب قصص الأضرحة فهي الخاصة بالمليادرير اللبناني أميل البستاني، الذي خشي أن تفاجئه المنون، فأقام لنفسه ولأسرته ضريحا من الرخام الفاخر المستورد من الخارج. ثم رغب في الاحتفال بتدشين الضريح، ودعا أصدقاءه إلى حفلة كوكتيل ليشاهدوا بأنفسهم البراعة الفنية في تصميم الضريح الذي سيضمه ذات يوم مع زوجته وابنته، وفي أوائل عام ١٩٦٣ قرر إميل البستاني السفر بطائرته الخاصة إلى لندن، ودعا صديقه الطبيب الدكتور نمر طوقان، شقيق الشاعرة فدوى طوقان والاستاذ بجامعة بيروت الأمريكية، لكي يرافقه في هذه الرحلة. ولم تكد الطائرة تقلع من مطار بيروت المتاخم للبحر المتوسط، حتى هوت في البحر واختفت تماما تحت المياه الساحلية، واستعين بأضخم الكراكات والأجهزة والغواصين من شركات مقاولات «كات» المملوكة لإميل البستاني للبحث عن الطائرة وانتشال جثث ركابها، فذهبت جميع محاولاتهم سدى، ولو نطق الضريح الرخامي لقال: وتقدرون فتضحك الأقدار!.

مظهر سعيد ودستور الحياة السعيدة!

عرفت الدكتور محمد مظهر سعيد الذي كان يصف نفسه بأنه «عميد الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتربية» - وهو لقب يستحقه بلا مراء - وعرفت زوجته المربية الوقور نظلة الحكيم وشقيقتها المربية الفاضلة زينب الحكم، وكانوا إذا اجتمعوا مع رواد ندوتهم يفيضون على الحالسين من معين خبرتهم وتجاربهم بما يستعينون به في حياتهم العملية، والأهم هو انتفاعهم بما يقوّم سلوكهم الخلقي في التعامل مع المجتمع. وكان مظهر سعيد أول من يلبي أي دعوة لإلقاء محاضرة أو للمشاركة في ندوة أو للاجتماع في منتديات

الشبيبة مع الجيل الطالع، يمحضهم الخمير من الآراء والسديد من التوجيهات بعدما دانت له جميع أسباب الحكمة ومبادئ التربية القويمة والأسس النفسية الرشيدة وله طائفة من المؤلفات منها «جمهورية أفلاطون» و«علم النفس الاجتماعي» و«سجين ثورة ١٩١٩»، وكان من دواعي فخري أنني شاركت معه ومع زوجته نظلة الحكيم في ندوات لمعالجة مشكلات الشباب النفسية والعاطفية ولتقييم دور علم النفس في الدراسات الأدبية.

وعندما سبقته زوجته إلى عالم البقاء، قاوم الوحدة المدمرة بالإكثار من التردد على الندوات وقبول الدعوات على الرغم من أن سنه كانت قد شارفت الثمانين، وما أكثر ما نصحته - بحكم الود الموصول بيننا - بالإشفاق على شيخوخته من هذا النشاط الذي لا قبل للشباب باحتماله، فكان يقول لي إن سلواه الوحيدة هي الاجتماع بالناس والتحدث إليهم ومساعدتهم في حل مشكلاتهم النفسية والعاطفية وتوجيه الشباب إلى المحجة السليمة، وكنت أقول له إنك لا تملك سيارة، وتضطر إلى استخدام وسائل المواصلات العامة في تنقلاتك، وتعود إلى بيتك في عتمة الليل، وطرقنا غير مأمونة. فكان يكرر قوله إن حياته موصولة بالناس ولا حياة له مع العزلة والتنسك.

وفي إحدى ليالي عام ١٩٧٠ كان الدكتور محمد مظهر سعيد عائدا إلى بيته بعد مشاركته في ندوة، وترجل من سيارة الأوتوبيس في شارع الجيزة بالقرب من فندق شيراتون القاهرة، وحاول عبور الطريق إلى بيته الكائن في الناحية المقابلة، فافترسته في ظلمة الليل سيارة مسرعة، ثم تلقفته سيارة قادمة من الاتجاه الآخر، وأصبح بجسمه الرقيق الناحل مثل الكرة التي تتقاذفها الأيدي، ولما أصبح الصباح، عثر على جثمانه مفترشاً الطريق، واهتدى إلى شخصيته من بطاقة الهوية التي كان يحملها في جيبه.

وكان مظهر سعيد أديباً مطبوعاً جميل الأسلوب، لا يحاضر إلا ارتجالاً، ولا يلحن في لفظ أو يتعثر في عبارة، وكان إلى ذلك شاعراً مجيداً، وآية ذلك القصيدة الطويلة التي أهدانيها بخط يده وجعل عنوانها «دستور الحياة السعيدة»، وأذن لي في نشرها عندما تحين الفرصة، وبقيت هذه القصيدة، التي تكاد تكون «روشتة للسعادة» جاثمة بين أضابيري إلى أن استخرجتها الآن. وقد ختمها ببيت رائع هو:

هبات الله لا تحصى ولكن حياتك بينها أغلى الهبات

وتحدوني أمانة الوفاء إلى إثبات النص الكامل لهذه القصيدة، لأنها فعلاً دستور يوطئ للحياة السعيدة.

سعيد من يقول بملء فيه: أعيش اليوم فى أوج الحياة
بلا قلق يعكر صفو نفسى ولا هم انتظار الحادثات
وأترك ما مضى يذوى بعيداً ليدفن فى قبور الذكريات
فلا يبقى سوى أثر قديم ملئ بالعظات الملهمات
وأترك ما تجىء به الليالى غداً أو بعده، من كارثات
فلست بمرجع ما فات منى ولست بمرجئ ما سوف ياتى
لماذا الهم من هم بعيد أقدر أنه لابد آت
لماذا الهم من مأساة أمسى وقد ولت، وراحت فى سبات
وأقصى الهم موت أو فراق فهل أجدى بكاء النائحات؟

★ ★ ★

فلا تيأس، فإن اليأس سم يشل العقل عند المشكلات
وبالصبر الجميل تجد عزاء وصعب الأمر يسهل بالأناة
ولا تهرب من الأحداث خوفاً من العقبى، وواجه فى ثبات
فبالفكر الرصين تجد حلولاً ميسرة لكل المعضلات
ولا تتبع مضللاً فى طريق وسر بالعكس فى سبل الهداة
وخير الأمر أوسطه، فخذه وحاذر أن تكون من الغلاة
ولا تبن من الأوهام قصراً تنال به جميع الأمنيات
فلا تجدى الحياة بغير جهد ولا تأتى المنى بالمعجزات

★ ★ ★

ولا تبك على خير تولى فما يغنى البكا بعد الفوات
عيون باسمات فى الرزايا لأجمل من عيون باكيات
ولا تحسد أناساً فى نعيم فلا تدرى متى النعمى تواتى
تمر السحب مراً بالعطاش وتهمى فى الصحارى ممطرات
ولا تبغى ولا تظلم ضعيفاً فإن الله يبطش بالطغاة

ولا تهدم، فما في الهدم خير ... وحاول أن تكون من البناة
ولا تعبأ بمدح أو هجاء ... ولا تخدع بقول أو سمات

★ ★ ★

وإن من هم نفسك ضقت ذرعاً ... فخفف من همومك بالصلاة
فداء الجسم يشفيه طبيب ... وداء النفس عزٌ على الأساة
وإن حاقت بك الأخطار فافزع ... إلى مولاك، تظفر بالنجاة
وكفك بالندى تزداد خيراً ... فزد في رأس مالك بالزكاة
وبر الأهل والأخوان أجدى ... لتدعيم الروابط والصلات
فلا تفصم عرى ود قديم ... فحفظ الود من خير الصفات
وإن تعتب صديقك فادخره ... ولا تصدم حبالك بالهنات
فبالمعروف تأسر كل نفس ... وتمحو الحقد من قلب العداة
وإن أخطأت أو أذنبت يوماً ... بلا عمد، ومن غير افتئات
فلا تندم على ما فات، واعلم ... حساب الناس رهن بالنيات
فإن تزرع بذور الشر تحصد ... ثمار الشر من مر النبات

★ ★ ★

وإن تبدأ حياتك من جديد ... على ضوء النيات الصافيات
ترى الصحراء، لا قفراً، ولكن ... جنانا مزهرات مثمرات
وفي فجر النهار ترى شموساً ... بأنوار الطبيعة مشرقات
وتسمع في هدير الرعد لحناً ... كتغريد الطيور الصادحات
وفي الليل البهيم ترى نجوماً ... تتلألأ كالدراري اللامعات
ترى دنيا الجمال، وكل شئ ... بهاء، كالغانيات الفاتنات
وتحيا في شباب مستمر ... على رغم السنين الخاليات

★ ★ ★

هبات الله لا تحصى، ولكن ... حياتك بينها أغلى الهبات





يا قدس انعدمت رؤاى

شعر: عبد العزيز جويده

(١)

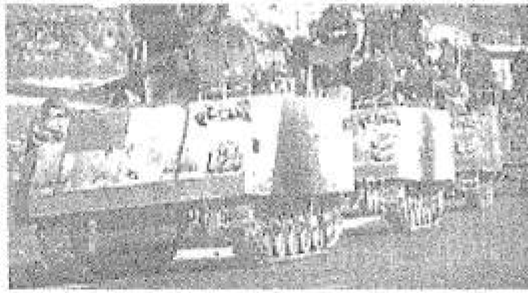
يا قدس انعدمت رؤاى
يا قدس أنت سجينة
والقيد أوله يداى
يا قدس أحلم كل يوم
أن يضمك ساعداى
يا قدس مثقوب أنا
كثقوب ناى
فلتعزفى حزنى لأبكى
ربما هدأت خطاى
يا قدس جسمى طلقة
فلتطلقيها واعلمى
أن البداية منك كانت منتهاى

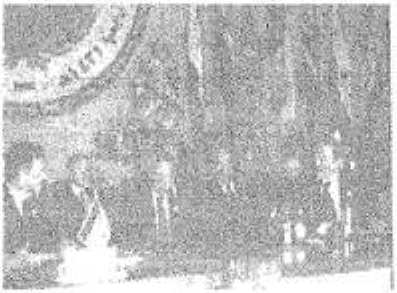
(٢)

يا قدس قالوا من سنين
أشجار أرضك سوف تزهر ياسمين
عار علينا
كفنى عار العروبة وأدفنى فى
الطين
كل المزارع فيك تطرح لاجئين
فبأى وجه إن سئلنا من صغار
يسألون عن الوطن
فى أي خارطة فلسطين التى
ما عاد يذكرها الزمن
ماذا تقول؟
والطفل يولد فى فلسطين المرائى
فى فلسطين المحن
بيد تشد على الزناد
وفى اليد الأخرى كفن

(٣)

يا قدس يا حزنا يسافر فى جوانحنا
ويكبر كالنخيل
من أرض يافا للجليل
فى كل شبر كم قتيل
يا قدس يا جرحا بلون الدم
أو لون الأصيل
أمى على باب المخيم تحتضر
والموت يأكل وجهها الرحب الجميل
أمى تقول وصوتها متقطع
كف يدق المستحيل
جهز خيولك يا بنى
واقتل عدوك قبل أن تغدو قتيل





(٤)

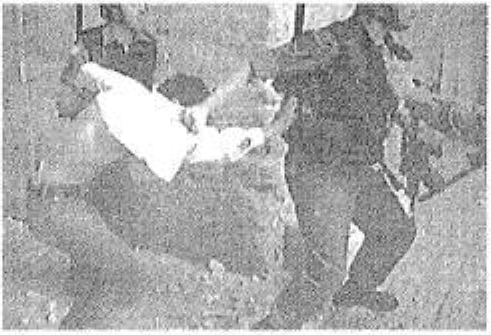
يا قدس يا وطنى الحنون
هل نحن حقا عائدون
أم أنها أكذوبة
كى يستمر الحاكمون
يا قدس مجروح أنا
والجرح ينزف في جنون
يا قدس مذبوح أنا
والذبح ممتد من الشريان حتى
مهجتى
يا قدس طالت غربتى
قالوا محال عودتى
لكننى بعزيمتى
سأشق جسمى خندقا
منى إليك
ثم أعبر جثتى

(٥)

يا قدس يقتلنى التذكر والتفكر
والحنين إلى رؤاك
يا قدس معذور أنا
إن كنت أسجد رهبة
إن صادفتنى نفحة فيها شذاك
فالمسجد الأقصى يعيش بداخلى
سبحان من أسرى وبارك فى ثراك
يا قدس مريم لا يزال بحضنها
عيسى
فهزى نخلة
يساقط الرطب الجميل
يا قدس هذا مستحيل
يا قدس حطين انتهت
وصلاح عاد مكبلا فى ظلمة الأسر
الطويل
والعقم داء قد أصاب قلوبنا
وأصاب أشجار النخيل

(٦)

يا قدس أحلم أن أعود
يا قدس ضقت من التسكع
عند شارات الحدود
يا قدس جثة طفلتى
تطفو بعينى كلما دمعى يجود
يا قدس هذا موطنى
وأنا الذى من داخلى مطرود
يا قدس أحلم أن أصلى فى
الرحاب
ولا أعود
وبأن أطهر من دمائى كل أرجاس
اليهود
قسما إذا......
يوما دخلنا المسجد الأقصى
سأفرش جفن عينى للسجود
وأظل أصرخ فى القيام وفى القعود
يا قدس يا عربية
منذ البداية
ولحين ينفض الوجود





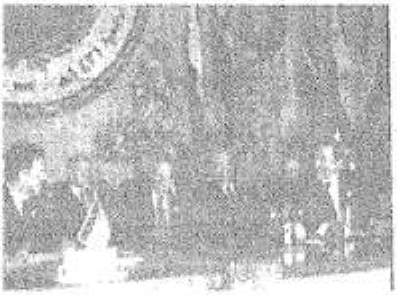
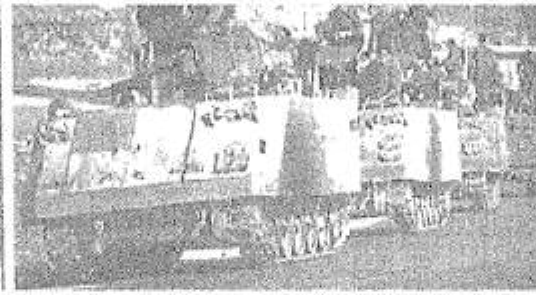
القدس



وثائق

سندع الوثائق تتكلم، وهى وثائق وزارات الخارجية والأمم المتحدة حول مدينة القدس، ولابد أن تدهش من التغيرات فى الموقف الأمريكى عندما ترى كيف عارضت وزارة الخارجية الأمريكية نقل مقر وزارة الخارجية الاسرائيلية عام ١٩٥٣ إلى القدس الغربية، وأصدر وزير الخارجية الأمريكى فى الثامن والعشرين من يوليو بيانا أعرب عن أسف بلاده لقرار الحكومة الاسرائيلية نقل وزارة الخارجية من تل أبيب إلى القدس. وأعلن الوزير الأمريكى أن بلاده لاتنوى نقل سفارتها إلى القدس.

وفى يوليو ١٩٦٧، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا يتناول وضع القدس بأغلبية ٩٩ صوتا، أعربت عن القلق من الوضع فى القدس والاجراءات التى اتخذتها لتغيير وضع المدينة المقدسة، وأكد فى ١٤ يوليو من نفس العام جولد برج المندوب الأمريكى الدائم معارضة بلاده القيام بأى عمل يتعلق بوضع القدس.

وأعلن أن الولايات المتحدة لا تقبل ولا تعترف بالاجراءات التى اتخذتها حكومة اسرائيل. وفى ذات اليوم أصدرت الجمعية العامة قرارها رقم ٢٢٥٤ دعت فيه اسرائيل لإلغاء كل الاجراءات التى اتخذتها ، وأن عليها أن تمتنع عن القيام بأى عمل من شأنه تغيير وضع القدس .

وفى الرسائل المتبادلة بين الرئيس أنور السادات والرئيس الأمريكى كارتر فى سبتمبر ١٩٧٨ ، يؤكد كارتر أن موقف الولايات المتحدة من القدس هو ذاته ما سبق وأعلنه السفير جولد برج أمام الجمعية العامة .

وفى سنة ٢٠٠٠ يتحول كل ذلك إلى دخان فى الهواء.

بيان جولد برج حول القدس
فى ١٤ يوليو ١٩٦٧

إن آراء حكومتى بشأن القدس عبر عنها رئيس الولايات المتحدة الامريكية ومسئولون آخرون على مستوى عال.

ففى ٢٨ يونيو اصدر البيت الابيض البيان التالى:

قال الرئيس فى ١٩ يونيو انه من وجهة نظرنا «لابد ان يكون هناك اعتراف كاف بالاماكن المقدسة فى مدينة القدس». وهو يفترض بناء على هذا المبدأ أن يسبق القيام بأى عمل من جانب واحد بشأن وضع القدس مشاورات كافية مع الزعماء الدينيين وغيرهم ممن يهمهم الامر بشدة . فالقدس مقدسة لدى المسيحيين واليهود والمسلمين. انها واحد؟ من مآسى التاريخ الكبرى المستمرة ان تصبح مدينة محورا للصراع بينما هى تمثل إلى حد كبير محورا لأسمى القيم الانسانية. ومرة تلو الأخرى أدت المعتقدات العاطفية لدى عنصر ما إلى استبعاد الاخرين أو عدم انصافهم . وقد كان الامر كذلك/ لسوء الحظ / على مدى العشرين عاما الماضية. وسوف يتفق معى اصحاب جميع الديانات على ضرورة ان نفعل الآن ما هو افضل . وعلى العالم ان يوجد اجابة واضحة ومعترفاً بأنها واضحة..

البيان الثاني صدر فى نفس اليوم من جانب وزارة الخارجية الامريكية وجاء فيه أن:

- الاجراء الادارى المتعجل الذى اتخذ اليوم لايمكن ان يعتبر محددا لمستقبل الاماكن المقدسة أو وضع القدس فيما يتعلق بهم.





– والولايات المتحدة لم تعترف ابدا بأن مثل هذه الافعال احادية الجانب بواسطة اى من دول المنطقة تحكم او تقرر الوضع الدولي للقدس.

نعود مرة أخرى إلى جولد برج فنجده يقول : خلال بياني امام الجمعية العامة فى الثالث من يوليو قلت ان حماية الاماكن المقدسة وحرية وصول الجميع اليها ينبغى ان يكون مضمونا على المستوى الدولى، ووضع القدس فيما يتعلق بتلك الاماكن ينبغى ألا يتقرر بشكل أحادى الجانب ولكن بالتشاور مع جميع المعنيين.

وهذه البيانات تمثل السياسة المدروسة والمستمرة لحكومة الولايات المتحدة.

وفيما يتعلق بالاجراءات المعنية التى اتخذتها حكومة اسرائيل فى ٢٨ يونيو أود أن أوضح أن الولايات المتحدة لاتقبل أو تعترف بأن هذه الاجراءات تمثل تغييرا لوضع القدس . وحكومتى لاتعترف بأن هذه الاجراءات الادارية التى اتخذتها حكومة اسرائيل فى ٢٨ يونيو يمكن ان تعتبر الكلمة الاخيرة فى الموضوع . ونحن نأسف لاتخاذ تلك الاجراءات ونصر على ان تلك الاجراءات لايمكن اعتبارها الا اجراءات انتقالية ومؤقتة ولا تحدد مسبقا الوضع النهائى والدائم للقدس.

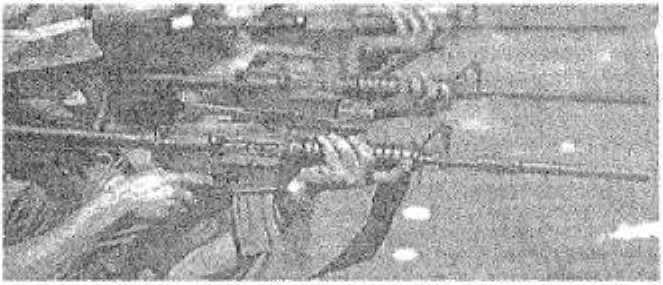
وللاسف ولسوء الحظ فان البيانات الصادرة عن الحكومة الاسرائيلية بشأن هذا الموضوع لم تتناول من وجهة نظرنا هذا الوضع حتى الان بشكل كاف.

وكثير من المندوبين يعلمون اننا كنا مستعدين للتصويت على قرار منفصل بشأن القدس يعلن أن الجمعية العامة لن تقبل أى عمل احادى الجانب كمحدد لوضع القدس، وتناشد حكومة اسرائيل الكف عن اى عمل يفترض منه تحديد وضع القدس بشكل دائم. غير ان الرعاة اوضحوا وقتئذ وهذا حقهم انهم يفضلون المضى فى النص الخاص بهم فى الوثيقة ايه ٢٢٥٣ والآن فى قرارهم اية آل ٥٢٨/ التنقيح ٢.

ومشروع القرار الاخير يتضمن تعديلات نرى انها تمثل تحسينا على النص الاصلى وخاصة من منطلق انها لم تعد تميل إلى عملية اصدار الحكم مسبقا فى مجلس الامن.

ومع ذلك منذ ان كان القرار الذى تم للتو تبنيه مبنيا بشكل واضح على القرار ٢٢٣٥ الذى امتنعنا عن التصويت عليه لاسباب ذكرناها على الملأ.

واتساقا مع ذلك التصويت امتنعنا اليوم ايضا عن التصويت .

وحتى بصورته المنقحة فان هذا القرار لا يتناسب تماما مع وجهات نظرنا وخاصة من منظور اعتقادنا بأن مشكلة القدس لايمكن حلها بشكل حقيقى بعيدا عن الاوجه الاخرى المتعلقة بالقدس وبالوضع فى الشرق الاوسط . ولهذا امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت.

وقد عبرنا بالطبع مؤخرا عن انفسنا بطريقة اكثر رسمية بتصويتنا على مشروع قرار يتناول مشكلة القدس. وكان ذلك القرار المقدم من دول امريكا اللاتينية وارداً فى الوثيقة ايه ال٥٢٣ تنقيح ١. الذى تناول مشكلة القدس باعتبارها احد العناصر المشمولة فى اى تسوية سلمية فى الشرق الاوسط.

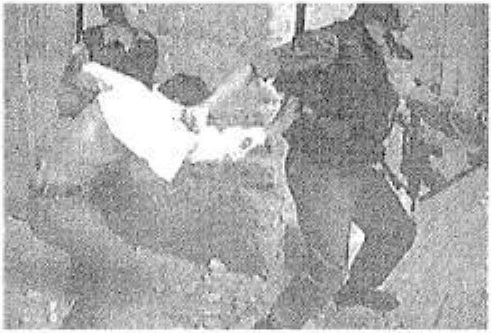
ولم نستطع تأييد القرار رقم ٢٢٥٣ نظرا لانه يعالج وجها واحدا لمشكلة القدس كقضية متفردة منفصلة عن العناصر الاخرى للقدس وعن ايجاد تسوية سلمية فى الشرق الاوسط.

والقدس بكل تاكيد وحسبما اوضح كل متحدث على مستوى العالم قضية هامة وفى رأينا يجب بالضرورة ان تبحث فى اطار تسوية لجميع المشاكل الناشئة عن الصراع الاخير. وفى القدس هناك مصالح روحية سامية ولكن هناك ايضا قضايا اخرى هامة. ونحن نعتقد ان المنهاج الاجدى والانفع فى مناقشة مستقبل القدس يكمن فى تناول المشكلة برمتها باعتبارها احد الاوجه المتعددة لترتيبات اوسع يتعين اتخاذها لاستعادة سلام عادل ودائم فى المنطقة . ونحن نعتقد اننا ثابتون على مشروع القرار الذى تبدى استعدادنا لرعايته وهو ضرورة ان تتناول الجمعية العامة المشكلة باعلان معارضتها لاى تغيير احادى الجانب فى وضع القدس.

قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة
رقم ٥٣/٥٢ في ٩ ديسمبر ١٩٩٧

الجمعية العامة :

إذ تعيد إلى الاذهان قراراتها رقم ٣٦/١٢٠ اى الصادر فى ١٠ ديسمبر ١٩٨١ ٣٧/١٢٣ سى الصادر فى ١٦ ديسمبر ١٩٨٢ و ٣٨/١٨٠ سى فى ١٩ ديسمبر ١٩٨٣ و ٣٩/١٤٦ سى فى ١٤ ديسمبر ١٩٨٤ و ٤٠/١٦٨ سى فى ١٦ ديسمبر ١٩٨٥ و ٤١/١٦٢ سى فى ٤ ديسمبر ١٩٨٦ و ٤٢/٢٠٩ د- فى ١١ ديسمبر ١٩٨٧ و ٤٣/٥٤ سى فى ٦ ديسمبر ١٩٨٨و ٤٤/٤٠ سى فى ٤ ديسمبر ١٩٨٩ و٤٥/٨٣ سى فى ١٣ ديسمبر ١٩٩٠ و ٤٦/٨٢ بى فى ١٦ ديسمبر ١٩٩١ و ٤٧/٦٣ بى فى ١١ ديسمبر ١٩٩٢ و ٤٨/٥٩ ايه فى





١٤ ديسمبر ١٩٩٣ و ٤٩/٨٧ ايه في ١٦ ديسمبر ١٩٩٤ و ٥٠/٢٢ ايه في ٤ ديسمبر ١٩٩٥ و ٥١/٢٧ في ٤ ديسمبر ١٩٩٦ الذى اصرت فيه على بطلان وحتمية الغاء كافة الاجراءات والاعمال الادارية والتشريعية التي اتخذتها اسرائيل سلطة الاحتلال، والتى غيرت أو يفترض ان تغير طابع ووضع مدينة القدس الشريفة وبالاخص ما يسمى القانون الاساسى للقدس واعلان القدس عاصمة لاسرائيل.

واذ تعيد الجمعية العامة إلي الاذهان ايضا قرار مجلس الامن رقم ٤٧٨ لعام ١٩٨٠ الصادر في ٢٠ أغسطس ١٩٨٠ والذى قرر فيه المجلس ضمن امور اخرى عدم الاعتراف بالقانون الاساسى وناشد تلك الدول التى اقامت بعثات دبلوماسية فى القدس ان تسحب مثل هذه البعثات من المدينة المقدسة.

وبعد دراسة التقرير المقدم من السكرتير العام:

١- تقرر الجمعية العامة ان قرار اسرائيل بفرض قوانينها وسلطانها القضائى واداراتها على مدينة القدس غير قانون وبالتالى باطل ولاغ وليس له اى سند قانونى.

٢- تأسف لقيام بعض الدول بنقل بعثاتها الدبلوماسية إلى القدس منتهكة بذلك قرار مجلس الامن رقم ٤٧٨ لعام ١٩٨٠ ورفضها الامتثال لبنود ذلك القرار.

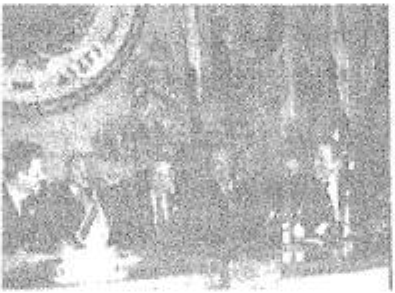
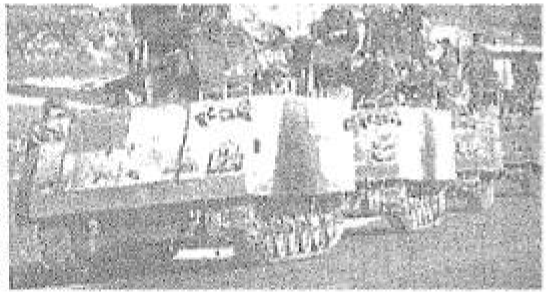
٣- تدعو مجددا تلك الدول الى الانصياع لبنود قرارات الامم المتحدة ذات الصلة تمشيا مع ميثاق الامم المتحدة.

٤- تطلب من السكرتير العام ان يرفع تقريرا إلى الجمعية العامة فى دورتها الثالثة والخمسين بشأن تطبيق القرار الراهن.

الاجتماع الموسع الثامن والستين فى ٩ ديسمبر ١٩٩٧.

نص البيان الذى ألقاه تشارلز يوست المندوب الامريكى لدى الامم المتحدة امام مجلس الامن بشأن القدس فى الاول من يوليو عام ١٩٦٩.

جرى اليوم توجيه الدعوة لمجلس الامن للانعقاد من جديد للنظر فى عدة اجراءات معينة كانت الحكومة الاسرائيلية قد اقدمت على اتخاذها بشأن القدس حيث ادلي عدد من مندوبى الدول العربية ببيانات اعربوا من خلالها عن استنكارهم لمثل هذه التصرفات.

وقد اظهر ذلك النقاش بصورة جلية تماما ان وضع مدينة القدس لا يمثل مشكلة منفصلة بل أنه يعد بمثابة جزء لا يتجزء من مجموعة كاملة ومعقدة من القضايا المتعلقة بالصراع فى منطقة الشرق الاوسط والتى يتعين ان يتم ايجاد حلول لها مجتمعة وفى آن واحد. وقد اعترف مجلس الامن بشكل واضح بهذه الحقيقة من خلال قراره رقم ٢٤٢ الذى يقضى بالتعامل مع الوضع فى الشرق الأوسط كقضية واحدة وهو القرار الذى مازال يعد حتى يومنا هذا بمثابة المنهاج الذى ينبغى اتباعه من اجل التوصل لتحقيق سلام عادل ودائم فى تلك المنطقة.

وانكم جميعا على دراية بالجهود الشاقة التى تبذلها حكومتى من اجل مساعدة السفير يارنج على التوصل إلى تسوية سلمية. وانني اذ أعترف بأن التقدم الذى تشهده هذه الجهود يسير بخطى بطيئة إلا اننى أصر على ان ذلك لا يعد بالامر غير المتوقع فى ضوء مدى عمق وتغلغل جذور هذا الصراع. غير انه من الاهمية بمكان حقا التأكيد على انه قد جرى بالفعل احراز قدر من التقدم ، وان حقيقة ان هذا التقدم لم يتوج حتى الان بنجاح كبير ينبغى الا تدفعنا للشعور باليأس كما انه يجب ايضا الا يتم استغلال ذلك كذريعة او كمبرر للاتيان بتصرفات قد تصعب بدرجة اكبر من فرص احراز مزيد من التقدم وهو الامر الذى ينطبق بشكل محدد على القدس.

فالقدس فى حقيقة الامر تحتل مكانة خاصة فى عقولنا وقلوبنا جميعا وذلك على اعتبار انها تعد واحدة من اكثر المدن قداسة على مستوى العالم بأسره، كما انها تمثل كذلك مزارا مقدسا لاكبر واقدم ثلاث ديانات سماوية عرفها العالم الا وهى الاسلام والمسيحية واليهودية . وفى ضوء ما سبق ترى الولايات المتحدة دوما ان القدس تتمتع بوضع دولى متفرد، وانه ينبغى الا يتم اتخاذ اى اجراء بشأنها دون ان يراعى ذلك الاجراء التاريخ الخاص بتلك المدينة ووضعيتها المتميزة لدى المجتمع الدولى ككل. غير انه مما يدعو للاسف انه قد جرى بالفعل اتخاذ بعض الاجراءات التى ادت لانتهاك حرمة السلام فى القدس وهو الامر الذى اثار مشاعر قلق عميقة لدى حكومتى بل ولدى المجتمع الدولى بأسره.

سيدى الرئيس.. اننا ندرك طبيعة المشاعر العاطفية المحركة لكافة الاطراف المعنية بالنزاع العربى الاسرائيلى فيما يتعلق بموضوع القدس، غير اننا لا نرى ان ما يحدث حاليا فى منطقة القدس الشرقية على وجه التحديد سوف يساعد على التهدئة من حدة هذه المشاعر





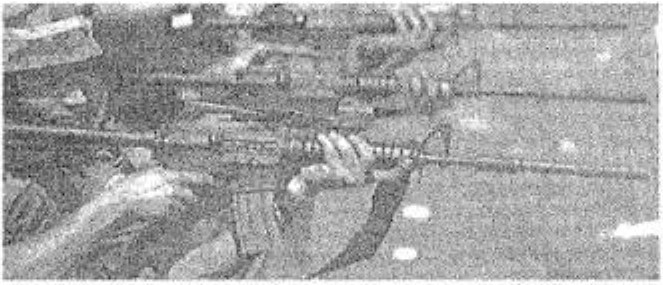
العاطفية المتأججة. وينطبق ذلك على الاجراءات التى يتخذها اولئك الذين يتولون زمام السلطة هناك فى الاونة الراهنة وايضا على التصرفات التى يقوم بها الافراد، الذين يشعرون بأنهم مغبونون ومن ثم فإنهم يعمدون لاستغلال ذلك كمبرر للجوء لاستخدام العنف .

فمصادرة الاراضى وبناء المساكن عليها وهدم المبانى بما فى ذلك تلك التى تتسم بأهمية دينية أو تاريخية فضلا عن تطبيق القانون الاسرائيلى على الاجزاء المحتلة من القدس تعد كلها من الأمور التى تقوض المصالح المشتركة لنا جميعا فى هذه المدينة.

إن الولايات المتحدة ترى ان المنطقة التى تمكنت اسرائيل من السيطرة عليها خلال حرب يونيو شأنها فى ذلك شأن كافة المناطق الاخرى التى احتلتها اسرائيل، تعد بمثابة أرض محتلة ومن ثم فإنها تخضع لكافة بنود القانون الدولى المتعلقة بحقوق وواجبات والتزامات اى قوة احتلال. وتقضى هذه البنود الدولية الملزمة لاسرائيل، مثلما هي ملزمة لاى جهة احتلال اخرى بأنه لا يحق لقوة الاحتلال القيام بأى تعديلات فى القوانين او احداث اى تغييرات فى اسلوب الادارة فى المناطق المحتلة ، عدا تلك التى يتم اتخاذها بصفة مؤقتة فى ضوء الاعتبارات الامنية لذلك الطرف المحتل . كما انه يتعين كذلك على اى قوة احتلال الا تقوم بمصادرة او تدمير الملكية الخاصة. وتنص معاهدة جنيف وسائر الاعراف المعمول بها فى اطار القانون الدولى بشكل واضح على أنه يتعين على اى قوة احتلال المحافظة على الاراضى المحتلة، كما هى بدون اجراء أى تغييرات أو تعديلات وايضا دونما التدخل فى اسلوب الحياة السائد فى تلك المنطقة، كما أنه ينبغى كذلك عدم القيام بأى تغييرات قد تترتب نتيجة للاحتياجات العاجلة لسلطة الاحتلال.

غير أنه يؤسفني ان اقول ان التصرفات التى تقوم بها اسرائيل فى الجزء المحتل من مدينة القدس تختلف عن ذلك تماما فهى تصرفات تؤدى إلى اثارة مشاعر قلق ، لها ما يبررها بالفعل بشأن محاولة تغيير وضع منطقة القدس الشرقية فضلا عن ان حقوق ونشاطات سكان تلك المنطقة قد بدأت تتأثر بالفعل من جراء ذلك.

وفي الحقيقة، تشعر حكومتي بالاسف حيال مثل هذه التصرفات كما انها قامت باخطار حكومة اسرائيل بذلك فى مناسبات عدة منذ يونيو عام ١٩٦٧ . ونحن نعرب دوما عن رفضنا الاعتراف بمثل هذه الاجراءات حيث نرى انها تعد مجرد اجراءات ذات طبيعة مؤقتة لذا فإننا




لا نقبل ان تؤثر تلك الاجراءات على الوضعية النهائية للقدس.

ولقد قمت بشئ من التفصيل بتفسير ابعاد المعارضة التى تبديها الولايات المتحدة لاجراءات معينة اقدمت الحكومة الاسرائيلية على اتخاذها فى القدس غير انه لايسعنا حسبما اشرت آنفا ، ان نتعامل مع مشكلة القدس بدون وضعها فى اطارها الصحيح الا وهو الوضع فى منطقة الشرق الاوسط ككل. ويطيب لى فى هذا الصدد ان اشير إلى ان واحدا من أهم القرارات السياسية التى قام الرئيس نيكسون باتخاذها فى اعقاب توليه السلطة خلال العام الحالى تمثل فى ان تقوم الحكومة الامريكية باتخاذ مبادرات جديدة تهدف إلى المساعدة فى تحقيق السلام فى منطقة الشرق الاوسط. ولقد قمنا بالفعل على مدار الاشهر الماضية ببذل قصارى جهدنا من اجل تحقيق ذلك كما اننا سوف نستمر فى بذل جهودنا فى هذا الصدد ايضا. ولكننى اؤكد ان تلك الجهود لن تكلل بالنجاح فى النهاية الا فى حالة توافر حسن النوايا والتعاون من جانب الاطراف المعنية ذاتها. وفى حقيقة الامر، كان يتعين أن يتم التوصل إلى سلام عادل ودائم فى منطقة الشرق الأوسط منذ فترة طويلة خلت غير انه لن يتسنى ابدا تحقيق هذا السلام المنشود عن طريق الانفجارات او عمليات الارهاب التى تؤدى دوما إلى سقوط ضحايا ابرياء من المدنيين او من خلال المحاولات التى يتم اتخاذها من جانب واحد بهدف تغيير وضع مدينة القدس. ولكن السبيل الوحيد لتحقيق مثل هذا السلام الدائم والعادل يتمثل فى آليات وعمليات التفاوض والتفاهم والاتفاق ، كما انه لن يتحقق الا من خلال التزام الاطراف المعنية بأقصى قدر ممكن من ضبط النفس ليس فقط على امتداد خطوط وقف اطلاق النار او من خلال البيانات العلنية التى تصدرها تلك الاطراف بل ايضا على ارض الواقع فى داخل مدينة القدس ذاتها.

وفى ضوء حقيقة اننا نتعامل مع مشكلة القدس فى اطار الاوضاع العامة فى منطقة الشرق الاوسط برمتها اود ان اؤكد ان وفد بلادي سوف يقوم بالنظر فى اى اقتراح يتعلق بالأوضاع فى هذه المدينة ، ويدعو لاتخاذ إجراء حيالها من قبل مجلس الأمن لتحديد ما إذا كان هذا الاقتراح سوف يساعد الجهود الرامية للتوصل إلى تسوية سلمية شاملة، أو انه سوف يعرقلها فعلى سبيل المثال من المحتمل ان يقوم مجلس الامن بمطالبة الاطراف بأن تكف عن تبادل الاتهامات وبأن تحجم عن اتخاذ اى اجراء في القدس او غيرها قد يكون من





شأنه النيل من احتمال التوصل إلى تسوية نهائية شاملة او تحقيق سلام دائم وعادل. ومن ثم ، ينبغي لنا عند التعامل مع مشكلة الاوضاع في القدس ان نؤكد مرة اخرى انه يتعين على اطراف هذا النزاع المحتدم بشأن اكثر مدن العالم حرمة وقدسية أن تتصرف بشكل يتسم بالمسئولية من اجل حل هذا الصراع بالكامل، كما اننا ندعو تلك الاطراف ايضا لان تحجم عن اتخاذ اى اجراءات قد يكون من شأنها زيادة تفاقم الموقف بدرجة اكبر.

رسالة من الرئيس المصرى انور السادات إلى الرئيس جيمى كارتر فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨

عزيزى السيد الرئيس :

اكتب اليك لتأكيد موقف جمهورية مصر العربية بخصوص القدس:

١- القدس العربية جزء مكمل للضفة الغربية ويتعين احترام واستعادة حقوق العرب القانونية والتاريخية فى المدينة.

٢- القدس العربية ينبغى ان تكون تحت السيادة العربية.

٣- سكان القدس العربية من الفلسطينيين لهم الحق فى ممارسة حقوقهم الوطنية المشروعة باعتبارهم جزءا من الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية.

٤- لابد من تطبيق قرارات مجلس الامن ذات الصلة وخاصة القرارين رقم ٢٤٢ و ٢٦٧ فيما يتعلق بالقدس . كل الاجراءات التى اتخذتها اسرائيل لتغيير وضع المدينة تعتبر باطلة وينبغى إلغاؤها.

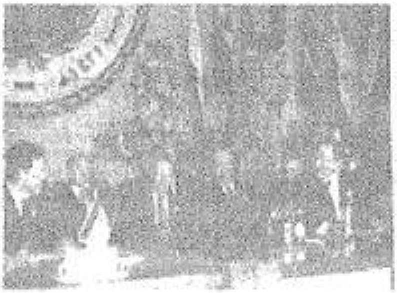
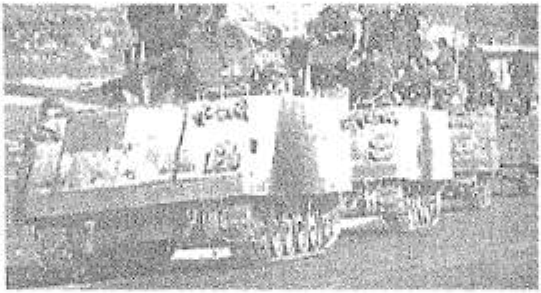
٥- جميع الشعوب يجب ان تتمتع بحرية دخول القدس وان تنعم بحرية ممارسة الشعائر الدينية وحق زيارة والانتقال إلى الاماكن المقدسة بدون تحيز أو تمييز.

٦- الاماكن المقدسة لكل ديانة ينبغى ان توضع تحت ادارة واشراف ممثليها.

٧- يتعين عدم تقسيم الوظائف الاساسية فى المدينة ويمكن لمجلس محلى مشترك يتألف من عدد متساو من الاعضاء العرب والاسرائيليين ان يتولى الاشراف على تنفيذ هذه الوظائف وبهذه الطريقة ستكون المدينة غير مقسمة.

المخلص

محمد انور السادات

رسالتان من بيجين وكارتر

نص رسالة من رئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجين للرئيس الامريكى جيمى كارتر فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨

عزيزى الرئيس

انه ليشرفنى ان ابلغكم يا سيادة الرئيس ان الكنيست الاسرائيلى قام فى ٢٨ يونيو ١٩٦٧ بالتصديق على القانون التالى نصه : يحق للحكومة بمقتضى مرسوم فرض القانون وتحديد الاختصاصات وتصريف امور الدولة فى اى جزء من اجزاء ايريتز اسرائيل/ أرض اسرائيل/ فلسطين وذلك حسبما هو منصوص عليه فى المرسوم.

وعلى اساس هذا القانون قامت حكومة اسرائيل فى يوليو عام ١٩٦٧ باصدار مرسوم مؤداه أن القدس مدينة واحدة غير مقسمة وانها عاصمة لدولة اسرائيل.

المخلص

مناحم بيجين

نص رسالة من الرئيس الامريكى جيمى كارتر للرئيس المصرى انور السادات فى ٢٢ سبتمبر ١٩٧٨

عزيزى الرئيس

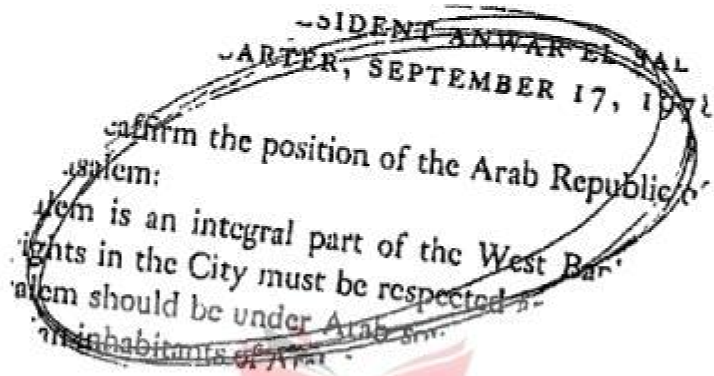
لقد تلقيت رسالتكم المؤرخة بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ والتى تحدد ابعاد الموقف المصرى من مدينة القدس، وقد قمت بارسال نسخة من هذه الرسالة لرئيس الوزراء بيجين للاطلاع والعلم.

ومازال موقف الولايات المتحدة من القدس يتمثل فيما اعلنه السفير جولد برج امام الجمعية العامة للامم المتحدة فى ١٤ يوليو ١٩٦٧ ثم ما اعلنه السفير يوست امام مجلس الامن الدولى فى ١ يوليو ١٩٦٩.

المخلص

جيمى كارتر

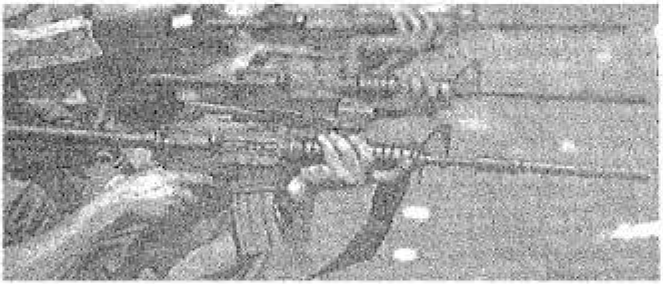


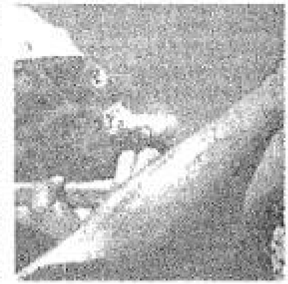
قلز ١٥ ترجمة مصر ٠٢/١٠/٠٠ ١١ : ٣٢ حفظ

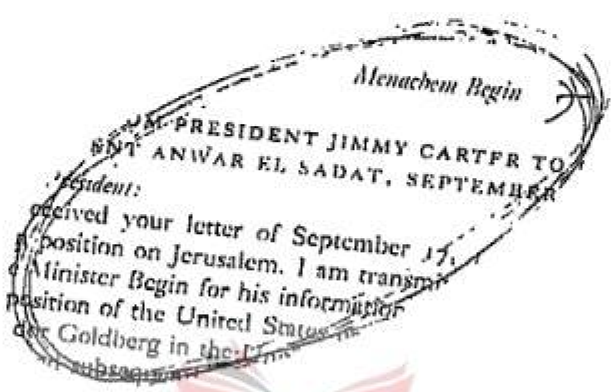
اعلان اسوان

فى أول ايام عام ١٩٧٨ وفى اطار الجهود الرامية لحشد التأييد على المستوى العربى للرئيس السادات التقى الرئيس الامريكى جيمى كارتر مع الملك حسين. عاهل الاردن فى طهران، وعلى الرغم من ان الجو العام الذى ساد هذا الاجتماع كان طيبا الا ان الملك حسين ظل حريصا على عدم قطع اى التزامات محددة . وقد اعرب كارتر خلال هذا الاجتماع عن تأييده لان يتم ادخال بعض التعديلات ذات الاهمية الثانوية على خط حدود عام ١٩٦٧ فى منطقة الضفة الغربية فضلا عن منح الفلسطينيين قدرا محدودا من الحكم الذاتى تمهيدا لحصولهم على استقلال كامل.

كما التقى كارتر مع القادة السعوديين بالرياض فى الثالث من يناير حيث اعرب مجددا عن نفس آرائه السابق ذكرها . وقد اظهر السعوديون استعدادا للتوفيق والمصالحة غير انهم ظلوا مصرين على ضرورة ان يكون للفلسطينيين الحق فى أن تكون لهم دولة مستقلة. وذكر الرئيس الامريكى انه سوف يبذل قصارى جهده من أجل حمل رئيس الوزراء الاسرائيلى بيجين على قبول مبدأى الانسحاب وحق تقرير المصير للفلسطينيين، وذلك بالاضافة إلى فكرة ان تكون هناك فترة انتقالية غير ان العاهل السعودى الملك خالد طالب بضرورة الا تكون هذه الفترة طويلة للغاية.






Menachem Begin
PRESIDENT JIMMY CARTER TO
ANWAR EL SADAT, SEPTEMBER
resident:
eceived your letter of September 17,
position on Jerusalem. I am transmi
Minister Begin for his information
osition of the United States
r Goldberg in the

وقد أدى هذا الموقف من جانب الرئيس الامريكى الى تورطه فى معركة كبرى مع اصدقاء اسرائيل فى داخل الكونجرس فى نفس الوقت الذى كان يسعى فيه جاهدا من احراز تقدم اطار مفاوضات السلام.

وفى الوقت نفسه سعى وزيرا الخارجية الامريكى فانس والسعودى الامير سعود من اجل وضع صيغة تعرب الولايات المتحدة بمقتضاها عن تأييدها لحق تقرير المصير بالنسبة للفلسطينيين.

وفى اليوم التالى توجه الرئيس كارتر إلى اسوان للالتقاء مع السادات حيث اعرب هناك عن أرائه المعروفة بشأن مدى الحاجة لتحقيق سلام حقيقى وكذا الانسحاب فى ظل اطار تحقيق الامن والعلاقات الطبيعية. وقال كارتر ينبغى ان يكون هناك حل للمشكلة الفلسطينية بكافة جوانبها حيث يجب ان يعترف هذا الحل بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فضلا عن تمكين الفلسطينيين من المشاركة فى تقرير مستقبلهم.

ولم تحظ هذه التصريحات التى عرفت فيما بعد باسم اعلان اسوان باستقبال طيب من جانب الاسرائيليين كما أن العرب لم يدركوا كيف يمكنهم الاستفادة بها. وعلى الرغم من ذلك حظى اعلان اسوان بقبول فى اطار المحادثات المصرية الاسرائيلية بل انه قد جرى فى نهاية الامر دمجه فى اطار اتفاقيات كامب ديفيد.

أنت والهلال

العدوان السافر على الشعب الفلسطينى يكشف إسرائيل !

كشفت الأحداث الدامية فى الأرض الفلسطينية المحتلة كل الحقائق حول الأوهام التى عاش فيها بعض العرب لفترة طويلة ، حيث تصوروا أن اسرائيل تريد السلام ، وتود عمل تسوية تاريخية بين العرب واليهود .

وظهر خلال هذه الفترة أنها أكاذيب وأساطير وخرافات ! وأساطير ليس أمامها لكى تحقق أهداف الحركة الصهيونية سوى أن تقتل ، وأن تدمر ، وأن تذبح الفلسطينيين .

وثبت أيضا استحالة ذلك ، لأن العالم الآن أصبح قرية صغيرة ، وما حدث دخل كل بيت فى العالم من خلال محطات التليفزيون . وفى خلال الصراع العربى الاسرائيلى الذى استمر ١٠٠ سنة وقيام اسرائيل منذ ٥٢ سنة ، لم يحدث فى يوم من الأيام أن عبىء الشعب العربى والإسلامى والعالمى من اسرائيل كما عبىء خلال الأسبوعين الماضيين .

ولأول مرة يثور عرب ١٩٤٨ ضد سلطات الاحتلال الإسرائيلى ، وتظهر اسرائيل على حقيقتها العنصرية ، وتهاجم الشرطة الإسرائيلية العرب فى كل من الناصرة وعكا وحيفا ويافا وتقتل ٢٠ من هؤلاء العرب وتصيب المئات .

د . ممدوح عثمان منصور
القاهرة

●● **الهلال :**

للقارىء العزيز نقول : إن هناك علاقة مميزة بين عصرين من خلال تلك الأحداث الدموية ، وهذا القتل الوحشى الذى حدث للشعب الفلسطينى .

- عصر ما قبل انتفاضة القدس
- وعصر ما بعد الانتفاضة

ولم يكن العالم العربى ، أو العالم كله كما كان قبل الانتفاضة . لقد أثبتت الأحداث الماضية أن القوة لا تتمثل فى السلاح وحده ، وأن القوة الحقيقية لمن لديهم العلم والمعرفة والقدرة على الابتكار والخلق ، ومواجهة الأزمات .

وهذه هى الأمور الحاسمة فى مستقبل الصراع العربى الإسرائيلى .

انت والهلال

القدس

عـبنا الزمـــان عليك تنعـــفـدان   يا أخت مكة من قـــديم زمـــان
كلتـاكـمـا للفـجـر أهدت كـفـهـا   لـتكون لـلإنســـان كف حنان
كلتـاكـمـا وهج النبوة فـوقـهـا   بالواحـد الرحـمن تتـصـلان
كلتـاكـمـا من يعـرب مدت عـرى   لدمـائه والضـاد تنتـسـبان
نحن العـمـاليق الألى ملكوا الذرا   بثـراك شـدنا تالد البنيـان
تاريخنا يا قـــدس أنت سطوره   عـــربيـــة الآباء والولدان
ولى إليك المسلمـــون وجـوههم   بدءا ومسـرى أحـمـد العدنانى
من قـــمـــة الأنوار ثم بواسل   ســادوا الدنى بالحق والقـــرآن
وتسابقـوا كى يهدمـوا صنم الهوى   وعـبـادة الانسـان للإنسـان
يا قـدس فـارسك المقدر قـد أتى   اسلامـه أبداً كـتـاب أمـان
هى دخلة أولى لمسـجـدنا كـمـا   فى ســورة الاسـراء فى القــرآن
والمرة الأخـــرى سندخلـه إذا   خـــرجت جـيـوش الله دون توان

شعر: السيد عثمان

نداء القدس

أنادى أمـــة عـــملت بدائى   ولكن لم يحـركـهـا ندائى
كـأنى والعـدا تقـتـات لحـمى   وتشـرب بالتـلذاذ من دمـائى
بلا حـســام يذعنى بلاها   ويغـضب لى ويبكى من بكائى
مصابى ألم الأحـجار حزناً   وناحت منه اقطار السـمـاء
فـهل صمت مسـامـعهم وماتت   ضمـائرهم فـمـا حسوا ابتلائى ؟!

* * *

مضت خمسون عـامـا فى استلابى   فـهل من قـائد ينهى عنائى ؟!
أمـا قـد حـان عـودى نحـو اصلى   بجـيش عـارم يعلو لوائى ؟!
ومـا هذى الملايين الغـفـيـرة   أهانت ؟! إذ أهانت كـبـريائى
بقـبضـة غـاصبى ارجـو فكاكـاً   أمـا من ثائر يحـيى رجـائى ؟!
ألا يـا أمـــة الإســلام إنى   سـأرقـبك فكفى عن جـفـائى

* * *

بلى يا قــدس إن دمـــوع قلبى   ونـار الجـــرح زادت اصطلائى
ومـــاذا تصنع الكلمـــات لما   تقـابلنا رصـاصـات العـداء
أرى للفـجـر إرهاصـاً قـريبـاً   بـرغـم الـلـيـل أوشـك بـالـزهـاء
سنـأخـــذ ثأرنا من كل باغ   ونطعـمــه مـرارات الـبـلاء

فـيـا صـهـيـون ويلك من جـمـوع | تحب الموت حـسـبك للبـقـاء
سـيـرفع صـوتهـا : الله أكـبـر | مـدوية بأكناف الفـضـاء
ويرجع قـدسنا المنهـوب منا | ولو سـالت سـيـول من دمـاء

درهم جباري - سان فرانسيسكو

المقال الأدبي الذاتي بمجلة الهلال

كتب الأستاذ الفاضل الدكتور «محمد رجب البيومي» مقالاً بعدد هلال أغسطس ٢٠٠٠ يتساءل «أين المقال الأدبي الذاتي ؟» ، ونشر بريد الهلال رسالة من القارئة نيفين الجمل تقول : «أعتقد أن معظم كتاباتي تنتمي إلى المقال الذاتي» ، والحقيقة أنني منذ أن قرأت مقال الدكتور رجب البيومي وأنا أضرب كفاً بكف متسائلا .. ألا يقرأ الدكتور البيومي مجلة الهلال التي ينشر بها مقالاته ؟ ، إذن كيف يتلفت باحثا عن المقال الأدبي الذاتي ، ومجلة الهلال تعج بأفضل كتاب المقال الأدبي الذاتي ؟ أم هو لا يعترف بمقالات الأساتذة المبدعين وديع فلسطين ، وحسن سليمان ، وصافيناز كاظم ، وجلال أمين ، وحسين أمين ، وقبل كل شيء القسم الجميل الذي خصصته مجلة الهلال لكتاب «التكوين» ومعظمهم كتبوا مسيرة حياتهم ممتزجة بالزمان والمكان والأحداث بأسلوب لا يمكن أن يصنف إلا بكونه «مقال أدب ذاتي» ؟ تحية لمجلة الهلال التي تضم بين صفحاتها أرقى نماذج «المقال الأدبي الذاتي» ؟.

فتحي عبد السلام حسن - قارىء متذوق

[illegible]

أنّ الجنـين مـن انـتـظـار فـي دمـي | واسـتـحكمت كل الدروب إلى الفم
كم ألف قـيـد دون قـيـد حـاطه | سـحـقـاً لقـيـد مـا أحـاط بمعصم
وأخـذت أصـرخ دون صـوت علّني | يحـبـو جنيني للشـفـاه فـيـرتمي
ألم على ألم يهـز مـدامـعـي | ويتـوه في وسط الزحـام تألمي
هزي جناحك يا يمامـة رفـرفي | طيـري بأحـلامي ولا تتـوقـفي
هزي الجناح وعـانقي صدر السـ | ـحاب المستكين على ذراعي معطفي
ولتصفعي خد السمـاء بخافقيك | بغـيـر ذاك الصـفع لا لن أكـتـفي
إني وضـعـت بمقلتـيـك أمـانة | صـمـتي وصوتي وانتفاضة أحرفي

أحمد محمد عبد الحافظ عبده
المنصورة

أنت والهلال

ملاحظات على مقالات شائقة

هذه بعض ملاحظات على مقالات شائقة نشرت خلال هذا العام فى الهلال أم المجلات العربية .

فى مقال نشر فى عدد يناير من الهلال بعنوان : «بعد أربعين عاما ، جامعة الدول العربية ستصبح غير ذات موضوع» .. بقلم السفير عبد المنعم مصطفى الأمين العام المساعد للجامعة ، وكان قد نشره عام ١٩٥٩ ، وأعادت «الهلال» نشره وأول من استعمل هذا التعبير «غير ذات موضوع» هو أحمد لطفى السيد .

وفى عدد مارس مقال لحسن سليمان عن الفن الشعبى ورد فيه القول المنسوب إلى ونستون تشرشل وهو «ليس لدى ما أقدمه سوى العرق والدموع والدماء» وكان أول تصريح له فور توليه رئاسة الوزارة عام ١٩٤٠ .

أحمد عزيز
عمان - الأردن

● **الهلال :**
نشكر للقارىء العزيز رسالته الضافية ، والتى تناول فيها أيضا ما كتبه الأستاذ وديع فلسطين فى عدد مايو عن حديقة جبران التذكارية ، وما أشار إليه الشاعر محمد ابراهيم أبو سنة فى مقاله عن الناقد د . لويس عوض وأنه أول من قدم إلى الروائى العربى الروائى جيمس جويس ونشكر للقارىء دقته فى التحليل ، وإرساله بعض الصور الضوئية للكتب التى استقى منها معلوماته القيمة .

عن الشاعر عبد الحميد الديب

طالعت فى عدد سبتمبر من الهلال دراسة مطولة بعنوان «شاعر البؤس عبد الحميد الديب المهاجر الأبدى بين أقطار الأسى» بقلم الدكتور فهمى عبد السلام ..

وقد شعرت بسعادة بالغة حينما تصفحت الهلال ووجدت هذه الدراسة - فأنا من المغرمين بالشاعر الديب وبقصائده الفريدة فى بابها وأتتبع كل ما يكتب عنه بلا مبالغة - وقلت لنفسى عسى أن أجد فيها جديداً حيث إنها تغطى أكثر من عشر صفحات من الهلال .. ولكنى صدمت حينما بدأت أطالع الدراسة ، فالأسلوب غير مترابط وأبيات الشعر غير موزونة ويبدو أن الدكتور فهمى قد استشهد بالأبيات من ذاكرته .. والأغرب من هذا كله ؟ أن الدراسة برمتها عبارة عن تلخيص لأشهر كتابين عن الشاعر الديب .

عزت سعد الدين
مذيع بالبرنامج العام

أعجبني مقال عبد الحميد الديب

من الموضوعات التى أعجبتنى بعدد سبتمبر ٢٠٠٠ من مجلة الهلال ، المقال الذى كتبه د . فهمى عبد السلام عن «شاعر البؤس عبد الحميد الديب» .

فقد ذكرتنى هذه الشخصية بمقال آخر كان قد نشر بمجلة الهلال أيضا فى سبتمبر ١٩٩٩ عن الفنان «أمين بك المهدى» تحت عنوان «الفنان وضبط الإيقاع» .

فالشخصيتان متشابهتان من حيث إبداعاتهما ومعاناتهما وتجاهل الآخرين لهما .

ولقد حاولت أن أبحث عن العامل المشترك بينهما الذى أدى بهما إلى هذه الحالة من البؤس والاخفاق فلم أجد سوى الآتى :

١ - تناول المخدرات والمسكرات - وهى حالة قد يلجأ إليها بعض الفنانين هربا من مشاكلهم ، أو رغبة فى قدح هممهم وإنعاش قراحهم ، فتكون النتيجة عكسية تماما ، حيث ينتهى بهم الأمر إلى الإدمان والقضاء على عبقريتهم وحياتهم معا .

٢ - حب النقد والهجاء اللاذع - وهى طبيعة كثير من الفنانين والأدباء ، ولكنها طبيعة تعود بالوبال عليهم .

فبأسهل ما يكون نجد أن عبد الحميد الديب يهجو أصدقاءه والمتعاطفين معه أمثال كامل الشناوى ومحمد أحمد الصاوى وابراهيم الدسوقى أباظه .

عادل شافعى الخطيب
عضو اتحاد الكتاب

آهة مكتومة

من أين جئت وكيف نبه خاطرى ... ألق على شفة الهوى يتأرج ؟
ألق كأحلام الزهور إذا غفت ... يفتن فى ألوانها ويدبج
ويهدهد الغصن الجديب فينتشى ... ويعود ذابله نديا يبهج
وإذا اشرت ترف أجنحة المنى ... وإذا سكنت فكل قلب يخلج
وإذا نطقت فكل لفظ همسة ... تنساب فى القلب الكليم فيثلج
وتذوين النور فى العطر الذى ... فتن الرياض فأقبلت تتبرج

فـــإذا بســـحـــرك هز أكناف الربا والطيـــر ترتجـــز اللحـــون وتهـــزج
إلا أنا جـــثم الاسى فى ســـاحـــتى ومـــضى وخلف حـــســـرة تتـــأجج
أتراه إذ سكب الغـــرام بمهـــجـــتى جـــعل اللظى بدمى يذوب ويمزج ؟
فـــأحـــســـه ألما يهـــز جـــوانحى مـــهـــمـــا شكوت فليس ثمـــة مـــخـــرج

شوقى محمود أبو ناجى
أبو تيج

مسألة ولادة

الكل شاخص ببصره ناحية الباب ينتظر خروج الداية بالبشرى .. يمر الوقت سريعا والدايـة تعـافـر مع المرأة فـيدب القلق فى نفـوسـهم ، تتحـول أنظارهم تجاه قـرص الشمس .. مازال في الوقت بقية .. تطل الداية آمـرة .. اسـتدعوا الداية الثانيـة .. الولادة عسيرة .. يأمر شيخ القبيلة بإحضارها .. يناقش الناس الحدث .. أهل المرأة يبغضون شيخ القبيلة .. المرأة كانت تعشق شيخ القبيلة .. أهلها لا يمتون لشرف القبيلة بصلة .. يقترب قرص الشمس من مخدعه فتتضرب القلوب .. تخرج الداية عابثة .. المرأة ترفض أن تضع حملها .. يزداد شيخ القبيلة غضبا .. يدخل إليها ليناقشها الأمر .

لما تريدين إفساد أفراح القبيلة ومنذ زمن لم يولد لها مولود ؟! ..ألم يعقد عليك زوجك ؟! .. ألم يدخل بك ؟! .. ألم .. الخ ؟!

- قالت لا .. صرخ فيها مستنكراً جوابها

ألم يعقد لكما مأذون القبيلة وكنت أنا أحد الشهود .. ؟!

- قالت بلى .. استرد هدوءه .. لماذا ترفضين ؟!

- قالت .. ألست أنت شيخ القبيلة .. ؟!

رفع رأسه منتشيا .. بلى وأردف ثم ماذا ؟!

- قالت .. إذن فاتت كل شيء .. ؟ يصرخ أحدهم .. الشمس أوشكت على الغروب .. يأمر شيخ القبيلة فلتلد رغما عنها .. تتكور المرأة على نفسها .. تقاوم وتقاوم .. عرف

القبيلة .. إذا أورقت بذرة في الظلام فهو عار وشؤم على القبيلة .. يتجمع عشرة رجال .. عشرون .. ثلاثون .. ما زالت المرأة تقاوم وعندما تسمع نعيق البوم والغربان تتأكد من حلول الظلام .. تبتسم .. الآن سأكفيكم صعوبة المهمة .. تخرج الداية صامتة لتعلن وبصوت مشروخ .. الولادة تمت والجنين خرج ميتا ..!

عبد الحافظ عبد الحميد سلطان
قصر ثقافة ديروط

مناهج التفكير .. وصناعة المستقبل

ينتشر فى هذه الأيام استخدام عبارات : «إستيراد .. أو تصدير .. أو شراء التكنولوجيا» .

بينما «التكنولوجيا» كما عرفها الفيلسوف العلامة د. زكى نجيب محمود هى : «منهج التفكير فى كيفية نقل الفرض العلمى إلى حيز الوجود» .

وبذلك فالربط بين مسمى «التكنولوجيا» وبين الآلات والأجهزة الصناعية من تليفزيونات أو ثلاجات أو سيارات .. الخ باعتبارها أنها هى نفسها «التكنولوجيا» إنما هو خطأ بين .

وإذا تتبعنا العلاقة بين هذا المسمى وبين جهاز التليفزيون مثلاً نجد أن إنتاج التليفزيون قد تم بناء على إعمال منهج للتفكير ، قام مخترعه من خلاله بافتراض إمكان نقل الصوت والصورة لأى متكلم من مكان وجوده إلى مكان آخر يبعد عنه آلاف الأميال .. ثم أتبع هذا الافتراض بخطة متكاملة لتحقيقه من خلال الاستعانة بوسائل أو أدوات من أسلاك أو قطع معدنية أو أدوات كهربائية دقيقة .. الخ والربط بين عمل كل منها وبين بعضها البعض فى ظل بناء علمى متكامل ، بما يحقق الغرض المطلوب إثباته . وبناء مصنع كامل لا يُعد عملاً تكنولوجيا فى حد ذاته ، إلا بقدر ما ينطوى تنفيذه على تحقيق فكرة علمية جديدة تطور الأسس العلمية الموضوعة سلفاً لإنتاج ما .

وبالتالى فإن استقلالية الفكر هى حجر الزاوية فى أى تقدم تكنولوجى يصوغ ويصنع المستقبل الحضارى .

ومن المفيد هنا الوقوف على سير المخترعين العظام ودراسة مناهج حياتهم ، ذلك أن السيرة الذاتية لأى منهم ونهجه الحياتى ، وكيفية تزجية وقت فراغه .. وباختصار معرفة «كيف كان يفكر» ليس بمعزل عما توصل إليه من مخترعات أو اكتشافات .

يحيى محمود حسين

جامعة حلوان

إلــى الأصدقاء

**** سعيد عبد القوى محمد – بنى سويف**

جميل جدا أن تكتب نشيدا للمكتبة تبدأ كلماته :

يا زائرا دارى شرفت مقدارى

أهــلا بزوارى شهود أذكارى

**** حاتم عبد المحسن غيث – الدقهلية**

نرد لك تحيتك الرقيقة بالشكر والتقدير . والهلال تؤدى دورها فى نشر الثقافة وتقديم ألوان الفكر الذى هو متعة للعقل وفى انتظار قصائدك .

**** د . سمير قطامى :** رسالتك إلينا حول قصتى «عبور» ، «والرحيل المر» وما جاء بها من تحليل ونقد تدل على حاسة أدبية عالية وتمكنك من ناصية النقد ، فشكرا لك على ما جاء فى هذه الرسالة ..

ونشكر الأصدقاء :

محمد عثمان مصطفى – فريدة العدل بدوى – محمد حسان ابراهيم – عاصم فريد البرقوقى (الصديق الدائم) – د . وليد ربيع عبد الحليم .



لابد من بغداد وإن طال السفر

بقلم : د. عبدالعظيم أنيس

عندما اتصل بى المسئولون عن إعداد رحلة الوفد الشعبى المصرى الذى كان يزمع السفر إلى بغداد يوم ١١ أكتوبر الماضى يسألون إن كنت أرغب فى السفر معهم رحبت على الفور.

وكان تقديرى أنه، وقد طال الحصار الظالم على الشعب العراقى كل هذه السنوات العشر، من الواجب القومى أن تساهم الشعوب العربية فى كسر هذا الحصار الذى سبقتنا إليه كل من روسيا وفرنسا. وكان تقديرى أيضا أن واجب مصر أن تكون سباقة وألا تتأخر كثيرا في هذا المضمار بعد أن سبقتنا طائرات الأردن واليمن وسوريا والمغرب.

إن هذا التضامن مع الشعب العراقى وكسر الحصار غير القانونى على رحلات الطائرات المدنية إلى العراق،لا يعنى بالضرورة تطابقا فى وجهات النظر مع وجهة نظر الحكومة العراقية. فقد أدنّا الغزو العراقى للكويت عندما وقع ولم نندم على هذا الموقف أبدا.

لكن الواقع الذى تعيشه دول الخليج اليوم وبعد خروج القوات العراقية من الكويت يبعث على الأسى، إذا استبدل الاحتلال العراقى للكويت باحتلال أمريكى بريطانى لمنطقة الخليج بالكامل، الأمر الذى يهدد شعوبها. ومن قواعد فى دول الخليج تقوم طائرات أمريكية بريطانية بالعربدة فى المجال الجوى العراقى دون أى سند من مجلس الأمن أو الامم المتحدة عموما.

رحبت إذن بالسفر إلى بغداد ضمن هذا الوفد الشعبى للاسباب التى ذكرتها ولأسباب شخصية أخرى، إذ تربطنى صداقات قديمة ببعض أساتذة جامعة بغداد الذين تعاونت معهم فى الماضى فى مشروعات تعليمية عربية بإشراف اليونسكو.

إلا أننى للاسف الشديد لم أسافر إلى بغداد يوم ١١ أكتوبر، وذلك بسبب طارىء صحى عارض ألم بى قبل السفر بيومين. واتصلت هاتفيا بابنتى وفاء – وهى طبيبة أمراض باطنة – التى حضرت على الفور وأجرت اللازم الذى أعادنى إلى وضعى الصحى المعتاد. وعندما علمت منى بنية السفر إلى بغداد اعترضت بشدة خصوصا عندما علمت أن الوفد سوف يعود إلى القاهرة فى اليوم نفسه .

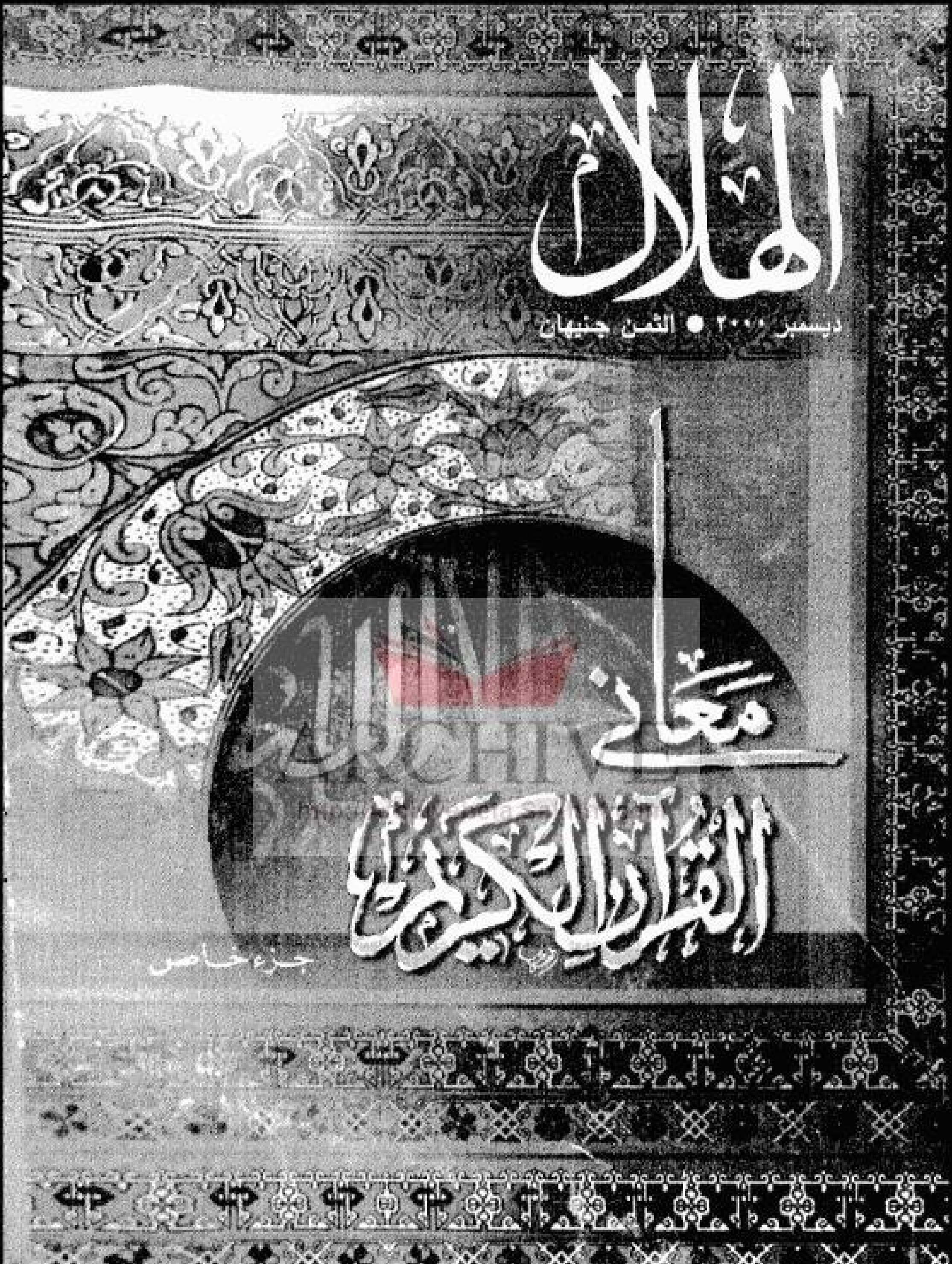
وفى النهاية رضخت لرجائها. لكن اسمى كان قد أدرج فى قائمة المسافرين التى زودت بها الصحف ، وظن الكثيرون بالطبع أنى سافرت مع المسافرين.

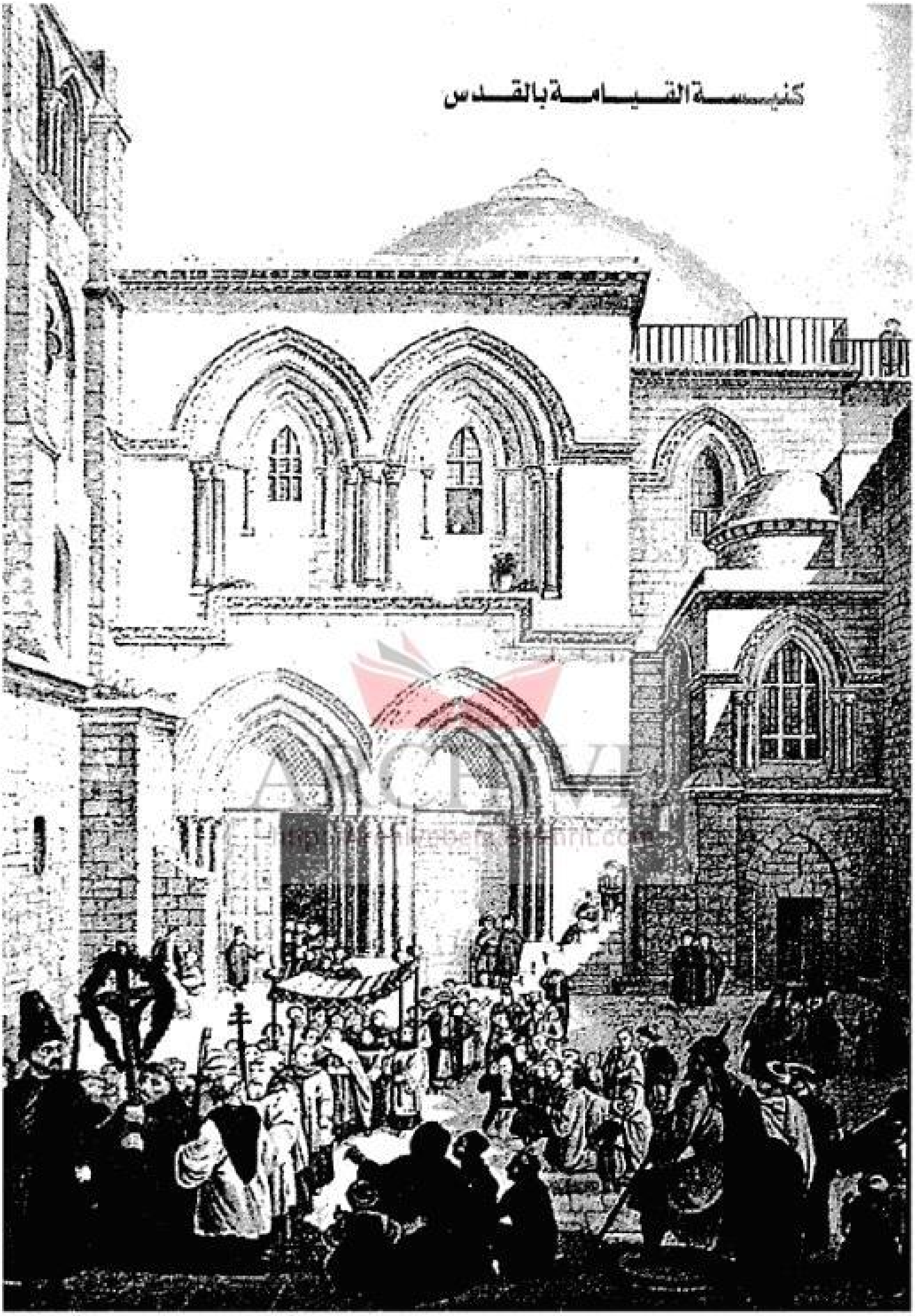
واتصل بى بعد عودة الوفد أكثر من صديق – بينهم مدير تحرير الهلال – يرجوننى أن أكتب لهم شيئا عن انطباعاتى عن تلك الرحلة ، فأصيبوا بخيبة أمل عندما قلت لهم إننى لم أسافر بسبب هذا الطارىء الصحى.

على أن خيبة أملى كانت أكبر لأننى لم أشارك فى هذا العمل الشعبى الجميل.



روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه الى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة


الهلال
ديسمبر ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان
معاني
القرآن الكريم
جزء خاص



كنيسة القيامة بالقدس

الهلال

مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام التاسع بعد المائة
ديسمبر ٢٠٠٠ ● رمضان ١٤٢١ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

---

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج.م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويُرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد



تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب

فكر وثقافة

رمضان

ماذا نترجم ؟

فنون

قصة وشعر

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء

ينادى العالم اليوم بالتغيير، وملاحقة العصر، أى الانتقال إلى الأصح والأجمل والأكمل، ونحن نتطلع بأحلامنا إلى العام الجديد الذى تبزغ شمسه فى الأفق القريب.

ولايمكن اللحاق بالعصر إلا بفهمه ومسايرته والتعرف على أبعاده ثم التعامل معه وسيدفع الثمن غاليا كل من يقف فى طريق التطور، وغير مقبول أن نتمسك بالانتقال بالجمال فى عصر الصواريخ، ولايمكن الاكتفاء بالاستماع للإذاعة مع وجود التليفزيون.

ومازال القديم استبدادا ثقيلا يرهق الابتكار ويعطل التجديد، ولكن لايلومن الذى يتخلف عن العصر سوى نفسه.

وحان الوقت لتجديد مجلة «الهلال» وأن تصبح جزءا من مستجدات العصر فى إطار ثورة المعلومات، بعد أن خدمت «الهلال» أجيالا كثيرة من المثقفين والكتاب والقراء منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر وحتى اليوم.

ولايمكن أن تستمر مزدهرة ومتجددة، ولاتوضع مادتها على القرص الإلكترونى (السى. دى) ولاتظهر مقالاتها على الإنترنت.

عندها يكون من اليسير أن يجلس القارىء أمام الكمبيوتر، ويستدعي بأنامله كل ماكتبه كتابها على مر الأيام، وأية سهولة يقدمها القرص المغنط للباحثين والدارسين والمتطلعين إلى معرفة حركة الفكر العربى فى مده وجزره فى نهضته وانحساره.

فإذا كانت الكشافات هى أهم أدوات التوثيق فى الماضى، فالكمبيوتر والإنترنت هما لغة العصر الحديث، وهما الطريق إلى مايحتويه «الهلال»، والذى يقوم بالضرورة على أساس وحدة للتقسيم قد تكون اسما أو موضوعا، واستعادة وإحياء كل ماجاء فيها على مر الزمن.

فالهلال، مجلة الواقع المعاصر، والتراث الحى المتواصل، وهى أيضا مجلة مستقبلية فى نظرتها إلى المجتمع وإلى الحياة.

وعلى الواقع والتراث أن يتكاتفا لصنع المستقبل، ولعل أهم ما يمكن القيام به هو استعادة كل ماجاء فيها وأن تقدم من جديد قرائح الذين أضاءوا صفحاتها بعصارة قلوبهم، ووهج أفكارهم، والذين لولا فضلهم لما أصبحت للهلال حياة تتصل كل هذه السنين، وعندها سيتبين القارىء كيف استطاع «الهلال» أن يبقى عندما عبر عن كل مرحلة تاريخية بلسانها، وكان جديدا مع كل مرحلة، وعاش «الهلال» فى كنف القارىء طوال نحو أحد عشر عقدا من الزمان.

ولاتزال مجلة «الهلال» سجلا أمينا للثقافة العربية منذ نشأتها عام ١٨٩٢ وحتى اليوم، ومنبرا رفيعا لألمع الكتاب، تابعت انجازات العصر فى مختلف المجالات، وتكاد تنطق بالقضايا التى فجرها المثقف العربى، فى محاولة مستمرة للخروج بالثقافة العربية والواقع العربى من وهدة التخلف إلى آفاق النهضة، وتأكيدا وتطويرا للهوية العربية، ولحاقا وتفاعلا مع العصر.

ولايمكن الإجابة على سؤال ماذا يخبىء لنا القرن الحادى والعشرون، ذلك القرن الذى لاحياة فيه إلا للأمم التى تأخذ بأسباب التقدم، وإلا إذا استوعبنا دروس الماضى،

وقرأنا تلافيف عقل الأمة فى اجتهاداته وخبرته ومساهماته السابقة.

وكثيرا ما تصل خطابات إلى «الهلال» من الجامعات ومراكز البحث الأجنبية والعربية تسأل عن أعداد سابقة أو مقال بذاته لضرورته فى بحث أو رسالة، فهى مصدر غنى حافل يزود القارىء والباحث بقدر هائل من الحقائق والأفكار وتقدم صورة للعصور المختلفة التى عاشتها، وسجلا لما يتفاعل فيه من تيارات فكرية، وما يسوده من مفاهيم فى مجالات الفكر المختلفة، وتقدم التاريخ الاجتماعى بآفاقه الواسعة، ومجالاته المختلفة من فكر وفن وأدب، فهى أقدم دورية من نوعها فى عالم الصحافة العربية، وهى تقدم ملامح العهود المختلفة، وترى صورة المجتمع العربى فى تحولاته المختلفة، عندما تقرأ عن استخدام الكهرباء وتسيير القطار والترام، وكيف فكر المصلحون فى التعليم وتحرير المرأة وإنشاء الجامعة.

ولاشك فى أن قراء هذه الأيام سوف يبهرون إذا تصفحوا أسماء كتاب المجلة، فكل قادة الفكر والإصلاح وكبار الأدباء ورواد العلوم والفنون قد ملأوا بثمار عقولهم ومواهبهم صفحات الهلال، ترى على صفحاتها كيف استقبل المثقفون النظريات الحديثة مثل نظرية النشوء والارتقاء، ونظريات فرويد أو فكرة الجامعة العربية أو الإسلامية.

ووضع مادة «الهلال» خلال الأحد عشر عقدا الماضية يساعد على ذلك وتكررت محاولاتنا لإنجاز المشروع.

وسبق واتفقت «الهلال» مع وحدة التوثيق فى كلية الإعلام، بجامعة القاهرة، على القيام بهذا المشروع، ووعد عميدها السابق د. فاروق أبوزيد بإنجازه، لما فيه من خدمة للباحثين والدارسين فى الكلية، ومنذ الاتفاق سنة ١٩٩٨ وحتى اليوم لم ينجز هذا المشروع، وتكررت المحاولة مع مكتب الأمم المتحدة للتنمية فى القاهرة O. U. D. A والذى وعد بالقيام بالمشروع عند حصوله على تمويل(!).

وعندما عرض المشروع على إحدى شركات القطاع الخاص، وافقت على تسجيل الهلال خلال مائة وتسعة أعوام على (السى. دى) وعلى الانترنت، على أن تتولى الشركة التسويق وتتناصف الأرباح مع «الهلال».. وتوقف المشروع!.

ولم ينجز المشروع حتى اليوم رغم أهميته وبحيويته الثقافة العربية، وما أحوجنا فى عصر المعلومات إلى تبويب المادة وتصنيفها وتنسيقها بما ييسر على القارىء الوصول إليها بيسر وسهولة، وسبق لدار الهلال أن نشرت كشافا للهلال توقف عند سنة ١٩٣٦، ويقوم اليوم الأستاذ سمير غريب مدير دار الكتب والوثائق القومية باستكمال كشاف الهلال، ومن نافلة القول التأكيد على أهمية هذا العمل والفائدة الكبيرة له.

ويبقى أن يوجد من يكمل الطريق، ويضع كل مقالات الهلال ومادتها على القرص الممغنط (السى. دى)، ولعل «دار الكتب» تقوم بهذه المهمة فلديها إدارة مركزية مجهزة للمراكز العلمية المتخصصة، وجزء من مهماتها جمع التراث وتسجيله.

وعلى أية حـــال لن نكف عن المحـــاولة.

المحرر



التليفزيون كأداة قهر

بقلم : د. جلال أمين

فى شهر رمضان يلعب التليفزيون دورا، لا يكاد يلعب مثله فى أى شهر آخر من شهور السنة هل هو حقا أداة للترويح عن النفس والتثقيف أم هو أيضا أداة للقهر؟!..

من الممكن جدا أن يجد مؤرخو المستقبل، عندما يكتبون تاريخ العالم فى القرن العشرين، أن من أنسب الأوصاف التى يمكن أن يطلقوها على النصف الثانى من ذلك القرن (١٩٥٠ - ٢٠٠٠) هو أنه «عصر التليفزيون». ربما كان من الممكن، مع الكثير من التجاوز، أن يصفوا النصف الأول من ذلك القرن (١٩٠٠ - ١٩٥٠) بأنه كان عصر الراديو والسينما، ولكن لا الراديو ولا السينما تحققت لهما قط درجة الانتشار التى تحققت للتليفزيون، ولا «ملأ أى منهما الدنيا وشغل الناس» مثلما فعل هذا الصندوق المدهش.

لم تعرف مصر التليفزيون لمدة تزيد على الأربعين عاما، ولكن حتى فى أوروبا وأمريكا لم يتحقق للتليفزيون هذا الانتشار المدهش بين سائر الطبقات الاجتماعية قبل منتصف القرن. كان ونستون تشرشل فى إنجلترا يعتمد فى إثارة حماسة الإنجليز فى حربهم ضد الألمان حتى منتصف الأربعينات على كلماته النارية فى الإذاعة، وكانت أمريكا تغزو العالم ليس بالمسلسلات التليفزيونية، بل بأفلام هوليوود. ولكن بمجرد أن عرف الناس التليفزيون وخبروه تركوا كل شىء، بما فى ذلك الأهل والأصحاب، وفضلوا الجلوس أمامه، وخصصوا له أفضل مكان فى البيت، وأحاطوه بمختلف أنواع الحماية والرعاية، وركبوا له عجلات ليسهلوا له الحركة من مكان إلى مكان، وصنعوا صوانى خاصة لتقديم العشاء أثناء مشاهدته، أسموها «صوانى التليفزيون»، كما أطلقوا على التليفزيون نفسه مختلف أسماء التدليل أشهرها «تلى»، وبلغ حب الناس له حدا أصبح معه من الصعب انتزاع الزوجة لزوجها من أمام التليفزيون، أو العكس، كما أصبح كثيرون من أطفال الولايات المتحدة يقضون أمامه عددا من الساعات يفوق ما يقضونه فى المدرسة.

ليس من رأى كمن سمع

ليس من الصعب تفسير هذا النجاح الباهر والحب الطاغى، نعم كان للراديو عند ظهوره سحر وشعبية واسعة، ولكن هذا السحر وهذه الشعبية لم يصمدا طويلا بعد أن عرف الناس التليفزيون، ذلك أن من رأى ليس كمن سمع، وحاسة البصر فيما يظهر أكثر تملكا للنفس من حاسة السمع، فما بالك إذا اجتمع الاثنان؟ صحيح أن الشاعر العربى يقول إن «الأذن تعشق قبل العين أحيانا»، ولكن

هذا الشاعر بالذات (بشار بن برد) كان ضريرا، وهو على كل حال لم يكن يتكلم عن القاعدة بل عن الاستثناء. ويبدو أن المرء يجد صعوبة أكبر في تجاهل ما يمرّ أمام عينيه مما يجد في تجاهل ما يمر بسمعه من أصوات، فأنت لا تستطيع أن تقاوم، أثناء جلوسك مع عائلتك في حجرة بها تليفزيون، وأيا كانت أهمية ما يدور بينكم من حديث اختلاس النظر كل حين وآخر لترى الصورة المعروضة على الشاشة. وربما كانت هذه هي الحكمة من أن كان للإنسان غطاء للنظر، يفتحه ويغلقه حسب الحاجة، دون أن يكون للسمع غطاء مثله.

هل العين أكثر «ديمقراطية» من الأذن؟

بل قد لا يكون من الشطط القول بأن العين قد تكون «أكثر ديمقراطية» من الأذن، ذلك أننا إذا استثنينا الموسيقى، التي تخاطب الوجدان عن طريق الأذن، بأكثر بكثير مما تخاطب العقل، نجد أن التواصل الإنساني عن طريق الأذن أكثر اعتمادا على العقل من التواصل الإنساني عن طريق العين. إن المرء، فيما يبدو، يتأثر بما يسمعه بسبب مضمونه ومنطقه، أي بناء على تأثيره في عقله، بينما يتأثر بما يراه لأسباب واهية الصلة بالمنطق والاقناع. نعم قد يتأثر الطفل الرضيع بصوت أمه بأكثر بكثير مما يتأثر بمنظرها، ولكن هذا لا يستمر على الأرجح لمدة طويلة، إذ ما أن تتفتح عينا الطفل على العالم حتى يغلب أثر ما يراه على أثر ما يسمعه!.

هذا هو ما أقصده عندما أقول إن العين «أكثر ديمقراطية» من الأذن، إذ لا يتفاوت الناس فيما بينهم في مدى تأثرهم بما تجلبه العين من رسائل، على الأرجح، بقدر اختلافهم في مدى تأثير رسائل الأذن.

قد يفسر كل هذا شيوع التعبيرات، في مختلف اللغات، التي تتضمن رفعا من شأن العين بما يفوق بكثير شأن الأذن. نحن نصف الحبيب بأنه «أعز علينا من العين»، ولا نقارنه قط بالأذن، ونصف الشيء الغالي عندنا بأنه «قرة عيننا». واستخدام المجاز في اللغة بالاشارة إلى العين أكثر بكثير، فيما يبدو، من الاشارة إلى أي حاسة أخرى. فأنت تسأل من تخاطبه «هل ترى ما أعنيه؟»، وتحول الموضوع لرئيسك أو مرءوسك، إذا كنت موظفا، «للنظر فيه»، ونحن نصرّ على القيام بشيء «بصرف النظر» عما عداه، فضلا عن أننا «نرى» الحلم ولا نكاد نسمعه.

من السينما إلى التليفزيون

لازلت أذكر كيف كان للصورة

الفوتوغرافية جاذبية شديدة عندما اكتشفناها لأول مرة فى طفولتنا، وكيف كنت أرى الفلاحين المصريين الذين كانوا مازالوا حديثى العهد بها يتسابقون للوقوف أمام الكاميرا، حتى الرجال الكبار منهم، أملاً فى أن يروا صورتهم مطبوعة فى أيديهم. كان هذا شأن الصورة الثابتة فما بالك إذا تحركت؟ ثم ما بالك إذا اجتمعت الصورة المتحركة مع الصوت؟.

كان للسينما هذا السحر وهذه الجاذبية الفائقة فى بداية القرن العشرين. حتى الأفلام الصامتة كان لها فى العقدين الأولين من القرن جاذبية لا تقاوم جعلت من شارلى شابلن ولوريل وهاردى شخصيات معروفة فى العالم بأسره.

ولكن السينما تلقت ضربة قاصمة بظهور التليفزيون. كان الفرق بين السينما والتليفزيون كالفرق بين سيارة الأتوبيس والسيارة الخاصة.

إذ تحرر مالك التليفزيون مثلما تحرر مالك السيارة الخاصة من أهواء شركة النقل العام، فأصبح هو الذى يحدد محطة الصعود والنزول ويختار ما يسير فيه من شوارع، بل ويكفيه أن يحرك مفتاحا صغيرا أو يضغط على زر صغير فيبدأ كل شيء فى العمل.

تليفزيون الطبقة الوسطى :

لم يكن من الصعب بالطبع على منتجى التليفزيون أن يخمنوا حجم الربح الذى يمكن أن يعود عليهم من هذا الاختراع المدهش، وقد تحقق لهم ما توقعوه وزيادة. فى البداية، ظل التليفزيون، حتى فى البلاد التى اخترعته، أعلى نفقة مما تتحمله الجماهير الغفيرة. كما واجه بعض المقاومة من بعض الشرائح العليا من علية القوم الذين رأوا فيه أقرب إلى أذواق الطبقة الوسطى وتعطيلا لهم عن قراءة كتاب أو حضور مسرحية، ومن ثم ظل التليفزيون إلى أواخر الخمسينات محصورا فى الطبقة الوسطى، تعجز العشرون أو الثلاثون فى المائة من شرائح الدخل الدنيا عن شرائه، وتأنف الخمسة أو العشرة فى المائة العليا من النظر إليه. ولكن هذا الحال لم يستمر طويلا، إذ لم تأت السبعينات إلا وكان التليفزيون قد أصبح قطعة أساسية من قطع الأثاث فى أى بيت أمريكى أو أوروبى.

خلال تلك الفترة القصيرة من عمر التليفزيون، والتى كان يخاطب فيها نسبة الأربعين أو الخمسين فى المائة من السكان، الواقعة فى شرائح الدخل الوسطى، كانت برامج التليفزيون تتسم بسمات تختلف اختلافا واضحا عما نراه اليوم. كان جمهور التليفزيون فى ذلك الوقت جمهورا أعلى بكثير فى مستوى

الثقافة والتعليم من جمهور التليفزيون اليوم، ومن ثم كان على برامج التليفزيون أن تكون بدورها أعلى مستوى وأكثر ذكاء. إن من لايزال يتذكر نوع البرامج التى كان يقدمها التليفزيون الانجليزى أو الأمريكى فى الخمسينات، ويقارنها بما يقدمه اليوم هذا التليفزيون أو ذاك، لابد أن يستولى عليه العجب من شدة الاختلاف. كانت البرامج قبل خمسين عاما أقل إثارة، وأقل اعتمادا على الجنس والعنف، وأكثر اعتمادا على الاقناع منها على الايحاء، بل كثيرا ما كانت تخاطب الأذن أكثر مما تخاطب العين. كانت برامج التليفزيون أقرب فى «ارستقراطيتها» إلى ما يذيعه الراديو، وأكثر احتشاما ووقارا مما تعرضه دور السينما. لازلت أذكر مثلا ما كنت أراه فى التليفزيون الإنجليزى فى أواخر الخمسينات من برنامج أسبوعى اسمه (مجمع العقول Brains Trust) حيث كان يجلس أربعة أو خمسة من أكبر المفكرين البريطانيين، ويدير الحوار بينهم مذيع لا يقل عنهم ذكاء ووقارا، فيتحاورون ساعة كاملة حول أسئلة يرسلها إليهم مشاهدو التليفزيون خلال الأسبوع السابق فى الفلسفة أو التاريخ أو الأدب.. إلخ. لم يكن للصورة شأن كبير فى برنامج كهذا، ومن ثم فإنى لا أحتاج للقول بأن هذا البرنامج قد اختفى تماما من التليفزيون الإنجليزى خلال الستينات، ولم يعد فى التليفزيون الإنجليزى اليوم (ناهيك عن الأمريكى) شىء يشبهه أو يقاربه.

لم يكن سبب هذا التغيير بالطبع، أن المهتمين بالثقافة الرفيعة قد أصبحوا أقل عددا، إذ العكس طبعا هو الصحيح، وإنما كان السبب هو أن هؤلاء المهتمين بالثقافة الرفيعة، على الرغم من ازدياد عددهم، لم يعودوا قادرين على الصمود فى منافسة الأعداد الغفيرة من الجماهير التى تطلب الصورة أكثر مما تطلب الصوت، والحركة السريعة بدلا من الثبات، وإثارة المشاعر بدلا من إثارة الفكر.

تغيير الجماهير الغفيرة :

كان العامل الأساسى وراء هذا التحول هو ذلك التطور البسيط جدا والتافه للغاية: وهو انخفاض نفقة إنتاج جهاز التليفزيون إلى مستوى جعله فى متناول هذه الجماهير الغفيرة. وإنما المخيف حقا هو أن هذا العامل البسيط جدا والتافه للغاية الذى جلبه تقدم تكنولوجى صغير، أدى إلى قلب الحياة الثقافية والفكرية رأسا على عقب، لم يقتصر الأمر على أنه مع تغير طبيعة الغالبية العظمى من مشاهدى التليفزيون

كان من المحتم أن تتغير طبيعة البرامج التى تقدمها بحيث تصبح مناسبة لأذواق هؤلاء المشاهدين الجدد. بل الأقدح والأخطر هو ذلك الأثر الذى نجم عن مجرد الزيادة الكمية فى أعداد المشاهدين حتى بصرف النظر عن مستواهم الفكرى وطبيعة أذواقهم.

ذلك أن هذه الزيادة الكبيرة فى أعداد مشاهدى التليفزيون جعلت فرصة تحقيق الأرباح الطائلة من وراء التليفزيون لا تقتصر على منتجى جهاز التليفزيون وبائعيه، بل امتدت أيضا، وبدرجة أكبر، إلى كل من له مصلحة فى ترويج السلع، أى سلع، سواء فى ذلك منتجو هذه السلع نفسها أو المشتغلون بصناعة الإعلانات المقصود منها هذا الترويج.

لم تكن للإعلان التليفزيونى أهمية تذكر طوال الخمسينات، حتى فى الدول الصناعية الغنية، بل ظلت معظم القنوات التليفزيونية خالية تماما منه حتى انتهاء ذلك العقد. ثم بدأ زحف الإعلانات شيئا فشيئاً حتى أصبحت هى مصدر الربح الأساسى لأصحاب هذه القنوات. وقد توارت إلى جانب أرباح الإعلانات أرباح منتجى جهاز التليفزيون نفسه أو بائعيه، ناهيك عما تحصله بعض الدول من رسوم مقابل استخدام التليفزيون، وقد ترتب على ذلك النتيجة الحتمية الآتية: وهى أن عرض الإعلانات وتوزيعها على أوقات البث التليفزيونى لم يعد يجرى بما يناسب ما يعرضه التليفزيون من برامج، بل أصبحت موضوعات هذه البرامج وطبيعتها تتحدد، أكثر فأكثر، طبقا لما يريد أصحاب السلع عرضه من إعلانات، هذا التطور المخيف حقا يشبه التطور الذى حدث فى العلاقة بين إنتاج الأسلحة ونشوب الحروب. فبدلا من أن تنشب الحرب أولا ثم يجنى منتجو الأسلحة من ورائها الأرباح الوفيرة، أصبح منتجو السلاح وبائعوه يقدمون أحيانا على التشجيع على نشوب حرب، وقد يختلقون أسبابها اختلاقا، من أجل تصريف المزيد من الأسلحة.

التليفزيون فى مصر

اتخذ تطور التليفزيون فى مصر وفى سائر بلاد العالم الثالث، خطوات مشابهة لما اتخذه فى البلاد الأكثر ثراء، مع تسارع هذه الخطوات وفقا لما اعتدنا عليه دائما من أن يستغرق عشرات السنين فى الدول المتقدمة تكنولوجيا قد لا يستغرق عندنا إلا بضع سنوات. لقد حدث هذا فى تخفيض معدل الوفيات، وفى تضخم حجم المدن، وفى اكتظاظ الطرق بالسيارات الخاصة.. إلخ. ولكن الخطوات هى هى: برامج عالية المستوى نسبيا فى البداية تخاطب جمهورا محدود العدد، تليها برامج متدنية المستوى تخاطب جمهورا

أوسع مع تخلل الإعلانات لهذه البرامج، إلى أن وصلنا إلى برامج تتحدد طبيعتها طبقا لمشيئة أصحاب هذه الإعلانات.

فعندما دخل التليفزيون مصر لأول مرة فى مطلع الستينات، كان جمهوره محدودا بحدود شريحة اجتماعية صغيرة هى القادرة على دفع ثمن الجهاز أصلاً، وقد كان هذا الثمن فى مطلع الستينات كافيا لاستبعاد الغالبية العظمى من الشعب المصرى، التى كانت على أى حال، تسكن فى ذلك الوقت بيوتا لم تدخلها الكهرباء أصلا. كان من الطبيعى إذن أن تكون برامج التليفزيون المصرى فى أوائل عهده أكثر وقارا وأعلى مستوى مما شهدناه بعد ذلك، سواء من حيث المضمون، أو اللغة المستخدمة، أو جدية التناول. فلا كان جمهور التليفزيون فى ذلك الوقت ليقبل هذا المستوى المتدنى الذى نعرفه اليوم، ولا كان حجم هذا الجمهور ليغرى أصحاب الإعلانات ومروجى السلع بغزو هذا الجهاز الجديد.

وقد اقترن دخول التليفزيون إلى مصر، شأنها فى ذلك شأن معظم بلاد العالم الثالث، بتحقيق وظيفة أخرى لم تعرفها بالدرجة نفسها، تليفزيونات العالم الأكثر رخاء، وهى استخدام السلطة السياسية للتليفزيون للترويج لشعاراتها وتثبيت أقدامها فى الحكم ومهاجمة أعدائها. بل لقد استخدم التليفزيون فى بعض دول العالم الثالث حديثة العهد بنظام الدولة الحديثة، ككثير من الدول الأفريقية وبعض الدول العربية، لترسيخ فكرة الدولة القومية وتوحيد القبائل المتفرقة حول أهداف واحدة. ولكن حتى هذا الاستخدام السياسى للتليفزيون كان فى السنوات الأولى أعلى مستوى وأكثر رصانة مما أصبح بعد ذلك، عندما زاد حجم جمهور التليفزيون زيادة كبيرة.

ففى مطلع الثمانينات، أى بعد عشرين عاما من ظهور التليفزيون فى مصر، كان الأمر قد انقلب رأسا على عقب فقد أدى تيار الهجرة الكاسح إلى دول الخليج إلى زيادة القوة الشرائية لدى شرائح اجتماعية واسعة لم تكن أحوالها تسمح من قبل باقتناء التليفزيون، فإذا بهم يعودون إلى مصر بعد تكوين ثروة صغيرة، ومعهم التليفزيون.

كان من المحتم أن تستجيب البرامج الجديدة للأذواق الحديثة، كما كان لابد أن يسيل لعاب منتجى السلع وبائعيها ومروجيها لهذه الفرصة الرائعة لتوسيع السوق عن طريق شاشة التليفزيون. لقد بدأت الإعلانات فى مصر على استحياء فى البداية، ولم تكن تجرؤ على الظهور إلا بين برنامج وآخر عندما ينتهى الأول تماما وقبل أن يبدأ الآخر. ولكنها شيئا

فشينا تجرأت حتى أصبحت تقاطع التمثيلية الواحدة والمباريات الرياضية عدة مرات، بل وتجرأت فظهرت بعد ثوان قليلة من أذان المؤذن للصلاة، اكتفاء بعزف لآلة وقورة نسبيا، كالقانون أو العود، بين الأذان والإعلان، كما اختلطت الإعلانات خلال شهر رمضان، اختلاطا مدهشا بشعائر الدين والبرامج الروحية، فإذا بالجمهور المسكين يتلقى الصفعات من مروجي السلع من اليمين واليسار، وفي أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، بينما استمر القائمون على إدارة هذا الجهاز في الزعم بأن التليفزيون لا يستهدف إلا تسلية الجمهور وتوعيته وتثقيفه.

التليفزيون والعولمة

على أن التليفزيون دخل عصرا جديدا، في كل أنحاء العالم، شماله وجنوبه، وفي الشرق كما في الغرب، بوصول عهد الأقمار الصناعية والقنوات الفضائية. ففجأة أصبح في قدرة التليفزيون الوصول بالبرنامج الواحد، وفي اللحظة نفسها، إلى الأطراف المترامية للكرة الأرضية، وتضاعف في لمح البصر حجم الجمهور الذي يمكن أن يصل إليه المسلسل نفسه أو المباراة الرياضية نفسها أو نشرة الأخبار نفسها، ومن ثم وبالضرورة، الإعلان نفسه.

إن الأمر يبدو لأول وهلة وكأنه مجرد تطور في الكم، أي مجرد تضخم في حجم الجمهور، ولكن الحقيقة أخطر من ذلك وأدهى بكثير. فتضخم حجم الجمهور الذي يطلب السلعة لابد أن يؤدي، كما سبق أن رأينا، إلى تغير طبيعة السلعة نفسها. إن منتج السلعة يجد نفسه الآن أمام فرصة لتسويق سلعته في العالم بأسره، وهذا لابد من أن يزيد بالطبع من حجم الربح. ولكن الربح لابد أن يكون أكبر كلما كانت السلعة تستجيب للقاسم المشترك الأعظم في هذا الجمهور الواسع، أي للميول والنوازع والأذواق التي يشترك فيها جمهور العالم بأسره.

كيف يمكن إذن تحوير السلعة وتطويرها بحيث تستجيب بالفعل لهذا الجمهور بأسره؟

لابد أولا من التخلص، بقدر الامكان، من الصفات المحلية أو القومية، التي قد يستجيب لها المستهلك الفرنسي مثلا ولكنها قد لا تعجب الصيني أو الكوري، قد تعجب المسيحي ولكنها قد لا تعجب المسلم. الأفضل التركيز على تلك الصفات التي يستجيب لها الإنسان كإنسان، أو حتى، وهذا هو أفضل الحلول، التركيز على تلك الصفات التي يستجيب لها الإنسان بوصفه حيواناً. ذلك أنه ليس هناك ما هو أكثر انتشارا، ومن ثم أكثر ضماناً لتحقيق الربح، من الغرائز

الأساسية التى يشترك فيها الفرنسى والصينى والكورى ، المسيحى والمسلم والبوذى، الجنس الأبيض والأصفر والأسود والبنى. وينطبق هذا ليس فقط على تسويق السلع، بل وكذلك على تسويق البرامج والمسلسلات والأخبار. نعم، إن الفضيحة، أى فضيحة ، تستلفت النظر وتتمتع بشعبية واسعة، ولكن الفضائح ليست سواء. فالأفضل، مادام المراد هو التسويق على نطاق العالم بأسره، التركيز على ما يعتبر فضيحة فى نظر الهندى والأمريكى والعربى على السواء . والمرأة الجميلة يمكن تسويق أخبارها على نطاق واسع، ولكن من المستحسن أن يكون وجهها من النوع الذى لا تختلف بشأنه الأذواق اختلافا شديدا. وقد كان وجه الأميرة المسكينة «ديانا» ، لسوء حظها، من هذا النوع، ومن ثم تلقفه مصورو التليفزيون كنعمة هبطت عليهم من السماء. والبطل الرياضى البارع له بالطبع جاذبية كبيرة ويمكن تسويقه بسهولة، ولكن من الأفضل ، لاعتبارات التسويق أيضا، أن يكون حسن الحديث لطيف المعشر، بل وقد يساعد على تسويقه أيضا أن تكون له خطيبة جميلة يحبها وتحبه، وتلتقط لها بعض الصور من حين لآخر أثناء قيامه بلعب التنس، فيرى الجمهور درجة اهتمامها بشأنه، وأثر الصدمة على وجهها، إذا لم يقدر له الفوز على غريمه.

صحيح أن الشهرة فى حد ذاتها مجلبة لمزيد من الشهرة. فبعد مرور فترة قصيرة يجرى خلالها الحاح التليفزيون على تصوير شخص ما، مهما كان شخصا تافها فى الأصل، يتحول هذا الشخص إلى شخص مشهور، أى يصبح مشهورا بأنه مشهور، ومن ثم يتابع الجمهور أخباره ويسعون للحصول على توقيعه، لا لميزة خارقة فيه، ولكن لمجرد أن الناس جميعا يعرفونه، الأمر الذى يجعل شركات القمصان مثلا على استعداد لدفع بضعة ملايين من الدولارات مقابل قيامه بارتداء قميص يحمل اسمها.

فى عصر العولمة إذن، يجد التليفزيون فى البحث عن فضائح وأخبار ووجوه تجذب اهتمام العالم كله، أو تخيف العالم كله، أو تثير العالم كله جنسيا . فإذا لم يكن فى الشخصية موضوع الخبر ما يمكن أن يثير اهتمام العالم كله بالدرجة الكافية، فلتخلق له صفات ليست له فى الحقيقة. فلا يكفى مثلا أن يكون ذلك الحاكم من حكام العالم الثالث مستبدا وظالما ، بل من الأفضل أن يصور على أنه شيطان رجيم. والمرأة الجميلة جدا قد لا يكفى جمالها، بل لابد أن يحولها

التليفزيون إما إلى قديسة أو إلى امرأة سيئة السلوك. والولد المسكين الذى فقد أمه وهى تحاول الهرب به من أبيه، لا يكفى أن يكون يتيما ووحيدا، بل لابد أن يكون أيضا وسيما وذكيا وشجاعا شجاعة خارقة.. إلخ .

★★★

إطلاق النار على الفيل

ما الضرر فى كل هذا؟ ولماذا لا نبتهج عندما نرى التليفزيون وقد وحد بين الناس على هذا النحو، وقرب بين أذواقهم وأخلاقهم إلى هذه الدرجة؟. لماذا لا نبتهج إذ نرى أفقر سكان العالم، القاطن فى أبعد قرية فى أقصى ركن من أركان الكرة الأرضية، والذى لم يكن له أدنى دراية بما يجرى حتى فى عاصمة بلده، بل ولا حتى بما يجرى فى عاصمة الاقليم أو المحافظة، وقد أصبح يتابع سير كرة التنس وهى تنتقل عبر الشبكة من لاعب لآخر، وأن يرى أميرة إنجليزية وهى تسلم الكأس للفائز فى المباراة، أو يتابع ، لحظة بلحظة، وقائع نزول القوات الأمريكية فى ذلك البلد الآسيوى أو الأفريقى، بتفاصيل وبسرعة لم تكن متاحة له من قبل!.

إن هذا الاتساع الكبير لمجال الرؤية والتأثير هو نفسه مصدر الضرر ومنبع القهر. فالفرق بين أثر التليفزيون الوطنى (أى المحدود بحدود دولة أو أمة) والتليفزيون المعولم، هو كالفرق بين الأثر على نفسية الفرد المشترك فى مسيرة تتكون من خمسة أو عشرة أفراد، وذلك الذى يترتب على اشتراكه فى مظاهرة يقوم بها عشرات الألوف من الناس. فى الأولى سيكون الفرد لايزال يملك القدرة على ممارسة فكره المستقل وعلى اتخاذ قراره بحرية، أما فى الثانية فإنه سوف يجد نفسه يتصرف كجزء من قطيع، إذا انحرف بقية أفراد القطيع انحرف، وإذا هتفوا هتف، وإذا ضربوا أو دمروا ضرب ودمر. هذا الأثر هو ما صوره ببراعة جورج أورويل فى قصته القصيرة البديعة «إطلاق النار على فيل» ، حيث وجد جندى الشرطة ، الذى أرسل لمحاولة السيطرة على فيل هائج بأى وسيلة يراها مناسبة، وجد نفسه مدفوعا بقوة خفية لإطلاق النار على الفيل دون داع، ولم تكن هذه القوة الخفية إلا مجرد الرغبة العارمة لدى جمهور المشاهدين، الذين تجمعوا حوله وهو سائر فى طريقه إلى الفيل حتى بلغ عددهم الآلاف، تحدوهم رغبة واحدة لا تقاوم، هى رؤية الفيل ميتا!.

نحن جميعا أمام شاشة التليفزيون أفراد فى هذا القطيع الكبير ، ضخم الجثة وصغير العقل ،والذى اكتشف منتجو البرامج ونشرات الأخبار التليفزيونية وصاحب الإعلان التليفزيونى ، كيف يوجهونه مرة فى هذا الاتجاه، ومرة فى ذاك . وهذا هو القهر بعينه

العولمة ومستقبل المرأة

بقلم : د. أحمد أبوزيد

في عالم تسوده ثقافة ذكورية تعلى من شأن الرجل على حساب المرأة وترتفع فيه الأصوات بالدعوة إلى العولمة بكل ما يترتب عليها من هيمنة إحدى الثقافات - وهى الثقافة الأمريكية بالذات - على بقية ثقافات العالم ، كما تتردد فيها بعض الدعاوى المتطرفة في الحركات النسوية Feminism وما بعد النسوية Post Feminism تدعو إلى التنكر لكل الأوضاع السائدة والمتعلقة بالمرأة .. يتطلب الأمر من العالم العربى مراجعة الذات وإعادة النظر فى أوضاع المرأة العربية فى الوقت الراهن وفحص الموروثات الثقافية .. بالمعنى الواسع لكلمة ثقافة .. للكشف عما بها من عناصر سلبية مناوئة لتقدم المرأة وتدعو إلى حرمانها من الحقوق الطبيعية التى ينبغى أن تتمتع بها كعضو فعال ومؤثر فى المجتمع ، وأن يتم ذلك فى ضوء المستجدات العالمية لاستخلاص المبادىء التى يمكن أن ترتكز عليها أية استراتيجية مستقبلية تضمن للمرأة حقوقها ومكانتها .



قرينة الرئيس خلال الجلسة الافتتاحية لمؤتمر قمة المرأة

وهذا لا يعنى النكوص أو الارتداد الكامل الى الماضى واغفال المتغيرات العالمية أو الانفصال عن متطلبات الواقع المعاصر أو رفض التيارات الفكرية الحديثة . وانما يعنى ضرورة اخضاع هذه الآراء والأفكار للدراسة الواعية فى ضوء التقاليد العربية الإسلامية حتى لا يحدث تعارض جذرى بين الطموحات والآمال وبين القيم الاجتماعية الأصيلة .

وأعتقد أن شيئا من هذا القبيل كان نقطة الإنطلاق لعقد مؤتمر قمة «المرأة العربية والإعلام» الذى دعت إليه الأمانة العامة لجامعة الدول العربية (الإدارة العامة للشئون الاجتماعية والثقافية - إدارة شئون المرأة والأسرة) والذى عقد بمقر الجامعة بالقاهرة فى الفترة من ١٨ - ٢٠ نوفمبر عام ٢٠٠٠ ، تحت رعاية السيدة قرينة رئيس جمهورية مصر العربية ورئيسة المجلس القومى للمرأة مع الأمين العام لجامعة الدول العربية ومؤسسة الحريرى بلبنان ، وحضره عدد من السيدات الأوليات الفضليات فى العالم العربى ولفيف كبير من القيادات النسائية والمفكرين المهتمين بشئون المرأة بوجه عام وهموم المجتمع العربى القومى بوجه عام .

وقد حدد المؤتمر لنفسه عددا من الأهداف المتكاملة التى تتمثل فى إبراز دور المرأة العربية الفعلى فى المجتمع

ومدى تعبير الإعلام العربى عن هذا الدور - وضع استراتيجية أو أجندة عمل من أجل تفعيل دور المرأة العربية فى مواجهة تحديات العصر .. الخروج بخطة إعلامية موجهة نحو وضع المرأة العربية ثم خلق آلية حوار مستديمة للمرأة العربية لطرح ومناقشة قضاياها. وفى ضوء هذه الأهداف تحدد للمؤتمر ثلاثة محاور أساسية .. إلى جانب بعض الموضوعات العامة الأخرى .. وهذه المحاور الثلاثة هى : الموروثات الثقافية وتأثيرها على دور المرأة ومسئولية الإعلام فى تطويرها .. دور المرأة العربية فى قضايا المجتمع العربى ومدى تعبير الإعلام العربى عن ذلك .. ثم وضع استراتيجية عربية لتفعيل دور المرأة العربية من أجل النهوض بالمجتمع ومواجهة تحديات العصر .

دعوات فى صالح المرأة

وليس ثمة شك فى أنه على الرغم من كل ما أحرزته المرأة العربية من نجاح وتقدم فى كثير من المجالات التى أتيح لها أرتيادها فلا تزال الفكرة سائدة فى كثير من قطاعات المجتمع العربى عن أن المجال الطبيعى لنشاط المرأة .. أو ربما المجال الوحيد .. هو النشاط المتعلق بالبيت والأسرة على اعتبار أن ذلك النشاط يحتاج إلى تفرغ كامل كما أنه وثيق الصلة بتكوين المرأة الفسيولوجى والبيولوجى .. ويبدو أن جانبا من هذه الأفكار السلبية انعكس على نظرة المرأة العربية إلى ذاتها بحيث يتقبل الكثيرات منهن الأوضاع الناشئة عن هذه الأفكار والتى من شأنها تهميش دور المرأة فى المجتمع وإهدار قدراتها الذهنية والفكرية الإبداعية التى قد تسهم اسهاما ايجابيا فى تقدم المجتمع .. والأغلب أن مشاعر الرفض لهذه المواقف والأفكار كانت وراء الدعوات التى ارتفعت ولا تزال ترتفع فى صالح المرأة منذ دعوة قاسم أمين بضرورة (تحرير المرأة) وتحقيق فكرة (المرأة الجديدة) على أرض الواقع . ولكن من الإنصاف أن نعترف بأن هذه المواقف السلبية هى فى آخر الأمر محصلة طبيعية ومنطقية لعصور طويلة من سيطرة الثقافة (الذكورية) التى صاغها الرجل ووضع أسسها ودعائمها . فالتنظيمات الاجتماعية

الغالبة على معظم - إن لم يكن كل - المجتمعات الإنسانية المعاصرة والتاريخية تنظيمات ذكورية تضع السلطة فى أيدى الذكور وتميل إلى تهميش دور الإناث والتهوين من شأنهن ، وإن كانت هناك استثناءات من ذلك فى بعض المجتمعات التى يطلق عليها الأنثربولوچيون اسم (المجتمعات الأمومية) كمقابل للمجتمعات (الأبوية) أو (البطريركية) .

وقد يكون من الطبيعى أن (تحابى) الثقافة الذكورية الرجال على النساء وأن تصطبغ النظم الاجتماعية بطابع ذكورى غالب ومتميز بل وأن ينعكس ذلك على اللغة باعتبارها نظاما اجتماعيا وليس فقط أداة للتعبير والاتصال . واللغة العربية تذهب فى ذلك إلى مدى بعيد ، حتى تفرق بين الجنسين حتى فى المثنى والجمع (جمع المذكر وجمع المؤنث) ونون النسوة التى تثير كثيرا من الحساسية لدى بعض السيدات فى العالم العربى) .

بل إن اللغة العربية تميل إلى تغليب الإشارة إلى الذكور على الإناث إذا اجتمعوا معاً فى عبارة واحدة بحيث تتم الإشارة اليهم جميعا بصيغة المذكر حتى وإن لم يكن هناك سوى شخص (ذكر) واحد بين مجموعة كبيرة جدا من (الإناث). وقد حاولت بعض الاتجاهات النسوية الحديثة فى الخارج القضاء على هذه التفرقة فى اللغات الغربية كوسيلة لتحييد الثقافة بوجه عام وليس فقط تحييد اللغة وعلى أمل أن يؤدى ذلك في وقت من الأوقات إلى قيام ثقافة نسوية متميزة ومستقلة عن الثقافة (الرجالى) وتزاحمها ، وقد تقضى عليها فى آخر الأمر بحيث تحل الثقافة النسوية محل الثقافة الذكورية السائدة الآن . ومثل هذا التفكير يقتضى إعادة قراءة التاريخ وإعادة تفسير التراث بل والدين نفسه من وجهة نظر نسوية .. وفى الخارج بعض المحاولات من هذا القبيل حيث أعيدت صياغة (الكتاب المقدس) صياغة نسوية على أساس أنه ليس هناك ما يشير إلى طبيعة (جنس) الخالق الذى يمكن - فى نظر هذه الاتجاهات - أن تكون أقرب إلى الطبيعة النسوية والتكوين الأنثوى خاصة وأن الأنثى هى التى تهب الحياة وأنها هى أساس الخلق بين

الكائنات الحية . وهذه على أية حال اتجاهات بعيدة تماما عن العقل العربى حتى الآن على الأقل .

الملاحم والمرأة العربية

والواقع أنه على الرغم من (نكورة) الثقافة العربية - إن صح التعبير - فإن هناك جوانب إيجابية عديدة وواضحة تعلى من شأن المرأة ، وهى جوانب تستحق أن يلقى عليها الضوء لإبرازها والاقتداء بها فى ظروف الثورة الاجتماعية الهادئة والهادفة نحو تحقيق الأفضل بالنسبة للمرأة وبالنسبة للمجتمع القومى ككل «وكثير من هذه النواحى الإيجابية سجلها التراث العربى والموروثات الثقافية بما فى ذلك التراث الشفاهى المتمثل فى الأمثال والقصص الشعبى والملاحم، وما إليها من عناصر تراثية تعبر عن روح الشعب ونظرته إلى الأمور مثلما تعبر عن القيم والمثل العليا التى ينبغى أن تكون عليها الأوضاع . وإذا كانت الملاحم - مثلا - تشير إلى المرأة العربية التى تعتز بحريتها فإنها تستمد هذه الصورة من المجتمع نفسه، وتستوى فى ذلك الحرية المتعلقة بالسلوك الشخصى ولكن فى إطار التقاليد أو الحرية المتعلقة بالنظرة إلى الحياة ، وبذلك تصبح شخوص العمل الإبداعى (الملحمة أو السيرة الشعبية وما إليها) رموزا وأفكارا ومثلا عليا وقيما مجردة يمكن استلهامها والاقتداء بها . والمهم هو أن التراث الشعبى العربى يحمل كثيرا من الصور التى ترمز إلى قيم إيجابية تنعكس فى سلوك المرأة كما تسجلها الإبداعات الثقافية التى تحتاج إلى قراءة جديدة للكشف عن الجانب الرمزى فيها، وتجسيد هذا الجانب الرمزى فى السلوك الأنثوى الذى تحمله الأحداث والذي يصاغ فى قالب قصصى قد يكون وسيلة للترفيه، ولكن يجب أن يؤخذ على أنه أيضا وسيلة للتربية والتعليم وتقويم السلوك .

وعلى أى حال فإن صورة المرأة فى الموروث الثقافى ، وهو موضوع أعطاه المؤتمر قدرا كبيرا من الاهتمام ، صورة مركبة ومعقدة ولا تخلو من التناقضات ، وأنه إذا كانت هناك جوانب سلبية كثيرا ما يحب الناس الرجوع إليها والاستشهاد بها للتدليل على انخفاض مكانة المرأة بالنسبة للرجل، وإعطاء أولوية مطلقة للذكر على الأنثى فإن بهذا الموروث الثقافى نفسه

جوانب أخرى تكشف عن وجود قيم إيجابية تعطى للمرأة العربية ما تستحقه من احترام وتقدير نظرا للخصائص والمقومات الأساسية فى شخصيتها الاجتماعية وللأدوار المؤثرة التى تقوم بها فى الحياة والتى تسجلها بعض الأعمال التراثية . وهذه الجوانب الإيجابية هى التى اهتم المؤتمر بابرازها وتوكيدها . بل والتى يجب العمل على التعريف بها على أوسع نطاق وبخاصة فى المرحلة الحالية التى يمر بها المجتمع العربى وفى الظروف المتغيرة التى تضطرب فيها الرؤية إزاء المستجدات العالمية التى تغزو العالم العربى وتستهوى الكثيرين بحيث يتناسون تراثهم وتقاليدهم وحضارتهم الغنية بالمبادىء الأخلاقية والقيم الاجتماعية التى ينبغى تطويعها عن طريق إعادة قراءتها وتفسيرها فى ضوء هذه المتغيرات والمستجدات والاسترشاد بها فى تحديد المسار فى المستقبل .

جهود المثقفين

وإحياء هذا التراث والتعريف به وإبراز متضمناته الإنسانية السامية يحتاج إلى تضافر جهود المثقفين والأجهزة الرسمية المعنية وبخاصة وسائل الإعلام والاتصال الحديثة بكل إمكاناتها التكنولوجية المتقدمة، حيث يمكن تسخير هذه الإمكانات مع جهود المثقفين والمهتمين بشئون المرأة والمجتمع فى إنتاج إبداعات فنية وفكرية جديدة تخاطب العقول (الجديدة) بالأسلوب الذى تفهمه وتستجيب له وتتجاوب معه، مع الحرص على عدم الالتجاء إلى أسلوب الوعظ والإرشاد والتعليم الصريح الذى قد يأتى بنتائج عكسية . ولكن لابد أن يسبق هذا كله دراسة ومعرفة الموروثات الثقافية فى العالم العربى كوحدة ثقافية متصلة ومتكاملة وتبين الجوانب المشتركة فى هذه الموروثات وذلك للارتقاء بمكانة المرأة وتغيير نظرة المجتمع إليها والنظر إلى المستقبل بعين التفاؤل على اعتبار أن المستقبل هو امتداد للماضى الزاهر العريق ، والذى يفرض فى قدرات المرأة العربية الخلاقة القادرة على الإسهام فى تغيير صورة المجتمع العربى الحالية إلى واقع أفضل وأزهى ، وهذا هو فيما أعتقد ماكان يهدف إليه المؤتمر القومى الأول للمرأة .

الجامعات والتنمية

الاستفادة من الكفاءات الجامعية

بقلم : د. لطفية النادي *

تحرص الجامعات في معظم الدول النامية على تعميق البحث العلمي والتعليم ، بعيدا عن احتياجات التصنيع في تلك الدول ، وربما يرجع ذلك إلى أن استراتيجية التصنيع تخضع مباشرة للضغوط السياسية والاقتصادية لهذه الدول بمنأى عن خطط التعليم فيها .

وقد نجد أن معظم الجامعات لديها كفاءات على درجة كبيرة من القدرة على العطاء العلمي في مجال التصنيع ، إلا أنها طاقات معطلة بسبب عدم الإعلان عن هذه القدرات أو أن الصناعات التي لديها تكون مستوردة ، وبالتالي فإنها تلجأ في حل مشاكلها بالاستعانة بخبراء أجانب .

وهناك دولتان على جانب كبير من التقدم الصناعي ، هما الولايات المتحدة واليابان يعدان نموذجا للاستفادة من القدرات العلمية بالجامعات ، حيث شكلت عدة منظمات للتعاون المشترك بين الجامعات وبين الشركات الصناعية وهي ما يعرف بـ Corpeation Asso-ciates وتعتبر هذه المنظمات حلقة ربط بين الإدارات الصناعية وبين القيادات الجامعية التي تستطيع أن تقوم بإجراء البحوث المختلفة التي تمثل واقعا مباشرا على خدمة الصناعة وتطويرها .

ونذكر منها على سبيل المثال منظمة التعاون المشترك في مجال الفيزياء، وهي تجمع بين أعضائها بعض رجال الصناعة من الفيزيائيين ، وتقوم هذه المنظمة بتقديم النصح للعاملين بالجامعات في مجال الفيزياء عن الدور الذي يمكن أن تؤديه البحوث العلمية بالجامعات لتنمي وتطور الصناعات المتعلقة بهذا الفرع وتقدم الحلول لمشاكلها .

تقوم هذه المنظمة بعقد عدة لقاءات علمية يشارك فيها الباحثون في الجامعات وفي الشركات الصناعية وتتم هذه اللقاءات في إحدى الشركات الصناعية ، وتختار موضوعات اللقاء طبقا لما تراه هذه المنظمة من أهمية ما تتطلبه الصناعة من تطور في مجال مختلف حيث تتميز هذه اللقاءات .

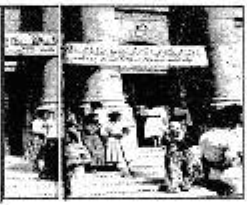
بتقديم الفرصة على رجال الصناعة الباحثين في الجامعات ، وفي نفس الوقت تهيئ الجو العلمي لتبادل المعلومات والآراء التي تشجع الباحثين بالجامعات على توجيه أبحاثهم لمجالات خدمة الصناعة .

كما تبين للقائمين على الصناعة ما لدى الجامعة من كفاءات علمية وإمكانيات قادرة على تقديم النصح والحل واقتراح نقاط التطوير والتحديث لصناعاتهم .

على سبيل المثال استضافت شركة جنرال موتورز في عام ١٩٨٩ لقاء منظمة

* أستاذة الفيزياء بكلية العلوم - القاهرة







التعاون المشترك فى الفيزياء، وكان محور اللقاء موضوع : «التوقعات الاقتصادية للفيزياء فى التصنيع» ، وتناولت البحوث المقدمة والاستفسارات المجالات التالية : تصنيع مواد مغناطيسية جديدة - تخليق ألياف كربونية من الغاز الطبيعى - تصنيع مواد جديدة وسبائك لتتحمل درجات الحرارة العالية - استخدام الليزر فى الميكنة الدقيقة وطرق اللحام - طرق فيزيائية لتصنيع أجهزة استشعار جديدة للاستخدامات الالكترونية - المواد فائقة التوصيل الكهربى - التقدم فى التكنولوجيا الاتوماتيكية - المواد مانعة الضوضاء - المواد الماصة للصدمات - مواد ورقائق ذات خواص صالحة لأجهزة تنظيم السرعة - التشغيل والتحكم فى قيادة السيارات بالعقل الالكترونى - التحكم السريع - والإشارات السريعة .. وغيرها .. ويتخلل هذا اللقاء زيارات على الطبيعة لخطوط انتاج السيارات بدءا بالهيكل وانتهاء بالتحكم والاختبار النهائى للسيارة .

ومن مثل هذه اللقاءات يتبين للباحث الاكاديمى بالجامعة الدور المهم الذى تتطلبه الصناعة ومن هنا يحدث الاهتمام والتوجيه .

والسؤال المطروح الآن هل يكفى ذلك ليترك الباحث بالجامعة بحوثه الأكاديمية واشرافه على رسائل الماجستير والدكتوراه التى يشبع فيها اهتماماته الأكاديمية برصانة البحوث المقدمة فى مجال العلم البحت ؟

الإجابة قد تكون نعم ولكن الاهتمام فى هذه الحالة سوف يرجع للرأى الفردى للباحثين .

ما الذى يمكن أن يحفز هؤلاء الباحثين ذوى الكفاءة على تغيير مسار بحوثهم لخدمة الصناعة ؟

تمت الإجابة على هذا السؤال بأن قامت هذه المنظمات بالإعلان عن إجراء بحوث تخدم الصناعة فى هذه المجالات على أن يتعاقد الباحثون فى الجامعات على إجرائها وتقديم نتائجها لخدمة الصناعة .

ويتمتع الباحث فى ظل هذا بجدية الهدف وبتوفير الإمكانيات التى يضيفها لمعامله من باحثين مساعدين ومن مواد ومن تجهيزات تساعده على إجراء البحث كما يتمتع بحوافز مادية وعلمية عندما ينجح فى تقديم نتائج التعاقد .

وقد تؤدى هذه البحوث إلى ظهور ابتكارات جديدة وهو ما يحدث فى معظم الأحيان تكون حقا للمتعاقد وحقا لجامعته، ومن هنا يظهر دور القوانين اللازمة لحفظ هذه الحقوق .

ونظرا لعدم وجود مثل هذه المنظمات للتعاون المشترك مع الصناعة فإننا نقدم فيما يلى تصورا لإيجاد حلقة ربط بين ما يمكن أن تقوم به البحوث العلمية بالجامعات وما تتطلبه الصناعات المحلية

من تطوير وحلول لمشاكلها لتساعدها على مزيد من الانطلاق والإنتاج الجيد .

الاقتراحات والحلول

ونظرا لأنه تم إنشاء قطاع خدمة المجتمع وتنمية البيئة بالجامعات ومن أهدافه الإشراف على إجراء بحوث تطبيقية تجرى لحساب الشركات والجهات الأخرى فى الداخل أو فى الخارج، وما يحويه هذا الهدف من عظيم المسئولية واحتياجه لمزيد من التنظيم والتدعيم نقترح ما يلى :

– إنشاء قيادة علمية بكل كلية تعمل على تنمية البحوث الأساسية والمتطورة لخدمة الصناعة ، وما يتطلبه المجتمع بين الأقسام المختلفة بالكليات والوحدات ذات الطابع الخاص بها وتشرف على برامج التدريب الفنى والعلمى بها .

– تكون هذه القيادات العلمية مسئولة عن الاتصال المستمر بقطاعات الصناعة ومتطلبات المجتمع وتتجمع لديها احتياجات هذه القطاعات وما تعانيه من مشاكل، وتعمل على نشر برامج التدريب الفنى والعلمى التى تقوم بها الكليات .

– إن يشكل مجلس من هذه القيادات برئاسة نائب رئيس الجامعة لخدمة المجتمع وتنمية البيئة وباشتراك أعضاء من القطاعات الصناعية لدراسة آراء الكليات واقتراح طرق التنفيذ والإشراف عليها .

– أن تعلن الجامعات بناء على توصيات هذا المجلس عن منح تعاقدية لإجراء بحوث محددة لحل مشاكل الصناعة أو تطويرها، يتقدم لها الباحثون ذوى الكفاءة العلمية من الجامعات باقتراحات محددة تشمل دراسة زمنية علميا وفنيا وماليا وتمول من الجامعة والصناعة .

– ينشأ بكل جامعة صندوق للبحوث التطبيقية تموله القطاعات الصناعية وتبرعات والهيئات والأفراد المعنية بهذا المجال وينفق منه على البحوث التعاقدية .

ينشأ بوزارة التعليم العالى هيئة قانونية للحفاظ على حقوق الجامعات تجاه الابتكارات العلمية التى قد تؤدى إليها البحوث التعاقدية وتوثيقها واستثمارها فى تقديم المشورة العلمية للهيئات التى ترغب فى حل مشاكل مماثلة تقدم عن طريق الجامعة المعنية .

وإذا تحققت هذه النقاط مكتملة فإننا نأمل أن نكون قد توصلنا إلى تنظيم مماثل لنظمات التعاون المشترك بين الجامعات والصناعة، يعمل على عقد اللقاءات العلمية بالمصانع وتيسير سبل الحصول على المعلومات التى تهم الصناعة والتطبيق العلمى، ويقدم للكفاءات العلمية والبحثية بالجامعات مجالا لإظهار قدراتهم على خدمة الصناعة والمجتمع ويدفع عجلة الصناعة لمزيد من الإنتاج والتقدم .

فن اختيار المواهب

بقلم : تيموثى باتلر وجيمس والدروب

ترجمة : هالة حلمى

استخدام الرجل الكفء عملية صعبة ولكن الاحتفاظ بهذه الكفاءة داخل المؤسسة هو أشد صعوبة. وهناك المئات من القصص والروايات التى يرويها المسئولون فى المؤسسات عن الموظف الكفء، الذى يفاجئهم بعد عدة سنوات بأنه قد تلقى عرضاً لا يستطيع رفضه، أو أن تسمع من يقول: لا أحد هذه الأيام يظل يعمل فى مؤسسة واحدة فترة طويلة.

ولقد وجدنا من خلال بحث استمر إثنى عشر عاماً إن هناك حركة مستمرة فى مجال العمل وأن العديد من الموظفين الأكفاء يتركون مؤسساتهم، لأن مديريهم لا يفهمون سيكولوجية الاشباع والرضا فى مجال العمل ولأنهم يفترضون خطأ أن الأفراد الذين يحققون تفوقاً فى عملهم لابد أن يشعروا بالسعادة فى عملهم،

وهذا قد يبدو منطقياً إلى حد كبير ولكن الحقيقة إن المهارات القوية لا تؤدى بالضرورة إلى الراحة بالعمل. عدد كبير من الموظفين هذه الأيام وخاصة من هم فى سن العشرينات والثلاثينات مؤهلون ومدربون جيداً للنجاح فى أى عمل، ولكن تظل المشكلة هل سيستمر هؤلاء الشباب فى وظائفهم ؟ الإجابة هى نعم إذا كان

هذا العمل يتماشى فقط مع اهتماماته الدفينة وطموحاته الخاصة. هذه الاهتمامات الدفينة تكون جزءاً لا يتجزأ من شخصية الفرد وهى تنمو بداخله على المدى الطويل ولهذا فهى تنشأ نتيجة عوامل مشتركة من الطبيعة والتنشئة.

الاهتمامات الدفينة للأفراد لا تحدد المهارات الخاصة بهم ولكنها تحدد أنواع الأنشطة التى تجعلهم سعداء.

وفى العمل يتم ترجمة هذه السعادة إلى التزام يجعل الموظف مرتبطاً بعمله ويجنبه التفكير فى التخلى عن وظيفته إذا ما أتيحت له فرصة أفضل.

ومن خلال البحث الذى أجريناه استطعنا أن نحدد ثمانية اهتمامات دفينة للموظفين. هذه الاهتمامات تبدأ فى الظهور فى مرحلة الطفولة وتظل مستقرة طوال حياتنا على الرغم من إنها قد تعبر عن نفسها بطرق مختلفة فى أوقات مختلفة. على سبيل المثال إذا كان لدى الطفل الصغير اهتمام خاص بالإنتاج التخليقى. هذا الاهتمام يكون الطفل فى الغالب مولوداً به. وهذا الاهتمام يجعل الطفل يعشق الابتكار أو تجربة كل ما هو جديد أو الاثنين معاً. فهو قد يرسم أو يكتب قصصاً أو مسرحيات وفى مرحلة المراهقة فإن هذه الاهتمامات الدفينة قد تعبر عن نفسها فى هواية ابتكار آلة ميكانيكية، أو ممارسة لعبة رياضية وكشخص بالغ فان الاهتمام بالإنتاج التخليقى يتحول إلى حافز لكى يصبح الشخص مقاولاً أو مهندس تصميمات أو قد يستمر الشخص فى الاهتمام بكتابة القصص مرة أخرى مما قد يدفعه إلى مجال العمل السينمائي. ومن خلال البحث توصلنا إلى أن معظم الأفراد يحركهم ما بين واحد إلى ثلاثة اهتمامات دفينة لنوع معين من النشاط. وهذه الاهتمامات لا تكون مجرد هواية أو تسلية ولكنها رغبات حقيقية تتماشى مع شخصية كل فرد وهذه الاهتمامات لا تحدد نوعية العمل الذى نجيده ولكن العمل الذى نحبه.

وقد قمنا بتقسيم النشاط العملى بشكل عام إلى ثمانية أنواع من الأنشطة التى يحظى أحدها أو أكثر باهتمام خاص من جانب الأفراد وهى كما يلى :

١ - تطبيق التكنولوجيا : هؤلاء الأفراد الذين يتمتعون باهتمام خاص بتطبيق التكنولوجيا يكون لديهم رغبة فى البحث عن أفضل وسيلة لاستخدام التكنولوجيا لحل مشاكل العمل وهؤلاء أيضاً يحبون ويجيدون العمل الذى يتضمن التخطيط والتحليل.

٢ - التحليل الكمى : الموظف الذى يهتم بالتحليل الكمى يتفوق فى التعامل مع الأرقام حيث يرى أنها وحدها القادرة على تقديم الحلول العملية فى مجال العمل.. وهم يستمتعون بالأعمال الحسابية التى يجدها الكثيرون شديدة

التعقيد والملل.

٣ – فرض النظريات والتفكير المنطقي: هؤلاء يبحثون دائما عن إجابة لتساؤل «لماذا؟» وليس كيف؟ وهم أحياناً ينتهي بهم الأمر إلى المجال الأكاديمي ولكن في الغالب يفشلون في تحديد المجال الذي يشبع اهتماماتهم. و ...

٤ – الإنتاج التخليقي: بعض الأشخاص يستمتعون جداً ببدء المشاريع الجديدة خاصة عندما تكون الرؤية أمامهم مجهولة وغير واضحة إلى حد كبير فهم دائماً يسعون إلى «صنع شيء من لا شيء» وهم يبحثون عن الجديد وابتكار الحلول غير التقليدية.

٥ – توجيه المشورة والمراقبة: وهؤلاء يجدون ذاتهم في توجيه وتدريب العاملين معهم ويشعرون بالرضا والفخر عندما ينجح من يقومون بتدريبهم، وهم دوماً يساعدون غيرهم على التطور والنمو.

٦ – إدارة الأفراد والعلاقات العامة: أصحاب هذا الاهتمام يستمتعون بالتعامل مع الموظفين يومياً ويشعرون بالرضا عن العلاقات في محل العمل ولكنهم أقل اهتماما بنمو وتطور الأفراد وأكثر تركيزاً على النتائج والأهداف التي يحققها الموظف في مجال العمل.

٧ – إدارة المؤسسة: هؤلاء الأشخاص يشعرون بالأشباع الكامل والرضا عندما يملكون السلطة النهائية لصنع القرار. وهم كموظفين يسعون دائما للحصول على أكبر قدر من المسئولية داخل مؤسساتهم .

٨ – التأثير من خلال اللغة والأفكار: بعض الأشخاص يشعرون بالاشباع التام عندما يتكلمون أو يكتبون أو الاثنان معاً. وتكون عملية الاتصال مع الآخرين محور اهتمامهم في الحياة . وهؤلاء قد يعملون في مجال العلاقات العامة أو الإعلانات لأنهم يمتلكون مهارة فائقة في اقناع الآخرين.

وقد لاحظنا من خلال البحث أيضاً أن الفرد يمكن أن يكون له أكثر من اهتمام دفين في حياته. فالشخص صاحب الاهتمام بتطبيق التكنولوجيا وإدارة الأفراد والعلاقات العامة يمكن أن يكون مهندساً أو عالم كمبيوتر ويدير بنجاح فريقاً من العاملين معه .

فن التوفيق الوظيفي

وهذه الاهتمامات الدفينة للفرد غالباً ما تفرض نفسها الأمر الذي يؤدي بالموظف إلى ترك عمله بحثاً عن آخر يشبع هذه الاهتمامات. وفن التوفيق الوظيفي هو الفن الذي يوفق بين الفرد والوظيفة التي تلائمه وتسمح لاهتماماته الدفينة في الحياة بالتعبير عن نفسها وهو فن يهدف في النهاية إلى الوصول إلى الأشخاص الموهوبين في كل مجال. وحتى لا يقع خطأ فإن فن التوفيق الوظيفي يتطلب من المدير أن يقوم بدور المخبر والمحلل النفسي والسبب إن الشخص نفسه يكون في الغالب غير مدرك تماماً لاهتماماته الخاصة.

فعلى سبيل المثال قد يقضى الإنسان طوال حياته محاولاً تحقيق ما يتوقعه الآخرون منه أو قد يحاول تنفيذ النصيحة الشائعة القائلة «بأن الشخص يجب أن يمارس المهنة التى يتقنها. على سبيل المثال نجد سيدة على أساس مهاراتها فى مجال الكيمياء فى الجامعة ينصحها الجميع بأن تدرس الطب وبالفعل مارست مهنة الطب بنجاح لسنوات طويلة، ولكن عندما بلغت الثانية والأربعين هجرت الطب وافتتحت داراً للحضانة دفعها ذلك فى البداية حبها الشديد للأطفال، ولكن بعد فترة ظهر بوضوح اهتمامها العميق بإبداء المشورة والرقابة وأيضاً تولى مسئولية إدارة مؤسسة. لتعلن فى النهاية إن السنوات الأولى من عمرها التى عملت خلالها كطبيبة ضاعت كلها سدى.

ولكننا على الجانب الآخر نجد أن معظم الأفراد لايدركون اهتماماتهم الدقيقة لأنهم عادة ما يسلكون الطريق الأسهل فى الحياة كأن يمارس الشخص نفس المهنة التى يمارسها والده. أو لأنهم فى المرحلة الحاسمة من حياتهم لايدركون تماماً الاختيارات الكثيرة المتاحة أمامهم. وفى النهاية قد ينتهى الأمر ببعض الناس إلى الوظيفة الخاطئة لأنهم اختاروا العائد المادى أو المكانة التى يمكن أن توفرها لهم هذه الوظيفة.

وبغض النظر عن الأسباب فإن الحقيقة المؤكدة إن الغالبية العظمى من الناس لا تستطيع أن تحدد نوعية العمل التى تجعلها تشعر بالراحة والسعادة حتى بلوغهم مرحلة منتصف العمر.

التنمية الوظيفية

كما سبق أن ذكرنا فإن المدير المسئول قد يفسد عملية التنمية الوظيفية أو يفشل فى الاحتفاظ بالموظف الكفء لأنه يفترض خطأ بأن الموظف يشعر بالاشباع والرضا من الوظيفة التى يتفوق فيها. ولكن هناك أسباباً أخرى تجعل عملية التنمية الوظيفية تسير فى الطريق الخاطىء. السبب الأول هو الطريقة التى تتم بها عادة عملية شغل الوظائف، ثانياً، ما هو متعارف عليه من قيام إدارة تنمية الموارد البشرية بتولى مسئولية التنمية الوظيفية فترقية معظم الأفراد فى مؤسساتهم تتم تبعاً لجدول ثابت. مثل مهمة جديدة كل ١٨ شهرا مثلاً أو عندما يخلو منصب جديد فى المؤسسة. وفى الحالتين فإن المسئول الإدارى فى المؤسسة يتولى هذه المهمة وهو يضع فى اعتباره ما هى المهارات التى يتطلبها المنصب الشاغر ومن هو الموظف الذى يمتلك هذه المهارات أو يستطيع أن يطورها بسرعة. وفى بعض الأحيان يترقى الموظف فى المؤسسة لأنه يطلب ذلك فالموظف الموهوب على سبيل المثال، يبلغ مديريه أنه يرغب فى الترقى لمنصب جديد لأنه لم يعد يحقق أى تطور فى منصبه الحالى. والمفترض أن المدير المثالى فى هذه الحالة يدرس مهارات الموظف ويحاول أن يجد وظيفة أخرى فى المؤسسة تلائم

قدراته. ولكن فى الغالب لا تتم هذه العملية بإدراك كامل لاهتمامات الشخص الدفينة وهذا قد يؤدى فى أغلب الأحيان إلى شعور الموظف بعدم الارتياح حتى بعد ترقيته إلى وظيفة أفضل، وفى هذه الحالة قد يعزى الموظف هذا الشعور إلى عدم ارتياحه لمديريه أو لسير العمل فى المؤسسة بالكامل، ويبدأ فى توجيه الاتهامات إليهما. ومن هنا قد تبرز لديه فكرة ضرورة مغادرة هذه المؤسسة والبحث عن غيرها ليواجه أيضاً بالشعور نفسه بعدم الارتياح والسبب إن هذا الموظف لم يستطع أو لم يعاونه أحد على الوصول إلى المهنة التى تلائم اهتماماته الخاصة. فهذا مدير من إحدى مؤسسات التكنولوجيا المتطورة يتنقل خلال فترة قصيرة بين ثلاث مؤسسات قبل أن يدرك فى النهاية أن المشكلة تكمن فى أنه ليست المؤسسة هى التى يجب أن يغيرها ولكن المهنة التى يمارسها نفسها. فهو لم يكن أبداً يريد أن يكون مديراً ولكنه وافق على الترقية لأنها تقدم له المال والمكانة البارزة ولكن رغبته الحقيقية أو اهتماماته الخاصة هى العمل كمهندس فى مجال تصميم الآلات الميكانيكية.

●●هذه القصة تقودنا إلى السبب الثانى الذى يؤدى إلى الخطأ فى عملية التنمية الوظيفية. فالمهندس فى القصة السابقة تمت ترقيته بناء على اقتراح من إدارة الموارد البشرية وبشكل عام ثبت لنا إن عملية التنمية الوظيفية إذا ما كلفت بها إدارة التنمية البشرية. فإن المشاكل تبدأ فى الظهور.

فهذه الإدارة تقوم بعملية التنمية وفقاً لاختبارات قياسية ثابتة. مما يجعل نتائجها عامة فى أغلب الأحيان بالاضافة إلى أن المدير المباشر للموظف لا يكون مشاركاً فى هذه العملية على الرغم من إنه قد وجد أنه أفضل طريق للتنمية الوظيفية بشكل عام والتوفيق الوظيفى بشكل خاص تتم من خلال الحوار المتصل بين الموظف ورؤسائه. أما إدارة التنمية البشرية فإن مهمتها يجب أن تقتصر على التدريب ودعم المديرين فى المؤسسة للقيام بدورهم الفعال فى عملية التنمية الوظيفية.

أساليب التوفيق الوظيفى

التوفيق الوظيفى يبدأ عندما يقوم المدير بالتعرف على الاهتمامات الخاصة بكل موظف. فى بعض الأحيان تكون الاهتمامات الدفينة للموظف شديدة الوضوح، ولكن فى الغالب الأعم يجب أن يقوم المدير بالكثير من البحث والمراقبة للتوصل إلى تلك الاهتمامات.

ويشعر بعض المديرين بالقلق من أن هذه المهمة تتطلب منهم أن يقوموا بدور المحلل النفسى ولكن الحقيقة إن المدير الكفء يجب أن يكون مهتماً دوماً بالحوافز النفسية لموظفيه، والمدير لا يحتاج إلى تدريب خاص للقيام بهذه المهمة عليه فقط أن يكون مستمعاً جيداً لمرؤسيه خاصة عندما يبدأ المرؤوس فى

الحديث حول ما يحبه وما يكرهه فى عمله.

وبجانب الانصات الجيد والاستفسار المدروس أثناء عملية تقييم الأداء الوظيفى يمكن للمدير أن يطلب من العاملين معه المشاركة بأنفسهم فى عملية التوفيق الوظيفى، ففى معظم المؤسسات تتضمن عملية التقييم الوظيفى قيام الموظف بكتابة تقرير عن انجازاته وأهدافه القادمة والمهارات التى تحتاج إلى تطوير . ومن خلال هذا الاستعراض تتم مقارنة تقييم الموظف نفسه بتقييم رؤسائه ويمكن تحقيق أفضل النتائج إذا أضيف إلى التقرير الذى يقوم بإعداده الموظف جزء خاص يتناول وجهة نظر الموظف حول الاشباع الوظيفى أو عن نوعية العمل التى يفضلها .

ولكن لأن الغالبية العظمى لاتدرك جيداً اهتماماتها الدفينة أو أنهم غير معتادين على مناقشة مثل تلك الأمور مع مديريهم، لذلك فلن تتم هذه العملية بسهولة فى البداية ولكنها لا يجب أن تتوقف لأنه حتماً فى النهاية سيبدأ الموظف في التحدث بصراحة أكبر عما يريده من العمل وما يشعره بالتعاسة أو السعادة. وهذه المعلومات ستساعد إلى حد كبير فى عملية التوفيق الوظيفى وإذا ما نجح المدير أخيراً فى أن يبدأ حواراً مع مرؤوسه للكشف عن اهتماماته الدفينة فلابد أن تبدأ مرحلة التوفيق الوظيفى فوراً فإذا كان الموظف يطلب تغييراً طفيفاً فى نشاطه فيمكن تكليفه بمسئولية جديدة بجانب عمله السابق أو نقله إلى منصب جديد تماماً داخل المؤسسة. المشكلة الكبرى تبرز عندما يفاجأ المدير بأن المنصب الذى يتلاءم مع اهتمامات الموظف الدفينة غير متوفر فى المؤسسة وفى هذه الحالة قد يضطر المدير إلى أن يتخذ قراراً غاية في الصعوبة وذلك بنصح الموظف الكفء بترك المؤسسة .

على الرغم من التحديات التى قد تواجهها عملية التوفيق الوظيفى فإنها عملية تستحق المحاولة. خاصة إذا علمنا إن أهم الأصول التى تمتلكها أية مؤسسة هى موظفوها. هذا الرأسمال الفكرى يختلف عن الآلات والمصانع لأنه يمكن أن يهجر المؤسسة للعمل فى مؤسسة أخرى منافسة. وحتى يحتفظ المدير وصاحب العمل بالموظف الكفء يجب أن يكون واعياً تماماً بعقل وقلب هذا الموظف وأن يتخذ قرارات حاسمة بشأن عملية التوفيق الوظيفى التي تدخل السعادة على قلب كل من الموظف والمدير.

[عن مجلة هارفارد بيزنس ريفيو، والكاتبان محللان نفسيان، ومديرا برامج التنمية بمعهد هارفارد لإدارة الأعمال في بوسطن بالولايات المتحدة]

«الحكمة يمانية»

قصة حياة محسن العينى ..

خمسون عاما فى الرمال المتحركة ..

بقلم :مصطفي نبيل

كتاب جديد يروى «السيرة الذاتية» لأحد رجال اليمن المرموقين عنوانه .. «خمسون عاما فى الرمال المتحركة»، وهو قصة حياة محسن العينى، وضع فيها عصارة تجربته. وأهمية هذا الكتاب أنه ينقل تجربة جيل عربى بأكمله، داعبت أحلامه الآمال الكبيرة، وسعى فى أن تتغلب البلدان العربية على التخلف، وأن تلحق بالعصر، وأن تقوم بين بلدانها علاقات متميزة داخل أمة واحدة، وأن تحقق العدل والحرية، وقد ساعد محسن العينى على الإمساك بالحقيقة ، ذكاؤه الحاد ونشأته القاسية.

وحكايته عبارة عن قصة مواطن بسيط، وجد نفسه وسط الأحداث، فتعامل معها بصدق وإخلاص، وهو شخصية من الجيل الذى تلا أوائل الأمراء اليمنيين، وتتلمذ عليهم وتعلم منهم، خاض القسم الأصعب من تلك المحاولة المجيدة والمتعثرة لتحرير اليمن وتحديثه وتوحيده، وخاض عملية محاولة تحقيق ما دعا إليه الحرس القديم، وخاض محاولته من مواقع الثورة أحيانا ومن مواقع السلطة أو المعارضة أحيانا أخرى، عاش فى قلب الأحداث يستوعب بعقله ويحلل



محسن العيني





شواين لاي يستقبل محسن العيني رئيس وزراء اليمن بمطار بكين

بألمعيته، استهل ذكرياته بالقول.. «أعرف أنى لم أرض أحدا، بل لعلى أغضبت الجميع..».

ولد الفتى فى قرية الحمامى القريبة من صنعاء لأسرة بسيطة، وكان الخامس بين سبعة أخوة، وتيتم فى سن السابعة، فعمل راعيا للنغم فى بطاح صنعاء، بعدها التحق بمكتب الأيتام، وهى المدرسة الابتدائية الوحيدة فى العاصمة، والتى تخرج كتبة للدوائر الحكومية.

ويصف الكاتب صنعاء فى ذلك الزمن البعيد «نصف قرن» كانت صنعاء محاطة بالأسوار. تقفل أبوابها السبعة عند الغروب، وتعيش فى ظلام دامس بالليل، ولا تفتح أبوابها إلا بعد الفجر، ولم يكن بها فنادق أو مطاعم وحتى عدد السيارات كان محدودا لا يتجاوز أصابع اليدين.. وكانت اليمن عالمنا، بل صنعاء وحدها، والعالم الخارجي هو عدن وجيبوتى وبر السودان ومصر والعراق، حتى أننا لم نسمع بالحرب العالمية الثانية!، رأينا للمرة الأولى سيارات الجيب، عندما وصل وفد أمريكى برئاسة الكولونيل إدى والذى أهدى إلى الإمام محطة إذاعة صغيرة كانت نواة إذاعة صنعاء.

راعى الغنم رئيسا للوزراء

برغم هذه النشأة فقد دفعته الصدفة وحدها إلى مقدمة المسرح، عندما أتيحت له فرصة التعليم وهو الذكى اللبيب، الذى أصبح أول وزير خارجية لليمن بعد الثورة وسفيرا لليمن فى واشنطن والأمم المتحدة وموسكو وباريس ولندن وبون والذى تولى رئاسة الوزارة أربع مرات.

نعود إلى قصة الفتى.. تم اختيار أربعين طالبا سنة ١٩٤٧

للدراسة في لبنان، حصل هو وأخوه على عضوية البعثة لتفوقهم الملحوظ، وبدأ رحلته في طريق المعرفة، والتقى الفتى في طريقه إلى لبنان بزعيمي اليمن الأحرار النعمان والزبيرى في عدن وكأنه أصابه مس كهربائي فارتبط بهما وبالتطورات التى جرت في اليمن من يومها.

يروى تجاربه الأولى .. «ذهبنا معهما «النعمان والزبيرى» إلى السينما للمرة الأولى في عدن، وشاهدنا فيلم عنتر وعبلة، ولم ننم أياما، إعجابا وذهولا!».

وانتقلوا من عدن إلى القاهرة، ثم استقلوا القطار من القاهرة الى صيدا عبر فلسطين. ولم تكد البعثة تستقر في لبنان ، حتى غضب الإمام أحمد على البعثة، فسحب البعثة من لبنان إلى مصر، على أن تتجنب صخب القاهرة، وما تزخر به من فوران سياسي، واتفق على أن يلتحق الطلاب اليمنيون في بنى سويف في صعيد مصر وطنطا في قلب الدلتا، ولا مانع من حلوان باعتبارها في منطقة صحراوية معزولة ونائية، ورغم ذلك شهدت القاهرة نشاطا واسعا لليمنيين الأحرار، وأيدت ودعمت القاهرة هذه الحركة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ وكان لليمن نصيب كبير في إذاعة صوت العرب.

الأكل بالخاشوقة

ولم تمض مسيرة الفتى في التعليم سيرا طبيعيا، فكثيرا ما توقف التمويل، والانتقال من بلد إلى آخر، وعندما احتفلت الحديدة في فبراير ١٩٥٥ بذكرى انتصار الإمام أحمد على ثوار ١٩٤٨، كان من المتحدثين السيد على عقبات، فهاجم وسخر من الفتى ومن زملائه بملابسهم الإفرنجية والأكل بالخاشوقة «الشوكة والسكين»، وأولئك الذين لا يخفون إعجابهم بثوار مصر«!»، الذين يتشبهون بالأجانب، فرد عليه الفتى.. ونقد سخافاته وأكد أن التغيير آت لا محالة.. وأن العقليات المتحجرة ستلفظ أنفاسها الأخيرة..

وكما أبعد الفتى من صنعاء عام ١٩٥٤ الى القاهرة، أبعد من جديد من القاهرة إلى باريس عام ١٩٥٥، واتخذ القرار بأن يتم ترحيل الطلاب اليمنيين لكل من ايطاليا وبريطانيا وفرنسا وأمريكا حتى يبعدوهم عن العواصم العربية التى تشهد النشاط السياسى للاتحاد اليمنى!

ويذكر الفتى أنه خلال دراسته في القاهرة التى تزخر بالحياة السياسية، انضم ضمن مجموعة من الطلاب العرب إلى حزب البعث العربى الاشتراكى.

وعند قيام الثورة اليمنية في سبتمبر ١٩٦٢ عين وزيرا للخارجية في أول حكومة للثورة، ويضيف.. «ولم يعد من السهل استمراري في عضوية حزب البعث..».

سكرتير البدر

وتنتهي فترة من حياته وحياة اليمن، ويلاحظ أنه لم يذكر واقعتين مهمتين في حياته، الأولى أنه عمل فترة من الوقت سكرتيرا للأمير البدر، والثانية أنه على طريقة السير الذاتية المصرية، يتجنب الحديث عن أسرته، رغم أن قرينته كاتبة مرموقة، وهي ابنة الشيخ سنان بولحوم أحد مشايخ اليمن، ولاشك أنها لعبت دورا مهما في حياته، وفي لقاء قريب ضم كل من محسن العيني وقرينته والصادق المهدي، أخذ كل منهما ينتقد الأوضاع الراهنة، وتدخلت زوجة محسن العيني قائلة.. «لماذا لم تعالجا وأنتما في السلطة ما تنتقدانه اليوم؟!»

وما أكثر ما تقاطعت قصة حياة محسن العيني مع الكثير من الاحداث التي عشناها..

تعرفت عليه بعد أن أبعدته القوات البريطانية من عدن في يناير ١٩٦١، وعمل عضوا في المؤتمر العمالي في اتحاد العمال العرب في القاهرة.

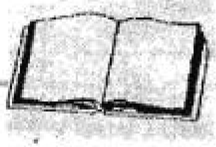
وجاءت الثورة في اليمن بعد التمزق الحاد في العلاقات العربية ، والشرخ الذى أحدثه الانفصال، ثم قيام حكم البعث المناوىء للقاهرة في كل من دمشق وبغداد.

وها هو التغيير يصيب أكثر الحلقات العربية تخلفا، ويأتي من اليمن ويومها سارعت للقاء أحرار اليمن المقيمين في القاهرة، والذين شردهم الإمام واحتضنتهم القاهرة، وأخذت أجمع أطراف ذلك الحدث الذى بعث الحيوية في السياسة العربية، وسعيت للإلمام بتفاصيله. فالتقيت بالأستاذ نعمان والقاضي الزبيري وأخذ كل منهما يقدم تقديراته وتحليلاته.

وكان اللقاء مع محسن العيني وعبدالرحمن البيضاني مميزا.

التقيت يوم الثورة بالبيضاني في شقته المطلة على النيل في المنيل ، يصحبني الصديق محمود عبدالفضيل، ولفت نظري وجود كمية كبيرة من صورة كتب تحتها «نائب رئيس الجمهورية» ، ولاحظت أنه الوحيد المطلع على ما يجرى في اليمن، وخلال اللقاء أطل علينا السادات نائب الرئيس في هذا الوقت، وقال.. «يبدو أنك تحتاج إلى مزيد من الوقت مع الأخوة ، فاسمح لي أن أذهب..» فسارعت بالاعتذار وإنهاء اللقاء.

أما محسن العيني فكان موقفه واضحا في الاعتراض على حجم دور البيضاني! وأصبح البيضاني بدعم السادات رجل مصر في اليمن!.



انسحاب مصري وآخر بريطاني!

وفى خريف ٦٧ قمت برحلة صحفية إلى اليمن شماله وجنوبه، لأتابع فى الشمال انسحاب القوات المصرية وقيام انقلاب ضد الرئيس اليمنى عبدالله السلال، وأتابع فى الجنوب انسحاب القوات البريطانية.. وشاهدت فى هذه الرحلة العجب العجاب، وتقاطعت هذه الرحلة فى الكثير من أحداثها مع ما يرويه محسن العينى.

وتصادف خلال هذه الرحلة أن عشت أكثر من مشهد تاريخى، ورأيت أحداثا ذات دلالة، فعندما وصلت الحديدة فى الشمال كانت آخر القوات المصرية المنسحبة! وفى الجنوب نجح الكفاح المسلح فى إجبار القوات البريطانية على الانسحاب.

فراعنى الانسحاب المصرى المتعجل تاركين خلفهم كل شىء، والنظام الدقيق لانسحاب القوات البريطانية، رغم ان القوات البريطانية قوات احتلال استعمارية، أذاقت الشعب كل صور القهر والاستغلال . بينما القوات المصرية قامت بمهمة جليلة فى حماية الثورة ومساندة القوى التى تسعى لإخراج اليمن من ظلام القرون الوسطى.

وكانت القوات المصرية قد بدأت انسحابها بعد الاتفاق الذى تم التوصل إليه بين مصر والسعودية، وبعد القمة العربية التى عقدت فى الخرطوم بعد هزيمة يونيو ٦٧.

سقوط السلال!

وما أن انسحبت القوات المصرية فى صنعاء حتى وقع انقلاب أطاح بالرئيس عبدالله السلال، وتولى محسن العينى رئاسة الوزارة اليمنية.. وعند وصولنا إلى صنعاء - مكرم محمد أحمد ومصطفى الحسينى وأنا - طلبت مقابلته، فأجاب «أن لقاء معه لن يكون كافيا، وأنه صباح اليوم التالى سيعقد اجتماعا لمجلس الوزراء.. وأننا مدعوون إلى هذا الاجتماع، حتى نسمع من الحكومة كلها.

هذا بعد ان تم تحذيرنا من زيارة صنعاء وأن هناك خطرا يتهدد حياتنا. وعندما أقمنا فى السفارة المصرية، وأشعلنا الأضواء تدفق علينا اليمنيون فرحين، متصورين أن ذلك يعنى عودة المصريين إلى اليمن!.

وتزخر هذه الرحلة بالحكايات ، ليس هذا هو مكان روايتها.

ولكنها فى مجملها تعكس اختلاف الرؤى وتباين المفاهيم. والفجوة الواسعة بين الأهداف والقدرات . وبين موقف الجماهير وموقف القيادات.

ونرجع إلى حكاية محسن العينى بعد تعيينه أول وزير خارجية فى حكومة الثورة

الجديدة، ولم يمض على هذا التعيين سوى أقل من شهرين. وقرأ نقله إلى الأمم المتحدة في الصحف. وسرعان مادب الخلاف في صفوف الثوار، فإذا اتفق الجميع على ضرورة سقوط نظام الإمامة، إلا أن التباين واسع في تصور الأطراف المختلفة نحو المستقبل. وظهرت الأهداف المتعاكسة لكل من الجيش والقبائل والقوى الجديدة من المتعلمين والتجار. وبدأت المنازعات بين سكان الجبال من الزيود وسكان السهل ومزارعيه من الشوافع.

ويروى العيني.. أن اللواء عبدالله جزيلان والطيار عبدالرحيم عبدالله ذكرا له أنه كانت لديهما تعليمات بقتله في صنعاء إذا لم يغادر البلاد صبيحة اليوم التالي لوصوله، وأن السيارة المكلفة بهذه المهمة كانت معدة في ساحة القصر الجمهوري. وأن الطيار عبدالرحيم عبدالله حرص على مرافقته طوال الوقت.. منذ نزوله من الطائرة وحتى عودته إليها.. من أجل ضمان مغادرته وعدم بقائه.

ويعلق العيني قائلا.. «أزعجتني الطريقة والأسلوب الذي تم بهما نقلي فليس من اللائق. أن يطلع وزير خارجية على إعفائه في صحيفة وهو في مهمة خارجية، فهل استكثروا إبلاغي برقيا بهذا التغيير.. ويضيف .. اعترف أن أحلامي ببناء دولة اليمن الحديثة قد اهتزت، وأن آمالي في تكوين الادارة العصرية التي نباهي بها الغير قد تزعزعت ، وأن تصوراتي أن متاعب اليمن ليست إلا عارضة واستثنائية قد ضعفت. وأن الفوضى والارتجال والتهور والطموحات والتنافس والتهافت هي التي تسيطر على مسرح الحياة السياسية في اليمن.

البعث وعبدالناصر

وكما حدث بين القوى داخل اليمن ، وقع مثله بين القوى السياسية العربية.. ويتناول العيني صفحات كثيرة من الصراع بين عبدالناصر وحزب البعث والذى دفع ثمنه رغم تخليه عن الحزب، ولاحقته تهمة الانتماء للبعث ووضع الكثير من العراقيل في طريق عمله السياسي.

وفي جميع الأدبيات التي تتناول الصراع بين عبدالناصر والبعث، وكلما تحدث طرف عن الطرف الآخر، وسرد معارك سابقة، يخيل إليك أنك مازلت تسمع صليل السيوف وقذف المدافع وغبار المعارك، ويقفز إلى ذهني القول المشهور عن «البوربون» - أباطرة فرنسا - لا يتعلمون شيئا ولا ينسون شيئا.

وتفوتهم عبرة التاريخ.. وهو أن انفصال مصر وسوريا ثم حرب اليمن هي حلقات متتابعة أوصلت الى المحطة الأخيرة وهي هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

فكم دفع العرب ومازالوا يدفعون غاليا نتيجة خلافاتهم وصراعاتهم وانقساماتهم؟!.



العزلة والتواصل عبر الإنترنت

بقلم: د. أحمد محمد صالح ★

● حان الوقت لاستخدام الإنترنت لكشف أكاذيب الصهيونية !

● نستوى بتصدير مواقع الكفرة على الإنترنت !

آلات تتكلم مع آلات قبل أن تتكلم مع إنسان، هذه هى حقيقة الحوار الذى يتم بين البشر فى الإنترنت، فمنذ بدء الخليقة، والإنسان يتوق للتعبير عن ذاته عبر التواصل والحوار مع أبناء جنسه، وبظهور الإنترنت زادت فرص الحوار والتواصل الإنسانى بين البشر جميعا على وجه الأرض عبر الفضاء الإفتراضى أو الفضاء الإليكترونى أو فضاء المعلومات Cyberspace وهو بيئة متعددة الجوانب، معقدة بقوة، نشأت من أشكال لا يمكن تخليلها من الحياة الرقمية.

★ - أستاذ بجامعة أسيوط.

وظهرت كيانات اجتماعية مفترضة لم تكن موجودة في السنين القليلة الماضية، فكيف ندرس المفردات الإنسانية الجديدة التي يعبر بها البشر عن أنفسهم؟ كيف نستطيع أن نفهم تلك الأشكال والصيغ الرقمية للحياة الجديدة؟!. والكيانات الاجتماعية الرقمية الجديدة تكونت فى الفضاء الاليكترونى فى هيئة جماعات رقمية يتم تحاور البشر عبرها، من أشهرها خدمة usenet فهي الشريان الأساسى للفضاء الأنترنتي، فمن خلال المشاركة فى المجموعة الاخبارية news group حيث تهتم كل مجموعة بموضوع معين، يمكنك أن تسمع صوتك، وتعلن آراك على الملايين، لكى يعارضوك أو يجيبوا على استفساراتك أو ينتظروا الإجابة على سؤال طرحته! ، وهناك أيضا البريد الاليكتروني e-mail، لوحة الرسائل message boards، حجرات الدردشة، chat room مؤتمرات الفيديو video conferencing حيث يتم الحوار بين آلاف البشر فى تنظيم الإنترنت، ولاننسى خدمة eCroups، التى تمكننا من إنشاء نواد خاصة للمراسلة، فيستطيع كل منا إنشاء ناد له فى دقائق، وحصر عضويته فى الأشخاص الذين يدعوهم للاشتراك، وتسمح هذه الخدمة، بالإضافة إلى البريد، بتبادل الملفات وبالمحادثات الصوتية المباشرة بين عدة أفراد فى الوقت ذاته.

وهذا يستدعى من علماء النفس والاجتماع التركيز على الكيفية التى تغيرت فيها صيغ وحدود الزمن والفضاء والمثيرات الحسية، وكل ماهو مرتبط بأشكال التعبير الإنسانى فى الحياة الرقمية الجديدة.

ولدراسة تلك الظواهر الجديدة يتطلب الأمر تكاملاً فى منهج دراسة الحالة كمنهج بحثي، تتكامل فيه أدوات البحث من ملاحظة متوارية وملاحظة بالمشاركة، وتقمص وجداني، وفحص الدوافع، ومناقشات جماعة البؤرة، والمعالجات التجريبية الظاهرية للمتغيرات، والاستبيانات القابلة للقياس، والمقابلات البنائية وغير البنائية من خلال الاتصال بالبريد الاليكتروني، وحجرات الدردشة، ولوحات الرسائل، والاتصال التليفوني، والاتصال وجها لوجه.

ومع التقدم السريع فى تكنولوجيات الكمبيوتر، والشبكات خاصة الإنترنت ظهرت بسرعة تجارب إنسانية جديدة، فعندما نفتح أجهزة الكمبيوتر، ونطلق برنامجا، ونكتب فيه خطابا اليكترونيا ونرسله أو ندخله على الشبكة، يلاحظ أن مستعملي الكمبيوتر غالبا ما يشعرون بوعى أو بغير وعى أنهم يدخلون الفضاء الواسع الذى يمتلئ بمعنى وأهداف كثيرة، وكثير من مستعملى الويب يصفون

تجربتهم بأنها إبحار أو سفر أو رحلة إلى مكان ما فى مجرات الفضاء وفى أماكن مجازية مثل عوالم أو ميادين أو غرف، وعلى مستوى نفسى أعمق، غالبا ما يعتبر مستعملو الكمبيوتر جهاز الكمبيوتر بأنه امتداد لعقولهم وشخصيتهم، وفى الفضاء الاليكترونى يعكسون ويعبرون عن أذواقهم واتجاهاتهم واهتماماتهم، وبمفردات للتحليل النفسى نقول: إن أجهزة الكمبيوتر، والفضاء الاليكترونى الواسع أصبحت نمطا من الفضاء الانتقالى transitional space يمتد فيه عالم الفرد ونفسيته، حيث تلتقى فيه نفسا بأخرى منفصلة عنها، وعند قراءة البريد الاليكترونى أو الحوار داخل غرف للدردشة مع رفيق انترنتى أو جماعات الأخبار أو لوحة الرسائل e-mail,newsgroup,or chat message، بعضهم يشعر بالإندماج العقلى والمزج مع الآخر.

العزلة بين الناس

ومع زيادة فرص الحوار والكلام بين مشارق الأرض ومغاربها من خلال الإنترنت، زادت مشاعر العزلة بين الناس، فرغم أن الإنترنت توصلنا مع الكثير من الناس، لكن لا تجعلنا نتقابل معهم أبدا، فعندما اكتشفت الفوائد المهنية للإنترنت، فى الدخول إلى مجموعات مناقشة فورية مع زملاء لهم نفس الاهتمامات العلمية والفكرية فى كافة أنحاء العالم، لاحظت أيضا أننى أصبحت أقضى وقتا أقل فى الكلام مع أسرتى وأصدقائى، وهذا مثل للدور المتناقض الذى تلعبه الإنترنت التى جاءت للعب فى أرواحنا فالتكنولوجيا التى سمحت للناس الاتصال مع أعضاء العائلة البعيدة والأصدقاء، ولإيجاد المعلومات بسرعة ولتطوير الصداقات مع أفراد حول العالم، فهى أيضا حلت محلّ تفاعلات الإنسان اليومية الحيوية، وأصبحت تفاعلات باردة وتواصل ميت، فلا يمكن أن يعطيك مراسل الكمبيوتر عناقاً أو يسخر من نكتك، وبعض العلماء النفسيين قلقون من زيادة شعبية الإنترنت لأنها سوف تؤدى إلى عزلة إضافية بين سكان الأرض، وبالرغم من أن الانجذاب وزيادة التفاعل نحو المجتمعات التخيلية فى السيبرسباس Cyberspace، إلا أن بعض الدراسات النفسية أظهرت أن تعظيم استخدام الإنترنت يقلل من المساندة الاجتماعية، ويزيد فرص الاكتئاب والوحدة. ومعظم الناس يستعملون الإنترنت لخطوط التحاور والبريد الالكترونى، وليس فقط لعزل أنفسهم فى تلال المعلومات الالكترونية. ووجدوا علاقة مباشرة وعكسية بين مستوى استعمال الإنترنت ومدى النشاط الاجتماعى والسعادة.

ومع الاعتراف بأن التكنولوجيات

الجديدة لها سلبياتها وإيجابياتها، فالسيارة سمحت للناس أن يسافروا في راحة لمسافة بعيدة، فنشأت الضواحي والطرق الرئيسية في كل مكان وسببت تغيرات إجتماعية كبيرة وفي الوقت نفسه ظهرت سلبيات مثل اختناقات المرور والتلوث البيئي، نفس الشيء في الإنترنت مثل أي تكنولوجيا، فدراسات أخرى أثبتت أن استعمال الانترنت في الحقيقة يتوسع ويثرى العوالم الاجتماعية لمعظم المستخدمين.

وفي معظم حجرات الدردشة والحوار، تضيف البرامج المتعددة الوسائط البعد المرئي الذي ينشيء وهم الحركة والفراغ وphysicality. ويسمح الناس أن يعبروا عن هويتهم ظاهرياً، إلى حد ما، فقط من خلال كلمات مكتوبة. النتيجة عالم جديد تماما للتعبير عن الذات والتفاعل الاجتماعي.

ومواقع الحوار في الإنترنت تعتمد على ساحات الحوار وغرف الدردشة بشكل أو بآخر على البريد الالكتروني، فهو طريقة فريدة ومهمة للاتصال والحوار وتطوير العلاقات بين البشر، وقد يكون أهم وسيلة منذ اختراع التليفون. لأنه سهل الاستعمال. ويجده الناس أيضا مألوفا وآمنا لأنه متشابه في نقاط كثيرة مع كتابة خطابات، إلا أنه يتخلص من مصادر الإزعاج مثل عنونة مظاريف ولصق للطوابع، والذهاب إلى صندوق البريد لوضعه أو استلامه. وهو من أشيع وربما أقوى الطرق لتطوير العلاقات الإنسانية والتحاور على الإنترنت. وبالرغم من أن الصداقات والروايات العاطفية قد تبدأ بحماس في حجرات الدردشة أو في بيئات الحديث المتعددة الوسائط الجديدة، إلا أن هذه العلاقات تقريبا تعتمد دائما على البريد الاليكتروني كطريقة لتعميق الاتصال. هو أكثر خصوصية، وأكثر محل ثقة، ويقلل كثيرا من فوضوية الكلام. حتى عندما تتحسن الطرق الأخرى بصورة كبيرة وتصبح أكثر فاعلية مثل مؤتمرات الفيديو التي تعتمد على البصر والسمع teleconferencing. فإن البريد الالكتروني e-mail- لن يختفي. سوف يفضله ناس كثيرون لأنه لا بصري ولا سمعي. فكثير من الناس لم تقبل على شراء معدات فيديو لأجهزة تليفونهم ac- cessorize بالرغم من أن تلك التكنولوجيا كانت متاحة منذ مدة.

نص يتكلم!

والبريد الالكتروني ليس فقط مجرد بريد يرسل عبر الإنترنت، بل ينشيء فضاء اليكترونيا سيكولوجيا بين أزواج الناس ومجموعاتهم المتفاعلة عن بعد. وينشيء السياق والحد الذي يمكن أن تتفتح فيه العلاقات البشرية. والسمات الأساسية للتحاور عبر البريد الاليكتروني،

تتركز فى انه نص مطبوع يتكلم (-Text Talk): فالناس تكتب كلمات للاتصال عبر البريد الالكتروني. ومزيد من التكنولوجيا المعقدة تمكنك أن تدرج الصور والصوت في الرسالة، لكن هناك عمليات أكثر تعقيدا تدمر البساطة والسهولة التي تجذب الناس للبريد الاليكتروني، فبعض الناس لا يميلون إلي البريد الاليكتروني لأنه يتطلب منهم الكتابة على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، فإذا كان كل واحد يعرف يتكلم، فليس كل واحد لديه القدرة على الكتابة على الكمبيوتر، وقد لا يشعر بعض الناس أيضا أنهم مرتاحون أو ماهرون في التعبير عن أنفسهم خلال المكتوب. فالطبع والكتابة على الكمبيوتر بمثابة الفلتر الذي يستبعد بعض الناس من عالم البريد الإلكتروني، ولأولئك الذين يحبون كتابة الكمبيوتر (أنا واحد منهم) يعتبر البريد الإلكتروني جنة لهم. حتى انه يوجد فرق فى الأسلوب المعرفي بين الناس الذين يحبون أن يتصلوا بكلمات مكتوبة وأولئك الذين يكرهون ذلك، وغياب الاتصال وجها لوجه فى النص المطبوع للبريد الإلكتروني، يجعلك لا ترى وجوه الناس الآخرين أو تسمعهم يتكلمون، وتفتقد تماما الاستمتاع بدقة الأصوات ورقتها وتعبيراتها، ونفتقد أيضا التفاعل مع أدلة حركات الجسد، وهذا يجعل الحوار عبر البريد الإليكتروني أكثر صعوبة. لكن الناس هم كائنات إبداعية، قد طوروا في e-mailers كل الأنواع لاستراتيجيات مبتكرة للتعبير عن أنفسهم خلال نص مطبوع. فالكاتب الماهر قد يكون قادرا على تعميق الاتصال بدقة ورقة الكلمة المكتوبة البسيطة، على الرغم من نقص أدلة الاتصال وجها لوجه. وأصبح التحدث عن البريد الإلكتروني فنا معبرا ومعقد الشكل. وفي البريد الإليكتروني تختفي الهوية، فالناس قد لايعرفون من أنت أو أين تكون عندما ترسل لهم بريدا إلكترونيا. إذا أردت يمكن أن تستعمل اسما مستعارا في الرسالة. وعنوان العودة يحتوى فقط على معلومات عامة قد تبين تقريبا أين أنت. ولا يمكن أن يعرف المستخدم العادي كيف يعثر على أصل وهوية أى رسالة غامضة. وإذا قرر شخص ما الاختفاء، يمكن أن يرسل بريده خلال خدمة صندوق بريد مجهول الاسم حتى ينزع بعيدا كل المعلوم.

هذه الإمكانية لإخفاء الهوية بالداخل e-mailing disinhibits يجعل بعض الناس، يقولون الأشياء التى لم يكن من الممكن عادة يقولونها، ويزداد أثر إخفاء الهوية غياب الاتصال المواجهي. وفي بعض الحالات يشجع البريد الإليكتروني الانطوائيين والعدوانيين على أن يكونوا أكثر انفتاحا وحناناً وأمانة، فإخفاء الهوية ليس بالشيء السيىء أو الجيد. فهو سلاح ذو حدين. ويتم

خلال البريد الإليكتروني تفاعل لا متزامن Asynchronous – محادثات البريد الإلكتروني لا تحدث في الوقت الفعلي، فلا يجب عليك وأنت ورفيقك أن تجلسا أمام الكمبيوتر في اللحظة نفسها لكي تتكلما. بخلاف اللقاءات وجها لوجه التي تكون متزامنة، فمناقشات البريد الإلكتروني لا تتطلب منك الاستجابة في الحال بل لديك وقت للتفكير، تقيم وتكون إجابتك ويستغل بعض الناس ذلك فيأخذون وقتهم لإسقاط انعكاساتهم السلبية، قبل الرد والبعض لا يستغل ذلك. والسرعة التي يتم فيها البريد الإليكتروني قابلة للضبط فقد تتم المحادثة والحوار عبر دقائق، أو أيام أو أسابيع أو شهور. فالوقت التفاعلي يمكن أن يقصر أو يتمدد، وتعكس التغييرات في مدى تبادل البريد الإلكتروني بين الناس طبيعة ديناميكية علاقتهم. وأيضا حجم المجموعة القابلة للضبط فمعظم برامج البريد الإلكتروني تسمح لك أن تنشيء قائمة للمراسلات ترسل لهم في الوقت نفسه.

كلام العرب في الإنترنت

وإذا كانت العجالة السابقة تعكس الملامح العامة لخصائص الحوار والكلام عبر فضاء الإنترنت، فإن العرب في تحاورهم وكلامهم عبر الإنترنت نقلوا خصائص ثقافاتهم وشخصيتهم في ذلك الحوار وأصبح حوارهم وكلامهم عبر الانترنت له خصائص أخرى غير التي نوقشت في بداية المقال. فرغم برودة الحوار والكلام عبر الإنترنت، فإن العرب جعلوا الحوار والكلام عبر فضاء الإنترنت أكثر سخونة وعصبية وتعصبا. فالعرب يتحاورون في الإنترنت من خلال مجموعة من المنتديات والمساحات الإليكترونية العربية الحوار، وهي منتشرة على الشبكة وتعرف بالإنجليزية باسم mes- saging boards أي لوحة الرسائل، وهي تشبه المجموعات الأخبارية، لكنها تقل عنها في مستوى الإدارة التقنية. وكثرت منتديات الحوار العربية في الإنترنت منذ بداية عام ١٩٩٨، وتزايد روادها بشكل كبير، إذ وفر العديد من المواقع هذه الخدمة لدعم الحوار حول المنتجات المعروضة فيها، وفيما فتحت مواقع أخرى للأفكار الحرة، وتمتاز تلك المنتديات بأنها توفر منبرا حرا. ومنتديات الإنترنت للحوار عالم متكامل قائم بذاته، تعثر فيه على الغالي والرخيص، فيها أفكار في منتهى التفاهة، وأخرى جيدة، فيها خطابات مهذبة للغاية، وفيها أخرى بذيئة، فيها رؤى سياسية وثقافية ودينية وأدبية مختلفة، وتتصاعد فيها حدة المعارك الفكرية والسياسية، وتتسلل فيها كل عقد الكبت فتنتشر الشتائم، والاتهامات بالكفر والعمالة وخيانة القضية، فتجد صولات، وجولات وحوارات، ونقاشات فارغة من كل شيء، إلا التفرقة والتعصب والجهل، الذي

يطفح من كل صفحة فيه. وهناك كثير من الشواهد، على أن كثيراً من النجوم في مواقع الحوار العربي موظفون في بعض الهيئات، ويتبعون دولا غربية، أو عربية، متفرغون تماماً للخوض في الأمور الشائكة، لأسباب كثيرة، فيما كثيرون منا قد يهتفون لهم ويصدقونهم، وينجرفون وراءهم في خنادق وساحات جهاد افتراضية، لا طائل من ورائها، إلا التفكك، وتثبيط الهمم وزرع الفتنة والشقاق.. حتى أن كثيرين تجدهم يتحدثون وبكل جد عن الجهاد بواسطة الإنترنت، ليقول أحدهم : هل يمكن الجهاد عن طريق الكمبيوتر، وإحداث نكاية بالروس الظالمين نصرة لإخواننا الشيشان؟! وقبلها كانت الأسئلة نفسها تتكرر عن كوسوفو وأفغانستان!

مخاوف العرب

وكانت تلك المنتديات العربية أمام خيارين، الرقابة على الحوار أو حرية النقد، لكن تلك المنتديات أميل لفرض رقابة محدودة على الحوار خاصة الكلمات البذيئة والأفكار الجريئة، فمازال التعبير الحر عن الرأي يثير مخاوف العرب، ويلاحظ أن غالبية منتديات الحوار تصدر من دول خليجية في المشرق، وقليل منها ما يتبع دول المغرب العربي، وتشمل صفحات للحوار وغرفا للدردشة، وبعضها يسمح بالدخول بدون كلمة مرور، وبأكثر من اسم مستعار. واتخذ التنافس بين المنتديات والساحات، أو التنافس أثناء الحوار والدردشة أشكالا مؤسفة في أحيان كثيرة، للتأثير على نفسيات رواد المنتدى، ودفعهم للهجرة منها إلى مواقع أخرى، وأغلب مواقع الحوار الموجودة تروج إلى أفكارها ومذاهبها، وتتعمد إلغاء الآخر، وعدم قبوله بشكل كبير من الحدة والغلظة، كأنها حربا في فضاء الإنترنت. وإذا كانت هناك منتديات حوار لها أهداف تجارية، هناك أيضا مواقع للحوار الفكري المفتوح، منها ينتمي إلى دولة بعينها رغم المحاولات الكثيرة سواء الناجحة أو الفاشلة للترويج أن منتدياتهم للمسلمين في كل مكان، بغض النظر عن جنسيتهم أو انتماءاتهم السياسية والمذهبية. ويلاحظ أن التعدد مفقود رغم كثرة منتديات الحوار العربية، فحوالي ٧٠٪ منها ذات اتجاهات سلفية، ١٠٪ منها فقط تملك اتجاهات علمانية، ٥٪ تتبع المنهج الشيعي، والباقي اتجاهات أخرى، طبعا هناك ندرة في الحوار الجاد العلمي الذي يدور حول قضايا علمية أو سياسية عالمية أو مشاكل وأحوال المنطقة، كما يحدث في منتديات الحوار الأجنبية، فبعض المنتديات أغلق بعد أسبوعين من افتتاحه، حيث تراكمت فيه حوارات ومقالات مؤسفة عن الإسلام، ومنتديات حوار عربية أخرى تعتمد على التخريب والترهيب تشترك فيها أقلام مريضة. وتنتشر في إنترنت العرب

ظاهرة تخريب منتديات الحوار لتصفية الخلافات الفكرية، وهى نتيجة منطقية لأن أسلوب تصفية الآخر هو السائد فى الشارع العربى الداخلى، حيث تسود مفاهيم منع التعددية، ورفض الآخر، وتغييب الرأى. والجديد هنا أن ذلك أصبح يتم علنا ومكشوفا فى الفضاء الإنترنتى، بعد أن كان مستترا فى طيات التعتيم الإعلامى على الشارع العربى. فالانتقال المفاجىء من سجون نظم الحكم العربية إلى البحار الواسعة للفضاء الإنترنتى، جعل العرب تفغر فاها مذهولة، فالعرب يتحاورون فى منتدياتهم الإنترنتيه ، وهم متعودون على نظرة التبجيل إلى رموزهم الحالية والتراثية، ويتفاجأون بدون أى تمهيد أن هناك أشباحا فى الفضاء الإنترنتى الواسع تحمل أسماء مستعارة تتحاور معهم وتتجرأ على رموزهم وينالون منها، ويرمونها بشتى الصفات واللعون وبإدانة كثيرة سواء باطلة أو حقيقية، وبأسلوب أقرب إلى اللامبالاة والسخرية منه إلى الجدية فى النقاش، فماذا تنتظرون أن تكون ردود الأفعال؟! فانتشرت ظاهرة تدمير منتديات الحوار العربية، وتدميرها من جذورها، إما بفعل حكومات أو أفراد، فهكذا يتحاور ويتكلم العرب فى فضاء الإنترنت، وأعرف موقعا معارضا لنظام الحكم فى إحدى الدول العربية المجاورة، فى حالة ترحال مستمر من موقع للآخر، لأن حكومته تتعقبه وتهجم على الموقع وتخربه، فيسرع إلى مواقع عالمية يحتمى فيها ويزاول نشاطه منها: وهكذا هم العرب على الإنترنت. والأدهى من ذلك وأمر، أن البعض استفتوا علماء المسلمين عن تدمير مواقع الكفرة والمشركين فى الإنترنت، فأفتوهم بذلك..! أية فتوى هذه، وأى استفتاء معوج هذا؟! هل بلغت بنا السذاجة أن ننظر إلى القشور ونغض الطرف عن الوقائع، التى تقول : إن الفضاء الإنترنتى صناعة أمريكية، وفى إمكان صانع الإنترنت ، أن يمحو جميع المواقع العربية والإسلامية، بمجرد الضغط على زر واحد، هل يستطيع العرب صناعة شبكة إنترنت أخرى تكون من اختراعهم، يتحدثون فيها كما يشاءون؟! هل يستطيع العرب توظيف شبكة الإنترنت القائمة، فى مواجهة قوائم المشاكل التعليمية والاقتصادية والسياسية التى جعلت العرب فى ذيل قائمة الدول فى دورة سيدنى الأخيرة! . هل يستطيع العرب توظيف واستثمار شبكة الإنترنت فى فضح مذابح إسرائيل الأخيرة فى القدس، لماذا لا يرسل كل عربى رسالة احتجاج إلى الهيئات العالمية لشرح استفزاز إسرائيل لمشاعر العرب فى فلسطين ، لماذا لا نقيم المظاهرات فى الإنترنت عبر كافة الأشكال الإليكترونية لتوصيل صوت العرب للعالم، متى نستيقظ نحن العرب من القهر والتخلف؟! متى نتخلص من الجعجعة الصوتية ، وحروب الكلام التى نخوضها يوميا بدون فعل ايجابى ! .



سوسن بدر في الأبواب المغلقة

حصاد سينما على حافة الهاوية

بقلم : مصطفى درويش

ليس خافيا علي أي مهتم بمصير السينما المصرية ، ومن منطلق اهتمامه هذا ، شاهد كل ما جرى عرضه من أفلامها خلال أولى أعوام القرن الواحد والعشرين ؛ ليس خافيا عليه انها قد أصبحت ، أو على وشك أن تصبح سينما منحصرة فى نوع واحد ، وفصل واحد ، بمعنى انحصار ما تنتجه من أفلام فى نوع الملهاة ، واقتصار عروض ذلك النوع على الصيف ، دون غيره من فصول العام.

فباستثناء أيام عيدى الفطر والأضحى الماضيين ، حيث جرى عرض حوالى تسعة أفلام ، استمر بعضها على الشاشات لبضعة أسابيع بعد انتهاء العيدين ، وبعضها الآخر لبضعة أيام ، باستثناء ذلك ، خلت دور السينما ، بطول وعرض البلاد ، من أى فيلم مصرى جديد.



احمد السقا في شورت وفانلة وكاب

ويقيت السينما المصرية على هذا الحال من البيات الشتوى، حتى مجىء الصيف ، حيث عادت أفلامها إلى الشاشات، زمنا لم يزد على ثلاثة أشهر إلا قليلا.

لهو ولعب

وأهم ما لوحظ على هذه السينما العائدة ، أنه لم يعرض من أفلامها إلا ما كان مازحا ، هازلا ، لايستهدف سوى دغدغة حواس جمهور عابر ، قوامه جموع طلبة المدارس والجامعات ، والعاملون المصريون في دول الخليج العائدون إلى أرض الوطن لقضاء اجازة الصيف ، والاخوة العرب القادمين إلى بر مصر ، لا لغرض سوى اللهو واللعب ؛ دغدغتها بمواقف وقفشات مثيرة للضحك ، وياحبذا لو كان ذلك بصوت عال، وضجة تصم الآذان ، ودون ما حاجة لأن يعمل أحد من ذلك الجمهور الفكر فيما يرى ويسمع.

وما حاجته لذلك ، واغلب ما يراه قذى في العين، واغلب ما يسمعه لغو أشبه بالهذيان؟

وظاهرة انكماش عروض أفلام السينما المصرية على هذا النحو، إن دلت فإنما تدل على عمق الأزمة الآخذة بخناق صناعة سينما ، كان يحلو للبعض ، حتى عهد قريب ، ان يطلق عليها لقب هوليوود الشرق.

ولا يزال يحلو للبعض أن يعيش مخدوعا بسراب ذلك الزمن الجميل .

ومن علامات ازمتها ان مايجرى عرضه من أفلامها ، وهو جد قليل ، إذا ما قورن بكم انتاجها في عصرها الذهبى،



فيلم ثقافي بدون نجوم

قبل أربعين عاما، أو يزيد ، من ذلك النوع الصيفي المازح، اللاهي.

المبالغة والاستسهال

وأول ما يؤخذ على ذلك النوع ، هو معاناة أكثر أفلامه من داء الاستسهال، والافراط في المبالغة ، على نحو لابد أن يصيب المتلقي بما يشبه الغثيان.

ولعل الفيلم الذي يضرب به المثل في الاستسهال والاستهتار معاً وهو «شجيع السيما».

أما لماذا يضرب به المثل ، فذلك لأن أصحابه نهشوا حلالا بلالا ، وبغير مقابل لحم فيلم أمريكي «الطريق الصعب» (١٩٩١).

وإذا بنا ، من ثم ، لا نرى فيلما ، وانما نرى مسخا منقولا نقل مسطرة ، دون ادنى اختلاف مع الفيلم الاصلي الا في تدني المستوى، بطبيعة الحال.

ولم تقتصر المعاناة من ذلك الداء الوبيل على أفلام الملهاة، بل شملت غيرها من أفلام الأنواع الاخرى ، لاسيما ما كان منها موضوعه متصلا بالسياسة من قريب، أو بعيد.

وهنا اخص بالذكر أفلاما ثلاثة هي «الكلام في الممنوع» لصاحبه «عمر عبدالعزيز»، «الشرف» لصاحبه «محمد شعبان» ، وأرض الخوف» لصاحبه «داوود عبدالسيد».

فهذه الأفلام ، وهي ذات طابع سياسي جاد ، أو من المفروض أن تكون كذلك ، قامت على أفكار ساذجة، كما جرى طرحها باسلوب سينمائي ركيك، على نحو غير معهود ، خاصة بالنسبة لصاحب «أرض الخوف» ، المعروف



هنيدى .. هل هو وراء صحوة السقا !!

برصيده المشرف من الأفلام.

القاعدة والاستثناء

ومع ذلك ، فمما يحسب للأفلام الثلاثة، انها أقل سذاجة، وأكثر وضوحا من الأفلام ذات الطابع السياسي التى جرى عرضها خلال العام الأخير من القرن العشرين ، والذكر من بينها على سبيل التمثيل «فتاة من إسرائيل»، «امن دولة» ، «الكافير» و«الآخر».

واغرب ما اعجب له ان هذه الأفلام المفتقدة للرؤية الواضحة ، الصحيحة ، جميعها ، فيما عدا «فتاة من إسرائيل»، أول فيلم لمخرجه الشاب «ايهاب راضى »، لمخرجين مخضرمين، هم «نادر جلال»، «على عبد الخالق» و«يوسف شاهين».

ومعروف ان رصيد أي واحد من هؤلاء الثلاثة من الأفلام يعد بالعشرات.

واياً ما كان الأمر ، فالأكيد أنه ، فيما عدا أربعة أفلام، هى «جنة الشياطين» لصاحبه «اسامة فوزى» و«المدينة» لصاحبه «يسرى نصر الله» و«الابواب المغلقة» لصاحبه «عاطف حتاته» و«عمر ٢٠٠٠» لصاحبه «أحمد عاطف»: فجميع الأفلام الأخرى جادة اكانت أم هازلة ، لم يكلف أصحابها أنفسهم مشقة المحاولة والخطأ، سعياً إلى ما هو صواب.

نكسة التليفزيون

فبعضها مثل «النمس» اداره صاحبه «على عبد الخالق» حول معان تافهة ، مكررة عفا عليها الزمان.

وبعضها مثل «فل الفل» اداره صاحبه «مدحت السباعى» حول أفكار مشوشة ، فيها من التخليط الشيء الكثير.

وبعضها مثل «بونو بونو» اداره صاحبه «نادر جلال» بما يرضى نرجسية «نادية الجندى» ، نجمة الجماهير وبعضها مثل «جنون الحياة» و«امرأة تحت المراقبة» و«ابناء الشيطان» ، والأفلام الثلاثة من انتاج التليفزيون المصرى» ، ادارها أصحابها «سعيد مرزوق» و«أشرف فهمى» و«إبراهيم عفيفى» حول انماط بشرية غير سوية تضلل بتشوهاتها المتلقى كثيراً ، وتعبث بقيمه دائماً.

اذن نحن أمام حصاد سينما آخذة فى الانكماش والانحدار ، وذلك لأن احدا من صانعيها لم يحاول أن يعصمها من التنظير الزائف ، والتبرير المتهافت، والمنطق المعوج.

ومع هذا الحصاد المر ، فليس غريباً أن تكون أكثر أفلام العام نجاحا من نوع الملهاة ، وبالتحديد «هاللو أمريكا» ، و«بلية ودماغه العالية» وكلاهما للمخرج «نادر جلال» و«الناظر صلاح الدين» للمخرج شريف عرفة و«شورت وفانله وكاب» للمخرج سعيد حامد.

واضيف إلى الأفلام الأربعة ، فيلما خامسا حقق قدرا من النجاح ، رغم أنه أول فيلم روائى طويل لمخرجه «محمد امين» ، وهو «فيلم ثقافى».

صعود وسقوط

وفيما عداه فالأفلام الأخرى عانت من ضعف فى السيناريو وليد فقر فكر فادح، فاضح.

ولولا اسناد الادوار الرئيسية فيها «لعادل إمام» و«محمد هنيدى» و«علاء ولى الدين» و«أحمد السقا» الذى ارتبط صعوده بصعود «هنيدى» بفضل «صعيدى فى الجامعة الأمريكية» و«همام فى امستردام»، لولا ذلك ، لما حققت الأفلام نجاحا يذكر فأفلام من نفس نوعها، ومع ذلك ، فشلت فشلا ذريعاً، مثل «النمس» و«فل الفل» و«مؤاخذة يادعبس» و«زنقة الستات».

ولعل خير مثل على ذلك «الناظر صلاح الدين» ، فهذا الفيلم يدور وجودا وعدما حول بدانة «علاء ولى الدين» فبدونها ، أى البدانة ، لا يساوى شيئا.

فقصته ، ان كان له قصة لا تعدو ان تكون ترديدا لقصص أفلام، وبالذات قصة فيلم المخرج الراحل «حسام الدين مصطفى» المأخوذة عن مسرحية على سالم «مدرسة المشاغبين».

نفق مظلم

وقد يبدو أمرا غريباً ان الأفلام الأربعة التى حاول أصحابها أن يخرجوا بها من النفق المظلم المحصورة فيه السينما المصرية الآن؛ لم تحقق من النجاح إلا أقل القليل.

«فالمدينة» و«الأبواب المغلقة» كلاهما لم تتوافر له فرصة العرض العام فى مصر، حتى كتابة هذه السطور وان كانت قد توافرت لهما تلك الفرصة فى

أكثر من مهرجان متواضع خارج مصر وداخلها.

ومن بين المهرجانات التى اشتركا فيها اذكر مهرجان الاسكندرية والمهرجان القومي للسينما ومهرجان معهد العالم العربي ومهرجان البحرين ومهرجان جمعية الفيلم ، ومهرجان قرطاج.

وفي أي منها كان يخرج فيلم «حتاتة» متوجاً بجوائز تفوق بكثير الجوائز الفائز بها فيلم «نصر الله».

وهنا قد يكون من المفيد ان اذكر ان «المدينة» بعضه متكلم بلغة الضاد، وبعضه الأخر متكلم بلغة الفرنسيس!!

وممن تحمسوا له حماساً شديداً «ادوارد سعيد» المفكر الفلسطيني - الأمريكي الذائع الصيت.

فما أكثر استعماله لكلمة رائع ، وكلمات اخرى مماثلة ، وهو يعرض لتمثيل بطل الفيلم «باسم سمرة» ، أو وهو يعرض لجوانب أخرى في الفيلم ، خاصة ما كان منها متصلا بالبناء الدرامي والايقاع.

سر الفشل

وعكس الحال مع فيلمي «حتاتة» و«نصر الله» كان كل من «جنة الشياطين» و«عمر ٢٠٠٠» أسعد حظا؛ إذ جرى عرض الفيلم الأول في دور السينما بمصر خلال أيام عيد الفطر الماضي ، وجرى عرض الفيلم الثاني قبل شهرين وكلا الفيلمين كان حظه من الايرادات عاثرا.

وابدأ «بعمر ٢٠٠٠» ، وهو أول فيلم لمخرجه «أحمد عاطف» المتخرج في معهد السينما ، لاقول أنه لو كان لفيلمه ملمح واحد ينفرد به عن الافلام الثلاثة الأخرى، فربما كان ذلك في مجيئه مشوبا بغلو في الطموح والادعاء ؛ مع الجهل والقصور في استخدام مفردات لغة السينما.

ومنها ضياع كل ما حاول قوله صاحب الفيلم هباء مع الهباء.

وفشل فيلمه فشلا ذريعا.

ويرجع فشل «جنة الشياطين» إلى أسباب أخرى ، من بينها ان جديده لم يستسغه جمهور المتفرجين فموضوعه دار حول معان دون أن يقدمها لنا بجلاء، وابطاله هامشيون وتصرفاتهم تثير الإشمئزاز ونجمه «محمود حميدة» جثة هامدة لم تحرك ساكنا من البداية وحتى النهاية.

ورغم ذلك ، جرى تتويجه بأهم جوائز المهرجان القومي للسينما المصرية الأخير.

وكان من بينها جائزة أفضل ممثل رئيسي التى فاز بها «حميدة» ، عن ادائه لدور لم يظهر فيه إلا جثة هامدة.

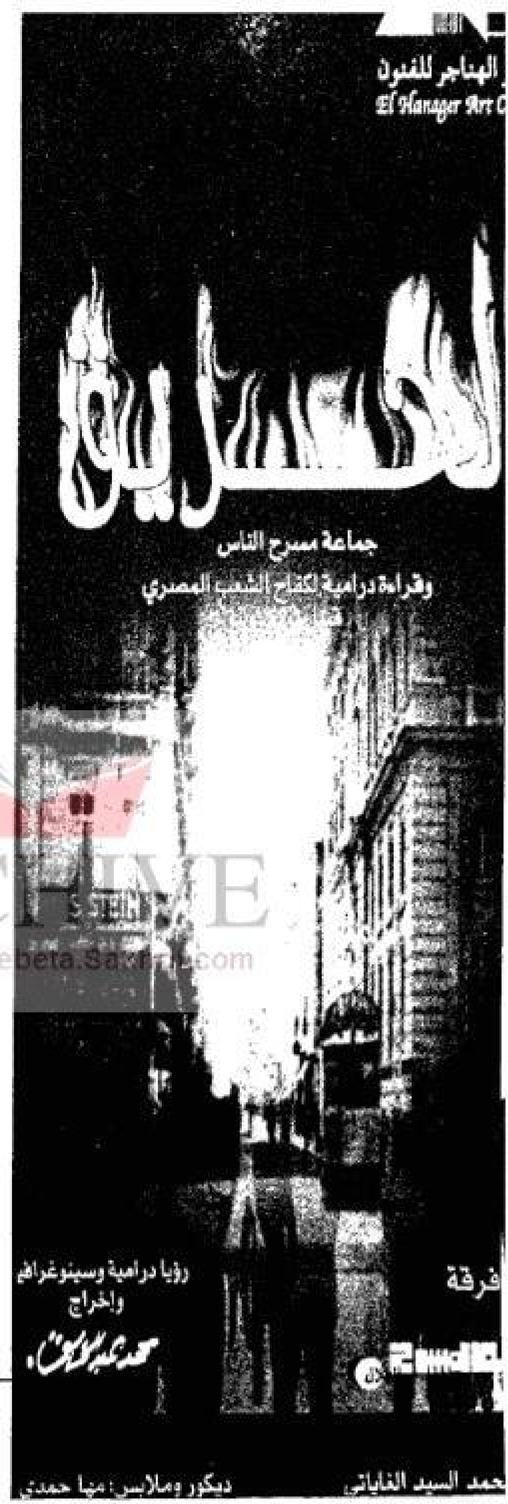
وليس من شك ان هذا الفوز العبثي لابد وأن يزيد من اتساع الضرر ، ومن قتامة صورة السينما المصرية عام ٢٠٠٠!!.

جيل جديد.. يخترق الحوائط العاليـة

بقلم: مهدى الحسينى

ليس أخطر من حـائط برلين سـوى أن يمثل هذا الحـائط فى ذهنك فيحجب عنك الرؤى والذاكرة والضمير.

وفى مسـرح الهناجر كـانت البداية عندما تجمع عدد من الشباب فى ورشة فنية لمسرحة المكان والزمان، فإذ بهم يتجهون إلى بؤرة تاريخية درامية وساخنة هى حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، يبدأون السير إليها قبل هذا التاريخ بعشر سنين، وتحديداً من حادثة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، فيمضون فى محاولتهم لتحليل هذا التاريخ ولم شعثه وشتاته، فيصلون إلى أزمة مارس ١٩٥٤.



إنها لمسافة طويلة ومضنية ومليئة بالتفاصيل والأسرار والخبائث، حتي أن ممثلاً منهم أفصح فقال: «ماهو إحنا الجيل اللي لا شاف ولا سمع ولا عارف أي حاجة» إنها همسة أو صرخة أو تنهيدة من نفس وعقل يعانيان حريقاً وألماً مضنياً.

فيقال لهم إن قبل ٢٣ يوليو كان كل شيء باللون الأسود، وبعدها كانت كل الأيام والليالى بيضاء بلا نقطة دم واحدة!!، ثم يكون المستقبل باللون الأحمر لون دماء المعارك والشهداء لتحرير مصر وفلسطين والعرب، بعد ذلك سوف تصبح الحياة جميلة وردية الألوان، أو كما قال صلاح جاهين!، ولكن شيئاً من هذا لم يكن حقيقيا، فمبادىء «الثورة» الستة ظلت وعوداً لم تتحقق، بل تحقق عكسها، ومعارك ٥٦ واليمن و٦٧ جاءت نتائجها فادحة، وخطط التنمية دمرت الأرض الزراعية على حساب الاقتصاد الفلاحى، فلم نعد ننتج طعامنا بل نستورده، وهيمنت صناعات جميع الدول المشاركة فى الأمم المتحدة على أسواقنا، وشهدت ليمانات طرة وأبى زعبل والحربى والواحات مصرع الحريات، ومع إنكار العلم الأخضر كان مطلوبا أن ننسى أنصع صفحات مجدنا القومى: أحمس ورمسيس وعرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول واسماعيل صدقى والنحاس وعزيز فهمى، وأبطال المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسى والاستعمار البريطانى وشهداء المعارك الوطنية الذين سقطوا فى كل بقعة من بقاع مصر والسودان.

ولكن المستحيلات تحدث أحيانا، خاصة إذا أملتها ضرورات التاريخ، فكثيراً ما قابلت - مصادفة - فى بقاع عديدة من أرض مصر وأوساطها الاجتماعية المختلفة، عناصر شابة من البنات والبنين فى أعمار تتراوح بين السادسة عشرة وبين الخامسة والثلاثين، يتساءلون عن أشياء فُرض عليهم ألا يعرفوها، وإذا ما عرفوها، فعلى وجه أوحد مبتسر ومشوّه.

وهكذا تجول صانعو (الحريق) فى أماكن وأزمنة شتى: فى سراى عابدين، وقاهرة ٤ فبراير ١٩٤٢، وكوبرى عباس ١٩٤٦، وحريق كفر أحمد عبده بالسويس سنة ١٩٥١، والغاء معاهدة ١٩٣٦، والكفاح المسلح فى القناة ١٩٥١/١٩٥٢، وجامعة فؤاد الأول، وفى بيوت العمال وخلاياهم السرية، وفى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال ١٩٤٦، فى مواقع الجيش المصرى سنة ١٩٤٨ وفى ثكناته قبل يوليو ١٩٥٢، إن الفجر الحقيقى كاد أن يتجمع. فهل جاء ليل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالمجنزرات والدبابات وهدير الطيران المنخفض كى يُحقق فجر الشعب؟

هذا هو مبحث تلك الجماعة المسرحية



لقطة من «الحريق» التى تضمنت جزءا من تاريخ مصر

الحرة الشابة المسماة (أتيليه المسرح) وكاتبها «محمد السيد الغاياتى» وشاعرتها «كوثر مصطفى» وملحنها ومغنيها «أسامة فؤاد» ومصممتها «مها حمدى» وإضاءة «مدحت عزيز» ومجموعة الإبداع الجماعى: بيومى فؤاد، سعيد مصطفى، علاء سالم، ابراهيم غريب، سيد عبد الخالق، ناسى زكريا، أيمن صبحى، تامر رجب، محمود صابر، عبير السيد، هانى عفيفى، خالد النجار، إيهاب حمدى، أبَى رجائى، سالى أسعد، عصام جاد، ماجد منير، أبو بكر الشريف، محمد حسنى، محمد أحمد، عمرو طلبة، أسامة حسن، عبد السلام كامل، أحمد جامع، عبده السيد، محمد فوزى، غادة محمود، عزت محمد، عمرو سليمان، أبو العلا صابر، نادر مصطفى، محمد البدراوى، هانى عفيفى، خالد سرور، كل هؤلاء ساهموا فى اختراق السور وهدموا الحائط وعبروا الخطوط الحمراء، والأسلاك الشائكة.

أما من أتاحت لهم فرصة تقديم هذا الفعل المهم المثير، فهى أ.د. هدى وصفى التى كتبت تقدم العرض فتقول: «أن يتحمس شباب هذا الجيل للبحث فى ذاكرة الأمة - بالرغم من حداثة هذه الذاكرة بالنسبة لموضوع العرض - فإن ذلك يجعلنا نتفاءل بهذا الجيل الذى أثبت اليوم ومع أحداث الانتفاضة، أنه جاد برغم كل ما يعانيه وكل ما يقال عنه».

وكأنما كانوا يقدّرون قصور أدواتهم



مصر نسيج واحد من أجل وحدة وطنية

الفنية والتقنية مسبقاً، عن إدراك جوهر حقيقة ما حدث، حين لاحظوا بحق: «أن مقدار التشويه الذى يعانى منه تاريخنا القريب تدعو للأسف الشديد، وإذا كنت لا تستطيع رؤية الأشياء والمسافة بينكم قصيرة، فإما أنك فقدت الإبصار، أو أن الأشياء تراوغك فلا تريدك أن تراها، وإما أن هذه الأشياء ذاتها مغلوبة على أمرها لأن أياد كثيرة تفصل بينك وبينها»، ولكنهم لا يعترفون بالفشل: «ربما يستطيع جيلنا الذى لم ير ولم يسمع ولم يعرف شيئاً - وهو جيل يتميز بالحياد تجاه الجميع - أن يرسم صورة كاملة لهذا الزمن الذى لا يفصلنا عنه سوى خمسين عاما».

إن ما حدث أمر يدعو للدهشة والإعجاب، فقد اخترقت نخبة من هذا الجيل الحصار والبقية تأتى... غير أنه لا مفر لى من المشاركة أيضا بصفتى شاهداً وناقداً معاً:

هذا الحريق.. هذه الحرائق الصغيرة والكبيرة، حريق حرب ١٩٤٨، حريق كفر عبده، حريق كنيسة السويس (لم يرد ذكرها بالعرض)، حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢، حريق مصنع كفر الدوار (لم يصل العرض إليه).. ألا يجوز الظن بأن (الحرق) لغة واحدة... فمن يكون المتحدث؟ هذه الفكرة لو أمسك صانعو العرض بتلابيبها لأنجزوا كشفا عميقا فاضحا، لم لم ينطلقوا من حريق ٢٦ يناير، ولم

يتمحوروا حوله، ولم يمهدوا له، ولم يجعلوه خطأ، دراميا أو ملحميا، يمضون - ذاهبين إلى الماضي حاضرين إلى المستقبل - فينسجون على منواله خيوط عرضهم، كما لم يتعاملوا مع الأحداث والشخوص والمواقف مثل حزمة متوازية مترابطة أو يلفها رباط ما، باختصار هم لم يفكروا في (الشكل) الأمثل الذى يطرحون فيه أطروحتهم بقدر كاف.

ومن حادثة فبراير ١٩٤٢، وبعد بوتسدام حيث اتفق الجميع ضدنا، وفي عام ١٩٤٦ مفاوضات مستر سلم Slim مع صدقي والاغتيالات وابراهيم عبد الهادي وكوبري عباس، وحرب ٤٨، وحرب ٤٩، والانتخابات ومجيء الوفد وإلغاء معاهدة ٣٦، والكفاح المسلح والاسماعيلية ثم الحريق الكبير، ومن داخل كل هذه الأحداث الجسيمة كان يمكن تتبع خيوط المؤامرة وحصيلة الصراع بين القوى الذى أدى إلى وأد المشروع الديمقراطي الوطني التنموي القومي المصري وكشف العناصر الداخلية والعدوان الخارجي، كي نخرج من العرض بالدرس والرسالة.

مصر بلد عالمي وإمكانية دولة عظمى

كان على صناع هذا العرض إدراك هذه الحقيقة أولاً، فمصر ليست جزيرة في المحيط الهادي، إنما هي بوابة من بوابات التاريخ والجغرافيا معا، وهي أم الحضارات وأولها لهذا يجرى ضدها الحقد والتآمر، وفي أعقاب الحرب الثانية سنحت هذه الفرصة لنا بمنتهى الجلاء، حين تغيرت خريطة المتناقضات العالمية، فبدلا من أن كانت بين دول المحور من ناحية وبين ما يسمى بالدول الديمقراطية، أصبحت التناقضات بين تحالف وشيك بين الاتحاد السوفييتي وجبهته الشرقية وبين أمريكا والصهيونية العالمية وإسرائيل، وذلك ليس فقط للاستئثار بغنائم المهزومين: إيطاليا وألمانيا واليابان وإنما ليستديرا معاً لتصفية حلفائهما وعلى الأخص انجلترا وفرنسا، وإعادة تقسيم العالم على نحو جديد من حيث الشكل والمضمون، هذا الوضع زاده انهيار حكم الطبقة الجديدة المقنّع بزعم الاشتراكية في شرق أوروبا والامبراطورية السوفيتية، زاده استقطابا ووضوحا بزوغ الولايات المتحدة كقوة كاسحة في كل المجالات بحيث يبدو حلفاؤها (أوروبا - اليابان، جنوب شرق آسيا غير الصيني - كندا - استراليا) أقزاما مجبرين على قبول الشروط الأمريكية في إدارة العالم استعداداً لمواجهة الصين والهند القوتين القوميتين الدولتين البازغتين.

إن عدم الوعي بهذه الخريطة الدولية/ المحلية/ يوقع الكثير في خطأ فهم هذه الأحداث التي مرت بنا، وأثرت في مصيرنا أيما تأثير.

فى هذه الظروف بالتحديد، انتعش الاقتصاد المصرى حين انشغل الأعداء ببعضهم البعض، وخرجت مصر غنية، بزراعة سخيّة قليلة التكاليف، حتى أن تقرير اتحاد المزارعين الأمريكان قال: «إن الأقطان المصرية طويلة التيلة عالية الرتبة تطارد الأقطان الأمريكية فى أسواق العالم»، كما أفلتت مصر بموجة صناعية ثانية بفضل عبود باشا وآخرين بعد موجة طلعت حرب فى أعقاب الحرب الأولى، فضلا عن سيولة نقدية، وبنوك منتعشة، وخبرات تقنية واقتصادية متطورة، وميزان تجارى لصالحنا، دائنين لانجلترا نفسها، كما كنا نملك جامعة تضم كادراً علمياً يرتقى إلى حد الندرة والامتياز، وصحافة مستقلة شبه حرة، وحياة سياسية أهلية، وحركة إبداعية تمضى نحو طفرة.

نعم، كانت مصر مؤهلة للنهضة الشاملة بعد الحرب الثانية وبسببها، شرط أن تملك مقدراتها وفرصها، غير أنها لم تكن لتملك قواها ومناهجها وبرامجها على النحو اللائق، كانت مصر بحاجة إلى مزيد من القوى الوطنية (الحقة) والوحدة القومية، كانت فى حاجة إلى مزيد من الوعى العميق بتراثها وبالعالم، وكانت بحاجة لتنظيمات حزبية جديدة، فالأحزاب الأربعة الكبيرة القديمة التى عاشت مرحلة سنة ١٩١٩ أو نجمت عنها كانت قد أفلست أو تكاد، بما فى ذلك حزب الوفد الذى كان يعانى انقساما داخليا وقصوراً فى الرؤى الاجتماعية والدولية. أما القوى الأخرى فيمكن درسُها فى تيارين رئيسيين: جبهة العملاء أعداء الشعب، وجبهة الاستقلال الوطنى وأهمها الاستقلال الاقتصادى والسعى إلى قيام مصر المتجددة، رغم هذا فهى قوى كانت جد مختلطة ومتداخلة بقدر ما هى متعادية، وبقدر ما هى شعارية أو صادقة.

كان على صناع هذا العرض شديد الأهمية أن يتساءلوا أيضا - وعلى سبيل المثال - عن طبيعة القوى التى شكلت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال ضد معاهدة صدقى- بيفن؟ هل كانت حقا معاهدة خيانة وطنية كما رددت الشعارات حينها؟ ألم تدر فى كواليسها مساومات لصالح تجديد الصناعة المصرية وتغيير جوهرى فى تنفيذ اتفاقية الأرصدة الاسترلينية التى عقدها النحاس سنة ١٩٤٢؟

إن مثل هذه الأسئلة وغيرها يجب أن تسلط على كل مفردة من مفردات مادة هذا العرض المسرحى، فإذا لم يكن هناك إجابات، فإنه يجب أن تبقى التساؤلات ماثلة.

إن التعامل مع التاريخ فى التأليف الدرامى يقتضى تجاوزه، الأمر الذى يتطلب الاستهلاك التام للمصادر والمراجع، واستيعابها وتحليلها وتفسيرها وإثرائها بعشرات الأسئلة، هنا يمكن الخلوص إلى (فلسفة التاريخ) ويمكن الغوص فى (روح)

العصر، ويمكن تكثيف الشخصيات بأعماقها دون الاكتفاء بأسمائها أو أفعالها أو ملامحها الخارجية، وهنا أيضا يمكن تقديم الحدث المسرحي Dramatic action، لا الحوادث Axedents، ولا الوقائع Incedents. هنا يستطيع المبدع أن يخلق زمنا خاصا للمسرحية Tempo وإيقاعا يخصها Rehtheme، وكذا يتمكن المبدع من (تصوير العالم) الذى تدور فيه المسرحية، لا الركون فقط إلى رسم المناظر والديكورات والأزياء والأدوات، عندئذ يقدم الفنان عملا مختلفا عن عمل المؤرخ، وأن يقول كلمة أبقى من كلمات صناع الأحداث أنفسهم. إنه يتعامل مع القانون.. مع الجوهر.

الفن.. والحرفة

أفضل ما فى هذا العرض - بعد المجهود الجماعى فى التأليف والإخراج والتمثيل والنوايا الطيبة واختيار الموضوع - كانت القصائد والموسيقى، ولكنى أسوق هنا تساؤلا عن الفرق الواجب اعتباره بينهما فى المسلسل التليفزيونى أو الإذاعى، وبينهما هنا على خشبة المسرح؟ هل يتساويان؟ ألا يحتاج الشعر المسرحى والموسيقى المسرحية إلى حس درامى مسرحى مستقل؟ للأسف فإن (التلفزة) قد استولت على أدائنا الفنى وتصورنا لتقنيات عروضنا المسرحية، إن التمثيلية التليفزيونية والإذاعية تنتمى فى الأغلب الأعم - إلى (المدرسة الطبيعية) فى التأليف والإخراج، أو إلى (المدرسة الواقعية) وإذا ما ارتقت بعض الشىء فإنها تنتمى إلى (الواقعية الشعرية) أو إلى نوع يمزج بين الواقعى وبين الفانتازى، أما فى حالات التجريب فإنها تتنكب التجريد، أما فى المسرح فإن الأمر مختلف، أو يجب أن يكون مختلفا، فالإخراج كان إخراج بلاتوه ڤيديو فى أغلب خطوطه وصوره، والديكور كان مناظر أركان فى ستوديو ڤيديو أيضا، والتمثيل كان طبيعيا خاليا من أى إيحاء أو خيال رغم محاولة البعض أن يكونوا غير ذلك.

والسبب فى ذلك أن صناع العرض لم يحاولوا أن يقدموا مفهوما فنيا وتصوراً مسرحيا لمشروعهم، رغم ما كتبوه فى اليافطات: «إن الحريق الحقيقى هو تلك النار التى كانت متأججة فى الوجدان المصرى بكل طوائفه، محاولةً إيجاد منفذ لهيبها، كى يشملها ثورة مدينة، يصنعها الشعب المصرى بيده وبوجدانه وعقله، مستفيداً من كل دروس كفاحه الشريف الأزلى، تلك النار التى لم تخف عن أعين الذين عاصروها، يصبها على أعدائه، والتى جاء حريق القاهرة ليطفئها، ومن هنا يصبح حريق القاهرة، حريقا دنساً جاء ليطفىء حريقاً مقدساً».

ولكن - وبكل أسف - لم تغادر هذه الكلمات الواعية سطورها وأحبار الطباعة.. إلى خشبة المسرح.. إلا قليلا.

أقوال معاصرة

● «الجيل الحالى من نقاد السينما لايفرق بين الفن والسياسة ، فما يتفق مع فكره السياسى يرفعه إلى أعلى عليين وما يختلف معه ينزله إلى أسفل سافلين».

الأديب نجيب محفوظ


نجيب محفوظ

● «لغة نيويورك لا تكف عن تذكير الشاعر بأن المدن التى تغامر بشعوبها باسم الحفاظ على سلطانها، مدن لا تعمر طويلا».

الشاعر السورى أدونيس


أدونيس

● «أجمل ما فى أمريكا أنك تجد انسانا اكثر منك هوسا أو جنونا».

الصحفى البريطانى أندرو ساليفان

● «الحاكم الذى يريد أن يبقى فى موقع السلطة يخترع عدوا».

عالمة النفس دوروثى رو
صاحبة كتاب اصدقاء وأعداء

● «أنا سوبر ستار (نجم أعظم) رغم انف الجميع».

علاء ولى الدين
نجم الناظر صلاح الدين

● «فى عالمنا العربى: الأول خائف من الثانى والثانى خائف من الثالث والثالث خائف من الاول والخائف خائف من الخائف».

الروائى الليبى أحمد ابراهيم الفقيه

● «على الكاتب ألا يذّل القيم العليا للادب والفن من اجل الحصول على الرواج».

الكاتب اللبنانى جهاد فاضل

● «التعبير المتقن عن فكرة بسيطة ارقى من الفكرة الجميلة التى تؤديها فى قالب ردئ».

الفنان التشكيلى المصرى محمد شاكر

عبدالغفار مكاوى ومختارات مترجمة للشاعر الايطالى أنجاريتى

بقلم: محمد إبراهيم أبوسنة

ترجم الدكتور عبدالغفار مكاوى مجموعة مختارة من قصائد الشاعر الايطالى أنجاريتى تحت عنوان «يا إخوتى» مأخوذة من دواوين الشاعر المختلفة وهى «عن الفرح» ١٩١٩ و«عاطفة الزمن» ١٩٣٥، «الألم» ١٩٤٦، «الأرض الموعودة» ١٩٥٣، وهو يواصل بهذا العمل الجهد الكبير الذى بدأه فى كتابه «ثورة الشعر الحديث» وترجم فيه نماذج لأهم شعراء الحداثة والتجديد فى أوربا فى القرن العشرين. وقد جاءت الترجمة ممثلة لهذه النزعة التى تمزج بين الشعر والفلسفة فرغم انها تسبح بين ضفاف الوجود والعدم وتحلق بالقرب من الرؤية الصوفية والميتافيزيقية إلا أن القصائد تعبر عن شخصية الشاعر والمترجم معا..

والدكتور عبدالغفار مكاوى أكاديمى درس الفلسفة وهو من مواليد الدقهلية فى عام ١٩٣٠ تخرج فى كلية الآداب سنة ١٩٥١، وحصل على دكتوراه فى الفلسفة من جامعة فرايبورج سنة ١٩٦٢ وعمل بالتدريس بجامعات القاهرة والخرطوم وصنعاء والكويت قبل ان يتفرغ كلية للابداع الحر.. من أبرز مؤلفاته «مدرسة الحكمة» و«نداء الحقيقة» و «لم الفلسفة»، «البلد البعيد»، «هلدرلين».. «ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر»، وله عدد من المجموعات القصصية «ابن السلطان» «الست الظاهرة» «الحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت»..


عبدالغفار مكاوى

ومن مسرحياته «من قتل الطفل» «زائر من الجنة» «بشر الحافى يخرج من الجحيم».. «دموع أوديب» «محاكمة جلجاميش» وله العديد من الكتب المترجمة، وقد تأثرت ترجماته برصانته الاكاديمية ونزوعه الأدبى فهو شاعر قاص مسرحى مترجم. أما انجاريتى فهو من أشهر شعراء ايطاليا فى القرن العشرين، واحد من رواد حركة الحداثة الشعرية التى غيرت لغة الشعر وتكوينه الفنى ورؤاه .. لقد عاصر انجاريتى قيام حربين عالميتين هما الحرب العالمية الأولى ١٩١٤/١٩١٨ والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩/١٩٤٥، وعبر عن مآسى هذه الحرب وأثرها على روح الإنسان كما عبر عن مآسيه هو الخاصة من اغترابه وفقد الأعزاء من أهله من موت أمه وفقده لابنه الذى كان فى التاسعة من عمره.. ولد انجاريتى فى الثامن من شهر فبراير عام ١٨٨٨ بمدينة الاسكندرية لأب من المهاجرين وينحدر والده من منطقة توسكانيا بجنوب ايطاليا، وكان والده قد حضر إلى مصر للعمل فى قناة السويس ولكن المرض ألم به وأودى بحياته فى عام ١٩٨٩ أى بعد عام واحد من مولد الشاعر الذى شاء له القدر أن ينشأ يتيما، ولكن أمه كانت قوية الإرادة واستطاعت ان تعوضه عن فقد ابيه بقيامها بالعمل الشاق من أجل تربيته.. وظل جوسيبى أنجاريتى يعيش بالاسكندرية حتى سن الثالثة والعشرين من عمره حيث تأثر بالطبيعة المصرية وتعرف بكثير من الشعراء الذين عاصرهم، وعلى رأسهم قنسطنطين كافافيس ورحل فى عام ١٩١٢ إلى روما، ومنها إلى باريس ليستكمل دراسته فى القانون وفى فرنسا ينهمك فى القراءة وفى معايشة الحياة الأدبية والفنية فى باريس، قرأ أعمال بودلير وملارميه ونيتشه وليوباردى وظل يتردد على المقاهى الأدبية وانعقدت أواصر الصداقة القوية بينه وبين الشاعرين سان جون بيرس وجيوم أبوللنير، ثم تعرف إلى بيكاسو وموديليانى ويعود إلى ميلانو فى عام ١٩١٤ ليعمل بالتدريس ويبدأ فى نشر قصائده ويعود الى باريس فى عام ١٩١٨ ثم يعود إلى ايطاليا فى عام ١٩٢٠ ويصدر فى عام ١٩٢٣ طبعة جديدة من ديوانه الميناء الدفين، مع

مقدمة بقلم موسيلنى الذى أصبح زعيم ايطاليا وحالف هتلر إلى ان انهزم وقتل وشنق فى روما بأيدى الحلفاء، وفى عام ١٩٣٠ قام انجاريتى برحلة طاف خلالها بالجنوب الايطالى وعاد إلى مصر فى عام ١٩٣١ مراسلا لجريدة الشعب وكانت امه قد توفيت فى عام ١٩٣٠، وتصدر مجموعته الشعرية الجديدة «عاطفة الزمن» فى عام ١٩٣٢ وتضم قصائده التى كتبها فى الفترة من عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٢٥ وفى عام ١٩٣٤ يصدر فى براغ المجلد الأول من ترجماته الشعرية ومنها نصوص لسان جون بيرس ووليم بليك والشاعر الروسى يسينين والشاعر بولان جونجورا إلى جانب قصيدتين من الأدب الشعبى الافريقى.وفى هذه الفترة كما يقول الدكتور عبدالغفار مكاوى تبدأ مرحلة جديدة من التأمل الفكرى ويتصله دعوة لشغل كرسى الأدب الايطالى بجامعة سان جو باولو بالبرازيل، وفى عام ١٩٤٢ عين انجاريتى عضوا بالأكاديمية الايطالية ثم يصدر فى عام ١٩٤٣ ترجمة لاثنتين وعشرين سوناته لوليم شكسبير ويحصل فى عام ١٩٤٩ على جائزة روما للشعر وتصدر ترجمته لمسرحية «فيدر» لراسين وكتابه النثرى عن رحلاته بعنوان «فقير فى المدينة»، وفى عام ١٩٥٨ تحتفل قريته لوكا مسقط رأسه بوصوله إلى سن السبعين وتموت زوجته «جان دوبوا» التى قال عنها:

« كانت زوجتى هى رفيقة عمرى التى بلغت الغاية فى التفانى والتسامح والصبر حيثما جاءنى الالهام الشعرى كانت دائما بجانبى.. لم تتشكك فىّ أبدا.. قاست معى ومن أجلى .. لقد كانت منبع شجاعتى» فى عام ١٩٦٢، ينتخب رئيسا للجمعية الأوربية للكتاب ويسافر فى عام ١٩٦٤ إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإلقاء عدد من المحاضرات فى جامعة كولومبيا بنيويورك، وهناك يلتقى بالشاعر ألن جنسبرج وفى عام ١٩٧٠ يكتب آخر قصائده «المتحجر والمخملى» قبل ان يتوفى فى الثانى من شهر يونيه فى مدينة روما .. يتعرف الشاعر انجاريتى بشاب عربى فى باريس اسمه محمد شعيب مهاجر انسلخ عن وطنه وأهله ودينه حتى قتله الضياع والوحدة يكتب عنه انجاريتى قصيدة «فى ذكراه» يقول:

– كان اسمه «محمد شعيب»
سليل امراء البدو الرحل
أقدم على الانتحار .. لأنه لم يعد له وطن
أحب فرنسا.. وغير اسمه
أصبح يدعى مارسيل
لكنه لم يصبح فرنسياً
ولم يعد يعرف كيف يعيش فى خيمة أهله
حيث ينصتون لتلاوة القرآن

وهم يحتسون القهوة.. ولا عاد يدرى كيف يردد أغنية وحشية.. عشت معه ومع صاحبة الفندق الذى كنا نسكنه فى باريس ويحمل رقم «٥» شارع دى كارم..

الشاحب الضيق المنحدر على جانب التل

إنه يرقد الآن فى جبانة ايفرى

وربما كنت أنا وحدى.. الذى مازال يعرف انه كان حيا.

إن هذه القصيدة تعبر عن قسوة الاغتراب والاقتلاع من الوطن والثقافة والتاريخ .. ويبدو أن كثرة تنقل الشاعر واغترابه قد جعل من تجربة التشرد إحدى لوحاته الشعرية حيث يقول فى قصيدة «شريد»

ما من بقعة.. على الأرض يمكننى أن أحس فيها بأننى فى بيتى

فى كل مناخ جديد أجد نفسى فيه

أحس أننى معذب .. لأننى اعتدت على هذا من قبل

ودائما ما انفصل عنه غريبا..

ولانتى كانت مجرد عودة من عصور

استنفدت منها الحياة

ليتنى أتذوق لحظة وحيدة

من الحياة الأولية أبحث عن بلد برىء»

إنه يحلم بالصفاء والنقاء دائما يقول فى قصيدة صفاء

بعد الضباب الكثيف / تتجلى النجوم واحدة بعد الأخرى

أتنفس النضارة من لون السماء..

أدرك أنى صورة زائلة..

تساق خلف نور خالد

ويقول فى اغنية بدوية وكأنه يحمل فى وجدانه ذكريات الشرق وانطباعاته

– امرأة تنهض واقفة وتغنى

تتبعها تسحرها الريح.. تمددها فوق الأرض

إلى ان ينفذ فيها الحلم الحق

عارية هذه الأرض

هوجاء هذه الريح

وهذا الحلم هو الموت

– أما الألم فهو رفيق الشاعر من البداية إلى النهاية يقول فى قصيدة :

أضعت كل شىء..

– أضعت كل ما كسبته من الطفولة

ولن يمكننى أبدا.. ان اضيع نفسى فى صرخة

– الطفولة دفنتها فى أعماق الليالى وهى تفصلنى عن كل شىء . مازلت أتذكر حالى .

عندما هللت فرحا بحبى لك

وها أنا ذا ضائع فى لا نهائية الليالى

يأس يزداد بلا توقف . لم تعد الحياة عندى وهى حبيسة فى عمق لهاتى غير صرخة من الصرخات ». إن هذا الكتاب «يا إخوتى» بعد إضافة متميزة لحقل ترجمة الشعر خاصة حين تأتى هذه الترجمة بقلم أكاديمى ومبدع هو الدكتور عبد الغفار مكاوى .

امتحان

قصة قصيرة

بقلم: د. مجدي القوصي ● رسوم: سميحة حسنين

انت: طبيب، تهوى القراءة، تتلذذ بالطعام، تعشق السينما، تحب المشى، يمتعك السفر، يرعبك الموت. أليس كذلك؟

(١)

بخط واضح، بل وجميل ظهر أول الأسئلة على ظهر مريض كنت أقوم بفحصه. سؤال فى الطب الاخلاقى أو الأخلاق الطبية:

هل يجوز لمريض يعانى من مرض لا شفاء منه أن يتخلص من حياته؟ وهل يمكنك مساعدته على ذلك؟.

بصوت عال وبشئ من العصبية أجبت بلا مرتين. التفت إلى الرجل فى دهشة. كررت الاجابة بصوت أعلى. ازدادت حيرة الرجل وتساءل فى اضطراب عما اتحدث. دفعته دفعا إلى الحائط المعلقة عليه المرآة منعكسا على صفحتها شاهدنا سويا ظهره العريض المغطى بالشعر والشامات والخالى من أية كتابات... اعتقد أنى سمعت عن نوع من الأحبار السرية يزيل نفسه بنفسه بعد فترة قصيرة.

(٢)

على الغلاف الخلفى للكتاب وجدت عنوانا بارزا: خمسون فى المائة خصم من الثمن المطبوع لمن يجد حلا لهذا اللغز: ما هو الذى يسير فى أول النهار على أربع وفى منتصفه على اثنتين وفى أول الليل على ثلاث ثم يذهب للنوم فى آخر الليل بد الأخبار مباشرة؟.. سؤال يليق بأبى الهول القائم على أبواب طيبة أويب..



أذهب إلى البائع
ممسكا الكتاب بيدي،
حسنا انه الانسان ينظر
إلى الرجل مستوضحا،
أشير إلى الغلاف الخلفي
اشير إلي غلاف خال من
أية كتابات أنظر إلى
الرجل ينظر إليّ.

(٣)

حسب معلوماتي فإن
الحساء يمكن أن يحتوى
على: أرز، شعرية، بصل،
كرفس، بطاطس، كوسة،
طماطم، جزر، دجاج،
لحم، سمك، كرنب،
قنبيط، ولكن أن يحتوى

على كيس بلاستيكي
فهذا ما لم أسمع به من
قبل... فتحت الكيس
العائم فوجدت بداخله
ورقة مطوية على
أسطرها سؤال: «ما هي
الأطعمة التي يساعد
الإكثار منها على الانتقال

إلى الرفيق الأعلى؟ ملحوظة هناك سؤال آخر في صينية البطاطس بجوار قطعة اللحم الكبيرة» وفعلا: «هل هناك أطعمة يغطي طعمها على طعم سم الفئران؟». كورت الورقتين وألقيت بهما في سلة المهملات مع البطاطس والحساء.

(٤)

أطفئت الأنوار، انزويت في مقعدي. بدأت الأحداث. انزويت أكثر. توالت اللقطات. كدت أختفي مكاني.. تتابعت المشاهد نسيت نفسي أسرع أسرع. اختفيت كلية. استمر الفيلم وأنا مختبئ فيه. الفيلم كانت تدور أحداثه حول طبيب يهوى القراءة، يتلذذ بالطعام، يعشق السينما و.. أشياء أخرى. المهم أنه يتلقى منذ بداية معرفتنا به أسئلة مختلفة تدور كلها حول الحياة والموت. الرجل لا يعرف مصدر الأسئلة، لا يعرف الهدف من طرحها عليه. ولا يعرف إلى أين يقوده كل هذا، يجيب أحيانا ويفشل أحيانا أخرى. ونظل معه حتى النهاية وحتى تضاء الأنوار.

في الندوة التي أعقبت الفيلم فوجئت بسؤال يطرح على من المنصة هل يسعد الانسان بالأفلام لأنها تأخذه إلى عالم آخر ينسى فيه واقعه، الذي هو غالبا ممل أو مؤلم، أم أنه يسعد بها لأنها تمثل له بكل بساطة وسيلة من وسائل إطالة الحياة أو العيش أكثر من حياة؟... قبل أن أفيق من دهشة طرحهم السؤال عليّ شخصيا فوجئت بسؤال آخر يأتيني من طرف الجمهور: هل الحياة على الشاشة خيال في خيال أم أنها هي الواقع؟ وهل هذه الحياة التي نعيشها هي الحياة الحقيقية الباقية أم أن الحياة بعد الموت هي تلك الحقيقة؟ ظللت واقفا مكاني عاجزا عن الرد أو الجلوس.

(٥)

تقدمت مني وهي تتكئ على عصاتها. أشارت إليّ إشارات مبهمة، اقتربت منها مختصرا المسافة ابتسمت في امتنان. سألتها إن كانت تريد عبور الطريق إلى الناحية الأخرى. أجابت بالنفي. سألتها إن كانت متعبة وتريد الجلوس قليلا على الرصيف، أجابت بالنفي مرة أخرى. سألتها إن كان هناك شئ معيم تريده مني. أجابت وهي تنظر إلى مباشرة: «نعم. أريدك أن تجيب على

سؤالين. فهل لديك مانع؟»

أخذت قليلا ولكنى هززت رأسى بالموافقة... «إذا عبر شخص ما الشارع المزدحم وهو شارد الذهن فدهسته سيارة هل يعتبر ذلك انتحارا؟ رددت عليها ببطء الحقيقة لا أعرف بالضبط فالأمر يحتاج إلى بعض التفكير «قالت»: حسن فكر على مهلك ولكن أرجو ألا تطيل التفكير فى إجابة السؤال الثانى: فإذا فأنا فى عجلة من أمرى» قلت سأحاول ردت قال لى: ما هو رقم الحافلة التى تذهب إلى المقابر»..

(٦)

فى السفر سبع فوائد، هكذا قيل من ناحيتى لم أتعرف إلا إلى اثنين التمتع بالمشاهد الجميلة ولقاء الفتيات الحسناوات.

جالسا فى صالة السفر بالمطار أخذت أحاول تمضية الوقت باسترجاع ذكريات سفرياتى المتعددة. أقول أخذت أحاول، لأنه فى مكان ما بين ذكريات أولى رحلاتى وثانيها لمحت لوحة الإعلانات المتحركة وهى تغير بياناتها، قمت من مكانى واقتربت منها لارى بصورة أوضح.. لندن الحادية عشرة وخمس وثلاثون دقيقة.. تأخير خمس دقائق لا بأس تحركت اللوحة مرة أخرى. وأربعون دقيقة أمامنا: الحادية عشرة وخمس وأربعون دقيقة. ما هذا؟.. ظهر اسمى فجأة تسبقه كلمتى سؤال إلى: «السفر فوائد سبعة، فهل له اخطار؟ وهل هناك أمراض قاتلة يمكن انتقالها إلى المسافر إذا لم يتخذ احتياطات معينة».

حدقت مندهشا ثم أجبت وقد بدأ العرق يتصبب منى: «نعم هناك ولكن..» ابتسم الرجل الذى فوجئت بوجوده أمامى ثم قال بالإنجليزية وهو يتعد «آسف ولكنى لا أتكلم العربية».. نظرت مرة أخرى إلى اللوحة فى حيرة «الحادية عشرة وتسع وخمسون دقيقة».

(٧)

تأخر المصعد. هممت بالنزول على السلم فى آخر لحظة سمعته قادما توقف فتحت أبوابه. دخلت بمفردى إلى المصعد الخالى. ضغطت عى الزر. أغلق الباب. بدأ الصعود... فى طرف المرآة لمحته وهو يخرج سكينا كبيرا لدهشتى لم ألتفت ولم أتحرك ومن مكانى أخذت أراقبه، بكل هدوء، وهو يذبحنى من الوريد إلى الوريد.

المسجد الأقصى وقبة الصخرة

وماذا يضم الحرم القدسى الشريف

بقلم : أحمد أبو كف

الحرم القدسى الشريف .. يعادل فى محتواه الايمانى الحرم المكى الشريف .

واسرائيل تعرف ما للمسجد الأقصى من أهمية عند المسلمين، فهو أولي القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين ، والذى أسرى برسول الله الكريم محمد بن عبد الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى «الآية الكريمة فى سورة الاسراء» .

اسرائيل تعرف ما للمسجد الأقصى من أهمية ايمانية عند المسلمين وتعرف كل صغيرة وكبيرة عنه . لكنها نجحت باعلامها أن يتم التركيز على قبة الصخرة واهمال المسجد الأقصى توطئة مبيتة لهدمه لتقيم تحته هيكل سليمان .

الصهاينة يريدون بكل السبل هدم المسجد الأقصى وهدم شعيرة من شعائر الاسلام .. وقد حاولوا احراقه فى عام ١٩٦٩ ليقيموا بدله هيكل سليمان ، الذى كان قد انتهى كله منذ حوالى ٤٠٠٠ عام . وبالفعل منذ أن احتلوا القدس الشرقية القديمة عام ١٩٦٧ حاولوا وحاول معهم كل رجال الآثار اليهود فى العالم العثور على حجرة واحدة من الهيكل لكنهم لم يجدوا شيئا .



المسجد الأقصى وقبته الفضية وعليها الهلال كما يرى القنطرة الجنوبية وقبة الصخرة

● تبين بناء الصهيونية الحرم القدسى الشريف .. وبناء المسجد الأقصى ؟ .. مثلما كما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الصهاينة يعرفون قيمة المسجد الأقصى فى العقيدة الإسلامية ، ولذلك حاولوا بكل السبل هدمه وهدم شعيرة من شعائر الإسلام . وأخيرا حاولوا بكل السبل التركيز على قبة الصخرة لهدمها فيما بعد الأقصى ، ولكن المسلمين وأهل الحرم القدسى يدافعون عن معتقدهم . حتى حائط البراق الذى احتلوه وجعلوه حائطا للمبكى ويرتبط بالبراق الذى ربطه الرسول بحلقة به .

خمسة أساتذة للتاريخ والحضارة عقدوا ندوة عن «القدس والحرم القدسى الشريف» ، بما فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، والآثار الإسلامية هناك . الندوة عقدت بترتيب د . حسن الباشا مقرر لجنة الآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، وهو استاذ العمارة الإسلامية وبرعاية د . جابر عصفور أمين المجلس الأعلى للثقافة . والندوة كان صاحبها صور «سلايدز» بالألوان . واشترك فيها استاذ تاريخ الشرق الأدنى القديم د . محمد ابراهيم بكر الرئيس الأسبق لهيئة الآثار . كما اشترك أساتذة التاريخ والآثار منهم د. رأفت النبراوى عميد كلية الآثار ، ود . أحمد عبد الرازق وكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس واستاذ الآثار الإسلامية فيها ، ود . ربيع خليفة استاذ الآثار الإسلامية بكلية الآثار جامعة القاهرة .

الندوة بدأها د. حسن الباشا بالحديث عن الحرم القدسى الشريف وما فيه من آثار اسلامية مازالت ترصع الحرم القدسى ، تحدث عن المسجد الأقصى كما تحدث عن قبة الصخرة ، وتحدث عن جبال مدينة القدس وأهمها جبل موريا .. وتوالت الكلمات ، ثم توالت أسئلة الجمهور المتابعين للندوة .

* * *

ويبدأ بكلام د . محمد ابراهيم بكر الذى استهله بقوله إن الحرم القدسى قديم قدم التاريخ ، وأنه عربى أصيل ، عربى المولد . ويعود تاريخ بيت المقدس إلى تاريخ المسجد الحرام فى مكة المكرمة تقريبا . وبهذا شكلت شهادة ميلاد بيت المقدس نسبها العربى وهويتها العربية فيما يلى :

١ - أسست قبيلة اليبوسيين هذه المدينة التى انحدرت من الكنعانيين ، الذين هجروا موطنهم الأصلى بشبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام حوالى ٤٠٠٠ عام

● لماذا تهتم اسرائيل بتصوير قبة الصخرة فقط وتوزعها فى العالم على المسلمين ، وتتجاهل المسجد الأقصى ؟
● قبة الصخرة معمارها حار فيه المهندسون العالميون بكل اللغات

ق . م. وتركز الكنعانيين فى أرض فلسطين التى صارت أرض كنعان ، على حين استقرت جماعة أخرى من الكنعانيين بالساحل وعرفوا باسم الفينيقيين ، وأخذ الكنعانيون الذين استقروا بفلسطين يؤسسون مدنا لإقامتهم ، كان من بينها مدينة القدس والتى عرفت عند تأسيسها باسم «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين ، وهو اسم كنعانى عربى الأصل .

٢ - اتخذ الكنعانيون من يبوس عاصمة ، لأن أرضها كانت تشتهر قبل نزولهم فيها بأنها أرض مقدسة لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم : «أن الجنة تحن شوقا إلى بيت المقدس ، وصخرة بيت المقدس من جنة الفردوس» وصار هذا المكان يرضى الكنعانيين من عقيدة دينية تقوم على الاعتقاد بالله وحده جل شأنه .

حافظ حكام يبوس على طابعها المقدس على نحو ما يوضحه أول حكامها وهو ملكى صادق ، وهو اسم فينيقى مكون من الملك أو العظمة ، وصادق أى يقوم على الصدق والصلاح والاستقامة . وقد نعمت يبوس فى عهد ملكى صادق بالأمن والسلام ، واضفى عليها اسما آخر صار علما عليها إلى اليوم وهو أوروشالم ، أى مدينة السلام .

استقبل ملكى صادق فى عاصمته يبوس سيدنا ابراهيم عليه السلام بعد أن نجاه الله من الحريق ، وقال : مبارك ابراهيم ايمانا منه برسالة التوحيد التى حملها ابراهيم الخليل ، وقدم له كل ما يلزمه من معونة ومأكل ومشرب ، وهذا الكلام جرى من ابراهيم وملكى صادق قبل ظهور الرسالات السماوية وهى حقيقة يؤكدها القرآن الكريم «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما» آل عمران «٦٧» .

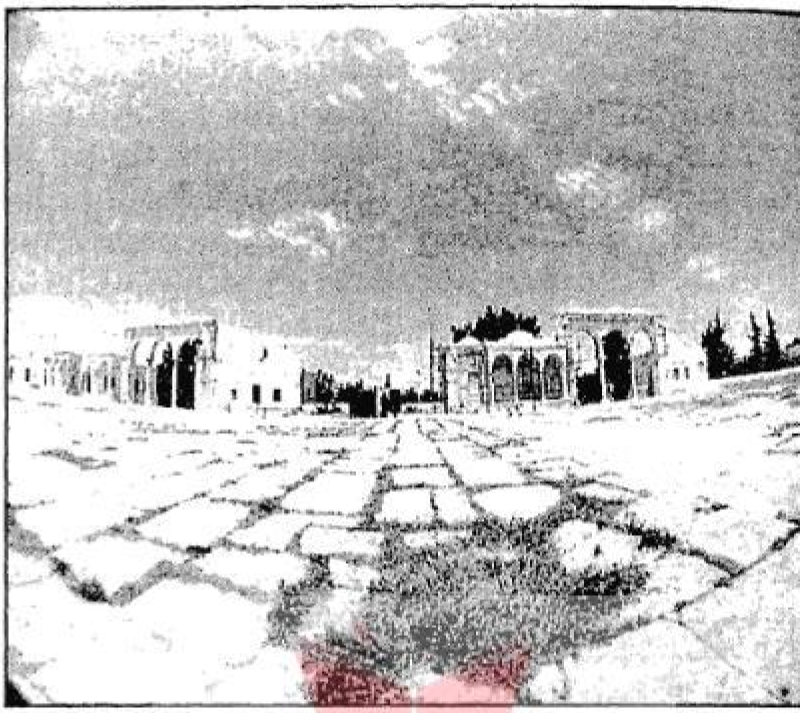
بعدها شهد بيت المقدس حركة عمرانية كان من معالمها بناء أول سور لها للدفاع عن المدينة ، بخاصة ضد غارات القبائل الرحل من العبرانيين ، الذين شكلوا طلائع العدوان اليهودى فى القرن ١٤ ق . م على أرض فلسطين . وقد بعث حاكم بيت المقدس برسائل الى فراعنة مصر يستنجدهم ضد العدوان اليهودى فى أعقاب خروج بنى اسرائيل من مصر ، على نحو ما كشفت عنه الوثائق المصرية القديمة والمعروفة باسم «تل العمارنة» . وكان قد اشتد العدوان اليهودى فى أعقاب



جبل الزيتون

خروج بني إسرائيل من مصر، وهو العدوان الذى كانت نتيجته استيلاء النبى داود على بيت المقدس وقيام ابنه سليمان ببناء هيكل على جبل موريا ، وهو أحد جبال القدس .

لكن بيت المقدس تعرض أيام وجود اليهود فيه لمزيد من عدم الاستقرار وجرى ذلك فى ضربات عنيفة اتخذت طابع تشريد اليهود المعتدين وتشتيتهم وهدم هيكلهم بسبب السياسة العدوانية ضد جيرانهم . جاءت الضربتان الأولى والثانية من الشرق ، حين قام سرجون الثانى ملك آشور سنة ٧٢١ ق. م بتدمير مدن اليهود، واتبعه نبوخذ نصر البابلى سنة ٥٧٦ ق . م حيث هزمهم وسبى الكثير منهم فى بابل . ثم جاءت الضربة الثالثة من الغرب على يد الرومان، وكانت تلك الضربة قاصمة لأنها جاءت مزدوجة ومتلاحقة بدأت فى عهد الوالى الرومانى تيطس فى عام ٧٠ الميلادى وقضى على مؤامرات اليهود



الطرف الشمالى للحرم الشريف

فيها ، وتشتيتهم وتدمير معابدهم تدميراً شاملا . واعقب ذلك قيام الامبراطور الرومانى هادريان سنة ١٢٠ م بالقضاء أيضا على ثورات اليهود فى بيت المقدس ، واقتلاع ما كان موجودا من بقايا هيكل سليمان بأن أجرى المحراث على الأرض التى كان يقوم عليها حتى أنه لم يعد يوجد أى أثر يدل عليه .. بل هدم مدينة القدس كلها ، وبنى فوقها مدينة جديدة تنسب لاسمه وتعرف «ايليا كوتيلينا» .

* * *

ظل بيت المقدس يحمل اسم «ايلياء» كما يقول د . رأفت النبراوى حتى ظهور الإسلام والاسراء بالنبى «صلى الله عليه وسلم»ثم الفتح الإسلامى لبلاد الشام حيث تسلم الخليفة عمر بن الخطاب من البطريرك صفرونيوس بنفسه الحرم القدسى واعطاه «العهدة العمرية» ثم قام الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه بالتنقيب عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة وإعادة عمرانهما موثقا الرابطة بين المسجد

الأقصى والمسجد الحرام التى ذكرها الله فى قرآنه «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله» .

وعاشت مدينة القدس آمنة مطمئنة فى ظل الإسلام والمسلمين ويسهر على حمايتها الحكام المسلمون فى العهد الأموى والعهد العباسى إلى صلاح الدين الأيوبى بطل «حطين» ومن جاء بعده من الحكام المسلمين ، وظلت على ذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين حيث بدأ بيت المقدس يواجه مشاكل عديدة مع الصهاينة وتعرض لأخطر عدوان عليها، بعد قيام الحركة الصهيونية التى أخذت تعمل كأداة للاستعمار الغربى لبسط سيطرته على بلاد الإسلام . وكان أخطر سلاح اشهرته الصهيونية هو الالتجاء إلى الاساطير لتأسيس دولة لهم فى فلسطين عام ١٩٤٨ ونالت الاعتراف بها من أمريكا وروسيا فور اعلان دولة اسرائيل واطلقوا عليها زيفا اسم اسرائيل.

لجأ قادة الصهاينة كما يقول د . أحمد عبد الرازق إلى اساطيرهم التى نقلوها إلى التوراة السماوية أيام السبى البابلى بالعمل على النيل من الآثار الإسلامية فى بيت المقدس، واشهرت اسرائيل سلاحا خبيثاً لتستر به تلك الاسطورة التى قامت عليها، وهى التخطيط المتعمد لطمس معالم القدس الإسلامية بما فيها الاثار الإسلامية كالآتى :

١ - غيروا تخطيط مدينة القدس ومعالمها العمرانية الإسلامية حيث وضعوا أساس الكنيست فى ١٤ / ١٠ /١٩٥٨ وبنوه من خمسة طوابق ، فضلا عن نقل أجهزة الدولة المزعومة من تل أبيب إلى القدس ، وأقاموا مستشفى هداسا والجامعة العبرية .

٢ - هدم السور الذي يفصل المدينة القديمة عن المدينة الجديدة ، وذلك فقط بعد خمسة أيام من عدوان ١٩٦٧ وبناء مستعمرة شمال غربى القدس .

٣ - القيام بأعمال حفر وتنقيب حول المسجد الأقصى مدعين البحث عن هيكلهم القديم المزعوم .

٤ - العمل على سلب أحد المقدسات الإسلامية وهو حائط البراق ، حيث أطلق عليه اليهود حائط المبكى زاعمين انه البقية الباقية من هيكلهم القديم ، رغم أن هذا الحائط بنى من حجارة ضخمة طوله ١٥٦ قدما وارتفاعه ٥١ قدما، ويكون جزءاً من سور المدينة القديمة ، ويقع فى الطرف الجنوبى الغربى لبوابة تعرف باسم بوابة النبى ومثبت به حلقة معدنية تأكيدا للاعتقاد بأن النبى صلى الله عليه وسلم ربط براقه فيها عند وصوله إلى المسجد الأقصى ليلة الاسراء والمعراج .

وقد تأكد هذا الحق الإسلامى فى البراق الشريف حين اشتد النزاع حوله .

وشكلت لجنة للتحقيق التى حكمت بأن المسلمين وحدهم ويعقود ملكية الحائط الغربى ولهم وحدهم الحق العينى فيه لكونه يؤلف جزءا من مساحة الحرم القدسى والتى هى من املاك الوقف الإسلامى ، وللمسلمين تعود ملكية الرصيف أمام الحائط وأمام حارة المغاربة لكونها موقوفة حسب الشرع الإسلامى على أعمال البر والخير .

لكن قام اليهود صبيحة اليوم التالى باحتلالهم القدس الشرقية بهدم ٣٥ منزلا من منازل المسلمين فى حى المغاربة بهدف توسيع منطقة حائط المبكى توطئة لإعادة بناء الهيكل المزعوم .

* * *

لم تكتف اسرائيل بأعمال الحفر المدمرة لكيان المسجد الأقصى ، وإنما ألحقت متحف الآثار الفلسطينية بمصلحة الآثار الاسرائيلية ، ووزعت مقتنيات المتحف المسجلة على متاحف أخرى صهيونية ، فضلا عن اخفاء ونقل مخطوطات البحر الميت من القدس الشرقية إلى أماكن مجهولة ، تكشف عن بعضها وبعضها الآخر تحتفظ به فى أماكن مجهولة مخطوطات البحر الميت تفضح توراتهم التى وضعوها فى بابل . ثم تقوم اسرائيل بنشاط واسع المدى فى بناء المستوطنات الصهيونية داخل وخارج القدس تمهيدا لتغيير طابعها الإسلامى ، وكشف المراسلون الغربيون خطورة هذا التخطيط الصهيونى حيث قالوا : «إن اسرائيل بتغييرها هوية القدس الإسلامية التى عرفها العالم والتى أكدها أحد المسئولين الإسرائيليين : أنها تحاول خلق حقائق للوجود اليهودى فى القدس حتى يمكن القول بأن القدس الشرقية يهودية وحتى نضمها إلى القدس الغربية فى عاصمة موحدة .

وفى هذا الصدد جمعت اسرائيل مهندسين عالميين فى تخطيط المدن بالاضافة إلى مهندسين معماريين لهم شهرة عالمية ، وكونت مجلساً سمى «مجلس القدس العالمى الاستشارى» ليدلى برأيه فى الخطة التى استهدفتها فيما يتعلق بأطماعها فى القدس . ووصل لهذا المجلس فى اجتماعه فى ١٩ ديسمبر عام ١٩٧٠ رسالة وزعت على أعضائه الثلاثين من أشهر مخططى المدن فى العالم ، وجاء فيها : يجب على اسرائيل أن تبحث لها عن مدينة أخرى تؤسس بها عاصمتها غير القدس ، فطبيعة القدس التى تشكلت عبر العصور اعطتها شخصية تسمو على الآمال البائسة فى تأسيس عاصمة صهيونية .

وتقف القدس الآن فى انتظار التعزيزات من علماء الآثار المسلمين للعمل جنبا إلى جنب مع المناضلين المسلمين ، لأن تحرير القدس هو تحرير المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين . وتحرير المسجد الأقصى هو تحرير لقبة

الصخرة .

* * *

ويضيف د . رأفت النبراوى أن جذور المسجد الأقصى تتأكد فى قوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله» . تؤكد الآية الكريمة فى سورة الاسراء أن المسجد الأقصى عريق فى القدم مثل المسجد الحرام حول الكعبة المشرفة . والمسجد الحرام حاول الاحباش هدمه حكاية أبرهة ، فأرسل الله عليهم «طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل» وتعرض المسجد الأقصى الآن لمحاولة هدم ولكن ثورة الحجارة تفعل فعلها ، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى لهما اصول مقدسة ومقررة فى الدين الإسلامى ، الذى حدده الله جل شأنه فى قرآنه «إن الدين عند الله الإسلام» . وتدل كلمة الأقصى على معرفة العرب به قبل الرسالة المحمدية وكان العرب يشاهدونه فى الشتاء والصيف فى رحلاتهم إلى بلاد الشام فى بيت المقدس والعرب سموه المسجد الاقصى أى المسجد البعيد عن مكة .

وحدد الرسول الكريم عراقة الأقصى على نحو ما جاء فى الحديث النبوى لأبى ذر الغفارى ، حين قال للرسول «ﷺ» : أى مسجد وضع فى الأرض أولا ؟ قال الرسول : المسجد الحرام. فسأله : ثم أى؟ قال الرسول : المسجد الأقصى . قال أبو ذر : كم بينهما ؟ قال الرسول «ﷺ» : أربعون سنة .

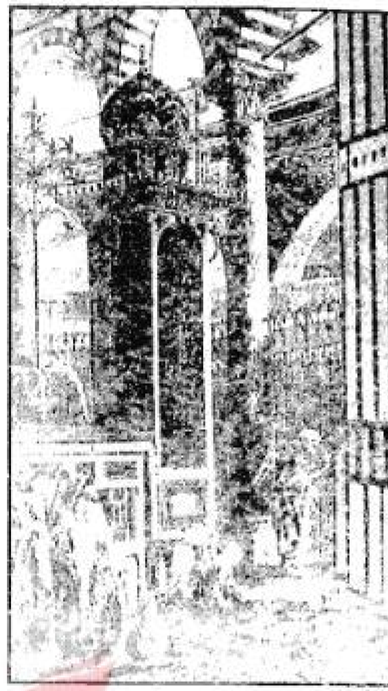
كان الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى بيت المقدس فى العام السابع من مبعثه ، مما يؤكد عالمية الدعوة الإسلامية منذ فجرها .

وقد وعت ذاكرة المسلمين الأوائل من الصحابة أقوال نبى الإسلام عن ليلة الاسراء والمعراج إلى المسجد الأقصى وإلى الصخرة المقدسة وعروجه من عندها إلى السموات العلا . حيث صلى عندها بالنبيين . ثم عرج إلى السموات العلا .

وتجلى ذلك عند الخليفة عمر بن الخطاب .. رضى الله عنه حين ذهب بنفسه لاستلام المدينة المقدسة . وأظهر الخليفة عمر ايمانه واخلاصه للمسجد الأقصى حين خرج بنفسه تأصيلا واملاء للروابط الدينية بين المسجد الحرام والمسجد الاقصى .

وقد طلب الخليفة عمر برفع قواعد المسجد الاقصى بنفسه ، عندما طلب من البطريرك صفرونيوس أن يصطحبه فى جولة بمدينة القدس ليرى المشاهد التى حكاها رسول الله ليلة الاسراء والمعراج .

وقد سجل زيارة عمر بن الخطاب المؤرخ السيوطى - كما يقول د . ربيع خليفة - فى كتاب وضعه بعنوان «اتحاف الاقصى بفضائل المسجد الأقصى» . اشار السيوطى إلى أن الخليفة عمر تتبع بنفسه عمليات التنقيب عن مكان المسجد الأقصى على ضوء الرواية التى سمعها من رسول الله ليلة أسرى به . فكان الخليفة عمر



مسجد الصخرة .. القدس



مدخل المسجد الأقصى .. القدس

يراجع المرافقين له حين يدلونه على مكان لا يجد أوصافه تنطبق على ما لديه من رواية نبوية قائلا : لقد وصف لى رسول الله المسجد بصفة خاصة ما هى هذه ؟. واستطاع الخليفة بعد جهد شاق أن يصل إلى باب الأقصى ، وكان مطمورا بالأتربة التى تخفى معالمه .

ووصف السيوطى ما قام به الخليفة عمر بن الخطاب من جهد قائلا : أنه انتهى إلى باب المسجد ، وكان قد انحدر ما فى المسجد من الزبالة على المدرج حتى كاد يلتصق بسقف الزقاق . فقال المرافقون للخليفة : لا تقدر أن تدخل إلا حبوا . فقال عمر : ولو حبوا . فحبا عمر وحبوا خلفه حتى وصلوا إلى صحن المسجد . ثم نظر عمر وتأمل ، ثم قال : هذا والذى نفسى بيده الذى وصفه لنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» . وأتم الخليفة اكتشافه لمعالم مسجد بيت المقدس «الأقصى» بالعمل على اظهاره وتطهيره مما علق به من أتربه . فقال السيوطى المؤرخ : إن الخليفة عمر قال : أصلى حيث صلى رسول الله ليلة أسرى به . فتقدم إلى قبلة المسجد فصلى . ثم جاء

فبسط رداءه وكنس الكناسة وكنس الناس معه .

وكانت صخرة بيت المقدس عليها أتربة وقمامة كثيرة ترجع إلى إهمال الحكام السابقين على الإسلام لبيت المقدس . وقام الخليفة كذلك بتنظيفها . وكانت هذه الصخرة إلى جانب عروج الرسول عندها إلى السماء ذات قداسة ، حيث خاطب سيدنا يعقوب ربه من عليها ، وصار يطلق عليها «باب السماء» .

وأعاد الخليفة عمر بن الخطاب بذلك على هدى سورة الاسراء ، وما استمعه شخصيا من الرسول الكريم من أحداث الاسراء ، الأصول الدينية لبيت المقدس فى الإسلام . واظهر معالمها من المسجد الأقصى وقبة الصخرة بالقرب من المكان الذى تروى المصادر عنه أن نبى الإسلام قد ربط البراق إليه قبل أن يصعد للسماء . كما أمر ببناء مظلة خشبية فوق الصخرة المقدسة نفسها لحمايتها من الماء والزبالة .

ويوم افتتاح عمر بن الخطاب المسجد الأقصى قام بالآذان بلال بن رباح مؤذن رسول الله ، وكان مقيما فى الشام بعد وفاة الرسول ، ممتنعا عن الأذان . ولكن هذه المناسبة الجليلة كانت جديرة بأن يحييها بلال بالآذان موثقاً روابط القربى فى الإسلام بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى .

وكما يقول د . أحمد عبد الرازق : استرعت عمارة المسجد الأقصى التى أقامها الخليفة عمر أنظار الحجاج الأوربيين إلى بيت المقدس فى هذه المرحلة المبكرة من الحكم الإسلامى ، وما نعموا به من رعاية السلطات الإسلامية لهم . وكان ممن وصف تجديد المسجد الأقصى أحد الحجاج الأوربيين واسمه «أركولف» الذى زار بيت المقدس عام ٥٠ هـ (٦٧٠م) قائلا : «فى هذا المكان يتردد المسلمون على مبنى مربع الشكل للعبادة وهو بناء متواضع تم بناؤه من عروق خشبية موضوعة على الجدران مباشرة ، دون عقود . ويقال أن هذا المسجد يتسع لثلاثة آلاف من المصلين فى وقت واحد» وهو وصف يتفق مع ما كانت عليه المساجد الأولى فى الإسلام من بساطة شديدة .

المسجد الأقصى وقبة الصخرة تطورا تطورا معماريا .

* * *

وقال حسن الباشا : قبة الصخرة مبنى فريد فى ميدان العمارة الدينية الإسلامية ببيت المقدس ، انشىء تكريما وتخليدا للصخرة المقدسة التى عرج نبى الإسلام عندها إلى السماء ، وذلك حين اسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . هذه الصخرة هى قمة بارزة فى أعلا جبل موريا ، وسطح الجبل هو الحرم القدسى الشريف الذى يقوم إلى جانب قبة الصخرة المسجد الأقصى ومشاهد اسلامية أخرى .

وكان الفراغ من المبنى سنة ٧٢ هـ .

(٦٩١ - ٦٩٢ م .) .

وجاءت قبة الصخرة عبارة عن بناء ضخم مسقطه مثمن خارجي ، ثم مثمن داخلي ، وثالث اسطواني داخلي أيضا ، وكله يحيط بالصخرة المقدسة . وتتيح في الوقت نفسه الطواف حولها حيث تبلغ ابعادها ٥٦ قدما طولا و٤٢ قدما عرضا . وشكلها نصف دائري تقريبا وصار المبنى عبارة عن قاعة واسعة ترتفع فوقها قبة نصف دائرية جميلة تقوم على هيكل من الخشب ، وداخل البناء مزين بنقوش بديعة وخارجها ملون بماء الذهب .

ويشتمل هذا البناء المثمن الاضلاع على ٤ مداخل محورية تواجه الاتجاهات الأصلية وهي من النوع التذكاري البارز . متوج من أعلاها بسقيفة محمولة على عمد من الرخام والسقيفة على هيئة نصف دائرية من الخشب المحلى بالذهب والألوان. وأكبر هذه المداخل هو المدخل الحيوى الذى يواجه المسجد الأقصى يتقدمه سقيفة مميزة ويغلق على كل مدخل مصراعان من الخشب يتقدم أمامها سقيفة محمولة على أعمدة . وتكسى كل واجهة من واجهات المثمن الخارجي بكسوة من الرخام حتى منتصف ارتفاع الواجهة يعلوها ترابيع من القيشاني .

واعتمد تصميم الفناء الداخلي على شكل مربعين متقاطعين يشكلان مثمناً ، وضع في زواياه الاكتاف الجامعة لسقف الممرات المحيطة بمنطقة الصخرة المقدسة، وجعل امتداد رؤوس المربعين إلى الداخل محدداً للمربع الأوسط الذى وضعت في زواياه الاكتاف الحاملة لرقبة القبة . وقد ترتب على هذا التصميم تشكيل ممرين داخليين أحدهما يحيط بمنطقة الصخرة ، والآخر مثمن مفرغ بواسطة اكتاف . وكان المهندس بارعا في هذا التصميم حيث وضع الدعامات المحيطة بالصخرة المقدسة . في وضع ملفوف بعض الشيء حتى لا تحجب الاكتاف رؤية الصخرة . ويحيط بالصخرة سياج من الخشب الخرط .

ويقول د . أحمد عبد الرازق : يوجد بأعلى الجزء المثمن الداخلي شريط كتابي طوله ٢٤٠ مترا مكتوب بالخط الكوفي البسيط من فسيفساء مذهبة على أرضية بيضاء . وقوام الكتابة آيات من القرآن الكريم تنتهي بنص تأسيس «بنى هذه القبة الامام المأمون أمير المؤمنين سنة اثنتين وسبعين» . ويتبين من هذا النص أن تغييرا قد أدخل عليه ، لأن اسم الخليفة المأمون وألقابه مكتوبه بخط يخالف بقية النص المكتوب . كما أن سنة ٧٢ هـ . لا تقع في حكم الخليفة المأمون ، وانما هي تقع في عهد عبد الملك بن مروان الذى قام ببناء قبة الصخرة .

وقد تعرضت الصخرة كما اسلفنا إلى عدوان صليبي احتل بيت المقدس ، حيث بنوا عليها مذبحا وزينوها بالصور غير أن المبنى عاد إلى طابعه الاسلامي حين استرد صلاح الدين بيت المقدس الشريف

من الصليبيين ، حيث أزال ما أقامه الصليبيون من عدوان ، وغسل الصخرة بماء الورد ، وأعادها حرما اسلاميا مقدسا .

وكما يقول د . ربيع خليفة فإن الحرم الشريف كله ابعاده من الشرق ٤٧٤ مترا ومن الغرب ٤٩٠ مترا ومن الشمال ٣٢١ مترا ، ومن الجنوب ٢٨٣ مترا . ويقع المسجد الأقصى المبارك ذو القبة الفضية المتميزة في الطرف الجنوبي للحرم الشريف مواجها الكعبة الشريفة في مكة المكرمة ، وخلفه مدينة القدس العربية . والمسجد الأقصى اكبر مساجد القدس وطوله ٨٠ مترا وعرضه ٥٥ مترا .

وتقع قبة الصخرة في قلب الحرم الشريف ، وتحيط به ٨ قناطر تسمى الموازين وتختلف هذه الموازين في عدد أعمدتها وعقودها ، وإن اتفقت في أنها تواجه الجهات الأصلية الأربع ، طول كل ضلع من اضلاع قبة الصخرة الثمانية ٢٠,٥٩ مترا ، وارتفاعه ٩,٥ مترا .

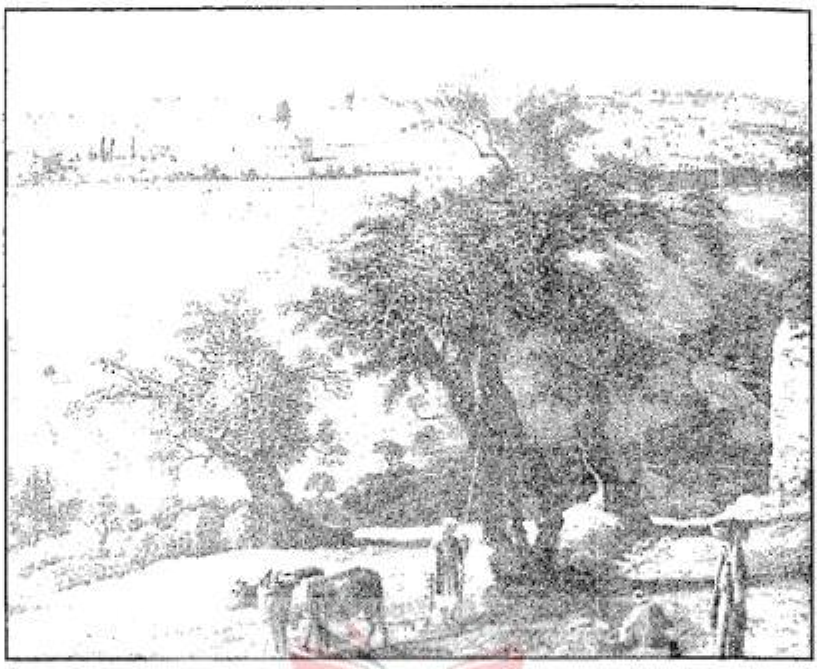
* * *

في سفر التثنية الاصحاح الثامن يقول : «عندما قدم هؤلاء العبرانيون على أرض الفلسطينيين الكنعانيين كانت اورسالم يحكمها كنعاني يبوسي اموري عربي باسم ملك القدس» . بمعنى أن هذا موجود في التوراة ومسجل سنة ٢٦٠٠ ق.م بطن من بطون الكنعانيين أي العرب جاءوا من الجزيرة العربية إلى أرض فلسطين في الألف الرابعة ق.م ، أي أن عمرهم ٦ آلاف سنة مثل عمر الفراعنة . هذا البطن كان يسمى يبوس وكلمة كنعاني تعني الأرض المنخفضة ، ويبوس الخشونة ، فهم قوم لا يحبون أحدا يعتدي عليهم، هؤلاء أسسوا عدة مدن في فلسطين على رأسها أورسالم «القدس» .

والحقيقة أن الأرض المقدسة الفلسطينية تضم مقدسات دينية لها أهميتها ، من ذلك المسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة المشرفة والمسجد العمري ، ومحراب صلاح الدين، والحرم الابراهيمي حيث سمى العرب المدينة الخليل ومقامات الأنبياء، وزوجاتهم مثل سارة وقبر يعقوب وزوجته ، وفي اريحا جبل صام فيه المسيح ٤٠ يوما إلى جانب وجود مجموعة من الكنائس والاديرة ، مثل كنيسة القيامة والقبر المقدس وكنيسة الروم الارثوذكس وكنيسة القديسة هيلانة التي صارت كنيسة الأرمن ، ودير ابراهيم وكنيسة المهد في بيت لحم ودير اللاتين ودير البنات .

ويضيف د . أحمد عبد الرازق يحتل الصدارة ، المسجد الأقصى والحرم الابراهيمي ويضم ذلك كله الحرم القدسي.

وقد اكتسب الحرم القدسي الشريف قداسته من أمور كثيرة ، ففيه المسجد الأقصى الذي كانت إليه خاتمة الاسراء ، وهو المسجد الثاني في ارتفاع بنائه في



الأرض بعد المسجد الحرام بأربعين عاما كما جاء فى الحديث الشريف .

إذن فقد كان هناك زمان طويل جدا وليس فى الأرض مساجد يعبد فيها الله سوى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وحول المسجد الأقصى عاش أنبياء الله ومارسوا دعوتهم .

وبالاسراء يكون المسجد الأقصى قد دخل فى حوزة الإسلام ، ولأنه أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وأحد المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال إلا إليها ، وهو مسجد له زيارة فى عنق كل مسلم ، والصلاة فيه تفضل الصلاة فى غيره إلا المسجد الحرام والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى مذكور فى آية الاسراء التى افتتحت بها السورة التى تحمل هذا الاسم، وهى آية تحمل بيان معجزة من معجزات الرسول والإيمان بهذه المعجزة واجب على كل المسلمين جميعا .

وإذا كان المسجد الأقصى يتمتع بهذه الخصوصية العظيمة فمن واجب المسلمين رعايته ورعاية ما حوله من أرض الله ، وهى حرم بيت المقدس ، أو ما يطلق عليه الحرم الشريف وهذا يحوى القدس القديمة كلها .

القرآن والكون

هل هناك حياة فى كواكب أخرى ؟!

بقلم : د. على حسين عبدالله

إن عدد النجوم فى مجرة واحدة من مجرات الكون مجرة درب التبانة بين ١٠٠ الى ٢٠٠ بليون نجم أحدها الشمس! ويدور حول الشمس تسعة كواكب ومع بعض هذه الكواكب أقمارها. الشمس نجم ويدور حوله عدد من الكواكب والسؤال ماذا عن بقية النجوم هل لها كواكب مثل الشمس؟ لقد ثبت حديثا أن نجوما غير الشمس تتبعها كواكب مما يعنى أن الكواكب ليست محصورة بالنظام الشمسى. إن اكتشاف كواكب خارج النظام الشمسى أدى الى تجديد الاهتمام بالبحث عن وجود الحياة فى الكون، وان ثبت ذلك فمعنى هذا أن الحياة ليست مقصورة على كوكب الأرض فقط. إن التساؤل عن وجود مخلوقات أخرى فى الكون ليس بالجديد فالفيلسوف اليونانى مترودورس قال إن اعتبار الأرض المكان الوحيد الذى به الحياة فى هذا الفضاء الواسع هو اعتبار مجحف ومناف للعقل فمثله كمثل من يقول إن هناك حقلا قد زرع بحبوب القمح فلم تنبت فيه إلا حبة واحدة !.

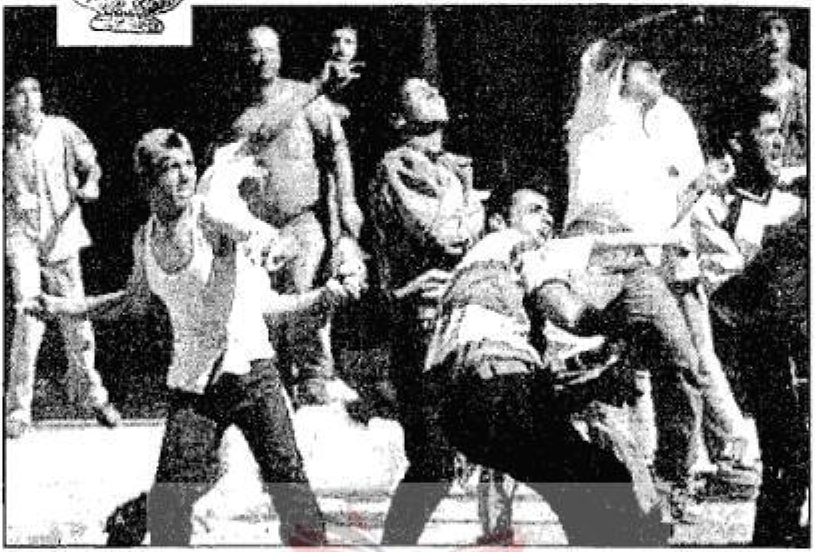
البحث عن كواكب خارج المجموعة الشمسية

لقد توجه العلماء للبحث في مجرتنا عن كواكب خارج المجموعة الشمسية (يقدر عدد المجرات في الكون حوالي ١٠٠ بليون مجرة!) وتم فعلا اكتشاف كواكب جديدة، ففي يونيو من سنة ١٩٩٦ وفي اجتماع الجمعية الفلكية الأمريكية أعلن من جامعة بيتسبرغ عن اكتشاف كوكب بحجم كوكب المشتري يدور حول نجمه كل ٣٠ إلى ٣٥ سنة في مدار يشبه مدار المشتري حول الشمس، والنجم المعني ذو قدر ضئيل في مجموعة الدب الأكبر وتبعد ٨٠٣ سنوات ضوئية عنا. كتلة النجم تساوي تقريبا ثلث كتلة الشمس. حديثا كشف الفلكي Alexander Wolszczan الكسندر ولسكزان عن وجود كوكب شبيه بالأرض يدور حول نجم نيوتروني هذا الكوكب الشبيه بالأرض من بين ثلاثة كواكب سميت بأسماء A,B,C وتبعد هذه المجموعة عن أرضنا مسافة ١٤٠٠ سنة ضوئية!! وما أدرانا لعلها تكون مأهولة بالحياة!.

نتفق جميعا أن القرآن كتاب هداية للانسان في الدرجة الأولى ولكن هذا لا يمنع أنه أشار الى أمور في العلوم المختلفة ،وبسبب تقصير منا كمسلمين لا ننتبه الى إشارات القرآن إلا بعد أن تكتشف الحقائق بعدها نأتي ونقول إن هذا الأمر قد ذكره القرآن قبل حوالي ١٤ قرنا، ويأتينا السؤال أين كنتم يا أمة القرآن عن هذا مادام القرآن بين أيديكم؟ والأمثلة كثيرة ففي القرآن إشارات توحي بوجود الحياة في الكون والمقال طرح لإثبات وجود صور من الحياة في مكان ما في الكون قبل أن يثبته العلم، حيث إنه الى هذا اليوم لم تحسم بعد مسألة وجود الحياة في الكون بالطرق العلمية. الموضوع مطروح على أساس أن القرآن يخبرنا أن الحياة موجودة في الكون على شكل مخلوقات حية من أصل مائي كما هي أصول الأحياء الموجودة على الأرض! . وأسجل هذا الدليل القرآني قبل أن يعلن من جهات علمية حتى لا نأتي بعدها لنقول إن القرآن ذكر ذلك منذ ١٤ قرناً مضت!.

(ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض) النمل ٢٥ من هذه الآية نستنتج أن الله يخرج الخبء فى السموات والأرض والخبء هو النبات لأن الحبة تختبئ فى الأرض ثم تخرج زرعا، أى أن الله كما أنه أخرج النبات فى الأرض كذلك أخرجه فى السماء معنى هذا وجود الحياة النباتية فى السماء كما هى موجودة فى الأرض ! (من كتاب هل نحن وحدنا فى الكون بقلم د. محمد عبده يمانى) هذا عن الحياة النباتية أما الحياة الحيوانية فهناك أكثر من آية تنطق بذلك، فالآية التالية تتكلم عن الدابة، فالله سبحانه أحيا الأرض وبعدها نشر فيها الدابة (فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) البقرة ١٦٤، وكذلك الآية (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة) لقمان ١٠ الآيتان تخبران أن الله نشر الدابة فى الأرض وهذه من الأمور الواضحة لنا ولكن القرآن يتكلم بنفس السياق عن الخلق فى السماء!، فالآية التالية وهى بيت القصيد تدل على أنه سبحانه لم يبث الدابة فى الأرض وإنما فى السماء أيضا، تمعن الآية (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير) الشورى ٢٩ فكلمة فيهما أى فى السموات والأرض تدل على أن الدابة ليست فقط محصورة فى الأرض وانما فى السماء أيضا!. إن تعريف الدابة باللغة هو كل مايدب على الأرض، ولكن القرآن يعرف الدابة بقوله سبحانه (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شىء قدير) النور ٤٥ . هذه الآية تدل أن كل دابة خلقها الله من ماء ومنها أنواع فمنها ما يمشى على بطنه كالزواحف وعلى رجلين كالطيور والانسان يمشى على أربع كبقية الحيوانات الأخرى. إن وجود هذه الدواب فى السموات والأرض يعنى أن الحياة موجودة فى أماكن أخرى من الكون على شكل دواب كما فى التعبير القرآنى أى مخلوقات مبينة على أساس أن عنصر الحياة هو الماء!.

رمضان



لقطة من الانتفاضة الفلسطينية

بقلم : عبد الرحمن شاكر

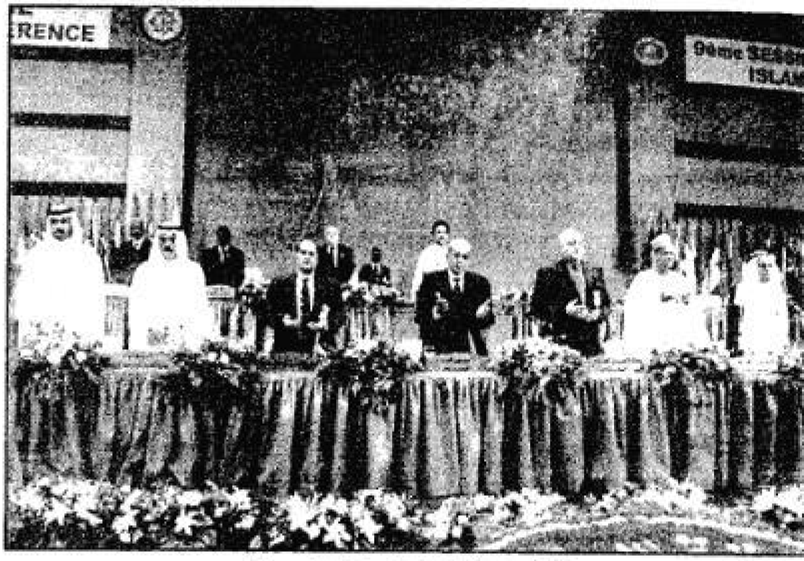
أصبحت المواجهة بين «الإسلام» وخصومه ظاهرة لاتخفى على أحد، ولا تقبل أن ينكرها أحد. الإسلام باعتباره عقيدة وحضارة وتاريخا، ثم أقواما تؤمن فى معظمها بتلك العقيدة، وتستضىء بماضي حضارتها، وتعتز بتاريخها وتستلهم أمجاده. والمسئول عن تلك المواجهة، وما آلت إليه، وما يمكن أن تسفر عنه، هو الغرب «العظيم» المتقدم، الذى يسوق «الهبالة» على «الشيطنة»، كما يقول تعبيرنا العامى الشهير، ويصر، أو تصر قوى كبرى فيه، على أن تضع كل ما وصلت إليه من علم وتقدم وتكنولوچيا، فى خدمة أفكار موغلة فى رجعيتها وتخلفها، ولشفاء أحقاد مظلمة كنا نظن أن التاريخ قد طواها، وربما لتحقيق أغراض أشد ظلمة من تلك الأحقاد، تتخذ من نشرها الآن ذريعة لتحقيقها.

الهجوم الصهيوني

منذ أسابيع قليلة ، وبالتحديد في الثاني عشر من نوفمبر الفائت، اجتمع قادة الدول المنضمة للمؤتمر الإسلامي ، للنظر في أمر آخر صورة من تلك المواجهة وربما أخطرها ، وهي المذبحة التي تدور الآن على أرض فلسطين ، أو ما تبقى من تلك الأرض ، والتي بدأت منذ ٢٨ سبتمبر الفائت، حينما توجه مجرم الحرب الإسرائيلي إريل شارون، عن سبق إصرار وترصد، لاقتحام المسجد الأقصى في القدس الشريف ، مصحوبا بألوف الجنود المدججين بالسلاح ، متحديا مشاعر الشعب الفلسطيني، والشعوب العربية والإسلامية على حد سواء .. وكان ذلك هو التعقيب «الشاروني» على انهيار ما كان يسمى بمباحثات السلام في كامب ديفيد ، بسبب اصرار الجانب الإسرائيلي، بتأييد من الوسيط الأمريكي، على منازعة الفلسطينيين ، ومن ورائهم العرب والمسلمين السيادة على المسجد الأقصى ، الذي يصر كل من الإسرائيليين والأمريكان على الإشارة إليه بتعمير «جبل الهيكل» ، قياسا على تسميتهم الضفة الغربية باسم «يهوذا والسامرة» وأرض فلسطين ذاتها باسم إسرائيل!.

ولأن المفاوض الفلسطيني قد رفض التوقيع على اتفاق يقر السيادة الإسرائيلية على تلك البقعة المقدسة من أرض فلسطين، فكان لابد عندهم من استدراج الشعب الفلسطيني إلى معركة غير متكافئة على الاطلاق ، يواجه فيها أبناء هذا الشعب الأعزل ، أعتى ما توصلت إليه الترسانة الأمريكية من أسلحة، زودت بها إسرائيل ، لمجرد أنهم غضبوا لإهانة مقدساتهم ، ومنذ ذلك التاريخ يسقط منهم عشرات القتلى أو مئاتهم فضلا عن ألوف الجرحى ، ويصر الفلسطينيون على استمرار انتفاضتهم حتى تجلو القوات الإسرائيلية عن الأرض الفلسطينية المحتلة منذ حرب عام ١٩٦٧، بما فيها القدس الشرقية ، وتصر القوات الإسرائيلية ومعها قطعان المستوطنين المسلحين، على ذبح أبناء الشعب الفلسطيني وتدمير مساكنه ووسائط عيشه حتى يخضعوا لأرائهم الوحشية!.

آخر المعارك ضد الاستعمار في التاريخ المعاصر يخوضها شعب فلسطين، بعد أن انحسر ظله عن المعمورة كلها ، بل هو أشنع صور الاستعمار، لكونه استعمارا استيطانيا، يقوم على إقصاء شعب عن أرضه ، أو إبادته ، لكي يحل محله أناسا آخرين ذوي أصول أوربية ، يزعمون بالمخالفة لكل حقائق التاريخ أنهم من بني إسرائيل، وأن هذه أرض أجدادهم ، رغم أن علماءهم يقولون غير ذلك ، وتقول دائرة المعارف اليهودية إن يهود روسيا وبولندا وسائر شرق أوربا هم من بقايا قبائل الخزر التي كانت تسكن القوقاز وتهودت في القرن الثاني الميلادي. ويزعمون أنه لا معنى لدولة «إسرائيل» التي أقاموها اغتصابا، وبمساندة دول



لقطة من قمة المؤتمر الإسلامي بقطر

الغرب المتقدمة ، بدون القدس أو أورشليم، ولا معنى للقدس بدون هيكل سليمان، رغم مايقوله علماؤهم المعاصرون في إسرائيل ذاتها من أنه لم يثبت وجود هذا الهيكل حيث يوجد المسجد الأقصى حالياً ، بل يشكك بعضهم في صحة رواية التوراة ذاتها عن قيام هذا الهيكل في العصور الغابرة!.

ويلزم الجانب الفلسطيني والعربي غاية الاعتدال ، حينما يوافقون على أن يستمر اليهود في إقامة صلواتهم عند الحائط الغربي للمسجد الأقصى، الذي يسميه اليهود حائط المبكي، خصوصا أنهم قد أزالوا حي المغاربة المجاور لهذا الحائط. يبدي العرب والمسلمون كل التسامح في هذا الموقف رغم أن هذا الحائط هو حائط البراق ، الذي عرج منه نبي الاسلام إلى السماء ، طبقاً للعقيدة الإسلامية ، فإن كان حقا هو من بقايا «هيكل سليمان» ، فعند المسلمين أيضاً ، أن سليمان وكل أنبياء بني إسرائيل كانوا موحدين على ملة أبيهم إبراهيم ، وأن «معبدهم» هذا كان مسجدا كالحرم الشريف في مكة سواء بسواء، لذلك أسرى بنبيهم الكريم من هذا إلى ذاك!.

هل هناك حل أكثر عدالة وتسامحا من هذا المسلمين شرق الحائط ولليهود غربه؟ أم هي المماحكة السخيفة، من جانب من يريدون إذلال الإسلام وأهله ، من اليهود ، ومن يشايعونهم، ليس في الولايات المتحدة

وحدها ، بل في بريطانيا صاحبة وعد بلفور ومنفذته أيام انتدابها على فلسطين ، وبعض الدول الاسكندنافية، وهولندا ، وألمانيا التي جاء مستشارها مؤخرا إلى المنطقة ، لكي يتوسط في الإفراج عن الأسرى الإسرائيليين عند حزب الله اللبناني ، وقبلها كان قد زود إسرائيل بغواصة نووية ترابط في البحر الأبيض المتوسط ، وتحمل صواريخ مزودة برءوس نووية ، في استطاعتها أن تصل إلى كل بقعة من ديار الإسلام !.

وحجة اليهود في دعواهم أن المسيح لن يجيء إلا بعد أن يعيدوا بناء الهيكل ، وحجة البروتستانت أن المسيح لن يعود حتى يعود شعب إسرائيل إلى أرضه ، ونسي هؤلاء وأولئك أن من يجلبونهم من المستوطنين من روسيا وشرق أوربا هم أدعياء لا علاقة لهم ببني إسرائيل ، وإذا كان هناك من قد تصح نسبته إلى إسرائيل فهم من شعب فلسطين المشرد، الذي ينبغي أن يعود إلى أرضه لكي يكون هناك أمل في أن يعود المسيح !.

الدفاع الإسلامي

في الوقت الذي تتردى فيه الدول الغربية المتقدمة ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية في حمأة الخرافات والأساطير ، وتشعل نيران الصراع على هذا النحو الفاحش ، على يدي ربيبتها إسرائيل ، دون أن تقدر مدى التسامح الإسلامي أو تعيه ، فإن القمة الإسلامية المنعقدة أخيرا لم تتردد في احتضان مفاهيم غربية متقدمة عن الديمقراطية ومشاركة الجماهير الشعبية في صنع القرار ، وحل مشاكل الصراع العنصري على أساس المساواة بين جميع الأجناس والعقائد . جاء ذلك على لسان كل من الرئيس السابق لمنظمة المؤتمر الإسلامي محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإيرانية ، ورئيسها الجديد الشيخ حمد بن ثاني أمير قطر المستضيفة للمؤتمر في دورته الحالية.

تكلم كل منهما عن ضرورة المشاركة الشعبية في صنع القرار في كافة البلدان الإسلامية ، بالنظر إلى هبة الجماهير العربية والإسلامية واسعة النطاق تأييدا للقضية الفلسطينية وغضبا مما يعانيه شعب فلسطين الباسل إزاء القوى العاتية التي تواجهه ، وذلك بالرغم من كون أولهما يحكم دولة لم تكد تخرج من الحكم الامبراطوري الاستعماري حتى تلقفها رجال الدين في ظل نظرية ما يسمى «ولاية الفقيه» ، والثاني منهما يحكم إمارة يقوم فيها النظام السياسي على أساس الملك الموروث .

وقد طرح الرئيس الايراني في كلمته حلا قد يبدو مبالغا فيه للقضية الفلسطينية، التي يكتفي أصحابها الآن بالمطالبة بانسحاب إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧، طبقا لقرارات الشرعية الدولية. فقد اقترح خاتمي في كلمته أن يبدأ الحل بإعادة كل المشردين من شعب فلسطين إلى وطنهم سواء كانوا من

المسلمين أو المسيحيين أو اليهود ، ويقرر السكان الأصليون مصير ذلك الوطن ، وما ينبغي إزاء من وفدوا إليه من غير أهله، وذلك كما هو واضح حل علماني مثالي ، طبقا للمفاهيم الغربية عن علمانية الدولة ، لو كان أصحاب هذه المفاهيم يعقلون أو ينصفون !.

وأكثر من ذلك ، فقد أشار أمير قطر في كلمته إلى التجربة الأوربية ونجاحها في إنشاء السوق المشتركة ، ودعا الدول الإسلامية إلى أن تكون لها مثل هذه السوق، ولم يفته أن يشير إلى أن الديمقراطية التي تسود تلك البلدان ، بما فيها إقامة البرلمان الأوربي ، كانت عاملا مساعدا على توطيد دعائم الوحدة الأوربية، ولعله كان على لسانه مطالبة المسلمين بأن يكون لهم برلمان مماثل ، لولا أنه أدرك أن على العرب أن يبدأوا بأن يكون لهم مثل هذا البرلمان ، وكذلك سوقهم المشتركة ، ولم يرد أن يجعل القمة الإسلامية في وضع سابق أو حتى منافس للقمة العربية التي انعقدت قبل هذه الأخيرة بأيام معدودة .

وبالطبع فإن السوق المشتركة سواء على المستوى العربي أو الإسلامي ، وبمساعدة التوحد السياسي عن طريق برلمان منتخب ، هي الاطار الذي يمكن أن تحتشد فيه جهود الأمة العربية والإسلامية ومواردها للنهوض الاقتصادي القائم على اكتساب المعارف العلمية الحديثة وتطبيقها، على نحو يمكنها من سد الفجوة الهائلة بينها وبين العالم المعادي الذي يهددها ، ويجعلها قادرة على تنفيذ ما تنادي به جماهيرها الغاضبة من مقاطعة من يعادونها أو يدعمون من يعاديها .

أما الجهاد الذي دعا إليه بعض المتكلمين في القمة الإسلامية فهو في الحقيقة فريضة إسلامية كانت وسوف تبقى . فإذا لم يكن في طوق الدول الإسلامية حاليا أن تشن الحرب على عدوها أو تقطع البترول عن مسانديه من الدول الغربية ، فإن إمداد الشعب الفلسطيني بالعون المالي هو ضرب من الجهاد ، وهذا يستلزم ، كما تستلزم النهضة الاقتصادية والعلمية المنشودة على المستوى الإسلامي ، التخلص من جانب المترفين من أبناء هذه الأمة عن كثير مما يزاولونه من صور العيش على الطريقة الأمريكية ! ذلك جهاد النفس غير هين ولكنه أيضا غير عسير . وأولى أن توجه أموال كثيرة مما تملكه هذه الأمة وتبدده إما في الاستثمارات خارج المنطقة الإسلامية ، أو على بذخ لم تعد تحتمله أوضاع الأمة ويستفيد منه عدوها المباشر، أقول توجه لأغراض من بينها مساعدة من لديه القدرة على أن يعود إلى وطنه من أبناء شعب فلسطين المشردين على هذه العودة ، كيما ينضم إلى قافلة الجهاد والمجاهدين ! .

رمضان

الشهادة والعقل

بقلم : د. محمد عمارة

إذا كان النموذج الثقافى الإسلامى، بالنسبة لأمتنا ، هو «الذات» .. على حين مثل ويمثل النموذج الثقافى الغربى، بالنسبة لنا ، «الآخر» منذ بدء الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لوطن العروبة وعالم الإسلام- قبل قرنين من الزمان ..فإن الوعى بتمايز «الذات» عن «الآخر» ، فى «مصادر المعرفة» ، هو أمر ضرورى فى اكتشاف منطلقات هذا التمايز بين نموذجى الثقافة الإسلامية والغربية ..

لقد أسس الغرب نهضته الثقافية الغربية الحديثة والمعاصرة على «المذهب الوضعى»، وذلك إبان ثورة فلسفة التنوير الأوربية على الكنيسة والمقدس واللاهوت.. و «الوضعية» Positivisme هى المذهب الذى يرى أن الفكر الإنسانى لا يدرك إدراكا حقيقيا سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين ، وأن المعرفة الحقة، هى معرفة الواقع ، وأن الحق هو ثمرة التجربة ، وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطياتها وتنظيمها ، وأن العلوم التجريبية هى المثل الأعلى فى اليقين.. أم غير الظواهر المحسوسة فوهم.. وأن تاريخ العقل قد مر بحالات ثلاث: حالة لاهوتية، وحالة ميتافيزيقية وحالة واقعية ، هى الوضعية التى تأسس عليها النموذج الثقافى والمعرفى الغربى الحديث .

فالفلسفة الوضعية- ومن ثم نموذجها الثقافى-قد أقامت المعرفة على مصدر واحد هو الواقع المادى، وحقائق عالم الشهادة، لأنها بنت

التنوير الغربي، الذي أحل العقل والعلم والفلسفة محل الله والدين واللاهوت، ورأى الوضعيون أن العالم مكتف بذاته، ومن ثم فإن واقعه هو المصدر الوحيد للمعرفة الحقة..

لكن التصور الإسلامي، ونموذجه الثقافي لم يقف بمصادر المعرفة عند العالم فقط، والواقع وحده.. بل لقد تحدث القرآن الكريم عن ان هذا المصدر الواقعي . لا يفي وحده بتفسير حقائق المعرفة، عبر تاريخ المعارف الإنسانية فقال :

« ... ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون. أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون». (الروم ٦-١١) .

فبمعارف ظاهر الحياة الدنيا وعالم الشهادة - الوضعية - وحدها ، لا سبيل إلى معارف وحقائق خلق الله السموات والأرض وما بينهما.. ومعارف لقاء الله، فى الدار الآخرة.. بعد هذه الحياة الدنيا.. ولا سبيل إلى تفسير عاقبة الأمم التى أخذها الله بذنوب تكذيبهم الرسل وظلمهم لأنفسهم، مع ما كانوا عليه من قوة وعمران، لا يفسر هلاكهما بمعارف الواقع المادى وحدها.. لا سبيل إلى تفسير هذه العواقب بمعارف عالم الشهادة وحدها.. فنحن هنا أمام سنن غير معتادة ، لا سبيل إلى معرفتها بحقائق الواقع المادى وحدها ..

ولذلك ، فإن النموذج الثقافى الإسلامى ، فى مصادر المعرفة، وإن لم يهمل عالم الشهادة ، والواقع المادى، كمصدر للمعرفة ، فإنه لم يكتف بهذا المصدر، وإنما أضاف إليه عالم الغيب ، ونبأ السماء ، وكتاب الوحى، والأدلة والمعارف والحقائق السمعية، مصدرا للمعارف التى لا تصدر عن الواقع المادى، ولا يستقل العقل بإدراكها، ولا تخضع لتجارب الحواس .. فأقام هذا النموذج الإسلامى ثقافته على ساقين اثنتين ، واعتمد للمعارف مصدرين : كتاب الوحى المسطور ، وكتاب الكون المنظور، الأمر الذى ضمن التوازن للنموذج الثقافى الاسلامى.. وذلك بدلا

من إقامته على ساق واحدة، كما هو الحال في النموذج الثقافي الذي أثمرته الوضعية الغربية ..

فإذا كانت ثقافة التنوير الغربي قد أقامت معرفتها على حقائق الواقع المادي وحــــــدها ، لأن تنويرها واستنارتها قد رأت العالم مكتفيا بذاته عن المدبر المفارق لهذا العالم .. فإن للاستنارة الاسلامية آفاقا أرحب ونطاقا اشمل وثمرات مغايرة.. فليس العالم المادي هو وحده مصدر فلسفة التنوير وثقـــافة الأنوار ، لأن الله سبحانه وتعالى، «نور» (الله نور السموات والأرض).. والقرآن الكريم «نور» (يأأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) والرسول صلى الله عليه وسلم «نور» (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) فنبأ السماء النبأ العظيم- ليس «الوهم» الذي يمثل طور طفولة العقل البشري ، السابقة على الميتافيزيقا، وعلى الوضعية- كما تصورت فلسفة التنوير الغربي نصرانيتها - وإنما هذا النبأ العظيم (برهان من ربكم) و (نور) ، والمستنير به له تنويره الاسلامي، القائم على آيات كتابي الوحي والكون جميعا، وليس على معارف الواقع المادي وحدها دون سواها..

سبل المعرفة :

وكما مثل النموذج الثقافي الاسلامي، في مصادر المعرفة - عند مقارنته بالآخر الغربي - إضافة أقامته على ساقين، وضمنت له التوازن .. فإن هذا النموذج الاسلامي، في سبل المعرفة قد صنع ذلك أيضا .

فعلى حين اعتمدت الوضعية الغربية «التجربة» سبيلا أوحد للمعرفة الحقة، جاعلة «العقل» منسقا بين معطيات «التجربة» ومنظما لها .. فإن النموذج الإسلامي في الثقافة قد اعتمد لسبل المعرفة اربع «هدايات»، هي «العقل» و «النقل» و «التجربة» و«الوجدان»، لا باعتبارها سبلا متجاورة ومستقلا كل منها عن الآخر، وإنما باعتبارها سبلا متعاونة ومتعاضدة ومتفاعلة في تحصيل معارف وحقائق وسنن وقوانين كتابي الوحي والوجود واكتشاف آيات الله في الأنفس والآفاق..

وهكذا مثل النموذج الثقافي الاسلامي - ويمثل - إذا ما قورن بالآخر الغربي.. إضافة ، لا انتقاصا، جعلت وتجعل هذا النموذج الثقافي الاسلامي أوفى بتحصيل المعارف جميعها ، ومن مختلف مصادرها،

وليس فقط مايدرك منها بتجارب الحواس ..

والعقلانية المؤمنة :

وعلى حين أله التنوير الغربي «العقل» ، وجعل براهينه النقيض «للنقل» والوحي والدين فدع فلاسفته الى «تحرير العقل من سلطان الدين، وإعمال العقل دون معونة من الآخرين، وجعل السلطان المطلق للعقل، بحيث لا يكون هناك سلطان على العقل إلا للعقل وحده». فجاءت عقلانية التنوير الغربي- ونموذجه الثقافي - وضعية ومادية.. فإن النموذج الثقافي الإسلامي ، الذى سلك العقل كأحد الهدايات، مع «النقل» و «التجربة» و«الوجدان» لم يعرف هذه المقابلة المتناقضة بين العقل و «الايمان الديني» ، بل لقد قدم هذا النموذج الثقافي «عقلانية - مؤمنة» ، حث عليها الدين ، وجعلها مناط التكليف، والحكم الذى به يتبين الإنسان مافى القرآن من محكم ومتشابه ، بل وسبيل معرفة الذات الالهية ، التى تمثل جوهر الإيمان الديني ! ..

لقد عقد النموذج الثقافى الاسلامى أواصر الارتفاق بين «العقل» والشرع» والتزمت ذلك أعرض تيارات الفكر الاسلامى، انتشارا وتاثيرا فى النموذج الثقافى الإسلامى حتى قالوا الإمام الغزالى : «إن اهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن وجوب الجمود على التقليد ، واتباع الظواهر ، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر ، وأن من تغلغل فى تصرف العقل، حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر. فميل أولئك إلى التفريط ، وميل هؤلاء إلى الإفراط ، وكلاهما ، بعيد عن الحزم والاحتياط .. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن : الشمس المنتشرة، الضياء، فاخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء ، فالمعرض عن العقل، مكتفيا بنور القرآن ، مثاله : المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور» .. !

وهكذا تميز النموذج الثقافى الاسلامى «بالعقلانية - المؤمنة» ، تلك التى أخت بين العقل وبين الشرع ، جاعلة منهما «نورا على نور» وجاعلة منهما لا من واحد منها دون الآخر - أداتي التحسين والتقبيح .. وبعبارة رفاعة الطهطاوى (١٢١٦-١٢٩٠هـ ١٨٠١-١٨٧٣م : «إن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعْتَدُ به إلا إذا

قرره الشارع .. وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه..» .

وإذا علمنا أن الطهطاوى قد قال ذلك فى معرض نقده للنموذج الثقافى الوضعى الغربى.. نموذج الذين «يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب».. وفى سياق رفضه - بل وإدانته لهذا النموذج الوضعى- حتى لقد قال : إنه «لا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا اليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا انهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود . فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة» .

إذا علمنا ذلك، أدركنا تميز النموذج الثقافى الإسلامى ، عن النموذج الغربى، بهذه «العقلانية المؤمنة»، التى جمعت بين «العقل» و«الشرع» .. ولم تقف عند العقل وحده - كحال النموذج الوضعى والمادى .. أو عند الوجدان وحده - كحال النموذج «الباطنى» الذى ساد فى فلسفة «الغنوص» و «الإشراق» .

ومكانة المرأة عند الرجل :

فى النموذج الثقافى الاسلامى ، كما صاغه البلاغ القرآنى، وجسده البيان النبوى تجربة حية فى مجتمع المدينة، على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، نجد المساواة بين المرأة والرجل تامة وكاملة فى الخلق.. والتكريم .. والتكليف .. والحساب والجزاء..

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا). «النساء ١»

(هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها).

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم) . «التوبة ٧١».

(من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ماكانوا يعملون) . «النحل ٩٧»

ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة، والله عزيز حكيم). «البقرة ٢٢٨»

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.. فالأمير الذى على الناس راع عليهم وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على بيت سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم

راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

لكن هذه المساواة، فى النموذج الاسلامى ، ليست مساواة «الند- المماثل» .. كما هو حالها فى النموذج الثقافى الغربى، وإنما هى مساواة «الشقين المتكاملين» .. مساواة فى الخلق .. والتكريم.. والتكليف .. والحساب والجزاء.. مع مراعاة الفطرة التى ميزت بين الأنوثة والذكورة ليكونا شقين متكاملين ، يحقق تكاملهما سعادة النوع الانسانى .. ولا يكونا «تدين متماثلين» .. فتكون المساواة تناحرا يشقى به الفريقان ، وتمسخ به الفطرة التى فطرهما عليها الخالق، سبحانه وتعالى ..

ذلك هو النموذج الثقافى الاسلامى لمكانة المرأة من الرجل ، الذى تميز عن نموذجها فى الثقافة الغربية.. والذى لا علاقة له بالتقاليد التى ظلمت المرأة، والتى يحسبها أصحابها ، زورا وبهتانا ، على الاسلام ؟!

و«الذات» .. و«الآخر» :

سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل .. فإن وجود ، «الآخر» المتميز، عن «الذات» والقبول له ، والتعايش معه هو القانون ..

ولهذه الحكمة، رفض النموذج الثقافى الاسلامى ، ويرفض منهاج الصراع سبيلا لحل التناقضات بين الذات والآخر ، لأن «الصراع» يعنى أن يصرع طرف الطرف الآخر، وينفرد بالميدان فتزول التعددية بين الفرقاء المتمايزين .. هذا هو «الصراع» وتلك هى الدلالة القرآنية لمصطلحه.. «سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية ». (الحاقة ٧-٨)

وبدلا من «الصراع» الذى لا مكان معه للتعددية والتعايش بين «الذات» و«الآخر» يزكى النموذج الثقافى الاسلامى ، لحل التناقضات بين الفرقاء المختلفين ، منهاج «التدافع» الذى هو حراك يعدل المواقف والمواقع، مع المحافظة على بقاء التمايز والتعددية دائما وأبدا .

(ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .. بل إن الدفع والتدافع هو منهاج الحفاظ على التعددية حتى فى الشرائع الدينية (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز..)

وكما جعل النموذج الثقافى الاسلامى من وجود «الآخر» السبيل لتميز «الذات» ، ودعا الى تعددية التعايش بين الفرقاء المتمايزين رأيناه يرسم معايير الولاء والبراء بين الذات المسلمة، وبين «الآخر غير المسلم»..

فبيننا وبين «الآخرين» علاقات البر والقسط .. دائما وأبدا اللهم إلا إذا قاتلونا في ديننا او اخرجونا من ديارنا، او ظاهروا على هذا الاخراج لنا من الديار الاسلامية .. عند ذلك - وعند ذلك فقط، لا «بر» ولا قسط.. مع هؤلاء الآخرين .. وإنما هو الجهاد لهم، على امتداد وتنوع صفوف الجهاد..

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) ..

وإذا كان الاسلام عقيدة صبغت حضارة وميزت ثقافة وتاريخا ووحدت امة فإن جوامعه الحضارية والثقافية والتاريخية قد أدخلت غير المسلمين من الذين أظلتهم دولته، في «الذات المسلمة حضاريا». فقامت وحدة في الامة ، مع تعددية في الملل والشرائع وداخل الامة الواحدة ..

التجديد والاجتهاد :

في علاقة «الحاضر» بـ«الماضي» و«الجديد» بـ«القديم »، هناك نماذج ثقافية ثلاثة فيها طرفا غلو، وبينهما الوسط العدل المتوازن الذي يزكيه الاسلام..

أ - هناك غلو الإفراط الذي يمثله الجمود والتقليد ، ذلك الذي لا يميز في الاعتصام بالماضي بين الثوابت وبين المتغيرات، بين الإلهي وبين البشري، بين المناهج وبين التجارب والتطبيقات.. فيضفي القداسة والثبات على الماضي جميعه ، حتى ليكاد اهله يهاجروا اليه مديرين ظهورهم للحاضر والمستقبل والجديد ..

ب- وهناك غلو تفريط «الحداثة» بالمعنى الغربي - وهي التي أثمرتها فلسفة التنوير الغربي اللادينية، والتي أقامت قطيعة معرفية مع الدين، عندما عزلت شرائعه عن ضبط شئون العمران ، وحررت السلوك البشري من احكامه ، وحالت بين السماء وبين تدبير الارض والعالم .. وكما يقول احد دعاتها «فإن التنوير قد مثل القطيعة الإبستمولوجية الكبرى التي تفصل بين عصرين من الروح البشرية : عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الاكويني، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير»

حـ - وبين غلوى الافراط والتفريط، في علاقة الحاضر بالماضي ، والجديد بالقديم - يأتي النموذج الثقافي الإسلامي ، بوسطيته المتوازنة - فيعتمد «التجديد» الذي هو تطور من داخل النسق، يميز بين الثوابت والمتغيرات في الموروث، فيفتح الباب

للتطور مع الاحتفاظ بالمعالم والسمات التى أعطت وتعطى النسق الحضارى خصوصيته المميزة له عن الانساق الحضارية الاخرى . فيواكب كل المستجدات ، دون أن تتبدل «هويته» أو يفقد «بصمته» التي تمثل «مبادئه» و«مناهجه» و«حِكَمه» و«مقاصده» ويعتمد الاجتهاد ، الذى يستنبط احكام الفروع من «المبادىء والاصول» فيمد الأغصان الجديدة لتظلل المساحات المستجدة فى ارتباط بالاصول التى تسرى روحها وتشيع ضوابطها وتتحقق مقاصدها فى كل اجتهاد جديد .. فيتم به «النمو» الدائم، مع الاحتفاظ «بالشخصية» التى يمثلها هذا النسق الفكرى والحضارى ..

وفى النموذج الثقافى الاسلامى يبلغ «التجديد» مرتبة «السنة.. والقانون» لأن تمثيل هذا النموذج للشريعة الخاتمة يستدعى «التجديد» فيه حتى لا ينسخها التطور ويطوى صفحتها .. ولأن «عالمية» هذه الشريعة الخاتمة تستدعى هى الأخرى، «التجديد» الذى يستجيب لجديد الأمم والبقاع والعادات والأعراف.. وعن هذه «السنة .. والقانون».. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يبعث الله لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» .

فبه تتم «أسلمة الجديد» وبه تتجدد المنابع ، عندما تزال عنها طوارىء البدع التى تحد من فاعليتها فى التوليد والإبداع ..

وفى هذا النموذج الثقافى الاسلامى، ايضا يبلغ «الاجتهاد» مرتبة الفريضة، ولا يقف عند مجرد كونه حقا من الحقوق !..

وبجناحى «التجديد» و«الاجتهاد» يحلق العقل العربى والمسلم، عبر الزمان والمكان ، ملتزما المعالم والمنارات التى مثلت وتمثل خصائص النموذج الثقافى الاسلامى – والتى اشرنا إلى نماذج مهمة منها – فيعيش «الحاضر»، ويستشرف «المستقبل»، دون أن يقع فى إفراط الجمود والتقليد، أو تفريط القطيعة مع المنابع والثوابت والأصول ..

وإذا كانت «الحاجة» هى أم الاختراع والضرورة هى الحافز على «الابداع »، فإن الايمان بوجود خصوصية للنموذج الثقافى الاسلامى ، تميزه عن «الآخر» هى الحافز على التوليد والإبداع فى النموذج الثقافى وبدون الايمان بهذه الخصوصية. فإن الكسل العقلى سيغرقنا فى مستنقع التقليد.. تقليد الماضى، والجمود على تجارب اهله.. او تقليد «الاخر» والجمود على نماذجه، والقطيعة المعرفية مع نموذجنا الثقافى العربى الاسلامى وماله من خصوصيات. والله اعلم ..

ماذا نترجم ؟



الأدلة العلمية
على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية
تأليف
مدير مجلة الأزهر
(يوزع بالمجان)
(الطبعة الأولى)



القول الفصل
في ترجمة القرآن الكريم
إلى اللغات الأعجمية
بقلم الأستاذ الجليل ... مولانا
محمد شاكر
وكيل الجامع الأزهر سابقا
سنة ١٣٤٣ هجرية ١٩٢٥ ميلادية

معركة علمية حول ترجمة معانى

القرآن الكريم

بقلم: د. محمد رجب البيومي



بحث في ترجمة القرآن الكريم وأحكامها

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الأكبر الشيخ

محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر



كتاب

حدث الأحداث في الإسلام

الإقدام على ترجمة القرآن

بقلم

السيد الإمام الشيخ محمد سليمان

نائب المحكمة العليا الشرعية

لم يثر في مصر جدال حول جواز ترجمة القرآن أو ترجمة معانيه قبل إبريل سنة ١٩٢٥، حيث فوجىء العالم الإسلامي بترجمة للقرآن كتبها مولانا محمد على الهندي، وهو اسم مشترك بينه وبين الزعيم الإسلامي الكبير مولانا محمد على الهندي شقيق مولانا شوكت الهندي من كبار زعماء الإسلام في الهند، ومصدر الفزع من هذه الترجمة أن من كتبها مسلم يعمل على نشر الإسلام في أمريكا وأنجلترا، واستراليا، وله أتباع يقدمون الترجمة على أنها لا تختلف عن القرآن الكريم، فكثر الخوض في هذه المسألة، وكان أول من واجهها برأيه الصريح هو الأستاذ الكبير الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر ووالد الأستاذين أحمد ومحمود شاكر، فكتب أربعة بحوث مسلسلة في جريدة المقطم ابتداء من ١٠ أبريل سنة ١٩٢٥ يعلن فيها أن القرآن لا يترجم إذ لا يوجد من يقدر على الإتيان بإعجازه فيما يترجم، وإن من الجائز أن يترجم تفسير القرآن فقط على أن يعلن صراحة أنه ترجمة لمعاني القرآن لا للألفاظ نفسها، وقد قال فيما قال بالمقالة الرابعة المنشورة بالمقطم الصادر في ٣٠ مايو ١٩٢٤.

«وكذلك أجمع فقهاء الإسلام وأئمة الدين المجتهدون على جواز تفسير القرآن باللغة العربية أو بأية لغة أخرى من اللغات الأعجمية. لا أعلم أحداً فى علماء الإسلام حرم على الناس أن يترجموا إلى غير العربية تفسير الطبرى أو الكشاف.. ثم قال فلا تخلطوا أيها القوم، فالترجمة شيء والتفسير شيء آخر، الترجمة تحل محل الأصل من كل وجه، ولا كذلك التفسير».

وبهذا الحسم الصريح، منع الشيخ الكبير ترجمة النص، وأباح ترجمة تفسيره أى ترجمة معانيه، ثم جمعت مقالات الشيخ شاكر فى كتيب خاص، كان موضع قبول العلماء.

رحلة علوية باشا

وبعد سبع سنوات قام الأستاذ الكبير محمد على علوية باشا برحلة إلى الشرق الأقصى فرأى قوما من اليابان ينظرون فى الأديان ليختاروا أيها أقرب إلى نفوسهم، ولم يجدوا عن القرآن إلا ترجمات كتبها المستشرقون والمبشرون صدرت عن جهل وغرض معا، فكان من أمانيه أن تقوم مصر بترجمة دقيقة لمعانى القرآن تحل محل الترجمات المشبوهة، وأعلن ذلك فى الصحف ثم تولى وزارة المعارف فكان أول عمل قام به أن طلب إلى مجلس الوزراء العمل على إصدار ترجمة معانى القرآن ترجمة رسمية وفق ترتيب الآيات والسور فى المصحف الشريف، وبأسلوب موجز واضح، لتكون الترجمة المصرية وثيقة مبينة معانى الكتاب المبين دون لبس، ويكون الغرض منها نشر هداية الإسلام فى الأمم التى لا تتكلم العربية، والقضاء على الأثر السيىء الذى تركته الترجمات المخطئة.

وقد سارع رئيس الوزراء على ماهر باشا بالاتصال بالأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى، فجمع هيئة كبار العلماء فأفتوا بجواز الترجمة للمعانى، وأقر مجلس الوزراء الأمر.

وما كادت الصحف تعلن هذا النبأ، حتى بادر بعض الكاتبين من قضاة المحاكم الشرعية بمعارضة المشروع، وعده حدثاً خطيرا من كبار الأحداث المزعجة فى الإسلام، وتوالت جرائد كوكب الشرق، والمقطم، والجهاد، ومجلة الفتح تفيض بمقالات صاخبة خرجت عن المجادلة بالتى هى أحسن، إلى ما لا يليق بكرامة البحث والباحثين، وكتب بعضهم العرائض الموقع عليها ببصمات من لا يدرى شيئاً لترفع إلى جلالة الملك، وقد تحمس الأستاذ محمد سليمان نائب المحكمة العليا الشرعية فى مصر، فكتب عدة مقالات هجومية ذات نبرة حادة مزعجة، فى مهاجمة الأزهر ومشيخته، وكان من بينها ما نشره فى جريدة كوكب الشرق الصادرة فى ١٩٣٦/٥/٢٢، تحت عنوان (أمانة القرآن فى عنق البرلمان، خطاب موجه إلى أعضاء مجلس النواب والشيوخ) وقد ملأه بعبارة «يا ممثلى



علي علوبة باشا



محمد مصطفى المراغي



محمود شلتوت

البلاد» زاعماً أن القرآن العربى السماوى سيصبح قرآنا انجليزياً وأن القرآن لم يترجم فى عهد النبى والصحابة فكيف يترجم اليوم، وأنه يتحدى من يقول بأن مذهباً فى الإسلام يبيح الترجمة.

وإذا كان الإمام المراغى صاحب الرأى فى ضرورة الترجمة، وله مناوئوه من زملائه الذين كانوا معه فى محاكم القضاء الشرعى، فقد تركت هذه الزمالة فى نفوسهم ما يشبه الحسد لرجل كان قاضياً مثلهم ثم أصبح شيخ الإسلام فى مصر، وله جهارة علمية ليست لأحدهم! وإلا فما الداعى، إلى استعداء الملك والبرلمان ورجل الشارع، وتأليف بعض الطوائف للذهاب إلى القصر الملكى! .

بحث الإمام المراغي

فى هذه الفتنة العمياء رأى الأستاذ المراغى أن يظهر بحثاً كان قد نشره منذ أعوام عن ضرورة ترجمة المعانى، نشره قبل أن يتولى مشيخة الأزهر للمرة الثانية بعامين، وقبل أن يسافر وزير المعارف محمد على علوبة باشا إلى اليابان، فاقترح ما هداه الله إليه من ترجمة المعانى ! والبحث دقيق يتجلى فيه فكر العلامة الأصولى الفقيه، ومحاولة الإلمام بعناصره فى هذا المجال مما لا يستطاع، ولكنى أشير إلى أهم نقاطه فأقول:

بدأ الإمام بحثه مشيرا إلى نص للإمام الشاطبى يتحدث عن لغة العرب وحقيقتها ومجازها، وما اختص به اللسان العربى من الإيجاز والإطناب، والذكر والحذف ثم انتهى إلى أن أهل الإسلام أجمعوا على جواز تفسير القرآن للعامة، وهذا إجماع منهم على جواز ترجمته كما يريد الشاطبى أن يقول إذا كان القرآن

يفسر للعامة بألفاظ تدل على المعانى، فترجمة هذه المعانى جائزة لأنها من بابها ولا تخرج عنها.

ثم إن القرآن إذا كان معجزا، فإعجازه لا يمنع من ترجمة معانيه، وللقرآن وجهتان، وجهة مقصودة، وهى معانيه التى تشتمل على الأحكام والشرائع والآداب والقصص، ووجهة أخرى تدل على صدق النبوة وهى الإعجاز وعدم إمكان نقل الإعجاز لا يستلزم عدم إمكان نقل المعنى نفسه، وما دام المعنى موجوداً فالترجمة لاتحدث نقصاً فى الدليل ولا هدما، وقد قال الشاطبى: ليس المقصود من القرآن إلا الهداية وأحكام الدنيا والآخرة. وأن السلف لم يخض فى القرآن على هذا النحو الذى فعلوه (من إيضاح ألوان الإعجاز البلاغى) فإذا فاتت معانى الإعجاز اللغة المنقول إليه فهى باقية فى النص العربى ولن تضيع.

وهب أن التراجم قد اختلفت، فهذا الاختلاف لا ينسحب على القرآن لأنه باق، وسيكون الحاكم عند كل اختلاف وهو النص الذى تكفل الله بحفظه، ونحن نؤكد أنه يجب على كل مسلم يعرف العربية، ألا يحيد عنها إلى قراءة النص الأعجمى، ولكن من لنا بأن نعرب الأمم الأعجمية الإسلامية لتنال هذه اللذة، فمن الخير أن نيسر لهم الحصول على ما يمكن الحصول عليه من معانى القرآن إذا فاتهم ما يتضمنه النص العربى من إعجاز.

هذه مقررات أكّدها الإمام المراغى بدءاً ليقف بها القارىء على أرض صلبة، ثم انتقل إلى نصوص الفقهاء التى تجيز الصلاة بالترجمة لمن لا يعرف العربية، فنقل عن السرخسى وقاضى خان والزيلعى ما رووه فى مذهب أبى حنيفة، وأفاض فى النصوص إفاضة شافية يتعذر الإلمام بها، وهى مجال لدراسة فقهية يحسن أن يقوم بها باحث متخصص، حيث استغرقت صفحات حافلة بالنصوص لأمثال النسفى، والكمال بن الهمام والصدر الشهيد وغيرهم مع إفاضة شافية فى الفرق ما بين ما يسمى ترجمة وما يسمى قرآنا، وانتهى إلى قوله:

«فكل مسلم عاجز عن أداء القرآن بالعربية، وعن النطق بالعربية، وعن الفهم بالعربية، يستطيع أن يقرأ ترجمة القرآن للعظة والهداية والتدبر ويصلى بها وجوبا، إن لم يعرف شيئاً من النظم العربى»، قائلاً فى ختام بحثه «وسيجد المخلصون فى هذه الترجمة أكبر خدمة لدين الله الذى ارتضاه، وخير معونة تسدى للراغبين فى تفهم حقائق هذا الوحى السماوى والله متم نوره».

حدث الأحداث

لقد كان على الذين انبروا لمعارضة الإمام المراغى أن يقفوا عند النصوص التى سردها، وقفة التأمل، ولكنهم اندفعوا فى خطابيات مضحكة، وأقول مضحكة لأن الأستاذ محمد سليمان نائب المحكمة

العليا الشرعية بمصر قد أبرق وأرعد ثم جمع ما كتبه بالجرائد في كتاب جعل عنوانه (حدث الأحداث في الإسلام، الإقدام على ترجمة القرآن) بمعنى أن ما ووجه به الإسلام منذ نشأته إلى الآن من يوم حروب الردة وسقوط الخلافات الإسلامية، وهجوم التتار والصليبيين وضياع الأندلس وفلسطين! كل تلك الأهوال كانت أحداثا دون ترجمة معاني القرآن لأنها وحدها حدث الأحداث!! وهذا التصور أقل ما يدل عليه أنه اندفاع في الجموح العاطفي إلى مدى لا يعقل، وقد قام من أفاضل الباحثين من دحضوا مزاعم المعترضين بمنطق فصل، ومنهم الأساتذة الكبار محمد عاشور الصدفي، وعبد الرحمن الجزيري وعبد المجيد سليم ومحمود شلتوت ومحمد فريد وجدي، ولو جمع ما كتبوه - وبعضه جمع فعلا في كتب مستقلة - لكان ثروة فقهية من ناحية، ووثيقة تاريخية من ناحية أخرى، وإذا كان لابد من الاختيار فسأكتفي بشذور مما قاله الأستاذ محمود شلتوت والأستاذ محمد فريد وجدي لأنهما عمدا إلى اللباب الدقيق مما تطاول به المعترضون فنسفاه نسفا، رحمهما الله .

بدأ الأستاذ محمود شلتوت بحثه الصادر بمجلة الأزهر (صفر سنة ١٣٥٥ هـ) تحت عنوان (ترجمة القرآن ونصوص العلماء فيها) بدأه بضرورة وضع ترجمة لمعاني الكتاب، وإذاعتها على أوسع نطاق، وتحدث عن معنى الترجمة وأنواعها، مقرراً أن الترجمة إن لم تحتفظ بالإعجاز البلاغي المعجز فإنها تحتفظ بجهات الإعجاز الأخرى، وهي جهات يجب ألا تحرم منها الإنسانية جمعاء، ثم انتقل إلى مثل ما ذكره الإمام المراغي عن الشاطبي في بيان الدلالتين الخاصتين بالعربية، واستند إلى أقوال صريحة لأئمة الدين من أمثال ابن حجر والزمخشري ومحمود رشيد رضا ومحمد بخيت المطيعي ومحمد حسنين العدوي، وأفاض في نقل ما يؤيده من كتب التراث ذات الوزن الثقيل تأييدا لا لبس فيه، ثم وفقه الله إلى تفنيد ما أثاره المعترضون في منطق موجز، وهو على إيجازه مقنع رادع، وفيما نقله ما لا يستحق الرد لوضوح تهافته، ولكنه لم يغفله لأن القراء قد وعوه، وفيهم من قد يتأثر به، وإليك شذوراً مما قال، وأكثره موجه إلى الأستاذ محمد سليمان بطل المعركة الأول:

١ - يقولون إن القرآن معجز وليس في قدرة البشر أن يترجموا إعجازه، ونحن نقول ذلك ولانزعم أن أحدا يستطيع نقل الإعجاز.

٢ - يقولون لو أراد الله نقله إلى اللغات التي يراد ترجمة القرآن إليها، لأنزله بتلك اللغات، ولكنه لم يفعل وأنزله بلسان عربي، ونحن نقول أن هذا النوع من الحجاج شبيه بما قال المشركون «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء».

٣ – يقولون إن أصحاب اللغات اللاتى يراد بها ترجمة القرآن إليهم موجودون من قبل أن ينزل القرآن فماذا جد منهم حتى وجب علينا ترجمة القرآن، ونحن نقول لقد جد منهم أنهم أطلقوا لعقولهم عنان البحث فى الأديان وأخذوا يترجمون القرآن إلى لغاتهم حسب قدرتهم فوقعوا فى أخطاء يجب على المؤمنين تلاشيها، وقد أرهقتهم الحياة المادية فذهبوا يتلمسون الخلاص منها، فوجب أن نقدم لهم ما يعينهم على الاهتداء.

٤ – يقولون إن ترجمة القرآن تسليم بآخر حصن من حصون العزة الإسلامية، وإقرار بالتخلى عن مكانة هذا الدين إلى أصحاب اللغات الأجنبية، ونحن نقول: نستحلفهم بالله، أهم جادون أم هازلون؟

أنا لا أشك أنهم فى هذا القول ملبسون، وأنهم يستردون الحق بثوب مهلهل وهم يعلمون.

٥ – يقولون إن القرآن موجود من وقت الرسالة، ويقرؤه المتعربون من أهل الكتاب كما نقرؤه، ولم يؤمنوا به، فما الداعى لترجمته؟ ونحن نقول؟ إذا أخطأ فريق متقدم، فهل نحكم على فريق متأخر بأنه سيكون مثل سابقه، ولابد أن يخطىء!

هذا بعض ما اهتم الأستاذ محمود شلتوت بالرد عليه، أما الأستاذ محمد فريد وجدى فقد كتب مؤلفاً مستقلا فى رد مزاعم المعترضين وضعه تحت عنوان (الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية)، وقد ناقش فى صفحات كتابه ما تورط فيه القوم مناقشة مهذبة عالية، ومن أحسن ما كتبه ما جاء تحت عنوان (من أين يأتى المعارضون بأدلتهم) حيث أشار إلى مغمز علمى لدى قوم يتصيدون الآراء التى توافق مشربهم، ويتركون ما يصدمها من الحقائق العلمية، فيخيل للقارىء أنهم قدموا كل شىء، وأن الحجة البالغة لديهم وحدهم، وهذا الاتجاه للأسف شائع ذائع لدى فريق من أدعياء البحث، إذ يتصيدون ما يروقهم وقد ستروا عن القارىء وجه الحقيقة، حين لم يكشفوا الستار عن كل ما قيل، يقول الأستاذ محمد فريد وجدى:

«فترى أصحابنا المعارضين يعمدون إلى جمع الآراء المتعارضة، فى صعيد واحد، ليظن كل من يلقى بنظرة عليها، أنهم يسوقون الفقه كله، بين أيديهم إيهاما للعامة ومن فى حكمهم أن المسلمين الأوائل كانوا يحرمون ترجمة القرآن تحريما باتاً، وأن القائلين بوجوب ترجمته من المعاصرين مبتدعون ليصبوا هدفهم من إثارة الدهماء على المصلحين، شأن إخوانهم المثبطين فى جميع أدوار النهضات الأدبية والعلمية»، ثم بلغ مقطع الرأى حين قال:

«ونحن لوقاية الناس من خطر هذا التلبيس الشنيع، نفتطر هؤلاء المثبطين إلى


محمد رشيد رضا


محمد فريد وجدي

حصر بحوثهم في مجالات محددة بطرح هذه الأسئلة عليهم وهي:

(١) هل قال أبو حنيفة بجواز ترجمة القرآن والصلاة به مترجما للعاجز عن العربية أو لا؟ وهل نصت على ذلك كتب الأحناف قديما وحديثا أو لا. (٢) وهل على مسلم من بأس أن يتمذهب بمذهب أبي حنيفة الإمام الأعظم ويعتبر مسلما سنياً أم لا ؟ (٣) وهل يعتبر ابن حجر شارح البخاري وابن بطال والشاطبي صاحب الموافقات والمقدسي والإمامان محمد بن الحسن وأبو يوسف صاحبا أبي حنيفة وجميع من استشهدنا بأقوالهم في جواز ترجمة القرآن مسلمين سنيين أم لا؟» وهي أسئلة لا جواب عليها لديهم إلا بالسكوت » هذه سطور تشير إلى معركة علمية استغرقت كتبا مستقلة، وعشرات من الصحف الذائعة في مصر، بحيث كانت شغل القراء على مدى نصف عام أو يزيد، ثم انجلى الحق الآن عن اتفاق شبه إجماعي على جواز الترجمة للمعاني القرآنية، بل على وجوبها لدى قوم يرون أن يشرق نور الله على الكوكب الأرضي مشرقه ومغربه، وأقول شبه إجماعي إذ لانزال نرى من أدعياء البحث من يستهويه كل الاستهواء أن يبحث عن الرأي الضعيف ليخالف به الجمهور فيحسب من المجددين، وهو ادعاء كاذب يذكرنا بقول القائل

وكل يدعي صلة بليلى... وليلى لا تقر له بذاكا! .

ماذا نترجم؟

بقلم : حسين أحمد أمين

سأقتصر هنا على التصدى للسؤال الذى كلفتنى مجلة «الهلال» بالإجابة عنه : «ماذا نترجم ؟» ، دون التعرض لقضايا كان بودى أن أتحدث تفصيلا عنها ، مثل : الأهمية الحضارية للترجمة - ضرورة أن تنهض بالمشروع الضخم للترجمة إلى العربية ، منظمة ضخمة على مستوى العالم العربى كله ، كالمشروع القومى للترجمة الذى يتبناه المجلس الأعلى للثقافة فى مصر ، أو المنظمة العربية للترجمة فى بيروت ، (وهى التى ستشرع قريبا فى النهوض بمهامها بعد نحو عامين من تبنى الفكرة والإعداد للتنفيذ) ، أو المجمع التونسى للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) ، أو الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة الألف كتاب ثم سلسلة الألف الثانية) .. إلى آخره .



هوميروس



الجبرتى



فرويد

ضرورة التعاون مع المجامع اللغوية فى مختلف الأقطار العربية ، للاستنارة بتوصياتها بشأن توحيد المصطلحات المترجمة .. شروط الترجمة المتميزة ، وأهمية وكيفية تربية جيل من المترجمين الحاذقين ، وضرورة توفير المكافآت المجزية لهم عن عملهم ، والتزامهم بأن يبدو الكتاب المترجم وكأنما قد ألف أصلا باللغة العربية .. أهمية توفير المراجعين والمعاجم الجيدة للغات شتى .. ضرورة التوفيق بين التوسع فى حركة الترجمة وبين الحاجة إلى تشجيع المؤلفين والمبدعين من العرب على مواصلة إنتاجهم فى مختلف فروع المعرفة ، إلى غير ذلك من القضايا المتصلة بنشاط الترجمة .

الاهتمام بالمعارف العلمية

أما فيما يتعلق بسؤال «ماذا نترجم؟» ، فإن الشق الأول من الإجابة عليه لابد من أن يكون خاصا بحالة السوق واحتياجاتها . وأعنى بالسوق هنا بطبيعة الحال مجتمعنا العربى فى ظل الظروف الدولية التى تسود زماننا هذا ، أو تلك المتوقع ظهورها فى المستقبل المرئى .. هناك على سبيل المثال عولمة قد يرى الكثيرون من محبذيها ومعارضيها أنها تطور حتمى لا سبيل إلى الحيلولة دونه ، ولا مفر من أن يحاول العرب من الآن فهمه ومسايرته .. وثمة فى جميع أنحاء العالم اهتمام متزايد بالمعارف العلمية على حساب الآداب والعلوم الإنسانية .. وثمة تسارع مطرد فى نمو تلك المعارف لا نزال فى عالمنا العربى نلهث وراء تحصيل ما قد مضى على سابقاتها زمن طويل .. وثمة خشية من جانب الكثيرين من العرب على تراثهم وتقاليدهم وثقافتهم من جراء تزايد الإنفتاح على الحضارات الأخرى ، وهو ما قد ينجم عن التوسع فى

الترجمة .. وثمة قيود دينية وأخلاقية واجتماعية وسياسية لا نزال نرسف فى أغلالها .. وثمة فى كثير من الأقطار العربية ضائقة اقتصادية تجعل من الكتب - أو حتى الصحف - سلعا كمالية لابد من التضحية بها فى سبيل إشباع الاحتياجات الأساسية .. إلى آخره .

فأما عن المخاوف والاعتراضات والتحفظات فلا شأن لى بها وأنا بمعرض الإجابة عن سؤال «ماذا نترجم؟» ، وهو سؤال يفترض الإيمان المطلق بالأهمية الحضارية للترجمة ، وبالحاجة الماسة لدى مجتمعنا العربى إلى التوسع فيها . بيد أن هناك من احتياجات السوق وظروفها مما أشرت لتوّى إلى بعضها ، وما لم أشر إليه ، وما سيؤثر حتما فى تكييف الإجابة.

أشير أولا إلى حقيقة واقعة يلمسها ويعانى منها المثقفون اليوم ، وسيعانون منها أكثر بمرور الوقت وبازدياد تفاوت الدخول بين الأقطار الغنية والأقطار الفقيرة ، وأعنى بها الارتفاع المتواصل فى أثمان الكتب (والصحف) الأجنبية مما يباع فى بلادنا، وهو ارتفاع لم تعد حتى لميسورى الحال من المثقفين من أمثالى طاقة به .. هذا كتاب أصدرته جامعة كمبريدج فى مجلدين ألمحه على رف من رفوف مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ويهمنى جدا قراءته إذ يتناول موضوعه تاريخ مصر منذ الفتح العربى إلى يومنا هذا ، كل مجلد فى نحو خمسمائة صفحة . أسأل الموظف بالمكتبة عن ثمنه فإذا هو بعد التخفيض خمسمائة وثمانون جنيها ، أى ما يقل قليلا عن قيمة المعاش الشهرى الذى أتقاضاه من وزارة الخارجية المصرية بعد خمسة وثلاثين عاما من العمل فى السلك الدبلوماسى .. وهذه صحيفة «الهيرالد تريبيون» اليومية التى لا أجد فى الصحف المصرية الهزيلة عوضا عن قراءتها لمتابعة ما يجرى فى العالم حول مصر - بل وفى مصر نفسها - تباع فى القاهرة بخمسة جنيهات ونصف، فيستهلك ما سأدفعه شهريا فيها ، إن صممت على شرائها، ربع ذلك المعاش .. مجرد مثال رأيت أن أسوقه لبيان تزايد عجز الراغبين منا فى الاطلاع على ثمرات المطابع الأجنبية عن متابعة ما يدور فى الساحات الفكرية خارج العالم العربى ، فإذا بالفجوة بين ثقافتهم وثقافتنا تزداد اتساعا بمضى الوقت ، وإذا نحن فى واد وهم فى واد، رغم كل ما يقال ويكتب يوميا عن العولمة ، وضرورة التواصل والتلاقح والتفاعل بين الحضارات .

هنا تبرز أهمية توفير الترجمة العربية لأهم ما يصدر من كتب فى

العالم الخارجى ، وفي مختلف ميادين المعرفة ، تباع فى أقطارنا بأسعار أرخص كثيرا مما تباع به فى الخارج ، فتهيىء لنا فرصة الاطلاع عليها .. كذلك تبرز أهمية إصدار مجلات عربية تعنى بتقديم عروض شافية وافية قدر الإمكان لأفضل ما تخرجه المطابع الأجنبية من كتب ، أسبوع بعد أسبوع ، أو شهر بعد شهر ، بأقلام متخصصين فى مختلف الميادين ، توفر لهم إدارة تلك المجلات نسخا من تلك الكتب بلغاتها الأصلية .. وقد كان أملى وقت الإعلان عندنا فى مصر عن صدور مجلة «وجهات نظر» أن يكون ذلك هو الهدف من إصدارها . غير أنها - للأسف - بعد الالتزام به فى أعدادها الأولى ، نراها تتحول شيئا فشيئا عنه ، حتى باتت موضوعاتها اليوم وما من فارق كبير يميزها عن موضوعات سائر المجلات الثقافية .

ستكون هذه إذن إحدى المهام الرئيسية لأية منظمة عربية ضخمة للترجمة : وهى ضمان تجنب أى انقطاع بين الثمرات المهمة للفكر فى العالم الخارجى فى شتى مجالات المعرفة وبين الراغبين من مثقفينا فى الإحاطة بهذه الثمرات والإفادة منها .. قد يضيف البعض هنا أننا فى حاجة أيضا إلى ترجمة بعض الدوريات العلمية المتخصصة التى تعرض لأحدث البحوث والاكتشافات فى مجالاتها حتى يظل العاملون العرب فى تلك المجالات مسايرين للتقدم العلمى . غير أن البعض الآخر قد يعترض بحجة إلمام معظم هؤلاء بلغات أجنبية تمكنهم من الاطلاع على الأصل ، وكذا بحجة القصور الكبير الراهن فى ترجمة المصطلحات العلمية إلى العربية ، وعدم اتفاق العرب بوجه عام على مصطلحات موحدة يفهمها الجميع .

●●●

كانت دائرة المعارف البريطانية قد أخرجت عام ١٩٥٢ مجموعة من أربعة وخمسين مجلدا تحت عنوان «أمهات الكتب فى العالم الغربى» ، من هوميروس إلى فرويد . وقد ورد فى مقدمة المجموعة أن الناشرين كانوا يودون لو أنهم لم يقتصروا على الغرب فتكون المجموعة أكبر وأشمل . غير أنهم رأوا فى النهاية أن يتركوا لأبناء كل حضارة ذات تراث من المؤلفات القيمة مهمة انتقاء تلك المؤلفات وإصدارها فى مجموعة خاصة بها ، ثم ضم كل المجموعات فيما بعد فى مجموعة واحدة عنوانها «أمهات الكتب فى العالم» .

واقتراحى هنا هو أن تقوم المنظمة العربية للترجمة - أيا كانت - بترجمة المجلدات الأربع والخمسين من أمهات الكتب الغربية إلى العربية ، وياحبذا لو

تبع ذلك - أو صاحبه - تشكيل لجنة أخرى من كبار المتخصصين بيننا فى التراث العربى لانتقاء أهم مائة كتاب مثلا من بين كتبه (من ابن المقفع إلى الجبرتى)، وتشكيل لجنة أخرى من كبار المترجمين لترجمتها إلى الإنجليزية ، (أهم لغات العالم فى الزمن الراهن ولأمد طويل بعده) ، كخطوة فى سبيل تحقيق الهدف الذى تحدث عنه مقدمة ناشرى «أمهات الكتب فى العالم الغربى» . ولا بأس أيضا من أن تتبع ذلك ترجمة مجموعة منتقاة من خيرة ما أنتجته القريحة العربية فى العصر الحديث مما قد يهم العالم خارج الدول العربية الاطلاع عليه ، والاستفادة منه ، أو الاستمتاع به .

●●●

سيكون على المنظمة أن تخرج إنتاجها فى إطار سلاسل متواكبة . ومن بين سلاسل الكتب التى أقترح ترجمة العديد من مجلداتها (كل مجلد يقع فى نحو مائة وعشرين صفحة) سلسلة الكتيبات الفرنسية الشهيرة الرائعة بعنوان "Que Séis-jes?" (ماذا تعرف؟) فى الفروع التالية من المعرفة :

الفلسفة - الأديان - الأساطير - علم النفس - التاريخ - الجغرافيا - الفنون الجميلة - الأدب - التربية - القضايا الاجتماعية - علم الاجتماع - الاقتصاد - العلوم السياسية - العلوم التطبيقية - العلوم البحتة - الرياضة البدنية والألعاب.

وهى سلسلة يمكن أن يجد فيها بغيته القارىء العربى الراغب فى الإلمام السهل السريع بموضوعات خارج نطاق تخصصه .

كذلك أقترح تخصيص سلسلة لأهم كتب المستشرقين والمتخصصين الأجانب فى مختلف أوجه الحضارة الإسلامية .. صحيح أن البعض عندنا اتهم عددا منهم بالإغراض وفساد النية والرغبة المتعمدة فى الإساءة إلى الإسلام (وهو ما ينطبق على أمثال لامانس وميوير وبرنارد لويس)، غير أن أفضال البعض الآخر على الدراسات الإسلامية لا ينكرها إلا متعصب جاحد ، خاصة فيما يتصل بالنظرة العلمية الموضوعية النقدية ، والمنهاجية التاريخية ، وهو ما يميز مؤلفات أمثال : تور أندريه - كولسون - نورمان دانييل - هملتون جيب - جولد زيهر - يوسف فان إيس - لين بول - نولدكه - جوزيف شاخت - كانتون سميث - سورديل - فلهاوزن - مونتجومرى وات.

قد ترى المنظمة أيضا تخصيص سلسلة أخرى لأهم مؤلفات الحائزين على جائزة نوبيل ، لا فى مجال الأدب

فحسب وإنما أيضا في مجالات الاقتصاد ، والفيزياء ، والكيمياء ، والطب .. صحيح أن جائزة الأدب لا تمنح للكاتب عن كتاب معين بالذات وإنما عن الروح والمناقب التي تميز مجموع أعماله ، غير أن إعلان الجائزة غالبا ما يشير إلى مثال من بين كتبه تتوافر فيه تلك المناقب . هذه الأمثلة هي ما يمكن للمنظمة أن تشرع في ترجمتها في إطار تلك السلسلة ، مع عدم التوسع في ترجمة الشعر الذي يفقد بالترجمة أكثر من نصف قيمته ، مالم يقم بها شاعر كبير لا يقل قدرة كثيرا عن قدر الشاعر المؤلف .

●●●

عمل آخر بالغ الأهمية لابد من الاضطلاع للمرة الرابعة بترجمته ، وأعني به «دائرة المعارف الإسلامية» التي أعدها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين في العالم، وأشرفت مطبعة بريل في مدينة لايدن بهولندا على الفراغ من إكمال طبعتها الثانية المنقحة المعدلة . فقد تولت عام ١٩٣٣ لجنة مؤلفة من إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبدالحميد يونس ترجمة الطبعة القديمة من هذه الموسوعة ، غير أن عملهم توقف عند حرف اللام . ثم عادت «دار الشعب» في القاهرة عام ١٩٦٩ فشرعت في إصدارها من جديد بعد إضافة المواد المتاحة وقتها من الطبعة الثانية وهي التي لم يكن العمل فيها قد قطع شوطا بعيدا . أما المحاولة الثالثة فقد نهضت بها الشارقة في دولة الإمارات منذ سنتين غير أنها جاءت قاصرة ناقصة ومليئة بالأخطاء، مع الإغفال المتعمد للعديد من المواد والفقرات.

ثمة اقتراحات عديدة أخرى لا يتسع المجال هنا لذكرها تفصيلا ، كترجمة كتب للأطفال والناشئة من مختلف الأعمار ، وترجمة موسوعة عالمية محترمة كدائرة المعارف البريطانية مع التوسع في المواد الإسلامية والعربية فيها ، وتخصيص سلسلة لأهم ما صدر من الكتب الأجنبية في تاريخ مختلف الأقطار العربية وحضاراتها القديمة وأوضاعها المعاصرة من اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية .. إلى آخره .

●●●

ما أريد التنويه به في الختام أمران :

الأول : أهمية تجنب عشوائية الترجمة، والالتزام منذ البداية بمخطط شامل كامل مدروس بعناية .

والثاني : ضرورة أن نراعي قدر الإمكان تجنب التركيز بصفة رئيسية على الترجمة من اللغتين الإنجليزية والفرنسية، حتى يتاح للمنظمة المضطلعة بالترجمة تقديم ثقافة عالمية حقا على النحو الذي كان الشاعر الألماني جوته أول الداعين إليه ، والموضحين لأهميته .

حركة الترجمة فى مصر

بقلم : د. ماهر شفيق فريد

فلأبدأ برسم الحدود التى ستتحرك فى إطارها هذه المقالة القصيرة، لأن الموضوع كبير. ومجال القول فيه ذو سعة، يمكن أن يستغرق مجلدا بل مجلدات: موضوعى هو حركة الترجمة الأدبية فى مصر من الانجليزية وإليها منذ الستينيات حتى يومنا هذا، مع بعض الدروس التى يمكن استخلاصها منها إذ نستشرف آفاق المستقبل.

من المعلوم أن حركة الترجمة فى مصر قد بدأت، على نحو منهجى، ببعثة رفاعة الطهطاوى الى باريس، ثم تدفقت بعدها موجات المترجمين وبلغت الترجمة الأدبية ذرا عالية على أيدى عدد من كبار الأدباء: طه حسين والعقاد والمازنى والزيات ومحمد السباعى ومحمد عوض وفريد أبو حديد ثم من تلوهم.

ولو أننا نظرنا إلى التغييرات والتحولات التى طرأت على حركة الترجمة منذ جيل طه حسين وأقرانه إلى يومنا هذا لوجدنا أن لها جانبها الإيجابى وجانبها السلبى.

فالجانب الإيجابى هو اتساع دائرة اهتماماتنا بحيث انفتحنا على كثير من آداب العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، فأصبحنا اليوم نترجم مثلا آداب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بينما كنا قديما نقتصر على آداب أوربا وأمريكا الشمالية، خاصة المكتوب منها



د . شكري عياد



د . جابر عصفور



د . سمير سرحان

بالانجليزية والفرنسية وكذلك «بدرجة أقل» الألمانية والإيطالية.

ولاشك أن إنشاء أقسام للغات الروسية والإسبانية واليابانية والصينية في كليات الجامعة وكلية الألسن قد كان له فضل كبير في تكوين كادرات من المترجمين على دراية بمختلف اللغات، هذا إلى جانب الترجمات عن اللغات الشرقية كالفارسية والتركية والأوردية والعبرية وغيرها.

ولكن الجانب السلبي هو أن التقدم الكمي لم يواكبه تقدم كيفي، بل لعل العكس هو الذي حدث. فمترجمو الجيل السابق مثل محمد بدران وإبراهيم زكي خورشيد وفؤاد اندراوس ومصطفى حبيب كانوا يجيدون الانجليزية والعربية بنفس الدرجة من الاتقان إلى جانب ثقافتهم العامة الواسعة ومقدرتهم الأدبية واطلاعهم المستمر ، بينما الكثير من مترجمي يومنا هذا لا يكادون يحسنون قواعد العربية أو أسرار اللغة الأجنبية التي ينقلون منها أو إليها.

وقد كانت سنوات الثورة - حتى نكسة ١٩٦٧ تقريبا - فترة نشاط واسع في حقل الترجمة تمثل في مشروع الألف كتاب الأول، وكتيبة المجلات الثقافية التي توقف أغلبها عن الصدور في عام ١٩٧٠: المجلة ، الكاتب، الفكر المعاصر، تراث الإنسانية، الشعر، القصة، المسرح، إلخ.. فضلا عن الترجمات الصادرة عن دور النشر الخاصة مثل مؤسسة فرانكلين ، ودار المعارف، ومكتبة الأنجلو المصرية، ومكتبة النهضة ، ودار الكرنك، وسلسلة روايات الهلال، إلخ..

لكن هذه الصحوة سرعان ما أعقبتها فترة خمول «كان عقد السبعينيات من أسوأ العهود التي عرفتها الثقافة المصرية»

وخفت صوت الترجمة فى مصر. وانتقلت مراكز الثقل إلى عواصم أخرى كبغداد ودمشق وبيروت وبلدان المغرب العربى، كان هذا الخفوت راجعا، فى تصورى، إلى عدة أسباب:

فهناك ضعف مستوى الخريجين فى اللغات الأجنبية، وهو ضعف يتزايد للأسف عاما بعد عام نتيجة لتدهور مستوى التعليم، وضخامة أعداد الطلبة فى الفصول واتجاه عدد كبير من المدرسين إلى الربح المادى عن طريق الدروس الخصوصية بدلا من أداء عملهم على الوجه الأمثل داخل الفصل.

ثم إن نظام مراجعة الترجمات نظام شكلى فى أغلب الأحيان ولا يتم كما ينبغى مع أن المسئولية الأخلاقية والعلمية للمراجع الذى يقبل أن يوضع اسمه على غلاف الكتاب، إلى جانب اسم المؤلف والمترجم، لا تقل عن مسئولية هذين الاثنين.

وحتى عهد قريب كنا مازلنا نحاسب المترجم على الكلمة بالقرش حسب عدد الكلمات سواء كان يترجم قصة بوليسية رخيصة أو أثراً فلسفيا لأفلاطون مما دفع المترجمين إلى إيثار السهولة وتجنب كل ما من شأنه أن ينطوى على جهد عقلى ووجدانى وتعبيرى.

وهناك الافتقار إلى تخطيط بعيد المدى لحاضر الترجمة ومستقبلها حتى نتجنب التكرار. فهناك أعمال ترجمت أربع أو خمس مرات ـ قصص موباسان أو تشيكوف مثلا ـ بينما هناك أعمال أخرى لا تقل أهمية لم يقترب منها أحد وكان القصور أوضح ما يكون فى الترجمة العلمية وترجمة العلوم الإنسانية إلى العربية، إن أغلب النصوص الكاملة لفلاسفة الإغريق وأعلام الفلسفة الوسيطة والحديثة وعلم الاجتماع وعلم نفس ما بعد فرويد لم تنقل بعد إلى العربية. كذلك هناك نقص ملحوظ فى ترجمة ما يكتب عن الفنون التشكيلية والأدائية والموسيقى وعلم الجمال. وبدون هذه الأطر الفكرية يغدو الأدب ـ وهو عماد ثقافتنا حتى الآن ـ مجرد حكايات مسلية خالية من أى مضمون فكرى ومن أى عمق فلسفى.

لكن هذا الوضع بدأ يتغير فى السنوات الأخيرة بفضل جهود الهيئة المصرية العامة للكتاب، وأكاديمية الفنون، والمشروع القومى للترجمة الذى يقوده الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة، وبعض دور النشر الخاصة كدار شرقيات، ولا يتسع المجال للحديث عن كل هذه الجهود ومن ثم اقتصر، كمثال على ما أنجزته أولاها ـ هيئة الكتاب.

ترجمات قديمة

لقد نشرت الهيئة ـ إلى جانب مشروع الألف كتاب الثانى ـ ترجمات ذات قيمة أدبية عالية مثل ترجمة د. محمد عنانى للأجزاء الأولى من قصيدة ملتون «الفردوس المفقود» وترجمته لعدد من مسرحيات شكسبير مع مقدمات ضافية. وترجمة د. نبيل راغب لقصيدة إليوت

«الأرض الخـــراب» تحت عنوان «أرض الضياع».

كذلك يحسب للهيئة - إلى جانب اضطلاعها بالعبء الأكبر في إصدار كتب مهرجان القراءة للجميع برعاية السيدة سوزان مبارك - أنها أصدرت طبعات جديدة من ترجمات قديمة لم تكن الأسواق طوال السنين الماضية مثل ترجمات الدكتور لويس عوض لثلاثية الأورستيا لاسخولوس. و«فن الشعر» لهوراس، و«برمثيوس طليقا» لشلي.

ومن الشعر الانجليزي المعاصر أصدرت الهيئة ترجمة بدر الديب لديوان الشاعر الانجليزي إيان هاملتن «العاصفة».

وإلى جانب قاموس المسرح أصدرت الهيئة في سلسلة المسرح العالمي ترجمات قيمة مثل مسرحية «البهلوانات» لتوم ستوبارد «ترجمة د. سمير سرحان» و«كوميديتان من عصر شكسبير» «ترجمة د. نهاد صليحة» و«أقنعة الملائكة» «ترجمة د. إبراهيم حمادة».

وفي سلسلة الألف كتاب الثانية ترجمت د. لطفية عاشور قصتين للكاتب البولندي المولد، الانجليزي اللغة جوزيف كونراد وهو من علامات الطريق في تاريخ الرواية الحديثة.

ولكن ربما كان أكبر إنجاز لهيئة الكتاب في عهد رئيس مجلس إدارتها الحالي الدكتور سمير سرحان هو إصدارها سلسلة الأدب العربي مترجما إلى اللغة الانجليزية وهي السلسلة التي يشرف عليها د. محمد عناني . وقد صدر منها حتى الآن قرابة ستين كتابا، وشارك فيها عدد من المترجمين ما بين مصري وعربي وبريطاني وأمريكي، وكان أغلب المترجمين المصريين من مدرسي وأساتذة الجامعات المتمكنين من اللغات.

ففي ميدان الرواية والقصة القصيرة أصدرت السلسلة ترجمات انجليزية لنجيب محفوظ ويوسف القعيد وصبري موسى وجمال الغيطاني ومحمد جلال وثروت أباظة وسلوى بكر ومحمود السعدني وفتحي الإبياري وطه وادي وعبدالعال الحمامصي وعبد الفتاح رزق وابراهيم أصلان ومحمد جبريل ومجيد طوبيا وعبدالحكيم قاسم وعبدالرحمن فهمي ومحمود تيمور ويوسف إدريس ويوسف الشاروني.

ومن الشعر دواوين لفاروق شوشة ومحمد الفيتوري ومحمد أبو سنة وسعاد الصباح.

ومن المسرح الشعري والنثري مسرحيات لأحمد شوقي وصلاح عبدالصبور وألفريد فرج ونجيب محفوظ وجمال عبدالمقصود وعلي سالم وفاروق جويدة ومحمد عناني وسمير سرحان ورأفت الدويري وعبدالرحمن الشرقاوي ونهاد جاد وعبدالسميع زين الدين ومحمد سلماوي.

ومن أدب السير والتراجم «هؤلاء الرجال من مصر »لمعي المطيعي ، ومن

الأدب الفكاهي. «مذكرات صائم» لأحمد بهجت.

ترجمة مختارات من النقد

ولكني أعتقد أنه قد يكون من الأجدر بالسلسلة أن تترك مؤقتا «كلاسيات» الأدب العربي التي توطدت مكانتها لتصدر ثلاثة مجلدات هي «القصة القصيرة» اليوم و«الشعر اليوم» و«مسرحيات الفصل الواحد اليوم» تدرج فيها أعمال لكتاب الفترة ١٩٦٠ ـ ٢٠٠٠ كما أن ثمة حاجة الى مجلد عنوانه «مختارات من النقد المصري الحديث» ينتظم نماذج لثلاثة أجيال: جيل طه حسين والعقاد وهيكل والمازني، ثم جيل مندور ولويس عوض والقط وشكري عياد والراعي وغنيمي هلال ورشاد رشدي وعز الدين اسماعيل، ثم جيل رجاء النقاش، وغالي شكري وصبري حافظ وفاروق عبدالقادر وجلال العشري. وهناك حاجة إلى مجلد عن أدب «الحساسية الجديدة» يقدم شرائح من أدب إدوار الخراط ويوسف الشاروني وبدر الديب واعتدال عثمان، مع نماذج مما ينشر في مجلات «الجراد» و«إيقاعات» و«الكتابة الأخرى» و«الكتابة السوداء» و«الفعل الشعري». فهذه المطبوعات، مهما اختلف المرء معها، ذات دلالة فكرية وفنية مهمة. إن شعراء مثل كريم عبدالسلام وشريف الشافعي وشريف رزق وجرجس شكري يكتبون شعرا حيا، بينما أمثال محمد التهامي ود. كمال اسماعيل وأحمد غراب يكتبون نظما ميتا.

هناك أيضا حاجة إلى ترجمة الشرائح الطليعية «لا التقليدية» من أدب المرأة المصرية اليوم. لا نريد ان نسمع شيئا عن سهير القلماوي أو بنت الشاطىء أو أمينة السعيد أو جاذبية صدقي أو صوفي عبدالله، أو حتى لطيفة الزيات «وهي أفضلهن جميعا فنيا» فهؤلاء جميعا قد قلن كل ما لديهن «وهو محدود الرؤية والقيمة منذ زمن طويل» وإنما نريد ان نسمع العالم الخارجي أصواتا جديدة تخفق بنبضات الحياة: علية سيف النصر، هالة البدري، هناء عطية، منار فتح الباب، ليلى الشربيني، إيمان مرسال، عزة بدر. نعمات البحيري، هالة لطفي، غادة الحلواني، غادة عبدالمنعم، سحر الموجي، نورا امين، مي التلمساني، ميرال الطحاوي، سحر سامي، فاطمة قنديل، أمل جمال، علية عبدالسلام، فضلا عن تلك الروائية رفيعة الموهبة والثقافة. د. رضوى عاشور.

قد يثار السؤال، بل هو قد أثير فعلا، هل يتم اختيار الأعمال الأدبية المصرية المترجمة إلى الانجليزية على نحو منظم أم على نحو عشوائي؟ والجواب كما أراه: منظم إلى حد ما، وعشوائي إلى حد ما. إن اختيار الأعمال التي تترجم إلى لغات اجنبية موضوعي جزئيا وذاتي جزئيا. أعني انه لا يختلف اثنان على ضرورة ترجمة يوسف إدريس مثلا، ولكن ماذا عن يوسف السباعي أو إحسان عبدالقدوس أو محمد عبدالحليم عبدالله؟ لقد ترجمت


عبد القادر المازنى


د . محمد عنانى


نهاد صليحة

للسباعى «بعناية منظمة التضامن الأفرو ـ آسيوى» مجموعة كاملة من القصص القصيرة إلى الانجليزية تحت عنوان «الاسكافى» وذلك حين كان يشغل بعض المناصب القيادية فى الدولة مما قد يوحى ـ صوابا أو خطأ – بأن اختياره للترجمة لم يكن لأسباب موضوعية خالصة.

وفى أى نشاط إنسانى لا نستطيع أن نستبعد العوامل غير الموضوعية مثل الشللية والذكاء الاجتماعى والاتصالات الشخصية والمصالح المتبادلة، وسيف المعز وذهبه، ولكن هذه الأمور كلها لا تكفى لكى تخسف بأديب عظيم الأرض أو لكى ترفع أديبا تافها إلى منزلة عالمية، فالقارىء الأجنبى لن يعنيه أن يكون السباعى وزيرا للثقافة أو كاتب أرشيف فى بدروم يعلوه التراب ويمتد على جدرانه نسيج العنكبوت. وإنما يهمه أمر واحد: هل قصصه جديرة بالقراءة؟ وأعتقد أن فيها قسما صغيرا يستحق القراءة ـ رواية «السقامات»، الثلث الأول من رواية «أرض النفاق» . مجموعة «بين أبو الريش وجنينة ناميش» مسرحية «أم رتيبة» ولكنى أعتقد فى الوقت ذاته انه كان يوجد من هو أجدر بالترجمة: الرائد محمود البدوى مثلا ، خاصة فى مجاميعه الباكرة. إنها مسألة أولويات بحيث ننتهى من نقل الأعمال المهمة حقا نستطيع أن نوفر ترف نقل السباعى وعبدالقدوس وأضرابهما الى اللغات الأجنبية.

ومادمنا بصدد الحديث عن ترجمة الأدب العربى إلى اللغة الانجليزية فإن الإنصاف يقتضى أن نذكر أن الهيئة العامة للكتاب قد شرعت فى ذلك منذ الستينيات ، فى ظل ولاية الشنيطى وصلاح عبدالصبور وعز الدين اسماعيل: لقد أصدرت مثلا «أحلام شهرزاد» لطه حسين، و«ابراهيم الكاتب» للمازنى

«وكلاهما من ترجمة د. مجدى وهبة» ومسرحيات لسعد الدين وهبه.

ترجمة الأدب العربي

وأهم هيئة تعنى بترجمة الأدب العربى إلى الانجليزية بعد هيئة الكتاب هى ولا ريب الجامعة الأمريكية بالقاهرة التى أصدرت ترجمات لأعمال نجيب محفوظ والشرقاوى وبهاء طاهر وإبراهيم عبدالمجيد وغيرهم . وهناك جهود أخرى لإدارة العلاقات الخارجية بوزارة الثقافة «وهى تصدر مجلة بالانجليزية «برزم» ودار زويل للنشر، ودار المعارف التى أصدرت مجلداً عن «القصة القصيرة اليوم» و«المسرح اليوم» بتحرير الأستاذ الجامعى الراحل د. محمود المنزلاوى.

كانت هذه صورة مجملة - أغفلت كثيرا من التفاصيل بالضرورة - لحركة الترجمة الأدبية فى مصر عبر أربعة عقود، أريد أن أنتهى منها إلى عدد من النتائج:

النتيجة الأولى هى أن الترجمة بمثابة توتر مستمر بين قطبين مختلفين: الظهور والاختباء أو- إذا كان لى أن أستعير كلمات الدكتور كمال أبو ديب فى سياق آخر - جدلية خفاء وتجل. فالمترجم يتنازعه عاملان: الرغبة فى حجب نفسه وراء النص الذى يتعامل معه بحيث يكون المؤلف وحده هو الذى يشغل مقدمة الصورة وربما وسطها وعمقها أيضا، والرغبة - على الجانب المقابل فى أن ينتج نصه الخاص الذى يسير موازيا للنص الأصلى . قد يقصر عنه فى مواضع وقد يساويه وقد «بمصادفة سعيدة» يتفوق عليه، المنهج الأول - كما قلت فى مؤتمر الترجمة الذى عقدته كلية الألسن فى شهر سبتمبر الماضى بدار الضيافة التابعة لجامعة عين شمس - ينظر إلى النص على أنه زوجة يدين لها المرء بواجب الوفاء والأمانة والأخلاص أما المنهج الثانى فينظر إليه على أنه عشيقة تسود علاقته بها معابثات الغواية والمراودة والشد والجذب والتقارب والتباعد.

من أمثلة المؤمنين بأن يختفى المترجم منكرا ذاته ومفسحا السبيل للمؤلف كثير من الأساتذة الجامعيين فى ترجماتهم : زكى نجيب محمود، غنيمى هلال، محمد فتحى الشنيطى ، نظمى لوقا، جابر عصفور، محمد عنانى، الخ.. ومن أمثلة المترجمين الذين يعيدون كتابة النص . وفقا لأهوائهم الخاصة وربما أيضا وفقا لأيديولوجياتهم ومعتقدات عصرهم: المنفلوطى ، وحافظ ابراهيم، ومطران، والزيات، ومحمد السباعى. وهناك . بطبيعة الحال، درجات لا حصر لها من الظلال بين هذين الموقفين. فمن المترجمين من يلتزم عموما بالأمانة للنص ثم تأخذه فجأة الرغبة فى التفرد والانفصال عن النص الذى يقيده ويلزمه، فيشطح ولو على مستوى جملة أو عبارة أو فقرة أو كلمة، وهناك ترجمات الفنانين المبدعين مثل يحيى حقى وصلاح عبدالصبور وعبدالمعطى حجازى وإدوار الخراط ويوسف الشارونى وشفيق مقار ونعيم

عطية . وهناك مدرسة الأمانة فى إطار صياغة عربية مبينة وهى مدرستى المفضلة. أعلام هذه المدرسة هم: محمد بدران، وابراهيم زكى خورشيد، وفؤاد اندراوس ومصطفى حبيب، وعبدالعزيز توفيق جاويد.

من الملاحظ ان أصحاب منهج الأمانة عادة من الأكاديميين أو المترجمين المحترفين - وأنا أستخدم كلمة الاحتراف هنا بأكثر معانيها احتراما. ممن لا يطاردهم شبح الابداع الفنى فى عملهم الخاص. أما مترجمو النوع الثانى فكثيرا ما يكونون أدباء: شعراء او قصاصين او كتابا مسرحيين او كتاب مقالة، وفى حالتهم كثيرا ما يكون جهد الترجمة بمثابة تفريغ لطاقاتهم الخلاقة الخاصة وافراجا عن افكار ومشاعر واتجاهات واحاسيس لم تجد لها متنفسا، لسبب ما فى عملهم الابداعى فى ترجمات محمد السباعى لأقاصيص موباسان او تشيكوف قد تجد الشخصية - وهى فرنسية او روسية تعيش فى فرنسا او روسيا إلقرن التاسع عشر - تورد أبياتا لابن الرومى او الشريف الرضى، ولا يبدو ان المترجم يجد فى ذلك غرابة أو شذوذا».

نتيجة ثانية انتهيت إليها من رصدى حركة الترجمة فى مختلف أطوارها وبكل تعدد مدارسها هى أن الترجمة فعل مسرحى أو ارتداء لمجموعة من الأقنعة يخلف بعضها بعضا، منها الضاحك ومنها الباكى ومنها ما هو بين بين. المترجم مؤد على مسرح نصه هو نص المؤلف، أو هو يلعب دور الممثل الذى يفسر الدور ويعطيه معنى بنبراته وحركاته وانفعالاته وقدرته على التوصيل. جمهور هذا المسرح هو الجمهور القارىء وريبرتوارد هو تراث الترجمات السابقة التى تراكمت عبر القرون. وناقده هو الناقد الذى يكتب عن الترجمة، أو المراجع الذى تعهد إليه إحدى الهيئات بمراجعة النص المترجم، أو كاتب التقرير، الذى يحدد ما إذا كانت الترجمة المقدمة صالحة للنشر أم لا.

على هذا المسرح تتعدد الأقنعة بتعدد عقول المترجمين وتركيبهم النفسى وأمزجهتم ومدى تمكنهم من اللغة الأم واللغة المنقول منها. من المترجمين من يؤمن بالجزالة ويرتد بنا فى ترجماته إلى أزهى عصور النثر والشعر العربى فى العصر العباسى، ومن أمثلة هؤلاء حافظ ابراهيم مترجم «البؤساء» لهوجو. ومنهم من يحرص على الجزالة ولكن مع قدر من المصطلح العصرى كالمازنى مترجم «ابن الطبيعة» للكاتب الروسى آرتز باتشيف ، وقد سرق منها بضع فقرات فى رائعته الخاصة «ابراهيم الكاتب» ، وكالعقاد الذى يترجم عنوان أقصوصة «ادجار الان بو The Cresk of A montilado إلى «باطية النبيذ الشريشى» مفترضا ان القارىء سيعرف ان الباطية هى الزق الذى تحفظ فيه الخمر، وان شريش اسم بلدة مشهورة بأبنيتها هناك ايضا قناع الذى يرمى الى تعريب النص مثلما يفعل

مطران في ترجماته لشكسبير وكورني. وهناك من يرتدي قناع لغة القرآن الكريم كالدكتور علي حافظ في ترجماته عن يونانية اسخولوس ديوربديز وكأنما يرمي الى تحويل مؤلفيه من الوثنية، وتعدد الالهة إلى الايمان والتوحيد. وهناك قناع الفنان الذي يبدع نصه الخاص ولكن في إطار الالتزام بالنص الأصلي ومن أمثلته شكري عياد في ترجماته لطاغور وتشيكوف وتورجنيف ودوستويفسكي وديهامل، أو ادوار الخراط في ترجماته لتولستوي وأنوي وموارفيا وغيرهم. وهناك قناع الشمول او الطموح الى تمثيل كافة المذاهب او المدارس الأدبية كلويس عوض الذي ترجم مختارات من النقد اليوناني القديم وقصيدة فن الشعر لهوراس نموذجا للفن الكلاسيكي، و «الوادي السعيد» (راسلاس) للدكتور صمويل جونسون نموذجا للعقلية الاوغسطية الانجليزية في القرن الثامن عشر «الكلاسيكية الجديدة» و «بروميثيوس طليقا» و«ادونيس» لشلي نموذجا للحساسية الرومانطيقية وصورة دوريان جراي» لأوسكار وايلد نموذجا للوثنية الجديدة او مذهب الفن للفن المتحرر من قيود الدين والمجتمع والقانون والاخلاق في اواخر القرن التاسع عشر. ورواية «استرز وترز» وقد فقدت ترجمتها منه للاسف. ومن ثم لم تر النور) للكاتب الايرلندي جورج مور نموذجا للنزعة الطبيعية التي انتقلت الى انجلترا وايرلندا بتأثير عميدها الفرنسي إميل زولا ومقتطفات من اليوت وجويس نموذجا للحداثية في ادب القرن العشرين.

وأخيرا اقول ان حركة الترجمة في مصر.. رغم كل ما يواجهها من معوقات سائرة على الدرب الصحيح، وأن ثمة عددا من المؤشرات الايجابية تومىء إلى أننا بسبيلنا الى سد الفجوات فيما نقلناه والى رفع القواعد من الترجمة باعتبارها علما وفنا في آن.

فهناك من كرسوا جل جهودهم للترجمة كطلعت الشايب المشرف على سلسلة «افاق الترجمة» الصادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة. وثمة اتجاه بين شعرائنا المبدعين (الى ممارسة فن الترجمة، عبدالمعطي حجازي «مدن الآخرين ونماذج من الشعر الفرنسي المعاصر)، محمد ابراهيم ابو سنة «الشعر الأرمني بالمشاركة». د. نصار عبدالله «اقاصيص برتراندرسل»

رفعت سلام «ماياكوفسكي، رتسوس» عبدالمقصود عبدالكريم «نصوص في علم النفس» محمد عيد ابراهيم «بورخيس» محمد هشام «اميلي وكنسن» بدر توفيق «شكسبير ، الخيام، توماس مان».

وثمة كوادر جديدة من المترجمين يخرج اغلبها من بين هيئات التدريس في الجامعات في كل عام ومن أمثلتها : د. رشيد العناني «مترجم محفوظ وألفرد فرج» ونهاد صليحة «مترجمة محفوظ وسعاد الصباح ومحمد جلال وفاروق جويدة وصلاح عبدالصبور» ود. جمال

عبدالناصر «مترجم محمد جبريل» ود. ملك هاشم «مترجمة محفوظ» ود. ايفين هاشم «مترجمة عبدالفتاح رزق» ود. مارى تريز عبدالمسيح «مترجمة القعيد» ود. هدى شكرى عياد «مترجمة صبرى موسى». ود.هدى الصده «مترجمة أصلان وسلوى بكر» ود. هالة البرلسى «مترجمة عبدالعال الحمامصى» ود.نادية الخولى «مترجمة فتحى الابيارى» . فضلا عن ترجمات منى الزيات لبعض أعمال جدها طه حسين.

تفاؤل

ومن الظواهر الداعية للتفاؤل ايضا أن أقسام اللغات فى كليات الآداب ومعهد الدراسات الافريقية وكلية الألسن لا تفتأ تخرج، فى كل عام، متخصصين فى اللغات المختلفة يثرون الحياة الثقافية بترجماتهم عن اللغات الأصلية دون الاستعانة بلغة وسيطة . ومن اهم الترجمات التى صدرت فى السنوات الاخيرة: ترجمات د. محمد حمدى ابراهيم لكافافيس والشعر اليونانى الحديث عن اليونانية الحديثة ترجمة د. مصطفى ماهر د. «بارسيفال» فاجنر عن الالمانية ترجمات مكارم الغمرى لبوشكين عن الروسية، وترجمة د. ابراهيم الدسوقى شتا لمثنوى جلال الدين رومى عن الفارسية. ترجمات ماهر البطوطى ود. محمود السيد ود. طلعت شاهين عن الاسبانية، وترجمات د. ابراهيم البحراوى عن العبرية . وهناك تلاميذ لهم فى طور التكوين العلمى حاليا ستظهر نتائج إعدادهم العلمى والثقافى فى السنوات القادمة.

ومن الإنصاف ان ننوه بالجهد الذى تقوم به جريدة أخبار الادب الاسبوعية تحت قيادة الروائى جمال الغيطانى من أجل تقديم آداب اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية إلى القارىء العربى ، فلا يكاد يخلو عدد منها من ترجمات عن الفارسية او التركية او الصينية او اليابانية او غير ذلك من اللغات .

ومع ذلك تظل هناك عشرات، بل مئات الأعمال الأدبية التى تنتظر النقل الى العربية أو النقل من العربية إلى اللغات الأجنبية . ان الطريق أمامنا مازال طويلا، ، طويلا. أه من وعثاء السفر ووحشة الطريق. ومن لنا برجال يجمعون بين العلم والهمة، والموهبة والقدرة كأولئك الذين شهدتهم الحياة الادبية المصرية فى العقود الاربعة الاولى من القرن العشرين ثم لفترة وجيزة - فى عقد الستينات وهل تجتمع اصدارات المشروع القومى للترجمة، والالف كتاب الثانى، وأكاديمية الفنون على بعث امجاد بيت الحكمة فى عصر المأمون.

مُنىً ان تكن حقا تكن اسعد المنى،
فقد عشنا بها زمنا رغدا.

مـــاذا نترجـــم ؟

المشروع القومي للترجمة

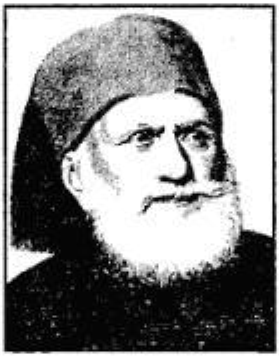
بقلم : د. عماد بدر الدين أبو غازى

منذ مطلع القرن التاسع عشر صاحبت كل محاولات التحديث فى مصر مشروعات طموحة للترجمة، كانت تهدف الى نقل أحدث ماصدر فى الغرب من انتاج فكرى، باعتبار أن الغرب أضحى مركزا لحضارة عصر الثورة الصناعية.

وقد ارتبط المشروع الأول للترجمة بمحاولة محمد على لبناء أسس الدولة الحديثة، وكان مشروعا تأسيسيا رائدا، ساهم فيه المبعوثون الذين أوفدهم محمد على الى أوربا لتلقى المعارف الحديثة، وحمل عبء التخطيط لهذا المشروع وارساء قواعده رائد الفكر المصرى الحديث رفاعة الطهطاوى، الذى أنشأ مدرسة الألسن لتكون أول مؤسسة تعليمية حديثة متخصصة فى اعداد المترجمين وتأهيلهم لنقل معارف الغرب الحديثة الى العربية، وسرعان ما انضم خريجو المدرسة (مدرسة الألسن) الى المبعوثين الأوائل فى القيام بمهام الترجمة.

لكن المشروع لم يقم على أكتاف المبعوثين وخريجي الألسن وغيرهم من مدارس محمد على العليا فحسب بل شارك فيه كذلك بعض موظفى الدولة ممن يجيدون اللغات الأجنبية خاصة التركية التى ترجمت عنها بعض الكتب، بالاضافة الى بعض المترجمين الشوام.

لقد شهد عصر محمد على تحولا لوظيفة المترجمين من الترجمة فى الاعمال الادارية والسياسية والقانونية، أى ترجمة المراسلات والوثائق فى دواوين الدولة المختلفة ومحاكمها، الى ترجمة الانتاج الفكرى فى مختلف مجالات المعارف الانسانية، وهو الأمر الذى يعد وصلا لما انقطع من تراث فى الحضارة العربية، فإذا كانت حركة الترجمة قد ازدهرت ونشطت فى القرون الأولى للهجرة خاصة فى عصور الدولتين العباسية فى العراق والفاطمية فى مصر فنقلت أساسيات الفكر اليونانى والفارسى والسريانى من لغاتها الأصلية الى العربية. وامتلأت بها دور الحكمة ومكتبات القصور ومعاهد



محمد علي



رفاعة الطهطاوي

العلم جنبا الى جنب مع مؤلفات الكتاب العرب، فإن انكسار الدولة العربية الاسلامية وتراجعها السياسي والحضاري شهد تراجع وانحسار حركة الترجمة الى العربية، ثم انقطاعها تماما. الى أن جاء مشروع محمد على التحديثي متضمنا فى القلب منه مشروعا للترجمة.

الترجمة من الفرنسية

واذا عدنا للدراسة القيمة التى أنجزها سنة ١٩٤٦ المؤرخ المصرى الكبير الدكتور جمال الدين الشيال حول تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على سوف يتبين لنا من خلال الجداول الاحصائية والرسوم البيانية التى قام باعدادها عدة حقائق أهمها :

- أن مجموع ما ترجم خلال عصر محمد على أو على وجه التحديد خلال ثلاثين عاما منذ بدأت حركة الترجمة سنة ١٨١٩ حتى رحيل محمد على باشا عام ١٨٤٩ كان مائة وواحدا وتسعين كتابا، تسعة كتب منها ترجمت نقلا عن العربية الى اللغة التركية، وواحد وستون كتابا نقلت عن الفرنسية الى التركية معظمها فى الفنون الحربية والبحرية، والباقى وعدده مائة وواحد وعشرون كتابا .

- إن الجزء الأكبر من الأعمال المترجمة نقل عن الفرنسية، حيث ترجم عنها الى العربية ١١١ كتابا ، بالاضافة الى الكتب الواحد والستين التى ترجمت عن الفرنسية الى التركية.

- تحتل اللغة التركية المرتبة الثانية بفارق كبير حيث ترجم عنها الى العربية ستة كتب نصفها فى الفنون الحربية والبحرية.

- تأتى اللغة الايطالية فى المرتبة الثالثة برصيد ثلاثة كتب ثم الترجمة عن الفارسية كتاب واحد .

- تحتل الفنون الحربية والبحرية المرتبة الأولى فى الترجمة حيث ترجم فى هذا المجال ٦٤ كتابا يليها الطب الشرعى

المشروع القومى للترجمة

٣٤ كتابا ثم الطب البيطرى ٢٢ كتابا فالتاريخ ١٤ كتابا، والهندسة عشرة كتب، اما باقى ما ترجم فى فروع المعارف الانسانية المختلفة فيتراوح مابين كتاب وخمسة كتب فى كل فرع .

– شملت حركة الترجمة فى عصر محمد على إلى جانب الفروع الرئيسية السابقة اعمالاً للترجمة فى اللغة ، والأدب، والتربية، والمنطق، وتاريخ الفلسفة والجغرافيا وادب الرحلات والجيولوجيا والخرائط والمساحة، والاجتماع ، ونظم الحكم ، والصيدلة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والزراعة، والجبر، والحساب، وحساب المثلثات، والميكانيكا، والهيدروليكا .

– طبع من الأعمال المترجمة ١٨٧ كتاباً وظلت أربعة منها كتباً مخطوطة ، وكان النصيب الاكبر فى حركة الترجمة لمطبعة بولاق التى طبعت وحدها ١٧١ كتاباً من الأعمال المترجمة .

– بلغت حركة نشر الاعمال المترجمة ذروتها فى مطلع الاربعينيات من القرن التاسع عشر ، وأخذت بعد ذلك فى الانخفاض .

محاولات جادة

وإذا كان مشروع محمد على للترجمة قد تراجع بانهيار مشروعه السياسى وهزيمته العسكرية، ثم كاد أن يتوقف بعد وفاته ، فقد عرفت مصر مشروعات متعددة للترجمة كانت تبدأ وتختفى من كل محاولات التحديث، ولعل من أبرز مشروعات الترجمة فى القرن العشرين جهود لجنة التأليف والترجمة والنشر، ومشروع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ثم مشروع «الألف كتاب» ، إلا أن أيا من هذه المشروعات لم يقدر له الاستمرار .

وفى السنوات القليلة الماضية ظهرت على الساحة الثقافية عدة سلاسل للترجمة عن هيئات مختلفة فى وزارة الثقافة مثل سلسلة الألف كتاب الثانى التى تصدر عن هيئة الكتاب، وسلسلة آفاق التى تصدرها هيئة قصور الثقافة وسلسلة أكاديمية الفنون للترجمة... وأخيراً «المشروع القومى للترجمة» الذى يتولى إصداره المجلس الأعلى للثقافة ، واحتفالنا منذ أسابيع قليلة بصدور الكتاب رقم ٢٥٠ ضمن هذا المشروع المتميز، وذلك من خلال حلقة بحثية حول إشكاليات الترجمة ومشكلاتها .

وقد تبنى المجلس الأعلى للثقافة «المشروع القومى للترجمة» منذ خمس سنوات ، وقد بدأ المشروع على استحياء بإصدار آحاد من الكتب فى العام الواحد، لكنه أخذ ينضج ويتطور بسرعة

بفضل جهود عشرات من المترجمين المخلصين وإصرار الأمين العام للمجلس د. جابر عصفور ومثابرته ووقفه خلف هذا المشروع بكل قوة.

خصائص مميزة

لقد وصل عدد الإصدارات إلى مائتين وخمسين كتاباً نقلت من خمس عشرة لغة بعضها لغات يترجم عنها إلى العربية مباشرة للمرة الأولى ، فأحد الخصائص المميزة لهذا المشروع، أن الأعمال التى تصدر فيه، تنقل إلى العربية عن لغاتها الأصلية مباشرة دون النقل عن لغة وسيطة، وقد حرص المشروع القومى للترجمة على كسر احتكار الترجمة عن اللغات الأوروبية الرئيسية الانجليزية والفرنسية ثم الالمانية.

وإذا استعرضنا الاعمال الصادرة فى هذا المشروع فسوف نجد من بينها ١٢٧ عملاً مترجماً عن الانجليزية و ٣٥ عن الاسبانية و ٢٩ عن الفرنسية، و ١٥ عن الفارسية ، وتسع عن الروسية، و ٧ عن الالمانية، و ٥ عن العبرية، و ٣ عن اليونانية وعملين عن كل من الايطالية والبولندية والأردية ، وعملاً واحداً عن كل من التركية والسريانية والصينية ولغة الهوسا .

وهكذا فقد اقتحم المشروع القومى للترجمة أسوار لغات يترجم عنها إلى العربية مباشرة للمرة الأولى فى الوطن العربى مثل الصينية ولغة الهوسا ، وفى الطريق إلى الصدور الآن أعمال مترجمة مباشرة عن اليابانية والأمهرية، ونصوصاً مصرية قديمة تنقل عن اللغة المصرية بخطها الهيروغليفى مباشرة .

وقد شارك فى أعمال المشروع القومى للترجمة مترجمون من ٧ جنسيات عربية. وإذا كانت الغالبية العظمى من المترجمين من مصر، فهناك ١٣ عملاً قام بترجمتها مترجمون مغاربة وسبعة أعمال ترجمها عراقيون وثلاثة ترجمها سعوديون وعملان لمترجمين من الاردن وعمل واحد لمترجمين من كل من سوريا وفلسطين، فقد حرص القائمون على المشروع القومى للترجمة على الانفتاح على مختلف مدارس الترجمة العربية، دون الاقتصار على المدرسة المصرية، اثراء للمشروع وتدعيما للتفاعل والتعاون بين المترجمين العرب، ومن الملاحظ أن بعض الأعمال الكبرى الصادرة فى اطار المشروع القومى للترجمة شارك فى ترجمتها اكثر من مترجم.

والمراجعة الأولية لعناوين الاصدارات المائتين والخمسين تكشف عن تنوع فى موضوعاتها ، ما بين أعمال ابداعية، من روايات ومجموعات قصصية، ودواوين ومسرحيات ونصوص من الآداب القديمة، ودراسات نقدية ولغوية، وأعمال تندرج تحت مختلف فروع العلوم الاجتماعية،

المشروع القومي للترجمة

والانسانيات، بالإضافة الى بعض المؤلفات فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية.

أبرز الترجمات

وفى مجال الأعمال الابداعية حرص المشروع القومي للترجمة على تقديم آداب لغات أهملت لسنوات طويلة، فقد صدر في المشروع عدة أعمال أدبية مترجمة عن الاسبانية وكذلك أعمال من الأدب الفارسي حديثه وقديمه، ولعل أبرز ما صدر فى هذا المجال هو مثنوى جلال الدين الرومى الذى ترجمه الراحل الاستاذ الدكتور ابراهيم شتا فى ستة مجلدات عن الفارسية، وهذا العمل يعد من أروع كلاسيكيات الآداب الاسلامية، وقد كتب فى القرن السابع الهجري.

أما في مجالات المعرفة المختلفة فيحرص المشروع القومي للترجمة على الموازنة بين نقل أحدث ما يصدر فى الغرب والشرق من أعمال ونقل الأعمال الكلاسيكية أو التأسيسية التى لم تترجم من قبل.

فمما يميز هذا المشروع أن كثيرا مما نشر فيه هو من الأعمال التى صدرت بلغاتها الأصلية فى السنوات الخمس الأخيرة مع عدم اغفال الأعمال الرائدة التى مضى على صدورها سنوات طوال، ومن اللافت للنظر ايضا أن المشروع عنى بترجمة اعمال لبعض المصريين والعرب المغتربين كتبوها بلغات أجنبية .

ومن استعراض قائمة الاصدارات ايضا يتضح أن هناك تركيزا على بعض الموضوعات مثل قضايا المرأة والتى صدر فيها ما يقرب من خمسة عشر عنوانا، والعولمة وآثارها وتزيد عدد عناوينها على عشرة عناوين تتناول الموضوع من زواياه المختلفة المؤيدة للعولمة والمعارضة لها، وكذلك المحللة لآثارها الايجابية والسلبية باعتبارها واقعا معاشا، كذلك يحتل تاريخ مصر بعصوره المختلفة حيزا واضحا فى اصدارات المشروع القومي للترجمة.

إن المشروع القومي للترجمة عمل يشكل اضافة متميزة لحركة الترجمة الى العربية التى بدأت فى مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر، وهو مشروع يحتاج لكل الدعم والمؤازرة حتى يستمر ويحقق مزيدا من الانجازات ويتلافى جوانب القصور، لاشك فى أن توفير الدعم المالى من قبل الدولة لهذا المشروع أحد مقومات استمراره في المستقبل، خاصة ونحن ندخل الى عصر تطبيق اتفاقيات الجات التى تفرض علينا ضرورة شراء حقوق الترجمة الى العربية من الناشرين الاصليين بما يشكله من أعباء مالية على مثل هذا المشروع الواعد.

عبدالوهاب البياتى



شكسبير



خذنى بعارى .. !!

بقلم : حسن سليمان

أمام مقهى «الأمريكين» هناك رجل يفترش أمتاراً من الرصيف بكتب قديمة دينية وجنسية فى آن معاً . إسترعانى كتاب غلفه بالبلاستيك حتى لا يقرأه أحد ، عنوانه «خذنى بعارى» . أظن أن الكاتب ربما إسمه خليل حنا تادرس ، فأخذت أردد بصوت عال هستيرى «خذنى بعارى» ضاحكاً وأنا أعبر الطريق . الكل أصبح يردد «خذنى بعارى» . يبدأ أحدهم العلاقة معك كأنها صداقة ، وحينما يحصل على مرامه يتركك ويخطىء فى حقك صائحاً أن لكل واحد حساباته الخاصة ، وهو يعلم بأنه سارق ومرتشٍ وسمسار ، وقد سرقك بطريقة خادعة . فمن الممكن أن ينتزع منك أى شىء مدعيا أن هذه هى الواقعية ، وأنك أنت الذى تعيش فى عالم آخر مثالى خيالى فاشل غير واقعى .

الكل يكذب على بعضه . الكل يسرق بعضه، والحقيقة أن العلاقات الاجتماعية قد بدأت تتفسخ وتنهار منذ خمسين عاما حتى وصلت إلى ذروتها الآن، وكل ما كان عاراً فى الأعراف الاجتماعية أصبح الآن هو ما يجب أن تفعله .

إنى أذكر أن أمى كانت حينما تزورنا فتاة أو امرأة صغيرة السن تعطينى أجرة التاكسى كى أوصلها إلى منزلها ولا تدعها تسير فى الطريق بالليل بمفردها، وفوجئت وأنا فى ألمانيا أن ابنتى التى تركناها فى «بون» فى ضيافة أستاذ جامعى فى القانون لا علاقة قوية لنا به، جاء إلى «شيكاغو» مع أبنائه الثلاثة الذين أرسلهم كى يوصلوها إلينا سالمة ، وعندما سألتهم لماذا كل هذا التعب ؟ أجابنى الصغير بأنها تقاليد الفروسية الألمانية . أين نحن من هذا الآن؟ ومن هم المنهارون نحن أم هم ؟ إن الانهيار سببه التساهل فى التصرفات البسيطة حتى أصبحت هناك كلمات شائعة مثل «ياأخى خليك فى حالك!!» «ياأخى اشترى دماغك» ! «ياأخى دعك من هذا التزمت وهل أنت من سيغير الكون» .. !!

الدنيا تغيرت الآن . والوضع القائم فى فلسطين يجب أن نتوقف عنده كثيراً . يجب أن نملك الشجاعة لكى ندين أنفسنا فنحن الذين بدأناه بتفسخنا واستهتارنا وفهمنا الخاطىء للأمور .

فى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية اجتمع الكتاب والمفكرون ، الشيوعيون مع اليمينيين لكى يدينوا أنفسهم هم أولاً ، وأنهم السبب فى انهيار فرنسا السريع أمام ألمانيا . أما أنا فقد دفعت نقوداً لثلاثة من الشبان لكى يذهبوا إلى دار الكتب ويجمعوا لى كم مرة ناقض كاتب أو شاعر أو مفكر مصرى نفسه خلال الخمسين عاماً الماضية . إنهم يغيرون مواقفهم مثلما يغيرون جواربهم .

لقد كانت النتائج الأولية محزنة جداً . هل هذه هى الواقعية ؟! هل هذا أصبح المفهوم الجديد للطبقة المتوسطة الانتهازية حتى فى الفكر ؟ . وافقنا جدلاً على وجود انهيار تام باسم السمسرة والاستثمار والبورصة ، وباسم تشجيع السياحة فهل نوافق على أن يصل هذا الانهيار إلى الثقافة وينعكس كذلك على الاعلام ؟

كيف سيتثقف الشعب؟ . إن المسألة يجب أن تبدأ من تصرف كل فرد ، وإن كل فرد يجب أن يدين نفسه بشجاعة لابد أن يملك الشعب قوة الرفض. بدلاً من أن يكون مكنون كل فرد فى أعماقه يقول «خذنى بعارى» .

***


الماجا.. رسمها جويا مرتدية ملابسها!

إن الوعى السياسى لا يمكن أن يتأتى دون وعى اجتماعى سليم، والبياتى مثلاً شاعر لا جدال حوله . لكن وعيه الاجتماعى أقل من أن يذكر . أذكر أنه كان يعرف فتاة نجحت جداً فى جعل كثير من الكتاب والمخرجين يقعون فى حبها بل وعذبتهم . كنت أعرف هذه الفتاة وأرسمها فى مرسمى ، وأظن أن صورة منها فى متحف الفن الحديث والأخرى اشتراها «فيتريو دى سيكا» المخرج والممثل الإيطالى . والثالثة لدى الشاعر الايطالى «الفونس جاتو».

قابلت عبد الوهاب البياتي ، فقال لى إن الآنسة (..) ذاكراً إسمها . فتاة على خلق حميد ، بالحقيقة وحق الحقيقة أدعوها مرة إلى السينما وهى تدعونى إلى السينما ، وأعيرها كتابا وتعيرنى أخر بعد أن ترده لى ، بالحقيقة وحق الحقيقة أنا أشيد بك دائما فى كل مكان ، وأقول ليس بالمنطقة سواك، بالحقيقة وحق الحقيقة أن ابراهيم منصور قال لىّ : بأنك ترسمها عارية كما رسم «جويا» «الماجا» عارية .

قلت له : ولكن صورها كلها بملابسها ولم أرسمها عارية ، ولم يصل بنا الأمر إلى قصة حب جامحة كما حدث مع «جويا» و «الماجا» .

وأبدأ من النقطة التى أثارها البياتى وهى رسم «جويا» لـ «الماجا» عارية . بالتأكيد جويا رسمها عارية بعد أن تركته . لكنهم كلهم يتهمونه بأنه رسمها عارية !!

ولو نظرنا إلى خطوطها الخارجية لوجدنا أنها تضاهى بالضبط حتى تكاد تتطابق مع خطوطها وهى مرتدية ملابسها . أى ثورة ألمت «بجويا» ؟ ما الذى فعلته به هذه المرأة ؟ إنه بالتأكيد رسمها وقد تجمعت الدموع فى عينيه . رسمها وهو يتطلع لآثار الندوب التى تركتها أظافرها المتقطعة على كتفيه وذراعيه . فلتنظر إلى حد عينيها بشهوتهما الجامحة لنرى إلى أى مدى كانت نارية .. الكل أدان جويا لأنه رسم دوقه من طبقة راقية أعلى منه - رسمها عارية - لكن لا أحد تعاطف معه حينما دفعته الغيرة مرة كى ينزل إلى الشارع ويتبارز مع آخر بالسكين . الكل يدينه لكنهم لا يدرون أى ألم إجتاحه إلى درجة أن رسم الملك والملكة الأسبان والبلاط كأنهم فئة من بلهاء السيرك .

الطبقة المتوسطة عندنا تتحدث عن «رامبرانت» وزوجته التى ساعدته ونقلته إلى الطبقة الأرستقراطية ولم يحضر حتى جنازتها ، وظل يرسم فى صورته الضخمة «عسس الليل» بينما الجنازة تسير . الكل يتهمه بعدها أنه عاشر خادمته . لكن لا أحد يتحدث عما قدمته تلك الخادمة حتى غيرت كلية طريقة رسمه وكونت شخصيته الكاملة، والمتطلع إلى صورتى خادمته وزوجته فى متحف «ناشيونال جاليرى» بلندن يستطيع أن يميز الفرق، يستطيع أن يلاحظ الزيف والجمود والبرود والزخرفة التى لا قيمة لها فى رسمه صورة زوجته ، والجرأة والحدة ودفء الحياة فى رسمه صورة خادمته .

إن هذا المعيار عن أخلاقيات الفنان الذى لا تزال تناقش به الطبقة المتوسطة الفنانين فى مصر خصوصاً . معيار خاطىء متخلف يدل على الجهل . بينما لابد أن يكون المعيار الحقيقى للفن هو ثورة وانفعال : فرشاة الفنان على سطح اللوحة فهى فقط القادرة على دفع الجموع إلى الثورة وإلى النضج الاجتماعى .

وحينما مات شكسبير ترك خاتمه وقرطه الذهبى لصديقه الوفى وزميله ، وبقية أشيائه كلها لأصدقائه . بينما لم يترك لزوجته سوى حشية، تلك الحشية القذرة التى ضاجعها عليها . لماذا لا تذكر الطبقة المتوسطة ماذا فعلت زوجته بشكسبير حتى وهو على فراش الموت ؟ .. لا يترك لها شيئاً ! فهل شاعر كبير مثل شكسبير نستطيع القول بأنه لا أخلاق له ولا وفاء ؟ .. إنه لشىء محال. أيضا يدين الكل «جوجان» لأنه ترك زوجته وأولاده وذهب إلى «تاهيتى» بينما الذى يقرأ ما كتبه المؤرخون عن حياة «جوجان» لا يخرج عن أن زوجته كانت امرأة سطحية

متسلطة أخرجته عن طوره مراراً بزيفها وسطحيتها ، ودعواتها لأصدقائها التافهين ودفعها له كي يعمل موظفاً فى مصرف . بينما لو قرأنا مذكرات «جوجان» فى تاهيتى ، وقلق الفتاة التى عاشرها هناك والتى لا تتجاوز الرابعة عشر وذعرها عليه أن غاب خمس دقائق عن المنزل . هذه الفتاة الصغيرة التى لا قسط لها من التعليم، جعلت «جوجان» يدرك ما هى معنى إخلاص المرأة ، وخلقت منه «جوجان» الفنان .

***

هل يمكن دون فهم عميق لعمل فنى جاد خالد أن يستطيع المرء أن يكتب مقالاً سياسياً جاداً عنه إن مقالاتنا السياسية كلها لا قيمة لها ومصيرها أن تكون «قراطيس» يباع فيها الترمس واللب والبلح الأمهات ، ولا يقرأها أحد . لأنه من المحال أن يوجد كاتب دون وعى كامل بوظيفة الفن على الاطلاق وأهميته وحقيقته . فهذا هو الذى يكون وعيه السياسى والاجتماعى الكامل ، ومن العبث أن نطلب منهم أكثر لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

إن الصحافة الآن لم تعد وسيلة لتوصيل الحقيقة بقدر ما أصبحت أن تمتلك المقدرة على أن تملأ صحيفة دون أن تقول شيئاً ، وهذا تقليد ابتدع منذ

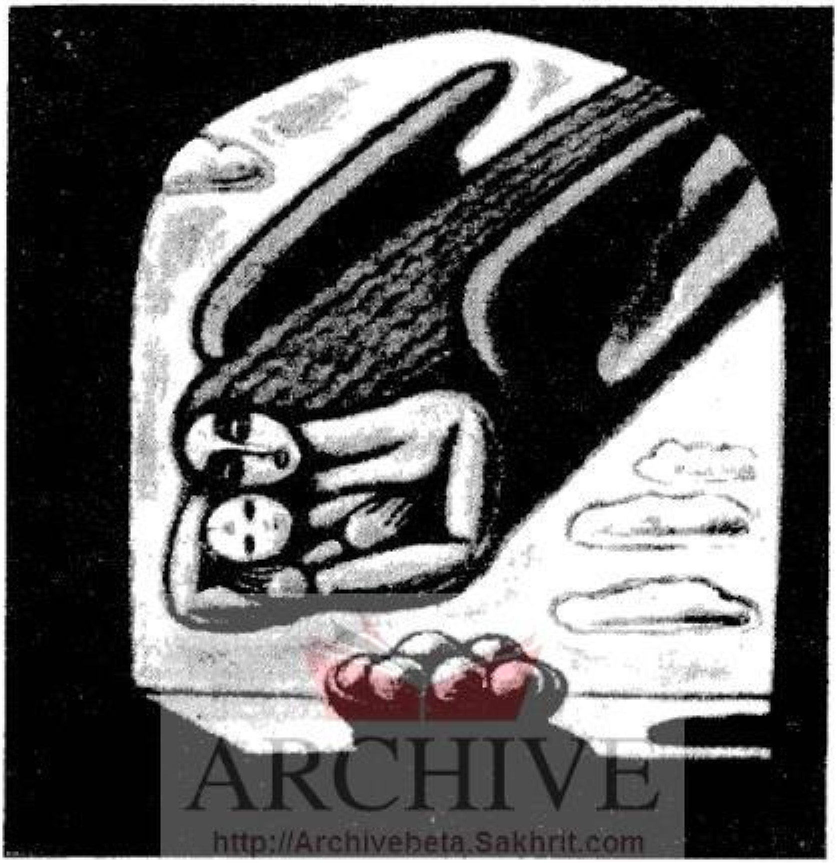


خمسين عاماً .

يبدأ الكاتب بالقول لابد أن نحارب ثم ينتقل إلى أن السلام أفضل ثم ينتهى إلى استحالة الحرب ثم إلى أن السلام أفضل ثم ينتقل إلى استحالة أن يوجد سلام. ثم بعد هذا ينتهى بك الأمر وكأنك فى قصر التيه .

حرب أو لا حرب ؟ سلام أو لا سلام ؟ فالكل بالنسبة له مستحيل !! . إذن ماذا يريد الكاتب ؟ . هل المطلوب أن يملأ الصفحات بمثل هذه المتناقضات التى يناقض بها نفسه ؟ النتيجة أن الكل أصبح لا يقرأ .. الكل أصابه الغثيان من كل مأجور موتور . الكل يناقض نفسه ، وانعكس هذا على كل الجماهير ، وأصبحت هذه هى الفلسفة السائدة، وأن يشعر كل فرد فى أعماقه أنه يكذب على نفسه، ويكاد أن يصرخ للآخر «خذنى بعارى» .. !!

لوحة هبوط مريم

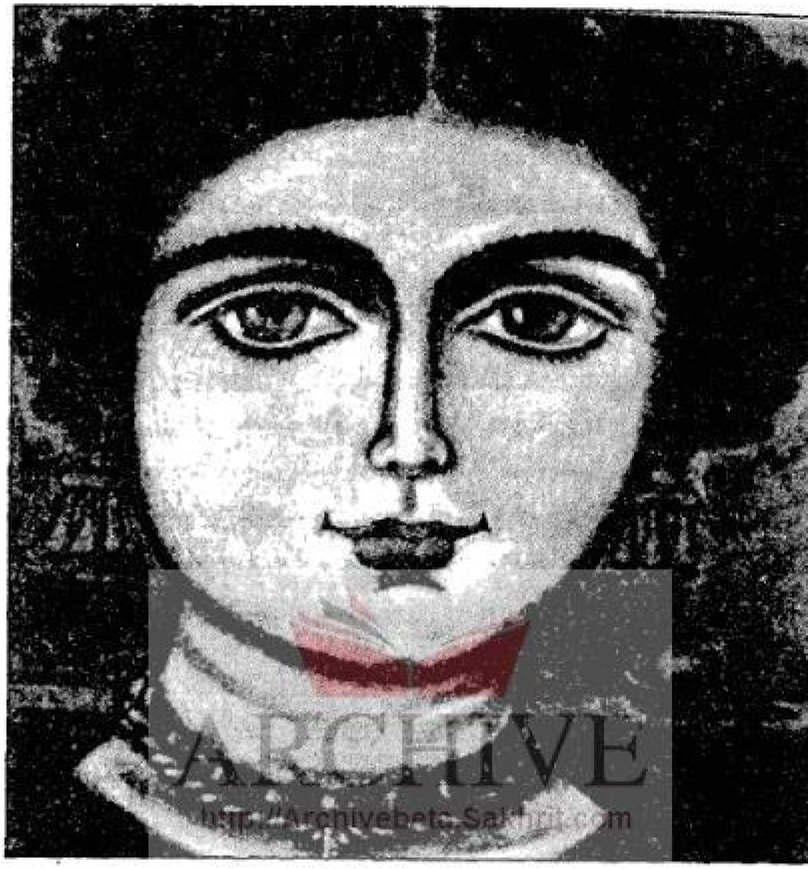


في معرض حلمي التوني:

خطاب جمالي وأخلاقي إلى ذاكرة المصريين

بقلم: محمود بقشيش

من فاتنات الفيوم للفنان حلمى التونى



تحت عنوان «تحية إلى الفن القبطى» أقام الفنان «حلمى التونى» معرضا بقصر «عائشة فهمى» بالزمالك فى مجال التصوير بالألوان الزيتية. وإذا كان كل معرض من معارض التونى التى أقامها فى القاهرة يختلف مع المسلمات التى تطرحها معارض الفنانين المصريين، فأنا أزعم أن هذا المعرض، هو أكثرها أهمية، من حيث موقفه الناقد من حقائق فى حياتنا الثقافية والفنية والسياسية، أهملها المبدعون المصريون أو صمتوا عنها، حرصا على أمان كاذب. لهذا صاحب المعرض ببيان صريح، يبرر به الدوافع الملحة التي جعلته مصمما على إقامة المعرض.

وحتى لا أتحدث نيابة عن الفنان، أختار فقرات كاملة من بيانه الذى بدأه بقوله: (لازلت أتذكر صورة رأيناها كثيرا اشتهرت منذ ثورة ١٩١٩، تصور المظاهرات والمسيرات الشعبية التى خرجت يتصدرها الشيوخ والقساوسة وهى تحمل الأعلام واللافتات وعليها هلال وصليب متعانقان وتحتهما عبارة: «الدين لله والوطن للجميع» ثم يقول: (مرت ثمانية عقود من الزمان على المشهد المذكور.. وتغيرت أشياء وتبدلت نفوس وإذا بنا نرى فى أواخر السبعينيات مصادمات بين عنصرى الأمة فى بعض مناطق من هذا الوطن.. لعل أشهرها - ويالها من شهرة ! - منطقة «الزاوية الحمراء» وقعت فيها مصادمات دامية ، تعامل معها البعض بتعصب أعمى وأحمق وكأنهم يشاهدون مباراة كرة قدم بين الأهلى والزمالك).. ثم يقول : (ثم فوجئنا فى التسعينيات بأحداث جرت فى صعيد مصر، فى قرية اسمها الكشح) ويستطرد قائلا: (المشكلة فى رأيى المتواضع لها أسباب كثيرة من أهمها إحساس أحد عنصرى الأمة بالكبر واحتكار الصدارة وشعور العنصر الآخر «الأقباط» من أهل مصر بظلم وغبن وتهميش ظلم لا على المستوى الإجتماعى فحسب .. وإنما - وهنا بيت القصيد ومكمن الداء - ظلم حضارى وتهوين ثقافى وتاريخى لدور ونصيب أحد عنصرى الأمة، فى صنع وتكوين ثقافة الامة المصرية.. ولاحظ المستنيرون والمخلصون من أهل هذا البلد تدنى وتناقص المكون القبطى فى الثقافة المصرية، بينما نرى حضور التاريخ العربى الإسلامى، فى كواليس وتحت أضواء المشهد الثقافى والإبداعى، نرى غيابا شبه كامل للحضارة القبطية من المشهد. وفى مجال الفن التشكيلى الذى نحن بصدده هنا، نرى أعمالا فنية تستوحى الأرابيسك والخط العربى فى محاولات لاستكشاف الجماليات الخاصة بهذه الفنون الإسلامية ولا نرى أعمالا فنية تهتم بالحضارة والفن القبطى، رغم أن لهذا الفن متحفا مهما وجميلا يقع على أطراف القاهرة فى حى مصر القديمة . لم نشهد معرضا فنيا جماهيريا واحدا يدعو الناس ويلفت انتباههم بوضوح وعن قصد إلى التعرف على كنوز الفن القبطى والاستمتاع بجمالياته) .

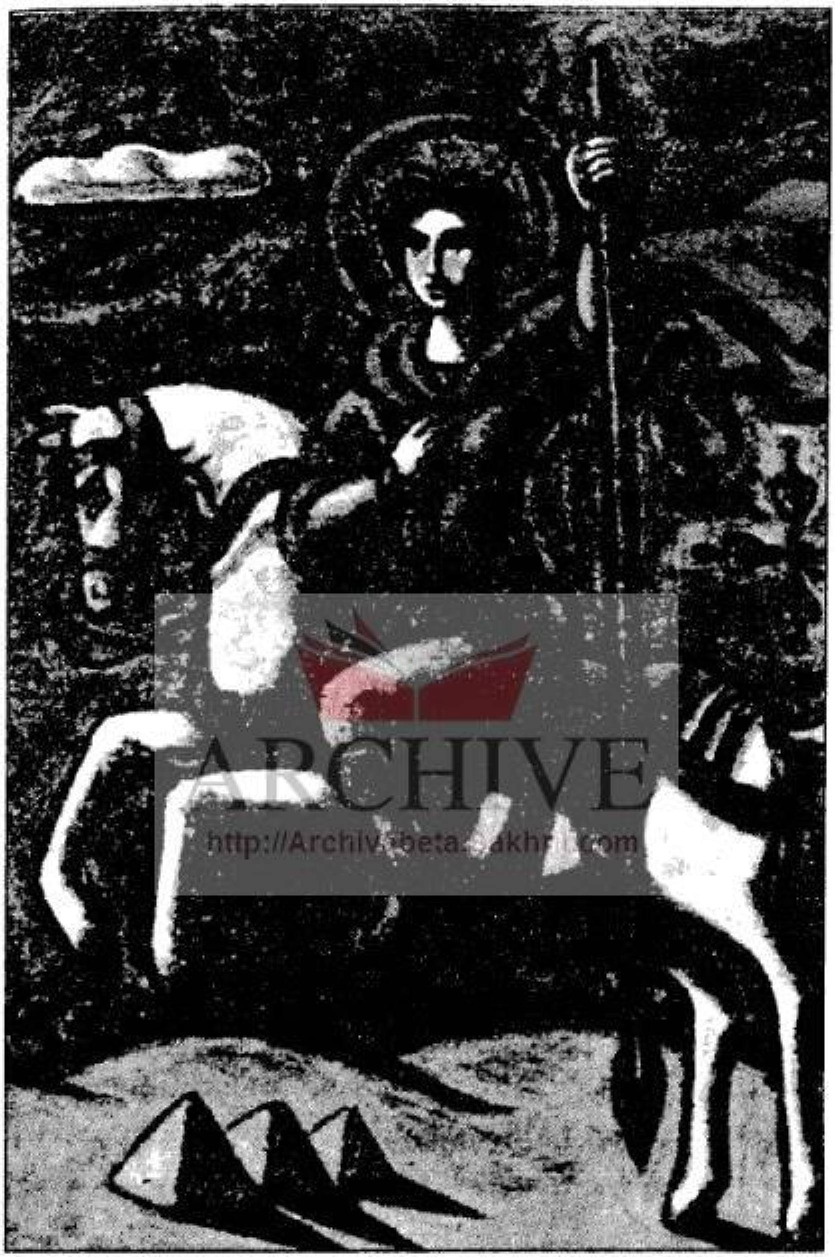
المعرض

يعد هذا المعرض تتمة لسلسلة المعارض الثمانية السابقة من حيث الحرص على استلهام الوحدات الشعبية بأسلوب يحتفى بالتأليف الذهنى، الرمزى. وبالبناء الذى يستعير من المنحوتات المصرية القديمة نقاءها وإيجازها البليغ

ونفورها من الثرثرة. ولأن الفن القبطي فن شعبي مصري أصيل فقد أتاحت له كل تلك المزايا استدعاء كل الرموز المصرية، سواء ما كان متصلا بالعمارة الأثرية مثل الأهرامات، أو ما كان منها موروثا فنيا مثل الجداريات الكنسية أو موضوعات مستلهمة من الكتاب المقدس أو مستعارة من زخارف أطر الأيقونات، أو مستلهمة من أشكال نباتية ارتبطت بالبيئة المصرية مثل النخيل. وعلى الرغم من أن لوحات التونى فى مجملها تشى بانتمائها إلى تلك المصادر التى أشرت إليها وأشار إليها الفنان فإن اللافت للنظر أن تلك اللوحات تنتمى أيضا وربما بدرجة أكثر وضوحا إلى مبدعها الفنان «حلمى التونى» وهو الأمر الذى يمنح المعرض قيمته الحقيقية . ويكفى أن تلتقى بالمصادفة، بإحدى لوحاته فتكتشف على الفور أنه مبدعها، حتى لو لم تلحظ توقيعه فى الوهلة الأولى.

العذراء والطفل

لأن العذراء تحتل الركيزة المحورية فى الصور الكنسية فقد استلهمها «التونى» بدوره غير أنه أجرى عليها التحولات التى تتسق مع رؤيته : وأول ما يلفت النظر إلى هذا التحول هو اقتراب العذراء المقدسة من الطابع الإنسانى، الأمومى . وهى فى اقترابها من الطابع الإنسانى استعارت نقاء الكتلة فى المنحوتات المصرية القديمة، حيث يتقاسمها، بالعدل، ظل كثيف صريح ونور جلى ساطع. ولا تحدث تلك القسمة من أجل تجسيد الملامح الإنسانية فقط بل تتعداها إلى تجسيم الأشكال الهرمية والأشكال النباتية وأشكال الطيور. ويريد لنا الفنان أن نقتنع بأن هذا الشكل من أشكال التجسيم ينتمى إلى بيئة مشمسة. وهو يعتم الخلفية - أحيانا - ليمنح أجساد قديسيه الطائرة صلابة وحيوية. وهو لا يبالغ فى إسباغ الجلال القدسى على قديسيه وملائكته مثلما كان يفعل «الجريكو» - على سبيل المثال - بل لعل أشكال شخوصه كانت أقرب إلى الهيئة الدميوية وقد يكون للفترة التى انشغل فيها الفنان فى «مسرح الدمى» أثرها فى تلك التجليات، مما أسبغ طرافة جاذبة على شكل المنحوتات المصرية عندما انتقلت إلى فضاءات لوحات «التونى». وقد هدأت تلك الجمالية المصرية الهادئة من الطابع (الأوكروباتى) على حد تعبير الناقد والمؤرخ الفرنسى الكبير «إيلى فور» عندما أطلقه وصفا لصور القديسين والقديسات، فى اللوحة الدينية الغربية، حيث يبدو الجميع أقرب إلى لاعبى السيرك وهم يطيرون فى الفضاء السماوى، فيما تظهر قديسات وقديسو «التونى» وقد هدأوا الهدوء الذى يسمح بالتأمل، مثلما فعل مع لوحته «هبوط العذراء» فقد أخفى عنها كل



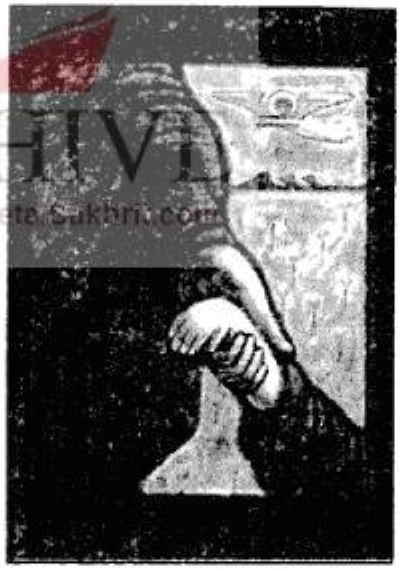
توتر، مما أتاح لنا تأمل نقـــاء الكتلة، وأمتعنا بحالة الدفء بين «العذراء الحاوية» و«الطفل المحتوى» ويجذبنا ببراعة إلى طبق الثمار كاملة الاستدارة، وأطلقنا من جديد إلى السحـابات السمـاوية وهى تتهادى فى طريقها المجهول. ويظهر «مار جرجس» فى إحدى لوحات «التونى» وقد نهض على حصـانه، جليلا. والواضح أن المشهد يمثله بعد انتصـاره على التنين الذى أخفـاه الفنان إخفاء كليا، غير أنه وضع مكانه ما أثار دهشتى شخصيا، فقد وضع الأهرامات فى موضع التنين ويبدو أن الناقد أو الرقيب الموجود داخل الفنان «حلمى التونى» ينهض أحيـانا ليحذره من سوء التأويل لرسالة المعرض فرسم لوحة هى أقرب إلى الترجمـة الحرفية للآية القرآنية الكريمة رقم ٢٤ من سورة مريم وهى : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا).



ولوحة مستلهمة من سورة مريم

الوجوه

نلاحظ أن الوجوه جميعها فاتنة تأسر العيون بسحرها خصوصا تلك الوجوه التى استعارها «التونى» من وجوه الفيوم وأعارها، فى ذات الوقت إلى الفن القبطى، فى حين أن لوحات الفيوم قد أبدعت فى الحقبة الرومانية، قبل ظهور الدعوة إلى المسيحية. ورغم ذلك فإننى أشارك الفنان الكبير فى دعوته إلى أن نكون عادلين حتى نحقق كل أحلامنا فى التقدم والازدهار.



الام والطفل للفنان حلمي التونى

عــدلى رزق الله ومـــائيـــاته الألف

من بلوريات وصعيديات إلى شهادات الغضب !

بقلم : صلاح بيصار

فور عودته من باريس أوائل الثمانينات.. قرر الفنان عدلى رزق الله التخلى نهائيا عن العمل الوظيفى والتفرغ الكامل للإبداع.. مصمما على أن يحيا من اللوحة!!.

كان هذا القرار ومازال حالة استثنائية خاصة.. وكثيرا ما تنتاب الفنان فى العالم الثالث أزمة ميتافيزيقية تجعله لايثق فى جدوى الإبداع فيتوقف أو يتخلى عن عرض أعماله على الجمهور، وذلك ارتباطا بالنظرة السائدة والمعاكسة لمكانة الفن التشكيلى مقارنة بغيره من الفنون.

ولقد جاء معرضه الاستعادى الشامل «عشرون عاما من المائيات» فى ١٠٠٠ لوحة افترشت قاعات قصر الفنون بالجزيرة تأكيدا على اخلاصه الشديد للإبداع ونجاحه أيضا فى تحدى تلك النظرة لواحد من أرفع الفنون. وبالإضافة إلى هذا العدد الضخم من الأعمال تنوعت المساحة من اللوحات الصغيرة إلى الصرحية المتسعة.. مع هذا الفوران الشديد الذى امتد بمراحل عديدة مسكونة بسحر التعبير وشاعرية الأداء.

ومن هنا أغرتنا تجربة عدلى رزق الله بخصوصيتها الشديدة والمتفردة على أن نعود معه إلى بداية الطريق.

فنان الصحافة

فى صعيد مصر، من محافظة أسيوط

ولد ونشأ الفنان عدلى رزق الله وسط مساحات ومسافات خضراء من الريف الدافىء المسكون بالنخيل والقباب والبيوت الصغيرة والنائم فى حضن الجبل.

فى طفولته كان يتأمل لحظة الغروب حين ينساب الشفق.. يغمر المرتفعات والانكسارات والسطوح الصخرية.. فتذوب الزوايا وتتلاشى ولا يبقى إلا هذا الهمس الشاعرى الأخاذ.

وتتكرر تلك اللحظة فى حالة أخرى فى أول الطلوع عند الشروق فتنسكب قنينات الضوء بألوانها الطيفية مفعمة بالرهافة والشفافية.

كانت هذه التأملات هى التى هيأت عالم عدلى رزق الله هذا العالم الذى باح به فيما بعد.. وكان قد قرر وهو فى الثالثة عشرة أن يكون فنانا تشكيليا.

وعندما جاء الى القاهرة محملا بتأملاته.. التحق بالفنون الجميلة وتخرج فيها عام ١٩٦١، وكان والده قد باع آخر قطعة أرض يملكها فى الصعيد.. وكان عليه مواجهة الحياة العملية.. ومن هنا التحق بدار الهلال بعد دخوله فى مسابقة أعلنتها مجلة سمير تقدم إليها وتفوق على المتقدمين معه.

وهكذا أصبح رساما للأطفال.. ومن بداية الستينات حمل مع مجموعة من رسامينا من بينهم حجازى وبهجت وايهاب والتونى واللباد ومصطفى حسين عبء



عدلى رزق الله

المشاركة فى استكمال الطريق الذى مهده الرائد حسين بيكار والذى تمثل فى مجلة سندباد.. طريق التحول من النقل عن النموذج الغربى والاستعانة بالرسامين الأجانب الى الابداع الذى يستلهم الروح المصرية فى الخطوط والمساحات والتكوين والتلوين.

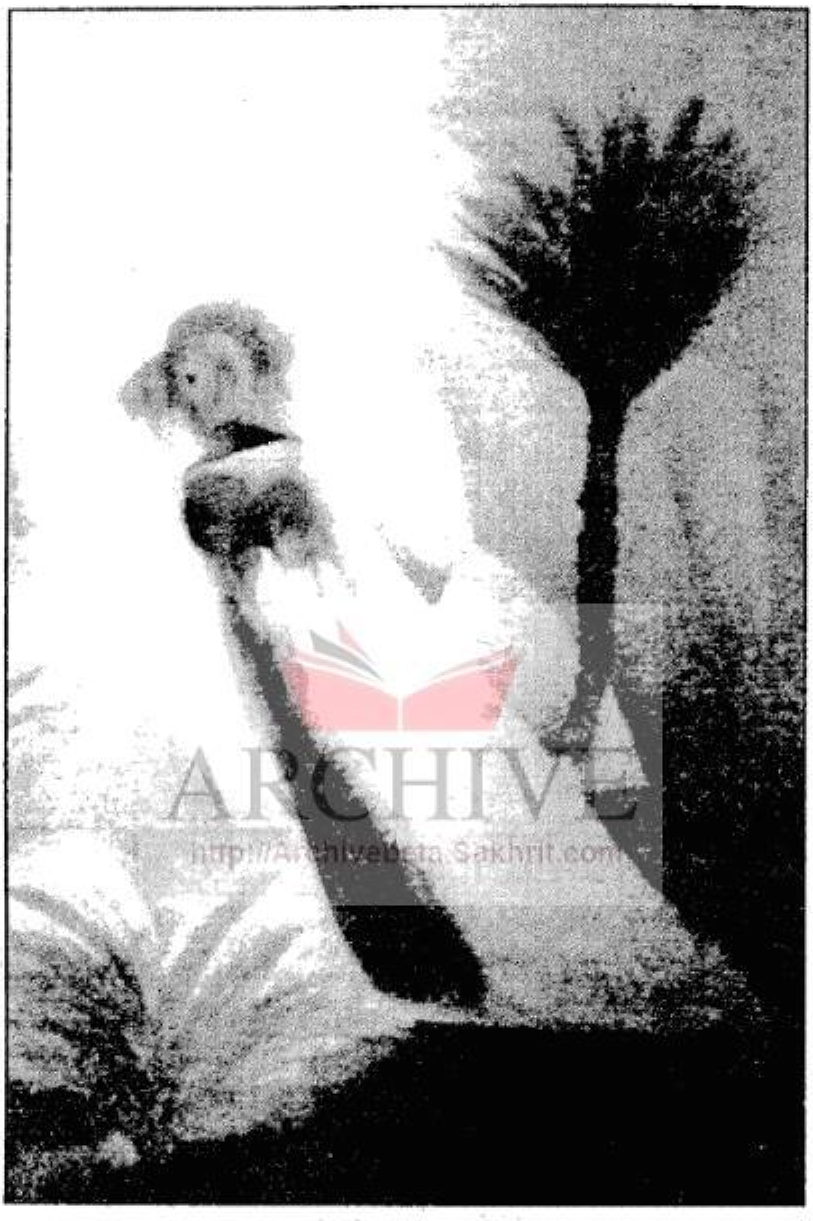
وعندما تدق قارعة النكسة عام ١٩٦٧ يختل توازنه ويفقد القدرة على التقييم ولا يعرف ماذا يفعل بنفسه إلى ان يرحل الى باريس أول السبعينات ليتعلم من جديد ويعود ليعلن تفرغه الكامل للفن.

هو والمائيات

بداية تعد الألوان المائية خامة صعبة تحتاج إلى ترويض وتمرس شديدين.. فهى خامة هاربة سيالة.. لكن تتجاوز



الانسان والمقاومة ..من مجموعة المسجد الأقصى،



هنا تتوحد المرأة فى النيل والجبل «مجموعة الأم»

امكانياتها فى التعبير من حيث الرقة والشفافية أى خامة أخرى. ولقد ظلت طوال تاريخ الابداع المصرى الحديث أسيرة المنظر الطبيعي الذى تمثل فى أعمال جماعة «الدعاية الفنية» التى ظهرت فى منتصف العشرينات. وكان اعضاؤها يخرجون الى الطبيعة لتأملها واستلهام مشاهدها وتسجيل انطباعاتهم بطريقة مباشرة وتلقائية بالألوان المائية حتى اطلق عليهم «جماعة الألوان المائية»، ومن أعضائها رائد التربية الفنية حبيب جورجي وتلاميذه : شفيق رزق ويوسف العفيفى وحامد سعيد ومحمد عبدالهادى وغيرهم.

وهناك اسماء كثيرة كلها لم تخرج على المنظر الطبيعي منها فنان اسيوط بلديات عدلى بخيت فراج والفنانة فاطمة رفعت.

من هنا جاءت مائيات عدلى رزق الله التعبيرية والمسكونة بالرموز ايقاعا جديدا ولحنا متفردا خرج على الإطار.

ولقد تنوعت مراحله الإبداعية.. كل مرحلة تمثل إضافة تعبيرية.

وفى أعماله الأولى بعد عودته من باريس والتى أطلق عليها «البلوريات» يأخذنا بعيدا عن الصخب والضجيج من طنين الآلة وضغوط المدن المزدحمة الى عالم فنتازى حالم تستحم فيه الفراشات بضوء لانهائى وتتألف البراعم مغسولة بالندى.. وتنام الوردة ناعمة فى شفافية.. عالم تخف فيه كثافة الأشياء.. بمثابة المشاعر الخاصة أو الانفعالات الذاتية.. دخل من خلالها الفنان الى حديقة الجنس ولكن فى همس خافت.. حين يزاوج بين الطائر وملامح الجسد «الطائر والوردة» فى حلول ناعمة أقرب الى الارتفاقات والتموجات.. كنغمات تتصاعد من خلالها اللون فى بؤرة ساخنة ثم يهدأ كوميض الشفق ليتصاعد فى بؤرة أخرى.. وبدت أعضاء الجسد حديقة من الأوراق والثمار.. تعانق فيها التجريد والتشخيص والرمز والبوح والهمس فى عالم دافىء ينبض بالحيوية واللحظة الدافقة المليئة بالخصب وتجدد الحياة «المعبد».

لكن تدريجيا تخبو جمرة الرموز الجنسية وتتحول الى ثنائية شاعرية وينتقل الفنان من الخاص الى العام ومن الذاتى الى الموضوعى فها هو الهرم فى ايقاع متكرر يتغير من لوحة الى اخرى.. يخبىء مآذن وقبابا ونباتات وزهورا وأحيانا يتغير عنصرا وحيدا يتفجر كنافورة.. أو نبتة فى حالة ولادة أو برعم يشق الفراغ.. ثم يتحول هذا العنصر فى أعمال أخرى فيخرج على ايقاع الهرم الساكن فينبثق من خارجه بعد ان كان محاصرا باضلاعه! وربما كان لتأثير الغربة لفترة طويلة عن مصر دور فى ابراز هذا الهمس الخافت الذى يوحى باشكال جنينية فى بداية تخلقها.

صعيديات

بعد فترة من عودته بدأت تتشكل العناصر تدريجيا في أشكال مكتملة وأخذت أعماله تتماوج بين التجريد والتشخيص محملة بعناصر مصرية واضحة جاءت فى قمة اكتمالها فى لوحاته «صعيديات» التى يبدو اللحن الأساسى فيها لثنائية حميمة من الاطفال والنخيل.. أطفال الصعيد من جنوب مصر فى صفوف من البراءة والمرح فى عناق مع النخيل الذى يبدو حانيا رشيقا كراقصات الباليه حيث يتكاثف ويتمايل فى اخضرار يتدرج حتى يصل الى اللون الاصفر ثنائية خالية من صور البهجة إلا بهجة الطبيعة، ويبدو الأطفال بملامح من الدهشة والبراءة والحلم فى أشكال أقرب إلى المومياوات المصرية.

وينقلنا الفنان من الطفولة الى الأمومة.. حيث تتوحد المرأة مع النخلة والجبل فى كائن واحد.. وهى هنا تعكس الرمز المعنوى لمصر من العطاء والخصوبة وقوة التحمل.. وأحيانا تبدو المرأة سابحة فى فراغ اللوحة فى عناق مع سحاب السماء السخى المحمل بالمطر أو مندمجة فى بناء يعكس من خلاله لصور الرسوخ والأصالة.

وعلى مساحات صغيرة يقدم عدلى رزق الله مجموعة أعمال تشتمل على عنصر واحد أو اثنين: امرأة نعسانة فى ضوء باهر بملابس فضفاضة متأملة كما لو كانت فى حالة صلاة.. فتاة فى حوار مع وردة.. فراشة تتعانق وزهرة فى ايقاع يتغير بتغير الحالة الانفعالية يشمله حس صوفى عميق يعطى أبعادا روحية للوحات.. وتبدو الوجوه بملامح القديسات.

وألوان الفنان فى هذه الاعمال تبدو أكثر رصانة.. حيث أخذ من القرية المصرية الأسود والرمادى اللذين يندمجان مع الأزرق المدخن والاحمر النارى والأصفر والاخضر.. فى تراكيب لونية أقرب الى البريق المعدنى المؤكسد.

القدس وشهادات الغضب

تمثل لوحات عدلى رزق الله «شهادات الغضب» و«القدس» معادلا لعالمه الفنتازى فعدلى الذى صور حديث الفراشة للوردة هو نفسه الذى شكل هذا العالم المأساوى المسكون بقوة التعبير والذى يدين الغشم والجهالة ويؤكد تلك الروح العالية للمقاومة. ورغم ان الاعمال هنا تنتمى لاواخر الثمانينات فإنها تعكس لما نعيشه الان من انتفاضة الاقصى.. واغتيال الطفولة البريئة متمثلة فى محمد الدرة وسارة.. وهذا يقودنا الى استشراف الابداع التشكيلى للأحداث.. لقد أبدع لوحاته فى هذا الاتجاه بعيون زرقاء اليمامة.

فى لوحة الأب والابنة «١٩٨٦» تطل العيون مسكونة بالفزع والخوف وتهرب الابنة الى حضن الاب بذراعين مشدودتين.. هنا يمتزج الوريد بالوريد ويتوحد الاب والابنة فى كتلة واحدة تحلقها



لوحة من مجموعة الأم لعدلى رزق الله

حركة الاذرع الدائرية والتى تعكس فرط التماسك والمقاومة.

وفى تكوين من ثلاث لوحات يصور عدلى كيف يحبل الانسان من الألم والخوف فيلد جنينا مشوها يحمله فوق رأسه.. وفى النهاية يحتشد ليقذفه.. هنا يعبر بنا الفنان حاجز الخوف.

وفى لوحات الاقصى تطل الاشلاء فى شموخ .. تقاوم وتقاوم.. هذا الجرم الذى يسد السماء بمثابة آلة الحرب.. ويقف المسجد الاقصى بفتحاته شاهدا على جرائم تظل فى سجل التاريخ لا يغفرها الزمن.

وألوان الفنان يغلب عليها الاسود والرمادى مع الاحمر.. والازرق.. تموج بالمأساة.. مجللة بالحزن والسواد.

وأعمال عدلى رزق الله فى هذا الاتجاه تمثل وثائق إدانة تتوازى فى دراميتها مع ما نشهده من أحداث الان اضافة لقيمتها التعبيرية والابداعية.

تحية الى تلك السيمفونيات المرئية والتى عبرت بنا من حالة الى حالة.. من مرافىء الحلم الى آفاق الحزن والشجن.

تأملات من وحى الشعر الفارسى



د . عبده بدوى

١ – لا تسلك غير سبيل دراويش
الحانه
فهناك جماعات شغلوا بالأسرار
الفرحانه
فإذا أبصرتهم في الحلقات السكرانه
.. قطّره في بطن الكأس على كفك
تسعاً ، فإذا أتممت العشرة
فستنمو في ساحتك الخضراء الريانة
النشوة ، والأفراح المزدانه
وسيطلق كل في الوديان حصانه
ويرى رأى العينين جمانه :

٢ – ولتذكر أن الطين يقول لخزاف قد
قام ليركله ركلا
يا هذا خفف من ركلك
ولتعرف يا هذا المستعفي جهلا
أني قد كنت قديماً إنساناً مثلك
ولتذكر رأساً حمل التاج الوهاج
أو جمجمة لفقير محتاج
أو قبلة معشوق سارت خجلى ..
حتى لا تتدلى
حتى لا أنسى الصحبة والأولى
وكأني لم أبصرهم قبلا !

٣ – أيها العابس في وجه الحياة
المبتسم
والذي غضّن وجها ، ثم قلبا ، وارتطم
والذي لم يفتح الباب لوجه من نغم
والذي ألقى زقاقا يا نعات في ألم
.. هل ترى تذكر يوماً سوف تغدو فيه
شيئاً من عدم
أو شظايا من كؤوس مترعات حين
راحت تصطدم
ثم تلقى في تراب فوقه ألف قدم !

٤ – لا تقل لي : فيلسوف عاش في
قلب الصفا
وتراني في الليالي بعض وهم رفرفا
فأنا عمر حزين قال شيئاً ، واختفى



الأغنياء يقضون على الثروة السمكية

بقلم: مجدى نصيف

من الأشياء التى تزعج الانجليز، ما قيل عن قرب انقراض الوجبة الشعبية الشهيرة «سمك وبطاطس» FISH & CHIPS فكل ركن فى بريطانيا تجد فيه محل «سمك وبطاطس» تماما مثل محلات الفول والطعمية فى مصر. السبب، هو أن علماء البحار البريطانيين سجلوا تناقص أعداد سمك «الكود» الذى يستخدم فى هذه الوجبة .

هذا هو آخر مقال أرسله لنا الزميل العزيز والكاتب مجدى نصيف قبيل رحيله المفاجئ فى العاصمة البريطانية لندن .



والحقيقة أن هذا ليس هو حال سمك الكود وحده، بل إن كثيرا من الأنواع بدأ ينقرض من البحار والبحيرات والأنهار في العالم. ويعود هذا لسببين :

الأول : هو الصيد المكثف للأسماك والكائنات البحرية التي تؤكل بشكل عام .

والثاني : هو تلوث البحار والمحيطات بدرجة مخيفة .

استغلال ثروات افريقيا السمكية

وقد أصدرت «جمعية صيادي الأسماك المستقلة» بالسنغال تقريرا ملفتا للنظر، تقول فيه «إن قرية «مبور» جنوبي العاصمة داكار، والتي تبعد عنها بحوالي ستين كيلومترا، على الشاطيء الغربي لافريقيا ، لاحظوا أن الصيد بدأ يخف الى أن انعدم أخيرا، فبدأوا يتوغلون بعيدا عن الشاطيء، ولكن بقواربهم البسيطة الصغيرة نفسها، وعندما ترتفع الأمواج، يغرقون، والأخطر من الأمواج بكثير هي سفن صيد الأسماك المتطورة التي تطرح في البحر بالشباك الكبيرة. فبعد نقص الأسماك في أوربا وآسيا، بدأت هذه السفن تصل من فرنسا، وأسبانيا، وايطاليا، واليابان، وتايوان، ومن جمهوريات الاتحاد الفيدرالي السوفييتي السابقة، وبدأت تتجه الى الشاطيء الافريقي الغربي البكر، لتواجه الشهية المفتوحة للشعوب نحو الاسماك، خاصة والتقارير الطبية تقول أنها «أصح أنواع اللحوم» . وأعطت السنغال رخصا لثمان وسبعين «سفينة ترولر» للصيد على شاطئها الغربي، وتدر هذه الرخص دخلا على الحكومة السنغالية يصل الى ثمانية ملايين جنيه استرليني سنويا، هي أحوج ما تكون اليه. لكن المشكلة، أن سفن الصيد تدخل المنطقة المحجوزة للصيادين السنغاليين، وعندما تصدم أحد قوارب الصيادين الصغيرة، تخفي شخصيتها وتنكر مسئوليتها. وتخفي أسماءها بالطين، وتطفيء أنوارها وهذا يزيد من المشاكل التي يواجهها الصيادون الذين

لايرونها ليلا، وعندما تقع حادثة ما، لا تقف سفن الصيد بل تمعن في الهرب. وحتى في حالة الامساك بقارب منها يكون قد قام بحادثة. فان القارب يخرج من المشكلة بقوة المال التي تمتلكها الشركات. ويقول التقرير إن بحارة سفن الصيد يلجأون الي الرشوة، ويفسدون «حراس الشاطئ» وغيرهم .

إن حياة عديدين تعتمد على الأسماك التي انتهت من المنطقة، ويعتمد ٨٥٪ من أهالي السنغال الفقراء على الأسماك الصغيرة «السردين» «البساريا» ، فالملايين يعتمدون عليها ، لأنهم لا يستطيعون شراء اللحم.

ويعمل ٤٠٠ ألف في الصيد في السنغال، أى أنهم يشكلون حوالى ١٠٪ من السكان، والمشكلة أن السردين بدوره تنخفض أعداده وبسرعة، بسبب تدفق سفن الصيد الأجنبية على البلاد. فالسردين من الأسماك المهاجرة، أى أنها لا تولد وتنمو على الشاطئ الغربى للسنغال ، بل أنها تذهب وتجيئ مارة بالمياه الاقليمية، وتمر على موريتانيا قبل أن تصل الى شواطئ السنغال.

في موريتانيا

وقد عقد الاتحاد الأوربى اتفاقية مع الحكومة تسمح لاثنتين وعشرين سفينة صيد، بالصيد في المياه الاقليمية لموريتانيا، بكميات غير محدودة، والمستفيد الاساسي من هذه الاتفاقية بين دول الاتحاد الأوربى، هى هولندا، إذ قامت بتصنيع اسطول جديد من سفن الصيد الحديثة، طول الواحدة ١٤٤ مترا، وقادرة على أن تحمل سبعة آلاف طن من الأسماك في ثلاجاتها، وهى تقطع ٣٥ الف كيلومتر . ويعتبر هذا النوع أكبر سفن صيد جابت البحار والمحيطات، وبالاضافة الى ذلك بها أجهزة علمية حديثة للبحث عن الأسماك، والأهم من ذلك أجهزة أوتوماتيكية ترمى شباكا للصيد تمتد الى خمسة كيلومترات في المحيط.

ويعلن «الاتحاد الاوربى» أنه يحدد الدول الأعضاء كمية «الصيد» التى يستطيع كل منها أن يقوم به، إلا أن التقرير يقول أن شهية سفن الصيد الحديثة لا نهاية لها، إنها مفتوحة لدرجة أن أعداد السردين تتناقص من على السواحل السنغالية، مما يهدد حياة الملايين الذين يعتمدون عليها، صيدا وغذاء .

ورغم أن صيد السردين ممنوع كما تنص الاتفاقيات، فان السردين «المسكين» الذى تصطاده سفن الصيد الضخمة السريعة الحديثة، يعلب ويباع علنا بجزر الكنارى، وخاصة في لاس بالماس. وهذا ما يذكره «التقرير» انه يباع قبل أن تعود سفن الصيد وعلنا في المحلات.

وهكذا يستمر الغرب في استغلال ثروات افريقيا. ولا يبدو أن هناك حلا للأسماك التى تتناقص أمام الشواطئ الافريقية . لذا يطالب «مركز بحوث تنمية تقنيات الصيد الوسيطة» ، وهو منظمة غير حكومية أقيمت لحماية حقوق الصيادين الأفارقة في كل دول غرب افريقيا، بأن تتبنى كل الدول الشاطئية

بغرب افريقيا سياسة مشتركة متفق عليها، وتعقد اتفاقيات صيد فيما بينها. ويعتقد مدير المركز بداكار، الدكتور يوسف جيبى، أن الطريقة الوحيدة لأن تحمى القارة أهم ثرواتها ، هى «أن نعمل معا على أن يظل «رصيد» الأسماك لاينضب تحت أى ظرف من الظروف» . أما مطالبة حكومات دول غرب افريقيا الشاطئية بأن تنهى عقودها واتفاقياتها مع دول «الاتحاد الاوربى» وغيرها، فمسألة غير واردة. فالسنغال على سبيل المثال مديونة للبنك الدولى بحوالى أربعة ملايين دولار، والأموال التى تأتيها من عقود الصيد مصدر لا ينضب للعملة الصعبة. وقد صرفت السنغال عام ١٩٩٩، كخدمات للديون ٣٢٣ مليون دولار، أكثر من ٣١١ مليون دولار مما يدفعه «الاتحاد الأوربى» للقضاء على واحدة من ثرواته .

وازدادت الضغوط الداخلية على الصيد بشكل غير معقول فى السنوات العشر الأخيرة. فقد استمر القحط لفترة طويلة على منطقة «الساحل» مما أجبر أعدادا كبيرة من سكانها على الهجرة الى الشاطىء بحثا عن عمل وعن الطعام. ولجأ كثيرون منهم الى صيد الأسماك ليسدوا جوعهم، وزاد هذا من الضغط على كميات الصيد .

ولجأت سفن الصيد الأوربية الى المناطق الساحلية الافريقية البكر، لأن الأسماك تتناقص فى بحار العالم ومحيطاته. وتجرى محاولات عدة للسيطرة على الصيد الزائد عن حده، وانقاذ صناعة صيد الأسماك من الانهيار، لكنها فشلت على مدى العقود الثلاثة الماضية. فمئات الآلاف ممن كانوا يعتمدون على صيد الأسماك ، عاطلون الآن ويحاولون تغيير مهنتهم ومهنة آبائهم وأجدادهم ، أما الباقون فى المهنة فيصارعون ويبحثون عن حل لمشكلة تناقص الأسماك كغذاء، كان وفيرا. ففى بريطانيا لا يعمل الآن فى الصيد أكثر من ١٨ ألفا، ووصل هذا العدد منذ خمسين عاما الى ما يقرب من ٤٨ ألفا. ذلك فى الوقت الذى تقدمت فيه تقنيات الصيد، وتستطيع اساطيله أن تجوب كل محيطات العالم التى تغطى ثلثى مساحة الكرة الأرضية. وتختفى الأسماك الكبيرة مثل التونا والكود، وهى مع أنواع أخرى، على وشك الانقراض .

وقدمت وكالات الأمم المتحدة المتخصصة تقديرات حزينة عن الوضع منذ سنتين : فقالت إن نصف أسماك العالم قد استغلت بالكامل، وانه اذا أرادت البشرية للنصف الآخر أن يستمر، فينبغى أن توقف تلك سفن الصيد عن العمل، والا انتهى هذا النصف خلال سنوات. وتقول «منظمة الأغذية والزراعة» ـ الفاو ـ بروما ، التابعة للأمم المتحدة، أن ٧٠٪ من المصايد فى العالم فى حاجة الى تجديد وسيطرة.

التلوث

وصف العلماء الأوربيون مصايد بحر الشمال التجارية فى شهر يونيه ٢٠٠٠ (مجلة Nature العلمية الأسبوعية) عدد ١٠ أغسطس ٢٠٠٠) بأنها «خارج حدود الأمان البيولوجى» وان ٧٪ من المصايد فى شمال شرق المحيط الاطلنطى قد انخفض عدد أسماكها، أو أنه يواجه هذا

الخطر».

وتواجه الأنواع الكبيرة من الأسماك، خطر الانقراض بسرعة أكثر من الأنواع الصغيرة، فالأهداف الرئيسية فى الغرب للصيد الآن هى السردين والماكريل. لكن معظم الصيد من هذه الأنواع الصغيرة، لايذهب الى المستهلك، وانما الى مزارع الأسماك حيث تصبح طعاما للأسماك التى تربى بهذه المزارع. فمع تناقص الأسماك الكبيرة من البحار والمحيطات ، تصبح زراعتها صناعة كبيرة فى جميع أنحاء العالم الآن . وفى أسواق السمك بالغرب، تأكل شعوبها أسماك المزارع لأن الأسماك التى تنمو فى بيئتها الطبيعية أغلى. ويقدر خبراء المصايد أن استهلاك أسماك المزارع فى الغرب، سيصل الى الربع عام ٢٠٠٠. لكن المستهلك فى الغرب لن يلتفت الى هذا الأمر. فأسعار الأسماك ترتفع وتصل الى مستويات أغلى من اللحوم بأنواعها. وقد تغيرت الأنواع أيضا. لكن - حتى الآن - ليس هناك نقص فى الأسماك والكائنات البحرية التى يقبل الناس على تناولها .

ويذكر خبراء المصايد أن الأسماك فى مصايد أوربا تتناقص بسبب السياسات العلمية الخاطئة والمدمرة للاتحاد الأوربى على مدى العقدين الأخيرين فى القرن العشرين. فقد كان علماء البحار والمحيطات الأوربيون ينصحون بروكسيل كل عام، بأن تقوم بترشيد صيد الأسماك لضمان استمرار الأسماك بأعدادها الكبيرة. وكانوا ينصحون بروكسيل كذلك بتخفيض عدد سفن صيد الاسماك فى أساطيل صيد كل بلد. لكن بروكسيل تجاهلت هذه النصائح ، فكان ما كان .

ويعترف وزير المصايد البريطانى إليوت موركى(تصريح لصحيفة ذى جارديان اليوميه البريطانيه يوم ١٣ أغسطس ٢٠٠٠) أن السياسيين الأوربيين قد فشلوا فى الماضى، فى منع تناقص الأسماك من البحار والمحيطات، لكنه أنكر اتهام بروكسيل لبريطانيا بأنها كانت أسوأ من استغل ثروات البحار والمحيطات السمكية. وتقول الأرقام والاحصاءات التى تقدمها بروكسيل ان لندن قد التزمت عام ١٩٩٧، بتخفيض عدد سفن اسطول صيدها بنسبة ١١٪ ، لكن أرقام هذا العام تقول أن هذا الخفض لم يحدث الا بنسبة ١٪ فقط. لكن الوزير البريطانى يقول أن الحكومة البريطانية صرفت ٥٠ مليون جنيه استرلينى لتخفيض أسطول الصيد بهذه النسبة. لكن هناك مسائل أخرى تلعب دورا فى الحفاظ على أعداد الأسماك منها : التحكم فى حجم فتحات شباك الصيد، وعدد أيام الصيد لكل سفينة صيد، واستخدام الأقمار الصناعية لتقديم المعلومات المطلوبة.

لكن قوميسار المصايد ببروكسيل فرانز فيشلر، غاضب لأن المحادثات بين ١٣ دولة من دول «الاتحاد الأوربى» للاتفاق على «كوتا» أسماك لكل منها، قد فشلت. وقال ساخرا :

«تقدم تقنية صيد الأسماك فى السنوات الأخيرة جعل من الممكن اصطياد الأسماك المتبقية فى البحار

والمحيطات.. بسهولة بالغة» (تصريح لصحيفة ذى تايمز اليومية البريطانية يوم ١٢ أغسطس ٢٠٠٠)انخفض اعداد سمك «الكود» الذى ذكرناه فى بداية مقالنا، فى بحر الشمال، حتى أصبح عشر ماكان عليه من ثلاثة عقود، وهذا النوع مهدد الآن بالانقراض فى أى وقت، ورغم أن المخصص لبريطانيا عام ٢٠٠٠ هو ٣٤.٣٠٠ طن، الا أن الصيادين لم يتمكنوا فى الستة اشهر الأولى الا من صيد ١٢.٢٠٥ أطنان السبب بسيط، وهو أن الصيادين البريطانيين لم يستطيعوا الحصول على هذا النوع من الأسماك، رغم أنه يورد لكل محلات السمك والبطاطس فى بريطانيا.

لكن «الاتحاد الأوربى» - بروكسيل - بدلا من أنه يواجه مشكلة انخفاض عدد الأسماك ويحلها، أطلق تصريحات «بأنه ليس هناك أزمة على الاطلاق» وطلب من أساطيل الصيد الأوربية الاتجاه الى الشاطىء البكر لغرب افريقيا، ليقضى على الأسماك التى تقتات منها الشعوب الافريقية الفقيرة. والاتحاد الاوربى يستمر بذلك فى استغلال الشعوب الأفريقية، فهو لا يحرمها الغذاء الرخيص الذى تعتمد عليه، ولكن يحرمها من فرص العمل أيضاً. أنها تنهى الثروة السمكية.

وسفن الصيد التى قضت على الثروة السمكية فى البحار والمحيطات، التى تملكها البشرية، ليست هى القوارب الصغيرة التى نراها فى الموانىء وعلى الشواطىء، وإنما سفن صيد عملاقة، مصانع - ثلاجات عائمة، مزودة بأجهزة رادار تساعدها على تتبع الأسماك باستخدام تقنية الأقمار الاصطناعية. فليس للأسماك مهرب.

وبطبيعة الحال يستغل «الاتحاد الأوربى» الثروات السمكية الأفريقية، ولا يضع أية خطة لاستعادتها وتجديدها. ويدفع مقابل ذلك ثمناً بخساً. إذ لا تحصل الدول النامية كلها (الشاطئية) على أكثر من ٧٠ مليون استرليني (حوالى ١١٢ مليون دولار بالأسعار الحالية) سنوياً للسماح لـ ١٢٠٠ مركب صيد عملاقة - أوربية - لأن تصطاد فى مياهها الاقليمية. ويدفع مبلغ مشابه لأصحاب السفن لملاحقة التطور وبناء سفن أكبر لصيد الأسماك.

وحجة بروكسيل أن هذا الدعم لحماية ٢٠ ألف وظيفة لصيادى الأسماك و٥٠ ألف وظيفة أخرى فى أحواض بناء السفن الأوربية.

المشكلة عالمية

المشكلة عالمية من اليابان إلى الولايات المتحدة. لكن الدول الغنية هى التى تبنى سفن الصيد العملاقة التى تأوى ثلاجات ضخمة، تمكنهم من التوغل بعيداً فى أعماق البحار، ولاتذهب إلى موانىء بلادها إلا لتفريغ حمولتها، ثم تعود مرة أخرى؟ التى تصدر إلى بلاد بعيدة، بل وتباع بأغلى الأسعار فى أسواقها المحلية، لأنه لم يعد من الممكن صيدها فيها.

وتقول أرقام بروكسيل هذا العام ٢٠٠٠، أن نصف الأسماك التى تباع حالياً فى الأسواق الأوربية، مستوردة.

السبب هو تناقص الأسماك فى البحار الأوربية. واشترى الاتحاد الأوربى حق صيد سفن دوله فى ١٤ دولة أفريقية، وتبغى بروكسيل المزيد. ويدخل «الاتحاد الأوربى» الآن فى منافسة شديدة مع أساطيل الصيد الروسية، حول الصيد فى المياه الاقليمية للدول النامية.

وتدعى بروكسيل أن الصيد فى المياه الاقليمية للدول الافريقية، هو امتداد الصيد فى مياه الدول الأوربية. لكن السخط يزداد سواء من الدول الضحايا أو من دوائر معينة فى بروكسيل، وخاصة العلماء الذين يدركون مايحدث ونتيجته، فالمغرب على سبيل المثال ألقت بكل سفن صيد الدول الصناعية، خلف مياهها الاقليمية، بعد سنوات من السماح لسفن الصيد الأسبانية، بالصيد فى مياهها. ودفعت بروكسيل «تعويضات» لأسبانيا، وقالت لأصحاب السفن الأسبان، أنها ستسعى للحصول على حق الصيد فى المياه الاقليمية لدول نامية أخرى! وردت شيلى على طلبات بروكسيل بإغلاق موانيها فى وجه سفن صيد دولها.

ويقول مدير «جمعية حماية الطيور والمصايد» البريطانية، الدكتور أيوان دان: «أن نصدر تناقص الأسماك فى بحارنا، الذى نعانى منه، إلى الدول النامية، إننا نحطم الثروة السمكية التى تملكها البشرية. فبعد أن ننهى الأسماك فى منطقة تتحرك إلى أخرى نقضى عليها. إن سياسة الصيد التى تتبعها بروكسيل غبية وسيئة ومسيئة للبشرية».

ويقول علماء البحار أن الأسماك متى انتهت من أحد المصايد، لا تعود إليها مرة أخرى. والدليل على هذا أسراب سمك الكود التى انقرضت من الضفاف الكبرى لنيو فوندلاند، بعد أن كانت من أغنى المناطق السمكية فى العالم. ورغم تحذيرات العلماء، لم تستجب الحكومات وانهار حال المصايد فى تلك المنطقة، وبدأت ثرواته السمكية تنضب. وصحت الحكومات عام ١٩٩٢، فمنعت الصيد، وتعطل بذلك ٤٠ ألفا من الصيادين والذين يتعيشون على بيع الأسماك، وترفض الدول تلك الموعظة.

وعندما ينقرض نوع من أنواع السمك، يتغير النظام الايكولوجى، ذلك أن هناك سلسلة من الكائنات تعتمد كل منها على الأخرى كغذاء. فعندما انقرضت سمكة «الكود» من بعض الشواطىء البريطانية، ازداد عدد «الجمبرى» لأن سمكة «الكود» تعيش عليها. وكان مصدر رزق للصيادين فى بعض الأماكن حيث يصطادونه بدلاً من «الكود».

مدن عــربية فى الأدب العــالمى

بــول بولـز

طنجة

مدينة لا تكف عن إثارة الدهشة

بقلم : محمود قاسم



ترى هل نعرف الأدباء العالميين، الذين عاشوا بيننا، بشكل يليق بقوة العلاقة بينهم وبيننا..؟

يطرح هذا السؤال نفسه بمناسبة الحديث عن الكاتب الأمريكي بول بولز.. الذى رحل عن عالمنا دون أن يأخذ حقه من المتابعة، باستثناء أخبار متناثرة فى بعض الصحف العربية، مما يتنافى مع قيمته الأدبية وعطاءه الطويل.

وبولز، هو واحد من الكتاب الذين أحبوا المدينة العربية، جاءوا إليها، وعاشوا فى أروقتها، وكتبوا عنها كما شاهدوها، والغريب أن هؤلاء الأدباء لم يصعدوا إلى أسطح البنايات، وشاهدوا السحب الرائعة تمر من فوق المدن، لكنهم توغلوا فى الدهاليز، قابلوا البسطاء، وتلاحموا مع الأماكن، وعزفوا كلماتهم فوق الورق لتكون شاهدة على المدينة.

وقد صارت المدن العربية دوماً بمثابة العشيقة الملهمة لكل من لورانس داريل فى تساعية الإسكندرية (رباعية الإسكندرية، وخماسية أفينيون) وأيضا أجاثا كريستى فى العديد من الروايات والبير كامى فى «الغريب»، و«الطاعون».

إلا أن الكاتب الأكثر التصاقا بمدينة عربية هو بول بولز.. فلم يأت إليها زائراً، أو وافداً لبضع سنوات، بل مقيما أبديا لأكثر من ثلاثين عاما، سكن فيها، ورقد فى مناماتها، وتركت بصماته الذكريات فوق حناياها، فألهمته رواياته، ومفرداته اللغوية، لدرجة أنه سُمى ب «الطنجاوى»، المدينة هى طنجة التى صارت قبلة أبرز أدباء العالم فى الستينات، وأصبحت الوطن له.

من بين الأدباء الذين جاءوا إلى طنجة. هناك جور فيدال، وترومان كابوت، وويليام بوروز، وتينسى ويليامز، وجاك كيرواك، وكلهم من الأمريكيين، لكنهم لم يكتبوا عن المدينة العربية بدرجة دهشتهم بها، لكن الأمر اختلف بالنسبة لبولز (مولود عام ١٩١٠) الذى لم يكن له أن يكتب كل هذه الروايات والسير الذاتية دون أن يتفاعل مع المدينة.

وبولز حالة خاصة فى الابداع المعاصر، فهو ليس رجل كلمة فقط، بل ذاعت شهرته كمؤلف موسيقى له العديد من المقطوعات الناجحة، كما ألف موسيقى للعديد من الأفلام والمسرحيات، وهو أيضا كاتب سيناريو، كتب الكثير من النصوص المسرحية وأخرجها، وأيضا كتب سيناريوهات لأفلام أخرجها اورسون ويلز، وجون هيستون.

لكن سحر المدينة العربية شده إليها، كى يترك الموسيقى جانبا، ينزرع فى

داخله الكاتب، الروائى، حدث هذا التغير عام ١٩٤٦ حين وصل إليها لأول مرة، واختارها ملهمته، ومقراً لإقامته. والغريب أنه لم يعرف كتابة الرواية قبل هذا التاريخ، فما أن حطت قدماه هناك ، حتى تفجرت ينابيع الابداع، ويقول الكاتب ان المدينة كانت بالنسبة له أشبه بالجنى الذى يخرج من المصباح. المصباح هنا هو المحيط الواسع، وقد أحدث التأثير نفسه قوته لدى زوجته الثانية جين التى أحبت المدينة وناسها، والتى عاشت بين عامى ١٩١٧، ١٩٥٨. وهى أيضا كاتبة عاشت معه حياته المليئة بالمغامرة، وهى بطلة روايته الشهيرة «شاى فى الصحراء» التى أخرجها للسينما برناردو برتولوتشى عام ١٩٨٩.

ولبولز العديد من المؤلفات المهمة، منها كتابه الاقرب إلى السيرة الذاتية «مذكرات رحالة»، و«كلمات غير مستحبة»، و«يوميات طنجية»، و«الليمون» ، و«المرأة الكبرى»، و«مقهى البلاج»، و«خمس نظرات»، و«شاى فى الجبل»، «أياديهم زرقاء» ، و«الدغل الأحمر» و«العقرب» و...

وتنبع أهمية بولز فى علاقته بالمدينة، إنه كاتب «حنينى» يشعر بالهوى الشديد تجاه الأماكن التى عاش فيها، والأشخاص الذين احتوتهم الأماكن.. نحن نحب الأشخاص لأنهم موجودون فى الأماكن نفسها... وهناك ظاهرة بالغة الغرابة بالنسبة لبولز، فقد ارتبط نفسيا، وأدبيا، بكاتب مغربى، لم يكن يعرف أى شىء عن الكتابة أو الأدب قبل أن يتعرف به، وصار كل منهما عين الآخر، وضميره، انه محمد مرابط، كما أن زوجة بولز قد ازدادت ارتباطا بالمدينة، عقب لقائها ببائعة بسيطة، فصارت خزانة ذكرياتها، مما يذكرنا بعلاقة مماثلة تولدت بين الكاتب الفرنسى جان جينيه ، والروائى المغربى محمد شكرى، حيث أقام جينيه السنوات الأخيرة من حياته فى المدن المغربية.

ولم يخف بولز ذلك الخطأ الذى وقعت فيه زوجته عام ١٩٤٧، بل راح يسجل تلك الوقائع فى روايته «شاى فى الصحراء»، فالزوج أصابته حمى فى الصحراء، وتعرف على أكثر من عاهرة. أما المرأة، فقد تركته بضعة أيام لتعيش مع سكان الصحراء، وعشقت واحداً منهم ، ثم عادت مرة أخرى إلى زوجها.. ويقول الكاتب إن المرء يرى فى الجبال التى تحوط طنجة سحراً يتدفق فى داخلنا، سحر الليل الذى يبعثه الموسيقيون والطبول التى تقرع، والكيف والرأس التى تدور طيلة الليل حتى يتلاشى كل شىء.

«عندما سمعت موسيقى الجهجوجا بالمصادفة قررت أن أتتبعهم إينما يعزفون، استغرق منى الأمر عاما كاملا. وأخبرتهم أننى كرست حياتى كى أتتبعهم .

وعن ذكرياته حول المدينة كتب بولز : «فى عام ١٩٥٨، جاءتنى رسالة هاتفية تقول: أنا آلن جنسبرج . شاعر البوب،

وسألني صاحب المكالمة إن كنت أدخن «الكيف» أم أكرهه. «إذا أردت أن تراه، فهو هنا لدى بيل بوروز» وجمع شاعر البوب كل أصدقاء الكتابة الذاتية. كانت الأوراق متناثرة فوق الأرض منذ عدة أشهر . وفي حنايا منزل بيل، رحت أتأمل هذه الأوراق القادمة من كل أنحاء الدنيا . وجمعها بيل منذ وقت طويل. لقد جمعتهم طنجة هنا، تيموثي لير الذى كان يقوم بتدريس أثر عقار «ل س د» على الناس وآخرين..» .

وبيل هو ويليام بوروز واحد من أهم كتاب تلك الفترة فى الولايات المتحدة.

عنوان .. بيت العنكبوت

وقد استوحى الكاتب عنوان روايته «منزل العنكبوت» من القرآن الكريم «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون» «العنكبوت (٤١)».

فى الرواية هناك رجلان يعيشان فى منزل، يقومان بيناته سويا، عمار، الشاب العربى الذى لا يعرف كلمة فرنسية واحدة، والكاتب الأمريكى ستنهام، وهو رجل متقدم فى السن، عاش منذ سنوات فى المغرب، لا يربط الاثنان أى علاقة ممنوعة. تدور الرواية فى مدينة فاس عام ١٩٥٤ . عندما اندلعت حرب الاستقلال التى شنها المغاربة ضد الاحتلال الفرنسى. «مدينة فاس موجودة دوما . لكنها كفت فيما بعد عن أن تكون المركز الفكرى والثقافى لشمال أفريقيا . وصارت مجرد مدينة»، وذلك كما كتب بولز عن المدينة عام ١٩٨٢، حين نشر روايته . وبطلا الرواية يسلك كل منهما حياته كما يشاء، كل له طريقه، وعندما يتقابلان معا فيما بعد، يكتشف كل منهما أنه فى حاجة للآخر. فالكاتب يشعل جذوة التأليف لدى عمار، وهو يتعلم كيف يفهم عقلية المغاربة».. لقد فهم أن المغاربة شعب يختلف عن الآخرين لكنهم يتشابهون مع المسلمين فى عقائدهم وعاداتهم .

وكما هو ملاحظ، فإن الكاتب هنا يسجل صداقته الوجدانية، والفكرية مع محمد مرابط، السابق الاشارة إليه، ويردد: «كتابة رواية عن الحياة فى فاس تثير الشجن. فلأكثر من عقدين، رحت أتابع نهاية الاستعمار الفرنسى للمغرب، وتابعت كيف تغيرت عادات الناس بعد حصولهم على الاستقلال. فصارت المغرب بلداً معتدلاً . هدفها الأول أن تصبح أكثر تطوراً من أوروبا».

فى عام ١٩٨٨، زاد الاهتمام الأوربى بإبداع الكاتب ، كأنه تم اكتشافه، مما فتح عينَى برتولوتشى على أهميته، وفى تلك الفترة، ترجمت كتبه المهمة ، ومنها «الدغل الأحمر» و«مذكرات رحالة»، وفى الأول تحدث الكاتب عن حقائب السفر التى تلازمه دوما . إنها جاهزة وراء الباب، مليئة ، متأهبة للسفر، عليها

بطاقات شركات الطيران، وفي احدى هذه الرحلات إلى كوستاريكا، عام ١٩٣٨، التقى بولز بزوجته جين، على رصيف محطة القطار. كان كل منهما محملا بالحقائب. وظلت هذه الحقائب شاهداً على علاقة الاثنين، تنتقل معهما من رحلة إلى أخرى، حتى استقرا في المغرب، لكنهما لم يكفا عن السفر، ولا يتحدث الكاتب عن الأماكن التي جمعتهما، بل أيضا عن أصدقاء الرحيل الذين التقوا بهم ثم افترقوا عنهم. وقد تميز الكاتب أنه كان يدون وقائع السفر في أوراق خاصة. «كم التقينا بأشخاص يزورون العالم، ولا يفكرون في العودة إلى أوطانهم. وكنت أقول لنفسي أنه لمن الممتع أن أستمع إليهم، وأعيش معهم، ثم أكتب عنهم».

حين تكف عن الدهشة

يتذكر الكاتب كيف تلقى خبر وفاة جون كينيدي عام ١٩٦٣، حيث أخبره شاب مغربي بالأمر، «تصورت أنه يلقي نكتة، فغضبت، لكنني سرعان ما أدركت الحقيقة، وقررت أن أتوقف عن الكتابة، وأن أعود إلى الموسيقى».

وفي «مذكرات رحالة»، يمارس الكاتب هوايته المتعة، أن يتذكر الماضي، وشخوصه وأماكنه، خاصة هؤلاء الأدباء الذين جمعتهم طنجة ذات يوم، منهم الرسام الكاتب بريان جيسين الذي أتى إلى هناك لمدة أسبوع، من أجل تسجيل الموسيقى المغربية الطقوسية، ورغم ذلك أقام جيسين في المدينة طوال ثلاثة وثلاثين عاما إلى أن وافته المنية، أما تينيسي ويليامز فكانت طنجة مزاره الصيفي كل عام، كما أتى أيضا كل الأدباء والذين ذكرنا أسماءهم فيما قبل.

وطنجة هي بؤرة العالم لدى بولز، ينطلق منها نحو الصحراء، ونحو مدن العالم الأخرى، خاصة تلك التي تتسم بالكوزموبوليتانية، (العالمية الأجناس)، يؤمها البشر من كل الأقطاب، مثل بانجوك، ولعل هذا يفسر سحر المدينة لدى الكاتب، فهي مدينة «لها هواتفها الداخلية، ويؤمن القادمون إليها بقدرة الشرق على السحر.. فالناس تؤمن أنه كي يعيش الناس سعداء، فإن عليهم التفكير دوما في الموت».

لذا فإن الكاتب راح يؤمن بأن عليه عدم التشبث بالحياة، وأن ينتظر.. فهو سعيد أن الناس ينظرون إليه كأجنبي، حتى يتمكن من البقاء داخل جلده.. وأن يجعله يستمتع بعادات الآخرين، بالدخول إليها، يرقص مثلهم، ويستمع إلى موسيقاهم، ويحضر حفلات طقوس السحر.. ويندهش.. ولا يكف عن الدهشة...

فعندما يكف الناس عن الدهشة... يموتون...

وهكذا مات بولز، رغم أنه لم يكف عن الدهشة.



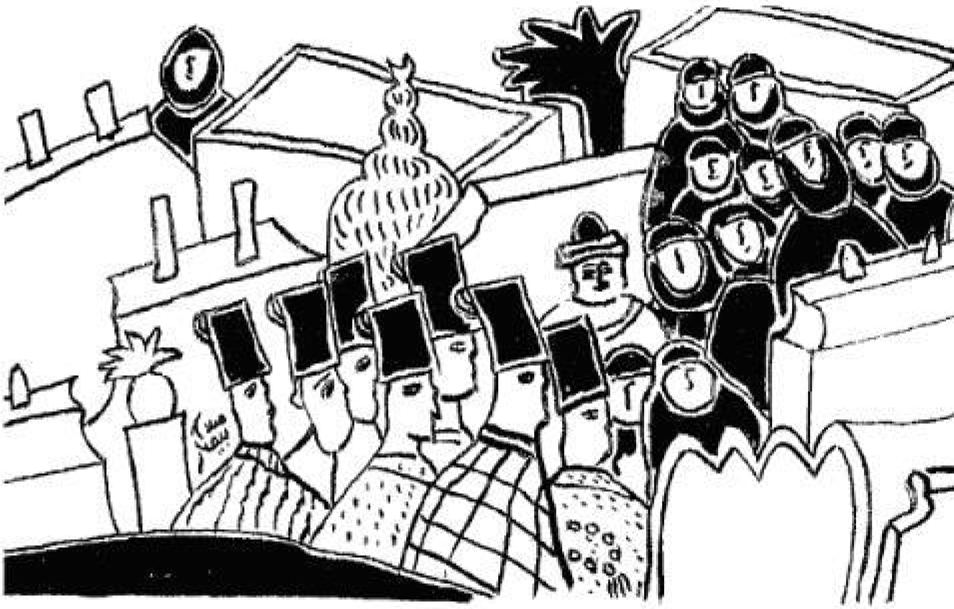
المكان فى الرواية

مدينة الأموات والأشباح أيضا

بقلم : محمود الورداني

رسوم : صلاح بيصار

من بين الفرجات الضيقة للألواح الخشبية المعمول منها الكوخ الصغير مائل السقف، كان بوسعى أن أرى الاشباح وهى تمر، وأسمع الأصوات فى الخارج. كنت أبقى قليلا فى حجرة الرجال حين نزور قبر أبى فى الأعياد، معى أعمامى ومن هم فى حكم أجدادى وربما بعض الشباب . هنا مقبرة النساء حيث يجلس الرجال، وعبر الفاصل الخشبى ذى الباب والنافذة التى كان يبهرنى شكلها الرقيق بمقبض أكثر رقة على كلا الوجهين ومكان مخروط خصيصا لوضع قلتى ماء، عبر هذا الفاصل مقبرة الرجال حيث تجلس النساء .



هذا هو المكان الأكثر بقاءً في الذاكرة والأشد إيغالا فيها. منه تشكلت البدايات الأولى، وكان مسرحا لعدد كبير من قصصي القصيرة، واستمرت علاقتي به حتى سنوات قليلة مضت، وكان مسرحا أيضا لمشاهد عديدة في بعض الأعمال الروائية التي كتبتها. هنا قرافة المجاورين في صحراء المماليك. جامع قايتباي ومجموعة السلطان برقوق ومقابر الشهداء معهم الاحياء وهم يتقدمون لغزو مدينة الأموات ويزاحمونهم ويعيشون فوقهم ـ فوقهم بالفعل ليس من قبيل المجاز.

حكت أمي بعد ذلك أنها كانت تصحبنا ـ أنا وشقيقي ـ في الأعوام الأولى لرحيل أبي ونقضي ليلة أو ليلتين مع أبي في المواسم والأعياد. ننام بجوار شاهد قبره داخل الكوخ الخشبي الذي يميز مدافن عائلة أبي وسط الشواهد الوحيدة المنتشرة في المدى .

مشاهد لا أنساها

لا أكاد أتذكر هذه الفترة التي تحكى أمي عنها للنسوة من صاحباتها فيما بعد. أما مشهد الرجال الجالسين على الطاولة الخشبية الممتدة على الحائطين الجنوبي والشرقي، بينما تحتل السحارة الناحية الغربية، فهو أول ما أتذكره من المكان. الرجال يجلسون إذن في الضوء الخفيف يرتدون بدلا وبعضهم مطربشين يدخنون سجائر «نبيل» و«شهير» من علب أنيقة ويتبادلون الحديث في أدب واحترام. يتحدثون عن موتاهم ويتذكرون نوادرهم.

يكون كل منهم قد دس العيدية في يدي وكلها تقريبا قطع فضية من فئة الريال أو نصف الريال أنا وشقيقي الأكبر، بينما شقيقي الثالث - الأصغر - هناك مع أمي لايفارقها قط .

قد أغافل الرجال منتهزا فرصة تغيير مقري، بآخر، واعبر الى الحجرة الأخرى، هي في نفس مساحة حجرة الرجال، غير أنها بلا مقاعد، لذلك فرشت على أرضيتها حصيرة تجلس عليها عماتي وبناتهن وبعض النسوة وحدهن بلا أطفال. كن يجلسن دائما غير مستريحات «بالجيبات» الضيقة والجوارب السوداء النايلون، يحاولن اخفاء ركبهن أو سيقانهن وعيونهن حمراء يتنهدن بصوت مسموع .

لم يكن هناك أطفال سوانا، فبقية أقربائنا لا يحضرون أطفالهم. أما نحن ، فلدينا من نزوره مع أمي، وهو ما حافظت عليه أمي معنا حتى كبرنا وخرجنا عن طوعها. كما أن عمي «أحمد بك» الذي كان حكمدارا للعاصمة قبل التطهير، قد اشترى مقابر جديدة في «المرج» بعد أن علم أن المنطقة بكاملها معدة للخروج في التنظيم، وسوف تصبح شوارع، ونقل اليها رفات ابنته التي قضت نحبها شابة ومعها احدى جداتها لتؤنس وحدتها في القبر. تلك كانت أقسى الضربات التي أصابت مقبرة العائلة، وانقطعنا أنا وأشقائي، ولم يعد أحدنا يوافق على اصطحاب أمي الا كل بضع سنوات، كما أن أغلب رجال العائلة ونساءها راحوا يتساقطون تباعا كأنما نفخ لهم في النفير.

مقابر لا تنتهي !

أتذكر جيدا ذلك الفضاء الخالي الممتد ترصعه الشواهد الحجرية المحتفظة ببقايا الاسماء، حيث بدت الدنيا كلها أمامي وكأنها مقابر لا تنتهي. وعندما كبرنا قليلا، كنا نهبط من الباص في الباحة الواسعة مع أمي. نركب أول ميعاد من شبرا ونهبط في الدراسة أعلى ذلك المرتفع المشرف على الطريق الذي كان تحت الانشاء . فيما بعد، سوف أعرف أنه طريق «صلاح سالم» غير أن النفق والتلال وكل ما يواجهك في المدى، كان في الصباحات الشتوية للأعياد ممتلئا تماما بحشود من النسوة والأطفال والرجال المتجهين للمقابر ، بينما بائعات الخوص والورد يتناثرون على طول الطريق .

لا يمكنني أن أنسى مقرئنا اسمه «الشيخ عُلما» صوته فاتن رخيم يقرأ لنفسه في الغالب، فهو لا يهتم بأحد على الرغم من أنه يعرف الجميع، فلا أحد يقرأ مثله، ولا أحد يرتدي عمامة حمراء، ملفوف طرفها بمنديل أبيض، نظيفا على الدوام. الرجل يتخاطفه قدامى الزوار الذين يعرفون قدره، وأظل أنا واقفا

أمامه منتظرا انتهاءه لأصحبه معي قبل أن يختطفه الآخرون .

هذا هو المكان الذى استقبلته حواسي أول الأمر . لم يكن هذا المكان يثير حزنا فقط. نعم. كنا نذهب الى أبى، عارفين أن روحه سوف ترانا، وسوف يكون سعيدا، بذهابنا لنعيد عليه. ربما كان يثير شعورا ما بفرحة اللقاء بأبى الذى غابت ملامحه تماما على مر الأيام، وربما كان يثير ايضا بهجة ما بلقاء كل هؤلاء الرجال الأنيقين برزانة والنسوة الجميلات ذوات الجوارب الشفيفة وهن يضممن سيقانهن جالسات على الحصيرة بفساتينهن السوداء الضيقة ووجوههن المحمرة من أثر البكاء .

سنة بعد سنة كان هذا المكان يستكمل ملامحه. شقوا شارع صلاح سالم، وفتحوا نفقا أسفله، وفقد الكثيرون رفات أسلافهم. لكن ما أذكره جيدا أن الأحياء كانوا يزدادون اقتحاما للمقابر. وبعد أن كانوا يحرصون قدر الامكان على التوارى فى سنوات طفولتي الباكرة، أصبحوا يتحركون بحرية ويتجولون هنا وهنا بعد أن ازدادت المحلات وباعة الخضراوات والفاكهة، وكادت تختفي تلك الرائحة الملازمة للموتى .

فيما بعد، وتحديدا فى عام ١٩٧٢ تم تجنيدى ، وبعد عام قامت الحرب، وعندما انتهت العمليات العسكرية كلفت بنقل الشهداء الذين يتوفون أثر جراحهم في المستشفيات الى مقابر الشهداء .. وهكذا عدت مرة أخرى الى ذات المكان بعد غيابى عنه قرابة خمسة عشر عاما .

× × ×

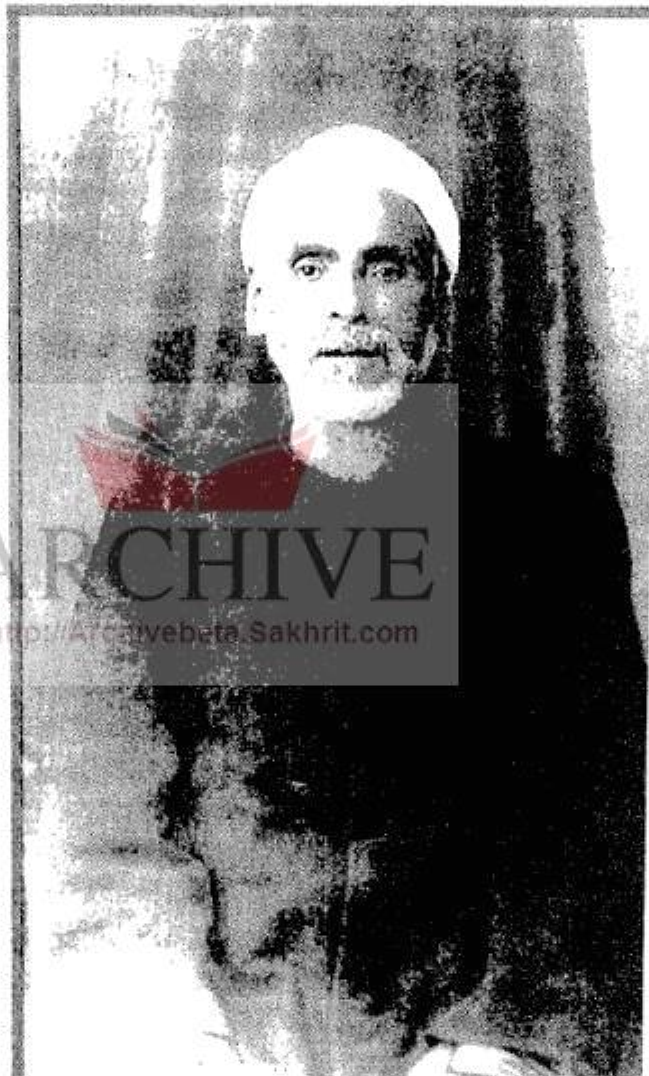
كان المكان قد تغير بالطبع، وكنت أنا قد تغيرت أيضا، ولم أعد ذلك الصبى الذى كنته، ولم أعد زائرا لروح أبى، بل مصطحبا لشهداء يجرى دفنهم أمامى وكانت مقابر الشهداء تبعد حوالي نصف كيلومتر عن مقبرة أبي. المذهل انني حاولت عدة مرات أثناء تأدية مهمتي كجندى التعرف على مقبرة العائلة وفشلت فى العثور عليها .

كان ثمة شوارع قد رصفت وعشرات المحلات قد اصطفت ومئات البيوت قد انشئت على نحو عشوائي.. باختصار توحش المكان وفقد ربحه الهادئة على الرغم من أن مجموعة السلطان برقوق وجامع قايتباى ما يزالان رابضين، غير أن التلال الشاهقة التى تشرف على منشية ناصر كانت تبدو أكثر توحشا .

هاهى العشوائيات بكل ما تمثله من تغيرات فى جسد مصر وروحها ايضا قد انتصبت قوية قادرة تمتلك جبروتا وبشاعة أعجز عن وصف .

وها أنا قد فقدت مكانى الأكثر ألفة واعزازا.

الشيخ طنطاوي جوهري والموسيقى العربية



بقلم :

د.فتحى صالح

- ١٦٤ -

لقد حظيت العقود الأولى من القرن العشرين بوجود العديد من العقليات الدينية والسياسية والأدبية المتفتحة الواعية التى أثرت هذه الفترة بما عرف فيما بعد بعصر التنوير . وقد كان على رأس أسماء هذه الفترة الإمام محمد عبده والزعيم مصطفى كامل والكاتب أحمد لطفى السيد. وقد كان من نتاج هذه الفترة أيضاً الشيخ طنطاوى جوهرى (١٨٦٢ - ١٩٤٠) الذى يعتبر مثالا فريداً للشيخ الأزهرى والعالم الشامل الذى يجمع فى علمه بجانب المعرفة الدينية من فقه وتفسير ، الجوانب الأخرى من علوم طبيعية مثل الفلك والنبات والجغرافيا ، انطلاقا من حبه للتأمل فى الكون وقوانينه كجزء من الدين.

وقد بلغت مؤلفات الشيخ طنطاوى جوهرى ما فوق الثلاثين كتابا ، أهمها تفسيره للقرآن الكريم والمسمى «بالجواهر» وكذلك كتاباه «أحلام فى السياسة» و«أين الإنسان» وهما كتابان يدعوان للسلام العالمى مما حدا بالحكومة المصرية للتقدم باسم الشيخ طنطاوى للترشيح لجائزة نوبل للسلام بناءً على ترشيح الدكتور مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم آنذاك والدكتور عبدالحميد سعيد عضو البرلمان ورئيس الجمعية العالمية للشبان المسلمين . إلا أن القدر عاجل أستاذنا حيث أن جائزة نوبل لا تمنح إلا لعبقرى يكون على قيد الحياة.

وقد كانت معرفة الشيخ محمد عبده بالشيخ طنطاوى عن طريق إطلاعه على كتابين نشرهما، أحدهما كتاب «جواهر العلوم» ثم قابله وأثنى عليه وقال : «فلنخرج كتبا شتى لا كتابين اثنين» وأما الزعيم مصطفى كامل فقد طلب مقابلة الشيخ طنطاوى وقال له «بمثلك ترقى الأمة» وهو أول من سمى الشيخ طنطاوى باسم «حكيم».

وفى هذا المقال نتعرض لأحد جوانب شخصية الشيخ طنطاوى الموسوعية عندما ألقى فى عام ١٩١٤ ثلاث محاضرات عن الموسيقى العربية فى الجامعة المصرية التى كان يعمل أستاذا بها ، وقد أوضح فى هذه المقالات إلمامه بقواعد الموسيقى وتاريخها بل والأهم من ذلك علاقة هذه القواعد بالمنظومة الكونية من فلك وميكانيكا ونبات وإنسان، وهو شىء يصعب تناوله إلا من عالم أزهرى متفتح عاش فى عصر التنوير فلنبدأ بنص المقالة

الأولى، والتي اختصرنا بعضاً من أجزائها التي تحتوى على مصطلحات موسيقية متخصصة كتبت للخاصة من علماء الموسيقى.

المقالة الأولى

الحمد الذى أحسن كل شىء خلقه . وأبدع نظامه . وأنق رونقه ووزنه بالتأليف. وزاوج كثيفه باللطيف . وزوق بالحساب تذكرة لأولى الألباب وجمع وفرق ونظم المؤتلفات فى نسق . فسرى حسابه فى الكواكب جاريات فى الغياهب متنزلة فى أضوائها إلى الأشجار فنطقت به الأطيار بنغمات منتظمات وألحان مبتدعات . وحروف وأصوات . على نسب بديعة. وأعداد سريعة. عرفها الفاخت والدراج . وأتبع الطير من الناس أزواج . فنظموا الأشعار مقدرات بمقدار نسب هندسية ومعادلات جبرية كما فى أعضاء الانسان وسقوط الأشجار بميزان والشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعت ووضع العالم فى الميزان . والظلال تتنبأ بقدر وكل كبير وصغير مستطر وضح الحق وانشق القمر وظهر النور وتجلت العبر . وسرت الموسيقى فى الماء المنهمر . فالتقت المختلفات على أمر قدر . وكل أمر مستقر.

الفلسفة

هى معرفة الأشياء على ماهى عليه فى نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية وهى إما علمية وإما عملية.

والعلمية ثلاثة أقسام: رياضيات - وطبيعيات - وإلهيات.

والعملية ثلاثة أقسام: الأخلاق - وتدبير المنزل - وعلوم السياسة.

وهناك نوعان من التعاليم تقدم عليها ومما إما فى الفكر وهو المنطق وإما فى اللسان وهو علوم الأدب.

فعلوم اللغات والآداب من صرف ونحو وشعر وغيرها وكذا الخط وما شاكل ذلك مما يتعلم بالبنان مقدمات للمعارف العقلية ومن المقاصد . ففى الإلهى خمسة أنواع : الأمور العامة - ومبادىء العلوم وإثبات وجود الله وإثبات الجواهر المجردة . وأحوال النفوس البشرية بعد الموت.

والطبيعى ثمانية مقاصد : الأمور العامة للاجسام مثل المادة والصورة والسماء والعالم والكون والفساد - الآثار العلوية - المعادن - النبات - الحيوان - الانسان - ثم العلوم الفرعية وهى عشرة.

والرياضيات أربعة . الارثماطيقى (علم العدد) والهندسة والهيئة والموسيقى . والهندسة علوم عشرة كعقود الأبنية وعلم المناظر والمرايا المحرقة وعلم جر الأثقال . وعلم الآلات الحربية. وعلوم البنقامات مثل الساعات وعلم الهيئة يتفرع عليه الزيجات-وعلوم التقاويم - وعلوم المواقيت - وعلم الأرصاد وعلم تسطيح الكرة وما شاكل ذلك.

علم العدد هو العلم الباحث عن خاصة العدد فى نفسه وعن نسبته إلى غيره.

علم الموسيقى وله أجزاء (١) النغمات وأحوالها ، (٢) الايقاع وهو اعتبار زمان الصوت، (٣) بيان تأليف الألحان وبيان الملائم منها، (٤) ايجاد الآلات الموسيقية

وتقديرها.

ويلخص مايقرأ في الفلسفة واحد وثلاثون نوعاً في المنطق تسع علوم، وفي الإلهي خمسة، وفي الطبيعي ثمانية، وفي الرياضي أربعة، وفي الحكمة العملية ثلاثة، وفروع هذه العلوم تبلغ نحو ٣١ علما وفروع الطبيعي عشرة وفروع الهندسة عشرة وفروع الهيئة خمسة وفروع العدد خمسة كالحساب المفتوح . حساب النحت والميل. حساب الجبر والمقابلة وحساب الدرهم والدينار.

فالأول الحساب العقلي والثاني بما يكتب والثالث معلوم والرابع لما لا يحل في الجبر فهذه الفروع لا يعتبرها الفيلسوف وإنما تعتبر مقدمات للحكمة غير مقصودة فيها لذاتها.

وموضعنا في هذه المحاضرة فن الموسيقى أحد العلوم الرياضية من علوم الفلسفة، وليس الغرض من هذا الفن أن نعرف صنعة الملاهي فقط، كما هو المتداول عند الجمهور، كلا وإنما فن الموسيقى عند فلاسفة الإسلام هو معرفة النسب وكيفية التأليف اللتان بهما وبمعرفتهما يكون الحذق في الصنائع كلها ومنها صنعة الغناء والملاهي التي سنذكرها في هذه المحاضرة ونلوح إلى غيرها . ومن شرف الموسيقى أن كل صناعة تعمل باليدين فان الهيولى الموضوع فيها إنما هي أجسام طبيعية ومصنوعاتها كلها أشكال جسمانية إلا صناعة الموسيقى، فإن الهيولى الموضوع لها كلها جواهر روحانية وهي نفوس المستمعين وتأثيراتها فيها كلها روحانية أيضاً، وذلك أن ألحان الموسيقى أصوات ونغمات ولها في النفوس تأثيرات كتأثيرات صناعة الصناع في الهيوليات الموضوعات في صناعاتهم، فمن أنواع المؤثرات تلك النغمات والأصوات التي تحرك النفوس نحو الاشغال الشاقة ومنها التي تحمل على الشجاعة في الحروب لاسيما إذا كانت بأبيات موزونات كقول القائل:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

ومثل قول البسوس المنقيرى :

لعمرى لو أصبحت في دار منقر
لما ضيم سعد وهو جار لابياتى
ولكننى أصبحت في دار غربة
متى يعد فيها الذئب يعد على شاتى
فياسعد لاتغرر بنفسك وارتحل
فانك في قوم عن الجار أموات

فكانت هذه الأبيات سببا لحروب تشيب من هولها الولدان. ولقد استخرج الحكماء من الموسيقى ألحانا تسمى المحزنة وهي التي ترق لها القلوب إذا سمعت وتبكى العيون وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب واخلاص السرائر واصلاح الضمائر.

ولحناً آخر يكسب النفوس الشجاعة والاقدام يقال له المشجع كان يستعمله قادة الجيوش في الحروب والهيجاء. ولحنا آخر كانوا يستعملونه في المارستان (دار المرضى) وقت الاسحار يخفف ألم الاسقام والأمراض على المريض ويكسر سورتها ويشفى كثيراً من الأمراض

والاعلال. وآخر يستعمل عند المصائب يسكن الحزن، وآخر يستعمل عند الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة مثل ما يستعمل البناءون والحمالون ونوتيو الزوارق وأصحاب المراكب . وآخر يستعمل عند الفرح واللذة والسرور والأعراس.

وقد تستعمل الألحان للحيوانات كالحداء للجمال والصفير للغنم والبقر والخيل عند ورودها الماء كلحن يغنى به عند حلب ألبانها. ولحن يستعمل عند صيد الطيور في ظلم الليل ليوقعها المغني به حتى تؤخذ باليد. وتستعمل النساء ألحانا للأطفال لتسكن البكاء وتجلب النوم.

فصناعة الموسيقى يستعملها كل الأمم ويستلذها جميع الحيوانات التى لها حاسة السمع، وأن النغمات لها تأثير في النفوس الروحانية كما أن لسائر الصناعات تأثيرات في الأجسام الجسمانية.

وعليه نقول أن الموسيقى هى الغناء والموسيقار هو المغنى والموسيقات آلة الغناء والغناء ألحان مؤتلفات واللحن نغمات متوازنة والنغمات أصوات مطربة موزونة والصوت قرع تحدث في الهواء من تصادم الاجسام بعضها ببعض.

النسب الموسيقية

إن من النسب الموسيقية ما هو فاضل وشريف ومنها ما دون ذلك . فمن النسب الفاضلة أن تكون النغمة مثل الأخرى سواء، وتكون النغمة الغليظة مثل الحادة ومثل ثلثها، وتكون مثلها ومثل نصفها، ومثلها مثل ربعها،! ومثلها ومثل ثمنها . فإذا استوت هذه الأوتار على هذه النسب الفاضلة ، وحركت حركات متواترة متناسبة، حدث عند ذلك منها نغمات متواترة متناسبة. حادات خفيفات وثقيلات غليظات . فإذا ألفت ضروبا من التأليف كما تقدم ذكره، صارت النغمات الغليظات الثقال للنغمات الحادات الخفاف، كالاجساد وهى لها كالارواح، واتحدت بعضها ببعض وامتزجت وصارت ألحانا وغناء. وكانت نقرات تلك الأوتار عند ذلك بمنزلة الاقلام والنغمات منها بمنزلة الحروف، والألحان منها بمنزلة الكلمات، والغناء بمنزلة الأقاويل، والهواء الحامل لها بمنزلة القراطيس ، والمعاني المضمنة في تلك النغمات والألحان بمنزلة الأرواح المستودعة في الاجساد. فاذا وردت تلك الألحان إلى مسامع النفوس، استلذتها الطباع وفرحت لها الأرواح وسرت بها النفوس . لأن تلك الحركات والسكونات التى تكون بينها ، تكون عند ذلك مكيالاً للأزمان واذرعا لها ، ومحاكية لحركات الأشخاص الفلكية . كما أن حركات الكواكب والأفلاك المتصلات المتناسبات هى أيضاً مكيال للدهور وأذرع لها . وأن كيل بها الزمان كيلا متساويا متناسبا معتدلا كانت نغماتها مماثلة لنغمات حركات الأفلاك والكواكب ومناسبة لها.

ذكر ملخص ما قاله الغزالى في الأغاني وتحليلها وتحريمها في كتاب الأحياء،

حلل الغزالى مسألة الأغانى فأطلق اباحتها وأورد من الأحاديث والأيات على جوازها أو وجوبها أو كونها سنة ما لا محل لذكره هنا ثم أفاد أن تحريمها لا

يكون إلا لعارض ولن يتعدى ذلك العارض إثارة الشهوات نحوها وإبراز ما كمن فى النفوس من حب الفجور وذلك كمثل ما إذا كان المغنى امرأة يشتهيها المستمعون أو إذا كانت الآلة من شعار المخنثين أو أهل الشرب وهى المزامير أو طبل الكوبه كما كان فى زمانهم.

العارض الثالث أن يكون القول محرما كالخنا والفحش والهجو.

العارض الرابع أن يغلب على المستمع الشهوات.

العارض الخامس أن يكون الرجل جاهلا أميا لا يميل به السماع لخير ولا لشر وقد اتخذه ديدنه، فذلك لهو ولعب وضياع وقت فليمنع ذلك فالمواظبة على اللهو جناية.

هذا ملخص ما قاله الغزالى فى الاحياء فى الجزء الثانى صفحة ٣٦.

اراء أفلاطون و فنلون الفرنسى وأحوال الأمة المصرية

قال أفلاطون فى الجمهورية : على الشعراء ألا يذهبوا مذاهب أهل الفجور واللهو لئلا يميلوا بالشعب إلى الخسار والبوار، وأن تكون أشعارهم مجلبة لفخار الشعب والشجاعة والعفة والحكمة وحب الوطن.

وقال فنلون الفرنسى فى كتاب تربية البنات : يجب أن تكون الموسيقى التى تباح للنساء مجلبة للسرور ومدعاة للفضيلة ومحبة الله عز وجل.

ولى كلمة فى الأمة المصرية وأغانيها. من العار أن يرى فضلاء الأمة وعلماؤها العامة يتخبطون فلتنظم الأغانى وليحظر على الشعب الأغانى المبتذلة فأغانى الأمة دليل شعورها وقولها دليل عقولها، وأن جلال موقفى وعظمة الجالسين تمنعنى أن أذكر ما تنفر منه أسماعهم من تلك الأغانى التى يعتادها الجاهلون ويستحلى مرعاها الغافلون. وإذا فرغنا من النغمات وما يلحقها فلنذكر طرفا من الموسيقى فى الشعر العربى.

النسبة الموسيقية فى الخط العربى

أصل الحروف فى الكتابات كلها فى أى لغة ولأى أمة أو أو بأى قلم وبأى نقش وان كثرت فان أصلها كلها الخط المستقيم الذى هو قطر الدائرة، والخط المقوس الذى هو محيط الدائرة فأما سائر الحروف فمركبة منهما . ألا ترى أن الألف قطر والباء والتاء والثاء ألفات أفقيات. وأجود الخط ما جعلت ألفه مقياسا ويجعل غلظها مناسبا لطولها بحيث يساوى الثمن وأسفله أدق من أعلاه، ويجعل الالف قطر الدائرة ثم تجعل سائر الحروف مناسبة لطول الالف ولمحيط الدائرة التى الالف مساوية لقطرها والباء والتاء والثاء مساويات للألف، وتجعل عرضها ثمن الالف المفروضة وتجعل الجيم والحاء والخاء كل واحدة منها مدته من فوق نصف الالف وتقويسه إلى أسفل نصف محيط الدائرة التى الالف مساوية لقطرها . والدال والذال كل منهما مساو لطول الألف إذا قوس وكل من الراء والزاى مساو لربع محيط الدائرة وهكذا على هذا

النمط .

النسبة الموسيقية في جسم الانسان

إن النطفة إذا سلمت في الرحم من الآفات العارضة ومن فساد الاخلاط وتغيير المزاج خرج الطفل من الرحم صحيح البدن تام الصورة وكل طول قامته ثمانية أشبار بشبره. من رأس ركبته إلى أسفل قدميه شبران . ومن ركبتيه إلى حقويه شبران . ومن رأس فؤاده إلى مفرق رأسه شبران . ومن حقويه إلى رأس فؤاده شبران. وما بين أصابع يديه إذا مدهما يسرة ويمنة كالطائر إذا مد جناحيه ثمانية أشبار النصف من ذلك عند ترقوته والربع عند مرفقيه ومساحة وجهه من رأس ذقنه إلى منبت الشعر فوق جبينه شبر وثمن، والبعد ما بين أذنيه شبر وربع وطول قدمه شبر وربع مساو للبعد مابين الاذنين في الوجه، وهكذا فكل عضو من الأعضاء بنسبة مقياسها الشبر على القدر الأكمل الأفضل فان الثمن والربع ونحوها من النسب الفاضلة وما عداها فردي في الموسيقى:

النسبة في الحجر ينزل من أعلى إلى أسفل

إذا سقط حجر من أعلى إلى أسفل الفيناء، في الثانية الأولى يقطع ١٦ قدما انجليزيا وفي الثانية الثانية نضرب هذا العدد في ٣ ثم في ٥ ثم في ٧ ثم في ٩ ثم في ١١ ثم في ١٣ وهكذا إلى مالا يتناهى . وهناك طريقة أخرى أن نعد الثواني ونربعها ونضرب المربع في ١٦ فيكون الحاصل ماقطعه الحجر جميعه فإذا مضت ثانيتان ضربنا ٢×٢ = ٤ ونضربها في ١٦ ثم ٩×١٦ ثم ١٦×١٦ ثم ٢٥×١٦ ثم ٣٦×١٦ وهكذا الا لتعجبون من هذا النظام العجيب في العوالم وكيف سرت الموسيقى في الشعر والغناء ونغمات الطيور وجسم الانسان ونزول الحجر .

النسب الموسيقية في رقاص الساعة

إذا كان رقاصان يهتزان وكانا أحدهما ٤ والآخر اثنين فان ذا الأربعة إذا اهتز مرتين اضطرب الآخر (٤) وهكذا ٣، ٩ وهكذا إذا كان أحدهما ٤ والثاني ١٦ فان الأخير يهتز أربعا والأول ١٦ بعكس الجذر في الجميع.

النسبة الموسيقية في الأجسام الطافية فوق الماء من قاعدة ارشميدس

كل جسم يطفو فوق الماء فان مكانه المقعر يسع من الماء بمقدار وزنه وكل جسمين طفو على الماء فان نسبة مقعر أحدهما إلى مقعر الآخر كنسبة ثقل أحدهما إلى ثقل الآخر، وهكذا النسبة في تركيب النبات من شجر ونجم مما يطول شرحه ولا يسع المقام تفصيله.

وهذا مما أرشد اليه فيثاغورس اذ قال أصل العالم الحساب وقيل أيضاً العالم موسيقى وقال الله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) وقال: (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم).

وقال (إن الله سريع الحساب) وقال: (الذى أحسن كل شيء خلقه) وقال:

(وكفى بنا حاسبين) وقال (.. وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين) وهذه هى الحكمة العالية.

على نفسه فليبك من ضاع عمره
وليس له منها نصيب ولا سهم

النسبة الموسيقية فى الافلاك

ترى حركات زحل والمشترى منتظمة إذ يجتمعان كل عشرين سنة مرة فى برج فإذا اجتمعا فى الحمل فإنهما يجتمعان بعد عشرين سنة فى القوس وبعد عشرين أخرى فى الاسد ثم يعود الدور فى هذه المثلثة ثلاث كرات، وتكون القرانات ١٢ مرة فى ٢٤٠ سنة ثم يجتمعان فى مثلثة أخرى وهو الثور والجدى والسنبلة فى اثنتى عشرة مقارنة مثل ما تقدم فى مدة ٢٤٠ سنة، ثم يقترنان فى مثلثة أخرى كذلك فى الجوزاء والدلو والميزان وهكذا يتم الدور فى ٩٦٠ سنة وهو القران الأكبر ويتكرر أبدا وأمدا من يوم أن خلق الله السموات والأرض إلى أن يفنى العالم.

نوادر الفلاسفة فى الموسيقى

يقال إنه اجتمعت جماعة من الحكماء والفلاسفة فى دعوة ملك من الملوك فأمر أن يكتب جميع مايتكلمون به من الحكمة فلما غنى الموسيقار لحنا مطربا قال أحد الحكماء.

قالوا إن الغناء فضيلة تعذر على النطق إظهارها ولم يتعذر على النفس إخراجها فاخرجتها النفس لحنا موزونا فلما سمعتها الطبيعة استلذتها وفرحت وسرت بها فاسمعوا من النفس حديثها ومناجاتها ودعوا الطبيعة والتأمل لزينتها لئلا تغركم.

(قال آخر) .

احذروا عند استماع الموسيقار أن تثور بكم شهوات النفس البهيمية نحو زينة الطبيعة فتميل بكم عن سنن الهدى وتصدكم عن مناجاة النفس العليا.

(قال آخر) .

الموسيقار حرك النفس نحو قواها الشريفة من الحلم والجود والشجاعة والعدل والكرم والرأفة ودع الطبيعة لا تحرك شهواتها البهيمية.

(قال آخر) .

إن الموسيقار إذا كان حاذقا بصنعته حرك النفس نحو الفضائل ونفى عنها الرذائل.

(قال آخر) .

حكى أنه سمع فيلسوف نغمة القينات فقال لتلميذه امض بنا نحو هذا الموسيقار لعله يفيدنا صورة شريفة. فلما قرب منه سمع لحنا غير موزون ونغمة غير طبيعية. فقال لتلميذه زعم أهل الكهانة أن صوت البوم يدل على موت انسان فان كان ما قالوه حقا فان صوت هذا الموسيقار يدل على موت البوم.

(قال آخر) .

إن الموسيقار وإن كان ليس بحيوان فهو ناطق فصيح يخبر عن أسرار النفوس وضمائر القلوب ولكن كلامه أعجمى يحتاج إلى الترجمان لأن ألفاظه بسيطة ليس لها حروف تنعجم.

(قال آخر) .

إنما تشخص أبصار النفوس الجزئية نحو المحاسن اشتياقا اليها لما بينهما من المجانسة لأن هذا العالم من آثار النفس الكلية.

الموسيقى العربية

ومهمة المحافظة على التراث

أماني عبدالحميد

عقد مهرجان ومؤتمر الموسيقى العربية في أوائل نوفمبر الماضي.. وشاركت فيه ١٤ دولة بفرقها الموسيقية وباحثيها .

كما قدمت ألوانا من الموسيقى الأصيلة، انطلاقا من إحياء تراثنا الموسيقي.

والمهرجان بدوراته التسع قدم جديدا، حيث بدأنا نرى اهتمام الدول العربية بالموسيقى الشرقية من خلال ما يقدم في المهرجان، سواء هذه الأصوات الجميلة التي تكتشف أو هذه الموضوعات المهمة التي تناقش في المؤتمر، من خلال باحثين لهم دورهم البارز في التاريخ العلمي وتطور الموسيقى العربية.



وزير الثقافة ود. رتيبة الحفني وسمير فرج في افتتاح مهرجان الموسيقى العربية

في هذه الدورة تمت مناقشة ثلاثة محاور هي: - الموال في البلاد العربية أغاني ألعاب الطفل، كتاب الأغاني لابي الفرج الأصفهاني، وجاءت نتائج المناقشات لتؤكد على توجيه العناية بأغاني الطفل، ودورها التربوي المنشود، وتوظيف المادة الموسيقية العربية ايقاعيا ومقاميا، والتركيز على تشجيع ظاهرة الارتجال الغنائي.

أول مؤتمر للموسيقى

وقد عقد سنة ١٩٣٢ أول مؤتمر الموسيقى العربية كانطلاقة أولى للدراسات الموسيقية على أرض مصر مع بدايات الإذاعتين اللاسلكية الأهلية والحكومية النظامية وبشائر الفيلم الغنائي العربي.. وجاءت توصيات المؤتمر لتؤكد على ترقية الموسيقى العربية والاحتفاظ بطابعها، وحصر المقامات المستعملة في مصر بوجه خاص وترتيبها حسب اجناسها الأساسية ومقارنة المستخدم منها في مصر بما يستخدم في البلاد العربية . وفي عام ١٩٦٨ أي بعد عام

واحد من تأسيس فرقة الموسيقى العربية ، عقد المؤتمر الثاني «ببغداد» وأوصى بتنفيذ توصيات مؤتمر ١٩٣٢ وانشاء مجمع للموسيقى العربية على غرار مجمع اللغة العربية، وإصدار معجم لمصطلحات الموسيقى العربية .

وفى عام ١٩٦٩ انعقد المؤتمر الثالث فى مدينة «فاس» بالمغرب ، ثم دعت وزارة الثقافة المصرية إلى عقد مؤتمر رابع فى القاهرة في العام نفسه يتألف من أربع لجان كبرى تضم مائة عضو .. لجنة التعليم والثقافة الموسيقية ولجنة التاريخ والتراث والفنون الشعبية، ولجنة السلم والآلات والمقامات وضمت ١٩ عضواً منهم عبدالحليم نويره وفاضل الشوا وكمال الطويل ومحمد الموجى وأحمد فؤاد حسن، ولجنة التأليف والموسيقى المتطورة وضمت جمال عبدالرحيم ورياض السنباطى وعلى إسماعيل ومنير مراد ورفعت جرانه.

ثم توقف المؤتمر ليعود وينعقد عام ١٩٩٢ فى مهرجان حافل بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على انشاء فرقة الموسيقى العربية.

ويسرد لنا الأستاذ كمال النجمى فى كتابه «الغناء المصرى - مطربون ومستمعون» أن محمد عبدالوهاب عندما وجهت له الدعوة لحضور مؤتمر بغداد عام ١٩٦٨ اشترط ألا يسافر بالطائرة على أن ينتقل إلى «اللاذقية» بحرا، ثم تستقبله سيارة كبيرة تتألف من قاطرة ومقطورة تحتوى على سرير ومكتبة ومائدة طعام ودورة مياه وبها راديو وتليفزيون ومكتبه لتنقله برا إلى «حلب» ثم إلى الحدود العراقية ومنها إلى «بغداد». كما اشترط أن يجلس فى المؤتمر صامتا لا يتكلم ويكفى ان يلتقط مصورو الصحف والتليفزيون بعض الصور له ولمن حوله من أعضاء المؤتمر علما بأن ثمن تلك السيارة يصل إلى نصف مليون دولار آنذاك.

دراسات حول الموال

وقد نوقشت عدة بحوث فى المؤتمر حول الموال فى مصر والبلاد العربية. وفن الموال يعد نمطا غنائيا وقالبا موسيقيا ولونا عربيا متميزا ذا عراقة وأصالة كبرى فى تاريخ الفنون العربية، وقد استطاع أن يصل إلى أعماق الوجدان ويمس المشاعر والعواطف ويقدم صورة حقيقية صادقة عن طبيعة أحلام وأفكار الفئات الاجتماعية المختلفة للعالم العربى ، كما أنه يجسد عبقرية عربية فى التأليف الشعرى والموسيقى وفى الأداء الغنائى. وقد شهد مهرجان الموسيقى العربية التاسع عددا من الدراسات تقدم بها باحثون من بعض الدول العربية لتأريخ أصل الموال ونشأته وتطوره . ونحاول أن نلقى نظرة سريعة على أهم ما جاء فيها لمحاولة فهم هذا الفن الأصيل.



واحدة من الحفلات الموسيقية خلال المهرجان

أقدم الأنماط الغنائية

في بحث عن «الموال في الغناء العربي» رصد الأستاذ محمد الكحلاوي وهو باحث جامعي من تونس صلة الموال بتحولات المجتمع العربي عبر تاريخه الثقافي والاجتماعي والفني مؤكداً أنه من أقدم الأنماط الغنائية العربية التي ظهرت في المجتمع العربي منذ العصر الأموي في أشكال موسيقية مختلفة متحررة من الأوزان المحددة، ويذكر أن الموال من العناصر الضرورية لتحقيق الطرب في الوصلة الغنائية ، وذلك أن الجمل اللحنية في إنشاء المواويل العربية تتميز بارتكازها على السلم الموسيقي في درجاته المقامية الأساسية .

ظهور الموال ..

أكد الباحثون أن أول من نطق الموال هم أهل مدينة «واسط» بالعراق التي بناها الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٨٢ هجرية وجعلها داراً للإمارة..

وكما جاء في كتاب محمد بن اسماعيل شهاب الدين «سفينة الملك»

المنشور عام ١٨٤٢ بمصر أن أول بيت نطق به أهل «واسط».

منازل كنت فيها بعدك درس

خراب لا يصلح بها لا العزاء ولا العرس

فأين عينيك تنظر فيها الفرس

تحكم وألسنة المداح فيها خرس

فن الموال في مصر

ومن العراق انتقل فن الموال الى مصر التي شغفت به واتقنته إتقانها لأشكال الغناء الأخرى كالموشح والقصيدة والدور وليتخذ في اللغة العامية لغة رسمية له.. ويعد القرن التاسع عشر قرن ازدهار له لاقى صدى كبيرا في مجالس الباشوات والاعيان بالسرادقات والمقاهي الفنية.

كما ساهم مغنيون وموسيقيون كبار في تطويره وتوسيع دوائره ابتداء من الشيخ «عبدالرحيم المسلوب» مرورا بعبده الحامولي ووصولا إلى زكريا أحمد وصالح عبدالحي ومحمد عبدالوهاب والسيد مكاوي.

ويؤكد كمال النجمي في كتابة الغناء المصري مطربون ومستمعون» أن آخر من غنى الموال فأجاده وأطرب المستمعين هو المطرب محمد عبدالمطلب .

وقد برع في غناء الموال الأعرج الذي سمي بهذا الاسم لنظمه من خمس قواف متقابله بينها جناس لفظي تام إلا قافية واحدة منها لا تدخل في هذا الجناس ومن أمثال الموال الأعرج:

ليه الحبيب طال جفاه والحب داعي له

والدمع ع الخد يجري يوم وداعي له

ياهل ترى الهجر منه فيه دواعي له

حتى رماني بسهم اللحظ في نيران

وبرضه يحمل آساه والقلب داعي له

وفي دراسة للدكتور طارق يوسف بجامعة حلون عن «الموال في مصر» يوضح ان أهل الصعيد قسموه إلى نوعين الاول الموال الأحمر: حول الحماسة والحرب والحكم مثل:

في الوش صاحب حميم وفي الغياب تعبان

يابو براقش بتلبس كل يوم ألوان

توب الخداع انكشف لنا المخبى بان

وأظيرت يا نمر انيابك وأظفارك

قتالوا الثعبان مع الوبر لن ينفع الجربان

والثاني الموال الأخضر ويشمل الغزل والنسب ويمتاز برقة كلماته مثل: -

جات بسلة من التفاح قد فاحت

قمحية اللون معها أرواحنا راحت

من حب زمان نهديها اذا ارتاحت

يجيب لها قرطمية.. كلها لاحت

ويرى الباحث أن المصريين ينظمون

الموال على اختلاف مراتبهم سواء المتعلم منهم أو الجاهل ولهم من الأمثال والحكم ومعاني الوجد والصبابة روائع ومثال على ذلك.

يا واخد الرد أوعى يخدعك ماله
تحتار في طبعه وتتعذب بافعاله
حبل الوداد إن وصلته يقطع أحباله
تقضى عمرك حليف الفكر والأحزان
ويذهب المال ويبقى القرد على حاله

الموال في سوريا

يرى الباحثون أن أرض الشام لعبت دوراً في تطوير الموال من صفته الأساسية كفن أدبي يحتمل الاعراب واللحن إلى نوع من الغناء الشعبي الملحون.. ويصنف الموال السوري من حيث الأغراض واللون والصنعة.. فهناك الموال الابيض والزهري والاخضر والاحمر والعادي. أما الموال السائد في سوريا هو «الموال الشرقاوي» ويسمى أيضا «بالنعماني» أو «الزهيري» ولا يشترط في كلماته ان تكون فصيحة وأغلبها ينطق ساكنا غير معرب وباللهجة البدوية . ويتم الغناء بمرافقة آلة موسيقية كالناي أو العود والدربكة.. ومثال على ذلك.

يا منية القلب لو عاملت بالقانون
داويت قلبي بما يغني عن القانون
لك حاجب كلما أنظره ألقى نون
واللفظ أحلى من الطنبور والقانون

الموال في لبنان

أخذ اللبنانيون الموال وأدخلوا عليه بعض التغييرات واستخدموا لغتهم العامية ولطفوه ورققوه ووسعوا دائرة موضوعاته وأسموه «العتابا» وهي أغان يدور معظمها حول الحب وما يلاقيه المحبوب من عتاب ووصال وصدود وسهر وأرق.

ويروى بعضهم حكاية شعبية حول العتابا تقول إن فلاحا كان يقيم في جبل الأكراد وكانت له إمرأة جميلة اسمها «عتابا» رآها اقطاعي المنطقة فأحبها وانتزعها من زوجها ولم يستطع الفلاح استردادها أو كتمان غيظه فهجر قريته وغنى وهو في غمرة الألم:

عتابا بين برمي وبين لفتي
عتابا ليش لغيري ولفتي
أنا ماروح للقاضي ولا إفتي
عتابا بالثلاثة مطلقا

كما ظهر موال «العتابا» في فلسطين خاصة المناطق المتاخمة للبنان، كما ارتبط فن الموال بالأغنية الشعبية في تونس وتداوله الشعراء والمغنيون المنتشرون في الأرياف للتعبير عن المعاناة والأمجاد والافتخار بالشهامة والحكايات والملاحم والحكم والأمثال..



حرب الثقافة

تأليف: د. سمير سرحان

«حرب الثقافة» يضم الكتاب مجموعة متنوعة من المقالات الصحفية. يتناول بعض القضايا العامة الشائكة بجرأة وفي بعض الأحيان بسخرية لاذعة. للوهلة الأولى يتوقع القارئ الدخول في عالم ملئ بالصراعات الدامية والحوارات المعقدة لما يحمله عنوان الكتاب من دلالات. ولكن الحقيقة أنه ملئ بأوجاع وهموم تثقل قلب كل مواطن مصري وعربي، وتمس أوتاراً حساسة لواقع مرير أصبحنا نعيشه في مواقفنا الحياتية. في البداية يوجه الكاتب هجوماً شرساً على الأنظمة العربية الحاكمة لقيامها بدور في تفتيت العقل العربي وقتلها حلم المثقف العربي بمستقبل أفضل للأمة العربية وعرقلة قيامه بدوره القيادي الذي طالما لعبه خلال عصر التنوير، مما أدى إلى انعزال الفن والأدب عن حركة المجتمع، ودفع المثقف إلى أن يكون على هامش المجتمع وليس في مركز القيادة.

ويرصد الكتاب أوجاع أخرى تصيب قلب مجتمعنا، ويلقي الضوء على شخصيات لكل منها دورها المؤثر في المجتمع بداية بالموظف البسيط المطحون الذي لا يملك من الدنيا سوى التخلف والركود والعجز عن مواكبة ركب التطور السريع لعصر الكمبيوتر والمعلومات، أو عامل البناء العائد من دول الخليج ويحمل فوق كتفه مروحة أو تليفزيون ملون معتقداً أنه حقق المنى.

ثم يرتفع بنا الكتاب إلى مصاف رموز الفكر المعاصر في مصر ليسرد لنا تأملاته حول شخصيات أثير حولها جدال واسع أمثال يوسف إدريس، وفرج فودة، وغالي شكري فهو يرى أن «إدريس» حارب «الحال المايل» بأعماله الأدبية الخالدة «وفودة» حارب الإرهاب بدمائه وجرأته، و«شكري» بإيمانه بالحرية والتسامح إيماناً حقيقياً وقف أمام التعصب وضيق الأفق.

ويرصد الكاتب بعض أنواع التوتر الاجتماعي الذي أصاب مجتمعنا مثل انهيار الطبقة الوسطى وتحولنا إلى طبقة أغنياء يملكون اليخوت ويعيشون حياة البذخ والثراء الفاحش، وطبقة مطحونة تعيش تحت خط الفقر في المقابر والعشوائيات ودواوين الحكومة.

وفي النهاية يعتبر كتاب «حرب الثقافة» دعوة للقضاء على القيم الفاسدة التي اجتاحت مجتمعنا ولمكافحة فقدان الإحساس بالمواطنين لدى أغلب الشباب وينادي بالتمسك بلحظات البراءة والطهر في حياتنا.



مواقف النفرى بين التفسير والاستلهام

تأليف: د. يحيى الرخاوى
د. إيهاب الخراط

عن أحد أبرز متصوفة الإسلام «النفرى» جا هذا الكتاب لأستاذ علم النفس الشهير د.يحيى الرخاوى «المسلم» ود.إيهاب خراط «المسيحى» وهى محاولة جديدة وفريدة لاجتماع مؤلفين «قارئين مستلهمين» ينتميان إلى دينين مختلفين لقراءة نص واحد واستلهامه وتفسيره.

ومنهج الاستلهام الذى يطرحه المؤلفان هنا لا يقتربان من جزئيات النص ليحشرها فى قوالب لغوية أو علمية جاهزة مسبقا، قوالب لم تُعد لمفردات مثل هذه النصوص أصلا، ولا بمقدورها أن تستوعب مضمونها.

حيث يقوم الاستلهام بالتعامل مع النص القادر الواعد المفيد كوحى متجدد، باعتبار أن رسالة النص الخالد بمستوياتها المختلفة قادرة على تحريك ما يقابلها فى المتلقى، فى أحواله المختلفة، وأزمانه المختلفة، فيقرأها فعلا، أو قولا، أو إبداعا.

ولكن من هو النفرى، ذلك المتصوف الفريد؟

يذكر أحمد بهجت فى صندوق الدنيا بالأهرام «يناير ٢٠٠٠» أن النفرى عندما ظهر لفه غموض كغموض عصره، فنحن لا نعرف من هو ولانعرف لماذا لم يتحدث عن مصنفاته وأساتذته أو شيوخه، ومن نصوصه قوله:

«إذا ضقت ذرعا بدواعى نفسك فاسكن إلى زوجتك، فإن ضقت فإلى أهل علمك، فإن ضقت فإلى أهل معرفتك، فإن ضقت فسر فى الأرض، فإن ضقت فالزم بابى، فإن ضقت فيه فاصبر، فإن ضقت فيه فاصبر «كررها حتى قال» اصبر ينفتح لك نور».

وإذا كان هذا الكتاب يحتوى على تجربة مثيرة وجديدة فى تناول نصوص لعالم صوفى واستلهامها من قبل هذين الباحثين عن الحقيقة، فإنها تجربة يجب دراستها بعمق واستخلاص نتائجها، والاستفادة منها لجرأتها وجدتها.

وإذا كان هذا الكتاب المشترك الجديد قد ضم إلى أعمال يحيى الرخاوى الكاملة، فإنه بذلك يحمل معنى التكامل مع آخر، وليس فقط تكامل الأعمال مع بعضها البعض.



السطو الصهيوني على الموسيقى العربية

تأليف: فرج العنتري

هذه هى الطبعة الثانية عن الكتب المهمة عن الموسيقى العربية، وقد حرص المؤلف على تزويد الطبعة الجديدة بكل ما وجده من معلومات جديدة عن موضوع المحاولات الصهيونية للتسلل إلى تراثنا الفنى عامة والموسيقى بشكل خاص منذ وقت مبكر.

أورد المؤلف دوافع ومبررات الدور الرسمى لإسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء فى فترة حكومته الأولى من ١٩٣٠ - ١٩٣٣، حيث سهل ويسر لعقد المؤتمر الدولى للموسيقى العربية والذى شاركت فيه العديد من الدول الأجنبية والعربية، برغم الظروف السياسية الصعبة التى كانت تمر بها مصر فى ذلك الوقت.

ويرى الباحث أنه كانت هناك خطة صهيونية محكمة للاستفادة من هذا المؤتمر المهم.

وحول تعيين المؤلف فرج العنترى وكشفه للمخطط الصهيونى ضد الموسيقى العربية، جاءت فصول هذا الكتاب والتى اشتملت على:

● التخطيط الصهيونى لمؤتمر الموسيقى العربية سنة ١٩٣٢.

● مسح جنوب سيناء مصريين (عام ١٩٦٨ - ١٩٧١).

● الاختراق الإسرائيلى من خلال التسلل إلى مركز فنوننا الشعبية.

● نوبات الانتحال الإسرائيلى (ويقصد به بالذات انتحال بناء الأهرامات . انتحال تراث داود حسنى - انتحال آلة الهارب الفرعونية - قصة محاولات انتحال الفنانة ليلى مراد فى دنياها وآخرتها برغم اعتزازها بمصريتها وبدينها الإسلامى).

● فى أجندة موسيقى التطبيع يتناول المؤلف حكايات محاولات التطبيع فى مجال الموسيقى فى مصر وإسرائيل .

● روايته لما حدث لبعض فرق الموسيقى العربية وفرقة القاهرة للفنون الشعبية أثناء ذهابها إلى إسرائيل عام ١٩٨٢ وبأسلوب الاستقصاء، والبحث عن المصادر والمراجع والأدلة والوقائع يمضى فرج العنترى فى سرد كل المحاولات الصهيونية للسطو على الموسيقى العربية، من خلال الانتحال والتشويه والتداخل منذ الثلاثينيات حتى وقتنا هذا.



جمهور المسرح المصرى دراسة ميدانية

إعداد: نسرين البغدادى

هل المسرح .. نص .. أم جمهور ؟

المسرح نص جماهيرى ... فالجمهور محور أساسى ، حيث يملك استجابات عديدة متاحة ، حيث يمكنه أن يقبل على عرض ما ، أو يبتعد عنه .

وحول العلاقة بين الاثنين صدرت دراسة ميدانية باسم «جمهور المسرح المصرى» من إعداد المركز القومى للبحوث الاجتماعية ، أعدته الدكتورة نسرين البغدادى..

أهم ما فى هذه الدراسة هو أنها ميدانية توصلت فيها الباحثة إلى أن أكثر الفئات العمرية ارتياداً للمسرح تقع فى الفترة مابين ٢٠ إلى أقل من ٤٠ سنة . وأن الحالة الاجتماعية لأغلب المشاهدين أنهم غير متزوجين ، وأغلبهم من ذوى المؤهل الجامعى ، ومن أصحاب المهن العليا .

وخلصت الدراسة إلى أن أكثر من نصف العينة من الجمهور يتردد على المسرح بانتظام ، ويفضلون الذهاب للرؤية طوال أيام الأسبوع لاسيما الخميس .. والهدف الأشمل للمشاهدة هو التسلية، ثم حب المسرح .

وفى الدراسة إشارة إلى المعوقات التى تقلل من التردد على المسرح ، منها عدم وجود وقت فراغ ، وأحيانا ارتفاع ثمن التذاكر . وأرجع الجمهور سبب تفضيله للمسرح إلى الرؤية الحية به. بينما لم تجد الجماهير المعتادة على رؤية المسرح مشاهدة المسرحيات من خلال الفيديو .

وعن أهم عناصر المسرحية التى تعجب بها الجماهير، من خلال العينة صاحبة البحث ، كانت الفكرة التى تعتمد عليها المسرحية، ثم الأداء الجيد هما العاملان الأهم فى نسبة الإقبال على المشاهدة.

وجاءت المسرحية الكوميدية كأفضل نوعيات المسرحيات المفضلة عليها المسرحية الهادفة ، بينما تراجعت المسرحية الاجتماعية والسياسية، وعن أسعار التذاكر ، فإن الغالبية امتدحت فى مسرح الدولة، وكانت مواعيد العرض الملائمة هى أيضا لمسارح الدولة .

وقد طرحت الدراسة سؤالين مهمين :

١ - هل معاصرة جيل ما لأحداث تاريخية بعينها، كفيلة بأن تجعله يتلقى الفكرة بنفس قصد المؤلف..

٢ - هل اختلاف التأويل يؤدى إلى فشل المسرحية .



فؤاد صروف



انطوان الجميل

صحافة زمان

بقلم : وديع فلسطين

قبل شهرين تحدث عدد من زملائنا الصحفيين - وأقول زملاءنا على الرغم من أننى أنتمى إلى جيل سابق عليهم - عن تجاربهم فى الصحافة، وقد أوحى لى هذا أن أتحدث بدورى عن صحافة زمان التى عاصرتها واشتغلت بها منذ تخرجى فى قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى عام ١٩٤٢ وإلى أن وجدت نفسى خارج المهنة فى عام ١٩٥٢ بعد اعتقال لمدة ثلاثة أيام لا أعرف سببه حتى الآن وكان هذا فى حد ذاته كافيا لأنْ يقال لى إننى مغضوب علىّ من الثورة، مع أننى لم أكتب حرفا واحدا ضدها ، ولا هى مكنتنى من ذلك - حتى لو استطعت مع قوتها الباطشة - لأننى أصبحت فجأة بلا عمل صحفى أمارس فيه مهنتى التى تخصصت فيها وقمت بتدريس علومها فى الجامعة الأمريكية على مدى عشر سنوات وأصدرت ثلاثة كتب عن الصحافة وفنونها، ولعل فى هذا الحديث مايعرف ناشئة الصحافة بأحوالها فى النصف الثانى من القرن المنقضى .


أمين سمعان


جورجي زيدان


لويس جريس

الدراسة الجامعية للصحافة

عندما أنشئ، قسم الصحافة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في عام ١٩٣٧ كان يمثل وقتها أول معهد لتدريس علوم الصحافة على المستوى الجامعي في كل الشرق العربي. وارتأت الجامعة وقتها أن تستعين بالدكتور «لايل سبنسر» عميد كلية الصحافة بجامعة «سيراكوز» وله طائفة من الكتب المعتمدة عن استقاء الأنباء وكتابة المقالات. وهذا استعان بصحفي أمريكي محترف هو «لزلي نيكولز» الذي كان يراسل عددا من وكالات الأنباء الأمريكية والذي تولى رئاسة القسم بعد السنة التأسيسية الأولى. وكان من أوائل الأساتذة فيه الدكتور فؤاد صروف محرر مجلة «المقتطف» والأديب الصحفي سامي الجريديني وكان يحرر في مجلات «دار الهلال» والدكتور رياض شمس أستاذ القانون والمتخصص في قوانين الصحافة والحريات عموما. وكان منهاج الدراسة يركز طبعا على جميع فنون الصحافة التحريرية والإدارية، هذا إلى جانب تدريس اللغة الإنجليزية أدبا وبلاغة إلى حد الاتقان، والإلمام بفروع المعرفة التي لا غنى للصحفي عن مواجهتها في الحياة العملية، كالاقتصاد والمالية العامة والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، إضافة للغة العربية. وكان الأساتذة لايكتفون بما يلقونه علينا من محاضرات، بل يضيفون إلى ذلك دعوة عدد من الصحفيين العاملين في المهنة ليحدثونا عن تجاربهم. أذكر منهم على سبيل المثال نجيب كنعان سكرتير تحرير الأهرام، وجولد شتين محرر الإجبشيان ميل وإبرل محرر «الإجبشيان جازيت» ومصطفى أمين وكريم ثابت وغيرهم. واهتم القسم بصورة خاصة بالناحية العملية للصحافة، فكان الطلاب يحررون جريدة «القافلة» الجامعية، وهي جريدة أسبوعية مازالت تصدر حتى اليوم باللغتين العربية والإنجليزية ويحررها ويديرها الطلاب وكأنها جريدة عامة سيارة، فيكلف رئيس التحرير المحررين بتغطية أخبار الجامعة وإجراء أحاديث مع الأساتذة والطلاب بينما يكلف مدير الإدارة مساعديه لكي

يحصلوا على إعلانات للجريدة، وتتغير رئاسة التحرير والمحررون مع مجيء أجيال جديدة من الطلبة. وكنا، إلى جانب ذلك، نقوم بزيارات ميدانية إلى دور الصحف لمراقبة عمليات جمع الحروف وتنفيذ الصفحات والطباعة، وانتفعنا من محاضرة ألقاها علينا الدكتور سيد أبو النجا في إدارة الصحف .

وطبعا كان عدد الطلاب في السنين الأولى للمعهد قليلا جدا، أولا لأن الناس كانت تجهل وجود مثل هذا المعهد، وثانيا لأن الصحافة لم تكن تشترط للعمل فيها الحصول على شهادة جامعية في التخصص الصحفي، بل لم تكن تشترط الحصول على أي شهادة جامعية . فكان يعمل بالصحافة كثيرون ممن لم يعرفوا طريق الجامعة أصلا.

وكان رئيس الجامعة الأول الدكتور «تشارلس وطسن» يحرص على تدريسنا الفلسفة بنفسه وكان يقول لنا إن الجامعة وإن كانت تغطى فى برامجها جميع متطلبات الصحافة العملية، إلا أننا إنما نقدم إليكم مجرد مفاتيح بها تستطيعون ولوج كل مايعترض حياتكم من مستغلقات أو تحديات أو مشكلات .

وكانت مدة الدراسة ثلاث سنين، زيدت فيما بعد إلى أربع تنتهى بمنح الطالب درجة بكالوريوس فى الأدب مع التخصص فى الصحافة ولكنها شهادة لم يكن معترفا بها فى مصر، ولا كانت تهيىء حاملها للعمل فى الجهاز الحكومى، وإن كانت الجامعات فى الولايات المتحدة اعترفت بها منذ بدء منحها، وأتيح للدفعات الأولى من خريجيها متابعة دراساتهم العليا فى أمريكا، أما الدفعات التالية التى تزامنت مع الحرب العالمية الثانية - وكنت من أعضائها - فقد تعذر سفرهم بسبب الطوارىء الحربية.

وقد تخرج فى هذا القسم عدد من الصحفيين البارزين الذين شغلوا مناصب قيادية فى الصحف المصرية والعربية والأجنبية . أذكر منهم على سبيل المثال سمير دسوقى الذى عمل محررا فى وكالة «اليونيتدس برس» ثم صار أول مراسل عربى لمجلة «نيوزويك» فى الشرق الأوسط، ومنهم عبد القادر عبد القادر حمزة الذى تولى رئاسة تحرير جريدة «البلاغ» التى أنشأها والده وسميه عبد القادر حمزة باشا، ومنهم المذيعة اللامعة ليلى رستم، ورمسيس نصيف الساعد الأيمن ليوثانت الأمين العام للأمم المتحدة، ولويس جريس رئيس التحرير الأسبق لمجلة «صباح الخير» وأحمد زين ومحمد طنطاوى من مديرى تحرير صحف أخبار اليوم، ومحمد البيلى مستشار وكالة أنباء الشرق الأوسط وإميل سمعان من محررى دار الهلال ومن أصحابها السابقين، وعبد المنعم الزيادى ومشرقى عزيز من أركان راديو صوت أمريكا فى واشنطن والمذيعة المعروفة زينب الحكيم وخيرية خيرى المحررة بأخبار اليوم (وزوجة على أمين) ونوال المحلاوى مؤسسة مركز الأهرام للترجمة والنشر، وأمينة شفيق المحررة بالأهرام وحسن فؤاد من كبار محررى الأهرام وبولس عبد

الملك الذى التحق بالسلك الدبلوماسى الأمريكى وعمل مستشارا صحفيا أمريكيا فى عدد من العواصم العربية، والدكتور حسنى خليفة وهو أول من أنشأ وكالة مصرية للأنباء ومنرفا عبيد محررة مجلة «الطالبة» وغيرهم وغيرهم.

العمل فى توزيع الأهرام

وعقب تخرجى وانتهاء مرحلة الدراسة الجامعية، رغبت فى العمل فى الصحافة فتكرم أستاذى السابق فؤاد صروف بكتابة خطاب تقديم وتوصية إلى فريد بك شقير مدير جريدة الأهرام، وهو قريب له، ولم يكن للأهرام وقتها إلا مدير واحد ورئيس تحرير واحد وفوقهما صاحب الجريدة جبرائيل تقلا باشا، وبمجرد أن وقفت بباب مكتب شقير بك، وحمل الساعى خطاب صروف إليه، استدعانى لمقابلته مرحبا، وكان شابا فى حدود الأربعين من العمر، يوحى إليك بأنه أصغر من ذلك سنا، وهذا أحالنى إلى مدير المستخدمين، وهو شقيق أستاذ الفلسفة الكبير يوسف كرم، فأجرى لى امتحانا فى الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الانجليزية، وبالعكس، وصرفنى على أن يتم اخطارى بالتعيين بخطاب لاحق. وبعد أقل من أسبوع تلقيت من الجريدة خطابا بتعيينى مفتشا بقسم التوزيع وكنت أتوقع أن يكون التعيين فى قسم التحرير. ولكننى اعتبرت أن هذه مجرد خطوة للانضمام إلى صرح الأهرام. أستطيع بعدها الانتقال إلى قسم التحرير .

إدارة الأهرام من الداخل

ولكى أعطى القراء فكرة عن إدارة الأهرام فى ذلك الوقت فقد كانت تحتل عمارة بنية اللون فى حين كان التحرير يحتل عمارة رمادية اللون فى شارع مظلوم باشا، وقد هدمت العمارتان أخيرا. وكان معظم العاملين فى الإدارة من الشوام الذين تخرجوا فى مدرسة الخرنفش . فهناك نقاش وحداد وشادى وضاهر وشدياق وحشيمة وعصفور وأنطى وصيقلى وبحرى وغيرهم . وكان يرأس إدارة الإعلانات يهودى اسم أدجمان، ولم يكن يعمل فى الإدارة من المصريين الذين يحملون درجات جامعية إلا ثلاثة هم صالح جودت وكان يعمل فى قسم الإعلانات «وكثيرون يزعمون أنه كان محررا فى الجريدة» وإسحق يعقوب الذى أصبح مديرا للحسابات وأنا. وحتى قسم التحرير لم يخل من الشوام فرئيس التحرير هو أنطون الجميل باشا، ومساعده عزيز ميرزا بك، وسكرتير التحرير نجيب كنعان ومن المحررين توفيق الصمالى وعادل يوسف وغيرهما.

توزيع الصحف

كنت بحكم عملى مفتشا فى قسم التوزيع مسئولا عن توزيع جريدة الأهرام نفسها وجريدة الجورنال ديجبت الناطقة باللغة الفرنسية لصاحبها إدجار جلاد باشا الى جانب نحو أربعين مجلة وجريدة تصدر باللغات العربية والانجليزية والفرنسية واليونانية.

وقبل إنشاء قسم التوزيع فى الأهرام وفى صحف (تحولت الأقسام بعدها إلى





المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء السابع والثلاثون

AL-MUKTATAF.

AN ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

شـركـات توزيع) كـانت عـمليـة توزيع الصـحف تتم من خـلال مـجـموعـة من المتعهدين أو المعلمين الذين تضخم نفوذهم بل بطشهم بحيث صار في إمكانهم قتل أي جريدة أو مجلة . ومن الطريف أن من هؤلاء المتعهدين مطربا كان مشهورا وقتها اسـمـه مـاهر حـسن فـراج. وكـان من أساليبهم المألوفة تخزين كمية التوزيع بكاملهـا من مـجلة من المجلات، فـلا يعرضونها في السوق ليفسحوا المجال لمجلة منافسة تستأثر بالسوق كلها، وبهذا تموت مجلة وتروج أخرى، وهم يتقاضون الثمن سلفا .

وعندمـا أصـبـحت لهـؤلاء المعلمين إمبراطورية مرهوبة الجانب، قررت جريدة الأهرام - وتبعتها بعد ذلك صحف أخرى - أن تستقل بعملية التوزيع، فلقيت مقاومة شرسة من المعلمين ونشبت معارك عنيفة انتهت بانتصـار أقسـام التوزيع، بعدما صـمـدت واسـتطاعت أن تهـزم هذه الإمبـراطورية ، وبدأت أقسـام التـوزيع ترحب بتوزيع الصحف والمجلات الأخرى لتعوضها عن نفقاتها الضخمة ، كما أمكنهـا أن تتـحكم في عـمليـات توزيع «الأهرام» فـلا تتـعـرض لألاعيب المعلمين لحساب صحف منافسة.

ولوج الميدان الصحفي

وكنت بدافع من حاستي الصـحفيـة أتابع المجلات الكثيرة التي نوزعها، وبدأت أوافـيـهـا بمقـالاتي - ببلاش - لأن المهم بالنسبة لي هو تنمية هوايتي الصحفية وتحقيق شيء من الشهرة ولو في الوسط الصـحـفي . فكتبت في مـجـلات منهـا «الشعلة» لصاحبـهـا مـحـمـد علي حـماد و«رابطة الشباب» لصاحبها الروبي «وقد نسيت اسمه الأول» و«الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات و«المقتطف» لمحررها فؤاد صروف و«منبر الشرق» لصاحبها





على الغاياتي و«الراوى الجديد» لصاحبها محمود سمهان وغيرها وغيرها، وكنت إلى جانب هذا أزور أقسام التحرير فى الصحف الأخرى للتعرف على المحررين العاملين فيها، كما كنت أتردد على نقابة الصحفيين فى مقرها القديم بشارع قصر النيل وكان يحتل هذا المكان قبلا مقهى صولت المشهور الذى كان الشاعر أحمد شوقى يتردد عليه، واحتلت المكان الآن عمارة وهبة. إلا أن زياراتى للنقابة لم تلق منى ارتياحا، إذ كنت أرى الاعضاء يتسلون بلعب النرد «الطاولة» ويجلس بعضهم بالجلباب ويلتهمون السندويتشات وهم جالسون فى الباحة، وكان هذا الانطباع السيىء ينفرنى من عضوية النقابة فلم أتقدم لها إلا فى عام ١٩٥١ عندما عرفت أن العضوية العاملة شرط أساسى للاشتغال بالصحافة، مع أنه كان فى وسعى أن أتقدم للعضوية قبل ذلك بسنوات.

فى دار المقطم والمقتطف

وعندما تولى كريم ثابت باشا رئاسة تحرير «المقطم» خلفا لأبيه خليل ثابت باشا الذى استمر يزاول عمله فى الجريدة فيكتب مقالات الصدر اليومية، ويراقب شئونها الإدارية، دعانى للعمل معه، فرحبت بذلك بعدما استيقنت أن دون الانتقال إلى تحرير الأهرام خرط القتاد. فهناك جدار سميك بين قسمى الإدارة والتحرير ولا سبيل إلى عبوره، ولم أكن أعرف كريم ثابت باشا إلا من مطالعتى لمقالاته التى كان ينشرها فى الصحف، كما كنت قد قرأت كتابه عن الملك فاروق فى سلسلة «إقرأ» (وهو كتاب باتت دار المعارف تحذفه من قوائم مطبوعاتها تماما كما كان الشاعر محمود حسن اسماعيل يحذف ديوانه «الملك» من إنتاجه الشعرى) وكتبت وقتها كلمة عن هذا الكتاب فى

«منبر الشرق» .واستقبلني كريم باشا في مكتبه بترحاب ، وقال إنه يود أن يدربني على العمل في جميع أقسام الجريدة، في الترجمة، وفي استقاء الأنباء، وفي مقابلة المسئولين من مصريين وعرب ودبلوماسيين ومن تحقيقات صحفية، ومن حضور المؤتمرات الصحفية وما إلى ذلك. ولكن التدريب لم يشمل النشاط الرياضي أو أخبار الجرائم والحوادث .

ولا بأس أن أصف الحياة في دار «المقتطف والمقطم» في ذلك الوقت فقد كان مقرها يقع في شارع القاصد في حي عابدين، وكان الشارع يعرف قبل ذلك باسم شارع قولة، ثم صار يعرف اليوم باسم شارع محمد محمود باشا ، وكان مبنى الجريدة من طابقين، اختار خليل ثابت باشا أن يقيم مع أسرته في الطابق الثاني حتى إذا ما أستيقظ مبكرا توجه إلى آلة «التيكر» لقراءة أخبار العالم ثم متابعة الإذاعات الأجنبية توطئة لكتابة مقاله الافتتاحي . ولكن إقامته في هذا الطابق لم تستمر فانتقل إلى بيته في حي جاردن سيتي، وترك هذا الطابق للمحررين، ولكنه ظل يحضر الى الجريدة في ساعة مبكرة من الصباح ليطالع التلغرافات ويستمع إلى الإذاعات ويعكف على كتابة مقاله. وكان لصاحب الجريدة الدكتور فارس نمر باشا وهو الوحيد الذى بقي على قيد الحياة من أصحابها الأوائل، الدكتور يعقوب صروف وشاهين مكاريوس - مكتب في الطابق الثاني، ولكن مع تجاوزه التسعين من العمر اختار ركنا في مكتب في الطابق الأرضي لأنه لم يكن يشرف إشرافا يوميا على الجريدة ويكتفي بإعداد ملاحظاته على ماينشر فيها ويبعث بها الى المحررين . وعندى مقالات كتبتها وعليها تعليقات من نمر باشا بالقلم الرصاص . وكان مبنى الجريدة يضم في الطابق الثاني غرفة خاصة بمجلة «المقتطف» وهي مجلة علمية شهرية استمرت في الصدور ٧٧ عاما ، وتعاقب على رئاسة تحريرها الدكتور يعقوب صروف وفؤاد صروف وبشر فارس وإسماعيل مظهر ونقولا الحداد وسامي الجسري . وكان مكتبي في الطابق الثاني مع زملائي المترجمين، ويشاركنا في الغرفة فريد كامل وهو صحفي دقيق الحجم، كان قد بلغ الثمانين من العمر، يجيد اللغات العربية والانجليزية، والفرنسية إجادة تامة. ولكن إن كتب مقالا بتوقيعه اقتصر على الحرفين الأولين من اسمه «ف.ك» ولهذا بقي مجهولا من مؤرخي الصحافة ومن الأجيال التي جاءت بعد ذلك من الصحفيين.

وكانت في «المقطم» مثل الأهرام مجموعة من الشوام عدا نمر باشا وخليل باشا وكريم باشا ، منهم مكاريوس وقربة واليازجي وجميع الذين رأسوا تحرير «المقتطف» .وكانت الجاليات الشامية في مصر تمثل نسبة محترمة من قراء الجريدة فإذا توجهت إلى النادي الشرقي وهو نادي الشوام الذي كان يقع على ناصية شارعي سليمان باشا ومعروف وتحتل عمارة النصر مكانه اليوم - ألفيت جميع

رواده يحملون معهم «المقطم» التى كانت تصدر فى الثانية مساء لتدرك الموظفين وهم خارجون من مكاتبهم .

وطوال عملى فى هذه الجريدة وفى أقسامها المختلفة، بما فى ذلك اختيارى عضوا فى مجلس تحريرها وإدارتها لم ألمس أى دليل على الاتهام الصارخ الذى يوجه اليها دائما، وهو أنها الجريدة الناطقة بلسان الاستعمار البريطانى، وربما كان هذا الاتهام منصبا على تاريخ مبكر للجريدة، مثل الاتهام الموجه إلى الأهرام فى الفترة نفسها بأنها ذات هوى فرنسى «وكان مؤسساها رعية فرنسية» ومثل الاتهام الموجه إلى صحف الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل باشا بأنها ذات هوى عثمانى، ولكن الفترة التى عملت فيها فى الجريدة الى أن أغلقت وتوليت كتابة مقالاتها الافتتاحية اليومية بعد تقاعد خليل ثابت باشا، لم يكن للجريدة إلا هوى مصرى عربى . بل لقد كان دفاعنا عن العروبة صارخا لأن استقلال الجريدة عن الأحزاب السياسية جعلها خالصة للقضايا الوطنية والقومية، على خلاف الصحف الحزبية التى كان شغلها الشاغل المعارك الحزبية، وكنا فى ذلك الوقت ندافع عن «العروبة» وليس «القومية العربية» التى أصبحت مذهبا أيديولوچيا مزق العرب تمزيقا وجعلهم ينفرون منها.

إدارة المطبوعات

كانت الصحافة فى ذلك الوقت تابعة لإدارة المطبوعات فى وزارة الداخلية، ولم تكن هناك وزارة للإعلام أو هيئة للاستعلامات وهذه الإدارة هى المسئولة عن جميع شئون الصحافة، بما فى ذلك الرقابة على الصحف ـ عند فرضها ـ ومصادرتها إن نشرت شيئا لاترضى عنه الحكومة، وتعطيلها إن تورطت فى حملات عنيفة على الحكومة، وكنا فى الفترات التى تفرض فيها الرقابة، نجد مندوبا من الداخلية يحضر إلى مقر الجريدة ويطلع على كل مايعد للنشر فيها حتى الإعلانات، ويؤشر بعبارة «لامانع من النشر» على مايجيزه أما ما لايجيزه فإما أن يشطبه أو يحذف منه عبارات أو فقرات، وذلك بناء على التعليمات التى تصدر إليه من رؤسائه فى الداخلية .

وعند حضور الرقيب كنا نسأله عن الممنوعات، بدعوى أننا سنقوم من تلقاء أنفسنا بمحاذرتها ، ولكننا كنا فى الحقيقة نحتال على نشرها، فيتعرض الرقيب للمساءلة أو ينقل من عمله ويؤتى بسواه . وكنا نعتبر الرقيب أبغض شخص فى حياتنا، ولانريد أن نرى وجهه، وعندما عين الصحفى القديم المجاهد توفيق صليب مديرا لإدارة المطبوعات، عرض علىّ أن أعمل فى الأمسيات، الى جانب عملى الصباحى فى الجريدة ـ رقيبا على وكالات الأنباء والصحف الأجنبية، فقلت له: وهل تريدنى أن أصبح أبغض شخصية فى الوجود؟ إننى أمقت الرقابة والرقباء، فكيف أرتضى لنفسى أن أكون رقيبا، ورفضت عرضه.

اختطاف الصحفيين

كانت كل الصحف فى ذلك الوقت

مملوكة ملكية خاصة لأصحابها، وكانت بينها منافسة تصل أحيانا الى حد الضراوة والشدة، ولهذا كان أصحاب الصحف «يختطفون» أى صحفى يعمل فى جريدة منافسة إذا ارتأوا من متابعة نشاطه أنه يعتبر كسبا لها، وهكذا كان الصحفيون ينتقلون من جريدة الى أخرى بإغراء المرتب الأكبر مما أتاح للصحفيين أن يبرزوا بأسمائهم، فقد كانت المنافسة فى اختيار الصحفيين تعتمد على الكفاءة فى المقام الأول، وكان مصطفى أمين أكبر «خاطفى» الصحفيين المرموقين فجمع فى مؤسسته أبرز مجموعة من الشباب، تولت قيادة المؤسسة بعد ذلك.

المصادرة والتعطيل

كانت الصحف تتعرض للمصادرة بمجرد خروجها من المطبعة، فيهاجم رجال البوليس المطبعة وموزعى الصحف ويجمعون مايمكن جمعه، من أعدادها إذا مانشرت خبرا أو موضوعا لاترضى عنه الحكومة، فكانت الصحف تتقدم بمعارضة فورية على هذا الاجراء وفى صباح اليوم نفسه تنعقد المحكمة للنظر فى أمر المصادرة، وتقرر فى معظم الحالات الافراج عن الصحف لأن المخالفة المزعومة لاتبرر ذلك، فترفع جهات البوليس يدها على الكميات المصادرة، وتنزل الى السوق، أما إذا أقرت المحكمة المصادرة فهى إما أن تقضى بمصادرة المطبوع بكامله أو تقضى بتمزيق الصفحة التى تتضمن الموضوع المعترض عليه، فتعرض الجريدة فى السوق وفيها صفحة ممزقة.

وكان الصحفيون يحتجون على إجراءات الرقابة بأن يتركوا فراغا فى المكان الذى حذفت الرقابة موضوعه، فتظهر الصحيفة وبها مساحات بيضاء، حتى يدرك القارىء مدى تعسف الرقابة فى الحذف والتشويه.

أما تعطيل الصحف أى منعها من الصدور لأسابيع أو لأشهر، فهو قرار تصدره المحكمة استجابة لرغبة الحكومة إن وجدت له مسوغا قانونيا، ولكن أصحاب الصحف كانوا يحتالون على تعطيل صحفهم، بأن يستأجروا رخصة من أى صحفى يحمل رخصة لجريدة أو مجلة ثانوية، ويقومون بإصدار جريدتهم بالشكل والنظام نفسه وأسماء المحررين، ولكن تحت اسم آخر. وحدث غير مرة أن عادت الحكومة فعطلت هذا الإصدار الجديد، ولكن لتتكرر الحيلة باستئجار ترخيص آخر وموالاة اصدار الجريدة إلى أن تنتهى مدة التعطيل، فتعود إلى اسمها الأصلى.

ولأن الصحفيين .. رؤساء التحرير بصفة خاصة .. كانوا عرضة للحبس والسجن فى دعاوى صحفية، فكان بعضهم يستأجر شخصا لا صلة له، بالصحافة وينشر اسمه باعتباره رئيس التحرير مقابل مرتب يتقاضاه وهذا الشخص هو الذى يدخل السجن إذا ما أدينت الجريدة فى قضية صحفية .

هذه مجرد صفحة من سجل ضخم عن صحافة زمان، ولكن ما أصدق قول شوقى :

لكل زمان مضى آية
وآية هذا الزمان الصحف

كتاب
الهلال
يقدم

الهلوكست
بين التأكيد والانكار

بقلم
د. لويس عوض

يصدر
٥ ديسمبر ٢٠٠٠

روايات الهلال
تقدم

أشجار قليلة عند المنحنى

بقلم:
نعمات البحيري

تصدر
١٥ ديسمبر ٢٠٠٠

شهادة طفلة من الأمس

بقلم :صافى ناز كاظم

تاريخ محاولة إمتاع الطفل بالقصص والحواديت ، لعله تاريخ موغل فى القدم يصل حد بدء الخليقة. فلاشك أنه كان هناك منذ البداية طفل يبكى وتريد أمه أن تسكته أو تروح عنه، وكان لابد أن تغنى له أو تهمهم ، أو تدق له على ركبتها إيقاعا يهدهده . ولاشك ، كذلك، أنه كان هناك دائما صبى يسأل ليعرف، ويتمتع بالمعرفة، وتريد أمه أو أبوه أو حاضنه أن يشفى غليله بالحكاية أو القصة أو الحادثة أو الخرافة والأسطورة «المكونة من خيال يضاف إلى الحقيقة - «التى قد تكون حبة صارت قبة» - لابد ولابد ولابد، إذن فحكاية أن أدب الأطفال جديد ووسائل إمتاعه لم تكتمل إلا بظهور الكمبيوتر على الساحة سنة ٢٠٠٠، هى حكاية من بضاعة الأساطير.


كامل كيلانى


محمد فريد أبو حديد

لا أوافق الذين يقولون إن طفل اليوم أكثر وعيا وذكاء من طفل الأمس، وأن متطلبات تسليته وإمتاعه، بالإضافة إلى تعليمه وتربيته، تختلف تماما عن أطفال ما قبل الكمبيوتر والتليفزيون .. إلخ.. الطفل هو الطفل، لايزال محتاجا إلى الخيال والأحلام والتصورات الناعمة للشعر والمستحيل. وسأخذ نفسي نموذجا لطفل الأمس - «كنت طفلة سعيدة رغم يتمى المبكر بوفاة الأب سنة ١٩٤٤ وعمرى ست سنوات» - إزدحمت طفولتي، التي كانت في الأربعينيات، بالمتع الثقافية - «الثقافة هي التغذية اللذيذة بالمعرفة» - وكان من أهم مصادرها حكايات ستى - «جدتي لأمي» - وقصص كامل كيلاني، وكتاب قراءة الأطفال تأليف إحسان أبو زويع - «كانت مدرستي في روضة أطفال العباسية الملحقة» - ومجموعة «أولادنا» وبالذات : أول روايتين في أدب الأطفال العربي من تأليف الروائي الرائد محمد فريد أبو حديد وهما: «عمرون شاه» التي صدرت عن دار المعارف عام ١٩٤٨، و«كريم الدين البغدادي» التي صدرت عن نفس الدار عام ١٩٥٠، ثم «مملكة السحر».

★★★

مع حكايات ستى - التي كانت تجيد الوصف بالكلام والتعبير الصوتي - كنت بخيالي أرى شكل المكان وشبه الأشخاص وطعم الطعام وصوت الأصوات. وكان معيار نجاح ستى في الحكاية هو ذلك الأسف الذي كان يغمرني عند قولها: «.. فرغت الحدوتة». كانت هناك قصص صغيرة في حجم الكف، لا أعلم مؤلفها، لكنى تعلمت منها كلمة «فرسخ» في وصف العملاق الذي كان يقطع مسافات البلاد الطويلة بفرسخ أو فرسخين من ساقيه الضخمتين .كانت الكلمة غامضة بما يكفي، لتثير الشعور بالإعجاز، لم أعرف تماما ما هو طول «الفرسخ»، هل هو عشرة أمتار أم مائة أم ألف، ومع ذلك كان هذا الجهل هو بالضبط ما يعطى للكلمة الرنين الشيق الذي تعتمد عليه جاذبية القصة وإثارتها. هل كانت هذه القصص من مكتبة كامل كيلاني؟، لا أدرى لأنها لم تكن ملكي ، كانت ملك ابنة عمى التي تكبرني بخمس سنوات، تقرأ وأسمع منها، ولازلت أذكر بريق عينيها وهي تقول: «فرسخ» لم يكن هناك أى رسم مصاحب للتصورات صغيرة، لكن أية حاجة كانت بي إلى الرسم وإبنة عمى رسوم متحركة تجسد شخصها كل شيء، بأسلوب عرفت فيما بعد، عند دراستي للمسرح، أنه بريختاوى، أى من تعليمات المؤلف والشاعر الألماني برتولد بريخت. طبعا بريخت كان يأخذ مما هو كائن في خبرته ليوظفه، وهكذا كانت ابنة عمى تفعل من دون أن تعرف بريخت أو غيره في سنها الذي لم يتجاوز الثانية عشرة: كانت تدخل في الشخصية تؤديها ثم تخرج منها

راوية ومعلقة كاسرة لوهمي الذي صورها لحظة عملاقا ولحظة أخرى طفلا يأكله العملاق ـ بعد سلقه ـ مع فتة بالخل والثوم. وكنت أفرح عندما تخرج من ثوب العملاق لأنني لحظتها أكون قد إرتحت من الخوف اللذيذ قليلا قبل أن يتحول من لذيذ إلى حراق إلى مؤلم.

★★★

كان الجاذب الذي ينهضني كل صباح لأذهب إلى روضتي هو ذلك الكتاب المهيب ذو الجلدة الخضراء السميكة، وكان يبدو لي ضخما ثقيلا، توزعه علينا المدرسة ثم تعود تجمعه بعد انتهاء القراءة لتحفظه لنا أنيقا نظيفا بعيدا عن عبث أقلامنا وألواننا. كنت أحب فيه صورة عصام الذي لبس طربوش والده وحذاءه والكلام الذي نقرأه: أنا الآن كبير مثل والدي لأني لبست طربوشه وحذاءه. كلما كانت الصورة كبيرة وطريفة، كلما كانت أقرب إلى قلبي وأحببت قصة الفارة ميكي وأولادها، ولعبة ترتيب حروف كلمة قبل أن نرفع الغطاء الملصق لنتأكد من صحة ما توصلنا إليه. كان الكتاب بهيجا طريفا مكتوبا بيد خطاط بخط نسخ كبير جميل «كل هذا في العام الدراسي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥» أما «عمرون شاه» و«كريم الدين البغدادي» للأديب محمد فريد أبوحديد ـ «الذي كان يشرف على إصدار مجموعة أولادنا، منذ عام ١٩٤٦، ومنها المؤلف والمترجم» ـ فقد قرأتهما بنفسي في سن العاشرة وسن الثانية عشر في طبعتيهما الأولى ذات الورق الخشن السميك واللوحات البديعة للرسام «ديك»، والتنسيق الأنيق، ولم أعتقد وقتها أنني سأجد في الحياة شيئا أمتع منهما. الأسلوب الطريف الشيق الذي يمزج الرقي بالبساطة، يسهب في وصف الطبيعة الخلابة من شجر وماء ـ وجبال وبشر ومخلوقات طيبة وأخرى مؤذية يرسمها الفنان «ديك» بإتقان جميل يتحدى خيالاتنا حتى أننا لا نعود نذكر القصة منفصلة عن لوحاتها، فعمرون شاه هو عمرون شاه كما صوره «ديك»، وكريم الدين البغدادي، هو الذي رأيناه في الكتاب، والمركب، والبحر، والشجر، والطائر المتوحش الضخم، والقصر والساحر والمسحورين. لم يزعجني في سلسلة «أولادنا» إلا الصور الباردة ذات الزوايا الحادة المدببة في كتاب «آلة الزمان» من الكاتب الإنجليزي هـ. ج. ويلز. أحيانا كنت في الحياة أقابل بشرا فأقول في نفسي هذا يشبه الساحر في قصة عمرون شاه، وهذه تشبه الرفيقة الجميلة «ميروت» في كريم الدين البغدادي، وتلك تشبه زوجة والد سندريللا القاسية، وأخرى تشبه ابنتيها الأنانيتين كما تم تصويرهن في «مملكة السحر» فكان الواقع هو الذي يشبه الفن. وكان الفن هو ما استدل به لفهم الواقع. إلى هذا الحد كان عمق تأثري بالأدب والفن الذي صاغه الظُرف من أجل الأطفال في طفولتي.

ذكريات جامعية



بقلم : د. عبدالعظيم أنيس

على غير ما اعتاد أساتذة الجامعات أتيح لى أن أعمل فى الجامعات الثلاث الأساسية فى مصر: جامعة القاهرة، جامعة عين شمس، وجامعة الاسكندرية .

لقد تخرجت فى كلية العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٤٤ ، وعندما سارعت جامعة الاسكندرية بتعيينى معيداً فى قسم الرياضيات كلية العلوم رحبت بهذا التعيين على الفور، وآثرت البقاء فى الاسكندرية، رغم أنه عرض عليَّ بعد ذلك بشهور فكرة تعيينى بعلوم القاهرة لكننى اعتذرت .

كنت مبهورا بمدينة الاسكندرية وجوها، بعد أن زرتها لأول مرة فى صيف ١٩٤٢ مع بعض أقاربى ومكثنا فيها شهرا. وكنت أيضا حريصا على أن أعيش مستقلا عن عائلتى فى القاهرة، معتمدا على نفسى فى تدبير شئون حياتى بدلا من الاعتماد على شقيقاتى اللائى أخذن مسئولية والدتى فى المنزل بعد وفاتها عام ١٩٤٠ .

والأهم من ذلك أننى كنت قد بدأت فى العام الأخير من دراستى بكلية العلوم بالقاهرة أتصل بعدد من المعيدين بالكلية، وعلى رأسهم عبدالمعبود الجبيلى وشكرى سالم وعبدالرحمن الناصر، الذين بدأوا فى تشكيل حلقات ماركسية لمناقشة الأوضاع فى مصر، وعلى وجه الخصوص الاحتلال البريطانى، والإصلاح الزراعى، نقابات العمال وتحسين أوضاعهم، وفى النهاية ضرورة الإعداد للثورة على الأوضاع الراهنة.

وازدادت قناعتى بهذه الافكار وقرأت عددا من الكتب الماركسية فى الاقتصاد والفلسفة والسياسة. وبدأت أنتظم فى حضور ندوات دار الأبحاث بشارع نوبار. وعندما عينت معيدا بالاسكندرية وجدتها فرصة سانحة لبدء حركة اشتراكية مصرية جديدة فى أوساط الطلاب الجامعيين والمعيدين. وأكد لى أصدقائى

من المعيدين أهمية بقائي بالاسكندرية لفتح جبهة نشاط سياسي مصرى فيها. وقد رشحت في سنوات ١٩٤٦، ١٩٤٧ لبعثات أجنبية، لكنى لم أذهب لأننى كنت آنذاك منهمكا فى العمل السياسى بالاسكندرية وكنت مقتنعا أن الثورة على الأبواب وأن المساهمة فيها أهم من الحصول على درجات علمية مثل الماجستير والدكتوراة.

محاولة اعتقال

والحقيقة أننى كنت منهمكا فى الاسكندرية في العمل السياسى فى الفترة ١٩٤٤ - ١٩٥٠، وتعرضت لمحاولة اعتقال فى يوليو سنة ١٩٤٦ ضمن حملة صدقى المشهورة، لكننى أفلت من الاعتقال وبقيت مختفيا بالاسكندرية حتى أفرج عن جميع المعتقلين بعد شهرين عندما عدت إلى الجامعة.

وفى مايو سنة ١٩٤٨ أصدر النقراشى أمرا باعتقالى ضمن آخرين عديدين، ومع أننى نجحت مرة أخرى فى الهرب إلا أننى وقعت فى المصيدة عندما ذهبت لحضور أحد الاجتماعات فى شقة بسيدى بشر، وكان المقيمون فيها قد اعتقلوا قبلى. وبقيت فى معتقل أبو قير عدة شهور ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل الهايكستب (فى طريق الاسماعيلية) ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور حيث بقينا فيه حتى الانتصار الانتخابى للوفد فى يناير سنة ١٩٥٠ فافرجت عنا حكومته الجديدة.

ولست معنيا فى هذا المقال بالحديث عن نشاطى السياسى بالاسكندرية فربما أعود إلى ذلك فى مقال آخر. لقد أردت فقط فى هذا المقال الإشارة إلى أننى عدت إلى كلية العلوم بالاسكندرية فور الإفراج عنى فى أول عام ١٩٥٠، كما عاد الكثير من المعيدين الذين سبق اعتقالهم مثلى، أو الذين كانوا أفلحوا فى الهرب، وأظن أن عددنا كان ثمانية أو تسعة. لكننا أحسسنا أن ثمة تقاعسا بالكلية عن تسليمنا العمل من جديد، ويبدو أن الفكرة التى سيطرت على قيادة الجامعة آنذاك هى نقلنا من الجامعة إلى التعليم العام، وأظن أن هذه الفكرة كانت تدور فى ذهن مدير الجامعة آنذاك صادق جوهر الذى كان معروفا عنه صلته الوثيقة بالسراى الملكية.

لكن طه حسين كان وزيرا للتعليم، وقد نجحت فى مقابلته وشرحت له الوضع، كما نجح آخرون فى عرض قضيتنا عليه، فجاء موقفه حاسما بضرورة عودتنا إلى كلياتنا، وهذا ما تم فى نهاية المطاف.

بعد الافراج عنى عام ١٩٥٠ كان تفكيرى قد تغير عما كنت اعتقدته عند تخرجى بالتفاؤل المبالغ فيه بقرب قيام الثورة الاشتراكية، قد انتهى بطبيعة الحال. لقد ظلت ثقتى فى أفكارى قائمة كما هى، لكننى أدركت لأول مرة أن الزمن سيطول قبل حدوث مثل هذا التحول الذى كنت أحلم به. وعلى هذا فلا بأس من بقائى فى الجامعة ومن الحصول على شهادة الدكتوراه، وهو شرط البقاء فى الجامعة.





جمال عبدالناصر



فؤاد محيي الدين

في لندن

وهكذا سافرت إلى انجلترا فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ والتحقت بالكلية الامبراطورية بجامعة لندن، ووفقت فى الحصول على الدكتوراة فى الإحصاء الرياضى فى سبتمبر ١٩٥٢ وعدت إلى مصر بعد قيام ثورة يوليو بشهرين.

وبالطبع لم أنقطع عن النشاط السياسى وأنا فى لندن . فأتذكر أننى أنشأت مع آخرين اللجنة الوطنية المصرية وكان من أعضائها الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبوزيد . وقد عقدنا اجتماعا ضخما فى النادي المصرى بلندن حضره مئات من الطلاب المصريين بعد حدوث حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢، وأعلنا احتجاجنا على الأوضاع فى مصر ضد الأحكام العرفية، وضد عزل حكومة الوفد، وأتذكر أن الدكتور عبدالحميد أمين (نجل الكاتب الكبير أحمد أمين) وقف فى الاجتماع مطالبا بتنازل الملك فاروق عن العرش.

كما أيدت هذه اللجنة (بعد دعوة أخرى للطلاب فى يوليو سنة ١٩٥٢) . ثورة الضباط خصوصا بعد قيامهم بإسقاط فاروق والإعلان عن نيتهم فى الإصلاح الزراعى.

عدت إذن فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ إلى مصر، وذهبت إلى الاسكندرية لاستلام العمل، لكن جامعة الاسكندرية لم يكن يبدأ العام الدراسى فيها إلا فى أواخر أكتوبر فى تلك الأيام. وهكذا أقمت فى القاهرة حتى تبدأ الدراسة فى الاسكندرية عندما حدث لى تحول مفاجىء.

اتصل بى الدكتور طلبة عويضة، وكان المدرس الوحيد فى قسم الرياضة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة، وأبلغنى أن رئيس القسم - الدكتور محمد مرسى أحمد (وزير التعليم العالى بعد ذلك أيام السادات) يريد أن يرانى. وكنت أرتبط

معه تاريخيا برباط الود والتقدير منذ أن كنت رئيسا للجمعية الرياضية الطبيعية وأنا طالب فى سنة البكالوريوس. وهكذا ذهبت إلي مقابلته بالكلية بالجيزة فإذا به يفاجئنى بعرض تعيينى فى قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة فى مكان طلبة عويضة الذى كان سوف يعار لجامعة بغداد. وعندما أبديت له شكى فى أن توافق جامعة الاسكندرية على ذلك ، قال لى: المهم أن توافق أنت واترك الباقى لى.

وبالفعل وافقت وأنا لا أصدق أن هذا سوف يتم، لكن قرارا من وزير التعليم بنقلى من جامعة الاسكندرية إلى جامعة القاهرة صدر بعد هذا اللقاء بأربعة أيام، رغم استياء جامعة الاسكندرية ومحاولتها تعطيل هذا النقل بعض الوقت.

أزمة مارس

استلمت عملى إذن مدرسا فى قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة فى أكتوبر سنة ١٩٥٢، وكانت سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٣، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ صعبة للأحداث السياسية التى وقعت فيها، ويكفى أن أذكر محاكمة خميس والبقرى فى كفر الدوار أمام مجلس عسكرى والحكم بإعدامهما وتنفيذ هذا الحكم الجائر، وأن أذكر الصراع الذى جرى بين رئيس الجمهورية محمد نجيب وبقية أعضاء مجلس الثورة، وموقف خالد محيى الدين فى هذه المعمعة، وكنا بطبيعة الحال نتعاطف معه، ومحاكمات الضباط التى جرت فى تلك السنوات، وما جرى فى أزمة مارس ١٩٥٤ .

ولقد بدا لنا - نحن أساتذة الجامعة - أن الحل الصحيح إزاء كل هذه الأحداث العاصفة هو فى عودة الحياة النيابية وحل مجلس قيادة الثورة وعودة الجيش إلى ثكناته. ووقع عدد منا مذكرة بهذا المعنى لرفعها إلى المسئولين.

وسافرت فى أول صيف ١٩٥٤ إلى انجلترا لاستكمال بعض أبحاثى العلمية التى كانت فى حاجة إلى حسابات لم تكن متاحة بالقاهرة . وفى لندن عرض علىّ أستاذى وظيفة محاضر أول senior Lecturer فى كلية تشيلسى للعلوم والتكنولوجيا فاعتذرت لأننى كنت أدرك أن جامعة القاهرة لن توافق على ذلك. وعندما عدت إلى مصر فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ فوجئت بصدور قرار من مجلس قيادة الثورة فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصل ٤٢ من أساتذة الجامعات معظمهم ممن وقعوا على المذكرة إياها فى مارس سنة ١٩٥٤، وكان من بين هؤلاء محمود العالم، عبدالمنعم الشرقاوى ، توفيق الشارى، لويس عوض، فوزى منصور، وكاتب هذه السطور.

وأبرقت إلى أستاذى الانجليزى بموافقتى على تعيينى فى لندن، وشرحت له فى خطاب خاص ظروف فصلى من الجامعة. وقد استطعت السفر إلى بيروت فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، ومكثت بها أربعة

شهور محاضرا فى فرع معهد الإحصاء الدولى ببيروت حتى صدر قرار تعييني فى لندن فى أول سنة ١٩٥٥ فسافرت إلى انجلترا وبدأت عملى هناك بالجامعة.

كنت - منذ عودتى إلى مصر عام ١٩٥٢ - مواظبا على نشر مقالاتى الأسبوعية فى مجلة روزاليوسف، بل لقد وصل الأمر - عندما التحق فتحى غانم بأخبار اليوم - أن كلفنى الأستاذ إحسان عبدالقدوس بتحرير باب «أدب» فى المجلة وواظبت على هذا شهورا عدة. .

ولقد حرصت بعد أن استقر بى الحال فى لندن على مراسلة مجلة روزاليوسف بمقالاتى فى قضايا الثقافة والعلم والأدب. وكتب إحسان عبدالقدوس فى مارس سنة ١٩٥٥ مقاله الشهير (الرجل الذى سرقه الانجليز) دعا فيه إلى عودتى إلى الجامعة فى مصر - ورددت عليه بمقال موجز أرحب فيه بهذه العودة إن وافق المسئولون.

التفرغ للواجب الوطنى

لكن المسئولين لم يوافقوا بالطبع، وهكذا بقيت فى لندن حتى يوليو سنة ١٩٥٦ عندما أمم جمال عبدالناصر قناة السويس. وأحسست بطبيعة الحال أن واجبى أن أدافع عن هذا العمل وأن أشرح


احسان عبد القدوس


د. طلبة عويضة

فى اجتماعات النقابات فى بريطانيا تاريخ المظالم التى وقعت على شعب مصر عند بناء هذه القناة وسيطرة الأجانب عليها.

وحرصا منى على عدم إحراج الكلية التى أعمل بها قررت الاستقالة من عملى والتفرغ لهذا الواجب الوطنى. وبالفعل ذهبت إلى مدن بريطانيا المختلفة حيث كان الطلب شديدا على توضيح وجهة نظر مصر فى التأميم ، وكانت الاجتماعات هى فى الأساس اجتماعات دعت إليها نقابات العمال التى عارضت الحرب ضد مصر. وانتهت الأمور إلى اجتماع الطرف الأغر الشهير الذى خطب فيه نواب حزب العمال كما خطبت فيه شارحا وجهة نظر مصر. ولقد قدر أيامها أن عدد من حضروا هذا الاجتماع الجماهيرى يزيد عن الخمسين ألفاً.

وهكذا عدت إلى القاهرة من جديد فى ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، ولم أكن أدرى ماذا سأفعل بالقاهرة. وبعد وصولى بأيام فوجئت باتصال من خالد محيى الدين - وكان قد بدأ فى إصدار جريدة المساء -

يعرض عليّ أن أعمل معه فى الجريدة.

وبطبيعة الحال وافقت لأنه لم يكن هناك عمل آخر. وهكذا أصبحت صحفيا بعد أن كنت مدرسا جامعيا. وبدأت أكتب فى الشئون العربية وساعد على ذلك أن الجريدة أرسلتنى فى زيارات عربية متعددة، منها مثلا أننى كنت أول صحفى مصرى يدخل قطاع غزة بعد جلاء اليهود عنها فى يناير سنة ١٩٥٧. كما سافرت إلى الاردن وسوريا ولبنان والعراق، واجتمعت بعدد من زعماء تلك البلدان، وأدى عملى الصحفى إلى توثيق صلتى بهم.

وقد ظللت فى هذا العمل الصحفى إلى يناير سنة ١٩٥٩ حيث جرى اعتقالى مرة أخرى ضمن حملة اعتقال جميع اليساريين المشتغلين بالعمل العام. ومن أطرف ذكريات تلك المرحلة (مرحلة العمل فى جريدة المساء) أننى كنت قد أرسلت بحثين علميين إلى مجلة بيومتركا «Biometrica» البريطانية وأنا فى لندن. ولم تتيسر الموافقة على نشرهما ونشرهما فعلا إلا بعد تركى بريطانيا والتحاقى بجريدة المساء. ولا أعرف كيف أرسلت المجلة العلمية نسخا من بحوثى على جريدة المساء، وطبعا كنت منهمكا أنذاك فى شئون الصحافة حتى بدت لى هذه الأبحاث وكأنها شىء غريب علىّ مع أننى كاتبها منذ سنتين.

والأغرب من هذا أننى فوجئت ذات صباح فى جريدة المساء بمدير جامعة أسيوط - الدكتور سليمان حزين - يطرق بابى ورحبت به كثيرا وإن كنت لم أدرك سبب الزيارة. وقال لى إنه كان فى زيارة لأستاذى محمد مرسى أحمد، وكان أنذاك وكيلا لجامعة القاهرة يسأله أن يرشح لجامعة أسيوط، أستاذا مساعداً للرياضة البحتة فى كلية العلوم، وأن الدكتور مرسى رشحنى!!

وقلت له أننى غارق لأذنى فى عملى الصحفى بالقاهرة وأنا أفضله طبعا على عملى بأسيوط وعلى أية حال، فقد كان تقديرى أن كمال الدين حسين وزير التعليم أنذاك لن يوافق على عودتى إلى الجامعة.

لكن سليمان حزين كان حريصا على تعيينى بأى شكل. وقال لى أن هناك طائرة يومية بين القاهرة وأسيوط وأن المطلوب فقط هو أن أذهب إلى أسيوط يومين أسبوعيا أحاضر فيهما فى الرياضة البحتة، ولا مانع من أن أستمر فى عملى بالصحافة بقية أيام الأسبوع، أما موافقة كمال الدين حسين فقد قال حزين: أترك لى هذا الأمر وأنا كفيل بإقناعه.

وبالفعل أعلنت جامعة أسيوط فى الصحف عن وظيفة أستاذ مساعد فى الرياضة البحتة، وخوفا من أن أكون لم أنتبه للإعلان أرسل لى سليمان حزين نسخة منه وطلبا للتعيين لكى أملأه. وبالفعل أرسلت طلب التعيين إلى جامعة أسيوط بعد أن ملأته. وبقيت منتظرا

النتيجة.

إلى أن فوجئت بدخول سليمان حزين مرة أخرى إلى مكتبى فى جريدة المساء وقال وهو فى أشد حالات الخجل أنه فشل فى إقناع كمال الدين حسين بالموافقة علي تعيينى أستاذا مساعدا بجامعة أسيوط.

وهكذا بقيت فى عملى الصحفى إلى، أن جرى اعتقالى فى حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ ضمن مئات من اليساريين المصريين. ثم جرى تقديمى إلى مجلس عسكرى برئاسة اللواء هلال عبدالله هلال مدير سلاح المدفعية ، وكان معى فى المحاكمة الدكتور فؤاد مرسى والدكتور إسماعيل صبرى والاستاذ محمد سيد أحمد والأستاذ محمود العالم وآخرون، وربما كان العدد الذى قدم للمحاكمة واحداً وستين.

مع أن هذا المجلس العسكرى حكم ببراءتى إلا أننى بقيت فى معتقل الواحات حتى ٣ أبريل سنة ١٩٦٤ عندما صدر قرار عبدالناصر بالإفراج عن كل اليساريين. لقد بقيت فى المعتقل خمس سنوات وثلاثة شهور، خرجت بعدها وأنا لا أعرف إن كنت سوف أعود للعمل بالصحافة أم لا.

لكننى فوجئت بصدور قرار جمهورى بتعيينى مديرا عاما للبحوث فى وزارة الخزانة فى يوليو ١٩٦٤، وكان وزير الخزانة آنذاك (الدكتور نزيه ضيف) زميلا لى فى الدراسة بالمرحلة الثانوية، وكان هو الذى أبلغ عبدالناصر باحتياجه لى للعمل معه بالوزارة.

ومع أننى لم أكن متحمسا أبدا للعمل بالدواوين الحكومية إلا أننى بالطبع شكرت الدكتور نزيه على مبادرته، وبقيت أعمل معه فى مكتبه نحو عام ونصف العام إلى أن اتصل بى أستاذى الدكتور محمد مرسى أحمد - وكان آنذاك مديرا لجامعة عين شمس - وأبلغنى أن كرسى الرياضة البحتة فى علوم عين شمس قد أصبح شاغرا بوفاة شاغله، وأنهم ينوون أن يعلنوا عن هذه الوظيفة فى الصحف، واقترح أن أتقدم ضمن المتقدمين.

عبدالناصر يوافق على تعيينى

وبالفعل تقدمت بطلب لشغل هذا الكرسى ، وخوفا من أن أواجه معارضة أجهزة الأمن فى عودتى إلى الجامعة- أرسلت خطابا إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل أشرح له الموقف وأرجوه التدخل حتى لا يتعطل الموضوع مرة أخرى كما حدث فى جامعة أسيوط. وكان الأستاذ هيكل كريما فى موقفه ، فقد اتصل بالرئيس عبدالناصر فعلا ثم اتصل بى هاتفيا وأكد لى موافقة الرئيس عبدالناصر على عودتى إلى الجامعة إن رأت الجامعة أنها فى حاجة لى.

وقد اختارتنى اللجنة العلمية لشغل كرسى الرياضة البحتة فعلا، وبقيت شهرين بعد ذلك إلى أن أصدر مجلس جامعة عين شمس قرارا بتعيينى.

وهكذا عدت إلى الجامعة فى يناير ١٩٦٦ وبقيت فيها أدرس وأشرف على رسائل علمية حتى اليوم.

القدس لنا

حفل بريد أنت والهلال بعشرات القصائد التى عبر أصحابها عن الأحداث المأساوية التى تشهدها الأرض الفلسطينية وانتفاضة الأقصى ، وسقوط شهداء الانتفاضة العزل من السلاح برصاص الغدر الصهيونى .

ننشر بعض هذه الإسهامات التى تعكس مشاعر الغضب والثورة والإصرار على عودة القدس لنا .

صرخة الأقصى

وارووا رفاتك فى الرمال مساء … فصحبت نور الفجر ، حين أضاء
ألق يحيط بنور وجهك ، مشرقا … ومهابة ، خلعت عليك بهاء
أنت الشهيد على ضآلة مكرهم … عصفا تركت قلوبهم ، وخواء
وضحية الكف التى قد صافحت … أعدى عداك ، وقدمتك فداء
أنّى لهم أن يبصروا بعين العمى … والقلب أقسى لا يروم شفاء
يا صرخة الأقصى ، ولهفته التى … صارت بقلبى عزمة ومضاء
أنا لا أريد بأن أظل على المدى … أروى القصيد ، وأسمع الشعراء
أو أحفظ التاريخ ، إذ يروى لنا … أصغى ، فأسمع معشرا غرباء
كتبوا لنا تاريخنا ، يا للأسى … سموه – زورا – أعصرا ظلماء
نحلوا لهيكلهم كيانا مفترى … وهو الذى ما قام قط بناء
اهتف ، بل اصرخ ، ملء صوتك قائلا : … هاتوا السلاح ، وابعدوا الخطباء
فلقد سئمنا قولكم ، ونصيحكم : … لا تفصحوا ، لا تذكروا الأسماء
صارت حجارة أرضنا أسيافنا … والسيف أصدق فى الوغى إنباء
ما حيلة الكلمات لو تغدو لنا … هدفا ، أتسمع أمة صماء
مزق مواثيق السلام على الملا … وارفع إلى المولى العلى دعاء
رباه ، أنت حسيبنا ، وحبيبنا … فأمتنا يارب الورى شهداء

أمانى حاتم بسيسو
الأردن – جامعة مؤتة – كلية الآداب

حماة الحق

تموت بموت خطوتنا الدروب ... فخطوتنا ضحاها والغروب
إذا سرنا تزاحمت النجوم ... وحين غيابنا تترى الخطوب
فإن شئنا جعلناها سلاما ... وإن شئنا تغشتها الحروب
وكم بالأرض من أمم تهاوت ... ومفرق مصر يخشاه المشيب
سل الأمجاد في كل العصور ... يجبك النيل والهرم العجيب
أليس العلم بعضا من خطانا ... أضاء لوقعها الأفق الرحيب
وكل الفن إن يبغي جذورا ... فذاك الصخر والوادى الخصيب
سل الأيام عن جند العبور ... يفيض الشوق والذكرى تطيب
وتحنى هامها كل البرايا ... لمن يخشاهم الموت المهيب
ويروى عنهم قصص الفداء ... صلاح الدين والقدس الحبيبْ
فما نامت لأعينهم جفون ... وبعض ترابنا يوما سليب
بنو أهرامهم فى كل عصر ... ولم يمسسهم يوما لغوب
حماة الحق - إن يطغى ظلام ... بقلب هلالهم سكن الصليب

عرنوس البراشي
شربين - دقهلية

فلسطين آن الإياب

فلسطين عدى جسور الصعاب ... على كل قنبلة يعوق الإياب
فبالأمس غدرا طواك العدا ... تعدى عليك اللصوص الذئاب
ونادى بنوك : الغياث الغياث ... فقامت حروب سجال غضاب

●●●

توارى وراء الذئاب الربيب ... يمدُّ الذئاب بأقوى النيوب
وبالدس أودى بحول الصفوف ... فراحت تعاني عميق الندوب
وداوت بكى لتلك الجراح ... وأغفت فأغفى ضمير الشعوب
بجيل الحجارة جيل الإياب ... تعالى صواب .. تعالى الصواب

●●●

أنت والهلال

صغار .. صغار أمام العيون ... كطير أبابيل فوق الدجون
أصابوا برجم جنود اللصوص ... تحدوا لأعتى وأقوى الحصون
وقالوا بحق لكل الدنى ... صحونا لحق نرد الخئون
أجابت شعوب وكان الجواب ... رأيتم صوابا آرانا الصواب

●●●

فهات ميلادا لعهد جديد ... يقام لحق بحق أكيد
ونادى على كل ناء بعيد ... وقولى تعالوا لأرض الجدود
وأنت كأم وأم رؤوم ... خذيهم بحضن .. بشوق وجود
كفاهم ضياع ويكفى اغتراب ... بجيل الحجارة آن الإياب

السيد عمر
منشية الرحمن - الفيوم

إلى روح الطفل الشهيد محمد الدرة

يادرة فى جبين الجرح نازفة ... من أطلق النار ؟ ماذا كان حين رمى؟
أكان من طينة الإنسان معدنه ... أم كان حقدا ، وبغضا شاردا ، وعمى؟
برميك ، يصرع فيك الفجر مختلجا ... فهو الظلام وما أقساه إذ هجما !

●●●

قم يا صغيرا على الآلام ، وجهك لن ... ينساب نحو غروب يمطر الظلما
قم فى انتظارك آمال ، وأغصنها ... ظليلة ، ووجدتموه عذبة ، ودمى
قم قل بلادى هنا ، أرضى هنا ، وطنى ... هنا . قم وحلق وانشر العلما
قم لا تمت وانتظر بشراك . إن غدا ... حتما سيسأل عن عينيك : أين هما ؟!
فى الفصل مقعدك الخالى به شجن ... أما رفاقك كم من بينهم صدما
ودفتر لم تحل الواجبات به ... حتى متى يا صغيرى تهجر القلما ؟!

●●●

أيا محمد يا وجه الطفولة ، يا ... براءة النور والنوار مبتسما
كان الرصاص حقيرا حين مر على ... لحم طرى فأبلى فيه واخترما
كان الرصاص غبيا حين مزق تك... ...وينا نديا ، وألقى للثياب دما

أنت والهلال

كان الرصاص جبانا حين عشش فى لحم تربى على حب الحمى ونما
وشعرك الناعم المنساب خضبه هذا الدم الصارخ الدفاق محتدما

●●●

يارفة النور فى عينيك أحسبها فجرا سيشرق جبارا ومنتقما

محمد محمد السنباطي - شبراخيت

لا عزاء

لا تنصبوا فى كل بيت محزنة
يا إخوتي
عند الصباح ستنجلي عن دارنا
سحب الدموع الساخنة
عند الصباح ترون معجزة الدم
بدلا من السبعين ينبت فى الغد
سبعون ألفا من رجال الملحمة
لا تنصبوا فى كل قلب مأتما
وتعهدوا نبت الحياة القادمة
وابنوا لهم فى كل عين مسكنا
سبعون ألفا فى الغداة
تزهر .. وتنور
يلقون فى رحم التحدى بذرة تتعهد
سبعون مليونا من الغرس العفى ينبت
طوفانهم يجتاح يجتاز الطغاة
محطما ومطهرا
لا تنصبوا بين الجوانح محزنة
لن نظلم
رغم الطغاة وبغيهم
لن نظلم

د. حسنة عبدالحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس - القاهرة

حول المقال الأدبي بمجلة الهلال

قرأت ما كتبه الأديب فتحي عبدالسلام حسن - القارئ المتذوق كما وصف نفسه في الهلال الصادر في نوفمبر ٢٠٠٠ عن المقال الأدبي الذاتي مشيرا إلى أن مجلة الهلال تحفل بهذا المقال ويتعجب لأن الدكتور محمد رجب البيومي لم يشر إلى ذلك مع أنه من كتاب المجلة ، ثم ذكر أسماء أساتذة فضلاء من الذين يكتبون في الهلال باعتبارهم من كتاب المقال الذاتي ، ولهؤلاء فضلهم دون منازع ولكني وأنا من مريدي الدكتور محمد رجب البيومي وأعد نفسي أحد تلاميذه أعلم أنه جعل للمقال الذاتي سمات خاصة وضرب له عدة أمثلة بما كتبه جبران ، ومي ، والبشري ، والمازني ، وهؤلاء هم كتاب المقال الأدبي الذاتي بالمفهوم الذي شرحه الدكتور محمد رجب البيومي في مقاله وهو يطلب عودة هذا النمط من الكتابة الفنية التي نفتقدها الآن ، ونحن نتمنى أن يعود قريبا على صفحات الهلال .

فرج مجاهد عبدالوهاب - محلج شربين - دقهلية

استعمار جديد !

كنا نتحدث كباحثين عن الملكية الفكرية وهل هي ذات إتجاه واحد أم ذات إتجاهين ؟ بمعنى هل هي ستطبق على الدول النامية فقط أم على الدول المتقدمة أيضا ؟ هل سيكون للدول المتقدمة فقط الحق والقدرة على حفظ ملكية اكتشافاتهم وتكنولوجياتهم تجاه الدول المستخدمة لها فقط أم سيصبح من حق الدول النامية حماية نباتهم ومنتجاتهم وتراثهم أيضا ؟ هل من حق المصريين مطالبة الشركة المنتجة لفيلم Prince of Egypt لاستخدامها رسومات فرعونية دون إذن منا ؟

هل لنا الحق في مشاركة دخل متحف اللوفر المشاهدين للقسم المصري ؟ كان هذا حديثنا عن الملكية الفكرية إلى أن كتب الأستاذ الدكتور أحمد مستجير مقالة عن بذور شيطانية بمجلة الهلال فانزعجنا غاية الانزعاج لفكرة الاستعمار الجديد ليس باستعمار الأرض لكن باستعمار الإنسان عن طريق الغذاء .

هل تدريسنا للطلبة عن الربح وحرية السوق يمكن أن يصل إلى هذا السوء ؟

إذا حدث هذا بالفعل فالحل هو كما فعلت الهند أن نحمي أنفسنا بعدم استيراد البذور الشيطانية هذه نهائيا .

وشكرا لمجلة الهلال وشكرا للدكتور أحمد مستجير لشرحه وتوضيحه لنا لحقيقة المشكلة حتى يتسنى لمصر وافريقيا عامة أن تتخذ إجراء إزاء هذه المشكلة قبل فوات الأوان .

د . سونيا محمد على - أستاذ الاقتصاد الزراعى

أنت والهلال

القصة الشعرية

القصة الشعرية هى قصيدة قصصية لا يعرف لها مؤلف بعينه وتكتب بقصد الغناء أو الإنشاد وتعبر عن طبيعة وسمات الشعب الذى تنتمى إليه .. تتسم القصة الشعرية بالموضوعية فهى لا تعبر عن انفعالات ولا تنطوى على تأملات خاصة لكنها تذخر بالأمثال الشعبية والكلمات المأثورة التى يتداولها أفراد الشعب .. تقول بعض المصادر التاريخية أن القصص الشعرية اشترك فى كتابتها أكثر من مؤلف ، وقد نشأ هذا النوع من القصص من الأغانى والرقصات التى كانت تؤديها جماعة من الناس ، بالإضافة إلى ما كان يضيفه أفراد الشعب أنفسهم إلى القصة الشعرية .. ، وأكثر الشعوب لديها هذا النوع من الأدب ، ففى الأدب الانجليزى وحده أكثر من ٢٠٠ قصة شعرية ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى .

ظلت كلمة القصص الشعرى تطلق على أى قصيدة قصصية وفى القرن السابع عشر الميلادى أصبحت تطلق على القصص التى تروى الأحداث الجارية ، خاصة قصص البطولة الشعبية ، وقد تصاحب القصص الشعرية الموسيقى والأغنيات التى تتسم بالبساطة والعاطفة ، ومن هذه القصص تلك القصائد المهمة التى نظمها كبار الشعراء خاصة فى انجلترا ، واستخدموا فيها أوزان القصة الشعرية ومنهم أوسكار وايلد وفى القرن الثامن عشر بدأ الاهتمام بالقصص الشعرى بين فئة المثقفين ثم تزايد الاهتمام به بعد ذلك خاصة عند والترسكوت الذى ألف فيه العديد من الكتب التى ما تزال تتداول حتى اليوم .

محمد أمين عيسوى ـ الاسماعيلية

● الهلال : الصديق محمد أمين عيسوى ، يحرص فى كل شهر على تقديم مساهمة يختارها بعناية ، وتحية له على دأبه الشديد ، ومواصلة إرساله لكل جديد نسعد به ويستفيد منه قارئ الهلال ، فشكرا للصديق العزيز .

مع أدب الرحلات

استوقفتنى عبارتان من مقال «خواطر مسافر» للأستاذ مصطفى نبيل المنشور بعدد نوفمبر ٢٠٠٠ من مجلة الهلال هما :

* تعلمت من خلال الرحلات أنه لابد أن ترى الغير بمنطقه لا بمنطقك ، وتتعرف على أفكاره بصرف النظر عن أفكارك .

* من يدرك عظمة التنوع بين البشر من العسير أن يقبل التعصب أو يسمح بالعزلة ، فالسفر كشف للذات وانفتاح على الآخر .

وقد أوحت إلى هاتان العبارتان الذكيتان باستطرادات أخرى أوجز لكم بعضها :

* إذا كان السفر يساعد على فهم منطق الغير والانفتاح عليه فإنه بالضرورة يؤدى إلى الإحساس بالآخرين وقضاياهم ، وبالتالى فهو يزيل العداء بين الشعوب .

* معظم الحروب التى نشبت فى العالم كانت نتيجة لنظرة ذاتية أحادية الجانب من قبل الحكومات تتمثل فى عدم إدراكها لأمانى الشعوب الأخرى .

* بفضل تعدد وسائل المواصلات الحديثة وسهولتها زاد معدل السفر حتى من بين الطبقات المتوسطة ، وازدهرت السياحة الخارجية خاصة فى العقود الأخيرة ، وترتب على ذلك إزالة بعض الفوارق بين الشعوب ، بل انتقلت العادات تلقائيا بين هذه الشعوب وبعضها ، وأزيلت الدهشة من على شفاه المسافرين عندما تحط أقدامهم بلدا جديدا ، وكأن ما يراه السائح ليس غريبا عليه فقد استحضره سلفا فى مخيلته نتيجة لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة . .

* لم تعد اللغة حاجزا ، وفى تقديرى أن اللغات تتقلص الآن بين الشعوب ، وليس من المستبعد أن يسود العالم فى نهاية هذا القرن لغتان أو ثلاث فقط .

عادل شافعى الخطيب

عضو اتحاد الكتاب

من المسئول عن ضعف توزيع إنتاجنا الأدبى والشعرى ؟

واقع الحياة الأدبية فى مصر يحيرنا ، خاصة عندما نسمع تلك التصريحات التى يطلقها الروائى والشاعر عن توزيع إنتاجهما فالأرقام هزيلة ، فمثلا الديوان المعجزة يوزع منه فى حدود ٣ آلاف نسخة ، والرواية ليست أحسن حالا على الرغم من أن عدد سكان مصر يزيد الآن على ٦٥ مليونا ، فيما توزع الرواية الواحدة فى أمريكا وبريطانيا على سبيل المثال نصف مليون نسخة ! فمن المسئول عن ذلك ، وهل يعنى هذا أن الأدب يموت فى مصر .

وانتقل أيضا إلى قضية تجاهل السينما المصرية لأعمال كبار روائيينا من أمثال بهاء طاهر وإبراهيم أصلان وادوار الخراط وغيرهم ، فلماذا لا تقدم السينما أعمالهم ونرى أفلاما على مستوى راق ، بدلا من هذا التدنى الذى نشاهده الآن .

ثم نشهد حملة غريبة حول الشعر والقصة والمفاضلة بينهما فهل الرواية الآن هى ديوان العرب ، أم أن الشعر مازال يحمل هذا الاسم ؟

لابد أن نتوقف جميعا عند هذا الخطر الذى يتهدد حياتنا الأدبية ويبدأ الأديب والقاصى والشاعر كل فى مجال إنتاجه فى مراجعة إبداعه ، لكى ننهض بثقافتنا التى تميزنا بها على مر العصور .

إبراهيم شعبان مصطفى - سبك الضحاك - منوفية

أنت والهلال

● الهلال : إن ما تناولته أيها الصديق هو واقعنا الحقيقي ، وربما ليس دور المبدع أن يقوم بالتوزيع ، فهذه مشكلة كبرى تعاني منها مصر والدول العربية ، فنحن كعرب لا يمكننا قراءة آدابنا المشتركة والمسئول الأول عن ذلك هو شركات التوزيع التي ينبغي أن تراجع من جديد أسلوب عملها .

وفيما يختص بتجاهل السينما لأعمال كبار روائيينا ، فالمنتجون يودون الربح السريع، ولو فكروا قليلا فيما حققته أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس في السينما ، لعادوا فعلا إلى النصوص الجيدة المتاحة لهم والتي تمتلئ بها كتب العديد من روائيي مصر المعاصرين .

ردود الأصدقاء

●● الصديق . عاصم فريد البرقوقي - الاسكندرية جليم .

قرأت مقال « أدب الرحلات» وأعجبني في المقال تلك الكلمات «ولد الإنسان راحلا ، إن أعجزته الرحلة ، أسعفه الخيال» .

وأقول . نعم إن الكلمة المقروءة لن تموت أمام هذا التقدم التكنولوجي المذهل ، لأنها تخاطب العقل والوجدان ، فمهما وصلنا إلى قمة الاختراعات يحلو لي أن أختلي بمجلتنا الحبيبة «الهلال» لكي أعيش لفترات مع ما تضمه من مقالات متنوعة تحقق لي متعة القراءة والتزود بكل جديد في مجال الثقافة .

●● الصديق : محمد أحمد حسن - القاهرة

اقتراحك بإعادة طباعة ما كتب عن القدس في مجلة الهلال مزودا بالصور ، في كتاب هو الآن قيد البحث . وهي فكرة طيبة نشكرك عليها .

●● الصديق الشاعر عبدالناصر الجوهري

قصيدتك « لا تحسبوني قد غفوت» والتي مطلعها

من مكـــــة انداحــت فيوض عقيـــدة تتطلـــع

تتهال من روض السنا تدحوا الرذائل تدفع

وصلت إلينا ، وسوف ننشرها ، مع شكرنا لك .

●● الصديق محمد السيد بغدادي - الاسماعيلية

وصلت إلينا مساهمتك بعنوان «أرض الشاطئ» وهي بداية جيدة تنبئ عن موهبة لديك في كتابة القصة القصيرة ، ونرجو مواصلة الكتابة مع الإطلاع المستمر على إنتاج كبار كتاب القصة .

●● الصديق : حسن منتصر - فارسكور

«خدعة حتى الموت» محاولة جادة لكتابة قصة قصيرة ، لكن القصة القصيرة لكي تكتمل تحتاج إلى عمق في الفكرة والتناول ، وليس السطحية التي قد تكتب بها القصة ، كما لو تناولنا حادثة ، أو جريمة تكتب في باب الحوادث في الصحف .. هذه محاولة في البداية منك ، وواصل الكتابة ليتحقق ما تنشده .

الكلمة الأخيرة



ملاحظة منهجية حول الأقصى

بقلم: د. صلاح قنصوه

لم استطع أن أدفع عن نفسي شعوراً بالقلق والتوجس وأنا أطالع مقالا لأحد علماء الأزهر في أهرام الخميس الثاني من نوفمبر .

وكان مصدر القلق عبارة فضيلته . «أجمع المحققون من أهل العلم أن المؤسس والمنشئ للمسجد الأقصى هو يعقوب عليه السلام» . فليس تحته إذن هيكل سليمان كما يدعى الاسرائيليون. ولقد أراد فضيلته بهذا القول أن يحسم الخلاف بين الفلسطينيين والاسرائيليين . وإذا كان يعقوب هو اسرائيل، كما يعرف الجميع، أفلا نخشى أن يتخذ الاسرائيليون هذا البيان ذريعة للمطالبة بما شيد جدهم عليه السلام؟ فربما يكون حجة دامغة تقدَّم لهم على طبق من ذهب ولكن ينبغي ألا نغفل أن القضية الفلسطينية ليست نزاعاً دينيا بين العرب وإسرائيل، لأننا، كما هو معلوم، مسلمين ومسيحيين، نؤمن بأنبيائهم، وسبق رسالتهم. وبذلك نسلمهم سلاحاً أخطر وأقوى مما يملكونه بالفعل.

ولا يعني هذا أننا نستريب في إيماننا بصحة النصوص الدينية، بل يعني أننا ننزهها عن الاستخدام في غير ما نزلت بشأنه ، ونستبدل بها خطاباً آخر يلائم معركتنا التي هي سياسية، وطنية، وقومية، لأننا إذا ما لجأنا إلى النص الديني ليكون وسيلتنا في رسم أهدافنا السياسية، فلابد إذن أن يكون على رأسها مطالبة الاسرائيليين بالعودة إلى «أور الكلدانيين» في جنوب العراق حيث ولد ونشأ سيدنا إبراهيم، بدلاً من الهدف القديم وهو إلقاؤهم في البحر !! كما أن الحديث المسهب عن تاريخ قديم للقدس الكنعانية لا يصلح دفاعاً عن شرعية عروبتها الراهنة وإلاّ لطالب الألمان بفرنسا التي تعني بالألمانية «دولة الفرنجة» وهي من القبائل الجرمانية، أو انجلترا لأنها تنتمي الى الأنجلو ساكسونيين الذين نزحوا من ألمانيا، وكذلك الأندلس لأنها تعني أرض «الوندال»، وهم قبيلة جرمانية مخرِّبة، وتطالب اليونان بتركيا التي كانت قبل دخول الأتراك جزءاً من دولة الروم المتحدثة باليونانية، وقد نشأت فيها الفلسفة الاغريقية في «أيونيا» على ساحلها الغربي بل إن لفظ «اليونان» تعريب أو تصحيف لأيونيا!! قضية فلسطين ليس سلاحها النصوص الدينية، أو الهجرة إلى التاريخ البعيد بل قد تستدرجنا النصوص الدينية إلى نزع المواطنة عن غير المسلمين، وكأننا بذلك نعترف ضمنا بحق اسرائيل في الدولة العنصرية الدينية لأننا، دون وعي، نصنع مثلها.

إن أقصى ما يمكن أن تبلغه النصوص الدينية، عملياً، هو إقناع الرأى العام العالمي بتدويل القدس الشرقية وبذلك نفقدها إلى الأبد، عاصمة وطنية لفلسطين المستقلة.

وعلينا ألاننسى أن الشرط الرئيسي لصلاحية أدوات الصراع هو ألايستخدمها العدو لتنقلب علينا، وحسبنا أن نستل أسلحتنا من الخطاب الوطني السياسي للتحرير وانتزاع الأرض المغتصبة من العدو المحتل فهو كفيل باستنفار المناضلين الفلسطينيين، وكذلك استقطاب جميع الشرفاء في العالم بأسره .


اسبانيا
القاهرة
الأقصر
مصر للطيران
EGYPTAIR
رحلة جديدة
القاهرة / مدريد / الأقصر
كل يوم أثنين
إعتباراً من ٤ ديسمبر الحالي
بالإضافة إلى رحلاتنا الحالية
القاهرة / مدريد / القاهرة
الثلاثاء و السبت
القاهرة / برشلونة / القاهرة
الأثنين و الجمعة
www.EgyptAir.com.eg